ابن قرناس

الشرعة والمنهاج

نافذة للتعرف على الإسلام من مصدره

الجزء الأول

منشورات الجمل

ابن قرناس: **الشرعة والمنهاج، الجزء الأول**، الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

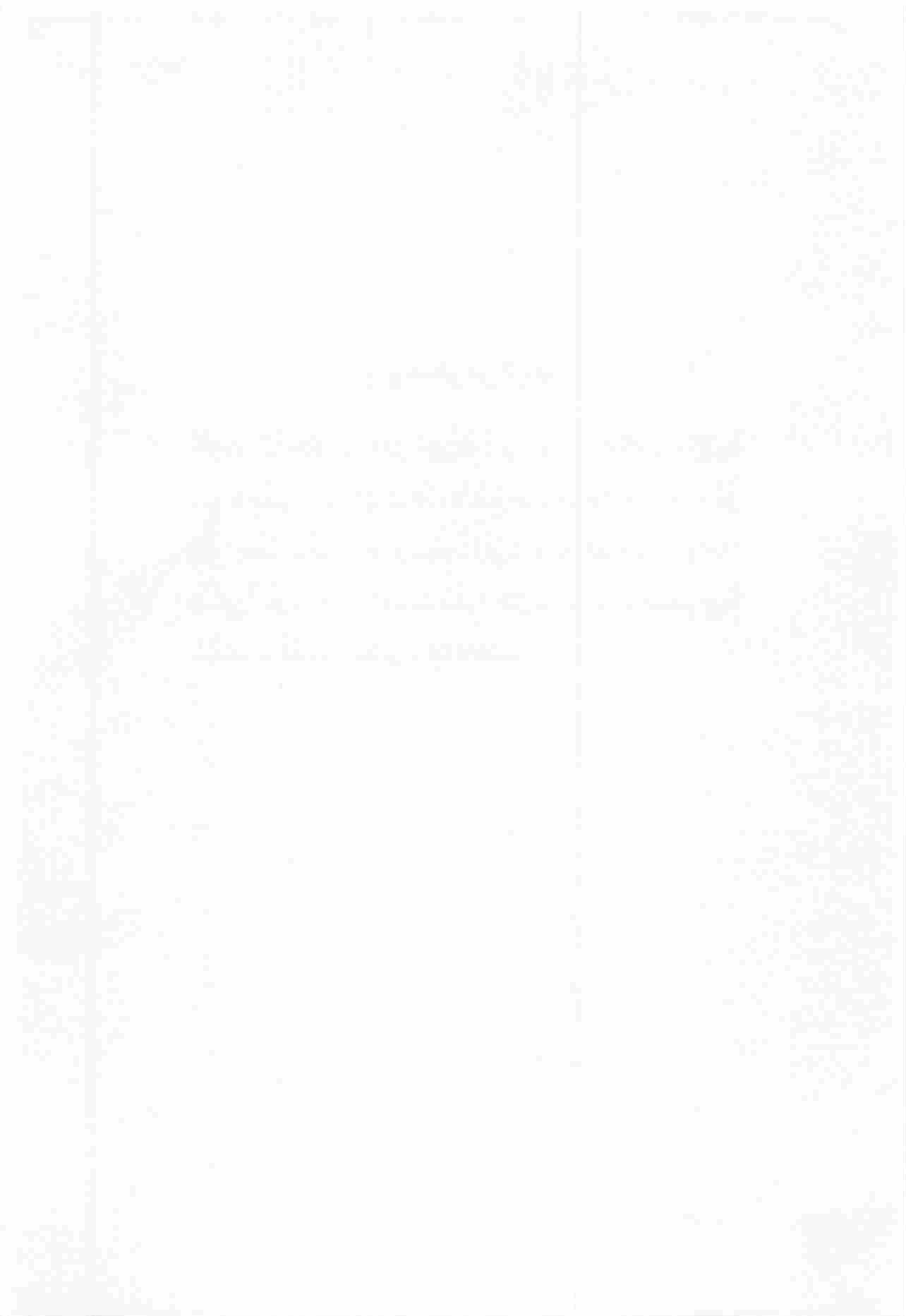
ISBN: 978-9-93335-110-6

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

تصميم الغلاف والإخراج الداخلي: كمال يوسف
+970 599 273872, ky.design.a2@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(٤٨) المائدة.



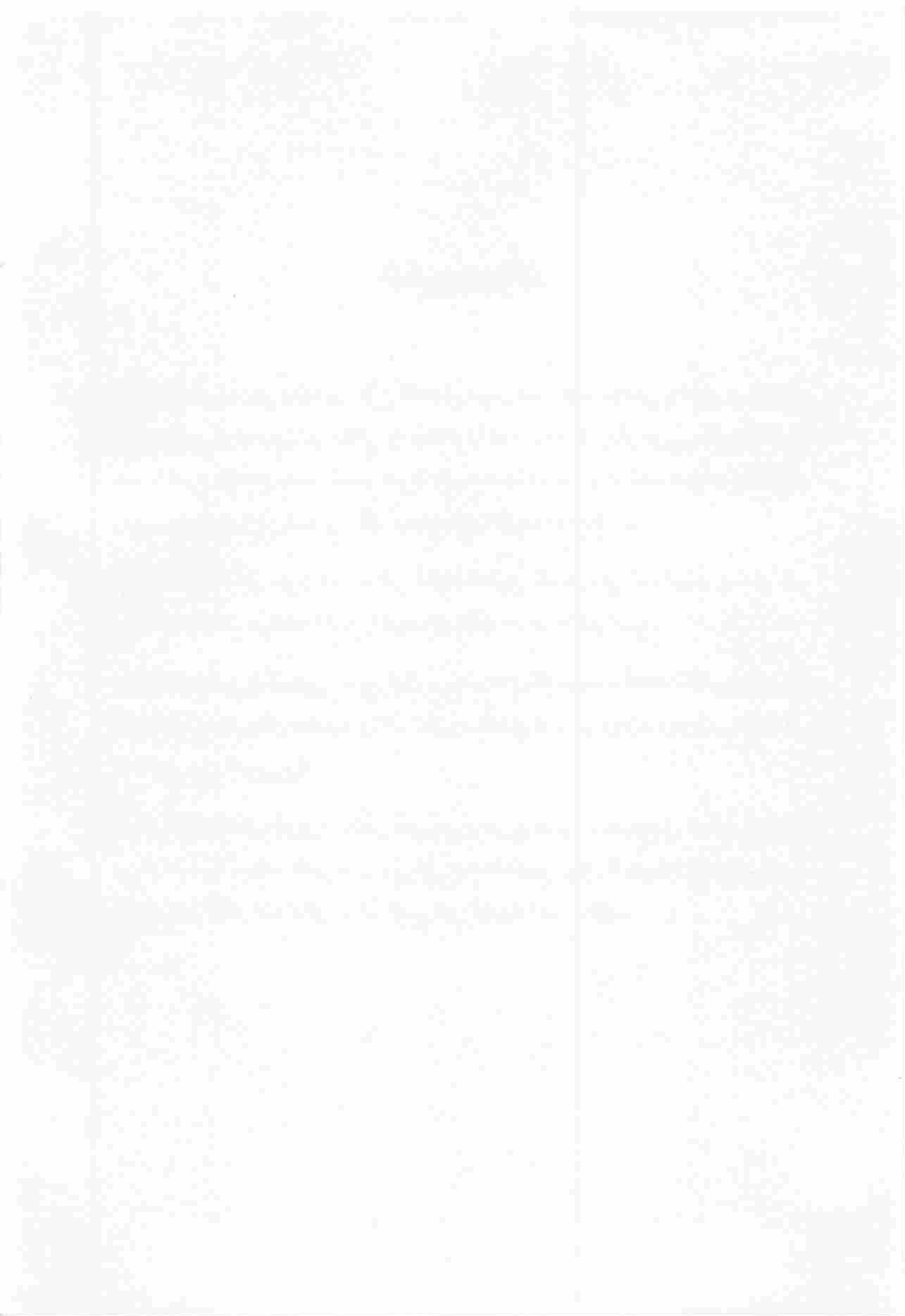
شكر وعرفان

أقدم شكري الجزيل والعميق للأخ الفاضل موسى ابن محمد المالكي والذي عرفته عن طريق الفيس بوك ومن ثم ربطتني به صداقة وأخوة. وهو الذي أوحى لي بفكرة الكتاب عندما اقترح أن أنشر تدبراً لسور القرآن على صفحة الفيس بوك. وقد فعلت خلال أيام رمضان في العام ٢٠١١، ومن ذلك انبثقت فكرة تأليف هذا الكتاب.

وللأخ الأستاذ أبو حزم عبد الرحمن أسعد اللغوي الباحث في اللسانيات والذي قام بمراجعة الكتاب مراجعة لغوية وأضاف إضافات جوهرية للمواضيع.

وللفنان التشكيلي الفلسطيني الرائع كمال يوسف الذي قام بتصميم أغلفة الكتاب الخارجية والداخلية وسبق وقام بتصميم غلاف كتاب رسالة في الشورى والإنفاق وصورة الغلاف لصفحتي على الفيس بوك.

وبكل تأكيد الشكر الجزيل والعميق لكل من أوحى لي بفكرة أو صحح لي خطأ أو معلومة من الإخوة والأخوات الذين شاركوني على صفحة الفيس بوك والذين كان لتعليقاتهم دور هام في تغطية أكبر قدر ممكن من المواضيع التي احتواها هذا الكتاب.



المحتويات

توطئة

الشرعة والمنهاج هي السبيل والطريق، وشرعة الله ومنهاجه طريقه المستقيم، ودينه القويم. وخير وسيلة للتعرف على شرعة الله ومنهاجه تكون بتدبر وحيه سبحانه الذي أنزله على رسوله. والوحي اليقيني هو حديث الله الذي ثبتت نسبته إليه يقيناً، وليس هناك حديث ثابت يقيناً عن الله إلا القرآن، وأي حديث آخر غيره يتناقله الخلق فهو من الظن، والظن لا يؤخذ في شرع الله ولا يمثل منهاجه سبحانه، حتى وإن اعتادته النفس واطمأنت إليه. وهذه الحقيقة يمكن تطبيقها على أي خبر وحديث منسوب لمخلوق. فلو أن أحدنا نسب لشخص آخر قولاً أو فعلاً، فإن ثبوت هذا القول أو الفعل لمن نسب له ظني، بغض النظر عن ثقتنا بالراوي. لأن روايته تبقى ظنية لعوامل شخصية وبيئية وإنسانية كثيرة لا علاقة لها بصدق الراوي أو كذبه[1]. وهذا عائد إلى أن النقل الشفهي لا يمكن أن يُنقل كما نطق به من صدر منه. فالراوي قد يفهم كلام المصدر حسب تصوره هو، بينما المصدر قال الكلام وفي تصوره شيء آخر. إضافة إلى أن التركيز لما يُسمع والاهتمام به تحدد درجته عوامل نفسية داخلية وخارجية مختلفة. لذا فعلم الاتصال يؤكد أن نقل الخبر مشافهة يفقده نسبة من المصداقية في كل مرة يتناقله راوٍ عن آخر مشافهة. وعلم الاتصال أيضاً يؤكد أن نقل الخبر مشافهة لا يمكن أن يتم بنفس العبارات التي قالها المصدر، مهما حاول الراوي توخي الحرص على نقل ما سمع كما سمعه، وذلك لأسباب مختلفة، لعل منها:

- أن الراوي يستمع للخبر ولم يضع في ذهنه أن عليه أن يحفظ ما يسمع لكي ينقله للغير كما قاله المصدر، بعكس الحال عند الاستماع للشعر عادةً.

---

١ الراوي يقصد به في هذه الفقرة هو من يستمع للمصدر وينقل كلامه للسامع. والمصدر هو الشخص الذي يصدر منه الكلام. والسامع هو من يتلقى كلام المصدر عبر الراوي أو سلسلة الرواة.

- أن نقل الخبر يتم بعبارات قالها المصدر، وعبارات للراوي ظن أن المصدر يعنيها في حديثه، فعبر عنها بكلمات من عنده.

وفي هذه الحالة فالمستمع سيفهم كلام المصدر الذي نقله الراوي بطريقة مختلفة عما صدرت من المصدر، وسيسمع العبارات التي قالها الراوي بعباراته بطريقة مختلفة أيضاً. فيتحول الخبر في ذهن المستمع إلى خبر مختلف عما حاول المصدر التعبير عنه.

- عادة عند نقل الأخبار مشافهة يتدخل فيها عالم التشويق والعوامل النفسية التي عليها المتلقي والراوي، مما يعرضها للتحريف المتعمد أو العفوي.

وهذه العوامل وغيرها تجعل الخبر المنقول شفهياً ظني الثبوت في أحسن حالاته، ولا يمكن أن يرقى ثبوته لليقين.

وكل ما تقدم يحدث في حالة أن الراوي واحدٌ ثقةٌ صادقٌ وحريصٌ على نقل ما سمع بأمانة. لكن لو أن الخبر تم تناقله على مدى سنين وأجيال متتابعة من أناس مختلفي الثقافة ودرجة الحرص والثقة، فإن التغييرات ستكون جذرية وقد يحل خبرٌ مختلقٌ كلاً أو جزءً مكان الخبر الأصلي. وتتزايد العوامل المؤثرة على نص الخبر ومصداقيته مع تقادم الزمن، منها ما هو متعمد ومنها ما يحدث بدون قصد، ومنها ما يكون بسبب عوامل خارجية محيطة وداخلية في النفس لحظة تلقي الخبر أو روايته. فهناك راوٍ ينقل الخبر بطريقة مختلفة عما سمع ظناً منه أنها توائم المجلس الذي يقص الخبر فيه، أو تتواءم مع الرسالة التي يريد توصيلها للمستمعين عبر إيراد الخبر. وهناك راوٍ يزيد وينقص عمداً لغرض في النفس، وهناك من يختلق الأخبار وينسبها للمصدر. وهناك من يفهم الخبر بشكل خاطئ وينقله كما فهمه .... الخ.

كما أن نقل الخبر لراوٍ ثانٍ يجعل التحول في العبارات والابتعاد عن نص الخبر الأصلي يتضاعف عما كان عليه عند نقله من الراوي الأول وأضعاف ما كان عليه عندما خرج من المصدر. وهكذا كلما تناقل الخبر رواة أكثر، كلما تضاعف التحوير والتغيير لنص الخبر.

إضافة إلى أنه عندما يتحدث الراوي بالخبر عدة مرات في مجالس ومناسبات وأزمنة مختلفة فسيتحدث به بعبارات مختلفة في كل مرة. وكل من سمعه منه سيتحدث به بطريقة مختلفة في كل مرة يروي فيها الخبر، مما يخلق للخبر الواحد عدة روايات مختلفة.

ويستمر التغير والتحور في الخبر الواحد حتى يكتب. وعندما يكتب الخبر، فهو يكتب بنصه

الذي سمعه وفهمه عليه الكاتب وليس بنصه كما خرج من مصدره. وبالتالي فالخبر المنسوب للرسول في كتاب البخاري على سبيل المثال، نقرؤه بصورته التي صاغها الراوي وبعبارته التي سمعها وفهمها البخاري بعد تداوله مشافهة لمدة تزيد عن (٢٠٠) عام بين أناس لا يمكن حصرهم، بثقافات ومشارب وميول مختلفة. ولا نقرأ نص الخبر كما قاله الرسول، إن كان قاله بالفعل. والحدث الذي نقرأ عنه في سيرة ابن هشام والمنسوب لعصر الرسول، ليس هو كما حدث، ولكنه خبر الحدث الذي فهمه ابن هشام من ابن إسحاق أو من سيف أو من غيرهم من الرواة الذين نقل عنهم. ويقوم المؤلف بكتابة الخبر ممن سمعه وفهمه منه بعد أن تعرض لرحلة طويلة تناقله الناس أثناءها مشافهة لعشرات ومئات السنين، وتبدل وتعدل حسب رواته والغرض من روايته. وقد يكون خبراً مختلقاً في الأصل ولم يحدث على أرض الواقع.

فكتب الحديث والتفسير والسير لم توثق الأخبار الحقيقية كما خرجت من مصدرها أو كما حدثت، ولكنها وثقت ما كان متداولاً حين كتابتها. وفي هذه الحالة فتوثيقها لا يعني أنها صحيحة بل هو توثيق لقصص وحكايات برواياتها الأخيرة المشوهة كما سمعها وفهمها من دونها، والتي لا يمكن الركون إلى صحتها.

لكن لو أن المصدر الذي صدر منه الخبر أو الفعل تحدث عن نفسه مباشرة فسيكون حديثه لمن يسمعه يقيني الثبوت، وإن كان سيتعرض للتحوير لو نقله السامع للناس مشافهة فيما بعد. أما لو أن المصدر كتب ما يريد قوله للناس، وبقي الناس يتداولون هذا المكتوب فسيتداولون خبراً يقينياً. وحتى إن فهمه البعض بطريقة خاطئة، فسيبقى الخبر اليقيني الثبوت عن المصدر موجوداً ومتوفراً. وهذا ينطبق على القرآن وحده فقط، ولا يشاركه كتاب آخر، سواءً في التشريعات الدينية أو في رواية الأحداث التي وقعت زمن رسول الله أو الأحداث القديمة للأمم السابقة الواردة في كتاب الله. لأن من روى القرآن رسول مكلف، لا يستطيع أن يكذب على الله، وقد كتبه في حياته، ولم يُترك بعده تتناقله الألسن مشافهة قبل كتابته[1].

فإن كان العلم يؤكد استحالة بقاء الرواية كما خرجت من المصدر عندما يتم تناقلها بين

---

١ نحن هنا نتحدث على أساس أن محمداً رسول لله، وأن القرآن وحي من الله.

الناس مشافهة عبر الأجيال، ولا يمكن تصنيفها بأكثر من روايات ظنية. فإن كل ما تحويه كتب التراث عند المسلمين هو من هذا النوع. ودين الله لا يكون بالظن أبداً، لأن بناء الشريعة على الظن ضلال.

منهجية البحث

صحة المنهجية تضمن صحة البحث، وفسادها فسادٌ للبحث، وسقوطٌ لكل النتائج التي بنيت عليها.

والمنهجية هنا يقصد بها: المسار الثابت الذي تم الالتزام به لكتابة هذا البحث واستخلاص النتائج، بعيداً عن الاعتماد على ظنون أو نظريات أو آراء شخصية. وهذه المنهجية قامت على حقائق وجدها الباحث أثناء تدبر القرآن الذي امتد - بعون من الله - لعقود من الزمن. وهذه الحقائق عبارة عن آيات واضحة المعنى، تستنبط منها الضوابط التي تتألف منها المنهجية، دون التأثر بفكر معين ولا بجماعة ولا مذهب، ولا آراء أو ظنون.

ولا ضير من وجود أخطاء في التفاصيل، لأن الاحتكام يكون للمنهج وليس للتفاصيل، ولأن الأخطاء التفصيلية يمكن تصحيحها متى اكتشفت دون أن يمس وجودها بأصالة المنهج. وهذه الحقيقة ستسهل الحكم على البحث المقدم هنا من قبل المختص والقارئ العادي على حد سواء، دون حاجة للبحث في التفاصيل والتوقف عند عبارة أو فقرة أو موقف معين ومناقشته. لأنه إن صلحت المضغة (المنهج) صلح الجسد (البحث) كله، وإن فسدت المضغة فسد الجسد كله.

وليس على من يريد نقد البحث إلا إثبات أن الحقائق التي أوردنا ليست كذلك، وذلك بخطوتين سهلتين:

١. إثبات أن الآيات التي أوردنا لا تعني ما فهمناه منها، وتقديم المعنى الصحيح مشفوعاً بسياق الآيات وبيان المخاطب.

٢. وإيراد آيات أخرى تؤكد خلاف ما نقول.

ولا عبرة لأي اعتراض مبني على أدلة من كتب التراث، لأنه استدلال من مصدر تحوم حول صحته الشكوك. والأدلة الظنية والمشكوك في صحتها لا يمكن أن تقبل لنفي أدلة حقيقية ثابتة.

وفيما يلي سنقدم حقائق تعتمد على آيات من كتاب الله تؤكد أن شرعة الله ومنهاجه لا يمثلها سوى كتابه المجيد، وليس هناك كتب أخرى تشارك كتابه سبحانه:

الحقيقة الأولى: لم يوح للرسول سوى القرآن

- قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ(١٩) الأنعام.

وتعود سورة الأنعام لتؤكد حقيقة أن القرآن وحده هو ما أوحي به للرسول:

- قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ(٥٠) وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ(٥١) الأنعام.

ومرة ثالثة تؤكد سورة الأنعام أن الإنذار والدعوة للدين يكون بالقرآن ولا شيء معه:

- وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ(٧٠).

وتؤكد سورة فاطر أن ما أوحي للرسول هو القرآن فقط:

- وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ(٣١).

وهو ما تؤكده سورة الشورى في موضعين:

- الأول: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ(٧).

- والثاني: فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ(١٥).

فالكتاب (القرآن الموحى به للرسول) جعله الله نوراً يهدي به من يشاء، وقد أمر الرسول باتباعه، وليس هناك وحي نزل عليه غيره.

وتتحدث سورة بني إسرائيل عن محاولات قريش ثني الرسول عن مواصلة الدعوة والتشويش عليه:

- وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً(٧٣) وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً(٧٤) إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً(٧٥).

والآيات تذكر أن ما أوحي به للرسول هو القرآن فقط.

وتؤكد سورة الرعد هذه الحقيقة:

- كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِيَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَـنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ(٣٠) وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل للهِ الأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ(٣١).

فالدعوة عبارة عن تلاوة ما أوحي إلى الرسول، وما أوحي إلى الرسول هو القرآن.

وبما أن القرآن هو وحده ما أوحي به إلى الرسول فالآيات تتحدث عنه وحده ولا نصوص أخرى معه، ومن ذلك:

- وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً(١١٣) طه.
- كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٣)
- وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ(٢٦) فصلت.

ولو كان هناك وحي آخر لقال الذين كفروا لا تسمعوا له ولا للقرآن.

- وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِياً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ(٤٤) فصلت.

ولو كان ينزل على الرسول وحي آخر أو يسمع الناس منه كلاماً آخر غير القرآن لاحتجوا عليه كما احتجوا على القرآن.

- إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ(٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ(٤٢) فصلت.

ولو كان هناك وحي آخر لا يأتيه الباطل لذكره القرآن.

- فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ(٤٤) الزخرف.

فالوحي الذي أنزل على الرسول هو القرآن، وهو وحده ذكر لك ولقومك، ولا شيء معه.

- وهو ما تؤكده سورة ق: نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ(٤٥).

وعندما اجتمع نفر من الجن استمعوا للرسول وهو يقرأ القرآن وليس عندما يتحدث بكلامه الشخصي:

- وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ(٢٩) الأحقاف.

ولو كان للرسول كلام آخر يدخل في الدعوة وضمن دين الله لاستمع له الجن. ولتنادى الكفار بعدم الاستماع له كما تنادوا بعدم الاستماع للقرآن:

- وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فصلت.

ولو كان كلام الرسول بغير القرآن وحيا لما قال كفار قريش:

- وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ(٣١) الزخرف.

ولو كان كلام الرسول بغير القرآن وحياً لما قال الكفار:

- وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ(٣١) سبأ.

لأنه لو كان كلام الرسول بغير القرآن وحياً لقالوا: لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالحديث ولا بالذي بين يديه[١].

ولو كان هناك وحياً غير القرآن لما قال الكفار:

- وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً(٣٢) الفرقان.

ولقالوا: لماذا لا يخبرنا الرسول بكل القرآن مرة واحدة وكل الوحي "الآخر" مرة واحدة.

ولو كان هناك وحي غير القرآن لتحدى القرآن الكفار بالإتيان بمثله كما تحداهم بالإتيان بمثل القرآن:

- قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً(٨٨) بني إسرائيل.

ولقال القرآن إن التذكير يكون بالقرآن وبكلام الرسول:

- وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً(٤٦) بني إسرائيل.

ولما قال الله تعالى:

- وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ(٥٨) الروم.

ولما أكد سبحانه أن ما فرض على الرسول هو القرآن وحده ولا شيء معه:

- إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاء بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(٨٥) القصص.

---

١ الذي بين يديه تعني الأديان السابقة. انظر فقرة: ما بين يديه / مفردات من القرآن.

ولو كان هناك وحي آخر غير القرآن لأمر الرسول بتبليغه الناس كما أمر بالقرآن:

- وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ(٩٢) النمل.

وآيات كثيرة غيرها تدل بكل وضوح وتأكيد على أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يتلق من ربه سوى القرآن.

الحقيقة الثانية: الدعوة لدين الله لا تكون بغير القرآن

الحقيقة السابقة تؤكد بكل وضوح أن الرسول لم يتلق من ربه سوى القرآن، لأن الدين لله ولا يمثله سوى كلامه سبحانه. وكلام الله ينص على أن الدعوة لإقامة الحجة على المستمع وليست لإقناعه بالدخول في الإسلام. لذا فقد كانت مهمة رسول الله توصيل رسالة ربه، عن طريق إسماعها للناس بتلاوتها عليهم، دون أن يشرك معها كلامه الشخصي. فمحمد مجرد رسول: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ(١١٤) آل عمران.

وليس له من أمر الدين شيء: لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذَّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ(١٢٨) وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٢٩) آل عمران.

وقد أُمر الرسول بتبليغ ما ينزل عليه، كما نزل: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(٦٧) المائدة.

وفيما يلي أدلة من القرآن تؤكد أن تبليغ الدعوة يكون بتلاوة القرآن فقط:

- إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً(١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً(١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً(١٧) السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً(١٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً(١٩) المزمل.

والسورة نزلت في بداية البعثة ولم يسبقها سوى سبع سور نزلت في المرحلة الأولى، وقبل نزول سورة المدثر التي انطلقت بنزولها الدعوة. وتقول لقريش إن "هذه تذكرة" والإشارة للقرآن الذي يتلى عليهم، فهو وسيلة التذكير والدعوة. بمعنى أنه لا وجود لأي حديث بجانب القرآن يستخدم في الدعوة لدين الله. فدين الله لا يمثله سوى كلام الله.

- وهو ما أكدته سورة المدثر التي بدأت بنزولها الدعوة: كَلَّا وَالْقَمَرِ(٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ(٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ(٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ(٣٥) نَذِيراً لِّلْبَشَرِ(٣٦) لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ(٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(٣٨).

وفي مكان آخر تقول سورة المدثر:

- كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ(٥٤) فَمَن شَاء ذَكَرَهُ(٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ(٥٦).

فالقرآن – وسيلة الدعوة – تذكرة، لمن شاء.

ثم جاءت آيات في سورة العلق تبين للرسول أن كل ما عليه فعله هو تلاوة القرآن على الناس:

- اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ(١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ(٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ(٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ(٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ(٥).

فالرسول عندما أُمِرَ في سورة المدثر بالبدء بالإنذار والدعوة، لابد أنه تساءل في نفسه كيف يُنذر، وما هي الطريقة؟

فجاءت هذه الآيات تبين له أن كل ما عليه فعله هو تلاوة القرآن على الناس، لأن القرآن هو وحده وسيلة التبليغ. ولا يستخدم الوعظ ولا القصص ولا الترغيب والترهيب خارج القرآن، ولا الكلام الشخصي للدعوة. كما لا يستخدم ما يسمى التفسير لأنه تأويل وتحريف للآيات عن معانيها البينة.

وورد في سورة الانشقاق:

- فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ(٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ(٢٢) وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ(٢٣) فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٢٤).

والآيات تؤكد أن الدعوة لا تكون بغير القرآن، وأن قريشاً لم يسمعوا الرسول يدعوهم بغير القرآن.

وتقول سورة التكوير:

- فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ(١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ(١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ(١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ(١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ(١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ(٢٠) مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ(٢١) وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ(٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ(٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ(٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ(٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ(٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ(٢٧).

القسم لتأكيد أن الوحي - القرآن - نزل به الملك، ولم يكن كلام الرسول. فكل ما يتلو الرسول على قريش هو القرآن ولا شيء معه.

وسورة الواقعة تؤكد - بقسم - أن القرآن حق من الله ونسخته الأصلية محفوظة بعلم الله:

- فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ(٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ(٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ(٧٨) لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ(٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ(٨٠).

وتعود السورة لتأكيد أن القرآن حق وفي نفس الوقت هو الوسيلة الوحيدة للدعوة:

- إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ(٩٥).

ولو كان هناك وسيلة للدعوة وتمثل دين الله مع القرآن (كالزعم بأن الحديث من الدين) لأكدت عليه الآيات كما تؤكد على القرآن.

وتقول سورة الحاقة:

- فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ(٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ(٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ(٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ(٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ(٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ(٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ(٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ(٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ(٤٧).

فلو تجرأ رسول الله وتقول على الله ما لم يقل لأهلكه الله. تأكيدٌ لا يقبل الشك أن الرسول لم يكن ليستخدم كلامه الشخصي «الحديث» في الدعوة. ولم يكن يعقد مجالس للوعظ

القصصي ولم يكن يقول للناس هذا حلال وهذا حرام دون القرآن. ولم يكن الناس يسمعون منه في مجال الدعوة سوى القرآن الذي تصفه الآيات السابقة بأنه تنزيل من رب العالمين نزل به رسول كريم.

وتؤكد السورة نفسهاأن الدعوة لا تكون إلا بالقرآن:

- وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ(٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ(٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ(٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ(٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ(٥٢).

وهو ما تؤكده سورة الإنسان:

- إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً(٢٣).

ولا شيء ينزل على الرسول غيره.

وتؤكد سورة المرسلات أن من لا يؤمن بالقرآن (الممثل الوحيد لكلام الله) لن يؤمن بغيره:

- وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ(٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ(٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ(٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ(٥٠).

وكل حديث غير القرآن لا يمثل دين الله ولا يمكن أن يسد نقصاً أو يفسر غموضاً في القرآن.

وترد سورة «يس» على اتهام قريش للرسول:

- وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ(٦٩) لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ(٧٠).

فقريش تتهم الرسول أن ما يتلو عليهم هو شعر من نوع خاص بأوزان جديدة، وتؤكد أنه قرآن منزل من الله. وهو ما يعني أن قريشاً لو كانت تسمع من الرسول كلامه الشخصي لما أسمته شعراً، لأنه مماثل لكلام أي منهم. لكن ما تسمعه قريش على الدوام من الرسول هو «قرآن مبين» يختلف جذرياً عن كلام الرسول الشخصي.

وتبدأ سورة النجم بقسم لتؤكد لقريش أن ما يسمعونه من الرسول ليس من كلامه الشخصي ولم يختلقه ولكنه وحي يوحى:

- وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى(١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى(٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى(٣) إِنْ هُوَ

إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى(٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى(٥).

وتقول سورة الطور:

- أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ(٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ(٣٤).

قريش تتهم الرسول بأنه يفتري القرآن من عنده، والآيات تقول إن كان زعمكم هذا صحيحاً فلماذا لا تأتون بنصوص مشابهة لنصوص القرآن. وهذا التحدي مستمر في كل زمان لكل من يزعم أن القرآن من اختلاق الرسول أو أن عباراته من صياغة الرسول، وبكل ثقة يمكن القول بأن من يحاول محاكاة القرآن بأسلوبه المميز سيبدو كلامه مضحكاً لا معنى له[1]. وقريش لم تكن تسمع من الرسول غير القرآن للدعوة لدين الله، ولو كان الرسول يستخدم عباراته الشخصية لما تحدت الآية قريشاً بالإتيان بحديث مثله. لأن كلام الرسول الشخصي مماثل لكلام غيره من رجال قريش، ويستطيعون الإتيان بحديث مثله، أو يفوقه فصاحة.

وتؤكد سورة القمر أن القرآن – ولا شيء معه – يسره الله للذكر والتذكر والتفقه في الدين:

- وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ.

وتقول سورة «ص»:

- كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ(٢٩).

فالقرآن هو الكتاب المنزل من الله وليس هناك كتاب منزل من الله على الرسول غيره. والكتاب هنا بمعنى الوحي، لأن القرآن لم يكتب منه شيء في مكة ولم ينزل على شكل كتاب مكتوب.

وتتحدث سورة الصافات عن قريش:

- وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ(١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِّنْ الْأَوَّلِينَ(١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ(١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(١٧٠).

كان رجال قريش قبل بعثة محمد يقولون لو أنه أرسل لهم رسول في الماضي لتمسكوا بدين الله، ولما بعث فيهم محمد كفروا بما جاءهم به وهو القرآن. والآية: (١٧٠) تقول: "فكفروا

---

١ انظر فقرة: سورة الفاتحة / قسم من أساليب القرآن.

به" والضمير في (به) يعود للذكر في الآية (١٦٨) وهو القرآن. وهو وحده من يمثل دين الله ولا شيء غيره، وهو وحده الموحى به للرسول من الله ولا شيء معه.

وتؤكد سورة الأحقاف في عدد من آياتها أن الرسول لم يدع بغير القرآن ولم يوح له سواه، ومن ذلك:

حم(١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(٢) الأحقاف.

لم ينزل على محمد سوى الكتاب، والكتاب يعني الوحي الذي لا يمثله سوى القرآن.

وتخاطب السورة نفسها قريشاً متسائلة عن إصرارهم على التمسك بالموروث وعبادة الأصنام:

- قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ اِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٤).

«ائتوني بكتاب من قبل هذا» تأكيد على أن الرسول لم يتلق سوى وحي واحد هو القرآن.

ونفس سورة الأحقاف تقول:

- وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ(٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(٨).

والخطاب موجه لقريش التي لا تسمع من الرسول سوى القرآن عندما يدعوهم.

وتستمر سورة الأحقاف لتقول:

- وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ(١٢).

والضمير يعود إلى القرآن في قوله: «وهذا» وهو ما يؤكد أن القرآن هو الممثل الوحيد للدين، ولا شيء معه.

وتبدأ سورة الجاثية بتأكيد أنه لم ينزل من الله على الرسول سوى الكتاب (القرآن):

- حم(١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(٢).

وفي مكان آخر تقول السورة:

- هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (١١).

ولو كان مع القرآن هادياً غيره لذكرته الآية.

وتقول السورة نفسها:

- هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ(٢٠).

فالقرآن - لا غيره - بصائر للناس وهدى، وما سواه فضلال.

وتقول سورة فاطر:

- وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللهَّ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ(٣١).

لم يوح للرسول سوى القرآن، وهو ما يكذب من يظن أن ما سمي بالحديث هو وحي من نوع خاص.

وتفتتح سورة فصلت بتأكيد حقيقة أن الرسول لم يتلق سوى القرآن:

- حم(١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٣) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(٤) فصلت.

القرآن هو وحده المنزل من الرحمن الرحيم، وهو وحده الذي فصلت آياته، وهو وحده البشير والنذير ولا شيء معه.

وقد تكرر تأكيد هذا في السورة نفسها:

- وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ(٢٦) فصلت.

ولو كانت قريش تسمع من الرسول غير القرآن لدعوتهم إلى الدين لقالوا: لا تسمعوا لكل ما يقول محمد وألغوا فيه، ولكنهم حصروا النهي عن القرآن فقط، لأنه وحده الذي يسمعون من الرسول.

والسورة نفسها كررت تأكيد هذه الحقيقة مرة أخرى:

- إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ(٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ(٤٢) مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ فصلت(٤٣) قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء

وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ(٤٤) فصلت.

فهو (القرآن وحده) كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لأنه لم يختلط بكلام غير كلام الله. ولأنه لم يتناقله الناس مشافهة مما يعرضه للتغيير والتبديل والنقص والزيادة. ولأنه يقيني الثبوت، وكل ما هو ظني فهو باطل لا يمثل دين الله.

وتفتتح سورة الدخان بالتأكيد على هذه الحقيقة:

- حم(١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ(٢) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ(٣) الدخان.

والقرآن وحده هو ما أنزل في ليلة مباركة، وهو تأكيد لما سبق وأكدته سورة القدر.

ومثله:

- فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٥٨) الدخان.

القرآن نسخ في ذاكرة الرسول بطريقة يتيسر معها أن يتذكره الرسول ويتلوه. فالقرآن هو النص الوحيد الذي يسره الله لمحمد ليستحضره من ذاكرته كما نسخ فيها. أما كلام الرسول الشخصي فيتكلم به الرسول كأي شخص آخر ليس مما يحفظه ولكن للتعبير عما يريد قوله لحظة الكلام.

وهذه الحقيقة كررتها سورة مريم:

- فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً(٩٧).

وتقول سورة الكهف:

- الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا(١) قَيِّماً لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً(٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً(٣) الكهف.

القرآن نصوص عربية ليس فيها عوج، أما ما ينسب للرسول من أحاديث ففيها اعوجاج لا يمكن برؤه.

وتقول السورة نفسها:

- وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً(٥٤) وَمَا

مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً (٥٥) الكهف.

كل ما يحتاجه المؤمن موجود في القرآن، ولا حاجة لمصدر آخر.

وتقول السورة في مكان آخر:

- وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً(٢٧) الكهف.

الرسول يتلو القرآن لكنه لا يتلو كلامه الشخصي. وما يتلوه الرسول على الناس هو دين الله، وما يتحدث به فهو كلامه.

وتقول الزخرف:

- حم(١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ(٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ(٤) الزخرف.

كل السور السابقة في هذه المرحلة ورد فيها ما يؤكد أن القرآن وحده وسيلة الدعوة ولا شيء معه، والزخرف هي السورة السادسة التي تفتتح بالتأكيد على حقيقة أن القرآن وحده هو وسيلة الدعوة، بعد سور: (الكهف والدخان وفصلت والجاثية والأحقاف).

والآيات أعلاه تقول بأن الوحي (المتمثل بالقرآن) عربي اللسان ونسخته الأصلية محفوظة. وكلام الرسول ليس له نسخ أصلية محفوظة بعلم الله.

وتقول السورة نفسها:

- وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ(٣١).

في تبريرات قريش غير المنطقية لرفض الدعوة قولهم بأن القرآن الذي يسمعونه من محمد لو نزل على واحد من أصحاب الجاه والمال في مكة أو الطائف لآمنوا به. وهذا دليل على أن قريشاً لم تكن تسمع من محمد كدعوة للدين غير القرآن.

وتقول سورة الزخرف:

- فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) الزخرف.

الوحي الذي أوحي للرسول هو القرآن وحده ولا شيء معه، وهو - أي القرآن - هو الذكر والرسالة للرسول ولقومه قريش.

وتفتتح سورة غافر بالقول:

- حم(١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(٢).

الكتاب (القرآن) وحده الذي نزل على محمد ولم ينزل عليه شيء غيره.

وتقول سورة الأنبياء:

- بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاء وَآبَاءهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ(٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاء إِذَا مَا يُنذَرُونَ(٤٥).

«إنما أنذركم بالوحي»، والوحي هو القرآن ولا وحي غيره.

وتقول سورة سبأ:

- وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ .....(٣١) سبأ.

ولو كانوا يسمعون من محمد غير القرآن لقالوا لا تؤمنوا بهذا القرآن ولا بحديث محمد.

والذي بين يدي القرآن هو الأديان الإلهية السابقة، فكلما وردت عبارة بين يديه فهي تعني ما سبقه[1].

- وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ(٦) النمل.

الرسول لا يتلقى سوى القرآن، الذي هو وحده يستخدم للدعوة.

- وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ(٧٧) النمل.

ولا يوصف شيء آخر بجانب القرآن بأنه هدى ورحمة، إلا التوراة التي نزلت على موسى لأنها وحي مماثل تماماً للقرآن ومن مصدر واحد ونصوص واحدة. ولو كان هناك نصوص أخرى تستخدم للدعوة إلى الإسلام أو تعتبر تشريعات في الإسلام لوصفت بما وصف به القرآن والتوراة.

---

١ انظر فقرة: ما بين يديه/ قسم مفردات من القرآن.

وتقول سورة النمل:

- إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ(٩٢) النمل.

الرسول مجرد بشر كغيره من البشر، مأمور بالإسلام، وإن كان قد كلف بالرسالة فلا يخوله هذا التكليف ليشارك بكلامه في الدعوة لدين الله. وهو ما تؤكده سورة «طه»:

- طه(١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى(٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى(٣) تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى(٤) طه.

وتقول سورة طه:

- وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً(١١٣) طه.

وتعود السورة نفسها لتأكيد أن الدعوة لا تكون بغير القرآن:

- فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً(١١٤) طه.

فالرسول من باب الحرص كان أحياناً يردد آيات السورة التي تنزل عليه خوفاً من نسيانها. ولو كان كلام الرسول وعباراته الشخصية مقبولة في الدعوة لدين الله، لما قلق من نسيان صيغة آية من القرآن ولقالها للناس بمعناها.

وتقول سورة السجدة:

- أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ(٣).

ما تسمعه قريش من الرسول هو القرآن وهو الوحي الوحيد الذي نزل عليه.

وتؤكد هذا سورة الفرقان:

- تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً(١).

وتقول السورة نفسها:

- قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً(٦). وفي آيات أخرى تقول: وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلاً(٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً(٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً(٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً(٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولاً(٢٩) وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً(٣٠) الفرقان.

والآيات تخاطب قريشاً الذين استمروا على الكفر، وتصورهم وقد ندموا في الآخرة. كما تصور الرسول وهو يعلن أن قومه «اتخذوا القرآن مهجوراً»، ولو كان كلام الرسول له شأن في دين الله لذكر مع القرآن.

ومثله:

- وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً(٣٢) الفرقان.

ولو كان الذين كفروا يسمعون من الرسول غير القرآن في دعوته لذكروه.

وتقول السورة نفسها:

- وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا (٥٠) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١) فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥١) الفرقان.

والآيات تأمر الرسول بجهاد الكفار بالقرآن، باستخدامه في جدالهم. ولو كان لكلام الرسول مكان في دين الله لأمره بجهادهم وجدالهم به مع القرآن.

وتقول سورة الزمر:

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٧) قُرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ(٢٨).

«من كل مثل» لا تعني الأمثال بالمفهوم الشائع عندنا ولكن المقصود من كل عبرة وحقيقة لإثبات أنه من الله وأن كل ما يدعو له هو الحق. وكتاب مثالي كهذا لا يحتاج لكلام غيره معه.

وتقول سورة الأعراف:

- كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ(٢) الأعراف.

وجاء في سورة يونس:

- وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(١٥) يونس.

قريش لم يسمعوا رسول الله يدعوهم بغير القرآن.

وتقول نفس سورة يونس:

- وَمَا كَانَ هَـذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ(٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٣٨) يونس

القرآن من الله ومن يشك في ذلك فليأت بسورة مثله. ولو كان معه حديث للرسول، لقيل: فليأتوا بمثل حديث الرسول.

وجاء في سورة إبراهيم:

- الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(١) إبراهيم.

وتقول نفس السورة:

- هَـذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ(٥٢).

وجاء التأكيد على أن القرآن وحده هو الممثل لدين الله في عدة مواضع من سورة الأنبياء، منها:

- لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ(١٠) الأنبياء.

الخطاب موجه لقريش، والكتاب هو الوحي. والكتاب الوحيد الذي سمعته قريش من محمد هو القرآن فقط.

وتقول نفس السورة:

- بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاء وَآبَاءهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ(٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاء إِذَا مَا يُنذَرُونَ(٤٥) وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ(٤٦) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ(٤٧) الأنبياء.

إنما أنذركم بالوحي، والوحي هو القرآن ولا وحي غيره. وتقول نفس السورة:

- وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاء وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ(٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ(٤٩) وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ(٥٠) الأنبياء.

الذكر المبارك الذي أنزله الله جل شأنه على محمد هو القرآن، وهو دين الله الواحد ٱلذي نزل على موسى وغيره من الرسل فالله واحد ودينه واحد ولم يمثل دين الله سوى كلامه سبحانه. ولا عبرة بكلام الرسول سواء كان موسى أو محمداً أو غيرهما.

وتقول نفس السورة:

- إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ(١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ(١٠٧) الأنبياء.

البلاغ والرسالة لا تكون في كلام الرسول ولكن في القرآن وحده.

وتقول سورة الشورى:

- وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ(٧) الشورى.

ومثله:

- إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً(٩) وأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً(١٠) بني إسرائيل.

وكل دين الله في القرآن:

- وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً(٤١) بني إسرائيل.

وتقول السورة نفسها:

- وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً(٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً(٤٦) بني إسرائيل.

ليس هناك وسيلة أخرى للدعوة إلى الله استخدمها رسول الله سوى تلاوة القرآن، فهو رسول والمرسِل هو الله والرسالة هي القرآن ولا شيء غيره.

ومثله:

- قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً(٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً(٨٩) بني إسرائيل.

ومثله:

- وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً(١٠٥) وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً(١٠٦) قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً(١٠٧) بني إسرائيل.

وتؤكده سورة الشعراء:

وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ(١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) الشعراء.

وسورة هود:

- فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(١٢) هود.

الآية تشير إلى أن الرسول جال في خاطره أن لو يستطيع عدم قراءة الآيات التي تؤكد أنه لن يؤتى آية يظهرها لقريش، لأنه عليه الصلاة والسلام يأمل أن يستجيب الله لطلب قريش المتكرر بإظهار آية ولو حدث هذا فستكون قريش لم تسمع بهذه الآيات التي تؤكد أنه لا آيات.

هذه الآيات تنفي نفياً قاطعاً أن يكون الرسول استخدم كلامه الشخصي للدعوة أو

للتشريع، وتبين أنه عليه الصلاة والسلام مجرد نذير والدين لله وحده.

لأن الآية تذكره أنه نذير عليه تبليغ كل ما يوحى له لحظة وحيه دون تأخير، والأحاديث المنسوبة له حتى لو كان فيها شيء ثبت عنه فلا يمكن أن تكون من دين الله، لأنها لم توح إليه. ولو أوحيت إليه لكان عليه قولها للناس كما أوحيت (كما القرآن وبأسلوب القرآن) وليس بكلام الرسول الشخصي وعباراته.

وفي موضع آخر تقول سورة هود:

- أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٣) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ(١٤) هود.

وتقول سورة الأنعام:

- قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ(١٩) الأنعام.

«وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به».

فلم يوح للرسول غير القرآن، وبالقرآن وحده تكون الدعوة.

وتقول السورة نفسها:

- قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ(٥٠) وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ(٥١) الأنعام.

الرسول لم يزد عن كونه رسولاً يبلغ الوحي، (لا طبيب ولا نابغة، ولا مزارع، ولا يعلم الغيب).

قريش تطالب الرسول بأن يريهم آية وخوارق وسيؤمنون، والرسول يتمنى لو أعطي آية لعلهم يؤمنون. والقرآن يوجه الرسول: قل لقريش لا أستطيع أن أظهر أي آية ولا أعلم الغيب ولست من الملائكة وكل ما أقوم به هو اتباع ما يوحى إلي وتبليغه كما هو.

وتقول السورة نفسها:

- وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ(٦٦) لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ(٦٧).

وتقول:

- وَهَـذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ(١٢٦) لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(١٢٧).

القرآن وحده هو صراط الله المستقيم، ومن تبعه فله دار السلام. ومن تبع حكماً أو تشريعاً غير القرآن، فهو خروج عن الصراط المستقيم، إلى الضلال.

وتقول سورة الأنعام:

- ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ(١٥٤) وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(١٥٥) أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ(١٥٦) أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ(١٥٧).

دين الله واحد، ولا يمثله سوى كتاب الله وحده، دون كلام الرسول، سواءً كان موسى أو محمداً أو غيرهما. وقريش عليها أن تتبع القرآن إن رغبت في النجاة، ولم يعد لها عذر تتحجج به، كما كانت سابقاً، عندما تمنوا أن لو ينزل عليهم كتاب ليتبعوه.

وتقول سورة الأنعام:

- إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ(١٥٩).

كل معتقد مخالف ومفارق للطريق القويم (القرآن) فليس من دين الله. وهذا يؤكد أن المذاهب ليست من دين الله لأنها خرجت عن صراط القرآن المستقيم واتبعت كتباً أخرى.

وتقول سورة القصص:

- إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاء بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(٨٥).

ولم يفرض (ينزل) عليه غيره.

وتقول سورة النحل:

- وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَـؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ(٨٩).

وسورة الرعد:

- المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ(١).

لم ينزل على محمد وحي يدعو به الناس إلا القرآن.

وتقول سورة الحج:

- وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(٧٢).

فالمسلمون في مكة كانوا يقومون بالدعوة مع الرسول، وذلك بتلاوة القرآن على الناس تماماً كما يفعل عليه الصلاة والسلام، دون استخدام لكلامهم الشخصي. وهو تأكيد على أن الدعوة لا تكون بالمواعظ والأحاديث والقصص ولكن بالقرآن وحده.

والآيات تؤكد أن الدعوة لا تكون بغير القرآن، الذي هو وحده ما أوحي به للرسول.

في المقابل لا يوجد في القرآن آية واحدة تقول بأن كلام الرسول يمكن استخدامه للدعوة أو لتمثيل دين الله. وكل الآيات التي يستشهد بها أتباع الموروث هي عبارة عن أجزاء من آيات اقتطعت من بقية الآية ومن السياق وأولت بغير معناها.

والله في كتابه يحذر بشدة من اتباع غير القرآن:

- كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ(٢) اتَّبِعُواْ مَا

أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ(٣) الأعراف.

لم ينزل سوى القرآن ومن يتبع غيره فقد اتخذ تشريعاته ديناً مع دين الله، وجعله ولياً دون الله.

بل إن القرآن قال: إن اتباع تشريعات لغير الله شرك بالله، كما ورد في سورة الأعراف:

- فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ(٣٠) الأعراف.

والتمسك بالموروث اتخاذٌ لرجال السلف أولياء من دون الله.

وكل من تبع ما لم ينزل به وحي فقد أشرك ما اتبعه مع الله. وهذا يدخل ضمنه فقه المذاهب الذي يعتمد غير القرآن، كما أن من التقول على الله ما يعرف بالفتاوى:

- قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٣) الأعراف.

وهو ما تؤكده سور كثيرة منها الزمر في سياق يتحدث عن قريش:

- أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ(٣) الزمر.

فعبادة قريش للأصنام موالاة وشرك مع الله، وكل من والى غير الله فقد أشركه مع الله.

وآيات كثيرة – غير ما ذكر – تؤكد أن دين الله لا يمثله سوى كلام الله، وليس في القرآن آية واحدة تقول بأن هناك كلاماً غير كلام الله يمثل دين الله. ولو أوحي للرسول شيء آخر، فسيتلوه كما سجل في ذاكرته بعباراته وألفاظه دون تغيير وبالتالي سيكون قرآناً.

الحقيقة الثالثة: نسخة الوحي الأصلية محفوظة بآلية إلهية

الوحي الذي ينزل على الرسول محمد عليه الصلاة والسلام لم يسمعه الرسول مباشرة من الله جل وعلا، ولكنه سبحانه أودعه في أرشيف خاص، عبارة عن آلية إلهية لا نعلم كنهها، سماها القرآن:

الكتاب المكنون

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ(٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ(٧٧) فِي

كِتَابٍ مَّكْنُونٍ(٧٨) لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ(٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ(٨٠) أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ(٨١) الواقعة.

وأم الكتاب

حم(١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ(٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ(٤) الزخرف.

واللوح المحفوظ

بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ(٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ(٢٢) البروج.

ومسميات أخرى.

فالوحي يودعه الله في هذه الآلية الإلهية دون حاجة لكلام ولا تواصل مع الملائكة ولا مع الرسول من البشر. ويقوم رسول من الملائكة بنقل نصوصه إلى ذاكرة الرسول: وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ(١٩٥) الشعراء.

وهذا ينفي أي تواصل مباشر بين الله جل وعلا وبين رسوله محمد عليه الصلاة والسلام، وينفي أن يكون هناك وحي آخر غير القرآن، كما يزعم أتباع الموروث الذين يقولون بأن الأحاديث المنسوبة للرسول هي وحي من نوع خاص تلقاه الرسول من ربه وله أن يحدث به بمعناه وليس بنصه كما أوحي به، وهو زعم لا يوجد ما يسنده، وما نقدمه من أدلة تنفيه[1].

الحقيقة الرابعة: الوحي يحفر في ذاكرة الرسول مباشرة ولا يتلقاه عن طريق التلقين

الوحي هو تلقي وحفظ نصوص بطريقة غير التلقين أو القراءة. والرسول لم يكن يتلقى الوحي تلقيناً، ولكنه يحفر في ذاكرته بطريقة لم نتعرف عليها بعد. ويقوم بذلك الملك المكلف بنقل الوحي من الأرشيف الإلهي الذي تحفظ فيه النسخة الأصلية للوحي، إلى ذاكرة الرسول مباشرة، بحيث يكون قادراً على تذكرها.

والعلم الحديث يقول بأن ذاكرة الإنسان قادرة على حفظ كل ما يمر بالحواس الخمس،

١ انظر فقرة: الأرشيف الإلهي / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

من لحظة الولادة وحتى الوفاة. فنحن نحتفظ بكل رائحة شممناها طوال حياتنا، وبكل شيء لمسناه، وبكل شيء سمعناه، وبكل شيء رأيناه، وكل شيء تذوقناه. لكن المشكلة هي أن الإنسان لا يستطيع تذكر «استرجاع» كل ما تحتفظ به ذاكرته. أما الوحي فهو عبارة عن نسخ نصوص القرآن في الذاكرة، مع قدرة الرسول على استرجاعها متى شاء طوال حياته.

وقد أخبر القرآن رسول الله هذه الحقيقة ليطمئنه بأنه لن ينسى الوحي الذي ينزل عليه أبداً. فبعد أن نزلت سورة المدثر التي تأمر الرسول بالبدء الفعلي للدعوة: «يا أيها المدثر قم فأنذر» ساور الرسول بعض القلق حول كيفية الدعوة، وهل سينسى بعض ما أوحي إليه، وهل سيتمكن من إقناع قريش... وغير ذلك من تساؤلات أجاب عنها القرآن في سور متفرقة.

وأول سورة طمأنت الرسول على أنه لن ينسى الوحي الذي يجده منسوخاً في ذاكرته، هي سورة الأعلى التي نزلت بعد سورة المدثر. وتبدأ السورة بمخاطبة الرسول: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى(١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى(٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى(٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى(٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى(٥) سَنُقْرِؤُكَ فَلَا تَنسَى(٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى(٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى(٨).

واصل يا محمد تسبيح الله وذكره والتأمل (الذي أمرت به في سورة المزمل) قدر المستطاع. وبالنسبة للوحي فسيبقى في ذاكرتك حياً وستتذكره في أي وقت تريد، فلا تقلق. ولم يكن الرسول يلقن الوحي تلقيناً، لأن التلقين يمكن نسيانه أو بعضه مع مرور الزمن. أما الوحي فالآيات تؤكد أن الرسول لن ينساه ابداً، لأنه حُفر «أُقرئ» بطريقة خاصة يمكن معها استرجاعه «فلا تنسى»: سَنُقْرِؤُكَ فَلَا تَنسَى(٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى(٧).

والاستثناء في الآية السابعة لا يعني أن هناك نصوصاً من الوحي نسيها الرسول، ولكن تعني أن عدم نسيان الوحي أو نسيانه يتم بمشيئة الله وقدرته التي لا يخرج عنها شيء في الكون. مثل قوله تعالى: .... قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ(١٢٨) الأنعام.

لأن من يدخل النار سيخلد فيها أبداً، ولن يخرج منها: إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً(٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَّا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً(٦٥) الأحزاب.

مرة أخرى تطمئن سورة القيامة رسول الله أنه لن ينسى ما يوحى إليه: لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ

لِتَعْجَلَ بِهِ(١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ(١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ(١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ(١٩).

والآيات تشير إلى أن الرسول برغم تطمين سورة الأعلى له أنه لن ينسى ما يوحى إليه، إلا أنه استمر يردد بينه وبين نفسه وبصورة عفوية نصوص الوحي التي يجدها رسخت في ذاكرته، فنزلت الآيات تؤكد تطمينه أنه لن ينسى الوحي ولا حاجة لأن يردده.

وتقول سورة النجم في ردها على مزاعم قريش من أن الرسول يختلق القرآن من عنده: وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى(١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى(٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى(٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى(٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى(٥).

فالقرآن الذي تسمعون صاحبكم - محمداً - يتلوه عليكم ليس هو من قاله، بل هو وحي يوحى إليه، ويحفر في ذاكرته فيتلوه كما تلقاه.

وتأتي سورة طه التي نزلت في المرحلة الخامسة من الدعوة في مكة لتؤكد للرسول مرة أخرى أنه لن ينسى الوحي ولا يحتاج لترديده: فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً(١١٤) طه.

مما يعني أن الرسول عاد لترديد ما يجده نسخ في ذاكرته من الوحي خوفاً من نسيانه.

وتقول سورة الشورى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً فَإِن يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٢٤) الشورى.

لو شاء الله لختم على قلب محمد فنسي كل ما نقش في ذاكرته. وهذا يؤكد أن الوحي يحفظ في ذاكرته عليه الصلاة والسلام دون أن يكون له خيار رده أو قبوله.

ومثله: وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ(١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ(١٩٤) الشعراء.

وتقول سورة النحل: يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ(٢).

وتقول سورة البقرة ضمن مخاطبتها لبني إسرائيل يثرب: قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ(٩٧).

والوحي كان يحفظ في ذاكرة الرسول بعباراته العربية البينة ولم يكن للرسول دور في انتقاء الكلمات ولا صياغة العبارات: وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ(١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ(١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ(١٩٥) الشعراء.

وكل ما سجل في ذاكرة الرسول كوحي تلاه عليه الصلاة والسلام على الناس بعباراته التي حفرت في ذاكرته دون أن يكون له حق ولا خيار في تغييرها أو إعادة صياغتها باستخدام عباراته الشخصية.

وهو ما يعني أن كل قرآن وحي، وما ليس بقرآن فليس بوحي ولو ثبت يقيناً عن رسول الله. وكل وحي فهو يمثل دين الله، وما ليس بوحي فيمثل قائله، ولا يمثل دين الله.

الحقيقة الخامسة: الرسول بلغ الوحي حال تلقيه كما تلقاه

- يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(٦٧) المائدة.

جاءه التحذير لأن أي تأخير بتبليغ النصوص الموحاة له أو تغييرها أو إعادة صياغة عباراتها أو السكوت عن بعضها، يعتبر عدم تبليغ، وكأنه لم يبلغ من الوحي شيئاً. لذا نجد الرسول يتلو الآيات التي توبخه أو التي تتحدث عن مشاكله العائلية وحياته الخاصة، حال نزولها، ولو كان يستطيع كتمانها أو تأخيرها أو حتى روايتها لبعض الناس دون البعض لفعل، ولما تلاها على أعدائه والمكذبين به، ومن ذلك:

- وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ(٥٢) الأنعام.

ومثله:

- لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ(٨٨) الحجر.

ولو كان يستطيع أن يتصرف بالوحي لاكتفى بتلاوة الآيات التي تتحدث عن مشكلة عائلية في بيته بينه وبين نسائه بدل أن يتلوها على الملأ، ومن ذلك:

- وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ

وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ(٣) التحريم.

وهذا يؤكد حقيقة أن التبليغ يعني تلاوة الوحي على كل الناس ولو كان يتناول حادثة خاصة بشخصه أو شخص آخر أو جماعة. وبالتالي فكل وحي نزل على الرسول سمعه الناس كلهم، وكل حديث للرسول لبعض الناس دون البعض لا يمكن أن يكون وحياً، لأن الرسول لا يتلقى سوى وحي واحد يلزم تبليغه لكل الناس.

وقد مر على الرسول عليه الصلاة والسلام فترات تمنى أن لو يؤخر تلاوة الآيات التي تقول بأنه لن يؤتى «آية» ليريها قريش، أملاً في أن يستجيب الله لآماله، وينزل عليه آية يقدمها لهم فيؤمنون كما وعدوه. فينزل القرآن طالباً منه طرد مثل هذه الأفكار، ويذكره أنه مجرد نذير ومرسل يبلغ كل ما يوحى إليه بحذافيره حين نزوله دون تأخير:

- فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(١٢) هود.

فكان عليه الصلاة والسلام يتلو على الناس القرآن ولو كانت الآيات تفضح مشاعره، فهو يتلوها كما نزلت برغم أنه يعلم أنها ستحرجه أمام قريش:

- كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ(٢) الأعراف.

والقرآن يحذر الرسول من أن يقول في دين الله ما لم يقل به الوحي:

- فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ(٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ(٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ(٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ(٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ(٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ(٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ(٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ(٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ(٤٧) الحاقة.

وقد قام الرسول بتبليغ كل نصوص الوحي التي سجلت في ذاكرته، كما تلقاها دون تأخير أو تغيير أو تصرف أو إعادة صياغة لعباراتها ومفرداتها. والتبليغ يعني أن يسمعه كل المخاطبين وليس فئة معينة أو شخص معين. وبالتالي فليس هناك وحي تصرف به الرسول كيفما يرى، فيخبر به بعض أصحابه دون البعض، ويؤخر الإخبار به للوقت الذي يرى. فتبليغ الوحي يكون لكل من وجه لهم، وليس خاصاً بأناس دون غيرهم أو بأصحاب الرسول.

الحقيقة السادسة: دين الله يقيني الثبوت وكل تشريع ظني ليس منه

- وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً(٣٦) بني إسرائيل.

الآية تقول بأن القول بالظن وعدم اليقين منهي عنه بشدة في دين الله ويعتبر كبيرة. وهو ما يؤكد أن المنقول ظناً يستحيل أن يكون من دين الله.

ويخاطب القرآن قريشاً قائلاً:

- أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى(١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى(٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى(٢١) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى(٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى(٢٣) النجم.

فهم وإن تمسكوا بموروثهم بضراوة فقد بقي مشكوكاً في صحته لأنه يعتمد الظن، والظن لا يغني من الحق شيئاً: إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى(٢٧) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً(٢٨) النجم.

الآيات تتحدث عن جانب من معتقدات قريش الموروثة التي يتمسكون بها ويرفضون التفكير بخطئها، وهي اعتقادهم أن الملائكة بنات لله تبارك وتعالى. ومعتقدهم هذا لا يقوم على أسس ولكن على ظن، وكل معتقد يقوم على الظن فلا يغني عن الحق.

والظن هو كل معتقد لا يستند على كلام الخالق، ويدخل فيها كل معتقد يعتقده المسلمون اليوم دون دليل من القرآن. لأن دين الله يعتمد الحقائق، التي تمثلها نصوص إلهية يقينية الثبوت ولا يرقى لها الشك، كما ورد في سورة فصلت:

- وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ(٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ(٤٢).

وكل نصوص خلاف كلام الرحمن فهي نصوص ظنية لا يمكن أن يقوم عليها دين الله. لأن الناس تناقلوها مشافهة لمدة طويلة وكانت عرضة للباطل على الدوام، من زيادة ونقص وتعديل وتبديل واختلاق.

- وتقول سورة يونس: أَلا إِنَّ للهَّ مَن فِي السَّمَاوَات وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهَّ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ(٦٦).

الآية تؤكد أن ما يدعو له الرسول من الله، خالق كل شيء، بينما تتبع قريش عقائد تقوم على الظن (لا أساس لها). وهو ما يعني أن دين الله لا يمثله سوى كتاب الله، وكل ما ليس في كتاب الله فهو ظن وباطل ولا يمثل دين الله.

وأهل الكتاب يؤمنون بالله ويوحدونه لكنهم اتبعوا تشريعات رجال دينهم وكتب تراثهم مع كتاب الله (التوراة) فاختلط الحق بالباطل، فبطلت معتقداتهم:

- يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهَّ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ(٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(٧١) آل عمران.

فكل خلط لدين الله مع غيره باطل ومفسد للدين، لأن اتباع تشريع من غير الله عبادة لمن شرعه، كما سبق وذكر. فالدين المقبول هو الدين النقي الخالص من الشوائب والتشريعات البشرية. وكل تشريعات بخلاف القرآن لا تقبل مع الحق مهما كان مصدرها:

- ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَّ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَّ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ(٦٢) الحج.

وهو ما كررته سورة لقمان حرفياً:

- ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَّ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَّ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ(٣٠) لقمان.

فالقرآن هو الكتاب الوحيد الذي لا يرقى إليه الشك لأنه يمثل وحده الوحي. وأي كتاب آخر فهو نتاج بشري، لا يرقى لليقين ولا يمكن أن ينسب لدين الله اليقيني الثبوت.

وبرغم ذلك فالناس - مسلمهم وكافرهم - اعتادوا التعرف والتعريف بدين الله بما تقول كتب التراث. مع أن كل الأخبار المنسوبة للرسول في كتب التراث عند كل المذاهب الإسلامية ظنية الثبوت، لأنها - بلا استثناء - تم تناقلها شفهياً عقوداً من الزمن قبل كتابتها، وهذا كفيل بتحويرها إلى أخبار لا علاقة لها بما قال الرسول. وحتى لو افترض وجود خبر له أصل ثابت عن الرسول، فلا يمكن أن يكون من دين الله. وهو ما يجعل نسبة أخبار كتب التراث لدين الله أو الاحتجاج بها في دين الله باطلاً، لأن دين الله يقوم على اليقين وليس على

الظن، الذي يؤدي للتهلكة في الدين: وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ(١١٦) الأنعام.

ولهذا فالتعريف بدين الله، بالصورة التي أنزلها الله، يكون بتدبر كلام الله، والتعرف عليه، دون حاجة لكتب حديث أو تفسير أو سير أو غيرها من كتب التراث الديني عند المسلمين.

وفيما يلي فصل يُعرِّفُ باختصار بأهم كتب التراث ومقتطفات مما حوته أهم تلك الكتب لإثبات أنها كتب لا يمكن أن تمثل دين الله، وما هي سوى ظنون بشرية ظهرت بعد عصر الرسول.

كتب التراث المعروفة بـ «علوم الدين»

يخبرنا القرآن العزيز أن هناك سنة أزلية سارت عليها كل الأمم في كل مكان وزمان تتمثل في أن الناس بعد رسولهم يتخلون عن دين الله شيئاً فشيئاً ويتحولون إلى تشريعات بشرية فرضها رجال دينهم. ولو استمر الناس باتباع دين الله، لما كان هناك داع لتتابع إرسال الرسل: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣) البقرة.

وقريش كانوا ذرية إسماعيل الذي يدين بدين أبيه إبراهيم، وعندما بعث فيهم محمد رسولاً لله كانوا قد تحولوا إلى الوثنية. مثلما كان قوم عاد ذرية المؤمنين الذين نجوا مع نوح: .... إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) الأعراف.

وثمود ذرية لمن آمن من قوم عاد: وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) الأعراف[1].

والمسلمون – كغيرهم من الأمم – لابد أن يمروا بالسنة التي مرت بها الأمم غيرهم من ابتعاد عن الدين إلى تشريعات بشرية وظنون، والتمسك بها على أنها الدين الحق. لذا

١ هذه الفقرة مقتبسة من توطئة كتاب: سنة الأولين / تحليل مواقف الناس من الدين وتعليلها.

فتحولهم بعد الرسول عن دين الله الممثل بالقرآن إلى تشريعات بشرية كان حتمياً ومتوقعاً، وهو ما نراهم عليه اليوم من تمسكٍ بكتب التراث التي تحوي ما أسموه علوم الدين، وهجرٍ للقرآن أو فهمه كما تقول كتب التراث وليس كما نزل. والتعرف على كتب التراث ونشأتها مهم جداً لأنه يعطي فكرة عما يتبعه المسلمون ويمارسونه باسم دين الله وهو ليس منه. فكل المذاهب بلا استثناء تبعت تشريعات استمدتها من كتب التراث وليس لها وجود في كتاب الله، ولو بقي المسلمون على القرآن وحده لما افترقوا إلى مذاهب وفرق. لذا فكل الاختلافات بين المذاهب توجد في التشريعات التي لا وجود لها في القرآن، وكل التشريعات التي اتفقت عليها المذاهب فهي التي أبقوا عليها كما وردت في القرآن دون زيادة أو نقصان.

التفسير

لقد رسخ في عقول الناس طوال القرون الماضية أن القرآن مبهم يحتاج لبيان وتوضيح، وأن ما تحويه كتب التفسير هو كلامٌ للرسول يبين معاني آيات القرآن ويشرح تشريعاته.

فهل التفسير كلام الرسول؟ وهل التفسير يبين «غموض القرآن»؟

والتأكد من هذا الزعم سهل وميسور للقراء، وكل ما عليهم هو فتح تفسير الطبري أو القرطبي أو أي كتاب تفسير آخر بشكل عشوائي والقراءة، وسيخرجون بقناعة واحدة هي أن ما في كتب التراث ليس كلاماً منسوباً للرسول وليس من الله جل جلاله، ولكنه خزعبلات خرجت من مخيلة من قالها، وهم أناس ظهروا بعد عصر الظلمات والفتن[1] ولا تربطهم بعصر الرسول أي رابطة، وكل ما قالوا يعكس عدة أمور، منها:

- جهلهم المطبق بالقرآن، ولو سماهم أتباعهم علماء أو تابعين أو أئمة.
- جرأتهم الوقحة على التقول على الله، وعلى اختلاق القصص.
- القصص التي يقولون لا تتحدث عن الآيات بقدر ما تظهر تفشي الخرافات لديهم وضيق المدارك والجهل السائد بأبسط مبادئ العلوم والمعارف العامة.

وهذا مثال على ما نقول:

يقول تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُواْ اللهَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(١١) المائدة.

الآية ببساطة تذكر أن المسلمين كادوا أن يتعرضوا لهجوم من قوم عدو ولكن الله سلم ولم يحدث، وكان هذا في بداية الهجرة وقبل غزوة بدر وقبل أي عداء مع أهل الكتاب في يثرب، لأن سورة المائدة نزلت في تلك الفترة[2].

لكن المفسرين لهم رأي آخر أو بالأحرى آراء متباينة أخرى، ومن ذلك:

أورد الطبري في تفسيره قصصاً مختلفة عن سبب نزول الآية، ومنها:

القصة الأولى: نزلت بسبب تآمر اليهود على قتل الرسول

حدثني محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى، عن ابن أبي نجيح، عن

---

١ عصر الظلمات والفتن نقصد به الأحداث التي أدت لقتل عثمان وحروب علي ابن أبي طالب وانتهت بتولي معاوية الحكم.

٢ لمعرفة تفاصيل ما حدث انظر فقرة: غارة على المسلمين / قسم أحداث من عصر الرسول.

مجاهد في قول الله: إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ قال اليهود: دخل عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلّم حائطا لهم، وأصحابه من وراء جداره، فاستعانهم في مَغرم دية غرمها، ثم قام من عندهم، فائتمروا بينهم بقتله، فخرج يمشي القهقري ينظر إليهم، ثم دعا أصحابه رجلاً رجلاً حتى تتاموا إليه. قال الله جلّ وعزّ: فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَعلى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ. وللقصة عدة روايات مختلفة ومتخالفة، منها:

- روايتان مختلفتان عن ابن جريج (ت ١٥٠ هـ) عن عكرمة (ت ١٠٥).
- روايتان مختلفتان عن إسرائيل (ت ١٦٢ هـ) عن السدي (ت ١٢٧ هـ) عن أبي مالك.
- رواية عن أبي نجيح (ت ١٣١ هـ) عن مجاهد (ت ١٠٠ - ١٠٧ هـ).
- ورواية عن أبو معشر (ت ١٧٠ هـ) عن يزيد ابن أبي زياد (ت ١٣٧ هـ).
- ورواية عن ابن جريج عن عبد الله ابن كثير (ت ١٢٠ هـ).

وكل الروايات لا أساس لها ولا مصدر، ولا يمكن أن تكون سبباً لنزول الآية، لأن السورة نزلت في بداية العصر المدني وقبل غزوة بدر وقبل أن يُظهر اليهود وكل أهل الكتاب عداءهم للإسلام والمسلمين ويتعاونوا مع أعدائهم.

القصة الثانية: نزلت في الرسول وأصحابه في احدى الغزوات

وقال آخرون: عني الله جلّ ثناؤه بذلك النعمة التي أنعمها على المؤمنين باطلاع نبيه صلى الله عليه وسلّم على ما همّ به عدوّه وعدوّهم من المشركين يوم بطن نخل من اغترارهم إياهم، والإيقاع بهم إذا هم اشتغلوا عنهم بصلاتهم، فسجدوا فيها، وتعريفه نبيه صلى الله عليه وسلّم الحذار من عدوّه في صلاته بتعليمه إياه صلاة الخوف.

قال بها قتادة (ت ١١٨ هـ)، وقال بها الزهري (ت ١٢٥ هـ) برواية مختلفة.

وهذه القصة المختلقة كسابقتها، لا يمكن أن تكون سبباً لنزول الآية لأن غزوات الرسول لم تحدث في بداية الهجرة ولكن بعد واقعة الأحزاب وضد القبائل التي شاركت في حملة الأحزاب وما بعدها.

وكما الطبري نجد القرطبي في تفسيره، أورد قصصاً أخرى ومنها:

أنها نزلت في أعرابي شهر السيف في وجه الرسول.

حيث يقول: إنها نزلت بسبب فعل الأعرابيّ في غزوة ذات الرِّقَاع حين اخترط سيف النبيّ صلى الله عليه وسلّم وقال: من يعصمك مني يا محمد؟

وكل القصص الواردة في كتب التفسير لا تنسب للرسول، ويأبى الله أن تكون من كلام رسوله الأمين، ولكنها أقوال من قالها والذين ذكرنا بعضهم وتاريخ وفياتهم ليعرف القارئ بُعدهم عن عصر الرسول، وجرأتهم على تأويل كلام الله.

ونورد مثالاً آخر على تخاريف المفسرين وهو تأويلهم لقوله تعالى:

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً(٥٠) الكهف.

يقول الطبري في تفسيره: حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن خلاد بن عطاء، عن طاوس، عن ابن عباس قال: كان اسمه (يقصد إبليس) قبل أن يرتكب المعصية عزازيل، وكان من سكان الأرض، وكان من أشدّ الملائكة اجتهادا وأكثرهم علما، فذلك هو الذي دعاه إلى الكبر، وكان من حيّ يسمى جنا.

((إبليس اسمه عزازيل، وجعلوا له نسباً وقبيلة)). ٢٨٨

هل هذا كلام الله؟ أم هو تخاريف بشر لا يتورعون عن اختلاق القصص ونسبتها لله دون خجل.

ونواصل:

ينقل الطبري في تأويل قوله تعالى: " والتين والزيتون وطور سينين"، أن التين الجبل الذي تقع عليه دمشق، وأن الزيتون الجبل الذي تقع عليه إيليا "القدس"، وقال آخرون: التين: مسجد دمشق، والزيتون: بيت المقدس. وقال آخرون: وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ يعني مسجد نوح الذي بني على الجُودِيّ، والزيتون: بيت المقدس. وقال آخرون: التين والزيتون وطور سينين: ثلاثة مساجد بالشام.

ونتوقف هنا، لأن الغاية هي بيان الأمور التالية:

١. أن التفسير كلام أناس عاشوا في عصور لاحقة لا تمت لعصر الرسول بصلة، ولم يقلها رسول الله.

٢. أن التفسير مجرد قصص مختلق من أولئك (المفسرين) ولا يمت للواقع بصلة. فالآية الواحدة يوردون لها عدة أسباب نزول وقصص مختلفة لا يمكن أن تكون حدثت لذات الحدث. لأن كل واحد منهم يختلق قصة من عنده عن سبب النزول مختلفة عن القصة التي اختلقها غيره.

٣. كلام المفسرين وقصصهم المختلق لم يبين غموضاً مزعوماً للقرآن، ولكنه أسبل الغموض على بين القرآن الذي لا غموض فيه.

وبالتالي فالتفسير ليس كما يزعم أتباع الموروث أنه كلام الرسول ليبين "غموض القرآن". ولكنه كلام المفسرين، البعيدين عن عصر النبوة مكاناً وزماناً ومنهجاً، لتحويل القرآن إلى خرافات وأساطير.

وبقي تساؤل آخر يثيره أتباع الموروث، وهو أن التفسير يفصل مجمل القرآن:

فهل التفسير يفصّل مجمل القرآن كالصلاة والصوم والحج؟

يقول المفسرون إن الصلاة لم يبين القرآن تفاصيلها وهيئتها من قيام وركوع وسجود وجلوس وعدد ركعات. وهذا الكلام صحيح، إلا أن الحديث أيضاً لم يفعل ذلك.

فالصلاة لم ترد في القرآن تفاصيلها لأنها فرضت على الرسول منذ اليوم الأول للبعثة، وكل من دخل الإسلام صلاها كما يصلي الرسول، وتوارثها الناس بعد ذلك عملياً حتى وصلتنا. ولم يتعلمها الناس من أحاديث روتها كتب الحديث.

والدليل أن الرسول صلى من بداية البعثة ورد في القرآن وفي سورة العلق تحديداً: أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى(٩) عَبْداً إِذَا صَلَّى(١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى(١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى(١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى(١٣) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى(١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ(١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ(١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَه(١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ(١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ(١٩).

فالسورة نزلت في بداية الدعوة مباشرة بعد سورة المدثر التي بدأت منها الدعوة. وهذا يعني أن القرشي الذي نهى الرسول عن الصلاة قد رآه يصلي حول الكعبة - مكان اجتماع كبراء قريش - وبما أن هيئة الصلاة من وقوف وركوع وسجود غريبة على القرشي ولم يعرفها من قبل، واقترنت ببدء الرسول تلاوة عبارات غريبة عليهم، يقول إنها وحي من الله تدعو

لدين جديد، فقد نهره القرشي الذي لا يصدق بدعوة محمد ولا برسالته.

وهذه الحادثة عرفناها بخبر القرآن ولم نعرفها من حديث. وبما أن الصلاة بدأت مع البعثة، فمن البديهي أن يصلي كل من أسلم بصلاة الرسول، ومن ثم تناقل الناس الصلاة عملياً، ولم يتعلموها عبر أقوال منسوبة للرسول[1].

والحج لم يتعلمه الناس من الأحاديث، كما أن الرسول لم يحج سوى مرة واحدة، وكانت قبيل وفاته. وكل أعمال الحج مفصلة في القرآن، وما يقوم به الناس ولم يذكره القرآن أو يخالف ما قال به القرآن فليس من دين الله ولكنه من بقايا الحج الجاهلي الذي واظبت قريش على أدائه بعد تحولها للوثنية، وأبقت على بعضه بعد عصر الرسول.

والحج في القرآن يبدأ بالتجمع بعرفات، دون خطبة، ثم الانطلاق للحرم والطواف بالكعبة بلا عدد محدد، ومن رغب يمكنه الطواف بالصفا والمروة دون تحديد عدد. والبقاء في مكة للوفاء بالنذور وقضاء التفث، ثم الخروج لمنى لتقديم الهدي، ثم حلاقة الرأس[2].

أما اعتبار الاستماع لخطبة من عرفة من شعائر الحج ورمي الجمرات وتحديد الطواف بسبع وملابس الإحرام والإحرام من مناطق ما يسمى بالمواقيت فكلها لا وجود لها في كتاب الله، ولم يأمر بها سبحانه.

والصوم بينه القرآن بكل وضوح وكل ما أضيف له من غير القرآن فليس منه[3].

فالعبادات المطلوبة من المسلم بينها القرآن بتفاصيلها، وكل ما زاد عليها فليس من دين الله. والصلاة لم يبين القرآن تفاصيلها لأنه عندما بدأ القرآن فرض التشريعات في النصف الثاني للدعوة في مكة وفي المدينة في سور البقرة والنساء والمائدة، كان الناس يصلون الصلوات الخمس ولا حاجة لفرض تشريع موجود. فالتشريعات تفرض لكي يعمل بها الناس وما وجد منها بصورته الصحيحة، فيأتي القرآن لإقراره، ولا حاجة لفرضه، لأنه موجود.

ويجب ذكر حقيقة هامة، وهي أن قريشاً وأهل يثرب الذين نزل عليهم القرآن، لم يجدوا أي صعوبة في فهم عباراته ومفرداته. ولم يتوقفوا عند كناياته واستعاراته، وفهموا فحواها كما نزلت. ولم يعترضوا على عروبته، بل اعتبروه بيان ساحر يأخذ بالألباب. ولم يقل أحد

١ انظر فقرة الصلاة/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

٢ انظر فقرة: الحج / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

٣ انظر فقرة: الصيام / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

منهم إن القرآن يحتاج لإيضاح، وفهموه دون حاجة لبيان من الرسول. ولو كان القرآن غامضاً أو يحتاج لإيضاح لمن نزل عليهم وسمعوه من الرسول، لما كان باستطاعة الرسول أن يوضح لهم غموضه، لأنه عليه الصلاة والسلام يفهم نفس اللغة التي يفهمون، وما كان غامضاً عليهم فهو غامض عليه بكل تأكيد. وما لم يبينه القرآن ويفهمه من يخاطبه مباشرة فلن يكون باستطاعة الرسول ولا أحد من الصحابة بيانه. لذا لم نرث تفسيراً لرسول الله، ولا لأحد فضلاء الصحابة. وحتى التفسير المسمى «تنوير المقباس من تفسير ابن عباس» هو ليس له ولم يعلم به، وإنما كتب بعده ونسب إليه بواسطة مجد الدين الفيروز آبادي الذي ولد بفارس عام (٧٢٩ هـ)، وتوفي عام (٨١٧ هـ). أي أن بينه وبين ابن عباس قرابة ٧٥٠ سنة. مع أن ابن عباس ليس من الصحابة – كونه كان طفلاً عند وفاة رسول الله – وبرغم ما قيل عن صحبته للرسول فلا يمكن أن تكون صحيحة. لأنه من أهل مكة، وأبوه العباس لم ينتقل للعيش في المدينة طوال حياة رسول الله. ومن المستحيل أن ينتقل طفل في الثانية أو الخامسة أو الثامنة من عمره ليعيش بمفرده في المدينة ويترك أهله في مكة لكي يتفقه في الدين، الذي لم يولد عليه ولم يكن ديناً لوالديه.

الخلاصة

- التفسير قِصص خرافية مختلقة لا تمت للآيات التي سيقت لها، ولا يمكن وقوعها على أرض الواقع. ولكنها تعكس حالة الجهل والإيمان بالخرافات السائدة في المجتمع أثناء تأليف كتب التفسير. وتظهر جرأة «المفسرين» على التقول على الله ورسوله دون تحرج أو حياء.
- التفسير أضفى الغموض على بيّن القرآن ولم يبين غموضاً فيه لأنه ليس في القرآن غموض.
- والتفسير كلام من تسموا بالمفسرين ولم يصدر عن رسول الله.
- والتفسير لم يعلمنا عبادات عجز القرآن عن تفصيلها، وكل ما قيل عن عبادات إضافية فهي ليست من الدين.

الحديث

هو العمود الفقري لكل كتب التراث الديني عند المسلمين وما سمي بعلوم الدين عند كل فرق ومذاهب المسلمين. وهو عبارة عن أقوال وأخبار منسوبة للرسول تناقلها الناس مشافهة أكثر من (١٥٠) عاماً قبل أن يأمر المنصور - ثاني حكام بني العباس - مالك ابن أنس (ت ١٧٩ هـ) بجمع أهم الاحاديث التي يتداولها الناس في كتاب ليكون مرجعاً موثقاً للحديث ويترك ما سواها. فخرج كتاب الموطأ الذي احتوى على حوالي (١٨٠٠) حديثاً. وبقي قرابة (١٠٠) عام وهو الكتاب الرسمي الوحيد للأحاديث، إلى أن تجرأ البخاري (ت ٢٥٦ هـ) وقام بجمع عدد من الأحاديث التي كان الناس يتناقلونها في عصره وأودعها في كتاب. ويعود سبب قيام البخاري بتأليف كتابه حسبما بين الذهبي في ترجمته للبخاري في سير أعلام النبلاء، عندما قال: وقال خَلَفٌ الخيّام: سمعتُ إبراهيمَ بنَ مَعْقِل، سمعتُ أبا عبد الله يقول: كنتُ عند إسحاق بن راهَوَيْه، فقال بعضُ أصحابنا: «لو جمعتُم كتاباً مختصِراً لسُنَنِ النبيِّ ، فوقع ذلك في قلبي، فأخذتُ في جمعِ هذا الكتاب». فتشجع البخاري وبدأ بجمع أحاديثه، التي ضمت في كتاب اسمه: صحيح البخاري واكتمل بعد وفاته. وما إن تجرأ البخاري وبدأ بجمع الأحاديث ليودعها في كتاب حتى تبعه آخرون في عصره وقاموا بجمع ما تيسر لهم من أحاديث وكتبوها في كتب اعتبرت خمسة منها كتب صحاح، وهي:

- البخاري أحاديثه بروايات مكررة حوالي (٧٦٠٠) حديث، وبدون تكرار قرابة (٢٨٠٠).
- مسلم (ت ٢٦١ هـ) أحاديثه بالتكرار قرابة (٧٣٠٠) حديث، وبدون تكرار (٤٠٠٠) حديثاً.
- النسائي (ت ٣٠٣ هـ) وله مصنف سماه السنن الكبرى ثم اختصره بكتاب آخر سماه السنن الصغرى وعدد أحاديثه نحواً من (٥٧٦٠) حديثاً.
- أبو داوود (ت ٢٧٥ هـ) وعدد أحاديثه قرابة (٤٨٠٠) حديثاً.
- الترمذي (ت ٢٧٩ هـ) وعدد أحاديثه حوالي (٤٠٠٠) حديثاً.

وبقيت هذه الكتب الخمسة هي الصحاح -عند أهل الحديث- منذ ظهرت في أواخر القرن

الثالث وأوائل القرن الرابع وحتى القرن السادس الهجري حينما أضاف محمد ابن طاهر المقدسي (ت ٥٠٧ هـ) كتاباً سادساً وهو لابن ماجه (ت ٢٧٣ هـ) الذي يضم أكثر من (٤٣٠٠) حديث.

وليزيد مجموع الأحاديث غير المكررة في هذه الكتب عن (١٢,٠٠٠) حديث.

ثم أصبحت كتب الصحاح تسعة، بعد إضافة ثلاثة كتب هي:

موطأ مالك، ومسند أحمد (ت ٢٤١ هـ) وعدد أحاديثه يفوق ٢٦ ألف حديث، وسنن الدارمي (ت ٢٥٥ هـ) وعدد أحاديثه قرابة (٣٤٥٠) حديثاً.

وبجانب هذه الكتب ظهرت كتب كثيرة في الحديث، كان أهل الحديث يعتبرونها أقل ثقة في بادئ الأمر ولكنها اكتسبت الثقة - عندهم - في عصور لاحقة. ومنها: مستدرك الحاكم (ت ٤٠٥ هـ) وعدد أحاديثه قريباً من (٩٦٠٠) حديث، وسنن البيهقي (ت ٤٥٨ هـ) قرابة (٢٢) ألف حديث، وسنن الدارقطني (ت ٣٨٥ هـ) وعدد أحاديثه قرابة (٤٨٠٠) حديث، وصحيح ابن حبان (ت ٣٥٤ هـ) وصحيح ابن خزيمة (ت ٣١١ هـ) ومصنف ابن أبي شيبة (ت ٢٣٥ هـ) وعدد أحاديثه أكثر من (٣٧) ألف حديث.

وتوالت كتب الحديث بالظهور فبلغت عشرات ومئات المصنفات، وبلغ عدد ما تحويه مئات الآلاف من روايات الأحاديث. وتكاثر التحديث عن الرسول مع مرور الوقت نتيجة لأن الناس يحتاجون لأدلة تدعم معتقداتهم التي تتوسع مع الزمن، فيختلقون لها الأدلة. واليوم يستشهد الناس على أمور دينهم بأي حديث يمكن العثور عليه في أي كتاب.

وفيما يلي بعض الحقائق عن الأحاديث:

١. كل الأحاديث بلا استثناء ظنية الثبوت عن الرسول ولا يمكن أن ترقى لليقين

لأنه تم تناقلها بين الناس عن طريق الرواية الشفهية، ودين الله لا يمكن أن يقوم على الظن: وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ(٣٦) يونس.

وكل نصوص غير كلام الرحمن نصوص ظنية لا يمكن أن يقوم عليها دين الله. وأهل الكتاب يؤمنون بالله ويوحدونه لكنهم اتبعوا تشريعات رجال دينهم وكتب تراثهم مع كتاب الله (التوراة) فاختلط الحق بالباطل، فبطلت معتقداتهم: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ

بِآيَاتِ اللّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ(٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(٧١) آل عمران.

لأن كل خلط لدين الله مع غيره باطل ومفسد للدين.

وكل نصوص غير كلام الله فهي باطلة لا تقبل مع الحق: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ(٦٢) الحج.

وأهل الحديث وأتباع الموروث يصنفون الأحاديث كما يلي:

الأحاديث المتواترة يقينية الثبوت، وبعضها ظني الدلالة، والبعض الآخر يقيني الدلالة.

ويقيني الدلالة تعني أن معنى النص ظاهر واضح لا لبس فيه، وهذا ليس مهماً في ثبوت الحديث من عدمه، وإنما المهم هو أن يثبت يقيناً.

والأحاديث التي صنفوها متواترة هناك من قال إنها (١٢) حديثاً وقيل (٢٠)، وأوصلها بعضهم إلى (٣٠٠) حديث. ولو أننا وافقنا جدلاً على قولهم وقلنا هناك (٣٠٠) حديث ثبت يقيناً نسبتها للرسول فإن هذا سيترتب عليه ما يلي:

إخراج بقية الأحاديث المنسوبة للرسول – غير المتواترة – وترك العمل بها وكل ما قام عليها من تشريعات.

بعد ذلك يخضع ما تبقى من أحاديث "متواترة" إلى التحقق من أنها لا تتعارض مع ما ورد في القرآن ولا تزيد عليه ولا تُنقص.

ولو حدث هذا فلن نجد حديثاً واحداً له علاقة بدين الله ولو ثبت عن رسوله افتراضاً.

الخلاصة: دين الله يقوم على اليقين، وكل ما عدا القرآن ظني. والقرآن هو الكتاب الوحيد الذي لا يرقى له الشك لأنه يمثل وحده الوحي، وكتب في عصر الرسول. وأي كتاب آخر فهو نتاج بشري، لا يرقى لليقين ولا يمكن أن ينسب لدين الله، لأن دين الله يقوم على كلام الله وحده اليقيني الثبوت.

وانتشار التحديث ونسبته للرسول لم يبدأ في عصر الرسول ولكن في عصر الظلمات والفتن بعد الفتوح، ومن تناقله هم أهل البلاد المفتوحة، الذين لا يعرفون من الإسلام إلا الاسم مع طغيان موروثاتهم الدينية السابقة، كما سبق وذكرنا.

٢. الدين لله وحده واتباع تشريع عبادة للمشرع

إخلاص العبادة لله وحده عبادة له سبحانه لا شريك له، وذلك باتباع أوامره والانتهاء عن نواهيه وحده سبحانه. وكل دعوات الرسل للناس بأن يعبدوا الله وحده: وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظرواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(٣٦) النحل.

الخلاصة: اتباع أي تشريع من غير الله شرك مع الله. ولا يهم إن كان المتبوع شخصاً عادياً أو رجل دين أو نبياً أو رسولاً. فلو ثبت قول عن الرسول واعتبره الناس من دين الله فهو شرك مع الله لأنه اعتبار لكلام الرسول تشريعاً وبالتالي عبادة له. وأي رسول أو ملائكة أو مخلوق آخر لا يستنكف أن يكون عبداً لله وليس شريكاً له في دينه: لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً(١٧٢) النساء.

٣. محمد كان بشراً أولاً، ثم بشراً رسولاً ثانياً، ولم يكن مشرعاً أبداً

وهذه بعض الأدلة من القرآن:

- قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً(٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَّسُولاً(٩٤) بني إسرائيل.

لقد ولد وعاش ومات كأي بشر، لكنه عليه الصلاة والسلام كلف بتبليغ رسالة ربه للناس، وهي مسئولية ثقيلة: إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥) المزمل.

وتكليفه بالرسالة لم يعفه من أي أمر إلهي أو نهي، فقد كان مطالباً باتباع كل أوامر القرآن والامتناع عن كل نواهيه كأي إنسان آخر، ولو عصى ربه فسيعاقب كغيره:

- قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ(١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ(١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(١٣) الزمر.

وتبليغ الرسالة لم يحوله إلى مشارك لله في دينه:

- وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ(٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ(٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ(٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ(٤٨) الحاقة.

الخلاصة: الرسول بشر لا يستطيع التشريع بغير الوحي. وبما أنه لم يوح إليه سوى القرآن فكل أقواله عليه الصلاة والسلام بغير القرآن ولو ثبتت عنه لا تمثل دين الله، ولا تعتبر منه. وكل ما نسب للرسول مما يسمى بالحديث وكان فيه تشريع فهو مختلق ومكذوب على الرسول، لأن الرسول لا يستطع التشريع بغير القرآن، ولم يتلق وحياً غير القرآن. وكل ما نسب للرسول من أقوال وأفعال لا تشريع فيها، يجب تمحيصها والتحقق منها قبل قبولها كتاريخ وليس كدين. وهي كأي تاريخ المكذوب فيه أكثر من الصحيح، والصحيح منه لا يمكن أن يسجل كما حدث ولكن بصورة مشوهة[1].

لهذا نجد أن الذين تنسب لهم الأحاديث ممن سموا بصغار الصحابة ومن الذين ليس لهم صحبة أو أن صحبتهم قليلة جداً، بينما نجد فضلاء الصحابة لم يكونوا رواةً لما عرف بالحديث، ولم تنسب لهم سوى أحاديث قليلة جداً، بل إن كثيراً من خيار الصحابة لم ينسب له حديث واحد. وفيما يلي قائمة بأكثر من نسبت لهم أحاديث من الصحابة، كما ذكرها أبو الفرج بن الجوزي في كتابه: تلقيح فهوم أهل الأثر: أبو هريرة (٥٣٧٤)، عبد الله ابن عمر (٢٦٣٠)، أنس بن مالك (٢٢٨٦)، أم المؤمنين عائشة، نسب لها (٢٢١٠)، ابن عباس(١٦٦٠)، جابر بن عبد الله (١٥٤٠)، أبو سعيد الخدري (١١٧٠)، عبد الله بن مسعود (٨٤٨)، وعبد الله بن عمرو بن العاص (٧٠٠).

في المقابل نجد جمعاً غفيراً من كبار الصحابة لم ينسب لهم حديث واحد، وجمعاً آخر نسب

---

١ وفيما يلي بعض اقوال من أكبر المشتغلين بالحديث وأئمته وهم لا يثنون على الحديث ولا على انتشاره، وذلك فيما أورده ابن عبد البر في كتابه: جامع بيان العلم وفضله (ج١م١٠١٣-١٠١٥). بسند طويل عن شعيب بن حرب ، قال: كنا عند سفيان (ابن عيينة، ١٩٨هـ) يوما نتذاكر الحديث فقال:» لو كان في هذا الحديث خير لنقص كما ينقص الخير ولكنه شر فأراه يزيد كما يزيد الشر. وعن معبد بن كعب بن مالك، قال: سمعت أبا قتادة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إياكم وكثرة الحديث ومن قال عني فلا يقولن إلا حقا. (والحق لا يعني حديث منسوب له، ولكن ما قاله فعلاً وهو القرآن). وعن خالد بن عبد الله الذي يقول سمعت ابن شبرمة يقول: أقلل الرواية تفقه. (تقليل الرواية تعني ترك الأخذ بالحديث). وعن قيس بن رافع، قال: سمعت شفيا الأصبحي يقول: لتفتحن على هذه الأمة خزائن كل شيء حتى تفتح عليهم خزائن الحديث. وعن حفص بن غياث يقول: سمعت الأعمش يقول لأصحاب الحديث: لقد رددتموه حتى صار في حلقي أمر من العلقم، ما عطفتم على أحد إلا حملتموه على الكذب(ج١/ ١٠٣٣). وهذا إمام الحديث شعبة يغير رأيه في الحديث: عن يحيى بن سعيد القطان قال: سمعت شعبة يقول: «إن هذا الحديث يصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة، فهل أنتم منتهون(ج١/ ١٠٢٩). ويورد ابن عبد البر في إسناد آخر عن شعبة: ...... سمعت ابن أبي عدي يقول: قال شعبة: كنت إذا رأيت أحدا من أهل الحديث يجيء أفرح، فصرت اليوم ليس شيء أبغض إلى من أن أرى واحدا منهم. وعن أبا بكر بن عياش، يقول: سمعت مغيرة الضبي، يقول: والله لأنا أشد خوفا منهم مني من الفساق، يعني أصحاب الحديث(ج١/ ١٠٣١). وسفيان بن عيينة شيخ أحمد وطبقته لما رأى طلبة الحديث عنده قال: أنتم سخنة عيني لو أدركنا وإياكم عمر بن الخطاب لأوجعنا ضربا. وعن سفيان بن عيينة ، قال: سمعت مسعرا(أحد أوائل كبار أهل الحديث)، يقول: من أبغضني جعله الله محدثا، وودت أن هذا العلم كان حمل قوارير حملته على رأسي فوقع فتكسر فاسترحت من طلابه. عن يحيى بن سعيد القطان قال: رواة الشعر أعقل من رواة الحديث، لأن رواة الحديث يروون مصنوعا كثيرا، ورواة الشعر ساعة ينشدون المصنوع يتفقدونه ويقولون: هذا مصنوع (ج١/ ١٠٣٧).

لهم عدد قليل يتراوح بين حديث واحد وعشرين حديثاً - ولو لم ينطقوا بها بالضرورة - وهي قليلة جداً، ولا يمكن مقارنتها بما نسب لغيرهم، ممن لم يصحبوا الرسول معشار صحبة هؤلاء له عليه الصلاة والسلام. ومنهم: أبو بكر، أبو طلحة الأنصاري، أبو معبد ابن مسعود، ثابت ابن الضحاك، الزبير ابن العوام، زيد ابن الخطاب، عبد الله ابن الزبير، عبد الله ابن زمعة، عثمان ابن طلحة، عثمان ابن عفان.

ويكون «الحديث» عبارة عن قصص تم تناقلها مشافهة، لا علاقة لها بدين الله، ولا يمكن أن تكون منه. وقد تنوع القصص بتنوع الغاية منه، فهناك أحاديث وأخبار وضعت أو عدلت وبدلت لكي تخدم عامل العصبية أو ترسيخ حكم قريش أو الطعن في الإسلام[1]. كما

---

1 كثير من الأحاديث عبارة عن قصص مختلق يعطي صورة للوضع الاجتماعي السائد في الوقت الذي قيل فيه. ولو استعرضنا الأحاديث التي تلعن الواشمات والمتفلجات والتي تلعن المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهاتِ من النساءِ بالرجال، أو المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء وما شابهها، لوجدنا أنها تظهر التحلل الأخلاقي الذي كان سائداً في المجتمع لدرجة أن فعل قوم لوط وفواحش أخرى قد فاقت انتشار الزنا، لدرجة أنه بات من المعتاد رؤية الغلمان وهم يلبسون ملابس النساء ويتزينون بزنتهن. وانتشار السحاق لدرجة أن هناك بعض السحاقيات يقمن بدور المسترجلات، أو من تسمى اليوم بالبويات في بلاد الحرمين للأسف.

هذه الظاهرة لم تكن موجودة في المدينة زمن رسول الله، وإلا لتحدث عنها القرآن، لكنها كانت منتشرة في العصر العباسي، فقد وصل الولع بالجواري حداً غير مسبوق في التاريخ، وأصبحت أسواق النخاسة منتشرة في طول الدولة وعرضها، من سمرقند وبغداد حتى قرطبة، حيث تعرض فيها الجواري من جميع الأصناف والألوان والأجناس، في مجتمع متع جنسيةٍ صِرْف.

وقد جاء في الأغاني أن عدد الجواري المغنيات عند زبيدة زهاء ألفي مغنية، وعند الرشيد مثلهن. ثم تزايدَ التوجه للولع بالغلمان بدل الجواري، وسجل لنا التاريخ موت أحد الخلفاء هياماً بغلام. ويقول المسعودي في مروج الذهب إن يحيى بن أكثم قاضي المأمون كان يمتلك أربعمائة من الغلمان المرد الحسان. وممن أغرم بالغلمان من الخلفاء الواثق والأمين ابن الرشيد، وقد عرفت أمه زبيدة عنه ولعه هذا، فأرادت أن تصرفه. فأهدته ألف جارية، بعد أن جملتهن على هيئة أشبهن فيها الغلمان في تصفيف الشعر وإخفاء الصدر.

وفي ذلك الزمان انتشرت موضة الغلاميات أو المتغلمات، أي الجواري اللاتي يتهيئن على شكل غلمان في قصة الشعر واللبس وغيره. وقد حاول بعض رجال الدين جاهدين وقف هذا التهتك الأخلاقي بنشر أحاديث عن تحريم تشبه النساء بالرجال والعكس، وأحاديث تحريم الوشم وكل أنواع التزين ووصل الشعر وما إلى ذلك، ونسبتها للرسول.

ومثلها اختلقت أحاديث التمسك بالجماعة وتحريم الخروج على الحاكم، والتي بدأت بعد العام المسمى بعام الجماعة. وهو العام الذي قبل فيه آخر معارض لحكم معاوية - وهو الحسن ابن علي - التوقف عن المعارضة مقابل تحقيق مطالبه المادية (ذكرت في كتب التاريخ). فدانت الدولة بكاملها لمعاوية ابن أبي سفيان، بعد أن ذاق الناس الويلات من الحروب التي جرت بين علي ومعاوية وبين علي وأهل البصرة وبينه وبين أهل النهروان، وقضت هذه الحروب على عشرات الآلاف من الناس. وقد أسمى المتملقون ذلك العام بعام الجماعة، بدل أن يسموه عام الخنوع، واختلقوا أحاديث الطاعة وعدم الخروج على الحاكم. وقبل وفاة معاوية قام بتوريث ابنه يزيد الحكم من بعده، فهاج الناس وكثرت الاضطرابات في أنحاء الدولة. فكان القمع والقتل والتنكيل سبباً في ظهور أحاديث الصبر على تسلط الحكام وطاعته ولو ضرب ظهرك وأكل مالك. كمحاولة من رجال الدين لتهدئة الناس وحقن دمائهم بالخنوع لأنهم لا يستطيعون مواجهة الحاكم والوقوف ضد تسلطه، وأعطت الحاكم غطاءً شرعياً للبطش بمعارضيه، بعدما توسعت الاضطرابات في دولة بني أمية وقامت عدة دول مستقلة في العراق بزعامة المختار ابن أبي عبيد الثقفي، ودولة للأزارقة في الأحواز، وأخرى للإباضية في شرق وجنوب شرق جزيرة العرب. إضافة لدولة عبد الله ابن الزبير في الحجاز. إلا أن عبد الملك ابن مروان استطاع القضاء على هذه الممالك وإخضاع البلاد تحت حكمه بعد حملة تنكيل وتقتيل شرسة استمدت شرعيتها من فتاوى رجال الحديث واختلاق الأحاديث التي تمنح الحاكم حق البطش بالمعارض وتحرم على من هضمت حقوقهم المطالبة بها. ومن ذلك الأحاديث التي تقول بأن يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ في النار، ومن جاءكم وأمركم مجتمع على واحد منكم فاقتلوه كائنا من كان، وغيرها من الأحاديث التي تحث الناس على عدم الثورة على الحاكم أو

انتشر القصص واختلاق الأحاديث من قبل أشخاص يحبون الظهور كما هو حاصل الآن في وسائل الإعلام من قبل بعض رجال الدين المعاصرين. كما أن الأحاديث استخدمت لتأويل كلام الله[1]، وعوامل كثيرة نوعت من الأحاديث، وحتى لو لم تكن السبب في ظهور التحديث، إلا أنها أدت لتوسع الحديث وهو استخدامه من قبل رجال الدين لما يصدر منهم من أحكام فقهية، وهو ما يفسر تضارب الأحاديث ليس فقط بين المذاهب ولكن داخل المذهب الواحد.

كما أن تطور ما عرف بعلم الجرح والتعديل لسند الحديث (رواته) لا يعني أن متنه أصبح صحيحاً، بل يعني أن الاهتمام بالسند كان لتثبيت متن مضطرب الصحة، نتيجة لأن

نقده أو المطالبة بحقوقهم التي بدأ معاوية الاستيلاء عليها، وتبعه من جاء بعده حتى أصبح المواطن عبارة عن مخلوق بلا حقوق عليه شكر الحاكم لأنه سمح له بالبقاء حياً. وقد نال رجال الدين حظوة الحاكم مقابل تلك الخدمات الجليلة، فقربوا وبذلت لهم العطايا منذ ذلك الحين.

وقد يكون حديث الإلحاح في الدعاء اختلق في بيئة حدثت فيها هذه القصة: كان أبو جعفر المنصور أيام بني أمية إذا دخل البصرة دخل متكتماً وكان يجلس في حلقة أزهر السمان المحدث فلما أفضت إليه الخلافة قدم أزهر عليه فرحب به وقربه وقال ما حاجتك يا أزهر فقال يا أمير المؤمنين داري متهدمة وعلي أربعة آلاف درهم وأريد أزوج ابني محمدا فوصله بأثني عشر ألف درهم وقال قد قضينا حاجتك يا أزهر فلا تأتنا بعد هذا طالبا فأخذها وارتحل فلما كان بعد سنة أتاه فقال له أبو جعفر: ما حاجتك يا أزهر؟ قال: جئت مسلما فقال: لا والله بل جئت طالبا وقد أمرنا لك باثني عشر ألفا فلا تأتنا طالبا ولا مسلما فأخذها ومضى فلما كان بعد سنة أتاه فقال ما حاجتك يا أزهر قال: أتيت عائدا فقال: لا والله بل جئت طالبا وقد أمرنا لك باثني عشر ألفا فأذهب ولا تأتنا بعد طالبا ولا مسلما ولا عائدا فأخذها وانصرف فلما مضت السنة أقبل فقال له: ما حاجتك يا أزهر قال: يا أمير المؤمنين دعاء كنت أسمعك تدعو به جئت لأكتبه فضحك أبو جعفر وقال الدعاء الذي تطلبه غير مستجاب فإني دعوت الله به أن لا أراك فلم يستجب لي وقد أمرنا لك باثني عشر ألف وتعال إذا شئت فقد أعيتنا الحيلة فيك. قارن هذا مع حديث أذنب يا عبدي فقد غفرت لك ما تقدم من ذنبك. (ثمرات الأوراق لأبي بكر ابن محمد ابن حجة الحموي).

[1] ومما ورد في كتاب البخاري: وقرأ ابن عباس: أمامهم ملك يأخذ كل سفينة عصباً وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين. وفي مسلم مثله بإضافة «سفينة صالحة» كتاب الأنبياء. وعن علقمة ... فقرأت عليه: والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى والذكر والأنثى». قال: والله أقرأنيها رسول الله من فيه إلى في. البخاري كتاب فضائل الصحابة. و عن ابن عباس، قال: قال عمر لقد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل: لا نجد الرجم في كتاب الله. البخاري كتاب المحاربين. وعن عكرمة .... قال: لولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبت آية الرجم بيدي. البخاري كتاب الأحكام. وعن عمر بن الخطاب .... فكان مما أنزل عيه آية الرجم قرأناها ووعيناها وعقلناها، فرجم رسول الله ورجمنا بعده. فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله... وإن الرجم في كتاب الله حق. مسلم. كتاب الحدود. وعن عمر .... ثم أنا كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله: أن لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم. البخاري كتاب المحاربين. عن ابي يونس ... فأملت عائشة علي: حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين. قالت عائشة: سمعتها من رسول الله. مسلم. وعن عائشة أنها قالت كان فيما أنزل من القرآن: عشر رضعات معلومات يحرمن. ثم نسخ بخمس معلومات. فتوفي الرسول وهن فيما نقرأ من القرآن. مسلم. و عن عائشة، قالت: لقد نزلت آية الرجم، ورضاعة الكبير عشراً، ولقد كانت في صحيفة تحت سريري. فلما مات رسول الله وتشاغلنا بموته، دخل داجن فأكلها. البخاري. كتاب النكاح. ونجد أن زر بن حبيش (ت٨٢ هـ) هو من قال أن مصحف ابن مسعود يخلو من المعوذتين، حسبما روى البخاري أن زر سأل أبي ابن كعب عن المعوذتين، ثم قال: يا ابا المنذر إن أخاك ابن مسعود يحكهما من المصحف. وفي الدر المنثور أخرج أبو عبيد في فضائله وابن الضريس عن أبي موسى الأشعري قال: نزلت سورة شديدة نحو براءة في الشدة، ثم رفعت وحفظت منها: أن الله سيؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم.

الأحاديث في بداية انتشارها لم يكن لها سند، والدليل أن الحسن البصري (ت١١٠ هـ) لم يكن يورد الأسانيد. والشافعي (ت ٢٠٤ هـ) هو أول من اشترط الإسناد للأخذ بالحديث، وهو ما ساعد على فبركة الإسناد لأحاديث مات من تنسب إليهم قبل قرنين.

ولأن أهل الحديث وأتباع الموروث يعلمون أن الأخذ بالأحاديث أخذ بالظن نجد أنهم يرفضون الأخذ بأحاديث تعتبر - حسب مقاييسهم - صحيحة، متى تعارض مع مصلحة أو كان فيه محاباة لأصحاب النفوذ. ومن ذلك تلك الأحاديث التي تُحرّم قطع شجر مكة حرمة قاطعة، لأنه تعد على حرمة الحرم. ولا يقتصر التحريم على قطع الشجرة، بل إن ضربها بعصا أو نحوه لتتساقط أوراقها يعتبر حراماً أيضاً. ومع ذلك نراهم قد ران على قلوبهم صمت الأموات وهم يشاهدون اقتلاع جبال من عروشها حول الحرم بشجرها وتنفير طيرها.

ولأن الحديث لم يقله الرسول ولكنه من عند غير الله، فإننا نجد فيه اختلافاً كثيراً، ليس فقط ما نجده من أحاديث تتعارض مع أحاديث أخرى أو تقول بخلاف ما تقول، بل نجد أن أهل الحديث تشعبوا بتسمية الأحاديث لدرجة لا تصدق، وهذا بعضٌ منها:

هناك حديث صحيح لذاته، وحديث صحيح لغيره، وحديث حسن لذاته، وحديث حسن لغيره، وحديث ضعيف وحديث معلق، وحديث منقطع، وحديث معضل، وحديث مرسل، وحديث مدلس، وحديث موضوع، وحديث متروك، وحديث منكر، وحديث مطروح، وحديث مضعف، وحديث مجهول، وحديث مقلوب، وحديث مضطرب، وحديث مصحف، وحديث محرف، وحديث معلل، وحديث مرفوع، وحديث موقوف، وحديث مقطوع. وحديث معنن، وحديث مؤنن، وحديث منقلب، وحديث عالي، وحديث نازل، وحديث غريب، وحديث مبهم، وحديث مدبج. وهناك حديث ناسخ، وحديث منسوخ، وحديث مؤتلف وحديث مختلف......... ونستمر بلا نهاية، لدرجة لو أن محمد ابن عبد الله عليه الصلاة والسلام قدم امتحاناً في تعريفات هذه الأحاديث لرسب.

وإن كان ما تقدم صحيحاً فهو يقطع الطريق على أتباع الحديث الذين يسارعون باتهام من لا يقبل الحديث مصداقاً لكلام الله، بأنه منكرٌ للسنة. لأن كلامهم فيه مغالطة للحقيقة، فما يسمونه "سنة" هو لم يكن يوماً جزءاً من الدين، ليكون تركه إنكاراً لشيء من الدين. ولا

عبرة لاستشهادهم بحديث على أن الأحاديث من الدين، لأنه استشهاد بقولٍ يجب أولاً إثبات أنه ثابت عمن نسب له، وأنه جزء من الدين بدليل من القرآن اليقيني الثبوت ثانياً، أما الظن فلا يكون دليلاً لإثبات ظن آخر.

وإن كان هذا حال الحديث، فليس هناك مجال للأخذ ببعض الأحاديث في دين الله، لأنه حتى لو ثبت حديث يقيناً عن الرسول بلفظه دون تغيير، فلا يمكن اعتباره من الدين، لأن الدين لا يمثله سوى القرآن، بأدلة من القرآن. لذا عندما نزلت سورة المائدة التي اكتملت التشريعات بنزولها، ورد فيها التأكيد على أن الدين اكتمل، وما لم يذكره القرآن فلا يسأل الناس عن حكمه، لأنه ليس من الدين ولكنه من أمور الدنيا وعلى المسلمين اصدار حكم دنيوي له: .... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣).

ولو كان حديث رسول الله من الدين لما قالت الآية إن الدين اكتمل، لأن الرسول بقي حياً يتحدث مع أصحابه فترة من الزمن بعد نزول السورة. ولكن بما أن حديثه عليه الصلاة والسلام بغير القرآن ليس من الدين، فكلما تحدث به الرسول غير القرآن لم يكن من الدين، وهو ما ينطبق على أي حديث سابق لنزول المائدة. وكما لا يخفى على أحد فهناك أحاديث منسوبة للرسول في أواخر أيامه ويعمل بها على أنها من دين الله. وآية سورة المائدة أكدت بشكل قاطع لا مرية فيه أنه ختم بها الدين، مع استمرار نزول القرآن بعدها. وكل ما أوحي للرسول من القرآن بعد سورة المائدة فليس فيه تشريعات دينية، ولكن عبارة عن سور تتفاعل مع الأحداث الجارية وتتحدث عنها، وتوجه المسلمين لما يجب عليهم فعله.

وتكون سورة المائدة خاتمة للدين وليست خاتمة لنزول الوحي.

وإن كان الحديث لا علاقة له بدين الله وليس منه فهذا يعني انهيار المذاهب دفعة واحدة، فليس هناك مذهب يقوم على القرآن وحده، ولكن كل المذاهب تقوم على الحديث، برغم الفوارق العميقة بينها. لذا يستميت أتباع المذاهب بمختلف فرقهم في الدفاع عن الحديث، وجميعهم لا يمانعون أن يقال هناك أحاديث مكذوبة، لكن لا يمكنهم قبول أن كل الأحاديث ليست من الدين.

السيرة والتاريخ

لو صهرنا التفسير والحديث معاً فالمعجون الناتج عنهما هو كتب السير، وهي عبارة عن كتب تاريخ لزمن رسول الله. والتاريخ عبارة عن قصص وحكايات يمكن لأي شخص أن يختلقها ويتناقلها ويعيد صياغتها، حتى يأتي من يستطيع أن يحولها لتاريخ بتوثيقها على شكل كتاب. والكاتب (صانع التاريخ) لا يكون شاهد عيان على الأحداث التي يكتب عنها ولا يستطيع أن يتأكد من صحتها، لأنه عاش في زمن متأخر عنها.

وإذا ما عرفنا أن التاريخ عادة ما يُكتب بتوجيه سياسي، فيمكن القول: إنه عبارة عن قصص وهمية عن أحداث لم تقع، يريد السياسي من الأجيال اللاحقة أن تصدق بوقوعها. وكل ما يفعله كاتب التاريخ هو توثيق ما يتناقله الناس مشافهة من قصص وحكايات عن أحداث زمن قديم، بعباراته، وبما لا يخالف ميول السياسي، لتأتي الأجيال اللاحقة وتعتبر تلك الأساطير حقائق.

وكتب التاريخ الإسلامي لم تخرج عن هذا الإطار، مع ملاحظة بعض النقاط كما يلي:

- أن الرواية الشفهية هي كل ما لدينا عن صدر الإسلام وما قبله، والقصص والأحداث الموجودة في كتب السير أحد أهم مصادرها أهل الكتاب وإسرائيلياتهم التي لا يرقى أقواها لدرجة الصحة. فقد روى ابن إسحاق عن ابن شريه، وابن هشام عن كتاب التيجان لوهب ابن منبه. والمصدر الثاني للرواية الشفهية هو الشعر الجاهلي الذي شكك طه حسين في كتابه أن يكون جاهليا وإنما هو نتاج النهضة الأدبية بعد عصر التدوين. وإذا ثبت أن الشعر الجاهلي قد صيغ في العصر الأموي فهو دليل على أن المجتمع بقي على طباعه الجاهلية التي يتحدث عنها ذلك الشعر، وأن الاستشهاد بالشعر على أحداث تاريخية، يعني أن ما قيل عن تلك الحداث قصص مختلق.
- أن الناس الذين تناقلوا قصص وحكايات عصر الرسول، كانوا من عصر ما بعد الفتوح ومن أهل البلاد المفتوحة في الغالب أو ممن صبغت ثقافتهم بثقافة أهل البلاد المفتوحة. بعد أن توفي أهل عصر الرسول ولم يبق منهم أحد يُروى عنه كشاهد عيان للأحداث، ولم يعد لثقافة عصر الرسول وجود. فرواة أحداث عصر الرسول وناقلو قصصها الأوائل عاشوا في بلاد بعيدة عن موطن الأحداث، ويحملون خلفيات ثقافية

غير إسلامية، والصلة بينهم وبين منشأ الأحداث ومكانها منقطع مكاناً وزماناً وثقافة.

- أن عصر ما بعد الفتوح كان عبارة عن دولة مترامية الأطراف سكانها إما يدينون بغير الإسلام أو أعلنوا الإسلام مع احتفاظهم بثقافاتهم السابقة. فانتماؤهم للدين الجديد ضعيف، وتقديرهم لقداسته محدود.
- أن عصر الفتوح تلاه عصر الصراع بين علي ومعاوية على الحكم وما نتج عنه من تحزبات سياسية أدى لانتشار قصص حزبية وثقت فيما بعد في كتب تروي قصة الصراع حسب وجهة من نشرها. وقد تأثرت تبعاً لذلك القصص المروية عن عصر الرسول وما جرى في السقيفة. فكل يحرف تاريخ مذهبه ليبدو وكأنه امتداد لأحداث عصر الرسول.
- أنه حتى لو افترض ووجد سجل مكتوب عن احداث عصر الرسول فلن تسمح قريش التي استولت على حكم دولة المسلمين بنشره كما حدث لأنه سيدينها. وهذا ينطبق على الروايات الشفهية التي تنقل ما حدث.
- أن هناك من له ثأر ضد عصر الرسول وهم سكان يثرب قبل الإسلام ممن لم يؤمن، مثل كل من بقي من بني إسرائيل وبقية أهل الكتاب، وكذلك المنافقون من الأوس والخزرج. ولا ننسى بطبيعة الحال العدو اللدود والدائم، قريش. وهؤلاء كان لهم تأثير في نشر قصص وحكايات لم تقع عن عصر الرسول أو تحوير ما حدث، إما لتصويرهم وكأنهم امتدادٌ لعصر النبوة وليسوا أعداءً، أو لمسخ الأحداث الحقيقية لأنها تدينهم وتعري ماضيهم وحاضرهم.

وعوامل أخرى سهلت كثيراً اختلاق القصص إما للتشويق وحسن النية أو بسوء نية ومحاولة تشويه الإسلام ونبيه وأتقياء الصحابة أو بعضهم لصالح مؤيدين وأتباع آخرين.

وفي مثل هذه الأجواء انتشرت القصص عن عصر الرسول، وتداولها الناس مشافهة لعقود من الزمن. قبل أن تظهر كتب في المغازي أولاً، وممن كتب في تلك الحقبة عروة ابن الزبير (ت ٩٣)، وعبدالله بن كعب بن مالك الأنصاري (ت٩٧)، وأبان بن عثمان بن عفّان (ت ١٠٥)، وشرحبيل ابن سعد (ت١٢٣). ومعهم ابن شهاب الزهري (ت١٢٤) وغيرهم. وهؤلاء كتبوا ما كان منتشراً في زمانهم من قصص ولم ينقلوها عن شهود عيان. وكانت عن المغازي فقط في وقت كانت دولة المسلمين في أوج نشاطها التوسيعي وتحتاج

لتشجيع الناس على الخروج للقتال. فكان تأليف كتب تتحدث أن الرسول كان يغزو ويتوسع ويسبي ويسترق أفضل وسيلة إعلامية لتشجيع الناس على الانخراط في الجيش، خاصة إذا كتبها من يعتبرون من أحفاد الصحابة، لأنه سيعني عند الناس أن ما كتبوه قد حدث بالفعل. وفي كل زمان ومكان هناك كتاب مأجورون يستطيعون التلون والتظاهر بمظهر التقوى لترويج العهر.

ثم ظهر في وقت لاحق، مع تغير الثقافات السائدة، كُتّاب السير الرسميون[1] وعلى رأسهم محمد ابن إسحاق (ت١٥١)، سيف ابن عمر التميمي (ت ١٧٠)، محمّد ابن عمر الواقدي (ت٢٠٧)، وابن هشام (ت ٢١٨) الذي قام بنسخ كتاب ابن إسحاق وعدل وبدل فيه. وابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦)، البلاذري (ت ٢٧٩) وغيرهم.

وقد تميزت كتبهم بالتخصص في الرواية عن حدث معين كحياة الرسول أو المغازي أو السقيفة أو الردة أو مقتل عثمان أو حرب الجمل أو صفين أو النهروان أو حياة معاوية... الخ. متأثرين بما كان الناس عليه في عصورهم من تحزبات وفرق. وكل مصادرهم - كمن سبقهم - ما يتناقله الناس من قصص، وتحوير لما بقي مما كتب قبلهم ليلائم مع ما يريدون توثيقه.

ثم جاء بعدهم من كتب في كل التاريخ بدءً من بداية الخليقة - كما يظنون - ومروراً بحياة الرسول والصحابة. معتمدين على ما سبق من كتب وعلى ما انتشر من قصص بين الناس، خاصة الإسرائيليات والقصص المتداولة عند من أعلن إسلامه من أهل الكتاب. ومنهم: المسعودي (ت ٣٤٦)، وأشهرهم محمّد بن جرير الطبري (ت ٣١٠) والذي قام بنسخ ما ورد في كتاب ابن هشام والكتاب المنسوب لسيف التميمي وغيرهم بعد مسخها وتحويرها، إضافة لما سمعه من أهل الكتاب. وقد أصبح كتاب الطبري المرجع الأول لتاريخ المسلمين.

وقد تأخرت مؤلفات الشيعة للتاريخ بالظهور، لاستيلاء بني أمية على الحكم. ولما ظهرت في العصر العباسي صبغت بصبغة مذهبية تركزت على معارك علي ابن ابي طالب وعلى أخبار أئمتهم ومقتل الحسين وما جرى في السقيفة وغيرها، وتهدف لإضفاء الشرعية على من يكتب عنهم. ومن أوائل من ألف منهم:

---

١ الرسميون نعني بهم من كلفوا رسمياً من الحكام سواءً بأمر مباشر ومعروف أو بإيحاء غير معلن أو أن الكاتب نفسه كتب كتابه تملقاً للحاكم. وكلهم كتاباتهم عبارة عن تأويل لأحداث التاريخ لما يتناسب مع سياسة الحاكم وسيرة أجداده.

أبان ابن تغلب بن رباح (ت ١٤١ هـ) وله كتاب في صفين، وآخر في الجمل وثالث في النهروان.

أبان ابن عثمان الأحمر البجلي (ت١٧٠) الذي ألف في التاريخ منذ الخليقة وفي المغازي وفي الردة وفي أحداث أخرى.

إبراهيم ابن إسحاق الأحمري النهاوندي (ت ٢٧٠) وله كتاب في مقتل الحسين وآخر في نفي أبي ذر.

إبراهيم ابن محمّد بن سعيد الثقفي (ت ٢٨٣) كتب عن السقيفة وكتباً كثيرة عن علي والأحداث التي وقعت في عصره وعن مقتل الحسين وغيرها من أحداث شيعية.

وهناك أحمد الصيمري (ت٤١٣) وأحمد الطوسي (ت ٥٨٨) وغيرهم.

ويجب الإشارة إلى أن كثيراً من المؤلفين الذين ظهروا في العصر العباسي والمحسوبين على أتباع المذهب السني قد أخذوا أقوالهم من الشيعة، كالطبري. بل إن الواقدي قد يكون اعتمد في كل كتبه على مؤلفات إبراهيم المدني الشيعي. كما يجب القول إن أخبار السقيفة كتبت في عصور متأخرة وبواسطة مؤلفين شيعة أو نقلت من شيعة. كما يمكن وبسهولة رصد التأثير اليهودي في الروايات المنسوبة لعصر الرسول.

وكثيرة هي القصص التي لبست لعصر الرسول مع أنها وقعت في عصور لاحقة، ولعل من أطرفها أن حصار ابن الحنيفة من قبل ابن الزبير قد وقع في شعب منى، فقيل إن بيعة العقبة وقعت في نفس الشعب.

الناسخ والمنسوخ

المقصود بهذا «العلم» المختلق بعبارات بسيطة، هو: أن الله يفرض تشريعاً وينزل به القرآن ثم يتبين أن هذا التشريع يجب إلغاؤه أو نقضه، فينزل تشريع يلغيه أو ينقضه. وهذا يظهر الله جل وعلا بمظهر لا يليق به سبحانه، وكأنه لا يعلم ما سيترتب على التشريع الملغي أو المنقوض أو أنه فرض تشريعاً في زمن ولم يعد صالحاً لزمن لاحق فكان لابد من إلغائه أو نقضه. وهذه جرأة على الله جل وعلا لا تليق بالخالق العليم بأسرار خلقه. فالناسخ يعني الماحي والمُلغي والمنسوخ الممسوح والمَلْغي عندهم.

ولو تدبرنا القرآن لتبين لنا أن الآيات التي استشهدوا بها على أن هناك ناسخاً ومنسوخاً هي آيات اقتلعت من سياقها. ولو أعدناها لسياقها فلن نجد في كتاب الله كله آية واحدة ناسخة لأخرى ولا آية منسوخة. ولن نجد حكماً جاءت سورة أخرى بنقضه، أو حراماً جاءت سورة أخرى بحله.

وفيما يلي أهم آيتين يستشهدون بهما على أن القرآن يؤكد أن هناك ناسخ ومنسوخ:

الآية الأولى: وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ(١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ(١٠٢) النحل.

وتبديل آية مكان آية يعني تنزيل حكم أو تشريع في رسالة من الرسل يختلف عن حكم أو تشريع في رسالة سبقتها. ولا تتحدث السورة عن تبديل أحكام في القرآن.

الآية الثانية: مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ(١٠٧) البقرة.

والنسخ هنا جاء بمعناه العادي وهو اقتباس اللفظ أو العبارة أو التشريع بنصه وحروفه، ولا يعني النسخ في اللغة المسح والإلغاء.

والآيتان تخاطبان المسلمين في المدينة حين نزول سورة البقرة، والذين كان بنو إسرائيل يطلعونهم على بعض ما في كتبهم التي تختلف عما ورد في القرآن، ليشككوهم بأنه ليس

وحياً من الله. والآيتان تقولان سواءً نسخت الأحكام ونزلت على الرسول كما نزلت على رسالة سابقة، أو نزل على الرسول آيات مختلفة، فهذا لا يغير من حقيقة أن دين الله واحد.

ومن ذلك: وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون (١٤٦) الأنعام.

وهذا التحريم كان جزاءً لهم لبغيهم، كما تقول الآية. لذا لم يحرم في القرآن، الذي أباح كل ذي ظفر وشحوم البقر والغنم.

ولا تتحدث عن تبديل لتشريع نزل في القرآن ثم بعد فترة نزل تشريع يخالفه أو يلغيه، وهو ما يسمونه «الناسخ والمنسوخ». إذ لا يوجد في القرآن حكم شرعي ألغي واستبدل بغيره. لكن من قال بالناسخ والمنسوخ قاموا بلي بعض معاني الآيات لتبدو وكأنها ناسخة أو منسوخة.

ومن ذلك:

قولهم إن عقوبة الزنا في البداية جاءت في قوله تعالى: وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا(١٦) النساء.

ثم نسخت (أي ألغي هذا الحكم واستبدل) بالحكم التالي: الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ(٢) النور.

ثم جعلت هذه العقوبة لمن لم يتزوج، وفرضت عقوبة جديدة للمتزوجين ونصها: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة».

ثم حذفت هذه العبارة من القرآن، وبقي حكمها. يعني من يزني وهو متزوج يرجم حتى الموت، مع أن العبارة التي تنص على ذلك حذفت.

وبطبيعة الحال هذا عبث بكتاب الله وسخرية ممن لا يخاف الله ولا يحترم كلامه.

وإلا فالآية (١٦) من سورة النساء نزلت بحق الرجل الذي يقترف الفاحشة مع رجل آخر: وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا(١٦) النساء.

واللذان (مثنى).

وبقي هذا الحكم ولم يلغ.

والآية السابقة تفرض عقوبة على المرأة التي تقترف الفاحشة مع امرأة أخرى أو مجموعة نساء: وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً (١٥) النساء.

وبقي هذا الحكم ولم يلغ.

وعقوبة الزانية والزاني جاءت في سورة النور بسبب أحداث وقعت في المدينة، ونصها: الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ(٢) النور.

ولم تنزل لتلغي عقوبة سابقة.

وما قيل إن هناك آية في القرآن تقول بالرجم هو رجم بالغيب وتقويل لله ما لم يقل من أناس لا يخشون الله ولا يخافون عقابه ولديهم الجرأة على الكذب عليه. وبرغم أن العبارة ركيكة إلا أن كتب الموروث وثقتها ورسختها وعمل بها على مدى قرون طويلة.

(الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة) هذا ليس أسلوباً قرآنياً.

ولو افترضنا جدلاً أن هذه العبارة الركيكة نزلت كقرآن، فلماذا حذفت من القرآن وبقي الناس يتداولونها؟

وبما أنها حفظت كما نزلت فلماذا تقتلع من القرآن؟

لماذا لا تضاف هذه العبارة الركيكة التي لا تشابه عبارات القرآن لسورة الأحزاب التي يزعمون أنها كانت ضمن آياتها؟

وبديهيٌ ألا تكون جزءً من السورة، لأن طبيعة سورة الأحزاب وسياقها وموضوعاتها، تأبى قبول أن تكون فيها مثل هذه العبارة.

وقولهم بالناسخ والمنسوخ جاء نتيجة لزعمهم أن القرآن ينزل آية آية، وتأويلهم كل آية لمعانٍ من عند أنفسهم، أوقعهم في تضاد بين المعاني التي اخترعوها، ولم يجدوا مخرجاً ليعالجوا المشكلة التي اختلقوا إلا بمشكلة أخطر، تمثلت بالقول بالناسخ والمنسوخ.

ولعل الناسخ والمنسوخ من أشد المعاول ضراوة في تخريب الدين من الداخل، وكمثال على ما نقول، سيجد القارئ للقرآن أن هناك عشرات الآيات التي تؤكد أن الدين خيار شخصي، ولا إكراه فيه[1]. وأن الإسلام جاء لبناء دولة يتعايش فيها المسلم وغيره المسالم، تعايشاً إنسانياً بنّاءً. مثل قوله تعالى: ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(١٢٥) النحل.

وقوله تعالى: لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢٥٦) البقرة.

وقوله تعالى: فَإنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ(٢٠) آل عمران.

وقوله تعالى في سورة النساء: مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً(٨٠). وغيرها عشرات الآيات المنتشرة في كتاب الله.

والقرآن يؤكد أن الجهاد يعني الدفاع عن النفس، وليس البدء بمحاربة الناس، وأنه موجه لمن يبدأ الحرب على الإسلام، ولا وجود للسبي ولا استرقاق الناس، مثل قوله تعالى: وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ(١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ(١٩١) فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ(١٩٣) البقرة.

والآيات هنا تتحدث عن قريش التي استمرت في الحرب على الدين، بهدف القضاء عليه، ومع ذلك يقول تعالى: "فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ". فالناس غيرها الذين ليس بينهم وبين المسلمين عداء من باب أولى ألا يهاجموا ولا تمس بلادهم وأرواحهم.

كل هذه الآيات تم مسخها وإلغاؤها بجرة قلم ممن وضعوا الناسخ والمنسوخ، قائلين بأن الله قد غير رأيه وأنزل جزءاً من آيتين نسختا كل ما سبق، وهما: ...... فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ

١ انظر فقرة: الدين خيار شخصي/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥).

وجزء من آية أخرى تقول: قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ(٢٩).

وكلا الآيتين من سورة براءة، التي نزلت قبل وفاة الرسول ببضعة أشهر، ولا علاقة لهما بناسخ ومنسوخ، لأنهما جاءتا ضمن سياق آيات تتحدث عن قريش ومن عاونها على حرب المسلمين الذي شكلوا خطراً دائماً على بقاء الإسلام. وسورة براءة نزلت لتتحدث عن خيانة قريش لمعاهدتها مع المسلمين يوم الفتح واستمرارها في الكيد للمسلمين، فكان لابد من القضاء على من يكيد للإسلام حتى لا يقضوا على الإسلام. ولا علاقة للآيات بالناس الآخرين، ولا تتحدث عن مهاجمة أي أناس وقتالهم لإرغامهم على الدين، وهو ما سنقف عليه بالتفصيل عند الحديث عن سورة براءة وضمن استعراض الأحداث في عصر الرسول.

لكن النسخ، ومعه التفسير، جاءا ليصورا الإسلام، كدين دموي، يهاجم الناس ويرغمهم على القبول بإحدى ثلاث أحلاها مر، فمن لا يقبل بالإسلام عليه دفع جزية، ومن لا يدفع فالقتال. ولو خسر المعركة فنساؤه حل لرجال المسلمين، ورجاله عبيد لهم، وأرضه ملكهم.

وقد صُبغ تاريخ الإسلام بهذه الصورة القبيحة لدرجة يصعب التصديق أن الإسلام دين للتسامح، وأن القرآن يخلو من كل هذه الأمور. لأنه طوال قرون عديدة كانت جيوش المسلمين تمارس هذه الفظاعات في كل مكان تصل إليه، ولم يعد الناس يتذكرون ما كان الرسول يفعل أو ما يدعو له القرآن، لأنهم يرون عملياً تصرفات المسلمين.

والناسخ والمنسوخ يحوي المضحك المبكي: فهم يقولون بأن هناك آيات نزلت أولاً لتنسخ آيات ستنزل فيما بعد!

نعم! يقولون: الناسخ ينزل قبل أن تنزل الآية المنسوخة.

وهذا مثال على ذلك: ورد في سورة النساء المدنية: وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً(٩٣).

والناسخون يقولون إن آية من سورة الفرقان نزلت بمكة نسخت هذه الآية قبل نزولها بسنوات، وهذا نصها: وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً(٦٨).

والسبب في ذلك أن أصحاب الناسخ والمنسوخ يصرون على أن كل آية أو جزء من آية تنزل لوحدها وتختلف في المكان والزمان عن بقية الآية والآيات في السورة الواحدة. ولو أنهم تناولوا القرآن على أن السورة منه تنزل كاملة في وقت واحد، فلن يكون بالإمكان وجود ناسخ ولا منسوخ.

وأعجب من ذلك قولهم في الآية: خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ(١٩٩) الأعراف.

حيث يقولون: إن أولها "خذ العفو" منسوخ، ووسطها "وأمر بالعروف" ليس منسوخاً، وآخرها "وأعرض عن الجاهلين" منسوخ.

تصوروا لو صدقناهم، لوجب علينا أن نقرأ خذ العفو، ونعلم أنها تعني لا تأخذ العفو، لأنها منسوخة. ونقرأ وأعرض عن الجاهلين، ونفهم وقاتل الجاهلين. أعوذ بالله!

وللمزيد من العجب، انظر الناسخ والمنسوخ لابن حزم، أو السيوطي، أو البغدادي، أو أي كتاب ناسخ ومنسوخ آخر، فلا فرق.[1] (الفقرتان أعلاه اقتبستا من فقرة: قولهم بنزول

---

١ المؤسف أن المدارس الغربية لدراسة الأديان والبحث العلمي لا تعتمد البحث الأكاديمي المتجرد - برغم زعمها ظاهرياً أنها تفعل - وسأعطي أمثلة على ذلك كما يلي: دراساتهم وبحوثهم للإسلام لم تكن متجردة ولم تكن لخدمة العلم بل لمساواة القرآن بكتب اليهود والمسيحيين المقدسة واثبات أن القرآن مجرد كتاب اختلقه محمد كما اختلقت كتب اليهود والمسيحيين. فقاموا بالحكم على القرآن بما تفيض به كتب التراث، وهذا بحد ذاته تعسف يخرج البحوث عن التجرد العلمي. ومن ذلك قولهم إن خطاب محمد (على اعتبار أن القرآن من كلامه) في مكة كان سلمياً متسامحاً لأن موقفه كان ضعيفاً، لكنه تحول لخطاب دموي في المدينة بعد أن أصبح في موقف قوة.
وهذا الاستنتاج لم يأت نتيجة لدراسة وبحث علمي، وإنما اعتماداً على ما جاء في كتب التراث عن القرآن. برغم أن كثير منهم يعلمون أن كتب التراث عليلة، وألفوا حولها كتباً تستحق القراءة. ومن ذلك ما كتبه جولتسهير المجري الألماني عن مذاهب التفسير وتاريخه. ومع ذلك جعلوا كتب التراث التي لم تصمد للنقد ناقداً للقرآن.
ومما أخذه دارسو الأديان الغربيون من كتب التراث القول بأن هناك آيات في القرآن المدني - سورة براءة تحديداً - تدعو لسحق غير المسلمين وإجبارهم على الدخول في الإسلام، ومنها :فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥) براءة.
قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ(٢٩) براءة.
وهذه الآيات ألغت أكثر من مئة آية تدعو للسلم - حسب زعمهم - مثل:

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ(٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ(٢٢) الغاشية.
إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ(٢٧) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ(٢٨) التكوير.
مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً(١٥) بني إسرائيل.
قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ(١٠٤) الأنعام.
إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ(٤١) الزمر وغيرها عشرات الآيات.

فجاء المستشرقون فاستنتجوا أن محمداً كان يخاطب الناس في قرآنه بوداعة ولطف في مكة، لكنه تحول لأسلوب شرس لما تمكن وأصبح له دولة في المدينة. وأصبح هذا الزعم حقيقة ثابتة في بحوثهم وبحوث من يأتي بعدهم ومن يتأثر بهم ويقتبس منهم.
وإليكم بعض الحقائق التي تسفه هذه البحوث:
أولاً: القارئ المتجرد سيجد أن أسلوب القرآن يعتمد التحدث للمخاطب حسبما تقتضيه الظروف السائدة عند نزول السورة، ولو كان الظرف يحتم التحدث بقوة جاء الخطاب القرآني قوياً، ولا علاقة له بمدني أو مكي.
ثانياً: في نفس سورة براءة التي تقول كتب التراث إن فيها آيات نسخت وألغت كل الآيات التي تدعو للتسامح مع غير المسلم، نقرأ: إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٤) فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ(٦) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٧) براءة.
الآيات تقول كل مشرك التزم ببنود المعاهدة ولم يخنكم فلا تقاتلوه.
مشكلة علماء الأديان أنهم سلموا بما ورد في كتب التراث دون تمحيص، وهذا التسليم قد لا يكون بحسن نية، ولكنه سهل عليهم إظهار عيوب في القرآن للقارئ الغربي الذي لن يعود للقرآن ويحقق ما قرأ عنه. وبرغم هشاشة قول كتب التراث بأن القرآن ينزل آية آية وأن لكل آية سبباً للنزول، وأن هناك ناسخاً ومنسوخاً، إلا أن علماء الأديان سارعوا لتقبل هذا القول كحقيقة دون تمحيص وقد يكون بسوء نية أيضاً.
وسورة براءة نزلت في آخر عهد الرسول وبعد فتح مكة الذي وقع فيه المسلمون وقريش عهداً بالتعايش السلمي وأن تدخل مكة تحت حكم المسلمين وتبقى قريش على عقائدها شريطة ألا تخون المسلمين ولا تتآمر عليهم مع أعدائهم. سورة براءة تظهر أن قريشاً خانت المعاهدة فوجب عقابها: إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٤).
يعني كان هناك معاهدة وقد نقضها المشركون (قريش).
أين كانت المعاهدة؟
كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٧) براءة.
لقد كانت عند المسجد الحرام.
والمسلمون كانوا عند المسجد الحرام يوم فتح مكة.
إذاً، كان هناك معاهدة يوم فتح مكة وخانتها قريش فنزلت السورة ترشد المسلمين كيف يتصرفون:
أولاً: إعلان أمام الملأ أن المسلمين لم يخونوا معاهدتهم مع قريش لكن قريش هي التي خانت: بَرَاءةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ(١) براءة.
ثانياً: إعطاء قريش مهلة أربعة أشهر للعودة: فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَأَنَّ اللّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ(٢) براءة.

القرآن آية آية / كتاب أحسن القصص - تاريخ الإسلام كما ورد من المصدر، مع ترتيب السور حسب النزول).

ثالثاً: الإعلان يكون على رؤوس الأشهاد، يوم عرفه عندما يجتمع الحجاج من كافة مناطق جزيرة العرب: أَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٣) براءة.

رابعاً: يجب على المسلمين الوفاء لمن لم ينقض العهد من قريش: إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٤) براءة.

خامساً: إذا انسلخت المهلة ولم تعد قريش فيجب معاقبتها بكل قسوة لئلا تكون خطرا على المسلمين: فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥) براءة.

سادساً: وسط هذه الظروف لو استجاركم أحد من قريش فأجيروه بضوابط: وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ(٦) براءة.

سابعاً: برغم أن قريش خانت وتعدت فيجب حفظ العهد لمن لم يخن أو لمن يتراجع: كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٧) كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ(٨) اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(٩) لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ(١٠) فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(١١) وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ(١٢) براءة.

ثامناً: السورة تذكر ببعض ما فعلوه يوم الفتح بالمسلمين: أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤُمِنِينَ(١٣) براءة.

هذه السورة التي تزعم كتب التراث أن فيها آيات تلغي التسامح تقدم أسمى صور التسامح مع ألد أعداء الدين قريش برغم خيانتهم.

وسورة براءة نزلت بعد أن اتفقت قريش والروم وبعض بني إسرائيل يثرب وبعض القبائل على سحق المسلمين في الأحزاب.

فجاءت آياتها توجب على المسلمين ملاحقة المعتدين وتأديبهم، ومن ذلك: قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ(٢٩) براءة.

فهذه الآية موجهة لفئة معينة من بني إسرائيل اشتركوا في التآمر على المسلمين وبقاؤهم خطر على الإسلام والمسلمين فيجب بترهم. وليست لكل يهودي أو من بني إسرائيل.

فالمسلمون لم يقاتلوا أهل خيبر - برغم زعم كتب التراث أنهم فعلوا - ولم يقاتلوا يهود تيماء ووادي القرى (العلا) وبقي بعض بني إسرائيل واليهود في يثرب بعد موت الرسول ولم يتعرض لهم أحد.

لو أن المستشرقين فهموا أن القرآن ينزل سورة كاملة لكي تتفاعل مع الأحداث السائدة وقت نزولها. وفهموا من تخاطب. ودرسوا القرآن على هذا الأساس دراسة علمية فالقرآن يرحب بهم وبغيرهم، لأن القرآن حجر ألماس لن يخدش. لكن بحكم أن علماء الأديان هم في الواقع رجال دين مسيحيون بفكر يهودي، وبما أن من استشرق منهم لم يدرس القرآن لنقل حقيقته ولكن للبحث عن مثالب يتهجم بها عليه فقد وجدوا في كتب التراث ضالتهم. وللعلم فقط فأشهر آية يتداولها الناس تتحدث عن أن الإسلام خيار شخصي، هي: «لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ» مدنية ولم تكن مكية، مما يلغي أن يكون أسلوب القرآن في المدني سيفاً وقتلاً.

أسباب النزول

عبارة عن قصص مختلق صدر ممن يسمون بالمفسرين. وذلك لأنهم وضعوا لكل آية أو جزء من آية، سبب نزول. أو بالأحرى أسباب نزول تختلف عن بقية الآية والآيات حولها، لأن كل مفسر يختلق سبب نزول يختلف عما اختلقه غيره. ومن ذلك قولهم في سبب نزول قوله تعالى: «إِنَ الَّذينَ كَفَروا[1]» قال الضحاك: نزلت في أبي جهل وخمسة من أهل بيته وقال الكلبي: نزلت في اليهود، وقال غيرهم كلاماً آخر. وكل مفسر يقول ما يمليه عليه خياله. وقد قام البعض بجمع ما استطاعوا من قصص المفسرين المختلق ووضعوه في كتب خاصة أسموها: أسباب النزول.

وسنورد فيما يلي بعضاً مما ورد في واحد من أهم هذه الكتب لمؤلفه أبي الحسن علي ابن أحمد الواحدي النيسابوري المتوفى عام (٤٦٨ للهجرة). وسيلاحظ القراء أن قصص أسباب النزول تسخر من الله ورسوله ودينه، ولا يمكن أن تكون صدرت ممن نسبت له:

النيل من الرسول

يقول الواحدي: حدثنا عمرو بن صالح قال:

حدثنا أبي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: قام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة فقال: (بِسمِ اللهِ الرَحمَنِ الرَحيمِ الحَمدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ) فقالت قريش: رض الله فاك.... انتهى.

التعليق: الآية بداية سورة الفاتحة التي افتتح وبدأ منها الوحي، وإن كانت قريش سمعت الرسول يتلو الفاتحة فلن تتهجم عليه لأنها لم تتبين بعد أنه يدعوهم للإيمان بدين جديد. ولكن واضع القصة أراد أن ينال من الرسول، ووجد من يوثق كلامه. فالمهم هو أن يقول للرسول: رض الله فاك.

محمد يقول ما لا يعلم والله يرد عليه

يقول الواحدي: قوله (إِنَّ الَّذينَ آَمَنوا وَالَّذينَ هادوا) الآية. أخبرنا أحمد بن محمد بن أحمد الحافظ قال: أخبرنا عبد الله بن محمد بن جعفر الحافظ قال: حدثنا أبو يحيى الرازي قال:

---

[1] جزء من الآية السادسة من سورة البقرة.

حدثنا سهل بن عثمان العسكري قال: حدثنا يحيى بن أبي زائدة قال: قال ابن جريج: عن عبد الله بن كثير عن مجاهد قال: لما قص سلمان على النبي صلى الله عليه وسلم قصة أصحاب الدير قال: هم في النار قال سلمان: فأظلمت علي الأرض فنزلت (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادوا) إلى قوله (يَحْزَنونَ) قال: فكأنما كشف عني جبل.

التعليق: القصة تظهر الرسول وقد كفر المسيحيين فينزل القرآن يكذب الرسول ويقول بأن المسيحيين في الجنة. والمسيحيون لا ذكر لهم في القرآن ابداً، والمذكورون هم النصارى الذين هم بقايا أتباع عيسى ابن مريم والذين كانوا متواجدين بقلة في يثرب زمن هجرة الرسول. أما المسيحيون فهم من يعتنق المسيحية، تلك الديانة البشرية الصنع والتي اقترنت بيسوع الذي لا علاقة له بعيسى. وهي التي كانت منتشرة في بلاد العراق التي جاء منها سلمان. والقرآن يقول: «غلبت الروم في أدنى الأرض» والروم هم أهل المسيحية وحماتها، ولو كان القرآن سيذكر المسيحية لذكرها هنا بدل ذكر جنس الروم وليس ديانتهم.

ولذلك فهذه القصة المختلقة لسبب النزول الهدف منها توثيق أن المسيحية دين سماوي، وبكل تأكيد فمختلقها إما مسيحي أو أنه مسيحي أعلن إسلامه ولكن موروثه بقي غالباً عليه، فأراد أن يمجد دينه السابق، ولا يهمه أن يظهر الرسول كشخص متسرع بالأحكام، ويقول بالظن دون دليل. وهي صورة يعلم كل من هو قريب من القرآن أنها مختلقة لأن الرسول لو سئل عن أبسط الأشياء لا يجيب السائل وينتظر حتى ينزل الوحي فيقرأه عليه كقرآن وليس ككلام للرسول.

مسخ لمعنى الآية حتى لا تدين اليهود

ينقل الواحدي في قوله (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبونَ الكِتابَ بِأَيديهِم) أن الآية نزلت في الذين غيروا صفة النبي صلى الله عليه وسلم وبدلوا نعته قال الكلبي بالإسناد الذي ذكرنا: إنهم غيروا صفة النبي صلى الله عليه وسلم في كتابهم وجعلوه آدم سبطاً طويلاً وكان ربعة أسمر صلى الله عليه وسلم وقالوا لأصحابهم وأتباعهم: انظروا إلى صفة النبي الذي يبعث في آخر الزمان ليس يشبه نعت هذا وكانت للأحبار والعلماء مأكلة من سائر اليهود فخافوا أن يذهبوا مأكلتهم إن بينوا الصفة فمن ثم غيروا. ... انتهى كلام الواحدي.

التعليق: كتاب اليهود ليس فيه صفة جسمانية للرسول، والآية تتحدث عن أن اليهود حرفوا

وبدلوا دين الله. وهذه الرواية تحول معنى الآية من إدانة لليهود لتغييرهم دين الله إلى مجرد تغييرهم صفة الرسول، وهي إدانة أخف بكثير من إدانتهم بتحريف تشريعات الله. ولابد أن من اختلق سبب النزول هذا يهودي أو ذو خلفية يهودية.

جبريل أمره الله بالوحي لليهود فأنزله على محمد

ينقل الواحدي: وقال مقاتل: قالت اليهود: كان جبريل عدونا أمر أن يجعل النبوة فينا فجعلها في غيرنا فأنزل الله هذه الآية (قُلْ مَن كانَ عَدُوّاً لِجبريلَ فَإِنَّهُ).

التعليق: محمد أرسل بالخطأ، وبالتالي فدين الإسلام كله خطأ. هذه هي الرسالة التي يريد مقاتل توصيلها من هذه القصة. ومثل هذه الإيحاءات تمتلئ بها كتب أسباب النزول وكتب التراث الأخرى.

مسخ معنى الآية لمصلحة اليهود وقريش

يقول الواحدي: قوله (وَمَن أَظلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَساجِدَ الله) الآية نزلت في ططلوس الرومي وأصحابه من النصارى وذلك أنهم غزوا بني إسرائيل فقتلوا مقاتلهم وسبوا ذراريهم وحرقوا التوراة وخربوا بيت المقدس وقذفوا فيه الجيف. وهذا قول ابن عباس في رواية الكلبي. وقال قتادة: هو بختنصر وأصحابه غزوا اليهود وخربوا بيت المقدس وأعانتهم على ذلك النصارى من أهل الروم.

التعليق: جزء الآية المذكور هو من الآية: (١١٤) من سورة البقرة ويتحدث عن قريش التي منعت الرسول والمسلمين في آخر عهدهم في مكة من دخول البيت ومن الحج كما تخبرنا سورة الحج: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِّ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(٢٥).

ولا علاقة لها بططلوس ولا غزو بني إسرائيل في فلسطين. ولكن القصة نجحت في ابعاد الناس من تذكر ما فعلته قريش بالمسلمين وفي نفس الوقت مجدت بني إسرائيل وأماكن عبادتهم في إيليا.

الصفا والمروة شعائر جاهلية

يقول الواحدي في قوله تعالى: إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت او اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما ومن تطوع خيرا فان الله شاكر عليم (١٥٨) البقرة. قال أنس بن مالك: كنا نكره الطواف بين الصفا والمروة لأنهما كانا من مشاعر قريش في الجاهلية فتركناه في الإسلام فأنزل الله تعالى هذه الآية. انتهى.

التعليق: الصفا والمروة من شعائر الله ولم تكن من شعائر الجاهلية، لكن من اختلق القصة يريد أن يقول: إن الإسلام طقوس وثنية. وللعلم فقط فأنس ابن مالك من بني النجار في يثرب ولم يكن من قريش ولا من أهل مكة. وهناك روايات تقول على لسان أنس إنه خدم الرسول في المدينة وهو ابن ثماني أو ابن عشر سنين. أي أنه يستحيل أن يكون طاف في الجاهلية بالصفا والمروة. وهذا يؤكد ان مختلق القصة نسبها لأنس وهو لا يعرف عنه شيئاً.

ويكون ما سمي بأسباب النزول والناسخ والمنسوخ عبارة عن معاول لهدم الدين وتفريغ الآيات من معانيها، وإلغاء السياق والترابط بين الآيات، بعد أن عجزوا عن العبث بكلام الله، وبقي القرآن كما نزل.

ومثلها:

الأحرف السبعة والقراءات العشر

لو سئل رجل دين عن معنى الأحرف السبعة التي يقولون إن القرآن نزل بها، لما حصلنا على جواب واحد متفق عليه، بل سنستمع لعدة «نظريات» لم يتفقوا على قول واحد منها. ومن ذلك:

- أنها تعني جواز استبدال لفظ في المصحف بلفظ مرادف له بالمعنى، لأنهم ينسبون لابن مسعود أنه قال: قد نظرت إلى القراء فرأيت قراءاتهم متقاربة، وإنما هو كقول أحدكم: أقبل وهلم وتعال، فاقرأو كما علمتم.

وابن مسعود ليس يقيناً قال ما نسب له هنا، لأن المصحف المنسوب له لم يره المفسرون وينقلوا منه، وكل ما نسب له ولمصحفه كان بعد وفاته بزمن طويل.

- أو أنها تعني استبدال لفظ بلفظ آخر ليس مرادفاً له، لأنهم ينسبون للرسول قوله: أنزل القرآن على سبعة أحرف، إن قلت: غفورا رحيما أو قلت: عزيزا حكيما، فالله كذلك ما لم تختم آية رحمة بآية عذاب أو آية عذاب بآية رحمة.

ورسول الله لا يمكن أن يقول بتبديل الألفاظ في القرآن كيفما نشاء، وهو الذي لا يستطيع تغيير حرف مكان آخر، والتزم بتلاوة القرآن كما حفر في ذاكرته.

- أو أنها تعني استبدال لفظ بلفظ آخر مختلف في الإملاء متفق بالمعنى، مثل: استبدال يخدعون بـ يخادعون، ولمستم النساء إلى ولامستم النساء...الخ.

وأقوال كثيرة غيرها يستحيل أن يكون الرسول قالها او علم بها أو أقرها.

والقراءات العشر قريبة الشبه بما يسمونه الأحرف السبعة، فهي قراءات مختلفة لنصوص القرآن، تحوي استبدال لفظ مكان آخر وتقديم لفظ على آخر، ونحو ذلك. مما يؤكد حقيقة أنها أقوال مختلقة، من قبل أناس اختلفوا فيما بينهم ولديهم الجرأة للتقول على الله.

وفيما يلي أمثلة عليها:

- استبدال يخدعون إلى يخادعون في قوله تعالى: يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ(٩) البقرة.

ويخادعون هي التي نزل به القرآن، لأن المنافقين الذين نزلت فيهم الآية تصفهم بمخادعة

المسلمين والرسول على الدوام وليس مرة واحدة، وخداع الرسول والمسلمين خداعٌ لله.
وهذا جزء من السياق: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠).

وهو ما تؤكده سورة النساء في الحديث عنهم: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٤٢).

- يغفر بدل نغفر في قوله تعالى: وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ(٥٨) البقرة.

قرأ نافع وأبو جعفر بياء تحتية مضمومة مع فتح الفاء: يغفر بدل نغفر.

ونغفر هي ما نزل بها القرآن، بدليل قوله تعالى في نفس الآية: "وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ». فالضمير في كلا اللفظين ضمير جمع: نغفر، ونزيد.

- إبراهام بدل إبراهيم في قوله تعالى: وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ(١٢٤) البقرة.

قرأ بعضهم بفتح الهاء وألف بعدها (أبرهام بدل إبراهيم). وهذا كافٍ لبطلان هذه القراءة لأن "أبرهام" لفظ في كتب اليهود محور من اسم إبراهيم الأصلي الذي يستخدمه القرآن على الدوام.

- قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(١٢) آل عمران.

قرأ حمزة والكسائي وخلف بياء الغيبة فيهما، يعني سيغلبون ويحشرون.

الآية تأمر الرسول أن يخبر الذين كفروا أنهم سيغلبون ويحشرون، ولا يمكن استخدام ياء الغيبة. فلا تقول لأحد: قل لزيد وأهله سيطردون من المنزل، لأن الصحيح: ستطردون.

- إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ(٢٨) آل عمران

قرأ يعقوب بفتح التاء وكسر القاف وتشديد الياء مفتوحة على وزن مطية، يعني تَقِيَّة بدل تقاة.

تتقوا منهم تقاة. ولكن يبدو أن يعقوب هذا شيعي المذهب، وهم من يستخدم لفظ "تقية"

بفتح التاء وكسر القاف وتشديد الياء. وتحريف الآية يجعلهم يستدلون بها على معتقد عندهم اسمه: التّقيّة".

وكما هو واضح فالقول بأن هناك سبع لغات نزل بها القرآن، أو اختلاف القراءات يؤدي لنفس النتيجة وهي التلاعب بألفاظ القرآن، ويظهر جرأة المفسرين على التقول على الله. وإلا فمن المحال أن تنزل سورة بألفاظ ثم تنزل مرة أخرى وثالثة ورابعة وسابعة بألفاظ مختلفة. لأن السورة تنزل مرة واحدة في وقت واحد ولفظ واحد وتنسخ في ذاكرة الرسول مرة واحدة ولا تتكرر.

الملفت هنا هو أن السلف الذين اختلقوا القراءات والأحرف، يشددون على أن تغيير حرف من القرآن يعتبر تغيير كلام الله وحراماً حرمة مشددة. وقد نسب لابن مسعود أنه قال: من كفر بحرف من القرآن فقد كفر به كله. في نفس الوقت الذي ينسب لابن مسعود أنه كان يقرأ قوله تعالى: والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى والذكر والأنثى، بدل قوله تعالى: وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى(١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى(٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى(٣) الليل.

وهو الذي نسب له أنه كان يستسهل استبدال ألفاظ القرآن ولا يعتبره تغييراً لكلام الله، عندما قال: "قد نظرت إلى القراء فرأيت قراءتهم متقاربة وإنما هو كقول أحدكم: أقبل وهلم وتعال فاقرءوا كما علمتم".[1]

ونسب إليه أنه كان يقرأ آية من سورة "يس" كما يلي: " إن كانت إلا زقية واحدة ". بدل قوله تعالى: إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يس.

وقيل إن آية الفاتحة: "اهدنا الصراط المستقيم" كان ابن مسعود يقرأها بهذا الشكل: "أرشدنا الصراط المستقيم".

بل نسب لابن مسعود أن له سبع قراءات لآية واحدة هي: قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ (٦٠) المائدة.

١ كيف سمحت قريش التي استولت على حكم دولة المسلمين بإظهار تقوى ابن مسعود، مع أن لها ثأراً عليه. ذلك أنه هو من اعتلى صدر واحد من أكابر قريش (أبو جهل) واحتزاز رأسه في معركة بدر. وهو ما اعتبره أبو جهل عاراً، كون ابن مسعود من المستضعفين ويعتلي أحد وجهاء مكة وكبرائها. هذا ما يجعل من الممكن القول إن قريش أرادت أن تسيء لابن مسعود بنشر قصص مختلق عن مصحفه وأنه يختلف عن مصحف الرسول. وأن ابن مسعود كان يبدل ويغير في كلمات القرآن، وإلى ما هنالك، لعله يواجه بحملة عدائية من المسلمين. لكن يبدو أن الأجيال اللاحقة اعتبرت ما نسب لابن مسعود شرائع.

والقراءات، كما يلي: وَعَبَدَ الطاغوتُ، وَعُبُدَ الطاغوتِ، ومَن عَبَدوا الطاغوتَ، وعَبَدَةَ الطاغوتِ، وعُبَدَ الطاغوتُ، وعُبَّدَ الطاغوتَ، وعُبِدَتِ الطاغوتُ.

وبطبيعة الحال فكل هذا اختلاق على ابن مسعود، ليس لأننا نملك أدلة تزكي ابن مسعود، ولكن لأن مصحفه كغيره من المصاحف الشخصية التي تم إحراقها في العام: (٣٣) للهجرة أي قبل أن يولد الذين قالوا بأن القرآن نزل على سبعة أحرف وأن هناك عشر قراءات.

ويعتمد المروجون لوجود قراءات مختلفة للمصحف على حديث ينسب لعمر ابن الخطاب، وسنذكره هنا ونناقشه لإثبات أنه مختلق. ونص الحديث هو:

عن عمر بن الخطاب قال: "سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة النبي محمد، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يُقْرِئنيها محمد، فكِدت أساوِره في الصلاة، فتصَّبرت حتى سلّم، فلَبَّبْتُهُ بردائه، فقلت من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ، قال: أقرأنِيْها محمد (رسول الله)، فقلت له: كذبت، أقرانيها على غير ما قرأت. فانطلقت به أقوده إلى رسول الله، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تُقرئها، فقال: "أرسله، اقرأ يا هشام«، فقرأ القراءة التي سمعته، فقال رسول الله : "كذلك أنزلت" ثم قال محمد :"اقرأ يا عمر«، فقرأت التي أقرأني. فقال: "كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه".

- وأول ملاحظة على هذا الحديث أن مختلقه أبقى على صياغته التي تفضحه كمتحدث، ومن ذلك استخدامه اسم «محمد» مجرداً ولا يقول عنه رسول الله. وهذا يظهر أن مختلق الحديث لا يؤمن بمحمد كرسول لله. وقد وضعت عبارة (رسول الله) بين قوسين للدلالة على أنها أضيفت للحديث فيما بعد، ولم تكن فيه.

ونعود للحديث الذي لم يحدث وسنفترض حدوثه جدلاً ونقول:

- لو أن هناك قراءات مختلفة فسيكون عمر ابن الخطاب من أول من يعلم بها لأنه من أوائل المسلمين وملازم للرسول. لكنه بدا بوضع مستغرب منكر، وهو ما يدل على أنه لا فكرة لديه عما يسمى بالقراءات.

- الرسول يعلن لعمر ولأول مرة أن القرآن نزل على سبعة أحرف. ولو كان القرآن ينزل على سبعة أحرف لعرف ذلك المسلمون من أول يوم للوحي، ولكان عمر من أول من

يعرف، ولا يحتاج لأن يخبره الرسول بذلك في عصر متأخر.

- وهشام ابن حكيم ممن أعلن الإسلام يوم الفتح، يعني من كبراء قريش الذين رفضوا الدعوة طوال وجود الرسول بينهم في مكة وبعد الهجرة. والقرآن يؤكد لنا أن من لا يؤمن بداية سماعه للدعوة لن يؤمن ابداً. ويكون هشام هذا أعلن إسلامه ولكنه لم يؤمن، لأنه لن يؤمن. هذا إذا كان قد أعلن إسلامه فعلاً.
- والحديث يقول إن هشام ابن حكيم كان يقرأ سورة الفرقان في المدينة بعد الهجرة، وهذا لا يمكن حدوثه لأن كل من أعلن إسلامه في مكة من قريش بعد الفتح لم يهاجر للمدينة ويعيش فيها ومنهم هشام هذا. ولكن يبدو أن مختلق الحديث عاش في عصور متأخرة ولم يعلم هذه الحقيقة.

وهناك خبر آخر منسوب لابن عباس يقول: إن الرسول قال: " أقرأني جبريل على حرف، فلم أزل أستزيده، ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف«.

والخبر يحدد القراءات بسبع، لكن هناك عشر قراءات وعشرين وخمساً وعشرين وأكثر من ذلك. حسب ما يرويه لنا من اهتم بجمع القراءات وصنف فيها الكتب.

كما أن الخبر ينسب لابن عباس وليس للرسول أن جبريل كان يلقن الرسول الوحي. وهذا جهل مطبق بكيفية نزول الوحي. الذي ينسخ في ذاكرة الرسول ولا يلقنه جبريل الرسول تلقيناً. والدليل في القرآن وليس بكلام منسوب لابن عباس أو غيره :وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ(١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ(١٩٤) الشعراء[١].

ولم يقل القرآن بنزوله بعدة لهجات أو قراءات، بل إن القرآن يؤكد أنه بقراءة واحدة لا اختلاف فيها: قُرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) الزمر.

وغير ذي عوج تأكيد على أنه ليس فيه قراءة تقول بعبارة وقراءة أخرى تقول بعبارة أخرى. وليس فيه لفظ ينزل عدة مرات، بألفاظ مختلفة ومحيرة.

هذا هي أدلتهم، وهي عوجاء مثل مقولتهم.

---

١ وقد فصلنا الحديث عن هذه الحقيقة في مقدمة هذا الكتاب تحت فقرة: الوحي يسجل في ذاكرة الرسول مباشرة على شكل قرآن عربي مبين، ولا يتلقاه عن طريق التلقين.

والقراءات انتشرت بعد عصر الرسول بسبب المفسرين الذي عاثوا في كتاب الله فساداً، فهم من كان يقرأ القرآن بالعبارة التي يريدون ويفسرها كيفما يشاؤون. ولنتذكر أن القرآن نسخه عثمان من المصحف الإمام الذي كتب في عصر الرسول وبلفظ واحد وقراءة واحدة، والدليل نستشفه من الكلام المنسوب لعثمان الذي يقول: «فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة إذا اختلفتم في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم». انتهى.

فحتى لو أخذنا بهذه الرواية على سبيل الافتراض، فكيف يقال لكتبة من قريش أنهم لو اختلفوا في شيء فليكتبوه بلسان قريش؟

وكيف يختلف النساخ في شيء من القرآن وهم ينسخونه من صحف مكتوبة، ولا يستمعون له من تسجيل صوتي. والنسخ من صحف مكتوبة يكتب كما في الصحف ولا يمكن أن يكتب بخلافها، ولو نسخ من الصحف المكتوبة فلن يكون هناك أكثر من شكل واحد للفظ ونطق واحد ولن يكون هناك داعٍ لأن يقال: لو اختلفتم في شيء فاكتبوه بلسان قريش". وعثمان ابن عفان مثله مثل عمر من أوائل المسلمين والملازمين للرسول وهو لا يعرف أن هناك قراءات متعددة للقرآن.

لكن،

قد يحدث اختلاف في كتابة لفظ واحد في المصحف

والسبب يعود إلى أن المصحف الإمام الذي كتب بإشراف الرسول كتب بحروف ذلك العصر، وبأيدي كتاب معرفتهم بالكتابة قليلة ولا تزيد عن مستوى تلميذ السنوات الأولى للمرحلة التعليمية الابتدائية حالياً. وبما أن هناك عدداً من الكتبة قد كتبوا المصحف للرسول، فإن معرفة كل منهم بالإملاء ظهرت واضحة في ذلك المصحف. فالبعض كتب الملائكة بهذا الشكل: "الملئكة". والبعض كتب الصلاة، كما ينطقها هو: "الصلوة" ومثلها كل الألفاظ الشبيهة كـ"الزكوة". ومنهم من كتب مريم بميم أخيرة معقوفة، ومنهم من كتب نفس الميم ممدودة، هكذا: مريمـ.

كما أن البعض قد استعجل في الكتابة فوقع في الأخطاء ومن ذلك: "بكة" في قوله تعالى: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٦٩) آل عمران.

فبكة - على ما يبدو لي - أن كاتب الآية كتبها بسرعة وبخط بالكاد يتقنه، فظهرت "بمكة" وكأنها "ببكة" لأنه كتب الباء مرتين سهواً، ولم يكتب الميم. ولم يثبت –حسب اطلاعي- أن مكة كانت تسمى مكة بصورة مؤكدة. ونحن هنا لا ندعوا لتغيير بكة إلى مكة، ولا حتى تغيير "ملئكة" إلى ملائكة "وصلوة" إلى صلاة. لكن فقط نقول إن الأخطاء الإملائية في المصحف لا علاقة لها بالإيمان ولا صحة الوحي.

وفي عصر الرسول لم يكن الناس بحاجة لقراءات، فكل السور المكية تخاطب قريشاً وحدها ولا حاجة لقراءات أخرى. وهناك آيات في بعض تلك السور تخاطب بني إسرائيل يثرب. وأهل يثرب وأهل مكة يتكلمون لغة واحدة مفهومة، والدليل أن الآيات التي تخاطب قريشاً تشابه الآيات التي تخاطب بني إسرائيل. وهناك عدد من السور المكية بعض آياتها تخاطب قريش والبعض الآخر يخاطب أهل يثرب، ولا يمكن ملاحظة أي اختلاف في العبارات.

ولما نشأ مجتمع مسلم ونزلت التشريعات واكتمل الدين لم يعد للخطاب الدعوي في القرآن وجود. لأنه من أراد أن يدخل الإسلام فعليه تدبر التشريعات وليس العبارات. والتشريع اكتمل في بداية الهجرة وقبل غزوة بدر، بعد نزول البقرة والنساء والمائدة. وهذا يجهله المفسرون ومن قال بالقراءات، الذين كانوا يختلقون الأحداث والقصص ويؤولون آيات القرآن لكي تتناسب مع ما يقولون. ولم يكن من الصعب عليهم استبدال ألفاظ القرآن، ونسبة عبثهم لله والرسول.

متى ظهر القول بالقراءات؟

عندما نتحدث عن القراءات فنحن نتحدث عن "علم" مستحدث، لأن أول كتبه ظهر في القرن الرابع الهجري وكتبه أحمد ابن موسى ابن العباس المشهور بابن مجاهد (ت ٣٢٤هـ). أي أن مصدرنا كتاب من كتب التراث المشكوك فيها أصلاً ولا يمكن الركون لما تحوي لأنها ألفت بعد أن غيب الموت رسول الله بقرون. وليس لها مصادر موثوقة عن الرسول ولا صحبه الكرام البررة: قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ

أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ(١٤٨) الأنعام.

وما يؤكد أن كل ما قيل عن القراءات خرص وظن هو أن القراءات السبع أو العشر لا تنسب للرسول ولا لعثمان ولا لأبي بكر أو محمد ابن مسلمة وغيرهم من الأخيار لكن للتالية أسماؤهم:

نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني (١٦٩هـ).

عبد الله بن كثير الداري المكي (١٢٠ هـ).

أبو عمرو بن العلاء البصري (١٥٤ هـ).

عبد الله بن عامر اليحصبي الشامي (١١٨ هـ).

عاصم بن أبي النجود الأسدي الكوفي (١٢٧هـ).

حمزة بن حبيب الزيات الكوفي (١٥٦ هـ).

أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي الكوفي (١٨٩هـ).

وأضيف لهم:

أبو جعفر يزيد بن القعقاع (١٣٠هـ).

يعقوب بن اسحاق الحضرمي (٢٠٥هـ).

خلف بن هشام (٢٢٩ هـ).

لتكتمل القراءات لعشر. وهناك قراءات أخرى تصل بالرقم لخمس وعشرين قراءة.

ويكون أحمد ابن موسى ابن العباس، ابن مجاهد (المتوفى عام ٣٢٤ هـ) أول من وثق فيما عرف بالقراءات السبع بناءً على ما نسب لأناس هلكوا قبل مولده بعشرات السنين. أي أن كتابه اعتمد على الظن حتى في نسبة القراءات السبع لقرائها.[١]

ليس هذا فحسب. بل إننا لا نعرف كيف كانت قراءة نافع ابن عبد الرحمن ابن ابي نعيم المدني (ت١٩٦ هـ) لأنها لم تصلنا ولكننا نعرف قراءة منسوبة لشخص اسمه قالون (توفي عام ٢٢٠ هـ) كان جد جده من سبي الروم في خلافة عمر ابن الخطاب. وآخر اسمه ورش أو ورشان (ولد في مصر وتوفي فيها عام ١٩٧ هـ).

١ انظر أعلاه وفيات المنسوب لهم القراءات ووفاة مؤلف أول كتاب فيها.

وكذلك كل من تنسب لهم القراءات لا نعرف قراءاتهم، ولكن نعرف من نسبها لهم ممن تسموا بتلاميذهم، كما يلي:

عبد الله بن كثير الداري المكي (١٢٠ هـ)، تلاميذه: قنبل والبزي.

أبو عمرو بن العلاء البصري (١٥٤ هـ)، تلاميذه: الدوري البصري والسوسي.

عبد الله بن عامر اليحصبي الشامي (١١٨ هـ)، تلاميذه: هشام وابن ذكوان.

عاصم بن أبي النجود الأسدي الكوفي (١٢٧هـ)، تلاميذه: حفص وشعبة.

حمزة بن حبيب الزيات الكوفي (١٥٦ هـ)، تلاميذه: خلف وخلاد.

أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي الكوفي (١٨٩هـ)، تلاميذه: الدوري الكسائي والحارث.

وأولئك التلاميذ هم الذين يقول كل واحد منهم إنه يقرأ بقراءة نزل بها القرآن وكل قراءة تختلف عن غيره لأنه يقرأ بلهجته هو. وبالتالي فكل واحد نسب قراءته التي اختلقها هو أو اختلقها معلمه، للرسول، الذي لم يعلم بها وهو منها براء. ولما كانت تلك القراءات متباينة قال من جاء بعدهم بأن الله أنزل القرآن بكل هذه اللهجات ... يعني حل وسط بينهم لإنهاء النزاع، وعدم حذف أي قراءة. ولم يكن القول بتنوع القراءات لإحقاق حق ولا لتقرير حقيقة.

ونأتي نحن بعد ١٤٠٠ عام من عصر الرسول ونتمسك بهذه التخاريف ونقول بأن القرآن نزل على لهجات الكسائي والزيات وقالون وشعبة وورش .. ونتناسى عدة حقائق منها:

- أن القرآن ينسخ في ذاكرة الرسول ويقرأه كما نسخ دون أن يكون له حق التغيير. وبما أن القرآن ينزل مرة واحدة، فهو يحفر في ذاكرة الرسول بحرف واحد.
- أن الاختلاف في القراءات ليس في مصحف عثمان الذي نسخ من مصحف الرسول الكريم الذي كتب في حياته عليه الصلاة والسلام. لكن من جاء في عصور الظلام قالوا بأن عثمان أمر النساخ بنسخ المصحف على حرف واحد.

ولو افترضنا جدلاً أن عثمان أهمل كتابة القرآن بأحرف مختلفة، فمن هو الذي تجرأ وأعاد الحروف التي لم يكتبها عثمان. وإن كانت أعيدت بعد وقت طويل من عثمان فمن يستطيع أن يؤكد أن هذه الأحرف هي التي حذفها عثمان؟

لأن من أعادها لا يملك مصادر موثقة تؤكد أنها هي الأحرف التي حذف عثمان. نقول هذا الافتراض ونحن نعلم أنه لم يقع.

- كما أنه من غير المعقول أبداً أن يكون القرآن نزل بأكثر من حرف أو أن الرسول كان يقرأ بأكثر من حرف، لسبب بسيط لا يعرفه المفسرون وأتباع الموروث. ويتمثل في أن الدعوة تبدأ بخطاب دعوي لتجتذب الناس للدين، ويكون الخطاب الدعوي بلغة المدعو. وأول ٤٦ سورة نزلت في القرآن كانت موجهة لقريش وحدها ولابد أنها كانت بلغتها، ولو كان القرآن ينزل بعدة أحرف حسب لهجة المخاطب، فإن هذه السور لابد أنها نزلت بحرف واحد، ولا حاجة لنزولها بأكثر من حرف لأنها موجهة لقريش وحدها. ولو كان هذا ما حدث، فإن هذه السور لا يمكن أن يقال عنها إنها نزلت بعدة أحرف وقراءات. لكن من يقول بالأحرف السبعة والقراءات العشر لم يستثنوا هذه السور، واعتبروها نزلت بحروف وقراءات مختلفة. وهذا وحده برهان كاف للحكم النهائي ببطلان القول بالأحرف والقراءات. وهذه هي السور الست والأربعون التي كانت تخاطب قريشاً دون غيرها من الناس: الفاتحة، الفيل، قريش، العصر، التين، التكاثر، العاديات، المزمل، المدثر، الأعلى، العلق، القارعة، الزلزلة، الانفطار، الانشقاق، التكوير، الشمس، الليل، الطارق، الفجر، البلد، القيامة، النبأ، ق، الواقعة، الغاشية، الحاقة، المطففين، عبس، المرسلات، الجن، الفلق، الناس، الإنسان، الملك، يس، القدر، والرحمن، النجم، الهمزة، ن والقلم، الطور، الضحى، الشرح، نوح، القمر.
- ثم إن بقية سور القرآن الدعوية لم تخاطب قبيلة بعينها، بل خاطبت في الغالب بني إسرائيل يثرب، ومستضعفي مكة، وكل الناس على وجه العموم. ولم يخرج الخطاب بعمومه إلا نادراً عن مخاطبة أهل مكة أو أهل يثرب في بقية السور المكية الثلاث والأربعين الأخيرة.

وبعد الهجرة توجه الخطاب الدعوي لأهل الكتاب في يثرب بمختلف طوائفهم. واستمرت السور المدنية تنزل للتفاعل مع الأحداث، وهي سور تخاطب الرسول والمسلمين معه. وهم إما مهاجرون من مكة، أو أنصار من يثرب. ولم تخاطب السور أي أقوام أخرى. ومثلها

السور التشريعية كالبقرة والنساء والمائدة والتي تخاطب المسلمين (مهاجرين وأنصاراً) فقط.

وبناءً على هذه الحقائق التي لا يعرفها المفسرون ورجال الدين في عصور تأليف كتب التراث، يمكن القول بأنه لو افترض أن القرآن ينزل بحرف المخاطب فسيكون للقرآن حرفين لا ثالث لهما: حرف لأهل مكة وآخر لأهل يثرب.

ونتناسى أن القرآن ينسخ في ذاكرة الرسول ويقرأه كما حفر دون أن يكون له حق التغيير. والقرآن ينزل مرة واحدة وبحرف واحد. ونسينا أن الاختلاف في القراءات ليس في مصحف عثمان الذي نسخ من مصحف الرسول الكريم الذي كتب في حياته عليه الصلاة والسلام، وبحرف واحد وقراءة واحدة لا خلاف ولا اختلاف فيها. ونسينا أنه في عصر الرسول لم يكن هناك خلاف في قراءة القرآن على أي حرف، لأن العجمة لم تكن وصلت مكة والمدينة بعد.

الخلاصة: أن القراءات مثلها مثل الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول وتفتيت القران بالقول إنه ينزل آية آية ولكل آية سبب نزول مختلف عن بقية الآية وكل ما يسمى بكتب التراث هي معاول لهدم الدين بما تثيره من شكوك حول دين الله وكتابه. ومن يقرأ التفسير والحديث وبقية كتب التراث ويتعرف على ما تنسبه لله جل جلاله ولرسوله الكريم من معايب ونقائص وما تقوله من نقص في القرآن وسور كانت بطول البقرة وبعضها نسخ أو ضاع وغير ذلك الكثير فلن يستغرب أن يجد من يقول إن القرآن نزل بلهجات الأعراب.

القرآن والمصحف

القرآن هو ذلك الوحي الذي كان يحفر في ذاكرة رسول الله محمد سورة سورة، وقرأه شفهياً على الناس كما نزل عليه. ومن ذلك جاء اسمه "القرآن" فهو تلك النصوص المقروءة (النصوص التي يسمعها الناس من فم رسول الله وهو يتلوها عليهم من الذاكرة وكأنه يقرأها من كتاب) لأنه كان يستمر في التلاوة حتى تنتهي السورة لو لم يقاطعه أحد. فهو قرآن لأن الرسول كان يقرأه بتواصل واستمرار من بداية السورة حتى نهايتها.

فالقرآن كتاب مسموع يتلى من ذاكرة الرسول وليس كتابا مكتوبا. وبالتالي فالمهم هو نطق الكلمة وليس كتابتها. فإذا نطقت مريم فالمهم ان تسمع مريم وليس المهم إن كتبها الناس مريم أو مريمـ . وإذا نطقت الملائكة فالمهم أن نسمع الملائكة، وليس المهم أن يكتبها الناس ملئكة أو ملائكة. وكذلك الصلاة فليس المهم أن تكتب صلوة أو صلاة أو صلات... الخ. فالكلمة المسموعة قرآن، لكن كتابتها عمل إنساني يعتمد على قواعدهم في العصر وإجادة الناسخ لقواعد الكتابة السائدة في عصره. وقواعد الكتابة والإملاء تتغير وتتبدل بتغير العصور، لكن نطق الكلمة يبقى كما هو.

ولم يكن هذا النوع من الإلقاء معروف عند الناس. فحتى من كان يحمل رسالة شفهية فعادة ما تكون قصيرة ومحددة، ويبلغها حاملها بحديثه العادي وليس لها عبارات خاصة بها ولا جمل وعبارات لم يعتدها الناس.

هذا القرآن منزه عن الخطأ: وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ(٤٢) فصلت.

ولفظ القرآن سماه الله جل وعلا.

أما المصحف فهو شيء مختلف فهو ليس اسماً للقرآن، ولم يسم الله القرآن مصحفاً. ولكنه لفظ مأخوذ من صحيفة وتعني السجل أو بمعنى أبسط أي ورقة مكتوب عليها فهي صحيفة، وجمعها صحف وصحائف. والمصحف هو الملف الذي يحوي هذه الصحف ويجمعها.

وقد كتب القرآن في صحف أثناء حياة رسول الله وبإشرافه، ولابد أن كل سورة كتبت في صحيفة، وجمعت كلها في مصحف واحد، وهو الذي قام عثمان رضي الله عنه بنسخ

المصاحف التي أرسلت للأمصار منه.

وليس هناك عصمة لكتبة المصحف من الأخطاء الإملائية ولا من الأخطاء الغير مقصودة. فلو كتب أحدهم زكوة بدل زكاة فقد يكون كتب الكلمة تبعاً لسماعها من المملي، فكتبها كما ظن أنه سمعها، أو كتبها كما ينطقها هو. بينما كتبها كاتب آخر زكاة لأنه سمعها بهذا الشكل، أو أنه هو ينطقها زكاة، فكتبها كما ينطقها.

لذا فكل أنواع الأخطاء الكتابية يمكن وجودها في المصحف، لأن من كتبه بشر وبعضهم بالكاد يعرفون الكتابة التي تعلموها اجتهاداً وليس عن طريق دراسة أكاديمية تخضع لضوابط. واحتواء المصحف على أخطاء كتابية بأي شكل من الأشكال لا يضير شيئاً، لكن الذي يضر ويجب التخلص منه هو ما يسمى بالقراءات والأحرف. فهذه نتجت عن المفسرين الذين يغيرون كلمات المصحف لكي تتلاءم مع التأويل الذي يريدون تأويل معنى الآية له. وهذا جريمة بحق القرآن يجب التخلص منها وتنزيه كتاب الله من دنسها.

فلو بقيت كلمة (الرحمان) تكتب في المصحف (الرحمن) فلن تؤدي لأي مضرة لأن الناس اعتادوا قراءتها على أنها الرحمان بالمد. لكن أن يتم تغيير الكلمة لكي تتفق مع تأويلات المفسرين ويجعلونها وكأن القرآن نزل بها فهذا هو التحريف الذي بدل أن ينزه دين الله منه تم المحافظة عليه واتهام كل من ينقده.

ومن ذلك: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٠٤) البقرة.

فقد جاء في كتب التفسير أنه نسب لابن مسعود قراءتها (راعونا) من المراعاة. وقرأ بعضهم (راعنا) من الرعونة، (ويتضح المعنى الذي أرادوا لو وضعنا تشديداً على راعناً) بينما هي بكل بساطة نهي للمسلمين من أن يقلدوا اليهود ويقولوا راعنا بدل أن يقلوا (انظرنا). هذا هو التحريف وكتاب الله (القرآن) يخلو من هذا ولكنه تحريف أدخلته كتب التراث على المصحف ويجب التخلص منه عاجلاً غير آجل.

الخلاصة: القرآن شيء مقدس لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أما المصحف فعمل بشري عرضة لكل خطأ.

التجويد

المؤكد ان الرسول لم يعرفه، لأنه مما اقتبسه المسلمون من تراث المسيحيين وترانيمهم في الكنائس. فهو علم مختلق خرج من نفس الرحم التي أخرجت كتب التراث الأخرى. فليس هناك أي متعة ولا فائدة ولا تشريع في أن تُنطق «مريم» براء ثقيلة ثقل وزن الفيل، بدل نطقها مثلما ننطقها عندما ننادي فتاة اسمها مريم. ولا أدري ما هي الفائدة أن ننطق: «فمي يعمل مثقال ذرة»، بدل نطقها كما هي: فمن يعمل مثقال ذرة...وهكذا.

وهل لو راعيت التجويد عند قراءة القرآن سيكون لي نخلة في الجنة أو بيت أو زيادة أجر، وإن لم أجود سأبقى بدون بيت ولا نخل، وينتقص من أجري؟

التجويد - بالنسبة لي - تقعر لم ينزل الله به من سلطان.

لكنه اكتسب أهميته عند أتباع الموروث لأن القرآن أصبح للإنشاد والتغني، فكان صوت المقرئ ومخارج الحروف، هي الأهم، والعنصر الجاذب للمستمعين، بدل تدبر آياته وفهم تشريعاته وقراءته بطريقة عادية كما نقرأ أي رسالة أو موضوع.

والتجويد من العلوم الملحقة بما يعرف بالقراءات، وظهر بعدها لحاجتها إليه، لأنه يُعنى بمخارج الحروف. ولم يعرف قبل القرن الرابع للهجرة، حتى بين أتباع الموروث. وبدايته كانت ضعيفة وغير مستقرة، وبقي يضاف له ويعدل ويبدل حتى يومنا هذا. وليس في كتاب الله أي لفظ يدل عليه، أو يشير له. وبرغم أن أتباع الموروث يقولون إن أول ما عرف التجويد بقصيدة لأبي مزاحم موسى ابن عبيد الله الخاقاني (ت ٣٢٥ هـ) إلا أن القصيدة المؤلفة من خمسين أو اثنين وخمسين بيتاً لم يرد فيها لفظ «تجويد» أبداً، وكلها تحث على تحسين أداء قراءة القرآن (أو ترتيله والترنم به) لأن هذا ما كان سائداً في العصر الذي عاش فيه صاحب القصيدة.

وبعد أن انتشر في المجتمعات المسلمة مجالس تلاوة القرآن الإيقاعية الترنيمية، بدأت محاولات ضبط قراءات القراء وتحسينها، بوضع ضوابط لنطق الحروف ومخارجها. ومن أوائل من قام بذلك أهل الأندلس في القرن الخامس الهجري، مثل: مكي ابن ابي طالب القيسي (ت ٤٣٧ هـ)، وعبد الوهاب القرطبي (ت٤٦١ هـ). وكانت هذه هي البدايات الفعلية لما عرف فيما بعد بالتجويد، واستمرت المؤلفات والإضافات، حتى ازدهر في عصرنا

الحاضر لسببين:

١. انتشار ما يعرف بمدارس تحفيظ القرآن، التي تعنى بترسيخ كتب الموروث وفهم القرآن وقراءته بطريقة إيقاعية.

٢. ولأن القرآن صار يسمع للطرب من مقرئ حسن الصوت، فتهافت الناس على تسجيل التلاوات والمتاجرة بها.

وأصبح الترويج للقراءة المجودة هو الطاغي، فزاد الإقبال على التجويد. مع أن قراءة القرآن كما يقرأه المقرئون ومعظم أئمة المساجد حالياً، لم يعرفها الرسول ولم يأمر بها. لأن القرآن يقرأ بشكل عادي فالمهم تدبره وليس طرب السامع لصوت قارئه.

ومثل التجويد ظهر ما يعرف بـ:

النشيد الديني

وهو نوع من الغناء يدور حول مدح الرسول أو ما يسميه الصوفية بالعشق الإلهي والملكوت الأعلى والوجدانية وغيرها. ويقول المروجون له أن بدايته كانت باختيار بلال مؤذناً للرسول وكان يؤديه بصوت غنائي جميل فبدأ الصحابة يتغنون بأشعار تمتدح الرسول.

وهذا الزعم لا يمكن أن يكون صحيحاً ابداً، لأن كل ما نسب لحسان ابن ثابت من أشعار تمتدح الرسول نسبت له في العصر العباسي، ولا يمكن أن يكون الرسول سمع بها وأقرها، لأسباب منها:

- أن ترحيب الرسول بمديحه نوع من الاعتداد بالنفس والغرور لا يقبله الرسول ولا يحل له.
- وأن الشعر بعمومه مكروه في القرآن: وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ(٦٩) يس.
- وأنه لم يشتهر من الصحابة واحد بالغناء سوى ما ذكر عن رقيق لا يعرف عنه إلا أن اسمه "أنجشه" وكان يحدو (يغني بلا أداة موسيقية) وهو يقود الجمال في رحلة للرسول كان فيها نساء. وهي حادثة قد لا تكون وقعت، لكن حتى لو افترض صحة هذه الحادثة فلا تعني أن الصحابة كانوا يغنون أغاني دينية.

وإن كان هناك روايات في كتب التراث تقول إن نساءً من المدينة استقبلن الرسول عند رجوعه وجيش المسلمين من تبوك، وهن يضربن بالدفوف ويغنين:

طلع البدر علينا *** من ثنيات الوداع *** وجب الشكر علينا *** ما دعا لله داع *** أيها المبعوث فينا *** جئت بالأمر مطاع *** جئت شرفت المدينة *** مرحباً يا خير داع.

وهذا لو ثبت فهو تصرف شخصي ولا يعتبر ظاهرة كانت سائدة في ذلك المجتمع.

ولعل الغناء الديني لم يعرف عند المسلمين إلا بعد عصر الفتوح لأن البلاد المفتوحة كانت تنتشر فيها المسيحية التي تشتهر بهذا النوع من الغناء في الكنائس. وقد دخل هذا النوع للتراث الإسلامي على أيدي المسيحيين الذين أسلموا، واشتهرت به الصوفية التي أخذت

الكثير من المسيحية، كما انتشر عند أهل المذاهب الأخرى.

وبنو أمية هم أول من شجع هذا النوع من الغناء وأنواع الطرب الأخرى. فقد كان عبد الملك ابن مروان يغني، وكان يجزل العطايا للمغنين والمغنيات سواءً كان غناءً دينياً أو فاحشاً. واستمر حكام قريش يشجعون الغناء في العصر العباسي.

فقد كان الخلفاء العباسيون يقيمون مجالس الطرب ويشجعونها بل وكان كثير من الخلفاء وأبناؤهم مغنين. فهارون الرشيد كانت له مجالس للطرب والغناء، ومن تلك المجالس نبغ أخ له من أبيه إبراهيم المهدي وأخت له اسمها علية. وإبراهيم المهدي من أشهر المغنين المسلمين في التاريخ، وقد ساهم بنشر الغناء والطرب والضرب بالملاهي وحسن المنادمة، وكان أسود اللون لأن أمه كانت جارية سوداء، واسمها شكلة. وقد بويع له بالخلافة ببغداد بعد المائتين والمأمون يومئذ بخراسان، وأقام خليفة بها مقدار سنتين. ومثله عبد الله ابن الخليفة الرابع العباسي موسى الهادي الذي ورث أخوه هارون الخلافة. وعبد الله ابن الخليفة الأمين، وأحد أبناء الخليفة المتوكل واسمه أبو عيسى. كما كان الخليفة المعتز وابنه عبد الله من المغنين. وهناك إبراهيم ابن الأغلب وإبراهيم ابن أنيس ومخارق ولا ننسى إبراهيم الموصلي "النديم" وابنه إسحاق وزرياب الذي اشتهر في بغداد ومنها رحل للأندلس وأصبح نديم الخلفاء هناك ولعله هو من شجع ونشر الغناء في الأندلس وأنشأ المدارس الغنائية. وهو أو من اخترع الموشحات والتي تشابه ترانيم الكنائس الغربية.

واستمر الغناء الديني يتطور حتى وصل إلى ما هو عليه الآن والذي أصبح ينافس الغناء الفاحش في شهرة من يغنيه وما يعود عليهم من مال. ولأن بعض أتباع المذاهب حرموا الغناء على أنفسهم، فقد وجدوا فيما سموه "النشيد الديني" متنفساً وطرباً يعوضهم عن الطرب الذي حرموه. وإلا فالغناء عبارة عن إخراج للشعر بإيقاعات محددة سواءً سمي غناء وطرباً أو نشيداً. ولو أن اتباع الموروث استمعوا له وتمتعوا به وطربوا ولم ينسبوه للدين فهذا شأنهم، لكنهم نسبوه للدين، وهذا هو المرفوض[1].

---

١ انظر فقرة: الغناء / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

لي اللسان عند تلاوة القرآن

الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن يقف أمام جمع من قريش ويقرأ عليهم سورة الضحى على مقام النهاوند، والشرح على مقام الراست، والجن على مقام المغربي، والصافات على مقام الصبا، والزخرف على مقام الكرد. ولم يكن الرسول يعقد مجالس لتلاوة القرآن وتلحينه. وكان القرآن يتلى كتلاوة أي موضوع مكتوب، دون مد معين وكسرات موسيقية. لكن بعد الفتوح تأثر الناس بترانيم الكنائس، كون من أسلم من البلاد المفتوحة مسيحيين في الغالب. فصار الإمام في الصلاة يتلو بإيقاع قريب من ترانيم القساوسة. وأصبح للمسلمين في العصر العباسي مجالس تلاوات في قصور السلاطين، وفي الأفراح والأتراح والمناسبات المختلفة. فتسابق الناس على سماع أصوات المقرئين العذبة كنوع من الطرب كما يحدث الآن.

فاحتاجوا لإيجاد قواعد وضوابط للتلاوة الإيقاعية فظهر ما عرف بالتلاوة والتفنن في مخارج الحروف وتفخيمها، ومن ذلك ظهر علم التجويد الذي يحدد كيفية مخارج الحروف أثناء القراءة. وأصبح هناك مرتزقة يرتلون القرآن بأصوات عذبة وبإيقاع ومقامات موسيقية. وكانت تعقد لهم الجلسات وتعطى لهم الهبات. ولم يعد القرآن كتاب للدين فقط، بل أصبح كتاب للمناسبات.

ولو عقل المسلمون هذه الحقائق فستختفي تسجيلات تلاوة القرآن، وعبادة صوت المقرئ، لأنها لي الألسنة لتلاوة كتاب الله، تقليداً لليهود الذين يلوون ألسنتهم عند تلاوة كتبهم: وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(٧٨) آل عمران.

وستختفي حفلات التلاوة في الفرح والحزن والمآتم، وسيتحول أئمة المسجد للاهتمام بتلاوة القرآن بهدوء وتؤده بدل الاهتمام بالصوت والإيقاع. وسيكون المهم تدبر القرآن وليس الطرب والنشوة.

وقبل الختام هذا سؤال عقلاني: هل يعقل أن تكون قراءة كتاب الله بقراءات مشكوك في صحتها؟ وهل يمكن أن يسكت ليس الصحابة الأخيار فقط بل الناس في عصر الرسول عن هذه الاختلافات في القراءات ولا يقوم بها إلا أناس في العصر العباسي؟

وهو سؤال ينطبق على كل ما يسمى بكتب التراث.

ونكون قد استعرضنا باختصار أهم كتب التراث التي اعتمدها المسلمون للتعرف على دينهم، وتبين لنا أنها كتب بشرية أبعدت الناس عن فهم كتاب الله كما نزل، وأدخلت في دين الله ما ليس منه، ورسخت المذهبية. ولم تكن كما يظن كثير من عامة الناس أنها ضرورية لفهم القرآن ولمعرفة الدين.

وبعد كل ما تقدم يمكن القول: أن كتب التراث تحول القرآن من مصدر موثوق متماسك إلى مجرد روايات مُختلف على مكانها ومناسبتها وما تتحدث عنه من مواضيع.

أمثلة مما تحويه أهم كتب التراث

كتب التراث تحوي قصصاً وأخباراً يستحيل أن تكون حدثت بالفعل أو صدرت من الله أو الرسول، وهي على الدوام مادة دسمة لكل من يرغب في التهجم على الإسلام ورسم صور مسيئة لله والرسول. وهذا الموروث حظي بحماية رجال الدين والحكام وحرّموا نقده على مر العصور. فقتل الكثير وعذبوا واضطهدوا بسبب أنهم حاولوا أن ينزهوا دين الله من بعض هذه السماجات التي تحفل بها كتب التراث، بحجة أنهم كفرة ضالون وزنادقة يتهجمون على الله ودينه ورسوله. لأن نقد الموروث وتخليص الدين منه يعري سياسة الحكام باسم الله ورجال الدين، ولا يبقي لهم أي تميز ويقضي على كل تجاوزاتهم التي أورثتهم هالة من العظمة والقدسية والتشريع والتحكم بالمصائر وأكل الحقوق باسم الله. وسيبقى الموروث محرماً نقده، وسينبري أتباعه للدفاع عنه بكل شراسة، لأنه بنيت عليه منافع ومصالح، ولأنه أصبح شخصية أتباعه.

وفيما يلي بعضٌ مما تحويه كتب التراث من قصص وأخبار أشد قبحاً من الرسومات التي يقوم برسمها بعض الرسامين غير المسلمين للرسول، على أن يُقتصر على كتب التراث عند مذهب السنة، ولن نتعرض لأي كتب من تراث المذاهب الأخرى، لأسباب منها:

- أن الغالبية من المسلمين يتبعون ما يسمى بالمذهب السني، وينظر لهم غير المسلمين على أنهم يمثلون الإسلام.
- أن المذاهب الأخرى يشاركون أتباع المذهب السني في الكثير مما ذكر في كتبهم.
- وأن المذهب الشيعي وبعض المذاهب الباطنية - التي تختلف كثيراً عن المذهب السني -تعتمد على أساسٍ واهٍ يتمثل بوجوب الإيمان بأئمتهم الاثني عشر، وانهيار مصداقية هذا القول يعني انهياراً كاملاً للمعتقد الشيعي. لذا لن نتطرق لكتبهم.

وسنورد الخبر ونناقشه ثم نحاول تخيل الرسومات أو المشاهد التي يمكن أن تستمد منه لمن يبحث عن مهاجمة الإسلام ورسوله، لكي نشارك القراء في تصور حجم الإساءات التي تحويها كتب التراث لله والرسول والإسلام.

بعض ما تحويه كتب التفسير

والبداية عن بعض ما ورد حول تفسير الآيات التالية:

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ(١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ(٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ(٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ(٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ(٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ(٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ(٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ(١٠) البروج.

الآيات تصف بكل وضوح أن هناك أخدوداً تشعل فيه النيران وحوله بعض كبراء قريش الذين يقومون بتعذيب بعض المستضعفين من المسلمين بكيهم بالنار، لأنهم آمنوا، في محاولة لفتنتهم عن دينهم، وقد نجحوا مع البعض.

المفسرون لم يسمعوا بهذه الأحداث لأن قريشاً التي حكمت دولة المسلمين من خلال الأمويين والعباسيين عتمت على هذه الأخبار وغيرها التي تروي الأحداث زمن الرسول لأنها تدينهم. وبما أن المفسرين لا يفهمون القرآن كما نزل ولا يحيطون بما يتحدث عنه، فهم لا يتحرجون عن تأويل معاني الآيات حسب فهمهم لها ويختلقون لذلك قصصاً كسبب للنزول وينسبونها للصحابة أو للرسول بكل برود.

السورة تبدأ بقسم، مثل كثير من السور: وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ(١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ(٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣).

والمفسرون حولوا "الشاهد" على أنه يوم الجمعة "والمشهود" يوم عرفات، ونسبوا أقوالهم للرسول وغيره لكي تكتسب المصداقية لترويجها. وبعضهم قال الشاهد محمد (عليه الصلاة والسلام) والمشهود يوم القيامة. وغيرهم قال: الشاهد الإنسان والمشهود القيامة. انتهى كلام المفسرين كما ورد في تفسير الطبري.

مع أن الحديث في السورة لا يحتاج لتأويل المتأولين، لنعرف أن "اليوم الموعود" هو يوم القيامة. وفي ذلك اليوم سيكون الحساب: حيث الشاهد المتمثل بصحيفة الأعمال، والمشهود الإنسان. وهي بداية مناسبة لما ستتحدث عنه السورة، وهو تعذيب الكفار للمسلمين ووعيدهم بعذاب يوم القيامة.

ومما قاله المفسرون من تخاريف في قوله تعالى: "قتل أصحاب الأخدود" ما يلي:

والبداية مع رواية فارسية السمة:

يقول الطبري في تفسيره: حدثنا ابن حميد، قال: ثنا يعقوب القمي، عن جعفر عن ابن أبْزَى، قال: لما رجع المهاجرون من بعض غزواتهم، بلغهم نعي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال بعضهم لبعض: أيّ الأحكام تجري في المجوس، وإنهم ليسوا بأهل كتاب، وليسوا من مشركي العرب، فقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: قد كانوا أهل كتاب، وقد كانت الخمر أُحلَّت لهم، فشربها ملك من ملوكهم، حتى ثمل منها، فتناول أخته فوقع عليها، فلما ذهب عنه السكر قال لها: ويحك فما المخرج مما ابتليتُ به؟ فقالت: اخطب الناس، فقل: يا أيها الناس إن الله قد أحلّ نكاح الأخوات، فقام خطيبا، فقال: يا أيها الناس إن الله قد أحلّ نكاح الأخوات، فقال الناس: إنا نبرأ إلى الله من هذا القول، ما أتانا به نبيّ، ولا وجدناه في كتاب الله، فرجع إليها نادما، فقال لها: ويحك إن الناس قد أبَوا عليّ أن يقرّوا بذلك، فقالت: ابسط عليهم السِّياط، ففعل، فبسط عليهم السياط، فأبَوا أن يقرّوا، فرجع إليها نادما، فقال: إنهم أبَوا أن يقرّوا، فقالت: اخطبهم فإن أبوا فجرّد فيهم السيف، ففعل، فأبى عليه الناس، فقال لها: قد أبى عليّ الناس، فقالت: خدّ لهم الأخدود، ثم اعرض عليها أهل مملكتك، فمن أقرّ، وإلاّ فاقذفه في النار، ففعل، ثم عرض عليها أهل مملكته، فمن لم يقرّ منهم قذفه في النار، فأنزل الله فيهم: قُتِلَ أصحَابُ الأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الوَقُودِ إلى أنْ يُؤْمِنُوا باللهِ الْعَزِيزِ الحَمِيدِ إنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ حرّقوهم ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ولَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ فلم يزالوا منذ ذلك يستحلون نكاح الأخوات والبنات والأمهات .انتهت قصة ابن أبزى كما رواها الطبري في تفسيره.

قتادة لديه قصة أخرى:

قال: حُدثنا أن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه كان يقول: هم ناس بمذارع اليمن، اقتتل مؤمنوها وكفارها، فظهر مؤمنوها على كفارها، ثم اقتتلوا الثانية، فظهر مؤمنوها على كفارها، ثم أخذ بعضهم على بعض عهدا ومواثيق أن لا يغدر بعضهم ببعض، فغدر بهم الكفار فأخذوهم أخذا ثم إن رجلاً من المؤمنين قال لهم: هل لكم إلى خير، توقدون نارا ثم تعرضوننا عليها، فمن تابعكم على دينكم فذلك الذي تشتهون، ومن لا، اقتحم النار

فاسترحتم منه قال: فأجَّجوا نارا وعرضوا عليها، فجعلوا يقتحمونها صناديدهم، ثم بقيت منهم عجوز كأنها نكصت، فقال لها طفل في حجرها: يا أماه، امضي ولا تنافقي، قصّ الله عليكم نبأهم وحديثهم .رواه الطبري في تفسيره.

ابن عباس له قصة مختلفة

يقول فيها :قُتِلَ أصحَابُ الأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الوَقُودِ قال: هم ناس من بني إسرائيل، خدّوا أخدودا في الأرض، ثم أوقدوا فيها نارا، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالاً ونساء، فعرضوا عليها، وزعموا أنه دانيال وأصحابه. رواه الطبري في تفسيره.

والضحاك

يقول في قوله: قُتِلَ أصحَابُ الأُخْدُودِ: يزعمون أن أصحاب الأخدود من بني إسرائيل، أخذوا رجالاً ونساء، فخدّوا لهم أخدودا، ثم أوقدوا فيها النيران، فأقاموا المؤمنين عليها، فقالوا: تكفرون أو نقذفكم في النار .

صهيب صال وجال

أورد قصة أطول من كل قصص من سبقه ونسبها للرسول وليس لغيره كما فعل من سبقه، لأنه كان أجرأ منهم على الكذب. يقول صهيب:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «كان فِيمَنْ كانَ قَبْلَكُمْ مَلِكٌ، وكانَ لَهُ ساحِرٌ، فأَتى السَّاحِرُ المَلِكَ، فَقالَ: قَدْ كَبِرَتْ سِنِّي، وَدَنا أجَلِي، فادْفَعْ لي غُلاما أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ قالَ: فَدَفَعَ إِلَيْهِ غُلاما يُعَلِّمَهُ السِّحْرَ، قالَ: فكانَ الغُلامُ يَخْتَلِفُ إلى السَّاحِرِ، وكانَ بَيْنَ السَّاحِرِ وَبينَ المَلِكِ رَاهِبٌ قال: فكانَ الغُلامُ إذَا مَرَّ بالرَّاهِبِ قَعَدَ إلَيْهِ، فَسَمِعَ مِنْ كَلامِهِ، فأُعْجِبَ بكَلامِهِ، فكان الغُلامُ إذَا أَتى السَّاحِرُ ضَرَبَهُ وَقالَ: ما حَبَسَكَ؟ وَإذَا أَتى أهْلَه قَعَدَ عِنْدَ الرَّاهِبِ يَسْمَعُ كَلامَهُ، فإذَا رَجَعَ إلى أهْلِهِ ضَرَبُوهُ وَقالُوا: ما حَبَسَكَ؟ فَشَكا ذلك إلى الرَّاهِبِ، فَقالَ لَهُ الرَّاهِبُ: إذَا قالَ لكَ السَّاحِر: ما حَبَسَكَ؟ قُلْ حَبَسَنِي أهْلِي، وَإذَا قالَ أهْلُكَ: ما حَبَسَكَ؟ فَقُلْ حَبَسَنِي السَّاحِرُ. فَبَيْنَما هُو كَذلكَ إذْ مَرَّ في طَرِيقٍ وَإذَا دَابَّةٌ عَظِيمَةٌ فِي الطَّرِيقِ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ لا تَدَعْهُمْ يَجُوزُونَ فَقالَ الغُلامُ: الآنَ أعْلَمُ أمْرُ السَّاحِرِ أرْضَى عِنْدَ اللهِ أمْ أمْرُ الرَّاهِبِ؟ قال: فأخَذَ حَجَرا، قال: فَقالَ: اللَّهُمَّ إنْ كانَ أمْرُ الرَّاهِبِ أحَبَّ

إلَيْكَ مِنْ أمرِ الساحِرِ فإنِّي أرمي بِحَجَرِي هَذا فَيَقْتُلَهُ ويَمُرُّ النَّاسُ. قالَ: فَرماها فَقَتَلَها، وَجازَ النَّاسُ فَبَلَغَ ذلكَ الرَّاهِبَ قال: وأتاهُ الغُلام فَقالَ الرَّاهِبُ للْغُلام: إنَّكَ خَيْرٌ مِنِّي، وَإن ابْتُلِيتَ فَلا تَدُلَّنَّ عَلَيَّ قال: وكانَ الغُلامُ، يُبْرِىءِ الأكْمَهَ والأبْرَصَ، وَسائِرَ الأدْواءِ وكان لِلْمَلِكِ جَلِيسٌ، قال: فَعَمِيَ قال: فَقِيلَ له: إنَّ هاهُنا غُلاما يُبْرِئُ الأكمَهَ والأبْرص، وَسائِرَ الأدْواءِ، فَلَوْ أتَيْتَهُ؟ قال: فاتَّخَذَ لَهُ هَدَايا قال: ثُمَّ أتاهُ فَقالَ: يا غُلامُ إنْ أبرأتَني فَهَذه الهَدَايا كُلُّها لَكَ، فَقال: ما أنا بطَبِيبٍ يَشْفِيكَ، وَلَكِنَّ اللهَ يَشْفِي، فإذَا آمَنْتَ دَعَوْتُ اللهَ أنْ يَشْفِيَكَ قال: فآمَنَ الأعْمَى، فَدَعا اللهَ فَشَفاهُ، فَقَعَدَ الأعْمَى إلى المَلِكِ كَما كانَ يَقْعُدُ، فَقالَ لَهُ المَلِكُ: ألَيْسَ كُنْتَ أعْمَى؟ قالَ: نَعَمْ قال: فَمَنْ شَفاكَ؟ قال: رَبِّي قال: ولَكَ رَبٌّ غَيرِي؟ قال: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ قال: فأخَذَهُ بالْعَذَابِ فَقالَ: لَتَدُلَّنِّي عَلى مَنْ عَلَّمَكَ هَذا، قال: فَدَلَّ عَلى الغُلامِ، فَدَعا الغُلامَ فقالَ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، قال: فأَبى الغُلامُ قال: فأخَذَهُ بالعَذابِ قال: فَدَلَّ عَلى الرَّاهِبِ، فأخَذَ الرَّاهِبَ، فَقالَ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فأَبى قال: فَوَضَعَ المِنْشارَ عَلى هامَتِهِ فَشَقَّهُ حتى بَلَغَ الأرْضَ، قال: وأخَذَ الأعْمَى فَقال: لَترْجِعَنَّ أوْ لأَقْتُلَنَّكَ قال: فأَبى الأعْمَى، فَوَضَعَ المِنْشارَ عَلى هامَتِهِ، فَشَقَّهُ حتى بَلَغَ الأرْضَ، ثُمَّ قالَ لِلْغُلامِ: لَترْجِعَنَّ أوْ لأَقْتُلَنَّكَ قال: فأَبى قال: فقال: اذْهَبُوا بِهِ حتى تَبْلُغُوا بِهِ ذِرْوَةَ الجَبَلِ، فإنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإلاَّ فَدَهْدِهُوهُ، فَلَمَّا بَلَغُوا به ذِرْوَةَ الجَبَلِ فَوقَعُوا فَماتُوا كُلُّهُمْ. وَجاءَ الغُلامُ يَتَلَمَّسُ حتى دَخَلَ عَلى المَلِكِ، فَقال: أيْنَ أصحَابُكَ؟ قال: كَفانِيهُمُ اللهُ قال: فاذْهَبُوا بِهِ فاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فإنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإلاَّ فَغَرِّقُوهُ قال: فَذَهَبُوا بِهِ، فَلَمَّا تَوَسَّطُوا بِهِ البَحْرَ قالَ الغُلامُ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ، فانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ. وَجاءَ الغُلامُ يَتَلَمَّسُ حتى دَخَلَ على المَلِكِ فَقالَ المَلِكُ: أيْنَ أصحَابُكَ؟ فقال: دَعَوْتُ اللهَ فَكَفانِيهِمْ، قال: لأَقْتُلَنَّكَ، قال: ما أنْتَ بقاتِلِي حتى تَصْنَعَ ما آمُرُكَ، قال: فَقال الغُلامُ لِلْمَلِكِ: اجْمَعِ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ واحِدٍ، ثُمَّ اصْلُبْنِي، ثُمَّ خُذْ سَهْما مِنْ كِنانَتِي فارْمِني وَقُلْ: باسْمِ رَبِّ الغُلامِ، فإنَّكَ سَتَقْتُلُني قال: فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ قال: وَصَلَبَهُ وأخَذَ سَهْما مِنْ كِنانَتِهِ، فَوَضَعَهُ فِي كَبِدِ القَوْسِ، ثُمَّ رَمى، فَقال: باسْمِ رَبِّ الغُلامِ، فَوقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِ الغُلامِ، فَوَضَعَ يَدَهُ هَكَذَا عَلى صُدْغِهِ، وَماتَ الغُلامُ، فَقالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الغُلامِ، فَقالُوا لِلْمَلِكِ: ما صَنَعْتَ، الَّذِي كُنْتَ تَحْذَرُ قَدْ وَقَعَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فأمَرَ بأفْواهِ السِّكَكِ فَأُخِذَتْ، وخَدَّ الأُخْدُودَ وضَرَّمَ فِيهِ النِّيرَانَ، وأخَذَهُمْ وَقالَ: إنْ رَجَعُوا وَإلاَّ فألْقُوهُمْ فِي النَّارِ قال: فَكانُوا يُلْقُونَهُمْ فِي النَّارِ قال:

فَجاءَتِ امْرأةٌ مَعَها صَبِيٌّ لَهَا، قالَ: فَلَمَّا ذَهَبَتْ تَقْتَحِمُ وَجَدَتْ حَرَّ النَّارِ، فَنكَصَتْ، قال: فَقالَ لَهَا صَبِيُّها يا أُمَّاهُ، امْضِي فإنَّكِ عَلى الحَقِّ، فاقْتَحَمَتْ فِي النارِ .«رواه الطبري.

والربيع بن أنس

اختلق هو الآخر قصة لأصحاب الأخدود وكحلها بخوارق لزيادة الإثارة، يقول: كان أصحاب الأخدود قوما مؤمنين، اعتزلوا الناس في الفترة، وإنّ جَبّارا، من عَبدة الأوثان أرسل إليهم، فعرض عليهم الدخول في دينه، فأبوا، فخدّ أخدودا، وأوقد فيه نارا، ثم خيرهم بين الدخول في دينه، وبين إلقائهم في النار، فاختاروا إلقاءهم في النار، على الرجوع عن دينهم، فألقوا في النار، فنجّى الله المؤمنين الذين أُلْقُوا في النار من الحريق، بأن قبض أرواحهم، قبل أن تمسهم النار، وخرجت النار إلى من على شفير الأخدود من الكفار فأحرقتهم، فذلك قول الله: فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ في الآخرة ولَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ في الدنيا. رواه الطبري.

وبعد عصر الرسول سمي مكان في نجران باسم الأخدود وكأنه هو ما تتحدث عنه السورة، مثلما سمي وادي القرى بمدائن صالح وكأنه هو مكان قوم ثمود لأن القرآن وصفهم بأنهم ينحتون من الجبال بيوتاً: وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ المُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ(٨٢) الحجر.

ونعود لسورة البروج التي تتحدث عن تعذيب بعض رجال قريش للموالي والعبيد الذين آمنوا، لأن إيمانهم سيشل الحياة العامة في مكة، كونهم عصب الحياة فيها بقيامهم بكل الأعمال الخدمية.

وقد تحدثت عن تعذيبهم بالنار عدة سور منها سورة المسد:

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ(٢) سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ(٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ(٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ(٥)

وأبو لهب كان أحد أكثر كبراء قريش حماساً لتعذيب المسلمين بالنار، وامرأته كانت توازيه حماساً لدرجة أنها كانت تجمع الحطب وتحمله على جيدها. والسورة تقول خسرت يداه لحرقه المسلمين وستحرق النار جيد امرأته التي كانت تحمل الحطب.

والتعذيب كان لفتنة المسلمين عن دينهم وإرغامهم على الردة: الم(١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ(٣) العنكبوت.

وكان كبراء قريش يستخدمون كافة الوسائل أثناء التعذيب ومنها وعد المسلم بأنهم سيتحملون عنه عذاب القيامة لو كفر وسيدخلون عنه النار، كما أخبرتنا سورة العنكبوت: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ(١٣).

والبروج كانت تتحدث عن هذا:

قتل أصحاب الأخدود: الذين حفروا الشق في الأرض وأشعلوا فيه النار، وقعدوا حولها لتعذيب المسلمين :النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ(٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ(٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ(٧). وقتل تهديد لهم بالهلاك يوم القيامة.

وتعذيبهم المسلمين لكي يفتنوهم ويعيدوهم للكفر: وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(٨).

وقد نجحوا بالفعل في فتنة بعض المسلمين تحت التعذيب :إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ(١٠).

والآية تتوعد من لم يتب من هؤلاء الكبراء بعذاب جهنم، وهذه الآية تثبت أنها تتحدث عن وقائع زمن الرسول وفي وقت نزول السورة، ولا تتحدث عن وقائع تاريخية قديمة كما تقول قصص المفسرين المختلقة.

وسيمر بنا أمثلة أخرى عن أقوال المفسرين عندما نستعرض بعض الأمثلة من كتب السير، لأنها تحوي أقوال المفسرين.

أمثلة من كتب الحديث

بما أن بعض الأحاديث كانت مادة دسمة استقى منها غير المسلمين رسومات تسيء للرسول والإسلام، فإننا سنورد الحديث ونتخيل اللوحة التي يمكن أن ترسم من نص الحديث.

- القاتل في الإسلام يقتل، لكن لا يمثل بجثته ولا يصلب ولا يعذب.

أما الحديث فله رأي آخر:

حدّثنا مُعلَّى بنُ أَسَدٍ حدَّثَنا وُهَيبٌ عن أيوبَ عن أبي قِلابةَ عن أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ الله عنه «أنَّ رَهْطاً مِن عُكلٍ ثمانيةً قدِموا على النبيِّ صلى الله عليه وسلم فاجْتَوَوُا المدينة، فقالوا: يا رسول الله أبغِنا رِسْلاً، قال: ما أجِدُ لكم إلا أن تَلحَقوا بالذَّودَ، فانطَلَقوا فشربوا من أبوالِها وألبانها حتى صَحُّوا وسَمِنوا، وقَتلوا الرَّاعيَ واستاقوا الذَّودَ، وكفَروا بعدَ إسلامِهم. فأتى الصريخُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فبعَثَ الطلب، فما تَرَجَّلَ النهارُ حتى أُتيَ بهم فقطعَ أيديهم وأرجُلَهم، ثم أمرَ بمسامِيرَ فأُحميَتْ فكَحَلَهم بها وطَرَحهم بالحرَّة يَسْتَسقون فما يُسقَونَ حتى ماتوا».

واللوحة التي يمكن لأي رسام أن يستلهمها من هذا الحديث: تظهر رجلاً متجهماً يقطع أيدي وأرجل قتلة راعي إبله، ثم يأمر بمسامير تحمى بالنار فيكحل عيونهم بها ثم يطرحهم أجساداً بلا أطراف على حجارة الحرة الحادة والحارة وما بقي من أجسادهم تتلوى بلا مُعين، حتى يموتوا ببطء.

- القرآن يحرم تحريماً قاطعاً الرفث في الحج.

والرسول حج في آخر حياته مرة واحدة فقط، وقبل حجه بسنوات نزلت عليه سورة الأحزاب التي تحرم عليه أن يتزوج بأي امرأة مستقبلاً: لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاء مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً(٥٢) الأحزاب.

وسورة البقرة التي نزلت في بداية العهد المدني تحرم الرفث في الحج، والرفث هو كل ما له علاقة بالجماع ومن ذلك التقبيل واللمس: الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ(١٩٧) البقرة.

هذا هو دين الله، وهو ما يؤكد اختلاق الحديث التالي الذي يصور الرسول بصورة مخالفة:

حدّثنا أبو المُغيرةِ عبدُ القُدُّوسِ بنُ الحَجّاجِ حدَّثَنا الأوزاعيُّ حدَّثني عطاءُ بنُ أبي رَباحٍ عنِ ابن عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما: "أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم تَزَوَّجَ مَيمونةَ وهوَ مُحْرِمٌ".

الحديث يقول بكل وضوح أن الرسول تزوجها، ولم يخطبها أو يعقد قرانه عليها فقط، بل دخل بها. أي أن الرسول "يرفث" في الحج.

واللوحة التي يمكن رسمها من نص الحديث: تظهر الحُجاج في المشاعر المقدسة، البعض في خيامهم والبعض في العراء، وهناك رجل هرم يختلي بعروسه الجديدة في خيمته، وقد علقت لوحة على رواق الخيمة كتب عليها: "الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ".

- الرفث يحرم في نهار رمضان

والرفث كما سبق وذكرنا هو كل ما له علاقة بالجماع، وهو محرم في نهار رمضان: أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ .... (١٨٧) البقرة.

والرفث، يدخل فيه التقبيل والتحسس وكل تصرف أو كلام يؤدي للتهيج، وليس المقصود بالتحريم والمنع الوصول للذروة الجنسية فقط. ويستحيل أن يرفث الرسول في نهار رمضان، ولو فعل فسيحل عليه غضب الله وسينقل لنا القرآن ما حدث.

إلا أن الحديث ينسب للرسول أنه كان يرفث وهو صائم: حدّثنا سُليمانُ بنُ حربٍ قال عن شُعبةَ عنِ الحكمِ عن إبراهيمَ عنِ الأسودِ عن عائشةَ رضيَ الله عنها قالت: «كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يَقبِّلُ ويباشِرُ وهو صائمٌ، وكان أمْلَكَكُمْ لإرْبِهِ».

اللوحة: تظهر رجلاً في نهار رمضان يتلو على المسلمين آية البقرة السابقة التي تحرم الرفث، ثم يعود لبيته ليقبل ويباشر زوجاته.

- الرسول زير نساء لا مثيل له في عالم البشر

حدَّثنا إِسماعيلُ بنُ خَليلٍ قال: أخبرَنا عليُّ بنُ مُسْهرٍ قال: أخبرَنا أبو إِسْحاقَ ـ هوَ الشَّيْبانيُّ ـ

عن عبدِ الرحمنِ بنِ الأسودِ عن أبيهِ عن عائشةَ قالت: كانت إحدانا إذا كانت حائضاً فأرادَ رسولُ اللهِّ صلى الله عليه وسلم أن يُباشرَها أَمَرَها أن تَتَّزِرَ في فَورِ حَيضتِها ثمَّ يُباشِرُها. قالت: وأَيُّكمْ يَملكُ إِرْبَهُ كما كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يَملِكُ إِرْبَه؟

وحديث آخر يقول: حدَّثنا مُحَمَّدُ بنُ بَشَّارٍ قَالَ: حَدَّثنا مُعاذُ بنُ هشامٍ قال: حدَّثني أَبي، عن قتادةَ قالَ: حدَّثَنا أَنسُ بنُ مَالِكٍ قال: كانَ النبيُ صلى الله عليه وسلم يَدُورُ عَلى نِسائِهِ في السَّاعَةِ الواحِدَةِ، من اللَّيلِ والنَّهارِ، وهُنَّ إِحْدى عَشْرةَ. قَالَ: قُلْتُ لأَنَس: أَو كَانَ يُطِيقُه؟ قَالَ: كُنَّا نتحدَّثُ أَنَّهُ أُعطِي قُوَّة ثلاَثِينَ.

فإذا كان الرسول جمع إحدى عشرة زوجة (كما يزعمون) وكان يقرعهن جميعاً في ساعة واحدة، كما يزعم هذا الحديث، وإذا ما وجد إحداهن في حيضها قضى وطره بحك ثيابها، كما يزعم الحديث الأول، الذي بعد ذلك يصف الرسول بكل صفاقة بأنه لا أحد "يَملكُ إِرْبَهُ كما كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يَملِكُ إِرْبَه".

ترى لو صدقنا هذا القصص عن الرسول، فهل لنا أن نتصور كيف سيكون حاله عليه، لو لم يكن يستطيع السيطرة على إربه؟

ويبدو أن لهذه الأحاديث مصدراً شيعياً، وجدناه في الكافي، وهذا نصه:

عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِّ قَالَ: إِنَّ جَبْرَئِيلُ هَبَطَ على النبي صلى الله عليه وآله بِصَفْحَةٍ مِنَ الْجَنَّةِ فِيهَا هَرِيسَةٌ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ هَذِهِ عَمِلَهَا لَكَ الْحُورُ الْعِينُ فَكُلْهَا أَنْتَ وعَلِيٌّ وَذُرِّيَّتُكُمَا فَإِنَّهُ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَأْكُلَهَا غَيْرُكُمْ فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِّ وَعَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَالْحَسَنُ والْحُسَيْنُ فَأَكَلُوا. فَأُعْطِيَ رَسُولُ اللهِّ فِي الْمُبَاضَعَةِ مِنْ تِلْكَ الْأَكْلَةِ قُوَّةَ أَرْبَعِينَ رَجُلًا فَكَانَ إِذَا شَاءَ غَشِيَ نِسَاءَهُ كُلَّهُنَّ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ.

واللوحة التي يمكن أن ترسم من الحديثين قد تكون كالتالي: تظهر رجلاً وقد اضطجعت ١١ زوجة استعدادا لدورها في المضاجعة والرجل يظهر بهيئة الهائج الذي يسن سكينه لسلخ ضحاياه.

- حروب الرسول غارات جاهلية وسبي

من ضوابط الجهاد في دين الله، قتال المقاتلة فقط: ..... فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً(٩٠) **النساء**.

ولا يجوز قتل المشركين والكفار الذين لا يقاتلون المسلمين، واعتزلوا الحرب.

كما لا يجوز معاقبة إنسان بجريرة غيره: وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ(١٩٠) البقرة.

وسبي نساء المقاتلة اعتداء ومعاقبة لهن بجريرة غيرهن، ولو كانوا أزواجهن أو إخوانهن أو آباءهن: وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ...... (١٨) فاطر.

وحتى لو اعتدى الكفار على المسلمين وسبوا نساءهم وقتلوا من لم يقاتلهم، فلا يجيز ذلك للمسلمين أن يعاملوا الكفار بالمثل: ...... وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢) المائدة.

بينما تريد منا الأحاديث أن نصدق أن رسول الله يتلو علينا القرآن ومن ثم ينبذه وراء ظهره ويمارس العادات الجاهلية في حربه ضد المشركين:

حدّثنا عليُّ بنُ الحسنِ أخبرَنا عبدُ الله أخبرَنا ابنُ عَونٍ قال: كتبتُ إلى نافع، فكتبَ إليَّ: إنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم أغارَ على بَني المُصْطَلِقِ وهم غارُّونَ وأنعامُهم تُسقىٰ على الماءِ، فَقتلَ مُقاتِلتَهم وسَبىٰ ذَراريَّهم وأصابَ يومَئِذٍ جُوَيرية. حدَّثني بهِ ابنُ عمرَ، وكان في ذٰلكَ الجيشِ.

اللوحة: مجموعة من قطاع طرق يحملون علماً مكتوباً عليه: لا إله إلا الله محمد رسول الله، يغيرون على أناس آمنين مطمئنين في بلدهم، وبسرعة خاطفة ومفاجئة يتمكنون من قتل الرجال والاستيلاء على الأنعام، ثم افتراس النساء.

ومثل هذا قصة سبي من سموها صفية بنت حيي، وغيرها.

والصور كثيرة جداً، لكن يكتفى بما تقدم لأننا تناولنا الأحاديث في كتاب مستقل اسمه: الحديث والقرآن من منشورات الجمل.

أمثلة مما تحويه كتب السير

وكتب السير تحتوي على ما تحويه كتب التفسير والحديث وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ مجتمعة وتزيد عليها، لذا فسنعطي أمثلة منها أكثر من الكتب الأخرى.

يقول ابن هشام في سيرته

فصل: ذكر المرأة المتعرضة عبد الله ابن عبد المطلب

وفي الفصل يقول عن والد الرسول الكريم:

قال ابن إسحاق: ثم انصرف عبدالمطلب آخذا بيد عبدالله، فمر به - فيما يزعمون - على امرأة من بني أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، وهي أخت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وهي عند الكعبة؛ فقالت له حين نظرت إلى وجهه: أين تذهب يا عبدالله قال: مع أبي، قالت: لك مثل الإبل التي نحرت عنك، وقع علي الآن، قال: أنا مع أبي، ولا أستطيع خلافه، ولا فراقه.. انتهى.

وقبل تقديم اللوحات التي يمكن رسمها من هذه القصة نقول:

القصة تؤكد أن شخصية ورقة ابن نوفل وهمية تماماً لذا اختلقوا هذه المرأة التي لم يذكروا لها اسماً وأنها أخت ورقة. فورقة وأخته، اسميان وهميان اختلقهما أهل السير للمس برسول الله عليه الصلاة والسلام.

ويستطيع أي أحد رسم لوحات كثيرة، منها:

اللوحة رقم ١: مومس تعترض والد الرسول وتعرض عليه مواقعتها مقابل المال.

لوحة رقم ٢: تظهر الساقطات يتجولن عند الكعبة في بيت الله الحرام بحثاً عن الزبائن.

لوحة رقم ٣: تظهر والد الرسول كأبله لا يستطيع أن يقرر بنفسه.

فصل: قصة حمل آمنة برسول الله صلى الله عليه وسلم

قال ابن إسحاق: وحدثني أبي إسحاق بن يسار أنه حُدِّث:

أن عبد الله إنما دخل على امرأة كانت له مع آمنة بنت وهب، وقد عمل في طين له، وبه آثار من الطين، فدعاها إلى نفسه، فأبطأت عليه لما رات به أثر الطين، فخرج من عندها فتوضأ

وغسل ما كان به من ذلك الطين، ثم خرج عامدا إلى آمنة، فمر بها، فدعته إلى نفسها، فأبى عليها، وعمد إلى آمنة، فدخل عليها فأصابها، فحملت بمحمد صلى الله عليه وسلم. ثم مر بامرأته تلك، فقال لها: هل لك قالت: لا، مررت بي وبين عينيك غرة بيضاء، فدعوتك فأبيت علي، ودخلت على آمنة فذهبت بها... انتهى.

فعبد الله كان عند مومس وأراد مواقعتها لكنها أبت لأنه ملطخ بالطين. فوجد آمنة التي قبلت به فواقعها وحملت بالرسول. يعني لو وافقت المومس لحملت بالرسول!

وورد في كتب السير لقاء الرسول وهو صغير براهب مسيحي أطلقوا عليه اسم بحيرا، والقصة طويلة ومعروفة. ولأن بحيرا شخصية وهمية فقد اختلفوا أين عاش، فالزهري يقول إنه من يهود تيماء، والمسعودي يقول هو من عبد قيس واسمه سرجس، وقال ابن هشام هو في بصرى الشام. وابن هشام ذكر أن الرسول التقى برهبان آخرين منهم: زرير وتمام ودريسا. ويقول إن زيد ابن عمرو ابن نفيل هو من نهى النبي عن أكل القرابين المقدمة للأصنام. وبلعام (قين مسيحي) كان يعلم الرسول في مكة، وقيل اسمه جبر، وقيل بل هما غلامان أحدهما اسمه جبر الآخر يسار. وقيل هو غلام لبني الحضرمي وقيل لبني المغيرة... الخ

ولو أضفنا لهم الاسم المختلق الآخر ورقة ابن نوفل وآخرين فمن السهل على أي شخص أن يقول بأن محمداً ليس رسولاً ولكنه تعلم من المسيحيين ثم صاغ ما تعلم بعباراته وزعم أنه وحي من الله.

ويقول صاحب السيرة الحلبية:

وقيل تعبده كان بالذكر وصحفه في (سفر السعادة) وقيل بغير ذلك. ومن ذلك الغير أنه قيل كان يتعبد قبل النبوة بشرع إبراهيم. وقيل بشريعة موسى غير ما نسخ منها في شرعنا وقيل بكل ما صح أنه شريعة لمن قبله غير ما نسخ من ذلك في شرعنا... انتهى.

هذا التهريف يثبت أن الرسول تتلمذ على أيدي رجال الدين المسيحيين واليهود وما قاله لم يكن وحياً.

اللوحة: تظهر محمداً كتلميذ وسط قسس ورهبان تتدلى من رقابهم الصلبان وبين أيديهم الكتب.

ويقول ابن إسحاق وغيره من كتب السير إن رسول الله كان يعمل عند خديجة أجيراً وكان يسافر للشام في تجارتها. وبما أن الشام بلد المسيحية فلابد أنه كان يعرج على أساتذته الرهبان ويتعلم منهم.

ولعل من المفيد أن يذكر أن الواقع يكْذب أن خديجة كانت ميسورة الحال وكانت امرأة أعمال كما تزعم كتب السير. لأن هذه الكتب لم تذكر لنا امرأة أخرى من قريش كانت تتعامل بالتجارة التي كانت وقفاً على الرجال دون النساء في ذلك المجتمع الذكوري البحت الذي كان يتوارث النساء كما يتوارث المتاع، فكيف يكون بينهم امرأة تتنافس مع الرجال في التجارة. ولو كانت خديجة من الأغنياء لظهر هذا على حياة الرسول الذي لم تبدُ عليه علامات الغنى أبداً لا في مكة ولا في المدينة، لدرجة أن الله فرض له من الغنائم حصة مساوية للمسكين وابن السبيل وكل محتاج: وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٤١) الأنفال.

باب: سلام الحجر والشجر عليه قبل مبعثه

عن سمرة قال: قال رسول الله: إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبلَ أن أبعث، إني لأعرفه الآن.

اللوحة ١: محمد يتخيل أن الأحجار تخاطبه ويحدث الناس بما يتخيل وكأنه حدث له بالفعل.

اللوحة ٢: تظهر محمداً وهو يضع أذنه على صخرة وبجانبه عدد من الرجال، وأحدهم يسأله: ماذا تفعل يا محمد؟ فيقول: هششش دعني أفهم ما يقول لي الحجر، فيقهقه الرجل منصرفاً وهو يهز رأسه ويضرب يداً بيد حسرة على حال محمد.

كما ورد في باب بدء الوحي أن الجبل الذي يقع فيه غار حراء كان يتحدث مع الرسول، وهذا نص ما ورد:

وكان يخلو بغار حراء بالمد والقصر، وهذا الجبل هو الذي نادى رسول الله صلى الله عليه وسلّم بقوله إلي يا رسول الله لما قال له ثبير وهو على ظهره: اهبط عني، فإني أخاف أن تقتل على ظهري فأعذب.

اللوحة رقم ١: تظهر الرسول أنه كان يختلي بغار حراء لأنه يظن أن الجبل يتحدث إليه.

اللوحة رقم ٢: الرسول ينزل من فوق ظهر حماره «ثبير» وهو غاضب، فيقول له رجل مار بجانبه: ما بك يا محمد؟

فيرد قائلاً: ألم تسمع هذا الحمار وهو يقول لي انزل عن ظهري؟

فيتبسم الرجل بشفقة، ويهز رأسه بأسى.

وورد في باب بدء الوحي

ونقل الماوردي عن الشعبي أن الله قرن إسرافيل عليه السلام[١] بنبيه ثلاث سنين يسمع حسه ولا يرى شخصه. وقيل إنه مكث خمس عشرة سنة يسمع الصوت أحياناً ولا يرى شخصاً، وسبع سنين يرى نوراً ولم ير شيئاً غير ذلك.

(يعني أن الرسول أمضى ٢٢ سنة من عمره وهو يتخيل سماع الأصوات ورؤية أشياء لا وجود لها).

اللوحة ١: تظهر الرسول وهو يهرول في طرقات مكة ويتحدث إلى الفضاء ويحرك يديه وكأنه يخاطب أحداً، ورجال قريش يقول أحدهم: إنه محمد ندعو العزى أن تشفيه.

اللوحة ٢: تظهر محمداً وحوله رجال قريش وهم يسألونه بسخرية: يا محمد أخبرنا ما الذي ترى وتسمع، فيسرد لهم محمد ما يتخيل وما يظهر له من تهيئوات، وهم يتغامزون فيما بينهم ويبتسمون.

وفي نفس المسار وفي سيرة بن هشام فصل بعنوان:

تثبت خديجة رضي الله عنها من الوحي

ومما جاء فيه: قال ابن إسحاق: وحدثني إسماعيل بن أبي حكيم مولى آل الزبير: أنه حُدث عن خديجة رضي الله عنها أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أي ابن عم، أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك قال: نعم؛ قالت: فإذا جاءك فأخبرني به.

فجاءه جبريل عليه السلام كما كان يصنع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخديجة:

---

١ لا وجود لملك من الملائكة اسمه اسرافيل في القرآن، ولا في ثقافة أهل مكة. ولكنه موجود في الاسرائيليات، وهو ما يظهر ثقافة مختلق القصة.

يا خديجة، هذا جبريل قد جاءني؛ قالت: قم يا ابن عم فاجلس على فخذي اليسرى؛ قال: فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس عليها؛ قالت: هل تراه قال: نعم؛ قالت: فتحولْ فاجلس على فخذي اليمنى؛ قال: فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس على فخذها اليمنى؛ فقالت: هل تراه قال: نعم. قالت: فتحول فاجلس في حجري؛ قالت: فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس في حجرها؛ قالت: هل تراه قال: نعم؛ قال: فتحسرت وألقت خمارها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في حجرها، ثم قالت له: هل تراه قال: لا؛ قالت: يا ابن عم، اثبت وأبشر، فو الله إنه لملك وما هذا بشيطان.

قال ابن إسحاق: وقد حدثت عبد الله بن حسن هذا الحديث، فقال: قد سمعت أمي فاطمة بنت حسين تحدث بهذا الحديث عن خديجة، إلا أني سمعتها تقول: أدخلت رسول الله صلى الله عليه وسلم بينها وبين درعها، فذهب عند ذلك جبريل، فقالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن هذا لملك وما هو بشيطان.

النصوص السابقة تقول: إن الرسول يهيأ له أنه يسمع أصواتاً ويرى أشياءً لا وجود لها.

اللوحة: تصور محمداً وحده وهو يتلفت يمنة ويسرة ويتحدث إلى فراغ واضعاً أصبعيه في أذنيه لئلا يسمع ما يظن أنه يسمع.

مشهد: يظهر فيه محمد وهو ينتقل من الجلوس على فخذ خديجة الأيمن فالأيسر ثم تدخله بينها وبين درعها في منظر جنسي فاضح وهو يقول: «أوه آهـ الآن لا أراه لا أراه».

ولم يسلم نسب الرسول من الأذى، فقد نقل ابن هشام في سيرته:

باب نسبه الشريف

وضمن الحديث عن جد الرسول عبد المطلب يقول:

وقيل له عبد المطلب، لأن عمه المطلب لما جاء به صغيراً من المدينة أردفه خلفه، وكان بهيئة رثة: أي ثياب خلقة، فصار كل من يسأل عنه ويقول من هذا؟ يقول عبدي أي حياء أن يقول ابن أخي... انتهى الاقتباس.

هذه القصة تحمل تحقيراً لجد الرسول، ولمن يرغب في رسم لوحة سيئة عن القصة فسيظهر جد الرسول ليس قرشياً ولكنه عبد لأحد رجال قريش ألحقه بنسبه.

أشد ما أوذي به الرسول

يقول ابن هشام: طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفا بالبيت، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول. قال: فعرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال: ثم مضى، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثم مر الثالثة فغمزوه بمثلها، فوقف، ثم قال: أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح.

اللوحة ١ : تظهر الرسول وقد تجمهر عليه رجال قريش الأجلاء المتحضرون، يريدون أن يفهموا ما أصاب ابنهم، وهو يتوعدهم بالذبح وقد تمنطق بسيفه ومرر يده على حلقة إشارة لقطع رؤوسهم.

عن معركة بدر وأسبابها

يصور ابن إسحاق أن معركة بدر سببها إغارة المسلمين على قوافل قريش القادمة من الشام لسلبها وأن قريشاً خرجت للدفاع عن أموالها. يعني أن قريشاً مدافعة عن حقها وأن الرسول والمسلمين عصابات نهب وسلب.

يقول ابن إسحاق:

قال ابن إسحاق: فحدثني محمد بن مسلم الزهري، وعاصم بن عمر بن قتادة، وعبدالله بن أبي بكر، ويزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير وغيرهم من علمائنا، عن ابن عباس، كل قد حدثني بعض هذا الحديث فاجتمع حديثهم فيما سقته من حديث بدر، قالوا: لما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي سفيان مقبلا من الشام، ندب المسلمين إليهم، وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله يُنْفِلُكُموها.

فما كان من قريش إلا أن تجهز رجالها وخرجوا لحماية قافلتهم، ويقول ابن إسحاق:

فتجهز الناس سراعا، وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي، كلا والله ليعلمن غير ذلك. فكانوا بين رجلين، إما خارج وإما باعث مكانه رجلا. وأوعبت قريش، فلم يتخلف من أشرافها أحد.

اللوحة هنا: تظهر مجموعة من الصعاليك على خيولهم شاهرين سيوفهم ويتقدمهم محمد وقد كمنوا قرب طريق القوافل بانتظار وصول القافلة لمباغتة رجالها والاستيلاء عليها.

ولوحة أخرى: تظهر رجال قريش الشجعان وهم يهرولون خارجين من مكة علهم يستطيعون الوصول لقافلتهم وحمايتها قبل أن ينال منها محمد وعصابته، تاركين خلفهم نساءهم وصبيانهم المساكين يتضورون جوعاً.

سبب نزول سورة الكوثر

قال ابن إسحاق: حدثني جعفر بن عمرو - قال ابن هشام: هو جعفر ابن عمرو بن أمية الضمري - عن عبدالله بن مسلم أخي محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، عن أنس بن مالك، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقيل له: يا رسول الله، ما الكوثر الذي أعطاك الله قال: نهر كما بين صنعاء إلى أيلة، آنيته كعدد نجوم السماء، ترده طيور لها أعناق كأعناق الإبل.

قال: يقول عمر بن الخطاب: إنها يا رسول الله لناعمة؛ قال: آكلها أنعم منها.

واضع القصة لا يؤمن بالرسول ويريد أن يصور لنا أن عمر أيضاً لا يؤمن بالرسول، وأن الرسول يعلم أن عمر يعلم أنه ليس رسولاً.

واللوحة التي يمكن رسمها تظهر الرسول يحدث على العامة قصصاً غير معقولة ومن حوله يهزون رؤوسهم مصدقين، فيلتفت عمر للرسول ويقول: إنها يا رسول الله لناعمة (مثل أن يقال للكذبة كبيرة أو قوية)، فيلتفت الرسول ويقول: آكلها أنعم منها (مثل أن يقال: من يصدقها يستأهل).

الإسراء

هناك الكثير من الروايات التي أوردتها كتب السير والحديث والتفسير نذكر بعضها:

رواية منسوبة لعائشة

تقول: قال ابن إسحاق: حدثني بعض آل أبي بكر: أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم كانت تقول: ما فُقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن الله أسرى بروحه.

ورواية منسوبة لابن مسعود

تقول: أُتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبراق - وهي الدابة التي كانت تحُمل عليها الأنبياء قبله، تضع حافرها في منتهى طرفها - فحُمل عليها، ثم خرج به صاحبه، يرى الآيات فيما بين السماء والأرض، حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم الخليل وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء قد جمُعوا له، فصلى بهم. ثم أُتي بثلاثة آنية، إناء فيه لبن، وإناء فيه خمر، وإناء فيه ماء. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فسمعت قائلا يقول حين عُرضت علي: إن أخذ الماء غرق وغرقت أمته، وإن أخذ الخمر غوى وغوت أمته، وإن أخذ اللبن هُدي وهديت أمته. قال: فأخذت إناء اللبن، فشربت منه، فقال لي جبريل عليه السلام: هُديت وهديت أمتك يا محمد.

واللوحات المستمدة من هذه القصص للسخرية من الرسول كثيرة منها:

اللوحة رقم ١:

الرسول وحوله أصحابه وهو يقص عليهم حلماً رآه اعتقد أنه حدث بالفعل. فتقاطعه عائشة من خلف ساتر وتقول: ولكنك لم تغادر الفراش في تلك الليلة يا محمد كما أخبرتنا أم هانىء. وبعد أن ينتهي من سرد القصة يقول أحد الأتباع: يا رسول الله من الذي كان يقول لك خذ اللبن، فيقهقه رجل بجانبه بصوت خافت. يتغير وجه محمد ويغادر المجلس بحجة أنه مشغول.

وأم هانىء بنت أبي طالب واسمها فاختة تروي أن الرسول كان يبيت عندها في تلك الليلة التي أسري به فيها. كما يزعم ابن هشام في سيرته والبخاري في حديثه.

وهذا نص ما ورد في سيرة ابن هشام: قال محمد بن إسحاق: وكان فيما بلغني عن أمر هانىء بنت أبي طالب رضي الله عنها، واسمها هند، في مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنها كانت تقول: ما أُسري برسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهو في بيتي، نام عندي تلك الليلة في بيتي، فصلى العشاء الآخرة، ثم نام ونمنا، فلما كان قبيل الفجر أهبَّنا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلما صلى الصبح وصلينا معه، قال: يا أم هانىء، لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثم قد صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين، ثم قام ليخرج، فأخذت بطرف ردائه، فتكشَّف عن بطنه

كأنه قُبطية مطوية، فقلت له: يا نبي الله، لا تحدث بهذا الناس فيكذبوك ويؤذوك؛ قال: والله لأحدثنهموه.

اللوحة ١:

الرسول يبيت عند ابنة عمه في بيتها (وهو غير محرم لها) وتفاصيل اللوحة تمنعها الرقابة. خاصة أن أم هانىء تقول: «دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم بغلس: أي في الظلام بعيد الفجر وأنا على فراشي... كما ورد في السيرة الحلبية.

اللوحة ٢:

الرسول يحلم بحلمٍ ويقصه على أم هانىء على أنه حدث له بالفعل، فتقول أم هانىء، وهي تشعر بالأسى: يا حبيبي يا محمد أنت بالفعل ذهبت البارحة لفلسطين ومنها للسماء ورأيت ربك ودخلت الجنة والنار ورأيت الرسل الذين ماتوا قبل آلاف السنين وصليت بالملائكة، لكن من الأفضل ألا تخبر أحدا بذلك خوفا عليك من أن يتهموك بالجنون أو يصيبوك بالعين. فيرد محمد باندفاع: بل سأخبرهم! سأخبرهم!

ونستمر مع روايات الإسراء كما وردت في السيرة الحلبية

فابن سعد يقول إن الرسول فُقد في تلك الليلة بجسده وأن العباس وجده آخر الليل في وادي ذي طوى الذي يبعد عن الحرم خارج مكة.

وفي رواية عن الحسن أن جبريل جاءه وهو نائم في المسجد فهمزه وأخرجه وأركبه البراق.

وكثرة الروايات المتعارضة المختلفة توحي باللوحة التالية:

لوحة ٣:

محمد حوله عدد من أتباعه وهو يقص عليهم كيف أسري به، فيعترض أحدهم قائلا: يا محمد ولكنك أخبرتنا في السابق أنك كنت في المسجد الحرام، فصرخ آخر وقال: بل قلت لنا أنك كنت تبيت عند أم هانىء. فقال ثالث: لا لقد قال إن هذا حدث له في المدينة! فتلعثم محمد وقال: نعم نعم كل هذا صحيح فقد أسري بي عدة مرات.

المشهد الذي يمكن إخراجه من القصة:

محمد تفتقده خديجة في احدى الليالي فتهرع لعمه العباس فيخرج ويخرج معه الناس للبحث

عنه في الأودية المحيطة بمكة. ثم ينتقل المشهد والعباس يعثر على محمد في وادي ذي طوى هائماً على وجهه فيمسك به ويعيده لخديجة قائلاً: كوني أكثر حرصاً على مراقبته يا ابنة العم! فقد لا نتمكن من العثور عليه في المرة القادمة أو قد يصاب بمكروه.

المعراج

يروي ابن هشام في سيرته ما يتفق فيه مع ما ورد في البخاري وبعض كتب الحديث الأخرى من أن جبريل والرسول عندما وصلا للسماء الدنيا قرع جبريل الباب فقال له حرس الباب من الطارق؟ فقال جبريل! فقالوا له: ومن معك؟ قال: محمد. قال الحرس: أو بعث؟ وأدخلوهما ثم يتنقلان من سماء لسماء حتى يصلا عرش الرحمن وتفرض الصلاة خمسين وفي طريق العودة يستوقفهما موسى ويتساءل عن عدد الصلوات المفروضة فخبره الرسول فيقنع محمد بالعودة إلى رب العرش ويسأله التخفيض فيخفض خمساً ... ويتكرر الذهاب والإياب حتى تصل إلى خمس صلوات ثم يعود جبريل ومحمد للأرض.

وبحكم أنها تسلسل متحرك فسنفترض أن أحداً ممن يريد مهاجمة الإسلام أراد السخرية من هذه القصة وقام بإنتاج فيلم مسيء.

وهذه بعض المشاهد المخزية:

المشهد ١ :

صورة تظهر السماء كبناء عظيم له سور لا يمكن رؤية أعلاه وله باب هائل الكبر والمساحة (كل هذا في أفق الصورة كون السماء فوق الأرض) وجبريل (عبارة عن ملاك أبيض بعدة أجنحة بيضاء تشع نوراً) وبين يديه محمد بحجمه البشري الصغير وهو يتطلع لما حوله بفضول ووجل. وجبريل يخبط الباب بجناحه فيهتز فيصرخ الحرس من خلف الباب: من الطارق؟ فيجيب جبريل: أنا! أنا جبريل! ويستكمل الحوار.

فصل عرض الأرواح على آدم

قال أبو سعيد الخدري في حديثه: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لما دخلت السماء الدنيا، رأيت بها رجلا جالسا تُعرض عليه أرواح بني آدم، فيقول لبعضها إذا عُرضت عليه خيرا ويُسّر به، ويقول: روح طيبة خرجت من جسد طيب؛ ويقول لبعضها إذا عُرضت

عليه: أف، ويعبس بوجهه ويقول: روح خبيثة خرجت من جسد خبيث. قال: قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك آدم.

تعليق:

آدم ميت ومن يمت لا تعاد له الحياة إلا يوم القيامة. ويمكن ملاحظة أن عرض الأنفس على آدم في السماء يعارض قول كتب التراث أن هناك عذاب قبر، لأنه إن كان هناك عذاب قبر فالأنفس تعذب أو في نعيم في قبرها وليس في السماء.

المشهد ٢ :

رجل ضخم الجثة شعره أبيض كث اللحية يجلس على كرسي عريض وهناك صف طويل جداً لا ينتهي من الناس نساء ورجال وأطفال ورضع يعرضون عليه وهو يعبس لهذا ويفرح لهذا ويسب هذا ويمدح ذاك.

ويستمر ابن هشام يستعرض قصصاً عما في النار نذكرها أثناء استعراض الرسم:

المشهد ٣ :

نار مستعرة ولهب يتطاير ووسطها الرسول وهو يطير في جنبات النار مع جبريل، فيرى في جهة من النار يافطة مكتوب عليها: أكلة مال اليتامى. وتحتها: رجال لهم مشافر كمشافر الإبل، في أيديهم قطع من نار كالأفهار، يقذفونها في أفواههم، فتخرج من أدبارهم. وفي جهة أخرى، يافطة مكتوب عليها: آكلو الربا، وتحتها: رجال لهم بطون لم أر مثلها قط بسبيل آل فرعون، يمرون عليهم كالإبل المهيومة حين يُعرضون على النار، يطئونهم لا يقدرون على أن يتحولوا من مكانهم ذلك. وفي جهة أخرى يافطة مكتوب عليها: الزناة: رجالا بين أيديهم لحم ثـمين طيب، إلى جنبه لحم غث منتن، يأكلون من الغث المنتن، ويتركون السمين الطيب. وقبل أن يتساءل محمد: أين النساء، وهن أكثر حطب جهنم، يقول له جبريل، التفت إلى يسارك، وهناك يرى محمد يافطة كتب عليها: من نسبت ابنها لزوجها من غيره، وتحتها: نساء معلقات بثديهنّ.

فيصيب الرسول قشعريرة ويطلب الخروج من النار.

ثم يطلب من جبريل مواصلة الرحلة للسماء الثانية، وبمجرد ما دلف مع الباب حتى التقى "ابني الخالة" عيسى ابن مريم ويحيى ابن زكريا.

وأتساءل: هل عيسى ويحي ابنا خالة؟

القرآن لم يقل بهذا ولم يشر إليه، مثلما أن القرآن يؤكد أن الجنة والنار لم تخلق بعد، وستخلق مع خلق كون القيامة وليس في هذا الكون.

المشهد ٤ :

تظهر الرسول وقد دلف من باب السماء الثانية الضخم ومعه جبريل ويجد أمامه شابين حسني المظهر، وجبريل يقدمهما: هذا عيسى ابن مريم وهذا يحيى ابن زكريا، وهذا ضيفنا الكبير محمد ابن عبد الله الذي أرسل للأميين بعد موتكم بوقت طويل... فتختلط أصوات الثلاثة: تشرفنا! أهلا وسهلا! كيف هي الأخبار تحت على الأرض؟ كل شيء على ما يرام الحمد لله. فيقاطعهم جبريل: عذراً فنحن على عجلة من أمرنا.. هيا بنا يا محمد الوقت يداهمنا... في أمان الله!

المشهد ٥ :

تظهر جبريل وهو يحضن محمداً ويطير بين السماوات والشهب تتطاير يمنة ويسرة ويمران بالكواكب والشموس والثقوب السوداء.

المشهد ٦ : من السماء الثالثة

الباب الضخم يفتح بصرير يصم الآذان على بهو رائع فيه سجادة مذهبة بطول ميل في ميل وستائر من حرير وكرسي عريض غائص فيه يوسف ابن يعقوب.

والمشهد الثاني: يوسف ينهض باشاً مبتسماً بعد أن عرفه جبريل بالضيف ويبادله محمد الابتسام والمصافحة ثم يعلن جبريل أن الوقت ضيق ويودعان يوسف.

المشهد الثالث: جبريل يحتضن محمداً ثم يطير عبر باب السماء الثالثة الضخم إلى أعلى باتجاه السماء الرابعة.

ويتكرر المشهد في السماء الرابعة مع إدريس والخامسة مع هارون والسادسة مع موسى.

ويجتازونهم إلى السماء السابعة حيث إبراهيم جالس على كرسي عند باب البيت المعمور وجموع هائلة من الملائكة يدخلون من عنده، في صورة كأن إبراهيم واحد من الذين يجلسون عند باب الحرم المكي هذه الأيام والملائكة مثل جموع الناس الداخلين للحرم.

وينقل لنا ابن هشام أن الرسول دخل الجنة وكل ما لفت انتباهه هو: فرأيت فيها جارية لعساء، فسألتها: لمن أنت وقد أعجبتني حين رأيتها؛ فقالت: لزيد بن حارثة، فبشَّر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة.

اللوحة:

جارية وليست من الحور لونها حمراء داكن مثل لون بعض أصباغ الشفاه، استرعت انتباه محمد فسأل وهو يقلب النظر فيها بإعجاب: لمن هذه الجارية؟ كما في سوق النخاسة. فأخبره جبريل أنها محجوزة.

أما أهم ما في قصة المعراج فهو الحديث عن فرض الصلاة وأعتذر عن تخيله كلوحة أو كمشهد. لكن من رغب أن يتخيل المشاهد الجريئة جدا على الله والرسول فليقرأ حديثاً أورده البخاري في باب قوله وكلم الله موسى تكليما ويبدأ بقوله: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ حَدَّثَنِى سُلَيْمَانُ عَنْ شَرِيكِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ سَمِعْتُ ابْنَ مَالِكٍ يَقُولُ لَيْلَةَ أُسْرِىَ بِرَسُولِ اللَّهِ.

ومما ورد فيه: ثُمَّ عَلاَ بِهِ فَوْقَ ذَلِكَ بِمَا لاَ يَعْلَمُهُ إِلاَّ اللَّهُ، حَتَّى جَاءَ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى وَدَنَا الْجَبَّارُ رَبُّ الْعِزَّةِ فَتَدَلَّى حَتَّى كَانَ مِنْهُ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى اللَّهُ فِيمَا أَوْحَى إِلَيْهِ خَمْسِينَ صَلاَةً عَلَى أُمَّتِكَ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ. ثُمَّ هَبَطَ حَتَّى بَلَغَ مُوسَى فَاحْتَبَسَهُ مُوسَى فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ مَاذَا عَهِدَ إِلَيْكَ رَبُّكَ قَالَ عَهِدَ إِلَىَّ خَمْسِينَ صَلاَةً كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ. قَالَ إِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ فَارْجِعْ فَلْيُخَفِّفْ عَنْكَ رَبُّكَ وَعَنْهُمْ. فَالْتَفَتَ النَّبِىُّ - صلى الله عليه وسلم - إِلَى جِبْرِيلَ كَأَنَّهُ يَسْتَشِيرُهُ فِى ذَلِكَ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ جِبْرِيلُ أَنْ نَعَمْ إِنْ شِئْتَ. إنتهى الاقتباس. وقد تكرر التخفيض حتى انتهى لخمس.

ومن اللوحات الكثيرة التي يمكن رسمها هنا والمسيئة لله جل وعلا وللرسول عليه الصلاة والسلام:

لوحة ١ :

مستمدة من قوله: حَتَّى جَاءَ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى وَدَنَا الْجَبَّارُ رَبُّ الْعِزَّةِ فَتَدَلَّى حَتَّى كَانَ مِنْهُ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى.

في خلفية الصورة سدرة عظيمة وفوقها "الجبار" وقد تدلى - كما يتدلى الخفاش أو القرد من

غصن شجرة - رأسه الضخم إلى أسفل ورجلاه للأعلى (أستغفر الله) حتى كاد أن يلامس محمد الذي يبدو في الصورة بحجمه البشري الضئيل جدا والذي لا يكاد يرى.

لوحة ٢ :

مستمدة من قوله: " ثُمَّ هَبَطَ حَتَّى بَلَغَ مُوسَى فَاحْتَبَسَهُ مُوسَى فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ مَاذَا عَهِدَ إِلَيْكَ رَبُّكَ قَالَ عَهِدَ إِلَيَّ خَمْسِينَ صَلاَةً كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ. قَالَ إِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ فَارْجِعْ فَلْيُخَفِّفْ عَنْكَ رَبُّكَ وَعَنْهُمْ. فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - إِلَى جِبْرِيلَ كَأَنَّهُ يَسْتَشِيرُهُ فِى ذَلِكَ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ جِبْرِيلُ أَنْ نَعَمْ."

تظهر الرسول مسلوب الإرادة لا يستطيع أن يقرر ما يفعل وأقرب للسذاجة، يلتفت إلى جبريل مستائلا. بينما يظهر موسى شخصاً قوي الشخصية والتركيز ذكي ملهم قيادي.

مشهد ١ :

يظهر الله (تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا) وأمامه محمد يطلب منه التخفيض في الصلوات، فيقول: حسناً سأخفض عنكم خمس صلوات... هذا قرار نهائي.

ويتكرر المشهد عدة مرات وفي كل مرة يخفض، ويقول: هو قرار نهائي.

مشهد ٢ :

الله (تبارك عن ذلك علواً كبيراً) وأمامه محمد وهو يقول بصوت منخفض: يا ربي خمسون صلاة تحتاج لوقت أكثر من ٢٤ ساعة. فإما أن تطيل اليوم وتجعله ٦٠ ساعة أو تخفض لنا عدد الصلوات.. فيجيب الخالق (تعالى عن ذلك وتبارك) دعني أرى... ويظهر وهو يقسم عدد ساعات النهار والليل على عدد الصلوات ثم يقول: نعم نعم كلامك فيه شيء من الصحة يا محمد، من أخبرك بذلك؟ محمد يجيب: إنه موسى يا إلهي... فيردد رب السموات والأرض: أوه موسى ! موسى ! هذا الرجل لا مثيل له. حسناً سأخفض.

والحديث ينتهي هكذا: " قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - يَا مُوسَى قَدْ وَاللَّهِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّى مِمَّا اخْتَلَفْتُ إِلَيْهِ. قَالَ فَاهْبِطْ بِاسْمِ اللَّهِ. قَالَ وَاسْتَيْقَظَ وَهُوَ فِى مَسْجِدِ الْحَرَامِ".

مشهد ٣ :

الرسول وسط أصحابه يروي لهم أنه كان في السماء وقابل الله وموسى وبعض الرسل الأموات ورأى الجنة والنار.. وقد بلغ بهم الحماس والتفاعل مبلغه لينهي كلامه بالقول: فاستيقظت فإذا أنا في المسجد الحرام... وأحد الحاضرين يقول: يا له من حلم مثير. وآخر يقول: لقد ظننت أن هذا حدث لك بالفعل فهو مشابه للقصة التي أخبرتنا أنها حدثت لك عندما جاءك جبريل وغطك وقال لك اقرأ. في نفس الوقت ينهض رجل من الجلوس وينصرف وهو يقول: لقد سئمت قصص أحلامك التي لا تنتهي يا محمد.

ومما ورد في سير أعلام النبلاء للذهبي عن المعراج ما يلي:

الجزء السادس والعشرون قَالَ ابْنُ سَعْدٍ: وَأَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ، قَالَ: حَدَّثَنِي أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ اللَّيْثِيُّ، عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ: وَحَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ يَعْقُوبَ الزَّمْعِيُّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ. وَحَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ يَعْقُوبَ، عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ. وَحَدَّثَنِي إِسْحَاقُ بْنُ حَازِمٍ، عَنْ وَهْبِ بْنِ كَيْسَانَ، عَنْ أَبِي مُرَّةَ، عَنْ أُمِّ هانىء. وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ زَكَرِيَّا بْنِ عَمْرٍو، عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ، قَالُوا: «أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَيْلَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ قَبْلَ الْهِجْرَةِ مِنْ شِعْبِ أَبِي طَالِبٍ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَسَاقَ الْحَدِيثَ إِلَى أَنْ قَالَ: وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي الْحَدِيثِ: فَتَفَرَّقَتْ بَنُو عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يَطْلُبُونَهُ حِينَ فُقِدَ يَتَلَمَّسُونَهُ، حَتَّى بَلَغَ الْعَبَّاسُ ذَا طُوًى، فَجَعَلَ يَصْرُخُ: يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ، فَأَجَابَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَبَّيْكَ. فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي عَنَّيْتَ قَوْمَكَ مُنْذُ اللَّيْلَةِ، فَأَيْنَ كُنْتَ؟ قَالَ: أَتَيْتُ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ. قَالَ: فِي لَيْلَتِكَ! قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: هَلْ أَصَابَكَ إِلا خَيْرٌ؟ قَالَ: مَا أَصَابَنِي إِلا خَيْرٌ. إنتهى

مشهد ١ :

بنو عبد المطلب في ليلة ظلماء منتشرون في الجبال والشعاب المحيطة بمكة يبحثون عن محمد الذي يحدثهم أنه يخاطب الحجر والشجر ويسمع أصواتاً من السماء. وعندما يجدونه يقول لهم: لقد كنت في فلسطين. فيقول له العباس متهكماً وهو يعلم أنه يتخيل أحداثا ويتحدث عنها على أنها وقعت: أذهبت وجئت في ليلتك هذه؟ فيقول: نعم ... فيهز العباس رأسه

بأسى على حال محمد التي وصلت لليأس ويقول: المهم أنك بخير ولم تصب بأذى في هذا الليل الدامس، هيا بنا يا ابن أخي إلى مكة.

وقد جمع صاحب السيرة الحلبية صفات البراق بهذا الشكل: وفي كلام بعضهم في صفة البراق «وجهه كوجه الإنسان، وجسده كجسد الفرس وقوائمه كقوائم الثور، وذنبه كذنب الغزال، لا ذكر ولا أنثى» وذكر بعضهم أن أذنيها كأذني الفيل، وعنقها كعنق البعير. وصدرها كصدر الفيل كأنه من ياقوت أحمر. لـها جناحان كجناح النسر، فيهما من كل لون قوائمها كقوائم الفرس، وذنبها كذنب البعير... انتهى.

اللوحة:

واضحة ولو كنت رساماً لرسمتها.

ولعلنا نتوقف هنا فالمهم هو إعطاء أمثلة وليس الإحاطة بكل ما تحويه كتب السير في أي موضوع.

وقبل أن نتحدث عما نسب للرسول من غزوات نؤكد أن كل الغزوات التي لم يذكرها القرآن فهي لم تقع ولكنها مختلقة حتى لو بلغت شهرتها الآفاق وترسخت وانتشرت وعرفها القاصي والداني. فلم يكن هناك على سبيل المثال قتال في خيبر زمن رسول الله برغم أن غزوة خيبر لا يختلف عليها اثنان، وسنورد في بداية حديثنا اليوم قصة عن سرية قالت كتب التراث إنها وقعت وأوردت فيها أسماء أشخاص لا وجود لهم.

قتل عصماء بنت مروان

القصة وردت في الطبقات الكبرى لابن سعد، والبداية والنهاية، وسيرة ابن هشام، والسيرة الحلبية، والمغازي للواقدي، والروض الأنف وعدد كبير من الكتب التراثية الأخرى.

المشهد:

عَصْمَاءَ بِنْتَ مَرْوَانَ تهجو النَّبِيّ وتقول شعراً بذيئاً:

فَباسْتِ بَنِى مَالِكٍ والنَّبِيتِ

وَعَوْفٍ وَبِاسْتِ بَنِى الْخَزْرَجِ

ثم ينتقل المشهد إلى أحد اصحاب محمد وهو يقطع عهداً على نفسه أمام الله أن يقتلها.

ثم ينتقل المشهد والرجل يتسلل بين بيوت قبيلة المرأة فِي جَوْفِ اللَّيْلِ إلى أن يصل لبيتها، فيدلف إلى البيت.

ينتقل المشهد معه إلى داخل البيت والرجل واقف شاهرا سيفه، وأمامه المرأة وحولها ينام صغارها. بعضهم يحيط بها ورضيع قد ضمته على صدرها.

يتحرك الرجل بحذر لئلا يصدر صوتاً، حتى يقترب من المرأة. يضع سيفه بجانبه ثم بكل هدوء وبرودة أعصاب يفتك الرضيع من ثدي أمه ويضعه بجانبها والرضيع يغالب النوم، ثم بسرعة خاطفة يضع سَيْفَهُ عَلَى صَدْرِ المرأة واعتمد عليه بكل قوته حَتَّى أَنْفَذَهُ مِنْ ظَهْرِهَا، فتتحول صرختها إلى حشرجة باهتة. يستل سيفه ويقفز خارج الغرفة ويتسلل بخفة بين البيوت عائداً من حيث أتى دون أن يشعر به أحد.

ينتقل المشهد والرجل يصلي خلف رسول الله مع الناس في المدينة صلاة الفجر، وبعد أن تنتهي الصلاة يقفز الرجل ويدنو من الرسول هامساً في أذنه: لقد قتلت بنت مروان.

فيتساءل الرسول: أي مروان؟

فيقول الرجل: عصماء بنت مروان التي هجتك يا رسول الله.

يرد الرسول: أوه لقد نسيت.

فَقَالَ الرجل: هَلْ عَلَيَّ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ الرسول: لا يَنْتَطِحُ فِيهَا عَنْزَانِ، ستكون في ميزان أعمالك.

سَرِيَّةُ قَتْلِ أَبِي عَفَكٍ

قصة مشابهة تماما للسابقة.

رجل عمره ١٢٠ سنة أسماه مختلق القصة أبا عفك يهجو الرسول بقصيدة، فقال رجل من أتباع الرسول: عَلَيَّ نَذْرٌ أَنْ أَقْتُلَ أَبَا عَفَكٍ أَوْ أَمُوتَ دُونَهُ.

المشهد:

ليلة صيف حيث ينام الناس في أفنية بيوتهم، المسلم يتسلل لفناء منزل الشيخ فيجده وقد علا شخيره. يقترب منه بحذر ثم: وضع السَّيْفَ عَلَى كَبِدِهِ حَتَّى خَشَّ فِي الْفِرَاشِ، وهو يصيح خذها يا عدو الله.

ويغادر البيت بسرعة دون أن يراه جيران الرجل الذين تقاطروا ليروا ماذا حدث؟

غزوة قينقاع

لو أراد أحد من غير المسلمين أن يصور ما تقوله كتب التراث عما حدث لبني قينقاع لجاءت المشاهد وكأن الرسول كان يعيش في شظف عيش مع أصحابه في منطقة قاحلة من يثرب بينما يعيش بني قينقاع حياة مرفهة مريحة وسط حدائق النخيل والخضروات التي يزرعون والتي تتخللها جداول المياه. فعزم الرسول على طردهم والاستيلاء على مزارعهم وأموالهم، فأعلن لأصحابه أن الله قد أنزل عليه آية تخبره أنهم خانوه، وهي: وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) الأنفال.

وأن على المسلمين أن يطردوهم من ديارهم أو يقتلوهم.

ولنتذكر أن القرآن يخبرنا أن يهود وبني إسرائيل يثرب لم يتعرض لهم المسلمون بعد بدر - كما تزعم كتب التراث - ولا بعد أحد ولكن بعد الأحزاب عندما ثبت تورط فرقة منهم مع أعداء الإسلام في الأحزاب، ومرة أخرى في آخر حياة محمد وبعد فتح مكة بعد أن ثبت تورط فرقة أخرى منهم مع أعداء الإسلام قريش مرة أخرى. وقد بقي بقية بني إسرايل واليهود في يثرب بعد وفاة رسول الله ولم يتعرض لهم لأنه لم يصدر منهم أي عداء للمسلمين.

وسورة الأنفال التي وردت فيها الآية نزلت بعد معركة بدر.

ورواة القصة هم الزهري وابن كعب القرظي (اليهودي السابق).

غزوة قرارة الكدر

الرسول يسمع أن بني سليم وغطفان يرعون ماشيتهم الكثيرة العدد في مكان قريب من المدينة اسمه قارة الكدر، فيغير عليهم مع بعض أصحابه ويستاق الماشية ويأخذ لنفسه خمسها إضافة لعبد كان يرعاها، ويفرق الباقي على أصحابه فيأتي الواحد منهم سبعة أبعرة وكان القوم مئتين.

قتل كعب ابن الأشرف

كان يهجو الرسول فقال الرسول: من لي بابن الأشرف فقد آذاني؟

يتم اختيار نفر من المسلمين لتنفيذ المهمة. وقد استخدموا الخديعة والكذب حتى أقنعوا

ابن كعب أن يخرج معهم بعيداً عن حصنه ويترك عروسه التي للتو تزوجها. ثم هجموا عليه وأمسك أحدهم بقرون رأسه (ذؤابتي شعره) بينما هجم عليه الآخرون بسيوفهم وسكاكينهم إلى أن ضربه أحدهم في بطنه بسكين ثم سحبها حتى وصلت سرته. ثم احتزوا رأسه وحملوه معهم وعادوا يشتدون تحت جنح الظلام.

وكان الرسول بانتظارهم قرب المسجد فلما رآهم مقبلين، صاح بهم: أفلحت الوجوه. فقالوا: أفلح وجهك يا رسول الله، ورموا رأس ابن الأشرف بين يديه فكبر وهلل وحمد الله.

القصة تكمل بأن مروان ابن الحكم عندما كان والياً على المدينة في عهد معاوية ابن أبي سفيان، وفي مجلسه أحد من اشترك في قتل ابن الأشرف ورجل من بني النضير اسمه بنيامين، سأله مروان: كيف كان قتل ابن الأشرف؟ فقال: غدراً.

وقريش هي من أقر تلك القصص وهي من شجع على اختلاقها للثأر من الإسلام الذي قوض قداستها وأهان كبراءها.

غزوة بني قريظة

الرواية: عن الزهري قال إن جبريل جاء للنبي معتجرا بعمامة من إستبرق، على بغلة عليها رحالة، عليها قطيفة من ديباج.

وتقول الرواية: ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفر من أصحابه بالصَّوْرَيْن قبل أن يصل إلى بني قريظة، فقال: هل مر بكم أحد قالوا: يا رسول الله، قد مر بنا دحية بن خليفة الكلبي، على بغلة بيضاء عليها رحالة، عليها قطيفة ديباج. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذلك جبريل، بعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم، ويقذف الرعب في قلوبهم.

المشهد:

الرسول يحاول إقناع أصحابه بغزو اليهود قائلا: لقد جاء جبريل معتجرا بعمامة من إستبرق، على بغلة عليها رحالة، عليها قطيفة من ديباج، وأمرني أن أهجم على بني قريظة وسبقني إلى هناك. فيتسارع المسلمون إلى أسلحتهم وركابهم.

ينتقل المشهد والرسول ومعه دحية الكلبي وقد تعجر بعمامة من استبرق وركب بغلة بيضاء عليها قطيفة من ديباج، والرسول يقول له: أخرج وسر أمام الناس ولا تتحدث إليهم.

الرواية: فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم. قال: يا إخوان القردة، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟ قالوا: يا أبا القاسم، ما كنت جهولا.

المشهد:

الرسول وحشد من المسلمين معه يقفون أسفل حصون اليهود، ويصرخ محمد بأعلى صوته: يا إخوان القردة، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟

فيطل عليه رجل وقور منهم، ويقول: لا يحسن بك كزعيم أن تكون جهولاً يا محمد.

فيطأطئ الرسول رأسه للحظة ثم يعلوا صوته: إلى الهجوم يا رجال على إخوان القردة.

الرواية: وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين ليلة، حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب.

الرواية: كعب ابن أسد ينصح قومه. (الرواية طويلة وسنكتفي بالمشهد).

المشهد:

اليهود داخل حصونهم وقد نفدت مؤنتهم من الطعام، وضجت النساء والأطفال، فيدعو أحد عقلائهم واسمه كعب رجال اليهود للاجتماع لبحث ما يجب فعله. ويعرض عليهم إما القتال حتى الموت أو الاستسلام فيأبون الاستسلام لأنهم لا يأمنون محمداً، ولن يقاتلوا لأن غداً هو السبت ولن يقترفوا معصية العمل في السبت وهو محرم في دينهم. (منتهى التمجيد لليهود ودينهم والتسفيه والتجريح بالرسول والمسلمين).

الرواية: قال: ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبدالمنذر، أخا بني عمرو بن عوف، وكانوا حلفاء الأوس، لنستشيره في أمرنا، فأرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم؛ فلما رأوه قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرق لهم، وقالوا له: يا أبا لبابة! أترى أن ننزل على حكم محمد قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه، إنه الذبح.

المشهد:

اليهود يطلبون من محمد أن يرسل لهم ممثلاً له ليتفاوض معهم، فيصلهم أبو لبابة ويعقد رجالهم معه لقاء والمكان يضج ببكاء الأطفال وعويل النساء تتقطع له القلوب، فيرق قلب

أبي لبابة ويخبرهم - بالإشارة- أنهم إن استسلموا فسيقتلون عن بكرة أبيهم وستسبى نساؤهم.

الرواية: تحكيم سعد في بني قريظة (القصة طويلة وسنكتفي بالمشهد)

المشهد:

نفدت مؤنة اليهود ولم يعودوا قادرين على الصمود في حصونهم فأعلنوا استسلامهم، وفتحوا حصونهم للمسلمين. فسارعت الأوس إلى الرسول تطلب منه أن يهبهم لهم فقد كانوا مواليهم وأصحاب النعمة عليهم. فقال لهم الرسول: هل ترضون بحكم أحكم فيهم؟

قالوا: نعم. قال ائتوني بسعد ابن معاذ.

ينتقل المشهد وقد أحضر سعد على حمار وهو محموم لإصابته بسهم في الخندق تسبب في تسمم دمه وكان يهذي.

فقيل له: يا سعد لقد ولاك الرسول الحكم على بني قريظة. فقال: تُقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتُسبى الذراري والنساء.

فقال الرسول: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات... هيا يا رجال ائتوني بهم.

الرواية: حبس بني قريظة ومقتلهم

قال ابن إسحاق: ثم استنزلوا، فحبسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة في دار بنت الحارث، امرأة من بني النجار، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سوق المدينة، التي هي سوقها اليوم، فخندق بها خنادق، ثم بعث إليهم، فضرب أعناقهم في تلك الخنادق، يخرج بهم إليه أرسالا، وفيهم عدو الله حيي بن أخطب، وكعب بن أسد، رأس القوم، وهم ستمائة أو سبعمائة، والمكثِّر لهم يقول: كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر بقتل كل من أنبت منهم.

المشهد:

المسلمون وهم يأمرون شباب بني قريظة بالكشف عن عوراتهم، فمن أشعر ربطوا يديه مع

أيدي الرجال مع بعضهم البعض ثم يأمرونهم بالسير إلى المدينة قرابة خمسة كيلومترات، بينما أبقيت النساء والأطفال في الحصون تحت حراسة رجال من المسلمين.

ينتقل الرجال وقد وصلوا إلى دار لامرأة من بني النجار حيث أدخلوا فيها وكان الوقت قبيل غروب الشمس، وأحيط البيت بالحرس.

ينتقل المشهد - صباح اليوم التالي - والرسول وسط سوق المدينة ورجال يقومون بحفر أخاديد عميقة وسط الشارع، وبعد أن يكتمل الحفر ينادي الرسول: يا علي انطلق وأحضر رجال بني قريظة من دار بنت الحارث.. أمرك يا رسول الرحمة بأبي أنت وأمي.

ثم ينادي الرسول بعض أصحابه ويأمره بالاستعداد بسيوفهم ويأمر كل واحد بالوقوف بقرب الأخدود على مسافات متقاربة.

يصرخ أحد الرجال: يا رسول الله ها قد أحضر إخوان القردة والخنازير ... فيرفع الرسول صوته: الله أكبر فيكبر الناس وراءه محدثاً دوياً هائلاً.

يتم صف اليهود على تسعة صفوف، كل صف مئة رجل، ثم ينادى على أول كل صف ليتقدم إلى الحفرة، يستلم كل واحد أحد السيافين الواقفين على الحفرة بأمر الرسول، ثم يقعده على ركبتيه ويأتيه من الخلف وبضربة سريعة من سيفه يتدحرج الرأس في الحفرة العميقة فيركل السياف الجسد ليلحقه بالرأس.

المشهد يتباطأ ليرينا السيد المبجل "حيي ابن أخطب" وهو يتقدم لحتفه واثق الخطى - يذكرني بصدام - وقبل أن يقعد على ركبتيه يلتفت للرسول ويقول: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك.

ثم يلتفت إلى رجال قومه في صفوفهم ويقول بأعلى صوته: إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل.

ثم يتقدم بتؤدة ويقول للسياف: لقد سامحتك لأني أعلم أنك تؤدي عملك.

ثم يقعد على ركبتيه وقد أماط الغطاء عن وجهه وتمتم بالشهادة فتدحرج رأسه في الحفرة ولحق بها جسده.

الرواية: مقتل الزبير ابن باطا (سنكتفي بالمشهد).

المشهد:

ثابت ابن قيس يطلب من الرسول أن يعتق سيداً شهماً من بني قريظة هو الزبير ابن باطا لمعروف له عليه، فيوافق الرسول فيسرع راكضاً ثابت إلى اليهودي الزبير الواقف في الصفوف ويبلغه أنه استطاع أن يقنع الرسول بالعفو عنه، فيقول: الزبير: شيخ كبير لا أهل له ولا ولد، فما يصنع بالحياة؟

يعود ثابت للرسول ويقول: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، هب لي امرأته وولده وماله؛ قال: هم لك.

فيعود مسرعا للزبير ويبلغه، فيقول: أي ثابت، ما فعل الذي كأن وجهه مرآة صينية يتراءى فيها عذارى الحي، كعب بن أسد قال: قتل؛ قال: فما فعل سيد الحاضر والبادي حيي بن أخطب قال: قتل؛ قال: فما فعل مقدمتنا إذا شددنا، وحاميتنا إذا فررنا، عزال بن سموأل قال: قتل؛ قال: فما فعل المجلسان يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة؛ قال: ذهبوا قتلوا؛ قال: فإني أسألك يا ثابت بيدي عندك إلا ألحقتني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر لله فتلة دلو ناضح حتى ألقى الأحبة. فقدمه ثابت، فضرب عنقه.

الرواية: قتل امرأة واحدة من نسائهم وسببه

قال ابن إسحاق: وقد حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: لم يقتل من نسائهم إلا امراة واحدة. قالت: والله إنها لعندي تَحَدَّث معي، وتضحك ظهرا وبطنا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقتل رجالها في السوق، إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة قالت: أنا والله، قالت: قلت لها: ويلك؛ ما لك قالت: أُقتل؛ قلت: ولم قالت: لحدث أحدثته؛ قالت: فانطلق بها، فضربت عنقها؛ فكانت عائشة تقول: فوالله ما أنسى عجبا منها، طيب نفسها، وكثرة ضحكها، وقد عرفت أنها تُقتل.

المشهد:

القصة مشهد مؤثر بما يكفي، ويمكن أن يكون على النحو التالي:

آخر تسعة من رجال اليهود وهم تجز رؤوسهم ويلقون في الحفرة وسط سوق المدينة،

فيلتفت الرسول ويقول: ألم يبق أحد؟

فيرد المسلمون: لا يا رسول الله لقد تم قتل التسع مئة كلهم أمام ناظريك. فيقول: يا علي اذهب مع أنس وأحضر اليهودية التي عند عائشة.

ينتقل المشهد لبيت عائشة وقد دخلت عليها صديقتها الوفية سارة القرظية فتقول لها عائشة: إني والله أشاركك شعور الأسى بما يحدث لرجالكم، وقتل أبيك وإخوتك اليوم. فترد عليها ضاحكة كعادتها على الدوام: يا عائشة إن لم نمت فلن نذهب إلى ربنا ونعيمه.

فتسمعان طرقاً على الباب وأنس يدلف للداخل وهو يقول: سيدتي عائشة رسول الله يطلب منك تسليم علي صديقتك اليهودية سارة، فتعترض عائشة قائلة، ولكنها لم تفعل شيئاً وهي مسالمة وطيبة ولم أر منها إلا كل خير، فيدخل علي للبيت ويقبض على معصم سارة ويجرها خارجاً، وهي تضحك وتقول: عائشة لا تحزني علي فالقتل أهون عندي من السبي. أشكرك على تعاملك الطيب لي طوال السنوات التي عرفتك بها وحماك رب موسى وهارون.

المشهد:

يهال التراب على جثث بني قريظة وتسوى أرض سوق المدينة. وينتقل المشهد وقد أحضرت النسوة والأطفال فيقوم الرسول ويقسم لكل واحد من أصحابه امرأة أو فتاة من السبي ويأمر سعد بن زيد بأخذ من بقي من الصبية وبيعهم في أسواق نجد للنخاسة لكي يشترى بالمال سلاحاً للمسلمين يستعينون به للجهاد في سبيل الله.

إلى هنا تنتهي قصة بني قريظة، ويجب على القراء ملاحظة أنه لم يأت ذكر لصفية بنت حيي مع أن كل نساء بني قريظة قد تم تقسيمهن أو بيعهن ولم يبق أحد من كل القبيلة..

هذا لم يمنع القصاص من اختلاق قصة صفية وأن الرسول قد سباها من خيبر فيما بعد.

فكيف يسبي الرسول صفية بنت حيي من خيبر وهي من بني قريظة الذين لم يبق منهم أحد.

ولمن سيظن أن صفية قد تزوجت وانتقلت لخيبر قبل سحق قومها فهو مخطئ، لأن قصة صفية تنص على أن الرسول سباها وهي عروس. يعني صبيحة عرسها.

ليس المهم عند القُصاص التنسيق بين بعض ولا مراجعة ما كتبه الآخرون. المهم هو أن يختلق القاص القصة في مجلسه بما يتناسب مع المقام. ثم يأتي من يسجلها في كتاب دون

تمحيص ثم تصبح حقيقة وتنقل لنا.

لذا لم يكلف القاص نفسه عناء اختلاق قصة عن كيفية انتقال صفية من يثرب (بني قريظة) ولم تتعرض للسبي إلى خيبر وزواجها هناك.

وقصة تسري الرسول بصفية من مئات وآلاف القصص المختلق على الرسول، تحوي أسماء أشخاص وهميين لا وجود لهم، منهم من ذكرنا في قصص سابقة. وقد ورد ذكر قصة صفية في كتب التراث المختلفة، واعتبرها الطبري في تفسيره أنها سبب نزول آية في سورة الأحزاب، هي: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً(٥٧).

وقال: حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، في قوله: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ وأعَدَّ لَهُمْ عَذَابا مُهِينا قال: يا سبحان الله مازال أناس من جهلة بني آدم حتى تعاطوا أذى ربهم وأما أذاهم رسول الله صلى الله عليه وسلّم فهو طعنهم عليه في نكاحه صفية بنت حييّ، وفي رواية أخرى منسوبة لابن عباس: حين اتخذ صفية بنت حييّ بن أخطب. (اتخذ = تسرى وواقع جنسياً)

ومنهن: صفية بنت حُيَيّ بن أَخْطَب الهارونية، سباها النبيّ صلى الله عليه وسلّم يوم خَيْبر واصطفاها لنفسه، وأسلمت وأعتقها، وجعل عتقها صداقها.

قال: فأصبناها عَنوةً، فجُمعَ السَّبيُ، فجاءَ دِحيةُ فقال: يانبيَّ الله أعطِني جارِيةً منَ السبي. قال: اذهبْ فخُذْ جاريةً. فأخذَ صَفيةَ بنتَ حُيَيٍّ فجاءَ رجُلٌ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلّم فقال: يا نبيَّ الله أعطيتَ دِحيةَ صفيةَ بنتَ حُيَيٍّ سَيدَةَ قُريظةَ والنَّضير، لا تصلحُ إلاّ لكَ. قال: ادعوهُ بها. فجاءَ بها. فلما نظرَ إليها النبيُّ صلى الله عليه وسلّم قال: خُذْ جارِيةً منَ السبيِ غيرَها.

وفي رواية أخرى: ثم قدِمْنا خَيبرَ، فما فتح الله عليهِ الحصنَ ذُكِرَ لهُ جمالُ صَفيَّةَ بنتِ حُيَيٍّ بنِ أخْطَبَ ـ وقد قُتِل زوجُها، وكانت عَروساً ـ فاصْطَفاها رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم لنفسِهِ، فخرج بها حتّى بلغْنا سَدَّ الصَّهْباءِ حلَّت، فبنى بها.

حتى إذا كان بسد الصهباء راجعا إلى المدينة طهرت من حيضتها، فجهزتها له أم سليم، فأهدتها له من الليل، فأصبح عروساً بها، وأولم عليها، ودعا المسلمين.

وفي وراية رواها ابن سعد في الطبقات:

فلما صار إلى منزل يقال: له تبار على ستة أميال من خيبر مال يريد أن يعرس بها فأبت عليه فوجد النبي صلى الله عليه وسلم في نفسه من ذلك فلما كان بالصهباء وهي على بريد من خيبر قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم لأم سليم عليكن صاحبتكن فامشطنها وأراد رسول الله أن يعرس بها هناك قالت أم سليم: وليس معنا فسطاط ولا سرادقات فأخذت كسائين أو عباءتين فسترت بينهما إلى شجرة فمشطتها وعطرتها قالت أم سنان الأسلمية: وكنت فيمن حضر عرس رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفية مشطناها وعطرناها وكانت جارية.

ونذكر أن واقعة بني قريظة المزعومة قال عنها كتاب التراث أنها وقعت في أواخر السنة الخامسة للهجرة، وخيبر في محرم من السنة السابعة، يعني بعد سنة وشهرين من موقعة بني قريظة.

وقد قتل حيي ابن اخطب في موقعة بني قريظة ثم قتل زوجها في يوم خيبر وفي نفس اليوم تسرى بها رسول الله.

المشهد:

الرسول وهو جالس وتعرض عليه نساء خيبر ممن سباهن المسلمون، ويقوم بتوزيعن على أصحابه. فتمر صفية فيختارها أحد أصحابه فيقول له الرسول هي لك. فيلكزه رجلٌ بجانبه، ويهمس في أذنه: يا محمد إنها أجمل فتيات خيبر ولن تجد أجمل منها. يصرخ الرسول: يا دحية يا دحية، فيلتفت الرجل المتأبط لذراع صفية ويقول: لبيك يا رسول الله.

تعال إلى هنا!

يتمتم دحية: يا لخسارة صفية!

ثم رفع صوته: نعم يا رسول الله ماذا تريد؟

أود أن أصطفي صفية لأنها صفية للمصطفى، ويمكن أن تجد برة تناسبك يا دحية وهو يقهقه.

صدقت بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك.

وكتب التراث أوصلت غزوات الرسول إلى (٢٨) غزوة، مع أن الله جل شأنه يشهد في كتابه الكريم أنه مر على المسلمين تسع وقائع، خمس منها فقط حدث فيها قتال، وهي: بدر وأحد ضد قريش، وموقعة ضد فئة من بني إسرائيل يثرب، وحنين ضد هوازن ومن عاونها، ومؤته ضد الروم. وأربع لم يحدث فيها قتال وهي: الأحزاب، فتح مكة، غزوة تبوك، وإجلاء طائفة من بين إسرائيل يثرب. وكل هذه الوقائع فرضت على المسلمين ولم يختاروها، بل كان أكثرهم يتباطأ عن الخروج ويحاول ثني غيره. وفي آخر عام من حياة الرسول أمر المسلمون بقتال كل من بدأ قتال المسلمين وبادرهم بالاعتداء، ومنهم بعض قبائل جزيرة العرب التي عاونت قريش والروم والفرس على حرب المسلمين في الأحزاب وحنين. فكان هناك معارك وغزوات في تلك السنة، ولم يحدث أن غزا رسول الله غيرهم سواءً في بداية هجرته أو طوال بقائه في المدينة.

وقبل أن يخوض المسلمون أي معركة ضد قريش نزل القرآن بضوابط يجب مراعاتها في القتال، ومن ذلك:

وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ(١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ(١٩١) فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ(١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(١٩٤).

والآيات تفرض بعض ضوابط الجهاد التي تظهر أن الإسلام لا علاقة له بما يتهم به من أنه دين دموي يلاحق الناس في كل مكان ليقاتلهم أو يرغمهم على الإسلام أو يسبي نسائهم ويستعبد رجالهم ويسلب أراضيهم وممتلكاتهم.

ومن الضوابط، ما يلي:

**القتال موجه لمن يقاتل المسلمين فقط. ولا يجوز ابتداء الناس بالقتال، فهو تعد لا يحبه الله.

**عندما يضطر المسلمون لقتال المعتدي عليهم أن يقاتلوه بكل قوة وصرامة للقضاء عليه حتى لا يدخلوا معه في قتال مرة أخرى أو يعتدي عليهم.
**لا للقتال في المسجد الحرام، لكن لو قاتلتهم قريش فيه فعليهم قتالهم دفاعاً عن أنفسهم.
**قريش تريد أن تقضي على الدين (فتنة) فقتالهم لحماية الدين.
**إن توقفت قريش عن قتال المسلمين ورغبت في التعايش السلمي معهم، فلا يقاتلون لأنهم كفار.
**ولا يجوز التعدي والعدوان على أي كافر مسالم، بل يعتدى على المعتدي بمثل ما اعتدى على المسلمين.
وضوابط كثيرة ذكرتها سور أخرى.
والقرآن يقف ضد غارات النهب وسبي النساء أو سلب الأمتعة والمال والأنعام أو قتال المسالمين من الكفار.
لكن كتب التراث لها رأي مختلف.
ونكرر التذكير أن المشاهد واللوحات تمثل النصوص التي استخلصناها منها، وبالتالي فلم نرسمها نحن بل رسمها من كتبها، ونبرأ لله منها وممن كتبها وجعلها متاحة لمن يريد التهجم على الرسول والإسلام.

سرية حمزة بن عبد المطلب

يقول الواقدي في المغازي إن الرسول أرسل حمزة في ثلاثين رجلاً بعد سبعة أشهر من الهجرة للإغارة على قافلة لقريش قادمة من الشام والاستيلاء عليها. وقد لحقوا بالقافلة التي يقودها أبو جهل في ٣٠٠ رجل، واصطفوا للقتال، لكن رجلاً حكيماً من المشركين سعى بين الفريقين حتى أقنعهم بالانصراف دون قتال. ويمكن ملاحظة أنه لا إصابات ولا قتلى، ولم يتحقق الهدف من الغزوة، لأن الغزوة لم تحدث أصلا. والقصة تنسب الحكمة والجنوح للسلم السعي بالإصلاح إلى مشرك، ونسبة المسلمين إلى التهور والسعي للشر ما أمكن.
المشهد:
حمزة ومعه (٣٠) رجلا يسيرون في الفيافي بطريقة قطاع الطرق. وفي مكان ليس ببعيد قافلة

طويلة من الجمال محملة بالبضائع تتهادى باطمئنان على جادتها التي حفرتها قوائم جمال القوافل عبر مئات السنين، ويحوطها ثلاثمئة عبد من عبيد قريش ومعهم عدد من وجهاء مكة.

ينتقل المشهد ليظهر عيونٌ ترقب الطريق من بعد من خلال صخور مرتفعة ستمر القافلة من تحتها. وما أن قاربت القافلة من المرتفع حتى قفز الفرسان وأحاطوا بالقافلة وهم يصرخون بصوت حاد: ألقوا أسلحتكم وابتعدوا عن القافلة.

سرية عبيدة ابن الحارث إلى رابغ

بعد شهر من الغزوة السابقة يرسل محمد سرية أخرى بقيادة عبيدة ابن الحارث في ستين رجلاً لملاقاة قافلة أخرى لقريش في (٢٠٠) رجل. بقيادة أبي سفيان - كما يزعم الواقدي - أو بقيادة عكرمة ابن أبي جهل - كما يقول ابن هشام - وقد التقوا في رابغ، وكل ما حدث هو التراشق بالسهام دون قتال ومن ثم انصرف كل فريق لوجهته.

المشهد:

أرض منبسطة قرب شاطئ البحر والقافلة القرشية تسير بطمأنينة والجمال تتمايل بأحمالها على صدى أنغام صوت الحادي الجميل. وفجأة يقبل من بعيد فرسان ملثمون وهم يصرخون بأعلى أصواتهم صيحات مفزعة، لكن الرجال الذين مع القافلة يتصدون لهم فيهرب اللصوص.

سرية عبدالله ابن جحش

بعثه الرسول في ثمانية رجال وسلمه كتاباً قال لا تفتحه إلا بعد مسير يومين. وفيه أن يذهب لموقع بين مكة والطائف يسمى نخلة لترصد حركات قريش .فانفصل عن السرية سعد ابن أبي وقاص وعتبة ابن غزوان بحجة فقدهما لبعير لهما. وتقول القصة إن عيراً لقريش مرت بالمجموعة تحمل زبيباً وأدماً وتجارة. وقد استأمنهم رجال القافلة وصنعوا لهم طعاماً إلا أن ابن جحش ومن معه قاموا بقتل من قدروا عليه منهم وأسر رجلين وهروب واحد. وتم السير بالقافلة (الغنيمة) والأسيرين إلى المدينة.

ومختلق القصة بالغ في الخيال لدرجة مفضوحة. إذ لا يمكن تخيل قافلة محملة تسير بتؤدة

لا تزيد سرعتها عن خمسة كيلو مترات في الساعة لمسافة تقارب ٤٠٠ كيلو لتصل للمدينة ولا يلحق بها أحد من قريش، خاصة أن نوفل ابن عبدالله قد هرب ووصل لمكة القريبة... بالفعل كبيرة يا أيها الواقدي.

المشهد:

قافلة توقفت وقت راحتها ورجالها يصنعون طعامهم، عندما فوجئوا بهبوط رجال عليهم يعرفونهم فدعوهم للطعام وبعد أن شبعوا أشهر الضيوف أسلحتهم في وجه مضيفيهم وقتلوا من استطاعوا منهم وقيدوا وثاق اثنين فيما هرب واحد.

وينتقل المشهد إلى المدينة وقت وصول القافلة وخروج المسلمين لاستقبالها وفي مقدمتهم الرسول وهم يهللون بأصوات عالية، نشوى.

غزوة بدر

سنكتفي بذكر بعض المشاهد لكثرتها، ومن رغب في مراجعة المصدر فسيجده في المغازي تحت فصل: بدر القتال.

المشهد الأول:

الرسول يطلب من رجلين من أصحابه أن يسبقا جيشه ليتحسسا خبر عير لقريش قادمة من الشام، فيصلان إلى الساحل وهناك وجدا خباء فيه رجل يقع بمحاذاة طريق القوافل فيتفقان معه على أن يقيما عنده حتى مرور العير وسيكافئه الرسول.

ثم ينتقل المشهد والرجلان قد وصلا إلى بدر ومعهما صاحب الخباء، حيث كان الرسول وجيشه هناك، ويخبرانه عن العير وعن صاحب الخباء، فيلتفت الرسول إليه قائلا: لقد أعطيتك ينبع! فيقول الرجل: إنّى كَبِيرٌ وَقَدْ نَفِدَ عُمْرِى، وَلَكِنْ أَقْطِعْهَا لابْنِ أَخِى. فيقول له الرسول: هي له إذا!

المشهد الثاني:

مجموعة من أتباع الرسول وهم متحلقون حوله وقد تعالت أصواتهم: لا يا محمد نحن لم نتفق معك على القتال. لقد قلت لنا إننا سنغير على القافلة ولم تقل لنا إننا سنقاتل. أنا منسحب! وأنا! وأنا! كلنا ولن يبقى معك أحد يا محمد.

وينتقل المشهد وقد ركبوا جمالهم وخيولهم وبعضهم يسير على قدميه وهم قافلون للمدينة، والرسول يناديهم: هلموا سأعطيكم ما يرضيكم. سأقطعكم رابغ وخيبر ومزارع اليهود بعد طردهم من يثرب.

المشهد الثالث:

الرسول ومن بقي معه من أصحابه معسكرون بالقرب من جبل يسمى الذباب ظاهر المدينة، وينتقل المشهد ليظهر رجل من بني سلمة ينضم للمعسكر ويتجه للرسول ويقول: يا رسول الله لَقَدْ سَرَّنِى مَنْزِلُك هَذَا، حيث كَانَ يقطنه يَهُودَ، وَكَانَ لَهُمْ بِهَا مَنَازِلُ كَثِيرَةٌ – فَعَرَضْنَا هَاهُنَا أَصْحَابَنَا، فَأَجَزْنَا مَنْ كَانَ يُطِيقُ السّلاحَ وَرَدَدْنَا مَنْ صَغُرَ عَنْ حَمْلِ السّلاحِ، ثُمّ سِرْنَا إليهم، وَهُمْ أَعَزّ يَهُودَ كَانُوا يَوْمَئِذٍ فَقَتَلْنَاهُمْ كَيْفَ شِئْنَا، فَذَلّتْ لَنَا سَائِرُ يَهُودَ إلَى الْيَوْمِ وَأَنَا أَرْجُو يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ نَلْتَقِىَ نَحْنُ وَقُرَيْشٌ، فَيُقِرّ اللهُ عَيْنَك مِنْهُمْ. ((القصة تجعلك تتعاطف مع اليهود المساكين، ويستحيل أن يكون من اختلقها مسلماً، ولكنه يهودي ولو أعلن إسلامه. وكل قصص كتب التراث يمكن للمتمعن أن يعرف الخلفية الدينية والاجتماعية لمن اختلقها)).

المشهد الرابع:

الرسول وأتباعه مسرعون في مسيرهم لقطع الطريق على عير قريش والظفر بما تحمل، فإذا برجل يستوقف الرسول ويشكو له أن بعيره التي يركبها مع أخيه ومعهم رجل آخر قد بركت ولم يتمكنوا من إرغامها على المسير. فترجل الرسول من رحله ودعا بماء في وعاء وتفل فيه ثم أسقاه للبعير المجهد ورش جسده، فانطلق كأنه نشط من عقال. فهلل أصحاب البعير ومن شهد الحادثة وكبروا على هذه المعجزة الإلهية.

المشهد الخامس:

سعد ابن أبي وقاص رأى ظبياً وأراد أن يصطاده لكن سهامه أخطأت عدة مرات، فدنا منه الرسول ووضع ذقنه بين منكب سعد وأذنه وقال: ارم سعد! اللهم سدد رميته. فانطلق السهم إلى وجهة بعيدة عن الظبي، وظن سعد أنه سيخطئ مرة أخرى، لكن السهم يرتد وينحرف عن مساره على شكل نصف دائرة ليخترق نحر الظبي وسط ذهول سعد، وهو يردد: أشهد أنك رسول الله.

المشهد السادس

الرسول وجيشه يجدون المسير خلف قافلة قريش، لكن أبا سفيان يفوت الفرصة عليهم ويدخل مكة.

المشهد السابع "أخلاق الجند«

جيش المسلمين متوقف قرب مكة أثناء البحث عن عير قريش، ويمر بهم رجل من تهامة. فيتقدم إليه رجل من المسلمين: يا أخا العرب هل لك علم بأبي سفيان؟ قَالَ: مَا لِي بِأَبِي سُفْيَانَ عِلْمٌ، قَالُوا: تَعَالَ سَلّمْ عَلَى رَسُولِ اللهّ. قَالَ: وَفِيكُمْ رَسُولُ الله؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَأَيّكُمْ رَسُولُ الله؟ قَالُوا: هَذَا، قَالَ: أَنْتَ رَسُولُ الله؟ قَالَ: (نَعَمْ)، قَالَ الْأَعْرَابِيّ: فَمَا فِي بَطْنِ نَاقَتِي هَذِهِ إنْ كُنْتَ صَادِقًا؟ قَالَ سَلَمَةُ بْنُ سَلامَةَ بْنِ وَقْشٍ: نَكَحْتَهَا فَهِيَ حُبْلَى مِنْك. وسط قهقة الحاضرين. (منقول بالنص)

المشهد الثامن:

رجلان من غير المسلمين التحقا بجيش المسلمين المتجه لبدر، فيسألهما الرسول: ما أخرجكما معنا؟

فيجيبا: خرجنا للغنيمة.

فقال الرسول: لا يَخْرُجَن مَعَنَا رَجُلٌ لَيْسَ عَلَى دِينِنَا. فقَالَ الرجل: ولكني عَظِيمُ الْغِنَاءِ فِي الْحَرْبِ شَدِيدُ النّكَايَةِ فَأُقَاتِلُ مَعَك لِلْغَنِيمَةِ، وَلَنْ أُسْلِمَ. (الرجل يقول الواقدي إن اسمه خبيب ابن يساف)

المشهد التاسع: المسلمون يقبضون على اثنين من موالي قريش الذين يسقون لهم الماء

مجموعة من المسلمين يجرون الغلامين على الأرض ويتصايحون عليهم: من أنتم؟

فقال الغلامان: سقاء قريش بعثونا نسقيهم من الماء.

فيوسعونهما ضرباً "حتى أذلقوهما"، فيقولان: نحن لأبي سفيان ونحن على العير والعير بهذا القوز.

في هذه الأثناء، الرسول ينهي صلاته ويلتفت للغلامين المكبلين: ويتأكد أنهما من قريش وليس من عير أبي سفيان.

فيسأل: أين قريش؟

قالا: خلف هذا الكثيب الذي ترى؟

الرسول يسأل: كم هم؟

كثير ولكن لا ندري كم هم؟

كم ينحرون من الإبل في اليوم؟

يوماً عشرة ويوماً تسعة..

فيلتفت الرسول لأصحابه ويشير لهم على الأسيرين. فيتراكض عدد منهم ويسحبونهما بعيداً ومن خلفهم البعض شاهراً سيفه ويتوارى الجمع خلف الأكمة.

المشهد العاشر:

الرسول يرسل عمار ابن ياسر وابن مسعود عيوناً له في الليل طافوا حول معسكر قريش ثم عادوا، وأخبروا الرسول بما رأوا. وينتقل المشهد إلى صباح اليوم التالي عندما نهض من قريش واحد ممن يقتفون الأثر فرأى آثار جواسيس محمد فقال: هَذَا أَثَرُ ابْنِ سُمَيَّةَ، وَابْنِ أُمِّ عَبْدٍ، أَعْرِفُهُ قَدْ جَاءَ مُحَمَّدٌ بِسُفَهَائِنَا وَسُفَهَاءِ أَهْلِ يَثْرِبَ.

المشهد الحادي عشر: (بعد ٣٤ عاماً من بدر)

يظهر علي ابن أبي طالب في الكوفة وهو يخطب في أتباعه، ويقول: بَيْنَا أَنَا أَمِيحُ فِى قَلِيبِ بدر - أَمِيحُ يَعْنِى أَسْتَقِى، وَهُوَ مَنْ يَنْزِعُ الدّلاءَ وَهُوَ الْمَتْحُ أَيْضًا - جَاءَتْ رِيحٌ لَمْ أَرَ مِثْلَهَا قَطّ شِدّةً، ثُمّ ذَهَبَتْ فَجَاءَتْ رِيحٌ أُخْرَى، لَمْ أَرَ مِثْلَهَا إلاّ الّتِى كَانَتْ قَبْلَهَا، ثُمّ جَاءَتْ رِيحٌ أُخْرَى، لَمْ أَرَ مِثْلَهَا إلاّ الّتِى كَانَتْ قَبْلَهَا ثُمّ جَاءَتْ رِيحٌ أُخْرَى، لَمْ أَرَ مِثْلَهَا إلاّ الّتِى كَانَتْ قَبْلَهَا، وَكَانَتْ الأُولَى جِبْرِيلَ فِى أَلْفٍ مَعَ رَسُولِ اللهّ صلى الله عليه وسلم وَالثّانِيَةُ مِيكَائِيلَ فِى أَلْفٍ عَنْ مَيْمَنَةِ رَسُولِ اللهّ صلى الله عليه وسلم وَأَبِى بَكْرٍ، وَكَانَتْ الثّالِثَةُ إسْرَافِيلَ فِى أَلْفٍ نَزَلَ عَنْ مَيْسَرَةِ رَسُولِ اللهّ صلى الله عليه وسلم، وَأَنَا فِى الْمَيْسَرَةِ.

فقال أحد الحضور: ولكن القرآن يقول إن الملائكة لم تشارك في الحرب وما هي إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِّ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ.

فصاح علي: أ خارجي في مسجدي؟ اقطعوا عنقه.

المشهد الثاني عشر: (قبل الهجرة وفي مكة)

الرسول يخرج من بيته في مكة وإذا بجمع من قريش جلوس يتربصون به. ويرينا المشهد كيف يحاولون الوقوف ولا يستطيعون وكأنهم أصيبوا بالشلل، والرسول يقرأ عليهم سورة يس ويذر على رؤوسهم التراب. ثم ينتقل المشهد إلى ميدان المعركة في بدر -بعد سنوات- ونشاهد أولئك النفر من قريش وهم يتساقطون صرعى ولم ينج منهم إلا واحد.

المشهد الثالث عشر:

الرسول مضطجع في عريشة وقد غلبه النوم وهناك عدد من المسلمين يحرسون العريشة، وبقية المسلمين قد اصطفوا قبالة المشركين استعداداً لبدء القتال. فيدخل عليه أبو بكر: يا رسول الله يا رسول الله: قَدْ دَنَا الْقَوْمُ وَقَدْ نَالُوا مِنّا، فَاسْتَيْقَظَ رَسُولُ الله فزعاً، وَهُوَ رَافِعٌ يَدَيْهِ يُنَاشِدُ رَبّهُ: اللّهُمّ إنْ تَظْهَرْ عَلَىَ هَذِهِ الْعِصَابَةُ يَظْهَرْ الشّرْكُ وَلا يَقُمْ لَكَ دِين.

المشهد الرابع عشر:

يُظْهِر المسلمين وقد اصطفوا قبالة المشركين استعداداً لبدء المعركة وقد رفعوا أصواتهم بالتكبير ويتنادون بتشجيع بعضهم بعضاً، في المقابل كان هناك سيد من سادات قريش وعقلائها اسمه عتبة ابن ربيعة وهو يطوف برجال قريش ويقول: أتريدون قتال محمد وفي جيشه أهلنا؟ أيريد أحدكم أن يقتل رجل من عشيرته؟ يَا قَوْمِ لا تَرُدّوا نَصِيحَتِي، وَلا تُسَفّهُوا رَأْيِي. وفي هذه الأثناء انقض المسلمون على قريش فبدأت الحرب.

المشهد الخامس عشر:

المعركة تدور واثنان من صعاليك العرب يتفرجان فوق مرتفع من الأرض لعلهما يحصلان على بعض النهب. أثناء ذلك تمر فوقهما سحابة منخفضة كادت تلامس رؤوسهما، ويخرج منها حَمْحَمَةَ الْخَيْلِ وَقَعْقَعَةَ اللّجُمِ وَالْحَدِيدِ وقَائِلاً يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ.

يفزع الصعلوكان ويسقط أحدهما صريعاً من الخوف. بينما يواصل الآخر - وهو يرتعد خوفا - مراقبة السحابة وهي تتجه للعريش الذي يضطجع فيه الرسول ثم تستدير وتعود من نفس مسارها، ولكن بلا أصوات.

المشهد السادس عشر:

القتال توقف وانتهت الحرب بهزيمة قريش وهروب من بقي حياً منهم. والرسول يصيح

بأصحابه: التمسوا أبا جهل.

ينتقل المشهد وقد عثر ابن مسعود (أحد موالي قريش السابقين ويلقب بابن أم عبد للتحقير) على أبي جهل وهو مصاب إصابات خطيرة. يعتلي ابن مسعود (ذو الجسد الضئيل القصير) جسد أبي جهل الضخم ويضع رجله على عنق أبي جهل، ويقول: الْحَمْدُ للهِ الّذِى أَخْزَاك قَالَ: إنّمَا أَخْزَى اللهُ عَبْدَ ابْنِ أُمّ عَبْدٍ لَقَدْ ارْتَقَيْت مُرْتَقًى صَعْبًا يَا رُوَيْعِيَ الْغَنَمِ. ثم أردف ابن مسعود قائلا: إنّى قَاتِلُك يَا أَبَا جَهْلٍ، قَالَ: لَسْت بِأَوّلِ عَبْدٍ قَتَلَ سَيّدَهُ، أَمَا إنّ أَشَدّ مَا لَقِيته الْيَوْمَ فِى نَفْسِى لِقَتْلِك إيّاىَ أَلا يَكُونُ وَلِيَ قَتْلِي رَجُلٌ مِنْ الأَحْلافِ، أَوْ مِنْ الْمُطَيّبِينَ... فَضَرَبَهُ عَبْدُ اللهِ ضَرْبَةً وَوَقَعَ رَأْسُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ[1].

وهذه بعض اللوحات:

لوحة :١

إبليس وهو بصورة سراقة ابن جعشم – بعد انتهاء المعركة – وقد اقتحم البحر وهو رافع يديه ويقول: يا رب ما وعدتني.

لوحة :٢

الملائكة فوق أرض المعركة في بدر على خيولهم تطير بهم ولهم عمائم قد أرخوها بين أكتافهم خضر وصفر وحمر تشع نوراً والصوف في نواصي خيلهم.

لوحة :٣

ملائكة آخرون على خيل بلق وهم يقتلون ويأسرون من قريش، وقريش لا تراهم.

لوحة :٤ بعد بدر بفترة

الرسول وجبريل في بيت الرسول يتحدثان.

الرسول: يا جِبْرِيلَ مَنْ الْقَائِلُ يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ الْمَلائِكَةِ: (أَقْدِمْ حَيْزُومُ)؟ فيرد جبريل: يَا مُحَمّدُ مَا كُلّ أَهْلِ السّمَاءِ أَعْرِفُ.

ونكتفي بهذا القدر وقلبي يعتصر ألماً لما في هذه الكتب من قصص تمت صياغتها بحيث يتعاطف القارئ مع قريش ومع اليهود، ويكره الرسول والمسلمين. وبالتالي يستحيل أن

---

١ انظر ص (٦٩) الحاشية.

يكون من كتبه أو أقره ونقله في كتاب يؤمن بالله ورسوله.

بعض زوجات الرسول وسباياه كما تصور كتب التراث

وفي كتاب أحسن القصص أوردنا – كما فهم من القرآن- أن الرسول لم يتزوج سوى ثلاث نساء في المدينة وواحدة في مكة، لكن كتب التراث صورته على أنه شبق لا يشبع من النساء بشكل متطرف. وفيما يلي نتف مما أورد القرطبي في تفسيره لسورة الأحزاب.

يقول:

(١) ومنهن: سَوْدة بنت زَمْعة بن قيس بن عبد شمس العامرية، أسلمت قديماً وبايعت، وكانت عند ابن عمّ لها يقال له السكران بن عمرو؛ وأسلم أيضاً، وهاجرا جميعاً إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية، فلما قدما مكة مات زوجها. وقيل: مات بالحبشة؛ فلما حلّت خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فتزوّجها ودخل بها بمكة، وهاجر بها إلى المدينة؛ فلما كبرت أراد طلاقها فسألته ألاّ يفعل وأن يدعها في نسائه، وجعلت ليلتها لعائشة حسبما هو مذكور في الصحيح فأمسكها، وتوفيت بالمدينة في شوّال سنة أربع وخمسين.

للتدليل على كذب القصة واختلاقها، نشير إلى بعض ما ورد:

** تقول القصة إن الرسول تزوج بها في مكة، وهاجر بها إلى المدينة.

والرسول لم يتزوج في مكة سوى خديجة، وهاجر برفقته صديقه الصِّديق وليس امرأة.

ولم يرد ذكر لهذه المرأة على الإطلاق في المدينة. والرسول عندما وصل المدينة كان المسجد قد بني وبني له غرفة واحدة ملحقة بالمسجد لأنه كان أعزب.

** تقول القصة إنها أصبحت مسنة زمن الرسول، وتقول إنها توفيت عام أربعة وخمسين. يعني بعد وفاة الرسول بخمس وأربعين سنة.

فكم كان عمر هذه المسنة عندما ماتت؟

وكتب التراث تظهر الرسول زير نساء لا يشق له غبار، فكيف يتزوج عجوزاً من القواعد التي لم تعد تثير أولي الأربة من الرجال كالرسول؟

(٢) ومنهنّ: أم حبيبة، واسمها رَمْلة بنت أبي سفيان. بعث رسول الله صلى الله عليه وسلّم

عمرو بن أمية الضَّمْريّ إلى النجاشيّ، ليخطب عليه أم حبيبة فزوجه إياها، وذلك سنة سبع من الهجرة، وأصدق النجاشيّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أربعمائة دينار، وبعث بها مع شُرحبيل بن حَسَنة، وتوفيت سنة أربع وأربعين. وقال الدَّارَقُطْنِيّ: كانت أم حبيبة تحت عبيد الله بن جحش فمات بأرض الحبشة على النصرانية، فزوّجها النجاشيّ النبيّ صلى الله عليه وسلّم، وأمهرها عنه أربعة آلاف، وبعث بها إليه مع شُرحبيل بن حسنة.

مهرها كان (٤٠٠٠) دينار!! ودفعها النجاشي.

فهل استردها من الرسول؟ وكيف استطاع الرسول الحصول على مثل هذا المبلغ وهو قد فرض له سهم في الإنفاق يوازي سهم المسكين والمحتاج، لأنه لا دخل له ويعيش على الكفاف.

وإن كان لم يردها للنجاشي ألا يدخل هذا في أنه استفاد من كونه رسول الله في مصلحة دنيوية وأصاب أجراً على دعوته والله قد نهاه عن ذلك في عديد من السور: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ(٨٦) ص.

ولو لم يردها للنجاشي فلابد أنه استفاد من أموال ومنافع أخرى مماثلة. فهل هذا ما تريد كتب التراث أن ترسخه عن الرسول؟

وبطبيعة الحال فآلاف الدنانير عرفت زمن كتابة كتب التراث، ولم تكن معروفة زمن الرسول.

(٣) ومنهنّ: زينب بنت جَحْش؛ وكان اسمها بَرّة فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلّم زينب، وكان اسم أبيها بُرّة؛ فقالت: يا رسول الله، بدّل اسم أبي فإن البُرّة حقيرة؛ فقال لها النبيّ صلى الله عليه وسلّم: «لو كان أبوك مؤمناً سميناه باسم رجل منا أهل البيت ولكني قد سميته جحشاً والجحش من البُرّة» ذكر هذا الحديث الدَّارَقُطْنِيّ. تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلّم بالمدينة في سنة خمس من الهجرة، وتوفيت سنة عشرين، وهي بنت ثلاث وخمسين.

اسمها بَرة واسم أبيها بُرة، لماذا؟ هل عدمت الأسماء غير برة؟

ثم إن كان الرسول يريد أن يغير اسم أبيها (الميت) فلماذا يختار اسماً أحقر من الاسم الأصلي؟

فبرة أفضل من جحش.

والقصة اختلقت بكاملها سخرية لا حدود لها برسول الله.

ثم لماذا لا تغير هي اسم أبيها؟

ثم ماهي مناسبة ذكر آل البيت الذين سيسمي عليهم الرسول، خاصة أنه ليس هناك أسماء خاصة بمن أطلق عليهم "آل البيت" ولا يتسمى بها غيرهم. (يبدو أن القاص فضح عقيدته هنا).

(٤) ومنهنّ: جُوَيرية بنت الحارث بن أبي ضِرار الخُزاعية المُصْطَلِقيّة، أصابها في غزوة بني المُصْطَلِق فوقعت في سهم ثابت بن قيس بن شَمّاس فكاتبها؛ فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلّم كتابتها وتزوّجها، وذلك في شعبان سنة ست، وكان اسمها بُرّة فسمّاها رسول الله صلى الله عليه وسلّم جُوَيرية، وتوفيت في ربيع الأول سنة ست وخمسين. وقيل: سنة خمسين، وهي ابنة خمس وستين.

**برة مرة أخرى، فإن كان الاسم منتشراً بكثرة فهذا يدل على استحسان الناس له فلماذا يغيره الرسول؟

أو أن مختلق هذه القصة سمع بقصة برة السابقة فاختلق قصة موازية.

القصة هنا تقول: إن الرسول أصابها في غزوة بني المُصْطَلِق. يعني سباها.

وكانت متزوجة لحظتها، فقضى الرسول كتابتها (يعني أبطل زواجها من زوجها) ودخل بها من لحظتها.

ويمكن رسم لوحة مقززه جداً من الصورة كما يلي:

الرسول (رجل كث اللحية في أواخر الخمسين) يغير على بني المصطلق الآمنين ينتزع هو ورجاله أجمل نسائهم ويقتلون رجالهم ثم يتوزعون السبي، ويحظى الرسول بأجملهن.

تقول له المرأة: ولكني متزوجة يا محمد؟

فيقول لها: أدني مني، لا عليك أنا رسول الله وأقضي بخلعك من زوجك اللحظة، وأنك حلال لي دون عدة .. اقتربي يا جميلتي فأنا لم أذق طعماً للنساء منذ خرجت من المدينة قبل ثلاث ليال.

(٥) ومنهن: رَيحانة بنت زيد بن عمرو بن خُنافة من بني النَّضير، سباها رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأعتقها، وتزوّجها في سنة ست، وماتت مرْجِعَه من حَجة الوَداع، فدفنها بالبقيع. وقال الواقديّ: ماتت سنة ست عشرة وصلّى عليها عمر. قال أبو الفرج الجَوْزِيّ: وقد سمعت من يقول: إنه كان يطأها بِمِلْك اليمين ولم يعتقها.

(٦) ومنهن: ميمونة بنت الحارث الهلالية، تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلّم بسَرِف على عشرة أميال من مكة، وذلك في سنة سبع من الهجرة في عُمْرة القَضِيّة، وهي آخر امرأة تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وقدّر الله تعالى أنها ماتت في المكان الذي بنى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلّم بها، ودفنت هنالك، وذلك في سنة إحدى وستين. وقيل: ثلاث وستين. وقيل ثمان وستين.

(٧) البخاريّ (عن سهل بن سعد وأبي أُسيد قالا): تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلّم أميمة بنت شَراحيل، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين. وفي لفظ آخر، قال أبو أُسيد: أُتِي رسول الله صلى الله عليه وسلّم بالجَوْنية، فلما دخل عليها قال: «هبِي لي نفسك» فقالت: وهل تهب المِلكة نفسها للسُّوقة فأهوى بيده ليضعها عليها لتسكن؛ فقالت: أعوذ بالله منك فقال: «قد عُذتِ بمعَاذ» ثم خرج علينا فقال: يا أبا أَسَيد، أكْسها رازِقِيين وألحقها بأهلها.

تحقير بالغ لشخص الرسول، يسوّقه لنا البخاري.

(٨) ومنهنّ: قُتَيْلة بنت قيس، أخت الأشعث بن قيس، زوّجها إياه الأشعث، ثم انصرف إلى حَضْرمَوْت، فحملها إليه فبلغه وفاة النبيّ صلى الله عليه وسلّم. فردّها إلى بلاده، فارتدّ وارتدت معه. ثم تزوّجها عِكرمة بن أبي جَهْل، فوجد من ذلك أبو بكر وَجْداً شديداً. فقال له عمر: إنها والله ما هي من أزواجه، ما خيّرها ولا حجبها. ولقد برّأها الله منه بالارتداد. وكان عروة ينكر أن يكون تزوّجها.

(٩) ومنهنّ: أم شريك الأزدية، واسمها غُزَيَّة بنت جابر بن حكيم، وكانت قبله عند أبي بكر بن أبي سلمى، فطلقها النبيّ صلى الله عليه وسلّم ولم يدخل بها. وهي التي وهبت نفسها. وقيل: إن التي وهبت نفسها للنبيّ صلى الله عليه وسلّم خَوْلة بنت حكيم.

للعلم - لمن له قلب أو ألقى السمع - فكتاب التراث لم يفهموا الآية التي وردت فيها عبارة

"وهبت نفسها للرسول" واعتقدوا أن هذا حدث بالفعل فاختلقوا القصص واختلقوا أسماء نساء قالوا عن كل واحدة هي التي وهبت نفسها.

تقول الآية: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً (٥٠) الأحزاب.

تقول الآية: إن وهبت نفسها، ولم تقل: التي وهبت نفسها.

والآية تبين ما يحل للرسول أو لغيره الزواج بواحدة منهن عندما يريد الزواج. ولا تعني تزوج يا محمد كل من ذكر في الآية. وبالتالي فلم يحدث أن وهبت امرأة نفسها للرسول، ولكن الآية تقول: يجوز لك المرأة التي تهب نفسها (متى حدث ذلك)، لكنه لم يحدث.

(١٠) ومنهنّ: خَوْلة بنت الهُذَيل بن هُبَيرة، تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فهلكت قبل أن تصل إليه.

(١١) ومنهنّ: شَرَافُ بنت خليفة، أخت دِحْية، تزوّجها ولم يدخل بها. وإذا كان تزوجها فلماذا لم يدخل بها؟ وهل طلقها أم عضلها؟

(١٢) ومنهنّ: ليلى بنت الخَطِيم، أخت قيس، تزوّجها وكانت غيوراً فاستقالته فأقالها. فهل تريد منا الرواية أن نعتقد أن تصرفات الرسول طائشة تجاه النساء الأجنبيات، ولا تصبر على العيش معه أي زوجة تحترم نفسها وتغار على عرضها.

(١٣) ومنهنّ: عمرة بنت معاوية الكِندية، تزوّجها النبي صلى الله عليه وسلّم. قال الشعبيّ: تزوّج امرأة من كِنْدة فجيء بها بعد ما مات. "منتهى السخرية«

(١٤) ومنهنّ: ابنة جندب بن ضمرة الجُنْدُعِية. قال بعضهم: تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلّم. وأنكر بعضهم وجود ذلك. (من نصدق؟)

(١٥) ومنهنّ: الغِفارِيّة. قال بعضهم؛ تزوّج امرأة من غِفار، فأمرها فنزعت ثيابها فرأى بياضاً فقال: «الْحَقِي بأهلك». ويقال: إنما رأى البياض بالكلابية. فهؤلاء اللاتي عقد عليهنّ ولم يدخل بهنّ؛ صلى الله عليه وسلّم. (زمن الرسول لم يعرف أن الرجل

والمرأة يتعريان للمضاجعة، لكن المؤكد أنه بعد انتشار الرق في عصر الحكم القرشي بعد الرسول كانت الأمة تعرى تماماً ويقلبها من يرغب شراءها ويجسها ويتحسس جسدها).

(١٦) ومنهنّ: جَمْرة بنت الحارث بن عَوف المرّي؛ خطبها النبيّ صلى الله عليه وسلّم فقال أبوها: إن بها سوءاً ولم يكن بها، فرجع إليها أبوها وقد برِصَت.

ويمكن للقراء رسم ما يجول برؤوسهم عند قراءة كل قصة.

كتب التراث الديني عند المسلمين تشابه كتب التراث الديني عند اليهود

اليهود ضيعوا الوحي المنزل (التوراة) ولديهم كتب يعتبرونها وحياً من نوع آخر، لم يكتب ولكنه وحي شفهي، وهي كتب مماثلة للحديث عندنا الذي يقول بعض رجال الدين إنه وحي شفهي مختلف عن وحي القرآن. ولديهم كتب تفسير وكتب فتاوى رجال الدين (فقه). ولديهم كتب تاريخيه تشابه كتب السير والتاريخ عند المسلمين، وإن قال عنها اليهود انها مقدسة لأنها حلت محل التوراة المفقودة، وهذه الكتب يعرفها الناس وهي المسماة كتب العهد القديم أو الكتاب المقدس.

والتوراة كتاب يحوي كل التشريعات الدينية والحدود والحلال والحرام، والتي أوحي بها لموسى وكتبها في أربعين ليلة بعد هلاك فرعون: وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ(١٤٢) الأعراف.

وهذا الكتاب لم يعد له وجود، وقد يكون أحد أسباب فقده هو أنه نزل بلغة موسى، التي أعتقد شخصياً أنها العربية. ذلك أن بني إسرائيل تعرضوا في مصر فرعون التي عادوا إليها بعد هلاكه، إلى غزو خارجي أرغمهم على تركها والنزوح إلى مناطق مختلفة، ثم كان هناك نزوح آخر بعد أن تعرضت مملكتهم التي أسسها داوود - في أقصى جنوب غرب جزيرة العرب إلى غزو خارجي آخر. فتفرقوا في مناطق مختلفة في اليمن وعلى طول طريق التجارة القديم شمال الحجاز، ووصلوا فلسطين وبلاد النيل والعراق، إضافة لسبي الكثير منهم ونقلهم لبابل العراق.

وهذا الشتات أجبرهم على العيش في مناطق غريبة لها لغات مختلفة، فخسروا لغتهم الأصلية إلى لغات البلاد التي يعيشون فيها، مما جعل ما بقي من آيات التوراة الأصلية القليلة بين أيدي بعض رجال الدين تفقد أهميتها لصعوبة قراءتها وفهمها.

وقد حل محل التوراة كتب بدأ اليهود كتابتها أثناء الأسر في بابل، وتهتم بكتابة تاريخهم بدءً من زمن آدم كما تخيلوه. واستمروا يضيفون ويعدلون على تلك الكتب حتى أصبحت في القرن الرابع المسيحي بصورتها الحالية تقريباً، كما يؤكد علماء الأديان.

وهذه الكتب تشابه كتب السير عند المسلمين، وتعرف بالكتاب المقدس أو كتب العهد القديم، وعددها (٣٩) كتاباً، والخمسة الأولى منها تعتبر مقدسة أكثر من غيرها، لدرجة نسبتها إلى موسى، وكأنها هي التوراة التي كتبها. وهي كتب: التكوين، الخروج، اللاويين، العدد، والتثنية.

وفيما يلي نصٌ ورد في أحد هذه الكتب يؤكد أنها كتب تاريخية كتبت بعد موسى ولا تمت لكتاب الله – التوراة – بصلة:

ورد في آخر كتاب التثنية ما يلي: "فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب. ودفن في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم. وكان موسى ابن مئة وعشرين سنة حين مات ولم تكلّ عينه ولا ذهبت نضارته".

وبجانب كتبهم المقدسة، لدى اليهود كتاب المشنا. وهو كتاب موازٍ للحديث عند المسلمين، وله نفس مهام الحديث، بالمفهوم السائد عندنا. فكما أن رجال الدين يقولون إن الحديث يفسر القرآن ويشرح ما كان غامضاً منه، فالمشنا عند اليهود يقوم بنفس المهمة لكتب العهد القديم الخمسة الأولى، وقد تم جمعه من عدة أقوال لرجال دين يهود عاشوا في عصور مختلفة، تم تناقلوها مشافهة لقرون قبل أن تجمع في القرن الثاني المسيحي على يد حاخام اسمه يوضاس (كما يقول روهلينج في كتابه: اليهودي على حسب التلمود).

وعند اليهود كتاب اسمه الغمارا (الجمارا): وهو شروحات للمشنا، أي أنه يقابل التفسير عند المسلمين.

والتلمود عبارة عن كتاب يحوي شروحات المشنا مضافاً لها أقوال الحاخامات وآراؤهم (فتاواهم). فهو كتاب يحوي الحديث والتفسير والفتاوى، أي أنه يحوي كل تعاليم وشريعة اليهود الحالية.

وهو تلمودان، حسب مكان البدء بكتابته، فهناك تلمود فلسطين وتلمود بابل. وهو أهم من الكتب الخمسة المنسوبة لموسى والتي تعتبر التوراة – تجاوزاً – عند اليهود. فقد جاء فيه: قد أعطى الله الشريعة على طور سينا، وهي التوراة، والمشنا، والجمارا، ولكنه أرسل على يد موسى الكليم التلمود شفهياً، حتى إذا حصل فيما بعد تسلط أمة أخرى على اليهود يوجد فرق بينهم وبين باقي الوثنيين، وجاءت شريعة التلمود شفاهية لأنها لو كتبت لضاقت عنها

الأرض.

والتلمود كتاب يُسمع به كثيراً لكنه لا يتداول بالكامل عند غير اليهود، ولا يعرف منه إلا مقتطفات، منها ما أوردنا في سنة الأولين الباب الثالث/ موقف بني إسرائيل من الدين[1]:

"لا خلاص لمن ترك تعاليم التلمود واشتغل بالتوراة فقط. وهو مماثل لأقوال رجال الدين المسلمين الذين يقولون بأن الحديث مكمل للقرآن، وأن القرآن لا يمكن فهمه بدون تفسير».

وجاء في التلمود: "التوراة أشبه بالماء، والمشنا أشبه بالنبيذ، والجمارا أشبه بنكهة النبيذ العطرية، ولذا فالإنسان لا يستغني عن هذه الكتب الثلاثة، مثلما أن النبيذ لا يصلح بدون العناصر الثلاثة المذكورة".

وكما يحرم رجال الدين المسلمون على غيرهم أن ينقدوا أقوالهم أو يبينوا أخطاءهم، ويصفون أنفسهم بأنهم ورثة الأنبياء، لكي يعطوا فتاواهم وتشريعاتهم صفة مشابهة لصفة النصوص الإلهية، وكأن ما يصدر منهم يمثل دين الله، فإن رجال الدين اليهود لديهم أقوال مماثلة، ومن ذلك ما جاء في التلمود، ونصه: "من احتقر أقوال الحاخامات استحق الموت".

ويشددون على تقديس تشريعات وفتاوى الحاخامات، فقد جاء في كتاب يهودي اسمه (كرافت) مطبوع في سنة ١٥٠٩ ما نصه: "يلزمك اعتبار أقوال الحاخامات مثل الشريعة لأن أقوالهم هي قول الله الحي فإذا قال لك الحاخام إن يدك اليمنى هي اليسرى وبالعكس فصدق قوله ولا تجادله فما بالك إذا قال لك إن اليمنى هي اليمنى واليسرى هي اليسرى".

ويتسمى رجال الدين اليهود (الحاخامات) بالربانيين، ومفردها رباني (ربّيٌ)، ومترجمة للإنجليزية بهذا الشكل «Rabbi» مثلما يحلو الآن لبعض رجال الدين المسلمين أن يسموا أنفسهم بالربانيين.

وقال أحد علماء اليهود المسمى (ميانود) المتوفي في أوائل القرن الثالث عشر: "مخافة الحاخامات هي مخافة الله".

ومثله ما ورد في التلمود: "من يجادل حاخامه أو معلمه فقد أخطأ، وكأنه جادل العزة

---

[1] في السنوات الأخيرة ظهرت عدة طبعات للتلمود باللغة العربية ولغات أخرى، لا أستطيع الجزم إن كانت مماثلة للتلمود الذي عند رجال الدين اليهود أو لا.

الإلهية. ورجال الدين المسلمون يحرمون على غيرهم أن يجادلوهم«.

وقال أحد الحاخامات: "إنه حتى ولو بدا أن هناك أقوالاً متناقضة لرجال الدين فإنها كلها من كلام الله مهما وجد فيها من التناقض! ومن لم يعتبرها كذلك فقد أخطأ في حقه تعالى".

وهو مماثل لقول رجال الدين المسلمين: إن اختلافهم رحمة.

وذكر في كثير من كتب اليهود: "أن أقوال الحاخامات المناقضة لبعضها منزلة من السماء، ومن يحتقرها فمثواه جهنم وبئس المصير". ويمكن مقارنة ذلك مع ما يقوله رجال الدين المسلمون بأن من أخطأ منهم في فتوى أو تشريع فله أجر، ومن أصاب فله أجران، وفي كلا الحالتين ما على الإنسان العادي إلا الاتباع.

وكما وصل الغلو ببعض أتباع المذاهب المسلمين في أئمتهم ورجال دينهم واعتبروهم معصومين عن الخطأ أو أنهم أفضل من الأنبياء أو أنهم ربانيون وينوبون عن الله في الأرض، فإن اليهود يقولون إن الحاخامات ربانيون وأقوالهم أفضل من أقوال الأنبياء، كما أنهم معصومون[1].

---

١ فيما يلي بعض الفتاوى من التلمود الذي يحوي فتاوى لكل دابة وهابة، في وضع مماثل لكتب الفتاوى عند المسلمين، حيث يفتي الفريقان بحلال وحرام لكل شيء:

** القول إن الوحي نوعين: مكتوبٌ وهو التوراة، وشفوي وهو المشنا، والمسلمون يقولون الوحي المكتوب هو القرآن والشفوي الحديث.

** الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر (معناه واضح وهو بزوغ خيوط الشعاع الأول من الفجر). المفسرون قالوا بل هي خيوط فعلية أسود وابيض، محاكاة لما ورد في التلمود ونصه: يقرأ السماع فجراً منذ أن يميز بين خيوط اللونين الأزرق والأبيض إلى بزوغ الشمس. وهي خيوط تتدلى من الشال الذي يلبسه اليهود.

**الأدعية والرقية (الحجاب) ورق يكتب فيه أدعية للحفظ من الشر يسمى في التلمود المزوزا ويعلق على باب المنزل وأبواب الغرف وحول الرقبة، ولا يوضع في الحمامات.

**من عليه جنابة يمنع من قراءة كتبهم المقدسة، ويقول التلمود: يفكر في الشَّمَع (التلاوة) بقلبه ولا يجوز له القراءة بصوت مسموع ** .التلمود يقول بصلاة (التحية) عند دخول المدارس الدينية مقابل تحية المسجد عند المسلمين.

**قصر الصلاة موجود في التلمود: من يمر في طريق خطرة له أن يقصر صلاته.

** لا يجوز زراعة جميع البذور في حوض واحد، بينما يجوز زراعة الخضروات في حوض واحد. (يسر وليس عسراً)

**وقد اختلف العلماء حول وجود حقل مزروع بصلاً ورغب صاحبه أن يغرس صفوفا من القرع . فقال الإمام الرباني إسماعيل: يقتلع صفين من البصل ويغرس صفاً من القرع، ثم يترك صفين من البصل ثم يقتلع مرة ثانية صفين من البصل ويغرس صف قرع. بينما قال الإمام الرباني عقيبا: يقتلع صفين من البصل ويغرس صفين من القرع، ويترك صفين من البصل ثم يقتلع صفين ويزرع صفين قرعاً. وقال جماعة الحاخامات: إن لم يكن بين صف القرع الأول والثاني اثنتا عشرة دراعاً فلا يترك زرع بينهما.

** من رغب في زراعة القرع مع الخضروات فلا شيء عليه. لكن لو رغب في زراعة القرع مع الحبوب، فيجب ترك مسافة بين القرع والحبوب ربع الكاب.

**وإذا نمت القرع دون زراعة بين الحبوب فيجب أن تقتلع ولا يجوز تركها.

**من يرقد الكرم في الأرض فإن لم هناك ثلاثة طفاحيم من التراب عليها فلا تباح الزراعة عليها حتى وإن أرقدها في القرع او في ماسورة فخارية. وإذا أرقدها في صخرة ورغم أنه لا يوجد عليها إلا ثلاثة أصابع تراب فإنه تباح الزراعة عليها.

**لا يجوز قياس ركبة الكرمة إلا من الجذر الثاني.

ويمكن القول إن عدم التمكن من العبث بحروف القرآن لم يمنع من العبث بمعانيه،

**يحرم الحرث بنوعين من البهيمة معاً
**من يقد بهيمتين من نوعين مختلفتين معاً يجلد أربعين جلدة ، ومن يجلس في عربة يجرها نوعان من البهائم يجلد أربعين جلدة.
هذا قول الجمهور، واباحه بعض الأئمة الربانيين.
**لا يجوز أن يربط حصان بجانب عربة أو خلفها إذا كان يجرها حيوانات من نوع آخر.
**ولا يجوز أن يسرج حمار مع جمل.
**ويقول أحد الأئمة: كل المواليد من الفرس ولو كان بعض آباؤهم حميراً يباح أن يعملوا معاً (منتهى اليسر)
**يعد القنفذ وابن عرس من الحيوانات. وإذا مات ابن عرس ورفعه إنسان فلو لمسه مباشرة بحجم حبة الزيتون، وقيل بل بحجم حبة العدس فالرجل ينجس.
**ويعد الكلب نوعاً من الحيوانات، هكذا قالت الجماعة، لكن بعض الأئمة الربانيين يقولون: هو نوع من البهائم.
**ولا خلاف في أن الفيل والقرد من الحيوانات.
** إذا كانت الملابس محاكة من صوف مختلط من الجمال والنعاج، فإن كان معظمها من صوف الجمال فمباح وإن كان معظمها من صوف النعاج فحرام.
**كفن الميت وبردعة الحمار لا ينطبق عليهما أحكام المخلوطات.
**لا يجوز للرجل أن يضع بردعة الحمار على كتفه حتى ولو ليخرج عليها السماد.
**يجوز لبائعي الملابس والخياطين بيع وخياطة الملابس المصنوعة من صنفين بشرط ألا يتجهوا بها ناحية الشمس لاتقاء الحر ولا اتقاء المطر.
** إذا غرزت خيوط الصوف في الكتاب فإنها تحرم، لأنها تتداخل في النسيج.
**يجوز للمزارع أن يجمع كل سماده في كومة واحدة على رأي الجمهور، لكن الإمام الرباني مائير يقول يحرم.
**إذا سقطت الأمطار ونبت البصل من ماء المطر فإن نبتت أوراقه سوداء فهو حرام، وإن كانت خضراء فمباح.
وهذه بعض الفتاوى حول إخراج العشر (زكاة)
**من يأخذ زيتوناً من وعاء حفظ الزيتون يحل له أن يغمس حبة تلو أخرى في الملح ويأكل، لكن إذا ملّح عدة حبات معاً ووضعها أمامه فيلزمه إخراج العشر.
وقد فصّل العلماء في ذلك، فقال: الحاخام إليعزر: إذا كان الوعاء ظاهراً فيجب إخراج العشر، وإن كان الوعاء نجساً فلا يخرج العشر
**واختلف العلماء فيمن يشرب الخمر على المعصرة. فقال مائير: يعفى من العشر ولو اختلطت الخمر بالماء، سواءً كان الماء بارداً أو دافئاً. بينما يقول إليعازر إنه يجب إخراج العشر، وتبعه في ذلك ابن صادوق. وقالت الجماعة: إذا اختلطت الخمر بمياه دافئة فيجب العشر. وإذا اختلطت بمياه باردة فلا يجب العشر.
** اتفق العلماء على أن من يقشر شعيراً حبة حبة ويأكل فلا يجب عليه إخراج العشر. لكن لو قشر الحبات ووضعها في يده فيجب عليه العشر.
** ومن يفرك حبات القمح الناضجة فيجوز له أن ينخلها من يد إلى أخرى ويأكل ولا عشر عليه. لكن لو وضع الحبوب في حجره فيجب عليه إخراج العشر باتفاق أهل العلم.
** وقد اختلف العلماء في حكم بعض الخضروات.
فقال بعض أهل العلم إن الكسبرة إذا زرعت للحصول على البذور فلا يجب فيها العشر، لكن لو زرعت كخضروات فيجب فيها العشر.
واليعازر يقول: إن الشبت يخرج عشره بذوراً وخضروات وعوداً، بخف الكسبرة. أما الجماعة فقالوا: لا يخرج عشره بذوراً وخضراوات إلا نبات قرة العين والجرجير فقط.
وخالفهم جمالئيل الذي يقول: إن أعواد الحلبة والخرد والفول الأبيض يجب إخراج عشرها على الدوام.
وهكذا
ويمكن الجزم أن فتاوى رجال الدين المسلمين اقتداء وامتداد لرجال الدين اليهود الذين لم يتركوا أي شيء مهما كان تافهاً ولا علاقة له بالدين إلا أفتوا بحلاله أو حرامه. (المرجع: ترجمة متن التلمود. تقديم: أ.د/ محمد خليفة حسن ترجمة، تحقيق: د/ مصطفى عبد المعبود. الناشر: مكتبة النافذة).

وتأويلها لغير ما أنزل الله. فبقيت الحروف، وتم التلاعب بالمعاني، باستخدام وسائل ظاهرها يدل على الحق (تفسير، فقه، حديث ...الخ)، وباطنها يعمل على ترسيخ عقائد مخالفة ومعارضة لما أنزل الله في كتابه، أو بعبارة أخرى، معاول هدامة تعمل على تخريب دين الله من الداخل.

وما قاموا به فتح الباب على مصراعيه لمن يرغب في مهاجمة الإسلام، حيث يجد تربة خصبة هيأتها كتب التراث أو ما يسمى بعلوم الدين.

وقد يتساءل أي شخص التساؤل التالي: إن كانت كتب التراث بهذا السوء، وما هي سوى باطل ظاهر، فكيف تمسك بها المسلمون وتركوا كلام الله القويم؟

وهو تساؤل منطقي إجابته في الفقرة التالية.

حقائق عن كتب التراث

الدعوة لترك كتب التراث واعتبارها كتباً باطلة مضللة، والتمسك بالقرآن وحده، لم يكن انعكاساً لنزوة عابرة، ولا اتباعاً لمعتقد وجدت له في النفس ارتياحاً. ولكنه نتيجة للتوصل إلى حقائق تنفي بشكل قاطع أن تكون كتب التراث الديني من دين الله، وأن تكون كتب السير تروي ما وقع من أحداث زمن الرسول، بعد بحث ودراسة متأنية امتدت لعقود من الزمن. بعض هذه الحقائق تعلمتها من كتاب الله، وبعضها من دراسة التاريخ، وسأوردها لكم فيما يلي:

الحقائق القرآنية

حقائق غفل عنها الناس أو تغافلوا، ذكرنا بعضها بأدلته، ونورد بعضاً منها فيما يلي، وبنفس المنهجية المتبعة في كل هذا البحث:

الحقيقة الأولى: التحول عن الدين بعد الرسول حتمي

القرآن العظيم يؤكد حقيقة تخلي الناس عن الدين بعد الرسول واتباع تشريعات دخيلة، كسنة سارت عليها كل الأمم في كل زمان ومكان: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٢١٣)البقرة.

في البداية خلق الله الناس على الحق (الدين الصحيح) ثم اختلفوا فيه، وابتعدوا عنه. فالدين الصحيح يأتي أولاً ثم يتحول الناس عنه لتشريعاتهم البشرية ويفترقون لفرق متخالفة.

وهذه الحقيقة ليس لها استثناءات. فكل البشر في أي زمان ومكان يتحولون عن دين الله، والبديل معتقدات مبتدعة. بغض النظر عن مصدرها وكيف بدأت، لأنها ستبدأ بسبب أو بآخر. وهو ما يفسر وجود الأديان الوثنية في كل العالم التي كانت في الأصل أدياناً سماوية.

وما يؤكد هذه الحقيقة أن القرآن يحدثنا أن قوم عاد كانوا من ذرية قوم نوح، وبما أن قوم نوح كلهم هلكوا بالطوفان إلا من آمن مع نوح، فإن قوم عاد هم أحفاد تلك الفئة المؤمنة التي نجت مع نوح. ثم تحولت أجيالهم المتتابعة شيئاً فشيئاً عن الدين إلى أن أصبحوا وثنيين، فبعث

لهم هود: وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ(٦٥) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ(٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ(٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ(٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٦٩) الأعرف.

ويتكرر الوضع، فبعد هلاك من كفر ونجاة هود ومن آمن تحول الأحفاد للوثنية (معتقدات خارج دين الله) فبعث لهم الرسول صالح: وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٧٣) وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ(٧٤) الأعراف.

وتقول نفس سورة الأعراف: أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ(١٠٠) تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ(١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ(١٠٢).

وهو ما حدث لبني إسرائيل بعد موسى برغم وجود التوراة المكتوبة بينهم: وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ(١٦) وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(١٧) الجاثية.

وقريش (أحفاد إبراهيم) تحولوا للوثنية من دين الله الخالص الذي كان عليه آباؤهم.

وحقيقة ابتعاد الناس عن الدين بعد الرسول حدثت لكل الأمم في كل زمان ومكان: يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ(٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ(٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ(٥٣) المؤمنون.

فدعوة الرسل كانت لإعادة الناس لدين الله الواحد الذي تركه أسلافهم وتحولوا عنه للوثنية. ولو كان لهذه الحقيقة استثناء لبقي دين واحد على الأقل من أديان الأرض الكثيرة على حاله التي كان عليها زمن رسولهم، بدل أن تتحول الديانات السماوية إلى وثنيات منتشرة في مناطق واسعة من الكرة الأرضية.

وتتوجه سورة الشورى المكية إلى المسلمين القلة في مكة محذرة إياهم ان يصيبهم ما أصاب الأمم غيرهم: شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ(١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ(١٤) الشورى.

لقد ترك الناس قبل المسلمين دين الله إلى تشريعات بشرية مختلفة يفترقون عليها لفرق ومذاهب مختلفة. بحيث تصبح الرسالة وكلام الرحمن هو المشكوك فيه والتشريعات المذهبية هي التي يتمسك بها الناس. وهو ما حدث للمسلمين في عصور لاحقة.

المنهجية المستخلصة: توقع خروج الناس عن الدين بعد الرسول، والتعامل معه كواقع حتمي الحدوث وغير مستغرب ولا مستبعد.

وعلينا أن نتعامل مع ما حدث بعد الرسول بأنه كان متوقعاً أن يحدث، وهو ما يفسر ظهور الفرق والمذاهب وكتب التراث المختلفة. وهذه الحقيقة أوجبت علينا التعامل مع هذه الكتب على أنها هي الدخيلة ولا أصل لها في الإسلام، ولا عبرة بما يقوله عنها أتباعها، فهو تبرير لأنفسهم لكي يشعروا أنهم على حق. لكنه ليس كذلك لأنه يخالف القرآن، وما يخالف القرآن فليس من الدين، ولكنه موروث دخيل.

الحقيقة الثانية: القرآن اكتملت به التشريعات

.... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣) المائدة.

سورة المائدة آخر سورة في القرآن تفرض فيها التشريعات وبنزولها اكتملت تشريعات الدين.

والتشريعات لا تفرض إلا بعد وجود مجتمع مسلم. وقد بدأ فرض التشريعات في بعض السور المكية بعد تحول خطاب الدعوة لكل الناس ودخول أعداد من بني إسرائيل وغيرهم مكونين مجتمعا مسلماً. وكان ذلك في بعض سور المرحلة الخامسة والسادسة من مراحل الدعوة في مكة.

وبعد الهجرة واستقرار المهاجرين وتأسيس دولة للمسلمين نزلت ثلاث سور متتالية تحمل كل التشريعات المتبقية. والسور هي: البقرة، النساء، والمائدة. والآية الثالثة من سورة المائدة والمذكورة أعلاه تعلن اكتمال التشريعات بكل وضوح: «اليوم أكملت لكم دينكم».

ولكن السورة تواصل فرض التشريعات بعد هذه الآية إلى نهاية السورة، وهذا ما جعل المفسرين يقولون إنها آخر آية نزلت في القرآن. وكأن هذه الآية تؤيد مزاعم المفسرين من أن القرآن ينزل آية آية وليس سورة كاملة في وقت واحد.

والإجابة سهلة لمن اعتاد على أسلوب القرآن.

فالقرآن في بعض الأحيان يبدأ الحديث عن أمر وكأنه سبق الحديث عنه. ومن ذلك الحديث عن تثبيت القبلة في سورة البقرة:

فالسورة بدأت بالقول إن السفهاء من الناس سيتساءلون عن تحول المسلمين في قبلتهم لمكة، وكأنه سبق الحديث عن هذا التحول: سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(١٤٢).

مع أن الأمر بالتحول سيأتي لاحقاً، ثم يكون تساؤل الناس.

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ(١٤٣) قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ(١٤٤) البقرة.

وهو مماثل لقوله تعالى: .... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣) المائدة.

مع أن اكتمال التشريعات سيكون بنهاية السورة ولم تكتمل قبل هذه الآية. لكن بما أن سورة المائدة نزلت وبنزولها اكتملت التشريعات، فالآية الثالثة كأنها تقول: وبنزول هذه السورة اكتمل الدين.

ومع اكتمال الدين نهت السورة المسلمين عن سؤال الرسول عن حكم أي مسألة لم يسبق أن ورد فيها حكم بالحل أو التحريم أو النهي أو الأمر: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللهُ عَنْهَا وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ(١٠١) المائدة.

وهذا الأسلوب متوفر في القرآن ومن ذلك ما ورد في سورة النساء، التي تبدأ بالحديث عن اليتامى: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ(٣).

ومقدمة الحديث عن هذا الموضوع جاءت في الآية: (١٢٧) من السورة: وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء اللاَّتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً(١٢٧).

فالحديث يبدأ بسؤال الناس الرسول عن النساء اليتامى، فيأتيهم الرد بعد السؤال وليس قبله. لكن القرآن يذكر الرد في الآية: (٣) وتتحدث السورة عن مواضيع مختلفة ثم بعد ١١٤ آية تعود لتذكر السؤال في الآية: (١٢٧). بدل أن يذكر الموضوع كما يلي: وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء اللاَّتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً(١٢٧) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ(٣).

وبالتالي يتضح أن الآية ٣ تتحدث - كما سبق وذكر - عن الزواج باليتيمة وتحريم هضم حقوقها أو أكل مالها والتعامل معها بفوقية. وبما أن السورة تنزل كلها دفعة واحدة فمن المقبول أن يذكر نهاية الموضوع أولاً ثم في مكان متأخر من السورة نفسهايذكر أوله.

ومثله ما ورد في سورة الأنعام في الآية (١١٩): وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ.

ولم يسبق لا في سورة الأنعام ولا في غيرها من السور التي نزلت قبلها أن تحدث القرآن عما يحرم من المآكل. وأول ذكر له جاء في نفس سورة الأنعام لكن في الآية: (١٤٥) المتأخرة عن هذه الآية: قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.

فالسورة تحدثت أولاً عن أنه ذكر للمسلمين ما حرم عليهم، وقد جاء ذكره لكن متأخراً. لكنه مقبول لأن السورة نزلت دفعة واحدة، ولن ينتظر المسلمون سورة أخرى لتخبرهم بما حرم عليهم.

فهذا النوع من أساليب القرآن مستخدم ومفهوم من قبل من يتلى عليهم القرآن.

ويكون الدين قد اكتمل (باكتمال تشريعاته) بنزول سورة المائدة، وكل تشريع بعد القرآن فليس من دين الله ولكنه دخيل عليه. لذا ورد في نفس سورة المائدة النهي عن سؤال الرسول عن حكم أي أمر لم يرد له ذكر في القرآن من قبل نزول السورة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنْهَا وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١).

الآية بكل وضوح تقول: كل ما لم يفرض له حكم أو تشريع في القرآن فلا تسألوا عنه لأنه ليس من دين الله.

المنهجية المستخلصة: دين الله اكتملت تشريعاته بسورة المائدة، وأي تشريع بعد اكتمال الدين ومن غير القرآن فليس من دين الله.

وكل ما لم يرد له حكم في القرآن فليس له حكم في دين الله، ولكنه يدخل في العرف والأمور الدنيوية، فمن شاء فليفعل ومن شاء فليترك، ومن اعتبره من دين الله فقد أشرك من قال به مع الله.

الحقيقة الثالثة: التمسك بالموروث لا يعني أنه حق

كل الرسل كانوا يدعون لشيء واحد هو توحيد الله بالعبادة وعدم إشراك غيره معه. سواءً كان جماداً كحجر أو شجر أو الشمس والقمر، أو مخلوقاً كالملائكة أو الرسل أو رجال الدين أو العرف وما اختلقه البشر.

وكل الناس اتفقوا في كل زمان ومكان على رفض دعوة الرسل، برغم وضوح الحق وقوة الحجة. لأن الناس بعد تحولهم الحتمي عن الدين بعد الرسول يتبعون تشريعات بعضها قديم قبل الرسول وبعضها مستحدث بواسطة رجال الدين ويتمسكون بها على مر السنين كموروث بنيت عليه مصالح ومنافع وسلطات وجاه. ولذا فأتباع أي موروث يتمسكون بموروثهم ولا يقبلون نقده. ومتى خالف الحق، فالموروث عندهم هو الحق والحق هو الباطل.

وأتباع الموروث لا يقبلون النقاش ولا النقد ولا يستمعون للبراهين على بطلان معتقداتهم. كما أنهم يسارعون بالتهديد والوعيد لكل من ينتقد موروثهم، ولا يقبلون بالتعايش السلمي معه.

فنوح دعا قومه لإخلاص التوحيد لله، لكن قومه رفضوا دعوته: وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً (٢٣) نوح.

فآلهتهم كانت الأوثان، وما يدعون له عبادة خالقهم. ومع ذلك بدل أن يستمعوا للبراهين التي قدمها لهم رسولهم نعتوه بالجنون: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ(٩) القمر.

وهددوه بالقتل إن لم يتوقف عن الدعوة: قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ(١١٦) الشعراء.

ومثله حدث لكل الرسل، ويحدث في كل مكان وزمان لكل دعاة العودة للحق، ولكل مصلح اجتماعي. فكل أتباع الموروث متمسكون بموروثهم على درجة واحدة من الغلو ولا يستمعون لنقده ولو تعرض أحد لموروثهم فسيتعرضون له بالأذى. ولا يهم إن كان الموروث عبارة عن مذاهب وفرق خلطت دين الله بغيره من تشريعات بشرية، كاليهودية، وفرق ومذاهب المسلمين، أو أنه تحول إلى الوثنية الكاملة مثل عبادة البقر والمجوسية

والبوذية.

التمسك بالموروث، إذاً، لا يعني صحته: وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ(٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ(٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ(٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ(٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ(٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ(٧٤) الشعراء.

إبراهيم يقول بأن الخالق أحق بالعبادة من حجارة جماد، لكن القوم لم يقبلوا الدعوة برغم بيان الحجة وقوتها، لأنها دعوة لترك الموروث وتعريته والاعتراف بأنه خاطىء وهذا لا يمكن قبوله. فالتمسك بالموروث دائماً يعمي الأبصار عن الحقيقة ويعطل الفكر عن التفكير: وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولا (٧٤) إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلا (٧٤) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا (٧٤) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا (٧٤) الفرقان.

الآيات تتحدث عن رجال قريش الذين يراهم الرسول مكتملي العقول نافذي البصيرة، ويحار من عدم تقبلهم للحق الواضح الذي يدعوهم لعبادة الخالق بدل عبادة الحجارة. فتجيبه الآيات بأن التمسك بالموروث يعمي البصيرة ويعطل العقل. فيبدو أتباع الموروث كالأنعام التي لا تعقل.

المنهجية المتبعة: أتباع الموروث المتعصبون له لا يصغون لما يخالف معتقدهم، لأنهم يعيشون في دائرة مغلقة حرموا على أنفسهم النظر لما هو خارجها.

هكذا يجب أن يكون التوقع في التعامل مع أصحاب الموروث.

الحقيقة الرابعة: الدين يوافق العقل والموروث يعتمد النقل

كفار قريش مصرون على التمسك بموروثهم السلفي عن الأجداد، برغم أنه يعتمد على عبادة أحجار لا تضر ولا تنفع، ويرفضون دعوة الرسول لعبادة الله الخالق الرازق العليم. ومنطقهم أعوج لا يستقيم لمنطق ولا عقل: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ (١٧٠) البقرة.

والسبب أن أي عقيدة سلفية تعتمد الموروث لا يمكن أن تفكر في خطأ معتقداتها، ولا

تعتمد العقل في نقده. لذا فالموروث يعتمد النقل على الدوام، ولو خالف العقل. والقرآن في العديد من السور يطلب من قريش التفكير في معتقداتها الموروثة وستكتشف خطأها: قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ اِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٤) الأحقاف.

كل المطلوب من قريش هو الإجابة على أسئلة بسيطة:

هل تستطيع آلهتكم خلق أي شيء؟

في المقابل انظروا لخلق السماوات والأرض.

هل لآلهتكم مشاركة مع الله في الخلق؟

هل تعتمدون في عبادة الأصنام على كتاب منزل من الله سابق للقرآن؟

هل تعتمدون في عبادة الأصنام على بقية من علم قديم؟

لكن العقل لا مكان له بين أتباع الموروث.

ومثل قريش كل أتباع الموروث في كل زمان ومكان: وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) الزخرف.

وكان يجب على أتباع المذاهب والفرق بين المسلمين أن يستمعوا ويفكروا:

هل الدين لله وحده، أو لله والرسول؟

سيقولون الدين لله وحده. إذاً، كيف يكون كلام الرسول جزءاً من دين الله؟

سيقولون: لأن الرسول يتلقى وحياً غير القرآن.

فإذا كان القرآن يقول بأن الرسول لا يتلقى إلا القرآن فكيف يكون كلام الرسول من دين الله؟

فسينغضون اليك رؤوسهم ويقولون: أنت منكر للسنة.

حقائق تاريخية

سنكتفي بإيراد حقيقتين هامتين من الحقائق التاريخية الكثيرة التي تؤكد وجوب نبذ كتب التراث، وعدم الاعتماد على ما تحويه.

(١) البينة على من ادعى

يقال إن أبا بكر ورث الجدة، التي ليس لها إرث في كتاب الله. وفي هذا المقام لن نناقش إن كان فعل ذلك أم لا، فالذي يهمنا شيء آخر سنتبينه ونبني عليه حديثنا في هذه الفقرة. وهذا نص الحديث في كتاب الترمذي: حدَّثنا الأَنْصَارِيُّ، حدثنا مَعْنٌ، حدثنا مَالِكٌ عن ابنِ شِهَابٍ عن عُثْمَانَ بنِ إِسْحَاقَ بن خَرْشَةَ عن قَبِيصَةَ بنِ ذُؤَيْبٍ قالَ : «جَاءَتْ الجَدَّةُ إلى أَبِي بَكْرٍ فَسَأَلَتْهُ مِيْرَاثَهَا، قَالَ لَهَا: مَا لَكِ في كِتَابِ الله شَيْءٌ، وَمَا لَكِ في سُنَّةِ رَسُولِ الله شَيْءٌ فَارْجِعِي حتى أَسْأَلَ النَّاسَ، فَسَأَلَ النَّاسَ، فَقَالَ المُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةَ: حَضَرْتُ رَسُولَ الله أَعْطَاهَا السُّدُسَ، فَقَالَ هَلْ مَعَكِ غَيْرُكِ؟ فَقَامَ محمدُ بنُ مَسْلَمَةَ فَقَالَ مِثْلَ مَا قَالَ المُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةَ، فَأَنْفَذَهُ لَهَا أَبُو بَكْرٍ.

وبداية سنفترض أن القصة صحيحة ووقعت بالفعل، وسنرى أن أبا بكر لم يورث الجدة إلا بشهادة شاهدين على قيد الحياة سمعا من الرسول.

ولو أن أبا بكر عاش في زمن متأخر وشهد عنده رجلان لم يقابلا الرسول وهما ثقات ويعرفهما أبو بكر حق المعرفة، فهل سيورث الجدة أم يمتنع؟

دعونا نبتعد عن أبي بكر، ونفترض أنه حضر للمحكمة رجلان كلاهما يدعي ملكية أرض متنازع عليها. وادعى الأول أن الأرض مملوكة لعائلته لأنها كانت مملوكة لجده السابع، وأن لديه شهوداً يشهدون بذلك. والرجل ثقة والشهود الذين أحضرهم ثقات. لكن كل ما يملكون هو أنهم سمعوا من آبائهم عن أجدادهم أن الأرض لجد الرجل المدعي. أما الرجل الآخر فلا يملك شهوداً ولكنه يملك حجة استحكام كتبت قبل ألف سنة تؤكد أن الأرض لعائلته.

وبعد التحقق من الوثيقة ثبت أنها أصلية وغير مزورة، فلمن سيكون حكم القاضي يا ترى؟

وكتب الحديث عبارة عن تجميع لكلام شهود في عصرهم على أقوال وأفعال سبقتهم

بمئتي عام، وليس بينها قول مكتوب. والشهود الذين سمع منهم البخاري ومسلم ومالك والنسائي وأحمد وغيرهم سنفترض أنهم كلهم ثقات ولا يرقى إليهم الشك، لكن شهادتهم عبارة عن نقل من شهود آخرين عن شهود أموات. فهل تقبل شهاداتهم في محكمة نزيهة تحكم بالعدل؟

ولو أن شخصاً رفع قضية على النسائي أو مالك أو أحمد أو أي مؤلف لكتب الحديث في زمنه، مطالباً إياه بإثبات الشهادات التي وثقها في كتابه على شكل أحاديث، فهل سيتمكن أي مؤلف لكتب الحديث من إثبات صحة ما كتبه في كتابه؟

هم لا يملكون حجج استحكام مكتوبة، وكل ما يملكون رجالاً ثقاتاً جداً أحياء، رووا عن أشخاص سبقوهم وماتوا، والذين بدورهم رووا عن أموات سبقوهم.

فهل سيحكم القاضي النزيه العادل بصحة ما جاء في كتب الحديث؟

لكن لو أن عُثْمَانَ بنِ إِسْحَاقَ بن خَرْشَةَ الذي روى عن قَبِيصَةَ بنِ ذُؤَيْبٍ، طلب من قبيصة شاهدين على كلامه، وأحضرهم قبيصة وكانوا ثقات فسيكون كلام قبيصة مقبولاً عند عثمان ابن إسحاق.

وعندما نقل عثمان الخبر إلى الراوي الذي بعده وهو ابن شهاب، قام ابن شهاب وطلب شاهدين على عثمان أنه سمعه من قبيصة فهل سيتمكن عثمان من الإتيان بشهود عيان سمعوا قبيصة يحدثه؟

الاحتمال الغالب أنه لن يتمكن لأنه لم يكن هناك شهود سمعوا قبيصة يحدث عثمان والدليل أن الحديث روي من قبيصة لعثمان لابن شهاب في الترمذي والنسائي والموطأ، ولم يرو عن شهود آخرين.

ومع ذلك سنفترض أن عثمان ابن خرشة استطاع إحضار شاهدين يؤكدان أنه سمعه من قبيصة.

ثم يكون على مالك الذي سمع من ابن شهاب أن يطلب من ابن شهاب شهوداً يؤكدون أنه سمع من عثمان، وهذا ممكن. وأن يحضر ابن شهاب شهوداً يؤكدون أن عثمان سمع من ابن قبيصة وهذا غير ممكن، لبعد الشقة وموت ذلك الجيل.

وهكذا كلما تقادم الزمن استحال وجود الشهود. وبطبيعة الحال فلم يكن الرواة يطلبون

شهوداً بهذه الطريقة، وأقصى ما كان يفعله مؤلف كتاب الحديث هو أن يطلب من الراوي الذي يسمعه الحديث أن يحضر شهوداً يؤكدون أنه سمعه من الراوي الذي سبقه فقط. فالترمذي سنفترض أنه طلب من الأنصاري أن يحضر له شهوداً يؤكدون أنه سمع الحديث من معن (الراوي الذي سبقه في سلسلة رواة الحديث) لكن يستحيل أن يكون بقية الرواة في السلسلة قبل ذلك طلبوا الشهود.

وتكون كل الأحاديث التي في كتب الأحاديث بلا استثناء لا يمكن أن تقبل في المحكمة لإثبات الأقوال التي وردت فيها عن الرسول، لاستحالة إثبات أن كل راو طلب من الراوي الذي قبله تأكيد أنه سمع الحديث بشهود.

وحتى مع افتراض أن كل راو في سلسلة الرواة قد تأكد أنه أخذ الحديث من ثقة صدوق - لئلا ندخل في متاهة مع ما يسمى علم الرجال - فإن الشهادة لا تكون بأثر رجعي من أشخاص ماتوا قبل سماع شهاداتهم. ولو ذهبت للمحكمة للمطالبة بحق لي لا أملك عليه بينة إلا شهوداً ماتوا قبل المثول للمحكمة فلن يقبل ادعائي وسأخسر القضية، حتى لو كان الشهود ثقات.

وحتى لو كان كل رواة الأحاديث الموجودة في كتب الحديث ثقات صادقين عند معاصريهم، إلا أنه يستحيل أن تقبل شهادتهم في الوقت الذي دونت فيه كتب الحديث، لأنهم ماتوا قبل ذلك ولا يستطيع البخاري أو مالك أو الترمذي أو مسلم أو غيرهم، سماع شهادات شهود يؤكدون صدقهم، وهذا هو المهم.

وما ينطبق على الحديث ينطبق على كل كتب التراث الأخرى.

وللمعلومية فحديث قبيصة عن توريث أبي بكر للجدة غير مقبول ولا يمكن أن يكون صحيحاً لأن قبيصة هذا ولد عام الفتح - حسب ترجمة حياته التي وردت في كتب التراث كسير أعلام النبلاء - أي أنه ولد قبل وفاة الرسول بثلاث سنوات وقبل وفاة أبي بكر بخمس سنوات. يعني كان طفلاً للتو فطم من الرضاعة عندما مات أبو بكر، فكيف تقبل شهادته كشاهد على حادثة وقعت قبل عصره؟

(٢) عصر الظلمات والفتن

إسلام القرآن الذي جاء به الرسول توقف فجأة بعد وفاته عليه الصلاة والسلام بسبب الظروف التي سادت حينها. فقد نقضت قبائل جزيرة العرب عهدها مع المسلمين وثارت ضد دولتهم ولم يبق للمسلمين وجود سوى في المدينة. ولم تكن أعدادهم تزيد عن بضع مئات، يشاركهم منافقون من مسلمة يثرب ومسلمة قريش، وبعض بني إسرائيل يثرب وهناك قريش التي تتربص بالمسلمين الدوائر، برغم اضطرارهم لإعلان الإسلام أو الاستسلام لدولة المسلمين. وقد وجد أولئك المسلمون القلة أنفسهم يواجهون أعداءً من كل حدب وصوب، بل إن بعض جيوش المرتدين توجه فعلاً للمدينة. فما كان من أبي بكر إلا أن جمع جيشاً ممن استطاع جمعه من الرجال لدرء الخطر الذي يهدد الإسلام والمسلمين. لذا لم يكن مستغرباً أن يكون ضمن قواد جيوش الردة خالد ابن الوليد، الذي أعلن الإسلام قبيل فتح مكة، وعكرمة ابن أبي جهل، الذي لم يسلم إلا بعد الفتح. وينسب له أنه قد هرب باتجاه اليمن، فلحقت به امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هاشم، وأقنعته بأن نطقه الشهادة كفيل بحقن دمه عند رسول الله. وهناك حذيفة بن محصن القَلْعَانِي. والذي يقول صاحب أسد الغابة في معرفة الأصحاب: لا أعرفه بأكثر من أن أبا بكر عزل عكرمة بن أبي جهل عن عُمَان، وسيره إلى اليمن، واستعمل على عمان حذيفة القلعاني، فلم يزل والياً عليها إلى أن توفي أبو بكر. ومنهم طرفة بن حاجب وقيل اسمه طريفة بن حاجز. قال سيف بن عمر في كتابه « الفتوح »: هو الذي كتب إليه أبو بكر رضي الله عنه في قتال الفجاءة السلمي، ولا يعرف عنه غير ذلك. ومنهم سويد ابن مقرن أخو النعمان ابن مقرن، قدم وإخوته السبعة ضمن وفد مزينة على الرسول وأسلموا عام الوفود، وعاد لبلاده حتى استدعاه أبو بكر للاشتراك في حروب الردة. ومنهم المهاجر ابن أبي أمية بن المغيرة القرشي المخزومي، والذي أعلن إسلامه بعد الفتح. وذكر سيف في « الفتوح » أن المهاجر كان ممن تخلف عن غزوة تبوك.

فإن كان هؤلاء هم قادة الجيوش فما بالك بالجند.

ثم تواصلت التعبئة بعد الردة للفتوح، بعد أن قتل غالبية الصحابة الأخيار. وقد وجه الصدِّيق لفتح بلاد الشام أربعة جيوش. أحدها كان إلى حمص بقيادة أبي عبيدة عامر ابن الجراح الصحابي الجليل، أما الجيش الثاني فقد توجه لدمشق بقيادة يزيد ابن أبي سفيان

أحد الطلقاء، وكان هناك جيش ثالث متوجه للأردن بقيادة شرحبيل ابن حسنة أحد أتقياء الصحابة، والجيش الرابع كان بقيادة عمرو ابن العاص. وكل جند الجيوش الأربعة كانوا خليطاً من طلقاء مكة وثقيف ومن بعض من عاد للإسلام من المرتدين من جنوب الجزيرة، ومعهم نفر قليل من الصحابة السابقين في الإسلام، كما وصف البلاذري في كتابه فتوح البلدان، إن صدق.

كما كان من أهم قواد الفتوح في العراق المثنى ابن حارثة، وهو أعرابي من بني بكر ابن وائل والذي لم يعرف الإسلام عن قرب. ويذكر أن جيشه كان يتكون من خليط من العرب الوثنيين والمسيحيين، ونفر قليل من الصحابة الأخيار. كما كان جيش خالد ابن الوليد يتكون من بعض من عاد من الردة وبعض من أعلن إسلامه بعد الرسول ونفر قليل من الصحابة الأخيار، ومثله جيش سعد ابن أبي وقاص.

وإن كانت هذه الأخبار وردت في كتب التراث غير الموثوقة فإن الواقع يميل إلى إقرارها بالإجمال دون التفاصيل. ذلك أن عدد المسلمين الأخيار زمن الرسول لم يزيدوا عن بضع مئات، ويستحيل أن تكفي أعدادهم لكل تلك الجيوش الجرارة التي أعادة السيطرة على جزيرة العرب في عام وبضعة أشهر ثم استولت على بلاد الفرس والعراق والشام ووادي النيل خلال عشر سنوات. وكل البلاد المفتوحة يدين أهلها بمعتقدات وأديان وفلسفات متنوعة وعميقة. فيما لم يحمل جنود الفتوح ثقافة إسلامية أصيلة، لأنهم لم يعرفوا من الإسلام إلا الصلاة والشهادتين وبعض الوصايا. في وقت تناقصت فيه أعداد المسلمين الأخيار القليلة أصلاً بسرعة، مما جعل وجود من بقي منهم ليس له أي تأثير يذكر في تأسيس ثقافة إسلامية نابعة من إسلام عصر الرسول في البلاد المفتوحة.

كما أن تأخر نسخ المصاحف ساهم في قطع الصلة تماماً بين عصر الرسول والمجتمع المسلم المحدود العدد في المدينة، وبين عصر ما بعد الفتوح والمجتمع الهائل الاتساع والملون بالثقافات والديانات. وحتى محاولات عمر ابن الخطاب تحفيظ عدد من المسلمين القرآن وإرسالهم مع جيوش الفتح لم يكن لها تأثير يذكر لقلة عدد القراء من جهة ولأنهم كانوا جنوداً عرضة للقتل وتناقص الأعداد من جهة ثانية، ولأن معظمهم وإن حفظوا القرآن فهم من الداخلين في الإسلام حديثاً وبعد الرسول، ولم يتخلصوا من موروثهم السابق،

ولم يتعمقوا في الدين بما يكفي لكي تكون ثقافتهم ثقافة إسلامية مؤثرة بمن يحتك بهم من مسلمي البلاد المفتوحة. لذا فقد كانوا قراءً لقرآنٍ لم يتعرفوا عليه.

وبعدما قتل عمر ابن الخطاب قويت شوكة رجال قريش الذين كانت مكائدهم مستمرة للمسلمين ودولتهم منذ عصر الرسول، وحاولوا نشر مصاحف مزورة ومشبوهة في الأمصار المفتوحة لكي يخلقوا ديناً باسم الإسلام يهدم الإسلام من الداخل. وقد فطن عثمان لذلك[1] وقطع الطريق على قريش وأفسد مخططاتها، بحرق تلك المصاحف المشبوهة ونشر نسخاً من مصحف رسول الله. فقامت قريش بنشر أكاذيب حول عثمان في تلك الأمصار، أوغرت صدور الناس ضده فقدموا للمدينة وقتلوه.

وبعد قتله تحزب حفظة القرآن «القراء» في حزب واحد وبايعوا علي ابن أبي طالب بالخلافة، ثم تخلو عنه بعد معركة صفين ضد معاوية لأنه قَبِلَ أن يقتسم دولة المسلمين مع معاوية[2]. فما كان من علي ابن أبي طالب إلا أن لاحقهم وسحقهم في النهروان، بعد تشويه سمعتهم بتسميتهم الخوارج. وبما أن من بقي منهم يمثلون الجماعة الوحيدة التي لها صلة بالقرآن والتي تدعو للعودة لإسلام الرسول برغم عدم إحاطتها به إحاطة تامة، وفي هذا فضح لممارسات الأمويين، فقد واصل بنو أمية مطاردتهم حتى تواروا عن الأنظار، وتحورت عقائدهم.

---

١ تقول كتب التراث إن حذيفة ابن اليمان هو من نبه عثمان لخطورة انتشار تلك المصاحف المشبوهة، وأشار عليه بحرقها. وإن كنت أميل شخصياً أن عثمان هو صاحب المبادرة، وإن كان لحذيفة دور فهو أن عثمان سألهم وسأل غيره عن تلك المصاحف. لأنه لو كان الرأي لحذيفة في حرق المصاحف فلن يقوم عثمان بذلك حتى يستشير من يعتقد استشارته، وبما أنه مضى بنفسه لحرق المصاحف بلا استشارة فهذا يدعم أن حرق المصاحف ونسخ نسخ من المصحف الإمام هو رأي محض لعثمان.

٢ كتب التراث تروي قصة لا يمكن ان تكون حصلت، مفادها أن القتال توقف في صفين بين جيش معاوية وعلي لأن رجال معاوية رفعوا المصاحف، مع أنه لم يكن هناك مصاحف مكتوبة لترفع. واتفقا على أن يختار كل واحد منهم ممثلاً له يناقشان الوضع ويقرران ما يجب فعله. فاختار علي أبا موسى الأشعري واختار معاوية عمرو ابن العاص، فاتفقا على خلع كل من علي ومعاوية وترك المسلمين يختارون خليفة. فأعلن الأشعري ما اتفق عليه، وجاء بعده عمرو ابن العاص وأعلن خلع علي وتثبيت معاوية. ولو كان هذا ما حدث فسيعود الجيشان للاقتتال، لكنهم لم يقتتلوا. ورجع معاوية للشام وعين عمرو ابن العاص على مصر، بينما عاد علي للعراق. وهو ما يثبت أن هناك اتفاقاً بين علي ومعاوية على اقتسام الدولة، بحيث يكون لمعاوية الشام ومصر وما غربها، ويكون لعلي جزيرة العرب والعراق والأراضي شرقها. وقد بقي علي على قيد الحياة لمدة ثلاث سنوات بعد ذلك، ولم يحدث بينه وبين معاوية أي اقتتال أو أن يعتدي طرف على أراضي الطرف الثاني. وهذا الاتفاق هو ما أغضب «القراء» وجعلهم ينسحبون من جيش علي ومن مناصرته، ويقررون اعتزال العمل السياسي. لكن علي ابن ابي طالب لاحقهم وسحقهم في النهروان (قرب بغداد الحالية). ومن بقي منهم استمر علي يطاردهم حتى قتله أحدهم وهو عبد الرحمن ابن ملجم. ولم يكن هناك محاولة لقتل عمرو ابن العاص وقتل معاوية ولكنها فشلت، كما ورد في كتب التراث. وبما أن من بقي من القراء يطالبون بإعادة الحكم كما كان عليه زمن الخلفاء الثلاثة الأوائل فإن هذا لن يعجب معاوية لأنه يخالف طريقة حكمه، فما كان منه إلا أن استمر بملاحقتهم وتقتيلهم بعد قتل علي لهم، لأنه يمثلون عليه خطراً يفضح سياسته التي خرجت عن إدارة الدولة الإسلامية إلى إدارة بيزنطية السمات.

وبقيت نسخ المصحف التي أرسلها عثمان للأمصار عبارة عن كتب، كل كتاب في مصر من أمصار الدولة بعيداً عن التأثير في حياة الناس العادية، مثله مثل النفر القليل ممن بقي من الصحابة الأخيار الذين ارتكب غالبيتهم خطأ فادحاً باعتزال الحياة السياسية، ونقد المخالفات، إما باختيار أو تحت التهديد[1]. ولم يبق على السطح ممن ينسب للصحابة إلا من وافق إسلامه هوى الحكام أو رضي بمداهنتهم. لذلك خفتت أصوات سعد ابن ابي وقاص ومحمد ابن مسلمة وغيرهم ممن بقي من أتقياء الصحابة، وعلت أصوات مثل ابن عباس وأبي هريرة ومن نحا نحوهما.

فكانت الفترة التي بدأت من عصر عمر ابن الخطاب وحتى ما عرف بعصر التدوين في الربع الرابع للقرن الهجري الأول من أحلك الفترات التي مرت على الإسلام. فقد انقطعت الصلة بعصر الرسول بأحداثه وإسلامه، إلا اللمم، فيما كان لدى سكان البلاد المفتوحة موروث عميق من معتقداتهم السابقة. ولكي يحتفظوا بموروثٍ يصعب التخلص منه أصلاً، أبقوا على معتقداتهم السابقة وألبسوها لبوساً يبدو وكأنه إسلامي. فبدأ موروث جديد يتكون بمعزل تام عن كتاب الله وعن إسلام عصر الرسول الذي انقطعت الصلة به. هذا الموروث الجديد تحول إلى موروثٍ للمسلمين، نبتت منه مذاهبهم. وفي ذلك العصر بدأ الناس يتناقلون قصصاً وحكايات عن عصرٍ للرسول لم يعيشوه ولا تربطهم به أي صلة سوى انتمائهم الجديد للإسلام. فبدأ القصاص من المسلمين الجدد في مجالسهم يقصون عن ذلك العصر المجهول لهم، قصصاً تلائم ما يريدون توصيله للمستمع من درس أو رسالة. بعض الرسائل للمدح فتأتي القصص خيالية، وبعضها للقدح فجاءت القصص مريعة وحشية، وبعضها ساخر، وبعضها منقول من معتقدات القاص السابقة.

وهكذا ولد وترعرع وقوي واشتد ساق ما عرف بموروث المسلمين في تلك الفترة، سواء ما عرف فيما بعد بالمذاهب وكتبهم التراثية الدينية، أو كتب السير، فكلها نشأت أساساً من خليط معتقدات دخيلة، وقليل مما تسرب من إسلام عصر الرسول من خلال قصص يتناقله الناس مشافهة. وكل هذا الموروث الجديد بكل مكوناته نضج في بيئات وأوقات وأماكن بعيدة ومنقطعة عن عصر الرسول وإسلام القرآن انقطاعاً تاماً. محاطاً بسياسة حكام كل ما يعرفون من الإسلام هو استخدامه لتليين رقاب معارضيهم واستباحة المال العام والتفرد

[1] انظر فقرة: اعتزال الفتنة جلب على المسلمين تسلط الحكام/ قسم أحداث من عصر الرسول.

بالسلطة وتحريم الخروج على الحاكم أو نقده.

وبعد دخول صناعة الورق لبغداد ودمشق في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، اشتغل كثيرون بالقرآن، بعدما انتشرت المصاحف بشكل وافر. لكن هذه العودة للقرآن حدثت بعد أن ترسخ الموروث الجديد بمذاهبه المتنوعة. وأصبح ما استمد من القرآن هو الجديد والمستحدث. ولذلك استسهل السلف تأويل معاني الآيات، والقول بنسخها، والتلاعب بها كيفما يشاؤون. كما ورثنا في كتب التراث.

وهكذا تظافرت عدة عوامل بعد عصر الرسول عملت على ظهور فرق ومعتقدات مختلفة كثيرة، تصاهرت حيناً وتخالفت حيناً آخر، إلى أن تبلور ما عرف بالمذاهب والفرق. بعضها لم يتقبله السياسي وبعضها نفر منها المجتمع، فتوارت عن الأنظار وبقيت في الخفاء. وبعضها قضي عليه، وبعضها تمت رعايته. ومن مئات الفرق لم يبق منها الآن سوى أعداد قليلة، استمرت في التوسع والتشقق إلى فرق أصغر.

وكقانون ثابت سارت عليه كل البشرية، فحتى لو لم يكن هناك قريش ولم يكن هناك فتوح ولو نسخ المصحف وعمل بتشريعاته منذ عصر الرسول فسيتحول الناس (أو غالبيتهم) عن الدين لأن التحول سنة أزلية. إلا أنه لو اختلفت العوامل والظروف في عصر الرسول وبعده، فقد تختلف حدة التحول عن الدين أو كثرته أو يتباطأ أو نحو ذلك، وسنرث موروثاً مختلفاً عن موروثنا الحالي. وفي كل الأحوال فالابتعاد عن الدين بعد الرسول كان سيحدث، بسبب أو بآخر.

وما نريد الوصول إليه في هذه الفقرة هو أن هناك عوامل وأحداثاً وقعت بعد عصر الرسول أدت إلى عزل عصر الرسول عزلاً تاماً عن عصر ما بعد الفتوح. وأن الموروث الديني للمسلمين بكافة مذاهبهم وكل ما يعرفون من تاريخ عصر الرسول، ولد في بيئة لا علاقة لها بعصر الرسول. اعتمدت موروثات مختلفة من معتقدات سكان البلاد المفتوحة تصاهرت وتبلورت لتولد منها مذاهب المسلمين وفرقهم وقصص تاريخهم، بعيداً عن القرآن، وتحت حكم قرشي لا يمت لحكم دولة المسلمين في عصر الرسول والخلفاء الثلاثة بعده بصلة.

فالموروث الحالي لكل المسلمين أساسه غير إسلامي، ولم يعرف القرآن إلا لاحقاً، لهذا تم تأويل القرآن ليلائم الموروث.

وصعوبة التخلص من هذا الموروث أو نقده، أن المسلمين يعتبرونه امتداداً لإسلام الرسول، دخلته بعض البدع. لذا فكل أتباع الموروث في كافة المذاهب يعتبرون الرجوع للدين ممكناً، مع بقاء الموروث وكتب التراث. لأن العودة عندهم لا تتطلب أكثر من تنقية كتب الموروث مما يتفق على أنه بدعة، دون المساس بجوهر الموروث. لذا نجد أن الشيعي والسني والمعتزلي والإباضي وغيرهم يدعون للعودة للدين، وكل أتباع مذهب لديهم عودة تختلف عن عودة المذاهب الأخرى، لأن جذور كل مذهب تختلف عن المذاهب الأخرى. وبما أن أتباع كل المذاهب الحية يتفقون على أن مذاهبهم امتداد لإسلام عصر الرسول فقد يقبلون بالتخلص المحدود مما يعتبر بدعاً، لكن لن يقبل أحد منهم التخلص التام من كتب التراث لأنها تمثل في نظرهم إسلام عصر الرسول.

بينما الحقيقة المرة هي أن هذا الموروث الحالي للمسلمين بمختلف طوائفهم، لا علاقة له بدين الله، وأن القرآن تم تأويله ليتماشى معه. والعودة للقرآن لا يمكن أن تتم إلا بالتخلص الكامل من كل كتب التراث. وهذا ما يجعل تصديق الناس بخطأ موروثهم أصعب، ويجعل المناداة بالتخلص من كتب التراث، وكأنها مناداة بحذف أكثر الدين.

وفي عصر الظلمات والفتن ذاك أثيرت كل التساؤلات التي لا وجود لها في القرآن ونسبت لعصر الرسول وكأنها حدثت فيه لكي تكتسب المصداقية. ولو كانت حدثت في عصر الرسول فسيجيب عنها القرآن، وخلو القرآن من الإجابة عليها دليل على أن الناس لم يتساءلوا عنها زمن الرسول وفهموها كما نزلت.

فكل الناس عرفوا أن: "تبين الخيط الأبيض من الخيط ألسود من الفجر" يعني انبلاج أول أشعة الضوء في السماء. ولم يكن هناك آيات في القرآن اختفت، أو ألغيت، أو ألغي حكمها وبقيت تقرأ. ولم يكن هناك حديث عن الرسول ينسخ قرآناً.

هذه الحقيقة تغيب عن كثير من المسلمين بكافة مراتبهم، من المسلم العادي إلى المفكرين، ولو وعاها الناس فستتغير طريقة البحوث. لأن الحرج من تناول كتب التراث على أنها تمثل دين الله سيزول، وسيتم تناولها على أنها كتب ولدت في بيئة لا تمت لعصر الرسول بصلة. وسنصل لنتائج مختلفة، لأن الباحث لن يتحرج من إعلان كل ما يتوصل إليه من نتائج. كما أن الإنسان العادي سيتقبل نقد تلك الكتب بشكل أكبر.

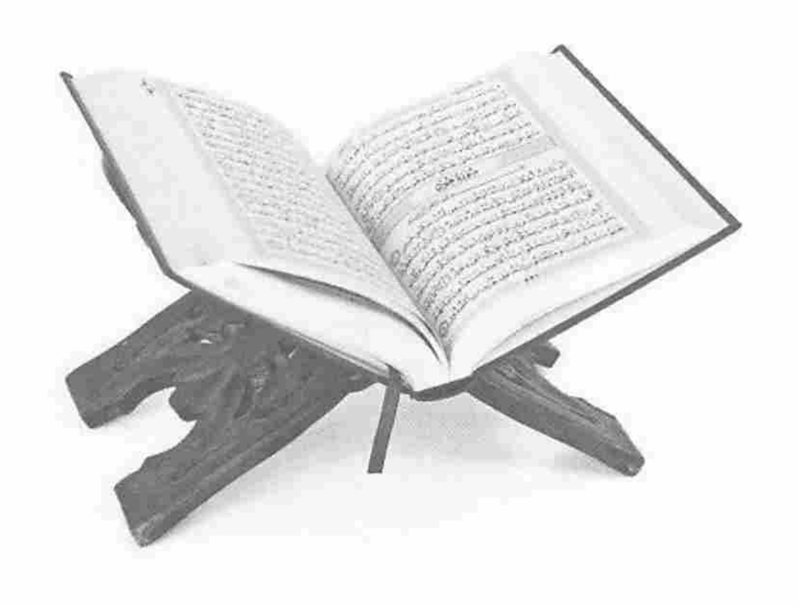
ومما تقدم يتضح للقراء لماذا كان ترك كتب الموروث جملة وتفصيلاً مطلباً دينياً لمن يرغب في العودة للحق ولدين الله القويم الذي نزل على محمد عليه الصلاة والسلام.

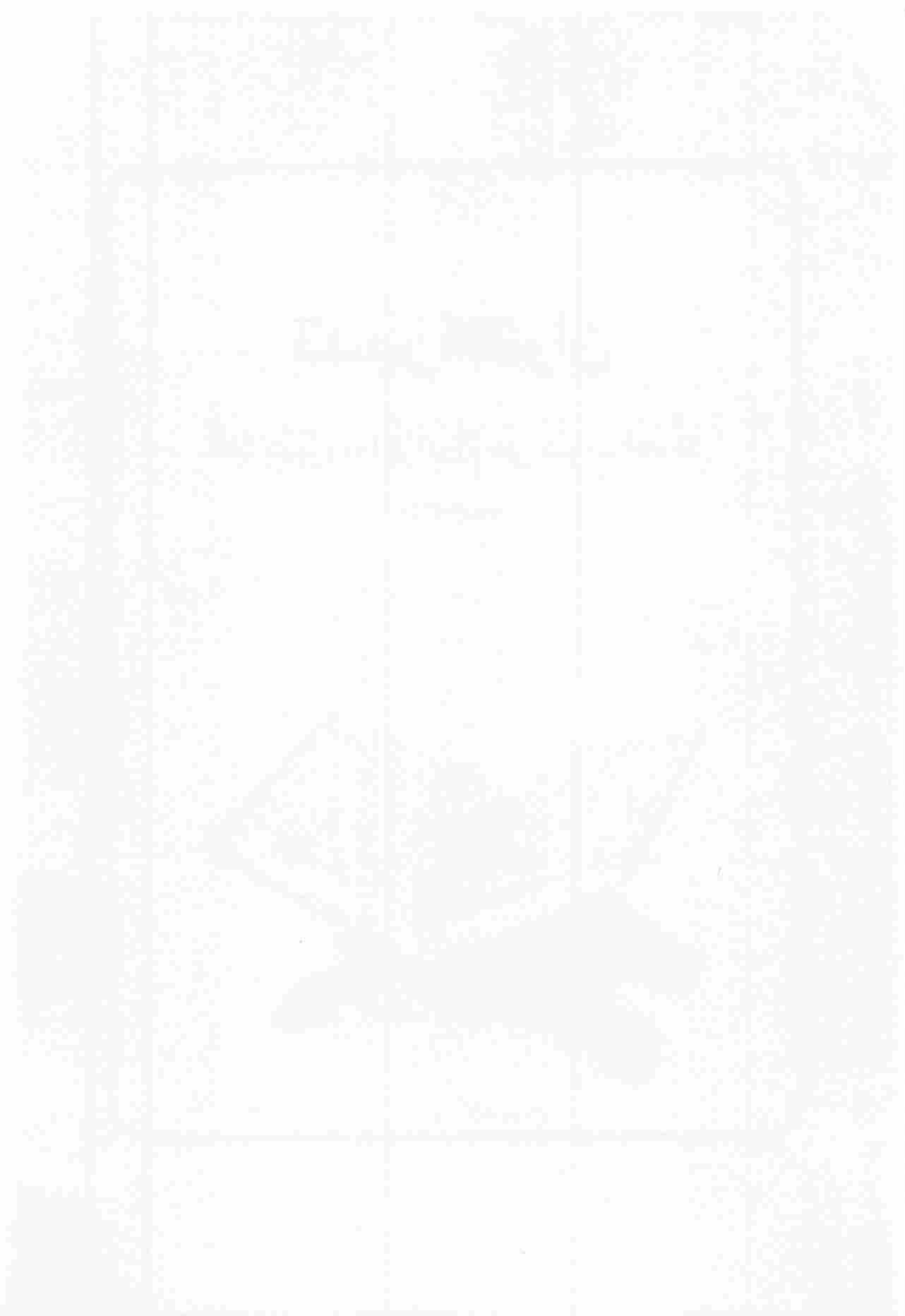


تدبر القرآن

أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا

(٢٤) «محمد»





منهجية تدبر القرآن

خلال القرون الماضية فهم الناس القرآن بطريقة كتب التراث، وخلت الساحة من بحوث تعتمد القرآن للتعريف بنفسه دون عون من كتب أخرى، وتعتمد القرآن وحده للتعريف بالإسلام، من تشريع وأحداث. وتعتمد القرآن للتعريف بالألفاظ التي وردت فيه، وتعتمد القرآن للحديث عن المواضيع التي تناولها الكتاب المبين. وتعتمد القرآن للتعرف على أساليب القرآن، وعلى تفاعل سوره مع الأحداث حين نزولها، وغير ذلك. فجاء هذا البحث كبداية تفسح المجال للقرآن لكي يتحدث معنا مباشرة دون وسيط، وليؤكد أن كتاب الله لديه القدرة على بناء دين كامل دون عون أو مساعدة من فقيه أو محدث أو مفسر أو أي رجل دين آخر.

وقبل أن نشرع في التدبر لابد من بيان المنهجية المتبعة في هذا البحث، لكي يمكن الحكم على صحة أو خطأ ما توصلنا إليه بعيداً عن تفتيت التفاصيل واعتبار نقدها نقداً للبحث.

وفيما يلي أهم الضوابط التي تقوم عليها هذه المنهجية:

نزول القرآن سورة سورة

السورة عبارة عن رسالة إلهية تنزل على الناس لتتفاعل مع ما يجري فترة نزولها. ولو نزلت آية أو آيتان لوحدهما لأصبحت سورة. لذا وجد في القرآن سور قصار، بثلاث آيات فقط، وسور أطول بعشر أو عشرين آية، وسور متوسطة الطول، بخمسين وستين آية، وسور طوال تصل أطولها – البقرة – إلى (٢٨٦) آية. والقرآن مقسم إلى سور لأن كل سورة – بغض النظر عن طولها – نزلت في وقت واحد.

وخير شاهد وأصدقه على أن القرآن ينزل سورة سورة، هو كتاب الله نفسه، وإليكم بعض ما جاء فيه:

- عندما اتهم المشركون محمداً بأن القرآن من عنده، جاء القرآن ليقول لهم: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) يونس.

وهو ما كررته سورة البقرة:وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٢٣) البقرة.

وهذا التحدي قائم حتى لو كانت السورة التي سيأتي بها الناس تتكون من آية واحدة فقط أو بطول سطر واحد مثل سورة الكوثر. لكنه لم يقل فأتوا بآية أو آيات، لأن الآية والآيات لا تنزل لوحدها، ولو نزلت آية لوحدها فهي سورة. ولا عبرة في طول الآية وقصرها، ففي القرآن الكريم آيات الواحدة منها أطول من بعض السور، ومن ذلك الآية رقم (٢٨٢) في سورة البقرة، والتي تبدأ بقوله تعالى:

"يَا أَيُّهَا الذين آمنوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمى فأكتبوه".

هذه الآية ليست فقط أطول من قصار السور كالفاتحة والنصر والكوثر والناس والفلق والضحى والشرح والمسد وقريش والفيل والعصر والهمزة والتكاثر والقارعة والتين والليل والشمس، بل هي أطول من سور مثل العاديات والعلق والبلد والغاشية والأعلى والطارق. وبطول سور مثل البروج والانشقاق والفجر التي عدد آياتها (٢٣) آية.

فما ينزل به الوحي في وقت واحد يعتبر سورة، بغض النظر عن طول ما نزل وقصره.

- المنافقون في المدينة كانوا يخشون أن يفضحهم الوحي: يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ اسْتَهْزِئُواْ إِنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ(٦٤) براءة.

ولم يقولوا تنزل آية أو آيات، برغم أن فضحهم قد لا يحتاج سوى لآية واحدة. لكن بما أن الآية والآيات لا تنزل لوحدها ولكن ضمن سورة، قال القرآن: "يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة".

ويقول تعالى في السورة نفسها: وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ(٨٦) براءة.

مع أن الأمر بالإيمان والجهاد مع الرسول يحتاج لآية واحدة وليس سورة كاملة، لكن بحكم أن الآية لا تنزل لوحدها قال تعالى: وإذا نزلت سورة (ومن ضمنها الآية التي تأمر بالإيمان والجهاد).

- ومثل ذلك قوله تعالى: وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ(١٢٤) براءة.
- وفي سورة محمد يقول تعالى: وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ(٢٠).

وذكر القتال لا يحتاج سوى آية واحدة وليس سورة كاملة، لكن بحكم أن الآية لا تنزل لوحدها قال: "لولا نزلت سورة".

في المقابل، ليس في كتاب الله الكريم آية واحدة تقول أو تشير ولو ضمناً إلى أن القرآن كان ينزل على شكل آية أو آيات. ولو كان القرآن ينزل آية وآيات، لما احتجنا إلا لنزول سورة واحدة مكية وكلما نزلت آيات أضيفت للسورة. وبعد الهجرة تنزل سورة مدنية، وكلما نزلت آيات أضيفت للسورة. ويكون القرآن عبارة عن سورة مكية تحوي آيات السور المكية الـ (٨٩)، وأخرى سورة مدنية تحوي آيات السور المدنية الـ (٢٥).

وقفة حول تسمية عبارات القرآن آيات

نبدأ بالقول إن القرآن في عصر الرسول عبارة عن سور تتكون من عبارات بدون أرقام وتقرأ كعبارات أي رسالة، ولا تسمى آيات. وقد جاءت تسمية (آية) ليقصد بها عبارة في القرآن تنتهي برقم، بعد عصر الظلمات والفتن، ورسختها كتب التراث. فأصبحت السورة مجزأة على شكل عبارات تحمل أرقاماً، وتسمى الواحدة منها (آية). فنقول: سورة الجمعة وعدد آياتها (١١) آية، وسورة الأنعام وعدد آياتها (١٦٥) آية، وسورة النصر وعدد آياتها (٣) آيات... وهكذا.

أما الآية والآيات فتأتي في القرآن بعدة معان، ليس من بينها المعنى السائد بيننا الآن، وهو العبارة في السورة التي تنتهي برقم. ومن معاني الآية والآيات في القرآن ما يلي:

بمعنى شواهد وقرائن

ووقد ورد هذا المعني كثيراً جداً في السور، ومن ذلك:

- إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاء مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ(٦) الجاثية.
- ومثله: أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٨٦) النمل.
- ومثله: أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٧٩) النحل.

وتأتي بمعنى خوارق

أو ما أصبحنا نطلق عليه (المعجزات)، وفي الغالب تأتي بصيغة المفرد (آية) ومن ذلك:

- وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ(١١٨) البقرة.
- وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ(٣٧) الأنعام.

وتأتي بمعنى التشريعات والأحكام

- وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(٤٢) البقرة.
- ومثله: وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ(٩٩) البقرة.
- ومثله: رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(١٢٩) البقرة.
- ومثله: كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ

وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ(١٥١) البقرة.

- ومثله: ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ(١٨٧) البقرة.
- ومثله: الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ(١٨٧) هود.
- ومثله: الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ (١) الحجر.

وهناك بعض السور ذكرت الآيات، ورسخ بين الناس أنها تعني الآيات بالمعنى السائد، ومن ذلك:

- هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ (٧) آل عمران.

والآيات هنا تعني الأحكام والتشريعات ولا تعني الآيات بمعناها السائد. والآيات المحكمات هي الأحكام الواضحة التحريم مثل قوله: حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير.

والآيات المتشابهة التي يتأولها الناس لتبدو وكأنها غير واضحة التحريم مثل قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٩٠) المائدة.

فالبعض يسارع ويقول إن الخمر ليست حرام لأنه لا يوجد نص تحريم واضح (محكم). هؤلاء وصفهم القرآن بالذين في قلوبهم زيغ، ويتبعون ما تأولوا أنه ليس تحريم ابتغاء الفتنة والاستمرار على تعاطي كبيرة الخمر.

ومثله: وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) النساء.

فالآيات هنا تعني أحكام القرآن وتشريعاته، وهي التي تكون مثار سخرية من الكفار،

وليست نصوص القرآن. وإن كان المشركون أيضاً يسخرون من القرآن ويصفونه بأساطير الأولين ولكن ليس في هذه الآية ولكن في آيات غيرها كثيرة.

ومثله: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(١٥) يونس.

الآيات البينات هنا هي الأحكام والتشريعات.

ومثله: مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥) مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ(١٠٧) البقرة.

نسخ الآية هو نسخ تشريع سابق في رسالة سابقة لرسالة لاحقة، أي تكرار نفس التشريع.

ننسها، يعني عدم ذكر تشريع سابق في رسالة لاحقة. ومن ذلك: وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦) الأنعام.

فقد حرمت هذه اللحوم على الذين هادوا وأحلت في الإسلام.

ومثله: فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) النحل.

تبديل آية مكان آية تعني تبديل تشريع مكان تشريع سابق في رسالة سابقة. ولا تعني تبديل عبارة في القرآن بديل لعبارة سبق ونزلت في القرآن. فهذا لا وجود له في كتاب الله أبداً حتى عند مختلقي ما سمي بالناسخ والمنسوخ.

الخلاصة أن القرآن لا يأتي فيه آية بمعنى العبارة التي أصبح لها رقم وتسمى آية.

ويكون استخدام اصطلاح «آية» لتجزئة عبارات القرآن هو استخدام خاطئ.

ولو أن المسلمون استخدموا فواصل ونقاط وعلامات غيرها لكانت أوضح للمعنى وأفضل من الترقيم الحالي الذي يأتي أحياناً في منتصف العبارة وقبل اكتمالها ومن ذلك: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) النحل.

ولو راعينا كمال العبارة لكان الوقف بعد والزبر، وتكون الآيات بهذا الشكل: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ (٤٣) وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤).

ولو راعينا علامات الوقف لكان يمكن أن تبدو العبارتان بهذا الشكل: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم، فاسألوا أهل الذكر، إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر. وأنزلنا إليك الذكر، لتبين للناس ما نزل إليهم ; ولعلهم يتفكرون.

ولو أن هذا ما فعله السلف لما سميت عبارات القرآن آيات، ولأمكن تتبع السياق بصورة أسهل وأوضح، ولتبين أنه لا يمكن أن ننزع من العبارة جزء منها ونزعم أنه نزل لوحده.

لكن هذا لا يعني إلغاء الأرقام، بل تترك ليسهل تتبع عبارات السورة، وحتى لو استمر الناس يطلقون عليها آيات، فلا بأس، لكن المهم هو أن يعوا أن القرآن لم ينزل على شكل آيات، وأنه اصطلاح متأخر وضعه الناس.

والوحي ينزل على شكل حزمة من النصوص في وقت واحد بغض النظر إن كانت النصوص طويلة أو قصيرة. وهذه الحزمة سماها القرآن (سورة). والسورة خطاب يحتوي على رسالة أو عدة رسائل اقتضت الظروف أن تنزل في وقت معاً وقت واحد لكي تتفاعل مع ما يحدث على الأرض. بعض السور كانت دعوية صرفة لأن الرسالة التي تحملها دعوية فقط. وبعضها تحتوي على رسائل دعوية وأخرى إخبارية وأخرى تفاعلية تتفاعل مع حدث وقع، وقصصية تتحدث عن أمم سابقين، ورسالة توجيه للمسلمين أو للرسول ... وهكذا. وبعض السور نزلت توجيهية فقط، مثل: الكوثر، الضحى، الانشراح وهي سور موجهة للرسول.

إذاً، السورة هي مجموعة من العبارات التي تنزل معاً في وقت واحد، أحياناً تكون طويلة وأحياناً تكون قصيرة، حسب ما تحويه من مواضيع ورسائل.

وعندما يشكل على البعض بعض العبارات (الآيات) والتي تبدو وكأنها نزلت لوحدها أو نزلت قبل عبارات ذكرت في السورة قبلها فهذا لا يعني أن القرآن ينزل مجزأ على شكل عبارات (آيات) ولكنه يعني أن القارئ يحتاج لفهم أوضح، وعليه أن يتعود على أساليب القرآن.

ضرورة قراءة السور بترتيبها حسب النزول

تكمن أهمية هذا العامل في القدرة على فهم ما تتحدث عنه الآيات[1]. لأنه لا يمكن فهم الآية لو نزعت من سياقها في السورة، ومن سياق السورة ضمن السور التي قبلها. كما أن لهذا العامل أهمية في تَتَبُّع التشريعات وأسباب فرضها، وترجمة الأحداث التي أخبر بها القرآن إلى تاريخ، والتعرف على معاني الألفاظ، وأسلوب القرآن، والمواضيع التي تتحدث عنها السور، وكل ما له علاقة بالتعرف على ما يحتويه كتاب الله، دون الحاجة لتفسير وتأويل وتاريخ وحديث وأسباب نزول وناسخ ومنسوخ وغيرها.

وقد تم بعون الله التوصل لترتيب السور حسب النزول عبر منهجية واضحة تقوم على عدة عوامل، شرحت في كتاب: أحسن القصص/ تاريخ الإسلام كما ورد من المصدر، مع ترتيب السور حسب النزول[2]. وبناءً على تلك المنهجية تم تقسيم الدعوة إلى سبع مراحل للدعوة في مكة وثمان مراحل في المدينة. لكل مرحلة سورها التي نزلت فيها والتي تتفق في ملامحها ومواصفاتها. وسنتتبع هذه المراحل عند البدء بتدبر القرآن.

---

١ سنستمر باستخدام «آية وآيات» للإشارة لعبارة السور، لأن الناس اعتادوا على هذه التسمية، وليس لأنها صحيحة.

٢ الكتاب من منشورات دار الجمل.

وهذا جدول بالسور المكية:

المرحلة	السور	المخاطب	نوع الخطاب
المرحلة الأولى: التعريف	عدد السور سبع هي: الفاتحة، الفيل، قريش، العصر، التين، التكاثر، والعاديات	الرسول وقريش	تعريف محمد بالله، وانه أصبح رسولا، وتذكير قريش بنعم الله وأن هناك بعث وحساب.
المرحلة الثانية: التأهيل النفسي	سورة المزمل	الرسول وقريش	توجيهي إرشادي للرسول، تحذيري لقريش مع إعلان محمد رسولا لله.
المرحلة الثالثة: بدء الدعوة الفعلي	سورة المدثر	الرسول وقريش، ووعيد لأحد الكبراء	توجيهي للرسول، ووعيدي لقريش.
المرحلة الرابعة: استمرار الدعوة	عدد السور «٣٧»، هي: الأعلى، العلق، القارعة، الزلزلة، الانفطار، الانشقاق، التكوير، الشمس، الليل، الطارق، الفجر، البلد، القيامة، النبأ، ق، الواقعة، الغاشية، الحاقة، المطففين، عبس، المرسلات، الجن، الفلق، الناس، الإنسان، الملك، يس، الرحمن، النجم، ن والقلم، الطور، نوح، القمر. إضافة إلى الضحى، الشرح، الهمزة، والقدر.	قريش و الرسول	دعوى لقريش وتوجيهي للرسول (تطمين، شد أزر) وما يميز هذه المرحلة هو التصوير المجازي الحسي للجنة والنار وصحيفة الأعمال وانهيار هذا الكون وقيام كون القيامة.

المرحلة الخامسة: تحول خطاب الدعوة لكل الناس	عدد السور «٣١»، هي: ص، الصافات، النازعات، الذاريات، الأحقاف، الجاثية، فاطر، فصلت، الدخان، الزخرف، غافر، مريم، الإخلاص، الكهف، سبأ، الكافرون، لقمان، النمل، الحجر، طه، السجدة، المؤمنون، المعارج، الفرقان، الزمر، الأعراف، يونس، إبراهيم، يوسف، الأنبياء، والكوثر.	قريش، بني اسرائيل، المستضعفين، وكل الناس.	دعوي وعيدي لقريش والمستظعفين، دعوي قصصي لأهل الكتاب وبنو إسرائيل، وتوجيهي للرسول. وأهم ما يميز هذه المرحلة هو تغير خطاب الدعوة من قريش فقط الى كل الناس والمستضعفين في مكة وأهل الكتاب.
المرحلة السادسة: الأذى الجسدي	عدد السور «٤»، هي: الشورى، بني إسرائيل، الشعراء، وهود.	قريش، بني اسرائيل، المستضعفين، وكل الناس.	دعوى لقريش وتوجيهي للرسول (تطمين، شد أزر)، وما يميز هذه المرحلة هو بدء قريش التعدي الجسدي على المستضعفين وزمر للمسلمين بدفع الظلم.
المرحلة السابعة والأخيرة: التعذيب والهجرة	عدد السور «٨»، هي: الأنعام، العنكبوت، البروج، المسد، النحل، القصص، الرعد، والحج.	قريش، بني اسرائيل، المستضعفين، وكل الناس.	وعيدي لقريش ودعوي لأهل الكتاب وتحذير من الردة وحث على الصبر على الأذى، وأهم ما يميز هذه المرحلة تعرض المستضعفين للتعذيب القاسي والكي بالنار، إضافة للحديث عن الهجرة.

وهذا جدول آخر للسور المدنية:

المرحلة		السور
المرحلة الأولى: التوطن والاستقرار		الممتحنة، الحجرات، المجادلة، الجمعة
المرحلة الثانية: ما قبل بدر	فترة التشريع	البقرة، النساء، المائدة، آخر آية في سورة المزمل
	فترة الاستعداد للقتال	الماعون، محمد، الصف
المرحلة الثالثة: ما بين بدر وأحد	فترة ما بعد بدر	الأنفال
	فترة الاستعداد لأحد	الحديد، التغابن، الطلاق
المرحلة الرابعة: ما بعد معركة أحد		آل عمران، التحريم، البينة
المرحلة الخامسة: ما بعد حملة الأحزاب		الأحزاب، النور، المنافقون
المرحلة السادسة:	فترة فتح مكة	الفتح
	بدء حرب الروم	الروم
المرحلة السابعة: قلاقل ما بعد الفتح		براءة، الحشر
المرحلة الثامنة - مرحلة نهاية الدعوة: الوفود		النصر

وقد أقدم ثيودور نودلكه والكُتّاب الأربعة الذين عاونوه في تأليف كتابه "تاريخ القرآن" على تقديم ترتيب للسور، دون أن يخرجوا عن تبني أقوال المفسرين من أن الرسول كان ينطق به على شكل آيات متفرقة وليس على شكل سورة سورة. لأن هذا القول يعينهم على إلغاء سياق الآيات ويسهل الأخذ بكل آية على حدة والقول عنها كيفما يشاؤون. وكتاب نولدكه لم يأت بترتيب جديد يقوم على منهجية واضحة بل تبنى أقوال المفسرين بدءً بقولهم إن أول ما نزل هو الآيات الأولى للعلق. وترتيبه لا يختلف عن ترتيب المفسرين، وكل ما قام به هو تأخير سورة وتقديم أخرى، وترك غالبية السور كما قال بها المفسرون دون تغيير. وأضاف أربع سور مكية للسور المدنية، مع استشهاده كثيرا بما يقول السيوطي وبدرجة أقل بما يقول الزمخشري. ويجب أن يتذكر القراء أن المفسرين والمستشرقين قديمهم وحديثهم يعتبرون القرآن ينزل آية آية، فكان عليهم ترتيب الآيات حسب النزول ولا يجب

أن يخوضوا في ترتيب السور لأنه مخالف لمنهجهم في تناول القرآن، ولأنهم لا يقولون به. فكيف يرتبون السور وهم يقولون إن السورة تنزل على شكل آيات متفرقة بحيث تتداخل آيات عدة سور فيما بينها في النزول، ويقوم الرسول بوضع كل آية في مكانها في السورة. وحسب ما يقول المفسرون فهناك آيات نزلت في المدينة وضعت في سور مكية وآيات نزلت في مكة ووضعت في سور مدنية.

وفيما يلي جدول لترتيب السور في المصحف وعند المفسرين، وعند السيوطي وعند نولدكه وعند ابن قرناس. مع مراعاة أن المكتوب بخط مائل وتحته خط سور مدنية.

المصحف	المفسرون	السيوطي	نولدكه	ابن قرناس
الفاتحة	العلق، ن، المزمل، الفاتحة، وغيرها.	العلق	العلق	المرحلة ١/ الفاتحة
البقرة	ن والقلم	المدثر	ن والقلم	الفيل
آل عمران	المزمل	المسد	المزمل	قريش
النساء	المدثر	قريش	المدثر	العصر
المائدة	الفاتحة	الكوثر	الفاتحة	التين
الأنعام	المسد	الهمزة	المسد	التكاثر
الأعراف	التكوير	الماعون	التكوير	العاديات
الأنفال	الأعلى	التكاثر	الأعلى	مرحلة ٢/ المزمل
براءة	الليل	الفيل	الليل	مرحلة ٣/ المدثر
يونس	الفجر	الليل	الفجر	مرحلة ٤/ الأعلى
هود	الضحى	البلد	الضحى	العلق
يوسف	الشرح	الشرح	الشرح	القارعة
الرعد	العصر	الضحى	العصر	الزلزلة
إبراهيم	العاديات	القدر	العاديات	الانفطار
الحجر	الكوثر	الطارق	الكوثر	الانشقاق
النحل	التكاثر	الشمس	التكاثر	التكوير
بني إسرائيل	الماعون	عبس	الماعون	الشمس

المصحف	المفسرون	السيوطي	نولدكه	ابن قرناس
الكهف	الكافرون	ن والقلم	الكافرون	الليل
مريم	الفيل	الأعلى	الفيل	الطارق
طه	الفلق	التين	الفلق	الفجر
الأنبياء	الناس	العصر	الناس	البلد
الحج	الإخلاص	البروج	الإخلاص	القيامة
المؤمنون	النجم	المزمل	النجم	النبأ
النور	عبس	القارعة	عبس	ق
الفرقان	القدر	الزلزلة	القدر	الواقعة
الشعراء	الشمس	الانفطار	الشمس	الغاشية
النمل	البروج	التكوير	البروج	الحاقة
القصص	التين	النجم	التين	المطففين
العنكبوت	قريش	الانشقاق	قريش	عبس
الروم	القارعة	العاديات	القارعة	المرسلات
لقمان	القيامة	النازعات	القيامة	الجن
السجدة	الهمزة	المرسلات	الهمزة	الفلق
الأحزاب	المرسلات	النبأ	المرسلات	الناس
سبأ	ق	الغاشية	ق	الإنسان
فاطر	البلد	الفجر	البلد	الملك
يس	الطارق	القيامة	الطارق	يس
الصافات	القمر	المطففين	القمر	القدر
ص	ص	الحاقة	ص	الرحمن
الزمر	الأعراف	الذاريات	الأعراف	النجم
غافر	الجن	الطور	الجن	الهمزة
فصلت	يس	الواقعة	يس	ن والقلم
الشورى	الفرقان	المعارج	الفرقان	الطور
الزخرف	فاطر	الرحمن	فاطر	الضحى
الدخان	مريم	الإخلاص	مريم	الشرح

المصحف	المفسرون	السيوطي	نولدكه	ابن قرناس
الجاثية	طــــه	الكافرون	طه	نوح
الأحقاف	الواقعة	الفلق	الواقعة	القمر
محمد	الشعراء	الناس	الشعراء	مرحلة ٥ / ص
الفتح	النمل	الفاتحة	النمل	الصافات
الحجرات	القصص	القمر	القصص	النازعات
ق	بني إسرائيل	الصافات	بني إسرائيل	الذاريات
الذاريات	يونس	نوح	يونس	الأحقاف
الطور	هود	الإنسان	هود	الجاثية
النجم	يوسف	الدخان	يوسف	فاطر
القمر	الحجر	ق	الحجر	فصلت
الرحمن	الأنعام	طه	الأنعام	الدخان
الواقعة	الصافات	الشعراء	الصافات	مريم
الحديد	لقمان	الحجر	لقمان	الإخلاص
المجادلة	سبأ	مريم	سبأ	الكهف
الحشر	الزمر	ص	الزمر	الزخرف
الممتحنة	غافر	يس	غافر	غافر
الصف	فصلت	الزخرف	فصلت	سبأ
الجمعة	الشورى	الجن	الشورى	الكافرون
المنافقون	الزخرف	الملك	الزخرف	لقمان
التغابن	الدخان	المؤمنون	الدخان	النمل
الطلاق	الجاثية	الأنبياء	الجاثية	الجدر
التحريم	الأحقاف	الفرقان	الأحقاف	طه
الملك	الذاريات	بنو إسرائيل	الذاريات	السجدة
القلم	الغاشية	النمل	الغاشية	المؤمنون
الحاقة	الكهف	الكهف	الكهف	المعارج
المعارج	النحل	السجدة	النحل	الفرقان
نوح	نوح	فصلت	نوح	الزمر

المصحف	المفسرون	السيوطي	نولدكه	ابن قرناس
الجن	ابراهيم	الجاثية	إبراهيم	الأعراف
المزمل	الأنبياء	النحل	الأنبياء	يونس
المدثر	المؤمنون	الروم	المؤمنون	إبراهيم
القيامة	السجدة	هود	السجدة	يوسف
الإنسان	الطور	إبراهيم	الطور	الأنبياء
المرسلات	الملك	يوسف	الملك	الكوثر
النبأ	الحاقة	غافر	الحاقة	مرحلة ٦/ الشورى
النازعات	المعارج	القصص	المعارج	بني إسرائيل
عبس	النبأ	الزمر	النبأ	الشعراء
التكوير	النازعات	العنكبوت	النازعات	هود
الانفطار	الانفطار	لقمان	الانفطار	مرحلة ٧ / الأنعام
المطففين	الانشقاق	الشورى	الانشقاق	العنكبوت
الانشقاق	الروم	بونس	الروم	البروج
البروج	العنكبوت	سبأ	العنكبوت	المسد
الطارق	المطففين	فاطر	المطففين	النحل
الأعلى	البقرة	الأعراف	البقرة	القصص
الغاشية	الأنفال	الأحقاف	الأنفال	الرعد
الفجر	آل عمران	الأنعام	آل عمران	الحج
البلد	الأحزاب	الرعد	الأحزاب	مدني ١ / الممتحنة
الشمس	الممتحنة	البقرة	الممتحنة	الحجرات
الليل	النساء	البينة	الزلزلة	المجادلة
الضحى	الزلزلة	التغابن	النساء	الجمعة
الشرح	الحديد	الجمعة	الحديد	مدني ٢/ البقرة
التين	محمد	الأنفال	محمد	النساء
العلق	الرعد	محمد	الرعد	المائدة

المصحف	المفسرون	السيوطي	نولدكه	ابن قرناس
القدر	الرحمن	آل عمران	الرحمن	سورة آخر المزمل
البينة	الإنسان	الصف	الانسان	الماعون
الزلزلة	الطلاق	الحديد	الطلاق	الصف
العاديات	البينة	النساء	البينة	محمد
القارعة	الحشر	الطلاق	الحشر	مدني ٣/ الأنفال
التكاثر	النور	الحشر	النصر	الحديد
العصر	الحج	الأحزاب	النور	التغابن
الهمزة	المنافقون	المنافقون	الحج	الطلاق
الفيل	المجادلة	النور	المنافقون	مدني ٤/ آل عمران
قريش	الحجرات	المجادلة	المجادلة	التحريم
الماعون	التحريم	الحج	الحجرات	البينة
الكوثر	التغابن	الفتح	التحريم	مدني ٥/ الأحزاب
الكافرون	الصف	التحريم	التغابن	النور
النصر	الجمعة	الممتحنة	الصف	المنافقون
المسد	الفتح	النصر	الجمعة	مدني٦/ الفتح
الإخلاص	المائدة	الحجرات	الفتح	الروم
الفلق	براءة	براءة	المائدة	مدني ٧/ براءة
الناس	النصر	المائدة	براءة	الحشر
				مدني٨/ النصر

ومن المهم أن نذكر أن الترتيب المنسوب للمفسرين أعلاه ليس دقيقاً، لأن المفسرين ليس لهم ترتيب واحد ثابت، بل هناك عدة آراء حول سبب نزول الآيات، مما يجعل ترتيب السور مختلفاً عليه من باب أولى، أو بالأحرى استحالة أن يكون لهم ترتيب للسور. والمستشرقون اختاروا من هذه الأقوال ورتبوا السور بشكل انتقائي مما قال به المفسرون. ولا أدري كيف يضعون ترتيباً للسور وهم يعتقدون أن الرسول قال القرآن آية آية وليس سورة كاملة في

وقت واحد. وكان عليهم أن يرتبوا القرآن حسب نزول الآيات، ليتفق مع ما ذهبوا إليه، وهذا يستحيل أن يقوم به أحد.

ويمكن ملاحظة أن سورة المائدة وضعت في كتاب نودلكه آخر السور نزولاً، لأنه أخذ بأقوال بعض المفسرين الذين يعتبرون أن آخر ما نزل من القرآن هو جزء من آية المائدة التي يقول: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا». فاعتبر نولدكه - أو من عاونه في تأليف وتعديل كتابه - أن السورة كلها آخر ما نزل برغم أنه يعتقد أن هناك آيات كثيرة في المائدة نزلت في بداية الهجرة ومنتصفها حسب ما نقل عن المفسرين.

وتتمة آية المائدة هو: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.

ولنا أن نتخيل أن المسلمين كانوا يقرأون هذه الآية لسنوات بهذه الصورة: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ. يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللّهُ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ.

وفي أواخر أيام رسول الله أضيف في المنتصف: « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

فقط لأن بعض المفسرين تخيل أنها آخر ما نزل[1].

---

١ هناك أقوال كثيرة قال بها المفسرون حول آخر «آية» نزلت من القرآن، ومن ذلك: يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦) النساء.

ونودلكه وضع الزلزلة من السور المدنية وبعد الأحزاب أي بعد مرور سنوات على الهجرة وهذا لا يمكن. لأنها مكية تخاطب قريشاً وتجيب على تساؤلاتهم في بداية الدعوة في مكة عن موعد البعث، مثلها مثل السور التالية:

- إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) .... عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ(١٤) التكوير.
- إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ(٥) الانفطار.
- إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ(٥) الانشقاق.

ويكفي أن يقال إن ما فعله نولدكه والأربعة الذين شاركوه في تأليف كتابه هو الانتقاء من أقوال المفسرين، ولم يخرجوا عن ذلك، وهو ما يغنينا عن تتبع ترتيبهم العبثي[1].

وقال آخرون: لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ(١٢٨) براءة.

وقال غيرهم: الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يمحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ (٢٧٩) البقرة.

وقال آخرون: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣) المائدة.

وقال آخرون: وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (٢٨١) البقرة. وأقوال أخرى غيرها.

١ كتاب تاريخ القرآن قام بتأليفه المستشرق الألماني الشهير تيودور نولدكه (Theodor Noldeke) (١٨٣٦ - ١٩٣٠)، وتمت طباعته في القرن التاسع عشر، ثم كان لابد من مراجعته وتنقيحه، للطبعة الثانية. فقام تلميذ نولدكه السابق فريدريش شفالي (Friedrich Schwally) بإعادة صياغة الجزء الأول من الكتاب بطلب من المؤلف الذي أعيته الشيخوخة. لكن شفالي توفي في العام ١٩١٩ قبل إكمال مهمته، فقام أوغوست فيشر (August Fischer) ببعض التصليحات على الجزء الثاني من الكتاب، قبل وفاته. أما الجزء الثالث من الكتاب فقد انتقلت مهمة إنهائه إلى غوتهلف برغشترسر (Gotthelf Bergstraser) الذي توفي في العام ١٩٣٤، ليكمل العمل تلميذه أتو بريستل (Otto Pretzl) في مطلع العام ١٩٣٧. ويكون قد تعاقب على هذا الكتاب خمسة أشخاص من أجيال مختلفة. وهو ما جعل عمل المؤلف الأصلي "تيودور نولدكه" يتوارى خلف التعديلات المتلاحقة من الآخرين. ويقول شفالي في هذا المقام، أنه سعى للتوفيق بين النص الأصلي (لنولدكه) وبين عمله هو لكن هذا لم يكن ممكناً، "فقررت القيام بتعديلات جذرية أو بإضافة مقاطع كبيرة". والنتيجة أن كتاب تاريخ القرآن لم يعد يحمل إلا القليل من عمل نولدكه، برغم أنه لا يزال يحمل اسمه، وينسب إليه.

السورة عبارة عن رسالة تتنزل لتتفاعل مع الأحداث التي تجري حين نزولها

كلما وقعت أحداث ومواضيع كلما طالت السورة، وكلما قلت المواضيع والأحداث قصرت السورة. وهذا أفاد في ترتيب السور لأن السورة عبارة عن سجل يوثق الأحداث التي حدثت وقت نزولها وبمقارنتها بالأحداث في سور أخرى يمكن معرفة موقعها في ترتيب النزول.

والسورة تنزل لتتحدث عما يجري في الفترة التي نزلت فيها، وتقدم حلولاً للمشاكل القائمة، وتنهى عن أفعال قام بها الناس قبل نزولها، وتعطي الأوامر والإرشادات لما يجب فعله حيال مواقف معينة. ويمكن ملاحظة أن هناك أكثر من سبعين سورة من أصل (٨٩) سورة مكية، تخلو من أي تشريع. ولم تبدأ السور بفرض التشريعات إلا في أواخر العصر المكي - فيما عدا الصلاة والإنفاق والغش التجاري - ثم اكتملت التشريعات في المدينة بعدما أصبح للمسلمين دولة تحتاج لدستور وقوانين. وحتى بعد بدء نزول التشريعات استمرت السور بالتفاعل مع ما يجري من أحداث عند نزولها، واستمرت السور تشكل سجلاً يعكس ما يجري في الفترة التي نزلت فيها. وإن كانت أكثر السور المكية لا تتحدث عن أي واقعة أو حدث، فإن هذا يعني أنه لم تقع أحداث خلال الفترة التي نزلت فيها هذه السور.

وكون سور القرآن تعتبر سجلاً للأحداث في الفترة التي نزلت فيها، ولا تتحدث عن المستقبل، أو تفترض مواقف لم تحدث، فهذا ينفي أن يكون هناك آية تتحدث عن أشخاص سيأتون بعد عصر الرسول أو تشير لأحداث ستحدث مستقبلاً، إلا ما يعرف بالضرورة. ومن ذلك وعد الله جل وعلا رسله بالنصر: إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥) غافر.

فالنصر للمؤمنين سيأتي في النهاية لأنهم مؤمنون بمعتقدهم، فمن يقتل منهم فإلى الجنة ومن يبقى فإلى العزة والتمكين في الدنيا، وهذا يولد لديهم دافعاً للإصرار على دفع الظلم والتعدي ومحاربة المعتدي حتى ينتصروا عليه، وليس لأن الله جل وعلا سيغير الأحداث على الأرض بتدخل فعلي مباشر منه سبحانه.

ومن ذلك قوله تعالى: غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ للهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ(٤) الروم.

فالروم هزموا المسلمين في مؤتة، ولكن المسلمين سيواصلون حربهم لمعاقبتهم – تنفيذاً لأمر القرآن – لأنهم بدأوا حرب المسلمين. وبما أن دولة الروم قوية فإن القضاء عليها سيحتاج لبضع سنين. فالآيات لا تتنبأ بما يحدث بقدر ما تروي ما هو متوقع.

ويمكن ملاحظة أن أكثر السور المكية لا تتحدث عن أي واقعة أو حدث، لأن السنوات الأولى من الدعوة في مكة مرت بشكل رتيب متشابه. حيث استمر الرسول يدعو قريش التي صمت آذانها عن سماع الحق، دون أن يحدث صدام بينها وبين الرسول والنفر الذين أسلموا معه، وهو ما يعني أنه لم تقع أحداث خلال الفترة التي نزلت فيها تلك السور. ثم تغير الوضع مع تغير المخاطب في السور وبدأت الأحداث تتوالى. أما في المدينة فالسور يسهل ترتيبها حسب النزول لأن الأحداث هناك كثيرة والتعرف على ترتيبها سهل، لأنها تتحدث عن أحداث مشهورة معروفة الترتيب. فالمؤكد أن بدراً وقعت أولاً ثم أحد ثم الأحزاب ثم فتح مكة ومؤتة ثم حنين ثم حملة تبوك ... الخ.

المخاطب

وقد بدأت الدعوة بمخاطبة قريش وحدها دون الناس ولعدة سنوات، كما سنرى. والمقصود بقريش، الكبراء منهم، أما العبيد والموالي في مكة فتطلق عليهم الآيات «المستضعفين والذين اتبعوا». وبعد أن أعلن الكبراء إصرارهم على الكفر، بدأت الآيات تخاطب كل الناس. بما في ذلك مستضعفو مكة من عبيد وموالي، وبنو إسرائيل يثرب، بجانب قريش. وفي المدينة كان المخاطب أهل يثرب، عموماً، المؤمن منهم والمنافق، وبنو إسرائيل واليهود والنصارى، والأعراب حول المدينة، مع استمرار مخاطبة قريش، التي لم تكف عن حرب الإسلام وأهله والكيد لهم وتحريض غيرها عليهم.

ولا يخاطب القرآن أحداً بعد عصر الرسول أبداً، ولا يفترض موقفا ويتحدث عنه. والسبب هو أن الدعوة تبدأ بمخاطبة المدعوين لقبول الدعوة، وبعد أن يؤمن العدد الكافي تفرض التشريعات ويختفي تماماً الخطاب الدعوي. وباختفائه لا يتبقى سوى الخطاب التفاعلي، والذي يوجه للناس زمن الرسول، لأنهم هم من تنزل السور لتتفاعل مع أحداثهم. ولن

يكون هناك مجال لحديث عن أحداث ستقع في المستقبل، ولا مخاطبة لأناس سيأتون بعد الرسول. لهذا فلا يحوي القرآن تنبؤات مستقبلية، سواء تنبؤات ستحدث في عصر الرسول أو بعده. وكل استشهاد بآية على أنها تتحدث عن أشخاص أو عقائد ستظهر بعد عصر الرسول، فهو تأويلٌ لآية إلى غير معناها الذي نزلت تتحدث عنه.

نوع الخطاب

يأتي الخطاب في القرآن على أنواع حسب المخاطب والهدف من الخطاب، ومن ذلك:

الخطاب الدعوي

القرآن - كأي دعوة للرسل - بدأ بخطاب دعوي، وكان موجهاً لقريش وحدها لكي تؤمن بوحدانية الخالق والبعث. واستمر هذا النوع من الخطاب هو السائد في أول ٤٦ سورة نزلت من القرآن والتي كانت تخاطب قريشاً فقط[1].

ثم تحول الخطاب الدعوي بعد ذلك بدءً من المرحلة الخامسة للدعوة في مكة إلى كل الناس عموماً، وبني إسرائيل وأهل الكتاب في يثرب، ومستضعفي مكة، مع استمرار الدعوة لقريش. واستمر الخطاب الدعوي لهم ولقريش في بقية السور المكية بعد ذلك.

وفي المدينة لم يكن هناك أي خطاب دعوي في سور المرحلة الأولى الأربع، بينما عاد في سور المرحلة الثانية (فترة التشريع) وكان الخطاب الدعوي موجه لأهل يثرب بمختلف مشاربهم، ولقريش أحياناً قليلة. واختفى فيما بقي من السور المدنية بعد المرحلة الثالثة.

والخطاب الدعوي يدخل ضمنه عدة أنواع من الخطاب، منها:

خطاب الترغيب والترهيب

وعندما يوجه لقريش يكون مليئاً بالصور المجازية الحسية لما في الجنة والنار ولصحيفة الأعمال وانهيار الكون ونشأة كون القيامة، وغيرها، وذلك لتقريب الصور من ذهن المدعو. ومن ذلك: وَمَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً(٩٧) بني إسرائيل.

---

١ انظر جدول السور المكية في الفقرة السابقة: ضرورة قراءة السور بترتيبها حسب النزول.

فالكافر لن يحشر أعمى أبكم أصم ولكنه مجاز للدلالة على الضلال. كما في قوله تعالى:
فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ(٦٤) الأعراف.

وقوم نوح لم يكونوا عمياً لا يبصرون، ولكن وصفهم بالعمى مجازي يقصد به أنهم على ضلال.

ومثله:

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ(٤٢) وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ(٤٣) يونس.

والحديث عن قريش التي لم يكن رجالها لا صماً ولا عمياً، ولكنهم على ضلال.

ومثله وصف ما في الجنة من نعيم، وما في النار من جحيم:

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاء حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ(١٥) محمد.

فهذا الوصف المجازي ليس بالضرورة وصفاً حقيقياً لأن عالم الجنة والنار من عالم القيامة الغيبي الذين لن نعلم كنهه حتى نبعث. ولكن بما أن المدعو هم قريش بمداركهم الضيقة في ذلك العصر، فالتصوير المجازي يؤدي دور الترغيب والترهيب وتقريب صور النعيم والجحيم بما يتناسب مع مداركه ويجعله يتصورها. مماثلٌ للعثور على أناس في مكان معزول يعيشون حياتهم كما كانت قبل عشرة آلاف عام ولا يعرفون عن العالم الخارجي شيئاً، وأردنا أن نخبرهم عن السيارة مثلاً. فلابد أن نستخدم صوراً مجازية حسية من بيئة المخاطب يعرفها ويستطيع تصورها لكي نقرب في ذهنه ماهية السيارة، وإن كانت الصورة المقدمة لا تنطبق على السيارة لمن يعرفها. فيقال لهم – مثلاً – إن هناك حيواناً كبيراً له أربعة أرجل ويصدر منه صوت عويل عندما يمشي. وله جراب فوق ظهره يمكن للناس الركوب داخله يحميهم من المطر والعواصف. وهذا الحيوان يأمره الإنسان بالسير فيسير ويأمره بالتوقف فيتوقف. وهو لا يأكل، لكنه يعيش على شرب نوع معين من العصارة السائلة... وهكذا.

وكل ما قلنا ليس وصفاً للسيارة، لكنه صورة مجازية حسية تقرب السيارة من ذهن المخاطب

بما يستطيع تصوره، لأننا لو وصفنا له السيارة كما هي بالفعل فلن يستطيع تصورها ولن يصدق بوجودها. ولو نزل القرآن في هذا العصر فسيتحدث عن انهيار الكون وقيام كون آخر بعبارات أقرب لمدارك الناس وللواقع والأسلوب العلمي، وسيقدم صوراً مختلفة عما قدمه لقريش.

والخطاب الدعوي موجه للمدعو ولا يمكن اعتبار الآيات الدعوية تخاطب من سيأتون فيما بعد أو تخاطبنا في الوقت الحالي. لأن الخطاب الدعوي يتوقف وينتهي بعد نزول التشريعات، وبعد ذلك فكل من يرغب الدخول في دين الله عليه أن يطلع على تشريعاته فإن اقتنع آمن وإلا بقي على كفره وموعده يوم القيامة.

فالخطاب الدعوي لقريش مليء بالصور المجازية والتصوير الحسي لعالم القيامة الغيبي وصحيفة الأعمال والموت ونهاية هذا الكون ونشأة كون القيامة لتقريبها من الذهن وللترغيب والترهيب. ولا يمكن الاستدلال بآيات الخطاب الدعوي تلك على أوضاع للمسلمين بعد الرسول، ولا أخذ الوصف المجازي على أنه حقيقة.

والخطاب الدعوي موجه لرجال قريش دون نسائهم، لأن الرجال هم من يقود ذلك المجتمع، ولو آمنوا لآمنت كل مكة بنسائها وأطفالها. ولذلك جاء الخطاب الدعوي الترغيبي لرجال قريش يتحدث عن حور عين وخمر وفاكهة ومآكل شهية ومياه بارده وأشجار وأنهار، وكل ما يتخيله رجال مكة عن المتع. وكأن الآيات تقول لهم إن كنتم تمتنعون عن الإيمان متصورين أنه سيحرمكم من متعكم المحدودة، فإن في الجنة متعاً لا يمكن مقارنتها بما تحصلون عليه في الدين، وفيها كل المتع التي لا يمكن أن تحصلوا عليها في مكة ذات الجو الحار والبيئة القفر.

ولهذا فعدم مخاطبة النساء لا يعني أن الجنة من نصيب الرجال وحدهم، ولكن الخطاب الدعوي يوجه لمن يعترض طريق الدعوة، وإلا فالرجال والنساء لهم نفس النعيم ونفس الجحيم، وهذه بعض الآيات التي تؤكد على هذه الحقيقة:

- مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) غافر.
- مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم

بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٩٧) النحل.

- وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا(١٢٤) النساء.
- فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللهِ وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥) آل عمران.

ولو نظرنا للخطاب الدعوي الموجه لأهل الكتاب فسنجده يخلو تماماً من هذه الصور الحسية المجازية ويعتمد على ذكر تفاصيل تاريخية لأحداث تاريخ بني إسرائيل أو أشخاص يعرفونهم، وهو ما يلائم دعوتهم للدين، وما يدركون. فهم يؤمنون بالآخرة لكنهم لا يؤمنون بأن محمداً رسول من الله. وذكر تفاصيل الأحداث التاريخية دليل على أن محمداً رسول لله بلا شك، لذا صبغت دعوة أهل الكتاب بالحديث عن التاريخ الذي يعرفون.

الخطاب القصصي

والمقصود به القصص القرآني الذي يتحدث عن أمم وأشخاص سابقين.

وهذا الخطاب يأتي ضمن الخطاب الدعوي، وهو على نوعين:

١. قصص خاص بأمم سابقة لم تؤمن برسلها وهلكت بكوارث طبيعية بعد نجاة الرسول ومن آمن معه، وهي: قوم نوح، عاد، ثمود، مدين، قوم لوط، ويضاف لهم قصة هلاك فرعون، إضافة لقوم يونس. وقصص هؤلاء ضمن الخطاب الموجه لقريش على الدوام، لعلها تعتبر مما حدث لهم وتؤمن.

٢. وهناك بقية القصص التاريخي في القرآن وهو موجه لبني إسرائيل وأهل الكتاب في يثرب، لأنه جزء من تاريخهم ولأشخاص يعرفونهم. وذلك كبرهان على صدق رسالة محمد وإلا لما عرف تفاصيل تلك الأحداث لو لم يكن يتلقى الوحي[١].

---

١ القصص القرآني عموماً مصدر موثوق وموثق لتصحيح التاريخ القديم وكذلك الأحداث التي جرت في عصر الرسول.

الخطاب العقلاني

وهو الخطاب الذي يدعو للتفكير بالمخلوقات المحيطة بالمدعو من حيوان ونبات ومظاهر الطبيعة والسماء والأرض للاستدلال على قدرة الخالق على البعث. وهذا الخطاب دائماً موجه لقريش لأنها لا تؤمن بالبعث ولا بالقيامة. ومنه أيضاً الآيات التي تتحدث عن النعم التي أودعها الله لخلقه، سواءً الظاهرة منها حولهم وفي أنفسهم ويعلمونها، أو الخفية في النفس وفيما حولهم ولا يعلمونها.

الخطاب التشريعي

كل دعوات الرسل تبدأ بخطاب دعوي، وبعد أن يؤمن مجموعة من الناس أعدادهم تكفي لتكوين مجتمع مسلم تنزل التشريعات. لذا نجد أن معظم السور المكية تخلو من أي تشريع، فيما عدا الصلاة بلا أوقات محددة والإنفاق والنهي عن الغش التجاري.

وبعدما تحول الخطاب الدعوي في المراحل التالية للدعوة في مكة لكل الناس عموماً وبني إسرائيل وأهل الكتاب في يثرب، والمستضعفين في مكة، دخل الإسلام أعداد من الناس في مكة، وانتشر الإسلام في يثرب، مكونين مجتمعات مسلمة، فكان لابد من نزول التشريعات. فكانت سورة لقمان أول سورة تتحدث عن تشريعات والتي كان ترتيبها (٦٣) من حيث النزول. ثم بعد ذلك بفترة نزلت سور أخرى في المراحل الأخيرة في مكة تفرض بعض التشريعات، مثل: المؤمنون (٦٨) والمعارج (٦٩) والأعراف(٧٢) والشورى (٧٨) وبني إسرائيل(٧٩) وهود (٨٠) والأنعام (٨١) والنحل (٨٥). وفي المدينة أصبح للمسلمين دولة فنزلت التشريعات تباعاً في ثلاث سور متتالية في النزول، ومن أطول سور القرآن، وهي: البقرة، النساء، والمائدة والتي ختمت بها التشريعات واكتمل الدين.

والتشريعات القرآنية تمثل دين الله، وهي لكل زمان ومكان ولا يمكن تغييرها أو تركها. وهي التي تمثل الإسلام وباكتمالها اكتمل الدين ولم يعد هناك حاجة لأي تشريع آخر، ولا لمشرعين. وبما أن هذه التشريعات محفوظة - بحفظ القرآن كما نزل - فلن يكون هناك حاجة لرسول جديد أو مهدي أو إمام بعد محمد.

والتشريعات هي التي يجب أن تتم بواسطتها الدعوة لدين الله، وليس الوعظ القصصي كما هو حاصل الآن. لأن دين الإسلام يقوم على تقديم حقائقه للناس فمن رغب فليؤمن ومن

لم يرغب فحسابه يوم القيامة على الله. أما استمالة القلوب بالوعظ القصصي فوسيلة مسيحية وجدت طريقها للمسلمين بعد الفتوح، كالكثير من الموروث المسيحي، وأصبحت سمة بارزة للدعوة إلى الإسلام. والواجب تركها والاعتماد على تقديم تشريعات القرآن كوسيلة معتمدة ووحيدة للدعوة، فالإسلام يقوم على الحقائق وليس على دغدغة المشاعر.

الخطاب التوجيهي

وهو خطاب موجه للرسول أو المسلمين لما يجب عليهم فعله حيال حدث معين.

توجيه الرسول

والخطاب الموجه للرسول يأمره بأوامر خاصة به لوحده دون بقية المسلمين لأنه أمر بها لسبب خاص به وبالدعوة وليست تشريعات، ومن ذلك: وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ(٤٨) الطور.

ومثل: فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ(٣٩) ق.

ومثل هذه الآيات تدخل ضمن برنامج تأهيل الرسول ليبقى قوياً يتحمل متاعب الدعوة وسخرية قريش وأذاهم. وكلما تدنت معنوياته نزلت مثل هذه الآيات لتشحذ همته وتشد من عضده كونها تشعره بقرب الله جل وعلا منه ورعايته له.

ومثل ذلك الآيات العشر الأولى في سورة المزمل التي نزلت قبل بدء الدعوة وفي بداية بعثته، والتي خضع بموجبها لبرنامج تأهيلي لعدة أشهر في غار حراء، يقوم الليل لقراءة القرآن والتأمل وذكر الله وتسبيحه. ولما انتفت الحاجة لهذا السهر نزل القرآن بإعفاء الرسول منه في المدينة، فيما عرف بآخر آية من سورة المزمل.

ومن الخطاب التوجيهي الخاص بالرسول، ما يلي:

- سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى(١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى(٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى(٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى(٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى(٥) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى(٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى(٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى(٨) الأعلى.

هذه الآيات نزلت بعد أن أمر الرسول ببدء الدعوة في سورة المدثر لتطمئنه أنه لن ينسى ما

سيوحى إليه، فلا يقلق. وتطلب منه الاستعانة بتسبيح الله وذكره على أي ضغوط نفسية تواجهه، وتخبره أن الله سيسهل له مهمته في التبليغ. ويفهم منها أنه صلوات الله وسلامه عليه شعر بالقلق من نسيان بعض ما يوحى إليه، فنزلت الآيات تطمئنه.

- وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ(٧٠) النمل.

الآية توجه الرسول بألا يحزن على قريش لاستمرارهم بالكفر المؤدي بهم للنار.

- إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ(١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ(٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ(٣) الكوثر.

الآيات تشير إلى أن الرسول قد نعته شخص من قريش بالأبتر (الذي لا ينجب) فتأثر وحزن، فنزلت السورة تشد من عضده وتخبره أن الله أجزل له العطايا وأن الأبتر حقاً هو من نعته بالأبتر لأنه محروم من رحمة الله.

- وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى(١٣١) طه.

والآية تنهى رسول الله من النظر لبعض نساء مشركي قريش الجميلات في وقت لم يتزوج فيه إلا بخديجة المرأة الطاعنة في السن.

وكثيرة هي الآيات التي نزلت لتنهى أو توجه أو ترشد رسول الله عليه الصلاة والسلام أو تشحذ همته وليست للتشريع.

توجيه المسلمون

وهو الخطاب التوجيهي للمسلمين الذي ينزل بسبب حوادث معينة. والتوجيه للمسلمين يحوي فرض بعض الأحكام. وهذه الأحكام على أنواع، كما يلي:

- بعضها خاص بذلك الزمن ولا يمكن تطبيقه على زمان آخر وأناس آخرين، أو الاستشهاد بها على أوضاع المسلمين بعد زمن الرسول، ومن ذلك:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ(٢٧٩) البقرة.

فتحريم الربا حدث زمن الرسول ولا يجوز لمسلم ممارسته بعد ذلك. لذا فالآيات تخاطب

المسلمين زمن الرسول وتعطي من يتوب منهم ويقلع عن الربا فرصة للاحتفاظ برأس ماله. أما الآن فلا يطبق على الناس هذا الحكم، ويقال لمن يمارس الربا أن يأخذ رأس ماله ويتوب. لأنه يفترض بالمسلم أنه يعلم مسبقاً وبشكل قطعي أن الربا محرم وكبيرة موجبة للخلود في النار وحرب على الله ورسوله، وبالتالي لن يقدم عليه.

ومثله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً(٤٣) النساء.

فالآية نزلت قبل تحريم شرب الخمر، أما بعد تحريم الخمر في سورة المائدة فلا يجوز شربه وبالتالي فليس هناك مجال لأن يحضر مسلم للصلاة وهو سكران. لأن المسلم لن يشرب الخمر ولن يقترف أي كبيرة نص على تحريمها القرآن، وإلا فستجب عليه النار ولو انتسب للإسلام.

- وبعض توجيهات القرآن للمسلمين تكون لهم في ذلك الزمن لكن لو واجه المسلمون مواقف مشابهة فالآيات ملزمة لهم وتعنيهم مثلما عنت من نزلت فيه. ومن ذلك:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ(٢٦٧) البقرة.

ومثله: وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً(٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً(٢١) النساء.

ويكون الخطاب التوجيهي ليس تشريعاً في الأصل، وإنما هو خطاب خاص بالموجه له، ولا يعتبر تشريعاً لازماً وواجباً على المسلمين بعد عصر الرسول، لأن التشريع يكون الأمر والنهي فيه لكل الناس ولمختلف العصور ولم ينزل ليتفاعل مع حادثة معينة وموجه لشخص أو أشخاص معينين دون بقية المسلمين. لكن هناك حالات قد تتكرر فيكون الحكم فيها هو نفس الحكم في الخطاب التوجيهي الذي نزل بحق المسلمين زمن الرسول. وهناك خطاب

توجيهي لا يمكن أن يتكرر لأن الإسلام يمنع تكراره، ولو بقي المسلمون يطبقون حكم الله لما كان هناك مجال للتعامل بالربا مثلاً أو شرب الخمر.

الخطاب التفاعلي

عبارة عن تفاعل السور مع الأحداث الجارية، تخبر عما يحدث، وتقترح الحلول والمواقف تجاهها. وهذا الخطاب بدأ مع الدعوة وانتهى بتوقف الوحي بوفاة الرسول، لكن يمكن ملاحظة أن السور المكية في المراحل الأربع الأولى تكاد تخلو من هذا النوع من الخطاب، لأنه لم يكن يحدث أي أحداث على الأرض لها علاقة بالإسلام والمسلمين إلا ما ندر. ولم يذكر القرآن في تلك المراحل سوى حالات قليلة جداً، منها: الحديث عن القرشي الذي كاد أن يسلم ثم أدبر واستكبر (المدثر) وحالة القرشي الذي نهر الرسول عندما رآه يصلي (العلق) وحالة الأعمى مع الرسول (عبس) واستماع الجن للرسول (الجن)، وأحداث قليلة غيرها تحدث عنها القرآن بصفة غير مباشرة تهتم بأوضاع الرسول والمسلمين، وذلك على مدى سنوات من الدعوة.

ثم تغير الخطاب الذعوي وبدأت قريش تلاحق المسلمين وتضطهدهم خوفاً من انتشار الإسلام، فوقعت أحداث أكثر في المراحل الخامسة والسادسة والسابعة في مكة. وفي المدينة تسارعت الأحداث وتنوعت، بحيث تحولت السور إلى سجلات لتوثيق تفاصيل تلك الأحداث المتتابعة.

الخطاب الإخباري

ويأتي ضمن الخطاب التفاعلي، حيث تتحدث الآيات عن حقائق وقعت حين نزول السورة لا يعلم المسلمون عنها شيء لولا أن أخبرهم بها القرآن، مثل الإخبار عن تصرفات المنافقين وأهل الكتاب، ومن ذلك: هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ(٧) يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ(٨) المنافقون.

الخطاب التقريري

وهو مماثل للخطاب الإخباري إلا أنه يتحدث عن حقائق ثابتة، قد لا يعرفها المسلمون، مثل: ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ(٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ(٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ(٩) السجدة.

هذه هي أهم أنواع الخطاب في القرآن إضافة لنوع من الخطاب وجد في سورة محددة دون بقية سور القرآن، وهو:

خطاب سورة الفاتحة

والخطاب في سورة الفاتحة فريد من نوعه في القرآن، وليس هناك سورة أخرى في القرآن تماثل خطاب سورة الفاتحة. فهو خطاب يمجد ذات الله، وليس موجهاً للرسول ولا لقريش ولا لأي فئة معينة من الناس.

وهناك خطاب آخر يمكن أ يعتبر مميزاً، وهو:

خطاب سور المرحلة الأولى للدعوة

وهو خطاب تعريفي لا يحمل دعوة، ولكنه يذكر ببعض نعم الله على قريش، ويخبر أن هناك حياة بعد الموت وجنة ونار. وذلك في سور: الفيل، قريش، العصر، التين، التكاثر، والعاديات.

الملامح[1]

ونقصد بالملامح هي تلك الصفات والمواصفات والمواضيع التي تتكرر في سور مرحلة من مراحل الدعوة بحيث تميزها عن سور المراحل الأخرى. وسنجد أن ملامح السور في أي مرحلة تتناسب مع الرسالة التي تريد السور إيصاله للمخاطب في تلك المرحلة. فقريش الذين لا يؤمنون بالبعث والحياة بعد الموت، تخاطبهم السور في بداية الدعوة بتقديم الصور الحسية لما في الجنة من نعيم وما في النار من جحيم لزيادة التأثير والإقناع بأن البعث سيقع، كما في السور التالية: الواقعة: ١٢ - ٤٤، ٥١ - ٥٦، ٩٠ - ٩٤، الغاشية: ١ - ١٦،

١ هذه الفقرة منقولة نصاً من كتاب: أحسن القصص/ تاريخ الإسلام كما ورد من المصدر، مع ترتيب السور حسب النزول.

المرسلات: ٢٨ – ٥٠، الحاقة: ١٩ – ٣٢، عبس: ٣٨ – ٤٢، الرحمن: ٤٣ – ٧٨، المطففين: ١٩ – ٢٨، يس: ٥٤ – ٥٨، الإنسان: ٤، ١٢ – ٢٢، الطور: ٢٠ – ٢٨.

وتقدم صوراً حسية لانهيار هذا الكون ونشأة كون جديد للقيامة، لتقول لقريش إن البعث لن يكون في هذه الدنيا، ولكنه سيكون في كون آخر سيخلقه الله بعد انهيار وتلاشي هذا الكون، كما ورد في السور التالية: القارعة: ٤ – ٥، الزلزلة: ١ – ٥، الانفطار: ١ – ٥، الانشقاق: ١ – ٥، التكوير: ١ – ١٤، الواقعة: ١ – ٦، ٤٦ – ٤٧، الفجر: ٢١، القيامة: ٧ – ١٣، المرسلات: ٨ – ١٣، الحاقة: ١٣ – ١٨، النبأ: ١٨ – ٢٠، يس: ٥١ – ٥٣ (الصور)، الطور: ٩ – ١٠، الرحمن: ٣٧ – ٣٨، ق: ٢٠ (الصور).

وملامح أخرى مثل الحديث عن أن الأعمال تسجل وبناءً على صحيفة الأعمال سيكون الحساب.

وبعد أن تغير خطاب الدعوة لكل الناس وبني إسرائيل والمستضعفين في مكة بجانب قريش، نجد أن من أهم ملامح هذه المرحلة الحديث عن بني إسرائيل وقصصاً من تاريخهم، لتؤكد لهم أن محمداً رسول الله، وإلا ما علم عن هذه القصص شيئاً. وتقديم صور حسية عن الضعفاء الذين دخلوا النار وكيف أنهم يتخاصمون مع ساداتهم فيها: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ(٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ(٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٣٣) سبأ.

وهي آيات تصور ما سيكون، لعل المستضعفين يؤمنون وينقذون أنفسهم.

ومن الملامح التي بدأت في هذه المرحلة دعوة كل الناس: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ(٥) فاطر.

ثم في مرحلة تالية بدأت الآيات تتحدث عن دفع الظلم، حيث أباحت السور للمسلمين الذين بدأوا يتعرضون للأذى الجسدي من قريش، بدفع الظلم عن طريق معاقبة المعتدي

بمثل ما اعتدى به.

وفي الأيام الأخيرة للدعوة في مكة كان الحديث عن الهجرة، وعن التعذيب الجسدي الذي يتعرض له المسلمون على أيدي قريش.

وفي المدينة كان للمرحلة الأولى ملامح خاصة بها تمثلت بحديث السور عن أحداث وقعت في تلك المرحلة، مثل قدوم نساء من مكة مهاجرات، ومثل الحديث عن الأعراب لذين توافدوا لرؤية الرسول وسلوكياتهم الفجة، ومثل استمرار موالاة بعض مسلمة قريش للمشركين...الخ.

وفي المرحلة الثانية، كانت أهم الملامح هي الحديث عن القتال القادم والاستعداد له والحث على الإنفاق لتجهيز الجيش.

وفي المراحل التالية كانت كل مرحلة تتميز بأحداث خاصة بها تتحدث عنها سورها. وتتابع الأحداث وكثرتها هو ما ميز السور المدنية عموماً عن السور المكية.

السياق

يعني فهم العبارة أو الكلمة من سياق الآية أو الآيات، كما يعني استكمال الحديث عن حدث أو تشريع أو موضوع ضمن موقعه في الآية أو الآيات التي تتحدث عن نفس الموضوع في نفس السورة أو في سور متعددة. وهناك العديد من المواضيع التي تتحدث عنها عدة سور، مثل «مسلمة قريش» وهم منافقون في مكة أعلنوا إسلامهم وهاجروا لكنهم أبقوا على علاقة ود وولاء لأقاربهم مشركي قريش. ويمكن تتبع ما قال القرآن عنهم من سور مكية ومدنية في سياق واحد ورد على عدة سور. ومثل الحديث عما صدر من بعض المنافقين والذين في قلوبهم مرض في المدينة أثناء حفر الخندق وما تسبب في مشاكل اجتماعية نتيجة ملاحقتهم للنساء وترويج الإشاعات الكاذبة، والذي تحدثت عنه سور الأحزاب، النور، والمنافقون، وكان سبباً في فرض الجلد على من ثبت أنه يزني، وتحريم الزواج من الزناة وجلد كل من يقذف غيره.

وفيما يلي أمثلة على السياق:

ومن ذلك: يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ(٤٨) القمر.

فسقر عرفنا هنا أنها تعني النار، من سياق الآية.

فهم المعنى من سياق الآيات

ومن ذلك: وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٥) أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٦) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٧) الفرقان.

فالغرفة معناها هنا ليس العلية أو الحجرة، ولكن الجنة، لأن الحديث في الآيات يدور حول المتقين وما ينتظرهم من جزاء يوم القيامة.

فهم الموضوع من السياق في السورة

تقول سورة الحجرات: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ(٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ(٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ(٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥).

مجموعات من الناس بدرت منهم تصرفات رعناء بعيدة عن التهذيب، فجاءت الآيات تنكر عليهم تصرفاتهم.

وآخر السورة تقول: قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ(١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٧) إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٨).

وهو ما يؤكد أن هذه الآيات، استمرار للآيات: (١-٥) وأنها تتحدث عن الأعراب.

مراعاة السياق مع سور أخرى

تقول سورة المجادلة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣).

والحديث هنا استكمالٌ للحديث عن وفود الأعراب الذين قدموا للقاء الرسول والذين تحدثت عنهم سورة الحجرات السابقة. والآيات هنا تبين أنهم كانوا يجلسون بطريقة فوضوية فيمتلئ بهم المجلس، وكان يجب عليهم الجلوس بترتيب معين وأن يفسحوا لغيرهم للجلوس ليسعهم المجلس ويسع غيرهم. كما أنه من اللباقة أن يحضروا معهم بعض الطعام كغيرهم ليشترك بأكله الجميع، لكنهم لم يفعلوا. ولن يحاسبهم الله على ذلك، لأنه غير موجود في قاموس عاداتهم.

القرآن يفهم بمعاني عباراته الظاهرة ولا يحوي معاني باطنية أو معاني شاذة

فعندما يقول تعالى: وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً(٣٦) النساء.

فالآية - كما هو واضح - تأمر بالإحسان وإيتاء لذي القربى واليتامى والمساكين والجار القريب والجار البعيد والصاحب بالجنب (الساكن في نفس الحي) وعابر السبيل.

وليس كما يقول أصحاب الفرق الباطنية أن (الجار ذي القربى) تعني القلب، (والجار الجنب) تعني النفس الطبيعي، (والصاحب بالجنب) تعني العقل المقتدي بعمل الشرع، (وابن السبيل) تعني الجوارح المطيعة لله.

وقوله تعالى: "إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ" ليس المراد علي ابن أبي طالب

وزوجته وابنيه، لأن الآية تخاطب زوجات الرسول: وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً(٣٣) الأحزاب.

وقرن، ولا تتبرجن، وأقمن، وآتين، وأطعن ... إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس. ولا عبرة باستخدام ضمير "عنكم" بدل "عنكن" لأن هذا الالتزام جاء بعد ظهور النحو وسيبويه. ولو تتبعنا القرآن لوجدنا الكثير من الآيات التي لو طبقنا عليها قواعد سيبويه فهي آيات خاطئة نحوياً.

ومثال آخر على التأويلات المنحرفة لتلك الفرق قولهم في معنى بسم الله:

الباء بَهاء الله عزَّ وجلَّ: والسين سناء الله عزَّ وجلَّ. والميم مجد الله عزَّ وجلَّ.

والله: هو الاسم الأعظم الذي حوى الأسماء كلها، وبين الألف واللام منه حرف مكنى غيب من غيب إلى غيب، وسر من سر إلى سر، وحقيقة من حقيقة إلى حقيقة. لا ينال فهمه إلاَّ الطاهر من الأدناس، الآخذ من الحلال قواماً ضرورة الإيمان.

وإلا فباسم الله تعني ما يدل عليه ظاهرها، وهو البداية باسم الله. وليس لكل حرف في العربية معنى باطني لا يعرفه إلا هم. وما هو سوى حرف يُكوِّنُ مع حروف أخرى كلمة، والكلمة مع كلمات تكون عبارة.

والله اسم الجلالة وليس فيه حرف مغيب ولا سر ولا حقيقة مخفية لا يفهمها سوى سادة الشيعة وشيوخ الصوفية والباطنية.

ومثله القول بأن لحروف المصحف رسماً نزل من السماء، وكل لفظ كتب بطريقتين مختلفتين فلكل طريقة معنى مختلف. ومن ذلك قولهم: أنه إذا وردت الصلاة مكتوبة بهذا الشكل: (الصلوة) فلها معنى يختلف عن (الصلاة). لأن القرآن نزل على الرسول وتلاه كما حفظ في ذاكرته ولم يكتب منه حرف واحد في مكة: وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ(٤٩) العنكبوت.

وسورة العنكبوت في آخر العهد المكي وبعد أن بدأ المسلمون الهجرة ليثرب، وهي هنا تؤكد أن القرآن لم يكتب في صحف ولكنه يحفظ في صدور المسلمين. وكل اختلاف في

كتابة لفظ واحد في المصحف يعود إلى أن من كتبه ضعيف في الإملاء،[1] وليس لأن الله اختار مرة أن يكتب «الملئكة» ومرة أخرى «الملائكة»، كما سبق وذكر في فصل: الأحرف السبعة والقراءات العشر.

وكل تأويل للقرآن لا يؤخذ به ولا عبرة له، فالقرآن يفهم ببساطة أسلوبه ومعاني آياته الظاهرة، ومعاني ألفاظه المعتادة وبعيداً عن المعاني الشاذة.

وعندما يقول تعالى: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) المائدة.

فالمقصود قطع اليد بالفعل وليس كف السارق عن السرقة[2].

وعندما يقول تعالى: وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً(٣٨) بني إسرائيل.

فالزنا هو فاحشة المعاشرة الجنسية خارج نطاق الزوجية سواءً كان أحد الطرفين متزوجاً أو غير متزوج، وسواءً مقابل المال أو بدونه.

وعندما يقول تعالى: لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ(٣) القدر.

فالشهر يعني الشهر المعروف وهو الذي يعبر عنه بثلاثين يوماً، ولا يعني أنها خير من ألف أمر، أو خير من كل أوامر الله.

وعندما يقول تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ(٤٠) الأعراف.

فالجمل هو الحيوان المعروف وليس الحبل الغليظ الذي يستخدم في السفن.

وعندما يقول تعالى: وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) سبأ.

فالجبال هي المرتفعات الصخرية المعروفة وليست الرجال.

وعندما يقول تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى .... (٤٣) النساء.

---

١ الأستاذ أبو حزم المدقق الإملائي واللغوي ذكر أنه يحتمل أن تكون القواعد الإملائية في عصر الرسول تجيز أن تكتب الملائكة أحياناً (ملئكة) لكني لا أتفق مع رايه الكريم، لأن قواعد الإملاء ثابته، ولا يمكن ان يكون هناك قاعدة إملائية تقول بكتابة الملائكة وأحياناً (ملئكة) كما هو في المصحف.

٢ انظر فقرة: قطع اليد/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

فالسكر هو غياب العقل من تأثير الخمر، وليس المقصود بالسكر الغفلة وانشغال القلب بأمور الدنيا.

وليس للأحرف دلالات خافية وباطنة لا يعرفها إلا نفر قليل من الناس. كما أن الصعيد الطيب هو التراب وليس النبات كما يقول البعض، والتيمم هو ضرب التراب بالكفين وليس عصارة النبات.

والصوم والصيام هو الإمساك والامتناع ولا فرق إن كان عن الكلام أو عن الأكل والشرب.

وهكذا...

فالعبارات والألفاظ في القرآن تؤخذ بمعانيها الأصلية الظاهرة والمعتادة ولا يلتفت للمعاني الشاذة التي في قواميس اللغة لأنها ليست من اللغة وإنما قال بها قلة من الناس في عصور العجمة والانحطاط اللغوي في العصر العباسي ووجدت من يحشرها في المعاجم. ولو تتبعنا تلك المعاني الشاذة فلن نتمكن من تسمية أي شيء باسمه، ولن نتمكن من فهم بعضنا البعض، لأن كل لفظ له معان شاذة.

وسأعطي عبارة استخدمت في بنائها معاني شاذة لألفاظ معروفة، ولن يكون بمقدور القارئ مهما بلغت ثقافته اللغوية معرفة المعنى، مع أن كل المعاني مأخوذة من قواميس اللغة، والمثال هو: «أعطاني الإصبعُ قطعة ثورٍ للبقر». والإصبع هنا تعني راعي الغنم، والثور يعني الأقط[1]، والبقر يقصد بها العيال. فالعبارة تقول: أعطاني راعي الغنم قطعة أقط للعيال.

وهذه ليست اللغة العربية ذلك اللسان المبين، ولكنها معان عرفها الناس في عصر انتشار العجمة بعد الفتوح. وقد تكون معاني عامية أو حتى معانٍ عامية مجازية، ووجدت طريقها لقواميس اللغة.

ولا يجب أن يقيد القرآن بقواعد النحو، لأنها وضعت لكي تسهل فهم العربية لمن تعلم العربية ولم تكن لغته الأم كسيبويه، وفي ذلك الوقت، وحسب إدراك وفهم من هم مثل سيبويه. وقد قام هو وبقية النحاة بعمل جبار نسبياً، لكن هذا لا يعني أنه مثالي أو أن يحاكم

---

١ اللبن المَخِيض يطبخ ثم يترك حتى يَمْصُل ويجف.

به القرآن. فالقرآن هو من يحاكم النحو ويصححه وليس العكس. لكن المؤسف هو أن قواعد النحو تطبق على القرآن ولو أضافت له وأنقصت وغيرت معنى الآيات وبدلت.

أو كما يقول زكريا أوزون، في كتابه «جناية سيبويه»[1]: «إننا نجد أن كثيراً منا يقرأ النص العربي مراعياً قواعد النحو أولاً ثم المعنى، فهو مهتم بأن يرفع وينصب ويجزم قبل أن يفهم، وهناك من يعود ليقرأ النص قراءة صامتة بعد قراءته الجهرية ليستوعب المعنى تماماً، أي أن الشكل أساس القراءة الصحيحة ثم يأتي بعد ذلك المضمون الذي كثيراً ما نطوعه غصباً عنه ليخضع لقواعد النحو (الشكل). (الفصل الأول: ص١٢)

ويقول في نفس الفصل ص (٢٢): «لقد ادعى النحاة أن مرجعية النحو هي القرآن الكريم، وأن النحو غايته فهم القرآن الكريم، وأنك لن تفهم القرآن الكريم بدونه، إلا أننا نرى غير ذلك».

ويواصل قائلاً: «وهنا ينبغي لفت النظر إلى أن القرآن الكريم معرب - في علم النحو - بشكل كامل في كثير من كتب اللغة، إلا أنه غير مفسر بشكل متطابق ومطلق عند أهل الفقه وعلماء الإسلام كافة. أي أن الإعراب لا يكفي ولن يغني عن الفهم التام للنص».

ولعله حان الوقت لغربلة علم النحو، واعتماد القرآن لتحديث ذلك العلم وتطويره. والأخذ بقاعدة أن المهم هو فهم الآية ولو خالفت قواعد النحو. فليس المهم أن أقرأ «الصابئون» مرفوعة كما في الآية (٦٩) من سورة المائدة أو أقرؤها منصوبة كما وردت في الآية (١٧) من سورة الحج، لكن المهم أن أفهم أن الصابئين مجموعة من الناس.

ولا يهمني أن أعرف إن كانت «وأرجلكم» منصوبة أو مجرورة، في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ (٦) المائدة.

لكن المهم هو أن أفهم هل تغسل الأرجل في الوضوء أو يكتفى بالمسح كما المسح على شعر الرأس؟ وهذا لا يتأتى بتطبيق قواعد النحو، ولكن بالمنطق وفهم المغزى من الوضوء أصلاً. فإن كان الوضوء لتنظيف الأعضاء الظاهرة من الجسم عادة مما قد يعلق بها من أوساخ

---

١ جناية سيبوية/ الرفض التام لما جاء في النحو من أوهام. تأليف زكريا أوزون/ مكتبة بستان المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع / الطبعة الأولى ٢٠٠٢.

وأتربة استعداداً للصلاة، فإن غسل الرجلين هو المطلوب، كما هي الحال بالنسبة للوجه واليدين. لأن مسح القدمين دون غسلها لن يزيل ما علق بها من أتربة وغبار وأوساخ، كون القدمين تتعرضان لأكثر مما يتعرض له الوجه واليدين. بينما شعر الرأس يكفي مسحه بالماء مازال ة الغبار والأتربة العالقة.

ثم إن المؤمن يجب عليه الحرص، وقطع الشك باليقين، في كل ما فيه شك. فلو افترضنا أن هناك احتمالاً أن المطلوب هو مسح الأرجل وليس غسلها، ولكننا غسلناها فنكون قد قمنا بالواجب، كون الغسل أكثر من المسح، ونكون قطعنا الشك باليقين.

لكن لو أننا قمنا بمسح الأرجل وكان المطلوب هو الغسل فنكون لم نتوضأ.

ويكون نص الآية، إما أنه يقول بغسل القدمين، أو أن هناك احتمالين: غسل أو مسح. ولو غسلنا نكون قد احتطنا وقطعنا الشك باليقين وأدينا الواجب. لكن لو مسحنا وكان المطلوب هو الاحتمال الآخر فسيكون وضوؤنا ناقصاً.

لا معجزات عددية أو علمية في القرآن ولا للرسول

هناك مفكرون لهم اعتبارهم يقولون بأن القرآن يحوي إعجازاً علمياً، وغيرهم يقول بأنه يحوي إعجازاً عددياً، وآخرون يقولون إنه يحوي إعجازاً لفظياً، وغيرهم يقولون إنه يحوي إعجازاً طبياً لدرجة أن مجرد تلاوة آيات من القرآن والنفث في ماء أثناء القراءة يحول ذلك الماء لعقار شاف للأمراض.

ويمكن مقارنة هذه الأقوال بطلب الكفار من الرسول أن يروا آية (معجزة) حسية لكي يؤمنوا أنه مرسل من الله: وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ(١١٨) البقرة.

وإصرار المكذبين على طلب آيات لأنهم يريدون أن يروا دليلاً محسوساً بأن الرسول بالفعل يتصل بالسماء. وهم بذلك يتغافلون عن حقيقة مفادها أنه لو كان هناك أدلة حسية على صدق رسالة الرسول ووجود القيامة والحساب والجنة والنار، فسيلغي امتحان الإيمان الذي يعتمد العقل والمغامرة. ولن يكون هناك كفر، ولا اتباع للموروث وتعلق بالمتع الدنيوية. وسيتفق الناس جميعاً على الطاعة دون إيمان، لأنه لن يكون هناك إيمان، وإنما مجرد إقرار بواقع.

ومحاولة إثبات أن هناك معجزات في القرآن تأتي لكي يطمئن قلب من يقول بها أولاً وقبل أن يقنع بها الآخرين على صدق القرآن، لأنه هو نفسه يشعر في قرارة نفسه بعدم الطمأنينة والشك من حقيقة الدين وإن لم يصرح بذلك[1].

وفيما يلي بعض الحقائق التي تنفي أن يكون في القرآن معجزات حسية من أي نوع:

- أن كل من يحاول إثبات معجزات علمية وعددية وغيرها غاب عن ذهنه أن الآيات أعطيت لرسولين فقط من الرسل المذكورين في القرآن، وجاءت المعجزات سابقة لفرض التشريعات. ولم يعط رسول من رسل الله معجزات بعد فرض التشريعات أبداً. وموسى هو أحد أشهر وأهم الرسل، وقد أعطي تسع آيات حسية، بشهادة القرآن، لإقناع فرعون بالإيمان بالرسالة. ولم يعط معجزات غيرها بعد كتابة التوراة. والرسول الآخر هو عيسى، الذي ولد وهو يحمل المعجزات لكي يقنع بني إسرائيل بصدق رسالته، ولم تأت المعجزات بعد إيمان بعض بني إسرائيل بدعوته. وليس هناك رسل آخرون أعطوا آيات (معجزات) حسية غيرهما. وناقة صالح لم تكن معجزة، ولكنها امتحان للقوم ورسبوا فيه.
- أن الرسالة تبدأ بخطاب دعوي يدعو الناس للإيمان بوجود الله والبعث، وبعد أن يؤمن عدد كافٍ من الناس تفرض التشريعات ويختفي الخطاب الدعوي لأنه لم يعد له حاجة، وباختفائه تختفي المعجزات. لأن مسيرة الرسل تمر بعدة مراحل تبدأ بالدعوة وجمع الأتباع، فإن آمن عدد من الناس كاف لتكوين مجتمع مسلم، نزلت وفرضت التشريعات. وهذا نجده واضحاً مع موسى وبني إسرائيل، فالتوراة لم تنزل إلا بعد أن آمن عدد من بني إسرائيل مع موسى وخرجوا معه من مصر فرعون ولو بقوا ولم يخرجوا فقد يموت موسى ولم تفرض أي تشريعات سوى الإيمان والصلاة. وهناك عدد من الرسل ذكرهم القرآن ماتوا ولم تنزل عليهم تشريعات، لأنه لم يؤمن بهم

---

[1] الأعداد لها سحر ممتع، وهناك الكثير من النتائج الباهرة للأعداد سواءً كانت أرقام آيات أو أرقام شوارع، فالإعجاز للعدد وليس للآية. ومما ظهر لي من نتائج مبهرة أثناء التلاعب بالأرقام، أنه إذا جمع العدد (٩) مع نفسه فالنتيجة هي ١٨ أي ١+٨=٩ وكلما أضيف لها تسعة فالنتيجة هي: ٢٧ أي ٢+٧=٩ وهكذا إلى ما لا نهاية مهما تضخم العدد وبلغ مليارات أو تريليونات فالنتيجة هي تسعة وتسعات. وكل قارئ يمكنه اكتشاف سحر عددي مع أرقام أخرى. وقد انتشر في برامج التواصل الاجتماعي عام ٢٠١٤ ما يلي: لو حذفت من عدد سور القرآن عدد سنين عمرك فستكون النتيجة العام الذي ولدت فيه. مثلاً: ١١٤-٦٠ عمري = ٥٤ أي أني ولدت في العام ١٩٥٤. وهذا كان صحيحاً في العام (٢٠١٤) فقط. ونحن الآن في العام ٢٠١٥، وعمري ٦١ عاما. ولو أنقصت عمري من عدد سور القرآن (١١٤) لكانت النتيجة هي ٥٣، أي عام (١٩٥٣) وهذا غير صحيح. فأنا ولدت في العام ١٩٥٤. لكن الناس تسابقوا على اعتبارها معجزة المعجزات للقرآن ولابد انهم تناسوا الأمر الآن.

سوى نفر قليل، ومات رسولهم ولم يكن مطلوباً في الدين سوى الإيمان ولا وجود للتشريعات، ومنهم نوح وصالح وهود وشعيب ولوط.

- والرسول محمد بقي يدعو قريشاً عدة سنوات في بداية البعثة دون أن تفرض التشريعات، لأن قريش لم تؤمن ومن دخل الإسلام عدد ضئيل لا يكفي لتكوين مجتمع مسلم. ولذلك استمرت الخطاب الدعوي الذي يهدف إقناع الناس بالإيمان بالله والبعث والرسول. وبعد أن يؤمن عدد كاف لتكون مجتمع مؤمن تنزل التشريعات التي تمثل الدين، ولا يعود هناك حاجة للخطاب الدعوي، بوجود التشريعات التي تمثل الدين. لذا نجد أن التشريعات بدأت بالنزول في النصف الأخير من الدعوة في مكة بعد تحول الخطاب الدعوي لكل الناس فآمنت طائفة من بني إسرائيل ومن الأوس والخزرج في يثرب، وعدد من المستضعفين في مكة، وغيرهم، مكونين مجتمعاً مسلماً.

وباختفاء الخطاب الدعوي فلن يكون هناك معجزات، لأن دين الله أصبح يمثله تشريعاته. وكل من يرغب في دخول دين الله بعد الرسول فعليه تدبر تشريعاته وما يتحدث عنه القرآن من تسجيل الأعمال والحساب والحياة بعد الموت وتشريعاته الاجتماعية والحياتية. فمن اقتنع فليؤمن ومن لم يقتنع فليكفر، والحساب يوم الحساب[1]. لذا فالقرآن يخلو من مخاطبة الناس الذين سيأتون بعد عصر الرسول بخطاب دعوي.

- وبما أن القرآن اكتملت تشريعاته زمن الرسول، فلا حاجة لأن يحتوي القرآن على خطاب دعوي لمن سيأتي بعد عصر الرسول ويحوي بعض المعجزات. لأن الإسلام موجود بتشريعاته ومن لم يقتنع بأنها من الله فلن يقتنع بخطاب دعوي ومعجزات: وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ(١٠٩) الأنعام.

والآية تتحدث عن قريش التي استمرت تطلب من الرسول أن يريهم آية، وتقول إنهم لو رأوا الآيات فلن يؤمنوا، لأن من لا يؤمن بتحكيم العقل فلن يؤمن لو رأى المعجزات.

- أن المعجزات العلمية والعددية وشفاء الأمراض وغيرها لو كانت موجودة في القرآن فهذا يعني أن الرسول أعطي آيات تفوق ما أعطي موسى وعيسى، لأن آياتها انتهت

[1] نحن نتحدث عما يجب أن يكون وليس ما حدث للمسلمين بعد الرسول وعصر الخلافة الأولى.

بوفاتهما، بينما بقيت آيات الرسول في القرآن على مر الدهور. أو لنقل إن آيات القرآن لم يعلم بها الناس حتى جاء مفكرو هذا العصر واكتشفوها. وهذا مخالف تماماً لقواعد إعطاء الآيات للرسول والتي ترتبط بحياة الرسول، ولا تبقى بعد وفاته. وتكون في بداية الدعوة وقبل نزول التشريعات.

وكل ما تقدم يمكن اعتباره جدلاً وتنظيراً لو توقفنا هنا. لكن بقيت حقيقة لا يمكن تجاوزها تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك ان القرآن لا يحوي أي معجزة حسية من أي نوع. وفيما يلي آيات تؤكد هذه الحقيقة، مع ملاحظة أن كل الآيات التالية تردُّ على طلب قريش المستمر بأن يريهم الرسول آية ويؤمنوا، والآيات تنفي أن يكون الرسول أعطي آية واحدة:

- وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى(١٣٣) طه.
- وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ(١٤) لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ(١٥) الحجر.
- وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ(٢) القمر.
- وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ(٧) وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ(٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ(٩) الأنعام.
- وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلٍ آيَةً وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ(٣٧) الأنعام.
- قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ(٥٠) الأنعام.
- وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ(١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(١١٠) وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ(١١١) الأنعام.
- وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ

رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ(١٢٤) الأنعام.

والآية تقول عن قريش أنه لو أعطوا آية (جدلاً) لتحججوا بشيء آخر.

- هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ(١٥٨) الأنعام.
- وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يِوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَـذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٢٠٣) الأعراف.
- وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً(٥٩) بني إسرائيل.
- لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ(٤) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ(٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون(٦) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ(٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ(٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(٩) الشعراء.

لن يأتيهم معجزات لأنهم لو رأوها فلن يؤمنوا بها.

وهذه آيات تقول إن القرآن شفاء للعقل وليس للجسد:

- مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ(٤٣) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ(٤٤) فصلت.

قريش تتحجج بحجج واهية لرفض الحق والتمسك بالموروث، وإلا فمن يريد أن يؤمن فالمهم هو ما يقول القرآن وما يشرع وليس بأي لغة نزل. فالقرآن شفاء للفكر، ويضمن لمن تبعه الجنة. هذه هي غاية القرآن، وبالتالي فالقرآن لا يشفي أسقام الجسد كما يزعم بعض المشعوذين ورجال الدين: لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا

يَكْسِبُونَ.

- ومثله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ(٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ(٥٨) يونس.

وليس كما يظن البعض أن قراءة بعض الآيات والسور يشفي من الأمراض العضوية، واستغل هذا ضعاف النفوس والإيمان واتخذوها تجارة لهم ستكسبهم المال في الدنيا والحسرة في الآخرة.

- ومثله: وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً(٨٢) بني إسرائيل.

وهو ما ينفي زعم من يستغل القرآن وكأنه يشفي من الأمراض ليمتص أموال الناس بالباطل، وتأكيد لما ذكرته آية سورة يونس السابقة.

- ومن السور المدنية التي تنفي أن يكون الرسول قد أعطي آية حسية واحدة: وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ(٥٨) الروم.

وكل ما جاء في القرآن الكريم من آيات يستشهد بها من يقول بالمعجزات العلمية هو تأويل للآيات عن معناها. وغاب عنهم أن القرآن يخاطب المخاطب بما يفهم ولا يتحدث عن معجزات علمية، وسأعطي مثالاً واحداً على ذلك:

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ(٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ(٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ(٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(٣٣) الأنبياء.

الآيات تخاطب قريشاً المنكرة للبعث خطاباً عقلانياً، وتطلب منهم أن يتفكروا في خلق الله حولهم وما يرون بأعينهم من الكون لكي يتأكدوا أن من خلقه قادر على إعادة بعث الناس بعد الموت وهو الذي تنكره قريش.

والآية تخاطب قريشاً بأشياء تعرفها وتدركها ولا تتحدث عن نظريات علمية لم يتحدث

عنها الناس إلا بعد مئات السنين من نزول القرآن.

وقريش أو «الذين كفروا» كما تسميهم الآية ليس لديهم فكرة صحيحة عن كيفية خلق السماوات (الكون) والأرض. وتخبرهم بما كان عليه الكون في البداية بأسلوب بسيط يمكنهم فهمه، وذلك بإخبارهم أن السماء التي يرونها فوق الأرض والأرض التي هم عليها كانت في السابق متصلة بالسماء «رتق» ففصلت الأرض عن السماء «فتق». وهذا تصوير حسي بسيط تستطيع قريش فهمه.

والسموات بمعناها البسيط لإنسان زمن الرسول تعني هذا الفراغ العظيم الذي يعلو الأرض ومرصع بالنجوم التي لا يعرفون أنها شموس تكون مع كواكبها مجموعات شمسية ضمن مجرات يتكون منها الكون. ولا يعرفون كيف بدأ هذا الكون. ولا تتحدث الآية عن نظرية أن الحياة على الأرض بدأت في الماء، بل تقول لقريش إن الماء - كما ترون وتلاحظون - ضروري لحياة كل كائن حي.

وكثيرة هي الأمثلة في القرآن.

وخلاصة القول إن القرآن بسيط في أسلوبه لا يحتوي على تعقيدات لغوية لم تكتشف إلا بعد سيبويه، ولا معجزات علمية لم يعرفها إلا مفكرون في العصر الحديث، ولا معجزات عددية لم يكتشفها إلا الفرق الباطنية ومن جاء بعدهم. وكل من يرغب في الإيمان فسيجد أن القرآن يحوي كل ما يحتاجه المرء للنجاة من النار، ومن يحتاج لمعجزات لكي يصدق بأن القرآن من الله فسيجهد نفسه بلا طائل، وسيجد أنه كلما ظن أنه وجد معجزة سرعان ما يكتشف أنه مخطئ، وبالتالي سيكون أمام خيارين: إما الإيمان أن القرآن من الله بدون معجزات، أو أن القرآن لا يحوي المعجزات وبالتالي فهو ليس من عند الله كما قال الأولون.

التعود على أساليب القرآن

عند قراءة القرآن يشعر البعض أحياناً أنه أمام نص سهل في تركيب الجمل والعبارات، لدرجة يمكن أن يكتب نصاً أكثر دقة وجمالاً وبلاغة منه. لكن لو أن أحدنا اختار مجموعة من الآيات أو سورة من السور التي يعتبرها من أسهل نصوص القرآن وحاول أن يحاكيها فلن يستطع وسيظهر كلامه مفككاً ومضحكاً بلا معنى، كما سنرى أمثلة على ذلك.

وتارة ثانية يشعر القارئ أنه أمام نص معقد غير مفهوم، وتارة أخرى يشعر أن نص القرآن مهلهل وغير مقبول، ومشاعر أخرى. وهذا راجع للبعد بين القارئ وبين القرآن، استمر لقرون طويلة. وإلى أن القرآن يسرد الحدث، ويبني العبارات بطريقة تختلف عما نفعل واعتدنا عليه. لذا فالتعرف على أساليب القرآن عاملٌ هامٌ جداً لفهم الآيات.

وفي هذه الفقرة سنستعرض أمثلة على أساليب القرآن المتنوعة، ليتبينها القارئ وليكون متعوداً عليها مما يسهل عليه فهمها عند التلاوة دون عون من كتب أو أشخاص.

والبداية ستكون مع فاتحة الكتاب وهي سورة تحوي عدة أساليب مختلفة برغم قصرها:

سورة الفاتحة

الفاتحة تبدأ بالإشارة لجلال الله بصيغة الغائب: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ(١) الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٢) الرَّحْمـٰنِ الرَّحِيمِ(٣) مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ(٤).

وكأن المتكلم شخص آخر وليس الله جل وعلا.

ثم تتحول الصيغة إلى المخاطب، وكأن المتحدث المؤمنون وليس الله: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ(٥) اهدِنَــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ(٦).

وبرغم أن عبارات سورة الفاتحة تبدو سهلة وبسيطة، إلا أنه لو حاول أحد أن يقلد أسلوبها لظهرت العبارات بصورة مضحكة وغير مقبولة. فالسورة تقول: الحمد لله رب العالمين، اهدنا الصراط المستقيم. ولو حاول زيدٌ من الناس الحديث عن نفسه، بقوله: «شكراً زيد الكريم، دلنا على الطريق» محاكاة لقوله تعالى: الحمد لله رب العالمين، اهدنا الصراط المستقيم. وسيفهم أن المتكلم أشخاص يخاطبون زيد، ولا يمكن أن يفهم أن زيد هو المتكلم. بينما فهمنا وبكل سهولة أن الله جل شأنه هو المقصود في آيات سورة الفاتحة التي أشارت له سبحانه بصيغة الغائب، في قوله: «الحمد لله رب العالمين»، وفي الآيات التي تحولت لصيغة المخاطب، في قوله: «اهدنا الصراط المستقيم»، دون أن يتعرض النص للضعف أو الخلل.

كما أنه لو استخدم القرآن أسلوبنا المعتاد في بناء العبارات، لظهرت السورة بهذا الشكل أو قريب منه: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ يبدأ الله الوحي. وأن: الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وأنه هو: الرَّحْمـٰنِ الرَّحِيمِ. وهو: مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ. وإياه اعبدوا، وبه استعينوا. واطلبوا منه الهداية

للصراط المستقيم. صراط الذين أنعم عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

انظر كيف أصبح الأسلوب ركيكاً، ثقيلاً، يصعب ملاحقته، واستخدمت عبارات إضافية أطالت السورة وأكسبتها الغموض بدل التوضيح، وهذه قاعدة ثابتة. فكل من يحاول توضيح ما تقول الآيات بأسلوبه، يتضح أنه كلما أضاف عباراته زاد غموض المعنى.

استخدام «إلا» بمعنى «أما»

«إلا» حرف استثناء، لكن تم رصد ملاحظة ثابتة في القرآن مفادها: أن «إلا» كلما جاءت بداية لحديث عن موضوع جديد، فهي ليست للاستثناء، ولكنها تأتي بمعنى «أما».

وفيما يلي أمثلة على ما نقول:

- تقول سورة التين: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ(٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ(٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ(٦).

«إلا» في الآية السادسة ليست للاستثناء، فالآيتان: ٤-٥ تتحدثان عن مرور الإنسان بأطوار مختلفة في الحياة: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ(٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ(٥).

وانتهى هذا الموضوع ليبدأ بعد ذلك موضوع جديد في الآية السادسة يتحدث عن مصير الذين آمنوا: إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ.

ولا يمكن هنا أن تكون «إلا» للاستثناء لأن الذين آمنوا ليسوا استثناءً من خلق الإنسان في أحسن تقويم وأنه سيتردى في آخر عمره. لكن لو كانت «إلا» بمعنى «أما» فسيستقيم المعنى.

ولنقف مع خزعبلات المفسرين لنؤكد أن كل ما قالوه لا يعتد به وما هو سوى تخاريف:

فقد أورد الطبري آراءً عدة حول آيات سورة التين، سنختار منها ما يلي:

الأول: يقول بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات مستثنون من بلوغ أرذل العمر. حدثنا ابن حميد، قال: ثنا حكام، عن سعيد بن سابق، عن عاصم الأحول، عن عكرمة، قال: (كان يقال): من قرأ القرآن لم يُردّ إلى أرذل العمر، ثم قرأ: لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قال: لا يكونُ حتى لا يعلَم من بعد علم شيئا.

فعلى هذا التأويل قوله: «ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ» خاصّ ببعض الناس، ليس منهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

وهذا بطبيعة الحال كلام لا يليق ومن صدقه فلا عقل له. لأن مرحلة أرذل العمر قد يبلغها المسلم والكافر.

والرأي الثاني يقول: بأن من آمن وعمل صالحاً لو رد لأرذل العمر فستستمر كتابة الأعمال الصالحة له التي كان يؤديها وهو بكامل عقله قبل خرفه أما الكافر فلا.

وبطبيعة الحال هذا كلام لا أساس له، وما سيحدث هو أن الإنسان يحاسب على ما صدر منه وهو عاقل راشد مختار، ولو صدر منه معصية وهو مكره أو فاقد للعقل فلا يعاقب عليها، ومتى ما فقد عقله لخرف أو جنون فستستمر صحيفة أعماله تسجل ما يصدر منه، لكن لن يعاقب على أي مخالفة دينية أو تقصير، لأنه لا يعي تصرفاته وليس مسئولاً عنها.

ويقول الطبري: وقال آخرون: بل الذين آمنوا وعملوا الصالحات قد يدخلون في الذين رُدّوا إلى أَسْفَل سافلين، لأن أرذْل العُمر قد يردّ إليه المؤمن والكافر. قالوا: وإنما استثنى قوله: إلاَّ الَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ من معنى مضمر في قوله: ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ قالوا: ومعناه: ثم رددناه أسفل سافلين، فذهبت عقولهم وخَرِفوا، وانقطعت أعمالهم، فلم تثبت لهم بعد ذلك حسنة. إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعمِلُوا الصَّالِحاتِ فإن الذي كانوا يعملونه من الخير، في حال صحة عقولهم، وسلامة أبدانهم، جارٍ لهم بعد هَرَمهم وخَرَفهم.

وكما هو ملاحظ فهذا الكلام فيه تعسف لا حاجة له.

ويستمر الطبري ليقول: وقد يُحتمل أن يكون قوله: إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعمِلُوا الصَّالِحاتِ استثناء منقطعا، لأنه يحسن أن يقال: ثم رددناه أسفل سافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، لهم أجر غير ممنون، بعد أن يردّ أسفل سافلين. انتهى كلام الطبري

وكله تخريف وتهريف وتحميل الآيات ما لا تحتمل وتقويل القرآن ما لم يقل. ولو فطنوا إلى أن «إلا» بمعنى «أما» هنا لما احتاج الطبري لجمع تخاريف المفسرين على مدى صفحات عدة، كل يتأول من عنده ما عساه يكون المعنى.

- وفي سورة المدثر يقول تعالى: كَلَّا وَالْقَمَرِ(٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ(٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ(٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ(٣٥) نَذِيراً لِّلْبَشَرِ(٣٦) لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ

يَتَأَخَّرَ(٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ(٤٠).

«إلا» في قوله: « إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ(٤٠)» ليست للاستثناء من « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ». لأن كل امرئ بما كسب رهين، تشمل أصحاب الشمال وأصحاب اليمين. فكل امرئ بما كسب رهين، وبناءً عليه سيكون مصيره، إلى جنة أو نار.

فالآية: (٣٨) تمثل نهاية الحديث عن موضوع «كل نفس بما كسبت رهينة»، ليبدأ موضوع جديد: إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ(٤٠).

ولو كانت «إلا» للاستثناء لما استقام المعنى، لأنه في هذه الحالة يكون أصحاب اليمين مستثنين من الناس، وهذا غير صحيح. لكن لو أن «إلا» ليست للاستثناء، ولكن بمعنى «أما» فالمعنى سيستقيم. لأن السورة تقول: كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(٣٨). ثم تنتقل لموضوع آخر، وتقول: (أما) أَصْحَابَ الْيَمِينِ(٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ(٤٠).

- وفي سورة الانشقاق: فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لاَ يَسْجُدُونَ(٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ(٢٢) وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ(٢٣) فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٢٤) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ(٢٥).

«إلا» في الآية الأخيرة ليست للاستثناء، فقد انتهى الحديث عن الذين كفروا بنهاية الآية: فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٢٤). ثم بدأ موضوع جديد: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ(٢٥).

فتكون إلا بمعنى «أما».

- وتقول سورة الغاشية: فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ(٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ(٢٢) إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ(٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ(٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(٢٦).

«إلا» هنا لا يمكن أن تكون للاستثناء، لأن الرسول ليس مسيطراً على أحد، ولا يستثنى من تولى وكفر من ذلك. وتكون إلا بمعنى «أما» وبداية لموضوع جديد يقول بأن من تولى وكفر سيعذب.

- وورد في سورة الجن: قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً(٢٥) عَالِمُ

الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً(٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً(٢٧) لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً(٢٨).

والآيتان: (٢٥-٢٦) تتحدثان عن أن الرسول لا يعلم الغيب، بينما يبدأ الحديث عن موضوع جديد في الآيتين: (٢٧-٢٨) عن أن الرسل ستسجل أقوالهم وأفعالهم بكل دقة لئلا يقولوا على الله ما لم يقل[١].

وتكون «إلا» بمعنى «أما» وليست للاستثناء.

- وتقول سورة الصافات: إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ(٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٣٩) إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ(٤٠) أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ(٤١) فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ(٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ(٤٣) عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ(٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ(٤٥) بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ(٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ(٤٧) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ(٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ(٤٩).

والآيات تتوعد قريشاً بالعذاب، وتعد المؤمنين بنعيم الجنة.

و«إلا» في الآية: (٤٠) بمعنى «أما». لأن عباد الله المخلصين لن يستثنوا ممن سيجزون بما كانوا يعملون. فكل إنسان سيجزى بما كان يعمل، والكافر سيدخل النار بناءً على ما كان يعمل، بينما سيدخل عباد الله المخلصون الجنة بناءً على ما كانوا يعملون. والآية: (٤٠) تبدأ بالحديث عن عباد الله المخلصين وما ينتظرهم في الجنة: إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ(٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٣٩) إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ(٤٠) أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ(٤١).

فالآيات تقول عن قريش الكافرة: إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ(٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٣٩). وينتهي الحديث عنهم لينتقل للحديث عن جزاء المخلصين: (أما) عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ(٤٠) أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ(٤١).

فـ«إلا» هنا بمعنى «أما»، وليست للاستثناء.

وهناك آيات غير ما تقدم في سور أخرى ورد فيها «إلا» بمعنى «أما» وليست للاستثناء.

---

١ هناك من يقول إن الرسل هنا تعني الملائكة التي تنقل نصوص الوحي للرسل من البشر، وشخصياً أميل إلى أن المعني بالرسل في الآية رسل البشر وليس الملائكة.

ربما بمعنى سوف

رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ(٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(٣) الحجر.

ربما هنا لا تعني «من المحتمل» ولكنها تعني أنهم: «سوف يتمنون لو كانوا آمنوا». وهذا سيكون يوم القيامة عندما يعرفون أنها حق، وأن مصيرهم النار.

المجاز والترادف ورسم الحروف

هو استعمال اللفظ أو العبارة إلى معنى غير معناها الحرفي. وهو من وسائل البلاغ وسحر البيان، ويوجد في كل اللغات. وإنكار المجاز في القرآن تعسف تقول به فرق لها أصول باطنية ويشاركهم أتباع بعض المذاهب التي تسمى سنية. ونفي المجاز من القرآن ظهر في القرن الأول الهجري، ومن أشهر من قال به داود بن علي الظاهري الأصفهاني (ت ٢٧٠ هـ) وهو إمام المذهب الظاهري. إلا أن ابن تيمية (ت ٧٢٦ هـ) يعتبر من أكثر الناس حماسة لنفي المجاز في القرآن، لأنه يتناسب مع فكره. فهو يرى أن رؤية الله حقيقة، وأن لله يداً وساقاً وأنه يضحك وغير ذلك من التشبيه والتجسيم، ولو أثبت المجاز لما وجد ما يعضد معتقده هذا.

والمجاز يعتمد التصوير الحسي لزيادة تأثير الكلام في الذهن. فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً(٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً(٧) نوح.

فالقوم لم يكونوا في ركض مستمر (فارين) ونوح يجري خلفهم، وكلما دعاهم زادوا سرعة ركضهم ليهربوا منه. ولم يكن القوم كلما سمعوا نوحاً يدعوهم يقومون بوضع اصابعهم في آذانهم ويغطون أنفسهم بثيابهم فعلياً. هي صور مجازية حسية تجعل صورة عناد ورفض القوم للدعوة أكثر حضوراً في نفس القارئ أو السامع لتلاوة الآيات. والخطاب الدعوي لقريش في القرآن يتميز بتقديم صور حسية مجازية لما في الآخرة تماثل ما تعرفه قريش في حياتها الدنيوية. ذلك أن قريشاً لا تؤمن بالبعث وحياة ما بعد الموت والجنة والنار، فجاءت هذه الصور الحسية للتأكيد على وجود البعث، وعلى ما في الجنة من نعيم وما في النار من جحيم ولنهاية الكون ونشأة كون القيامة، وللموت، ولصحيفة الأعمال وغيرها، من أجل

تقريبها من ذهن المخاطب لترغيبه في قبول الدعوة وترهيبه من الكفر. لذا فكل الصور المجازية في القرآن التي تتحدث عن غيب الآخرة مرتبطة دائماً بخطاب دعوي لقريش، ولا يذكرها القرآن خارج هذا الخطاب أبداً.

ولا عبرة لمن قال بنفي المجاز لكي يتوافق القرآن مع ما يعتقد، مثلما أنه لا عبرة لنفي وجود الترادف في القرآن، لأن الترادف من جمال اللغة وهو موجود في كل لغات العالم الأفقر في المفردات من اللغة العربية. ولولا الترادف لما استطعنا التعبير عما نريد، ولا شرحنا غامض الكلام. كما أنه لا عبرة لمن قال بأن للقرآن رسماً نزل من السماء، بمعنى أن الرسول كتب المصحف بشكل حروف نزلت عليه ولم يخترها. والرسول أمي لا يقرأ ولا يكتب ورسم القرآن هذا لا حكمة منه ولا غاية، ويخالفه الواقع. فليس المهم كيف يظهر الحرف بل المهم كيف ينطق. وسواءً كتب حرف الميم في مريم بهذا الشكل «م» أو بهذا الشكل «مـ» فالنطق واحد. والنطق هو المهم وهو الذي قامت عليه الدعوة في مكة والمدينة، لأنه عليه الصلاة والسلام كان يتلو القرآن من ذاكرته على قريش الأمية في مكة. ولم يكن الرسول يحمل مصحفاً ويري الناس في يثرب سور القرآن مكتوبة فيه. لكن البعض لم يجد ما ينسبه لنفسه إلا الكلام في أشياء يخالف بها الحقائق ولا جدوى منها سوى ليقول عن نفسه إنه مختلف.

ولعل من المفيد أن نقرأ القرآن دون الالتفات لهذه الأقوال التي لا تهدف لخدمة فهم القرآن ولكنها تخدم معتقدات معينة. والقرآن إعجازه ببساطته وسهولة فهمه دون حاجة لأن تعرف أفكار فلاسفة باطنيين ولا ما قال أصحاب الكلام ولا المشبهة ولا غيرهم. وتأكد أن السياق والمخاطب كفيلان بأن تفهم معنى الآيات ولو استعصى عليك فهم لفظ ورد فيها.

وفيما يلي أمثلة من المجاز:

- وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً(١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً(١٢) وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً(١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً(١٤) المزمل.

الآيات تصور أن في النار أنكالاً (أغلالا) وطعاماً ذا غصة. وبما أن عالم القيامة كله غيب بالنسبة لنا ولا نعلم عنه شيئاً، فهذه الصور المجازية الحسية هي للترغيب والترهيب بصور يستطيع المخاطب (قريش التي تنكر البعث) فهمها أو تصورها، ولو وصفت لهم الجنة

والنار كما هي فلن يفهموها ولن يتأثروا بما يقال عنها، ولن تؤدي دورها ترغيباً وترهيباً. تماماً كما نصف طائرة لأناس عاشوا في منطقة معزولة عن العالم الخارجي وأبقوا على نمط حياة ما قبل التاريخ. فلو وصفنا لهم الطائرة كما هي فلن يستوعبوا الوصف ولن يفهموه، لكن لو قيل لهم إن هناك طائراً كبير الحجم، وله صوت صراخ قوي، ويطير بسرعة هائلة، وهو مطيع للإنسان، وله جراب يفتح في بطنه، ويدخل فيه الناس ثم يغلق ويطير بهم الطائر لأي مكان يريدون وعندما ينزلون على الأرض ينفتح الجراب وينزل منه الناس. هذه الصورة حسية لكنها مجازية ولا تصف الطائرة على حقيقتها. لأننا لو وصفنا الطائرة لهم فلن يفهموا ولن يستوعبوا لكن وصفها بهذه الصورة يسهل عليهم تكوين صورة أقرب ما تكون للطائرة حسب مداركهم، وهو المطلوب. تماما كما تصور السور ما في الجنة والنار وعالم القيامة والبعث والحساب وصحيفة الأعمال والموت وغيرها من الغيبيات المستقبلية.

- وتقول سورة المدثر: كَلَّا وَالْقَمَرِ(٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ(٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ(٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ(٣٥) نَذِيراً لِّلْبَشَرِ(٣٦) لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ(٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(٣٨).

الآيات تشير للدعوة بأنها "إحدى الكبر" وأنها إنذار للبشر. وبعد ذلك القبول والرفض خيار شخصي، وقد استخدم المجاز في قوله "يتقدم" كقبول الدعوة والإيمان، وفي "يتأخر" لرفضها والكفر.

- وتقول نفس سورة المدثر: إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ(٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ(٤١).

أصحاب اليمين يقصد بهم هنا المؤمنين الذين قبلوا الدعوة، لأنه في اللغة العربية اليمين كناية عن الحق والصواب، واليسار والشمال كناية عن الخطأ.

- وتقول سورة الشمس: وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا(٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا(١٠).

إلهام الفجور والتقوى كناية على خيار الكفر والإيمان، وأنه خيار شخصي حر. وتصف السورة من يؤمن بمن زكى نفسه وطهرها، ومن يكفر بمن دساها (دنسها).

- وتقول سورة القارعة: فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ(٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ(٧) وَأَمَّا مَنْ

خَفَّتْ مَوَازِينُهُ(٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ(٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ(١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ(١١).

فثقل الموازين كناية عمن آمن وعمل صالحاً، والعيشة الراضية كناية عن دخول الجنة. ومن «خفت موازينه» فكناية عن الكفر، و «أمه هاوية» كناية عن دخول النار.

وهناك سور يغلب على آياتها المجاز مثل: النبأ، ق، الواقعة، والغاشية.

- وتصف سورة الحاقة من ينجو من النار يوم الحساب بمن يؤتى كتابه بيمينه، كناية عن النجاة: يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ(١٨) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ(١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ(٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ(٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(٢٢).
- ومن يكفر تصفه بمن يؤتى كتابه بشماله، كناية عن الخسارة: وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ(٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ(٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ(٢٧).
- ونفس سورة الحاقة تقول: وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ(٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ(٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ(٤٧) الحاقة.

والآيات موجهة للرسول وتتوعد بقطع وتينه لو تقول على الله ما لم يقل وحدث الناس عن دين الله بغير كلام الله. وقطع الوتين كناية على الهلاك، والوتين تعتقد العرب في ذلك العصر أنه عرق متصل بالقلب لو قطع لمات صاحبه، وهذا التعريف ليس صحيحاً. فالعرب لا يعرفون علم التشريح في ذلك الزمن وليست لديهم دراية كيف يعمل القلب، ولا معرفة الأوردة والشرايين المتصلة به. وكل ما يشاع بينهم مجرد ظنون، ومنها أن هناك عرقاً متصلاً بالقلب اسمه الوتين. ومع ذلك أورده القرآن، لأنه من الشائع عندهم استخدام «قطع الوتين» للتعبير عن الموت. ومن ذلك ما ورد منسوباً للفضل ابن عباس قوله: «أَرِحْني قَطَعْتَ وَتِيني»[1]. فالقرآن يخاطب الناس بعبارات تتلاءم مع ثقافتهم وقدراتهم ومداركهم وما يفهمون ويعرفون، ولو كان على شكل أمثلة متداولة عندهم.

- وتقدم سورة عبس لوحة مجازية أخرى: فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ(٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ(٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ(٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ(٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ

---

١ هذه العبارة وردت في خبر منسوب للفضل ابن عباس أثناء غسل الرسول عليه الصلاة والسلام، وإيرادها لا يعني أن نسبتها صحيحة إليه ولكن المهم هو أن الوتين يأتي في أمثال العرب حينها.

يُغْنِيهِ(٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ(٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ(٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ(٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ(٤١) أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ(٤٢).

الصاخة: المقصود بها القيامة. وفرار المرء من أخيه تعبير مجازي يقصد به انشغال المرء بنفسه عمن سواه ولو كان أقرب ذوي القربى. والوجوه المسفرة الضاحكة المستبشرة: كناية عن السعادة بالفوز والجنة. والوجوه التي عليها غبره وترهقها قترة: كناية عن الخسران والمصير السيء.

- وجاء في سورة الملك: أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٢٢).

والآية وردت ضمن آيات تدعو قريش للتفكير بما تراه من خلق الله لكي تستدل بواسطته على قدرة الخالق على البعث، وتقول بأن من يفكر ويحكم عقله سيهتدي ولا يمكن مقارنته بمن يغلق عقله ويختار الضلال. وتصور الرافض للتفكير كمن يمشي مكباً على وجهه لا يرى ولا يسمع، بينما المهتدي كمن يمشي بطريقة سليمة «سوياً» على الطريق الصحيح «المستقيم». وهو تصوير مجازي لأنه ليس هناك من يمشي مكباً على وجهه.

- وتقول سورة الجن أثناء حديثها عن استماع نفر من الجن لتلاوة الرسول: وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً(١٩).

فالسورة تصور تجمع أولئك النفر حول الرسول للاستماع إليه بصورة مجازية: « كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً». كاد بعضهم يركب فوق بعض، وهذا لا يمكن أن يتم بالنسبة للمخلوقات اللاجسدية كالجن. لأنه ليس لهم كتل جسدية تأخذ حيزاً مكانياً مما يؤدي لتزاحمهم.

- وتقول سورة القمر ضمن الحديث عما ينتظر مشركي قريش من عذاب يوم القيامة: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ(٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ(٤٨).

تصوير مجازي لتصوير مهانة العذاب وذلته للكافر، بقصد الترهيب. لأن قريشاً لديها أعراف تهتم بكرامة الإنسان، ولا تقبل بالذل. وسحب إنسان على وجهه منتهى الذل.

- وتقول سورة الصافات: وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ(٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ

تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ(٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ(٣٠).

قول: «تأتوننا عن اليمين» تعني تمنعوننا عن اليمين، واليمين هنا تعبير مجازي يعني طريق الحق أي دعوة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام. وهذه المحادثة المجازية تجري في النار بين الكبراء وبين من تبعهم وكفر تبعاً لكفرهم من مستضعفي مكة.

- وفي سورة الصافات أيضاً وصف لطعام أهل النار: أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ(٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ(٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ(٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ(٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ(٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِّنْ حَمِيمٍ(٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ(٦٨).

وتشبيه طلع الشجرة برؤوس الشياطين مجازي، لأن رجال قريش لم يروا رؤوس الشياطين. لكن الثقافة السائدة في ذلك المجتمع تتخيل رؤوس الشياطين بأشكال مفزعة مقززة قبيحة، فجاء وصف طلع شجر النار بما تعرف قريش ولو كان على شكل تخيل خرافي، لأن الهدف هو قوة التأثير في النفس، والتنفير من النار.

- وتقول سورة فاطر: وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ(١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ(٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ(٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ(٢٢).

والآيات جاءت ضمن سياق يتحدث عن موقف قريش الرافض للدعوة وأنه لا يمكن أن يساووا بمن آمن. وتصف الآيات الكافر بأنه أعمى عن الحق، ويسير في الظلمات ويختار الحرور وتصفه بالميت، بينما تصف المؤمن بالبصير الذي يعيش في النور والظلال وتصفه بالحي.

- وتصف سورة فصلت إعراض قريش عن الدعوة بصور مجازية كما يلي: حم(١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِياً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٣) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ(٥).

والآيات تصف قريشاً مجازاً وكأن قلوبهم «في أكنة» أي مغلقة بغلاف يمنعها من الفهم.

والقلب بمعنى الفكر هنا. وكأن في آذانهم صمم يمنعهم من سماع القرآن، وفوق هذا بينهم وبين الرسول جدار عازل. كل هذا مجاز يعبر عن إصرار قريش على الإعراض عن الحق.

- ومثله: قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ(٤٤) فصلت.
- ومثله: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً(٥٧) الكهف.

فالآية تصور مجازاً إعراض قريش وكأن على قلوبهم (عقولهم) أقفالاً تمنعهم من فهمه، وفي آذانهم صمم.

- ومثله: وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضاً(١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً(١٠١) الكهف.

فالتعبير المجازي هنا يصور رفض الكفار للحق وكأن أعينهم مغطاة وآذانهم بها وقر وصمم فلا يسمعون تلاوة القرآن من الرسول عليهم.

- ومثله: أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(٤٠) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ(٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ(٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ(٤٤) الزخرف.

والآيات تخاطب الرسول محمداً قائلة بأنه ليس مسئولاً عن هدايتهم، وأن مسئوليته تتوقف عند تبليغ ما ينزل عليه من القرآن بتلاوته عليهم. وتصف قريشاً مجازاً بالصم كونهم لا يصغون للدعوة، وبالعمي كونهم لا يرون الحق.

- وجاء في سورة مريم: إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً(٦٠) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً(٦١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً(٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً(٦٣) مريم.

الجنة لا يوجد فيها صباح (بكرة) ومساء (عشياً) لأنه لا يوجد شمس، واستخدام بكرة

وعشياً في الآية جاء كمجاز يدل على استمرار النعيم بلا انقطاع.

- وتقول سورة الدخان: فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ(١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ(١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ(١٢) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ(١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ(١٤) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ(١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ(١٦).

لقد حول المفسرون الآية العاشرة وكأنها تتحدث عن دخان يظهر في آخر الزمان. والحديث في الآية موجه للرسول. والمفسرون لا ينكرون هذا، ولا ينكرون أن الذين تتوعدهم الآية هم قريش.

وبناءً على هذا فالدخان يجب أن يكون قد حدث في عصر رسول الله، وأن قريشاً طلبت من الرسول أن يكشف العذاب فكُشف. لكن الواقع يقول بأن هذا لم يحدث، ولم تر قريش دخاناً، لأنه لو حدث فسيكون واقعة تؤرخ بها العرب أيامها كالفيل أو ذي قار، ولما غفل عنها التاريخ. وسيكون آية، والرسول لم يجر على يديه آيات وخوارق.

لكن الذي حدث هو ليٌّ لمعاني الآيات الواضحة، لأن الحديث في الآيات عن قريش التي أعلنت الكفر، وهو موجه للرسول «فارتقب» وهذا تعبير مجازي مثله مثل قوله تعالى: فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ(٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ(٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ(٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ(٤٢) ق.

فالآيات تتشابه مع آيات الدخان، حيث تتحدث عن قريش الرافضة للحق، وتتوجه للرسول لتشد من عضده وتشحذ همته على مواصلة الدعوة ولو لم يستمعوا له، وتقول: وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ. والرسول لن يستمع لذلك لأنه سيحدث يوم القيامة.

ومثلها (الآية: ٥٩) التي تقول: فارتقب إنهم مرتقبون في نفس سورة الدخان.

فآيات الدخان تقول للرسول أمهلهم قليلاً وسيحاسبون في يوم يغشى السماء دخان (صورة حسية لما سيحدث للكون عند انهياره). عندها سيدعو كفار قريش ربهم بأن يكشف عنهم عذاب جهنم وسوف يؤمنون: رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ(١٢). ولن تكون قريش

على قيد الحياة عند انهيار هذا الكون، ولكن رجالها سيعلمون انهم ماتوا عندما يبعثون وفي تلك اللحظة سيندمون، وسيطلبون أن يعطوا فرصة ثانية ليتوبوا ويعملوا صالحاً. والآيات ترد عليهم وتقول لو كانوا يريدون الإيمان لآمنوا عندما جاءهم الرسول: أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ(١٣). ولما يتهموه بالجنون: ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ(١٤).

وتقول الآيات لو أننا كشفنا عنهم العذاب (يوم القيامة) ولو لفترة قصيرة لعادوا للكفر: إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ(١٥).

وهو ما كررته سور أخرى بأسلوب آخر، ومن ذلك: وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(٢٨) الأنعام.

- وتقول سورة النمل: فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِّ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ(٧٩) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ(٨٠) وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ(٨١).

الآيات تخاطب رسول الله محمداً الذي كان يشعر بالحسرة على قومه قريش الذين أعرضوا عن الحق وأصروا على الكفر.

والآيات تستخدم التعبير المجازي في وصف إعراض قريش: " إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء"، واصفة إعراضهم بأنهم أموات لا يشعرون بما حولهم، أو أصاب آذانهم الصمم فلا يسمعون القرآن الذي يتلوه الرسول عليهم.

" وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ" الآية تصفهم وكأنهم مصابون بالعمى بحيث لا يرون الطريق القويم الواضح.

- ومثله ما ورد في سورة «طه»: وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً(١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى(١٢٦).

تكرار استخدام العمى مجازاً للدلالة على الضلال.

- ومثله: وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(١٧) فصلت.

- ومثله: أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(٤٠) الزخرف.
- وقد سبق في سورة طه تعبير مجازي آخر يصف حال الكفار يوم القيامة: يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً(١٠٢) طه.

وزرق لا يعني تغير ألوان جلودهم كما يتأول المفسرون، ولكنه يعني الضلال.

- وتقول سورة السجدة: وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ(١٢).

المجرمون تعني كفار قريش لأن الحديث عنهم في السورة. ويوم القيامة لن يقابلوا رب العالمين، ومع ذلك تقول الآية: «عند ربهم».

ولا ندري هل سيعود البشر بأجساد حسية أو بهيئات نورانية، ومع ذلك تقول الآية: «ناكسو رؤوسهم».

وتقول الآية إن المجرمين يقولون: «رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ». والإبصار والسماع مجاز يعني أنهم عرفوا أن دعوة الرسول حق، ولا تعني أنهم في الدنيا كانوا عمياً صماً بالمعنى الحرفي.

إذاً، الآية تتحدث بأسلوب مجازي يظهر كيف سيندم كبراء قريش يوم القيامة ولات ساعة مندم.

- وتقول سورة السجدة في حديثها عن المؤمنين: إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ(١٥) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٧).

المؤمنون لم يكونوا كلما ذكروا بآيات الله يسجدون، ولم تكن جنوبهم تجافي النوم خوفاً من الله. فالتعبير هنا مجازي يصور حضور الخوف من الله في نفس المؤمن على الدوام.

- وجاء في سورة الفرقان: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاء أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ(١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً(١٨)

فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلَا نَصْراً وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً(١٩).

وهذا الحوار لن يحدث، لأن المخلوق سيبقى مخلوقاً في الآخرة بنفس قدراته المحدودة والتي كان عليها في الدنيا، ولن يحوله الموت والبعث من مخلوق لا يستطيع الحديث مع الخالق مباشرة ولا يراه، إلى نوع مماثل للخالق يستطيع رؤية الله والاجتماع به.

- وتقول نفس سورة الفرقان: الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً(٣٤).

ولن يحشر الكافر على وجهه ولكنه تعبير مجازي يصور خيبة أمله وخسرانه.

- ومثله: أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ(٢٤) الزمر.

والمؤمن لن يتقي بوجهه سوء العذاب، ولكنه مجاز يقصد به أن المؤمن سيعمل بأوامر الله ليبتعد في الآخرة عن النار. كون من ابتعد وجهه فقد ابتعد كله، من باب ذكر الجزء والمراد الكل.

- وجاء في مكان آخر من سورة الزمر: وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ(٦٧) الزمر.

تخاطب قريشاً وتقول لهم إن إنكارهم للبعث سوء تقدير لقدرة الله، الذي سينهي هذا الكون. وعبارة الآية من العبارات المتميزة التي لا توجد إلا في القرآن. ولو أردنا أن نعيد صياغتها لتتفق مع صياغتنا للجمل فستبدو بهذا الشكل: «وما قدروا الله حق قدره ويوم القيامة الأرض والسماوات جميعاً مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون».

وهي عبارة مجازية يقصد بها أن من خلق السماوات والأرض سينهيها وكأنها تعود له سبحانه. ولا تعني أن السماوات والأرض سيمسك بها الرحمن براحة يده اليمنى. والآيات كثيرة في وصف انهيار الكون.

- وتقول سورة الأعراف: وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ(٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ(٥) فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ(٦).

الآية السادسة تصور الله تبارك وتعالى بصورة قاضٍ وأمامه الأمم الكافرة الذين يطلبون من الله العفو. وكأنه سبحانه يلتفت إلى رسل تلك الأمم ويسألهم ما حدث وهل هذه الأمم تستحق الصفح والغفران، ليغفر لها أم لا؟

هذا المشهد مجازي ولن يحدث، وإنما هو لتقريب الصورة من ذهن المخاطب. والحساب يوم القيامة لا يكون بعقد محاكمة، ولكن سيتم بشكل تلقائي. حيث يعرض لكل فرد سجل صحيفة أعماله وبناءً عليه يكون مصيره: جنة أو ناراً. وهو ما تؤكده الآيات: (٧- ٩) من نفس سورة الأعراف: فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ(٧) وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ(٩).

وحتى سجل صحيفة الأعمال في الآيات صور بصورة مجازية وكأنه ميزان كفة للعمل الصالح وأخرى للعمل السيء، والكفة الراجحة هي التي تقرر مصير صاحبها لجنة أو نار. وهذا أيضاً لن يحدث فالحساب لا يكون بمقارنة الأعمال السيئة بالحسنة. ولكن من آمن وعمل صالحاً بتجنب الكبائر دخل الجنة. ومن آمن وارتكب كبيرة واستمر عليها وهو يعلم بحكمها فهو في النار، مثله مثل من كفر ولو عمل صالحاً.

- وتقول سورة الأعراف: فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ(٦٤).

عمين تعني ضالين (مجازاً).

- وتقول سورة الأنبياء تقول: يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ(١٠٤).

مظهر من مظاهر انهيار الكون حيث ستبدو السماء وكأنها تطوى كما تطوى السجلات. فكما بدأ الكون بانفجار عظيم سينتهي بانكماش عظيم[١].

- وتقول سورة بني إسرائيل: وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً(٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً(٤٦).

١ لو كان للمسلمين باع في العلوم وخاصة علم الفلك لأسهموا في النظريات العلمية المطروحة حول كيفية بدء الكون وهل سينتهي وكيف؟

الحجاب يعني الساتر، وهو هنا كناية عن عدم رؤية المشركين الحق، وكأن بينهم وبينه حائطاً ساتراً لما خلفه. والأكنة على القلوب كناية عن عدم استيعاب الحق، وكأن على عقولهم أقفالاً تقفلها عندما يبدأ الرسول تلاوة القرآن عليهم. وكأن في آذانهم وقراً فلا يسمعون التلاوة.

وتوليهم على أدبارهم كناية عن الإعراض ورفض الحق، لأن رجال قريش لا يهرولون مبعدين عن الرسول عندما يتلو عليهم القرآن.

- وسورة بني إسرائيل تقول: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً(٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً(٦٢) قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُوراً(٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً(٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً(٦٥).

وإبليس لا يستطيع الإنجاب كأي مخلوق لا جسدي في الكون، وليس له ولد. كما أنه لا يستخدم وسائل تنقل، لأنه لا يحتاجها، ولا يصدر منه صوت مسموع لأنه لا يملك جهاز تنفس ولا حبالاً صوتية، ومع ذلك تقول عنه الآيات: «وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ» كتعبير مجازي يعني: «افعل كل ما تستطيع».

- وتصور سورة بني إسرائيل صحيفة الأعمال على شكل كتاب مجازاً، والتسليم باليمين بمعنى الصلاح والنجاة: يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَـئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً(٧١).

وتكني الآية المؤمن بمن يُؤتى كتابه بيمينه، والضلال تكنيه بالعمى: وَمَن كَانَ فِي هَـذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً(٧٢) بني إسرائيل.

- ومثله: وَمَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً(٩٧) بني إسرائيل.

- وسورة هود تصور إعراض الكفار عن الدعوة بثني الصدر وتغشي الثياب: أَلا إِنَّهُمْ

يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٥).

الآية تصف موقف قريش الرافض بتعبير مجازي يصورهم وكأن صدورهم تنثني عند سماع القرآن وأنهم يستغشون ثيابهم لتحجبهم عن رؤية الحق والرسول.

- وتصف سورة الأنعام الكافر بالميت: إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ(٣٦) الأنعام.

الآية جاءت ضمن سياق يتحدث عن حزن الرسول على إصرار قريش على الكفر ويتمنى لو أعطي معجزة لعلهم يؤمنون. وهذه الآية تقول له: لقد اتبعوا موروثهم ولن يؤمنوا مهما دعوا لأنهم كالأموات لا يشعرون بما حولهم. وسيبعثون ويحاسبهم الله.

- وفي مكان آخر تصف الأنعام الكافر بالأصم الأبكم: وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يشأ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٣٩).
- ونفس السورة تصور المتبع للحق بمن كان ميتاً فعاد للحياة، ومن رفض الحق للتمسك بالموروث بمن يعيش في دائرة مغلقة لا يرى عالماً غيرها: أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(١٢٢).

وكل الآيات التي تتحدث عما في الجنة والنار وعن انهيار الكون وصحيفة الأعمال وطريقة الحساب وآيات كثيرة غيرها تستخدم المجاز، وسنمر بها أثناء تدبر السور.

ومثل المجاز وجود الترادف في كل لغات العالم، وفي القرآن، ومن ذلك ما ورد في سورة النساء: مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظرنا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً(٤٦).

راعنا وانظرنا لفظان مترادفان.

ولابد من ملاحظة أن الترادف لا يكون في الصفات، فلا يمكن أن نجد لفظاً مرادفاً للأحمر أو الأخضر مثلاً، لكن الترادف يكون في الأسماء والأفعال.

كما أنه لا عبرة بمن قال إن للقرآن رسماً نزل من السماء، يعني أن الرسول كتب المصحف بشكل حروف نزلت عليه ولم يخترها. والرسول أمي لا يقرأ ولا يكتب ورسم القرآن هذا لا حكمة منه ولا غاية، ويخالفه الواقع. فليس المهم كيف يظهر الحرف بل المهم كيف ينطق. وسواءً كتب حرف الميم في «مريم: بهذا الشكل أو «مريمـ « بهذا الشكل فالنطق واحد. لكن البعض لم يجد ما ينسبه لنفسه إلا الكلام في أشياء يخالف بها الحقائق ولا جدوى منها سوى ليقول عن نفسه إنه مختلف. وسيجد له تلاميذاً وأتباعاً، ممن ثقافتهم العامة ضعيفة، وثقافتهم التاريخية أضعف، وثقافتهم اللغوية أضعف، وثقافتهم الدينية هي الأضعف.

وإليكم بعض ما يقول ابن عربي الصوفي (ت٦٣٨ هـ) في هذا المجال في كتابه: الفتوحات المكية، الجزء الخامس، فصل: ذكر بعض الحروف:

"اعلم - وفقنا الله وإياكم - أن الحروف أمة من الأمم، مخاطبون مكلفون. وفيهم رسل من جنسهم ولهم أسماء من حيث هم، ولا يعرف هذا إلا أهل الكشف من طريقنا[1]. وعالم الحروف أفصح العالم لساناً، وأوضحه بياناً. وهم على أقسام، كأقسام العالم المعروف في العُرف. فمنهم عالم الجبروت عند أبي طالب المكي، ونسميه، نحن، عالم العظمة، وهي الهاء والهمزة.

ومنهم العالم الأعلى، وهو عالم الملكوت، وهو الحاء والخاء والعين والغين. ..... الخ". انتهى

ولعل من المفيد أن نقرأ القرآن دون الالتفات لهذه الأقوال التي لا تهدف لخدمة فهم القرآن ولكنها فقط رسخت لتخدم معتقدات معينة، تقوم على تأليه مخرفيهم واعتبارهم علماء أسرار الله لا يعرفها إلا هم. والقرآن إعجازه ببساطته وسهولة فهمه دون حاجة لأن تعرف أفكار فلاسفة باطنيين ولا ما قال أصحاب الكلام ولا المشبهة ولا غيرهم. وتأكد أن السياق والمخاطب كفيلان بأن تفهم معنى الآيات ولو لم تفهم لفظاً ورد فيها.

والخلاصة: من رغب في دين سهل بسيط واضح له كتاب سهل بسيط واضح، يهدي إلى الرشد ولكنه ليس كتاب طب ولا علوم فضاء ولا إحياء ولا أجنة ولا فلك، ولا يحوي

---

١ وهذا هو بيت القصيد في كل هذا الزعم. فهم يريدون أن يعتبرهم الناس أهل كشف أسرار القرآن، والتي لا يعرفها إلا هم، وبالتالي يمكنهم أن يخرفوا كيفما يشاؤون وسيجدون من يهزون رؤوسهم لهم بالموافقة ولو لم يفهموا حرفاً واحدا. فشيخ الطريقة الصوفي والباطني هو الأكثر تخريفاً.

معجزات رقمية أو هندسية أو رياضية أو علمية. ورسول بشري عادي لا يعرف الطب ولا الزراعة ولا أي حرفة فعليه بإسلام القرآن - الذي أنزله الرحمن - بنصوصه الظاهرة الواضحة البسيطة. ومن يرغب في كتاب حرز ورقية ومعجزات ونبوءات، فعليه بكتب التراث وسيجد إسلاماً مصنعاً بأيدي بشرية.

إن نفعت بمعنى لعلها تنفع

فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى(٩) سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى(١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى(١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى(١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى(١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى(١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى(١٥) الأعلى.

فذكر إن نفعت الذكرى: فذكر (لعل) الذكرى تنفعهم أو بعضهم.

عبارة واحدة تأتي بمعنيين مختلفين

يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ(٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ(٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً(٨) وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً(٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ(١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً(١١) وَيَصْلَى سَعِيراً(١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً(١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ(١٤) بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً(١٥) الانشقاق.

في الآية التاسعة السرور كناية عن الفوز في الآخرة وهو ما سيؤدي للتلذذ بملذات الجنة. وفي الآية: (١٣) السرور كناية عن التمتع بملذات الدنيا. والسياق هو الهادي للتفريق بين المعنيين.

ومثله:

وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ(١٨١) الأعراف.

فيعدلون هنا تعني خلاف وعكس ما يعنيه معنى يعدلون في الآية التالية:

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ(١) الأنعام.

الحديث عما سيكون بصيغة ما كان

- إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ(٢٩) وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ(٣٠) وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ(٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاء لَضَالُّونَ(٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ(٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ(٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ(٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ(٣٦) المطففين.

الآيات تتحدث عن حقيقة تتمثل في أن قريشاً تسخر من المسلمين القلة في مكة عند نزول السورة. وتعتبرهم مغرراً بهم، منكرين أن يكون هناك وحي نزلت به الملائكة.

ثم تقول الآيات: «فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون». وهذا فيما سيكون يوم القيامة وليس وقت نزول السورة ولا اليوم ولا أي يوم في الدنيا. لكن الآيات استخدمت أسلوب الحديث فيما سيكون على أنه كائن، لزيادة تأثيره في النفس وتأكيد أنه سيقع دون شك. فدخول المؤمنين الجنة يمثل سخرية بالكفار الذين سيدخلون النار، وهذا سيحدث بلا شك. وعندها سيعلم الكفار أن ما وعد الله وكفروا به قد وقع.

- ومثله ما ورد في سورة الإنسان: فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً(١١) وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً(١٢).

فالآيات تتحدث عن نعيم المؤمنين الذي لن يروه إلا يوم القيامة، ومع ذلك فالحديث عما سيكون جاء بصيغة ما كان، وكأنه وقع بالفعل. فوقاهم تعني: سيقيهم، وجزاهم تعني: سيجزيهم.

- وتقول سورة الملك ضمن حديث يخاطب قريشاً ويحذرهم من الاستمرار بالكفر: وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ(٢٧) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(٢٨).

قريش تسأل الرسول عن البعث ومتى يكون سخرية فيأتيها الجواب أن الرسول لا يعلم، ثم يتغير الأسلوب في الحديث إلى ما سيحدث للكفار يوم البعث، وكأنه قد حدث بالفعل: " فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ". ثم يعود

الخطاب للحديث بصيغة المضارع.

- وتقول سورة النجم: أَزِفَتْ الْآزِفَةُ(٥٧) لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ(٥٨).

وكأن القيامة قد حلت أو شارفت، مع أن القيامة لم تحن بعد، ولكنه مجاز يعني أن القيامة قادمة لا محالة، وان مجيئها قريب جداً بالنسبة للإنسان الحي الذي سرعان ما يموت وبمجرد موته سيشعر أنه نهض للقيامة خلال لحظات كون ذاكرته توقفت عن التسجيل طوال الفترة الفاصلة بين موته والقيامة. وليس كما تقول كتب التراث من أن الرسول بعث قريباً من قيام القيامة، وما اختلقوه من أحاديث تنسب للرسول في ذلك، مثل القول على لسان الرسول: بعثت والساعة كهاتين.

- وتفتتح سورة القمر بالقول: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ(١).

فالساعة لم تقترب والقمر لم ينشق، لكن الآية تخاطب قريش وتقول لهم إن الساعة قريبة. فكل من يموت سيشعر أنه بعث بعد لحظات. وبما أن كون القيامة سينشأ بعد انهيار هذا الكون، فإن انهيار هذا الكون قد أصبح قريباً أيضاً، والذي من مظاهره انشقاق القمر وتهاوي النجوم والكواكب، مع أن قريش لن تراه.

- ومثله: اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرِضُونَ(١) الأنبياء.

وهذا لا يعني أن الساعة اقتربت، لكنها كناية على أنه سرعان ما ستمر الأيام ويموت كفار قريش ليواجهوا مصيرهم يوم القيامة. والمخاطب هنا قريش وليس كل الناس ولا الناس زمن ما بعد عصر الرسول، كما يظن البعض ويعتبرونها دليل على اقتراب الساعة.

- وتقول سورة نوح إن قوم نوح أغرقوا وأدخلوا النار، مع أن النار لن تخلق إلا في عالم القيامة: مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً(٢٥) نوح.

- وتقول سورة النحل: أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ(١).

أمر الله المقصود به هنا هو يوم القيامة والبعث والحساب، وهو لم يأت بعد. ولن يأتي قبل أن ينهار هذا الكون بعد مليارات السنين من الآن، وينشأ يوم القيامة بعد مليارات أخرى. ومع ذلك تقول الآية أتى بمعنى سيأتي، لأن كل آت قريب.

التحدث للمخاطب وكأنه شاهد لحدث لم يشهده

- سورة الفيل تبدأ بمخاطبة الرسول متسائلة: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ(١).

وقد جاء التساؤل وكأن الرسول شاهد عيان، برغم أن ما حدث لأصحاب الفيل سبق عصره عليه الصلاة والسلام ولم يره.

والتساؤل: «ألم تر» يسهل فهمه على أنه: ألم تع وتسمع وتعرف ما حدث يا محمد؟

مع أن الرسول لم يكن حاضراً للحدث.

لكن بعض كبار السن من قريش عند نزول السورة كانوا شهود عيان لما حدث لأصحاب الفيل وشهدوا كيف أن حملة الفيل قد قضي عليها قبيل دخول مكة، كواحدة من نعم الله عليهم. فكأن السورة تخاطب الرسول والمقصود قريش، أو أنها تقول لمحمد: ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل؟ كبداية لإبلاغه بما حدث.

- ومثله ما ورد في سورة الفجر: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ(٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ(٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ(٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ(٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ(١٠).

والرسول لم ير ولم يشهد ما حل بعاد أو ثمود أو فرعون، الذين سبقوه بآلاف السنين. ولكنه أسلوب لبداية الحديث الذي سيتبلغ بواسطة الرسول ما حدث لعاد ولغيرها.

وسورة الفجر وقبلها سورة الفيل استخدمتا أسلوباً لايزال مستخدماً في كثير من اللغات، وفي اللهجات العامية. تقول لشخص أمامك: هل رأيت ما أحدثه المغول في العراق؟ وأنت تعلم أن المخاطب لا يمكن أن يكون شاهد عيان، لأن الحدث وقع قبل مئات السنين. لكن التساؤل صحيح لغوياً والمقصود به شد انتباه المخاطب قبل إبلاغه بحدث قديم لم يسمع به.

- ومثله: فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ(٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ(٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ(٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ(٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ(٤٣) ق.

المخاطب رسول الله والغاية شحذ همته وتقوية عزيمته للصبر على أذى قريش وسخريتهم، فالقيامة قادمة بسرعة وعندها سيلقون جزاءهم. والآيات تطلب من الرسول الانتظار حتى يسمع المنادي ينادي بقيام القيامة. وهذا لن يحدث، فالقيامة ستقوم دون أن يكون هناك منادٍ يعلن قيامها، والرسول لن يشهد لحظة قيام القيامة لأنه كغيره من البشر لم يبعثوا بعد. فهو تعبير مجازي، مثله مثل قوله تعالى: «يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ» فلن يكون هناك صيحة تعلن خروج الناس من القبور لأنه لن يكون هناك قبور لأن القيامة ستقوم في كون جديد غير هذا الكون.

- وتقول سورة الغاشية: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ(١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ(٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ(٣) تَصْلَىٰ نَاراً حَامِيَةً(٤).

والآيات تتحدث عن وضع المكذبين يوم القيامة، وتصف وجوههم بأنها خاشعة ذليلة بسبب ما ينتظرهم من عذاب، وهذا لن يكون إلا يوم القيامة. وبالتالي فالرسول لم يأته خبر الغاشية ولا يعلم عنها شيئاً، ومع ذلك تقول السورة: «هل أتاك حديث الغاشية» لشد انتباه المخاطب المعني (قريش) لما سيلاقيه الكافر حينها.

لا أقسم بمعنى أقسم

- فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ(١٥) التكوير.
- فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ(١٦) الانشقاق.
- لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ(١) وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ(٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ(٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ(٤) البلد.
- لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ(١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ(٢) القيامة.
- فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(٧٥) الواقعة.
- فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ(٣٨) الحاقة.
- فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ(٤٠) المعارج.

«لا» ليست للنفي، و «لا أقسم» تعني أقسم، ولو كانت «لا» للنفي فلن يكون للعبارة معنى. فمن المستحيل أن يكون معنى: «لا أقسم بهذا البلد» هو: «لن أقسم بهذا البلد».

أحاديث افتراضية لن تقع

القرآن عندما يتحدث عن الدنيا فلا يتحدث عن أحداث افتراضية لم تقع، لكن عند الحديث عن يوم القيامة فالقرآن يقدم مواقف افتراضية متنوعة. منها أحاديث متبادلة بين طرفين، وجدال أحياناً بين الناس، وأحياناً بين أهل الجنة وأهل النار. وأحياناً بين الله – جل شأنه – والنار أو الجنة، أو بينه سبحانه وبين خلقه، وإلى غير ذلك. وكلها أحاديث وجدال افتراضي لن يقع، والهدف منه زيادة التأثير في ذهن المخاطب، وهم قريش. لأن مثل هذه الأحاديث الافتراضية موجهة دائماً لقريش ضمن الخطاب الدعوي، ولا يخاطب القرآن بها أناساً غيرهم، كون قريش ينكرون البعث وما سيجري يوم القيامة.

وفيما يلي أمثلة لهذه المواقف:

- تقول سورة المدثر: إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ(٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ(٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ(٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ(٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ(٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ(٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ(٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ(٤٧).

الآيات تقدم مشهداً حوارياً فيما بين أهل الجنة أولاً في الآيات: (٣٩-٤١) ثم مشهد آخر لحوار بينهم وبين أهل النار. وهو أسلوب لجذب انتباه المخاطب (قريش) ولزيادة التأثير عليهم، لعلهم يتصورون ما سيكون يوم القيامة ويؤمنون.

- وورد في سورة «ق»: وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ(٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ(٢٤) مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ(٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ(٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ(٢٧).

القرين هنا صحيفة الأعمال التي صورتها الآيات وكأنها مخلوق حي يجادل الكافر فيما سجل عليه من أعمال أودت به للنار. وهذا الجدل لن يحدث، كما أن صحيفة الأعمال ليست مخلوقاً حياً ولكن آلية في النفس.

- وتواصل السورة تقديم هذا المشهد الحواري المجازي، وكأن الله يتدخل: قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ(٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ(٢٩).

والله جل جلاله لن يخاطب الناس لا في الدنيا ولا في الآخرة.

- وورد في سورة الحاقة: وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ(٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ(٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ(٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ(٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ(٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ(٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ(٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ(٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ(٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ(٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ(٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ(٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِؤُونَ(٣٧).

وهي مشاهد تصور ندم الكافر وكيف أنه سيتمنى لو لم يخلق ولم يبعث، لكنه لن يتحدث بهذه الأمنيات يوم القيامة بصوت مسموع. والله لن يأمر مخلوقات حية بأخذ الكافر للجحيم وربطه بسلاسل، وهو سبحانه لن يعلن عن سبب هذا التعذيب.

- وتتوعد سورة المطففين قريشاً لضحكهم وسخريتهم بالرسول ومن آمن معه، وتقول بأنهم سيضحكون عليكم يوم القيامة ككناية على أنهم سيفوزون بالجنة وستخسر قريش وتدخل النار: إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ(٢٩) وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ(٣٠) وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ(٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاء لَضَالُّونَ(٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ(٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ(٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ(٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ(٣٦).

لكن المسلمين في الجنة لن يجلسوا ليضحكوا على الكفار تشمتاً بدخولهم النار.

- وتقدم سورة المُلك مشهداً حوارياً بين الكفار وبين خزنة جهنم: وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ(٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ(٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ(٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ(١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ(١١).

وهو حوار لن يحدث كغيره من الحوارات التي يقدمها القرآن في يوم القيامة. وليس لجهنم مخلوقات حية كخزنة لأنه ليس في الآخرة مخلوقات تعمل، ولأن النار والجنة وكل خلق الله

في الدنيا والآخرة يُسيّر بقوانين ثابتة دون حاجة لمشغلين وإداريين ومهندسين لتسييره، كما هي حال كوننا هذا.

استخدام ضمير الجمع للحديث عن الواحد

- تقول سورة «ص»: وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ(٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ(٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ(٢٣).

رجلان دخلا على داوود ليحكم بينهما فيما اختلفا فيه. والآية ٢٢ تقول: «ففزع منهم»، بدل أن تقول: «ففزع منهما».

نفس الآية تتحدث على لسان الرجلين: "قالوا لا تخف" بدل أن يقال: "قالا لا تخف".

نفس الآية تقول على لسان الرجلين: "خصمان بغى بعضنا على بعض" بدل أن يقال: لا تخف بغى أحدنا على الآخر.

وكل هذا مقبول لغوياً قبل مجيء سيبويه والنحويين في عصور متأخرة عن عصر الرسول.

- وتقول سورة الممتحنة: قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ(٤).

وقد ورد ضمير الجمع للدلالة على الواحد في قوله: « وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ» لأنه لم يكن مع إبراهيم مؤمن وخرج معه سوى لوط، كما ورد في سورة العنكبوت: فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦).

أسلوب فريد ورد في سورة الصافات

- إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ(٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٣٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ(٤٠) أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ(٤١) فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ(٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ(٤٣) عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ(٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ(٤٥) بَيْضَاء لَذَّةٍ

لِّلشَّارِبِينَ(٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ(٤٧) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ(٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ(٤٩).

«إلا» بمعنى «أما». فبعد أن ذكرت السورة ما سيحل بالكفار أخبرت بأن عباد الله المخلصين سيكون لهم الجنة، وتورد صوراً من النعيم.

وفي مكان آخر من السورة نفسها يرد ما يلي:

- إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ(٦٩) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ(٧٠) وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ(٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ(٧٢) فَانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ(٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ(٧٤) وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ(٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ(٧٦).

حديث عن المكذبين وما سيحل بهم، يُتلى بنفس الآية التي وردت في السابق: «إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ» والتي بمعنى: «أما» عباد الله المخلصين. لكن يلاحظ هنا أنه لم يتبع الآية أي حديث عما ينتظر عباد الله المخلصين. لأنه ورد في الآيات: ٤١-٤٩ ولا حاجة لترديده.

- وهو ما تكرر في مكان آخر من السورة: وإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ(١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ(١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ(١٢٥) اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ(١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ(١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ(١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ(١٢٩) سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ(١٣٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ(١٣٢).

والحديث عن الرسول إلياس وتكذيبهم له، والآيات تتوعدهم بأنهم سيحضرون يوم القيامة ليلقوا جزاءهم. ثم ترد الآية: «إلا عباد الله المخلصين»، دون أن تتحدث عما ينتظرهم من نعيم لأنه سبق وذكر في الآيات:٤١-٤٩ ولا حاجة لترديده.

- وللمرة الرابعة يتكرر الوضع في قوله تعالى: وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ(١٥٨) سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ(١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ(١٦٠) فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ(١٦١) مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ(١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ(١٦٣).

والحديث عن قريش واعتقادهم أن الملائكة (الذين لا يمكنهم رؤيتهم) بنات الله. ثم ترد

الآية: «إلا عباد الله المخلصين» دون أن تبين الآيات ما ينتظر عباد الله المخلصين لأنه سبق وذكر في الآيات: ٤١-٤٩.

البدء بسرد الموضوع لا يكون بالضرورة من أوله

- ورد ذكر خبر خلق آدم في سورة «ص» كما يلي: مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ(٦٩) إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ(٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ(٧٢).

والآيات تذكر اختلاف مواقف الملائكة من خلق آدم قبل أن تذكر أن الله أبلغهم بالخبر، وهو أسلوب تكرر كثيراً في القرآن ومن ذلك ما ورد في بداية سورة النساء في قوله تعالى: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ(٣).

والآية توجب حقوق المرأة اليتيمة وعدم ظلمها وأكل مالها بحجة الزواج بها. وفي آخر السورة يُذكر سبب هذا التشريع، وهو أن الناس اعتادوا الزواج باليتيمة وأكل مالها وهضم حقوقها: يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء اللاَّتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً(١٢٧).

بدل أن تورد الآية (١٢٧) أولاً ثم تليها الآية (٣).

- ومثله ما ورد في الآية الثالثة من سورة المائدة: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣).

والآية تقول بأن الدين قد اكتمل (باكتمال فرض التشريعات) لكن التشريعات لم تكتمل إلا بنهاية السورة وليس بهذه الآية. ومع ذلك وردت الآية التي تقول باكتمال التشريعات سابقة للآيات التي اكتملت بها التشريعات. لكن بما أنها سورة واحدة نزلت في وقت واحد فكأن

السورة تقول: «إنه بهذه السورة تكون التشريعات قد اكتملت». فالدين بالفعل اكتملت تشريعاته بنزول سورة المائدة.

- ومثله: (الآيات: ١١٥-١٢٣) من سورة طه التي تتحدث عن خلق آدم وإبليس وتبدأ بالقول إن آدم نسي، قبل أن تعود وتخبر عن دعوة الملائكة لحضور خلق آدم: وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً(١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى(١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى(١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى(١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى(١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى(١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى(١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى(١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى(١٢٣).
- ومثله: وَمَا كَانَ هَـذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ(٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٣٨) يونس.

ولو اتبع القرآن أسلوبنا لجاءت الآية (٣٨) أولاً، لكن السورة نفت أولاً أن يكون القرآن مفترى من دون الله أولاً، ثم ذكرت أن قريشاً تقول بأنه مفترى.

- ومثله ما ورد في سورة النازعات: وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً(١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً(٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً(٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً(٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً(٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ(٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ(٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ(٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ(٩) يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ(١٠) أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً(١١) قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ(١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ(١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ(١٤).

المفسرون يتوسعون في الحديث عما يقصد بالألفاظ المستخدمة في القسم الوارد في بداية هذه السورة وفي السور الأخرى، وكأن معرفتها غاية بحد ذاتها، وليست فقط ألفاظاً للقسم.

والآيات: ١-١٤ تتحدث عن قريش، وكيف سيجدون أنفسهم وقد أحضروا ليوم القيامة

الذي ينكرون، وأسلوب القرآن هنا ذكر ما سيحدث في الآخرة وبعث الناس أولاً ثم ذكر ما قالت قريش في الدنيا عن البعث. ولو اتبعنا الأسلوب السائد لجاءت الآيات بهذا الترتيب: وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً(١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً(٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً(٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً(٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً(٥) يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ(١٠) أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً(١١) قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ(١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ(١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ(١٤) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ(٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ(٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ(٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ(٩).

- ومثله: في سورة الشعراء الآيات (٥٧-٥٩) التي تخبر عما حدث بعد غرق فرعون، وهي تسبق الحديث عن خروج فرعون لملاحقة موسى وبني إسرائيل: فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ(٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ(٥٩).

ثم تعود السورة للحديث عما حدث قبل ذلك، من ملاحقة فرعون لموسى وغرقه: فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ(٦٠) فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ(٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ(٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ(٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ(٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ(٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ(٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(٦٨).

- وجاء في سورة الأنعام: وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ(١١٩).

والسورة لم تفصل ما حرم قبل هذه الآية أبداً، لكنها فصلته في أواخر هذه السورة: قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٤٥).

- وجاء في سورة الأنعام: وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَـذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ(١٣٦) وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ

شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ(١٣٧) وَقَالُواْ هَـذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ(١٣٨) وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَـذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حِكِيمٌ عَلِيمٌ(١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَاء عَلَى اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ(١٤٠).

ولو اتبع القرآن أسلوبنا لجاءت الآيات بالترتيب التالي: (١٣٦، ١٣٨، ١٣٩، ١٣٧، ١٤٠).

- ومثله قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ(١٥٣) وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ(١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ(١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ(١٥٦) أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ(١٥٧) البقرة.

ولم يدخل المسلمون حرباً بعد، بل إن فرض القتال جاء في آيات لاحقة: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٢١٦) البقرة.

- ومثله آيات الحج في سورة البقرة، حيث تبدأ وكأن هناك حديثاً سابقاً عن الحج، كما يلي: وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(١٩٦).

مع أنه لم يسبق الحديث عن أعمال الحج، لأن السورة ستتحدث عن الحج في الآيات التالية: الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ(١٩٧).

ثم تواصل السورة بيان كيف يبدأ الحج وأعماله:

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ(١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ(٢٠٠) وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(٢٠١) أُولَـئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ(٢٠٢) وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٢٠٣).

- وتتحدث سورة البقرة عن تثبيت القبلة: سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(١٤٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ(١٤٣) قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ(١٤٤) البقرة.

فالسورة بدأت تتحدث عن تساؤل الناس عن تحول المسلمين للقبلة، وكأنه سبق الحديث عن هذا التحول، ثم تخبرنا السورة عما حدث فيما بعد.

ولو أردنا أن نرتب الآيات حسب ما اعتدنا عليه الآن فستكون كما يلي:

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ(١٤٤) سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(١٤٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا

الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ(١٤٣).

ومثله قوله تعالى:

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ(١٥٣) وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ(١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ(١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ(١٥٦) أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ(١٥٧) البقرة.

والقتال لم يبدأ بعد لأن السورة نزلت قبل بدر، كما أن القتال لم يفرض إلا في آيات قادمة بدءً من الآية: (١٩٠)، ومع ذلك تقول السور في آية سابقة: وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ(١٥٤).

وكأن القتال قد بدأ بالفعل، وكان هناك قتلى من المسلمين.

ومثله:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٨٣) أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(١٨٤) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٨٥) البقرة.

فالآية: (١٨٣) تتحدث عن أن الصوم كتب على المسلمين، ثم تقول الآية: (١٨٤) إن الصوم يكون لأيام معدودات. ثم تبين الآية: (١٨٥) أن المقصود بالأيام المعدودات هي أيام شهر رمضان.

كل آية تتحدث عن موضوع

في عدد من سور القرآن تتنقل الآيات من موضوع لآخر، بحيث إن كل آية تتحدث عن موضوع منفصل عما تتحدث عنه الآية قبلها أو بعدها. وفيما يلي مثال على ذلك: إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ(٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ(٩٣) فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ(٩٤) وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ(٩٥) حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ(٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧) الأنبياء.

فالآية: (٩٢) المخاطب المؤمنون، الآية: (٩٣) الحديث عن الكافرين، الآية: (٩٤) تأكيد حقيقة أن كل نفس بما كسبت رهينة، والآية: (٩٥) تأكيد حقيقة أن من هلك لن يعود، والآية: (٩٦) الحديث عن قبائل يأجوج ومأجوج التي تحدثت عنهم سورة الكهف وكيف تم منعهم عن الإغارة على سكان زراعيين مستقرين في مناطق قريبة منهم بواسطة سد. والآية هنا تشير إلى أن سد ذي القرنين لن يدوم طويلاً وسينهار وسيفتح ليأجوج ومأجوج للغارات على المزارعين مرة أخرى. والآية: (٩٧) تتحدث عن يوم القيامة وموقف الكافرين، والحديث عن الكفار في السور المكية يقصد بهم قريش في الغالب.

إذاً، لدينا ست آيات، كل آية تتحدث عن موضوع لا علاقة له بالموضوع الذي تتحدث عنه الآيات الأخرى.

ذكر بعض شخصيات الحدث دون آخرين

ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ(١٠٣) الأعراف.

مع أن موسى وهارون ذهبا لفرعون لكن هارون لم يذكر هنا، وذكر في سور أخرى.

ومثله ذكر إبراهيم وإسحاق دون إسماعيل، كما في سورة «ص»: وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ(٤٥).

فيما يذكر عادة إسماعيل وإسحاق: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) إبراهيم.

ذكر بعض الحقيقة

قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ(٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ(٣٣) الحجر.

من أساليب القرآن أنه عندما يذكر حادثة تاريخية قد لا يذكرها بكل تفاصيلها في سورة واحدة ويسردها بترتيب وقوعها. وهنا تذكر الآيات أن إبليس امتنع عن السجود لأن آدم خلق من طين. ولو لم نراجع السور الأخرى التي تذكر القصة واعتمدنا على ما ذكر هنا فإننا سنغفل نصف الحقيقة. ذلك أن امتناع إبليس من السجود يعود لشعوره بالفوقية كونه خلق من نار (طاقة) وهو ما ذكرته سور أخرى بينما خلق آدم من طين. لذا للإلمام بتفاصيل أي حادثة يجب الرجوع لكل السور التي ذكرتها وتجميع كل ما قيل عنها للحصول على القصة كاملة.

فإبليس امتنع عن السجود لأنه (كما صرح) خلق من نار وآدم خلق من طين، والمخلوقات من نار تفضل المخلوقات الحسية ببعض القدرات، وهو ما أشعر إبليس بالفوقية. ولم يكن امتناعه عن السجود لأن آدم خلق من طين فقط.

ومثله: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ(٢٨) الحجر.

فآدم مر بكل مراحل التخلق التي مرت بها الأجيال الأولى للسلالات البشرية، لكنه هنا لم يذكر سوى مرحلتين[١].

حديث الآيات عن موضوع ثم تنتقل لموضوع آخر ثم تعود للحديث الأول وكأنه لم ينقطع

- سورة الصافات تتحدث عن نعيم الجنة للمؤمنين: أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ(٤١) فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ(٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ(٤٣) عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ(٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ(٤٥) بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ(٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ(٤٧) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ(٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ(٤٩).

ثم تنتقل السورة للحديث عن موضوع آخر: فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ(٥٠) قَالَ

---

١ انظر فقرة: خلق الإنسان / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ(٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ(٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ(٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ(٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاء الْجَحِيمِ(٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ(٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ(٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ(٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ(٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(٦٠) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ(٦١).

ثم تعود السورة للحديث عما ينتظر الكفار من عذاب استكمالاً للحديث الذي توقف عند الآية (٤٩): أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ(٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ(٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ(٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ(٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ(٦٦).

فقوله: «أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم» مقارنة بما وعد به المؤمن والذي تحدثت عنه الآيات (٤٢-٤٩)، وليس مقارنة بالآيات (٥٠-٦١).

- وجاء في سورة الكهف ما يلي: سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاء ظَاهِراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَداً(٢٢) وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً(٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً(٢٤) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً(٢٥).

والحديث كان عن أهل الكهف ثم يتحول الحديث في الآيتين (٢٢-٢٣) إلى مخاطبة الرسول، قبل أن تعود السورة لمواصلة الحديث عن أهل الكهف.

- وتقول سورة لقمان: وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ(١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ(١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ(١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ(١٦)

يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ(١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ(١٩).

الآيات تبدأ من الآية (١٢) بالحديث عن لقمان ووعظه لابنه، ثم تنتقل الآيتان(١٤-١٥) للحديث عن حقوق الوالدين، بعدها تعود الآيات (١٦-١٩) لاستكمال حديث لقمان.

- ومثله: وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ(٢١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ(٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ(٢١٢) الشعراء.

ثم تتحول السورة لموضوع آخر يخص الرسول: فَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠).

ثم تعود للرد على اتهام قريش بأن القرآن نزلت به الشياطين: هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ(٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ(٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ(٢٢٣) وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ(٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ(٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ(٢٢٦).

- ومثله: وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٣٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ(٣٥) وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ(٣٦) هود.

سورة هود تتحدث عن نوح في الآيات (٢٥-٤٩) لكن الآية (٣٥) تتحدث عن قريش واتهامهم للرسول، ثم تعود السورة لتكملة الحديث عن نوح.

- وسورة العنكبوت مثال آخر على أسلوب القرآن الذي يتحدث عن موضوع ثم يخرج لآخر ويعود ويخرج وهكذا، كما يلي:

تبدأ السورة بالحديث عن تعذيب قريش للمستضعفين في الآيات: (١-١٥).

ثم تتحدث السورة عن إبراهيم في الآيات: (١٦-١٧).

ثم تعود السورة لمخاطبة قريش في الآيات: (١٨-٢٣).

ثم تعود لاستكمال الحديث عن إبراهيم في الآيات: (٢٤-٢٧).

ذكر الحدث وكيف انتهى باختصار أولاً ثم تعود الآيات لسرد التفاصيل

- جاء في سورة الأعراف: ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ بِهَا فَانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ(١٠٣) وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ(١٠٤).

الآية (١٠٣) تذكر قصة موسى مع فرعون باختصار، ثم تبدأ السورة بذكر تفاصيل تلك الأحداث في الآيات: (١٠٤-١٧٤).

استخدام صيغ العاقل لغير العاقل

مما جاء في سورة الصافات ضمن الحديث عن إبراهيم: فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ(٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ(٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ(٩٣).

آلهة قوم إبراهيم أصنام من حجارة، ومع ذلك استخدم القرآن صيغة «فراغ عليهم» المستخدمة للعاقل حسب قواعد النحو. ولم يقل: «فراغ عليها ضرباً».

استخدام «فعلنا» والفعل صدر من غير المتكلم

- تقول سورة الذاريات: قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ(٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ(٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ(٣٣) مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ(٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ(٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ(٣٧).

المخلوقات الكونية التي حضرت لإبراهيم، تتحدث عن أنها هي من أهلك قوم لوط بإرسال تلك الحجارة السائلة كالطين والشديدة الحرارة، وهي من أخرج لوطاً ومن آمن معه وكأن تلك المخلوقات حملت لوطاً ومن آمن ونقلتهم بعيداً.

والواقع أن هلاك قوم لوط حدث بفعل ثوران بركان، لكن بما أن تلك المخلوقات الكونية

تنفذ أمر الله، فكأنها هي من أحدثت الكارثة. كما أن لوطاً والذين آمنوا معه خرجوا من القرية بأنفسهم، لكن بما أن المخلوقات الكونية هي من أبلغ لوطاً بالخروج، فكأنهم هم من أخرجه.

- ومثله: فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ(٤٠) الذاريات.

والحديث هنا عن غرق فرعون وجنوده، الذين غرقوا عندما أقدموا باختيارهم على دخول اليم لملاحقة موسى وبني إسرائيل، ولم يجبروا بالقوة للدخول في البحر، أو يسلط الله عليهم قوة حملتهم عنوة وألقتهم في اليم.

تغير ضمير المتكلم في حديث واحد

فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاء قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ(٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ(٢٣) الدخان.

الآية الأولى تقول بأن موسى دعا ربه، والآية التي تلت تقول: فأسر بعبادي (المتكلم هو الله والمخاطب موسى). لكنها لا تقول بأن الله أمر موسى بالخروج ليلاً، ومع ذلك نفهمها ببساطة. لكن لو حاولت أن أقلد هذا فسيأتي كلامي لا معنى له. فلو قلت مثلاً: ((فقال لي أحمد أنقذني، فاخرج واتجه لليمين)). فلن يتمكن أحد أن يفهم أني قلت له: يا أحمد اخرج واتجه لليمين.

سرد القرآن للحدث

الآيات في كثير من الأحيان لا تسرد القصة كما نسردها، بل تصور القصة وكأنها لوحة فسيفساء مكونة من قطع موزاييك متراصة. وتعطينا الآيات قطعة هنا وهناك بحيث يستنتج القارئ أو السامع بقية القطع بسهولة لتكتمل اللوحة. وفيما يلي أمثلة على ذلك:

- تقول سورة «طه»: قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى(٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى(٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى(٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى(٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى(٧٠).

الآيات تصف كيف تم اللقاء بين موسى والسحرة، ثم فجأة تنتقل الآية (٧٠) إلى مشهد آخر يظهر السحرة وقد سجدوا إيماناً بالله. تاركة لنا إكمال قطع الفسيفساء الناقصة، كالتالي:

بعد أن ألقى السحرة سحرهم قام موسى وألقى عصاه فتلقفت حبالهم وعصيهم، مما جعل السحرة يتأكدون أنهم أمام عمل رباني وقوة تفوق قوة السحر فسجدوا.

- ومثله: وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى(٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى(٧٠) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى(٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(٧٣) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيى(٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى(٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى(٧٦) وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَّا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى(٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ(٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى(٧٩) طه.

حتى الآية (٧٦) والحديث عن السحرة ومبارزتهم لموسى، ثم فجأة تنتقل السورة في الآية (٧٧) إلى موسى وقد خرج معه بنو إسرائيل في الليل وكيف ضرب لهم طريقاً يابساً في البحر وكيف لحقهم فرعون وغرق.

تاركاً لنا القرآن إكمال ما لم تأت الآيات على ذكره، من سجود السحرة إلى أن خرج موسى ببني إسرائيل من قرية مصر.

- ومثله: فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ(١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ(١٨) الشعراء.

الآيتان (١٦-١٧) تتحدثان عن تكليف موسى وهارون بالرسالة لفرعون. ثم فجأة تنتقل الآية (١٨) وقد وصل موسى وهارون لفرعون وبدأت دعوتهما له. وما بين الحدثين يمكن للقارئ تصوره كما يلي: غادر موسى من البقعة المباركة في الوادي المقدس طوى التي حدث فيها التكليم وعاد لزوجته التي تركها لوحدها عندما رأى النار، وأخبرها بما حدث له.

وأخلدا للنوم، وفي الصباح تبينا الطريق الصحيح للعودة وسلكاه. وبعد أن وصلا مقر إقامة شيخ مدين أخبراه بما حدث، ولابد أن موسى ترك زوجته عند والدها وتوجه لمصر القريبة. وهناك التقى بوالدته وأفراد عائلته وأخاه هارون وأبلغه أن الله كلفه معه للذهاب إلى فرعون. وبالفعل توجها في اليوم التالي لقصر فرعون واستطاعا الوصول لمجلسه وحدث بينهما أول لقاء بدأت الحديث عنه الآية (١٧).

- ومثله ما ورد في سورة الصافات ضمن حديثها عن إبراهيم: فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ(٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ(٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ(١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ(١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ(١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ(١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ(١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ(١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ(١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ(١٠٨) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ(١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ(١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ(١١٢).

وسنعيد هنا ذكر الآيات مع ذكر ما لم تذكره بين قوسين، كما يلي:

فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ(٩٨) (وتمكن إبراهيم من الهرب خارج القرية) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ(٩٩) (ووصل لمكة وكلف بإعادة بناء البيت، وهناك تزوج، ودعا ربه) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ(١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ(١٠١) (وولد الغلام وسماه إسماعيل) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ(١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ(١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ(١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ(١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ(١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ(١٠٨) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ(١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ(١١١) (ومرت السنون ولم تنجب امرأة إبراهيم، وتجاوزت سن اليأس. وفي يوم من الأيام حضر مخلوقان لإبراهيم تبين له أنهما مخلوقات كونية وليسا من البشر عالجا امرأته فحبلت بغلام آخر)

وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ(١١٢).

- ومثله حديث سورة مريم عن إبراهيم: يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً(٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً(٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً(٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيّاً(٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيّاً(٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً(٥٠) مريم.

وفيما يلي إضافة الأجزاء التي لم تذكرها الآيات بين قوسين:

يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً(٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً(٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً(٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيّاً(٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ (ووصل لمكة وقام بإعادة بناء البيت وتجهيزه للحجاج. وهناك تزوج ورزق بمولود ذكر أسماه إسماعيل. وتوقفت امرأته عن الإنجاب حتى جاوزت سن اليأس. وفي يوم حضرت مخلوقات كونية عالجت المرأة وحبلت بولد ذكر سمياه إسحاق، الذي كبر وتزوج وولد له ولد سمياه يعقوب) وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيّاً(٤٩).

المتكلم كأنه غير الله

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً(٦٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً(٦٥) مريم.

الآية (٦٤) تُظْهِر وكأن المتكلم هم مخلوقات حية دون أن يسبق ذلك أي مقدمات، وكأنهم هم مصدر القرآن وليس الله. لكن بما أن القرآن يوحى للرسول بواسطة أحد الملائكة، فكأنهم من يقول له ما في القرآن، كونهم رسلاً لله. والرسول ينفذ أمر مرسله ويمثله وكأنه هو.

حديث مستحيل أن يحدث

- فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ(١٠) الدخان.

والكلام عما سيكون يوم القيامة، والذي لن يشهده الرسول ولن يراه. فهو بشر كغيره من البشر سيموت قبل نهاية هذا الكون، وعندما يبعث يوم القيامة، يكون كون القيامة قد استقر ولم يعد هناك دخان. ومع ذلك تطلب الآية – مجازاً – من الرسول أن يترقب الدخان، بدل أن تقول إن موعدهم القيامة.

- ومثله: وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ(٤٥) الزخرف.

الآية تطلب من الرسول أن يسأل الرسل السابقين هل أمر الله بعبادة غيره؟ للرد على قول قريش في آية سابقة في نفس سورة الزخرف والتي تقول: وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(٢٠).

والرسول لا يستطيع أن يسأل الرسل السابقين، لأنهم بكل بساطة ماتوا قبل مولده بمئات وآلاف السنين، لكنه أسلوب القرآن الفريد. فبدل أن يقال: «ولم يسبق أن قلنا لأحد من الرسل السابقين إن عبادة غير الله مباحة»، قالت الآية: «واسأل من أرسلنا من قبلك».

المتكلم مجهول والمقصود به الرسول

- وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاء قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ(٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(٨٩) الزخرف.

الآيات: ٦٦-٨٩ تتحدث عن قريش ومواقفهم الرافضة للدعوة، والآيتان أعلاه تصوران ما يشعر به الرسول: « وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاء قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ» وكأن المتحدث مجهول، بدل أن تقول الآية: «وقال الرسول يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون».

وما يؤكد أن المعني هو الرسول ما ورد في الآية ٨٩ والتي تخاطبه مباشرة: « فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ».

العبارة الواحدة قد تفصل بعبارة مختلفة

- تقول سورة سبأ في الحديث عن قريش: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ(٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ(٤) سبأ.

بدل أن تقول: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ. عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ».

القرآن ينقل ما حدث دون إقرار أو إنكار

في كثير من الأحيان عندما يتحدث القرآن عن أشخاص من التاريخ القديم، يذكر ما قالوا دون أن يقرره أو يقره أو ينكره أو ينكر عليه. فالقرآن ينقل ما قيل أو ما حدث ليس من باب تشريعه أو إباحته أو تحريمه، ولكن من باب نقل الحدث كما حدث. ومن ذلك:

- وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ(١٩) لقمان.

الآية جاءت ضمن آيات تنقل لنا ما وعظ به لقمان ابنه، بما يعتبره هو أنه حق وفضائل، ومن ذلك: أن يمشي بهدوء وعدم تسرع، وأن يتحدث بصوت منخفض، معللاً ذلك بأن الحديث بصوت عال يشبه نهيق الحمار الذي يعتبره لقمان منكراً. فلقمان يفضل الحديث بصوت هادئ، لأن الأصوات العالية تزعجه، كما يزعجه نهيق الحمار. فصوت الحمار منكر بالنسبة لأذن لقمان، الذي يبدو أنه من سكان الحواضر وبعيدا عن حياة البوادي التي اعتاد من يعيش فيها على التخاطب بصوت مرتفع. وقول السورة إن لقمان وصف صوت الحمار بالمنكر لم يذكره القرآن ليقرر أن الله خلق الحمار بصوت منكر. ولكن لقمان هو من قال بذلك، ونقله القرآن كما قاله. ونهيق الحمار مرتفع ومزعج للأذن البشرية لكنه يتناسب مع حياة الحيوان وحاجته لمناداة شريكته أو شريكه والذي قد يكون متواجداً في مكان بعيد وغائب عن النظر. والله جل شأنه لا يخلق خلقاً ويصفه بالمنكر، ولكنه يخلق الخلق بما يتناسب مع طبيعته وبيئته.

- ومثله: وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ(١٦) النمل.

سليمان ورث حكم الدولة من داوود، والقرآن لا يقر توريث الحكم هنا ولكنه يروي ما حدث.

- ومثله: فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يوسف.

والحديث في الآية لسيد المرأة التي راودت يوسف عن نفسه، فهو الذي يظن أن «كيد النساء عظيم» لأن امرأته هي من قدت قميص يوسف في محاولة لإمساكه عندما حاول الهرب. والقرآن لا يقرر أن النساء كيدهن عظيم.

- ومثله ما نقلته نفس سورة يوسف عن يعقوب: وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٦٨).

فيعقوب طلب من بنيه أن يدخلوا من أبواب متفرقة، لحاجة في نفسه، وليس لتنفيذ أمرٍ أمَرَ به الله أو حث عليه. فإن كان دافع يعقوب هو إيمانه بالعين كما تقول كتب التراث، فهذا لا يعني أن القرآن يقر بالعين. وإن كان دافع يعقوب تحسباً لأمر خطر له فهو أيضاً ليس مما أقره القرآن أو حبذه أو أمر به.

البدء بالحديث عن موضوع جديد وكأنه استكمال لحديث سابق عنه

- طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ(١) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ(٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ(٤) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ(٥) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ(٦) إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ(٧) فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٨) .... النمل.

فالسورة تبدأ بالحديث عن موسى بدون مقدمات وكأنه تكملة لموضوع سابق، مع أن السورة للتو بدأت ولم يأت ذكر لموسى. فالآيات لم تخبرنا كيف وصل موسى وأهله

(زوجته) لوادي طوى ولا من أين أتى ولكن الحديث يبدأ بقوله: إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ....
ولم يلحظ القارئ أي نفور في العبارة، لكن لو حاول أحدنا محاكاة هذا التعبير لظهرت جملته لا معنى لها. فلو قلت: علينا أن نؤمن بالله ونعمل صالحاً. إذ خرجت من البيت وقابلت محمداً عائداً من السوق...

فمن السهل ملاحظة ألا علاقة بين خروجي من البيت ولقاء محمد وبين الموعظة التي بدأتُ بها حديثي.

تقديم وتأخير

- ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ(٩٦) المؤمنون.

المخاطب رسول الله، والآية تأمره بأن يقابل إساءات قريش له بالحسنى. لكن بدل أن تقول: «ادفع السيئة بالتي هي أحسن»، قالت: « ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ».

وقريباً منه قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ ..... (٦)المائدة.

بدل أن يقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَ(اغسلوا) أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ، لأنه أبلغ من تكرار «اغسلوا».

ومثله: وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً(١٢٥) النساء.

فالله جل وعلا لم يتخذ إبراهيم خليلاً (صديقاً) له، ولكن إبراهيم هو من اتخذ الله خليلاً، بمعنى معبوداً. لكن الآية قدمت لفظ الجلالة (الله) وهو الخالق، على الفاعل (إبراهيم) وهو المخلوق.

السياق هام للاستدلال بالآية

- قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ(٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ(٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللهِ وَإِن

كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ(٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ(٥٧) الزمر.

ومعرفة المخاطب، وهم هنا قريش، يجعلنا نفهم الآيات ضمن سياقها المتمثل بدعوة قريش للدخول في الإسلام، وأن لا يسرفوا على أنفسهم بالاستمرار بالكفر، فالله غفور رحيم لكل من تاب وتبع القرآن. وهذا يجعلنا نفهم أن الآية لا يمكن الاستدلال بها على قبول التوبة ممن كرر واستمر بالمعصية، لأن الآيات لا تخاطب المسلمين.

اتبعوا أحسن القرآن أي كله

- قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ(٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ(٥٥) الزمر.

فليس في القرآن حسن وأحسن، ولكن كله حسن. فأحسن هنا تعني «كل».

- ومثله: وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً (١٢٥) النساء.

فليس هناك دين غير الإسلام حسن، والإسلام أحسن منه.

- ومثله: وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥) الأعراف.

فالتوراة، وكل دين لله، ليس فيه حسن وأحسن، والمقصود بأحسن ما في التوراة هنا هو كلها.

- ومثله: وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٢١) براءة.

والله سيجزي الناس على كل ما عملوا، وليس أحسنه فقط.

- ومثله: أَتَدْعُونَ بَعْلا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) الصافات.

والله هو وحده الخالق، وليس هناك خالق أقل من الله، والله أحسن منه (تعالى الله وتبارك).

- وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ

فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى(١٨) طه.

الله جل وعلا يعلم ما بيد موسى ومع ذلك روي الحدث وكأن الله سأل موسى ليعرف ما يحمل. والله جل وعلا لم يسأل موسى مباشرة، ومن سأل موسى مخلوق كوني نيابة عن الله جل وعلا.

من استخدامات «أفمن» في القرآن

- أفمن (بفتحة على الميم) تأتي بمعنى تساؤل لبيان التضاد بين شيئين يذكران بعدها وبينهما لفظ «كمن»، كما ورد في سورة النحل: أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧).
- وفي سورة السجدة: أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ (١٨).

إلا أنها تأت في القرآن أحياناً ضمن عبارات مختلفة التركيب، ومن ذلك ما ورد في سورة الزمر:

- أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ(١٩) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ(٢٠).

فقد جاء لفظ «أفمن» في الآية (١٩) تلاها ذكر وضع من حق عليه العذاب وكأن العبارة انتهت. لكن الآية التالية (٢٠) تذكر الذين اتقوا. فيكون هناك مقارنة بين من حق عليه العذاب وبين الذين اتقوا دون استخدام لفظ المقارنة «كمن» كما جرت العادة.

- ومثله في نفس سورة الزمر: أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(٢٢).

فهناك مقارنة بين من شرح الله صدره للإسلام وبين القاسية قلوبهم مسبوق بلفظ (أفمن) لكن بدون استخدام لفظ المقارنة «كمن».

- ومثله في السورة نفسها: أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ(٢٤) الزمر.

فقد وردت «أفمن» أولاً، تليت بمن يتقي بوجهه سوء العذاب (وهو المؤمن)، ثم ذكر المضاد له وهو «الظالمين» دون ذكر للفظ المقارنة «كمن».

ولابد من ذكر أن المفسرين - كالعادة - جانبوا الصواب عندما ظنوا أن «من يتقي بوجهه سوء العذاب» هو الكافر. لأن الكافر ذكر بعد ذلك في قوله: «وقيل للظالمين». ولأن عبارة: «من يتقي بوجهه سوء العذاب» عبارة مجازية لمن يتجنب العذاب بما يقدم من إيمان وعمل صالح وكأنه يتقي العذاب بوجهه.

سرد القصة الواحدة يختلف من سورة لأخرى

- وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُـشْرَى قَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ(٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ(٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ(٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ(٧٢) هود.

وعن نفس الحدث نقرأ في سورة الذاريات:

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ(٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ(٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ(٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ(٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ(٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ(٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ(٣٠) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ(٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ(٣٢).

آيات سورة هود تقول: الضيوف قدموا فأعد لهم إبراهيم العجل الحنيذ فلم يأكلوا وأخبروه أنهم ذاهبون لقوم لوط، وكانت امرأته قائمة في نفس المكان فضحكت فبشروها بغلام فتعجبت كيف ستلد وهي عجوز. وكأنها ضحكت قبل البشارة، والحقيقة هي أنها ضحكت باستغراب بعد البشارة. وقائمة تعني أنها لحظة سماعها للبشارة كانت واقفة بالقرب منهم.

آيات سورة الذاريات تقول: الضيوف قدموا فقدم لهم العجل فلم يأكلوا وبشروه بالغلام فأقبلت زوجته في صرة وصكت وجهها وقالت عجوز عقيم. فهي كانت تتجول في البيت الذي بكل تأكيد لا تزيد مساحته عن بضعة أمتار، ومكون من غرفة واحدة للجلوس والنوم.

والقرآن كثيراً ما يبدا الحديث عن قصة من وسطها أو من آخرها ثم يعود لأولها ولا يسردها بترتيبها حسب وقوع أحداثها. وهو ما يظهر في السورتين.

والضيوف لما قدموا أنكر إبراهيم هيئتهم في نفسه وظن أنهم أغراب من مناطق بعيدة وذهب وذبح عجلاً سميناً وأعده حنيذاً وقدمه لهم فلم يأكلوا فتوجس خيفة منهم لأن من عادة العرب أن الضيف إذا امتنع عن طعام أو شراب مضيفه فهو يضمر له الشر. والمشاركة في الأكل تعني الاطمئنان والأمان.

فسألهم إبراهيم بوجل عن سبب مجيئهم، فطمأنوه أنهم لا ينوون به الشر ولكنهم مخلوقات غير أرضية لا يأكلون وهم مرسلون لقوم لوط. وكانت امرأة إبراهيم تتجول في المنزل وتستمع لكل ما يقال لكنها لا تشاركهم الجلوس.

وعندما ذكروا البشرى بالغلام كانت واقفة فولولت باستغراب وهي تمشي لتقترب أكثر وتصك وجهها - كعادة نسائية للتعبير عن الاستغراب مازالت موجودة - وتقول: كيف ألد وأنا عجوز تجاوزت سن الإنجاب (وأصبحت عقيما)؟

ونقطة أخرى:

الآيات تقول إن المخلوقات الكونية حملت البشارة بغلام، والقرآن ذكر الحادثة في عدة سور لكن السور لا تذكر كيف حدث الحمل.

ويحتمل أن هذه المخلوقات - التي هي مخلوقة من طاقة - لديها القدرة على التأثير على وظائف الجسم دون تدخل جراحي أو المساس بامرأة إبراهيم، بإطلاق أشعة معينة تعيد الحيوية للغدد التناسلية وتجعلها قادرة على إعادة إنتاج البويضة. ولا يمكن أن تكون امرأة إبراهيم خضعت لعملية جراحية لأن المخلوقات النورانية لا تستطيع القيام بأعمال حسية. فهي مثلاً لا تستطيع فتح الباب، لكنها تستطيع الدخول من خلال الباب لأنها طاقة. ولا تستطيع شق جسم امرأة إبراهيم لكن يمكنها إطلاق أشعة قادرة على التأثير على الغدد.

ونقطة ثالثة: يحتمل أن المخلوقات الكونية قالت لإبراهيم وامرأته إنهما سيرزقان بمولود دون تحديد إن كان غلاماً أو بنتاً، لكن المولود جاء ولداً. أو أنهما حددا جنس المولود وبشرا إبراهيم وامرأته بأنهما سيرزقان بغلام. وفي هذه الحالة فهذه المخلوقات لديها القدرة على تحديد جنس الجنين.

ونقطة رابعة: وهي أن المخلوقات الكونية قد لا تكون بشرت إبراهيم في تلك اللحظة بيعقوب، لكن إبراهيم امتد به العمر حتى ولد له إسحاق وكبر وتزوج ورزق بولد أسماه يعقوب.

تغير المخاطب

- وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ(١٣٣) إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ(١٣٤) الأنعام.

مثال على أسلوب القرآن: الآية تبدأ بمخاطبة الرسول «وربك» ثم يتحول المخاطب إلى قريش «يذهبكم» دون تمهيد أو مقدمات، ودون أن يهتز المعنى أو تضعف العبارة أو تتشوش.

أسلوب يتكرر كثيراً

- قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ(٤١) الأنعام.

الآيات تخاطب قريشاً قائلة لو حلت بكم كارثة أو قامت القيامة فستسارعون بدعاء الله أن يغفر لكم أو يعيدكم للحياة لتؤمنوا وتعملوا صالحاً. فلماذا لا تؤمنون؟

وكثير من الناس يؤمن في قرارة نفسه بالدين ويعلم أنه عاص ومخالف، لكنه يستمر في غيه حتى إذا ما واجه الموت أو قامت القيامة ندم وطلب الصفح أو أن يعطى فرصة ثانية. وهو ما حصل لفرعون: وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) يونس.

لقد كان فرعون يؤمن بداخله أن دعوة موسى حق طوال الوقت الذي كان موسى يدعوه فيه، لكنه تكبر وتجاهل هذه الحقيقة. وفي اللحظة التي أيقن فيها أنه غارق كانت لحظة الحقيقة، ولكنها جاءت متأخرة جداً. وكثيرون من هم على شاكلة فرعون.

بدء الموضوع بذلك

بدء بعض المواضيع الجديدة في عدد من السور بـ «ذلك»، بداية غير معتادة في صياغتنا للجمل، لكنها أحد أساليب القرآن، ومن ذلك:

- تقول سورة الحج: وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ(٥٩) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ(٦٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ(٦١) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ(٦٢).

فالآيتان: (٥٨، ٥٩) تتحدثان عن الذين هاجروا، ثم تنتقل للحديث عمن يعاقب بمثل ما عوقب، وهو موضوع مختلف بدأ بـ «ذلك»، مع أنه لم يكن تكملة للموضوع الأول.

ولو حاول أحدنا تقليد هذا، وكتب: الجو جميل على غير العادة في الرياض، ذلك بأن سوق الأسهم قد فقد ٥٠ نقطة. هذه العبارة تبدو غريبة وغير مستقيمة، بل ومضحكة، فيما تبدو آيات القرآن السابقة متماسكة وواضحة المعنى.

استخدام «ذلك» لتعني «هذا»

الم(١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ(٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣) البقرة.

ذكر الآية في سورتين حرفياً

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ(١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(١٦٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ(١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ(١٧١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ(١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ

اللهّ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٧٣).

الآيات تشير إلى أن هناك من أبقوا على موروثهم الذي يحرم عليهم أكل بعض اللحوم التي اعتادوا على تحريمها قبل الإسلام، وتذكرهم الآيات بما حرم القرآن عليهم والذي ذكر في سورة النحل المكية في الآية (١١٥).

ولهذا جاءت الآية (١٧٣) كنسخة لآية النحل التي تقول: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهّ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللهّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١١٥).

الحديث عن نفس الموضوع باستخدام أداة عطف في العبارة وكأن هناك موضوعين مختلفين

الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ(٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ(٧٢) غافر.

لاحظ أن الآيات تقول: « إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ(٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ». وكأن الأغلال والسلاسل في أعناقهم ويسحبون في الحميم سبق دخلوهم النار. مع أن الحميم هي النار. وهذا الأسلوب القرآني جعل البعض يتقعر في تناول بعض الآيات التي استخدمت نفس أسلوب هذه الآيات، واعتبر أن هناك فرق بين لفظ وآخر.

وهناك أساليب كثيرة أخرى لا تأتي إلا في القرآن ولا يمكن لنا محاكاتها، سنمر عليها أثناء تدبر السور.

وبهذا نكون قد قدمنا المنهجية التي سيسير عليها هذا البحث في تدبر القرآن وفهمه ومعرفة معانيه، واستنباط الأحداث والتشريعات، وغيرها. وقد تم تقسيم البحث إلى خمسة أقسام، كما يلي:

١. قسم تدبر القرآن وهو القسم الرئيسي الذي يعنى بتدبر سور القرآن مرتبة حسب النزول.

والتدبر يعني فهم الآيات كما نزلت، وما تتحدث عنه ومن تخاطب وعلاقتها بآيات أخرى في السورة نفسها وفي سور أخرى. وهذا لن يتضح إلا بالتعليقات والمعلومات الجانبية،

التي استخدمت فيها العبارات الشخصية للباحث. لأن المسلمين أبعدوا عن القرآن كما نزل فكان من الضروري معاونتهم للعودة لفهم كتاب الله، دون أن يعتبر تفسيراً ولا يجب أن يؤخذ كذلك.

وهناك خمسة أقسام رديفة، هي:

٢. أحداث من عصر الرسول

ونتتبع فيه الأحداث التي حدثت في عصر رسول الله وأمكن استنباطها من القرآن، إضافة إلى إلقاء الضوء على أسباب حروب الردة والفتوح، وتحول الأوضاع بعد وفاة رسول الله.

٣. أدلة ومواضيع من القرآن

ويعنى بإيراد بعض الأدلة التي أمكن حصرها لبعض المواضيع والمسائل والتي لم تذكر في الأقسام الأخرى. تشريعات من القرآن

ويحتوي على التشريعات التي أمكن حصرها مما ورد في كتاب الله.

٤. أماكن وشخصيات

ويعني بالحديث عن أهم الأماكن المذكورة في القرآن والتي لها علاقة بعصر الرسول والإسلام.

ونبدأ باسم الله تدبر كتابه الكريم، حسب مراحل الدعوة وترتيب نزول السور.

٥. تشريعات من القرآن

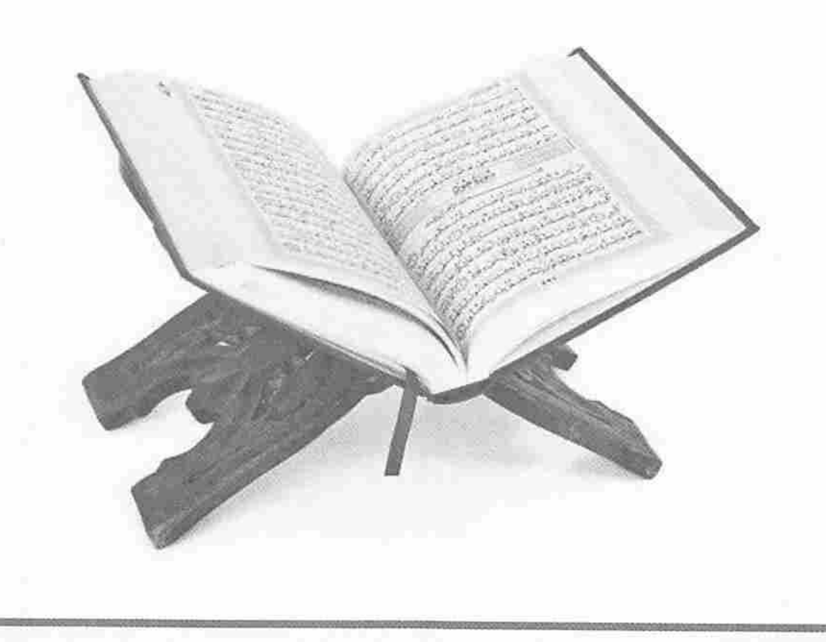
وهذا القسم يحتوي على ما أمكن حصره من تشريعات القرآن، سواءً التي فرضت بأمر ونهي صريحين أو بخطاب توجيهي أو باقتداء أو غيره.

٦. مفردات من القرآن

وفي هذا القسم سنتعرف على معاني ألفاظ وردت في كتاب الله.

وكل قسم سيكون له مقدمة وفهرس للمواضيع كأنه كتاب مستقل.

تدبر السور
المكية





المرحلة الأولى:
البعثة وبدء الوحي «تعريف وتهيئة»

الوحي عبارة عن رسائل من الله للناس، لابد أن تبدأ برسالة مناسبة للبداية وبشكل منطقي. رسائل تمهد للدعوة وتعرف محمداً أنه أصبح رسولاً لله، وتعرف قريشاً أن محمداً يحمل لهم رسائل من الله. وتقول لهم إن هناك بعثاً وحياة بعد الموت، دون وعد أو وعيد أو تشريع، كنوع من تهيئتهم للدعوة التي ستبدأ في وقت لاحق. وهذه المرحلة التي تمثل بداية البعثة، سابقة لبدء الدعوة. فبداية نزول الوحي، يعني بداية بعثة محمد، بينما بداية الدعوة، تعني بداية توجه الخطاب في القرآن لدعوة الناس للإيمان، وهذا بدأ مع نزول سورة المدثر، السورة التاسعة في الترتيب من حيث النزول.

وقد نزل في هذه المرحلة الأولى التعريفية سبع سور هي: الفاتحة، الفيل، قريش، العصر، التين، التكاثر، والعاديات.

(١) الفاتحة

بِسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ(١) الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ٢) الرَّحْـمنِ الرَّحِيمِ(٣) مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ(٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ(٥) اهدِنَــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ(٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ[١](٧).

أول سورة نزلت من القرآن، واحتفظت باسمها «الفاتحة» كفاتحة للوحي، وهي سورة مناسبة لبداية وافتتاح الوحي، ومتميزة عن كل سور القرآن:

- فهي تبدأ باسم الله، وهي السورة الوحيدة بين سور القرآن التي تعتبر البسملة في أولها، آية من آيات السورة. وبقية سور القرآن كلها تبدأ بدون بسملة، وما نراه في المصحف

١ انظر البسملة، الرب، الرحمن، الرحيم، مالك يوم الدين، الصراط، والمغضوب عليهم والضالين / قسم مفردات من القرآن.

من وضع البسملة قبل كل سورة ما هو إلا اجتهاد من المسلمين، ولم ينزل به الوحي.

- الوحي بدأ باسم الله، مثله مثل أي عمل أو قول نقوم به. فعندما نشرع بالأكل نقول باسم الله مرة واحدة ولا حاجة لترديد البسملة كلما رفعنا أيدينا لأفواهنا. ولذلك فلم يتكرر نزول البسملة بداية كل سورة.
- والفاتحة سورة فريدة من نوعها ومثالية لبداية الوحي. ولا وجود فيها لتشريع ولا وعد ولا وعيد، ولا تخاطب بشراً بعينه، ولا تتحدث عن حادثة محددة أو موضوع.
- وبعد البسملة، تقول السورة إن الحمد يكون لله خاصة، لأن ما يسره سبحانه لخلقه يستحق الحمد. والحمد هو الشكر المثالي، وأعلى درجات الشكر والعرفان، مثلما أن القسط أعلى درجات العدل، والصلاة أعلى درجات التحية.
- ثم تواصل السورة قائلة إنه سبحانه هو رب العالمين، ولا رب أو معبود سواه في هذا العالم. سواءً كان خافياً كما الآلهة المتعددة التي تعتقد قريش بوجودها، أو مشاهداً كالأصنام التي تعبدها.
- وهو الرحمن بذاته، الرحيم لغيره. وهو وحده ملك يوم الدين، ولن يكون هناك ملك يحكم في ذلك اليوم بين الخلائق غيره[1]. وقوله «ملك يوم الدين» أول تأكيد على وجود بعث وحساب، وهو ما ستصر قريش على إنكاره.
- وقوله « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» تعريف بأن الله وحده هو المعبود، وهو وحده القادر على العون.
- وتختم السورة بدعاء على لسان المرء، يطلب فيه من الله أن يهديه للصراط المستقيم والدين القويم الذي لم تعرفه قريش، ولم يعرفه محمد بعد.
- وبهذه الصفات المتميزة والفريدة للسورة، وبتسميتها الفاتحة، فهي بالفعل فاتحة الوحي الذي نزل على محمد. تُعرفه بمن نزلت بأمره، وترشده من يعبد، ومن يستعان به، ومن يُحمد.

---

١ ولذلك فالآية تقرأ «ملك يوم الدين:» وليس «مالك يوم الدين» لأن الله مالك كل شيء في الدنيا والآخرة، لكنه ملك وحيد يوم الدين.

(٢) الفيل

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ(١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ(٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ(٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ(٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ(٥).

سورة تُذكِّرُ قريشاً بنعمة من نعم الله عليهم، عندما أهلك أصحاب الفيل قبيل دخولهم مكة لتدميرها. وكيفية هلاك أصحاب الفيل والقصة بتمامها مذكورة في قسم التاريخ القديم. ويمكن الرجوع لقسم مفردات من القرآن للتعرف على معاني ألفاظ السورة.

(٣) قريش

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ(١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ(٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ(٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ(٤).

السورة شبيهة بسورة الفيل، كونها تُذكّر قريشاً بنعمة أخرى من نعم الله عليهم، والمتمثلة بترحال قوافلهم التجارية من أقصى جنوب الجزيرة باتجاه الشام ورجوعها من هناك دون أن تتعرض لسلب أو نهب، ونعمة أخرى، وهي تمتع مكة بالأمن[1].

لقد ألفت واعتادت قريش رحلاتها التجارية بتيسير الله، فلماذا لا يعبدونه سبحانه وهم يعيشون في حماه وبجوار بيته. وهو من أغناهم بالتجارة ومتعهم بالأمن.

والخطاب في السورتين التاليتين يهيئ لقبول الناس الدعوة بالقول أن: من لا يؤمن ويعمل صالحاً فسيخسر.

(٤) العصر

وَالْعَصْرِ(١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ(٣).

(٥) التين

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ[2](١) وَطُورِ سِينِينَ(٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ(٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ(٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ(٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ

١ للتعرف أكثر على تاريخ مكة وقريش وتجارتها الرجوع لقسم أماكن وشخصيات.

٢ انظر التين والزيتون، وطور سينين في قسم مفردات من القرآن.

مَمْنُونٍ(٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ(٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ(٨).

وقد استخدم لفظ « الإنسان « في مخاطبة قريش، وهو ما سيتكرر في سور قادمة من سور المرحلة الرابعة. كما أن الآية السادسة من سورة التين تستخدم لفظ «إلا» ليس للاستثناء، ولكن بمعنى أما.[1]

وبعد ذلك نزلت سورتا التكاثر ثم العاديات اللتان تشيران لانشغال قريش بمصالحهم الدنيوية، لاهية قلوبهم عن حياة الآخرة.

(٦) التكاثر

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ(١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ(٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ(٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ(٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ(٨).

(٧) العاديات

وهي تؤكد ما ورد في السورة السابقة من أن الإيمان بالبعث، هو أساس الدعوة: وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً(١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً(٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً(٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً(٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً(٥) إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ(٦) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ(٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ(٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ(٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ(١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ(١١).

** بدء السورة بقسم سيتكرر في سور قادمة.

هنا انتهت المرحلة الأولى التي مثلت بدء البعثة وتواصل الرسول مع السماء، لكنها مرحلة سبقت الدعوة. واعتبارها من الدعوة من باب التجاوز، لأن الدعوة لن تبدأ إلا مع نزول سورة المدثر لاحقاً. وسور بدء البعثة تقول إن هناك بعثاً وأن الله وحده هو المعبود والمستعان، لكنها لا تحتوي على خطاب دعوي. كما أن السور لم تتعرض لأصنام قريش ولا لعقائدهم مباشرة، إضافة إلى أنها لم تدعُ إلى عبادات ولا تشريع. فهي تمثل مرحلة التعريف وتهيئة المجتمع المكي لسماع الدعوة التي ستبدأ بعد أشهر – مع سورة المدثر – والتي ستطلب منهم نبذ الأوثان وعبادة الله وحده والإيمان بالبعث، كما سنرى.

---

١ سبق الحديث، باستفاضة عن: استخدام «إلا» بمعنى «أما» في فقرة التعود على أساليب القرآن.

ولو افترضنا أن الوحي كان ينزل في هذه المرحلة على الرسول بمعدل سورة كل عشرة أيام، فقد استغرق نزول السور السبع لهذه المرحلة «التعريفية» مدة شهرين تقريباً. تسامع خلالها رجال قريش والمجتمع المكي ما يردد محمد من ألفاظ غريبة ودعوة أغرب.

ولنا أن نتخيل وضع رجال قريش خلال هذه الفترة وهم يستمعون لهذا الشاب الذي يعرفونه جيداً، ويتساءلون هل هو صادق فيما يقول؟ وهل يعقل أن يكون هناك حياة بعد الموت؟ ومن أين جاء بكلامه الغريب وهو يعيش بيننا ونعرف من أمور الدنيا أكثر مما يعرف؟ وأسئلة كثيرة أخرى.

وبطبيعة الحال السور لا تتحدث عن أي مضايقات أو أذى تعرض له الرسول، لأن أغلب رجال قريش لم يأخذوا دعوته على محمل الجد، ولابد أنهم ظنوا أنها نزوة عابرة وستنتهي، ويعود الشاب إلى رشده. لكن تجاهل كبراء قريش لدعوة الرسول في هذه المرحلة، سيتحول للسخرية في قادم الأيام ثم سيعلنون الحرب عليها فيما بعد ذلك.

المرحلة الثانية:
مرحلة التأهيل النفسي للرسول / غار حراء

بعد أن قدمت سور المرحلة الأولى (بداية البعثة) محمداً لقريش كرسول لله، وأصبحوا مُهيئين لسماع الدعوة التي سيدعوهم إليها، تأتي هذه المرحلة لتأهيل وإعداد الرسول ليكون جاهزاً فكرياً ونفسياً لتحمل أعباء الدعوة التي ستكون شاقة وطويلة، مؤجلة بدء الدعوة إلى حين.

والدعوة لدين جديد يعني الطلب من الناس أن يتخلو عن موروثهم الديني الذي توارثوه منذ مئات وآلاف السنين. وأن يتقبلوا أن يقال لهم إن معتقداتهم باطلة، وإنهم على ضلال. وهذا تسفيه لأحلامهم، وسخرية من عقول رجالهم، ونقد مباشر لشخصية الأمة وكيانها. وقبول الدعوة يعني الاعتراف بوجود قصور أو نقص أو عيب في تلك الشخصية، وهو نقد لا يحبذ الإنسان الاعتراف به داخل نفسه، ويكره سماعه من الغير، وبالتالي فلن يقره أو يقبل به إلا شجاعٌ يتقبل النقد، أو مستضعف لا تعنيه هذه المفاهيم، أو من يشعر بالغبن في مجتمعه ويريد أن يجد نفسه في وضع أفضل مع الدعوة الجديدة. لذا فمواقف الناس الرافضة للدين سنة أزلية ثابتة، سارت عليها كل الأمم، وليست مواقف منفردة ومتباينة.

ومحمد - كأي إنسان - عبارة عن مجموعة مشاعر، تتأثر بالمواقف التي يواجهها في حياته اليومية. وخروجه على الناس بالدعوة لدين جديد، سيعرضه لسخرية شديدة، وأذى نفسي هائل لا يستطيع الإنسان العادي تحمله. لذا كان لابد من تهيئته نفسياً وذهنياً ليكون قادراً على تحمل الضغوط النفسية الهائلة التي بانتظاره، والتي ستدوم وبشكل متواصل لسنوات طويلة. فكان أن نزلت سورة المزمل تطلب من الرسول أن يخضع لبرنامج تأهيلٍ نفسي خاص.

وسورة المزمل تمثل المرحلة الثانية من الدعوة، أو بالأحرى مرحلة تأهيل الرسول لبدء

الدعوة. فالآيات العشر الأولى من السورة نزلت لتخاطب محمداً وليس قريشاً، وآياتها ليست آيات دعوية، ولكنها توجيهية خاصة، معنيٌ بها الرسول وحده.

(٨) المزمل

السورة تتحدث عن ثلاثة مواضيع هي:

برنامج تأهيل الرسول

(الآيات: ١-١٠ والخطاب توجيهي) تشرح بالتفصيل البرنامج التأهيلي الذي على محمد أن يتبعه، وهو برنامج قاسٍ مكثف:

يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ(١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً(٢) نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً(٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً(٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً(٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءاً وَأَقْوَمُ قِيلاً(٦) إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً(٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً(٨) رَبُّ الْمُشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً(٩) وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً(١٠).

وهذا البرنامج يتطلب السهر أطول مدة ممكنة من الليل للتأمل والتسبيح بحمد الله والتبتل إليه، إضافة لتلاوة ما سبق ونزل عليه من قرآن. أي عليه أن يتبع «يوغا إلهية» لفترة كافية لاكتساب القوة النفسية اللازمة لتحمل الضغوط النفسية التي سيواجهها عندما يبدأ الدعوة فعليا.

وهذا البرنامج التأهيلي يحتاج لمكان هادئ وهو ما لا يتوفر في البيت الذي يعيش فيه رسول الله وزوجه خديجة وبناتها وأولادها، فما كان منه عليه الصلاة والسلام إلا أن توجه لغار حراء الذي يبعد عن مكة قرابة خمسة كيلومترات بخط مستقيم، وهناك انعزل عن الناس وانخرط في هذا البرنامج الذي غير نمط حياته اليومية. فأصبح يسهر الليل وينام النهار، لفترة من الزمن امتدت لبضعة أشهر[١].

تحذير من سيكفر بالدعوة

(الآيات: ١١-١٤ ترهيب) تحذر من سيكفر بالدعوة عندما تبدأ لاحقاً: وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً(١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً(١٢) وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً

---

١ للمزيد يرجى الرجوع لموضوع غار حراء/ قسم أحداث من عصر الرسول.

أَلِيماً(١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً(١٤).

الخطاب لمن سيكفر من قريش الذين تصفهم السورة بأولي النعمة كناية عن ثرائهم. وليس موجهاً لشخص بعينه، لأن الدعوة لم تبدأ بعد. والآيات تعطي صوراً حسية للنار وكأن هناك طعاماً، كما تعطي أول صورة حسية لانهيار هذا الكون، في إشارة إلى أن البعث والجنة والنار ستكون بعد انهياره.

والصور الحسية المجازية لما في الجنة والنار ولانهيار هذا الكون ونشأة كون القيامة ولصحيفة الأعمال وغيرها من الملامح التي يختص بها الخطاب الدعوي الموجه لقريش. ولن نجده في الخطاب الدعوي الموجه لبني إسرائيل وأهل الكتاب، لأنهم يؤمنون بالبعث والجنة والنار وصحيفة الأعمال، بينما قريش تنكر ذلك فجاءت الصور المجازية لتقريب الصور من أذهانهم.

إعلان محمداً رسولٌ لله

(الآيات: ١٥-١٩ والخطاب قصصي إخباري) تعلن لقريش أن محمداً رسول من الله، ومن لا يؤمن برسالته فقد يلاقي في الدنيا ما لقيه فرعون - الذي لابد أن قريشاً سمعت بقصة هلاكه - إضافة لعذاب النار يوم القيامة: إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً(١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً(١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً(١٧) السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً(١٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً(١٩).

وتقول الآيات إن هذا القرآن تذكرة لمن يريد أن يتذكر، كدليل على أنه لا إكراه في الدين[١]، وعلى أن الدعوة تكون بالتذكير والتبليغ وليست للإقناع[٢]، ولا تكون إلا بالقرآن وليس بأي كلام غيره[٣].

والآية الأخيرة من السورة نزلت في المدينة وسنتحدث عنها في حينها.

١ انظر فقرة: الدين خيار شخصي / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

٢ انظر فقرة: الدعوة تبليغ وليست إقناع / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

٣ سبق الحديث في فقرة خاصة عن حقيقة أن الدعوة لا تكون بغير القرآن في مقدمة الكتاب.

المرحلة الثالثة:
البدء الفعلي للدعوة / الإنذار

وتمثلها سورة واحدة.

(٩) المدثر

مرت عدة أشهر ومحمد منشغل بممارسة برنامجه التأهيلي في غار حراء بعيداً عن مكة، ولم تعد قريش تراه أو تسمع تلاوته للسور، حتى ظنوا أنه قد توقف نهائياً عن «نزوته». وفي يوم من الأيام التي كان فيها متدثراً ونائماً في النهار - كونه اعتاد خلال هذه الفترة سهر الليل - استيقظ على نزول الوحي يعلن البدء الفعلي بالدعوة: يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ(١) قُمْ فَأَنذِرْ(٢)...

ويمكن أن يستدل من تدثر الرسول أنه كان في فصل الشتاء، لأن مكة ذات مناخ حار يمتد لتسعة أشهر في العام لا يحتاج فيها المرء للتدثر أثناء النوم، بينما تميل أشهر الشتاء الثلاثة للبرودة. وبما أن الرسول قضى بضعة أشهر في الغار، وقبلها شهرين للمرحلة الأولى للدعوة، بمجموع يقرب من العام. وبناءً على ذلك يمكن القول أن بداية البعثة كانت في فصل الشتاء، أي قبل عام من نزول سورة المدثر.

وبنزول هذه السورة ترك الرسول غار حراء ونزل إلى مكة، وعاد للعيش مع زوجته خديجة. ومنذ ذلك اليوم وحتى وافته المنية، وهو في جهاد دائم لم يهدأ له بال، وتحت ضغوط نفسية وإحباط وتعسف مستمر. بل إن قريش فكرت في قتله، كما ذكرت بعض السور، منها: أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ(٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ(٣١) الطور.

ولولا أنه في مكة - بيت الله الحرام - لقتل.

وفي المدينة استمر جهاده في سبيل الدعوة وقاد المعارك ضد قريش في بدر وأحد، وفي

الأحزاب، وقاد جيشاً عسكرياً وتوجه به إلى بلاد الروم في فصل الصيف الحارق. وهناك بعض الإشاعات أنه مات مسموماً، وإن كان هذا غير محتمل، لأن أعراض مرضه الذي مات فيه - إن صدقت أخبار كتب السير - تؤكد أنه توفي بسبب الملاريا[1]. لكن المهم هو أنه - عليه الصلاة والسلام - كان عرضة للأذى البدني، وعرضة للأذى النفسي الأكثر إيلاماً، والتي تسبب الإصابة بالضغط والسكر، وأمراضاً مميتة أخرى. والرسول عاش تحت ضغوط نفسية هائلة متواصلة منذ بدء نزول الوحي حتى وافته المنية. وإن اختلفت نوعية الضغوط المكية عن المدنية.

وتمثل المدثر المرحلة الثالثة في مسيرة البعثة وبدء الوحي، والمرحلة الأولى للبدء الفعلي للدعوة: وفيما يلي استعراض لما تتحدث عنه السورة:

خطاب توجيهي للرسول

(الآيات: ١-٧) تأمر الرسول بدء الإنذار وتسبيح الله وتطهير الثياب والتخلص من كل ما له علاقة بالوثنية «الرجز»، والصبر على الأذى المتوقع: يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ(١) قُمْ فَأَنذِرْ(٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ(٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ(٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ(٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ(٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ(٧).

(الآية ٦) أول حث على الإنفاق في القرآن وهو موجه للرسول.

تحذير لمن يكفر

(الآيات: ٨-١٠ ترهيب) تحذير لمن يكفر من يوم الدين: فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ(٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ(٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ(١٠).

الناقور تعبير مجازي ليوم القيامة، لأن السياق يقول إنه يوم عسير على الكافر.

أحد كبراء قريش كاد أن يسلم

(الآيات: ١١-٢٦ الخطاب تفاعلي) تتحدث عن واحد من أغنياء قريش الذي وجد نفسه يميل لما يسمع من القرآن. لكنه سرعان ما غلبت عليه سطوة الموروث، فتراجع. معلناً أن ما سمعه طلاسم سحرية غيبت عقله، وليس كما يزعم محمد أنه وحي من الله، وذلك لكي يبرر لنفسه أن تراجعه عن التصديق هو الصواب: ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً(١١) وَجَعَلْتُ

[1] تقول كتب التراث إنه كانت تعتريه نوبات من الحمى الشديدة والقشعريرة، وهي من أعراض الملاريا.

لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً(١٢) وَبَنِينَ شُهُوداً(١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً(١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ(١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً(١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً(١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ(١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(٢٠) ثُمَّ نَظَرَ(٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ(٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ(٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ(٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ(٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ[1](٢٦) المدثر.

ولعل من المهم الإشارة إلى أن الآيات لم تسجل أن هذا القرشي قد آذى الرسول.

صور مجازية حسية لما في النار

(الآيات: ٢٧-٣١ ترهيب) للمرة الثانية تذكر الآيات تصويراً حسياً لما في النار، بعد الآية: (١٤) من سورة المزمل: وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ(٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ(٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ(٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ[2](٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ(٣١).

الآيات تسمي النار سقر هنا، كما تسمى بأسماء أخرى سنمر بها في سور قادمة. وسنرى تكرار تقديم الصور الحسية لما في النار والجنة لزيادة تأثيرها في نفس المخاطب. والمخاطب هنا قريش التي لا تؤمن بالقيامة.

الدين خيار شخصي

(الآيات: ٣٢-٣٨ دعوي) للمرة الثانية بعد الآية: (١٩) من المزمل، تأكيد على أن دعوة محمد خيار شخصي: كَلَّا وَالْقَمَرِ(٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ(٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ(٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ(٣٥) نَذِيراً لِّلْبَشَرِ(٣٦) لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ(٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(٣٨)[3].

وقد استخدم القرآن المجاز في قوله «يتقدم» لتعني قبول الدعوة والإيمان، وفي قوله «يتأخر» لتعني رفض الدعوة والكفر.

١ انظر معنى الرجز، الناقور، وسقر / قسم مفردات من القرآن.

٢ انظر فقرة: عليها تسعة عشر / قسم مفردات من القرآن.

٣ انظر فقرة: كل نفس بما كسبت رهينة / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

عود لتقديم صور مجازية حسية

(الآيات: ٣٩-٥٣ ترغيب وترهيب) تقدم تصويراً مجازياً حسياً لما في الجنة والنار: إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ(٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ(٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ(٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ(٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ(٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ(٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ(٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ(٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ(٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ(٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ(٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ(٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً(٥٢) كَلَّا بَل لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ(٥٣).

الآيات تصور المؤمنين في الجنة وكأنهم يخاطبون أهل النار الذين سمتهم «المجرمين». وتقول إن سبب دخولهم النار أنهم لم يصدقوا دعوة محمد، التي تأمرهم بالصلاة[١] والإنفاق[٢]، والإيمان بالبعث. وهذا موقف افتراضي لن يحدث، ولكنه تصوير حسي يقصد منه الترغيب في الجنة والترهيب من النار لعل كبراء قريش يرتدعون ويؤمنون.

(الآية: ٤٣) أول ذكر للصلاة دون تحديد أوقات لأدائها.

(الآية: ٤٤) أول ذكر للإنفاق لعموم الناس، بعدما ذكرته (الآية: ٦) موجهاً للرسول فقط. وهو هنا لإطعام المسكين. وهنا أمر بالإنفاق على المسكين، قبل أن يؤمن مساكين مكة، مما يؤكد أن الإنفاق بكافة مجالاته للمؤمن والكافر (المسالم) على حد سواء وليس وقفا على المسلم. وسنرى أن الإنفاق يكون لكل محتاج ولسد كل حاجة للمجتمع والفرد متى وجدت. وسنلاحظ أن الإنفاق يؤمر به في مجالات تكون ملحة وقت نزول السورة فتذكر وتذكر مجالات غيرها في سورة أخرى لأنها كانت ملحة عند نزول السورة... وهكذا. وبالتالي فكل مجال ذكر في أي سورة للإنفاق فيجب الإنفاق فيه ولو لم يذكر في سور أخرى. وهو ما ينفي أن يكون الإنفاق فقط محصوراً بثمانية مجالات والتي ذكرتها سورة براءة: إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠).

- الآيات: تذكر المطلوب لدخول الجنة في تلك الفترة المتقدمة من الدعوة، والمتمثلة

١ انظر فقرة: الصلاة/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

٢ للتوسع حول الإنفاق في القرآن اقرأ كتاب: رسالة في الشورى والإنفاق للمؤلف.

بالإيمان بالله واليوم الآخر والإنفاق (إطعام المسكين)، والصلاة دون تحديد لأوقات.

- "إلا" في قوله: " إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ(٤٠)" ليست للاستثناء من " كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(٣٨)، وإنما بمعنى "أما". لأن كل إنسان بما كسب رهين بها في ذلك أصحاب اليمين[1].

عود لتأكيد أن الدين خيار شخصي

(الآيات: ٥٤-٥٦ دعوي) تأكيد على أن الدعوة للإسلام خيار شخصي حر لا إكراه فيه: كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ(٥٤) فَمَن شَاء ذَكَرَهُ(٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ(٥٦).

وهو ما سبق وذكرته الآيات: (٣٢-٣٨) من نفس سورة المدثر.

١ انظر استخدام «إلا» بمعنى «أما» / فقرة من أساليب القرآن.

المرحلة الرابعة: استمرار الدعوة

وتمثلها ٣٧ سورة، هي: الأعلى، العلق، القارعة، الزلزلة، الانفطار، الانشقاق، التكوير، الشمس، الليل، الطارق، الفجر، البلد، القيامة، النبأ، ق، الواقعة، الغاشية، الحاقة، المطففين، عبس، المرسلات، الجن، الفلق، الناس، الإنسان، الملك، يس، القدر، والرحمن، النجم، الهمزة، ن والقلم، الطور، الضحى، الشرح، نوح، والقمر.

وقد تم تقدير الفترة بين نزول سورة وأخرى في هذه المرحلة بحوالي الشهر، لأن الأوضاع كانت تسير بشكل روتيني متكرر. فقريش لن تؤمن والسور مستمرة بالنزول، ولم تقع فيه أحداث هامة.

وهذه المرحلة تلت نزول سورة المدثر التي مثلت الإعلان الفعلي لبدء الدعوة، وأصبح من الواضح لقريش أن محمداً جاد في دعوته ومستمر فيها، ولم تكن نزوة عابرة سرعان ما تخبو، كما كانوا يظنون.

والدعوة الجديدة تقول إن عبادة الأصنام باطلة، وأن هناك حياة بعد الموت، وعذاباً وثواباً. وتطلب من قريش أن يدفعوا من أموالهم لسد احتياجات المحتاجين دون مقابل، كما تطلب تغيير معتقداتهم ودين آبائهم. وهذا تسفيه لشخصية الأمة لن تقبله قريش من رجل في مقتبل العمر نشأ بينهم يتيماً، ولا شأن له ولا مال: وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ(٣١) الزخرف.

هنا يجب أن نتذكر أن قريشاً - كأي أمة أخرى في أي زمان ومكان - سترفض الدعوة ليس لأنها دعوة باطلة، ولكن لأنها خروج عن المألوف ونبذ للموروث الديني والثقافي. سالكة في هذا المنحى سنة سارت وتسير عليها كل الأمم. ولن يؤمن برسول الله إلا قلة مستضعفة أو نفر يبحثون مع الدين الجديد أوضاعاً أفضل من أوضاعهم في مجتمعهم. وستبقى قريش رافضة للدعوة، ولن يؤمن من رجالها من لم يؤمن في بداية سماعه للدعوة، كسنة أزلية

أخرى سارت عليها كل الأمم قديمها وحديثها. فمن يقول لا لأي دعوة يصعب عليه التراجع لنعم بعد ذلك ولو ثبت له أنها على حق[1]. ومن لا يؤمن سيحاول أن يبرر لنفسه أولاً أنه على حق في رفضه، وأن الدعوة باطلة، بأي وسيلة ممكنة، كما سنرى في سور قادمة. وسور هذه المرحلة بوجه عام تجيب على تساؤل قريش عن مكان ووقت البعث. وتقول لهم إن البعث سيكون بعد انهيار الكون، وذلك بتقديم صور حسية عن ذلك الانهيار. ويمكن ملاحظة أن السور التي تبدأ بـ «إذا» تبدو وكأنه سبقها سؤال: متى يكون البعث؟ وبدل أن تقول الآيات إن قريشاً سألت هذا السؤال تبدأ السور بالإجابة مباشرة.

ثم تضيف السور اللاحقة أن البعث يكون بعد انهيار هذا الكون حيث سينشأ كون جديد، وهناك سيكون البعث. كما تؤكد وجود آلية في النفس تسجل كل ما يقوم به الإنسان منذ الولادة إلى الموت، وبناء على هذه السجلات سيكون الحساب. والسور تصور انهيار الكون وآلية تسجيل الأعمال وما في الجنة من نعيم وما في النار من جحيم بصور حسية معروفة لقريش لتقريبها في الذهن.

وفيما يلي أهم الملامح والمواضيع التي تتميز بها سور هذه المرحلة:

- تقديم صور مجازية حسية عن انهيار هذا الكون ونشأة كون القيامة والبعث وما في الجنة والنار وصحيفة الأعمال.
- دعوة عقلانية للتفكير بالمخلوقات وعظمة خلقها للدلالة على قدرة الخالق على البعث.
- ذكر ما حدث لأمم سابقة كفرت وهلكت بكوارث طبيعية لعل قريشاً تعتبر مما حدث وتؤمن.
- مخاطبة الرسول لشحذ همته على تحمل مشاق الدعوة.
- التأكيد للرسول أنه ليس مسئولاً عن الهداية ولكنه منذر ورسول فقط.
- التأكيد على أن الدين خيار شخصي والدعوة تبليغ وليست إكراهاً.

وقد أمكن تقسيم هذه المرحلة، إلى مراحل أصغر حسب الملامح، سنطلق عليها فترات، ونستعرضها تباعاً:

---

[1] انظر فقرة: من يرفض الدعوة مرة، لن يؤمن بها أبداً / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

فترة الحيرة والقلق

وعدد سورها ثلاثٌ هي: العلق، الأعلى، والقارعة. والخطاب توجيهي عموماً.

فبعد أن خضع الرسول لبرنامج تأهيل نفسي لتحمل مصاعب الدعوة المتوقعة، ثم نزول سورة المدثر تأمره ببدء الإنذار، أدرك رسول الله أنه أمام تكليف صعب، ومهمة دقيقة، وعليه أن ينجح في أدائها. فشعر بالقلق وبدأ يتساءل في داخله إن كان باستطاعته أن يتمكن من إقناع قريش، وكيف سيتمكن من تذكر ما ينزل عليه من الوحي؟ وكيف وبأي طريقة سيكون الإنذار؟ وما هي أنسب الطرق للدعوة؟ وهل سيستخدم عباراته الشخصية لإقناع رجال قريش للدخول في الإسلام؟ وتساؤلات أخرى، فنزل عليه القرآن يرشده لما يفعل:

(١٠) العلق

(الآيات: ١-٥ والخطاب توجيهي)

إقْرَأْ[١] بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ(١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ(٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ(٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ(٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ(٥)[٢].

كل ما عليك يا محمد هو أن تتلو ما يوحى إليك من قرآن على الناس، هكذا ستكون الدعوة!

كتب التراث حولت هذا المعنى الواضح للآيات السابقة إلى قصة دراماتيكية، رسخت عند الناس وكأنها الحقيقة التي لا شك فيها. وحسب هذه القصة - المختلقة - فمحمد كان يختلي بغار حراء للتعبد قبل أن يبعث، وكأنه عرف أنه سيكون رسولاً لله. ومرد هذه القصة أن كتب التراث كُتبت بعد عقود من زمن رسول الله وغياب شهود العيان، وكل مصادر تلك الكتب كان قصص وحكايات يتداولها الناس عن ذلك العصر النبوي. وبما أن الرسول بالفعل انعزل في غار حراء لكي ينفذ برنامج التأهيل النفسي والذهني الذي أمرته به سورة المزمل ليكون جاهزاً للدعوة، فإن الناس في أجيال لاحقة اعتقدوا أن الرسول انعزل في غار حراء قبل البعثة. ولكي تُحبك القصة - في نظرهم - قالوا إن جبريل حضر له وهو في الغار ثم أمره بأن يقرأ: قائلاً: اقرأ! فقال الرسول: ما أنا بقارئ! فقال: اقرأ بسم ربك الذي خلق إلى تمام الخمس آيات الأولى من سورة العلق. وجعلوها أول آيات تنزل

١ انظر فقرة: اقرأ/ قسم مفردات من القرآن.

٢ سبق وأوردنا فقرة: الدعوة لا تكون إلا بالقرآن.

من القرآن.

وقد ساعدهم على اختلاق القصة عدة عوامل، أهمها:

- أنهم ظنوا أن القرآن ينزل آية آية. وهذا الاعتقاد من بنات عصر الفتن والظلام، وظهر بعد ظهور القُصّاص الذين كانوا يقصون قصصهم في مجالسهم ويستشهدون بآية قرآنية أو جزء من آية، ثم يختلقون لها سبب نزول يتناسب مع ما يريدون قوله في تلك اللحظة، ولا يهمهم إن كان ما قالوه صحيحاً أم لا، ما دام يثير المستمع ويعجبه.
- أنهم ظنوا أن الوحي عبارة عن تلقين. فجبريل كان في كل مرة ينزل الوحي يقوم بتلقينه لمحمد ويردده على مسامعه حتى يحفظه، لأن التلقين هو الوسيلة الوحيدة التي يعرفونها للحفظ، ولنقل الرسائل.

وبما أن كتب التراث حشي فيها أخبار بلا تنسيق، فإنه من المعتاد وجود خبر وخبر آخر يناقضه. ومن ذلك، نجد بجانب الأخبار التي تؤكد أن الوحي يلقن تلقيناً لرسول الله، هناك أخبار تقول: إن الوحي كان ينزل على أشكال مختلفة: فبعضه كصلصة الجرس، وبعضه يرهق الرسول لدرجة يتصبب منه العرق، ومرة يصاب بحالة إغماء... فكيف يكون هذا والوحي - حسب زعمهم - تلقيناً. لكن هذه الحكايات نتاج قصاص مختلفين في مجالس مختلفة، وجدت من يوثقها وينقلها لنا. وإلا فالقرآن يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن الوحي يحفر في ذاكرة الرسول مباشرة ودون حاجة لتلقين، أو رؤية الملك: وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ(١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ(١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ(١٩٥) الشعراء[1].

- عامل آخر ينفي أن تكون «اقرأ» أول ما نزل، هو أن كل شيء يُبدأ به باسم الله. وليس هناك سورة تكون البسملة في أولها آية من آيات السورة سوى الفاتحة. واسم الفاتحة كاف للتدليل على أنها أول ما نزل وفاتحة للوحي.
- وبما أن القرآن ينزل سورة كاملة مرة واحدة، فإن سورة العلق تتحدث عن نهي أحد كبراء قريش رسول الله من الصلاة في الآيات: (٩-١٩) التي ستأتي. وهذا دليل على أن الوحي قد بدأ قبل سورة العلق.

---

١ وقد سبق وتحدثنا في المقدمة بتوسع عن حقيقة أن الوحي ينسخ في ذاكرة الرسول ولا يتلقاه تلقيناً

قريش جبلوا على حب المتع الدنيوية

(الآيات: ٦-٨ تقريري)

وتؤكد أن الإنسان[١] (قريش) جبلوا على حب الدنيا وعدم التصديق بالآخرة: كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى(٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى(٧) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى(٨).

فلا يستغرب الرسول إن هم رفضوا دعوته[٢].

أحد كبراء قريش ينهر الرسول

(الآيات: ٩-١٩ تفاعلي) للمرة الثانية يتحدث القرآن عن أحد كبراء قريش المكذبين بدعوة محمد، بعد الآيات: (١١-٢٦) من سورة المدثر. والحديث هنا عن أحد الكبراء والذي كان ينهر رسول الله عندما يراه يصلي. والآيات تتوعده بالعقاب يوم القيامة، وتأمر الرسول بأن يواصل صلاته ولا يعير هذا القرشي أدنى اهتمام: أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى(٩) عَبْداً إِذَا صَلَّى(١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى(١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى(١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى(١٣) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى(١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ(١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ(١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَه(١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ(١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ(١٩).

ويمكن أن نفهم ما حدث كما يلي: بعد أن بعث الرسول، بدأ يصلي في المسجد الحرام وقرب الكعبة - حيث مجالس قريش وتجمعهم - فلاحظوا هذه الحركات غير المألوفة لديهم التي يقوم بها محمد، والتي لم يبدأ بأدائها إلا بعد أن زعم أنه رسول من الله ويدعو لدين جديد. فما كان من أحدهم إلا أن سارع لنهر الرسول وزجره لأداء صلاته. وهو ما يعني أن صلاة الرسول لم تكن معروفة لقريش. إذ لو كانت الصلاة معروفة عند قريش، لما نهر القرشي محمداً عندما يراه يؤديها.

ثم نزلت ...

(١١) الأعلى

وبداية السورة خطاب توجيهي لتطمين الرسول بأن لا يقلق فلن ينسى الوحي المنزل عليه: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى(١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى(٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى(٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ

١ كلما ذكر الإنسان في سور هذه المرحلة الرابعة فالمقصود به قريش.

٢ انظر فقرة: الناس جبلوا على حب الدنيا والتمسك بالماديات / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

الْمَرْعَى(٤) فَجَعَلَهُ غُثَاء أَحْوَى(٥) سَنُقْرِؤُكَ فَلَا تَنسَى(٦) إِلَّا مَا شَاء اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى(٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى(٨) فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى(٩).

الآيات تطلب من الرسول أن يستمر في ذكر الله وتسبيحه، فهو سبحانه من خلق وقدر كل شيء، ليشعر بقرب الله منه ويعينه هذا الشعور على مواجهة المصاعب. وتخبره الآيات أن الوحي سيطبع ويحفر في ذاكرته بطريقة لن ينساه معها ما بقي حياً، وسيسهل الله مهمته فلا يقلق.

الدين خيار شخصي

الآيات: (٩-١٥ والخطاب تقريري) تطلب من الرسول أن يستمر في الدعوة «التذكير»، دون إلحاح، لأن قبولها ليس من مسئولياته، ولكنه خيار شخصي للمدعو لو رغب في النجاة من النار. وتحذر الآيات المكذب بالنار وتبشر المؤمن المواظب على الصلاة بالجنة:

سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى(١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى(١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى(١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى(١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى(١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى(١٥).

والآيتان: (١٤-١٥) تؤكدان على وجوب التطهر من الذنوب، فالتزكي هنا يعني التطهر[1]. وعلى أداء الصلاة (دون تحديد أوقات) والتي تذكر للمرة الثانية بعد أن ذكرت في الآية: (٤٣) من سورة المدثر.

ومع نزول سورتي العلق والأعلى اتضح للرسول الطريقة التي يجب أن يطبقها للدعوة، فما عليه سوى تلاوة ما ينزل عليه من سور على قريش، فمن آمن فلنفسه ومن كفر فعليها، وليس مكلفاً بإقناعهم. كما أن الوحي سيحفر في ذاكرته ولن ينساه ابداً.

قريش تؤثر متع الدنيا

(الآيتان: ١٦-١٧ خطابهما تقريري) وتؤكدان ما سبق وذكرته سور سابقة، حول حقيقة أن الناس (قريش) يؤثرون حب الدنيا والتمسك بها وعدم الاهتمام بالآخرة: بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(١٧).

لذا فعلى الرسول ألا يستغرب من موقف قريش الرافض للدعوة، فهذا متوقع.

---

١ انظر فقرة: تزكى / قسم مفردات من القرآن.

الدين واحد

(الآيتان: ١٨-١٩ خطابهما إخباري) وتؤكدان أن الدين الذي يدعو له محمد هو نفس الدين الذي كان عليه إبراهيم (جد قريش الأعلى) ودعا إليه موسى (الذي أرسل لبني عمهم إسحاق): إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى(١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى(١٩).

وهذا موجه لقريش، فما يتلو عليهم محمد وما يدعوهم له ليس بدعاً من عنده، ولا مخالفاً لما جاءت به الرسل قبله، ولكنه نفس دين موسى ودين أبيهم إبراهيم.

ثم نزلت القارعة، التي تقدم صوراً مجازية حسية للبعث، وتؤكد على أن الحساب سيكون بموجب صحيفة الأعمال التي تصور بصور حسية متنوعة في السور القادمة لتقريبها من ذهن المخاطب.

(١٢) القارعة

سورة إخبارية كل آياتها تستخدم الأسلوب المجازي لتصوير انتهاء الكون والحساب وتسجيل الأعمال ونعيم الجنة وعذاب النار:

الْقَارِعَةُ(١) مَا الْقَارِعَةُ(٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ(٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ(٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِz الْمَنفُوشِ(٥).

الآيات تقول، مخاطبة قريش: إن القيامة، التي وصفت هنا بالقارعة، عندما تقوم سيكون الناس كالفراش المبثوث. وهو تعبير مجازي يصور بعث الناس دفعة واحدة تصويراً حسياً. وتصور الآيات الجبال وقد تحولت إلى ما يشبه العهن - الصوف - المنفوش، كناية لبعض مظاهر انهيار وانتهاء هذا الكون. وهو ما سيحدث أولاً ثم ينشأ كونٌ آخر للقيامة حيث البعث والحساب.

وهذا التصوير المجازي الحسي المبسط الذي سيتكرر كثيراً في السور، يتناسب مع مدارك قريش في ذلك العصر وتقريب ما سيحدث في أذهانهم. ولا يخاطبنا في هذا العصر، ولم يورد لكي ينهك البعض نفسه في البحث عن السبب وراء ذكر العهن المنفوش، ويكتب حولها وغيرها من عبارات المواضيع الطويلة والكتب.

وتستخدم السورة الأسلوب المجازي لتصوير الحساب يوم القيامة: فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ

مَوَازِينُهُ(٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ(٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ(٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ(٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ(١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ(١١).

فثقل الموازين كناية عمن آمن وعمل صالحاً. والعيشة الراضية كناية عن دخول الجنة. ومن «خفت موازينه» فكناية عن الكفر، و «أمه هاوية» كناية عن دخول النار. وقد ورد الحديث عن المجاز في فقرة من أساليب القرآن التي سبقت في مقدمة الكتاب.

فترة الإجابة عن تساؤل قريش عن البعث

وصولاً إلى هذه الفترة بدأت الصورة تتضح أكثر في مكة. فمحمد استمر في دعوته، ومعها ظهرت عبادات غريبة يؤديها قرب الكعبة، ويقوم - والنفر القليل معه - بإعطاء أموالهم للمحتاجين دون مقابل، ويقول إن هذه الأعمال ستضمن لهم جنة بعد الموت. وهو ما يتعارض مع معتقدات قريش التي لا تؤمن بحياة ما بعد الموت، وأسلوب حياتهم - الرأسمالي - الذي توارثوه، والذي لا يتسع لمعاونة مسكين ولا إطعام فقير. فانقسمت مكة إلى طائفتين: الغالبية الساحقة ترفض ما يدعو له محمد وتتمسك بمعتقداتها وموروثها الثقافي والديني والاجتماعي. وهذه الطائفة لن تغير موقفها ولن تؤمن مهما دعيت، بناءً على سنة الأولين الأزلية التي لا تتغير. وطائفة أخرى تتكون من نفر قليل مع الرسول، سلكوا مسلكاً جديداً مختلفاً.

وكلما التقى الرسول بكبراء قريش سألوه متى هذا البعث الذي يتحدث عنه؟ وكيف سيحاسب الناس بعد موتهم؟

وبرغم أن أسئلة قريش ليست بحثاً عن الحقيقة، ولكن محاولة لإحراج محمد عله يعجز عن تقديم الدليل، لتطمئن قلوبهم على كذبه وصدق معتقداتهم، ويجدوا مبرراً لتمسكهم بموروثهم. برغم ذلك، فإن القرآن أجاب على تساؤلاتهم ليس مرة واحدة، ولكن إجابات متكررة، كلما كرروا السؤال.

والبداية كانت مع أربع سور نزلت متتالية تجيب مباشرة على سؤال قريش عن البعث وخطابها إخباري. وكل هذه السور تبدأ بـ«إذا»، وهي: الزلزلة، الانفطار، الانشقاق، والتكوير.

(١٣) **الزلزلة** (الخطاب: إخباري)

متى البعث يا محمد؟ تقول قريش!

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا(١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا(٢) وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا(٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا(٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا(٥)[1] يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ(٦)

١ انظر فقرة: نهاية هذا الكون / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ(٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ(٨)[1].

وهذه أول سورة نزلت تبدأ بـ «إذا»، وهي بداية تأتي على شكل جوابٍ لسؤالٍ موجه من قريش للرسول عن البعث الذي تنكره. والسورة - وكل السور الأربع التالية التي تبدأ بـ «إذا» - نزلت لتجيب على تساؤل قريش، لكنها لا تعطي تاريخاً لانتهاء هذا الكون ونشأة كون القيامة. وإنما تجيب بطريقة أقرب لذهن السائل في ذلك العصر، حيث تقول إن البعث لن يكون على هذه الأرض، التي ستنتهي ومعها هذا الكون، مما يعني بداهة نشأة كون جديد للقيامة يكون فيه البعث والحساب والجنة والنار، ولو لم تصرح هذه السور بنشأة كون القيامة.

وتقول هذه السورة إن الأرض ستخرج أثقالها، كناية عن انفجارها، بعد ذلك ستكون القيامة والبعث. وسيكون هناك ملايين أو بلايين السنين بين انهيار هذا الكون وقيام كون القيامة، لكن هذه المدة مهما طالت فلن يشعر بها الإنسان الذي سيكون قد اندثر من على وجه الأرض قبل ذلك بمليارات السنين. ولأنه ميت والميت تتوقف ساعة ذاكرته عن التسجيل، فلن يشعر بمرور الوقت. وعندما ينهض يوم القيامة سيشعر وكأنه للتو مات: وَللهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٧٧) النحل.

والسورة تصور الأعمال تصويراً مجازياً بأثقال توضع في الميزان لتقريبها من الذهن.

بعد ذلك نزلت سورتي الانفطار والانشقاق برسالتين متشابهتين:

لتعطي (الآيات:١-٣ من الانفطار، ١-٥ من الانشقاق) صوراً مجازية حسية لنهاية هذا الكون: فالسماء ستنفطر وتنشق وستتناثر الكواكب وتتفجر البحار، وتتمدد (تنشق) الأرض وتلقي ما في جوفها. وهذه الصور الحسية تقول لقريش إن هذا الكون سينهار ثم يكون البعث (الانفطار: ٤-٥)

وتتساءل آيات السورتين: كيف يكذب الإنسان (والمقصود هنا قريش) بقدرة الله على البعث وهو قد خلقه. وتعطي صوراً حسية أخرى لصحيفة الأعمال لتقريبها من الذهن.

وتضيف (الآيات: ١٣-١٩ من سورة الانفطار) شيئاً جديداً يتمثل في أن كل شخص

[1] انظر فقرة: صحيفة الأعمال / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

سيحاسب بما يقدم هو لنفسه ولا يقوم أحد بالعمل نيابة عن غيره. وهو ما ستؤكده سور أخرى فيما بعد بأنه لا تزر وازرة وزر أخرى. وهو دليل على أنه لا يمكن أن يقوم شخص بأداء عبادة مثل الحج أو يتصدق بمال أو عين نيابة عن شخص آخر حي أو ميت.

كما أن آخر آيات سورة الانشقاق تتوعد المكذبين وتعد المؤمنين.

(الآية: ٢٥ من سورة الانفطار) دليل على أن المطلوب الإيمان مع العمل الصالح، ولا يكفي واحد دون الآخر، وسيتكرر تأكيد ذلك في سور كثيرة.

(١٤) **الانفطار** (الخطاب: إخباري)

متى البعث يا محمد؟ تكرر قريش!

إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ(١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ(٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ(٣).

في السورة السابقة «الزلزلة» أعطت صورة حسية لانفجار الأرض، لتقول إن هذا الكون سينتهي، وفي هذه السورة صور أكثر تفصيلاً لانهيار الكون. فالسماء ستنفطر، والكواكب ستنتثر، والبحار ستنفجر. وهي صور تقول إن هذا الكون بمجراته ونجومه وكواكبه سينهار، والبحار في الأرض ستتفجر.

وكما السورة السابقة تنتقل السورة مباشرة وكأن القيامة قامت وبعث الناس من الموت «القبور بعثرت» وهذه عبارة مجازية لبعث الناس ولا تعني بالضرورة أن الناس ستخرج من قبورها، لأن القبور كانت على الأرض الدنيوية التي انتهت. وفي ذلك اليوم سيكون الحساب: وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ(٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ(٥).

فكيف يكفر الإنسان بربه الكريم الذي خلقه وقادر على بعثه؟

يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ(٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ(٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ(٨).

الخطاب هنا عقلاني، ولأول مرة تطلب الآيات التفكير بعظمة الخلق للاستدلال على قدرة الخالق على بعث الناس بعد الموت.

لكن الناس (قريش) جبلوا على حب الدنيا وتجاهل الآخرة: كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ(٩).

وهو تأكيدٌ لما ذكرته الآيتان: (١٦-١٧) من سورة الأعلى.

ثم تقول السورة: وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ(١٠) كِرَاماً كَاتِبِينَ(١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ(١٢).

هنا الآيات تعطي صورة مجازية حسية مختلفة عما قدمته في سور سابقة عن صحيفة الأعمال. فهي هنا تصورها على أنها سجل يقوم بكتابته مخلوقات حية، لزيادة التأثير والتصور للمستمع. وإلا فالصحيفة تسجل بطريقة آلية وهي مزروعة في النفس البشرية، ولا تسجل أعمال وأفعال العبد مخلوقات خارجية.

(الآيات: ١٣-١٩ إخبارية)

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ(١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ(١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ(١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ(١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ(١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ(١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ(١٩).

تأكيد للثواب والعقاب نتيجة للحساب الذي يقوم على ما صدر من كل شخص لنفسه ولا يقوم أحد بعملٍ نيابة عن آخر.

(١٥) الانشقاق (إخباري)

متى البعث يا محمد؟ تعيد السؤال قريش.

إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ(١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ(٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ(٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ(٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ(٥).

تكرار للصورة التي قدمتها السورة السابقة عن نهاية هذا الكون، حيث تنشق السماء «ينفرط نظام الكون»، وتنفجر الأرض: مدت وألقت ما فيها وتخلت.

يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ(٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ(٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً(٨) وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً(٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ(١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً(١١) وَيَصْلَى سَعِيراً(١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً(١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ(١٤) بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً(١٥).

الآيات تصور الحساب وكأن الإنسان سيعطى نتيجة امتحانه بيمينه كدليل على تجاوزه الامتحان بنجاح واستحقاقه الجنة، أو تعلق نتيجة امتحانه وراء ظهره ككناية على فشله واستحقاقه النار. وعبرت الآية: (٩) عن تجاوز الامتحان بالسرور نتيجة الانقلاب للأهل.

والسرور هو نفس التعبير عن حال الكافر في الدنيا في الآية: (١٣)، لكن الفرق بين المعنيين واضح. فالسرور للإنقلاب للأهل في الآية: (٩) كناية عن الفوز والنجاح في الآخرة والتلذذ بملذات الآخرة حيث لا أهل. بينما السرور بين الأهل في الآية: (١٣) يعني التمتع بملذات الدنيا مع الأهل عادة ويكون مصحوباً بنسيان الآخرة.

فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ(١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ(١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ(١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ(١٩).

أول قسم في القرآن. والقسم في القرآن لتأكيد حقيقة المقسم بشأنها، وليس لتأكيد حقيقة المقسوم به. فهذه الآيات تقسم بالشفق وما وسق من الليل وإذا اتسق القمر ليس لأن لهذه الأشياء المقسم بها حالة خاصة أو معجزة أو أنها وردت للحديث عنها. ولكن القسم بهذه الأشياء لتأكيد المقسم بشأنه وهو هنا حقيقة أن الناس سيركبون طبقاً عن طبق. أي سيمرون بحالات مختلفة ما بين الدنيا ثم الموت إلى الآخرة والمصير. هذا هو المهم وليس المقسم به، لكن المفسرين اهتموا بالمقسم به وكأنه ذكر لأهميته وأولوا الكلام حوله في آيات عدة وتوسعوا في الحديث عن الشفق والوسق والاتساق في أحاديث لا جدوى منها، وتبعهم بعض المُحْدَثين من الكتاب الذين ألفو الكتب في هذه المواضيع، وأغفلوا السبب الحقيقي لذكرها.

فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ(٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ(٢٢) وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ(٢٣) فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٢٤).

تأكيدٌ لما ذكرته الآيتان: (١٦-١٧) من سورة الأعلى، والآيات: (٦-٨)، والآية: (٩) من سورة الانفطار، من أن الناس جبلوا على حب الدنيا وعدم التصديق بالآخرة، برغم توفر الدلائل. وقوله «لا يسجدون» كناية عن عدم قبول الدعوة، فمن يؤمن سيصلي ويسجد.

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ(٢٥).

«إلا» هنا ليست للاستثناء، فلو كانت كذلك فلن يستقيم المعنى. لأنها ليست استمرار للعبارة السابقة لها، ولكنها تبدأ بموضوع جديد، هو الحديث عن مصير المؤمنين وأن لهم الجنة. لذا فهي بمعنى «أما». حيث انتهى الحديث عن الذين كفروا وبدأ الحديث عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

ثم نزلت سورة التكوير لتؤكد ما ذكرته السور قبلها، من أن البعث سيكون بعد انهيار هذا الكون وأن الحساب سيكون بموجب صحيفة الأعمال، وتعطي صوراً حسية على ذلك.

(١٦) **التكوير** (إخباري)

متى البعث يا محمد؟ تكرر قريش! (الآيات: إخبارية)

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ(١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ(٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ(٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ(٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ(٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ(٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ(٧) وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ(٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ(٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ(١٠) وَإِذَا السَّمَاء كُشِطَتْ(١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ(١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ(١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ(١٤).

السورة تقدم صوراً مجازية حسية أكثر لانهيار هذا الكون:

فالشمس ستتكور وتنتهي، والنجوم ستتلاطم، والجبال ستتهاوى، والبحار ستبدو وكأنها تتبخر، والسماء ستكشط كناية عن انتهاء كل هذا الكون.

وبعد ذلك سينشأ كون القيامة، دون ذكر لطول المدة الفاصلة بين نهاية هذا الكون ونشأة كون القيامة. وفي ذلك الكون يكون الحساب، حيث عبرت عنه الآيات بسؤال عمن وأد الموؤدة وبنشر صحف الأعمال. ثم تعود لتقديم صورة حسية أخرى عن انهيار هذا الكون (وإذا السماء كشطت) قبل أن تواصل الآيات تقديم صور حسية للنار والجنة.

وتقديم الصور المجازية الحسية - كما سبق وكررنا - لتقريب إمكانية البعث في أذهان رجال قريش المنكرين له، وليس لتصوير ما سيحدث فعلياً، لأنه من علم الغيب. ولأن القرآن لو صور ما سيحدث كما سيحدث فلن تستوعبه مدارك رجال قريش، فجاء التعبير المجازي الحسي لتقريب الصورة في أذهانهم. لكن المفسرين - وتبعهم البعض على مر العصور - توسعوا في الحديث عن هذه الصور المجازية معتبرين أنها تتحدث عن حقائق. فمرة يستشهدون بها على معجزات علمية ومرة على تنبؤات مستقبلية ومرة عن بلاغة العبارات ومرات عن أشياء أخرى، وكلها اجتهادات أوقعتهم في حيرة وتخبط. وتناسوا حقيقتها وأنها أوردت لكي تصور ما سيقع بصور يفهمها المخاطب (قريش) ولو لم تكن تصور حقيقة ما سيحدث فعلياً.

وتستمر السورة:

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ(١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ(١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ(١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ(١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ(١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ(٢٠) مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ(٢١) وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ(٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ(٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ(٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ(٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ(٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ(٢٧) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ(٢٨) وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٢٩).

للمرة الثانية يرد القسم بعد السورة السابقة الانشقاق، والآيات هنا تؤكد بالقسم أن الرسول لا يتلقى الوحي تلقيناً، وإلا لكان يرى الملك كل مرة يلقنه سورة من القرآن. والملك كما تقول السورة رآه الرسول في بداية البعثة وقبل نزول الوحي[١]. والقرآن يؤكد رؤية الرسول للملك مرتين فقط طوال حياته، وكلاهما في بداية البعثة. واحدة رأى الرسول الملك في الأفق، والثانية رآه وهو على الأرض. وقد ذكرت سورة التكوير رؤية الملك في الأفق، وكررته سورة النجم، والتي تفردت بذكر المرة الثانية للملك والتي كانت على الأرض. ولم تتحدث سورة أخرى في القرآن عن رؤية الرسول للملك سوى هاتين السورتين.

كما تؤكد الآيات بالقسم لقريش أن محمداً ليس مجنوناً – كما يتهمونه – وأن ما يتلو عليهم تلقاه بواسطة أحد الملائكة سبق ورآه بداية البعثة، عندما ظهر له في الأفق. وكل ما يتلو ليس من عنده ولا وساوس شيطان بل هو وحي وتذكرة لمن يرغب في النجاة.

وهذا يعني أن قريشاً بدأت تتهم محمداً بالجنون أو أن ما يقوله أوحى به له شيطان (كونهم يؤمنون بالخرافات). وهذا تطور في الشارع المكي حيث بدأت قريش تتذمر من دعوة محمد ولم يعد الكبراء يكتفون بتجاهلها.

وتؤكد السورة أن القرآن تذكرة لمن يشاء أن يستقيم وينجي نفسه من النار.

والقسم في الآية: (١٥) مسبوق بـ»لا»: « فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ»، وهو بمعنى «أقسم بالخنس»، وسيتكرر في سور عدة بعد ذلك، كما سنرى. فلا ليست للنفي، لأن نفي القسم لا يستقيم، ولكنه أسلوب من أساليب القرآن المتميزة.

١ انظر فقرة: ميلاد الإسلام/ قسم أحداث من عصر الرسول.

فترة خسر من يكفر وربح من يؤمن والتأكيد على البعث

والمواضيع المطروحة في سور هذه الفترة متماثلة، فالافتتاح يكون على شكل قسم، والسور في مجملها تؤكد على أن من يكفر يخسر ومن يؤمن يربح، والآيات إخبارية تقريرية إجمالاً.

وعدد سور هذه الفترة ست: الشمس، الطارق، الليل، الفجر، البلد، والقيامة.

(١٧) الشمس

إن كانت سورة الانشقاق أول سورة يذكر فيها قسم، فإن الشمس أول سورة في القرآن تبدأ بقسم، وأول سورة تذكر أمة من الأمم السابقة التي كذبت برسولها وأهلكت، لعل قريشاً تعتبر مما حدث.

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا(١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا(٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا(٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا(٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا(٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا(٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا(٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا(١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا(١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا(١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا(١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا(١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا(١٥).

الله خلق للإنسان عقلاً يفكر، والإنسان باختياره يميل عقله للجهة التي يريد، وبالتالي فاختيار تزكية النفس (الإيمان) اختيار حر مثل اختيار تدسية النفس (الكفر)، وتؤكد على خسارة من يكفر وربح من يؤمن.

والسورة لم تقدم تعريفاً لثمود، مع أنها أول مرة يذكرها القرآن. مما يعني أن قريشاً تعرفها، أو أن قريشاً لا تعرفها، وقدمها القرآن وكأنها معروفة أو سبق الحديث عنها، كواحد من أساليب القرآن المميزة. وتذكر الآيات أن بعضاً من أشقياء ثمود هم من عقروا الناقة، والعبارة المستخدمة هي: «إذ انبعث أشقاها» والضمير مفرد لكنه يدل على جماعة لأن الآيتين التاليتين تبين ذلك: فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا(١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا(١٤).

فهناك مجموعة أشقياء من ثمود قاموا بالتخطيط لعقر الناقة تحدياً لرسولهم ولله الذي أرسله، وقد عقرها أحدهم. ولعلهم الرهط التسعة الذين فكروا بقتل صالح وأهل بيته، كما ورد

في سورة النمل: وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ(٤٩).

(١٨) الليل

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى(١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى(٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى(٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى(٤) فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى(٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى(٧) وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى(٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى(٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى(١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى(١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى(١٣) فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى(١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى(١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى(١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى(١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى(١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى(١٩) إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى(٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى(٢١).

السورة تعد وتبشر من يعطي (ينفق) ويتقي (يؤمن) ويصدق (بالبعث) وتتوعد من لا ينفق ويكذب بالآخرة. وتؤكد على أن خيار الكفر أو الإيمان شخصي حر محض دون أي تدخل خارجي. وهو ما ينفي نفياً قاطعاً «القضاء والقدر» بمفهومه السائد.

(الآيتان: ٥، ١٨) تؤكدان على الإنفاق واصفة إياه بأنه يزكي المال (يطهره). وفي هذا إشارة إلى أن قريشاً رفضت المشاركة في الإنفاق.

وتصف السورة أن من سيحوز على رضى الله هو من ينفق ابتغاء وجهه الكريم وليس لأن المنفق عليه له نعمة على المنفق أو دين. والآية: (٢٠) تستخدم أسلوباً مجازياً في التعبير عن طلب رضى الله بأنه ابتغاء لوجهه سبحانه. وهذا لا يعني أن له وجهاً، تعالى الله وتبارك عن ذلك علواً كبيراً.

(١٩) الطارق

وَالسَّمَاء وَالطَّارِقِ(١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ(٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ(٣) إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ(٤).

السورة تبدأ بقسم – كما سور هذه الفترة – لتؤكد أن الأعمال يتم رصدها بدقة، وذلك عن طريق الآلية التي أودعها الله في النفس (صحيفة الأعمال). والسورة هنا تؤكد حقيقة هذه

الآلية بالقول: إن كل نفس عليها حافظ مسئول عن تسجيل ما يصدر منها. وهذا بالتحديد ما تقوم به آلية تسجيل الأعمال، ولا يقوم بذلك مخلوقات حية ولا قوى خارج النفس البشرية كما تصورها بعض الآيات تصويراً مجازياً ليسهل فهمها من المخاطب وهم قريش.
فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ(٥) خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ(٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ(٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ(٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ(٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ(١٠) وَالسَّمَاء ذَاتِ الرَّجْعِ(١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ(١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ(١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ(١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً(١٥) وَأَكِيدُ كَيْداً(١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً(١٧).

ولأول مرة تطلب السور من الإنسان (قريش) التفكير بالكيفية التي خلقوا بواسطتها، لتدلهم على قدرة الله على بعثهم: فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ(٥) خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ(٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ(٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ(٨)[1].

فبداية خلق هذا الإنسان العاقل القادر المنتج كانت في الرحم مهينة متواضعة، وهذا دليل على قدرة خالقه على إعادة بعثه بعد الموت. تعليل عقلاني واضح وبسيط، لكن قريشاً تتعامى عن الحق لتمسكها بموروثها، كغيرها من الأمم. فرفض الحق لا يعني أنه باطل، ولكن يعني أن التمسك بالموروث اقوى من العقل والمنطق.
وتؤكد السورة على أن البعث حقيقة واقعة: «قول فصل وما هو بالهزل».

وكيد الكافرين هنا ليس المقصود به كيدهم لله، لاستحالة مواجهة الخالق جل وعلا، ولكن المقصود هو أن اصرارهم على الكفر جعلهم يكيدون الرسول ومن يؤمن به ويناصبونهم العداء. والله يكيد للكافرين بتهيئة عذاب دائم لهم في جهنم. فلا تبتئس يا محمد من كيدهم فما هي سوى لحظة زمنية قصيرة، وسيموتون سريعاً ليلاقوا عذابهم الذي يوعدون. فالكيد هنا عبارة واحدة بمعنيين مختلفين، وقد تكرر ورود اللفظ الواحد بعدة معان مختلفة في عدة سور.

(٢٠) الفجر

وَالْفَجْرِ(١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ(٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ(٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ(٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ(٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ(٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ(٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي

١ عن الصلب والترائب يمكن الرجوع لألفاظ من القرآن للمزيد.

الْبِلَادِ(٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ(٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ(١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ(١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ(١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ(١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ(١٤).

السورة تبدأ بقسم مثل السور السابقة. والقسم ليس لتأكيد أهمية المقسم به ولكن لتأكيد أهمية المقسم بشأنه، ذلك أن الله جل وعلا يقسم بمخلوقاته لتأكيد حقائق عن المقسم لأجله. لكن المفسرين ومن تبعهم من قرون لاحقة توسعوا في الحديث عن المقسم به وحاكوا حولها القصص والحكايات، وكأن ذكرها في القرآن هو المهم. ومن ذلك تصورهم أن القسم «بالشفع والوتر» هام بذاته، وأن المقصود هو ما عرفه الناس في عصور لاحقة بعد عصر الرسول، لم يعرفها ولم يأمر بها. من صلوات أسموها صلاة الوتر أي مفردة الركعات: ركعة، ثلاث، خمس، سبع...الخ. والقسم بالشفع والوتر لا يعني الصلاة، ولكنه قسم بالعدد المفرد والمزدوج، كما القسم بالفجر أو البلد والطارق وغيرها.

والحديث في الآيات يهتم بحث قريش على الاعتبار مما حدث لأمم قبلهم، هلكوا وهم كفار ومصيرهم الحتمي النار. فالدنيا التي اغتروا بها زالت بسرعة، وبقي لهم مصير أسود دائم. وتتحدث عن ثلاث أمم سابقة تعرفها قريش عن طريق السماع والقصص الشفهي المتناقل، أهلكها الله لأنها لم تؤمن برسلها، لعلها تعتبر. والأمم هي: إرم ذات العماد (عاد)، وثمود، وشخص فرعون. وهذه ثاني مرة تذكر أمم سابقة بعد سورة الشمس التي ذكرت ثمود. وذكر هذه الأمم باختصار، لكن فيما بعد ستتوسع السور بالحديث عنها وتقدم تفاصيل أكثر[١].

والسورة تستخدم أسلوباً غير عادي لشد انتباه قريش لما حدث للأمم السابقة، وذلك بمخاطبة الرسول وكأنه شاهد لما حدث لتلك الأمم: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ... وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ... وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ». وهو أسلوب متبع في كثير من اللغات. وتقول الآيتان: (١٣-١٤) «فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ، إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ». هذا لا يعني أن الله جل شأنه تدخل مباشرة وصب عليهم عذاباً من السماء أهلكهم. لأن ما حدث هو تعرضهم لكوارث طبيعية، ولم تهلك أمة بخوارق أو عذاب من خارج الأرض،

١ انظر كتاب: من آدم إلى محمد للمزيد عن قوم نوح، عاد، ثمود، قوم شعيب، قوم لوط، وغيرهم.

بشهادة القرآن. فسورة العنكبوت تتحدث عن تلك الأمم وما حدث لهم، ثم تقول: فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(٤٠).

لكن بحكم أن كل ما في الكون من خلق الله، ومنها الكوارث الطبيعية، فالله هو من أهلكهم سبحانه، بطريقة غير مباشرة.

وتواصل السورة: فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ(١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ(١٦) كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ(١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ(١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً(١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً(٢٠).

الآيات هنا تتحدث عن إحدى طباع الإنسان السائدة، والمتمثلة في أنه إذا ما أصاب من المال الكثير يشعر بأن الله أكرمه بهذا المال لأنه يستحقه، بينما لو لم يوفق وكان حظه قليلاً مادياً وافتقر، فسيخالجه شعور أن الله هو من قدر عليه هذا. والبعض يعتبره امتحاناً والبعض يعتبره عقاباً..الخ. وهو معتقد شائع، وقد اختلقت له أحاديث كثيرة.

والآيات تقول ليس هذ ما يحدث، ولكن ما يحدث هو أن الغني يجمع المال ويحجبه عن غيره فيصيب الفقر البعض نتيجة لذلك. ولو أنفق الغني قليلا من ماله على حاجات الفقير لعاش الغني بغناها واختفى الفقر من المجتمع. والآيات تنفي أن يكتب الله جل شأنه للبعض الغنى وللبعض الفقر. ولكن الفقر نتيجة لجشع الغني وجمعه لمال يفوق احتياجاته وحجبه عن الفقير. وهو ما يمارسه كبراء قريش، الذين يكدسون الأموال الطائلة ولا يعطون منها اليتيم والمسكين والمحتاج.

والآيات تفرض إكرام اليتيم (تعاملاً ومادياً) وتؤكد على الإنفاق على المسكين (المحتاج) الذي سبق وفرض في الآية: (٤٤) من سورة المدثر. ((لاحظ أن الإنفاق يكون على المحتاج بغض النظر عن معتقده، ويطالب به الأغنياء من أهل البلد مسلمهم وكافرهم))

والسورة في آخرها تؤكد على أن البعث سيكون بعد انهيار الكون (٢١)، وتتوعد المكذب وتعد المؤمن: كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً(٢١) وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً(٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى(٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ(٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ(٢٦) يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ(٢٧)

ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً(٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي(٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي(٣٠).

الآيات تقدم صورة مجازية حسية لانهيار هذا الكون، عندما تدك الأرض دكاً دكاً.

والآيات تقدم صورة مجازية أخرى معروفة عند البشر، وكأن الله جل شأنه سيحضر ويمر بين صفين من صفوف الملائكة (الحرس الملكي الخاص) لمكان الحساب، كما يفعل السلاطين. وهذا لن يكون ولن يختلط الخالق مع المخلوقات، ولن يكون هناك خدم لله يوم القيامة من مخلوقاته الحية يقومون بالعمل نيابة عنه سبحانه[1]. لأن كل المخلوقات بما فيهم الملائكة سيخضعون للحساب ولن يطالبوا بأعمال يقومون بها، لأن القيامة وقت العقاب والثواب، والدنيا وقت التحصيل والعمل. لكن الصورة المجازية قدمت لقريش لتقريبها من أذهانهم بأنه سيكون هناك حساب وجنة للمؤمن ونار للكافر.

والآية: (٢٧) تؤكد حقيقة هامة وهي أن الإنسان يوم القيامة سيكون نفساً ولن يكون له حامل محسوس (جسد مادي) كما هو الحال في الدنيا. وهو ما قد يدل على أنه سيكون مخلوقاً لا جسدياً، نوراني من طاقة، كما هي حال الجن والملائكة في الدنيا[2].

(٢١) البلد

السورة تبدأ بقسم كغيرها من سور هذه الفترة، وتؤكد أن قريشاً لو فكرت بخلق الإنسان لكان كاف لإثبات إمكانية البعث.

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ(١) وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ(٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ(٣).

القسم بمكة (هذا البلد) الذي يحل فيه ويقيم محمد عليه الصلاة والسلام: «وأنت حل بهذا البلد». وقسمٌ آخر بكل والد وما ولد له. وكما سبق وذكر من أنه ليس المقسم به هو المهم بل المقسم له، وهو هنا ما تخبرنا به الآيات التالية:

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ(٤) أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ(٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً(٦) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ(٧) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ(٨) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ(٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ(١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ(١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ(١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ(١٣) أَوْ إِطْعَامٌ

---

١ وليس لله جل وعلا خدم من مخلوقاته في الدنيا ولا في أي وقت، لأنه سبحانه ليس بحاجة لمعاونة ولا خدمة من أي مخلوق. ولأن كل مخلوقات الله في الدنيا المتمثلة بهذا الكون ولا في الآخرة وكونها وجنتها ونارها وحسابها تسير حسب قانين فيزيائية يبدعها الخالق وتقوم بالعمل دون حاجة لإدارة أو إشراف أو صيانة.

٢ انظر فقرة: الإنسان في الآخرة لن يكون بجسد مادي / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ(١٤) يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ(١٥) أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ(١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ(١٧) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ(١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ(١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ(٢٠).

السورة تشير إلى حقيقة معاناة الإنسان في الحياة. ومع ذلك فهو يتكبر ويتجبر ويظن أنه لا يقدر عليه أحد، مع أنه سريع العطب قصير الحياة. ولو فكر بحكمة فسيؤمن لكي لا يخسر الحياة الأبدية في الآخرة.

الآية: (١٠) تشير إلى حقيقة أن الدين خيار شخصي. فالله جل وعلا مكن الإنسان من النظر والكلام والقدرة على اختيار الطريق. فلماذا يحجم الانسان عن اقتحام الطريق الى الخير: «فلا اقتحم العقبة، وما أدراك ما العقبة، فَكُّ رَقَبَةٍ، أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ، يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ، أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ» لكي يكون «مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ». بدل الكفر.

واقتحام العقبة تشير إلى أن تخطي الموروث صعب، لأن التمسك بالموروث له قوة عجيبة تجذب الإنسان ولو كان يعلم أن موروثه خاطئ والدعوة صحيحة. لذا فتخطي الموروث والدخول في الإسلام يحتاج لشجاعة وإقدام، يجب على رجال قريش التحلي بها.

فالإسلام يدعو لمبادئ أخلاق نبيلة أولها: القضاء على العبودية بين البشر والتعامل بين الناس بالمساواة: «فك رقبة». ومكة كانت تعج بالعبيد والموالي الذين ينظر لهم كبراء قريش على أنهم اقل إنسانية منهم وأنهم خلقوا لأجل خدمتهم وسخروا لهم كما الآلات.

والمبدأ الآخر هو: حق الجميع في العيش بكرامة، ولا كرامة مع الفقر. لذا يلزم على كبراء قريش الأغنياء الإنفاق لسد حاجة المحتاج، سواءً كانت الحاجة طارئة: «إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ. مجاعة حدثت بسبب أزمة اقتصادية، مما يوجب توفير الغذاء والحاجات الأخرى للمتضررين. أو كانت ظاهرة مثل رعاية الأيتام وتوفير احتياجاتهم، خاصة أن أي يتيم في مكة كان قرشياً ويجتمع مع الكبراء في النسب: « يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ». كما يجب القضاء على ظاهرة الفقر والعوز في المجتمع: «أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ». وذلك بخطط استراتيجية فعالة وطويلة المدى.

وبعد ذلك: ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ». إن أراد دخول

الجنة: «أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ».

ولو عمل المسلمون بعد الرسول بواجب تحرير الرق لما بقي رقيق واحد في بلاد المسلمين، ولكنهم تركوا كتاب الله وراء ظهورهم وعملوا بعاداتهم الجاهلية وسبوا النساء واسترقوا الرجال في البلاد التي استولوا عليها في العصر الأموي وما بعده. مما جعل الإسلام يبدو بمظهر المُسترقّ المستبد.

(الآيات: ١٣-١٦) تشير إلى أن مجالات الإنفاق المطلوبة أكثر من غيرها في تلك المرحلة كانت في فك الرقاب (عتق من أسْرٍ أو رقٍ)، أو إطعام المحتاج واليتيم خاصة في وقت المجاعة.

الآية: (١٧) تؤكد على التلاحم والتراحم بين المؤمنين وضع يجب أن يعم المجتمع المسلم.

ومن المهم ملاحظة أن الإنفاق يكون في سد الاحتياجات بأنواعها وقت الحاجة لها. فكما رأينا كان هناك سور سابقة تأمر بالإنفاق للمسكين، ثم للمسكين واليتيم. والآن التوجيه بالإنفاق للمسكين واليتيم وفك الرقاب. وسنرى سوراً تطلب صرف الإنفاق في مجالات أخرى كثيرة. وهذا لا يعني أن كل آية تأمر بالإنفاق تنسخ الأوامر السابقة بل تعني أن كل أمر في الإنفاق يضاف لأوامر سابقة. سواءً سمي إنفاقاً أو وصف بالزكاة أو الصدقة ..الخ.

ولابد من الإشارة إلى قوله تعالى: يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ(١٥) أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ(١٦). فاليتيم ذو المقربة ليس المقصود به أن نطعم ونعين اليتيم الذي يتصل بنا بعلاقة نسب ونترك الأيتام غيره، ولكن بما أن الخطاب في السورة موجه لقريش، فإن كل يتامى مكة من ذوي القربى بالنسبة للكبراء الأغنياء أصحاب الأموال، ويشتركون معهم في النسب. بينما قالت الآية ١٦: «أو مسكيناً ذا متربة» لأنه يوجد في مكة مساكين من أقوام غير قريش. وهو ما يؤكد أن الإنفاق يكون للمحتاج بغض النظر عن جنسه ونسبه وأصله ومعتقده.

(٢٢) القيامة

سورة أكدت بقسم في بدايتها على البعث الذي تصر قريش على إنكاره (أو الإنسان كما تخاطبها سور هذه المرحلة): لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ(١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ(٢) أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ(٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ(٤) بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ(٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ(٦).

والسورة تكرر القسم المسبوق بلا: لا أقسم، كما في السورة السابقة البلد، وفي سور أخرى مثل: التكوير ١٥، الانشقاق: ١٦، الواقعة: ٧٥، الحاقة: ٣٨، والمعارج: ٤٠.

وقوله «بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ. يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ» يبين أن تساؤل قريش ليس بحثاً عن الحقيقة ولكنه لتبرير استمرارهم رفض دعوة الإسلام.

القرآن لا يخاطب الناس بعد الرسول بخطاب دعوي

ونتوقف قليلاً عند قوله: «بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ» فبعض المعاصرين الذين يهمهم أن يؤلفوا المؤلفات حول عبارة في القرآن وكأنها هي المهمة في سياق الآية، ليظهروا بمظهر من يعرف ما لا يعرفه غيرهم، ويتأولون الآيات لغير معناها. هؤلاء يقولون إن القرآن يحوي معجزات منها حقائق علمية لم يكتشفها الإنسان إلا في العصر الحديث ومن ذلك أن القرآن هنا يتحدث عن بصمات الأصابع والتي اكتشف العلم الحديث أن كل إنسان يمتاز ببصمات أصابع لا تتشابه مع بصمات أصابع أي إنسان آخر في العالم. وكلامهم هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً، لأن الخطاب دعوي في الآيات وموجه لقريش بما يعرفون في عصرهم. ولو كان الحديث عن بصمة الإصبع فسيكون خطاباً دعوياً لأناس سيأتون بعد مئات السنين من عصر الرسول. وهذا لا يمكن أن يكون. لأن دين الله يبدأ بدعوة الناس للإيمان أولاً، حسب مداركهم وما يعرفون. ومتى وجدت جماعة مسلمة نزلت التشريعات. وبعد اكتمال التشريع يتوقف الخطاب الدعوي، لأنه لم يعد له حاجة. وهو ما سنلاحظه في سور القرآن. فمن رغب في التعرف على دين الله فهو موجود في تشريعاته، دون حاجة لخطاب دعوي. وقد تأول المفسرون القدماء الآية لغير معناها تأويلاً مضحكاً، يتناسب مع مداركهم الضيقة وقلة إيمانهم، وهذا بعض منه كما أورده الطبري في تفسيره:

وقوله: أَيَحْسَبُ الإنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ يقول تعالى ذكره: أيظنّ ابن آدم أن لن نقدر على جمع عظامه بعد تفرّقها، بلى قادرين على أعظم من ذلك، أن نسويَ بنانه، وهي أصابع يديه ورجليه، فنجعلها شيئا واحدا كخفّ البعير، أو حافر الحمار، فكان لا يأخذ ما يأكل إلا بفيه كسائر البهائم، ولكنه فرق أصابع يديه يأخذ بها، ويتناول ويقبض إذا شاء ويبسط، فحسن خلقه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. انتهى.

ثم جاء المحدثون وتأولوا الآية لغير معناها، بقولهم إنها تتحدث عن إعجاز علمي وأنها

تتحدث عن علم البصمات، لأنهم لا يعون أن الدعوة تخاطب المدعو وقت نزول السورة بما يتوافق مع مداركه وما يعرف. ويكون الحديث عن البنان كونه عضواً صغيراً، والآية تقول لقريش إن الله قادر على إعادة خلق الإنسان وعبر عن ذلك بإعادة خلق بنانه، من باب ذكر الجزء والمراد الكل، وهو استخدام لغوي شائع ومقبول وصحيح.

الحساب بعد انهيار هذا الكون

(الآيات: ٧-١٠) تعطي صوراً حسية لانهيار الكون مكررة أن البعث لن يكون في هذا الكون بل بعد انهياره:

فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ(٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ(٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ(٩) يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ(١٠).

مستخدمة أسلوباً مجازياً لن يحدث حرفياً، ولكنه يصور انهيار الكون. ولن يكون هناك وجود للبشر حين ينهار الكون، لأنهم سيكونون قد انقرضوا قبل ذلك بملايين أو آلاف الملايين من السنين، وبالتالي فلن يرى أحد القمر وهو يخسف أو وهو يصطدم بالشمس، ولن يكون هناك إنسان على قيد الحياة ليقول: أين المفر؟

مئال الخلق للخالق

كَلَّا لَا وَزَرَ(١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ(١٢) يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ(١٣).

عندما تقوم القيامة سيؤول الخلق للخالق، وعندها سيعلم كل مخلوق مصيره. ليس فعلياً كما يتصور البعض من أن الله سيكون حاضراً وكأنه القاضي وبين يديه الناس يحاكم كل واحد ويحكم عليه. ولكن الخلق سيئول للخالق بشكل غير مباشر، كونه سبحانه هو من يعيدهم للحياة، وهو سبحانه من وضع قوانين الحساب وهو من خلق الجنة والنار. وسيحاكم المرء بناءً على ما تحفل به صحيفة أعماله ثم يلقى مصيره نتيجة لذلك. وقوله: «ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر» معني بها كل ما صدر منه منذ بداية حياته (قدّم) وحتى آخر أيامه (أخر) لأن صحيفة الأعمال تسجل كل ما يصدر من الإنسان منذ لحظة ولادته وحتى لحظة وفاته.

الإنسان هو من يقرر مصيره بنفسه

وتقول (الآيتان: ١٤-١٥): بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ(١٥).

الإنسان هو من يقرر مصيره بنفسه، ولن يعذر لكفره لأي سبب يختلقه، مثل قوله إن الله لو أراد هدايته لهداه، أو قول أحدنا إن قليلاً من الخمر لن يدخله النار ونحو ذلك.

الوحي لن ينساه الرسول ما بقي حياً

وتتحول السورة لمخاطبة الرسول: لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ(١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ(١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ(١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ(١٩).

ويبدو أن الرسول يردد بينه بين نفسه وبصورة عفوية نصوص الوحي التي يجدها رسخت في ذاكرته، فطمأنته هذه الآيات أنه لا حاجة لأن يردد ما يوحى إليه لأنه لن ينساه. وكل ما عليه فعله هو أن يتلو ما يوحى إليه على قريش كما نزل، دون الحاجة لا لشرحه أو التعليق عليه بكلامه هو: ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ. فحد مسئولية محمد تنحصر في التبليغ.

وهذه هي المرة الثانية التي تؤكد الآيات أن القرآن ينسخ في الذاكرة ولن ينساه الرسول، بعد سورة الأعلى: سَنُقْرِؤُكَ فَلَا تَنسَى(٦).

قريش متعلقة بمتاع الدنيا

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ(٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ(٢١).

الآيات تؤكد أن قريشاً يفضلون الدنيا ولا يعملون للآخرة، وقد سبق وأكدته سور سابقة، مثل: الآيات: ٦-٨ من سورة العلق، والآيتان: ١٦-١٧ من سورة الأعلى.

صور مجازية حسية لمصير المؤمن والمكذب يوم القيامة

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ(٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ(٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ(٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ(٢٥)

الآيات تقدم صوراً حسية افتراضية (مجاز) لمصير المؤمن والمكذب. وهنا يجب ملاحظة قوله تعالى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ(٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ(٢٣).

فالراسخ لدى الناس مما قالته كتب التراث أخذ الآيتين بمعناهما الحرفي، وأن المؤمن سيرى الله كما يرى أحدنا الآخر، لأنهم قالوا إنه لا وجود للمجاز في القرآن. والمجاز موجود والآيات هنا لا تتحدث عما سيكون بقدر ما تقدم تصويرا محسوساً يَسْهُل للمخاطب فهمه، حول نعيم المؤمن يوم القيامة، وتعاسة وبؤس المكذب. وليس القصد من الآيات تقرير

حقيقة رؤية الله جل شأنه. وما يجب الانتباه له هو أن المخلوقات كلها في الكون ضعيفة حقيرة لا تساوي شيئاً للخالق سبحانه وتعالى، وأن عالم المخلوقات لا يمكن أن يكون له علاقة وصلة مباشرة بعالم الخالق أبداً. وسيبقى المخلوق مخلوقاً في الآخرة كما هو في الدنيا وإن تغيرت هيئته والوعاء الحامل له. لذا فإن كان لا يستطيع رؤية رب العالمين في الدنيا فلن يراه في الآخرة، لأن ما للمخلوق سيبقى للمخلوق، ولن يرى الله لأن الله خالق جل شأنه: لَّا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ(١٠٣) الأنعام.

والنظر لله يعني أن لله جل شأنه جسد يُرى، وهذا يتنافى مع وصفه سبحانه:... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ(١١) الشورى.

كما أن البصر والسمع والحواس الأخرى للمخلوقات أنشأها الله لها لأنها تيسر لها حياتها، وليس لأنها الوسائل الوحيدة للتواصل في الكون أو في عالم الخالق: وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ(٧٨) المؤمنون.

فهذه الحواس ابتدعها الله لبعض مخلوقاته لحاجتها لها، وما للمخلوق فليس للخالق سبحانه منه شيء ولو بصورة مختلفة.

وكل الآيات التي تتحدث عن نظر الله للناس أو تكليمهم يوم القيامة هو تعبير مجازي يعني الرضى من الله: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَـئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٧٧) آل عمران[١].

وتستمر سورة القيامة باستخدام التعبير المجازي لتصور حسيا أن البعث سيكون بعد الموت، وهناك سيكون مصير المكذب سيئاً. وكان بإمكانه إعمال عقله والتفكير في كيفية خلقه ليستدل بأن البعث ممكن وينجو من النار:

كَلَّا إِذَا بَلَغَتْ التَّرَاقِيَ(٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ(٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ(٢٨) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ(٢٩).

وصف مجازي لمفارقة الحياة، يقصد منه الترهيب، ولا وجود له على أرض الواقع. لأن الإنسان عندما يموت لا تلتف ساقاه على بعضها، ولا تبلغ النفس عظم الترقوة في طريقها

---

١ انظر فقرة: ليس كمثله شيء / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

للخروج من الجسد. والموت ليس كما يتخيل البعض وكأنه انتزاع النفس (التي يتصورون أنها شيء حسي) من الجسد بحيث يبدأ نزعها من أسفل الجسم صعوداً للرأس، وأنه إذا بلغ نزع النفس الحلقوم اختلج الإنسان ووصل للحظة الموت، فهذا تصور لا أساس له.

لأن الموت عبارة عن عجز الجسد عن حمل النفس - كما رددنا أكثر من مرة - نتيجة للهرم أو المرض أو الحوادث، فتدخل النفس في حالة خمول ولا تعد نشطة تعمل، وهو ما نسميه الموت. لأن النفس (أي نفس حية) تحتاج لوعاء قادر على حملها لكي تنشط (تحيا) ولا يمكن للنفس من أن تكون في حالة نشطة خارج الوعاء[1]. وبعد الموت يكون الحساب، وكأنه حدث مباشرة مهما طال الزمن بين موت الإنسان وانهيار كون الدنيا ثم نشأة كون الآخرة، لأن النفس خاملة لا تسجل ما يمر بها من زمن: إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ(٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى(٣١) وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى(٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى(٣٣) أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى(٣٤) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى(٣٥).

وقد ذكرت الصلاة هنا كعبادة مطلوبة مع الإيمان لدخول الجنة: فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى(٣١). وهذا لا يعني أن الإنفاق المذكور في سور سابقة غير مطلوب أو أن من صلى فقط وصدق سيدخل الجنة ولو لم ينفق. لكن أسلوب القرآن الذي سنعتاد عليه قد يذكر بعض التشريعات في سورة ويذكر بعضها الآخر في سور آخرى بما يتناسب مع الهدف والغاية من الحديث. وعلينا أن نفهم أنه متى ما فرض القرآن تشريعاً فهو مطلوب حتى لو لم تذكره بعض السور بعد ذلك. وسيتضح ما أقول لو تتبع القراء السور التي تتحدث عن الإنفاق، حيث سنجدها تارة تذكر مجالات للإنفاق لا تذكرها في سور لاحقة. وهذا لا يعني أن الإنفاق في تلك المجالات لم يعد مطلوباً. بل أن الإنفاق يجب في كل مجال للإنفاق ذكرته سورة من السور.

دعوة عقلانية

السورة تؤكد أن الكافر (قريش) لو فكر بخلقه فسيعلم أن البعث هين على الله جل شأنه: أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى(٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى(٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى(٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى(٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ

---

١ انظر فقرة: الموت / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

الْمَوْتَى(٤٠).

والآيات تتحدث عن بعض مراحل تخلق الجنين في الرحم، بما يمكن للمخاطب (قريش) تصوره وما هو معروف لديهم. فهم يعلمون أن المني يتخلق منه الإنسان، لكنهم لا يملكون الوسائل العلمية التي تساعدهم على معرفة أن السائل المنوي يحتوي على حيوانات مجهرية، ولا يعلمون أن المرأة تفرز ما يسمى بالبويضة، وأن واحداً من هذه الحيوانات المجهرية يصل للبويضة ويلقحها فيحدث الحمل. لذا لم يذكر القرآن الحيوان المنوي ولا البويضة ولا التلقيح، ولكنه ذكر أن الإنسان يتكون من المني وهذا صحيح. وأنه يبدأ كنطفة متناهية الصغر، ثم يتحول لعلقة صغيرة يمكن رؤيتها متعلقة بجدار الرحم، ثم تنمو لتتشكل كإنسان. وهذا التفصيل في السرد يخاطب قريشاً لتفكر أن من خلق الإنسان بهذه الطريقة الإعجازية قادر على إعادة خلقه يوم القيامة. والإنسان منذ القدم على اطلاع بأطوار تخلق الجنين، ليس لأن علم التشريح قديم، ولكنهم تعلموا ذلك عملياً. فالحامل عرضة لأن تسقط جنينها في أي مرحلة من مراحل الحمل، وبذلك عرف الناس أن الحمل يتم على أطوار مختلفة.

فترة حيرة قريش وغلبة الموروث

مع أن قريشاً أعلنت موقفها الذي لن يتغير والرافض تماماً لدعوة الإسلام، إلا أن النقاشات بين رجالها حول إمكانية البعث من عدمه كانت تطفو على السطح أحياناً. فالبعض كان يقتنع بما يسمع من الرسول عن البعث وأن الله الذي خلق الإنسان من لا شيء قادر على إعادة بعثه، بينما البعض الآخر يصر على استحالة البعث والقيامة. وفي مثل هذه الأجواء السائدة في مكة نزلت مجموعة من السور أهم ملامحها أنها تدعو للتفكير بالخلق للاستدلال على قدرة الخالق على البعث. إضافة لتقديم صور مجازية حسية عن البعث، وانهيار الكون ونشأة كون القيامة، وما في الجنة والنار.

وقد نزل في هذه الفترة أربع سور هي: النبأ، ق، الواقعة، والغاشية.

(٢٣) النبأ

رجال قريش اختلفت آراؤهم حول إمكانية البعث

عَمَّ يَتَسَاءلُونَ(١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ(٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ(٣).

رجال قريش ينخرطون في مشاحنات وجدل حول إمكانية البعث من عدمه، البعض بدأ يقتنع أن هناك بعثاً لأن الله قادر على ذلك، والبعض ينفي حدوث ذلك ويؤكد استحالته[١]:

كَلَّا سَيَعْلَمُونَ(٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ(٥).

عندما يبعثون يوم القيامة.

دعوة عقلانية

وبدءً من نهاية السورة السابقة يتحول الخطاب الدعوي إلى خطاب عقلاني، يطالب قريشاً بالتفكير فيما حولهم من مخلوقات الله، فهي كافية لإثبات عظمة الله وقدرته على إعادة خلقهم: أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً(٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً(٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً(٨)

فمن خلق الأرض والجبال والناس لن يعجزه بعثهم: لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(٥٧) غافر.

---

١ انظر فقرة: رجال قريش يختلفون حول البعث / قسم أحداث في عصر الرسول.

وتقول سورة عم: وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً(٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً(١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً(١١).

- النوم سبات وهمود وخروج من عالم الحياة.
- الوضع الطبيعي أن يكون العمل وطلب الرزق في النهار والراحة والنوم في الليل. وهذا الوضع هو الذي كان سائداً بين الناس زمن الرسول، وهو الوضع الطبيعي الذي يجب أن يسود.

وتواصل السورة في دعوتها العقلانية لقريش:

وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً(١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً(١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجاً(١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً(١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً(١٦).

السبع الشداد هي السماوات السبع. وبما أنه ليس هناك سبعة أكوان، فالسماوات السبع قد يكون معناها طبقات الجو المحيطة بالأرض.

والأسلوب المتبع من بداية السورة هو أسلوب مجازي، وهنا يصف الشمس بالسراج، والسحاب بالمعصرات، وكأن السحب تُعصر لينزل منها المطر.

يوم القيامة سيحين في وقت محدد

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً(١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً(١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَاباً(١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً(٢٠)[1].

يوم الفصل (الحساب) سيأتي في وقت محدد، مما يعني أن لهذا الكون عمراً محدداً ينهار بعده وينشأ كون جديد للقيامة. ونهاية هذا الكون صورتها الآيات وكأن نفخة عظيمة ستتسبب باضطراب قوانين الكون وتهاوي شموسه وكواكبه ثم تتلاشى كما بدأت. وقد أعطت الآيات صوراً حسية مجازية لذلك بقولها: «وفتحت السماء فكانت أبواباً، وسيرت الجبال فكانت سراباً». فهذه الصور لن تحدث في عالم القيامة ولكن عند نهاية هذا الكون.

صورٌ مجازية حسية لعذاب النار

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً(٢١) لِلْطَّاغِينَ مَآباً(٢٢) لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً(٢٣) لَا يَذُوقُونَ

---

١ انظر فقرة: انهيار الكون/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً(٢٤) إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً(٢٥) جَزَاء وِفَاقاً(٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً(٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً(٢٨).

ومن يدخل النار فسيخلد، ومع ذلك تقول السورة: «لابثين فيها أحقاباً» والحقب عصور جيولوجية طويلة جداً، لكن هذا لا يعني أن أهل النار سيخرجون بعد بلايين السنين. وإنما المقصود أن بقاءهم فيها مستديم حيث ستمر بهم حقب بعد حقب بلا نهاية.

صحيفة الأعمال تسجل كل ما يصدر من الإنسان

وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً(٢٩).

صور مجازية حسية لنعيم الجنة للترغيب

فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً(٣٠) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً(٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً(٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً(٣٣) وَكَأْساً دِهَاقاً(٣٤) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً(٣٥) جَزَاء مِّن رَّبِّكَ عَطَاء حِسَاباً(٣٦) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً(٣٧).

وصور مجازية حسية لبعض ما سيحدث يوم القيامة

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً(٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً(٣٩) إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً(٤٠).

(الآية: ٣٨) تقول إن الله جل وعلا هو وحده من سيقوم بالحساب. (بطبيعة الحال هذا لا يعني أن الناس سيقفون وكأنهم في محكمة وأمامهم رب العالمين ثم يتقدم كل شخص ويحاكمه الله ويحكم عليه). فهذه الصورة المجازية الحسية فقط لتقريب ما سيحدث لذهن المخاطب. وإلا فالحساب سيتم بآلية وإن كنا لا نستطيع تخيلها إلا أن الآيات الكثيرة التي تتحدث عن صحيفة الأعمال تشير إلى أن كل شخص ستعرض عليه أعماله التي سجلتها صحيفته، وسيعرف مصيره بناء على ذاك السجل. فكل شخص سيعرض عليه شريط صحيفة أعماله دون الحاجة لانتظار غيره، بحيث يكون العرض في وقت واحد لكل الناس، وكل إنسان يرى شريط أعماله على حده، وسيعرف مصيره دون حاجة لمحاكمة ومرافعات وطلب براءة أو تخفيف الحكم: لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ(٣٧) عبس.

(الآية:٣٩) دليل آخر على أن الهداية والضلال خيار شخصي: « فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً».

وتختم السورة بتصوير حال المؤمن والكافر يوم الحساب، حيث سيسر المؤمن بما قدم بينما سيتحسر الكافر (٤٠).

في هذه الأثناء قريش تعيش فترة من اللا - توازن، بعضهم يميل للتصديق بإمكانية البعث والبعض ينكر. وهو ما صورته سورة النبأ السابقة «بأنهم يتساءلون عن البعث». وفي هذا الجو تنزل سورة «ق» لتخبرنا أن حالة اللا- توازن مازالت مستمرة بين رجال قريش:

(٢٤)ق

والسورة بكاملها تعتمد الكنايات والصور المجازية الحسية الناطقة فيما تطرقت له من مواضيع كالحساب وصحيفة الأعمال وجهنم، وتصورها كمخلوقات حية لديها القدرة على الحديث. وهذا لنسج صور يسهل تخيلها ويقوي تأثيرها في النفس لدى رجال قريش الذين تخاطبهم هذه السورة وكل سور المرحلة.

وقد تطرقت السورة للمواضيع التالية:

استمرار الجدل بين رجال قريش حول البعث

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ(١) بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ(٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ(٣).

قريش تؤمن بالله، لكنها تجد صعوبة في الإيمان بالبعث بعد الموت، وهو ما أثار تساؤلات بين القرشيين. بعضهم وجد إمكانية البعث التي يقول بها محمد معقولة ومقبولة لأن الله خلق كل شيء وقادر على إعادة خلقه، بينما يصر آخرون على إنكار حياة ما بعد الموت جملة وتفصيلاً. وكلا الفريقان لن يؤمن وسيبقيان على الكفر، لأن سنة الأولين حقت عليهم: «فمن لا يؤمن في بداية سماع الدعوة، لن يؤمن بها مهما دعي». لكن من بدأ يعتقد بإمكانية البعث أقنع نفسه أنه إن كان هناك بعث فسيكون من أهل الجنة، لأنه - حسب تقديراته - يستحقها وسيرزقه الله بها. وهذا ما ستتحدث عنه سور قادمة. أما الفريق الذي استمر على إنكار البعث فإنكاره يحميه من إمكانية أن يكون موروثه الذي يتمسك به على ضلال، لأن من قال له إن هناك بعثاً هو محمد الذي يصر على أن موروث قريش الديني ضال، ولو

صدقوه بما يقول عن البعث فهو اعتراف منهم أن موروثهم ضال وعليهم قبول دعوة محمد وهذا دونه خرط القتاد.

من أنت لتكون رسولا من بيننا

الآية الثانية تشير إلى واحد من أهم العوامل التي تمنع الناس من التصديق بالدعوة على مر العصور، وهو: أن الرسول بشر مثلهم، نشأ بينهم، ولا يمتلك أي قدرات خاصة تفوق قدراتهم، فكيف يمكن أن يختاره الله ليكون رسولاً له من بينهم وهناك من هو أفضل منه وأقدر (حسب مواصفات البشر الدنيوية): «بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ».

كل شيء يسجل

قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ(٤).

كل شيء في الكون يسجل، سواءً حركة المجرات أو المخلوقات الحية.

عود للإشارة للجدل حول البعث

بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ(٥).

الآية تؤكد استمرار رجال قريش بالجدال حول إمكانية البعث، بعضهم يصدق وبعضهم ينكر وهو ما أشارت له بداية السورة، والسورة السابقة. «فهم في أمر مريج»

دعوة عقلانية

أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ(٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ(٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ(٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ(٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ(١٠) رِزْقاً لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ(١١)

ما تمتاز به سور هذه الفترة هو دعوة قريش للتفكير بما حولها من مخلوقات لتستدل على قدرة من خلقها على بعثهم، كما في السورة السابقة.

فليتفكروا في خلق السماء، وفي الأرض وما تنبت. فالنباتات تموت، ثم تعود وتنبت من

جديد مع نزول المطر، في وضع مماثل لبعثهم بعد الموت لو كانوا يعقلون.

لكن التمسك بالموروث يعمي البصر والبصائر ويلغي العقل والحكمة.

وتتحول السورة لدعوة عقلانية من نوع آخر:

دعوة قريش للتفكير بما حل بأمم سابقة

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ(١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ(١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ(١٤).

لو كانت قريش تعقل لعرفت أن مصيرها سيكون مشابهاً لمصير أمم خلت، كفرت فهلكت ومصيرها النار. ولو كانت قريش تعقل لفكرت أن تكذيبها اتباعٌ لسنن من كان قبلها من أمم، كلهم كذبوا لأنهم تمسكوا بموروثهم، برغم وضوح الحق وقوة الحجة. فكل ما يدعوهم إليه الرسول هو عبادة الله بدل الأصنام والعمل للآخرة.

وهذه المرة الثالثة التي يذكر القرآن أمماً سابقة بعد سورتي الشمس والفجر، باختصار ودون تفاصيل. وسنرى أن السور ستبدأ تعطي تفاصيل دقيقة عن تلك الأقوام.

وتتساءل السورة بعقلانية:

أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ(١٥)

إن كان الخالق خلق كل الكون من لا شيء (الخلق الأول) فلماذا يصعب عليهم التصديق بالبعث (تجديد الخلق)؟

وتواصل السورة الدعوة للتفكير، وفي نفس الوقت تعطي صورة مجازية لـ:

صحيفة الأعمال

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ(١٦).

الله أقرب للإنسان من حبل الوريد الذي في جسمه، تعبير مجازي للدلالة على قرب الله من الإنسان. والقرب ليس في المكان ولكن في القدرة على رصد كل ما يصدر من كل فرد بدقة متناهية. وذلك بإيداع آلية تسجيل الأعمال، والتي تعبر عنها السورة تعبيراً مجازياً بالقول:

إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ(١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ(١٨).

هذه الآلية التي في النفس ترصد وتسجل كل ما يجول في خاطر الإنسان وكل ما يصدر منه من قول أو فعل، بل كل ما يمر على حواسه الخمس من ولادته لوفاته. والآيات تصف الآلية وكأن هناك متلقياً موجود على يمين المرء وآخر على يساره يلازمانه ويكتبان ما يصدر منه. ويراقبان كل قول ويسجلانه بدقة. كناية على أن كل ما يصدر منه يسجل وليس معناها حرفياً أن هناك راصدين واحد إلى يمينه وآخر عن شماله كما يقول المفسرون الذين خصصوا الذي على اليمين لكتابة الأعمال الصالحة والذي على اليسار للأعمال السيئة دون بينة واعتماداً على تخيلاتهم.

وتواصل السورة أسلوبها المجازي لوصف ما سيؤول إليه المرء:

فهو سيموت:

وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ(١٩).

ثم ينشأ كون القيامة (والذي سبقه نهاية هذا الكون):

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ(٢٠).

وهناك سيكون الحساب الذي صورته السورة بهذه الصورة:

وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ(٢١).

فصحيفة الأعمال صورتها السورة كسائق يقود المرء لمصيره، وهي كذلك، كونها شهيداً عليه في كل ما صدر منه وسجلته عليه. وهو وإن كان وصفاً مجازياً فهو يعبر بكل دقة عن أن الحساب سيكون بناءً على صحيفة الأعمال.

وعندما ينتهي الحساب يكتشف المرء الحقيقة ويرى بكل وضوح مآله الذي رسمه لنفسه:

لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ(٢٢).

فالبصر حديد تعبير عن وضوح الصورة ولم يعد هناك شك ببعث ولا حساب ولا مصير، كما كان يقنع المرء نفسه في الدنيا.

وستستمر السورة بتقديم كنايات وصور ناطقة عن الأوضاع:

وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ(٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ(٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ

مُّرِيبٍ(٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ(٢٦).

الآيات تصور صحيفة الأعمال وكأنها مخلوق حي، وبعد أن حوسب صاحبها وثبت مصيره في النار، يتحدث القرين (الصحيفة) قائلاً: لقد قدمت شهادتي وسجلاتي ولم يتبق سوى إلقاء الشخص في النار نتيجة لكفره.

ويواصل القرين (صحيفة الأعمال) الحديث:

قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ(٢٧).

يا ربي أنا (الصحيفة) لم أسجل عليه غير ما صدر منه ولم أكتب عليه شيئاً غير ذلك، وبالتالي فلم أضله ولم أشجعه على الضلال، ولكنه هو من أضل نفسه بنفسه.

وتواصل السورة تقديم هذا المشهد المجازي، وكأن الله يتدخل:

قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ(٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ(٢٩).

لا داعي للكلام، فكل ما حدث كان بعلمي وأنا من قدمت للناس الوعيد من هذا المصير ومن كفر فسيناله، لأن قولي لا يبدل. ودخول الكافر النار ليس ظلماً له من الله، ولكنه هو من ظلم نفسه.

وهذا الحوار لن يحدث ولكنه لتقريب الصورة من ذهن المخاطب بطريقة يستطيع تصورها لعله يرتدع.

وتستمر السورة في أسلوبها المجازي:

جهنم ستتسع لكل كافر وعاصٍ

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ(٣٠)

تصوير جهنم بصورة ناطقة لزيادة تأثير الترهيب في النفس، وإلا فالنار لا تتكلم والله جل شأنه لن يسألها أو يتحدث معها. هو من خلقها بقوانين ثابتة وبالصفة التي يريد. المؤسف هو أن المفسرين – كعادتهم – رسخوا أن النار تتحدث بالفعل مثلما رسخوا كل أساليب القرآن المجازية على أنها فعليه كرؤية الناس لله وغيرها الكثير.

الجنة

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ(٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ(٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ(٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ(٣٤) لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ(٣٥).

وتعود السورة للدعوة العقلانية:

من الخير لقريش أن تعتبر

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ(٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ(٣٧).

لو كان رجال قريش يعقلون لاعتبروا مما حدث لأمم سابقة، كذبوا فهلكوا بمفارقة الدنيا وبمصيرهم الأسود يوم القيامة.

خلق الكون العظيم سهل على الله

وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ(٣٨).

تأكيد على أن البعث لن يكون عسيراً على الخالق الذي خلق هذا الكون دون تعب. وقوله: «وما مسنا من لغوب» على سبيل الافتراض. فهي تخاطب الناس حينها بما يدركون. وإلا فالله جل شأنه لا يمسه لغوب لو خلق ملايين الأكوان.

وهنا أول مرة يذكر القرآن خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وسيتكرر في سور قادمة.

واليوم عندما يذكر في الحديث عن خلق السماوات والأرض (الكون) يعني عصراً جيولوجياً. وهو ما لا يتنافى مع معنى اليوم في اللغة، والذي يمكن أن يأتي بعدة معانٍ منها ٢٤ ساعة ومنها فترة زمنية متماثلة السمات مهما طالت.

وتتوجه الآيات لمخاطبة الرسول:

الرسول يتعرض للضغوط

فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ(٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ(٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ(٤١) يَوْمَ

يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ(٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ(٤٣).

الآيات تظهر أن الرسول قد تزايدت عليه الضغوط النفسية من قريش، التي يمكن تخيل نوعيتها. فهو استمر يتلو على قريش سوراً تردد أن هناك بعثاً بعد الموت وعليهم العمل لذلك اليوم. فكانوا يطالبونه بأن يقدم لهم دليلاً محسوساً عن إمكانية حدوثه. وعندما لم يقدم لهم سوى الأمر بالتفكير بالخلق واستخدام العقل للاستدلال على أن البعث ممكن، كانوا يسخرون منه ويكذبونه ويسمعونه الكلمات النابية، وهو ما يؤلمه ويؤذي مشاعره. فجاءت هاتان الآيتان لترفعا من معنوياته وتشحذا همته، آمرتين إياه بالمداومة على تسبيح الله وإحضاره في النفس. والانتظار، فيوم القيامة قريب، وعندها سينالون جزاءهم.

وقوله: «وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ» كناية تظهر نوعاً من الأساليب القرآنية. فالرسول لن يكون حياً عندما تقوم القيامة، ولن يكون هناك منادٍ ينادي إيذاناً بيوم القيامة، ولكن العبارة المجازية تقول للرسول اصبر وستحل القيامة سريعاً ويلقى المكذبون جزاءهم.

وتختم السورة قائلة: يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ(٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ(٤٥).

(الآية: ٤٤) صورة حسية مجازية عن البعث، تصور الناس وقد تشققت الأرض عنهم وخرجوا يجرون للحساب. وهذا لن يحدث، لأن القيامة لن تقوم في هذا الكون وعلى هذه الأرض وما سيحدث في عالم القيامة من علم الغيب ولا يمكن لنا تصوره، لكن هذا التصوير لتقريبه في ذهن المخاطب (قريش).

(الآية: ٤٥) تأكيد على أن مسئولية الرسول تنتهي بالتبليغ، المتمثل بتلاوة القرآن، وليس من مسئوليته هداية الناس أو إقناعهم بالحق.

ويمكن القول: برغم أن السور السابقة لم تحمل لنا أي إشارة تدل على أي تصرف عدائي من قريش ضد الرسول أو من أسلم، إلا أن «ق» تشير إلى أن هناك ضغوطاً نفسية على الرسول مردها أن قريشاً بدأت تظهر عدم رضاها من استمرار الرسول بالدعوة، وأصبحت تسخر منه لتؤذيه.

(٢٥) الواقعة

السورة بعمومها تتحدث عن أن الجنة تتكون من مستويين، واحد للمقربين والمستوى الأقل لأصحاب اليمين، ونار واحدة للمكذبين. وتبدأ بالقول إن القيامة ستقع بكل تأكيد:

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ(١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ(٣).

ويسبق القيامة:

انهيار كون الدنيا

إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً(٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً(٥) فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً(٦).

صور مجازية لبعض مظاهر انهيار الأرض.

مصائر الناس يوم القيامة

تخبرنا السورة أن الناس سيتفرقون إلى ثلاث جهات حسب مصيرهم يوم القيامة:

وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً(٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ(٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ(٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ(١٠) أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ(١١).

الفريق الأول: أصحاب الميمنة، أو أصحاب اليمين كما تعود وتسميهم هذه السورة وكما سمتهم سورة المدثر: إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ(٤٠).

والفريق الثاني: أصحاب المشأمة أو الشمال كما ستعود السورة وتسميهم.

والفريق الثالث: المقربون.

وتبدأ السورة بتقديم صور مجازية حسية عما ينتظر الفريق الثالث من نعيم أولاً:

فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ(١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ(١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ(١٤) عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ(١٥) مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ(١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ(١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ(١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ(١٩) وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ(٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ(٢١) وَحُورٌ عِينٌ(٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ(٢٣) جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً(٢٥) إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً(٢٦).

وقوله: «ثلة من الأولين وقليل من الآخرين» الأولين هم أمم سبقت رسالة محمد وفيهم ثلة (جماعة) من المقربين، مثلما أنه سيكون هناك قليل من المقربين ممن هم في عصر الرسول.

إشارة لقلة المؤمنين مقارنة بغيرهم، وأقل منهم الأتقياء الذي سيبلغون مرتبة المقربين. لكن سيبقى الباب مفتوحاً لكل الناس في كل العصور لينالوا مرتبة المقربين.

وليس المعنى كما تأوله المفسرون أنه قد قدر على المتأخرين من الناس الذين سيأتون بعد عصر الرسول أنهم لن يكون منهم مقربون إلا قلة.

وتستمر السورة لتقدم

صور حسية مجازية لنعيم أصحاب اليمين

وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ(٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ(٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ(٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ(٣٠) وَمَاء مَّسْكُوبٍ(٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ(٣٢) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ(٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ(٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء(٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً(٣٦) عُرُباً أَتْرَاباً(٣٧) لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ(٣٨) ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ(٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ(٤٠).

وقوله: «ثلة من الأولين، وثلة من الآخرين». إشارة إلى أن غالبية من يؤمن بالرسالات في كل زمان ومكان يكونون من أصحاب اليمين، وليسوا من المقربين.

والفارق بين المقربين وأصحاب اليمين، أن المقربين من آمن وعمل صالحاً وحرص على تجنب الصغائر من المعاصي، مع الحرص المستمر على أداء الفضائل، وهي صغائر البر والأعمال. فهؤلاء كونهم يمثلون القدوة الحسنة للمسلم في عباداته وتعامله وأخلاقه، لهم المستوى الأعلى في الجنة. بينما أصحاب اليمين سيدخلون الجنة بمستوى أقل كونهم آمنوا وعملوا صالحاً بالانقياد لأوامر الدين والابتعاد عن نواهيه، بعيداً عن الكبائر، مع صدور بعض الصغائر منهم، وعدم حرصهم على أداء الفضائل.

وبنفس الأسلوب تقدم السورة صوراً مجازية حسية لما ينتظر أصحاب الشمال من عذاب

وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ(٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ(٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ(٤٣) لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ(٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ(٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ(٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ(٤٧) أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ(٤٨) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ(٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ(٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ(٥١) لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ(٥٢) فَمَالِؤُونَ مِنْهَا

الْبُطُونَ(٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ(٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ(٥٥) هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ(٥٦).

ثم تتجه السورة لمخاطبة قريش بطريقة أخرى:

دعوة عقلانية

نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ(٥٧) أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ(٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ(٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ(٦٠) عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ(٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ(٦٢).

(الآيات: ٥٧ - ٧٣) تدعو قريش للتفكير بالخلق ليهتدوا إلى قدرة الخالق على البعث. والبداية مع العودة للإشارة إلى أن خلق الإنسان كان من مني يمنى كما ورد في سورة القيامة السابقة: أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى(٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى(٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى(٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى(٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى(٤٠).

فإن كنتم تعلمون أن خلقكم بدأ مهيناً ألا يكفي هذا أن تتأكدوا من قدرة الخالق على إعادة خلقكم: «وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ».

ثم تذكرهم بخلق آخر

أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ(٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ(٦٤) لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ(٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ(٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ(٦٧).

الزراعة التي تزرعونها هل هي من إنتاجكم أم الله وفرها لكم؟

ولو جعلها الله حطاماً وهشيماً فسوف يولولون: يا لخسارتنا! يا لحرماننا!

والآية تقول إن الله هو الزارع، وهو سبحانه كذلك لكن ليس فعلياً ومباشرة، ولكن بما وضعه من قوانين فيزيائية وكيميائية وطبيعية ثابتة ينزل بموجبها المطر وتنمو البذور وتثمر الأشجار. تماماً كما هي الحال مع كل ما يحدث في الكون وما يصيب الناس من رزق ونعم ومن حوادث وأمراض ووفيات. فالله هو الفاعل ولكن بقوانينه الثابتة وليس بتدخله المباشر.

وخلق آخر

أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ(٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ(٦٩) لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ(٧٠).

الماء الذي تشربون ليس من صنعكم ولكن الله أنزله لكم من المزن، ولو شاء لجعله أجاجاً لا يمكن شربه. فلماذا لا تشكرون الله على نعمه وتؤمنون؟

وخلق آخر

أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ(٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ(٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ(٧٣).

المقوي هنا يعني المسافر على راحلة، كما في ذاك الزمن.

ثم تخاطب السورة رسول الله:

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ(٧٤).

القرآن حق من عند الله

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ(٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ(٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ(٧٨) لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ(٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ(٨٠)[١].

القرآن الوسيلة الوحيدة للدعوة.

وقوله: «لا يمسه إلا المطهرون». اشتط المفسرون والمحدثون والمتفقهون وبقية رجال الدين في تأويلها بقولهم إنها تعني تحريم مس المصحف لمن ليس متطهراً. قائلين بوجوب التطهر من الجنابة والوضوء على كل من يريد قراءة القرآن من المصحف، وهذا تأويل لم تقل به هذه الآية، ولا يمكن أن يفهم منها.

فالآية وكل سورة الواقعة نزلت في مكة - كما يلاحظ - وقبل أن يكتب حرف واحد من القرآن في مصحف. كما أن الحديث هنا عن القرآن كوحي وليس ككتاب مكتوب. فالآيات تقول إنه قرآن كريم له نسخة أصلية في كتاب مكنون (محفوظ بآلية إلهية لا نعلمها) حيث

١ انظر فقرة: الأرشيف الإلهي / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

تقوم مخلوقات طاهرة بنقل ما في تلك النسخة إلى الرسول من البشر. فالمطهرون في الآية المعني بهم الملائكة المكلفون بتنزيل الوحي، ونقله من الأرشيف الإلهي (الكتاب المكنون أو اللوح المحفوظ) إلى ذاكرة الرسول البشري. وهؤلاء الملائكة مخلوقات مطهره بطبعها ولا تحتاج للتطهر كما البشر. لأن الملائكة مخلوقات نورانية لا جسدية، مما يعني أنها لا تأكل وليس لها جهاز هضمي أو تناسلي، وبالتالي لا يخرج من أجسادها فضلات ولا نجاسة تحتاج للتطهر منها. فهي مطهرة منذ الخلقة ولا تحتاج للتطهر كما البشر. وتكون قراءة القرآن عن طريق الحفظ أو من المصحف لا تحتاج لتطهر.

عود للدعوة العقلانية

أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ(٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ(٨٢) فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ(٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ(٨٥) فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غير مَدِينِينَ(٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٨٧).

الآيات تصور لحظة الموت تصويراً مجازياً حسياً لزيادة التأثير. وإلا فإن النفس لا تتدرج بالخروج من الجسم بدءً من القدم حتى الحلقوم. وأنها إذا بلغت الحلقوم فلن تعود وسيحدث الموت حتماً. لكن الآيات تقول إن من يموت فلن يعود للحياة إلا يوم القيامة. والموت الذي لا عودة فيه هو ما يحدث للجسد بعد تعطل المخ وتوقفه عن العمل نهائياً لمدة كافية لتلف خلاياه. وإلا فالطب اليوم جعل من إمكانية إسعاف من توقف قلبه عن النبض أو بعض الأعضاء الهامة في الجسم كالكبد أو الكلى أو الرئتين، والتي لو تعطلت في الماضي أو في مناطق إمكانياتها الطبية ضعيفة فهذا يعني موت المريض. كما كان الحال زمن نزول السورة فمن يحتضر أو تتعطل بعض أعضائه الهامة فسيموت حتماً، ولن يتمكن من حوله من إنقاذه وإعادته للحياة. والآيات تخاطب أولئك الناس بما هو معروف وشائع لديهم، ولا تقرر أن الموت سيحدث لكل من يتوقف قلبه أو رئته .. الخ.

وكل الآيات السابقة تستخدم المجاز في تصويرها لحالة المريض الذي يموت، مثل القول: «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ». فالمحتضر لا تحوطه مخلوقات حية (ملائكة) لتستل نفسه من جسمه. وبعد الموت، سيكون الحساب – يوم القيامة – ثم المصير.

عود للحديث عن مستويات الجنة ومصير الكافر

فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ(٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ(٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ(٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ(٩١) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ(٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ
حَمِيمٍ(٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ(٩٤).

الآيات تكرر ما ذكرته السورة في أولها (الآيات:٧-١١) مؤكدة أن هناك مستويين في الجنة، الأعلى للمقربين والأدنى لأصحاب اليمين، ونار واحدة للمكذبين.

عود لتأكيد أن القرآن حق

إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ(٩٥).

تأكيد أن القرآن هو الوسيلة الوحيدة للدعوة والممثل الوحيد لدين الله، كما سبق وذكرته السورة في (الآيات:٧٥-٨٠):

وتعود لمخاطبة الرسول مكررة ما ذكرته في (الآية:٧٤):

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ(٩٦).

(٢٦) الغاشية

ككل السور السابقة في هذه الفترة، تقدم هذه السورة صوراً مجازية حسية لانهيار الكون، ولما في الجنة والنار، مع تفاصيل أكثر:

صور حسية عما في النار والجنة

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ(١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ(٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ(٣) تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً(٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ(٥) لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ(٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ(٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ(٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ(٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(١٠) لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً(١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ(١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ(١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ(١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ(١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ(١٦).

تبدأ السورة بتساؤل موجه للرسول إن كان قد سمع بما سيحل بالكفار يوم القيامة. وهو

تساؤل لبداية حديث وليس سؤالاً يبحث عن جواب. وهذا الأسلوب شائع الاستخدام في العربية وفي لغات أخرى. تقول: هل سمعت بدرب زبيدة؟ وتواصل دون أن تنتظر جواباً ممن تتحدث إليه: هو درب قامت زوجة الرشيد بالإنفاق على رصفه يربط بغداد بمكة والمدينة.

وتمثل هذه السورة بداية للتوسع في تقديم صور مجازية لما في النار والجنة.

ثم تتحول السورة لمخاطبة قريش:

دعوة عقلانية

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ(١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ(١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ(١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ(٢٠).

هذه الدعوة للتفكير بما تراه قريش حولها وما اعتادته، وقد مر بنا في سور سابقة وسيمر في سور لاحقة، لكن المفسرين استوقفهم ذكر الإبل وكأن ذكرها هو المهم وهو الغاية وليس الغاية هي دعوة قريش للتفكير بالإبل، كونها حيوانات تعرفها قريش وتستخدمها، كما النخيل والنباتات، وكما الجبال وغيرها في سور سبقت، وكما سيأتي ذكر الكثير من الظواهر الطبيعية والمخلوقات التي تعرفها قريش. والإبل ذكرت كما ذكر التين والزيتون والجبال وغيرها مما تعرفه قريش لتفكر فيه، لعلها تستدل على قدرة خالقها على البعث. أما ذكر الإبل بحد ذاته فليس له أهمية، ولا عبرة لكل ما قاله المفسرون.

والآيات الباقية تؤكد على ما ذكرته سور سابقة من أن مسئولية الرسول تنتهي بالتذكير «تلاوة الوحي على الناس» وليس مسئولاً عن هدايتهم أو إقناعهم بإتباع الحق، فالله هو من سيحاسبهم.

الدعوة تبليغ وإسماع وليس على الرسول الإقناع

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ(٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ(٢٢) إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ(٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ(٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(٢٦).

وهو تكرار لما ورد في الآية: (٤٥) من سورة «ق» السابقة.

إلا بمعنى أما

وفي الآية: (٢٣) تأتي «إلا» بمعنى «أما»، لأنها بدأت الحديث عن موضوع جديد. ولو كانت «إلا» للاستثناء، فكأن الآيات تقول إن الرسول ليس مسئولاً عن هداية الناس إلا من تولى وكفر فهو مسئول عنهم، ولا يستقيم المعنى بهذه الصيغة.

لكن لو كان معناها «أما» فسيستقيم المعنى: فالرسول ليس مسئولاً عن هداية البشر. ويأتي توقف كامل هنا، لأن الموضوع انتهى. ويبدأ موضوع جديد: «أما» من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر.

فترة الوعد والوعيد الشديد والأسلوب الصارم

فترة تمثل نقلة جديدة في نوع الخطاب الموجه لقريش طغت عليه لهجة صارمة تتوائم مع موقفهم المتصلب ضد الدعوة والعدائية التي بدأوا يظهرونها للرسول ومن آمن معه. إضافة للتحدث بصور مجازية أكثر تفصيلاً عما في الجنة والنار.

وقد نزل في هذه الفترة أربع سور، هي: الحاقة، المطففين، عبس، والمرسلات.

(٢٧) الحاقة

الْحَاقَّةُ(١) مَا الْحَاقَّةُ(٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ(٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ(٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَهلكوا بِالطَّاغِيَةِ(٥) وَأَمَّا عَادٌ فَهلكوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ(٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ(٧) فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ(٨) وَجَاء فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ(٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً(١٠).

السور تبدأ بتذكير قريش بمصير بعض الأمم السابقة الذين هلكوا وكان لهم موقف معاند لم يتغير من دعوة الرسل، مماثل لموقف قريش. وهي دعوة لقريش لتعتبر مما حدث لئلا يصيبها ما أصابهم.

والسورة تقول إن ثمود هلكوا بالطاغية، وهو وصف للزلزال كما ستقول سور أخرى قادمة.

وعاد هلكوا بريح صرصر عاتية.

فرعون وقوم آخرين لم يذكر هنا كيف هلكوا.

من نعم الله

إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ(١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ(١٢).

لولا القوانين الطبيعية والفيزيائية التي أودعها الله في خلقه والتي منها قانون الطفو الذي يُمكّن السفن من الطفو فوق الماء والسير، لما كان بإمكان الناس التواصل بين القارات في العصور القديمة.

وذكر البحر والسفن يعني أن قريشاً كانت تركب البحر، وهذا ليس مستغرباً، بل هو

متوقع. فالبحر لا يبعد عن مكة أكثر من ٧٠ كيلومتراً، وفي الجهة المقابلة من البحر هناك عرب انتقلوا قديماً من جزيرة العرب للعيش فيما يسمى اليوم بالسودان. وبما أن قريشاً تتقن التجارة فمن المتوقع أن يكون هناك تواصل تجاري بينهم وبين عرب غرب السودان الذين يفصل بينهم البحر الأحمر بعرض لا يزيد عن (٢٠٠) كيلومتر.

صور مجازية لفناء الكون

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ(١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً(١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ(١٥) وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ(١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ(١٧).

الصور تعني الكون باستخدامنا الحالي[١]. والنفخ في الصور ذكر في عدة سور وهو يصور نهاية الكون الحالي وكأن مجراته قد تعرضت لنفخة عظيمة انفرط معها نظام المجرات فبدأت النجوم والكواكب تتهاوى بلا ضابط. كما أن النفخ في الصور يصور نشأة كون القيامة، وكأن هناك نفخة عظيمة نشأ بسببها الكون. وهو تصوير يشبه نشأة هذا الكون حسبما تقول نظرية الانفجار العظيم. وسيأتي ذكر النفخ في الكون في عدة سور قادمة لتصوير نهاية هذا الكون أو النفخة الثانية لنشأة يوم القيامة.

صور مجازية عن الحساب وعما في الجنة والنار

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ(١٨) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ(١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ(٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ(٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ(٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ(٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ(٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ(٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ(٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ(٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ(٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ(٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ(٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ(٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ(٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ(٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِؤُونَ(٣٧).

الآية: (١٨) تقول: الحساب يوم القيامة سيكون بجمع الناس في مكان واحد وأمامهم

١ انظر فقرة: الكون / قسم مفردات من القرآن.

يقف ربهم «الله» ثم يبدأ يحاكم كل شخص على حدة وبعد المحاكمة يصدر القرار من الله بإدخاله النار أو الجنة. هذه الصورة هي التي يسهل تخيلها بين الناس لذا ذكرتها السورة، لتقول إن هناك حساباً. إلا أن الحساب سيكون بقيام كل شخص بمحاسبة نفسه، وذلك بأن يتم عرض ما سجلته صحيفة أعماله التي كانت مزروعة في نفسه عليه وبموجب ما في الصحيفة يتقرر مصيره، إما لجنة أو نار. ويكون الله الذي خلق هذه الصحيفة وطريقة عرضها هو الذي يحاسب الناس دون أن يقوم - جل شأنه - فعلياً بذلك. تماماً كما هي الحال في خلق هذا الكون وما فيه، فلم يقم الله سبحانه وتعالى بتصميمه مباشرة ثم خلق مجراته ونجومه وكواكبه مباشرة، بل خلق القوانين التي بموجبها ظهر الخلق. مثلما أن الله خلق كل واحد منا لكنه لم يخلقني بأنف معقوف وعيون صغيرة ووجه مستطيل وخلق آخر بشكل مختلف وقام بذلك بشكل مباشر كما يفعل النجار أو الرسام أو أي حرفي آخر. وهذا هو الفرق بين الخالق والمخلوق. فالخالق يوجد القوانين التي ينشأ منها الخلق، بينما المخلوق لا يستطيع إيجاد القوانين، لكنه يستفيد منها بعد أن يتعرف عليها. فالقوانين الفيزيائية في عالم الخالق تنشئ الخلق، بينما هي في عالم الخلق لا تصنع شيئاً بذاتها، ولكنها تُسخَّر لإنتاجٍ معين. فالخالق لا يحتاج للتدخل فيما يخلق مباشرة، بينما المخلوق لا يمكنه أن يبتدع أو يبدع ما لم يتدخل بنفسه فيما يصنع ويدير.

(الآيات:١٩-٣٧): تقدم صوراً مجازية عن الحساب وكونه يعتمد على ما في صحيفة الأعمال. كما تقدم صوراً حسية لما في الجنة والنار.

والآيات هنا تصور صحيفة الأعمال وكأنها كتاب مكتوب، فمن يسلم له بيده اليمنى فقد فاز ودخل الجنة ومن يسلم له الكتاب باليد اليسرى فقد خسر ودخل النار. وهذه الصور لن تحدث، ولكنها كنايات لتقريب ما سيحدث لذهن القارئ. وإلا فالحساب - كما يفهم من سور أخرى - سيكون بعرض ما تحويه صحيفة الأعمال على المرء وبما أن صحيفة الأعمال موجودة في النفس فالحساب سيكون بمحاسبة المرء لنفسه، وبناءً عليه سيتقرر مصيره.

كما أن نعيم الجنة وجحيم النار لن يكونا بالصور المجازية المقدمة هنا التي تقرب الصورة لذهن المخاطب بما يمكن لمداركه استيعابه. أما النعيم والجحيم الحقيقيان فلا يمكن تخيلهما الآن بمداركنا الدنيوية: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٧) السجدة.

القرآن وحي من الله

(الآيات: ٣٨-٥٢) تؤكد السورة وبصرامة يمثلها القسم أن محمداً يتلو عليهم وحياً قاله رسول كريم (أحد الملائكة) منزل من الله، وليس من كلامه الشخصي، أو شعراً أو تمتمة كاهن كما يحاولون أن يقنعوا أنفسهم. وبنفس الصرامة في الخطاب تؤكد السورة أن محمداً لو تجرأ ودعا الناس بعبارته الشخصية لأهلكناه (استخدم هنا قطع الوتين) كناية للهلاك. وهذا دليل آخر على أن محمداً لا يستطيع استخدام عباراته الشخصية للدعوة، ولم يكن يعقد مجالس للوعظ القصصي ولم يكن يقول هذا حلال وهذا حرام خارج نصوص القرآن:

فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ(٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ(٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ(٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ(٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ(٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ(٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ(٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ(٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ(٤٧).

والآيات تؤكد أن الوحي وحده هو كتاب الدعوة ودين الله وبالتالي فما سمي «الحديث» في عصور لاحقة لم يكن له مكان في الدعوة ولا في التشريع لدين الله. كما تشير الآيات إلى ما يتعرض له رسول الله من عنت كون قريش تصف القرآن بأنه شعر أو تمتمة كهان.

وتكرر الآيات أن القرآن تذكرة لمن يرغب، وأنه حق، وهو حسرة على الكافرين:

وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ(٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ(٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ(٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ(٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ(٥٢).

وتختم السورة بتذكير محمد على الاستمرار بتسبيح الله، ليستعين بها على الضغوط النفسية التي يبدو أنها مستمرة.

وتنتهج السورة التالية نفس الأسلوب الصارم مع قريش التي أعلنت رفضها للدعوة.

(٢٨) المطففين

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ(١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ(٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ(٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ(٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ(٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(٦).

بما أن القرآن لا يفترض واقعة ويتحدث عنها، ولكن السورة تنزل لتتفاعل مع ما يجري على الأرض عند نزولها، فالحديث عن المطففين هنا يشير إلى أن بعض تجار مكة، إن لم يكن كلهم، يتعاملون بالغش التجاري كونهم يبحثون عن الربح بأي وسيلة. وهو منطق رأسمالي مازال حياً بيننا إلى اليوم. فالغرب الرأسمالي أغرق أسواق العالم بأطعمة ومنتجات غذائية متنوعة كلها تحوي على أضرار جسيمة للمستهلك وتسبب أمراضاً مهلكة، ومع ذلك انتشرت في كل المجتمعات انتشار النار في الهشيم. لأن الرأسمالية تعتمد في تسويق منتجاتها على الإعلانات الدعائية التي تقوم على جذب المستهلك وليس على التعريف بمحتويات السلعة. حيث نجد أن إعلاناً عن مشروب غازي أو وجبة سريعة يبين كم هي لذيذة المذاق، لكنه يتجاهل أنها تحوي دهوناً ثلاثية وأصباغاً ومواد مسرطنة. فالمهم في الفكر الرأسمالي هو الربح وليس المصلحة العامة.

وتبدأ الآيات مع لفظ «ويل» وهو مستخدم في اللغة العربية للوعيد حتى اليوم بنفس المعنى وفي كل اللهجات العربية، لكن المفسرين أولوه ليكون وادياً في جهنم، وكلامهم لا عبرة به ولكنه يظهر أنهم يجهلون العربية وأن مجتمعاتهم التي عاشوا فيها مجتمعات انتشرت فيها العجمة، لدرجة أنهم لا يفهمون عربية القرآن، إضافة لجرأتهم على التقول على الخالق دون وجل أو خجل.

ووعيد المطففين موجه لكبراء قريش الذين يملكون الأموال الطائلة ولا يصرفون منها القليل بحق المسكين والمحتاج، بل يحترفون الغش التجاري لزيادة أرباحهم ومداخيلهم، فجاءت السورة تتوعدهم بعبارات غاية في الشدة: «ويل» للمطففين

والمطففون عرّفتهم السورة بأنهم: «الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ(٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ(٣)».

وهو تعريف يشمل كل أنواع الغش التجاري بتفاصيلها[١]. والمعني به التجار الذين يمارسون الغش بأي وسيلة، ولو صدر من غيرهم فهو تطفيفٌ أيضاً.

ونعود لآيات سورة المطففين التي تعطي صوراً مجازية عن الحساب وأن صحيفة الأعمال تسجل كل شيء يصدر من الإنسان وبناءً عليه يكون الحساب والمصير. كما تعطي صوراً

---

١ انظر فقرة: الغش التجاري / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

مجازية حسية لما في النار من جحيم والجنة من نعيم، كما السور السابقة:

يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(٦) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ(٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ(٨) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ(٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ(١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ(١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ(١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ(١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ(١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ(١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ(١٧) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ(١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ(١٩) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ(٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ(٢١) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ(٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ(٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ(٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ(٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ(٢٦) وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ(٢٧) عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ(٢٨).

وتختم السورة بتهديد ووعيد لكل من يسخر من الدعوة، وتعد المؤمنين بنعيم في الآخرة:

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ(٢٩) وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ(٣٠) وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ(٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاء لَضَالُّونَ(٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ(٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ(٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ(٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ(٣٦).

والآيات تشير إلى أن قريشاً كانت تسخر من المسلمين وقت نزول السورة. وتقول إن سخرية الكفار ستنقلب حسرة عليهم عندما يدخلون النار بينما ينعم المؤمنون بالجنة.

ولعل هذه الآيات هي أول آيات تشير إلى وجود مسلمين في مكة.

(٢٩) عبس

الرسول والأعمى

عَبَسَ وَتَوَلَّى(١) أَن جَاءهُ الْأَعْمَى(٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى(٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى(٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى(٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى(٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى(٧) وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى(٨) وَهُوَ يَخْشَى(٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى(١٠).

الآيات العشر الأولى من سورة عبس تشير إلى أن محمداً كان يتحدث مع أحد كبراء قريش،

أو يتلو عليه القرآن لإقناعه بدعوة الحق. وبينما كان الرسول مستغرقاً في حديثه مع القرشي، قاطعه رجل أعمى مسلم بسؤال، فأفلت القرشي وابتعد. فما كان من الرسول إلا أن امتعض وتغيرت ملامح وجهه من الغضب «عبس»، لأنه كان يأمل أن يقنع القرشي بالدخول في الإسلام.

القرآن تذكرة ونقلته الملائكة

كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ(١١) فَمَن شَاء ذَكَرَهُ(١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ(١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ(١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ(١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ(١٦).

ترد هذه الآيات على تساؤلٍ لقريش عن القرآن الذي يتلوه محمد عليهم، وتؤكد أنه تذكرة لمن يرغب في إنقاذ نفسه. وأن ما ينزل على محمد هو نسخة من نسخة أصلية للوحي محفوظة بعلم الله، سمتها الآيات هنا بالصحف المكرمة المرفوعة (خارج الأرض وبصيغة علمها عند الله وبعلمه) مطهرة. وأن من يتعامل معها سفرة (سفراء) كرام بررة (ملائكة مكلفون بنقل نصوص الوحي من مكان حفظها إلى ذاكرة الرسول).

وسنرى أن القرآن سيسمي تلك الآلية التي تحفظ فيها نسخة الوحي باللوح المحفوظ تارة وأم الكتاب تارة والكتاب المكنون تارة أخرى. والمقصود واحد، وهو آلية يحفظ فيها نسخة الوحي الأصلية التي يطلع عليها الملك المكلف بنقلها للرسول من البشر.

دعوة عقلانية

ثم تنتقل الآيات إلى الدعوة للتفكير بالخلق للإيمان بقدرة الخلق على البعث:

قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ(١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ(١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ(١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ(٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ(٢١) ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ(٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ(٢٣) فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ(٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبّاً(٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً(٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً(٢٧) وَعِنَباً وَقَضْباً(٢٨) وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً(٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْباً(٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبّاً(٣١) مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ(٣٢).

الآيات تطلب من قريش أن يفكروا بخلقهم، كيف بدأ بسائل حقير وتحول إلى إنسان، وأن يفكروا بالطعام الذي يأكلون كيف نبت من الأرض بماء المطر وتحول من بذور إلى أشجار

وثمار. ولو فعلوا فسيتأكد لهم أن البعث هين على الله سبحانه وتعالى. والآيات تذكر قريشاً بأن خلقهم بدأ بماء مهين للمرة الثالثة بعد سورتي الواقعة: (٥٨-٥٩)، وسورة القيامة: (٣٦-٤٠).

المفسرون - كعادتهم - تركوا المهم وتوسعوا في تأويل بعض الألفاظ إلى غير معانيها، بما تمليه عليهم خيالاتهم، وكأنها هي المقصودة في الآيات. ومن ذلك: قضباً، غلباً، وأباً.

وتختم السورة بتقديم صور حسية وكنايات عن يوم القيامة والحساب. ويمكن ملاحظة أن القيامة كنيت هنا بالصاخة، كما كنيت بالقارعة والطامة في سور أخرى: فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ(٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ(٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ(٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ(٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ(٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ(٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ(٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ(٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ(٤١) أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ(٤٢).

والآيات تعطي صوراً مجازية عن صعوبة يوم القيامة لترسيخها في ذهن المستمع، ولتقول بأسلوب مؤثر إن كل شخص سينشغل بمتابعة ما سجل في صحيفة أعماله وما سيترتب على ذلك من مصير، إما للجنة أو النار. فالهروب مجاز لانشغال المرء بنفسه، والوجوه الضاحكة المستبشرة تعبير مجازي للسعادة، والوجوه التي عليها غبرة تعبير مجازيٌّ عن الحزن والأسى والقنوط. وهذا هو المهم من إيراد هذه الكنايات، وليس المهم معنى لفظ مثل قترة أو غبرة، أو غيرها. ويمكن الرجوع لقسم مفردات من القرآن لمعرفة معاني هذه الألفاظ وغيرها.

(٣٠) المرسلات

السورة تبدأ بداية عاصفة بقسم لشد الانتباه والتأكيد على أن البعث واقع دون شك: وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفاً(١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً(٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً(٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً(٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً(٥) عُذْراً أَوْ نُذْراً(٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ(٧).

وما يوعد الكفار هو البعث والحساب ثم النار، وهذا لن يكون إلا في كون القيامة، والذي سينشأ بعد انهيار هذا الكون. لذا تقدم الآيات صوراً مجازية حسية لانهيار هذا الكون: فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ(٨) وَإِذَا السَّمَاء فُرِجَتْ(٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ(١٠) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ(١١).

ووعيد شديد لما سيلاقيه المكذبون يوم الفصل والحساب: لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ(١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ(١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ(١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ(١٥).

والويل لفظٌ للوعيد الشديد وليس هناك وادٍ في جهنم يسمى «ويل» كما يتقول المفسرون.

دعوة عقلانية

الآيات التالية تدعو قريشاً للتفكير بالخلق للاستدلال على إمكانية البعث، بأسلوب صارم وشديد. وتكرار «ويل يومئذ للمكذبين» لزيادة تأثير الوعيد في النفس: أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ(١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ(١٧) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ(١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ(١٩) أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ(٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ(٢١) إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ(٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ(٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ(٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً(٢٥) أَحْيَاء وَأَمْوَاتاً(٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاء فُرَاتاً(٢٧) وَيْلٌ يوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ(٢٨).

والآيات: (٢٠-٢٣) تتحدث عن تخلق الجنين في الرحم. وهي المرة الرابعة التي يُذكّرُ القرآن قريشاً أن أصل خلقهم مهين وضعيف ثم أصبحوا كما هم عليه، بعد الآيات: ١٨-١٩ عبس، والآيات:٣٦-٤٠ القيامة، والآيات: ٥٨-٥٩ الواقعة. أليس من خلقهم قادراً على إعادة خلقهم؟

وعيد شديد للمكذبين على شكل تصوير حسي لما ينتظرهم في النار

انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ(٢٩) انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ(٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ(٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ(٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ(٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ(٣٤).

تصوير مجازي حسي ليوم الحساب

هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ(٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ(٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ(٣٧) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ(٣٨) فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ(٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ(٤٠).

تصوير مجازي حسي لما في الجنة من نعيم

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ(٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ(٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٤٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(٤٤).

وعيد وتهديد لقريش المصرة على الكفر برغم قوة الحجة وظهور الحق

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ(٤٥) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ(٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ(٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ(٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ(٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ(٥٠).

ومتاع الدنيا الذي اغترت به قريش زائل سريعاً فلماذا لا يؤمنون؟

وإذا كان كلام الله البين الواضح (القرآن) لا يكفي لإثبات أن هناك بعثاً، فلن يؤمنوا بأي حديث غيره.

فترة الحديث عن استماع الجن لتلاوة الرسول

ونزل في هذه الفترة ثلاث سور، هي: الجن، الفلق، والناس.

(٣١) الجن

السورة سميت بالجن لأنها تروي أن هناك نفراً من الجن استمعوا للرسول وهو يتلو القرآن: قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً(١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً(٢) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً(٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً(٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً(٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً(٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً(٧) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً(٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً(٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً(١٠) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً(١١) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً(١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً(١٣) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً(١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً(١٥) وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً(١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً(١٧) وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تدعو مَعَ اللَّهِ أَحَداً(١٨) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً(١٩).

تقول السورة: إنه في إحدى المرات التي كان محمد يتلو القرآن - على بعض قريش أو على أصحابه - صادف تواجد نفر من الجن في عين المكان، واستمعوا للآيات التي تلاها الرسول واقتنعوا أن ما يتلى من الله، فآمنوا به.

والملاحظ أن الرسول لم يعلم بتواجدهم لو لم تخبره الآيات بذلك. إلا أن المفسرين والمحدثين اختلقوا قصصاً مختلفة ومتخالفة تروي كيف عرف الرسول بتواجدهم؟ وكيف كان يتحدث معهم؟ ومن ذلك: أنهم نفر من جن نصيبين أو من الجزيرة شمال العراق أو من نينوى أو من حران. وأورد ابن اسحاق في سيرته أسماءً لأولئك الجن، وهي كما يلي:

حسّا ومسّا وناصر واينا والأرد وأينين والأحقم. فيما أورد البلخي في كتابه البدء في التاريخ أسماءهم كما يلي: حسا ومسا وشارصه وناحر ولاورد وسار وسان والأحقب[1]. وأوردوا قصصاً مضحكة أخرى تظهر كم هو سهل على المفسرين التقول على الله وتأويل الآيات لغير معانيها واختلاق القصص دون حياءٍ أو خشية.

وبعيداً عن خزعبلات المفسرين، يمكن أن نفهم من الآيات السابقة أن الجن وإن كانوا مخلوقات من طاقة (نار) إلا أنهم لابد أن يتواجدوا في مكان ما ليروا أو يشعروا أو يعرفوا ما يدور فيه. فهم استمعوا للرسول لأنه صادف تواجدهم في عين المكان، ولو كانوا في مكان آخر لما سمعوه. وبقية الجن الآخرين الذين لم يسمعوا تلاوة الرسول في ذلك اليوم، قد لا يكونو سمعوه مطلقاً. وما يؤكد هذا أن القرآن يذكر هنا لأول مرة استماع الجن للرسول في هذه السورة التي نزلت بعد مرور ما يقارب الثلاث سنوات على بدء البعثة. ولابد أنه طوال تلك المدة لم يتواجد جن بالقرب من المكان الذي يكون فيه الرسول، أو أن بعضهم تواجد ولكنهم كانوا من كفار الجن أو لم يعيروا اهتماماً لما سمعوا. وفي هذه المرة توقف نفر من الجن وأنصتوا لتلاوة الرسول، وتأثروا بما سمعوا.

وبعدما اهتدوا، نزهوا الله مما تعتقد قريش من أن لله بنات هن الملائكة «وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً(٣).

كما تخبرنا السورة على لسان أولئك النفر أن بعض الجن لا يؤمن بالبعث مثل قريش "وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً(٧)".

وبعدما استمعوا وآمنوا نقلوا ما سمعوا ودعوا من يقابلون من الجن للإيمان.

والجن مخلوقات روحانية، وعندما نقول روحانية، نقصد بها مخلوقات بلا أجساد مادية. فهي مخلوقة من عنصر من عناصر النار، أي من طاقة: وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ(٢٧) الحجر.

وهذه المخلوقات سبقت خلق الإنسان، وهي موجودة في محيط الأرض: وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً(٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً(٩).

---

[1] المفسرون جعلوا عدد الجن سبعة، ولكن يبدو أن البلخي استرسل في سرد الأسماء ولم ينتبه أنه أورد ثمانية أسماء.

وقد منعوا من الخروج من محيط الأرض - الغلاف الجوي - والتجول في الكون، كما كانوا يفعلون سابقاً: وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللهَّ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً(١٢).

والجن مطالبون بالإيمان، لذا أسلمت هذه المجموعة برسالة محمد: وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخساً وَلَا رَهَقاً(١٣).

وهذا يشير إلى أن الدين واحد لكل مخلوقات الله في الكون وليس فقط بين البشر.

وعموم الجن، مثل الإنس، بعضهم آمن، وبعضهم بقي على كفره: وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً(١٤).

وسيدخل المؤمن منهم الجنة، وسيكون مصير كافرهم النار، كما البشر: فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً(١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً(١٥).

وهذه المخلوقات لا يمكن للإنسان رؤيتهم: وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهَّ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً(١٩).

فالرسول لم يشعر بهم، وقد أحاطوا به، ولولا نزول هذه الآيات لما علم باستماعهم لتلاوته، برغم تزاحمهم الشديد حوله، كما تصف الآية: "كادوا يكونون عليه لبداً". ولو كانوا يستطيعون التخاطب مع البشر لتخاطبوا مع الرسول.

وتبتعد السورة عن موضوع الجن للحديث عن قريش: وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً(١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً(١٧) وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ للهَّ فَلَا تدعو مَعَ اللهَّ أَحَداً(١٨).

الآية: (١٨) تؤكد أن العبادة تكون لله لا غيره، والمساجد هنا ليس المقصود بها أماكن العبادة، ولكنها كناية عن عبادة الله والإيمان به، كون السجود يجب ألا يكون إلا لله. لأن المخاطب قريش التي تسجد للأصنام ولا تسجد لله.

ثم تعود الآيات لتكملة الحديث عن الجن: وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهَّ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً(١٩).

فالنفر الذين استمعوا للرسول تزاحموا حوله لدرجة أنه كاد بعضهم يركب فوق بعض: "كادوا يكونون عليه لبداً". استعارة لتصوير شدة التزاحم. وعبد الله هنا هو الرسول، وهو

تصوير دقيق له عليه الصلاة والسلام. فهو لا يزيد عن عبد الله وهو مكلف بتبليغ الرسالة، مما ينفي أن يكون له دور في التشريع.

الرد على قريش

تنتقل الآيات مخاطبة الرسول للرد على قريش فيما تتهمه به أو تطالبه بما لا يملك: قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً(٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً(٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً(٢٢) إِلَّا بَلَاغاً مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً(٢٣) حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً(٢٤).

(الآية:٢٣) وإن كانت تتحدث عن قريش إلا أنها تؤكد أن كل من يعصي الله ورسوله (والرسول هنا محمد) فإن له نار جهنم خالداً فيها. وهذا دليل على أن كل من يؤمن بالله ولا يتبع دعوة محمد فلن يقبل منه إيمانه، وهو رد على من يظن أن الإيمان بالله على الطريقة اليهودية حالياً ينجي من النار.

الرسول لا يعلم الغيب

قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً(٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً(٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً(٢٧) لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً(٢٨).

والآيتان: (٢٥-٢٦) تنفي أن يكون الرسول يعلم الغيب. وتقول الآيتان: (٢٧-٢٨) إن كل ما يقول الرسول سيرصد ويسجل عليه لئلا يتقول على الله ما لم يقل. والرسول قد يكون المقصود به الرسول من الملائكة الذين ينقلون الوحي للرسول من البشر. وقد يكون المعني هو الرسول من البشر، وهو ما أرجحه.

و«إلا» في الآية: (١٧) بمعنى أما وليست للاستثناء، لأنها بدأت الحديث بموضوع جديد وليست استمراراً للحديث عن أن الرسول لا يعلم الغيب.

وتسجيل الأعمال عبّرت عنه السورة هنا وكأن هناك راصداً بين يدي الرسول ومن خلفه يرصد ويسجل حركاته وأفعاله وأقواله. وهي صورة مجازية أخرى للصور التي قدمتها سور أخرى عن صحيفة الأعمال.

وسورة الجن التي أشارت إلى أن الناس (ومنهم قريش) كانوا يعوذون بالجن ظناً منهم أنهم يستطيعون إيذاءهم: وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً(٦) الجن. وكتب التراث تقول إن أحدهم إذا هبط وادياً أثناء سفره كان يقول: اعوذ بسيد هذه الوادي من سفهاء قومه. مما جعل قريشاً تسأل الرسول بمن يستعاذ به، إذا لم يستعيذوا بسيد الجن، فنزلت سورة قصيرة كجواب:

(٣٢) الفلق

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ(١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ(٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ(٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ(٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ(٥).

فالله وحده هو من يستعاذ به ولا شيء آخر غيره. والسورة تتحدث عما كان مسيطراً على مفاهيم الناس، وتستعيذ من الكاهنات اللاتي لا يترددن من الإضرار بالناس عن طريق سقيهم ما يضرهم من سموم، وليس تأكيداً لوجود سحر بالمعنى الشعبي، الذي يظن الناس أنه يمكن للساحر أن يضر شخصاً بعيداً عنه وبدون اتصال حسي، ويجعله يفقد سيطرته على مشاعره أو بعض حواسه وتصرفاته.

وبدل أن تنير هذه الآية عقول الناس وتعرفهم أن لا وجود للسحر بالمعنى الذي يظنون، فقد اعتبرها المفسرون آية تؤكد وجود السحر، كعالم خفي تسيطر عليه الشياطين ويضر الناس وينفعهم من دون الله.

ومثل ذلك قوله: «وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ» فقد فسرها المفسرون على أنها تعني العين. أي إصابة إنسان بمرض أو ضرر جراء تلفظ إنسان آخر بكلمة أو عبارة، لأن المتكلم يملك خاصية إصابة الغير بما سمي عند الناس بالعين.

ورغم أنه يستحيل أن يكون معنى الحسد في اللغة هو الإصابة بالعين، إلا أن المفسرين قلبوا هذه الحقيقة وحولوا معنى الحسد إلى أنه يعني الإصابة بالعين بالمعنى الشائع. وقد ترسخت خرافة الإصابة بالعين وترسخ معها أن هذه الآية دليل قرآني يؤكد أن الله أنزل آية يستعاذ بها من شر العين. وهذا الفهم الأعوج هو الذي ساد للأسف، بل وأصبح من لا يصدقه فهو لا يصدق بجزء من دين الله. وإلا فالحسد يأتي ضرره من تدبير المكائد من الحاسد للمحسود، وليس بالتلفظ بعبارة تؤدي لإصابة من وجهت ضده. أو الذهاب لمشعوذ وتعليق حجاب

حول الرقبة لا شيء فيه سوى شخبطة لا معنى لها. أو دفن عظام وقصاصات ورق وخرز وزجاج ونفايات أخرى، والاعتقاد بأنها ستضر الموجهة إليه أو ستشفيه أو ستجذبه أو ستبعده.

ونتيجة لسيطرة الخرافات على الزمن الذي كتب فيه التفسير فقد أصبح السحر والعين بمعناهما الشعبي الخرافي عقيدة من عقائد المسلمين، وأصبحت الخرافات جزءً من الإسلام، بحسن أو سوء نية ممن رسخها.

وفي عصر العلم الذي نعيشه الآن مازالت المحاكم في بلادي تحكم بالموت على السحرة والمشعوذين، وينفذ في عدد منهم الإعدام سنوياً، وهم في الغالب من العمالة الوافدة. ولو صدف وقامت جهة مسئولة بدراسة ما يمارسه هؤلاء دراسة علمية لوجد أنهم لا يزيدون عن كونهم أشخاصاً بسطاء جهلة فقراء استغلوا تصديق الناس بخرافة السحر فزعموا أنهم سحرة لكسب العيش، ولا يملكون قوى خارقة ولا يملكون سيطرة على الشياطين. وبالتالي وجب تغيير الثقافة السائدة في المجتمع عن مفهوم الجن والسحر، وسيختفي السحرة لأن الثقافة السائدة هي التي عملت على ظهورهم لتلبية طلب الناس العلاج من أوهام السحر والجن. ونكون قد قضينا على خرافة السحر، ولم نرتكب جرائم قتل بحق جهلة مساكين بغير حق.

ولو كنا جادين بالفعل في حرب الشعوذة لقمنا بدراسة ما يمارسه المشعوذون دراسة علمية، فإن كان علماً طورناه، وإن كان خرافات قضينا عليها بالمنطق والبراهين، وليس بقتل من يمارسها لأنه لم يجد ما يسد جوعه. كما يجب تثقيف الناس وتوعيتهم، وعدم الخلط بين الشعوذة والخرافات وبين ما يسمى بالخدع البصرية التي هي علم قائم بذاته يمكن تعلمه، ولا علاقة له بما يعرف بالسحر في الثقافة الشعبية. لكن ابقاء مفهوم السحر الحالي بين الناس يستفيد منه رجال الدين - كعادتهم في تحويل الدين لتجارة للكسب المادي - حيث يظهرون كمنقذين «للمسحور» فيفكون عنه السحر ويعالجونه بماء وزيت لا فرق بينها وبين الماء أو الزيت العادي إلا أنها ملوثة بلعاب رجل الدين وسعرها عشرة أضعاف.

والنفاثات التي وردت في سورة الفلق هن الكاهنات لكن هذا لا يعني أن تمتماتهن تضر وتسحر بالمعنى الشعبي المعروف. ولكن الآيات تنقل ما يدور، وتقول أن هناك من يحترف

الكهانة والشعوذة وأنهن قد يتسببن بضرر لمن يتناول ما يقدمنه بعلمه أو دون أن يعلم، ليس لأنه سحر بل لأنه سموم.

ثم نزلت سورة أخرى تؤكد ما ذكرته الفلق، وهي:

(٣٣) الناس

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ(١) مَلِكِ النَّاسِ(٢) إِلَهِ النَّاسِ(٣) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ(٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ(٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ(٦).

والوسواس يكون نتيجة لمشاعر خفية في النفس البشرية «من الجنة» الشيء الخفي وليس الجن كمخلوقات حية. كما يتولد الوسواس نتيجة لحديث، أو تأثير نفسي من الناس.

ولو أن الناس اعتقدوا ما يشاؤون بما يسمى «دخول الجن في أجساد البشر» أو ما يعرف بالسحر بمعناه الشعبي على أنه لا علاقة له بدين الله، فمن شاء فليصدق به ومن شاء فلينكره، لهان الأمر. لكن المؤسف هو أن هذه الخرافات قرنت بدين الله وجعلت جزء منه. ومن ينكرها فهو عندهم منكر لشيء من دين الله. وهم بهذا لا يسعون لخدمة دين الله ولكن لخدمة مصالحهم، فلو اكتشف الإنسان العادي أنه لا وجود للعين والسحر بمعناهما الشعبي فسيصبح كثير من رجال الدين بلا دخل، وسيتضرر غيرهم من رجال الدين، لأن ما كانوا يعتبرونه من دين الله اتضح أنه ليس كذلك.

ومن الأشياء المؤسفة هي أن رجال الدين الذين يتسمون في بلادنا برجال هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصبحوا يحترفون ما أسموه «فك السحر» وتطورت هذه المهنة لدرجة أنه أصبح لها إدارة خاصة بها في كل فرع من فروع (هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) في السعودية. وامتد النشاط للمستشفيات حيث يقوم هؤلاء المطوعين بزيارات متكررة للمستشفيات وزيارة المرضى للقراءة عليهم ورقيهم عن العين والسحر. وكل هذا بمباركة رسمية من الدولة، والتي بدلاً من محاربة الجهل والخرافات وتوعية الناس رسخت هذه الخرافات وكأنها حقيقة واقعة. ولعلنا لا نبتعد عن الحقيقة لو قلنا إن هذا التوجه الرسمي لنشر هذه الخرافات لكي يتجه الناس لرجال الدين عند إصابتهم بالأمراض وتقل أعداد المتوجهين للمستشفيات القليلة الفقيرة الخدمات، مما يريح الدولة من أعباء معالجة الناس أو التحرج من عدم توفير الرعاية الصحية المناسبة لهم.

وبعد فلا يمكن أن يقبل رجال الدين باعتبار السحر بمعناه الشعبي لا وجود له، وسيستمرون في التضحية ببعض رقاب المساكين من العمالة الوافدة لترسيخ وجود السحر لكي يبقى لهم السحر منجماً يدر عليهم الأموال. وهو ما ينطبق على العين.

فترة موقف قريش الرافض للدعوة لن يتغير

يستمر الوحي بالنزول ومازال المخاطب في الدعوة هم قريش دون بقية الناس، ومازالت الأوضاع في مكة كما هي: رسول يدعو وقريش لا تسمع، وتسخر وتتهكم، ونفر قليل مسلم يعيشون في الظل لا حول لهم ولا قوة.

ومن المهم ملاحظة أن الأيام تمر والسور تتوالى بالنزول لكنها لا تحمل تشريعات أو عبادات أو حلالاً وحراماً ونحوها. وهنا يلزم أن نشير إلى أن التشريعات لا تفرض إلا بعد أن ينشأ مجتمع مسلم. وهذا ليس خاصاً بالإسلام، بل كان متبعاً في الأمم السابقة. فموسى لم تنزل عليه التوراة إلا بعد هلاك فرعون ووجود مجموعة من بني إسرائيل آمنت مع موسى.

ولعل القراء لاحظوا أن الآيات لم تخاطب المؤمنين بمحمد حتى الآن، إلا كإشارة عابرة، وهذا يشير إلى أن أعدادهم قليلة لا تكفي لنزول التشريعات. كما أنهم، وإن تعرضوا للسخرية والتهكم من قريش، إلا أنهم لم يتعرضوا لأي أذى جسدي بعد.

وفي هذه الفترة نزلت: (١٣) سورة، هي كما يلي: الإنسان، الملك، يس، القدر، الرحمن، النجم، الهمزة، ن والقلم، الطور، الضحى، الشرح، نوح، والقمر.

بعض هذه السور قصيرة موجه للرسول لرفع معنوياته وحثه على الصبر على الضغوط التي يتلقاها من قريش نتيجة سخريتهم منه. والسور الأخرى طوال بخلاف أغلب سور هذه المرحلة السابقة. ومن أهم ملامح هذه الفترة، حديث السور عن تمسك قريش بالموروث ورفض لا رجعة فيه للدعوة.

(٣٤) الإنسان

تبدأ السورة بـ «هل» والمقصود ليس للتساؤل ولكن لتقرير حقيقة أن الإنسان (أي شخص والمعني هنا قريش) بدأ خلقه من لا شيء تقريباً، من نطفة (مني) ثم أصبح إنساناً: هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً(١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً(٢).

الإنسان خلق من لا شيء وأمده الله بقدرات كبيرة وهو مخير لا مسير. فهل يعجز عن إعادة بعثهم؟

وهذه هي المرة الخامسة التي تُذكر السور قريشاً بأن خلقهم بدأ هذه البداية المهينة ومنها أصبحوا بشراً بقدرات وعقول، بعد سورة المرسلات: (٢٠)، عبس: (١٨-١٩)، الواقعة: (٥٨-٥٩)، وسورة القيامة: (٣٦-٤٠)، للتأكيد على أن البعث هين على الله جل وعلا.

الدين خيار شخصي

إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً(٣).

خلق الله الإنسان من نطفة مهينة ثم شخصاً كاملاً، وبعقل يُمَكِّنُ صاحبه من الاختيار الحر. فالإنسان يختار طريق الهداية المؤدي للجنة بنفسه، أو الضلال المؤدي للنار بنفسه، دون تدخل من الخالق العادل جل وعلا.

صور حسية للعذاب كترهيب، وصور حسية للنعيم كترغيب

استمراراً لما سبق وذكر تقدم السورة صوراً مجازية حسية للعذاب الذي ينتظر من يختار الضلال، وصوراً حسية لنعيم من يختار الهداية:

إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً(٤) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً(٥) عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً(٦).

الوفاء بالنذر لازم لدخول الجنة

يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً(٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً(٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً(٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً(١٠).

من يختار الهداية عليه أن يكون مؤمناً ويعمل صالحاً، والعمل الصالح يعني اتباع كل أوامر القرآن والانتهاء عن كل نواهي القرآن. والسورة هنا تفرض الوفاء بالنذر كعمل جديد مطلوب لدخول الجنة إضافة للإنفاق الذي فرض سابقاً:

فأصبح المطلوب لدخول الجنة في تلك الفترة من الدعوة بعد الإيمان بالله والبعث: الصلاة، الإنفاق في مجالات سبق ذكرها وكرر بعضها هنا، والبعد عن الغش التجاري المذكور في المطففين، إضافة للوفاء بالنذر (العهود والوعود الاتفاقيات ..الخ). والمؤسف أن نرى المسلمين اليوم أقل الناس في العالم وفاءً بالعهود واحتراماً للوعود، على مستوى الأشخاص،

الهيئات، والحكومات.

عود لتقديم الصور المجازية للنعيم

فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً(١١) وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً(١٢) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً(١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً(١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا(١٥) قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً(١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً(١٧) عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً(١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً(١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً(٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً(٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً(٢٢).

صور حسية مشهية جداً للترغيب، وليس بالضرورة أنها تصور حقيقة ما في الجنة لأن عالم القيامة عالم مختلف عن عالمنا وتصوراتنا، ولا نعرف عن حقيقته شيئاً.

وقوله: «عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً» المعني هنا هم المؤمنون وليس الولدان المخلدون الذين يقومون على خدمة أهل الجنة، بدليل قوله: «وسقاهم ربهم شراباً طهوراً». فهم من سيسقون ويأكلون ويتمتعون وليس الولدان المخلدون الذين يقومون على خدمتهم[1].

مخاطبة الرسول والرد على تهم قريش

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً(٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً(٢٤) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً(٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً(٢٦) إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً(٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً(٢٨).

تظهر الآيات بطريق غير مباشر أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قد تزايدت عليه الضغوط النفسية التي يواجهها من قريش، لذا كان لابد من تجديد وتحديث برنامج التأهيل النفسي الذي يعين الرسول على تحمل المتاعب والضغوط النفسية وهو ما سيتكرر

١ انظر فقرة: ولدان مخلدون، وفقرة: سندس وإستبرق / قسم مفردات من القرآن،

كلما دعت الحاجة. وهذه الآيات تأمره أن يداوم على ذكر الله كل وقت «بكرة وأصيلا» كناية على أي وقت وكل وقت وليس تحديد الذكر بالبكرة والأصيل فقط. مع المداومة على البرنامج التأهيلي الذي فرضته المزمل، والذي عبرت الآيات عنه هنا بـ « وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً».

وبالنسبة لقريش فهم يحبون الدنيا وينسون الآخرة، كما سبق وأشارت له سور مررنا بها، ولو شاء الله لأهلكهم واستبدلهم بغيرهم.

تأكيد أن الرسول لا يدعو بغير القرآن وأن الدين خيار شخصي

إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً(٢٩) وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً(٣٠) يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً(٣١).

تأكيد على أن القرآن تذكرة لمن يرغب في إنقاذ نفسه، مما يعني أنه الوسيلة الوحيدة للدعوة. والآيات تعيد تأكيد ما ذكرته السورة في بدايتها، من أن اختيار الإيمان أو الكفر خيار شخصي. لكنه يتم بمشيئة الله التي تعني أن كل ما يجري في الكون وما سيجري في عالم القيامة قدره الله مسبقاً. بمعنى أنه سبحانه خلق الكون وقدر له عمراً سينتهي وسيخلق كون قيامة وما فيه من جنة ونار، والله قادر على ألا يخلق هذا وأن يخلق غيره حسب مشيئته واختياره. وهو سبحانه من خلق الإنسان وجعل له عمراً افتراضياً، لكنه لم يقدر عليه الخير أو الشر أو قسم له رزقه أو كتب كم سيعيش من سنة وشهر ويوم وساعة. فمشيئة الله هنا تعني أن كل ما يحدث في الكون حصل بمشيئة الله واختياره وبموجب قوانينه الثابتة. فمشيئة الله بخلق كل شيء بقدر، ومشيئة الإنسان بتقرير مصيره واختيار طعامه وعلاجه وطريقة حياته..الخ. فلو دخل النار أو الجنة فذلك نتيجة لأعماله التي فعلها باختياره.

وستمر بنا آيات عديدة في نفس الموضوع.

(٣٥) الملك

بداية السورة اختلفت، عن السور السابقة حيث تبدأ بتمجيد ذات الله:

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ(٢).

والآية الثانية يستشهد بها أتباع السلف على أن من حكمة خلق الإنسان امتحانه، وهل سيؤمن أو يكفر؟ ولكن لو تمعنا في الآية فهي تقول: إن الموت لابد منه لكي نصل للآخرة حيث الحساب لما تم في الحياة الدنيا وبناءً عليه يتقرر المصير. لأن الدنيا ليس فيها لا حساب ولا ثواب أو عقاب، ولو لم توجد الدنيا فلن يكون عمل، ولو لم يوجد موت فلن يوجد حساب. فالموت والحياة لم تخلق فقط لكي يمتحن الناس، ولكن الحياة للعمل والموت للمرور للآخرة. فالآية تقول: خلق الموت والحياة لكي يحصل كل إنسان على مصيره الذي قرره بنفسه. ولو لم يكن هناك دنيا للعمل، وآخرة للثواب والعقاب لما أمكن معرفة المصير.

وهنا إشارة هامة أخرى، وهي أن الحياة الدنيا لا تستحق أن تكون هدفاً، لأن كل ما فيها سريعاً ينتهي.

وتواصل السورة:

دعوة عقلانية

الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ(٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ(٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ(٥).

لو فكرت قريش بالخلق لتأكد لديها قدرة الخالق على البعث.

والآية الثالثة تقول إن هناك سبع سماوات طباقاً، أي طبقة فوق أخرى. والقرآن دائماً يخاطب المخاطب بما يستطيع رؤيته وتصوره، وإن ذكرت حقيقة علمية فليست مقصودة بذاتها. فمثلاً سورة النمل تقول: حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(١٨) النمل.

والنمل له بالفعل لغة تخاطب، لكن قريشاً لا تعلم هذه الحقيقة، ومع ذلك ذكرها القرآن، لأن الحديث كان عن سليمان الذي يخبرنا القرآن أنه أعطي قدرات لا يتمتع بها الناس عادة في زمانه، ومن ذلك معرفة منطق الطير وبعض الحشرات. لذا، فآية الملك لا تتحدث عن الكون، ولكن عن السماء. والسماء هنا هو ما يغلف الأرض، أو الغلاف الجوي للأرض بمفهوم العصر.

فهل هناك سبع طبقات للغلاف الجوي للأرض؟

ما يتداول الآن من علم يقول إن طبقات الجو متداخلة بشدة، ويصنفونها على أنها ست وأحياناً خمس، لكن هذا لا يعني أنه تصنيف نهائي ودقيق. وعلى الفلكيين والفيزيائيين العرب والمسلمين عمل بحوث في هذا المجال، لعلهم يشاركون العالم بخدمة علمية لو اكتشفوا أن الغلاف الجوي يتكون من سبع طبقات.

والآية الرابعة تذكر أن الطبقة الدنيا من الطبقات السبع ينتشر فيها الضوء (وقد عرفنا أن الضوء ينتشر لوجود ذرات دقيقة من الغبار) كما أنها طبقة يتوفر فيها الأوكسجين لأنها رجوم لشياطين الجن الذين يحاولون اختراق المجال الجوي والسياحة في الكون. وهو ما تحدثت عنه سورة الجن السابقة. وقوله: «وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ». المصابيح هي النجوم، وليست النجوم هي التي تستخدم رجوماً للشياطين، لأن النجوم عبارة عن شموس بعيدة عن الأرض. فرجوم الشياطين هي ما تحويه السماء الدنيا من غازات وليست المصابيح. فقوله: «وجعلناها رجوماً للشياطين» الضمير يعود للسماء وليس للنجوم.

وهو ما ستؤكده سورة الصافات التي ستنزل في مرحلة لاحقة، والتي تقول: إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ(٦) وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ(٧) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ(٨) دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ(٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ(١٠).

وتستمر سورة الملك ...

تصوير مجازي حسي

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ(٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ(٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ(٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ(١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ(١١).

تصوير مجازي حسي للنار، وتصوير مشهد حواري تخيلي افتراضي لن يحدث، لكنه يتحدث بلسان حال أهل النار وندمهم على التفريط في الإيمان.

وعد للمؤمنين

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ(١٢).

وعد للمؤمنين بالمغفرة والأجر، ومخاطبة المؤمنين يشير إلى أن أعدادهم تنامت وأصبح لهم وجود ولو كان محدوداً.

ويمكن ملاحظة أن الآية تقول إنهم آمنوا بربهم «بالغيب» أي آمنوا بوجود الله وبالبعث بدون دليل محسوس. لأنه يتعذر تقديم دليل محسوس لتأكيد وجود بعث وحياة لما بعد الموت. وإنما وجوده احتمال، يُغَلِّبُهُ العقل والمنطق، فمن يرى عظمة الخلق سيهتدي إلى أن هناك خالقاً قادراً على البعث.

كل ما يصدر عن الإنسان يسجل ولو كان مجرد تفكير

وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ(١٤).

فآلية التسجيل المزروعة في النفس تسجل كل ما يمر بالإنسان من خلال حواسه الخمس، وحتى لو خطر بباله خاطر أو فكر بشيء فيسجل.

وتقول الآيتان إن الله هو من خلق الخلق وبالتالي فمن غير المعقول ألا يعلم ويفهم خلقه، وهذا مخالف لحديث منسوب للرسول يقول إن الله جل وعلا ينزل في الثلث الأخير من الليل إلى السماء الدنيا لكي يستمع لخلقه ويقبل توبة التائب ويستجيب لدعوة الداعي. وبطبيعة الحال مختلق الحديث يظن أن الأرض عبارة عن طبقة سفلى يعلوها طبقة سماء أولى وفوقها طبقة سماء ثانية وهكذا حتى السابعة وفوقها طبقة فيها عرش يجلس عليه الرحمن (تعالى الله وتبارك) وبما أن هذا الخيال يصور الله بهيئة حسية بشرية فقد تجرأ وقال إن الله بحاجة للدنو من خلقه في الطبقة السفلى (الأرض).

عود للدعوة العقلانية

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ(١٥) أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ(١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ(١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ

نَكِيرِ(١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ(١٩) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ(٢٠) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ(٢١) أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٢٢).

وقوله: أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٢٢)

أسلوب مجازي يصور الكافر الذي ينكر الدعوة كمن يمشي على وجهه، والمؤمن كمن يسير بشكل سوي على طريق مستقيم.

وتستمر الدعوة العقلانية لكن بنوع خطاب مختلف، حيث تأتي الآيات على شكل أمر للرسول:

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ(٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ(٢٧) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ(٣٠).

وقوله تعالى: وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٢٦). هنا ذكرت الآية تساؤل قريش وأوردت الرد عليه، بعكس سور كثيرة سابقة لا تذكر السؤال ولكن تبدأ بالإجابة التي يفهم منها السؤال مثل بدايات سور الزلزلة والشمس والانفطار والتكوير والانشقاق وغيرها.

والآية: (٢٦) دليل أيضاً على أن الرسول لا يعلم الغيب.

الآية: فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ(٢٧).

مثال آخر على أساليب القرآن الفريدة، يتمثل بالحديث عما سيكون يوم القيامة للكفار وكأنه حدث في الماضي، لزيادة تأثير الوعيد في النفس لعل قريشاً تعتبر وتؤمن.

والآية: (٢٨) تظهر أن هناك مؤمنين بمحمد، وأن مكة أصبحت فريقين: مؤمنون قلة قليلة، وكثرة ساحقة كافرة. وتطلب الآيات من محمد ومن معه الصبر ولهم خاتمة الدار: قُلْ

أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(٢٨).

(٣٦) يس

تبدأ السورة بمخاطبة الرسول مؤكدة له أنه على الحق وما يدعو له حق، وأن نفور قريش منه وعدم قبولهم للدعوة لا يعني أنها باطلة، لكن مرده أنهم حقت عليهم الشقاوة (لأنهم اختاروا الكفر وليس لأن الكفر مقدر عليهم مسبقاً).

التمسك بالموروث منع قريشاً من الإيمان

يس(١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ(٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ(٣) عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٤) تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ(٥) لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ(٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ(٨) وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ(٩) وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(١٠) إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ(١١).

«يس» أول سورة تبدأ بحروف، وهي هنا حرفا الياء والسين، اللذان حولتهما كتب التراث لاسم للرسول[1].

والآيات تؤكد أن قريشاً لن تؤمن ولن ترى النور لأنها قالت لا في بداية الدعوة. ومن يرفض الدعوة (أي دعوة) فلن يعود ويقبل بها غالباً، مهما دعي: « وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ». لكن الدعوة ستستمر لعل أحداً سيقبلها ممن لم يسمع بها من قبل يقبلها، أو لعل أحداً يستيقظ ويفكر فيسلم أو لتذكير من أسلم سابقاً: « إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ».

صحيفة الأعمال

(الآية: ١٢) تتحدث عن صحيفة الأعمال، لكن بصورة مختلفة عن صور سابقة، وكأن الله سبحانه هو من يسجل الأعمال، من باب أن من خلقنا وخلق فينا تلك الآلية التي تسجل أعمالنا هو الله: إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ(١٢).

---

١ انظر فقرة: طه ويس حروف افتتاح أصبحت أسماء للرسول / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

والله جل شأنه لا يحيي الموتى يوم القيامة بالمعنى الحرفي، بمعنى أنه هو سبحانه من يقوم بإحياء الأموات واحداً واحداً وفعلياً، ولكنه سبحانه يُحييهم بطريقة غير مباشرة، وذلك بإيجاد قوانين ثابتة يتم بموجبها إحلال النفس بحامل (جسم) يتناسب مع عالم القيامة، ولا يقوم سبحانه بذلك فعلياً ومباشرة. مثلما أن الجنين يتخلق في الرحم بقوانين خلقها الله لكنه سبحانه لا يباشر التخلق مباشرة. وهو من أوجد آلية تسجيل الأعمال في النفس، فهو من يسجل الأعمال بطريقة غير مباشرة.

التمسك بالموروث سنة أزلية

قصة قديمة تذكرها السورة لتقول إن التمسك بالموروث الذي جعل قريشاً ترفض الحق المبين، هو نفس السبب الذي جعل أهل قرية كبيرة مكتظة بالسكان ترفض دعوة رسل ثلاثة أرسلوا لها في وقت واحد. فالتمسك بالموروث سنة أزلية وليست موقفاً خاصاً بقريش أو بزمان أو مكان: وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ(١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ(١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ(١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ(١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ(١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ(١٩) وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(٢٠) اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ(٢١) وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ(٢٣) إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ(٢٤) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ(٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ(٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ(٢٧) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ(٢٨) إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ(٢٩) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون(٣٠).

وقد احتوت الآيات السابقة دليلاً على أساليب القرآن المميزة، في قوله: قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ(٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ(٢٧). فالحديث يأتي بصيغة الماضي والمراد به المستقبل. لأن الجنة لم تخلق بعد، والرجل لم يدخلها، ومع ذلك

جاءت العبارة وكأن هذا قد حدث بالفعل.

دعوة عقلانية

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ(٣١) وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ(٣٢) وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ(٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنْ الْعُيُونِ(٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ(٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ(٣٦) وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ(٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ(٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(٤٠) وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ(٤١) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ(٤٢) وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ(٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ(٤٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(٤٥).

وبعض الآيات السابقة يحاول من يزعم أن القرآن فيه إعجاز علمي، الاستشهاد بها، وهي: وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ(٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ(٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(٤٠).

ولن أذكر أقوالهم، ولكني أود أن أُذَكِّرُ القراء أن القرآن يخاطب قريشاً بما يعرفون، ولا يخاطبهم بحقائق علمية لن يعرفها البشر إلا بعد قرون. لأن كل ما يخاطبهم القرآن به يدخل في باب محاولة إقناعهم بالتفكير بالخلق لعلهم يستدلون به على قدرة الخالق على البعث الذي ينكرون. ولن يكون هناك أي حكمة من أن يخاطبهم القرآن عن أسرار فلكية لم يعرفوها ويستحيل عليهم تصور وجودها.

البعض يقول لماذا لا تكون مثل هذه الآيات تخاطبنا نحن ومن يعيش في عصرنا وما بعده؟ وهؤلاء غابت عنهم حقيقة هامة، تتمثل في أن دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام - كأي رسول آخر - تبدأ بإقناع المعاصرين لها بالإيمان بخطاب دعوي يتناسب مع مداركهم وتصوراتهم ومعارفهم، كخطوة أولى. وعندما يتكون مجتمع مسلم، تأتي الخطوة الثانية،

المتمثلة بنزول التشريعات الدينية ويكتمل الدين. وبعد اكتمال الدين ووجود التشريعات، لا حاجة للخطاب الدعوي، ويكتفى بتقديم تشريعات الدين لمن يرغب التعرف عليه. لذا لا يحتوي القرآن على أي خطاب دعوي لأناس سيأتون بعد عصر الرسول. فمن يرغب في التعرف على دين الله، عليه أن يتدبر تشريعاته، وله خيار القبول أو الرفض.

والآيات السابقة تقول لقريش إن الله خلق الليل والنهار، اللذين ترونهما يتتابعان، وكأن أحدهما ينسلخ من الآخر، وهو من خلق الشمس التي ترونها تجري لمستقرها بالنسبة لعين الإنسان العادي (وجهة مغيبها)، وإن كانت لا تستقر ولا تغيب ولكنها دائمة الجريان لكن رجال عصر الرسول لا يدركون هذا. وخلق الله القمر الذي تشاهدونه يتنامى حتى يكتمل ويتناقص حتى يتوارى (هذا ما تراه العين) لكن القمر بالفعل لا ينمو ولا يكبر ولا يتوارى. وكما ترى عين الإنسان البسيط فالشمس كأنها تلاحق القمر ويلاحقها، ويراهما وكأن كل واحد منهما يسير في مجاله (الفلك) الخاص به.

تأكيد أن من رفض الدعوة لن يؤمن

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ(٤٦).

والآية تؤكد أن قريشاً لن تؤمن، ليس لأن الله قدر عليهم الكفر، ولكن لأنهم يسيرون على سنة سارت عليها كل الأمم، وهي أن من لا يؤمن في البداية فلن يؤمن مهما سمع من براهين مقنعة، أو رأى من آيات «معجزات». لأنه بمجرد تمسكه بموروثه وعدم قبول نقده سيرفض أي دعوة تخالفه بغض النظر إن كانت الدعوة صادقة أو لا.

وقريش لم تر آية (معجزة) من رسول الله، ومع ذلك فالعبارة التي صيغت بموجبها الآية كأنها تقول بتكرار مجيء الآيات لقريش. وهي في الواقع تقول: حتى لو افترض وجاءتهم كل آية طلبوا رؤيتها فلن يؤمنوا[1].

وتستمر السورة ...

---

١ انظر فقرة: الرسول لم يعط آيات حسية / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

قريش أمرت بالإنفاق ولو لم تؤمن

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(٤٧).

تقول الآية إن رجال قريش لم يستجيبوا لطلب الإنفاق، وقالوا حسب فهم الناس الخاطئ لمشيئة الله، أنه لو كان الله هو من أرسل محمداً لأطعم المؤمنين.

قريش مستمرة بالتساؤل: متى البعث يا محمد؟

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨).

وهو تساؤل لم تتوقف قريش عن طرحه أبداً، لأن الرسول لم يحدد لهم يوماً معلوماً لوقوعه، فكانوا يكررون السؤال لكي يحرجوا الرسول ويقنعوا أنفسهم بأنهم على حق في رفض الإيمان به. والجواب تحمله الآيتان التاليتان:

مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ(٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ(٥٠).

دليل على أن كل من مات فسيشعر أن القيامة قامت لحظة موته، لأن ذاكرته ستتوقف عن التسجيل بمجرد موته، ولن يشعر بالوقت الفاصل بين موته والقيامة مهما طال.

وهو ما تتحدث عنه الآيتان اللاحقتان: (٥١-٥٢): وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ(٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ(٥٢). فالقيامة ستكون بعد نشأة كون خاص بها. والصُّورُ كلمة في لغة القرآن - لو تمعنا بالسياق - فهي تعني الكون بلغة العصر. المؤسف أن المترجمين - حتى الجيدين منهم مثل محمد مارمادوك بكتال[1] - اقتبسوا ما قال المفسرون واعتبروا الصور يعني البوق. والمفسرون اقتبسوا تأويلهم من التراث اليهودي الذي يستخدم البوق لإعلان المشاعر الدينية والأحداث الهامة لليهود، واليهود يقولون إن البوق سيستخدم لإعلان القيامة. وبطبيعة الحال القيامة لن تقوم إلا بعد انهيار هذا الكون ونشأة كون جديد، ولن يكون هناك مخلوق واحد حي، فمن سينفخ البوق ولمن سينفخ ومن سيسمعه؟

[1] هو الإنجليزي من نسل نورماندي محمد مارمادوك بكتال Mohammed Marmaduke Pickthall (١٨٧٦-١٩٣٦) كاتب وروائي عرف عنه دفاعه عن الدولة العثمانية وعن المسلمين بوجه عام، قبل إسلامه في العام ١٩١٧. وقد عاش في الهند لفترة وهناك قام بترجمة القرآن الكريم، وتعتبر ترجمته عند الكثيرين واحدة من أفضل تراجم القرآن للإنجليزية في كل العصور.

هل ينفخ لإبلاغ الله الواحد الحي؟

سبحانه فهو لا يحتاج لأن يعلن ويخبر عن الحدث الذي خلق.

والنفخ في الصور هنا يجسد قيام كون القيامة، وهو تصوير مماثل للحظة قيام الكون الحالي فيما يعرف بالانفجار العظيم. وقد سبق وذكر النفخ في الصور لتصوير انهيار الكون الحالي في سورة الحاقة: (١٣). وذُكِر النفخ في الصور لتصوير نشأة يوم القيامة في سورة النبأ: (١٨)، وسيتكرر ذكر الصور في سور قادمة.

وكأن السورة هنا تؤكد أن نهاية هذا الكون ستتشابه مع بدايته، وصورتها بالنفخة العظيمة حيث تتطاير المجرات وتصطدم ببعضها ويختل نظام الكون كله.

ونعود للآية: (٥١) التي تصور بعث الناس بصورة حسية وكأنهم ينسلون من الأرض. أما الآية: (٥٢) فتصور حال الكافر لحظة بعثه يوم القيامة. فهو يتحسر على قيامه للبعث من مرقده (موته) ويتمنى لو لم يقم. وهو دليل على أنه لا يوجد عذاب للقبر، أو أي نوع من الحياة بعد مفارقة النفس جسد البشر. لأن الكافر لو كان يعذب في القبر - كما يزعم المفسرون والمحدثون - فسيفرح بقيام القيامة لأنه سيحصل على فترة راحة من العذاب الذي كان يتعرض له - جدلاً - في قبره، وبين دخوله النار بعد الحساب. لكنه - وكما تصرح الآية - يقول يا ليتني لم أقم من مرقدي. لقد كان في سبات ولم يكن يعذب.

والموت عبارة عن مفارقة النفس للجسد. والنفس هي الإنسان، وتحتاج لوعاء لكي تنشط. والوعاء الدنيوي هو الجسد. ولا يمكن للنفس أن تنشط وهي خارج الوعاء الحامل لها. ولذا فالموت عبارة عن حالة تكون فيها النفس في حالة خمول كما سبق وذكر.

ولو فهمنا هذا فمن المستحيل أن يكون هناك عذاب أو ثواب في القبر لأن المدفون في القبر هو الجسد «الوعاء الحامل للنفس» والذي لم يعد صالحاً للاستخدام بعد مفارقة النفس له. وستبقى النفس خاملة حتى ينهار هذا الكون ومن ثم ينشأ كون القيامة، وعندها سيكون لها حامل يتناسب مع الحياة الأبدية للقيامة. ولا حاجة للتذكير بأن الحساب يسبق العذاب أو الثواب، والحساب لا يكون قبل يوم القيامة.

كل المخلوقات ستبعث في لحظة واحدة

(الآية:٥٣): إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ.

تصف إعادة الحياة يوم القيامة وكأنها صيحة عاد بموجبها كل الناس للحياة دفعة واحدة وفي وقت واحد. والعودة دفعة واحدة ستكون لكل المخلوقات في هذا الكون الدنيوي وليس فقط البشر.

(الآية: ٥٤): فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ.

الحساب سيكون بناءً على ما تسجله صحيفة الأعمال لكل شخص، وهو ما كررت تأكيده السور منذ بداية هذه المرحلة.

** ويستفاد هنا دليل على أن الله لا يتعامل بالعواطف، فيغفر لهذا ويعذب هذا بالعاطفة. وكل شيء يخلقه في الدنيا والآخرة يسير حسب قوانين ثابتة لا تتغير. فالإنسان أعطي الخيار ليختار بحرية، وما يختاره سيسجل بآلية مزروعة في نفسه. أي أنه هو سيسجل أفعاله بنفسه، وهو سيحاسب نفسه بنفسه يوم القيامة عندما يستعرض صحيفة أعماله، وهو من سيحكم على نفسه بالنار لاختياره طريق الضلال، أو الجنة باختياره طريق الصواب. دون تدخل مباشر من الله لا بمغفرة لكافر ولا بتعذيب مؤمن، وهذا منتهى العدل. ولن يكون من عدل الله المثالي المطلق بعد ذلك أن يتسامح رب العالمين مع مستحقٍ للنار ويدخله الجنة، وهو من اختار الضلال. أو أن يدخل النار من اختار الهداية وعمل لها.

صور مجازية حسية لما في الجنة

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ(٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِؤُونَ(٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ(٥٧) سَلَامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ(٥٨).

الزوج المؤمن لن يغني عن زوجه الكافر من الله شيئاً: ضَرَبَ اللهُ مَثَلا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) التحريم.

ولا يمكن أن يكون المقصود بـ «هم وأزواجهم»، المؤمنون وأزواجهم، لأن المعنى لا يستقيم. فأصحاب الجنة هم: وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ

فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا(١٢٤) النساء.

سواءً كان زوجاً أو زوجة أو لم يكن متزوجاً.

فمن هم أزواج أهل الجنة؟

تقول سورة البقرة: وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٥).

وهو ما تكرره سورة النساء: وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً (٥٧).

والآيات لا تقول إن الرجال هم من سيكون لهم أزواج كما يحلو للمفسرين أن يؤولوها. ولكن الآيات تقول إن أهل الجنة سيكون لهم أزواج مطهرة. وأهل الجنة حسب ما قالت الآية (١٢٤) من سورة النساء هم من آمن وعمل صالحاً من ذكر أو أنثى. فالرجل سيكون له زوج مطهر في الجنة، وكذلك سيكون للمرأة زوج مطهر في الجنة.

وبطبيعة الحال لن يكون في الجنة تواصل جنسي، لأن الحاجة من الجنس – وهو التناسل – قد انتفت في الآخرة.

ويكون المقصود بالأزواج ليس زوجاً وزوجة من التزاوج، وإن خفي علي معناها.

وعيد للمكذبين

وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ(٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ(٦٠) وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ(٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ(٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ(٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ(٦٤).

المكذبون عبدوا الشيطان (طاعته)، وتركوا عبادة الله (طاعته)

تصوير مجازي حسي جديد لصحيفة الأعمال

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ.

الآلية المغروسة في النفس تسجل كل ما يصدر من الشخص وما تشعر به حواسه الخمس

منذ الولادة حتى الموت، وبناءً عليه تتم محاسبته كما ذكرنا. هنا تقول الآية أن هذه الآلية تسجل ما تفعله الأيدي والأرجل وستنطق، وهذا أقرب وصف لحقيقة عمل الآلية التي تسجل الأعمال والأفعال والأقوال.

وهناك آيات أخرى تقول: يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٢٤) النور. وتقول سورة فصلت: حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٢٠) فصلت.

فالمهم هو أن يفهم الناس أن كل شيء يصدر من الإنسان يسجل من داخل النفس ذاتها (قول، فعل، عواطف، ...الخ) وبناءً على هذا السجل يحاسب ويكون المصير.

الله قادر على معاقبة قريش في الدنيا

وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ(٦٦) وَلَوْ نَشَاء لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ(٦٧).

وهو رد على تساؤل كررت قريش توجيهه للرسول أن يوقع الله بهم العقاب إن كان صادقاً. وهو نفس أسلوب الأمم السابقة، ومن ذلك ما قاله قوم شعيب لرسولهم: وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاء إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) الشعراء.

ولكنه سبحانه لن يفعل لأن كل شيء قرره الله لوقته، والعذاب سيكون بعد الحساب الذي لن يكون في الدنيا ولكن في الآخرة: وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ(٦١) النحل.

ابتعاد السورة للحديث عن موضوع آخر

وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨).

دليل آخر لأساليب القرآن. هنا الآية تذكر حقيقة أن الإنسان لو طال به العمر فسيتردى فكره وقوته، وكأنها تكمل حديثاً عن هذا الموضوع، مع أنه لم يسبق أن ورد في السورة حديث عن أطوار العمر التي تمر بالإنسان.

عود للرد على تهم قريش للرسول

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ(٦٩) لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ(٧٠).

ترد على اتهام قريش لمحمد بأن كلامه نوع من الشعر، وتقول إن ما يتلو عليهم ذكر لمن يرغب وهو قرآن مبين لإنذار من كان حياً (معنوياً) يعني يعقل ويهديه تفكيره للحق. وهذا دليل على أن الرسول لا يستخدم سوى القرآن في دعوته.

هنا الله جل شأنه يقول بأنه لا ينبغي لمحمد أن يقول الشعر: « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ» فالشعر مذموم من الله.

دعوة عقلانية للتفكير بالخلق الدال على قدرة الخالق على البعث

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ(٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ(٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ(٧٣) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ(٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ(٧٥) فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ(٧٦) أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ(٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ(٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ(٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ(٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ(٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ(٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٨٣).

يمكن أن نستفيد من هذه الآيات أدلة أخرى، منها:

- دليل مخالف لنظرية أن الدواب قد تم تدجينها من قبل الإنسان فتحولت من متوحشة إلى مستأنسة كالخيل والجمال والبقر والحمير والأغنام. الآيات تؤكد أن الأنعام خلقت مستأنسة: وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ(٧٢).

بينما خلق الله جل شأنه حيوانات جائرة «متوحشة»: وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٨) وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ

أَجْمَعِينَ(٩) النحل[١].

- (الآيتان: ٧٤-٧٥) أول مرة تذكر الآيات أن قريشاً تعبد آلهة لا حيل لها ولا قوة (أصنام).
- (الآية: ٧٦) تشير إلى أن الرسول تزايدت عليه الضغوط النفسية المتمثلة بتهجم رجال قريش عليه: فلا يحزنك قولهم.
- آخر الآيات: (٨١-٨٣) تقول إنهم لو فكروا بقدرة الله لعرفوا أنه خلق السماوات والأرض وهي أعظم من خلق الإنسان. وأنه سبحانه إذا أراد أن يخلق شيئاً فيقول له كن فيكون. بمعنى أن يضع الله القوانين وبموجبها يتولد الخلق ويسير دن حاجة لمشغل لخلقه ولا مراقب له. فالقوانين أوجدت الخلق وسيرته، فتبارك الله رب العالمين. والمتفكر بخلق الله يجد أن الكون خلق بـ «كن» (مجموعة من القوانين الفيزيائية الثابتة) ويسير بموجب قوانين ثابتة. وكل خلق الله يسير بدقة وقوانين ثابتة. فقوله: كن! لا يعني أن خلق الكون واكتماله بصورته الحالية حدث بلحظة، لكنه انبثق من لا شيء بلحظة، نتيجة لقوانين ثابتة ثم مر بمراحل طويلة جداً حتى أصبح بصورته الحالية[٢]، نتيجة لأن القوانين التي أبدعها الله تحتاج لفترة للتفاعل وتكون الخلق.

(٣٧) القدر

امتداداً لمهاجمة قريش للرسول، كانوا يلاحقونه بالأسئلة سخرية منهم به وعدم تصديق له، وليس للمعرفة واليقين. ومن الأسئلة التي وجهتها قريش لمحمد كان التساؤل عن بداية تلقيه الوحي، متى كان؟

وهو سؤال كررته قريش كثيراً، وجاء جوابه في عدد من السور، لكن سورة القدر جاءت بكاملها للرد على هذا السؤال:

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ(١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ(٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ(٣) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ(٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ(٥).

١ انظر فقرة: نظرية تدجين الحيوانات غير صحيحة / قسم أدلة من القرآن.

٢ يقول علماء الفلك أن الانفجار الكبير الذي ظهر بموجبه الكون حدث من جسيم متناهي الصغر بحيث لم يكن له طول أو عرض (يعني من لا شيء) وهو ما يعني: كن.

فالسورة تقول إن بداية تلقي محمد للوحي كان في ليلة أصبحت مباركة لأن الوحي بدأ النزول فيها، وليس لأنها ليلة مقدسة أصلاً، كما ترسخ لدينا بواسطة المفسرين. وقد تولى القرآن الإجابة في السورة نفسها عما تعني ليلة القدر: « لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ» بسبب « تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ» والروح هو القرآن، كما ورد في عدة سور منها:

يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ(٢) النحل.

وورد في مكان آخر من السورة نفسها: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ(١٠٢) النحل.

وتقول سورة الشورى: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٥٢).

وقد استمرت تلك الليلة التي بدأ نزول الوحي فيها سلاماً على الرسول « سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ». وقد كانت بالفعل ليلة لا تنسى، ولم يكن هناك ليلة تقدر فيها الأرزاق ولا ليلة نزل فيها كل الوحي دفعة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا.[1]

وقد تكرر ذكر هذه الليلة التي بدأ فيها نزول الوحي «ليلة القدر» في سور أخرى، لأن قريشاً كررت السؤال، ومن ذلك ما جاء في سورة الدخان من سور المرحلة القادمة: إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ(٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ(٤) أَمْراً مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ(٥).

كما تكرر مرة ثالثة في المدينة أثناء الحديث عن رمضان والصيام، وذلك في قوله تعالى: شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٨٥) البقرة.

ثم نزلت سورة

---

١ هذه العبارة التي تحتها خط قام المدقق اللغوي عبد الحمن أسعد (أبو حزم) من إعادة صياغتها بهذا الشكل.

(٣٨) الرحمن

هذه السورة فريدة في خطابها الموجه للثقلين: الجن والإنس. وبما أنها من سور المرحلة الرابعة التي يكون المخاطب فيها قريشاً فقط، فالإنس هنا تمثلهم قريش. وتكون السورة تخاطب قريشاً والجن وكل مخلوقات لا مرئية في الكون قد تمر بالأرض وتستمع للقرآن.

ويحتمل أن مخاطبتها للجن جاء بعد أن استمع نفر منهم لتلاوة الرسول ونقلوا ذلك لقومهم فبدأت جموع منهم تحرص على المجيء والاستماع للرسول وهو يتلو القرآن، فنزلت هذه السورة تخاطبهم وتؤكد لهم أن دعوة محمد موجهة لهم أيضاً. ويدخل ضمن مصطلح «الجن» كل مخلوقات حية في الكون خافية على الناس ولا يرونها.

والسورة بمجملها تقرر عدداً من الحقائق.

الرَّحْمَنُ(١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ(٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ(٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ(٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ(٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ(٦).

فالله جل جلاله هو من علم القرآن، بمعنى أنزله على رسوله الذي بواسطته يتعلمه الناس، وهذا مثال على أسلوب القرآن المميز.

والله جل شأنه خلق الإنسان، وعلمه البيان «الكلام».

والله جل شأنه خلق كل الكون بدقة وقوانين ثابتة لا مجال فيها للتخمين ولا الارتجال: «الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ». فكل جرم سماوي يسير في مساره بناءً على قوانين ثابتة أوجدت الكون وسيرته.

والنجم والشجر يتبعان قوانين الله التي أودعها. فالنجوم تسبح في الفضاء بموجب قوانين ثابتة خلقها الله، والشجر ينمو ويثمر نتيجة لقوانين ثابتة وضعها سبحانه.

الغش التجاري

وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ(٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ(٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ(٩).

الآيات تؤكد على قانون الغش التجاري الذي ورد في سورة المطففين السابقة، وتقول إن الله وضع الميزان، ويقصد به النزاهة والعدل المثالي، وأوجب النزاهة والعدل على كل تعاملات

الخلق بعيداً عن الغش، كما ورد في سور أخرى مثل: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ(٢٥)الحديد.

وسورة الرحمن توجب الحرص على الصدق والشفافية لكل ما يقدم للغير، بعيداً عن الغش مهما صغر.

دعوة عقلانية

ثم تورد السورة بعض الحقائق التي لو فكرت فيها قريش لعرفت أن الله جل شأنه قادر على البعث: وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ(١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ(١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ(١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(١٣).

فالأرض جعلها الله صالحة للحياة، وهو المقصود بهذه الآيات، وليس المهم أن نتوسع في معنى العصف ولماذا ذكرته السورة هنا وكأنه هو المهم؟

خلق الإنسان

خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ(١٤).

مر خلق الجيل الأول للسلالات البشرية الحالية بأطوار (حقب) زمانية، منها طور تكون الطين على شكل صلصال[1].

الجن مخلوقات من طاقة

وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦).

السورة تؤكد حقيقة أن الجن مخلوقات من طاقة، كما ورد في سورة الحجر: وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧).

وخلقهم من طاقة يعني أنه لا أجساد لهم ولا يمكن رؤيتهم، ويشاركهم في هذا خلق كثير في الكون لا نعلم منهم سوى الملائكة. فكل مخلوقات الله في الكون اللاجسدية هي مخلوقات من نار، ولا ينحصر هذا بالجن الذين يعيشون في محيط الأرض، ولا بالملائكة الذين ذكرهم القرآن.

١ انظر فقرة: خلق الإنسان / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

المشرقان والمغربان

وتقول السورة: رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ(١٧) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(١٨).

وقد تكلف المفسرون في تقديم قصص مختلف ومتخالف عن المقصود بالمشرقين والمغربين، ولو عقلوا أن القرآن يخاطب المخاطب حسب ما يرى ويعرف وما تتسع له مداركه، لعرفوا أن قريشاً لم تعترض على هذه العبارة وفهمتها، كما لم تعترض على عبارات أخرى ذكرها القرآن عن المشرق والمغرب، مثل: فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ(٤٠) المعارج. وقوله تعالى: قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ(٢٨) الشعراء.

وبالتالي فالمقصود بالشرق أو المشرقين أو المشارق هو واحد، كما المغرب والمغربان والمغارب. وهو ما تراه قريش وتشاهده، من اختلاف أماكن شروق وغروب الشمس بين الشتاء والصيف، وليس له علاقة بمشارق الكواكب البعيدة، كما تأول المتأخرون.

التقاء مياه بحرين

وتقول السورة: مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ(١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ(٢٠) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ(٢٢) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٢٣)

هذه الآيات يستدل بها من يروج لمعجزات علمية في القرآن، ويقولون إن ظاهرة احتفاظ النهر بمياهه لفترة بعد أن يصب في البحر لم تعرف إلا في العصر الحديث، في محاولة لإقناع غير المسلم أن القرآن يحوي معجزات علمية. وبطبيعة الحال إن كانت السورة تتحدث عن التقاء ماء نهر بماء بحر فيمكن ملاحظة أن مياه النهر تحتفظ بلونها المختلف عن مياه البحر لمسافة في البحر إلى أن تختلط به وتضمحل. وهذه يمكن مشاهدتها في أي مكان يلتقي فيه نهر وبحر أو حتى نهرين جاءا من مكانين مختلفين، لكنها لا تمثل ظاهرة علمية للتو اكتشفها الإنسان. وأهل الخرطوم (عاصمة السودان) اعتادوا رؤية النيل بلونين في المنطقة التي يلتقي فيها النيل الأزرق بالنيل الأبيض، ومنذ آلاف السنين قبل الإسلام. وكذلك الحال في منطقة صب النيل بالبحر الأبيض المتوسط، وفي أي مكان يلتقي فيه نهران أو نهر وبحر أو حتى بحران. ومما بقي في الذاكرة من أيام الدراسة أن نهر الأمازون تحتفظ مياهه بلونها وحلاوتها لعدة كيلومترات، داخل المحيط الأطلسي، لأن كمية مياه النهر هائلة. فالآيات تتحدث عن ظاهرة معروفة من قبل وجود الإنسان على الأرض، ولا تتحدث عن شيء

مجهول لقريش الذين تخاطبهم الآيات، ولن يعرفه الناس إلا بعد قرون. وقريش لابد أنها لاحظت هذه الظاهرة عند وصول مياه الأمطار في الأودية التي تنحدر من جبال السروات إلى البحر القريب من مكة وكيف أنها تحتفظ بلونها لمسافة في البحر. وقد لاحظت عند التقاء مياه واديين، أن مياه كل وادٍ مختلفة عن الآخر وأنهما يبقيان لفترة بعد التقائهما وكل واحد محتفظ بلونه.

دعوة عقلانية

وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ(٢٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٢٥).

الآية ٢٤ تفيد أن قريشاً اعتادت رؤية السفن في البحر الأحمر القريب منها، ولابد أنها استخدمتها في رحلات رجالها للسودان (الحبشة) القريبة والتي تقع في الجهة الأخرى من البحر الأحمر، وقد يكون رجال قريش ركبوا البحر لجهات أخرى.

كل المخلوقات الحية في الكون ستفنى قبل يوم القيامة

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ(٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ(٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٢٨).

الجن ممنوعون من التجول في الفضاء

يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ(٢٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٣٠) سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ(٣١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٣٢) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ(٣٣) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ(٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٣٦).

وتشير الآية: (٣٣) أن الإنسان يحتاج لسلطان «وسيلة» لكي يستطيع التجول في الفضاء، قادرة على تفادي الشهب ومخلفات النحاس والصخور بين الكواكب والمجرات.

صورٌ مجازيةٌ حسية لانتهاء الكون، ولما في النار والجنة

فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ(٣٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ(٣٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ

فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ(٤١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ(٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ(٤٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٤٥).

الجنة تتألف من مستويين

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ(٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ(٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ(٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ(٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ(٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ(٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ(٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ(٦٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٦١) وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ(٦٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٦٣) مُدْهَامَّتَانِ(٦٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ(٦٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ(٦٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ(٧٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٧١) حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ(٧٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ(٧٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ(٧٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ(٧٨).

وقد ذكرت سورة الواقعة حقيقة أن الجنة بمستويين، والسورة هنا تكرر ذلك.

والآيات تذكر الحور للمرة الثانية بعد سورة الواقعة في الآيات: (٥٦، ٧٢، ٧٤). ومن المناسب أن نُذكّر أن السور التي تخاطب قريشاً هي في الواقع تخاطب رجال قريش ولا تخاطب نساءها، باستثناء سورة المسد التي ذكرت امرأة أبي لهب. ولا تخاطب السور الموالي والعبيد طوال المراحل الأربع الأولى للدعوة في مكة. وهذا بسبب أن كبراء قريش هم من يقود مجتمع مكة ويرسم سياسة البلد، ويقف موقف العداء لدعوة محمد، والبقية تبع لهم. لذا فالقرآن يخاطبهم ويدعوهم للإسلام، وكل الصور الحسية في الجنة لترغيبهم. وهذه الصور لا تصور واقع الجنة، ولكنها أسلوب مجازي للترغيب فقط. وكأنها تقول لهم إن كنتم تحبون المتع الدنيوية ففي الجنة متع أفضل. فالخمر الذي تشربون ستجدون أفضل منه،

والفواكه والثمار والمياه والأنهار...الخ. وإذا كنتم تستمتعون بالنساء والجواري ففي الجنة متع أفضل أطلق عليها القرآن «حور».

والجنس ضرورة دنيوية لبقاء الجنس البشري واستمراره، ولو لم يكن بهذه الرغبة القوية فسينقرض الجنس البشري. أما يوم القيامة فلن يكون هناك تناسل، وبالتالي فلن يكون هناك حاجة للجنس[1].

ولأن النساء لم يكن لهن دور في صنع قرارات المجتمع المكي وكذلك المدني فلم يخاطبهن القرآن بصور حسية لما ينتظرهن في الجنة. مع أن الجنة وما فيها من متع حقيقية لا نعلم عنها شيئاً، متاحة للرجل والمرأة على حد سواء، كما يؤكد القرآن: وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً(١٢٤) النساء.

وتستمر سور هذه المرحلة التي تتشابه في ملامحها، وبداياتها وأسلوبها الصارم ومواضيعها. والتي منها الوعيد الشديد لقريش، وشحذ همة الرسول للصبر على الأذى النفسي نتيجة ما يلقاه من سخرية.

(٣٩) النجم

سورة تردّ على اتهامات قريش للرسول التي تعالت وتكررت بلا انقطاع، من أنه كاذب يهذي بعبارات غير معتادة ويزعم أنها من الله.

الرسول رأى الملك المكلف بالوحي مرتين

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى(١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى(٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى(٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى(٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى(٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى(٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى(٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى(٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى(٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى(١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى(١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى(١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى(١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى(١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى(١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى(١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى(١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى(١٨).

(الآيات: ١-٤) تأكيد قاطع أن محمداً (صاحبكم يا قريش) لم يضل ولم يغو، وما يتلو عليكم ليس من عباراته الشخصية، بل وحي يوحى. وهي تأكيدٌ على أن الرسول يدعو

[1] انظر فقرة: الحور والولدان / قسم مفردات من القرآن.

بالقرآن فقط، ولا يستخدم كلماته الشخصية للدعوة.

(الآية: ٥) تقول: الوحي الذي يتلوه الرسول تعلمه من أحد الملائكة والذي له قوى خارقة (شديد القوى) تمكنه من التشكل على هيئة مرئية، مع أنه مخلوق نوراني "من طاقة". وقد تشكل بالفعل بهيئة مرئية في الأفق أمام محمد قبل أن يتلقى الوحي، لإثبات أن محمداً أصبح رسولاً لله، وكان هذا في بداية البعثة ومع أول نزول للوحي.

وكون القرآن لم يخبرنا قبل هذه السورة عن هذا، لأن الإخبار بما سبق وحدث جاء كرد لتساؤلات قريش التي كانت تسأل الرسول أن يخبرها كيف يتلقى الوحي من السماء ومن يحمله له ..الخ.

فتقول السورة إن محمداً علمه أحد الملائكة والذي سبق أن رآه مرتين:

الأولى رآه في الأفق، حيث اقترب من محمد حتى كان قاب قوسين أو أدنى (مجاز يقصد به الاقتراب كثيراً). تلا ذلك تلقي محمد الوحي للمرة الأولى: فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى" ممثلاً بسورة الفاتحة.

وقد كانت رؤية محمد للملك حقيقة ولم تكن تهيؤات: " مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى"

فكيف تمارونه (تتحدونه) على أنه لم ير ما رآه بالفعل: " أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى".

وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى(١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى(١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى(١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى(١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى(١٧)

محمد رأى ذلك الملك مرة أخرى، وكان ذلك عندما نزل الملك على الأرض بقرب شجرة سدر[١] كانت على حافة أرض عشبية (أو التي تسمى حالياً «روضة» في كثير من مناطق جزيرة العرب)[٢]. ونتيجة لقرب المَلَك من الشجرة غشيها حالة غير طبيعية فقد تكون ذبلت أو احترقت لأن الملك مخلوق من طاقة أثرت على الشجرة. وكانت الرؤية حقيقية وليست تهيؤات، ورؤيته للملك من آيات ربه الكبرى التي جعلته يتأكد أنه أصبح رسولاً لله وعلى علاقة بالسماء. بينما صورت كتب التراث الحادثة صوراً خرافية - ونقلوا شجرة السدر

---

١ الاسم العلمي Zizyphus Vlgaris من عائلة Rhamneae. وهي شجرة برية معروفة في جزيرة العرب ولها ثمر مستدير بحجم الكرز ولونه يكون أخضر ثم يصفر ويميل للاحمرار قليلا عندما ينضج.

٢ الروضة أرض تجتمع فيها مياه الأمطار في الفيافي أكثر من غيرها كونها منخفضة نسبياً عما حولها مما يسمح ببقاء ماء المطر مدة أطول قبل أن يتبخر، فيعمل على نمو الحشائش والنباتات الصحراوية، وعودة الحياة للأشجار، فتتحول إلى جنة.

الأرضية المعروفة في طول جزيرة العرب وعرضها – إلى تحت عرش الرحمن حيث لا أحد من الخلق – بما في ذلك محمد – يستطيع الوصول إلى هناك. وتصوير أن الله عرشاً (كرسي للجلوس) وأنه في مكان ثابت هو تجسيم لله يتنزه سبحانه عنه. فهو جل وعلا لا يحده زمان ولا مكان.

ولم يشعر الرسول بالهلع والخوف ولم يركض كالأهبل إلى خديجة وابن عمها المختلق (ورقة)، كما صورته كتب التراث: « مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى».

فما الذي رأته قريش

لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى(١٨) أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى(١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى(٢٠)

إذا كان محمد رأى هذه العلامات الكبرى من ربه المتمثلة برؤية أحد الملائكة، وتلقي الوحي، فما الذي رأيتموه؟

أنتم يا قريش رأيتم أصنام اللات والعزى ومناة، فهل هي التي علمتكم عقائدكم الموروثة التي تتمسكون بها؟

وعبارة القرآن تسخر منهم وتقول إن عقائدكم الوثنية ليس لها علاقة بالسماء، وليس لها أصل ومصدر إلا أن تكون أصنامكم الثلاثة التي لا تنطق قد علمتكم إياها.

المفسرون يقولون على لسان سعيد ابن جبير إنه عندما قرأ النبي: أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى(١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى(٢٠)، ألقى الشيطان على لسان الرسول فنطق: تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى. فسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقال المشركون : إنه لم يذكر آلهتهم قبل اليوم بخير ، فسجد المشركون معه ، فأنزل الله: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ(٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٥٤) وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ(٥٥) الحج.

ولو صدقنا ما سبق فالرسول كان يهذي بما يسوس به الشيطان له ويقول للناس هو من عند الله.

ولكي نعرف أن سعيد ابن جبير كغيره من المفسرين يهرفون بما لا يعرفون، نقول: سورة النجم نزلت في النصف الأول من زمن الدعوة في مكة، بينما نزلت الحج بعدها بسنوات وفي الأيام الأخيرة قبل هجرة الرسول. لكن لأن المفسرين قطّعوا أوصال الآيات وألغوا ترابط القرآن بقولهم إنه ينزل آية أو بعضها هنا، وآية من سورة أخرى هناك. واستباحوا لأنفسهم أن يختلقوا ما يشاءون من القصص حول نزول آية في سورة النجم، ووصلها بآيات سورة الحج، لكي يطعنوا في القرآن بقولهم إنه يحتوي على نصوص مصدرها الشيطان وليس الله.

وإلا فسورة النجم تبدأ بالتأكيد على أن الوحي الذي يتلوه الرسول على قريش حق، ومصدره الله، ونزل به على قلبه أحد الملائكة والذي سبق للرسول رؤيته مرتين، وأن رؤيته للملك حقيقة وليست خيالاً أو تهيؤات (الآيات: ١-١١).

ثم تسأل الآيات قريشاً: أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى(١٢)؟

والمماراة هي الرهان: تقول لأحدهم: أماريك بعشرة دراهم إن أنت استطعت قراءة خطي.

وتكمل الآيات قائلة إن الرسول رأى الملك مرة أخرى: وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى(١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى(١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى(١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى(١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى(١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى(١٨).

ثم تقول الآيات لقريش: إذا كان الرسول قد رأى الملك الذي يمده بالوحي من الله، فما الذي رأيتموه أنتم غير أصنامكم: أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى(١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى(٢٠).

وهذا تجريح وسخرية بالأصنام وليس مديحاً لها يا ابن جبير ويا كتبة كتب التراث. ثم تتواصل آيات السورة، دون أن يكون هناك مكان لخزعبلات المفسرين وقصصهم.

قريش تعتقد أن الملائكة بنات الله

للمرة الثانية بعد سورة الجن تشير آيات سورة النجم إلى أن قريشاً تعتقد أن الملائكة بنات الله، وسنرى سوراً فيها بعد تعيد الحديث عن هذا:

أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى(٢١) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى(٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى(٢٣).

وقريش تشترك مع عقائد أخرى في الظن بأن الملائكة جنس مؤنث، وبما أنها في السماء (بالنسبة للأرض) فقريش تعتقد أنهم يعيشون بقرب الله جل وعلا وبالتالي فلابد أنهم بناته. والملائكة وكل مخلوقات الله اللاجسدية ليس لها جنس، فهي ليست مؤنثة ولا مذكرة، لأنها لا تتناسل.

وتؤكد السورة بعض الحقائق:

أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى(٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى(٢٥) وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى(٢٦).

وهنا لابد من الإشارة إلى أن الملائكة لن تشفع للناس يوم القيامة (بالمفهوم السائد للشفاعة) وهو المرادف لمعنى لفظ «الواسطة». برغم أن الآية تقول: «إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى» فهذا لا يعني أنهم سيشفعون وإنما هو أسلوب القرآن، وهو مماثل لقوله تعالى: يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً(١٠٩) طه.

وقوله: .... مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ... (٢٥٥) البقرة.

والتي لا تعني أنه سيكون هناك شافع ومشفوع يوم القيامة، سواءً كان الشفيع هو محمد أو غيره، لأن كل نفس ستكون بما كسبت رهينة[١].

والحساب سيكون لكل البشر في نفس الوقت. فكل فرد سيستعرض صحيفة أعماله في نفس الوقت الذي يستعرض غيره صحيفة أعماله. والرسول محمد وكل الرسل بشر سيحاسبون كما البشر وسيستعرضون صحف أعمالهم في نفس الوقت مع البشر، ولن يكون هناك متسع من الوقت لكي يشفع بشر في آخر، لأن كل إنسان مشغول بنفسه «له شأن يغنيه»: فَإِذَا جَاءتِ الصَّاخَّةُ(٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ(٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ(٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ(٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ(٣٧) عبس.

عود للحديث عن ظن قريش أن الملائكة إناث

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى(٢٧) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً(٢٨) فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ

١ انظر فقرة: الشفاعة / قسم مفردات من القرآن.

يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى(٣٠).

والمخلوقات اللا- جسدية (النورانية) المخلوقة من الطاقة مثل الملائكة والجن لا جنس لها لأنها لا تتوالد وتتناسل. فجبريل ليس له أب ولا أم ولا زوجة وأبناء. ولا يصنف كأنثى أو ذكر، وكذلك بقية الملائكة والجن وغيره من المخلوقات النورانية «إن وجدت».

وَللهِّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى(٣١)

تقول الآية إن الله سيجزي الكافر والمؤمن كل بما يستحق.

من يستحق الجنة

الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى(٣٢)

وهذه السورة نزلت - كما نلاحظ - في وقت كان المطلوب لدخول الجنة: الإيمان بالله والبعث والصلاة بدون أوقات محددة والإنفاق والبعد عن الغش التجاري. والآن يضاف تشريع جديد هو البعد عن كبائر الإثم والفواحش بوجه عام.

واللمم تعني صغائر المعاصي (الإثم) والتي لا يوجب اقترافها دخول النار، لكن من يصدر منه بعض اللمم فسيدخل المستوى الثاني من الجنة، ومن يتجنب الكبائر واللمم ويعمل بكل الأوامر فسيدخل المستوى الأعلى في الجنة، كما وصفت ذلك سورة الواقعة.

ولا عبرة - كالعادة - لما قال المحدثون والمفسرون عن أن اللمم هو خاص بالزنا ويعني ما دون الجماع، من لمس وتحسس وتقبيل وضم ...الخ. وهذا المعنى تنفيه الآية بسياقها.

هنا يمكن للقراء ملاحظة كيف أن أخذ السور كما نزلت يعطينا فرصة لفهم الآيات، فالمفسرون والمحدثون الذين يأخذون كل جزء من آية أو آية وكأنها نزلت لوحدها يقولون إن المقصود باللمم هنا القبلة والتحرش الجنسي فيما دون الجماع. لكن من الواضح أن السورة نزلت قبل الحديث عن الزنا، وقبل تشريعات كثيرة، لذا فاللمم يعني صغائر الذنوب بوجه عام. لأن الآية تنهى عن كبائر الإثم (الذنوب) وتستثني اللمم (صغائرها) فهي وإن كانت

معاصي فهي لا تدخل النار، بعكس الكبائر. وسنرى في السورة التي تتحدث عن الزنا أنها تنص على تحريم كل ما له علاقة بالزنا، بما في ذلك التحرش والمقدمات لمس وتحسس وتقبيل وضم ...الخ. فآية تحريم الزنا تقول: وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً(٣٢) بني إسرائيل.

والنهي في الآية يظهر نهياً قاطعاً عن الاقتراب من الزنا، شاملاً الفعل بما دون الجماع، أو القول مثل التحبيب بالزنا في الإعلام أو الأفلام أو أي وسيلة دعائية أو عبر النكات والطرائف أو القصص ... أو أي وسيلة أخرى. ويكون اللمم ليس خاص بالزنا، بل لا علاقة له بالزنا، ولكنه يعني صغائر الذنوب التي لا تدخل النار ولكنها تنقص أجر المؤمن وتحرمه من أن يكون من أهل المستوى الأول في الجنة والمخصص للمقربين، والذي تحدثت عنه سورتا الواقعة والرحمن السابقتان.

ويجب الرجوع لقوله تعالى في سورة الشورى: وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ(٣٧) لنتأكد أن كل ما له علاقة بالزنا منهي عنها جملة وتفصيلاً وليس له لمم.

ليس هناك بشر فوق الشبهات

وما زلنا في قوله تعالى: الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى(٣٢).

والآية تؤكد عدم جواز تزكية البشر للبشر: «فلا تزكوا أنفسكم»، لأنه لا يوجد بشر معصوم. وهو ما يلغي ما درج عليه الناس الآن من اعتبار شهادة رجل دين معروف لشخص بالصلاح تزكية له. فكثيراً ما نسمع ونقرأ في السير الشخصية لبعض الناس أن «الشيخ الفلاني» زكاه، وهذه الشهادة كفيلة بإبعاد أي تهمة عنه وإظهاره أمام الناس كالمعصوم.

قرشي مشرك ينفق مرة واحدة ويتوقف

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى(٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى(٣٤) أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى(٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى(٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى(٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى(٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى(٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى(٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى(٤١).

الآيات تخبرنا أن أحد أغنياء قريش استمع للرسول وهو يتلو آيات الإنفاق وشاهد كيف تعمل على التكافل الاجتماعي وتحمي كرامة المحتاج، فقام بالإنفاق لمرة واحدة، ثم توقف، وامتنع عن الاستمرار ظناً منه أن الإنفاق يكون لمرة واحدة أو حسب رغبة المنفق ومتى شاء. وليس كما ينص القرآن من أن الإنفاق واجب باستمرار متى وجدت حاجة لمحتاج، وليس مرة واحدة في العمر أو في العام كما يفعل بالزكاة الآن.

كما يستفاد من الآيات دليل على أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. ولا يقبل عمل بالنيابة عن شخص آخر. فلا يقبل حج عن الغير مثلاً كما يفعل بعض الناس. لأن ما سيحاسب عليه المرء هو ما تسجله صحيفة أعماله هو، وليس ما يفعله غيره بالنيابة عنه. كما لا يقبل شفاعة من أحد لأحد[1].

دعوة عقلانية

وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى(٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى(٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا(٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى(٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى(٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى(٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى(٤٨).

فالله أضحك وأبكى كونه سبحانه هو من خلق الإنسان قادراً على الضحك والبكاء، أو أن الإنسان يمر به حالات فرح وحزن. وهو سبحانه من يميت ويحيي، وهو من خلق البشر كأزواج يتناسلون. وهو من بدأ خلق الإنسان من مني ثم أصبح هذا المخلوق القادر والمفكر. وهو سبحانه من سينشئ الناس مرة أخرى يوم القيامة وهو من وفر الرزق.

والآية: (٤٦) تكرر للمرة السادسة على قريش أن خلقهم بدأ بداية مهينة (من مني) ثم أصبحوا بشراً بقدرات وعقول، بعد سورة الإنسان: (٢)، المرسلات: (٢٠)، عبس: (١٨-١٩)، الواقعة: (٥٨-٥٩)، وسورة القيامة: (٣٦-٤٠)، للتأكيد على أن البعث هين على الله جل وعلا.

(الآية: ٤٩) تقول: «وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى». وهذا يعني أن قريشاً قد تكون تعظم نجم الشعرى، والآية تقول إن الشعرى مخلوق له خالق هو الله، لا يستحق أن يعبد. أو أنه تعبير عن البعض يراد به الكل، والمقصود به هو أنه سبحانه من خلق الشعرى وكل النجوم وكل الكون.

---

[1] انظر فقرة: كل نفس بما كسبت رهينة / قسم أدلة من القرآن. وانظر فقرة: الوصية / قسم تشريعات من القرآن.

ذكر بعض الأقوام السابقين كعبرة لقريش

وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى(٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى(٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى(٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى(٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى(٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى(٥٥).

وصف عاد بالأولى لا يعني أن هناك عاداً أولى وعاداً ثانية أو آخرة كما تزعم كتب التراث، بل هو وصف يعني الأقدم. فعاد أقدم من ثمود وسابقة لها، وسبقهما قوم نوح.

القرآن تذكرة ونسخة مكررة من الوحي السابق للرسل الأولين

هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَى(٥٦).

(الآيتان: ٥٧-٥٨) دليل على أساليب القرآن المميزة:

أَزِفَتْ الْآزِفَةُ(٥٧) لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ(٥٨).

هنا الآية تقول: أزفت الآزفة في حديث عن القيامة، والقيامة لم تأت بعد، ومع ذلك فالعبارة تتحدث بصيغة الماضي للحديث عن المستقبل.

ثم تختم السورة قائلة:

أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ(٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ(٦٠) وَأَنتُمْ سَامِدُونَ(٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا(٦٢).

تحذير لقريش من سخريتهم بدعوة محمد وعدم أخذهم مسألة البعث بمأخذ الجد، فكيف لا يؤمنون.

وكُنِّيَ بالسجود والعبادة عن الإيمان؟

(الآية: ٥٩) دليل على أن الحديث يطلق على القرآن زمن الرسول.

وفي هذه الفترة نزلت سورة قصيرة هي:

(٤٠) الهمزة

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ(١) الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ(٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ(٣) كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ(٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ(٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ(٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ(٧) إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ(٨) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ(٩).

تتوعد من يجمع المال ولا ينفقه في مصلحة المجتمع والتكافل الاجتماعي. والمقصود هنا كبراء قريش الذين يملكون الأموال الطائلة ولا ينفقون منها القليل لسد حاجة المحتاجين في مكة. وجمع المال وتعداده لا يعني أن صاحب المال يجمعه ليعده ويعيد عده باستمرار، ولكنها كناية عن حرصه على جمعه وزيادته وعدم التفريط بإنفاق القليل منه.

ولو أضفنا هذه السورة للآيات: (٣٣-٤١) من السورة السابقة التي تتحدث عن القرشي الذي أنفق مرة وتوقف، فهي دليل على أن الإسلام سعى للتعايش السلمي مع قريش مع إبقائها لمعتقداتها، إذا ما قبل أغنياؤها الإسهام في الإنفاق للصرف على المحتاجين بغض النظر عن المعتقد، لكن قريشاً لم ترغب في ذلك.

ثم نزلت سورة:

(٤١) القلم

كما سورة النجم السابقة هذه السورة تبدأ بالرد على اتهامات قريش للرسول:

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ(١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ(٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ(٣) وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ(٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ(٥) بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ(٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(٧).

بداية تشابه بداية سورة النجم من حيث إنها ترد على اتهامات قريش للرسول بأنه مجنون.

قريش تحاول مداهنة الرسول

فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ(٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ(٩).

رجال قريش لن يؤمنوا بدعوة الرسول، ومنزعجون من استمرارها برغم رفضهم التام لها. وبدأوا يتحدثون في مجالسهم عن محاولة التوصل إلى إقناع الرسول بالتوقف عن دعوته مقابل أي شيء يريده. فجاء التحذير من قبول أي تسوية أو مناقشة أي عرض تتقدم به قريش التي ستفعل أي شيء لوقف الرسول عن الدعوة.

وعيد لأحد أنشط كفار قريش حرباً للدعوة

وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ(١٠) هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ(١١) مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ(١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ(١٣) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ(١٤) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ(١٦).

والآيات نزلت بحق أحد كبراء قريش، ومع ذلك يقف أمامه الرسول المجرد من السلطة والمال وليس له معين في مكة، ويقرؤها عليه، متوعداً إياه بمصير لن يسره. والآية استخدمت عبارة: سنسمه على الخرطوم» للوعيد، ولابد أنها مثل شائع الاستخدام في ذلك الوقت في مكة للوعيد.

قصة للعبرة

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ(١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ(١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ(١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ(٢٠) فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ(٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ(٢٢) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ(٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ(٢٤) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ(٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ(٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ(٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ(٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ(٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ(٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ(٣١) عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ(٣٢) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ(٣٣).

أصحاب المزرعة (الجنة) وضعهم مشابه لوضع قريش التي تكفر بالدعوة لتمسكها بمتع دنيوية هشة من السهل تلفها وحتى لو لم تتلف فسرعان ما يموت صاحبها ويفقدها، وبعد ذلك يواجه مصيره المحتوم الأبدي يوم القيامة. فأصحاب المزرعة عقدوا العزم على حصاد منتوجهم ولكنهم وجدوه وقد قضي عليه أثناء الليل. وقريش ستنتهي متعها الدنيوية قريباً بموتهم، وعندها سيواجهون عذاب الآخرة الدائم. ولو فكروا لما ألهتهم المتع الزائلة عن النعيم المقيم.

الجنة للمتقين ولن يغفر لمستحق النار

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ(٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ

تَحْكُمُونَ(٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ(٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ(٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ(٣٩) سَلْهُم أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ(٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ(٤١).

تأكيد جازم بأن من عدل الله المطلق ألا يعذب مستحق الجنة ولا يغفر لمستحق النار. وظن بعض رجال قريش بأن الله سيغفر لهم لو كان هناك بعث، هو ظن ليس لهم به من علم ولا يملكون دليلاً عليه. فليس لهم عند الله وعد (يمين) بأن يغفر لهم، وليس لهم شركاء مع الله في حكمه ليضمن لهم دخول الجنة.

(الآية: ٤٢) التالية، يعتبرها بعض أتباع المذاهب دليلاً على أن لله ساقاً. والآية جاءت ضمن سورة تتحدث آياتها بأسلوب مجازي كما السورة قبلها. وهي هنا تشير إلى يوم القيامة، وتستخدم الكناية للتعبير عن هول الموقف، كما يقال في المثل: «كشفت الحرب عن ساقها» أي حمي وطيسها. والله جل وعلا تنزه عن أن يكون له ساق، مثلما أنه ليس للحرب ساق.

وما يؤكد أنها كناية الآية التي تليها:

يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ(٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ(٤٣).

فكشف الساق كناية عن هول القيامة، والسجود (في موضعين) كناية عن الإيمان، وخشوع الأبصار كناية عن الذلة. فالآيات كلها جاءت على شكل تعبير مجازي.

ويل لقريش من العذاب

فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ(٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ(٤٥).

تكذيبهم لهذا الحديث (القرآن) استدراج لهم إلى النار وهم لا يعلمون. وهم يظنون أن كفرهم وتكبرهم وكيدهم للرسول صواب، ولا يعلمون أنه سيعود عليهم بالوبال. وكيد الله هنا لا يعني الدسائس الخفية، ولكن يعني أنهم إن كانوا يكيدون محمداً بكفرهم فالله يكيد لهم العذاب بكفرهم وهو أكبر وأقوى من كيدهم. ذلك أن الأيام سريعاً ما تمر ويموتون، وعندها سيلاقون مصيرهم المحتوم، وكأن الله كاد لهم بكفرهم.[1]

١ انظر فقرة: المكر والكيد / قسم مفردات من القرآن.

لا يوجد سبب مقنع يمنع قريش من الإيمان

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ(٤٦) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ(٤٧).

وهذه أول مرة يذكر القرآن أن الرسول لا يأخذ أجراً على دعوته، سواءً كان مادياً أو ينتفع به معنوياً.

والآية تؤكد لقريش حقيقة يعرفونها وهي أن الرسول يدعوهم للإيمان دون أن يطلب منهم أجراً دنيوياً يثقل كواهلهم أو يضايقهم[1]. كما أنهم مصرون على الكفر وليس لديهم دليل على صحة موقفهم. كما أنهم لا يعلمون شيئاً عن علم الغيب الممثل هنا بيوم القيامة والبعث والحساب والثواب والعقاب، وليس لديهم ضمانات بما سيحل بهم يومها. فهم يرفضون الحق دون أن يطمئنوا على ما سيحدث لهم نتيجة لذلك.

تحذيرٌ للرسول من أن يترك الدعوة كما فعل يونس

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ(٤٨) لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ(٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ(٥٠).

الضغط النفسي كبيرٌ على رسول الله من رجال قريش، الذين يقابلونه بالسخرية والاستهزاء والنعت بالجنون وكل أنواع المضايقات والأذى النفسي. ونعت العربي القديم بالجنون وقعها أشد على النفس من القتل، ولا يقبل بها رجل محترم بمواصفات ذلك المجتمع. وقد تكون من العيب الذي لا يغسله سوى قتل من صدر منه. ولذلك فقد كان الرسول محمد يعود لبيته في المساء وهو مثقل بالهموم والأسى والأذى، وهو يعلم ان مآسيه ستتكرر غداً. وكإنسان فقد كان لا يتوقف عن التفكير ، وكانت الهواجس تدور في رأسه بمختلف أطيافها، ومن ذلك تفكيره بالهرب.

فنزلت السورة وفيها هذه الآيات التي تحثه على الصبر والمواصلة فما بعد الهم إلا الفرج، وتحذره من أن ينفذ فكرة الهرب التي جالت بباله أحياناً، فيكون كصاحب الحوت. وهو يونس الذي هرب بالفعل من قومه لما يئس من طاعتهم له، في موقف مماثل لموقف قريش من محمد. وقد تاب يونس، بعد أن تعرض لهجوم حوت. ولما شفي عاد مرة أخرى لقومه ودعاهم فاهتدوا، كما ستخبرنا الآيات: ١٣٩-١٤٧ من سورة الصافات من سور المرحلة

[1] انظر فقرة: كل عمل ديني لا يؤخذ له أجر دنيوي / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

الخامسة، والتي ستأتي لاحقاً. ويمكن الاطلاع على كامل القصة في فقرة: يونس / قسم التاريخ القديم.

قريش يتميزون من الغيظ كلما رأوك

وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ(٥١).

كلما مر الرسول بجمع من قريش لاحقوه بنظراتهم الحادة وهم يكادون أن يتميزوا من الغيظ، ويخاطبون بعضهم بأنه مجنون. تقول العرب: «كاد فلان يصرعني بشدّة نظره إليّ». ولا عبرة لبعض رجال الدين المتأخرين الذين يؤمنون بوقوع ما يسمى بالعين، ولأنهم لم يجدوا ما يسند ما يؤمنون به في كتاب الله، فقد تأولوا هذه الآية لغير معناها وقالوا هي تعني أنهم يريدون إصابة الرسول بالعين. وهذا الكلام مخالف لمعتقد من يعتقد بضرر العين، لأنهم يقولون إن العائن لا يصيب عدوه، والرسول عدو لقريش[1].

القرآن - ممثل الإسلام - لكل الناس

وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ(٥٢).

(٤٢) الطور

سورة تكرر ما ورد في السورة السابقة ن والقلم، وتبدأ بـ:

الهجوم على قريش ووعيدهم بنار جهنم الذي ينكرون

وَالطُّورِ(١) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ(٢) فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ(٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ(٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ(٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ(٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ(٧) مَا لَهُ مِن دَافِعٍ(٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاء مَوْراً(٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً(١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ(١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ(١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً(١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ(١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ(١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاء عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(١٦).

الآيات تعطي صوراً مجازية حسية لانهيار الكون، ولما سيكون يوم القيامة. حيث سيدخل المشركون (قريش) النار، وعندها كأن الله سيسألهم: أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ؟».

---

١ انظر فقرة: قريش يتميزون من الغيظ كلما رأوا الرسول / قسم أحداث من عصر الرسول.

لأنهم كانوا يقولون في الدنيا أن ما نسمع من محمد «سحر». فهل تأكدتم الآن أنه لم يكن سحراً، وكان يقول لكم الحقيقة لكنكم أغمضتم أعينكم عنها. وهذا التساؤل لن يحدث، ولكنه يصور حال المكذبين حينها.

صور حسية مجازية لما سيكون عليه المؤمنون في الجنة

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ(١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ(١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ(٢٠) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ(٢١) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ(٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ(٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ(٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ(٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ(٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ(٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ(٢٨).

(الآية: ٢٠) تذكر الحور مرة أخرى بعد سورة الرحمن في الآيات (٥٦، ٧٤،٧٢).

(الآية: ٢١) تقول – من باب الترغيب – إن ذرية المؤمن ستتبعه في الجنة، لأنه في الغالب إذا آمن الأب والأم فالأولاد يتبعونهم. لكن لو أن الذرية لم تؤمن فلن تدخل الجنة، فدخولهم الجنة لأنهم آمنوا وليس لأنهم ذرية مؤمن.

(الآيات: ٢٥-٢٨) تصور حديثاً افتراضياً كأنه حدث بين أهل الجنة (المؤمنون من قريش) وهو لن يحدث ولكنه يحكي لسان حالهم ورضاهم وسعادتهم بدخول الجنة.

بعض اتهامات قريش للرسول والرد عليها

فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ(٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ(٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ(٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ(٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ(٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ(٣٤) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ(٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ(٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ(٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ(٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ(٣٩).

والآيتان ٢٩-٣٠ تكرر ما ذكرته أول سورة القلم التي تقول: مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ(٢). لأنه في هذه الفترة كانت قريش تكرر هذه التهمة بعد أن يئست من توقف محمد عن الدعوة، ولم يعد لديهم حجج يقدمونها لتبرير رفضهم للدعوة. وهذه حالة مماثلة لدولنا العربية التي تشتعل فيها الثورات المطالبة بالعدالة والحصول على الحقوق، فتقوم الحكومات باتهامهم بأنهم متطرفون أو إرهابيون أو خوارج أو جرذان أو موالون لأنظمة أو دول خارجية ....الخ من الألفاظ التي أصبحنا نسمع بها يوميا بغض النظر عن الحكومة التي تصدر منها.

(الآيتان: ٣٠-٣١) تشير إلى أن قريشاً تفكر وتخطط لاغتيال محمد، والآية تطمئنه.

ومكة بلد آمن، وقد احترمت هذه الميزة من قبل أهل مكة منذ عهد إبراهيم ومن قبل كل سكان جزيرة العرب بمختلف عقائدهم. ولم تتعرض مكة لأي غزو خارجي، كما أن من دخلها فهو آمن بالفعل. ولم يسجل التاريخ أي اختراقات لهذا القانون الإلهي. وفكرة اغتيال محمد لم تصل لحيز التنفيذ، لأن قريشاً لا تستطيع خرق هذه المعاهدة الدولية الإلهية بقتل محمد، لأنها حامية للبيت وقوانينه، وقائمة على خدمته، وسمعتها الطيبة في الجاهلية بين قبائل جزيرة العرب بنتها من احترامها لقدسية مكة وأمنها، ولا يمكن أن تغامر وتقتل محمداً الذي هو أحد أبنائها، وفي البلد الحرام.

وربما كانت قريش تعمل على استدراج محمد لخارج الحرم وقتله، هذا وارد. وما يؤيد هذا أن قريشاً عندما علمت أن محمداً قد تسلل من مكة ومعه أبو بكر مهاجراً لحقت به ومشطت الطريق لعلها تجده فتقتله، خارج مكة. ولو بقي في مكة فلن تمسه بسوء.

ولا يمكن قبول قول الإخباريين أن قريشاً قررت قتل محمد في الصباح التالي لأحدى الليالي، وأنه استطاع خداعهم بأن أناب عنه علي ابن أبي طالب لينام في فراشه. فكانت قريش تنظر من خلال ثقوب في باب الدار وترى النائم فتظنه محمداً، ولما جاء النهار ونهض النائم اكتشفوا أنه علي وليس محمداً، الذي استطاع التسلل خارج مكة تحت جنح الظلام. وهذا الكلام عبارة عن قصة مختلقة في عصور لاحقة تهدف لإضافة فضيلة لعلي ابن أبي طالب أكثر من رواية حقيقة ما حدث. لأن قريشاً لو كانت قد تجرأت على قتل محمد في مكة، لقتلوه حال عزمهم على ذلك، واقتحموا عليه داره، ولن ينتظروا حتى يستيقظ

في الصباح. لأن من يريد أن يقتل لن يهتم بإزعاج الضحية. وسوف تتعرض سورة بني إسرائيل للموضوع مرة أخرى.

(الآيات: ٣٣-٣٨، ٤١) تكرار لما ورد في (الآيات: ٣٥-٣٩) من سورة القلم، ولكن بصيغة مختلفة، حيث تتساءل الآيات عن مصادر قريش في زعمهم أن محمداً يتقول القرآن، وهل لديهم سلم (وسيلة) للصعود للسماء ليأتوا بالخبر اليقين؟

(الآية: ٣٩) تشير إلى أن قريشاً تعتقد أن الملائكة بنات الله، كما ذكرت سورتا الجن والنجم: أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ(٣٩). وسيتكرر ذكر هذا الزعم في سور قادمة.

(الآية: ٤٠) للمرة الثانية يذكر القرآن أن الرسول لا يأخذ أجر مادي ولا معنوي مقابل دعوته الناس للهداية: أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ(٤٠)، بعد الآية ٤٦ من السورة السابقة القلم. وسيتكرر تأكيد هذا في سور قادمة.

(الآية: ٤١): أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ، تكرار حرفي للآية: ٤٧ من السورة السابقة القلم: أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ. لأن الآيات هنا تتحدث عن نفس موقف قريش الذي تحدثت عنه سورة القلم.

الآية ٤٢: أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ، تشير لما ذكرته الآيتان ٣٠-٣١ من تخطيط أو تفكير قريش قتل محمد، وتقول إن كيدهم سيرتد إلى نحورهم.

لا يوجد مبرر لاستمرار قريش على الكفر إلا التمسك بالموروث

أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ(٤٣) وَإِن يَرَوْا كِسْفاً مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ(٤٤).

فهم ليس لهم إله غير الله، ومع ذلك لن يؤمنوا مهما رأوا من آيات.

شحذ لهمة الرسول ورفع لمعنوياته

فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ(٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ(٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(٤٧) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ(٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ(٤٩).

من الواضح أن الرسول يمر بفترة تزايدت عليه فيها الضغوط النفسية، وحاجته لشحذ همته ورفع معنوياته وتجديد وتنشيط برنامج تأهيله النفسي الذي تلقاه في أول البعثة ليكون قادراً على مواجهة هذه الضغوط. فجاءت الآيات لتقول له إن موعد قريش يوم الحساب، وتطمئنه بأن الله سيحميه، وعليه أن يستمر في تسبيح الله وذكره على الدوام على مدار ساعات الليل والنهار. ولا تحدد الآيات للتسبيح أوقاتاً بعينها، ولكنها تؤكد على أن يستمر في التسبيح منذ قيامه من النوم وحتى يعود للنوم مرة أخرى.

والآية ٤٨ فيها إشارة إلى استمرار الرسول بقيام معظم الليل كما أمرته العشر آيات الأولى من سورة المزمل، وذلك في قوله: «حين تقوم». أي في أي وقت تنهض فيه من نومك أثناء النهار. أما الليل فعليك مواصلة التسبيح كونك تسهر معظم ساعاته لذكر الله وتسبيحه.

وفي هذه الفترة التي تُصعِّد قريش من سخريتها وضغوطها النفسية على الرسول تنزل سورة الضحى ومن بعدها سورة الشرح. وكلاهما تشحذان همة رسول الله وتجددان تأهيله النفسي لمواجهة المصاعب، بما في ذلك تذكيره بنعم الله عليه وتؤكد له أن الله معه.

(٤٣) الضحى

وَالضُّحَى(١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى(٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى(٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى(٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى(٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى(٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى(٧) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى(٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ(٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ(١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ(١١).

السورة تقول للرسول: إن الله الذي ساعده في بداية حياته على تجاوز الظروف الصعبة التي مرت به، لن يتخلى عنه الآن، وسيكون معه ويعينه على تجاوز الظروف النفسية السيئة التي يواجهها من قريش فلا ييأس.

و(الآية: ٦) تقول إن محمداً نشأ يتيماً، وبتوفيق من الله وجد من يؤويه. وقد تشير إلى كفالة جده عبد المطلب له بعد وفاة أبويه، لأن جده كان على قيد الحياة، ولا يمكن ان يكفله عمه وجده حي وقادر. والقرآن لا يذكر أي موقف لأبي طالب، الذي صورته كتب التراث أنه لولاه لما تمكن الرسول من مواصلة دعوته في مكة، وهو فضل لم يحظ به أبو طالب على أرض الواقع لأن الرسول استمر في دعوته في أحلك الظروف التي مرت عليه في دعوته في مكة

بعد وفاة أبي طالب. واستمر في دعوته برغم الضغوط الهائلة التي يتلقاها من قريش، وذلك بفضل التأهيل الرباني له في بداية بعثته، والوارد في سورة المزمل. وحتى في حالات الضعف التي تمر به كان القرآن يجدد ذاك التأهيل ويشد من عزم الرسول كلما دعت الحاجة ويذكره بأن الله قريب منه. وفي هذا المجال نزلت سورة الضحى ومن بعدها الشرح.

(الآية:٧) تشير إلى أن محمداً قبل البعثة مثله مثل أي قرشي لا يعرف دين الله ولا أي دين. وهو ما ينفي عنه ما نسبته له كتب التراث من أنه اتصل بيهود أو مسيحيين.

(٤٤) الشرح

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ(١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ(٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ(٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ(٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً(٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً(٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ(٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ(٨).

والسورتان إجمالاً تخاطبان الرسول وتشدان من أزره، وتجددان تأهيله النفسي للصبر وتحمل أعباء الدعوة. وتذكرانه ببعض نعم الله السابقة عليه وما ينتظره منها في الدنيا والآخرة، وتقولان له إن الله معه ولن يتخلى عنه.

بعد ذلك نزلت سورة

(٤٥) نوح

وقد سبق ذكر نوح وقومه وبعض الأمم السابقة لكن باختصار، أما هذه السورة فهي أول سورة تتحدث بالتفصيل عن قوم نوح - أحد الأمم السابقة - التي هلكت ولم تستجب لدعوة رسولها. وقد نزلت هذه السورة في هذه الفترة التي اتضح أن قريشاً أعلنت فيها كفرها ولن تؤمن، وبعد أن تغير نوع الخطاب في السور إلى الشدة والوعيد الشديد، كما في النجم، القلم، والطور.

وكل آيات السورة تتحدث عن قوم نوح، وتظهر تعنت القوم وجلد وصبر نوح واستمراره بالدعوة برغم ذلك. وكيف تنوعت دعوته من الترغيب والترهيب، إلى التفكير بالخلق للاستدلال على قدرة الخالق على البعث. لكن تنوع أسلوب الدعوة ووضوح الحجة واستمرارها لمدة طويلة لم تغير من موقف القوم الرافض، والذي أعلنوه منذ بدء دعوة نوح

مباشرة وأصروا عليه. وهو ما يعطي الدليل القاطع على أن من لم يؤمن بالدعوة في بداية سماعه بها فلن يؤمن بها بعد ذلك. وسنرى هذا يتكرر مع كل الأمم في كل مكان وزمان، كسنة سار عليها الناس، وقريش لم تكن استثناء.

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ(٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاء لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً(٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً(٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً(٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً(٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً(٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً(١٠) يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً(١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً(١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً(١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً(١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً(١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً(١٦) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً(١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً(١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً(١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً(٢٠) قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً(٢١) وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً(٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً(٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالاً(٢٤) مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً(٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً(٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً(٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً(٢٨).

والسورة تحتوي على بعض العبارات التي استخدم فيها الأسلوب المجازي من استعارة وكنايات، مثل: فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً(٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً(٧).

تصوير حسي ولا يعني ما حدث بالفعل. فالقوم لم يكونوا يفرون راكضين من أمام نوح عندما يبدأ دعوتهم. ولم يكونوا يضعون أصابعهم في آذانهم، ولا يغطون أنفسهم بثيابهم،

ولكنه تصوير مجازي لرفضهم القاطع للدعوة وعدم الاكتراث لسماعها.

كما تحوي السورة بعض الآيات التي أسيئ الاستدلال بها من قبل المفسرين والمحدثين، ومن ذلك: فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً(١٠) يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً(١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً(١٢).

فهم يستدلون بهذه الآية على أن القحط وامتناع نزول المطر بسبب ذنوب البشر، ولو تابوا أو آمنوا فسيرسل الله عليهم السماء مدراراً.

لذا نجد بلادنا كل فينة وأخرى يسارعون لصلاة سميت «صلاة الاستغاثة والاستسقاء»، وهي صلاة لا أصل لها في دين الله، ولا تجلب المطر. لأن الله خلق الكون وسيره بموجب قوانين طبيعية وفيزيائية ثابتة، لن تتغير لإرضاء بشر حتى لو كان رسولاً لله أو مؤمناً به. والأرض فيها مناطق مطيرة حارة، كالتي حول خط الاستواء، ومناطق مطيرة باردة مثل التي في المناطق المعتدلة الباردة. وهناك مناطق متوسطة المطر والحرارة، وصحاري قاحلة قليلة المطر حارة مثل جزيرة العرب والصحراء الكبرى، وهناك صحاري باردة كما في منغوليا. وتغير الطقس حدث ويحدث على الأرض، لكنه يحتاج لزمن طويل جداً لكي تتحول بعض المناطق الجافة لمطيرة، وبعض المناطق المطيرة لجافة. ولن يحدث هذا في فترة عمر الإنسان. بل من المؤكد أن مكة كانت جافة زمن إبراهيم ومازالت كما هي منذ ذلك الوقت الذي مضى عليه بضعة آلاف من السنين.

والآيات تدعو قوم نوح للإيمان بالله الذي يرسل السماء بالمطر، والذي يرزق الناس بالمال والبنين. ولا تقول الآيات إن شرط نزول المطر أو الرزق هو طاعة الله. فالمطر ينزل كلما توفرت الظروف المناخية لنزوله، بغض النظر عن معتقدات الناس. لذا نجد الطائف زمن رسول الله تتمتع بمناخ لطيف ومطير، بينما مكة بيت الله والمدينة موطن رسوله بعد الهجرة تتعرضان للجفاف وانقطاع المطر ومناخهما شديد الحرارة. وسنرى في سور مدنية أن المدينة تصاب بالقحط وانحباس المطر في وقت يحتاج المسلمون للإنفاق على الجيش ودرء خطر أعدائهم الذين يسعون لسحق المسلمين والقضاء على الإسلام. لكن لا هذه الظروف الصعبة التي يعيشها المسلمون وتسببت بشح الإنفاق - كما سنرى - ولا وجود الرسول، تسبب بتوفر المطر، لأن قوانين الله جل وعلا في الكون لا تتغير.

الآيتان: وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً(٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالاً(٢٤)

ود، سواع، يغوث، يعوق، ونسراً هل هي أصنام، كما يقول المفسرون؟ أم رجال دين من قوم نوح تبعهم القوم ورفضوا دعوة نوح نتيجة لتمسكهم بالموروث؟ (شخصياً أميل إلى أنهم رجال دين) خاصة أن رجال الدين والسياسة هم من يقود الناس للتمسك بالموروث وتشويه أي دعوة جديدة للدين الصحيح. كما أن الآية: (٢٤) تقول عنهم: «وقد أضلوا كثيراً». وهو ما يؤكد أنهم بشر وليسوا أصناماً، لأن الأصنام لا تملك القدرة على ضلال الناس، ولكنهم يضلون بعبادتها. وعبادتها موروث بدأه رجال الدين. وهذا لا يلغي أن أسماء هؤلاء الرجال أطلقت فيما بعد زمانهم على أصنام، فأصبح هناك صنم اسمه ود، وآخر سواع، وآخر، يغوث، وآخر نسر.

(الآية:٢٥) دليل على أساليب القرآن المميزة، وهنا الحديث بصيغة الماضي لما سيكون يوم القيامة وكأنه حدث بالفعل: مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً(٢٥). والقوم لم يدخلوا النار بعد، كونها لن تخلق إلا في كون القيامة. ومع ذلك تحدثت الآية عما سيكون بأسلوب ما كان، وهو تعبير بلاغي معتاد في لغة الضاد.

الآيتان: وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً(٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً(٢٧).

تؤكد أن الدعاء لطلب شيء في الدنيا لا يستجاب، لأن الله خلق الدنيا دار عمل: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٥) الأنعام.

ولو استجاب الله لدعوة بشر (أي بشر حتى لو كان رسولاً من الرسل) وألحق ضرراً بالشخص المدعو عليه فهذا ظلم، لأنه تعاطف مع شخص ضد آخر. ولأن الحساب يسبق العقاب، ولا حساب قبل يوم القيامة. وهو مخالف لعدل الله المطلق الذي بموجبه خلق الكون وكل المخلوقات والحساب وكل شيء، فالله لا يتعامل بالعواطف. والدعاء المستجاب في القرآن هو الذي يكون لطلب المغفرة، وليس طلب شيء دنيوي: وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) غافر.

وما يؤكد ما نقول هو أن الله لم يستجب لنوح وبقي الكفار هم الغالبية على الدوام في الأرض ويتوالدون بخلاف دعوة وأمنية نوح. والنتيجة أن الشائع الآن بين كثير منا أن يطلب من الشخص المقابل أن يدعو له، وكأن الله يستجيب للواسطة (المعروفة جداً في مجتمعنا) وما يجب أن يعرفه الناس هو أن الدعاء لشيء في الدنيا لا يمكن الاستجابة له، سواءً دعا الشخص لنفسه أو دعا له غيره، لأن الدنيا مشاعة للكافر والمؤمن على حد سواء: مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) الشورى.

والتوفيق في الدنيا لا يعني رضا الله، كما أن عدم التوفيق لا يعني سخطه سبحانه. فالكافر أو المسلم لو خطط ونجح لكسب في الدنيا بغض النظر عن عقيدته. لأن نجاح الدنيا يخضع لعناصر دنيوية. وكل ما يقع في الدنيا من ظلم وأكل لحقوق الناس أو تعديات، لن يعاقب عليها الظالم والمعتدي في الدنيا ولكن يوم القيامة.

وآخر سورة نزلت في المرحلة الرابعة هي:

(٤٦) القمر

تتميز بنفس أسلوب السور السابقة من حيث الصرامة والوعيد الشديد، وتبدأ باستخدام صيغة: ما كان للحديث عما سيكون: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١).

مع أن الساعة لم تقترب والقمر لم ينشق، ولكنه تعبير مجازي وتصوير حسي لانهيار هذا الكون بانشقاق القمر، وعندها تكون الساعة، وانشقاق القمر (كناية عن انهيار الكون). وقد سبق ومر بنا آيات مماثلة، منها: أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) النجم. فالآزفة (القيامة) التي لم تأت بعد، ومع ذلك قالت الآية إنها أزفت. ومثل قوله تعالى: اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) الأنبياء.

وقد ترسخ بين الناس أن الآية تُخبر عن حادثة وقعت في عصر الرسول، وتمثلت بانشقاق القمر فعلياً وانشطاره إلى قطعتين. وهذا التخريف يعود إلى أن المفسرين يختلقون لكل آية قصة من عند أنفسهم وكأنها لا علاقة لها بآيات القرآن الأخرى سواءً في السورة نفسها أو في سور أخرى. وهذا يعمل على إبعاد الناس عن استحضار ما تقوله تلك الآيات، وربطها وفهمها مع ما تقول آيات أخرى. وإلا فمن أساليب القرآن المميزة أنه يتحدث عما سيكون

بصيغة ما كان، وهناك الكثير من الأمثلة على ذلك يمكن الاطلاع عليها في فقرة: التحدث عما سيكون بصيغة ما كان في قسم: من أساليب القرآن.

وهذه الآية واحدة منها، وهي تخاطب قريشاً وتقول لهم إن الساعة أصبحت قريبة منهم، وكذلك أصبح انشقاق القمر قريباً. وانشقاق القمر تعبير عن انهيار هذا الكون. وقد مر بنا الكثير منها، مثل بدايات السور التي تفتتح بإذا، وغيرها.

ومخاطبة قريش بأن الساعة اقتربت، لأن الإنسان الحي سرعان ما يموت وبعدها سيشعر أنه بعث بعد لحظات كما سبق وذكرنا. ولا تتحدث الآية عن انفلاق للقمر الذي قالت به كتب التراث والذي ينم عن جهل بماهية القمر، وأنه جرم سماوي لو انشطر فسينتهي ويتفتت ولن يعود للالتئام. وهذه البديهيات التي أصبح يعرفها تلميذ المرحلة الابتدائية لم يكن يعرفها المفسرون فأولوا الآيات وتقولوا على الله ما لا يعلمون.

(الآيات: ٢-٨) تأكيد على أن قريشاً تجاوزت نقطة العودة للحق ولن تعود مهما يروا من آية وبرهان على صدق دعوة محمد. وتقول لمحمد لا تهتم لكفرهم وموعدهم الساعة: وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ(٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ(٣) وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الْأَنبَاء مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ(٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ(٥) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ(٦) خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ(٧) مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ(٨).

والآيات لا تقول بأن قريشاً قد رأت آية (معجزة) ولكنها تقول إنهم حتى لو رأوا كل الآيات والخوارق تجري على يدي الرسول فلن يؤمنوا. ولو كانوا يريدون الإيمان فإن ما نزل عليهم من القرآن كافٍ لإقناعهم بأنه حق.

أمم سابقة كذبت مثل قريش

(الآيات: ٩-٤٢) تصف كيف هلك عدد من أمم سابقة تعرفهم قريش لأنهم من سكان جنوب غرب جزيرة العرب، وتذكير قريش بهم كونهم هلكوا وهم كفار، لعل قريشاً تعتبر مما حدث لهم، والبداية مع:

قوم نوح

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ(٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ(١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ(١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ(١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ(١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ(١٤) وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ(١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ(١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ(١٧).

الآيات تصف كيف رأى القوم الطوفان الذي أهلكهم، والذي كان عبارة عن مياه جارفة على الأرض وأمطار منهمرة من السماء. فيما كانت السفينة التي ركبها نوح ومن آمن تطفو عائمة.

قوم عاد

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ(١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ(١٩) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ(٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ(٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ(٢٢).

قوم ثمود

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ(٢٣) فَقَالُوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ(٢٤) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ(٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ(٢٦) إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ(٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاء قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ(٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ(٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ(٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ(٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ(٣٢).

قوم لوط

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ(٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ(٣٤) نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ(٣٥) وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ(٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ(٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ

مُسْتَقِرٌّ(٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ(٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ(٤٠).

فرعون وآله

وَلَقَدْ جَاء آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ(٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ(٤٢).

وبعد أن سردت الآيات ما حصل لتلك الأمم، تتجه لمخاطبة قريش متسائلة: هل تظنون أن لكم منزلة عند الله أعلى من أولئك الأقوام حتى لا يقع بكم الهلاك. أم أنكم تظنون أنكم أكثر عدداً وستتغلبون على محمد والقلة التي معه؟ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ(٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ(٤٤).

وتؤكد الآية التالية أن النصر في النهاية سيكون للرسول والمؤمنين:

سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ(٤٥).

وهذه الآية ليست نبوءة بما سيحدث في قادم الأيام، حين ينتصر المسلمون ويفتحون مكة وتندحر قريش، ولكنه مما يعرف بالضرورة. فمن يتمسك بالحق ويصبر على الأذى فسينتصر في النهاية. هذه قاعدة أزلية، في كل مجالات الحياة. ومن ذلك أن المطالبة بالحقوق من قبل الشعوب المظلومة يبدأ بقلة وضعف ولا يهتم له المتسلط. ثم يبدأ بالتزايد والقوة حتى يصبح قادراً على مواجهة الباطل ثم تكون الغلبة له في النهاية، فمن صبر ظفر لا محالة. وهو ما عبر عنه الزعيم الهندي مهاتما نهروا بقوله: «في البداية يتجاهلونك، ثم يضحكون عليك، ثم يحاربونك، ثم يكون النصر حليفك». والمؤمنون من صفاتهم الصبر على المحن والتمسك بالحق لأن لديهم دافعاً وإيماناً بقضيتهم بخلاف الكافر، ولهذا فالنصر سيكون حليفهم في النهاية مهما كانت قوة عدوهم. ولو كان المسلمون مؤمنين بدينهم لما أرعبهم عدو ولما طلبوا الاحتماء به.

ويوم القيامة سيلاقي المجرمون (كفار قريش) مصيرهم:

بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ(٤٦) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ(٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ(٤٨).

(الآية: ٤٨) تصوير مجازي حسي للعذاب المذل لمكذبي قريش، الذين لن يسحبوا على وجوههم. والسياق يعرفنا بمعاني الألفاظ حتى ولو لم يسبق أن سمعنا بها أو اطلعنا على قواميس اللغة، مثل لفظ «سقر» هنا والتي تعني النار.

ثم تقول السورة:

إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ(٤٩).

وهو تأكيد على أن الله خلق الكون بقدر، أي بقوانين ثابتة.

ولم يستغرق الأمر منه سبحانه لإيجاد هذه القوانين المثالية شيئاً يذكر من الزمن، كما تؤكد الآية التي تلي: وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ(٥٠).

والآية تأكيد على أن نشأة الكون حدثت بموجب تلك القوانين الفيزيائية التي أوجدها الله. فبمجرد إيجاد القوانين تولد الانفجار العظيم، والذي حدث بسرعة متناهية تقاس بجزء من تريليونات من الثانية.

(الآيات: ٥١) ألا تعتبر قريش ممن هلك من أجيالهمْ، على كفرهم، وتؤمن قبل فوات الأوان:

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ(٥١).

ثم تتحدث الآيات عن سجل الأعمال:

وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ(٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ(٥٣)

كل ما يصدر من الإنسان يسجل في آلية مزروعة في النفس البشرية تقوم بتسجيل كل الأعمال مهما صغرت. كما أن كل شيء في الكون يسجل ويسطر (مستطر بمعنى مكتوب).

وتختم السورة ببشرى للمؤمنين:

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ(٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ(٥٥).

ما يعني أن هناك نفراً مؤمناً في مكة في تلك الفترة. وقول الآية «عند مليك» لا يعني أن المؤمنين يوم القيامة سيكونون في حضرة الله جل شأنه. بل هي تعبير مجازي للدلالة على حسن المصير. فالله جل وعلا هو من خلق الجنة وهم - من هذا المعنى - عنده سبحانه.

وبنهاية سورة القمر نكون قد وصلنا لنهاية سور المرحلة الرابعة، وفيما يلي تذكير بأهم ملامح تلك المرحلة:

- السور تتحدث عن إنكار قريش للبعث، وستستمر سور المرحلة الخامسة والسادسة بالحديث عنه، ثم يتوقف الحديث عنه في آخر مراحل الدعوة في مكة.

- تقديم صور حسية لانهيار هذا الكون لتقول لقريش إن البعث سيكون بعد انهيار الكون، ثم بدأت السور تتحدث عن نشأة كون آخر بعد انهيار هذا الكون هو كون القيامة والبعث. وستستمر بعض سور المرحلة القادمة في تقديم الصور الحسية عن انهيار هذا الكون ونشأة كون القيامة، وتتوقف في آخر مرحلة.
- تقديم صور حسية لما في الجنة والنار، ويستمر تقديم هذه الصور في بعض سور المرحلة القادمة، ثم يتوقف، ولا يذكر في السور المدنية.
- تقديم أخبار لأمم سابقة، وسنجدها في كل مراحل الدعوة في مكة.
- دعوة للتفكير بالخلق للاستدلال على قدرة الخالق على البعث، سنجدها في هذه المرحلة والمرحلة الخامسة، ثم تكاد لا تذكر في المرحلة السادسة والمرحلة الأخيرة، لأن الأحداث المتسارعة، والمتضمنة تعرض المسلمين للتعذيب، استرعت الاهتمام أكثر من دعوة قريش التي ثبت إصرارها على الكفر ولن تؤمن.
- قريش تكيل التهم لمحمد وتسخر منه ومن المسلمين ويستمر هذا في كل مراحل الدعوة في مكة.
- لم يتعرض الرسول ولا أحد من المسلمين لأي أذى جسدي أبداً خلال هذه المرحلة التي امتدت لبضع سنوات[1].

---

[1] تم تقدير شهر بين نزول سورة وأخرى، وبما أنه نزل ٣٧ سورة في هذه المرحلة فمدة المرحلة كانت ٣٧ شهراً أي ثلاث سنوات، مرت والرسول يدعو قريش، وقريش لا تستمع. وبنهاية هذه المرحلة يكون مر على بعثة الرسول حوالي أربع سنوات، لأنه سبق وقدرت الفترة التي تفصل بين بدء البعثة بنزول سورة الفاتحة، وبدء الدعوة بنزول سورة المدثر، بحوالي عام. تضاف لفترة هذه المرحلة وهي ثلاث سنوات.

المرحلة الخامسة:
مرحلة تغير الخطاب والمخاطب
"ميلادٌ جديدٌ للإسلام"

تقديم

تتابع نزول سور القرآن يتأثر بتتابع الأحداث، التي تتأثر باستجابة المدعو للإيمان. وبما أن الوحي قد بدأ النزول بسبع سور[1] لتهيئة قريش لسماع الدعوة، فسنفترض أن تلك السور كانت تنزل بمعدل سورة كل عشرة أيام، أي أن الرسول بقي حوالي شهرين يتلو على قريش تلك السور السبع التي كانت عبارة عن تهيئة لسماع الدعوة. ثم نزلت سورة المزمل التي ألزمت الرسول بأن يتفرغ لبرنامج التأهيل النفسي، والذي لابد أنه استمر لبضعة أشهر. ولو أضيفت فترة بقاء الرسول في غار حراء للشهرين السابقين، وأضيف لهما فترة نزول سورة المدثر، فيمكن القول إن المراحل الثلاث الأولى للدعوة في مكة استغرقت سنة واحدة نزل خلالها تسع سور.

ثم جاءت المرحلة الرابعة التي هي عبارة عن دعوة موجهة لقريش فقط دون بقية الناس، والتي أعلنت رفضها التام للدعوة منذ البداية. فسارت الأوضاع في مكة على وتيرة واحدة لا تتغير، ودون أن يتمخض عنها أحداث هامة. لأن قريشاً أعرضت ولن تستمع، وتجاهلت الرسول والنفر القليل الذين آمنوا معه. فلم تقع أحداث بين قريش والمسلمين ليتحدث عنها الوحي، ولم يزد عدد المسلمين ليُكونوا مجتمعاً مسلماً كي تنزل التشريعات. فكان الوحي ينزل فقط للرد على اتهامات قريش وتساؤلاتها، التي كانت تكررها على الدوام. لذا كان نزول القرآن على فترات زمنية تكاد تكون متساوية بين سورة وأخرى في المرحلة

---

١ السور – كما سبق ومر بنا – هي: الفاتحة، الفيل، قريش، العصر، التين، التكاثر، والعاديات.

الرابعة للدعوة. ويمكن تقدير الفترة الزمنية التي تفصل بين نزول سورة وأخرى على أنها لا تزيد عن شهر. وبما أنه قد نزل في هذه المرحلة (٣٧) سورة، فيمكن القول إن المرحلة الرابعة للدعوة في مكة قد استمرت قرابة ثلاث سنوات، تضاف لمدة المراحل الثلاث الأولى والتي قدرت بسنة واحدة. فيكون قد مضى على بعثة الرسول بنهاية المرحلة الرابعة قرابة أربع سنوات.

وبرغم أن المرحلة الرابعة السابقة تعتبر أطول مراحل الدعوة في مكة، وأكثرها سورا، إلا أن الأحداث التي وقعت فيها لا تكاد تذكر، بالنسبة لطول فترتها. وذلك عائد إلى أن السور استمرت منذ بداية الدعوة تخاطب كبراء قريش، الذين رفضوا الحق وتمسكوا بموروثهم. وبناءً على قانون «سنة الأولين» فمن لا يقبل الدعوة عند سماعها فلن يؤمن بها بعد ذلك أبداً مهما تنوعت أساليب الدعوة أو تغيرت الظروف. ولو استمرت السور تخاطب قريشاً فقط كما كانت عليه في المراحل السابقة فلن تؤمن قريش، ولن يزيد عدد المسلمين القلة، ولو بقي الرسول بينهم ألف سنة. ولو مات عليه الصلاة والسلام وخطاب الدعوة موجه لقريش فقط، فسرعان ما يموت النفر المسلم وينتهي أمر الإسلام. خاصة أن التشريعات لم تفرض بعد، فيما عدا صلاة بلا أوقات محددة، وإنفاق، وتحريم للغش التجاري، ووفاء بالنذر.

لكن الخطاب الدعوي القرآني تحول - بدءً من هذه المرحلة الخامسة - لدعوة كل الناس، وإلى بني إسرائيل في يثرب وإلى مستضعفي مكة (الموالي والعبيد) الذين لم يستجيبوا للإسلام ليس لأن مصالحهم ستتضرر - فهم لا يملكون من متاع الدنيا شيئاً - ولكن تبعاً لساداتهم. وسنرى كيف ستتغير الأوضاع وتنشط الدعوة ويصبح لها صدى يسمع به القاصي والداني، ويبدأ الناس يدخلون في دين الله من مختلف الطوائف والملل والشعوب. مما يجعل المرحلة الخامسة تعتبر مرحلة بداية الانتشار الفعلي للإسلام. أو ميلاد الدعوة من جديد، بعد أن خيم على مسارها الهدوء والرتابة طوال المرحلة السابقة.

وقد نزل في هذه المرحلة (٣١) سورة، يمكن ملاحظة أن أهم ملامحها التي تميزها عن غيرها ما يلي:

- تحول السور لدعوة كل الناس.
- الحديث عن رسل وأنبياء بني إسرائيل وبعض الشخصيات التي يعرفون.

- بدأت السور تتحدث عن خلق آدم وموقف الملائكة منه.
- مخاطبة مستضعفي مكة وتحذيرهم من عذاب النار لاتباعهم أسيادهم ورفض الدعوة.
- فرض بعض التشريعات، مما يعني تكاثر من دخل الإسلام.

وفيما يلي رصدٌ لبعض ما ذكرته سور هذه المرحلة للمرة الأولى في القرآن:

سورة «ص»

- أول مرة يتحدث القرآن عن شخصية تاريخية من بني إسرائيل في (الآيات: ١٧-٢٦) وهو داوود وتتناول تفاصيل دقيقة لأحداث في حياته.
- أول إشارة لمستضعفي مكة من الموالي والعبيد، وأن اتباعهم لساداتهم سيؤدي بهم إلى النار معهم في الآيات: (٥٩-٦٤).

سورة الأحقاف

- أول سورة تبدأ بـ «حم».
- أول سورة تذكر أن أحد بني إسرائيل آمن برسالة محمد: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(١٠).

سورة الجاثية

- أول سورة تطلب من المسلمين التسامح مع تجاوزات الكفار: قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُون أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كَانُوا يَكْسِبُونَ(١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ(١٥).
- أول سورة تتحدث عن تاريخ بني إسرائيل، الآيات: (١٦-١٨).

سورة فاطر

- أول مرة يخاطب القرآن كل الناس بعبارة: «يا أيها الناس»: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ(٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ(٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ

شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ(٧).

- أول مرة يتحدث القرآن عن جدال قريش للرسول للصد عن الدين: مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ(٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ(٥).

سورة مريم

- أول ذكر لعيسى ابن مريم، بدءً من الآية: (١٦).

سورة لقمان

- أول سورة تشير إلى بعض التشريعات:

الم(١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ(٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ(٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(٤) أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٥) لقمان.

سورة يونس

- أول سورة تذكر ما تحرمه قريش من المآكل: قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ(٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ(٦٠) يونس.

ويمكن تصنيف هذه المرحلة إلى فترتين:

الفترة الأولى: فترة تغير خطاب الدعوة

وعدد سورها إحدى وعشرون سورة، هي: ص، الصافات، النازعات، الذاريات، الأحقاف، الجاثية، فاطر، فصلت، الدخان، الزخرف، غافر، مريم، الإخلاص، الكهف، سبأ، الكافرون، لقمان، النمل، الحجر، طه، والسجدة.

الفترة الثانية: فترة فرض بعض التشريعات

مما يعني أن هناك عدداً من المستضعفين وبني إسرائيل وغيرهم دخلوا الإسلام، وكانت أعدادهم كافية لتكوين مجتمع مسلم. وسور هذه الفترة عشر سور، هي: المؤمنون، المعارج، الفرقان، الزمر، الأعراف، يونس، إبراهيم، يوسف، الأنبياء، والكوثر.

(١) فترة تغير خطاب الدعوة

طوال مراحل الدعوة السابقة كانت الأوضاع في مكة تسير على وتيرة واحدة لا جديد فيها. الرسول يلاحق قريشاً ويسمعهم ما ينزل عليه من الوحي، وقريش تسخر وتستهزئ وتلح عليه بأن يخبرهم متى وكيف سيكون البعث؟ دون أن يتغير موقفها الرافض للدعوة. والقرآن لا يخاطب ولا يدعو إلا قريشاً، وكأنه حتى تلك اللحظة موجه لهم دون بقية الناس، ولا يوجد ما يشير إلى أن دعوة محمد ستكون لهم ولغيرهم ولكل الناس، لأن الآيات في كل السور الـ (٤٦) الأولى، لا تتوجه بالخطاب لغيرهم. وهو ما يدحض ما ورد في كتب التراث التي تروي قصصاً عن ذهاب الرسول لدعوة أهل الطائف وملاحقته لرجال القبائل في بداية دعوته. وإن كان الرسول قد ذهب للطائف أو عرض نفسه على القبائل وهو في مكة فلابد أن هذا حصل في مراحل الدعوة المتأخرة في مكة وبعد أن أُمِرَ بإنذار كل الناس، ولم يحدث في بداية الدعوة كما تقول كتب التراث. ويعود الالتباس إلى أن من كتب السير والحديث يكتبون ما يكون منتشراً ويتناقله الناس مشافهة في زمانهم. وبعض ما يتداوله الناس يكون له أصل ووقع بالفعل، لكن بطريقة مختلفة عن تلك الصورة التي كتبت في كتب التراث. لأن عدم توثيقها في وقتها كتابيا وتناقلها شفهياً جعلها تتعرض لكثير من سوء الفهم والزيادة والنقص والتباس الأمر على ناقليها حول وقت وقوعها. ومن ذلك القول بأن الرسول قد ذهب للطائف. فهو قد يكون ذهب إلى هناك، ولكن بعد تغير خطاب الدعوة إلى كل الناس، وليس في بداية الدعوة، وعندما كانت موجهة لقريشٍ فقط. وما قيل عما لقيه من أهل الطائف هو صور مشوهة لما قد يكون حدث بالفعل.

ومع بداية هذه الفترة بدأت السور تتحول من مخاطبة قريش لوحدها إلى غيرها من الناس ولبني إسرائيل يثرب وللمستضعفين في مكة. والسور التي نزلت في هذه المرحلة لم تخاطب بني إسرائيل مباشرة، إلا أنها بدأت تتحدث عن قصص تاريخي تعرفه بني إسرائيل، ويهمها أكثر من قريش. وفي الفترة الثانية من هذه المرحلة بدأت السور تخاطب بشكل مباشر بني إسرائيل والمستضعفين إضافة لكل الناس، مع استمرار دعوتها لقريش.

وأول سورة نزلت في هذه المرحلة هي:

(٧٤) ص

وقد سميت بحرف الصاد الذي تبدأ به، وهي سورة دعوية وتخلو تماماً من فرض أي تشريع.

والسورة تعتبر نقطة التحول من مخاطبة قريش فقط إلى مخاطبة كل الناس بجانب قريش. فقد بدأت تتحدث عن داوود وسليمان وأيوب، وهو خطاب غير مباشر لبني إسرائيل بالتحدث عن شخصياتهم التاريخية. ثم ختمت السورة بالقول: «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ». والعالمين هنا تعني «كل العالم، كل الناس».

قريش وموقفهم من الدعوة

الآيات العشر الأولى في سورة «ص» تتحدث عن قريش وأنهم لن يؤمنوا مهما دعوا، ولتبرير موقفهم الرافض، كانوا يتهمون الرسول بأنه ساحر أو كاذب. ومرة يقولون إنه يزعم ألا إله إلا الله، وأخرى يقولون إنه يستحيل أن يختار الله محمداً من بين كبراء وسادة قريش ليكون رسولاً له. وترد عليهم الآيات بأن مزاعمهم تلك لا تعتمد على مصدر موثوق، فليس لديهم علم بغيب الله، وليس لديهم قدرة على الدنو من ملكوت الله (مجازاً) ليستمعوا ما يقرر:

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ(١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ(٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ(٣) وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ(٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ(٥) وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ(٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ(٧) أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ(٨) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ(٩) أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ(١٠).

الآيات تشير إلى اختلاف رجال قريش حول إمكانية البعث، فبعضهم بدأ يميل للتصديق أنه سيحدث وآخرون ينفون ذلك. وهو ما تحدثت عنه سور في المرحلة السابقة مثل سورة النبأ وسورة «ق».

والآيات تتحدث عن بعض تبريرات قريش لموقفها الرافض للدعوة، وكلها تبريرات

ليست خاصة بهم، ولكنها توجد في كل المجتمعات في كل زمان ومكان. وليست فقط لرفض الدين ولكن لرفض كل تغيير اجتماعي:

- فمرة يقولون إن من غير المعقول أن يوحي الله لبشر مثلهم.
- ومرة يتهمون محمداً بالكذب ومحاولة سحر عقولهم.
- وحيناً يرفضون الدعوة لأنها تدعو لعبادة الله وحده وترك الموروث.
- ويتواصون على التمسك بالموروث ودين الآباء والأجداد.

والآيات تقول بأن كل هذه المزاعم واهية لأنها مجرد ظن لا يعتمد على أسس ولا مصادر، فليس لهم تواصل مع من في السماء (الملائكة الناقلين للوحي) ولا مع الله جل وعلا.

وقريش برفضهم الحق وتمسكهم بالموروث يتوافقون مع كل الأمم في كل العصور، وهو ما تؤكده الآيات: (١١-١٦).

وتؤكد السورة أن تكذيبهم نتيجة لأنهم نهجوا سنة من قبلهم: جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ(١١).

والأحزاب تأتي في القرآن للتعبير عن الأمم الكافرة السابقة، مثل هذه الآية والآية (١٣) من نفس السورة، والآية الخامسة من سورة غافر.

قريش سارت على سنة أزلية سبقتها عليها أمم غابرة

وتسرد السورة بعض تلك الأحزاب: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ(١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ(١٣) إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ(١٤).

وكل من ذكر هنا كذبوا وهلكوا وهم كفار.

عود للحديث عن قريش

وَمَا يَنظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ(١٥) وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ(١٦).

بعد ذكر ما حل بأمم سابقة، تقول السورة إن قريشاً عوضاً عن أخذها العبرة مما حدث

لتلك الأمم تطلب من الرسول أن يعجل لهم العذاب الذي يتوعدهم به يوم الحساب، وأن يوقعه عليهم الآن، من باب السخرية.

حديث عن داوود

(الآيات: ١٧-٢٦) تتحدث عن داوود وتفاصيل دقيقة لأحداث في حياته:

اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ(١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ(١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ(١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ(٢٠) وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ(٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ(٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ(٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ(٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ(٢٥) يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ(٢٦).

وهذه نقلة نوعية في خطاب السور، حيث كانت في المرحلة الرابعة السابقة تتحدث عن أقوام كافرة سابقة تعرفهم قريش وما وقع بهم له علاقة بقريش، كونهم كذبوا مثل قريش وأهلكوا بكوارث طبيعية، لعل قريشاً تعتبر. أما الحديث عن داوود وما أعطي من قدرات وواقعة الخصمين، فتفاصيل دقيقة لا تهم قريش، ولكنها تهم بني إسرائيل كون داوود أول ملك لمملكة إسرائيلية في التاريخ، وتفاصيل حياته تعتبر جزء من تاريخهم ولا علاقة لقريشٍ به.

وهذا التغير في نوع الخطاب إعلان لتغير المخاطب في القرآن من قريش فقط إلى غيرهم، ذلك أن الحديث عن تفاصيل أحداث وأشخاص في تاريخ بني إسرائيل تأكيد – بطريقة غير مباشرة – على أن محمداً رسولُ لله، وإلا لما عرف هذه التفاصيل. لأن بني إسرائيل يؤمنون بالبعث – بخلاف قريش – لكن مشكلتهم أنهم لا يؤمنون أن محمداً رسول لله، فكان لابد

من تأكيد رسالته بطريقة مناسبة. وسرد هذه الأحداث سيحمل بعض بني إسرائيل على المجيء لمكة لسماع ما يقول محمد عن تاريخهم وملوكهم.[1]

عود للحديث عن قريش الرافضة للدعوة

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ(٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ(٢٨) كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ(٢٩).

(الآية: ٢٧) تتوعد الكافر بالنار. وويل لفظ وعيد وتهديد[2]، وليس كما زعم المفسرون أنه وادٍ في جهنم. لأنهم لا يعلمون هل في جهنم أودية وجبال؟ ولأنهم يجهلون العربية، لأن لغتهم هجين دخلتها العجمة وليست بقوة لغة قريش وأهل الحجاز وقت نزول القرآن، ولأنهم لا يتورعون عن
اختلاق تأويل أي لفظ أو آية لغير معناها.

(الآية: ٢٨) دليل على أن من عدل الله المطلق في الحساب ألا يغفر لمستحق النار ولن يعذب المؤمن.

(الآية: ٢٩) دليل آخر على أن الدعوة تكون بالقرآن فقط، لمن أراد أن يتذكر.

سليمان

الآيات تعود للحديث عن شخصية تاريخية أخرى تهم بني إسرائيل وهو سليمان، لتؤكد لهم صدق رسالة محمد، وإلا لما عرف هذه التفاصيل الغابرة من تاريخهم:

وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ(٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ(٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ(٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ(٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ(٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ(٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ(٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ(٣٧)

---

١ انظر فصل: داوود / كتاب: من آدم إلى محمد، الأمم والأشخاص المذكورون في القرآن.

٢ انظر فقرة: ويل / قسم مفردات من القرآن.

وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ(٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ(٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ(٤٠)

(الآيات: ٣٠-٣٣) سليمان تولى الملك بعد أبيه داوود وكان يربي الجياد ويعتني بها ويحبها.

(الآية: ٣٤) فتن سليمان لكنه استغفر ربه وتاب.

(الآية: ٣٥) سليمان يدعو ربه بأن يهب له ملكاً لا يكون لأحد من بعده. فهل أعطاه الله ذلك الملك؟ أو أن القرآن يروي كالعادة ما قاله وتمناه، مثلما روت الآيات دعوة وأمنية نوح في سورة نوح التي يقول فيها: وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً(٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً(٢٧).

ومن الواضح أن الله لم يستجب له وبقي الكفار يتوالدون ويشكلون الغالبية الساحقة من سكان الأرض.

وحتى بقية دعاء نوح لم يستجب والذي يقول فيه: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً(٢٨).

فالله سيغفر لمن يؤمن من العائلة ويلحق الأفراد المؤمنين بنفس العائلة ببعض، لأنهم آمنوا به وليس لأن أفراداً من عائلاتهم آمنوا، كما نصت على ذلك سورة الطور التي مرت بنا: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) الطور.

فالمغفرة والجنة لمن يؤمن وليس لمن يدعو له غيره، أو لأن عائلته مؤمنة. فالله لا يتعامل "بالواسطة". وهو دليل على أن الدعاء لأمر دنيوي لا يستجاب، لأن الدنيا مشاعة لكل الناس بغض النظر عن العقيدة والنجاح فيها يخضع لعوامل كثيرة ليس من بينها تدخل إلهي: مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ(٢٠) الشورى.

ولأن المفسرين تحدثوا بإسهاب عن هذه الآيات وعن الجسد الذي ألقي على كرسي سليمان وبشكل خرافي، وللأسف أصبح هو الحقيقة التي لا تقبل الشك عند الناس. فلابد من تتبع الآيات والتعرف على أماكن الوقف ووصل العبارات ببعضها، ومعرفة ماهية ذلك الجسد، وذلك كما يلي:

وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ(٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ(٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ(٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ(٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ.

هنا انتهى الحديث عن حب سليمان للخيل وفتنته وتعلقه بها.

ثم تنتقل الآيات للحديث عن موضوع آخر مختلف: وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ(٣٤).

ولابد من اعتماد معنى الجسد من القرآن بعيداً عن تخاريف المفسرين الذي أولوا معنى الجسد ليكون شيطان من الجن، الذين لا يمكنهم التشكل بهيئات مرئية، ولا يمكن أن يراهم البشر. ولو عدنا للقرآن فسنجد أن «الجسد» يعني بلغة العصر: التمثال المصنوع من الجماد بغض النظر عن الهيئة التي صنع عليها.

أما الإنسان فيطلق عليه القرآن كلمة «جسم» ولا يطلق «جسد» على أي مخلوق حي، سواءً كان شيطاناً من الجن أو إنساناً.

ويكون الملقى على كرسي سليمان هو «جسد» (تمثال لا روح فيه).

ولم تذكر الآية إن كان التمثال على هيئة إنسان أو حيوان أو طير.

كما أن سبب إلقاء الجسد على الكرسي يحتمل عدة احتمالات، منها أن يكون رسالة رمزية لسليمان لكي يتراجع عما بدر منه، والآية تشير إلى أنه «أناب» أي تراجع بالفعل.

وإلقاء الجسد لم يكن سبباً في فتنة سليمان عن ذكر ربه، ولكنه كان سبباً بتذكير سليمان بفعل صدر منه، وتراجع عنه، لا علاقة له بافتتانه بالخيل.

ونعود لمتابعة ما تقول السورة:

(الآيات: ٣٦-٤٠) تظهر بعض ما كان يملك سليمان، ومن ذلك أن تحت سيطرته «شياطين» وليس جان. منهم المهندسون «بناء» ومنهم من يغوص في البحر لاستخراج اللؤلؤ والمرجان، «وآخرين مقرنين في الأصفاد». وهو ما يؤكد أنهم بشر لأن الجان لا أجساد لهم ولا يستطيعون نقل الأشياء، ولا يمكن توثيقهم برباط أو أصفاد.

فالشياطين هنا تعني المبدعين، وهو تعبير مازال مستخدماً باللهجة العامية وفي بعض

اللغات[1].

شخصيات أخرى ذكرتها السورة معروفة في تاريخ بني إسرائيل

(الآيات: ٤١-٤٨) تتحدث عن شخصيات قديمة معروفين لبني إسرائيل عاشوا في موطنهم الأصلي أو قريباً منه، بعضهم رسل وبعضهم رجال صالحون.

أيوب

وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ(٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ(٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ(٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ(٤٤)

أيوب رجل صالح - كما لقمان - وقد أصيب بمرض جلدي، واهتدى - بتوفيق من الله - إلى معالجته بتنظيفه بالماء البارد وبعض الأعشاب.[2]

عدد من الأنبياء والصالحين

وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ(٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ(٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ(٤٧) وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنْ الْأَخْيَارِ(٤٨).

هنا ذكر إبراهيم وإسحاق ويعقوب فيما ذكر إسماعيل في آية أخرى، لأن المخاطب بنو إسرائيل والذين ينتمون ليعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم. ومن المعتاد في القرآن ذكر البعض قبل غيرهم أو دون غيرهم ليس لأنهم أفضل منهم. والآيات ذكرت أيوب قبل إبراهيم مع أن أيوب مجرد عبد صالح بينما إبراهيم نبي كانت له مواقف جليلة في دين الله. وذكرت الآيات اليسع وذا الكفل، وقد يكونان رجلين صالحين مثل أيوب، أو رسولين[3].

---

١ Genius في الإنجليزية تأتي بعدة معاني منها: العبقري، الموهوب، النابغة، والجني المعروف. وإذا وصف أحد بأنه جني فالمقصود أنه نابغة.

٢ قصته كاملة منشورة في كتاب: من آدم إلى محمد.

٣ للمزيد عن سليمان، وأيوب وكل الرسل والشعوب والأشخاص الذين ذكروا في القرآن انظر فصل سليمان / كتاب: من آدم إلى محمد.

(الآيات: ٤٩-٥٨) عود للحديث عما يهم قريشاً ومسلمي مكة: صور حسية وعد بجنة ونعيم ووعيد بعذاب وجحيم: هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ(٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ(٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ(٥١) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ(٥٢) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ(٥٣) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ(٥٤) هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ(٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ(٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ(٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ(٥٨).

قوله «جنات عدن» لا تعني أن هناك جنة اسمها عدن، ولكن تعني أن الجنة عَدْن، أي أن الجنة مكان توطن وبقاء وخلد، لأن «العدن» يعني الخلود في المكان. وتكون «عدن» صفة للجنة من باب إضافة الشيء إلى صفته، وليست اسماً لها.[1]

وعيد للمستضعفين

(الآيات:٥٩-٦٤) أول إشارة لما سيحل بمستضعفي مكة (الموالي والعبيد) الذين كفروا تبعاً لأسيادهم، وكيف أنهم سيندمون على اتباعهم، بل وعلى تصديق كبراء قريش عندما وصفوا من أسلم من المستضعفين بالأشرار، وهاهم في الجنة:

هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ(٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَباً بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ(٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ(٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ(٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ(٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ(٦٤).

الآية: (٥٩) تتحدث على لسان كبراء قريش وهم في النار عندما دخل فوج من المستضعفين.

الآية: (٦٠) رد المستضعفين عليهم.

الآية: (٦١) دعاء المستضعفين على الكبراء.

الآية: (٦٢) الكبراء يتساءلون عمن آمن من المستضعفين الذين كانوا يظنونهم من الضالين.

الآية: (٦٣) الكبراء يقرون أن سخريتهم بمن آمن وإصرارهم على الكفر قرار غير حكيم.

الآية: (٦٤) تؤكد أن تخاصم أهل النار سيقع، ليس فعلياً ولكن هذا بالفعل ما سينطبق على أحوالهم.

---

١ انظر فقرة: عدن / قسم مفردات من القرآن.

رد على بعض مطالب قريش

(الآيات: ٦٥-٦٨) الخطاب موجه للرسول للرد على مطالبات قريش بمعرفة موعد البعث، بالقول إنه مجرد منذر، والبعث حق ولو لم يؤمنوا به: قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ(٦٥) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ(٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ(٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ(٦٨).

خلق آدم وموقف إبليس

(الآيات: ٦٩-٨٥) تتحدث عن خلق آدم وموقف الملائكة وإبليس منه، لأول مرة في القرآن. وهو من المواضيع التي بدأت الآيات في هذه المرحلة تتحدث عنها. ولم تذكر في سور المراحل الأربع السابقة التي كان الخطاب الدعوي فيها موجهاً لقريش فقط، مما يعني أن خلق آدم يهم بني إسرائيل أكثر من قريش:

مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ(٦٩) إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ(٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ(٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ(٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ(٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ(٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ(٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ(٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ(٧٨) قَالَ رَبِّ فَانظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ(٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ(٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ(٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ(٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ(٨٥).

(الآية: ٦٩) تخاطب محمداً وتؤكد أنه لا علم له إلا ما علمه الله بالوحي، وتشير إلى أن خبر خلق آدم أحدث خلافاً بين الملائكة: «مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ».

وأن الله أبلغ الملائكة في عالمهم الذي يعيشون فيه - مكان ما في الكون - ولم يكن تبليغهم في مكان خلق آدم، الأرض.

والملأ الأعلى تشير لعالم الملائكة، الذي يقع بعيداً عن الأرض، ولا يعني أنه قريب من عالم الخالق.

واختلاف الملائكة يعني أن بعضهم وافق على فكرة خلق آدم وبعضهم رفضها، منذ اللحظة التي أخبرهم الله بها، وهذا الخلاف مقدمة لرفض (أحدهم) للسجود فيما بعد.

(ستتأكد الفكرة فيما سيأتي من سور تتحدث عن نفس الموضوع).

وتخبرنا الآيات أن إبليس أبى السجود فيما وافق بقية الملائكة. وهذا لا يعني أن كلهم قبلوا فكرة السجود، ولكن يعني أنهم سجدوا انصياعاً لأمر الله، ولو أن بعضهم لم يتقبلها.

وامتناع إبليس عن السجود لأنه شعر أنه خلق أشرف وأعظم من خلق الإنسان، فطرد: قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ(٧٧).

والمقصود بـ «منها» هو عالم الملائكة «الملأ الأعلى».

وقد طرد إبليس من عالم الملائكة لمكان آخر في الكون نتبينه من قوله تعالى: قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ(٨٣).

فإبليس سيعمل على إغواء البشر الموجودين على الأرض وهو ما يدل على أنه فرض عليه إقامة جبرية في محيط الأرض، ولا يستطيع الخروج منه للتجول في الكون. وبما أنه يستطيع التجول في فضاء الأرض قرر العمل على إغواء البشر[1].

الدعوة أجرها في الآخرة

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ(٨٦).

الرسول لا يأخذ أجراً مقابل الدعوة ولا يجوز له، لأن أجره سيكون يوم القيامة، ككل عمل ديني يقوم به المؤمن كإمامة الصلاة أو الأذان أو الدعوة أو غيرها، لأن أخذ أجر عليه يضيع أجر الآخرة. ويفهم من هذا أن دولة الإسلام يجب أن تخلو من وظائف رسمية بأجر لأي عمل ديني.

دعوة الإسلام عالمية

(الآية: ٨٧) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ».

هذه ليست المرة الأولى التي يذكر فيها أن القرآن «ذكر للعالمين». فقد ورد ذلك في سورة التكوير أول مرة، وهي من السور الأولى لسور المرحلة الرابعة: إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ(٢٧).

---

١ انظر فقرة: خلق آدم / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

وتكرر في سورة القلم: وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ(٥٢). ولكن بما أنها سور تخاطب قريشاً فقط، فالعالمون كلمة يقصد بها من يخاطبهم القرآن في تلك السور، ولا يقصد بها كل الناس. أما في سورة «ص» فقد جاء القول بأن القرآن ذكر للعالمين بعد أن أعلنت آياتها السابقة تغير المخاطب إلى بني إسرائيل بطريقة غير مباشرة، وذلك بالحديث عن داوود وسليمان وغيرهم ممن يعتبرون جزء من تاريخ بني إسرائيل. وأشارت السورة لمصير المستضعفين الذين يتبعون ساداتهم في الآيات: (٥٩-٦٤). ثم ختمت السورة بالقول إن القرآن ذكر للعالمين، أي لكل الناس. فلم تعد الدعوة خاصة بقريش، كما في السور السابقة منذ بداية البعثة. وهذا يعني ميلاداً جديداً للإسلام وتحولاً هاماً جداً في مسار الدعوة كما سنرى.

(٨٤) الصافات

يغلب على السورة الخطاب المجازي.

تبدأ السورة بقسم مسبوق بأداة الواو: وَالصَّافَّاتِ صَفّاً(١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً(٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً(٣) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ(٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ(٥).

والمشارق هنا هي مشارق الشمس التي تراها قريش تختلف باختلاف المواسم، لأن القرآن يخاطب قريشاً بما تراه وتعرفه.

السماء الدنيا تزينها الكواكب بالنسبة للناظر ولا يمكن اختراقها من الشياطين

إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ(٦) وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ(٧) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ(٨) دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ(٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ(١٠).

وقوله إن السماء الدنيا مزينة بزينة الكواكب قد تشير إلى حقيقة أن غلاف الأرض يسمح بانتشار الضوء بسبب انتشار ذرات صغيرة من الغبار وبالتالي ينتشر ضوء الشمس والقمر ونرى وميض النجوم البعيدة. لكنها لا تقرر هذه الحقيقة للمخاطب وهم قريش لأنهم لا يدركونها في زمانهم، وإنما تخاطبهم الآيات بما يرون بعيونهم المجردة وكأن السماء قبة مرصعة بالنجوم، ويشاهدون الشهب وهي تحترق.

والآيات: (٦-١٠) تشير إلى أن الجن - الذين يعيشون في محيط الأرض - لم يعد بإمكانهم

التجوال في الكون والوصول لمواقع الملائكة والمخلوقات البعيدة والاستماع لهم كما كانوا يفعلون في سابق عصورهم. والاستماع هنا لا يعني سماع لغة وكلام كما يفعل البشر ولكنه يعني طريقة لتوصيل المعلومة قد تعتمد وسيلة تواصل غير النطق، مع الاطلاع على أحوالهم وما يدور في عالمهم. وقد سبق الإشارة لهذا في الآيتين: (٨-٩) من سورة الجن وكذلك الآية: (٥) من سورة المُلك. ولعل منع الجن من اختراق الغلاف الجوي للأرض يماثل منع الغازات والأشعة الضارة من الوصول للأرض وكذلك احتراق الشهب والجسام الصلبة قبل الوصول للأرض.

قريش ككل البشر مخلوقات ضعيفة ومع ذلك ترفض دين الله

(الآية:١١) تخاطب قريشاً بعد أن ذكرت بعض قدرات الجن، وتقول: فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ(١١).

وقريش - ككل البشر - خلقوا من طين لازب. وهي إشارة إلى طور من أطوار خلق أجيال الإنسان الأولى التي مرت بأطوار وزمن طويل، والذي ذكرته سورة المؤمنون في الآيات: (١٢- ١٤)، ومنها قوله تعالى: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ(١٢). فخلقهم مر بسلسلة من الأطوار التي مرت على الطين، بدءً بالطين العادي، ثم تحوله إلى صلصال، ثم حمأ مسنون لازب، كما سيمر ذكره في سور قادمة[1].

قريش ترفض الدعوة وتسخر من الرسول

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ(١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ(١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ(١٤) وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ(١٥) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ(١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ(١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ(١٨).

الآيات تتحدث عن موقف قريش الرافض، وكيف أنهم يسخرون من الرسول عندما يتلو القرآن عليهم، ويقولون بسخرية: كيف نحيا بعد أن نموت ونتحول إلى تراب وعظام؟ وقد مات آباؤنا الأولون ولم يبعثوا من الموت. وترد الآيات مخاطبة الرسول: قل نعم (ستبعثون) وأنتم داخرون (برغم أنوفكم). وقريش تظن أن البعث سيكون للأجساد الحالية، التي بمجرد موت الإنسان تتحلل وتنتهي. ولا تتصور أن الإنسان عبارة عن نفس والجسد

١ انظر فقرة: خلق الإنسان/ قسم: أدلة ومواضيع من القرآن.

حامل له فقط، ويوم القيامة سيخلق حامل جديد. ولا يخبر القرآن قريشاً بتفاصيل هذه الحقائق لأنها لن تقتنع وستفتح لها مواضيع لا تنتهي لتجادل الرسول حولها. لذا فالقرآن يكتفي بتأكيد أن البعث حاصل لا محالة.

من مات قامت قيامته

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ(١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ(٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ(٢١).

الآيات تقول إن القيامة ستقوم بالنسبة للمرء بمجرد موته. لأن ذاكرته ستتوقف عن التسجيل بمجرد موته، فينهض يوم القيامة وكأنه مات للتو. وهو ما ذكرته قبل ذلك سور مثل يس: ٤٩-٥٠، والقمر: ٥٠، وغيرها.

مصير من يموت كافراً النار

احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ(٢٢) مِن دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ(٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ(٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ(٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ(٢٦). ومعنى «أزواج» المثيل والمشابه، أي الذين ظلموا ومن هم على شاكلتهم في الكفر.

الحديث عن المستضعفين

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ(٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ(٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ(٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ(٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ(٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ(٣٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ(٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ(٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ(٣٦) بَلْ جَاء بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ(٣٧) إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ(٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٣٩).

(الآيات: ٢٧-٣٩) جاءت على شكل مشهد مجازي لن يحدث ولكنه يصور حسرة المستضعفين على طاعتهم لساداتهم وبقائهم معهم على الكفر. وقولهم: «إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ» تعني أنكم كنتم تحولون بيننا وبين الحق الذي عبرت عنه الآية مجازاً «باليمين».

(الآيات: ٤٠-٤٩) صور حسية مجازية لنعيم الجنة للمؤمنين:

إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ(٤٠) أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ(٤١) فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ(٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ(٤٣) عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ(٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ(٤٥) بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ(٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ(٤٧) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ(٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ(٤٩).

(الآية: ٤٠) «إلا» هنا بمعنى أما. لأن عباد الله المخلصين ليسوا مستثنين من أنهم سيجزون بما كانوا يعملون. ولكن الآية: (٤٠) تبدأ موضوعاً جديداً عن عباد الله المخلصين وما ينتظرهم في الجنة: إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ(٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٣٩) إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ(٤٠) أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ(٤١).

وتتحدث السورة عن سرر وخمر وقاصرات الطرف عين، لتقريب الصورة في الذهن والترغيب فيها: فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ(٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ(٤٣) عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ(٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ(٤٥) بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ(٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ(٤٧) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ(٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ(٤٩).

لأن عالم القيامة لا يمكن تخيل نعيمه أو جحيمه، بشهادة القرآن: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٧) السجدة.

وسنلاحظ أن القرآن يقدم هذه الصور الحسية المجازية في مخاطبته لرجال قريش، وهو ما يؤكد أنها للترغيب وليست لتصوير الحقيقة. ذلك أن رجال قريش هم من يعاند الدعوة وهم من يحاربها ويقف ضدها. ولو آمنوا لآمنت النساء والمستضعفون، أو على الأقل لن تحارب النساء والمستضعفون الدعوة. لذا فالترغيب وتصوير نعيم الجنة بما يشتهي الرجال لا يعني أن النعيم مقصور على الرجال ولكن يعني أن الرجال هم المعنيون بالدعوة، وبالتالي يأتي وعدهم بالنعيم على شكل تصوير مجازي حسي مشابه لما يعرفون ويفضلون من متع في الدنيا، كترغيب لهم لعلهم يؤمنون.

مسلم وصاحبه المشرك

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ(٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ(٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ(٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ(٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ(٥٤)

فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاء الْجَحِيمِ(٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ(٥٦) وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ(٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ(٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ(٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(٦٠) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ(٦١).

الآيات تظهر مشهداً افتراضياً آخر، يمثل حديثاً بين رجل مسلم كان له صاحب كافر وكان الكافر يقول له هل يعقل أن نحيا بعد الموت؟ وكاد يستميله لكن المسلم صمد، فكانت له الجنة بينما دخل صاحبه المشرك النار.

ومثل هذا الموقف كان يحدث في مكة على أرض الواقع، حيث كان بعض الكفار يوحي لبعض بالاستمرار على الكفر وعدم طاعة محمد، كما كان المشرك من قريش يجادل صديقه الذي أسلم ويحاول تشكيكه في البعث.

رؤوس الشياطين

(الآيات:٦٢-٧٤) تقول إن الجنة خير من النار: أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ(٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ(٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ(٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ(٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ(٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِّنْ حَمِيمٍ(٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ(٦٨).

وطعام النار الذي تم تصويره وكأنه شجرة لها طلع مقزز، شبهته برؤوس الشياطين. هو كناية، لأن الناس لم تر رؤوس الشياطين ولكنها تتخيلها على شكل صورة مفزعة قبيحة. فالقرآن يخاطب المخاطب بما يدرك ويعرف وما هو معتاد عليه، سواءً حقيقة أو موروث خيالي راسخ، أو حتى أمثلة شائعة كما سيمر بنا.

من أسباب رفض قريش للدعوة

إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ(٦٩) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ(٧٠) وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ(٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ(٧٢) فَانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ(٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ(٧٤).

التمسك بالموروث أحد أسباب رفض الناس في كل زمان ومكان لأي دعوة دينية كانت أو اجتماعية. وقريش رفضوا عبادة الله وتمسكوا بعبادة الأصنام لأنهم ورثوها عن آبائهم

وتمسكوا بها. وهم في هذا مثل أمم كثيرة قبلهم، أرسل لهم رسل فرفضوا دعوتهم وتمسكوا بموروثهم. فهلكوا وسيلقون مصيرهم.

ذكر أمم سابقة

(الآيات: ٧٤-١٤٨) تذكر ما حدث لأمم سابقة، بعضهم أهلكوا وهم كفار كي تعتبر قريش مما حدث لهم. مثل قوم نوح، وقوم لوط، ويونس. وبعضهم ذكرهم يهم بني إسرائيل، مثل تفاصيل تاريخ إبراهيم، وموسى وهارون، وإلياس. وهو مماثل لما تحدثت عنه سورة «ص» السابقة:

قوم نوح

وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ(٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ(٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ(٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ(٧٨) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ(٧٩) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ(٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ(٨٢).

الآية تقول إن نوحاً نادى ربه فأنجاه الله وأهله وأهلك الباقين من قومه. وهلاك القوم كان سيقع في كل الأحوال. ولكن بما أن نوحاً عندما يئس من استجابة قومه لدعوته كان يدعو عليهم ويتمنى زوالهم. فجاء هلاكهم موافقاً لما في نفس نوح، وليس استجابة له. ونجاة نوح ومن آمن معه هي التي تمت بأمر الله، وتنفيذاً لوعده سبحانه الأزلي بنصرة الرسول ومن آمن في الدنيا والآخرة: إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ(٥١) غافر.

والنصر هنا هو هلاك القوم ونجاة نوح والمؤمنين.

إبراهيم

(الآيات: ٨٣-١١٣ والخطاب قصصي)

وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ(٨٣) إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ(٨٥) أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهَّ تُرِيدُونَ(٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ(٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ(٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ(٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ(٩٠) فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ(٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ(٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ(٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ

يَزِفُّونَ(٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ(٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ(٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ(٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ(٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ(٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ(١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ(١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظر مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ(١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ(١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ(١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ(١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ(١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ(١٠٨) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ(١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ(١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ(١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ(١١٣).

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ(٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ(٨٩). هذا كلام مجمل تفصله آيات في سورة أخرى حيث تقول: فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ(٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ(٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ(٧٨).

وهذا يجعلنا نُذكّر القراء أن القرآن لا يتحدث بشكل سردي مماثل لما نفعل، بل يتحدث عن جزئية من الموضوع في سورة ويتحدث عن جزئية في سورة أخرى. لذا ولكي يكتمل أي موضوع لابد من جمع كل الآيات التي تتحدث عنه ثم القيام بترتيب قطعه وكأنه لوحة فسيفساء.

(الآيتان: ٩٧-٩٨) إبراهيم لم يلق في النار: قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ(٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ(٩٨).

هنا نفي قاطع أنه قُذِف في النار «فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً» لقد فكروا في حرقه لكنهم لم ينفذوا مخططهم.

المفسرون هم من قام بلي معاني الآيات وقال بأنها تقول إنه أحرق ثم قاموا باختلاق قصص خرافية عن تلك النار العظيمة وكيف سجرت وقذف فيها إبراهيم لكنه خرج منها كما

دخلها سليماً معافى لم يمسسه سوء، وكلها قصص تشويقية خيالية. وبطبيعة الحال لو كان إبراهيم قذف في النار فستحرقه لأنه بشر من لحم ودم، وكونه نبياً لن يحوله لمضاد للنيران. فالرسل والأنبياء بشر يجري عليهم كل ما يجري على البشر وقربهم من الله دينياً لا يحولهم لقوى خارقة، لذا قتلت بني إسرائيل بعض النبيين: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧) البقرة.

ولو أن رب العالمين تدخل وغير قوانينه الثابتة التي بموجبها خلق البشر، وخرج إبراهيم من النار كأن لم يمسسه سوء، فسيسجد له قومه أجمعون وسيعتبرونه إلهاً في اللحظة والدقيقة، وليس فقط يؤمنون أنه نبي. لكن هذا لم يحدث، لأن إبراهيم لم يلق في النار.

(الآية: ٩٩) دليل على أن إبراهيم خرج من بلدة قومه باتجاه مكة «وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين». والذهاب لله ليس حرفياً، ولكن يعني الذهاب لبيته. وبيت الله الوحيد على وجه الأرض هو الذي في مكة.

وفيما يلي سنبين بعض أساليب القرآن الكريم ونأخذ لها أمثلة من الآيات التالية: فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ(٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ(٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ(١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ(١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظر مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ(١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ(١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ(١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ(١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ(١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ(١٠٨) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ(١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ(١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِياً مِّنَ الصَّالِحِينَ(١١٢).

فالقرآن سرده يختلف عما ألفنا، والآية: (٩٨) تبين أن إبراهيم نجا من مخطط قومه ولم تبين الآية كيف نجا. هل هرب هل طرد؟

وبسرعة تنتقل بنا الآية: (٩٩) وإبراهيم ينوي الذهاب لربه (مكة)، ثم تقول الآية: (١٠٠) إن إبراهيم دعا ربه ذرية صالحة. وما لم تقله الآيات وعلينا أن نكمله في أذهاننا هنا هو: أن إبراهيم خرج من قرية قومه (ولو أردنا أن نعرف من خرج معه فلابد من البحث في سور

أخرى، مثل سورة العنكبوت التي تقول: فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٢٦). ولم يخرج معهما أحد، كما تؤكد الأنبياء: وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ(٧١). ولما وصل إبراهيم مكة واستقر هناك أمره ربه بإعادة بناء البيت وتنظيفه وإعداده للحجاج والقيام على خدمتهم (كما تقول سور أخرى) وبعد أن استقر إبراهيم في مكة تزوج، وبعد ذلك دعا ربه بأن يرزقه الذرية الصالحة كما تقول الآية: (١٠٠) هنا. وقد جاءته البشرى بغلامه الأول: فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ(١٠١). ثم تنتقل الآية التالية بالحديث عن هذا الغلام وقد مرت السنون وبلغ مع والده السعي، مما يعني أنه ولد وكبر حتى أصبح شاباً يسعى مع والده ويصحبه. ثم تتحدث الآيات بتفصيل عن الرؤيا وكيف أن الولد استسلم لرغبة والده[1].

ثم تقول السورة: وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ(١١٢). هذه بشرى أخرى بإسحاق، مما يعني أن البشرى الأولى كانت بإسماعيل وهو الذي كبر مع والده وهو الذبيح. وإسحاق بشر به والده بعد سنوات من مولد إسماعيل، بل بعد أن أصبح إسماعيل رجلاً وكلف بمشاركة والده وخلافته فيما بعد على القيام على البيت وخدمة الحجاج، كما تقول سور أخرى، مثل: وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(١٢٨) البقرة.

فالآيات تظهر أن إسماعيل شارك والده في تطهير البيت والقيام عليه وترميمه، قبل أن يولد إسحاق.

ويكون إبراهيم خرج من بلدة قومه مع لوط فقط وقبل أن يتزوج لأنه مازال فتى: قَالُوا

---

١ وعزم إبراهيم على التضحية بابنه إسماعيل استجابة لحلم رآه، قد اشير لأمرين: الأول: أن ذاك المجتمع يؤمن بتحقق الأحلام، والثاني: أنه قد يكون ذاك المجتمع يمارس التضحية بالبشر للآلهة. وهو معتقد كان منتشراً في كثير من المجتمعات القديمة في كل العالم. وقد أمر إبراهيم باستبدال تقديم الأضاحي البشرية إلى تقديم أضاحي من الأنعام.

سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ(٦٠) الأنبياء. وفي مكة تزوج وأنجب إسماعيل، ثم توقفت زوجه عن الإنجاب لسنوات قبل أن تلد إسحاق. وإسماعيل وحده - دون إسحاق - كلف بالقيام على البيت وأصبحت هذه المهمة حصرية في نسله حتى ظهور الإسلام. وقصة إبراهيم تحوي تفاصيل أخرى لم نتعرض لها سنذكرها في حينها. وكل تفاصيل حياة إبراهيم ونسله وكل الرسل والأمم والأشخاص المذكورين في القرآن يمكن الرجوع إليها في كتاب: من آدم إلى محمد.

ونتوقف عند الآية: وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ(١٠٧). فالله لم يرسل من السماء كبشاً لإبراهيم ليذبحه بدل إسماعيل. لكنه أسلوب القرآن، الذي يقول فديناه بذبح بدل القول أمرنا إبراهيم بأن يذبح كبشاً عن ابنه. فإبراهيم هو من ذهب وبحث عن كبش وذبحه كفداء لابنه. وهو رد على قصص المفسرين المختلقة التي حولت واقعة الفداء إلى قصص خرافية، عندما صورت الكبش أنه نزل من السماء، بل إن الموروث الشعبي الضيق عند بعض مناطق نجد يصور منظر مجرة درب التبانة في السماء وكأنه الطريق الذي جُر معه الكبش. وهذا الأسلوب مماثل لقوله تعالى: قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ(٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ(٩٨).

فبدل أن يقول القرآن إنهم فكروا في حرقه ولكنهم لم ينفذوا، قال: أرادوا به كيداً (فكروا في إحراقه) وبدل أن يقول لكنهم لم ينفذوا، قال: فجعلناهم الأسفلين. أي أن تفكيرهم في حرقه لم يتم.

موسى وهارون

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ(١١٤) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ(١١٥) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ(١١٦) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ(١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ(١١٩) سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ(١٢٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ(١٢٢).

الكرب العظيم هنا يشير لمعاناتهم من فرعون.

إلياس

وإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ(١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ(١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ(١٢٥) اللهَّ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ(١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ(١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللهَّ الْمُخْلَصِينَ(١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ(١٢٩) سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ(١٣٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ(١٣٢).

الآيات تتحدث عن رسول اسمه إلياس بعث لقومه الذين يعبدون صنماً اسمه بعل. وبعل إله المطر في جنوب غرب جزيرة العرب، ومازال الناس يستخدمون عبارة «زراعة بعلية» للمزروعات التي تسقى بمياه المطر مباشرة.

قوم لوط

وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ(١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ(١٣٤) إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ(١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ(١٣٦).

لوط وأهله أجمعون نجوا إلا عجوزاً منهم، هي زوجته، كما ذكرت سور أخرى. وقريش تعرف مكان قرية لوط ويمرون بالقرب منها في أسفارهم: وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ(١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ(١٣٨).

يونس

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ(١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ(١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ(١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ(١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ(١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ(١٤٥) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ(١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ(١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ(١٤٨).

الآيات تتحدث عن يونس وكيف هرب وركب سفينة اضطر أن يتركها لأن وزنها زائد «مشحون» فالتقمه الحوت (نوع من القرش) وتسبب في إصابات بليغة عانى منها طويلاً قبل أن يشفى ويعود لدعوة قومه الذين آمنوا. وإيمانهم استثناء لا يحدث عادة. فالأمة التي لا تستجيب لدعوة الرسول في البداية لا تستجيب بعد ذلك أبداً مهما دعوا[1].

١ انظر فقرة: يونس / قسم التاريخ القديم.

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ(١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ(١٥٠) أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ(١٥١) وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ(١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ(١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ(١٥٨) سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ(١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ(١٦٠).

الآيات تخاطب قريشاً مستنكرة عليهم زعمهم أن الملائكة بنات الله. وتنفي أن تكون الملائكة إناثاً، لأن المخلوقات الروحانية كالملائكة والجن ليس لها جنس، وليس فيها إناثٌ وذكور. وتقول إن قريشاً لا تملك مصدراً موثوقا لمزاعمها تلك. وتقول الآيات إن عبادتكم للأصنام لن تجذب لها سوى من مصيره الجحيم يوم القيامة:

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ(١٦١) مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ(١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ(١٦٣).

يلي ذلك آيات تتحدث بلسان حال عباد الله الملائكة: وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ(١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ(١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ(١٦٦).

ثم تعود السورة لاستكمال الحديث عن قريش التي كانت تقول إنه لو جاءها رسالة من الله لتمسكت بها، لكنهم كفروا برسالة محمد عندما بعث فيهم: وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ(١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِّنْ الْأَوَّلِينَ(١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ(١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(١٧٠).

وعد من الله أن ينصر الرسول والذين آمنوا

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ(١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ(١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ(١٧٣).

وهنا يجب أن نفهم طبيعة هذا الوعد، هل هو تدخل من الله في مسار الأحداث على الأرض؟ أم أن المعنى مختلف؟

الحقيقة هي أن الإيمان بالقضية يُكوِّنُ دافعاً في نفوس الأتباع يجعلهم يدافعون عنها بكل صلابة. وإذا ما دخلوا حرباً ضد أعدائهم فيحاربون بذاك الدافع، وهو عامل هام للنصر. فالمثابرة والدافع والتسلح والتخطيط هي عوامل كسب الحرب. والمؤمنون يدخلون المعركة

بإحدى الحسنيين: إما النصر أو الشهادة. لذا سيواصلون المعارك ضد عدوهم، ولو انهزموا في إحداها أو بعضها، بينما غير المؤمن لن يكون لديه نفس الدافع وسينهار في النهاية ليكسب المؤمنون الحرب.

وتتحول السورة لمخاطبة الرسول:

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ(١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ(١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ(١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاء صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ(١٧٧) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ(١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ(١٨١) وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٨٢).

والآيات تشحذ همة الرسول وتأمره أن يصبر وستحل نهايتهم سريعاً. سواءً بكارثة أو بموت طبيعي، وعندها سيكون عذاب النار بانتظارهم.

ولكي يستعين على الضغوط النفسية عليه أن يداوم على الذكر والتسبيح.

والآيات الثلاث الأخيرة هي خير ما يمكن أن يختم به خطاب أو موضوع.

(٤٩) النازعات

تبدأ السورة بقسم مسبوق بالواو كما هي بداية السورة السابقة، وتقدم صوراً مجازية حسية لانهيار الكون، إيذاناً بنشأة كون القيامة حيث سيجد القرشيون أنفسهم وقد عادوا للحياة التي ينكرون.

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً(١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً(٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً(٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً(٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً(٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ(٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ(٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ(٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ(٩) يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ(١٠) أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً(١١) قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ(١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ(١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ(١٤).

المفسرون يتوسعون في الحديث عما يقصد بالألفاظ المستخدمة في القسم الوارد في بداية هذه السورة وفي السور الأخرى، وكأن معرفتها غاية بحد ذاتها، وليست فقط ألفاظاً للقسم.

والآيات: (١-١٤) تتحدث عن رجال قريش، وكيف سيجدون أنفسهم وقد أحضروا ليوم القيامة الذي ينكرون. وأسلوب القرآن هنا ذكر ما سيحدث في الآخرة وبعث الناس أولاً ثم ذكر بعد ذلك ما قالت قريش في الدنيا عن البعث. ولو اتبعنا الأسلوب السائد لدينا لجاءت الآيات بهذا الترتيب: وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً(١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً(٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً(٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً(٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً(٥) يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ(١٠) أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً(١١) قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ(١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ(١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ(١٤) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ(٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ(٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ(٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ(٩).

فقريش ينكرون البعث، وبمجرد موتهم سيشعرون أنهم انتقلوا للآخرة التي ينكرون. وفي ذلك اليوم ستكون قلوبهم واجفة وأبصارهم خاشعة (لأنهم أيقنوا أن مصيرهم النار).

فرعون

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى(١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى(١٦) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى(١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى(١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى(٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَى(٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى(٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَى(٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى(٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى(٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى(٢٦).

ذكر هلاك فرعون موجه لقريش لعلها تعتبر وتؤمن فقد كان طاغية وظن أنه لن يموت، لكنه مات وسيكون مصيره النار.

والآية: (٢٤) تظهر فرعون - وأي فرعون - عندما يصل لدرجة من الزهو بالنفس يظن معها أنه لا قوة إلا قوته ولا حول إلا حوله، وينسى أنه مجرد خلق حقير سرعان ما يهلك.

وفي عالمنا العربي المعاصر نماذج كثيرة بعضها طغى وهلك وبعضها مازال طاغياً وسرعان ما يهلك: «أليس في جهنم مثوى للمتكبرين».

قوله « فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى» عبارة مجازية، لتصوير غطرسة فرعون، ولا تقول إن فرعون وقف بين أتباعه وخاطبهم قائلاً: أنا ربكم الأعلى!

دعوة عقلانية موجهة لقريش كما العادة

أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا(٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا(٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا(٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا(٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا(٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا(٣٢) مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ(٣٣).

والجبال أرساها، أي أرسى الجبال وليس المعنى أن الأرض راسية ومستقرة بسبب الجبال التي هي جزء من الأرض.

من نعم الله للمخلوقات أن أودع في الأرض كل ما تحتاجه المخلوقات الحية قبل خلقها، وليس هناك شيء يحتاجونه، ليس مودعاً فيها.

يوم القيامة وقت الحساب والمصير

فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى(٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى(٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى(٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَى(٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى(٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى(٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى(٤١).

والحساب يكون بموجب ما تحويه صحيفة الأعمال.

وتختم السورة بالقول: يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا(٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا(٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا(٤٤) إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا(٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا(٤٦).

فقريش تلح على الرسول أن يخبرهم متى الساعة، والرسول لا يعلم الغيب، وما هو إلا نذير. وعندما تقوم الساعة سيشعر الناس أنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا فترة قصيرة من الزمن لا تزيد عن عشية أو ضحاها. وهذا الشعور يمكن فهمه، لأنه نفس الشعور الذي يشعر به المرء بالنسبة لسنوات عمره الماضية، والتي مرت كأنها لحظات.

(٥٠) الذاريات

تبدأ السورة بقسم مسبوق بواو كما بداية السورتين السابقتين:

تأكيد على وقوع البعث

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً(١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً(٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً(٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً(٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ(٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ(٦).

المخاطب قريش، والدين بمعنى القيامة هنا، لأن السياق هو الذي يدل على معاني الألفاظ في القرآن.

رجال قريش مختلفون حول البعث

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ(٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ(٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ(٩).

هذا قسم آخر في السورة، تلاه إشارة إلى ما يدور من جدل بين رجال مكة حول البعث. فالبعض يميل إلى إمكانية حدوثه، والبعض ينكر، وهو ما أشارت له بعض سور المرحلة الرابعة التي سبق المرور بها.

يوم الدين واقع لا محالة ومصير المكذبين النار ومصير المؤمنين الجنة

قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ(١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ(١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ(١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ(١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ(١٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ(١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ(١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ(١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ(١٩).

مع أن إنكار قريش البعث لا يقوم على براهين، وما هو سوى خرص، إلا أنهم يصرون على الرسول أن يخبرهم عن موعد البعث والحساب، من باب السخرية. فتأتي الآيات لتقول إن

يوم القيامة حق واقع لا محالة، وعندها لن ينفعهم أن يعرفوا، فمصيرهم النار التي لم يؤمنوا بها. أما المتقون ففي الجنة لأنهم عملوا لها في الدنيا، ومن ذلك: أن يوم الحساب كان يقلقهم وكانوا يصحون من منامهم مراراً لكثرة تفكيرهم في ذاك المصير، وكانوا يكثرون الاستغفار والتسبيح وذكر الله بمجرد أن يفيقوا، إضافة لحرصهم على الإنفاق.

والآيات: (١٧-١٩) تقدم صورة لما كان عليه المؤمنون القلة في مكة في تلك المرحلة، ولا تفرض على المسلم أن يقوم الليل. فقد كانوا من عذاب ربهم مشفقين، ويفكرون فيه ليلاً ونهاراً. ولا يعني أنهم كانوا يسهرون الليل لكي يسبحوا الله، فهذا ليس مطلوباً من المسلم.

دعوة عقلانية

وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ(٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ(٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ(٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ(٢٣).

الآيات تقول لقريش إن هناك دلائل على قدرة الله على البعث لا تحتاج منكم سوى التفكير فيها. ويمكنكم ملاحظتها في الأرض، وأنفسكم، وفوقكم. وتؤكد الآية: (٢٣) مرة أخرى أن البعث حق.

تاريخ قديم

(الآيات: ٢٤-٤٦) حديث عن أقوام سابقين، بعضه موجه لبني إسرائيل لأنه جزء من تاريخهم، وبعضه موجه لقريش لعلها تعتبر مما حدث:

البشرى بإسحاق

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ(٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ(٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ(٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ(٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ(٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ(٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ(٣٠).

ضيف إبراهيم لديهم قدرة التشكل على هيئة بشر، لكنهم مخلوقات كونية لا جسدية مخلوقة من طاقة. ولم نتبين عددهم من هذه الآيات. وكمخلوقات لا جسدية فلم يأكلوا لأنهم لا يملكون أجهزة هضمية أو تناسلية أو تنفسية كما المخلوقات الجسدية.

والبشرى هنا بإسحاق، لأن إسماعيل رزق به إبراهيم في بداية حياته، وتوقفت امرأة إبراهيم عن الإنجاب لسنوات قبل أن تُحمل لها هذه البشرى، بعدما وصلت لسن اليأس. وتكون امرأة إبراهيم هي أم إسماعيل وإسحاق، ولم يكن له امرأتان، أو زوجة رسمية وأمةٌ تسرى بها. كما روج اليهود لكي يصِموا أبناء عمهم إسماعيل بأنهم أبناء الرقيق وأن لقب إبراهيم أبو إسحاق وليس أبو إسماعيل. والتكني بالولد البكر في جزيرة العرب سمة وتميز وجاه. وكون إبراهيم يلقب بأبي إسحاق فخر لليهود وبني إسرائيل على بني إسماعيل.

مهمة المخلوقات الكونية

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ(٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ(٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ(٣٣) مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ(٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(٣٥) فَمَا

وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ(٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ(٣٧).

تبدو الآيات وكأن المتحدث هم المخلوقات الكونية والمخاطب هو إبراهيم. والآية: (٣٥) تتحدث وكأن المخلوقات الكونية قد وصلت لقرية لوط وأخرجت لوطاً ومن آمن معه، ثم أهلكت القرية كما تشير الآية: (٣٧). وما حدث هو أن المخلوقات الكونية أبلغت إبراهيم أنهم في طريقهم للقرية لإبلاغ لوط بالخروج ومعه من آمن، وهذه هي مهمتهم. وتستمر الآيات تروي ما حدث بعد ما وصلوا لقرية إبراهيم ولوط، وهو أن الهلاك حل بالقوم وأن آثار قريتهم المنكوبة بقي آية وشاهداً على ما حل بهم لكل من يريد أن يعتبر. وقد روته الآيات بأسلوب غير معتاد، بدأ بحديث موجه من المخلوقات الكونية لإبراهيم في الآية: (٣٢)، ثم أصبح المتحدث رب العالمين في الآيات: (٣٣-٣٧). وهذا التغير في المتكلم خلال الآيات شائع في القرآن، ومنه ما ورد في سورة الصافات السابقة: فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ(١٦١) مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ(١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ(١٦٣) وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ(١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ(١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ(١٦٦).

فالمتكلم في الآيات: (١٦١-١٦٣) هو رب العالمين، والمتكلم في الآيات: (١٦٤-١٦٦) هم الملائكة، وجاء التداخل بلا حدود ولا إشارات.

ويستفاد من هذه الآيات التي بين أيدينا: أن لوطاً الذي كان من قوم إبراهيم وخرج معه

لمكة، كلف بالرجوع للقرية كرسول من الله، مثلما كلف موسى بالعودة لمصر فرعون التي هرب منها بعد أن قتل نفساً. وما يؤيد ذلك أن المخلوقات الكونية المكلفون بإبلاغ لوط ومن آمن معه الخروج من القرية مروا بإبراهيم قبل ذلك وأبلغوه بما سيحدث للقرية. ولو كان قوم لوط ليسوا قوم إبراهيم فلن يكون هناك أي داع لإبلاغ إبراهيم بما سيحل بهم.

فرعون أغرق

وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ(٣٨) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ(٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ(٤٠).

عاد أهلكت بالريح

وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ(٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ(٤٢).

ثمود أهلكوا بالصاعقة

وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ(٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ(٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ(٤٥).

قوم نوح سبقوا عاد وثمود

وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ(٤٦).

وتعود السورة لمخاطبة قريش ...

دعوة عقلانية

وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ(٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ(٤٨) وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٥١).

والآيات تخاطب قريشاً بما يدركون، لذا هي لا تتحدث عن النظرية التي يعتقدها بعض علماء الفلك الآن الذين يقولون إن الكون يتسع بسرعات هائلة. فقوله: «وإنا لموسعون» أي أن السماء التي ترون خلقناها هائلة الاتساع (خلقنا وأوسعنا).

وكذلك الآية التي تقول: «وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ» فهي تتحدث عن أن الأرض لمن يراها بالعين المجردة وهو على سطحها، يراها مفروشة بالرمال أو الصخور أو النبات، وممتدة ممهدة.

من لا يؤمن في بداية الدعوة لن يؤمن أبداً

بعد أن دعت الآيات السابقة قريشاً للتفكير فالعقل يدل على الحق، تقول هنا إن قريشاً لن تؤمن مهما دعيت لأنها سلكت سبيلاً أزلياً سارت عليه كل الأمم في كل زمان ومكان:
كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ(٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ(٥٣).

ومن لم يؤمن من قريش من قبل، فلن يؤمن مهما دعي أو تغيرت الظروف. وهو ما يؤكد أن كل من بقي على الكفر حتى فتح مكة لم يؤمن بعد ذلك حتى ولو أعلن إسلامه أو قالت عنه كتب التراث إنه أسلم. ومع أن قريشاً لن تؤمن، فلابد أن يواصل الرسول دعوته الموجهة لكل الناس.

الرسول ليس مسئولاً عن هداية الناس

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ(٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ(٥٥).

مسئولية الرسول تنتهي بتذكير الناس (تبليغ رسالة ربه)، ولن يلام على رفض الناس دعوته. وقوله: «فتول عنهم» لا تعني اترك الدعوة وابتعد عن قريش، لكنها تعني عدم الدخول معهم في جدال وعدم الحرص على إقناعهم بالدعوة. فالدعوة إسماع وليست إقناعاً، وذكرى للمؤمنين.

من حكمة خلقه للجن والإنس أن يعبدوه

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ(٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ(٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ(٥٨).

والجن هنا تعني كل مخلوقات حية في الكون لا يراها الإنسان، سواءً كانت جسدية وتعيش في كواكب بعيدة، أو كانت مخلوقات لا جسدية. فالمخاطب هنا هو الإنسان (قريش) وكل ما خفي عليهم من مخلوقات كونية هو جن بالنسبة لهم.

وعبادة الناس لله يحتاجها الناس لأنها طريقهم للجنة، وليست لازمة له سبحانه. لأنه لو كفرت المخلوقات جميعاً فالله غني عنهم: فِيهِ آيَاتٌ بَيِّـنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ(٩٧) آل عمران.

فالله خلق المخلوقات الحية كلها لعبادته، ولا يحتاج منهم عوناً آخر أو رزقاً. وهو سبحانه ليس بحاجة لعبادة خلقه، ولكن عبادته كنوع من الشكر والعرفان له سبحانه واجب عليهم.

وعيد للذين ظلموا

السورة تختم بوعيد للذين ظلموا: فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ(٥٩) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ(٦٠).

والذين ظلموا هم من رفض الدعوة، فظلموا أنفسهم.

(٥١) الأحقاف

أول سورة تبدأ بـ «حم»، وأول سورة تذكر أن أحد بني إسرائيل آمن برسالة محمد، وهذا يعني أن تحول الخطاب الدعوي لكل الناس في هذه المرحلة قد بدأ يلفت أنظار الناس خارج مكة ويجذبهم للإسلام.

الوحي هو الكتاب (القرآن) الذي لم ينزل على الرسول وحي غيره

حم(١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(٢).

تأكيد على أن القرآن وحي من الله، وفي نفس الوقت دليل على أن الدعوة لا تكون إلا بالقرآن، فلم تشر السور التي مرت بنا حتى الآن أن الرسول كان يستخدم ما يعرف اليوم بالوعظ وجلسات الذكر، بل إن القرآن حذره من أن يستخدم غير القرآن للدعوة. فهو مجرد رسول، والرسول عليه أن يكون أمينا بحمل الرسالة وتوصيلها كما وصلته دون زيادة أو نقص أو شرح أو تعليل.

دعوة عقلانية

مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٤).

(الآية: ٣) تأكيد لما سبق من أن السماوات والأرض (الكون) له فترة زمنية محددة وسينهار، وبعدها سينشأ كون القيامة.

والآية الرابعة تقول لقريش هاتوا برهانكم الذي تعتمدون عليه في عبادة الأصنام. وهو ما يقال لكل صاحب معتقد مخالف للقرآن يزعم أنه من دين الله. وقريش - مثل أي أتباع معتقد باطل-يتمسكون بسلفية لا أساس لها، توارثوها عن آبائهم وأجدادهم، وحرموا التفكير فيها لئلا ينكشف ضلالها. لذا فكل معتقد يعتمد النقل لمعتقدات ليست في كتاب الله ويحرم العقل والتفكير فيها فهو معتقد باطل.

الموروث يعمي البصر والبصيرة

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوم الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ(٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ(٦).

دعوة كل الرسل تدعو الناس لعبادة الله الذي خلقهم وحده سبحانه، وبرغم وضوح الدعوة وعقلانيتها إلا أن الناس رفضوها للإبقاء على موروثهم عبادة الأوثان. فهل هناك ضلال أكثر من هذا الضلال؟ وهل هناك عمى بصيرة أكثر من هذا؟

والآية السادسة تصور الأصنام يوم القيامة وكأنها مخلوقات حية تكفر بعبادة قريش لها، وتتغافل عن دعائهم لها. وهذا تعبير مجازي للتدليل على أنها لن تنفعهم، لتقريب المعنى.

الاستماتة في الدفاع عن الموروث

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ(٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(٨).

الدفاع عن الموروث ليس لأنه حق أو أنه يتفق مع العقل والمنطق، ولكن لأنه موروث فقط.

ويندفع الناس للدفاع عنه بأي وسيلة، ولو أدى إلى مهاجمة المخالف، وإلصاق التهم به، ومحاولة إخماد صوته بأي وسيلة.

والآية ترد على من لا يؤمن بالبعث أو الدين، فيقال له كن كما تعتقد وأنا كما أعتقد، ويوم القيامة إن كان هناك قيامة ستندم وإن لم يكن هناك قيامة فلن أندم لأني لن أعلم بذلك أبداً.

الرد على جدال قريش لدحض الحق

قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٩).

الرسول لا يعلم الغيب، ما هو إلا نذير، وليس مفسرا ولا شارحاً للقرآن، ولكنه ناقل له فقط.

أول من دخل الإسلام من يثرب كان من بني إسرائيل

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(١٠).

الآية تؤكد أن أول من أسلم كان رجلاً واحداً، وكان من بني إسرائيل. وهو دليل على أن الأوس والخزرج لم يكونوا هم أول من أسلم، كما تزعم كتب التراث. والقرآن لا يذكر الأوس والخزرج كأول من أسلم من يثرب، ولا يشير لهم ولو إشارة واحدة. ولو كان لهم تواجد في مكة فسيشير لذلك القرآن كما أشار لتواجد بني إسرائيل.

من أسلم في مكة كانوا من الضعفاء والمستضعفين

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ(١١) وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ(١٢).

(الآية: ١١) إشارة إلى أن من أسلم لم يكونوا من علية القوم اجتماعيا (مال وجاه) وهذا متوقع فسنة الأولين التي سارت عليها الأمم تحتم أن يكون الضعفاء هم أغلب من يستجيب للدعوة، ومعهم نفر قليل من الطبقات الاجتماعية الأخرى، ممن يبحثون عن وضع أفضل مما حصلوا عليه في مجتمعهم. وهؤلاء عادة ما يكون منهم المنافقين، لأنهم أعلنوا الإسلام

ليس كقناعة ولكن بحثاً عن مصالح يظنون أن الإسلام سيوفرها لهم. وعندما يتعرفون أكثر على الإسلام وأنه لا يجلب مصالح دنيوية، لا يعلنون ردتهم، لأنهم لا يريدون أن يظهروا بمظهر المتردد والمتقلب الأطوار أمام قومهم. فيبقون معلنين الإسلام، دون قناعة ولا اتباع.

الإنجيل تجديد لشريعة موسى وليس رسالة جديدة منفصلة

وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ(١٢).

الآية تؤكد على أن إنجيل عيسى لم يكن شريعة متكاملة (كتاب) مثل التوراة والقرآن. وما هو سوى تجديد لدعوة موسى فقط، ولم يسبق القرآن شريعة متكاملة غير التوراة. وهاتان الشريعتان هما الوحيدتان اللتان كتبتا على شكل كتاب في صحف من بين كل رسالات الرسل المذكورين في القرآن، وهو ما تشير له الآية: (٣٠) من نفس السورة الحالية «الأحقاف».

بشرى للمؤمنين في مكة

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(١٣) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٤).

وذكر المؤمنين في مكة دليل على وجودهم، وأنهم برغم قلتهم إلا أن وجودهم ملاحظ، وهو ما ذكرته سور سابقة.

والدان مؤمنان يحاولان أن يقنعا ابنهما بالإسلام لكنه يرفض

(الآيات: ١٥-١٨) تتحدث عن رجل مشرك من قريش في الأربعين من عمره وله والدان مسلمان يدعونه للإسلام فيرفض بغلظة. والآيات تروي الحادثة بأسلوب يختلف عما اعتدناه. لذا حصل لبس في فهم الآية وتأولها المفسرون بطرق شتى أبعدتها عما تتحدث عنه.

تقول السورة: وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي

مِنَ الْمُسْلِمِينَ(١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ(١٦).

الآيات تبدأ بالتذكير ببعض واجبات الوالدين: الإحسان في القول والفعل، لأنهما يستحقانه وكل تقدير. وتُذَّكر الولد ببعض فضلهما عليه، كما تذكره بنعم الله التي أودعت المودة والرحمة والعطف في قلوب الوالدين. وكان يجب عليه - بعد أن بلغ الأربعين - أن يسمح لعقله بالتفكير وسيهتدي للحق دون أن يدعوه أحد، لكنه بدل أن يستمع لوالديه بما فيه خير له ونجاة من النار، ضاق ذرعاً بحديثهما:

وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللهَّ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(١٧) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ(١٨).

فالأربعيني رفض عرض والديه بغلظة بدل أن يحسن إليهما ويلاطفهما.

ولا تتحدث الآية: (١٥) عن أن المعاصي قبل الأربعين مقبولة أو أخف أو تغفر، وبعد الأربعين على المسلم أن يتوب. لأن المعاصي حالها ومصيرها واحد للشاب وللعجوز، والتوبة شروط قبولها واحدة. وعلى المسلم أن يتوب عن الكبائر ولا يعود لها أبداً، في أي سن كان.

الحساب سيكون عادلاً ولا يخضع للعواطف

وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ(٢٠).

فالحساب سيكون عادلاً ولن يغفر الله لهذا ويعذب هذا بعاطفة، ولكن العقاب والثواب سيكون بناءً على أعمال المرء الذي سيحكم على نفسه بنفسه لجنة أو نار دون تدخل من رب العالمين. وتتحدث السورة بلسان حال الكفار يوم القيامة، الذي ظلموا أنفسهم باستكبارهم في الدنيا وكأنهم سيخلدون فيها.

والآية: (٢٠) دليل على أن من يعرضون على النار تعني يدخلون فيها، وهو رد على من

استشهد على أن هناك عذاب قبر بقوله تعالى: النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ(٤٦) غافر[١].

ثم تتحول السورة لتذكير قريش بهلاك عاد لعل منهم من يعتبر:

حديث عن قوم عاد

تذكر السورة ما حدث لقوم عاد الذين كفروا - كما قريش - وأهلكوا، برغم أنهم كانوا أقوى وأغنى من قريش: وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَّ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللهِّ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ(٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ(٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ(٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهَّ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون(٢٦).

(الآية: ٢٦) التمسك بالموروث يجعل العقلاء والمفكرين لا يستخدمون عقولهم لنقد موروثهم أو تركه والتصديق بالحق، وهو ما أكدته سور أخرى تتحدث عن عقلاء قريش الذين تمسكوا بالموروث ولم يؤمنوا، مثل قوله تعالى: أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً(٤٤) الفرقان.

هلاك العديد من القرى الكافرة حول مكة

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهَّ قُرْبَاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ(٢٨).

والقرآن ذكر عدداً من الأمم أهلكوا وكلهم عاشوا في جنوب غرب جزيرة العرب، وقريباً (نسبياً) من مكة. ولم يذكر القرآن أمماً أو أشخاصاً من خارج تلك المنطقة، لأن المخاطب في القرآن (قريش وأهل الكتاب في يثرب) لا يعرفهم ولم يسمع بهم.

---

١ انظر فقرة: عذاب القبر / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

استماع نفر من الجن للرسول

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ(٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ(٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَولِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(٣٢).

الآيات تتحدث عن واقعة استماع نفر من الجن للرسول أثناء تلاوته القرآن على قريش، وهو تكرار لما تحدثت عنه سورة الجن التي مرت بنا سابقاً ضمن سور المرحلة الرابعة للدعوة في مكة. وهذه الآيات تؤكد على أن الرسول لم يرهم ولم يشعر بهم، ولو لم يخبره القرآن لما عرف أبداً. وهو دليل ضد من يقول برؤية الجن.

كما أن الآيات تشير إلى أن الجن كانوا يعرفون كتاب موسى، إضافة لتأكيد الآيات أن التوارة (كتاب موسى) والقرآن فقط هما الديانتان الكاملتان، وأن إنجيل عيسى ليس ديناً مستقلاً (كتاباً) ولكنه تجديد للتوراة.

عود لدعوة قريش للتفكير

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٣٣).

لو فكرت قريش بعقلانية لعرفت أن خالق السماوات والأرض (الكون) قادر على إعادة بعثهم.

وتقول السورة: وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ(٣٤).

ويعرضون يعني يعذبون في النار، تأكيدٌ لما ورد في الآية: (٢٠)، وردٌ على من يعتقد بعذاب القبر ويستشهد على ذلك بقوله تعالى: النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ(٤٦) غافر.

فالعرض يعني أن النار موجودة ولن تكون موجودة قبل القيامة، وعندها كل من يعرض عليها سيدخلها، ولن يعرض أحدٌ على النار ثم يذهب للجنة أو لا يدخل النار.

ختام السورة

وتختم السورة بتجديد برنامج التأهيل النفسي للرسول، وذلك بشحذ همته وتقوية عزيمته لمواجهة تزايد الضغوط النفسية عليه: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ(٣٥).

المفسرون والمحدثون يقولون إن أولي العزم من الرسل خمسة فقط، وهم: نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، ومحمد.

و«مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ»، وكل ما قالوه مجرد قصص مختلق. فالآية لا تخصص رسلاً بعينهم لتصفهم بأولي العزم، ولكنها تقول لمحمد أن يصبر على أذى قريش كما صبرت الرسل قبله، وكن ذا عزم على الصبر وتحمل المشاق كما فعلت الرسل قبلك. فكل رسول أوذي من قومه كما أوذيت يا محمد، وكلهم صبروا وكانوا ذوي عزم حتى أتى أمر الله، فاصبر، وكن ذا عزم كما كان الرسل قبلك، ولا تستعجل هلاكهم، فسيهلكون سريعاً ويفارقون الدنيا، وبعدها سيعذبون في جهنم.

(٥٢) الجاثية

نزلت في وقت آمن فيها واحدٌ من بني إسرائيل، على الأقل، كما ذكرت سورة الأحقاف السابقة في الآية العاشرة. واتضح لقريش أن محمداً لم يعد يوجه دعوته لهم فقط، بل لكل الناس. وسط أجواء مشحونة في مكة، صعدت فيها قريش من سخريتها من أشخاص المسلمين ومن الرسول ومن القرآن، لأن انتشار الإسلام في مكة بين المستضعفين، أو خارجها بين أناس آخرين، يعني عزة دعوة محمد وظهورها، وهو ما ستسعى قريش بكل ما أوتيت لوقفه. والسورة تبدأ بداية مماثلة للسورة السابقة.

الوحي هو الكتاب (القرآن) الذي لم ينزل على الرسول وحي غيره

حم(١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(٢).

دعوة عقلانية

إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ(٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ

يُوقِنُونَ(٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(٥).

القرآن هو الممثل الوحيد لدين الله

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ(٦).

الدعوة كانت بتلاوة القرآن على الناس فقط. لا تفسير ولا حديث، ومن لا يؤمن بالقرآن وحده ممثلاً لدين الله فليس بمؤمن.

وقوله «نتلوها عليك» لا تعني نلقنك. لأن القرآن يحفر في ذاكرة الرسول، كما صرحت سور عديدة. فالآية تشبه طباعة القرآن في ذاكرة الرسول وكأنه تلي عليه وحفظه.

تهديد ووعيد لقريش

وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ(٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ(٩) مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٠).

رجال قريش برغم عقولهم الراجحة أعرضوا عن الحق وتمسكوا بالموروث ولم يعد يستهويهم الاستماع له. فكان لابد أن يسخروا منه لأنهم لو أصغوا له وحكموا عقولهم فيما يسمعون فسيعرفون أنه الحق، وأن ما هم عليه ضلال. والآيات تحذرهم لما ينتظرهم يوم القيامة، ومع ذلك سيبقون على كفرهم وسيموتون عليه وسيدخلون النار بمحض إرادتهم.

القرآن هو الممثل الوحيد لدين الله

(الآية:١١) دليل آخر على أن الدعوة كانت بالقرآن فقط: هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ(١١).

عود للدعوة العقلانية

اللَّهُ الَّذِي سخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(١٣).

التفكير بالخلق يدل على قدرة الخالق على البعث.

مخاطبة المؤمنين القلائل في مكة

قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُون أَيَّامَ اللهَّ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كَانُوا يَكْسِبُونَ(١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ(١٥).

الآية: (١٤) أول آية تطلب من المسلمين أن يتسامحوا مع كفار قريش، وهذا فيه إشارة إلى تطور العداء القرشي. فقريش كانت تسخر من الرسول والقرآن منذ بداية الدعوة، لكنها بعد تحول خطاب الدعوة لكل الناس ودخول بعض بني إسرائيل وبعض أهل يثرب الإسلام ومعهم بعض المستضعفين، صعدت قريش من سخريتها لتطال أشخاص المسلمين. ولو بادلهم المسلمون السب والشتم والسخرية فسيعطي قريش ذريعة في التعدي الجسدي عليهم.

ثم تقدم السورة حديثاً عن بني إسرائيل لا يمكن أن نجده في سور المرحلة الرابعة لأن المخاطب هناك كان قريشاً فقط، أما الآن فالمخاطب قريش وكل الناس. وقد آمن نفر من بني إسرائيل يثرب كما أشارت لذلك السورة السابقة: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهَّ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَّ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(١٠) الأحقاف.

وهو يعني أن بني إسرائيل بدأوا التوافد على مكة لمقابلة الرسول والاستماع إليه، وقد آمن بعضهم، فتوالى نزول السور التي تتحدث عن تاريخهم بتفاصيل أكثر، ومنها:

بنو إسرائيل أوتوا رسالة ربهم لكنهم اختلفوا فيها

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ(١٦) وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(١٧).

رسالة الحق وصلت قدماء بني إسرائيل مع موسى لكنهم اختلفوا فيها وتركوها لتشريعات لم ينزل الله بها من سلطان، وسيحكم الله بينهم يوم القيامة.

من أراد الحق فليتبع محمداً

وتقول السورة: ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ(١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ(١٩).

والآيات تخاطب الرسول وتعني بني إسرائيل، قائلة لهم إن دين محمد هو نفسه دين موسى بصورته النقية، ومن رغب منكم في دين الله فعليه أن يتبع الرسول. فما عليه بنو إسرائيل تشريعات دخيلة، وما جاء به القرآن هو نفسه ما كان في التوراة النقية. فمن يرغب في العودة لدين الله الذي جاءت به التوراة فليؤمن بالرسول ويتبع القرآن.

(الآية:٢٠) تؤكد أن القرآن بصائر ورحمة: هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ(٢٠).

وهي دليل على أن القرآن وحده المستخدم للدعوة، ولا ذكر لغيره أبداً.

من عدل الله المطلق ألا يغفر لمستحق النار ولا يدخل النار مستحق الجنة

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ(٢١).

الله جل شأنه لا يتعامل بالعواطف، ولكنه سبحانه وضع ضوابط لدخول الجنة: «من آمن وعمل صالحاً فله الجنة». وهو وعد من الله ثابت لا يتغير ولا يخلفه سبحانه. وكل من خالف هذا الميثاق كلياً بالكفر أو جزئياً باتباع تشريعات دخيلة فله النار.

وهو ما تؤكده الآية التالية فكل شيء بالكون أو الحساب خلق بالحق وبموجب قوانين ثابتة لا تتغير من شأن مخلوق: وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(٢٢).

اتباع الموروث تسفيه للعقل

ثم تتحدث السورة عن قريش التي اتبعت أهواءها ولم تسمح بالتفكير بعقلانية: أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا

يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ(٢٤) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ(٢٧).

تبريرات قريش لرفض الدعوة سطحية مثل قولهم إن كان هناك بعث فأتنا يا محمد بمن مات من آبائنا. وكأن البعث سيكون في هذه الدنيا برغم أن سوراً عديدة أخبرتهم أن البعث سيكون بعد انهيار هذا الكون، أي في كون آخر، لكنهم غير جادين بالبحث عن الحق، وسيندمون يوم لا ينفعهم الندم.

والآيات تظهر أن التمسك بالموروث يعمي البصيرة، فيستحسن أتباع الموروث الضلال الذي يتبعون وكأنه الحق، وينبذون الحق وكأنه باطل.

الحساب سيكون بموجب صحيفة الأعمال

وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ(٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ(٣١).

بعد أن ذكرت السورة أن من عدل الله المطلق ألا يعذب مستحق الجنة ولا يغفر لمستحق النار، تقول هذه الآيات أن الإنسان نفسه – وليس الله جل وعلا – من يقرر مصيره بنفسه. فكل ما يقوم به ويقوله ويصدر منه سيسجل في صحيفة أعماله وبناءً عليها سيحكم عليه، وهذا يمثل منتهى العدل.

عود للحديث عن تبريرات قريش

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ(٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون(٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ(٣٤) ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ(٣٥).

الآيات تعود للحديث عن تبريرات قريش التي تبرر بها تمسكها بالموروث التي ذكرت في الآيات: (٢٣-٢٨)، وتؤكد أن الساعة قريبة لأن أيامهم مهما طالت في الدنيا فهي قصيرة، وسيندمون يوم القيامة على تفريطهم. والآية (٣٢) تشير إلى أن بعض رجال قريش يعتقدون بإمكانية البعث، وهو ما أشارت له عدة سور سابقة بعضها من المرحلة الرابعة.

وتختم السورة بخاتمة مشابهة لخاتمة سورة الصافات، بالحمد لله جل وعلا: فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٣٧).

(٥٣) فاطر

اسمها القديم «الملائكة» وتبدأ بتوجيه الحمد لله، وهي عبارات مماثلة لما ختمت به سورة الجاثية التي سبقتها.

الملائكة قدراتها مختلفة

الْحَمْدُ للهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١).

الآية تقول بأن الملائكة ليسوا خلقاً واحداً ولكنهم مخلوقات متفاوتة القدرات، والتي عبرت عنها الآية بالأجنحة. ومن هؤلاء الملائكة رسل، وهم الذين لديهم القدرة على نقل الوحي من الأرشيف الإلهي إلى الرسل من البشر. والقول بأن لهم أجنحة تعبير مجازي على القدرات، لأن الملائكة لا تطير بأجنحة وليس لها أجنحة، فهي مخلوقات من طاقة لا أجساد لها، تسبح في الفضاء بطريقة لا تحتاج معها لأجنحة.

كل ما يعرفه الناس ويكتشفونه أودعه الله لهم قبل خلقهم

مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ(٣).

كل ما هو موجود في عالم الدنيا من قوى ومعارف وقوانين طبيعية، عرفها الإنسان أو لم يعرفها بعد، قد أودعها الله ويسرها للناس قبل خلقهم، ولا يختص بها مؤمن عن كافر أو

كافر عن مؤمن. وما لم ييسره الله أو يوجده في هذا العالم، فلا سبيل للبشر الحصول عليه.

أول مرة يستخدم القرآن عبارة: يا أيها الناس

والآية الثالثة أعلاه، هي أول آية نزلت في القرآن تستخدم عبارة: «يا أيها الناس». ولم يسبق لسور المرحلة الرابعة أن استخدمت عبارة يا أيها الناس، لأن الدعوة كانت لقريش فقط. وستكرر السورة استخدام العبارة مرتين أخريين في الآية الخامسة والخامسة عشر. واستخدام «يا أيها الناس» في سور هذه المرحلة والمراحل القادمة حتى لو جاء في سياق يخاطب قريشاً، فهو يشمل قريشاً وغيرها، لأن الدعوة الآن بكل وضوح موجهة لكل الناس، ولم يعد المعني بها قريشاً فقط كما كانت عليه الحال في المراحل الأربع الأولى للدعوة وسورها الـ (٤٦).

كل الأمم كذبت رسلها

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ(٤).

فالخطاب للرسول، لتقول له السورة إن قريشاً ليست هي وحدها من كذب بالحق، فكل الأمم السابقة كان لها موقف مماثل لموقف قريش، فلا تبتئس.

وهذا شيء متوقع كسنة أزلية يسير عليها كل الناس، لأن أي دعوة إصلاحية فيها نبذ للموروث، لا يرحب بها الناس، دينية كانت أو اجتماعية.

عود لمخاطبة كل الناس

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهَّ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهَّ الْغَرُورُ(٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ(٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ(٧).

تعود السورة لتخاطب كل الناس (وخاصة الوثنيين خارج مكة) باستخدام عبارة «يا أيها الناس» وتؤكد لهم أن البعث حق وأن الحياة الدنيا متاع الغرور، فلا تتبعوا خطوات الشيطان فيكون مصيركم النار. والشيطان هنا ما توسوس به النفس لصاحبها، أو جانب الشر في الإنسان وليس بالضرورة تعني إبليس.

أتباع الموروث يبررون لأنفسهم

أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ(٨)

الرسول كان يحزن كثيراً على قومه لإصرارهم على الكفر برغم وضوح الحق. وقول الآية إن الله "يضل من يشاء ويهدي من يشاء" لا تعني المفهوم الشائع عندنا، والذي يقول إن الله قد كتب منذ الأزل فلان شقي وآخر سعيد، ولكنها تعني أن كل ما يدور في خلق الله هو بإرادة الله ولو لم يشأ لم يحدث. وتعني أن الله هو من خلق العقل للإنسان وهو من أعطاه حرية الاختيار، وكل من يختار الضلال فكأن الله هو من أضله، وكل من يختار الهداية فالله هو من هداه، ليس فعلياً ولكن بطريق غير مباشر.

دعوة عقلانية

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ(٩).

في بلاد قاحلة مثل مكة وما حولها تكون الأرض مغبرة مكسوة بالتراب ولا حياة فيها، وما إن يهطل المطر حتى تنمو النباتات محولة القفر إلى جنة، وهكذا يا قريش يمكنكم تصور البعث بنفس الطريقة. ولا تتحدث الآية عن أن الله يتدخل مباشرة في توجيه السحب لبلدة بعينها ويمنعه عن أخرى. لأن الله جل وعلا أوجد القوانين التي تثير السحاب وتتسبب بتكونه ومطره قبل وجود الإنسان، وهذه القوانين أوجدت صحاري وغابات ومناطق حارة وباردة. فالله هو سبحانه من أوجد القوانين وكل مطر ينزل بموجب هذه القوانين، فالله هو من أنزله.

مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ(١٠) وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(١١).

الآيات السابقة تحوي عدداً من النقاط الهامة:

- الآية الحادية عشر تشير إلى أطوار خلق الأجيال الأولى للإنسان (من تراب ثم من نطفة) ثم بعد ذلك استمروا بالتكاثر عن طريق التزاوج.
- وبقية الآية لا تقول بأن الآجال مقدرة مسبقاً، ولكنها تؤكد أن كل ما يجري على الإنسان يسجل بدقة، وهو ما ذكرته عدة سور.

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ(١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ(١٤).

(الآية: ١٤) دليل على أن من لا يؤمن في بداية سماعه للدعوة لن يؤمن أبدا.

عود لمخاطبة كل الناس

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ(١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ(١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ(١٧).

لقد أصبح تحول المخاطب في القرآن لدعوة كل الناس واضحاً الآن.

لا يكتب للمرء إلا ما عمله هو لنفسه

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ(١٨).

الآية تؤكد ما سبق وذكرته الآية (١٩) من سورة الأحقاف، فكل إنسان سيسجل له من الأعمال ما يقوم به هو، ولن يسجل له أعمال أو عبادات يقوم بها غيره، بخلاف السائد عند كثير من المسلمين، من أن الأعمال يمكن أن تؤدى بالنيابة. ومن كان مريضاً أو عاجزاً فلا حرج عليه، أما القادر فبإمكانه أن يقوم بالعمل أو العبادة لنفسه بنفسه، لو رغب.[١]

---

١ انظر فقرة: كل نفس بما كسبت رهينة / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة

(الآيات: ١٩-٢٢) من عدل الله المطلق ألا يغفر لمستحق النار ولا يعذب مستحق الجنة: وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ(١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ(٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ(٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ(٢٢).

من عدله سبحانه ألا يساوي بين من يتبع الحق بالرافض له. وقد قدمت الآية صوراً مجازية لوصف الطرفين. والآية: (٢٢) تنفي ما قالته كتب السير والحديث والتفسير من أن الرسول تحدث مع قتلى قريش في بدر بعدما ألقي بهم في بئر من آبارها، وقد سمعوه. الآية تنفي أن يستمع الميت لكلام الرسول، وهي هنا كناية على أن قريشاً لن تؤمن وشبهتهم بالموتى لأنهم لن يصغوا لدعوة الرسول مهما دعاهم وكأنهم أموات.

الرسول مجرد نذير وليس مسئولا عن هداية الناس أو إقناعهم بالدعوة

إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ(٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ(٢٤) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ(٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ(٢٦).

والرسول يشعر أحياناً أن سبب عدم إيمان قريش يعود لأنه لم يحسن التبليغ فيلوم نفسه، فتنزل الآيات تنفي ذلك. وتؤكد له أن ما يحدث له حدث مع كل الرسل قبله، وأن رفض الدعوة لا يعني عدم وضوح الحق. وأن مسئوليته تتوقف عند التبليغ، وليس مسئولاً عن هداية البشر أو إقناعهم.

عود للدعوة العقلانية

الدعوة العقلانية دائماً موجهة لقريش، وإن كانت هنا تخاطب الرسول فالمخاطب المعني هم قريش: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ(٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ(٢٨).

ولو فكرت قريش بما حولها من مخلوقات لآمنت بقدرة من خلقها على البعث.

والآيات دليل على أن الناس لم يخلقوا من آدم أو من أب واحد وأم واحدة، مثلهم في ذلك

مثل بقية المخلوقات الحية على الأرض. فكل فصيلة أو سلالة خلقت بصفات تتناسب مع البيئة التي خلقت فيها، ولهذا اختلفت ألوانها وهيئاتها[1].

بعض المطلوب لدخول الجنة عند نزول السورة

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ(٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ(٣٠).

المطلوب لدخول الجنة في هذه الفترة، هو التالي: إقامة الصلاة، الإنفاق، إضافة لتلاوة القرآن والإيمان بالله والبعث. وهذا لا يعني أن التطفيف (الغش التجاري) والوأد وغيره مما سبق وحرم قد أصبح حلالاً. لكن السورة هنا تذكر بعض ما هو مطلوب.

لم يوح للرسول سوى القرآن

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ(٣١).

والآية تؤكد على أن الرسول لا يتلقى من ربه إلا القرآن، ولا يدعو بغيره.

والمخاطب الرسول لتأكيد أن الوحي (القرآن) الذي يتلقاه هو الدين الحق المتوافق مع الوحي السابق[2].

بعد الرسول سيبقى الكتاب ولن يكون هناك عيسى أو مهدي

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ(٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ(٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ(٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ(٣٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ(٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ(٣٧).

---

١ انظر فقرة: خلق الإنسان / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

٢ انظر فقرة: ما بين يديه / قسم مفردات من القرآن.

الآيات تتحدث فيما سيكون وكأنه كائن، وتقول إن هذا القرآن سيرثه المسلمون بعد الرسول، وبحسب طاعتهم لقوانينه وتشريعاته سيحاسبون.

وتؤكد السورة حقيقة: إِنَّ اللهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٣٨).

الدين خيار شخصي

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً(٣٩)[1].

عود للدعوة العقلانية

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً(٤٠) إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً(٤١) وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً(٤٢) اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً(٤٣) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً(٤٤).

الآية: (٤١) قريش كانت تتمنى لو جاءها رسول فلما بعث فيهم رسول الله كفروا به، لأنهم تبعوا سنة سارت عليها كل الأمم، تقوم على التمسك بالموروث وما قام عليه من مصالح الدنيا وعادات وتقاليد وطريقة حياة لن يرضوا بنقدها ولا التخلي عنها.

لا عذاب في الدنيا ولا في القبر

تختم السورة بالقول: وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً(٤٥).

لو أن الله جل وعلا يحاسب الناس في الدنيا ويعاقبهم على أفعالهم فيها، ما ترك على ظهر

---

١ انظر فقرة: خليفة / قسم مفردات من القرآن.

الأرض دابة (مخلوق حي). والآية دليل على عدم وجود عذاب في القبر، وإنما العذاب يؤخر لأجل مسمى (يوم القيامة) حيث الحساب الذي يترتب عليه عذاب أو ثواب.

ولو سأل سائل: لماذا أهلكت أقوام مثل قوم نوح، عاد، ثمود، قوم شعيب، ولوط؟

فيقال: لو استعرضنا ما حدث لهم لوجدنا أنهم أهلكوا بكوارث طبيعية: زلازل، براكين، ريح، غرق. وهذه الكوارث كانت ستقع في تلك المناطق، ولم تقع لعقابهم ولو لم يكونوا هناك لما وقعت. لكن لو أنهم آمنوا فسيبتعدون عن المكان مع رسولهم ومن آمن معه وينجون من الهلاك. فنجاة الرسول ومن آمن معه هو المعجز هنا، وليس وقوع الكارثة.

والكوارث ستستمر بالوقوع، وهي تقع الآن، بغض النظر عن سكان المناطق التي تقع فيها. فقد يكونوا مؤمنين صالحين، وقد يكونوا كفاراً مسالمين أو مجرمين. وعدد الضحايا وحجم الخسائر المادية يحدده القدرة على الاستعداد. فزلزال في اليابان بقوة ٩ درجات بمقياس ريختر لن يتسبب بخسائر مثلما يتسبب زلزال في إيران أو باكستان بقوة خمس درجات.

(٥٤) فصلت

بداية مماثلة لبداية سورتي الأحقاف والجاثية السابقتين، ونزلت في نفس الفترة التي تحول فيها القرآن لمخاطبة كل الناس. لكن السورة لا تشير إلى أن أعداد الناس من غير قريش الداخلين في الإسلام قد تزايدت، وإن ثبت إسلام أحد بني إسرائيل، كما أشارت الآية العاشرة من سورة الأحقاف.

القرآن هو كل الوحي الذي نزل على الرسول وقريش لن تؤمن

حم(١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٣) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ(٥) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ(٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ(٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ(٨).

والآيات أعلاه تقول برغم أن القرآن تنزيل من الله وآياته عربية سهلة الفهم وهو يبشر من آمن وينذر من كفر إلا أن قريشاً رفضته.

(الآية:٥) تستخدم المجاز لتصف حال قريش الرافض للدعوة وكأن قلوبهم (عقولهم) مغلقة بغلاف يمنعها من فهم الحق، وفي آذنهم صمم يمنعهم من سماع القرآن، وفوق هذا بينهم وبين الرسول جدار عازل.

وترد الآيات على طلب قريش من محمد ما لا يستطيع، مثل إخبارهم بموعد البعث أو إحياء آبائهم، فمحمد مجرد بشر لا يستطيع أن يأتي بما لا يقدر عليه البشر.

والآيات تتوعد قريشاً لكفرهم ولامتناعهم عن تأدية الزكاة، وتعد من آمن وعمل صالحاً بالحسنى.

دعوة عقلانية

قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ(١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ(١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(١٢).

والآيات دليل على أن العصر الجيولوجي أحد معاني اليوم. فهي تقول إن الأرض خلقت في يومين (عصرين جيولوجيين) وجعل فيها أقواتها في أربعة عصور جيولوجية، وتكون الغلاف الجوي في عصرين. والسموات السبع عندما ترد في القرآن فالمقصود هو الغلاف الجوي للأرض، ولا تعني سبعة أكوان أو سبع سماوات على شكل طبقات صلدة كما صورتها كتب التراث.

وخلق الأرض لا يعني أن الكون خلق بنفس المدة، فالأرض خلقت بعد نشأة الكون بمليارات السنين وستنتهي قبله بمليارات أخرى.

تذكير بما حدث لأمم سابقة لعل قريشاً تعتبر

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ(١٣) إِذْ جَاءتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاء رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ(١٤) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ(١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً

صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ(١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(١٨).

وتظهر الآيات أن منطق الكفر واحد، فعاد وثمود مثل قريش طالبوا بملائكة ترسل إليهم، ولو أرسل لهم ملائكة فلن يؤمنوا وسيجدون تبريرات أخرى.

(الآية: ١٧) كناية على اختيار الضلال، حيث وصف اتباع الحق بالهدى والإعراض بالعمى.

صحيفة الأعمال تسجل كل ما يمر بالحواس

(الآيات: ١٩-٢٤) تتحدث عن مصير الكفار يوم القيامة: وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ(١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ(٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ(٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ(٢٤).

وتعطي الآيات صوراً مجازية حسية للكيفية التي تسجل فيها الأعمال، ضمن آلية في النفس تسجل كل ما يمر بالحواس الخمس من الولادة إلى الموت، وبناءً على هذا السجل يكون الحساب. فحاسة السمع تسجل ما تسمع، حاسة البصر تسجل ما ترى، الجلود تمثل حاسة اللمس، وكذلك حاسة الشم وحاسة الذوق. وهو ما تعرف عليه أخيراً علم النفس، فكل حاسة تسجل ما يمر بها. ولعل هذه الآيات أول آيات تتحدث بوضوح عن عمل آلية تسجيل الأعمال، وكانت الآيات قبل ذلك تقدم صوراً حسية وكنايات عن هذه الآلية، فمرة تصورها كميزان، وأخرى كأن هناك مخلوقات حية تسجلها...الخ.

وما سيحدث يوم الحساب هو نشر الصحيفة أمام المرء وسيسمع ما سجل سمعه ويرى ما رأت عيناه، ويشم ما سجلت حاسة الشم، ويشعر بما سجلت حاسة اللمس، ويتذوق ما أكل وشرب طوال حياته الدنيوية وبناء عليه سيكون مصيره، ولن تتحدث إليه سمعه وبصره وجلده، ولكنها استخدمت هنا مجازاً.

القرين يقتدي بقرينه

وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ(٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ(٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ(٢٧) ذَلِكَ جَزَاء أَعْدَاء اللهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاء بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ(٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ(٢٩).

الآيات تقول إن أحد أسباب تشبث قريش بالكفر هو تأثير القرناء الذين يزينون لبعضهم البعض طريق الضلال. والآيات لا تقول بأن الجن يوسوسون للإنس، ولكنها تقول إن الجن لهم قرناء سوء منهم، كما للإنس قرناء سوء منهم، فالقرين من جنس قرينه.

والآية تقول: « وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ» وكأن الله قد كتب عليهم الضلال، وليس الأمر كذلك. ولكنه أسلوب القرآن المميز والذي يقول بأن كفر الكافر لم يكن ليحدث لولا أن الله جل وعلا أتاح لهم القدرة على الاختيار، وعندما اختاروا الكفر، فكأن الله هو من قيض هذا. وقريش الكافرة يتواصى رجالها على عدم الاستماع للقرآن، وأن يسخروا منه كلما تلاه محمد عليهم، لعلهم يتغلبون على الدعوة ويسكتونها. ويوم القيامة سيتمنى الكافر من قريش والكافر من الجن لو تمكن من قرينه الذي زين له طريق الضلال لينتقم منه: « نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ».

وبطبيعة الحال القرين يؤثر على قرينه إن كان مستعداً للتأثر، لكن الإنسان يبقى لديه العقل القادر على التفريق بين الحق والباطل لو سمح له بالتفكير الحر وتخلص من قيد التمسك بالموروث، وعندها لن يتأثر بقرين السوء.

واتباع الموروث يُكون ثقافة اجتماعية يصعب مخالفتها. ولو اقتنع شخص بفساد موروثه فإن خوفه من سخرية مجتمعه قد تمنعه من إعلان معتقده، وقد يضطر للبقاء مع الموروث ليس قناعة ولكن خوفاً من نبذ المجتمع. وهذه الصورة هي أوضح صورة لتأثير القرين.

من آمن وعمل صالحاً فليطمئن على مصيره

(الآيات: ٣٠-٣٣) تطمئن المؤمنين (القلة في مكة) أن الله معهم، في الدنيا والآخرة، وهذا ما يجب أن يؤمنوا به: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ(٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ(٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ(٣٢) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٣٣).

أول الآية: (٣٠) تتحدث عن تنزل الملائكة على الذين استقاموا، وآخر الآية هناك متكلم يبشرهم بالجنة. والمتكلم هنا ليس الملائكة لأنهم لا يعلمون الغيب وليسوا مخولين بتبشير أي مخلوقات أخرى بمصائرهم، فهم لا يعرفون مصائر أي من المخلوقات ولا يعلمون مصائرهم هم إلا يوم القيامة وبعد حسابهم. إذن المتكلم هو الله جل وعلا في أول الآية وآخرها، كما في الآية: (٣١) والآيات التي تليها. فالآية: (٣٠) تقرأ بهذا الشكل: « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا.» ثم نتوقف هنا وينتهي الكلام عن الملائكة (والمقصود بهم ذلك الشعور بالطمأنينة والسكينة). ثم يبدأ موضوع آخر: « وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ(٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ.... » والمتحدث هنا هو الله جل وعلا.

الآية: (٣٣) تبين من هم الذين سيدخلون الجنة والذين وصفتهم الآية (٣٠) «بالذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا». وهم من آمن بدين الإسلام وعمل صالحاً. وهو ما ينفي الإيمان بالله والعمل الصالح لغير المسلم. ودليلٌ على أن المطلوب الآن الإسلام وهو الدين الذي دعا له رسول الله محمد وليس التوحيد فقط.

والآية دليل على أن على المسلم أن يدعو لدين الله. وبما أن الرسول لم يكن يستخدم كلامه الشخصي ولا يزيد عن تلاوة القرآن على الناس، فالدعوة الحالية بالمواعظ مخالفة لأمر الله وسنة نبيه وما يجب على المسلم. لأن المواعظ تعتمد القصص وعبارات القاص، بينما دين الله والدعوة له تكون بتلاوة كلامه أو توفير المصحف فقط لمن يرغب في الاطلاع على دين الله.

الرسول يرد على القرشيين السخرية والآيات تنهاه

(الآيات: ٣٤-٣٦) تطلب من الرسول ألا يقابل إساءات قريش وكلامهم البذيء بمثله، بل عليه أن يقابل كلامهم السيئ بكلام طيب، وسيخجل القرشي ويشعر بالأسف بل وستتبدل مشاعره العدوانية بمشاعر ود: وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ(٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٣٦).

وهذا مطلوب من كل مسلم، كما أنه يدل على ما وصلت إليه الحال في مكة حيث تطور أذى قريش للرسول بشكل مزعج. وقد سبق وطلبت الآيات (١٤-١٥) من سورة الجاثية من المسلمين الصبر على شتائم وأذى قريش.

إذاً، الجو في مكة غير مريح للرسول والمسلمين، وتغير عما كان عليه في المرحلة الرابعة. والسبب أن الدعوة الآن متوجهة لمستضعفي قريش من موالي وعبيد، ولو آمنوا لشلت الأعمال في مكة. كما أن دخول غير قريش في الإسلام يعني قوة لمحمد الذي سفه معتقداتهم ولم يراع كبرياءهم، وهو ما لم يتجرأ عليه غيره.

دعوة عقلانية

وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ(٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ(٣٨) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٣٩).

لو كانت قريش تريد الحق لاستدلت على قدرة الله تعالى على البعث من ملاحظة كيف تنمو الحشائش بعد نزول المطر. والآية (٣٨) لا تشير للملائكة، فليس هناك مخلوقات حية عند الله وقريبة منه أو تصل لعالمه سبحانه. ولكن الآية تقول: إن لم تؤمن قريش فهناك خلق كثير غيرها سيؤمن. أو أن معنى الآية أن قريشاً لو عصت أمر الله فالكون كله يسير بأمر الله ولا يعصي، إشارة للقوانين الثابتة التي يسير بموجبها الكون.

لا يستوي الأعمى والبصير

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٤٠).

والآية تؤكد أن الله لن يساوي بين المؤمن الذي يعمل صالحاً وبين الكافر، ولن يدخل النار مستحق الجنة، ولن يغفر لمستحق النار.

القرآن وحده ممثلٌ لدين الله وللدعوة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ(٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ(٤٢).

تأكيد على أن القرآن من الله وليس فيه نصوص من غيره، ودليل على أن الدعوة لا تكون بغير القرآن، لأن الحديث عنه وحده.

رفض الدعوة سنة أزلية سارت عليها كل الأمم

مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ(٤٣) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ(٤٤).

تقول الآيات للرسول إن موقف قريش منك واجهته الرسل السابقة، ولو نزل القرآن بلغة أعجمية لقالوا لماذا لم ينزل بالعربية والأعجمية؟ وسيجدون تبريرات لكفرهم، وإلا فهو (القرآن) هدى وشفاء (لما في الصدور) ومن لا يؤمن فقد ضل عن الحقيقة. والآيات كأنها جاءت لترد على تساؤل من قريش مفاده: (إن كان محمد رسول لكل الناس فلماذا يخاطبهم بالعربية فقط؟ ولماذا لا ينزل القرآن بعدة لغات؟) وهذا التساؤل الجدلي يتكرر بصور متنوعة على الدوام، ليس طلباً للحق، لكن محاولة للتشكيك بعالمية الإسلام.

والآيات دليل على أن القرآن لا يشفي المرض ولكن يشفي الفكر.

ثم تترك الآيات مخاطبة قريش.

مخاطبة بني إسرائيل

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ(٤٥).

بنو إسرائيل - كغيرهم من الأمم - ابتدعو في دين الله ما ليس فيه، بعد موسى.

الدين خيار شخصي

مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ(٤٦).

فالله جل وعلا عندما يدخل المؤمن الجنة فهو مقابل طاعته وإيمانه وعمله الصالح الذي قدمه في الدنيا، ويكون الإنسان هو من سعى للجنة وحصل عليها. وعندما يُدخل سبحانه الكافر أو العاصي النار، فلأنه هو من سعى للنار بنفسه ولم يفرضها الله عليه.

وتختم السورة بدعوة عقلانية:

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ(٤٧) وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ(٤٨) لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاء الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ(٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ(٥٠) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ(٥١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ(٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاء رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ(٥٤).

المخاطب قريش، ولا يخاطب القرآن أناساً سيأتون بعد عصر الرسول أبداً. لذا فقوله: « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ» ليس المخاطب فيها الناس اليوم كما يتأول بعض من يسترزق بالزعم أن القرآن يتحدث عن تنبؤات لن تحدث إلا في عصرنا.

الآية: (٥٢) تقول لقريش: ضعوا احتمالاً بأن القرآن حق من الله وكفرتم به، فسيكون مصيركم أسود، ولن يكون هناك خط رجعة. أما لو أن الدعوة كاذبة ولا وجود لله فلن يضير من آمن بها لأنه بعد موته لن يعلم أبداً ما حدث، لأنه لن يبعث.

وهذا النوع من الجدل قائم على الدوام ويمكن أن يوجه للملحد ومن يحاول أن يتبع الملحدين، أو لأتباع الموروث المصرين على التمسك بموروثهم ونبذ كتاب الله. وهو يمثل القاعدة السائدة: «قطع الشك باليقين».

(٥٥) الدخان

البداية مماثلة للسورة السابقة: حم(١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ(٢) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ(٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ(٤) أَمْراً مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ(٥) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٦) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ(٧) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ(٨).

الآيات تؤكد أن القرآن تنزيل من الله، ولم ينزل من الله على الرسول سوى القرآن. والآيات تجيب على أسئلة رددتها قريش على الدوام عن بداية تلقي الرسول الوحي، ومتى كان؟

بداية نزول الوحي كانت في الليل

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ(٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ(٤) أَمْراً مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ(٥).

وتساؤل قريش عن كيف يحدث الوحي؟ ومتى بدأ ينزل؟ تزامن مع بداية البعثة واستمر طوال فترة الدعوة في مكة. وقد أجابتهم سور عديدة، منها سورة القدر: إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ(١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ(٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ(٣) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ(٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ(٥).

ولأن قريشاً استمرت تكرر نفس السؤال جاء تكرار الإجابة في هذه السورة، وتؤكد أن بداية نزول الوحي كانت في ليلة تباركت بنزوله. ونعرف أن تلك الليلة كانت من ليالي شهر رمضان كما أكدت سورة البقرة: شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ... (١٨٥).

(الآية:٩) بعد أن تجيب قريشاً على سؤالهم عن بداية الوحي، تقول إنهم ليسوا جادين في السؤال، ولكنهم يسخرون: "بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ".

ثم تقول السورة: فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ(١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ(١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ(١٢) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ(١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ(١٤) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ(١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ(١٦).

لقد حول المفسرون الآية العاشرة وكأنها تتحدث عن دخان يظهر في آخر الزمان. والحديث في الآية موجه لمحمد، والمفسرون لا ينكرون هذا، ولا ينكرون أن الذين تتوعدهم الآية هم قريش.

وبناءً على هذا التأويل، فالدخان يجب أن يكون قد حدث في عصر رسول الله، وأن قريشاً قد طلبت من الرسول أن يكشف العذاب فكشف. لكن الواقع يقول إن هذا لم يحدث، ولم تر قريش دخاناً، لأنه لو حدث فسيكون واقعة تؤرخ بها العرب أيامها كالفيل أو ذي قار، وسيكون آية والرسول لم يعط أي أية.

ولو عدنا للآيات وقرأناها بعيداً عن ليّ معانيها، فسنجد أن الحديث عن قريش التي أعلنت الكفر، وهو موجه لمحمد "فارتقب" وهذا تعبير مجازي مثله مثل قوله تعالى: وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ(٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ(٤٢) ق.

فالآيات تتشابه مع آيات الدخان، حيث تتحدث عن قريش الرافضة للحق، وتتوجه للرسول لتشد من عضده وتشحذ همته على مواصلة الدعوة ولو لم يستمعوا له، وتقول: وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ. والرسول لن يستمع لذلك لأنه سيحدث يوم القيامة.

ومثلها (الآية: ٥٩) التي تقول: فارتقب إنهم مرتقبون في نفس سورة الدخان.

فآيات الدخان تقول لمحمد أمهلهم قليلاً وسيحاسبون في يوم يغشى السماء دخان (صورة مجازية حسية لما سيحدث للكون عند انهياره). عندها سيدعو كفار قريش ربهم بأن يكشف عنهم عذاب جهنم وسيؤمنون: رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ(١٢).

والآيات ترد عليهم وتقول لو كانوا يريدون الإيمان لآمنوا عندما جاءهم الرسول: أَنَّى

لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ(١٣). ولم يتهموه بالجنون: ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ(١٤).

وتقول الآيات لو أننا كشفنا عنهم العذاب (يوم القيامة على سبيل الافتراض) ولو لفترة قصيرة لعادوا للكفر: إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ(١٥).

وهو ما كررته سور أخرى بأسلوب آخر، ومن ذلك: وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(٢٨) الأنعام.

ثم تنتقل السورة لموضوع آخر.

قصص يهم بني إسرائيل يثرب

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ(١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(١٨) وَأَنْ لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ(١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ(٢٠) وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ(٢١) فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاء قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ(٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ(٢٣) وَاتْرُكْ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ(٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ(٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ(٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ(٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ(٢٩) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ(٣٠) مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ الْمُسْرِفِينَ(٣١) وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ(٣٢) وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاء مُّبِينٌ(٣٣).

والآيات: (١٧-٢٩) تهم قريشاً بجانب بني إسرائيل، لعلها تعتبر لهلاك فرعون على الكفر.

(الآية: ١٨) تؤكد أن فرعون لو سمح بخروج بني إسرائيل من مصر، لترك وشأنه على كفره. فهلاكه ليس جزءً من عذابه، لأن العذاب لن يكون إلا بعد الحساب يوم الحساب.

(الآيتان: ٢٢-٢٣) أسلوب من أساليب القرآن: فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاء قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ(٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ(٢٣).

الآية الأولى تقول: إن موسى دعا ربه، والآية التي تلت تقول: فاسر بعبادي (المتكلم هو الله والمخاطب موسى). لكنها لا تقول إن الله أمر موسى بالخروج ليلاً، ومع ذلك نفهمها

ببساطة. لكن لو حاولت أن أقلد هذا فسيأتي كلامي لا معنى له، مثلاً: فقال لي أحمد أنقذني، فاخرج واتجه لليمين. ولا يمكن لأحد أن يفهم أني قلت له: يا أحمد أخرج واتجه لليمين.

ومثلها: وَاتْرُكْ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ(٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(٢٥). تظهر أسلوباً آخر للقرآن. فالآيات أحياناً لا تسرد القصة كما نسردها، بل تصور القصة وكأنها لوحة موزاييك مكونة من قطع متراصة. وتعطينا الآيات قطعة هنا وهناك بحيث يمكننا نحن أن نكمل بقية القطع بسهولة لتكتمل اللوحة.

فالآية: (٢٤) تقول إن موسى أُمِرَ بترك المسار الذي سار فيه ومن معه في البحر رهواً (ماءً ضحلاً غير عميق كما المستنقع)، ثم تقول الآية (٢٥) إنهم تركوا جنات وعيون. وما نفهمه بسهولة هو أن موسى خرج من البحر ومن معه، وأن فرعون ومن معه لحقوا بهم وغرقوا وتركوا جنات وعيون. ولا نستطيع نحن أن نقلد هذا الأسلوب.

(الآية:٣٢): «وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ» فاختيارهم يعني تفضيلهم على من حولهم في ذلك الزمن حصرياً، لأنه لو كان اختيارهم – حسب زعمهم – على كل الناس في كل زمان، لقالت الآية: ولقد اخترناكم، لأنها تخاطب بني إسرائيل يثرب، الذين هم من نسل بني إسرائيل الذين تتحدث عنهم الآيات. والله جل وعلا لا يفاضل بين خلقه ولا يحابي بعضهم دون البعض الآخر. فالآيات تخاطب المعاصرين للرسول عما كان عليه سلفهم.

عود للحديث عن قريش

إِنَّ هَؤُلَاء لَيَقُولُونَ(٣٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ(٣٥) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٣٦).

قريش تجادل الرسول، بالطلب منه أن يحيي أجيالهم السابقة ليثبت لهم أن هناك بعثاً.

وكان الأجدى لقريش أن تؤمن لئلا تموت على الكفر ويكون مصيرهم مصير أمم سابقة مثل قوم تبع: أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ(٣٧).

ولو كانت قريش ترغب بالإيمان لآمنت بمجرد التفكير بما حولها من خلق عظيم: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ(٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(٣٩).

والآيات تؤكد أن خلق الكون لحكمة بالغة، وإن خفيت علينا.

وعيد ووعد مع صور مجازية حسية

(الآيات: ٤٠-٥٨) وعيد للمكذبين يوم الدين وتقديم صور مجازية حسية لما في النار زيادة في الترهيب، وفي المقابل وعد وترغيب للمسلم وصور مجازية حسية للجنة: إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ(٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ(٤١) إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(٤٢) إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ(٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ(٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ(٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ(٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ(٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ(٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ(٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ(٥٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ(٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ(٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ(٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ(٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ(٥٦) فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(٥٧) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٥٨).

(الآية: ٥٦) تأكيد على أن البقاء يوم القيامة أبدي مستمر دائم.

(الآية: ٥٨) القرآن بلسان عربي، ودليل على أن الدعوة بالقرآن فقط.

وتختم السورة بمخاطبة الرسول:

فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ(٥٩). دعهم وسيلقون مصيرهم، ولا تعني انتظر وسينتظرون.

الآن أصبح من الواضح أن القرآن يخاطب كل الناس، وأخذ مستضعفو مكة يسمعون آيات تحذرهم من اتباع أسيادهم في الكفر. كما تتابعت سور القرآن في سرد القصص التاريخي لبني إسرائيل الذي يُعرِّفهم بتفاصيل من ذلك التاريخ خفي على الكثير منهم، أو نقل لهم بصورة مشوهة. وهذا ما جعل أخبار دعوة محمد تصل يثرب، ولابد أن البعض منهم توافدوا على مكة للاستماع لما يقول القرآن عنهم. بعضهم للرد عليه وتكذيبه، والبعض للإصغاء فقد يكون ما يقول حقيقة. وقد دخل بعض هؤلاء الإسلام، وهم من نقله ليثرب ونشره هناك. وسيلاحظ القراء أن القرآن في مكة لا يذكر أبداً الأوس والخزرج، وإنما يذكر أن بعض بني إسرائيل دخلوا الإسلام، وهو ما يعني أنهم هم من نشر الإسلام في يثرب أولاً، وعلى أيديهم آمنت غالبية الأوس والخزرج، وهذا ما يخالف كلام كتب التراث.

(٥٦) مريم

السورة بدايتها موجه لبني إسرائيل، حيث تروي قصة أحد أنبيائهم - زكريا - وكيف رزق بمولود ذكر بعد أن بلغ من العمر عتياً:

كهيعص(١) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا(٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيّاً(٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً(٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً(٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً(٦) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً(٧) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً(٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً(٩) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً(١٠) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً(١١) يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً(١٢) وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً(١٣) وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيّاً(١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً(١٥)

ومجيء المولود لم يكن استجابة لدعوة والده زكريا، وإن كان قد تمنى في داخله لو رزق بولد، وبالفعل تحقق له ذلك. الدليل على ما نقول هو أنه لما بشر بالغلام قال: رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً(٨).

ولو كان قد دعا ربه لقابل البشرى بالفرح وليس الاستغراب.

الحمل بعيسى وولادته

بعد ذلك تذكر الآيات: (١٦-٣٧) قصة حمل وولادة عيسى ابن مريم، وهي تهم بني إسرائيل دون قريش لأنها من تاريخهم، وجاءت تفاصيلها دقيقة لكي تقول - كغيرها من القصص التي تهمهم - أن محمداً رسول الله وهذه القصص بتفاصيلها هي الدليل:

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً(١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً(١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً(١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً(١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً(٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً

مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً(٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً(٢٢) فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً(٢٣) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً(٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً(٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً(٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً(٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً(٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً(٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً(٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً(٣١) وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً(٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً(٣٣) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ(٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ(٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ(٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ(٣٧)[١].

ثم تتحول السورة لمخاطبة قريش: أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(٣٨) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ(٤٠).

إبراهيم

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً(٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً(٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً(٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً(٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً(٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً(٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً(٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيّاً(٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلّاً جَعَلْنَا

---

١ ويمكن الرجوع لكتاب: (من آدم إلى محمد «تاريخ الرسل والأمم والأشخاص المذكورين في القرآن») للتعرف على تفاصيل الحديث عن زكريا ويحيى وعن الحمل بعيسى وولادته ونشأته ورسالته ووفاته. كما يمكن الرجوع لكتاب: مسيحية بولس وقسطنطين للوقوف على الفروق بين عيسى ابن مريم رسول الله، وبين يسوع الذي تنسب له المسيحية.

نَبِيّاً(٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً(٥٠).

إبراهيم اعتزلهم (خرج من قريتهم) وقد يكون بناءً على عرض والده. وبعد أن خرج من قريته واستقر في المكان الذي هاجر إليه (مكة) رزق بإسحاق ويعقوب هناك.

وقد ذكر إسماعيل متأخراً في الآيات: (٥٤-٥٥) ولم يذكر هنا مع أبيه وإخوته، لأن المخاطب هم بنو إسرائيل والذين لا يحملون مشاعر ود لإسماعيل (كما سنرى في سور قادمة) ولا يهتمون بتاريخ إسماعيل.

موسى

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً(٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً(٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً(٥٣).

إسماعيل

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً(٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً(٥٥).

إدريس

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً(٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً(٥٧).

رفع مكاناً معنوياً علياً عند ربه، فما كان من المفسرين إلا أن رفعوه للسماء الرابعة، مع أن الكون لا يتكون من سبع سماوات فوق بعضها وإدريس بشر مات قبل آلاف السنين ولن يعود للحياة إلا بعودة كل البشر يوم القيامة.

كل المذكورين يتحدرون من آدم وممن نجا مع نوح

أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً(٥٨).

وكل من ذكر هنا رسل من ذرية آدم. بعضهم منه مباشرة وبعضهم ممن حمل مع نوح. وهذا دليل على أن آدم أبو الرسل المذكورين في القرآن، ودليل على أن نوحاً ومن نجا معه من نسل آدم. ودليل على أنه ليس كل الرسل من نسل نوح وقومه، وهو ما سيتضح لاحقاً.

سنة الأولين

فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً(٥٩).

كل رسول يأتي يؤمن به قلة من الناس، ثم تبدأ أجيالهم اللاحقة التحول عن الدين شيئاً فشيئاً إلى أن ينصرفوا عن الدين تماماً ويتمسكون بعقائد مبتدعة.

وعد للمؤمن وصور مجازية حسية لنعيم الجنة

إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً(٦٠) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً(٦١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً(٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً(٦٣).

(الآية:٦٢) تقول: لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً. وهذه كناية على استمرار النعيم بلا انقطاع، وإلا فليس في الجنة صباح (بكرة) ومساء (عشياً) لأنه لا وجود لشمس في الجنة.

(الآيتان: ٦٤-٦٥) تقول: وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً(٦٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً(٦٥). دليل على أسلوب القرآن الفريد. فالآية: (٦٣) التي سبقت تتحدث عن نعيم الجنة الذي أعده سبحانه للمتقين، ثم في الآية: (٦٤) وكأن المتكلم هم الملائكة دون أن يسبق ذلك أي مقدمات، وكأنهم يخبروننا أن تحركاتهم في الكون تتم تنفيذاً لأوامر الله جل وعلا، وكأنهم يحثون الرسول بالاستمرار لعبادة الله، بدل أن يكون المتكلم هو الله جل شأنه وتقول الآيات إن الملائكة لا تتنزل إلا بأمرنا. وبطبيعة الحال الملائكة لا تخاطب الرسول وليس هناك آيات قرآنية قالتها الملائكة، لكنه أسلوب القرآن المميز.

فالملائكة لسان حالها يقول: « وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ». ثم يقول تعالى: « وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً(٦٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً(٦٥)».

دعوة عقلانية

وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً(٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً(٦٧).

الإنسان هنا المقصود به كفار قريش، كما ورد في سور سابقة. والآية تقول إن قريشاً المنكرة للبعث لو فكرت بخلقها لآمنت بقدرة الخالق على البعث.

وعيد لمنكري البعث مع استمرار أسلوب القرآن الفريد

فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً(٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً(٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيّاً(٧٠) وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً(٧١).

الآية: (٧١) تقول: وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً. بدل أن تقول وإن منهم فالمخاطب هنا الكفار، وكانت تخاطبهم بضمير الغائب في الآيات: (٦٨-٧٠) وفجأة يتحول الضمير إلى المخاطب. وهو ما جعل المفسرين والمحدثين يصورون الوضع وكأن كل الناس مسلمهم وكافرهم سيردون النار (يدخلونها على خفيف) وسيعبرها المسلم للجنة بينما يبقى الكافر. وهذا نتيجة للجهل بأساليب القرآن الفريدة أو تجاهلها. فالحديث والمخاطب في الآيات: (٦٨-٧١) للكافر، ولم يأت الحديث عن المؤمن إلا بعد ذلك في الآية: (٧٢): «ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً». ولأن الآية تبدأ بـ«ثم» ساعد في ترسيخ مفهوم المفسرين. وإلا فالمؤمن لن يدخل النار ولن يمر بها ولن يردها، فالحساب سيقرر إما الجنة أو النار. ومن دخل النار فلن يخرج منها، كما ستؤكد ذلك سور قادمة.

قريش تسخر من فقر المسلمين

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً(٧٣).

كبراء قريش يسخرون من المسلمين في مكة، كونهم مستضعفين وفقراء لا يملكون مالاً وجاهاً مثلهم. معتبرين المال والجاه هو ميزان التفاضل بين الناس، وبالتالي فلن يؤمنوا ليحسبوا مع أولئك الضعفاء المساكين. وهذا الشعور موجود لدى الحكام والأغنياء في الوقت الحالي.

وعيد لقريش

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً(٧٤) قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً(٧٥) وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً(٧٦).

الآية: (٧٥) تقول إن قريشاً ستندم على كفرها متى ما رأت العذاب، سواء كان في الدنيا (كارثة طبيعية) – وهذا محتمل – أو بعد موتهم يوم القيامة.

وعيد لأحد كبراء قريش

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً(٧٧) أَاطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً(٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً(٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً(٨٠).

أحد كبراء قريش من له ولد ومال، قال: إن كان هناك قيامة فسيهبني ربي مالاً وولداً كما في الدنيا. فهو من كبار القوم في مكة ويظن أن معايير الجاه الدنيوي معتبرة عند الله. وهو شعور يخالج بعض المتغطرسين من أصحاب النفوذ في كل عصر.

تأكيد أن قريشاً ستندم

وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً(٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً(٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً(٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً(٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً(٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً(٨٦) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً(٨٧).

قريش تعتقد أن الملائكة بنات الله

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً(٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً(٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً(٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً(٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً(٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً(٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً(٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً(٩٥).

كلما قالت السور المكية: «اتخذ ولداً» فالمقصود اعتقاد قريش أن الملائكة بنات الله. فالولد يعني الذرية (ذكراً كان أو أنثى).

وعد للمؤمنين

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً(٩٦)

الوحي هو القرآن فقط

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً(٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً(٩٨).

الوحي يسر بلسان الرسول (العربي) المخاطب حينها والذي هو من قريش ; وهي قريش التي سبقتها أمم كثيرة هلكت وهي كافرة، وسريعاً ما سيهلك كبراء قريش.

(٥٧) الإخلاص

قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ(١) اللهُ الصَّمَدُ(٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ(٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ(٤).

السورة عبارة عن أربع آيات كلها تؤكد أن الله أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن أحد له كفواً أو شبيهاً، كرد على ظن قريش أن الملائكة بنات الله، كما ورد في الآيات: (٣٥-٤٠) من السورة السابقة، وعدة سور غيرها.

(٥٨) الكهف

بنو إسرائيل يثرب وما حولها بدأوا يتوافدون على مكة لمقابلة الرسول والاستماع له وحواره بعد أن انتشر خبره، وحديثه عن تاريخهم. وهذه السورة تجيب على تساؤلات وجهها بنو إسرائيل إلى الرسول عن قصص يعرفونها في تراثهم، وكأن هذا نوع من اختبار صدق محمد الذي يقول إنه رسول من الله. ومن الأحداث التاريخية التي سألوه عنها، كما تقول السورة: أهل الكهف، موسى والفتى، وذو القرنين. وهذه الأحداث وقعت في جنوب غرب جزيرة العرب: الموطن الأصلي لبني إسرائيل ويعرفونها كجزء من تراثهم.

وتبدأ السورة بالتأكيد على أن القرآن غير ذي عوج، ولا يقول إلا الحق، وكل ما يقصه من القصص فهو ما حدث بالفعل.

القرآن وحده للدعوة والوعد والوعيد ولا شيء معه

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا(١) قَيِّماً لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً(٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً(٣).

وعيد لقريش لقولهم بأن الملائكة بنات الله

وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً(٤) مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً(٥).

الآيتان تتوعدان قريشاً على قولها إن الملائكة بنات الله، وهو تكرار لما ورد في سورتي مريم والإخلاص السابقتين.

الرسول يتحسر على ضلال قومه

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً(٦).

الآية تظهر الجانب الإنساني النبيل عند الرسول، فهو يتحسر على قومه ويتمنى أن يهتدوا لينقذوا أنفسهم من النار، لأنه يعلم أن الدعوة حق وأن النار حق.

الأرض وكل ما عليها إلى زوال

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً(٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً(٨).

أصحاب الكهف

(الآيات: ٩-٢٦) تروي ما حدث لأصحاب الكهف، موجهة إلى بني إسرائيل، لأن القصة معروفة لديهم، ولا تهم قريشاً:

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً(٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً(١٠) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً(١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً(١٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى(١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً(١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا

اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً(١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً(١٦) وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً(١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً(١٨) وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً(١٩) إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً(٢٠) وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَاناً رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً(٢١) سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاء ظَاهِراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَداً(٢٢) وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً(٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً(٢٤) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً(٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً(٢٦)[1].

(الآيتان:٢٣-٢٤) تخرجان عن سرد القصة وتتجهان لمخاطبة الرسول، قبل أن تعود الآيات لاستكمال قصة أهل الكهف. وهو مثال آخر لأسلوب القرآن الذي يتحدث عن موضوع ثم يبتعد لموضوع آخر ثم يعود للموضوع الأول. والآيتان تفرضان ضرورة أن يقترن كل عمل يعتزم المرء القيام به بمشيئة الله، من باب إسناد كل ما للمخلوق للخالق. كما تفرض أن يذكر الله عند النسيان، لأن الذكر والتسبيح يعمل على تهدئة الأعصاب، وإذا هدأ المرء كان تذكره أسهل.

١ يرجى الرجوع لكتاب: من آدم إلى محمد، تاريخ الرسل والأمم والأشخاص المذكورين في القرآن. وهو من منشورات الجمل.

الرسول ينجذب لمتاع الدنيا

(الآيات:٢٧-٢٩) تخاطب الرسول بأن يستمر في التبليغ بتلاوة الوحي (القرآن) وأن يصبر نفسه مع من آمن، لينشغل بها عن الافتتان بمباهج الحياة التي يملكها رجال من قريش. فهي مجرد زينة دنيوية زائفة زائلة: وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً(٢٧) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً(٢٨) وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقاً(٢٩).

دليل على أن التبليغ يكون بالقرآن وحده، ودليل على أن الدين خيار شخصي بلا إكراه.

(الآيات:٢٩-٣١) وعيد للكافر ووعد للمؤمن، مع صور مجازية حسية لما في النار وفي الجنة للترهيب والترغيب: وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقاً(٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً(٣٠) أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً(٣١).

السندس والإستبرق أنواع من الأقمشة المعروفة في مكة في تلك الفترة، والمرجح أن رجال قريش (التجار) في رحلاتهم لشراء البخور واللبان والبهارات من جنوب غرب الجزيرة وبيعه في بلاد الشام يشترون هذه الأقمشة ويجلبونها لمكة. ولهذا فهي تحمل أسماءها التي أطلقتها قريش عليها، وقد تكون هي أسماؤها في البلاد التي أتي بها منها.

قصة للعبرة

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً(٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَراً(٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً(٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ

قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً(٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً(٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً(٣٧) لَّكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً(٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ إِن تُرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً(٣٩) فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً(٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً(٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً(٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً(٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ للهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً(٤٤) وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً(٤٥).

القرآن مخاطباً قريش لعلها تفكر وتعتبر، فليست نعم الدنيا باقية وهي إلى زوال مهما بدت براقة متماسكة. لذا يجب ألا ينسينا الاهتمام بالدنيا أمور الآخرة.

والنهر في القرآن يعني جدول الماء أو الساقية بعرفنا: كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَراً(٣٣). نهراً في الآية يعني الجمع (أنهاراً) والنهر - بتعريفنا الحالي - من المستبعد أن يجري داخل مزرعة من مزارع تلك الأزمنة الصغيرة. لكن السواقي والجداول هي ما تشتهر به مزارع جزيرة العرب حتى اليوم[1].

(الآية:٤٥) أيضاً تخاطب قريشاً في نفس مسار الآيات السابقة لتؤكد أن كل مباهج الحياة الدنيا إلى زوال، وأن العمل للآخرة هو ما يجب أن يكون لأنها هي الباقية.

والآيات تتحدث عن قصة افتراضية لم تحدث، للتأكيد على أن الإيمان بالله يقلل من قيمة مباهج الدنيا ومتاعها، ولو خسر الإنسان كل ما يملك في الدنيا فلن يحزن لأنها لا تساوي شيئاً. بينما سيصاب الكافر بالحزن والأسى على ما فاته منها، لأنه يعتبرها غاية ونهاية. والقصة جاءت ضمن حث الرسول على عدم الاهتمام بمتاع الدنيا الذي فاته من مال وبنين وأن المتاع الحقيقي هو ما سيلقاه في الآخرة. لذا فهي قصة موجهة للرسول ولقريش في نفس الوقت.

١ انظر فقرة: النهر / قسم مفردات من القرآن.

عود للحديث عن أن الرسول ينجذب لمتاع الدنيا من المال والولد

الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦).

مازالت السورة تخاطب الرسول وتؤكد له أن حرمانه من زينة الحياة الدنيا ليس حرماناً لأن كل ما في الدنيا مباهج هشة. وهي دليل قوي على أن الرسول لم يكن غنياً، مما ينفي ما روجته كتب الأخبار أنه تزوج سيدة أعمال ثرية (خديجة). ودليل قوي آخر على أن الرسول لم يرزق من خديجة بذرية وأن بناتها الأربع لسن بنات للرسول وابنها ليس ابناً له، ولكن من زوج قبله.

وعيد لقريش بيوم القيامة

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً(٤٧) وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِداً(٤٨) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً(٤٩).

والآيات تقدم صوراً مجازية حسية لانهيار الكون، ويوم القيامة، والحساب بناءً على صحيفة الأعمال التي وصفت بالكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. وهي بالفعل آلية في النفس تسجل كل ما يصدر من الحواس الخمس طوال الحياة. والقيامة لن تكون على هذه الأرض وبعد أن تسير جبالها، ولكن الآية تقول إن القيامة ستكون بعد تسيير الجبال وبروز الأرض كمجاز على انهيارها وانهيار كل الكون، ثم بعد ذلك ينشأ كون القيامة.

خلق آدم

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً(٥٠).

والحديث عن خلق آدم يهم بني إسرائيل كونه متداولاً في كتبهم وفي موروثهم الثقافي. وذرية إبليس لا تعني هنا الأولاد، لأنه من المخلوقات التي لا تتناسل. بل هي عبارة مجازية تعني أتباعه ومن يخدمه منهم في ضلال غيرهم. مثلما أن معنى «كان من الجن ففسق عن أمر ربه» أن إبليس اختفى عن مكان السجود (كان من الجن، كان من المختفين) وفسق عن أمر

ربه له بالسجود لآدم، ولا تعني أن إبليس من جنس الجن كما توهم المفسرون[1].

ومن تخاريف المفسرين المضحكة حول الآية، ما نقله الطبري في تفسيره، كما يلي:

حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثني حجاج، عن ابن جريج، عن مجاهد أَفَتَتَّخِذونَه وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي قال: ذرّيته: هم الشياطين، وكان يعدّهم «زلنبور» صاحب الأسواق ويضع رايته في كلّ سوق ما بين السماء والأرض، و«ثبر» صاحب المصائب، و«الأعور» صاحب الزنا و«مسوط» صاحب الأخبار، يأتي بها فيلقيها في أفواه الناس، ولا يجدون لها أصلاً، و«داسم» الذي إذا دخل الرجل بيته ولم يسلم ولم يذكر الله بصره من المتاع ما لم يرفع، وإذا أكل ولم يذكر اسم الله أكل معه....الخ

وقبل أن يتساءل أحد كيف صار لإبليس أولاد، نقول إن المفسرين فطنوا لذلك، وهذا ما نقل لنا القرطبي في تفسيره عن الموضوع:

قال مجاهد: إن إبليس أدخل فرجه في فرج نفسه فباض خمس بيضات؛ فهذا أصل ذريته. وقيل: إن الله تعالى خلق له في فخذه اليمنى ذكراً وفي اليسرى فرجاً؛ فهو ينكح هذا بهذا، فيخرج له كل يوم عشر بيضات، يخرج من كل بيضة سبعون شيطاناً وشيطانة، فهو يُخرج وهو يطير، وأعظمهم عند أبيهم منزلة أعظمهم في بني آدم فتنة.

وفي مسند أحمد بن حنبل قال: أنبأنا عبد الله بن المبارك قال حدّثنا سفيان عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السُّلَمِيّ عن أبي موسى الأشعري قال: إذا أصبح إبليس بثّ جنوده فيقول من أضل مسلماً ألبستُه التاج قال فيقول له القائل لم أزل بفلان حتى طلّق زوجته، قال: يوشِك أن يتزوّج. ويقول آخر: لم أزل بفلان حتى عَقّ؛ قال: يوشِك أن يَبَرّ. قال ويقول القائل: لم أزل بفلان حتى شَرِب؛ قال: أنتْ قال ويقول: لم أزل بفلان حتى زنى؛ قال: أنتْ قال ويقول: لم أزل بفلان حتى قتل؛ قال: أنت أنتْ.

وكل صاحب عقل سيتساءل: من أخبر هؤلاء بهذه التخاريف عن إبليس؟

إن كان الله قد أخبرهم فهم يتلقون وحياً من الله لم يناله محمد عليه الصلاة والسلام. وإن لم يكن وحياً فهو مجرد قصص خرافي مختلق نسبوه لدين الله، ووجدوا منا من يحامي ويدافع عنه للأسف.

---

[1] انظر فقرة: الجن والجنة تعني المختفي / قسم مفردات من القرآن.

عود لوعيد قريش

مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً(٥١) وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقاً(٥٢) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً(٥٣).

قريش كفرت وضلت بالتمسك بمعتقدات واهية ليس لها أسس ولا مصدر. والشركاء تشير للأصنام التي أشركتها قريش في العبادة مع الله.

القرآن كاف للهداية لو رغبت قريش

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً(٥٤) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً(٥٥).

لكن قريشاً لن تؤمن، لأنها تبعت سنة سارت عليها كل الأمم تتمثل في أن من لا يؤمن عند سماع الحق لن يؤمن بعد ذلك مهما تردد على مسامعه.

كل الرسل مكلفون بالتبليغ وليس عليهم إقناع الناس

وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُواً(٥٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً(٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً(٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً(٥٩).

سيبقى الكافر يجادل لدحض الحق، ومن لم يؤمن بداية سماعه للدعوة فلن يؤمن أبداً.

الآية (٥٨) دليل على أن الكافر لن يحل به العذاب في الدنيا لأن الحساب والعقاب في الآخرة.

الآية (٥٩) تؤكد أن من أهلك من الأمم السابقة لو آمنوا لنجوا من الكوارث الطبيعية التي حلت بهم، وذلك بابتعادهم مع الرسول عن مكان إقامتهم، وليس بمنع الكارثة من

الوقوع، لأنها كانت ستقع سواء كان هناك أناس أو كان المكان خالياً منهم. لكن لو آمنوا لخرجوا مع لوط ومن آمن، ونجوا من البركان والزلازل. وهكذا كل الأمم السابقين الذين أهلكوا. فاللافت ليس هلاك الكافرين ولكن في نجاة الرسول ومن معه من كارثة كانت ستقع في كل الأحوال.

موسى وفتاه

(الآيات: ٦٠-٦٤) المخاطب هنا بنو إسرائيل يثرب وتخبرهم الآيات عن قصة من القصص التي يعرفونها في تراثهم، ولا تعرفها قريش: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً(٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً(٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً(٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً(٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً(٦٤).

موسى هنا ليس بالضرورة أنه نبي الله موسى، وقد يكون شخصاً آخر اسمه موسى. لأن موسى رسول الله كان منشغلاً بالدعوة، في البداية مع فرعون وبعد هلاكه انشغل بالدعوة بين بني إسرائيل، وكان يعيش حياة أقرب لشظف العيش من الرفاهية واتخاذ الخدم وقضاء الوقت بالمتع والصيد والرحلات. والآية تتحدث عن أن الشخص الذي اسمه موسى قد صمم على أن يسير بمحاذاة بحر بمعية فتاه (مولاه أو عبده) حتى يصل لالتقاء بحر آخر. والبحر في القصة قد يكون البحر أو النهر بمفهومنا الحالي. وموسى وفتاه - على ما يبدو - سارا بجانب نهر، بعد أن صمم على أن يتبعه حتى يصب في البحر. وجنوب غرب جزيرة العرب - حيث عاش أسلاف بني إسرائيل ومنهم موسى المذكور هنا- منطقة جبلية تتساقط عليها أمطار تكفي لجريان المياه في الأودية ولعدة أيام أو حتى شهور، مكونة أنهاراً موسمية، إما تنحدر باتجاه الشرق نحو الربع الخالي أو غرباً باتجاه البحر الأحمر، ومازال بعضها حتى الآن يواصل جريانه في بعض الأشهر ليصب في البحر الأحمر.

والقرآن يسمي النهر بحراً، كما في سورة الفرقان: وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً(٥٣). فالبحر العذب هو النهر، والأجاج هو البحر.

وكالعادة سمح المفسرون والمحدثون لخيالهم بتصوير الوضع وكأن موسى تتبع التقاء بحر الروم (البحر المتوسط) ببحر الفرس (الخليج العربي- الفارسي) وهذا يدل على جهلهم المطبق بجغرافية البحرين، لدرجة أن محمد ابن كعب القرظي يعتقد أنهما يلتقيان في طنجة[1].

إذاً، البحر الذي يسير موسى وفتاه بمحاذاته هو مجرى مائي في أحد الأودية وقد صمم موسى على أن يتبعه حتى مصبه في البحر، مهما استغرقت الرحلة من وقت. وهو ما يشير إلى أن موسى كان مستمتعاً بالرحلة ولا يشغله شيء أهم من تتبع نهر لا يدري كم يبعد عن البحر الذي يصب فيه. وبالفعل وصلا لمصب النهر بالبحر، وجلسا يستريحان على صخرة هناك من تعب المشي: «فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً». وهو ما يؤكد أنهما كانا يسيران على أرجلهما.

وكانا قد اصطادا حوتاً (سمكة) أثناء توقفهما على صخرة عند التقاء البحرين، «ولما جاوزا» أي عادا أدراجهما، طلبها موسى فأخبره فتاه أنه نسي السمكة على الصخرة التي جلسا يستريحان عليها قرب البحر. والحقيقة هي أن السمكة سقطت في الماء وسبحت بعيداً داخل البحر- كما تقول الآية – دون أن يفطن لها الفتى. ولما سأله موسى عنها ظن أنه نسيها على الصخرة.

عندها قال موسى: « ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً».

وعبارة موسى مازالت مستخدمة في كل اللغات واللهجات، فكأنه قال: «هذا ما كان ينقصنا».

ثم واصلا رحلة العودة متتبعين آثار أقدامهما مع نفس الطريق التي قدما منها، بعد أن حقق موسى مبتغاه بالوصول لنقطة التقاء المائين. وأثناء سيرهما قابلا رجلاً تحدثا إليه فبهرهما بمعرفته أشياء لا يعرفها موسى مما جعله يطلب منه أن يرافقه في تنقلاته:

موسى والرجل العجيب

فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً(٦٥).

وهذا دليل آخر على أن موسى هذا ليس رسول الله ولكنه شخص آخر يملك وقته ولا شيء يشغله سوى التمتع بالرحلات والتنقل. والآية تصف الرجل الذي قابله موسى بأنه

---

١ انظر ما نقله الطبري في كتابه عن تفسير هذه الآيات.

أوتي رحمة، أي أن من صفاته الرحمة، ورقة القلب. ولديه علم، لكنه لا يتلقى وحياً من الله. وكل ما يعرفه تعلمه بنفسه ويتصرف بما تمليه عليه تقديراته الشخصية، بتوفيق من الله الذي أوجده وكأنه علمه إياه.

قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً(٦٦).

فكان رد الرجل على موسى: قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً(٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً(٦٨).

موسى: قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً(٦٩).

الرجل موجهاً كلامه لموسى: قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً(٧٠).

ولا ندري ماذا حل بفتى موسى الذي رافقه لمصب النهر بالبحر، فقد يكون أمره بالعودة للديار، وقد يكون اصطحبه معه في رحلته الجديدة مع هذا الرجل العجيب.

فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً(٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً(٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً(٧٣) فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً(٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً(٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً(٧٦) فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً(٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً(٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً(٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً(٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً(٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً(٨٢).

الملفت في القصة هو كيف عرف الرجل العجيب بأمر الملك الذي يسلب السفن؟ وكيف سمح لنفسه بقتل الغلام؟ وكيف عرف بأمر الكنز؟ وظاهرياً ومن الوهلة الأولى كأنه يعلم

الغيب وموكل من الله بإصلاح أحوال الناس، أو ينزل عليه وحي يخبره ماذا يفعل؟ وهذا مستبعد بطبيعة الحال.

ويمكن القول إنه عرف بطريقة ما حقيقة الملك الظالم بينما لم يعرف أصحاب السفينة بذلك. كما يمكن القول إنه عرف من والد الغلامين أنهما أخفيا المال في الجدار بطريقة من الطرق. لكن قتله للغلام أملاً في أن يعوض الله والديه المؤمنين بغلام صالح غيره، يعتبر تعدياً وتجنياً وجريمة. والقرآن عندما يروي قصة تاريخية لا يتحدث عما يجب أن يكون وعن السيئ فيها والحسن، ولكنه يرويها كما حدثت. ففي سورة لقمان سنرى أن لقمان قال: إن أنكر الأصوات لصوت الحمير. ونقلها القرآن كما قال لقمان، وليس لتقرير أن صوت الحمار منكر. فالله هو من خلق صوته جهورياً ليتلاءم مع حياته ومناداته لقرينه. وهو ليس منكراً في الخلق، ولكنه قد يزعج البشر. فلقمان أزعجه الصوت لأنه عال، فهو منكر من باب الإزعاج، وليس منكر بالمعنى السيئ. وكما قال العزيز عن امرأته: إنه من كيدكن، إن كيدكن عظيم. فهو يعبر عما حدث في تلك اللحظة، حيث حاولت المرأة أن توحي أنها مظلومة، ولكنه اكتشف أنها هي من لاحق يوسف، فعبر عما يشعر به تلك اللحظة، لكن هذا لا يعني أن النساء كيدهن عظيم بالمعنى السيئ للكيد، ولم يؤكد القرآن هذا.

ونعود لقصة الرجل العجيب الذي قتل الغلام، فهو تصرف بتقدير شخصي من عند نفسه ولا يمثل الله في ذلك، والقرآن ينقل ما حدث وما قاله الرجل، دون إقرار له بما فعل أو موافقة.

وتقول القصة: فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً(٧٧).

ثم تقول السورة عن نفس الموضوع: وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً(٨٢).

فكيف تكون المدينة داخل القرية؟

هذا يعني أن «المدينة» لا تعني البلدة الكبيرة، كما نفهمها اليوم. بل تعني السوق الذي يكون

داخل البلدة[1].

ومما سبق يتضح أكثر أن موسى المذكور ليس هو رسول الله إلى فرعون وبني إسرائيل، لأن بطل القصة رجل ميسور الحال خالي البال من أي مسئوليات جسام كالرسالة. ووقته يقضيه بالترحال والاكتشافات، ورحلته مع الرجل العجيب طالت لأيام وقد يكون أسابيع وتنقلا على الأرض وعلى القوارب في الأنهار، ومرا بقرى وبلاد متنوعة. وهذا لا يمكن أن ينطبق على رسول الله موسى الذي لم يكن لديه وقت للمتعة والرحلات لانشغاله بالدعوة والترحال لمكة وتلقي التوراة ثم العودة لبني إسرائيل والعودة لمصر ومتابعة دعوته حتى مات. وقصة الرحالة موسى وردت في هذه السورة التي أوردت قصصاً لأشخاص آخرين ليسوا أنبياء ولا رسل مثل أصحاب الكهف وذي القرنين، مما يؤيد أن موسى ليس هو رسول الله.

ذو القرنين

(الآيات:٨٣-٩٨) قصة ذو القرنين التي لابد أنها وقعت في جنوب غرب جزيرة العرب، لأنها معروفة في تاريخ بني إسرائيل عندما كانوا يعيشون هناك، ولأن كل الأحداث والأشخاص الذين ذكرهم القرآن كانوا من تلك المنطقة:

وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً(٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً(٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَباً(٨٥) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً(٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً(٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً(٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً(٨٩) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْراً(٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً(٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً(٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً(٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً(٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً(٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا

---

١ انظر فقرة: المدينة / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً(٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً(٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً(٩٨).

بطل القصة هنا ليس له علاقة بالإسكندر المقدوني (ت ٣٢٣ ق م) الذي عاش في بلاد مقدونيا الأوروبية وقام بغزوات باتجاه الشرق حتى وصل إلى الصين. ولكن المفسرين اختلط عليهم الأمر فظنوه هو وأولوا الآيات لتتفق مع تأويلاتهم الخيالية. وهذا ما يؤكد أن المفسرين متأثرون بثقافة بلاد الشام ومصر والعراق التي هي ثقافة رومانية إغريقية وبعيدة عن ثقافة جنوب جزيرة العرب. وكلما جاء في القرآن حديث عن أقوام سابقين أولوا الحديث لأقوام يعرفونهم في ثقافتهم البحر متوسطية.

(الآية:٨٦) ذو القرنين من منطقة داخلية بعيدة عن البحر (أي أن موطنه الأصلي يقع في سفوح جبال السروات الشرقية) وقد توجه غرباً حتى وصل البحر (الأحمر) ولأنها أول مرة يرى مغيب الشمس على ساحل البحر، فقد كان منظر الشمس وهي تغرب، وسط أشعتها الحمراء القريبة من لون النار، والتي تتسلل بين السحب قبل أن تنغمس في الماء، تبدو وكأنها تغرب في عين ماء حمئة (حارة)، كونها تتراءى للرائي وكأنها بالفعل تغطس في الماء فتسخنه. والقرآن لا يقرر هذا بل ينقل ما شعر به ذو القرنين، وكيف تخيل منظر الغروب في ذلك اليوم الذي رأى فيه الشمس على شاطئ البحر لأول مرة في حياته. ولو أنه وصل البحر وسط النهار وغادره قبل مغيب الشمس فلن يأتي ذكر لمغيب الشمس في هذه القصة.

(الآية:٩٠) تقول إن ذا القرنين رجع قافلاً باتجاه الشرق، فلما طلعت عليه الشمس من بين جبال المنطقة الشاهقة أمامه – ظن أن تلك الجبال العالية هي منتهى الأرض الذي تخرج منه الشمس. وهذا يشير إلى أنه جاء من منطقة سهلية مستوية، اعتاد أن يرى فيها الشمس وهي تشرق وكأنها تخرج من باطن الأرض، وتغرب وكأنها تدلك إلى باطن الأرض.

(الآية:٩٣) في تلك المنطقة الجبلية وجد أقواماً «لا يكادون يفقهون قولاً» أي لا يفهمون لغة ذي القرنين إلا بصعوبة أو بالإشارة والحركات التعبيرية، كونهم يتحدثون لغة مختلفة عن لغته. فهم بالنسبة له لا يفقهون قولاً، ظناً منه أن لغته كل الناس تفقهها. وهذا الشعور موجود لدى الكثير من الناس، فليس من المستغرب أن تذهب لدولة أجنبية وتجد أهلها يتحدثون معك بلغتهم الغريبة عنك مهما حاولت أن تخبرهم أنك لا تفهم ما يقولون[١].

١ الآن بدأت الشعوب تقترب أكثر من بعضها وانتشرت الإنجليزية كلغة عالمية للتخاطب.

ومثله نجد كبار السن من مناطق الريف يخاطبون من يجهل لهجتهم بها ظناً منهم أن كل الناس لابد أن يفهموا ما يقولون.

(الآيات:٩٤-٩٧) تروي أن هؤلاء القوم الذين بالكاد يستطيع ذو القرنين التفاهم معهم، كانوا مستقرين (مزارعين) في أودية جبال السراة. وقد طلبوا من ذي القرنين أن يبني لهم سداً بينهم وبين قبائل أخرى تسمى يأجوج ومأجوج، وهي قبائل همجية وغير مستقرة تغير على مناطقهم وتسلبهم محاصيلهم. وقد قام ذو القرنين ببناء سد من الحديد المنصهر والحجارة.

(الآية:٩٨) الكلام مازال لذي القرنين: « قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً». فذو القرنين المؤمن ينسب كل ما قام به لتوفيق الله ورحمته، وأن السد سيبقى إلى أن يشاء الله ويتهدم. هنا ينتهي الحديث عن ذي القرنين.

موضوع جديد يتحدث عن قريش

تنتقل السورة للحديث عن موضوع جديد، يخاطب قريشاً الكافرة ولا علاقة له بقصة ذي القرنين: وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً(٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضاً(١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً(١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاء إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً(١٠٢).

وتقدم الآيات صوراً مجازية حسية للقيامة، بعد أن ينشأ كون ذلك العالم. ونفخ في الصور تصوير لقيام كون القيامة، وهو تصوير مشابه لما بات معروفاً اليوم بنشأة هذا الكون والذي يسمى الانفجار العظيم أو النفخة العظيمة.

(الآية:١٠١) تغطية العيون كناية عن الإعراض عن الدين، وعجزهم عن السمع كناية عن الإعراض عن الدعوة.

(الآية: ١٠٢) وعيد للمستضعفين الذين يتبعون ساداتهم في الكفر، واتباعهم موالاة لهم.

(الآيات:١٠٣-١٠٦) وعيد لمن يكفر ويسخر بالرسل: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً(١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً(١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً(١٠٥)

ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً(١٠٦).

المقصود قريش، لكنها تنطبق على أتباع كل معتقد. حيث يتمسك الأتباع بموروثهم مبررين لأنفسهم بشتى الطرق أنهم على حق، ومن ذلك تزيين الباطل.

(الآيات:١٠٧-١٠٨) وعد للمؤمنين: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً(١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً(١٠٨).

وتختم السورة بالقول: قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً(١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً(١١٠).

جواب لتساؤل من قريش موجه للرسول عن إن كان لهذا الوحي نهاية ومتى؟

وسؤالهم وإن كان من باب السخرية فقد أجابت عليه السورة بكل جدية بأن كلمات الله لا نهاية لها. وهذا لا يعني أن الله يتكلم، ولكن الجواب يتناسب مع مدارك قريش التي تسمع قرآناً يتلى عليهم ويقول محمد إنه من الله. فتصوروا أن الرسول ينقل كلاماً حدثه به سبحانه، والآية تقول إن هذا الكلام لن ينتهي حتى لو استخدم البحر مداداً لكتابته. والبحر بالنسبة لقريش سطح هائل، لذا استخدم للتعبير عما لا نهاية له.

والآية (١١٠) تجيب على تساؤل كررته قريش كثيراً عن موعد البعث، وتقول لهم إن محمداً لا يملك الجواب وما هو سوى بشر مرسل، وهي دليل على أن الإيمان خيار شخصي ولا إكراه فيه.

(٥٩) الزخرف

حم(١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ(٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ(٤).

الأرشيف الإلهي

والبداية تأكيد على أن القرآن (أداة الدعوة) حق، ونسخته الأصلية محفوظة في آلية إلهية سمتها السورة «أم الكتاب» أي أصل الكتاب أو النسخة الأصلية للوحي، ووجدنا أن سوراً أخرى ذكرت هذه الآلية بألفاظ أخرى.

الآية (٥) تقول بأنه ليس من عدل الله المطلق أن يغفر لكم شرككم يا قريش: أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ(٥).

كل من يرفض الدعوة من البداية لن يؤمن بها أبداً

وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ(٦) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون(٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ(٨).

الآيات تقول إن قريشاً سلكت نفس سنة الأولين التي سارت عليها أمم سابقة كفرت ولم تتراجع وهلكت على الكفر، وقريش رفضت دعوة الرسول وسيموت رجالها على الكفر:

دعوة عقلانية للتفكير

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ(٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ(١١) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ(١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ(١٣) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ(١٤).

الملائكة مخلوقات لله ولا يمكن أن يكونوا جزءً منه سبحانه

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ(١٥) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ(١٦).

الولد من جنس والده، والله خالق والملائكة مخلوقات، ولا يمكن أن يكونوا بنات له سبحانه.

رجال قريش يكرهون أن يرزقوا ببنات

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ(١٧) أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ(١٨).

عندما يبشر أحدهم بمولودة أنثى يسود وجهه ويشتد غيظه، فكيف ينسبون لله ما لا يرضون لأنفسهم؟

وقريش ككل سكان جزيرة العرب يفضلون الولد لأنه يحمل اسم والده ويتسمى به والده، ويكون عوناً له على النوائب، وهذه العلاقة تحتمها طبيعة بيئة البلاد ونوع الحياة.

قريش تظن أن الملائكة إناث

وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ(١٩).

الآية تؤكد أن ما تزعمه قريش مجرد تخريف لا أساس له، لأن الملائكة مخلوقات ذات جنس موحد، لا ذكر ولا أنثى، كونهم لا يتكاثرون ولا يحتاجون للنكاح كما البشر والمخلوقات الحسية الأخرى على الأرض.

قريش تنسب رفضها للدعوة إلى الله

(الآيات:٢٠-٢٥) تتحدث عن قريش وتمسكهم بعبادة الأصنام وعدم الاستجابة لعبادة الله: وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ(٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ(٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ(٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ(٢٤) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(٢٥).

والآيات تظهر أن ما يعرف بالقضاء والقدر بمفهومه السائد كان معروفاً عند قريش، والقرآن يؤكد أنه مفهوم خاطئ، والإنسان مخير وليس مسيراً. والآية (٢٠) يمكن أن نقرأ الرد عليها في الآية (٤٥) القادمة والتي تنفي أن يكون الله جل شأنه يسمح بأن يعبد غيره أو يقرر على أحد أن يعبد غيره. كما تظهر الآيات أن التمسك بالموروث واحد من أهم عقبات اتباع الناس للدين أو قبول أي حركة إصلاح.

وقول قريش إنه لو شاء الله ما عبدوا الأصنام، وكأنه مقدر عليهم، مماثل لقول أحدنا إن بيته عندما احترق كان مقدراً، بدل أن يعترف أنه حمل مخارج الكهرباء أكثر من طاقتها فتسبب باشتعال النار التي امتدت لتحرق كامل المنزل.

العقل كفيل بالتعرف على الحق

(الآيات: ٢٦-٢٨) إشارة لإبراهيم وكيف هداه عقله فقط للحق ونبذ موروث قومه: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ(٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ(٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(٢٨).

دليل على أن العقل آلية أودعها الخالق في كل إنسان بحيث تكفي وحدها للتعرف على وجود الله لكل من لم يصله رسالة أو رسول.

لم يسبق أن جاء قريش رسول

(الآيات:٢٩-٣٠) تقول إن قريشاً لم يأتها رسول قبل محمد، وعاشت لمدة طويلة قبل مجيء الحق: بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاء وَآبَاءهُمْ حَتَّى جَاءهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ(٢٩) وَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ(٣٠).

وكفرهم ليس لأن القرآن سحرٌ كما يقولون، وهم يعلمون أنه ليس كذلك. لذا نجدهم يقولون إنه لو كان الرسول من أصحاب الجاه والمال من قريش أو من الطائف لتبعوه:
وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ(٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ(٣٢).

ولو جاء الرسول كما قالوا لكفروا به، ولوجدوا تبريراً لموقفهم. فدافعهم للكفر ليس نوعية الرسول ولكنه التمسك بالموروث الذي يعمي البصائر.

وترد الآية (٣٢) على قريش لاعتراضهم على اختيار محمد كرسول، قائلة: الناس يتفاضلون فيما بينهم، فهذا يبرز في مجال ويتفوق فيه على غيره، وهذا في مجال آخر وآخر... وهكذا، أما الرسالة فالله يكلف بها من يشاء.

(الآيات:٣٣-٣٥) تقول بأن الدنيا وزخارفها ومتاعها زائلة، ولو أعطي الكافر كل ما فيها فلا قيمة له: وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ(٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِؤُونَ(٣٤) وَزُخْرُفاً وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ(٣٥).

رجال قريش إن كانوا يظنون أن متاعهم دائم فهم واهمون، فسرعان ما يتخطفهم الموت الواحد تلو الآخر تاركين وراءهم ما ظنوه غاية مستديمة. وهناك حالات مماثلة يمكن مشاهدتها خلال حياتنا، فكم من طاغية بنى القصور وزينها بكل أنواع المباهج والأثاث ثم هلك وتركها كأن لم يغن بالأمس.

القرين يضل قرينه

(الآيات: ٣٦-٣٩) تقول بأن أي قرشي أعرض عن الحق تبعاً لموقف مجتمعه وعشيرته فسيذهب معهم للنار يوم القيامة: وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ(٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ(٣٧) حَتَّى إِذَا جَاءنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ(٣٨) وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ(٣٩).

والشيطان هنا جاء بصيغة المفرد والمقصود به الجمع، بدليل قوله وإنهم ليصدونهم. فهناك شياطين عبرت عنهم الآية بشيطان، والمقصود بهم كبراء قريش الذين تبعهم بقية المجتمع المكي. فهم كانوا يمثلون قرين السوء، وكل من تبعهم سيشاركهم العذاب يوم القيامة. ولن يستفيد المغرر به حينها من أن من أغراه بالكفر سيعذب معه.

مخاطبة الرسول

أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(٤٠) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ(٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ(٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ(٤٤) وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ(٤٥).

تقول الآيات إنك يا محمد لست مسئولاً عن هدايتهم (تصفهم الآية (٤٠) بالصم، كناية عن عدم الإصغاء للقرآن، والعمي كناية عن عدم رؤيتهم لعظمة الخلق الدالة على قدرة الخالق على البعث).

(الآيتان:٤١-٤٢) تقول للرسول إنك قد تموت أو تقتل، وسواءً مت أو بقيت فسوف يهلك رجال قريش ليلاقوا يومهم الذي يوعدون.

(الآية:٤٣) تطلب من الرسول أن يتمسك بالوحي (القرآن) وأنه هو الحق ولا يلتفت لما

تثيره قريش من شكوك.

(الآية:٤٤) تقول بأن القرآن ذكر لك ولقومك، مع أنه لكل الناس، لأن الحديث موجه لقريش هنا. ولا يمكن أخذها كدليل على أن الإسلام موجه لقريش فقط أو للعرب كما يحاول البعض القول بذلك، متناسين أن المخاطب والمناسبة عاملان من عدة عوامل هامة للاستشهاد بالآيات.

والآية نفسها دليل على أن الدعوة بالقرآن فقط.

(الآية:٤٥) مثال على أسلوب القرآن الفريد: فهي تطلب من الرسول أن يسأل الرسل السابقين هل أمر الله بعبادة غيره للرد على قول قريش في آية سابقة: وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(٢٠) الزخرف.

والرسول لا يستطيع أن يسأل الرسل لأنهم ماتوا منذ زمن طويل، ومع ذلك طلبت الآية منه أن يسألهم. فالآية مجازية وفهمنا أن المقصود بها هو التأكيد أنه لم يسبق أن رضي أو أباح الله لبشر أن يعبد صنماً أو آلهة غير الله. ولو حاولنا محاكاة هذا الأسلوب فلن نستطيع. فلو كتب أحدنا لآخر، الرجاء سؤال جدك الثامن متى مات؟ فسيظهر السائل بمظهر الأحمق، وسيبدو السؤال سخيفاً، لأن المسئول قد مات منذ أمد ولا يمكن سؤاله.

موسى وفرعون

(الآيات: ٤٦-٥٦) تخبر بني إسرائيل عن موقف فرعون من موسى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٤٦) فَلَمَّا جَاءهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ(٤٧) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ(٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ(٥٠) وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ(٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ(٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ(٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ(٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ(٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ(٥٦).

فرعون غرق ليس لأن الله كتب عليه الغرق مسبقاً لكفره، ولكنه غرق لأنه تبع موسى وبني

إسرائيل داخل الماء الذي انفرج لفترة. ولو لم يلاحق بني إسرائيل وبقي في قريته لما غرق، وعاش ومات كافراً دون أن يسلط عليه عذاب دنيوي يهلكه.

منطق الكفر واحد في كل زمان

فرعون يطلب من موسى إثبات أنه رسول: «فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ» برغم أن موسى أعطي تسع آيات، لكنها كلها لم تقنع فرعون برسالة موسى. وطلب فرعون طلب تكرر مع رسل آخرين، ومنهم الرسول محمد الذي طلبت منه قريش نفس الطلب، كما تخبرنا سورة بني إسرائيل: أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا(٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً(٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣).

ولو استجيبت طلبات فرعون وقريش فسيبررون بقاءهم على الكفر بتبريرات أخرى، فامتناعهم ليس لغموض الحق ولكن تمسكاً بالموروث.

قريش تجادل الرسول حول ما ذكر القرآن عن عيسى

(الآيات:٥٧-٥٩) أول ذكر في القرآن لحمل وولادة عيسى وردت في سورة مريم، وبرغم أن الآيات موجهة لبني إسرائيل إلا أن الرسول قرأ السورة على قريش، كعادته كلما نزل عليه الوحي. فأحدثت تساؤلاً عندهم، تخبرنا به هذه السورة في قوله: وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ(٥٧) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ(٥٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ(٥٩).

وجدال قريش ليس لبيان الحق ولكن لمحاولة دحضه وإثبات كذب الرسول. والآيات دليل على أن قريشاً لم تكن تعرف عن النصرانية ولا عن عيسى شيئاً. ومن باب أولى أنها لم تكن تعرف شيئاً عن «المسيحية» وهو ما يؤكد أن ورقة ابن نوفل شخصية مختلقة.

لن يرسل لقريش ملائكة

(الآيات: ٦٠-٦٢) تخاطب قريشاً وترد على طلبهم إرسال ملائكة للتصديق برسالة محمد، وتقول إن الله قادر على ذلك ولكنه لن يحدث. فمن شاء فليؤمن بما يسمع من القرآن، ومن

شاء فليكفر: وَلَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ(٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ(٦١) وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ(٦٢).

ثم تتحول السورة للحديث عن بني إسرائيل:

موقف بني إسرائيل من عيسى

وَلَمَّا جَاء عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ(٦٤) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ(٦٥).

والآيات دليل على أن عيسى لم يأت برسالة خاصة ولكنه جاء فقط ليبين لبني إسرائيل ما اختلفوا فيه مما ورد في التوراة. ودليل على أن من اختلف في أمر عيسى كانوا ممن جاء بعد موته ولم يروه، وفيهم ولدت فكرة تأليهه أو اعتباره ابناً لله أو ثالث ثلاثة.

الخطاب لقريش عما سيكون يوم القيامة مع صور مجازية حسية لنعيم الجنة

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(٦٦) الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ(٦٧) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ(٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ(٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ(٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ(٧٣) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ(٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ(٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ(٧٦).

الساعة تأتي بغتة، لأن الميت تتوقف ذاكرته عن التسجيل ومتى ما قامت القيامة فسيشعر أنه للتو مات.

الأخلاء المعني بهم هنا قريش الذين يتفقون على رفض الدعوة، وهذه العلاقة الودية بينهم في الدنيا ستنقلب يوم القيامة لعداء، لأن كل واحد سيلوم الآخر على تزيين الكفر له وتشجيعه على رفض الحق.

الجنة تكون بالإيمان (بدعوة الإسلام) والعمل الصالح معاً.

أزواج المؤمنين مثلاؤهم في اتباع الحق، وليس المعنى الزوج والزوجة.

الدين خيار شخصي ومن يدخل النار فهو الذي اختارها بنفسه ولنفسه.

وقفة مع آية

وَنَادَوْا يَا مَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ(٧٧).

بعض المسلمين يقرأون الآية: «ونادوا يا مالك» وكأن المشركين ينادون أحد الملائكة واسمه مالك. لأن كتب التفسير ظنت أن الآية تتحدث عن ملك من الملائكة اسمه مالك، ولم يعد هناك مكان لأي احتمال آخر.

ولفظ «ملك» في الآية كتب بدون مد وبثلاثة حروف فقط وليس «مالك». لكن هذا لا يكفي للقول إن الآية يجب أن تقرأ «ملك»، لأن هناك الكثير من الألفاظ التي كتبت في المصحف بدون مد، وكان يجب أن تكتب بمد، ومن ذلك: «الملئكة».

لكن هناك قرينة أخرى على أنه يجب قراءتها «ملك» وهي: أن النار لا يقوم على تشغيلها وإدارتها مخلوقات حية (ملائكة) لأن كل المخلوقات الحية خلقت في الدنيا ويوم القيامة تبعث لتحاسب وتلقى مصيرها في جنة أو نار، مثل كل المخلوقات الدنيوية بمختلف أنواعها وأماكنها من الكون، ولن يكلف أحد من مخلوقات كون الدنيا بالعمل يوم القيامة.[1]

والمفسرون قرأوا «مالك» لأنهم اعتبروه خازن جهنم والمسئول عنها، كما سبق وذكرنا. وكأن لجهنم موظفاً مسئولاً عنها ويقوم عليها. وهو تخيل بشري لما هو معروف لديهم، فنار المجوس التي في معابدهم يقوم عليها شخص يتولى تزويدها بالحطب وتنظيف الرماد وكافة أعمال الصيانة. والمفسر الذي قال بأن لنار جهنم خازناً لابد أن له خلفية مجوسية، فتخيل أن النار مثل نار المجوس ولكن بحجم أكبر[2].

وحتى لو كان «مالك» يعني «ملك» كواحد من الملائكة، فذلك يعود إلى أن الآيات تخاطب قريشاً بما يفهمون ويتصورون. وتقول لهم حتى لو طلبتم من الملائكة المكلفين بالنار أن يسألوا الله أن يخرجوكم فلن تخرجوا من النار. ليس لأن هناك ملائكة يقومون على النار،

---

١ انظر فقرة: الملائكة / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

٢ الأستاذ عبد الرحمن أسعد «أبو حرم» المدقق اللغوي لهذا الكتاب يقول: أن قوله تعالى (وَنَادَوْا يَا مَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ) جاء على ألسنة المعذبين في النار وهو مجاز. أو أن ما قالوه ليس صحيحاً، فهم يتصورون أن لجهنم مالكاً وخزنة. فأجابهم الله «أنهم ماكثون» لأنه قانون حتمي.

ولكن لأن قريشاً تتصور أنه سيكون هناك ملائكة. وإلا فالنار ستعمل بموجب قوانين يقدرها الله ولن يكون هناك حاجة لمخلوقات تدير وتشغل النار، وتقوم على صيانتها، لأن كل خلق الله في الدنيا والآخرة يقوم على قوانين ولا يقوم الكون على إدارة مخلوقات حية. والحديث هنا مجازي تصويري مثل تصوير جهنم وكأنها تتحدث، كما ورد في سور سابقة.

وتختم السورة بمخاطبة قريش:

لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ(٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ(٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ(٨٠) قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ(٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ(٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ(٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ(٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٨٥) وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(٨٦) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ(٨٧) وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاء قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ(٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(٨٩).

ومخاطبة قريش في الآيات تبدأ بتحذيرهم من أن الساعة قريبة جدا، لأن كل من مات فسيشعر أنه بعث بعد لحظات، لأن ذاكرته ستتوقف عن تسجيل الوقت. وعندما تقوم الساعة فسيفرح المؤمنون، لأنهم دخلوا الجنة.

يلي ذلك تقديم صور حسية لنعيم الجنة، ووعيد للكفار بالنار.

الآية (٧٦) تؤكد أن الإنسان هو من يختار طريقه للإيمان أو الكفر، وليس هناك قدر مسبق، وهذا متوافق مع عدل الله المطلق. والآية (٧٨) تقول إن الحق سمعته قريش لكنها اختارت الكفر.

الآية (٨٠) صورة حسية أخرى تصور آلية تسجيل الأعمال وكأن من يقوم بها مخلوقات حية أوكلهم الله بهذا: « أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ»، بدل أن تقول الآية إن الآلية في النفس ستسجل كل ما يصدر من الإنسان.

الآيات (٨١-٨٣) ترد على قريش التي تقول إن الملائكة بنات الله، مخاطبة الرسول: قل لهم

إنه على افتراض أن لله بنات كما تزعمون فسكون أول من يعبده، وهو افتراض لا وجود له.

وتقول الآيات للرسول دعهم يخوضوا ويلعبوا «كناية عن إعراضهم عن الآخرة واهتمامهم بالدنيا» حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون «القيامة».

الآيات (٨٤-٨٩) دعوة عقلانية. وقوله: «وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله» كناية تعني أنه لا يخفى عليه شيء من خلقه، ولا تعني تعدد الآلهة، كما لا تعني أنه يتنقل سبحانه وتعالى داخل الكون الذي خلق.

والآية الأخيرة تظهر أن الضغوط على الرسول تزايدت وذلك لأنها تأمره أن يصفح عن تجاوزات قريش نحوه.

(٦٠) غافر

نزلت في وقت تزايدت الضغوط على الرسول ومن آمن معه، ولابد أن هذا بسبب تغير حدث في الساحة. وبما أن القرآن تحول في هذه المرحلة من مخاطبة قريش فقط إلى مخاطبة كل الناس، وبني إسرائيل، والمستضعفين في مكة، فلابد أن الدعوة لاقت قبولاً بين أناس من خارج مكة ومن بني إسرائيل يثرب، ومن داخل مكة بين المستضعفين، وهذا مقلق لقريش. فدخول العبيد والموالي الإسلام يعني شل الخدمات في مكة، كونهم يقومون بكل الأعمال الخدمية. وإيمان أناس من خارج مكة يعني تمدد الإسلام وقوة لمحمد ومن معه قد يؤدي لخروجه عن سيطرة قريش. وكلا الحالين يمثلان تطوراً لا يرضي قريشاً بل يزعجها ويسبب لها الهيجان. وهو ما تُرجم على شكل مضايقات وسخرية لمن أسلم، ومحاولات لمنع الغير من الدخول في الإسلام بجدال الرسول وكيل الاتهامات له والسخرية منه أمام الغير. والسورة تخاطب قريشاً، وبني إسرائيل، والمستضعفين، كما سنرى.

وبداية السورة تؤكد على أن القرآن - أداة التبليغ - وحي من الله، كما في بدايات سور سابقة: حم(١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(٢) غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ(٣).

الله جل وعلا يغفر ذنوب التائب ولكنه شديد العقاب لمن يستمر بالمعصية، ولا تغفر الذنوب بالدعاء وحده وبدون توبة[1].

---

١ انظر فقرة: التوبة / قسم تشريعات من القرآن.

قريش تنشط في جدال الرسول

مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ(٤).

الآية تشير إلى نشاط قريش في جدال الرسول كلما حاول تلاوة القرآن عليهم أو على غيرهم، في محاولة لتعطيل الدعوة والتشويش عليها وصد الناس عنها. وهذا نشاط جديد، ظهر بعد تحول المخاطب لغير قريش في المرحلة الخامسة للدعوة في مكة.

(الآية:٥) تقول لمحمد إن جدالهم وصدهم غيرهم عن الاستماع لك، حدث لرسل قبلك: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ(٥).

والجدال وسيلة كل أتباع الموروث ضد كل من ينادي بالعودة للدين الحق وترك الموروث أو نقده. وشبيه به جدال من يتمسك بالموروث لصد أي نقد لكتب التراث الديني. والجدال لا يهدف للتعرف على الحق بل يسعى لإظهار المدافع عن الحق وكأنه ضال حاد عن الصواب وأن التمسك بالموروث والمذهبية هو الحق.

(الآيات: ٦-١٢) وعيد للكافر ووعد للمؤمن بأسلوب مجازي يصور مخلوقات تحمل العرش تدعو الله أن يغفر للمؤمنين ويدخلهم الجنة. وبطبيعة الحال دخول الجنة بالإيمان والعمل الصالح وليس بدعوة من مخلوق، أياً كان هذا المخلوق: وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ(٦) الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ(٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ(١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ(١١) ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ(١٢).

والقول بأن هناك من يحمل عرش الرحمن، وكأنه عبارة عن كرسي، فهو تعبير مجازي. لأن

الرحمن ليس له كرسي يجلس عليه، ولا يستعين بخلقه ليخدموه[1].

واستغفار الذين يحملون العرش من باب التمني، وإلا فالله لن يغفر لبشر بسبب استغفار مخلوقات أخرى له. لأن الله جل وعلا لا يتعامل بالعواطف، لدرجة أن دعاء بعض المخلوقات لبعض قد يحمله على تغيير موقفه ومغفرته لمذنب لا يستحق الغفران. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

المغفرة تكون لمستحقها، ومستحقها هو من لا يقع في الكبائر، أو يقع في واحدة جهلاً ثم يتوب حالاً ولا يعود لكبيرة مدى الحياة، والمغفرة تكون للكافر لو أسلم.

والآية (١١) تقول: «قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ».

الحياة مرتين واضحة: واحدة حياة الدنيا، والثانية يوم القيامة. والميتة الأولى هي الانتقال من الدنيا للآخرة، والميتة الثانية قد تعني ميتة معنوية بالضلال والكفر. فالموت قد يعبر عنه مجازاً عن الضلال، والحياة قد يعبر بها عن الهدى، مثل قوله تعالى: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٨) البقرة.

فآية البقرة جاءت مخاطبة المنافقين الذين آمنوا (حياة) ثم كفروا (ماتوا)، وهذا سياقها: الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(٢٧) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٨) البقرة.

وعد للمؤمنين القلة في مكة، ووعيد لقريش ودعوة عقلانية

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقاً وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ(١٣) فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ(١٤) رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ(١٥) يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ(١٦) الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(١٧) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ(١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ(١٩) وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ

١ انظر فقرة: العرش/ قسم مفردات من القرآن.

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(٢٠) أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللهِ مِن وَاقٍ(٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢٢).

مخاطبة المسلمين يعني أن أعدادهم في مكة كثرت، وهذا ناتج عن دخول بعض المستضعفين الإسلام.

الآية: (١٧) دليل على أن الحساب سيكون بناءً على سجل الأعمال، وبآلية، ولا يخضع للعواطف، وهو ما تؤكده الآية: (٢٠) بالقول إن قضاء الله يوم القيامة سيكون بالحق. والحق يعني أن كل نفس بما كسبت رهينة، فمن آمن وعمل صالحاً فله الجنة، ومن أمن ولم يعمل أو عمل ولم يؤمن فله النار لأنه هو من اختارها. ويمكن الرجوع لفقرة الروح في قسم مفردات من القرآن.

حديث عن موسى وفرعون يتخلله مواضيع أخرى

(الآيات: ٢٣-٤٦) عموماً تتحدث عن موسى وفرعون، وهي موجهة لبني إسرائيل. كما أنها تعطي أمثلة لواحد من أساليب القرآن وذلك بالحديث عن عدة مواضيع في نفس الوقت وبشكل متداخل. بحيث تتحدث الآيات عن موضوع ثم تنتقل لموضوع آخر، ثم تعود للموضوع السابق ثم تتحدث عن موضوع ثالث...وهكذا:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ(٢٣) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ(٢٤) فَلَمَّا جَاءهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ(٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ(٢٦) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ(٢٧) وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ(٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ(٢٩) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ

يَوْمِ الْأَحْزَابِ(٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ(٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ(٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ(٣٣) وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ(٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ(٣٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ(٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ(٣٧) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ(٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ(٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ(٤٠) وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ(٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ(٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ(٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ(٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ(٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ(٤٦).

المؤسف هو أن سلف المفسرين والمحدثين قالوا إن الآية: (٤٦) دليل على عذاب القبر، برغم أن الآيتين تتحدثان عما سيكون بصيغة ما كان. فمؤمن آل فرعون سيقيه الله سيئات ما مكروا وسيحيق بآل فرعون سوء العذاب وسيعرضون على النار وسيدخلونها يوم القيامة وليس قبلها، لأنه لا عذاب قبل الحساب. ولأن الموت يعني خمول النفس ولا يمكن أن تشعر بشيء أو تكون في حالة نشطة بعد الموت، لأن الجسد الذي يحملها تحلل وانتهى ولم يعد باستطاعته حملها. والنفس لا يمكن أن تكون نشطة (حية) خارج حاملها. ولن تعود للنشاط (الحياة) إلا يوم القيامة حيث يخلق الله لها حاملاً جديداً.

وهذا بعض ما سبق ونشر على الفيس بوك حول هذا الموضوع: ورد في سورة غافر ضمن الحديث عن فرعون، ما يلي: فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ.

النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ. (غافر:٤٥-٤٦) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً(٦٠) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً(٦١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً(٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً(٦٣) مريم.

إذاً، قوله عن آل فرعون إنهم يعرضون عليها غدواً وعشياً، وعن أهل الجنة بكرة وعشياً، لتقريبها من ذهن القارئ فقط، ليقول إن عذاب آل فرعون ونعيم أهل الجنة مستمر. ويعرضون على النار تعني في القرآن يعذبون فيها، ومن ذلك قوله تعالى: وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ. وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ(الشورى:٤٤-٤٥).

فيعرضون عليها تعني يعذبون فيها، ومتى عرض الكافر على النار فلن يخرج منها. كما أن ظنهم أن «غدواً وعشياً» تعني أنهم مازالوا في الدنيا غير صحيح، بشهادة القرآن الذي يخبرنا عن أهل الجنة يوم القيامة بقوله: إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً(٦٠) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً(٦١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً(٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً(٦٣) مريم.

فأهل الجنة لا يسمعون فيها لغوا ولهم رزقهم بكرة وعشياً، مع أن الجنة ليس فيها بكرة ولا عشياً، لأنه ليس فيها شمس، وليل ونهار: مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً(١٣) الإنسان.

إذا، قوله عن آل فرعون إنهم يعرضون عليها غدواً وعشياً، وعن أهل الجنة بكرة وعشياً، لتقريبها من ذهن القارئ فقط، ليقول إن عذاب آل فرعون في النار ونعيم أهل الجنة مستمر.

مخاطبة مستضعفو مكة

تتوجه الآيات إلى مستضعفي مكة الذين بقوا على كفرهم تبعاً لسادتهم «كبراء قريش: وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ(٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللهَّ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ(٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ الْعَذَابِ(٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ(٥٠).

والآيات تصور ما سيكون عليه حالهم يوم القيامة، إن لم يؤمنوا، تصويراً مجازياً. وإلا فالنار ليس لها خزنة (عمال) يقومون على تشغيلها ومراقبة عملها فكل شيء في خلق الله جل وعلا يسير وفق قوانين ثابتة ولا تحتاج لمخلوقات تديرها. وقد مر بنا آية مشبهة في سورة الزخرف وهي الآية (٧٧).

النصر لمن آمن

(الآيتان:٥١-٥٢) تؤكد أن النصر في النهاية للرسل ومن آمن: إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ(٥١) يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ(٥٢).

والخطاب موجه للرسول ومن آمن معه، مما يشير إلى أنهم يتعرضون للأذى من قريش، والآية تشد من أزرهم وتعدهم بالنصر ليصبروا على المحن. والإخبار هنا عن النصر لا يعني أن الله جل وعلا سيتدخل في تحويل الأوضاع، ولكن الآيات تتحدث بما يعرف بالضرورة. فمحمد أرسل لكل الناس وسيتكاثر المسلمون. ولو دخلوا في حرب مع الكفار فسيكسبون الحرب في النهاية ولو خسروا بعض المعارك. لأنه سيكون لديهم دافع وحماس وعقيدة، بينما الكفار يحاربون حمية. إضافة إلى أن تعداد المسلمين سيزداد وتقل أعداد الكفار. أما نصر الله لرسل سابقين، فتمثل بنجاة الرسول ومن آمن، وهلاك الكفار بكوارث طبيعية.

عود للحديث عن موسى وبني إسرائيل

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ(٥٣) هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ(٥٤).

مخاطبة الرسول

ثم تعود السورة لمخاطبة الرسول: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ(٥٥).

ووعد الله المذكور في الآية هو الوعد بالنصر للرسول ومن آمن الذي ورد في الآية (٥١). وكلما أمر الرسول بالصبر والاستعانة بالاستغفار والتسبيح، فهو إشارة لتزايد تعرضه للأذى من قريش.

استمرار جدال قريش للرسول

(الآية:٥٦) تعود للحديث عن جدال قريش لرسول الله الذي أشارت له سور سابقة: إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(٥٦).

وقريش بدأت تجادل الرسول في هذه المرحلة الخامسة للدعوة في مكة لعلها تستطيع إظهاره بمظهر الكاذب فينفض الناس من حوله ولا يأتون من خارج مكة للاستماع له والإيمان به.

مواضيع مختلفة

بقية السورة تتحدث عن مواضيع عدة بشكل متداخل، بحيث تتحدث آية عن موضوع ثم تخرج لآخر ثم لثالث ثم تعود للأول وهكذا:

دعوة عقلانية

لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(٥٧) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ(٥٨).

تأكيد على أن الساعة آتية

إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ(٥٩).

الدعاء لطلب المغفرة والتوبة وليس لأمور الدنيا

وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ

دَاخِرِينَ(٦٠)[١].

رب العالمين يطلب من عباده أن يدعوه ليس لأمور دنيوية ولكن للتوبة وطلب المغفرة من الذنوب، ومن لا يفعل فكأنه استكبر عن عبادة الله.

عود للدعوة العقلانية

اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ(٦١) ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ(٦٢) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ(٦٣) اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاء بِنَاء وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٦٤) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٦٥).

عود لمخاطبة الرسول

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَمَّا جَاءنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(٦٦).

عود للدعوة العقلانية

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ(٦٨).

الآية (٦٧) تشير إلى خلق السلالات الأولى للإنسان، في قولها: «من تراب». وعن استمرار وجود البشر بالتزاوج والحمل والولادة في بقية الآية.

وتقول الآيات إن من خلق الإنسان من لا شيء قادر على إعادة خلقة للبعث، وهو سبحانه من خلق الحياة وخلق الموت. فالموت بالنسبة لله مرحلة كما أن الحياة مرحلة وليس الموت عدماً.

١ انظر فقرة: الله لا يتدخل في أمور الدنيا مباشرة / قسم أدلة من القرآن.

عود للإشارة لجدال قريش للرسول

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ(٦٩).

وقد سبق ذكره في الآية: (٥٦) وفي سور سابقة. وتتبع ما قالت السور المكية عن جدال قريش للرسول هو مثال على ما نعني بالسياق بين السور. فالحديث عن جدال قريش في عدة سور يعني أنه مستمر، ولا تؤخذ آيات كل سورة على حدة وكأنه لا علاقة لها بالآيات في السور الأخرى.

وعيد لقريش مع تقديم صور حسية للعذاب

الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ(٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ(٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ(٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ(٧٤) ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ(٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ(٧٦).

لاحظ أن الآيات تقول: « إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ(٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ». وكأن الأغلال والسلاسل في أعناقهم وكأن يسحبون في الحميم سبق دخولهم النار. مع أن الحميم هي النار. وهذا الأسلوب القرآني جعل البعض يتقعر في تناول بعض الآيات التي استخدمت نفس أسلوب هذه الآيات، واعتبر أن هناك فرقاً بين لفظ وآخر.

عود لمخاطبة الرسول وتأكيد الوعد له بالنصر

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ(٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاء أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ(٧٨).

الآية (٧٧) تؤكد الوعد بالنصر الذي ذكرته الآية (٥١) وكررته الآية (٥٥).

ونفس الآية تؤكد احتمالية قتل أو وفاة الرسول في أي وقت، وهو ما سبق وذكرته سورة الزخرف في الآيات (٤١-٤٢)، فالرسول بشر يسري عليه ما يسري على البشر، ولن

يتدخل رب العالمين فعلياً لمنع قتله لو حاولت قريش قتله.

الآية (٧٨) تؤكد للرسول أن كل الرسل الذين سبقوه لم يؤتوا آيات إلا بإذن الله ومتى شاء، وليست الآيات تعطى لتحقيق رغبة المدعوين للإيمان. وهو إشارة لطلب قريش أن يظهر الرسول بعض الآيات لكي يصدقوا أنه رسول الله.

عود للدعوة العقلانية

اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ(٨٠) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللهِ تُنكِرُونَ(٨١) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ(٨٢) فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون(٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ(٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ(٨٥).

لا توبة لمن حضرته الوفاة.

(٦٢) سبأ

الحديث في هذه السورة يتناول جدال قريش للرسول والذي أخذ يتصاعد، لمنعه من توصيل الدعوة للناس، ولتظهره بمظهر الكاذب لصد غيرها عن الاستماع له. ودعوات عقلانية لقريش للتفكير، إضافة لسرد بعض جوانب من تاريخ شخصيات تاريخية من بني إسرائيل.

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ(١).

السورة تبدأ بالحمد لله، كما بدأت سورتا الكهف وفاطر قبلها، وسورة الأنعام التي ستأتي في المرحلة السابعة والأخيرة للدعوة في مكة.

حديث عقلاني عن موقف قريش من الدعوة برغم وضوح الحق وتبريراتهم لرفضها

يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ(٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ(٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ(٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ(٥) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ(٧) أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ(٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ(٩).

الآيات تبين أن تمسك قريش بموروثها (عبادة الأصنام) أعماها عن الحق (عبادة الخالق) برغم تفاهة الموروث ووضوح الحق، لأن الموروث يعمي البصيرة. ولن تفطن قريش لضلالها وستبقى على الكفر مهما دعيت، متبعة سنة أزلية سارت عليها كل الأمم.

والآية (٣) دليل على أن كل شيء في الكون يسجل مهما صغر.

الآية (٤) الجنة لمن آمن وعمل صالحاً، وليست بالإيمان وحده أو العمل الصالح وحده.

الآيات (٧-٨) دليل على أن الموروث يعمي البصيرة فيراه أهله حقاً برغم وضوح بطلانه، ويرون الحق باطلاً برغم وضوحه. فقريش يعتبرون الرسول كاذباً أو مجنوناً لأنه يقول إن الله الذي خلق الناس سيعيد بعثهم مرة أخرى.

داوود

(الآيات: ١٠-١٤) تتحدث عن داوود وابنه سليمان، وتظهر كم كانت مملكته قوية وتملك إمكانيات كبيرة بلغة العصر: وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ(١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(١١).

فالجبال أصبحت مطاوعة له: «أوبي معه» كإشارة إلى مناجم الذهب والحديد والمعادن

الأخرى التي اشتهرت بها مملكته. وأصبحت مملكة صناعية « وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أن اعمل سابغات وقدر في السرد».

كما أوتي داوود قدرة على معرفة لغة بعض الطيور.

سليمان

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ(١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ(١٣) فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ(١٤).

الآيات تشير إلى بسط سليمان سيطرته على مناطق شاسعة وتوسع الصناعات في عصره. وكان يعمل له «جن» نوابغ من البشر « يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ». ومن يتقن هذه الحرف عباقرة من البشر، وليسوا من مخلوقات الجان، لأن الجن لا يستطيعون عمل أعمال حسية، ولا يستطيعون حمل الأشياء ولا الإمساك بها ولا يتقنون الحرف، ذلك أنه ليست لديهم أجساد مادية بل هم مخلوقات من طاقة.

(الآية:١٤) تقول: «فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ». قد تشير الآية إلى جانب من شخصية وحياة سليمان. فهو قد مات ولم يقترب منه أحد لأيام، وهذا قد يشير إلى أنه يتسم بالصرامة لدرجة تجعل العاملين معه لا يتجرؤون على الاقتراب منه بدون إذنه. وقد يكون يعيش لوحده - بمعنى أنه لم يكن له أولاد وبنات ونساء - أو أنه اعتاد العيش لفترات دون الاتصال بهم. لأنه لو كان سهل المعشر ولديه أبناء وبنات وزوجة أو زوجات قريبون منه، فلن يموت ويبقى في مكانه وهيئته لعدة أيام دون أن يعلم بموته أحد حتى خر (سقط) بعد أن أكلت منسأته الحشرات والخنافس التي تتغذى على الجثث[١].

---

١ هناك العديد من الخنافس التي لديها القدرة على شم رائحة الجسد الميت والمسارعة بالتهامه، وهناك انواع من الحشرات الطائرة ومنها ما يعرف بالذباب الأزرق الذي يضع بيضه على الجثة وسرعان ما يفقس البيض ويبدأ بالتهام اللحم. والآية تتحدث عن دابة الأرض وهي الخنافس التي تدب على الأرض ولا تطير.

سبأ

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ(١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ(١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ(١٧) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ(١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ(١٩) وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ(٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ(٢١).

سبأ اسم للقبيلة أو الشعب، كما هو الحال مع عاد قوم هود، وثمود قوم صالح. وموقع مساكنهم معروف ومازال مسكوناً، ويسمى بمأرب. و(الآية:١٥) تصف المملكة (القرية) وأنها كانت تقع على جانبي وادي يمتد باتجاه من الغرب إلى الشرق.

(الآية: ١٦) تقول إن القرية تعرضت لسيل عرم (فيضانات) قضت على المزارع ولم يتبق إلا شجر الأثل والخمط والسدر. ولعل «الخمط» هو «الحمط» وهو التين الجبلي المعروف في جنوب غرب جزيرة العرب ومازال يلفظ «حمط وحماط». وقد تكون ثماره تسمى «خمطاً» بالخاء ثم تحولت إلى حاء.

(الآية: ١٨) تشير إلى القرى التي قامت قريباً من طريق التجارة القديم الذي ينقل البخور واللبان والبهارات من أقصى جنوب جزيرة العرب مروراً بسبأ وعدد من القرى على امتداد الطريق مثل نجران، بيشة، تربة قبل أن يمر الطريق بالقرب من مكة (القرى التي باركنا فيها) ثم يستمر إلى الشام مرورا بيثرب وخيبر وتيماء ووادي القرى[1]. وسميت «قرى ظاهرة» لأنها تقع على أرض أقرب للاستواء، ويمكن رؤيتها من مسافة بعيدة، وليست كالقرى في أعالي الجبال التي تتوارى خلف القمم ولا يكاد المرء يراها إلا عندما يصلها.

دعوة عقلانية

ثم تنتقل السورة لتقدم ردوداً على جدال قريش للرسول: قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن

---

١ ويمكن الرجوع لكتاب: من آدم إلى محمد للمزيد.

دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ(٢٢) وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ(٢٣) قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(٢٤) قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ(٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ(٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاء كَلَّا بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٢٧) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٢٩) قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ(٣٠).

(الآية:٢٨) دليل على أن محمداً رسول لكل الناس.

مخاطبة المستضعفين

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ(٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ(٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٣٣).

الذي بين يديه تعني ما سبقه من رسالات[1].

ثم تؤكد السورة أن قريشاً سارت في كفرها على سنة سارت عليها أمم سابقة: وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ(٣٤).

الرد على ما تفخر به قريش

وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ(٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاء الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ(٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ(٣٨) قُلْ إِنَّ

١ انظر فقرة: ما بين يديه/ قسم مفردات من القرآن.

رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(٣٩).

(الآيات: ٣٥-٣٦، ٣٩) كأنها تقول إن كثرة الرزق (الأموال) بين الناس في الدنيا مقدر سلفاً من الله، وكأن الله جل وعلا يختار شخصاً للغنى وآخر للفقر. وهذا ليس معنى الآية، لكن المعنى هو أن الأرزاق أوجدها الله للناس في الأرض، وأوجد سبحانه كل الأسباب للحصول عليها. فمن استطاع استغلال الظروف للكسب فسيكسب، ومن لا تتوفر له هذه الأسباب فسيكون حظه منها أقل. وبهذا المعنى يكون سبحانه هو من قسم الرزق بين عباده، ليس مباشرة ولكن بطرق غير مباشرة. وأوجب تعالى على القادر معاونة قليل الحظ.

(الآيات: ٤٠-٤٢) تتحدث عن أن قريشاً تعتقد أن الملائكة بنات الله، وهذا الاعتقاد يجعل الملائكة مقدسة عند قريش:

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ(٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ(٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلَا ضَرّاً وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ(٤٢).

والآيات تتحدث بعبارات مجازية عما سيحدث لقريش يوم القيامة، وكأن الله يسأل الملائكة إن كانت قريش تعبدهم؟ فترد الملائكة أنهم كانوا يعبدون خيالاً لا يمكن رؤيته. أي أن قريش كانت تقدس الملائكة ظناً منهم أنها بنات الله، مع أنهم لم يسبق أن رأوا الملائكة. فكأنهم يعبدون خيالا لا وجود له على أرض الواقع. والآية استخدمت (الجن) للتعبير على ما خفي ولا يمكن رؤيته.

والآيات التالية تظهر الموقف المتوقع الرافض للدعوة، كونهم ساروا على ما سارت عليه الأمم غيرهم من التمسك بالموروث، وإيجاد تبريرات لرفضهم الحق، والتهجم على الرسول شخصياً:

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ(٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ(٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ(٤٥) قُلْ إِنَّمَا

أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ(٤٦) قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(٤٧).

(الآية: ٤٤) لم يسبق أن أرسل لقريش رسول قبل محمد.

(الآية: ٤٧) الدعوة - كأي عمل ديني - لها أجر واحد، ومن أخذ عليه أجراً في الدنيا فلن يحصل على أجره في الآخرة. فمن يدعو لدين الله أو يؤم الناس في الصلاة أو أي عمل ديني آخر ويأخذ عليه أجر في الدنيا فليس له أجر في الآخرة.

وسيبقى الحق حقاً ولو لم يقبله الناس، ولو صدق الرسول فسيخسر المكذبون. ويوم القيامة سيتمنى المكذب أنه آمن:

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ(٤٨) قُلْ جَاء الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ(٤٩) قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ(٥٠) وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ(٥١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ(٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ(٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ(٥٤).

(٦٢) الكافرون

من سور هذه الفترة التي ترشد الرسول لما يقول رداً على جدال قريش، وهي تشبه ما ورد في آخر السورة السابقة: قُلْ جَاء الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ(٤٩) قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ(٥٠).

وسورة الكافرون تقول: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ(١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ(٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ(٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ(٦).

لكن قريش لم تقبل بالتعايش مع المسلمين.

هي دعوة للمكذب بترك المؤمن والتعايش معه سلمياً، ولكن هذا لم يحدث أبداً في كل المجتمعات وفي كل زمان ومكان، فالمكذب يسعى لمحاربة الداعي للحق، ولا يقبل التعايش معه سلمياً.

(٦٣) لقمان

(الآيات: ١-٥) تأكيد على أن القرآن الذي يتلوه عليهم محمد هدى ورحمة للمحسنين، الذين تُعرّفهم الآيات بمن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة: الم(١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ(٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ(٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(٤) أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٥).

والزكاة وصف للإنفاق، وسنرى أن لفظ إنفاق وزكاة تستخدمان لمعنى واحد، وأحياناً يستخدم لفظ صدقة لنفس المعنى، وكل الألفاظ الثلاثة تعني: أخذ المال من الغني وصرفه لسد حاجات أفراد ومؤسسات المجتمع.

وسورة لقمان ثاني سورة تذكر الصلاة والإنفاق في المرحلة الخامسة، بعد الآية (٣٠) في سورة فاطر. وفيما عدا هذا فلم يرد ذكر للصلاة في (١٥) سورة من سور المرحلة الخامسة التي سبقت سورة لقمان في النزول. ذلك أن هناك أوضاعاً استجدت بعد تحول خطاب الدعوة لغير قريش اهتمت السور بمتابعتها، في نفس الوقت كان المسلمون القلة مواظبين على أداء الصلاة والإنفاق، فلم يكن هناك داع لذكرهما. أما بعد دخول عدد آخر من الناس في الإسلام فقد جاءت الآيات تذكرهم بوجوب أداء هاتين الفريضتين.

(الآيتان: ٦-٧) تتحدثان عن بعض كبراء قريش: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ(٦) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٧).

لقد نشط كبراء قريش في جدال رسول الله وصد غيرهم من الناس عن سماع الدعوة، كما ورد في سور سابقة. ذلك أن الناس من يثرب ومناطق غيرها بدأوا يتقاطرون على مكة للقاء الرسول وسماعه، فكان كبراء قريش يستقبلون القادمين ويسمعونهم نصوصاً يختلقونها وينسبونها للرسول على أنها القرآن. وهي نصوص ساخرة منفرة أطلقت عليها السورة «لهو الحديث».

والكبراء الذين يختلقون هذه النصوص كلما سمعوا تلاوة القرآن ولوا مستكبرين. والآية تتوعدهم بالعذاب الأليم جزاء عبثهم واستكبارهم على الحق.

وكعادة كتب التراث فقد نزعت جزءً من الآية وحولته إلى أنه يعني الغناء، لأنهم لم يجدوا

دليلاً يحرمه. مع أن الغناء لم يأت ذكره في سور التشريع في القرآن، ولا في أي سورة من سور القرآن كلها.

الجنة مضمونة لمن آمن وعمل صالحاً

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ(٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللهِ حَقّاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٩).

وهذا الوعد إن كان موجهاً للمؤمنين القلة في مكة حين نزول السورة، فهو يسري على كل من آمن وعمل صالحاً في أي مكان وزمان. فالقرآن يخاطب من نزل بينهم لكن تشريعاته ووعده لهم ولمن يماثلهم.

دعوة عقلانية

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ(١٠) هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(١١).

وكل الدعوات العقلانية للتفكير بالخلق للاستدلال على عظمة الخالق وقدرته على البعث موجهة دائماً لقريش لأنهم ينكرون البعث.

حديث عن رجل «حكيم» اسمه لقمان

تعرفه بنو إسرائيل، وكان يعظ ابنه، وهي قصة لا تهم قريشاً. وقد يكون بعض بني إسرائيل الذين جاؤا لمكة قد سألوا الرسول عنه: وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ للهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ(١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ(١٣).

من بر الوالدين

وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ(١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(١٥).

هذه الآيات لا علاقة لها بحديث لقمان، وهي تشريع يوجب رعاية الوالدين، حتى لو كانا

كافرين. فرعايتهما والتعامل معهما بكل رفق واجبة، دون طاعتهما في معتقدهما. ويستفاد من هذا القانون أيضاً التعامل مع كل كافر مسالم بالإحسان.

عودٌ للحديث عن لقمان

يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ(١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ(١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ(١٩).

لقمان يُذكِّر ابنه بما فهمه هو من تشريعات الدين. وهي تشريعات تتطابق مع ما يدعو له الإسلام مما يعني أن الدين واحد. ومن ذلك الصلاة التي كان لقمان يعرفها، والنهي عن الصعار للمؤمن بأن يكون عزيزاً مكرماً، بعيداً عن الذل، شريطة ألا يقترب من الكبرياء والخيلاء.

(الآية: ١٩) تنقل ما قال لقمان عن صوت الحمير، فهو يظن أنه منكر، بمعنى مزعج له هو لأنه جهوري. وهذا ليس تقرير أن الله خلق الحمار بصوت منكر. دليل على نقل القرآن لما قال المتحدث دون إقرار له أو اعتراض، لأن الحديث عن تاريخ حدث، وينقل كما حدث.

رد على جدال قريش ودعوة عقلانية للتفكير

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ(٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ(٢١) وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ(٢٢) وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ(٢٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ(٢٦) وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ

أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٢٧) مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ(٢٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ(٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ(٣١) وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ(٣٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ(٣٣) إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(٣٤).

(الآية:٢٢) العروة الوثقى تعني الطريق القويم.

(الآية: ٢٨) تؤكد أن نشأة الأجيال الأولى لكل سلالة من سلالات البشر تم بوقت واحد، كما أن البعث لكل الناس سيكون في وقت واحد.

(الآية: ٣٤) للأسف تم تأويل معناها الظاهر القويم إلى أنها تعني أن ما ذكر فيها لا يعلمه إلا الله، وهو: علم الساعة، ونزول المطر، ومعرفة ما في الأرحام، ومكان الرزق والموت.

والآية تقول: «إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ». أي أنه وحده يعلم متى تقوم.

وتقول: « وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ». فهو من ينزل الغيث، لكن الآية لا تقول أنه لا يعلم بنزول الغيث مسبقاً إلا هو، وبالتالي فعلم الطقس والأحوال الجوية لا يتعارض مع علم الله وغيبه.

وتقول الآية: «وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ». فهو سبحانه يعلم ما في الأرحام، لكن هذا لا يمنع أن يعلم الناس بذلك أيضاً.

وتقول الآية: «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً». لكن هذا لا يعني أن شركة منتجة لديها خطط إنتاجية لبيع كميات محددة من منتجاتها غداً بمبلغ كذا، وتنجح في تنفيذ خططها التسويقية أنها علمت بالغيب أو تعارضت معه.

وتقول الآية: «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ» صدق الله العظيم.

(٦٤) النمل

بدايتها مماثل لبداية السورة السابقة، فسورة لقمان تقول: الم(١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ(٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ(٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(٤) أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٥) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ(٦) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٧).

وهذه السورة التي تفتتح بحرفي: «ط س» تقول: طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ(١) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ(٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ(٤) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ(٥).

(الآية:٦) تأكيد على أن القرآن - وسيلة الدعوة - تنزيل من الله: وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ(٦).

(الآيات:٧-٤٤) قصص من تاريخ يهم بني إسرائيل

يشمل: حديثاً عن موسى، داوود، وسليمان مع ملكة سبأ.

التكليم

إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ(٧) فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٨) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ(١٠) إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ(١٢) فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ(١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ(١٤).

داوود وسليمان تفوقا على أقرانهما

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ(١٥).

سليمان

وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ(١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ(١٧) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ(١٩) وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ(٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ(٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ(٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ(٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ(٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ(٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ(٢٦) قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ(٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ(٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ(٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ(٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ(٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ(٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ(٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ(٣٥) فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ(٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ(٣٧)

قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ(٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ(٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ

الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ(٤٠) قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ(٤١) فَلَمَّا جَاءتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ(٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ(٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٤٤).

(الآية:١٨) تتحدث عن تحذير نملة لبقية النمل بالدخول لمساكنها (جحورها) قبل أن يحطمها سليمان وجنوده. وهذا يعني إمكانية تعلم البشر لغة النمل. ونملة سليمان من النمل الذي يعيش في المناطق الصحراوية الحارة، ومن واقع ملاحظة شخصية أستطيع القول إن نوع نملة سليمان قد تكون تلك النملة التي تتميز بأطراف طويلة، ونصف جسمها الأخير معقوف إلى أعلى، لتحاشي ملامسة الأرض الحارة. وهي سريعة جداً، وطولها حوالي سنتيمتر واحد، وتعرف بالقعساء في اللغة العربية لأنها ترفع صدرها وذنبها. (أو القعس في اللهجات المحلية وسط جزيرة العرب). وبمجرد اقتراب إنسان أو جسم ثقيل متحرك منها تفر بعيداً، لأن لديها القدرة على الشعور باهتزاز الأرض تحتها وتحديد اتجاه جهة الاهتزاز. بخلاف بقية أنواع النمل الأخرى التي لا تبتعد عن الإنسان أو أي جسم ثقيل يمر بالقرب منها.

كما يمكن الاستفادة من حديث سليمان والهدهد أنه يمكن تعلم لغة الطيور، ويمكن تربية الهدهد كطائر أليف كالحمام. وبالمناسبة ومن واقع مشاهدات شخصية أقول بأنه يمكن تربية الغراب، وتدريبه على أن يقوم بأعمال كثيرة جداً ومعقدة، منها نقل الأشياء إلى مكان يحدد له، كما أنه يستطيع أن ينطق كلمة أو كلمتين بشكل قريب من نطق الببغاوات[1].

ثم تتوجه السورة بالحديث إلى قريش عن أمم سابقة:

ثمود

(الآيات: ٤٥-٥٣) تتحدث عن بعض أخبار ثمود:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ(٤٥) قَالَ يَا

١ والحديث بالتفصيل عن سليمان في كتاب: من آدم إلى محمد.

قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ(٤٧) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ(٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ(٤٩) وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ(٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٥٢) وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(٥٣).

قوم ثمود بمجرد أن بدأ رسولهم صالح دعوتهم للعودة للدين وترك الوثنية حتى انقسم المجتمع لفريقين: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ(٤٥). وهو ما حدث في مكة عند مبعث رسول الله.

وتبعاً لسنة الأولين التي سارت عليها كل الأمم فلم يتبع صالحاً سوى قلة أغلبهم من المستضعفين الذين لا مصالح دنيوية لهم، بينما تمسك الغالبية بالموروث ورفضوا الدعوة.

الآية: (٤٦) تستخدم الاستغفار بمعنى الدخول في الدين.

والآيات: (٤٨-٥٠) تتحدث عن تسعة أشخاص اتفقوا فيما بينهم على اغتيال صالح وأهل بيته وأن يخفوا فعلتهم ولو سألهم ولي الدم فسينكرون علمهم بالجريمة. لكن تخطيطهم لم يتم ونجا صالح وأهله.

وقسم الرهط التسعة بالله برهان على أنهم يؤمنون بوجود الله لكنهم لا يؤمنون بالبعث، مثل قريش. كما أنه دليل على أن قوم صالح كانوا مؤمنين بدين الله ثم تحولوا للوثنية تبعاً لسنة الأولين.

ولابد أن شيئاً ما حدث مما أدى إلى فشل خطتهم في تنفيذ الجريمة، ولا عبرة بكلام المفسرين الذين قالوا إن الله عجل بهلاك التسعة قبل تنفيذ جريمتهم. لأنهم بقوا أحياء وهلكوا مع قومهم بسبب الرجفة (الزلزال) كما تقول سورة الأعراف في الآيات: (٧٣-٧٩).

وبقيت أطلال قريتهم حتى بعث محمد عليه الصلاة والسلام، ولابد أن قريشاً تعرفها كما أكدت ذلك سور أخرى، ومنها: وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ(٣٨) العنكبوت.

قوم لوط

(الآيات: ٥٤-٥٨) تتحدث عن قوم لوط:

وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ(٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ(٥٥) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ(٥٦) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ(٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ(٥٨).

وتظهر الآيات بوضوح الفاحشة التي كان رجال قوم لوط يمارسونها. كما تظهر أن امرأته هلكت من الهالكين، وأن القوم أهلكوا بكارثة طبيعية أمطرت عليهم مطراً ليس من الماء ولكن من نوع آخر مهلك، وهو الحمم البركانية.

دعوة عقلانية

(الآيات:٥٩-٧٥) تقدم الرد لمحمد على جدال قريش، كما في سور سابقة، ولكن في هذه السورة تقدم لوحة عقلانية منطقية مقنعة وواضحة: قُلِ الْحَمْدُ للهِّ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُّ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ(٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِّ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ(٦٠) أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِّ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِّ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ(٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِّ تَعَالَى اللهُّ عَمَّا يُشْرِكُونَ(٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِّ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٦٤) قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُّ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ(٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ(٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ(٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ(٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ(٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٧١) قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ(٧٢)

وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ(٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ(٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ(٧٥).

الآيات تظهر أن وضوح الحق وقوة الحجة لا يكفي لأن يتقبل الناس الدعوة.

(الآية: ٧٠) تقول لمحمد: « وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ». وهو ما يشير إلى أن الرسول استمر يشعر بالأسى والحزن على مصير قريش الذين اختاروا ذلك بأنفسهم.

(الآية:٧٥) تؤكد ما ذكرته سور سابقة مثل سبأ: (٣) من أن كل شيء في الكون يسجل.

والآية: (٧٦) تأكيد على أن القرآن يقص على بني إسرائيل تفاصيل تاريخهم الحقيقي، وليس تلك القصص غير مؤكدة في كتبهم. وإخبار بني إسرائيل بحقائق تاريخهم دليل على أن محمداً رسول من الله، وما يتلو عليهم وحي، لأنه لو كان من عنده لما عرف هذه التفاصيل: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(٧٦).

(الآية: ٧٧) القرآن – وسيلة الدعوة – هدى ورحمة: وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ(٧٧).

(الآيات: ٧٨-٨١) شحذ لهمة الرسول، وتأكيد على أن الهداية خيار شخصي، وأنك لست مسئولاً عن هداية أحد، وكل ما عليك هو تلاوة القرآن: إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ(٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ(٧٩) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ(٨٠) وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ(٨١).

وسنتوقف عند (الآيات: ٨٢-٨٥)، والتي تقول: وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ(٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ(٨٣) حَتَّى إِذَا جَاؤُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ(٨٥).

الدابة حولها المفسرون لوحش سيظهر آخر الزمان كواحد من علامات الساعة المزعومة عندهم. وهذا التصور مقتبس من خرافات المسيحيين، ومن الكتاب الذي اسمه رؤيا يوحنا اللاهوتي، والذي هو عبارة عن وصف لأحلام رآها، ومن ذلك وصفه لوحش رآه في أحد أحلامه، يقول عنه: «فرأيت وحشا طالعا من البحر له سبعة رؤوس وعشرة قرون وعلى قرونه عشرة تيجان وعلى رؤوسه اسم تجديف (١٣:١)». ويقول إن هذا الوحش

يضع علامة له على أيدي الناس أو جباههم عبارة عن الرقم: (٦٦٦).

وهذا نص ما ورد: «يجعل الجميع الصغار والكبار والأغنياء والفقراء والأحرار والعبيد تصنع لهم سمة على يدهم اليمنى أو على جبهتهم. وأن لا يقدر أحد أن يشتري أو يبيع إلا من له السمة أو اسم الوحش أو عدد اسمه. هنا الحكمة. من له فهم فليحسب عدد الوحش فإنه عدد إنسان. وعدده ست مئة وستة وستون. (١٣: ١٦-١٨) انتهى كلام يوحنا.

وقام المفسرون بأسلمة هذه الدابة وتحوير قصصها المسيحية، وقالوا إن هذه الدابة هي المذكورة في قوله تعالى: وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ(٨٢) النمل. وفسروا وقع القول بأنه يعني آخر الزمان.

ووقع القول عليهم لا يكون إلا يوم القيامة، وليس في الدنيا. والحديث في سياق الآيات عن قريش التي لم تر دابة تخرج من الأرض. والآيات تقول: وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ(٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ(٨٣) حَتَّى إِذَا جَاؤُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ(٨٥) النمل.

فوقوع القول عليهم يكون يوم القيامة، ولا علاقة له بآخر الزمان ولا بالدابة المقتبسة من التراث المسيحي. والدابة التي تخرج لهم تصوير مجازي لإظهار أن الكفار يوم القيامة سيعلمون أن القيامة حق وأنهم كانوا على ضلال. ولن يكون هناك دابة فعلية تخرج لقريش لتتحدث معهم يوم القيامة. لأن الحديث في الآية عن قريش وليس عن كل الناس. ومثله تصوير صحيفة الأعمال أحياناً بأن من يكتبها مخلوقات حية: وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ(١٠) كِرَاماً كَاتِبِينَ(١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ(١٢) الانفطار.

مع أنها عبارة عن آلية داخل النفس تكتب ما يصدر من صاحبها[1].

(الآية: ٨٦) دعوة عقلانية للتفكير: أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٨٦).

(الآيات: ٨٧-٩٠) صور مجازية حسية لنشأة كون القيامة، ولما سيكون يوم الحساب: وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ

١ انظر فقرة: صحيفة الأعمال/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

دَاخِرِينَ(٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ(٨٨) مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ(٨٩) وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٩٠).

«الصُّور» في القرآن يعني الكون باستخدامنا الحالي، ونفخ في الصور في هذه الآية تصوير مجازي لنشأة كون القيامة. ويوم القيامة سيكون الحساب فيه بناءً على صحيفة الأعمال، فمن جاء بالحسنة فله الجنة، ومن جاء بالسيئة فله العذاب.

(الآيات:٩١-٩٣) ترد على جدال قريش لمحمد: إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ(٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(٩٣).

والرسول مكلف بالأعمال كأي مسلم، وسيحاسب كأي مسلم بلا تميز (الآية:٩١).

مكة بلدة محرمة ويجب أن تبقى كذلك (الآية:٩١). فهل بقيت؟ أم استبيحت حرمتها؟

في كتب الأحاديث التي يؤمن بها أهل الفقه السائد، أحاديث تقول إن الرسول قال يوم فتح مكة: إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة. لا يختلى خلاها ولا يعضد شوكها ولا ينفر صيدها ولا يلتقط لقطتها إلا من عرفها فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا الإذخر.

ترى كيف تم بناء ناطحات السحاب التي تحيط ببيت الله دون أن يعضد شوك الأرض أو تقطع شجيراتها؟

وتقول (الآية:٩٢) إن الدعوة كانت بتلاوة القرآن فقط، دون كلام الرسول العادي (الحديث)، والهداية خيار شخصي.

(٦٥) الحجر

(الآيات:١-١٥) قريش لن تؤمن، ويبررون كفرهم باتهام محمد بالجنون، ولو كان صادقاً لنزلت عليهم الملائكة تخبرهم أنه رسول لله. وكفر قريش سنة سارت عليها أمم سابقة، وحتى لو أعطي محمد معجزة فلن يؤمنوا: الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ(١)

رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ(٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(٣) وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ(٤) مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ(٥) وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ(٦) لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ(٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(٩) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ(١٠) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ(١٢) لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ(١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ(١٤) لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ(١٥).

(الآية:١) تأكيد على أن القرآن – وسيلة الدعوة – آيات بينات.

الآية الثانية: «رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ». مثال آخر على أساليب القرآن. فربما هنا لا تعني «من المحتمل» ولكنها تعني أنهم سيتمنون لو كانوا آمنوا. وهذا سيكون يوم القيامة عندما يعرفون أنها حق وأن مصيرهم النار.

الآية (٣) تشير إلى أن الرسول استمر يتحسر عليهم والآية تقول: دعهم ينغمسوا في دنياهم وسيموتون سريعاً مهما طالت أعمارهم، وعندها سيواجهون مصيرهم.

وقوله تعالى: وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ(٤) والكتاب المعلوم هنا يعني أن ما حدث لهم مسجل وموثق. وقوله: مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ(٥) أن أياً من الأمم السابقة التي هلكت بكارثة، هلكت في وقت محدد (وقت وقوع الكارثة)، ولا يعني أن الكارثة مقدرة عليهم مسبقاً.

(الآية:٨) تؤكد أن رؤية الناس للملائكة تعني وقوع العذاب بهم، وهو ما ينفي كل ما ورد في كتب الحديث والتفسير وغيرها من كتب السلف من قصص تروي نزول جبريل ورؤيتهم له.

(الآية:٩) بعد أن قالت الآيات السابقة لقريش إن الملائكة لن تنزل، تقول هذه الآية لهم إن الله أنزل الذكر (القرآن) كافياً لمن يؤمن، وحفظ نسخته الأصلية بعلمه. ولا تتحدث الآية عن أن الله جل شأنه قد حفظ القرآن الذي بين أيدي الناس من الضياع. لأنه نظرياً يمكن أن يضيع القرآن، مثلما أن الرسول كان يمكن أن يقتل أو يموت في مكة وقبل أن يكتمل

الدين. ولو حدث وقتل أو مات أو ضاع القرآن فإن الله جل وعلا سيرسل رسولاً آخر لكل الناس. لكن الرسول لم يقتل ولم يمت واكتمل الدين، وبقي القرآن برغم محاولات قريش وأعداء آخرين للدين. لأن محمداً هو خاتم النبيين وسيبقى كذلك لنهاية البشر. ولن يأتي مهدي، ولن ينهض عيسى من الموت لأن دين الله باق كما نزل ومن يرغب في العودة إليه فهو بين دفتي المصحف.

(الآيات: ١٠-١٣) لم تؤمن قريش لأنها سارت على سنة الأولين التي سارت عليها أمم سابقة وكل الأمم.

(الآيتان: ١٤-١٥) لو رأت قريش كل آية سألت الرسول أن يريها لهم فلن تؤمن، وسيجدون مبررات أخرى للتمسك بموقفهم المنكر للدعوة.

دعوة عقلانية

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ(١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ(١٧) إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ(١٨) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ(١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ(٢٠) وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ(٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ(٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ(٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ(٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ(٢٥).

الآيات: ١٧-١٨ الجان ممنوعون من التجوال في الكون، وقد ذكرت ذلك سور سابقة.

الآية: (١٩) مد الأرض لا يعني أنها مسطحة وليست كروية أو بيضاوية، لأن القرآن لا يتحدث عن حقيقة الأرض ولكن عما تراه قريش (المخاطب هنا). فالقرشي لا يرى كل الأرض ولا يعلم كيف هي هيئتها. وكل ما يراه أمامه أرض منبسطة ممتدة، وجبال. فالأرض بالنسبة له منبسطة والجبال تبدو كأوتاد راسية مغروسة في الأرض.

الآية: (٢٠) تتحدث عن أن الله جل وعلا وفر الرزق في الأرض لكل من يعيش عليها، وأن النقص في الغذاء لأي مخلوق سببه مخلوق آخر متسلط.

خلق آدم وموقف إبليس

وهذا الموضوع موجه لبني إسرائيل لأن تاريخهم يتحدث عنه:

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ(٢٦) وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ(٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ(٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ(٢٩) فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ(٣٠) إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ(٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ(٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ(٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ(٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ(٣٥) قَالَ رَبِّ فَانظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ(٣٧) إِلَى يَومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ(٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ(٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ(٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ(٤٢).

إبليس من الملائكة، لأن الآية تقول: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ» ولم يخبر سبحانه غير الملائكة بخلق آدم. وتقول السورة: فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ(٣٠) إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ(٣١).

كل الملائكة المبلغين بخلق آدم سجدوا إلا واحداً منهم، هو إبليس.

والآيات تتحدث عن إغواء إبليس للناس، وإبليس ليس بمقدوره أن يضل من اختار الهداية. لكنه قد يزين الضلال لمن يرغب فيه.

وعيد للكفار، ووعد للمؤمنين مع صور مجازية حسية للنعيم

وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ(٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ(٤٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ(٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ(٤٧) لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ(٤٨).

أن يكون للنار أبواب فهو تصوير مجازي حسي لكي تتضح الصورة في ذهن المخاطب وهم قريش. وإلا فالنار لم تخلق بعد ولا نعرف كيف ستكون، ومثلها الصور المقدمة عن النعيم. (الآيتان:٤٩-٥٠) المخاطب محمد ليقول للناس إن الله غفور لمن يسعى للغفران،

وشديد العذاب للعاصي: نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ(٥٠).

ضيف إبراهيم

وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ(٥١) إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ(٥٢) قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ(٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ(٥٤) قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ(٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ(٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ(٥٧) قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ(٥٨) إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ(٥٩) إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ(٦٠).

وقد بشروه بغلام (هو إسحاق) لأن إسماعيل ولد في أول أيام إبراهيم في مكة وعندما كان إبراهيم وزوجه شابين. وأخبروه أنهم في طريقهم لقرية لوط، التي هي قرية إبراهيم التي خرج منها. وذلك لكي يخرجوا منها لوطاً ومن آمن معه، قبل أن يثور البركان، والذين لم يزيدوا عن أسرة لوط، باستثناء زوجته.

المتحدث هنا هم ضيف إبراهيم، وليسوا هم من يُقدّر إن كانت امرأة لوط من الغابرين (المهلكين) ولكنهم يتحدثون عن واقع يتمثل في أن امرأة لوط كفرت مع القوم ولذا على لوط ألا يصحبها معه للخروج من القرية بل يتركها لتهلك مع القوم.

(الآيات:٦١-٧٧) تتحدث عما حدث للملائكة في قرية لوط، وما حدث لقوم لوط: فَلَمَّا جَاء آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ(٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ(٦٢) قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ(٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بَالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ(٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ(٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاء مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ(٦٦) وَجَاء أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ(٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلاء ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ(٦٨) وَاتَّقُوا اللهَ وَلاَ تُخْزُونِ(٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ(٧٠) قَالَ هَؤُلاء بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ(٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ(٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ(٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ(٧٤) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ(٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ(٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤمِنِينَ(٧٧).

قول لوط: «إنكم لمنكرون» كونهم غرباء ولا يعرفهم، وليس منكرون بمعناها السلبي.

لوط ومن آمن معه (أسرته فيما عدا زوجته) خرجوا من القرية في الليل. وثار البركان أول الصباح.

«ولا يلتفت منكم أحد» تعبير مجازي يعني سرعة الرحيل وعدم التباطؤ ولا يعني عدم الالتفات أثناء الهرب، لأن الهارب لابد أن يلتفت ليرى ما خلّفه وراءه وهل حدثت الكارثة التي هرب منها؟

(الآيات:٦٧-٧١) تقول بأن قوم لوط (الذين يأتون الذكران دون النساء) تسابقوا للوصول لبيت لوط حينما سمعوا بوصول ضيوف له، لعلهم يفعلون بهم الفاحشة.

(الآية: ٧١) تقول بأن لوطاً عرض على القوم بناته بدلاً من أن يخزوه في ضيفه. وهذا العرض حدث بالفعل وأكدته سور أخرى. وهو ما يجعلنا نقول إن لوطاً في تلك اللحظة تصرف كبشر، ملتزم بإكرام الضيف وحمايته ولو كلفه ذلك حياته، كعادة متأصلة، جعلته يفضل أن يقدم بناته ليفعل القوم بهن الفاحشة على أن يسمح لهم بفعلها في ضيوفه. والقرآن يروي ما حدث ليس ليقره أو ليقول هو صحيح أو خطأ، ولكنه يرويه كما حدث.

وكون قوم لوط قد انتشرت بينهم رذيلة إتيان الذكور لا يعني أن كل رجال المجتمع يمارسونها، ولكنهم لا ينكرونها.

وبطبيعة الحال لم يتمكن القوم من الإمساك بضيف لوط لأنهم مخلوقات نورانية لا جسدية. وقد ثار عليهم البركان وقت شروق الشمس (٧٣) وكان معه زلزال (٧٤).

والقرية قريبة من مكة وتقع بالقرب من طريق مطروق من قبل قوافل قريش، وقد يكون طريق التجارة القديم (٧٦).

قوم شعيب (أصحاب الأيكة)

وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ(٧٨) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ(٧٩).

وقول الآية: « وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ» تشير لقوم لوط وقوم شعيب. فكلا القريتين تقعان على طريق مطروقة مشهورة. والاحتمال أنه نفس الطريق التي تقع عليها قرية لوط، لأن الآية تقول إن قوم لوط وقوم شعيب كلاهما يقعان على «إمام مبين» طريق قائم بين مطروق، وجمع الآية لهما قد يحتمل أنها إشارة لوقوعهما على نفس الطريق.

قوم صالح

وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً، مما يعني أنهم ليسوا مدائن صالح، التي نحتت كمقابر وليس بيوتاً:

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ المُرْسَلِينَ(٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ(٨١) وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ(٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ(٨٣) فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ(٨٤).

وكل هذه أمم تخاطب بها الآيات قريشاً.

ثم تتجه السورة بمخاطبة الرسول في عدد من المواضيع، بعضها لتنهاه عن تصرف وبعضها لترشده وبعضها لتأمره، وبعضها:

تشد من أزره

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ(٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ(٨٦) وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ(٨٧).

تعرض الرسول لسخرية قريش مستمر، مما يزعج الرسول وينال من معنوياته. فتأتي الآيات لتذكره أن الله معه، وأن نعمه عليه سابغة، وأن ما يمر به من شدة سيزول سريعاً.

نهي وأوامر

لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ(٨٨).

الرسول مد عينيه وأطال النظر لامرأة أحد كبراء قريش، فجاءه النهي.

والآية تتحدث بوضوح عن أن الرسول مد عينيه (نظر وأطال النظر) إلى امرأة أحد الكبراء لأن جمالها لفت نظره، كتصرف بشري. لكن المفسرين حاولوا تأويل الآية لغير معناها، لنفي أن يكون الرسول قد نظر لمرأة أجنبية وأتوا بكلام مضحك، ومن ذلك ما نقله القرطبي كما يلي: يقال: إنه وافى سبع قوافل من بُصْرَى وأَذْرِعات ليهود قُريظة والنَّضِير في يوم واحد، فيها البُرّ والطِّيب والجوهر وأمتعة البحر، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا

بها وأنفقناها في سبيل الله، فأنزل الله تعالى: (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ) أي فهي خير لكم من القوافل السبع، فلا تمدّن أعينكم إليها. انتهى كلام القرطبي.

وهذا التأويل الأعوج ليس فقط أخرج الآية من معناها بل وأظهر كم كان المفسرون يتلاعبون بالقرآن، ويجهلون أين نزلت السور؟ فالحجر لم تنزل في المدينة بل في مكة والحديث عن زوجة لأحد كبراء قريش الذين يشعر الرسول بالأسى والحزن على اصرارهم على الكفر لأنه لا يتمنى أن يذهبوا للنار، فتقول له الآية: « وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ» وهو ما أشارت له العديد من السور مثل:

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً(٦)الكهف.

وقوله: وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ(٧٠)النمل.

ومما أورد الطبري حول الآية قوله: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد: لا تتمنينّ يا محمد ما جعلنا من زينة هذه الدنيا متاعا للأغنياء من قومك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، يتمتعون فيها، فإن مِنْ ورائهم عذابا غليظا.

وهذا التأويل يتعارض مع ما يروج له المفسرون أنفسهم والمحدثون أن الرسول قد تزوج خديجة أغنى امرأة في قريش والتي تنافس كبار أغنياء قريش في التجارة، وعندما نزلت الآية كانت خديجة زوجة للرسول. وهو ما يعني أن الرسول يعيش في بيت غنى وليس بحاجة لتمني ما لدى أغنياء قريش لأنه يستطيع الحصول عليه.

والحقيقة التي نستشفها من القرآن تقول إن خديجة لم تكن من الأغنياء، والرسول بالفعل نظر وأطال النظر لزوجة أحد القرشيين فجاءه التوبيخ. والرسول بالفعل تاقت نفسه في لحظة من اللحظات إلى ما يتمتع به أغنياء قريش من مال وماديات ومتع دنيوية، وذكرت ذلك عدة سور منها: وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً(٢٨) الكهف.

لكن سورة الحجر لا تتحدث عن هذا.

ونفس الآية ٨٨ تبين أن الرسول يشعر بالأسى على قومه قريش كونهم استحبوا الضلال المؤدي بهم للنار، مع وضوح الحق. وتكون الآية (٨٨) تتحدث عن موضوعين منفصلين،

كما يلي:

الأول: نهي الرسول عن مد عينيه لينظر لنساء من قريش «لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ».

والموضوع الثاني: نهيه عن الحزن على وضع رجال قريش وتمسكهم بالموروث ورفض الحق: «وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ».

توجيه آخر للرسول

وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ(٨٩) كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ(٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ(٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٩٣) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ(٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ(٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّهِ إِلـهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(٩٦).

الآيات تطلب من الرسول مواصلة الدعوة (تلاوة ما ينزل عليه من الوحي) دون الاهتمام برفض قريش. وقد أطلقت عليهم الآيات «المقتسمين»، أي الذين تعاهدوا (على رفض الحق)، وأعرضوا عن سماع القرآن. وتطلب الآية من الرسول أن يصدع بما ينزل عليه ولا يهتم لردة فعل قريش.

ما يسمعه الرسول من قريش يحزنه

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ(٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ(٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ(٩٩).

الآيات تأمره بالاستمرار بتلاوة القرآن، والإعراض عن المشركين. والله يعلم أن الرسول يضيق صدره بما يسمع منهم من كلام نابٍ وسخرية، وعلى الرسول أن يستعين بالله ويتقوى بذكره وتسبيحه على مواجهة الصعاب. أما كبراء قريش فعما قريب سيموتون، ليلاقوا يومهم الذي يوعدون.

(٦٦) طه

تؤكد هذه السورة للرسول أن الدعوة ليست لشقائه: طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى(٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى(٣) تنزيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى(٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى(٥).

قارن هذا بختام سورة الحجر السابقة: وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ(٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ(٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ(٩٩).

ومن الواضح أن محمداً كان يعيش أوقاتاً عصيبة بسبب ما يواجه من قريش، والقرآن يقول له إن الدعوة ليس المقصود منها شقاؤك يا محمد، ولكن تبليغ الرسالة من الطبيعي أن يواجه بمثل هذا العنت.

وتؤكد السورة على أن القرآن - وسيلة الدعوة - تنزيل من الله.

واستوى على العرش تعني أن الله خلق الخلق وتولى سبحانه إدارة كونه ومخلوقاته.

(الآيتان: ٦-٧) تقولان إن الله سبحانه لا يحتاج للدنو من خلقه ليعرف ما يدور بينهم أو ليستمع لدعائهم: لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى(٦) وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى(٧).

فكل ما في الكون يسير بعلمه سبحانه وتعالى.

أسماء الله الحسنى

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى(٨).

وأسماء الله الحسنى في القرآن هي صفاته كالواردة في الآية التالية: هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ(٢٣) الحشر.

فاسمه سبحانه هو الله، ومن صفاته: «الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ» وغيرها.

وله سبحانه اسم ثانٍ هو الرحمن: قُلِ ادْعُواْ اللَّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيّاً مَّا تدعو فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً(١١٠) بني إسرائيل

وهناك عشرات الآيات التي تستخدم (الرحمن) كاسم لله ويمكن الرجوع إلى الرحمن في قسم ألفاظ من القرآن للمزيد.

والقول بأن لله (٩٩) اسماً مجرد تخاريف مفسرين ترسخت كغيرها من المعتقدات، وقد ذكر القرآن صفات لله كثيرة لكنها ليست بالتحديد (٩٩).

موسى وفرعون وبني إسرائيل

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى(٩) إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى(١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى(١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى(١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى(١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي(١٤) إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى(١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى(١٦) وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى(١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى(١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى(١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى(٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى(٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى(٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى(٢٣) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(٢٤).

الآيات تبدأ الحديث عندما كان موسى في البرية مع زوجته لوحدهما وفي بداية الليل عندما لمح موسى ناراً من بعيد، فاستأذن زوجته في الذهاب إلى من على النار لعلهم يرشدونه إلى الطريق الصحيح أو على الأقل يأتي بجذوة يشعل منها ناراً له ولزوجته يصطليان عليها ويتسامران وتطرد عنهما الزواحف والسباع. وما إن وصل موسى لمكان النار لم يجد عليها أحداً، لكنه سمع صوتاً يناديه ويطلب منه أن يخلع نعليه فهو في وادي اكتسب قدسية بسبب هذا التكليم. وواصل الصوت يخبر موسى أن عليه أن يتبع ما يوحى إليه وأن يكون أول المسلمين ولو كفر غيره من الناس[1].

ثم سئل موسى عما يحمله في يده اليمنى، فكان جوابه أنها عصاه. والسؤال ليس لجهل

١ ظني الشخصي أن الله جل جلاله لم يتحدث مباشرة مع موسى كما يتحدث الرجل مع آخر. وما سمعه موسى من صوت هو بقدرة الله وينقل له مشيئة الله ولكنه ليس الله. وقد يكون صوتاً يسمعه في ذاكرته وليس كلاماً مثل كلام البشر العادي الذي يسمعه بأذنيه. فالله جل شأنه بشهادة القرآن: ليس كمثله شيء. وكل ما للبشر فهو ليس من الله في شيء. والكلام وسيلة تواصل خلقها الله للبشر ويتنزه الله جل شأنه عنها. كما أن التواصل المباشر بين الخالق جل وعلا وبين أي من خلقه بشراً كانوا أو غيرهم لا يمكن أن يكون. فالخالق له عالم خاص وللمخلوقات عالمهم.

بالعصا ولكن ليسترعي انتباه موسى لما سيحدث للعصا التي طلب منه أن يلقيها من يده، وما إن فعل حتى تحولت حية تسعى. فطلب منه ألا يخاف وستعود لطبيعتها بمجرد إمساكه بها.

ثم طُلب منه أن يضم يده لجناحه أي بين جسده وثيابه، وهو ما عبرت عنه سور أخرى بالجيب، فلما أخرج يده إذا هي بيضاء اللون كآية ثانية يستطيع القيام بها أمام فرعون.

وبعد أن عرف موسى كيف يظهر تلك الآيات متى أراد، طُلب منه الذهاب إلى فرعون.

قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي(٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي(٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي(٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي(٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي(٢٩) هَارُونَ أَخِي(٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي(٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي(٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً(٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً(٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً(٣٥).

كان موسى يواجه صعوبة في النطق، ويحتاج لمن يقف بجانبه ليشد من أزره، وقد استجيب طلبه كنعمة وفضل من الله الذي أنعم عليه نعماً كثيرة، منها نجاته من القتل عندما كان رضيعاً كما حدث مع كثير من بني إسرائيل على يد زبانية فرعون وتنفيذاً لأوامره. ونجاة موسى من المطاردة بعد أن قتل أحد المصريين ووصوله لبئر مدين حيث لقي الملجأ وعائلة بديلة:

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى(٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى(٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى(٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي(٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى(٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي(٤١).

وقد كلف موسى برسالتين لفرعون:

الأولى: دعوته للإيمان بالله والدخول في دينه. ولو استجاب فرعون فسيعفي بني إسرائيل وغيرهم من السخرة ولن تتعرض نساؤهم للاستحياء ورجالهم للقتل، لأن أوامر الدين ستنهاه عن البغي.

الثانية: في حال لم يقبل فرعون الدخول في الدين فيمكنه البقاء على كفره لكن عليه السماح

لبني إسرائيل بالخروج من قرية مصر، لكن فرعون أصر على الكفر كما هو متوقع من كل طاغية، واعتبر آيات موسى سحراً.

أمر بجمع أمهر سحرة مصر لكي يظهر للناس أن موسى كاذب وليس رسولا لله لكن مساعيه باءت بالفشل وثبت للسحرة أن موسى صادق وليس ساحراً فآمنوا:

اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي(٤٢) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى(٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى(٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى(٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى(٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى(٤٨) قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى(٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى(٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى(٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى(٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى(٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى(٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى(٥٥) وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى(٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى(٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَاناً سُوًى(٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى(٥٩) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى(٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى(٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى(٦٢) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى(٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى(٦٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى(٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى(٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى(٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى(٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى(٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى(٧٠) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى(٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ

الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(٧٣) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيى(٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى(٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى(٧٦).

ومع استمرار تعنت فرعون وعدم سماحه لبني إسرائيل بالخروج من قرية مصر، استطاع موسى أن يتسلل من القرية مع من تبعه من بني إسرائيل ليلاً بعد أن ذهب المصريون للنوم، لكن فرعون لحق بهم حال معرفته في الصباح أنهم هربوا. وكاد أن يلحق بهم لولا أنهم دخلوا البحر وخرجوا منه قبل أن يدخله فرعون ويطبق عليه الماء ويغرق. وواصل موسى ومن معه المسير لنفس وادي طوى الذي تلقى التكليم فيه وذلك لكتابة التوراة، وأثناء غياب موسى تحول قومه لعبادة وثن صنعه له أحدهم:

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَّا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى(٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ(٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى(٧٩) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى(٨٠) كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى(٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى(٨٢) وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى(٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى(٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ(٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي(٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ(٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ(٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً(٨٩) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي(٩٠) قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى(٩١) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا(٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي(٩٣) قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ

تَرْقُبْ قَوْلِي(٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ(٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي(٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانظر إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً(٩٧) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً(٩٨)

وكل هذه التفاصيل يتلقاها محمد عليه الصلاة والسلام وحياً على شكل قرآن.

من يرفض القرآن سيخلد في النار

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً(٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً(١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاء لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً(١٠١)

وهو دليل آخر على أن من لا يتبع رسالة الإسلام التي جاء بها الرسول محمد فهو مخلد في النار ولو آمن بالله.

عندما يبعث الإنسان سيشعر أن بقاءه في الدنيا كان قصيراً جداً

يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً(١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً(١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً(١٠٤).

والآيات دليل على أن يوم القيامة سيكون بعد أن ينشأ كون جديد (ينفخ في الصور).

الآية (١٠٢) تقول بأن المجرمين يحشرون يوم القيامة زرقاً، وهذا تعبير مجازي يصور هول قلقهم من مصيرهم الذي عرفوا أنه محتوم، ولن تتحول ألوانهم زرقاء.

وتقول السورة أن المجرمين عندما بعثوا: يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً(١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً(١٠٤).

فإن كانوا يقصدون حياتهم في الدنيا فهي تشير إلى أن الدنيا تمر بسرعة، وكأن المرء لم يعش فيها سوى مدة قليلة. وهذا يمكن فهمه لأي منا عندما يفكر بالأعوام السابقة التي مرت عليه، وكأنها لحظات.

أما إن كان المقصود الفترة التي مرت منذ ماتوا وحتى البعث، فهو دليل على أن هذه الفترة ولو طالت لبلايين السنين فلن يشعر بمرورها الميت لأن الذاكرة تتوقف عن التسجيل. وهو دليل على أنه لا وجود لعذاب القبر، إذ لو أن هناك عذاب قبر لما مرت الفترة بسرعة.

رد على سؤال من قريش

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً(١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً(١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً(١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَت الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً(١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً(١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً(١١٠) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً(١١١) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً(١١٢).

قريش تسأل عن يوم القيامة وأين ستكون؟ وما الذي سيحدث للجبال؟ وهو سؤال من البيئة، كون الجبال الشاهقة تحيط بمكة من كل جانب، ويرون أنها عظيمة فهل ستنتهي؟ فجاء الجواب بأنها ستنسف وتسوى بالأرض. وهذا الجواب لتقريب الصورة في ذهن السائل بما يتناسب مع مداركه. وإلا فالقيامة ستكون في كون آخر غير هذا الكون، كما تؤكد الآية (١٠٣) السابقة وآيات عدة في سور أخرى.

وفي ذلك اليوم، ستجزى كل نفس ما كسبت، إن شراً فشر، وإن خيراً فخير.

القرآن كاف للهداية لو رغبت قريش

وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً(١١٣).

وهي دليل على أن دعوة محمد تقوم على تلاوة القرآن فقط.

توجيه للرسول

فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً(١١٤).

لا تحتاج يا محمد لترديد آيات السورة التي تنزل عليك خوفاً من نسيانها فلن تنساها. وهذا يعني أن محمداً ومن باب الحرص عاد لما كان يفعله في بداية الدعوة، وأصبح يردد آيات السورة التي تنزل عليه خوفاً من نسيانها. وكانت سورة القيامة أول سورة تؤكد للرسول أنه لا يحتاج لترديد نصوص الوحي لأنه ينسخ في ذاكرته ولن ينساه: لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ(١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ(١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ(١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ(١٩).

وكلا الآيتين دليل على أن القرآن ينسخ في ذاكرة الرسول وبإمكانه أن يسترجعه متى أراد حتى آخر يوم في حياته. ولذلك فعندما أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بكتابة القرآن في آخر حياته وبعد أن اكتمل نزوله، لم يواجه مشكلة في تذكر القرآن كما نزل.

آدم وإبليس

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً(١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى(١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى(١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى(١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى(١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى(١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى(١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى(١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى(١٢٣).

الجنة كانت على مرتفع أو فوق الجبال وأمر آدم وزوجه بالخروج منها والهبوط لأرض أسفل الجبل.

ثم تقول السورة في حديث عن وضع مشركي قريش: وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً(١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى(١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى(١٢٧).

تعبير مجازي مشابه لما ورد في الآية (١٠٢) والتي تقول: يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً.

فالمجرمون (الكافرون) لن يحشروا زرقاً، ولن يعيشوا في الدنيا عيشة ضنكاً، ولن يحشروا فاقدي البصر، ولكنه تعبير مجازي عن الضلال والكفر.

(الآية: ١٢٨) تقول إن قريشاً لم تعتبر لما حل بأمم سابقة أهلكت بسبب كفرها، وقريش تعرف مساكنهم: أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى(١٢٨).

وتقول الآية التالية (١٢٩): وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى. فالدنيا إن لم يعذب فيها كفار قريش فهذا عائد إلى أن الله خلق الدنيا للتحصيل والقيامة للحساب والجزاء.

خطاب موجه للرسول

فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى(١٣٠) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى(١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى(١٣٢).

وتطلب منه الصبر على سخرية قريش واتهاماتهم وجدالهم، وأن يستعين بذكر الله على تحمل الأذى. والآية (١٣١) تكرر نهي الرسول من أن يمد عينيه (يطيل النظر) لبعض أزواج رجال قريش الجميلات: «وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى». وهو ما سبق ونهته عنه سورة الحجر السابقة (الآية:٨٨).

والرسول هنا تصرف كبشر خاصة أنه شاب وزوجه «خديجة» قد بلغت من العمر عتياً ولم تنجب له كما تبينا من سور سابقة. ويبدو أن رسول الله امتثل بعد هذه الآية لأمر الله ولم يعد ينظر لأي امرأة أجنبية لأنه لو فعل فسيفضحه القرآن، والقرآن لم يشر لأي تصرف مماثل بعد ذلك أبداً.

ومما أمر به القرآن هو أن يداوم على الصلاة ويأمر بها أهله (أهل بيته) وهم زوجه خديجة وبناتها الأربع: رقية، أم كلثوم، زينب، وفاطمة وابنها.

عودٌ للحديث عن قريش

وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى(١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى(١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى(١٣٥).

رجال قريش يكررون على الرسول أن يريهم آية (معجزة) ليصدقوا أنه رسول الله، ويرد عليهم القرآن بأنه لو أرادوا الإيمان لكفاهم ما في القرآن الذي هو نفس الأديان السابقة. ولو رأوا آية فسيجدون مبررات أخرى تبقيهم على كفرهم، كما أنه لو حلت بهم كارثة قبل بعثة محمد لتمنوا لو أرسل لهم رسول ليهتدوا. وها هو محمد بينهم ولم يؤمنوا به.

والآية الأخيرة تقول لقريش تربصوا بما يحل بنا كمسلمين وسنتربص بما يحل بكم ويوم القيامة سيتضح من هو على صواب.

(٦٧) السجدة

افتتاحيتها تتشابه مع افتتاحية عدد من السور السابقة، مؤكدة على أن القرآن تنزيل من الله: الم(١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ(٢).

الرد على اتهام قريش للرسول

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ(٣).

والآية تقول: إن قريشاً لم يسبق أن أرسل لها رسول قبل محمد.

أيام تعني عصوراً جيولوجية

اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ(٤).

(الآية: ٥) ألف سنة تصوير حسي لطول ذاك اليوم، لتقريبه في الذهن، وليس بالضرورة أن يكون ألف سنة: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ(٥).

خلق الله للإنسان

ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ(٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ(٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ(٩).

بداية خلق الإنسان الأول كان من طين، كما شرحت الآيات (١٢-١٤) من سورة المؤمنون القادمة. ثم أصبح التناسل يتم عبر التزاوج والتقاء الماء المهين (المني) بالبويضة.

تأكيد البعث

وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ كَافِرُونَ(١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ(١١).

(الآية:١٠) دليل على أن الألفاظ تعرف معانيها من السياق، حيث عرفنا أن «ضللنا» تعني دفنا وتحللت أجسادنا، وليست من الضياع.

(الآية:١١) ملك الموت هنا لا يعني مخلوقاً حياً من الملائكة مكلفاً بنزع أرواح الناس، بل يعني آلية يتم بموجبها خروج النفس من الجسد. وتسميتها ملك الموت هنا تصوير حسي لتقريبها من ذهن المخاطب.

تصوير مجازي حسي لما سيكون عليه حال كفار قريش يوم القيامة

وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ(١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(١٣).

من تمسك بالموروث فلن يعود للحق، ولو أعيدوا يوم القيامة للدنيا لعادوا لموروثهم. والآية (١٣) لا تعني أن الله قد كتب مسبقاً على بعض قريش أنهم من أهل النار، لكي يملأ جهنم لأن الدين خيار شخصي. ولكن بما أن الله خلق العقل وجعل للإنسان السيطرة التامة عليه بحيث يختار الضلال أو الهدى، فمن آمن فالله قد هداه للحق (بطريقة غير مباشرة)، ومن كفر فالله قد أضله بطريقة غير مباشرة.

ثم تتوعد السورة كفار قريش: فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(١٤).

وعد للمؤمنين القلة في مكة

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ(١٥) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(١٦) فَلَا

تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٧).

وتصف الآيات المؤمنين بأنهم كلما ذكروا بالآيات خشعوا وذكروا الله، ولا تعني السجود الفعلي. ووَجَلَهُمْ من عذاب النار صورته الآية وكأن جنوبهم تجافي المضاجع، ولا تتحدث عن قيام فعلي في الليل للصلاة، فالحديث هنا جاء بعبارات مجازية ولا يحدث حرفياً.

لا يستوي المؤمن والكافر

أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَّا يَسْتَوُونَ(١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ(٢٠) وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ(٢٢).

الله لن يغفر لمستحق النار ولن يدخل النار من يستحق الجنة.

والآية (٢١) تتحدث عن العذاب الأدنى، وهو الهزائم التي ذاقتها قريش على أيدي المسلمين وفتح مكة، وهو خزي وعذاب مهين لهم. وهذه الأحداث لم تكتب مسبقاً، ولا تتحدث عنها الآيات كتنبؤات، ولكنها مما يعرف بالضرورة، عن طريق تتابع الأحداث وتصادم القوى بعد ذلك. فالمسلمون سيواجهون بعدوان قريش وسيناضلون ويصدون الاعتداء وينتصرون في النهاية.

مخاطبة بنو إسرائيل

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ(٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ(٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(٢٥).

كتاب موسى كان هدى لمن رغب من بني إسرائيل زمن موسى. وقد تبعه بعضهم وخالفه البعض، وسيفصل الله بين مؤمنهم وعاصيهم يوم القيامة.

قريش تعرف مساكن أمم سابقة هلكت وهي كافرة

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ(٢٦).

دعوة عقلانية

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاء إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ(٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ(٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ(٣٠).

وتجيب الآيات على تساؤل قريش الذي تردده على محمد دائماً عن موعد البعث، بأن البعث إذا جاء فلن ينفع قريشاً إيمانها، وتطلب من محمد أن يصبر وينتظر موعدهم يوم القيامة. والآيات تسمي يوم القيامة والبعث بيوم الفتح.

(٢) فترة فرض بعض التشريعات

أهم ما يميز سور هذه الفترة أنها بدأت بفرض تشريعات جديدة. وبما أن التشريعات لا تفرض إلا بعد وجود مجموعة من المؤمنين تكفي أعدادهم لتكوين مجتمع أو جالية مسلمة، فهذا يعني أن عدداً من المستضعفين في مكة قد آمنوا بعد أن بدأ القرآن يخاطبهم ويحذرهم من نار جهنم لو استمروا تابعين لأسيادهم في الكفر. إضافة لمن آمن من أهل يثرب بعد أن قام أوائل من أسلم من بني إسرائيل بنشر الدعوة هناك.

كما تظهر سور هذه الفترة أن قريشاً قد صعدت من أذاها على المسلمين، خاصة ضد من أسلم حديثاً من المستضعفين. لأنهم عصب الحياة في مكة الذين يقومون بالأعمال الخدمية فيها، كما سبق وذكر. وبما أن الحياة أصبحت لا تطاق بالنسبة لمن أسلم من المستضعفين حثتهم سورة الزمر على الهجرة.

مع استمرار السورة الواحدة إيراد آيات تخاطب قريشاً عن أمم سابقة، تليها آيات تخاطب بني إسرائيل عن أمم سابقة تهمهم وتهم تاريخهم، وهو ما بدا واضحاً في سور الفترة السابقة من هذه المرحلة.

(٦٨) المؤمنون

السور السابقة في هذه المرحلة كانت تؤكد على صحة القرآن وتخاطب مشركي قريش، أما هذه السورة فتبدأ بمخاطبة المؤمنين:

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ(٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ(٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ(٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ(٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ(٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ(٩) أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ(١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(١١).

ومخاطبة المؤمنين وفرض التشريعات يعني تكون مجتمع مسلم، بعضه في مكة، نتيجة لتزايد أعداد المستضعفين الداخلين للإسلام. إضافة لمن آمن من أهل يثرب نتيجة نشر الإسلام هناك على أيدي النفر الذين أسلموا من بني إسرائيل.

وتقول السورة إن الجنة في تلك الفترة، لمن يؤمن ويصلي بخشوع ويعرض عن اللغو (الكلام الفاحش) ويدفع الزكاة (الإنفاق) ويبتعد عن الفواحش بمختلف أنواعها. ويؤدي الأمانة ويحافظ على العهد والوعد.

والملفت هنا هو أن الالتزام بالمواعيد الشخصية والجماعية فرض ديني يدخل الجنة ومخالفته يدخل النار. والمسلمون اليوم أقل شعوب الأرض التزاماً بالمواعيد للأسف، أمماً وجماعات وأفرادا.

خلق الإنسان الأول

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ(١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ(١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ(١٤).

لكل سلالة من البشر الحاليين أجيال أولى خلقوا في ظروف مناخية وكيميائية معينة. والآيات تتحدث عن تلك الظروف وكيف تكونت تلك الجماعات البشرية. والبداية هي نقع التراب في الماء لفترة من الزمن حتى أصبح (طيناً لازباً) كما تقول سورة الصافات: إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ(١١)، أي بدأ الطين يتماسك، ويتحول إلى صلصال، كما تقول سورة الرحمن: خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ(١٤). تحت ظروف مناخية وكيميائية معينة، وفي مكان معزول، وبعد فترة طويلة من الزمن سمتها سورة الإنسان حين من الدهر: هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً(١) تحول الصلصال إلى نطفة (شكل هلامي وليس شيء متناهي الصغر)، ذات أمشاج كما أطلقت عليه سورة الإنسان: إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ.... (٢) أي هلامي.

«في قرار مكين» تعني تجويفاً تحت سطح الأرض.

هذه النطفة تحولت إلى علقة. أي تشكلت بشكل آخر، ثم تشكلت بشكل ثالث «مضغة».

ثم قست وتصلبت لتتحول إلى هيكل عظمي بشري.

ثم شيئاً فشيئاً بدأت تكسى باللحم والأعصاب والأوردة ...الخ، حتى أصبحت على هيئة إنسان كامل. ومن ثم نبت هذا الشكل البشري من التجويف الأرضي الذي تخلق فيها إلى السطح، كما تقول سورة نوح: وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً(١٧).

فخلق الإنسان في البداية مر بأطوار مختلفة عبر أزمنة طويلة، كما تقول سورة نوح: وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً(١٤).

وهذه الأطوار والمراحل خلط المفسرون بينها وبين خلق الجنين في الرحم وهو مختلف، فما كان من المستشرقين إلا أن اعتبروا هذه الآيات في سورة المؤمنون خطأ علمياً في القرآن يتعارض مع تخلق الجنين. وبما أنه ليس لدينا علماء مسلمون يعتمدون القرآن في إطلاق نظريات وحقائق علمية جديدة، فلم يتعرف أحد على ما يقول القرآن بوضوح هنا. لأن كل من يقرأ الآيات السابقة يفهمها بما يقول المفسرون وليس بما يقول القرآن.

ونكمل مسيرنا مع سورة المؤمنون

دعوة عقلانية للتفكير

ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ(١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ(١٦) وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ(١٧) وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ(١٨) فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاء تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ(٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ(٢٢).

الغلاف الجوي للأرض يتكون من سبع طرائق[1].

(الآية: ٢٠) تقول: «وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاء تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ».

الطور هو الجبل المنتصب، وهو هنا جبال السراة المنتصبة كالجدار أمام مكة. والمؤكد أن سيناء هنا هي اسم الطور، فهو طور (جبل) سيناء. وليست سيناء الحالية التي بين بلاد النيل وفلسطين، لأنها بعيدة عن مكة ولا علاقة لقريش بها، وليس لتلك البلاد ذكر في القرآن. وسيناء الحالية ليست اسماً لجبل بل اسم لمنطقة واسعة مساحتها (٦٠٫٠٠٠كم٢) وتحتوي على سلاسل جبلية كثيرة وصحار وأودية ومظاهر تضاريسية متنوعة. والآيات تخاطب قريشاً وتحدثهم عن شيء في بيئتهم ويعرفونه، ولعل طور سيناء هو جبال الطائف

١ العلماء يقولون إنهم تعرفوا على خمس أو ست طبقات للغلاف الجوي لكنهم لا يستطيعون الجزم إن كانت هذه الطبقات نهائية، كما أنهم يقولون إن هذه الطبقات تتداخل فيما بينها بحيث يصعب الفصل بين طبقة وأخرى بشكل جازم. مما يعني إمكانية وجود طبقة سابعة لم يتأكد العلماء منها بعد.

الحالية المطلة على مكة وكأنها جدار عملاق. وسيناء المصرية سماها اليهود في عصور قديمة بهذا الاسم، لتحل محل سيناء الأصلية (جبال الطائف المطلة على مكة)، ضمن مسخهم لتاريخهم وتاريخ العالم.

والشجرة التي تنبت الدهن وصبغ للآكلين ليست الزيتون كما يزعم المفسرون، لأن الزيتون لا ينبت في مناطق جنوب غرب الجزيرة العربية. وقد تكون شجرة السمسم، حيث تنبت بكثرة وتشتهر منذ القدم في جنوب غرب جزيرة العرب ويستخرج منها الزيت ويؤدم منه، فهي دهن وغذاء.

ثم تتحدث السورة عن أمم سابقة تعرفهم قريش هلكوا وهم كفار.

قوم نوح

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ(٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ(٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ(٢٥) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ(٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ(٢٧) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ(٢٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ(٣٠).

أمم أخرى متلاحقة

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ(٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ(٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاء الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ(٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ(٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ(٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ(٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ(٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ(٣٨) قَالَ

رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ(٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ(٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاء فَبُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٤١) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ(٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ(٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ(٤٤).

ويمكن ملاحظة أن منطق تلك الأمم متفق مع منطق قريش، ومن ذلك: طلب قوم نوح أن يروا الملائكة كدليل لصدق دعوة نوح (٢٤). وقالوا عن نوح هو مجنون (٢٥).

وأمم أخرى بعد ذلك، قالوا ما قالت قريش عن محمد: إن هو إلا بشر مثلنا (٣٣) وأنه لا بعث بعد الموت (٣٥) والرسول كاذب (٣٨).

وكل الأمم سارت على سنة واحدة (٤٤) تتمثل برفض دعوة الحق والتمسك بالموروث.

ثم تتجه السورة بالحديث لبني إسرائيل.

موسى وهارون رسلا لفرعون

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ(٤٥) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ(٤٦) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ(٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ(٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ(٤٩).

عيسى

وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ(٥٠).

عيسى وأمه آية، كون مريم حملت به بدون أب. وقد وضعت مريم حملها على ربوة.

كل الرسل مطالبون بالطاعة ككل الناس

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ(٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ(٥٢).

الأمم تترك الحق وتتبع تشريعات مبتدعة مختلفة

فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ(٥٣).

عود للحديث عن قريش

فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ(٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ(٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ(٥٦).

ما يتمتعون به من مال وبنين لن يدوم وسرعان ما يواجهون مصيرهم.

عود للحديث عن صفات المؤمنين التي بدأت بها السورة

إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ(٥٧) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ(٥٨) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ(٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ(٦٠) أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ(٦١).

الجنة لمن يشفق من خشية الله، ويؤمنون بآياته سبحانه (القرآن) ولا يشركون به، وينفقون لوجهه الكريم.

الله لا يكلف نفساً إلا بما تستطيع وستسجل الأعمال بدقة

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(٦٢).

وضع قريش وما سيؤولون إليه

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ(٦٣) حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ(٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ(٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ(٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ(٦٧).

قريش مصرة على الكفر، وسيندمون بعد فوات الأوان.

ليس هناك سبب منطقي لإصرار قريش على الكفر

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءهُمُ الْأَوَّلِينَ(٦٨).

القرآن لا يدعو لشيء منكر، لم تأت به الرسل قبله، لكنه خالف موروثهم.

أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ(٦٩).

الرسول محمد معروف لهم وهو من رجالهم.

أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ(٧٠).

اتهامهم الرسول بالجنون فقط لتبرير موقفهم الرافض للحق، وهم يعلمون تمام المعرفة أنه ليس كما يقولون.

وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ(٧١).

وقريش تطالب الرسول بمعجزات، ولن تلبى طلباتهم لأنه لا نهاية لها. ولو استجيب لكل ما يطلبون لفسد الكون.

أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ(٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(٧٥).

ورفض قريش ليس لأن الرسول يطالبهم بمقابل مادي نظير دعوته، وليس لأنه يدعوهم لمنكر، ولكن لأنهم اختاروا الضلال وأصروا عليه. ولو كشف عنهم عذاب الآخرة فسيعودون لغيهم.

وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ(٧٦) حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ(٧٧).

وقد مرت بقريش بعض المحن، لكنها لم تردعهم عن غيهم، لكن لو وقعت بهم كارثة فسيصيبهم القنوط واليأس.

ولو أرادت قريش الحق لعرفته من التفكير بعظمة خلق الله وقدرته: وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ(٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ(٨٠).

لكنهم تمسكوا بموروثهم: بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ(٨١) قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ(٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(٨٣).

ولو أرادت قريش الحق لعرفته من خلال التفكير المنطقي: قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ(٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ(٨٧) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ

يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ(٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ(٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ(٩٢).

ثم تتجه السورة لمخاطبة الرسول

قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ(٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٩٤) وَإِنَّا عَلَى أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ(٩٥) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ(٩٦) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ(٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ(٩٨).

والآيات ٩٦-٩٨ تظهر أن الرسول لم يتمالك نفسه من الرد على إساءة قريش له، وتطلب منه أن يبادل الإساءة بالحسنى وألا يسمح لشيطان النفس من إثارته. وهو نفس التوجيه الذي أمرته به الآيات (٣٤-٣٦) من سورة فصلت السابقة.

لحظة الوفاة يندم الإنسان ولات ساعة مندم

حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ(٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(١٠٠) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ(١٠٤).

التوبة لا تقبل عند الموت أو العجز، والآية (٩٩) تصور لسان حال الميت لحظة وفاته وكأنه يتمنى لو أعيد للحياة ليعمل صالحاً. والبرزخ هنا يعني الفترة الفاصلة بين الوفاة والبعث، وهي فترة مهما طالت ستمر على الميت وكأنها لحظات. وسيجد نفسه وقد بعث ودخل النار التي كفر بوجودها:

أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ(١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ(١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ(١٠٧) قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ(١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ(١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ(١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ(١١١) قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ(١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ(١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً

لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ(١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ(١١٦) وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ(١١٧) وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ(١١٨).

تصوير على شكل مشاهد لما سيكون عليه كفار قريش يوم القيامة، وكيف سيندمون، على إنكار الدعوة. وكان الحري بهم تدبر ما يتلى عليهم من رسول يعرفونه تمام المعرفة، بدل اتهامه بالجنون وهم يعلمون قبل غيرهم أنه ليس كذلك وأنه جاءهم بالحق الذي أنكروه.

(الآية:١٠١) البعث سيكون بعد أن ينشأ صور (كون) القيامة، وليس في هذا الكون الذي سينتهي.

(الآيتان:١٠٢-١٠٣) الحساب سيكون بناءً على صحيفة الأعمال وليس هناك حساب بالعواطف. فلن يغفر الله لمستحق النار، ولن يعذب مستحق الجنة.

ثم تقدم الآيات مشاهد حسية تصور حال الكفار (الحديث موجه لقريش) يوم القيامة. وتشير لبعض ما تقوم به قريش ضد المسلمين كالسخرية.

(الآيات: ١١٢-١١٤) سيشعر الكافر يوم القيامة أن بقاءه في الدنيا لم يزد عن يوم أو بعض يوم. إشارة إلى أن أيام الدنيا مهما طالت تمر بسرعة، وها نحن نشعر أن كل السنوات الماضية لم يكن لها وجود.

(٦٩) المعارج

تبدأ السورة بتأكيد أن العذاب سيقع بالكافرين (من قريش) لا محالة يوم القيامة: سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ(١) لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ(٢) مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ(٣) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ(٤).

وليس بالضرورة أن يكون طول ذلك اليوم خمسين ألف سنة، ولكنه تصوير حسي لطوله تقريباً لذهن المخاطب. كما أن اليوم الذي تعرج الملائكة والروح إليه لا يعني أن الحساب سيستغرق وقتاً يوازي خمسين ألف سنة. لأن الآيات تتحدث عن ثلاثة مواضيع مستقلة عن بعضها، وهي كما يلي:

الآيتان (١-٢) تؤكدان على أن العذاب سيحيق بقريش لا محالة.

الآية (٣) تصف الله جل جلاله أنه ذو المعارج.

الآية (٤) تقول إن الملائكة والروح تعرج في يوم مقداره خمسون ألف سنة، ولا تقول إن يوم الحساب مقداره خمسون الف سنة.

(الآيات: ٥-٧) تخاطب الرسول وتطلب منه الصبر فموعدهم قريب، لأن الأيام ستمر سريعاً وسيموت المكذبون (من قريش) ليواجهوا جهنم: فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً(٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً(٦) وَنَرَاهُ قَرِيباً(٧).

(الآيات:٨-١٨) تصوير مجازي حسي لنهاية الكون ولما سيكون عليه حال الكافر يوم القيامة: يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاء كَالْمُهْلِ(٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ(٩) وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً(١٠) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ(١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ(١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ(١٣) وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ(١٤) كَلَّا إِنَّهَا لَظَى(١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى(١٦) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى(١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَى(١٨).

(الآيات:١٩-٢١) تقرر حقيقة أن الإنسان لا يصبر على الفقر، لكنه لا ينفق إذا ملك المال: إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً(١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً(٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً(٢١).

(الآيات:٢٢-٣٥) تكرر ما ورد في سورة المؤمنون من تشريعات: إِلَّا الْمُصَلِّينَ(٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ(٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ(٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ(٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ(٢٦) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ(٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ(٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(٢٩) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(٣٠) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ(٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ(٣٢) وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ(٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ(٣٤) أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ(٣٥).

الحديث عن المطلوب لدخول الجنة في تلك الفترة، والمتمثل بما يلي: الصلاة، الإنفاق، الإيمان بالله والبعث، البعد عن الفواحش بكل أنواعها، المحافظة والحرص على الوعود والمواعيد، وقول الحقيقة وإقامة الشهادة.

(الآيات: ٣٦-٣٩) تساؤل يقول إن قريشاً لن يدخلوا الجنة لأن من عدل الله المطلق هو ألا يغفر للكافر ولا يعذب مستحق الجنة: فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ(٣٦) عَنِ الْيَمِينِ

وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ(٣٧) أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ(٣٨) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ(٣٩).

«أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم؟ الجواب جاء في أول الآية ٣٩: كلا!

(٧٠) الفرقان

السورة في مجملها تتحدث عن أن التمسك بالموروث يعمي البصيرة.

تبدأ السورة بالتأكيد لقريش أن الله هو من أنزل الوحي الذي يسمعون من محمد، وهو سبحانه من خلق الكون، وهو الذي ليس له ولد (بنات) كما يزعمون، وهو سبحانه الذي خلق كل شيء بقدر (قوانين ثابتة):

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً(١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً(٢).

ثم تتحدث السورة عن تمسك قريش بالموروث برغم سخافته وضلاله: وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً(٣).

قريش تبتدع تهماً جديدة للرسول

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْماً وَزُوراً(٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً(٥) قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً(٦) وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً(٧) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُوراً(٨) انظر كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً(٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاء جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً(١٠).

وتقول الآيات عن قريش إنهم اتخذوا عبادة الأوثان الجماد، بينما يتهمون محمداً بأنه يقول كلاماً ينسبه لله وهو كاذب. وما هو إلا كلام من عند محمد ومن أناس آخرين أعانوا محمداً عليه (٤).

ولو رجعنا لبداية الدعوة والمرحلة الرابعة وأول سور هذه المرحلة (الخامسة) لوجدنا قريشاً تتهم محمداً بالكذب على الله، أو أن كلامه شعر، أو تمتمة كاهن... الخ. لكنها لا تتهمه بأنه يتعلم القرآن من أشخاص آخرين. لأن دعوة محمد كانت موجهة لقريش فقط، ولم يكن يستمع له سوى قريش، التي تعرف محمد ويعرفها محمد. ولا مجال لأن يقولوا له إن هناك من يعلمك ما تقول وهم يعلمون أنه لا يوجد أحد يعلمه. أما الآن (وفي هذه المرحلة وما بعدها) فقد أصبح من المعتاد أن يحضر أناس من خارج مكة، خاصة من يثرب، للاستماع للرسول. وهؤلاء لا يعرفون محمداً ولا يعرفون مكة. لذا كانت قريش – في سعيها للصد عن الإسلام – تروج بين هؤلاء أن محمداً كاذب وما يتلو كلام علمه إياه آخرون. وأحياناً يقولون إن كلام محمد أساطير (قصص) قديمة أعاد محمد صياغتها(٥).

ومما تجادل به قريش هو طلب نزول ملائكة (٧) أو يلقى إليه كنز (٨).

والخلاصة أن قريشاً لن تؤمن وستستمر بالبحث عن تبريرات.

وتتوعدهم الآيات بمصيرهم يوم القيامة وتصوير ما ينتظرهم في النار تصويراً حسياً: بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً(١١) إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً(١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً(١٣) لَا تدعو الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً(١٤).

النار ليست مخلوقاً حياً له أعين يرى بها، ومع ذلك تقول الآية إنها ترى الكفار من مكان بعيد، كتعبير مجازي يقوي تأثير المشهد في النفس.

كما تصور نعيم الجنة للمؤمنين: قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاء وَمَصِيراً(١٥) لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُولاً(١٦).

(الآيتان: ١٧-١٩) مشهد مجازي تصويري من يوم القيامة يظهر محاكمة الله للأصنام ومن يعبدها من قريش، حيث تُسأل الأصنام إن كانت عملت على إضلال قريش: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاء أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ(١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً(١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلَا نَصْراً وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً(١٩).

والمشهد تخيلي ولن يحدث بحسيته هذه، ولكنه صور بتصوير مجازي حسي لزيادة التأثير في نفس المخاطب.

(الآيات:٢٠-٢٢) عود للحديث عن طلب قريش نزول الملائكة في الآية (٨)، وتقول الآيات إن الملائكة لن تنزل كدليل على رسالة محمد، ولو نزلت ورأتها قريش فهذا يعني أن العذاب سيحل بهم: وَما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً(٢٠) وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً(٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً(٢٢).

وتقول الآيات أن عمل الكفار سيكون هباء منثوراً بينما سيجزي الله المؤمن بالجنة: وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً(٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً(٢٤).

والآيات دليل على إن أعمال المشركين لن تقبل، وأن قريشاً كانت تقوم أحياناً بأعمال مهيبة فاضلة، لكن الجنة تحتاج لإيمان وعمل صالح معاً، ولا يكفي واحد دون الآخر.

ثم تقول السورة: وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلاً(٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً(٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً(٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً(٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولاً(٢٩) وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً(٣٠).

الآيات تقدم صوراً حسية ليوم القيامة، ثم تخاطب المستضعفين في مكة الذين سيندمون لأنهم تبعوا ساداتهم من قريش في الكفر ولم يستمعوا للقرآن(٢٧-٢٩).

(الآية: ٣٠) مشهد تصوري للرسول وكأنه يشتكي إلى الله إعراض قريش عن سماع القرآن، كناية عن كفر قريش وعدم إصغائهم. وهذا ينطبق على كل ظالم لنفسه بهجر القرآن واتباع تشريعات دون ذلك، كما هو حاصل الآن بين أتباع المذاهب.

(الآيات:٣١-٣٤) تقول أن كل رسول قوبل بالكفر وليس أنت فقط يا محمد: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً(٣١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا

نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً(٣٢) وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً(٣٣) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً(٣٤).

ومن جدال قريش أنها تقول للرسول لماذا ينزل عليه القرآن مجزأ (سورة سورة) ولا ينزل مرة واحدة؟ فيأتي الرد ليتم نسخه في فؤادك. وما لا تعرفه قريش هو أن القرآن ينزل ليعالج ويتفاعل مع الأحداث وليس كتاباً تشريعياً فقط. لذا سيستمر بالنزول ما دام محمد حياً، ولو طال عمر محمد عما كان لنزلت سور إضافية، لأنه ستقع أحداث فتنزل سور لتتفاعل معها.

(الآية: ٣٤) تصور كفار قريش على أنهم سيحشرون على وجوههم زيادة في الإذلال، لأن الوجه يمثل عزة وكرامة المرء. وهو كناية فقط ولن يحشروا على وجوههم.

(الآيات: ٣٥-٤٠) تخاطب قريشاً وتذكرهم ببعض من أهلك من الأمم السابقين: فرعون، قوم نوح، عاد، ثمود، أصحاب الرس، وغيرهم:

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً(٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً(٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً(٣٧) وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً(٣٨) وَكُلّاً ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلّاً تَبَّرْنَا تَتْبِيراً(٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً(٤٠).

الآية ٤٠ نعتت قوم لوط بالقرية التي أمطرت مطر السوء. والدليل على أنهم هم المعنيون جاء في سورة الشعراء: ١٧٣، والنمل: ٥٨. ومطر السوء يعني البركان.

والآيات التي تتحدث عن هلاك فرعون فقط تكون عادة موجهة لقريش، أما التي تتحدث عن تاريخ فرعون وموسى وبني إسرائيل فهي موجهة لبني إسرائيل. والآيات هنا تخص قريشاً لأنها تتحدث عن هلاك فرعون ولو لم يذكر بالاسم.

وزير في الآية تعني المعاون والمساعد، لأن هارون كان معيناً لموسى في تبليغ الرسالة[1].

---

١ وزير تستعمل رسمياً كمنصب للمسئول الأول في هيئة حكومية عليا تسمى وزارة، مثل وزارة العمل، وزارة التعليم... الخ. واستخدام وزير بهذه الصفة بعيداً عن معناها العربي والذي يعني المعاون والمساعد، ولكنها هنا ترجمة للفظ Minister وتعني في بريطانيا وظيفة كهنوتية في الكنيسة من بين مهامها عقد الأنكحة، وتقديم الإرشادات الدينية. ثم أصبح يتسمى

(الآيات:٤١-٤٤) تقص بعض سلوك قريش ضد الرسول: وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (٤١) إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٤).

قريش تسخر منه كلما مر بهم، وتقول الآية (٤٣) إن كفار قريش اتخذوا هواهم وظنونهم آلهة، ولست مسئولاً عن هدايتهم.

(الآية: ٤٤) دليل على أن التمسك بالعقائد الموروثة لا شأن له بحكمة المرء ورجاحة عقله. وعلى الرسول ألا يستغرب أن رجال قريش الذين يراهم عقلاء لا يستطيعون تبين الحق وإتباعه. ولهذا يتمسك المسيحي بعقيدته التي تنافي العقل، وكذلك الهندوسي، ومثلهم أتباع المذاهب.

(الآيات:٤٥-٦٢) دعوة عقلانية ورد على جدال قريش: أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً (٤٧) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً (٥٠) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً (٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً (٥٢) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً (٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاء بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً (٥٤) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً (٥٥) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ

بها المسئولون في الجهات الحكومية في بريطانيا، ومن بريطانيا عرفت طريقها لبلادنا. فأصبح لدينا وزير لكل هيئة حكومية، وأصبحت الهيئات الحكومية تسمى وزارات. والأولى أن يطلق على المسئول في الهيئة الحكومية لقب وزير بالمعنى العربي وهو المساعد والمعاون، ويترجم على هذا المعنى لنبتعد عن التسمية الكنسية البريطانية. والوزارة بمعناها البريطاني تعني خدمة العبد لربه، واستخدامنا لها بهذا المعنى يعني أن الوزير والوزارة وجدت لكي تخدم الرب (الملك هنا) وهذا المعنى يخرجها عن وظيفتها الأصلية وهي خدمة الناس.

عِبَادِهِ خَبِيراً(٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً(٥٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً(٦٠) تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً(٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً(٦٢).

(الآيتان: ٤٥-٤٦) تقول: « أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً». وقد أثار بعض الناس حولها معضلة تأويل لمعناها وكأنها تتحدث عن إعجاز علمي أو غموض لغوي لم يفكه غيرهم. وإلا فالآية تخاطب قريشاً على قدر مداركهم ولن تحدثهم عن شيء لا يفهمونه. وفهم الإنسان الذي بمستوى معارف قريش يعلم أن الآية تتحدث عن وجود ظل للأشياء، وأن الله قادر على أن يلغيه، دون حاجة لتعقيدات لغوية ولا عسف الآية لتبدو وكأنها تتحدث عن إعجاز علمي.

ثم تذكر الآيات بعض نعم الله على الناس.

وتقول الآية (٤٩) إن القرآن نزل بين قريش ليتذكروا، لكنهم كفروا وأصروا على الكفر، ولم يؤمن من مكة إلا قليل.

(الآية:٥١) ترد على تساؤل لابد أن قريشاً طرحته، عن عدم إرسال رسول لهم ورسل لغيرهم، بدل أن يرسل محمداً لكل الناس؟ والآية تقول إن الله لو شاء لأرسل لقرية مكة رسولاً ولقرية الطائف رسولاً ولقرية يثرب رسولاً ولكل قرية رسولاً. ولم يخبرهم القرآن من حكمة إرسال محمد وأنه سيكون لكل الناس في كل العصور لأنه ليس مقام الحديث عنه ولأن قريشاً في تلك اللحظة لن تصدق أن الإسلام سيخرج عن سيطرتها.

وتطلب الآية (٥٢) من الرسول ألا يستمع لجدالهم العقيم هذا وليجاهدهم بتلاوة القرآن عليهم.

والآيات تقول: لو أرادت قريش أن تؤمن لكفاها التفكير بما حولها.

(الآية:٥٦) محمد مجرد مبشر ومنذر فقط.

(الآية:٥٧) لا يتقاضى أجراً على الدعوة.

(الآية:٥٨) تطلب من الرسول الاستمرار بالتسبيح والاستعانة بالله ليتقوى بها على مواجهة الصعاب.

(الآية:٦٠) تقول: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً». والآية أولها المستشرقون على أنها تعني أن قريشاً لا تعرف لفظ «الرحمن» الذي استعاره محمد من أدعياء نبوة قبله مثل مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة، وقالوا هو لفظ غير عربي.

وقريش لو لم تعرف الرحمن لاحتجت منذ أن سمعت اللفظ في بداية الوحي، بل ولم تسم أبناءها باسم عبد الرحمن، مثل عبد الرحمن ابن عوف. والرحمن صفة متميزة، تعني مصدر الرحمة. وليس هناك غير الله من يمكنه أن يتصف بهذه الصفة، فهو وحده سبحانه الرحمن بذاته، وهو الرحيم لغيره. وكل صفات الله يمكن أن يتصف بها البشر تجاوزاً وليس بالتماثل. فيمكن أن نطلق على إنسان أنه رحيم أو كريم أو قادر أو قاهر أو عزيز، لكن لا يمكن أن نطلق عليه رحمن.

وتساؤل قريش الوارد في الآية «قالوا وما الرحمن» يعني هنا إنكارهم أن يعبد الرحمن وحده: قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا». ومثله: قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٧٠) الأعراف. ومثله: وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ(٤٥) الزمر.

فاستنكارهم ليس لعدم معرفة الرحمن ولكنه لعبادة الرحمن وحده.

(الآيات:٦٣-٧٦) تؤكد ما ذكرته أول سورة المؤمنون والآيات ٢٢-٣٥ من سورة المعارج السابقتين عن الأعمال المطلوبة لدخول الجنة في تلك الفترة: وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً(٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً(٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً(٦٥) إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً(٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً(٦٧) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً(٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً(٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً(٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَاباً(٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ

الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً(٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً(٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً(٧٤) أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً(٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً(٧٦).

وهذه الأعمال، كما يلي:

البعد عن الخيلاء «يمشون على الأرض هوناً». البعد عن الكلام الفاحش وتبادله مع الغير «وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً».

الصلاة، والتي عبر عنها هنا بـ : «الذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً» مع أنه ليس مطلوباً أن يصلي المسلم في ذلك الوقت طوال الليل، بل المطلوب كان الصلاة دون تحديد أوقات لتأديتها.

الخوف من عذاب الآخرة.

الإنفاق والبعد عن التبذير.

البعد عن الشرك.

عدم قتل النفس (وهذا تشريع جديد).

لا يزنون (هنا تحريم للزنا تحديداً) وكانت سورتا المؤمنون والمعارج قد حرمتا كل أنواع الفواحش ومنها الزنا.

ثم تقول الآيات: وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً(٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً(٦٩). وهذا تأكيد على أن من يقترف هذه الكبائر فسيدخل النار (يعني إذا أصر عليها). لكن لو تاب مباشرة فسيغفر الله له كما تقول الآية التالية: إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً(٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَاباً(٧١).

وهنا واضح أن التوبة لمن يتوب مباشرة بعد الكبيرة ولا يعود وسنجد ضوابط أخرى للتوبة في سور قادمة. فالتوبة مطلوبة ومعها المداومة على العمل الصالح.

وتستمر الآيات بسرد التشريعات اللازمة لدخول الجنة في تلك الفترة:

لا يشهدون الزور، ومثله الكذب. ولا يقربون الفحش من القول (وإذا مروا باللغو مروا كراما).

والذين يتفكرون ويتدبرون كلام الله.

والذين يسعون للأعمال الصالحة ليكونوا قدوة لغيرهم ويربون أبناءهم عليها.

(الآية: ٧٥) الغرفة هنا تعني الجنة، والسياق يعرفنا بالمعنى.

وتختم السورة بقوله: قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً(٧٧).

الدعاء هنا التوبة وليس طلبات الدنيا لأن عكسه التكذيب.

(٧١) الزمر

السورة تكرر التأكيد في عدد من آياتها على أن الله لن يعامل الكافر معاملة المؤمن، ولن يغفر لمستحق النار أو يدخل النار مستحقاً للجنة.

وبدايتها مماثلة لسور سبقت مثل السجدة، الحجر، النمل، لقمان، غافر، والزخرف، حيث تذكر أن القرآن (الكتاب) منزل من الله. والقرآن سمي بالكتاب مع أنه في هذه الفترة لم يكتب: تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(١) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ(٢).

مخاطبة قريش

أَلَا للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ(٣) لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ(٤).

الآيات تنكر على قريش عبادة الأوثان التي يظنون أن عبادتها وسيط بينهم وبين الله، كما تنكر عليهم القول بأن الملائكة بنات الله.

والآية (٣) تقول بأن موالاة شيء أو مخلوق عبادة له، وبالتالي فمن والى الكفار فهو يعبدهم من دون الله.

ثم تتحدث الآيات عن خلق الله الذي يدل على قدرته على البعث الذي تنكر قريش.

دعوة عقلانية

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ(٥) خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ(٦) إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٧) وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ(٨) أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ(٩).

الآية (٥) تقول: « وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى». والمعنى هنا أنها ستجري حتى يأتي اليوم الذي سينهار فيه الكون الذي نهايته معروفة عند الله وفي وقت محدد «أجل مسمى».

الآية (٦) تقول: «خلقكم من نفس واحدة» أي من نفس المواصفات للرجل والمرأة وليس من شخص واحد. لأنه سبق ومر بنا في الآيات (١٢-١٤) من سورة المؤمنون كيف أن خلق الإنسان الأول لم يكن من رجل واحد.

وتقول الآية نفسها: « وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ». ولعل الحديث هنا عن الأنعام (الحيوانات الأليفة) التي تعرفها قريش، لأن هناك أنعاماً لا تعرفها قريش تعيش في بيئات أخرى ألفها الناس. والثمانية أنواع من الأنعام هي: ذكر وأنثى من كل من: الضأن، والماعز، والإبل، والبقر، كما عرفتها لنا سورة الأنعام: ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤).

الآية (٧) تقول لقريش إن الله لا يرضى لكم الكفر، مما يعني ويؤكد أن كفرهم اختاروه بأنفسهم. والآية دليل على أن كل امرئ بما كسب رهين، وهو من يختار طريقه بنفسه.

الآيتان (٨-٩) دليل على أنه لا يمكن أن يتعامل الله جل وعلا مع الكافر بمثل ما يتعامل مع المؤمن، فلن يغفر لمن يستحق النار، ولن يدخل النار من آمن وعمل صالحاً. (والإيمان يكون برسالة محمد دون غيرها)

الهجرة إلى الحبشة

قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ(١٠).

الآية تعطي الضوء الأخضر للمضطهدين من المسلمين عند نزولها بالهجرة. والمضطهدون في هذه الفترة من أسلم من مستضعفي مكة. ولعلها تشير إلى ما عرف في كتب التراث بهجرة الحبشة.

واضطهاد المستضعفين يعني تزايد من دخل الإسلام منهم، لأن قريش لن تسمح للعبيد والموالي بترك الأعمال الخدمية في مكة والانضمام للمسلمين. ولم يهاجر أي قرشي مسلم، لأنهم لم يتعرضوا لأذى يجبرهم على ترك مكة، وإن تعرضوا للسخرية[1].

الرسول مطالب بكل ما يطلب من المسلمين

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ(١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ(١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(١٣).

فقد بقي بشراً بعد البعثة كغيره، وسيحاسب مثل أي واحد من البشر دون مراعاة خاصة.

دين الله يدعو دائماً للتعايش السلمي لكن غير المسلم لا يقبل

قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي(١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ(١٥).

---

١ ولمزيد من التفاصيل يمكن العودة لفقرة: الهجرة إلى الحبشة / قسم أحداث من عصر الرسول.

ويل للكافرين وبشرى للمؤمنين

لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ(١٦) وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ(١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ(١٨).

أحسن القول هو قول الحق، وأسوأ القول هو قول الضلال. وليس المعنى أن هناك قولاً حسناً وقولاً سيئاً في كلام الله المنزل.

كما أن قوله تعالى: «والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها» صياغة قرآنية مميزة بدل القول: اجتبوا عبادة الطاغوت.

لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ(١٩) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ(٢٠).

دعوة عقلانية

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ(٢١).

الآية تقول لقريش من يحيي النبات قادر على بعثكم.

عود لتأكيد أن المؤمن لا يمكن أن يقارن بالكافر

أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(٢٢) اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ(٢٣) أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ(٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ(٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ(٢٦).

ويمكن ملاحظة أن الآيات استخدمت عبارة (أفمن) للقول إن المؤمن لا يمكن مقارنته

بالكافر دون ذكر للفظ (كمن) المصاحب لها في العادة[1].

كما أن قوله: «أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ» المقصود بها المؤمن الذي يتقي العذاب بوجهه كمجاز لما يقدمه من عمل صالح لتجنب النار بأي وسيلة، وليس كما زعم المفسرون أن المقصود هو الكافر. وقد جاء لفظ (أفمن) سابقاً لمن يتقي بوجهه سوء العذاب، ثم جاء ذكر المضاد وهو الظالمون. ولفظ «أفمن» يأتي بمعنى تساؤل لبيان التضاد بين شيئين.

لو كانت قريش ترغب في الحق لكفاها القرآن

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٧) قُرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ(٢٨).

القرآن الواضح العبارات والذي يحتوي على كل ما يحتاج المرء من حقائق وعبر ليؤمن، وهو المقصود بقوله: «من كل مثل».

عود مرة أخرى إلى التأكيد على أنه لا يستوي المؤمن والكافر

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(٢٩).

الخطاب للرسول ستموت ويموتون وتحاسب ويحاسبون

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ(٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ(٣١).

قريش تختلق نصوصاً وتنسبها للقرآن للصد عن دين الله

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ(٣٢).

أول مرة تذكر السور عبارة: «فمن أظلم ممن كذب على الله» والتي سترد في سور قادمة. وهي عبارة تشير إلى ما بدأت قريش تقوم به لصرف الناس القادمين إلى مكة عن لقاء الرسول والاستماع للقرآن، وذلك باختلاق نصوص من عند أنفسهم زاعمين أنها من القرآن. وكانت سورة لقمان أول سورة أشارت لهذا النشاط الجديد المعادي للدعوة، في الآيتين (٦-٧).

---

١ انظر فقرة: من استخدامات «أفمن» في القرآن / قسم من أساليب القرآن.

لا تستوي أفعال قريش وأعمال المؤمنين

وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ(٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ(٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ(٣٥).

رجال قريش سيلقون جزاءهم في النار لكفرهم ومحاولاتهم صد الناس غيرهم عن الدين. وفي المقابل سيكون لمن آمن وصدق الجزاء الأوفى من ربهم.

رجال قريش يتوعدون الرسول

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ(٣٦).

الآية تشير إلى أن قريشاً بدأت تهدد وتتوعد محمداً بشكل علني بعد أن كانت تتربص به خفية كما ورد في الآيات (٣٠-٣١) من سورة الطور. وتقول الآية إن الله كاف عبده محمداً، فلا يقلق من تهديدات من هم من دون الله. وطمأنة الله للرسول لا يعني أن الله سيتدخل فعلياً ومباشراً لمنع قريش من قتل الرسول، ولكن الله تدخل بصورة غير مباشرة عندما جعل مكة بلداً آمناً لا يتعرض لمن فيها، واحترمت قريش هذا طوال تاريخها. فلا خوف على الرسول من أن تقتله قريش ما بقي في مكة، وداخل حدود الحرم.

الدين خيار شخصي

(الآية: ٣٧) تقول: « وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ».

الهداية من الله من باب الفضل وليس أن الله قد اختار من خلقه بعضاً للجنة وبعضاً للنار. فالهداية خيار شخصي، والدليل قالته هذه السورة في آية قادمة: إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ(٤١).

لكن بما أن الله جل شأنه هو من خلق العقل للإنسان والعقل هو الذي يهدي صاحبه للهداية أو الضلال، فمن ضل فقد اضله الله (بطريق غير مباشر) ومن اهتدى فقد استخدم عقله كما يجب، وكأن الله هو من هداه وبشكل غير مباشر.

عودٌ للدعوة العقلانية

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ(٣٨) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ(٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ(٤٠).

لو كانت قريش تريد الهداية لاستمعوا للقرآن

إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ(٤١).

الموتُ كالنوم والبعث كما الاستيقاظ

اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٤٢).

وهذا التشبيه البسيط كاف لقريش لأن تؤمن بالبعث لو كانت تعقل.

عودٌ للدعوة العقلانية

أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاء قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ(٤٣) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ(٤٥) قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ(٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(٤٨) فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ(٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاء سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ(٥١).

قريش ترفض الدعوة وغرتهم الحياة الدنيا وما يملكون من أموال. وغفلوا أن الله جل وعلا

هو من يبسط الرزق وهو من يقدر، وقد يصيبهم الفقر والعوز في أي لحظة. ليس لأن الله يتدخل مباشرة ولا أن الله جل شأنه قد قرر من سيكون فقيراً ومن يكون غنياً منذ الأزل، ولكن لأن الله هو من أوجد العوامل التي متى توفرت جلبت الربح المادي، ولولا مشيئته سبحانه لما اغتنت قريش: أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٥٢).

وتدعوهم السورة إلى الدخول في دين الله وأن لا يسرفوا على أنفسهم بالاستمرار على الكفر، فالله غفور رحيم لكل من تاب وتبع القرآن، ولئلا يموتوا على الكفر ويندموا يوم القيامة يوم لا ينفع الندم:

قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ(٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ(٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ(٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ(٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ(٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ(٥٩) وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ(٦٠) وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(٦١) اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(٦٢) لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(٦٣)

وتتوجه السورة للرسول:

قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ(٦٤).

وقريش لم تأمر الرسول بالكفر، ولكنها تقول له إن الدعوة كاذبة، وإنه لا ينزل عليه وحي من الله، وإنه لا بعث ولا حساب. والآية تقول لهم: كيف تعبدون غير الله؟

الرسل سيحاسبون كغيرهم من البشر، ولو كفر أحد منهم فسيعذب

وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٦٥) بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ(٦٦).

وهذه الآية تشير إلى أن كفر رسول من رسل الله قائم ومحتمل.

تكذيب قريش بالبعث سوء تقدير لعظمة الله

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ(٦٧).

أن تطوى السماء وتكون الأرض في قبضة الله يعني أن كل الكون تحت تحكمه سبحانه (تعبير مجازي) ولا تعني أن لله يداً أو أيدياً. ولكنها صور حسية مماثلة للصور الحسية الكثيرة التي وردت في السور تصور انهيار الكون وذلك لتقريبها من ذهن المخاطب (قريش). وإلا فالله ليس له يد لأن أي شيء لنا أو نستطيع تخيله فليس لله منه شيء: فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(١١) الشورى.

تصوير مجازي حسي لانهيار هذا الكون ولنشأة كون القيامة

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ(٦٨).

هذه هي الآية الوحيدة في القرآن التي تجمع تصوير انهيار هذا الكون: «ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض»، مع تصوير نشأة كون القيامة: « ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ». وما عدا هذه الآية فكل الآيات التي تذكر الكون «الصور» فهي تصور نشأة كون القيامة لوحده كما في السور التالية: النبأ: ١٨، ق: ٢٠، يس: ٥١، الكهف: ٩٩، النمل: ٨٧، طه: ١٠٢، المؤمنون: ١٠١، أو تصور انهيار هذا الكون لوحده، كما في سور أخرى.

صور مجازية حسية ليوم الحساب وما في الجنة والنار

وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ(٧٠) وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ

عَلَى الْكَافِرِينَ(٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ(٧٢) وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ(٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ(٧٤) وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٧٥).

صور حسية لما سيكون عليه يوم القيامة والحساب ودخول الكفار النار والمؤمنين الجنة، وكأنهم سيساقون كقطيع عبيد مسلوبي الإرادة، وهي صورة تعرفها قريش جيداً. وكذلك تصوير الملائكة وكأنهم خدم حول كرسي سلطان بشري. وهذا لن يحدث على أرض الواقع، ولكنه تصوير حسي لتقريبه من ذهن المخاطب (قريش).

وتختم أعمال القيامة بعبارة: «الحمد لله رب العالمين» التي تختم بها الأعمال والأقوال.

(٧٢) الأعراف

نزلت في الفترة التي تلت هروب المؤمنين المستضعفين من مكة إلى أرض الحبشة الأفريقية (شرق السودان) مستجيرين بالعرب هناك خوفاً من سطوة قريش وبطشهم. وبقي في مكة قلة قليلة مسلمة جلهم ينتسبون لقريش، ونسبهم هذا كان درعاً واقياً لهم من الاضطهاد، ومعهم رسول الله، لكنه سيزيد الأذى النفسي عليهم والسخرية منهم. ويترافق هذا مع تتابع دخول نفر من بني إسرائيل يثرب للإسلام، وهو ما يعني أن يثرب أصبحت على علم بما يجري في مكة وما يقوم به الرسول من دعوة وتفاعل معها.

وآيات السورة تتشابه مع السورة السابقة من حيث إنها بمجملها عقلانية وتخاطب قريشاً، مع كثرة التنقل بين المواضيع.

افتتاح السورة بحروف

المص(١).

تأكيد أن القرآن وحي منزل من الله

كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ(٢).

لقد كان الرسول في بعض الأحيان يشعر بالحرج من تلاوة بعض الآيات، لكنه يتلوها لأنه

لا يستطيع تجاوزها. ولعل من تلك السور ما يفضح تصرفاته هو كاستراق النظر للنساء، وقد تكون بعض السور التي تهاجم أشخاصاً معينين من قريش، وإن كنت أميل إلى أنها تلك الآيات التي تقول إنه لن يعطى آية، لأنه كان يأمل بأن يعطى آيات لعل قريشاً تؤمن.

اتباع كلام لغير الله موالاة للمتبوع وعبادة له

اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ(٣).

وهو تكرار لما ذكرته الآية (٣) من السورة السابقة الزمر.

تحذير لقريش أن يصيبهم ما أصاب أمماً سابقة

وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ(٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ(٥) فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ(٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ(٧).

كل أمة إذا حل بها العذاب اعترفت بذنبها وأقرت بكفرها وآمنت بربها في وقت لا ينفعها إيمانها.

الآيات دليل على أن التوبة عند الموت لا تقبل.

يوم القيامة سيحاكم الناس بعدل مطلق يعتمد على تسجيل النفس لما صدر منها

وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ(٩) وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ(١٠).

الحساب سيكون بناءً على صحيفة الأعمال، التي تصورها السورة هنا بالميزان، لتقريب الصورة.

خلق آدم وموقف إبليس

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ(١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ(١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ(١٣) قَالَ انظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ(١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ

صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ(١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ(١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ(١٨) وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ(١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ(٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ(٢١) فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ(٢٢) قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٢٣) قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ(٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ(٢٥).

الآية (١٣) الخروج منها هنا يعني الخروج مطروداً من عالم الملائكة.

والآيات تتحدث عن شجرة أكل منها آدم وزوجه فلما أفاقا وجدا نفسيهما عاريين، مما يعني أنها نبات بري مخدر. والنباتات البرية المخدرة تنتشر في أرجاء كثيرة من الأرض بما فيها جنوب جزيرة العرب حيث خلق آدم.

(الآية:٢٤) هبوط آدم وزوجه يعني أن الجنة (الغابة) كانت على أرض مرتفعة (جبلية) وطلب منه النزول منها إلى الأرض السهلية تحت الجبل[1].

مخاطبة قريش

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ(٢٦) يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ(٢٧).

قريش من نسل آدم بحكم أن آدم أبو الرسل المذكورين في القرآن، وقريش من نسل إبراهيم الذي هو من نسل آدم. لذا فالآيات تنادي قريشاً بأنهم «بنو آدم». ويمكن القول بأنه ليس كل سكان جزيرة العرب من نسل آدم. والآيات تؤكد لقريش بضرورة الحشمة وعدم إبداء

١ انظر قسم: خلق آدم وموقف إبليس / كتاب: من آدم على محمد.

السوأة (العورة)، وتحذرهم من فتنة الشيطان التي بسببها فقد آدم وزوجه لباسهما وهما في الجنة: فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) طه.

فآدم وزوجه بعدما أكلا من الشجرة فقدا السيطرة على وقارهما وتجردا من ملابسهما. أي أن أوراق الشجرة تحتوي على مادة (مغيبة للعقل) وقد تصرف آدم وزوجه أثناء وقوعهما تحت تأثير هذه المادة بعيداً عن الوقار وفقدا ملابسهما، ولما أفاقا تبين لهما أنهما عاريان فسارعا يخصفان عليهما من ورق الجنة لستر عورتيهما.

والآيات تنهى قريشاً أن يفقدوا وقارهم كما فعل أبواهم، مما يعني أن رجال قريش كانوا يأكلون بإسراف ويشربون الخمر بإسراف لدرجة فقدان الحشمة والوقار والملابس وممارسة الفجور في نواديهم تحت تأثير السكر، ويقولون لولا أن الله رضيها لهم لمنعهم عنها. (يقصدون منعاً فعلياً مباشراً)

والآية التالية تشير لهذه التصرفات: وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٢٨).

وتبين السورة ما الذي أمر الله به:

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ(٢٩) فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ(٣٠).

وقريش باتباعهم الموروث وتمسكهم به اتبعوا شياطين سلفهم واتخذوهم أولياء من دون الله.

أخذ الزينة لدخول المسجد والأكل والشرب دون إسراف

يَابَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ(٣١).

مناداة قريش ببني آدم لأنهم بالفعل من بني آدم، كون قريش من نسل إبراهيم، وإبراهيم وكل الرسول المذكورين في القرآن من نسل آدم. وليس كل البشر من بني آدم، بل إنه ليس كل سكان جزيرة العرب من بني آدم.

ويمكن القول إن بعض رجال قريش كانوا يخرجون من نواديهم وأماكن مجونهم ويدخلون المسجد الحرام وهم سكارى وبملابس بعيدة عن الحشمة. وبالتالي فأخذ الزينة هنا ليس المقصود به المسلمين، وما يؤكد هذا أن السورة من سور المرحلة الأخيرة للدعوة في مكة والتي أقدمت فيها قريش على منع المسلمين القلة من دخول الحرم، كما ذكرت ذلك سورة الحج: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥).

قريش تحرم بعض المظاهر والقرآن يبين لهم ما الذي حرمه الله

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٣)

قريش تحرم بعض الملابس أو المظاهر اتباعاً للظن، والآيات ترد عليها وتقول إن الفواحش هي المحرمات، سواءً عملت في الخفاء أو جهراً. وهذا فيه رد على الموروث الذي يقول بأن عمل الفواحش في الخفاء أقل معصية من الجهر.

والآيات تحرم أي نوع من المعاصي (الإثم)، والبغي (الظلم والتعدي) والشرك، والقول على الله ما لا نعلم. ويدخل في القول على الله ما لا نعلم كل تشريع لم يقل به كتاب الله ونسب للدين، مثل فتاوى رجال الدين، ومثل الأحكام الفقهية التي تعتمد الحديث دون القرآن، ومثل أي حكم قضائي باسم الإسلام وليس له أصل في القرآن.

الآيات تحمل تحذيراً لقريش من ارتكاب الموبقات تحت تأثير السكر.

وتستمر السورة تخاطب قريشاً:

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ(٣٤) يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٣٦).

الأجل هنا للأمة، ولا يعني أن كل فرد مكتوب عليه متى يموت مسبقاً. وأجل الأمة المذكور هنا يشير إلى الأمة التي تتعرض لكارثة تهلكها، كما حدث مع قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم. فمتى وقعت الكارثة فسيهلكون ولن ترفع عنهم.

وتكرر تحذير قريش من استمرارهم على الكفر ورفض الدعوة.

قريش كانت تكذب عمداً على الله

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَـئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ(٣٧) قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَـؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـكِن لاَّ تَعْلَمُونَ(٣٨) وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ(٣٩) إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ(٤٠) لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ(٤١).

كلما وردت عبارة: «فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو الكذب أو نحوها» فالمقصود بها قريش التي بدأت باختلاق نصوص وإسماعها لمن يقدم مكة لرؤية الرسول وكأنها هي القرآن لتنفيرهم من الدخول في الإسلام أو لقاء الرسول.

وقريش كذبت على الله وكذبت بآياته، والآيات تصور مآلهم يوم القيامة، على شكل مشهد مجازي يصور أجيال الأمم الكافرة وهي تتتابع في النار. وكلما دخل جيل لعن الجيل الذي سبقه لأنه هو من ورثه موروثه الضال. وكل جيل يدعون الله أن يزيد من عذاب سلفهم. فيأتيهم الجواب بأنهم جميعاً سينالون نفس العذاب. ويرد السلف قائلين بأنهم لم يكونوا هم من أضل الأتباع لأنه كان بإمكانهم تحكيم عقولهم واتباع الحق.

وتؤكد السورة أن كل من عاند الحق وأصر على التمسك بالموروث واستكبر عن الحق لن يدخل الجنة، إلا لو ولج الجمل سم الخياط في تعبير مجازي يؤكد استحالة حصولهم على الغفران والجنة، وأن جزاءهم النار لا محالة.

من آمن وعمل صالحاً دخل الجنة، قانون إلهي ثابت لا يتغير

وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٤٣).

ولن يدخل الجنة مستحق للنار بشفاعة بشر، كما أن الله لن يغفر لمستحق النار لأن الله جل شأنه لا يتعامل بالعواطف. وبلغة بسيطة جداً: لن يغفر الله لمستحق النار بسبب دعاء غيره من البشر أو أن هناك من سيشفع له يوم القيامة. فالله وضع قوانين ثابتة واضحة، تقول: من آمن وعمل صالحاً فله الجنة. ومن آمن فقط أو عمل صالحاً فقط أو ارتكب أي عمل يوجب النار فسيدخل النار ولو آمن. ومن دخل النار فلن يخرج منها.

مشهد افتراضي مجازي يصور محادثة بين أهل الجنة وأهل النار

وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ(٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ(٤٥) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ(٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٤٧) وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ(٤٨) أَهَـؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ(٤٩) وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُواْ إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ(٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَـذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ(٥١) وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٥٢) هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ(٥٣).

والحوار الذي دار بين كفار قريش (أهل النار) ومسلميهم (أهل الجنة) ومن سموا برجال

الأعراف كله مشهد تصويري افتراضي لن يحدث، لأن من في الجنة لن يروا النار وأهلها، ولن يرى أهل النار الجنة ومن فيها. وما قدمته الآيات السابقة على شكل مشهد هو للترغيب والترهيب.

دعوة عقلانية

إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٥٤) ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ(٥٥) وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ(٥٦) وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٥٧) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ(٥٨).

الدعاء في الآيات السابقة لا يعني طلب أشياء دنيوية ولكن الاستغفار والتوبة.

(الآيات: ٥٩-٩٣) حديث عن أمم سابقة أهلكت بسبب كفرها لعل قريشاً تعتبر مما حدث لهم وتؤمن:

نوح وقومه

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(٥٩) قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ(٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ(٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ(٦٤).

من سنة الأولين ألا يصدق الناس بأن الله يرسل لهم رسولاً منهم، رجلاً عادياً نشأ بينهم.

عاد

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ(٦٥) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ(٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ(٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ(٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٦٩) قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ(٧١) فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ(٧٢).

من سنة الأولين:

- الصاق التهم بالرسول: السفه والجنون والكذب.
- عدم التصديق أن رجلا من بينهم يختاره الله للرسالة.
- التمسك بالموروث : " قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا".

ويفهم من الآيات بعض الأمور عن قوم عاد، كما يلي:

قوم عاد هم نسل من نجا مع نوح: « وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ». وتحولوا للوثنية كسنة سارت عليها كل الأمم.

كان لهم عدة أصنام هم من سماها: « أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ». كما سمت قريش: اللات والعزى ومناة.

ثمود

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٧٣) وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ(٧٤) قَالَ الْمَلأُ

الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ(٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ(٧٦) فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ(٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ(٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ(٧٩).

من سنة الأولين:

- لا يؤمن إلا قلة قليلة أغلبهم من المستضعفين: « قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ(٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ(٧٦)».

ثمود أهلكوا بالرجفة (الزلزال).

قوم لوط

وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ(٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ(٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ(٨٢) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ(٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ(٨٤).

كانوا يأتون الفاحشة بين الرجال.

امرأته كانت من الغابرين.

أهلكوا بالبراكين: « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ».

قوم شعيب

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(٨٥) وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ(٨٦) وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ

حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ(٨٧) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ(٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ(٨٩) وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ(٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ(٩١) الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ(٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ(٩٣).

من سنة الأولين:

- كانوا يمارسون الغش التجاري: « قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ». كما كانت تفعل قريش.
- كانوا يحاولون صد الناس عن الإيمان بشعيب: "وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً". كما كانت قريش تفعل.
- لم يقبلوا بالتعايش السلمي مع المؤمنين: « وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ(٨٧) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ(٨٨)».

وقد هلك قوم شعيب بالزلزال (الرجفة).

وإذا كانت عاد من نسل من نجا مع نوح (الآية:٦٩)، وثمود من نسل من نجا مع هود (الآية: ٧٤). فهو إشارة إلى أن من آمن بالرسول ونجوا معه، تبدأ أجيالهم اللاحقة تبتعد عن الدين وتتحول إلى تشريعات بشرية مبتدعة شيئاً فشيئاً حتى تحل محل دين الله، فيرسل الله لهم رسولاً لإعادتهم للدين القويم الذي كان عليه أجدادهم. فالابتعاد عن الدين سنة سارت عليها كل الأمم، وهو ما تؤكده الآيات (٩٤-١٠٢) التالية:

كل الأمم السابقة أصابها البأساء والضراء

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ(٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ(٩٥).

وكانوا ينسون الله عندما يسود الرخاء وينغمسون في متع الدنيا.

لو آمن الناس لنعموا بنعيم الدنيا قبل الآخرة

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ(٩٦).

تطبيق قوانين الدين تضمن سعادة الدنيا.[١]

كيف يطمئن أهل القرى الكافرة

أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ(٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ(٩٨) أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ(٩٩).

كيف لا يؤمن من عاش بعد هلاك قوم كافرين

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ(١٠٠).

الآية تشير لقريش التي تسمع بقصص أمم سابقة هلكت وهي كافرة، ومع ذلك تصر على الكفر.

كل القرى المذكورة في القرآن تبعت سنة أزلية واحدة

تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ(١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ(١٠٢).

وقريش تسير على نفس الطريق.

---

١ التفاصيل في كتاب: رسالة في الشورى والإنفاق «قوانين قرآنية مغيبة تضمن حقوق الفرد وحرية الجماعة» / من منشورات الجمل.

وبعد أن سردت السورة بعض الأخبار عن أمم سابقة هلكت وهي كافرة لعل قريشاً تعتبر، تتجه السورة إلى بني إسرائيل محدثة إياهم عن أنباء لأمم وأشخاص يعرفونهم.

موسى وفرعون

تورد السورة أخباراً عن موسى والتكليم والذهاب إلى فرعون والسحرة وغرق فرعون ومواقف بني إسرائيل من دعوة موسى ومواضيع أخرى في سرد يعتبر الأطول من نوعه في القرآن عن موسى وفرعون، ويتخلله آيات تخاطب قريشاً كما سنرى.

كل الأمم التي تقدم ذكرها في السورة سبقت زمن موسى

ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ بِهَا فَانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ(١٠٣).

والآية تعطي ملخصاً لما حدث لفرعون بسبب تكذيبه لموسى، ثم تبدأ بعرض التفاصيل. وسوف نتتبع الآيات ونعلق عليها لأنها تعطي صورة واضحة حسب ترتيب الأحداث التي وقعت لبني إسرائيل.

موسى يدعو فرعون للسماح لبني إسرائيل مغادرة مصر

وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ(١٠٤) حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللهِّ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ(١٠٥).

الله جل وعلا أرسل موسى إلى فرعون بدعوتين، إحداهما – التي تتحدث عنها الآية هنا – هي الطلب من فرعون السماح لبني إسرائيل مغادرة مصر. ولما رفض فرعون ذلك جاءت دعوته للإيمان بالله، لأنه لو آمن فسيتخلص بنو إسرائيل من العبودية وسيعاملون بمساواة وعدل مع المصريين، دون حاجة لمغادرة مصر.

ومحاولة إخراج بني إسرائيل من مصر تشير إلى أنه برغم مرور زمن يقدر بمئات السنين على تواجدهم في مصر لم يختلطوا بالمصريين ويصبحوا منهم. وكما ورد في العديد من السور، كانوا يعيشون في مصر بمعزل، ويعاملون كعبيد. ولم يكن هناك زواج مختلط بين المصريين وبني إسرائيل.

وقد يكون سبب ذلك عائداً إلى أن يوسف (أحد آباء بني إسرائيل) أُحضر لمصر كرقيق، وبقي

رقيقاً في نظر المجتمع المصري، حتى بعد أن حظي بثقة الملك وجعله أميناً على مستودعات المحاصيل الزراعية. وبعد أن أحضر والديه واخوته للعيش معه في مصر استمرت النظرة لهم على أنهم «عبيد»، لكن مكانة يوسف عند الملك خلقت له حصانة حمته وعائلته من الاضطهاد والتحقير، لكنها لم تخلصه من نظرة الناس له ولعائلته كرقيق للملك. ومع تتابع الأجيال تكاثر بنو إسرائيل في مصر، مكونين طبقة من المنبوذين اجتماعياً. لكن أوضاعهم زمن حكم الملك فرعون السيئة زادت سوءاً لدرجة أن نساءهم تعرضن للاستحياء وأطفالهم للقتل، فأرسل موسى لإخراجهم من مصر كونهم نسل إبراهيم.

آيات موسى

قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(١٠٦) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ(١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ(١٠٨).

هنا يذكر آية العصا وآية اليد، ولم تذكر السورة هنا بقية التسع الآيات التي أعطي موسى.

الملأ يشيرون على فرعون

قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ(١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ(١١٠) قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ(١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ(١١٢).

الملأ هنا تعني المجموعة المقربة من الملك فرعون، وهم عادة المستشارون وكبار الأغنياء والوزراء. وإذا قيل مستشار الملك لا يعني أن الملك بالفعل يستشيره أو يسمع منه، ولكنه منصب يشغله المنفذ المخلص لرغبات الملك. وفرعون - كأي ملك طاغية - يحيط نفسه بمجموعة كبيرة من المطبلين والمنتفعين، هم من يطلق عليهم الملأ. فالتاجر منهم يسير تجارته ويحصل على مكاسبه بحماية الملك وتجاوز القوانين والأعراف. والوزراء يقتاتون من التذلل للملك والتأمين على كل ما يقول وإظهاره بمظهر الحكيم العليم.

وهؤلاء الملأ عرفوا أن فرعون لن يوافق على طلب موسى، ويريد أن يثبت أن موسى كاذب، فبادروا بإسماعه ما يريد أن يسمع، وهو امتحان آيات موسى على أيدي سحرة ماهرين. وبما أن مصر أرض السحرة فقد أوحوا لفرعون أن يؤخر موسى حتى يتم جمع السحرة لمنازلته. وهو ما حدث بالفعل.

مجيء السحرة

وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالْواْ إِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ(١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإَنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ(١١٤).

السحرة طلبوا من فرعون أن يجزل لهم العطاء مقابل هزيمة موسى، وقد يكون فرعون هو من بادر بوعدهم بالعطايا، وهو ما وافق هوىً في نفوسهم، لكنهم لم يجرأوا على المطالبة به. وقد وعدهم فرعون بأن يكون لهم حظوة عنده، إضافة للعطايا. لأن الفرعون يظن أن رضاه عن شخص يعتبر مكرمة له.

السحرة ينازلون موسى

قَالُواْ يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ(١١٥) قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ(١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ(١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(١١٨) فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ(١١٩).

برغم أن ما قدمه السحرة كان سحراً عظيماً سحر أعين الناس وبهرهم إلا أن عصا موسى التقمته وأخفته عن بكرة أبيه. وهو ما حير السحرة وعرفوا أن ما قدمه موسى لم يكن سحراً.

إيمان السحرة

وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ(١٢٠) قَالُواْ آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ(١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ(١٢٢).

ردة فعل فرعون

قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَـذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ(١٢٣) لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ(١٢٤) قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ(١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ(١٢٦).

فرعون – كأي طاغية – لا يقبل أن يتخذ أحد من شعبه (الذين يظن أنه يملكهم) أي قرار باختيارهم الحر. فكل القرارات المتعلقة بهم وبحياتهم ومصيرهم هو من يتخذها ويمليها عليهم. لذا فقد فوجئ بجرأة السحرة على كسر هذه القاعدة واتخاذهم قراراً مصيرياً يهمهم

بأنفسهم واختيارهم دون أخذ رأيه. فجاءت ردة فعله قاسية ليكونوا عبرة لغيرهم، وحتى لا تنتشر ثقافة حرية اتخاذ القرار، حيث أمر بأن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وأن يصلبوا.

مرة أخرى الملأ يبحثون عما يرضي الفرعون

وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِـي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ(١٢٧).

المتفعون من الركوع للفرعون والمتعيشين من فتات موائده يتخلون عن كل المبادئ والقيم نظير بقاء مصالحهم. لذا فهم يتسابقون للتفكير فيما يرضي الفرعون ويحقق ما يريد، حتى ولو كان بسحق نصف المجتمع أو القضاء على البلد بالكامل. ولا تهزهم الجرائم المرتكبة بحق المستضعفين مهما بلغت بشاعتها.

والملأ حول فرعون أوغروا صدره ضد بني إسرائيل فقط لأنهم قوم موسى (الذي هزم السحرة)، فقرر السماح باستحياء النساء وقتل الأطفال بدم بارد. وعادة ما يجني الملأ المكاسب القذرة من مثل هذه الويلات والمصائب.

بنو إسرائيل يحل بهم الويل من زبانية فرعون

قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(١٢٨).

عندما يقول فرعون: افعلوا يتم تنفيذ أمره ليس فقط بحذافيره ولكن بتوسع أكثر بكثير. وفرعون سمعه الزبانية يقول: «سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِـي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ».

ومع أنه لم يصدر قراراً ولا أمراً ملكياً، وإنما مجرد كلام. فقد تحولت كلماته لمطارق من حديد على رؤوس بني إسرائيل، وتم استحياء النساء وقتل الأطفال، وإذلال الرجال كيفما شاء الزبانية. فدولة الفرعون قانونها كلمة من الفرعون.

وكان موسى يحثهم على الصبر لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً يكون فيه نجاتهم.

بنو إسرائيل كانوا مضطهدين قبل مجيء موسى

قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ

فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ(١٢٩).

لقد تسبب مجيء موسى وهزيمة السحرة لإغاظة فرعون أكثر مما ترتب عليه اضطهاد أكثر. **سنوات مرت وبنو إسرائيل مازالوا في مصر بعد مجيء موسى**

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ(١٣٠) فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ(١٣١) وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ(١٣٢).

الآيات تشير إلى أن بني إسرائيل بقوا في مصر عدة سنين بعد بعثة موسى، لم يتمكنوا خلالها من الخروج ولا إقناع فرعون بالسماح لهم بالمغادرة.

وكانوا خلالها يتعرضون باستمرار للاضطهاد، لكن بدرجات متفاوتة حسب الظروف التي تمر على البلاد. فعندما تتعرض القرية للسنين (القحط وشح المطر) وتنقص الثمار والمنتجات الزراعية كانوا يعتقدون أن ما أصابهم لعنة حلت بهم نتيجة لاضطهاد بني إسرائيل فتخف حدة العنت. وعندما يعود المطر وتثمر الأشجار وتسمن الماشية كانت وتيرة الاضطهاد تزداد.

من مظاهر السنين التي مرت بمصر

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ(١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ(١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ(١٣٥).

لقد كانت الأمطار في بعض الأعوام غزيرة على المناطق الجبلية التي تنحدر منها أودية مصر، التي تفيض وتغرق المزارع التي تقوم على ضفتيها وتدمر منازل سكانها. وكان يصاحب غزارة الأمطار نمو الأعشاب البرية في البراري المجاورة وتفقيس بيض الجراد والضفادع البرية والقُمّل[1]. وتكون أعدادها هائلة بحيث تشكل مشكلة وبلاء للمنطقة ومزروعاتها.

---

[1] نوع من الحشرات التي تعيش على الأعشاب وتفقس بيضها في السنوات الممطرة وتوفر الحشائش، قد يكون هو الجندب وبيضها يبقى في التربة لعدة سنوات الجفاف، كما هي الحال بالنسبة لبيض الجراد والضفادع الصحراوية التي تفقس بيضها متى

كما كانت أمطار بعض السنين محملة بتراب بركاني نتيجة مرورها بمنطقة بركانية نشطة، فتنزل الأمطار بلون بني قريب من لون الدم المتخثر، ويكون غير صالح للشرب ومُلوِثاً للمناطق التي يقع عليها.

فسنة الأمطار الغزيرة سنة رجز وعذاب بالنسبة لهم، وسنوات الجفاف سنوات عجاف. ويبدو أن البلاد قليلاً ما تنعم بمطر معتدل يكفي لجريان الأودية وتغذية الآبار دون أن يتسبب بفيضانات مدمرة ورجز. وكان المصريون يخففون وطأتهم على بني إسرائيل أثناء الأزمات والويلات، ويطلبون من موسى أن يدعو ربه أن يرفع عنهم البلاء وسيسمحون لبني إسرائيل بمغادرة مصر. وعندما تتحسن الأحوال لا يوفون بوعودهم، ويضاعفون من اضطهادهم لبني إسرائيل.

هكذا كانت الحال لعدة سنوات، حتى استطاع موسى وهارون إقناع بعض بني إسرائيل بفكرة الهرب، وبدأوا يخططون لإمكانية تنفيذها بنجاح. (والتفاصيل مذكورة في سور أخرى).

ثم تنتقل السورة مباشرة إلى نهاية فرعون وجنوده، تاركة ذكر ما قبلها من أحداث، وكذلك تفاصيل أحداث ما قبل الغرق.

غرق فرعون وجنده

فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ(١٣٦).

ثم تبتعد السورة وتذكر أن بني إسرائيل ورثوا الأرض (مصر فرعون) بعد غرقه:

بنو إسرائيل عاشوا في مصر بعد فرعون

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ(١٣٧).

ولعل الآية هنا تشير لقوله تعالى: وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي

توفر المطر ولو بعد عدة سنوات.

هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ (٦١) البقرة.

وهبوطهم لمصر كان بعد غرق فرعون وبعد كتابة التوراة. أي أن من خرج مع موسى من بني إسرائيل عادوا لمصر مرة أخرى بعد غرق فرعون واستمروا يعيشون فيها.

ثم تعود السورة لذكر أحداث ما بعد غرق فرعون.

حنينهم لمعتقداتهم القديمة

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ(١٣٨) إِنَّ هَـؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ(١٤٠) وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ(١٤١).

بعد أن جاوز بنو إسرائيل البحر مع موسى وغرق فرعون، مروا بقرية يعبد أهلها الأصنام فطلبوا من موسى أن يجعل لهم صنماً يعبدونه. برغم أنهم خرجوا مع موسى من مصر بعد أن أعلنوا إيمانهم بالله، لكن المعتقدات الموروثة لا تمحى من النفوس بسهولة وتبقى عالقة في أذهان أصحابها.

التكليم وكتابة التوراة

وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ(١٤٢) وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي انظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَـكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ(١٤٣) قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ(١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ(١٤٥)

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ(١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَاء الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(١٤٧).

واصل موسى السير مع كل من خرج معه من بني إسرائيل إلى مكان التكليم (الوادي المقدس طوى). ثم تركهم موسى لكتابة التوراة بعد أن أمّر عليهم أخاه هارون. وقد كان من المفترض أن ينتهي موسى من كتابة التوراة في ثلاثين ليلة، لكنه استغرق أربعين ليلة، بزيادة عشر ليال، أو ثلث المدة المقترحة. ولم يذكر القرآن سبب تأخر موسى في كتابة التوراة.

عبادة العجل أثناء غياب موسى

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ(١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فَي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ(١٤٩) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الألْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ(١٥١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ(١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٥٣) وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الألْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ(١٥٤) وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ(١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَـا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَـاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ(١٥٦).

الموروث يتغلغل في النفوس ويصعب نسيانه، وسرعان ما يعود. وهو ما حدث لبني

إسرائيل الذين بقوا مع هارون بانتظار رجوع موسى، الذي ذهب ليكتب التوراة. وبمجرد أن ابتعد موسى عنهم تحولوا إلى الوثنية، برغم أن غياب موسى لم يزد عن أربعين يوماً.

ثم تترك السورة الحديث عن تاريخ بني إسرائيل وتخاطب بني إسرائيل الأحياء زمن الرسول وتدعوهم لدخول الإسلام:

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(١٥٧).

الآية تقول إن من يتبع الرسول محمداً فهو من المفلحين، وبالتالي فمن لا يتبعه أو لا يؤمن به فليس منهم، أي فلن ينال الجنة. وهو ما يؤكد أن الإيمان بالرسول محمد واتباع الإسلام شرط لازم لدخول الجنة ولا يكفي الإيمان بالله بشرع آخر.

دعوة لكل الناس

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٥٨).

بعد أن دعت الآية (١٥٧) بني إسرائيل زمن رسول الله للدخول في الإسلام، تدعو هذه الآية كل الناس.

ثم تعود السورة لاستكمال الحديث عن موسى وبني إسرائيل:

ليس كل بني إسرائيل عبدوا العجل

وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ(١٥٩).

الآيات (١٤٨ - ١٥٦) التي مررنا بها تحدثت عن عبادة بني إسرائيل العجل، وهذه الآية تقول بأن البعض منهم عبد العجل والبعض - وقد يكونون قلة - اعتصموا بإيمانهم.

تقسيم رجال بني إسرائيل إلى (١٢) سبطاً (مجموعة)

وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(١٦٠).

بعد أن عاد موسى لبني إسرائيل، اشتكوا له أنه أصابهم العطش. فقام موسى وضرب صخرة بعصاه فانفجرت (١٢) عيناً، فقسم القوم إلى (١٢) مجموعة، كل مجموعة لها مشرب تجنباً للمشاحنات. وبما أن وادي طوى يقع بين جبال، فالصخرة كانت في سفح الجبل الذي كانوا يقيمون قربه. والتقسيم لم يكن تقسيماً عنصرياً يعتمد على النسب، كما تأول اليهود في تاريخهم، وأظهروه وكأنه تقسيم لما عرف بقبائل بني إسرائيل الاثني عشر.

طلب الدخول للقرية

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ(١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ(١٦٢).

بعد أن شربوا طلبوا من موسى أن يجد لهم طعاماً متنوعاً فقد ملوا أكل المن والسلوى. فطلب منهم موسى دخول القرية المجاورة. وليس هناك قرية مجاورة لوادي طوى سوى مكة، البلدة الحرام التي يؤمها الناس لعبادة الله والذي عبرت عنه الآية بالسجود. ووادي طوى بقي محتفظاً باسمه حتى عصرنا هذا، ولا يبعد عن المسجد الحرام (مكة القديمة) سوى بضعة كيلومترات. وقد امتنع بنو إسرائيل عن دخول مكة؛ وفضلوا الذهاب لقرية قرب البحر:

وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(١٦٣) وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ(١٦٤) فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ(١٦٥).

بنو إسرائيل عتوا عن أمر ربهم

فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ(١٦٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٦٧).

لم يلتزموا بتعاليم التوراة وخالفوا أوامر الله، وحلت عليهم لعنة الشعوب طوال التاريخ. ليس لأن الله كتب عليهم هذا، وعذبهم في الدنيا على معصيتهم له سبحانه، ولكن لخستهم وسوء تعاملهم مع الآخرين وغشهم.

طوال تاريخهم لم يلتزم منهم بأمر الله إلا القلة

وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(١٦٨) فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ(١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسَّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ(١٧٠).

ثم تعود السورة لاستكمال الحديث عن تاريخهم زمن موسى:

وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٧١).

فقد حدثت هزة أرضية تسببت في انهيار جزء من الجبل القريب منهم.

ثم تتحدث السورة عن موضوع آخر:

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ(١٧٢) أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ(١٧٣) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(١٧٤).

والمفسرون – كالعادة – أطلقوا لخيالاتهم الضيقة العنان، وقولوا الله ما لم يقل. ومما قالوا إن الله عندما خلق آدم مسح ظهره فخرجت أنفس البشر كلهم كأنها الذر وأشهدهم على أنه سبحانه ربهم.

وهذا التصور الخرافي الذي يشبه آدم وكأنه عقرب تحمل أولادها على ظهرها، لا أساس له ولا مصدر، ولكنه يظهر الفهم الخاطئ للمفسرين لما تتحدث عنه الآية.

فالآية تقول: إن الله جل وعلا يخلق ابن آدم من ظهر والده، أي من سائل يخرج من صلب والده. ثم تواصل الآية وتقول: إن الله جل وعلا أشهد كل إنسان على نفسه. وهذا لأن الله جل وعلا أودع في كل نفس آلية تسجيل الأعمال والأقوال، وهي التي ستكون شاهداً عليه يوم القيامة وسيحاسب بما سجل فيها. وليس المعنى أن الله أخرج الناس وقال لهم اشهدوا أني ربكم.

كما أن كلام المفسرين يظهر أنهم يظنون أن آدم هو أول من خلق من البشر، وهو معتقد يهودي كالكثير من المعتقدات اليهودية التي اقتبسها المفسرون. والآية تخاطب بني آدم لأنها جاءت في سياق يخاطب بني إسرائيل. وهم من نسل آدم كونهم من نسل إبراهيم الذي هو من نسل آدم، كغيره من الأنبياء والرسل المذكورين في القرآن. لكن ليس كل أهل جزيرة العرب من نسل آدم، وليس كل الناس من نسله (كما سبق وذكر)، وعندما خُلق آدم كانت الأرض عامرة بالناس[1]. والقرآن عندما يخاطب كل الناس يستخدم عبارة: «يا أيها الناس»، ولا يقول: «يا بني آدم».

وتستمر سورة الأعراف تخاطب بني إسرائيل زمن الرسول، منتقلة في الآيات التالية إلى حادثة لديهم علم عنها:

هل كفر أحد الرسل؟

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ(١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(١٧٦) سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ(١٧٧) مَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(١٧٨).

فمن هو الذي أوتي الآيات وانسلخ منها؟

هل معنى أوتي الآيات، أي أنزل عليه الوحي؟

---

[1] ارجع لكتابنا: من آدم إلى محمد.

وإن كان قد نزل عليه وحي فهل هو رسول؟

وإن كان رسولاً، فهل كفر أحد الرسل القدماء؟

كتب التفسير تقول هو أحد علماء بني إسرائيل، أي رجال دينهم. وكتب التفسير كالعادة لا تقدم حقائق، ولكنها تحول حديث الآيات إلى خرافات. وإلا فرجال الدين لم يؤتهم الله آيات، ولم ينزل عليهم وحياً، ولكنهم هم من نصب أنفسهم نواباً عن الله دون أن ينيبهم أو يحتاج لنيابتهم. والآيات هنا تقول بكل وضوح « الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ». فهو قد أوتي الآيات من الله، لكنه انسلخ منها، فأتبعه الشيطان وكان من الغاوين. فإن كان أحد الرسل، فالاحتمال قائم.

والآية (١٧٨) بأسلوب القرآن المميز تقول بأن الإيمان خيار شخصي، وهذا يشمل الرسل. ولو كفر أحدهم فليس بمستغرب. لأن كونه رسولاً لا يعني أنه أصبح مخلوقاً معصوماً، أو أن الله سيتدخل ويغير من مشاعره. والآية تقول إن الله هو الهادي وهو المضل، وهو سبحانه كذلك بشكل غير مباشر. بمعنى أنه سبحانه هو من أودع العقل في الإنسان وجعله قادراً على أن يرى الحق والضلال، وبعد ذلك فأي طريق يختار فكأن الله هو اختاره له. وهناك عدة فقرات في قسم أدلة ومواضيع من القرآن تتحدث عن أن الملائكة والرسل وكل المخلوقات في الكون قد تعصي وقد تكفر، وكلها ستحاسب، مما يعني أن بعضها سيدخل الجنة وبعضها سيكون في النار. لذا فلو كفر رسول من الرسل فذلك ممكن ولو كان مستغرباً. لأن الناس لديها شعور أن الرسول يتصل بالله مباشرة ويعرفه أكثر من غيره. وهذا المفهوم ليس صحيحاً، لأن الوحي يصل لعقل الرسول دون تواصل مباشر مع الله، ويبقى الإيمان عند الرسول كما هو عند بقية البشر. تحكيم للعقل على أمور غيبية وترجيح أن هناك خالقاً من مشاهدة المخلوقات، وهناك آخرة لأن هناك دنيا... وهكذا.

وتستمر السورة لتقول بأن وضوح الحق لا يعني أن الناس سيتبعونه، لأن التمسك بالموروث أقوى من السماح للعقل بالتفكير ونقد التراث. وكأن العقل يتعطل عند أهل العقول عندما يتعلق الأمر بالمعتقد:

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ(١٧٩)

وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(١٨٠) وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ(١٨١).

ثم تتجه السورة لمخاطبة قريش:

دعوة عقلانية

وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ(١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ(١٨٣) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ(١٨٤) أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ(١٨٥) مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(١٨٦).

قريش تكرر سؤالها عن موعد الساعة

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ(١٨٧) قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(١٨٨).

والآيات تؤكد لقريش أن الرسول لا يعلم الغيب لكي يخبركم عن موعد القيامة، ولا يعلم إلا ما يوحي له به الله، وكل ما أوحي له قرأه عليكم.

واقع ينطبق على كبراء قريش

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ(١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ(١٩٠).

الكافر يتزوج ويدعو الله أن يرزق بذرية، وعندما يتم له ذلك يشرك الزوجان أصنامهم مع الله.

الموروث يحجب العقول ويعمي البصيرة

أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ(١٩١) وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ(١٩٢) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ(١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ(١٩٥) إِنَّ وَلِيِّـيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ(١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ(١٩٧) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ(١٩٨).

ليس هناك وضوح للحق ووضوح للباطل من وضوح أن الأصنام التي تعبدها قريش لا تضر ولا تنفع، وهم يعلمون ذلك. وأن الله هو الخالق الرازق، وهم يعلمون ذلك، إلا أن الموروث يعمي بصائرهم ويحول الحق لباطل والباطل لحق.

الرسول يتملكه الغضب من سخرية قريش

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ(١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ(٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ(٢٠٢).

قريش تُسخّر عقولها لعبادة الأصنام وهو أمر لا يعقل، ويسخرون من الحق، مما يشعر الرسول بالغضب. فتأتي الآيات لتقول له أن يهدأ وأن يتعامل مع الموضوع بحكمة. فرجال قريش يجب أن يتعامل معهم على أنهم جهلة وليسوا عقلاء كما يبدو عليهم. ذلك أن التمسك بالموروث يلغي المنطق، وعلى الرسول أن يتعامل معهم من هذا المنطق.

وكلما شعر بالغضب فليتذكر وضعهم وليستعذ بالله من شيطان النفس، وسيهدأ.

الرسول لم يؤت آية واحدة

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يِوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَـذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٢٠٣).

استمرارٌ لتوجيه الرسول، تقول له الآية إنك لا تعلم الغيب ولا تستطيع أن تأتي بشيء لم يرده الله، وكل ما تملك هو تلاوة القرآن. والآية تأكيدٌ على أن الرسول لم يؤت معجزات (آيات) فالآية ترد على طلب قريش بأن يريهم آية. وسيتكرر هذا الطلب كثيراً، وستكون الإجابة دائماً بالرفض.

القرآن هو الوحي الذي نزل على الرسول ولا شيء غيره

هَـذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٢٠٣) وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(٢٠٤).

والقرآن هدى ورحمة للمؤمنين، الذين تطلب منهم الآية أن ينصتوا عندما يبدأ الرسول بتلاوة القرآن عليهم. وهو ما يشير إلى أن بعض المسلمين ينشغلون بأحاديث جانبية أثناء تلاوة الرسول للقرآن، مع أن السورة مكية ونزلت والمسلمون في مكة قلة، ومع ذلك فبعضهم لا يعير القرآن الاهتمام الكافي، ويتشاغل مع غيره أثناء تلاوة الرسول.

وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ(٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ(٢٠٦).

الملاحظ الآن هو أن كثيراً من الناس يتعمد أن يرفع صوته بذكر الله والتسبيح بمناسبة وبدون مناسبة. والآية تأمر الرسول بأن يكون التسبيح بصوت خفي، وبنية خالصة لله. وليس كما يفعل البعض من ذكر الله أثناء انغماسه بعمل لا يتناسب مع الذكر.

(٧٣) يونس

السورة في مجملها تخاطب قريشاً وترد على اتهاماتهم لمحمد، وتدعو للتفكير، وتؤكد على البعث، وتتوعد مشركي مكة وتعد المؤمنين القلة. ولأول مرة يتحدث القرآن في هذه السورة عما تحرمه قريش من المآكل.

الرسول شخص عادي

تبدأ السورة بذكر أن قريشاً تبرر تمسكها بموروثها بالزعم أن محمداً لا يمكن أن يكون رسولاً لله لأنه واحد منهم نشأ بينهم ويعرفونه ولم يكن متميزاً ولا خارقاً، فكيف تمكن من

مخاطبة السماء:

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ(١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ(٢).

عادة ما تقول السور أنذرهم أو أنذر قومك أو نحو ذلك. لكن هنا استخدمت عبارة «أَنذِرِ النَّاسَ» لأول مرة، لأن الخطاب الآن تحول لكل الناس، ولم تعد الدعوة موجهة لقريش فقط. وقد تكررت عبارة «أَنذِرِ النَّاسَ» مرة ثانية في القرآن في سورة إبراهيم التي تلي سورة يونس في النزول: وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ(٤٤).

ولم ترد عبارة «أَنذِرِ النَّاسَ» مرة أخرى في القرآن بعد ذلك.

دعوة عقلانية للتفكير في الخلق للاهتداء على قدرة الخالق على البعث الذي ينكرون

إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ(٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ(٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٥) إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ(٦).

التفكير في عظمة ودقة الخلق كافية لاقتناعهم بقدرة الخالق على البعث، لكن قريشاً لا تبحث عن الحق، ولكنها تبحث عن مبررات تقنعها أن التمسك بالموروث هو الحق.

انغماس قريش بمتع الدنيا هو الذي أنساها الآخرة

إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ(٧) أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمُ النُّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ(٨).

وهو ما نشاهد شبيهاً له في أوضاعنا الحالية، وسوف يكون مصير قريش وكل من نسي الآخرة نار جهنم.

وسيحظى المؤمن بالنعيم

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ(٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٠).

فالجنة تورث بالإيمان والعمل الصالح وليس برحمة الله بمفهومها الشائع والذي يعني أن الله يختار البعض للنار ولو كان منهم مستحق للجنة، ويختار للجنة ولو كان بعضهم مستحقاً للنار.

لا عذاب في الدنيا

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(١١).

الآية تقول إن الله جل وعلا لو تعامل بالعواطف، كما يتعامل الناس من استعجال لطلب الخير ومسارعة في مقابلة السيئة بمثلها، لعجل للناس العذاب في الدنيا على كفرهم ومعاصيهم. ولكنه سبحانه يسير الأمور بقوانين ثابتة. فجعل الدنيا للتحصيل، وكل ما يصدر من الإنسان سيسجل. ويوم القيامة للحساب، وكل من آمن وعمل صالحاً دخل الجنة، وكل من أساء ففي النار، وعلى نفسها جنت براقش.

الناس يتذكرون الله عند الحاجة وينسونه في السراء

وتورد السورة حقيقة عن البشر: وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(١٢).

وهذا ما يجعل المرء يتمادى في العصيان. أما المؤمن فيذكر الله على الدوام ويحضره في قلبه ويعلم أن كل ما يقدم عليه سيسجل ويحاسب عليه.

لو كانت قريش تريد أن تؤمن لأخذت العبرة مما حدث لأمم سابقة

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ(١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ(١٤).

الرسول يدعو بتلاوة القرآن فقط، ولا يستخدم كلاماً غيره

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(١٥) قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ(١٦).

والآية (١٦) دليل على أن الرسول لم تظهر عليه أي علامات قبل البعثة تدل على أنه سيكون رسولاً كما تزعم كتب التراث.

تكرار لوعيد من يكذب على الله أو يكذب بآياته

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ(١٧) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ(١٨) وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(١٩).

وهذا الوعيد ذكرته السورة السابقة الأعراف في الآيات(٣٧-٤١) لمن كذب على الله والمقصود بهم قريش الذين يستقبلون القادمين لمكة للقاء الرسول ويسمعونهم نصوصاً اختلقوها على أنها من القرآن لتنفيرهم. وقريش هم من كذّب بآيات الله ودينه اتباعاً لموروثهم وجعلوه شريكاً مع الله.

الرسول لم يعط أي آية

وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٢٠).

قريش تكرر باستمرار الطلب من الرسول أن ينزل عليهم «آية» (معجزة) كدليل على صدقه، والرد دائماً يأتي أنهم لن يروا أي آية وأن الرسول لن يعطى آية.

دعوة عقلانية وتقرير حقائق عن الإنسان

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ(٢١) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ

وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ(٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٣).

متع الحياة سريعاً ما تزول

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٢٤) وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٢٥) لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٧).

والآيات تتضمن بعض الكنايات والصور الحسية المجازية، وتقول: إذا كانت قريش تمتنع عن الإيمان وتتمسك بمتعها الدنيوية فزينة الحياة الدنيا ومتعها زيف سريع الزوال، ولا تصلح لأن تكون هدفاً، أما الآخرة فهي المصير الأبدي، فلماذا تختار قريش العذاب الأبدي وفي مقدورها أن تنعم إلى الأبد.

يوم القيامة ستكتشف قريش زيف معتقداتها

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ(٢٨) فَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ(٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ(٣٠).

الآيات تصور حال قريش يوم الحشر وقد اكتشفت حقيقة معتقداتها، وكأنها قد دخلت في مشادة مع الأصنام متهمة إياها بإضلالها. وكأن الأصنام ترد عليهم وتقول كيف نضلكم ونحن لم نعلم أنكم اتخذتمونا آلهة؟ (كونها حجارة جماد).

دعوة عقلانية

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ(٣١) فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ(٣٢).

كل من لا يؤمن بداية سماعه للدعوة لن يؤمن أبداً

كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (٣٣).

عود للدعوة العقلانية

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ(٣٤) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ(٣٦).

قريش امتنعت عن اتباع الحق ليس لأنه غامض أو باطل، ولكن لتمسكها بموروثها الذي لن تتخلى عنه برغم أنه مجرد ظنون لا أساس لها، كأي معتقد مخالف لدين الله. والآية (٣٥) تقول إن الله يهدي، لكن هذا لا يعني أنه سبحانه قرر هداية البعض وضلال الآخرين مسبقاً. بل يعني أن الله بإرسال الرسل يهدي للحق لمن يرغب في الهداية، فالدين خيار شخصي.

والآية (٣٦) تقول إن الظن لا يمكن أن يكون من دين الله، وما يعرف بالحديث، فكله ظن، وهذا يعني أنه لا يمكن أن يكون من دين الله.

القرآن يقيني الثبوت عن الله

وَمَا كَانَ هَـذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ(٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٣٨).

القرآن وحده هو اليقين، ويستحيل أن يكون مفترى من دون الله. دليل على أن الدعوة كانت بالقرآن فقط.

والآية (٣٨) دليل آخر على أن الدعوة بالقرآن فقط، إذ لو كان الرسول يدعو بغير القرآن لجاء التحدي بالقرآن وغيره.

التحدي بالإتيان بسورة مثل القرآن، يؤكد أن القرآن - بأسلوبه الفريد - البسيط المعبر يستحيل أن يستطيع بشر الإتيان بمثله. وقد مر معنا الكثير من العبارات التي لو أردنا أن نحاكيها لبدت عباراتنا مضحكة ولا معنى لها.

قريش كذبت بالدعوة دون أن تفهمها

بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ(٣٩).

قريش كذبت لأنها تمسكت بموروثها ولم تعر دعوة القرآن أي اهتمام ولم تفكر فيها، ولو فعلت لعرفت أنها حق ومنطق.

ومثل قريش كل معتقد آخر، فأتباع المذاهب يتمسكون بمعتقداتهم لأنها موروث، ويتجاهلون ما يخالفها لئلا يكتشفوا عوار معتقداتهم. لذا هم يتمسكون بها ويحاربون ما يخالفها دون أن يسمحوا لأنفسهم بالتعرف على المخالف، كما كانت حال قريش. فأهل مكة وقد بعث فيهم الرسول بقي يدعوهم عدة سنين إلا أنهم لم يفهموا رسالة القرآن، لأنهم لم يستمعوا له ولم ينصتوا، وحكموا ببطلانه مسبقاً لئلا يشككهم بموروثهم.

بعض قريش آمنوا وبعضهم كفر

وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ(٤٠).

قلة من قريش آمنت، وكل الناس سيؤمن بعضهم وسيكفر البعض.

من لا يؤمن بالدعوة لا يقبل التعايش السلمي معها

وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ(٤١).

الآية تظهر دعوة الإسلام للتعايش السلمي في مكة بين المسلمين وغيرهم، والواقع يخبرنا أن قريشاً لم تقبل. وضيقت على المسلمين وعذبت المستضعفين منهم لتردهم عن الدين. وبقيت تطارد المسلمين ودخلت معهم في حروب، برغم أنهم هاجروا وتركوا مكة.

وما فعلته قريش يفعله الناس في كل زمان ومكان. فكل أتباع موروث لا يقبلون التعايش

مع من يخالفهم، بل يحاربونهم ويضيقون عليهم فقط لأنهم خالفوهم، دون أن يهتموا بالتعرف عليهم وفهم معتقدهم. فالحرب ليست ضد باطل ولكن ضد مخالف.

أتباع الموروث لا يصغون للمخالف

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ(٤٢) وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ(٤٣).

عندما ينتقد الموروث فأتباعه لا يصغون للنقد، لأنهم لا يقبلون أن ينتقد موروثهم، فكأنهم صم لا يعقلون ما يقال لهم، وكأنهم عمي لا يرون من يتحدث إليهم. وهو ما كان عليه رجال قريش حيال الدعوة.

الإنسان هو من يحدد مصيره بنفسه

إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَـكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(٤٤).

وهو ما ذكرته الآية (٣٥)، فالله جل شأنه إذا عذب الكافر فهذا ليس ظلماً له، لأن الكافر هو من ظلم نفسه باختياره عصيان الله.

يوم القيامة سيشعر المرء أن الدنيا مرت كأنها ساعة

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ(٤٥).

ويمكن فهم هذا، لو فكرنا بالسنوات التي مضت من أعمارنا والتي مرت كأنها ساعة من نهار.

الرسول قد يموت أو يقتل في أي لحظة

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ(٤٦).

الآية تقول للرسول إن احتمال موته قبل أن يرى نهاية قريش قائم، ويحتمل أن يمتد بك العمر لترى نهايتهم، وفي كلا الحالين فموعدهم مع العذاب يوم القيامة. وهذه العبارة تكررت في العديد من سور هذه المرحلة والمراحل التالية، مثل: غافر: ٧٦، الزخرف: ٤١-٤٢، الرعد: ٤٠.

وهي دليل على أن الله جل وعلا لن يتدخل فعلياً لحماية الرسول من القتل أو الموت لو أقدمت قريش على قتله، أو تعرض لحادث مميت. فالله لم يقرر ما يجري على الناس مسبقاً.

الرسول لإقامة الحجة على الناس

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ(٤٧).

قريش تسخر من تهديد القرآن

سور سابقة نزلت تسرد على قريش أخبار أمم سابقة هلكت وهي كافرة وتقول لقريش بأنه قد يحل بها ما حل بتلك الأمم. ومن ذلك ما ورد في سورة الأعراف السابقة: وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥) الأعراف.

ثم تقول: أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) الأعراف.

فكانت ردة فعل قريش هي أن طلبوا من الرسول أن يحل بهم العذاب، سخرية به وعدم تصديق، وهو ما تشير له الآيات التالية من سورة يونس:

وَيَقُولُونَ مَتَى هَـذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٤٨) قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ(٤٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ(٥٠) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ(٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ(٥٢).

والآية تقول بأن الأمر ليس بيد الرسول ولكنه بمشيئة الله، ومتى حلت الكارثة فلن ترفع عنهم. وقد تحل الكارثة في أي وقت، وعندها ستعلن قريش توبتها ولن تنفعها، كما فعلت أمم سابقة. وستدخل قريش النار كغيرها.

والآيات دليل على أن التوبة لا تقبل بحلول الكارثة أو التأكد من وقع الموت بأي طريقة.

البعث حق

وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ(٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ(٥٤) أَلا إِنَّ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَلاَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ(٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٥٦).

قريش كررت السؤال عن البعث كثيراً للسخرية، لكن في حالات قليلة يأتي بعض رجال قريش ويسألون الرسول عن البعث للتأكد، ومن هذه الحالات ما ذكرته الآية (٥٣) أعلاه.

والآيات تجيب على السؤال وتؤكد أن كل من لا يصدق بالبعث سيندم. وأن الله جل وعلا وعد بالبعث ووعده سبحانه حق وسيتحقق، وهو سبحانه من أحيا الناس وهو من سيعيدهم للحياة.

دعوة لكل الناس

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ(٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ(٥٨).

القرآن يدعو كل الناس فلم تعد الدعوة موجهة لقريش فقط، ولو لم تؤمن قريش الآن فسيؤمن بالدعوة أناس غيرها. والآيات دليل على أن القرآن شفاء لما في الصدور وليس للأمراض، كما يزعم من يستغل ضعف المرضى وسذاجة الناس باسم علاجهم بالقرآن فيما يعرف بالرقية. فالقرآن لا يمكن أن يشفي الأمراض العضوية، ولكنه بفضل الله ورحمته منقذ من النار.

قريش تحرم بعض المآكل

قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ(٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ(٦٠).

لأول مرة يذكر القرآن أن قريشاً تحرم بعض المآكل، والآية تقول بأن الحرام يحتاج إلى دليل من الله، ولا يحرم ما يحرمه الناس من عند أنفسهم.

وكل تحريم بدون دليل من كلام الله فهو كذب على الله مفترى، مصير صاحبه النار.

كل ما في الكون يسجل بدقة متناهية

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ(٦١).

كما أن الآية دليل على أن الرسول لم يكن يستخدم في الدعوة غير القرآن.

المؤمن له البشرى بسعادة الدنيا والآخرة

أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٦٢) الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ(٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(٦٤).

وهذا يتحقق بتطبيق قوانين القرآن.

قريش مستمرة بالسخرية من محمد

وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٦٥).

قريش تزعج الرسول بسخريتها وبذاءة ألفاظها عند مخاطبته، والآية تشد من عضده.

ما ورد في القرآن فهو الحق وما سواه باطل

أَلا إِنَّ لِلّهِ مَن فِي السَّمَاوَات وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ(٦٦).

الآية تؤكد أن ما يدعو له الرسول من الله، خالق كل شيء، بينما تتبع قريش عقائد تقوم على الظن (لا أساس لها). وهو ما يعني أن دين الله لا يمثله سوى كتاب الله، وكل ما ليس في كتاب الله فهو ظن وباطل ولا يمثل دين الله.

وقد كررت هذه الحقيقة سور عديدة.

دعوة عقلانية

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ(٦٧).

قريش مستمرة في الاعتقاد بأن الملائكة بنات الله

قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَـذَا أَتقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ(٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ(٧٠).

كلما ذكرت سورة مكية عبارة «اتخذ الله ولداً» فالمقصود قول قريش إن الملائكة بنات الله. وكلما قالت سورة مكية عبارة «يفترون على الله الكذب» فهي تشير إلى نصوص تقوم قريش باختلاقها وإسماعها للقادمين من خارج مكة لمقابلة الرسول، ويقولون لهم إنها من القرآن لتنفيرهم من لقاء الرسول.

تذكير قريش بما حدث لقوم نوح

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ(٧١) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ(٧٣).

سنة أزلية سارت عليها الأمم

ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلوبِ الْمُعْتَدِينَ(٧٤).

كل الأمم تشابهت مواقفهم من الرسل، حيث تمسكت غالبيتهم بالموروث، ولم يقبل بالحق إلا القلة القليلة.

موسى وبنو إسرائيل وفرعون

ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ(٧٥) فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ إِنَّ هَـذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ(٧٦) قَالَ مُوسَى أَتقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءكُمْ أَسِحْرٌ هَـذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ(٧٧) قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ

آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ(٧٨) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ(٧٩) فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُواْ مَا أَنتُم مُّلْقُونَ(٨٠) فَلَمَّا أَلْقَواْ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ(٨١) وَيُحِقُّ اللّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ(٨٢) فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ(٨٣) وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ(٨٤) فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ(٨٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ(٨٧) وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ(٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ(٨٩) وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ(٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ(٩٢) وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(٩٣).

الآيات موجهة لقريش لأنها تتحدث عن هلاك فرعون، وتهم بني إسرائيل في نفس الوقت لأنها تتحدث عن تفاصيل من تاريخهم.

الرسول يصاب بالحيرة أحياناً عن سبب إحجام عقلاء قريش عن الحق، ويتساءل في نفسه إن كان على الحق

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ(٩٤) وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ(٩٦) وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ(٩٧).

أحياناً الرسول يصاب بالحيرة، لماذا لا تؤمن رجال قريش، وهم الحكماء وأهل الرأي؟

هل يعقل ألا يعقل العقلاء؟

كيف يصرون منذ سنين على أن ما يتلو عليهم الرسول ليس من الله؟

هل يعقل ألا يكون الوحي الذي يتلقاه ليس من الله؟

وهذه التساؤلات تثبت أن الرسول عليه الصلاة والسلام ينسخ الوحي في ذاكرته ولا يتلقاه تلقيناً من مخلوق حي (أحد الملائكة). وهذه الخواطر التي تعبر مخيلته تؤكد إنسانيته عليه الصلاة والسلام وأنه بقي بشراً يعتريه ما يعتري البشر.

والآيات تقول له إن بإمكانه الآن سؤال أهل الكتاب الذي نزل قبل القرآن (وهو التوراة) والذين آمن عدد منهم برسالة الإسلام. وسيجد أن ما يقوله القرآن مطابق لما كان في التوراة.

وتحذره الآيات من سيطرة هذه الأفكار لئلا يكون من الممترين (من لديهم شك) حول القيامة. وبالتالي يكون كواحد من قريش الذين كذبوا بالحق وسيخسرون.

أما إصرار قريش على الكفر ورفض الحق فليس لأن الدعوة باطلة ولكن لأنه حقت عليهم كلمة ربك، ولن يؤمنوا حتى لو جاءتهم كل الآيات.

«كلمة ربك» المقصود بها أن الشقاوة حقت عليهم ليس لأن الله قررها عليهم مسبقاً، لأنه لو كان رب العالمين قررها عليهم مسبقا لما أرسل لهم رسولاً. ولكنها تعني أنهم سلكوا سنة الأولين بالتمسك بالموروث وعدم الإصغاء للحق. وهي سنة سارت وتسير عليها كل الأمم، فكل من لا يؤمن بالدعوة عند أول سماعه بها لن يؤمن أبداً، ما عدا استثناءً وحيداً، هم:

قوم يونس

فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ(٩٨).

قوم يونس آمنوا كلهم وعادوا للحق، وكانوا الاستثناء الوحيد بين كل الأمم التي ذكرها القرآن. وهو ما يعني أن من يحكم عقله ويسمح بنقد موروثه يمكن أن يتعرف على الحق ويعود له.

(الآيتان:٩٩-١٠٠) استمرار لمخاطبة الرسول الذي يبدو أنه يتحسر على بقاء رجال

قريش على الكفر وحريص على أن يؤمنوا ولا يذهبوا للنار: وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ(٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ(١٠٠).

والآيات تؤكد له أنه لا ذنب له ببقاء قريش على الكفر وأن الله قادر على أن يجعل كل أهل الأرض مؤمنين، ولكنه لن يتدخل في تقريرهم لمصائرهم بأنفسهم. والإيمان والكفر جعله الله خياراً شخصياً، ولا يتم إلا بأمر الله. لكنه لا يعني أن الله يفرض الكفر على أحد أو يختار للإيمان بعض الناس دون البعض الآخر. والآية: (١٠٨) تؤكد حق الاختيار.

ثم تدعو السورة قريشاً للتفكير بعقلانية

قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ(١٠١).

الآية تقول إن الآيات (المعجزات) لن تقنع من يكفر بكلام الله لأنه سيجد مبررات لتكذيبها. فمن لا يكفيه كلام الله للإيمان، لن يؤمن.

ولو أرادت قريش أن تؤمن لاعتبرت مما حدث لأمم سابقة

فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ(١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ(١٠٣).

ثم تعود السورة لمخاطبة الرسول..

دعوة للتعايش السلمي

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِنْ أَعْبُدُ اللّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(١٠٤).

القرآن يخاطب الناس على لسان الرسول أن يتركوا الرسول ومن آمن معه ويبقوا هم على ما هم عليه. لكن هذه الدعوة للتعايش السلمي التي يقدمها القرآن في العديد من السور وقدمها كل رسل الله لأقوامهم لم تلق القبول من غير المسلمين. وفي كل زمان ومكان فمن ينتقد الموروث لا يُترك يعيش بسلام بل يحارب ويضيق عليه ويكتم صوته. ليس لأن ما يقول خطأ وضلال ولكن لأنه ينتقد الموروث، الذي لا يقبل الناس أن ينتقد.

تنبيه للرسول

وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٠٥) وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ(١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(١٠٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ(١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُمَ اللّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ(١٠٩).

والآيات تخاطب كل الناس «يا أيها الناس». وتأمر الرسول بالتمسك بعبادة الله، ولا يهتم بما يعبد الناس. وليصبر على أذى من لا يرغب بالتعايش السلمي مع المؤمنين.

الآية: (١٠٧) لا تعني أن الله قد قرر مسبقا الحوادث والمرض على الناس، ولا تعني أن الله هو الذي يبرئ المريض مباشرة. ولكن المعنى أن كل ما يحدث في الكون بمشيئة الله، ولو لم يشأ لما حدث.

الآية: (١٠٨) لا إكراه في الدين. والرسول ليس مسئولا عن هداية الناس. ويستفاد من هذه الآية أيضاً أن المطلوب من الداعية المسلم توصيل صوت القرآن لغير المسلم، ولكن ليس مسئولاً عن هدايته. وهو ما ينفي الاعتماد على المواعظ والقصص المتبع الآن. أو محاولة تقمص دور النائب عن الله في الأرض الذي يهمه أن يأطر الناس على الدين أطراً.

وتختم السورة بأمر الرسول بالصبر (على الأذى) وستنال قريش جزاء كفرها عندما يحكم الله (أي يوم القيامة).

(٧٤) إبراهيم

والسورة تتحدث عن نفس المواضيع التي تطرقت لها السورة السابقة وبتداخل مماثل. بمعنى أن تتحدث عن موضوع ثم تنتقل لآخر ثم ثالث ثم تعود لموضوع سابق ... وهكذا. كما أن المخاطب مرة يكون قريشاً ومرة بني إسرائيل ومرة الرسول ومرة كل الناس.

وتبدأ السورة بالتأكيد على أن القرآن (الدعوة) لكل الناس، وتتوعد قريش لعدم الإيمان ولأنهم يحاولون صد غيرهم عن الاستماع للرسول:

الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(١) اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ(٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُوْلَـئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ(٣).

(الآية:٣) تتحدث عن قريش وتمسكهم بالدنيا، وأنهم يصدون عن سبيل الله (أي يحاولون منع الناس الذين يتوافدون على مكة من رؤية الرسول لئلا يدخلوا في الإسلام) وهو نشاط بدأته قريش في هذه المرحلة من الدعوة (المرحلة الخامسة) بعد أن توجه القرآن إلى دعوة كل الناس غير قريش، فبدأت قريش تنشر الإشاعات الكاذبة عن الرسول وتختلق عبارات وتنسبها للقرآن لصد من يحاول لقاء الرسول أو الاستماع للقرآن لئلا يسلموا.

كل رسول أرسل بلسان قومه

(الآية:٤) كل رسول يرسل بلسان قومه لكي تكون الرسالة مفهومة (ليبين لهم): وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٤). ومحمد أرسل لقريش بلسانهم لتقوم عليهم الحجة، والعربية لغة بني إسرائيل يثرب ولغة المناطق المحيطة بمكة كذلك. وبعد أن تمكن الإسلام واكتملت تشريعاته، أصبح بالإمكان أن يسمع به أقوام في بلاد بعيدة، ومن السهل شرح تشريعاته. فالدين عبارة عن تشريعات يسهل ترجمتها لأي لغة كانت. أما الخطاب الدعوي فهو وسيلة لجمع أكبر عدد من الناس للدخول في الإسلام في البداية، ومتى ما وجد العدد الكافي فرضت التشريعات وكمل الدين. وبعد ذلك تكون الدعوة للدين ببيان تشريعاته، ولو لم يتعرف المسلم الجديد على الخطاب الدعوي.

إذاً، الدين عبارة عن تشريعات، أما بقية ما يحوي القرآن - وهو غالب آياته - فهو إما خطاب دعوي وقصص عن أمم سابقة، أو آيات تتفاعل وتتحدث عن الأحداث الواقعة على الساحة حين نزول السور أو نحو ذلك. وهذه برغم أنها تمثل غالبية آيات القرآن إلا أنها لا تمثل الدين الذي تمثله الآيات التي فرضت فيها التشريعات وعددها لا تصل إلى ١٠٪ من عدد آيات القرآن. وهي التي يمكن ترجمة ما جاء فيها على شكل قوانين وأنظمة. وبعد ذلك، من رغب في قراءة كامل القرآن فعليه تعلم لغته.

والناس الآن يتعلمون اللغات الأجنبية بدافع علمي أو تجاري أو اجتماعي أو سياسي أو اهتمامات أخرى. وقد قرأت خبراً يقول إن عدد من يتكلمون اللغة اليابانية من المتحدثين باللغة الإنجليزية فاق عدد اليابانيين الذين يتحدثون الإنجليزية. برغم صعوبة اللغة اليابانية واختلافها جذرياً عن اللغات الأوروبية كتابة ونطقاً، وبرغم حاجة اليابانيين العملية والعلمية للغة الإنجليزية، وعدم حاجة المتكلمين باللغة الإنجليزية لليابانية في مجالات التجارة والعلم. فالدافع لتعلم اليابانية اجتماعياً بحتاً، للتعرف على عادات اليابانيين والتقرب منهم أكثر. وهو دافع يقل في أهميته عن أهمية تعلم لغة القرآن للمؤمن من غير العرب.

ثم تتجه السورة بالخطاب لبني إسرائيل.

موسى وفرعون

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ(٥) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ(٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ(٧) وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ(٨).

الآية (٨) تروي ما قاله موسى لبني إسرائيل الذين لم يؤمنوا بدعوته برغم عدة مواقف أثبتت أنه رسول الله إليهم، وتقول: «إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ». وهذا يشير إلى أن بعض بني إسرائيل ممن قابل الرسول في مكة لم يؤمن به، والآية تقول لهم أنكم لم تؤمنوا بموسى من قبل وبالتالي فليس مستغرباً ألا تؤمنوا بمحمد.

ثم تعود السورة لمخاطبة قريش.

موقف قريش مماثل للأمم السابقة وكلهم ساروا على سنة واحدة

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ(٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ

يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ(١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَعلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(١١) وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ(١٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّـكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ(١٣) وَلَنُسْكِنَنَّـكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ(١٤) وَاسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ(١٥) مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّاء صَدِيدٍ(١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ(١٧).

والآيات تظهر أن قريشاً سارت على سنة سارت عليها كل الأمم. وهي سنة لها تفريعات كثيرة منها، كما ذكرت الآيات:

رفض الدعوة من البداية: « جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ».

ومن يرفض الدعوة لا يؤمن بها أبداً.

الدعوة تدعو للحق والمنطق: «قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى».

ورفض الدعوة لأنها تعارض الموروث: « تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا».

ورفض الدعوة يصحب بتبريرات كثيرة منها، أن الرسول بشر منهم: « قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا».

أو أنه لم يظهر لهم معجزات وخوارق: « فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ».

وكل الأمم لم تقبل بالتعايش السلمي مع الرسول والدين الجديد: « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّـكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا».

وهذه القاعدة تنطبق على أتباع المذاهب، فكل من ينتقد المذهب - ولو كان بعيب فيه - فهو مرفوض، ويجب محاربة المنتقد وإخماد صوته.

والنصر في النهاية مع أهل الحق إن صبروا وثابروا: « فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ

الظَّالِمِينَ(١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ(١٤)».

والنصر كان بهلاك بعض الأمم السابقة بكوارث طبيعية وتبليغ الرسول للخروج قبل الكارثة من القرية ومن معهم من المؤمنين. أو كما حدث للرسول والمسلمين عندما كسبوا حربهم في النهاية مع قريش المتغطرسة وأجبروهم على قبول الاستسلام لدولة المسلمين.

أعمال الكافر في الدنيا

مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ(١٨).

كل أعمال الدنيا مهما بدت عظيمة في عين الإنسان فهي لا شيء. ولهذا فكل الأعمال التي يقوم بها الكافر تذهب أدراج الرياح. والأعمال التي نراها عظيمة في الدنيا مثل الاختراعات العلمية هي ليست ذات قيمة عند الله، لكن لو أن مخترعها مؤمن، فستحسب لصاحبها في الآخرة كأعمال صالحة، ليس لأنها أعمال عظيمة عند الله، ولكن لأنها عظيمة عند الإنسان وفيها خدمة للبشرية.

دعوة عقلانية

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ(١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللّهِ بِعَزِيزٍ(٢٠).

لو فكرت قريش بعقلانية لعلمت أن من ابتدع الكون قادر على أن يذهب بهم ويأتي بغيرهم، وبكل تأكيد لن يعجزه بعثهم.

تصوير مجازي حسي للمستضعفين يوم القيامة

وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ(٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٢٢) وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ

فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ(٢٣).

توجيه غير مباشر لتعامل المؤمنين مع كفار قريش

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء(٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٥) وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ(٢٦) يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ(٢٧).

والآيات تحث على الكلام الطيب وتنهى عن الكلام الفاحش والبذيء، وهي وإن كانت موجهة للرسول إلا أن المعني بها المؤمنون لئلا يجاروا كفار مكة بالسب والشتم والسخرية والكلام البذيء الذي يسمعونه منهم. فمجاراتهم تفتح عليهم أبواب الشر، لأن قريشاً ستجد مبرراً للتعدي عليهم.

وعيد لقريش

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ(٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ(٢٩) وَجَعَلُواْ للهِ أَندَاداً لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ(٣٠).

الحديث عن قريش التي كفرت وضيقت على المسلمين، وصدت غيرها عن دين الله. ومصيرهم المحتوم هو النار، ليس لأن الله قدره عليهم ولكن لأنهم ساروا على سنة أن من لا يؤمن بالدعوة في البداية لا يؤمن بها أبداً، وهي سنة أزلية لا تتغير.

ثم تعود السورة لمخاطبة المؤمنين في مكة.

يجب مواصلة أداء الصلاة والإنفاق

قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ(٣١).

الآية تأمر المسلمين في مكة بالاستمرار بأداء الصلاة (التي مازال المسلمون يصلونها دون تحديد أوقات لأدائها بعد)، والاستمرار بالإنفاق لكل مستحق. الملاحظ هنا هو أن السورة نزلت في وقت دخل فيه بعض المستضعفين الإسلام، بعضهم هاجر للحبشة، ومن بقي فلابد أنه محتاج، لذا وجب على من يجد من المسلمين معاونتهم. وهذا يعني أن الإنفاق

المطلوب هنا لسد حاجة المجتمع، وهي في تلك الفترة، سد حاجة المستضعفين ومن في حكمهم. وهذا لا يعني أن بقية المجالات للإنفاق التي أمرت بها سور سابقة أنها سقطت، بل يعني ما أكدناه دائماً أن الإنفاق يعني سد حاجات المجتمع متى وجدت. فلو كان هناك حاجة لفتح ملجأ أيتام ولا وجود للتمويل اللازم فيجب الإنفاق. ولو وجد مسكين فيجب الإنفاق، وفي الوقت الحاضر الإنفاق يعني تغذية ميزانية دولة الإسلام التي ستتكفل بالبنى التحتية وتوفير حياة كريمة لكل محتاج.

دعوة عقلانية

اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ(٣٢) وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ(٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ(٣٤).

عن إبراهيم بعد أن استقر في مكة وبعدما رزق بإسماعيل وإسحاق

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ(٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣٦) رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ(٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللّهِ مِن شَيْءٍ فَي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء(٣٨) الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء(٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء(٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ(٤١).

كتب التراث أولت معاني الآيات هنا لتتفق مع ما اقتبسوه من كتب اليهود، فقالوا إن إبراهيم حضر لمكة فقط ليترك فيها إسماعيل وأماً له اخترعوها وسموها هاجر (لاحظ أن الاسم يدل على الهجرة والبعد وهو ما يتوافق مع قصتهم التي تقول إن إبراهيم أبعدها من حياته).

دعاء إبراهيم في أواخر أيامه، بعد أن استقر في مكة لفترة طويلة، وأصبحت وطنه، وبعد أن رزق بإسحاق.

الحساب والعذاب يوم القيامة ولا عذاب في الدنيا

وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ(٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء(٤٣) وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ(٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ(٤٥) وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(٤٦) فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ(٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ(٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ(٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ(٥٠) لِيَجْزِي اللّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(٥١) هَـذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ(٥٢).

(الآية:٤٤) تأكيد على أن محمداً رسول لكل الناس، وكذلك الآية الأخيرة (٥٢).

(الآية:٤٥) دليل واضح على أن الأمم المذكورة في القرآن قريبة من مكة، وقوله: «وسكنتم في مساكنهم» أنهم في مكة ولكن قريبا منها. كما تدل على أن قريشاً تعرف مساكنهم وتسمع بهلاكهم.

(الآية:٤٨) القيامة في كون آخر سينشأ بعد انهيار هذا الكون.

(الآية:٥١) الحساب بناءً على صحيفة الأعمال.

(الآية:٥٢) دليل آخر على أن القرآن فقط هو ما يمثل دين الله وهو ما يستخدم للدعوة فقط: « هَـذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ».

(٧٥) يوسف

قصة حياة يوسف هي الوحيدة في القرآن بين كل قصص الأمم والشخصيات التاريخية والرسل التي جاءت في سورة واحدة، ورويت أحداثها بترتيبها حسب تسلسل وقوعها. ذلك أن يوسف هو البداية الفعلية لما عرف فيما بعد ببني إسرائيل، وتفاصيل ما حدث له عبارة عن تصحيح لأساس تاريخهم، يثبت لبني إسرائيل يثرب الذين تخاطبهم السورة أن

محمداً رسول لله، وأن القرآن وحي من الله. فما قدمه القرآن من تفاصيل كان دقيقاً وواضحاً ومختلفاً عن رواية كتب اليهود عن يوسف، والتي جاءت بصورة مبعثرة بعيدة عن الواقع وكثير من تفاصيلها غامض ولم يحدث.

والقصة وإن كانت تخاطب بني إسرائيل يثرب زمن الرسول إلا أن أهميتها زادت اليوم كمصدر موثوق يعرفنا بميلاد تاريخ من شغلوا الناس وملأوا الدنيا منذ وجدوا وحتى اليوم. ويعين على إعادة النظر في كتابة تاريخ الشرق الأوسط والجزيرة العربية الذي كتبه الغربيون معتمدين رواية كتب اليهود المقدسة برغم أنها رواية مختلقة ولا تمت للواقع بصلة.

وفيما يلي شخصيات القصة:

يعقوب

رجل عادي، ولم يكن نبياً ولا رسولا. وهو ابن إسحاق وقد يكون الابن الوحيد له، لأن القرآن لا يذكر أن لإسحاق أبناءً غيره.

يوسف

الابن المدلل ليعقوب، كونه وأخ شقيق له أصغر منه، من زوجة يافع ليعقوب تزوجها بعد أن بلغ من العمر عتياً. وبعد أن أنجب من زوجة سابقة عشرة أبناء ذكور، ويحتمل أن الزوجة الأولى توفيت فتزوج بعدها بأم يوسف.

إخوة يوسف العشرة من أبيه

وقد شعروا بالإهمال من والدهم والبرود في التعامل بسبب شغفه بحب يوسف فخططوا للتخلص منه، ليعود ود أبيهم لهم واهتمامه بهم كما كان، قبل ولادة يوسف وأخيه.

الأخ الأصغر والشقيق ليوسف

ولم يكن له دور في بداية الأحداث لصغر سنه، ولا نعرف اسمه.

العزيز المصري

وهو الذي اشترى يوسف كرقيق وعاش عنده يوسف حتى بلغ مبلغ الرجال. والعزيز قد تعني منصباً وظيفياً في قرية مصر، يقابل ما يعرف اليوم بوزير الدولة أو رئيس الوزراء.

وقد يكون لقباً شرفياً يناله بعض الموظفين الكبار في الدولة، شبيه بلقب «سير» في بريطانيا الحالية.

امرأة العزيز

سيدة يوسف، التي أعجبها حسنه وراودته عن نفسه وتسببت له بدخول السجن.

نساء من علية القوم

سخرن في مجالسهن من امرأة العزيز التي عشقت رقيقها.

ملك مصر

الذي كان حلمه سبباً مباشراً لخروج يوسف من السجن وتعيينه على خزائن مصر (وزيراً للتمويل والخزانة).

صاحبي السجن

سجينان قاسما يوسف الزنزانة لفترة من الزمن، وتسبب أحدهما بتذكر الملك للسجين يوسف.

والسورة تبدأ كما في السورة السابقة، بالتأكيد على أن القرآن منزل من الله بلسان عربي: الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ(١) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٢).

وتتحدث عن قصة يوسف التي تعرفها بنو إسرائيل جيداً، وتبدأ بمقدمة وكأن القصة موجهة ليعلم بها محمد فقط:

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ(٣).

الحلم

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ(٤).

علينا أن نتذكر أن القرآن يروي ما حدث كما حدث. وهنا الآيات تروي لنا أن يوسف رأى حلماً وقصه على أبيه، دون أن تقرر الآيات إن كانت الأحلام تتحقق. وبناءً على ذلك فلا

يمكن أخذ الآية على أنها دليل على أن الأحلام لها تفسير أو أنها تتحقق على أرض الواقع.

وبما أن يوسف عندما رأى الحلم كان طفلاً صغيراً، فإن مسارعته بإبلاغ والده بالحلم، لأنه اعتاد سماع والديه وإخوته التحدث عن أحلامهم وما يرون في المنام. ولابد أنهم كانوا يسارعون بوضع احتمالات لتفسير تلك الأحلام، ويتوقعون تحققها. ويكون سبب إخبار يوسف والده بحلمه أنه ولد في بيئة تؤمن بتفسير الأحلام وتحققها، وهو عرف قديم مازال منتشراً في جزيرة العرب.

يعقوب يعلم أنه يفرق بين أبنائه في التعامل

قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ(٥).

لقد سارع يعقوب بتأويل الحلم على أنه يتحدث عن يوسف وإخوته، وحذر يوسف من إبلاغ إخوته، ليس لأن يعقوب خبيرٌ في تفسير الأحلام، ولكن لأنه يعلم أن إخوة يوسف غير الأشقاء، ينتابهم شعور بعدم الرضى عن اختلاف معاملة يعقوب لهم، وتفضيله يوسف وشقيقه عليهم. ومع أنه يعلم إلا أنه لم يحاول أن يغير هذا الوضع ويتعامل مع جميع أبنائه بمساواة وعدل وينشر روح التآلف بينهم. وهو اعتراف ضمني من يعقوب، يظهر تحمله مسئولية ما حدث ليوسف من إخوته، والذي ستخبرنا عنه الآيات القادمة.

يعقوب يعطي يوسف تبريراً لعدم إبلاغ إخوته بالحلم

وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٦).

هذا استمرار لكلام يعقوب موجه ليوسف، ينقله القرآن، ولا يقرر القرآن أن يوسف قد أودع الله فيه القدرة على تأويل الأحاديث. فيوسف كان طفلاً حينها، ولم يكن رسولاً أو نبياً بعد، فهو في سن الطفولة وليس في سن التكليف لكي يعلمه الله تأويل الأحاديث. والكلام ليعقوب وليس لله، وقد وجهه ليوسف لكي يبرر له سبب تحذيره من إبلاغ إخوته بالحلم. فهو يقول له: لا تبلغ إخوتك الآن ولكن انتظر حتى تكبر وتتعلم - بعون الله - تفسير الأحلام. عندها يمكنك أن تخبرهم بالحلم وبتأويله.

وعبارة: «تأويل الأحاديث» وردت في سورة يوسف ثلاث مرات، في الآيات (٦، ٢١،

١٠١) وتعني تفسير الرؤيا والأحلام. وهي عادة منتشرة بين كثير من المجتمعات البشرية. والتأويل يكون للكلام الذي قاله الحالم حين وصف حلمه للمتأول، وليس تأويلاً للحلم كما رآه الحالم، لأن المتأول لا يستطيع رؤيته.

ثم تبدأ السورة بسرد ما حدث ...

سبب ذكر قصة يوسف في القرآن

لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ(٧).

منذ أن تحول خطاب الدعوة إلى كل الناس ولبني إسرائيل تحديداً، بدأت السور تتحدث عن شخصيات وأحداث تاريخية يعرفها بنو إسرائيل يثرب، للتأكيد أن محمداً رسول الله. ويبدو أن بعض بني إسرائيل ممن حضر لمكة وقابل الرسول، قد سألوه عما حدث ليوسف، فنزلت السورة تخبر عن يوسف وما حدث له. مثلما سألوا عن ذي القرنين وأصحاب الكهف، وشخصيات أخرى، فنزل القرآن يروي ما حدث لهم.

سبب استيطان يعقوب وبنيه البادية

سنرى من خلال آيات السورة أن يعقوب وبنيه رعاة ماشية، ويعيشون في البادية، وهو ما أكدته الآية التالية التي تصف وصول يعقوب وأم يوسف وإخوته لمصر: وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(١٠٠) يوسف

إسحاق - والد يعقوب - ولد في مكة، كما سبق وعرفنا عند الحديث عن إبراهيم. وهذه السورة تقول بأن يعقوب (قد يكون ابن إسحاق الوحيد) يعيش مع أبنائه في البادية. فهل إسحاق هو من خرج من مكة واستوطن البادية وبقي فيها يعقوب بعد ذلك؟

أم أن يعقوب هو من فضل الخروج من مكة بعد وفاة والده إسحاق وجده إبراهيم؟

وكلا الاحتمالين وارد.

وكنت قد قلت في كتاب أحسن القصص إن إسحاق هو من خرج من مكة، وقلت بأن التعليل المقبول لتصرفه هو أنه طلب من أخيه إسماعيل المشاركة في خدمة الحجاج ورعاية

بيت الله الحرام، لكن إسماعيل رفض بحجة أن هذه الخدمة شرفه الله بها وستبقى له ولأبنائه دون أخيه وأبنائه. وإن كان هذا ما حدث فقد يكون حدث بعد وفاة إبراهيم وامرأته أم إسماعيل وإسحاق، لأنه لو حدث الشقاق بين الأخوين في حياة أحد الوالدين فسيتم رأب الصدع بطريقة أو أخرى. وحتى لو أصبح هناك جفاء بين الأخوين فلن يترك إسحاق مكة ويبتعد عن والديه أو أحدهما.

وهذا الاحتمال مازال وارداً.

وهناك احتمال آخر أضعه هنا، وهو أن يعقوب - المولود في مكة - عندما كبر، وبعد وفاة والده إسحاق وجده إبراهيم، طلب من أبناء عمه إسماعيل أن يشاركهم في خدمة الحجاج ورعاية البيت، فرفضوا بحجة أن خدمة البيت والحجاج قد كلف الله بها والدهم وهي باقية في ذريته من بعده. فما كان من يعقوب إلا أن خرج مغاضباً للبادية ولم يعد لمكة أبداً.

وفي كل الأحوال وعلى كل الاحتمالات فيعقوب قد عاش في البادية، وكان أبناؤه يرعون له الماشية (الأغنام والإبل).

التفريق في التعامل بين الأبناء سببٌ لما حدث ليوسف

إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(٨).

ويعقوب كان شيخاً كبيراً عندما تزوج بامرأة ثانية، بدليل أنه كان لديه عشرة أبناء من زوجته الأولى التي قد تكون توفيت. وكثيراً ما يُقرِّبُ الأب أبناءه من زوجته الثانية أكثر من أولاده من زوجة سابقة، دون أن يكون بالضرورة عامداً نبذ أبنائه السابقين، ولكن قد يكون لشعوره أن أبناءه الجدد بحاجة لعطف أكثر لأن إخوتهم لأبيهم لا يتقبلون وجودهم بينهم. فيعامل الأب أبناءه الجدد بحنو أكثر كتعويض لهم، أو هكذا يقنع نفسه، لئلا يشعر أنه يهضم حق الآخرين ويعامل أبناء امرأته الجديدة بتحيز نتيجة لتعلقه بأمهم الفتاة الصغيرة التي سلبت عقله واستولت على تفكيره.

وقد شعر أبناء يعقوب أن أباهم قد غير تعامله لهم، وأصبح لا يعيرهم اهتمامه بما يكفي، فقرروا التخلص من هذا الطفل المشكلة - يوسف - لكي «يَخْلُ لَهُمْ وَجْهُ أَبِيهِمْ». ولم يتعرضوا لأخيه الشقيق، لأنه مازال رضيعاً، فلم يكن من الوارد التخلص منه، في تلك اللحظة على الأقل.

اجتماع الإخوة للاتفاق على طريقةٍ للتخلص من يوسف

اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ(٩).

الإخوة العشرة متفقون على ضرورة التخلص من يوسف نهائياً، لكنهم اختلفوا كيف يتم لهم ذلك. فاقترح بعضهم قتله، بينما اقترح آخرون إبعاده لأرض غريبة وتركه هناك.

التوصل لقرار

قَالَ قَآئِلٌ مَّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ(١٠).

بعد مداولات بين الإخوة العشرة استقر رأيهم على إلقائه في بئر من الآبار المنتشرة في منطقة الرعي، واختاروا واحداً يقع بالقرب من طريق تجارية تربط بين القرى.

ولم يختاروا بئراً ترده رعاة منطقتهم، لئلا يقع يوسف في يد رجل يعرف والدهم فيعيده إليه ويفضح أمرهم. وبقي عليهم إقناع أبيهم بالسماح لهم باصطحاب يوسف معهم:

قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ(١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ(١٣) قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَّخَاسِرُونَ(١٤).

الرعاة يغدون صباحاً بماشيتهم من مضارب أهلهم طلباً للكلأ، ويروحون إليها مساءً للمبيت. وهي عادة متبعة في البادية حتى اليوم في بعض مناطق جزيرة العرب. وقد أقنعوا والدهم على أن يصحبوا يوسف معهم لكي يرفه عن نفسه ويلهو أثناء رعي الماشية في النهار. ولما أظهر يعقوب قلقه من أن يأكله الذئب وهم غافلون، أكدوا أنهم لن يسمحوا بهذا. ولم يكن أمام يعقوب سوى الإذعان لأنه لم يكن يملك حجة قوية لرفض عرض الإخوة والذي يبدو في ظاهره أنه مبادرة للتقرب من يوسف وتحسين علاقتهم به.

تنفيذ الخطة، وردّة فعل يعقوب

فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ(١٥).

وقد توجهوا بالفعل إلى جُبٍّ تمر به القوافل ويرتوون منه، واستطاعوا إقناع يوسف

بعد أن خلعوا قميصه، بالنزول فيه بواسطة الدلو، بحجة من الحجج، ثم سحبوا الدلو وتركوه هناك. والجب بئر ليست عميقة وضحلة المياه، ومازال يستخدم بنفس اللفظ حتى يومنا هذا في جزيرة العرب. وفي المساء، عادوا أدراجهم بماشيتهم لمضارب أهلهم، بدون يوسف، ومعهم قميصه وقد لطخوه بدماء حيوان: وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ(١٦) قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ(١٧) وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ(١٨).

وفي الحال عرف يعقوب أن القلق الذي ساوره حول طلب أبنائه اصطحاب يوسف، وما أبدوه من مشاعر ود زائفة كان للتخلص من يوسف، ولكن بقي لديه إحساس بأنهم لم يقتلوه، ممنياً النفس بأن يعود إليه يوماً ما. ولم يكن باستطاعة يعقوب أن يعلن اتهامه لأبنائه بقتل أخيهم، لأنه لا يملك دليلاً عليه، ولأنه يعلم في قرارة نفسه أن ما دفعهم لهذا العمل هو تعامل يعقوب نفسه المنحاز.

العثور على يوسف

بقي يوسف في الجب إلى أن مرت قافلة (سيارة) وتوقفوا عند البئر ليسقوا. وما إن أنزلوا دلوهم حتى اعتلاه يوسف وتمسك بالحبل، فسحبه الساقي، ليفاجأ بوجود طفل في الدلو، أو أن الساقي رأى يوسف وأقنعه باعتلاء الدلو والتمسك بالحبل، ويحتمل أن الساقي لما رأى الطفل في الجب نزل بنفسه واحتمل يوسف وصعد به: وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَـذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ(١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ(٢٠).

ومن المحتمل أن القافلة وجدته في نفس اليوم الذي تركه فيه إخوته، كما يحتمل أن يكون يوسف قضى ليلة في الجب.

والآيات تشير إلى أن يوسف طفل صغير بالفعل، وقد يكون في الخامسة أو السادسة من العمر، نحيل الجسم.

وكعرف متبع في ذلك العصر - كما يفهم مما حدث - فقد أصبح الطفل رقيقاً مملوكاً لمن أخرجه من البئر، والذي باعه بثمن بخس. وكان الذي اشتراه من مصر: وَقَالَ الَّذِي

اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ(٢١).

والآية تقول: «ولنعلمه من تأويل الأحاديث» فهل هذا يعني أن الله علمه عن طريق الوحي، أو أن يوسف الذي كان نبيهاً منذ صغره استفاد من تجاربه والمواقف التي مر بها ليكون حكيماً، واستمر ينمي هذه المَلَكة، ولم يعلمه الله بالوحي؟

وقد بقي يوسف عند سيده الذي اشتراه حتى كبر وترعرع: وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(٢٢).

والآية تؤكد أنه كان ذكياً وتعلم الكثير من الخبرات.

وقد تعلقت به سيدته، ورغبت في مواقعته: وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ(٢٣) يوسف.

وكاد أن يهفو لما دعته، لكنه تذكر فضائل ربه - سيده - عليه، فامتنع وفاءً له: وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ(٢٤).

والرب هنا تعني رب النعمة وليس الله كما رسخت كتب التراث. وبرهان ربه تعني فضله عليه وتعامله الحسن.

وحاول الهرب: وَاسُتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ(٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ(٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ(٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ(٢٩).

الآية:٢٨ من كلام سيده وزوج المرأة، وليس كلام الله أو تقرير أن النساء لهن كيد عظيم.

الآية: ٢٩ السيد فهم أن زوجته هي المذنب، ويوسف بريء، فقال له «إنس الموضوع»:

أَعْرِضْ عَنْ هَـذَا.

وقول الزوج لزوجته: واستغفري لذنبك. يعني أنهما مؤمنان بالله. أي أن مصر كانت تدين بالتوحيد في تلك الفترة.

ولم ينفعل الزوج ويضرب زوجته أو يقتلها أو يطلقها بل تعامل مع الوضع بكل هدوء. وأظهر استعداده لنسيان ما حدث ويعيش معها كزوجين وكأن شيئاً لم يكن. ولم يقلق من كلام الناس، لأنه على ما يبدو أن هذا التسامح في العلاقات خارج نطاق الزوجية تصرف مقبول في ذلك المجتمع.

وانتشر الخبر في مصر مما جعل بعض النساء يشمتن بزوجة العزيز التي تعلقت بغلامها الرقيق: وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ(٣٠).

فما كان منها إلا أن أثبتت لهن أن أي واحدة منهن قد تفعل ما فعلت، لأنه بهي الصورة وجذاب بدرجة لا تقاوم: فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ للّهِ مَا هَـذَا بَشَراً إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ(٣١).

وبكل تبجح أعلنت لهن أنه إن لم يمكنها من نفسه فستسعى لسجنه: قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ(٣٢).

ويبدو أن نساء الزعماء والشخصيات الكبيرة في أي دولة قديما وحديثا والذين يبدون بمنتهى القوة والقسوة والرهبة لديهم نقاط ضعف سيطرت عليهم بها زوجاتهم. فزوجة العزيز تعلم مدى قوة تأثيرها على زوجها وأنها تستطيع أن تستصدر أي قرار حكومي باسمه.

وبالفعل تم صدور قرار من العزيز بسجنه: قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ(٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ(٣٥).

مع أن العزيز يعلم أن يوسف بريء ويعلم أن زوجته عملت على مواقعته، وبدل أن يثور ويغار ويعاقبها، قام صاغراً بإصدار القرار الذي أرادته، وبقيت زوجة له. وهذا يذكرنا بما حدث مع الوليد ابن عبد الملك وزوجته أم البنين التي عشقت وضاح اليمن عندما رأته في مكة أثناء حجها، ودعته للمجيء لدمشق ليتمتعا معاً لبعض الوقت، فانصاع لرغبتها وذهب إليها في دمشق وعاشرها لفترة في قصر الخلافة قبل أن يكتشف أحد العبيد أمرهما. فحاول أن يبتز سيدته فلم تستجب له. وكردة فعل انتقامية، أبلغ العبد سيده الخليفة بما يدور في فراشه خلف ظهره. فأسرها في نفسه، وقام بزيارة جناح أم البنين في وقت غير متوقع، اضطرها لأن تخبئ عشيقها في صندوق خشبي. فما كان من الخليفة إلا أن طلب من أم البنين الحصول على الصندوق ثم أمر العبيد بحفر حفرة عميقة في نفس المكان. وقبل أن ينزل العبيد الصندوق في الحفرة اقترب منه الوليد وقال: لقد بلغنا عنكَ أمراً فإن صح ذلك فقد دفنا سرك ودرسنا أثرك، وإن كان كذباً فما علينا بدفن صندوق". ثم أمر العبيد فأنزلوا الصندوق وأهالوا عليه التراب، وبقي أمير المؤمنين يعاشر أم البنين وكأن شيئاً لم يكن. ومثل هذه القصة تكرر وقوع مثيل لها مع كثير من السلاطين والملوك عبر التاريخ.

ونعود لقصة يوسف:

(الآية:٣٤) استجابة الله لا تعني هنا أن الله هو من أمر بسجنه، فالذي أمر بسجنه العزيز، ولم يكن بإيحاء من الله، ولكن تلبية لرغبة زوجته. لكن موافقة العزيز على إصدار قرار السجن جاء في وقت كان فيه يوسف يدعو الله أن يسجن ولا يقترف الفاحشة مع المرأة. فلما علم يوسف أن قرار السجن قد صدر حمد الله على أن دعاءه (رغبته) قد استجيب.

رفيقا السجن

وتستمر السورة تسرد ما حدث: وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ(٣٦) قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ(٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِـي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ(٣٨) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ

اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ(٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ(٤٠) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ(٤١) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ(٤٢).

تنقل الآيات أن يوسف قال: «لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي» هذا كلام يوسف، وليس تقريراً وتأكيداً من القرآن على أن يوسف علمه الله التأويل.

وقوله «مما علمني ربي» ليس بالضرورة أنه تلقاه وحياً، لأن الله لن يعلم رسولاً علم الغيب بشهادة القرآن. ثم إن يوسف وهو في السجن لم يكن رسولاً لله، وليس هناك حكمة من أن يعطيه الله قدرة خارقة. وقد يكون قول يوسف إنه مما علمه ربه من باب قول أحدنا «هداني ربي للوصول لهذا الطريق».

وتأويل يوسف لأحلام السجينين نتيجة لمؤشرات، منها:

- أن السجينين يشاركان يوسف نفس المكان (الزنزانة) لفترة كافية عرف فيها يوسف تهمة كل منهما وتحدث مع كل واحد عما ينتظره ويتوقعه من عقاب، وأحدهما كان من المنتظر أن يحكم عليه بالإعدام. لذا فهو ينتظر هذا الحكم، ويشغل فكره لدرجة صورته أحلامه. وكان من السهل على يوسف أن يفسر أكل الطير الخبز فوق رأسه على أنه سيقتل وترمى جثته فتأتي الطير وتأكل الجثة.
- وكذلك بالنسبة للرجل الثاني الذي عرف يوسف أنه متهم تهمة بسيطة أو أنه أدخل السجن نتيجة مؤامرة عليه، وهو يعمل عند الحاكم، ولما رأى حلمه، كان من السهل على يوسف أن يقول له إنه سيخرج من السجن وسيعود لعمله كنادل عند الحاكم، ولذلك أوصاه أن يذكره عنده عندما يقدم له الخمر.

المهم في الموضوع هو أن تفسير الأحلام لم يكن علماً علمه الله ليوسف. وما ورد لا يعد تقريراً وتأكيداً على أن يوسف علمه الله تفسير الأحلام، ولكنه يروي ما قاله يوسف عن نفسه.

والآية (٣٩) تظهر أن الوثنية منتشرة في مصر عندما كان يوسف فيها.

ونسي المفرج عنه بحث قضية يوسف عند الملك، أو أنه لم يتجرأ أن يخبر الملك كما هي حال خدم السلاطين. فبقي يوسف في السجن فترة حتى رأى الملك حلما، وبحث عمن يفسره له: وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ(٤٣).

والآية تشير إلى أن الاعتقاد بالأحلام منتشر في ذلك المجتمع، لكن بعض الأفراد لا يعيرونها اهتمامهم: قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ(٤٤).

المهم أن رؤيا الملك تحدث بها الناس، مما شجع خادم الملك الذي كان يشارك يوسف السجن، أن يذكر للملك قدرة يوسف على تفسير الأحلام. وطلب أن يُسمح له بمقابلة يوسف في السجن، وقص الرؤيا عليه: وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ(٤٥).

وقد يكون هذا الرجل قد ذكر للملك أن يوسف قد أوّل حلمه وحلم رجل آخر وكلا الحلمين قد تحققا كما قال.

الملاحظ هنا هو أن الخادم، لم يتجرأ على أن يقول للملك إن يوسف سبق وطلب منه عند خروجه من السجن أن يذكر الملك بقضيته وأنه مظلوم لكي يطلق سراحه. لكن الذلة التي يعيشها خدم الملك جعلته لا يتجرأ للتحدث مع الملك في الموضوع، حتى بعد أن أعلن الملك أنه يريد من يفسر له حلمه. وكل ما فعله الخادم أن طلب من الملك أن يسمح له بلقاء يوسف.

وبالفعل أذن له بلقاء يوسف في سجنه: يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ(٤٦).

فما كان من يوسف إلا أن أخبره بالتأويل التالي: قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ(٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ(٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ(٤٩).

عندما سمع الملك تأويل يوسف أمر بإحضاره لديه، كأي ملك وسلطان، الذي يعتبر

الشعب خلقوا لأجل متعته وتلبية حاجاته، لكن يوسف رفض المجيء – على غير عادة الرعية – مشترطاً أن يخرج أولاً من السجن الذي بقي فيه دون وجه حق: وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ(٥٠).

فما كان من الملك إلا أن أحضر زوجة العزيز والنساء الأخريات اللاتي رأين يوسف، فاعترفت أن يوسف بريء: قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ للهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ(٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ(٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥٣).

المرأة اعترفت بأنها هي من راوده عن نفسه، ثم تقول: " ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ" وهذا مماثل لمن إذا انفضح أمره بسوء (زنا، سرقة ملايين) حاول أن يتظاهر بالعفاف والتقوى بالقول إنه كان تحت تأثير الجن، وعسى الله أن يغفر له. فالمرأة عقدت العزم على الإيقاع بيوسف ثم سجنته، ولم تكن ستسمح بخروجه من السجن أبداً إلا أن يوافق على رغبتها. ولما علم الملك (وهو أعلى من منصب زوجها الذي أمر بسجنه) تظاهرت بالندم. وبعد أن استمع الملك لامرأة العزيز أمر بأن يؤتى به لكي يكون من رجاله (خوياه) كعادة السلاطين الذين يضمون كل نابغة من الرعية لخدمة الراعي: وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ(٥٤).

والآية تظهر أن الملك أخبر يوسف أنه ضمه لمعاونيه وخدمه، دون أن يطلب رأيه. فهو مجرد رعية لا رأي له ولا يستطيع رفض رغبة الراعي.

فما كان من يوسف إلا أن حاول أن يستغل الوضع ما أمكن لمصلحته: قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ(٥٥) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ(٥٦) وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ(٥٧).

وطلب يوسف أن يكون مسئولاً عن مخازن الحبوب والمحاصيل الزراعية لأنه يعلم أن هذا المنصب سيمكنه من رؤية أحد إخوته أو أقاربه أو معارفهم، وبالتالي التواصل مع

والديه. ذلك أن قرية "مصر" تنتج كميات كبيرة من القمح والمحاصيل الزراعية الأخرى، لدرجة أن كان هناك هيئة خاصة تدير تخزينها وبيعها، وهي التي أصبح يوسف على رأسها. والناس من الأماكن المجاورة يأتون لشراء احتياجاتهم من هذه الخزائن.

وبالفعل حدث ما توقعه يوسف واستطاع التعرف على إخوته، واطمأن على أن والديه مازالا على قيد الحياة. وبعد عدد من الأحداث المتتابعة التي ترويها بتفاصيلها السورة، عرفهم بنفسه وطلب منهم إحضار والديه والانتقال للعيش معه في مصر: وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ(٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ(٥٩) فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ(٦٠) قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ(٦١) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(٦٢) فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ(٦٤) وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَـذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ(٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِّنَ اللّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ(٦٦) وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ(٦٧) وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ(٦٨) وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ(٧٠) قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ(٧١) قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ(٧٢) قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ(٧٣) قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ(٧٤) قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ(٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ(٧٦)

قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ(٧٧) قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ(٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّـا إِذاً لَّظَالِمُونَ(٧٩) فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيّاً قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقاً مِّنَ اللّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ(٨٠) ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ(٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ(٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ(٨٤) قَالُواْ تَالله تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ(٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ(٨٧) فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ(٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ(٨٩) قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ(٩٠) قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ(٩١) قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ(٩٢) اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ(٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ(٩٤) قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ(٩٥) فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٩٦) قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ(٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(٩٨).

والآيات تشير لعدد من المواضيع ولبعض العادات المتبعة في ذلك المجتمع، ومن ذلك:

وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(٦٢).

يوسف كان مسئولاً عن خزائن الحبوب والمحاصيل الزراعية، وكان تحت إمرته عدد من الفتيان (العمال).

يوسف استخدم أسلوباً «ملتوياً» فقد رد بضاعتهم إليهم دون علمهم، والدليل جاء في قوله تعالى: وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَـذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ(٦٥).

يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم، لم يكن رسولاً لله لكنه من سلالة رسل، ومع ذلك فقد تشاءم، أو كان يعتقد بما يعرف بالعين، عندما طلب من أبنائه أن يدخلوا من عدة أبواب ولا يدخلوا من باب واحد: وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ(٦٧) وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ(٦٨).

ثم تخبرنا السورة أن مشاعر الجفاء بين إخوة يوسف لأب من جهة ويوسف وشقيقه من جهة مازالت قائمة، وهذا يتضح من قول يوسف: آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(٦٩). فهناك «هم» و «نحن» في كلام يوسف لشقيقه.

ثم تخبرنا الآيات أن يوسف قام بمكيدة تتلخص بتخبئة صواع الملك في رحل أخيه: فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ(٧٠) قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ(٧١) قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ(٧٢) قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ(٧٣) قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ(٧٤) قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ(٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ(٧٦)

فلو قال أحد إن المكيدة تجوز إذا كان وراءها هدف نبيل، أفلا يكون هذا يعني تبرير الوسيلة للوصول للغاية؟

لا يمكن أن تبرر الوسيلة السيئة للوصول لغاية وإن كانت نبيلة.

حركة يوسف لم تفد بشيء على الإطلاق سوى رد إخوته لبلادهم ثم التسبب بحسرة أبيه، كما تبين آية لاحقة تخبرنا ما حدث ليعقوب عندما عاد أبناؤه بدون شقيق يوسف: وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ(٨٤).

كما تسبب يوسف في تكبيد إخوته لأبيه مصاعب الرحيل ذهاباً لبلادهم وعودة لمصر. وكان بإمكان يوسف أن يعلن لهم أنه يوسف قبل أن يعيدهم ويطلب منهم العودة لأبيه ومعهم قميصه، ويأتوا به لمصر.

وتقول السورة: قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً وَاللهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ(٧٧).

هذه الآية تؤكد استمرار مشاعر الجفاء بين يوسف وشقيقه من جهة وبين إخوتهما لأبيهما من جهة أخرى: قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً وَاللهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ(٧٧).

وهو ما أشارت له الآية (٦٩) أيضاً.

وبعد أن أخذ يوسف شقيقه كرقيق مقابل سرقته (في مشهد تمثيلي) حاول الإخوة استعطاف يوسف أن يستردوا أخاهم من أجل أبيه المسن: قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ(٧٨).

لكن يوسف أبى: قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّـا إِذاً لَّظَالِمُونَ(٧٩).

ويوسف لم يكن يقول الصدق، ومع ذلك تظاهر بأنه يفعل ما يرضي الله. ((هذا التصرف مشابه لتصرف كثير ممن يتظاهرون بالتدين)).

بعد أن تأكد إخوة يوسف أن يوسف لن يتراجع عن موقفه، اجتمعوا يتشاورون فيما يفعلون، فأشار عليهم أكبرهم أن يعودوا لوالدهم وسيبقى هو: فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيّاً قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقاً مِّنَ اللهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ(٨٠) ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ(٨١).

((قصة يوسف وما صدر منه ومن إخوته ومن أبيه، ترينا كم كانوا بشراً، يتصرفون كبقية البشر. ولم يكونوا مخلوقات معصومة من الخطأ والتحايل. والقرآن لا يجامل أحداً، فهو

يروي ما حدث كما حدث)).

والسورة تظهر أن مصر فرعون قرية، وليست مملكة بقرى وبلدات كثيرة: وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ(٨٢).

(الآيتان: ٩١-٩٢) تظهران أن إخوة يوسف أبدوا أسفهم على ما حدث منهم ليوسف: قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ(٩١) قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ(٩٢).

وإجابة يوسف بأن الله سيغفر لهم، لا يعني أنه يعلم أن الله سيغفر لهم، ولا يعني أنه إن قال غفر الله لكم فالله سيغفر لهم، لكنه يعني نسبة كل شيء لله جل شأنه. وهو أسلوب مازال متبعاً بيننا. ومثله ما ورد في الآية (٩٧) والآية (٩٨) من طلب إخوة يوسف من أبيهم أن يستغفر لهم وموافقته هو على ذلك. فالله لن يغفر لهم لأن أباهم طلب ذلك، بل سيغفر لهم إن هم أخلصوا النية في التوبة. ثم إن ما حدث بينهم وبين يوسف لو لم يتسامحوا فيما بينهم فسيحكم الله بينهم بالحق، وقد يتحمل يعقوب جزء من المسئولية عما حدث لأنه أساء معاملة أبنائه من زوجته الأولى مقابل تقريبه ليوسف وأخيه من زوجته الجديدة «الشابة»، وهو ما دفعهم لإبعاد يوسف.

بعدما عرف يوسف إخوته بنفسه، قال لهم: اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ(٩٣).

وهنا نتذكر ما ورد في الآية (٨٤) حيث تقول إن يعقوب ابيضت عيناه من الحزن على يوسف.

فهل بالفعل فقد يعقوب بصره تماماً ثم عاد له بمجرد أن وضع قميص يوسف على وجهه؟ أو أن العبارة مجازية تصور أن يعقوب حزن كثيراً على يوسف؟

وقد مررنا بعدد من العادات والتصرفات التي صدرت من يعقوب وبنيه تخالف صريح الدين. مثل التشاؤم، الخداع وغيرها، كما مررنا بعادات منتشرة في تلك المجتمعات، منها التصديق بالأحلام وأنها تقع.

ويوسف يظن أن لديه القدرة على تأويل الأحلام، وينسب هذه القدرة على أنها خاصية أعطاها إياه الله: رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ

وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ(١٠١).

الآية تروي ما قال يوسف ولا تقرر أن الله أعطى يوسف هذه الخاصية والقدرة.

فهل كان يوسف قادراً على تأويل المنام والأحلام؟ أم أنه يظن أنه يستطيع ذلك؟

أو أن الأمر كله لا يزيد عن كون يوسف ظن أن لديه هذه القدرة، وهذا الشعور تنامى منذ أن قال له والده يعقوب إنه قادر على ذلك، وهو في صغره: وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٦)

فالآية تروي كلام يعقوب ليوسف وهو في صغره، مما يؤكد أن الله لم يعط يوسف قدرة تفسير الحلم.

والسورة لم تقرر أن الأحلام تتحقق، بل تروي ما حدث وما قال الناس حول الأحلام.

وتختم السورة الحديث عن يوسف، بالقول: فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ(٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(١٠٠) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ(١٠١).

لقد خر والد يوسف وأمه وإخوته له سجدا، تعظيماً لشأنه، وهو ما يظهر عادة متبعة. والسجود لمخلوق منهي عنه في الدين: وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ(٣٧) فصلت.

لكن سجودهم حدث بالفعل وأخبر به القرآن كما حدث، دون بيان لصحته أو حرمته أو تحليله: فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ(٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(١٠٠).

وعاش يعقوب وبنوه في مصر وتناسلوا هناك وكثرت أعدادهم، مكونين جالية خاصة

بهم. وبقيت تلك الجالية منغلقة على نفسها، ولم ينصهر أفرادها في أهل البلد أو يتزاوجوا معهم، حتى اعتلى فرعون الملك. وقد يكون السبب أن يوسف جيء به لمصر كرقيق، وبقي أهل مصر ينظرون له كرقيق برغم توليه منصباً رفيعاً في حكومة الملك. ولما أحضر والديه واخوته لمصر وعاشوا هناك وتناسلوا بقي الناس ينظرون لهم على أنهم من طبقة منبوذة أو رقيق سابقين. وهذه النظرة الدونية حالت بينهم وبين الانصهار في المجتمع المصري. فعاشوا في مجتمع مغلق على أنفسهم، داخل مصر، وكأن بينهم جداراً عازلاً. لكل فريق عادات وأعراف تختلف عن عادات الفريق الآخر. ولأن هذه الحالة استمرت لمئات السنين فقد تحولت إلى صفة ملازمة ليس فقط لبني إسرائيل بل لكل اليهود، حيث يبقون في تجمعات مغلقة في أي دولة يعيشون فيها، منعزلين عن المجتمع خارجها، وكأنهم يعيشون في دولة داخل الدولة.

وبقية السورة تخاطب الرسول عن قريش وغيرهم من الناس، وتؤكد له أن أكثرهم لن يؤمن، كسنة متبعة. ولا شأن لهذا بالرسول وطريقته في الدعوة: ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ(١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ(١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ(١٠٤) وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ(١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ(١٠٦) أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ(١٠٧) قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٠٨) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ(١٠٩) حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ(١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(١١١).

الآية (١٠٢) تؤكد أن الرسول لا يعلم غيب الماضي إلا ما علمه الله، ومن باب أولى ألا يعلم غيب المستقبل (دليل على عدم معرفته بالغيب).

والآية نفسها دليل على أن أكثر الناس لن يؤمنوا مهما حرص الداعي (هو الرسول محمد هنا).

الآية (١٠٣) الرسول لا يسأل منفعة مقابل دعوته، ولا يباح له ذلك. ويستفاد من هذا أن الدعوة لدين الله يحرم أخذ أجر دنيوي عليها، ويقاس على ذلك تحريم أخذ أجر على أي عمل ديني. والآية دليل على أن الدعوة تكون بتلاوة القرآن فقط، بعيداً عن المواعظ واستخدام العبارات الشخصية.

الآية (١٠٩) ترد على قريش التي تطالب برؤية الملائكة. وتقول للرسول إنه لم يرسل الله لأي بشر سابقاً رسولاً من الملائكة أبداً، ولكي تتأكد قريش من ذلك، فعليهم تذكر الأمم السابقة التي أهلكت والتي تعرفها قريش وتعرف أنه أرسل لهم رسل من البشر، ولم يرسل لهم ملائكة.

الآية (١١٠) تؤكد للرسول سنة متبعة في الأمم السابقة، تتمثل بنجاة الرسول ومن آمن معه وترك المكذبين ليهلكوا بالكارثة التي حلت بأرضهم.

الآية (١١١) تخاطب بني إسرائيل وتقول لهم إن تفاصيل قصة يوسف عبرة لكم لكي تتأكدوا أن محمداً رسول من الله، الذي أوحى له هذه التفاصيل التي تروي حقيقة ما حدث بتفاصيلها.

وسنعيد الحديث عن سورة يوسف في كتاب: من آدم إلى محمد/ تاريخ الرسل والأمم والأشخاص المذكورين في القرآن.

(٧٦) الأنبياء

السورة تبدأ بدون آيات افتتاحية.

قريش رفضت الدعوة ولن تؤمن

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرِضُونَ(١) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ(٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ(٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاء وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٤) بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ

الأَوَّلُونَ(٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ(٦) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ(٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاء وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ(٩) لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ(١٠).

(الآية:١) دليل على أسلوب القرآن. فالآية تقول: اقترب للناس حسابهم. وهذا لا يعني أن الساعة اقتربت، لكنها كناية على أنه سرعان ما ستمر الأيام ويموت كفار قريش ليواجهوا مصيرهم يوم القيامة. والمخاطب هنا قريش وليس كل الناس، ولا من سيأتي بعد عصر الرسول، كما يظن البعض ويعتبرونها دليلاً على اقتراب الساعة.

(الآية:٢) كل أتباع الموروث لا يمكن أن يصغوا لأي حديث ينتقد موروثهم لأنهم لا يرحبون بنقده، ولو كان النقد صائباً.

(الآيتان:٣-٤) كأن هناك حواراً بين الرسول وكفار قريش، وهو نوع من أنواع أساليب القرآن والذي يرد على مزاعم قريش.

(الآية:٥) قريش تتهم الرسول بالكذب لكي تبرر تمسكها بموروثها. وتطالب الرسول بأن يريهم معجزة «آية» وإلا فهو يتخيل أن الله يوحي له ثم يتلو عليهم ما يتخيله. والآية دليل على أن قريشاً تعرف ما حل بأمم سابقة ذكرها القرآن وأن بعضها أوتي آيات.

(الآية:٦) تأكيد أن قريشاً لن تؤمن - حتى لو أوتوا آيات - لأن من يرفض الدعوة لا يعود ويؤمن أبداً، مهما دعي، ومهما رأى من براهين تثبت صحتها.

(الآيات: ٧-٩) رد على طلب قريش المتكرر أن ينزل عليهم ملائكة، ولم يسبق أن نزل ملك رسول على أي أمة من البشر قبل محمد. والآيات تبدأ بالقول: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ وهو تكرار لما ورد في الآية (١٠٩) من السورة السابقة «يوسف»: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم. لكن آيات السورة الحالية تقول: فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ. وأهل الذكر هم أهل الديانات السابقة، والمقصود هنا بنو إسرائيل الذين أصبح لهم تواجد في مكة واتصال بالرسول وبعضهم أسلم. وصار بإمكان قريش أن تسألهم إن سبق أن أُرسِل لأسلافهم رسول من الملائكة.

وقوله: « وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ» تأكيد على أن الرسل

كلهم كانوا من البشر، ولم يكونوا ملائكة قد يتشكلون على هيئة بشرية، ولكنهم لا يأكلون الطعام لأنه ليس لديهم جهاز هضمي. وكل الرسل بشر أعمارهم محدودة، وليسوا كالملائكة (وكل المخلوقات اللاجسدية) ليس لهم أعمار محددة ويبقون أحياءً ما بقي الكون.

(الآية:١٠) تقول لقريش لو كنتم ترغبون في الحق فالقرآن الذي نزل عليكم ويخاطبكم كافٍ للهداية. والآية دليل على أن الدعوة لا تكون إلا بالقرآن. والكتاب هنا يعني القرآن، ولو أنه لم يكتب في تلك الفترة.

(الآيات:١١-١٥) تصويرٌ لحال الأمم السابقة عند وقوع الكارثة: وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ(١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ(١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ(١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ(١٤) فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ(١٥).

فالناس يصابون بالذعر والهلع ويبدأون يتراكضون في كل اتجاه ويصرخون بأصوات عالية نادمين على الكفر ومعلنين التوبة التي لن تقبل في هذه الحالة. (التوبة لا تقبل عند الموت)

عالم الخالق

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ(١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ(١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ(١٨).

الخالق جل شأنه له عالم خاص لا علاقة له بعالم المخلوقات الذي يمثله ويضمه ما يعرف بالكون. فكل ما في الكون ليس لله مثيل فيه، وما لله ليس للمخلوقات مثيل منه. وهو ما ينفي ذلك التصور الساذج عن أن الكون عبارة عن الأرض التي تقع في الأسفل ويعلوها سبع طبقات (سماوات) ثم طبقة فوقها هي عرش الرحمن (كرسيه الذي يجلس عليه). وهو تصور مقتبس من تراث اليهود، الذين يجسمون الله، ويعتبرون له هيئة وجسداً (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً).

فالخالق جل وعلا لا يحيطه زمان ولا مكان، فهو ليس في مكان ما سواء في كوننا هذا أو في مكان آخر. وهذا ينفي نفياً قاطعاً ما نسب للرسول من حديث يقول أن الله (تعالى) ينزل في الثلث الأخير للسماء الدنيا. ومن قال به ليس فقط هو لا يعي شكل الكون، ولكنه أحاط

الله بزمان وبمكان (السماء الدنيا).

الله جل وعلا يسير خلقه بقوانين ثابتة

وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ(١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ(٢٠)

الآيتان هنا تشيران إلى أن الله لا يحتاج لمخلوقات حية قد تعصي لتدير ملكوته، ولا يحتاج لمخلوقات حية لتخدمه سبحانه، فهو لا يحتاج لخدمة ويدير كل مخلوقاته بقوانين ثابتة لا تحتاج لصيانة ولا تتعطل. لكن عبارة الآيتين تتلاءم مع مفهوم المخاطبين في زمن نزول القرآن الذين يقيسون الله بمفاهيمهم البشرية وبالتالي يتصورون أنه سبحانه يحف به ملائكة يخدمونه في يومه ويديرون له خلقه. وكأنه ملك أرضي لا يفعل شيئاً لنفسه بيده ويستخدم غيره ليقوم بها نيابة عنه.

لا يمكن أن يكون هناك أكثر من إله

أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ(٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ(٢٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ(٢٣).

قريش اتخذت أصناماً من حجارة الأرض كآلهة تعبد مع الله، ولو كان مع الله آلهة حية - وليست جماداً كأصنام قريش - لاختلفت آراء الآلهة ولفسد الكون. وتقول السورة لقريش: إن كنتم اتخذتم آلهة دون الله فهاتوا برهانكم وأدلتكم التي تثبت أنكم على صواب: أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ(٢٤).

وهذا يقال لكل من زعم ما ليس من الدين، كمعتقدات المذاهب التي لم يفرضها القرآن.

كل الرسل دعوا للوحدانية

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ(٢٥).

وليس هناك رسول واحد دعا إلى إشراك إله مع الله.

المولود من جنس الوالدين

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ(٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ(٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ(٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ(٢٩).

قريش تعتقد أن الملائكة بنات الله والآيات تنفي هذا المعتقد، وتقول إن الملائكة مجرد عباد من مخلوقات الله، وتجب عليهم - كغيرهم من مخلوقات الله - طاعة أوامر الله. ومن يتجرأ منهم ويدعي الألوهية من دون الله يخلد في النار. ولو كانت الملائكة بنات الله فسيكونون من جنس الله (آلهة) تبارك الله وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

إخبار قريش عن خلق الأرض ومعلومات عن الكون

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ(٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ(٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ(٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(٣٣).

الآيات تخبر قريشاً عدة حقائق عن الكون:

- أن الأرض كانت كتلة واحدة (رتقاً) مع ما يرون من السماء (النجوم والكواكب) وملتصقة ببعض. وهذه الحقيقة التي يوردها القرآن بأسلوب بسيط يتلاءم مع مدارك قريش ومعارفها، تشير إلى أن الأرض لم تنشأ لوحدها، ولكنها تكونت من انفصالها عن الأجرام السماوية (في مجموعتها أو مجرتها)، وتخلقت ببطء إلى أن تشكلت بشكلها النهائي.
- كل المخلوقات الحية كان الماء عنصراً أساسياً لتخلق سلالاتها الأولى، ولولا الماء لما تخلقت[1].
- السماء (الغلاف الجوي) عبارة عن سقف ومانع وحامٍ للأرض "سقفاً محفوظاً".

---

١ يمكن الرجوع لفقرة: خلق الإنسان الأول/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

وأصبح من المعروف الآن أن هذا الغلاف الجوي يحفظ من أشعة قاتلة ويعمل على احتراق الصخور التي تنجذب للأرض، فتحترق قبل اصطدامها بالأرض.

- الشمس تسبح في فلك "مسار" خاص بها، وكذلك القمر.

ونتوقف عند قوله تعالى: «وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ».

فالآية تقول: وجعلنا في الأرض رواسي، وهي صفة للجبال. فكأنها تقول: جعلنا في الأرض جبالاً رواسي. وليس المعنى أن الأرض رست واستقرت بفعل الجبال كما يقول قتادة ومفسرون غيره، وهذا ما أورده الطبري عن قتادة: قال: كانوا على الأرضِ تمور بهم لا تستقرّ، فأصبحوا وقد جعل الله الجبال وهي الرواسي أوتادا للأرض. انتهى.

وهذا كلام تخيله قتادة ومن نحا نحوه يعكس جهلهم التام بحقيقة الأرض، وجرأتهم على تأويل كلام الله. والآية تقول بأن الجبال رواسي ثابتة بذاتها لا تتحرك، وليست مثبتة للأرض كالأوتاد.

الرسول قد يموت أو يقتل في أي لحظة

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ(٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ(٣٥).

الموت طريق لكل أحد، ولن ينجو الرسول ولا غيره منه. ولو مات الرسول في مكة وقبل اكتمال التشريعات فسيرسل الله جل وعلا رسولاً غيره، ليكون خاتماً للرسالات.

قريش تسخر من الرسول لأنه ينكر عبادة الأصنام

وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ(٣٦).

قريش تسخر من محمد لأنه يصف آلهتهم بالجماد التي لا تنفع ولا تضر، ويكفرون بعبادة الرحمن. هذا انقلاب للمفاهيم وقلب للحقائق، سببه التمسك بالموروث، وكأن قريشاً تفكر بطريقة مقلوبة. فمن ينكر عبادة الحجارة مجنون، ومن ينكر عبادة الرحمن هو العاقل. فالتمسك بالموروث يعمي البصر والبصيرة، ولا يكون للعقل والتفكير مكان عند عبدة الموروث.

قريش مستعجلة لرؤية ما يوعدون

خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ(٣٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ(٣٩) بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ(٤٠).

الآيات تتحدث عن قريش واستعجالها العذاب. فهم يطلبون من الرسول أن يحل بهم العذاب الذي يتوعدهم القرآن به. وتقول لهم الآيات إن الإنسان من طبعه الاستعجال للحصول على النتائج.

ولا تتحدث الآيات عن آيات ومعجزات ستحدث في الدنيا مثل ما يسمى بعلامات الساعة.

والآيات تقول بأن العذاب سيأتي كفار قريش بغتة، والمقصود عذاب الآخرة، كون من يموت منهم سيشعر بأن القيامة قامت في اللحظة التي مات فيها، لأن ذاكرته ستتوقف عن التسجيل ولن يشعر بمرور الوقت.

قريش تواصل السخرية بالرسول

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(٤١).

الآية تشير إلى تزايد الأذى النفسي والسخرية على الرسول.

دعوة عقلانية

قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ(٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ(٤٣).

بقاء قريش دون رسالة لعصور حوّل أجدادهم للوثنية التي أصبحت موروثهم

بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ(٤٤).

وإنقاص الأرض من أطرافها المقصود به نقص البشر بالموت، وليس كوكب الأرض. لأن القرآن يخاطب قريشاً بما ترى وتعرف، ولأن الحديث هنا عن تتابع الأجيال.

الرسول لا يدعو قريشاً بغير الوحي

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاء إِذَا مَا يُنذَرُونَ(٤٥).

فمسئوليته عليه الصلاة والسلام هي تبليغ ما يوحى إليه كما أوحي دون أن يكون له من الأمر شيء. والرسول لم يوح له سوى القرآن الذي يتلو عليهم.

قريش تعلم أن الله وحده من يجب أن يعبد

وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ(٤٦).

(الآية: ٤٦) تصف قريشاً لكنها تنطبق على كل الناس. فإذا ما مس الإنسان الضر دعا ربه، وترك آلهته لأنه يعلم أنها لا تستطيع مساعدته، وإذا كشف ما به كفر.

الحساب بناءً على سجل الأعمال / الإنسان يحاسب نفسه

وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ(٤٧).

الآية تصوير حسي لصحيفة الأعمال وقد صورت بموازين. والآية تقول بأن ما تسجله صحيفة الأعمال هي التي سيحكم بموجبها على الإنسان بجنة أو نار، دون تدخل مباشر من رب العالمين.

(الآيات:٤٨-٩١) تذكير بأمم سابقة، بعضها موجه لبني إسرائيل وبعضها لقريش.

ما أوحي لموسى وهارون وما أوحي لمحمد ذكرٌ لمن رغب في الهداية

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاء وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ(٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ(٤٩) وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ(٥٠).

دليل على أن الدين واحد، فما أوتي موسى هو ما أوتي محمد، ودليل على أن الدعوة بالقرآن فقط.

إبراهيم وقومه

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ(٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ(٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ(٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي

ضَلَالٍ مُّبِينٍ(٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ(٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ(٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ(٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ(٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ(٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ(٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ(٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ(٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ(٦٣) فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ(٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ(٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ(٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ(٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ(٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ(٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ(٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ(٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلّاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ(٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ(٧٣).

الآيات تسجل مشهداً يظهر قوم إبراهيم وقد أحضروا إبراهيم إلى تجمع لهم ليشهدوا على اعترافه بتكسير آلهتهم. وكان جوابه أن كبير الأصنام هو من كسر الأصنام الباقية، وعليهم أن يسألوه ليخبرهم. هذا الموقف حرك عقول القوم واعترفوا أن الأصنام لا تنطق، وهو ما سعى إبراهيم للوصول إليه؟

وكاد القوم أن يعودوا لعقولهم ويعترفوا بأنهم يعبدون ما لا ينفع نفسه فكيف ينفع غيره، لكن الموروث غلبهم فتراجعوا. والآية تصور تراجعهم وكأنهم نكسوا على رؤوسهم، ثم هاجموا إبراهيم ليبرروا مواقفهم. وهذا الموقف يتشابه مع موقف القرشي الذي استمع للرسول وهو يتلو القرآن وحرك عقله وكاد أن يؤمن لكنه انتكس بفعل سيطرة الموروث. ولكي يبرر لنفسه موقفه كال لمحمد الاتهامات: إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ(١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(٢٠) ثُمَّ نَظَرَ(٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ(٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ(٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ(٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ(٢٥) المدثر.

(الآيات:٦٨-٧٠) لم يحرق إبراهيم، ولكنه أسلوب التشويق القرآني.

(الآية:٧١) لوط فقط من خرج مع إبراهيم من قريتهم إلى مكة.

(الآية:٧٢) لا تذكر إسماعيل مع أنه ولد قبل إسحاق، لأن الخطاب موجه لبني إسرائيل الذين لا يهمهم إسماعيل.

(الآية:٧٣) العبادات نفسها مطلوبة في كل الرسالات).

لوط الذي نجا مع إبراهيم عاد للقوم كرسول

وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ(٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ(٧٥).

لوط هو الشخص الوحيد الذي آمن بالله مع إبراهيم وخرج معه لمكة، كما تؤكد الآية ٧١. وقد عاد لنفس القرية كرسول لله لكنهم كذبوه، وهلكوا بكارثة طبيعية، ونجا لوط.

نوح وقومه

وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ(٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ(٧٧).

وكل من سبق التذكير بهم خطاب موجه لقريش لأن الآيات تذكر بهلاك من كفر بالرسل، لعل قريشاً تعتبر. ثم تتجه السورة بالتذكير بشخصيات تهم بني إسرائيل لأنها من تاريخهم:

داوود وسليمان

وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ(٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ(٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ(٨٠) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ(٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ(٨٢).

أيوب

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ(٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ(٨٤).

إسماعيل وإدريس وذا الكفل

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ(٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ(٨٦).

يونس

وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ(٨٨) وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ(٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ(٩٠).

مريم

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ(٩١).

(الآيات:٩٢-٩٦) كل آية تتحدث عن موضوع مستقل، وهو أسلوب معتاد من أساليب القرآن:

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ(٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ(٩٣) فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ(٩٤) وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ(٩٥) حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ(٩٦).

(الآية:٩٢) كل من ذكر من أمم سابقة، هم أمة واحدة مع أمة محمد. (دين واحد ونسب واحد).

(الآية:٩٣) الناس تتخلى عن الدين بعد الرسول لفرق ومذاهب متخالفة.

(الآية: ٩٤) كل ما يصدر من الإنسان من أعمال صالحة تسجل ولا يبخس منها شيء.

(الآية:٩٥) كل قرية أهلكت لن تعود للحياة.

(الآية:٩٦) تتحدث عن شيء مضى وتقول عندما ينهار سد ذي القرنين المذكور في سورة الكهف، فسيعيث رجال يأجوج ومأجوج بالمناطق القريبة منهم. وقد حدث هذا بالفعل في

وقته. والآية تستخدم أسلوب ما سيكون لما كان.

لكن المفسرين ربطوا بين هذه الآية والآية التي تليها لكي يقولوا بأن يأجوج ومأجوج خلق غريب عجيب ليس لهم مثيل بين مخلوقات الأرض، سيظهرون في آخر الزمان كدليل على قرب الساعة. وسطروا حولهم القصص الخرافية المضحكة، مع أن الآية (٩٧) تتحدث عن قريش، ولا علاقة لها بالآية قبلها:

وعيد لقريش

(الآيات: ٩٧-١٠٠) تتحدث عن قريش وتتوعدهم وآلهتهم بجهنم يوم القيامة: وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ(٩٧) إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ(٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلَاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ(٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ(١٠٠).

الآيات تقول لو كانت أصنامهم آلهة ما كانت وقوداً للنار. والحصب يقول عنه ابن منظور في لسان العرب: ((ذكر أن الحَصَبَ في لغة أهل اليمن الحَطَبُ. ويقول إنه رُوِي عن علي ابن أبي طالب: أنه قرأ حَطَبُ جَهَنَّمَ[1].

لكني أميل إلى أن معنى الحصب هو نفس معناه في لهجات كثير من سكان جنوب جزيرة العرب ويقصد به بحص صغير شبيه بالمرو ويستخدم كحافظ للحرارة في المحانذ (الأفران التي يطبخ فيها الحنيذ)[2]. فجاء تشبيه الكافر بأنه حصب جهنم، لأنه سيكون فيها، وليس لأنه هو الوقود الذي تستمد النار طاقتها من حرقه لتبقى مشتعلة، لأن النار تستمد طاقتها من مصدر آخر.

وعد للمؤمنين

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ(١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ(١٠٢) لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ(١٠٣).

---

١ لا أعتقد أن علياً يتجرأ ويحرف كلام الله. وإن فعل فهو من سيتحمل وزره، ويرد تأويله.. وأظن أن الكلام منسوب له فقط من أجل تقوية رواية القول بأن هناك قراءة «بحطب» بدل «حصب».

٢ انظر فقرة: حنيذ/ قسم مفردات من القرآن.

تصوير مجازي حسي لانهيار الكون

يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ(١٠٤).

وتصوير انهيار هذا الكون بصورة مجازية حسية قرأناه كثيراً في سور المرحلة الرابعة السابقة، وهذه الآية من الآيات القلائل التي ذكر فيها التصوير المجازي الحسي في هذه المرحلة.

وعد من الله بسعادة دنيوية للمؤمنين

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ(١٠٥).

والزبور تعني السجل، والمقصود به هنا، سجلات الوحي المحفوظة في الأرشيف الإلهي[١].

وليس المقصود بالزبور اسماً لكتاب يضم الوحي الموحى لداوود، كما يسمى الوحي المنزل على الرسول محمد «القرآن» والذي تلقاه موسى «التوراة». لأن داوود لم يكن رسولاً، ولم ينزل عليه وحي دوّن في كتاب. ولكن المفسرين خلطوا بين هذه الآية وبين آيتين أخريين تقولان إن داوود أوتي زبوراً، وهما: الآية (٥٥) من سورة بني إسرائيل، والآية (١٦٣) من سورة النساء.

ولأن كلام المفسرين مجرد اختلاق وظن، فقد قالوا إن لداوود كتاباً سمي «زبوراً» وهو عبارة عن: دعاء عُلِّمه داود، تحميد وتمجيد، ليس فيه حلال ولا حرام، ولا فرائض ولا حدود.

وللقراء تخيل أن الله جل شأنه أوحى لداوود كتاباً ليس فيه تشريع، ولا دين، ولكنه دعاء وتسبيح.

والزبور الذي أوتي داوود هو ذاك العلم الذي لم يؤت أحد غيره في زمانه ومنطقته: وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) سبأ.

ولم يؤت كتاب ليس فيه سوى الدعاء والتسبيح.

أما الزبور المذكور في آية سورة الأنبياء التي بين أيدينا، فهو - كما ذكر سابقاً - سجل الأرشيف الإلهي. وكأن الآية تقول إن هناك وعداً مكتوباً من الله جل وعلا لعباده الصالحين الذين يطبقون تشريعاته بأن لهم سعادة دنيوية، تسبق سعادة الآخرة.

---

١ انظر فقرة: الأرشيف الإلهي / قسم مفردات من القرآن.

القرآن وسيلة الدعوة الوحيدة ومحمد رسول لكل الناس

إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ(١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ(١٠٧).

لا إكراه في الدين، ودعوة للتعايش السلمي مع قريش

قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ(١٠٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاء وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ(١٠٩).

لكن السنة الأزلية التي يسير عليها الناس تقول إن كل دعوة للحق تخالف الموروث تحارب، وهو ما يفعله أتباع المذاهب ضد أي دعوة تنتقد موروثهم، ولو كانت دعوة حق. وسيحارب كل من يدعو لها ولن يقبل التعايش معه بسلام.

الرسول لا يعلم الغيب

إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ(١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ(١١١).

وتختم السورة وكأن الرسول: قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ(١١٢).

(٧٧) الكوثر

سورة الكهف السابقة تقول للرسول: وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً(٢٧) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً(٢٨).

فآيات الكهف تطلب من الرسول أن يُصبِّر نفسه ويسليها بذكر الله وتلاوة القرآن وأن يقضي وقته مع المؤمنين لكي ينشغل عن التفكير بمباهج الدنيا التي تملكها قريش.

ومن هذه المباهج التي لا يملكها رسول الله ما ذكرته سورة الكهف: الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦).

فالرسول يجد نفسه ينجذب لما لا يملك ويرى كفار قريش يملكون، المال والبنين. مما يعني

أنه لم يتزوج بامرأة غنية، ولم ينجب منها.

ثم تأتي سورة الحجر تخاطب الرسول قائلة:

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ(٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ(٨٦) وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ(٨٧).

الله هو الخالق، وقد أعطاك وأجزل لك العطاء، كمقدمة لتقول:

لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ(٨٨).

فالرسول مد عينيه وتمنى أن يكون له مال وامرأة جميلة كما لبعض قريش.

وسورة الكوثر نزلت بحق أحد زعماء قريش والذي كان يعير الرسول وينعته بالأبتر. والأبتر تعني من لا عقب له، أي الذي لا ينجب:

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ(١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ(٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ(٣).

ومن الواضح أنها نزلت بعد وفاة خديجة، زوجة رسول الله الوحيدة في مكة، ولو كان الرسول قد ولد له أولاد ذكور، كما يزعم المؤرخون، وإن ماتوا وهم صغار، فلن يعيره القرشي بأنه أبتر. وحتى لو أن خديجة لم تنجب لمحمد سوى بنات، فلا يمكن أن يعير بالأبتر، حتى لو حاول بعض اللغويين أن يقصروا معنى الأبتر بالذي ليس له ولد ذكر[١]. لأن من يستطيع إنجاب الإناث يمكن أن ينجب ولداً ذكراً فيما بعد. ومحمد إن كانت زوجته ماتت فالاحتمال مازال قائماً بزواجه مرة أخرى وإنجاب الذكور. لكن إن كان لبث زوجاً لخديجة حيناً من الدهر، ولم ينجب، لا إناثاً ولا ذكوراً، فهو مدعاة للقرشي أن يعيره بالأبتر، لأنه ثبت بالبرهان أنه لا ينجب. وإن كان هذا ما حدث، فلم يكن للرسول بنات في مكة. وتكون رقية وزينب وأم كلثوم وفاطمة بنات لخديجة من أحد الرجلين اللذين تزوجت بهما قبل الرسول أو من أحدهما، وهما: عتيق ابن عائد المخزومي، وأبو هالة ابن

١ وقواميس اللغة المشهورة عبارة عن نقل حرفي لمعاني الألفاظ من التفاسير. ومعاني الألفاظ عند المفسرين يختلقها المفسر إذا لم يعرف معنى اللفظ، أو يختلق المعنى ليتلاءم مع تأويله للآية. ومن ذلك قولهم إن الأبتر يعني من لم ينجب له ولد ذكر. وهو كلام مغلوط، لأن الأبتر الذي لا عقب له سواءً كان ذكراً أو انثى. ولأن من ينجب البنات ليس ابتر وقد ينجب الذكور. والعرب تحمل المرأة نوع المولود، وبالتالي فلو رزق الرجل ببنات فهم يعتقدون أنه ليس عيباً فيه ولكن في المرأة. وعادة ما يتزوج أكثر من امرأة بحثاً عن ولد. لذا لا يمكن أن يكون معنى الأبتر من لا ينجب له ولد ذكر.

زرارة التميمي. وأصبحن ربيبات للرسول بعد زواجه بخديجة. وبما أن من المعتاد التبني فإن الربيبات ينسبن لزوج أمهن. كما أن ما قالته كتب التراث من أنه ولد له أولاد هم: القاسم وعبدالله والطاهر، غير صحيح. ويمكن ملاحظة الأثر الشيعي هنا على هذه الأسماء بمقارنتها بأسماء أئمتهم والتي تظهر هوسهم بالألقاب المعرفة بأل.

فهناك: إمامهم الخامس ويسمى الباقر (ت١١٤ هـ) مع أن اسمه: محمد ابن علي ابن الحسين.

والسادس: الصادق (ت ١٤٨ هـ) مع أن اسمه: جعفر ابن محمد ابن علي ابن الحسين.

والسابع: الكاظم (ت ١٨٣ هـ) واسمه: موسى، وهو ولد جعفر السابق.

والثامن: الرضا (ت ٢٠٣ هـ) واسمه: علي، وهو ولد موسى السابق.

والتاسع: الجواد (ت ٢٢٠ هـ) واسمه: محمد، وهو ولد علي السابق.

والعاشر: الهادي (ت هـ) واسمه: علي، وهو ولد محمد السابق.

والحادي عشر: العسكري (ت هـ) واسمه: الحسن، وهو ولد علي السابق.

وحتى من يعتبرونه إمامهم الثاني عشر - برغم أن أحداً لم يره - لأن والده كان لا ينجب، إلا أنهم أسموه: محمداً ولقبوه بالمهدي.

ويكون اختلاق أولاد للرسول قد حدث في القرن الثاني أو الثالث للهجرة، وبعدما انتشرت ظاهرة الألقاب المعرفة بأل عند الشيعة.

المرحلة السادسة:
مرحلة التعدي ودفع الظلم

شهدت هذه المرحلة بداية التعدي الجسدي من قريش على ضعفاء المسلمين. مما يعني – ضمناً – أن عدداً جديداً من عبيد وموالي قريش قد استجابوا لدعوة الرسول، أدى إلى حنق قريش، لأن دخول المستضعفين للإسلام سيشل الخدمات في مكة، كونهم من يقوم بها. وهذا لن تسمح به قريش، لدرجة أن بعض كبرائها قام بالتعدي الجسدي على من أسلم متناسين أو متجاوزين العهد القديم بإبقاء مكة بلداً حراماً آمناً لا يمس ساكنه، والذي احترمته قريش وكل سكان جزيرة العرب منذ آلاف السنين. ومن المحتمل أن من تجرأ على التعدي على المستضعفين برر ذلك بكونهم أقل إنسانية وقدراً، وبالتالي فالتعدي عليهم لا يعني التعدي على العهد المكي. ولم يتعرض الرسول ولا أي مسلم ينتسب لقريش لأي أذى جسدي أبداً. ولا عبرة بما تحويه كتب التراث من قصص مختلق يهدف للسخرية من الرسول وصحبه أكثر من الإخبار عن حقيقة ما حدث. ومن ذلك قولهم إن قريشاً وضعت سلى جزور على ظهر الرسول وهو يصلي أو أن أحدهم خنقه، وغيرها من القصص. لأنه لو حدث للرسول هذا لأخبر به القرآن، كما أخبر بأحداث أقل أهمية.

وتَعرضُ من أسلم من المستضعفين للأذى الجسدي، مما ميز هذه المرحلة عن المرحلة السابقة – الخامسة – التي تعرض فيها المسلمون كافة ومعهم رسول الله للأذى النفسي والسخرية، لكن لم يتجرأ أحد من قريش على أن يبسط يده لأي منهم بسوء.

وهناك ملامح أخرى تميز هذه المرحلة من أهمها:

- إعطاء المسلمين الحق بمعاقبة كل من يعتدي على أي منهم بمثل ما اعتدى دون تجاوز. والمعتدي هنا رجالٌ من قريش، ومستضعفو مكة المسلمون هم من اعتدي عليهم.
- لأول مرة في تاريخ الإسلام ينشب خلاف بين فئتين من المسلمين، وسيتكرر بل

وسيستمر الخلاف بينهما. و"مسلمة قريش" هم إحدى هاتين الطائفتين، وهم بعض من أسلم من قريش في مكة لكنهم أبقوا على علاقة الود والموالاة لأقاربهم المشركين، وسيستمرون بموالاتهم طوال دعوة الرسول، برغم تحذيرات القرآن المتكررة لهم. أما الفئة الثانية فهم - كما سنكتشف - من آمن من المستضعفين.

- هذا الخلاف والولاء للكفار ولد أول فئة منافقة في تاريخ الإسلام سيعاني منها المسلمون والإسلام أثناء وبعد عصر الرسول.
- ولأول مرة في هذه المرحلة يفرض القرآن أوقاتاً محددة لأداء الصلاة.

وسور هذه المرحلة أربع سور هي: الشورى، بني إسرائيل، الشعراء، وهود.

(٧٨) الشورى

سورة توجيهية في مجملها تخاطب الرسول عن قريش وعن المسلمين، إضافة لفرض بعض التشريعات.

وتبدأ السورة بالتأكيد على أن من يوحي لمحمد هو الله الذي أوحى للرسل قبله، وهو العلي العظيم الذي خلق كل شيء:

حم(١) عسق(٢) كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٣) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ(٤) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(٥).
(الآية:٣) دليل على أن الدين واحد.

(الآية:٥) تقول بأن الملائكة تستغفر لمن في الأرض، من باب التمني لهم بالتوفيق، وليس لأن الله سيغفر لمن في الأرض لأن الملائكة تدعو لهم بذلك. لأن الغفران يتطلب الإيمان والعمل الصالح من الشخص، ولا اعتبار لدعاء غيره له، لأنه ليس عملاً وممارسة من الشخص نفسه لكي يسجل في سجل أعماله. فالمغفرة تأتي بناءً على ما في سجل أعمال المرء نفسه، وليس بناءً على ما يسجل في سجل أعمال مخلوق غيره. سواء كان هذا المخلوق من البشر أو من الملائكة أو من غيرهم. كما أن الله لن يقبل دعاء الملائكة ويغفر لشخص يرتكب الموبقات ويعصي الله، فقط لأن الملائكة دعوا له بالمغفرة.

مسئولية الرسول التبليغ وليس الهداية أو الإقناع

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَولِيَاء اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ(٦).

محمد رسول لمكة وغيرها

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ(٧).

ويمكن أن يفهم من قوله «ومن حولها» أنها تقول للرسول أن يتصل بالمناطق حول مكة. وإن كان الرسول قد ذهب للطائف بالفعل، فهو قد ذهب في هذه المرحلة وليس في بداية البعثة (كما تزعم كتب التراث).

والآية لم تقل بأنه رسول لكل الناس لأن المقام هنا هو لمخاطبة قريش وما حولها، ولا حاجة لأن يقال بأنه رسول لكل الناس، لكن متى ما كان المقام يستدعي التأكيد أنه رسول لكل الناس فالآيات تؤكد ذلك.

قريش اختلفت عن الحق برغم وضوح الحجة

وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ(٨) أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي المَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٩) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ(١٠)[1].

دعوة عقلانية

فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ(١١).

ويستفاد منها أن الإنسان خلق من رجل وامرأة من نفس المواصفات والتكوين، وهو المعني بقوله: «وجعل لكم من أنفسكم أزواجاً» أي نفس النوع والتركيب، مثلما أن الأنعام خلقت من نوع واحد بجنس ذكر وجنس مؤنث. وآخر الآية دليل على أن الله جل جلاله ليس له مثيل أو شبيه، وكل ما لنا ولأي من خلقه فليس لله منه شيء.

١ انظر فقرة: وضوح الحق وقوة الحجة لا يكفي لقبول الدعوة/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

(الآية:١٢) بسط الرزق لمن يشاء سبحانه لا يعني أنه قد قرر مسبقاً أن فلاناً سيكون ثرياً وفلاناً سيكون فقيراً. لكنها تعني أن ما يجري في كونه بمشيئته، ومن أصبح ذا مال فلأن عوامل توفرت له. وهذه العوامل لا يمكن أن تخرج عن مشيئة الله: لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١٢).

الدين واحد

شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ(١٣).

والمخاطب المسلمون في مكة.

الناس يختلفون ويبتعدون عن الدين بعد الرسل

وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ(١٤).

كل الأمم تعلقت بتشريعات مبتدعة بعد الرسول، والآية تحذر المسلمين القلة في مكة ألا ينجرفوا إلى نفس المسار. وتقول الآية لولا أن الله جعل الدنيا دار عمل وأخر الحساب والعقاب والثواب للآخرة، لحوسبوا وعذبوا في الدنيا.

دعوة تعايش سلمي مع قريش

(الآية:١٥) تكرر على قريش عرض التعايش بسلام بينهم وبين المسلمين، وهو ما تحدثت عن سور سابقة: فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ(١٥).

وبطبيعة الحال قريش لم تقبل، مثلها مثل أي مجتمع وأمة سبقت ولحقت. فالدعوة للدين أو العودة للدين تقابل بالعدائية ولا يقبل المعارضون التعايش السلمي معها.

استمرار جدال قريش لدحض الحق

(الآية:١٦) إشارة لاستمرار قريش بجدال الرسول لدحض الحق: وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ(١٦).

وسيتكرر كثيراً ذكر جدال قريش للرسول في سور قادمة، كون قريش بدأت استخدام هذا الأسلوب في محاولة يائسة للحد من دخول الناس للإسلام، بعد تحول خطاب الدعوة لكل الناس في المرحلة الخامسة.

قريش تستعجل الحساب سخرية

اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ(١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ(١٨) اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ(١٩).

تؤكد أن من يستعجل وقوع العذاب والآخرة هو ممن لا يؤمن بها، ويستعجلها سخرية واستهزاءً، بينما المؤمن يشفق منها، لأنه يعلم أنها واقعة وأن من يدخل النار لن يخرج منها. وهو ما ذكرته الآيات (٣٧-٤٠) من السورة السابقة الأنبياء.

متع الدنيا لا تساوي شيئاً والنجاح في الدنيا لا علاقة له برضى الله

مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ(٢٠).

بما أن قريشاً متعلقة بالدنيا ومتعها التي تملك منها الكثير فهي راغبة عن الآخرة، ويحتمل أن بعض المسلمين تساءل لماذا لا يَحْرِمُ الله قريشاً من أموالها لأنها كافرة؟ وفاتهم أن الدنيا ومتاعها لا تساوي شيئاً، وأنها مشاعة لكل الناس بغض النظر عن المعتقد. وكسب المال يعتمد على عوامل عدة ليس منها الإيمان والكفر.

إعراض قريش بلا دليل، وسيندمون ويفرح المؤمنون

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ

الكَبِيرُ(٢٢).

والآية (٢١) دليل على أن العقاب لا يحل في الدنيا، وهو تكرار لما ذكرته الآية (١٤). فكلمة الفصل تعني تعيين الدنيا للعمل والتحصيل والآخرة للحساب.

الرسول لا يطلب أجراً على دعوته، ولا يحق له ذلك

ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ(٢٣).

برغم أن الآية واضحة المعنى فالقربى هم قريش لأنهم قبيلة محمد وقرابته وعشيرته، إلا أن المفسرين الشيعة قالوا إن الآية تتحدث عن علي ابن أبي طالب وزوجته وابنيه حسن وحسين. ومن الواضح أن هذا لي للمعنى لم ينزل الله به من سلطان، لأن الآية نزلت في مكة وتخاطب قريشاً في وقت كان عليٌ طفلاً لا يعلم أنه بعد سنوات سيتزوج بفاطمة في المدينة وسينجب منها ابناً سيسميه حسناً وآخر سيسميه حسينا.

اتهام قريش الرسول بالكذب

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً فَإِن يَشَأِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٢٤).

والآية دليل على أن الوحي ينسخ في ذاكرة الرسول (قلبه)، ولو شاء الله لمسحه.

الله يقبل التوبة

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً فَإِن يَشَأِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٢٤).

لكن قبول التوبة لا يكون بارتجال أو عاطفة، فيغفر الله لهذا ولا يغفر للآخر، كما يفعل البشر، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وهو ما يشير له قوله: « وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ». فالذي تقبل توبته من يتوب ويعمل صالحاً، كما يؤكد ذلك القرآن في مكان آخر: إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً (٦٠) مريم.

الرزق المتوفر في الأرض بقدر معلوم

وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ(٢٧). وقريش بغت وهي لم تعط إلا القليل.

عودٌ للدعوة العقلانية

وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ(٢٨) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ(٢٩) وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ(٣٠) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ(٣١) وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ(٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ(٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ(٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ(٣٥).

(الآية:٣٠) مصائب الناس ليست مقدرة مسبقا عليهم بل نتيجة لأفعالهم هم.

(الآية:٣٢) قريش تعرف ركوب البحر.

(الآية:٣٥) تشير إلى استمرار جدال قريش للرسول في محاولة لإسكات صوت الحق، أو صرف غيرهم للدخول في الإسلام.

تأكيد وفرض بعض التشريعات

(الآيات:٣٦-٤٣) تؤكد على التشريعات المطلوبة من المسلم في تلك الفترة، وهي نفس التشريعات التي ذكرت في سور سابقة مثل المؤمنون والمعارج، وأضيف لها تشريعات اقتضتها الظروف والأوضاع الجديدة للمسلمين في مكة، والمتمثلة بتعرض المستضعفين منهم لتعديات جسدية من بعض قريش، وحدوث بعض الخلافات بين المسلمين:

فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ(٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ(٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ

فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ(٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ(٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(٤٣).

السورة تصف المؤمنين بالذين على ربهم يتوكلون.

والتشريعات القديمة، هي: اجتناب كبائر الإثم والفواحش، إقامة الصلاة، الإنفاق.

والتشريعات الجديدة:

السيطرة على الغضب

« وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ» فالغضب حالة تمر بكل إنسان، لكن المؤمن مطالب بالسيطرة على حالة الغضب، ومغفرة آثارها بعد وقوعها ما أمكن. سواء مع قريش لو استفزتهم أو بين فريقين أو شخصين من المسلمين. والآية تشير إلى الأذى النفسي الذي يتعرض له المسلمون من قريش واستفزازاتها لهم وسخريتها منهم، وتطلب ألا يردوا على قريش لأن هذا سيؤجج الموقف أكثر وسيبرر لقريش أن تتمادى.[١]

الاستمرار في إقامة الصلاة

« وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ» والاستجابة لله تعني اتباع أوامره والانتهاء عن نواهيه كلها.

والصلاة حين نزلت سورة الشورى كانت دون تحديد أوقات معينة لإقامتها.

الشورى

« وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ» يجب أن يشرع المسلمون قوانينهم التي تهمهم (تهم الأمة) بموجب استفتاء شوري يشارك فيه كل عاقل بالغ منهم. وهذا التشريع جاء نتيجة لما حدث بين المسلمين من خلاف لعدم اتفاقهم في الرأي وفيما يجب فعله في أمر يهمهم. وهو ما يستنبط منه قاعدة دستورية هامة في دولة الإسلام يتم اعتمادها في تشريع وسن القوانين، لكل ما يهم الأمة من أمور دنياها. بحيث يصوت على القانون لتشريعه أو تعديله أو إلغائه. وهو ما يعني أن السلطة التشريعية في دولة الإسلام لا تكون بيد شخص واحد أو حتى

---

١ قام أبو حزم «المدقق اللغوي مشكوراً بتعديلات موفقة على عبارات هذه الفقرة.

مجموعة صغيرة تفرض ما تشاء من قوانين وتطبق على بقية الناس. فدستور دولة الإسلام يقر كل القوانين (التشريعات) القرآنية، دون تعديل أو تغيير أو إلغاء. أما ما عداها من القوانين المدنية التي على مستوى الأمة، فهذه الآية تبين أن اعتماد تشريعها يكون باستفتاء شامل للأمة. وسنعرف مستوىً ثالثاً للتشريع المحدود والخاص بالهيئات في قطاع معين كالإدارات والوزارات، ولا تصل لمستوى الأمة.

الانتصار ضد البغي

من القوانين القرآنية التي شرعتها هذه السورة، قوله تعالى: «وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ(٣٩) وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِّ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ(٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ(٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(٤٣)».

هذا القانون يوجب على المسلمين (برغم قلتهم وضعفهم في مكة) أن ينتصروا ضد البغي (الظلم والتعدي) عليهم من قبل كبراء قريش، والمتمثل بالتعدي الجسدي الذي تحدثت عنه آيات السورة. ويواصل هذا القانون القول إن دفع الظلم يعني أن يعاقب المعتدي بمثل ما تعدى به. فمن قطع يداً تقطع يده لكن لا يقتل أو يجلد فوق قطع اليد. ويواصل القانون قائلاً: إن من اعتدي عليه وعفا عن المعتدي فهو خير له وللمسلمين، لأنه بهذا التصرف يعمل على استمالة قلوب المعتدين. وتعود الآيات وتؤكد أن من عاقب المعتدي بمثل ما اعتدي به عليه، فهو حق مشروع للمعتدى عليه ولا ذنب عليه. وبالنسبة للمعتدي القرشي فله عذاب أليم: وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ. وهذا ينفي ما حاول طغاة الحكام القدماء من ترسيخه عبر أحاديث منسوبة للرسول تأمر بالصبر على الظلم ولو ضرب ظهرك وأخذ مالك، وتحرم نقد سياساتهم.

وعيد لقريش

وَمَن يُضْلِلِ اللهَُّ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ(٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي

عَذَابٍ مُّقِيمٍ(٤٥) وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاء يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ(٤٦) اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ(٤٧).

والعرض على النار يكون يوم القيامة وليس قبلها، ولا يعني مشاهدتها من الخارج، بل يعني دخولها. لكنه أسلوب من أساليب القرآن المختلفة عن الأساليب المتبعة بيننا[١]. عندها سيقول (لسان حال المسلمين): «إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ». ولن يكون المسلمون في وضع المشاهد لما يحدث للظالمين (الكفار) ولكنه تعبير مجازي يقصد منه تباين المواقف بين المسلمين الذين سينعمون بنعيم الجنة وبين عذاب الكفار في النار.

وتقديم هذا التصوير لما سيحدث لتقريبه من أذهان قريش التي تخاطبها الآيات، قبل أن تدعوها الآية (٤٧) للإيمان لتتجنب النار.

الرسول مسئوليته التبليغ وليس الإقناع

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ(٤٨).

الإنجاب بمشيئة الله

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ(٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ(٥٠).

والمخاطب هنا رسول الله الذي ما زال متأثراً بنعته بالأبتر من قبل بعض كبراء قريش، بعد وفاة زوجته خديجة دون أن ينجب منها. والإنجاب عند العرب كان وما زال مهماً جداً، وينظر له على أنه مكملٌ للرجولة. والرجل يلقب بأنه أبٌ لولده البكر، كبديل للقب «سيد» التي تسبق الاسم في بعض اللغات. فيقال لمحمد من الناس: أبو عبد الله، إن كان ولده الأكبر اسمه عبد الله[٢]. والعرب ينظرون للولد على أنه امتداد لذكر والده، ومن «خلّف

١ انظر فقرة: يعرضون عليها تعني يدخلونها / قسم أدلة من القرآن.

٢ بل إنه من الشائع في المجتمع الذي أعيش فيه تسمية داوود بأبي سليمان، وسليمان بأبي داوود، ولو لم يتزوج وينجب، وذلك لأن داوود كان ولده البكر سليمان. ومثله إبراهيم أبو إسماعيل، وإسماعيل أبو إبراهيم، وعلي أبو حسين، وحسين أبو علي، ويعقوب أبو إسحاق ... الخ.

(أنجب) فما مات» كما يقول مثل شائع عندهم. لذا فقد تأثر الرسول بعمق عندما نعت بالأبتر، فجاءت هذه الآيات بعد الكوثر لتشد من أزره وتواسيه قائلة له: إن الإنجاب بمشيئة الخالق، وليست بيد المخلوق. والآيات تقول إنه إن كان الانجاب بمشيئة الله فيجب على المؤمن (والمخاطب هنا الرسول) الصبر على مشيئة الله.

ومشيئة الله هنا تعني أن كل شيء بمشيئته سبحانه، لكن لا تعني أنه سبحانه يتدخل فعلياً فيؤتي هذا الذرية ويمنعها عن الآخر، ولكن تعني أن من خلق الجينات هو الله، وهي المسئولة عن الإنجاب، لذا فالإنجاب بمشيئة الله جل وعلا. ولهذا فتطور العلم وتمكنه من معالجة الكثير من حالات العقم يدخل أيضاً تحت مشيئة الله بطريقة غير مباشرة.

الله جل وعلا لا يخاطب أحداً من الناس مباشرة

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ(٥١).

وكل الرسل تلقوا الوحي بطريقة من الطرق التالية: وحياً، وهو أن يحفر الوحي مباشرة في ذاكرة الرسول، كما حدث مع محمد عليه الصلاة والسلام. أو أن يسمع الرسول كلاماً ويعقله كما حدث لموسى، ولكن المتكلم ليس الله جل وعلا مباشرة. أو أن يلتقي الرسول من الملائكة بالرسول من البشر فيبلغه الرسالة، ومن ذلك ما حدث لإبراهيم وضيفه الذين ذهبوا والتقوا لوطاً وأمروه بالخروج من القرية. والرسول محمد قد تلقى القرآن وحياً في ذاكرته مباشرة، كما أنه رأى الملك مرتين، وفي اعتقادي أن إحدى المرات كانت لتعليم الرسول الصلاة. أي أن الملك خاطب الرسول في تلك المرة ولم يخاطبه بعدها أو يراه أبداً.

الرسول لم يكن لديه أي معرفة سابقة بالديانات قبل البعثة

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ(٥٣).

الروح تأتي بعدة معانٍ في القرآن، منها: الوحي المنزل على الرسل، لأنه غير مشاهد ولا محسوس، وهو معنى الروح في هذه الآية. وقد ذكر في سورة غافر: رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو

الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ(١٥) وفي سورة النحل: يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ(٢).

و(الآية:٥٢) تنفي أن يكون الرسول على علم مسبق أنه سيكون رسولاً لله، أو ظهر عليه ما يدل على أنه سيكون رسولاً. كما تنفي الآية أي معرفة مسبقة للرسول بأي ديانة قبل البعثة. وهذا ينفي نفياً قاطعاً كل القصص التي تمتلئ بها كتاب التراث التي تتحدث عن علامات النبوة والصفات التي تدل على أنه نبي، أو أنه اجتمع برجال دين يهود ومسيحيين، أو أنه كان يتعبد أو يتحنث قبل البعثة، وغيرها الكثير.

(الآيتان:٥٢-٥٣) تؤكد أن محمداً يهدي لصراط الله المستقيم، بما يتلوه على الناس من وحي (القرآن).

(٧٩) بني إسرائيل

سورة تسمى في غالبية المصاحف الحالية باسم «الإسراء» وهذا ليس اسمها الأول والذي سميت به في البداية. والدليل أنها في التفاسير الأقدم تسمى ((بني إسرائيل)) كما في التفسير المنسوب لابن عباس، وفي تفسير سفيان الثوري، وغيرهما. بل إن تفسير الطبري الذي يسمي السورة "الإسراء" عندما يتحدث عن تفسير آياتها وينقل أقوال من سبقه، نجد أنهم يسمونها بني إسرائيل. وهذا مثال على ذلك من تفسير الآية (٢٤)، حيث يقول: »حدثنا ابن حميد، قال: ثنا يحيى بن واضح، قال: ثنا الحسين، عن يزيد، عن عكرمة، قال: في سورة بني إسرائيل إِمَّا يَبْلُغانّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أحَدُهُما أو كِلاهُما..." انتهى

ومن الواضح أن تسميتها تغيرت من بني إسرائيل إلى الإسراء بعد أن انتشرت خرافة الإسراء والمعراج بين الناس بعد عصر عبد الملك ابن مروان. وإلا فالسورة اسمها بني إسرائيل لأنها تبدأ بمخاطبتهم، وتعود في آخرها لمخاطبتهم. ولا شأن للآية الأولى بالرسول محمد عليه الصلاة والسلام، لكن المفسرين اقتطعوها من سياق الآيات ونسبوها لرسول الإسلام واختلقوا لها قصة خيالية يستحيل وقوعها على أرض الواقع تظهر الرسول وقد سافر في ساعات قليلة إلى إيليا الفلسطينية ومنها صعد في الفضاء وقابل رسلاً سابقين وتحدث معهم برغم أنهم ماتوا منذ آلاف السنين، قبل أن يتجاوز كل الكون القائم ويصل إلى عالم الله جل

وعلا ويلتقي به (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً)[1].

ونعود لسورة بني إسرائيل التي تتحدث آياتها الثماني الأولى عن موسى وجوانب من تاريخ بني إسرائيل:

سبحان الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ(١) وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً(٢) ....

والآية الأولى تقول بأن موسى كان في المسجد الحرام، وليس هناك على الأرض مسجد حرام سوى الذي بمكة. ومجيئ موسى وأي رسول أو مؤمن في جزيرة العرب لمكة متوقع، لأداء الحج والعمرة وزيارة بيت الله الحرام الذي قام إبراهيم - الجد الأعلى لموسى - بإعادة بنائه بعد أن وجده متهدماً[2]. وقد خرج موسى من المسجد الحرام ليلاً، وكان متجهاً إلى مسجد بعيد، وصفته الآية بأنه «المسجد الأقصى» بالتعريف، لأنه معروف لموسى والذي كان في طريقه إليه، ويقع في مكان قصي عن المسجد الحرام. ولابد أن ذلك المسجد يقع في المكان الذي قدم منه موسى. ومتى عرفنا من أين قدم موسى لمكة، فسنعرف أين يقع ذلك المسجد.

ولعل استعراض بعض آيات سورة القصص التي تتحدث عن حياة موسى قبل أن يبعث لفرعون، ولو بشكل مختصر وسريع، سيلقي الضوء على المكان. والبداية مع هرب موسى من مصر لقتله أحد المصريين: فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٢١) القصص.

ووصل إلى بئر مشهورة في ذلك العصر اسمها بئر مدين يردها الرعاة، لا تبعد كثيراً عن مصر فرعون، لأنه وصلها بعد ساعات من خروجه من قرية مصر: وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ(٢٢) القصص.

وقد أعان فتاتين لسقيا ماشيتهما، فأعجبت به إحداهما وطلبت من والدها العجوز أن يستأجره كراع وأجير، وبالفعل عرض عليه والد الفتاتين أن يزوجه إحدى بناته مقابل

---

١ هناك موضوع مستقل تحت عنوان: الإسراء والمعراج في قسم أدلة ومواضيع من القرآن فصل الحديث فيه عن هذه الخرافة.

٢ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) الحج.

العمل لديه: قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ(٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ(٢٨) القصص.

ويكون موطن موسى الذي قدم منه لمكة هو المكان الذي يعيش فيه الشيخ الذي عمل عنده موسى لثماني أو عشر سنوات كأجير وتزوج ابنته، وهذا المكان يقع بالقرب من بئر مدين. وليس لموسى موطن غيره أبداً منذ غادر مصر هارباً.

وشيخ مدين مثل موسى رجل موحد مؤمن بالله، وهذا واضح من حديثهما في الآيتين السابقتين: (٢٧-٢٨) من سورة القصص، وبالتالي فلابد أن الشيخ كان يصلي في مكان إقامته، وأي مكان تؤدى فيه الصلاة فهو مسجد (أي مكان للسجود) سواء أحيط بسور أو كان مكاناً مكشوفاً اعتادوا إقامة الصلاة فيه. ويكون هو مسجداً بعيداً قصياً عن المسجد الحرام ويقع في مكان ما من بادية جنوب غرب جزيرة العرب وليس بعيداً عن قرية مصر.

وكان موسى قد تزوج بالفتاة المعجبة بعد انقضاء المدة التي اشترطها الشيخ على موسى للعمل كأجير لتكون صداقاً لابنته. وبما أنه مسلم، فأول شيء فعله بعد زواجه وانتهاء عقد عمله، هو التوجه بمعية زوجته لمكة، للحج أو العمرة وزيارة البيت والتعبد هناك وطلب المغفرة مما حدث له في مراهقته وقتله المصري وشكر الله على توفيقه له بالعمل عند هذا الشيخ الذي زوجه بنته، وأصبح كابنه وعوضه عن فقد عائلته التي تركها في مصر: فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ(٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٣٠) القصص.

وأسلوب القرآن لا يقص الحدث بتفاصيله ولكن يذكر بعض الحدث ثم ينتقل لبعضه تاركاً ما بينهما لأن بإمكان القارئ أن يتخيل ما حدث. والآيتان تقولان بأن موسى قضى الأجل (مدة الاتفاق الذي أبرمه مع الشيخ للعمل عنده كأجير) ولا تذكر أن موسى تزوج لكننا نفهم هذا من قوله: " فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ". ونستطيع أن نكمل

الصورة كما يلي: بعد أن تزوج موسى ابنة الشيخ توجه الزوجان لمكة، وقضيا بضعة أيام هناك. ثم وفي مساء أحد الأيام سرى موسى وزوجه من مكة بقصد العودة لبلدهما (المكان الذي يعيش فيه شيخ مدين) ويبدو أن موسى قد ضل الاتجاه فلما جن عليه الليل توقف وقرر المبيت. وما أن استقر به المكان حتى رأى ناراً عن بعد، فتوجه للنار، تاركاً امرأته، وهو يقول: "لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ" عن الوجهة الصحيحة للطريق. أو يأتي بجذوة ليشعل منها ناراً له ولزوجته يتسامران عليها وينامان حولها كعادة الناس التي ما زالت سارية في صحاري جزيرة العرب.

فقوله تعالى: "سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى" تعني أن عبد الله (موسى) خرج من مكة سارياً (مرتحلاً بداية الليل) قاصداً الطريق المؤدية لبلاده حيث مسجد شيخ مدين. ولا تعني أنه سار في الليل من مكة ووصل المسجد الأقصى (البعيد) في نفس تلك الليلة. لأنه لو كان وصل للمسجد لما رأى من آيات ربه ولما حدث التكليم.

وهذه النقطة هي التي أصبحت ضبابية بسبب اختلاق المفسرين لخرافة الإسراء، وتحريفهم معنى الآية لتبدو وكأنها تتحدث عما يقولون، ولم يعد الناس يفهمون الآية كما تقول هي.

وما يؤكد ما ذهبنا له أن الآية تقول: "سبحان الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ"، ثم تواصل قائلة: "لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ".

والمسجد الذي بارك الله حوله هو المسجد الحرام، لأنه يقع في مكة القرية المباركة الحرام، وليس على الأرض أرض بارك الله فيها (حولها) سوى مكة. لكن صياغة العبارة القرآنية استغلها المفسرون ليقولوا إن المقصود بالأرض التي بارك الله حولها هي المسجد القصي الذي كان موسى ينوي التوجه إليه. بينما الآية لو أعدنا صياغتها كما اعتدنا، لقلنا: "سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الذي باركنا حوله إلى المسجد الأقصى".

وهذا التقديم والتأخير يرد في القرآن كثيراً، ومن ذلك: ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ(٣٠) المؤمنون.

فالآية تقول: "ادفع السيئة بالتي هي أحسن".

فموسى خرج سارياً في الليل من المسجد الحرام الذي باركه الله قاصداً المسجد الأقصى البعيد. وخروجه في المساء – على غير المعتاد للمسافر – جعله يضل الطريق. ويتوقف في وادي طوى، ليحدث له التكليم حيث رأى بعضاً من آيات ربه. فقد رأى عصاه تتحول إلى حية تسعى، ورأى يده تخرج بيضاء من جيبه ورأى آيات أخرى رآها فرعون، وعددها تسع آيات كما تقول سورة بني إسرائيل نفسها في الآية (١٠١) القادمة.

والآية الأولى التي بين أيدينا تقول بأن عبد الله (موسى) خرج من المسجد الحرام وتعني مكة التي فيها المسجد الحرام، قاصداً "المسجد الأقصى" وتعني المكان الذي يقع فيه ذلك المسجد. بدل أن تقول من مكة لمكان قريب من بئر مدين. فذكرت المسجدين بدل المكانين.

ولو افترضنا أن الذي أسري به هو الرسول محمد، فما هي الآيات التي رآها في مسراه والتي لابد أن تكون لإقناع الناس برسالته، وليست آيات ليقتنع بها هو أنه رسول، لأنه مقتنع بذلك منذ سنوات قبل نزول هذه السورة ومنذ بعث وليس عنده شك في هذا. كما أنه لم يسبق أبداً أن أعطي رسول آيات من الله لكي يتأكد هو أنه رسول، فالآيات تعطى الرسول ليريها الناس كحجة عليهم وإثبات لرسالته.

ولو كان الرسول محمد أسري به فما الذي عاد به من آيات وأظهرها لقريش؟

كتب التراث تقول إنه لم يظهر أي آية سوى حادثة تذكرها تلك الكتب على استحياء لأنها لم تحدث وهي أنه أبلغ قريشاً عن عير قادمة ووصف لهم المكان الذي كانت تسير فيه في تلك الليلة ووصلت مكة في الوقت الذي حدده لوصولها. وهي قصة حتى مختلقو قصص كتب التراث لم يستوعبوها ولم تصل عندهم لدرجة القبول.

والقرآن يؤكد أن رسول الله لم يؤت آيات مطلقاً في سور كثيرة منها سورة بني إسرائيل نفسها والتي تقول: وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً(٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً(٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً(٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً(٩٣)[1].

١ لمزيد من الآيات التي تؤكد أن الرسول لم يعط آية واحدة، انظر فقرة: الرسول لم يعط آيات حسية / قسم أدلة من القرآن.

فقريش سبق وقالت للرسول إنهم يريدون منه أن يظهر آية ومن ذلك أن يرقى للسماء، وأن يحضر معه كتاباً مكتوباً كإثبات لرقيه. لذا فالرسول لو كان هو من أسري به وعرج للسماء - كما تقول خرافات المفسرين - فقد سبق ذلك طلب من قريش بإحضار كتاب من السماء والرسول لم يحضر شيئاً لأنه لم يرق للسماء ولم ير فلسطين. والإسراء مجرد جزء من الرحلة لا ترقى أهميته لما أسموه بالمعراج الذي لم يذكره القرآن ابداً. ولو كان الرسول قد صعد للسماء كما يزعم المفسرون، فلابد أن يكون الحديث عنه تحت عنوان: الإسراء والرقي - كما أطلقت عليه الآيات - وليس الإسراء والمعراج كما سماه المفسرون. ولتحدث القرآن عن الرقي، وما شاهد الرسول في رُقِيِّه.

وبناءً على ما تقدم فموسى خرج من مكة مساءً بنية أن يبيت قرب الطريق العامة التي سيتوجه معها لبلاده، ولكن الليل أدركه وتبين له أنه قد ضل الطريق فتوقف وقرر المبيت. عندما رأى النار وحدث التكليم. والآية الأولى من سورة بني إسرائيل تتحدث عن هذا المسير والتوقف والتكليم ورؤية موسى لآيات من الله أهمها تلك القوة التي تحول العصا إلى حية تسعى وتغير لون اليد إلى البياض.

وتواصل السورة الحديث عن بني إسرائيل بنفس الأسلوب، دون ذكر لبعض الأحداث التي يمكن للقارئ تصورها:

سبحان الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ(١) وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً(٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً(٣) وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً(٤) فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً(٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً(٦) إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً(٧) عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً(٨).

فالآيات تتحدث عن سير موسى وخروجه من مكة في الليل، ولا تتحدث عن توقفه ومن

ثم رؤية النار وتركه لأهله والذهاب للنار والتكليم والذهاب لفرعون والأحداث التي جرت بينهما وانتهت بهروب بني إسرائيل وموسى من مصر ليلا ولحاق فرعون بهم وغرقه، ثم تلقي موسى للتوراة وكتابتها. كل هذه الأحداث لم تذكرها السورة ولكن يمكن للقارئ معرفتها لأنها ذكرت في سور أخرى.

ومن الإسراء تقفز السورة للقول بأن التوراة هدى لبني إسرائيل، وتخبر أنهم من ذرية من حمل مع نوح، ثم تقفز الآيات (٤-٨) للحديث عما وقع لبني إسرائيل بعد موسى حيث تعرضوا لاجتياح من جيش أجنبي غزى بلادهم «مصر» وتسبب بشتاتهم. ثم التم شمل الكثير منهم وأصبح لهم قوة في مملكة داوود، وبعد زمن تعرضوا لاجتياح أجنبي آخر أدى لشتاتهم مرة ثانية، لم يلتم بعدها شملهم ابداً.

ولا تتحدث الآيات عما سيكون لبني إسرائيل بعد عصر الرسول أو عن الصراع الدائر بين يهودٍ من كل لون وعرق غُرسوا في فلسطين بعد اغتصاب أرضها، لأنهم لا يمتون بصلة لبني إسرائيل الذين لم يعد لهم وجود.

والقرآن لا يتحدث أبداً عن أحداث مستقبلية، ستقع لا في عصر الرسول ولا بعد وفاته.

ثم تنهي السورة الحديث عن بني إسرائيل وتنتقل لمواضيع أخرى.

التأكيد على أن الدعوة لا تكون بغير القرآن

إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً(٩) وأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً(١٠).

والآيتان تعد المؤمنين وتتوعد الكافرين.

الإنسان يستعجل النتائج

وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً(١١).

من نعم الله

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً(١٢).

أن جعل الليل مظلماً (فمحونا آية الليل) لكي يرتاح الإنسان وينام، بينما جعل النهار منيراً

ليعمل وينتج. إضافة إلى أن تتابع الليل والنهار يمكن الإنسان من تعلم حساب الأوقات والسنين.

وتسرد السورة بعض الحقائق:

الإنسان يصنع مصيره بنفسه

وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً(١٣) اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً(١٤) مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى.

العرب كانت تتفاءل باتجاه طيران الطير أو تتشاءم قبل أي عمل أو سفر يريدون القيام به. والآيات تقول بأن كل إنسان معلق طائره في عنقه ويستطيع أن يوجهه لأي وجهة يريد. بمعنى أن الإنسان هو من يصنع طريقه بنفسه. وهو وصف يظهر أن آلية تسجل الأعمال ملتصقة بالنفس البشرية، لا تفارقها. ويوم القيامة سيتعرف على مصيره الذي رسمه هو بنفسه لنفسه. وعبرت عنه الآية وكأن هناك كتاباً كان الإنسان قد كتبه في الدنيا ويوم القيامة يحضر إليه ليقرأه وبناءً عليه يكون المصير الذي اختاره الإنسان بنفسه لنفسه دون تدخل أو تأثير من رب العالمين.

ولا يكتب للإنسان إلا ما يقوم به هو نفسه هو، وليس ما يقوم به غيره عنه. كما يفعل البعض من حج أو زكاة عن الغير، فهي لن تكتب لهم.

كل أمة لم تصلها الرسالة لا تعذب

وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً(١٥).

من عدل الله المطلق ألا يعذب من لم يرسل لهم رسولاً، ويقاس على هذا كل من لم يسمع برسالة. وفي هذا العصر كل من اطلع على القرآن فقد وصلته الرسالة، لأن رسالة الرسول (المتمثلة بالقرآن) موجهة لكل الناس.

الزعماء والأغنياء يقودون المجتمع للفسق

وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً(١٦).

وهذه ظاهرة في كل المجتمعات، فالمال يوفر الترف، والترف يقود للموبقات والظلم

والطغيان والكبر (عند من لا يحكم دين الله). والطاغية صاحب المال، يعيث في الأرض فساداً، ويخرب المبادئ والقيم. لأن كثير من الفقراء تحت وطأة الحاجة سيتنازلون عن المبادئ والمعتقدات في سبيل ما يجود به الغني عليهم. وإذا فسق أهل المال والسلطة فسق المجتمع كله تبعاً واحتياجاً لهم.

العديد من الأمم هلكت بعد نوح وهي كافرة

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً(١٧).

والحديث هنا عن أمم جنوب غرب جزيرة العرب التي ذكر القرآن بعضها، وهي التي جاءت بعد نوح.

النجاح في الدنيا متيسر لمن يعمل له ولا علاقة له بالمعتقد

مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً(١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً(١٩) كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاء وَهَـؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً(٢٠) انظر كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً(٢١).

الآيات تؤكد ما ورد في الآية (٢٠) من سورة الشورى السابقة وغيرها، والتي تقول بأن الكسب في الدنيا لا يعني رضا الله ولكن يخضع لعدة عوامل متى توفرت زاد الكسب ولا علاقة لنجاح التجارة بالدين، لأن الدنيا مشاعة لكل الناس.

تأكيد تشريعات سابقة وفرض تشريعات جديدة

لاَّ تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَـهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً(٢٢) وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً(٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً(٢٤) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً(٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً(٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً(٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً(٢٨) وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ

مَلُوماً مَّحْسُوراً(٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً(٣٠) وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءاً كَبِيراً(٣١) وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً(٣٢) وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً(٣٣) وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً(٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً(٣٥) وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً(٣٦) وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً(٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيٍّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً(٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً(٣٩).

بعض هذه التشريعات فرض لأول مرة وبعضها تأكيد لما سبق وفرض، كما يلي:

- البعد عن الشرك وعبادة الله وحده (العبادة تعني اتباع تشريعات المشرع، وكل من تبع مشرعاً غير الله فيدخل في دائرة عبادة غير الله). والمقصود هنا تلك الفتاوى والأحكام التي تصدر من البشر وتنسب لدين الله مع أنه لا ذكر لها في كتاب الله. والمفروض أن يشرعها الناس كأمور دنيوية ولا علاقة لها بدين الله.
- الإحسان إلى الوالدين (تعاملاً معنوياً ومادياً) بغض النظر عن دينهما. (لأن الحديث موجه للمسلمين في مكة وليس من المستغرب أن يكون هناك مسلم أبواه أو أحدهما كافراً).

والآية (٢٨) تقول: وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً.

- الإنفاق في المجالات التالية: لذوي القربى: هدايا، إعانات للمحتاج...الخ. والمسكين، وابن السبيل (ويدخل فيه الآن الوافد). والآية تورد ذوي القربى والمساكين وعابري السبيل لتقول بأن سد حاجة المحتاج واجب للمسلم أو لغير المسلم، لمن نعرف ومن لا نعرف على حد سواء. سواء كان من الأقارب أو ممن نعرف من المساكين من أهل البلد أو من عابري السبيل الذين لا نعرفهم ولا ندري من أين جاؤا أو إلى أين يذهبون وإلى أي معتقد أو شعب ينتمون.

- تحريم التبذير، فالمبذر أخ للشيطان، أي شبيه له، والشيطان كافر، ويكون المبذر كافراً أيضاً.

والتبذير هو صرف المال في أي مجال بكميات كبيرة للزهو والتفاخر والتباهي حتى لو كان في الأصل حلالاً، مثل شراء السيارات الفارهة، والمجوهرات الغالية الثمن والملابس والبيوت ...الخ.

- تحريم البخل والإسراف أيضاً. والبخل هو الحرص على حفظ المال ولو على حساب التقتير على الصرف للضروريات. والإسراف إضاعة المال فيما لا ينفع وليس ضرورة.
- وقتل الأولاد خشية إملاق، لئلا يضطرهم الفقر للسؤال، المهين الذي لا تقبله قريش. فكان فقيرهم – على ما يبدو – يقتل أطفاله خوفاً من أن يقعوا في ذاك العيب.
- والآيات تحرم الزنا وكل ما يؤدي إليه أو يشجع عليه أو يسهله أو يحبب به[1].
- والآيات تقول بأن النفس البشرية مصانة ويحرم قتلها بغض النظر عن المعتقد. والاستثناء الوحيد « إلا بالحق» هو حربه للإسلام وأهله، فهي الحالة الوحيدة التي تحل فيها قتل النفس. ولا تتحدث الآية عن قتل القاتل لأن هذا أسماه القرآن قصاصاً وله تشريع خاص به في سورة البقرة المدنية[2].
- وتحرم الآيات أكل مال اليتيم والعبث به وعدم الحرص على تنميته وحفظه.
- ومن الأعمال الصالحة الوفاء بالعهد والمواعيد للفرد والجماعة (وهذا مفقود تماماً في حياة المسلمين اليوم).
- والبعد عن الغش التجاري الذي عبرت عنه الآية هنا بالوفاء بالكيل، ولكنه يشمل كل ما يمكن اعتباره غش وتدليس للمستهلك حتى الإعلانات التجارية التي لا تقول الحقيقة أو تخفيها.
- والشهادة بالظن من الكبائر، ومثلها سوء النية بلا دليل.
- البعد عن أي مظهر مهما صغر من مظاهر الكبر والخيلاء (والمجتمع المسلم اليوم في بلادنا يقوم على الخيلاء ويستسهله في المآكل والملبس والثياب والكلام والتصرف وكل الجوانب الحياتية الأخرى، برغم أنه وحده كاف لدخول النار).

---

١ الرجوع لفقرات الزنا والفواحش/ قسم تشريعات من القرآن.

٢ انظر فقرة: قتل النفس/ قسم تشريعات من القرآن.

وكل ما تقدم حكمه واحد لأنه بدأ بقوله تعالى: لاَّ تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَـهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً(٢٢) وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً..... ثم تواصل السورة سرد الكبائر.

فمن يجعل مع الله إله آخر سيقعد مذموماً مدحوراً، ومثله من لا يحسن لوالديه، ومن يقرب الزنا ويظهر الكبر والخيلاء أو يأكل ما اليتيم أو يضيعه بإهمال... الخ

وما يؤكد أن الحكم واحد هو أن السورة بعد سرد هذه الكبائر قالت: كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً(٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً(٣٩).

وكل ما هو سيء ومكروه عند الله لن يدخل من صدر منه الجنة وسيقعد في جهنم ملوماً مدحوراً، مثله مثل من جعل مع الله إلهاً آخر.

لا يمكن أن يكون هناك أكثر من إله

(الآيات:٤٠-٥٢) تتوجه لقريش لتفنيد مزاعمهم عن الله والرسول: أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً(٤٠) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً(٤١) قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً(٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً(٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً(٤٤).

وهو نفس الموضوع الذي تحدثت عنه سورة الأنبياء في الآيات (٢١-٢٩).

فقريش تظن أن الملائكة بنات الله، ولو كن بناته فلابد أن يكن من جنسه سبحانه (أي آلهة) ولو كان هناك آلهة مع الله لاختلفوا وفسد الكون.

من يتمسك بالموروث لا يمكن أن يصغي لما يخالفه

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً(٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً(٤٦).

قريش تعبد حجارة صنعوها بأيديهم ودعوة الرسول تدعوهم لعبادة الخالق الذي يعرفون، لكن قريش تمسكت بعبادة الأصنام لأنها موروث الأمة وشخصيتها، ورفضت الحق برغم وضوحه لأنه مخالف للموروث. وكل أتباع موروث يتصرفون بمثل ما تصرفت به قريش حيال دعوة الإسلام. ولا شأن لهذا بصحة الدعوة المخالفة، لأن أتباع الموروث لن يستمعوا أو يصغوا لأي قول يخالف موروثهم، وسيحكم عليه مسبقاً بأنه باطل.

والآية تصور موقف قريش الرافض للاستماع وكأن بينهم وبين الرسول ساتراً يمنعهم من رؤيته والاستماع إليه. وفوق هذا كأن على قلوبهم أكنة تحول بينها وبين التفكير بالحق لو استمعت إليه، وفي آذانهم صمم يمنعهم من سماع ما يقول.

ورجال قريش بعدما يستمعون للقرآن لا يسمعونه كما هو ولكن يسمعونه كما يريدونه أن يكون. وما يريدونه أن يكون هو أنه جاء للقضاء على موروثهم، والسخرية من تقاليد آبائهم: نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً(٤٧) انظر كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعْونَ سَبِيلاً(٤٨) وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً(٤٩) قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً(٥٠) أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً(٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً(٥٢).

ولكي يبرروا موقفهم الرافض كانوا يتهمون محمداً بأنه مسحور أو كاذب يزعم ما لا يعقل. الآية (٥١) تصور قريشاً وهم يسألون الرسول عمن سيبعثهم ويعيدهم للحياة، فتجيبهم الآية أن من سيحييهم هو من فطر خلقهم في البداية. وهي حقيقة مقنعة وبسيطة وواضحة، لكن رجال قريش لا يبحثون عن الحقيقة. فينغضون رؤوسهم بحركة استفزازية متسائلين: متى هو؟

أول شجار بين فريقين من المسلمين

(الآيتان:٥٣-٥٤) وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً(٥٣) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً(٥٤).

أول مرة يتوجه فيها القرآن لمسلمي مكة طالباً منهم أن يبتعدوا عن المشاحنات والخلاف. وهذه السورة لم يذكر فيها من هما الفريقان من المسلمين اللذين حدث بينهما الخلاف، لكننا سنتعرف عليهما فيما بعد. وهنا أود أن أسترعي انتباه القراء إلى أن هذا الخلاف الذي نشب بين طائفتين من المسلمين سيستمر طوال ما بقي من مراحل الدعوة في مكة، وسينتقل مع المسلمين للمدينة بعد هجرتهم وسيبقى إلى ما بعد وفاة رسول الله. وسيكون من أهم أسباب ما حدث في بدر وهزيمة المسلمين في أحد وفي تقويض الإسلام بعد الرسول وتمكين قريش من حكم دولة المسلمين بعد عصر الرسول.

والآية (٥٤) تؤكد أن الرسول ليس وكيلاً على أحد ولا يسأل عن هداية الناس، وهذه الحقيقة يجب أن يعيها ويطبقها الداعون إلى دين الله. فليس عليهم إقناع الناس بالدخول في الإسلام، ولكن عليهم إسماعهم الحق فقط.

التفاضل بين الرسل

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورا(٥٥).

التفضيل بين النبيين بما أعطوا وليس بمكانتهم عند الله، كما يظن البعض. فداوود مثلاً أوتي زبوراً، وهو العلم والحكمة[١].

والآية قد تشير لوجود مخلوقات حية في الكون: «وربك أعلم بمن في السماوات والأرض». ومن تستخدم للمخلوق الحسي العاقل كالإنسان.

دعوة عقلانية

قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً(٥٦).

لن تنفعكم أوثانكم.

المؤمنون من يبتغون الوسيلة من ربهم

أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً(٥٧).

---

١ انظر فقرة: الزبور / قسم مفردات من القرآن.

فإن كانت قريش تدعو الحجارة وتتوسل إليها طلباً للعون، فإن المسلم يتوسل لخالقه ليعينه ولينجيه من النار.

البشر سينقرضون قبل نهاية الكون

(الآية:٥٨): وَإِن مَّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِك فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً.

تأكيد على أن البشر سينقرضون قبل موعد نهاية الكون، وهذا ينفي ما يزعم المفسرون من علامات للساعة تسبق قيام القيامة. والعذاب يعني الهلاك بكارثة طبيعية كالغرق أو الزلازل أو البراكين أو الرياح والأعاصير وغيرها، وحتى لو لم يهلك الناس بالكوارث فسينقرض الجنس البشري وكل الحياة على الأرض، بل وكوكب الأرض بكامله قبل نهاية الكون.

الرسول لم يعط أي آية

وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً(٥٩).

تأكيد قاطع أن الرسول لم يؤت آية، وهو ما يكذب كل ما نسبته كتب التراث للرسول من آيات وخوارق.

رؤيا للرسول

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً(٦٠).

لقد رأى الرسول حلماً في المنام، ويبدو أنه أخبر به كعادة الناس في وقته، فأزعج هذا الحلم قريشاً كونهم يؤمنون بتحقق الأحلام.

فما هي هذه الرؤيا؟

لا يرد ذكر للرؤيا التي رآها الرسول في القرآن إلا في سورة الفتح المدنية، التي نزلت بعد أن دخل الرسول والمسلمون مكة فاتحين، وأعلنت قريش استسلامها: لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ

فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً(٢٧) الفتح.

ويكون الرسول في مكة قد رأى أن المسلمين سيتغلبون على قريش وسيحكمون مكة، وهو ما أغاظ قريشاً لما قص رؤياه عليهم، لأنهم ممن يعتقدون بالأحلام. وإن كان هذا ما رآه الرسول فلا يعني أنها من الله، كما تقول كتب التراث، أو أن رؤى الرسل تتحقق. ولا تزيد عن كونها حلماً يصور مشاعر الرسول كبشر ولا علاقة لها بنبوءات ستتحقق. لأن القرآن لا يتحدث عن أحداث قادمة أبداً ولا نبوءات، ولأنها لو كانت نبوءة من الله لنزلت كوحي وقرآن بدل أن يراها الرسول في الأحلام.

خلق آدم وموقف إبليس

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً(٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً(٦٢) قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُوراً(٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إَلاَّ غُرُوراً(٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً(٦٥).

الآية (٦٤) كناية على أن إبليس سيفعل كل ما يستطيع، وإلا فليس له خيل ولا مشاة، وليس له القدرة لمشاركة أحد بماله وولده.

عود للدعوة العقلانية

رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً(٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً(٦٧) أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً(٦٨) أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً(٦٩) وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً(٧٠).

ذكر السفن في البحر في عدد من الآيات التي تخاطب قريشاً دليل على أن قريشاً معتادة على

السفر في البحر، وقد يكون ذلك من وإلى الشاطئ المقابل في البر الأفريقي (شرق السودان الحالي)، وهو ما يعضد ما ذهبنا إليه أن مستضعفي مكة قد هاجروا لتلك البقاع، وليس لما يعرف اليوم عند العرب بالحبشة (إثيوبيا).

الحساب سيكون بموجب ما سجل في صحيفة الأعمال

يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَـئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً(٧١).

وقد صورت الآية الآلية التي تسجل الأعمال وكأنها كتاب، والمؤمن يكنى بمن يؤتى كتابه بيمينه.

تصوير الكافر بالأعمى كناية عن الضلال

وَمَن كَانَ فِي هَـذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً(٧٢).

فالأعمى عن الحق في الدنيا سيكون في الآخرة أشد وأضل.

قريش حاولت استمالة محمد

وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً(٧٣) وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً(٧٤) إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً(٧٥).

وكاد أن يضعف، فجاءت الآيات تحذره.

لما يئست من استمالته سعت لطرده

وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً(٧٦) سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً(٧٧).

قريش منذ فترة طويلة وهي تحاول طرد محمد أو قتله - كما مر بنا في سور سابقة، كسورة الطور: أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ(٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ(٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢).

والسورة هنا تخبرنا بمحاولة جديدة لاستفزازه عله يخرج من مكة. ولو طردوه فسيهلكون

بعده بقليل، سواءً بكارثة طبيعية أو بموت كبراء قريش بصورة طبيعية، وسيلاقون عذاب الخلد، كما حل بأمم سبقتهم.

أول وقتين يفرضان للصلاة

أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً(٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً(٧٩).

لأول مرة يفرض وقتان للصلاة، وذلك قبل قرابة عام واحد على الهجرة، بعد أن كان المسلمون طوال السنوات السابقة يصلون دون تحديد أوقات للصلاة.

والوقت الأول هو صلاة المغرب، التي تحدد الآية بدايتها من دلوك الشمس (غروبها) وتحدد نهاية وقتها باختفاء الغسق وحلول ظلام الليل. أما الوقت الثاني فهو صلاة الفجر والذي أشارت له الآية بقرآن الفجر. وقد ذكرت صلاة الفجر - عرضاً - في سورة النور المدنية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاء ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٥٨) النور.

الإسلام أصبح عزيزاً

وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً(٨٠) وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً(٨١).

الآيات وإن كانت موجهة للرسول، فهي تشير إلى ما وصل إليه الإسلام من عزة بتكاثر المسلمين الذين لم يعودوا أذلة يتحرجون من الانتماء للإسلام.

تأكيد على القرآن شفاء للنفوس وليس الأبدان

وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً(٨٢).

وهو تأكيد لما ذكرته الآية (٥٧) من سورة يونس السابقة. ولكن البعض استغل الجهل ليمتص أموال المرضى بحجة معالجتهم بالقرآن.

نسيان الله في الرخاء وتذكره في الشدة

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً(٨٣).

الإنسان على العموم والمقصود هنا قريش ينسى ربه في الرخاء ويعود له في الشدة. وتكرر ذكر هذه الحقيقة في سور سابقة مثل: فصلت (٥١).

دعوة قريش للتعايش السلمي مع المسلمين

قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً(٨٤).

من أسئلة قريش الجدلية

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً(٨٥).

قريش تسمع الرسول يتلو بعض السور التي تذكر الروح مثل: النبأ: ٣٨، غافر:١٥، القدر:٤، والمعارج:٤، فكانت تسأل الرسول عن ماهية الروح. ولأن أسئلة قريش للرسول لا تريد من ورائها تبين الحق، بل إحراج الرسول وإظهاره بمظهر المدعي لو عجز عن الإجابة. ولأن قريشاً غير جادة في البحث عن الجواب، فلم تجب الآية.

القرآن ينسخ في ذاكرة الرسول ولم يكتب في مكة

وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً(٨٦) إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً(٨٧).

وهو تكرار لما ذكرته الآية (٢٤) من سورة الشورى.

الدعوة تكون بالقرآن فقط ولا يستخدم الرسول عبارته الشخصية

قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً(٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً(٨٩).

والتحدي هنا ليس فقط للإنس بل للجن. والجن بالنسبة للإنس هم كل مخلوقات الله التي لا يستطيعون رؤيتها، سواءً كانوا مخلوقات غير جسدية كالجن والملائكة، أو مخلوقات محسوسة ولكنها تعيش في أماكن قصية من الكون.

قريش تكرر طلب الآيات والخوارق والرسول لم يعط منها شيئاً

وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً(٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً(٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً(٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً(٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَّسُولاً(٩٤).

قريش تطلب من الرسول آيات وخوارق، ولو تحققت لهم مطالبهم فلن يؤمنوا وسيبحثون عن تبريرات أخرى. والرسول لا يستطيع أن يقدم لهم الآيات، لأنها من الله القادر عليها أما محمد فكونه رسولاً لا يعني أنه أصبح أعلى قدرة من البشر.

والملائكة لن تنزل لتراها قريش

الآية ٩٥ ترد على طلب قريش نزول الملائكة: قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً(٩٥).

لو كان أهل الأرض ملائكة لأرسل لهم ملائكة مثلهم، مثلما أن البشر يرسل لهم بشر منهم ويعرف لغتهم وأعرافهم وليس غريباً عليهم. والآية دليل على أن الملائكة يرسل لهم رسل، ومن يرسل له رسول فقد ابتعد عن طريق الحق. مما يعني أن الملائكة تضل وتبتعد عن دين الله كما البشر والجن. وإن كانت الملائكة تضل وتكفر وتؤمن، فكل المخلوقات في الكون التي لا نعلمها تضل وتؤمن ويرسل لها رسل منها.

الهداية خيار شخصي ووعيدٌ للمكذبين

قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً(٩٦) وَمَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً(٩٧) ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً(٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إَلاَّ كُفُوراً(٩٩).

والكفار لن يحشروا عمياً بكماً صماً، ولكنه تعبير مجازي للتعبير عن الضلال، فهم عمي صم بُكْمٌ عن الحق.

كلما زاد مال المرء لا يعني زيادة إنفاقه للخير والتكافل الاجتماعي

قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإنسَانُ قَتُوراً(١٠٠).

وقريش لديهم المال لكنهم لا ينفقون لمعاونة المحتاج. في نفس الوقت ينفقون أموالاً طائلة لخدمة الحجاج ليس طلباً لرضى الله ولكن لأنها تكسبهم الجاه والسمعة، ويمكن رؤية مثيل لهذا في أيامنا حيث يتبارى الأغنياء وأصحاب النفوذ في إنفاق المليارات لوجاهة دنيوية ولا يهتمون بدفع القليل لسد حاجة المحتاج.

وتعود السورة للحديث عن بني إسرائيل كما في بدايتها

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً(١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُوراً(١٠٢) فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعاً(١٠٣) وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً(١٠٤).

وهذه الآيات فيها بعض التفاصيل عما أجملته السورة في بدايتها، ومن ذلك:

أن السورة تفتتح بالقول بأن موسى أوتي آيات: سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ(١).

وهنا تقول الآية (١٠١) إن عدد الآيات التي أوتي موسى تسع.

وبداية السورة لا تتحدث عن لقاء موسى بفرعون، الذي تذكره الآيات هنا.

وتذكر أول السورة أن بني إسرائيل قد تعرضوا بعد موسى لغزو خارجي مرتين: وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً(٤) فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً(٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً(٦) إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ

الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً(٧).

وهنا تعود السورة للإشارة إلى الاجتياح الثاني: وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً(١٠٤).

وقوله: «اسكنوا الأرض» إشارة لمملكة داوود التي تأسست على أرض بعيدة عن مصر فرعون (موطن بني إسرائيل). فهم سكنوا وعاشوا أرضاً ليست أرضهم وهي مملكة داوود الواقعة في أقصى جنوب جزيرة العرب.

وقوله: «فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفا» تشير إلى الاجتياح الثاني الذي حصل لمملكة داوود بعد سليمان، وهو الغزو الذي يعرف بالتاريخ بحملة الملك البابلي نبوخذنصر على المملكة الثانية لليهود، مملكة يهوذا، في العام (٥٨٦) قبل الميلاد، وهدم معابدهم وأماكن سجودهم وخرب ديارهم، وساق كثيراً منهم أسرى إلى بابل ليبقوا هناك مستعبدين لمدة سبعين سنة (كما يقول تاريخهم). واليهود قالوا بأن مملكة اليهود التي خربها نبوخذ نصر كانت في فلسطين والواقع أنها هي مملكة دوواد وسليمان الواقعة في أقصى جنوب جزيرة العرب، والتي سنعود لتحديد موقعها بعون الله عند الحديث عن مملكة داوود في كتابنا: من آدم لمحمد.

وقوله: «جئنا بكم لفيفاً» إشارة لحملهم أسرى لبابل.

تأكيد آخر أن الرسول لم يكن يدعو بغير القرآن

وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً(١٠٥) وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً(١٠٦) قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً(١٠٧).

يمكن ملاحظة أحد أساليب القرآن المميزة، فالآية (١٠٥) تقول إن القرآن نزل بالحق مستخدمة ضمير الغائب، مع أنه لم يسبق الحديث عن القرآن. ثم تأتي الآية (١٠٦) لتقول: « وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ» وكأن الآية تتحدث عن شيء مخالف لما تحدثت عنه الآية السابقة مع أن الحديث في الآيتين عن القرآن.

(الآية:١٠٧) أوتوا العلم أي أوتوا الدين والمقصود هنا بنو إسرائيل أهل الدين السابق (دين موسى). وليس معنى أهل العلم رجال الدين.

إشارة إلى إيمان عدد من بني إسرائيل

(الآيات:١٠٧-١٠٩) تقول إذا لم تؤمن قريش بالقرآن فقد آمن به بعض أهل الأديان السابقة (إشارة لمن دخل الإسلام من بني إسرائيل يثرب): قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً(١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً(١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً(١٠٩).

القراءة في الصلاة

قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيّاً مَّا تدعو فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً(١١٠).

بعد أن فرض في الآية (٧٨) وقتين لأداء الصلاة، تأتي هذه الآية مخاطبة الرسول بأن تكون التلاوة في الصلاة لا جهرية ولا خافتة تماماً، ولكن بين ذلك.

فهل علينا أن نتلو في صلاتنا بصوت منخفض، كما تقول الآية؟

أم أن نستمر كما نحن الآن؟

لكن لو استمررنا الآن فماذا نفعل بهذه الآية؟

لأنه لا يوجد آية في القرآن لا يعمل بموجب أمرها.

والآية تخاطب قريشاً وتقول لهم ليس المهم أن ندعو الخالق بلفظ الجلالة الله، أو ندعوه بالرحمن. وهي دليل على أن الرحمن معروف لقريش قبل الإسلام.

ختام السورة

وَقُلِ الْحَمْدُ للهِّ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً(١١١).

(٨٠) الشعراء

لعل من المناسب التذكير بأهم أحداث المرحلة السادسة قبل نزول سورة الشعراء، وهي كما يلي:

- قريش صعدت من تعدياتها على المستضعفين المسلمين الذين دخلوا الإسلام في هذه

المرحلة والمرحلة الخامسة قبلها، بعد أن بدأ القرآن يخاطبهم ويحذرهم من جهنم التي سيدخلونها لو أبقوا على كفرهم مرضاة لأسيادهم كبراء قريش.

- القرآن يعطي المسلمين الحق في أن يعاقبوا المعتدي (من قريش) بمثل ما اعتدى به عليهم دون تعد وتجاوز. وهذا يخالف ما ترسخه كتب التراث من أن قتال المعتدي لا يجوز إذا كان يتفوق بالعدد والعتاد. ويخالف مقولة الصبر على الظلم أفضل من دفع ظلم الظالم وعدم السكوت على الظلم. ويعني أن المطالبة الحاصلة في البلاد العربية اليوم بالتحرر من الظلم تتفق تماماً مع ما أوجبه القرآن، فدفع الظلم واجب بنص الكتاب.
- القرآن يفرض تشريعات جديدة مع التأكيد على تشريعات سابقة. وهذا يعني تنامي أعداد المسلمين، لأن التشريعات تفرض بعد تكون مجتمع مؤمن.
- وقوع خلاف بين فئتين من المسلمين، تحدثت عنه سورة بني إسرائيل في الآيتين (٥٣-٥٤) وهذا الخلاف سيستمر طوال فترة الدعوة في مكة وفي المدينة وإلى ما بعد وفاة رسول الله. ويمكن القول بأن هذا الخلاف هو أول عامل سيؤدي لانحراف المسلمين عن الدين فيما بعد رسول الله، ويسهل استيلاء قريش على حكم دولة المسلمين.

ونعود لسورة الشعراء:

الافتتاحية

تخاطب الرسول حول مواقف قريش ومطالبهم:

طسم(١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ(٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ(٤) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ(٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون(٦) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ(٧) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ(٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(٩).

كان الرسول يتحسر على بقائهم على الكفر رأفة بهم (٣) ويتمنى أن يعطيه الله معجزة لعلهم يؤمنون كما وعدوه (٤).

والقرآن يخبره أنهم لو رأوا المعجزات فلن يؤمنوا ومهما دعوا لن يؤمنوا، لأن من لا يؤمن

في بداية الدعوة لن يؤمن بها أبداً، ولو أرادوا الإيمان لكفاهم التفكير في خلق الله (٥-٩).

ثم تتجه السورة لمخاطبة بني إسرائيل:

موسى وفرعون

وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ(١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ(١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ(١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ(١٤) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ(١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ(١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ(١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ(١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ(٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ(٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ(٢٢).

(الآية:١٣) موسى لديه صعوبة في النطق.

(الآية:١٧) دعوة موسى لفرعون ليطلق بني إسرائيل الذين يستعبدهم وليس لأجل أن يؤمن فرعون بدين الله. ولو وافق فرعون فلن يغرق، لأنه لن يكون هناك حاجة لملاحقة بني إسرائيل.

(الآيات:٢٣-٣١) مثال لأسلوب القرآن المميز، حيث تردد الآيات قال، ويفهم منها من الذي قال هل هو موسى أم فرعون، دون ذكر لهما: قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ(٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُم مُّوقِنِينَ(٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ(٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ(٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ(٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ(٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ(٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ(٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٣١).

(الآيات:٣٢-٣٥) تظهر أن أهل مصر فرعون يجيدون السحر: فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ(٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ(٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ(٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ(٣٥).

والسحر في مصر كان علماً واحترافاً وما يصدر من الساحر من أعمال هي بالفعل تسحر الألباب. وما قام به السامري من بني إسرائيل يعتبر سحراً بهذا المعنى، حيث استطاع أن يصمم عجلاً من الحلي المذابة يصدر خواراً كخوار البقر الحي. وكان السحر منتشراً جداً بينهم وكانوا نابغين فيه، ولم يكن السحر بمفهومه الشائع الآن، الذي لا يزيد عن شعوذة لا تضر ولا تنفع، ولكنها استخدمت لاستغلال الناس السذج وامتصاص أموالهم. فالسحر أساساً علم يمكن تعلمه وإتقانه.

والآيات تظهر فرعون كأي حاكم طاغية، له مجلس من المنتفعين والمنافقين، يُؤَمِّنون على كل ما يقول. وقد سألهم فرعون عما يجب القيام به تجاه ما قدمه موسى. والسؤال ليس لأخذ رأيهم، لأن أي دكتاتور لا يستأنس برأي غيره ولا يعترف به. لكنه سألهم وهو يعلم أنهم سيذكرون له ما يتوافق مع ما يريد، ولو قالوا بغير ذلك لتصرف بما يريد دون أن يأبه بما سمع منهم.

وقد أشار المنتفعون على فرعون أن يجمع أفضل السحرة ليبطلوا سحر موسى: قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ(٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ(٣٧).

وبالفعل تم جمع أفضل السحرة في مصر: فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ(٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ(٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ(٤٠).

والآية (٣٩) تشير إلى أن الناس جمعوا بأمر من فرعون، لكن سوراً أخرى تبين ما حدث بوضوح أكثر، ومن ذلك: قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى(٥٩) طه.

فالموعد كان يوم عيد في مصر حيث يحضره الناس في ساحة البلدة. وقام رجال فرعون بحث الناس على الحضور لمؤازرة السحرة.

فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ(٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ(٤٢).

وبدأت المبارزة: قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤).

وجاء دور موسى: فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ(٤٥).

فحدثت مفاجأة الحفل التي لم يتوقعها فرعون: فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ(٤٦) قَالُوا آمَنَّا

بِرَبِّ الْعَالَمِينَ(٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ(٤٨).

وجاءت ردة فعل الطاغية: قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ(٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ(٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ(٥١).

فلا أحد يخالف الفرعون وينجو بفعلته.

ثم تنتقل السورة للحديث عن خروج بني إسرائيل من مصر مع موسى، ولم تتحدث عن تفاصيل أحداث أخرى قبل ذلك:

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ(٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ(٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ(٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ(٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ(٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ(٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ(٥٩) فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ(٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ(٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ(٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ(٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ(٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ(٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ(٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(٦٨).

خروج موسى وبني إسرائيل من مصر كان في الليل، حيث تسللوا بسرية (الآية:٥٢).

(الآيات: ٥٣-٥٦) ما تتحدث عنه الآيات هو ما حصل قبل خروج بني إسرائيل، مما فهمناه من سور أخرى. حيث كان موسى وهارون يجتمعان ببني إسرائيل سراً لوضع خطة للهرب، دون علم فرعون، والآيات تبين أن فرعون قد حذر كل سكان مصر أن يتعاونوا مع بني إسرائيل: فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ(٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ(٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ(٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ(٥٦).

لاحظ أن الآيات (٥٧-٥٩) تتحدث عما حدث بعد غرق فرعون، وهي تسبق الحديث عن خروج فرعون لملاحقة موسى وبني إسرائيل: فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ(٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ(٥٩).

ثم تعود السورة للحديث عما حدث قبل ذلك، من ملاحقة فرعون لموسى وغرقه: فَأَتْبَعُوهُم

مُّشْرِقِينَ(٦٠) فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ(٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ(٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ(٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ(٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ(٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ(٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(٦٨).

وقد خرج فرعون لملاحقة موسى وبني إسرائيل وقت الشروق « فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ». وموسى وبنو إسرائيل خرجوا منتصف الليل كما أشارت لذلك الآية (٥٢).

وقد يكون معنى « فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ» تبعوهم باتجاه المشرق، وقد تعني أن فرعون بدأ ملاحقة موسى وبني إسرائيل باكراً مع شروق الشمس وتبعهم باتجاه المشرق.

إبراهيم وقومه

(الآيات:٦٩-٧٤) تصور حواراً وكأنه تم بين إبراهيم وقومه، والآيات تصور هذا المشهد ليستقر في ذهن المخاطب: وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ(٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ(٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ(٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ(٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ(٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ(٧٤).

(الآية:٧٤) تظهر أن التمسك بالموروث دائماً يعمي الأبصار عن الحقيقة ويعطل الفكر عن التفكير، ولو فكر القوم لعرفوا أن الأصنام لا تضر ولا تنفع.

وتستمر الآيات: قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ(٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ(٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ(٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ(٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ(٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ(٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ(٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ(٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ(٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ(٨٤) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ(٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ(٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ(٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ(٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(٨٩).

تصوير مجازي حسي ليوم القيامة

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ(٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ(٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ(٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ(٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ(٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ(٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ(٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ(٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ(٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ(١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ(١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ(١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(١٠٤).

(الآيات:١٠٥-١٩١) تخاطب قريشاً عن أمم سابقة: نوح، عاد، ثمود، قوم لوط، وأصحاب الأيكة (قوم شعيب) لعل قريش تعتبر مما حصل لهم. وتظهر الآيات أن منطق الرسل واحد، لأن الدين واحد. وأن موقف كل تلك الأمم متشابه مع رسلهم، وكأنهم يكررون ما سبق وصدر ممن قبلهم. وبعبارة أخرى، فكل تلك الأمم ساروا على سنة أزلية واحدة تتمثل باتباع الموروث، ورفض الدعوة لأنها تخالف موروثهم، وليس لأنها دعوة باطلة. كما تظهر أن من ينتقد الموروث سيحارب، ولا يؤمن إلا قلة غالبيتهم من المستضعفون، وأن الناس لا تعتبر مما حدث لغيرها.

قوم نوح

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ(١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ(١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(١١٠) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ(١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ(١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ(١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(١١٥) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ(١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ(١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(١١٨) فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ(١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ(١٢٠) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ(١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(١٢٢).

(الآية:١١١) عادة لا يتبع الرسل إلا المستضعفين.

(الآيتان: ١١٤-١١٥) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ(١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(١١٥) وهو منطق مشابه لمنطق قريش، الذي رد عليه القرآن بتحذير الرسول: وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ(٥٢) الأنعام.

عاد

كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ(١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ(١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ(١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ(١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ(١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ(١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ(١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ(١٣٦) إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ(١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ(١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ(١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(١٤٠).

عاد يعيشون على تربية الماشية (الآية:١٣٣)، والزراعة (الآية:١٣٤). ورفضوا الدعوة لتمسكهم بموروثهم (١٣٦-١٣٧).

ثمود

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ(١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ(١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ(١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ(١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ(١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ(١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ(١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ(١٥٣) مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ(١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ(١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ(١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ(١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(١٥٩).

ثمود أيضاً يعيشون على الزراعة (الآية:١٤٧-١٤٨) في واد تحيط به الجبال التي ينحتون فيها غرفاً (بيوت) لهم (الآية:١٤٩). عددهم قليل لدرجة أن لديهم مصدر ماء واحد للشرب (محتمل أن يكون بئراً)، وكان يجود بكميات قليلة، حتى أن ناقة واحدة تستطيع أن تشربها (الآية:١٥٥). ومن هذه الآيات يفهم أن لديهم مياهاً كافية للزراعة لكنها لا تصلح لشرب البشر، قد يكون لملوحتها. والناقة لا تشرب كل يوم، وقد يكون خصص لها يوم في الأسبوع « لَّهَا شِرْبٌ ...... يَوْمٍ مَّعْلُومٍ».

قوم لوط

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ(١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ(١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ(١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ(١٦٦) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ(١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ(١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ(١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ(١٧٠) إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ(١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ(١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ(١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ(١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(١٧٥)

(الآية:١٦٠) تقول: «كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ» ولم يرسل لهم سوى لوط. فالجمع استخدم هنا للدلالة على المفرد.

أصحاب الأيكة/ قوم شعيب

كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ(١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ(١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ(١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ(١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ(١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ(١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ(١٨٥) وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ(١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ

كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(١٨٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ(١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(١٩١).

والأيكة هي الغيضة أو الشجر الملتف، وهو ما يعني أن قوم شعيب كانوا يعيشون في منطقة شجرية. وكانوا يتعاطون التجارة والبيع والشراء، ويتعاملون بالغش التجاري (الآيات:١٨١-١٨٣). وقد أهلكوا بيوم الظلة، وفي سور أخرى بالصيحة أو الرجفة، كما في سورة العنكبوت: فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ(٣٧) وهو ما يعني الزلزال.

(الآيات:١٢١، ١٣٩،١٥٨، ١٧٤) أكثر الناس لا يؤمنون بدعوة الرسل أو أي دعوة إصلاحية: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ».

(الآية:١٥٤) عذر دائماً ما يتعذر به الرافضون للدعوة. ومثلها الآية:١٨٦.

(الآية:١٧٣) مطر السوء يعني الحمم والرماد البركاني.

(الآيات:١٨١-١٨٣) تثبت أن الدين واحد، فالغش التجاري حرام في الإسلام وفي رسالة شعيب.

(الآيات: ١٩٢-٢٠١) تتحدث عن القرآن

وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ(١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ(١٩٤).

الوحي المنزل على الرسول والوسيلة الوحيدة للدعوة، هو القرآن. وكان يحفر في ذاكرة الرسول بواسطة الروح الأمين (أحد الملائكة) ونعرف أنه جبريل من سورة أخرى: قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ(٩٧) البقرة.

القرآن بلسان عربي وهو نسخة من الرسالات السابقة

بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ(١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ(١٩٦).

بعض بني إسرائيل آمنوا

أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧).

والآية تقول لقريش لو أنكم تبحثون عن الحق فستعلمون أن الدعوة حق لأن بعض بني إسرائيل الذين يعرفون دين الله من رسل سابقين، قد آمنوا.

قريش لن تؤمن

وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ(١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ(١٩٩) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ(٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ(٢٠١).

كقاعدة أزلية تقول: من لا يؤمن بالدعوة بداية سماعه بها لن يؤمن أبداً. والآية تقول قريش لن تؤمن بناءً على هذه القاعدة وليس لأن الله قد حكم عليهم بالضلال. ولأنهم لن يؤمنوا فسيبررون موقفهم وسيتحججون بكل الحجج لرفض الحق.

ستندم قريش يوم القيامة ولات ساعة مندم

لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ(٢٠١) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ(٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ(٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ(٢٠٥) ثُمَّ جَاءهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ(٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ(٢٠٧).

الله جل وعلا لن يعذب من لم تصله رسالة

وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ(٢٠٨) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ(٢٠٩). وهو ما ذكرته سور أخرى[١].

رد على اتهام قريش أن القرآن كلام الشياطين

وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ(٢١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ(٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ(٢١٢).

الشياطين المعزولون هم من الجن الذي منعوا من التجوال في الفضاء كما تخبرنا سور أخرى مثل سورة الجن.

---

١ انظر فقرة: من لم يرسل له رسول فلن يعذب / قسم أدلة من القرآن.

خطاب للرسول

فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ(٢١٣) وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ(٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ(٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ(٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ(٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ(٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٢٢٠).

حتى الرسول يحذر لئلا يميل عن الحق، لأنه لا يوجد بشر معصوم ولو كان رسولاً. وعشيرتك الأقربون هنا هم قريش وليس كما تأول الشيعة من أنهم علي وفاطمة وحسن وحسين، لأن السورة نزلت في مكة وقبل أن يعلم علي أنه سيتزوج فاطمة وأنه سيأتيهما حسن وحسين.

ومع أن هذا واضح، إلا أننا سنضيف تأكيداً آخر على أن عشيرة محمد المقصود بها قبيلته قريش، يقول تعالى: لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٢٢) المجادلة.

فالآباء والأولاد شيء والعشيرة شيء آخر، ولو كان المقصود بالآية (٢١٤) في الشعراء هم من قالت الشيعة فكان يجب أن يقال وأنذر عائلتك أو أولادك - على افتراض أن أبناء علي ابن ابي طالب هم أبناءٌ للرسول (وهو افتراضٌ جدلي لا يمكن على أرض الواقع).

استكمالٌ للرد على قريش الذي ورد في (الآيات: ٢١٠-٢١٢) من أن القرآن كلام شياطين أو شعر

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ(٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ(٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ(٢٢٣) وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ(٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ(٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ(٢٢٦).

(الآيات: ٢٢٤-٢٢٦) ذم للشعر والشعراء، وما يفعله المسلمون اليوم هو تمجيد للشعر والشعراء عكس ما قال القرآن عنه. وذم الشعر والشعراء يتنافى مع ما تمتلئ به كتب التراث أن للرسول شاعراً اسمه حسان ابن ثابت وأن الرسول كان يحضه على هجاء المشركين. ولم

يفطن أولئك إلى أن تبادل الهجاء من الفحش في القول الذي نهى عنه القرآن، كما في قوله تعالى: وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً(٧٢) الفرقان. وقوله تعالى: وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ(٣) المؤمنون.

يجب على المؤمنين الانتصار لظلمهم وردع الظالم

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ(٢٢٧).

إلا ليست استثناء من الشعراء بل هي بمعنى «أما»، وتبدأ موضوعا لا علاقة له بالشعر، الذي انتهى الحديث عنه في الآية (٢٢٦).

وهذه الآية نزلت في وقت كان عدد المسلمين في مكة قليلاً وضعيفاً، ومع ذلك أمروا بدفع الظلم ومعاقبة الظالم، وهو ما يتنافى مع ما في الحديث والتفسير وفتاوى رجال الدين من الصبر على الظلم ولو ضرب ظهرك وأخذ مالك.

(٨١) هود

تبدأ السورة بالتأكيد على أن القرآن محكم الآيات (التشريعات) التي تفصل كل ما يحتاجه المؤمن:

الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ(١).

مواصلة دعوة قريش

أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ(٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ(٣) إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٤).

استمرار دعوة قريش برغم تحول الخطاب الدعوة لكل الناس، وبرغم أنها لن تتراجع عن رفضها للدعوة، كما صورته الآية التالية:

أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٥).

الآية تصف رفضهم بتصوير مجازي وكأنه ثني للصدور حتى لا يدخلها القرآن عند سماع

تلاوته، وتغشي الثياب حتى تحجبهم عن الحق ورؤية الرسول.

دعوة عقلانية لقريش

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ(٦) وَهُوَ الَّذِي خَلَق السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ(٧).

وقريش تتساءل من باب السخرية لماذا لا يعذبهم الله الآن على كفرهم؟ والله سيعذبهم يوم الحساب، وعندها لن يكشف عنهم: وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(٨).

وتقول السورة إن الإنسان (المقصود به هنا قريش) إذا ما فقد النعمة كفر: وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ(٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ(١٠).

وتعد السورة المؤمنين خيراً: إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَـئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ(١١).

الرسول كان يتمنى ألا يقرأ الآيات التي تؤكد أنه لن يعطى أية، لعل الله يستجيب وينزل عليه آية يقدمها لهم فيؤمنوا كما وعدوه

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(١٢).

وتقول الآية أنت مجرد نذير ورسول تنقل ما يوحى إليك فقط، دون أن يكون لك حق التصرف بما ينزل عليك أو تأخير تبليغه.

رد على مزاعم قريش حول القرآن

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٣) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ(١٤).

والآيات دليل على أن القرآن كان ينزل سورة كاملة، وليس آيات متفرقة. لذا جاء التحدي بالإتيان بعشر سور، وليس بعشر آيات. والتحدي قائم، ولو كانت السورة مكونة من ثلاث آيات بطول سورة الكوثر.

الكسب في الدنيا متاح للجميع بغض النظر عن المعتقد

مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ(١٥) أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(١٦).

وهو تأكيد لما ورد في الآية (٢٠) من سورة الشورى، والآيات (١٨-٢١) من سورة بني إسرائيل وسور أخرى، من أن كل المجالات في الدنيا مفتوحة لكل البشر ومتاحة لهم ومودعة في الأرض من قبل خلق الإنسان. ولا توزع حسب المعتقد، ولكن بسعي الإنسان نفسه.

بعض بني إسرائيل آمنوا برسالة محمد وكثير من القبائل لم يؤمن

أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إَمَاماً وَرَحْمَةً أُوْلَـئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ(١٧).

الأحزاب عندما تأتي في القرآن فهي تعني القبائل والأمم[1]. وهي هنا تشير لبعض القبائل التي لم تؤمن، تضامناً مع قريش على الأرجح.

قريش استمرت تختلق عبارات وتنسبها للقرآن لتصد من يحضر لمكة للقاء الرسول

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أُوْلَـئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَـؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ(١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ(١٩) أُولَـئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ(٢٠) أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ(٢١) لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ(٢٢).

منذ منتصف المرحلة الخامسة للدعوة في مكة بدأت السور تذكر أن قريشاً تتعمد لقاء الناس

---

١ انظر فقرة: الأحزاب/ قسم مفردات من القرآن.

القادمين من خارج مكة لمقابلة الرسول، وتنسب للقرآن كلاماً لم يقله لكي تنفرهم منه وتصدهم عن لقائه. ويبدو أن قريشاً استمرت على هذا فالآيات تشير إليه. وتصفهم بمن يكذب على الله وتبين أن الغاية هي الصد عن سبيل الله (دينه) وإبقاء الضلال (يبغونها عوجا).

ومن السور التي تذكر اختلاق قريش لمثل هذه النصوص هي: الزمر، الأعراف، ويونس من المرحلة الخامسة. وهود من المرحلة السادسة، والأنعام والعنكبوت من المرحلة السابعة. مما يعني استمرار قريش في هذه الوسيلة القذرة من منتصف المرحلة الخامسة وطوال فترة وجود الرسول في مكة إلى أن هاجر.

وعد للمؤمنين

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُواْ إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٣). والآية دليل على أن المطلوب إيمان وعمل صالح ولا يكفي واحد منهما.

الله جل وعلا لن يغفر لمستحق النار ولن يعذب مستحق الجنة

مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ(٢٤).

الآيات (٢٥-١٠٣) تتحدث عن أمم سابقة لعل قريشاً تعتبر، والأمم هي نفسها التي تحدثت عنها سور مضت كالشعراء.

قوم نوح

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٢٥) أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ(٢٦) فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ(٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ(٢٨) وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَـكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ(٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ(٣٠) وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْراً اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي

إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ(٣١) قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللّهُ إِن شَاء وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ(٣٣) وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٣٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ(٣٥) وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ(٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ(٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ(٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ(٣٩) حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ(٤٠) وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ(٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ(٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ(٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٤٤) وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ(٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ(٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ(٤٧) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَركَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ(٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ(٤٩).

(الآية:٢٧) سبب يردده المعارضون دائماً، ويتمثل بأن الرسول أو المصلح الديني بشر مثلهم ولا يملك أي مقومات وقدرات خاصة، والآية أيضاً دليل على أن المستضعفين عادة هم من يؤمن.

(الآية:٢٩) نوح وكل الرسل مثل محمد لا يطلبون أجراً على الدعوة، لأنهم لو فعلوا فلن يحصلوا على أجرهم في الآخرة. وهذا دليل على أن أي عمل لخدمة دين الله لا يجب أن يؤخذ عليه أجر ومن يأخذ أجراً في الدنيا فقد حرم نفسه من أجر الآخرة. وهذا ينطبق على إمامة

الصلاة والأذان وكل عمل لخدمة الدين الذي تحول لوظائف برواتب شهرية.

(الآيات:٢٩-٣٢) تظهر بعض ما طالب به قوم نوح، وهو مشابه لما طالبت به قريش: وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَـكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ(٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ(٣٠) وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْراً اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ(٣١) قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتَنِا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللّهُ إِن شَاء وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ(٣٣).

(الآية:٣١) منطق الكفر واحد (سنة الأولين)، فكلام نوح هنا هو ما قالته الآية (٥٠) من سورة الأنعام، عن محمد: قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ(٥٠).

وهذه الآيات تشابه قوله تعالى في حق الرسول محمد: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً(٥٧) الفرقان.

ومثله: وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ(٥٢) الأنعام.

ومثله: وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(٨) هود.

وتواصل الآيات الحديث عن قوم نوح: وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٣٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ(٣٥) وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ(٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ(٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ(٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ(٣٩) حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ(٤٠) وَقَالَ ارْكَبُواْ

فِيهَا بِسْمِ اللهِّ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ(٤١).

(الآية: ٣٦) تؤكد أن من لا يؤمن في بداية سماع الدعوة لن يؤمن أبداً، هذه قاعدة في كل زمان ومكان.

(الآية: ٤٠) لم يؤمن إلا قلة، وهي حقيقة تحدثت عنها سور كثيرة: وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ(١٠٣) يوسف.

فغالبية الناس تتمسك بمصالحها الدنيوية ولا تميل للدين.

(الآية: ٤٠) تقول: قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ». وهي تشير للحيوانات التي أمروا بحملها معهم. وقوم نوح قبيلة صغيرة العدد، من الواضح أنهم يعتمدون في حياتهم على تربية الماشية (بقر، غنم، وجمال) وبالتالي فكل أهل بيت يملكون عدداً منها. وبما أنه لم يؤمن مع نوح سوى نفر قليل، فقد أمر كل شخص مؤمن أن يحمل معه زوجاً من حيواناته لكي تتناسل فيما بعد. ويترك بقية ماشيته التي سيطويها الطوفان مع القوم الكافرين لأنه لا مكان لها في سفينة نوح. التي بناها على قدر استطاعته، والتي لا يمكن أن تكون كبيرة الحجم. وإنما هي مركب يكفي للطفو فوق سطح الماء إذا ما فاجأها الطوفان. والدليل على صغر المركب وقلة عدد المؤمنين أنهم لم يركبوا فيها إلا بعد أن فار التنور مؤذناً ببداية ضرب الطوفان للمنطقة.

وتواصل السورة الحديث عما حدث: وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ(٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِّ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ(٤٣).

وقوله: وحال بينهما الموج». يصور سرعة مياه الطوفان العاتية التي حملت ولد نوح بلحظة وهو لم يكمل حديثه مع والده.

وتستكمل السورة ما حدث: وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٤٤) وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ(٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ(٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي

أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ(٤٧) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ(٤٨).

ثم يتوجه الخطاب للرسول:

تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ(٤٩).

تفاصيل ما حدث لنوح لا يعرفه الرسول ولا قريش، وإن كانوا يتناقلون أباً عن جد أن قوم نوح أهلكوا بطوفان وإن كان هناك تفاصيل فهي مشوشة وغير دقيقة.

عاد

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ(٥٠) يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ(٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ(٥٢) قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ(٥٣) إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ(٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ(٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٥٦) فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ(٥٧) وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ(٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ(٥٩) وَأُتْبِعُواْ فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ(٦٠).

(الآية:٥٢) تقول على لسان هود: «وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً». وهو ما قاله نوح لقومه: فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا(١٠) يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا(١١). وتكرر كثيراً في سور تخاطب قريشاً، والمعنى أن الله هو من يرسل المطر، لكنه لا يعني أن التوبة شرط لنزول المطر. فالمطر ينزل إذا توفرت ظروف مناخية مناسبة، بغض النظر على من ينزل، كافراً كان أو مؤمناً، أو في البر أو على البحر والمحيطات.

والتوبة تعني العودة عن الخطأ والتعهد بعدم الرجوع إليه.

ثمود

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ(٦١) قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَـذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ(٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ(٦٣) وَيَا قَوْمِ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ(٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ(٦٥) فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ(٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ(٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّثَمُودَ(٦٨).

إبراهيم

وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُـشْرَى قَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ(٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ(٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ(٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ(٧٢) قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ(٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ(٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ(٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ(٧٦).

فقد حضرت مخلوقات كونية لإبراهيم، ولديها القدرة على التشكل بهيئة جسدية (بشرية). مما جعل إبراهيم يظن أنهم بشر وقدم لهم «عجلاً حنيذاً». والحنيذ أكلة مشهورة في جنوب غرب جزيرة العرب منذ القدم وانتشرت اليوم في كل الجزيرة[1].

لكنهم ليسوا بشراً وليس لهم أجهزة هضمية ولا يستطيعون تناول الطعام.

١ انظر فقرة: الحنيذ/ قسم مفردات من القرآن.

ولديهم القدرة على تخصيب المرأة التي توقفت عن الإنجاب.

(الآيات: ٧٤-٧٦) تخبرنا أن إبراهيم حاول أن يقنع تلك المخلوقات بعدم هلاك قوم لوط، لأنهم قومه هو أيضاً.

وتستمر الآيات تخبرنا ما حدث بعد وصول تلك المخلوقات لقرية إبراهيم ولوط، وكيف حاول قوم لوط التحرش بهم جنسياً:

قوم لوط

وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَـذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ(٧٧) وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَـؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ(٧٨) قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ(٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ(٨٠) قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ(٨١) فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ(٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ(٨٣).

(الآيات: ٧٧-٨٠) تظهر أنه لما حلت تلك المخلوقات في بيت لوط شعر بالحرج والقلق لأنه يعلم أن قومه سيهرعون إليهم لفعل الفاحشة بهم ظناً منهم أنهم بشر، وهو ما حدث بالفعل. وهنا عرض لوط بناته على القوم بدل أن يفضحوه عند ضيفه. وقد كان لوط مستعداً لتقديم بناته ليفعل القوم بهن الفاحشة على أن يخزيه القوم في ضيفه، مقابل أن يبدو شهماً مكرماً ضيفه (سلوك وعادات موروثة) طغت على تفكير لوط لحظتها. والقرآن هنا يروي ما حدث كما حدث ولا يقر بما قال لوط ولا يخطئه، كما هي عادة القرآن في الحديث عن الأمم والأشخاص الأقدمين.

قوم شعيب

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ(٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ

وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ(٨٥) بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ(٨٦) قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ(٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ(٨٨) وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ(٨٩) وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ(٩٠) قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ(٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيّاً إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ(٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ(٩٣) وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ(٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ(٩٥).

الآية (٨٩) تؤكد أن شعيباً أرسل بعد قوم نوح وهود وصالح ولوط.

بعد ذلك تتجه السورة إلى مخاطبة بني إسرائيل موردة أنباءً تاريخية تهمهم ويعرفونها:

موسى وفرعون

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ(٩٦) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ(٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ(٩٨) وَأُتْبِعُواْ فِي هَـذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ(٩٩) ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ(١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ(١٠١) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ(١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ(١٠٣).

(الآية:١٠١) تؤكد أن الدين خيار شخصي حر.

الحساب ومصير الكافر والمؤمن سيكون يوم القيامة

وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ(١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ(١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ(١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ(١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ(١٠٨) فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـؤُلاء مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ(١٠٩).

(الآية: ١٠٣-١٠٤) ليس هناك عذاب في الدنيا لمن لا يؤمن، ولكن العذاب لا يكون إلا يوم القيامة وبعد الحساب. والكوارث التي تقع في الدنيا تقع للكافر والمؤمن. وما حدث لأمم سابقة مثل قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم أنهم لو آمنوا لابتعدوا مع رسولهم ومن آمن معه ونجوا من الهلاك، لكن الكارثة كانت ستقع، سواءً كانت زلزالاً أو بركاناً أو غيره.

(الآيتان:١٠٧-١٠٨) دليل على أسلوب القرآن، فالآيتان تقولان بأن الكافر سيبقى في النار إلا ما شاء الله، والمؤمن سيبقى في الجنة إلا ما شاء الله. وكأنه لا يوجد خلود أبدي، وكأن المسلم سيخرج من الجنة بعد فترة والكافر سيخرج من النار بعد فترة، وهو ما يتناقض (ظاهرياً) مع آيات كثيرة تؤكد خلوداً أبدياً لأهل الجنة ولأهل النار. والخلود أبدي لكن الآيتين تقولان إنه لو شاء الله لما خلدوا، فكل شيء بمشيئة الله.

(الآيات:١١٠-١١٣) تخبر عن ابتعاد بني إسرائيل عن الدين، وتطلب من الرسول ومن آمن معه التمسك بالدين

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ(١١٠) وَإِنَّ كُـلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(١١١) فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(١١٢).

هناك مسلمون يوالون مشركي قريش

(الآية:١١٣): وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ(١١٣).

تخاطب المسلمين في مكة، وتشير إلى أن فئة منهم ركنوا ووالوا من ظلموا (أي قريش)

الذين ظلموا المستضعفين من المسلمين بتعذيبهم جسدياً كما بينت سور سابقة، حيث أعطى القرآن الحق للمسلمين بمعاقبة الظالم ودفع الظلم.

وهذه الآية تتحدث عن وضع جديد ظهر للساحة بين المسلمين يتمثل بموالاة فئة من مسلمي قريش لأقاربهم المشركين. وهذه الفئة هم من تحدثت عنهم (الآية: ٥٣) من سورة بني إسرائيل، وأخبرتنا أنهم اشتبكوا مع فئة مسلمة أخرى في خلاف. وسنرى أن هذه الفئة التي توالي قريش ستستمر في موالاتها برغم تحذير القرآن لهم، وسيستمرون بخلافاتهم مع الفئة الأخرى من المسلمين الذين سنتبين أنهم المستضعفون، كما سيتسببون في مشاكل جمة للمسلمين والإسلام. وهم من أطلقنا عليهم مسمى «مسْلَمَة قريش»، وهو اصطلاح يعني فئة ممن أعلنوا إسلامهم في مكة من قريش ولكنهم منافقون واستمروا يوالون أقاربهم المشركين.

فرض ثلاثة أوقات لأداء الصلاة

وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ(١١٤).

ولو أضفنا هذه الأوقات الثلاثة للوقتين اللذين فُرضا في الآية (٧٨) من سورة بني إسرائيل فإن الأوقات المطلوبة للصلاة أصبحت خمسة في اليوم والليلة، وليس هناك آية أخرى تضيف أي وقت آخر غير ما ذكر.

والملاحظ هو أن هناك صلاة عند طرف النهار الأول (أي بعد شروق الشمس)، وصلاة أخرى عند طرف النهار الأخير (أي قبيل غروب الشمس). ولا يذكر القرآن صلاة الظهر أو العصر اللتين يصليهما المسلمون اليوم، ويتركون صلاتي طرفي النهار المذكورين في القرآن.

وتختم السورة بمخاطبة الرسول حول ما يجري في مكة في تلك الفترة: وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ(١١٥) فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ(١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ(١١٧) وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ(١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(١١٩) وَكُـلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ

بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ(١٢٠) وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ(١٢١) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ(١٢٢) وَللهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(١٢٣).

(الآية:١١٥) تدعو الرسول للصبر والتحمل على متاعب الدعوة.

(الآية:١١٦) تقول بأن القلة من المؤمنين مع كل رسول هم من يبقى بعد هلاك قومهم يعبدون الله.

(الآيتان:١١٧-١١٨) قاعدة وسنة سارت عليها كل الناس في كل زمان: القلة مؤمنة والكثرة رافضة.

(الآية: ١٢٠) سرد قصص الأمم الكافرة السابقة للتأكيد لمحمد أن كل الرسل كذبوا ومر عليهم من المحن ما يمر عليه. وكذلك عبرة لقريش لو رغبت في الإيمان.

(الآيتان:١٢١-١٢٢) دعوة للتعايش السلمي مع قريش (لكم دينكم ولي دين)، لكن قريشاً لم تقبل، مثلها مثل كل الأمم والمجتمعات. فليس هناك مجتمع بشري يقبل أن يتعايش مع من ينتقد موروثه أو يخالفه.

وبهذا نكون قد انتهينا من المرحلة السادسة من مراحل الدعوة في مكة.

المرحلة السابعة:
مرحلة التعذيب بالنار والهجرة

آخر مراحل الدعوة في مكة، وأكثرها دموية واضطهاداً للمسلمين، وهذا يخالف ما ورد في كتب التراث التي تقول بأن التعذيب بدأ مع بداية الدعوة، وكل ما قالوه كان رجماً بالغيب ولا يملكون عليه أي برهان، ويعكس أنهم سمعوا بما يتداول من قصص وحكايات عن زمن الرسول فتخيلوا أن التعذيب حدث في بداية الدعوة. ولو بدأت قريش تعذيب المسلمين منذ بداية البعثة فسيتطور الوضع لقتلهم. ولو قتلتهم فلن يبقى الرسول ومن معه سنوات في مكة. والقرآن – مصدرنا – يؤكد حقيقة ما حدث ومتى حدث. وقريش بدأت بالتعديات الجسدية على المسلمين المستضعفين من المرحلة الخامسة بشكل محدود، وتطورت في المرحلة السادسة، لكنها في هذه المرحلة وصلت لحد التطرف. فقد تعرض المستضعفون من المسلمين للتعذيب الجسدي، وصل إلى كيهم وحرق أجسادهم بالنار لكي ترغمهم قريش على الردة والعودة لطاعة أسيادهم.

وهذا يمكن فهم دوافعه، فقريش تعتمد كلياً على العبيد والموالي في القيام بالأعمال الخدمية، ولو آمنوا فستتعطل المصالح وتشل الحياة اليومية في مكة. ولهذا تجرأت قريش على خرق القانون الإلهي الذي احترمته واحترمه شعوب جزيرة العرب طوال قرون والذي ينص على أن مكة بلد آمن لا يضام ساكنه ولا يؤذى. وهذا القانون هو الذي جنب الرسول محمداً وكل المسلمين الذين ينتسبون لقريش الأذى الجسدي، ولا عبرة بما ورد في كتب التراث من تعرض الرسول والمسلمين للأذى الجسدي، لأن قريشاً لو تجرأت على إيذائهم جسدياً لتجرأت على قتل الرسول وقتلت النفر الذين آمنوا معه. ولكن قريشاً لم تتعرض للرسول ولكل من ينتمي بنسب لقريش خوفاً من عقاب الله الذي يؤمنون بوجوده[1]، وخوفاً من

١ قريش لا تؤمن بالبعث لكنها تؤمن بوجود الله وأنه خالق كل شيء، وتحتفظ بموروثها أن الله قد يعاقب الناس في الدنيا.

العار بين القبائل. فقريش تتمتع بسمعة فاضلة ونظرة مقدسة عند كل سكان جزيرة العرب اكتسبتها بمحافظتها على احترام حرمة البيت والقيام عليه وخدمة حجاجه. ولو تجرأت وقتلت الرسول في مكة لانهارت الثقة وخسرت قريش سمعتها العطرة وقدسيتها. لكن هذا لم يمنع بعض رجال قريش أن يؤذوا المستضعفين، لأن العرب في كل أرجاء جزيرة العرب ينظرون للعبيد والموالي نظرة دونية وكأنهم أقل درجة في الإنسانية حسب قانون الطبقية الاجتماعية المعمول به في تلك المجتمعات. ولن تخسر قريش سمعتها بين العرب لو قتلت أو عذبت العبيد، بخلاف لو تعرضت لقرشي أو ذي نسب من غيرهم.

ونتيجة لتعذيب قريش للمستضعفين فقد مات بعضهم وارتد بعضهم وأعلن البعض الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان. وهذه المرحلة تعتبر أسوأ مرحلة مرت على المسلمين في عصر الرسول، فقد كان من المحتمل أن تتمكن قريش من القضاء على كل من لا يرتد من المستضعفين، وقد تتجرأ بعد ذلك على محمد ومن أسلم من قريش وتقضي عليهم، وعلى دين الله. لولا أن قيض الله للإسلام بعض من دخله من بني إسرائيل يثرب، وقاموا بنشر دين الله في بلدتهم، وتقبله منهم غالبية الأوس والخزرج. فكان أن وجه مسلمو يثرب الدعوة لإخوانهم مسلمي مكة بالهجرة إليهم هرباً بأرواحهم ودينهم، فكانت الهجرة.

وقد نزل في هذه المرحلة آخر ثماني سور في مكة، مكملة عدد السور المكية إلى (٨٩) سورة. وسور هذه المرحلة، هي: الأنعام، العنكبوت، البروج، المسد، النحل، القصص، الرعد، والحج.

(٨٢) الأنعام

تفتتح بحمد الله الخالق العليم، وتساؤل عن كفر قريش:

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ(١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ(٢) وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ(٣).

(الآيات: ٤-٧٣) تخاطب قريشاً على العموم، وتؤكد أنهم لن يؤمنوا، وترد على اتهاماتهم وتحث الرسول أن يصبر على الأذى.

قريش لن تؤمن

وما تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ(٤) فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(٥) أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ(٦) وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ(٧) وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ(٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ(٩).

(الآيات:٤-٥) من لا يؤمن عند سماع الدعوة لن يؤمن بعد ذلك أبداً، وقريش تسخر من الرسول ولا تستمع له.

(الآية:٦) قريش لو أرادت الإيمان فستعتبر لما حدث لأمم قبلها هلكت وهي كافرة. وقرن هنا تعني أمة.

(الآية: ٧) دليل على أن القرآن لم يكتب في مكة.

(الآيات: ٧-١٠) تشير لما واصلت قريش ترديده على مسامع الرسول، والمتمثل بطلب معجزات وإرسال ملائكة لهم. وتقول الآيات إن قريشاً ليست جادة في طلبها، بل تطلب ذلك سخرية، ومحاولة لإظهار الرسول بمظهر العاجز لتبرر تكذيبها له. ولو أنزل عليهم كتاب في قرطاس ولمسوه بأيديهم أو رأوا الملائكة فلن يؤمنوا. ولأن الملائكة لا أجساد لها فلو أنزلت عليهم فلابد أن تتشكل بهيئة حسية، وبالتالي فستبدو كبشر تلبس لباس البشر، وإن لم تكن كذلك.

دعوة عقلانية

قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(١١) قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِلّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(١٢) وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(١٣) قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكَينَ(١٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ

عَظِيمٍ(١٥) مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ(١٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ(١٧) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ(١٨).

القرآن وحده أداة الدعوة

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ(١٩).

الآية دليل على أن محمداً رسولٌ لكل من بلغه القرآن، بغض النظر عن المكان والزمان واللون والجنس واللغة.

كثير من أهل الكتاب (يثرب) آمنوا، بينما خسرت قريش ببقائها على الكفر

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(٢٠).

استمرار قريش في تلفيق نصوص وإسماعها للناس على أنها قرآن

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ(٢١).

تصوير حال قريش يوم القيامة

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ(٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ(٢٣) انظر كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ(٢٤).

والآيات تظهرهم يوم القيامة وهم يحاولون إنكار كفرهم.

قريش لن تؤمن ومستمرة بصد الناس عن لقاء الرسول

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ(٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(٢٦).

قريش لا تصغي، ولو رأوا كل المعجزات فلن يؤمنوا. ويدخلون في جدال مع الرسول لعلهم يحرجونه ويصدون غيرهم عن اتباعه، سواء كانوا مستضعفي مكة أو من يأتي من خارج مكة للقاء الرسول.

من يتمسك بالموروث فسيرفض الحق حتى لو رأى العذاب

وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(٢٨).

دليل على أن التمسك بالموروث قوي لدرجة أن وضوح الحق لا يكفي لإقناع أتباع الموروث بتركه.

وسيندمون لإنكار الحق الذي يعلمون أنه حق

وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ(٢٩) وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ(٣٠) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ(٣١) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ(٣٢).

الساعة تأتي بغتة بالنسبة لكل فرد، حيث إنه بمجرد موته تتوقف الذاكرة عن التسجيل وإذا ما قامت القيامة سيظن أنه للتو مات. وتكون الساعة بالنسبة له قد جاءت بغتة.

الرسول يتأذى من سخرية قريش ويتحسر على كفرهم

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ(٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ(٣٤) وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ(٣٥) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ(٣٦) وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلٍ آيَةً وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ(٣٧).

لقد كان الرسول يحزن كثيراً لما يسمع من سخرية قريش بالقرآن وهو يعلم أنه حق من الله، ويتأذى مما يواجه من جور وتعسف وسخرية. والآيات تؤكد له أن ما يلاقيه قد سبقه إليه كل الرسل قبله، وأن الله وعد الرسول ومن آمن بالنصر والظهور في النهاية[1].

وهذه ليست أول مرة تظهر الآيات أن الرسول كان يتمنى لو أعطيت قريش آية، كونهم يرددون على مسامعه أنهم لو رأوا معجزة فسيؤمنون. فقد ذكرت ذلك سور سابقة منها سورة هود: فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(١٢).

وترشده الآيات هنا أنهم لن يؤمنوا لو رأوا كل الآيات، ومطالبهم للتعجيز وليسوا جادين في التأكد من الحق. لذا فالآيات تؤكد أن الله لن يري قريشاً آية أبداً.

كل مخلوقات الله الحية على الأرض أمم مثل البشر وسيبعثون ويحاسبون

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ(٣٨).

هذه الآية تحتم على البشر أن يتعاملوا مع المخلوقات الأخرى بكل إنسانية ولا يجوز التعامل معها بخلاف ذلك. فهي لم تخلق لتسلية البشر ولا لعبثهم. كما أن إباحة صيد المباح أكله منها لا يعني صيده لغير حاجة ولا للتسلية ولا صيد إسراف. ولكنه يعني أن الإنسان إن لم يجد ما يأكله غير صيد مخلوق حي فله ذلك بقدر سد جوعه فقط. ولا يقتل مخلوقاً حياً بدون سبب حتى ولو كان ثعباناً أو عقرباً أو وزغاً أو غيره. فالله جل وعلا لم يخلق مخلوقاً إلا لحكمة، ولو أراد أن يخلق مخلوقات للعبث لخلقها في عالمه سبحانه، وليس ليعبث بها مخلوقات أخرى كالإنسان: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (١٥) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ (١٦) الأنبياء.

تعبير مجازي

وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَأ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٣٩).

الآية تقول من يشأ الله يضلله ومن يشأ يهده. وقد سبق وبينا أن المقصود ليس تقرير الله

[1] انظر فقرة: وعد من الله أن ينصر الرسول ومن آمن / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

المسبق لبعض الناس بالكفر والبعض بالهداية، ولكنه يعني أن خيار الإيمان والكفر شخصي بحت، إلا أنه لا يمكن أن يتم لو لم يرده الله، من باب أن كل ما يجري في الكون سمح له الله جل شأنه بأن يتم ولو أراد لما تم. كما أن العقل هو المرشد والهادي وبواسطته يقرر الإنسان الطريق التي يريد بمحض اختياره، لكن بما أن الله هو من خلق العقل فلو اختار المرء الهداية فالله جل شأنه هو من هداه (بطريق غير مباشر)، ولو اختار الضلال، فالله جل وعلا هو أضله (بطريق غير مباشر).

دعوة عقلانية

قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ(٤١) وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ(٤٢) فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(٤٣) فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ(٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٤٥) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ(٤٦) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ(٤٧) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ(٤٩).

الرسول لا يعلم الغيب ولا يستطيع الدعوة بغير القرآن

قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ(٥٠).

هذه الحقيقة يتغافل عنها الناس لأنها تنفي نفياً قاطعاً ما يحاول بعض أتباع الموروث المذهبي الترويج له من أن الرسول قد أخبر بأحداث ستقع بعده. وقاموا بتأويل بعض الآيات لغير معناها لكي تبدو وكأنها تقول بما يريدون.

القرآن هو الوسيلة الوحيدة للدعوة ولا شيء معه

بعد أن ذكرت الآية السابقة أن الرسول لا يستطيع أن يقول للناس سوى ما يقول القرآن، تواصل السورة قائلة: وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ(٥١).

القرآن هو الوسيلة الوحيدة للدعوة، وليس هناك كلام آخر معه.

قريش تطلب طرد المستضعفين

وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ(٥٢).

عندما تقاطر المستضعفون للدخول في الإسلام بعدما توجهت سور المرحلة الخامسة بدعوتهم مباشرة وتحذيرهم من البقاء على الكفر طاعة لأسيادهم، جن جنون قريش وحاولت بكل الوسائل لوقف هذا النزف لعبيدها ومواليها، وإلا ستجد نفسها عاجزة عن تصريف أمور حياتها وتجارتها وخدماتها اليومية. لأن المستضعفين هم من يقود الجمال عبر الفيافي محملة بتجارة قريش من أقصى جنوب جزيرة العرب إلى أقصى شمالها وبلاد الشام. وهم من يقومون بكل الأعمال الخدمية في مكة. ومما حاولت قريش فعله بجانب تعذيب المستضعفين، هو إقناع الرسول بطرد المستضعفين، وسوف يؤمنون به. وبطبيعة الحال لو فعل الرسول فلن يؤمنوا، ولكنه سيخسر المستضعفين الذين لن يعودوا للإسلام بعد طرده المفترض إياهم. والآيات تحذر الرسول من أن يستسيغ هذه الفكرة أو حتى التفكير بتنفيذها، وتقول له إنه لو فعل فسيكون من الظالمين، والظالمين مأواهم النار.

وطلب طرد المستضعفين قالت به أمم سابقة لقريش، ومن ذلك: وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٥٢) هود.

فقد طلب قوم نوح منه أن يطرد المستضعفين الذين آمنوا معه وسيؤمنون به، بحجة أنهم لا يقبلون بأن يساووا في المعاملة مع عبيدهم. وبطبيعة الحال لو طرد نوحٌ المستضعفين فلن يؤمنوا.

يجب سن قوانين تضمن كرامة المسلم، وتسن عقوبات ضد كل من يطرد مسلماً.

ضمان كرامة المسلم والتعامل معه بكل يسر وترحيب

وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَـؤُلاء مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ(٥٣) وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥٤).

والسؤال هو: ما الذي فعله بعض المسلمين من سوء؟

لقد كتبت في «أحسن القصص» أن الآيات ربما تشير إلى بعض مسلمة قريش الذين استمروا يوالون المشركين، والذين دخلوا في مشاحنات مع بعض المستضعفين المسلمين من الموالي والعبيد، وأن الرسول قد قام بطردهم. فقدم عليه بعضهم نادماً على ما بدر منه، فجاءت الآية التالية ترشد الرسول للتصرف الذي يجب عليه أن يتصرفه حيال هذا المسلم التائب وكل من يحذو حذوه، وذلك بأن يحسن استقباله ويشجعه على التوبة، ويطمئنه أن الله غفور رحيم.

لكن اتضح لي أن كبراء قريش هم من طلب من الرسول طرد المستضعفين بعد أن وعدوه أن يؤمنوا لو طردهم، متحججين بأنه من غير المقبول عرفاً وعادة - عندهم - أن يساوى السيد مع العبد والمسود، وذلك لكي يوقعوا بين الرسول وبين المسلمين من المستضعفين، ويعيدوهم لخدمتهم.

وما يؤكد هذا أن كبراء قوم نوح حاولوا نفس الخديعة مع نوح: قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ(١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ(١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ(١١٤) الشعراء.

وقوله: « كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» تذكير للمؤمنين بأن المعصية التي ترتكب بجهالة تغتفر.

دعوة عقلانية لقريش

وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ(٥٥) قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ(٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ(٥٧)

قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ(٥٨) وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ(٥٩) وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٦٠) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ(٦١) ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ(٦٢) قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ(٦٣) قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ(٦٤) قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ(٦٥).

الآية (٥٩) دليل على أن الرسول لا يعلم الغيب.

الآية (٦٠) تعطينا أقرب صورة للموت وهي النوم، حيث تتوقف الذاكرة عن التسجيل، ونغيب عن الواقع، ولا نعلم متى حدث النوم إلا بعدما نستيقظ.

الآية (٦١) تصور تسجيل الأعمال وكأن من يقوم بها حفظة (مخلوقات) وليس آلية داخل النفس كما هي بالفعل، وذلك لتقريبها للذهن. كما تصور خروج النفس من الجسد وكأن من يقوم بها (مخلوقات) وليس خروجها آلياً.

الآية (٦٥) التفرق والتشرذم عذاب، ومجتمعاتنا العربية تفهم ذلك في هذا العصر تماما لأننا نعيشه.

القرآن وسيلة الدعوة الوحيدة

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ(٦٦) لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ(٦٧).

الرسول ليس مسئولاً عن هداية البشر، وكل ما عليه هو تبليغ القرآن فقط. وهذا ما يجب أن يلتزم به كل دعاة الإسلام. لكن ما يحدث اليوم هو الاعتماد على الوعظ القصصي والترغيب والترهيب الخطابي، وهذا أسلوب مسيحي يعتمده المبشرون المسيحيون الذين يفتقدون للحقائق المقنعة في دينهم فيعتمدون أسلوب الخطابة ليعوضوا بسحر البيان نقص البرهان.

وقد عرفه الناس بعد الفتوح ودخول أعداد من المسيحيين من أهل تلك البلاد للإسلام، فكانوا يعقدون مجالس للقصص، ومنهم انتشر الوعظ[1]. ويمكن استخلاص قانون قرآني هنا يقول: الدعوة للإسلام تكون بتلاوة القرآن، أو تيسير القرآن لغير المسلم بلغته ويمنع استخدام الأساليب الحالية، لأنه إن كان محمد لم يدع إلا بالقرآن فكيف يسمح لغيره بالوعظ بكلامه هو. والقرآن كرر ما ورد في هذه الآية في عدة سور.

قريش كانت تخوض في القرآن وتسخر منه

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٦٨) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَـكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ(٦٩).

والآيات تنهى الرسول من الجلوس معهم، أثناء تعرضهم للقرآن[2].

من اغتر بالدنيا فقد ضل ولا يقبل العمل الصالح بلا إيمان

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ(٧٠).

من انغمس بملذات الدنيا يتصور أنها لن تنتهي وهو لن يموت، ولذا يغيب عقله عن التفكير بالآخرة. والكافر لو قام بأعمال جليلة فلن تقبل منه يوم القيامة، لأن المطلوب للجنة إيمان وعمل صالح ولا يقبل أحدهما دون الآخر.

وبعد أن تحدثت السورة عن طلب قريش من الرسول طرد المستضعفين، وبعد تحذير الرسول من ذلك وتوجيهه للتعامل معهم بكل إنسانية واحترام. تتجه السورة لمخاطبة المستضعفين المسلمين لتحثهم على التمسك بالإيمان:

قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَىَ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(٧١) وَأَنْ أَقِيمُواْ الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِيَ إِلَيْهِ

١ من أوائل القُصاص في الإسلام تميم الداري والحسن البصري وخلفيتهما الدينية مسيحية.

٢ انظر فقرة: مخالطة من يسخر من القرآن/ قسم تشريعات من القرآن.

تُحْشَرُونَ(٧٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ(٧٣).

الآية (٧٢) لعلها المرة الأولى التي يؤمر المسلمون بإقامة الصلاة بعد فرض أوقات محددة لأدائها.

الآية (٧٣) تصوير حسي لنشأة كون القيامة.

ثم تتوجه السورة في (الآيات:٧٤-٨٧) لتتحدث عن إبراهيم بتوسع وتذكر بعض الرسل السابقين المعروفين عند بني إسرائيل:

إبراهيم

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ(٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ(٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ(٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ(٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ(٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(٧٩) وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ(٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٨١) الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ(٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ(٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ(٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ(٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٨٧).

(الآيات:٧٥-٧٩) ترينا صورة لرحلة العقل التي تنتهي بالوصول للحق. دليل على أن العقل لو سمح له بالتفكير الحر فسيوصل صاحبه للحق، وأن الشك هو بداية اليقين. وهذا

يخالف زعم عبدة النصوص وأتباع السلف الذين يحرمون إعمال العقل ويصورنه عدواً للدين. وهو عدو لدينهم الموروث والمختلق، أما دين الله الحق فالله جل شأنه يشهد ويؤكد أن العقل هو الطريق الذي يؤدي للدين. ولا يمكن للعقل أن يخالف دين الله الحق، وكل ما يخالف العقل فهو ابتداع بشري.

(الآيات: ٨٠-٨٢) في كل وقت وزمان أتباع الموروث يخوفون كل من يعارضهم بالويل والثبور، والآيات ترد عليهم: وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ(٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٨١) الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ(٨٢).

(الآيات:٨٣-٨٧) تذكر بعض الرسل الذين يعرفهم بنو إسرائيل. ويمكن ملاحظة أن الآية (٨٤) ذكرت إسحاق ويعقوب ولم تذكر معهما إسماعيل ولعل السبب أن الآيات تخاطب بني إسرائيل الذي يعادون بني إسماعيل، لذا تأخر ذكر إسماعيل. أو قد يكون راجعاً لأساليب القرآن التي لا تخضع لسردنا المألوف، وهو ما أميل إليه.

إن كانت قريش كفرت فالرسل المذكورون ومن تبعهم آمنوا، وبهم يجب أن يقتدى

ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(٨٨) أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ(٨٩) أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ(٩٠).

بعض اليهود ممن لا يؤمنون بديانة موسى قابلوا الرسول في مكة

وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ(٩١) وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ(٩٢).

والآية (٩٢) أيضاً تؤكد أن محمداً رسول لأهل مكة وما حولها مثل الطائف وكذلك لبني إسرائيل يثرب. وهذا يعني أن الرسول لم يتصل بأهل الطائف - إن كان قد اتصل بهم أو ذهب إليهم - إلا في هذه المرحلة أو المرحلة السابقة بعد تغير الخطاب من دعوة قريش فقط إلى دعوة كل الناس. وهو ما يخالف ما ورد في كتب التراث أن الرسول ذهب للطائف في بداية بعثته.

الآية (٩٣) تؤكد ما كررته سور سابقة من أن قريشاً تنسب للقرآن ما لم يقل وتسمعه لأناس جاءوا لمقابلة الرسول لعلها تصدهم عن الإسلام. والآية تحذر قريشاً من مغبة ذلك يوم القيامة: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ(٩٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ(٩٤).

والآية (٩٣) أيضاً تصور خروج النفس من الجسد بصورة حسية وكأن هناك مخلوقات حية (ملائكة) هي من يقوم بنزعها من الجسد، وذلك لتقريب الصورة في الذهن وزيادة التأثير. وإلا فالموت يتم بآلية لا يتدخل فيها مخلوق.

دعوة عقلانية

إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ(٩٥) فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٩٧) وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ(٩٨) وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٩٩) وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ

بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ(١٠٠) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١٠١) ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(١٠٢) لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ(١٠٣) قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ(١٠٤) وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(١٠٥).

الآية (٩٨) نفس واحدة تعني من نفس المواصفات والتركيب، ولا تعني من إنسان واحد. فليس للبشر شخص واحد تناسلوا منه، لأن هذا لا يمكن. إذ لابد من نفسين (شخصين) ذكر وأنثى للتوالد.

الآية (٩٩) تتحدث عما يشاهد فهناك أنواع من الثمرات. وقوله « مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ» تحدث عنها كثيراً من يريد أن يجد في القرآن معجزات علمية، مع أنها لا تتحدث عن شيء غير معتاد. بل تقول هناك ثمار تتشابه وثمار تختلف.

الآيتان (١٠٠-١٠١) تتحدثان عن قول قريش إن لله بنات هم الملائكة، وتقول لهم: كيف يكون له بنات وليس له صاحبة (زوجة)؟

الآية (١٠٣) نفي قاطع أن الله لا يمكن رؤيته، فالمخلوق ليس لديه القدرة على ذلك، سواءً كان ذلك في الدنيا أو كان في الآخرة.

الآية (١٠٤) القرآن وحده وسيلة الدعوة وهو البصائر لمن يرغب الحق.

الآية (١٠٥) فيها إشارة إلى أن مما تحاول قريش إشاعته بين من يقدم لمكة للقاء الرسول أنه يتلقى ما يتلو عليهم من شخص آخر. وهذا الكلام لم تكن قريش تقوله للرسول عندما كانت الدعوة محصورة في أهل مكة فقط. لأنهم يعرفون أنه لا أحد يعلم محمداً، لكن من يأتي من خارج مكة لا يعلم ذلك.

يا محمد ما أنت إلا رسول ولست مطالباً بهدايتهم أو وكيلاً عليهم

اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ(١٠٦) وَلَوْ شَاء اللهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ(١٠٧).

الرسول - وكل داعية - ليس وكيلا على الناس مسئولا عن هدايتهم. فقط عليه تبليغهم رسالة ربهم المتمثلة بالقرآن.

بعض المسلمين يبادلون قريشاً الشتائم

وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(١٠٨).

الآية تشير إلى أن بعض المسلمين يسبون آلهة قريش، فيرد عليهم القرشيون بسب إله المسلمين، فيكون السب موجهاً لله الذي هو إله المسلمين.

(الآيات:١٠٩-١١٣) تعود للحديث عن مواقف قريش: وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ(١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(١١٠) وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ(١١١)

القرين

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ(١١٢) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ(١١٣).

قريش كأي مجتمع، يتواصى رجالها فيما بينهم بالتمسك بموروثهم، واستهجان من يفكر بالخروج عليه. فيكون مجرد التفكير بما يقال عن الموروث من نقد محظوراً، بغض النظر إن كان صحيحاً أو باطلاً. لهذا استمر القرشيون في رفضهم للدعوة، دون أن يصغوا لما تدعوهم إليه. ولن يؤمنوا مهما دعوا، أو رأوا الملائكة أو كلمهم الموتى أو رأوا أي آية أخرى.

وقوله: «شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول» لا يعني أن الجن والمشركين يعقدون الاجتماعات ويقررون ما يقولون. ولكنه يعني أن شياطين الجن يتذاكرون فيما بينهم الغواية، وشياطين الإنس يتذاكرون فيما بينهم الغواية أيضاً، فيزين كل فريق لأفراده الضلال.

(الآيات:١١٤-١١٧) عود لمخاطبة الرسول للرد على قريش: أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ(١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(١١٥) وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ(١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(١١٧).

الآيات تؤكد أنه لا يوجد حكم (تشريع) بديل لحكم الله أو حتى يؤخذ معه، والقرآن فيه كل ما يحتاج المرء لدينه. وما عداه فكلام لأهل الأرض (كلام بشري) لو أطعناه لأضعنا دين الله.

وهذا يعني أن أي تشريع (فتوى) هي خرص ولا يمكن أن تؤخذ في دين الله الذي يقوم على اليقين. وكل من تبع تشريعاً مبنياً على كلام بشر فقد عبده من دون الله. ويدخل في هذا كل تشريع يقوم على حديث منسوب لرسول الله، الذي لا يملك أن يشرع بدون القرآن. وكل حديث منسوب للرسول فهو مكذوب عليه.

ما يحل ويحرم من المآكل

فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ(١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ(١١٩) وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ(١٢٠) وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ(١٢١).

وأول مرة يشير القرآن لما يحرم من المآكل كان إشارة عابرة وردت في الآيتين (٥٩-٦٠) من سورة يونس.

والآيات هنا تفرض قانوناً يقول: يجب ذكر اسم الله قبل الأكل[1].

وستعود الآيات:١٣٦، ١٣٨-١٣٩، ١٤١-١٤٦ للحديث عما يحرم من المآكل بالتفصيل.

١ انظر فقرة: ذكر اسم الله على الأكل / قسم تشريعات من القرآن.

أتباع الموروث يعيشون في عالم مغلق

أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(١٢٢).

تعبير مجازي يصور المؤمن وكأن له نوراً يمشي بين يديه (أمامه) ويصور أتباع الموروث كمن يعيشون في عالم مظلم لا يستطيعون الخروج منه. لأنهم يتجاهلون النقد الموجه للموروث ويرفضون أن يفكروا في إمكانية أن يكون موروثهم خاطئاً. فيعيشون في دائرة مظلمة يعتقدون أنها هي العالم الطبيعي، لأنهم لم يروا عالماً غيره.

الكبراء هم من يقود المجتمع لرفض الدعوة

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(١٢٣) وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ(١٢٤).

قريش كأي مجتمع آخر، الكبراء فيه يقودون بقية الناس لرفض الدعوة، لأنها تصحيحية ستغير من أوضاع الناس وستلغي التميز للكبراء. وتحجج كبراء قريش برؤية آية ليؤمنوا، هو مجرد تبرير، ولو رأوا كل الآيات فلن يؤمنوا.

ونتوقف قليلاً عند (الآية:١٢٥) التي تقول: فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ(١٢٥).

هذه الآية تحدث عنها من يروج للقول إن القرآن يحوي معجزات علمية لم تكتشف إلا في العصر الحديث، وهذا القول مجرد خيال وظن والذين قالوا به إن هم إلا يخرصون. فالقرآن يحدث قريشاً بما تعرف ولم يتوجه بالحديث لنا في هذا العصر أبداً، لأن أي رسالة تبدأ بخطاب دعوي وبعد أن يؤمن الناس يتحول الخطاب إلى تشريعي. وبعد نزول التشريعات يختفي الخطاب الدعوي، فمن أراد أن يؤمن فليتدبر تشريعات الدين، ولن يكون هناك خطاب دعوي لمن يأتي بعد نزول التشريعات. فليس في القرآن خطاب دعوي موجه لمن سيأتون بعد عصر الرسول في أي عصر من العصور، كما سبق وكررنا مراراً.

والآية ككثير من الآيات تعطي صوراً حسية لزيادة التأثير، وتشبيه الكافر بمن يصعد في السماء، يعني باتجاه السماء يعني إلى الأعلى يعني بالصعود إلى الأعلى سواء بصعود درج أو تسلق مرتفع، حيث سيشعر بضيق تنفس « صَدْرَهُ ضَيِّقاً». ولا علاقة لها بطبقات الجو العليا ونقص أو اختفاء الأوكسجين كما يروجون.

صراط الله المستقيم

وَهَـذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ(١٢٦) لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(١٢٧).

هذا يشير للقرآن الذي هو الصراط المستقيم المؤدي لدار السلام، واتباع أي حكم أو تشريع بغير القرآن فهو خروج عن الصراط المستقيم، والخروج عنه ضلال.

الجن سيحاسبون كما الإنس

وَيَوْمَ يِحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَليمٌ(١٢٨) وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ(١٢٩).

يقول المفسرون - كما أورد الطبري - أن معنى استكثرتم من الإنس تعني أكثرتم من إضلالهم. وهذا تحريف جاهل، لأن الجن ليس لهم دور لا في إضلال الإنس ولا في هدايتهم، ولا يتصلون بهم عبر أي وسيلة كانت. لكن بحكم أن المفسرين تأولوا الآيات التي تتحدث عن رفض إبليس السجود لآدم، قائلين بأنه من الجن وليس من الملائكة، فقد قالوا بأن الجن يغوون الإنس مثلما يفعل إبليس الذي اعتبروا له ذرية من الجن.

وقالوا إن معنى: «استمتع بعضنا ببعض» هو أنه: «كان الرجل في الجاهلية ينزل الأرض فيقول: أعوذ بكبير هذا الوادي فذلك استمتاعهم، فاعتذروا يوم القيامة».

وهذا وربي تحريف أكثر ضلالاً من التأويل السابق. فما هي علاقة الاستئناس بقول: أعوذ بكبير الوادي؟

نذكر هذا فقط للتذكير بأن كلام المفسرين لا يعتد به ولا يصدر من أناس يعلمون ما يقولون أو لديهم مصادر موثوقة يتحدثون عنها، وكل ما يقولون تحريف وجرأة على التقول على الله

بما لم يقل.

ونعود للآية التي تقول: « وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ».

ما الذي استكثره الجن من الإنس؟

وكيف استمتع بعضهم ببعض؟

وكيف يكون هناك أولياء للجن من الإنس؟

لعل الآية تتحدث عن أن الجن يتبعون الإنس في المعتقد. ولذا علينا الرجوع للآيات التي تتحدث عن الجن لنستوعب المعنى.

تؤكد سورة الأحقاف أن الجن هم من يستمع للإنس ويتبعونهم في معتقداتهم:

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١).

وتقول سورة الجن: قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطًا (٤) الجن.

الجن هم من يستمع للإنس.

الجن هم من يؤمن بدين الإنس.

الجن هم من كان يتأثر ويتبع الإنس في معتقداتهم صالحة كانت أو ضالة. فقد كان هناك مشركون منهم كما الإنس، كما تبين الآية الثانية. والجن كان بعضهم يقول بأن لله ولدا (بنات) كما كان الإنس (الآية:٣).

إذاً استكثار الجن من الإنس هو متابعتهم في الضلال، وليس العكس.

واستمتاع بعضهم لبعض، لا تعني أن الإنس يستمتعون بالجن، والجن يستمتعون بالإنس. ولكن تعني استمتاع الجن ببعضهم البعض، واستمتاع الإنس ببعضهم البعض.

ووصف الآية أن هناك أولياء من الإنس للجن، لأن المتبوع ولي للتابع. والجن تبعوا الإنس بمعتقداتهم الضالة فهم أولياؤهم الذين قادوهم للضلال[1].

الجن والإنس جاءتهم رسل منهم

يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَـذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ(١٣٠) ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ(١٣١) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ(١٣٢).

الجن تلك المخلوقات اللامرئية التي تعيش في محيط الأرض ومنهم من استمع لتلاوة الرسول. كما يمكن أن يقال إن الآية تشير إلى أن كل مخلوقات الكون الحية لها رسل وسيحاسبون.

وعيد لقريش

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ(١٣٣) إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ(١٣٤).

مثال على أسلوب القرآن: الآية تبدأ بمخاطبة محمد «وربك» ثم يتحول المخاطب إلى قريش «يذهبكم».

الآيتان تهددان قريشاً: أنهم لا يعجزون الله، وأن النار التي وعدوا بها آتية.

دعوة سلمية

قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدِّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ(١٣٥).

وهو ما سبق وكررته سور مررنا بها، وهو ما طلبه رسل سابقون من أممهم، مثل شعيب: وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ(٩٣) هود

لكن الكفار دائماً لا يقبلون التعايش السلمي ويصرون على حرب المسلمين أو ردهم عن دينهم.

---

[1] تم تعديل صياغة الفقرة بناءً على اقتراح من أبي حزم «المدقق اللغوي» مشكوراً.

عود للحديث عما تحرمه قريش من المآكل التي أشارت له الآيات (١١٨-١٢١)

وَجَعَلُواْ للهِّ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَـذَا للهِّ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللهِّ وَمَا كَانَ للهِّ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ(١٣٦).

بعض اللحم لله وبعضه لشركائهم (أصنامهم).

ثم تبتعد السورة عن الموضوع وستعود له في آيات قادمة.

المشركون يقتلون أولادهم لئلا يخالفوهم في المعتقد

وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاء اللهُّ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ(١٣٧).

الآية تشير إلى أن بعض رجال قريش يقتلون أولادهم خشية من اتباع الرسول وترك الموروث. وكانت سورة بني إسرائيل قد أشارت إلى أن بعض رجال قريش كان يقتل أولاده خشية الفقر، لئلا يضطر للسؤال المعيب بحق الرجل الحر: وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خطئا كَبِيراً(٣١).

عود للحديث عما تحرمه قريش من المآكل

وَقَالُواْ هَـذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِّ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ(١٣٨) وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَـذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حِكِيمٌ عَلِيمٌ(١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللهُّ افْتِرَاء عَلَى اللهِّ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ(١٤٠).

ثم تبتعد السورة للمرة الثانية عن الموضوع، وتدعو قريشاً للتفكير بالخلق لتهتدي إلى أن الخالق قادر على بعثهم

وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ(١٤١).

وتستمر السورة تذكر قريشاً بالنعم والتي منها الأنعام التي تحملهم والفرش الذي يتمتعون

به من أصوافها: وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ(١٤٢).

أنواع الأنعام

ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٤٣) وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَـذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(١٤٤).

الأنعام ثمانية أزواج:

- زوجان من الضأن (ذكر وأنثى).
- زوجان من المعز (ذكر وأنثى).
- زوجان من الإبل (ذكر وأنثى).
- زوجان من البقر (ذكر وأنثى).

هذه الأنعام التي تعيش في بيئة قريش وهناك أنعام تعيش في بيئات أخرى لا تعرفها قريش، لذا لم يتطرق لها القرآن، ولا يعني حديث الآيات عن هذه الأنواع أنها هي وحدها الأنعام في كل العالم.

قريش مستمرة باختلاق نصوص تنسبها للقرآن

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(١٤٤).

وهو ما سبق وذكرته سور عدة، كواحدة من الطرق التي تعتمدها قريش لصد الناس عن الدخول في الإسلام. فهي لا تستطيع منع الناس من دخول مكة، ولا تستطيع أن تمنعهم من الاجتماع بالرسول والاستماع له، ولا تستطيع أن تحتجزهم أو تمنعهم من سلوك الطرق المؤدية للرسول، لأن حرمة البيت تمنعهم من ذلك. فكانت تعمد لوسائل أخرى، منها اختلاق نصوص مشوشة ومشينة وتسمعها للقادمين على أنها من القرآن على أمل أن يصدق

بعضهم ويعود من حيث أتى قبل أن يلتقي الرسول ويتأكد مما نسبته له قريش.

ويبدو أن بعض الناس بالفعل يصدقون كبراء قريش ويعودون من حيث أتوا، لأن عدة سور ذكرت أن قريشاً مستمرة باختلاق هذه النصوص.

ما يحرم من المآكل

قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٤٥).

هذه هي تفاصيل ما يحرم من المآكل، أوردتها السورة في هذه الآيات وبعد أن قالت في آية سابقة أنه قد فصل ما يحرم: وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ(١١٩).

وهذا الأسلوب معروف في القرآن وتكرر في عدة سور، لأن السورة تنزل مرة واحدة في وقت واحد. وبدل أن يقول القرآن: «وسنقول لكم التفاصيل لما يحرم من المآكل لاحقا» كما هو متبع بيننا. فهو يقول: لقد فصل لكم ما حرم عليكم... ثم وفي آية لاحقة يذكر هذا التفصيل[1].

حرم على اليهود بعض الحلال عقاباً لهم

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ(١٤٦).

الآية تذكر أن الذين هادوا حرم عليهم ما ليس محرماً في العادة عقوبة لهم لبغيهم. والمفسرون يقولون بأن الظفر يعني «كل ما لم يكن مشقوق الأصابع كالإبل والنَّعام». وهذا الكلام غير دقيق، لأن الإبل والبقر والضأن والمعز لها أقدام (حوافر) مزدوجة. بينما نجد أن الخيل والبغال والحمير لها حافر واحد ليس مشقوقاً، وهو الذي يمكن أن يسمى ظفراً.

وتسمية المفسرين لا تعتمد لأنهم يعتقدون أن ذوات الظفر (الحافر المفرد) يحرم أكلها، وفي نفس الوقت يقولون الإبل والنعام من ذوات الظفر.

---

١ انظر فقرة: البدء بسرد الحدث لا يكون بالضورة من أوله / قسم من أساليب القرآن.

والإبل من الأنعام التي ذكرت أصنافها في الآية (١٤٤) والتي يباح أكلها.

والآية تقول بأن ذوات الظفر حرمت على اليهود لظلمهم، وإلا فهي مباحة.

مفهوم خاطئ عن مشيئة الله

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ(١٤٧) سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ(١٤٨) قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ(١٤٩).

قول قريش: «لو شاء الله ما أشركنا» منطق يردده الناس في كل العصور، وهو مجرد تبرير للرفض. وإلا فالله لم يفرض عليهم ولم يجبرهم على الكفر، بل هم من اختار ذلك طواعية، وبناءً على عقائد موروثة لا أساس لها. فهي مجرد خرص وظن، مثل أي عقائد لا تعتمد كلام الله.

ومثله ما هو سائد بيننا الآن، فلو أن أحدنا سار بسيارته بسرعة جنونية تسببت له بحادث مروري، فعادة ما ينسب ما حدث لمشيئة الله، وكأن الله جل وعلا قد قرره عليه مسبقاً. وهذا لا يمثل مشيئة الله، ولكنه تبرئة المرء لنفسه من الخطأ ونسبته لله. فلا يكون عليه لوم، ولكن اللوم يقع على الله.

ومشيئة الله في كل شيء ولو أراد سبحانه فلن يقع الحادث، لكن الله جل شأنه لا يتدخل في أمور الدنيا، وكل ما يقع على الإنسان يكون بأسباب بعضها يعود للشخص نفسه كحادث السيارة، وبعضها يعود لأسباب خارجة عنه.

رد مزاعم قريش

قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللّهَ حَرَّمَ هَـذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ(١٥٠).

وتسرد السورة المحرمات

قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ

تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(١٥١) وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(١٥٢) وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٥٣).

الشرك بالله، الإحسان للوالدين، قتل الأولاد، الفواحش، قتل النفس، التلاعب بمال اليتيم، الغش التجاري، قول الحق، الوفاء بالعهد والوعد، التمسك بطريق الله (القرآن). كل من خالف أياً من هذه التشريعات فقد ارتكب كبيرة. ومن أصر على كبيرة فهو خالد في النار كما ذكرت سور أخرى.

الإحسان للوالدين بالقول والفعل والعون المادي والمعنوي.

الفاحشة ذنبها واحد عرف بها الناس أو تستر فاعلها، وهو ما يخالف الموروث الذي يقول إن من يقترف الفواحش في الخفاء أهون من الجهر وأيسر للتوبة. لذا نجد شباب بلادنا وشيبها عندما يسافرون لبلاد أخرى ينغمسون في الرذيلة والفسق والخمور والمخدرات، وكأن الله لا وجود له. كنوع من الخفاء، وكأن فعل ذلك في تلك البلاد يعتبر من الخفاء، وحتى في بلادهم، فهم يعتبرون اقتراف المعاصي والفجور في الخفاء ينظر له كأن الله سيغفره.

الغش التجاري بكافة أشكاله مما يتساهل به الناس، سواء في المنتجات الغذائية وما يدخل في تركيبها ما يؤذي الصحة، أو في المنتجات الأخرى كذلك.

قول الحق والوفاء بالعهد والوعد، ولو كان هناك ترتيب للأمم في هذا المجال لكنا في ذيل القائمة.

هذه التشريعات ومثلها تمثل الإسلام، فدين الله ليس عبادات فقط، بل ليس هناك في دين الإسلام سوى ثلاث عبادات فقط: صلاة وصوم وحج، وبقية التشريعات تهتم بالحياة والكرامة والحقوق. الموروث عتم عليها وأبرز العبادات وكأن من أداها سيغفر له تقصيره فيما سواها، والقرآن يكذب ذلك.

ونعيد تلاوة الآية التي تقول: وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٥٣).

هذه الآية تنص صراحة وبكل وضوح وجوب التمسك بسبيل الله المستقيم، وتنهى عن اتباع أي سبيل آخر. فما الذي يمثل سبيل الله؟

أليس القرآن هو كلام الله المؤكد الثبوت؟

أليس كلام الله يمثل سبيله؟

ألا يعني هذا أن الآية تقول بوضوح اتبعوا القرآن فقط، ولا تتبعوا أي سبيل آخر؟

ولو لم يكن في القرآن آية أخرى غير هذه لكفت كدليل على بطلان اتباع المذاهب وأي تشريع خارج القرآن.

وتواصل الآيات...

تأكيد أن القرآن وحده يمثل دين الله مثلما كانت التوراة:

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ(١٥٤) وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(١٥٥) أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ(١٥٦) أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ(١٥٧).

دين الله واحد سواء كان على شكل توراة أو قرآن، وما عداه فلا يمثل دين الله، ولو صدر من موسى أو محمد عليهما الصلاة والسلام، فكيف بكلام غير الرسل؟

والآيات تقول لقريش إن كنتم تحججتم سابقاً بأنه لم ينزل عليكم كتاب (دين) كما نزل على بني إسرائيل، وأنه لو نزل عليكم كتاب لصدقتم، فالآن قامت الحجة عليكم.

ولن ينزل على قريش لا ملائكة ولا آيات

هل يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ(١٥٨).

والآية تقول لو رأت قريش آية ولم تؤمن فسيحل بها العذاب، كقاعدة ثابتة.

وتعود السورة لتشدد على ضرورة الالتزام بسبيل الله: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ(١٥٩). وتقول الآية إن من اتبع أي سبيل غير القرآن فلست منهم يا محمد في شيء. أي لا يهمك أمرهم، ولا ينتمون لملتك.

كل الأعمال تحصى ويحاسب عليها الإنسان

مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ(١٦٠).

ترغيب في قوله فله عشر أمثالها. وإلا فالجنة لن يدخلها إلا من آمن وعمل صالحاً. والعمل الصالح يعني التقيد بأوامر الله كلها والبعد عن نواهيه كلها. أي الابتعاد عن الكبائر وفعل كل الأوامر. ولن يكون الحساب على شكل جمع علامات مثل جمع علامات أجوبة المدارس فمن وصل لدرجة النجاح دخل الجنة ومن نقصت درجاته رسب.

وقوله «وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ» لتظهر أن الكفار لن يظلمهم الله لكفرهم ويسجل عليهم معاصي لم يقترفوها. وسيدخلون جهنم لأنهم كفروا وقد قيل لهم إن من يكفر فمصيره النار.

ثم تختم السورة مخاطبة محمداً، وترد على قريش

قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٦١) قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٦٢) لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ(١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(١٦٤) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٦٥).

«لا تزر وازرة وزر أخرى» تعني أن صحيفة الأعمال لا تسجل إلا ما يقوم به الإنسان لنفسه، ولا تسجل ما يقوم به غيره بالنيابة عنه. وهذا يعني أن كل من يقوم بعبادة أو أعمال خيرية لغيره فلن تسجل له.

ورفع بعضكم فوق بعض لا تعني في المكانة الإنسانية ولكن في المجتمع. وبما أن الحديث

لقريش فمن السهل أن نفهم أنها تشير إلى المجتمع المكي الذي يتكون من أغنياء وموالٍ ومستضعفين. وهذا التفوق الدنيوي لا يعني شيئا في الآخرة ولا ينقص من قيمة الإنسان المسلم في الدنيا.

(٨٣) العنكبوت

منذ أن تحول الخطاب الدعوي في القرآن لكل الناس في المرحلة الخامسة، بدأ بعض مستضعفي مكة الدخول في الإسلام، مما جرأ قريشاً على الاعتداء عليهم. لكن هذا التعدي وصل لحد التطرف في هذه المرحلة حيث لجأ بعض رجال قريش إلى تسجير النيران وحرق أجساد المهتدين ليردوهم عن دينهم ويعيدوهم للكفر، أو يموتوا. فقريش لا تحتمل أن ينضم عبيدها ومواليها إلى معسكر المسلمين، وتصاب الحياة العامة في مكة بالشلل، كونهم من يقوم بالأعمال الخدمية، كما تكرر ذكره من قبل. وهذه السورة أول سورة تتحدث عما يتعرض له المهتدون من المستضعفين من حرق وتعذيب بالنار، وتحثهم على الصبر وتعدهم المغفرة، وتحذر قريشاً التي تعذبهم.

حث من يتعرضون للتعذيب على الصبر

الم(١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ(٣).

كل من يعلن إيمانه بدعوة تخالف الموروث سيتعرض للأذى والفتنة، وهذه سنة أزلية سارت عليها كل الأمم. وما يتعرضون له محك وامتحان لصدق إيمانهم، وفضح من أعلن إسلامه دون اقتناع. ولا تعني أن الله لم يكن يعلم من صدق إيمانه ومن ينافق قبل أن يتعرضوا للتعذيب.

مخاطبة قريش

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاء مَا يَحْكُمُونَ(٤).

(الذين يعملون السيئات هنا تعني من يقوم من قريش بتعذيب المسلمين).

فهل تعتقد قريش أنها أقوى من الله أو أنهم معجزوه؟

حث الذين يتعرضون للتعذيب على الصبر

مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٥) وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ(٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ(٧).

الآية الثانية تقول بأن التعذيب سيمحص المؤمن من المنافق، والآيات هنا تقول إن من كان يرجو لقاء الله (الجنة) فسيحصل عليه لا محالة. وكل من يجاهد (يصبر) فإنما يجاهد لمصيره هو، لأن الله غني عن كل خلقه. فالذي يصبر سينال الجنة، ومن يعود للكفر فقد أضر بنفسه هو.

والدا أحد المسلمين الذين يتعرضون للتعذيب يحاولان إقناعه بالردة

وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٨).

سور سابقة فرضت الإحسان للوالدين والتعامل معهما بكل لطف وعدم نهرهما أو إغضابهما، وهنا تقول الآية بأن طاعتهما تكون فيما عدا ما يغضب الله، فلا يجب على الولد أن يطيعهما ويعود للشرك.

وتعود السورة للتأكيد أن من آمن طلباً للجنة فهو يعلم أنه باع الدنيا، ولو مات تحت التعذيب فسيحقق مناه بدخول الجنة:

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ(٩).

والآية تحث بشكل غير مباشر من هم تحت التعذيب ألا يعودوا للكفر.

ردة بعض الذين تعرضون للتعذيب

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ(١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ(١١).

وهذه أول مرة يرد في القرآن لفظ «المنافقين». وهم نفر أعلنوا إسلامهم – كما تقول الآيات – ثم أعلنوا ردتهم خوف التعذيب. ولو ظهر الإسلام فسيعلنون أنهم مسلمون.

رجال قريش يحاولون إقناع المستضعفين تحت التعذيب أن يكفروا وسيتحملون ذنوبهم يوم القيامة ويعذبون نيابة عنهم

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ(١٣).

كفار قريش الذين يعذبون مستضعفي المؤمنين يقولون لهم إن أنتم كفرتم (ارتددتم) فنعدكم أن نحمل عنكم ذنوبكم يوم القيامة ونعذب بدلاً منكم. ويمكن القول بأن قريشاً كانت تستخدم التعذيب البدني مصحوباً بالترغيب. تماماً كما يحدث في معتقلات المباحث العربية، تعذيب لا يحتمل ووعود خيالية لا تتحقق لو استجاب المعتقل لما يريد السجان.

ثم تتحدث السورة عن أمم سابقة تهم قريشاً وآخرين يهم بني إسرائيل أمرهم.

قوم نوح

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ(١٤) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ(١٥).

ما زلت لا أستطيع فهم أن يلبث نوح «فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً». فما عرفته أن الإنسان لم يكن في عصور قديمة يعمر مئات السنين، كما أن كلمتي سنة وعام تعنيان نفس المعنى.

إبراهيم

وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(١٧).

كانوا يعبدون الأوثان.

ثم تتوجه السورة بالحديث إلى قريش: وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ(١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ(٢١) وَمَا أَنتُم

بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاء وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهَّ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ(٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهَّ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٢٣).

الآية (١٨) تقول كل ما على الرسول هو البلاغ (تلاوة القرآن)، وبقية الآيات دعوة عقلانية للتفكير.

عود للحديث عن إبراهيم

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللهَّ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ(٢٥) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ(٢٧).

الآية (٢٤) تشاور القوم فيما يفعلون بإبراهيم الذي كسر أصنامهم. فاقترح البعض قتله، واقترح آخرون حرقه، لكنهم لم ينفذوا أياً منها، لأن إبراهيم استطاع الخروج من قريته. فالله أنجاه من أن يلقوه في النار، لكن المفسرين – كعادتهم – هم من قام بلي معاني الآيات وقالوا إن إبراهيم قذف في النار ولم تحرقه (كمعجزة) ولو قذف إبراهيم في النار لأحرقته ومات، فالنبي لا يتحول إلى مخلوق فوق بشري أو مضاد للحريق، ولذلك نجد القرآن يحدثنا أن هناك رسلاً وأنبياء لله قتلوا: قَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ(٨٧) البقرة.

الآية (٢٦) تقول بأنه لم يؤمن مع إبراهيم سوى لوط، وهما وحدهما اللذان خرجا من القرية إلى بيت الله الحرام، كما تخبرنا آيات سور أخرى. وهذا يعني أن إبراهيم خرج من قريته قبل أن يتزوج، ويؤكد هذه الحقيقة أنه كان فتى عندما كسر أصنام قومه، كما تقول سورة الأنبياء: قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ(٦٠) الأنبياء.

والفتى هو الشاب الذي لم يتزوج.

الآية (٢٧) تذكر أن إبراهيم رزق بإسحاق ويعقوب، ولم تذكر إسماعيل. لأن المخاطب هنا بنو إسرائيل الذين لهم موقف عدائي من إسماعيل ولا تهمهم أخباره.

بعد ذلك تنتقل السورة للحديث عن قوم لوط، والملاحظ أن كثيراً من السور تتحدث عنهم مباشرة بعد الحديث عن إبراهيم، ذلك أن قوم لوط هم قوم إبراهيم، ولأن المخلوقات الكونية التي أرسلت إلى لوط لتطلب منه الخروج من القرية قبل هلاكها قد مروا بإبراهيم أولاً وبشروه بإسحاق:

قوم لوط

وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ(٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٢٩) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ(٣٠) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ(٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ(٣٢) وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ(٣٣) إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(٣٤) وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(٣٥).

الآيات تشير إلى أن المخلوقات الكونية التي جاءت لإبراهيم قالت بأنها ستهلك قوم لوط، وكأن ما حل بقوم لوط هو عذاب أنزله بهم تلك المخلوقات الكونية. والواقع أن ما حدث هو ثوران بركان قضى على القوم، ودور تلك المخلوقات كان إبلاغ لوط بالخروج ومن آمن قبل وقت كاف لثوران البركان. فالمخلوقات الكونية لم يتسببوا بالبركان، وإنما عرفوا أنه سيثور في لحظة معينة، وأمروا لوطاً ومن آمن معه بالخروج قبل وقت كاف. لكن بما أن المخلوقات الكونية تمثل إرادة الله، وبما أن الله جل وعلا هو من بقدرته ثار البركان، فالمخلوقات الكونية تقول إنهم مهلكو القرية. وقد خرج لوط بناءً على ذلك في الليل، بينما ثار البركان فجراً، كما تقول سور أخرى: فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ(٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاء مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ(٦٦) الحجر.

الآية (٣٥) تؤكد أن آثار قرية قوم لوط بقيت ظاهرة حتى بعثة محمد، وقريش تعرفها.

مدين (قوم شعيب)

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَّ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ(٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ(٣٧).

مدين اسم قرية، كما ورد في الآية (٨٨) من سورة الأعراف، وهي التي أرسل لها شعيب. وقد تكون مدين اسم منطقة بجانب القرية، وفي تلك المنطقة تقع بئر مشهورة في ذلك الزمن وقد لجأ إليها موسى، كما ذكرت الآيات (٢٢-٢٤) من سورة القصص.

قريش تعرف مساكن الأمم السابق ذكرها ومساكن عاد وثمود

وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ(٣٨).

ولعل قريشاً تمر بأطلال قراهم أثناء مرور قوافلها التجارية المحملة بالبخور والبهارات واللبان من أقصى جنوب غرب جزيرة العرب.

كبراء قرية مصر

وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ(٣٩).

الملك ووزير الإعمار ووزير المالية.

الأمم السابقة هلكت بكوارث طبيعية

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهَّ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(٤٠).

ولم تهلك أمة بعقاب من خارج الأرض.

عود للحديث عن مسلمة قريش

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهَّ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ(٤١) إِنَّ اللهَّ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ(٤٣).

الآيات تقول إن موالاة الكفار كمن اتخذ بيتا واهياً، جدرانه من خيوط العنكبوت بالنسبة لمن يلمسه من البشر. ولا تتحدث الآيات عن معجزة علمية لم يكتشفها العلماء إلا في هذا العصر، وتتمثل في أن المادة التي تتكون منها خيوط العنكبوت قوية جداً لدرجة أنها لو جمعت لأمكن صناعة درع منها واق من الرصاص. لأن الخطاب في السورة موجه لرجال من قريش أعلنوا إسلامهم وأبقوا على مولاة أقاربهم المشركين، والخطاب في القرآن يأتي مناسباً لمدارك ومعارف المخاطب. وقريش لا تعرف الحقائق العلمية، ولكنها تعرف ما ترى وتلمس. وما يرونه أنه عندما تتعرض خيوط العنكبوت للمس تتهاوى، فهي من أوهن وأوهى المواد عندهم، ولذا ضرب القرآن بها المثل، مشبهاً موالاة بعض من أسلم للكفار بأنها موالاة واهية ضعيفة. وكان يجدر بهم موالاة المسلمين والتوكل على الله.

ومسلمة قريش سبق وأشارت لهم الآية (١١٣) من سورة هود، والآية (٥٣) من سورة بني إسرائيل. وسيأتي ذكرهم في سور قادمة.

الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر

خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ(٤٤) اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ(٤٥).

الآية (٤٤) تقول بأن من يحكم عقله سيعرف أن مجرد التفكر بخلق السماوات والأرض كاف للاهتداء إلى قدرة الخالق.

والصلاة إن كانت تنهى عن الفحشاء والمنكر فلا تعني أن من يصلي يصبح محاطاً بمانع يمنعه من ارتكاب الموبقات. ولكنها تقول بأسلوب قرآني أن من يصلي الصلاة المقبولة من خشوع وفي وقتها والحرص عليها، فهو مسلم فعلاً. والمسلم لا يأتي الفواحش ولا المنكر. لكن من يصلي بلا إيمان فقد يصلي ولا يتورع عن إتيان الفواحش وارتكاب المنكرات، كما يفعل الكثيرون ممن ينتسبون للإسلام.

الكيفية التي ينبغي على المسلمين في مكة جدال أهل الكتاب بها

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(٤٦).

خطاب الآية توجيهي يحث الرسول والمسلمين على استخدام أسلوب سهل عندما يدخل معهم بعض أهل الكتاب في جدال. ولا تؤخذ الآية على أنها تشريع يلتزم به المسلمون على الدوام، بحيث يجب عليهم إذا جادلهم أي من أهل الكتاب في أي مكان أو زمان أن يتعاملوا معه بالتي هي أحسن. لأن الآية تخاطب المسلمين في مكة في تلك الفترة من تاريخهم وأوضاعهم، ولا تشرع قاعدة ثابتة لجدال أهل الكتاب. فهي توجيهية وليست تشريعاً، خاصة بالمسلمين في مكة وفي تلك الفترة التي نزلت فيها السورة.

بعض أهل الكتاب وبعض قريش آمنوا

وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ(٤٧).

بعض بني إسرائيل الذين كان لديهم وحي سابق آمنوا بالوحي المنزل على محمد، كما آمن به نفر من قريش.

لو كان الرسول يعرف القراءة والكتابة لكان مدعاة للشك في رسالته عند المشككين

وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ(٤٨).

الآية تؤكد أن الرسول لا يعرف القراءة «وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ» ولا يعرف الكتابة « وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ». ولو كان الرسول يقرأ أو يكتب لكان مدعاة للريبة والشك عند المشككين (المبطلين) من أنه كان يقرأ كتبا وينسخها ثم يحفظها ويتلوها على الناس ويقول هو قرآن يتلقاه من الله. والتأكيد على أن الرسول لا يعرف القراءة والكتابة جاء في هذه المرحلة لأن قريشاً كانت تستخدم كل ما في وسعها لصد الناس القادمين من خارج مكة عن لقاء الرسول والدخول في الإسلام. ولم تتورع عن اختلاق عبارات منفرة ونسبتها للقرآن، كما سبق وذكرته عدة سور. وهذه السورة تقول بأن قريشاً كانت تقول للناس إن الرسول لا يتلقى وحياً من السماء، ولكنه كان يقرأ كتب الرسالات القديمة ويعيد صياغتها ويقول هي قرآن منزل. وهذا الزعم تعلم قريش أنه كذب، وتعلم أن الرسول لا يقرأ ولا يكتب، ولو بقي الخطاب الدعوي موجهاً لقريش فقط، ولم يتغير لكل الناس وقدومهم لمكة لسماع الرسول، لما اتهمت قريش الرسول بأنه ينسخ قرآنه من كتب قديمة، لأنها تعلم أنه لا يقرأ ولا يكتب. ولكنها اتهمته بهذا عند من يقدم لمكة والذين لا يعرفون الرسول ونشأته

وأنه أمي. وبرغم وضوح المعنى نجد من يصر على قلب الحقيقة، ويقول بأن الآية تقول إن الرسول يقرأ ويكتب. وهذه التهمة الجديدة التي حاولت قريش إشاعتها بين القادمين لمكة للاجتماع بالرسول قد تدرجت من تهمة أخرى سبقتها وذكرتها لنا سورة الفرقان: وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلا(٥).

ففي البداية زعمت قريش أن الرسول «اكتتبها» أي: طلب ممن يحسن الكتابة أن يكتبها له، ثم حولت قريش هذه التهمة لتقول إنه كان هو يكتب القرآن من غيره كما في هذه السورة[١].

لم يكتب من القرآن شيء في مكة

بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ(٤٩).

بعد أن أكدت الآية السابقة أن الرسول أمي، تقول هذه الآية أن القرآن لم يكن يكتب وإنما يحفظ في الصدور. وبما أن سورة العنكبوت نزلت في أواخر العهد المكي فهذا يعني أن القرآن لم يكتب منه شيء في مكة.

قريش مستمرة بطلب الآيات

وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٥١) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(٥٢).

لن ترى قريش آية من الرسول، ولو أرادوا الإيمان لكفاهم القرآن، ولكنهم قوم يتحججون.

قريش تطلب أن يقع عليها العذاب الآن كنوع من السخرية

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ(٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٥٥).

السورة تقول بأن العذاب لا يكون في الدنيا ولكن يؤخر للآخرة.

---

١ تم تعديل صياغة الفقرة بناءً على اقتراح من أبي حزم «المدقق اللغوي» مشكوراً.

حث المسلمين على الهجرة

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ(٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ(٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ(٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(٥٩) وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٦٠).

لأول مرة يذكر القرآن الهجرة إلى يثرب، وقد سبق ذكر الهجرة للحبشة في الآية (١٠) من سورة الزمر إحدى سور المرحلة الخامسة.

الآية (٦٠) تقول لمؤمني مكة هاجروا وسيرزقكم الله ويعوضكم عما ستخسرونه من منازل وأثاث ومال في مكة. ويظهر تردد بعض مسلمي قريش حول الهجرة لئلا يخسروا أموالهم. ولابد أن السورة نزلت بعدما تلقى المسلمون في مكة دعوة من مسلمي يثرب للقدوم إليهم وسيجيرونهم ويستضيفونهم في بلادهم.

دعوة عقلانية لقريش

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ(٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٦٢) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ(٦٣) وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ(٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ(٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(٦٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ(٦٧).

الآية (٦٧) تأكيد حقيقة أن مكة بلد آمن واحترم سكان جزيرة العرب هذا الأمن.

استمرار قريش باختلاق عبارات ونسبتها للقرآن

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ(٦٨).

تكرر في عدة سور ذكر أن قريشاً كانت تختلق العبارات وتسمعها للقادمين لمكة وكأنها من

القرآن لتنفيرهم من لقاء الرسول.

وتختم السورة بالعودة للحديث عن المضطهدين من المسلمين:

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ(٦٩).

الجهاد في الله يعني الصبر على الأذى في سبيل التمسك بدين الله.

وأثناء هذه الظروف العصيبة التي يتعرض المسلمون فيها للاضطهاد، والمستضعفون منهم للتعذيب بالنار، تنزل سورتان قصيرتان هما البروج والمسد تتناولان الوضع، وتظهران بعض ما يجري:

(٨٤) البروج

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ(١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ(٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ(٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ(٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ(٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ(٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ(٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ(١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ(١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ(١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ(١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ(١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ(١٥) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ(١٦) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ(١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ(١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ(١٩) وَاللهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ(٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ(٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ(٢٢).

الآيات تتحدث عن قريش وأنها كانت تحفر الأخاديد في الأرض (شق مستطيل يملأ بالحطب وتشعل فيه النار) لكي تعذب المستضعفين لإجبارهم على الردة.

وتقول: «وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ»

فقريش ستتضرر كثيراً لو آمنت مواليها وعبيدها، لأن كل الأعمال الخدمية في مكة ستتعطل، كون من يقوم بها هم أولئك العبيد والموالي، وهذا ما لن تسمح به قريش.

وتحذر السورة من يعذب المسلمين من قريش بنار الحريق – إن لم يتوبوا –: إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ(١٠).

وهذا ينفي تماماً أن تكون السورة تتحدث عما يسمى بأخدود نجران. والذي سمي

بالأخدود بعد عصر الرسول ظناً بأنه الذي تتحدث عنه السورة. وإلا فأخدود نجران لا علاقة له بقريش وليس هناك مناسبة للحديث عنه في ظروف مكية يتعرض فيها المسلمون للحرق. ولا يهم قريشاً ما حدث في نجران قبل أكثر من (١٠٠) عام من بعثة الرسول، حينما قتل مئات أو آلاف من أناس حرقاً بواسطة أعداء لهم في تلك الأصقاع، وهي لمسيحيين قتلهم يهود، وقد وجدت آثار الرماد والعظام المحترقة[1].

وبعد أن تحذر الآية قريشاً تلتفت للمؤمنين وتعدهم بالجنة والفوز (الآية:١١).

ثم تتوعد الآيات (١٢-١٦) بشكل مبطن قريشاً وتعد المؤمنين.

وتذكر بما حصل لفرعون وأمم سابقة وأن الله لا يعجزه أحد (الآيات: ١٧-٢٠)

وتختم السورة بالتأكيد على أن القرآن حق وهو نسخة من الأصل المحفوظ بآلية إلهية سماها القرآن هنا «اللوح المحفوظ». وهو دليل على أن الدعوة لا تكون سوى بالقرآن.

وإذا كانت سورة البروج نزلت بحق مجموعة من قريش تعذب المسلمين بالنار فإن سورة المسد نزلت بحق أحد أكثر أولئك القرشيين وبحق زوجته التي كانت من أكثر المتحمسين لجمع الحطب لنيران الأخاديد:

(٨٥) المسد

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ(٢) سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ(٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ(٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ(٥).

---

١ يوسف ابن أزار (٤٦٨-٥٢٧م) هو أحد الملوك السبئيين اليهود الذين تلقبوا بذي نواس، والذي شن حملات حربية ضد المسيحيين في ظفار ويريم وحضرموت ومأرب وتهامة، ارتكب فيها مجازر بشعة وقتل فيها عشرات الآلاف من المسيحيين. وكان من أبشعها المحرقة التي وقعت في نجران في العام (٥١٨م). وقد أورد مار شمعون الأرشمي من الكتاب الحميريين السريان حواراً دار بين امرأة من نجران وتدعى حبسة بنت حيان وبين الملك ذو نواس، تقول فيه حبسة مخاطبة الملك: «أنا ابنة المعلم حيان الذي باركه الرب فعمدت المسيحية على هذه الأرض، أنا ابنة من أحرق كنيسك» فيرد ذو نواس: «إذاً أنت تحملين أفكار أبيك وتريدين إحراق كنيسنا؟» فترد عليه قائلة: «لا أنا لا أريد إحراق كنيسك لأنني مستعدة للموت من أجل المسيح كما فعل إخوتي وأخواتي وآبائي وأمهاتي الذين أحرقتهم». وهذا فيه إشارة إلى أنه قد تم إحراق المسيحيين في نجران، وفي المكان الذي أحرقوا فيه تم اكتشاف آثار الرماد والعظام المتفحمة. ومصدر الشهادة التي أوردها مار شمعون الأرشمي على هذا الرابط:

(The book of the Himyarites : fragments of a hitherto unknown Syriac work. (Lund : C.W.K. Gleerup, 1924)

وهناك الكثير من المعلومات على النت حول شهادات شهود عيان لما حدث في محرقة نجران. وفي العصر العباسي اعتقد المفسرون أن سورة البروج تتحدث عن محرقة نجران، لأن أخبار حرق قريش للمسلمين لا يمكن التصريح بها لأن حكام الدولة من قريش. أو لأن المفسرين لم يسمعوا بالأخاديد التي أقامها بعض رجال قريش لتعذيب المستضعفين ليردوهم عن دينهم، فظنوا أن سورة الأخدود تتحدث عن محرقة المسيحيين على يد ذو نواس يوسف ابن أزار اليهودي. ولا أستطيع التأكد من صحة نسبة هذه الشهادات لمن نسبت له.

السورة تقول تبت يدا أبي لهب وتباً له بما يقوم به من حفر الأخاديد وتسجير النيران فيها لتعذيب المسلمين. (التب هو الخسران).

وتتوعده بنار جهنم، كما تتوعد امرأته نظير حماسها في جمع الحطب. وقوله «في جيدها حبل من مسد» تصوير لما ستلقاه من عذاب في جهنم يتناسب لما تقوم به. فهي تنقل الحطب على جيدها الذي سيتعرض للعذاب، وإلا فإذا دخلت النار فستلقى العذاب بكل جسمها وليس فقط بجيدها.

والتأكيد على أن أبا لهب في النار وهو ما زال حياً من باب ما يعرف بالضرورة. فالقرآن يخبرنا مراراً وتكراراً عن حقيقة أن من لا يؤمن بداية سماعه لدعوة الحق فلن يؤمن أبداً. لذا فأبو لهب لن يؤمن وسيموت مهما طال به العمر وهو مشرك وسيدخل النار. وهو تأكيد على أن كل كبراء قريش الذين لم يؤمنوا قبل فتح مكة، وقالت عنهم كتب التراث إنهم آمنوا يوم الفتح وحسن إسلامهم، هم مثل أبي لهب، لم يؤمنوا وإن كانوا قد أعلنوا الإسلام فلأنه لم يعد لهم قبل بالمسلمين، فاستسلموا وأعلنوا إسلامهم ظاهرياً فقط.

الآن المستضعفون في مكة يتلقون أقسى وأشد أنواع التعذيب وصل إلى حفر قريش الأخاديد في الأرض وإضرام النيران فيها لكي تعذب بها أجساد المؤمنين المستضعفين إما مباشرة أو بالكي بالأسياخ المحماة، لكي ترغمهم على الردة عن الإسلام. وقد أشارت السور السابقة بأن البعض منهم عاد للكفر بالفعل، كما بدأت السورة السابقة أيضاً تحث المؤمنين على الهجرة وتعدهم بأن يعوضهم الله خيراً مما سيفقدونه من متاع ومال.

والمسلمون في مكة لم يكن بإمكانهم اختيار الهجرة إلى يثرب من عند أنفسهم، لولا أن إخوانهم مسلمي يثرب هم من دعاهم ورحب باستضافتهم للنجاة بأرواحهم ودينهم. وسنرى أن مسلمي مكة أخذوا يتسللون من مكة جماعات وفرادى إلى يثرب، كما سنرى اختلاف مواقف مسلمي مكة من الهجرة وبعض ما تعرضوا له من اضطهاد.

(٨٦) النحل

تبدأ السورة بالحديث عن قرب يوم القيامة وكأنه قد أتى بالفعل، زيادة في التأثير النفسي: أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ(١).

كيف يكون الوحي

يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ(٢).

الروح هنا تعني الوحي، والرسول لا يلقن نصوص الوحي تلقيناً، ولكنها تنسخ في ذاكرته، عبر تواصل روحاني غير محسوس بين جبريل والرسول، لا مجال فيه للكلام والاستماع.

دعوة عقلانية لقريش لعلها تفكر

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ(٣) خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ(٤) وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ(٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ(٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٨) وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ(٩).

الحديث عن الأنعام، يخبرنا بعدة حقائق تخالف ما يقوله علماء العصر. فالحيوانات المستأنسة خلقها الله قابلة لاستئناس الإنسان وطاعته والانقياد له، ولم يحولها الإنسان من متوحشة إلى مستأنسة، كما يظن العلماء. فالجمل والبقر والضأن والماعز من الأنعام، والخيل والبغال والحمير، وكلها مستأنسة بطبعها الذي خلقها الله عليه. بينما خلق حيوانات أخرى «جائرة» أي متوحشة وغير قابلة للاستئناس. وحتى لو تم تدريب أسد على طاعة مدربه في السيرك مثلاً، فهذا الأسد سيبقى غير مأمون الجانب وقد يعود لطبعه المتوحش في أي لحظة ويفتك بمدربه.

هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ(١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ(١٣)

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٤) وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٥) وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ(١٦) أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ(١٧) وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٨) وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ(١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ(٢٠) أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ(٢١) إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ(٢٢) لاَ جَرَمَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ(٢٣).

وسيلة قرشية أخرى لصد الناس عن لقاء الرسول

وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ(٢٤) لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ(٢٥).

(الآيتان:٢٤-٢٥) تظهران أحد أساليب قريش لصد الناس من خارج مكة للاتصال بمحمد أو قبول الإسلام، وذلك بالقول إن القرآن مجرد قصص قديم قام محمد بإعادة صياغته بعباراته وتقديمه للناس وكأنه وحي من الله.

وتتوعدهم الآيات بمصيرهم السيئ جزاء كفرهم وإضلالهم غيرهم:

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ(٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ(٢٧) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٨) فَادْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ(٢٩).

(الآيتان ٢٨-٢٩) تصفان موت مشركي قريش وكأن هناك مخلوقات حية (ملائكة) تنزع أنفسهم، لتهويل الصورة. وتصور الآية الميت وكأنه ينفي كفره لحظة موته، وهي أيضاً تقول بأن الميت سينتقل بسرعة للقيامة وسيجد نفسه وقد حكم عليه بالنار ولن ينفعه إيمانه أو إنكاره للكفر عند موته.

صور مجازية حسية للترغيب

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ(٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآؤُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ(٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٣٢).

قريش ستستمر بطلب رؤية الملائكة حتى تهلك وتلقى مصيرها الذي اختارته ولم يقرره الله عليهم

هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(٣٤).

تبرير غير منطقي

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ(٣٥).

وهذا فهم خاطئ لقدر الله وقضائه ما زال منتشراً بين المسلمين. حيث يربطون كل ما يصدر منهم على أنه مقدر عليهم ولا مناص لهم عنه. مثل من يموت بحادث سير نتيجة تهوره، أو من يدهس طفله أمام عينيه لأنه أهمل مراقبته، أو أصيب بمرض أو أصاب ثروة أو خسر كل ماله في سوق الأسهم، أو تم القبض عليه بلا تهمة ....الخ.

وهذا يريحنا كثيراً لأننا سنتخلص من تأنيب الضمير لو اعترفنا بأننا نحن من تسبب بما حدث، وذلك بأن ننسب ما حدث للقضاء وليس لإهمالنا.

وقريش استمرت تكرر هذا المفهوم الخاطئ، وهو ما ذكرته سور أخرى مثلما ورد في سورة الأنعام: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ(١٤٨).

وسورة الزخرف: وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(٢٠).

والآية تصف هذا التبرير بالخرص والوهم، وتقول إن قريشاً لم تهتد لأنها اختارت طريق الضلال وليس لأن الله كتبه عليها:

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(٣٦) إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ(٣٧).

وقوله: « فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ» وقوله: « فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ». لا يعني أن الله قرر من يهتدي ومن يضل مسبقاً، كما سبق وكررنا سابقاً، ولكنه يعني أن كل ما في الكون يسير بإذن الله ولو أراد الله فلن يتم. لكن هذا لا يعني أن الله يتدخل في تصرفات مخلوقاته في أي مكان كان في الكون. بل يترك لهم حرية الاختيار، ويوم القيامة سيحاسبهم بكل عدل بناءً على ما اقترفوه وسجلته صحف أعمالهم وهم لا يظلمون: وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ(٢٨١) البقرة.

قريش متمسكة بإنكار البعث

وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ(٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَاذِبِينَ(٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ(٤٠).

البعث سهل على الله جل وعلا لو كانوا يعقلون.

وقوله: «إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون» يعني أن الله جل وعلا يضع القوانين فينتج الخلق.

بدء الهجرة بالفعل

وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ(٤١) الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(٤٢).

الآيات تعدهم خيراً عند ربهم، نتيجة صبرهم وهجرتهم، التي تسميها «هجرة في الله» لأنهم تركوا أوطانهم وذويهم ومتاعهم في سبيل الله، وحفاظاً على دينهم.

ولأن قريشاً استمرت تكرر على مسامع محمد مطالبها برؤية الملائكة كدليل على صدق

رسالته، فالآية ترد عليهم بأنه لن تنزل عليهم الملائكة. لأنه لم يسبق أن أرسل الله ملائكة رسلاً لبشر، ويمكن لقريش أن تسأل «أهل الذكر» الذين أرسل في أسلافهم رسل هل كانوا من الملائكة أم من البشر؟

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(٤٤).

وأهل الذكر هم بنو إسرائيل الذين أصبح لهم تواجد ملحوظ في مكة منذ تحول الخطاب في القرآن لهم ولكل الناس من المرحلة الخامسة للدعوة في مكة، فكانوا يأتون للقاء محمد والتأكد من صدق دعوته.

وهذه الآية تكرار لآية سبقت في سورة الأنبياء، تقول: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٧) الأنبياء.

والآيتان تم لي معانيهما لكي يستشهد بها أتباع المذاهب على أن أهل الذكر هم رجال الدين الذين نصبوا أنفسهم نواباً وممثلين لله على الأرض، لكي يستمع أتباعهم لما يحللون ويحرمون على شكل فتاوى ويعتبرونه من دين الله.

وإلا فالقرآن لا يتحدث عن رجال سيأتون بعد عصر الرسول، ولا تتناول السورة سوى الأحداث التي وقعت قبل نزولها. ولو كانت السورة من سور المرحلة الرابعة لما قالت «فاسألوا أهل الذكر» لأن مكة حينها تخلو من تواجد بني إسرائيل.

وعيد كفار قريش، ودعوتهم للتفكير بعقلانية

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ(٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ(٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ(٤٧) أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّداً لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ(٤٨) وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ(٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ(٥٠).

الآية (٤٩) تقول بأن كل المخلوقات تسجد لله، برغم أن آيات أخرى تقول إن أكثر الناس لن يؤمنوا. فالسجود هنا لا يعني الإيمان، ولكن يعني الخضوع لمشيئة الله، وعدم القدرة على الخروج عن سيطرته.

وتستمر السورة مخاطبة قريشاً، وتحذرهم من الشرك:

وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلـهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ فَإيَّايَ فَارْهَبُونِ(٥١) وَلَهُ مَا فِي الْسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللّهِ تَتَّقُونَ(٥٢).

ثم تؤكد السورة حقيقة أن الإنسان يتذكر الله في الشدة وينساه في الرخاء: وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ(٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ(٥٤) لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ(٥٥).

كما ورد في سور سابقة، مثل: بني إسرائيل (٨٣)، وفصلت (٥١).

ثم تتحدث السورة عن بعض معتقدات قريش:

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ(٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ(٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ(٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ(٥٩) لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىَ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٦٠).

الآية (٥٦) تشير إلى معتقداتهم في المآكل الذي أشارت له سورة الأنعام السابقة: وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَـذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ(١٣٦).

والآيات (٥٧-٦٠) تقول بأن قريشاً تعتقد أن لله بنات (هم الملائكة) بينما يكرهون هم أن يرزقوا بالبنات. فكيف يصفون لله ما لا يرغبون فيه لأنفسهم؟

والآيات تشير لوأد البنات عند قريش[1].

وتبتعد السورة قليلاً لتؤكد أنه لا عذاب في الدنيا: وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ(٦١).

قبل أن تعود لاستكمال الحديث عن قولهم بأن الملائكة بنات الله: وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ(٦٢).

١ انظر فقرة: وأد البنات/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

وتقول السورة إن قريشاً كفرت مثلما كفرت أمم سابقة، والقرآن يبين لهم الحق لو استمعوا له: تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٦٣) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٦٤).

وتبين لهم ما اختلفوا فيه، يعني اختلفوا فيه من الحق، يعني ابتدعوه وهو ليس من دين الله. فكلما وردت عبارة» اختلفوا» أو «اختلفوا فيه» فهي تشير لاتباع الناس تشريعات من دون الله.

وتعود السور لدعوة قريش دعوة عقلانية للتفكير بالخلق لتهتدي بقدرة الخالق على البعث: وَاللهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ(٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ(٦٦) وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(٦٧) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ(٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٦٩) وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ(٧٠) وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاء أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ(٧١) وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ(٧٢) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئاً وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ(٧٣) فَلاَ تَضْرِبُواْ للهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٧٤).

تقول السورة: وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ(٦٦).

هذه الآية قام المفسرون بتأويلها كيفما سمحت لهم مداركهم ومعارفهم الضحلة، فقالوا بأن اللبن يخرج من بين الفرث والدم. وتلقف ذلك المستشرقون فقالوا بأن القرآن من صنع محمد الذي يظن أن اللبن يخرج من بين الفرث والدم. ومحمد لم يقل هذا ولم ينقله عن ربه، ولكن المفسرين هم من زعمه. الآية تخاطب قريشاً، التي تعرف ما ترى فقط. فهي لو

بقرت بطن البقرة مثلاً فسيخرج الفرث والدم وسيخرج اللبن من الضرع ويختلط باللحم والفرث. فالآية تقول بأن اللبن موجود في جسم الحيوانات وبالقرب من الفرث والدم ولكنه لا يختلط بهما، وإنما ينشأ ويتكون في مكان مليء بالفرث والدم.

وتقول الآية (٦٧) «وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً» سكراً من السُّكَّر بضم السين وشدة وفتحة على الكاف بمعنى الطعم الحلو وليس من السُّكْر بسكون على الكاف.

وتورد السورة أمثلة سهلة الفهم من نفس بيئة قريش لتقول لهم إن ما يعبدون من دون الله جماد لا حول لها ولا قوة: ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ(٧٥) وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٧٦).

والقرآن هنا لا يقرر العبودية، ولا يقرها، لكنه يضرب مثلاً من واقع اجتماعي موجود. فالهدف توصيل الفكرة لقريش بما تفهم، وليس تقرير أو موافقة قريش على استرقاق الناس. كما أن الآية (٧٦) لا تقرر أن الأبكم «كلٌّ» بمعنى عالة. هكذا يراه الناس، ولكنه ليس كذلك ولم يخلقه الله كذلك. فالقرآن يخاطب الناس بما اعتادوه وفهموه ولا يقرر حقائق هنا.

وتستمر السورة بدعوتها العقلانية:

وَللهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٧٧) وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٧٨) أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٧٩) وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ(٨٠) وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ(٨١) فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ(٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ(٨٣) وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ

كَفَرُواْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ(٨٤) وَإِذَا رَأى الَّذِينَ ظَلَمُواْ الْعَذَابَ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ(٨٥) وَإِذَا رَأى الَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَاءهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَـؤُلاء شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوْ مِن دُونِكَ فَألْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ(٨٦) وَأَلْقَوْاْ إِلَى اللّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ(٨٧) الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ(٨٨) وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَـؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ(٨٩).

الآية (٧٧) دليل على أنه لا عذاب في القبر، وأن الساعة بالنسبة لمن يموت كأنها تقوم بعد لحظات.

الآيتان (٨٠-٨١) تخبراننا أن قريشاً كانت تتخذ من جلود الأنعام بيوتاً يستخفونها يوم ظعنهم وإقامتهم. خيام مصنوعة من جلود الأنعام، يستخدمونها في ترحالهم، وهي سهلة النصب والتركيب، بحيث يتظللون تحتها في ترحالهم. وهم بهذا يختلفون عن أهل البادية الذين يتخذون خيامهم من شعر ووبر الماشية وليس من جلودها. كما أن قريشاً تتخذ كهوف الجبال القريبة من مكة أكناناً، (إقامة مؤقتة) وليس بيوتاً مستديمة، فهم لا يسكنون الكهوف. وكان رجال قريش تلبس السرابيل، كما كانوا يعرفون دروع الحرب.

الآية (٨٨) تؤكد أن قريشاً سعت بكل قوة، وبوسائل شتى لصد غيرها من الناس عن دخول الإسلام أو لقاء الرسول.

الآية (٨٩) تؤكد أن القرآن تبيان لكل ما يخص دين الله، ولا حاجة لسواه. دليل على أن أي حديث أو فتوى ليست من الدين.

تذكير ببعض التشريعات التي سبق وفرضت

إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٩٠).

ولابد أن حادثة وقعت كانت وراء التذكير بهذه التشريعات. والسورة نزلت في وقت كانت قريش قد شددت من تضييقها على المسلمين وكانت تقوم بتعذيب المستضعفين منهم، وتأتي السورة في مثل هذه الظروف لتأمر بالعدل، ليس فقط في تعامل المسلم مع المسلم ولكن في تعامل المسلمين مع قريش التي تعذبهم وتضطهدهم، وهو ما أكدته سور أخرى، مثل: يَا

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(٨) المائدة.

وإضافة للعدل يجب على المسلم الإحسان لمن يعرف ومن لا يعرف بغض النظر عن المعتقد، بل وإلى العدو مثل قريش. والإحسان يعني: التعامل الإنساني مع العون المعنوي والمادي حسب الحاجة. والآية تطلب الإحسان والإيتاء لذي القربى، وذو القربى هنا هم قريش الكافرة.

وتذكر الآية بالنهى عن الفحشاء والمنكر، وتؤكد على البعد عن البغي، وهو التعدي. فمع أن قريشاً هي من يضطهد ويعذب إلا أنه لا يجوز البغي عليها. وسور المرحلة الخامسة أوجبت دفع الظلم بالتعدي على الظالم بمثل ما اعتدى به دون زيادة أو تعدٍ أو بغي، وهو ما كررته هذه السورة في آية لاحقة: وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ(١٢٦) النحل.

وتذكر السورة بالوفاء بالعهود والمواثيق والمواعيد.

والأيمان هنا ليس الحلف لكنها المواثيق: وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ(٩١) وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(٩٢).

وهذه المواثيق هي الدخول في الإسلام، الذي هو عبارة عن ميثاق بين العبد وربه. يتعهد العبد بموجبه بطاعة كل أمر إلهي، والانتهاء عن كل نهي، مقابل تعهد الخالق للعبد بجنة في الآخرة وسعادة في الدنيا.

والآيات تؤكد على وجوب احترام هذه المواثيق لأن نقض شيء منها نقض لها جميعاً، وشبهته الآيات كالتي نقضت غزلها أنكاثاً، بعد أن غزلته وأصبح قوياً. والآيات تتحدث عن مسلمة قريش، وما يؤكد هذا قوله تعالى: «أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ» قد يكون إشارة إلى القبيلة التي يعتبرها «مسلمة قريش» مقياساً للإنسانية، وبالتالي فالمستضعفون أقل إنسانية ولا يمكنهم قبول أن يعاملوا معهم بمستوى واحد، لأنهم لا ينتسبون لقبيلة.

وتقول السورة: وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٩٣).

سيبقى الناس مختلفين على الحق، وحسابهم على الله.

وتحذر السورة قريشاً من اتخاذ الأيمان «دخلا» وسيلة وتبرير وإقناع بحدث لم يحدث: وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ الْسُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٩٤).

لعل الآية تشير إلى ما تقوم به قريش من اختلاق للأباطيل ونسبتها للرسول لتصد القادمين إلى مكة من لقائه. ومن ذلك أن رجال قريش يحلفون الأيمان المغلظة للقادمين أن ما يقولونه لهم عن الرسول صحيح، لكي يصدقوهم وينفروا من رؤية الرسول وسماعه.

وتحذر السورة المرتدين من نقض عهدهم مع الله الذي تمثل في دخولهم الإسلام: وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٩٥).

فالثمن القليل الذي اشتراه المرتد مقابل ردته يتمثل بالبقاء حياً. وهو ثمن بخس مقارنة بنعيم الآخرة. والمرتد لو نجا من الموت بالتعذيب فسيموت بسبب آخر سريعاً.

وتعد السورة من يصبر على الأذى: مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(٩٦) مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(٩٧).

والخطاب موجه للمستضعفين الذين يعذبون.

والآية (٧٩) تقول بأن الجنة للرجل والمرأة على حد سواء. وهو ما يشير إلى أن هناك نساء مستضعفات يعذبن، وبما أن السور عادة تتحدث عما للرجل من نعيم في الجنة، كون المخاطب رجال قريش، فالآية هنا تقول للمستضعفات إن الجنة لهن وللرجال على حد سواء.

ثم تتوجه السورة للرسول ببعض الإرشادات

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ(٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ(١٠٠).

الوساوس سواء من النفس أو من إبليس لا يميل لها إلا من رغب الضلال، وأما من رغب الهداية فلن تؤثر فيه ولن يهتم بها. فالمؤمن يستطيع ان يعصم نفسه من الكبائر بكل سهولة.

ثم تخبر السورة ببعض ما كانت قريش تعترض به على محمد: وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ(١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ(١٠٢).

وتبديل آية مكان آية يعني تنزيل حكم أو تشريع في رسالة رسول من الرسل يختلف عن حكم أو تشريع في رسالة سبقتها. ولا تتحدث السورة عن تبديل أحكام في القرآن.

ومما استخدمته قريش للصد عن الإسلام

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ(١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٠٤).

لقد كانت قريش تعترض من يصل لمكة لمقابلة الرسول وتقول له إن ما يتلو عليهم محمد هو كلام علمه إياه إنسان آخر، ويذكرون له اسم رجل أعجمي متواجد في مكة. وكونه أعجمي اللسان فمن الصعب على الناس أن يسألوه هل حقاً هو من يعلم الرسول القرآن. وقد جاءت الآيات لتفضح قريش.

وتستمر السورة لتقول إن قريشاً تكذب لأنها لا تؤمن: إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأُوْلـئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ(١٠٥).

وتخبرنا السورة عن أحوال المستضعفين الذين تحت التعذيب

البعض ارتد، والبعض أعلن الردة بلسانه وهو مؤمن:

مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(١٠٧) أُولَـئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ(١٠٨) لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ(١٠٩).

والآيات تقرر أن الردة لا تجوز حتى لو فقد الإنسان حياته تحت التعذيب. لكن لو أعلن الردة لدرء العذاب وليتمكن من مغادرة البلد الذي يجبر فيه على الكفر فهو جائز.

من يعلن الردة ويهاجر ويعمل صالحاً فالله غفور رحيم

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ(١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ(١١١).

كل من يعلن الردة تحت التعذيب ثم يهاجر ويعمل صالحاً فتوبته مقبولة. ولا يعذر من بقي في بلد العدو وهو قادر على الخروج منه.

الآية تطلق الجهاد على الصبر على التعذيب والبقاء على الدين. وهو جهاد في الله كما بينت سور سابقة، مثل: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ(٦٩) العنكبوت. وهو يختلف عن الجهاد في سبيل الله (أي القتال في سبيل الذود عن دين الله).

فالجهاد في الله يعني الصبر على الأذى في دين الله، والجهاد في سبيل الله هو قتال المعتدين على دين الله أو دولة الإسلام أو المسلمين.[1]

وتحذر الآيات التالية قريشاً بضرب مثل: وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ(١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ(١١٣)

فمكة الآمنة التي يأتيها رزقها من كل مكان كفرت الآن، فكيف تأمن وقوع العذاب؟

تذكير بما يحرم من المآكل

فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ(١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١١٥).

هذا التشريع سبق وذكرته سورة الأنعام

وتعود السورة لتكرر الرد على ما حرمته قريش بلا برهان

وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ(١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١١٧).

وهو ما سبق وذكرته سورة الأنعام: قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَـذَا

[1] انظر فقرة: الجهاد/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ(١٥٠).

والآية تشدد على تحريم التشريع بغير ما أنزل الله من القرآن، وهو ما ينطبق على الفتاوى وفقه المذاهب بغير نص قرآني.

وتكرر السورة ما حرم على الذين هادوا

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(١١٨).

وقد أخبر بذلك القرآن من قبل في سورة الأنعام:

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ(١٤٦).

فالذين هادوا عاقبهم الله بتحريم ما ليس محرماً عليهم في العادة بسبب ظلمهم. وهو ما يعني أن بعض ما حرم عليهم من المآكل ليس محرماً في دين الله عادة، لكنه حرم عليهم كعقاب لهم.

قبول توبة مسلمين صدر منهم سوء

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ(١١٩).

بعض المسلمين (عملوا السوء بجهالة) أي ارتكبوا كبيرة. وبما أن الحديث السابق في السورة عن الجهاد في الله والصبر على التعذيب ونطق بعض المسلمين بالردة وقلوبهم مطمئنة بالإيمان وبعضهم أعلن الردة بالفعل. فلابد أن هذه الآية تخاطب بعض من أعلن الردة ثم ندم فهذه الآية تقول لهم إن ما فعلوه سيغفر لهم.

التوبة تكون لمن يقترف كبيرة وهو جاهل بالحكم.

والتوبة يجب أن تكون فورية ولا رجعة فيها.

والاستمرار على العمل الصالح أي الالتزام بأوامر ونواهي القرآن كلها، وعدم اقتراف كبيرة أخرى.

ولو تساءل أحدنا قائلاً: أنه طوال عمره كان يقترف المعاصي وهو يعلم بحكم حرمتها، لكنه كان يتبع فقه المذهب الذي يقول له أن التوبة تقبل مع تكرار الكبيرة ومع الاستمرار عليها. فهل تقبل توبته الآن بعدما عرف ما تعنيه التوبة في القرآن؟

نقول: أن الجهل يكون بحرمة المعصية، ويكون بحكم مرتكب المستمر على المعصية أو تكرارها، والجهل بحكم القرآن في التوبة.

وتتجه السورة للحديث عن إبراهيم

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً للهِّ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٢٠) شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ(١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٢٣).

ملة إبراهيم تعني طريقته في الإسلام. وملة إبراهيم هي اتباع أوامر الدين وتشريعاته وعباداته واجتناب نوهيه. لأن الرسول أمره القرآن هنا باتباع ملة إبراهيم، وكل من يرغب في ملة إبراهيم فعليه بالقرآن.

والقرآن لا يذكر سنة لمحمد، ولكنه يقول بأنه عليه الصلاة والسلام تابع لملة إبراهيم. وهو ما يرد على أتباع المذاهب والذين اختلقوا تشريعات نسبوها لمحمد وسموها سنته، فالقرآن ينفي أن يكون له طريقة يجب أن تحتذى أو يتعبد بها الله.

وتشير السورة إلى لعن الله اليهود في يوم السبت

إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(١٢٤).

فبعض بني إسرائيل حرم الله عليهم السبت لكنهم تجاوزوا كلام الله: وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً(١٥٤) النساء.

فلعنهم الله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللهِّ مَفْعُولاً(٤٧) النساء.

فالسبت الذي يعظمه اليهود اليوم، هو يوم غضب الله عليهم فيه وليس يوماً مقدساً. لكنهم بخبثهم اعتبروه مقدساً حتى يطمسوا حقيقة لعنهم فيه.

وتختم السورة ببعض الإرشادات التي تتطلبها المرحلة والظروف المحيطة

الدعوة بعرض الحكمة

ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(١٢٥).

الآية تطلب من الرسول أن يدعو لدين الله بالحكمة، والتي يقصد بها تشريعات الدين[١]. وبالهدوء، لأن هذه الفترة تشهد تعذيب قريش المستضعفين وتحاول أن تجد أي مبرر للتعدي على الرسول ومن آمن من غير المستضعفين. لذا فأي موقف متشدد معهم قد يعود بالضرر على المسلمين.

وحتى في حال جادلوا الرسول، وما أكثر جدالهم له، فعليه أن يتحلى بالصبر وأن يرد عليهم بالحسنى.

والجدال بالتي هي أحسن، يعني عرض ما يقول القرآن دون الحاجة لإقناع المجادل به، فالمهم هو سماعه، وبعد ذلك هو حر في قبوله أو رفضه وحسابه على الله. ما يفعله من يسمون أنفسهم بالدعاة هو أنهم يهدفون لإقناع غير المسلم بالإسلام، ويظنون أن الوعظ والقصص وإثارة المشاعر والإلحاح والترديد هو السبيل الأنجع لإقناع الغير بالإسلام. وما يدعون له ليس الإسلام، ولكنه موروثهم الديني ولو اقتنع أحد بما يقولون فهو يتحول لموروثهم الديني، وليس للدين القويم. فإن كان الداعية من المذهب الشيعي تحول المدعو للتشيع، وإن كان الداعية سلفياً تسلف المدعو، وإن كان وهابياً توهب، وهكذا. لكنه لا يدخل الإسلام. والوعظ يستميل القلوب لأنه يخاطب المشاعر، ويعتمد على جاذبية الأسلوب، وليس لأنه حقائق. وما كان عليه رسول الله محمد، وكل الرسل، هو التبليغ المتمثل بتوصيل كلام الله وحده للناس ومن ثم للمستمع الخيار بين القبول أو الرفض.

١ انظر فقرة: الحكمة / قسم مفردات من القرآن.

تذكير بقانون فرض سابقاً

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ(١٢٦).

والقانون الذي فرض على المسلمين في سور سابقة والذي يخولهم دفع الظلم بمعاقبة كل من يعتدي من قريش على أي منهم بمثل ما اعتدى، كما في سورة الشورى: وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ(٣٩) وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ(٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ(٤٢).

والصبر على التعدي والظلم يثاب المعتدى عليه، لكنه لا يلغي جور وظلم الظالم، الذي سيحاسب على كبيرته.

حث الرسول على الصبر

وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ(١٢٧) إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ(١٢٨).

حث الرسول أن يصبر على أذى قريش وما يراه من تعذيبهم للمستضعفين من المسلمين، وما يسمعه هو والمسلمون من سب وسخرية، وتؤكد له أن الله مع الذين اتقوا والذين يحسنون حتى لأعدائهم.

(٨٧) القصص

تبدأ السورة بالحديث عن موسى وفرعون مما يعني أنها تتوجه بالخطاب لبني إسرائيل وليس لقريش، وهذا فيه دلالة على أن تواجد بني إسرائيل في مكة للقاء الرسول أصبح لافتاً وكذلك تناقل الأخبار عن الرسول وما يقول بين أهل يثرب من بني إسرائيل:

طسم(١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ(٢) نتلو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٣).

إذاً، الحديث الذي ستتلوه الآيات عن موسى وفرعون موجه لقوم يؤمنون من بني إسرائيل أن ما يقوله الرسول من عند الله وليس من عنده، لأن فيه تفاصيل تاريخية يستحيل على الرسول معرفتها.

وتبدأ السورة برواية ما حدث من وقائع قبل قرون:

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ(٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ(٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ(٦).

كان فرعون مثل الطغاة العرب في عصرنا، يُسخِّر الناس لخدمته ويمارس كل أنواع القمع لمن يعترض على سياسته ويعمل على إغواء النساء والتلاعب بالأعراض.

فأراد الله جل شأنه أن يمن على الشعب المستضعف بالعزة ويري فرعون وزبانيته كهامان والمنتفعين ما كانوا يحذرون من حصول المستضعفين عليه وهو الحرية والكرامة.

ثم تبدأ السورة بسرد فصول من حياة موسى منذ أن كان في المهد:

وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ(٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ(٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ(١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(١٣).

الآيات تظهر أن فرعون كان في الفترة التي ولد فيها موسى يقتل الأطفال. لكن هل كان يقتل كل أطفال الشعب أم فئة منهم كبني إسرائيل فقط؟

وقد تفتق ذهن أم موسى لمغامرة قد يكون فيها نجاة وليدها (ولم يرسل الله عليها وحياً) تتمثل في أن تضعه في صندوق أو سلة خشبية تطفو على سطح الماء وتتركه يسبح مع التيار. على أن تتعقبه من بعد وترى ما يحدث. فلو تعرض للغرق تنقذه ولو لقيه أحد وتبناه تعرف أين هو لتخبره عندما يكبر بما حدث ويعود إليها.

وقول الأم لأخته أن تقصه (تتعقبه) يؤكد أن الماء لم يكن بحراً متلاطم الأمواج ولا حتى

نهراً جارفاً، بل هو عبارة عن جدول مائي قد يكون كتلك الجداول المائية التي تسير بين المزارع في عُمان الحالية والتي تسمى محلياً (أفلاج، واحدها فلج).

وهذا يعني أن مملكة فرعون كانت لديها شبكة توزيع مياه عبارة عن جداول تسير بين المزارع، وهو ما يعني أنهم كانوا يعرفون السدود. فقد يكون هناك سد على الوادي الذي تقع عليه القرية ومن السد تتوزع القنوات (الجداول) المائية بين المزارع على يمين الوادي والمزارع على الضفة الأخرى للوادي.

وقد يكون هناك واد يشق مصر فرعون، ولابد أن مسكن أم موسى كان في الضفة التي يقع عليها قصر فرعون وقريبة منه لأن التابوت الذي فيه موسى قد تهادى حتى مر بالقرب من قصر فرعون أو أن القناة التي يسير فيها تدخل قصر فرعون. وفوجئ العاملون والخدم في القصر بالتابوت يحمل طفلاً رضيعاً فالتقطوه وأسرعوا إلى سيدتهم زوجة فرعون التي عطفت على الطفل لأنها وفرعون لم ينجبا. ولو كان فرعون وامرأته لديهم أطفال فلن يفرحوا بموسى فرحة عارمة.

وبالفعل اقتنع فرعون بفكرة تبني الطفل التي عرضتها عليه الملكة. كل هذا وقع على مرأى ومسمع من أخته التي تتبعه من بعد وكأنه لا يعنيها. والتي على ما يبدو معتادة على الدخول لقصر فرعون دون أن تسأل أو تمنع، كونها من طبقة الخدم كغيرها من بني إسرائيل الذين كانوا في مصر فرعون.

وكادت أمه أن تفقد تماسكها وتسارع لفرعون طالبة منه استرجاع رضيعها، ولو حدث هذا فقد تتسبب في قتله، لذا تراجعت.

واستمرت أمه ترضعه وتحن عليه وشب وهو يعلم ما حدث. والآيات التالية تخبرنا ما حدث له في سن المراهقة:

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ(١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ(١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ

خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ(١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ(١٩) وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ(٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٢١).

موسى يعيش في مصر القرية ولكنه اضطر لدخول المدينة خلسة.

المدينة هي السوق التجارية ويكون ذلك السوق محاطاً بسور وله أبواب وقد يحوي بداخله مباني عدة أو مبنى واحداً أو مجرد ساحة مفتوحة. وهو ما تحدثنا عنه بتوسع واستنتجنا معانيه من الآيات التي ذكرت المدينة وذلك في كتاب أحسن القصص.

والمدينة في قرية فرعون هي تلك التي تحوي مخازن الحبوب والأغذية والتي يأتيها الناس من المناطق الأخرى للتبضع، كما فعل إخوة يوسف. ولابد أن عند بواباته حرس، يمنعون من لا يحمل إذناً بالدخول، وقد تغافل موسى حرس إحدى البوابات ودخل المدينة، كنوع من التصرفات الصبيانية التي تصاحب المراهقة. وإلا كان بإمكانه أن يدخلها بشكل رسمي كونه ابن فرعون، ولكنه فضل التسلل.

وخارج المدينة تتوزع بيوت ومزارع قرية فرعون بمساحات مفتوحة، لذا نجد أن موسى بمجرد خروجه من المدينة توجه لخارج القرية هارباً من ملاحقة أهل القتيل الذي ذكر في الآية (١٥) وسعيهم إلى قتله.

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ(٢٢).

وتوجه موسى باتجاه مدين (بئر مدين) قد يكون من باب الصدفة حيث سارع بالهرب خارج القرية ووجد طريقاً سلكها أوصلته للبئر. أو أنه اختار الطريق التي تؤدي للبئر لأنها مشهورة وأراد الوصول لها لأنه يعلم يقيناً أنه سيجد عليها الرعاة حيث الملاذ. ودعواته بألا يضل الطريق يؤيد أنه اختار التوجه لمدين. وفي كل الأحوال لم تكن البئر بعيدة، فقد وصلها في نفس اليوم.

وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ(٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ

فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ(٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ(٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ(٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ(٢٨).

وهذا اقتباس مما في كتاب أحسن القصص:

(وكان قد هرب من المدينة (السوق) وواصل هربه خارج مصر دون أن يكون لديه وقت لحمل أي متاع معه. لأن هدفه أن يبتعد لئلا يقتل، وبعد ذلك لكل حادث حديث. واستمر بالسير لفترة لم تكن طويلة، قبل أن يصل للبئر التي ازدحم عليها الرعاة بأعداد كبيرة يستقون منها ويسقون دوابهم. وكان هناك امرأتان لا تستطيعان الاقتراب من البئر وسقي أغنامهما. فتحركت غريزة الذكورة للتقرب من الأنثى عنده، ووجد نفسه يسألهما عن حالهما، ويعرض عليهما خدماته. فأخبرتاه أن عليهما أن ينتظرا حتى ينتهي كل الرجال، ليتمكنا من أن يسقيا. ولإظهار رجولته، كاستعراض غريزي، دخل جمع الرعاة حول البئر، واستطاع الحصول على الدلو[1]، وسقى للبنتين، وشرب هو. ثم انتقل إلى ظل شجرة قريبة وتمدد ليستريح جراء التعب الذي ناله، نتيجة هرولته المستمرة منذ خروجه من مصر هرباً: وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ(٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ(٢٤) القصص.

وموسى خرج هارباً من المدينة ومن مصر ضحى اليوم التالي لقتله المصري، كما تفيد الآيات (١٨ – ٢١) من سورة القصص التي ذكرنا سالفاً، ووصلها في نفس اليوم. فهي بئر لا تبعد كثيراً عن مصر في مناطق الرعي التي تقع ما بين حواضر الأودية في الشرق وجبال السروات في الغرب، كما يتبين من الخرائط المرفقة.

والرعاة عادة ما يسقون ماشيتهم وقت العصر إلى المساء، قبل العودة لمضاربهم، وما يؤكد

---

١ العرف يعطي من يحصل على الدلو الحق بأن يسقي حتى ينتهي ثم يسلمه لغيره.

ذلك هو وجود البنتين اللتين يريدان سقيا أغنامهما قبل العودة لمنازلها وقت المبيت. فإذا كان موسى قد خرج من مصر ضحى ذلك اليوم، وليكن ما بين التاسعة والعاشرة صباحاً، ووصل بئر مدين وقت العصر حيث سقي الرعاة. فلابد أنه هرول لفترة تتراوح بين (٦ – ٨) ساعات، على اعتبار أنه وصل البئر ما بين الساعة الرابعة والسادسة عصراً.

ولو افترضنا أن معدل سرعته كانت تتراوح بين (٥ – ٨) كيلو متر في الساعة، على اعتبار أنه هرول في البداية بعد خروجه من مصر لبعض الوقت، ثم بدأ يطمئن إلى أن أحداً لم يلحظ خروجه من مصر ولم يلحقه، وبدأ يسير سيراً عادياً، ويكون قطع ما بين (٣٠ – ٥٠) كيلومتر بعيداً عن مصر عندما وصل لبئر مدين. وسنعود لتحديد المكان المفترض للبئر لاحقاً بعد تحديد موقع مصر.

وكنا قد تركنا موسى وقد هده التعب تحت ظل شجرة قريبة من بئر مدين، فيما عادت الفتاتان لمقر إقامتهما، وهناك أخبرتا أباهما الشيخ الكبير، بشهامة ذلك الشاب الغريب، فما كان من الرجل إلا أن أرسل البنت التي عرف من نظراتها أنها معجبة بموسى لتدعوه. وبالفعل لبى موسى الدعوة، وقد كان بحاجة للأكل والراحة والأمان، وطمأنه الشيخ أنه أصبح في منأى آمن من المصريين هنا: فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٢٥) القصص.

ولأن العادة تمنع البنت من الإفصاح عن إعجابها برجل أو مشاعرها نحوه، فقد سألت البنت والدها، أو شيخ مدين، كما سنطلق عليه من الآن ولاحقاً، أن يستخدم موسى كراع لديهم، لأنه أمين وقوي يستطيع أن يسقي ماشيتهم دون حاجة للانتظار حتى ينتهي الرعاة. وكانت تقول الحقيقة عن موسى، لكن الدافع كان إعجابها به ورغبتها في أن يبقى بينهم، ولا يرحل.

وقد وافق شيخ مدين، لأنه عرف دافع ابنته، ولأنه بالفعل بحاجة لخدمات موسى، فعرض عليه أن يعمل لديه لمدة ثماني سنوات، وإن رغب في إتمامها لعشر فهو فضل منه، مقابل أن ينكحه إحدى ابنتيه، دون أن يصرح له أنه يعرف أن هناك نظرات إعجاب بين موسى وبين واحدة منهما. وقبل موسى بكل طيبة خاطر، لأنه سيصبح له موطن وأهل وعائلة ومحبون:

قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ(٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ(٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ(٢٨) القصص.

والحديث الذي دار بين شيخ مدين وبين موسى يظهر أن الشيخ يدين بدين الله، فهو يراعي الله في حديثه عن العقد المبرم مع موسى، ويُذكِّر موسى أنه يخاف الله: « سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ»، وينهي كلامه بأن الله وكيل على الاتفاق.

وقد بقي موسى إلى نهاية الأجل المتفق عليه، ثم دخل بزوجه. وبعد ذلك طلب من شيخ مدين أن يسمح له بالرحيل مصطحباً زوجته التي لم يرزق منها بأطفال بعد: (فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ .... (٢٩) القصص.

ولابد أنه كان طوال إقامته مع شيخ مدين، على اتصال بوالدته، إن كانت لا تزال على قيد الحياة، وعلى اتصال بإخوته الذين في مصر، ويلتقي بهم بين الحين والآخر، خاصة في فصل انتقال موسى مع أهل زوجته للرعي في البادية القريبة من مصر.) انتهى الاقتباس

الآيات السابقة صورت مشهد موسى وقد اتفق مع شيخ مدين على أن يعمل عنده أجيراً يرعى غنمه ويهتم بشئون منزله وماشيته لسنوات مقابل تزويجه ابنته التي أحبته. ثم تنتقل الآيات لمشهد آخر دون أن تتحدث عن الفترة بين المشهدين، وهو أسلوب يتكرر كثيراً في القرآن، وعلينا أن نتخيل الفترة المفقودة ونصورها.

فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ(٢٩).

موسى تزوج بعد أن أنهى المدة المتفق عليها مع شيخ مدين ثم أخذ عروسه، ولكن إلى أين قبل أن يجد نفسه في الوادي المقدس طوى؟

لابد أن موسى وزوجته استأذنا وخرجا من مضارب عمه قرب بئر مدين وتوجه لبيت الله الحرام لأداء الحج أو العمرة والتعبد وطلب العفو والغفران من رب العالمين، ولما أراد العودة لبلاده وبلاد زوجته خرج من مكة في المساء وبعد ظلام الليل على أمل أن يصل للطريق الدولية لتجارة القوافل التي تمر شمال مكة والتي تصل جنوب جزيرة العرب

بالشام وتمر بالقرب من مدين ومصر فرعون الواقعتين في مكان ما جنوب مكة في سفوح جبال السروات الشرقية. ويبدو أن موسى قد سلك طريقا آخر عندما خرج مع زوجه من مكة ثم توقف في واد وقرر المبيت وفي الصباح سيجد الطريق الصحيح ويسلكه.

وما إن قرر التوقف حتى رأى من بعد ناراً تلوح فتوجه لها لسببين: «لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ».

فموسى كان بحاجة لأن يسأل عن الطريق الصحيح المؤدي لطريق القوافل، وفي حال لم يخبره من على النار عن الطريق فعلى الأقل سيحصل منهم على جذوة يشعل منها له ولزوجته ناراً يصطلون عليها وتطرد عنهم الوحوش والزواحف وقد يطبخون عليها طعاماً يأكلانه قبل النوم، ويتدفؤون، كعادة ما زالت موجودة في جزيرة العرب. فالنار في الخلاء ضرورة ولو في ليالي الصيف الحارة والتدفئة واحدة من عدة منافع للنار في الصحراء.

وذهب موسى للنار:

فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ(٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ(٣٢) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ(٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ(٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ(٣٥).

وذهب موسى وهارون لفرعون وبرغم قوة حجتهما وتسلحهما بقوى خارقة تفوق ما يمارسه أهل مصر من سحر، إلا أن مصالح فرعون وموروثه منعته من اعتناق الحق كغيره من الأمم:

فَلَمَّا جَاءهُم مُّوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ(٣٦) وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاء بِالْهُدَى مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ(٣٧) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ(٣٨).

ولا يستبعد أن يكون هامان قد نفذ رغبة الفرعون غير المعقولة، وصفق لعبقرية سيده، وهو يعلم الحقيقة بينه وبين نفسه. كما لا يستبعد أن يكون فرعون قد صعد بالفعل للبرج الذي يعلو عدة أمتار، ورجع ليعلن أنه لا وجود لإله هناك وأنه لا إله غيره. وقد روج الإعلام الرسمي، وهو الوحيد على الساحة، لهذه الكذبة الملكية، واعتبرت هذه الصفاقة قدرة خارقة ودهاء وحكمة من الفرعون. ولن يتجرأ أحد من الناس أن يصرح بحقيقة ما حدث برغم أن كل من في مصر يعلمونها: فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ(٥٤) الزخرف.

والمؤسف أن هذه الثقافة الفرعونية ما زالت كما هي دون تغيير برغم تغير العصور.

وتستمر السورة تروي ما حدث:

وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ(٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ(٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ(٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ(٤٢).

الله جل شأنه لم يأخذ فرعون وينبذه في اليم بل فرعون هو من لحق بموسى وبني إسرائيل ليسحقهم ولما دخلوا البحر الرهو تبعهم وغرق، فهو من مشى لحتفه بقدميه. لكن بما أن كل شيء في الكون لا يمكن أن يتم لولا مشيئة الله فغرق فرعون تم وكأن الله جل وعلا هو من أغرقه.

رسالة موسى سبقها رسالات كثيرة

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٤٣).

وممن سبق موسى: لوط، وشعيب، وهود، وصالح، ونوح.

ثم تخاطب السورة الرسول:

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ(٤٤) وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ(٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم

مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٤٦).

والآيات السابقة تتوجه بالحديث إلى الرسول محمد عليه الصلاة والسلام كدليل على أنه يعرف تماماً أين يقع الجانب الغربي من الوادي الذي وقع فيه تكليم موسى. ومع أنه لم يكن حاضراً التكليم إلا أن الآيات أخبرته وبينت له أين وكيف حدث؟ فكأنه كان يراقب الوضع من الجهة المقابلة للوادي. وهذا دليل آخر على أن الوادي المقدس طوى هو المجاور للحرم وليس هناك وادي طوى في سيناء زمن موسى، الذي لم يخرج من جنوب غرب جزيرة العرب ولم يعرف في حياته سيناء الحالية.

بعض بني إسرائيل (يثرب) رفضوا دعوة الرسول

والآيات تتوجه لمخاطبتهم:

وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(٤٧) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ(٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٤٩) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٥٠) وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٥١).

وهؤلاء الذين رفضوا دعوة الرسول يكفرون برسالة موسى، ويعتبرون ما يقوله الرسول محمد وما قاله موسى سحران متماثلان. ورفضهم للحق مبني على الظنون واتباع الهوى.

وقد سبق وأشارت لهم سورة الأنعام: وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١).

وهناك فئة أخرى من بني إسرائيل أسلموا

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ(٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ(٥٣) أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ

السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ(٥٥).

واللغو قد يكون صادراً من الفئة التي رفضت الحق من بني إسرائيل. إذ يحتمل أنهم يدخلون معهم في جدال ولغط في محاولة لإثبات أنهم مخطئون في التصديق بالدين. فكان المسلمون من بني إسرائيل يتجنبونهم ويتجاهلون تهجمهم.

هنا انتهى الحديث الموجه لبني إسرائيل، وتوجهت السورة لمخاطبة الرسول:

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(٥٦).

الرسول يتحسر على قومه وعشيرته قريش لأنهم يعاندون الحق الظاهر ويتمنى لو آمنوا وأنقذوا أنفسهم، وهو ما رددته عدة سور. والآية هنا تقول الهداية ليست بالتمني، والله يهدي من يشاء ليس بأن يقرر أنه مهدي من الأزل ولكن بما أن الله خلق الإنسان بعقل يميز بين الحق والباطل والإنسان نفسه يختار أي طريق. فمن يختار الهدى فقد هداه الله، ومن يختار الضلال فقد أضله الله بطريق غير مباشر.

وسنتوقف هنا لبعض الوقت

فكتب التراث رسخت أن الآية نزلت في أبي طالب، لأن الرسول حاول أن يلقنه شهادة التوحيد لكي ينجو من النار، فرفض أبو طالب لئلا يعيره قومه أنه استجاب لمحمد قبل موته.

وهذه التخاريف لا أصل لها البتة وما هي سوى اختلاق في عصور لاحقة ليس الهدف منها خدمة الدين ولكن تلميع صورة أبي طالب الكافر. والمعتقد الذي يقول أن من كان آخر عهده بالدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة معتقد ظهر في عصور لاحقة بعد الرسول واختلقت له الأحاديث لترسيخه.

والرسول عليه الصلاة والسلام يعلم قبل غيره أن أبا طالب لو أسلم بالفعل لحظة الوفاة فلن يقبل منه، لأن التوبة يجب أن تكون قبل حضور الوفاة. لذا لم تقبل توبة فرعون:
وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) يونس.

ولقد أكثرت كتب التراث من تلميع صورة أبي طالب فقط لأنه والد علي ابن أبي طالب، وصوروه على أنه حامي الرسول ولولاه لضاع الرسول ولم يتمكن من مواصلة الرسالة. وهذا تحقير للرسول الذي منعه الله سبحانه وتعالى وحماه، ولم يكن بحاجة لأحد. فقد كان رجلاً شامخاً قوي الشخصية لا يهاب في الحق لومة لائم، ولم يكن بحاجة لرعاية وكأنه أبله أخرق ضعيف ساذج. والرسول يعلم أن القرابة بالرسول لا تفيد، لذا فلم يتوان عن تلاوة سورة المسد على مسامع عمه الآخر «أبي لهب» وأخو أبي طالب.

والآية التي بين أيدينا تشد من عضد الرسول الذي يحزنه كفر قبيلته وعشيرته قريش برغم وضوح الحق، وذهابهم بأنفسهم للنار، كما ذكرت ذلك عدة سور، منها:

وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ(١٢٧) إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ(١٢٨) النحل.

وتقول سورة الشعراء: طسم(١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ(٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(٣).

وسور عدة ذكرت تحسر الرسول على كفر قريش.

وأبو طالب تقول عنه كتب التراث إنه توفي قبل الهجرة بثلاث سنوات، وسورة القصص نزلت قبل الهجرة بأسابيع.

وكتب التراث تقول إن أبا طالب لما امتنع عن النطق بالشهادة قال الرسول: والله لأستغفرن لك. فأنزل الله: ما كانَ للنَّبِيّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أنْ يَسْتَغْفِرُوا للْمُشْرِكينَ وَلَوْ كانُوا أُولـى قُرْبَى، وأنزل الله في أبي طالب، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلّم: إِنَّك لا تَهْدِي مَنْ أحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي[1].

ومن قال بهذا جاهل بالإسلام والقرآن.

فالآية التي تقول: « ما كانَ للنَّبِيّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أنْ يَسْتَغْفِرُوا للْمُشْرِكينَ وَلَوْ كانُوا أُولـى قُرْبَى» هي الآية (١١٣) في سورة براءة التي نزلت قبل وفاة الرسول بأشهر، ولم تنزل في مكة.

والرسول عليه الصلاة والسلام يعلم قبل غيره أن الاستغفار للمشرك لن ينقذه من النار،

١ تفسير الآية ٥٦ من سورة القصص للطبري.

وعمه كان مشركاً ومات على الشرك. ولم يقم الرسول بالطلب منه أن ينطق بالشهادة وهو يحتضر لأن الرسول يعلم أنها لن تفيده.

ونعود لسورة القصص التي تطلعنا على بعض ما يحدث في مكة عند نزولها.

قريش تسخر من تسلل المسلمين خارج مكة

وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(٥٧).

الآية تتحدث على لسان كبراء قريش الذين يسخرون من الرسول بقولهم لو آمنا بك فسيكون حالنا حال من آمن معك الذين هربوا من أرضهم (الإشارة هنا للمسلمين الذين يتسللون ليثرب هرباً من قريش)

وترد عليهم الآية قائلة إن الله هو الذي جعلكم تعيشون في بلد آمن يجبى إليه الثمرات، وكان يجب عليكم شكره والإيمان به. وهو سبحانه قادر على تأمين الأمن والثمرات في بلد الهجرة لمن هاجر.

وتذكّر السورة قريشاً أن بطرهم وعيشهم الآمن قد لا يدوم كما حدث مع أمم قبلهم:

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ(٥٨).

وتلك الأمم هلكت بعد أن جاءتهم الرسل، ولم يؤمنوا:

وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ(٥٩).

فما الذي يجعل قريشاً مطمئنة على أنه لن يحدث لها ما حدث لهم؟

والآية لا تقول إن كل أمة في أي زمان ومكان لا تؤمن ستهلك بكارثة طبيعية.

ثم تقول السورة لكبراء قريش الذين يملكون المال إن ما أوتيتم متاع دنيوي زائل:

وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ(٦٠).

وهذا فيه تأكيد على أن الدنيا ومتاعها يطاله الكافر والمسلم وليس حكراً على أحد لأنه متاع لا قيمة له سرعان ما يزول.

وفيه إشارة إلى أن الدعاء لتحقيق مطالب دنيوية لن يستجاب، لأن كل ما في الدنيا أودعه الله فيها قبل خلق الإنسان وجعله مشاعاً للجميع. وخسارة متاع الدنيا الواهي ليس خسارة. وبما أن الدنيا للكسب والتنافس فالله جل وعلا لا يتدخل في أمورها، ويوم القيامة سيكون الحساب.

وهو ما تؤكده الآية التالية التي تؤكد أن الله سيجزي المؤمن في الآخرة سواءً تمتع في الدنيا أو لم يتمتع، وأن غير المؤمن لو تمتع في الدنيا أو لم يتمتع فسيخسر الآخرة:

أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ(٦١).

يوم القيامة لن تنفع المشركين أصنامهم

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ(٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاء الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ(٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ(٦٤).

ولن يستطيع الكافرون الدفاع عن أنفسهم:

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ(٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاء يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءلُونَ(٦٦).

الحديث عن كبراء قريش ومصيرهم يوم القيامة.

فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ(٦٧).

الآية تقول لقريش: ما زال أمامكم فرصة فاغتنموها.

دعوة عقلانية موجهة لقريش كالعادة

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ(٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ(٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٧٠) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلَا تَسْمَعُونَ(٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ(٧٢) وَمِن

رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٧٣) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ(٧٤) وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ للهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ(٧٥).

وتتوجه السورة للحديث عن أخبار قديمة.

قارون

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ(٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ(٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ(٧٨) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ(٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ(٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ(٨٢).

وكم لدينا من قارون؟

وفي كل زمان هناك من يغتر بالمظاهر الدنيوية ويتمنى الحصول عليها وهناك من يزهد فيها لأنه عرف قدرها: تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(٨٣).

الجنة لمن لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، فالجنة لا تكون لمتكبر أو ظالم أو معتدٍ.

لأن الكبر والخيلاء يحرمان على صاحبهما الجنة ومثله الفساد بكل أنواعه ومنه أكل حقوق الناس والظلم والبغي ووجوه أخرى للفساد كثيرة.

وكل من يتصف بواحدة من مسببات النار فسيخلد في النار ولن ينجيه إعلان إسلامه، أو مديح الناس له، وتعطيرهم لسمعته.

فالحساب سيكون بناءً على ما سجل في صحيفة أعماله وليس ما يقوله الناس عنه، وهذا السجل سيكون دقيقاً:

مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٨٤).

وتختم السورة بمخاطبة الرسول:

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاء بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(٨٥) وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ(٨٦) وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٨٨).

الآية (٨٥) دليل آخر على أن الدعوة كانت بالقرآن وحده ولا شيء معه.

الآية (٨٦) الرسول قبل أن يبعث لم يشعر يوماً أنه سيكلف بالرسالة وهذا ينفي كل ما زعمته كتب التراث من أنه كان يتحنث قبل البعثة وكانت تبدو عليه علامات النبوة لدرجة أن اليهود والمسيحيين عرفوا ذلك فيه منذ كان صغيراً وغير ذلك من تخاريف القصاص والمفسرين والمحدثين.

والآيتان الأخيرتان تذكران الرسول عليه الصلاة والسلام وتحذرانه من مظاهرة المشركين أو القرب من كل ما له علاقة بالشرك.

(٨٨) الرعد

تبدأ السورة بتأكيد أن ما يوحى (القرآن) هو الحق: المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ(١).

دعوة عقلانية

اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ(٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي

اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٣).

وعندما تقول الآية إن الشمس والقمر يجريان والحديث موجه لقريش فهي تخاطبهم بما يفهمون ويدركون. وقريش ترى الشمس تجري من المشرق للمغرب وكذلك القمر، وهذا هو ما تتحدث عنه الآية. لكن كثيرين من الكتاب يستعرضون معارفهم على حساب الآيات.

ومن ذلك من يطيل في الحديث ليثبت أن القرآن عندما قال بأن الشمس تجري والقمر يجري ولا يدوران هو ما أثبته العلم الحديث، وسبقهم القرآن بألف وأربعمئة سنة. ولو أنه تنبه إلى أن الرسالة تبدأ بخطاب دعوي موجه للمدعو لدخول الإسلام وهم قريش، وأن الخطاب الدعوي يتحدث بما يعرفه ويدركه المدعو. وأن الخطاب الدعوي ينتهي ويتوقف بمجرد نزول التشريعات. وليس هناك خطاب دعوي لمن سيأتي بعد الرسول، لأن الدعوة للدين بعد نزول التشريعات تكون بتقديم التشريعات والقوانين القرآنية فمن رغب فليؤمن ومن رغب فليكفر. ولو كان الناس على علاقة قرب مع القرآن كما يجب لتمكنوا من ملاحظة أنه بعد اكتمال الدين (تشريعاته) بنزول سورة المائدة لم تعد السور تتحدث بخطاب دعوي أبداً برغم نزول (١٨) سورة من أصل (٢٥) سورة نزلت في المدينة. ولو فطن الباحثون لهذه الحقيقة المغيبة عنهم لما أجهدوا أنفسهم بالبحث عن إعجاز قرآني واكتشافات للعلم عرفها القرآن كما يظنون.

وتستمر السورة...

وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(٤).

وتتوعد السورة قريشاً على إنكارهم للبعث: وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ(٥).

قريش مستعجلة دائماً على نزول العذاب وعلى رؤية الآيات

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ(٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا

أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ(٧).

وهذه المطالب استمرت قريش تكررها ليس لأجل أن تؤمن - كما تزعم - ولكن سخرية من الرسول وإظهاره بمظهر العاجز[١].

وتعود السورة للدعوة العقلانية

اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ(٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ(٩) سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ(١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ(١١) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ(١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ(١٣) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ(١٤) وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ(١٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ(١٦) أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ(١٧).

الآيات (٨-١٠) تؤكد أن الله يعلم غيب السماوات والأرض، ولا يخفى عليه شيء. وأن فعل المعاصي في الخفاء مساوية لفعلها جهراً.

والآية (١١) تؤكد بعض الحقائق: إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ».

١ انظر فقرة: المكذبون يستعجلون العذاب/ قسم أدلة من القرآن.

الآيات: ١٨-٢٦ تتحدث عن الذين أسلموا وتمسكوا بإسلامهم (في مكة) والذين نقضوا عهد الله بعد ميثاقه (أي عادوا للكفر)

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(١٨) أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ(١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ(٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ(٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ(٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ(٢٣) سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ(٢٤) وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ(٢٥) اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقَدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ(٢٦)

الآيات (٢٠-٢٤) تشير لمن آمن في مكة وصبر على أذى قريش وتمسك بدينه ولم يوال الكفار أو يعلن الكفر.

بينما تتحدث الآيات (٢٥-٢٦) عن فئة من المسلمين في مكة ارتدت وعادت للكفر ونقضت غزلها كما شبهتهم السورة السابقة في الآيات (٩٢-٩٧). وهؤلاء هم فريق من مسلمة قريش كفروا لأنهم لم يقبلوا أن يعاملوا بالتساوي مع عبيدهم السابقين، بعد أن حذرت الآيات رسول الله من الاستجابة لطلبهم وطرد المؤمنين المستضعفين.

وبقية آيات السورة تتحدث عن قريش وعن المؤمنين وعن آخرين في تلك الفترة، وعما يلقاه الرسول من عنت:

استمرار قريش بطلب الآيات

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ(٢٧).

والآية تقول بأن الرسول لن يعطى آية.

وعد للمؤمنين

الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ(٢٨) الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ(٢٩).

قريش لن تؤمن ولو رأت كل آية

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِيَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَـنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ(٣٠) وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ(٣١).

قريش لو رأت كل معجزة فلن تؤمن، لأن من لا يؤمن بداية الدعوة لن يؤمن أبداً. وقد يصيبهم في دنياهم بعض الكوارث، ولكن مصيرهم البائس سيكون يوم القيامة.

الرسول استمر يتعرض للسخرية

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ(٣٢).

وتقول له الآية إن ما يلقاه لقيه غيره من الرسل.

قريش غارقة في الضلال ولن تفيق

أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ(٣٣) لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِن وَاقٍ(٣٤).

وكل من يغرق في الضلال لا يعود للحق، لأنه لا يرى سوى الدائرة التي يعيش فيها وأغلقها على نفسه.

الآية (٣٣) تؤكد أن قريشاً كانت تصد الناس الذين يحاولون الوصول للرسول، بطرق شتى ذكرتها سور عدة. ومن ذلك اختلاق نصوص ويقولون للناس هذا هو قرآن محمد، وطرق أخرى متنوعة.

الآية (٣٤) تقول لهم عذاب في الحياة الدنيا، وهو الهزيمة والاندحار، أما العذاب بعد الحساب فلا يكون إلا يوم القيامة.

ترغيب للمؤمنين

مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ(٣٥).

بعض أهل الكتاب آمنوا وبعض رجال القبائل ينكرون بعض الوحي

وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ(٣٦).

بعض أهل الكتاب آمنوا بمحمد. بعض الناس من غير قريش آمنوا كذلك. وهم الأحزاب، وبعضهم ينكر بعض الوحي.

ثم تخاطب الآيات الرسول متناولة عدة مواضيع:

تحذير للرسول من أن يميل عن الحق

وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ(٣٧).

القرآن حق وتحذير من اتباع أهواء قريش. فمحمد بشر وقد يميل كأي بشر لذا جاء التحذير.

الرسول يتمنى لو تلبى مطالب قريش

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ(٣٨)

كل الرسل قبل الرسول محمد بشر لهم أزواج وذرية، ولم يكونوا ملائكة كما تطلب قريش. ولن تعطى يا محمد أي معجزة، لأن المعجزات تأتي بإذن الله الذي لن يري قريشاً أياً منها كما أكدت سور أخرى.

وهذا يشير إلى أن الرسول يتمنى لو أظهر معجزة أو نزلت الملائكة ورأتها قريش حتى تؤمن، كما كانوا يقولون له.

وقوله: «ولكل أجل كتاب» أي كل ما يجري في الكون يتم عبر قوانين ثابتة وله وقت محدد. والله قادر على محو وإلغاء ما يشاء من قوانينه، وعنده سبحانه السجلات لكل ما يجري، كما تقول الآية التالية:

يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ(٣٩).

فأم الكتاب تعني السجلات الرئيسية لكل ما يجري في الكون.

الرسول قد يموت أو يقتل في أي لحظة

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ(٤٠).

قد تموت يا محمد قبل أن ترى انتصار الدين وأهله على قريش، وقد يمتد بك العمر، وفي كلا الحالين فليس عليك أن تهديهم وكل ما عليك هو البلاغ. والآية دليل آخر على أن الدعوة لا تكون بالمواعظ والترغيب والترهيب بل بتلاوة أو توصيل القرآن للناس فقط.

الطلب من قريش التفكير

أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(٤١).

القرآن يخاطب الناس بقدر مداركهم، وقريش لا تستطيع أن ترى الكرة الأرضية وهي تتضاءل، لذا فالأرض هنا هي تلك المساحة التي تراها قريش. أي مد بصر الإنسان فقط. أما معنى «ننقصها من أطرافها» فلم أحط به.

وتختم السورة بالقول بأن موقف قريش مماثل لمواقف الأمم السابقة: وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ(٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ(٤٣).

(٨٩) الحج

آخر سورة نزلت في مكة، في وقت بدأ المسلمون فيه التسلل زرافات ووحداناً من مكة باتجاه يثرب، هرباً بدينهم وأرواحهم من بطش قريش التي كانت تشق الأخاديد وتشعل فيها النيران لتعذيب من أسلم من المستضعفين. فارتد بعضهم، وأعلن الكفر بعضهم ولم يرتد. كما ارتد بعض مسلمة قريش دون أن يتعرضوا للأذى. والاحتمال الغالب هو أن

ردتهم نتيجة لأنهم أصلاً لم يقتنعوا بالإسلام فأبقوا على موالاتهم لأقاربهم المشركين، ولما بدأ المستضعفون بدخول دين الله أفواجاً، لم يقبلوا بأن يساووا معهم في التعامل والحقوق. مما تسبب بالمشاحنات التي حدثت بين بعض المستضعفين وبين مسلمة قريش، فما كان منهم إلا أن طلبوا من محمد أن يطرد المستضعفين أو أنهم سيعودون للكفر، لأنهم يرون أنفسهم «سادة» لا يمكن لهم القبول بأن يعاملوا بمستوى واحد مع عبيدهم. وقد أشارت سورة الأنعام السابقة لطلبهم من الرسول أن يطرد المستضعفين: وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) الأنعام.

ولما امتنع الرسول من طرد المستضعفين تلبية لأمر ربه، عاد بعض مسلمة قريش للكفر.

كما علمنا مما سبق من سور أن بعض الأحزاب (رجال من قبائل غير قريش) قد أسلموا، وبعضهم لم يؤمن. إضافة لمن أسلم من بني إسرائيل الذين تأسست بجهودهم الدعوية جالية مسلمة في يثرب غالبيتها من المستضعفين (الأوس والخزرج)، وقلة من بني إسرائيل. وهؤلاء القلة هم من صدرت منهم فكرة دعوة الرسول والمسلمين في مكة إلى يثرب، فهم من كبراء يثرب الذين يملكون حق اصدار القرارت الهامة فيما يتعلق بيثرب.

ويمكن القول بأنه لولا نشأة الجالية المسلمة في يثرب، ولولا دعوتها مسلمي مكة للهجرة، فقد تتمكن قريش من المسلمين في مكة وتقضي عليهم وعلى محمد وعلى الدين.

وقد نزلت سورة الحج بعد أن هاجر الكثير من المسلمين ولم يبق إلا قلة من بينهم رسول الله الذي كان من أواخر من هاجر.

وتبدأ السورة بمخاطبة كل الناس

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ(١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ(٢).

فلم تعد قريش هي المقصودة بالدعوة، بعد أن آمن بالإسلام بعض رجال القبائل، وغالبية مستضعفي يثرب، ونفر من بني إسرائيل. الدعوة من الآن وصاعداً لكل الناس ولا يهم إن استمعت قريش أم لم تستمع فلم تعد تمثل هدفاً للدعوة.

الآية الثانية تصور يوم القيامة بصور حسية تذكرنا بتلك الصور التي تقدمها سور بدايات المرحلة الرابعة، كون الوثنيين خارج مكة لا يؤمنون بالبعث مثل قريش.

وتتجه السورة للحديث عن قريش وليس لدعوتهم

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهَّ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ(٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ(٤).

فرجال قريش يجادلون محمداً لكي يدحضوا الحق ويعطوا صورة مشوشة للإسلام لمن يحاول الاتصال بالرسول.

دعوة عقلانية لكل الناس

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ(٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَّ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَّ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ(٧).

الدعوة العقلانية توجه عادة لقريش، لعلها تفكر وتهتدي إلى أن الله قادر على البعث الذي ينكرون. ولعل هذه المرة من المرات القلائل التي يوجه فيها القرآن دعوة عقلانية لكل الناس.

والآيات تعطي صورة لتخلق الجنين ومن ثم ولادة الطفل ونموه على مراحل حتى يصل لأرذل العمر، لتقول لهم إن من خلق هذا قادر على بعثه.

أوضاع الناس في مكة في تلك الفترة

- قريش تجادل الرسول في محاولة لدحض الحق

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهَّ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ(٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهَّ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ(٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللهَّ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ(١٠).

قريش تجادل محمداً لتضل غيرها عن الإسلام، كما ورد في الآية (٣).

- مسلمون ارتدوا

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَّ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ(١١) يَدْعُو مِن دُونِ اللهَّ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ(١٢) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ(١٣).

الآيات تتحدث عمن كفر من أهل مكة بعد إسلامه والذي أشارت له السورة السابقة (الرعد) الآيات (٢٥-٢٦) وهم فئة من المسلمين في مكة (بعض مسلمة قريش) ارتدت وعادت للكفر ونقضت غزلها كما شبهتهم سورة العنكبوت في الآيات (٩٢-٩٧).

- مسلمون صابرون

إِنَّ اللهَّ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللهَّ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ(١٤).

والآية تعد المؤمنين خيراً.

- بعض المسلمين أصيب بالقنوط

مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ(١٥) وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللهَّ يَهْدِي مَن يُرِيدُ(١٦).

بعض من أسلم في مكة أبدى يأسه من أن يظهر الإسلام ويتفوق على قريش، فبعد سنوات من الدعوة لم يزدد خلالها المسلمون إلا ضعفاً، وازدادت قريش بطشاً.

الآية (١٦) تؤكد لمحمد أن ما يوحى له به هو الحق، حتى لو كفر به من سبق وآمن كلهم.

كل أصحاب المعتقدات المختلفة سيحاسبهم الله يوم القيامة

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَّ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(١٧).

ولابد من التوقف قليلاً هنا.

فهناك آيتان أخريان تذكران الذين هادو والصابئين يستشهد بهما البعض على أنهما دليل على

أن الإيمان بالله على أي دين كاف لدخول الجنة وليس فقط الإيمان بالإسلام (الذي جاء به محمد) هو الطريق للجنة، لذا وجب أن نتريث ونعيد قراءة الآيات.

والآية التي بين أيدينا تذكر بعض أهم الملل، ولكنها لا تقول بأنهم مؤمنون، بل تقول بأن مرجع الناس بمختلف عقائدهم لله يوم القيامة، وهؤلاء بعضهم.

لكن سورة البقرة التي نزلت في المدينة وبعد الهجرة، تقول: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٦٢).

وهو ما كررته سورة المائدة: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٦٩)

والآية تقسم الناس لقسمين:

القسم الأول: الذين آمنوا.

القسم الثاني: البقية الذين ذكرتهم الآية، وهم: الذين هادوا والصابئون والنصارى.

وهذا التقسيم يعزل هؤلاء عن الذين آمنوا، أي ينفي عنهم الإيمان. إذ لو كانوا مؤمنين بدين الله الحق لسمتهم الآية مؤمنين وليس الذين هادوا أو صابئين أو نصارى.

والآية تؤكد ذلك مرة أخرى، عندما تقول: من آمن منهم. فقبول العمل الصالح ممن آمن منهم وليس من بقي على يهوديته أو صابئيته أو نصرانيته.

والذي يؤمن منهم يعني، يتبعون رسالة محمد: قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣١) قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ(٣٢) آل عمران

والآية موجهة لأهل الكتاب الذين منهم اليهود والنصارى، فمن لا يؤمن منهم برسالة محمد فهم كفار.

ومن لا يؤمن برسالة محمد، فهو كافر، ولو آمن بالله، وهؤلاء هم أهل الكتاب الذين منهم اليهود والنصارى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ(٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(٧١) وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ

الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(٧٢) وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(٧٤) آل عمران

وآل عمران تؤكد مرات عدة على أنهم إن لم يؤمنوا بمحمد فهم كفار، ومن ذلك ما ورد على لسان الرسول محمد: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَاللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ(٩٨) آل عمران.

ومثله: قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ(٣٢) آل عمران.

والخطاب موجه لأهل الكتاب، فمن لا يؤمن بالرسول ويطيعه فيما يتلو من قرآن فهو كافر.

وتقول سورة النساء التي تخاطب أهل الكتاب أيضاً: مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً(٨٠) النساء.

وتقول السورة مخاطبة أهل الكتاب: وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً(١١٥) النساء.

وتقول في نفس السياق: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُواْ خَيْراً لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً(١٧٠) النساء.

فمن لا يؤمن بمحمد فهو كافر، ولو آمن بوجود الله وعمل صالحاً، لأن الدين واحد، ورسالة محمد هي النسخة المنقحة التي لا تشوبها شائبة، وما بقي من أديان سماوية سابقة غيرها فمجرد صور مشوهة لدين سابق.

والإسلام هو اسم دين الله، وكل رسل الله دعوا للإسلام.

لكن لا يوجد صورة حقيقية للإسلام إلا الإسلام الذي جاء به محمد، والذي هو ملة إبراهيم: قُلْ صَدَقَ اللّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(٩٥) آل عمران

وديانة اليهود والنصارى لا تمت لملة إبراهيم بصلة: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ(٦٥) هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٦٦) مَا كَانَ

إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(٦٧).

وتواصل الآيات لتؤكد أن دين الإسلام بصورته التي جاء بها محمد هي نسخة الدين الإبراهيمي الحقيقية المقبولة عند الله ليكون أتباعها مسلمين: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ(٦٨) آل عمران

ولهذا تؤكد سورة آل عمران لأهل الكتاب في يثرب (اليهود والنصارى) أن من لا يؤمن بمحمد فهم كفار وملعونون وفي نار جهنم خالدون فيها: قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(٨٤) وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٨٥) كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٨٦) أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ(٨٨) آل عمران

وبعد أن بين القرآن أن الدين المقبول عند الله هو الإسلام الذي جاء به محمد وهو وحده ما يستحق أن يسمى الإسلام. ومن لا يتبع هذا الإسلام فلن يقبل منه، والخطاب موجه لليهود والنصارى: إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ(١٩) فَإنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ(٢٠) آل عمران.

وتكون الآية (٦٢) من سورة البقرة، والآية (٦٩) من سورة المائدة، كما هي الآية (١٧) من سورة الحج التي بين أيدينا والتي ذكرت بعض أصحاب الملل لتؤكد أن كل أهل الملل سيحاسبهم الله، ولم تأت الآية والآيتان الأخريان لتقول بأنهم مؤمنون أو كفار. بل تقول إنهم والمؤمنين سيحاسبون يوم القيامة.

ونعود لسورة الحج، التي تعود للدعوة العقلانية:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ

اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ(١٨) هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ(١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ(٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ(٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ(٢٢) إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ(٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ(٢٤).

الآية (١٨) قوله "يسجد له من في السماوات والأرض" لا تعني الإيمان به سبحانه، لأن كثيراً من الناس لا يؤمنون. ولكنها تعني يخضعون لمشيئته، ولا يخرجون عن سيطرته.

وتعطي الآيات السابقة مقارنة بين الكافر والمؤمن بصورة حسية لتقول: بأنه ليس من عدل الله أن يغفر لمستحق النار أو يعذب مستحق الجنة.

ثم تخبرنا السورة عن آخر ما قامت به قريش للتضييق على المسلمين في مكة.

منع المسلمين من دخول بيت الله الحرام

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(٢٥).

وهذه الواقعة حدثت بعد نزول سورة الرعد السابقة، لأنها لم تذكرها. وتمثل تطوراً آخر لتضييق قريش على المسلمين بعد تعذيب مستضعفيهم بالنار.

وكيف تتجرأ قريش على منع الناس من البيت الحرام الذي جعل للناس كافة منذ القدم، وليس ملكاً لقريش. وإن كان الله قد كلف إبراهيم وإسماعيل - أجداد قريش - بخدمة الحجاج والقيام على البيت فهذا لا يعني أنه أعطاهم الحق ببسط سيطرتهم على مكة. لأن مكة لا يجب أن يحكمها بشر، ولا يجب أن تدخل تحت سيطرة أحد. هي بلد حرام وبيت الله آمن لمن فيه. ولكل الناس الحق بزيارته وتعبد الله فيه. وقريش احترمت هذا الميثاق، ولهذا كانت مكة بلا حاكم. ولم يكن أحد من قريش يزعم أنه حاكم لها. فهي الدولة (المدينة) الوحيدة في العالم في ذلك الوقت التي ليس لها حاكم.

ثم تتحدث السورة عن إبراهيم وكيف أعاد بناء البيت ودعا الناس للحج.

إبراهيم أعاد بناء البيت

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(٢٦).

بعد خروج إبراهيم من قريته ومعه لوط، ووصوله لمكة، كلفه الله بإعادة بناء البيت. وقد كان قد تهدم وبالكاد عثر إبراهيم على أساساته، وهو ما يفهم من قوله: «وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت». فلم يكن ظاهراً للعيان شيء من بقاياه، وكان على إبراهيم أن يزيل التراب والحجارة التي طمرته، ثم يشرع في إعادة بنائه.

وبعد أن أتم بناء البيت (الكعبة) قام بتطهير المنطقة المحيطة بها وتهيئتها للطواف والصلاة.

إبلاغ الناس أن البيت جاهز لاستقبالهم

وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ(٢٧).

وإبراهيم لا يملك وسيلة لتوصيل هذا النبأ لسكان جزيرة العرب، إلا بالبقاء قريباً من طريق القوافل الدولية التي تمر شمال مكة وقريبة منها، والتي تربط أقصى جنوب غرب جزيرة العرب ببلاد الشام. وعندما تمر قافلة يخبر مرافقيها ما تم وأن البيت أصبح جاهزاً لاستقبالهم، وسيتكفل بطعامهم وشرابهم واستضافتهم في بيت الله كمكلف منه سبحانه.

وكان هذا قبل أن يرزق بطفله الأول «إسماعيل» الذي سيكون معيناً لوالده عندما يصبح يافعاً، كما تخبرنا سور أخرى.

استضافة الحجاج والمعتمرين وشرح كيفية الحج والعمرة

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ(٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ(٢٩).

الآيات أعلاه تبين ما على الزائر والحاج فعله، وهو ما كان إبراهيم يقوم بشرحه للناس القادمين لمكة، تلبية لدعوته.

حصول القادم على منافع

فالزائر للبيت سيحصل على منافع: « لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ» متمثلة بما سيحصل عليهم من طعام وشراب يوفره لهم إبراهيم كرفادة وسقاية. كما يمكن أن يتقايض الزوار الحاجيات والمقتنيات والبضائع أثناء تواجدهم في مكة.

ذكر الله والتعبد له

«وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ»

بيت الله للعبادة وذكر الله، وعلى الناس القدوم لمكة لهذا الهدف، وليس لأي شيء آخر. فمكة هي المكان الوحيد في العالم التي قامت منذ القدم كبيت لله وعبادته.

تقديم الأضاحي كحمد لله وشكره على بهيمة الأنعام

« عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ»

فالأضحية تكون كشكر لله على ما رزق الناس من تذليل للأنعام وما تقدمه لهم من منافع كالألبان واللحوم والجلود التي تستخدم في عدة استخدامات. فعلى القادم للبيت أن يضحي ويأكل ويطعم الفقير والمحتاج.

قضاء التفث والوفاء بالنذر والطواف بالبيت

« ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ»

والتفث لم يتعرف عليه اللغويون، لأن المفسرين لم يختلقوا له معاني كعادتهم عندما يمر بهم لفظ في القرآن لا يعرفون معناه، فبقي التفث دون تعريف.

والوفاء بالنذر ليس خاصاً بمكة، لكن هناك من ينذر أن يحج أو يعتمر لو تحقق له أمر أو أمنية. وهو المقصود بالنذُر التي تقضى بالحضور لمكة.

والطواف بالبيت جزء من أعمال الحج.

إذن كان إبراهيم يستقبل القادمين ويستضيفهم ويشرح لهم ما عليهم فعله.

ونستمر مع السورة التي تحولت لمخاطبة المسلمين:

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ

فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ(٣٠).

وتعظيم حرمات الله، الانتهاء عن كل ما حرمه الله (الكبائر). ومن ذلك الرجس وهو كل ما له علاقة بالوثنية، وقول الزور. وأحلت بهيمة الأنعام، فيما عدا الدم والميتة وما أهل لغير الله به، إضافة للخنزير.

حُنَفَاء للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ(٣١).

ومن تعظيم حرمات الله اجتناب الشرك.

ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ(٣٢).

وتعظيم شعائر الله الالتزام بأوامره.

وتعود السورة لاستكمال الحديث عن بهيمة الأنعام:

لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ(٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ(٣٤).

على المسلم إذا حج أن يقدم أضحية كشكر لله على بهيمة الأنعام. وتقديم الأضحية في الحج (منسك) فرضت على أمم سابقة.

ومن الصفات التي يجب أن يتحلى بها المؤمنون في مكة

الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣٥).

- إحضار الله في النفس.
- الصبر على الأذى من قريش واضطرارهم للهجرة وترك بلدهم وأموالهم.
- الإنفاق.

وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٣٦) لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى

مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ(٣٧).

البدن تقول معاجم اللغة -اقتباسا لكلام المفسرين كالعادة- أنها أنثى الإبل والبقر التي تنحر خصيصاً في مكة. وبطبيعة الحال ليس هناك نعت خاص للنحر بمكة.

وقد تكون الآية هنا تتحدث عن حيوان الوعل فأنثاه هي التي تسمى البدن. وإن كان الأمر كذلك فالآية تقول بأن الوعول أكلها حلال. ويذكر اسم الله عند نحرها، ومتى ما وجبت لحومها (نضجت) فكلوا وأطعموا الفقير القانع الذي لا يسأل الناس ويلح، والمعتر السائل المُلِح.

ويفهم من الآية أن ذبح البدن يكون لحاجة الأكل وليس لمتعة الصيد كما يحدث الآن لأنه يدخل في الإسراف ولأنه فساد في الأرض كونه يؤدي لانقراض الأنواع. وإن كان ما ذهبنا إليه صحيحاً هنا فالحديث عن البدن لا علاقة له بتقديم الهدي في الحج.

حديثٌ عمن هاجر

إِنَّ اللهَّ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَّ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ(٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَّ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ(٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُّ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهَّ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهَّ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللهُّ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَّ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَللهَِّ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ(٤١).

الحديث هنا موجه للمسلمين الذين استمرت أعدادهم تغادر مكة مهاجرين ليثرب. وليس في الآيات فرض للقتال (الجهاد في سبيل الله) لأن الآية (٣٩) تقول: « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَّ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ». وليس في هذا فرض للقتال، بل هي تقرر أن الذين تقاتلهم قريش قد ظلموا، لكنها لا تأمرهم بالحرب.

والقتال المذكور في السورة هو ما يلقاه المسلمون من قريش في مكة، وليس الحرب. فقريش تضطهد المسلمين، وتعذبهم، وتضيق عليهم، وتمنعهم من دخول الحرم وتمنع الناس من خارج مكة الاتصال بهم أو بالرسول، هذا هو القتال الذي يتعرض له المسلمون، لأن السورة نزلت والرسول ما زال في مكة، ولأن القتال لم يفرض إلا في المدينة وبعد الهجرة

بفترة من الزمن وفي سورة البقرة: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٢١٦).

الآية (٤١) تقرر أن المسلم هو من إذا مكن من دولة فسيؤدي الصلاة لله، ويؤتي الزكاة التي ستكفل الحياة الكريمة لكل الناس، وسيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ليس بالعصا والمسدس والمطاردة بالسيارات كما يفعل من سموا بهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فعند نزول السورة لم يكن للمسمين دولة بعد، ولم يكن هناك في مكة رجال يعسون الشوارع ويقتحمون البيوت. لكن المسلم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بالقدوة الحسنة والتعامل الإنساني والقوانين التي تكفل الكرامة وتفرض الإحسان وتضمن التكافل الاجتماعي، وتمنع انتشار الرذيلة والفساد الأخلاقي والمالي والإداري.

قريش تبعت سنة أمم سابقة

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ(٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ(٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ(٤٤) فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ(٤٥).

ورفض قريش وهذه الأمم للدعوة ليس لأنها دعوة باطلة ولكن التمسك بالموروث أعمى بصائرهم عن الحق.

دعوة عقلانية

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ(٤٦) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ(٤٧) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ(٤٨).

الآية (٤٦) تؤكد أن العقل يهدي للحق، وأن النقل للموروث يعمي القلوب ويعطل العقول عن سماع الحق ورؤيته.

عود لدعوة كل الناس الذي بدأته آيات أول السورة

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ

وَرِزْقٌ كَرِيمٌ(٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ(٥١).

ونتوقف عند الآيات التالية:

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ(٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٥٤).

هذه الآيات كانت مناسبة لكي ينفث المفسرون سمهم ضد دين الله وصدق دعوة رسوله، حيث قالوا إن معناها أن كل رسول يلقي الشيطان (أي إبليس) على لسانه قراءة ما ليس من القرآن مما يرضاه المرسل إليهم وقد قرأ النبي صلى الله عليه وسلم في سورة النجم بمجلس من قريش بعد «أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى» (تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى) ففرحوا بذلك ثم أخبره جبريل بما ألقاه الشيطان على لسانه من ذلك فحزن فسلي بهذه الآية. وبطبيعة الحال نستطيع أن نكذب خزعبلات المفسرين هذه بالقول إن سورة النجم نزلت قبل سنوات من نزول هذه السورة. لأن النجم نزلت في المرحلة الرابعة وفي السنوات الأولى من الدعوة في مكة بينما نزلت هذه السورة في أواخر أيام محمد في مكة، بل هي آخر سورة مكية. ولو أخذنا بقول كتب التراث من أن محمداً بقي يدعو في مكة (١٣) سنة فإن الفارق بين نزول سورة النجم وبين نزول سورة الحج عشر سنوات أو يزيد. ويستحيل ألا ينفي القرآن ما قاله وتلاه محمد على قريش حسب زعم المفسرين، وهو: «تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى» لمدة تزيد عن عشر سنوات. فالله ترك هذه العبارة تتلى طوال عشر سنين ولما تركت الغالبية العظمى ممن أسلم من قريش مكة، وكان الرسول على أهبة الاستعداد للمغادرة تنزل عليه سورة تقول له إن ما قلته قبل عشر سنوات هو مما ألقى عليك الشيطان ونطق به لسانك.

هذه واحدة من القصص التي يختلقها المفسرون كسبب لنزول آية في القرآن. ولأنهم يعزلونها عما حولها من آيات وسياقها ولا يعرفون متى نزلت فإن قصصهم المختلقة تأتي سطحية وبصور مضحكة، لكنها تستغل ممن يبحث عن مهاجمة القرآن واتهام الرسول

بالكذب من المستشرقين وأذنابهم، ومع ذلك يتم ترسيخها ونتقبلها وندافع عنها.

وبقي أن نحاول التعرف على ما تتحدث عنه الآيات والتي تقول: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ(٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٥٤).

الرسل والأنبياء بشر قبل البعثة وبعدها، وما يجري عليهم يجري على البشر غيرهم يجري عليهم. والفارق هو أن الرسل والأنبياء لديهم القدرة على جهاد النفس للبعد عن نواهي الدين، أكثر من غيرهم لأنهم يعرفون الدين أكثر من غيرهم.

والأماني داخل النفس تمر بخواطر الرسل والأنبياء كغيرهم.

والآيات تخبر الرسول أن كل الرسل والأنبياء لم يشذوا عن هذه الطبيعة البشرية، وكلما دخلت وساوس الشيطان في الأمنية يتم التخلص منها بعون الله، وليس بتدخل مباشر من الله. فالرسول والنبي هو الذي يستطيع نبذ وساوس الشيطان (النفس) التي قد تحيد عن الصواب بتوفيق من الله. ويكون الله جل وعلا هو من جنبه إياها بطريق غير مباشر.

والوساوس التي تشير لها الآيات هنا لها علاقة بآيات الله، أي تشريعاته التي ينص عليها دينه. والهواجس (الأماني) كثيرة ومتشعبة التي قد تمر بالرسول والنبي حول بعض التشريعات، كما تمر بنا. فمثلاً، قد يتساءل المرء: لماذا فرض الصوم؟ أو لماذا هناك حساب؟ ... الخ.

ويستطيع الرسول والنبي والمؤمن التقي أن يبعد هذه الهواجس ويستمر بالعمل بهذه التشريعات، بينما تكون هذه الهواجس درباً للشك المؤدي للكفر[١].

ولا تقول الآيات أن هذه الهواجس تنتاب الرسول محمد فقط، كما لا تشير لحادثة محددة خاصة بالرسول.

ستبقى قريش على كفرها

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ(٥٥)

١ الآيات تأتي بمعنى التشريعات، انظر في أول الكتاب موضوع: وقفة حول تسمية عبارات القرآن آيات/ فقرة: وتأتي بمعنى التشريعات والأحكام.

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ للهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ(٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ(٥٧).

قريش ستبقى على كفرها وشكها بالبعث حتى يهلكوا أو تحل بهم كارثة. ويوم القيامة سيكون مصيرهم النار ومصير المؤمنين الجنة.

الآية (٥٥) الساعة تقوم بغتة بالنسبة لمن يموت.

الملك يوم القيامة لله وحده، هو وحده الملك الحاكم، وهذا دليل على أن الآية الرابعة في سورة الفاتحة هي «ملك يوم الدين» وليس كما تقرأ الآن «مالك يوم الدين». لأن الله مالك كل شيء. لكنه وحده الملك الذي يحكم بين الخلق يوم الحساب فهو ملك يوم الدين وليس مالك يوم الدين.

وعد للمهاجرين

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ(٥٩).

عقاب المعتدي واجب

ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ(٦٠).

فالمسلم الذي عاقب القرشي الذي اعتدى عليه بمثل ما اعتدى به وقام القرشي بالبغي على المسلم، أي بتكرار الاعتداء، ولم يتمكن المسلم من صد الظلم، فسينصره الله. ولو تسامح المؤمن فالله سبحانه عفو غفور.

عود للدعوة العقلانية

ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ(٦١) ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ(٦٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ(٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ(٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ(٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ(٦٦).

ثم تتجه السورة لمخاطبة محمد وتحذره من القوم الكافرين: لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ(٦٧) وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ(٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(٦٩).

المنسك هو الطريقة والمعتقد.

والآية (٦٧) تؤكد للرسول أنه على الحق. والآية (٦٨) تشير إلى استمرار قريش في جدال الرسول.

وتعود السورة للدعوة العقلانية: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(٧٠) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ(٧١) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(٧٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ(٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(٧٤).

الآية (٧٠) كل شيء في الكون يسجل بدقة متناهية.

الآية (٧٢) تؤكد أن المؤمنين في مكة كانوا يساعدون الرسول في الدعوة، وذلك بتلاوة القرآن على الناس تماماً كما يفعل عليه الصلاة والسلام، وهو دليل على أن الدعوة لا تكون بالمواعظ والأحاديث والقصص ولكن بالقرآن وحده.

ونفس الآية تشير إلى الغيظ الذي يشعر به رجال قريش عند سماع القرآن يتلى عليهم من المؤمنين.

الآية (٧٤) تقول لو أن الناس (قريش) قدروا الله حق قدره لما أنكروا البعث لأنهم بذلك يقولون إن الله أعجز من أن يبعث من يموت. ولو قدروا الله حق قدره لعرفوا أن ذلك على الله هين.

الآية (٧٥) تقول إن هناك رسلاً من الملائكة تنقل الوحي للرسل من البشر: اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ(٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ(٧٦)

ثم تختم السورة بالتوجه للمؤمنين: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ(٧٨).

جاهدوا في الله تعني التمسك بالدين والهجرة، كما تقول سورة العنكبوت السابقة: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ(٦٩). وليست القتال الذي يسميه القرآن الجهاد في سبيل الله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(٥٤) المائدة.

الآية (٧٨) تؤكد أن قريشاً من نسل إبراهيم، فهم أولاد إسماعيل. وتؤكد أن الإسلام ملة (سنة وطريقة إبراهيم) بمعنى أن عبادات إبراهيم هي نفسها مطلوبة في الإسلام.

ومن يؤمن بالموروث يسمون الأحاديث بسنة رسول الله، وليس في الدين سنة للرسول. لأن طريقة الرسول في الصلاة أو الصوم أو الحج مثلاً لم يخترعها الرسول بل أداها تطبيقاً لأمر الله ونحن نؤديها كما أداها اتباعاً لأمر الله وليس تقليداً لأفعال الرسول، ولكننا نشترك مع الرسول في تطبيق دين الله على ملة إبراهيم.

الآية تفرض قانوناً إسلامياً يوجب احترام المسلم وشخصه وكرامته وعدم النيل من عزته.

وبهذا نكون قد انتهينا من سور الدعوة في مكة وعددها (٨٩) سورة، ولو افترضنا أن الرسول بقي في مكة كما تقول كتب السير (١٣) عاماً، فيكون معدل الفترة بين نزول سورة وأخرى هو (٥٢) يوماً. وفي نظري هي فترة طويلة جدا. ولعل تقديراتنا أقرب للصحة، والتي كانت ما يلي:

المرحلة الأولى وهي فترة بدء البعثة، ونزل فيها سبع سور قصار، وقد قدرنا فترة أسبوع إلى عشرة أيام بين نزول سورة وأخرى، أي أنها مرحلة استمرت حوالي شهرين.

المرحة الثانية وهي مرحلة إعداد وتأهيل الرسول، وتمثلها سورة المزمل وقد قدرنا بقاء الرسول في غار حراء يمارس برنامجه لبضعة أشهر، ولو قدرنا أنها قرابة تسعة أشهر، فيكون

قد مضى على رسول الله حوالي (١١) شهراً بين بدء البعثة وبين نزول سورة المدثر التي تمثل المرحلة الثالثة وبدء الدعوة.

وبعد حوالي شهر من نزول سورة المدثر بدأت المرحلة الرابعة والتي نزل فيها (٣٧) سورة، ثم المرحلة الخامسة ونزل فيها (٣١) سورة، ثم المرحلة السادسة ونزل فيها (٤) سور، ثم المرحلة السابعة والأخيرة في مكة ونزل فيها (٨) سور. ولو قدرنا أن هناك فترة شهر بين نزول سورة وأخرى في كل هذه المراحل فقد استغرقت الدعوة للمراحل الرابعة إلى السابعة حوالي (٨٠) شهراً نزل خلالها (٨٠) سورة. أي حوالي سبع سنوات، ولو أضفنا لها السنة التي بين بدء البعثة وبداية المرحلة الرابعة فيكون الرسول قد قضى ثماني سنوات في مكة من بداية بعثته وحتى الهجرة، وليس كما تقول كتب التراث من أنه بقي في مكة (١٣) عاماً.

وبطبيعة الحال السور لا تنزل بمعدل ثابت من الأيام. ولكنها تنزل حسب تغير وتجدد الأحداث. فكل سورة - كما سبق وذكر - تنزل لتتفاعل مع ما يجري. وكلما تسارع تتابع الأحداث كلما توالى نزول السور. وكلما هدأت الأحداث كلما تباعدت الفترة بين نزول سورة والتي تليها.

وتكون الدعوة الإسلامية في مكة مرت بمراحل مختلفة، بعضها مثل منعطفاً هاماً وأساسياً في مسيرة الإسلام، ومن ذلك:

- بدء الدعوة وتعريف الناس أن هناك بعثاً وحساباً (المرحلة الأولى).

وقد مثلت ميلاد أعظم دين لله عرفته البشرية. بزغ نجمه من بيت الله الوحيد على الأرض، ورسوله محمد ينتسب إلى العائلة الرسولية التي بدأت بآدم، وهو خاتم رسلها، والوحيد من بين رسل الله جميعاً، يرسل للناس كافة في كل العصور.

- بدء الإنذار واستمرار الدعوة (المرحلة الرابعة).

هذه المرحلة تعتبر البدء الفعلي لدعوة الإسلام، لأن ما سبقها من مراحل كانت تعريفية وتأهيلية.

- تغير خطاب الدعوة وميلاد الإسلام من جديد.

تغير خطاب القرآن من قريش إلى كل الناس وبني إسرائيل ومستضعفي قريش بدءً من المرحلة الخامسة. وهذا التغير يعتبر ميلاداً جديداً وجدياً للدعوة. ولو بقي الخطاب موجهاً

لقريش فسيموت محمد وعدد المسلمين لم يزد وقريش لن تؤمن، وتشريعات القرآن لن تفرض (كون التشريعات تفرض بعد تكون جالية مسلمة) ولو مات محمد وهو في طور الدعوة لدخول الإسلام فسيخلف دعوة لوحدانية الله والصلاة في أوقات غير محددة وأمر بالإنفاق ونهي عن الغش التجاري فقط. وهذا ليس ديناً كاملاً ولكنه دعوة توحيدية سرعان ما تتغير وتتبدل وتموت، وقد تقضي قريش على من يؤمن بها.

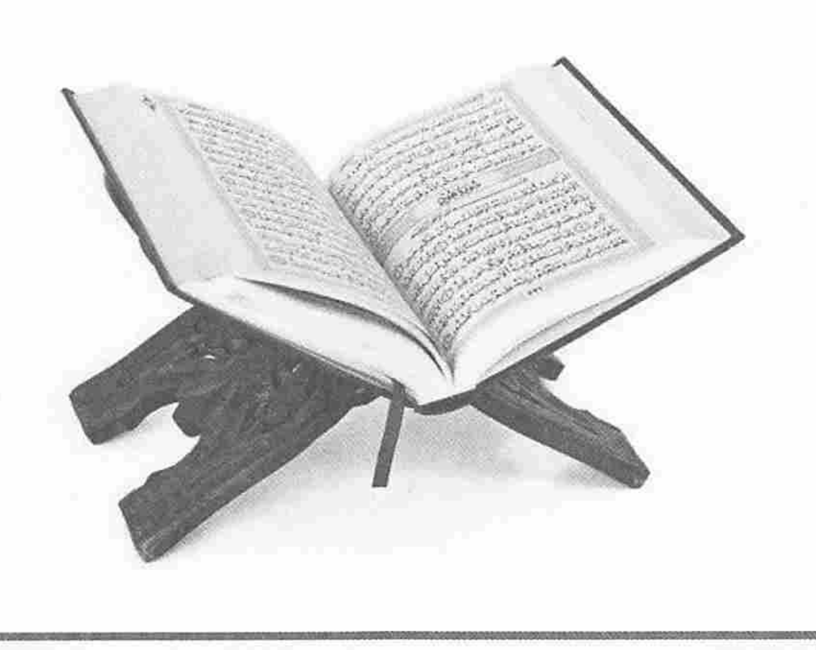
وهذا التغير في الخطاب كان السبب في دخول بعض بني إسرائيل يثرب للإسلام، وأولئك النفر يعود لهم الفضل (بعد الله) في نشر الإسلام في يثرب، وفي التمهيد للهجرة.

- الهجرة

والتي مثلت ميلاد دولة الإسلام، وأعلنت انتشاره وظهوره على خارطة العالم، واكتمال تشريعاته. ولو لم يكتب للمسلمين الهجرة فإن بقاءهم كأشخاص سيكون ضرباً من المستحيل، ولن يبقى من الدين بعدهم إلا ذكره.

وفي المدينة سيكون هناك محطات أخرى سنأتي على ذكرها في ختام حديثنا عن الفترة المدنية بعون الله.

تدبر السور المدنية





تدبر السور المدنية

ما قرأناه في عدد من السور المكية يخبرنا أن أول المؤمنين من يثرب هم من بني إسرائيل. وقد بدأوا برجل واحد كما تشير سورة الأحقاف: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِّ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَّ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٤٣).

والأحقاف نزلت بعد تحول الخطاب في القرآن لدعوة بني إسرائيل ببضعة أشهر، وهي فترة سمحت بانتشار الأخبار عن رجل في مكة اسمه محمد يتحدث عن بني إسرائيل ويقول بأنه رسول من الله. فقدم أحد بني إسرائيل من يثرب واستمع للرسول وآمن به. ثم عاد ليثرب وتحدث عما سمع وعن إيمانه بالدين الجديد. فآمن نفر من أهل الكتاب نتيجة لذلك، أشارت لهم سورة هود آخر سور المرحلة السادسة للدعوة في مكة: أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إَمَاماً وَرَحْمَةً أُوْلَـئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ(١٧).

ثم جاءت سورة الأنعام من سور المرحلة الأخيرة للدعوة في مكة لتؤكد إيمان عدد من أهل الكتاب: قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللهِّ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِّ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ(١٩) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(٢٠).

وهو ما تؤكده نفس السورة مرة أخرى: أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ(١١٤).

وأصبح لأهل الكتاب في يثرب حضور لافت في مكة، بعضهم آمن وبعضهم كان يدخل مع الرسول والمسلمين في جدال لدحض الحق: وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(٤٦) العنكبوت.

ولا ذكر للأوس والخزرج في السور المكية على الإطلاق. لكن بما أنهم يمثلون المستضعفين في يثرب، فقد تقبل غالبيتهم دعوة الإسلام، بعكس غالبية أهل الكتاب هناك الذين رفضوا الدعوة. ومن السهل استنتاج أن الجالية المسلمة في يثرب التي تتكون من قلة من بني إسرائيل وأهل الكتاب، وغالبية من الأوس والخزرج هم من قام بدعوة إخوانهم من مسلمي مكة للهجرة إليهم. وهذا يعني أن أهل يثرب بزعامة من آمن من بني إسرائيل هم من اختار مكان إقامة المهاجرين. وهم من قام ببناء مسجد رسول الله قبل وصوله إلى يثرب، بخلاف ما تقول كتب التراث أنه عليه الصلاة والسلام هو من اختار مسجده بنفسه، بل بواسطة ناقته التي أطلق لها العنان حتى بركت فقام ببناء مسجده وأقام هناك. لأن الرسول عندما هاجر كانت يثرب مملوكة لأهلها من بني إسرائيل والأوس والخزرج، والأعراف القبلية السائدة، لا تسمح لأحد أن ينزل في أي مكان من منطقتهم ويختار مكان إقامته كيفما يشاء. وقد فطن بعض كتبة التراث لهذه الحقيقة، فقال البعض منهم إن الرسول قد اشترى الأرض التي بني فيها المسجد من أيتام، وقام بنبش قبور كانت فيها وقطع نخيلها وهدم خرائبها. وروى آخرون أن الأرض كانت لبعض بني النجار الذين وهبوها للرسول دون مقابل مادي وكانت معاطن للإبل. وهذه الروايات لا يمكن قبولها على أرض الواقع، ليس لأنها تسيء للرسول فقط، ولكن لأنه حسب الأعراف السائدة لا يمكن لأحد أن يقدم ويقيم في أرض قبائل أخرى ما لم يجيروه هم، حتى لو افترضنا أنه اشترى أرضاً بينهم أو وهبت له. ولو قال قائل بأن الرسول له وضع خاص وسيرحب به بخلاف التقاليد، فهذا الكلام غير صحيح. لأن غالبية أهل يثرب وكبراءها لم يؤمنوا به حين هاجر، ولن يعاملوه إلا كما يعامل أي مستجير. لذا فالغالب أن مسجد رسول الله وسكنه (حجرته)، تم اختيار

مكانها وبناؤها قبل وصوله من مكة. وما يدل على ذلك هو أن اختيار الموقع جاء في الأرض الخالية التي تقع إلى الغرب من مساكن بني النجار، وإلى الشرق من وادي بطحان وجبل سلع، وشمال مساكن فخذ آخر من الخزرج هم بنو ساعدة، وبعيداً عن مزارع ومساكن بني إسرائيل واليهود والنصارى الذين لم يؤمن غالبيتهم بالإسلام ولم يرحبوا برسوله.

ولابد أن نذكر القراء أن يثرب عندما هاجر إليها الرسول عليه الصلاة والسلام كان يقطنها بنو إسرائيل ممن هجروا بلدهم الأصلي «قرية مصر» وهناك يهود ممن هجروا مملكة داوود، وهم أتباع مذهب ظهر بعد عصر موسى من أجناس مختلفة. وهناك نصارى من أتباع عيسى وممن غالوا فيه. إضافة للأوس والخزرج وغيرهم.

وقد تم تقسيم فترة الدعوة في المدينة إلى ثماني مراحل، لكل مرحلة سورها التي لها ملامح وأحداث خاصة، وبعض المراحل يمكن تقسيمها لفترات أصغر كما سنرى.

وفيما يلي جدولاً لمراحل الدعوة في المدينة يبين سور كل مرحلة:

اسم المرحلة		السور
المرحلة الأولى: التوطن والاستقرار		الممتحنة، الحجرات، المجادلة، الجمعة
المرحلة الثانية: ما قبل بدر	فترة التشريع	البقرة، النساء، المائدة، آخر آية في سورة المزمل
	فترة الاستعداد للقتال	الماعون، محمد، الصف
المرحلة الثالثة: ما بين بدر وأحد	فترة ما بعد بدر	الأنفال
	فترة الاستعداد لأحد	الحديد، التغابن، الطلاق
المرحلة الرابعة: ما بعد معركة أحد		آل عمران، التحريم، البينة
المرحلة الخامسة: ما بعد حملة الأحزاب		الأحزاب، النور، المنافقون
المرحلة السادسة: ما بعد الفتح	فترة فتح مكة	الفتح
	بدء حرب الروم	الروم
المرحلة السابعة: قلاقل ما بعد الفتح		براءة، الحشر
المرحلة الثامنة : الوفود		النصر

المرحلة الأولى:
التوطن والاستقرار

وهي مرحلة تمثل الأيام الأولى بعد هجرة الرسول للمدينة، وتسبق الاستعداد لحرب قريش، والاحتكاك ببني إسرائيل. وعدد سورها أربع سور، هي: الممتحنة، الحجرات، المجادلة، والجمعة. وهي سور ذات خطاب تفاعلي، أي أنها تخلو من الخطاب الدعوي أو التشريعي ولكنها نزلت للتفاعل مع الأحداث التي جرت في هذه الفترة وتعكس الأوضاع التي سادت في الأيام الأولى لوصول الرسول إلى يثرب. فهي سور تقتصر على تناول ما يحدث على الأرض وتعطي توصيات وتوجيهات مناسبة للتعامل معها.

أوائل مرحلة الاستقرار والتوطن

- سورة الممتحنة أول سورة مدنية تلت وصول رسول الله يثرب.
- الممتحنة أول سورة تخلو من أي خطاب دعوي، بعد أن جرت العادة في السور المكية - ومنذ بدء الدعوة في سورة المدثر - على أن تحتوي على خطاب دعوي.
- أول موضوع تحدث عنه القرآن بعد الهجرة هو تحذير مسلمة قريش من استمرارهم بموالاة أقاربهم المشركين في مكة: الممتحنة: (١-٩).
- أول سورة تخاطب بني إسرائيل يثرب بعد الهجرة هي سورة الجمعة: (١-٨).

وبما أن المواضيع التي تتطرق لها السور الأربع تدخل ضمن الأحداث، فسنختصر الحديث عنها في هذا القسم (تدبر القرآن) على أن يكون الحديث عنها مفصلاً في قسم: أحداث من عصر الرسول.

(٩٠) الممتحنة

أول سورة مدنية من حيث النزول، ولعلها المرة الأولى التي تخلو فيها سورة من الخطاب الدعوي، الذي يقل كثيراً في السور المدنية، لأنه لم يعد له حاجة بعد تكون مجتمع مسلم.

وتتحدث السورة عن ثلاثة مواضيع:

- تحذير «مسلمة قريش» من استمرار موالاتهم للمشركين برغم هجرتهم (الآيات:١-٩، ١٣).
- وصول عدد من نساء مكة مهاجرات (الآيات:١٠-١١).
- ومبايعة أولئك النسوة للدخول في الإسلام (الآية:١٢).

تحذير مسلمة قريش من الاستمرار في موالاة مشركي قريش

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ(١).

كيف تلقون بالمودة للمشركين الذي أخرجوا الرسول وأخرجوكم من مكة، إن كنتم خرجتم لوجه الله وليس لمآرب أخرى؟ وقد كان مسلمة قريش يسرون بالمودة لمشركي قريش ويحاولون إخفاءها عن الرسول والمسلمين لأنهم يعلمون أنها خطأ، وقد سبق وحذرهم القرآن منها عدة مرات في سور مكية قبل الهجرة.

وكبراء قريش لو تمكنوا من المسلمين لأعادوهم للكفر إن استطاعوا ولآذوهم لو ظفروا بهم: إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ(٢).

وحجة «مسلمة قريش» في موالاتهم كفار قريش، أنه تربطهم بهم صلات قربى ونسب: لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٣).

وكان يجب على «مسلمة قريش» إن كانوا مسلمين أن يتأسوا بإبراهيم ومن آمن معه الذين تبرءوا من قومهم وأقاربهم لأنهم استمروا على الكفر وأعلنوا حربهم على دين الله، ومن

آمن: قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ(٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ(٦).

ولو أن كفار قريش لم يحاربوا دين الله والمؤمنين، وقبلوا التعايش معهم بسلام، ولكل فريق دينه، فلن ينهاهم الله عن مودتهم والتقرب إليهم: عَسَى اللهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللهُ قَدِيرٌ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٩).

لأن النهي عن موالاة الكفار المحاربين للإسلام وأهله الذين لا يقبلون التعايش السلمي معهم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ(١٣).

وصول نساء مهاجرات من مكة إلى يثرب

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(١٠)

بعد أيام من وصول الرسول ليثرب وصلت مجموعة من نساء قريش إلى يثرب مهاجرات. ومن الطبيعي أن يتردد بعض المسلمين في الترحيب بهن فقد يكن عيون لقريش تظاهرن بالإسلام للتجسس على أحوال المسلمين. والسورة تقول للمسلمين بأن يمتحنوهن فإن كن مسلمات بالفعل أو يرغبن في الإسلام فلا يجوز إعادتهن لقريش. وتفسخ عقود نكاحهن من أزواجهن، ويتحمل المسلمون إعادة صداقهن لأزواجهن. كما أن الآيات تأمر

كل مسلم أن يطلق زوجته الكافرة وأن يطلب إعادة مهره الذي سبق وأن دفعه.

ومن لا يعاد له صداقه فعلى المسلمين أن يعوضوه بقيمة مماثلة: وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ(١١).

وهذا المنع للزواج بمشركي قريش كأنه بسبب حربهم للمسلمين وليس لأنهم كفار.

بيعة الدخول في الإسلام للمهاجرات

يلزم المهاجرات الجدد المبايعة للدخول في الإسلام. والمبايعة لا تعني نطق الشهادتين في جو احتفالي وتكبير وعرض مسرحي، كما يحدث الآن، ولكنها تتمثل بقطع العهد على النفس أمام الله أنها لا تشرك بالله شيئاً (كاتباع تشريعات غير تشريعاته سبحانه) ولا تسرق، ولا تزني، ولا تقتل أولادها، ولا تكذب، ولا تعص الرسول في كل معروف: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٢).

وميثاق الإسلام يدخل فيه الالتزام بكل أمر إلهي، والانتهاء عن كل نهي إلهي، ولو لم يذكر هنا.

(٩١) الحجرات

ثاني سورة مدنية وتتحدث عن موضوعين (حدثين):

- تصرفات فجة من وفود الأعراب في الآيات: (١-٥، ١٤-١٨).
- واقتتال بين مسلمة قريش والمستضعفين في الآيات: (٦-١٣).

تقاطر الأعراب للمدينة لرؤية الرسول وتصرفاتهم الفجة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ(٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ

أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ(٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ(٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥).

مجموعات من الأعراب حول يثرب ما إن تسامعوا بوصول الرسول للمدينة حتى تقاطروا إليها لتقديم الولاء طمعاً في الأعطيات، وهي عادة ما زالت حية عند بعض رجال البادية. وقد بدرت منهم تصرفات رعناء بعيدة عن التهذيب، فجاءت الآيات تنكر عليهم تصرفاتهم.

اقتتال بين مسلمة قريش والمستضعفين

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ(٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ(٧) فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٨).

فاسق نقل وشاية تسببت في مشاحنات وتصادم واقتتال بين طائفتين من المسلمين.

واستمرت الآيات لتبين كيف يتم حسم الخلاف: وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(١٠).

حتى الآن الآيات تقول بأن هناك فريقين من المسلمين حدث بينهما شحناء.

وتستمر الآيات: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ(١٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(١٣).

والآيات تقول بأن أحد الفريقين كان يسخر من أفراد الفريق الآخر وينعته بنعوت مذلة بسبب نسبه، كما ينعت بعض البادية صاحب البشرة السوداء بالعبد. وتقول الآية (١٣) إن كان لأحد الفريقين قبيلة ينتسب لها ويفاخر بها على الفريق الآخر فالنسب ليس مفخرة، ولكن المفخرة هي التقوى. وقد اشتركت النساء في الصدام ولم تقتصر المشاحنات على الرجال.

وهذه الآيات تؤكد أن الفريقين هما: مسلمة قريش، والمستضعفون من موالي وعبيد قريش السابقين الذين أسلموا وهاجروا. وهو امتداد لمشاحنات بين الفريقين بدأت وتكررت في مكة وذكرتها سور مكية. ولا عبرة بما ذكر في كتب السير والتاريخ التي كتبت بإشراف قريش والتي تقول إن يهودياً قد ذكر واقعة حدثت بين الأوس والخزرج قبل الإسلام، فبدأ كل فريق يعيب على الفريق الآخر، وتطور الوضع للاشتباك ودُقت طبول الحرب بينهما. إذ لو كان الشجار بين الأوس والخزرج، فلن يكون السبب هو تفاخر فريق على آخر بالنسب، لأنهم ينتمون لقبيلة واحدة هي الأزد.

عود للحديث عن الأعراب

تكمل السورة الحديث الذي تحدثت عنه في بدايتها عن وفود الأعراب وبعض تصرفاتهم الرعناء:

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ(١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٧) إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٨).

والحديث باستفاضة عن هذه المواضيع موجود في قسم: أحداث من عصر الرسول.

(٩٢) المجادلة

ثالث سورة تنزل بعد هجرة الرسول، وتتناول ثلاثة مواضيع، هي:

- امرأة تشتكي زوجها لأنه ظاهرها (الآيات: ١-٤).
- وحديث لأول مرة عن منافقين في يثرب (الآيات: ٥-١٠، ١٤-٢٢).
- وعود للحديث عن بعض سلوكيات الأعراب الذين ذكرتهم السورة السابقة (الآيات: ١١-١٣).

امرأة تشتكي للرسول أن زوجها ظاهرها

قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ(٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤).

والآيات تبطل عادة جاهلية كانت تعطي الرجل حق مظاهرة زوجته وهجرها وامتناعه عن النفقة عليها كيفما شاء، دون طلاق[١].

مسلمة قريش يتناجون بمعصية الله والرسول

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ

---

١ انظر فقرة: الظهار/ قسم تشريعات من القرآن.

الرَّسُولِ وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠).

كانوا يحادون الله والرسول (يخالفون أوامر القرآن)، ويتناجون بعصيان ما يسمعون من الرسول. وإذا ما لقوا الرسول حيوه بتحيات مبالغ فيها لم يحيه بها الله، وهم يعلمون أنهم يكذبون ويخشون أن يعاقبهم الله على كذبهم.

والآية تنهى عن النجوى التي فيها عصيان لأوامر الدين أو غيبة للرسول والمسلمين.

عود للحديث عن بعض سلوكيات الأعراب الرعناء

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣).

استكمالٌ للحديث عن وفود الأعراب الذين قدموا للقاء الرسول والذين تحدثت عنهم سورة الحجرات السابقة. والآيات هنا تبين أنهم كانوا يجلسون بطريقة فوضوية فيمتلئ بهم المجلس، وكان يجب عليهم الجلوس بترتيب معين، وأن يفسحوا لغيرهم بالجلوس ليسعهم المجلس ويسع غيرهم. كما أنه من اللباقة أن يحضروا معهم بعض الطِعام كغيرهم ليشترك في أكله الجميع، لكنهم لم يفعلوا. ولن يحاسبهم الله على ذلك، لأنه غير موجود في قاموس عاداتهم.

عود للحديث عن منافقي يثرب

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ

جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٦) لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢).

كانوا يحلفون للرسول والمسلمين أنهم مسلمون مثلهم، وهم ليسوا كذلك. لأنهم يعصون بعض أوامر القرآن ويوالون من حاد الله ورسوله. وهذا يعني أنهم مسلمة قريش الذين لم يؤمنوا برسالة الرسول، ومن يوال قوماً فهو منهم. وما يؤكد أن الحديث عن مسلمة قريش هو: " لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ"[1]. فمسلمة قريش يوالون مشركي قريش لأنهم أقاربهم وعشيرتهم.

(٩٣) الجمعة

السورة الرابعة حسب نزول السور المدنية، وهي آخر سورة نزلت في المرحلة الأولى المدنية، وهي مرحلة الاستقرار والتوطن. وتتناول موضوعين، هما: مخاطبة أهل الكتاب، وخروج بعض المصلين مع الرسول من المسجد أثناء الصلاة.

أول خطاب مباشر لأهل الكتاب في يثرب بعد الهجرة

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ(٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٣) ذَلِكَ فَضْلُ

١ وسيجد القراء تفاصيل الحديث عن المواضيع التي تعرضت لها هذه السورة في قسم: أحداث من عصر الرسول.

اللَّهَ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(٤) مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٥) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٦) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ(٧) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٨).

سورة الجمعة أول سورة مدنية تخاطب من أعرض عن الإسلام من أهل الكتاب وهم الغالبية. معللين ومبررين إعراضهم بأن محمداً حتى لو كان رسولاً من الله فهو للأميين، أما هم فأحباء الله من دون الناس جميعاً، الذي خصهم بديانة موسى، ولن يتبعوا رسولاً غيره.

خروج بعض المصلين مع الرسول من المسجد أثناء الصلاة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(١١).

الآيات تبدأ بفرض قانون (تشريع) يوجب ترك البيع والشراء بعد سماع أذان الصلاة في يوم الجمعة. وسبب هذا التشريع يعود إلى أنه فيما كان الرسول يؤم المصلين في يوم جمعة، من الأيام الأولى للهجرة، ترك بعض المأمومين صلاتهم، وتسابقوا للحاق بقافلة وصلت للتو للحصول منها على ما يحتاجون من متاع. (الآية لم تذكر القافلة حرفياً، لكن السياق يوحي بحضور القافلة وقت الصلاة وهو الذي جعل البعض يتراكضون لاستقبالها).[1]

والاحتمال الأكثر أن من خرج من المسجد وترك الصلاة كانوا من مسلمي يثرب، وليس من المهاجرين. ذلك أن المهاجرين صلوا مع رسول الله مدة طويلة وعرفوا أهمية الصلاة، لأن الآيات التي تحث على المواظبة على الصلاة وأدائها بخشوع قد نزلت بينهم في مكة: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ(٢)... وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ(٩) المؤمنون.

أما مسلمو يثرب فقد دخل بعضهم الإسلام بلقاء واحد مع الرسول، وعاد ليثرب،

---

١ وسيجد القراء تفاصيل الحديث عن المواضيع التي تعرضت لها هذه السورة في قسم: أحداث من عصر الرسول.

والبعض الآخر دخلوا الإسلام عن طريق شخص قابل الرسول، لكنهم هم لم يروه أو يجتمعوا به في مكة. وتكون معرفتهم بتفاصيل الدين قليلة، ومنها الصلاة. وتسابقهم على القافلة كون من فاته الحصول على ما يحتاج منها، قد يبقى زمناً طويلاً قبل أن تأتي قافلة أخرى، أو يضطر لدفع مقابل مادي أكبر للحصول على ما يريد ممن حصل عليها من القافلة قبله. فجاءت سورة الجمعة لتقول لهم إن ضياع أجر الدنيا لا يقارن بضياع أجر الآخرة، وأن التجارة الرابحة هي ضمان الجنة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(١١).

والآيات تشير إلى أن هناك سوقاً تجارية تقام يوم الجمعة في يثرب، وبالقرب من مسجد الرسول « رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ». وسورة الجمعة لا تعني أن هناك صلاة خاصة بيوم الجمعة، ولكن بما أن السوق التجارية تقام يوم الجمعة، فقد قالت السورة: «إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة». ولو كانت السوق تقام يوم السبت وخرج المصلون من المسجد فستقول السورة: « إذا نودي للصلاة من يوم السبت».

المرحلة الثانية:
فترة التشريع والاستعداد للقتال

وهي المرحلة الثانية من مراحل الدعوة في المدينة التي تسبق معركة بدر، ويمكن تقسيمها إلى فترتين لكل فترة ملامحها الخاصة بها، وهما: فترة فرض التشريعات، وفترة الاستعداد للقتال.

فترة فرض التشريعات

في كل الرسالات يبدأ الرسول بدعوة الناس للإيمان بالله والبعث وبعد أن يتكون مجتمع مسلم تفرض التشريعات ويكتمل الدين. ولذلك نجد أن الكثير من الأمم السابقة التي ذكرها القرآن لم تفرض فيها تشريعات، لأنه لم يؤمن سوى عدد قليل لا يكفي لتكوين مجتمع مسلم. وانتهى أمر تلك الأمم بهلاكها في كوارث طبيعية ونجاة الرسول ومن آمن معه. وسرعان ما تحولت أجيالهم لتشريعات بشرية مع مرور الزمن، حتى انتهوا للوثنية ونسوا الإيمان بالله. ولم يكن هناك استثناء لهذه السنة الأزلية أبداً، فموسى خرج ببعض بني إسرائيل من مصر، ومن خرج معه كانوا يمثلون من آمن بوحدانية الله. وبعد ذلك أمليت عليه التوراة، ولم تفرض التوراة في بداية دعوة موسى.

والإسلام بدأ بالدعوة للإيمان بالله والبعث وطوال سنوات مكة لم تفرض التشريعات الدينية فيما عدا الصلاة والإنفاق وتحريم الغش التجاري وبعض الفضائل. وبعد أن هاجر المسلمون من مكة وانضموا لإخوان لهم هناك، وأصبح لهم دولة على أرض يثرب. واستقر الرسول والمهاجرون، كان لابد من فرض التشريعات الدينية (التي تمثل القوانين التي تُسَيِّر الدولة وترسم سياساتها الخارجية، ويتبعها المسلمون ويعيشونها كأسلوب حياة) فنزلت ثلاث سور تماثل التوراة في كونها حوت كل ما لم يتم تشريعه من قبل من تشريعات

الإسلام، واكتمل بنزولها دين الله.

وهناك عامل آخر وهو أن الأخبار تواترت حول عزم قريش على مهاجمة المسلمين ولن تتركهم لشأنهم برغم هجرتهم وخروجهم من مكة. وعندما ينشب القتال فمن المحتمل أن يقتل الرسول كأي شخص آخر. ولو قتل قبل اكتمال التشريعات فلن يكون هناك إسلام، ولكنه إيمان فقط بالله والبعث والصلاة وبعض الفضائل في وضع مشابه لما كان عليه من آمن من الأمم السابقة. وبما أن الإسلام يمثل النسخة النهائية النقية لدين الله، فلابد أن يكتمل قبل مقتل أو وفاة الرسول.

أوائل المرحلة الثانية / فترة التشريع

- أول ذكر لمنافقي يثرب، البقرة: (٨-٢٠).
- أول ذكر خطاب دعوي موجه لبني إسرائيل يثرب في السور المدنية، البقرة: (٤٠-١١٣).
- أول حديث عن مشركي مكة في السور المدنية، البقرة: (١١٦-١١٩).
- أول حديث عن الربا، البقرة: (٢٧٥-٢٧٦).

وقد نزل في هذه الفترة ثلاث سور، هي: البقرة، النساء، والمائدة، إضافة للآية الأخيرة من سورة المزمل.

(٩٤) البقرة

أطول سورة في القرآن على الإطلاق وأكثرها فرضاً للتشريعات، وتحوي مع سورة النساء والمائدة، اللتين تليانها في النزول، كل التشريعات القرآنية التي لم يسبق فرضها، ليكتمل بهذه السور الثلاث دين الله، بعد أن أصبح هناك دولة مسلمة في يثرب واستقر الرسول ومن سبقه من المهاجرين فيها، بجانب إخوانهم الأنصار (قلة من أهل الكتاب وغالبية من الأوس والخزرج). فالسور الثلاث تعتبر بمثابة التوراة التي نزلت على موسى، كون التوراة كتاباً تشريعياً نزلت لتبين لبني إسرائيل تشريعات دين الله، بعد أن قُضي على فرعون، وآمن بموسى عدد كاف من بني إسرائيل لتكوين مجتمع مؤمن.

وسورة البقرة خامس سورة مدنية، بعد السور الأربع الأولى التي نزلت في المرحلة السابقة (مرحلة التوطن والاستقرار). وقد استغرق نزول تلك السور الأربع مجتمعة حوالي الشهرين والنصف، من الهجرة إلى نزول سورة الجمعة. على تقدير أن أول سورة نزلت كانت بعد وصول الرسول ليثرب بحوالي أسبوع إلى شهر، ثم توالى نزول السور الأربع بمعدل سورة كل أسبوعين. ونزلت سورة البقرة بعد سورة الجمعة بحوالي ثلاثة أشهر، ليكون نزولها بعد الهجرة بحوالي ستة أشهر[1].

ويمكن ملاحظة أن سورة البقرة تفرض بعض التشريعات نتيجة تفاعل السورة مع ما

---

١ وهي فترة طويلة جداً، ومبالغ في تقديرها.

يحدث، وجاءت التشريعات كتوجيه. وتفرض تشريعات أساسية في كل دين ورسالة سابقة وعليها يقوم دين الله، سواءً كان لفرضها سبب أو لا.

وسنتناول المواضيع التي تتحدث عنها السورة بالترتيب مع ذكر نوع الخطاب في الآيات، كما يلي:

الإيمان برسالة سابقة لا يقبل بعد رسالة محمد

(الآيات:١-٥) والخطاب دعوي.

افتتاح سورة البقرة بـ«ألم» يذكرنا بافتتاحيات سور مكية سابقة، مثل العنكبوت من المرحلة السابعة، والسجدة ولقمان من سور المرحلة الخامسة، مما يعني أن السور التي تبدأ بنفس الحروف الافتتاحية لا يعني أنها نزلت متتابعة أو في مرحلة واحدة أو قريبة من بعض.

وتبدأ السورة بإيصال رسالة إلى بني إسرائيل: الم(١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ(٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣) والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(٤) أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٥).[1]

(الآيات ١-٣) تؤكد على أن القرآن (ذلك الكتاب) هدى لمن يؤمن بالغيب ويقيم الصلاة وينفق، وهذا لا يعترض عليه بنو إسرائيل يثرب، ويعلمونه جيداً. لكن الآية: (٤) تضيف صفة لازمة لدخول الجنة، وهي الإيمان بما أنزل على محمد وما أنزل على من سبقه من رسل الله (إشارة لرسل بني إسرائيل والتوراة). وهو ما لم يقبل به إلا نفر من أهل الكتاب، أما الغالبية منهم فلم يعترفوا برسالة محمد. لأنهم لو فعلوا فسيصبحون مسلمين وسيخسرون تميزهم (الذي يظنون) على بقية الناس، كونهم أتباع موسى الكليم والذين أغرق الله فرعون لتخليصهم من استعباده. بل إن دخولهم الإسلام يعني اعترافهم أن عقائدهم خاطئة، وأن آباءهم طوال آلاف السنين ضالون. وهم يعيشون وهماً صنعوه ولا وجود له يتمثل بالظن أن الله اختارهم لدينه من دون البشر. وظهور محمد كرسول لله يلغي تميزهم المزعوم وميزاتهم التي نسبوها لأنفسهم. خاصة أن محمداً من بني إسماعيل الذين يضمر لهم بنو

---

١ من تلاعب المفسرين بألفاظ القرآن ما أورده الطبري للآية: أما الذين يؤمنون بالغيب، فهم المؤمنون من العرب، والذين يؤمنون بما أنزل إليك: المؤمنون من أهل الكتاب. ثم جمع الفريقين فقال: أولَئِكَ على هدًى مِنْ رَبِّهِمْ وأولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ. وهذا القول ينزه أهل الكتاب ويمدحهم بخلاف ما تقول السورة عنهم والتي تصفهم الآية: (٦) اللاحقة بأنهم كفار ولن يؤمنوا برسالة محمد مهما دعوا.

إسرائيل مشاعر ليس فيها من الود شيء، نتيجة لما حدث بين إسحاق وإسماعيل أو يعقوب وأبناء إسماعيل وكان سبباً في خروج يعقوب وأبنائه من مكة للبادية[1]. والتي كانت من مسببات مسخ التاريخ بأيدي الإسرائيليين، وتعمد تشويه سمعة إسماعيل وبنيه. ولو كان محمد من بني إسرائيل فقد يعتبره البعض منهم مجدداً للدين ويتبعونه، وحتى لو رفضوه فسيكون الرفض نتيجة لتمسكهم بالموروث، وليس بسبب اختلافه عنهم بالنسب.

لكن رفض غالبية الإسرائيليين ومن معهم من يهود ونصارى في يثرب لرسالة محمد، يختلف جذرياً عن رفض قريش. فقريش رفضت الدعوة بسبب تمسكها بالموروث وعدم إيمانها بالبعث، بينما رفض أهل الكتاب الدعوة، كتعصب وعنصرية، ولا علاقة له بدعوة محمد التي لا تختلف عما آمن به أجدادهم زمن موسى.

أهل الكتاب في يثرب رفضوا الدعوة ولن يؤمنوا أبداً

(الآيات:٥-٧) والخطاب دعوي

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(٦) خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ(٧).

هم من اختار الكفر ولم يقرره الله عليهم، وقول الآية «ختم الله على قلوبهم...» كون من لا يؤمن في البداية فلن يؤمن وكأنه ختم على قلبه. ولأن من خلق القلب وسهل التفكير هو الله فكأن الله سلب هذه القدرات من الكافر.

ومن تأويلات المفسرين قولهم بأن هذه الآية نزلت في الكفار الذين قتلوا يوم بدر. يقول الطبري: حدثني المثنى بن إبراهيم، قال: حدثنا إسحاق بن الحجاج، قال: حدثنا عبد الله بن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع بن أنس، قال: هاتان الآيتان إلي: وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ هم: الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرا وأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ البَوَار وهم الذين قتلوا يوم بدر فلم يدخل من القادة أحد في الإسلام إلا رجلان: أبو سفيان ابن حرب، والحكم بن أبي العاص. انتهى

وبطبيعة الحال فمعركة بدر وقعت بعد عدة أشهر من نزول البقرة، وهو ما يؤكد أن المفسرين لا يعلمون متى نزلت السور لأنهم اعتمدوا على اعتبار أن القرآن ينزل آية آية ولا علاقة بين

١ تفاصيل ما حدث موجود في كتابنا: من آدم إلى محمد.

الآية والآيات الأخرى في السورة. ولهذا تخيلوا أن هذه الآيات تتحدث عن الكفار في بدر، واختلقوا لها القصص.

حديث عن «مسلمة قريش»

(الآيات: ٨-٢٠) والخطاب تفاعلي

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ(٨) يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ(٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ(١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ(١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لاَّ يَشْعُرُونَ(١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَـكِن لاَّ يَعْلَمُونَ(١٣) وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ(١٤) اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(١٥) أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ(١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ(١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ(١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ(١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٠).

ما يؤكد أن الحديث هنا عن مسلمة قريش هو أن الآيات تقول إنهم ينظرون لمعظم المسلمين على أنهم طبقة اجتماعية أقل منهم مستوى، أو «سفهاء» في نظرهم.

خطاب لكل الناس

(الآيات:٢١-٢٥) والخطاب دعوي

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(٢٢) وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ

فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ(٢٤) وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٥) إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَـذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً.

الآيات تخاطب كل الناس، والإسلام لكل الناس. وسكان يثرب أناس بعقائد متنوعة، فهناك بنو إسرائيل الذين ينحدرون من أتباع موسى، وهناك اليهود الذين ابتدعوا عقيدة (مذهباً) بعد موسى. وهناك النصارى الذين انحدروا ممن آمن بعيسى، وبعضهم من اعتقد أن عيسى ابن الله أو أن عيسى وأمه آلهة مع الله. وهناك من بقي على وثنيته من الأوس والخزرج، ومثلهم الأعراب حول يثرب. والآيات موجهة لهم جميعاً ولغيرهم ممن يسمعها، برغم أن الآيات الأولى في سورة البقرة أخبرتنا أن من لم يؤمن من أهل الكتاب قد أعلنوا رفضهم لرسالة محمد ولن يؤمنوا. فاستمرار الدعوة لا يتوقف بإعلان الناس رفضهم لها، ولكنه يتوقف متى انتفت الحاجة له. وسنرى أن الخطاب الدعوي سيختفي من سور القرآن القادمة بعد اكتمال التشريع.

عود للحديث عن مسلمة قريش

(الآيات:٢٦-٢٩) والخطاب تفاعلي

تعود السورة للحديث عمن أعلن إسلامه من أهل يثرب وهو لم يؤمن (مسلمة يثرب) والذين ذكرتهم الآيات: (٨-٢٠): وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ(٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهَّ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُّ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(٢٧) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهَّ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٢٩).

الدخول في الإسلام لا يعني التلفظ بالشهادتين لكنه يعني عهداً مع الله وميثاقاً يوثق المسلم به نفسه بأن يطيع كل أوامر الله وينتهي عن كل نواهيه، مقابل جنة في الآخرة وسعادة في الدنيا. وهؤلاء تلفظوا بالشهادتين ولكنهم لم يؤمنوا ويعملوا بما يقول القرآن ومن ذلك

التوقف عن موالاة المشركين، وهذا نقض لعهد الله وميثاقه، حتى ولو أبقوا على إعلان الإسلام.

خلق آدم وموقف إبليس

(الآيات: ٣٠-٣٩) الخطاب دعوي قصصي

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ....(٣٠).

لأول مرة يأتي الحديث عن خلق آدم في السور المدنية، وهو موجه لبني إسرائيل لتأكيد رسالة محمد.

والآية: ٣٠ تؤكد بشكل قاطع أن الله قال للملائكة عن خلق آدم، ولم يقل لغيرهم معهم كالجن: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً». وهذا يعني أن كل من أخبرهم الله بخلق آدم ملائكة.

وقول الملائكة: « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء» قياساً على ما اختبروه ويرونه من أفعال البشر. وهذا يؤكد أن آدم ليس أول البشر، وإن خُلق بدون أب أو أم، مثلما خلق عيسى بلا أب وبقي إنساناً: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ(٥٩) آل عمران.

وكلاهما رجلان من البشر وليسا أول البشر.

وكان للملائكة موقف معارض لخلق آدم، كونه بشراً لن يختلف عن ملايين البشر الذين يعيشون على الأرض حين خلق، والصفة الغالبة عليهم أنهم مفسدون ومحبون للدماء. فأخبرهم الله بأشياء خفيت على الملائكة، تتعلق بخلق آدم، وبين جزءً منها بالدليل المحسوس .... : قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٣١) قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ(٣٣).

هل عُلم آدم أسماء بشر أو أسماء شجر أو أسماء مخلوقات مختلفة؟

كل هذه الاحتمالات ممكنة.

وتستمر الآيات بسرد ما حدث لآدم بعد ذلك: وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ(٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ(٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(٣٧) قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٣٩).

لقد سكن آدم وزوجه "الجنة" بمفهومها الأرضي التي تعني الغابة والأرض الخضراء الشجرية التي تجري فيها الجداول المائية. لأن جنة الخلد لن تخلق إلا في كون القيامة الذي لن يخلق إلا بعد انهيار هذا الكون.

شيء آخر ذكرته الآية: (٣٥) وهو زوج آدم.

من أين أتت؟

القرآن لا يقول إنها خلقت معه، ولا يقول إنها خلقت من ضلعه (كما تقول كتب التراث التي تبنت الإسرائيليات). وأميل إلى أنه تزوجها من الناس الذين كانوا يعيشون في تلك المنطقة.

ونعود للآيات التي تقول إن الشيطان قادهما للزلل المتمثل بعصيان نهي الله بألا يأكلا من شجرة معينة، وأكلا.

فعاقبهما الله بطردهما من الجنة وأمرهما بالهبوط منها، وهذا يشير إلى أن الجنة تقع على جبل، وهبطا إلى أرض سهلية تحت الجبل.

أول سورة مدنية تدعو بني إسرائيل

(الآيات: ٤٠-٧٥) والخطاب دعوي - قصصي.

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ(٤٠) وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ(٤١) وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(٤٢)

وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ(٤٣) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ(٤٤) وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ(٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(٤٦).

بعد أن وصفت سورة الجمعة كل أهل الكتاب بالحمار الذي يحمل الأسفار على ظهره ولا يستفيد منها ـ كونهم عرفوا التوراة ولم يستفيدوا منها - تبدأ البقرة بالقول إن من لا يؤمن بمحمد فهو كافر وسيرد النار ولو آمن بدينه السابق. والآيات هنا تدعوهم لدخول الإسلام، وألا يكونوا أول من يكفر به، وهم يعلمون أنه نفس الدين الذي جاء به موسى. ودعوتهم للإسلام تأكيد على أن دينهم ليس مقبولاً عند الله، وأن كل من يرغب في الجنة فعليه الدخول في الإسلام.

وتسرد السورة عليهم عدداً من النعم التي من الله بها على أجدادهم، وتفاصيل من تاريخهم يستحيل أن يعرفها محمد عليه الصلاة والسلام لو لم يكن رسولاً من الله: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ(٤٧) وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ(٤٨) وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ(٤٩).

الاستحياء هو بلغة هذا العصر الاغتصاب.

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ(٥٠) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ(٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(٥٣) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(٥٤).

الأحداث جاءت بالترتيب التالي:

غرق فرعون، تلاه تلقي التوراة. وأثناء كتابة موسى للتوراة عبد بعض بني إسرائيل الذين رافقوا موسى للوادي المقدس طوى العجل. وبعد عودة موسى واكتشاف أن قومه عبدوا العجل طلب منهم التوبة والتطهر، وقتل من دعا وحفّز على عبادة العجل، لكن الخبر جاء

من السماء بأن التوبة كافية ولا داعي للقتل[1].

الآية: (٥٤) فيها إشارة إلى أن اجتهاد وكلام الرسول (وهو هنا موسى) لا يقبل في دين الله، الذي لا يمثله سوى كلام الله وحده سبحانه.

وتستمر السورة تخبر عما حدث بين موسى والسبعين رجلاً بعد رجوعه من كتابة التوراة. فقد طلبوا رؤية الله، الذي يقول موسى إنه تلقى تكليماً منه. فما دام موسى كلمه فلم لا يرونه هم:

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ(٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٥٦).

والصاعقة لا تعني صاعقة برق، ولكن الصاعقة تعني الزلزال، كما ورد في سورة الذاريات: وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ(٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ(٤٤).

وثمود هلكوا بالزلزال كما تقول سور أخرى.

والرجال من بني إسرائيل الذين رافقوا موسى في رحلته لتلقي التكليم قد تعرضوا لزلزال وأيقنوا بالهلاك لكن الزلزال توقف ولم يصابوا بسوء، فارتدت إليهم أنفسهم التي كادت تفارق أجسادهم من الخوف.

وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(٥٧).

وقد رزقوا بالمن والسلوى. وأميل إلى أن المن هو نوع من الفطر بينما السلوى نوع من العسل البري، كما سبق وذكر في كتاب أحسن القصص.

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ(٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ(٥٩).

والقرية التي طلب منهم دخولها هي أقرب قرية للوادي المقدس طوى الذي تلقى موسى فيه التكليم. وهي التي يدخلها الناس بخشوع. لأن «سجداً» تعبير مجازي للخشوع.

[1] العبارة تم تعديلها بناءً على اقتراح من أبي حزم «المصحح اللغوي».

وتكون هي مكة التي فيها بيت الله الحرام.

ومن تخاريف المفسرين هنا قولهم: عن مجاهد، قال: أمر موسى قومه أن يدخلوا المسجد ويقولوا حطة، وطؤطىء لهم الباب ليخفضوا رءوسهم، فلم يسجدوا ودخلوا على أستاهم إلى الجبل، وهو الجبل الذي تجلى له ربه وقالوا: حنطة. فذلك التبديل الذي قال الله عز وجل: فَبَدَّلَ الّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غيرَ الّذِي قِيلَ لَهُمْ.

وتستمر تخاريفهم: حدثني موسى بن هارون الهمداني عن ابن مسعود أنه قال: إنهم قالوا: «هطى سمقا يا ازبة هزبا»، وهو بالعربية: حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعيرة سوداء. فذلك قوله: فَبَدَّلَ الّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غيرَ الّذِي قِيلَ لَهُمْ.

وتستمر التخاريف: حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: وَادْخُلُوا البابَ سُجّدا قال: فدخلوا على أستاههم مُقْنِعي رءوسهم.

انتهى الاقتباس لكلام مختلق فيه جرأة على تحريف كلام الله والسخرية منه، لا يمكن أن يتجرأ على قوله من في قلبه ذرة إيمان.

وبعيداً عن هذه التخاريف والتجديف، فالآية تقول إن بني إسرائيل طلب منهم الدخول للقرية المباركة «سجداً» أي خاشعين. وقولوا حطة، تعبير مجازي آخر بمعنى كلام الخير والبعد عن الإسفاف، أو كما قالت نفس سورة البقرة في الآية (١٩٧) لمن يدخل مكة حاجاً: الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ.

فقولوا حطة، ابتعدوا عن الفسوق والجدال، وليست « هطى سمقا يا ازبة هزبا». ومن قال بهذا على لسان ابن مسعود كذاب أشر اختلق كلاماً لا معنى له ولا يمت بصلة لأي لغة سواءً كانت العبرية أو غيرها. وذكر كلاماً سخيفاً مقابلاً له وكأنه ترجمة له إلى العربية.

لكن بني إسرائيل رفضوا فثار بالقرب منهم بركان محلي محدود. ونقول بركان لأن الرجز يعني أحياناً العذاب والبركان عذاب. كما ورد في سورة العنكبوت التي تقول بأنه هو الذي أهلك قوم لوط: إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(٣٤).

وقوم لوط هلكوا بالزلازل والبراكين.

ثم تعرض من بقي على قيد الحياة من رجال بني إسرائيل المرافقين لموسى للعطش، فقام موسى بالدعاء إلى الله أن يغيثهم بالمطر. لكن المطر لم ينزل، وتنبه موسى إلى أنه يحمل عصاً لها قوة فلماذا لا يجربها؟ وبالفعل ما إن ضرب بها الصخر حتى تفجر الماء:

وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ(٦٠).

وقد تم تقسيم رجال بني إسرائيل الذين مع موسى إلى (١٢) مجموعة، كل مجموعة تشرب من عين من العيون الاثنتي عشر التي تفجرت.

وقوله: « فقلنا اضرب بعصاك الحجر» يحتمل أن يكون موسى هو من فكر في استخدام العصى، وبفعل ذلك بهداية غير مباشرة من الله.

ويبدو أن القوم ملوا من أكل المن والسلوى:

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ(٦١).

لما طلب الرجال من موسى أن يغير لهم طعامهم ويستبدله بالخضراوات، أمرهم بالعودة لمصر وقادهم بالفعل إلى هناك. وبما أن فرعون قد هلك فلم يعد في مصر ما يخيفهم من العودة والعيش فيها ومعهم موسى.

وهذه الحقيقة مخالفة لما ترويه كتب اليهود عن موسى وبني إسرائيل التي تقول بأنهم لما تركوا مصر لم يعودوا إليها أبدا.

والفوم في قوله: «مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا» هو الثوم. من استبدال الحروف كقولهم: وقعوا في عاثور شرّ وعافور شرّ، وكقولهم للأثافي أثاثي، وللمغافير مغاثير، وما أشبه ذلك مما تقلب الثاء فاء والفاء ثاء لتقارب مخرج الفاء من مخرج الثاء. وهذا أمر بديهي عند علماء الصوتيات في اللغة العربية قديماً وحديثا[1].

وتقول السورة: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

١ وهذه العبارة استعرتها من المصحح اللغوي «أبو حزم».

الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٦٢).

وهذه الآية سبق ومررنا بها في الآية (١٧) من سورة الحج، وقلنا إنها لا تعني أن الله يقبل ديانة من يؤمن بالله ولو لم يؤمن برسالة محمد، ولكن الآية تشدد على القول «من آمن بالله» وليس من بقي على عقيدته اليهودية أو النصرانية أو الصابئية أو غيرها. فمن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً، فله أجره. ومن الإيمان بالله، الإيمان برسله وكتبه، ومنهم محمد والقرآن. ومن لا يؤمن بالرسول محمد والقرآن فليس بمؤمن بالله لأنه لا يمكن الإيمان ببعض الرسل والكتب دون بعض. وبداية سورة البقرة تؤكد أن من لا يؤمن بمحمد فليس بمؤمن. كما أن الآية (١٧) في سورة الحج تذكر المجوس، وهم عبدة للنار وليسوا موحدين.

وتعود السورة للأحداث التي وقعت لموسى ومن رافقه من بني إسرائيل:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ(٦٤).

والحديث هنا عما سبق ذكره من تلقيهم المن والسلوى. فالطور هو الجبل الشامخ المنتصب وهو ما ينطبق على الجبال حول مكة، قبل أن تطالها أيدي العابثين من البشر. حيث يسير المرء في الوادي وبالقرب منه جبل منتصب إلى الأعلى كالجدار العظيم.

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ(٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ(٦٦).

والآية لم تذكر كيف اعتدى بنو إسرائيل في السبت، لكنها تقول بأنهم لعنوا في السبت بما اقترفوه. وكعادة بني إسرائيل في قلب الحقائق، فقد حولوا اللعنة التي حلت عليهم في يوم السبت وكأنها بركة فجعلوا يوم السبت يوم مقدس لهم مع أنه يومٌ لعنوا فيه. والقرآن يعبر عن لعنهم بأسلوب مجازي بنعتهم بالقردة والخنازير. والقردة والخنازير نجسة ومكروهة في عرف سكان جزيرة العرب، لذا نعتوا بها وبما يتناسب مع المفهوم الشائع. ولا تقرر الآية أن الله خلق القردة والخنازير نجسة، فكل مخلوقات الله خلقت لحكمة وهي أمم أمثالنا وستبعث وتحاسب مثلنا.

ثم تنتقل السورة للحديث عن أخبار لبني إسرائيل في وقت لاحق، قد يكون بعد عودتهم لمصر واستقرارهم فيها:

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ(٦٧) قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ(٦٨) قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ(٦٩) قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاء اللّهُ لَمُهْتَدُونَ(٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ(٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ(٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٧٣).

ويمكن ملاحظة أسلوب القرآن الفريد في سرد القصة. فقد ابتدأ بالحديث عن طلب ذبح بقرة، ثم في الآية: (٧٢) ذكر لماذا جاء طلب ذبح البقرة، بدل أن يذكر سبب طلب ذبح البقرة أولاً. وهذا الأسلوب معتاد في القرآن وتكرر في سور عدة، وإن خالف طريقتنا في بناء الجمل.

وبعد سرد بعض مواقف بني إسرائيل مع موسى، تقرر السورة أنهم لن يؤمنوا برسالة محمد، لأنهم لم يؤمنوا بموسى وهو معهم وبينهم ومنهم: ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(٧٤) أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(٧٥).

فمن كفر بموسى في عصره وحرف الكلم عن مواضعه برغم شهادتهم لنعم الله عليهم حينها، فلن يؤمن برسالة جاء بها أحد أبناء إسماعيل المغضوب عليهم من قبل بني إسرائيل. والآيات تصف بني إسرائيل الذين لن يؤمنوا برسالة محمد بالكفار، برغم أنهم موحدون.

بعض أهل الكتاب يتظاهرون بالإيمان

الآيات: (٧٦-٧٧) والخطاب تفاعلي

وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ(٧٦) أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا

يُعْلِنُونَ(٧٧).

والآيات هنا تقول بأنهم كانوا يظهرون تصديق رسالة محمد ويقومون باطلاع المسلمين على بعض ما جاء في كتبهم المقدسة، لمقارنته بها في القرآن (على ما يبدو) فيأتي أناس آخرون منهم وينهونهم عن ذلك، كون عقيدتهم ميزهم الله بها عن بقية البشر (كما يظنون).

عامة بني إسرائيل يثرب

(الآية:٧٨) والخطاب تفاعلي

السورة تخبر عن نوع آخر من بني إسرائيل يثرب، لا يقرأون ولا يكتبون، ولكن يعتمدون في معرفة دينهم على ما يقول لهم رجال دينهم: وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ(٧٨).

وهؤلاء إمعات لا خطر على الإسلام منهم. وغالبية أتباع المذاهب عند المسلمين هم على هذه الشاكلة.

رجال دين بني إسرائيل يقولون على الله ما لم يقل

(الآية: ٧٩) والخطاب دعوي

والسورة تتوعدهم: فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ(٧٩).

فهم يقولون إن ما يشرعونه لفتاويهم من حلال وحرام وغيره يمثل دين الله. وهذا اقتبسه المسلمون منهم وترسخ بيننا في كل المذاهب، فأصبح لدينا من يكتب الكتاب بأيديهم ويقولون هو من عند الله، ويجدون «إمعات» يتبعونهم في كل ما يقولون دون تفكير.

الاعتقاد بالخروج من النار معتقد إسرائيلي

(الآيات:٨٠-٨٢) والخطاب دعوي

ومن عقائد بني إسرائيل التي ترسخت لدينا بفضل رجال الدين، القول بأن صاحب الكبيرة يعذب فترة في النار ويخرج: وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٨٠) بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيـئَتُهُ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٨١) وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ

الصَّالِحَاتِ أُولَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٨٢).

والآيات تنفي هذا الاعتقاد، وتقول بكل وضوح: إن مزاعم بني إسرائيل ليس لها مصدر، وهي تَقوُّلٌ على الله ما لم يقل. فالله جل شأنه يؤكد أن من اكتسب خطيئة (كبيرة)، فسيخلد في النار ولن يخرج منها. وأن من التزم العمل الصالح والبعد عن الكبائر مع الإيمان فسيخلد في الجنة.

وتُذكِّر السورة بني إسرائيل ببعض تشريعات التوراة: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَّ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ(٨٣).

وهذه التشريعات متطابقة مع ما ذكره القرآن، كدليل أن القرآن والتوراة التي نزلت على موسى، دين واحد.

طرد فريق من بني إسرائيل من قبل فريق آخر

(الآيات: ٨٤-٨٦) والخطاب تفاعلي

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ(٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَـؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُّ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(٨٥) أُولَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ(٨٦).

الحادثة تتلخص في وقوع اقتتال فيما بين بني إسرائيل وقام المنتصر بطرد المهزوم من الديار. والسورة تذكر الحادثة وكأنها وقعت حديثاً، مما يعني أن هناك من تم جلاؤه من يثرب من بني إسرائيل على أيدي فريق آخر منهم بعد هجرة الرسول.

عود للحديث عن تاريخ بني إسرائيل وإرسال عيسى

(الآيات: ٨٧-٨٨) والخطاب دعوي

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ

بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ(٨٧) وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ(٨٨).

الآية: (٨٧) تشير إلى أن عيسى ابن مريم جاء بعد موسى مباشرة، لإعادة بني إسرائيل لتعاليم التوراة التي انحرفوا عنها. وهو دليل آخر من أدلة كثيرة على أن عيسى ابن مريم ليس يسوع المسيحية. ونفس الآية تؤكد أن بني إسرائيل تتالت عليهم الرسل، وأنهم قتلوا بعضهم، ولم يصدقوا الآخرين.

والآية (٨٨) تؤكد كفر بني إسرائيل، حتى قبل بعثة محمد، لأنهم انحرفوا عن التوراة واتبعوا تشريعات ابتدعوها، ولم يقبلوا دعوات الرسل الذين بعثوا فيهم لإعادتهم للحق. فهم كفار برغم أنهم يؤمنون بالله، وقد يؤدون بعض الشعائر الدينية.

بنو إسرائيل يثرب كفار لأنهم لم يؤمنوا برسالة الإسلام

(الآيات: ٨٩-٩٣) والخطاب دعوي

السورة تؤكد أنهم لم يؤمنوا بمحمد، برغم أن ما جاء به متوافق مع أصل دينهم الذي جاء به موسى: وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ(٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أنَزَلَ اللهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ(٩٠).

الآيات تقول: بنو إسرائيل كفار لأنهم كفروا بدعوة محمد، وكل من يكفر برسالة محمد فهو كافر. دليل لا يقبل الجدل في أن الإسلام (رسالة محمد) وحده المقبول عند الله ومن لا يؤمن بالإسلام فهو كافر. اليهود والمسيحيون والهندوس والمجوس وغيرهم كفار.

وتؤكد السورة مرة أخرى أنهم كفار، لتمسكهم بالإيمان بالله على ديانتهم، وعدم الدخول في الإسلام، والآيات تقول هذا غير مقبول: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(٩١).

وتقول الآية لهم: إن محمداً مجدد لدين الله، ومن لا يؤمن به كافر، وأنتم لو كنتم مؤمنين لتبعتم الرسل الذين تلوا موسى والذين جاؤا لتجديد الدعوة، ولما قتلتموهم.

وتستمر السورة في نفس السياق وتقول بأنكم أشركتم وموسى بينكم، وعصيتم وكفرتم: وَلَقَدْ جَاءكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ(٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ(٩٣).

القرآن ينفي أكذوبة شعب الله المختار

(الآيات: ٩٤-٩٦) والخطاب تفاعلي

اليهود اليوم يرددون ما كان يردده بنو إسرائيل قديماً من أنهم شعب الله المختار وأحباؤه دون البشر: قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآَخِرَةُ عِندَ اللّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٩٤) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمينَ(٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ(٩٦).

ليس لليهود عهد عند الله وليسوا شعبه المختار ولكنهم كفار قلوبهم قاسية ويقولون على الله ما لم يقل.

بنو إسرائيل يعادون جبريل وتأكيد أنهم كفار

(الآيات: ٩٧-٩٩) والخطاب دعوي

قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ(٩٧) مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ(٩٨).

وما ذكر أعلاه يظهر بعض معتقدات بني إسرائيل يثرب.

ومرة أخرى تؤكد السورة أنهم كفار لأنهم لم يؤمنوا بمحمد: وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ(٩٩).

طوال تاريخهم كفروا بما أنزل الله

(الآيات: ١٠٠-١٠١) والخطاب دعوي

وهم اعتادوا على مر تاريخهم أن تتابع عليهم الرسل ولا يؤمنون: أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ

فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(١٠٠)

ولذلك فكفرهم بمحمد ليس مستغرباً: وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ(١٠١).

بنو إسرائيل يعتقدون بالسحر ويمارسونه

(الايات:١٠٢-١٠٣) والخطاب دعوي

وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ(١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّه خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ(١٠٣).

الكهانة والسحر توارثوه منذ أيام مملكة سليمان. حيث كان هناك «شياطين» (من الإنس) يعلمون الناس تلك الكهانة والسحر مما نقلوه من حاكمين (مِلِكين) من الناس لمملكة أرضية اسمها بابل. والملكان هما: هاروت وماروت.

ولفظ «ملكين» في الآية جاء تشكيله (بفتحة على اللام) وكأنهما من الملائكة. والحقيقة أنهما بشران، وبالتالي فالتشكيل يجب أن يكون (كسرة على اللام).

وكون بني إسرائيل يتبعون معتقدات توارثوها منذ زمن سليمان فهذا يؤكد أن بعضهم قد نزح ليثرب بعد أن انهارت مملكة سليمان نتيجة لغزو خارجي - كما سبق وذكرنا - وتأكيد على أن مملكة سليمان تقع في اليمن، لأن الهجرات دائماً تكون من أقصى جزيرة العرب إلى الشمال.

تحذير من الإسرائيليات

(الآية:١٠٤) والخطاب توجيهي للمسلمين

تحذر السورة المؤمنين ألا يقلدوا بني إسرائيل في بعض ألفاظهم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ْوَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٠٤).

وقد يكون للفظ «راعنا» معنى عامي دارج سيء عندهم، وبالتالي يجب على المسلمين ألا يوجهوه لرب العالمين. وهو ما أكدت عليه سورة النساء التي نزلت بعد البقرة مباشرة: مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً(٤٦) النساء.

والآيات تؤكد وتكرر التأكيد على أنهم كفار.

عود للتأكيد على أنهم لن يؤمنوا برسالة الإسلام

(الآية:١٠٥) والخطاب تفاعلي

تشير السورة إلى أن بني إسرائيل يعلمون أن محمداً رسول الله لكنهم لن يتبعوه كونه من نسل إسماعيل وليس منهم. وشبيه بذلك موقف قريش التي لم تؤمن كون الرسول ليس من الكبراء: مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(١٠٥).

وقد سبق وأشارت سورة البقرة في أولها إلى أن بني إسرائيل رفضوا الدعوة ولن يؤمنوا بها أبداً في الآيات: (٥-٧).

النسخ لا يعني الإلغاء

(الآيات:١٠٦-١٠٧) الخطاب توجيهي

تلتفت السورة لمخاطبة المسلمين الذين قد أطلعهم بنو إسرائيل على بعض ما في التوراة والتي أوردها القرآن بعبارات أخرى: مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ(١٠٧).

هاتان الآيتان تقولان بأن الدين واحد، ولكن قد ينزل على الرسول تشريع مختلف عن تشريع ورد في التوراة، وقد تتفق معها. في إشارة لما سبق وذكرته السورة من أن بعض من أعلن الإسلام منهم كانوا يطلعون المسلمين على ما ورد في بقايا التوراة التي لديهم ويقارنونها بما يقول القرآن، فيأتي آخرون وينهونهم عن ذلك: وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ

آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ(٧٦) أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ(٧٧).

ولا شأن لقوله تعالى: ما ننسخ من آية أو ننسها...» بما سماه رجال الدين بالناسخ والمنسوخ والذي يعني أن الله ينزل تشريعا في القرآن ثم ينزل تشريعاً في القرآن ينقضه أو يلغيه. فنسخ الآية يعني نسخ صورة طبق الأصل من الأرشيف الإلهي لتشريع (آية) لرسول من الرسول. و «ننسها» تعني عدم نسخ نفس ذلك الحكم أو التشريع من الأرشيف الإلهي لرسول آخر من الرسول.

ومن ذلك أن بني إسرائيل حرم عليهم بعض المآكل كعقاب لهم لفعل فعلوه، وليس لأن تلك المآكل حرام أصلاً، كما أخبرتنا سورة الأنعام: وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ(١٤٦).

بعض المسلمين تأثروا بفكر بني إسرائيل

(الآية:١٠٨) والخطاب تفاعلي

تظهر السورة أن بعض المسلمين، ونتيجة لمعاشرة بني إسرائيل، قد يتشبهون بهم ويسألون محمداً أسئلة سألها بنو إسرائيل موسى: أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ(١٠٨)

وسؤال بني إسرائيل لموسى أخبرتنا به سورة النساء: يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِيناً(١٥٣) النساء.

عود للتحذير من الإسرائيليات

(الآيات:١٠٩-١١٠) والخطاب تفاعلي

وتستمر السورة تخاطب المسلمين وتحذرهم من الاستماع لبني إسرائيل: وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ

فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١٠٩) وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(١١٠).

وقد بدأ تحذير المسلمين من الاستماع لبني إسرائيل وتقليدهم في الآية: (١٠٤).

وسنرى أن تحذيرات القرآن من الاستماع لبني إسرائيل تكررت كثيراً على أسماع المسلمين، لكن الأيام ستثبت أن المسلمين سيتشربون الإسرائيليات وسيبنون عليها عقائدهم، وهو ما تغص به كتب التراث الديني لكل المذاهب.

عود للتأكيد على نفي أكذوبة شعب الله المختار

(الآيات: ١١١-١١٢) والخطاب تفاعلي

تعود السورة للحديث عما سبق وأشارت له الآيات: (٩٤-٩٦) وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(١١٢).

بنو إسرائيل - مثلهم مثل يهود اليوم - يعتقدون أن الله اختارهم وفضلهم على كل البشر، وبالتالي فهم وحدهم من سيدخل الجنة. كما أن هذا الاعتقاد كان سائداً عند النصارى في يثرب، والآية تنفي هذا الاعتقاد وتؤكد أن الجنة لمن أسلم وجهه لله على الطريقة المحمدية.

والنصارى كما سبق وذكرنا في مقدمة السور المدنية هم من وجدوا بعد عيسى ابن مريم بعضهم يؤمن بالوحدانية وبعضهم يعتقد بتثليث مخالف لتثليث المسيحيين. فتثليث النصارى يقوم على اعتبار الله (تعالى الله علواً كبيراً) وعيسى وأمه ثلاثة آلهة، بينما تثليث المسيحيين يقوم على اعتبار الأب، والابن (يسوع) والروح القدس. والنصارى في يثرب لم يبق لهم أثر بعد عصر صدر الإسلام، لأنهم قلة ومن لم يدخل الإسلام منهم هاجر لبلاد الشام وذاب في المجتمعات المسيحية.

اليهود والنصارى في يثرب لم يكونوا على وفاق

(الآية:١١٣) والخطاب تفاعلي.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ

فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(١١٣).

الآية تتحدث عن يهود ونصارى يثرب زمن الرسول وأنه لم يكن بينهم وفاق، ولا تتحدث عن يهود ونصارى في مكان أو زمان آخرين.

مقدمة للحديث عن تثبيت القبلة

(الآيات: ١١٤-١١٥) والخطاب تفاعلي

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَـئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١١٤) وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(١١٥) البقرة.

قريش هم من منعوا المسلمين من دخول المسجد الحرام في أواخر العهد المكي قبل الهجرة. وهو ما ذكرته سورة الحج: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(٢٥). وصدوا المسلمين عن المسجد الحرام للصلاة فيه برغم أنه وجد أصلاً لذكر الله.

وتقول السورة إن التوجه في الصلاة لأي جهة مقبول، لأن المشارق والمغارب وكل اتجاه لله جل وعلا. وكأنها تطمئن بعض المسلمين في يثرب الذين كانوا يصلون باتجاه غير اتجاه البيت، بأن صلاتهم مقبولة ولو كانت باتجاه إيليا. وستعود السورة في آيات لاحقة للحديث عن ذلك.

أول خطاب لمشركي قريش بعد الهجرة

(الآيات: ١١٦-١١٩) والخطاب دعوي

وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ(١١٦) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ(١١٧) وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ(١١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ(١١٩).

(الآية:١١٦) تكرر ما سبق وذكرته سور مكية من أن قريشاً تقول بأن الملائكة بنات الله.

(الآية:١١٨) هناك مطالب لا معقولة، مثل طلب رؤية الملائكة أو آيات وخوارق، أو رؤية الله أو تكليمه لهم كما يكلم محمداً، مثلما أشارت إليه سورة الأنعام: وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ(١٢٤).

وهو ما سألته أمم قديمة، منهم بنو إسرائيل: يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِيناً(١٥٣) النساء.

(الآية:١١٩) محمد بشير ونذير فقط وليس مسئولاً عن هداية الناس. هكذا يجب أن يكون كل داعية مسلم، يوصل ما يقول القرآن للناس دون حاجة للوعظ والقصص. طبعاً لن يوافق الغالبية، خاصة من يحب الظهور والأضواء والإعلام، ويشعر بالزهو وهو يحشد المستمعين له، أثناء ممارسته لقصصه، وما يجنيه وراء كل ذلك من مال وجاه وسلطة.

تأكيد أن من لم يؤمن من يهود ونصارى يثرب فلن يؤمن

(الآيات:١٢٠-١٢١) والخطاب تفاعلي

وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ(١٢٠).

ومن آمن منهم آمن عند سماعه لدعوة الحق دون تردد: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَـئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(١٢١).

عود لدعوة بني إسرائيل يثرب وتذكيرهم ببعض نعم الله على أسلافهم

(الآيات: ١٢٢-١٢٣) والخطاب دعوي

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ(١٢٢) وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ(١٢٣).

التفضيل على العالمين تعني من كان حولهم من الأمم في منطقتهم عندما جاءتهم رسالة من

ربهم زمن موسى وكان من حولهم وثنيين، ولا تعني أنهم أفضل خلق الله على الأرض. لأن القول بتفضيل الله لخلق من خلقه على البقية فيه اتهام لا يليق به جل جلاله. فهو خلق البشر من نفس واحدة (مواصفات واحدة) وليس بينهم تفضيل إلا بالتقوى وليس بالنسب. لكن بني إسرائيل ونتيجة لاضطهادهم من قبل أهل مصر لمدة طويلة وتعاملهم معهم تعامل العبيد، حاولوا أن يمسحوا تلك الإهانة بالزعم أن الله اختارهم كشعب مفضل لديه.

حديث عن إبراهيم

(الآيات: ١٢٤-١٣٤) والخطاب دعوي

وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ(١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ(١٢٩) وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ(١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ(١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٣٤).

(الآية:١٢٥) مكة آمنة منذ القدم. كما أن الناس عادوا للحج وزيارة البيت منذ أن طهره إبراهيم وأعاد بناءه. وهذا يعني أن البيت كان محجاً للبشر قبل عهد إبراهيم بوقت طويل،

وأنه هجر وتهدم، فقام إبراهيم بإعادة بنائه وتهيئته ليكون جاهزاً ليستأنف الناس الحج إليه. والآية تقول: « وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى» والحديث هنا عما كان في عصر إبراهيم. لذا فكلمة «واتخذوا» يجب أن تُقرأ على أنها فعل ماضي وليس كفعل أمر. فالناس في عصر إبراهيم اتخذوا من مقام إبراهيم حول الكعبة مكاناً للصلاة، ولا تطلب الآية من الناس الآن أو في عصر الرسول أن يصلوا في مقام إبراهيم[1].

(الآية:١٢٦) دعوة إبراهيم أن تكون مكة آمنة «أي تستمر آمنة» وأن ترزق بالثمرات. وقد دعا بهذا الدعاء لأن مكة أصبحت موطنه منذ أن لجأ إليها بعد خروجه من قريته مع لوط، وعاش فيها حتى تلك اللحظة المتقدمة من عمره، وبقي فيها بعد ذلك حتى مات.

ثم تعود السورة للحديث عما سبق وقام به إبراهيم في مكة بعد أن أصبح ولده إسماعيل شاباً، وكلفه الله بمعاونة والده لصيانة البيت: وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ(١٢٩).

بنو إسرائيل يثرب تركوا ملة إبراهيم

(الآيات: ١٣٠-١٣٥) الخطاب دعوي

وتؤكد السورة أن بني إسرائيل ليسوا على دين الله لأنهم ضلوا عن ملة إبراهيم: وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ(١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ(١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٣٤).

---

١ انظر مقام إبراهيم/ مقدسات تحيط بالكعبة لا قدسية لها في الإسلام/ المقام/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

وتحولوا لمذاهب مبتدعة: وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٣٥).

وهو ما سبق وأشارت له سورة الأنعام: قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٦١).

واليهودية والنصرانية معتقدات مبتدعة ظهرت بعد زمن موسى وبعد زمن عيسى، وهي معتقدات ضالة تختلف حتى عن مذاهب بني إسرائيل الضالة، ويتبع اليهودية والنصرانية أناس من بني إسرائيل ومن أجناس أخرى.

الدين واحد

(الآيات: ١٣٦-١٣٨) والخطاب دعوي

وملة إبراهيم ليست ديناً جديداً ولكنها نفس دين الله الواحد الذي أرسلت به كل الرسل، وهو ما جاء به محمد: قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(١٣٦) فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(١٣٧) صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ(١٣٨).

فتكون ملة إبراهيم هي نفس ما جاء به الرسول محمد. لكن بحكم أن الناس يبتعدون عن الدين ويتعلقون بتشريعات دخيلة بعد كل رسول، فإن كل الرسالات التي سبقت القرآن لم يعد لها وجود، وتوراة موسى الوحيدة التي كتبت قبل القرآن فقدت، وما يعتنقه اليهود الآن هو دين رجال ديانتهم. لذا على كل من يرغب في الجنة أن يؤمن بالإسلام الذي جاء به رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام، وأي دين غيره لن يقبل.

معتقدات اليهود والنصارى مبتدعة

(الآيات: ١٣٩-١٤١) الخطاب دعوي

اليهود والنصارى ابتدعوا معتقدات من عند أنفسهم وتمسكوا بها على أنها دين الله، وقالوا هي الدين الذي كان عليه إبراهيم وأبناءه: قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا

وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٤١).

والآية (١٣٩) تقول لهم: كيف تريدون إقناعنا كمسلمين أنكم على حق ونحن أعرف بربنا ودينه منكم؟

والآية (١٤٠) تستنكر زعم اليهود والنصارى أن إبراهيم كان منهم، لأنه عاش في زمان سابق للزمن الذي ظهرت فيه هذه الفرق المبتدعة.

وتؤكد الآيات أن كل من يؤمن بالله عليه أن يؤمن بمثل ما أمن الرسول والمسلمون به، وهو نفس دين الله الواحد الذي كان عليه آباء بني إسرائيل الذين اتبعوا موسى في زمانه.

تثبيت القبلة

(الآيات: ١٤٢-١٥٠) والخطاب تفاعلي

سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧) وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ

حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٥٠).

الرسول لم يصل لفلسطين (قبلة اليهود) يوماً واحداً، ولكنه وجد بعض مسلمي يثرب يصلون لها عندما هاجر، ولم يكن يستطيع أمرهم بكلامه الشخصي فانتظر حتى نزل الوحي يأمرهم بالتوجه للقبلة، ففعلوا.

والحديث عن هذه الآيات مفصل في قسم: أحداث من عصر الرسول، يرجى الرجوع له.

مخاطبة المسلمين

(الآيات:١٥١-١٥٧) والخطاب توجيهي

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ(١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ(١٥٢).

الحكمة هي هنا معرفة الحق من الباطل، وهذا يكون باتباع تشريعات الدين[١].

أول ذكر للقتال في سبيل الله

تستمر السورة تخاطب المسلمين: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ(١٥٣) وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ(١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ(١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ(١٥٦) أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ(١٥٧).

القتال لم يحدث بعد، بل إن القتال لم يفرض إلا في آيات قادمة، وهذا أسلوب متبع في القرآن رأينا آيات مشابهة في سور سابقة، حيث تبدأ الآيات بالحديث عن موضوع جديد وكأنه سبق الحديث عنه، مع أن الحديث عنه سيأتي بعد ذلك[٢].

والآيات تهيئ المسلمين لما قد يواجهون عندما يبدأ القتال مع قريش التي يبدو أنها مصرة على ملاحقة المسلمين، ولابد أن الأخبار تنامت عن حشودها ضدهم وقدومها لحربهم.

---

١ يمكن العودة لقسم مفردات من القرآن/ الحكمة، لمعلومات أكثر.

٢ انظر فقرة: البدء بسرد الحدث لا يكون بالضرورة من أوله / قسم من أساليب القرآن.

وعندما تقع الحرب سيكون هناك قتلى وعلى المسلمين احتساب قتلاهم عند الله والصبر على المحن وعلى نقص أموالهم نتيجة إنفاقهم على الحرب وتجهيز الجيش.

وقوله تعالى: وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ(١٥٤).

قام المفسرون – كعادتهم – بليها لغير معناها، وذلك بالقول بأن المقتول في سبيل الله لا يموت ولكن يكون حياً عند الله فعلياً. ومما قالوا بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ولكن تجديفاً على الله ما نقله الطبري أن مجاهداً يقول: « يُرْزَقُونَ من ثمر الجنَّة ويجدون ريحها وليسوا فيها».

قتادة قال: «يتحولون إلى طير بيض يأكلن من ثمار الجنة، وأن مساكنهم سدرة المنتهى».

الربيع قال: طيور خضر وفي الجنة ويأكلون منها كيفما شاءوا.

ابن عباس قال: هم عَلَى بارِقٍ نَهْرٍ بِبابِ الجَنَّةِ فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ»

وقال عبدةُ: هم فِي رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا.

وقال ابن بشار السلمي: أرواح الشهداء في قباب بيض من قباب الجنة في كل قبة زوجتان، رزقهم في كل يوم طلعت فيه الشمس ثور وحوت، فأما الثور ففيه طعم كل ثمرة في الجنة، وأما الحوت ففيه طعم كل شراب في الجنة.

ويستمر تخريف المفسرين بما لم ينزل به الله عليهم سلطاناً، ولكنه تخاريف قالوها من عند أنفسهم تظهر جهلهم المطبق وجرأتهم على الله وقلة إيمانهم.

والآية نزلت قبل أي معركة وقبل أن يقتل مسلم واحد في قتال في سبيل الله، وهي كآيات كثيرة في سورة البقرة والنساء والمائدة ومحمد والصف تهيئ وتحث المسلمين على قتال قريش وصد عدوانهم المتوقع، وتعد من يقتل وهو مؤمن منهم بالجنة. وقوله: «أحياء عند ربهم» مجاز يعني أنهم سيرزقون عند ربهم بعد البعث وفي الجنة. لأن من يموت سيشعر أنه انتقل للآخرة مباشرة خلال لحظات، كون ذاكرته ستتوقف عن التسجيل وبالتالي لن يشعر بمرور الوقت. وعندما يبعث المؤمن ويدخل الجنة فكأنه دخلها بمجرد وفاته. ومن يقتل لن يعود للحياة إلا يوم القيامة، سواءً قتل في سبيل الله أو في حادث عرضي، لأن عودة النفس للحياة تحتاج لجسد حامل لها، وهو لن يتوفر بعد الموت إلا بعد نشأة كون القيامة.

بعض شعائر الحج

(الآية: ١٥٨) الخطاب تشريعي

ثم تنتقل السورة للحديث عن بعض شعائر الحج: إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ(١٥٨).

من الواضح أن بعض المسلمين سأل الرسول إن كان الطواف بين الصفا والمروة من الحج؟ فأجابته السورة بأنه لا جناح على الحاج أو المعتمر أن يتطوف بالصفا والمروة، وهذا يعني أن من لا يفعل فلا جناح عليه أيضاً.[1]

تحذير من كتمان الوحي

(الآيات: ١٥٩-١٦٢) تفاعلي

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ(١٥٩) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَـئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(١٦٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ(١٦٢).

الآيات تحذر كل من يكتم الوحي ولا يبلغه للناس الذين لا يعرفونه. وكل من يفعل ذلك فهو كافر وعليه اللعنة وسيخلد في النار.

والآيات تشير إلى أن هناك بعض من يحفظ شيئاً من القرآن عندما يسأل عن حكم القرآن في مسألة لا يخبر السائل بما يقول القرآن، أو أنه يخبره بشيء مخالف وينسبه للقرآن. وهذا ينطبق على رجال الدين في عصرنا من كل المذاهب الذين يقولون بغير القرآن، وهم يعلمون.

عود لمخاطبة قريش

(الآيات: ١٦٣-١٦٤) والخطاب دعوي

السورة خاطبت قريشاً في الآيات: (١١٦-١١٩) وتعود هنا لمخاطبتهم، وتكرر عليهم الدعوة للتفكير بخلق الله لإدراك أنه سبحانه لن يعجز عن البعث: وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ

[1] الأستاذ عبد الرحمن أسعد «أبو حزم» المدقق اللغوي للكتاب يميل إلى أن السعي بين الصفا والمروة كان معروفاً في الجاهلية، فسأل بعض المسلمين الرسول إن كان مطلوباً في الحج والعمرة. فجاءت الآية تقول إنه مباح، ولا جناح على من تطوف بهما.

إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ(١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(١٦٤).

أول مرة تخاطب السور المدنية المستضعفين في مكة

(الآيات: ١٦٥-١٦٧) والخطاب دعوي

بعد مخاطبة قريش في الآيات السابقة تتحول السورة لمخاطبة من لم يسلم من مستضعفي مكة تبعاً لسادتهم، وتصور لهم الحال فيما سيكونون عليه يوم القيامة لو ماتوا وهم كفار:

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ(١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ(١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ(١٦٧).

والآيات تصور الوضع تصويراً مجازياً لزيادة التأثير في النفس.

الحديث عما يحرم من المآكل

(الآيات: ١٦٨-١٧٣) الخطاب توجيهي

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ(١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(١٦٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ(١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ(١٧١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ(١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٧٣).

الآيات تشير إلى أن بعض من دخل الإسلام من قريش أبقوا على موروثهم بعدم أكل بعض

اللحوم التي اعتادوا على تحريمها قبل الإسلام، وتذكرهم الآيات بما حرم القرآن، والذي ذكر في سورة النحل المكية في الآية: (١١٥).

ولهذا جاءت الآية: (١٧٣) وكأنها نسخة لآية النحل التي تقول: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١١٥). وهو المطلوب وليس ما ورثوه من موروثهم.

عود لتحذير من يكتم الوحي

(الآيات: ١٧٤-١٧٦) والخطاب تفاعلي

وتعود السورة لتحذير الذين يكتمون الوحي والذي سبق وأشارت له الآيات: (١٥٩-١٦٢) السابقة: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَـئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٧٤) أُولَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ(١٧٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ(١٧٦).

يبدو أن الذين يكتمون بعض الوحي يفعلون ذلك لأنه يتعارض مع مصالحهم، أو لأن كتمانه يستفيدون منه بمنافع دنيوية.

الدين كل لا يتجزأ

(الآية:١٧٧) والخطاب تشريعي

تعود السورة لإكمال الحديث عن القبلة مؤكدة أن هناك ما هو أهم في الدين من اتجاه القبلة وأهم من مجرد أداء الصلاة: لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ(١٧٧).

فالدين كل لا يتجزأ. ولا يكفي أن نصلي باتجاه الكعبة لنصل لمرتبة البر (أعلى درجات الإيمان)، بل علينا أن نأتمر بكل أمر قرآني وننتهي عن نواهيه. ومن الأوامر ما ذكر هنا

من تشريعات. ومنه: إيتاء المال (الإنفاق) على كل ما يحتاجه المجتمع المسلم وذكرت الآية بعض تلك الاحتياجات.

ما يسمى بالقصاص

(الآيتان: ١٧٨-١٧٩) والخطاب توجيهي

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٧٩).

هذه الآيات لا علاقة لها بحوادث القتل التي تحدث باستمرار، ولو حاولنا تطبيقها عليها لما تطابقت. فلو أن امرأة قتلت رجلاً عمداً فالواجب أن تقتل به، ولو قتل رجل امرأة فالواجب قتله بها، ولو قتل رجل حرٌ عبداً فالواجب قتله به. وهكذا كل شخص يقتل آخر يقتل به بغض النظر عن جنس القاتل وجنس المقتول: وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٤٥) المائدة.

فالنفس مقابل النفس بغض النظر عن اللون والجنس والمعتقد وكل شيء. فكيف تقول آية سورة البقرة: «الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى»؟

لو تذكرنا أن السياق هام لفهم القرآن، والسياق يعني ربط الموضوع الواحد ببعضه في نفس السورة أو في سور سابقة أحياناً، فإن الآيات: (٦-١٣) من سورة الحجرات التي سبقت نزول البقرة، ذكرت اقتتالاً بين مسلمة قريش والمستضعفين السابقين. وقد وقع قتلى بين الفريقين، فجاءت الآيات التي شاع تسميتها «بآيات القصاص» تقول: على المسلمين إحصاء قتلى كل فريق وتصنيف القتلى: كم رجل حر، وكم عبد، وكم امرأة حرة، وكم أمة؟ ويقابل كل قتيل بمثيله: الحر بالحر، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى. ولابد أن هناك فريقاً قتل منه أكثر مما قتل من الفريق الآخر، والقتلى الزائدون لن يكون لهم قتلى يقابلون بهم، فتدفع لهم دية. ولو تنازل الفريق الذي سيحصل على الدية لقتلاه فهو خير له.

وبما أن الاقتتال حدث للمرة الأولى فإن الله غفور رحيم، لكن لو تجدد القتال بين الفريقين

أو بين أي فريقين من المسلمين فهو عدوان توعد الله من يصدر منه بالعذاب الأليم: « فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ». ولن تقبل له توبة لأنه أقدم على كبيرة يعلم مسبقاً أن من يقدم عليها فهو في النار. وسيأتي حكم القتل العمد والقتل الخطأ في الآيات: (٩٢-٩٣) من سورة النساء.

والسؤال الذي قد يخطر على بال الكثيرون هو: لو اقتتلت طائفتان من المسلمين اليوم فهل يطبق بحقهما ما ورد في الآيتان (١٧٨-١٧٩)؟

والجواب هو أن من يبدأ القتال فهو الباغي وهو من يجب قتاله، بينما الآخر يعتبر معتداً عليه ويدفع عن نفسه. ولا علاقة لهذا بالآيتين. وكل من يقدم على قتل النفس فينطبق بحقه حكم القتل العمد[١].

الوصية

(الآيات: ١٨٠-١٨٢) والخطاب تشريعي

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ(١٨٠) فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١٨١) فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٨٢).

- الوصية تكون للوالدين والأقربين حصرياً، ومن أوصى بغير ذلك فقد بدله بعدما سمعه.
- في حال اتضح أن الموصي تعمد الإضرار بورثة آخرين بوصيته فلابد من ثنيه عن تنفيذ وصيته، ونصحه بتعديل الوصية.
- فقه المذهب السائد يقول بأن الوصية لا تجوز بأكثر من ثلث مال الموصي. ودليلهم حديث منسوب للرسول يقول: الثلث والثلث كثير.
- ولا تجوز لوارث. وأدلتهم في ذلك حديث منسوب للرسول يقول: لا وصية لوارث[٢].

١ انظر فقرة: القتل/ العمد والخطأ في قسم: تشريعات من القرآن.

٢ انظر فقرة: الوصية / قسم مواضيع وأدلة من القرآن.

الصيام

(الآيات: ١٨٣-١٨٥، ١٨٧) والخطاب تشريعي

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٨٣)

الصيام كتب على الأمم السابقة.

أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(١٨٤).

المريض والمسافر فقط من يحق لهم الإفطار. ومن أفطر لهذا السبب فهو مخير بين قضاء الصيام بأيام مماثلة فيما بعد، أو فدية طعام يوم كامل (فطور، غداء، عشاء) لمسكين عن كل يوم أفطره. ومن يرغب في زيادة ما يعطي المسكين فهو خير يحسب له. وتؤكد الآية أن من يصوم في السفر أو في المرض (إن استطاع) فهو خير له من الإفطار. وهذا هام، فالناس يظنون أن الإفطار في السفر أفضل.

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٨٥).

الصيام المطلوب من رب العالمين هو شهر رمضان، فقط لا غير. وتؤكد الآية على أن قضاء ما فات من أيام رمضان بسبب المرض أو السفر أفضل من الفدية[١].

الدعاء للاستغفار والتوبة من المعاصي وليس لأمور الدنيا

(الآية:١٨٦) والخطاب توجيهي

ثم تبتعد السورة عن حديث الصيام: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ(١٨٦).

الآية تقول إنه لا حاجة لساعة معينة لأن يقبل الله فيها التوبة، كآخر ساعة من يوم الجمعة كما تقول كتب التراث. والدعاء هنا هو الاستغفار والتوبة وليس طلبات دنيوية، لأن الدعاء لشيء دنيوي لا يستجاب[٢].

١ انظر فقرة: الصيام / قسم تشريعات من القرآن.

٢ انظر فقرة: الله لا يتدخل في أمور الدنيا / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

عود للحديث عن الصيام

(الآية: ١٨٧) والخطاب تشريعي

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ(١٨٧).

ومباشرة النساء في ليالي رمضان أباحته الآية قبل أن يسأل عنه المسلمون، ومع ذلك قالت الآية: عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ». لأن فرض الصيام تم في هذه السورة التي لم يقرأها المسلمون بعد، لكي يتساءلوا عن مباشرة النساء في الليل. وكأن الآية أعطت حكماً لتساؤل من البديهي أن يسأله المسلمون.

وتذكر الآية «الاعتكاف في المساجد» فهل الاعتكاف لأيام كما هو معروف الآن؟ أم أن الاعتكاف يعني شيئاً آخر؟ لأن البقاء لعدة أيام في المسجد يعني التشبه بالرهبانية وتعطيل الإنتاج والإسلام حريص على الإنتاج والعمل ومحارب الرهبانية. ولأنه لم يشتهر عن الرسول أن بقي بلا حراك في المسجد لأيام، خاصة أن كل أيامه في المدينة ترقب وقتال واستعداد وحركة، ولم يكن يملك الوقت الكافي لكي يرتاح أو يبقى في المسجد لعدة أيام[1].

أكل البعض أموال البعض الآخر بالتحايل أو القوة

(الآية: ١٨٨) والخطاب تفاعلي وتوجيهي

ثم تخاطب السورة المسلمين في يثرب: وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(١٨٨).

الآية واضحة المعنى لنا جداً لأننا نعيشها في أيامنا هذه. حيث يقوم أحد المنتفعين بإبلاغ صاحب النفوذ أن هناك قطعة أرض ذات قيمة عالية، ويقوم المتنفذ بوضع يده عليها وإعطاء المنتفع بعض المال مقابل ذكر الأرض له وإخباره بها. أو إبلاغ المتنفذ أن هناك شركة

---

١ انظر فقرة: الاعتكاف / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

تدر مكاسب كبيرة ليدخل مع مالكها شريكاً في المكسب دون الخسارة أو رأس المال، أو غير ذلك. والآية تخاطب مسلمي يثرب زمن الرسول، وهو ما يعني أن مثل هذه التصرفات كانت موجودة في ذلك العصر.

لكن من هم الحكام؟

هل المقصود زعماء اليهود وبني إسرائيل؟

المؤكد أنها لا تتحدث عن ملوك ممالك، ولا السلاطين الذين سيستولون على حكم دولة المسلمين بعد الفتوح. وبما أن يثرب ليس فيها حكام زمن رسول الله بالمعنى السائد حالياً للحكام، فإن كلمة حكام تعني من يقضون للناس في منازعاتهم. وهذا قبل أن يكون هناك قضاة كموظفين للدولة، ويصبح القضاء وكأنه وظيفة دينية بيد الدولة.

فالقضاء في الأصل وطوال عصر الرسول عبارة عن فض المنازعات بما يراه القاضي، وليس منصباً دينياً. والآية تحذر من أن يرشى القاضي لكي يحكم في قضية ضد بريء، مقابل منفعة.

والدليل على أن الحكام هنا تعني من يفض المنازعات، هو قوله تعالى: إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا(٥٨) النساء.

فالله أمر المسلمين أن يقضوا ويحكموا بين الناس لو طلب منهم ذلك بالعدل. فالحكام في الآية (١٨٨) من التحكيم والقضاء وليس من الحكم والتملك.

حديث عن الأهلة وعن قانون سلوكي

(الآية:١٨٩) والخطاب توجيهي

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٨٩).

الآية تقول بأن الأهلة (الأشهر القمرية) هي التي تقوم عليها العبادات في الإسلام، كالحج والصيام. وتفرض تشريعاً (قانوناً) سلوكياً هاماً في دخول البيوت. وهذا يعني أن التقويم القمري هو السائد قبل الإسلام وفي عصر الرسول.

أول ذكر للقتال في سبيل الله

(الآيات: ١٩٠-١٩٤) والخطاب تشريعي

وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ(١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ(١٩١) فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ(١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(١٩٤).

لأول مرة يأتي الأمر بالقتال في سبيل الله، وقد بينت بقية الآية حدوده وضوابطه بالقول: «وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ».

فالقتال في سبيل الله يعني صد العدوان وعدم مبادرة الغير بالاعتداء لأي سبب كان، لأن الله لا يحب المعتدين. وأي شيء لا يحبه الله فهو كبيرة.

الآيات تفرض بعض ضوابط الجهاد التي تظهر أن الإسلام لا علاقة له بما يتهم به من أنه دين دموي يلاحق الناس في كل مكان ليقاتلهم أو يرغمهم على الإسلام أو يسبي نساءهم ويستعبد رجالهم ويسلب أراضيهم وممتلكاتهم. فالقتال موجه لمن يعتدي ويحمل السلاح، أما من لا يشارك في القتال ولا يحمل السلاح فهو مسالم يحرم التعرض له. كما أن المعتدين متى ما كفوا وانتهوا فيجب التعايش معهم بسلام.

الإنفاق في سبيل الله

(الآية: ١٩٥) والخطاب تشريعي

وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(١٩٥).

الإنفاق هو علاقة بين العبد والعبد، مثلما أن العبادات علاقة بين العبد وربه. والإنفاق مطلوب في كل وقت يكون هناك حاجة في دولة الإسلام للفرد أو المجتمع. والآية هنا تأمر المسلمين بالإنفاق في سبيل الله. أي في تجهيز جيش المسلمين لما ينتظره من حروب مع قريش. وهذا يعني أن قريشاً أعلنت حربها على المسلمين برغم أنهم تركوا مكة. ولذلك

يجب على المسلمين أن يكونوا مستعدين لها بالعتاد والسلاح والرجال، وهذا يحتاج للمال الذي يجب أن يغطيه الإنفاق من القادرين. والآية تحذر من لا ينفق وهو قادر، واصفة إياه بمن ألقى بنفسه للتهلكة كون مصيره سيكون النار، ولو قام بكل أمور الدين الأخرى. فالدين لا يتجزأ وترك أمر مثل ترك كل الأوامر.

الحج

(الآيات: ١٩٦-٢٠٣) والخطاب تشريعي

وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ للهِّ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللهَّ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَّ شَدِيدُ الْعِقَابِ(١٩٦).

هذه الآيات وردت في بداية الحديث عن الحج في الآيات: (١٩٦-٢٠٣)، مع أنها تأتي في آخر الحديث. وهي تقول بأن من لم يتمكن من الحج والعمرة (القدوم من عرفات والطواف بالبيت وقضاء النذر - إن وجدت - وأداء التفث) لأي سبب من الأسباب بعد قدومه للحج، فليذبح هديه ويحلق رأسه ويعود لبلاده. وذبح الهدي ليس دم كفدية لقطع الحج قبل تمامه، كما يقول الفقه السائد المستمد من كتب التراث. ولكن لأن الحج يلزم الحاج بإحضار هديه معه في الحج، هكذا هو الأصل. وعندما يضطر لقطع الحج فعليه أن ينحره ولو قبل يوم النحر ثم يحلق رأسه ويعود لبلاده. وحلاقة الرأس تكون بعد نحر الهدي.

ومن لم يحضر معه هدياً أو لم يجد هدياً، سواءً بعدم قدرته على شرائه أو عدم توفر الأنعام، فعليه فدية صوم عشرة أيام: ثلاثة أثناء تواجده في مكة، والباقي بعد عودته لبلاده. وإن كان من أهل مكة فعليه صوم الأيام العشرة في مكة.

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُّ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ(١٩٧).

الآية تقول بأن الحج يؤدى خلال أشهر معلومات، وأن من مبطلات الحج الرفث والفسوق والجدال.

لَيسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ(١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ(٢٠٠) وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(٢٠١) أُولَـئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ(٢٠٢) وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٢٠٣).

الحج يبدأ بالتجمع في عرفات، وليس كما تقول كتب التراث. التي تنص على أن التجمع يكون بمنى في اليوم الثامن من ذي الحجة ثم يتحرك الناس صباح اليوم التاسع لعرفات.

والتجمع في عرفات ليس من أعمال الحج لكنه استعداد للحج. فعرفات يجتمع فيها الناس لبدء الحج، والذي يبدأ بانطلاق الحجاج من عرفات باتجاه البيت للطواف وقضاء النذر والمتاجرة وقضاء الحاجات قبل أن يخرجوا لمنى لنحر الهدي وحلاقة الشعر. كما أنه لا خطبة في عرفات. وخطبة الحج الحالية عبارة عن موروث داوم عليه المسلمون نتيجة فهم خاطئ لما حدث أثناء حجة الرسول الوحيدة والتي كانت في آخر حياته وتوفي بعدها بأشهر قليلة. فقد أمرت سورة براءة الرسول أن يعلن على جموع الحجاج الوافدين من كل أنحاء جزيرة العرب أن قريشاً هي من خان معاهدتها مع المسلمين يوم فتح مكة، وأن المسلمين يمهلونها أربعة أشهر للتراجع، فإن لم يتراجعوا فسيلاحقهم المسلمون في كل مكان ويضيقون عليهم ويقاتلونهم بكل ضراوة. وقد أعذر من أنذر: بَرَاءةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَأَنَّ اللّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ

الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ (٦) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧).

والآية: (٧) تبين أن سبب هذا الإنذار هو خيانة قريش لمعاهدة أبرمتها مع المسلمين عند المسجد الحرام، أي يوم فتح مكة.

وبالفعل صعد الرسول يوم عرفة على مرتفع يقع وسط سهل عرفات، وتلا آيات سورة براءة. ولم يكن هناك خطبة وداع، ولا أي نوع من الخطب. ولم يرسل الرسول أبا بكر ليقرأ على الناس السورة نيابة عنه، ولم يستبدله بعلي ابن أبي طالب، فكل هذه الأقوال تخاريف كتب التراث تم اختلاقها تباعاً بعد عصر الظلمات والفتن. ولما اعتلت قريش سلطة دولة المسلمين بعد الفتوح استغل حكامها يوم عرفه لتبليغ الناس بفرمانات وقرارات الحاكم، بحجة أنها تقليد لما فعل رسول الله. وأصبحت الخطبة في عرفة أهم شعائر الحج عند المسلمين مع أنها ليست منه. كما بقيت منبراً لتبليغ الناس بقرارات الحاكم وما عليهم الالتزام به. ولا يفطن الكثير من المسلمين أن عرفات خارج حدود الحرم، والحج كل أعماله في الحرم. وهناك من يعلم هذه الحقيقة، لكنه يتغافل عنها عمداً. وبما أن مبعوث الخليفة أو الخليفة نفسه في عصور سابقة كان يقف على مرتفع جبلي في عرفات لكي يسمع كلامه أكبر عدد ممكن من الناس، فقد أصبح الجبل مقدساً وسمي «جبل الرحمة» لزيادة التأثير في النفس، وصار الصعود له وكأنه من شعائر الحج.

ويكون التجمع بعرفات لبدء الحج وليس لسماع خطبة سياسية لا علاقة لها بالحج وليست منه. وفي يوم التاسع من ذي الحجة يفيض الناس (يتحركون) دفعة واحدة من عرفات باتجاه المشعر الحرام (البيت). والإفاضة تعني السير الجماعي للحجاج، مع رفع الصوت بالتكبير وذكر الله أثناء الإفاضة وأثناء الطواف حول المشعر الحرام وبعد إتمام الطواف.

والمشعر الحرام هو الكعبة وليس كما تقول كتب التراث إنه جبل يطل على مضيق مزدلفة. لأن مكة كلها جبال وليس للجبال المحيطة بمزدلفة أي علاقة بالحج لكي يسمى واحد منها المشعر الحرام. والمشعر في اللغة هو المعلم، وليس هناك معلم في الحج أهم من الكعبة فهي معلم مميز فريد من نوعه ولا مثيل له. فهي بحق المشعر الحرام، ولا ينطبق هذا الوصف

على شيء آخر غيرها. كما أن الآية تشير إلى أن الطواف حول الكعبة يكون مصحوباً بذكر الله وتسبيحه بصورة جماعية. كأن يقول الحجاج بصوت واحد: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك، لا شريك لك لبيك... ونحو ذلك. فالحج عبادة جماعية.

ويبدأ الحج بتجمع الناس في عرفات، وفي اليوم التاسع ليس في آخره بل من بدايته يبدأ الناس بالتحرك دفعة واحدة من عرفات باتجاه المشعر الحرام (البيت). والإفاضة تعني السير الجماعي للحجاج، مع رفع الصوت بالتكبير وذكر الله أثناء الإفاضة وأثناء الطواف حول المشعر الحرام وبعد إتمام الطواف.

ثم يكون هناك أعمال أخرى بعضها له علاقة بالحج وبعضها شخصي يقوم الحاج بقضائها، منها المقايضات التجارية والبيع والشراء، والتي ذكرتها آيات في سورة الحج. وهذه الأعمال تختلف من شخص لآخر ومن جماعة لأخرى. فالبعض ينتهي في نفس اليوم والبعض ينتهي بعد عدة أيام.

ثم يتوجه الحاج إلى منى حيث النحر ثم الحلاقة.

ومنى اختارها نبي الله إبراهيم لنحر الهدي، وهو مكان بعيد عن مكة لكيلا تنتشر الأوبئة لو كان الهدي في مكة بسبب كثرة الذبائح وبقايا لحومها وجلودها. ولأن تحركات الناس وقضاء حوائجهم لا تتم بنفس السرعة وفي نفس الوقت فقد نصت الآية على أنه يباح للحاج أن يقضي حوائجه ومناسكه بتأن ويسر ولو تأخر قليلاً: وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٢٠٣).

وتتم أعمال الحج في أيام معدودات، ويمكن الرجوع لموضوع الحج في قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

عود لذكر مسلمة يثرب

(الآيات: ٢٠٤-٢٠٦) والخطاب تفاعلي

الذين سبق ذكرهم في الآيات:٨-٢٠: وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ(٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ

الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ(٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ(٢٠٦).

عود للحث على الإنفاق

(الآية: ٢٠٧) والخطاب تفاعلي

تعود السورة للحث على الإنفاق المذكور في الآية: (١٩٥) لتقول بأن هناك من ينفق طواعية ليشتري نفسه من النار: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ(٢٠٧).

تحذير من العودة للاقتتال وحث على السلم بين المسلمين

(الآيات: ٢٠٨-٢١١) والخطاب توجيهي

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ(٢٠٨) فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٢٠٩) هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ(٢١٠) سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢١١).

الآيات تعود لمخاطبة الفئتين اللتين حدث بينهما الاقتتال (المستضعفين ومسلمة قريش) وقد أخبرتنا بالحادثة الآيات (٦-١٢) من سورة الحجرات، وجاءت الآيات (١٧٨-١٧٩) لترشد المسلمين عن ودي القتلى من الطرفين. والآيات هنا تحث على إحضار الله في النفس والبعد التام عن الشحناء إن كانوا مؤمنين. وتقول إن كان هناك البعض لن يمتثل لأمر الله بترك الشحناء وقبول التعايش بسلام، حتى يرى الله أو يرى الملائكة، فهذا لن يحدث. ولن يروا أي آيات أو خوارق، لأن رؤية الآيات لم تردع بني إسرائيل من التحول عن الدين.

غالبية المسلمين في يثرب في تلك الفترة فقراء ومن المستضعفين

(الآيات: ٢١٢-٢١٤) والخطاب تفاعلي

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ اتَّقَواْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ(٢١٢) كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ

وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٢١٣) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ(٢١٤).

الذين كفروا في يثرب غالبيتهم من أهل الكتاب، وتسميهم الآيات بالكفار لأنهم رفضوا دعوة محمد وليس لأنهم كفروا بالله. وبما أن من لا يؤمن بالرسول محمد فهو كافر ولو آمن بالله. وهؤلاء يملكون المال ويسخرون من قلة ذات اليد لغالبية المسلمين. والآية (٢١٤) تشير إلى الأوضاع المعيشية الصعبة التي يعيشها غالبية المسلمين في يثرب في بداية الهجرة، وتحثهم على الصبر بتذكيرهم أن من سبقهم ممن آمن في أزمنة قديمة مستهم الضراء.

والأوس والخزرج غالبيتهم المسلمة أقرب للفقر، والقلة القليلة التي تملك المال منهم تتحفظ على الإنفاق لئلا يجدوا أنفسهم يشاركون غيرهم في الفقر والفاقة، لذا تخبرنا السورة أنهم كانوا لا يسارعون في الإنفاق وإذا أمروا بذلك تساءلوا: يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ(٢١٥).

عود لضوابط الجهاد

(الآيات: ٢١٦-٢١٧) والخطاب تفاعلي

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٢١٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢١٧).

إذا بدأت قريش المسلمين القتال في الشهر الحرام فعلى المسلمين القتال فيه.

وحرص المسلمين على السؤال عن القتال في الشهر الحرام وقبل ذلك في البيت الحرام يظهر

كم كان الناس يحترمون عهد الله وميثاقه القديم بحرمة الأشهر الحرم وحرمة مكة. وحرمة مكة أنقذت الرسول ومن آمن من قريش من اعتداءات قريش عليهم في مكة.

ومن الواضح أن من يحرص على السؤال عن القتال في الشهر الحرام والمسجد الحرام هم من آمن من قريش الذين حافظوا على هذه الحرمة. وقد طرح السؤال عندما تسامع الناس بحشد قريش لقواتها لشن هجوم على المسلمين، وأصبح قتالهم واقعاً لا محالة.

حث من بقي في مكة من المسلمين على الهجرة

(الآية:٢١٨) والخطاب تفاعلي

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَـئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٢١٨).

حث الآية على هجرة من بقي من المسلمين في مكة ضرورة في هذه الفترة، لأن المسلمين مقبلون على حرب ويحتاجون لكل فرد يمكن أن ينضم لزيادة عدد الجيش المسلم ويزيد قوته.

إجابة على سؤال عن الخمر

(الآية:٢١٩) والخطاب توجيهي

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ(٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

الآية لا تحمل أي تشريع. فلم تحرم الخمر هنا، ولكنها إجابة عن سؤال وجّه للرسول. ففي الخمر والميسر إثم، لما تسببانه من البغضاء والشحناء والشجار، وفيهما منافع مالية لمن يتاجر فيهما. ومن يتاجر فيهما هم من سألوا الرسول عن حكم هذه التجارة.

وإجابة على سؤال عن اليتامى

(الآية: ٢١٩) والخطاب توجيهي

ومما سأل الناس الرسول عنه: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاء اللّهُ لأعْنَتَكُمْ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٢٢٠).

تأكيد منع الزواج من مشركي قريش

(الآية: ٢٢١) والخطاب تشريعي

وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَـئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٢١).

المشركون قد يكونون من قريش ومن غيرها، لكن ما يؤكد أن الكلام هنا المعني به مشركو قريش هو: أن قريشاً عدو محارب للمسلمين، وسبق وأخبرتنا الآيات: (١٠-١٢) من سورة الممتحنة عن تحريم إبقاء الزواج المشترك معهم، ووجوب التفريق بين الزوجين إن كان أحدهما قرشياً مشرك والآخر مسلم أو مسلمة. والآيات هنا تعيد تأكيد منع التزاوج منهم. ومن الواضح أن السبب ليس الكفر ولكن العداء للمسلمين وشن الحرب عليهم. فكل عدو محارب للمسلمين لا يجوز التزاوج معهم، لكن يمكن التزاوج بالمسالمين الذين من دول لم تعاد المسلمين برغم أنهم كفار.

وسنرى أن القرآن في سورة المائدة يبيح التزاوج بأهل يثرب من أهل الكتاب برغم تأكيد القرآن على كفرهم[1]. لكنهم حتى وقت نزول سورة المائدة لم يعادوا المسلمين علناً. ولما أعلنوا عداءهم أو انكشف للمسلمين عداؤهم، خرجوا من يثرب، وبالتالي لم يعد حاجة لنزول آيات تحرم التزاوج معهم.

سؤال عن المحيض

(الآيات: ٢٢٢-٢٢٣) والخطاب تشريعي

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ(٢٢٢) نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ(٢٢٣).

الملاحظ أن الناس تسأل الرسول، ولكنه لا يجيبهم مباشرة. لأنه لا يجيب من تلقاء نفسه مهما كان الجواب واضحاً أو بديهياً. لأنه رسول ملتزم بتبليغ رسالة ربه وليس له من أمر

١ انظر فقرة: بنو إسرائيل كفار، وفقرة: كل من لا يؤمن بمحمد فهو كافر/ قسم أدلة من القرآن.

الرسالة شيء. لذا فهو دائماً ينتظر نزول الوحي ويتلوه على السائل. هذا فيه تأكيد قاطع أن الدين لا يمثله إلا القرآن، وأن الرسول لم يكن يُحدِّثُ الناس بتلك الأحاديث التي نسبت له وتملأ كتب الحديث.

والآية تقول بتجنب المعاشرة بين الزوجين أثناء المحيض.

اليمين

(الآيات: ٢٢٤-٢٢٥) والخطاب تشريعي

وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ النَّاسِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢٢٤) لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ(٢٢٥) البقرة.

اعتاد الناس في مجتمعاتنا أن يعضد كلامه العادي بالحلف بالله، مثلاً: والله العظيم لن تذهب قبل أن تتناول طعام الغداء. أو والله العظيم إني سعيد برؤيتك... الخ. وهذا ما تنهى عنه الآية.

كما لا يجوز استخدام الحلف لتأكيد صدق المتكلم. وهو ما يخالف قاعدة شائعة تعتمد على حديث نسب للرسول مفاده: أن من حلف له بالله فليرض... لأن الظالم والكاذب سيحلف بالله كاذباً، ولا يبالي. فكيف يرضى من حَلَف له من يتساهل بالحلف[1]؟

وعليه لا يجوز اعتبار اليمين في المحكمة كما هو قائم الآن. حيث يعمل بقاعدة جاهلية تقول: البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر. والتي جعلت كأن الله من أمر بها. وقاعدة البينة على من ادعى جاهلية بالفعل ويقال بأن أول من قالها هو قس ابن ساعدة، لكنها وجدت طريقها لتشريعات المسلمين، وأصبحت قاعدة ثابتة في محاكمنا. وإلا من يريد أن يأكل مال غيره وحقوقه فلن يمانع الحلف كاذباً. والحقوق لا تهدر لأن فاسقاً حلف، بل يجب أن يتم التحقيق والاستجواب والأخذ بالقرائن وتحليل كلام المدعي والشهود الذي يقود إلى التعرف على الحقائق دون حاجة ليمين.

---

١ هذا التساؤل أعاد صياغته المدقق اللغوي «أبو حزم».

الإيلاء (الآيات: ٢٢٦-٢٢٧) والخطاب تشريعي

لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَآؤُوا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلاَقَ فَإِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢٢٧).

والإيلاء هو: هجران الزوجة وإهمال نفقتها دون طلاق لفترة غير محدودة، دون حلف. أما الظهار الذي ورد في سورة المجادلة فهو: الحلف على هجر الزوجة وإهمال نفقتها دون طلاق لفترة غير محدودة. أي أن كلا الفعلين واحد ولا اختلاف بينهما سوى بالحلف. فجاءت الآية تقول بأنه لا يجوز ترك الزوجة أكثر من أربعة أشهر، ثم الطلاق أو الوفاق.

وهو موجود بيننا اليوم، وبمباركة المحكمة، حيث لا يجبر الزوج على الطلاق أو الوفاق ولكن يترك له كامل الحرية بأن يوقع الإيلاء كما كان في الجاهلية.

وتستمر السورة في فرض تشريعات تتعلق بالأحوال الشخصية:

الطلاق وفترة التربص للمطلقة (الآيات: ٢٢٨-٢٣٠) والخطاب تشريعي

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكُيمٌ(٢٢٨) الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٢٢٩) فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٢٣٠) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النَّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لَّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُواً وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٢٣١) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٢٣٢).

(الآية:٢٢٨) أول ذكر لمدة التربص للمطلقة في القرآن، والتي تحدد بثلاثة قروء: أي ثلاث حيضات، وخلال هذه الفترة يمكن التصالح بين الزوجين والرجوع للحياة الزوجية.

وقوله: « وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحاً» أي خلال هذه الفترة لو تم الصلح ووافقت الزوجة، فللزوج الحق في ذلك لأنه إعادة للحياة الزوجية.

وقوله: « وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ» للزوجة نفس الحقوق الزوجية التي للزوج. وتستطيع أن تشترط ما تشاء مقابل رجوعها لزوجها، بعد أن حدثت المشكلة التي كادت أن تؤدي إلى الطلاق. كما أنه للمرأة اشتراط ما تشاء قبل الزواج، وهذه الشروط تصبح لازمة. ما نعيشه في بلادنا أن شروط المرأة لا تؤخذ بالاعتبار في الغالب وللأسف، وهو مخالف لنص القرآن.

وتقول الآية: «وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ». الحقوق الزوجية متساوية للرجل والمرأة، لكن الرجل أوتي درجة على المرأة. ولعلها دور القيادة في البيت، ليس لأن المرأة أقل إنسانية، ولكن لأن تركيب الرجل يصلح للقيادة أكثر من المرأة، التي تصلح لأدوار لا يصلح لها الرجل، وهي اختلافات طبيعية بين الجنسين. وهذا لا يلغي بعض الاستثناءات حيث تكون المرأة هي القائد، لكن القاعدة دائماً للغالب وليس للاستثناءات.

وتقول الآية (٢٢٩): «الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ» أي أنه يمكن أن يحدث خلاف بين الزوجين يؤدي لإعلان الرغبة في الطلاق وتقوم المرأة بالتربص، وأثناء فترة التربص يتم الصلح بينهما بشروط جديدة أو بدون شروط، ويعودان للحياة الزوجية. ثم يتكرر هذا مرة ثانية. لكن لو حدث وأن أعلنت رغبة الطلاق للمرة الثالثة فلا حاجة لفترة تربص، ويعتبر الطلاق نافذاً منذ اللحظة التي يعلن فيه الزوجان رغبتهما بالطلاق. فقوله الطلاق مرتان، يعني الطلاق الذي يمكن التراجع عنه مرتان. أما الثالثة فثابتة.

ولو حدث الطلاق للمرة الثالثة فتقول الآية (٢٣٠): فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.

بعد الطلاق البائن (للمرة الثالثة) تصبح الزوجة أجنبية تماماً عن الزوج كأي امرأة أجنبية أخرى، وليس له أفضلية في استرجاعها على أي رجل آخر، تلك الأفضلية التي كان يتمتع

بها فيما بعد الطلاق الأول والثاني والذي ذكرته الآية (٢٢٨).

لكن لو تزوجت الزوجة برجل آخر ولم تنسجم معه وحدث بينهما طلاق، فيحق للزوج السابق أن يتقدم لخطبتها كأي رجل آخر، ولها قبوله أو رفضه.

ونعود للآية (٢٢٩) والتي تقول بأن الحياة الزوجية معاشرة بالمعروف، ومتى ما أصبحت مستحيلة أو مزعجة فالطلاق هو الحل: فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ.

وفي حالة الطلاق، فلا يجوز للرجل أن يأخذ من امرأته شيئاً مما سبق ودفعه كصداق: وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٢٢٩).

والمؤسف أن الزوج يأخذ ما دفع وأكثر بمباركة قضاة المحكمة عندنا، الذين نبذوا كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ.

وتقول الآية (٢٣١): وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النَّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لَّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُواً».

ما يحدث الآن في بلادنا هو أن قاضي المحكمة يقف في صف الزوج الذي يظلم نفسه كما تصفه الآية، ويحكم له بحق أن يمسك زوجته ضراراً.

وتقول السورة: وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٢٣٢).

لأن الزواج علاقة نبيلة يجب أن تستمر ما أمكن استمرارها، فلو حدث خلاف وتم الطلاق للمرة الأولى ثم أراد الزوجان التراجع، فلا يقف ذوو الزوجين ضد هذه الرغبة لأي سبب.

وستعود السورة للحديث عن هذه القوانين التي لها علاقة بالطلاق والنكاح بدءً من الآية (٢٣٦). كما يمكن الرجوع لموضوع الطلاق في قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

رضاعة المولود

(الآية: ٢٣٣)

الخطاب تشريعي

السورة تنتقل هنا للحديث عن موضوع آخر وقوانين أخرى ذات علاقة: وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُواْ أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٢٣٣).

الآية تتحدث عن قوانين الإرضاع: حيث يجب على الأم إرضاع وليدها حولين كاملين إذا أرادت أن تتم الرضاعة، وهذا يعني أنه يمكنها ترك الرضاعة قبل ذلك.

وفي حال وقع الطلاق بين الأبوين فيجب على الزوج أن ينفق على مطلقته وعلى الوليد.

ويجوز للوالدين أن يسترضعا لوليدهما، أي يبحثان له عن مرضعة. وهو ما يعني جواز الرضاعة البديلة الحالية من الحليب الصناعي شريطة ضمان توفر احتياجات الرضيع الغذائية. أو عدم قدرة الأم على الرضاعة.

المهم هنا هو مصلحة الرضيع وليس الأب أو الأم. كما أنه لا يجوز أن تضار الأم بوليدها، مثل أن يؤخذ قسراً من حضانتها. ولا يجوز أن يضار الأب بوليده مثل أن يمنع من رؤيته.

مدة التربص لمن توفي عنها زوجها

(الآية: ٢٣٤)

الخطاب تشريعي

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٢٣٤).

بعد مضي فترة أربعة أشهر وعشرة أيام من حق الزوجة أن تتزوج: فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ. وهذا يشمل البحث عن الزوج بالمعروف أي

دون اقتراف لمعصية.

ولا وجود لما يعرف بحداد المرأة على زوجها المتوفى وعدم السماح لها بالخروج من المنزل أو لبس السواد أو منعها من مخاطبة الرجال، وغير ذلك مما هو سائد الآن في بعض المجتمعات العربية من محظورات على الأرملة فترة التربص.

التعارف بين الرجل والمرأة بقصد الزواج

الآية: (٢٣٥)

الخطاب تشريعي

وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَـكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً وَلاَ تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىَ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ(٢٣٥).

بعد أن ذكرت الآية السابقة أن على الزوجة المتوفى عنها زوجها أن تتربص لمدة أربعة أشهر وعشرة أيام قبل أن تتزوج بغيره. تأتي هذه الآية لتقول إن التعارف بين الرجل والمرأة بقصد الزواج مشروع ومباح.

وللرجل أن يعرض على المرأة الزواج مباشرة، أو عن طريق وسيط. ولو أراد أن يفاتحها في الموضوع فله حق لقائها في مكان عام، لكن يحرم الاختلاء بها في مكان منعزل. ولو كنا في مجتمع زرع الثقة بالفتاة وزرع الإيمان بالشاب فلو تقابل الشاب أو الرجل بالفتاة أو بالمرأة في مقهى لبحث موضع إمكانية الزواج فهذا اللقاء رعاه الله في كتابه. ما تحرمه الآية هو إضمار الإيقاع بالفتاة أو بالفتى لاقتراف الفاحشة واللقاءات المنعزلة.

والآية تخاطب الرجل لأنه هو في العادة من يسعى لخطبة المرأة.

من طلقها زوجها قبل الدخول بها

(الآيتان: ٢٣٦-٢٣٧) الخطاب تشريعي

لاَّ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنُّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ(٢٣٦).

التي تطلق ولم يمسسها زوجها فإن لم يقدم لها صداقاً فلا شيء عليه. إلا أنه إن كان قادراً مالياً فعليه أن ينفق على مطلقته طوال فترة التربص.

لكن لو أن الزوج قدم صداقاً «فريضة» وطلق قبل أن يمس زوجته، فله حق استرجاع نصف ما قدم. ولو تنازلت الزوجة بنفسها ودون ضغوط عن بعض نصفها أو كله فهو حلال له: وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إَلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٢٣٧).

الآية تقول: « أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ» فتعني أن يتنازل الزوج عن نصفه الآخر ويهبه للمطلقة.

وجوب أداء الصلاة في وقتها

(الآيتان:٢٣٨-٢٣٩) والخطاب تشريعي

ثم تخرج السورة للحديث في موضوع مختلف: حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ(٢٣٨) فَإنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ(٢٣٩).

الآية (٢٣٨): تؤكد على أداء الصلاة في وقتها دون تأخير لأي سبب، ولو وجبت الصلاة وقت خوف فلا تؤخر، بل تؤدى ولو على الراحلة أو أثناء الجري كما تقول الآية (٢٣٩). وهو دليل على أن الصلاة لا تقبل في غير وقتها.

ولنا أن نتخيل المصلي وقت الخوف يجري وهو يومئ بالركوع والسجود دون أن تصل جبهته للأرض لاستحالة ذلك. وهذا وضع مشابه لصلاة المريض الذي لا يستطيع الركوع والسجود ويكتفي بالإيماء. فتأخير الصلاة لا يجوز في مثل هذه الظروف، ولا لأي ظرف مهما كان ما بقي الإنسان حاضراً ذهنياً.

الصلاة الوسطى

قوله: حافظوا على الصلاة والصلاة الوسطى». لا يعني أن الصلاة الوسطى أهم ولكن يعني أنها عرضة لأن يتركها الناس بحكم وقتها.

فأي صلاة هي الصلاة الوسطى؟

الناس في عصر الرسول كانوا ينامون باكراً ويستيقظون باكراً ويقضون معظم ساعات النهار في العمل المرهق غالباً. وبالتالي فأداء صلاة الفجر ليس صعباً ولا شاقاً عليهم، لأن الناس اعتادوا الاستيقاظ فجراً وقد ناموا ساعات كافية. وكذلك صلوات طرفي النهار والمغرب. لأن الناس يعودون لبيوتهم قبل المغرب ويتناولون عشاءهم قبل غروب الشمس، ثم يصلون المغرب وقد يتسامرون لبعض الوقت ثم يخلدون للنوم. ويكون من المحتمل أن يغلب النوم البعض قبل حلول وقت صلاة العشاء. لذا فصلاة العشاء هي التي يكون احتمال نوم البعض قبل أن يؤديها كبيراً، وبالتالي فهي الصلاة الوسطى التي شدد القرآن على أدائها.

وهي وسطى بالفعل. فصلاة الفجر وطرف النهار الأول يكونان حول بداية النهار ونهاية الليل. وصلاة طرف النهار الأخير والمغرب يكونان حول نهاية النهار وبداية الليل. بينما تنفرد العشاء بكونها بعد مضي هزيع من الليل.

من حقوق المتوفى عنها زوجها

(الآية:٢٤٠) والخطاب تشريعي

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيَ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٢٤٠).

القرآن هنا يوجب على الرجل المتوفى أن يوصي لزوجته بمتاع إلى الحول، وتبين الآية أن من حق الزوجة أن تبقى في المنزل حولاً كاملاً. فوصية الزوج للمتاع، ولا تعني الآية أن بقاء الزوجة في المنزل مشروط بوصية من الزوج المتوفى، لأنه من حقها دون حاجة لوصية. ولو قررت الزوجة أثناء تلك الفترة مغادرة المنزل فلا جناح عليها.

من حقوق المطلقة

(الآية:٢٤١) والخطاب تشريعي

وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ(٢٤١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٢٤٢).

حق النفقة واجب للمطلقة. والآية لم تحدد كم تدوم هذه النفقة، لكن يمكن فهم أنها لفترة التربص.

عود للحث على القتال

(الآيات: ٢٤٣-٢٤٥) والخطاب تشريعي

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ(٢٤٣) وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢٤٤) مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٤٥).

الآية تقول للمسلمين إن القعود عن القتال لا يعني تجاوز الموت، لأن الموت قادم، والآية استخدمت أسلوباً مميزاً غير معتاد. وكل من خاطبتهم الآيات لابد أنهم ماتوا في زمن متقارب، سواء في ميدان المعركة أو خارجه. فالآية تقول بأن الحياة قصيرة والموت آت لا محالة، فلا حاجة للخوف من الموت في سبيل الله لمن يؤمن بالله واليوم الآخر.

وتحث الآية (٢٤٤) المؤمنين على القتال القادم ضد قريش، والاستعداد البدني والذهني لذلك، تليها الآية (٢٤٥) التي تحث القادرين على الإنفاق لمتطلبات الحرب من تجهيز للجيش والمؤن والعتاد ... الخ، واصفة الإنفاق بأنه قرض سيسدده الله بفوائد يوم القيامة.

وتقول الآية إن الإنفاق لن يقود صاحبه للفاقة، إشارة إلى أن بعض المسلمين يخشى العوز لو أنفق. وهذه هي المرة الثالثة التي تحث سورة البقرة على الإنفاق في سبيل الله، بعد الآية (٢٠٧)، والآية (١٩٥) وهذا لا يعني أن الإنفاق يجب فقط في هذا المجال، لكنه يعني أن الإنفاق فرض لكي يسد حاجات المجتمع المسلم. فمتى كان هناك حرب فالأولوية في الإنفاق للحرب، لكن لا تسقط الاحتياجات الأخرى. ولو طبقنا الإنفاق الإسلامي في دولة حديثة فسيكون هو المسئول عن توفير المال الكافي لميزانية الدولة. ((على اعتبار أن الدولة ليست مملوكة لشخص أو عائلة، وعلى اعتبار أنها لا تملك موارد البلاد))

وتكون ميزانية الدولة مسئولة عن تأمين حياة كريمة لكل من يعيش على أرضها حسب مفهوم العصر للحياة الكريمة. إضافة لبناء دولة قوية واقتصاد متين وتعليم وصحة وبنية تحتية .... الخ.

داوود

الآيات: (٢٤٦-٢٥٢)

والخطاب دعوي - قصصي

الآيات تتحدث عن الكيفية التي تم فيها وصول داوود لحكم مملكة بعيدة عن موطن بني إسرائيل الأصلي: أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ(٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ(٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ(٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ(٢٥١).

وما تقدم يخالف ما ورد في كتب اليهود عن الكيفية التي أصبح فيها داوود ملكاً.

وتختم السورة حديثها عن داوود بمخاطبة محمد: تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ(٢٥٢).

فأنت يا محمد لو لم تكن رسولاً لله لما عرفت هذه التفاصيل، فكل ما يورده القرآن من تاريخ لبني إسرائيل ورسلهم والأشخاص الذين يعرفونهم يهدف لإثبات أن محمداً رسول الله لأنه لو لم يكن كذلك فلن يتمكن من معرفة تفاصيل الأحداث التي يكلمهم عنها من تاريخهم.

كون بني إسرائيل يؤمنون بالله واليوم الآخر، ومشكلتهم في أنهم لا يريدون أن يؤمنوا أن بني إسماعيل خرج منهم رسول لله.

فضل بعض الرسل على بعض

الآية: (٢٥٣) والخطاب تقريري

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَـكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ(٢٥٣).

تفضيل رسول على آخر ليس بالقرب من الله أو البعد عنه، لأن هذا لا يقرره الله مسبقاً، وحتى لو كان بعضهم قدم أعمالاً صالحة أكثر من بعض فلن يعرف قبل الحساب. كما أن التفضيل لا يعني أن الله يعجبه رسول أكثر من رسول آخر (تعالى الله وتبارك) لأنه سبحانه لا يتعامل مع خلقه الذين خلق بعاطفة. ويكون التفضيل فيما ظهر منهم وحدث لهم في الدنيا بسبب الظروف المصاحبة لرسالتهم. ومن ذلك ما أعطت الآية أمثلة عليه: فموسى كُلّم، وعيسى بدون أب، ومحمد خاتم الأنبياء ورسول لكل الناس.... وهكذا فهذا التفضيل تفاوت فرضته الظروف التي وجد فيها الرسول عندما أرسل.

وليس كما يظن البعض، فموسى عند اليهود لا مثيل له أبداً، فجاء من المسلمين من قال شبيهاً بذلك عن محمد، فوصف بسيد الأنبياء والمرسلين وسيد أبناء آدم، والمصطفى وكأن الله لم يصطف للرسالة غيره، مع أن القرآن يقول: وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ(٤٧) ص. بعد أن ذكر داوود وسليمان وأيوب وإبراهيم وإسحاق ويعقوب. ويقول القرآن في مكان آخر: إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(٣٣) آل عمران.

والله لا يصطفي من خلقه أحد له سبحانه، ولكن الاصطفاء يكون باختيارهم لحمل راسالاته للناس.

عود لحث المسلمين على الإنفاق في سبيل الله

الآية: (٢٥٤) والخطاب تشريعي

تعود السورة لمخاطبة المؤمنين في يثرب، وتحثهم على الإنفاق للقتال المرتقب: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٢٥٤).

والآية فيها تحذير بأن من لا ينفق فهو كافر، حتى لو صلى وصام والتزم بقية أوامر الدين وانتهى عن نواهيه، فالدين كل لا يتجزأ، ومخالفة أمر إلهي مساو لمخالفة كل الأوامر.

آية الكرسي

الآية: (٢٥٥) والخطاب تقريري

اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ(٢٥٥).

هذه الآية يسميها المسلمون آية الكرسي، لأن الكرسي ذكر فيها. والقرآن لا يسمي الآيات أبداً، ولكن تسمية الآيات يكثر منها أتباع المذهب الشيعي، وإن قال بها أتباع المذاهب الأخرى بدرجة أقل. وليس للآية المذكورة أي تميز عن كلام الله الآخر. لكن بعض المسلمين اعتبرها من الخوارق بحيث تحفظ من العين والسحر والهوام والخوف وحتى الموت. شيء لا أساس له في دين الله، لأن القرآن شفاء للصدور وحجاب من النار وليس عقيقة وحجاباً عن العين والخرافات والأمراض العضوية. وإن كانت قراءة أي سورة من القرآن تريح نفسياً وقد تكون علاجاً نفسياً ناجعاً.

والآية تمجد ذات الله، وتظهر جانباً من عظمته وعظمة خلقه. والكرسي هنا قد تعني إدارته وتحكمه جل جلاله بخلقه، لأن الآية تقول: «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ». فالكون (السماوات والأرض) لا يؤوده (يعجزه) حفظهما وبقاؤهما يعملان بدقة، وهو ما يعني إدارتها.

الدين خيار شخصي

الآيات: (٢٥٦-٢٥٧) والخطاب تشريعي

لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢٥٦) اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٥٧).

بعد سنوات من بعثة محمد وقيام دولة للمسلمين ومعرفة القاصي والداني بالدعوة وتبين الرشد والغي، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وليس هناك إكراه في الدين. فمن آمن فالله وليه ومن كفر فوليه الطاغوت. وقد رأينا في عدد من سور مكة أن القرآن كرر الدعوة لقريش بالتعايش السلمي مع المسلمين لكن قريشاً - شأنها شأن أي معارض للدين - رفضت الدعوة وأعلنت الحرب للقضاء على الإسلام. وهو ما سيحاوله أهل يثرب الرافضون لدعوة محمد. ومن لم يؤمن في بداية سماعه الدعوة فلن يؤمن أبداً، وعادة من لا يؤمن يتحول لعدو للدين يحاربه ويكيد له.

التساؤل والشك أول الخطوات لليقين

الآيات: (٢٥٨-٢٦٠) والخطاب قصصي

السورة تظهر حواراً بين إبراهيم ورجل ملحد: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِـي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِـي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٢٥٨).

فحجة الكافر والمخالف للحق واهية ولو تمسك بها وبررها، ولو فكر بعقلانية لاهتدى. ولم تقل السورة إن علينا ألا نفكر ولا نحاور الملحدين الملتزمين بأدب الحوار، لكن الجدل لم يكن طريقة التبليغ في الإسلام ولا يجب أن يكون.

وتستمر السورة تورد أمثلة على تساؤلات المتشككين:

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِـي هَـَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ

اللهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظر إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظر إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظر إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٥٩).

ثم تقول السورة إن التساؤل بحثاً عن الحقيقة لا حدود له ولو تناول الذات الإلهية، وضربت مثلاً بتساؤل إبراهيم: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِـي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٢٦٠).

فسؤال إبراهيم للاقتناع وليس مثل تساؤل الإنكار كما سألت بنو إسرائيل: « .... فَقَالُواْ أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ..... (١٥٣) النساء. أو تساؤلات قريش عن رؤية الملائكة وتكليم الله...

والسؤال حول الآية هو: هل لو قمنا بتطبيق ما ورد في الآية هل ستعود الحياة للطير؟

الجواب: لا.

لأن المخاطب في الآية هو إبراهيم والمتكلم هو الله، الذي أراد أن يحقق أمنية إبراهيم برؤية الحياة تعود للموتى.

ولذلك أمره بتقطيعها إلى أشلاء وتوزيع الأشلاء في أماكن متفرقة متباعدة، وبأمر الله عادت إليها الحياة.

لكن لو أراد إبراهيم تكرار العملية في يوم آخر بعد ذلك فلن تعود الحياة للطير. لأن عودة الحياة ليس بتطبيق العملية، ولكن بقدرة الخالق سبحانه وتعالى.

وهنا يمكن التساؤل: هل كان هناك حديث مباشر بين الله جل وعلا وبين عبد ومخلوقه إبراهيم؟

القرآن يقول إن الله لا يخاطب خلقه مباشرة، وحتى موسى «كلم تكليماً» سمع صوتاً بطريقة ما. وما سمعه سواء بأذنيه أو بقلبه فهمه ووعاه، لكنه لم يكن مشافهة من الله جل وعلا[1].

فالله جل شأنه يقول: وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ(٥١) الشورى.

١ أعيدت صياغة هذه العبارة بناءً على اقتراح أبو حزم.

ومن وراء حجاب قد تعني بطريقة ما ولا تعني أن يكون الله مستتراً ولكنه يتحدث لموسى. لأن الله جل شأنه قال في نفس سورة الشورى: فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(١١) الشورى.

ونحن عند الاستشهاد بشيء من القرآن نقول: «قال الله تعالى» كون القرآن الكريم يمثل إرادة الله جل وعلا، لكن لا أحد سمع الله جل وعلا يتكلم بالقرآن، لا من البشر ولا من الملائكة ولا من المخلوقات الأخرى. فالقرآن (الوحي) نصوص يقوم الملك المكلف بنقلها من مكان تخزينها (اللوح المحفوظ) إلى ذاكرة الرسول دون أن يلقنه الله لها. أما كيف أوصل الله جل وعلا نصوص الوحي إلى اللوح المحفوظ فلا علم لنا بذلك.

إذاً، كل آية توحي لنا أن الله خاطب أحداً من خلقه لابد أن لها معنى آخر يتفق مع حقيقة أن القرآن يؤكد أن الله لا يتحدث مع خلقه. ومن ذلك تكليم موسى وإطلاع الملائكة على خلق آدم. فهناك توصيل للمعلومة من الله لخلقه هنا لكن ليس بالكلام المباشر. لأننا لو اعتبرنا أن الله جل وعلا تحدث مع خلقه فهذا يتعارض مع ما قاله سبحانه عن ذاته من أنه لا يمكن أن يكلمهم وليس له صفة للمخلوقات مثلها، تبارك وتعالى.

عود لحث المسلمين على الإنفاق في سبيل الله

الآيات: (٢٦١-٢٧٤) والخطاب تشريعي

مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(٢٦١) الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنّاً وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٢٦٢).

الآية: (٢٦١) ترغيب على شكل تصوير حسي مجازي كما كان الحال بتصوير انهيار الكون وما في الجنة والنار بصور حسية في السور المكية.

الآية: (٢٦٢) تحذر من الإنفاق مع المنة والأذى، وفيه إشارة إلى أن بعض من ينفقون من (المسلمين) كانوا يفعلون ذلك.

ويستمر التحذير: قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ(٢٦٣)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(٢٦٤).

وتظهر الآية ٢٦٤ أن البعض ينفق رياء، وهؤلاء ممن آمن نفاقاً، وسبق أن تحدثت عنهم السورة في بدايتها.

وتعد السورة من ينفق لوجه الله: وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٢٦٥).

وتعطي السورة مثلاً لتثبيت الصورة في الذهن: أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ(٢٦٦).

فالإمساك عن الإنفاق يمحق الحسنات ويؤدي للنار. والآية تشبه الممتنع عن الإنفاق كمن لديه مزرعة منتجة لأنه يقوم عليها، ولما هرم أهملت لأن أولاده صغار في السن، فأصبحت عرضة لأن تحترق بمجرد تعرضها لإعصار.

والتعرض لإعصار فيه نار يعني أن الأعاصير إذا كانت مصحوبة بالبرق فإن سرعة الريح والبرق يعملان على إشعال النار بأي نباتات جافة. ولا يتحدث القرآن عما بدأت وسائل الإعلام الحديث عنه عن بعض أنواع الأعاصير المعروفة في أستراليا وأمريكا وليست معروفة في جزيرة العرب، والتي تسمى «tornado»، والتي تكون مصحوبة بنار. لأن القرآن - كما نكرر دائماً - يخاطب الناس زمن الرسول بما يعرفون، ولا يخاطب أناساً سيأتون بعد ذلك.

وتؤكد السورة أن الإنفاق - إن كان عينياً - يجب أن يكون من أطايب الطعام والأشياء، وليس من الفاسد منها: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ(٢٦٧).

ومن أنفق من الخبيث (الفاسد) فلن يقبل منه. ونحن اليوم يجب أن نتمسك بهذا القانون،

وكل قوانين القرآن. فما يشرعه القرآن في أناس زمن الرسول يعني أنه ينطبق على كل مسلم في كل زمان ومكان. فلا يجوز أن ينفق من الخبيث الذي لا يوافق المرء على شرائه لنفسه واستهلاكه إلا إن اشتراه وهو لا يعلم. ولا يجوز الإنفاق من سيء الطعام وفاسده، ولا سيء الأثاث والأشياء الأخرى.

المؤسف هو أن الناس اعتادوا إنفاق كل سيء، فكل طعام قارب على الفساد يعطونه للعمالة الوافدة المسكينة كنوع من الإنفاق ويحتسبون في ذلك أجراً من الله. والآية تقول إنهم لن ينالوا الأجر بل سيعاقبهم الله عليه.

وتستمر السورة بين الترغيب في الإنفاق والترهيب من تركه: الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(٢٦٨) يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ(٢٦٩) وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ(٢٧٠).

والحديث مستمر عن تأمين متطلبات الجيش المقبل على حرب قريش: إِن تبدو الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٢٧١).

وتستخدم الآية لفظ الصدقات مرادفاً للإنفاق، وتقول لا بأس لو أعطيتموها علناً لمن يجمع الإنفاق، أو أعطيتموها مباشرة للفقراء (سواءً كانت دروعاً وملابس حرب أو مطية أو مواد تموينية أو أي شيء آخر). وليس المقصود بالصدقات وحدة نقدية والفتات الذي نمده للمحتاج ليزيد من سحق كرامته ولا يسد رمقه، وتشعر المنفق بالزهو والعظمة. الصدقات هي الإنفاق وهي الزكاة وهدفها تحقيق الاكتفاء والحياة الكريمة والتكافل وليس سحق الكرامات.

ولأن مواقف المسلمين تباينت من الإنفاق في تلك الفترة، فالسورة تقول للرسول: لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ(٢٧٢).

ثم تبين السورة لمن تكون أولوية الإنفاق في تلك الفترة: لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ

يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ(٢٧٣).

فقراء يريدون الجهاد لكن لا يملكون نقيراً. لا ركوب ولا سلاح ولا حتى ما يسد رمقهم في بيوتهم، لكنهم لا يمدون أيديهم للناس. ومن الواضح أنهم من المهاجرين.

الناس الآن يقولون هي تنطبق على كل فقير يهلك من الجوع ولا يمد يده، والحقيقة أن التسول يمسح الكرامة، لكن وجود فقير يضطر للاستجداء في هذه البلاد يعني أن الإنفاق الإسلامي لا وجود له. وبالتالي فمن يستجدي قد يكون بالفعل فقيراً محتاجاً، وقد يكون محتالاً. لكن لو كان محتالاً فالوضع الذي اضطره لكسب رزقه بالاحتيال هو وضع بعيد عن الإسلام. ومتى وجد الفقر في بلد مسلم فلا وجود للإنفاق بمعناه القرآني الشامل الذي يعني توفير حياة كريمة علمية عاملة منتجة قوية عزيزة لكل الأمة.

وتستمر السورة لتمتدح المنفق لوجه الله: الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٢٧٤).

وهذا لا يعني أن الإنفاق فضلة من الغني متى دفعه فله أجر ولو امتنع فماله وهو حر فيه. فمن لا ينفق بنسبة من مكاسبه تفرض (في عصرنا الحالي على الجميع) بحيث يكفي المجموع لسد احتياجات المجتمع كما سبق وذكرنا فلن يدخل الجنة. الجنة فقط لمن ينفق. والإنفاق ليس بمفهوم الزكاة الحالي الذي لا وجود له في القرآن والمتمثل بدفع نسبة ٥, ٢٪ مرة في العام فقط. الإنفاق هو الدفع متى وجدت الحاجة دون تحديد عدد مرات الدفع ولا سقف لمبلغ ولا نسبة. طبعاً شريطة أن يكون هناك دولة إسلامية.

الربا

الآيات: (٢٧٥-٢٨١) والخطاب تشريعي

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٧٥) يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ(٢٧٦).

جاء ذكر الربا ضمن الحث على الإنفاق في سبيل الله، ليؤكد للمسلمين أن الإنفاق يعني دفع المال دون انتظار لاسترداده. وأن الربا هو دفع المال وانتظار استرداده.

فالربا يمكن تعريفه بأنه بعكس مفهوم الإنفاق، وليس بتعريفه الفقهي السائد.

والإنفاق هو دفع المال من القادر، دون انتظار لاسترداده أو جزء منه، لسد حاجة الأفراد أو المجتمع متى وجدت. ويكون ذلك بلغة العصر بدفع نسبة من الدخل لتغطية ميزانية الدولة التي تتكفل بحل كل المشكلات الاقتصادية وإنشاء البنى التحية وتوفر الخدمات والقضاء على الفقر والجهل ونشر التعليم والتقنية.

ويمكن تعريف الربا بأنه استغلال لحاجة المحتاج لزيادة المكاسب، وذلك بدفع المال للمحتاج وانتظار استرداده مع فوائد. كما أن دفع المال للمحتاج وانتظار استرداده أو بعضه ولو بدون فوائد فهو ربا أيضاً. ودولة المسلمين تضمن قضاء حاجة المحتاج دون مقابل، بحيث لا يضطر للربا ولا لرد المال الذي دفع له لسد حاجته أو بعضه. (انظر موضوع الربا / قسم أدلة ومواضيع من القرآن).

وتقول الآية: (٢٧٥) عمن يأكل الربا كمن يتمايل عندما ينهض، كونه يتخبط في الضلال، وشبهت ذلك بمن يتخبطه الشيطان من المس. وهو تصوير مجازي حسي لزيادة التأثير. والتصوير الحسي كثير في القرآن - كما مر بنا - وليس حكراً على تصوير آكل الربا بمن يتخبطه الشيطان من المس. ومن ذلك قوله تعالى: إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ(٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ(٦٥) الصافات. فالآيات تصف طلع شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم الذي لم تره قريش بعد، برؤوس الشياطين التي لم يرها أحد قط. لكن الآية تخاطب قريشاً بما يعتقدون، فهم يتصورون - حسب موروثهم الشعبي - أن للشياطين رؤوساً يضرب بها المثل بالقبح. والآية تصور طلع شجرة الزقوم، بصورة خيالية مشابهة لتلك الصورة التي تتخيلها قريش عن رؤوس الشياطين، والتي لا وجود لها إلا في أساطيرهم الشعبية. ويكون تصوير من يأكل الربا بمن يتخبطه الشيطان من المس ليس فعلياً، ولا يعني أن هناك مساً. بل هذا ما يعتقد الناس، والتخبط في الضلال صور على أنه كتلك الصورة الخيالية التي يتخيلها الناس عن مس الشيطان.

ويبدو أن بعض من أسلم من أصحاب المال، استغل فترة الاستعداد للحرب وحاجة كثير من الناس لتوفير متطلبات الجهاد، وحتى توفير متطلبات الحياة اليومية لبعض منهم، فكان يعرض إمدادهم بالمال بطريقة ربوية. فجاءت الآيات تتحدث عن ذلك وتحذر منه، ذلك أنه

يجب على الموسرين دفع المال بلا مقابل لسد الاحتياجات، وعدم استغلاله للربح الربوي.

وسبق وذكرنا أن الإنفاق يعني الدفع لدولة الإسلام ما يكفي لتغذية ميزانيتها التي تكفل الحياة الكريمة للكل. والحياة الكريمة بمفهوم العصر الحالي تعني توفير: علاج وتعليم وسكن ومواصلات وخدمات وبنية تحتية. وإذا اضطر المسلم للربا لكي يؤمن هذه الاحتياجات فهذا يعني أن الربا منتشر وانتشار الربا يعني طرد الإنفاق. لأن الربا يعني استغلال ظروف الحاجة للاستيلاء على مال المحتاج، بغض النظر عن الوسيلة. أما تحريم الاتجار بنقود مقابل نقود واعتباره هو عين الربا فهذا لم يقله القرآن ولكن قالته كتب التراث، وأولت به الربا لمعنى آخر وكأنه يعني المعاملات التجارية بين من يملك المال، بينما هو لحماية الفقير والمحتاج وضمان توفير حاجاتهم عن طريق الإنفاق من حساب الغني بلا مقابل.

وليس من الإسلام أن يقال للمعدم أن يبقى معدماً، أو يرضى بدخل شهري ضئيل لا يكفي معيشة عائلته ليوم واحد، فيما يتمرغ بعض رجال الدين بالمتع الدنيوية ويطوفون الدنيا شرقاً وغرباً وتتضخم حساباتهم البنكية بالهبات والعطايا ثم يقول أحدهم بأن على الفقير الذي لا يجد ما يكفي من المال لشراء كيلوجرام من الموز لإطعام عائلته، بأنه ليس من الضروري أن يأكل موزاً، إذا كان لا يستطيع أن يشتريه. فهذا منطق رأس مالي، ولا يقره الإسلام.

ودولة الإسلام لا تحتكر الثروات الوطنية ولكنها تكون للمواطنين على شكل شركات مساهمة يمتلك الناس أسهمها. وتقوم ميزانيتها على الإنفاق الذي يساهم كل مواطن قادر، بنسب متساوية فيه. ومتى ما امتلكت الدولة ميزانية قادرة، أصبح لديها برامج عملية فعالة للقضاء على الفقر، وإبقاء دخل الفرد على مستوى يفي بتأمين حياة كريمة لصاحبه ومن يعول، إضافة لبنى تحتية وخطط تنموية. تهدف للوصول بالمجتمع المسلم إلى الصورة التي رسمها الله لهم ليكونوا عليها: مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً. (الفتح:٢٩)

وسيصبح شطأ دولة الإسلام في هذه الحالة غليظاً اقتصاديا، لأن توفر السيولة المالية وتدوير المال بين الناس يقوي حركة الشراء ويرفع من مستوى المعيشة، وإذا زاد المال المتوفر بين أيدي الناس زادت مساهماتهم فيما يدفع لحاجات الدولة من جهة وما يشترونه من سلع من جهة أخرى. ويكون التاجر الذي ساهم بالإنفاق، قادراً على أن يستعيد كل ما دفعه للمساهمة بميزانية الدولة، عن طريق حركة البيع النشطة أكثر وسيعوض كل ما خسره عن طريق الإنفاق، حتى ولو كان مجال الربح في بضائعه قليلاً، لأن مبيعاته ستكون كبيرة، ولن يحتاج لأن يصل مجال ربحه لدائرة الجشع الممنوعة شرعاً. ولن يكون هناك موطئ قدم في دولة الإسلام للربا: يَمْحَقُ اللهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ[1].

ويكون المسلمون قد توصلوا - بإرشاد من الله - لأهمية تدوير المال عبر الإنفاق فساهموا في التكافل الاجتماعي من جهة وزادت مبيعات التجار من جهة أخرى ومكاسبهم، وهذه فطنة وذكاء وحكمة في الدنيا ونجاة من النار في الآخرة، دلنا عليها القرآن قبل أن تظهر للوجود جميع النظريات الإدارية والمالية الحديثة، وقال بأنها تغني الفقير وتكسب التاجر وتحمي المجتمع من الربا، يقول تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ. الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ. (البقرة:٢٦٧-٢٦٩)

ولكن وللآسف الشديد أطاع المسلمون الشيطان، وقالوا بأن الربا يمكن أن يحل المشاكل الاقتصادية، وهذا لم يحصل لهم. فعم الفقر مجتمعاتهم برغم الأموال الهائلة والثروات التي تنعم بها بلادهم: .... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. البقرة:٢٧٥)

ولم يفطنوا لعرض القرآن بأن الإنفاق وحده من ينشط البيع ويحقق الأرباح على المدى الطويل للمنفق والمستفيد: يَمْحَقُ اللهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ. (البقرة:٢٧٦)

[1] هذه الفقرة مقتبسة من موضوع: الإنفاق/ كتاب: سنة الأولين.

ولن يكون المسلمون بحاجة إلى أي تعامل ربوي على الإطلاق، لأن المحتاج ستكفله الدولة ولن يضطر للاستدانة والتعرض للربا. وهذا يتحقق فعلياً وعلى أرض الواقع لأن من قاله هو الله، فصدق الله العظيم فيما قال عن الإنفاق، وصدق الله في كل آية: تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ. (الجاثية:٦)

ويكون الإنفاق طارداً للربا من المجتمع، وإن وجد الربا في أي مجتمع فهذا يعني أن الإنفاق قد طرد.

ولكن المسلمين تبنوا النظام الرأس مالي، والذي لا يقوم على حماية الفقير ورفع مستواه الاقتصادي والتكافل الاجتماعي بين الناس، ولكنه يقوم على استغلال الفرص للربح المادي، وكل من عانده الحظ مادياً فليس له الحق بالخدمات العامة التي يحصل عليها الغني أو الحياة الميسرة التي يعيشها، فالدنيا مصالح وشطارة وليس في التجارة الرأس مالية أي مجال لمشاعر الرحمة.

ولذلك جاء التعامل بالربا في تلك المجتمعات، وكانت النتيجة أن أصبح إحدى الوسائل لتنافس الأغنياء على سحب ما بقي بأيدي الفقراء من مال، فازداد الفقير فقراً، ولم يجد في دول المسلمين من يحميه ويسد حاجته. وازداد الغني غنى ولم يستطع الوصول للقناعة، بل زاد جشعه أكثر مع كل درهم يجنيه.

فالربا يمثل نظرة اقتصادية رأسمالية، بينما يمثل الإنفاق نظرة اقتصادية إسلامية.

وتستمر السورة في الحديث عن الربا: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٢٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ(٢٧٩) الزكاة = الصدقة = الإنفاق. والزكاة صفة للإنفاق كونه يزكي المال ويطهره.

والآية: (٢٧٧) تعد من ينفق مع الإيمان والعمل الصالح، بالجنة. وهو ما يعني أن الإنفاق وحده أو معه الإيمان لا يكفي للجنة برغم أهمية الإنفاق القصوى. لأن الدين كل لا يتجزأ، ويجب القيام بكل أمر، والانتهاء عن كل نهي وكبيرة.

ثم تعيد السورة تحذير من كان يتعامل بالربا من المسلمين. وقد يقول قائل لو كان الربا

موجباً للخلود في النار فكيف تخاطبهم السورة بـ "يا أيها المؤمنون"؟ نقول: لو أكملنا الآية فهي تقول: اتقوا الله وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ((إن كنتم مؤمنين)). هم مؤمنؤن حتى يسمعوا النهي والتحذير. فإن ارتدعوا وثابوا فهم مؤمنون. وإن استمروا على كبيرة الربا فقد خرجوا من الإيمان. والربا مثله مثل أي كبيرة، من استمر باقترافها بعد معرفة الحكم فهو مخلد في النار.

وتعطي الآية: (٢٧٩) خيارين: إما أن تستمروا في التعامل بالربا وهذا يعني إعلانكم الحرب على الله ورسوله أو أن تتوبوا. وتقدم الآية عرضاً لمرة واحدة ولهم خاصة، كونهم من نزل بحقهم تحريم الربا، هذا العرض يتلخص بأن يبقوا على رأس المال دون الفوائد الربوية. وبما أن حكم الربا واضح في القرآن فليس لأحد أن يأتي بعد عصر الرسول ثم يقول إن من يتعامل بالربا يحق له أن يأخذ رأس ماله وعفا الله عما سلف. لأنه عندما بدأ التعامل بالربا كان هناك حكم إلهي بتحريمه وتوعد من يقترفه بالخلود في النار. لذا فكل من تعامل بالربا بعد عصر الرسول فلا توبة له لأنه اقترف كبيرة وهو يعلم حكمها مسبقاً.

الآن البنوك تقدم عروضاً للناس تحت مسميات إسلامية اكتسبتها من توقيع رجال دين على أنها كذلك. ويظن الناس أنها أصبحت إسلامية بالفعل. لكن الواقع يقول الربا ربا ولو أحله كل المسلمين وليس فقط بعض رجال دينهم الذين يتلقون مقابلاً مادياً نظير فتاويهم تلك. والربا والإنفاق لا يمكن أن يجتمعا في دولة الإسلام. ومتى وجد الربا فالإنفاق حتماً قد أبعد، ومتى وجد الإنفاق فالربا حتماً قد طرد.

الربا ليس بقلة الفائدة وكثرتها، الربا هو أن يقترض المحتاج مالاً أو عيناً لسد حاجته ليعيدها لصاحبها (بفوائد كثيرة أو قليلة). لأن الإسلام يوجب على المسلمين التكافل الاجتماعي، بحيث لا يبقى بينهم محتاج. والقضاء على الربا لا يعني إغلاق البنوك، التي يمكن أن تستمر لتحويل الأموال وحفظها، لكن يجب عليها الابتعاد عن القروض بالفوائد لسد حاجة المحتاج، التي لن يكون لها حاجة، لأن الدولة ستضمن لكل مواطن حياة كريمة لن يحتاج معها لقرض حرام. ويمكن أن يبقى البنك كشريك ممول لكل من يرغب في التوسع التجاري. فصاحب الفكرة أو المشروع يدخل مع البنك مشاركة في الأرباح مقابل أن يمول البنك المشروع. كما يمكن أن تبقى القروض التجارية للتجار، والتي لا علاقة لها بالربا ولم يحرمها القرآن.

ثم تقول السورة في نفس الموضوع: وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٢٨٠) وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ(٢٨١).

فالآية (٢٧٩) تضمن لمن كان يتعاطى الربا أن يحصل على رأس ماله ممن أقرضه، ويتوقف نهائياً عن الربا. والسورة هنا تقول للمرابي السابق ألا يضغط على المقترض وأن يمهله لكي يتمكن حسب قدرته بإعادة رأس المال. ولا تتحدث عن تشريع دائم يقول بإباحة إقراض المحتاج واسترداد المال منه، فهذا ربا ولو كان بدون فوائد.

** ملاحظة هامة وهي أن القرآن يتحدث عن سد حاجة المحتاج ولا يناقش تعاملات التجار الذين يقترضون بفوائد لكي ينموا تجارتهم. هذه لم يتطرق لها القرآن، لأن الحديث عن الربا جاء ضمن الحث على الإنفاق وسد حاجات المحتاجين دون انتظار لاسترداد المال أو بعضه.[1]

الدَّيْن

الآيات: (٢٨٢-٢٨٤) والخطاب تشريعي

هناك الحديث عن التداين بين التجار والقادرين مالياً. وليس لها علاقة بالربا، ويدخل فيها القروض الاستثمارية من البنوك. وفي مثل هذه الحالة على المقترض أن يضمن للمقرض حقه باسترداد ماله، وهذا يكون بتوثيق القرض: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيراً أَو كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٢٨٢)

---

١ انظر فقرة: الربا/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ(٢٨٣) للهِّ ما فِي السَّمَاواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تبدو مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٨٤).

الدَّين: هو أن يقوم شخص أو هيئة بدفع مبلغ من المال لشخص قادر أو لهيئة للتوسع في التجارة أو لأي سبب آخر لا علاقة له بسد حاجة ضرورية. فهو تعامل تجاري بين قادرين، ولا يدخل ضمن الربا أو الإنفاق.

والسورة تسميه ديناً. والدين للأسف تحول بمفهومنا الحالي إلى معنى الربا، أي قرض للمحتاج لسد حاجته بفوائد. أما في هذه الآيات فالدين هو ما نسميه في عصرنا القرض للتجار.

ثم تختم سورة البقرة بخطاب تقريري:

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ(٢٨٥) لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ(٢٨٦).

الآية: (٢٨٥) تقول لبني إسرائيل الذين يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعض، أن من يؤمن بدين الله، فعليه أن يؤمن بكل رسله[١].

١ انظر فقرة: لا نفرق بين أحد من رسله / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

(٩٥) النساء

سورة النساء تلت البقرة في النزول، وتُكَوِّنُ معها ومع سورة المائدة التي نزلت بعدها، السور الكبرى للتشريع في الإسلام. لذا نجد السورة تبدأ مباشرة بفرض قوانين أحوال شخصية متنوعة، كاستمرار لفرض التشريعات التي بدأت في سورة البقرة. إضافة إلى رصد السورة مواقف المسلمين بعد فرض سورة البقرة الخروج لقتال قريش التي تحشد حشودها لمهاجمتهم. وترينا أن فئات عدة من المسلمين لم يرغبوا في الخروج، وبعضهم كانوا يحاولون ثني غيرهم عن الخروج وتثبيط عزائمهم، وآخرون امتنعوا عن الإنفاق لتجهيز الجيش، ومواقف أخرى لفئات أخرى. وهي صورة ليست مثالية للمسلمين قبيل أول معركة في الإسلام - بدر- وتخالف ما رسمته كتب التراث عن ذلك المجتمع المسلم، وأنه كان هو المبادر بملاحقة قريش ونهب قوافلهم التجارية. وأن قريشاً - حمل وديع - لم تكن ترغب الحرب، لكنها اضطرت لذلك اضطراراً للدفاع عن أموالها وقوافلها.

ولابد أنها نزلت بفترة لا تزيد عن الشهر بعد نزول سورة البقرة. أي أنها نزلت بعد الهجرة بحوالي أربعة أشهر.

والسورة تفتتح بتأكيد حقيقة غفل عنها الناس بسبب ما اعتادوا من أعراف.

الرجل والمرأة خلقا من نفس المواصفات

الآية: (١) والخطاب تقريري

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نفس واحدة وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً(١).

الآية تشير إلى أن الناس جميعاً متساوون في الإنسانية فقيرهم وغنيهم، أسودهم وأبيضهم، يتيمهم ومن له أبوان، رجالهم ونساؤهم، وليس هناك من هو أدنى إنسانية من غيره. وهذه الآية مقدمة للحديث عن اليتامى، الذين كان ينظر لهم على أنهم أقل إنسانية من غيرهم.

وقوله: « خَلَقَكُم مِّن نفس واحدة» لا تعني أن الناس تناسلوا من نفس واحدة (شخص واحد) لأن التناسل يحتاج لشخصين (ذكر وأنثى) ولأن الإنسان خلقت سلالاته الأولى من مجموعات تخلقت في باطن الأرض ثم نبتت على شكل مجموعات بشرية، ثم أصبح

التزاوج وسيلة للتناسل[1]. فنفس واحدة تعني نفس المواصفات.

هذه الحقيقة مقدمة للحديث عن اليتامى وبعض حقوقهم، والتأكيد على أنهم مساوون لغيرهم من البشر بخلاف النظرة السائدة حينذاك.

بعض حقوق اليتامى

الآيات: (٢-١٤) خطاب تشريعي

وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً(٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ(٣).

الآيات تشير إلى وضع سائد حين نزول السورة يتمثل في زواج الرجل بالفتاة اليتيمة لأجل الاستيلاء على أموالها، فجاءت السورة تحرم ذلك تحت أي مسمى. (انظر الآية (١٢٧) فهي بداية الحديث عن موضوع اليتامى)[2].

التعدد

الآية الثالثة تقول بأنه يحرم استغلال ضعف المرأة اليتيمة، والزواج بها فقط للاستيلاء على مالها. ولو لم يكن هذا هو السائد حينها لما تحدثت عنه السورة، وأمرت بإيتاء اليتامى أموالهم وعدم التلاعب بها. وكل من لا يستطيع إنصاف اليتيم فلا يتزوجها، ويمكنه أن يبحث عن زواج بفتاة أخرى، أو بالعدد الذي يشاء من الفتيات الأخريات، حسبما كان شائعاً في المجتمع وقت نزول الآية التي لا يمكن الاستدلال بها على أن التعدد سقفه أربع. فالمقصود بمثنى وثلاث ورباع: تزوج ما شئت من غير اليتامى وبالعدد الذي ترغب كما جرت العادة في ذلك الوقت. وقوله مثنى وثلاث ورباع، مشابه لقول أحدنا لرجل آخر اختلف معه على سعر سيارة معروضة للبيع: السوق أمامك اذهب واشتر من غيري سيارة أو ثنتين أو

---

١ انظر فقرة: خلق الإنسان/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

٢ بعضهم أرسل يقول إنه قرأ أن سورة النساء نزلت بعد أحد معارك المسلمين لأنها تتحدث عن اليتامى الذين خلفتهم تلك الحرب. وبطبيعة الحال فترتيب السور لم يتم بناءً على ظن هنا وظن هناك ثم صف السور حسب هذه الظنون. ولكنه تم بناءً على ضوابط ثابتة تحدثنا عنها، تتسم بالشمولية. وهو ما يفتقر له السائل. وإلا للاحظ أن الحديث عن اليتامى في السورة لو كان بسبب فقدانهم آباءهم في القتال لجاء لحث المسلمين على كفالة اليتيم والآيات لا تتحدث عن ذلك، ولكن عن عرف سائد يتمثل بالزواج من اليتيم للاستيلاء على المال الذي تملك، كما كان عرف العضل وعرف وراثة الابن لزوجة ابيه وغيرها من اعراف جاهلية أبطلها القرآن.

عشراً. فالرجل ليس ملزماً بعدد من السيارات ولا بحد أعلى هو عشر لأني قلت له ما قلت. فالمعنى هو أن يشتري ما يريد من غيري إذا لم يعجبه سعري.

ويمكن الرجوع لفقرة: التعدد، في قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

الصداق

وَآتُواْ النَّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً(٤).

الصدقات هنا هي جمعٌ للصداق. وهو ما يدفعه الرجل مقابل زواجه بالمرأة. وفي هذه الحالة فلو تنازلت المرأة عن شيء منه أو كله فيباح للرجل استعادته.

والإسلام ليس هو الذي شرع الصداق، بل جاء ومجتمعات يثرب وكثير من مجتمعات جزيرة العرب وغيرها ينتشر فيها ذلك العرف. وهذا يعني أنه لو وجدت مجتمعات مسلمة لا تعرف عادة الصداق فلا يعني أنهم قد خالفوا شرعاً إسلامياً، لأنه وضع مماثل للمرأة التي تتنازل عن صداقها.

الوصاية على مال السفيه واليتيم

وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً. (النساء:٥)

الوصاية على السفيه (ذكراً كان أو أنثى) جاءت ليس لأنه أقل إنسانية، ولكن لأنه لا يحسن التصرف. ولو مُكّن من المال فقد يبذره، وتبذير المال من المحرمات في الإسلام، ولذلك فقد أمر القرآن بالحجر على كل من يبذر أمواله ولو كان بالغاً:

أما إذا كان راشداً عاقلاً فيمكّن من ماله ولو كان يتيماً. والوصاية على مال السفيه يمكن أن تكون عبر هيئة رسمية في دولة المسلمين تستثمر المال ويدفع منه رسوم التشغيل والوصاية وحقوق الدولة، ثم تسلم له عندما يرشد بضوابط، للتأكد من أنه يحسن التصرف به.

والوصاية يمكن أن تكون على أي شخص في أي مرحلة من العمر إذا ثبت أنه يصرف ماله بطريقة عبثية أو تبذيرية: وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً.

(النساء:٦).

وبما أنه في عصر الإسلام لم يكن هناك دول مدنية لها مؤسسات وهيئات متخصصة فقد كان يوكل لشخص ذي ثقة أمر المحافظة على مال السفيه. وأعطي حق الأخذ من مال الموصى عليه بالمعروف أي بما يكفيه معيشته دون إسراف أو تبذير إن كان محتاجاً، وإن كان غنياً فلا يجوز له مسه.

وفي الإسلام فالمال مال الله، للجميع الحق فيه. والشخص وصي على ما يملك من المال ما دام يحسن التصرف فيه، لكن لو أساء وبذر فيجب الحجر عليه.

المرأة ترث

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَّفْرُوضا. (النساء:٧)

تشريع توريث المرأة الذي تتحدث عنه الآية من الواضح أنه جاء مخالفاً لعادات سائدة زمن الرسول تمنع المرأة من الميراث، بل وتعطى الولد الحق بأن يرث زوجة أبيه بعد وفاته.

نصيب المساكين من الميراث

وتشرع السورة وجوب إعطاء من يحضر قسمة التركة من المحتاجين: وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً(٨).

ويمكن تطبيق هذا القانون في دولة عصرية، وذلك بأن تقتطع نسبة من التركة وتضم لبند في الميزانية خاص بمكافحة الفقر.

لا يجوز لصاحب المال إنفاق كل ماله وترك ذريته

تحذر السورة أن يقوم الرجل بتوزيع ماله قبل موته وترك ذريته للفاقة: وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً(٩).

لكن لو كانت ذرية الميت تملك المال الكافي لحياة كريمة فللرجل أن يصرف كل ماله في أعمال الخير أو يوصي به لمن يستحق الوصية.

عود للتحذير من أكل أموال اليتامى أو التلاعب بها

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً(١٠).

المواريث

يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيما حَكِيماً(١١) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوَاْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ(١٢).

وقد تم الحديث عن هذه الآيات بالتفصيل في فقرة: المواريث وتوزيع التركة/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

أوامر القرآن ونواهيه

تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(١٣) وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ(١٤).

بعد أن ذكرت السورة عدداً من التشريعات والتي في غالبها لم يعتدها الناس من قبل تقول إن من يتقيد بهذه الحدود (التشريعات والقوانين الإلهية) فقد أطاع الله ورسوله، ومن خالفها فقد عصى الله ورسوله، ومن يعص الله ورسوله يخلد في نار جهنم. ولا فرق بين عصيان أمر واحد أو عصيان كل الأوامر.

والرسول لم يشرع منها شيئاً، ومع ذلك قرنت السورة اسمه باسم الله، وكأنه شارك الله

في التشريع. ذلك أنه لولا أن رسول الله بلغ رسالة ربه لما سمعنا ولا عرفنا بهذه الحدود. وعملنا بموجب هذه الحدود يعني تصديقنا أن محمداً رسول الله، فأطعناه فيما ينقل لنا عن ربه.

عقوبة من تقترف الفاحشة مع نساء

الخطاب هنا توجيهي

وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً(١٥).

هذه العقوبة التي تنص على أن الأنثى التي تقترف هذه الفاحشة تحبس في بيت أهلها مدى الحياة، أو يجعل الله لها سبيلاً، كعلاجها أو قبول رجل الزواج بها وقدرته على صرفها عن ممارسة تلك الرذيلة، أو سبيلاً آخر.

عقوبة من يقترف فاحشة قوم لوط

الخطاب توجيهي، كما الآية السابقة، مما يعني أن هناك حالات للسحاق ولفعل قوم لوط وقعت فنزل القرآن ليوجه المسلمين بما عليهم فعله حيالها:

وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ تَوَّاباً رَّحِيماً(١٦).

والأذى ليس بالضرب، ولكن نفسياً، لكي يضيق عليه، ويشعر بالخزي. ولا ينظر له كما هو حاصل الآن وكأنه مريض. بل هو فاسق ويجب أن يعزل، ويلفظ من المجتمع، إلا أن يعود لرشده ويستقيم ويتوب. فهذه الفواحش في منتهى القذارة ولا يجب التهاون معها، وليس مهماً، تأثير الإعلام الغربي المنحرف، أو الإعلام المتغرب الذي يسعى لتفشي مثل هذه الفواحش.

والإسلام في الأصل لا يفرض عقوبات حسية على من يقترف الكبائر، فليس هناك عقوبة لآكل لحم الخنزير أو الميتة أو الدم أو الخمر أو الربا أو غيرها. لأن الحساب سيكون في الآخرة وسيكون العقاب في الآخرة، وكل ما يفرض من عقوبات جسدية يكون ضمن خطاب توجيهي يوجه إلى الرسول والمسلمين لكي يتصرفوا حيال حدث معين. فالعقوبات الجسدية عبارة عن ضوابط رادعة لظاهرة لا يجب أن تنتشر في المجتمع المسلم، ولو لم يحدث

الحدث أو الظاهرة لما فرضت عقوبة جسدية، فيما عدا قتل القاتل العمد فهو تشريع يطبق في كل زمان ومكان ولا يعفى عن القاتل لا بدية ولا بدون.

والقرآن عندما يشرع عقوبة أو يوجه المسلمين لعقوبة فلا يعني أن العقوبة ستمحو ذنب المعصية الذي سيبقى ليحاسب عليه الجاني يوم القيامة. إذاً، عندما تتحول أي كبيرة إلى ظاهرة في المجتمع فيجب أن يشرع المسلمون لها عقوبات جسدية رادعة لبترها والقضاء عليها بأسرع وقت.

وفرض القرآن عقوبات على من تقترف الفاحشة مع نساء قد يعني أنه حدث هذا الفعل في المدينة في تلك الفترة فنزلت عقاباً لها وللرجال الذين يقترفون فاحشة قوم لوط، لأن الفواحش عموماً حرمت في مكة. فقد جاء أول ذكر لها في سورة النجم التي تقول إن من صفات المؤمن اجتناب الفواحش: الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى(٣٢).

ثم جاء النص صريحاً بتحريم الفواحش بشتى أشكالها وأساليبها في سورة الأعراف: قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٣).

وفي سورة الشورى المكية تأكيدٌ على أن من صفات المؤمن أن يجتنب الفواحش: وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ(٣٧).

فسائر الكبائر والفواحش كلها يجب اجتنابها للمؤمن وإلا انتفى عنه الإيمان ولو بقي يعلن إسلامه.

ثم يتكرر التذكير بحرمة الفواحش في سورة مكية أخرى، كالأنعام: قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(١٥١).

فالفواحش بكل ما قرب إليها من قول وعمل هي كبيرة ومحرمة، ولا يمكن للمؤمن أن يقترفها بعد أن عرف عظم أمرها ويبقى مؤمناً. سواء بطريق مباشر كالزنا الصريح أو فعل

قوم لوط أو «السحاق» أو تحت مسميات تبدو في ظاهرها أنها متفقة مع الدين، مثل الزواج المؤقت سواء كان اسمه مسياراً أو عرفياً أو متعة أو مسفاراً أو صيفياً أو أي شيئ آخر. فهذه الزواجات شكلية للمتع الجنسية المحرمة بغطاء ديني يمنع عنهم الاتهام بالزنا، ومن يقترفونها لا يقصدون ولا يريدون منها بناء أسرة ولا تأسيس مؤسسة الزواج المعروفة والتي وصفها القرآن ويعرفها الناس واعتادوها[1].

من ضوابط قبول التوبة

الخطاب تشريعي

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً(١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً(١٨) النساء.

لقبول التوبة، يفترض أن يقترف المرء الكبيرة وهو جاهل لحرمتها « إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ».

وأن يتوب حالاً ولا يعود لارتكابها: «ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ» أي يتوبون حالاً.

ولا تقبل التوبة لمن يستمرون باقتراف الكبائر حتى إذا شعر أحدهم بدنو الأجل تاب: « وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ».

فهذا مثله مثل من يموت على الكفر وكلاهما مخلدان في النار: « وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً».

والموت المعنوي، وهو العجز ولو لم يمت، في حكم الموت الفعلي.

وهناك شروط أخرى ذكرتها سور أخرى. ويمكن الاطلاع على موضوع التوبة في قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

وتعود السورة لفرض حدود (قوانين وتشريعات) للعلاقات الزوجية والأحوال الشخصية:

---

١ هذه العبارة عدلت من قبل المدقق اللغوي «أبو حزم».

تحريم وراثة النساء

الخطاب تشريعي

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهاً وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً(١٩) النساء.

الآية تشير لعرفين كانا سائدين قبل الإسلام:

الأول: **أن يرث الابن زوجة أبيه**

وعلى ما يبدو فقد كان من المعتاد أن يرث الابن زوجة أبيه، كما ورد في كتب التراث وأكدته الآية التي تحرمه وتدعو لوقف العمل به. وقد بقي له بقايا حتى الآن حيث ما زالت بعض مجتمعات جزيرة العرب تجبر زوجة المتوفى على الزواج بأخيه.

الأمر الثاني، هو: **العضل**

وهو التضييق على المرأة المطلقة لإجبارها على أن تدفع لمطلقها مقابل حصولها على الطلاق: «وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ». وقد وصفت الآية التالية العضل بأنه: « بهتان وإثم مبين»

والمؤسف هو أنه حتى الآن ونحن في القرن الخامس عشر الهجري هناك من يمارس العضل في جزيرة العرب حيث نشهد أن الزوج يأبى تطليق زوجته إلا بمبلغ قد يفوق ما دفع لها كصداق. وتصل القضية للمحاكم ويقف القاضي في صف الزوج ليس فقط ضد المرأة المظلومة، بل ضد حد من حدود الله وشرعه وصريح قرآنه: تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(١٣) وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ(١٤) النساء.

والعضل يمكن أن يكون على شكل إرغام البنت على الزواج بمن لا ترغب.

استرداد بعض الصداق أو كله بعد الطلاق

الخطاب تشريعي

وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ

بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً(٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً(٢١).

الآية تقول: إذا دخل الزوج بزوجته ولو لليلة واحدة، فلا يجوز أخذ شيء مما سبق ودفع لها على شكل صداق. وكل من يسترد شيئاً من الصداق فقد اقترف بهتاناً وإثماً مبيناً.

فالصداق يكون مقابل قبول الزوجة الزواج، ولو كان لمواقعتها فهو بغي. وبمجرد أن يفضي الرجل لزوجته في الليلة الأولى فقد حصل على المقابل للصداق، ولو لم يكن هناك اتصال جنسي[1].

نكاح امرأة الأب

الخطاب تشريعي

وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاء سَبِيلاً(٢٢).

وهي عادة أخرى كانت منتشرة في ذلك الزمن. ونكاح امرأة الأب يكون بأن يرثها الابن ضمن ما يرث من أبيه - كما ذكرت الآية (١٩) السابقة - ويعاشرها معاشرة الأزواج دون عقد نكاح. فهي ليست زوجة ولا أمة رقيق، ولكن من سقط المتاع الموروث.

من يحرم الزواج بهن

الخطاب تشريعي

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ

---

١ يرى «أبو حزم» أن قول الآية: «استبدال زوج مكان زوج» يعني طلاق زوجة حالية للزواج بأخرى قادمة، وهو ليل على أنه لا يحق الزواج بأكثر من واحدة في وقت واحد. ولو كان التعدد سائغاً لما كان هناك معنى لقوله: «استبدال زوج مكان زوج». لكني لا أستطيع أن أوافق على هذا لأن نفس سورة النساء أباحت في بدايتها التعدد دون تحديد سقف أعلى، في قوله تعالى: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ(٣). كما أنه لم يرد في القرآن ذكر لمنع التعدد. وبالتالي يمكن القول أن الآية (٢٠) أعلاه تعني أنه في حال طلاق زوجة حالية لكي يتزوج الرجل بامرأة غيرها لأن المرأة الحالية لم تقبل أن يتزوج زوجها امرأة أخرى وفضلت الطلاق. ولا تعني أن الرجل طلق زوجة حالية لكي يستبدل بها زوجة أخرى لأن هذا عبث بالحياة الزوجية والأسرية لا يختلف كثيرا عما يمارس باسم الزواجات المؤقتة، والذي لا يمكن أن يبيحه الإسلام.

عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللهَّ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً(٢٣) وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء....

المحصن تأتي بعدة معان[١]، والمحصن هنا لا تعني المرأة العفيفة غير المتزوجة. لأن الآية ذكرتها ضمن من يحرم الزواج بهن.

فهل كان هناك عرف في ذلك الوقت يجيز الزواج بالمرأة المتزوجة؟

سواء التي غاب عنها زوجها في سفر أو مع وجود الزوج؟

وقد وثقت كتب التراث والمعاجم أنه كان هناك عادة انتشرت عند بعض مجتمعات جزيرة العرب تتمثل في تعدد الأزواج، أو في معاشرة امرأة متزوجة برضى زوجها. ومن هذه الزيجات الشاذة:

- نكاح الاستبضاع: وهو أن تنكح الزوجة من قبل رجلٍ آخر بموافقة زوجها.
- نكاح المخادنة: وهو اتخاذ المرأة المتزوجة صاحباً لها يعاشرها.
- نكاح المضامدة: وهو أن تتخذ المرأة زوجاً آخر بجانب زوجها.
- نكاح الرهط: وهو أن يعاشر المرأة عدد من الرجال.

وحتى لو لم تصح هذه الزيجات إلا أنها قد تشير لوجود زواجات شاذة بالفعل وإن لم تكن منتشرة بشكل كبير. والسورة تذكر أن من الأعراف السائدة الغريبة والشاذة أن يرث الابن زوجة أبيه، وأن يعضل الزوج زوجته، إضافة للإيلاء.

إذاً، من المحتمل أن الآية (٢٤) تحرم الزواج بالمرأة المحصن «المتزوجة». ويكون من الأعراف البائدة التي اندثرت ولم يعد لها وجود كوراثة زوجة الأب.

وتواصل السورة:

الزواج بملك اليمين

الخطاب تشريعي

إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللهِّ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم

١ انظر معنى المحصن في قسم مفردات من القرآن.

بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً(٢٤).

ملك اليمين ليست للمتعة خارج الزواج بالمعنى السائد «التسري»، فهو زنا مثل الزنا بالحرة. لأن الزنا يعني أن يتعاشر رجل وامرأة جنسياً خارج نطاق الزواج، ولا يهم تحت أي مسمى. ومعاشرة الأمة جنسياً زنا[1]. اللافت أن فقه أتباع المذاهب الذين يجيزون معاشرة الأمة يجلدون من يمارس ما يسمى «العادة السرية» تعزيراً، لأنهم يعتبرونها مخالفة شرعية. بينما يعتبرون معاشرة الأمة حلالاً، مع أنها ولدت حرة، وحظها العاثر أوقعها في يد مجرم سرقها من أهلها وباعها لآخر. فكيف تحل له، وهي لم تختر العبودية ولم تولد لتكون عبدة، وإنما ولدت كما قال الله عنها: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نفس واحدة وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً(١).

والسورة تقول: « إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ». وكتاب الله لا يكون شاهداً ومباركاً لمعاشرة خارج إطار الزوجية وزنا وسفاحاً ولو سميت بالتسري وأجازها رجال الدين بعد عصر الظلمات والفتن.

المال يدفع كصداق وليس للسفاح

الخطاب تشريعي

الآية السابقة تؤكد هذا: وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً(٢٤).

فالسورة بعد سرد من يحرم الزواج بهن تقول بأن كل من يحل لكم الزواج به من النساء غيرهن فعليكم أن تدفعوا لهن صداقهن ولا تستخدموا أموالكم في نكاح باطل كان سائداً. ولا تتحدث السورة عن إباحة التمتع بامرأة خارج الزواج مقابل المال لأن هذا ما سمته الآية سفاحاً.

والحديث يتواصل:

---

١ انظر فقرة: ملك اليمين/ قسم ادلة ومواضيع من القرآن.

من لا يستطيع تحمل تكاليف الزواج بالمحصن

الخطاب تشريعي

وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٢٥) يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٢٦).

السورة تقول إن من لا يستطيع تحمل التكاليف الزواج بالمحصن، فيمكنه أن يتزوج من (ملك اليمين) بإذن أهلها. وعلى أهلها أن يسهلوا زواجها ممن يرغب بها- وعلى الزوج إن يدفع لها صداقها.

والأمة المملوكة ليس لها أهل يملكون قرارها أو يتدخلون فيه، ولكن لها سيد يأمرها فتنفذ دون تردد ودون نقاش. وهذا يعني أن الآية لا تتحدث عن أمة مملوكة، ولكن عن فتاة لم يسبق لها الزواج، لكنها مخطوبة من رجل ولم يتم عقد النكاح بعد.

فمن هي المحصنة هنا؟

أليست هي المرأة التي سبق لها الزواج، وتملك أمر نفسها وقرارها بنفسها فيما يخص قبول من يتقدم لخطبتها دون تدخل من الأهل؟

وعلى ما يبدو فقد كانت المرأة التي سبق لها الزواج هي المفضلة للزواج، وأمر زواجها بيدها. لذا فهي تفرض قيمة صداق أكبر من صداق الفتاة التي لم يسبق لها الزواج. والفتاة التي لم يسبق لها الزواج - على ما يبدو - تترك أمر الموافقة على من يخطبها لأهلها، بسبب الحياء، ولا تبت فيه بنفسها في ذلك الزمن، ومازال هذا العرف سارياً في بلاد العرب. ومع الزمن تحول هذا العرف إلى فقه مذهبي يقول: إن الثيب أمر زواجها بيدها لا تستأمر أحداً، بينما جعلوا أمر البكر (الفتاة) بيد وليها (أب أو أخ أو غيرهما).

والفتاة التي لم تتزوج بعد لو أتت بفاحشة «السحاق» فعليها نصف ما على المحصنة (التي سبق لها الزواج). وهذا يؤكد أن عقوبة السحاق التي ذكرتها الآية (١٥)، هي عقوبة ردع

يمكن للمسلمين أن يفرضوا عقوبة أشد في حال انتشرت ظاهرة السحاق في المجتمع ووجب التطهر منها. وفي هذه الحالة فيجب أن تعاقب المحصن بضعف عقوبة الفتاة.

تحصين المسلم

الخطاب تقريري

وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً(٢٧) يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً(٢٨).

الآية (٢٧) تشير إلى أن هناك فئات من الباحثين عن المتعة الحرام في يثرب، وهو ما يؤكد أن عقوبة السحاق وفعل قوم لوط جاءت للقضاء على ظاهرة انتشرت في المجتمع. وسيأتي الحديث عن ظاهرة غير أخلاقية أخرى ستعم المدينة في سورتي الأحزاب والنور اللتين نزلتا بعد سنوات من سورة النساء.

وكل من يسعى لنشر الرذيلة يجب حربه بكل ضراوة. وبناءً على هذا يجب وقف جميع وسائل الإعلام المقروء والمسموع والمشاهد التي تحبب بالرذيلة وتنشرها، ومعاقبة القائمين عليها والداعمين لها بعقاب رادع، فالمجتمع المسلم يجب أن تسوده النزاهة والعفة والآداب العالية.

ثم تخاطب السورة المؤمنين في يثرب:

أكل مال الغير بالتحايل نوع من الغش التجاري

الخطاب تشريعي

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً(٢٩) وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً(٣٠)

لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل تعني بلغتنا البسيطة: لا يأكل بعضكم أموال بعض بالباطل (بالتحايل) لأن الشخص لا يتحايل ليأكل ماله هو بالباطل. والتحايل هو نوع من الغش التجاري.

الاستمرار على الكبيرة

الخطاب تشريعي

إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً(٣١).

الآية تؤكد أن دخول الجنة مقترن باجتناب الكبائر، ولا جنة مع الكبيرة، وهو ما سبق وأكدته سور سابقة[1].

تميز الناس مادياً

الخطاب توجيهي

وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً(٣٢).

تشير الآية إلى أن الفروق الجسمانية بين الرجال والنساء لا تعني تفوق جنس على آخر ولكنها فروق ضرورية تتلاءم مع دور كل من الرجل والمرأة في الحياة.

توريث المرأة المعقود عليها ولو لم يدخل بها

الخطاب تشريعي

تعود السورة للمواريث: وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ
فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً(٣٣).

الآية تعود للحديث عن المواريث، والمواريث (الموالي) حق للوالدين والأقربين فقط كما تقول الآية وكما تؤكد السورة سابقا. ولا يرث أحد لا صلة له بالنسب أو الزواج مع الميت. ويكون المقصود بـ» الَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ» الاتفاق على الزواج بين رجل وامرأة ويموت احدهما قبل الدخول. فإن مات الرجل فللخطيبة حق من الإرث كزوجة، وإن ماتت المرأة فللخطيب حق في الإرث كزوج.

لكن المفسرين – كعادتهم – يلوون كلام الله لغير معناه دون تردد، ولو كان ما يقولون يستحيل حدوثه. ومما قالوا هنا إن «الذين عقدت ايمانكم» تعني من بينكم وبينهم أحلاف

---

[1] انظر فقرة: الجنة مضمونة لمن آمن وعمل صالحاً، وفقرة: الدين كل لا يتجزأ ....../ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

ومواثيق من أناس آخرين وعادة من قبائل أخرى. فقد كان الناس في الجاهلية يعقدون الأحلاف فيما بينهم لكي يتقووا بها ولكي يحتموا بها. والمفسرون يقولون إن من بينكم وبينهم حلفاً يرث. وحرفوا الآية لتقول: والذين عاقدت أيمانكم، بدل «عقدت».

ولأن كلام المفسرين غير معقول ولا مقبول اضطروا لأن يقولوا بأن توريث الحليف نسخته آية نزلت في سورة الأنفال تقول: وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله».

وهذا تحريف آخر، وتلاعب بكتاب الله غير مسئول يصدر من أناس لا يقيمون وزناً لكلامه سبحانه. فلو قرأنا جزء آية الأنفال بسياقه لتبين لنا معناه البعيد كل البعد عما تأوله المفسرون. تقول السورة: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)

وسورة الأنفال نزلت بعد معركة بدر مباشرة وتتحدث عما حصل في المعركة، كما تحث المسلمين على مواصلة الاستعداد للمعركة القادمة مع قريش المصممة على حربهم. ويكون الاستعداد بالأنفس والإنفاق لتجهيز الجيش. وهو ما تحث عليه الآية (٧٢) التي تؤكد أن المسلمين أولياء بعض، والكفار أولياء بعض كما تقول الآية (٧٣).

وتمتدح الآيتان (٧٤-٧٥) المهاجرين المجاهدين بأموالهم وأنفسهم والأنصار.

فأين هو (النسخ) التبديل لكلام الله؟[1]

استكمال موضوع أن الرجل والمرأة متساويان

الخطاب تشريعي

الآية (٣٢) تؤكد أن الفوارق بين الذكر والأنثى لا يعني التفوق العرقي أو البشري

١ تمت مناقشة ما تتحدث عنه الآية في فقرة: ملك اليمين/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

ولكنها فوارق ضرورية تناسب دور كل من الرجل والمرأة في الحياة، وتستمر السورة هنا لتقول: الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً(٣٤) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً(٣٥)[١].

فالرجال من مسئولياتهم في كل العصور إعاشة الأسرة بجانب حمايتها وتأمين متطلباتها. فكان الرجل هو عميد البيت، حتى لو كانت الزوجة هي المعيل أو شاركت الزوجة في مصروفات المنزل، كما هو الوضع في هذا العصر، فلا يعني أن مسئولية قيادة المنزل تتحول للمرأة لتكون هي رب البيت. لأن من مواصفات الرجل الخلقية أنه أقدر في إدارة المنزل من المرأة، لأنه هو من يدافع عن الأسرة وهو من يحافظ على حقوقها ويرعى شئونها. ولو وجد رجل يفتقد لهذه المواصفات ويعيش في ظل المرأة فهذا الوضع استثنائي، ولا يعتد به. وهذا لا يجعل المرأة أقل إنسانية لأن لها مسئوليات تناسبها كأم وزوجة ومربية ومدبرة تناسبها وتميزها عن الرجل. والمسئوليات لا تجعل الرجل أو المرأة أكثر إنسانية من الآخر.

والآية (٣٤) تتحدث بصفة عامة عن اللاتي تخافون نشوزهن. والنشوز هنا قد تعني عزوف الزوجة عن ممارسة الجماع مع زوجها بسبب ممارسة الفاحشة (التي تسمى السحاق) وذكرتها آية سابقة: وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً(١٥).

فمن يقترفن تلك الفاحشة وهن متزوجات: فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ.

ولو كان الخلاف بين الزوجين لغير ذلك فالحل لا يكون بالهجر والضرب، بل بطريقة أخرى بينته الآية (٣٥): «وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً».

وقد مرت بنا آيات كثيرة تؤكد أنه لا يجوز إجبار المرأة على البقاء مع زوج لا ترغب فيه، فكيف تجيز آية أخرى إجبارها على ذلك بالضرب.

---

١ انظر فقرة: القوامة والمحرم/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

ولكي نفهم أكثر ما تتحدث عنه الآية (٣٤) علينا معرفة معنى «النشوز» في قوله تعالى: وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً.

ونقول: النشوز هنا لا يأتي بمعنى الرغبة عن جماع الزوج، ولكنه عدم الرغبة في البقاء مع الزوج، لأن النشوز يعني الإعراض بكراهية وترفع واشمئزاز. والآية (٣٥) تقول: وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً.

أي أنه في حال ووجد خلاف بين الزوج والزوجة يُعَرِّض استمرار الزواج للخطر، فأول ما يجب فعله ليس ضرب الزوج لزوجته، لأن القلوب إذا تكسر ودها، مثل الزجاجة كسرها لا يجبر. ولن يجبر الضرب سوء التفاهم بينهما بل سيزيد من حنق الزوجة وإصرارها على إنهاء الحياة الزوجية. ولذلك كان أول ما يجب القيام به عندما يكون هناك شحناء بين الزوجين هو تحكيم الآخرين في المشكلة القائمة، في محاولة لرأب الصدع والخروج بحل للمشكلة القائمة وتوقيع معاهدة تمنع وقوع مشاحنات في المستقبل حفاظاً على تماسك رابط الزواج.

والشحناء بين الزوجين تكون بسبب تعنت الزوجة وتكون بسبب تعنت الزوج، وإن كانت الزوجة قد تعرض عن الزوج فقد يعرض الزوج عن الزوجة، كما تخبرنا الآية (١٢٨) من سورة النساء نفسها، والمتممة لهذا الموضوع، ونصها: وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً.

ويكون أول ما نقوم به هو محاولة الصلح كما ذكرت الآية (٣٥)، ولكن إن كان الشقاق بين الزوجين كبيراً فقد يكون الطلاق أفضل من استمرار الزواج مع تكرر المشاحنات، وهو ما تقول به الآية (١٣٠): وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللهُ وَاسِعاً حَكِيماً.

فضرب الزوجة ليس لأنها امتنعت عن معاشرة زوجها أو أنها أعرضت عنه أو أن بينهما مشاحنات وتريد الطلاق، لأن كل هذا لا يوجب الضرب.

والمتدبر للآية يرى أن المرأة الصالحة القانتة لله والتي تبتعد عن كل ما نهى الله عنه في السر والعلانية "الصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ" وإن اختلفت مع زوجها أو

نشزت عن عشرته فلا يحق له أو لغيره ضربها: الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً(٣٤) النساء.

بينما من يحق ضربها عكس تلك، وهي التي لا تحافظ على ما نهى الله عنه في الحياة الزوجية كلما غابت عنها العيون، وهي التي تهجر مضجع زوجها بسبب ممارستها لشيء آخر، وهذا الشيء هو الموجب لضربها وهجرانها وموعظتها علها تتوب "اللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرا".

وهذا الشيء قد يكون الفاحشة المعروفة (بالسحاق) التي توجب السجن في بيت أهلها إن لم تكن متزوجة. بينما توجب الضرب على المتزوجة والوعظ والهجران فإن ثابت وتابت وإلا فالطلاق. وهو ما تقول به الآية (١٩): يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً.

ويكون الضرب فقط بحق الزوجة التي تمارس هذه الفاحشة، والضرب يقع عليها ليس شرطاً من قبل الزوج، ولكن من قبل المحكمة، كعقوبة لمن تمارس هذه الفاحشة وهي متزوجة. وأي مشكلة تقع بين الزوجين أو اختلاف مهما كان بينهما لا يجيز للرجل أن يضرب زوجته، ولو ضربها فيقاد بذلك مثله مثل أي اعتداء من شخص على آخر.

ثم تؤكد السورة بعض التشريعات السابقة:

الإحسان

الخطاب تشريعي

وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً(٣٦)

الآية ترد على كل من يظن أن القرآن لا يهتم بالتعامل الإنساني، لأنهم يقلبون كتب التراث

ولا يجدون سوى أحاديث تحض على الكراهية والتسلط والدم، ولا يعرفون القرآن الذي أمر بالإحسان، بالكلام والعون والمعاملة، بنفس مستوى الأمر بعبادة الله والبعد عن الشرك. وكل أمر إلهي في القرآن لا يحمل إلا معنىً واحداً هو الوجوب، وليس هناك أمر إلهي في القرآن يعطي للناس الخيار في اتباعه أو رفضه حسب الرغبة.

والآية توضح أن الإحسان يكون لكل الناس، دون النظر للمعتقد، كلٌ بما يحتاج. فالغني والفقير يحتاجان الإحسان بالكلمة الطيبة والتعامل الإنساني، مثل السؤال عن الصحة، والمواساة، والمشاركة في المشاعر، والتبركات والهدايا في المناسبات. ويضاف للفقير العون عند الحاجة.

والدليل على أنه لكل الناس أن الآية المذكورة تقول إنه للوالدين، ولكل من للشخص به قرابة ولو من بعيد، ولليتامى نعرفهم أو لا نعرفهم، وللمساكين نعرفهم أو لا نعرفهم، والجار ذي القربى أي الملاصق، والجار بالجنب أي الجار الذي يحيط بنا من أي الجهات ولو لم يكن ملاصقاً، والصاحب بالجنب، قد تعني بلغة العصر أهل الحي. والإحسان يكون لابن السبيل حتى ولو لم نعرفه (ويدخل في ذلك الوافد)، والإحسان يجب لملك اليمين كذلك[1].

وإذا نحن أحسنا لهؤلاء نكون قد أحسنا لكل الناس بلا استثناء، لأنه لن يتبقى أحد من الناس لا يدخل ضمن من ذكر في هذه الآية، دون أن نسألهم عن عقائدهم.

البخل والإنفاق رياءً

الخطاب تشريعي

الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً(٣٧).

فالبخل هنا هو التوقف عن الإنفاق على الإحسان وسبل الخير، والآية تبشر من يبخل بالنار، حتى لو اعتبروا مسلمين. ومثلهم من ينفق رياءً: وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَـاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاء قِرِيناً(٣٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللّهُ وَكَانَ اللّهُ بِهِم عَلِيماً(٣٩) إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ

---

١ لمعرفة معنى ملك اليمين انظر فقرة: ملك اليمين / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً(٤٠) فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـؤُلاء شَهِيداً(٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثاً(٤٢).

والآيات تتحدث عن فئة من المسلمين زمن رسول الله.

وما أكثر من ينفق رياءً هذه الأيام، حيث نجد المساجد كلها أصبحت تحمل أسماء من قاموا ببنائها. أو تجد من يقوم بتصوير توزيعه ماءً بالمجان في رمضان، ليظهره كمادة إعلامية في التلفزيون. وأنواع لا حصر لها من التباهي بالأعمال الخيرية. وغاب عن الناس – أو أنهم تناسوا – أن كل عمل ديني (تنفيذ لأمر إلهي) له أجر واحد، ومن أخذه في الدنيا بأي صورة فلن يناله في الآخرة.

ثم تنتقل السورة لموضوع آخر:

توجيه وتحذير لبعض المسلمين مما بدر منهم وفرض التطهر للصلاة

الخطاب توجيهي

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ... (٤٣).

لقد قام أحد المسلمين أو بعضهم بشرب الخمر (الذي لم يحرم بعد) وحضروا صلاة الجماعة مع الرسول، وكونهم تحت تأثير الخمر فلم يتمكنوا من السيطرة على أنفسهم والانضباط في الصلاة، وصدرت منهم أقوال سببت الإزعاج لبعض المصلين وأفسدت عليهم صلاتهم، فجاءت الآية لتقول لأولئك لا تحضروا الصلاة وأنتم سكارى حتى ينجلي أثر السكر وتتمكنوا من معرفة ما تقولون في الصلاة وتتموا الصلاة بخشوع. والآية لا تفرض تشريعاً للمخمور ليطبق في كل زمان ومكان، ولكن الآية تفاعلت مع ما حدث وأرست بعض الضوابط للتعامل مع الحالات المماثلة. فهي تمنع شارب الخمر من الحضور للصلاة في المسجد ما لم يزل أثر السكر تماماً ويع ما يقول. وهذا التوجيه يفترض ألا يكون له مكان في المجتمع المسلم بعد تحريم الخمر في سورة المائدة، لأن المسلم لن يقرب الخمر بعد تحريمها ولا أي كبيرة أخرى، لأنه يفهم أن الإسلام ميثاق مع الله طول الحياة، يتعهد المسلم بموجبه لله بالالتزام بالأوامر والانتهاء عن النواهي، مقابل سعادة وعزة في الدنيا وجنة في الآخرة. ويفهم أن اقترافه كبيرة عالماً بحكمها مماثل لتجاوز كل أوامر الله ونواهيه، فالدين كل لا

يتجزأ. ومن أقدم على كبيرة وهو عالم بحكمها فليس له توبة وهو في النار ولو أبقى على إسلامه. فالإسلام لا يقبل ناقصاً.

وجوب الغسل على من هو جُنُب قبل الصلاة

الخطاب تشريعي

وتقول بقية الآية: ... وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً(٤٣).

تشرّع الآية الغسل الكامل للجُنُب، ومن كان عابر سبيل (وليس هناك مكان يغتسل فيه) أو كان مريضاً (يتعذر عليه استخدام الماء) أو كان مسافراً لا يجد الماء، فيسقط الغسل ويكفيه التيمم. وصفة التيمم بينته آخر السورة بأنه ضرب الكفين على التراب ثم مسح اليدين والوجه مرة واحدة: « فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ».

وجوب الغسل لمن جاء من الغائط

وغسل الغائط ليس الغسل الكامل للبدن كما الجُنُب، ولكنه غسل السبيلين بالماء. ويدخل ضمن ذلك ما هو بحكم الغائط كالبول، ومن الغائط وهو الريح. فيجب التأكد من غسل السبيلين بعده، قبل الوضوء. ولا وجود في كتاب الله لما ابتدعه رجال الفقه وأسموه: الاستنجاء والاستجمار، وهو - كما قالوا - تنظيف السبيلين بحجارة أو تراب دون الماء، مع توفر الماء.

وجوب الغسل لمن لامس النساء

وملامسة النساء تعني مباشرتهن، أو المداعبة المفضية للإنزال، لأنها تؤدي للجنابة، التي يجب فيها الغسل، كما بينت الآية. ويمكن أن يقاس على ذلك من يحتلم ومن يكون عليه جنابة بسبب آخر.

ثم تبتعد السورة عن التشريعات لموضوع آخر

الحديث عن أهل يثرب من أهل الكتاب بمختلف طوائفهم

الآيات: (٤٤-٤٦) والخطاب إخباري

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ(٤٤) وَاللّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللّهِ نَصِيراً(٤٥) مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً(٤٦).

الآيات تظهر جانباً من الجوانب السيئة لليهود، وهي انحرافهم عن دين الله القويم بمحض إرادتهم، وسعيهم لإضلال المسلمين.

والآية (٤٦) تنهى المسلمين عن استخدام لفظ «راعنا» ولعل السبب يعود إلى أن يكون للفظ معنى سيء في الاستخدام العامي بخلاف معناه العادي. واليهود يستخدمون لفظ «راعنا» بمعناه السيئ المعروف لديهم، وليس بمعناه الواضح المرادف لـ «انظرنا». لذا تنهى الآية المسلمين عن استخدام لفظ «راعنا». والآية تؤكد أن اليهود كفار.

وتستمر السورة بمخاطبة أهل يثرب:

دعوة لأهل الكتاب للإيمان

الآيات: (٤٧-٤٨) والخطاب دعوي

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً(٤٧) إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً(٤٨).

دعوة للإيمان (ترك ديانتهم والدخول في الإسلام) وإلا فعليهم لعنة الله لكفرهم. (تأكيد آخر على كفرهم) وتقول لهم الآية (٤٨) إن الله يغفر كل الخطايا مهما عظمت، إذا صدرت من مسلم، وتاب صاحبها. أما الشرك، فلا يغفر إلا بالدخول في الإسلام. لأن من أهل الكتاب من يشرك عيسى وأمه كآلهة مع الله، ولأنهم يقولون لمشركي قريش إن الله سيقبلهم كما ورد في الآية (٥١) القادمة. وهذه الآية لا يمكن أن يستدل بها على أن الله سيغفر الكبائر

للمسلم لو استمر عليها ومات، لأن الحديث في هذه الآيات ليس في هذا الموضوع وليس موجهاً للمسلمين.

وتستمر السورة تفضح أمرهم:

بعض جوانب أهل الكتاب السيئة

الآيات: (٤٩-٥٥) والخطاب إخباري

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً(٤٩) انظر كَيفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُّبِيناً(٥٠) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً(٥١) أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً(٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً(٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً(٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً(٥٥).

أهل الكتاب في يثرب كانوا يقولون لقريش إن الله يقبلهم وهم أهدى من المسلمين عند الله. فجاءت الآية (٤٨) تنفي أن يقبل الله الشرك جملة وتفصيلاً.

ثم تتوعد السورة كفار (قريش)، وتعد المسلمين:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً(٥٦) وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِـلاًّ ظَلِيلاً(٥٧).

والآية: (٥٦) تتوعد بالنار، مستخدمة التصوير المجازي الحسي للعذاب وكأنه سيحرق الجلود وتستبدل، لزيادة الترهيب. وهذا لا يعني أننا سنبعث بأجسادنا الحالية أو بأجساد حسية مكونة من خلايا كما هي أجسادنا الحالية. وتبقى هيئاتنا التي سيبعثنا الله عليها مجهولة لنا.

حفظ الأمانة والتعامل مع الناس بالعدل

الآية: (٥٨) والخطاب توجيهي

تلتفت السورة لمخاطبة المسلمين: إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً(٥٨).

تأدية الأمانة والوفاء بالوعد والعهد مخالفته كبيرة من الكبائر، وسبق أن أكدت ذلك سور مكية.

كما أن الحكم بالعدل فريضة وليس تفضلاً. والحكم يعني التعامل العام، ويشمل قول الحق والتعامل مع الناس بالعدل والإنصاف والبعد عن الظلم. كما يشمل الحكم في النزاعات، وهو ما يشير إلى أن المحكمة تكون لفض النزاعات الدنيوية ولا يجب أن يطلق عليها مسمى ديني أو تنسب أحكامها لدين الله. أما تشريعات الدين فتكتب على شكل قوانين وتكون ضمن دستور الدولة.

ثم تحدثنا السورة عن شيء آخر:

مسلمة يثرب يلجئون لليهود وكتبهم للبحث عن حكم

الآيات: (٥٩-٧٠) والخطاب تفاعلي

ولكي نتبين ما حدث علينا أن نتعرف على ما تقول كل آية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً(٥٩).

الآية تقول: متى وقع نزاع بين المسلمين فيجب رده لله والرسول. وهذا يكون بالتوجه للرسول طلباً للحكم، فإن كان القرآن يخلو من الحكم فسينتظر نزول الوحي بالحكم. ويكون المسلمون ردوه لله، وقبل ذلك ردوه للرسول، وهذا بطبيعة الحال لا يمكن أن يحدث بعد وفاة الرسول.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً(٦٠)

هذه الآية تظهر أن من يريدون الاحتكام لحكم ضال غير إسلامي «الطاغوت»، هم بعض

من يعلنون إسلامهم من بني إسرائيل في يثرب، وهم من أطلقنا عليهم «مسلمة يثرب» لأن الآية تعرفهم بأنهم « آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ». أي ممن آمن بمن قبل محمد والإشارة هنا لموسى. ويبدو أنهم سارعوا للبحث عن حكم فيما اختلفوا فيه إلى كتب اليهود أو رجال دينهم، كما اعتادوا قبل إعلان الإسلام. وهذا مرده أنهم لم يعلنوا الإسلام عن اقتناع، ولكنهم أعلنوا الإسلام بحثاً عن مصالح دنيوية ظناً منهم أنهم سيحصلون عليها تحت مظلة الإسلام، لكنهم أبقوا على موروثهم الديني ومعتقداتهم القديمة: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً(٦١).

هذه الآية تصفهم بالمنافقين فهم أعلنوا الإسلام ولم يسلموا. لكن لو أصابتهم مصيبة لتراكضوا للرسول: فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً(٦٢).

وتصفهم الآية التالية بأن قلوبهم ليست سليمة: أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً(٦٣).

كما وصفتهم سورة البقرة أنهم: «في قلوبهم مرض».

ولو كانوا مؤمنين لأطاعوا الرسول الذي يتلو ما يوحي إليه: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً(٦٤).

واستغفار الرسول لهم تشعرهم بأن الله ورسوله معهم.

ثم تؤكد السورة أن المؤمن من يُحكّم كتاب الله: فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً(٦٥).

والآية تنفي نفياً قاطعاً أن يكون هناك دين لله مقبول عند الله غير الإسلام.

وتلخص السورة القول عنهم أنهم لن يلتزموا بأمر الله: وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً(٦٦) وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّـا أَجْراً عَظِيماً(٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً(٦٨) وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً(٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ عَلِيماً(٧٠).

الحث على الاستعداد للقتال

(الآيات:٧١-٧٩) والخطاب توجيهي

آيات تخاطب المسلمين وتحثهم على الاستعداد للقتال الذي على ما يبدو أصبح حتمياً. وهو ما يعني أن قريشاً مصرة على ملاحقة المسلمين والقضاء على الإسلام حتى بعد أن هاجروا ليثرب التي تبعد عن مكة مسيرة عشرة أيام على ظهور الجمال، أو بلغة العصر ما يقارب (٤٠٠) كيلومتر: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً(٧١).

والآية تحثهم على الخروج لميدان المعركة جماعات جماعات أو مجتمعين كلهم مع الحيطة والحذر. والخروج جماعات كأنه يشير إلى أن مكان المعركة قد تم الاتفاق عليه بين قريش والمسلمين. وليس المقصود أن يخرج المسلمون على شكل مجموعات صغيرة لحرب قريش. لكنه يعني أن يخرجوا من المدينة لمكان المعركة جماعات، وهناك يجتمعون كجيش واحد، أو يخرج الجيش بكامله من المدينة[1].

مواقف المسلمين من القتال متباينة

الآيات: (٧٣-٨٥) الخطاب تفاعلي

ونظهر تباين مواقف المسلمين من الخروج لقتال قريش:

وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً(٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً(٧٣).

١. فئة ستتباطأ في الخروج وفي المسير، حتى تضمن نهاية المعركة قبل وصولهم.
٢. وفئة تقول السورة إن القتال في سبيل الله يعتمد عليهم، لأنهم ممن أخلص النية لله وباع دنياه بآخرته: فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً(٧٤).

ويجب ألا يتراخى المسلمون، لأن هناك في مكة مسلمين من المستضعفين (عبيد وموالي) تحتجزهم قريش وتمنعهم من الهجرة: وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل

١ انظر فقرة: معركة بدر / قسم أجاث من عصر الرسول.

لَنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً(٧٥).

وتؤكد السورة أن المسلمين يقاتلون باسم الله، بينما يقاتل المشركون باسم الشيطان: الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً(٧٦).

٣. وهناك فئة لا يريدون الخروج خشية الموت، وأصيبوا بالذعر لما كتب القتال: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً(٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً(٧٨).

وتخاطب السورة الرسول، والمعني كل شخص: مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً(٧٩).

فلو أصابتك حسنة (انتصار وغنائم) فمن الله، بمعنى علمه ورعايته ومشيئته، وليس تقريره المسبق وتغييره مجرى الحرب فعلياً. ولو حدث لك هزيمة فمن نفسك، كونك لم تقيم الوضع كما يجب وتستعد للمعركة بالمال والعتاد المناسب والخطط والاستعداد النفسي.

٤. وتذكر السورة فئة أخرى لا تريد الخروج لقتال قريش: مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً(٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً(٨١) أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً(٨٢) وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً(٨٣).

وهذه فئة من المسلمين يُبدون موافقتهم وامتثالهم لحث الرسول لهم بالاستعداد والخروج لملاقاة قريش، وبمجرد أن يغادروا مجلس الرسول يبيتون عكس ما قالوا للرسول.

وهذه الفئة إذا عرفوا أخباراً عن تحركات قريش أو عما يعتزم المسلمون فعله في أمور الحرب أذاعوا به فيصل إلى العدو. وكان حرياً بهم إن كان لديهم رأي أن ينقلوه للرسول وإلى أهل الخبرة والدراية بأمور الحرب (أولي الأمر) لكي يروا رأيهم لما فيه صالح المسلمين.

وتعود السورة للحديث الذي ذكرته الآية (٧٤) من أن القتال في سبيل الله يعتمد على من أخلص النية لله وباع دنياه بآخرته، والمخاطب رسول الله: فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَاللّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً(٨٤).

لأن هذه الفئة المخلصة هي التي سيكتب النصر على أيديها، حتى ولو كانوا قلة بين من أعلن إسلامه من الناس في تلك اللحظة. وهو ما فعله طالوت مع بعض بني إسرائيل حيث تخلص ممن لن يقدموا على القتال بإخلاص نية، وأبقى على المخلصين منهم فقط: فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ(٢٤٩) البقرة.

فالله لم ينزل على طالوت وحياً في تلك اللحظة، ولكنه بفراسته عرف أن هناك فئات متراخية. وهذه لو بقيت في الجيش فستثبط العزائم وستسبب الخسارة. فقال لجيشه إن كل من يشرب من النهر فلن يشارك معنا في المعركة، لأنه يعلم أن من لا يرغب في القتال سيبحث عن أي عذر لمغادرة الجيش. ولو جاءته فرصة الانسحاب دون أن يوصف بالجبن فهذا ما يتمناه. وقد وفر طالوت بذكائه لهم هذه الفرصة، وتخلص من كل من سيكون عبئاً على الجيش وسيسبب خسارة المعركة. واعتمد قلة يقاتلون بعزيمة ودافع وإيمان، وهو المطلوب في كل معركة للمسلمين ضد عدوهم، فليس العدد هم المهم ولكن المهم العزيمة وصدق النيات.

حقيقة تقررها السورة

(الآية: ٨٥) والخطاب تقريري

الحقيقة مفادها أن: مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتاً(٨٥).

من يبتكر طريقة حسنة فسيناله خير منها، ومن يبتكر شيئاً سيئاً فسيناله سوءٌ منها، ولو كان الخير والسوء معنوياً وعلى شكل سمعة. ولا تتحدث الآية عن ثواب وعقاب في الآخرة.

فرض سلوك حضاري

(الآية: ٨٦) والخطاب توجيهي تشريعي

وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً(٨٦).

فكل من يحييك بتحية فحيه بأحسن وألطف منها، أو على الأقل رد عليه بمثلها: فمن قال: صباح الخير! فيقال له: صباح الخير والسرور، أو صباح الخير. ومن قال: السلام عليكم يرد عليه: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أو: وعليكم السلام.

ولم تقل الآية إنه لا يجوز أن نحيي بعضنا بغير السلام عليكم التي هي التحية المميزة للمسلمين، والتي يجب أن يحرصوا عليها ويتميزوا بها. لكن لو حيانا أحد بغيرها فعلينا أن نرد له التحية بمثلها أو أحسن منها. كما أن التحية سواء بالسلام عليكم أو بغيرها تلقى على كل أحد وتقبل من كل أحد بغض النظر عن المعتقد.

تقرير حقيقة يعرفها المسلم

الآية: (٨٧) والخطاب تقريري

اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثاً(٨٧).

فئتان من مسلمة قريش لم يهاجروا

الآيات: (٨٨-٩١) والخطاب تقريري

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً(٨٨) وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً(٨٩) إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً(٩٠) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوَاْ إِلَى الْفِتْنِةِ

أُرْكِسُواْ فِيِهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُواْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّواْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثِقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَـئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً(٩١).

الفئة الأولى يوالون المشركين ولم يهاجروا، وهؤلاء يخيرون بين الهجرة والانضمام للمسلمين أو البقاء في مكة ويكون حكمهم حكم المحاربين من قريش.

والفئة الثانية هم ممن لا يرغبون في قتال المسلمين ولا قتال قبيلتهم قريش، وهؤلاء إن اعتزلوا حرب المسلمين وطلبوا التعايش السلمي معهم فلا يجوز للمسلمين ملاحقتهم أو قتالهم أو التضييق عليهم.

والآيات تحمل دليلاً آخر على أن الإسلام لا يقاتل الكفار لكفرهم، بل لعدائهم وحربهم للمسلمين. كما أن ما ورد دليل على أنه حتى المرتد من المسلمين لا يقاتل لردته، إن هو أعلن تعايشه السلمي مع المسلمين. لكن لو ارتد وأعلن الحرب على الإسلام بأي شكل أو عاون المعتدين فيقتل لأنه عدو وليس لأنه كافر. والآيات تقول بأن المنافق كافر ولو بقي يعلن إسلامه.

القتل/ العمد والخطأ

الآيات: (٩٢-٩٣) والخطاب تشريعي

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً(٩٢) وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً(٩٣).

الآيات تؤكد أن قتل المؤمن عمداً يوجب الخلود في النار على القاتل.

والآيات تؤكد أنه لا يمكن أن يقدم المؤمن على قتل المؤمن عمداً: « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً». وهذا يعني أن من يتعمد القتل قد خرج عن دائرة الإيمان واستحق النار، ولو آمن وقام بالعبادات، وهو ما تؤكده الآية (٩٣). فالمؤمن يعلم أن هناك آلية تسجل أعماله ونياته بكل دقة ولو أخفاها عن الناس، ويعلم أن القتل العمد مورد للنار، ولو أقدم

عليه فقد اختار دخول النار بنفسه. والقتل العمد لا توبة له إن كان القاتل يعلم أن جزاءه جهنم، حتى لو أقنع الناس في الدنيا أن قتله كان خطأ.

لكن القتل بطريق الخطأ يمكن حدوثه، وفي هذا ثلاث حالات كما يلي:

١. أن يكون القتيل في دولة الإسلام.

وفي هذه الحالة يتوجب على القاتل تحرير رقبة مؤمنة إضافة لدفع دية لأهل القتيل. ولأهل القتيل الحق بالتنازل عن الدية.

٢. القتيل مؤمن ولكنه من قبيلة أو دولة ليست مسلمة وبينها وبين دولة الإسلام عداوة.

فيتوجب على القاتل تحرير رقبة من المسلمين المؤمنين، دون دفع الدية.

٣. القتيل مؤمن ولكنه من قبيلة أو دولة ليست مسلمة وبينها وبين دولة الإسلام مواثيق عدم اعتداء وصداقة.

فعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة إضافة لدفع دية لأهل القتيل، كما في الحالة الأولى.

وفي حال عدم قدرة القاتل مادياً على تحرير رقبة أو عدم وجود رقبة يمكن تحريرها، فيستعاض عن ذلك بصيامه شهرين متتابعين.

وما ورد ينفي أي دور لما أسماه الفقهاء (العاقلة) وهو ما يعني أن يقوم من يتصل بالقاتل بالنسب بجمع دية المقتول عوضاً عن القاتل، ويدفعوها لأهل القتيل. وبطبيعة الحال هذه عادة غير إسلامية، فالقاتل يقتل ويكرم بألا يدفع هو فلساً واحداً بل يقوم غيره بدفع الدية عنه. وهو ما يخالف قوله تعالى: كل نفس بما كسبت رهينة، وألا تزر وازرة وزر أخرى. كما أن فيه دعوة عصبية مقيتة وحمية جاهلية حرمها القرآن. فالقرآن يقول كل شخص يتحمل بنفسه جريرة ما صدر منه.

كما أن ما ورد يخالف ما يحدثُ حالياً. حيث يقوم بعض من لديه جاه وسلطان ومال بشراء عفو المقتول، الذي قتل عمداً، لكي يُنقذ القاتل من القصاص الذي فرضه رب العالمين. وبالتالي فالفقير فقط هو من يقتل لو قتل. وهذا خروج عن أمر الله، وتعطيل لحدود الله. وإلا فالقاتل العمد يقتل دائماً ولا يحق لأحد أن يمنع قتله، ولا يمكنه دفع دية. كما لا يجوز لأهل المقتول أن يتنازلوا عن القاتل. لأن قتل القاتل العمد جزاءً له على فعلته شريعة سنها

رب العالمين وليست حقاً لأهل القتيل. وما يحدث حالياً هو أن أصحاب النفوذ عندما يَقتل أحدهم شخص آخر عمداً يقومون بإغراء أهل القتيل بالمال لكي يتنازلوا ويطلق سراح القاتل. وهذا شراءٌ للذمم بالمال، وتعطيل لحدود الله.

وما يقوم به أهل الجاه والسلطة والمال - لمنع قتل القاتل - هو مشاركة له بالذنب، ولن ينقذ القاتل من لعنة الله والنار الذي نصت عليه الآية (٩٣) بكل وضوح.

ونكرر: دم المقتول عمداً ليس ملكاً لأهله وورثته، والدية التي تسلم لأهل المقتول خطأً ليست مقابل دمه، ولكنها تعويض لورثته عن فقده. ولذا فمن حقهم التنازل عنها. أما القاتل العمد فيقتل ليس كحق لورثة المقتول، ولكن كحد من حدود الله لا يملك أحد من الخلق التسامح فيه.

وهذه الحقيقة مغيبة تماماً في حياة المسلمين بسبب ما رسخته كتب التراث من أن القتيل دمه ملك لأهله[1]. ودية المقتول خطأً يجب أن تكون ثابتة ومعروفة، ولا تزاد ولا تنقص إلا لو عدلت بموجب قانون.

وما يجب للمقتول المؤمن يجب للمقتول المسالم من غير المسلمين.

يجب عدم التعرض للمسالمين وقت الحروب

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً(٩٤).

تحذير شديد من مهاجمة أو سلب غير المسلم بحجة أنه ليس مسلماً. فالإسلام لا يقاتل الكافر لكفره ولكن لعدائه للإسلام. ومن ألقى السلم (أي قبل التعايش السلمي مع المسلمين والإسلام) فيجب عدم التعرض له.

الملاحظ هو أن بعض المصاحف يكتب فيها لفظ (السلم) وكأنه (السلام) وهذه قراءة خاطئة. لأن المقصود بمن ألقى السلم هو: قبول التعايش بسلام، وليس من يلقي علينا تحية السلام. لأن إلقاء السلام قد يصدر من غير المسلم ولا يعني شيئاً، لكن إلقاء السلم يعني التعايش السلمي وعدم حمل السلاح علينا وهو المطلوب.

١ انظر فقرة: هل يعي المسلم حقاً ما يقول القرآن عن القتل/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

والسورة نزلت قبل أن يخوض المسلمون أي حرب لأنها سبقت في النزول معركة بدر. وكل ما قالته كتب التراث عن سبب نزول الآية قصص مختلق ومنه قولهم: إنها نزلت في أناس أرسلهم الرسول في مهمة فلقوا شخصاً سلم عليهم بتحية الإسلام فقام أحدهم وقتله فنزلت الآية فيه. وبطبيعة الحال الآية لم تنزل لوحدها ولكنها ضمن السورة ومن سياق آيات تهيئ المسلمين للحرب القادمة مع قريش وتضع ضوابط للقتال ومنها تحريم التعرض للمسالمين. لكن كتب التراث حولتها لمن يلقي السلام واختلقت لها قصة نزول.

وتستمر السورة في الحديث عن الاستعداد للخروج لقتال قريش المنتظر

فضل المقاتل على القاعد

لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُـلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً(٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً(٩٦).

من يقعد عن الخروج بدون عذر، فلا يمكن مساواته بالمجاهد. والآيات تؤكد أن المقاتل سيكون في الجنة في مستوى أعلى من القاعد، ولو تذكرنا ما ورد في سورة الواقعة فإن الجنة تتكون من مستويين: الأعلى للمقربين، والأقل لأصحاب اليمين.

والآيات لا تفيد أن بإمكان المسلم أن يختار الخروج للجهاد في سبيل الله أو البقاء في المدينة. لأن الآيات مقدمة للحديث عن مسلمين بقوا في مكة ولم يهاجروا وهي تحثهم على الهجرة والمشاركة في قتال الأعداء. فالآيات أعلاه تأتي في سياق واحد مع الآيات التالية:

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً(٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً(٩٨) فَأُوْلَـئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً(٩٩) وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً(١٠٠).

الآية: (٩٧) تقول لا عذر لمن يبقى في مكة وهو يستطيع الهجرة، لأن البقاء هناك يجعله لا

يستطيع تأدية شعائر دينه ويطبق تشريعاته على حياته اليومية، وقد يفتن في دينه ويجبر على الردة. لأن قريشاً لا تسمح بالتعايش السلمي معهم وسوف تضطهدهم وتحاول أن تفتنهم في دينهم، ولو بقي أولئك فمصيرهم النار.

وهذا يذكرنا بما حدث في الأندلس بعد النكبة، فقد قبل كثير من المسلمين البقاء حرصاً على أموالهم ومساكنهم. وسرعان ما نكث فرديناند وإيزابيلا بالوعود الموقعة معهم والتي تنص على ضمان تمتعهم بحقوقهم ودينهم. وأجبروا على الدخول في المسيحية أو الحرق بالنار والتعذيب. فاضطر البعض لإعلان الدخول في المسيحية وإخفاء دينه، ومن لم يكتشف منهم ويقتل، فقد تحول أحفاده للمسيحية لأنهم ولدوا في مجتمع مسيحي عدو لكل ما له علاقة بالإسلام.

والآيتان: (٩٨-٩٩) تستثني « الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً» الذين لا يستطيعون الهجرة.

وتقول الآية: (١٠٠) إن كل من هاجر في سبيل الله فالله كفيله في الدنيا والآخرة، حياً وميتاً، وسيعوضه الله خيراً مما فقد من مال ومنازل.

وهذا التشريع ساري المفعول، حتى الآن، كغيره من التشريعات الإلهية.

وتكون الآيتان: (٩٥-٩٦) قد جاءتا لحث المسلمين الذين في مكة على الهجرة، ولا تقولان إن أي مسلم في المدينة في تلك الفترة يحق له أن يختار الخروج لقتال قريش المعتدية أو البقاء في المدينة. ولو بقي فله أجر، ولو أقل من المقاتل. لكنها تقول إن من هاجر وقاتل فأجره أكبر ممن أسلم ولم يهاجر.

وتستمر السورة بفرض التشريعات والضوابط لوقت الحرب المرتقب، ومن ذلك:

جواز قصر الصلاة عند لقاء العدو

بما أن الجهاد في سبيل الله فريضة هامة للإسلام وبقاء دولته، ولأن الصلاة يجب ألا تؤخر عن وقتها لأي سبب كما ورد في عدة سور، فإن وقت المواجهة مع العدو هو الوقت الوحيد الذي تقصر فيه الصلاة لو حضر وقتها أثناء المواجهة: وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ

عَدُوّاً مُّبِيناً(١٠١) وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً(١٠٢) فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً(١٠٣).

فقصر الصلاة حصر على وجوب وقتها أثناء المواجهة مع العدو (عندما كان الجيشان يتقابلان وجها لوجه)، ولو طالت الصلاة فسيستغلها الكفار بالهجوم على المسلمين وتمزيقهم.

ولا تتحدث الآيات عن عدد ركعات الصلاة، وقوله: «فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ» تقول بكل وضوح إن الرسول سيؤم الناس وستصلي فئة معه وتبقى الفئة الثانية تحرس المصلين إذا سجدوا، وبعد أن تنهي الفئة الأولى نصف الصلاة تسلم وتبدل مكانها مع الفئة التي لم تصل. وقد فهمنا أن كل فئة تصلي نصف الصلاة العادية من الآية السابقة (١٠١) والتي تقول بأن الصلاة تكون قصراً في حالة المواجهة مع العدو.

وبما أن المعارك في ذلك الوقت تبدأ مع بداية اليوم وتنتهي عادة بعد بضع ساعات، فإن المؤكد أن الصلاة المقصورة هي صلاة طرف النهار الأول التي تحين بعيد شروق الشمس وقبل الالتحام مع العدو. وهي صلاة رباعية الركعات، وبالتالي فالفريق الأول يصلي مع الرسول ركعتين ويجلس معه جلوس التشهد الأول، وعندما ينهض الرسول للركعة الثالثة يسلّمون وينسحبون. ويتقدم الفريق الثاني ويصلي مع الرسول الركعتين الأخيرتين. ويكون كل فريق صلى ركعتين بدل أربع، وتم الحفاظ على يقظة الجيش ومراقبة العدو، ولم تؤخر الصلاة عن وقتها.

ويفهم من هذا أن تأخير الصلاة عن وقتها لا يجوز لأي سبب، ولا عذر لمن نام وتأخر عن صلاة أحد الأوقات.

وتقول الآية التي تلي: فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا

اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً(١٠٣).

والخطاب للمسلمين المقاتلين، وتحثهم في الجزء الأول من الآية على ذكر الله وتسبيحه عقب الصلاة استعانة به للقاء العدو، وفي الجزء الثاني تقول الآية: بالنسبة للصلوات الأخرى فيقيمونها كما هي بلا قصر. أما قصر الصلاة في السفر، وجمع وقتين معاً، كما يفعل الناس الآن فليس له مرجع ديني من الله، بل هو من إنتاج رجال الدين وفقههم.

وتحث السورة المسلمين بلقاء قريش، وتقول هم بشر مثلكم يتألمون ويحزنون ويهزمون، لكنكم ترجون الله، بخلافهم: وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً(١٠٤).

حادثة وقعت في المجتمع المسلم وتوجيهات إلهية حول ما كان يجب فعله

إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً(١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً(١٠٦) وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً(١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً(١٠٨) هَاأَنتُمْ هَـؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً(١٠٩) وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُوراً رَّحِيماً(١١٠) وَمَن يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً(١١١) وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً(١١٢) وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاُّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً(١١٣) لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً(١١٤) وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً(١١٥).

هذه الآيات تتحدث عن أحد المسلمين الذي اقترف معصية وقام بإلصاق التهمة بشخص آخر لم يقترفها. وهذه الواقعة تحدثت عنها هذه الآيات، ثم عادت السورة إلى استكمال الحديث عنها في الآيات: (١٣٥-١٣٦).

وتبدأ الآيات بتوجيه الرسول وتوبيخه بسبب ما حدث:

إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً(١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً(١٠٦).

عليك الالتزام بما ورد في كتاب الله ولا تحكم مرئياتك الشخصية، كإشارة إلى أنه عليه الصلاة والسلام قد فعل. وهذا دليل قاطع على أن الرسول لا يستطيع أن يحكم بغير القرآن، مما يعني بداهة بطلان أي حكم يستند على حديث ينسب للرسول.

وعليك يا محمد أن تستغفر الله مما حدث.

ولكي نفهم ما حدث علينا أن نراعي الأسلوب المتبع في هذه الآيات لرواية الخبر وإعادة تتبع الحدث:

ونبدأ بالآية: (١١٢)، التي تخبرنا أن أحد المسلمين اقترف خطيئة وحاول إلصاق التهمة بشخص آخر: وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً.

وقد روى أهل وأقارب المخطئ ما حدث للرسول بطريقة صدّق عليه الصلاة والسلام معها أن ابنهم بريء وأن من قام بالفعل هو البريء الذي ألصقت به التهمة: وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاُّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً(١١٣).

حتى أن الرسول كان يدافع عن الفاعل الحقيقي ويميل للتصديق أن المتهم البريء هو الفاعل: وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً(١٠٧).

وهو عليه الصلاة والسلام لا يعلم أن الفاعل ومن معه يخفون عنه حقيقة ما حدث، ولو أخفوها عن الرسول فالله يعلمها: يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً(١٠٨) هَا أَنتُمْ هَـؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً(١٠٩).

وبعد أن اتضحت الحقيقة وظهر كذب ادعاء الفاعل وأهله، تقول السورة إنه كان يجب على الفاعل أن يعترف بفعلته ويتوب: وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَّحِيماً(١١٠).

وأن كل من يقترف إثماً فسيحاسب عليه في الآخرة، ولو فات الناس في الدنيا أن يحاسبوه أو يستدلوا عليه: وَمَن يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً(١١١).

ويبدو أن الفاعل وأهله الذين تضامنوا معه لم يعجبهم كشف الحقيقة، ودخلوا في جدال مع الرسول: وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً(١١٥).

فلم يكن يهمهم أن يتهم بريء، ولكن همهم ينصب على تبرئة ابنهم أمام الناس. وهذا السلوك ما زال يعيش بيننا بوضوح وإصرار. فالناس لا يهمهم كشف الحقيقة بقدر ما يهمهم إبعاد التهمة عن أحد منهم ولو كان هو الفاعل، فالمهم سمعة العائلة والعشيرة وليس المهم إحقاق الحق. وهناك من يعتبر نفسه فوق الشبهات، لدرجة أنه لا يمكن أن يحاكم أو يتهم.

وقد عادت السورة في آيات لاحقة وحذرت من هذه الممارسات الجاهلية والمتمثلة بكتم الشهادة، وأنه يجب قول الحق ولو كان فيه ضرر على والديهم أو أولادهم أو أقاربهم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء للهِّ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللهُّ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللهَّ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً(١٣٥).

وأي شخص لا يلتزم بهذه القوانين الإلهية في قليل أو كثير فليس بمسلم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللهِّ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللهِّ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً(١٣٦).

ترى كم من مسلم يفعل هذا الآن؟

والأخذ بعرف ما يسمى بالحصانة، بأي شكل، هو مما نهى الله عنه في هذه الآيات، فليس هناك بشر فوق المُساءلة وليس هناك بشر فوق العقاب.

الحديث عن قريش

الآيات: ١١٦-١٢١) والخطاب دعوي

إِنَّ اللهَّ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِّ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً

بَعِيداً(١١٦) إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً(١١٧) لَّعَنَهُ اللّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً(١١٨) وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً(١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً(١٢٠) أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً(١٢١).

الخطابات الدعوية الموجهة لقريش أصبحت قليلة جداً في السور المدنية، وهذه الآيات واحدة منها وجاءت في وقت كانت قريش في طريقها لغزو المسلمين.

والآيات تقول بأن قريشاً ضلت بسبب استعدادها للضلال وقبول وساوس الشيطان. ومن المعتقدات الوثنية التي كانت قريش تمارسها طقس وثني يقوم على تبتيك آذان الأنعام، أي شقها بطريقة معينة خلال طقس جاهلي، ويسمون الناقة التي تبتكت آذانها «بحيرة»[1]. وقطع أذن الحيوان بحد ذاته لا يعني شيئاً لكن لو ارتبط بطقس وثني وكان جزءً منه فيدخل في رجس الجاهلية ويكون تغييراً لخلق الله، أي تشويه لخلق الله السوي لآذان الأنعام. وهو مماثل لما يسمى بتقليد الهدي في الحج إن كان من البقر والغنم وذلك بتقليدها نعلاً قد صلي فيه. أو ما يسمى بإشعار البدن وهو شق سنام البعير وهو حي وتلطيخ جسده بدمه منه.

ويمكن ملاحظة أن سورة النساء كررت مرتين: « إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ». في الآيتين: (٤٨، ١١٦)، والمعني بهما قريش. وتقول لهم إن الله لن يغفر لهم، حتى لو قال لهم أهل الكتاب إنهم مقبولون عند الله: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً(٥١). ولا تعني أن مقترف الكبائر يمكن أن يغفر الله له إذا كان موحداً، كما تروج كتب التراث.

وهو ما تؤكده الآيات: (١٢٢-١٢٦) والخطاب تقريري

وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً(١٢٢) لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً(١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ

---

[1] انظر الآية: (١٠٣) من سورة المائدة.

مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً(١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً(١٢٥) وَللهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً(١٢٦).

هذه الآيات تعد المؤمنين خيراً عند ربهم، قبل أن تؤكد أن غفران الذنوب بالإيمان والعمل الصالح، وليس بأماني قريش التي تقول بأن الله سيغفر لهم، ولا أماني أهل الكتاب الذين يقولون لهم إنكم خير من المسلمين عند الله. ولا بأماني أتباع الموروث الذين يقولون إن الله سيغفر لمرتكب الكبائر إما بمقارنة حسناته مع سيئاته ورجحان حسناته أو بشفاعة الرسول أو بدخول النار لفترة ثم يخرج منها للجنة.

مقدمة الحديث عن آيات ذكرت في بداية السورة

الآيات: (١٢٧-١٣٠) والخطاب تشريعي

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء الَّلاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً(١٢٧).

وهذه الآية مثال على أسلوب القرآن الفريد، فهي مقدمة للآية الثالثة في السورة، لكنها جاءت في هذا المكان المتأخر. ولتوضيح ما نقول، نورد الآيتين بالترتيب التالي: وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء الَّلاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً(١٢٧) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ(٣).

وبالتالي يتضح أن الآية: (٣) تتحدث - كما سبق وذكر - عن الزواج باليتيمة ووجوب ضمان عدم هضم حقوقها ولا أكل مالها ولا التعامل معها بفوقية. والسورة تحدثت أولا وفي بدايتها عما يجب لليتيم ثم في آخر السورة ذكرت سبب التشريع وهو أن الناس اعتادوا الزواج باليتيمة وأكل مالها وهضم حقوقها. وقد سأل بعض المسلمين الرسول عن مثل هذه الزيجات فجاء الجواب.

وهذا الأسلوب تكرر في القرآن، ومن ذلك ما ورد في الآية الثالثة من سورة المائدة: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣)المائدة.

والآية تقول بأن الدين اكتمل (أي اكتمل فرض التشريعات) لكن التشريعات لم تكتمل إلا بنهاية السورة. ومع ذلك فالقول باكتمال التشريعات سبق اكتمالها، لكن بما أنها سورة واحدة نزلت في وقت واحد فإن هذا التقديم ممكن. فالدين اكتملت تشريعاته بنزول سورة المائدة. والآية الثالثة من سورة النساء تجيب على تساؤل الناس عن اليتامى والوارد في الآية ١٢٧.

وهذا الأسلوب موجود في السور المكية أيضاً، ومن ذلك: كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا(١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا(١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا(١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا(١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا(١٥) الشمس.

فالآية تقول إن أشقى قوم ثمود انبعث (انبرى للشر) ثم تعود وتخبرنا من بداية الحدث: الرسول بدأ يدعوهم، ثم خصص للناقة يوم لشربها. بعد ذلك قام أشقى ثمود وعقروا الناقة.

ومثله: وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً(١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى(١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى(١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى(١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى(١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى(١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى(١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى(١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى(١٢٣) طه.

وتواصل الآيات الحديث عن بعض ما ورد في بداية السورة:

وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً

وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً(١٢٨)

وهو ما أشارت له السورة في قوله تعالى: الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً(٣٤) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً(٣٥).

فالمرأة لها حق الانفصال عن زوجها تماما كما للرجل حق الانفصال عن زوجته. ولو حدث نشوز لرجل عن زوجته أو نشوز لزوجة عن زوجها فالإجراء واحد، ويتمثل بمحاولة الصلح ورأب الصدع بينهما ويقوم به حكم من طرف المرأة وحكم من طرف الرجل، فإن لم تنجح مساعي الصلح فليكن الطلاق (تسريح بمعروف) دون شقاق ولا ضغائن.

وتستمر السورة لتقول:

وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً(١٢٩) وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللّهُ وَاسِعاً حَكِيماً(١٣٠).

فالعدل هنا ليس بين زوجتين أو أكثر في اللبس والمآكل وغيره، كما رسخ بيننا. ولكن العدل هنا في تعامل الزوج مع زوجته بعدل وعدم هضم حقوقها أو أكلها أو معاملتها بدونية، خاصة لو كانت يتيمة.

مخاطبة المؤمنين

الآيات: (١٣١-١٣٤) والخطاب توجيهي

وَللّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ للّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ غَنِيّاً حَمِيداً(١٣١) وَللّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً(١٣٢) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً(١٣٣) مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً بَصِيراً(١٣٤).

عودٌ للحديث عن تلك الواقعة التي حدثت في المجتمع المسلم

وأخبرتنا بها الآيات: (١٠٥-١١٥)، من اتهام بريء ومحاولة تبرئة الفاعل. وتوجب السورة هنا ضرورة شهادة الحق ولو على أنفسنا وأولادنا وآبائنا وأهلنا: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء للهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً(١٣٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً(١٣٦).

والآيات تقول: بوجوب قول الحق بغض النظر عمن سيتضرر من ذلك.

عود للحديث عن مسلمة قريش

الآيات: (١٣٧-١٣٩) والخطاب تقريري

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً(١٣٧) بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً(١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ للهِ جَمِيعاً(١٣٩).

هؤلاء هم مسلمة قريش الذين أعلنوا إسلامهم في مكة ثم تحولوا لموالاة المشركين من قريش، فكفروا بعد إيمانهم ولو بقوا على شهادة التوحيد. لأن مولاة الكفار كفر ولو بقي الشخص يعلن الإسلام. ومسلمة قريش يعلنون الإسلام وبعضهم هاجر ليثرب، لكنهم يوالون قريشاً المشركة.

مخاطبة المسلمين

الآية: (١٤٠) والخطاب توجيهي

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً(١٤٠).

والآية تشير إلى تحذير سابق في سورة الأنعام المكية والذي يخاطب الرسول: وَإِذَا رَأَيْتَ

الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٦٨) الأنعام.

الآية تقول إن مسلمة قريش كانوا يسخرون من الإسلام.

والأصل هو التعايش مع الناس بسلام بغض النظر عن المعتقد، كافراً كان أو منافقاً. لكن لو أن هذا المنافق أو الكافر سخر من الإسلام فلا يجوز مشاركته مجالسه أو إظهار المودة له. وفي عصرنا الحالي يجب مقاطعته وعزله.

والآية دليل على أن مسلمة قريش المنافقين معروفون بأشخاصهم للرسول والمسلمين.

مسلمة قريش يتربصون بالمسلمين وهم يعيشون بينهم

الآيات: (١٤١-١٤٣) والخطاب إخباري

الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللّهِ قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً(١٤١) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً(١٤٢) مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلاء وَلاَ إِلَى هَـؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً(١٤٣).

وهؤلاء هم مسلمة قريش، الذين أعلنوا إسلامهم فلم يعودوا يحسبون من المشركين، ولكنهم ليسوا مسلمين (مذبذبين).

وهم سينتظرون نتيجة المعركة، فإن انتصر المسلمون قالوا إنهم معهم. وإن كانت الغلبة للمشركين قالوا لهم: لقد كنا سبباً في غلبتكم باستحواذنا عليكم ومنع المسلمين من قتلكم. وسنرى عند الحديث عن معركة بدر أنهم تعمدوا أسر مشركي قريش لحمايتهم من القتل. كما سنرى أنهم تعمدوا منع المسلمين من ملاحقة فلول جيش قريش المنهزم في بداية معركة أحد ودخلوا معهم في شجار أدى لكر المشركين على المسلمين وهزيمتهم.

وتحذرهم السورة مرة أخيرة

الآيات: (١٤٤-١٤٧) والخطاب توجيهي

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ

سُلْطَاناً مُّبِيناً(١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً(١٤٥) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً(١٤٦) مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً(١٤٧).

ومخاطبة السورة لهم بيا أيها المؤمنون، على اعتبار أن الفرصة ما زالت قائمة لهم بالتوبة والعودة لحظيرة المؤمنين، لكن لو بقوا على حالهم فهم في الدرك الأسفل من النار (تصوير حسي لعظم ما ينتظرهم من عذاب). ومن يعود ويتوب منهم فله الجنة.

عود للإشارة لما حدث في قصة اتهام البريء

الآيات: (١٤٨-١٤٩) الخطاب تقريري

لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً عَلِيماً(١٤٨) إِن تبدو خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً(١٤٩).

والجهر بالسوء من القول هو الكلام الفاحش، وهو مرخص للمظلوم. ويبدو أن المظلوم في تلك القضية جاهر بسب من ظلمه، والآيات تعطيه الحق في ذلك.

ويستفاد من هذا إباحة المجاهرة بسب من ثبت ظلمه.

الحديث عن أهل الكتاب في يثرب، بمختلف طوائفهم

الآيات: (١٥٠-١٦٢) والخطاب إخباري

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً(١٥٠) أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً(١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَـئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً(١٥٢).

من لا يؤمن بالرسول محمد ويتبع القرآن فهو كافر ولو آمن بالله على دينه السابق.

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِيناً(١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ

ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً(١٥٤) فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقًّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً(١٥٥).

الآيات تقول بأن أهل الكتاب يطلبون من الرسول بعض الآيات والخوارق كدليل على رسالته. وترد عليهم الآية أنهم قد سألوا موسى أكثر من ذلك عندما طلبوا رؤية الله. وبرغم رؤيتهم للمعجزات التي أعطيت لموسى فقد ابتعدوا عن التوراة، ولن يؤمنوا برسالة محمد.

وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً(١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً(١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً(١٥٨) وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً(١٥٩) فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيراً(١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً(١٦١) لَّـكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَـئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً(١٦٢).

وعيسى ابن مريم خلط التراث بينه وبين يسوع المسيحيين، وتوارث المسلمون هذا الخلط لدرجة لم يعد أحد - إلا ندرة - يعتقد أن يسوع لا علاقة له بعيسى ابن مريم، ويظنون أن عيسى هو يسوع، والاختلاف - حسب ظنهم - هو اختلاف بالنطق لاسم واحد. والحقيقة هي أن هذا الخلط ظهر بعد الفتوح، والسيطرة على بلاد مسيحية في وقت لم يعد لا للمسلمين الأتقياء ولا لنصارى يثرب وجود يذكر. فظن أهل البلاد المفتوحة أن القرآن يتحدث عنهم ويسميهم النصارى، وكل من أسلم منهم استمر ينظر لدينه القديم على أنه دين ذكر في القرآن.

والحقيقة هي أن عيسى بعث لبني إسرائيل عندما كانوا يعيشون في مصر بعد هلاك فرعون ووفاة موسى، لكي يعيدهم للتوراة التي هجروها. وكان ذلك قبل عصر داوود وسلميان وقبل أن يتشتت بنو إسرائيل ويصل البعض منهم لفلسطين. فعيسى من بني إسرائيل

الأصليين العرب الذين عاشوا في جنوب غرب جزيرة العرب ولم يعرفوا فلسطين الحالية. بينما يسوع ظهر بعد آلاف السنين في فلسطين لجمع مؤيدين له كي يقوم بثورة ضد الحكم الروماني ويؤسس مملكة لبني إسرائيل تعيد مجد مملكة داوود التي يسمعون بها في تاريخهم. لكن رجال الدين اليهود لم يعجبهم قيام دولة لبني إسرائيل لأنهم سيخسرون ميزاتهم وما يتمتعون به من جاه وسلطة في ظل الدولة الرومانية، فقاموا بمراقبة يسوع حتى تمكنوا منه في الليلة التي خطط فيها لاقتحام قصر الحاكم الروماني وقتله وإعلان دولته. فاقتادوه للحاكم بتهمة تخطيطه للثورة وحكم عليه بالقتل صلباً، وألبس تاجاً من شوك - سخرية به وبحركته الفاشلة ليكون ملكاً لمملكة لم تر النور - وأجبر على حمل صليبه للمكان الذي صلب فيه، ومات.

واستمرت الدولة الرومانية تطارد أتباعه بعد موته الذين استمروا يعملون بالسر. وممن لاحقهم بحماس رجل يهودي اسمه «شاؤول» الذي لاحقهم وقتلهم وسجنهم لمدة زادت عن عشر سنوات، قبل أن يلتقي بحاخام يهودي ماكر في دمشق «اسمه: حنّانيا»، أقنعه أن الله - رب موسى - قد أوحى له أن ينفذ شيئاً آخر. وقد بقي هذا الشاؤول عند حنّانيا لمدة ثلاث سنوات تشرب كل ما يريد حنّانيا نشره عن حركة يسوع. فحنّانيا هذا أدرك أن ملاحقة أتباع يسوع وتقتيلهم لن يقضي عليهم بل سيزيد من أتباعهم، ووجد أن أفضل طريقة للقضاء على حركتهم هو تخريبها من الداخل. فأوحى لشاؤول أن الله قد أخبره أن يسوع لم يكن بشراً سوياً، ولكنه ابن لله، أرسل لكي يفدي بدمه الذي سفك على الصليب ذنوب البشر ويؤسس للمؤمنين به مملكة سماوية في الآخرة ولم يأت لتأسيس مملكة دنيوية مستقلة لبني إسرائيل. وهكذا بدأ شاؤول دعوته الجديدة وغير اسمه إلى (باول = بول = بولس) لكي ينسى الناس كراهيته السابقة لأتباع يسوع ومطارداته لهم.

وهكذا ولدت فكرة المسيحية الحالية التي لا علاقة لها بالنصارى وعيسى ابن مريم.

وحنّانيا - الذي كان على اطلاع تام بالنصرانية وعيسى المسيح - هو من أسبغ على يسوع لقب المسيح وأنه ابن الله (كما قال النصارى عن عيسى).

ولمن يرغب في قراءة مستفيضة عن الموضوع فعليه أن يقرأ كتاب: مسيحية بولس وقسطنطين لابن قرناس ومن منشورات الجمل.

الدين واحد

الآيات: (١٦٣-١٦٦) والخطاب تقريري

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً(١٦٣) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً(١٦٤) رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً(١٦٥) لَّـكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً(١٦٦).

كل الرسل أوحي إليهم بنفس الطريقة التي أوحي بها لمحمد عليه الصلاة والسلام.

كل المذكورين في الآية: (١٦٣) رسل.

هناك رسل لم يذكروا في القرآن، أرسلوا لأمم خارج جزيرة العرب ولا حكمة من ذكرهم لقريش. وموسى تلقى تكليماً.

الآية: (١٦٥) تؤكد أن إرسال الرسل لكي تقوم الحجة على الناس، ولو لم ترسل الرسل لما حوسب الناس، وهو ما أكدته سورة بني إسرائيل: مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً(١٥).

الآية (١٦٦) تؤكد أن محمداً رسول لله حتى لو لم يعترف اليهود وبنو إسرائيل وقريش بذلك.

حديث عن قريش

الآيات: (١٦٧-١٦٩) والخطاب تقريري

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلاَلاً بَعِيداً(١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً(١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً(١٦٩).

الآيات تتحدث معا كانت تفعله قريش قبل الهجرة: كانت تصد غيرها عن الدخول في الإسلام بوسائل شتى تحدثت عنها السور المكية، وظلموا المستضعفين المسلمين وعذبوهم

واضطهدوا بقية المسلمين وضيقوا على الرسول ولو تمكنوا منه خارج مكة لقتلوه.

دعوة لكل الناس للدخول في الإسلام

الآية: (١٧٠) والخطاب دعوي

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُواْ خَيْراً لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً(١٧٠).

ثم تعود السورة لاستكمال ما تحدثت عنه الآيات: (١٥٠-١٦٢).

لا للغو في عيسى

الآيات: (١٧١-١٧٣) والخطاب إخباري

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً(١٧١) لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً للهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً(١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلُيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً(١٧٣).

والنصارى طائفة من بني إسرائيل ظهرت بعد عيسى واعتقدوا أنه ابن لله وبعضهم اعتبره إلهاً وأمه اعتبروها إلهاً ثانياً مع الله. وهذا مختلف عما يعتقده «المسيحيون» بيسوع، حيث يعتبرونه ابناً للأب (الخالق) وثالثهم الروح القدس الذي لا يعرفه النصارى.

والآيتان (١٧٢-١٧٣) تقولان: كل عبد (مخلوق) لله لو استكبر عن عبادة الله فمصيره النار، سواء كان بشراً أو من الملائكة. ((دليل على أن الملائكة معرضون للخطأ والعصيان وكل مخلوقات الله في الكون كذلك)).

عود لدعوة كل الناس

الآيات: (١٧٤-١٧٥) والخطاب دعوي

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً(١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ

بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً(١٧٥).

ويثرب زمن رسول الله تتكون من خليط من البشر بديانات مختلفة: فهناك بنو إسرائيل ممن يحتفظون ببعض التوراة، وهناك يهود ظهروا بعد موت موسى. ونصارى موحدون، ونصارى يؤمن بعضهم بأن عيسى ابن لله، وبعضهم يؤمن أن عيسى وأمه والله (تعالى عن ذلك) آلهة معاً. وهناك الوثنيون من الأعراب ومن لم يدخل الإسلام من الأوس والخزرج، وغيرهم.

وتختم السورة بالإجابة عن سؤال سأله الناس رسول الله:

الكلالة

الآية: (١٧٦) والخطاب تشريعي

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١٧٦).

وسؤال الرسول لم يكن عن معنى الكلالة، لأن الناس يعرفون المقصود باللفظ وهو يطلق على إخوة المرء (ذكورٌ أو إناث)، ولكن السؤال هو عن نصيب الكلالة من الإرث وكيف يرثون. والآية تبين ذلك، كما يلي:

- لو هلك امرؤ وليس له ولد (ذكور أو إناث) وله أخت (الأخت كلالة) فلها نصف ما ترك. ولو كانتا أختين، فترثان الثلثين.
- ولو ماتت امرأة ليس لها ولد (ذكور أو إناث) ولها أخ فيرث كل مالها.
- ولو مات شخص (رجل كان أو امرأة) وليس له ولد (ذكور أو إناث) وله مجموعة من الإخوة والأخوات، فيرثون ماله، للذكر مثل حظ الأنثيين.

فالكلالة لا يرثون إلا في حال أن الميت ليس له ولد، ومتى ما كان له ذرية ولو بنت واحدة فلا ترث الكلالة.

والقرآن لا يذكر ما يعرف في الفقه بالعصبة، وهم الورثة الذين يرد لهم ما بقي من التركة بعد أن يتم توزيعها (حسب ما ورد في كتب التراث). فمثلاً لو أن رجلاً هلك وله ابن عم

لا يرث، وعن زوجة وليس له أولاد. فالزوجة ترث الربع ويعود باقي التركة لابن العم (كعصبة) لأنه أقرب الذكور نسباً للميت، مع أنه لا يرث. ويكون قد حصل على ثلاثة أرباع التركة، بينما لم تحصل الزوجة إلا على ربع التركة برغم أنها من الورثة المذكورين في القرآن.

وكما أهمل الفقهاء إعطاء المحتاجين من التركة فقد ابتدعوا هذا التشريع الذكوري. وإلا فكل ما يتبقى من التركة بعد أن تقسم على الورثة، يعاد لبيت مال المسلمين ليستفيد من المحتاجين، ولا يعطى لأقرب ذكر. هذا طبعاً متى وجد دولة مسلمة تضمن الحياة الكريمة للناس. ولا يجوز أن يعاد للورثة، ومن باب أولى لا يعطى لمن يسمون العصبة.

وهنا لابد أن نذكر حقيقة هامة مفادها: أن الرجل (الذي هو العائل للعائلة عادة) ملزم فقط بالصرف على أبنائه وبناته القُصّر، وليس مطلوباً منه شرعاً أن يصرف على أولاده بعد أن يكبروا ويصبحوا رجالاً ونساء. ولو مات وهو يملك ذرية قُصّر فيجب عليه أن يبقي لهم من ماله ما يكفيهم العوز والحاجة (إذا كان لديه مال). وقد مر بنا أنه لا يحق له التصرف بكل ماله في حياته لو خيف على القُصّر العوز.

ولهذا فالتركة يعطى منها الورثة كل بقدر معلوم حدده القرآن وما بقي يعاد لبيت المال ليستفيد منه المحتاج[1].

(٩٦) المائدة

سابع سورة تنزل في المدينة، وثالث سورة تستكمل التشريعات التي بدأت في البقرة ثم النساء. ولو قدرنا أنها نزلت بعد مضي شهر على نزول سورة النساء، فتكون نزلت بعد مضي حوالي خمسة أشهر من الهجرة. ولم ينزل بعدها أي تشريع في أي سورة من السور التي نزلت بعد ذلك في المدينة وحتى وفاة الرسول، وعددها (١٨) سورة. وما ورد في سورتي الأحزاب والنور اللتين سنمر بهما فيما بعد، فلا يدخل ضمن التشريعات الدينية، ولكنها عقوبات رادعة للقضاء على ظاهرة فرضتها أحداث وقعت أثناء حفر الخندق، وشبيه لها ما ورد في سورة براءة بحق قريش.

والآية الثالثة تعلن أن سورة المائدة هي بالفعل آخر سور القرآن فرضاً للتشريع: .... الْيَوْمَ

١ انظر موضوع: الوصية وموضوع الميراث وتوزيع التركة/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣).

لقد اكتملت التشريعات، ومن اضطر لمخالفة أي منها ولم يتعمد المخالفة فلا إثم عليه. في المقابل من يقترف كبيرة بعد اليوم وهو يعلم، أو يقترف كبيرة ويستمر عليها، فهو في النار، لأن كل أوامر القرآن ونواهيه أصبحت معروفة للجميع، ومن يخالفها متعمداً فقد نقض عهده مع الله ومن ينقض عهد الله فليس له عند الله من خلاق.

وتعود السورة مرة أخرى لتؤكد على ختام التشريعات: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنْهَا وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ(١٠١).

لقد اكتملت التشريعات، ومن خالفها مضطراً فلا إثم عليه. ومن لم يسمع بحكم عن أي مسألة أخرى، فلا يسأل عنه. لأن سؤال الرسول يحتم نزول الوحي بحكم شرعي كجواب للسؤال. ومتى نزل حكم شرعي فيجب على الناس الالتزام به، في وقت كان يمكن ألا يُسأل عنه، وليتصرف كل شخص حياله بما تمليه عليه نفسه.

إذن حكم الله يقول: لا سؤال عن أي مسألة بعد اليوم. وما لم يذكره القرآن فاستفت قلبك. إن كرهته فلا تفعله وإن استسغته فهو مباح.

لاحظ أن السورة تقول بأن التشريعات أقفلت في بداية السورة ثم تسرد عدة تشريعات بعد ذلك، وهذا أسلوب شائع في القرآن، وقد مر بنا مثيل له في تدبر الآية (٩) من سورة النساء.

وتفتتح السورة بفرض قانون مغيب تماماً في حياة المسلمين:

احترام المواثيق والمعاهدات والوعود

الآية: (١) والخطاب تشريعي

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ(١).

الوفاء بالعقود والمواثيق والعهود على مستوى الأشخاص والجماعات والدولة قانون إسلامي مغيب تماماً في عصرنا الحاضر، ولا يلقى أي احترام أو اهتمام من الغالبية الساحقة

من المسلمين بينما قدّسه غير المسلمين، وبنوا عليه حياتهم كمبدأ.

والوفاء بالعهود والمواثيق - الفردية والجماعية وعلى مستوى الدولة - قانون إلهي، هجره وتركه، كبيرة موجبة لجهنم. وقد فرض هذا القانون الإلهي الهام في مكة: وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً (٣٤) بني إسرائيل. وكررت سور عدة التذكير به، ومنها هذه السورة.

الصيد يحرم والمسلم حُرُم

الآية: (١) والخطاب تشريعي

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ(١).

والحُرُم تعني حاضري المسجد الحرام ولا تعني وأنتم تلبسون ما سمي «بملابس الإحرام». فالصيد في نطاق الحرم حرام على الدوام.

الأصل في المآكل الحل

الآية (٢) والخطاب توجيهي

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ القَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢).

هذه الآية تحذر المسلمين من أن يحلوا ما له علاقة بحرمة بيت الله ولو كان لمعاقبة قريش التي اعتدت عليهم وبدأتهم بالعدوان. وتقول لا يجوز بأي حال استباحة (لا تحلوا) شعائر الله ولا الشهر الحرام بأي وسيلة كقطع الطريق على المتجهين للحج «آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً». ولا يجوز الاستيلاء على الهدي، لمن هو في طريقه للحج. والهدي كان في زمن الرسول يسوقه الحاج من خارج مكة معه وهو قادم للحج. وتحذر الآية المسلمين من منع الناس من الحج، لأن قريشاً منعت المسلمين من الحج ودخول البيت، كما أشارت لذلك سورة الحج. أو التعدي لأن قريشاً تعدت وظلمت المسلمين.

والشنآن يعني البغض الشديد والكراهية بسبب الظلم.

وتؤكد الآية على تحريم الصيد. وقوله: «وإذا حللتم فاصطادوا» لا تعني خلعتم ملابس الإحرام كما يقول المفسرون، ولكن الحل هنا يعني الخروج من منطقة الحرم. وهذا يعني أن تكون منطقة الحرم محمية طبيعية لا يعضد شجرها ولا يقتل طيرها. وتكون المباني والفنادق والأسواق خارج حدود الحرم.

وكثير من الناس اعتبروا قول الآية: «وإذا حللتم فاصطادوا» كأنه أمر بالصيد وحثٌّ عليه، لذا انقرضت كل حيوانات وزواحف جزيرة العرب تقريباً لتسابق الناس على قتل أي شيء يتحرك. مع أن الآية تبيح الصيد لمن لا يجد ما يأكل، وليس الصيد للتمتع بقتل الحيوان أو الزواحف. هذا القتل جريمة إنسانية بيئية لا يمكن أن يقبلها الله أو يأمر بها، لأنها تؤدي لانقراض مخلوقات حية خلقها الله لحكمة وللتوازن البيئي وهي أمم أمثالنا خلقت لتعيش وتعمل وستحاسب فكيف تقتل بدم بارد الهدف منه المتعة الشخصية؟ والمؤسف أن أهل جزيرة العرب هم أكثر خلق الله إسرافاً في الصيد، ولأن كبارهم يمارسون هذه المتعة السادية فقد تحول الناس إلى دين ملوكهم. وطال أذاهم أصقاعاً ودولاً خارج بلدانهم. ووجب على جمعيات حماية الحيوان في العالم وهيئة الأمم المتحدة وضع حد لهذه الممارسات الخاطئة قبل أن نصحو على أرض لا يقطنها من المخلوقات الحية سوى الإنسان والدجاج. ولا يعني حل الصيد لغير المحرم هو إطلاقه بلا ضوابط وللمتعة فقط كما يحدث اليوم. ولكنه يعني أن من لم يجد للأكل سوى الصيد أن يصطاد ما يقيم أوده ويسد جوعه ولو زاد فقد أسرف. والإسراف كبيرة عقوبتها النار.

تأكيدٌ على ما يحرم من المآكل

الآية (٣) والخطاب تشريعي

وهو ما سبق وفرضته سورة النحل المكية: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١١٥).

وكررته سورة البقرة حرفياً: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٧٣).

إلا أن سورة المائدة تعطي بعض التفاصيل: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا

أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣).

وهذه التفاصيل للمقصود بالميتة ما زالة الغموض عند البعض لما يقصد بالميتة وما يدخل في حكمها. فجاء التفصيل بأن مما يدخل في حكم الميتة: « وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ».

ومما أضافته السورة أن ما أكل السبع حرام، لكن لو تمكنوا من تذكيتها فهي حلال. كما أن كل ما ذبح على النصب (قرابين وثنية) فهو محرم ولو ذبح بطريقة صحيحة.

وتتضمن الآية أيضاً:

تحريم الاستقسام بالأزلام

وهي (عادة قدح أحجار معينة للتفاؤل أو التشاؤم). ويدخل في هذا أي تصرف للتفاؤل أو التشاؤم، وما أكثره بيننا اليوم، ومن ذلك الاعتقاد بالعين فهو من التشاؤم. ومثله رش الملح على أرضية البيت وقرع الخشب باليد وتعليق ما يسمى بالحجاب حول عنق الطفل، وممارسات كثيرة غيرها.

كمل الدين باكتمال تشريعاته

الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً».

لقد أصبح للمسلمين دولة وكيان وتشريعات وعبادات، ومنعة وعزة، وقد يئس الكفار (قريش) من القضاء عليكم. فهي آية تعلن نهاية فرض التشريعات، ولا تعني أنها آخر آية نزلت في القرآن كما يزعم المفسرون والمحدثون. وذكر هذه الآية في أول السورة وليس في آخرها، بعد ذكر التشريعات، هو أسلوب معتاد في القرآن ويمكن الرجوع لفقرة: البدء بسرد الموضوع لا يكون بالضرورة من أوله/ قسم: أساليب من القرآن.

واكتمال التشريعات جاء قبل أول معركة خاضها المسلمون (معركة بدر) لأن احتمال قتل

الرسول وارد في المعركة، ولو قتل قبل اكتمال التشريعات (في سور البقرة والنساء والمائدة) فلن يكون هناك إسلام. لأن الإسلام دين كامل، وبدون التشريعات ما هو سوى إيمان فقط.

عود للحديث عن المآكل

الآيات: (٤-٥) والخطاب تشريعي

إجابة على بعض أسئلة المسلمين تقول السورة: يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(٤) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٥).

الطيبات تعني ما لا يكره عادة.

كما أن طعام أهل الكتاب حلال.

وتقول الآيات إنه وقت نزول السورة يجوز أن يتزوج المسلم من الكتابيات في يثرب. والآية لا تذكر أن المرأة المسلمة حينها يجوز لها التزوج برجل من بني إسرائيل. كما أن السورة نزلت بعد سورة البقرة التي تحرم الزواج بالمشركين والمشركات: وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَـئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٢١).

فهل هذا يعني أن تحريم الزواج من قريش لأنهم عدو محارب، وليس لأنهم كفار؟

لأن بني إسرائيل بما فيهم اليهود والنصارى كفار بنص القرآن في سورة البقرة والنساء وآل عمران وفي هذه السورة كما سنرى وغيرها، فكيف سمح بالزواج من نسائهم ومنع من نساء قريش؟

أميل شخصياً أن الزواج بغير مسلمة أياً كانت الآن جائز ما لم تكن من دولة معادية للإسلام وفي حال حرب مع دولة الإسلام (لو كان هناك دولة تحكم بالإسلام).

أما زواج المسلمة بغير المسلم فلم يرد له أدنى إشارة في القرآن.

الوضوء والغسل للصلاة

الآية: (٦) والخطاب تشريعي

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٦).

فكما أن السورة فصلت في الآية (٣) ما يحرم من الميتة، الوارد في الآية (١٧٣) من سورة البقرة، فإن هذه الآية تفصل ما ورد في الآية (٤٣) من سورة النساء السابقة عن الغسل والتطهر للصلاة.

فالوضوء يكون بغسل الوجه واليدين إلى المرفقين ومسح الرأس، وغسل الأرجل إلى الكعبين. أما الجنب فعليه الغسل، إلا أن يكون مريضاً أو على سفر. ومن جاءه الغائط أو ما في حكمه (ريح، أو بول) فعليه تنظيف مخرجه بالماء ولا يجزئ غير الماء (مثل ما تسميه كتب التراث الاستنجاء والاستجمار مما لا ذكر لها في كتاب الله). وفي حال عدم وجود الماء فالتيمم.

وقد وردت عبارة «ملامسة النساء» في هذه الآية وفي سورة النساء أيضاً. وتعني الجماع، لأن الجنب ينتج عن الجماع أو الاحتلام.

بعض الفروق بين القرآن وأتباع الموروث حول بعض ما يتعلق بالوضوء

- في القرآن ضرورة أن يكون المرء على طهارة من الجنابة ومن ملامسة النساء ومن الغائط أو ما يعتبر منه، مثل البول والريح قبل أن يقوم بالوضوء، ويكون التطهر بالماء فقط أو بالتيمم لو تعذر الماء.

والتطهر من الجنابة وملامسة النساء يكون بالغسل الكامل، كما نصت الآية التالية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي

سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً(٤٣)النساء.

وملامسة النساء تعني الجماع، والجنابة تكون بدون جماع كالاحتلام.

أما لو لم يكن هناك جنابة فالتطهر من الغائط وما يعتبر منه مثل الريح والبول، فيكون بتطهير السبيلين بالماء ولا يشترط الغسل الكامل.

ولا يجزئ الوضوء قبل أن يكون المرء متطهراً من النجاسات ومن الجنابة وملامسة النساء.

فالوضوء ليس للتطهر ولكن للتزين للصلاة، ليبدو المصلي بشكل نظيف. ويبدأ بغسل الوجه واليدين ثم المسح على الرأس وغسل الرجلين. لذا فهو واجب عند القيام لكل صلاة: إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم...

البعض يقول إن الأرجل تمسح كما الرأس ولا تغسل لأن الآية تقول: " فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ". ويقولون إن أرجلكم معطوفة على الرؤوس التي أمرنا بمسحها.

ولو تركنا النحو جانباً وفكرنا بشكل عملي، فإن المسح على الأرجل لن يجعلها تبدو بأفضل حالاً قبل المسح عليها. بينما المسح على شعر الرأس كفيل بتلميعه من الغبار الذي علق به. أما المسح على أي بشرة فلا يزيل ما علق عليها من غبار وأوساخ. والأرجل أكثر أعضاء الجسم تعرضاً للأوساخ والأتربة والغبار. وبالتالي فهي بحاجة للغسل بالماء أكثر من اليدين ومن الوجه.

وعلى كل حال لو قام المرء بغسل الأرجل فقد قطع الشك باليقين، بمعنى فعل ما أمر به (وهو المسح عند من يعتقد بالمسح) وزيادة. بينما لو كان المطلوب هو الغسل ومسح فقط فإنه لم يتوضأ.

- أتباع الموروث يقولون إن التطهر من الغائط والبول يكفي فيه الاستنجاء والاستجمار، أي استخدام حجارة أو تراب لتنظيف مخرجيهما. أما القرآن فينص على وجوب تنظيف المخارج بالماء متى وجد.
- وأضافوا للوضوء المضمضة والاستنشاق، التي ليس لها ذكر في القرآن. ولو قام بها

المتوضئ من تلقاء نفسه فلا بأس لكن الحديث ذكرها كجزء من الوضوء وهذا فيه زيادة لم يأمر بها القرآن.

- الوضوء عند أتباع الموروث يصلح لعدد من الصلوات، مع أن الآية واضحة: "إذا قمتم إلى الصلاة." فهو لازم لكل صلاة عندما نقوم لأدائها.
- إذا خرجت الريح فهم يقولون إنها تنقض الوضوء، لكن - وهذا هو الغريب - لا يوجبون غسل مكان خروج الريح بالماء (كما نص القرآن) بل يقولون يكفي إعادة الوضوء والذي يبدأ بغسل الوجه... ترى أليس فيهم رجل رشيد يفكر؟

الريح خرجت من الدبر وهو ما يجب غسله، أما الوجه واليدان والأرجل والشعر فلم يخرج منها ريح.

مثل هذه الفوارق بين أتباع الموروث والقرآن يظهر كم هم بعيدون عن القرآن.

فالوضوء ليس للتطهر ولكن للتزين.

التطهر يكون من الخبائث (الغائط، البول، الريح) أو من الجنابة وملامسة النساء.

ولا يمكن الوضوء قبل التطهر. فالتطهر يجب أولاً لمن عليه التطهر، ثم الوضوء.

أتباع الحديث لا يوجبون التطهر من الريح، وأقصد غسل مكان الحدث.

لا يوجبون التطهر من الغائط بل يكفي الاستنجاء والاستجمار.

ويعتبرون الوضوء تطهراً لذا يدوم عندهم لعدة أوقات.

الإسلام عقد بين الله والعبد

الآية: (٧) والخطاب تقريري

السورة تخاطب المسلمين: وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهَّ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُواْ اللهَّ إِنَّ اللهَّ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٧).

الآية دليل على أن الدخول في الإسلام يعني عقداً واتفاقاً وميثاقاً بين العبد وربه. يحصل العبد بموجبه على سعادة الدنيا ونعيم الآخرة مقابل تعهده باتباع أوامر الله كلها وامتناعه عن نواهي الله كلها مدى الحياة. وأي مخالفة متعمدة مختارة لأمر أو نهي إلهي، معلوم لدى المخالف حكمه، فهي نقض لعهد الدخول في الإسلام الذي سبق توقيعه مع الله، شبيه بمن

تنقض غزلها بعد أن نسجته وأصبح متماسكا قويا، كما تقول سورة النحل: وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ(٩١) وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(٩٢) وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٩٣).

وكما تؤكد سورة الرعد أن الدخول في الإسلام عهد طوال الحياة موقع بين العبد وربه: الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيْثَاقَ(٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ(٢١).

التعرض للظلم ليس مبرراً للظلم حتى ولو كان موجهاً للظالم

الآيات: (٨-١٠) والخطاب توجيهي تشريعي

وتستمر السورة تخاطب المسلمين: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(٨) وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ(٩) وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ(١٠).

برغم كل ما يلقاه المسلمون من قريش من اضطهاد وتعذيب عندما كانوا في مكة، وملاحقتهم بعد هجرتهم ليثرب إلا أن هذا لا يعطيهم الحق بتجاوز العدل وظلم أحد من قريش برغم أنهم بدأوا الظلم. فقوانين القرآن لا تخضع للتبريرات ولا للظروف ولا للعواطف. وسيحاسب الله الناس يوم القيامة على أفعالهم في الدنيا، فالمؤمن الذي يعمل صالحاً له الجنة والكافر له النار.

والآيات تؤكد ما سبق وذكرته الآية (٢) من نفس سورة المائدة، والتي تحظر على المسلمين أن يمنعوا الناس من الذهاب لمكة أو استحلال الأشهر الحرم، لأن قريشاً سبق وظلمتهم ومنعتهم من المسجد الحرام، واستحلت الأشهر الحرم عندما كانت تحل شهراً من الأشهر الحرم في عام، وتعود لتحريمه في عام آخر.

حادثة لم تذكرها كتب السير

الآية (١١) والخطاب تفاعلي

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(١١).

تقول الآية إن المسلمين تعرضوا لغارة سلب من قوم من خارج يثرب، لكن انتباه المسلمين لهم اضطرهم للهرب. وتفاصيل الحادثة منشورة تحت فقرة: غارة على المسلمين/ قسم أحداث من عصر الرسول. وستعود السورة لفرض عقوبات جسدية على من يقوم بالسلب والنهب في الآيات: (٣٣-٣٤)، وفرض عقوبة على من يمد يده على أموال الغير في الآيات: (٣٨-٣٩)، وكل هذه العقوبات نتيجة لهذه المحاولة الفاشلة.

حديث عن بني إسرائيل

الآيات: (١٢-١٣) والخطاب تقريري

وَلَقَدْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ(١٢) فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(١٣).

وبنو إسرائيل الذين تتحدث عنهم الآيات هم سلف من كان في يثرب زمن الرسول.

وتبين الآية (١٢) أن الدين واحد وأنهم كانوا مطالبين بالصلاة والزكاة والإيمان، كما في الإسلام. لكنهم خانوا ميثاق الله، وحرفوا معاني كتابه (التوراة) وتركوا العمل ببعض ما جاء فيها. وتطلب الآية من الرسول محمد أن يتعامل معهم بتسامح برغم أن الآية (١٣) لا تستبعد أن تظهر منهم خيانات لمواثيقهم مع المسلمين، وهو ما ستحدثنا عنه سور قادمة.

النصارى

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ

وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ(١٤) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ(١٥) يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(١٦) لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَللهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١٧).

النصارى اسم تسمى به أتباع عقيدة ظهرت بعد موسى، وبعد عيسى ابن مريم الذي جاء مباشرة بعد موسى للعودة ببني إسرائيل للتوراة. وهم من سموا أنفسهم بالنصارى، وكقاعدة ثابتة: فكل اسم لمعتقد لم يسمه الله فهو معتقد مستحدث مبتدع.

والنصارى بعضهم موحدون، وبعضهم يعتقد أن عيسى هو الله وبعضهم يعتبره ابن لله وبعضهم يعتبره إلهاً مع الله وبعضهم يعتبره وأمه آلهة مع الله. وكان هناك عدد منهم في يثرب، عند هجرة الرسول، وهم الذين تخاطبهم هذه السورة وسور أخرى. وقد تلاشت عقائدهم ولم يعد لها وجود بعد الإسلام، لإسلام بعضهم وهجرة البعض الآخر وذوبانهم في عقائد أخرى منها المسيحية. برغم أنه ليس لهم علاقة بمن يتسمون بالمسيحيين.

وبرغم قلة أعدادهم في يثرب فقد كانوا يعتقدون عقائد مختلفة ولم يكونوا على وفاق فيما بينهم كما تظهر الآية: (١٤).

وقوله: « فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» لا يعني أنهم باقون ليوم القيامة، لأنه لا أحد سيبقى حياً ليرى نشأة كون القيامة، ولكن المعنى أن العداوة بينهم مستديمة ما داموا أحياء، كون من مات قامت قيامته. وقد انتهى أمر النصارى ولم يعد لهم وجود.

والآيتان (١٥-١٦) تدعوان كل أهل الكتاب في يثرب للإسلام (من بني إسرائيل ويهود ونصارى). وهو دليل على أن الله لن يقبل ديناً آخر غير الإسلام، وأن الموحد اليهودي أو الموحد من بني إسرائيل لو رفض الإسلام فهو كافر مخلد في النار، ولو كان الله يقبل دينهم لما دعوا للإسلام.

وتعود الآية (١٧) لمخاطبة أحد عقائد النصارى بعقلانية لإثبات بطلان معتقدهم، وهم من يعتبر المسيح ابن مريم هو الله.

خلاف بين اليهود والنصارى في يثرب

الآية (١٨) والخطاب إخباري

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ(١٨).

ومثل هذا الخلاف يقع بين كل المعتقدات، ونرى شبيهاً به بين أتباع المذاهب. فكل أتباع معتقد لابد أن يعتقدوا أن ما هم عليه هو الحق لكي يبرروا لأنفسهم تمسكهم به. ولا يمكن لأي أتباع معتقد أن يعترفوا بأن هناك معتقداً أصح من معتقدهم.

وتنفي الآية خرافة القول «بشعب الله المختار».

دعوتهم للحق

الآية: (١٩) والخطاب دعوي

السورة تقول لأهل الكتاب أن عقائدهم باطلة ومن رغب في الحق فعليه بالإسلام: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَاءنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١٩).

وهذا موجه لأتباع المذاهب أيضاً، فعليهم العودة للإسلام (الذي يمثله كلام الله وحده) وكل ما سواه فمعتقدات دخيلة ليس فيه صالح وطالح.

بنو إسرائيل زمن موسى

الآيات: (٢٠-٢٦) والخطاب دعوي

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّن الْعَالَمِينَ(٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ(٢١) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ(٢٢) قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(٢٣) قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ

فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ(٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ(٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ(٢٦).

والآيات تتحدث عن فترة تلت غرق فرعون، وبعد أن اصطحب موسى (٧٠) رجلاً من بني إسرائيل لميقات ربه (كما تخبرنا سور أخرى)، وبعد أن كتب التوراة، في وادي طوى المقدس – قرب المسجد الحرام – وهو نفس الوادي الذي سبق وتم التكليم فيه. أما بقية بني إسرائيل ونساؤهم وأطفالهم الذين خرجوا مع موسى فلابد أنهم عادوا لمصر التي أصبحت آمنة بالنسبة لهم بعد غرق فرعون.

والآية (٢١) تقول بأن موسى طلب من رجال بني إسرائيل الذين معه أن يدخلوا الأرض المقدسة، وليس هناك أرض مقدسة غير مكة. وقوله «التي كتب الله لكم» إشارة إلى أنها أصبحت وطناً لأبيهم إبراهيم حيث تزوج ورزق بإسماعيل وإسحاق، وكان من المفترض أن يبقى يعقوب ونسله مع نسل عمه إسماعيل في مكة، لكنهم لسبب ما خرجوا منها وعاشوا في البادية ثم انتقلوا لمصر. مما جعل الأحداث تتوالى بطريقة مختلفة، حيث تناسلوا هناك، وكانوا عرضة للازدراء والاضطهاد، وتزايد اضطهادهم على يد فرعون عندما أصبح ملكاً للبلدة. وقد أرسل الله لفرعون رسوله موسى الذي كان قد هرب من مصر قبل بضع سنوات لقتله أحد المصريين، وتوجه لبئر قريبة معروفة باسم بئر مدين. وهناك عاون فتاتين لسقيا ماشيتهما واستضافه والدهما ثم اتفق معه على أن يزوجه واحدة منهما مقابل العمل لديه كأجير وراع للماشية لعدد من السنين. ولما اكتملت المدة ذهب موسى بزوجته إلى مكة للحج أو العمرة. وهناك حصل له التكليم في واد قريب من المسجد الحرام اسمه ما زال قائماً، وهو «طوى». وبعد غرق فرعون أمر الله موسى بالتوجه مرة أخرى لوادي طوى المقدس، مع (٧٠) رجلاً من بني إسرائيل. وبعد أن كتب موسى التوراة وعاد لقومه وجدهم يعبدون صنماً على شكل عجل له خوار، صنعه أحد بني إسرائيل واسمه السامري. وبعد أن كسر موسى الصنم ورماه في البحر (على ما يبدو هو البحر الأحمر القريب من مكة)، أمر بني إسرائيل بدخول مكة للحج أو العمرة وذكر الله والاستغفار والتوبة لعبادتهم العجل.

(السرد السابق ذكرته سورة الأعراف وذكرناه هنا لنُذكّر أن طلب الدخول للقرية المباركة جاء بعد عبادة العجل).

وتستمر الآيات تخبرنا أن بني إسرائيل - لكرههم التاريخي - لبني إسماعيل امتنعوا من دخول مكة، ووصفوا بني إسماعيل بالجبارين. وليس بالضرورة أن يكون بنو إسماعيل كما وصفوا به. المهم أن بني إسرائيل برروا عدم دخولهم مكة بتبريرات مختلفة (لأنه ترسخ في ثقافتهم الموروثة موقف غير ودي لأهل مكة التي خرج منها جدهم يعقوب).

فحكم عليهم بتحريم دخول مكة (بيت الله الحرام) لمدة (٤٠) سنة، وهو تحريم شرعي وليس تحريم سياسي يتطلب وضع متاريس ونقاط تفتيش عند مداخل مكة لمنع أي إسرائيلي من دخولها. فمن تسلل لمكة فقد ارتكب كبيرة وهو يعلم بحرمتها ومصيره الخلود في النار: قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ(٢٦).

وهذه الآية حَرّف معناها اليهود بحيث تبدو وكأنها تتحدث عن تيه في صحراء - ليست قرب مكة - بل بين بلاد النيل وفلسطين الحالية. برغم أن معظم سيناء جبلية وبينها ممرات معروفة ومن المستحيل الضياع فيها لمدة أربعين يوماً، فما بالك بأربعين سنة. وكعادة موروثنا الديني تقبل قصص بني إسرائيل بقبول حسن ورسخها بيننا، بحيث أصبحت حقيقة لا تقبل النقاش. وإلا فموسى لم يعرف فلسطين، ومصر فرعون قرية تقع جنوب غرب جزيرة العرب، ولا علاقة لها ببلاد النيل التي لم تكن تعرف بمصر زمن موسى، ولم تعرف بمصر في كل تاريخها القديم. ولم تسم مصر إلا بعد أن قام اليهود بترجمة كتبهم الدينية إلى اليونانية، التي كانت لغة حكام الإسكندرية. حيث حرفوا تاريخ العالم وليس فقط بلاد النيل وفلسطين لكي يقولوا بأنهم سادة العالم وهم من نسل غير نسل بني عمهم إسماعيل، ولم يكونوا في أرض جزيرة العرب ولم يكونوا عرباً، بل هم عراقيون حضروا لفلسطين وكانوا في بلاد النيل. وبلاد النيل والشام والعراق تمثل الرقي والحضارة في ذلك الوقت بينما جزيرة العرب تمثل بساطة العيش وبدائيته. وقد تحدثنا عن هذا الموضوع في «أحسن القصص».

وتستمر الآيات: (٢٧-٨٦) تتحدث بخطاب قصصي عن بني إسرائيل وبقية أهل الكتاب في يثرب.

والبداية تذكيرهم بقصة ابني آدم التي يعرفون

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ(٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ(٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ(٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٣٠) فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ(٣١) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ(٣٢).

وآدم المذكور هنا هو آدم الذي أخبرنا القرآن بقصة خلقه من تراب وأمر الملائكة بالسجود له، وسكن في «جنة» (غابة جبلية) وأُخرج منها عقاباً له على عصيانه. وما يعضد كلامنا أن ابني آدم هنا هما من أبنائه المباشرين، كونهم يتمتعون بصفة موروثة من أبيهم آدم. فهم على سجيتهم وبراءتهم، وليس لديهم مكر، وجانب الشر عندهم لم يسيطر بعد، كبقية الناس الآخرين الذين اعتادوا القتل وسفك الدماء. حيث بدت على الأخ القاتل الحيرة والارتباك فيما يجب فعله بجثة أخيه القتيل.

الآية (٣٢) تقول: « مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ» الذين هم من سلالة آدم - كما قريش - كونهم أبناء إبراهيم الذي ينحدر نسبه من آدم. ويمكن أيضاً أن نستنتج أن بني آدم كانوا يتصفون بالفضائل، ولا يظهر منهم أي جانب شر. ومع تتابع أجيالهم تعلموا إظهار الجانب السيء، وعرفوا الجرائم والرذائل، بل احتل اليهود الدرجة السفلى في الرذيلة وسوء الخلق بين بني البشر: « ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ».

ثم تعود السورة لما تحدثت عنه الآية (١١).

عقوبة دنيوية

(الآية: ٣٤) والخطاب توجيهي

إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ

تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٣٣) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣٤).

هذه العقوبة صدرت بحق من حاولوا الغارة على المسلمين لسلب أموالهم والذي سبق وذكرته السورة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُواْ اللهَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(١١).

والآية تصف السلب والنهب بأنه فساد في الأرض.

وتفرض عقوبة ذلك القتل أو الصلب أو تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف. وهي عقوبة قاسية جداً وصارمة، لأنها تسعى للقضاء على ظاهرة كانت سائدة في جزيرة العرب منذ القدم. ويعاني الناس منها أشد المعاناة، حيث تتسبب بقتل الرعاة وحراس القوافل وقتل الآمنين في القرى والاستيلاء على الماشية بغير وجه حق. والماشية من أغنام وإبل هي عماد الحياة في شبه جزيرة العرب، ولو فقدت فإن كثيراً من أفراد القبيلة يتعرضون للموت جوعاً.

وقد تم تحوير هذه العقوبة التي تهدف لحماية أموال الناس وأعراضهم وتفرض الأمن في البوادي، لحماية الحكام ممن يحاول انتقادهم أو المطالبة بحقوقهم التي اغتصبوها، ولم يعد يعمل به كما أنزل الله. ولا ننسى أنه لم يخرج أحد من المسلمين على دولة الإسلام أو انتقدها عندما نزلت السورة لتكون العقوبة لهم[1].

حث المسلمين على قتال قريش المرتقب

(الآيات ٣٥-٣٧) والخطاب توجيهي

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٣٦) يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ(٣٧).

ابتغاء الوسيلة إلى الله يعني عمل ما يأمر الله به ليكتب لنا أجره، والمقصود هنا هو الاستعداد للقتال القادم ضد قريش. وتقول الآية إن للمسلمين الجنة، وللكافرين النار.

١ انظر عقوبات على من يغير على أموال الناس ويسلبها/ قسم تشريعات من القرآن.

عقوبة السارق والسارقة

(الآيات ٣٨-٣٩) والخطاب توجيهي

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٣٨) فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣٩).

وهذه العقوبة امتداد لقطع دابر السلب والنهب والاستيلاء على أموال الناس بغير حق[1].

والعقوبات الجسدية في القرآن للقضاء على ظاهرة تفشت في المجتمع وليست بديلاً للمعصية أو تطهيراً للعاصي من معصيته. فالكبائر في الإسلام لا عقوبة جسدية دنيوية لها في الأصل، فلا عقوبة لشارب الخمر أو آكل لحم الخنزير أو الدم أو غيره، لكن لو تفشت هذه الكبائر في المجتمع المسلم كظاهرة فيجب بترها وتطهير المجتمع منها بأقسى العقوبات. وهناك قواعد ثابتة في الإسلام، منها:

- أن الإسلام يعني توقيع عقد وميثاق مع الله بالالتزام التام المستمر بأوامره سبحانه والانتهاء التام المستمر عن نواهيه. ومن يخالف أمراً أو نهياً إلهياً فليس بمسلم ولو أعلن إسلامه. والسرقة كبيرة، والمسلم يعلم أن من يرتكب كبيرة وهو عالم بحكمها ومصير من يرتكبها فليس له توبة.
- كما أن القوانين الاقتصادية للدولة الإسلامية المتمثلة بالإنفاق تضمن للمسلم حياة كريمة وتسد كل احتياجاته بلا مقابل.
- لهذا لم تأت الآية لتوقع العقوبة على المسلمين على اعتبار أن المسلم لا يسرق التزاماً بميثاقه مع الله، وضمان الدولة سداد كل احتياجاته.

وبناءً على ذلك يمكن القول: أن كل العقوبات الجسدية موجهة لغير المسلمين الذين يحاولون العبث في المجتمع المسلم. لأن المسلم الحق لا يسرق كون السرقة كبيرة مصيرها النار ومخالفة لنهي إلهي. كما أنه ليس بحاجة للسرقة، لأن كل احتياجاته الضرورية تؤمنها له دولة الإسلام. وهذا مماثل لعقوبة الزنا في سورة النور فهي موجهة لغير المسلم لأن المسلم لا يزني بشهادة سورة النور التي تقول: الزَّانِي لا يَنكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣).

---

[1] ويمكن الرجوع لفقرة: عقوبات على من يغير على أموال الناس ويسلبها: قسم تشريعات من القرآن.

وكتب التراث تركت المهم وهو لماذا فرضت عقوبة السرقة والسلب والنهب والزنا؟ واهتمت بما ليس له أهمية، كالقول بأن قطع اليد غير متفق عليه، مع أن المعني باليد واضح. وغفلوا عن أن السرقة يجب ألا توجد بين المسلمين، لأن الإسلام يضمن لكل شخص حياة كريمة لن يحتاج معها للسرقة. لكن بما أن البغاة تسلطوا على دول المسلمين، فقد حرم المجتمع المسلم من أبسط حقوقه وتفشى الفقر. وأصبح قطع اليد يوقع على الفقير أو المسكين الذي يسرق ليأكل بعد أن حرمه الباغي المتسلط لقمة عيش كريمة فرضها له الإسلام. وكان يجب أن يقام حد القتل والصلب وقطع الأرجل والأيدي من خلاف على الحكام الذين استولوا على بيوت أموال المسلمين وعلى رجال الدين الذي حرفوا كلام الله لغير معناه ليحظوا بفتات موائد المتسلطين. ولو بقيت دولة المسلمين تطبق أحكام القرآن ومنها الإنفاق لما كان هناك سارق واحد.

مرة أخرى أكرر أن عدداً من الباحثين يهدرون أوقاتهم في تأليف مؤلفات ضخمة في مواضيع أقل أهمية، بدل توفير أوقاتهم وجهودهم لخدمة مواضيع دينية جوهرية[1].

---

١ وقد حاول البعض أن يأول معنى الآية الواضح تأويلاً متعسفاً ليقول أن القطع لا يعني القطع والبتر، ظناً منه أن يظهر الإسلام وكأنه دين للرحمة (حسب ظنه) وليس دين يقطع الأيدي والأرجل والرقاب. وهو لم يفهم لماذا نزلت الآية وبحق من. ونقول لهم:

والقطع في الآية قطع فعلي للأيدي جزاءً بما كسبا، وهو ما يبعد أي احتمال للمجاز.

والقطع في اللغة: إِبانةُ بعض أجزاء الجِرْم من بعضٍ فَصْلاً، كما يقول ابن منظور في لسان العرب.

وقَطَعاتُ الشجرِ: أُبَنُها التي تَخْرُجُ منها إِذا قُطِعَت، الواحدة قَطَعَةٌ.

والمِقْطاعُ: ما قَطَعْتَه به.

والأَقْطَعُ المقطوعُ اليَدِ ويَدٌ قَطعاءُ: مقطوعةٌ.

ولأن كل لفظ في اللغة يمكن أن يستخدم للمجاز فمن المجاز أن نقول:

قَطَعَ النهر إذا شَقَّه وجازَه وعبره.

وقَطَعَ لسانه إذا أسكته.

وقطع الرحم إذا لم يتواصل مع أقاربه وذوي رحمه.

وآية قطع يد السارق والسارقة جاء القطع فيها بمعنى بتر وفصل جزء من اليد. وسنعود للحديث عما اعتبره البعض خلافاً فيما يقطع.

والقطع بمعنى فصل اليد مماثل لما ورد في قوله تعالى ضمن الحديث عن هلاك عاد ونجاة هود ومن آمن معه:

فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ(٧٢) الأعراف.

فهلاكهم عبرت عنه الآية بقطع دابرهم وأثرهم بمعنى بترناهم واجتثثناهم من الحياة.

ومثله ما ورد في سورة الأنعام عن هلاك أمم كفرت:

فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ(٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٤٥) الأنعام.

ومثله ما ورد في الحديث عن هزيمة قريش في بدر وقتل عدد من الكبراء: وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ(١٢٧) آل عمران.

مسلمة يثرب واليهود كفار

(الآيات: ٤٠-٤٢) والخطاب تفاعلي

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٤٠) يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٤١) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ

فقطع طرفاً من الذين كفروا (بتر واجتث وأباد بعضهم).

وتقول سورة الحج: هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ(١٩).

وكأن هناك قطعة كبيرة من الثياب النارية تقطع إلى قطع صغيرة كثوبٍ للكافر يلبسه. فقطع هنا تعني فصلَ وبترَ وأبانَ جزءً من الجرم.

وقريب منه، قوله:

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَـذَا بَشَراً إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ(٣١) يوسف.

فقطعن أيديهن تعني أبانت جزءً من جلد اليد واللحم عن بعضه. واستخدم قطع اليد للدلالة على قطع هذا الجزء الصغير وهو قول ما زال مستعملاً في كل اللغات: تقول: قطعت يدي بالسكين. وتعني خدشتها ولم أبترها.

ومثله تحذير موجه للرسول عليه الصلاة والسلام: وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ(٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ(٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(٤٦) الحاقة.

فقطع الوتين لا يعني اجتثاثه ولكن فصد الوتين (العرق) وخدشه... والعبارة هنا مجازية تعني هلاك الرسول وموته لو فعل.

ونعود لتشكيكٍ طالما أثير حول قطع يد السارق ومن اين تقطع؟

ويعتبرون أن القرآن عندما لم يحدد من أين فهو نقص فيه وعيب.

واليد في اللغة تطلق على الكف، وهو الأصابع وراحة اليد.

هذا هو المعنى الأول لليد بلا خلاف. وهو في كثير من اللغات وليس في العربية فقط.

وتطلق اليد على الأجزاء الثلاثة: اليد (الكف) والذراع والعضد (الزند) معاً.

يعني من بداية الأصابع إلى الكتف.

وإطلاق اليد على هذه الأعضاء الثلاثة من باب إطلاق البعض ليقصد به الكل. مثل قولنا رأس فلان ونقصد به كله. ومثل قوله تعالى: فتحرير رقبة والمقصود تحرير كل الإنسان.

لذا فالآية واضحة لا لبس فيها: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٣٨) المائدة.

ويكون القطع من الرسغ، وهو الفاصل بين اليد والذراع. ويكون القرآن قد حدد من أين يكونَ القطع لكن البعض تغافل عن ذلك، وقالوا بخلافه.

فبعض أتباع المذاهب قالوا إن القطع يكون للأصابع دون الإبهام وغيرهم قال تقطع اليد من الكوع.

ولو قطعت الأصابع فسيتبقى جزء من اليد، كون اليد تطلق على راحة الكف والأصابع معاً، وهو قصور عن نص الآية. ولو قطعت من الكوع فهذا يعني قطع لليد والذراع، وهو زيادة عن نص الآية.

فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٤٢).

قوله سبحانه: «يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء» ليس بعاطفة وبدون ضوابط. فالمغفرة والجنة تكون لمن آمن وعمل صالحاً، والنار لمن كفر أو ارتكب الكبائر. ولن يغفر الله لمستحق النار ولن يعذب مستحق الجنة لأن هذا مخالف لعدله المطلق. لكن بما أنه سبحانه هو من خلق العقل في الإنسان وبواسطته يستطيع تبين الحق من الباطل. ولو اختار الحق فالله هو من وفقه لذلك ويكون سبحانه من غفر له (بطريقة غير مباشرة). كما أن من اختار الضلال فكأن الله هو من اختاره له وسيعذبه.

وتقول الآيات إن الرسول كان يحزنه ما يصدر من مسلمة يثرب لأنه مخالف لأوامر الله ونواهيه «الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا». ومع ذلك يأمره القرآن أن يحكم بينهم بأعلى درجات العدل «القسط» أو الاعتذار عن الحكم.

ومثلهم اليهود الذين يتواصون فيما بينهم بقبول أي شيء يتفق مع ما يريدون من الرسول ورفض ما يخالف رغباتهم.

والآيات تظهر أن بعض اليهود يحضرون للرسول ويسألونه حكم القرآن في بعض المسائل.

اليهود يسألون الرسول أن يحكم في أمر ما لعله يخالف التوراة فيكذبونه

(الآيات ٤٣-٤٤) والخطاب تفاعلي

وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَـئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ(٤٣) إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ(٤٤).

هنا إشارة إلى أن بني إسرائيل يثرب زمن رسول الله كانوا يحتفظون ببعض توراة موسى، وهذا ممكن. لأنهم استوطنوا يثرب قادمين من بلادهم الأصلية (مصر فرعون) ومعهم مقتطفات من التوراة. وبقيت هذه المقتطفات يتداولونها حتى ظهر الإسلام. وهي ليست نصوصاً مما يسمى كتب اليهود المقدسة الحالية، لأن هذه الكتب لم يكن أهل الكتاب في يثرب يعرفونها. فهي كتب خاصة باليهود الذين كانوا في العراق وبعد تحررهم من السبي توجهوا لفلسطين، وبدأت تلك الكتب بالظهور وزيدت ونقحت على مر العصور حتى

أصبحت بشكلها الحالي وكانت مكتوبة بلغات أجنبية. أما المقتطفات من التوراة التي كانت عند أهل الكتاب في يثرب زمن الرسول فمكتوبة بالعربية بدليل أنهم كانوا يظهرونها أحياناً للمسلمين ليقرأوها. وما في تلك التوراة هو مطابق لما في القرآن. ومع ذلك يأتون للرسول ويسألونه حكماً لعلهم يسمعون منه ما يخالف ما في التوراة ليكون دليلاً لهم على كذبه.

القرآن يبين لبني إسرائيل تفاصيل من التوراة للتأكيد على أن القرآن لا يختلف عنها

الآيات: (٤٥-٤٨) والخطاب قصصي وتوجيهي

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٤٥) وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ(٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(٤٧) وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(٤٨).

والآيات تؤكد لبني إسرائيل أنه لا يمكن أن يكون هناك اختلاف بين نص من التوراة ونص في القرآن، لأن دين الله واحد وما قالته التوراة أكده عيسى وجاء به القرآن. والآيات تشير إلى أن عيسى جاء بعد موسى مباشرة: « وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ» الذي أرسل لهم بعد وفاة موسى لإعادتهم للدين الحق الذي دعت له التوراة وتركوه.

والقرآن نزل مصدقاً لما بين يديه (ما سبقه من التوراة والإنجيل) ومهيمناً عليه (أي حاكماً على صحيحه من مبتدعه). فما في القرآن وخالف ما يحتفظ به أهل الكتاب فهو الحق، وما لدى أهل الكتاب مبتدع ولا يمكن أن يكون من التوراة.

على الرسول أن يحكم بينهم بما أنزل الله (في القرآن)

الآيات: (٤٩-٥٠) والخطاب توجيهي

وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ

اللهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ(٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ(٥٠).

والآيات تحذر الرسول من أن يستميله كلام بني إسرائيل فيظنه صحيحاً، ويشك في الحق المنزل عليه. وهذا يظهر كم أن بني إسرائيل واليهود بارعون في القصص الديني (الإسرائيليات) الذي يجذب المستمع ويظنه من عند الله.

تحذير مسلمة يثرب من موالاة اليهود والنصارى

الآيات: (٥١-٥٨) والخطاب تفاعلي

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ(٥٢).

تحذير من موالاة اليهود والنصارى، وتقول إن من يتولى قوماً فهو منهم في المعتقد والمصير للنار، ولو أعلن الإيمان وقام بالواجبات الدينية. والآيات تتحدث عن مسلمة يثرب الذين أبقوا على موالاة اليهود والنصارى مثلما أبقى «مسلمة قريش» على موالاة المشركين. وكلا الفريقين كَفَرَ، ولو بقي يعلن إسلامه.

والآيات تخاطب مسلمة يثرب «بيا أيها الذين آمنوا» على اعتبار أن غير المسلمين يعتبرونهم من المؤمنين، كما تصفهم الآيات «بالذين في قلوبهم مرض». وعلى القراء تذكر هذا الوصف لأنه سيتكرر ذكره لوصفهم عند الحديث عنهم في سورتي الأحزاب والنور وما تسببوا فيه من أذى اجتماعي للمسلمين حينها.

وتنقل لنا السورة ما يقوله المؤمنون المخلصون من (أهل يثرب) عن مسلمة يثرب (المنافقون): وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَـؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ(٥٣). وهذا يعني أنهم معروفون بأشخاصهم للمسلمين.

وتعود السورة لتحذير مسلمة يثرب مرة أخيرة، لعلهم يعقلون: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ

يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ(٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ(٥٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ(٥٨).

وتصفهم السورة بـ "الذين آمنوا" فيما قد يكون لو عادوا للحق.

وتكرر السورة تأكيد أن مولاة غير المسلمين (اليهود والنصارى) كفر، ولو أعلن من يواليهم الإسلام. وهو ما يؤكد أن اليهود والنصارى كفار، لأنهم لو كانوا مؤمنين ولو كان إيمانهم مقبولاً عند الله فموالاتهم لن تكون كفراً.

وتظهر الآيات أن اليهود والنصارى في يثرب يسخرون من الإسلام، ويستهزئون بصوت المنادي للصلاة، وهو يظهر أن المسلمين كانوا ينادون للصلاة بالأذان.

أهل الكتاب كفار

(الآيات: ٥٩-٦٣) والخطاب توجيهي

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ(٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَـئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ(٦٠) وَإِذَا جَآؤُوكُمْ قَالُوَاْ آمَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ(٦١) وَتَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(٦٢) لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ(٦٣).

أهل الكتاب في يثرب لم يؤمنوا بالرسول وبالتالي فهم كفار حتى لو كانوا يعلنون للرسول أنهم مؤمنون بالله على ديانتهم. والبقاء على أي ديانة سابقة للإسلام بعد بعثة الرسول كفر بالله. وأهل الكتاب يصرون على رفض دعوة الرسول ويسارعون في الإثم والعدوان وأكل كل ما هو محرم (السحت).

اليهود لا يتأدبون مع ذكر الله

(الآيات: ٦٤-٦٦) والخطاب إخباري

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ(٦٤) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ(٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ(٦٦).

من سخرية يهود يثرب بالمسلمين، أنهم كانوا يسمعون دعوات القرآن المتكررة على المسلمين بالإنفاق في سبيل الله وتسليح وتجهيز الجيش المقبل على حرب قريش، ويرون ضعف الاستجابة من فئات المسلمين، فكانوا يقولون إن رب المسلمين بخيل وإلا لأنفق هو على الجيش، ولم يطلب من الناس أن ينفقوا من أموالهم. (وهو ما ذكرته سور أخرى) وهذا المنطق الأعوج غير مقبول، لأن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، لكن الله أودع الرزق في الأرض، وكلف الإنسان برعاية هذه الأمانة. والله جل شأنه ترك الدنيا مشاعة للجميع ويوم الحساب كل يلقى مصيره. ولن تنزل على المسلمين الأموال والأسلحة من السماء، ولكن على المسلمين أن يصنعوا أسلحتهم بأيديهم وينموا اقتصاداتهم، وكل تخاذل في هذا هو عصيان لله.

وتقول الآيات أن أهل الكتاب في يثرب لو أنهم أسلموا، فهذا يعني أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم (القرآن)، ولو أسلموا لتمتعوا بسعادة الدنيا. ورفض القرآن رفض للتوراة الأصلية.

حثٌ وتحذيرٌ للرسول

(الآيات: ٦٧-٦٩) والخطاب توجيهي

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(٦٧). وقد سبق وحذرت منه الآية: (٤٨).

وتعيد السورة لتكرار ما ذكرته الآية (٦٦): قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ(٦٨).

فالذي في التوراة والإنجيل سيجدونه في القرآن الذي أنزل إليهم، وبصورة أكمل.

كل من يرغب في الجنة عليه أن يسلم

وتقول السورة: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِّ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٦٩).

والآيات تقول: "إن الذين آمنوا" المقصود بهم المسلمين.

"وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِّ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ"

البشر من أي عقيدة كانت لا خوف عليهم ولاهم يحزنون، متى آمنوا. ومن يريد منهم أن يؤمن في عصر محمد فلابد أن يتحول للإسلام، لكي يؤمن بالله ويعمل صالحاً. ومن بقي على يهوديته أو صابئيته أو نصرانيته أو غيرها ولم يؤمن بمحمد، فهو لم يؤمن بالله الذي أرسل محمد، ولن يدخل الجنة.

ولو كان المعنى أن كل من آمن بالله بطريقته يدخل الجنة فلن تصف الآيات عن اليهود وبني إسرائيل بأشد صفات الكفر، وهم يؤمنون بالله.

مواصلة الحديث عن أسلاف أهل الكتاب

(الآيات: ٧٠-٧٩) والخطاب قصصي

وتبدأ الآيات بالقول إنه طوال تاريخهم لم يعودوا لدين الله الحق بعد موسى، وكانوا يكذبون ويقتلون الرسل المرسلة لهم لتصحيح عقائدهم: لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ(٧٠).

وكان يتخلل تاريخهم رجوع متقطع لدين الله يتبعه ضلال: وَحَسِبُواْ أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ(٧١).

وخرج منهم عقائد مختلفة، بعضهم اعتقد أن المسيح ابن الله:

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ(٧٢).

ومنهم من قال بالتثليث (الله، عيسى، ومريم)

لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٧٣) أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٧٤) مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظر كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظر أَنَّى يُؤْفَكُونَ(٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَاللّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ(٧٧) لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ(٧٨) كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ(٧٩).

وبعض من أعلن الإسلام منهم بقي يوالي أهل الكتاب الكفار

(الآيات: ٨٠-٨١) والخطاب إخباري

تَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ(٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَـكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ(٨١).

والذين أبقوا على موالاتهم لأهل الكتاب بعد إعلان الإسلام هم مسلمة يثرب.

والآية تقول بكل وضوح كل من لم يؤمن من أهل الكتاب بمحمد ويتبع رسالته فهو كافر ولو أعلن إيمانه بالله وتمسكه بدين سابق.

وكل من يوالي الكفار فهو كافر.

أهل الكتاب في يثرب ليسوا سواء في علاقتهم بالمسلمين

(الآيات: ٨٢-٨٦) والخطاب إخباري

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ(٨٢) وَإِذَا

سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ(٨٣) وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ(٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ(٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ(٨٦).

والآيات تؤكد دخول كثير من نصارى يثرب الإسلام.

(الآيات: ٨٧ – ٩٧) تخاطب المؤمنين في يثرب خطاباً تشريعياً وتفرض بعض التشريعات التي سألوا عنها:

حول المآكل

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ(٨٧) وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ(٨٨).

يمكن أن يفهم من الآيات أن بعض المؤمنين أبقوا على موروث جاهلي يتمثل بعدم تناول بعض اللحوم، فجاءت السورة تقول لهم أنه لا يحرم إلا ما فيه نص تحريم، وما عداه فطيبات حلال.

والحديث هنا ليس على الإطلاق بل في المآكل الذي يعرفه المخاطب في الآية وهم أهل يثرب والمهاجرين. ولا يمكن أن تؤخذ الآية على أنها تحل كل مأكل لم يرد له تحريم صريح في القرآن، ومن ذلك لحم الكلاب على سبيل المثال. ويمكن الأخذ بآيات أخرى كالتي تحث على الطيبات والتي تتحدث عن السبع وكلها قرائن على أن لحم الكلاب يدخل ضمن لحم السباع التي لا تجوز.

النهي عن اليمين

لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَـكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٨٩).

قول «لا والله» أو ما شابه لها ضمن الحديث لا يعتبر يميناً منهي عنه. ولكن الأيمان التي

تحرم هي الأيمان المغلظة، مثل قول: «والله العظيم لأفعلن كذا». فهذه لو لم يتم الوفاء بما قيلت له، فيجب فيها كفارة بينتها الآية. ويفهم من هذا ضرورة تجنب استخدام الأيمان في كلامنا والتعود على جريانه على ألسنتنا. فالحلف بالله شيء عظيم لا يجب التهاون به أو استسهال استخدامه.

حكم الخمر

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ(٩١) وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ(٩٢).

وقد ورد ذكر الخمر للمرة الأولى في سورة البقرة، لأن بعض المسلمين سألوا الرسول عن المتاجرة بهما: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ(٢١٩).

والآية تقول حتى وإن كان في المتاجرة في الخمر والميسر مكاسب مادية ففيهما إثم (يعني فهو مال حرام).

ثم ورد في سورة النساء: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُورا(٤٣).

لأن بعض المسلمين حضروا للصلاة وهم سكارى، وصدرت منهم أقوال وتصرفات غير لائقة، صرفت المصلين عن الخشوع.

وهذا أيضاً ليس فيه تحريم للخمر، ولكنه تحريم لحضور الصلاة أثناء السكر. أما تحريم الخمر فورد في هذا السورة:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ

وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ(٩١).

وبرغم وضوح التحريم، بوصف الخمر أنها رجس. والرجس في القرآن وصف للأعمال الوثنية: ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ(٣٠) الحج.

والرجس هو وصف للميتة والدم ولحم الخنزير المحرم: قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٤٥) الأنعام.

ومقارنة الخمر بالميسر والأنصاب والأزلام الوثنية، إضافة لأمر الله جل وعلا باجتنابه:» فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ«.

وبرغم كل هذه الأدلة، إلا أن هناك من يتمنى ألا تكون الخمر محرمة فيبحث عن أي مبرر لتحقيق أمنيته. ومن ذلك قولهم إنه لا وجود لتحريم الخمر في القرآن لأنه يخلو من نص صريح يقول «حرمت عليكم الخمر».

وعدم وجود لفظ التحريم لا ينفي أن تكون الخمر حراماً، لأن هناك نهياً إلهياً بعدم شربها. وعصيان أمر أو نهي إلهي واحد وارد في القرآن، يوازي عصيان أوامر الله ونواهيه كلها.

والنهي الإلهي يوازي نص التحريم، وإلا لأصبح الزنا مباحاً لأنه ليس في القرآن عبارة: حرم عليكم الزنا، وإنما عبارة مشابهة لتحريم الخمر، وهي: وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً(٣٢) بني إسرائيل.

ولا عبرة بما أوردته كتب التراث من قصص كله مختلق، ومنه أن أحد من يسمون (بأئمة أتباع المذهب السني) كان يبيح شرب النبيذ المصنوع من الْعَسَل وَالتمر وَالْبُرِّ وَالشَّعِيرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، بل نسب عنه قوله إن المحرم هو السكر وليس ما صنع منه. بمعنى أنك لو شربت قليلا من أي مسكر ولم تصل لحد السكر فهو مباح. وبطبيعة الحال فنحن عباد الله ولسنا عباداً لخلقه. وتشريع أبي حنيفة سهل للسلاطين العباسيين المجاهرة بشرب الخمور وتصدرها موائد طعامهم. وفتاوى رجال الدين عموماً لا عبرة لها في الإسلام، لأنه ليست من دين الله[1].

---

١ وللمدقق اللغوي «أبو حزم» صياغة أخرى نوردها هنا، حيث يقول: إن التسلسل في ذكر الخمر من سورة البقرة إلى سورة

عود للحديث عن المآكل

فقد سبق ومر بنا حديث عن المآكل في الآية: (٣) وفي الآيات: (٨٧-٨٨)، وهنا تقول السورة: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(٩٣).

فليس هناك موانع في المآكل لمن يؤمن ويعمل صالحاً، ويتقي، ويحسن بدفع ما يجب عليه من الإنفاق ومعاونة المحتاج. ولا علاقة لهذه الآية بتحريم الخمر كما فعل بها المفسرون المتأخرون واعتبروها تخفيفاً لحكم تحريم الخمر. قائلين إن الله يقول إن من يؤمن ويعمل صالحاً فلو شرب الخمر فلا جناح عليه.

لأن الآية تعود بالحديث لما ذكر في الآيتين (٨٧-٨٨) كما ذكرنا وليس لها علاقة بتحريم الخمر. وهذا الأسلوب من السرد معتاد في القرآن، حيث تتحدث آيات عن موضوع ثم تتركه لموضوع آخر، ثم تعود لاستكمال الحديث عن الموضوع الأول.

وبطبيعة الحال لا يمكن أن يتجاوز سبحانه عن شرب الخمر وهي كبيرة نصت الآيات السابقة على أنها «رجس من عمل الشيطان».

عود للحديث عن تحريم صيد الحرم

وقد سبق وتحدثت السورة عنه في الآيات (١-٢)، وهنا تقول:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَف وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللهُ مِنْهُ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَام(٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٩٦).

وتحريم الصيد عندما يكون الإنسان حُرُماً، والحرم هنا تعني أن تكون داخل حدود الحرم،

النساء إلى سورة المائدة ليس من النسخ الذي تقول به كتب التراث، لأن النسخ - حسب زعمهم - هو إثبات حكم ثم إثبات تحويله لحكم غيره. وامر الخمر ليس كذلك، لأن الوارد في سورة البقرة هو حكم المتاجرة بها لا شربها. والوارد في سورة النساء هو حكم حضور الصلاة بعد شربها، والوارد هنا هو تحريم شربها. فهذه أحكام وليست إزالة حكم بحكم آخر، لأن سورتي البقرة والنساء سكتتا تماماً عن كونها (أي الخمر) حلالاً، غنما تناولتاها على أنها عادة ودون إشارة إلى إباحتها. انتهى

وليس المعنى أن تلبس ملابس الإحرام وتنوي الحج او العمرة، وهو ما أطلق عليه الإحرام في عصور لاحقة، ولم يسمها القرآن، لأن ملابس الإحرام وما يسمى بالمواقيت لم يأمر بها الله.

وتقرر السورة حقيقة

جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وذَلِكَ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٩٧).

تحذر الآيات المسلمين من تجاوز أوامر الله ونواهيه

(الآيات: ٩٨-١٠٠) والخطاب توجيهي

اعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٩٨) مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ(٩٩) قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُواْ اللهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٠٠).

مخالفة أمر أو نهي واحد مماثل لمخالفة كل أوامر الله ونواهيه، وسيعاقب عليها الله بشدة. مثلما أنه سبحانه سيقبل التوبة من الكافر وسيغفر له ما تقدم من ذنبه.

وكثرة الخبيث يعني كثرة أعداد الكفار وقلة أعداد المسلمين، وكثرتهم لا تحول ضلالهم لحق، وقلة المسلمين لا تحول الحق لباطل. وكثرة أتباع الموروث دليل على بطلانه، لأن أكثر الناس سيكونون مع الباطل.

النهي عن السؤال عما سكت عنه القرآن

(الآيتان: ١٠١-١٠٢) والخطاب تشريعي

سورة المائدة آخر سورة تشريعية من ثلاث سور، وسبقتها البقرة والنساء، وكلها نزلت في وقت أكثر المسلمون من سؤال الرسول عن حكم أشياء كثيرة، وتقول لهم أن يكتفوا بما يفرض في القرآن، وما سكت عنه القرآن فمتروك لكل فرد، لأنه إذا سئل الرسول فسينزل حكمٌ له في القرآن، ولو نزل حكم فهو ملزم وليس للناس خيار بتركه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللهُ عَنْهَا وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ(١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ(١٠٢).

ويستفاد مما ذكرته الآيتان الكثير، ومن ذلك: أن كل ما لم يذكر له في القرآن حكم فليس من دين الله. لأن أي تشريع في دين الله مصدره القرآن، وهذا توقف منذ نهت هذه السورة عن السؤال عن أي مسألة لم ينزل القرآن بها بحكم، لأن كل التشريعات الإسلامية فرضت وما عدا ذلك فهو عبارة عن أمور دنيوية يمكن للناس وضع قوانين لها، أو أنها مواضيع لكل شخص الخيار في فعلها أو تركها، دون وجل من عقوبة أو ذنب.

ورجال الدين اليوم عند كل المذاهب يحثون الناس على الإكثار من الأسئلة في أدق التفاصيل وفي كل شيء، ويعتبرون هذا من باب التفقه في الدين ومعرفة المسلم العادي دينه بدقة. وهو قول فيه تعد على دين الله، لأنه لو كان من الدين السؤال عن مثل هذه التفاصيل أو السؤال عما سكت عنه القرآن، لما نهى القرآن بوضوح وحزم عن مثل هذه الأسئلة، ولترك الصحابة يسألون الناس ليتفقهوا في دينهم وليبينوا لمن يأتي بعدهم وبعد الرسول أحكام الشرع.

والسورة تقول: إن الأسئلة التي لا حصر لها التي يسألها الناس لرجال الدين لا يجوز سؤالها لهم لأن القرآن نهى عن السؤال، ولأن المسئول يجيب مما تحدثه به نفسه. أي يشرع من دون الله، وهو ما لم يتجرأ عليه رسول الله الذي كان ينتظر الوحي ومتى نزل تلاه على السائل. ولو قيل إن رجال الدين يستدلون بآيات قرآنية على تشريعهم (فتاويهم) فيقال إن الرسول كان أقرب منهم للقرآن ومع ذلك لم يفعل ما يفعلون. كان لا يجيب عن أي سؤال حتى ولو تكرر على مسامعه من قبل بل ينتظر الوحي ينزل بالجواب ويقرؤه.

وتكون الفتوى بنص هذه الآية حراماً، وتشريعاً في دين الله ما ليس فيه.

لكن يمكن أن يصدر حكم (قانون) دنيوي ولا يسمى شرعي أو ديني لوضع عقوبة أو حكم لمسألة لم يذكرها القرآن. وهذا الحكم أو العقوبة تؤخذ على أنها دنيوية وليست من دين الله ويمكن تغييرها حسب الظروف. وهذا لا يصدره رجل دين ولا قاض في المحكمة يظن أن كل أحكامه نيابة عن الله. بل يفرضه القانون بعد استفتاء عام، كما بينته سورة الشورى في القرآن.

بعض الوثنيات التي كانت سائدة في المآكل

(الآيات: ١٠٣-١٠٤) والخطاب تقريري

مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَـكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ

الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ(١٠٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ(١٠٤).

البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي كلها مصطلحات جاهلية تطلق على الإبل والأنعام، بالارتباط مع بعض الطقوس الوثنية. والبحيرة تعني الناقة التي بُحرت. وبَحَرَ أذن الناقةَ شقها بنصفين طولاً، وتسمى «بحيرة». ويقال إن العرب تفعل ذلك إذا نُتِجَت عشرةَ أَبْطن فلا يُنْتَفَع منها بلبن ولا ظَهْرٍ، وتُترك البَحِيرَةُ ترعى وترد الماء ويُحَرَّمُ لحمها على النساء.

السائبة هي الناقة التي تترك ترعى وترد ولا تركب بسبب تقدمها في العمر أو أن صاحبها حرم ركوبها لسبب من الأسباب.

ولم تبين الآية الطقوس الوثنية لأن المخاطب هم من يقوم بتلك الطقوس ويعرفونها، وليس المخاطب أهل عصرنا أو من سيأتون بعد عصر الرسول، لأن الغاية تحريم هذه الطقوس ووقف العمل بها لمن يمارسها.

وتقدم السورة نصيحة لكل مسلم:

عليك بنفسك ولا تهتم بكثرة المخالفين

(الآية: ١٠٥) والخطاب توجيهي

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(١٠٥).

وهذا ما يجب علينا أن نتقيد به. فعلى الشخص أن يصلح نفسه ويتبع ربه وأن يُسمع غيره كلام الحق، وبعد ذلك فليس عليهم بوكيل. فمن شاء أطاع ومن شاء عصى، أما هو فعليه بنفسه فقط.

ثم تستكمل السورة الحديث عما سبق وشرعته البقرة:

استكمال ضوابط وشروط الوصية

الآيات: (١٠٦-١٠٨) والخطاب تشريعي

يِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ

الصَّلاَةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللّهِ إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الآثِمِينَ(١٠٦) فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرَانِ يِقُومَانُ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ(١٠٧) ذَلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُواْ بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُواْ أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللّهَ وَاسْمَعُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(١٠٨).

وكانت سورة البقرة قد بدأت الحديث عن فرض ضوابط الوصية في الآيات (١٨٠-١٨٢).[١]

الرسل لا يعلمون الغيب

(الآية: ١٠٩) والخطاب إخباري

يَوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ(١٠٩).

الرسل جميعاً لا يعلمون من آمن بهم ومن لم يؤمن، سواء أثناء حياتهم أو بعد المهات. وهذا ينفي تلك الأحاديث التي تنسب للرسول وتظهر أنه يعلم ما في صدور الناس، فيقول لهذا هو في النار ولذاك هو في الجنة. أو يمر بقبر ويضع عليه سعف نخيل لكي يخفف عنه العذاب، أو يقول لمن مرت جنازته وقال الناس عنه هو في النار أو هو في الجنة وجبت..الخ من أحاديث لا حصر لها.

وتسرد السورة بعض الأخبار عن عيسى

من نعم الله على عيسى

(الآيات: ١١٠-١١٩) والخطاب إخباري

إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ(١١٠).

---

١ ويمكن الرجوع لموضوع الوصية في قسم تشريعات من القرآن.

عيسى لم يكن يخلق طيراً، ولكنه كان يخلق من الطين شكلاً على هيئة طير، ويطير كما يطير الطائر، ولكنه ليس طائراً حياً. وهذا مشابه تماماً لما يتقنه بنو إسرائيل من السحر، ومن ذلك العجل الذي شكله السامري (على شكل عجل، وكان يصدر خواراً كخوار البقر، لكنه ليس مخلوقاً حياً). وهذا دليل آخر على أن عيسى جاء بعد موسى مباشرة، لبني إسرائيل الذين ما زالوا يعيشون في مصر فرعون، وقبل أن يتشتتوا بسبب اجتياح خارجي سيجتاح بلادهم فيها بعد. وقد كانوا يجيدون هذه الأعمال السحرية الباهرة، فجاء عيسى بقدرات تشابه ما يتقنون ليثبت لهم أنه رسول من الله، لعلهم يطيعونه ويعودون للدين الصحيح الذي جاءت به التوراة. لكن كثيراً منهم قالوا عنه ما قال فرعون عن موسى: « إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ».

وهنا لابد من وقفات قصيرة.

أولها: مع روح القدس، الذي كان يؤيد عيسى.

وقد ورد في القرآن المجيد أربع مرات، ثلاث منها ذكر أنه يؤيد عيسى ابن مريم في البقرة آيتان: (٨٧، ٢٥٣)، والآية التي بين أيدينا من سورة المائدة. والآية الرابعة التي ذكرت القرآن في سورة النحل، وتقول: قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين (١٠٢). وهي الآية الوحيدة التي تذكر «روح القدس» ولكنها هذه المرة تؤكد أن روح القدس هو الذي أنزل الوحي على الرسول. والذي أنزل الوحي على الرسول هو جبريل كما نصت سورة البقرة: قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين(٩٧).

ويكون روح القدس هو جبريل وهو الذي كان يؤيد عيسى ابن مريم.

المسيحيون لديهم إله ثالث مع الله (جل شأنه) ومع يسوع أسموه (الروح القدس) بالتعريف، وليس «روح القدس» كما في القرآن. وهذا يشكل فارقاً كبيراً وهاماً.

فروح القدس تعني وصف أحد الملائكة (الذي اسمه جبريل) بأنه روح القدس، أما الروح القدس فهو اسم للإله الخيالي الثالث عند المسيحيين. وليس هناك مسيحي واحد يعرف من أين أتى؟ وكل ما يعرفون عنه أنه هو من قام بتلقيح «ميري» أم يسوع، حسب ظنهم. ويكون هو أبا يسوع وليس الأب (الله) هو أبوه. وهذا من تناقضات المسيحية الكثيرة.

ونُذكّر بأن هناك من ألّه عيسى ابن مريم وكانوا على فرق مختلفة: بعضهم اعتبره هو الله، وبعضهم اعتبره إلهاً مع الله (يعني اعتقدوا بوجود إلهين)، ومنهم من اعتبر عيسى وأمه إلهين مع الله. وكل هذه الفرق من النصارى، ولا شأن لهم بالمسيحيين. أما غالبية المسيحيين فيعتبرون أن هناك ثلاثة آلهة: الله (تعالى عن قولهم علواً كبيراً) ويسوع الابن، والروح القدس الذي بلا هوية، ولا يعرفون هل هو مخلوق كما يسوع أو كان موجوداً مع الأب أو أخاً للأب؟ وليس هناك ترجمة واضحة للمدعو الروح القدس.

الوقفة الثانية: عند قوله تعالى: «تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً».

عيسى عليه الصلاة والسلام كلم الناس وهو في المهد عندما أحضرته أمه معها لقومها لأول مرة، وكلم الناس كهلاً. فهل انتقل عيسى من الطفولة للكهولة بسرعة دون المرور بمرحلة المراهقة والشباب؟

سورة مريم تؤكد أن مريم ذهبت للخلاء لقضاء الحاجة - كعادة أهل جزيرة العرب إلى وقت قصير - وفوجئت بالمخلوق الكوني الذي أحدث لها الحمل. هذا الحمل لم يستغرق تسعة أشهر كالحمل العادي، لأن مريم شعرت مباشرة بالمخاض وولدت ورجعت لبلدتها والمولود بين يديها: فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا(٣٠) مريم.

فعيسى تكلم في المهد على غير عادة البشر، الذين يحتاجون لتنمية قدرات عدة من بينها الكلام والتي تستغرق عدة أشهر للبدء وسنوات لإتقانه. وبالتالي فمن نما في بطن أمه خلال ساعات بدل تسعة أشهر، وتكلم في المهد بعد الولادة مباشرة بدل عدة سنوات. يحتمل أنه نما من سن الطفولة للكهولة مباشرة.

ولو تذكرنا أن عيسى لم يتزوج ولم ينجب، وأنه خلق بصورة فريدة لمهمة محددة، وهي محاولة إعادة بني إسرائيل لتعاليم التوراة، فإن مروره بمرحلة المراهقة والشباب ليست ضرورية ولا حاجة لها. ويمكن الرجوع لسورة مريم وقراءتها بتمعن.

الوقفة الثالثة: عند قوله تعالى: « وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ».

الحكمة يتوقف عندها بعض من يحاول عصر الألفاظ وإظهار معان لها لا يعرفها غيرهم، لكي يستدلوا بها على ما ليس له دليل في كتاب الله، ومن ذلك قولهم إن الحكمة هي

الأحاديث المنسوبة للرسول، وغيرهم قال عنها أقوالاً أكثر غرابة. والكتاب هو الوحي والحكمة إذا جاءت معطوفة على الكتاب فهي تعني السلوكيات التي يلتزم بها المؤمن نتيجة تطبيق تشريعات الوحي، وليس لها معنى خفي. وكل الرسل علموا الناس الكتاب والحكمة.

والإنجيل هو تلك التوجيهات التي كان عيسى يوجه الناس بها. وهي تعاليم شفوية لم تكتب، إضافة للتذكير بتشريعات التوراة.

وكلمة «إنجيل» بالعربية ليست كما يشاع ترجمة للكلمة اليونانية: «Euanghilion» والتي تتكون من مقطعين: «Eu» وتعني جيد أو حقيقي. والمقطع الثاني: «Anghillon» ويعني بشارة. وهذا الوصف لكتب المسيحيين لم يقل به مؤلفو الكتب المسيحية: متى، لوقا، يوحنا، ومرقس، ولكن سميت به الكتب من قبل الكنيسة بعد مئات السنين من تأليف تلك الكتب، وبعد ترجمتها لليونانية.

ولم يسمها يسوع الذي كان لا يعرف اليونانية المنتشرة في بلاد الشام، ولكن لغته كانت الآرامية كما تقول الكنيسة. وبالتالي فالكلمة اليونانية التي زعموا أنها أصل كلمة "إنجيل" العربية غير صحيح. بل إن كلمة «Anghelos» اليونانية تعني "مللك (أحد الملائكة)" أو روح وشبح.

وكلمة "إنجيل" عربية قديمة كانت مستخدمة أيام موسى وعيسى الذي سبق عصر يسوع بمئات السنين. ولكن المفسرين كالعادة اقتبسوا من المسيحيين ما يضر بالإسلام، واعتبروا أن الكلمة اليونانية هي التي استخدمها القرآن، كما اعتبروا أن يسوع هو عيسى.

والوقفة الأخيرة: عند قوله تعالى: " وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي".

فالله وحده هو من يحيي الموتى وهذا لا يكون في الدنيا أبداً، ولكن يوم القيامة. ومتى ما مات الإنسان وتعفن جسده فلن يكون قادراً على حمل النفس. وعيسى لا يمكن أن يكون قد ذهب لقبر ميت مات من مدة وتحلل جسده ثم أعاد له الحياة. لكن بما أن القرآن عادة ينقل لنا ما يحدث كما يراه الناس، فإن إحياء الموتى كان عبارة عن إنعاش من توقف قلبه أو دخل في غيبوبة وظن الناس أنه مات. وكثير من الناس يتذكرون قصصاً تروى عن أموات دفنوا أو حملوا للمقبرة بعد غسلهم وتكفينهم والصلاة عليهم ثم عادت لهم الحياة. وقد

يكون ما حدث لعيسى هو أنه كان قادراً على إنعاش من توقف قلبه أو دخل في غيبوبة وإعادتهم للحياة. وفي نظر الناس فهو كان بالفعل يحيي الموتى.

لم يؤمن بعيسى سوى نفر قليل

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ(١١١).

والحواريون جعل المفسرون عددهم (١٢) لظنهم أن القرآن يتحدث عن عيسى الذي يظنون أنه يسوع. وبما أن كتب المسيحيين تقول إن يسوع كان له تلاميذ عددهم (١٢) فقد ظن المفسرون أن الحديث في القرآن عن الحواريين هو حديثٌ عن أتباع يسوع. ولهذا، جعل المفسرون معنى الحواري يعني التلميذ والتابع المخلص، وقام مؤلفو المعاجم فثبتوا هذا المعنى للحواري، وأصبح يعرف به.

لكن تعالوا نتمعن في قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني اسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين امنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين(١٤) الصف.

الحواريون مجموعة من الناس هم من آمن مع عيسى من بين بني إسرائيل. والحور في اللغة يعني العودة والرجوع من شيء إلى شيء. وعيسى ابن مريم جاء لإعادة وإرجاع بني إسرائيل للتوراة والحق. فعاد ناس وصفوا بالحواريين (العائدون التائبون) وبقي أغلب بني إسرائيل على ضلالهم. ولا يحدد القرآن عدد من رجعوا للحق (الحواريون).

الحواريون يطلبون دليلاً مادياً على وجود الله

إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(١١٢) قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ(١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(١١٤) قَالَ اللّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ(١١٥).

برغم إيمان الحواريين إلا أن بقايا الموروث القديم ما زالت عالقة. فقد طلبوا أن ينزل عليهم مائدة من السماء (من الله) لكي يتأكدوا فعلاً أن الله هو من أرسل عيسى.

وقد نزلت المائدة بالفعل، أو هكذا رأوها. فالله جل وعلا لن ينزل عليهم مائدة من عنده، ولكن عيسى – الذي يتمتع بقدرات خارقة – تمكن – بإذن من الله – أن يريهم مائدة تنزل من أعلى وتحط بينهم بها كل ما طلبوا. ويكون سبحانه هو من أنزلها عندما أذن لعيسى بذلك، ولم ينزلها سبحانه مباشرة. والعيد يعني وليمة، يأكلون منها كلهم: « تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا»، ولا يعني عيد هنا: مناسبة سنوية، لأن المائدة نزلت مرة واحدة فقط. كما أن معنى «أولنا وآخرنا» كلهم في ذلك الزمان، وليس أجيالهم الحاضرة والقادمة.

مشهد افتراضي

وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ(١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(١١٨) قَالَ اللّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(١١٩).

الآية (١١٦) تصور مشهداً لن يحدث فعلياً، ولكن لتقريب الصورة في الذهن. فالله يعلم ما حدث وليس بحاجة للتحقيق مع عيسى يوم القيامة، ولكن الصورة تقدم للناس ليفهموا أن عيسى لا يستطيع أن يقول لهم ما لم يقل به الله، وأن عيسى بريء مما اعتقده الناس حوله بعد موته. والآيات تظهر أن هناك بعض من ظهر بعد عيسى وسمعوا بولادته وما كان يفعل فظنوا أنه لابد أن يكون إلهاً مع الله. وظن غيرهم أنه بما أنه إله فلابد أن أمه إله أيضاً.

ويوم القيامة سيدخل المؤمن الجنة وسيدخل الضال النار.

ختام السورة

(الآية: ١٢٠) والخطاب تقريري

لِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١٢٠).

(٩٧) السورة التي ألحقت بآخر سورة المزمل

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.

هل هذه آية أو سورة قائمة بذاتها؟

لو أنها جزء من سورة المزمل فهذا يعني أنها استثناء وحيد في القرآن. كون القرآن ينزل سورة سورة، فيما عدا المزمل التي نزلت آيتها الأخيرة لوحدها وبعد سنوات من نزول السورة بل وبعد هجرة الرسول للمدينة، وسنرى أن هذا الاحتمال مستبعد.

لأن استكمال الحديث عن موضوع ورد في سورة من السور لا ينزل على شكل آيات تلحق بالسورة، ولكنه يكون جزءً من سورة مستقلة تنزل فيما بعد. وهناك عدد من سور القرآن نزلت لتكمل الحديث عن مواضيع ذكرت في السور التي سبقتها ولم تلحق بها كآيات ولكنها نزلت كسور مستقلة. ومن ذلك سورة الصف التي تكمل وتؤكد الحديث عن المواضيع التي وردت في سورة محمد التي سبقتها في النزول. وكذلك سورة النور التي تكمل الحديث عن المواضيع التي تناولتها سورة الأحزاب التي نزلت قبلها. وبالتالي فما وضع كآخر آية للمزمل هي في الواقع سورة مستقلة.

وسورة المزمل بآياتها الـ (١٩) نزلت في بداية البعثة والعشر آيات الأولى منها ترشد الرسول لاتباع برنامج تأهيلي مُركّز ليكون قادراً على تحمل أعباء الدعوة، فانعزل الرسول في غار حراء لبضعة أشهر يطبق ما أمرت به الآيات العشر من سورة المزمل. وبعد بداية الدعوة بالمزمل واستمرارها استمر الرسول يمارس برنامجه التأهيلي قدر المستطاع. فيسهر للتأمل وذكر الله، لأن الضغوط النفسية التي يواجهها محمد من قريش هائلة، ومهما أوتي عليه الصلاة والسلام من جلد وصبر، فهو جَلَدٌ محدود كبشر. كما استمرت السور تنزل وفيها آيات تعمل على تنشيط برنامج التأهيل على الدوام، وتشد من عضد الرسول وتجدد استعداده النفسي، ومن ذلك:

فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ(٣٩) ق.

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهَّ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ(٥٥) غافر.

فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى(١٣٠) طه.

وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ(٤٨) الطور.

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُمَ اللهُّ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ(١٠٩) يونس.

وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِّ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ(١٢٧) النحل.

وغيرها.

بعد الهجرة وقيام الدولة المسلمة لم يعد هناك ضغوط نفسية على الرسول، وانتفت الحاجة لقيام الليل. وأصبح هناك ضرورات دنيوية فرضتها الظروف الجديدة وذكرتها الآية يجب الانتباه لها، خاصة أن هناك طائفة من المسلمين واظبوا على قيام الليل محاكاة للرسول ولو لم يؤمروا بذلك.

فأصبح قيام الليل إجهاداً لا حاجة له: عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ

وعنتاً للمريض: عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى.

وتعطيلاً للإنتاج: وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللهَّ.

وإرهاقاً للقوة الجسدية التي يحتاجها رجال دولة الإسلام لصد هجوم الأعداء: وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهَّ.

ومن يرد قراءة القرآن يمكنه ذلك في أي وقت فراغ أثناء النهار: فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ.

وما اعتبر آخر آية لسورة المزمل من الواضح أنها نزلت في المدينة، لأنها تذكر القتال في سبيل الله الذي لم يكن له وجود في مكة. وإن كانت نزلت في المدينة فلا يمكن ان تكون جزء من سورة المزمل التي نزلت في بداية البعثة في مكة. وفيما يلي بعض المؤشرات التي تعضد ذلك:

- أن آيات سورة المزمل قصيرة، بينما يصل طول الآية الأخيرة "الملحقة" حوالي ثلث طول السورة كاملة.
- الآية الأخيرة تختلف في إيقاعها عن بقية آيات السورة. حيث تنتهي الآيات بكلمات

على وزن فعيلا، مثل: قليلا، ترتيلا، وكيلا، وبيلا، أما الآية الأخيرة فتختم بـ: غفور رحيم.

ولعل الكتبة الذين نسخوا المصحف زمن عثمان وضعوها تالية لسورة المزمل، ومع الزمن ألحقت بالسورة ظناً أنها منها.

وبما أنها سورة توجيهية نزلت لتعفي الرسول من قيام الليل فقد رجحنا نزولها في هذه الفترة التي هي فترة تشريع وفي نفس الوقت تسبق معركة بدر وما سيليها من معارك، لأن الرسول سيحتاج للنوم والراحة بالليل، ولو لم يأته الإعفاء لما توقف رسول الله من قيام الليل مهما بلغ به الجهد والتعب، لأنه لا يتصرف إلا بما يمليه عليه القرآن في كل أمر له علاقة بالدين.

مرحلة ما قبل بدر / الاستعداد للمعركة

بنزول سورة المائدة السابقة استكملت تشريعات الدين، قبل خوض المسلمين أول معاركهم المتوقعة مع قريش، لأن الأخبار تواردت أن كبراء مكة عازمون على ملاحقة المسلمين إلى مهجرهم في محاولة للقضاء عليهم. ولابد من اكتمال التشريعات والتي بها يكتمل الدين قبل المعركة. لأنه متى وقعت المعركة فقد يقتل فيها الرسول، ولو قتل قبل اكتمال التشريعات فكل ما قدمه هو دعوة للتوحيد، مشابه لما قدمه نوح وشعيب وصالح، وليس ديناً كاملاً يبقى لكل زمان ومكان. وهذا فيه إشارة إلى أن الله جل وعلا لا يتدخل في أمور الدنيا، حتى لو كان بحماية رسوله من القتل أو الأذى حتى يستكمل الدعوة. فالرسول كان عرضة للحوادث والموت في أي لحظة كغيره من البشر.

وبما أن المعركة قد تأخرت بسبب المفاوضات بين قريش وأهل يثرب من غير المسلمين، فقد نزلت أثناء فترة الانتظار سور أخرى بعد سور اكتمال التشريعات الثلاث، كلها تحث على الخروج وعلى الإنفاق لتجهيز الجيش وهي: الماعون، محمد، والصف.

(٩٨) الماعون

تتحدث عن المنافقين، وتقول إن الصلاة والتظاهر بالدين لا يعني أن المرء مسلم، لأن الإسلام يحتاج للإيمان والعمل الصالح والذي في مقدمته الإنفاق. وعدد آياتها (٧) والخطاب فيها تقريري:

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ(٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ(٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ(٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ(٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ(٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ(٧).

والإنفاق كان ضرورة ملحة على تجهيز الجيش عند نزول السورة، وكل من يمتنع عنه فليس بمسلم ولو صلى وقام بالواجبات الدينية الأخرى. والسورة تقول إن الدين ليس فقط طقوس صلاة، ولكنه سلوك وأخلاق وعدل وعبادات وحياة كاملة، لو ترك بعضها فكأنما تركت كلها.

(٩٩) محمد

والسورة تعطي صوراً لما يدور في المجتمع المسلم في المدينة خلال الفترة التي سبقت غزوة بدر.

لا يستوي المؤمن والكافر

(الآيات: ١-٣) والخطاب تقريري.

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ(١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ(٢) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ(٣).

الآيات تؤكد أن مشركي قريش على ضلال واتبعوا الباطل، وأن المسلمين عرفوا الحق واتبعوه.

فرض بعض الضوابط للتقيد بها في المعركة المرتقبة

(الآيات: ٤-٦) والخطاب توجيهي

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ(٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ(٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ(٦).

والآيات السابقة تقول: بما أن جيش قريش يفوق المسلمين عدداً ويتفوق عليهم عتاداً، فيجب على المسلمين قتل أكبر عدد منهم، وعدم أخذ أسرى، لإثخان العدو وإنهاكه.

لأن أخذ الأسرى يعني أنهم سيعاودون قتال المسلمين بعد تحريرهم.

وبعدما يثخن العدو وينهك، يفضل الأسر على القتل. وتفضيل الأسر بعد إنهاك العدو لمصلحة المسلمين، فهم مخيرون بين إطلاق سراح الأسير بلا مقابل، وهذا بحد ذاته يعطي انطباعا إنسانياً حسناً عن أخلاق المسلمين، أو يطلق الأسير مقابل فدية، وهذا فيه كسب مادي لدولة الإسلام وإضعاف لاقتصاد العدو « فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء».

على المسلمين نصرة أنفسهم لينصرهم الله

(الآيات: ٧-١٣) والخطاب توجيهي.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ(٧).

الله جل وعلا قادر على نصر المسلمين وخذلان المشركين بلا حرب، وهو قادر على كل شيء، لكن القوانين التي يسير بها الكون لن تتغير ولن يتدخل الله بين الناس إلا بالتوجيه والهداية. وعلى المسلمين الأخذ بكل أسباب النصر، ولو فعلوا فقد نصروا الله. ولو نصروا الله فسينصرهم الله في الحرب بسواعدهم وخططهم وتجهيزاتهم وأسلحتهم.

وهذا ينفي المفهوم السائد الذي سار عليه المسلمون منذ قرون، وهو اعتمادهم على الدعاء وترك الاهتمام بتطوير سلاحهم وخططهم ونفسياتهم، فتلاعب بهم أعداؤهم وما زالوا. ولو أنهم لم يعتبروا الدعاء عصاً سحرية، ولكن سلاحاً نفسياً يشعر فيه المؤمن بقربه من الله، وسابقوا عدوهم على التطور في صناعة السلاح والاستعداد النفسي والبدني فلن يقهرهم عدو على وجه الأرض لأنهم يملكون الإيمان بالله والاطمئنان على مصيرهم بعد الموت، وهو ما لا يملكه عدوهم: وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ(٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ(٩).

وإذا ما التزم المسلمون بنصرة الله فهزيمة قريش حتمية في نهاية المطاف، تبعاً لسنة الأولين التي مرت على كل الأمم الكافرة المحاربة للحق: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا(١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ(١١) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي

مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ(١٢) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ(١٣).

لأن المسلم يحارب بعقيدة راسخة ولديه هدف سامٍ يحارب من أجله، بينما قريش (وكل معتد كافر) يحارب للتسلط. لذا فكسب الحرب من نصيب المسلمين لا محالة في النهاية ولو خسروا معركة من المعارك مع العدو. بشرط الالتزام بنصرة الله من تسلح وتجهيز واستعداد.

ويجب ملاحظة أن هذه السورة وكل سور القرآن التي تحث المسلمين على الاستعداد لدفع تسلط قريش لم تطلب منهم أن يدعو الله لينصرهم، ولكنها تقول اعملوا وسينصركم الله. فالدعاء لا يغير الواقع على الأرض.

لا يستوي عند الله المؤمن والكافر

(الآيات: ١٤-١٥) والخطاب ترغيبي

أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ(١٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاء حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ(١٥).

صورٌ لفئات المجتمع المسلم في يثرب، قبيل معركة بدر المرتقبة

(الآيات: ١٦-٣٨) والخطاب إخباري

مسلمة يثرب

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ(١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ(١٧) فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاء أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ(١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ(١٩).

وكانوا يظهرون الموافقة على ما يقول الرسول في مجلسه دون اقتناع. لأنهم لم يؤمنوا ولو أظهروا الإسلام، وهم الذين طبع الله على قلوبهم ولن يهتدوا.

وقد أصيبوا بالهلع عندما فرض القتال: وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ(٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ(٢١).

وهؤلاء لن يخرجوا للقتال: فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ(٢٢).

و (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ(٢٣) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا(٢٤).

وبعضهم ارتد

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ(٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ(٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ(٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ(٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ(٢٩) وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ(٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ(٣١).

والآية (٢٧) تعبير مجازي لسوء خاتمتهم وذلتهم، لأن ضربهم على وجوههم وأدبارهم لحظة الوفاة ليست عقاباً رادعاً ولا مؤثراً، والعذاب الذي ينتظرهم يوم القيامة وليس لحظة الوفاة. كما أن استخدام الملائكة للموت وكأن هناك مخلوقات حية لنزع الأنفس من الأجساد هو تعبير مجازي أيضاً، لأن الموت يحدث بطريقة آلية لا يتدخل فيها مخلوقات حية، مثلها مثل كل ما يحدث في النفس والتي تسير بقوانين واليات إلهية ثابتة ولا يسير الكون وما فيه بواسطة مخلوقات تديره.

مسلمة قريش

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ(٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ(٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ(٣٥) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا

وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ(٣٦) إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ(٣٧).

والآية (٣٥) تظهر أن مسلمة قريش كانوا يقترحون عدم الدخول في حرب مع قريش: "فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ". لأنهم يوالونهم ولا يرغبون في رؤيتهم يقتلون أو يتعرضون للهزيمة والذل.

بعض المسلمين تباطأ في الإنفاق، وبعضهم امتنع

هَا أَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ(٣٨).

وكما رأينا منذ نزول سورة البقرة والتي فرض فيها الجهاد وآياتها وآيات سورة النساء بعدها وهذه السورة تحث المسلمين على الاستعداد للخروج وعلى الإنفاق لتسليح الجيش وتجهيزه. ولكن فئات كثيرة من المسلمين امتنعوا عن الإنفاق، وغيرهم ينفق القليل، وأناس ينفقون أسوأ ما لديهم.

وهذه الصور التي كان عليها المسلمون في يثرب لم تكن مشجعة ولا مثالية قبيل أول معركة مصيرية للمسلمين ضد قريش التي تحاول القضاء عليهم وعلى دينهم. ولو هزم المسلمون في تلك المعركة فقد يمحون من الوجود ويزول دين الله، ومع ذلك فقد كانوا يبدون بصور بعيدة عن المثالية. وهي صور مخالفة لما ذكرت كتب التراث التي تصور المسلمين على أنهم هم من كان يلاحق قريشاً ويُغِيْرُ على قوافلها التجارية، وكانوا تواقين للقاء العدو، ويتسابقون للخروج والإنفاق.

(١٠٠) الصف

نزلت في وقت سادت في المدينة ظروف غير مستقرة وقلقة، والتي أظهرتها السورة السابقة. فقد تأكد يقيناً أن الحرب مع قريش قادمة، والمسلمون برغم حث القرآن لهم لم يستعدوا كما يجب. بل إن بعضهم لا يرغب في الخروج، وبعضهم لن يخرج وبعضهم امتنع عن الإنفاق. وهذه سورة تستكمل الحديث عن نفس المواضيع التي أوردتها سورة محمد، ومن ذلك الحديث عن هذه المواقف المتناقضة من الخروج للقتال.

ومما جاء في السورة السابقة أن مسلمة يثرب يعلنون موافقتهم لما يطرح في مجلس الرسول حول المعركة المرتقبة، وإذا خرجوا من عنده بدلوا أقوالهم: وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ(١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ(١٧).

وسورة الصف تبدأ الحديث عنهم:

القول بخلاف الفعل لا يقدم عليه المسلم

(الآيات: ١-٣) والخطاب توجيهي

سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ(٢) كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ(٣).

النصر يكون بالاستبسال والإخلاص وليس بكثرة العدد

(الآية: ٤) والخطاب توجيهي

إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ(٤).

البنيان المرصوص تعبير مجازي لوصف ما يجب أن يكون عليه حال الجيش المسلم، ليس فيه ثغرات ولا ضعف وكأنه قالب واحد. وهذا يتطلب أن يكون المسلمون مؤمنين بقضيتهم ومسلحين ومتدربين كما يجب ولديهم تصور واضح عن عدوهم.

ثم تتجه السورة بالحديث عن بني إسرائيل:

بنو إسرائيل لم يقبلوا دعوة عيسى

(الآيات: ٥-٦) والخطاب إخباري

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(٥) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ(٦).

بنو إسرائيل زاغوا عن الحق وموسى بينهم، ولما جاءهم عيسى لإعادتهم للتوراة كذبوه.

ونتوقف عند ما ذكرته الآية (٦) من أن عيسى بَشّر بني إسرائيل الذين أرسل لهم بمجيء رسول يأتي من بعده اسمه أحمد. وقد حوله المفسرون على أنه محمد رسول الإسلام. ومحمد اسم وأحمد اسم آخر لا علاقة له به سوى بالجذر الذي يشترك فيه معهما أسماء كثيرة مثل محمود وحامد وحماد وحمد وحمدان وحمدي وغيرها. وهذا لا يعني أنها اسم واحد، بل أسماء مختلفة. ومن اسمه حمدان مثلاً فلن يقبل أن ينادى بحامد، مثلما أن من اسمه محمد لا يقبل أن ينادى بأحمد. والرسول عليه الصلاة والسلام اسمه محمد، ولم يكن معاصروه ينادونه بأحمد أبداً، لا في مكة ولا في المدينة، ولا قبل نزول هذه السورة ولا بعد نزولها. ثم إن عيسى لم يبعث لقريش، ولكنه بعث لقومه بني إسرائيل ليعيدهم لحكم التوراة. ومما قاله لهم لكي يصدقوا أنه رسول من الله: إنه سيأتيهم بعده مباشرة رسول آخر وحدد لهم اسمه ليثبت لهم صدقه.

ولا علاقة للرسول محمد ولا لقريش به. لأن قريشاً في مكة منذ أيام إبراهيم، بينما بشرى عيسى كانت موجهة لبني إسرائيل في مصر فرعون، في عصر موسى وعيسى. ولا يمكن أن يبشر عيسى بني إسرائيل بمجيء محمد لقريش، لأن الغاية من بشرى عيسى هي تأكيد صدقه، وأن ما يقوله لبني إسرائيل، هو ما علمه الله.

وكون عيسى علم أنه سيأتي بعده رسول اسمه أحمد، ويستطيع أن يخبر بني إسرائيل بما في بيوتهم، لا يعني أنه يستطيع أن يعلم الغيب، ويتنبأ بمجيء رسول يبعث في مكة بعد زمن طويل جداً. لأنه لا فائدة من أن يعلم ذلك، فكل قدراته فوق العادية تهدف لإثبات أنه رسول من الله لبني إسرائيل في ذلك الوقت لكي يصدقوه ويعودوا لتعاليم التوراة التي تركوها. فمهمة عيسى الوحيدة والسبب الوحيد لإرساله هو إعادة بني إسرائيل لتعاليم التوراة، وليس لقريش علاقة بذلك. مثلما أن إرسال محمد لقريش في عصور لاحقة لا علاقة له ببني إسرائيل زمن عيسى.

وكبشر، فعيسى لا يمكن أن يكون على علم بمجيء محمد، بل لا يمكن أن يكون قد علم بمجيء سليمان وداوود، ولا أي نبي آخر من أنبياء بني إسرائيل بعده، ما عدا أحمد، لأن الله أبلغه بذلك، كبرهان على صدق رسالته لمن عاصره. أما البقية من رسل بني إسرائيل فسيرسلون بعده بزمن طويل، ولا حكمة في إبلاغه عنهم.

وعلى القراء أن يتذكروا أن البيئة التي ولد فيها عيسى وموسى عربية اللسان، واسم أحمد عربي مثل كل أسماء بني إسرائيل كموسى، عيسى، يحيى، زكريا، هارون، إبراهيم، إسماعيل، وإسحاق. أما نطق موشي، عيسو، زكرايا، آرون، أبرهام، إشمائيل، ويتسحك، فهو نطق فيه عجمة اكتسبها بنو إسرائيل في وقت لاحق من تاريخهم، وبعد شتاتهم، عندما اختلطت ألسنتهم بلغات أخرى، فأصبحت عربيتهم خليطاً من مفردات لغات شتى، دون قواعد وضوابط خاصة بها.

ونعود لسورة الصف.

حديث عن قريش

الآيات: (٧-٩) والخطاب إخباري

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ(٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ(٩) الصف.

الحديث عن قريش التي تحاول إلصاق تهم وكلام لم يقله محمد به ونشره بين الناس للصد عن الإسلام، وكان هذا يحدث في مكة وفي المرحلتين الأخيرتين من الدعوة في مكة، وتحدثت عنه سور مكية. والآيات هنا تؤكد أن نور الله (دينه) سيبقى وأن رسول الله أرسل به ليظهر على كل العقائد، مهما كانت صعوبة العقبات. وقيام دولة للمسلمين في يثرب برهان على ظهور الدين برغم محاولات قريش المتنوعة لمنع انتشاره ووأده والقضاء عليه، وبرغم حشود قريش لحرب المسلمين.

مسلمون امتنعوا عن الإنفاق في سبيل الله

(الآيات: ١٠-١٣) والخطاب توجيهي

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ(١٣).

لأن الناس متعلقون بالأمور الدنيوية والماديات، وهذا هو السبب في امتناع البعض عن الإنفاق لتجهيز الجيش، والسورة تنبههم إلى أن هناك ما هو أكثر ربحاً، وهو ربح الآخرة الذي سيدوم وإلى الأبد.

حديث إلى من أسلم من النصارى

الآية: (١٤) والخطاب توجيهي

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ(١٤).

بعض النصارى في يثرب دخلوا الإسلام، والآية تحثهم على أن يقتدوا بآبائهم الأولين الذين آمنوا بعيسى وناصروه، لكي ينعموا بتأييد الله لهم على الدوام.

لقد كانت سورتا محمد والصف آخر ما نزل قبل خروج المسلمين لملاقاة عدوهم قريش في بدر، والسورتان تظهران أن المسلمين لم يكونوا بأحسن حالاتهم، فهناك من لا يرغب في القتال خوف الموت لأنه غير متيقن من الآخرة. وهناك من لا يرغب في قتال قريش الذين يكن لهم المودة ولا يريد أن يرى أحداً منهم قد قتل. وهناك من لا يرغب في الإنفاق على تجهيز الجيش مع قدرته، وهناك فئات أخرى لا ترغب في القتال لأسباب مختلفة.

ولعل من المفيد أن نلخص الحديث عن بني إسرائيل قبل معركة بدر، كما يلي:

لقد كانوا عدة أصناف يعيشون في يثرب عند هجرة رسول الله.

** بعضهم ممن غادر مصر في الشتات الأول، عندما تعرضت لغزو خارجي بعد عصر موسى وعيسى، وهؤلاء هم الأكثرية، ويتكونون من ثلاث قبائل مشهورة هي: بنو النضير، بنو قينقاع، وبنو قريظة. وقد أبقوا على لغتهم الأم «العربية»، كما احتفظ رجال دينهم ببعض نصوص التوراة كما نزلت على موسى بلغتها الأصلية العربية. وإن كان هذا لا يعني أن عقائدهم كانت سليمة، بل دخلها الكثير من البدع، واتبعوا ما اختلقه رجال الدين ونبذوا «كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ». والدليل على احتفاظهم ببعض نصوص التوراة يفهم من سورة المائدة التي سبق ومررنا بها: سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن

جَاؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣).

** وهناك من استقر في يثرب من الموجة الثانية من هجرة وشتات بني إسرائيل بعد تدمير المملكة التي أسسها داوود، وقُضي عليها فيما بعد بسبب غزوة خارجية. وهؤلاء، بعضهم تمسك بعقائد بني إسرائيل الأوائل. قلة على الحق، والباقي استحدثوا في الدين ما ليس فيه. وبعضهم اعتقد بمذهب جديد وتسموا باليهود، وهؤلاء بعضهم يعتقد أن عزير - أحد أنبيائهم - كان ابن لله، والبعض يؤمنون بوحدانية الله ولكن عقائدهم فاسدة.

** وممن استقر في يثرب بعد الموجة الثانية للشتات، من تسموا بالنصارى. قلة منهم من سلالة من آمن بعيسى ابن مريم، لكنهم استحدثوا في الدين ما ليس فيه، مع احتفاظهم ببعض تعاليم الإنجيل. وأغلبهم يعتقدون بأن عيسى ابن لله، وأمه إله ثالث معهما. وبرغم أنهم يؤمنون بالتثليث، فهو يختلف بشكل جذري عن تثليث من يسمون اليوم بالمسيحيين، ذلك أنهم يعتقدون بتثليث مكون من الأب، الابن (يسوع)، والروح القدس.

لأن النصارى لا يعرفون يسوع، وليس في عقيدتهم إله اسمه روح قدس، كما أن المسيحيين لا يعرفون عيسى، وليس في عقيدتهم إله اسمه أم عيسى. ونحن هنا نتحدث عن أصل عقيدة المسيحيين، ولا علاقة لحديثنا بالتطورات اللاحقة، حيث يوجد اليوم كنائس مسيحية تسمى كنيسة العذراء أو مريم أو أم الإله. وهي كنائس مستحدثة، ولا تؤمن بعيسى، ولكن بيسوع.

وكانت كل فرقة من فرق من بني إسرائيل في يثرب لا تتفق مع غيرها: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(١١٣) البقرة.

ومواقف غالبية بني إسرائيل، بأصنافهم المتعددة، الإعراض عن دعوات القرآن المتكررة لهم، وسخريتهم من الإسلام والمسلمين والأذان والصلاة، إلا أنه حتى معركة بدر لم يصدر منهم - يهوداً أو نصارى - في يثرب ما يعتبر تصرفات عدائية، لذا أحل للمسلمين طعامهم

والزواج بنسائهم.

لكن هذا الصفو لن يصمد طويلاً.

وقد توقف دخول بني إسرائيل الإسلام منذ قدم رسول الله مهاجراً إلى المدينة، برغم أن من أسلم منهم في مكة قبل الهجرة كانوا فاتحة خير على الإسلام والمسلمين. فقد دعوا للإسلام في يثرب، وآمن بدعوتهم الكثير من الأوس والخزرج وقلة من قومهم.

فيما عدا النصارى الذين يؤمنون بوحدانية الله: لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ(٨٢) المائدة.

والنصارى الموحدون والذين يؤمنون بالتثليث ومعهم اليهود الموحدون والذين يؤمنون بأن عزيراً ابن الله، كانت أعدادهم قليلة، ولا وجود لهم خارج يثرب في الغالب، لذا مع تطور الأحداث في المدينة فيما بعد، غادر جلهم يثرب مع بني إسرائيل الآخرين، وسرعان ما انتهى وجودهم وذابوا في مجتمعات بني إسرائيل التي استقروا فيها خارج يثرب وخاصة بلاد الشام.

كما انتهى أمر بقية التوراة العربية التي كان رجال بني إسرائيل يحتفظون بها في يثرب، لتحولهم عن لغتهم العربية إلى لغات اليهود وعقائدهم الذين استقروا بينهم فيما بعد جلائهم، والذين كانوا يؤثرون ويسيطرون على عالم ودين بني إسرائيل في العالم.

المرحلة الثالثة : مرحلة ما بعد بدر

مرحلة ما بعد معركة بدر نزلت فيها أربع سور، هي: الأنفال، الحديد، التغابن، والطلاق.
ويمكن تصنيف هذه المرحلة إلى فترتين:
الفترة الأولى تمثلها سورة الأنفال التي تصف لنا بدقة ما حدث في الليلة التي سبقت المعركة وبداية يوم المعركة قبل نشوب القتال وأثناء المعركة وما انتهت إليه والنتائج التي ترتبت عليها.
الفترة الثانية / فترة الاستعداد للمعركة القادمة. ويمثلها سور الحديد، التغابن، والطلاق.

الفترة الأولى: معركة بدر / تمكين الإسلام

(١٠١) سورة الأنفال

نزلت مباشرة بعد الفتح الكبير الذي تحقق للمسلمين بهزيمة مشركي قريش في بدر. وتمثل سجلاً مفصلاً يوثق لتلك المعركة الحاسمة التي تعتبر منعطفاً هاماً في تاريخ دولة المسلمين، وتمكيناً للإسلام. فإن كانت تشريعات الإسلام قد اكتملت بنزول سورة المائدة، فالإسلام قد أصبح حقيقة واقعة بعد معركة بدر.

وكل السورة تتحدث عن تلك الغزوة وما حدث فيها بدقة غفل عنها الكثير من المسلمين باعتمادهم على ما ورد في كتب التراث التي شوهت الحقائق. والسورة في استعراضها لما حدث لا تتقيد بالترتيب الزمني للأحداث، كأن تبدأ بالحديث عن استعداد المسلمين للمعركة ثم بسير المعركة ثم كيف انتهت وما بعد ذلك. لأن السرد القصصي في القرآن يأتي بأساليب فريدة ومختلفة.

وفيما يلي عرض للكيفية التي تناولت فيها السورة الحديث عن المعركة:

- بداية السورة جاءت عن كيفية تقسيم الغنائم، التي غنمها المسلمون من المعركة.
- يلي ذلك الآيات: (٢-٤) والتي تتحدث عن وجوب طاعة الله واتباع أوامره، وكأن لا علاقة لها بالحديث عن بدر.
- والآيتان: (٥-٦) تشير إلى أن هناك بعض المسلمين كرهوا الهجرة من مكة.
- ثم يأتي الحديث عما حدث في بدر في الآيات: (٧-١٤).

ثم تحذر الآيات: (١٥-١٩) من الهرب من المعركة وتحث على الصبر في القتال.

ثم تذكر الآيات: (٢٠-٢٩) أن هناك خلافاً وقع بين فريقين من المسلمين في المعركة.

والآية: (٣٠) تبين بعض مكائد قريش ضد الرسول قبل الهجرة.

والآيات: (٣١-٤٠) تتحدث عن مواقف قريش من الدعوة في مكة ومنعهم المسلمين من الحرم.

والآية: (٤١) تعود لبيان تقسيم الغنائم الذي ذكرته في الآية الأولى.

والآيات: (٤٢-٤٤) تكملة للحديث عما حدث في المعركة والذي ذكر في الآيات: (٧-١٤).

والآية: (٤٥) تقول إن بعض المسلمين حدثته نفسه بالهرب من المعركة.

الآيات: (٤٦-٤٨) تعود للحديث عن الخلاف بين المسلمين والمذكور في الآيات: (٢٠-٢٩).

الآية: (٤٩) تتحدث عن المنافقين.

الآيات: (٥٠-٥٥) ما الذي ينتظر قتلى المشركين من عذاب.

الآيات: (٥٦-٦٣) ذكر لمعاهدات بين المسلمين وقريش.

الآيات: (٦٤-٦٦) تحريض المسلمين على الصبر في القتال، وكأن المعركة لم تنته بعد.

الآيات: (٦٧-٧١) فرض قانون الأسرى في حروب المسلمين.

الآية: (٧٢) تخبرنا أن هناك مسلمين بقوا في مكة ولم يهاجروا، استمراراً لما ذكر في الآيتين: (٥-٦).

وتختم السورة مع الآيات: (٧٣-٧٥) التي تذكر فضائل المهاجرين الأتقياء والأنصار.

والقارئ العادي عندما يقرأ السورة يظن أنها تتحدث عن مواضيع كثيرة من بينها بعض المواضيع عن غزوة بدر، والباقي مواضيع لا علاقة لها بالمعركة. لكن المتدبر للسورة يجد أن كل ما تتحدث عنه آيات الأنفال له علاقة مباشرة أو غير مباشرة ببدر، ولم تتحدث السورة عن أي مواضيع أخرى. فهي بحق سورة غزوة بدر. وكل ما نحتاجه لتبين ما أخبرتنا به السورة هو فهم أسلوب القرآن، ومعرفة كيف يمكن ربط الأحداث بتسلسل زمني. لذا فقد نخرج قليلا عن تسلسل الآيات لتتبع الأحداث.

والبداية مع:

الأنفال وتوزيعها

معركة بدر أول حرب يخوضها المسلمون في تاريخهم، وهي المواجهة الحربية الأولى مع قريش. وقد انتصر فيها المسلمون، وقتلوا عددا كبيراً من كبراء قريش، واسروا عدداً آخر، واستولوا على أسلاب وغنائم كثيرة. وغنائم الحرب لها قيمة عالية عند الناس في ذلك الزمان، لأنها عبارة عن سيوف ودروع وعتاد حربي يعز تواجده بكثرة بين أيدي سكان جزيرة العرب، كونها في الغالب لا تصنع محلياً، بل تأتي من الهند والشام ومن بلاد أخرى غيرها. لذا فهي قليلة وغالية الثمن.

والحروب في الجاهلية لها قوانينها المتعارف عليها في اقتسام الغنائم بين أفراد الجيش المنتصر، وتنص تلك القوانين على أن كل من قتل محارباً من العدو فله سلبه، أي ملابسه وسلاحه ومركبه إن كان راكباً. أما بقية الغنائم التي يتركها العدو خلفه بعد هزيمته فهذه هي الأنفال، وكان زعيم القبيلة هو من يقوم بتوزيعها، حسبما يرى[١].

ولأن بدراً أول حرب يخوضها المسلمون في الإسلام، فقد كان أول اهتماماتهم فيما لو انتصروا على عدوهم، هو كيف سيتم تقسيم الأنفال. أما الأسلاب فستذهب لمن حصل

١ وذكرني «أبو حزم» بقول الشاعر الجاهلي: لك الرباع فينا والصفايا *** وحكمك والنشيطة والفضول (الرباع يعني الربع، والصفايا تعني ما يصطفيه الزعيم مما لا يوجد له مثيل في الغنائم. وحكمك تعني ما يحكم به الزعيم. والنشيطة تعني ما يعثر عليه. والفضول ما فضل من الغنائم بعد القسمة، وكل ما سبق يذهب للزعيم. وهذا البيت من الشعر قاله عبد الله ابن عنمة بن حرثان الضبي ضمن قصدية يرثي بها زعيم القبيلة بسطام ابن قيس. ويذكر في البيت ما كان يمتاز به الزعيم ويتفرد به. وعبد الله ابن عنمة عاش في الجاهلية ودخل الإسلام زمن الفتوح أو قبل معركة القادسية التي كانت أول معركة له في الإسلام. وليس معروفاً متى وأين توفي.

عليها، كما كان متبعاً في الجاهلية. فكان أول ما تحدثت عنه السورة هو توزيع الأنفال: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(١)[١].

والخطاب توجيهي تشريعي.

ومعنى أن تصرف الأنفال لله، أي يصرف منها للنفقات التي تدفعها دولة الإسلام. ومن ذلك تجهيز الجيش وسد حاجات المحتاجين من فقراء ومساكين. ومعنى أن تصرف للرسول أي يؤخذ منها ما يقيم قوته اليومي، لأنه لا دخل له ولا عمل، حيث يقضي كل وقته في الدعوة، ويحتاج للإنفاق على مصروفاته وأهل بيته.

ولأن النفس البشرية ضعيفة فقد يتساءل البعض كيف لنا أن نعرف ما يقسم لدولة المسلمين وما يعطى الرسول؟ أو هل يمكن للرسول أن يأخذ كيفما يشاء من الأنفال دون محاسبة، مثلما يفعل بعض القائمين على الجمعيات الخيرية في بلادنا في هذا العصر؟

فجاءت آية أخرى في السورة توضح هذا الأمر: وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٤١).

والخطاب توجيهي تشريعي.

فالله له خمس الأنفال. أي أن الخمس يخصص لمصروفات دولة الإسلام، وأهمها في تلك الفترة تسليح الجيش وتجهيزه. ولا يذهب لرجل الدين كما يفعل أتباع المذهب الشيعي. والباقي يصرف للرسول والمحتاجين الذين أمر الله أن يعطوا من الإنفاق وهم: المحتاج من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وبنسب متساوية. أي أن الرسول يأخذ ما يأخذه اليتيم أو المسكين لا أكثر.

وصرف الأنفال كما ورد في الآية لن يعجب البعض من القادرين وغير المحتاجين، الذين يرغبون في قسم منها لأنفسهم، متناسين أنهم لديهم مداخيل تمكنهم من الصرف على أنفسهم وأهلهم. ولن يتقبل حكم القرآن في الأنفال إلا من يؤمن بالله حقاً: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(٢) الَّذِينَ

---

١ الخطاب في الآية توجيهي تشريعي، وهو كذلك في الآيات: ٢-٤.

يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣) أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ(٤).

والمؤمنون حقاً ليس فقط رضوا بحكم الله في الأنفال بل وينفقون من أموالهم في كل المجالات التي تحتاجها دولة المسلمين والمجالات التي أمر بها القرآن، ويقيمون الصلاة وكل أوامر الدين. بينما الذين يطالبون بجزء من الأنفال يتباطؤون في الإنفاق، وقد لا يقيمون كل أوامر الدين، وهم مسلمة يثرب الذين تحدثت عنهم سورة الصف ومحمد والنساء والبقرة وغيرها من السور، والذين أعلنوا إسلامهم ولم يؤمنوا.

مسلمة قريش لم يرغبوا في قتال مشركي قريش

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ(٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ(٦).

الآيات تكشف لنا صورة أخرى من مواقف مسلمة قريش زمن رسول الله، الذين والوا مشركي قريش في مكة، وعندما نزلت آيات الهجرة، وبدأ الرسول يحث الناس على الخروج من مكة، هاجروا بخلاف رغبتهم. ولما خرج المسلمون لملاقاة جيش قريش دخل أولئك الناس مع الرسول في نقاش حاد في محاولة لثنيه عن القتال. ونظروا للجهاد على أنه مساوٍ لتنفيذ حكم الإعدام فيهم " كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ" وليس على أنه مرحلة صعبة لكنها ضرورية في سبيل الله وإعلاء كلمة الحق.

هؤلاء الذين كان بينهم وبين المسلمين من المستضعفين والضعفاء مشاحنات مستمرة، تطورت لاقتتال كما ذكرت الآيات: (٩-١٣) من سورة الحجرات، وتسببوا بمشاكل كثيرة ذكرت سور سابقة بعضها وسنأتي على بعضها الآخر في سور قادمة.

وسورة محمد السابقة، والتي نزلت قبيل وقوع معركة بدر، أشارت إلى أنهم لم يرغبوا في حرب قريش الذين يوالونهم، وكانوا يطلبون من الرسول الدخول في مناقشات مع قريش بدل حربهم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ(٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ(٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ(٣٥).

وسورة الأنفال التي بين أيدينا تؤكد عدم رغبتهم في قتال مشركي قريش، وتقول إنهم

ذهبوا لبدر وهم غير راغبين في القتال ويمنون أنفسهم بالحصول على الغنائم دون خوض الحرب: وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ(٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ(٨).

في الطريق إلى المعركة

الخطاب في الآيات (٥-١٩) إخباري.

تشير الآية إلى أن المسلمين وهم متجهون لميدان المعركة كانوا يتضرعون لله أن ينصرهم، وكانوا قلقين، فأنزل الله سكينته عليهم:

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ(٩).

ولم يمد الله المسلمين بمخلوقات حية تقاتل فعلياً معهم، ولكنه كان مدداً معنوياً وسكينة تشعرهم بالراحة وتذهب عنهم القلق ورهبة المعركة، وهو ما تبينه الآية التالية: وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(١٠).

وكان المدد المعنوي مؤثراً بالفعل لدرجة أن عدداً من المسلمين غلبه النعاس وهو ينتظر بدء المعركة، مما يعني أن القلق الذي تملكهم قد ذهب وحل محله حالة نفسية مسترخية تماماً: إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ .... (١١).

كما نزل المطر عليهم في تلك اللحظة، مما زادهم ارتياحاً نفسياً: .... وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ(١١).

ونزول المطر في المناطق الصحراوية يشعر الناس بالحبور والراحة النفسية، بعكس نزوله في المناطق المطيرة حيث يكون مصدر إزعاج.

قبل بدء القتال

لقد حلت الطمأنينة والراحة النفسية في نفوس المسلمين بمعاونة الملائكة: إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ .... (١٢).

وفي مقابل ذلك قامت الملائكة بزرع الرعب والخوف والقلق في نفوس الكافرين: ... سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ .... (١٢).

فأصبح الوضع ملائماً لانتصار المسلمين الذين ما عليهم سوى ضرب أعناق المشركين المنهارة معنوياً: .... فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ(١٢)[1].

كل هذا لأجل أن ينصر الله المؤمنين ويهلك الكافرين على شقاقهم لله ورسوله وحربهم لدينه والمسلمين، وكل من حارب الدين فمصيره الهلاك في الدنيا وعذاب الآخرة يوم القيامة: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(١٣) ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ(١٤).

انقلاب الموازين

في بدر اشتبك المسلمون مع مشركي قريش في أهم معركة في التاريخ. إذ إن نتيجتها تحدد بقاء الإسلام وميلاد أول دولة إسلامية، أو زوال الإسلام من سطح الأرض وإبادة المسلمين.

وفي ذلك اليوم، وخلال وقت قياسي قصير، ألحق جيش المسلمين الضعيف والقليل العدد، بجيش مشركي قريش، القوي في كل شيء، إلا في المعنويات، هزيمة أليمة، لم تتعاف منها قريش أبداً. لقد سحقت كبرياء قريش، التي قدمت ليثرب بصورة السيد الذي سيعاقب عبده (المسلمين) الآبق. وكانت تشعر بأنها ليس فقط تتفوق عدداً وتسلحاً، بل إنها تتفوق نفسياً وبدون مقارنة. لأن كثيراً من المسلمين عبارة عن عبيد سابقين وموالٍ مستضعفين اعتادوا الخنوع وعدم القدرة على الوقوف في وجه السيد (قريش). لذا لم يخطر على بال أكثر المتشائمين من قريش أن تحل الهزيمة بهم على أيدي عبيد الأمس ومستضعفي مكة ويثرب. لكن جرأة أتقياء المسلمين في القتال نتيجة معنوياتهم المرتفعة - والتي لم تتوقعها قريش - أدت لانهيار معنويات المشركين، ولم يفيقوا من الصدمة إلا ومن بقي منهم يهرولون فارين بأرواحهم قبل أن تتخطفها سيوف بلال وعمار وخباب وابن مسعود، تاركين وراءهم عتادهم وركابهم وجثث قتلاهم.

وقد قتل عدد كبير جداً من سادة قريش - بالنسبة لمجموعهم العام - تقول كتب السير والأخبار إنه بلغ سبعين رجلاً من خيرة كبراء مكة. والهزيمة انطوت على أكثر من خسارة

---

١ من تخاريف المفسرين قولهم إن الله قد أمر المسلمين بضرب رقاب وأطراف المشركين. وهو فهم أعوج للآية. لأن القتال عندما يبدأ فهو يعني أن تضرب عنق عدوك أو أي مكان في جسده. والآية تقول بتعبير مجازي إن الظروف النفسية مهيأة للمسلمين للإجهاز على العدو المنهار نفسياً وكأن المشركين قد مدوا أعناقهم لسيوف المسلمين ليضربوها. ولا تعني أنه لولا أن أمر الله المسلمين بضرب الأعناق لما ضربوها.

الرجال والعتاد، فقد أحدثت في نفسيات قريش جرحاً غائراً، لم يندمل مع الأيام. واستمر ينزف تبعات هدت جسد أهل مكة حتى أنهكته، وأجبرت كبراءها على استسلام مهين لمستضعفيها وعبيدها السابقين بعد وقت قصير من هذه المعركة، دخلت بموجبه مكة تحت حكم المسلمين وأهلها صاغرون.

أما المسلمون فقد مثلت بدر مولداً جديداً لدولة المسلمين التي ولدت ضعيفة هزيلة في المدينة بعد الهجرة، وذلك قبل أشهر من هذه المعركة، وها هي تولد من جديد بروح معنوية وثقة عالية لأفرادها الذين خلعوا أردان الذل وتذوقوا للمرة الأولى ثوب العزة والتمكين.

ولم يعد مقبولاً الآن من المسلمين التفكير بالتردد في قتال العدو، أو التراخي عن القتال أو الهرب من المعركة، كما كان حالهم قبل بدر: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ(١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(١٦).

وقتال الكفار لم يأت لأن المسلمين أرادوا ذلك ورغبوا فيه. فقد حدثتنا سور سابقة عن وضع بعض المسلمين قبل بدر وكيف كانوا لا يرغبون في الحرب، لكن الله جل شأنه مهلك الكافرين الذين يحاربون دينه، كسنة مرت على كل الأمم، وهلاك كبراء قريش وقادة الصد عن الدين وحرب أهله، جاء علي أيدي المسلمين. فقتلهم كان لمشيئة الله، وما سيوف المسلمين إلا أداة لتنفيذ هلاك الكبراء. كما أن الزلازل والبراكين أداة لهلاك قوم لوط، والطوفان أداة لهلاك قوم نوح: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١٧) ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ(١٨).

ثم تتوجه الآيات بالخطاب لقريش قائلة: إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ(١٩).

لقد قدمتم ليثرب للقضاء على المسلمين، كفتح ونصر لكم، كنتم تظنون أنه في متناول أيديكم دون عناء. لكن الفتح والنصر تحول للمسلمين. ولم تغن عنكم قوتكم، ولن تغني عنكم مستقبلاً في صراعكم مع المسلمين. والخيار الأفضل لكم هو أن تنتهوا عن حرب المسلمين ومطاردتهم وصد غيركم عن الإسلام. وإن غلبت عليكم شقاوتكم وعدتم

لحرب المسلمين فسيكون ذلك وبالاً عليكم.

لقد انقلبت الموازين بالفعل، بعد المعركة. فأصبح المسلمون في موقف أقوى وأصبحت قريش في موقف أضعف. مع نقص عدد كبراء قريش بشكل ظاهر بسبب من قتل منهم، بينما كان عدد المسلمين يزيد كل يوم، وسرعان ما ستجد قريش نفسها هي الجانب الأضعف عدداً وعتاداً ومعنويات.

ثم تخاطب السورة فئة من المسلمين الذين كان لهم موقف متخاذل من الحرب، وتحدثت عنهم السور السابقة.

مسلمة قريش

الخطاب توجيهي تحذيري في الآيات: (٢٠-٢٩).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ(٢٠) وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ(٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ(٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ(٢٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٢٤) وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢٥) وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(٢٧) وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ(٢٨) يِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(٢٩).

المخاطب هم «مسلمة قريش» الذين لا يستمعون لأوامر الرسول. وتذكرهم الآية (٢٦) ببداية الإسلام في مكة عندما كانوا مع بقية المسلمين قلة مستضعفين خائفين، وتقارن ذلك بحال المسلمين اليوم (بعد بدر)، وما هم عليه من عزة. وكون هذه الفئة توالي مشركي قريش معللين ذلك بصلات القربى وهو غير مقبول عند الله، كما حذرتهم سورة المجادلة: لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ

جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٢٢).

حديثٌ عن قريش

تتجه السورة بالحديث عن قريش التي للتو عذبت عذاباً شديداً ساحقاً ومذلاً على أيدي المسلمين والخطاب إخباري. وتذكر بعض ما فعلته بالمسلمين قبل الهجرة: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ(٣٠).

لقد خططوا لفتنة محمد أو قتله أو على الأقل طرده من مكة.

وعندما كان الرسول يتلو عليهم القرآن، كانوا يسخرون: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَـذَا إِنْ هَـذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ(٣١).

كما كانوا يسخرون من وعيد القرآن لهم بعذاب دنيوي: وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٣٢).

وها هو يحل بهم الآن.

وتقول السورة إنه لم يكن وارداً أن يعذبهم الله وأنت كنت بينهم، ولن يعذبهم لو آمنوا واستغفروا: وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ(٣٣).

فقوله: "وهم يستغفرون" تعني أنهم أسلموا وتابوا من شركهم، وليس كما تأوله الناس من أن المعنى أن الله لم يعذب قريشاً لأنهم كانوا يستغفرون برغم شركهم[1].

لكن عذابهم وارد بعد خروجك من مكة وهجرة المسلمين: وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَاءهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ(٣٤).

والآيتان السابقتان فهمتا وكأنهما تناقض. فالقرآن يقول لن يعذبهم ثم يقول سيعذبهم. وهذا يظهر أن من قال بذلك غريب على أسلوب القرآن، ومن عصر الظلمات والفتن وليس من عصر الرسول.

وتواصل السورة قائلة: وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا

---

١ العبارة تم تعديلها من قبل «أبو حزم».

كُنتُمْ تَكْفُرُونَ(٣٥).

فقريش في أواخر الدعوة في مكة، وكثرة القادمين لمكة لرؤية الرسول، بدأت تصلي عند المسجد صلاة مختلقة لكي تقول للناس إنهم هم من يؤمن بالله ويخدم بيته وأن محمداً هو المبتدع والضال، وذلك لكي تصد الناس الذين كانوا يقدمون لمكة عن سماع الرسول والاتصال به. فمكاء تعني خداعاً، وتصديه من صد الناس، ومن أجل ذلك توعدتهم الآية بالعذاب. وليس كما أولها المفسرون أن مكاءً تعني: صفيراً، وتصديةً تعني: تصفيقاً. ومع أن لي المعنى مضحك وواضح، إلا أننا كالعادة تلقيناه بالقبول كونه جزء من الموروث، ونبذنا كلام الله الواضح وراء ظهورنا.

ما بعد المعركة

بعد نهاية المعركة تتوجه الآيات لقريش بعدد من النصائح والاقتراحات:

- لقد أنفقتم على حرب المسلمين الأموال الطائلة. وكلها ذهبت خسارة وحسرة عليكم، وكل ما قد تنفقون لحرب المسلمين سيذهب خسارة، وستغلبون:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ(٣٦) لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىَ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(٣٧).[١]

- انتهوا عن حرب المسلمين وتعايشوا معهم بسلام ونسيان للماضي: قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينِ(٣٨)[٢].

- إن لم تنته قريش واستمرت في عدائها للمسلمين فيجب على المسلمين قتالهم بكل قسوة، لأنهم سيستمرون يحاربون المسلمين ومصدر خطر على وجودهم. فالقضاء عليهم أمن للمسلمين: وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٣٩) وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ(٤٠).[٣]

---

١ الخطاب تقريري.

٢ الخطاب تحذيري.

٣ الخطاب في الآيتين توجيهي.

قانون توزيع الأنفال

تعود السورة لتفصل كيفية توزع الغنائم (الأنفال) والذي بدأت به السورة وذكرته الآية الأولى مجملاً: وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٤١).[1]

وقد تحدثنا عن ذلك ضمن الحديث عن الآية الأولى.

في ميدان المعركة

(الآيتان: ٤٣-٤٤) والخطاب إخباري.

تورد السورة وصفاً لميدان المعركة قبل نشوب القتال، وأين تواجد جيش المسلمين وجيش الكفار: إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتَّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَـكِن لِّيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ(٤٢).

لقد تمركز المسلمون على تل مرتفع من الأرض (عدوة)، وتمركز العدو على تل آخر مقابل له. لكن جيش المسلمين كان على مرتفع يعلو المكان الذي تمركز فيه المشركون، مما أعطاهم أفضلية استراتيجية هامة لكسب الحرب، لم يخطط لها المسلمون مسبقاً، ولكنها حدثت بالصدفة المباركة. وهو ما يخالف ما ذكرته كتب السير والحديث والتفسير من أن (رسول الله سار ليبادر قريشاً، إلى ماء بدر، فلما جاء أدنى ماء من بدر نزل عليه، فقال الحباب بن المنذر بن الجموح: يا رسول الله، منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتعداه، ولا نقصر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال رسول الله: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة»، قال الحباب: يا رسول الله، ليس بمنزل، ولكن انهض حتى تجعل القلب كلها من وراء ظهرك، ثم غور كل قليب بها إلا قليباً واحداً، ثم احفر عليه حوضاً، فنقاتل القوم ونشرب ولا يشربون، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قد أشرت بالرأي»، ففعل ذلك) انتهى ما ذكره ابن إسحاق في سيرته.

والقصة مختلقة لأنها تخالف الآية السابقة التي تقول إن نزول جيش المسلمين لم يكن نتيجة

---

١ الخطاب تشريعي.

تخطيط لا من الحباب ولا من غيره ولا حتى من الرسول، ولكنها صدفة مباركة فقط.

وعندما التقى الجمعان قبل نشوب المعركة، كان المسلمون بمعنويات مرتفعة، لدرجة كان يتراءى لهم أن جيش العدو أقل مما هو في الحقيقة، كما أن المشركين كان يتراءى لهم أن جيش المسلمين قليلو العدد، كما هم بالفعل. وهو ما شجعهم على أن يقدموا على المعركة ويقتل عدد من كبرائهم، وتحل بهم الهزيمة. ولو تخيلوا جيش المسلمين بعدد كبير، فقد يتراجعون عن القتال قبل نشوبه: وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ(٤٤).

أوضاع المسلمين قبل المعركة

(الآيات: ٤٥-٤٨) والخطاب توجيهي تشريعي.

تحدثنا السورة عن بعض أوضاع المسلمين قبل المعركة، كما يلي:

بعض المسلمين حدّث نفسه بالهرب: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ(٤٥).

وكان هناك خلاف حول الكيفية التي تدار بها العمليات، وتداخلت الآراء ولم يعد الكثير منهم يستمع لتوجيهات الرسول: وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ(٤٦) وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ(٤٧) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٤٨).

وهذه الآيات تحذر المسلمين من تكرار التضارب في الآراء أثناء المعارك، وأنه يجب على كل المحاربين الاستماع والطاعة لأوامر الرسول وتنفيذها. فالمعركة يجب أن تسير بمرئيات قائد واحد، ولو تعددت الآراء وتضاربت الأوامر فسيؤدي ذلك للخسارة وانتصار العدو. وقد وقع ما حذرت منه الآيات هنا، في غزوة أحد القادمة، وتسبب بهزيمة جيش المسلمين، كما سنرى.

رؤيا الرسول

في الليلة السابقة للمعركة، رأى الرسول رؤيا وكأن جيش المسلمين قد اصطف مقابل جيش المشركين في ميدان المعركة. وكان جيش العدو هزيلاً قليل العدد. وكعادة الناس في ذلك الوقت، قص الرسول رؤياه على أصحابه. وكان لها تأثير سحري في رفع معنويات الرسول والمسلمين، إذ قد يكون الناس ظنوا أن رؤيا الرسول ليست كرؤيا أحدهم، ولابد أن جيش قريش قليل بالفعل: إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَـكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٤٣).

ورؤيا الرسول كأي رؤيا لأي شخص، ولا يمكن أن تصور الحقيقة. فقد رأى جيش المشركين أقل عدداً مما هم عليه بالفعل، مما يعني أن الحلم الذي رآه يصور ما يتمناه الرسول وشغل باله قبل المعركة، ولا يصور حقيقة عدد جيش المشركين.

ولابد من التذكير أن المعركة لم تحدث بسبب طمع المسلمين بقافلة قرشية قادمة من الشام، كما رسخت كتب السير والتاريخ التي دونتها قريش. ولكنها حدثت بسبب إصرار قريش على ملاحقة المسلمين، وهو ما بينته سور المرحلتين الأولى والثانية من مراحل الدعوة في المدينة، التي تحث المسلمين على الاستعداد للمعركة التي كانت مرتقبة قبل شهور، لأن الأخبار تواترت بأن مشركي مكة عازمون على ملاحقة المسلمين. وسبق أشرنا أن قريشاً لا تستطيع مهاجمة المسلمين في المدينة، لأنهم يعيشون ضمن أراضي يثرب. وأهل يثرب (أهل الكتاب) لن يسمحوا لجيش قريش أن يطأ أرضهم، حتى ولو لقتال المسلمين الذين لا يرغبون بهم. ولابد أن مفاوضات طويلة بين قريش وأهل يثرب حول ما يمكن فعله، انتهت بإقناع الطرفين (المسلمون وقريش) بالاقتتال بعيداً عن يثرب. ولما تأكد خروج جيش قريش من مكة متجهاً للمدينة مع الطريق المعروفة التي تربط بين القريتين، قرر المسلمون ملاقاتهم. وبالفعل التقى الجيشان بالقرب من آبار بدر التي يستقي منها عابرو الطريق الدولية، وهناك دارت المعركة. ولم تكن خيول وجمال قريش تحمل المؤن، كما تزعم كتب التراث، ولكن السيوف والدروع.

ورفض أهل يثرب السماح لجيش قريش دخول يثرب والمفاوضات التي دارت بينهم وبين قريش تفسر سبب تأخر قدوم جيش قريش لحرب المسلمين لعدة أشهر، في وقت لا

يحتاجون فيه سوى بضعة أيام للوصول إلى يثرب من مكة.

ردة فعل المنافقين بعد بدر

إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـؤُلاء دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَإِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٤٩)[١].

لقد كان المنافقون يراهنون على نهاية الإسلام وسحق المسلمين في بدر، بناءً على معطيات الواقع. فقريش أكثر عدداً، وتملك المال الوفير لتجهيز جيشها بأفضل العتاد الحربي المتاح. بينما المسلمون أقل عدداً ولا يملكون المال الكافي لتجهيز جيشهم بتجهيزات موازية لتجهيزات قريش. لكن نتيجة المعركة أصابتهم بخيبة أمل، فقد انتصر المسلمون واندحرت قريش، بعكس كل التوقعات والمؤشرات. فعاد المنافقون للمدينة وهم غير مصدقين، وكانوا يتناجون فيما بينهم أن ما حدث هو مجرد صدفة، وأن المسلمين مقضي عليهم لا محالة، فلا يغرنهم انتصارهم غير المتوقع في بدر.

عود لمخاطبة قريش

وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ(٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ(٥١) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٥٢) ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٥٣) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَونَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَالِمِينَ(٥٤) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(٥٥).

ضرب الكفار في وجوههم وأدبارهم مجاز يقصد به الخزي.

وهزيمة قريش خزي آخر، وسيستمر خزيهم بسبب ما قدمت أيديهم ورفضهم لدعوة الحق وحربهم للإسلام والمسلمين. فكل من يحارب الإسلام يخسر، وما يحدث لهم مماثل لما حدث لفرعون ولغيره. ولو لم يحارب فرعون والأمم السابقة الدين لبقوا في متعهم الدنيوية، ولما أصابهم ما أصابهم. لأن الله جل وعلا سيترك الكافر المسالم يعيش ويتمتع في الدنيا.

١ (الخطاب إخباري في الآيات: ٤٩-٥٥).

استراتيجية المستقبل

(الآيات: ٥٦-٦٣) والخطاب توجيهي.

من يخون معاهدة مع المسلمين يجب القضاء عليه

وقريش خانت معاهدة لها مع المسلمين بعدم الاعتداء وقدمت لحربهم، كما تبين الآية التالية:
الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ(٥٦).

وهؤلاء لا عهد لهم عند المسلمين، ومتى لقيهم المسلمون في قتال وهزموا فعلى المسلمين ملاحقتهم وقتل أكبر عدد منهم لأنهم سيبقون خطراً على الإسلام:
فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ(٥٧).

والسورة تأمر الرسول بالاتصال بكل من تبدر منه بوادر بخيانة المعاهدات مع المسلمين

وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ(٥٨) وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ(٥٩).

وتذكيره بالعواقب الوخيمة المترتبة على ذلك، وأنها ستعني الحرب بلا هوادة.

في ذات الوقت على المسلمين أن يكونوا بكامل جاهزيتهم للحرب، وأن يكون جيشهم كامل التسليح، والاستعداد في حال خان العدو المعاهدة:
وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ(٦٠).

فإن أبقت قريش على معاهدة السلام فعلى المسلمين احترامها وعدم التعرض للمشركين:
وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنه هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٦١).

وإن تبين أنهم يريدون خداع المسلمين فليحذر المسلمون وليكونوا على أهبة الاستعداد دائماً، وليتذكروا أنه بسبب الدخول في الإسلام فقد ائتلفت قلوب فئتين من المسلمين كان بينهما عداء تاريخي، وأصبحوا يشعرون فيما بينهم بروح الأخوة في الإسلام: وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ(٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٦٣).

وتشير السورة إلى أنه كان هناك عدة معاهدات سلام بين المسلمين وقريش، وكانت قريش تنقض المعاهدات باستمرار. وبسبب عدم احترام قريش لتلك المعاهدات، حدثت معركة بدر، التي لم تكن لحرب قريش بسبب بقائهم على الكفر. وبعد المعركة يبدو أن هناك معاهدة سلام جديدة أبرمت بين الرسول وقريش، وقد أمرت الآيات الرسول أن يتصل بقريش ويحذرهم من التفكير بنقض تلك المعاهدة، لأن نقضها يعني إعلان الحرب بين قريش والمسلمين.

وعلى المسلمين إعداد العدة للحرب بكل الوسائل، من عتاد ومدد وسلاح ونفقة، وإذا ما وجب القتال فعليهم أن يتعاملوا مع العدو في ميدان المعركة بكل قسوة وغلظة لكي يرهب الدخول معهم في حرب مستقبلاً. وفي ذلك حقن للدماء، فالمسلمين لا يبحثون عن القتال، ولكنه فرض عليهم واجبروا على الدخول فيه. وإذا كان لابد من القتال فليكن عنيفا لدرجة سحق الخصم وإضعاف قوته، لئلا يعاود الحرب مرة أخرى.

وإذا أعلن العدو رغبته في السلم، فيجب على المسلمين القبول مع الحذر والحيطة، لأن قريشاً نقضت المعاهدات عدة مرات في السابق، ومع ذلك فدولة المسلمين تقبل السلم لأنها لا تبحث عن الحرب. وتوقيع معاهدة سلام مع قريش لا يعني أن يهمل شأن الجيش، بل يجب أن يكون هناك تسليح واستعداد كامل، طوال الوقت.

المسلمون الأتقياء هم عماد الجيش الإسلامي

(الآيات: ٦٤-٦٦) والخطاب توجيهي.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ(٦٥) الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ(٦٦).

السورة تحث الرسول على أن يعتمد على الأتقياء من المسلمين في حربهم ضد العدو، ولو كانوا قلة، لأن غيرهم مثبطون ولو كثروا. ولو تعرضوا لهجوم أو أجبروا على دخول قتال في أي وقت فعليهم الإقدام، دون اعتبار لكثرة العدو أو تفوقه عتاداً. لأن هذه العوامل لا يجب اعتبارها مبرراً لطلب الصلح مع عدو مهاجم أو التراجع عن القتال، مع جواز تأجيل

الحرب، حتى تكتمل استعدادات المسلمين وعددهم.

والآيات تقول إنه حتى لو كان العدو عشرة أضعاف جيش المسلمين فهذا ليس سبباً لعدم دخول المسلمين القتال. فما بالك أن الله لا يطالب المسلمين بهذا ولكن بأن يقدموا على القتال متى كان العدو يفوقهم عدداً ولو وصلت النسبة إلى الضعف. وليس في الآيات ناسخ ومنسوخ كما يزعم الذين يريدون أن يتلاعبوا بكلام الله، ولكنه أسلوب القرآن المميز فقط.

مسلمة قريش يخالفون أمر الله

في سورة محمد التي سبقت معركة بدر، فرض قانون حربي ينص على وجوب قتل أكبر عدد ممكن من المشركين، لأن قريشاً أكثر عدداً من المسلمين، وقتل أكبر عدد منهم إضعاف وإثخان لهم. ولا يؤسر منهم أحد إلا في معركة يكون المسلمون فيها متفوقين عدداً وعتاداً: فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ(٤) محمد.

هذا القانون الإلهي عمل بعض المسلمين على مخالفته في معركة بدر، وهو ما أخبرتنا به الآيات التي أجلنا الحديث عنها من سورة الأنفال وجاءت على شكل خطاب توجيهي، وهي: مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٦٧) لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٦٨) فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٦٩) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٧٠) وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٧١) الأنفال.

والذين أقدموا على مخالفة قانون سورة محمد، وأسروا مشركي قريش ولم يقتلوهم، هم من أسميناهم مسلمة قريش، الذين بدأوا موالاة مشركي قريش قبل الهجرة، والذين كرهوا الدخول في حرب مع قريش بعد الهجرة، والذين حاولوا إقناع الرسول بالدخول في محادثات مع قريش بدل الحرب، مع أن قريشاً هي من طردت المسلمين في مكة، وهي من

لاحقتهم بعد هجرتهم.

والآيات تذكر بقانون سورة محمد «مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ». وتبين سبب إقدام مسلمة قريش على أسر أقاربهم، لأنهم يوالونهم ولا يريدون قتلهم «تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ». ولم يقع بهم عذاب من الله لأن الله سبحانه يؤخرهم ليوم القيامة «لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

ومسلمة قريش تابعوا مخالفاتهم للوحي، كما فعل بنو إسرائيل زمن موسى قبلهم. الذين طالبوا موسى باتخاذ أصنام، ثم اتخذوا العجل، ثم امتنعوا عن دخول القرية المقدسة...الخ وقد قال الله فيهم: أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(٧٥) البقرة.

وهو ما ينطبق على مسلمة قريش، الذين ستستمر مخالفاتهم للوحي وسيتسببون بمشاكل للمسلمين ودولته طوال عصر الرسول وبعد موته، ولن يحسن إسلامهم ولن يؤمنوا.

ولو عدنا إلى الآيات: (١٤١-١٤٣) من سورة النساء لوجدنا أنها تقول إن مسلمة قريش قد يصدر منهم أي شيء لمؤازرة قريش وحمايتها:

الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللّهِ قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً(١٤١) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً(١٤٢) مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلاء وَلاَ إِلَى هَـؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً(١٤٣).

مسلمون في مكة لم يهاجروا

الخطاب توجيهي.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٧٢).

والآية تقول: إن موالاة المسلمين المهاجرين والمجاهدين تكون لإخوانهم ممن آواهم ونصرهم (الأنصار: أهل يثرب الأتقياء). أما من بقي في مكة من المسلمين وهو قادر على الخروج فليس له حقوق على دولة الإسلام.

وكل من يعيش من المسلمين في دولة معادية مختاراً فليس له حقوق على دولة الإسلام.

لكن لو استنصر المسلم الذي يعيش في دولة معادية، دولة الإسلام، فعلى المسلمين نصرته.

- نصرة من يعيش في دولة معادية من المسلمين، يكون بمعاونته على الهجرة لدولة المسلمين أو الهجرة إلى دولة صديقة يستطيع فيها ممارسة شعائر دينه بحرية. فإن منعته الدولة غير المسلمة من مغادرة أراضيها وجب على دولة المسلمين إخراجه بالقوة، ولو أدى ذلك لإعلان الحرب على تلك الدولة.
- الفرد المسلم يوازي الكل، وعدم نصرة مسلم واحد مثل عدم نصرة الكل، وفيه فتنة له عن دينه، والفتنة عن الدين فساد عظيم أمام الله: وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ(٧٣).
- تعقد معاهدات مع الدول الصديقة تكفل حرية العبادة وممارسة الشعائر للمسلمين بكل حرية.

المسلمون الأتقياء

تثني السورة على من هاجر وجاهد، وعلى من أسلم من يثرب وآوى المهاجرين وناصرهم: وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ(٧٤).

هؤلاء هم المسلمون الأتقياء.

قبول من يرغب في الهجرة

السورة تحث مسلمي مكة على الهجرة، وتطلب من المسلمين قبولهم والترحيب بهم: وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٧٥).

الفترة الثانية / فترة الاستعداد للمعركة القادمة

ويمثلها سور الحديد، التغابن، والطلاق. وهي سور تحث المسلمين على الإنفاق لتجهيز الجيش استعداداً للمعركة القادمة مع قريش المستمرة في حرب المسلمين.

(١٠٢) الحديد

كل ما تتحدث عنه هو الحث على الإنفاق لتسليح الجيش لمعركة المسلمين القادمة مع قريش، وهذا يشير إلى أن قريشاً سارعت بتجميع جيشها والاستعداد لغزو المسلمين مرة أخرى، حال وصول جيشها المنهزم إلى مكة. وتظهر السورة امتناعاً ظاهراً عن الإنفاق بين المسلمين، أحد أسبابه إصابة المدينة بالقحط لاحتباس المطر.

افتتاح السورة بتسبيح الله وبيان قدرته فيما يَظهر من خلقه

الآيات: (١-٦) والخطاب تقريري. أما بقية آيات السورة فالخطاب فيها توجيهي للمسلمين.

سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(١) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ(٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٦).

ثم يأتي الحديث عن الموضوع الرئيسي للسورة وهو الحث على الإنفاق، الذي لم يستجب له المسلمون كما يجب.

المال مال الله والإنسان مؤتمن عليه ليصرفه بحقه

آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ(٧)

المال الذي بين يدي الناس هو أمانة استخلفهم الله عليها ليرعوها حق رعايتها وينفقوها

بما يجب أن تنفق فيه، وأفضل إنفاق في تلك لفترة، هو ما يكون في سبيل الله، لأن الأجواء أجواء حرب، وبدون الموارد المالية لا يمكن تجهيز وتسليح الجيش.

ومن لديه المال فليس مالكاً له ينفقه كيفما يشاء، ولكن المال لله (لكل الناس) وهو مؤتمن عليه فقط يأخذ منه بحق وينفقه بحق، ومن يخالف ذلك فهو سفيه يجب الحجر عليه. وهو ما أكدته سور سابقة منها: وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً(٥) النساء.

الإسلام يعني توقيع ميثاق مع الله

وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ(٩).

الآيات تخاطب المسلمين زمن الرسول: تعلمون أن دخولكم الإسلام يعني توقيع ميثاق وعهد مع الله، يتمثل بطاعة كل أوامره والانتهاء عن كل ما نهى عنه، فكيف تريدون أن تكونوا من المؤمنين وأنتم لا تطيعون أمر الله وتنفقون؟

وبدون الموارد المالية لا يمكن تجهيز وتسليح الجيش.

وحث المسلمين على الإنفاق والاستعداد للقتال يشير إلى أن قريشاً قد عقدت العزم على مواصلة حرب المسلمين، وأنها تعد العدة للثأر من هزيمة بدر. فوجب على المسلمين تكثيف الاستعداد للمعركة القادمة. لكن كل هذه النداءات القرآنية، لم تغير الواقع الذي كان عليه بعض من أعلن إسلامه.

تباين مواقف المسلمين من الإنفاق

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(١٠).

إن كنتم مسلمين ما الذي يمنعكم عن الإنفاق؟

والآية تظهر أن المسلمين كانوا منقسمين حيال قتال العدو والإنفاق على الحرب، إلى عدة

فرق:

- أناس أنفقوا قبل الفتح (غزوة بدر) وقاتلوا، وسينفقون ويقاتلون على الدوام، وهؤلاء هم المتقون حقاً.
- أناس لم ينفقوا مع قدرتهم على الإنفاق، واشتركوا في القتال في بدر.
- أناس لم ينفقوا يوم بدر ولم يقاتلوا.
- أناس أنفقوا بعد بدر ومستعدون للقتال والإنفاق مستقبلاً، وهؤلاء عسى الله أن يتوب عليهم.

الإنفاق قرض لله سيسدده سبحانه بفوائد للمقرض

مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَّ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ(١١) يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(١٢).

ومن ينتظر فوائد الله يوم القيامة لا يقبل فوائد الدنيا، ولكنه ينفق دون انتظار حتى ولو استرجاع رأس ماله.

ونحن نعرف أن بعض من امتنع عن الإنفاق كانوا من مسلمة قريش الذين يوالون أقاربهم المشركين واستمروا يقيمون علاقات ودية معهم، وحرصوا على أسرهم يوم بدر، حفاظاً عليهم من القتل. كما امتنع عن الإنفاق بعض من أعلن إسلامه من يثرب، لكنه لم يؤمن، وهؤلاء إما من الأعراب حول يثرب أو من المنافقين من داخلها (مسلمة يثرب)، وهم المعنيون في قوله تعالى: يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظرونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ(١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللهَّ وَغَرَّكُم بِاللهَّ الْغَرُورُ(١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(١٥).

فالمنافقون في المدينة كانوا ينتسبون للإسلام ويقومون بالفرائض لكنهم لا ينفقون. لأنهم لم يؤمنوا بالفعل بحقيقة الدين، وكانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر « وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ

وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ». وقد سبق وذكرت تربصهم بالمسلمين الآيات: (١٤١-١٤٣) من سورة النساء.

تكرار تحذير المسلمين من الامتناع عن الإنفاق حتى لا يشابه إيمانهم إيمان أهل الكتاب

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ(١٦).

هكذا كان الوضع بوجه عام في الفترة التي تلت معركة بدر وقبل معركة أحد. وقد تزامن هذا مع:

احتباس للمطر، والقحط يصيب المدينة

اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(١٧).

الآية تشير إلى أن المطر قد شح في شتاء وربيع ذلك العام، وأصيبت البلاد بالقحط. ويثرب كمعظم مناطق شبه الجزيرة العربية تنزل فيها الأمطار القليلة غير المنتظمة في الشتاء والربيع، مما يؤدي إلى نمو الأعشاب. ونمو الأعشاب والحشائش يعني أعلافاً للماشية، وكلأ يؤدي إلى وفرة الحليب، الذي يمكن بيعه، ومن الحليب يصنع الكثير من المنتجات التي تعتبر مصدر دخل، وإذا ما توفر الحليب كثرت الولادات وقلت الوفيات بين الماشية.

ولأن الأمطار ليست منتظمة، فقد تشح في بعض السنوات مما يؤدي إلى عدم نمو الحشائش التي تقتات عليها الماشية وبالتالي تصاب بالهزال ويقل إنتاج الحليب وتموت صغارها، ويتضرر أصحابها. وهذا ما حدث في الفترة التي تلت غزوة بدر. مما أدى ببعض أصحاب المواشي من مسلمي يثرب أن يتباطؤوا في الإنفاق.

والآية تقول: إن احتبس المطر هذا العام فقد يأتي في عام قادم، وتحيا الأرض بعد موتها، والخسارة المادية لهذا العام قد تعوض في عام قادم، لكن الامتناع عن الإنفاق ذنب لا يغفره إنفاق العام القادم لأنه مطلوب لسد الحاجات متى وجدت.

وتواصل السورة لتقول:

الإنفاق تجارة رابحة مع الله مضمونة لأنها لا تتأثر بالمطر وليس لها موسم

إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ(١٨)

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ(١٩).

فمن يؤمن بالله وبوعده فلن يحجم عن الإنفاق مع أحلك الظروف وأقساها.

الدنيا زائلة فلا تؤخركم عن الإنفاق

وإذا كنتم تباطأتم عن الإنفاق خوف الفاقة، فتذكروا أن الدنيا كلها سرعان ما تزول، مثلما زالت حشائش الأعوام السابقة التي نمت بفعل المطر، فكيف تحرصون على الزائل، بينما لو أنفقتم فسيكتب لكم أجر ومكسب دائم:

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ(٢٠) سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(٢١).

ومن الواضح أن المسلمين خسروا محاصيلهم نتيجة القحط، وهي مصيبة حلت بهم بالمقاييس الدنيوية. لكن عليهم أن يتذكروا أن احتباس المطر وهطوله نتيجة لقوانين وضعها الله في الكون. أي أن المطر يتوقف بإذن الله (أي لعدم توفر الظروف المناسبة لهطوله) وينزل بإذن الله (أي بتوفر الظروف المناسبة لهطوله).

فإذا عرف المسلم ذلك هانت عليه مصيبة فقدان المحصول واحتسب عند الله ولم يتوقف عن الإنفاق. بل أنفق لكي يزرع له محاصيل ثابتة يوم القيامة.

وإذا ما عرف المؤمن أن كل مباهج الدنيا (الأموال والأولاد) كزرع سرعان ما يصفر وتذروه الرياح، فلن يتباهى بما يملك ولن يكون زيادة ماله مدعاة للفخر، ولا نقصه مدعاة للحسرة: مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ(٢٣) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ(٢٤).

والدولة في حالة حرب مع العدو الذي قد يهاجمها في أي لحظة، ويجب أن يكون المسلمون مستعدين له. ولا يمكن للمسلمين مواجهة العدو بدون جيش جاهز التسليح، ولا يمكن تجهيز الجيش بدون إنفاق، لأن الإنفاق يؤمن المال اللازم لشراء السلاح من سيوف ودروع ورماح.

وقوله: « مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا» ليس دليلاً على ما يعرف بالقضاء والقدر بمفهومه الشائع. فالمصيبة في الآية هي خسارة المحاصيل والأنعام وقد حدثت لأن الله قد قررها (في كتاب من قبل أن نبرأها) أي وضع القوانين التي تتسبب بهذه المصيبة منذ خلق الأرض وقبل خلق الإنسان والمتمثلة بضرورة توفر عوامل مناخية معينة لكي ينزل المطر، وإذا لم تتوفر فلن يهطل[1].

والله جل جلاله أرسل الرسل بالحق لإقامة حياة كريمة للناس، كما أنزل الحديد الذي يصنع منه السلاح وأدوات كثيرة يستخدمها الناس في الحرب والسلم: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ(٢٥).

التكافل بين المسلمين كفيل بسد حاجاتهم دون عون من أعدائهم

في تلك الظروف الحرجة كان أهل الكتاب يحاولون نشر دعاية بين المسلمين أن الإنفاق يؤدي لضياع المال بلا مقابل، وأن مسلمي يثرب لولا ما يتلقونه من أجور نظير عملهم لديهم لأصابتهم الفاقة. فجاء رد القرآن بأن التكافل بين المسلمين كفيل بغنى المسلمين في الدنيا دون الحاجة لأجر أهل الكتاب أو عونهم:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٢٨) لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(٢٩).

وقوله: «لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدروا على شيء» ليست للنفي، ولكن الآية تقول: لكي يعرف أهل الكتاب ألا يقدروا على شيء.

والتكافل بين المسلمين كفيل بتوفير احتياجات المسلمين دون عون من غيرهم.

---

١ انظر فقرة: القضاء والقدر/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

وهذا ما يجب أن يعيه المسلمون اليوم الذين يتسابق حكامهم للارتماء في أحضان أعدائهم لاعتقادهم أن قوتهم لا تقهر وأنهم لو اعتمدوا على جهودهم فيما بينهم فلن يكون لهم القدرة على مواجهة أولئك الأعداء، ولا القدرة على العيش خارج فلكهم. وهذا ناتج لخواء أولئك الحكام دينياً. ولو كانوا مؤمنين لآمنوا بقدراتهم واعتمدوا التكافل فيما بينهم وبناء قواتهم بسواعدهم. وهذا يكون بنشر ثقافة قوانين الإنفاق الإسلامي. والإيمان بما ورد في هذه الآيات وفي قوله تعالى: مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (٢٩) الحج.

(١٠٣) التغابن

سورة تُكرر الحديث عما سبق وتطرقت له سورة الحديد، وهو الحث على الإنفاق الذي أحجم عنه كثير من المسلمين، ومحاولة التخفيف عن الناس مما أصابهم من قحط والذي لا يجب أن يتخذ كذريعة للامتناع عن الإنفاق.

افتتاحية السورة

يُسَبِّحُ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ(٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٤).

افتتاح مشابه لافتتاح سورة الحديد السابقة في (الآيات:١-٦).

قريش تسير على سنة من سبقها من أمم

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللهُ وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ(٦) زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ(٧) فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(١٠).

الآيات تحذر قريشاً بأنهم سيلقون الجزاء نفسه الذي لقيته الأمم الكافرة قبلهم إن لم يعتبروا، ولو آمنوا فلهم الجنة.

استمرارٌ للحديث عن القحط الذي بدأت الحديث عنه سورة الحديد السابقة

مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهَّ وَمَن يُؤْمِن بِاللهَّ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهَّ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١١) وَأَطِيعُوا اللهَّ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ(١٢) اللهَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللهَّ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(١٣).

الآيات تكرر الحديث عن امتناع بعض المسلمين عن الإنفاق بسبب شح المطر ونقص الموارد. وتقول إن ما أصابهم بأمر من الله، لأن المطر ينزل بناءً على تضافر ظروف مناخية ملائمة، قد لا تتوفر في مناخ الصحراء في بعض السنوات، كما حدث في يثرب تلك السنة، وتسبب بضيق العيش. لكن هذا يجب ألا يثني الناس عن الإنفاق، لأن دولة المسلمين تعتمد عليه في بقائها وفي تسليح جيشها.

إحجام البعض عن الإنفاق يعود لاحتجاج أبنائهم وأزواجهم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهَّ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ(١٥) فَاتَّقُوا اللهَّ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْراً لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(١٦) إِن تُقْرِضُوا اللهَّ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهَّ شَكُورٌ حَلِيمٌ(١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(١٨).

فالزوجات والأولاد يرون أن ميزانيتهم مجهدة من شح الموارد لتلك السنة، ولو أنفقوا فسيكون وضعهم المادي أصعب. وهو ما يؤثر في مشاعر الرجل، فيحجم عن الإنفاق لئلا يوصل عائلته للعوز والفاقة.

وهذه الحديث سبق وذكر في الآيات (١٦-٢٤) من سورة الحديد.

حيث تخاطب سورة الحديد المؤمنين متسائلة عن عدم استجابتهم لدعوة الوحي لهم (بالإنفاق)، وتحذرهم من أن يشابهوا اليهود (في عدم الإنفاق): أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ

قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ(١٦).

وتؤكد لهم أن المطر يأتي بمشيئة الله: اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(١٧).

وأن الإنفاق قرض حسن يضاعفه الله في الآخرة: إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ(١٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ(١٩).

وأن التفاخر بالأموال والأولاد من العبث، لأنه سريع الزوال: اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ(٢٠).

ولن يبق في الآخرة إلا ما يقدمه المرء من إنفاق: سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(٢١).

وما يؤكد أن المصيبة التي أصابت المسلمين والمذكورة في الآية (١١) من سورة التغابن كانت في المنتجات الزراعية بسبب شح المطر، هو قوله تعالى في سورة الحديد السابقة: مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ(٢٣) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ(٢٤).

فالمؤمن لا يأسى على ما فاته (من محصول)، ولا يفرح بما يحصل عليه من مال عند توفر الغيث. ولا يتفاخر بالدنيا ولا يصيبه منها الكبر والخيلاء. فإن فقدها صبر، وإن حصل عليها أنفق منها في سبيل الله.

ونعود لآيات سورة التغابن التي تتحدث عن نفس الموضوع، قائلة: مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١١).

فالمؤمن يجب ألا يحزن لخسارة المحصول، أو أي خسارة دنيوية أخرى.

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ(١٢) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(١٣).

ولا يمنعكم توفير مطالب الأزواج والأولاد عن طاعة الله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ(١٥).

ويجب ألا يكون الشح في الموارد سبباً في عصيان أمر الله والرسول بالامتناع عن الإنفاق.

وتواصل الآيات: فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْراً لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(١٦) إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ(١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(١٨).

آمرة المسلمين بالإنفاق والسمع والطاعة لأمر الله ورسوله. ففي الإنفاق كل الخير «وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْراً لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

مع تكرار التأكيد على أن الإنفاق قرض حسن يضاعف الله لصاحبه الأجر يوم القيامة في حياة أبدية لا تنتهي كالدنيا.

والآية (١٤) تؤكد أن الأزواج والأولاد إذا كانوا يحرضونكم على عدم الإنفاق، بطريق مباشر أو غير مباشر، فهم أعداء لكم وليسوا ناصحين، لأن عدم الإنفاق يؤدي للنار. فلا تطيعوهم وفي نفس الوقت لا تعاقبوهم أو تغضبوا عليهم بل اعفوا واصفحوا وتفهموا مشاعرهم لتخوفهم من العوز.

أما الآية (١٥) فتؤكد أن التعلق بالأولاد وتلبية مطالبهم، وصعوبة التفريط بالمال من طباع البشر التي يجب أن يُعَوِّدَ المسلم نفسه على ألا تفتنه وتمنعه من الإنفاق: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ(١٥).

(١٠٤) الطلاق

هي آخر سورة قبل معركة أحد، والموضوع الرئيسي الذي تتحدث عنه السورة هو الطلاق كما هو اسمها. ولابد أن هناك من احتاج لتوضيح أكثر مما ورد في الآيات: (٢٢٨-٢٣٢) من سورة البقرة عن الطلاق، نزلت هذه السورة لتبين الغموض وتعطي بعض الإضافات.

تفاصيل حول الطلاق وعدة المطلقة

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً(١) فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً(٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً(٣) وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً(٤) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً(٥) أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى(٦) لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً(٧).

والحديث بالتفصيل عن الطلاق والعدة منشور في موضوع بعنون: الطلاق بين القرآن وكتب التراث / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

تحذير المسلمين من عصيان أمر الله والرسول

والآيات الأخيرة في السورة تحذر المسلمين من عصيان كلام الله، حتى لا يشابهوا الكفار، ويكون مأواهم النار مثلهم: وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكْراً(٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً(٩) أَعَدَّ اللَّهُ

لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً(١٠) رَّسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً(١١) اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً(١٢).

المرحلة الرابعة: مرحلة ما بعد أحد

في الفترة بين معركة أحد وموقعة الأحزاب نزل ثلاث سور، هي: آل عمران، البينة، والتحريم. وهي فترة تلت الخسارة في أحد، التي لم تفت من عضد المسلمين، بل أشعرتهم بضرورة مراجعة حساباتهم. وقد كانت أكثر الفترات التي مرت على المسلمين هدوءً في تاريخهم خلال عصر الرسول، وسارت فيها الحياة عادية في المدينة لبضعة أشهر.

(١٠٥) آل عمران

الموضوع الرئيسي الذي تتحدث عنه آل عمران هو معركة أحد، وذلك في الآيات: (١٠-١٧، ١٢١-٢٠٠).

وهناك مواضيع أخرى تتحدث عنها السورة، وهي كما يلي:

- حديث عن أهل الكتاب في يثرب في الآيات: (١٨-٢٧).
- موالاة بعض المسلمين للمشركين في الآيات: (٢٨-٣٢).
- حديث عن بني إسرائيل في الآيات: (٣٣-١٢٠).

إضافة لافتتاح السورة في الآيات: (١-٩).

ولكي يسهل على القراء متابعة ما تقول السورة عن المعركة بوضوح، فمن الأفضل استعراض كل الآيات التي تتحدث عن المعركة أولاً بعد افتتاح السورة، ثم نعود لمتابعة ما تتحدث عنه السورة من مواضيع أخرى فيما بعد.

الافتتاحية

الآيات: (١-٩) والخطاب تقريري

تبدأ السورة بافتتاحية طويلة امتدت لتسع آيات: الم(١) اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ(٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ(٣) مِن قَبْلُ هُدًى

لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَام(٤) إِنَّ اللّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء(٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٦) هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ(٧) رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ(٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ(٩).

والآيات تُذكّرُ ببعض الحقائق، عن الله جل جلاله، وأن القرآن حق مماثل لما في التوراة ولما جاء به عيسى، فهذه الرسالات كلُّها من مصدر واحد: نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ(٣) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ». إلا أن البعض يحلو له أن يبحث عن أي كلمة لكي يتكلم فيها ويفصل، كيفما يشاء، فقط لينسب له ما لم ينسب لغيره، ومن ذلك «الفرقان». فهم يقولون بأنه لابد أن هناك كتاباً أنزل من الله اسمه الفرقان بجانب القرآن والتوراة وما أعطي عيسى «الإنجيل» الذي هو عبارة عن توراة شفوية. لأن عيسى جاء فقط لكي يعيد بني إسرائيل للتوراة. والفرقان هنا ليس كتاباً، ولكن اللفظ «فرقان» صفة لدين الله الذي نزل في القرآن والتوراة فهذا الدين «فرقان»، يفرق به بين الحق والباطل.

فتوراة موسى فرقان: وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣) البقرة.

كما أن القرآن فرقان: تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا(١) الفرقان.

وكل دين الله فرقان: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) الأنفال.

وبقية الآية الرابعة تتوعد قريشاً، كإشارة لما ستتحدث عنه السورة فيما بعد.

والآية السادسة تقول: «هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ» وهذا لا يعني أن الله تبارك وتعالى يتدخل فعلياً في تخلق الجنين فيخلق هذا كامل الخلق، ويخلق ذاك بتشوه خلقي ..... الخ لأن هذا يحدث بسبب المورثات (أي أن سببه الإنسان وليس الله جل وعلا. لكن الله يصورنا كيف يشاء من باب أن تخلق الجنين يتم بالطريقة التي أوجدها الله سبحانه

وتعالى في الأصل).

والآية السابعة تتحدث عن آيات محكمات وأخر متشابهات، وقد تحدث عنها المفسرون والمحدثون وتناقل كلامهم الناس وكأنه الحق عينه. وخلصوا لنتيجة أن هناك آيات تحمل معاني متضاربة (هو المتشابه) وهناك آيات واضحة المعنى.

والقرآن ليس فيه تضارب، ولكن تضارب المعاني يكون في عقول بعض الناس، لأنهم يفهمون القرآن كما يقول المفسرون.

والآيات هنا تعني الأحكام والتشريعات ولا تعني الآيات بمعناها السائد. والآيات المحكمات هي الأحكام الواضحة التحريم مثل قوله: حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير.

والآيات المتشابهة التي يتأولها الناس لتبدو وكأنها غير واضحة التحريم مثل قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٩٠) المائدة.

فالبعض يسارع ويقول إن الخمر ليست حراماً لأنه لا يوجد نص تحريم واضح (محكم). هؤلاء وصفهم القرآن بالذين في قلوبهم زيغ، ويتبعون ما تأولوا أنه ليس تحريماً ابتغاء الفتنة والاستمرار على تعاطي كبيرة الخمر.

تقديم للحديث عن معركة أحد

يأتي التقديم في الآيات (١٠-١٣) ونوع الخطاب تقريري.

حيث تقول السورة إن الذين كفروا - قريش - لن تنفعهم أموالهم وأولادهم وسيدخلون النار مثل فرعون: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئاً وَأُولَـئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ(١٠) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ(١١).

وإن كانوا قد انتصروا على المسلمين في معركة واحدة، فسيكسب المسلمون الحرب معهم في النهاية، ويوم القيامة مأواهم النار: قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(١٢).

وتُذكّر الآيات المسلمين بنصر الله لهم في بدر، وكيف بث الله الرعب في نفوس الكفار ونشر

الطمأنينة بين المسلمين، والعوامل النفسية هامة جدا لكسب المعركة: قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ(١٣).

أسباب الهزيمة

هزيمة المسلمين في أحد سببها عدة عوامل، بعضها وجدت قبل المعركة، وبعضها أثناء المعركة، وقد ذكرت السورة واحداً من العوامل في الآيات التالية، ثم عادت في آخر السورة لتذكر عوامل أخرى. وقد تم تتبع هذه العوامل في قسم أحداث من عصر الرسول.

الشح في الإنفاق

الآيات (١٤-١٧) والخطاب تقريري توجيهي

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ(١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ(١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ(١٧).

تقول الآيات إن النساء والبنين والأموال والمتع هي أكثر ما يأخذ بألباب الإنسان في الدنيا، لكن من يؤمن بالآخرة فسيعلم أنها لا تساوي شيئاً بالنسبة لنعيم الجنة، لذا ترخص في نظره ويسارع بالإنفاق في سبيل الله.

الإسلام وحده المقبول عند الله بعد بعثة محمد

شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(١٨) إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ(١٩) فَإنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ(٢٠).

أول ما تبدأ به السورة مخاطبة أهل الكتاب في يثرب هو تأكيد أن الدين المقبول الآن هو «الإسلام» الذي يدعو له محمد، وهو وإن كان مطابقاً لما في التوراة، إلا أن أهل الكتاب اختلفوا (ابتعدوا) عن التوراة التي لم يعد لها وجود. وعقائدهم الحالية ليست مقبولة، ومن يرغب الهداية والجنة فليسلم.

أهل الكتاب كفار

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٢١) أُولَـئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ(٢٢).

من يكفر بالقرآن (آيات الله) فهم كفار، وأسلافهم قتلوا النبيين ويقتلون كل من ينادي بالإصلاح الديني. ولن يقبلوا دخول الإسلام، وطاعة رسول من غير بني إسرائيل.

ثم تقول السورة: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوْتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ(٢٣).

الآية تقول: لو أن أهل الكتاب يؤمنون بالله فعلا لاستجابوا لكتاب الله (القرآن). ((دليل على أنه لا دين غير الإسلام)).

الخروج من النار عقيدة إسرائيلية

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ(٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ(٢٥).

أهل الكتاب يظنون أن من يرتكب ما يوجب النار منهم سيدخلها لفترة ثم يخرج منها ويدخل الجنة. وهذه العقيدة اقتبسها المفسرون والمحدثون المسلمون منهم، وجعلوها عقيدة إسلامية، واختلقوا أحاديث تقول بذلك ونسبوها للرسول.

وقد سبق وذكرت سورة البقرة ذلك: وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللهِّ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللهُّ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِّ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢).

والآيات ترد على الزعم الواهي وتصفه بأنه ظن لا أساس له. وأن من يدخل النار فهو يستحقها لأنه كسب سيئة (كبيرة) أو كافر. ومن يدخل النار فلن يخرج منها أبداً. والجنة ستكون مضمونة لمن آمن وعمل صالحاً (باتباع أوامر الله والانتهاء عن نواهيه).

وتقول السورة: قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي الْنَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الَمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ(٢٧).

الآية: (٢٦) استخدمها المفسرون والمحدثون لمداهنة الحكام، وكأنها نزلت لتؤكد أن الله جل شأنه هو من أعطى معاوية ابن أبي سفيان ومن بعده من بني أمية حكم دولة الإسلام، وهو من أعطى السفاح والمنصور ومن جاء بعدهم من بني العباس حكم دولة الإسلام. وهو سبحانه من أعطى كل طاغية، حكم دولة مسلمة. ولو كان هذا ما حدث، فإن الله (تبارك الله وتعالى عن ذلك علواً كبيراً) هو من سعى لهدم دينه الإسلام، بتمكين قريش الكافرة من حكم دولة المسلمين وعبثها به كيفما تشاء، وتوريث من جاء بعدها ديناً لا يمت للإسلام بصلة تحت مسمى الإسلام.

والآية لا شأن لها بالحكام، فهي تأتي ضمن الحديث المستمر عن أهل الكتاب في يثرب الذين رفضوا دعوة محمد، وتبريرهم هو أنه ليس من بني إسرائيل. وهو تكرار لما سبق وأخبرتنا به سور سابقة. والآية تقول لهم إن " اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ". وهو سبحانه من يؤتي الملك (الرسالة) لمن يشاء، وينزعه ممن يشاء. وقد أعطاه لبني إسرائيل في شخص رسلهم موسى وعيسى وغيرهم. والآن هو ينزعه من بني إسرائيل ويؤتيه لبني إسماعيل في شخص الرسول محمد. فالملك هنا يعني الرسالة وليس حكم دولة وسلطان، والدليل، قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِـي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِـي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٢٥٨) البقرة.

وإبراهيم لم يؤت مملكة أرضية ومُلكاً ولكنه أوتي النبوة.

ثم تتجه السورة لمسلمة يثرب الذين يوالون أهل الكتاب، والذين سبق وتحدثت عنهم السور السابقة:

مسلمة يثرب

لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ(٢٨) قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ(٣٠) قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣١) قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ(٣٢).

قوله:» إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً» قامت عليها عقيدة كاملة عند الشيعة. وذلك بتأويل المعنى إلى إظهار شيء وإضمار شيء مخالف، وهذا يعني النفاق والكذب، ويستحيل أن يأمر الإسلام بذلك. بينما لو تمعنا في الآية فإن معنى «تتقوا منهم تقاة» هي أن تتجنبوا شرهم بطرق لا ترقى إلى موالاتهم. كما يمكنكم التعامل معهم بعدل وإنسانية لكن لا توالوهم وتوادوهم وتحبوهم.

والآية: (٣١) تقول لمسلمة يثرب: اتبعوا الرسول ليحبكم الله. وإن توليتم (أبقيتم على موالاة أهل الكتاب) فأنتم كفار ولو أعلنتم الإسلام (الآية:٣٢).

ثم تتحول السورة لذكر حقيقة أن:

كل الرسل المذكورين في القرآن من نسب واحد

إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٣٤).

كل الرسل المذكورين في القرآن من عائلة واحدة بدأت من آدم. فآدم هو أبو الرسل، وليس أبا البشر.

والآية تخاطب أهل الكتاب في يثرب وتقول لهم أن محمداً الذي لا تريدون الإيمان به هو ليس بدعاً من الرسل، وجاء من نفس شجرة عائلة الرسل الذين منهم موسى وعيسى وغيرهما قبلهما وبعدهما.

ولادة مريم ونشأتها

(الآيات: ٣٥-٣٧) تتحدث عن ولادة مريم ويحيى وعيسى: إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ(٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ(٣٧).

كفالة زكريا لمريم تدل على أن والديها قد توفيا، وليس لها إخوة أو أقارب يكفلونها.

قول مريم: هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ. لا يعني أن الله ينزل عليها طعاماً وشراباً من السماء، ولكنه يعني أن الجيران هم من يمدها بالطعام والشراب، لأنهم يعلمون أنها يتيم ليس لها مصدر رزق[1].

البشرى بيحيى

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء(٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَـى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِياً مِّنَ الصَّالِحِينَ(٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ(٤٠) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ(٤١).

الآية: (٣٨) تقول إن زكريا دعا ربه أن يرزقه ذرية، فلما بشرته الملائكة بغلام ذهل واستغرب. وهذا يعني أن زكريا كان يتمنى لو كان له ذرية في بداية زواجه وفي وقت يمكن لامرأته الإنجاب، ولما بشر بغلام على كبر وبعد هرم زوجته، استغرب أن يحدث ذلك.

ولم يرزق زكريا بيحيى لأنه دعا ربه فتحقق له ذلك، وإلا فمن باب العدل الإلهي أن يستجاب لكل من يدعو ربه أن يرزق بذرية أو بغيرها. ولادة يحيى تخضع لأمر أراده الله وسيتحقق سواء دعا زكريا أو لم يدع، وسواءً تمنى أن يرزق بطفل أو لم يتمن.

---

١ انظر فقرة: المحراب/ قسم مفردات من القرآن. وتفاصيل قصة مريم ويحيى وعيسى منشورة في كتابنا: من آدم إلى محمد.

الحمل بعيسى وولادته

وهو موضوع يهم النصارى في يثرب: وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ(٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ(٤٣) ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ(٤٤).

الآية: (٤٤) تؤكد أن الرسول لا يمكن أن يعرف ما حدث لولا أنه يوحى إليه به من الله.

وتستمر السورة: إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ(٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ(٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ(٤٧).

الآيات السابقة تصور أن هناك حديثاً متبادلاً بين الله (جل شأنه) وبين مريم، وهذا لم يحدث، وما حدث هو ظهور مخلوق من مخلوقات الله الكونية لمريم وهي في الخلاء، ليخبرها أنه سيهبها غلاماً، كما أخبرتنا سورة مريم. لكن نسبة هذا الحديث وكأنه لله، لأن مريم وإن كانت تخاطب المخلوق الكوني إلا أنها على يقين أن الله بيده كل شيء، فهي تخاطب المخلوق وقلبها يخاطب الله.

وتستمر السورة: وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ(٤٨).

ليس هناك كتاب مكتوب أو سبق وكتب اسمه الإنجيل، لأن عيسى لم يأت برسالة جديدة، بل جاء ليعيد بني إسرائيل للتوراة، وقد فعل هذا شفهياً ولم يكتب لهم كتاباً. فدعوة عيسى الشفوية هي الإنجيل.

ونتابع: وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِـي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(٤٩)

عيسى لم يكن يخلق طيراً حياً، بل كان يشكل من الطين شكل طير ثم ينفخ فيه فيبدو للمشاهد انه يطير، وهذا فن أتقنه بنو إسرائيل زمن موسى ومن ذلك ما فعله السامري الذي استطاع تشكيل عجل من حلي الذهب الذي قدمه له بنو إسرائيل، واستطاع أن يجعل

العجل الذهبي يصدر خواراً كخوار البقر.

وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ(٥٠).

عيسى لم يحل لبني إسرائيل ما حرم الله، لكنه أحل لهم ما حرمه عليهم رجال دينهم. ومن ذلك ما أشارت له سورة النساء: فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا(١٦٠).

إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ(٥١) فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ(٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ(٥٣).

الآيات السابقة تظهر أن من صدق عيسى قلة قليلة من بني إسرائيل. والحواري هو العائد، وليس التلميذ كما تقول كتب التراث.

وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ(٥٤) إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ(٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(٥٧).

الآيات تذكر بوضوح أن عيسى توفي أولاً ثم رفع. يعني مات ورفعت نفسه مثله مثل كل البشر.

وقوله: وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ليس بالمعنى الحرفي، ولكنه كناية عن نصر الله للمؤمنين منهم، وظهورهم على من عاداهم. وإلا فالنصارى مؤمنهم وكافرهم لم يبق منهم أحد. ((نحن نتحدث عن النصارى وليس المسيحيين، الذين لا علاقة لهم بالنصارى))

ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ(٥٨) إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ(٥٩) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ(٦٠) فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا

وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ(٦١) إِنَّ هَـذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٦٢) فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ(٦٣).

الآية (٦١) اقتلعت من سياقها وكأنها نزلت لوحدها لتمجد علي ابن أبي طالب وأبناؤه، حيث قالوا إنها نزلت عندما جاء وفد من نصارى نجران وجادلوا الرسول فنزلت الآية لتقول لمحمد قل لهم أن يجمعوا أبناءهم ونساءهم ويجمع الرسول علي ابن ابي طالب وزوجته فاطمة وولديها الحسن والحسين وتكون المباهلة.

وطبعا تغافلوا عن أنه حتى لو افترضنا أنها تتحدث عن وفد نجران، فكيف يأتون بأبنائهم ونسائهم وقد حضر وفد من الرجال محدودي العدد كما تقول كتب التراث التي اختلقت القصة؟

الآية كما نرى ضمن الآيات التي تخاطب نصارى يثرب زمن الرسول، وبعد أن أخبرتهم عما حدث لعيسى تقول للرسول إن استمروا في جدالك لدحض الحق فاطلب منهم المباهلة. حيث يجتمع رجال المسلمين وأبناؤهم ونساؤهم، ورجال النصارى وأبناؤهم ونساؤهم، لأنهم من أهل يثرب ومن السهل إحضار أبناؤهم ونساؤهم. ولم يحضر مسيحيون (وليس نصارى) من نجران إلى المدينة النائية لمحاورة محمد، لينتهي بهم المطاف لقبول دفع الجزية، برغم أن بينهم وبين المدينة «خرط القتاد». لكن بحكم أن قصة جدال الرسول مع النصارى وردت في القرآن فقد اختلقت لها قصص فيما بعد عصر الظلمات والفتن. وبما أن من اختلق القصة لا يعرف أن المخاطب هم نصارى يثرب لأنه لا يعرف أن يثرب كان فيها نصارى، ولأن الناس بعد عصر الظلمات والفتن اختلط عليهم أمر النصارى فظنوهم المسيحيين. وبما أن نجران بقي فيها مسيحيون فقد ظنوا أنهم هم من تتحدث عنهم الآيات فاختلقوا عنهم القصص. بل وسموا وفدهم بأسماء عجيبة مثل: العاقب، والأيهم، وكوز... ونحوهم.

مخاطبة كافة أهل الكتاب في يثرب (يهود، نصارى، بني إسرائيل)

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ(٦٤).

بعد دعوة النصارى وحدهم للمباهلة، تدعو السورة كل أهل الكتاب دعوة لن يقبلوها، لأن عقائدهم بشرية تقوم على تشريعات رجال دينهم، ولو أرادوا العودة لدين الله الذي

نزل على موسى فسيجدون أنهم ملزمون باتباع القرآن الذي لا يدعو لأكثر مما دعت له التوراة التي تركها أهل الكتاب. هذه الدعوة نريد توجيهها الآن لأتباع المذاهب.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ(٦٥) هَا أَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ(٦٨).

لو رغب أهل الكتاب اتباع ملة إبراهيم فعليهم بالقرآن الذي يمثل تلك الملة بصفائها.

وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(٦٩).

الآية السابقة تخاطب المسلمين في يثرب، وتحذرهم من الاستماع لأهل الكتاب وإسرائيلياتهم. لكن دعوات القرآن المتكررة لم تلق الآذان الصاغية من المسلمين وسرعان ما اعتمدوها كجزء من دين الله بعد عصر رسول الله.

ثم تعود السورة لأهل الكتاب: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ(٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(٧١)

أهل الكتاب يعلمون أن رسالة محمد حق، بخلاف قريش التي تظن أن محمداً كاذب.

وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(٧٢) وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(٧٤)

الآيات تظهر سبب عدم إيمان أهل الكتاب: «وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ». فهم يعلمون أن محمداً رسول من الله لكنه ليس منهم. وتكرر الآية ما سبق وذكرته في الآية (٢٦) السابقة: قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

ثم تقول السورة إن أهل الكتاب من الناحية البشرية هم بشر، منهم الصالح ومنهم الطالح: وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ

إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً

لكن مشكلتهم في العقيدة. فهم يتمسكون بعقائدهم وهم يعلمون أنها ضالة وأن الإسلام حق: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(٧٥) بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٧٦) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَـئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٧٧) وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(٧٨).

الآيات السابقة تؤكد أن عقائد أهل الكتاب صناعة رجال الدين وليست اتباعا للتوراة، وهو ما ينطبق على مذاهب المسلمين. وأهل الكتاب يحاولون أن يقنعوا أنفسهم أن رفض دعوة محمد صائبة وأن الله لن يحاسبهم على ذلك لأنهم يتبعون رسولاً أرسل لهم، وليس عليهم أن يتبعوا رسولاً أرسل للأميين، وهو وصف لبني عمهم إسماعيل كونهم ليسوا أهل كتابة وتوثيق.

ثم تعود السورة لمخاطبة النصارى الذين يعتقدون بألوهية عيسى أو أنه ثالث ثلاثة: مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ(٧٩) وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ(٨٠)

قوله: «كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ» هذا هو المطلوب من أي داعية للدين. عليه تبليغ القرآن للناس دون خطب ومواعظ وقصص وحكايات وكلام لا يعني شيئاً في دين الله، والاقتصار على نشر كلام رب العالمين وحده، ليكونوا ربانيين، أي خدماً لكلامه ودينه.

وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ(٨١) فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(٨٢).

النبيون قد يكون معناها هنا الدعاة، لأن الآية تدعوهم لو بعث فيهم رسول أن يتبعوه.

وكل مسلم يجب أن يكون داعية، والداعية كما قلنا يجب عليه فقط إيصال القرآن لمن يرغب في دعوته دون أي إضافات من كلامه الشخصي أو كلام غيره.

وتعود السورة للحديث عن أهل الكتاب: أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ(٨٣).

الآية تخيرهم بين الله (التحول للإسلام) أو البقاء على معتقداتهم البشرية الأصل، وهو ما ينطبق على أتباع المذاهب.

قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(٨٤) وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٨٥).

الإسلام يعني الإيمان بكل رسل الله ورسالاتهم الأصلية التي بعثوا بها، لأنها تتطابق مع ما يقول القرآن.

الآية (٨٥) كل عقيدة غير الإسلام فلن تقبل عند الله، والحديث كما تابعنا لأهل الكتاب في يثرب الذين يعتنقون النصرانية واليهودية ومذاهب أخرى. وهو رد لكل من يظن بجهل أو تأثراً بما يقول اليهود والمسيحيون أن الإيمان بالله بأي دين كاف للجنة. الآية تقول: لا! الإسلام وحده المقبول.

وتستمر السورة بالتأكيد على كفر أهل الكتاب وعلى أن الدين المقبول هو الإسلام فقط:

كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٨٦) أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ(٨٨) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٨٩).

بعض مسلمة يثرب ارتد

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ(٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ(٩١).

هم من ترك ديانة أهل الكتاب وأسلم ثم تراجع وارتد إلى ديانته السابقة.

مخاطبة المسلمين

لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ(٩٢).

الإنفاق العيني من أفضل الأصناف التي تحبونها لأنفسكم ولا يقبل إنفاق الرديء. والبر هو أعلى درجات الإيمان والذي يضمن لصاحبه الدرجة العليا في الجنة، كما ذكرت ذلك سورة الواقعة والرحمن.

ما أحل من الطعام لبني إسرائيل

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِـلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٩٣) فَمَنِ افْتَرَىَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٩٤) قُلْ صَدَقَ اللّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(٩٥).

تحذر الآيات بني إسرائيل يثرب من تحريم طعام لم يحرمه الله، بناء على تشريعات رجال دينهم. ومما حرموه بعض الطعام الذي كرهه يعقوب وحرمه على نفسه دون اعتماد على دليل من الله. وتوارث بنوه هذا التحريم. وتكرر الآية (٩٥) دعوتهم لاتباع الإسلام الذي يمثل ملة إبراهيم الذي لم يكن مشركاً كقريش.

ذكر حقيقة أن الحرم المكي أول بيت لله على الأرض

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ(٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّـنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ(٩٧).

أول بيت وضع للناس (في الأرض) هو المسجد الحرام. والآية تؤكد على فريضة الحج لمن استطاع ذلك بأي وسيلة.

عود لدعوة أهل الكتاب للإسلام

والسورة تخاطبهم على لسان محمد: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَاللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ(٩٨).

تأكيد لا يدع مجالاً للشك أن ديانة أهل الكتاب وأي ديانة غير الإسلام كفر.

أهل الكتاب في يثرب يثبطون بعض من أعلن إسلامه عن الإنفاق والقتال في سبيل الله

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنتُمْ شُهَدَاء وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(٩٩).

الآية تظهر أن أهل الكتاب في يثرب كان لهم دور في امتناع بعض من أعلن إسلامه من أهل يثرب عن الإنفاق وتباطؤهم عن الخروج للقتال. وسورة آل عمران تتحدث عن معركة أحد، والتي كان من أهم أسباب الهزيمة فيها شح الإنفاق على تجهيز الجيش المسلم، وتباطؤ بعض مسلمة يثرب عن الخروج، والآية تظهر أن وراء ذلك أهل الكتاب. لذا تحذر السورة مسلمة يثرب: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ(١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(١٠١).

وترك القتال والإنفاق في سبيل الله كفر.

دعوة لتوحيد صفوف المسلمين والبعد عن التنافر

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ(١٠٢) وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(١٠٤) وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ(١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ(١٠٨) وَللّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ(١٠٩).

بعدما فضحت الآيات السابقة تأثير أهل الكتاب على مسلمة يثرب وكونهم السبب في تأخرهم عن الإنفاق والقتال في سبيل الله، توجه السورة دعوة لكل من يتسمى بالإسلام أن

يكونوا مسلمين حقاً. وذلك بنبذ الخلافات وتوحيد الصفوف والبعد عن تأثيرات الكفار، والعودة لدين الله الخالص. وتستمر السورة لتقول: كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ(١١٠).

فعلى المسلمين أن يأمر بعضهم بعضاً بالمعروف، والمقصود به هنا: الإنفاق والقتال في سبيل الله. وينهى بعضهم بعضاً عن المنكر، وهو ترك الإنفاق والقتال في سبيل الله والاستماع للكفار والتأثر بما يقولون، والبعد عن الفرقة بين المسلمين. فوجودكم كمسلمين لتكونوا خير أمة أخرجت للناس فلا تخرجوا عن هذا المسار وتنحرفوا عنه بالاختلاف والتفرق والاستماع لأهل الكتاب والامتناع عن الإنفاق والقتال في سبيل الله. ولا تعني الآية أن أي مجتمع يتسمى بالإسلام هو خير أمة أخرجت للناس، بل إن الآيات تظهر أن بعض من تسمى بالإسلام زمن الرسول كانوا من أسوأ البشر.

ولم يكن المقصود بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما يمارسه في هذا العصر أفراد هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في السعودية. والذي هو عبارة عن سلطة أعطيت لمتعطشين لها، بلا ضوابط. ولا شأن لها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه الآيات. فلم يكن في شوارع المدينة رجال ومعهم شُرَطٌ يجوبون الشوارع ويلاحقون الناس، لا في عصر رسول الله ولا في عصر من خلفه من تقاة المسلمين مثل أبي بكر وعمر وعثمان. وما يحدث الآن تسييس للدين لخدمة الدولة، وليس أمراً بمعروف ولا نهياً عن منكر، وإن سمي بذلك.

وبما أن مسلمة يثرب امتنعوا عن الإنفاق وتباطأوا عن القتال في سبيل الله بتأثير من أهل الكتاب، فالآية تستمر لتقول لأهل الكتاب المحرضين على السوء: « وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم» من التحريض على الامتناع عن الخير.

ولا تنفي الآية أن هناك بعضاً أهل الكتاب دخلوا الإسلام.

أهل الكتاب أذلة فلماذا تتأثرون بهم؟

تستمر السورة تخاطب مسلمة يثرب عن أهل الكتاب الذين يتأثرون بهم: لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدُبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ(١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ

كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ(١١٢)[1].

كل ما سيفعله أهل الكتاب في يثرب للمسلمين هو الأذى (السخرية)، ولو اضطروا لقتال المسلمين سيولون الأدبار لأن الذلة ضربت عليهم، والآيات تؤكد كفرهم مرة أخرى.

وتقول السورة ليس كل أهل الكتاب لم يؤمنوا بالإسلام، فهناك طائفة منهم أسلموا واتقوا: لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ(١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ(١١٤) وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ(١١٥).

ثم تتجه السورة للحديث عن قريش:

مقدمة للحديث عن معركة أُحُد

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئاً وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(١١٦) مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هِـذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَـكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(١١٧).

كل ما أنفقوه لحرب المسلمين وكل ما يملكون من أموال سيعود حسرات عليهم.

مخاطبة مسلمة يثرب

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ(١١٨) هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ(١٢٠).

الآيات تتساءل:

كيف توالون قوماً لا يتورعون عن إفساد عقائدكم «يألونكم خبالاً»؟

---

١ الأنبياء هم النبيون فالآية هنا تقول إن أهل الكتاب كانوا يقتلون الأنبياء، وفي سورة أخرى تقول النبيين: ان الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب اليم (٢١) آل عمران. والنبي هو الرسول: كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ..(٢١٣) البقرة.

وأظهروا البغض لدين الله، وما تخفي صدورهم أكبر.

كيف تحبونهم وهم لا يحبونكم؟

كيف توالونهم وأنتم تؤمنون بالله وكتابه كله، بينما يكفرون هم به، وإن تظاهروا بالإيمان؟

كيف توالونهم وهم يغيظهم أن تصيبكم حسنة وانتصار على العدو، ويفرحون لو أصاب المسلمين سيئة وهزموا؟

واستماع مسلمة يثرب للإسرائيليات وتبنيها سيستمر وسيظهر أثره المدمر لعقائد المسلمين عندما يتبنونه كتراث ديني لهم فيما بعد عصر الرسول. وسيفتح المجال لكي ينشر مسلمة اليهود الذين دخلوا الإسلام إسرائيلياتهم بين المسلمين وتمتلئ بها كتب تراثهم وكأنها من دين الله.

عود للحديث عن معركة أحد

وهو استكمال لما بدأته السورة في الآيات (١٠-١٧)، والبداية مع ذكر أحد أسباب الهزيمة:

التنافر

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١٢١) إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(١٢٢).

أثناء ما كان الرسول ينظم صفوف المقاتلين ويبين لكل مجموعة مهامها القتالية وأين تقف، اعترض البعض وقام آخرون بإبداء آراء مخالفة فتطور الوضع إلى أن وصل للتنازع بين فئتين من المسلمين كاد أن يؤدي لانسحابهما من أرض المعركة.

وهذا يظهر تنافراً حاداً بين فئات من المسلمين وهو ضعف كان يشكو منه الجيش الإسلامي قبل بدء المعركة. وهذا العامل وعوامل أخرى كانت السبب في الهزيمة.

العامل النفسي

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ(١٢٤) بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ(١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(١٢٦)

لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ(١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ(١٢٨) وَللهِّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٢٩).

الآيات تذكر المسلمين بحالتهم النفسية العالية في بدر، في إشارة إلى أنهم كانوا في وضع نفسي سيئ يوم معركة أحد، وكان عاملاً آخر للهزيمة.

استغلال الحرب للمتاجرة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللهَّ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٣٠) وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ(١٣١) وَأَطِيعُواْ اللهَّ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(١٣٢) وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ(١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللهَّ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(١٣٥) أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ(١٣٦) قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(١٣٧) هَـذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ(١٣٨).

برغم تحريم الربا في سور البقرة والنساء والمائدة السابقة، وبرغم تحذيرات القرآن المتكررة، استغل بعض من يعلن الإسلام معركة أحد للمتاجرة، وذلك بتجهيز المقاتل على أن يرد له القيمة بفوائد. وهذه الآيات تحذرهم من الاستمرار وتطلب منهم التوبة وإلا فمصيرهم النار.

ثم تتجه السورة لتتحدث عن نتيجة الهزيمة وما يحتاجه المسلمون

رفع المعنويات

وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ(١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن

تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ(١٤٢) وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ(١٤٣).

خسارة معركة لا تعني خسارة الحرب، فلا تضعف الهزيمة من معنوياتكم ولا تثبط عزائمكم. وإن

خسرتم هذه المعركة فقد خسروا هم يوم بدر، والمعارك (الأيام) دول، ومن سره زمن ساءته أزمان. والعبرة بالخواتيم، وخاتمة الصراع مع قريش محسومة لكم إن أنتم صبرتم وأخلصتم.

وما جاء هنا دليل واضح على أن الله لا يتدخل في أمور الدنيا، ولا ينتصر المسلمون لأنهم مسلمون فقط، ولا بالدعاء. ولكن ينتصرون بالاستعداد الجيد والتجهيزات والعدة والعتاد، كما أخبرتهم وحثتهم سورة الأنفال مباشرة بعد انتصارهم في بدر: وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ(٦٠).

فالنصر بتوفير عوامله، وإن كان الاتكال على الله وطلب النصر منه يقوي النفس ويجعل تهيئتها واستعدادها للقتال بكل قوة أسهل وأمكن.

وهذه دعوة لأمة المسلمين إن رغبوا النصر على عدوهم أن يتركوا معتقدات كتب التراث المثبطة. والتي تريد صرف الناس عن التصنيع الحربي والاستعداد والقوة إلى الاكتفاء بالدعاء على اعتبار أن الله سيتدخل فعلياً وينصرهم، ولو كان عدوهم يملك السلاح وهم يملكون الحجارة. هذه دعوة باطلة وتثبيط وتفتيت لجهود الأمة، يجب تنزيه دين الله منها، وكشف أنها مجرد أقوال مكذوبة على الرسول لم يقلها.

لو قتل الرسول أو مات فالإسلام سيبقى

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ(١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَاباً مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ(١٤٥).

بعد أن اكتمل الدين في سورة المائدة، فلو قتل محمد فدين الله باق بتمامه. ومن يعتقد أن وجود الرسول لازم لدين الله بعد اكتمال التشريع فهو واهم. ومن ارتد لأن محمداً قتل فلن يضر الله شيئاً وسيبقى دينه سبحانه لمن يبحث عن الحق.

والآيات تشير إلى إصابة الرسول يوم أحد وإشاعة أنه قتل، كما تشير إلى حقيقة أن محمداً قد يقتل في أي لحظة أو يموت كأي إنسان آخر. ولن يتدخل رب العالمين لمنع قتله أو موته لو حدث لأنه رسول. فقد قتل قبله رسل وماتوا.

عود لتأكيد أن النصر يكون بالصبر والاستعداد والتجهيز والخطط

وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ(١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ(١٤٧) فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(١٤٨).

الضعف والتخاذل وعدم الصبر عوامل تؤدي للهزيمة. وعكسها قوة الاستعداد والصبر والتفاني عوامل تؤدي للانتصار مع التخطيط والتجهيز والتصنيع وكل أسباب النصر الأخرى، ثم يأتي دور الدعاء لكي يكلل الله جهودنا بالنجاح ويلهمنا الصواب. أما اعتبار الدعاء وحده عاملاً للنصر فبدعة من أيام عصر الظلمات والفتن، قصد بها أولاً ثني الناس عن المطالبة بحقوقهم من الحاكم المستبد والاكتفاء بالدعاء دون الثورة. ثم تحول الدعاء مع الأيام بديلاً لمواجهة العدو، السلاح بالسلاح والعدة بالعدة والخطة بالخطة. فكان المسلمون يدعون وتضج المساجد بما عرف بالقنوت في الأندلس بينما المسيحيون يطورون من عتادهم ويجمعون قواتهم. فانتصر الكافر المجهز على المسلم المترهبن.

والآن عاد الدعاء للواجهة، لأنه لن يضر العدو ولن يهزمه، وفي نفس الوقت يشعر سذج المسلمون أنهم أدوا ما عليهم في دفع الظلم. سواء ضد الحاكم المستبد أو ضد المحتل الغاشم. فالتسليح وصناعة السلام عدو للحكام خوفاً على عروشهم، وعدو للعدو المحتل لأنه سيقاومهم ويفسد مخططاتهم.

ويقال لكل من يثبط المسلمين من التصنيع والتطور ومحاربة التسلط والعدو، ما قالته سورة آل عمران للمتخاذلين ممن أعلنوا إسلامهم في عصر الرسول (مسلمة يثرب) والذين أبقوا

اعتمادهم على أهل الكتاب في توفير السلاح والموالاة والنصرة، ولم يعملوا على التطوير والاكتفاء الذاتي: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ(١٤٩) بَلِ اللّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ(١٥٠).

ولو اعتمد المسلمون على جهودهم فسينتصرون: سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ(١٥١).

وسينتصر المسلمون في حربهم مع الباطل (قريش) في النهاية. أما ترسيخ أن الدعاء يقلب الموازين فهو تثبيط للأمة. وهذا التثبيط بدأ مع بداية استيلاء الباطل على حكم دولة المسلمين ممثلاً بقريش (بني أمية والعباس).

عود لتحذير مسلمة يثرب من الاستماع لأهل الكتاب وموالاتهم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ(١٤٩) بَلِ اللّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ(١٥٠).

وتحذيرات القرآن لن تجد آذاناً صاغية لأنهم قد اختاروا الضلال، كما وصفتهم الآية (٨٨) من سورة النساء: «وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً».

النصر في النهاية للمسلمين

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ(١٥١).

وهذا مما يعرف بالضرورة، فالمسلمون لن يملوا الحرب وسيواصلون ويزدادون إصراراً. بينما الكفار كلما قتل منهم أحد كلما فَتّ من عضدهم وشعروا بالهزيمة، لأنهم يعتبرون الدنيا هدفاً وغاية. بخلاف المؤمن الذي يعتبر الدنيا ممراً، وعليه أن ينصر دينه أو يموت دونه.

شجار ومنازعات في أرض المعركة

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ(١٥٢).

في بداية المعركة حس المسلمون المشركين حساً، ولم يكن بمقدور المشركين الوقوف في وجه المسلمين، وبدأوا بالهروب.

ثم حدث شيء: « حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ».

عندما سارع المشركون بالهرب من أرض المعركة حاول المسلمون ملاحقتهم وقتل أكبر عدد منهم أو أسرهم، لكن فئة ممن يسمون بالمسلمين اعترضت طريقهم محاولة منعهم، فحدث شجار ونزاع. جمهرة المسلمين يريدون ملاحقة العدو، وهذه الفئة تقف في طريقهم وتعرقلهم.

وليس بين المسلمين من لا يرغب في قتل مشركي قريش إلا مسلمة قريش، الذين عملوا على أسر المشركين في بدر حفاظاً على حياتهم، والآن هم يحافظون على حياتهم مرة أخرى بمنع المسلمين من ملاحقتهم، لأنهم يريدون الدنيا بموالاة أقاربهم المشركين: « مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ».

فكان أن لاحظ المشركون ما حدث في صفوف المسلمين فكروا عليهم وهاجموهم فتشتت شملهم.

هروب وهزيمة

إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غُمّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٥٣).

لقد هرب بعض المسلمين باتجاه المدينة لا يلوون على أُحُدٍ. أي مولين الأدبار ولا يلتفتون لمكان المعركة (أُحُد). والمفسرون كالعادة غيروا التشكيل إلى أحد، فماع المعنى.

وبقي الرسول وجماعة من المسلمين: « وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ».

وحلت الهزيمة بالمسلمين بعدما كانوا منتصرين.

مسلمة قريش يلومون الرسول على حرب قريش

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ للهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ

كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(١٥٤).

ليس فقط تسبب مسلمة قريش بالهزيمة بل إنهم قالوا للرسول، لو وافقتنا بعدم خوض الحرب مع قريش منذ البداية لما قتل من قتل. وهو شعور بعيد جداً عن الشعور بالتضامن مع المسلمين أو الانتماء لهم. وسيبقون مصدراً لمشاكل المسلمين ومصائبهم.

توبيخ من هرب من أرض المعركة

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ(١٥٥).

الآية تقول عفا الله عما سلف، ولتكن آخر مرة. فالهرب من أرض المعركة غير مقبول ويعتبر كبيرة.

عود لمخاطبة مسلمة قريش

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ يُحْيِـي وَيُمِيتُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(١٥٦) وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ(١٥٧) وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ(١٥٨).

الآية (١٥٤) أخبرتنا أن مسلمة قريش كانوا يلقون باللائمة على الخروج لقتال المشركين، ولو قبل المسلمون عرضهم بالاتصال بقريش ومحاولة إقناعهم سلمياً بالعودة لمكة والتوقف عن حرب المسلمين فقد ننجح ونبقي القتلى أحياء. والآيات هنا تحذرهم من تثبيط غيرهم عن الخروج للقتال في سبيل الله بحجة أن من لا يخرج لن يقتل. لأنه لن يفلت أحد من الموت ولو تعددت الأسباب. ومن يموت في سبيل الله وهو مؤمن ويعمل صالحاً فقد ضمن الجنة. بينما من يموت بخلاف ذلك فسيخسر الدار الآخرة، وستمر أيامه في الدنيا سريعاً ويموت ولو على فراشه.

الرسول تعامل بكل لطف بعد المعركة

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ

وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ(١٥٩) إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(١٦٠).

فلم يوبخ من هرب ولم يقسُ على مسلمة قريش مع أنهم السبب المباشر للهزيمة. ولو تصرف معهم بغلظة فسيعلن مسلمة قريش ومسلمة يثرب ومن على شاكلتهم التخلي عن معسكر المسلمين وقد يتسبب في إحباط غيرهم ويكون سبباً في تنازع المسلمين وهزيمتهم داخلياً.

وقفة مع المفسرين

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ(١٦١).

يقول صاحب تفسير الجلالين إن الآية «نزلت لما فقدت قطيفة حمراء يوم أحد فقال بعض الناس: لعل النبي أخذها (وما كان) ما ينبغي (لنبي أن يَغُل) يخون في الغنيمة فلا تظنوا به ذلك».

وهذا الكلام لا يمكن أن يكون صحيحاً، فالمعركة انتهت بهزيمة المسلمين، وبالتالي فقريش هي من استولى على الغنائم وليس المسلمون. ثم إن يغل تعني يظلم ولا تعني يسرق أو يستولي بخفية. فالرسول لم يكن ليظلم أصحابه. إضافة إلى أن سورة الأنفال وضعت قوانين واضحة وصريحة في كيفية توزيع غنائم الحروب. ولكن المفسرين هم الذين شوهوا الإسلام وشخص الرسول، بسوء نية، من عند أنفسهم أو نقلاً عن غيرهم.

والآيات جاءت ضمن آيات أخرى تمتدح الرسول، هي: أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَن بَاء بِسَخْطٍ مِّنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللهِ واللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ(١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ(١٦٤).

وتنفي أن يكون الرسول قد ظلم أحداً، أو يمكنه ظلم أحد.

قتلى المسلمين

أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١٦٥).

الآية تقول: مصيبتكم (خسائركم في الأرواح) قد أصبتم مثليها من العدو. فعدد قتلى قريش في بدر ضعف قتلى المسلمين في أُحُد، وليس كما تزعم كتب التراث التي جعلتهم متعادلين. وكأن من قال بذلك قرشي مشرك، فهو يقول: «إن كان المسلمون قتلوا منا سبعين في بدر، فقد قتلنا منهم سبعين في أُحُد».

مخاطبة مسلمة يثرب

ثم تتحدث السورة عن موقف المنافقين «مسلمة يثرب» مما حدث في أحد: وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ(١٦٦) وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ(١٦٧) الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٦٨) وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ(١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ(١٧١).

مسلمة يثرب منافقون وموالون للكفار (أهل الكتاب)، مثلما أن مسلمة قريش منافقون وموالون للمشركين (قريش) لكن مسلمة قريش خرجوا مع المسلمين في بدر وفي أُحُد، تحت مسمى القتال لحماية قريش، كما رأينا.

أما مسلمة يثرب فكثير منهم لم يخرجوا مع المسلمين في بدر وفي أُحُد، ولم ينفقوا لتجهيز الجيش: «وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ»، وهم الذين تتحدث عنهم هذه الآيات.

وبعد هزيمة أحد كانوا يعلنون أنه لو أطاعهم إخوانهم (من مسلمة يثرب) ولم يخرجوا مع المسلمين لما قتلوا. والآيات تقول لبقية المسلمين إن من يؤمن بالله فسيعلم أن الموت يعني الانتقال للآخرة. ومن يقتل في سبيل الله وهو مؤمن ويعمل صالحاً فسيجد في الآخرة نعماً ورضواناً من الله. وبما أن الميت يشعر أنه انتقل للآخرة مباشرة بعد موته. فكأنهم الآن قد دخلوا الجنة وحصلوا على النعيم. ولم يموتوا بمفهوم الموت عند من لا يؤمن بالآخرة، وهو

العدم.

والآيات (١٧٢-١٨٠) تعطي صورة إجمالية لبعض المواقف المختلفة لفئات المسلمين من القتال:

فئة صادقة في إيمانها

الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لله وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ(١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(١٧٣) فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ(١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(١٧٥).

يتقبلون الهزيمة بالصبر ولم يرتعبوا من المعركة وسيواصلون الجهاد في سبيل الله. وهؤلاء هم من قامت عليهم دولة المسلمين زمن الرسول. بعضهم مهاجرون، وبعضهم أنصار من أهل الكتاب والأوس والخزرج وبعض الأعراب.

بعض مسلمة يثرب ارتدوا

وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّواْ اللهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٧٧) وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ(١٧٨) مَّا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ(١٧٩).

كل من يحجم عن الإنفاق فهو في النار

وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلله مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(١٨٠).

أهل الكتاب يسخرون من المسلمين بعد أحد

لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ(١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ(١٨٢) الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٨٣) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ(١٨٤).

وصفهم لله (تعالى الله وتبارك) بأنه فقير سخرية من المسلمين الذين لم يستطيعوا تجهيز جيشهم للمعركة كما يجب. وكأنهم يقولون إنه لو كان المسلمون فعلاً يعبدون الخالق لعاونهم وأمدهم بما يريدون، وهو بطبيعة الحال فهم خاطئ للعلاقة بين الخالق وخلقه. فالله جل وعلا لا يتدخل مباشرة في أمور الدين، ولو قصر المسلمون في التجهيز والاستعداد للمعركة فسيهزمون كما هزموا في أُحُد، بينما لو استعدوا وأخلصوا فسينتصرون كما انتصروا في بدر.

وتتوعدهم الآيات لعدم إيمانهم بالرسول والإسلام.

وتقول لهم الآية التالية إن العبرة في نتيجة الحساب يوم القيامة، أما الحياة الدنيا فسرعان ما تزول: كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ(١٨٥).

عود للحديث عن الهزيمة وتأكيد أن المعارك تمحيص للمواقف

لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ(١٨٦).

فالقتل ونقص الأموال بالإنفاق وسماع الدعايات المغرضة وعبارات التثبيط والتشكيك من بني إسرائيل والمشركين كلها امتحان للمسلمين لمعرفة المؤمن من المنافق.

وأهل الكتاب نسوا دين الله واتبعوا تشريعات بشرية: وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ(١٨٧).

أهل الكتاب يحبون المديح لأنفسهم، ويتباهون بما يملكون من مال، وهم في النار

لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٨٨) وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١٨٩).

والفرح بالمديح ظاهر في عصرنا الحالي خاصة من رجال الحكم والمنتفعين حولهم. فترى الواحد منهم يحرص على أن تلمع صورته وتبالغ وسائل الإعلام فيما قام به ولو كان لا يستحق الثناء، أو كان من واجبات عمله.

بعض الصفات التي يجب أن يتصف بها المسلم

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ(١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ(١٩٢) رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ(١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ(١٩٤) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ..... (١٩٥).

ممن وعدوا بالغفران والجنة

فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ(١٩٥).

وهؤلاء هم المهاجرين.

أما الكفار (قريش) فمصيرهم النار: لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ(١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(١٩٧).

بعكس المسلمين: لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللّهِ وَمَا عِندَ اللّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ(١٩٨).

تأكيد على أن فئات من أهل الكتاب أسلموا

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَـئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(١٩٩).

وتختم السورة بما على المؤمنين فعله:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٢٠٠).

(١٠٦) البينة

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ(١) رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً(٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ(٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ(٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ(٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ(٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ(٧) جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ(٨).

والسورة تقول لبعض المسلمين المتعاطفين مع بني إسرائيل: إن كان عند أحد منكم شك في أنهم سيؤمنون بالله، فلينته هذا الشك الآن. لأن من يؤمن بالله، عليه أن يتبع رسوله ويؤمن بكتابه.

وتقسم السورة الناس قسمين: مسلمين، وكفار (مشركين وأهل كتاب). وتقول إن من يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه.

ونزول هذه السورة وقبلها الإخبار عن ردة فعل بني إسرائيل مقدمة لفضح دسائسهم ومعاونتهم أعداء الإسلام.

(١٠٧) التحريم

السورة بمجملها تتحدث عن مشاكل عائلية بين النبي وزوجاته، تظهر أن النبي قد انفعل بسبب موقف مع إحداهن فأقسم يميناً ألا يفعل شيئاً ما مباحاً، أبداً، فجاءت الآيات تقول بأنه لا يجوز له تحريم ما أحل له، وأن عليه أن يتحلل من يمينه بكفارة اليمين. ولم تفصح

السورة عن ماهية الحدث، فليس المهم معرفة الناس ما الذي حلف ألا يفعله، وإنما المهم هو توجيه النبي لما يجب عليه فعله، لأنه أمر خاص به وليس عاماً للمسلمين: لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَـكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٨٩) المائدة.

والآيات دليل قاطع أن الرسول ليس بينه وبين الله وحي خاص، يتلقى بموجبه ما يسمى بالحديث كما يزعم أتباع المذاهب. فلو كان بين الله ورسوله وحي خاص لأوحى له هذه الآيات ولم تنزل على شكل قرآن يتلى على الناس ويعرفون ما حدث في بيت رسول الله.

ولا ندري هل أطعم النبي عشرة مساكين أو كساهم، أو أنه لم يجد فصام ثلاثة أيام؟

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ(٣) إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ(٤) عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً(٥).

عدد أزواج النبي

لابد أن الحدث الذي تتكلم عنه سورة التحريم، علمت به كل زوجات الرسول، ولو كان هناك زوجات أخريات ولم يعلمن بالخبر فسيعلمن بعد نزول السورة وسيثرن الأسئلة وسيكون هناك مشكلة عائلية أخرى سيتحدث عنها القرآن. لكن بحكم أن هذا لم يحدث فهو دليل قاطع على أن كل زوجات النبي سمعن بما حدث.

وبناءً على هذا يكون عددهن كما يلي:

الزوجة التي أسر النبي لها الخبر، إضافة لبقية الزوجات.

وعدد الزوجات الباقيات هو اثنتان، كما هو مذكور في قوله تعالى: « إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ».

ويكون المجموع ثلاث زوجات فقط في المدينة. واحدة نعرف أنه كان متزوجاً بها عندما وقعت غزوة أحد، وهي بالتأكيد أم المؤمنين عائشة. والثانية مطلقة زيد، أما الثالثة فلا نعلم متى تزوجها، ولم يذكر اسمها في القرآن، ولا ما يعين على التعرف عليها.

ويكون النبي محمد قد تزوج بأربع نساء على أكثر تقدير، طوال حياته. واحدة في مكة، هي خديجة التي توفيت قبل الهجرة. وجمع ثلاث زوجات في وقت واحد، وتوفي عنهن في المدينة. وما يؤكد ذلك هو أن مسجد رسول الله عند بنائه في بداية الهجرة، كان ملحقاً به حجرة واحدة، كبيت له عليه الصلاة والسلام، وكان ذلك قبل زواجه في المدينة بأي امرأة. ثم زيد عدد الحجرات، فكان هناك أربع حجرات عندما توفي عليه الصلاة والرسول، حسبما ذكرت كتب السير والأخبار. مما يعني أنه كان يتم بناء حجرة لكل زوجة يتزوجها الرسول، لتكون بيتاً لها. ولما توفي رسول الله كان هناك حجرة لكل زوجة، من الزوجات الثلاث، وحجرة رابعة له، عليه الصلاة والسلام.

ثم تنتقل السورة لمخاطبة المسلمين وتتوعد الكفار: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ(٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٨).

الملائكة هنا ليسوا المخلوقات الروحانية والذين منهم جبريل الذي كلف بنسخ القرآن في ذاكرة الرسول، بل هم آليات يتم بموجبها عمل النار يوم القيامة. لأن الملائكة (المخلوقات الحية) في الدنيا لا يمكن أن تكلف بأعمال يوم القيامة، مثلها مثل كل المخلوقات الحية في الدنيا. لأن العمل مطلوب في الدنيا والآخرة دار قرار ومصير، فإما جنة أو نار لكل مخلوقات الله الحية بما فيها الملائكة. والدليل أن الله توعد من يكفر منهم بنار جهنم، ضمن

حديث ينكر على قريش وصف الملائكة بأنهم بنات الله: بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ(٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ(٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ(٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ(٢٩) الأنبياء.

الأمر بالتعامل مع الكفار والمنافقين بكل غلظة

بعدما أصبح من الثابت أن الكفار (قريش) والمنافقين (مسلمة قريش ومسلمة يثرب) لن يؤمنوا فقد أُمِرَ النبي أن يجاهدهم ويغلظ عليهم: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(٩).

صلة القرابة بالرسول لا تعني الصلاح والتقوى

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ(١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(١١) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ(١٢).

فامرأة الرسول نوح وامرأة الرسول لوط كانتا كافرتين، مع أنهما عاشتا في بيت النبوة. بينما آمنت امرأة الطاغية فرعون. وسورة هود تذكر أن أحد أولاد نوح هلك كافراً مع الكافرين: وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ(٤٣) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ(٤٤).

وهذا يعني أن الاعتقاد بأن نسل علي ابن ابي طالب يتوارثون علم النبوة اعتقاد خرافي، حتى لو افترضنا أن الرسول كان جد للحسين ابن علي. لأن التقوى والصلاح لا يورثان، وإنما هما خيار شخصي.

المرحلة الخامسة: مرحلة ما بعد الأحزاب

وهي تلك الفترة الزمنية التي تقع بين موقعة الأحزاب وفتح مكة، وقد نزل فيها ثلاث سور هي: الأحزاب، النور، والمنافقون. والسور الثلاث تتحدث عن غزوة الأحزاب، ورجوع المنافقين للمدينة أثناء حفر المسلمين للخندق، وكيف عاثوا فساداً في المدينة، وكيف تمت معالجة ما أحدثوه من فساد، والقضاء على نتائجه وتطهير المجتمع منه.

ولعل القراء لاحظوا أنه منذ نهاية سورة المائدة (ترتيبها في النزول هو ٩٦) توقفت السور عن فرض التشريعات والأحكام، وتحولت للحديث عن الوقائع والأحداث التي يمر بها المسلمون. فيما عدا سورة الأنفال التي تحدثت عن بعض التوجيهات للمسلمين حول الجهاد، بسبب ما وقع في معركة بدر، ولم تتحدث عن تشريعات جديدة. فالتشريعات اكتملت في سورة المائدة:... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣).

ومن اضطر لمخمصة «مخالفة تشريع» اضطراراً، غير متجانف «عامداً، قاصداً» فلا إثم عليه.

وما لم يذكر له في القرآن حكم وتشريع، فيجب أن يتوقف الناس عن السؤال عنه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنْهَا وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ(١٠١) المائدة.

وهذا يعني أن كل مسألة لم يذكر لها حكم في القرآن، فلا يجوز سؤال الرسول عن حكمها، لأنه إذا سئل فسينزل الوحي بحكم لها. وإذا نزل لها حكم أصبح ملزماً، وهي من المسائل التي لا تشريع وحكم ديني لها، لو لم يسأل عنها. فلكل شخص الخيار بفعلها أو تجنبها، دون أن يخشى غضب الله، لأنه لا حكم لها في دينه. فهي مسائل دنيوية، وليست دينية، وقد تخضع للعرف والعادة، وتقبل في مجتمع وزمان وترفض في آخر. ومن ذلك كل ما وضع له

رجال الدين حكماً اعتماداً على حديث أو تفسير أو رأي شخصي، ولم يذكر في القرآن، وهذه أمثلة على ذلك:

حلق أو إطالة اللحية، حلق أو إطالة الشوارب، حلق أو إطالة الإبط، حلق أو إطالة شعر الرأس أو أي شعر في الجسم. الغناء للترفيه، وليس كحرفه. ألعاب التسلية كالشطرنج والورق. اللبس للمرأة والرجل ما لم يتجاوز الاحتشام......... والكثير غيرها، مما ليس لها علاقة بدين الله، وإنما هي عرف وتقاليد تتغير بتغير الزمان والمكان. ويدخل في ذلك كل تشريعات وعقائد المذاهب المختلفة التي تعتمد غير القرآن، سواءً كان حديثاً أو تفسيراً أو فتوى، أو غيرها، فهي ليست من دين الله ولا يجب أن تعتبر منه.

وكل عقوبات تفرضها سور قادمة، فهي ليست تشريعات، بل هي عقوبات لمعالجة موقف وحدث معين، لو لم يقع لما فرضت، وهي تطبق بحق كل ظاهرة مماثلة تنتشر في بلاد المسلمين. ويحق لهم فرض عقوبات أشد لو اقتنعوا أن هذه العقوبات لا تكفي للقضاء على ظاهرة الفساد. فالغاية هي القضاء على ظاهرة الفساد، بعقوبات دنيوية يفرضها المسلمون ولا يتفرد بفرضها شخص واحد كالحاكم أو القاضي، ولا مجموعة كالكونجرس. بل تفرض بموجب قوانين يصوت عليها بشكل جماعي.

وسور هذه المرحلة ستفرض بعض العقوبات التي لو لم تقع أحداث معينة، ستخبرنا بها، لما فُرِضَتْ هذه العقوبات. وكلها لها علاقة بالزنا والقذف ومحاولة نشر الفحشاء، وليست تشريعات لها. لأن حكم الزنا قد ورد في سورة مكية، منها سورة بني إسرائيل: وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً(٣٢).

(١٠٨) الأحزاب

تتناول غزوة الأحزاب كموضوع رئيسي، لكنها تتحدث عن مواضيع أخرى حدثت في تلك الفترة. وفيما يلي مواضيع السورة بتسلسل متوافق مع تسلسل الآيات:

تحذير للرسول من الاستماع للكفار (أهل الكتاب) والمنافقين

تبدأ السورة بمخاطبة الرسول: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً(١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً(٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى

اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً(٣).

تحذير للرسول بعدم طاعة الكفار والمنافقين (الاستماع لهم)، وأن يلتزم بما يوحى إليه، ويتوكل على الله. والكفار هنا هم أهل الكتاب بمختلف معتقداتهم، لأن يثرب ليس فيها سواهم مع الأوس والخزرج. وكأن هذا التحذير تمهيد لما ستتحدث عنه (الآيات: ٤-٥، ٣٧-٤٠). فقد يكون الكفار والمنافقون في يثرب قد تحدثوا عن تزوج الرسول بمطلقة زوجة ابنه بالتبني «زيد» بنوع من السخرية.

التبني

(الآيات: ٤-٥): تقول إنه مثلما كان الظهار منتشراً بين الناس، وهو لا أساس له في دين الله، ولا يُحوّل الزوجة إلى أمٍ للزوج بمجرد قول الزوج: «أنت علي كظهر أمي»، فإن القول بالتبني لا يحول الطفل المتبنى إلى ولد للرجل المتبني: مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ(٤) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً(٥).

وقد كان الناس يلحقون الابن بالتبني بأنسابهم، فجاءت الآيات تقول إن مجرد إلحاق المتبنى بنسب رجل آخر لا يجعله والده البيولوجي، لذا يجب أن يلحق المتبنى بنسب والده الحقيقي، فإن لم يكن معروف الأب فهو أخ لمن يتبناه في الإسلام.

وسنعود لقصة زيد وزواج الرسول بمطلقته عند الآيات (٣٧-٤٠).

أزواج الرسول أمهات للمؤمنين

النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً(٦).

الآية تؤكد أن أزواج الرسول هن بمثابة أمهات المؤمنين.

كل الرسل سيحاسبون كغيرهم من البشر

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً(٧) لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً(٨).

الرسل ليسوا معصومين، وسيحاسبون بدقة كأي بشر آخر، وسيجزون بما كانوا يعملون.

موقعة الأحزاب

(الآيات: ٩-٢٧) تتحدث بالتفصيل عما حدث في موقعة الأحزاب. ولأهمية الموقعة كان لابد من أخذها بشيء من التفصيل والذي يمكن قراءته في قسم أحداث من عصر الرسول.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِّ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُّ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً(٩) إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهَّ الظُّنُونَا(١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً(١١).

لقد كان وقع خبر قدوم جيش الأحزاب هائلاً على نفوس المسلمين لدرجة وصفتها الآية بأن أبصارهم زاغت، وبلغت القلوب الحناجر. بل إن بعض المسلمين شك في صدق الدعوة ووجود الآخرة: «وتظنون بالله الظنونا». لأنهم يعلمون ألا قبل لهم بالجيش القادم، فهو جيش لا تقاس قدراته بقدرات الغزوات والجيوش القبلية العربية في جزيرة العرب.

ولكن الله سلم وهبت على الجيش المعسكر أمام الخندق الذي حفره المسلمون، ريح عاتية تسببت في بلبلة صفوفهم ونفور خيلهم وجمالهم وتدمير أمتعتهم فولوا عائدين لا يلوون على شيء، وكفى الله المسلمين شرهم دون قتال.

انسحاب بعض المنافقين وعودتهم ليثرب تاركين حفر الخندق مع المسلمين

وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُّ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً(١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً(١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً(١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَّ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهَّ مَسْؤُولاً(١٥) قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً

لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً(١٦) قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللهَّ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهَّ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً(١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللهَّ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً(١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهَّ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهَّ يَسِيراً(١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً(٢٠).

لقد استأذنوا الرسول بالعودة بحجة أن بيوتهم عورة (تحتاج لحماية)، ولم يعلم الرسول بأنهم يريدون الهرب من الاشتراك في المعركة، وكانوا سيعودون ليثرب ولو لم يأذن الرسول لهم.

تخيير نساء الرسول

ثم تتحدث (الآيات: ٢٨-٣٤) عن نساء النبي: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً(٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَّ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَّ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً(٢٩) يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهَّ يَسِيراً(٣٠) وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ للهَّ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً(٣١) يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً(٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَّ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهَّ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً(٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهَّ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَّ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً(٣٤).

الآيتان (٢٨-٢٩) تخير نساء النبي بين خيارين: الأول: الرغبة في متع الحياة الدنيا، وسيطلقهن الرسول ليتمتعن بها. الثاني: الرغبة في الله ورسوله والدار الآخرة، وهو ما يعني التخلي عن متع الدنيا. ولأن القرآن لا يفترض أحداثاً لم تقع ثم يتحدث عنها، فلابد أن هناك واقعة ما، حدثت أوجبت هذا التخيير.

فما هي؟

ثم تحذر السورة نساء النبي من إتيان الفاحشة، وتتوعدهن بعذاب مضاعف، وتبين سبب

ذلك:» يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء». لأن اقتراف زوجة الرسول الفاحشة يضر بسمعة رسول الله، والإضرار بسمعته إضرار بالدعوة لله. لأن تصرفات أزواجه مرصودة من قبل أعداء الإسلام، الذين يتمنون لو يجدون أي ملاحظة على سلوكهن ليعيبوها على الرسول. وبما أن الحرب النفسية لها تأثير قوي على النفس، فلن يستطيع الرسول مواصلة الدعوة لو أن أعداءه عثروا على عيوب في نسائه ونشروها.

ومن تختار مباهج الحياة يحق لها طلب الطلاق من الرسول، أما من تختار البقاء مع الرسول فعليها التقيد بضوابط سلوكية معينة، بينتها الآيات (٣١-٣٤) كما يلي:

- عدم الخضوع بالقول والتحدث بطريقة لينة للرجال لأن بعضهم يبحث عن عورات النساء ويتحين الفرص للإيقاع بهن، وإذا ما سمع من المرأة كلاما لينا ظن أنها سهلة المنال: «لَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ «.
- حديث نساء الرسول مع الرجال يجب أن يكون قولا معروفا، بينا واضحا لا مجال فيه للمزاح: "وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً".
- على نساء الرسول البقاء في المنزل، وعدم التجول في الأسواق، إلا للحاجة فقط. وإذا خرجن لحاجة فليبتعدن عن التبرج: " وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى". ((التبرج في لغة العصر يعني استخدام أدوات ومساحيق الزينة)).
- الحرص على أداء الصلاة والزكاة وتلاوة القرآن والتطبع بطباع النبي الجادة: وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَّ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُّ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً". (لا مجال للاستشهاد بهذه الآية على أنها تتحدث عن علي ابن أبي طالب وفاطمة وطفليهما، كما تزعم كتب التراث)
- وكل هذه الاحترازات لكي تبقين طاهرات السريرة والسيرة، ولا يكون لمن في قلبه مرض عليكن سبيل.

ومن أجل أن تضع السورة حداً لأي مشاعر مريضة لمن في قلبه مرض في المستقبل، أكدت في بدايتها أن نساء النبي هن أمهات للمؤمنين، والأم لا يجوز أن يتزوجها أبناؤها. لذا لا يجوز الزواج بنساء الرسول ولو بعد وفاته، كما لا يجوز النظر إليهن بشهوة: النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهَّ مِنَ

الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً(٦).

فالرسول يجب أن يكون لقبه ولي المؤمنين، وزوجاته أمهات المؤمنين. (لا أحد يسمي الرسول بولي المؤمنين في عصرنا عند ذكره، مع أن السورة قالت بذلك).

ومما سبق يمكن القول إن هناك رجالاً منافقين وفي قلوبهم مرض، هؤلاء كانوا يتحينون الفرص للتمادي في الحديث مع نساء النبي حديثاً عبثياً وكانت نساء النبي - بكل براءة - يبادلن الرجال الحديث، مما يجعل من في قلبه مرض يطمع.

يطمع بماذا؟

هل طمعه بسماع تلاوة سورة من القرآن من نساء النبي؟

أم طمعه في الفاحشة؟

هو منافق ولا يؤمن بالإسلام، ولا يُكِنُّ للرسول أي احترام، بل ويسخر من زعمه أنه رسول. ولا ينظر لنسائه إلا على أنهن نساء. ولو قدر له أن يتمكن من تحقيق رغبته فلن يتوانى.

ولو سئلنا متى حدث أن رجالاً من المنافقين الذين في قلوبهم مرض (يحبون شيوع الفاحشة) جابوا شوارع المدينة بحثاً عن تحقيق رغباتهم، وتجرأوا على الحديث مع نساء المدينة ومن ضمنهن نساء الرسول؟

نقول: هذا يستحيل أن يحدث بحضور رسول الله وحضور رجال المسلمين.

والسورة تخبرنا أن من في قلوبهم مرض استأذنوا الرسول وعادوا من حفر الخندق إلى المدينة: «وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً(١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ....».

هذا يعني أن ملاحقة النساء في المدينة تمت بعد رجوع من في قلوبهم مرض من جبهة حفر الخندق إلى المدينة الخاوية من الرجال.

والسورة تعود لإكمال ما حدث: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ

لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللهِ عَظِيماً(٥٣).

الآية تضع بعض الاحترازات للقضاء على ما حدث وضمان عدم تكراره، كما يلي:

- فرض قانون يحرم دخول بيوت (حجرات) الرسول التي تعيش فيها نساؤه، بدون استئذان.

وهذا يعني أن بعض رجال المسلمين كانوا يدخلون للحجرة بدون استئذان، وهذا فيه مجال لرؤية المرأة وهي في ملابسها البيتية، وقد تكون في وضع يظهر بعض أجزاء جسدها التي يحرم على الرجال رؤيتها. كونها في بيتها ومن حقها أن تتحلل من ثيابها التي تلبسها للخروج للشارع. ومع أن هذا كان يتكرر ويؤذي الرسول (يزعجه) دون أن يبدي انزعاجه، فإن ما حدث أخيراً ممن في قلوبهم مرض كان سبباً في منع أي رجل من دخول حجرة من حجر نساء الرسول إلا بعد أن يستأذن، لقطع الطريق على من في قلبه مرض.

- في حال كان هناك حاجة ملحة لمخاطبة نساء الرسول، فليسال الرجل وهو خارج الحجرة وبينه وبين زوج الرسول حجاب (جدار الحجرة): وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ.
- تحريم الزواج بأزواج الرسول من بعده (طلاقاً أو وفاة): وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللهِ عَظِيماً.

وهذا القانون الأخير بتحريم الزواج بنساء الرسول هو استكمال لما ورد في أول السورة من أن نساء الرسول أمهات للمؤمنين. وعليه فلا يجوز أن ينظر لهن بشهوة.

وتُذَكّر السورة المسلمين والذين في قلوبهم مرض على سواء: أن الله يعلم ما يدور في خواطرهم إن خيرا وإن شرا: إِن تبدو شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً(٥٤).

- القوانين السابقة لا تنطبق على الأقارب: لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاء إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاء أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً(٥٥).
- ثم تفرض السورة قانوناً لتحية الرسول: إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً(٥٦).

وتقول إن الله وملائكته يحيون الرسول بأسمى التحيات وهي (الصلاة عليه)، وتطلب من المسلمين أن يحيوا الرسول عندما يقدمون عليه بتحية مماثلة لما يحييه بها الله وملائكته "صلوا عليه وسلموا تسليماً".

وهذا يعني أنه قبل نزول هذه السورة لم يكن المسلمون أو بعضهم يحيون الرسول عند مقابلته، وبعد نزول السورة أصبحت تحية الرسول بهذا الشكل: الصلاة والسلام عليك يا رسول الله (أو يا محمد). وفي عصور لاحقة تحولت التحية لصيغة أخرى لم يأمر بها الله ولم يسمع بها رسول الله في حياته، وهي اقتران عبارة (صلى الله عليه وسلم) باسم الرسول كلما ذكر، كتابة أو حديثاً. وهذه العبارة دعاء وليست تحية، لم يطلبها الله ولم ينتظرها الله جل وعلا من الناس لكي يصلي على رسوله.

ثم تفرض السورة عقوبة إلهية على كل من آذى الرسول، وهم الذين في قلوبهم مرض الذين كانوا يحدثون نساء النبي حديثاً لا يليق: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَّ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً(٥٧).

والسورة تظهر لنا أن ما قام به الذين في قلوبهم مرض لم يتضرر منه نساء الرسول فقط، بل كل نساء المؤمنين في المدينة: وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً(٥٨).

لذا فرضت قوانين عامة لكل نساء المدينة لحمايتهن من تلك التصرفات: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللهُّ غَفُوراً رَّحِيماً(٥٩).

- على النساء المؤمنات أن يحتشمن في ملابسهن ويحرصن على تغطية ما يثير: " يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ"، لأن المظهر قد يدل على المخبر. فمظهر المرأة التي تلبس ملابس فاضحة لا تستغرب لو تعرضت لمضايقات وقحة، بينما لو احتشمت المرأة فلن يتجرأ من في قلبه مرض على الدنو منها.

ما حدث أصبح واضحاً الآن: فطوال الفترة التي كان المسلمون مرابطين لحفر الخندق، استأذن بعض المنافقين الرسول بالعودة للمدينة معتذرين أن بيوتهم عورة وصدقهم رسول

الله وسمح لهم، بينما السبب الرئيسي هو عدم رغبتهم في القتال مع المسلمين وتمهيداً لهربهم لو اقتحم الأحزاب الخندق. وخلال تواجدهم في المدينة استغلوا خلوها من الرجال، وسعوا في ملاحقة النساء في الشوارع وفي كل مكان طلباً للفاحشة. وكانوا يدخلون بيوت المسلمين في المدينة دون استئذان، بحجج متنوعة، علهم يحظون برؤية ما لا يجوز لهم النظر إليه من أجساد النساء، وملاطفتهن في الحديث والتبسط معهن، وهو ما يفعلونه مع نساء الرسول أيضاً. لكن السورة تحدثت بصورة أكبر عن نساء الرسول كونهن لسن كأحد من النساء، وأي إشاعة عنهن ولو كانت كاذبة ستسيء ليس فقط لشخص الرسول بل للدعوة كلها.

وقد نزلت الآيات لتبين للنساء ما عليهن فعله للحد من تصرفات أولئك المرضى، وتحميهن منهم كما حذرت نساء النبي وفرضت عليهن التقيد بقوانين وقائية.

ثم تحذر الآيات أولئك السفلة إن هم لم ينتهوا فسيحل بهم العقاب المتمثل بالجلاء من المدينة أو القتل: لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً(٦٠) مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً(٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً(٦٢).

ونعود لمتابعة سرد السورة الذي توقف عند الآية ٣٥، حيث نجد أن الآية والتي تليها ٣٦ تتحدثان عن خلاصة مستفادة لما حدث: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً(٣٥) وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً(٣٦).

من يتقيد من ذكر وأنثى بما نزل من قوانين فهو مؤمن ومن لا يتقيد بها كل أو جزء فله نار جهنم.

ثم تنتقل السورة لتكمل الحديث الذي بدأته في الآيات (٤-٦) عن زواج الرسول بمطلقة ابنه بالتبني الذي اسمه زيد: وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ

زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَّ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُّ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُّ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللهَّ مَفْعُولاً(٣٧) مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُّ لَهُ سُنَّةَ اللهَّ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهَّ قَدَراً مَّقْدُوراً(٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهَّ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَّ وَكَفَى بِاللهَّ حَسِيباً(٣٩) مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهَّ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُّ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً(٤٠).

وبطبيعة الحال لم يتزوج الرسول مطلقة زيد لأنه رأى فخذها واشتهاها كما تقول كتب التراث، ولكنه تقدم لها كأي رجل آخر وقبلت به. وذكر ما حدث في القرآن لأن الزواج جاء بخلاف الموروث والمتبع، الذي يلحق المتبنى بنسب المتبني، ويعتبره وكأنه من صلبه وهذا هو السبب في الحديث عنها في القرآن. أما زواج محمد بمطلقة زيد، فإن كتب التراث التي تنقل لنا أن الرسول تزوج مطلقة ابنه بالتبني وكأنها جريمة، فهي نفس الكتب التي تنقل لنا أن الناس في ذلك العصر كان من عادتهم أن يرث الولد زوجة أبيه من بعده ويعاشرها، مع أنها بحكم والدته. ((للتذكير بتناقضات الموروث)).

والرسول لم يعشق المرأة ولم ير من جسدها ما يغريه بها، بل هو تزوجها بعد أن أصبحت طالقاً من زيد " فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا". لقد قضى زيد وطره منها ولم تعد تهمه. ولو كان الرسول رأى من جسدها ما لا يجوز له فسينزل التوبيخ في القرآن. كما حذره وهو في مكة من النظر فقط للنساء وهن يمشين أمامه في الشارع: لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ(٨٨) الحجر؟

فما بالك لو نظر لجزء من جسد امرأة أجنبية لا يجوز له النظر إليه؟

(الآيات: ٤١-٥٢) تخاطب الرسول والمؤمنين وتفرض بعض التشريعات: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَّ ذِكْراً كَثِيراً(٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً(٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً(٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً(٤٤).

ويحتمل أنه من هذه اللحظة بدأ المسلمون يستخدمون "السلام عليكم" كتحية بينهم.

كما تتوعد الآيات المخالفين فهي تعد المؤمنين، وتطلب منهم مواصلة ذكر الله وتسبيحه في

كل وقت، وتخبرهم أن الله يهديهم أسمى التحيات (يصلي عليكم وملائكته) وهي صلاة مماثلة للصلاة على الرسول (إن اللهَ وملائكته يصلون على الرسول يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً).

ثم تخاطب السورة رسول الله: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً(٤٥) وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً(٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً(٤٧) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً(٤٨).

قوله: "ولا تطع الكافرين والمنافقين" تعني لا تستمع لما يذيعون ويشيعون وينشرون من أكاذيب. (سنرى ما هي تلك الإشاعات في سورة النور).

ثم تقول السورة أن المطلقة قبل أن يمسها زوجها فليس لها عدة طلاق: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً(٤٩).

ثم تذكر السورة رسول الله بما أحل له الزواج بأي منهن: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً(٥٠) تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَلِيماً(٥١).

ثم تفرض على الرسول حظراً على الزواج بعد اليوم: لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً(٥٢).

وبعد هذه الآية لا يجوز للرسول أن يتزوج أو يطلق. وهذا يعني أن الرسول بعد هذه الآية لم يطلق ولم يتزوج حتى نهاية حياته. وهو ما لا تذكره كتب التراث التي تقول إنه استمر يجمع من النساء حتى مات ووصل عدد من جمعهن معاً إلى (١١) امرأة كان يواقعهن جميعاً

في ليلة واحدة، ومن يجدها وقد حاضت، كان لا يتوانى عن إشباع رغبته وهي مرتدية ثيابها "كما ينقل البخاري في كتابه".

وقد سبق وتناولنا الآيات (٥٣-٦٢)، وما تحدثت عما وقع في المدينة ممن في قلوبهم مرض أثناء حفر الخندق، وهي: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً(٥٣) إِن تبدو شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً(٥٤) لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاء إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاء أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً(٥٥) إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً(٥٦) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً(٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً(٥٨) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً(٥٩) لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً(٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً(٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً(٦٢).

ثم تختم السورة بالحديث عن عدة مواضيع: يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً(٦٣).

سبق وسألت قريش رسول الله عن الساعة بنفس الصيغة، وجاء الجواب متماثلاً: يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ(١٨٧) الأعراف.

وهو ما يؤكد أن الرسول لا يمكن أن يفتي بكلامه الشخصي، ولا يمكن أن يقول بحكم

لسؤال ما لم ينزل به قرآن، يعني لا وألف لا للفتاوى.

ثم تتجه السورة إلى الكافرين (المقصود هنا هم المستضعفون في مكة الذين لم يسلموا): إِنَّ اللهَّ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً(٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَّا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً(٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَّ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا(٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا(٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً(٦٨).

وتنتقل السورة لمخاطبة بعض المسلمين في يثرب: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهَّ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللهَّ وَجِيهاً(٦٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً(٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَّ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً(٧١).

التحذير من أقوال تؤذي الرسول، والأمر بالتقيد بالقول الحسن. ولم تصرح الآيات بنوع القول السيء الذي يصدر من بعض من يتسمى بالإسلام ويصل أسماع الرسول. كما لم تقل الآيات ما الذي كان يقوله بنو إسرائيل لموسى. لكن المفسرين والمحدثين لا يصعب عليهم اختلاق القصص، ولا يتحرجون في نسبتها لله وكأنه هو من قالها، ومن ذلك ما أورده الطبري في تفسيره: حدثني أبو السائب، قال: ثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، وعبد الله بن الحارث، عن ابن عباس، في قوله: لاَ تَكُونُوا كالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى قال: قال له قومه: إنك آدر، قال: فخرج ذات يوم يغتسل، فوضع ثيابه على صخرة، فخرجت الصخرة تشتدّ بثيابه، وخرج يتبعها عريانا حتى انتهت به إلى مجالس بني إسرائيل، قال: فرأوه ليس بآدر، قال: فذلك قوله: فَبَرَّأَهُ اللهَّ مِـمَّا قالُوا.

وبرغم سخافة القصة وفجاجتها إلا أن هذا لم يمنع أن يتناقلها المسلمون دون أن يفكروا بما يقرأون. وكالعادة تتحول هذه القصص إلى جزء من دين الله، ويتهم بالكفر كل من يحاول تخليص الدين منها، بدل أن يتهم بالفكر من نسبها لدين الله.

ثم تختم السورة بالقول: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً(٧٢) لِيُعَذِّبَ اللهَّ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ

وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً(٧٣).

الأمانة هنا لم أتمكن من فهم المقصود بها.

(١٠٩) النور

والتي تعتبر امتداداً لسورة الأحزاب، وتستكمل معالجة المشاكل التي حدثت بسبب تصرفات من في قلوبهم مرض أثناء تغيب رجال المسلمين عن المدينة لحفر الخندق. وقد أخبرتنا سورة الأحزاب السابقة أن رجال المنافقين قد انسحبوا من جمع المسلمين الذين يحفرون الخندق ورجعوا للمدينة: وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً(١٣) الأحزاب.

وهناك استغلوا فرصة خلو المدينة من الرجال لانشغالهم بحفر الخندق، وعاثوا في الأرض فساداً بملاحقة النساء والدخول عليهن في بيوتهن بأعذار واهية لتتبع عوراتهن. وسورة النور تظهر أن سلوكهم المنحرف لم يتوقف عند ذلك الحد، بل تعداه إلى نشر الإشاعات الكاذبة عن أن بعض نساء المدينة قد مارسن الفاحشة معهم ونساء أخريات لديهن الاستعداد لممارستها.

فنزلت سورة النور، وهي السورة الوحيدة في القرآن التي تبدأ بالقول إن سبب نزولها هو لفرض آيات (عقوبات). ولو نظرنا إلى العقوبات التي نزلت في السورة فسنجدها تتعلق بالزنا، وذلك لردع مثل تلك الفئة التي في قلوبهم مرض، وتخليص المجتمع المسلم من هذه القاذورات: سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(١).

جلد الزناة

وأول ما ابتدأت به السورة هو فرض حد للزنا الذي يود الذين في قلوبهم مرض أن يشيع في المجتمع: الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ(٢).

جلد الزناة، عقوبة قاسية، حيث يجمع الألم الجسدي من الجلد، والألم النفسي المتمثل بالإهانة وجرح الكرامة نتيجة الجلد أمام الناس الذي هو جزء من الحد، ولو جلد الزاني

(١٠٠) جلدة في خلوة من الناس فلا يعتبر حداً للزنا.

وعقوبة الزنا لا تتوقف عند الجلد فقط، فالسورة تواصل قائلة إن من يكرر الزنا وهو عالم بحرمته، فليس بمسلم، ولا يجوز أن يتزوج من المسلمين: الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ(٣).

ولو زنا شخص عاقل مختار وهو عالم بحرمة الزنا فقد خرج من الإسلام، ولو بقي يقر بالشهادة ويقيم العبادات ويتجنب بقية النواهي ويأتمر بكل أوامر القرآن. لأن الزنا كبيرة، واستمرار فعل أي كبيرة موجب للخلود في النار، كما تؤكده هذه السورة وسور عدة مرت بنا.

ويلاحظ أن الآيات لم تتحدث أن الزنا يثبت بأربعة شهود، ولا عن رؤيتهم الميل بالمكحلة كما تقول كتب التراث. ولو تذكرنا أن الآية تفرض عقوبة جلد الزناة في وقت انتشرت فيه ظاهرة الفساد الأخلاقي الذي عم المدينة. فوجب جلد كل من يثبت عليهم الزنا ولو لم يكن بشهادة أربعة شهود، ولكن بما يمكن ملاحظته على أرض الواقع. فهناك رجال في قلوبهم مرض لو ثبت ترددهم على منزل امرأة سيئة السمعة فهو مدعاة لأن يكون قرينة على الزنا، ولو اعترف الرجال أو المرأة أنهم زنوا فيجلدون وينبذون من مجتمع المسلمين.

وتحريم الزواج بالزاني والزانية مماثل لتحريم الزواج بالمشركة أو المشرك: وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَـئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٢١) البقرة.

عقوبة اتهام باطل

ثم تشير السورة إلى أن المنافقين والذين في قلوبهم مرض عاثوا فساداً. فبعد عودة المسلمين للمدينة من الخندق، بدأت الإشاعات التي أطلقها الذين في قلوبهم مرض تنتشر، وبدأ الناس يتناقلون أن فلانة قد زنت، وفلانة لا تمانع الزنا، فجاءت الآيات تقول: وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥).

رمي المحصنات الوارد في الآيات السابقة يعني نشر إشاعة عن النساء العفيفات بالزنا، ومجرد نشر إشاعة عن امرأة بأنها زنت أو أن سيرتها سيئة، لا يعني بالضرورة أنها كذلك. وعلى كل من يتهم امرأة بمثل هذه التهم أن يأتي بأربعة شهود يشهدون على صحة ما يزعم، أو يجلد هو (٨٠) جلدة، كحد لاتهامه امرأة بريئة بفاحشة لم تقترفها. وإضافة للجلد، لا يقبل له شهادة.

والشهادة في ذلك المجتمع تعني الاعتراف بأهلية الشاهد وعدله وأحقيته، وأنه شخص محترم، فكان إسقاط الشهادة عذاباً أليماً آخر لمن يرمي المحصنات بجانب الجلد، لأنه يعني سقوط الاحترام والثقة. ومن الأفضل لكريم النفس أن يموت من أن يسقط اعتباره في المجتمع.

ولا يعاد لمن يرمي المحصنات اعتباره في المجتمع إلا بالتوبة المباشرة وعدم العودة مرة أخرى.

وشهادة شهود أربعة على الزنا ليست كما صور لنا رجال الدين ومن تسموا بالفقهاء والمحدثين والمفسرين، من أن يتمكن كل واحد من الشهود الأربعة أن يرى ميل الرجل وقد دخل في مكحلة المرأة، لأن هذا من المستحيل. لكن الشهادة هنا تعني أن يشهد أربعة أن امرأة بعينها بالفعل تمارس الرذيلة، ولم يروها فعلياً، ولكن نتيجة مشاهدات عامة كتواتر دخول طالبي المتع الحرام بيتها.

سورة النور تركز على ضرورة التعامل مع تلك الظاهرة السيئة التي انتشرت في المدينة والتعامل معها بكل حزم وصرامة للقضاء عليها. ولم تنزل لتقول (كما تقول كتب التراث) إن الزنا قد يوجد في المجتمع المسلم ولو حدث فعلينا أن نتشدد في إثباته على الزناة ودرئه بالشبهات. بما يعني أن نحاول أن نشكك في ثبوت الزنا ولو رأينا رجلاً فوق امرأة في وضع مخل. فدرء الحدود بالشبهات التي تقول بها كتب التراث بهذه الطريقة ليس فيها خدمة لدين الله، ولكنها تشجيع على انتشار الفاحشة والنجاة من العقوبة. والمجتمع المسلم يجب أن يخلو من الزنا تماماً، وكل من يزني فليس بمسلم، ويجب عقوبته بقسوة ونبذه من المجتمع. ومع أن السورة تتحدث عن الرجل الذي يتهم زوجته بالزنا، إلا أن الحكم يكون كذلك لمن تتهمه زوجته بالزنا.

اتهام زوج زوجته بالزنا

ويبدو أن امرأة أو أكثر من نساء المسلمين، ممن حامت حولهن الإشاعات، قد اتهمها زوجها فعلياً بالزنا تصديقا للإشاعات، فنزل حكم لمثل هذه الحالات، يقول: وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاء إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ(٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَيَدْرَأُ(٧) عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ(٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ(١٠).

والآيات السابقة كما هو واضح، تقول: إذا اتهم أحد الزوج زوجته بالزنا يتم التالي:

- إن كان هناك شهود عدول أربعة يشهدون على المتهمة، يقام حد الزنا عليها.
- إن لم يكن هناك كل الشهود، فيتم التالي:
- من يتهم زوجه ينطق بالشهادة بالله أربع مرات أنه من الصادقين، ثم يقول: أن عليه لعنة الله إن كان من المكذبين.
- ثم تقوم المتهمة بالشهادة بالله أربع شهادات أن من يتهمها كاذب. ثم تقول: إن غضب الله عليها إن كان من اتهمها صادقاً.
- في هذه الحالة يفرق بين الزوجين وينتهي الزواج. ولا يقام حد الزنا على المتهمة بالزنا، ولا حد رمي المحصن على من اتهم زوجه.

لكن لو لم تشهد الزوجة فتجلد عقوبة الزنا (١٠٠) جلدة ويفرق بين الزوجين.

والآيات تتحدث عن أن الزوجة هي المتهمة، لأن الذي حدث هو أن رجال المسلمين كانوا خارج المدينة يحفرون الخندق عندما عاث رجال منافقون في شوارع المدينة فساداً، فكانت النساء هن عرضة للزنا دون رجال المسلمين في تلك الفترة.

الذين في قلوبهم مرض هم من أشاع أن نساء من المسلمين يزنين أو لا يمانعن من الزنا

وتقول الآيات إن العصبة (الفئة الذين سمتهم سورة الأحزاب: الذين في قلوبهم مرض) نشرت إشاعات كاذبة (إفك) حول سيرة بعض النساء، وقد تلقف بعض المسلمين تلك الشائعات وروجوا لها لأنهم صدقوها، دون أن يتأكدوا من صحتها: إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا

بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ(١٢) لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ(١٣).

الإفك هنا يعني الإشاعات الكاذبة. ولقد كانت هذه الحادثة في ظاهرها سيئة، إلا أنها جلبت معها منفعة. فقد تم بسببها فرض قوانين (حدود) تحمي البريء من التهم الكاذبة (الإفك). ووضعت ضوابط وحدوداً ليطبقها المسلمون في حالات مماثلة متى حدثت، للقضاء الفوري على هذه الظواهر أو الحوادث القذرة.

وقد كان يجب على أفراد المجتمع المسلم أن يواجهوا انتشار مثل تلك الإشاعات بما يلي:

- الظن الحسن بأنفسهم ووضع احتمال أن يكون كذباً وافتراء « لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ».
- إلزام كل من صدرت منه الإشاعات بإحضار أربعة شهود على أن المرأة التي يتهمها بالزنا بالفعل قد زنت " لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء".
- إن لم يتمكن مطلق الإشاعات من إحضار الشهود على من يتهم بالزنا، فهو إثبات على كذبه وافترائه " فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ".

وفي هذه الحالة يطبق بحق من أطلق الإشاعة الكاذبة الحد المذكور في الآيتين الرابعة والخامسة.

وتقول السورة لبعض المسلمين الذين تلقفوا الإشاعات ونشروها قبل التأكد من صحتها: وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ(١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ(١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(١٨).

أما تلك العصبة من الذين في قلوبهم مرض، والذين أطلقوا تلك الإشاعات الكاذبة بحق بعض النساء المسلمات، فتتوعدهم السورة بعذاب أليم في الدنيا يتمثل بالعقوبات التي

نصت عليها الآيات، وعذاب النار في الآخرة: إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(١٩).

وعذابهم في الدنيا بينته لنا سورة الأحزاب: لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً(٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً(٦١).

وهذا يعني استصدار القوانين الآنية للضرب بيد من حديد في دولة المسلمين على كل من يحب أن تشيع الفاحشة في المجتمع، بدون تهاون حتى يتم القضاء النهائي علي أي بوادر تشجع أو تروج لمثل هذا، بدعاية وإعلان أو نشاط أو إعلام. ولا تشجع الفاحشة في وسائل الإعلام ثم تطلق ذئاب بشرية على الناس لكي يتسوروا الأسوار ويقتحموا البيوت والأحراز بحجة مكافحة الرذيلة والنهي عن المنكر. فالحل لا يأتي من الأسفل ولكن من الأعلى.

وتعود الآيات لمخاطبة المسلمين عموماً، وتقول لهم إن الله قد شملهم برعايته من شر هذه الفتنة: وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ(٢٠).

وتمت السيطرة على الوضع في المدينة، وسرعان ما ستعود المياه لمجاريها الطبيعية.

وتؤكد الآيات على أن يحذر المسلمون من الزلل مرة أخرى في مثل هذه الأحداث، لأنها أفعال شيطانية عليهم التطهر منها، وعدم تكرار نشر التهم على البعض، فليس هناك إنسان معصوم عن الخطأ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢١).

وعلى المسلمين أن يتكافلوا فيما بينهم، وأن يعفوا ويصفحوا وينسوا ما حدث: وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٢٢).

أما تلك العصبة من الذين في قلوبهم مرض فعليهم لعنة الله في الدنيا والآخرة، ولهم عذاب أليم: إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٢٣).

ولقد كانوا يعلمون أنهم يروجون لإشاعات كاذبة: يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ(٢٥).

وهذه الفئة من الناس لا يسمح لها بالعيش بين المسلمين لأنهم خبائث يعيشون بين الخبائث، والمسلمون طيبات تعيش بين الطيبات: الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ(٢٦). وهذا قانون آخر يجب تطبيقه لتخليص المجتمع من الرذيلة. فكل من يسعى لنشر الرذيلة ولا يرتدع ينفى (يطرد من البلد) أو يقتل إن استمر يعمل على نشر الرذيلة من بعد، كما تقول سورة الأحزاب: لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً(٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً(٦١).

ويبدوا أن المنافقين قد توقفوا عن ممارساتهم خوفاً من تنفيذ أمر الله فيهم، لذا لا يذكر التاريخ أن الرسول قد أمر بقتل أحد منهم.

قوانين وإجراءات احترازية

بعد أن وضعت السورة ضوابط وعقوبات للزنا والحد من نشر الإشاعات، تستمر في وضع ضوابط وقوانين للحماية من انتشار الفواحش أو ما يقرب إليها، في المجتمع المسلم:

قانون دخول البيوت والأحراز

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ(٢٨) لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ(٢٩).

لقد كان أفراد تلك العصبة الذين في قلوبهم مرض يتعمدون دخول البيوت بدون استئذان وفي غفلة من أهلها، لرؤية النساء في وضع يكشف عن مواضع من الجسد لا يجوز للرجل غير المحرم رؤيتها.

قانون غض الطرف

كما فرضت الآيات على الرجال والنساء مراعاة بعض السلوكيات والابتعاد عن سلوكيات أخرى، لضمان حماية المجتمع من انتشار الرذيلة أو الدعاية لها ولو بطريقة غير مباشرة، كما يلي: قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ(٣٠).

فعلى الرجل أن يغض بصره عندما يتحدث مع النساء ولا يرمق المرأة أو جسدها بنظراته، ولو لم تكن على علم بذلك، لأن النظرات طريق للإثارة، ومتى ما أثير المرء بدأ يفكر بالجنس، والتفكير بالجنس طريق لاقتراف الزنا إن توفر له، ولم يتوفر له الحلال. وعليه أيضاً كلما جال بخاطره الجنس أن يتذكر أن الزنا حرام، وأن البعد عن الإثارة واجب.

وفي حال وقعت عينا الرجل على وجه امرأة جميلة أو جسد مثير فلا يطيل النظر ولا يكرره، لأنه لو فعل فقد اقترف حراماً. كما أن من حفظ الفرج عن الحرام، البعد عن المناظر المثيرة والبعد عن التفكير بما يثير، أو التفكير بممارسة الجنس، ولو أنه لن يقترف الزنا.

وقد قرأت دراسة عن الجنس منذ سنوات قام بها مركز مختص في أمريكا، تقول أن الذين يقضون أوقاتاً طويلة في أعمال جادة وبعيدة عن الإثارة الجنسية كالمعامل والمختبرات ومراكز الأبحاث العلمية، يصبح الجنس لا أهمية له عندهم، ويقل إلى درجة كبيرة تفكيرهم فيه. بينما تزيد عدد المرات التي يمارس فيها المرء الجنس وعدد المرات التي يفكر فيها بالجنس إذا كان يعمل في محلات الرذيلة والنوادي الليلية أو أماكن لها علاقة بالجنس. وملخص الدراسة يتمحور حول أن الإثارة الجنسية المستمرة تؤدي إلى الهوس الجنسي وكلما تردينا في هذا الطريق كلما ازداد الهوس لدرجة المرض، بينما البعد عن الإثارة الجنسية تجعلنا أناساً أسوياء لا يحتل الجنس في حياتنا أكثر مما يجب له.

وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا

الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٣١).

وعلى المرأة مثل ما على الرجل. من غض البصر وحفظ الفروج. وبحكم كونها المخلوق الأجمل، والمثير، فلابد أن تراعي تصرفات أخرى:

فلا يجوز لها أن تظهر بكامل زينتها وتبرجها في مجتمع الرجال الأجانب، إذا كانت ظروف العمل أو الحاجة تضطرها للبقاء بينهم أو التعامل معهم. كما لا يجوز للمرأة أن يصدر منها أي حركة قد تتسبب في إثارة الرجال، ولكن من الجائز لها أن تتزين عند الرجال من أقاربها. والملاحظ اليوم أن بعض النساء المسلمات تلف شعرها بقماش ثم لا تترك لوناً أو صبغة إلا تضعها على وجهها وتحت عينيها مع نفخ الوجنتين والشفاه ومواضع أخرى، وتعتبر نفسها أنها محجبة وقامت بما طلب الدين منها. وهي عبارة عن عبد للشيطان يتحرك على الأرض أينما توجهت.

السورة تؤكد على الحشمة وليس التحايل. الحشمة هي أن تبدو المرأة بعيدة عن مظاهر الإغراء، وإلا فقطعة قماش فوق الرأس لا تعني شيئاً. وبطبيعة الحال ليس هناك حشمة مع شعر منفوش

وتضيف السورة بعض الضوابط لمحاربة الفواحش

وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(٣٢).

- لا حدود اجتماعية وطبقية للزواج. فالفقير أو المولى (عندما كان هناك موالي) يتزوج بهم وبهن نساء ورجال من ينتسبون لقبيلة. ولا وجود للتفريق بين الزوجين لعدم تكافؤ النسب (التي اختلقها الفقه وتطبقها المحاكم في مجتمعنا) وهي حمية جاهلية تحاربها الآية وتنفيها.

وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣٣).

- من لا يجد القدرة المالية على النكاح فليستعفف بكل وسيلة، حتى يغنيه الله من فضله (يجد سبيلاً للزواج). ومما توفره دولة المسلمين كحياة كريمة للمسلم هو معاونته على الزواج.
- وفي حال كاتب رجل امرأة على الزواج، وأرادت المرأة أن يتم الزواج فعلى الرجل عدم التأخر والزواج بها بعد أن يقدم لها صداقاً مما رزقه الله من مال[1].

وتقول الآية: " وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا" وهذا يعني أن من المعتاد في مجتمع يثرب – وقد يكون في مناطق أخرى – وقت نزول السورة أن يقوم السيد بإكراه إمائه على البغاء للكسب المادي . لأن البغاء هو الزنا نظير مقابل مادي.

والنهي هنا ليس للتخيير أو النصح، بل للتحريم القاطع، لأنه نهي إلهي. وليس هناك نهي إلهي للنصح أو التخيير، بل للاتباع والطاعة. والمخاطب في السورة ليس المسلمين، ولكن رجال يثرب من أهل الكتاب، لأن المسلم لا يجوز له ذلك ولا يمكن السماح له بفعله.

وتؤكد الآية أن الله سيغفر للبغي المكرهة على البغاء بعد ذلك، أي بعد أن يتوقف وينتهي سيدها من استغلالها في هذه المهنة المهينة.

والقرآن تحدث عن الرقيق، لكنه لم يقر الرق. والرق قديم، ولا علاقة له بالإسلام. الذي فرض عدداً من الضوابط لو طبقها المسلمون لتم تجفيف منابعه منذ صدر الإسلام. فالإسلام لم يقر مصادر الرق وهي السبي والغارات الجاهلية، إضافة إلى جعل تحرير الرق كفارة لعدد من التجاوزات. لكن الحكام بعد صدر الإسلام هم من أعاد لمصادر الرق حيويتها بعد أن هدها الإسلام، لدرجة أن عواصم المسلمين ومدن دولتهم أضحت أكبر مراكز الرق في العالم من بغداد ودمشق ومكة والقاهرة شرقاً إلى القيروان وفاس وقرطبة غرباً.

وتنتقل السورة لتخاطب المسلمين بعقلانية: وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ(٣٤) اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا

---

١ انظر فقرة: ملك اليمين / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٣٥) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ(٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ(٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ(٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ(٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ(٤٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ(٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ(٤٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ(٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الْأَبْصَارِ(٤٤) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٤٥).

الآية (٤٣) قد تشير إلى أن العام الذي نزلت فيه سورة النور كانت سنة مطيرة[1].

عود للحديث عن مسلمة يثرب

تعود السورة لفضح ممارسات أخرى للمنافقين الذين هم أصل المحنة التي مرت بها المدينة، بسبب ملاحقتهم للنساء، ونشرهم الشائعات الكاذبة عن سيرة بعضهن. وهم لم يؤمنوا برسالة محمد، لكنهم أعلنوا أنهم دخلوا الإسلام أملاً في تحقيق بعض المكاسب الدنيوية الشخصية التي لم تتحقق لهم. وكانوا يحضرون مجالس الرسول والمسلمين، ويتظاهرون بالاحتكام لما يحكم به الرسول مما نزل عليه من آيات، لكن لو كان الحكم خلاف ما تهوى أنفسهم فلن يقبلوا به. ولو نزلت آيات تأمرهم بالالتزام ببعض السلوكيات الفاضلة، فلن يتقيدوا بها، وإن تظاهروا بالموافقة أمام الرسول، قبل أن يعودوا لسيرتهم الأولى بمجرد

١ نبهني «أبو حزم» أن هذه الآية والآيات: ٤٦-٤٩ في سورة الروم قد تشيران إلى أن تلك السنة كانت سنة مطيرة. وسنذكر هذا في فقرة: أحداث من عصر الرسول.

مغادرة مجلسه. لكنهم يسارعون بالقبول لأي حكم يتفق مع مصالحهم: لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٤٦) وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ(٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ(٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ(٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ(٥٢).

ولو رجعنا لسورة الأحزاب فسنجدها تخبرنا أنهم خرجوا في بداية الأمر مع الرسول والمسلمين لحفر الخندق، لكن لما قرب وصول جيوش الأحزاب (التحالف) رجعوا للمدينة معللين للرسول بأن بيوتهم عورة: وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً(١٣) الأحزاب.

وهذه السورة تكشف جوانب أخرى سيئة عنهم، فقد كانوا يحلفون للرسول أنه في المرة القادمة سيخرجون مع الرسول ولن يتخلوا عن المسلمين مهما كانت ظروفهم: وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ(٥٤).

وتقول لهم الآيات السابقة لا حاجة للحلف، ولكن عليكم أن تعلموا أن التظاهر بالإسلام وأداء الشعائر لا يعني أن المرء مسلم. وإنما الإسلام هو قبول كل أحكام القرآن، والانتهاء عن كل نواهيه، ومن ترك حكما واحدا أو عمل بخلافه عالماً فهو منافق.

مخاطبة المؤمنين

وتخاطب السورة المؤمنين وتعدهم عند ربهم جنات خالدين فيها: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا

الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ(٥٧).

والآية: (٥٥) تؤكد أن إقامة الدولة واجب على المسلمين، وليس ضرورة فقط، لأنه لا يمكن تطبيق شرع الله إلا في دولة للإسلام. ومتى ما أخلص المسلمون النية لله وعملوا على تأسيس دولة المسلمين فسيعينهم الله على تحقيق ما سعوا إليه. وسيتمتعون في ظل دولة المسلمين بالأمن، وسيتغلبون على من يعاديهم.

وتقول السورة إن جبروت المشركين الحالي مؤقت وستنهار قوتهم ويهزمون في الدنيا، ويوم القيامة سيكون مصيرهم النار: لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ(٥٧).

وهذه السورة نزلت في وقت كانت فيه قريش ما زالت قوية وتهدد المسلمين ودولتهم، فنزلت الآية تطمئن الرسول أن الله سيقضي على قوتهم قريباً في الدنيا، وأن مصيرهم النار في الآخرة.

عود للحديث عن الاحترازات

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٥٩).

الآيات تشير إلى أن من المعتاد في ذلك الوقت أن يضع الناس ثيابهم العادية وقت النوم، ويكتفوا بما قل من اللباس الذي لا يكون محتشماً. كما تشير إلى أن اليوم العملي يبدأ باكراً، حيث يستيقظ الناس قبل صلاة الفجر.

وفي وقت الظهيرة اعتاد الذين يعملون خارج منازلهم العودة لمساكنهم لتناول الغداء وأخذ قسط من الراحة، لدرجة أن القيلولة أصبحت جزءً من العرف الاجتماعي العربي حتى اليوم.

وفي هذه الأوقات التي يختلي الناس فيها بأنفسهم أو بأزواجهم يجب أن يعتاد الأطفال الاستئذان على ذويهم قبل الدخول عليهم في أماكن نومهم، لكي يتسنى للآباء تغطية أجسادهم والاحتشام. وهو ما يدل على أن الناس اعتادوا أن ينام الأطفال في أماكن منفصلة عن مكان نوم الزوجين.

كما يستفاد من الآيات تحريم رؤية الأطفال الأجساد العارية لوالديهم أو غيرهم من البالغين.

وبالنسبة للعجائز من النساء الطاعنات في السن، فلا بأس أن يتخففن من ملابسهن أمام العائلة، للحد الذي لا يكشف عورة، ولا يتبرجن بزينة. والاحتشام أفضل: (وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاء اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٦٠).

وفي آخر السورة تقول الآيات إن الحرص على عدم دخول الأطفال على الأهل والبالغين إلا بعد استئذان، لا يعني وضع حدود لدخول الناس لبيوت أقاربهم ومعارفهم والأكل فيها، سواء من وعاء واحد أو في أوعية منفردة، حسب العادة المتبعة: (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٦١).

وهذا فيه إيضاح لما ورد في سورة الأحزاب، من قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللهِ عَظِيماً(٥٣)الأحزاب.

وتستكمل السورة الموضوع في آيات لاحقة: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٦٢) لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٦٣) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٦٤).

والآيات السابقة تقول: إذا كان هناك حدث أوجب تواجد جميع المسلمين لإنجازه، والآيات تشير لحفر الخندق، فيجب عليهم جميعاً المشاركة بفاعلية وعدم الانسحاب، أو حتى التغيب لفترة مؤقتة، إلا لضرورة، وبعد أن يستأذنوا الرسول، فإن لم يأذن الرسول يجب على من لا يؤذن له البقاء.

ويجب على المسلمين أن يعلموا أن دعوة رجل عادي لاجتماع أو عمل جماعي، تبيح لأي فرد مدعو حق القبول أو الرفض: «لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضاً». لكن لو صدرت الدعوة من الرسول لاجتماع أو إنجاز عمل جماعي، يهم أمة الإسلام، فهو ملزم وليس مقبولاً التهاون به.

وكل من يتحايل على عدم الالتزام بالتواجد في هذا العمل الجماعي الذي دعا له الرسول « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

وهنا لابد من التوقف لما فعله المفسرون والمحدثون بكتاب الله، بتأويلهم لآيات سورة النور، وتحويلها وكأنها تتحدث عن أم المؤمنين عائشة، للنيل من عفتها وطهرها وتشويه سمعتها والقبول بإمكانية وقوعها في الفاحشة. والقصة المختلقة عن أم المؤمنين خرقاء ومع ذلك ثبتت في تراث المسلمين وأصبحت وكأنها هي ما تقول سورة النور بالفعل، برغم وضوح سياق السورة.

ومختصر ما نقله البخاري وغيره من المحدثين، والطبري وغيره من المفسرين، أن أم المؤمنين كانت برفقة ركب جيش للرسول، قادم من غزوة (دون ذكر لها، لئلا يعرف ما جرى في تلك الغزوة). وقد تأخرت عن الركب بحجة البحث عن عقد انفرط من جيدها، وأنها قررت أن تمضي الليل بمفردها في فلاة موحشة. وأن صفوان ابن المعطل هو الآخر كان قد تأخر عن الركب لسبب غير معروف، وقد أمضى الليل معها، ثم لحقا بالركب من الغد.

والقصة فيها تفاصيل كثيرة توحي بأن أم المؤمنين قد تكون اقترفت الفاحشة. واختلاق هذه القصة ضد أم المؤمنين استغلت لكي تصورها وكأنها خارجة عن الحق الذي يمثله علي ابن أبي طالب عندما تولى الحكم، وكأن أم المؤمنين خرجت عن حكمه، لأنه سبق وكان ضدها واقترح على الرسول تطليقها والتزوج بغيرها لأنها سيئة السمعة.

ورأينا كيف أن آيات سورة النور لا تتحدث عن رجوع من غزوة بعيدة عن المدينة، ولا عن تأخر لأم المؤمنين عن الجيش. لقد كانت السورة تتحدث عما كان يحدث في المدينة من تصرفات المنافقين والذين في قلوبهم مرض الذين بدأ الحديث عنهم في سورة الأحزاب، بكل وضوح. لكنها كتب الحديث والتفسير وقصصها المختلق المسيئة لدين الله ورسوله، والتي تحابي المذهب ولو على حساب سمعة الرسول وأزواجه الطاهرات.

(١١٠) المنافقون

لأن ما فعله المنافقون في المدينة حدث جلل، فقد نزلت سورة باسمهم تحذر منهم وتفضح نواياهم وتؤكد على أن ما أبدوه من أسف على ما صدر منهم قالته ألسنتهم ولم تقره قلوبهم، وأن على المسلمين الحذر منهم: إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ(١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ(٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ(٤).

وبعدما انكشف كذب تحججهم ببيوتهم للتخلي عن المسلمين في الخندق، وانكشفت تصرفاتهم العابثة مع النساء، وانجلت غمة الأحزاب وعادت الحياة الطبيعية للمدينة، جاءهم بعض رجال المسلمين وأشاروا عليهم أن يذهبوا للرسول للاعتذار عما سلف منهم والتوبة بين يديه، لكنهم لم يفعلوا، لأنهم لم يؤمنوا بالرسول ودعوته، وإن تظاهروا بالإسلام: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ(٥) سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(٦).

ولأنهم لم يؤمنوا فهم لا ينفقون، ويتواصون فيما بينهم بعدم الإنفاق على المسلمين، لعل

دولتهم تنهار: هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ(٧).

وسورة الأحزاب تخبرنا أنهم في البداية خرجوا مع المسلمين لحفر الخندق، لكن بعضهم (طائفة منهم) وليس كلهم رجعوا للمدينة. وهنا تخبرنا هذه السورة أن من بقي مع المسلمين في حفر الخندق كانوا يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ، ويتهامسون فيما بينهم أنه إن لم يتمكن الأحزاب من دخول المدينة وسحق المسلمين، ورجع المسلمون للمدينة سالمين، فسيقوم المنافقون بإخراج الرسول والمسلمين من المدينة: (يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ(٨).

ثم تختم السورة بمخاطبة المسلمين: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(٩) وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ(١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١١).

تذكير بما حدث قبل أحد عندما أصيبت البلاد بالقحط لشح المطر فامتنع كثير من المسلمين بتأثير من زوجاتهم وأولادهم عن الإنفاق لئلا يصلوا للعوز والحاجة، وتحذر السورة من تكرار ذلك.

فالإنفاق في دولة المسلمين يجب أن يستمر لسد حاجات المجتمع تحت كل الظروف.

المرحلة السادسة: مرحلة الفتح

بعد أن رد الله الأحزاب على أعقابها، وعزم الرسول والمسلمون معاقبة كل من شارك في تلك الحملة، شخص المسلمون مباشرة لمهاجمة قلاع قبيلة من بين قبائل بني إسرائيل يثرب كانت ممن دبر فكرة الأحزاب، وساهم فيها. وقد حدث قتال لفترة قصيرة قتل فيه عدد من بني إسرائيل وأسر عدد آخر، فما كان منهم إلا أن عرضوا على المسلمين أن يخلوا قلاعهم ومزارعهم ويجلوا عن يثرب بما خف حمله مقابل حياتهم وفك أسراهم، وقد وافق المسلمون على ذلك، وتم بالفعل إخلاء يثرب منهم للأبد، كما أخبرتنا سورة الأحزاب: وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً(٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً(٢٧).

وكانت النية عند المسلمين مواصلة معاقبة كل من اشترك في الأحزاب، وهم: قريش، بعض قبائل العرب، إضافة للروم. لكن ما حدث في المدينة – وأخبرت به سورتا الأحزاب والنور – من عبث من في قلوبهم مرض من المنافقين، أخر تأديب المعتدين، ووجه جهود المسلمين لإصلاح ذات البين، والقضاء على المحنة وتبعاتها.

والآن وقد هدأ الوضع في المدينة، فلابد من مواصلة تعقب المعتدين ومعاقبتهم، والبداية بفتح مكة، الذي لم يكن وارداً في جدول أعمال الرسول والمسلمين، لولا حملة الأحزاب التي جعلت تأديب قريش واجباً لا يحتمل التأخير لكي يأمن المسلمون شرها ومكائدها. ولو لم يكن هناك حملة أحزاب فقد لا يستولي المسلمون على مكة زمن الرسول.

وقد نزل في هذه المرحلة سورتان، هما: الفتح والروم، وكلاهما تتحدثان عن معاقبة بعض من اشترك في حملة الأحزاب.

(١١١) الفتح

نزلت في مكة أثناء تواجد المسلمين بعد استسلام قريش.

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً(١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً(٢) وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً(٣).

والرسول مر بفترات إحباط كثيرة ومريرة طوال فترة دعوته في مكة، وبرغم طمأنة الآيات له بالنصر في النهاية، إلا أنه كبشر لا يستطيع تصور المستقبل، ويتأثر بما يشعر وبما يرى وبما يحيط به. فكان في فترات الإحباط لا يرى إمكانية لتغير الأوضاع وقهر المارد القرشي، وها هو الآن يحدث أمام ناظريه كحقيقة وواقع.

الآية الثانية تقول: «لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ». لعل المعنى هنا: لعل الله أن يغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. بمعنى أن ما تقدم من ذنب الرسول هو صغائر، وأن الرسول لن يقدم على كبائر في المستقبل، وبالتالي فالصغائر يغفرها الله للرسول ولغيره من المؤمنين. فالآية لا تقرر مغفرة استثنائية للرسول. ولا تقول إن الرسول سيغفر له ما سيقع فيه من ذنب في المستقبل - مهما كان - قبل أن يقع فيه.

دخول مكة بطمأنينة

وقد تقدم الرسول المسلمين لدخول مكة في مسيرتهم الخاشعة نحو بيت الله الحرام، وكانت مشاعرهم خليطاً من الغبطة والطمأنينة التي حلت عليهم: هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً(٤).

انقلاب الأوضاع

أصبح جيش المسلمين مرهوب الجانب، فيما أصيبت قريش بالذعر المماثل لما شعر به المسلمون عندما علموا بتوجه جيش الأحزاب إليهم، قبل وقت قصير مضى: لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً(٥) وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً(٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً(٧).

وكان الفتح عذاباً معنوياً هائلاً على المشركين الذين فقدوا هيبتهم وعظمتهم وسلطتهم من قِبَلِ عبيد ومستضعفي الأمس. وهو عذاب نفسي للمنافقين مساو لعذاب المشركين، لأن المنافقين راهنوا على القضاء على المسلمين وزوال دولتهم، وعملوا على ذلك بجانب قريش وبني إسرائيل، لكن الفتح يعني أن مساعيهم قد أحبطت ومشاريعهم انهارت، وهم قلقون لما قد يفعله المسلمون بهم. وتحقق وعد الله للمسلمين الذي ذكرته العديد من السور المكية عندما كانوا قلة مستضعفين، وسط قوة قريش الطاغية: أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) القمر.

ثم تُذكّر السورة رسول الله أنه أدى الدعوة كما طلب منه: «شاهد ومبشر ونذير»، ليؤمن الناس بالله ويعزروه ويوقروه ويسبحوه على الدوام: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٩).

البيعة

إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (١٠).

الآية تنقل ما حدث قبيل الفتح، فقد توقف جيش المسلمين عندما اقترب من مكة، لأخذ الاستعداد اللازم، وهناك تمت مبايعة المسلمين للرسول على الثبات في مواجهة قريش. خاصة أن ضمن الجيش مسلمة قريش الذين يجب التأكد من أنهم سيقاتلون من كانوا يوالونهم وحذرهم القرآن من ذلك. وقد يكون التوقف في الحديبية، والمعاهدة مع قريش هي التي عرفت في كتب التراث باسم صلح الحديبية. إلا أن كتب التراث صورتها وكأنها حدثت قبل عام أو عامين من فتح مكة، وليست في يوم فتح مكة أو قبله بيوم أو يومين كما وقعت.[1]

وقد تتابع المسلمون يبايعون الرسول بوضع أيديهم في يده، كرمز للتعهد أمام الله بالثبات

١ الحديبية منطقة لا تبعد عن الحرم بأكثر من (٢٠) كيلومتر، ويمر بها حالياً الطريق السريع الذي يربط مكة بجدة. واليوم لا وجود للحديبية كما كانت زمن رسول الله، ولكنها عبارة عن قرية مهملة قريبة من مكة، شوارعها ترابية وبيوتها تتناثر بشكل عشوائي، وتفتقر للنظافة وخدمات المياه والصرف الصحي وغيرها. وتسمى منطقتها الآن (الشميسي) وهو اسم حديث بدأ يطغى على الاسم القديم (الحديبية). كما أن هناك مشروعاً تجارياً سكنياً يجري العمل على تنفيذه الآن، وهو ما يعرف بضاحية البوابة، ليتم القضاء على كل أثر للحديبية التاريخية، مثلما قضي على كل آثار مكة التي لا تقدر بثمن، والتي كان يجب المحافظة عليها كمواقع أثرية إنسانية لكل العالم وليست فقط للمسلمين. وخبر مشروع القضاء على موقع الحديبية باسم التطوير نشر في الصحف المحلية ومنها صحيفة المدينة على هذا الرابط:http://www.al-madina.com/node/383079

فيما لو دخل المسلمون حرباً مع قريش في مكة. وسنعود لإكمال الحديث عن البيعة بدء من الآية (١٨).

وقد دخل المسلمون مكة بلا قتال، لأن معاهدة الحديبية تنص على دخول مكة تحت حكم دولة المسلمين، على أن تبقي قريش على عقائدها وتأمن على حياة رجالها، وألا تتآمر على الإسلام والمسلمين. وهو ما أخبرتنا به سورة براءة، التي سنتطرق لها في حينها.

تخلف الأعراب عن حملة مكة

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً(١١) بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً(١٢) وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً(١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً(١٤).

الأعراب منذ بداية حضورهم للقاء الرسول عندما هاجر وصفتهم سورة الحجرات بأنهم لم يؤمنوا: قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٤) الحجرات.

وقد تخلفوا عن جيش المسلمين إلى مكة ظناً منهم أن قريشاً قد تسحقهم: « بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً».

لو كانت الحملة مضمونة وفيها مكاسب لما تخلفوا

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً(١٥).

ولو منعوا من مثل هذه الحملة الافتراضية فستتعالى أصواتهم احتجاجاً على أن المسلمين يحسدونهم على أن يحصلوا على بعض الغنائم.

يمكن قبول اعتذارهم عن التخلف بشرط

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً(١٦).

شرط قبول الاعتذار هو اشتراك الأعراب في حملات المسلمين القادمة ضد قوم أولي بأس شديد، فإن قبلوا فهم مؤمنون ومنكم، وإن تولوا كما تولوا من قبل فليسوا مؤمنين ولهم عذاب أليم. والمقصود بالقوم أولي بأس شديد، الروم، والآية تشير إلى معركة مؤتة التي كانت بعد الفتح، كما سنتبين فيما بعد.

العذر يقبل ممن له عذر

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً(١٧).

فالأعمى والأعرج والمريض ليس عليهم أن يستأذنوا للتخلف عن القتال لأنهم معذورون دون حاجة لاعتذار.

عود للحديث عن بيعة الحديبية

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً(١٨).

والحديث عن البيعة في هذه السورة يظهر أنه لا وجود لبيعة ولاء للحاكم، ولكن البيعة تعهد لله بالثبات في سبيله. أو بالتعهد لله بالالتزام بأمور الله والانتهاء عن نواهيه (أي الدخول في الإسلام)، كما ورد في سورة الممتحنة: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٢).

ولا وجود لبيعة أخرى في الإسلام لا للرسول ولا لغيره من البشر.

وكانت البيعة يوم الفتح، بغض النظر هل كان السبب هو بعث عثمان لمكة وتأخر عودته؟ أو كانت بيعة احترازية فيما لو حاولت قريش قتال المسلمين؟ وهو ما أعتقد، لأن خروج

المسلمين لمكة كان على شكل جيش جاهز للقتال مما يعني أن احتمال القتال مع قريش وارد، لكن قريشاً على ما يبدو فضلت عقد معاهدة مع المسلمين لأنها لا قبل لها بهم.

والمفسرون والمحدثون الذين قالوا بأن البيعة قبل الفتح بعام أو عامين، استندوا في قولهم على أن القرآن ينزل آية آية ولا تنزل السورة كاملة، وأن الآيات التي تتحدث عن البيعة نزلت لوحدها بعد البيعة ولما فتحت مكة نزلت الآيات التي تتحدث عن الفتح أول السورة. ولكي نثبت للقراء أن هذه المزاعم مدحوضة مرفوضة ولم تقع، نذكر لهم حديثاً في البخاري يقول: «حدَّثَنا عبدُ الله بن مَسلَمَة عن مالكٍ عن زيدِ بن أَسلمَ عن أَبيه أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلّم كان يسير في بعضِ أَسفارِهِ وعمرُ بنُ الخطَّابِ يسيرُ مَعهُ ليلاً فسأَله عمرُ بن الخطابِ عن شيءٍ فلم يجِبْهُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم، ثم سأَله فلم يُجبه ثم سأله فلم يجبه، فقالَ عمرُ بن الخطابِ: ثَكِلَتْ أُمُّ عمرَ، نَزَرْتَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلّم ثلاثَ مراتٍ كلَّ ذلك لا يجيبكَ، قال عمر: فحرَّكْتُ بَعيري ثم تقدَّمْتُ أمامَ الناس وخشيتُ أنْ ينزَلَ فيَّ القرآنُ فما نَشِبْتُ أن سمعتُ صارخاً يصرُخُ بي. فقلتُ لقد خَشيت أن يكون نزل فيَّ قرآنٌ، فجئْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلّم فسلَّمتُ عليه، فقال: لقد أُنزلَت عليَّ الليلةَ سُورةٌ لَهيَ أحبُّ إليّ مما طَلَعَتْ عليه الشمسُ. ثم قرأ: (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا)».

خروج المسلمين كان لتأديب قريش

وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً(١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً(١٩) وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً(٢٠) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً(٢١).

عندما خرج المسلمون لمكة كان الهدف هو تأديب مقاتلي قريش، ولو التقى الجمعان فسينتصر المسلمون وسيغنمون مغانم كثيرة. لكن ما حدث هو أن قريشاً استسلمت دون قتال وسلمت مكة للمسلمين (أو هكذا تصرفت ظاهرياً، وسنتبين أنها كانت قد عقدت النية على الكيد للمسلمين). فكان فتح فاق خطط المسلمين وأغلى من الغنائم، التي لم يقدروا عليها لأن أهلها لم يحاربوا المسلمين وبالتالي لا مجال للاستيلاء على مال الكافر الذي يلقي السلم. (دليل على التحريم القطعي للاستيلاء على أموال ومتاع المسالم، وينفي نفياً

قاطعاً أن تكون فتوح المسلمين الأولى - زمن الرسول، أبي بكر، وعمر - كان فيها سبي ونهب واسترقاق، ولكن هذه الأفعال لازمت حروب السلاطين بعد ذلك الذين استولوا على دولة الإسلام).

ثم تصف السورة دخول المسلمين مكة بسلام: وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً(٢٢) سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً(٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً(٢٤) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً(٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً(٢٦).

رؤيا الرسول تتحقق

لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً(٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً(٢٨).

الرؤيا كانت عبارة عن دخول الرسول والمسلمين للمسجد الحرام آمنين محلقين ومقصرين[١]، وهو ما تحقق يوم الفتح. وقد رأى الرسول هذا في منامه وهو في مكة وفي فترة عصيبة على المسلمين، حينما كانوا قلة مستضعفين وكانت قريش متسلطة عليهم. ولم يكن بإمكان أي أحد لا من قريش ولا من المسلمين يتوقع أنه سيأتي يوم ويصبح المسلمون أعزة ويسيطرون على مكة وتتحول قريش ذليلة لدرجة أنها لا تستطيع منعهم من دخول مكة.

والرؤيا لم تتحقق لأنها رؤيا للرسول، ولكن لأن أماني الرسول ومشاعره عندما كان في مكة رآها على شكل حلم، وقد تحققت على أرض الواقع، لأنها تتوافق مع تحقيق وعد الله الدائم بنصر من ينصره، وهو ما تحدثت به سور مكية في وقت كان المسلمون قلة مستضعفين،

١ قد يكون العرف السائد حينها أن كل من يدخل مكة في غير وقت الحج والعمرة يحلق شعره أو يقصره كمظهر من مظاهر احترام البيت.

وكل ما يتمنونه هو البقاء أحياء، ومن ذلك: ..... وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(٤٠) الحج.

فتح مكة زاد عزة المسلمين

وبفتح مكة أصبح للمسلمين دولة مرهوبة الجانب، تضم بالإضافة للمدينة، مكة التي يقدسها كل سكان جزيرة العرب. كما تضم دولة المسلمين مجموعة من الناس أشداء على الكفار رحماء بينهم، ولهم حقوق متساوية: (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً(٢٩).

والآية تبين استراتيجية دولة المسلمينفي الوصول بالناس إلى أن يكونوا كحقل مزروع بسنابل القمح، كل سنابله متشابهة في القوة والصحة والغذاء والرعاية والأهمية، لا فرق بين سنبلة وأخرى على الإطلاق.

(١١٢) الروم

الم(١) غلبت الرُّومُ(٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيغْلِبُونَ(٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ للهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ(٤) بِنَصْرِ اللهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(٥) وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(٦).

الآيات تتحدث عن معركة مؤتة، والتي حدثت بعد فتح مكة مباشرة وهزم فيها جيش المسلمين، والذي كان عبارة عن سرية أقرب منه لجيش. أرسله رسول الله للروم ليقول لهم إنه سيعاقبهم على مبادرتهم لعداوة المسلمين واعتدائهم عليهم، بإرسال جيش اشترك في حملة الأحزاب نجدة لقريش، في وقت لم يعتد عليهم المسلمون ولم يكن بينهم أي عداء. وبرغم هزيمة سرية المسلمين، إلا أن الرسالة وصلت للروم، وتبعها تتالي الجيوش الإسلامية حتى استطاعوا تحرير بلاد الشام ومصر من حكم روماني استمر لمئات السنين،

في وقت قياسي[1].

المفسرون – كالعادة – يلوون معاني الآيات كيفما يشاؤون، وهم هنا قرأوا الآيات بتشكيل مختلف لكي يحرفوا معانيها عما تتحدث عنه ويخلقوا لها أحداثاً لا علاقة لها بالآيات. فقرأوا (غلبت الروم) بضمة على الغين بدل الفتحة، وقرأوا سيغلبون في الآية الثالثة بفتحة على الياء. فتحول معنى الآيات وكأنها تتحدث عن هزيمة للروم وأنهم سينتصرون لاحقاً. وقالوا هي تتحدث عن هزيمة الروم من الفرس وأن الروم سينتصرون على الفرس وعندها سيفرح المؤمنون. وإمعاناً في التضليل قالوا إن السورة نزلت في مكة، وفي تلك اللحظة التي انهزم الروم. وبطبيعة الحال فالمسلمون في مكة كانوا مضطهدين وقلة ولا يهمهم انتصار الروم على الفرس أو الفرس على الروم، فقد كان همهم الأكبر هو البقاء أحياء وعدم التعرض للاضطهاد والتعذيب من قريش. وليس من المعقول ولا من المناسب أن يتحدث القرآن عن حرب بعيدة بين أجانب لا علاقة لهم بالمسلمين بدل الحديث والتفاعل مع ظروفهم وحياتهم اليومية وما يتعرضون له. والمفسرون يسمون الروم مؤمنين والفرس مجوساً مشركين، وهذا يدل بوضوح أن من وراء لي معاني الآيات وهذا التفسير الأعوج مسيحيون أرادوا تمجيد دينهم، وإلا فالمسيحية شرك وليس هناك شرك أكبر من الاعتقاد أن مع الله إلهاً اسمه الروح القدس وثالث هو يسوع.

ولأن القرآن يخاطب الناس بما يهمهم فلم يتحدث القرآن أبداً عن أقوام خارج جزيرة العرب ولا حتى عن أقوام في جزيرة العرب بعيداً عن مكة ويثرب وجنوب غرب الجزيرة، لأن الدعوة كانت موجهة لقريش ولأهل يثرب. لذا فسورة الروم تتحدث عن هزيمة المسلمين في مؤتة وتطمئن المسلمين أنهم سينتصرون في بضع سنين وسيهزمون الروم، وهو ما حدث بالفعل.

وتكون القراءة الصحيحة للآيات كما يلي: الم (١) غَلَبَتِ الرُّومُ (بفتح الغين واللام في غلبت)

---

١ الغرب سليلو الحكم الروماني يشيعون أن هزيمة الروم من المسلمين لم يكن لنجاعة جيوش المسلمين، ولكن لأن الحروب المستمرة بين فارس والروم أنهكت قوى الدولتين فكانتا لقمة سائغة للمسلمين. وهذا الزعم لا يمكن قبوله، لأنه مهما وصل الضعف بالدولة الرومانية فلن يكون بمقدور العرب التفوق عليهم في العدة ولا في العتاد. ولم يلتق المسلمون والروم في حروبهم وكان جيش المسلمين أكثر عدداً أو قوة من جيش الروم. بل إن كتب التراث تروي أن جيش المسلمين في اليرموك لم يصل لسدس جيش الروم. ولو افترضنا أن هناك مبالغة في تضخيم عدد جيش الروم وتقليل جيش المسلمين، فلن يصل جيش المسلمين نصف عدد جيش الروم وبتسليح هزيل، مقابل جيش نظامي مكتمل العدة والعتاد، وتعداده ضعف جيش المسلمين. ما لا يريد الغرب الإقرار به هو أن المسلمين يملكون دافعاً قوياً لا يملكه الروم.

(٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيُغْلَبُونَ (بضم الياء في سيغلبون) (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦).

ووعد الله هو بنصر الرسول ومن آمن معه مما يعرف بالضرورة وليس تنبؤات. والله وعد كل المؤمنين في كل العصور أن ينصرهم إن هم صبروا وثابروا، كسنة أزلية: إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) غافر.

ولذلك جاءت البشرى للمسلمين أنهم سيهزمون الروم في قادم الأيام، وسيفرحون حينئذ.

دعوة عقلانية

يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاء رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُون (١٠) اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاء وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاء الْآخِرَةِ فَأُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦).

وتستمر السورة بدعوتها العقلانية وطلب التفكير: فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ

لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ(٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاء وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ(٢٥) وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ(٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٢٧) ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ(٢٩).

الدعوة العقلانية في التفكير بالخلق للاستدلال على قدرة الخالق من ملامح السور المكية وتكاد تخلو منها السور المدنية لأنها توجه لمن ينكر البعث، وأهل يثرب على العموم، إما إنهم دخلوا الإسلام أو إنهم من أهل الكتاب الذين يؤمنون بالبعث، ولهذا اختفت الدعوة العقلانية من السور المدنية السابقة. وظهرت في هذا السورة ولعل لهذا سبباً سنحاول تبينه، فيما يلي:

السورة نزلت بعد فتح مكة، والذي تم سلمياً بعد أن وقعت قريش معاهدة مع المسلمين في الحديبية تتعهد فيه بتسليم مكة على أن تبقى قريش على حياة رجالها وعلى معتقداتها. وألا تكيد للمسلمين ولا تتعاون مع أعدائهم. لكن قريشاً خانت المعاهدة وتعاونت مع أعداء المسلمين من أهل الطائف ومن عاونهم من قبائل وقد يكون هناك جيش من الفرس، قدم لمعاونتهم. وذلك في حرب أحزاب ثانية وقعت في حنين، ظاهر مكة، وأثناء ما كان المسلمون في مكة بعد الفتح. وهو ما ستتحدث عنه سورة براءة.

وقد أصيب الرسول والمسلمون بالحسرة على ما حدث وخروج مكة عن سيطرة المسلمين وعودة قريش لمعاداة المسلمين. فجاءت آيات هذه السورة تشد من عضد الرسول والمسلمين وتقول إن المشركين كفروا بالله وخانوا ميثاقهم معه وليس بمستغرب خيانتهم للرسول والمسلمين. وكان حرياً بهم أن يتفكروا في خلق الرحمن ليستدلوا على أن البعث الذي ينكرون حق، وبالتالي فدعوة الإسلام حق كان يجب عليهم اتباعها. ولهذا فقد جاء خطاب السورة موجهاً لقريش كما هي حال كثير من السور المكية.

مخاطبة الرسول والمسلمين

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهَّ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهَّ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ(٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ(٣٢).

الآيات تحث المؤمنين على الالتزام بدينه وإقامة الصلاة، وألا يهتموا بمن حولهم من المشركين، الذين تفرقوا على شيع كلها باطلة. سواءً كانوا قريش أو أهل الطائف أو الفرس الذين عاونوهم أو القبائل التي شاركت في معركة حنين ضد المسلمين.

والآيات دليل على أن اتباع غير دين الله (القرآن) خروج عن الدين.

عود للدعوة العقلانية

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ(٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ(٣٤) أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ(٣٥) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ(٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَّ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٣٧).

الإنسان يعود لله عند الشدائد والمحن، وينساه أو يشرك به في الرخاء. وهذه الآيات تخاطب قريشاً.

برغم تحريم الربا فقد بقي من يمارسه في يثرب

فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهَّ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٣٨) وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّباً لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللهَّ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهَّ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ(٣٩).

والآيات كما نرى لا تطلب من المرابين التوبة لأنه سبق وحذر القرآن كل من يمارس الربا بعد تحريمه بأنه لا توبة له بعد ان سمع حكم الله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَّ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ(٢٧٩) البقرة.

ولكنها تذكرهم أن مكاسبهم من الربا ستعود وبالاً عليهم يوم القيامة.

عود للدعوة العقلانية

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ(٤٠) ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ(٤٢).

والآية (٤١) تؤكد على ضرورة حماية البيئة والمحافظة على التوازن البيئي. فالله جل شأنه خلق البيئة بمقدار موزون (توازن مثالي) لكن تدخلات الإنسان أفسدت بيئة البر والبحر.

والآية (٤٢) تؤكد أن أكثر الناس لن يؤمنوا، كسنة أزلية ثابتة.

عود لمخاطبة الرسول والمسلمين

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ(٤٣) مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ(٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ(٤٥).

تكرار لما ذكرته سور عدة منها سورة المائدة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(١٠٥).

سنة مطيرة

وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٤٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ(٤٧) اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ(٤٨) وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ(٤٩).

الآيات تشير إلى غيث ومطر بعد قحط أصاب المدينة في العام السابقوهو تأكيد لما ورد في الآية (٤٣) من سورة النور.

مخاطبة الرسول والتخفيف عنه

فَانظر إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ(٥١) فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ(٥٢) وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ(٥٣).

نكوص قريش وغدرها للمعاهدة المبرمة مع المسلمين في الحديبية يوم الفتح أزعجت رسول الله، فجاءته الآيات تقوي من عزيمته. وتؤكد له أن هداية قريش ليست من مسئوليات الرسول لأن من يختار الضلال لن يعود للحق مهما دعي.

ولعلها السورة المدنية الأولى التي تشير لوجود ضغط نفسي على الرسول وبحاجة لرفع المعنويات. وسبب ذلك نقض قريش لمعاهداتهم مع المسلمين يوم الفتح، وهزيمة جيش المسلمين في مؤتة.

عود للدعوة العقلانية

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ(٥٤) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ(٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ(٥٧).

الهرم حتمي لمن يطول به العمر.

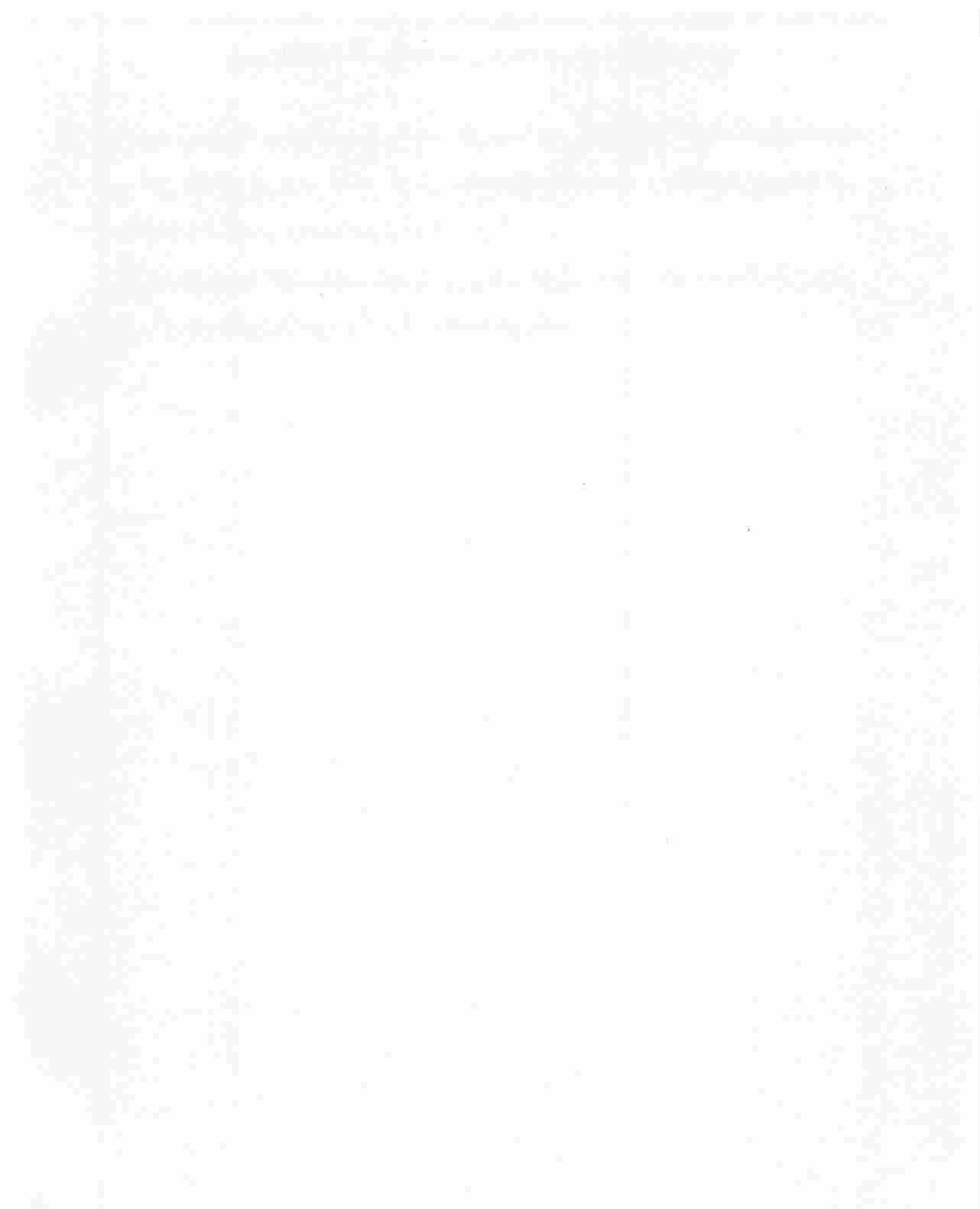
والميت لا يشعر بمرور الوقت لأن الذاكرة تتوقف عن التسجيل وعندما يبعث سيظن أنه مات قبل ساعة برغم مرور مليارات السنين على وفاته.

عود لمخاطبة الرسول

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ(٥٨) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ(٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ(٦٠).

الرسول لم يعط آية. وحث للرسول بالصبر على سخرية من لا يؤمن. ولعل السخرية صدرت من أهل الكتاب في يثرب لنقض قريش معاهدتها مع المسلمين يوم الفتح وخروجها عن حكم دولة المسلمين، وهزيمتهم في مؤتة.

والآيات تقول إن القرآن كاف للهداية لمن يرغب الإيمان، ومن اختار الضلال فلن يؤمن ولو رأى كل الآيات (الخوارق)، وتحث محمداً على الصبر.



المرحلة السابعة: مرحلة قلاقل ما بعد الفتح

وقد نزل فيها سورتان هما: براءة والحشر. والسورتان تتناولان ما حدث بعد الفتح، وكيف أن قريشاً نقضت المعاهدة التي وقعتها مع المسلمين يوم الفتح خارج مكة (في الحديبية). وقريش كانت تعقد المعاهدة مع المسلمين وفي نفس الوقت تقوم بمظاهرة أعداء لهم من أهل الطائف وما جاورها وواحدة من قبائل بني إسرائيل يثرب، ومعهم جيش فارسي، وتخطط معهم لمهاجمة المسلمين أثناء تواجدهم في مكة، وهو ما حدث في حنين.

(١١٣) براءة

سورة براءة لم ينزل بعدها إلا سورتان فقط، هما: الحشر والنصر، ونزلت على رسول الله في العام الذي توفي فيه، وهو في تبوك فعاد للمدينة. وهو ما تشير له السورة أثناء حديثها عن بعض من تخلف عن الخروج: فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ(٨٣).

والسورة عبارة عن سجل حافل بالأحداث المتتابعة والمثيرة، بعد فتح مكة. وتظهر أمرين هامين، هما:

١. تصفية الحسابات مع كل من أعلن الحرب على الإسلام وكاد المكائد ضد أهله، وتحالف مع أعدائه، ولم يقبل التعايش مع المسلمين بسلام. دون التعرض بأذى لمن بقي على كفره ولم يحارب المسلمين، أو يبادرهم بمكيدة. فلم تُشَنَّ حروب على اليمن ولا على عمان وشرق جزيرة العرب ولا على أهل الكتاب في تيماء ووادي القرى، وأقوام آخرين لم تبدر منهم بوادر العداء لدين الله وأهله، ولا ضد من بقي من بني إسرائيل في يثرب.

٢. تعرية الأوضاع التي كان عليها من سموا بالمسلمين في أواخر حياة الرسول.

والآيات الأولى للسورة تتحدث عن نقض قريش للمعاهدة التي وقعتها مع المسلمين يوم الفتح. وهو ما يخالف كلام المؤرخين الذين يزعمون أن مكة أسلمت يوم الفتح وحسن إسلامها إلى يوم الدين.

وتكون مكة قد افتتحها المسلمون قبل عام من نزول سورة براءة، وعقدوا مع أهلها معاهدة سلام، لكن قريشاً خانت المعاهدة، وظاهرت كفاراً ومشركين ضد المسلمين، كما فعلت قبل الفتح، يوم الأحزاب. وتمثلت مظاهرة قريش لأعداء الإسلام بالإعداد لمهاجمة المسلمين أثناء تواجدهم في مكة من قبل قوات ائتلاف من أهل الطائف ومن عاونهم، ومعهم (حسب ظني) جيش فارسي. إلا أن المسلمين علموا بتقدم الجيش نحو مكة فخرجوا لملاقاته قبل أن يهاجمهم داخل مكة، كما خططوا. ووقعت المعركة قرب بئر حنين، في أعالي وادي المغمس، والذي لا يبعد عن الحرم كثيراً. واستطاع المسلمون هزيمة المعتدين في النهاية، والمسير مباشرة للمدينة.

وبراءة تشير إلى أن الرسول والمسلمين علموا بتواطؤ قريش أثناء معركة حنين أو في وقت لاحق، لكن من الواضح أنه بعد وصولهم للمدينة من حنين بفترة من الزمن تم تجهيز جيش توجه للروم. وقد قاد الرسول الجيش، وكان الوقت في فصل الصيف الشديد الحرارة، وهذه الحملة هي التي عرفت في كتب التراث بغزوة تبوك. وسنحاول في قسم أحداث من عصر الرسول تبين لماذا عاد ذلك الجيش دون أن يشتبك مع الروم في عراك؟

وبداية السورة مع:

إعلان براءة ذمة

بَرَاءةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ(١).

إعلان براءة الله ورسوله من خيانة المعاهدة الموقعة مع قريش يوم الفتح، وهو ما يعني تحميل قريش مسئولية نقض تلك المعاهدة.

وهذه الآية تظهر أن الإسلام يعتبر احترام المعاهدات مبدأ مقدساً، ونقضها جريمة أخلاقية من الدرجة الأولى.

إعطاء قريش مهلة للتراجع

فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَأَنَّ اللّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ(٢).

الآية تعطي قريشاً مهلة أربعة أشهر، وستحدد آيات قادمة بداية ونهاية المهلة، وما سيحدث لو لم تتراجع قريش للحق.

إعلان خبر الخيانة والمهلة على رؤوس الأشهاد

وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٣).

الحجاج من كل البقاع يتجمعون في عرفات لينطلقوا من هناك يوم التاسع من ذي الحجة لبدء حجهم. والآية تأمر الرسول أن يتلو على التجمع ما حدث مع قريش ونقضها لمعاهدتها مع المسلمين، وأنهم قد أعطوا مهلة أربعة أشهر للتراجع.

وهذا الإعلان يظهر لكل شعوب جزيرة العرب أن المسلمين لا يمكن أن ينقضوا عهداً أبرموه، ولكي يقطعوا الطريق على قريش لنشر إشاعات بين الناس أن المسلمين هم من نقض المعاهدة.

عدم التعرض لمن لم يخن المسلمين ولم ينقض المعاهدة من كفار قريش

إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٤).

الملاحقة موجهة لمن خان المعاهدة وتعاون مع أعداء الإسلام، ولن يتم التعرض لمشركي قريش الذين احترموا معاهدتهم مع المسلمين ولم يتعاونوا مع أعداء الإسلام. فالحرب ليست على الكفر ولكن على من يسعى لحرب المسلمين والقضاء على الإسلام.

المطاردة والحرب ضد من خان المعاهدة فقط

فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥).

إن لم تتراجع قريش عن عدائهم للمسلمين بعد انتهاء المهلة المعطاة، فيجب حصارهم اقتصادياً، والترصد لهم، وملاحقتهم في كل مكان يتواجدون فيه، ومن عُثر عليه منهم فاقتلوه، لأن بقاءهم سيشكل خطراً دائماً على الإسلام والمسلمين بدسائسهم ومناصرتهم للأعداء.

كل مشرك محارب لو استجار يجار

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ(٦).

برغم أن قريشاً خانت المعاهدة مع المسلمين وبرغم أنهم في حالة حرب مع المسلمين، تقول الآية بوجوب أن يجير المسلمون أي قرشي مشرك ينشق ويستجير بهم، بشروط:

- يجيره المسلمون، ويسمعونه كلام الله.
- يوصلونه لمكان آمن لا يمكن لقومه الوصول له والنيل منه.

المعاهدة التي خانتها قريش

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٧) كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ(٨) اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(٩) لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ(١٠).

الآية (٧) تؤكد ما ذكرته الآية (٤) من عدم التعرض لمشركي قريش الذين أبقوا على معاهدتهم مع المسلمين. وتشير إلى أن المعاهدة تم الاتفاق عليها عند المسجد الحرام. وبما أنه لم يلتق المسلمون بقريش عند المسجد الحرام قبل نزول براءة إلا يوم الفتح، فهذا تأكيد على أن المعاهدة التي خانتها قريش هي تلك المعاهدة التي بموجبها دخل المسلمون مكة سلمياً ولم يتعرضوا لرجال قريش. وكان بإمكان قريش أن تتعايش بسلام مع المسلمين وتبقي على معتقداتها، لكنها خانت المعاهدة وتعاونت مع أعداء الإسلام في محاولة للقضاء على المسلمين في معركة حنين كما سيأتي.

والآيات تظهر أن قريشاً مخادعة ولا يمكن أن تحترم معاهداتها مع المسلمين، ولو تمكنوا من المسلمين لقضوا عليهم دون اعتبار لمبدأ ولا معاهدة.

بعد انتهاء المهلة

فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(١١) وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ(١٢).

إن ثابت قريش وأرادت الدخول في الإسلام كما أعلنت يوم فتح مكة فأهلا بهم. وإن نكثوا وطعنوا في الدين فقاتلوهم بكل قسوة حتى تقضوا عليهم. وفي هذه الحالة فقتالهم واجب لما سبق وصدر منهم: أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤُمِنِينَ(١٣).

فهم نكثوا أيمانهم بنقضهم للمعاهدة، وهموا بإخراج الرسول من مكة (قد يكون حدث هذا أثناء وجود الرسول في مكة يوم الفتح وقد يكون قبل الهجرة)، كما أنهم هم من بدأ حرب المسلمين ولم يبدأ المسلمون حربهم. وهذا دليل قاطع آخر على أن معركة بدر لم تكن الخيار المفضل للمسلمين ولم تكن بسبب ملاحقة المسلمين لعير قريش كما صورت كتب التراث.

وإن لم تثب قريش لرشدها وتعد للالتزام ببنود المعاهدة فعلى المسلمين قتالهم بكل قسوة للقضاء عليهم لئلا يكونوا مصدر إزعاج ومكائد مستقبلاً:

قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ(١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(١٥).

كما أن قتال المعاندين من قريش سيكون تمحيصاً وامتحاناً لمسلمة قريش الذين كانوا يوالون مشركي قريش: أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٦).

عقوبات على قريش

إمعاناً في إهانة قريش الناقضة للعهد، تم فرض عقوبتين بحقها، الأولى:

- سحب شرف صيانة البيت من رجالها

تقول السورة إذا كانت قريش تتباهى بأنها تقوم على خدمة بيت الله، فيجب أن يطهر بيت الله من الشرك والمشركين، ويتولى خدمة البيت من آمن بالله، وليس من انتسب لقريش. ولا يمكن أن تُقارن سقاية الحاج وخدمة البيت التي تقوم بها قريش مع الدخول في دين الله والجهاد في سبيله: مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ(١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهّ مَنْ آمَنَ بِاللهّ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهّ فَعَسَى أُوْلَـئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ(١٨) أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهّ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهّ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللهّ وَاللهُّ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(١٩) الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللهّ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللهّ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ(٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ(٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللهّ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ(٢٢).

والآيات تؤكد أن هناك رجالاً من قريش وليس كلهم أعلنوا إسلامهم يوم الفتح وهم كاذبون. لأنهم كانوا في نفس اللحظة يكيدون المكائد للمسلمين مع أعدائهم. ولما انكشف أمرهم في حنين ارتدوا. وبقية رجال قريش لم يعلنوا الإسلام ولم يؤمنوا. وهو ما يتفق مع القاعدة القرآنية التي تقول إن من لا يؤمن بداية سماعه للدعوة لن يؤمن أبداً[1].

وسنأتي على العقوبة الثانية فيما بعد.

عود لتحذير مسلمة قريش

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهّ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُّ بِأَمْرِهِ وَاللهُّ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(٢٤).

إشارة لمعركة حنين

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُّ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً

١ انظر فقرة: من يرفض الدعوة مرة، لن يؤمن بها أبداً / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ(٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ(٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٢٧).

وقد توسعنا في الحديث عن المعركة في قسم: أحداث من عصر الرسول.

وذكر المعركة في سورة براءة دليل على أنها وقعت قبل نزول السورة.

العقوبة الثانية التي وقعت على قريش

تتمثل بحرمان قريش من دخول المسجد الحرام: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٢٨).

وقد حولت كتب التراث منع قريش من دخول المسجد الحرام إلى الكفار عموماً، ووسعت المنع ليشمل منطقة الحرم. وهو ما نراه مطبقاً الآن، حيث يمنع «رسمياً» غير المسلمين من دخول مكة، بل وزيد عليه منعهم من دخول كل مكة بل وكل منطقة الحرم.

فرض الجزية على قبيلة من أهل الكتاب في يثرب تعاونوا مع الأحزاب الثانية

قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ(٢٩).

والآية تتحدث عن أهل الكتاب الذين تعاونوا مع الأحزاب الثانية في حنين، لكن المفسرين أولوها لتشمل كل أهل الكتاب في كل مكان. وهذا ما يكذبه الواقع، فالمسلمون زمن الرسول لم يتعرضوا لأهل الكتاب في تيماء ووادي القرى واليمن وغيرها. وهذه الآية تأمر المسلمين بقتال قبيلة من بني إسرائيل يثرب ثبت تورطهم في الكيد للمسلمين، وستخبرنا سورة الحشر أن هذه الرسالة وصلت للقبيلة المعنية، فبادروا بلقاء الرسول حال وصوله المدينة وعرضوا عليه الجلاء مقابل عدم التعرض لهم. والجزية المفروضة كانت حصراً على تلك القبيلة وليست على أي عدو آخر للمسلمين سواء كان من أهل الكتاب أو من غيرهم، وسواء كان ذلك في عصر الرسول أو بعده.[١]

١ انظر ما قيل عن الآية في قسم: أحداث من عصر الرسول.

حديث عن يهود ونصارى يثرب

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ(٣٠) اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ(٣١) يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ(٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ(٣٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ(٣٥).

الآيات تتحدث عن فجورهم لكنها لا تأمر المسلمين بقتالهم أو التعرض لهم، وهو ما يؤيد أن الآية السابقة: (٢٩) تتحدث عن قبيلة معينة من أهل الكتاب في يثرب خانت معاهداتها مع المسلمين فوجب عقابها، دون بقية أهل الكتاب في يثرب أو غيرهم الذين لم يكيدوا للمسلمين ولم يتعاونوا مع أعدائهم.

النسيء

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلِّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(٣٧).

ذكر أن عدة الشهور اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، لأن المشركين كانوا في بعض السنوات يدخلون شهرا غير محرم مع الأشهر الحرم، وهو النسيء (أي الزيادة). والآيات تحرم النسيء تحريماً قاطعاً. وهو شيء كانت تفعله قريش وانتهى أمره ولم يعد له وجود[1].

والآية (٣٦) تحث المسلمين على قتال كل من يقاتلهم، وليس لكل كافر. وقاتلوهم كافة

١ انظر فقرة: النسيء/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

كما يقاتلوكم كافة تعني كل من قاتل المسلمين كافة فعلى المسلمين قتالهم كافة وباستمرار.

المسلمون يتثاقلون عن الخروج للقتال

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ(٣٨) إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٣٩) إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٤٠) انْفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٤١).

والحديث عن الاستعداد لحملة تبوك، وحث المسلمين على الخروج لحرب الروم الذين بدأوا المسلمين الحرب في الأحزاب. لكنها تظهر أن المسلمين حتى آخر حياة الرسول لم يكونوا يسارعون بالخروج للقتال، وهي صورة مناقضة تماماً للصورة التي رسمتها كتب التراث عن المسلمين وأنهم مجموعة من المقاتلين الذين يعشقون القتال والغارات والغزوات.

والآيات هنا تقول للمسلمين حتى لو تخليتم عن الرسول ولم تخرجوا معه فسينصره الله، كما نصره على قريش وخروجه مهاجراً مع صاحبه (أبي بكر) ولم يكن معهما أحد منكم ولكن الله كان معهما، وسيكون معهما على الدوام.

البعض استأذن الرسول للبقاء وعدم الخروج

البعض استأذن الرسول ولم يخرج: لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاَّتَّبَعُوكَ وَلَـكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(٤٢).

وبما أن الاستئذان ديدن من لا يؤمن بالفعل، فقد حدث أثناء حفر الخندق عندما استأذن المنافقون وبحجة أن بيوتهم عورة، وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً. ومع ذلك فقد غلب الجانب الإنساني على الرسول وكرر قبول الاستئذان، فجاءه العتب: عَفَا اللّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ(٤٣).

ثم تقول الآيات: إن من يستأذن لكيلا يخرج فهو ليس بمؤمن ولو أعلن الإسلام: لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ(٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ(٤٥).

ولم يكن لديهم النية أصلاً للخروج: وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَـكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ(٤٦).

ولو خرجوا مع الجيش المسلم، لأرجفوا ونشروا الخوف بين الأفراد، وتسببوا في تدني المعنويات: لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ(٤٧).

وقد تكرر تأخرهم لأكثر من مرة في السابق: لَقَدِ ابْتَغَوُاْ الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاء الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ(٤٨).

ومن ذلك ما تحدثت عنه سورتا الفتح والأحزاب.

المتخلفون لم يؤمنوا ولا يشعرون بالانتماء للمسلمين

إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ(٥٠) قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ(٥٢) قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ(٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ(٥٤) فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ(٥٥) وَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ(٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ(٥٧).

هؤلاء بعض من يصنفون من المجتمع المسلم زمن الرسول، وكما يظهر فبينهم وبين الإسلام كما بين السماء والأرض. ولعلهم من تلقى أصحاب الموروث دينهم منهم. فمن هذه شاكلتهم والرسول على قيد الحياة، فكل شيء سيء للإسلام لا يستبعد أن يخرج منهم

بعد وفاته عليه الصلاة والسلام.

فئة أخرى سيئة

وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ(٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ(٥٩).

والصدقات هنا هي الإنفاق الذي ليس لهم حق فيه لأنهم يملكون المال: إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٦٠).

وقفة مع هذه الآية

فهي لا تقول إن الإنفاق حصراً على من ذكر هنا كما رسخت كتب التراث، ولكنها تذكر بعض من يجب لهم الإنفاق. لأن الإنفاق يكون لسد حاجة كل محتاج وقت الحاجة، وبعض السور تذكر بعض المحتاجين وبعض حاجات المجتمع وقت نزول السورة، ولا يعني ذكرها أنها هي فقط المجالات التي يجب فها الإنفاق، بل هي آخر آية تذكر الإنفاق في القرآن سبقها العديد من السور والتي توجب الإنفاق في مجالات مختلفة تضاف لما ذكر في هذه الآية. وفيما يلي بعض الأمثلة:

سورة البقرة توجب الإنفاق على اليتيم ضمن بعض المحتاجين: .... وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ... (١٧٧).

وآية أخرى من سورة البقرة توجب الإنفاق على الوالدين ضمن من يجب لهم الإنفاق لسد حاجاتهم: يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ(٢١٥) البقرة.

وفي آية أخرى توجب السورة الإنفاق على تجهيز وتسليح المقاتلين في سبيل الله: وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ(٢٧٢) لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ(٢٧٣) البقرة.

وفي آية أخرى توجب الإنفاق في سبيل الله (كل ما يتعلق بتجهيز الجيش وتسليح المقاتلين: مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(٢٦١) البقرة.

لأن حاجة المجتمع وقت نزول السورة كان لتجهيز الجيش استعداداً لقتال قريش.

وتوجب سورة النساء الإنفاق لكل محتاج من الناس، سواء نعرفهم أم لا نعرفهم: وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً(٣٦) النساء.

إذاً الآية (٦٠) في سورة براءة لا تحصر من يعطون من الإنفاق (الزكاة) ولكنها تذكر بعض من يعطون، وهم من كانت لهم الأولوية في الإنفاق عند نزول سورة براءة. مثل سور أخرى ذكرت مجالات أخرى للإنفاق لأنها كانت المجالات التي لها الأولوية في الإنفاق عند نزول تلك السور. فالإنفاق يكون لسد حاجة أي فرد محتاج أو مجتمع أو دولة المسلمين.

والآية (٦٠) تذكر للمرة الوحيدة في القرآن العاملين على الصدقات (جمع الإنفاق)، وهو ما يشير إلى أن بعض المسلمين قد كلف بجمع الإنفاق في تلك الفترة التي نزلت فيها سورة براءة. وإعطاؤهم منه يكون بما يكفيهم قوت يومهم، لأنهم تركوا البحث عن الرزق وتفرغوا لتحصيل الإنفاق. وإعطاؤهم منه يجب أن يكون مماثلاً لعطاء المسكين وابن السبيل والفقير وغيرهم ممن يحق له الإنفاق، دون زيادة. كما قسم لرسول الله عليه الصلاة والسلام قسم مساو لقسم المسكين وابن السبيل وأي محتاج آخر، عند توزيع الفيء: مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٧) الحشر.

فالرسول قسم له قسم مساو تماماً لقسم المسكين لأنه عليه الصلاة والسلام لا دخل له فهو محتاج كما المسكين وكل محتاج. وبالتالي فالقائم على الصدقات (جامع الإنفاق) يعطى ما يعطى المحتاج دون زيادة، ولا تطلق يده ليأخذ ما يشاء.

وللأسف الشديد فقد حور رجال الدين هذا المفهوم الواضح، وجعلوا لمحصل ما سمي

بالصدقات الحق بأخذ حصة أكبر من حصة أي مستحق آخر. وفي هذا العصر، وفي بلاد الحرمين، نرى المسئولين عما يعرف بالجمعيات الخيرية، التي تتولى الإنفاق على المحتاجين، لابد وأن يصيبهم الثراء، إلا من رحم ربي منهم، وهم القلة. مقتنعين أنفسهم أن من حقهم في دين الله أن يحصلوا على ما حصلوا عليه. وقصص الفساد المالي في الجمعيات الخيرية لا نهاية له. وهم يظنون أن ما يحصلون عليه حلال، لأن كتب التراث تقول لهم هو كذلك. بينما القرآن يفرض للمحتاج منهم سهماً مساوياً لسهم أي محتاج كالمسكين أو ابن السبيل أو اليتيم أو غيرهم. بشرط ألا يكون له عمل آخر يدر عليه المال سوى عمله في الجمعية. وما أخذه فوق ذلك «فَمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ».

فئة أخرى سيئة في مجتمع المسلمين في عصر الرسول

وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٦١) يَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ(٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ(٦٣).

وهؤلاء يسخرون في مجالسهم من الرسول ويقولون بأنه يغير رأيه حسبما يسمع من غيره. والآية تقول هو يستمع لكل ما فيه الصالح العام ويتبناه. وتخرج هذه الفئة من الإسلام برغم إعلانهم أنهم مسلمون ومعايشتهم للمسلمين وبينهم. فالإسلام لا يعني الإعلان فقط وأداء العبادات ولكنه إيمان وعمل صالح.

وكل فئات المنافقين حاضرة وبادية، كفار وإن تسموا بالإسلام.

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ اسْتَهْزِئُواْ إِنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ(٦٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ(٦٥) لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ(٦٦) الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(٦٧) وَعَدَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ(٦٨) كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُواْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً فَاسْتَمْتَعُواْ

بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُواْ أُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الُّدنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(٦٩) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وِأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(٧٠) وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٧١) وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(٧٢).

والآيات تقول: المؤمن هو من يوالي المؤمن، ومن يوالي غير المؤمن فهو ليس بمؤمن.

يجب جهاد المنافقين كالكفار

استمراراً لمعاقبة كل من شارك أعداء الإسلام أو تسبب بمشاكل للمسلمين، تأمر السورة بمجاهدة المنافقين. وضرر المنافقين أكثر من ضرر الكفار، لأنهم يعيشون بين المسلمين فخطرهم أشد من خطر الكافر البعيد المجاهر بالعداء، لذا جاءت آيات سورة براءة تقول:

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْراً لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ(٧٤).

والآيات تفرض قانوناً للتعامل مع المنافقين في مجتمع دولة المسلمين ينص: على جهادهم بكل وسيلة، فإن ثابوا وإلا يغلظ لهم التعامل حتى تختفي أصواتهم ونشاطاتهم. فلا مكان لهم في المجتمع المسلم. والمنافق هو كل من قام بعمل فيه حرب للإسلام أو إفساد للمجتمع أو كان موالياً للكفار المعادين للإسلام، ولو صلى وقام بالعبادات وأظهر الإسلام.

وفئة سيئة أخرى

وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ(٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ(٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ(٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ

وَأَنَّ اللّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ(٧٨) الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٧٩) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(٨٠).

البعض ممن يعلن الإسلام زمن الرسول كان فقيراً ويتمنى لو يرزقه الله من فضله ليتصدق ويكون من الصالحين، وعندما أغناهم الله نسوا ما عاهدوا الله عليه. بل وكانوا يسخرون من بعض المؤمنين الأتقياء الذين لا يملكون المال للإنفاق ولكنهم يشاركون بفعالية بجهودهم التي لا يملكون غيرها لتوصيل الإنفاق لمستحقيه.

وهذه الفئة مثل كل فئات المنافقين كفروا ولو أنهم يعلنون الإسلام ولهم عذاب أليم.

إرشاد الرسول للتعامل مع مسلمة يثرب الذين تخلفوا عن الخروج في سبيل الله

فرح الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللّهِ وَكَرِهُواْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ(٨١) فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ(٨٢) فَإِن رَّجَعَكَ اللّهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ(٨٣) وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ(٨٤) وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ(٨٥) وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ(٨٦) رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ(٨٧).

- يجب على الرسول ألا يقبل بهم ضمن جيش المسلمين، حتى لو أعلنوا استعدادهم للخروج مع المسلمين.
- على الرسول ألا "يصل عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم". والصلاة هنا بمعنى التحية مثلما هي الصلاة في قوله تعالى: هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا(٤٣) الأحزاب. وفي قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) الأحزاب.

- ولا يزور قبره لو مات.

والآية (٨٣) تؤكد أن سورة براءة نزلت أثناء غزوة تبوك، والمؤكد أنها نزلت عندما وصل جيش المسلمين تبوك، فكانت سبباً في عودتهم للمدينة، كما ذكرنا في قسم أحداث من عصر الرسول.

المقبول جهاده عند الله

لَـكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٨٨) أَعَدَّ اللّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(٨٩).

من يجاهد بنفسه وماله مع الرسول هو المؤمن الذي يقبل لحماية الإسلام ودولة المسلمين.

ولا يمكن قبول من تخلف بدون عذر سواء استأذن كالمنافقين والأعراب أو تخلف لأنه لا يؤمن بالإسلام الذي يعلن الانتماء إليه: وَجَاء الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٩٠).

ومن له عذر فيعذر

لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٩١) وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ(٩٢).

الوعيد لمن ليس له عذر

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاء رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ(٩٣).

تعود السورة للحديث عن بعض ما يجب فعله عند وصول الرسول للمدينة

وهو ما سبق وأشارت له السورة في الآية (٨٣): فَإِن رَّجَعَكَ اللّهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ.

وهنا تقول السورة: يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ(٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ(٩٦).

الآية (٨٣) تطلب من الرسول ألا يخرج معه أبداً المنافقون من الأعراب الذين استأذنوه من الخروج لحملة تبوك. وهذه الآيات تخاطب المسلمين بألا يقبلوا اعتذار المنافقين ولا يقبلوهم بينهم فهم كفار وليسوا منهم.

ومن الأعراب فئات سيئة

الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٩٨).

بعضهم أشد كفراً ونفاقاً من مسلمة مكة ومسلمة يثرب، وبعضهم ينفق لكنهم يعتبرون ما أنفقوا ديناً على المسلمين يجب سداده بما يلزمهم. أي يعتبرون إنفاقهم معروفاً على الرسول والمسلمين يمكنهم بواسطته أن يحصلوا على ما يشاؤون، كنوع من الابتزاز. كما أنهم يتربصون بالمسلمين ولو حلت بهم مصيبة استغلوها للاستيلاء على الأملاك والأموال.

ومن الأعراب مؤمنون

وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٩٩).

ومثلهم من أخلص الإيمان من المهاجرين والأنصار

وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(١٠٠).

فالمؤمنون الأتقياء بعضهم من المهاجرين وبعضهم من الأنصار وبعضهم من الأعراب.

منافقون لا يعلم بهم الرسول

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ(١٠١).

بعض المنافقين وليس كلهم لا يعرفهم الرسول، منهم أعراب وبعضهم من أهل المدينة، أما مسلمة يثرب ومسلمة قريش وأغلب منافقي الأعراب فالرسول والمسلمون يعرفونهم.

وهناك فئة أخرى

وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(١٠٤) وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(١٠٥).

الآيات تتحدث عن فئة ممن أعلن إسلامه وليسوا منافقين، لكن بعضهم لم ينفق، وبعضهم لم يخرج للجهاد. وهؤلاء يجب عليهم أن يتوبوا، ولو تابوا فسيتوب الله عليهم وسيقبلون كمؤمنين.

وهناك فئة متأرجحة

وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(١٠٦).

فلو حسن إسلامهم فسيغفر لهم، وإن مالوا للباطل فسيعذبون.

وهناك فئة ضالة أخرى

وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(١٠٧) لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ(١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(١٠٩) لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(١١٠).

المسجد أقامه مجموعة من مسلمة قريش الذين يرون أنهم لا يجب أن يساووا بالمستضعفين، وكانوا يريدون أن يكون لهم مسجد خاص بهم وبعلية القوم دون المستضعفين.

بشرى للمؤمنين الأتقياء

إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ(١١٢).

يجب ألا يستغفر الرسول والمسلمون للمنافقين

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ(١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ(١١٤) وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١١٥) إِنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِـي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ(١١٦).

استغفار النبي للكفار لا يعني أن الله سيغفر لهم لأنه استغفر لهم، ولكنه يعني أن الاستغفار عبارة عن مشاعر طيبة تجاه المدعو له، وهذا لا يباح لغير المؤمن. ولذا جاء النهي لإبراهيم لئلا يستغفر لوالده: قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ(٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٥) لَقَدْ كَانَ

لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ(٦) الممتحنة.

فالاستغفار هنا هو قول المؤمن لأخيه: غفر الله لك، أو: اللهم اغفر له، أو جزاك الله خيرا... ونحو ذلك.

الذين خرجوا مع الرسول لحملة تبوك

لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ(١١٧).

كتب التراث تقول إن الجيش الذي خرج لتبوك كان أكبر جيش استطاع الرسول تجميعه في حياته، لكن هذه الآية تقول إن من خرج في ذلك الجيش هم النبي وأتقياء المهاجرين والأنصار، دون المنافقين من مسلمة قريش ومسلمة يثرب والأعراب. وتؤكد الآية أن فريقاً من المهاجرين والأنصار كاد أن يتخاذل ويتخلف عن الخروج.

ولعل سبب عدم إقدام الجيش للدخول في بلاد الروم وكذلك تخلف المنافقين وتفكير بعض الأتقياء بالتخلف لأن قوة الروم كانت أسطورية ويؤكد هذا مشاعر المسلمين عندما علموا بقدوم الروم في حملة الأحزاب.

ولم تقبل توبة أحد ممن تخلف إلا من ثلاثة

وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(١١٨).

الدفاع عن دولة المسلمين مطلوب من أتقياء من أهل المدينة وبعض الأعراب

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ(١١٩) مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ(١٢٠) وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(١٢١).

وهذا فيه إشارة إلى أن المسلمين الأتقياء الذين مات الرسول عنهم يمثلون بعض أهل المدينة وقليلاً من الأعراب من بين كثيرين أعلنوا إسلامهم ولم يسلموا بعضهم في المدينة وبعضهم خارجها.

عند الخروج للقتال يجب أن يبقى في المدينة من يدير شئونها

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ(١٢٢).

قتال الكفار

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(١٢٣).

والكفار هنا المقصود بهم الذين اعتدوا على المسلمين فعلياً بالاشتراك في حملة الأحزاب أو حنين أو أحد، وهم من القبائل المحيطة بالمدينة وبالقرب من مكة الذين بدأوا قتال المسلمين نصرة لقريش. والأمر بقتالهم يمثل بداية ما عرف في كتب التراث بغزوات الرسول، وهي تختلف من حيث الهدف والعدد عن حقيقة ما قام به الرسول. فالرسول وجه سراياه وجيوشه لقتال القبائل التي ثبت تورطها في مناصرة أعداء المسلمين والمشاركة معهم في القتال، سواء في الأحزاب الأولى أو الثانية. والهدف من قتالهم هو معاقبتهم على عدوانهم، وكسر شوكتهم وإضعافهم لئلا يعيدوا الكرة ويقاتلوا المسلمين مرة أخرى. ولم يثبت ولا يمكن أن يثبت أن الرسول أو المسلمين في عصره سبوا نساء أحد أو استرقوا الرجال، لأن القرآن ينهى عن التعرض لمن لم يحمل السلاح من الكفار من الرجال، فما بالك بالنساء والأطفال.

المنافقون لا يؤمنون مهما دعوا ومهما مر عليهم من محن

وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ(١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ(١٢٥) أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ(١٢٦) وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُون(١٢٧).

ثم تختم السورة: لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ(١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ(١٢٩).

(١١٤) الحشر

سورة براءة السابقة تأمر الرسول والمسلمين بتصفية حساباتهم مع كل من أعلن الحرب عليهم، في الأحزاب وفي حنين، كما سبق وذكرنا، ومن هؤلاء فريقان من سكان يثرب، هما: طائفة من بني إسرائيل، والمنافقين. ومما ورد في حق بني إسرائيل ما يلي: قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ(٢٩).

كما ورد في حق المنافقين ما يلي: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(٧٣) براءة.

وبما أن براءة نزلت على الرسول أثناء غزوة تبوك، فقد كان أول ما سيفعله بعد عودته هو مهاجمة تلك الطائفة من بني إسرائيل والمنافقين في المدينة، لأن هاتين المجموعتين اتفقتا على النيل من المسلمين، وإن اختلفت الأساليب.

جلاء قبيلة ثانية من بني إسرائيل

تشير الآيات الأربع الأولى من سورة الحشر أن قبيلة من بني إسرائيل في يثرب قد اتصلوا بالرسول حال وصوله المدينة قادماً من تبوك وأبلغوه رغبتهم بالجلاء من يثرب مقابل عدم تعرض المسلمين لهم: سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ(٢) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ(٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٤).

وطلب بني إسرائيل الجلاء من يثرب بهذه الصورة، استباقٌ للأحداث، وتجنب لهجوم المسلمين المقرر عليهم، لأنهم علموا أن سورة براءة قد أبلغت الرسول بخيانتهم، وأمرته بحربهم. وقد وافق الرسول والمسلمون على عرض قبيلة أهل الكتاب، الذين تركوا أملاكهم وقصورهم ومزارعهم وخرجوا من يثرب بلا رجعة، وهو الجلاء الثاني والأخير لأهل الكتاب من يثرب في عصر الرسول، ولم يتم التعرض لمن بقي منهم، لأنه لم يثبت

تورطهم بالكيد للمسلمين ولا معاونة أعدائهم. ولا نعلم متى خلت يثرب من سكانها من أهل الكتاب، وإن كنا نرجح أنهم نزحوا لفلسطين باختيارهم بعدما أصبحت تحت حكم المسلمين في عصر عمر ابن الخطاب، عندما تأكد لديهم أن اليهود فيها يعيشون بارتياح تحت حكم المسلمين.

تقسيم الغنائم التي تركتها القبيلة التي جلت من يثرب

مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهَّ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ(٥) وَمَا أَفَاء اللهُّ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللهَّ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللهُّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٦) مَّا أَفَاء اللهُّ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَّ إِنَّ اللهَّ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٧) لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهَّ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللهَّ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ(٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٩) وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ(١٠).

وما ورد في هذه الآيات هو مطابق لما ورد عن تقسيم الأنفال بعد معركة بدر: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ للهِّ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللهَّ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللهَّ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(١) .... وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ للهِّ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللهِّ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللهُّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٤١).

فكل ما يغنمه المسلمون يوزع على احتياجات دولة المسلمين وعلى المحتاجين من سكانها: فلله تعني احتياجات الدولة، وهو خمس الغنائم. والأخماس الأخرى توزع بالتساوي بين جموع المحتاجين ومن بينهم الرسول الذي لا دخل له يقيم قوت يومه. حيث يصرف له قسم مساوٍ لما لليتيم والمسكين وكل محتاج.

وما تركه أهل الكتاب غنائم مثل غنائم الأنفال، فكان توزيعها مماثلاً لها.

وتلك القبيلة من أهل الكتاب لما خرجت من ديارها وغادرت يثرب، دخل المسلمون بيوتهم، واستولوا على ما تركوا من متاع. وقد وجدوا الأرض قد حفرت فيها بعض الحفر، والجدران وقد هدمت بعض أجزائها، مما يشير إلى أن اليهود كانوا يخبئون أموالهم تحت الأرض، وفي الجدران. فقام المسلمون بحفر ما لم يحفر وهدم الجدران القائمة، علهم يجدون أموالاً متروكة هنا وهناك، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: « يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ».

وقد قسمت الغنائم بموجب قانون تقسيم الغنائم، على النحو التالي:

مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ: أي لدولة المسلمين ونفقاتها العامة.

وَلِلرَّسُولِ: أي لنفقات الرسول الخاصة.

وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ: أي لئلا يكون المال فقط متداولا بين الأغنياء منكم.

وتفصل الآيات من هم المساكين، فتقول منهم مهاجرون: لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ(٨).

ومنهم أنصار استضافوا المهاجرين: وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٩).

ومنهم بعض من أسلم بعد ذلك من أهل المدينة أو من مكة وهاجر لاحقاً أو من أي مكان آخر: وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ(١٠).

ولأن قسمة الفيء ثابتة، فقد جاء هذا التقسيم متوافقاً مع القسمة التي وردت في سورة الأنفال: وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٤١).

لكن يبدو أن بعض المسلمين ممن أعطوا لم يرضوا بما قسم لهم، والبعض ممن لا يحق لهم شيء من الفيء، ولم يعطوا قد وجدوا في أنفسهم. فجاء الأمر بالرضا بالقسمة لأنها قانون إلهي ولم يضعه الرسول: وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٧).

وبعد جلاء بني إسرائيل الثاني والأخير، لابد أن الرسول قد هاجم المنافقين في المدينة، وأجبرهم على تركها، أو أنهم تعهدوا بعدم إثارة القلاقل، وقبل تعهدهم.

كما نشط المسلمون بتصفية حساباتهم مع القبائل العربية التي ابتدرت المسلمين بالعداء، وهو ما عرف بغزوات الرسول[1].

المنافقون حاولوا إقناع القبيلة من أهل الكتاب بقتال المسلمين

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ(١٢) لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ(١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ(١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ(١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ(١٧).

قبل رجوع الرسول والمسلمين للمدينة كان خبر عزم المسلمين على قتال تلك القبيلة من

١ لقد ذكرت في موضوع عن القراءات في صفحتي على الفيس بوك «لينة» في الآية الخامسة من سورة الحشر: مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ. وقلت قد يكون أن «لينة» هي «لبنة» وبالتالي فهي تشير إلى هدم جدران بيوت تلك القبيلة من أهل الكتاب التي جلت، والذي أشارت إليه السورة: يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ(٢). فثارت ثائرة البعض لأنهم اعتبروا ذلك تحريفاً للقرآن، وكثير منهم ثار بعاطفة لأنه لا يعلم أن كتب التفسير مليئة بتغيير ألفاظ القرآن وتشكيل الكلمات. كما أنهم قالوا إن قول السورة: « ما قطعتم من لينة» تعني ما قطعتم من نخلة كون لينة تعني نخلة حسب قولهم. وقال المفسرون إن الرسول قد قام بحرق النخل وتخريب الأرض لدرجة أن عقلاء بني إسرائيل انتقدوه قائلين: « يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها؟». فالمفسرون يصورون الرسول بالمفسد، ولذلك يصرون على أن «لينة» تعني النخلة، وليقولوا إن إفساد الرسول كان بأمر الله أيضاً. بينما لو قيل إنها قد تكون تقرأ «لبنة» أو أن «لينة» لا تعني النخل، ولكنها تعني شيئاً له علاقة بتخريب بني إسرائيل بيوتهم بأيديهم ولا تقول بأن الرسول حرق وخرب.

أهل الكتاب قد وصلهم. فما كان من فئة من المنافقين إلا أن حاولوا إقناع القبيلة من أهل الكتاب بقتال المسلمين. ويغلب الظن أنهم مسلمة يثرب، لأنهم هم من يوالي أهل الكتاب. لكن على ما يبدو فإن القبيلة من أهل الكتاب لم توافق على اقتراح مسلمة يثرب، لأنهم يعلمون أنه لا قبل لهم بالمسلمين، وآثروا الجلاء وسلامة أنفسهم على قتال خاسر.

والآيات تقول عن مسلمة يثرب إن وعودهم بالقتال مع أهل الكتاب والجلاء معهم هي وعود كاذبة، ولو قاتل أهل الكتاب المسلمين فلن يشترك مسلمة يثرب في القتال ولن يخرجوا من يثرب معهم لو طردوا منها.

وتختم السورة بمخاطبة المسلمين: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ(٢٠) لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(٢١) هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ(٢٢) هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ(٢٣) هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٢٤).

(١١٥) النصر

لقد بدأ الوحي بسورة الفاتحة القصيرة في عدد آياتها الغنية بمعانيها، وختم الوحي بسورة «الخاتمة» النصر القصيرة في آياتها والغنية بأحداثها. فهي تروي كيف أن قبائل وشعوب جزيرة العرب قد استسلمت لدولة الإسلام، وتقاطر زعماؤها على المدينة يعلنون ولاءهم: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ(١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً(٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً(٣).

والتفاصيل يمكن الاطلاع عليها في قسم أحداث من عصر الرسول.

وفي الختام هذه دعوة لكل باحث ومفكر هدفه العودة لدين الله

على كل من يعتقد من المفكرين المعاصرين أنه يبحث عن حقيقة الدين، أن يقوم بتحديد منهجية واضحة لبحوثه. وبعد ذلك يكون هناك لقاءات بينهم لنقاش تلك المنهجيات للخروج بمنهجية موحدة لها ضوابط وقوانين واضحة للبحث، وتكون متاحة لكل باحث في أمور الدين، ويمكن تحديثها كلما دعت الحاجة. لأن ما يحدث الآن هو كتب كثيرة وخطب ومحاضرات متفرقة لا حصر لها. كثير منها يهتز السامع منه طرباً في لحظته لكنه لا يزيد عن كونه رأياً شخصياً قد لا يصمد كثيراً، لأنه يفتقر لمنهجية واضحة. ومن يصمد فبكل تأكيد سيتحول إلى مذهب، ويكون من يسمون مفكرين تنويريين قد انتقدوا كتب الموروث والمذاهب وقاموا بتأسيس مذاهب عصرية. واتباع أي مذهب خروج عن الدين سواءً كان مذهباً نشأ في القرن الأول الهجري أو نشأ في القرن الخامس عشر أو العشرين أو المئتين.

وبهذا نكون قد وصلنا لختام تدبر القرآن، والحمد لله رب العالمين.

ابن قرناس

الشرعة والمنهاج

نافذة للتعرف على الإسلام من مصدره

الجزء الثاني

منشورات الجمل

ابن قرناس: الشرعة والمنهاج، الجزء الثاني، الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

ISBN: 978-9-93335-110-6

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

تصميم الغلاف والإخراج الداخلي: كمال يوسف
+970 599 273872, ky.design.a2@gmail.com

«وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ
وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ»

(٨٩) النحل.



هذا القسم يتكون من خمسة أقسام، هي كما يلي:

(١) أدلة ومواضيع من القرآن

ويحتوي على بعض الأدلة والمواضيع التي وردت في كتاب الله، ويبقى غيرها كثير، يمكن للقراء التعرف عليها أثناء قراءة التدبر.

(٢) أحداث من عصر الرسول

ويتناول بعض ما أمكن حصره من أحداث ورد ذكرها في كتاب الله من البعثة وحتى وفاة رسول الله.

(٣) تشريعات من القرآن

ويحتوي على بعض التشريعات التي وردت في كتاب الله.

(٤) أماكن وشخصيات

وهذا القسم يذكر فيه عدد محدود جداً من الأماكن والشخصيات التي ورد ذكرها في القرآن.

(٥) مفردات من القرآن

ويحتوي على مفردات وردت في القرآن الكريم ومعانيها حسب سياقها وليس كما تقول عنها المعاجم.

وكل ما ورد في هذه الأقسام عبارة عن أمثلة ولا يمكن أن يقال عنها أنها أقسام قامت بحصر كل ما ورد في كتاب الله.

ابن قرناس

الشرعة والمنهاج

نافذة للتعرف على الإسلام من مصدره

الجزء الثاني



القسم الأول

أدلة ومواضيع من القرآن

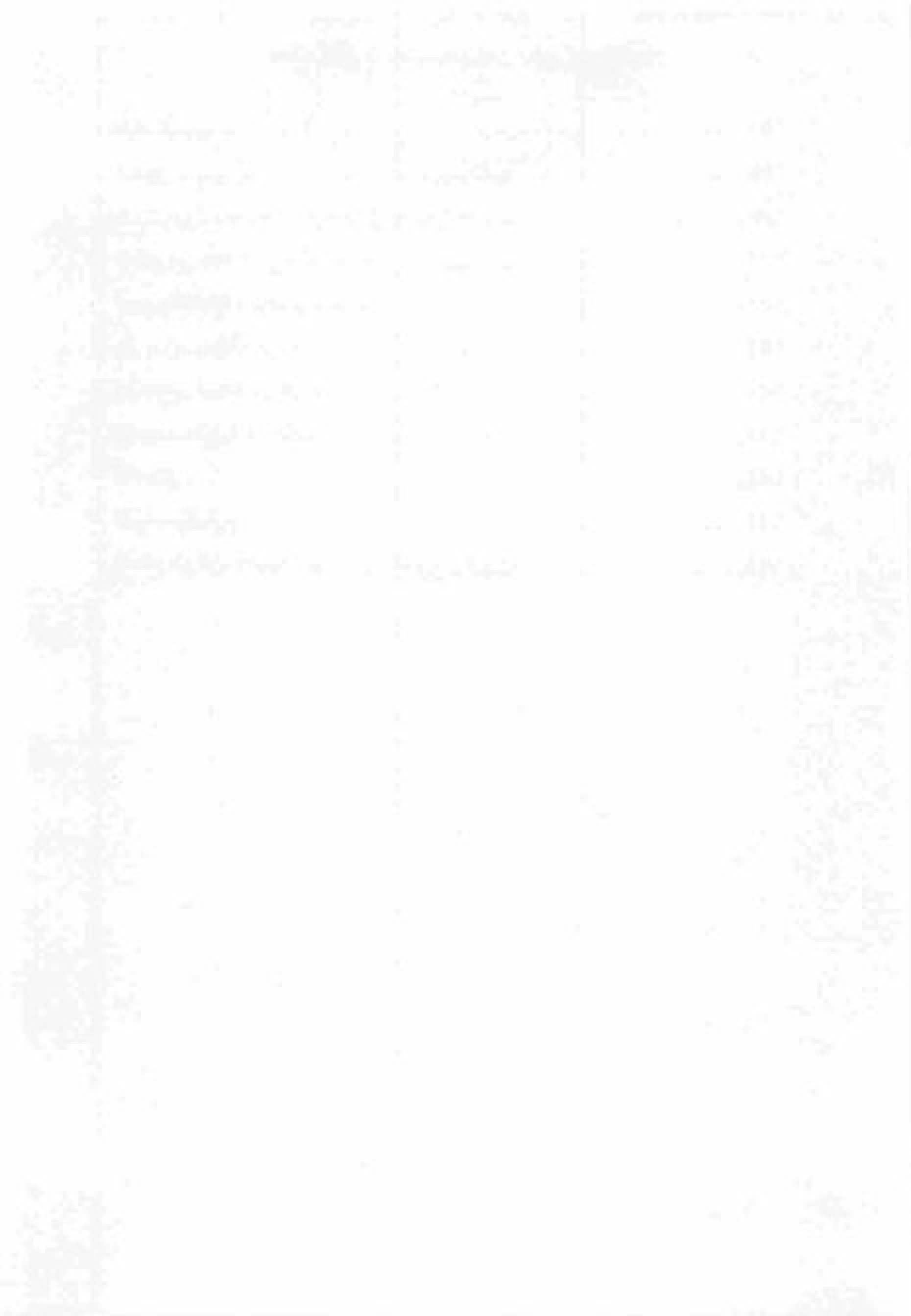
منشورات الجمل



هذا القسم يهتم بتلك المواضيع التي تناولها القرآن أو التي لها علاقة بها تحدث عنه القرآن، ولا تدخل ضمن التشريعات، ولا التاريخ القديم، ولا أحداث التاريخ الإسلامي في عصر الرسول، ولا المفردات، وليست من أساليب القرآن.

وكغيره من الأقسام في هذا الجزء من الكتاب ليس الغرض منه حصر جميع المواضيع التي وردت عنه في كتاب الله، أو التي لها علاقة بها ورد في كتاب الله، ولكن لإعطاء أمثلة عليها وترك الباقي ليستنتجه القراء أو ليتم الحديث عنه أثناء تدبر السور.

المحتويات



البسملة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(١) الفاتحة.

لا يمكن تصور أن يبدأ الوحي بنص غير "بسم الله الرحمن الرحيم"، لأن الله جل وعلا قد فرض على المسلم أن يبدأ كل نشاط ينوي القيام به باسم الله.

فباسم الله نُطلق الجوارح أو كلاب الصيد أو السهام أو القذيفة، أو نضع الشباك للصيد: يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(٤) المائدة.

ونبدأ الأكل والشرب باسم الله: فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ(١٠٨) الأنعام.

وهذا نوح يركب السفينة ويبدأ رحلتها باسم الله: وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ(٤١)هود.

وسليمان يبدأ رسالة كتبها لملكة سبأ باسم الله: إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(٣٠) النمل.

والمقصود بالبدء باسم الله هو النشاط نفسه (الكتابة أو الحديث أو الفعل) وليس ما تحويه الرسالة أو الحديث من عبارات وألفاظ تعبر عما يقوله الشخص، ولا تعني أن الشخص يتحدث أو يكتب نيابة عن الله. فنقول: بسم الله نبدأ الأكل أو الكلام أو أي نشاط آخر، ولو قلت "اسم الله" عند بداية النشاط فلا معنى لذلك. لأن المطلوب هو أن نبدأ النشاط باسم الله، وليس المطلوب هو التلفظ باسم الله قبل النشاط.

وعبارة «بسم الله الرحمن الرحيم» ليست عبارة سحرية تحمي من العين والسحر والجن كما يعتقد بعض العامة، الذين يسارعون - بمجرد تعرضهم لموقف مفاجئ أو مفزع - بنطق «بسم الله» ظناً منهم أنها ستحميهم. وإن كان هذا لا ينفي أنها بديل مثالي لأي عبارة أخرى يمكن أن تحقق الاطمئنان والهدوء لمن يتعرض لهذه المواقف. على أن تذكر ككلمة لا تحمل في ذاتها أي قدرة سحرية، مثلها مثل أي عبارة في القرآن، الذي نزلت آياته لتشفي الصدور وليس الأبدان.

رب وليس الرب

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٢) الفاتحة.

رب تعني مالك الشيء وراعيه. وتأتي في القرآن على الدوام مضافة، مثل: رب العالمين، ربي، ربك، ربكم... الخ. أما «الرب» بالتعريف فتستخدم في المسيحية ويقصد بها عندهم يسوع الإله. ولا وجود للفظ «الرب» بالتعريف، في كتاب الله، وعلى المسلم تجنب استخدامه.

عالم للخالق وعالم للمخلوقات

فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(١١) الشورى

يصف الله جل وعلا ذاته بأن أي شيء للمخلوقات ليس لله منه شيء على الإطلاق، لا شبيه له ولا مختلف عنه. فالخالق سبحانه ليس له يد، ولو كانت مختلفة عن يد المخلوق. وليس له صفة من صفات أي من خلقه، ولا هيئة ولا ملكة ولا غريزة ولا حاسة يمتلكها أي من مخلوقاته. ولا حتى أي شيء يمكن لأي مخلوق تصوره أو التفكير فيه فليس لله جل شأنه منه شيء. والله جل وعلا لا يمكن تخيل ما يكون وكيف؟ ولا يمكن معرفة أين يكون؟ ولا يمكن معرفة أي شيء عنه سبحانه إلا ما أخبر به. وهو سبحانه لم يخبر بهيئته ولا صورته ولا أي معلومة حسية عن عالمه.

ومع ذلك تذكر العديد من الآيات أن لله أعضاء كما للخلق مثل اليد والوجه وغيرها. والمتدبر لكلام الله يجد أن كل الآيات التي تذكر صفات وهيئات لله مشابهة لما عند خلقه هي في الواقع جاءت بتعبير مجازي، ومن ذلك تقول سورة الليل: وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ

تُجْزَىٰ(١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ(٢٠).

ويقصد بابتغاء وجه الله رضاه سبحانه، ولا يعني أنه سبحانه له وجه.

وعندما نقرأ في القرآن: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ(٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ(٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ(٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ(٢٥) القيامة.

فلا يعني أن المؤمن سيرى الله يوم القيامة كما يؤمن أتباع بعض المذاهب، لأن للمخلوقات قدرات محدودة لا يستطيع معها التواصل مع الخالق مباشرة. والآيات السابقة جاءت على شكل تعبير مجازي يعني الرضى للمؤمن، والتعاسة للكافر، ولا تعني أن الله يمكن أن يراه الخلق.

ولو كانت الآيات تقول بإمكانية رؤية الله – تعالى سبحانه علواً كبيراً – لرآه المؤمن والكافر على حد سواء، لأن قدرات الإنسان التي خلقها الله له واحدة بغض النظر عن كفره أو إيمانه. وقدرات النفس البشرية العظيمة، هي ضعيفة بالنسبة لعالم الخالق، ولن تتغير هذه القدرات في الآخرة. لأن الله سيبقى هو الخالق، وسيبقى البشر بل وكل المخلوقات في الكون مخلوقات ضعيفة لا يمكنها التواصل مع الله مباشرة ولا رؤيته. ومن لا يستطيع رؤية الخالق في الدنيا فلن يراه في الآخرة، لأن قدراته التي فطره الله عليها لن تتغير بمجرد موته ثم بعثه، ولأن الله جل شأنه لا تدركه الأبصار في الدنيا أو الآخرة: لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) الأنعام.

ولو تمكن مخلوق من رؤية الخالق فهذا يعني أن المخلوق أصبح لديه قدرات مشابهة لقدرات الخالق سبحانه، وهذا يتناقى مع وصف الله لنفسه سبحانه بأنه: «ليس كمثله شيء».

فالله جل وعلا لا يدانيه شيء، وله عالم خاص به سبحانه لا يقربه ولا يعرفه مخلوق، وكل ما في الكون عبارة عن عالم للمخلوقات، لا يتصل بعالم الخالق: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ(١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ(١٧) الأنبياء.

"من لدنا" تشير لعالم الخالق سبحانه المنفصل عن عالم المخلوقات.

وليس هناك اتصال مباشر بين أي نوع من المخلوقات وبين الله جل وعلا. لأن كل المخلوقات الحية لها عالم خاص بها، بمختلف أنواعها، وهو ما يعرف بالكون. وهو منفصل عن عالم الخالق الذي لا نعرف عنه شيئاً. وجميع المخلوقات الموجودة في هذا الكون في

مستوى منخفض لا تدنو من مرتبة الله لا في الهيئة ولا في القدرة ولا في أي شيء آخر.

فالله جل شأنه فوق التصنيف أو التعريف.

وليس هناك تدرج من مرتبة الله الكاملة إلى مرتبة الملائكة الأقل كمالاً ثم مرتبة البشر الأقل ثم مرتبة خلق آخر... الخ. وهذا التصنيف لا وجود له إلا في مخيلة بعض الناس.

هناك عالم الله فوق التصنيف والمستويات، وهناك عالم المخلوقات (بما في ذلك الملائكة) بمستويات وتصنيفات فيما بينها، لكن لها سقف لا تتجاوزه المخلوقات جميعاً، مهما اختلفت فيما بينها في الخلق والقدرات والتفكير... الخ، لكنها كلها مخلوقات قاصرة ضعيفة لا يمكن أن يكون لها شيء مما لله.

فالخالق جل شأنه له عالم خاص لا علاقة له بعالم المخلوقات الذي يمثله ويضمه ما يعرف بالكون. فكل ما في الكون ليس لله مثيل له، وما لله ليس للمخلوقات مثيل له.

وتقول سورة الأنعام: بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١٠١) ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(١٠٢) لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ(١٠٣).

وعندما تقول سورة الأنبياء: وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ(١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ(٢٠).

فهل هذا يعني أن عند الله في عالمه خلقاً من خلقه؟

الجواب: لا.

لكن الآية تخاطب قريشاً بما يفهمون، وقريش مثل كثير من الناس يظنون أن الله له مكان يقع فوق السماء السابعة التي تمثل أعلى الكون. وعنده سبحانه «ملائكة» يخدمونه. وهو تصور بشري يظهر وكأن الله بحاجة لأن يخدمه الخدم كما هي حال الزعيم البشري. وإلا فالله جل شأنه يسير كل خلقه بقوانين ثابتة لا يحتاج معها لا لأن يديرها مباشرة ولا أن يتابع عملها فهي لا تحتاج لا لصيانة ولا لمراقبة ولن تتعطل. وقول الآية: «وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ» تشير للقوانين الإلهية وليس لمخلوقات حية (عبيد وخدم من الملائكة).

وقد مر بنا خلال تدبر سور القرآن العديد من الآيات التي تؤكد أن لله عالماً خاص به سبحانه لا علاقة له بعالم المخلوقات، وأن الله جل شأنه لا يتواصل مباشرة مع أي من خلقه.

الملائكة

الملائكة في القرآن لا تدل على معنى واحد كما قد يتبادر لذهن البعض، ولكنها تأتي بمعنى مخلوقات حية، وتأتي بمعنى آيات، ومعنى ثالث، وفيما يلي بعض التفصيل:

أولاً: الملائكة تعني مخلوقات حية عاقلة

ونقصد بحية أنها تحس وتشعر بما حولها، ونقصد بعاقلة أنها تدرك.

والآيات الدالة على ذلك كثيرة، منها: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ(٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٣١) البقرة.

فهذه المخلوقات عاقلة لها مشاعر وأحاسيس وتعرف الخطأ وتعرف الصواب لأنها احتجت على خلق بشر بأنه سيفعل ما فعله بشر مثله خلقوا قبله « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء "

ومن يعرف الصواب والخطأ قد يقع في أي منهما. وقد وقع إبليس في الخطأ، وهو واحدٌ من الملائكة. كما أن أي واحد من الملائكة غيره قد يقع في الخطأ والعصيان: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ(٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ(٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ(٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ(٢٩) الأنبياء.

وادعاء أحد الملائكة للألوهية افتراض قد يقع، ولو وقع فمصير من صدر منه الخلود في النار. لذا فلابد أن هناك رسلاً من الملائكة أرسلت لهم لدعوتهم للإيمان بالله، كغيرهم من المخلوقات اللاحسية كالجن، أو الحسية كالبشر. وقد أشارت سورة بني إسرائيل إلى أن الملائكة يرسل لهم رسل منهم بالفعل: قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا

عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكاً رَّسُولاً(٩٥).

هل الملائكة (الحية العاقلة) جنس واحد أم إنها أجناس متباينة؟

القرآن يقول إن ملائكة حضروا لمريم وكانت لديهم قدرة على إحداث حمل دون الحاجة لتخصيب البويضة من حيوان منوي: إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ(٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ(٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ(٤٧).

الملائكة بلفظ الجمع هنا تعني أحدهم، فلم تقابل مريم جماعة من الملائكة، ولكن واحداً فقط والدليل: وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً(١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً(١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً(١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً(١٩) مريم

هذا جنس من الملائكة قادر على إحداث هذا العمل فوق العادي. وقد كرروا ذلك مع زوجة زكريا (مريم: ٧-٩) ومع زوجة إبراهيم كما ورد في سورة هود: (٦٩-٧٣).

وهذه المخلوقات لديها القدرة على التشكل بهيئات محسوسة كما حدث مع ضيوف ابراهيم الذين رآهم بهيئات بشرية وظنهم بشراً وقدم لهم عجلاً حنيذاً من ماشيته لضيافتهم لكنهم لم يأكلوا، لأنهم لا يملكون أجهزة هضمية، وليست لهم هيئات حسية، سواء تلك الهيئات الحسية التي رآهم عليها أو غيرها.

فهل هذه المخلوقات هي التي منها جبريل وميكال: مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلّهِ وملائكته وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ(٩٨) البقرة.

أم أن جبريل وميكال من جنس آخر من الملائكة؟

وجبريل هو من قام بإنزال الوحي على محمد: قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ(٩٧) البقرة.

وهو ما يعني أن الملائكة التي من جنس جبريل لديهم القدرة على الوصول للأرشيف الإلهي الذي يحتفظ فيه بنسخة الوحي الأصلية: فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(٧٥) وَإِنَّهُ

لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ(٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ(٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ(٧٨) لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ(٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ(٨٠) الواقعة.

ولديهم القدرة على فك رموز ما في الأرشيف الإلهي، وتحويله إلى نصوص بشرية مفهومة بلغة الرسول البشري، وحفرها في ذاكرته: فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ(٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ(٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ(٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ(٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ(٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ(٤٣) الحاقة.

والملائكة مخلوقات لا جسدية مما ينفي عنهم أي هيئة محسوسة، فلا يملكون أرجلاً لأنهم ليسوا بحاجة للسير، ولا أجنحة لأن تنقلهم لا يتم بالطيران ولا يملكون أجهزة تنفسية ولا هضمية ولا غيرها.

لأنها مخلوقات لا أجساد لها ولا هيئات حسية، وبالتالي فهي لا تستطيع حمل الأشياء. وهذا لا يمنع من أن تقول سورة البقرة: وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨).

وذلك من باب المجاز للتعبير عن البركة الإلهية، ولا يعني أن الملائكة ستحمل التابوت.

الخلاصة أن الملائكة كمخلوقات حية لا أجساد لها، لأنها مخلوقة من طاقة، كما أكد ذلك القرآن ضمن الحديث عن موقف إبليس (أحد الملائكة) من خلق آدم: قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ(٧٦) ص.

ومما سبق يمكن القول إن الملائكة كمخلوقات حية تعني أنواعاً مختلفة من سكان الكون، بعضهم مخلوقات لا جسدية وبعضهم يستطيع التشكل على هيئة مخلوقات جسدية. وليس المقصود بالملائكة مخلوقات من جنس ونوع واحد، وإن أطلق القرآن «ملائكة» على كل المخلوقات الكونية التي تواصلت مع البشر.

أين تعيش هذه المخلوقات الحية؟

يقول تعالى: إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ(٦) وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ(٧) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ(٨).

والملأ الأعلى تدل على أن الملائكة (المخلوقات الحية منها) تعيش في مناطق علوية قصية من الكون بالنسبة للأرض.

ما جنسها؟

سور القرآن تخبرنا أن قريشاً تظن أن الملائكة مؤنثة الجنس: إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ(٢٧) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً(٢٨) النجم.

وقريش مثلها مثل كثير من الناس يظنون أن الملائكة مؤنثة ولها أجنحة، وهذا لم يأت من مشاهدات شهود عيان، ولكنه خيال فقط ولا يقوم على أساس. وسورة الزخرف تنفي نفياً قاطعاً أن يكون للملائكة جنس مذكر أو مؤنث: وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ(١٩).

فلا الملائكة إناث كلها ولا هي ذكور كلها وليست خليط من الإناث والذكور، ولكنها أحادية الجنس، لأنها مخلوقات من طاقة لا تتكاثر. فجبريل خلق بدون أب وأم منذ خلقت الملائكة (الجنس الذي ينتمي إليه) وسيبقى جبريل هو جبريل وبدون نسل حتى يأتي اليوم الذي يهلكون فيه: وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٨٨) القصص.

وليس لهم أجهزة تناسلية ولا هضمية، لذا فهم باقون منذ خلقهم الله، وحتى نهاية هذا الكون، ولا جنس بينهم لأن الجنس حاجة ملحة لبقاء الإنسان ومخلوقات الأرض المحسوسة، لأن حياتهم قصيرة ويموتون. أما الملائكة فحياتهم باقية حتى نهاية الكون فليس لهم حاجة للجنس والتكاثر.

وليس هناك ما يمنع أن تكون الملائكة (المخلوقات الحية) التي يطلق عليها ملائكة مختلفة في الخلق والقدرات وفي أماكن تواجدها في الكون، وهو ما يؤكده القرآن في سورة فاطر: الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١).

ووصفهم بأن لهم أجنحة هنا وصف مجازي، يعني أن لهم قدرات وإمكانيات متفاوتة،

وبعضهم أقدر من بعض. وهو ما يعني أنهم أجناس ومخلوقات كونية مختلفة، تشترك في أنها مخلوقات من طاقة وليست جسدية، لكنها تختلف في قدراتها وخلقها وأماكن تواجدها في الكون.

هل تنزل الملائكة (المخلوقات الحية) وتختلط بالبشر بهيئات حسية؟

فيما عدا الرسل والأنبياء مثل إبراهيم ولوط وزكريا ومحمد، إضافة لمريم التي أصبحت أم عيسى، لم يذكر القرآن أن الملائكة تخالط البشر العادين بهيئات جسدية. بل إن القرآن يؤكد في أكثر من موضع أن الناس العادين متى ما رأوا الملائكة بهيئات جسدية فإن العذاب سيحل بهم لا محالة ولن يبقوا على قيد الحياة بعدها، لذا يمكن الجزم أنه لا أحد من البشر (العادين) رأى الملائكة أبداً وبقي حياً ليصفهم. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً(٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً(٢٢) الفرقان

وهو ما تؤكده سور أخرى مثل الحجر: (٥) وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ(٦) لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ(٨).

رؤية البشر للملائكة يعني وقوع الهلاك

وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ(٦) لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ(٨) الحجر.

قريش تقول للرسول: إن رغبت في أن تؤمن أنزل علينا ملائكة. وهو طلب كررته كثيراً قريش وكررته كل الأمم السابقة لرسلها كون الناس لا يؤمنون بأن بشراً عادياً مثلهم يمكن أن يتواصل مع السماء ولا يمكنهم ذلك. لذا لابد له إن كان بالفعل رسولاً من الله ويتواصل مع السماء أن يطلب من الملائكة أن يحضروا للأرض ويراهم الناس.

والآية ترد عليهم وتقول بأن الملائكة لا يمكن للبشر غير الرسل رؤيتهم إلا في اللحظة التي تسبق وقوع كارثة مهلكة، ولو رأت قريش الملائكة فهذا يعني وقوع كارثة ستهلكهم ولن يكون بإمكانهم البقاء بعدها.

الملائكة ككل المخلوقات قد تعصي

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ(٢٥) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ(٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ(٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ(٢٨) الأنبياء.

الآيات ترد على مزاعم قريش بأن الملائكة بنات الله، وتقول لو أن أحدهم تجرأ وادعى الألوهية من دون الله فمأواه جهنم. وهو ما يعني بداهة أنه قد يصدر منهم هذا الكفر أو أي عصيان آخر. فكل المخلوقات بلا استثناء قد تعصي وكل المخلوقات ستحاسب وبعضها سيدخل النار.

وقصة عصيان أحد الملائكة (إبليس) تكررت كثيراً في القرآن. لذا فلابد أن هناك رسلاً من الملائكة لدعوتهم للإيمان بالله، كغيرهم من المخلوقات اللاحسية كالجن، او الحسية كالبشر. وقد أشارت سورة بني إسرائيل إلى أن الملائكة يرسل لهم رسل منهم بالفعل: قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا(٩٥).

ويفهم من هذا أن كل المخلوقات الحية في الكون – جسدية كانت أو لا جسدية – أرسل الله لها رسلاً من جنسها. فالله جل وعلا لم يخلق كل المخلوقات إلا لكي يعلم من آمن ومن كفر: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ(٥٦) الذاريات.

ويوم القيامة كل مخلوق حي في الكون سيحاسب: وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(١١٩) هود.

والجن والجنة بكسرة تحت الجيم لا تعني الجن فقط، بل تعني كل مخلوقات الله غير المرئية للإنس ويدخل فيهم الملائكة، كما أكدت سورة الصافات: فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ(١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ(١٥٠) أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ(١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ(١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ(١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ(١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ(١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ(١٦٠).

والآيات تخاطب قريشاً مستنكرة عليهم زعمهم أن الملائكة بنات الله. وتنفي أن تكون الملائكة إناثاً، لأن المخلوقات الروحانية كالملائكة والجن ليس لها جنس، فهي ليست مذكراً ولا مؤنثاً. وتقول الآية (١٥٨) إن قريشاً باعتقادها أن الملائكة بنات الله قد جعلت بينها وبين الله جل وعلا نسباً، مع أن الجنة (الذين هم الملائكة هنا) يعلمون أنهم خلق من خلق الله سيحضرون للحساب يوم القيامة كغيرهم من المخلوقات. والملائكة بالنسبة لقريش جِنّة لأنهم مخلوقات خفية لا جسدية. فالجنة هنا تعني الخفية. وكل المخلوقات في الكون وإن اختلفت هيئاتها تتفق في أن لديها جانب الخير وجانب الشر. وتملك الإرادة الحرة لاختيار الطريق والتحكم في المشاعر. وكلها مخلوقات ضعيفة لا تعرف عن الرحمن أكثر مما يعرف البشر، ولا تستطيع التواصل معه سبحانه مباشرة، وليس بينها من هو أفضل عند الرحمن من بعض. وكلهم عباد لله، سواء كانوا ملائكة: وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ(١٩) الزخرف.

أو كانوا من بني إسرائيل: أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(١٨) الدخان.

ثانياً: الملائكة كآليات وليست مخلوقات حية

يقول تعالى في سورة النحل: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٨) النحل

هنا نتساءل: هل موت الإنسان عملية ميكانيكية تحتاج لمخلوقات حية (ملائكة) لديها أدوات خاصة لنزع النفس من الجسد؟

أم أن الموت حالة تنعدم فيها وظائف الدماغ وساق الدماغ والنخاع الشوكي بشكل كامل ونهائي - نتيجة لمفارقة النفس الجسد بسبب مرض أو هرم أو حادث - مما يتسبب بتوقف استهلاك الأوكسجين والانتفاع من التغذية وتصلب الشرايين والأوردة وبالتالي توقف كل نشاطات الجسد ودخولها لمراحل متعددة تنتهي بالتحلل.

يقول تعالى في سورة محمد: فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ(٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ(٢٨).

هل الكافر عند الموت يتعرض لمثل هذا الضرب؟

أم أن الحديث مجازي للدلالة على سوء عاقبة الكافر يوم القيامة الذي يحل لحظة الوفاة؟ لذا قالت الآية « فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ». لأن الميت لا يشعر بمرور الوقت لتوقف الذاكرة عن التسجيل، وعندما تقوم القيامة ويبعث يظن أنه للتو مات: وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٤٨) مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ(٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ(٥٠) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ(٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ(٥٢) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ(٥٣) يس.

والميت لا يعلم أنه يموت إلا بعد أن يبعث يوم القيامة، عندها يعرف أنه مات في الدنيا وأنه الآن في الآخرة، مثلما أن النائم لا يمكن أن يعلم أنه نام إلا بعد أن يستيقظ: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٤٢) الزمر.

ولذلك وصف القرآن القيامة كأنها تأتي الناس بغتة: بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ(٤٠) الأنبياء.

وكما أن الملائكة لا تضرب الكافر فهي لا تحقق مع الميت أثناء الوفاة: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً (٩٧) النساء.

والملائكة لا تتحدث مع الميت أثناء الموت: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) النحل.

ولكنه أسلوب القرآن المجازي لتقريب الصورة من الذهن.

وتقول سورة المدثر: وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ(٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ(٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ(٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ(٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ(٣١).

الآيات تتحدث عن أن النار عليها تسعة عشر، وتؤكد أنهم ملائكة.

والملائكة كمخلوقات حية موجودة الآن ستفنى كبقية مخلوقات الكون الحالي، ويوم القيامة سيبعثون ويحاسبون. فالدنيا لكل المخلوقات الحية في هذا الكون، هو عالمٌ للعمل والتحصيل والإيمان. ويوم القيامة هو عالمٌ للحساب والجزاء والعقاب، وليس هناك عمل. فلن يكلف مخلوق من هذا الكون بالعمل في كون القيامة.

وبناءً على هذا فالملائكة المذكورون في سورة المدثر أعلاه لا يمكن أن يكونوا مخلوقات حية كانوا يعملون في هذا الكون، وسيكلفون بأعمال يوم القيامة، لأن هذا مخالف لقوانين الله جل وعلا الذي وضع داراً للعمل هي الدنيا وداراً للحساب. كما أن الجنة والنار ستعملان بموجب قوانين فيزيائية ثابتة، ولا حاجة لمخلوقات تديرها. مثلما أن هذا الكون يعمل بموجب قوانين ثابتة دون تدخل من المخلوقات لإدارته أو تشغيله أو صيانته. وتكون الملائكة التي على النار يقصد بها الآليات والقوانين التي تسيرها وليس المقصود مخلوقات حية تدير النار وتشغلها.

ومثل ذلك ما ورد في سورة الحاقة: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ(١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً(١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ(١٥) وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ(١٦) وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ(١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ(١٨).

ومثله: قالوا أولم تك تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ(٥٠) غافر.

وتقول سورة الزخرف: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ(٧٨).

الآيات تتحدث مجازاً عن المجرمين في نار جهنم، وأنهم يتمنون الفناء ولا البقاء في النار، وتصور ذلك وكأنهم ينادون أحد الملائكة: «يا ملك ليقضي علينا ربك». وبما أنه لن يكون هناك ملائكة تدير النار، جاء الرد من رب العالمين وليس من الملائكة: «قال إنكم ماكثون، لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون».

المفسرون أفسدوا المعنى – كعادتهم – بإضافة حرف (مد) ليتحول اللفظ، من (ملك) إلى

(مالك) وجعلوه اسماً لأحد الملائكة الخازن لجهنم، أي المسئول عنها. ونكرر أن جهنم وكل كون القيامة لن يكون له مخلوقات حية تسيره، ولكنه يسير ويستمر بقوانين ثابتة أوجدها الله. ويكون الملك الذي ناداه المجرمون هو الآلية التي تسير النار، ولم يخاطبه المجرمون ولكنه أسلوب مجازي يظهر استمرار العذاب بلا نهاية.

ثالثاً: الملائكة تعني التأثير النفسي

تروي سورة آل عمران ما حدث ببدر: وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥).

لقد نزلت آلاف من «ملائكة» على جيش المسلمين في بدر، فما كان دورها؟

تقول سورة آل عمران: وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦).

لقد اقتصر دور هذه الآلاف من الملائكة على إحلال الطمأنينة والسكينة على قلوب المؤمنين، ولم يكونوا مخلوقات حية شاركت في الحرب فعلياً، كما يحرف المفسرون. فكل الذين قتلوا من قريش في تلك المعركة كانوا (٧٠ رجلاً حسبما ورد في كتب التراث) وقد يكونون أقل. وكلهم قتلوا على أيدي المسلمين وليس الملائكة. ولو كان هناك مخلوقات كونية خاضت المعركة في بدر مع المسلمين وعددها وصل لخمسة آلاف ولم تستطع قتل سوى (٧٠) رجلاً فهي مخلوقات ضعيفة لا تصلح أن تكون مدداً من الله للمؤمنين.

لكن لو كان المدد معنوياً، يتمثل بإحلال السكينة وإبعاد الرهبة والخوف من النفوس، فهو مدد هام جداً لكسب المعركة. وبما أن المدد معنوي، فالاحتمال أن الشعور بالطمأنينة وذهاب القلق والخوف، نتيجة لقدرة تلك المخلوقات على التأثير على المخ لزيادة إفرازات هرمونية معينة، مسئولة عن شعور المسلمين بالثقة في النفس والطمأنينة ونزع الخوف والقلق.

أو أن الملائكة هنا المقصود بها تلك القدرة الخفية في الجسم لتنشيط أجزاء من المخ المسئولة عن الإفرازات والهرمونات داخل الجسم والتي تتحكم بإحلال السكينة والطمأنينة بدل الخوف والقلق.

وسواء كان هناك ملائكة (مخلوقات حية) قادرة على إحلال السكينة على المسلمين، أو أن المقصود بالملائكة هنا قوى في النفس البشرية، ففي كلا الحالين سيكون معنى الملائكة هنا ليس مخلوقات حية ولا آليات، ولكنها مشاعر وقوى خفية في النفس.

خلق الكون (السماوات والأرض)

القرآن يتحدث عن خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ولا يتحدث عن خلق كل الكون. وهذا عائد إلى أن القرآن يخاطب الناس حسب مداركهم وما يفهمون. والناس زمن الرسول في مكة لا يعرفون الكون كما نعرفه اليوم وأنه مكون من مجرات ومجموعات شمسية وكواكب ونجوم، ولكنهم يعرفون ما يمكنهم رؤيته بأعينهم المجردة ; أرض وسماء. الأرض التي يعيشون عليها، والسماء التي تظلها وفيها الشمس والقمر ونجوم لا يعرفون كنهها. لذا فالقرآن يتحدث عن خلق السماوات والأرض عندما يتحدث عن خلق الكون. وأول سورة تحدثت عن خلق السماوات والأرض هي سورة «ق» من سور المرحلة الرابعة: وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ(٣٨) ق.

ثم تحدثت عنه سورة السجدة، من سور المرحلة الخامسة: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ(٤).

والآيتان – مثل كل الآيات التي تذكر خلق السماوات والأرض – تقولان بأن الخلق تم خلال ستة أيام. والمقصود باليوم هنا فترة زمنية: تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ(٤) المعارج.

ويكون اليوم في سياق الحديث عن خلق السماوات والأرض، عصراً جيولوجياً متشابه السمات، وإن استمر لآلاف الملايين من السنين.

ولذلك فلن نجد أي تعارض بين ما جاء به الوحي من أن الخلق كان على ست فترات زمنية وبين ما اكتشفه وقد يكتشفه العلم الحديث حول الكيفية التي تم فيها الخلق، والتي امتدت عبر ملايين ومئات وآلاف الملايين من السنين.

ولكن رجال الدين اليهود فهموا نص الوحي حرفياً بما يعني أن الله قد خلق السماوات والأرض في ستة أيام من أيام الأرض التي لا يعرفون غيرها، وأطلقوا لخيالهم البشري القاصر العنان لتصوير ما حدث خلال الستة أيام فقالوا: "بأن النور خلق في اليوم الأول، (قبل أن يكون هناك شمس يقاس بشروقها وغروبها اليوم). ثم خلق الجلد بين المياه في اليوم الثاني. وخلقت الأرض وما عليها في اليوم الثالث. وخلقت الشمس لتكون نور النهار والقمر ليكون نور الليل والنجوم لتنير الليل في اليوم الرابع. وخلقت المخلوقات الحية على الأرض في اليوم الخامس. وخلقت الوحوش والإنسان في اليوم السادس"[1].

وقد فسر اليهود استواء الله على العرش على أنه خلد إلى الراحة والسبات ولذلك سمي اليوم السابع بيوم السبت والراحة. وبما أن الوحي يقول بأن الله قد خلق السماوات والأرض في ستة أيام، والأسبوع سبعة أيام، فقد تخيلوا أن الله لابد أنه قد استراح في ذلك اليوم من عناء الخلق، قبل أن يبدأ في بداية الأسبوع التالي بإدارة ملكوته.

وحيث إنه يستحيل عليهم تخيل ما يمكن أن يكون في الكون البعيد فقد أهمل رجال الدين اليهود ذكر خلقه، وأسهبوا في الحديث عن خلق الأرض وما فيها وما حولها مما يمكن للإنسان رؤيته.

وقد تكرر نص خلق الكون في القرآن حرفياً، كما ورد في التوراة: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) السجدة.

وتبنت كتب التراث الديني للمسلمين المفهوم اليهودي الحرفي للنص على أنه ستة أيام من أيام الدنيا. وإن حوروا كلام اليهود قليلاً ليبدو وكأنه إسلامي، فقالوا بأن الأيام من أيام الدنيا الأولى التي كانت أطول من أيام الدنيا الحالية[2]، كما غاصوا في تفاصيل مشابهة للتفاصيل اليهودية أو منقولة عنها. فابن مسعود وابن عباس المسلمان قالا بنفس ما قاله عبد الله ابن سلام، ذو الخلفية الثقافية اليهودية، ومثله ابن جريج وكعب الأحبار ووهب ابن منبه وغيرهم، من أن الله تعالى بدأ الخلق يوم الأحد، فخلق الأرضين يوم الأحد والإثنين،

---

١ انظر كتاب التكوين في كتاب اليهود المقدس

٢ شاهدت فيلماً وثائقياً يقول بأن الأرض تكونت أولاً بدون قمر، وكان طول اليوم ست ساعات فقط، لأن دورانها كان أسرع. ولما تكون القمر أدت جاذبيته إلى تباطؤ سرعة دوران الأرض فأصبح اليوم على الأرض يساوي ٢٤ ساعة تقريباً كما هو اليوم.

وخلق الأقوات والرواسي في الثلاثاء والأربعاء، وخلق السماوات يوم الخميس والجمعة ففرغ آخر ساعة من الجمعة فخلق فيها آدم، فتلك الساعة التي تقوم فيها الساعة[1].

وعندما جاء الجيل الثاني والثالث من المفسرين المسلمين أمعنوا أكثر في الخيال من سابقيهم. فقد نقل ابن جرير الطبري في تفسيره للآية ٢٩ من سورة البقرة: هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات. عن السدي المتوفى سنة ١٢٧ للهجرة قوله: أن الله عز وجل كان على عرشه فوق الماء، ولم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء. فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً، فارتفع الدخان فوق الماء فسما عليه فسماه سماء، ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين في يومين: يوم الأحد ويوم الإثنين. فخلق الأرض على حوت، والحوت النون الذي ذكره الله تعالى في القرآن في قوله « ن والقلم» والحوت في الماء، والماء على ظهر صفاة، والصفاة على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصخرة في الريح، وهي الصخرة التي ذكرها لقمان ليست في السماء ولا في الأرض، فتحرك الحوت، فاضطربت وتزلزلت الأرض، فأرسى عليها الجبال فقرت، والجبال تفخر على الأرض[2].

انتهى كلام السدي الذي يبدو متأثراً بفلسفة يونانية في حديثه عن الحوت الذي يحمل الأرض، مع بقاء أسلوب كتاب اليهود المقدس واضحاً عندما نقارن بين كلام السدي السابق وبين نص الكتاب المقدس التالي: في البدء خلق الله السماوات والأرض. وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه. وقال الله ليكن نور فكان نور. ورأى الله النور أنه حسن. وفصل بين النور والظلمة. ودعا النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً. ..... ودعا الله الجلد سماء.... وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة...ودعا الله اليابسة أرضاً. (التكوين: الإصحاح الأول). واتفق المفسرون المسلمون مع اليهود بأن الشمس والقمر والنجوم ليست أكثر مما تراها عليه العين المجردة من الأرض. فالشمس لإنارة النهار والقمر لإضاءة الليل، في تفسير الآية القرآنية: تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١) الفرقان.

---

١ انظر تفسير الطبري للآية السابعة من سورة هود.

٢ ج١ ص ١٤٩ – جامع البيان في تفسير القرآن.

والنجوم أبراج وزينة للسماء، وليهتدي بها المسافر في تفسيرهم لقوله تعالى: وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) النحل.

والكون خلق لحكمة

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ(٢٧) ص.

مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ(٣) الأحقاف.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ(٣٨) الدخان.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ(٨٥) الحجر.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ(١٦) الأنبياء.

خلق الكون بقوانين ثابتة

إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ(٤٩) القمر.

كل الكون وما فيه خلقه الله بقوانين ثابتة دقيقة، ولا يخضع خلق الله للارتجال، كما يظن البعض. فالمطر – على سبيل المثال – ينزل إذا ما توفرت الظروف المناخية المناسبة لنزوله، والتي أودعها الله بقوانين ثابتة. ولا يمكن أن يغير الله جل وعلا هذه القوانين من أجل سؤال بشر أو لأي سبب آخر.

وقد حدث خلق الكون بسرعة متناهية، ولم يستغرق الأمر منه سبحانه لإيجاد هذه القوانين المثالية شيئاً يذكر من الزمن، كما تؤكد الآية التي تلي: وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ(٥٠).

والآية تأكيد على أن نشأة الكون حدثت بموجب تلك القوانين الفيزيائية التي أوجدها الله، خلال وقت أقل من أن يقاس. وهو ما يعرف علمياً بالانفجار العظيم، والذي حدث – كما يقول العلماء – من نواة كتلتها صفر وحجمها صفر، يعني من لا شيء. أو كما قال القرآن: «كن، فيكون». فالله أوجد القوانين، والتي بموجبها تولد ذلك الانفجار العظيم الذي نتج

عنه هذا الكون الهائل. والانفجار العظيم بالفعل حدث بسرعة متناهية تقاس بجزء من تريليون من الثانية.

وتقول سورة «يس» للرد على اتهامات قريش للرسول: أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ(٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٨٣).

والآيات تؤكد أن الله لا يعجزه شيء، وأنه إذا أراد خلق شيء، كالكون مثلاً، فكل ما يحتاجه هو أن يقول: «كن». وكن هنا ليست بمعنى فعل الأمر، لأن الأمر يكون لكائن موجود، ولكنها تعني أن إرادة الله تتحول إلى مخلوق محسوس بمجرد أن يبدع سبحانه القوانين الثابتة. فالكون انبثق من العدم بموجب قوانين فيزيائية وطبيعية، وتكونت مجراته والمخلوقات فيه بموجب هذه القوانين. فكن تعني إيجاد القوانين وبدأها العمل والتفاعل.

وتقول سورة الجاثية: وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(٢٢).

الله جل وعلا خلق الكون (السماوات والأرض) بالحق، والحق يعني عدم التغيير والتبديل والتصرف بعواطف ولكن تسيير الخلق بموجب قوانين ثابتة، وبنفس المبدأ سيحاسب الناس.

هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(٦٨) غافر.

فالله جل وعلا لا يباشر العمل بنفسه ولكن يُوجِدُ القوانين التي تقوم عليها الحياة في الكون وما فيه.

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ(١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ(٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ(٢١) الحجر.

الله جل شأنه خلق كل شيء بقوانين ثابتة ولا يتدخل فعلياً: الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا(٢) الفرقان.

وعندما تأتي آيات تبدو وكأنها تقول بأن الله جل وعلا يباشر خلق مخلوقاته بذاته سبحانه

فهي آيات مجازية، ومن ذلك: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ(٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ(٧٢) يس.

فالأنعام مخلوقات حية ضمن مخلوقات كثيرة خلقت بموجب قوانين «كن فيكون» الثابتة، دون تدخل مباشر منه سبحانه. ويكون معنى: «مما عملت أيدينا» مجازاً يقصد به أنه من خلق الله. وما يؤكد هذا أن الله، تبارك وتعالى منزه عن أن يكون له أيد أو أرجل.

وتقول سورة الأنبياء: وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ(١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ(٢٠)

الآيتان هنا تشيران إلى أن الله لا يحتاج لمخلوقات حية لتدير ملكوته، ولا يحتاج لمخلوقات حية لتخدمه سبحانه. فهو جل وعلا لا يحتاج لخدمة ويدير كل مخلوقاته بقوانين ثابتة لا تحتاج لصيانة ولا تتعطل، ولا إدارة من مخلوقات حية. لكن عبارة الآيتين تتلاءم مع إدراك وفهم المخاطبين في زمن نزول القرآن الذين يقيسون الله بمفاهيمهم البشرية وبالتالي يتصورون أنه سبحانه يحف به ملائكة يخدمونه ويديرون له خلقه ويقومون على صيانته، كما يفعل البشر.

الخلق والبعث كنفس واحدة

مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ(٢٨) لقمان.

قريش لا تؤمن بإمكانية البعث بعد الموت ظناً منها أن البعث سيكون بخلق كل فرد على حدة وهذا سيتطلب مجهوداً مضنياً ووقتاً لا حدود له، وكأن الله جل شأنه سيقوم بإعادة خلق كل إنسان على ما كان عليه في الدنيا.

والآية تقول إن بعث كل البشر مثل خلقهم لا يحتاج من الله جل شأنه جهداً ولا وقتاً: كن فيكون بواسطة قوانين ثابتة دقيقة، بحيث إن خلق أو بعث كل الناس وكأنه خلق أو بعث لواحد منهم.

كون القيامة سينشأ بعد نهاية هذا الكون

تقول سورة إبراهيم: فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ(٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ(٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ(٤٩).

وسورة الأنبياء تقول: يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ(١٠٤).

مظهر من مظاهر انهيار الكون حيث ستبدو السماء وكأنها تطوى كما تطوى السجلات. وكما بدأ الكون بانفجار عظيم سينتهي بانكماش عظيم. هكذا سينتهي الكون، إن كان فهمي صحيحاً.

وتقول سورة الزمر: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاء اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ(٦٨).

الصور هو الكون بلغة عصرنا. والآية تقول إن صورنا هذا (كوننا) سينهار وستكون نهايته وكأنه تعرض لنفخة عظيمة تؤدي إلى تهاوي النجوم والكواكب وانفراط نظامها.

ثم ينشأ صُور القيامة، وبدايته ستكون وكأن نفخة عظيمة ولد منها. وهي بداية مماثلة لما يعرف بالانفجار العظيم الذي تولد منه هذا الكون.

يوم القيامة سيشعر المرء أن بقاءه في الدنيا لم يدم سوى لحظات

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا(٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا(٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا(٤٤) إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا(٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا(٤٦) النازعات.

قريش تلح على الرسول أن يخبرهم متى الساعة، والرسول لا يعلم الغيب ليخبرهم. ولو كانت القيامة ستقوم بعد عام أو مئة عام أو ألف عام، لتم تحديد اليوم لقريش. لكن قيام الساعة سيكون بعد مليارات السنين من فناء البشر وفناء الأرض، وبالتالي فليس هناك يوم محدد بالنسبة للبشر تقوم فيه الساعة.

والآية تقول إنه عندما تقوم الساعة سيشعر الناس أنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا فترة قصيرة من

الزمن لا تزيد عن عشية أو ضحاها. وهذا الشعور هو مشابه للشعور الذي يشعر به المرء بالنسبة لسنوات عمره الماضية والتي مرت كأنها لحظات.

وتؤكده سورة الأحقاف وذلك بعد أن دعت قريشاً للتفكير بعظمة الخلق للاستدلال على قدرة الخالق على بعثهم الذي ينكرون، وبما أنهم لن يتراجعوا عن رفضهم للدعوة، وهو ما يحزن رسول الله، توجهت السورة لمخاطبة الرسول: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ(٣٥) الأحقاف.

فالأيام ستمر سريعاً وسيهلك كبراء قريش وبعدها سيواجهون مصيرهم المشئوم يوم القيامة، وسيشعرون أن بقاهم في الدنيا لم يزد عن ساعة من نهار.

وهو ما تؤكده سورة الجاثية: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ(٣٥) الأحقاف.

وكررته سورة المؤمنون في حديثها عن المكذبين يوم القيامة: قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ(١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ(١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(١١٤).

وسورة «طه»: يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً(١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً(١٠٣) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً(١٠٤) طه.

كل سنوات العمر الماضية والزمن السابق مهما طال، مر على الإنسان كأنه لحظات. والآيات تنقل لنا صورة مجازية لمجموعة من الناس يتجادلون حول الفترة التي قضوها في الدنيا، هل كانت بطول عشرة أيام أو بطول يوم واحد؟ وهذا المشهد قد لا يحدث لكنه فقط لتقريب الصورة من الذهن. فالحياة الدنيا مهما طالت فهي قصيرة وزائلة، ومن يدرك هذا لن يجعل الدنيا أكبر همه ولا غاية له، ولكنه سيعيشها كممر ودار عمل وتحصيل ليوم القيامة الدائم.

وتقول سورة المؤمنون: قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ(١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ(١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(١١٤).

والآيات جاءت ضمن سياق يصور حال قريش يوم القيامة ودخولهم النار.

وتقول سورة يونس: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ(٤٥).

والآية تصور حال كفار قريش في الآخرة، لأن الحديث في سياق الآيات عنهم. فهم يظنون أنهم سيعمرون ولكن سرعان ما تمر الأيام ويهلكون ليواجهوا مصيرهم المحتوم، وكأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار.

وتقول سورة بني إسرائيل عن قريش: يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً(٥٢).

سورة الصافات تتحدث عن رفض قريش الدعوة مبررين موقفهم باستحالة البعث: بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ(١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ(١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ(١٤) وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ(١٥) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ(١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ(١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ(١٨).

بمجرد موت الإنسان تقوم قيامته

ما إن يموت الإنسان حتى تتوقف ذاكرته عن التسجيل، فيمر الوقت مهما طال ولو كان بمليارات السنين، وهو لا يشعر به. وعندما يبعث يوم القيامة سيشعر أنه للتو مات، وكأنه انتقل من الدنيا للآخرة في نفس اللحظة: فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ(١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ(٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ(٢١) الصافات.

وتقول سورة «يس»: وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٤٨) مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ(٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ(٥٠).

وتقول سورة الأنبياء: وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ(٣٩) بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ(٤٠).

تأتيهم بغتة، لأن كل من يموت من كفار قريش الذين تخاطبهم الآيات سيشعر أنه انتقل فجأة للقيامة، وكأن البعث حدث بغتة.

فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً(٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً(٦) وَنَرَاهُ قَرِيباً(٧) المعارج.

قريش تكرر سؤال الرسول عن موعد يوم القيامة، وهو قريب جداً، ولا يفصلهم عنه إلا الموت.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ(١٨٧) الأعراف.

قريش تسأل سخرية وليس لليقين، والآية تقول إن الساعة تأتي بغتة. وهذا لا يعني أن القيامة ستقوم والناس أحياء ينظرون، لأن القيامة تكون بعد انهيار هذا الكون والذي سيكون بعد مليارات السنين من الآن وبعد فناء الإنسان من على وجه الأرض أو حتى فناء الأرض كلها واختفائها من هذا الكون. وبعد انهيار الكون سيمر مليارات سنين أخرى لكي يخلق كون القيامة وبعث الناس، فالقيامة لم تأت بغتة في الحقيقة.

لكنها ستكون بغتة لكل فرد على حدة، بمعنى أن كل شخص يموت سيشعر أنه انتقل للآخرة في نفس اللحظة، لأن ذاكرته ستتوقف عن التسجيل ولن يشعر بمليارات السنين التي تفصل بين موته وبعثه يوم القيامة، وستمر تلك الفترة الزمنية الطويلة كلمح البصر كما تقول الآية (٧٧) في سورة النحل أو بغتة كما تقول هذه السورة.

وتقول سورة الزخرف: هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(٦٦).

وتقول سورة الأنعام: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ(٣١) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ(٣٢) الأنعام.

بمجرد موت الإنسان تتوقف الذاكرة عن التسجيل وإذا ما قامت القيامة سيظن أنه مات للتو. وتكون الساعة قد جاءت بغتة حسب ما يشعر به الإنسان.

وتقول سورة الحج: وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ(٥٥).

كيف تشكلت الأرض

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ(٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ(٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ(٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(٣٣).

الآيات تخبر قريشاً عن عدة حقائق كونية بطريقة يفهمونها:

أن الأرض كانت كتلة واحدة (رتقاً) مع ما يرون من السماء (النجوم والكواكب) وملتصقة ببعض. وهذه الحقيقة التي يوردها القرآن بأسلوب بسيط يتلاءم مع مدارك قريش ومعارفها، تشير إلى أن الأرض وكل الكواكب لم تنشأ لوحدها، ولكنها تكونت من انفصالها عن الأجرام السماوية (في مجموعتها أو مجرتها). وتخلقت ببطء عن طريق تجمع الغبار والصخور المتفتتة إلى أن تشكلت بشكلها النهائي.

وكل المخلوقات الحية كان الماء عنصراً أساسياً لتخلق سلالاتها الأولى، ولولا الماء لما تخلقت[1]. ولا تقول الآية إن الكون بدأ بوجود ماء فقط ومنه تشكل الكون، كما ورد عن كتاب اليهود المقدس، واقتبسه منهم المفسرون.

السماء (الغلاف الجوي) عبارة عن سقف ومانع وحامٍ للأرض «سقفاً محفوظاً». نعرف الآن أنه يحفظها من أشعة قاتلة ويعمل على احتراق الصخور التي تخترق الغلاف الجوي فتحترق قبل اصطدامها بالأرض، والتي تراها على شكل شهب.

الشمس تسبح في فلك «مسار» خاص بها، وكذلك القمر.

سبع سماوات

أول إشارة لسبع سماوات ورد في سورة النبأ: وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً(١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً(١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً(١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً(١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً(١٦).

والآية: (١٢) تشير إلى أن هناك سبعاً (سبع سماوات) شداداً فوقنا. والسبع الشداد هي

١ يمكن الرجوع لفقرة: خلق الإنسان الأول/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

السماوات السبع. وبما أنه لا يمكن أن يكون الحديث عن وجود سبعة أكوان، لأن المخاطب (قريش) لن يستطيع رؤيتها، فقد تكون السماوات السبع طبقات الجو المحيطة بالأرض، وهي المسماة بالإنجليزية Atmospheres of Earth والتي لابد أنها سبعة، وليس كما يقول بعض العلماء أنها ست أو خمس طبقات متداخلة.

الكون له عمر محدد

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً(١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً(١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَاباً(١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً(٢٠) النبأ.

هذا الكون سينتهي في وقت محدد، لأن يوم الفصل (القيامة) سينشأ في وقت محدد مسبقاً، مما يعني فناء هذا الكون أولاً في وقت محدد، ثم ينفخ في صور (كون) جديد للقيامة بعد ذلك في وقت محدد.

وتقول سورة الأحقاف: مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ(٣).

أجل مسمى (محدد).

وتقول سورة مريم: إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ(٤٠).

وإن كانت الأرض ستنتهي يوماً فهي جزء من الكون الذي ينتهي أيضاً.

وتقول سورة الكهف: إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً(٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً(٨) الكهف.

بعدما كانت الأرض عامرة بالحياة والنبات ستتحول إلى صعيد جرز لا حياة فيها، كناية على أنها ستنتهي. والأرض كوكب من كواكب الكون، مما يعني أن كل الكون سينتهي كذلك.

وتقول سورة سبأ: وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٢٩) قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ(٣٠).

سينتهي هذا الكون في وقت محدد، وسينشأ كون القيامة في وقت محدد، وسيبعث الناس في وقت محدد.

والوقت المحدد هنا يعني ما يعرف بالعمر الافتراضي، فهذا الكون خلق بعمر افتراضي

ينتهي بعدها، ولا يعني أن الله قد حدد لحظة معينة لإنهاء هذا الكون، لكنه سينتهي بكل حال.

إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ(٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ(٤) يونس.

الله جل شأنه خلق السماوات والأرض (الكون) في ستة أيام (عصور جيولوجية) والآية الرابعة تقول بأنه بدأ خلق هذا الكون وسيعيده، أي أنه سينتهي. ثم سيعيد خلق كون القيامة حيث الجزاء والحساب.

وهو ما أكدته السورة في مكان آخر: قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ(٣٤) يونس.

والآيات في هذا الموضوع كثيرة.

كل ما في الكون يسجل

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ(١) بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ(٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ(٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ(٤) ق.

الآية (٤) تؤكد أن هناك سجلاً للبشر، مما يعني أن هناك سجلاً لكل المخلوقات، وبالتالي لكل ما يجري في الكون.

وتقول سورة القمر: وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ(٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ(٥٣).

وهي تخاطب قريشاً وتؤكد لهم أن كل شيء يصدر من الشخص من الولادة للوفاة يسجل في الزبر (السجلات) والمقصود بها صحيفة الأعمال. مثلما أن كل شيء مهما صغر في كل خلق الله (الكون) مستطر (مكتوب وموثق). فالله لا يدير خلقه مباشرة ولكن بقوانين ثابتة يضعها ويقوم عليها الخلق دون حاجة لمخلوقات حية تديرها. وتسجيل ما يحدث لا يعني أنه مقرر مسبقاً: وَاللهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى

وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(١١) فاطر.

ومثله ما ورد في سورة سبأ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ(١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ(٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ(٣).

ولا يقوم بالتسجيل رب العالمين بنفسه جل وعلا، كما لا يقوم به مخلوقات حية نيابة عن مخلوقات حية غيرها، كما رسخت كتب التراث من أن الملائكة مكلفة بتسجيل أعمال البشر. مع أن الملائكة مخلوقات تسجل عليها أعمالها، كما البشر وكل مخلوقات الكون. وتسجيل كل كائن – حي أو جماد – لما يحدث له ويصدر منه ويمر به يكون بآلية في نفس المخلوق، وهو ما يظهر عدل الله المطلق المثالي. فالمخلوق يختار طريقه بكل حرية للإيمان أو الكفر، وهو يسجل أعماله بنفسه على نفسه بكل دقة، ويوم القيامة يحاسب بناءً على ما سجل على نفسه، ويكون هو نفسه من ذهب للنار أو الجنة باختياره.

انهيار الكون

هذا الكون الذي نعيش فيه عمره قرابة (١٣,٧) مليار عام، حسب تقديرات العلماء الذين يقولون إنه يعيش في مرحلة منتصف العمر، أي أنه سينتهي بعد فترة مماثلة. والقرآن الكريم يؤكد أن هذا الكون سينهار وينتهي في إجاباته المتعددة لتساؤل قريش عن موعد البعث الذي يطالبون الرسول أن يحدده لهم ويخبرهم كيف سيكون. والإجابات كلها جاءت على شكل صور مجازية حسية تصف نهاية الكون، وتقول بأن الحساب سيكون بعد ذلك. ثم ورد في سور لاحقة بأن انهيار هذا الكون سيتبعه نشأة كون آخر، وفي ذلك الكون سيكون الحساب.

وأول آيات تقدم صوراً مجازية لانهيار الكون هي المزمل: وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً(١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً(١٢) وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً(١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً(١٤).

فعذاب المكذبين سيكون بعد أن ترجف الأرض وتصبح الجبال كثيباً مهيلاً. وهذه الصور الحسية كناية عن خراب الأرض ونهايتها، وهو ما يشير إلى خراب الكون الذي تقع ضمنه الأرض. ولا تقول الآيات إن خراب هذا الكون سيتبع بنشأة كون القيامة، لأن المقصود بالحديث هو التأكيد على أن الحساب لن يكون في هذا الكون الذي سينتهي. وهو ما يعني بداهة خلق كون جديد للقيامة.

ثم تقول سورة القارعة: الْقَارِعَةُ(١) مَا الْقَارِعَةُ(٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ(٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ(٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ(٥).

الصورة المجازية الحسية هنا تصور الناس عند البعث وكأنهم فراش مبثوث، في وقت تحولت فيه الجبال كالصوف المنفوش، كناية عن انهيار الأرض، وهو ما يعني انهيار هذا الكون. والآيات تقول لقريش إن البعث الذي تسألون عنه لن يكون إلا بعد انهيار هذا الكون وهذه الأرض.

وهذه صورة مجازية حسية أخرى تقدمها سورة الزلزلة: إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا(١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا(٢) وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا(٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا(٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا(٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ(٦).

والسورة كلها جاءت بأسلوب مجازي. ومن ذلك أن الأرض تُزلزل كناية عن فقد مسارها، وتخرج أثقالها كناية على أنها ستنفجر. وبعد أن يحدث ذلك سيصدر الناس ليروا أعمالهم ومصيرهم، وهذا يكون يوم القيامة، وبما أن كون الدنيا قد انهار، فمن البديهي أنه سينشأ كون لعالم القيامة، لم تتحدث عنه السورة، لكن سوراً نزلت بعد ذلك ستشير له.

ولن يكون الإنسان على وجه الأرض حينها ومع ذلك تقول الآية (٣) إن الإنسان سيتساءل عما حدث للأرض. وهو موقف افتراضي بمعنى لو رآه الإنسان لتساءل.

كما أن الأرض لا تنطق ومع ذلك تصورها السورة وكأنها ستتحدث عن أخبارها وستقول بأن ما حدث لها هو بأمر من الله، وهو موقف افتراضي بمعنى أن الأرض لو كانت تنطق لقالت.

وتؤكد سورة الانفطار نفس الصورة: إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ(١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ(٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ(٣).

وهذه السورة تعطي صوراً أكثر تفصيلاً لانهيار الكون. فالسماء ستنفطر، والكواكب ستنتثر، والبحار ستنفجر. وهي صور تقول بأن هذا الكون بمجراته ونجومه وكواكبه سينهار، وليس فقط الأرض.

ثم تأتي سورة الانشقاق، لتقول: إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ(١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ(٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ(٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ(٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ(٥).

تكرار للصورة التي قدمتها السور السابقة عن نهاية هذا الكون، حيث تنشق السماء، تعبيراً عن انفراط نظام الكون. وتمد الأرض وتلقي ما فيها وتتخلى عنه، نتيجة انفجارها. بعد ذلك يكون الحساب. أي تقوم القيامة بعد أن ينشأ لها كون جديد، وهو ما تتحدث عنه آيات سورة التكوير التي تلت في النزول: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ(١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ(٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ(٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ(٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ(٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ(٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ(٧) وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ(٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ(٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ(١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ(١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ(١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ(١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ(١٤).

تفاصيل أكثر هنا: الشمس ستتكور وتنتهي، النجوم ستتكدر وتتهاوى، الجبال ستسير كناية عن انهيارها. والبحار سجرت وكأنها تغلي وتتبخر، والسماء كشطت ولن يعود لهذا الكون وجود. عندها سينشأ كون القيامة، حيث تسعر الجحيم (تخلق)، وتقرب الجنة «أزلفت» (تخلق)، ويكون الحساب.

وتقول سورة الفجر: كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا(٢١).

فالدك صورة حسية مجازية لما سيعتري الأرض عند زوالها.

وتؤكد سورة القيامة أن البعث لن يكون في هذا الكون بل بعد انهياره: فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ(٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ(٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ(٩) يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ(١٠).

أسلوب مجازي لن يحدث حرفياً، فلن يكون هناك بشر لرؤية القمر وهو يخسف أو وهو يصطدم بالشمس، ولن يقول: أين المفر؟

وجاء في سورة النبأ: إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً(١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً(١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً(١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً(٢٠)

والآيات هنا تصور نشأة كون القيامة على شكل نفخة، وتقول بأن الحساب سيكون بعد ذلك. والصور في القرآن هو الكون بلغة عصرنا. وتصوير نشأة الكون بالنفخة مماثل لما يقول العلماء أن هذا الكون قد بدأ بانفجار عظيم، من لا شيء، وكأنه نفخة عظيمة.

وتكرر سورة الواقعة وصف انهيار هذا الكون: إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا(٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا(٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا(٦).

فالأرض سترتج وتخرج عن مسارها وتبس الجبال وتتهاوى، كون الأرض ستتمزق.

وتقول سورة الحاقة: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ(١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً(١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ(١٥) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ(١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ(١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ(١٨).

النفخة الواحدة تتسبب في دك الأرض المنبسطة التي يراها الإنسان مع الجبال بحيث لا يعود هناك أرض منبسطة ولا جبال. يعني أن شيئاً ما سيصيب الأرض ويدك تضاريسها قبل أن تنتهي كما بدأت. بعدها تقع الواقعة (تقوم القيامة).

وتعود الآيات لتقديم صور إضافية لانهيار الكون ممثلة بانشقاق السماء وضعفها، وبعد ذلك ستكون القيامة، حيث يكون العرض والحساب.

وتقول سورة المرسلات: فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ(٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ(٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ(١٠).

الصورة المقدمة هنا لانهيار الكون تقول بأن المجرات لن يكون لها وجود، فنجومها (وكواكبها) ستطمس، والسماء (الفضاء بين النجوم والكواكب والمجرات) ستتشقق، والجبال التي تبدو أشد تضاريس الأرض رسوخاً ستنسف، ومعها كل الأرض.

وتقول سورة الطور: إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ(٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ(٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا(٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا(١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ(١١).

فعذاب المكذبين واقع لا محالة (يوم القيامة) الذي سيأتي بعد خراب هذا الكون الذي أعطت الآيات بعض الصور المجازية الحسية لمظاهر انهياره. فالسماء ستمور، أي تختلط وتتبعثر. والجبال ستذوب صخورها وتسير. ثم ينشأ كون القيامة ويبعث الناس ويكون

مصير المكذبين النار.

وتقول سورة «طه»: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً(١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً(١٠٦) لا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً(١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً(١٠٨).

قريش تسأل الرسول عن مصير هذه الجبال يوم القيامة التي يرونها تحيط بمكة فيأتي القرآن بجواب مجازي يصور الجبال وكأنها نسفت وسويت بالأرض. والآية تقول بأنه بعد نسف الجبال ستقوم الساعة، وكأنها ستقوم على هذه الأرض. وتقديم هذه الصورة الحسية المجازية بديل للقول بأن هذا الكون كله سينتهي ثم ينشأ كون آخر للقيامة. لأن المهم هو أن تعرف قريش أن الجبال ستنتهي ولن يروها يوم القيامة، وهو مفهوم يتناسب مع مداركهم وما يعرفون من العلم.

اليوم يعني فترة زمنية

قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ(١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ(١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(١٢) فصلت.

اليوم له عدة معانٍ في لغات عدة وليس فقط العربية، ومن معانيه الفترة الزمنية. وهي تطول لتكون عصراً جيولوجياً لملايين السنين.

والآيات تقول إن الأرض خلقت في يومين، اي عصرين جيولوجيين.

ومن ثم مرت الأرض بأربعة عصور جيولوجية مختلفة حتى ظهرت فيها الحياة.

ومر الغلاف الجوي للأرض بعصرين جيولوجيين حتى اكتمل.

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ(١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ(١٩) القمر.

الآية تقول إن عاداً أهلكت بريح في يوم نحس مستمر، والمقصود بذلك اليوم: سبع ليال

وثمانية أيام، وليس يوماً واحداً، كما ورد في سورة الحاقة: سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ(٧).

لأن اليوم يأتي لعدة معانٍ أحدها اليوم المعروف، أو فترة زمنية متشابهة الصفات والملامح، سواء امتد لعدة أيام كما ورد هنا، فسبع ليال وثمانية أيام متواصلة هي يوم استمر فيه هبوب الريح. أو لفترة أطول كألف سنة، أو خمسين ألف سنة، كما ستذكر السور. وقد يمتد اليوم بهذا المعنى ليكون عصراً جيولوجياً يقدر بملايين أو بلايين السنين، ومن ذلك خلق السماوات والأرض في ستة أيام (ستة عصور جيولوجية). فاليوم يعني: فترة زمنية متجانسة الملامح، بغض النظر عن طولها. وهذا المعنى لليوم يوجد في لغات أخرى ولا تنفرد به العربية.

خلق الإنسان

السائد الذي ترسخ من كتب التراث هو ما تبنته تلك الكتب من روايات إسرائيلية وموروث اليهود وكتبهم المقدسة. ويتمثل في أن الله قد خلق آدم أولاً وخلق له امرأة من أحد أضلاعه، وكانا يرزقان توأمين، ولد وبنت، في كل مرة تحبل فيها امرأة آدم التي أسموها «حواء». وكان الولد يتزوج بأخته التي ولدت مع أخيه وليست التي ولدت معه. (حكايات وأساطير شعبية تصلح لمتعة الأطفال وليس للحديث عن خلق الخالق جل وعلا).

وتستمر الحكايات لتقول بأنهم بعد آدم كفروا فأرسل لهم نوح الذي ولد له ثلاثة أبناء ذكور. وأن الله أغرق كل الناس لكفرهم ما عدا أهل بيت نوح. ومن بينهم أولاده الثلاثة الذكور وأسموهم أسماء هي: سام، والذي جعلوه أبا اليهود والغربيين. وحام وجعلوه أبا الأفارقة والعرب، ويافث وجعلوه أبا للجنس الأصفر. فمن أولاد نوح خرجت كل الأجناس البشرية الحالية، «كما تقول الحدوتة».

ويمكن ملاحظة التحقير المتعمد للعرب حيث جمعوهم بالأفارقة الذين ظلموا عبر التاريخ باعتبارهم عبيداً فقط لأن لون بشرتهم داكن، وجعلوهم مع العرب أقل الشعوب البشرية درجة. ومع أنه تحقير متعمد من اليهود للعرب فقد قبله العرب وتبنوه واعتبروه هو الحق وما يخالفه الباطل.

المؤسف هو أن رواد علماء الأجناس بصفتهم من الغرب فقد تبنوا مقولة كتاب اليهود المقدس، كونهم مسيحيين يؤمنون بكتاب اليهود المقدس ككتاب لهم أيضاً، ولتأثير المد اليهودي الفكري وتغلغله في الغرب. لذا حاول أولئك الرواد أن يأولوا الدلائل التاريخية لنشأة البشر لتبدو مطابقة لما قالت كتب اليهود. فقالوا إن هناك فقط ثلاث سلالات بشرية تفرع منها سلالات أصغر نتيجة اختلاط السلالات الثلاث، مكونة كل البشر. وبقيت هذه الأكذوبة معتمدة في علم الأجناس حتى مؤخراً، عندما اضطر العلماء إلى الاعتراف بأن سكان صحراء كلهاري الأفريقية (البوشمن) لا ينتمون لأي من السلالات الثلاث، وهو ما يندرج على سكان أستراليا الأصليين. ثم وفي خمسينات القرن الماضي قاموا بتقسيم سكان الكرة الأرضية إلى تسع مجموعات، أسموها أجناساً جغرافية، هي: الأسترالي، الأفريقي، الآسيوي، الهندي، الأوروبي، الهندي الأمريكي، البولينيزي، الميكرونيزي، الميلانيزي.

وبرغم أن هذا التقسيم يحاول ألا يقول بصراحة أن نظرية كتب اليهود المقدسة عن نشأة البشر هي مجرد خرافة، إلا أنه أسقطها عملياً وعلمياً.

والسلالات البشرية كغيرها من سلالات المخلوقات الحية على الأرض، من حيوانات وطيور، بل ونبات، عبارة عن مجموعات ظهرت للوجود بمواصفات تتناسب مع البيئة التي خلقت فيها. حيث نجد ثعلباً قطبياً يختلف عن الثعلب الصحراوي وعن الثعلب المداري. كما نجد أن أنواع الثعالب على الأرض بالمئات، مثلها مثل الحمام أو أي حيوان أو طائر آخر. والإنسان لا يختلف عنها في هذا المجال: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ(٢٨) فاطر.

الإنسان الأول

المخلوقات الحية على الأرض من حيوانات ونبات تتشابه مع الإنسان في العديد من الصفات ويهمنا منها ما يلي:

- أنها تعتمد على تزاوج ذكر وأنثى للإنجاب واستمرار الجنس: وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٤٩) الذاريات.

- وأنها سلالات مختلفة الألوان والأشكال: وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ(٢٨) فاطر.

وهذا يعني أن بداية خلق المخلوقات الحية على الأرض متشابهة.

ولو تمعنا في أي جنس حيواني وليكن الخيل أو الحمام أو الكلاب أو القطط المستأنسة أو غيرها فسنجد أن هناك سلالات متنوعة من كل جنس من هذه الحيوانات. وكل سلالة خلقت لتتلاءم مع البيئة التي خلقت فيها. فالحيوانات في المناطق الباردة تختلف عن مثيلاتها في المناطق الحارة. والتي تعيش في مناطق مطيرة تختلف عن تلك التي تعيش في مناطق جافة، والتي تعيش في السهول تختلف عن حيوانات من جنسها تعيش في المناطق الوعرة والجبلية ... وهكذا.

وهذا ينسف نظرية داروين التي تقول إن المخلوقات توجد في البيئة أولاً ثم تتطور لتتلاءم معها. وينسف نظرية علماء الأجناس (المتأثرين بتاريخ كتاب اليهود المقدس) والذين يقولون إن الإنسان انحدر من أبناء نوح الثلاثة.

والقرآن يقول إن هناك عناصر أساسية تكونت منها الأجيال الأولى للمخلوقات الحية على الأرض ومن بينها الإنسان، ومن هذه العناصر:

الماء

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٤٥) النور.

وهذا لا يعني أن هناك خلية أولى ظهرت في الماء ومنها انبعثت كل أشكال الحياة على الأرض، ولكن يعني أن الماء عنصر أساسي في تكون الهيئة الأولى للمخلوقات الحية على الأرض: وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً(٥٤) الفرقان.

ولم يكن الماء هو العنصر الوحيد الذي بدأت منه الحياة للمخلوقات الحية كما يقول داروين بل كان معه عنصر آخر، هو:

الطين

الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ(٧) السجدة.

والطين عبارة عن تراب ممزوج معه الماء. وتكون الحياة بدأت بعنصري الطين والماء معاً، وليس بالماء فقط.

كيف خلقت السلالات الأولى للبشر

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ(١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ(١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ(١٤) المؤمنون.

هذه الآيات تقول إن هناك أطواراً (مراحل زمنية) مر بها خلق الإنسان، وهو ما ينطبق على كل المخلوقات الحية في الأرض. وأن البشر لم يبدأوا من رجل واحد ولكن من سلالات، كل سلالة ظهرت للوجود في بقعة ما من الأرض في نفس الوقت. والآيات تتحدث عن الظروف المناخية والكيميائية التي تظافرت لنمو أجيال السلالات البشرية الأولى. والتي احتاجت لماء وتراب وقرار مكين (مكان معزول داخل تجويف أرضي). ثم فترات طويلة متعاقبة مرت على هذا المزيج، تشكل خلالها بهيئات مختلفة، حتى أصبح بهيئة بشرية، كما يلي:

الطور الأول

بدأ بنقع التراب في الماء لفترة طويلة من الزمن في مكان تحت سطح الأرض (قرار مكين) حتى أصبح (طيناً لازباً) كما تقول سورة الصافات: إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ(١١).

طين شديد اللزوجة.

الطور الثاني

تحول الطين إلى صلصال، كما تقول سورة الرحمن: خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ(١٤).

أي بدأ الطين يتماسك.

الطور الثالث

ثم تحول الصلصال إلى حمأ: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ(٢٦) الحجر.

والحمأ هو الطين المتغير للسواد من طول مكوثه في الماء الراكد.

والمسنون يعني المصبوب بشكل وقالب معين والمصقول والمملس. وهذا يعني أنه قد تشكل على هيئة ما.

تحول الخليط إلى نطفة (قد يكون شكلاً هلامياً)، ذات أمشاج كما أطلقت عليه سورة الإنسان: إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ.... (٢). والنطفة هنا لا تعني بالضرورة شكلاً صغيراً، ولكنه متكون هلامي.

وكل هذا حدث تحت ظروف مناخية وكيميائية معينة، وفي مكان معزول (قرار مكين)، قد يكون تجويفاً تحت السطح.

وكل طور عبارة عن فترة تستمر لمدد طويلة من الزمن قد تكون آلاف السنين. لذا سمتها سورة الإنسان حيناً من الدهر: هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا(١).

الطور الرابع

تحول النطفة إلى علقة. أي تشكل الطين الهلامي بشكل آخر لزج التصق بجدار التجويف الذي تحت الأرض.

الطور الخامس

تشكلت العلقة إلى شكل غير متناسق بنتوءات "مضغة".

الطور السادس

قست المضغة وتصلبت، وبدأت تتشكل على شكل هيكل عظمي بشري ينبت من التجويف الأرضي إلى سطح الأرض، كما تقول سورة نوح: وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا(١٧).

الطور السابع

كسي الهيكل العظمي باللحم والأعصاب والأوردة ...الخ، حتى أصبح على هيئة إنسان كامل.

الطور الثامن والأخير

نفخ الله فيه من روحه فأصبح كائناً حياً.

وكل سلالة من السلالات البشرية الأولى خلق منها مجموعة من الذكور والإناث، بهذه الطريقة، وفي وقت واحد. وهو ما ينطبق أيضاً على كل المخلوقات الحية على وجه الأرض.

وهذه الأطوار والمراحل التي مرت على خلق الإنسان غابت عن المفسرين واعتبروها تتحدث عن خلق الجنين في الرحم. فما كان من المستشرقين إلا أن اعتبروا هذه الآيات في سورة المؤمنون خطأ علمياً في القرآن يتعارض مع تخلق الجنين. وبما أنه ليس لدينا علماء مسلمون يعتمدون القرآن في إطلاق نظريات وحقائق علمية جديدة، فلم يتعرف أحد على ما يقول القرآن بوضوح هنا. لأن كل من يقرأ الآيات السابقة يفهمها بما يقول المفسرون وليس بما يقول القرآن.

وتقول سورة الأنعام: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ(٢) الأنعام.

الآية تتحدث عن أصل الأجيال الأولى للإنسان، وأنها مرت بعدة آجال (أطوار)، إلى أن وصلت للأجل الذي تشكلت فيه على هيئة إنسان ونفخت فيه الروح.

نشأة السلالات البشرية كانت في وقت واحد وخرجت للحياة في وقت واحد في كل الأرض

يقول تعالى في سورة لقمان: مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ(٢٨).

فالله جل وعلا خلق الناس بنفس الطريقة وبنفس الوقت وكأنهم نفس واحدة. وسيبعثهم معاً وبنفس الطريقة وكأنهم نفس واحدة وفي نفس الوقت.

استمرار الجنس البشري

بعد أن أصبح هناك جيل أول لكل سلالة بشرية، في عدة أماكن من الأرض، استمر الجنس البشري بالتزاوج بين الرجل والمرأة: أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى(٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى(٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى(٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى(٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى(٤٠) القيامة.

الآيات تتحدث عن بعض مراحل تخلق الجنين في الرحم، بما يمكن للمخاطب (قريش) تصوره وما هو معروف لديهم. فهم يعلمون أن المني يتخلق منه الإنسان، لكنهم لا

يعلمون أن السائل المنوي يحتوي على حيوانات مجهرية، ولا يعلمون أن المرأة تفرز ما يسمى بالبويضة، وأن واحداً من هذه الحيوانات المجهرية يصل للبويضة ويلقحها فيحدث الحمل. لذا لم يذكر البويضة ولكنه ذكر أن الإنسان يتكون من المني وهذا صحيح. وأنه يبدأ كنطفة (شيء متناهي الصغر) ثم يتحول لعلقة (شيء يتعلق بجدار الرحم) ثم ينمو ليتشكل كإنسان، رجلاً كان أو امرأة. وهذا التفصيل في السرد يخاطب قريشاً لتفكر أن من خلق الإنسان بهذه الطريقة الإعجازية قادر على إعادة خلقه يوم القيامة.

وتقول سورة المرسلات: أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ(٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ(٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ(٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ(٢٣).

بداية خلق الجنين تكون من السائل المنوي (حيوان واحد يصل لبويضة المرأة ويلقحها) ويتم هذا وكل مراحل الحمل التالية «في قرار مكين» مكان مؤمن ملائم. ويستمر التخلق طوال فترة الحمل، إلى أن تحين الولادة: «إلى قدر معلوم». ليس مقدراً مسبقاً متى تلد كل امرأة ولكن بمعنى أن الحمل جعله الله مرحلة تنتهي. ليخرج إنساناً: «فقدرنا فنعم القادرون».

وتقول سورة غافر: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٦٧).

وبداية السورة تتحدث عن البداية الأولى للسلالات البشرية (من تراب) ثم تتحدث بقية الآية عن تكون الجنين. والذي ي بدأ مع تخصيب البويضة واندماج الأحماض النووية وانقسام الخلايا لتتكون (النطفة) التي تسافر عبر قناة فالوب لتلتصق بالرحم وتتحول إلى (علقة) ومن ثم يبدأ تخلق الجنين بتكون الأنسجة والأعضاء (يخرجكم طفلاً).

والقرآن لا يخاطب قريشاً بما لا يفهمون، ولا بما سيعرفه الناس بعد قرون من تطور العلم، فكيف خاطبهم هنا بمراحل تكون الجنين في الرحم؟

الجواب سهل، ويتمثل في أن الناس منذ وجدوا على الأرض وهم يعرفون أن الجنين يتكون من ماء الرجل (الذي يرون)، ويعرفون أنه بعد ذلك يبدأ الحمل بنطفة أو تخلق صغير جداً، ثم يبدأ يكبر فيتحول إلى علقة قطعة لحمية عالقة ولاصقة بالرحم. ومن البديهي أن تتعرض بعض النساء للإجهاض في أي مرحلة من مراحل الحمل. وهو ما يعني التعرف على مراحل

تخلق الجنين بشكل عملي تشريحي عرفه الناس منذ القدم. ولم تكن الآية تتحدث لقريش بما لا يفهمون وما سيكتشفه العلم بعد قرون.

وهو ما كررت ذكره سورة غافر: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٦٧).

وسورة فاطر: وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(١١).

والآية تقول بأنه سبحانه يعلم بكل تفاصيل خلقه، لكن الآية لا تؤخذ كدليل على أن الله قد قرر وقدر كل شيء مسبقاً فهي لا تقول بهذا.

وتقول سورة السجدة: ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ(٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ(٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ(٩).

فالله جل وعلا خلق الأجيال الأولى للسلالات البشرية من طين، ثم جعلهم يتناسلون بالتزاوج: «ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ". ثم يولد الطفل ويكون له سمع وبصر وعقل.

وهو ما حدث لكل المخلوقات الحية على الأرض: فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(١١) الشورى.

فبعد ظهور الجيل الأول من كل سلالة من البشر أو أي مخلوق حي آخر، استمر الجنس بالتزاوج.

وكل زوج (ذكر وأنثى) خلقهما الله من مواصفات واحدة: وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ(٩٨) الأنعام.

نفس واحدة تعني من نفس المواصفات والتركيب، ولا تعني من إنسان واحد. فليس للبشر شخص واحد تناسلوا منه. لأن هذا غير ممكن. إذ لابد من نفسين (ذكر وأنثى) للتوالد.

خلق آدم

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٣١) قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ(٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ(٣٤) البقرة.

- الملائكة مخلوقات كونية حية.
- الملائكة هم وحدهم من أطلعهم الله على خلق آدم، وهو ما يعني أن إبليس أحدهم.

الآية (٣٠) تؤكد بشكل قاطع أن الله أخبر الملائكة بخلق آدم دون بقية مخلوقاته. أي أنه لم يخبر غيرهم معهم كالجن: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً». وهذا يعني أن كل من أخبرهم الله بخلق آدم ملائكة بما فيهم إبليس.

وقول الملائكة: «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء» قياساً على ما اختبروه ويرونه من أفعال البشر. وهذا يؤكد أن آدم ليس أول البشر، وإن خلق بدون أب أو أم، مثلما خلق عيسى بلا أب: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ(٥٩) آل عمران.

وكلاهما رجلان من البشر وليسا أول البشر.

والله جل شأنه أبلغ الملائكة في أماكن تواجدهم في الكون، والذي يطلق عليه القرآن: «الملأ الأعلى»، كما جاء في سورة ص: مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ(٦٩) إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ(٧١).

لقد أبلغ الله الملائكة في المكان الذي يعيشون فيه (الملأ الأعلى)، ولم يحدث ذلك في الأرض، التي خلق عليها آدم. وبمجرد أن أبلغهم الله بخبر خلق آدم حتى تباينت مواقف الملائكة منه، وحصل خلاف بينهم حول ذلك. البعض قبل دون اعتراض، والبعض عارض بشدة « قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ."

وهذا الاعتراض بني على حجة أنهم أفضل من البشر وأن هذا البشر سيفعل ما فعله أمثاله من البشر المنتشرين على الأرض قبل خلق آدم. فهم هنا يقولون لماذا تريد خلق بشر يفسد في الأرض ويسفك الدماء، كما يفعل البشر الموجودون، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ لقد بنى المعترضون من الملائكة اعتراضهم على خلق آدم، على شعورهم بأنهم أفضل من هذا الإنسان. ولم يكن إبليس وحده من شعر بشعور الفوقية هذا، لكن بقية الملائكة امتثلوا لأمر الله.

وقد أخبر الله الملائكة بأشياء خفيت عليهم، تتعلق بخلق آدم، وبين جزءً منها بالدليل المحسوس: «قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٣١) قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ(٣٣).

هنا أعلن من عارض في البداية تراجعهم عن اعتراضهم، إما عن قناعة تامة واعتراف بخطأ موقفهم، أو تسليماً بمشيئة الله، والسكوت لأنهم لا يستطيعون الاعتراض على مشيئة الله رضوا أم لم يرضوا، مع الاحتفاظ بالشعور الشخصي حيال خلق آدم.

الموقف من السجود

كان من المحتمل ألا يعلن إبليس عصيانه، وسيعيش مع غيره من الملائكة الذين اعترضوا ثم سكتوا، لولا أن الله جلت قدرته طلب من الملائكة السجود لهذا الإنسان: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ(٣٤) البقرة.

عندما طلب الله منهم السجود سجدوا جميعاً، بما في ذلك المعارضون لخلق آدم، والذين شعروا أنهم أفضل منه، إلا واحداً منهم، لم يستطع كبح جماح نفسه. فأعلن أنه لن يسجد لهذا المخلوق الذي شعر منذ البداية أنه أفضل منه.

نعم لقد سكت عن الاعتراض لأنها مشيئة الله ولا يستطيع الاعتراض على مشيئة الله في خلق من يشاء. لكن أن يسجد لهذا المخلوق وهو أفضل خلقاً منه، فلا.

وموقف الملائكة مشابه لمواقف المخلوقات البشرية. فمثلاً لو أن حُكماً قضائياً وقع ضد

أشخاص. فنجد أنهم سيعارضون، لكن شكل الاعتراض سيختلف بينهم. فمنهم من يعارض في البداية، وعندما يشرح له مبررات الحكم سيقتنع ويسكت، أو يسكت ولو لم يقتنع.

والبعض الآخر سيستمر بالاعتراض وقد يتصرف بتصرفات تؤدي لضرره شخصياً، لأنه شعر أن تراجعه تخل عن حق من حقوقه.

إبليس كان ممن عارض وسكت دون قناعة، ولما طلب منه السجود أعلن أنه يرفض السجود لمخلوق اعتبره أقل شأناً وقدراً منه منذ البداية. فطرد من رحمة الله ليس لأنه قال إنه أفضل من آدم، ولكن لأنه عصى أمر ربه. وعصيان أوامر الله موجبة للعقاب.

وطلب السجود لآدم كان في المكان الذي يعيش فيه الملائكة، ولم يتشكلوا بهيئات محسوسة ويقفوا أمام آدم ليراهم وهم يسجدون له. لأن السجود ليس لتعظيم وتقديس آدم، بل استجابة لأمر الله، واحتراماً لمشيئته في خلق آدم. فهم سجدوا لله وليس لآدم.

الجنة

تستمر الآيات بسرد ما حدث لآدم بعد ذلك: وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ(٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ(٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(٣٧) قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٣٩).

لقد سكن آدم وزوجه «الجنة» بمفهومها الأرضي التي تعني الغابة والأرض الخضراء الشجرية التي تجري فيها الجداول المائية. وقول المفسرين إنها جنة الخلد، يظهر كم يجهلون القرآن، الذي يؤكد أن جنة الخلد لم تخلق بعد، لأنها ستخلق في كون القيامة الذي لن يخلق إلا بعد انهيار وانتهاء هذا الكون، وقد مررنا بآيات كثيرة تؤكد ذلك.

ولأن القرآن يؤكد أن جنة الخلد لا تكون إلا بعد الحساب، والحساب يوم القيامة. فكيف يدخل آدم الجنة قبل أن يعمل وتسجل أعماله ويحاسب ثم يستحق الجنة، كما نص عليه القرآن: وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ

فِيهَا أَبَداً لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاً ظَلِيلاً(٥٧) النساء.

والجنة لفظ موجود قبل نزول القرآن وقبل نزول التوراة في اللغة ويعني الأرض العشبية الشجرية والتي تمر بها الجداول المائية. كما أن الجنة هي البستان وخاصة بستان النخيل. والوحي سمى مكان النعيم في الآخرة جنة بناءً على ذلك. ولم يكن القرآن هو من استخدم كلمة «الجنة» وبل استخدمها الناس للبستان والأرض الخضراء أيضاً.

زوج آدم

من أين أتت؟

القرآن لا يشير إطلاقا إنها خلقت معه وبالطريقة التي خلق بها، وإن بقي هذا الاحتمال قائماً. فإن كانت زوجة آدم لم تخلق معه، فهل تزوج آدم من البشر القريبين منه؟

الطرد من الجنة

الآيات تقول إن الشيطان قادهما للزلل المتمثل بعصيان نهي الله بألا يأكلا من شجرة معينة، وأكلا. فعاقبهما الله بطردهما من الجنة وأمرهما بالهبوط منها، وهذا يشير إلى أن الجنة تقع على جبل، وهبطا إلى أرض سهلية تحت الجبل.

ولنا أن نسأل: هل الشيطان هو إبليس؟

أم أن الشيطان هنا وساوس النفس، أنا أميل إلى أن الشيطان هو الوساوس وليس ذاك المخلوق من الملائكة الذي عصى ربه بعد السجود لآدم. وإن كان إبليس لديه القدرة على تحريك الوساوس لكنه لا يستطيع فرضها، وهي موجودة في النفس وليس إبليس مصدرها. فإبليس قد يكون شيطاناً، مثلما أن هناك شيطاناً من البشر يحرك وساوس أخيه، وهناك وساوس خفية من النفس البشرية ذاتها هي شيطان أيضاً[1].

خلق الله مستمر

خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ(٤) وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ(٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى

١ حديث مفصل عن آدم تجدونه في كتاب: من آدم إلى محمد/ تاريخ الأمم والأشخاص المذكورين في القرآن.

بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ(٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٨) وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ(٩) النحل.

إشارة إلى أن الخلق مستمر ولم يتوقف ولن يتوقف. قد يكون في أماكن من هذا الكون، وقد يكون في أكوان أخرى، وقد يكون خلق كون آخر بعد هذا الكون.

الجن

مخلوقات لا مرئية، ولا تملك القدرة على التشكل بهيئة مرئية ولو بصفة مؤقتة، وسنتتبع بعض ما جاء في القرآن عنهم. وبداية ذكرهم ورد في سورة الجن والتي تروي كيف استمع نفر منهم لتلاوة الرسول:

الحادثة بدأت صدفة

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً(١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً(٢) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً(٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطاً(٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِباً(٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً(٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللهُ أَحَداً(٧).

الرسول لم يعلم حينها أن أحداً يستمع لتلاوته القرآن، غير البشر الذين أمامه من قريش. ونقول من قريش لأن السورة نزلت في وقت كان المخاطب هم قريش فقط، في مرحلة كانت الدعوة موجهة لهم وحدهم دون بقية الناس. ولولا أن القرآن أخبر الرسول أن نفراً من الجن استمعوا إليه لما عرف بذلك أبداً، مهما تكرر حضور الجن واستماعهم لتلاوته. لأنهم خلق بلا أجساد محسوسة، لن يكون بإمكان الرسول وأي بشر آخر رؤيتهم. والسورة تؤكد أن النفر قد تزاحموا حول الرسول: وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً(١٩).

ومع ذلك لم يشعر بهم ولم يحس بوجودهم.

والكون لابد أنه ممتلئ بمخلوقات جسدية وغير جسدية، لكن القرآن دائماً لا يتحدث عن

أي مخلوقات غير أرضية إلا إذا كان لهم علاقة بالناس على الأرض. بل إن القرآن لم يتحدث عن مخلوقات لا تعرفها قريش، ولا عن أناس لا يعرفونهم من أهل الأرض. ولذا فحديث السورة عن الجن سببه أن نفراً منهم استمعوا لتلاوة الرسول، وآمنوا بالدين الذي يدعو له، وذهابهم لقومهم ودعوتهم للإيمان، مما جعل هناك مبرراً للحديث عنهم وإطلاع البشر على ما حدث. وهذا مماثل لحديث القرآن عن الملائكة الذين شهدوا خلق آدم، لأن أحدهم لم يستجب للسجود لآدم فطرد من مجتمع الملائكة ومن رحمة الله، وحبس في محيط الأرض – وهو نفس المحيط الذي يعيش فيه الجن كما سنرى – وأصبح إبليس – الملك العاصي – مصدر إغواء للناس. وهي وإن كانت علاقة خفية ولا تجعل إبليس مرئياً من قبل البشر، إلا أن مناسبة حضور الملائكة خلق آدم وعصيان إبليس كانت سبباً لحديث القرآن عنهم. ولم يتحدث القرآن عن مخلوقات لابد أنها تملأ هذا الكون الهائل، سواء كانت مرئية أو غير مرئية، لأنها لا علاقة لها بحياة الناس وليس بينها وبينهم اتصال وتواصل في ذلك الوقت. وإن كان هذا لا يعني أنه لن يتمكن البشر يوماً من التواصل بمخلوقات حية تعيش في أماكن في هذا الكون. نظرياً هذا محتمل، ولا شيء يمنعه إلا بعد المسافات.

يتواصلون فيما بينهم

عندما يقول القرآن: " فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً" فهو كلام على لسان الجن، ينقل لنا أنهم استمعوا وأحاطوا وفهموا ما كان رسول الله يتلوه من القرآن، فالقرآن ينقل لنا أنهم فهموا ما كان يتلى بمقدرة ما يتمتعون بها وتناقلوا المعلومة بمقدرة ما يتمتعون بها، ولا يعني أنه كان لديهم آذان كآذان البشر وأنهم كانوا يتحدثون بلغة بشرية. وهو دليل على أن التواصل بين مخلوقات خفية علينا في الكون ليس بالضرورة أن يكون بالكلام أو خروج أصوات من الحنجرة كما هي الحال مع الطيور والحيوانات الأرضية. وهذا ينفي أن يكون القرآن إما مخلوقاً، بمعنى أن حروف الآيات مخلوقات خلقها الله، أو أنه منطوق، بمعنى أن الله نطق به للملائكة الذين نقلوه للرسول. ولكنه مجرد معلومة تم توصيلها بطريقة غير معتادة عندنا، إلى الأرشيف الإلهي – وقامت ملائكة لديها قدرة خاصة بتحويل تلك المعلومة المحفوظة في الأرشيف الإلهي بصيغة معينة إلى نصوص عربية تحفر في ذاكرة الرسول.

لديهم القدرة على فهم لغة البشر

فقد استمعوا لتلاوة الرسول للقرآن وفهموها: «قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً(١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ».

لكن: هل يستطيع كل الجن فهم أي لغة أو لهجة يتكلم بها البشر؟

المرجح أنهم يستطيعون، فكونهم مخلوقات من طاقة فإن تنقلاتهم السريعة تجعلهم يتواجدون في أي بقعة من الأرض في وقت قصير مهما كان بعد هذه البقعة. وبالتالي يمكن القول بأنهم إن كانوا يفهمون لغة واحدة من لغات البشر فهم سيفهمون بقية اللغات واللهجات، وهذا ما أعتقد. وفهم ما يقال لا يعني أنهم قادرون على الكلام.

الجن جنس واحد وليسوا شعوباً مختلفة

وهذا يمكن فهمه ضمناً من الآيات، حيث يتحدث النفر الذين استمعوا لتلاوة الرسول عن الجن كمجموعة واحدة أو جنس واحد، ليس بينهم أي اختلاف لا في الخلق ولا في القدرات. فالآية الأولى تقول بأن من استمع لتلاوة الرسول نفر من الجن، وليس نفراً من طائفة معينة من الجن: « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ».

وأولئك النفر يتحدثون عن عموم الجن بضمير المتكلم: «وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ .... وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً ..... وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ".

والناس انقسموا لشعوب وقبائل ليتعارفوا، بنسبة كل شخص لوالده، أما الجن فلا يتناسلون وبالتالي فهم أمة واحدة خلقت معاً، وسيموتون معاً، ككل المخلوقات اللاحسية.

يعيشون في محيط الأرض

وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً(٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً(٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً(١٠) الجن.

الآيات تظهر أنهم يعيشون في محيط الأرض، وكانوا في أزمنة قديمة يستطيعون التجول في الفضاء والتنصت على مخلوقات كونية بعيدة: « وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ». أما الآن

(وقت نزول السورة) فقد منعوا من التجوال في الكون: «فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً، وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً». ولم يعد بإمكانهم الخروج من محيط الأرض وغلافها الجوي.

وقد أشارت لذلك سورة الملك: وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ(٥).

وسورة الصافات: إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ(٦) وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ(٧) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ(٨) دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ(٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ(١٠).

وسورة الرحمن: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ(٣٣) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ(٣٥).

وأشارت له سورة فصلت: فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(١٢).

وتنصت شياطين الجن كان على مخلوقات بعيدة في الكون وليس على الوحي، كما تزعم كتب التراث من تفسير وأحاديث. لأن الوحي لا ينقل من الله جل وعلا مشافهة للملك المكلف بنقله لرسول البشر.

وتؤكد سورة الأحقاف ما ورد في سورة الجن من أنهم يعيشون في محيط الأرض: وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ(٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ(٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَولِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(٣٢).

والآية: (٣٢) تقول على لسان النفر من الجن: إن من يكفر (منهم) فلن يعجز الله في الأرض (مكان إقامتهم).

وتقول سورة الحجر: وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ(١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن

كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ(١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ(١٨).

السماء الدنيا (طبقة من طبقات الجو) وهي الطبقة التي أصبحت تحجز الجن من التجوال في الكون بعيداً عن محيط الأرض الذي يعيشون فيه كما كانوا يفعلون في أزمنة سابقة. وكل من يحاول منهم الآن الخروج يتبعه شهاب.

فهل شهاب تعني مفهومنا الحالي للشهب وهي النيازك؟

أم أنها تعني قوة إشعاعية أو مغناطيسية أو غيرها هي التي تصيب الجان عندما يحاول الخروج من محيط الأرض، وسميت شهاباً وشهباً لأن الإنسان يرى الشهب وهي تحترق. أظن ذلك.

مكلفون بالإيمان بالأديان التي أرسل الله بها رسل البشر

فقد آمن النفر الذين استمعوا للرسول بالإسلام ودعوا قومهم له: « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً(١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ».

وفيه تأكيد على أن الجن يستطيعون فهم أي لغة يتكلم بها البشر، لأن الله جل وعلا يرسل الرسول من البشر بلغة قومه: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٤) إبراهيم.

ولو كانت الجن لا تفهم لغات البشر فلن تطالب بالإيمان برسلهم، والنفر من الجن فهموا ما يتلو الرسول من القرآن فقامت عليهم الحجة، ولزمهم الإيمان، أو دخول النار، وكأن القرآن أرسل لهم أيضاً. وهذا فيه إشارة إلى أن دين الله واحد ليس فقط لكل البشر، بل لكل مخلوقات الكون الحية. سواء منها الجسدي كالبشر أو اللاجسدي كالجن والملائكة ومن على شاكلتهم.

فآمن بعضهم وكفر البعض

وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً(١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً(١٥) الجن.

والجن يتبعون عقائد متنوعة، ويتباينون في الأخلاق: وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً(١١) الجن.

وهذا ليس وقفاً على الجن والإنس ولكنه موجود عند كل المخلوقات الحية في الكون. وكلهم سيحاسبون، والمؤمن منهم سيكون مصيره الجنة أما الكافر فمأواه النار.

خلقهم قديم سبق خلق الإنسان

وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً(٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً(٩) الجن.

هذه الآيات فيها إشارة لقدم خلق الجن، فهم في أزمنة قديمة كانوا يتجولون في الفضاء. وما يؤيده قوله تعالى: قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ(٣٠) الأحقاف.

فقد كان نفس النفر آمنوا بكتاب موسى (التوراة) التي سبقت عهد الرسول محمد بألفي عام، ومن يعش ألفي عام فقد يكون عاش آلاف وملايين الأعوام.

وهو ما أشارت له سورة الحجر: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ(٢٦) وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ(٢٧).

فخلقهم سبق خلق الإنسان: «وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ". وخلق الإنسان حدث قبل عشرات الآلاف من السنين. وبما أن الجن مخلوقات لا تتناسل، فقد خلقوا بنفس العدد في وقت واحد قبل خلق الإنسان، وسيموتون في وقت واحد، في الغالب بعد الإنسان.

خلق الجن من طاقة

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ(٢٦) وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ(٢٧) الحجر.

النار طاقة والجن خلقوا من نار السموم يعني من بعض عناصر الطاقة.

وهو ما أكدته سورة الرحمن: وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦).

وقد ترجمت الآية (١٥) للإنجليزية في بعض الترجمات التي ترعاها جهات رسمية سعودية بهذا الشكل: And the jinn did He create of smokeless fire

والحقيقة أن كلمة "مارج" لا تعني «نار عديمة الدخان» smokeless fire ولكنها تعني

عناصر أو أجزاء Elements. كما أن نار Fire قد تعني طاقة بلغة العصر. ويكون من الأفضل لو ترجمت الآية بهذا الشكل: .And the jinn did He Create of Elements of Energy

استحالة تواصل الجن مع الإنس أو الظهور لهم

لأن الجن بكل بساطة خلقوا من طاقة، وليست لهم أجساد حسية كالمخلوقات التي تعيش على الأرض. ولا يملك الجن القدرة على التشكل بهيئة جسدية كما بعض المخلوقات الكونية الأخرى مثل أولئك الذين رآهم إبراهيم ولوط، كما تخبرنا سورة الذاريات: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ(٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ(٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ(٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ(٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ(٢٨).

ولو كان الجن يستطيعون التخاطب مع الإنس لخاطبوا الرسول، ولو كان الجن يستطيعون التشكل بهيئة بشرية جسدية مرئية لفعلوا ذلك مع الرسول لحاجتهم إلى محادثته والاجتماع به وسؤاله عن دينهم الجديد (الإسلام) الذي اهتدوا له بعد استماعهم لتلاوته.

وتقول سورة الرحمن: وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ(١٥) فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(١٦).

ومع ذلك فقد رسخ المفسرون أن الرسول رآهم وتحدث إليهم، وهذا نتيجة لأن المفسرين تسيطر على عقولهم وعقول الكثير من الناس في مجتمعاتهم اعتقاد أن الجن يتشكلون بهيئات مرئية للبشر. وهو معتقد قديم منتشر في جزيرة العرب قبل الإسلام، لدرجة أنهم كانوا يعوذون بالجن ظناً منهم أنه بإمكانهم حمايتهم من المجهول، أو إصابتهم بضرر: وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً(٦).

وتقول كتب التراث إنهم كانوا عندما يهبطون وادياً في ترحالهم يرددون عبارات مثل: «أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه". لأن المسافر في الصحراء الموحشة يكون بحالة خوف، ليس لأن الجن لديها القدرة على التشكل بهيئات مفزعة أو أنها تطارد الناس، ولكن لوجوده وحيداً بعيداً عن الناس والعمران في أرض قفر جرداء، إلا من السراب الذي يحول الأشياء البعيدة إلى أشكال مخيفة أو «جن» في عين الرائي. وهذه شهادة من القرن العشرين على وحشة الصحراء من ياباني وجد نفسه وسط صحراء نجد في العام ١٩٣٩.

يقول إيجيرو ناكانو في كتابه الرحلة اليابانية في الجزيرة العربية[1]: " أعتقد أن العرب القدامى الذين تحدثوا عن الجن لم يتحدثوا من فراغ، بل تحدثوا عنهم من واقع معايشتهم لمثل هذه الطبيعة الصعبة التي تضمني الآن، حيث لا يمكن للمرء أن يرى شيئاً سوى الفراغ الهائل يحيط به من كل جانب. ولابد أن العرب كانوا يشاهدون الصخور البعيدة تتشكل بفعل السراب إلى أشكال غريبة أقرب إلى الجن منها إلى أي شكل آخر".

قدرات الجن محدودة

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً(١) الجن.

لو لم يصادف تواجد هذا النفر من الجن في عين المكان الذي كان يتلو فيه الرسول القرآن لما سمعوه ولما عرفوا عنه شيئاً. وهو ما يعني عدم قدرتهم على معرفة ما يدور في أماكن بعيدة عنهم، ويعني أيضاً أن قدراتهم محدودة، وليس كما يظن الناس.

وتؤكد هذا سورة الأحقاف التي تعيد ذكر حادثة استماع الجن للرسول: وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ(٢٩) الأحقاف.

"فلما حضروه" تأكيد على لزوم تواجدهم في المكان ليحيطوا بما يجري فيه، ولو لم يحضروا لما سمعوا الرسول.

ونفس الآية تؤكد هذا مرة أخرى بالقول: «فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين» فأولئك النفر لما انتهى الرسول من تلاوته غادروا المكان لقومهم الجن المتواجدين بعيدا ليخبروهم بما سمعوا.

إشارة إلى أن الكون مليء بمخلوقات حية

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ(٢٩) الشورى.

فالسموات بالنسبة للمخاطب قريش هي تلك الطبقات المتراصة فوق الأرض على شكل سماء دنيا وثانية وثالثة .. إلى السابعة. والتي لا يرون منها (حسب ظنهم) إلا السماء الدنيا.

[1] من اصدار دارة الملك عبد العزيز.

والآية لا تعطي صورة دقيقة عن الكون كما هو، ولكن تتحدث عنه بنفس مفهوم قريش له وتقول لهم إن تلك السماوات مليئة بمخلوقات الله.

ونظرياً كل الدلائل العلمية والمنطقية تدل على أن الكون مليء بالمخلوقات الحسية الحية، لكن في كواكب بعيدة جداً عنا لا نملك وسيلة للوصول إليها حتى الآن. وليس من المعقول أن يتفرد كوكب الأرض بهذه الميزة، من بين تريليونات الكواكب. كما أن من المنطق أن يكون هناك مخلوقات لا حسية لا حصر لها في هذا الكون، ولا نتواصل معها لأنه لا حاجة لهم بنا ولا حاجة لنا بهم.

جميع المخلوقات في الكون تمتلك نفس المشاعر

سورة «ص» التي تتحدث عن موقف الملائكة من السجود لآدم، تخبرنا أن إبليس قد عصى بمحض إرادته: إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ(٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ(٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ(٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ(٧٤) ص.

وإبليس واحد من الملائكة الذين تقول عنهم كتب الموروث إنهم مخلوقات معصومون عن الخطأ وإنهم لا يعرفون إلا جانب الخير. لذا حاولوا أن يقولوا إن إبليس جني متطفل على الملائكة الذين أبلغوا بخلق آدم، ولم يكن منهم. ومع أن هذا القول فيه اتهام لله أنه يمكن أن يخدع بواحد من خلقه ويحضر المخلوق في مكان أراد الله أن يكون مقصوراً على خلق معينين. إلا أن هذا الاتهام عند السلف أهون من أن يقبلوا بأن إبليس من الملائكة وتنهار عقيدتهم التي تقول إن الملائكة لا يعصون، ومخلوقات لا يعرفون الشر وخلقوا للتنفيذ والطاعة المطلقة. ويستدلون على ذلك بجزء من آية تقول: "عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ".

وهذا الاستشهاد خاطئ – كعادة استدلالات المفسرين والمحدثين وأتباع السلف – لأن جزء الآية انتزع من سياقه، وهذا نص الآية بتمامها: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ(٦) التحريم.

ولو عدنا للسياق لوجدنا الآية تخاطب المسلمين بعد الهجرة، طالبة منهم أن يتقوا الله ويتمسكوا بأوامره لئلا يكون مصيرهم النار التي لا تبقي ولا تذر والتي يقوم عليها (ملائكة شداد غلاظ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) والنار لن تخلق إلا يوم القيامة وبعد انهيار هذا الكون ونشأة كون القيامة. ويوم القيامة يوم تحديد المصير والثواب والعقاب لكل المخلوقات – بما في ذلك الملائكة – وليست حياة عمل وتحصيل. والملائكة في القرآن لفظ يأتي بعدة معانٍ – كما سبق وذكر – منها أنه يأتي بمعنى آلية وليس مخلوقات حية. لذا فالملائكة الذين تقول الآية إنهم على النار ليسوا مخلوقات حية، ولكن آليات بموجبها تعمل النار وتبقى. والآليات ليس لديها ميول ولا مشاعر لذا فهي تعمل باستمرار دون توقف ودون أن يكون لها رأي فيما تعمل. فهي بالفعل قوية غليظة كون النار تعمل بواسطتها، ولا تعصي الله ما أمرها، وهو تسيير عمل النار بكل دقة. وهذه الآلية عبارة عن قوانين ثابتة أوجدها الله جل وعلا (كن فكانت) ليس فقط لتسيير عمل النار بل وعمل الجنة والحساب ونشأة كون القيامة وكل ما فيه.

ويكون عصيان إبليس – وهو أحد الملائكة – ليس مستغرباً، لأنه كعصيان البشر يمكن حدوثه على الدوام. وما يشاع عن الملائكة أنهم جنس لا يعرف الخطأ هو مجرد أسطورة شائعة، ترسخ بسبب جهل الناس بعالم الخالق وقياسه بما يعرفون في عالمهم. معتبرين أنه سبحانه قد اختار أنواعاً من مخلوقاته للقيام على خدمته كما يفعل البشر. ومن هؤلاء الملائكة الذين خلقهم الله مسلوبي الإرادة ولا يحملون سوى جانب واحد هو الخير والطاعة المطلقة. في صورة أقرب ما تكون لحال الرقيق الذين يقوم أسيادهم بخصيهم ويسخرون للخدمة والطاعة المطلقة طوال حياتهم، وكأنهم خلقوا كآلات للتنفيذ والطاعة دون تفكير.

والله جل وعلا لا يحتاج لأحد من خلقه لا في خدمة ولا في إدارة ومعاونة. فتسيير الكون وما فيه لا يحتاج لمخلوقات حية تسيره تديره أو تشرف عليه، وكل ما احتاجه هو: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(٨٢) يس.

وفعل الأمر «كن» يعني إيجاد قوانين فيزيائية وطبيعية ثابتة هي الكفيلة بإيجاد الكون من العدم، وهي الكفيلة بتسييره بعد ذلك، وهي الكفيلة بانهياره فيما بعد. وسيكون هناك قوانين ثابتة لنشأة كون القيامة والجنة والنار وتسييرها دون حاجة لمخلوقات حية ملائكة

كانت أو غيرها لا للمعاونة في خلقها ولا في تسييرها.

فالقوانين في عالم الخالق توجد لينشأ منها خلق، بينما هي في عالم الخلق موجودة تكتشف لكي يفهم منها كيف تعمل.

والناس يظنون أن هناك سلم مفاضلة بين المخلوقات، بحيث إن بعضها أفضل وأميز من بعض. نتيجة لأنه ترسخ لديهم تفاضل جنس أو فصيل على آخر، أو تفاضل البعض من نفس الفصيلة أو الجنس، أو تفاضل بين الأمم أو من داخل المجتمع الواحد.. الخ. وبناءً على ما سبق فالإنسان يأتي في أعلى السلم بالنسبة لمخلوقات الأرض، يليه الحيوانات بدرجات متفاوتة ثم الحشرات.. الخ. أما الملائكة فيعلو شأنهم ويفضلون البشر، وهم في أعلى السلم بين جميع مخلوقات الله، ثم يعلوهم رب العالمين. ومن هنا جاء تصور أن الكون عبارة عن سبع طبقات (سماوات) تعلو الأرض. وكل طبقة فيها سكان يفضلون من تحتهم. وفوق الطبقة السابعة هناك الخالق يعلو الجميع لأنه أفضلهم. وهذا تشبيه لا يليق بالخالق وتقليل لقدره سبحانه. فهو لا يكون أفضل من خلقه، لأن «أفضل» تعني مقارنة. والله جل وعلا لا يقارن بخلقه مهما كبرت النسبة.

وهو سبحانه لا يحده مكان وكرسي يجلس عليه بحيث يستطيع الاطلاع على ما يجري في خلقه. تعالى الله وتبارك عن ذلك علواً كبيراً.

وهذا التصنيف لا وجود له إلا في عقول بعض الناس، ولا يقره خالق الخلق. والقرآن ينص على أن هناك عالمين منفصلين:

عالم الخالق الذي لا نحيط بشيء من علمه، ولا نعرف عنه شيء، لا نحن كبشر ولا أي مخلوقات أخرى. وعالم الخالق لا يمكن لمخلوق الوصول له ولا التواصل معه: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ(١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ(١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ(١٨) الأنبياء.

وعالم المخلوقات كلها تكون ضمن الكون. وليس بين المخلوقات تفاضل وتمايز طبقي، ولكن بينها اختلافات تتناسب مع هيئاتها وما خلقت له. وليست الملائكة أفضل عند الله – طبقياً – من الناس أو الجن، كما أن الإنسان ليس أفضل – طبقياً – من الحيوانات، مع

بقاء التفاضل في القدرات. لكن التفاضل في القدرات وطريقة الحياة لا تعطي الحق لنوع أو جنس أن يبغي أو يتكبر.

والقرآن يحتوي على عدة قرائن تشير إلى أن كل المخلوقات الحية في الكون – الجسدية منها واللاجسدية – لديها نفس المشاعر. لأنها جميعاً تحمل جانباً سيئاً يمكن أن يظهر في أي لحظة على شكل مشاعر سيئة كالحسد والكراهية والكفر وغيرها، وجانب خيّرٌ يظهر على شكل مشاعر الود والإيثار والإيمان وغيرها. وفيما يلي بعض هذه لقرائن:

ورد في عدة سور خبر خلق آدم وموقف إبليس الرافض للسجود، معللا رفضه بأنه أفضل منه، ومن ذلك ما جاء في سورة «ص»:

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ(٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ(٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ(٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ(٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ(٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ(٧٦).

ورفض إبليس جاء نتيجة لأن جانب الشر المتمثل بالحسد والشعور بالزهو والتميز سيطر عليه وتصرف بموجبه. وهو ما يعني أن الملائكة يملكون جانبي الشر والخير كما البشر. ولديهم كامل الحرية لاختيار تصرفاتهم ومشاعرهم كما البشر، وليسوا كما تخيلنا نتيجة لموروثنا الثقافي والديني.

وترد سورة الأنبياء مزاعم قريش حول الملائكة:

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ(٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ(٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ(٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ(٢٩).

والآية (٢٩) تؤكد أنه لو تجرأ أحد الملائكة وزعم الألوهية فسيجزى جهنم كأي ظالم من البشر أو أي مخلوقات أخرى. فالملائكة ستحاسب، وكل من يحاسب فهو يملك جانبي الشر والخير. ويملك الإرادة لكي يظهر أي جانب يشاء، فهو مخير وليس مسيراً. ومن يحاسب من المخلوقات فالبعض سيدخل الجنة لأنه آمن وأطاع، والبعض سيدخل النار

لأنه عصى وكفر. فالملائكة مجرد عباد للرحمن كما البشر، يعملون في الدنيا وسيحاسبون في الآخرة، وليسوا كما تخيلهم البشر معصومين تارة وبنات الله تارة أخرى: وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ(١٩) الزخرف.

وكل تصوراتنا عن عالم الملائكة والجن هي تصورات خرافية. ومن ذلك الاعتقاد بأنهم يستطيعون معرفة ما يجري في مكان ما ولو كانوا بعيدين عنه، وهذا غير صحيح. فسورة الجن تخبر الرسول أنه قد استمع إليه وهو يتلو القرآن نفر من الجن: قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا(١). وهذا يعني أنهم كانوا في عين المكان عندما كان الرسول يتلو القرآن فاستمعوا له، ولو كانوا في مكان آخر لما عرفوا بذلك، برغم أنهم يعيشون في محيط الأرض. فهم وإن كانوا مخلوقات لا جسدية فليست لديهم قدرات خارقة، بل إن قدراتهم محدودة، ولكن خلقهم هو المختلف عن الإنس والمخلوقات الجسدية.

وسورة البقرة تظهر أن الملائكة لم يعلموا أن الله قد خلق آدم عندما أخبرهم بخلقه: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ(٣٠) البقرة.

والسورة تؤكد أن الله أبلغ الملائكة بخلق آدم بعدما خلقه ولم يعلموا هم بذلك وظنوا أنه يشاورهم هل يخلقه أم لا؟: وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ(٣٣).

وتخبرنا سور عدة عن ضيف إبراهيم (من الملائكة) وكيف أنهم عندما حضروا لإبراهيم وذهب لذبح العجل وطبخه انتظروا حتى أتى وقدم لهم الطعام. ولو كانوا يعلمون أنه ذهب ليعد لهم الطعام لأخبروه أنهم لا يستطيعون تناوله ووفروا عليه الوقت وخسارة العجل: وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ(٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ(٧٠) هود.

وإن كانت الملائكة تحمل جانب الخير والشر وتكفر – كما فعل إبليس – وهي التي يعتقد

الناس أنها مخلوقات لا يصدر منها إلا الخير، فمن باب أولى أن يصدر الخير والشر من أي مخلوقات في الكون، بغض النظر إن كانت جسدية أو لا جسدية. ووجود الخير والشر والقدرة على إظهار أي جانب من ضرورات الدنيا. لأنها دار عمل وتحصيل، ويوم القيامة ستحاسب المخلوقات على قدرتها على ضبط النفس والتحكم بجانب الشر وإظهار جانب الخير. ولو كان هناك مخلوقات لا تملك إرادة اختيار طريقها، فلا حاجة لخلقها في الدنيا، لأن الله جل وعلا ليس بحاجة لخلقه: وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ(٦) العنكبوت.

والله جل وعلا لم يخلق كل المخلوقات إلا لكي يعلم من آمن ومن كفر: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ(٥٦) الذاريات.

ويوم القيامة كل مخلوق حي في الكون سيحاسب: وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(١١٩) هود.

والجن والجنة بكسرة تحت الجيم لا تعني الجن فقط، بل تعني كل مخلوقات الله غير المرئية للإنس ويدخل فيهم الملائكة وجميع مخلوقات الكون التي لا يراها الإنسان سواء كانت جسدية أو لا جسدية، كما أكدت سورة الصافات: فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ(١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ(١٥٠) أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ(١٥١) وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ(١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ(١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ(١٥٨) سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ(١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ(١٦٠).

والآيات تخاطب قريشاً، مستنكرة عليهم زعمهم أن الملائكة بنات الله. وتنفي أن تكون الملائكة إناث، لأن المخلوقات الروحانية كالملائكة والجن ليس لها جنس، فهي ليست مذكراً ولا مؤنثاً. وتقول الآية (١٥٨) إن قريشاً باعتقادها أن الملائكة بنات الله قد جعلت بينها وبين الله جل وعلا نسباً، مع أن الجنة يعلمون أنهم خلق من خلق الله سيحضرون للحساب يوم القيامة كغيرهم من المخلوقات. والملائكة بالنسبة لقريش جنّة لأنهم مخلوقات خفية لا جسدية. فالجنة هنا تعني الخفية. وكل المخلوقات في الكون وإن اختلفت هيئاتها تتفق في أن

لديها جانب الخير وجانب الشر. وتملك الإرادة الحرة لاختيار الطريق والتحكم في المشاعر. وكلها مخلوقات ضعيفة لا تعرف عن الرحمن أكثر مما يعرف البشر، ولا تستطيع التواصل معه سبحانه مباشرة، وليس بينها من هو أفضل عند الرحمن من بعض. وكلهم عباد الله، سواء كانوا ملائكة: وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ(١٩) الزخرف.

أو كانوا من بني إسرائيل: أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(١٨) الدخان.

الدين واحد لكل مخلوقات الكون

تقول سورة الذاريات: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ(٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ(٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ(٥٨).

فكل المخلوقات الحية التي في الكون وتخفى على الإنس مطلوب منها الإيمان بدين واحد، سواء كانت جسدية كالإنسان أو لا جسدية كالملائكة والجن. وكلها ستحاسب، وكثير منها سيدخل النار كما البشر: وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(١٣) السجدة.

وخبر استماع الجن للرسول وإيمانهم به يؤكد أن الدين واحد ليس فقط للأمم السابقة واللاحقة من البشر، ولكن لكل المخلوقات الحية في الكون. ولو اطلعت مخلوقات على دين مخلوقات أخرى في الكون فستجده نفس الدين المرسل لهم، كما حدث مع الجن الذين استمعوا للرسول. ولو كان الدين الذي أرسلت به رسل البشر خاصاً بهم، لما آمنت به الجن الذين كانوا يؤمنون برسالة موسى، قبل أن يؤمنوا برسالة محمد: وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ(٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ(٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(٣٢) الأحقاف.

وإيمان الجن بنفس الدين الموجه للبشر، يعني أن الدين واحد للجن والإنس والملائكة وكل

المخلوقات الكونية وسيكون حسابها واحداً ولها جنة واحدة ونار واحدة، بمنتهى العدل الإلهي. ولابد أن هناك رسلاً للجن منهم، وللملائكة منهم، ولكل مخلوقات جسدية أو لا جسدية في الكون رسلهم منهم. وهو ما أشارت له سورة بني إسرائيل: قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥).

ولهذا خاطبت سورة الرحمن الإنس (البشر) والجن (كل المخلوقات الحية الخافية على الإنسان في الكون).

الدين واحد

الحقيقة التي لم يدركها بعض المستشرقين، ولم يرد البعض الآخر إدراكها، تتمثل في كون كل الأديان السماوية متماثلة التشريع، وهذا ما يؤكده القرآن بكل جلاء: شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ(١٣) الشورى.

فالدين الذي أرسلت به جميع الرسل هو دين واحد: إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ (آل عمران:١٩)

ولو جاء كل رسول بتشريعات تختلف عن التشريعات التي جاء بها غيره من الرسل، فإن هذا سيكون مدعاة للتشكيك بمصداقيته. وبناءً على ذلك، فلو وجدت نصوص أصلية من أي عقيدة قديمة في الشرق الأدنى أو الأقصى أو أوروبا أو أمريكا أو أفريقيا أو أي مكان على الأرض، فمن المستحيل أن تتعارض مع ما جاءت به التوراة التي نزلت على موسى أو القرآن الذي نزل على محمد، لأن الله لا يمكن أن يخلق بشراً متساوين في قدراتهم العقلية والجسدية ويعدهم بجنة واحدة، ثم يكلفهم بمعتقدات متباينة، فيطلب من أناس فرائض وواجبات حرمها على آخرين. ولذلك فلا غرابة لو وجدنا في ثنايا العقائد التي نعتبرها وثنية وبدائية تعاليم سامية ووحدانية مشابهة لما دعت إليه توراة موسى والقرآن.

فالقبائل الأصلية الأسترالية تؤمن بالوحدانية، ومن صفات الإله عندهم: أنه خالد لا

يفنى، لأنه لا ينشأ عن أي كائن آخر. (فيلسيان شالي - موجز تاريخ الأديان– ص٣٤)[1]
وفي أقدم كتاب مقدس في العالم وهو كتاب الديانة الهندية الفيدية، وصف الإله بأنه: هو الذي يهب الحياة ويمنح القوة وظله هو الخلود وظله هو الموت... (من النشيد ١٢١ من كتاب العاشر من كتب الريغ – فيدا)

وتدين الديانة الزرادشتية لإله عظيم واحد يطلق عليه أهورا مازدا، وهو: الخالق، اللامع، الجليل، الكبير...

وكل هذه الأوصاف للخالق لا تخرج عما وصفه به القرآن: هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) الحديد.

ومن تعاليم البوذية: سعيد من صبر على الأذى في سبيل الحق، وسعيد من لا يتناول بالأذى أحداً، وسعيد ذلك الذي ذهب من نفسه كل هوى، وتغلب على عناد الأنا. والبوذية دعت أيضاً لنبذ الطبقية باعتبار أن الناس سواسية وأن الفروق بينهم خلقها الخلق وليس الخالق.

ومما قاله بوذا: لا تؤمنوا بشيء لمجرد أنه مسموع الكلمة، ولا تؤمنوا بشيء تضعونه على ذمة التقاليد، أو لأنه مقبول منذ أجيال كثيرة، ولا تؤمنوا بشيء تبعاً لمكانة قائله، ولكن آمنوا بالذي يتوائم مع خيركم وخير الآخرين. (نص منقول بتصرف من كتاب دراسات حول أصل وتطور الحياة الدينية لمؤلفه كريك لينكلر)

وكلام بوذا السابق يتشابه مع قوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) البقرة.

ومن تشريعات البوذية الأساسية: لا تقتل، لا تستول على ملك غيرك (لا تسرق)، لا تأخذ امرأة غيرك (لا تزن)، لا تكذب، ولا تشرب شراباً مسكراً.

وهذا ما يقوله كتاب اليهود المقدس حرفياً: لا تقتل، لا تزن، لا تسرق (الخروج: ١٣:٢٠-١٥)، لا تقبل خبراً كاذبا. (الخروج: ١:٢٣) خمراً ومسكراً لا تشرب (اللاويين: ٩:١٠).

والكونفوشيوسية تدعو لنفس المبادئ والتشريعات وتؤكد على بر الوالدين وإشاعة العدل والإحسان والمساواة بين الناس. وهي نفس المبادئ التي نادت بها رسل الله جميعاً: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ

---

[1] ترجمة حافظ الجمالي/ الناشر: طلاس للدراسات والترجمة والنشر/ دمشق.

لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) النحل.

ولأن الوحي الذي نزل على كل الرسل كان واحداً فمن البديهي أن التشريعات التي جاءت في التوراة تتكرر في القرآن ويعمل بها في الإسلام: وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) المائدة.

وقد أزال القرآن الغموض في هذا الموضوع حيث بين أن التشابه في التشريع جاء لأن لدين الله نسخة أصلية واحدة سماها القرآن « أم الكتاب »: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤) الزخرف.

وتلك النسخة الأصلية محفوظة بآلية معينة أطلق عليها القرآن « اللوح المحفوظ »: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢) البروج.

واللوح المحفوظ طريقة وآلية لا نعلمها حفظت بموجبها نسخة الكتاب الأصلية، والتي تسمى في القرآن أيضاً بالكتاب المكنون: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) الواقعة.

وتبقى النسخة الأصلة من الوحي محفوظة بعلم الله: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) الحجر[1].

وقد يكون هناك أحداث خاصة، وليست تشريعات، وقعت زمن أمة من الأمم، فتذكر في رسالة لاحقة دون الرسالات الأخرى للاستشهاد بها في مواقف معينة. مثل قصة عذاب قوم لوط، التي نزلت فيا نزل على موسى وليس فيها تشريع ولكن للإخبار عما حدث في زمن سابق، وتكرر نزولها على محمد حرفياً. وقد نقلها مؤلفو الكتاب المقدس لليهود ليس بنص الآيات المنزلة على موسى التي غابت بغياب التوراة من الوجود، ولكن بعبارات الإخباريين والمفسرين اليهود لتلك الآيات. حيث يذكرون أن امرأة لوط خرجت مع لوط ومن آمن معه من القرية التي سيقع عليها العذاب وأثناء سيرهم « نظرت امرأته من ورائه

---

١ ويكون معنى الحفظ هنا هو حفظ النسخة الأصلية التي في اللوح المحفوظ وليس النسخة المنزلة على الرسل في الأرض والتي ضاعت كلها بما في ذلك التوراة التي كان من ضمن آياتها هذه الآية والتي ما زال اليهود يستشهدون بها على أن ما بين أيديهم من كتب هي التوراة لأن الله ضمن حفظها بموجب هذه الآية، وهو استدلال مغلوط، لأن الآية تتحدث عن حفظ الله للنسخة التي في السماء.

فصارت عمود ملح" (التكوين: ١٩:٢٦)

بينما يقول النص الأصلي للوحي والذي ورد في القرآن عن نفس الحادثة: قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) هود.

وهو نفس النص الذي نزل على موسى، والذي فهم منه رجال الدين اليهود عدم الالتفات بمعناه الحرفي، بحيث إن من يلتفت إلى الوراء لينظر ما يحل بالقرية من عذاب سيهلكه الله. بينما المعنى الذي تقصده الآية من عدم الالتفات هو الإسراع بالخروج من القرية. وامرأة لوط كانت من ضمن الذين كتب عليهم الهلاك ولم تخرج مع لوط من القرية، وليس كما فهم المفسرون اليهود من أنها كانت قد خرجت مع لوط من القرية وكانت ستنجو من العذاب لولا أنها التفتت. فيكون استثناؤها من النجاة وليس من الالتفات، وتكون « إلا » في قوله تعالى: إلا امرأتك، بمعنى« أما ". وهو نفس معنى " إلا " في الآية الثالثة والعشرين من سورة الغاشية: فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ(٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ(٢٢) إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ(٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ(٢٤) الغاشية.

ومما بقي في كتب اليهود المقدسة بنصه الذي أوحي به في التوراة: أن كل من أهلك نفساً من إسرائيل فالكتاب يحسبه كأنه أهلك العالم جميعاً. وكل من أحيا نفساً فالكتاب يحسبه كأنه أحيا العالم جميعاً. (التكوين: ١٠:٤) وقد ورد ذلك في الحديث عن قتل ابن آدم لأخيه.

وهو ما جاء بنصه في القرآن: مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا (٣٢) المائدة.

وحتى الخطاب التقريري من الوحي كان يتكرر نزوله على الرسل، ومن ذلك الحديث عن خلق السماوات والأرض في ستة أيام فقد وردت في التوراة وفي القرآن بنفس النص: الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا(٥٩) الفرقان.

كما قد يشتمل الوحي لكل الرسل على خطاب تفاعلي يتحدث عن مواقف حدثت زمن الرسول، والقرآن يزخر بمثل هذه الأحداث، ومنها: بسم الله الرحمن الرحيم. عَبَسَ

وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) عبس.

وأيضاً: تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) المسد.

ولأن نص الوحي المنزل على الرسل واحد فإننا نجد بأن ما حوته كتب اليهود المقدسة من النصوص التوراتية على ندرتها، تبدو وكأنها نصوص قرآنية مترجمة للعبرية. وليس أدل على ذلك من أن الوصية الأولى من الوصايا العشر، والتي يسميها اليهود « السماع »، أي الشهادة، تقول: " أدوناي إلوهيم، أدوناي إحد". وقد ترجمت في النسخة العربية للكتاب المقدس بهذه الصيغة: الرب إلهنا، رب واحد. وإلى اللغة الإنجليزية بهذه الصيغة: (The Lord our God the Lord is one) وبرغم التراجم المتعاقبة على الكتاب المقدس من لغة إلى أخرى، والاختلاف في الثقافة والتمكن من اختيار الجمل بين مترجم وآخر وكاتب وآخر، فقد بقي هذا النص وكأنه ترجمة حرفية لجزء من الآية القرآنية: وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) البقرة.

ومن التعاليم التي نص القرآن على أنها كانت موجودة في التوراة: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣) البقرة.

وهو مطابق لما وجهه القرآن للمسلمين: وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦) النساء.

وفي آية أخرى: وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠) البقرة.

والقرآن يؤكد أن الله سينصر من ينصره: وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الحج.

وهو ما كتب في نسخة الوحي الأصلية التي أطلقت عليها سورة الأنبياء «الزبور»: وَلَقَدْ

كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ(١٠٥).

الدين واحد ومصدره نسخة أصلية واحدة، وإن وجدت اختلافات بين رسالة وأخرى ففي الخطاب التوجيهي من الوحي وليس في الخطاب التشريعي. مثلما حدث مع اليهود: وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ(١٦٤) الأنعام.

وهذا التحريم الاستثنائي استوجبه جرمٌ اقترفوه: فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا(١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا(١٦١) النساء.

فإن كانت التشريعات واحدة في كل الأديان، والوحي واحد فهل هذا يعني أنه حتى الخطاب الدعوي لكل الرسل كان واحداً. حيث يقومون بتلاوة ما يتنزل عليهم من الوحي دون اللجوء لاستخدام عباراتهم الشخصية في الدعوة؟[1]

الخطاب الدعوي في كل الرسالات وحي ونصه واحد

نوح ورسل كثيرون غيره مثل هود وصالح وشعيب ولوط لم تتجاوز دعوتهم الخطاب الدعوي، وماتوا ولم يؤمن بهم إلا نفر قليل لا يكفي لتكوين مجتمع مسلم وبالتالي لم تنزل عليهم تشريعات إلا الأساسي منها كالصلاة والإنفاق، كما هي الحال بالنسبة لرسالة محمد عليه الصلاة والسلام. حيث بقي السنوات الأولى في مكة يدعو قريشاً ولم يكن مطلوباً من المسلم خلال تلك المدة سوى أداء الصلاة دون تحديد أوقات لأدائها، والإنفاق والغش التجاري، بجانب الإيمان.

والفقرة السابقة أكدت أن دين الله المتمثل بالتشريعات واحد، وعبارات الوحي المنزلة على الرسل واحدة. فهل كان الخطاب الدعوي لكل الرسل واحد ونصه واحد كما هي الحال بالنسبة للتشريعات؟

هل كان نوح – على سبيل المثال – يتحدث بكلامه الشخصي عندما كان يقول لقومه: قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) نوح؟

١ هذا السؤال توجه به الأخ الفاضل موسى محمد المالكي.

أم أن هذا وحي نقله لنا القرآن على شكل خبر فجاءت الصياغة وكأنها توحي بأنه كلام شخصي لنوح؟

وهنا لابد من التفريق بين نقل القرآن لخبر وقع ونقل القرآن لعبارات وحي نزلت على رسول سابق. فالقرآن أحياناً يروي ما حدث مع تلك الرسل وقومهم من أحداث، وهي ليست وحياً ولكنها أخبار، مثل قوله تعالى: وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) هود.

فهذا كلامٌ دار بين لوط وقومه ولم يكن وحياً.

أما الخطاب الدعوي فالقرآن يؤكد أنه كان واحداً لكل الرسل، وهو وحي وليس فيه كلام شخصي للرسول. وفيما يلي بعض الأمثلة:

يقول شعيب لقومه: وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) هود.

ونجد نفس كلمات الوحي نزلت على الرسول محمد بعد مئات السنين: وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢٠) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٢١) هود.

ومثله ما قاله نوح لقومه: فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) نوح.

هنا كان نوحاً هو الذي تكلم بكلامه الشخصي، لكن نفس العبارات قالها هود بعد مئات السنين لقومه: وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) هود.

فالوحي نزل على نفس الرسولين بنفس العبارات، لكن القرآن رواه لنا كخبر، فاختلفت صياغة الخبرين بما يتناسب مع صياغة عبارات السورتين.

ومثله: يقول نوح: وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) هود.

ونفس العبارة أوحيت للرسول محمد بعد آلاف السنين: قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ(٥٠) الأنعام.

ومثل ذلك: كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ(١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(١١٠) الشعراء.

وبعد مئات السنين نزلت نفس العبارات على هود: كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٢٧) الشعراء.

وبعد مئات السنين نزلت نفس العبارات على صالح: كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ(١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٤٥) الشعراء.

وبعد مئات السنين نزلت نفس العبارات على لوط: كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٦٤) الشعراء.

ومرة أخرى تنزل نفس العبارات على شعيب: كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ(١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٨٠) الشعراء.

فهذا الخطاب الدعوي نزل على كل الرسل بنفس العبارات.

وبعد ذلك تؤكد سورة الشعراء نفسها أن ما نزل على الرسول محمد هو بنصه ما كان في زبر (السجلات والوحي المنزل) على الأولين (الرسل الأولين): وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ(١٩٦) الشعراء.

وسورة الشعراء سورة دعوية نزلت في مكة، وهي تؤكد أن الوحي المنزل على الرسول (وهو خطاب دعوي في الغالب) هو نفسه الذي نزل على الرسل الأولين.

الخلاصة: كل الرسل سواء توقفت رسالاتهم بالخطاب الدعوي كالرسل المذكورين هنا، أو نزلت عليهم تشريعات كموسى ومحمد، تلقوا نفس الوحي بكل أنواع الخطاب فيه[1] ليس بفحواه ولكن بنصه وعباراته دون تغيير. ولو أردنا أن نعرف ما ورد في التوراة التي لم يعد لها وجود، فلا حاجة للتفتيش في كتب اليهود المقدسة (كتب تاريخية) فالقرآن حفظها لنا، كما حفظ لنا نصوصاً من الوحي المنزل على كل الرسل المذكورين في القرآن.

كل المخلوقات الحية في الكون ستفنى قبل يوم القيامة وكلها ستحاسب

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ(٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ(٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٢٨) الرحمن.

وهو ما أكدته سورة الزمر: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨).

وهو ما كررت تأكيده سورة النمل: وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧).

وتؤكده سورة مريم ضمن ردها على مزاعم قريش بأن الملائكة بنات الله: تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥).

لكن المخلوقات اللاجسدية معمرة، وتبقى حية ما بقي الكون، ولهذا ترد سورة الأنبياء على قريش طلب إرسال ملائكة، وتؤكد لها أن كل الرسل للبشر كانوا بشراً مثلهم، ولم يكونوا ملائكة تشكلت بهيئات جسدية دون أن يتمكنوا من أكل الطعام كالبشر لأنهم لا يملكون جهازاً هضمياً. كما أن كل الرسل بشر بأعمار البشر المحدودة، وليسوا خالدين، مثل الملائكة وكل المخلوقات اللاجسدية التي تبقى حية حتى نهاية الكون: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا

---

1 هناك عدة أنواع من الخطاب في الوحي، ومنها: الخطاب الدعوي، الخطاب التشريعي، الخطاب التوجيهي، الخطاب التقريري، الخطاب الإخباري، الخطاب القصصي، والخطاب التفاعلي... وغيرها. وقد سبق وتحدثنا عن هذه الخطابات بالتفصيل في أول الكتاب.

نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ(٨).

وتقول سورة بني إسرائيل: وَإِن مَّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِك فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً (٥٨).

وفيه إشارة إلى أن البشر سينقرضون قبل نهاية الكون.

وتقول سورة الأنعام: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَـذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ(١٣٠) ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ(١٣١).

الآيات تؤكد حقيقة أن الله لن يعذب أمة لم يرسل لها رسولاً، وكل الأمم أرسل لهم رسول.

التوازن البيئي

وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ(١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ(٢٠) وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ(٢١) الحجر.

كل النباتات والكائنات الحية والفطرية أوجدت بحيث يكون هناك توازن بيئي مثالي يبقي على كل أنواع الحياة على الأرض. وتدخلات الإنسان هي التي أخلت بهذا التوازن وعملت على انقراض كائنات حية ونباتية لا حصر لها.

فكل شيء موزون: بقدر مثالي. وكل شيء بقدر معلوم: بقدر مثالي.

نظرية تدجين الحيوانات غير صحيحة

هناك نظرية شائعة بين العلماء تقول: إن بعض الحيوانات قد تم تدجينها من قبل الإنسان فتحولت من متوحشة إلى مستأنسة كالإبل والبقر والضأن والماعز. ومما قالوه إن اليهود هم أول من استأنس الإبل.

أما القرآن فيؤكد أن الأنعام خلقت مستأنسة بطبعها، مما يسهل انقيادها للإنسان: أَوَلَمْ يَرَوْا

أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ(٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ(٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ(٧٣) يس.

وقوله: «وذللناها» تعني أن من خلقها هو من ذللها (دجنها)

بينما خلق الله جل شأنه حيوانات جائرة «متوحشة» بطبعها ومنذ خلقت: وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ(٩) النحل.

والفارق بين الحيوان المستأنس (المُذلل) والمتوحش (الجائر) هو أن المتوحش كالفهود والنمور والأسود ونحوها حتى لو تمت تربيتها بين الناس أو أنها ولدت في قفص أو حديقة خاصة وبين الناس الذين قاموا على تربية أبويها، فلا يؤمن جانبها لأنها قد تعود لطبيعتها المتوحشة وتهاجم وتقتل، برغم أنها لم تعرف حياة التوحش. بينما الحيوانات (المستأنسة) فحتى لو عاشت طليقة كحياة الوحوش، وولدت كمتوحشة، فسرعان ما تتحول لمستأنسة بمجرد تدريبها لفترة قصيرة، ولا تعود للتوحش بعد ذلك.

الموت

باختصار هو: التوقف التام والنهائي للعمليات الحياتية في كافة أعضاء وخلايا وعضلات وأعصاب الجسم ودورته الدموية، نتيجة لحادث أو مرض أو شيخوخة أو عجز وقصور في أحد الأعضاء الحيوية أو بعضها. وينتج عنه مفارقة النفس للجسد الذي لم يعد قادراً على حملها. ومتى ما فارقت النفس الجسد فلا يمكن أن تعود له مرة أخرى، لأنه سرعان ما يتعرض للتلف والتحلل، ولا يكون في حالة صالحة لمعاودة نشاط النفس فيه.

فالإنسان هو النفس، والجسد هو الوعاء الحامل للإنسان. ويلزم أن تتواجد النفس في وعاء آخر لكي تعاود نشاطها، وهذا لن يكون إلا يوم القيامة. وضرورة وجود حامل للنفس ليس قصراً على الإنسان أو على مخلوقات الأرض، أو على المخلوقات الجسدية، بل يشمل أيضاً المخلوقات اللاجسدية كالجن والملائكة، وأي مخلوق آخر في الكون.

والموت – حسب ما تقدم – يعني أن تكون النفس في حالة خمول، بينما تعني الحياة أن تكون النفس في حالة نشطة. ولا يمكن أن تكون النفس في حالة نشطة خارج حامل صالح يحملها، جسدياً كان أو غير جسدي. لذا فلا يمكن أن يكون فيما بعد الموت أي نوع من

النشاط للنفس، إلا بعد أن تحل في وعاء آخر. وهو ما ينفي نفياً قاطعاً أي نشاط في القبر أو في الفترة ما بين الموت والبعث، لأن النفس خلالها ستكون خاملة. ولن تعود للنشاط إلا بوجود وعاء حامل لها وهذا لن يتوفر إلا يوم القيامة.

ووعاء الدنيا البشري «الجسد» يتناسب مع حياة الدنيا، من حيث إنه قابل للفناء ولا يدوم. فهو يتكون من خلايا وأنسجة قابلة للتلف ولها عمر افتراضي. ومهما تحسنت وسائل العلاج ومكافحة الأمراض فلن تبقي الإنسان حياً على الدوام، لأنه سيموت بالهرم وعجز الخلايا والأنسجة، ولو تفادى المرض بالأدوية والغذاء.

وحياة الآخرة تختلف عن الدنيا، كونها حياة أبدية، وتحتاج لوعاء غير قابل للتلف أو الضعف أو الهرم أو المرض. لذا يستحيل أن يعاد بعث الإنسان «النفس» بوعاء الدنيا الحسي القابل للتلف.

وليس لدينا أدلة على ماهية وعاء الآخرة، لكن لدينا بعض المؤشرات التي تفيد أن هناك أوعية غير حسية تدوم أكثر بكثير من الأوعية الحسية «الأجساد». فالقرآن يتحدث عن نوعين من المخلوقات الدنيوية اللاجسية، وهما: الملائكة والجن. وهذه المخلوقات تعيش في وعاء خلق من طاقة لا يعتمد على الأكل والشرب ليعيش، وليست لها خلايا وأنسجة قابلة للتلف. لذا نجد أن الملائكة كانت مخلوقة قبل خلق آدم، بل وقبل خلق الإنسان على الأرض، وقد تكون خلقت قبل خلق الأرض، وما زالت كما هي: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ(٣٠) البقرة.

والجن كذلك، فالذين استمعوا للرسول وهو يتلو القرآن كانوا مخلوقين قبل زمن موسى، الذي كانوا شهوداً عليه: قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ(٣٠) الأحقاف.

وهذه المخلوقات ستبقى إلى نهاية العالم: قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ(١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ(١٥) الأعراف.

ذلك لأنها مخلوقات من طاقة: قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ(٧٦) ص.

فكون وعائها من طاقة سمح لها أن تبقى على قيد الحياة دهوراً لا تفنى دون الحاجة للطعام

والشراب، عكس المخلوقات الحسية محدودة العمر كالإنسان. ولو أضفنا لهذا حقيقة أن المخلوقات الحسية تحتاج للتناسل لكي يستمر الجنس ولا ينقرض، ولو كانت مخلوقات لا تفنى كالجن والملائكة، لما احتاجت للتناسل.

وهذا يعطينا انطباعاً أن أوعيتنا التي تحملنا يوم القيامة ستكون من طاقة أو شيء آخر يدوم ولا يفنى، ويستحيل أن تكون أوعية حسية تحتاج للأكل والشرب، وتفنى، وتحتاج للتناسل لكي تستبدل الأجيال.

وكل ما ورد في القرآن من تصوير للموت بصور حسية هو من باب المجاز لتقريبه لذهن المخاطب بما يتناسب مع مداركه. ومن ذلك تصوير الموت وكأن هناك ملائكة (مخلوقات حية) تنتزع النفس من الجسم، كما ورد في سورة النحل: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٨).

وتقول نفس السورة عن موت المؤمنين: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٣٢).

والصورة المقدمة في الآيات مجازية حسية لتهويل الوضع بالنسبة للكافر وتلطيفه للمؤمن.

وتقول سورة السجدة: قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ(١١).

وليس هناك ملائكة (مخلوقات حية) تقوم بإخراج النفس من الجسد، لكن القرآن يخاطب الناس بما يفهمون. ووصف آلية الموت وكأن هناك مخلوقات حية تقوم بها لتقريب الصورة من الذهن.

الموت كالنوم

اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٤٢) الزمر.

والإنسان لا يعلم أنه خلد للنوم إلا بعد أن يستيقظ، والحال كذلك بالنسبة للموت. فالميت لن يعلم أنه مات إلا بعد أن يبعث. وهو ما أكدته سورة الأنعام: وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٦٠).

ففي كلا الحالين يحدث الموت والنوم بشكل آلي دون تدخل من مخلوقات أخرى. ويكون هناك توقفٌ للذاكرة عن التسجيل وغيابٌ عن الواقع. ولن يعلم الميت أنه مات إلا بعد أن يبعث، مثلما أن النائم لا يعلم بأنه نام إلا بعد أن يستيقظ. لأن الذاكرة لا تسجل لحظة النوم أو الموت، وهذا أصبح ممكناً التأكد منه علمياً وعملياً.

فالعلم يؤكد أن الموت يُسبق بإغماءة تمتد من برهة من الزمن إلى ثوانٍ أو دقائق أو ساعات أو أكثر، مما يعني أنه لن يعلم أنه مات إلا عندما يبعث. ونتيجة لكثرة الحوادث المرورية وإطلاق النار، أصبح التحقق من هذه الحقيقة السابقة متاحاً عملياً للإنسان العادي. فهناك الكثير من الناس تعرض لحادث مميت ودخل في غيبوبة وحالة حرجة تقربه من الموت، سواء نتيجة لتلقيه طلق ناري في الرأس أو لكسر في الجمجمة نتيجة حادث مروري. والكثير من هذه الحالات تنتهي بالوفاة، لكن بعضها يستفيق فيه المصاب ويعود للحياة. ولو سئل هؤلاء فسيقولون إنهم لا يتذكرون لحظة الحادث ولم يشعروا بألم، وكل ما هناك أنهم دخلوا غيبوبة لم يعلموا بها إلا بعدما استفاقوا. وخلال الغيبوبة لم يكونوا يشعرون بمرور الوقت ولا بآلام، ولا يرون الأحلام. ومهما طالت الغيبوبة فعندما يستفيقون يشعرون أنه للتو حدث لهم ما حدث. وهو وضع مشابه لمن يموت وتمضي ملايين السنين وينهار هذا الكون وتمر ملايين أخرى من السنين لينشأ كون القيامة، وعندما يبعث سيشعر أنه للتو كان في الدنيا. وهو ما تؤكده سورة النحل: وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٧٧) النحل.

فالقيامة تأتي للميت بغتة، كما تقول سورة الأنعام: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ(٣١).

وأكدته سور عديدة منها: الزخرف:٦٦، الأعراف: ١٨٧، الأنبياء: ٤٠، العنكبوت: ٥٣.

الموت مرحلة

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٦٧) غافر.

فالموت مرحلة كما أن الحياة مرحلة وليس الموت عدماً. فالنفس لكي تكون قادرة على العيش في كون القيامة لابد أن تنتقل لجسد (حامل) يتناسب مع كون القيامة الدائم، وهذا لا يكون إلا بخروج النفس من جسد الدنيا أولاً، وبخلق كون القيامة ثانياً، ثم خلق الجسد الملائم لعالم القيامة، وحلول النفس فيه. وهذا ما ينفي ما يعتقد بعض أتباع الفرق الباطنية بما يعرف عندهم بتناسخ الأرواح. لأن النفس البشرية وجدت في جسد خاص بها ومتى ما عجز هذا الجسد عن حملها فلن تنتقل للعيش في جسد آخر في الدنيا.

البعث

الفكرة الموروثة عن البعث أن الناس بأجسادهم الحالية سينهضون من قبورهم ويجتمعون في مكان واحد أمام الله حيث سيقوم بحسابهم واحداً واحداً، على شكل سؤال وجواب. وهذه الصورة للبعث لا يمكن أن تحدث، لأن كل أجساد البشر قد تحللت ولم يعد لها وجود. وحتى لو افترضنا أن الله جل شأنه سيعيد الأجساد للحياة مرة أخرى فيستحيل أن تقوم من قبورها التي قبرت فيها، لأن تلك القبور قد اندثرت ولم يعد لها وجود، باندثار الأرض برمتها عندما ينهار هذا الكون.

ولكي نفهم البعث علينا أن نفهم معنى الموت والحياة.

والحياة تعني بكل بساطة أن النفس نشطة، ولكي تنشط النفس البشرية لابد من وجود وعاء يحملها. وبمجرد مفارقة النفس للحامل الذي يحتويها تصبح خاملة لا قدرة لها على النشاط، وهو ما نسميه «الموت». والأنفس الحية منا الآن سيأتي يوم وتصاب بالخمول وعدم القدرة على النشاط، نتيجة لمفارقتها الجسد الذي كان يحملها في الدنيا، لمرض أو حادث أو هرم، لأن الجسد الدنيوي خلق من خلايا وأنسجة قابلة للتلف. ويوم القيامة سيكون البعث عبارة عن إعادة النفس للنشاط والحيوية وذلك بإحلالها في وعاء آخر يحملها يتناسب مع عالم القيامة الأبدي غير القابل للتلف.

ومما ورد في القرآن من أوصاف مجازية للبعث ما يلي:

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ(٦) الزلزلة.

صورة مجازية تصور الناس وكأنهم يتوافدون جماعات جماعات ليروا نتيجة أعمالهم وما

سيؤول إليه مصيرهم. وهي صورة مطابقة لما اعتاد الناس من التوافد على مكان إعلان خبر أو مشاهدة حدث. وليس بالضرورة أن هذا ما سيحدث لأن هناك آيات تقدم صوراً مختلفة عن البعث. وتقديم هذه الصور المجازية يهدف لتأكيد أن هناك بعثاً وحياة لما بعد الموت لأن المخاطب قريشاً تنكره.

وتقدم سورة النبأ صورة مماثلة: إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً(١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً(١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَاباً(١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً(٢٠).

وكأن الناس سيأتون أفواجاً لمكان الحساب، وأفواجاً تعني جماعات وهو قريب من معنى أشتاتاً المذكور في السورة السابقة.

وتقول سورة الانفطار: وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ(٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ(٥).

السورة تصور البعث وكأن القبور بعثرت (فتحت) وخرج منها الأموات، ومن ثم حوسبوا وعلموا مصائرهم. مع أن الناس يوم القيامة لن يبعثوا بأجسادهم الدنيوية التي كانت عبارة عن وعاء حامل للإنسان (النفس) يتلاءم مع حياة الدنيا، وقد فني وانتهى. ولن يخرج الناس من القبور التي قبروا فيها في الدنيا لأن الأرض برمتها قد فنيت وانتهت ولم يعد لها وجود، وقام كون جديد لعالم القيامة. لكن الوصف يتناسب مع مدارك المخاطب، فالمهم هو أن يفهم أن هناك بعثاً وحياة لما بعد الموت وهناك حساب.

الحساب

الفكرة الموروثة السائدة عن الحساب أن الناس ستجمع في مكان واحد، ثم يقف الخالق أمامهم ثم يبدأ بمحاسبة كل واحد على حدة. في منظر مماثل لوقوف التلميذ أمام معلمه، أو الموظف أمام مديره، أو المتنفع أمام السلطان، أو المتهم أمام القاضي. ويبدأ الله جل وعلا بفتح صحيفة أمامه قدمها له مخلوقات حية «الملائكة» الذين وثقوا كل أعمال المتهم، وكأنهم يقومون بدور المدعي العام. وبعد الاطلاع على ملف القضية، يقوم تعالى بإعلان مصير المتهم، فيتقدم ملائكة ويجرونه للنار أو يصحبونه للجنة.

وهي صورة خيالية لم تبن على أسس.

ولا يعلم أحد كيف سيكون الحساب بشكل مؤكد، لكن القرآن يعطي مؤشرات يمكن

فهمها بعقولنا ومداركنا عن ذلك اليوم. مفادها أن الناس لن يصطفوا أمام رب العالمين يوم القيامة ويقوم تعالى بسؤال كل واحد منهم عما فعل في دنياه وبناءً على إجاباته سيتقرر المصير. فكل شيء في خلق الله يقوم على قوانين ثابتة لا تحتاج من يديرها، ومن ذلك الحساب يوم القيامة. فهو سيكون للناس جميعاً في وقت واحد، حيث يقوم كل منهم بالاطلاع على ما سجلته صحيفة أعماله ويتعرف على المصير الذي ينتظره نتيجة لذلك، من جنة أو نار. دون أن يتدخل أحد بتعريفه بصحيفة الأعمال أو بالمصير. ومع ذلك تصور السور الحساب بصور مجازية حسية كالتي تعرفها قريش في الدنيا لتقريبها للذهن، فالمهم هو أن تعلم أن هناك حساباً وعقاباً ومن ذلك:

يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ(٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ(٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً(٨) وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً(٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ(١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً(١١) وَيَصْلَى سَعِيراً(١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً(١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ(١٤) بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً(١٥) الانشقاق.

الآيات تصور الحساب وكأنه عبارة عن لجنة تمتحن الناس، ومن ثم تناول كل واحد منهم نتيجة امتحانه. فمن أوتي كتابه (شهادته وإجازته) بيمينه فقد تجاوز الامتحان بنجاح، واستحق الجنة التي عبر عنها بانقلابه لأهله مسروراً كناية عن الفرح. ومن علقت شهادته وراء ظهره فهو راسب، واستحق النار التي عبرت عنها الآيات بدعاء الإنسان بالثبور كناية عن الفشل.

وسنتتبع بعض الآيات التي تذكر الحساب لنتعرف على ما تقول:

ورد في سورة القارعة: فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ(٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ(٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ(٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ(٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ(١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ(١١).

الآيات تصور الحساب وكأن الأعمال تكون على شكل أثقال، وهناك ميزان بكفتين – كأي ميزان يعرفه الناس وقت نزول السورة – وتوضع الأعمال في كفة، ولم تذكر الآيات ما الذي يوضع في الكفة الأخرى. لكن مقياس النجاة من النار ودخول الجنة يعتمد على رجحان الكفة التي فيها الأعمال. فإن كانت ثقيلة بما يكفي لترجح بالكفة الأخرى فقد نجا صاحبها وذهب للجنة، وإلا فمصيره النار.

وقد استخدم المجاز هنا، لتصوير الحساب، ولم تنقل الآيات الصورة الحقيقية له.

وتؤكد سورة الانفطار أنه بعد نشأة كون القيامة سيكون الحساب: وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ(٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ(٥).

وبما أن الأرض يوم القيامة لن يكون لها وجود، ومثلها كل هذا الكون، فلن يخرج الناس من قبورهم الحالية التي ستنتهي بانتهاء هذه الأرض. مما يشير إلى أن هناك كوناً جديداً سينشأ لعالم القيامة.

الإنسان في الآخرة لن يكون بجسد مادي

يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ(٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً(٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي(٢٩)

الآيات تصف الإنسان يوم القيامة بأنه نفس، والإنسان بالفعل نفس. لكن هذه النفس لابد لها من حامل لكي تنشط (تعيش) وهذا الحامل في الدنيا عبارة عن جسد مادي يتكون من خلايا بعمر افتراضي لا يمكن أن تتجاوزه. ومتى ما عجز الجسد عن حمل النفس نتيجة لمرض أو هرم أو حادث، فارقت النفس الجسد، ودخلت في حالة همود وخمول، وهو ما نسميه الموت. وليست كل مخلوقات الدنيا بوعاء وحامل مادي(جسد) فهناك مخلوقات لها وعاء حامل لا جسدي، كالملائكة والجن. وهذا الوعاء يوفر لنفس المخلوق حياة طويلة لأنه لا يتكون من خلايا محدودة العمر. ولا يكون قابلاً للعطب نتيجة حادث، كما أنه لا يهرم.

ويوم القيامة ستستعيد أنفس كل المخلوقات الدنيوية نشاطها (تعاد للحياة) وذلك باستقرارها في وعاء حامل جديد. والآيات تشير إلى أن النفس البشرية ستحل في وعاء حامل لا مادي (ليس جسداً مادياً) وهو ما يعني بقاء النفس نشطة (حية) على الدوام، يتلاءم مع حياة الآخرة الأبدية. وهذه الإشارة جاءت في مخاطبة الإنسان في الآخرة بالنفس: «يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ».

وتقول سورة الدخان في حديثها عن أهل الجنة:

يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ(٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ(٥٦) فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(٥٧).

نص صريح بأن من في الجنة سيبقون فيها إلى الأبد، ولن يكون فيها موت. مما يعني أن هيئاتهم لن تكون على شكل أجسام محسوسة مادية كما في الدنيا، لأن الأجساد المادية عرضة للتلف. بينما المخلوقات من طاقة تكون دائمة، كما هو حال الملائكة والجن في الدنيا.

الحور والولدان

الناس يعتقدون أنه سيكون هناك مخلوقات حية على شكل نساء غاية في الجمال والجاذبية الجنسية خلقن في الجنة لمتعة الرجال المؤمنين، سماهن القرآن «حوراً». وهناك مخلوقات ذكرية يتمتعون بجاذبية جنسية لا يمكن وصفها خلقوا في الجنة لخدمة أهلها. وتحرج المفسرون من القول بأنهم لمتعة النساء المؤمنات الجنسية كما قالوا عن الحور، لأن الموروث الديني عند المسلمين يجيز للرجل التسري بالإماء ولا يجيز للمرأة التسري بالموالي والعبيد من الرجال. وهناك بعض التلميحات الخجولة في كتب التراث أنهم غلمان يمكن للرجال المؤمنين التمتع بهم جنسياً كما الحور[1].

وفيما يلي قرائن على استحالة أن يكون المقصود بالحور والغلمان مخلوقات حية خلقوا في الجنة أو أنهم مخلوقات دنيوية بعثوا في الجنة لخدمة المؤمنين:

- الدنيا دار العمل والتحصيل، لكل المخلوقات الحية في الكون، وليس فيها ثواب وعقاب. بينما الآخرة دار الثواب والعقاب الدائم الخالد، وليس فيها عمل وتحصيل لأي مخلوق حي في الكون. ولو كانت الحور والغلمان مخلوقات حية خلقت في الآخرة لخدمة المؤمنين في الجنة – بغض النظر عن نوع الخدمة – فهذا يعني أن الله خلق مخلوقات حية في عالم الثواب والعقاب وأمرهم بالعمل والتحصيل، وهو مخالف لقوانينه سبحانه. كما أنه لو افترض أن هذا ما حدث فلابد من موت وقيامة للحور والغلمان لكي يحاسبوا على ما قدموا وهذا لن يحدث لأن عالم القيامة عالم دائم لكل من فيه لا ينتهي أبداً. ولو كانت الحور أو الغلمان مخلوقات دنيوية فلا يمكن أن يبعثوا ليعملوا مرة اخرى في دار الثواب والعقاب. لأن هذا مخالف لقوانين الخالق سبحانه

---

١ الإسلام لا يجيز التمتع الجنسي خارج إطار الزواج لا للرجل ولا للمرأة، والتسري بالإماء مخالفة دينية صريحة لنص القرآن انتشرت بعد عصور الفتوح، عندما تأول المفسرون بعض الآيات التي تتحدث عن «ما ملكت أيمانكم» وكأنها تبيح التسري بالإماء. وكل ما قالته كتب التراث يعكس الأوضاع الاجتماعية حين كتابة تلك الكتب، حيث انتشار التسري والمتع الجنسية الحرام ومنها مضاجعة الغلمان. ولا يعكس ثقافة إسلامية أو ما كان عليه الوضع وقت رسول الله.

وتعالى الذي خلق الدنيا للعمل من كل المخلوقات والآخرة للثواب والعقاب لهم.

- أن المتعة الجنسية للمخلوقات الجسدية في الدنيا – ومنها الإنسان – ضرورة وليست متعة. بمعنى أن الله خلقها بهذه الجاذبية ليقدم عليها الناس، ولو كانت أقل جاذبية لما تناسل البشر وبقيت أجناسهم إلى أن يشاء الله. ويوم القيامة لن يكون هناك تناسل، وبالتالي لن يكون هناك جماع لانتفاء الحاجة له. كما أنه لن يكون هناك أكل وشرب لانتفاء الحاجة إليها، كون النفس البشرية في الآخرة ستدوم حية إلى الأبد وهذا يحتاج لوعاء لا يعتمد على الأكل والشرب. كون الجسد الحسي المعتمد على الأكل والشرب يكون له عمر افتراضي وعرضة للمرض والموت وهو يتنافى مع الحياة الدائمة التي ستكون عليها المخلوقات يوم القيامة بما فيها الإنسان.

فالحور والغلمان ليسوا من مخلوقات الدنيا، ولا مخلوقات حية خلقها الله في الآخرة. ولكنها صور مجازية حسية لتقريب النعيم من ذهن المخاطب (قريش) ترغيباً لها لعلها تؤمن. والحور والغلمان مثل شجرة الزقوم وأنهار العسل والخمر وغيرها من صور مجازية حسية لنعيم وجحيم القيامة للترغيب والترهيب وكلها موجهة لرجال قريش.

الدعاء

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ(١٨٦) البقرة.

لعل هذه الآية الأكثر ترديداً بين الناس كدليل على أن الدعاء بمعنى طلب أمور دنيوية يستجاب. وآيات البقرة لا تتحدث عن مطالب دنيوية ولكنها إما دعوية موجهة لبني إسرائيل وتذكيرهم بنعم الله عليهم في قديم تاريخهم وحديثه، أو تشريعية موجهة للمؤمنين. والآية هنا تقول إن الله يجيب دعوة الداعي، والداعي هنا هو من يقول يا رب. لكن ليس لطلب دنيوي، ولكن يقول يا رب اغفر لي ذنوبي، يا رب اقبل توبتي، يا رب اقبلني مسلماً، لأن الآية تواصل قائلة: «فليستجيبوا لي». وهو ما يعني أن على الناس أن يستجيبوا لدعوتي كي أستجيب لدعوتهم. ودعوة الله جل شأنه للناس لاتباع دينه، والاستجابة تكون بقبول دعوة الله والتوبة عن الذنوب أو الإقلاع عن الكفر، أو كما ورد في الآية: "وليؤمنوا بي".

ولو دعا الإنسان بهذا فالتوبة بابها مفتوح على الدوام . وذلك بأن كل ما يضمر أو يظهر الإنسان من قول أو تصرف أو مشاعر ..الخ، يسجل عليه في صحيفة أعماله. ولو عزم شخص على التوبة فستسجل الصحيفة نيته وأفعاله في اللحظة ذاتها، إن كان صادقا مخلصا أو غير ذلك. ويكون الله جل شأنه قريباً ليس فعلياً (وجسدياً) تعالى الله عن ذلك. ولكن بزرعه لآلية تسجيل الأعمال في النفس البشرية، وسيسجل طلب التوبة مباشرة دون تأخير، وما يصحبه من نية.

فالدعاء في الآية، هو مناداة الله جل شأنه استغفاراً وتوبة من المعاصي.

وقد ورد الدعاء في القرآن عدة مرات، ولابد من المرور على بعض الآيات لبيان معنى الدعاء فيها، كما يلي:

١. كهيعص(١) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا(٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيّاً(٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً(٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً(٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً(٦) مريم.

والآيات تظهر أن زكريا نادى ربه أن يرزق بولد، وبالفعل رزق بولد: يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً(٧) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً(٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً(٩) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً(١٠) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً(١١) مريم.

لكن تعالوا نتمعن فيما تقول الآيات عن ردة فعل زكريا عندما بشر بالغلام، حيث ظهر عليه الاستغراب: قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً(٨).

ردة الفعل هذه تشير إلى أن زكريا كان يتمنى داخل نفسه أن يرزق بولد، ولم يكن يرفع يديه بالدعاء لله. ولو كان يدعو الله أن يرزق بولد وتأتيه البشرى لكانت ردة فعله أن يحمد الله ويشكره على استجابة دعائه.

وتكون البشرى بالولد قد حققت لزكريا أمنية ظنها لن تتحقق، ولم يرزق بولد لأنه دعا الله.

لذا ظهر عليه الاستغراب لما تحقق له ما تمنى.

ولو كان زكريا رزق بالولد نتيجة استجابة دعائه فكان سيرزق به في بداية زواجه، وهو الوقت الذي تمنى فيه أن يرزق بولد. لكن أمنيته لم تتحقق حينها، ومضت الأيام والأعوام، حتى هرم وأصبح عجوزاً، وتجاوزت امرأته سن الإنجاب، عندها جاءت البشرى ورزق بالولد.

فالولد جاء لحكمة معينة وليس تحقيقاً لأمنية، لذا كان لابد من معالجة المرأة وإعادة قدرتها على الإنجاب في عمر لا يمكنها الإنجاب فيه.

هناك شيء هام لو وعيناه لأصبحت الصورة أكثر وضوحاً، تتمثل في فهم أن الخالق سبحانه وتعالى خلق هذا الخلق الذي نراه عظيما لا متناهي ولا يمكن تصور عظمته لحكمة أكبر من خلق الإنسان. وخلق الكون يحتاج لقوانين ثابتة لا تتغير. مُحكمة، دقيقة، مثالية، ولا تحتاج لمتابعة أو تعديل أو تبديل. لكن الإنسان يقيس الخالق بما يعرف. وهو يعرف أن الحاكم أو المدير يمكنه أن يعدل القوانين والأنظمة لو اقتنع بطلب مقدم له، ويريد أن يصور الله كما الحاكم أو المدير. بحيث يستجيب مرة لدعاء أحد مخلوقاته ويحقق له أمنيته ويمتنع عن تحقيق أمنية آخر.

والإنسان مخلوق حقير لو لم يوجد أصلا لما نقص في خلق الله شيئاً. ولكنه صور نفسه أنه أكرم خلق الله على الله، وظن أنه أهم خلق لله في الكون، أو كأنه هو السبب في خلق الله للكون. مع أن الإنسان خلق قبل فترة قصيرة جداً لا تتجاوز مئات الآلاف من السنين، فيما مضى على خلق الأرض حوالي ٥ , ٤ مليار عام، وخلق الكون ما يزيد عن ١٣ مليار عام. وسينقرض الإنسان خلال فترة قصيرة، بينما الكون سيبقى لمدة تساوي المدة التي مضت على خلقه، كونه يعيش منتصف العمر، حسب تقدير العلماء. ولأن الخالق عظيم، فقد وفر في الأرض الرزق الكافي للناس، لكنهم هم من ظلم بعضهم بعضا وسلبوا أرزاق بعض، وهم من سبب الفقر.

كما أوجد جل شأنه في الجسم البشري مضادات حيوية قادرة على تحدي الأمراض لو لم يخرب الإنسان صحته بنفسه ويورث أجياله أجسادا مريضة ضعيفة. والإنسان هو من خلق التصحر والتلوث وكل المصائب. والله جل شأنه وهب الإنسان وكل مخلوقات الأرض ما

تحتاج ويزيد، والإنسان هو من أفسد كل ما وهبه الله.

فهل يمكن أن يمد الإنسان يده لله ويقول يا رب وظيفة فتلين قلوب من استولوا على حقوقه ويوظفونه؟

أو يقول: يا رب أهلك اليهود وهو يمد يده لهم في الخفاء ويتآمر على إخوانه معهم. بعض التفكير بتعقل سيظهر عدل الله لو ابتعدنا عن العاطفة الزائفة.

واللجوء لله شيء طبيعي، وسنبقى ندعو الله أن يوفقنا ويرزقنا ويشفينا و .. و..... لكنه سبحانه لن يتدخل مباشرة. إنما ستكون الاستجابة بأن نهتدي نحن للأسباب التي أودعها الله مسبقاً فينا وفيما حولنا وفي أرضنا منذ خلق الكون وقبل خلق الإنسان من نعم لا تعد ولا تحصى. فلو كنت مريضاً فعلي بالعلاج ولو شفيت فالله قد استجاب دعائي. ليس مباشرة ولكن لأنه أودع في كونه هذه التركيبة العلاجية ويسر للإنسان اكتشافها وقد حصلت عليها وشفيت. لكنه لم يتدخل مباشرة وقتل الفايروس الذي سبب لي المرض. ولولا العلاج لما شفيت ولو كبيت على وجهي ساجدا لله ليل نهار.

هكذا تفهم الاستجابة وهكذا يفهم الدعاء وليس بالصورة الشائعة.

وبلا شك هناك قوى هائلة في النفس البشرية بعضها عرف وبعضها عرف جزء منه وكثير منها لم يعرف. كلها زرعها الله في النفس البشرية لتأمين احتياجاته ولمعاونته، ويمكن للمرء الاهتداء إليها إذا ما احتاجها. وما على الإنسان سوى أن يحسن استخدام هذه النعم الإلهية وقبل ذلك عليه أن يكتشفها.

هذه القوى للإنسان والتي وفرها الله له قبل خلقه، وليست للمؤمن فقط، هي البديل للتدخل الفوري من الخالق في شئون الخلق.

هكذا تكون الاستجابة للدعاء، وهكذا هو العدل الإلهي المثالي.

وسنطبق هذا على ما حدث في معركتي بدر وأحد (مع مراعاة أسلوب القرآن واستخدامه للألفاظ)، وسنجد أن القرآن يقول إن هناك ملائكة عاونت المسلمين. وإذا ما أبعدنا تخاريف المفسرين الذين أولوا الآيات وجعلوها تتحدث عن مخلوقات حية تقاتل مع المسلمين، فالقرآن يقول إن الملائكة دورها اقتصر على إحلال السكينة في نفوس المسلمين. وقد شعر المسلمون بالسكينة بالفعل لأن معنوياتهم كانت مرتفعة قبل المعركة: وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ

أَلْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ(٤٤) الأنفال.

فالشعور بالراحة نابع من داخل نفوس المسلمين ومن قدرات أودعها الله في النفس البشرية منذ الأزل، وساعد على الإحساس بهذا الشعور ارتفاع معنويات المسلمين، واختفاء الشعور بالرهبة من المعركة.

هنا كان دور الملائكة كما وصفته الآيات: إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلاَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ....(١٢) الأنفال.

في نفس الوقت كانت معنويات الكفار منهارة فحدث لهم العكس: .... سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ ..... (١٢).

دون أن يتدخل الله جل شأنه مباشرة، أو يرسل مخلوقات حية تفعل ذلك، لكن القوى في النفس هي التي تدخلت. فيكون الله جل شأنه هو من تدخل بطريق غير مباشر.

والملائكة هنا هي تلك القوى الخفية في النفس وليست مخلوقات حية.

أما في معركة أحد فلم يكن هناك ملائكة لأن معنويات المقاتلين المسلمين لم تكن بالمستوى المطلوب لكي تحصل على ذلك الشعور بالراحة النفسية والثقة. مع أنه في بدر وأحد كان المسلمون يلهجون بالدعاء، إلا أنهم انتصروا في بدر وهزموا في أحد، لأنهم هم أنفسهم لم يستعدوا كما يجب نفسياً ومعنوياً، إضافة لعوامل أخرى.

وفي كلا المعركتين فالله جل شأنه لم يتدخل مباشرة، لكنه كان موجوداً بما أودع من قدرات في النفس البشرية: مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً(٧٩) النساء.

فكل ما يصاب به المرء من شيء حسن فمن الله، لأن الله أودع في النفس هذه القوى التي تمكنه من تحقيق الحسن. وكل ما أصيب به من سوء، فمن نفسه لأنه أساء التصرف. وفي كلا الحالين فالله لم يتدخل مباشرة.

٢. ورد في سورة لقمان: وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ(٣٢) لقمان.

والمتبع عندنا لفهم أي آية هو السياق والمخاطب وعوامل أخرى، والآية وردت ضمن آيات تخاطب قريش. والسورة مكية، والآيات التي جاءت ضمنها الآية نذكر منها: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ(٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ(٣١) وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ(٣٢).

والآيات تُذكّر قريشاً ببعض نعم الله على الناس - مثلها مثل معظم السور المكية - لعلها تعي قدرة الله العظيمة التي تظهر في خلقه وتؤمن أنه قادر على البعث الذي ينكرون. ومما تقدمه الآيات هنا أن عليهم أن يتذكروا كيف تسير السفن في البحر وأن الركاب متى تعرضوا لأمواج عاتية لجأوا لله ولهجوا بالدعاء أن ينجيهم، لأنهم يعلمون يقيناً أن الله قادر على أن ينجيهم، وإذا نجوا عادوا لكفرهم، وتناسوا ما يعلمون عن عظم قدرة الله.

وعندما يدعو راكب السفينة الله أن ينجيه لا يعني أن السفينة نجت بسبب دعائه وتدخل رب العالمين فعليا وأمر الموج بالهدوء. ولكنه يعني أن هناك سفناً تنجو لأسباب عدة منها تجاوز منطقة الأمواج أو هدوء الأمواج أو غير ذلك. وهناك سفن تغرق لأن الأمواج كانت أقوى من مقاومتها. وفي كلا الحالين كان الناس يدعون الله مخلصين له الدين أن ينجيهم.

ولا اعتراض هنا على الإطلاق فكلنا في وقت الشدة نقول يا الله، ويجب علينا حتى في وقت الرخاء أن نقول يا الله. وكمسلمين يجب أن يكون تعاملنا اليومي مرتبطاً بالله، وبدل أن نقول مثلا: شكرا، نقول: أحسن الله إليك. ليس لأن الله سبحسن لمن يستحق شكرنا لأننا دعونا له، ولكن لكي نقر له بالعرفان والامتنان بصيغة تربطنا بالله.

ومثل أن تقول لي كيف أحوالك؟ فأقول: الحمد لله. وأقصد أن كل ما أتمتع به من صحة فهو من الله ليس فعلياً بل بما أودعه في جسمي منذ خلق الله البشر من موانع للمرض وقدرة على البقاء وغيرها من قدرات خفية.

٣. الآية التالية هي: فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ(٨٨) الأنبياء.

وسنستعرض الآيات المحيطة ونتحدث عنها لأنها تدخل ضمن ما يمكن أن يستدل به على

أنه استجابة فعليه من الله جل شأنه لمطالب دنيوية.

تقول السورة: فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ(٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ(٨٠) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ(٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ(٨٢) وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ(٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ(٨٤) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ(٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ(٨٦) وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ(٨٨) وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ(٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ(٩٠) وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ(٩١) إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ(٩٢).

الآيات تقول:

الله جل شأنه يسر لسليمان وداوود حكما وعلما وسخر لداوود الجبال والطير وعلمه صنعة لبوس.

فهل فعل الله ذلك مباشرة وفعلياً؟

أم أن المعنى أن سليمان وداوود كانا يتمتعان بالحكمة ولديهما معارف ببعض العلوم.

وهذه قدرات مكتسبة، فهناك نوابغ في كل مجال مثلما نبغ آينشتاين في الفيزياء، وبيليه في لعب كرة القدم. وهذا النبوغ من الله لأنه سبحانه خلق في العقل البشري قدرات هائلة لو استغلت لأصبحنا جميعا نوابغ. وآينشتاين من القلائل الذين توفر لهم تنشيط واستغلال هذا النبوغ. فالله هو من وهب له هذا ليس مباشرة ولكن بما أودع الله في كل نفس بشرية.

وتقول السورة: «ولسليمان الريح تجري بأمره إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا".

فقد استغل سليمان معرفته وعلمه واستفاد من الريح، ولم يكن سليمان يأمر الريح فتغير

مسارها، كما صور المفسرون.

وتقول السورة: "ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون".

وهذا ليس بتدخل من الله مباشرة بحيث يأمر سبحانه الشياطين للعمل مع سليمان وتحت إمرته، ولكنه بفضل الله الذي جعل لسليمان قدرة على إدارتهم.

والسورة تقول إن "أيوب نادى ربه، فكشف الله ما به من ضر".

وأيوب كأي إنسان عندما يمرض أو تحل به ضائقة يقول يا الله. هنا الله جل شأنه لا يتدخل فعلياً بتسليط مضادات حيوية على الجراثيم أو الفايروسات المسببة للمرض وتقتلها، ولكن لأن جسد أيوب أو العلاج الذي تناوله أو استخدمه كان مناسباً فشفي. وقد شفي وسيشفى كثيرون غيره، وسيموت كثيرون لأنهم لم يوفقوا باختيار العلاج المناسب أو أن أجسادهم كانت ضعيفة.

وإن كان ما حل بأيوب ضائقة وانفرجت فكثيرون غيره لم تنفرج. وسبب الانفراج لم يتدخل به الله شخصياً، ولكن لولا أنه سبحانه أوجد في البيئة أسباب الانفراج لما حصل عليه أيوب وغيره.

وهناك فصل مستقل بذي النون يمكن الرجوع إليه لتبين أن نجاته كانت بفضل من الله لكن دون تدخل مباشر منه سبحانه.

وكل الحالات التي ذكرتها الآيات متشابهة في أن الله لا يتدخل فعلياً لكنه موجود بما أوجده ويسره لخلقه: وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ(٦١) يونس.

الله سبحانه يعلم كل شيء في الكون وكيف يسير، ولولا مشيئته لما سار، لكنه لا يتدخل سبحانه مباشرة بما يجري، وهو سبحانه موجود وقريب.

٤. ويستدل البعض بما ورد في سورة نوح، على أن الطلب الدنيوي يستجاب. والآيات هي:

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً(١٠) يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً(١١) وَيُمْدِدْكُمْ

بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً(١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً(١٣).

فالمفسرون رسخوا أن الآية الدعاء يجلب المطر، وعلينا أن نعود للآيات ونرى ماذا تقول.

والسورة تتحدث عن نوح وكيف دعا قومه وموقفهم من دعوته. ومما قال لهم، أن يؤمنوا بالله الذي نعمه تحيطهم. فهو من ينزل المطر (لا ننسى أن المطر ينزل حسب توفر الظروف التي خلقها الله لنزوله) والله يمدهم بالأموال (بتوفير الأرزاق في الأرض واستغلال الناس لها) ويمدهم بالبنين (الذي يكون نتيجة قانون التقاء البويضة والحيوان المنوي الذي وضعه الله).

ولا تقول السورة إن المطر لم ينزل على قوم نوح أو غيرهم، ولم يرزقوا بأموال وبنين إلا بعد الاستغفار والدعاء. لأن هذه الأمور الدنيوية وغيرها متاحة لكل الناس بغض النظر عن المعتقد، وليست نتيجة لقبول الدعاء: مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ(٢٠) الشورى.

ومع أن الدعاء لا يمكن أن يحقق الأماني والمطالب الدنيوية، إلا أن الناس يختلط عليهم الأمر. فالقول بأن الله لا يتدخل في أمور الدنيا لا يعني أن نتوقف عن التوجه لله بالدعاء والتضرع في الأزمات. لأن الله قبل أن يخلق الإنسان أودع فيه (داخل جسمه) وفيما حوله كل ما يحتاجه في حياته ويعينه على التغلب على المحن المختلفة. وكل ما على الإنسان اكتشافها والاستفادة منها. وبعضها يحتاج لأن يكون الإنسان بوضع نفسي خاص، وهو ما يحققه لنا الدعاء. لأن الدعاء المخلص يصدر من نفس صافية عالية التركيز والتجرد. وهو ما يصنع المواقف التي تبدو مستحيلة أو صعبة المنال.

فمثلاً: تعرضت سفينة لعاصفة هوجاء أطاحت بالشراع وحطمت جسد السفينة وتناثر الناس في عرض البحر. وأحد هؤلاء بدأ يدعو الله بعمق وتركيز وصفاء ذهن، وهو يلتفت يمنة ويسرة لعله يجد ما ينقذه. هذا الشخص سيكون أقدر من غيره على التفكير بعيداً عن القلق والهلع وسيكون أقدر على البحث عن لوح طاف يتعلق به ويصل عليه للشاطئ. فهو قد دعا واستجيب دعاؤه، وهو أقدر على النجاة من شخص يصاب بالهلع والخوف من الموت فيموت بالصدمة قبل أن يغرق، ولن يكون لديه الوقت الكافي للتفكير ومحاولة النجاة.

هنا الله جل وعلا هو من نجّى الرجل الذي دعاه، وهو من أهلك الآخر. ليس بالتدخل المباشر وتحريك اللوح الخشبي من مكان بعيد ليصل للناجي. الله لم يفعل هذا سبحانه. ولكن تركيز الرجل وتفكيره دون اضطراب وقلق جعله يجد اللوح ويستفيد منه. بينما الرجل الآخر الذي سيطر عليه الهلع لن يرى اللوح الخشبي ولو مر بجواره، ولم يكن الله هو من تدخل مباشرة وجعل الخوف والهلع يسيطران عليه. ولو كان هناك تدريبات للناس عن كيفية ضبط النفس والابتعاد عن الهلع، وكيف نتصرف في اللحظات الحرجة فنكون ساعدنا الناس على الاقتراب من الله والحصول على عونه سبحانه.

ونجاة ذلك الشخص ليس لأنه مسلم أو كافر، ولكن لأنه استغل ما أوجده الله له من عقل وتفكير وهدوء وحسن تصرف، وكلها نعم أوجدها الله في النفس البشرية. وهذا ما يؤكده القرآن، ومن ذلك ما ورد في سورة العنكبوت في حديثها عن المشركين: فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦).

فالسفينة التي تتعرض لعاصفة وتنجو. لم تكن نجاتها بتدخل مباشر من الله لكنه سبحانه هو من أنجاها. فهو سبحانه من جعل العاصفة تهدأ، ليس بشكل مباشر بحيث يرسل ملائكة ويهدئون العاصفة. ولكن لأن العاصفة تثور وتهدأ بفعل عوامل جوية أوجدها الله على الأرض قبل خلق الإنسان. وفي اللحظة التي كادت السفينة أن تتحطم توفرت العوامل الجوية التي تسببت بهدوء العاصفة، فهدأت ونجا الناس برغم أنهم كفار.

الخلاصة:

الخلط الذي عليه الناس أنهم يدعون الله لكي يتدخل مباشرة فيما يريدون. بينما رب العالمين (رب كل الناس كافرهم ومؤمنهم) تدخل في حياة الناس بكل ما يحتاجون قبل أن يخلقهم بتوفير ما يحتاجون له. والدعاء مهم جداً في حال الأزمات لأنه يساعد الإنسان على اكتشاف ما أودعه الله له وفيه نجاته.

الناس يريدون الخالق أن يكون إنساناً يتعامل بالعواطف، ولديه قوى خارقة ليستفيدوا منها. بينما الواقع هو أن الخالق يدير كونه كخالق عظيم وليس بعقلية مخلوق.

والله جل وعلا أودع في الكون وفي النفس وحولها وفي الأرض قوى محسوسة وغير محسوسة

كنعم للمخلوقات، وما لم يوجده سبحانه فلا سبيل لأي مخلوق من إيجاده: مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ(٣) فاطر.

فمثلاً قوانين الفيزياء والرياضيات أوجدها الله واكتشفها الإنسان، مثلها مثل الماء والطعام، ومثل تطويع المعادن وغيرها: أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ(٢٠) لقمان.

والآية تخاطب قريش وتدعوهم للتفكير بعظمة الخلق للاستدلال على قدرة الخالق على البعث الذي ينكرون. والآية تقول هناك نعم ظاهرة لكم مثل الماء والطعام والأنعام وغيرها. وهناك نعم باطنة مخفية وقوى خارقة في النفس وفي طبيعة من حولنا قد تجهلها قريش لكنها تعينهم في حياتهم ولو لم يشعروا بها. ومن ذلك قانون الجذب والقوى الخفية في النفس وفي الكون وما حولنا.

القضاء والقدر

لفظان شاع استخدامها معاً بمعنى أن الله جل وعلا قد قرر كل الأحداث مسبقاً. فسرقة سيارة أو سجن بريء أو قتل عمد أو سرقة مال عام كلها أحداث مقدرة منذ الأزل، ومثله من يملك المال والسلطة. ومن يولد بصحة جيدة ثم يفقد والديه ويصبح مشرداً ولا يحصل على تغذية مناسبة ثم يموت نتيجة لتعطل الكلى وهو في التاسعة من عمره لأنه لا يستطيع دخول المستشفى فهو مقدر منذ الأزل. كما أن من ولد للشهر الخامس لكنه يحظى بعناية مركزة وينمو في بيئة بديلة لرحم الأم ويعيش بكامل صحته إلى أرذل العمر لأنه ولد في عائلة غنية فهو مقدر منذ الأزل.

فهل بالفعل قدر الله جل وعلا الأحداث ومصائر الناس يوم القيامة مسبقاً كما هو شائع؟

وهل هناك آية واحدة في كتاب الله تذكر لفظ «القضاء»؟

وهل هناك في كتاب الله آية تذكر القدر بمعناه الشائع؟

تقول سورة الفجر: فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ(١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ(١٦) كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ(١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ(١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا(١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا(٢٠).

الآيات هنا تتحدث عن إحدى طباع الانسان السائدة، والمتمثلة في أنه إذا ما أصاب الإنسان من المال الكثير يشعر بأن الله أكرمه بهذا المال لأنه يستحقه. بينما لو لم يوفق وكان حظه قليلاً مادياً وافتقر، فسيخالجه شعور أن الله هو من قدر عليه ضيق العيش.

ثم جاءت كتب التراث لتهون على الفقير أو من تعرض لمصيبة بالزعم أن ما حدث له امتحان من الله، وعليه أن يتقبله ويصبر عليه ليكتب له أجر في الآخرة. وإذا ما كان المالك للمال عدواً قالوا هو استدراج من الله له ليستمر في غيه ويدخل النار. أما من أصابته مصيبة وهو مسلم فيقولون بأن هذا عقاب من الله له على كبيرة ارتكبها. وقد اختلقت في هذا أحاديث كثيرة لن نتطرق لها.

والقرآن ينفي هذا المعتقد، ويقول إن ما يحدث هو أن الغني يجمع المال بسبب عوامل كثيرة، ليس منها أن الله قسم له هذا المال وخصه به. وعندما يصبح الإنسان غنياً وذا مال وفير، يحجبه عن غيره، فيصيب الفقر البعض نتيجة لذلك. لهذا أوجب الله على الغني الإنفاق على الفقير. ولو أنفق الغني من ماله على حاجات الفقير لعاش الغني بغناه واختفى الفقر من المجتمع. فالفقر نتيجة لجشع الغني وجمعه لمال يفوق احتياجاته بطرق مختلفة بعضها حرام. وهناك المزيد من الأدلة سبق ذكرها في فقرة: الله لا يتدخل في أمور الدنيا مباشرة، وفقرة: خلق الكون بقوانين ثابتة.

والله جل وعلا لم يقرر على أحد دخول جنة أو نار بل الإنسان هو من يقرر مصيره: إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا(٤٠) النبأ.

فالمرء هو من يقرر مصيره بنفسه بناءً على ما تقدم يداه (أي ما يصدر منه من قول وفعل)، ولا شيء مقدر عليه مسبقاً.

وتبدأ سورة الإنسان مؤكدة أن الخالق الكريم خلق الإنسان من ماء مهين ثم سواه بشراً ذا سمع وبصر وعقل وقدرات كثيرة تؤهله لأن يكون قادراً على تبين الحق من الباطل: هَلْ

أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً(١) إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً(٢).

ثم ترك له كامل الاختيار ليختار الطريق التي يريد: إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً(٣).

فهو من يختار لنفسه الشكر والهداية، أو الكفر والنكران دون تدخل من خالقه سبحانه. مما يؤكد أنه ليس هناك مصير مكتوب مسبقاً على أحد من الخلق في حياته ورزقه ومماته وهدايته وضلاله[1].

وتقول سورة فاطر: وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(١١).

الله جل شأنه يعلم كل ما يدور في خلقه، لكنه لا يتدخل مباشرة في تسييره أو في حياة مخلوقاته. ولم يقرر آجالها مسبقاً[2].

وقوله في الآية السابقة: «وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ». ليس المقصود أن الآجال والأرزاق مقررة مسبقاً، ولكن كل ما يحدث بإمكان الله جل وعلا أن يمنعه ولكنه لم يفعل. وكل ما يحدث فالله يعلمه ولكنه لا يقدره مسبقاً على الخلق. لأن حرية الاختيار من عدله المطلق سبحانه.

وتقول سورة فصلت: وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ(٢٥).

وكأن الله قد كتب عليهم الضلال، وليس الأمر كذلك، ولكنه أسلوب القرآن المميز والذي يقول بأن كفر الكافر لم يكن ليحدث لولا أن الله جل وعلا أتاح لهم القدرة على الاختيار، ولما اختاروا الكفر، فكأن الله هو من قيض هذا.

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(٣٦) سبأ.

وقوله: قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ

---

١ انظر فقرة: الدين خيار شخصي.

٢ انظر فقرة: كل نفس بما كسبت رهينة.

وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(٣٩) سبأ.

ومثله ما ورد في سورة الشورى: لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١٢).

وبسط الرزق أو قدره (قلته) لا يعني أن الله جل شأنه كتب منذ الأزل أن فلاناً سيكون فاحش الثراء وفلاناً سيكون فقيراً معدماً. ولكن الآية تقول بأن كل من كسب مالاً أو أصبح فقيراً فبمشيئة الله. بمعنى أن هناك ظروفاً وعوامل اجتمعت فتتج عنها الغنى أو الفقر وهذه الظروف تحدث للمؤمن والكافر على حد سواء، ووجودها كان بمشيئة الله ولو لم يشأ سبحانه لم توجد.

ومن ذلك أن النجاح في التجارة يقوم على عوامل كثيرة منها: الإدارة، التسويق، الحظ، التخطيط... الخ

وتقول سورة الحجر: وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ(٤) مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ(٥).

والكتاب المعلوم هنا يعني أن ما حدث لهم مسجل وموثق، ولا تعني أن هلاكهم قدر عليهم مسبقاً[١].

كما في سور أخرى مثل: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ(٣) سبأ.

وقوله: " مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ" فكل أمة هلكت بكارثة طبيعية سجل وقت وقوع الكارثة ولن يتقدم قبل أوانه أو يتأخر. فالكوارث الطبيعية تحدث لتوفر عوامل حدوثها. ومتى توفرت العوامل حدثت الكارثة لا تتأخر بعدها ولا تتقدم قبل توفرها. ولا تتحدث السورة عما عرف بالقضاء والقدر وكأن الله جل شأنه قد حدد لكل شخص عمره وكيف سيموت.

فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ(٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ(٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ(٥٦) المؤمنون.

---

١ انظر فقرة: كل ما يدور في الكون يسجل بدقة.

الله جل وعلا لم يتدخل مباشرة لكي يحصل رجال قريش على الأموال، ولكن ما حدث هو أن رجال قريش استطاعوا أن يكونوا الناقل الأهم للبخور والبهارات واللبان من جنوب جزيرة العرب لبلاد الشام والعراق، ويجنوا من ذلك الأموال الطائلة. لكن بما أن الله جل وعلا خلق الجمال التي ينقلون عليها البضائع، وخلق العقول التي تفكر. ونحو ذلك، فالله جل وعلا هو من أنعم عليهم بالمال.

ومثله: حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ(٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(١٠٠) المؤمنون.

الآيات تتحدث بتعبير مجازي يصور الكافر عند الموت وكأنه يخاطب أحداً يمكنه إعادته للحياة، وهذا لا يتم على أرض الواقع لأن الميت يدخل في غيبوبة قصيرة لبضع ثوانٍ أو دقائق أو ساعات وأيام قبل أن تفارق نفسه جسمه. ولا يدري الميت أنه مات إلا يوم القيامة عندما يبعث.

والآيات لا تقول بأن لحظة الموت مقدرة مسبقاً بل تصور ندم الكافر على التفريط بحياته في الكفر وخسارته الآخرة.

ومثل ما سبق قوله تعالى: مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(٢٢) الحديد.

فسورة الحديد نزلت قبيل معركة أحد وفي فترة يفترض أن ينفق فيها المسلمون أموالهم لتجهيز الجيش، لكن يبدو أن العام كان عام قحط ولم تنزل الأمطار فكان هناك شح في الأموال وامتنع كثير من الناس عن الإنفاق، فجاءت الآيات تحثهم: اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(١٧) الحديد.

وإن احتبس المطر هذا العام فقد يأتي في عام قادم، وتحيا الأرض بعد موتها. والخسارة المادية لهذا العام قد تعوض في عام قادم، لكن الامتناع عن الإنفاق ذنب لا يغفره إنفاق العام القادم. والإنفاق تجارة رابحة مع الله مضمونة لا تعتمد على المطر وليس لها موسم: إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ(١٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ(١٩) الحديد.

وإذا كنتم تباطأتم عن الإنفاق خوف الفاقة، فتذكروا أن الدنيا كلها سرعان ما تزول، مثلما زالت حشائش الأعوام السابقة التي نمت بفعل المطر، فكيف تحرصون على الزائل، بينما لو أنفقتم فسيكتب لكم أجر ومكسب دائم: اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) الحديد.

وخسارة محاصيلهم نتيجة القحط مصيبة حلت بهم بالمقاييس الدنيوية. لكن عليهم أن يتذكروا أن احتباس المطر وهطوله نتيجة لقوانين وضعها الله في الكون. أي أن المطر يتوقف بإذن الله (أي لعدم توفر الظروف الجوية المناسبة لهطوله) وينزل بإذن الله (أي بتوفر الظروف الجوية المناسبة لهطوله). وهذه الظروف تتواجد بموجب قوانين ثابتة منذ خلقت الأرض وليست نتيجة لتدخل مباشر من الله جل وعلا بأن يأمر سحاب فيمطر على منطقة ويأمره فيمتنع عن أخرى، كما صورت كتب التراث.

فإذا عرف المسلم ذلك هانت عليه مصيبة فقدان المحصول واحتسب عند الله ولم يتوقف عن الإنفاق. بل أنفق لكي يزرع له محاصيل ثابتة يوم القيامة. وإذا ما عرف المؤمن أن كل مباهج الدنيا (الأموال والأولاد) كزرع سرعان ما يصفر وتذروه الرياح، فلن يتباهى بما يملك ولن يكون زيادة ماله مدعاة للفخر، ولا نقصه مدعاة للحسرة: مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤) الحديد.

فالمصيبة في الآية هي خسارة المحاصيل والأنعام وقد حدثت لأن الله قد قررها (في كتاب من قبل أن نبرأها) أي وضع القوانين التي تتسبب بهذه المصيبة منذ خلق الأرض وقبل خلق الإنسان والمتمثلة بضرورة توفر عوامل مناخية معينة لكي ينزل المطر، وإذا لم تتوفر فلن يهطل. ولا تتحدث الآية عن (القدر) بمعناه الشائع.

وقد نزلت سورة التغابن مباشرة بعد سورة الحديد وفي نفس الفترة التي تسبق غزوة أحد

- وتكرر الحديث عن امتناع بعض مسلمي يثرب من الإنفاق بسبب شح المطر ونقص الموارد، وتقول إن ما أصابهم فهو بأمر من الله، لأن المطر ينزل بناءً على تظافر ظروف مناخية ملائمة، قد لا تتوفر في مناخ الصحراء في بعض السنوات، كما حدث في يثرب تلك السنة، وتسبب بضيق العيش. لكن هذا يجب ألا يثني الناس عن الإنفاق، لأن دولة الإسلام تعتمد عليه في بقائها وفي تسليح جيشها: مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ(١٢) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(١٣) التغابن.

وهناك آيات أخرى يظن الناس أنها يمكن أن يستدل بها على أن الله يتدخل مباشرة في الدنيا وقد تطرقنا لها في تدبر السور وفي فقرة: الله لا يتدخل في أمور الدنيا مباشرة / قسم أدلة من القرآن.

وهناك العديد من الآيات التي يظن البعض أنها أدلة على ما يسمى بالقضاء والقدر، وكلها تم تأويل معانيها ولا علاقة لها بما يسمى بالقضاء والقدر. وقد تطرقنا لها أثناء تدبر السور وفي فقرة: الله لا يتدخل مباشرة في أمور الدنيا.

وباختصار:

القضاء والقدر بمعناهما السائد لا وجود لهما في القرآن، فالقضاء لفظ يخلو كتاب الله من ذكره. والقدر بالتعريف تكرر في سورة القدر ولكن بمعنى يختلف عن المعنى السائد. وكل الآيات التي يُستدل بها على أن هناك قضاء وقدراً بالمعنى السائد تم نزعها من سياقها وتأويلها لغير معناها. وبسبب ما ورد في كتب التراث حول ما عرف بالقضاء والقدر، ترسخ لدى الناس أن الأرزاق والأعمار والمصير مكتوبة قبل أن يولد الإنسان، وهذا وربي تثبيط للهمم وتأصيل للاتكال والتكاسل. فهم لا يتعلمون ويصنعون سلاحهم ويحمون أنفسهم، وعندما يجتاح العدو بلادهم تتعالى أصواتهم نحو السماء طالبين من الله أن يتدخل لدفع العدو عنهم ونيابة عنهم، لأنهم يعتقدون أن من قرر اجتياح بلادهم هو الله. وعندما يحل بهم ظلم وتعسف يطلبون من الله أن يرفعه عنهم بدل أن يدفعوه بأنفسهم، لأنهم يعتقدون ان الله هو من سلط عليهم الظالم ومتى شاء كف يده عنهم. وهكذا سارت حياة المسلمين طوال القرون الماضية، اتكال وتكاسل ومهانة وذل. إضافة إلى إهمالهم لاحتياطات السلامة

لأنهم مقتنعون أن الله هو من كتب عليهم المصائب وهو من يرفعها عنهم. وكل ما عليهم فعله هو الصبر وعدم معارضة قدر الله وقضائه. وبموجب هذا المفهوم الخاطئ يتمكن الشخص من التنصل من مسئولياته وفشله وتحميلها على القضاء والقدر. فهو عندما تهاون في توفير سبل السلامة في منزله ونتج عنه حريق التهم البيت ومن فيه لم يكن خطأه ولكنه مكتوب منذ الأزل أنه سيخسر بيته وأسرته في حريق. وعندما يضع سائق السيارة ابنه الرضيع امامه متمسكاً بمقود السيارة وتنحرف سيارته وتصدم بخرسانة على جانب الطريق ويقتل الطفل، لا يشعر الأب أن الله سيحاسبه على قتل ابنه، ولا يشعر بأي تأنيب ضمير لأن ما حدث خارج عن مسئولياته ومكتوب عليه. فالله هو من قدره وليس له ذنب فيه .... الخ

وهذا المفهوم الأعوج، كان موجوداً عند قريش التي تبرر رفضها للدعوة وتمسكها بعبادة الأوثان بأنه قضاء وقدر من الله عليهم: وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ(٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ(٢٢) الزخرف.

والسورة تقول لهم هذا تخريف، لم يقل به الله ولكنهم ظنوه بلا دليل: " مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ". والحقيقة التي تريد قريش أن تتعامى عنها هي أن الله لم يقدر عليهم ضلالاً وهداية بل هم من يختار طريقهم بكامل حريتهم. ورفضهم الدعوة يعود إلى تمسكهم بالموروث ورفض ما يخالفه ولو كان هو الحق من ربهم.

إلا أن القرآن تحدث عن معنى أشمل من مفهوم القضاء والقدر السائد، وهو أن الله جل شأنه أوجد في الأرض وكل الكون كل ما يحتاجه الخلق من بشر وغير بشر، بعضها قوى خفية قد لا يعرفها المخلوق إلا في حالات استثنائية، وبعضها ظاهر. وأوجد في جسد المخلوق ما يحتاجه ليحافظ على صحته منذ الأزل، لكنه سبحانه لم يقرر الأرزاق الفردية والأجيال بالمفهوم السائد. كما أن كل شيء في الكون يسير بأمر الله ومشيئته بالمعنى العام المتمثل في أنه لولا مشيئة الله لم يكن هناك خلق، ولولا مشيئة الله لما وقع ما وقع، فلا شيء يحدث خارج مشيئته سبحانه. لكنه سبحانه لا يتدخل مباشرة بتصرفات الناس أو مصائرهم أو في أحداث الدنيا على الأرض أو في أي مكان من الكون فكل شيء يسير بقوانين ثابتة.

اللافت، أن من يؤمن بالقضاء والقدر يؤمن بأن الله عادل عدلاً مثالياً مطلقاً، وهو سبحانه كذلك. لكن ما يتصوره الناس عن القضاء والقدر يتعارض جذرياً مع عدل الله المطلق.

لأن العدل المطلق يحتم أن يكون الإنسان حراً باختياره وألا يجبر على تصرف أو قول. والمفهوم الشائع عن القضاء والقدر يعني أن هناك من قرر الله عليه المرض والفقر. وهناك من قرر له الغنى والصحة. وهناك من قرر له الإيمان وغيره قرر عليه الكفر ... الخ. ويوم القيامة يدخل النار من قرر الله عليه الضلال، ويدخل الجنة من قرر الله له الهداية.

فأين هو العدل هنا؟

ولو قال قائل: إن الله لا يسال عما يفعل نقول له نعم. فالله لا يسأل لماذا خلق الخلق؟ ولكن ما نتحدث عنه ليس له علاقة بهذا.

ما نتحدث عنه هو ما قاله الله عن ذاته سبحانه: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) يونس.

فالله جل وعلا لا يظلم الناس شيئاً مهما كان صغيرا: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) النساء.

ولا يوجد ظلم مثقال ذرة، يعني لا يمكن أن يقدر على أحد شيئاً ولا يمكن أن يتدخل مع أحد ضد أحد. ولو كان سبحانه سيقرر مسبقاً أو يتدخل في أمور الدنيا لما خلق الآخرة، ولما كان هناك قيامة. فمن يشأ الله يدخله الجنة ومن يشأ يدخله النار، ولا حاجة للحساب.

وهناك حديث مضحك مبكٍ على شكل دعاء يقول: اللهم لا أسالك رد القضاء ولكني أسالك اللطف فيه.

فالله إن كان كتب على شخص ما أنه سيقتل تحت عجلات سيارة، فهذا الدعاء لو استجيب سيجعل عملية القتل ألطف لكنه لن يوقفها.

وبطبيعة الحال هذه الحديث منكر عند اهل الحديث ولا أحد يقول بصحته (عندهم) لكن هناك حديث يعتبرونه صحيحاً منسوباً لابن عباس ورواه الترمذي ويقول: «الدعاء يرد القضاء».

يعني أن الله لو أنه كتب مسبقاً أن فلاناً سيقتل يوم الجمعة تحت عجلات سيارة وقام

الشخص بدعاء الله أن يحفظه في ذلك اليوم فإن الله سيغير رأيه وسيلغي ما كتبه على ذلك الشخص وسيختار له يوماً آخر ليموت وبطريقة أخرى.

وقريب من مفهوم القضاء والقدر:

الأجل المسمى

يعني الوقت المحدد المعروف التاريخ، كما في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ....(٢٨٢) البقرة.

فالتداين يكون إلى يوم محدد معروف التاريخ.

وقوله: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٤٢) الزمر.

لا يعني أن كل إنسان له وقت محدد مسبقاً لموته بما يتفق مع ما هو سائد عن مفهوم القضاء والقدر. بل يعني أن الإنسان له عمر افتراضي لا يستطيع أن يتجاوزه، فهو مخلوق بجسد قابل للهلاك إن لم يكن بحادث فبمرض وإلا فالهرم كفيل بموته، ولن يعيش إلى الأبد. فهو له أجل مسمى (محدد لا يتجاوزه).

ومثله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ(٥) الحج.

فالجنين لا يمكن أن يبقى في الرحم إلى الأبد أو أطول من الفترة الافتراضية والتي تقدر بحوالي أربعين أسبوعاً. لكن الجنين يمكن أن يولد قبل ذلك بأسبوع وقد يتأخر عن ذلك بأسبوع أو اسبوعين لفترة الحمل الطبيعية. أو بمعنى آخر مدة الحمل الطبيعي تكون بين ٣٨ – ٤٢ أسبوع. مثلما أن عمر الإنسان لا يزيد عن ١٠٠ – ١٢٠ سنة في الحالات الاستثنائية وعادة ما يكون ٦٠ – ٨٠ سنة. فهذا هو المقصود بالأجل المسمى هنا.

ونأتي إلى آية تثير بعض التساؤلات عند الناس لأنه ترسخ لديهم أن الله جل شأنه قد قرر

الأعمار والأقوات والجنة والنار وكل شيء مسبقاً. وبرغم أن هذا القول يتعارض مع رحمة الله ومع أن اختيار الهداية والضلال خيار شخصي حر ومع عدل الله المطلق إلا أن الموروث أقوى من العقل ومن المنطق.

ولو لم تترسخ فكرة القضاء والقدر عند الناس لما توقفوا عند هذه الآية وفهموها كما يمكن أن تفهم الآيات الأخرى التي تذكر الأجل المسمى والذي يعني أن الكون سينتهي بعمر محدد وينشأ كون القيامة بوقت محدد أو أن الإنسان له عمر محدد لا يستطيع أن يعيش للأبد أو أكثر منه.

ونص الآية: وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ(٦١) النحل.

فالآية تقول إن الله لن يهلك الناس بظلمهم وكفرهم وسيعيشون حياتهم (ويوم القيامة سيحاسبون).

الله سيتركهم يعيشون، وسيؤخر حسابهم لأجل مسمى، وهو يوم القيامة. وليس المعنى أن الله قدر لكل فرد عمراً محدد بالأيام والساعات والثواني.

والحديث هنا عن الناس جميعاً، مما يعني استحالة أن يكون لهم جميعاً عمر محدد لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون.

فالآية لا تتحدث عن شخص بعينه وأنه سيموت في لحظة محددة لا يتأخر عنها ساعة ولا يتقدم.

إذا، المقصود بالأجل المسمى هو يوم الحساب.

فلن يكون للناس عذاب في الدنيا لظلمهم وكفرهم ولكن سيعيشون حياتهم، وحسابهم سيكون في موعد محدد لن يتأخروا عن حضوره ساعة ولن يتقدموا ساعة والمقصود به يوم الحساب. فهو الأجل المحدد هنا.

والعبارة مجازية لزيادة التأثير، فوصف الأجل (الموعد) بأن الناس لن يتأخروا عنه ساعة ولن يتقدموا عليه ساعة، وصف لدقة موعد يوم القيامة وأنه قادم لامحالة في وقت محدد بدقة لا تأخير فيه ولا تقديم، لأن الحديث في الآية موجه لقريش التي تنكر البعث.

وفي الغالب وفي الحالات العادية، فالإنسان يريد أن يؤخر موته. وهو ما يتوافق مع قول الآية: «لا يستأخرون ساعة» لكن لا يرغب الإنسان في أن يعجل بموته قبل أوانه، لذا لا يمكن أن يكون المقصود شخصاً يريد أن يقدم موعد موته ساعة أو أي مدة...

وهذه آية أخرى تكرر ما قالته الآية السابقة: وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً(٤٥) فاطر.

ويمكن ملاحظة أن هذه الآية تكرر حرفياً ما قالته آية النحل إلا أنها تقول:» فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً« فالأجل هنا هو يوم الحساب عندها سيكون سبحانه بهم بصيراً وعليماً بمصائرهم لأنه هو سبحانه من سيحاسبهم. وهو توضيح للمقصود بالأجل المسمى (القيامة) والذي سيأتي في وقته دون تأخير ولا تقديم.

ومثله: يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاء لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٤) نوح.

فالمقصود بالأجل المسمى هو يوم الحساب، وهو سيأتي في موعد محدد بدقة. فانهيار هذا الكون سيتم في وقته المحدد سلفاً وكذلك نشأة كون القيامة.

ومثله: مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ(٣) الأحقاف.

السماوات والأرض هنا تشير للكون والذي خلق بعمر محدد وسينتهي في وقت محدد.

ومثله: خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ(٥) الزمر.

الشمس والقمر وكل ما في الكون يجري لأجل مسمى (الوقت المحدد لنهاية الكون).

وهو ما تكرر في قوله تعالى: يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ(١٣) فاطر.

وفي قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٢٩) لقمان.

فالأجل المسمى في آية النحل يعود لموعد القيامة، ولكن المفسرين أولوه لكي يسندوا ما يريدون ترسيخه من أن الإنسان مسير ومقدر عليه كل شيء مسبقاً.

وحديثنا عن القضاء والقدر بمفهومه الشائع لا يتعارض مع أن كل شيء في الكون يسير بإذن الله ولا شيء يخرج عن سيطرته. ومشيئة الله في القرآن تعني أن كل ما يجري في الكون لا يمكن له أن يتم لو لا أن الله شاء له وأذن لها بذلك وهذا يكون بقوانينه حين خلق الكون. ولو أن الله جل شأنه قدر علي مسبقاً وقبل خلقي أني من اهل النار، فلماذا يطالبني (كغيري من الناس) أن أفكر وأتلمس الطريق لاتباع دينه لأنجو بنفسي من النار، ما دامت النجاة من النار ليست بخياري بل بما كتبه الله علي؟

الإنسان يريد أن يلوم الله بدل أن يعترف بتقصيره. تراه يهمل مراقبة طفله فينطلق الطفل في مسار السيارات وتدهسه السيارة فيقول والده قدر الله وما شاء فعل. وبهذا فالطفل مات لأن الله قبل ولادة الطفل قرر أنه سيموت بالدهس في هذا اليوم. بينما الحقيقة هي أن الوالد هو المهمل وعليه أن يحاكم بالقتل الخطأ في الدنيا، ويواجه حسابه يوم القيامة على إهماله.

فالقضاء والقدر بمفهومهما الشائع أسهل وسيلة للتخلص من الشعور بالذنب وإلقاء اللوم على الله فيما تقترفه أيدينا من تجاوزات ومعاصي.

الله لا يتدخل في أمور الدنيا مباشرة

مشيئة الله تتمثل بخلق كل شيء بقدر، ومشيئة الإنسان تتمثل بتقرير مصيره واختيار طعامه وعلاجه وطريقة حياته ... الخ. فلو دخل النار أو الجنة فذلك نتيجة لأعماله التي فعلها باختياره. ومشيئة الله أن جعل لجسمه عمراً افتراضياً لا يتجاوزه (خلايا تهرم وتموت) لكن مشيئة الإنسان قد تتدخل داخل إطار مشيئة الله. فالطب والغذاء أطالا عمر الإنسان، وهما من إنتاج الإنسان، داخل دائرة مشيئة الله. لكن مهما بلغ الطب والغذاء من تطور لن يبقيا الإنسان حياً للأبد. لكن قد يمتد بالإنسان العمر لو لقي عناية طبية متقدمة أكثر ممن لا يجد، ونفس الشيء بالنسبة للغذاء. وقد يتوصل العلم عن طريق ما يعرف بالخلايا النخاعية أو غيرها من استزراع أعضاء جديدة بدل التالفة كالقلب والرئة والكبد وغيرها، مما يتيح إطالة حياة الإنسان.

في المقابل فإن الحوادث تقصر عمر الإنسان، وهي من صنع وتدبير الإنسان لم يكتبها الله عليه. فالذي يقود سيارته بتهور ويقع له حادث ويموت فهو من قتل نفسه ولم يقتله الله. كذلك التهور وعدم أخذ الحيطة في كل شيء.

والمسلمون وبتأثير من الموروث فهموا أن الله يسير الكون حسبما يرى في ذات اللحظة. فمثلاً يمكن أن يوجه الرياح المحملة بالسحاب لبلدة ما اليوم لأنه ارتأى ذلك لحظتها، ثم يرتئي أن يحرمها من المطر لسنة أو عشر أو عشرين سنة. ويمكن أن يتدخل ويشفي إنساناً مصاباً بمرض لا يمكن برؤه، ويقتل آخر بصحة جيدة. ويمكن أن يفتح أبواب الكسب المادي على شخص ويحرم آخر منها. ويعطي حكم بلدٍ لحكام متسلطين يتوارثونها أباً عن جد، ويعطي بلداً آخر لأناس يحكمون بالعدل والقانون. وإلى غير ذلك.

وهناك بعض الآيات التي يستشهد بها من يعتقد أن الله يتدخل فعلياً وفي كل لحظة بما يجري على الأرض وبين الناس، وسنمر على بعضٍ منها لنتبين أن وجه الاستدلال خاطئ ويُحمّل الآيات ما لم تقل، ومن ذلك:

وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً(٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً(٢٧) نوح.

هذا الدعاء الصريح من نوح لم يستجب له رب العالمين، لأن الخالق سبحانه خلق الدنيا دار عمل، والآخرة لتقرير المصير: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٦٥) الأنعام.

ولو استجاب الله لدعوة بشر (أي بشر حتى لو كان رسول من الرسل) وألحق ضرراً بالشخص المدعو عليه فهذا ظلم يخالف عدل الله المطلق الذي بموجبه خلق الكون وكل المخلوقات والحساب وكل شيء، فالله لا يتعامل بالعواطف. مثله مثل لو استجاب لبشر وحقق له طلباً دنيوياً، ولم يستجب لغيره فقد ظلمه، والله لا يظلم أحداً ولا يحابي أحداً وكل الخلق يتم التعامل معهم بعدل مثالي كافرهم ومؤمنهم في الدنيا.

والدعاء المستجاب في القرآن يأتي بمعنى طلب المغفرة، وليس طلب شيء دنيوي: وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ(٦٠) غافر.

الآية يستدل بها من يظن أن الله – جل شأنه – يستجيب لدعاء الناس لأمور دنيوية ويحققها لهم، وذلك ببتر الآية والتوقف عند قوله تعالى: « وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ" ولا يكملون قراءة بقية الآية لئلا ينتبه السامع أن الآية تتحدث عن الاستغفار والتوبة من الذنوب، وليست لمطالب دنيوية.

ومثله: هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٦٥) غافر.

فالدعاء المستجاب لطلب المغفرة وليس لأمور دنيوية.

والمؤسف أن الشائع الآن بين كثير من الناس أن يطلب من الشخص المقابل أن يدعو له، وكأن الله يستجيب للواسطة (المعروفة جداً في مجتمعنا). ولو كان الله يستجيب للدعاء بالمفهوم الشائع فلماذا لا يستجيب دعائي لنفسي ويقبله من غيري؟

وما يجب أن يعرفه الناس هو أن الدعاء لشيء في الدنيا لا يمكن الاستجابة له لأن الدنيا مشاعة للكافر والمؤمن على حد سواء: مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ(٢٠) الشورى.

والتوفيق في الدنيا لا يعني رضا الله، كما أن عدم التوفيق لا يعني سخط الله. فالكافر أو المسلم لو خطط ونجح تخطيطه لكسب في الدنيا بغض النظر عن عقيدته. لأن نجاح الدنيا يخضع لعناصر دنيوية منها الحظ والتخطيط السليم ...الخ.

كما أن كل ما يقع في الدنيا من ظلم وأكل لحقوق الناس أو تعديات، لن يعاقب عليها الظالم والمعتدي في الدنيا ولكن يوم القيامة.

وتضرب سورة الكهف لقريش مثلاً على أن الدنيا نعمتها لا تدوم وسرعان ما تنتهي، لعلها تعبر وتؤمن: وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا(٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا(٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا(٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا(٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا(٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا(٣٧) لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا(٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا(٣٩) فَعَسَىٰ

رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً(٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً(٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً(٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً(٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً(٤٤) الكهف.

فالأعمال الدنيوية قصيرة العمر وسريعة العطب، بينما الأعمال للآخرة تبقى وتدوم.

ولو وجد مزرعتين، واحدة لمؤمن يسعى للآخرة فلن يهتم ويصاب بالغم لو أصاب مزرعته البوار، لأنه يعلم أن كل شيء دنيوي إلى زوال. بينما المزرعة الأخرى لكافر لا يؤمن بالآخرة ويعتبر الدنيا غاية. لذا فلو أصيبت مزرعته فسيقضي عليه من الحزن والأسى عليها، كونها غاية.

والآيات تظهر وكأن الكافر يتباهى على المؤمن بأن مزرعته أغنى وأكثر ثمراً، ولديه أولاد أكثر من صاحبه المؤمن الذي يعلم أن الدنيا وما فيها لا تساوي شيئاً.

والمؤمن – أثناء الجدال – قال لصاحبه: فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً(٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً(٤١).

ثم أحيط بثمر صاحبه وتلف، لكن هذا لم يكن نتيجة لدعاء المؤمن (الذي لم يقع) ولكنه حدث لعوامل أخرى، وإن وقعت بعد أن حذر المؤمن الكافر بأنه لا شيء يدوم وأن ما في الدنيا عرضة للفناء في أي لحظة. والمؤمن لم يطلب من الله أن يرسل حسباناً من السماء على مزرعة الكافر أو يغور ماؤها. لكنه كان يحذر الكافر بأن هذا قد يحدث وبالفعل حدث.

كما أن ما أصاب الثمر لم يكن نتيجة لكفر صاحب المزرعة، ولكنه يحدث لمزارع المؤمن والكافر بسبب عوامل لا شأن لها بالمعتقد. وهذه المرة حدث لمزرعة الكافر.

والفارق أن الكافر يجزع مما يحدث لمزرعته وماله، بينما المؤمن لا يجزع لأنه مؤمن أن الدنيا متاع لا يدوم.

ومثله: هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٦٥) غافر.

فالدعاء المستجاب لطلب المغفرة وليس لأمور دنيوية.

ومثله: أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ(٦٢) النمل.

الله جل شأنه أودع في النفس البشرية قوى هائلة تمكنه – لو استطاع استغلالها – من النجاة. ولو نجا فالله سبحانه هو من أنجاه، ليس مباشرة لكن بما أودع من قوى.

فلو دعا إنسان الله أن ينجيه من الغرق في بحر هائج ونجا إما بسبب أن الأمواج هدأت أو لأن الشخص استطاع أن يطفو فوق لوح خشبي ويصل للشاطئ أو بأي وسيلة أخرى، فالله هو من نجاه، ليس بأمر الموج – فعلياً – بالهدوء ولكن لأنه سبحانه هو من أوجد العوامل التي أدت لهدوء الموج، وهو سبحانه من ألهم الإنسان لركوب اللوح الخشبي، وهو سبحانه من سير اللوح باتجاه الشاطئ ليس فعلياً ولكن لأن الريح هبت باتجاه الشاطئ... وهكذا

وتقول سورة الزخرف: أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(٤٠) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ(٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ(٤٢).

ولو كان الله جل وعلا يتدخل في أمور الدنيا لضمن لرسوله البقاء حياً حتى يكمل رسالته، ولم تقل الآيات إن الرسول قد يموت أو يقتل في أي لحظة. ولو قتل في مكة فلن يكون هناك إسلام، لأن التشريعات لم تكتمل إلا في المدينة. ولكن سيكون إيمان بالله وسيحتاج الناس إلى رسول آخر تكتمل معه رسالة رب العالمين للناس في كل زمان ومكان.

وقد أكدت سورة غافر ما ذكرته الزخرف: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ(٧٧).

وهو ما كررت ذكره سورة الرعد: وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ(٤٠).

وتقول سورة يونس: وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(١٠٧).

لا يعني أن الله قد قرر مسبقا الحوادث والمرض على الناس، ولا يعني أن الله هو الذي يبرئ المريض مباشرة. ولكن المعنى أن كل ما يحدث في الكون بعلم الله وتقريره، ولو لم يشأ لما حدث.

قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ(٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٣٤) يوسف.

استجابة الله لا تعني هنا أن الله هو من أمر بسجنه، فالذي أمر بسجنه العزيز، ولم يكن بإيحاء من الله، ولكن تلبية لرغبة زوجته. لكن موافقة العزيز على إصدار قرار السجن جاء في وقت كان فيه يوسف يدعو الله أن يسجن، أو يتمنى أن يسجن ولا يقترف الفاحشة مع المرأة. لأن المرأة قد خيرته بين السجن أو موافقتها على الفاحشة، فكان خياره هو السجن. فلما علم يوسف أن قرار السجن قد صدر بحقه حمد الله على أن دعاءه (رغبته) قد تحققت.

والله جل وعلا لم يقرر الغنى لأحد والفقر على أحد، ومع ذلك يقول تعالى: لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١٢) الشورى.

بسط الرزق لمن يشاء لا يعني أنه سبحانه قد قرر مسبقاً أن فلاناً سيكون ثرياً وفلاناً سيكون فقيراً. لكنها تعني أن ما يجري في كونه بمشيئته، ومن أصبح ذا مال فلأن عوامل توفرت له. وهذه العوامل لا يمكن أن تخرج عن مشيئة الله، كما أن الله هو من أوجدها.

ولا شأن للغنى والفقر بالكفر أو الإيمان، أو رضى الله أو غضبه سبحانه: مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ(٢٠) الشورى.

وبما أن قريشاً متعلقة بالدنيا ومتعها التي تملك منها الكثير فهي راغبة عن الآخرة، ومن الممكن أن بعض المسلمين تساءل لماذا لا يحرم الله قريشاً من أموالها لأنها كافرة؟ وفاتهم أن الدنيا ومتاعها لا تساوي شيئاً، وأنها مشاعة لكل الناس بغض النظر عن المعتقد. وكسب المال يعتمد على عوامل عدة ليس منها الإيمان والكفر.

وتقول السورة: وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ(٣٠) الشورى.

الآية واضحة صريحة: كل ما يصيب الإنسان نتيجة لعوامل دنيوية وبشرية، وليس مقدراً سلفاً من الله.

فالتلوث – مثلاً – في الهواء والماء والغذاء ينتج عنه أمراض قاتلة للناس والحيوان والبيئة. هذا ليس من الله بل مما كسبت أيدي الناس. وحوادث السيارات مما كسبت أيدي الناس، وعلى هذا يقاس أموراً كثيرة.

وتقول سورة الأنعام: وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ(١٧) الأنعام.

كل شيء في الكون أوجده الله، ومن ذلك أسباب الصحة والمرض والغنى والفقر. والآية تقول: لو أصيب المرء بسوء فالله هو من تسبب بهذا – ليس مباشرة – ولكن لأنه سبحانه أوجد أسباب السوء. ولو أصاب المرء خير، فالله هو من أصابه بالخير – ليس مباشرة – ولكن بما أوجده سبحانه من أسباب الخير.

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ(١٤٨) قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ(١٤٩) الأنعام.

قول قريش لو شاء الله ما أشركنا مشابه لمنطق لو شاء الله ما اغتنى الغني ولا افتقر الفقير ولا مرض المريض.... الخ.

وقريش لم يجبرهم الله على الكفر، بل هم من اختار ذلك طواعية.

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ(٢) سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ(٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ(٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ(٥) المسد.

السورة تتوعد أبا لهب وامرأته بالنار يوم القيامة وهما ما زالا على قيد الحياة، وهذا ليس لأن الله كتب عليهما الشقاء. ولكن السورة تتحدث عما يعرف بالضرورة. فمن لا يؤمن في بداية سماع الدعوة لن يؤمن أبداً. وأبو لهب كغيره من كبراء قريش رفضوا الدعوة من بدايتها ولن يؤمنوا. لذا جاء السورة تتوعده بنار جهنم لأنه سيستمر على الكفر ويموت عليه وكذلك امرأته.

وتقول سورة الرعد: لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ(١١).

لن يغير الله جل وعلا حال المسلمين ما لم يغيروه بأنفسهم. ولذلك على المسلمين أن يغيروا الظلم الواقع عليهم ويضحوا لذلك إن رغبوا في رفعه. وليغيروا طريقتهم التي ساروا عليها طوال القرون الماضية والتي كانت وراء مصائبهم. فهم ينتظرون من الله في عليائه أن

يحرك ما على الأرض لصالحهم. فيدفع عنهم ظلم من ظلمهم ويصد من هاجمهم ويعلمهم ويغنيهم ويثقفهم، وإلا فعليهم أن يبقوا كما هم لأن الله لم يشأ لهم التحرر من الظلم والتقدم والمعرفة.

هذا المنطق الأعوج هو سبب طردهم من الأندلس وجزر البحر الأبيض وشرق أوروبا وجنوب روسيا والهند وأفريقيا، وسبب طمع الصليبيين، واستيلاء المستعمرين، ووجود إسرائيل والحكام المتسلطين. وسيبقون ما بقي المسلمون يفكرون بطريقة بني إسرائيل: «إذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون».

وإذا لم ينصروا أنفسهم ويقاوموا الظالم بأيديهم ويبنوا قدراتهم بسواعدهم فسيبقون أذلاء: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ(٧) محمد.

فاستعدادهم النفسي والبدني والخططي والتسليحي والصناعي هو نصر لله، ولو فعلوا فسينصرهم الله بمعنى سينتصرون في الحرب وسيقفون في وجه من ظلمهم[1].

الدنيا لا تساوي شيئاً

تصف سورة الكهف ما في الدنيا من متع، كما يلي: وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً(٤٥).

وتقول سورة أخرى: وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ(٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ(٣٤) وَزُخْرُفاً وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ(٣٥) الزخرف

متاع الدنيا ومتعها مجرد زخارف هشة، وامتلاكها لمن لا يحصل عليها أمنية، سرعان ما تتحول هذه الأمنية إلى شيء معتاد لا إثارة فيه بعد امتلاكه. وهي زخارف زائلة، كما أن من يملكها سيموت ويتركها وراءه. وامتلاك الكافر لها لا يعني سعادة وعدم حصول المسلم عليها لا يعني حرمان.

وتقول سورة إبراهيم: مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ

---

[1] انظر فقرة الدعاء في هذا القسم.

عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ(١٨).

فكل أعمال الدنيا مهما بدت عظيمة في عين الإنسان فهي لا شيء. ولهذا فكل الأعمال التي يقوم بها الكافر تذهب أدراج الرياح. والأعمال في الدنيا لو صاحبها إيمان فستحسب لصاحبها في الآخرة، ليس لأنها أعمال عظيمة عند الله، ولكن لأنها التي يمكن للإنسان القيام بها.

وتقول سورة الشورى إن كل متع الدنيا تافهة زائلة: فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(٣٦).

لذا فمن عمل للدنيا فسيجني نتيجة عمله كافراً كان أو مؤمن: من كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً(١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً(١٩) كُلّاً نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً(٢٠) انظر كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً(٢١) بني إسرائيل.

فمن يريد الدنيا وهو كافر ويسعى لها فسيحصل على ما يريد لو توفر العوامل المساعدة على النجاح. وقد يستمر تفوق الكفار على المسلمين – كما نرى الآن – لأن الكفار سعوا للنجاح ووفروا عوامل النجاح فنجحوا بعكس المسلمين الاتكاليين الذين يظنون أن مجرد الدعاء سيكفل لهم التفوق على أعدائهم لأن الله سيتدخل وينصرهم.

فالتفاضل في الدنيا نتيجة الجهد والعمل والتخطيط وليست للكافر أو المؤمن.

والآية (٢٠) من سورة بني إسرائيل – أعلاه – تؤكد حقيقة أن الله جل وعلا أودع في الأرض كل ما يحتاجه الإنسان قبل أن يخلق، وما عليه سوى تعلم كيف يكتشف ويستغل هذه النعم المودعة. وهي لكل الناس وليست للكافر دون المسلم، أو المسلم دون الكافر.

وكثيرة هي السور التي تؤكد أن النجاح في الدنيا لمن سعى له بغض النظر عن المعتقد، ومن ذلك: مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ(١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٦) هود.

وهذه الآيات دليل على أن أعمال الدنيا بدون إيمان لا تقبل.

ومثلها: وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ(٥٢) هود.

هذه الآية تماثل ما ورد في سورة نوح: فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً(١٠) يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً(١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً(١٢).

والمفسرون فهموا أن الله إذا ما آمن به الناس سيرسل المطر عليهم، وكأنه سيمنعه لو كفروا أو عصوا، وهذا ليس ما تقوله الآيات.

فالآيات تقول آمنوا بالذي يمدكم (وكل الناس) بالمطر والبنين والقوة والأموال وكل ما في الدنيا.

فالله جل وعلا هو من يرسل المطر، لكنه لا يعني أن التوبة شرط لنزول المطر. فالمطر ينزل إذا توفرت ظروف مناخية مناسبة، بغض النظر على من ينزل، ولذلك فالمطر ينزل على المحيطات والبحار.

وهذا لا ينفي أن يكون:

كل شيء بمشيئة الله

كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ(٥٤) فَمَن شَاء ذَكَرَهُ(٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ(٥٦) المدثر.

الآيات تقول بأن مشيئة التذكر وقبول الدعوة مرتبطة بمشيئة الله، وهذا لا يعني أن الله يختار بعض خلقه ليدخل الجنة واختار غيرهم لدخول النار، لأن هذا ضد عدله المطلق سبحانه. ولكنه يعني أن كل ما يجري في الكون يجري بمشيئة الله، وليس هناك شيء يجري خارج مشيئته، ومن ذلك اختيار المرء الكفر أو الإيمان. فالله سبحانه هو من أودع العقل في الإنسان ويسره له، وعندما يختار الكفر أو الإيمان فقد اختاره بعقله (تلك الآلية التي خلقها الله) وبالتالي هو لم يخرج عن مشيئة الله، وجاءت مشيئة الفرد من مشيئة الله سبحانه.

ومثله: وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً(٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ.... الكهف.

والآية تقول بضرورة أن يقترن كل عمل يعتزم المرء القيام به بمشيئة الله، من باب إسناد كل

ما للمخلوق إلى الخالق. لأنه لولا الله جل وعلا لما وُجِد المخلوق، ولولا الله جل وعلا لما كان للمرء القدرة على القيام بما يقوم به. وليس لأن الله جل وعلا سيعمل على تعطيل أي عمل يحاول المرء القيام به إذا لم يقل: «إن شاء الله».

وقول: سأفعل كذا إن شاء الله، تعمل على إحضار ذكر الله في النفس وربط الإنسان بخالقه على الدوام.

ولا تعني مشيئة الله تقريره مصائر الخلق مسبقاً: وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ(٨) أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٩) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ(١٠) الشورى.

ومشيئة الله هنا تعني أن كل شيء في الكون يسير بمشيئته ولو لم يشأ لم يحدث. لكن دخول الناس في رحمته سبحانه يكون باتباع دينه، واتباع الدين يكون بخيار شخصي حر، ولا يقرره الله جل شأنه سلفاً على خلقه.

وتخبرنا سورة هود كيف يكون التقدير والمشيئة بوجه عام: وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ(٦).

الآية تقول بأن كل دابة (مخلوق حي) على الأرض يصلها رزقها من الله. وهذا ليس حرفياً. ولكن المعنى أن الله جل شأنه قد أودع في الأرض الأرزاق الكافية لكل من يعيش عليها، على أن يقوم كل مخلوق بالبحث بنفسه عن الرزق والحصول عليه. ومن لا يفعل فسيموت جوعاً لأن الله جل شأنه لن يناوله له وهو في مكانه. وحرم الظلم والبغي الذي يحرم الغير من الرزق.

والاعتقاد بأن الله يتدخل فعلياً في أمور الدنيا مفهوم خاطئ، كما يفهم من سورة الأنعام: فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ(١٤٧) سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ(١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ(١٤٩).

قول قريش: "لو شاء الله ما أشركنا" منطق يردده الناس في كل العصور، وهو مجرد تبرير

للرفض. وإلا فالله لم يفرض عليهم ولم يجبرهم على الكفر، بل هم من اختار ذلك طواعية.

ومثله ما هو سائد بيننا الآن، ومن ذلك:

أن أحدنا إذا سار بسيارته بسرعة جنونية ثم تعرض لحادث مروري، نسب ما حدث لمشيئة الله، وكأن الله جل وعلا قد قرره عليه مسبقاً. وهذا لا يمثل مشيئة الله، ولكنه تبرئة المرء لنفسه من الخطأ ونسبته لله. فلا يكون عليه لوم، ولكن اللوم يقع على الله.

ومشيئة الله في كل شيء ولو أراد سبحانه فلن يقع الحادث، لكن الله جل شأنه لا يتدخل في أمور الدنيا، وكل ما يقع على الإنسان يكون بأسباب بعضها يعود للشخص نفسه كحادث السيارة، وبعضها يعود لأسباب خارجة عنه.

أدلة على انتفاء الحياة في القبر

تقول سورة الحاقة على لسان المكذب يوم القيامة عندما يبعث ويحاسب ويعرف أن مصيره النار: وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ(٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ(٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ(٢٧).

قوله: «يا ليتها كانت القاضية» دليل مؤكد على أن الميت الكافر لم يكن يعذب في القبر بل كان ميتاً لا يشعر بشيء. وعندما بعث وعرف مصيره، تمنى لو بقي ميتاً إلى الأبد ولم يبعث. ولو كان يعذب في القبر لفرح ببعثه. لأن فترة الحساب ستكون فترة راحة من العذاب تفصل بين عذاب القبر الذي انتهى للتو وعذاب النار القادم.

وورد في سورة يس: مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ(٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ(٥٠).

الآيات تصور كيف سيكون البعث بصورة حسية بسيطة واضحة تلائم مدارك قريش التي جاءت الآية للإجابة على سؤالها: وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٤٨).

فمن يموت سيشعر أنه انتقل مباشرة وخلال لحظات للقيامة وبعث، ذلك أن الذاكرة تتوقف عن التسجيل أثناء الموت. والشعور بالانتقال للآخرة مباشرة يعني بداهة أنه ليس هناك حياة للنفس بين الدنيا والبعث للآخرة، وبالتالي فليس هناك حياة في القبر ولا عذاب ولا ثواب.

وهو ما تؤكده الآيات اللاحقة في نفس السورة: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ(٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ(٥٢).

فالكافر سيتمنى أنه بقي راقداً (ميتاً) ولم يبعث. ولو كان يعذب في قبره لفرح بالبعث لأنه سيكون عبارة عن فترة راحة من العذاب قبل دخول النار. لكن بما أنه كان راقداً منذ وفاته في الدنيا وحتى البعث فهذا يؤكد أنه لم يتعرض لعذاب في مرقده.

وسورة النجم تقول: أَزِفَتِ الْآزِفَةُ(٥٧) لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ(٥٨).

الآيات تخاطب قريشاً بأسلوب مجازي بقول إن القيامة (الآزفة) قد حلت، بمعنى أن وقتها قد قرب بالنسبة للإنسان الحي الذي سرعان ما يموت، وبمجرد موته سيشعر أنه انتقل مباشرة للآخرة، لأن ذاكرته توقفت عن التسجيل ولم يعد يشعر بمرور الزمن مهما امتد لمليارات السنين. ولو كان هناك حياة في القبر أو في الفترة بين الموت والقيامة لشعر بها الإنسان وسجلتها ذاكرته وصحيفة أعماله. وصحيفة الأعمال تسجل الإعمال ولا تقرأ إلا يوم القيامة، وليس قبلها. مثلها مثل الحساب الذي يكون يوم القيامة وبناءً عليه يكون المصير لجنة أو نار.

ولو كان هناك عذاب أو ثواب في القبر أو في الفترة بين الموت وقيام القيامة فتحت أي عنوان يكون؟

هل سيكون عقاباً أو ثواباً قبل الحساب؟

ولو كان كذلك، فكأنه عقاب على ذمة التحقيق، وقبل المثول أمام المحكمة. وهذا لا يكون في قوانين الله العادلة، ولكنه قد يحدث في عالم البشر. خاصة استخبارات العرب الذين يعذبون المتهم قبل أن يعرض على المحكمة وقبل أن يتأكدوا أنه مذنب أو بريء.

وتقول سورة الصافات: فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ(١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ(٢٠) هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ(٢١).

تأكيد على أن الميت سيشعر أن القيامة قامت بمجرد موته. والآيات تخاطب قريشاً التي تسخر من القرآن الذي يتلوه الرسول عليهم والذي يقول لهم إن هناك حياة وحساباً بعد الموت. وتقول لهم سرعان ما تموتون وتجدون أنفسكم في الآخرة التي تنكرون.

وهو ما كررته سورة النازعات ضمن الحديث عن قريش المنكرة للبعث: أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً(١١) قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ(١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ(١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ(١٤).

وتؤكد سورة فاطر أن الميت لا يسمع: وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ(٢٢) فاطر.

والآية تنفي ما قالته كتب السير والحديث والتفسير من أن قتلى قريش في بدر بعدما ألقي بهم في بئر من آبار بدر، قد سمعوا الرسول وهو يتحدث إليهم. فالآية تنفي أن يستمع الميت لكلام الرسول، وهي هنا كناية على أن قريشاً لن تؤمن وشبهتهم بالموتى لأنهم لن يصغوا لدعوة الرسول مهما دعاهم وكأنهم أموات.

كما أن الآية تنفي أن يكون هناك حياة للميت بعد موته وحتى بعثه يوم القيامة.

وهو ما تؤكده سورة النحل: وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٧٧).

فلو كان هناك عذاب أو ثواب في القبر فلن يشعر الميت أن قيام الساعة تم بعد موته كلمح البصر.

واستحالة وجود عذاب أو نعيم في القبر يتفق مع حقيقتين هامتين، هما:

١. أن الدنيا دار العمل، والآخرة دار الجزاء. والثواب والعقاب لا يكون إلا بعد الحساب، والحساب لا يكون إلا يوم الحساب. وبعد الحساب تكون الجنة أو النار.

٢. أن الموت لا يعني فناء وعدم الإنسان، الذي هو عبارة عن نفس. ولكن الموت عبارة عن سكون النفس ودخولها حالة من الخمول بعد مفارقتها للجسم لعجزه عن حملها لهرم أو مرض أو حادث. فالجسم عبارة عن وعاء لازم لحمل النفس لكي تنشط، لأن النفس لا يمكن أن تنشط خارج الجسم. وبالتالي فيستحيل أن تنشط النفس في الفترة من مفارقتها للجسد الدنيوي الذي عجز عن حملها، وحتى يوم القيامة وحلولها في (حامل) جديد.

وبمجرد فهم هاتين الحقيقتين تنتفي كل التخاريف التي تقول بعذابٍ أو نعيمٍ في القبر.

وفيما يلي موضوع آخر يعتبر امتداداً لموضوع نفي أن يكون في القبر حياة:

البرزخ

استكمالاً للحديث عن عذاب القبر لابد من الحديث عن البرزخ الذي ورد في القرآن بمعنيين اثنين فقط، كما يلي:

- الأول في سورة الفرقان: وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا(٥٣).

وكررته سورة الرحمن: مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢).

والبرزخ هنا يعني تلك المساحة التي تلتقي فيها مياه نهر مع آخر أو بحر مع آخر أو نهر مع بحر. حيث تحتاج لبعض الوقت لكي تختلط وتذوب المياه الأقل في المياه الطاغية.

فالبرزخ هنا هو الفاصل المكاني بين لحظة لقاء المائين وبين لحظة اختفاء أحد المائين بالآخر تماماً.

- المعنى الثاني للبرزخ ورد في سورة المؤمنون: حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١).

والبرزخ هنا يعني الفاصل الزمني بين لحظة الموت في الدنيا وبين لحظة البعث في الآخرة. وهي فترة زمنية طويلة جداً تقدر بمليارات السنين، لكن الميت لن يشعر بها لأن ذاكرته توقف عن التسجيل، وعندما يبعث سيشعر أنه مات للتو: وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٧٧) النحل.

فالميت سيشعر أنه بعث بعد لحظات من موته.

المؤسف هو أن الناس – كالعادة – تركوا تدبر كلام الله وفهمه كما ورد، واتجهوا لكتب التراث وما يقول المفسرون والمحدثون عن البرزخ، والذين صوروه بصور خرافية. وخلطوا مفهومهم الخرافي الآخر الذي يقول بعذاب القبر بالبرزخ. فتصوروا البرزخ مكاناً تجتمع فيه

أرواح الموتى لتبادل الأحاديث وتناقل الأخبار عن الناس الذين يعرفون في الدنيا. وقالوا هو مكان تجميع «أرواح الموتى» يقصدون « الأنفس» وغيرها من قصص مضحك مبك كثير ومتناقض. ومن ذلك قولهم إن من يموت ليلة الجمعة فلن يصيبه عذاب البرزخ.... إلى غير ذلك.

وللأسف مرة أخرى فهذه التخاريف هي التي علقت في عقول الناس وهم يقرأون كتاب الله في الليل والنهار ويمرون بالآيات التي تذكر البرزخ ولا يتوقفون عندها ويحكمون عقولهم.

والسبب أن العقل لا مكان له عند أتباع الموروث، وكأن الله خلقه لأمور الدنيا فقط.

ونقول لمن يريد تحكيم العقل إن البعث سيكون في كون آخر سينشأ بعد انهيار هذا الكون: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) الزمر.

وهو ما تؤكده سور عدة، بأساليب مختلفة، ومن ذلك: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) إبراهيم.

والإنسان نفس تحتاج لحامل لكي تنشط (تحيا)، وبمجرد خروجها من هذا البدن (الحامل لها) لأنه أصبح غير قادر على حملها لهرم أو حادث أو مرض فلن تعود للنشاط خارج البدن، ومتى ما خلق كون الآخرة فسيخلق حامل جديد للنفس يحملها لتعود للنشاط (الحياة).

والفترة بين موت الإنسان وحتى بعثه لا يمكن لنفسه أن تعود للحياة، وهي فترة البرزخ التي مهما طالت فلن يشعر بها الإنسان.

لا عذاب في الدنيا

المقصود بالعذاب هو العقاب الذي يلقاه الكافر أو العاصي من الله مقابل كفره وعصيانه، وهذا لا يحدث في الدنيا. فالدنيا دار تحصيل، ولا حساب فيها. والآخرة دار حساب ولا عمل فيها.

والله جل شأنه لا يتدخل في أمور الدنيا ولا يستجيب دعاء بشر يطلب التدخل، ولا يعاقب المسيء والكافر بعذاب في الدنيا: وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ

تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ(٤٢) إبراهيم.

وكل ما يحدث للناس في الدنيا من مصائب لا علاقة له بما تقترفه أيديهم وليس عذاباً لهم ولا استجابة من الله لدعوة مظلوم. فقد يموت الظالم شر ميتة، لكن هذا ليس لأنه ظالم. وقد يموت الصالح شر ميتة لكن هذا ليس لأنه صالح أو امتحان له كما ترسخ بيننا، بل هو نتيجة لأحداث دنيوية. كما أن الكوارث الطبيعية كالبراكين والزلازل والريح والغرق وغيرها يمكن أن تقتل الصالح كما الطالح ولا علاقة لها بما فعله الناس.

لكن أتباع الموروث يؤولون الآيات لتبدو وكأنها تقول بأن هناك عذاباً دنيوياً، وفيما يلي بعض هذه الآيات:

وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً(٥٨) بني إسرائيل.

والآية تأكيد على أن البشر سينقرضون قبل موعد انهيار الكون، وهو ما ينفي ما تزعم كتب الموروث من وجود علامات للساعة تسبق القيامة. والعذاب يعني الهلاك بكارثة طبيعية كالغرق أو الزلازل أو البراكين أو الرياح والأعاصير وغيرها. ومن ذلك: فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لاَ يُنصَرُونَ(١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(١٧) فصلت.

فالآية (١٦) تتحدث عن عاد الذين هلكوا بالريح، والآية (١٧) تتحدث عن ثمود الذين هلكوا بالزلزال، وسمت الآيات ما حدث بالعذاب. وهو ليس عذاباً دنيوياً مقابل ما اقترفوه من كفر أو معاصي، لأن هذا سيكون يوم القيامة. ولكنه عذاب كونه كارثة مؤلمة وساحقة.

وكتب التراث تصور أن هلاكهم وغيرهم لأن الله كتب عليهم الهلاك كعقاب لهم على كفرهم، وهذا ليس صحيحاً. فالعذاب يكون بعد الحساب يوم القيامة وليس في الدنيا، وهذه الأمم أهلكت بسبب حدوث كوارث طبيعية. واللافت هو نجاة الرسول والقلة الذين آمنوا معهم، وذلك بإبلاغهم أن كارثة ستقع وأن عليهم أن يغادروا القرية. واحتمال أن يكون قد نجا أفراد من أولئك القوام كانوا يتواجدون في مكان بعيد عن المكان الذي

وقعت فيه الكارثة وقتلت معظم قومهم.

وسورة الصافات تخبرنا أن إلياس أرسل لقومه الذين كانوا وثنيين يعبدون صنماً اسمه بعل، وأنهم – كغيرهم – لم يؤمنوا برسولهم، ومع ذلك لم يهلكوا: وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ(١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ(١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ(١٢٥) اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ(١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ(١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ(١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ(١٢٩) سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ(١٣٠) الصافات.

ولو كان العقاب مقرراً من الله كعقاب لمن يكفر لما استثني منه أحد، ولما بقي على الأرض من الكافرين دياراً.

لكن القرآن يخالف الموروث ويؤكد أن العذاب عن أعمال الدنيا لن يكون في الدنيا ولكن بعد الحساب يوم القيامة، ومن ذلك ما أكدته الآيات التي سبق ذكرها.

ولو استعرضنا قصص هلاك قوم نوح وعاد وثمود وقوم شعيب ولوط لوجدنا أنهم أهلكوا بكوارث طبيعية: زلازل، براكين، ريح، غرق. وهذه الكوارث كانت ستقع في تلك المناطق، سواء بقوا فيها أو ابتعدوا عنها، ولم تقع لعقابهم، ولو لم يكونوا هناك لما وقعت. لكن لو أنهم آمنوا فسيبتعدون مع رسولهم ومن آمن معه وينجو من الهلاك. فإبلاغ الرسول بالابتعاد ومن آمن معه هو المعجز هنا، وليس وقوع الكارثة.

والكوارث ستستمر بالوقوع، وهي تقع الآن، بغض النظر عن سكان المناطق التي تقع فيها. فقد يكونون مؤمنين صالحين، وقد يكونون كفاراً مسالمين أو مجرمين.

وتقول سورة الدخان: وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ(١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(١٨) وَأَنْ لَا تعلو عَلَى اللهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ(١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ(٢٠) وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ(٢١) الدخان.

ولو سمح فرعون بخروج بني إسرائيل فسيترك وشأنه ولن يعذب في الدنيا أو يهلك بسبب كفره.

ومثل فرعون كل كافر، فليس هناك عذاب دنيوي للكافر، لأن العذاب لا يكون قبل الحساب، والحساب لا يكون قبل يوم القيامة. ولأن الدنيا دار تحصيل وليست دار مصير: وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا

مِن دُونِهِ مَوْئِلاً(٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً(٥٩) الكهف.

والمخاطب في الآيات هو الرسول، والحديث عن قريش التي رفضت الدعوة ولن تتراجع. والآية تقول بأن الله لن يهلكهم بسبب كفرهم، ولكنهم سيهلكون قريباً – واحداً تلو الآخر لأسباب مختلفة – ثم يكون الحساب.

أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ(٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢٢) غافر.

والقرآن عندما يذكر الأمم التي هلكت بكوارث طبيعية فالمخاطب دائماً قريش، لعلها تعتبر وتؤمن قبل أن يصيبها ما أصاب تلك الأمم. والقرآن يخاطب قريشاً بما يفهمون، وبما يتناسب مع مداركهم الضحلة وقلة معارفهم. وعندما تقول الآيات إن الله أهلك تلك الأمم، فالله بالفعل هو من أهلكها، لكن بطريقة غير مباشرة. بمعنى أنه سبحانه هو من خلق الريح التي أهلكت عاد. لكنه سبحانه لم يوجه الريح فعلياً لكي تهلكهم ولم يغير الظروف الجوية لكي تتواجد في تلك المنطقة خلال تلك الأيام. ومثل عاد كل الأمم التي ذكرها القرآن.

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(١١) يونس.

وتقول سورة إبراهيم مخاطبة الرسول عن قريش:

وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ(٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ(٤٣) وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ(٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ(٤٥) وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(٤٦) فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ(٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ الْوَاحِدِ

الْقَهَّارِ(٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ(٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ(٥٠) لِيَجْزِي اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(٥١).

وتقول سورة الشورى:

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ(٢٢) الشورى.

لولا كلمة الفصل لقضي بينهم.

لولا أن الله جل شأنه قرر أن الحساب والعقاب سيكون في الآخرة، لكان هناك عذاب وعقاب في الدنيا.

ومثله:

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(٨) هود.

قريش تتساءل من باب السخرية لماذا لا يعذبهم الله الآن على كفرهم، والله سيعذبهم يوم الحساب، وعندها لن يكشف عنهم.

وبالنسبة للآيات أخرى تحذر قريشاً من أن يحل بهم العذاب فالمقصود بها الكوارث الطبيعية والتي قد تصيب مكة . فمكة مهدد بالزلازل والبراكين في أي لحظة بحكم وقوعها على الحزام البركاني الخاص بصدع البحر الأحمر. وقد يحدث زلزال ويثور بركان يدمر مكة.

ومثله:

ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ(١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ(١٠١) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ(١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ(١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ(١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ(١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ(١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا

مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ(١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ(١٠٨) فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـؤُلاء مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ(١٠٩).

بعد أن تحدثت سورة هود عما حدث لأقوام نوح وعاد وثمود ولوط وشعيب وفرعون وكيف هلكوا ونجا الله الرسل ومن آمن معهم، تقول السورة إن سرد هلاك تلك الأمم للعبرة، وهو موجه لقريش لعلها تؤمن.

وهلاك تلك الأمم بالكوارث ليس عذاباً عن كفرهم لأنه لا عذاب في الدنيا لمن لا يؤمن، ولكن العذاب يكون يوم القيامة وبعد الحساب، والكوارث التي تقع في الدنيا تقع للكافر والمؤمن. وما حدث لأمم سابقة مثل قوم نوح وعاد وثمود ولوط وشعيب وفرعون وغيرهم، أنهم لو آمنوا لابتعدوا مع رسولهم ومن آمن معه ونجوا من الهلاك، لكن الكارثة كانت ستقع، سواء كانت زلزالاً أو بركاناً أو غيره. لكن لو آمنوا لنجوا من تلك الكوارث، وكفرهم تسبب في تركهم يواجهون الهلاك.

وتقول سورة العنكبوت: وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ(٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٥٥).

وتكرره سورة النحل: لَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ(٦١) النحل.

الأرشيف الإلهي

القرآن عبارة عن وحي ينزل به أحد الملائكة على الرسول[١] والملك يقوم بنقل الوحي من أرشيف إلهي – لا نفهم كنهه – يحفظ فيه النسخة الأصلية للوحي بصيغة لا نعلمها: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(٩) الحجر.

١ انظر فقرة: الوحي ينسخ في ذاكرة الرسول/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

الذكر هنا المقصود به الوحي[1]. والآية تقول بأن الله أنزل الوحي (على الرسل كلهم) أي نزل على كل رسول نسخة من النسخة الأصلية المحفوظة. وحفظه سبحانه، أي حفظ نسخته الأصلية التي نزل منها نسخ على كل الرسل. فقوله: "وإنا له لحافظون" يعني حفظ نسخته الأصلية في اللوح المحفوظ ولا يعني حفظ القرآن المكتوب في المصحف. والآية تقول بأن الله هو من أنزله وهو من حفظه عنده، وقد نزلت في مكة في وقت لم يكتب فيه حرف واحد من القرآن. أما القرآن ككتاب فقد بقي بتمامه كما نزل لأن الله جل شأنه وصف الرسول محمد بأنه خاتم النبيين، ولذا كان بقاء القرآن كما نزل كافياً لمن يريد التعرف على دين الله دون الحاجة لإرسال رسول بعد محمد. ولو نقص القرآن فإن عدل الله المطلق يحتم إرسال رسول آخر للناس لكي تقوم عليهم الحجة: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً(١٥) بني إسرائيل. لذا فحفظ النسخة الأصلية للوحي في اللوح المحفوظ هو الذي تتحدث عنه الآية التاسعة من سورة الحجر والتي لا شأن لها بحقيقة بقاء القرآن كما نزل.

أما ماهية «الأرشيف»، وأين هو؟ فلم يتطرق له القرآن، إلا أنه عرفه بعدة مسميات، منها:

اللوح المحفوظ

بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ(٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ(٢٢) البروج.

وليس اللوح المحفوظ كما صوره المفسرون، من أنه لوح بمعناه الحرفي، محفوظ في جبهة أحد الملائكة. وهو وصف فيه سخرية من اللوح المحفوظ ومن الملائكة، وفي هذا يقول القرطبي في تفسيره لآيتي سورة البروج: روى الضحاك عن ابن عباس قال: اللوح من ياقوته حمراء، أعلاه معقود بالعرش وأسفله في حجر مَلَك يقال له ما طِرْيون. ويقول القرطبي: وقال أنس بن مالك ومجاهد: إن اللوح المحفوظ الذي ذكره الله تعالى في جبهة إسرافيل. وبمثل ذلك قال الطبري في تفسيره، وغيره من المفسرين.

الكتاب المكنون

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ(٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ(٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ(٧٨) لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ(٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ(٨٠) الواقعة.

---

١ الذكر يعني وصفاً للوحي. انظر الذكر في قسم ألفاظ من القرآن.

والمطهرون هنا هم الملائكة المكلفون بنقل الوحي للرسول من البشر، ذلك أن لديهم قدرة على تحويل الصيغة التي عليها الوحي في الكتاب المكنون إلى نصوص تحفر في ذاكرة الرسول.

صحف مكرمة مرفوعة مطهرة

تقول سورة عبس: كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ(١١) فَمَن شَاء ذَكَرَهُ(١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ(١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ(١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ(١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ(١٦).

الآيات تؤكد لقريش أن الوحي تذكرة لمن يشاء، وأنه في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة. وهذا تأكيد على أن الوحي ينزل من آلية تحفظ بواسطتها نسخته الأصلية. وتقول الآيات إن هناك مخلوقات حية (ملائكة) لديها القدرة على نقل صيغة الوحي الأصلية المحفوظة في تلك الآلية إلى ذاكرة الرسول على شكل نصوص عربية.

أم الكتاب

حم(١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ(٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ(٤) الزخرف.

الآيات أعلاه تقول بأن الوحي (المتمثل بالقرآن) عربي اللسان ونسخته الأصلية محفوظة بآلية إلهية سمتها الآيات هنا «أم الكتاب».

وليس الوحي وحده الذي تحفظ نسخته في الأرشيف الإلهي بل إن السجلات التي تسجل كل ما يدور في الكون وما يصدر من كل المخلوقات تحفظ: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣) سبأ[١].

ومسميات غيرها مررنا بها أثناء تدبر السور.

---

[١] انظر فقرة: كل ما في الكون يسجل / قسم مواضيع من القرآن.

الوحي

الوحي في القرآن يأتي على عدة معانٍ، منها:

الغريزة

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) النحل.

فالله جل وعلا لا ينزل وحياً على النحل يخبرها كيف تصنع الشمع الذي تضع فيه العسل، ولكنه سبحانه أودع هذه المعرفة في النحل منذ خلقت.

تسجيل الذاكرة للحظة معينة وعقد العزم على اتخاذ موقف معين تجاهها فيما بعد

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) يوسف.

فيوسف في تلك اللحظة لم يكن رسولاً ولا نبياً، لأنه ما زال صغيراً، لكنه عقد العزم على أن يحاسب أو يراجع إخوته على فعلتهم، عندما يلتقيهم. أو سجل عقله الباطني تلك اللحظة، وتذكرها فيما بعد.

الاستعداد النفسي لقبول أمر ما

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١) المائدة.

فالحواريون لم يكونوا يتلقون وحياً من السماء، والحديث كان موجهاً لعيسى في الآية السابقة، والتي يذكره الله فيها ببعض نعمه عليه، ومنها شرح صدور الحواريين للدين.

الإلهام

إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) طه.

فأم موسى لم تتلق وحياً من الله يقول لها أن تضع رضيعها في تابوت وتلقيه في اليم، ولكنها تصرفت لتقديرها الشخصي، وكان تصرفاً موفقاً بتوفيق الله الذي خلق لها العقل.

وبمعان أخرى....

لكن الوحي الذي يهمنا هنا هو: الوحي عبارة عن توصيل رسالة الله من الأرشيف الإلهي إلى رسول من البشر:

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣) الشورى.

والآية تبين أن هناك عدة وسائل لوصول الرسائل الإلهية للرسول من البشر، هي:

- الوحي: في قوله: «إلا وحياً»، ومن ذلك ما حدث لمحمد عليه الصلاة والسلام.
- تكليم من وراء حجاب: كما حدث مع موسى. ولم يتحدث رب العالمين مع موسى، لأن الله جل جلاله لا يتصل مباشرة مع أي من خلقه. لأن للمخلوق كوناً يعيش فيه، وللخالق عالم آخر لا يحد بزمان ولا مكان. وموسى تلقى التوراة بطريقة ما لكنه لم يسمع صوت الله جل وعلا، لأن الله لا يتكلم كالمخلوقات، وليس كمثله شيء من مخلوقاته. ولهذا وصف القرآن ما حدث بقوله: «وكلم الله موسى تكليماً» في قوله تعالى: وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤) النساء.

فموسى تلقى التوراة بتكليم من نوع خاص. أي أنه استمع لصوت كصوت البشر يملي عليه نصوص التوراة. هذا الصوت لم يكن صادراً من الله جل وعلا، ولكن من مخلوق كوني لديه القدرة على إصدار صوت كأصوات البشر. كما كان لدى ضيف إبراهيم التشكل بهيئات بشرية والتحدث كما البشر.

وبما أن تلقين التوراة وإملاءها على موسى بأمر الله ومشيئته فكأن الله هو من كلم موسى، كون المخلوق منفذاً فقط لأمر الله.

- وهناك نوع آخر للوحي وصفته الآية بأنه: « أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ». وهو ما حدث لإبراهيم ولمريم وزكريا وغيرهم. وتتمثل في حضور مخلوقات كونية بأمر الله إلى بشر والتحدث معه مباشرة بحيث يسمع الإنسان كلاماً مفهوماً ويرى شخصاً بهيئة بشرية.

وبَيّنَ القرآن أن الله يختار من الملائكة من يكلفهم بنقل نصوص الوحي من «الأرشيف الإلهي» إلى الرسول: اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) الحج.

والرسل من الملائكة مهمتهم توصيل نصوص الوحي للرسول من البشر: يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢) النحل.

والملائكة المكلفون بنقل الوحي لهم قدرات خاصة من بين الملائكة الآخرين، هذه القدرات تمكنهم من الاطلاع على نصوص الوحي في صورته الأصلية في الأرشيف الإلهي، ونقله: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) التكوير.

وقدرات أولئك الملائكة تمكنهم من تحويل نصوص الوحي من صورتها الأصلية الأرشيفية إلى نصوص بلغة الرسول التي يتحدثها هو وقومه بكل دقة وأمانة في النقل: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) الرعد.

ويتم النقل مباشرة لذاكرة الرسول (قلبه) دون الحاجة للكلام أو التلقين: وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) الشعراء.

ومع أننا لا نعلم كيف يتم حفر نصوص القرآن في ذاكرة الرسول حتى الآن، إلا أن العلم الحديث يقول بأن ذاكرة الإنسان لديها القدرة لحفظ كل ما يصل إليها، سواء عن طريق النظر أو السمع أو الحس أو الشم أو التذوق، لكن ليس بإمكان الشخص العادي استرجاع هذه السجلات متى رغب. فيكون نسخ وحفر الوحي في ذاكرة الرسول جاء بطريقة تمكنه من استرجاعه متى شاء طوال حياته، وهو مخالف للمعتاد.

والملائكة المكلفون بتوصيل الوحي، وصفهم القرآن بالسفراء الكرام البررة: كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) عبس.

وأنهم مطهرون: فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ

كَرِيمٌ(٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ(٧٨) لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ(٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ(٨٠) الواقعة.

وتبقى نسخة الوحي الأصلية محفوظة بصيغتها الأرشيفية الإلهية: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(٩) الحجر.

فالحفظ في الآية لما في الأرشيف الإلهي، ولا تتحدث عن حفظ المصحف على الأرض.

المحكم والمتشابه

هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ(٧) آل عمران.

الآيات هنا تعني الأحكام والتشريعات ولا تعني الآيات بمعناها السائد. والآيات المحكمات هي الأحكام الواضحة التحريم مثل قوله: حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير[1].

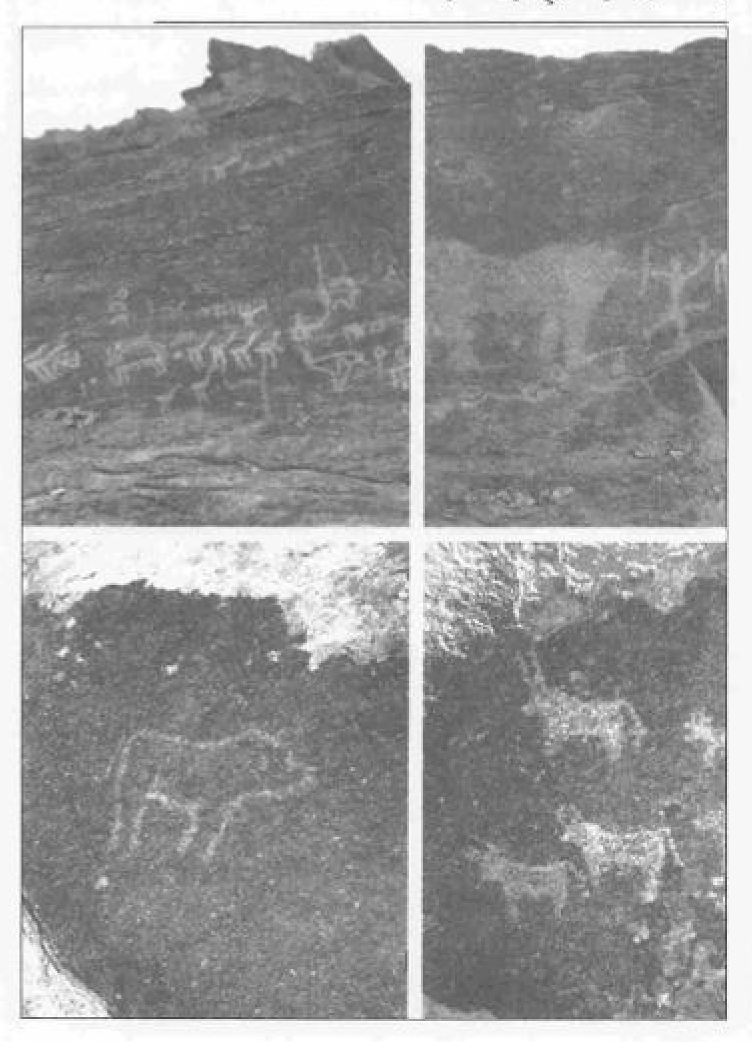
والآيات المتشابهة التي يتأولها الناس لتبدو وكأنها غير واضحة التحريم مثل قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٩٠) المائدة.

فالبعض يسارع ويقول إن الخمر ليست حراماً لأنه لا يوجد نص تحريم واضح (محكم). هؤلاء وصفهم القرآن بالذين في قلوبهم زيغ، ويتبعون ما تأولوا أنه ليس تحريماً ابتغاء الفتنة

---

١ الخنزير لا وجود له الآن في جزيرة العرب، مثلما أنه لم يعد هناك وجود للنعام والأسود وحيوانات كثيرة انقرضت نتيجة للصيد الجائر والتصحر. لكن من المؤكد أن الخنزير كان منتشراً في كل جزيرة العرب وليس أدل على ذلك من النقوش التي عثر عليها وتظهر رسومات للخنازير البرية ومن ذلك الصورة المرفقة وتمثل نقوشاً عثر عليها في وادي ماسل وسط نجد وبالقرب من مدينة الدوادمي الحالية، وتظهر رسومات لحيوانات برية لم يعد لها وجود في جزيرة العرب ومنها الخنزير. والتي نشرت في الكتاب المصور: «مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية» وهو من اصدار إدارة الآثار والمتاحف - وزارة المعارف وزارة التربية والتعليم الحالية) - المملكة العربية السعودية / الطبعة الثانية ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م.

والاستمرار على تعاطي كبيرة الخمر[1].



١ انظر فقرة: وقفة حول تسمية عبارات القرآن آيات / في بداية الكتاب.

الدين واحد

بما أن الله جل جلاله خلق الناس من نفس واحدة (بمعنى نفس القدرات والإمكانات الأساسية العقلية والملكات) وسيكون هناك جنة واحدة ونار واحدة وحساب واحد، فمن البديهي أن يكون الدين واحداً لكل الأمم منذ وجد الناس على الأرض. ولا يمكن أن يكون هناك تشريع في دين سماوي يؤمر به الناس ليدخلوا الجنة، نجده في رسالة أخرى من أداه دخل النار، أو العكس. ولابد أن التشريعات الدينية واحدة في كل الرسالات، وهو ما يؤكده القرآن في العديد من الآيات التي سنورد ما أمكن حصره منها:

إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ(١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ(١٩) الأعلى.

فهذا ضمير يعود على القرآن، والآيات تقول بأنه مشابه ومماثل للدين الذي دعا إليه إبراهيم وموسى، ونسخة مطابقة له.

وتقول سورة الصافات: سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ(٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ(٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ(٨٢) وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ(٨٣).

لأن إبراهيم يحمل نفس المعتقد والفكر الديني الذي يحمله نوح الذي سبقه بمئات السنين، فقد أمكن القول بأن إبراهيم من شيعة نوح. لأن الشيعة تعني اجتماع مجموعة من الناس على فكر أو معتقد واحد. وهو ما يعني – بداهة – أن دين نوح هو دين إبراهيم وبقية الرسل.

وتقول سورة فاطر: وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ(٣١).

الدين الموحى به لمحمد – القرآن – متوافق مع كل الأديان الموحاة للرسل السابقين. وقوله: «مصدقاً لما بين يديه»[1] أي أن القرآن مصدقاً لما سبقه ومتوافق معه.

وتقول سورة المؤمنون: يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ(٥١) وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ(٥٢).

أمة الرسل واحدة، لأن الدين الذي يدعون له واحد.

---

[1] انظر فقرة: ما بين يديه/ قسم مفردات من القرآن.

وتقول سورة الأنبياء: أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ(٢٤).

الخطاب لقريش التي تعبد الأصنام، وتترك دين الله الواحد الذي أرسل به كل الرسل السابقين، ولم يأتهم دين مختلف عما جاء الناس قبلهم.

وتقول سورة الأنبياء نفسها: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ(٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ(٤٩) وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ(٥٠).

ما أوتي موسى وهارون (التوراة) مماثل لهذا الذكر المنزل على محمد.

ونفس السورة تقول: أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ(٢٤) الأنبياء.

الخطاب لقريش التي تعبد الأصنام، وتترك دين الله الواحد المرسل به كل الرسل السابقين.

وتقول سورة الشورى: حم(١) عسق(٢) كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٣) الشورى.

من أوحى إليك يا محمد هو الله الذي أوحى لكل الرسل قبلك.

وتقول: شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ(١٣) الشورى.

المخاطب المسلمون في مكة والآية تؤكد أن الدين الذي هم عليه هو نفس الدين الذي أرسلت به كل الرسل.

ومثله تقول سورة الشعراء: وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ(١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ(١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ(١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ(١٩٦).

زبر الأولين[1] أي سجلات الأولين، والمعني بها الأديان السابقة، ورسالة محمد نسخة مماثلة لأي دين سابق.

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ

١ انظر فقرة: الزبر/ قسم مفردات من القرآن.

وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(١٣٦) فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(١٣٧) صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ(١٣٨) البقرة.

فتكون ملة إبراهيم هي نفس ما جاء به الرسول محمد.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٨٣) البقرة.

الصيام كتب على الأمم السابقة، وهو ما يعني أن التشريعات الدينية واحدة في كل الرسائل السماوية.

وما في التوراة هو ما ورد في القرآن بالنص الحرفي، ومن ذلك: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ(٨٣).

وهذه التشريعات متطابقة مع ما ذكره القرآن، كدليل أن القرآن والتوراة التي نزلت على موسى، دين واحد بل ونص واحد[1].

وحتى العبادات واحدة في كل الأديان السابقة:

الصلاة مفروضة في كل الرسالات السابقة

يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(١٧) لقمان.

الآية جاءت ضمن آيات تتحدث عن موعظة لقمان لابنه، ومن ذلك أمره بإقامة الصلاة. مما يعني أن الصلاة معروفة ومفروضة عليهم، وليست الصلاة خاصة بدين الإسلام.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل الديانات السماوية

يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(١٧) لقمان.

١ تحدثنا عن هذا بشيء من التفصيل في كتاب: سنة الأولين/ تحليل مواقف الناس من الدين وتعليلها.

الآية جاءت ضمن آيات تتحدث عن موعظة لقمان لابنه، ومن ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمفهومها القرآني الذي يعني أن تكون قدوة حسنة بالتقيد بأوامر الدين، وألا ترضى بتفشي الفساد. وليس المقصود أن تأخذ عصاً بيدك وتلاحق الناس.

وإنكار المنكر يكون بسن عقوبات صارمة على كل من يسعى لنشر الفساد. وفي أيامنا هذه هناك هيئات في السعودية ينتمي لها أعضاء مهمتهم المعلنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذلك بملاحقة الناس في الشوارع والتجسس عليهم في أماكن تواجدهم ثم إلقاء القبض ومعاقبة كل من يخالف ما يظنونه ممارسة مخالفة للدين حسب فهمهم.

ولو أردنا تطبيق مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما نص القرآن فسيكون بسن القوانين التي تمنع انتشار الفساد وقوانين صارمة تطبق بكل من يتجاوز أنظمة منع انتشار الفساد.

وما نراه اليوم هو أن هناك قنوات تلفزيونية مملوكة من أصحاب النفوذ في الدولة تبث الفساد والتغريب وتفسخ الأخلاق. والنهي عن المنكر بمفهومه القرآني يحتم ألا تعطى تصاريح عمل ويسمح لها بمزاولة نشاطاتها، ولو نشرت أي مواد إعلامية فاسدة فيجب أن يكون هناك عقوبات صارمة بحقها والعاملين فيها والمالكين لها.

وفي كل مجالات الحياة هناك إفساد منظم ومخطط له، ومن ذلك: لا تجد المرأة المسلمة في أي محل لبيع الملابس في كل البلاد سوى ملابس فاضحة غربية لا تمت للحشمة بصلة وهذا نوع من نشر المنكر والفساد وجب محاربته بمنع استيراد هذه الملابس وتشجيع إقامة المصانع لملابس محتشمة عصرية.

هناك مأكولات ومشروبات ضارة وقاتلة تستورد بمباركة الدولة ومنها المشروبات الغازية والأكلات السريعة والدخان وكان يجب محاربتها لأنها ضارة بالصحة وإيجاد البديل العصري النافع. وهي تدخل ضمن الغش التجاري، المحرم لأنه كبيرة.

ولا يكون النهي عن المنكر بملاحقة أصحاب المحلات ومنعهم من بيع الدخان المصرح باستيراده وبيعه وتوزيعه.

وهناك الكثير من مظاهر الفساد التي يتم رعايتها رسمياً وينشرها أصحاب النفوذ والنهي عن المنكر يحتم القضاء عليها من المصدر.

هكذا يجب أن يكون النهي عن المنكر.

أما الأمر بالمعروف فهو بنشر العادات الحميدة والأخلاق الإسلامية من الصدق في التعامل والحرص على الوفاء بالعهود والمواثيق والمواعيد وتسيير الحياة بأسلوب عصري صحي نظيف نزيه.

الدين خيار شخصي

في كل العصور تأتي الرسل برسالة رب العالمين للناس لتسمعهم وتقيم عليهم الحجة: إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً(١٦٣) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً(١٦٤) رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً(١٦٥) النساء.

ولم يأت رسول من الرسل ليكره الناس على الدخول في الدين، لأن الدعوة إسماع وليست إقناعاً. وبعد السماع فلكل شخص حرية الاختيار بين التصديق والهداية أو التكذيب والغواية: إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً(٣) الإنسان.

وكون الإنسان هو من يختار طريقه بكامل حريته يتوافق مع عدل الله المطلق، الذي لا يظلم أحداً: وَخَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ(٢٢) الجاثية.

فمن دخل الجنة فقد اختارها بنفسه وبحريته، ومن دخل النار فقد اختارها لنفسه وبحريته.

وهذه بعض الأدلة من كتاب الله تؤكد هذه الحقيقة:

إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً(١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً(١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً(١٧) السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً(١٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً(١٩) المزمل.

المزمل سورة نزلت قبل بدء الدعوة، والآية (١٩) تؤكد أن (هذه) أي القرآن تذكرة. فمن

شاء أن ينقذ نفسه من العذاب فليؤمن، ومن شاء فليكفر. وهذا الإعلان سبق بدء الدعوة الفعلي، وسيستمر التأكيد عليه طوال مراحل الدعوة.

إذاً، القرآن أعلن منذ البداية أن قبول الإسلام خيار شخصي، وأنه مستعد للتعايش السلمي مع غير المسلمين (قريش)، لكن غير المسلمين هم من لا يقبل التعايش السلمي معهم[1].

وهو ما أكدته سورة المدثر: كَلَّا وَالْقَمَرِ(٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ(٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ(٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ(٣٥) نَذِيراً لِّلْبَشَرِ(٣٦) لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ(٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(٣٨).

فالدعوة إنذار، لكن قبولها من عدمه خيار للمُنْذَر. وهو ما أكدته المدثر مرة أخرى: كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ(٥٤) فَمَن شَاء ذَكَرَهُ(٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ(٥٦) المدثر.

وهذه الآيات تكرار بألفاظ قريبة لما ورد في الآيات: (٣٥-٣٨) السابقة من أن الدعوة، المتمثلة بالقرآن، تذكرة لمن شاء أن يتذكر. وتضيف الآيات هنا أن مشيئة التذكر وقبول الدعوة مرتبطة بمشيئة الله، وهذا لا يعني أن الله يختار بعض خلقه ليدخل الجنة ويختار غيرهم لدخول النار، أو أنه سبحانه يختار البعض ليكون كافراً وغيرهم ليكونوا مؤمنين، لأن هذا ضد عدله المطلق سبحانه. ولكنه يعني أن كل ما يجري في الكون يجري بمشيئة الله، وليس هناك شيء يجري خارج مشيئته، ومن ذلك اختيار المرء الكفر أو الإيمان. كما أن الله سبحانه هو من أودع العقل في الإنسان ويسره له، وعندما يختار الكفر أو الإيمان فقد اختاره بآلية العقل التي خلقها الله، وبالتالي فهو لم يخرج عن مشيئة الله، وجاءت مشيئة الفرد من مشيئة الله سبحانه[2].

وسورة المدثر تمثل بدء الدعوة للإسلام، مؤكدة أن قبول الدين أو رفضه خيار شخصي ولا يمكن إكراه الناس عليه أو فرضه عليهم بالقوة.

فشعار الإسلام الدائم هو: الدين خيار شخصي لا أكراه فيه.

وتقول سورة التكوير: إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ(٢٧) لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ(٢٨) وَمَا

١ انظر فقرة: دين الله يدعو للتعايش السلمي بين الناس وغير المسلمين يرفضون في هذا القسم.
٢ انظر فقرة: الله لا يتدخل في أمور الدنيا مباشرة / قسم أدلة من القرآن.

تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٢٩).

فالقرآن أو الوحي أو الدعوة ذكر وتذكير للعالمين، لمن شاء، وليست قسراً.

وهو ما كررته سورة الشمس: وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا(١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا(٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا(٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا(٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا(٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا(٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(٨) الشمس.

الإلهام هنا ليس مباشراً ولكن بطريقة غير مباشرة، فالله جل شأنه غرس في كل نفس عقلاً قادراً على تمييز الحق من الباطل، والاختيار الحر دون تدخل من الله. وكأن أي اختيار هو إلهام من الله، لأن الله خلق الآلية التي تمكن الإنسان من الاختيار.

وسورة الليل بمجملها تشير إلى أن خيار الكفر أو الإيمان شخصي حر.

وتقول سورة البلد: أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ(٨) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ(٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ(١٠).

فالله خلق الإنسان قادراً على الرؤية والتفريق بين الأشياء، والكلام للتعبير عما يجول في خاطره، والعقل لاختيار طريقه في الحياة واختيار معتقده. فخياره للكفر أو الإيمان خيار شخصي قام به بحريته.

وتقول سورة القيامة: بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ(١٥).

الإنسان يقرر هو مصيره بنفسه، ولن يعذر لكفره لأي سبب، لأنه كان بإمكانه أن يختار الهدى ولم يفعل.

وورد في سورة النبأ: ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً(٣٩) إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً(٤٠).

الخيار بين الإيمان والضلال مشيئة حرة للمرء، والوعيد لمن يختار الضلال. ومن دخل النار فهو من مشى لها بخياره.

وتقول سورة الحاقة: وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ(٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ(٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ(٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ(٥١).

القرآن الممثل للدعوة لدين الله تذكرة لمن يشاء أن يتقي وينقذ نفسه من النار.

وتقول سورة عبس: كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ(١١) فَمَن شَاء ذَكَرَهُ(١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ(١٣)

مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ(١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ(١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ(١٦).

تذكرة لمن يشاء، بلا إكراه ولا وعظ قصصي.

وتؤكد سورة الإنسان هذه الحقيقة. فهذا الإنسان القدير العليم المتصرف كان لاشيء: هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً(١).

ثم خلقه الله من ماء مهين، وسواه شخصاً عاقلاً: إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً(٢).

يمتلك قدرات هائلة وله سمع وبصر وعقل يفكر ويحلل وقادر على الكلام للتعبير عما يريد، وأحيط بكل ما يحتاج للحياة، ثم ترك له أن يختار كل قراراته بنفسه، ومن ذلك اختيار الإيمان أو الكفر. فكل من دخل الجنة دخلها باختياره، وكل من دخل النار دخلها باختياره، ولا يظلم الله أو يحابي أحداً: إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً(٣).

فالله جل وعلا لم يقرر مصائر الناس ولا أرزاقهم ولا آجالهم ولا أي شيء مسبقاً[١].

وهو ما تؤكده سورة الإنسان مرة أخرى في نهايتها: إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً(٢٩) وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً(٣٠) يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً(٣١).

فدخول الجنة أو النار هو بمشيئته سبحانه. وهذا التقرير جاء بعد أن قالت الآية (٢٩) أن القرآن تذكرة لمن يختار الهداية، وهو ما أكدته السورة في بدايتها بالقول: « إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً». فمشيئة الله هنا تعني أن كل ما يجري في الكون وما سيجري في عالم القيامة قدره الله مسبقاً، بمعنى هو من خلق الكون وقدر له عمراً سينتهي وسيخلق كون قيامة وما فيه من جنة ونار، والله قادر على ألا يخلق هذا ويخلق غيره حسب مشيئته واختياره.

وتقول سورة فصلت: مَّنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ(٤٦).

لا وجود لما تقول كتب التراث من أن الإنسان مسير وليس مخيراً وأن الآجال والأعمال تقرر مسبقاً على الإنسان. فالأعمال يقوم بها الإنسان بخياره الشخصي الحر، ولو كان هناك أي

١ انظر فقرة: الله لا يتدخل في أمور الدنيا مباشرة في هذا القسم. وفقرة: القضاء والقدر/ قسم مواضيع من القرآن.

تدخل من رب العالمين لكان ظلماً، وما ربك بظلام للعبيد.

وتقول سورة غافر: أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ(٨).

مع أن الله أنـــلم يقرر الهداية للبعض والغواية للآخرين، ومع أن قبول الحق ورفضه قرار شخصي حر، إلا أن الآية تصف الهداية والغواية بأنها من الله، وكأن الله جل شأنه قرر من يهتدي ومن يغوى. والمقصود هو أن خيار الشخص حر لكنه داخل ضمن مشيئة الله، بمعنى أن الله لو لم يخلق هذا الإنسان ويخلق له عقلاً يفكر ويختار لما استطاع الاختيار. وبالتالي فلو اختار الحق أو اختار الباطل فقد جاء الاختيار بمشيئة الله، والله جل وعلا هو من اختار.

وتؤكد سورة فاطر حقيقة أن الدين خيار شخصي: هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً(٣٩).

وتقول سورة الكهف: وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقاً(٢٩) الكهف.

لا إكراه في الدين، ودعوة للتعايش السلمي بين الناس بغض النظر عن المعتقد، وويل لمن يختار الضلال.

وتقول السورة في آية لاحقة: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً(١١٠).

وتقول سورة الزخرف: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ(٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ(٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ(٧٦).

فهم من اختار الكفر، ومن يختار الكفر فمصيره النار. وبالتالي فمن دخل النار فقد اختارها وهو بكامل قواه العقلية، ولم يقدرها الله عليه أو يجبره على الضلال.

وتقول سورة لقمان: وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ(١٢).

من يشكر ويؤمن فقد اختار ذلك بمنتهى الحرية، ومن يختار الكفر فهو خياره.

وتقول سورة النمل إن كل إنسان يختار الطريق التي يريد بمحض إرادته: إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ(٩٢).

الله جل وعلا قادر على أن يميل قلوب الناس للحق، ولكن عدله المطلق يحتم ألا يتدخل سبحانه في خيار الإنسان لمصيره. وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(١٣) السجدة.

وأكثر الناس الذين لم يقبلوا الحق.

وتقول سورة الزمر: وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ (٣٧).

الهداية من الله من باب الفضل، لأنه سبحانه أوجد العقل للإنسان الذي بواسطته يستطيع أن يختار، وليس من باب أن الله قد اختار من خلقه بعضاً للجنة وبعضاً للنار. وهو ما تؤكده السورة في آية قادمة: إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ(٤١) الزمر.

وتقول سورة الأعراف: مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(١٧٨).

والله هو الهادي وهو المضل ولكن ليس بشكل مباشر. فهو سبحانه أودع في كل إنسان عقلاً قادراً على تمييز الحق من الباطل، وترك له حرية الاختيار. ولو اختار الضلال فكأن الله هو من أضله، ولو اختار الهدى فكأن الله سبحانه هو من هداه. لأنه لولا وجود العقل لما كان لدى الإنسان القدرة على التمييز والاختيار.

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(٣٥) يونس.

الله يهدي، لكن هذا لا يعني أنه سبحانه قرر هداية البعض وضلال الآخرين مسبقاً. بل يعني أن الله بإرسال الرسل يهدي للحق لمن يرغب في الهداية.

وتقول سورة يونس: إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَـكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(٤٤).

وتؤكد سورة يونس هذه الحقيقة مرة أخرى: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ

فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ(١٠٨).

وتقول سورة هود: ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ(١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ(١٠١).

ومر بنا أثناء التدبر المزيد من الآيات التي تؤكد أن الدين خيار شخصي خالص.

وتقول سورة البقرة: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(٦) خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ(٧) البقرة.

أهل الكتاب في يثرب هم من اختار الكفر ولم يقرره الله عليهم، وقول الآية «ختم الله على قلوبهم...» كون من لا يؤمن في البداية فلن يؤمن وكأنه ختم على قلبه. ولأن من خلق القلب وسهل التفكير هو الله فكأن الله سلب هذه القدرات من الرافض للدعوة.

وتؤكد سورة البقرة أن الدين خيار شخصي: لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢٥٦) البقرة.

وسورة البقرة نزلت في وقت أصبح للمسلمين دولة وكيان ولم يعد المسلمون عبارة عن قلة ضعيفة وسط مجتمع قوي معادٍ كما كان حالهم في مكة. وتأتي هذه الآية وآيات أخرى في السورة لتؤكد أن قوة دولة المسلمين وكثرة عددهم لا تعني السماح لهم بفرض دينهم على غيرهم بالقسر والجبروت. وهو نسف لأقوال بعض المفسرين والتي تبناها المستشرقون والتي تقول إن الإسلام فرض بالقوة بعد الفتوح.

ومما سبق يمكن فرض القوانين التالية:

القانون: الدين خيار شخصي.

القانون: قوة دولة المسلمين وكثرة عددهم ليست مبرراً لفرض دينهم على الغير.

القانون: لو آمن كل أهل الأرض بدين الإسلام ما عدا شخصاً واحداً فلا يجبر على اعتناق الإسلام.

دين الله يدعو للتعايش السلمي بين الناس وغير المسلمين يرفضون

كل الآيات التي تؤكد أن الدين خيار شخصي تحمل دعوة ضمنية مفادها التعايش السلمي بين المؤمن والكافر. فقبول الدعوة أو رفضها يجب ألا يكون سبباً في الخلاف والعداوة بين الناس. لأن الدنيا حياة مشتركة بينهم، والإيمان والكفر سيحكم به الله على الناس يوم القيامة. وهناك آيات كثيرة تكرر الطلب من قريش أن تقبل بالتعايش السلمي مع المسلمين، واحترام حرية اختيار الشخص لدينه. لكن قريشاً لم تقبل وناصبت المسلمين العداء من أول يوم للدعوة، ولاحقتهم حتى بعد هجرتهم ليثرب في سبيل القضاء عليهم.

وهذه الحقيقة تخالف ما يشاع من أن الإسلام جاء مسلطاً السيف على رقاب الناس، ليجبرهم على قبوله.

والقاعدة الثابتة أن كل رسل الله جاؤا يدعون الناس بالحسنى ولم يحملوهم قهراً على قبول الدين، ونادوا بالتعايش السلمي بين الناس كافرهم ومسلمهم، لكن الكافر عادة هو من لا يقبل التعايش السلمي، وهو من يبدأ الحرب على المسلم. لأن تمسكه بموروثه يجعله ينبذ الآخر المخالف له، وهذه سنة أزلية سارت عليها كل الأمم في كل زمان ومكان. وموجودة في هذا العصر في كل المجتمعات التي تدعي الحضارة والتمدن، كما كانت موجودة عند قريش أو قوم عاد وثمود.

وسنورد في الأسطر القادمة آيات تؤكد عرض الدعوة الإسلامية التعايش السلمي ورفض الكفار ذلك:

تقول سورة «يس» متحدثة عن قريش: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(٤٧).

ويستفاد من هذه الآية أن دعوة الإسلام كانت تنشد التعايش السلمي مع قريش الكافرة، بحيث يعيش الكافر والمسلم في مكة بوئام وسلام، ويبنون مجتمعاً عادلاً، يقوم على الإنفاق والصرف على احتياجات المجتمع والناس بغض النظر عن المعتقد. ولو وافقت قريش على عرض القرآن الذي يقول بأن المواطن من ينفق إن كان غنياً أو يستفيد من الإنفاق إن كان محتاجاً بغض النظر عن عقيدته، لعاش الناس في مكة في مجتمع متكافل لا يوجد فيه محتاج ولا بائس. إلا أن قريشاً لم ترغب في التعايش السلمي مع المسلمين، ورفضت المشاركة في

الإنفاق.

وورد في سورة النجم: أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى(٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى(٣٤) أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى(٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى(٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى(٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى(٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى(٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى(٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى(٤١).

والآيات تتحدث عن أحد مشركي قريش الذي استمع للقرآن وهو يحث على الإنفاق لسد حاجات المحتاجين بغض النظر عن المعتقد، فاستجاب لهذه الدعوة وقام بدفع بعض المال، لكنه توقف ولم ينفق مرة أخرى ظناً منه أن الإنفاق يكون لمرة واحدة.

وتقول سورة الهمزة: وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ(١) الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ(٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ(٣) كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ(٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ(٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ(٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ(٧) إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ(٨) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ(٩).

وهي تتوعد من يجمع المال ولا ينفقه في مصلحة المجتمع والتكافل الاجتماعي. والمقصود هنا كبراء قريش الذين يملكون الأموال الطائلة ولا ينفقون منها القليل لسد حاجة المحتاجين في مكة.

وهي دليل آخر على أن الإسلام سعى للتعايش السلمي مع قريش مع حقها في الإبقاء على معتقداتها وموروثها الديني، إذا ما قبل أغنياؤها الإسهام في الإنفاق للصرف على المحتاجين في مكة بغض النظر عن المعتقد، لكن قريشاً هي من رفض هذا العرض السلمي ولم تتوقف عن عداء المسلمين وحربهم.

وتقول سورة الدخان: وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ(١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(١٨) وَأَنْ لَّا تعلو عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ(١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ(٢٠) وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ(٢١).

فموسى طلب من فرعون أن يقبل بالتعايش السلمي معه إن لم يقبل دعوته للإيمان، لكن فرعون لم يقبل وسعى لحرب موسى وملاحقته ومن معه، شأنه في ذلك شأن كل الأمم والمجتمعات في كل زمان ومكان. فكل دعوة إصلاح ستحارب ولن يقبل المجتمع التعايش معها أو تركها في حال سبيلها.

وتقول سورة سبأ: قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ(٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ(٢٦).

وتقول في مكان آخر: قُلْ جَاء الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ(٤٩) قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ(٥٠).

وتقول سورة الكافرون: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ(١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ(٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ(٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ(٦).

لكن قريشاً لم تقبل بالتعايش مع المسلمين.

ونستفيد مما تقدم أنه لو كان هناك دولة إسلام، فسيعيش فيها كل الناس مواطنين بنفس الحقوق بغض النظر عن المعتقد. وتقوم هذه الدولة على تفعيل قانون الإنفاق من كل من يملك المال (بغض النظر عن العقيدة) الذي سيدعم موازنة الدولة، التي ستنفق على البنى التحتية الكفيلة بالنهوض بالمجتمع ومحاربة الفقر وتوفير الخدمات (لكل الناس بغض النظر عن العقيدة)[1]. وتقول سورة يونس عن قريش: بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ(٣٩).

فقريش كذبت بالدعوة منذ اللحظة الأولى التي بدأت، ولم يسمحوا لأنفسهم بالتعرف عليها أو فهمها. وقد بقي الرسول فيهم سنوات دون أن تصغي قريش لما يقول. فأتباع الموروث لا يمكن أن يسمحوا لأنفسهم بالتعرف على المخالف وفهم ما يدعو له، لأنه سيشككهم بموروثهم. وتقول سورة يونس نفسها إن الإسلام كرر عرضه لقريش بالتعايش السلمي في مكة بين المسلمين وغيرهم: وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ(٤١) يونس.

لكن قريشاً لم تقبل، ولم يكن متوقعاً منها أن تقبل التعايش السلمي، أو حتى فهم رسالة المخالف أو الإصغاء إليه، أو مجرد القبول بوجوده، ولو في مكان بعيد. لأنه ينتقد موروثهم، وخطر عليه. لذا نجد قريشاً حاربت المسلمين في مكة بالسخرية وكل أنواع المضايقات، بل ووصل بها الأمر أن عذبت المستضعفين لتردهم عن الإسلام. ولما هاجروا للمدينة لم تتركهم لشأنهم بل لاحقتهم ودخلت معهم في حرب طويلة ومعارك طاحنة. وحشدت كل

[1] يمكن الرجوع لكتاب: رسالة في الشورى والإنفاق / قوانين قرآنية مغيبة تضمن حقوق الفرد وحرية الجماعة. من منشورات دار الجمل.

طاقاتها لسحق المسلمين والحصول على عون لمساعيها من الروم والفرس وقبائل في جزيرة العرب. كل هذا لأن الإسلام ينتقد موروثهم، وهو ما تؤكده سورة يونس: وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ(٤٢) وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ(٤٣).

وكل أتباع موروث لا يمكن ان يقبلوا بالاستماع للمخالف ولا فهم دعوته، بل يتجنبون الاطلاع عليها ومحاربة من يدعو لها. فليس المهم إن كانت حقاً أو باطلاً، لكن المهم أنها خالفت الموروث.

وتعود سورة يونس مرة أخرى لدعوة أي مجتمع للتعايش السلمي مع الإسلام بعدما رفضته قريش: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِنْ أَعْبُدُ اللّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(١٠٤).

وبطبيعة الحال لن يقبل أي مجتمع غير مسلم بالتعايش السلمي مع الإسلام، لأن التعايش السلمي يعني إقرار أتباع الموروث أن موروثهم فيه عيوب وأخطاء وضلال.

وتستمر سورة يونس لتقول للرسول أن يتمسك بعبادة الله ولا يهتم بما يعبد الناس، وليصبر على أذى من لا يرغب بالتعايش السلمي مع المؤمنين: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ(١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُمَ اللّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ(١٠٩).

وتقول سورة الأنبياء: قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ(١٠٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاء وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ(١٠٩).

مسئولية الرسول التبليغ، وكل إنسان يختار طريقه. ومن اختار الكفر فالآية تدعوه للتعايش السلمي مع المسلم.

ومثله: فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ(١٥) الشورى.

اعملوا ما تريدون واعبدوا ما تريدون وسنعبد من نريد ونعيش معاً بسلام.

ومثله: قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً(٨٤) بني إسرائيل.

واستمر الإسلام يسعى للتعايش السلمي مع قريش وبناء مجتمع متكافل: قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإنسَانُ قَتُوراً(١٠٠) بني إسرائيل.

والآية تخاطب قريشاً وتقول لهم إن امتناعكم عن الإنفاق ليس لقلة أموالكم، لأنه حتى لو كنتم تملكون خزائن رب العالمين لأمسكتم عن الإنفاق.

ويفهم من هذا أن قريشاً رفضت دعوة الإسلام للإنفاق والمشاركة في القضاء على الفقر وتلبية حاجات المحتاجين، وهي دعوة للتعايش السلمي بغض النظر عن المعتقد. ودعوة الإسلام قريشاً للمشاركة في الإنفاق ليس للصرف على فقراء المسلمين، ولكن للصرف على فقراء مكة وغالبيتهم من الكفار، لكن فكرة التعايش السلمي مرفوضة.

ومثله: وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ(١٢١) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ(١٢٢) هود.

الآية فيها تهديد لقريش بأن عذاب الآخرة سيحيط بهم، وفي نفس الوقت إشارة لإمكانية التعايش السلمي معهم لو وافقوا وتركوا الرسول والمسلمين بحالهم أو تعاونوا معهم لبناء مجتمع واحد متسامح.

وتقول سورة الأنعام: قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدِّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ(١٣٥).

وهو ما كررته عدة سور منها: قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ(٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ(٤٠) الزمر.

والتعايش السلمي دعوة حملها كل رسل الله: وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ(٨٧) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ(٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ(٨٩) الأعراف.

وعلى مر العصور وفي كل مكان فالذي لا يقبل التعايش هو الكافر أو الضال الذي خرج عن مسار الحق وتبع معتقدات مستحدثة. لأنه لو قبل التعايش مع دعوة الحق والتصحيح

فهو اعتراف بأن موروثه باطل، وهذا ما لا يرضى به أتباع الموروث أبداً. بغض النظر إن كان غربياً يدعي الحضارة أو هندياً يعبد البقر أو من أتباع المذاهب.

أما دعوة الإسلام التي جاء بها الرسل أو أي دعوة تصحيحية للعودة للقرآن فستبقى تدعو للتعايش السلمي، وبناء مجتمع متعاون متسامح[1].

وسورة الممتحنة تنهى مسلمة قريش من موالاة المشركين الذين أخرجوا الرسول والمسلمين من مكة وحاربوهم وحاولوا القضاء على الإسلام، ولو ظفروا بهم فسيبيدوهم، ثم تستدرك السورة قائلة: عَسَى اللهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللهُ قَدِيرٌ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٩).

فالمودة والتعايش السلمي هو أصل تعامل المسلمين مع غيرهم، ما لم يحاربوا الإسلام والمسلمين. فالإسلام لا يعادي الكافر لكفره، ولكنه فقط يعادي من يعتدي على الإسلام والمسلمين، ويعلن الحرب عليهم بأي وسيلة.

التعامل الإنساني في الإسلام

ورد في سورة النحل: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٩٠).

هذا القانون الإلهي الذي يحكم العلاقات بين الناس (بغض النظر عن المعتقد)، يتمثل بالعدل في التعامل والتواصل والإحسان الذي يشمل كل ما يؤلف بين قلوب الناس، معنوياً كالتبركات أو الهدايا في المناسبات، ومادياً كالعون وسد الحاجات.

والتعامل الإنساني بالتخاطب الحضاري واللباقة هو المقصود بقوله تعالى: "وقولوا للناس حسناً" في الآية التالية: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ

١ والتسامح هنا يعني ألا يكون المعتقد سبباً للعداء، وليس المقصود به التسامح مع الكافر لو اعتدى على حرمة الدين وتشريعاته فهذا إعلان للحرب على دين الله يجب أن نتعامل معه بكل جدية وحزم.

تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ(٨٣) البقرة.

أما التعامل الإنساني الشامل بما في ذلك المعنوي والمادي والعيني فذكر في آيات عدة، منها: وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً(٣٦) النساء.

فقد أمر الله سبحانه بالإحسان، بالكلام والعين والمعاملة، بنفس مستوى الأمر بعبادة الله والبعد عن الشرك، لأن كل أمر إلهي في القرآن لا يحمل إلا معنىً واحداً هو الوجوب، وليس هناك أمر إلهي في القرآن يعطي للناس الخيار في اتباعه أو رفضه حسب الرغبة.

والآية توضح أن الاحسان يكون لكل الناس، دون النظر للمعتقد، كل بما يحتاج. فالغني والفقير يحتاج الإحسان بالكلمة الطيبة والتعامل الإنساني، مثل السؤال عن الصحة، والمواساة، والمشاركة في المشاعر، والتبركات والهدايا في المناسبات.........الخ.

والدليل على أن هذا الإحسان لكل الناس أن الآية المذكورة تقول إنه للوالدين، ولكل من للشخص به قرابة ولو من بعيد، ولليتامى نعرفهم أو لا نعرفهم.

(تصور لو أنك عاهدت نفسك على زيارة اليتيم واصطحابه للترفيه وشراء الهدايا له، بمناسبة ميلاده أو نجاحه ..الخ، كم ستكون نبيلا في نظره).

والإحسان تقول الآية أنه يكون أيضاً للمساكين نعرفهم أو لا نعرفهم، والجار ذي القربى أي الملاصق، والجار بالجنب أي الجار الذي يحيط بنا من كل الجهات ولو لم يكن ملاصقاً، والصاحب بالجنب، قد تعني بلغة العصر أهل الحي.

والإحسان يكون لابن السبيل حتى ولو لم نعرفه، وابن السبيل يدخل ضمنه الوافد حالياً. والإحسان يجب للرقيق، بالمعاملة الإنسانية والمادية، عندما كان هناك رقيق.

وإذا نحن أحسنا لهؤلاء نكون قد أحسنا لكل الناس بلا استثناء، لأنه لن يتبقى أحد من الناس لا يدخل ضمن من ذكر في هذه الآية.

الإحسان إذاً، هو تعامل حسن وإنفاق مادي لمن نعرف ومن لا نعرف، فعله عمل صالح وتركه كبيرة. يهدف لإشاعة الألفة والتواد بين الناس، فيدخل فيه الهبات والهدايا، والتبركات والمشاركة في المشاعر ... وبقية ما يشمله الإحسان.

وإكمالاً للإحسان (أي العيش بتحضر وسلام) لابد أن نشير إلى أن الإسلام جاء ليعيش الناس بوئام، مسلمهم وكافرهم. متى ما رضي الكافر بالعيش بسلام، ولم يقم بأي تصرف يفهم منه أنه عداء للإسلام وأهله.

فالعداء ليس للكافر على عدم إيمانه بالله أو رسالة محمد، ولكن بإعلانه الحرب على الإسلام بأي وسيلة: لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٨) الممتحنة.

والمخاطب في الآية هم المسلمون زمن الرسول، حيث كان هناك من أسلم من قريش وهاجر لكنه أبقى علاقات ود وولاء لأقاربه المشركين (المحاربين)، فجاءهم النهي عن ذلك وأمروا بضرورة قطع علاقاتهم بالمشركين في آيات الممتحنة السابقة للآية المذكورة: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ(١) الممتحنة.

وتواصل التحذير في الآيات التالية حتى الآية (٨) التي يبين الله فيها أن النهي عن موالاة من حارب الله ودينه والمسلمين. أما مشركو مكة الذين « لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ» فيجب عليكم " أن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ."

فالأصل في التعامل في الإسلام بين الناس هو البر بكافة وسائله (والبر هنا يعني أسمى درجات التعامل الإنساني) والقسط في كافة التعاملات (والقسط هنا يعني أسمى درجات العدل) والإحسان بكل أشكاله (والإحسان هنا يعني أسمى درجات الود والتواصل).
وهذه تختلف حسب الزمان والمكان – بطبيعة الحال.

ولا نحتاج للقول إن الإحسان يكون بتقديم الحلال وعدم التبذير لئلا نعصي الله من جهة أخرى. فلا يكون البر والإحسان بمحرم، سواء كان عيناً أو غيرها. كما لا يجوز أن نصل بالبر والإحسان للتبذير، مثل أن نقدم هدية بملايين الريالات. لأن الهدية ترمز للمشاركة في المشاعر (التواد) ولو تحولت للتباهي فقد خرجت من الهدف المرسوم لها إلى التباهي المحرم.

ولو تعاملنا بالبر والإحسان والإيتاء والقسط، لكل من يتعامل معنا من مسلم أو كافر مسالم. وأضفنا لذلك قانوناً إسلامياً آخر يؤكد على أن مخالفة المواعيد كبيرة تؤدي لجهنم، وقوانين أخرى. فهل سيكون هناك مجتمع أفضل من المجتمع المسلم؟

أما من كفر وحارب الإسلام وأهله بأي وسيلة، فيجب أن يحارب بكل قسوة ويحرم تحريماً قاطعا موالاته أو الإحسان إليه.

فبعض أهل الكتاب في يثرب طردوا من يثرب ليس لأنهم لم يؤمنوا بمحمد ولكن: بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٤) الحشر.

فالإسلام سِلمٌ وسلام مع المسالمين وحرب على المحاربين.

السجن والإسلام

السجن والحبس يعني تقييد حركة وحرية الإنسان رغماً عن إرادته، وهذا ضد العزة والكرامة التي يضمنها الإسلام للبشر. وقد ذكر القرآن السجن في سورة يوسف أثناء الحديث عما جرى ليوسف في «مصر» التي كان لديها سجون ومعتقلات. ولم يذكر القرآن السجن ليقره كعقوبة، أو يحث عليه.

ولا يمكن أن يقر القرآن السجن الحكومي أبداً، والعقوبة الإسلامية الوحيدة التي تفرض تقييد حرية الحركة لإنسان، هي تلك التي ضد من تقترف فاحشة ما يعرف الآن بالسحاق. حيث يفرض عليها الإقامة الجبرية في منزل ذويها، حتى تتوب أو يجعل الله لها سبيلاً، كالعلاج النفسي :وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً(١٥) النساء.

وهذا التقييد ليس سجناً شبيهاً بسجون الحكومات، ولكنه أقرب للإقامة الجبرية. وما عدا هذا فلم يكن من المتوقع أن يقر الإسلام السجن، لأنه ضد حرية الإنسان، التي جاء الدين ليضمنها، حتى بعدما أصبح للمسلمين دولة كانت تضم منافقين لم يؤمنوا، وصدرت منهم تصرفات مشينة أخلاقياً. ومع ذلك لم يسجنهم الرسول ولم يفرض القرآن سجنهم، برغم نزول القرآن بمعاقبتهم بعقوبات تصل لطردهم من يثرب أو قتلهم كما ورد في الآيات: (٦٠-٦٢) من سورة الأحزاب.

وهذا ما يؤكد أنه لم يكن هناك سجن زمن رسول الله، وبالتالي فليس هناك سجن في الإسلام، ولا يجب أن يكون.

فالقاتل يحاكم ويقتل لكن ليس عليه سجن ولا تعذيب، وكذلك أي جريمة أخرى أقل من القتل.

وأول من سجن في تاريخ الإسلام – كما ذكر العسكري في كتابه الأوائل – هو علي ابن أبي طالب، الذي كان يسجن من يخالفه الرأي. وكونت تلك الخطوة نواة لظهور المعتقلات السياسية التي عرفها المسلمون فيما بعد، ومورست فيها أنواع من التعذيب الوحشي ضد السجناء لم يمارسها جلادو محاكم التفتيش. لدرجة أن عبد الملك ابن مروان أمر بإنشاء أول مستشفى للأمراض العقلية في تاريخ المسلمين. ولعله لمعالجة سجناء الرأي الذين فقدوا عقولهم في السجن تحت التعذيب. واليوم فالحكومات العربية تحرص على بناء السجون التي تمارس فيها أنواع من التعذيب الوحشي، وتسميها إصلاحيات، في وقت تهمل فيه بناء المستشفيات. فالمواطن الطليق خطر دائم، بينما المريض لو مات فقد أمن شره. وكأن الحكومات ترى أن المواطن الصالح هو المسجون أو المريض النفسي أو الميت.

سعادة الدنيا

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ(٩٦) الأعراف.

متى وجد مجتمع مؤمن يطبق أفراده تعاليم الدين على حياتهم العامة ليتمتعوا بنعيم دنيوي. وذلك لأن قوانين الإنفاق ستضمن لهم حياة كريمة خالية من الفقر والفاقة وكفيلة ببناء بنية تحتية عصرية ومنتجة تعتمد على ذاتها ومنتجاتها.

وبتطبيق قوانين الشورى سيتمتعون بعدل مثالي وحقوق مصانة وحرية مكفولة ومشاركة في القرار السياسي ومراقبة دائمة ودقيقة للمال العام.

وسيعيش المجتمع المسلم في سلام مع كل من يتعايش معه في سلام. ولن يدخل في حروب مع أحد. في المقابل سيكون لديه جيش قوي مدرب مستعد لصد وسحق أي عدوان[1].

---

١ التفاصيل في كتاب: رسالة في الشورى والإنفاق «قوانين قرآنية مغيبة تضمن حقوق الفرد وحرية الجماعة» / من منشورات الجمل.

أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٦٢) الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ(٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(٦٤) يونس.

ويتحقق هذا بتطبيق شرع الله وقوانين القرآن: مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥) الحج.

ذكر الله والتسبيح والنسيان

وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا(٢٤) الكهف.

الآية تفرض على الإنسان أن يذكر الله عند النسيان، لأن الذكر والتسبيح يعمل على تهدئة الأعصاب، وإذا هدأ المرء كان تذكره أسهل. وليس لأن الله جل وعلا سيحرك ذاكرة الإنسان ويذكره بما نسي لأنه ذكره وسبحه.

الدعوة تبليغ وإسماع وليست للإقناع

الدعوة للإسلام لا تعتمد المواعظ واستمالة القلوب وتحريك المشاعر، وأساليب الترغيب والترهيب، ولكن تعتمد على توصيل القرآن للناس وإسماعه لهم. لأن دين الله يعتمد التذكير بالحقائق، وليس الإقناع، وبعد ذلك فالقبول والرفض خيار شخصي لكل إنسان.

ما يؤسف له أن المسلمين – ومنذ أيام العصر الأموي – تبنوا طريقة المبشرين المسيحيين الذين يعتمدون الوعظ والتشويق القصصي لاستمالة القلوب لأن عقائدهم لا تحتوي حقائق، فيغطون هذا النقص بالبلاغة الكلامية والقصص المشوق والمثير. فبعد سيطرة المسلمين على بلاد الشام والعراق ومصر التي تنتشر فيها المسيحية، تحول كثير من أهلها للإسلام. ومما أبقوه من موروثهم الديني، اعتياد القصص والوعظ الذي اعتادوه في المسيحية. لذا لا غرابة أن يكون أول القصاص في الإسلام ممن كانت خلفياتهم الدينية مسيحية، مثل تميم الداري والحسن البصري وابن سلام، وغيرهم.

وبقيت وترسخت مجالس القصاص والوعظ، واعتمدها المسلمون للدعوة إلى الإسلام حتى اليوم. ونسي الناس أن رسول الله لم يكن واعظاً في يوم من الأيام، وكان طوال فترة الدعوة يعتمد تلاوة القرآن على الناس دون وعظ أو قصص. لأن الوعظ يميل القلوب لكنه

يميلها لقصص الداعية أو المبشر وليس لدين الله النقي الذي لا يمثله سوى القرآن بعيداً عن القصص الخرافي. وكان على الدعاة للإسلام أن يذكّروا الناس بالقرآن ويتركوا المدعو لنفسه، إن شاء أطاع وإن شاء أعرض. فالداعية المسلم تنتهي مسئوليته بتبليغ القرآن، وليس مطالباً بإقناع أحد بالدخول في الإسلام. كما كان الحال مع رسل رب العالمين، المبشرين والمنذرين، الذين لم يكن منهم من هو وكيلٌ على هداية الناس.

العقول متحجرة دائماً فيما يخص نقد المعتقد، وإن كانت متفتحة لمواضيع أخرى. لذا نجد إنساناً عصرياً بعقلية حرة وعالية الثقافة لكنه هندوسي أو أوروبي مسيحي متعصب لتلك الديانة التي تتناقى مع العقل.

التغير في المعتقد يقابل بمعارضة اجتماعية أشد من التغير في أي مجال آخر. ولكن متى ما قبل المجتمع التغير فإن رسوخ المعتقدات يتم بصورة أعمق من رسوخ التغيرات في المجالات الأخرى، لأن المعتقدات المتبناة تصبح جزءً من ثقافة المجتمع وشخصيته يصعب التخلي عنها. وقبول الدعوة لدين جديد أو العودة لأصل دين قائم، لن يقبل بها إلا قلة قليلة من الناس، مهما كانت الدعوة مقنعة ومدعومة بالأدلة والبراهين: وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ(١٠٣) يوسف. وهذا حدث لكل رسل الله السابقين، وحصل لكل مصلح مثل ذلك الرجل الذي أخبرتنا عنه سورة يس: وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(٢٠) اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ(٢١) وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ(٢٣) إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ(٢٤) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ(٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ(٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ(٢٧) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاء وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ(٢٨) إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ(٢٩) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون(٣٠).

فالدعوة للعودة للدين يجب أن تسلك نفس طريق الرسل. (أنا هنا لا أشبه المصلح بالرسول، ولكني أطالب باتباع سنة الرسل في الدعوة) والرسل لم يكن من مسئولياتهم هداية الناس للحق، وكل مسئوليتهم تنحصر وتقف عند التبليغ: وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ(١٨) العنكبوت.

وسورة يونس تخاطب محمداً: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ(١٠٨) يونس.

وكل من يشعر بالأسى لما عليه الناس ويود لو يجد طريقة لإقناعهم بالعودة لكتاب الله، فهو شعور مماثل لمشاعر رسول الله محمد أثناء دعوته قريشاً في مكة. فكانت الآيات تنزل لتقول له لا تقتل نفسك حزناً وأسفاً على إصرارهم على الكفر: فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً(٦) الكهف.

ولأن قريشاً استمرت تكرر على الرسول أن يظهر لهم «آية»، فقد كان محمد عليه الصلاة والسلام يتمنى لو يعطيه الله معجزة حتى تؤمن قريش، فيأتيه الرد: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ(٩٦) وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ(٩٧) يونس.

ولكن محمداً الإنسان استمرت عنده مشاعر الشفقة على قريش واستمر يتمنى لو أنزل عليه آية فنزل القرآن: وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ(٣٥) الأنعام.

فهل عليك أن تهدي الناس، أم أن كل ما عليك هو أن تقول: إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً(١٩) المزمل.

وبعد ذلك فمن عمل صالحاً فلنفسه، و (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ)الشورى٦ وهذا لا يعني الجفاء بينك وبينهم بل عاملهم في الدنيا معروفاً، ما داموا لم يقاتلوك في الدين. لأن الإسلام لا يقاتل الناس على عقائدهم ولا يجبرهم على اعتناقه، ويتعامل معهم بكل ود ما بقوا يتعاملون معه بسلام. أشعر أني متى ما أوصلت شخصاً للشك بأنه قد يكون في معتقده الموروث شيء ما غير صواب فهذا منتهى ما أريد الوصول له. فالشك أول درجات اليقين. ومن يشك سيبحث ومن يبحث سيجد. والمتشبث بالموروث عادة يفتح جدالاً لا ليُسْمعك نقده لما قدمت ويسمع منك ما تنقد به معتقده. ولكنه يأتي وفي مخيلته شيء واحد، وهو أنك ضال وهو على الحق، وهو قادم لكي يأطرك على الحق – الذي يظن أنه بجانبه – أطراً رغماً عن أنفك. لذا هو لا يصغي لما تقول، ولكنه يستمع له فقط لكي يجد عبارة يهاجمك منها ولو كانت خارج الموضوع أو بعيدة عن

صلب الموضوع. فإن لم يجد فيسعى لتشتيت الموضوع وأخيراً يبدأ بالتهجم. لذا فالمهم هنا هو تقديم الدليل، ومن لا يقتنع بالدليل فهو لا يرفض كلامي بل يرفض الدليل وهذا لا شأن لي به وليس علي أن أقنعه بقبوله. فالداعي يجب ألا يتقمص دور الهادي لأي موضوع ديني أو يعتبره وكأنه مشكلته الشخصية وكأنه مسئول عن إقناع الناس.

وعلى الداعي لدين الله أن ينظر للنقاش الديني على أنه تبادل معارف، وليس رأياً ورأياً آخر وكل رأي يحاول فرض نفسه على الرأي الآخر لينتصر لشخصه أو لرأيه.

وأول إشارة في القرآن على أن الدعوة لدين الله تعتمد التبليغ – أو تلاوة القرآن – وليس إقناع المدعو وردت في سورة المزمل: إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً(١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً(١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً(١٧) السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً(١٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً(١٩).

فالآية (١٩) تشير للقرآن بأنه تذكرة وليس إقناعاً. والمزمل سورة نزلت قبل بدء الدعوة الفعلي في سورة المدثر، وتقول للناس إن الدين للإسماع وليس للإقناع، وهذا إعلان سبق بدء الدعوة، يؤكد أن ما سيدعو له الرسول من دين هو للتذكير والإسماع وليس للإقناع.

وعلى الرسول مسئولية إسماعه وتوصيله للناس وليس عليه أن يحاول إقناعهم باتباعه.

وتقول سورة المدثر التي بدأت بها الدعوة للإسلام فعلياً: كَلَّا وَالْقَمَرِ(٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ(٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ(٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ(٣٥) نَذِيراً لِّلْبَشَرِ(٣٦) لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ(٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(٣٨).

هنا قسم لتأكيد أن الدعوة نذير، وبعد ذلك فالخيار للشخص: «يتقدم» كناية عن الإيمان والفوز، أو «يتأخر» كناية عن الكفر. فكل نفس بما كسبت رهينة، وليس هناك أي محاولات لإقناعه باتباع الحق بأي وسيلة.

وفي آيات لاحقة تقول نفس السورة: كَلَّا وَالْقَمَرِ(٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ(٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ(٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ(٣٥) نَذِيراً لِّلْبَشَرِ(٣٦) لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ(٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(٣٨).

الدعوة إنذار «نذير» لمن شاء أن يقبل «يتقدم» أو يرفض «يتأخر»، وبعيداً عن الإقناع.

وتؤكد هذا السورة نفسها: كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ(٥٤) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ(٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ(٥٦) المدثر.

فمن شاء ذكره: تعني من شاء أن يؤمن بخياره وباقتناعه هو دون إقناع من المبلغ، فليفعل.

وتقول سورة الأعلى التي نزلت في بداية مرحلة استمرار الدعوة، وهي ترشد الرسول كيف يدعو: فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى(٩) سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى(١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى(١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى(١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى(١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى(١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى(١٥) الأعلى.

الآيات تخاطب الرسول وتطلب منه التذكير «الدعوة» دون إلحاح أو محاولة إقناع.

وورد في سورة القيامة قوله تعالى: لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ(١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ(١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ(١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ(١٩).

فكل ما على الرسول فعله هو أن يتلو ما يوحى إليه على قريش كما نزل، دون الحاجة لا لشرحه أو التعليق عليه بكلامه هو: ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ. فحد مسئولية الرسول (وكل داعية) تنحصر في التبليغ، وليس الاقناع.

وتقول سورة «ق»: نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ(٤٥).

الآية نزلت ضمن آيات تخاطب الرسول وتشد من عزيمته في إشارة إلى تعرضه للأذى النفسي نتيجة لسخرية قريش التي بدأت تتنامى، ولحزنه الشديد لاستمرارهم على الكفر برغم وضوح الحق. والآية تقول للرسول ألا يهتم لكفرهم، فلن يسأل عنه، لأنه ليس عليه هدايتهم. وكل ما عليه هو تبليغ الوحي بقراءة القرآن عليهم، فمن خاف وعيد الآخرة فسيؤمن.

وتقول سورة الغاشية: فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ(٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ(٢٢) إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ(٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ(٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم(٢٦).

مسئولية الرسول تنحصر بتبليغ الناس ما نزل عليه من القرآن، وليس مسئولاً بعد ذلك عن إقناعهم بالقبول.

وهو ما تؤكده سورة الذاريات: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ(٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ

المُؤْمِنِينَ(٥٥).

مسئولية الرسول تنتهي بتذكير الناس (تبليغ رسالة ربه)، ولن يلام على رفض الناس دعوته، فليس عليه هدايتهم أو إقناعهم. والإيمان يجب أن يكون من قناعة، أما الإقناع فقد يستجيب له البعض ويعلنون إسلامهم لكن لو لم يقتنعوا هم بأنفسهم بقبول الحق، فإعلان الإسلام لن يكون كافياً ولن يحولهم لمؤمنين. ومن أعلن الإسلام دون اقتناع فلن يلتزم بأوامر القرآن ونواهيه، ومن لا يلتزم بذلك فليس بمسلم ولو أعلن الإسلام. ويكون دخول الإسلام بلا اقتناع مجرد زيادة عدد المنافقين.

وتقول سورة الأحقاف: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(٨) الأحقاف.

كل من يجادل في حقيقة الدين يقال له: كن كما تعتقد وأنا كما أعتقد، ويوم القيامة – إن كان هناك قيامة – ستندم، وإن لم يكن قيامة فلن أندم لأني لن أعلم بذلك أبداً. دون محاولة لإقناعه بالحق.

وتقول سورة فاطر: وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ(٢٢) إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ(٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ(٢٤) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ(٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ(٢٦).

الآيات تؤكد لمحمد أن مسئوليته تتوقف عند التبليغ وليس مسئولاً عن هداية البشر.

وقد يكون رسول الله يشعر أحياناً أن سبب عدم إيمان قريش هو انه لم يحسن التبليغ فيلوم نفسه، فتنزل الآيات تنفي ذلك. وتؤكد له أن ما يحدث له حدث مع كل الرسل قبله، وأن الله أهلك المكذبين. وتنتهي مسئولية المبلغ بتوصيل رسالة ربه للناس، أما اقتناعهم فلا شأن له به.

وتقول سورة الكهف: وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُواً(٥٦) .

كل الرسل كلفوا بالتبليغ لكن لم يطلب منهم إقناع الناس، أو الدخول مع الكافرين في جدال لإقناعهم بالحق. لأنه لو كانت الغاية من إرسال الرسل الإقناع، فلن يرسلهم الله،

لأنه قادر على إقناع الناس بالحق بدون رسل. لكن الرسل دورهم التذكير والإنذار فقط، وبعد ذلك فلو كفر المرء أو أسلم فهو من اختار طريقه.

وتقول نفس السورة: وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقاً(٢٩) الكهف.

إذا كان خيار الحق أو الباطل شخصياً وبكل حرية فمن اختار الضلال وقد أنذر من النار فهو من اختار العذاب لنفسه بنفسه. ولذا فليس الرسول مطالباً بمحاولة تغيير قناعة أحد، وهو ما تشير له سورة الزخرف:

أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(٤٠) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ(٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ(٤٢).

وكررته سور أخرى مثل سورة النمل: إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ(٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ(٧٩) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ(٨٠) وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ(٨١).

فمن رغب في الموت فليس على الرسول محاولة إجباره على الحياة. ومن رغب العمى فليس من مسئولية الرسول إجباره على البصر.

وتكرر في نفس السورة: إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ(٩٢) النمل.

الدعوة ليس محاولة لتغيير القناعات، ولكنها تذكير بأن هناك حقاً يؤدي للجنة، وهناك باطل مصير صاحبه النار. وعلى الداعي (رسول أو مسلم عادي) ألا يتحول لمبشر.

وبعد الإسماع يترك القرار للمدعو كما تقول سورة الأنبياء: قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ(١٠٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاء وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ(١٠٩).

وتقول سورة الشورى: وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم

بِوَكِيلٍ(٦) الشورى.

وتقول نفس السورة مخاطبة الرسول عن قريش: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ(٤٨).

وتقول سورة الأعراف: اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ(١٠٦) وَلَوْ شَاء اللهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ(١٠٧).

فكل ما عليك فعله يا محمد هو تبليغ ما يوحى إليك، وبعد ذلك فليس عليك هداية الناس ولست عليهم بوكيل، فلا تنصب نفسك منصباً لم يكلفك الله به.

وتقول سورة الأنعام: وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ(٦٦).

وهذا ما يجب أن يلتزم به كل دعاة الإسلام. لكن ما يحدث اليوم هو الاعتماد على الوعظ القصصي والترغيب والترهيب الخطابي لاقناع المخالف. وهذا الأسلوب الذي تبناه المسلمون من المسيحيين يجب أن يتخلو عنه ويتمسكوا بهدي الله الذي اختار لرسله. والمتمثل بعرض حقائق القرآن وتذكير المخالف بما ينتظره لو بقي على مخالفته للحق.

وهو ما تؤكده نفس السورة: اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ(١٠٦) وَلَوْ شَاء اللهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ(١٠٧).

ومثله ما جاء في سورة العنكبوت: وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ(١٨).

وسور كثيرة سيمر بها القراء أثناء تدبر القرآن أو أثناء تلاوتهم للقرآن في أوقاتهم الخاصة.

ويمكن استخلاص قانون قرآني من هذه الفقرة يقول: الدعوة للإسلام تكون بتلاوة القرآن، وبيان حقائقه، أو تيسير القرآن لغير المسلم بلغته. ويجب التوقف عن الأساليب الحالية، التي يستخدمونها للدعوة. لأنها تعتمد الإقناع بالوعظ القصصي أو الدخول في جدال مع المخالف يهدف لدحض حججه وعزه في الخطاب. وهذا ما يقوم به المبشرون المسيحيون وأدخله للتراث الإسلامي بعض من دخل الإسلام منهم بعد الفتوح الأولى.

كل نفس بما كسبت رهينة

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(٣٨) المدثر.

ما يقوم به الإنسان بنفسه لنفسه هو ما يسجل له في صحيفة أعماله، وليس ما يقوم به غيره بعلمه أو بدون علمه. مثل ما يسود الآن من الحج عن الميت أو التصدق أو عمل أعمال خيرية باسمه بعد موته. وصحيفة الأعمال آلية في النفس، تقوم بتسجيل ما يمر بالحواس الخمس من الولادة حتى الموت، وبناءً على هذا السجل يكون الحساب، ولن تسجل ما يقوم به الغير.

وفي سورة الانفطار يقول تعالى: إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ(١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ(١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ(١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ(١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ(١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ(١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ(١٩).

فكل نفس لن تملك لنفس أخرى شيئاً، وكل سيحاسب بناءً على ما قدم، ولن تقبل «واسطة» ولا عمل بالنيابة. وهو ما يؤكد أن أي عبادة أو عمل صالح يقوم به شخص نيابة عن شخص آخر لن يقبل، لأن صحيفة أعماله لن تسجل إلا ما يقوم به هو. لذا فلن يقبل حج ولا صوم ولا صلاة ولا أعمال خير بالنيابة، كما يفعل ويظن كثير من الناس الآن.

وتتحدث سورة النجم عن أحد كبراء قريش الذي اقتنع بفائدة الإنفاق فدفع بعض المال لسد حاجة محتاجين، لكنه توقف ولم يستمر بالإنفاق كلما دعت الحاجة كما هو مطلوب: أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى(٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى(٣٤) أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى(٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى(٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى(٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى(٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى(٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى(٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى(٤١) النجم.

والآيات تؤكد أن كل إنسان سيكتب له من عمله ما قام به هو بنفسه لنفسه، سواء كان عبادة أو إنفاقاً أو أي عمل خيري. ولن يكتب للمرء أجر عمل قام به غيره بالنيابة عنه، لأن الأعمال لا تؤدى بالإنابة.

وسيحاسب الإنسان بما سجلته له هو صحيفة أعماله، ولن تسجل صحيفة الأعمال المغروسة في نفس كل بشر إلا ما صدر من النفس ذاتها. وما يصدر من الشخص من أعمال يسجل

برفقة تسجيل النية في تلك اللحظة، وهل قام بهذا العمل خالصاً لوجه الله أم شابه نفاق أو رياء. أما ما قام به الغير عنه فستسجله صحيفة أعمال ذلك الشخص، على أنها أعمال للغير. فيحرم من أجرها من قام بها، لأنه لم ينو أن يخرجها لنفسه. ولن تصل لمن نويت له، لأنه لم يقم بها بنفسه لنفسه. لكن كتب التراث رسخت أن هذا ممكن، لذا ما أكثر من يحج وينفق عن الغير ويؤدي أعمالاً أخرى عنهم، خاصة الوالدين ظناً منه أنهم سينالون ثواب ما قدم نيابة عنهم.

ومثله من يوصي ببعض ماله أن يُنفق (بعد مماته) على أعمال خيرية غالباً تكون بناء مسجد. وهذه الأموال لن يصل أجرها للموصي، لعدة أسباب منها:

- لأنها خالفت قانون الوصية القرآني الذي ينص على أن الوصية لا تكون للشخص نفسه ولكن للوالدين والأقارب: كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ(١٨٠) البقرة.
- ولأن أعمال الخير يجب أن تصدر من الشخص في حياته وبرضاه وبنية خالصة، وليست بوصية بعد مماته ومفارقة ماله[1]. ومن يؤمن بالله ويرجو لقاءه فلن يحجم عن عمل الخير طوال حياته ويوصي به بعد مماته.

وهو ما تؤكده سورة الجاثية: مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ(١٥).

فالأعمال لكي تسجل أعمالاً صالحة لابد أن يقوم بها المرء لنفسه وبنفسه، مقرونة بنية صالحة. وهو ما تؤكده السورة نفسها: وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(٢٢).

فكل نفس ستجزى بما كسبت هي وتحاسب عليه ويكون مصيرها بناءً عليه.

وتؤكده سورة فاطر: وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ(١٨).

الآية تقول لو أن نفساً مثقلة بالذنوب دعت نفساً أخرى لحمل بعضه عنها فلن يسجل

[1] انظر فقرة: الوصية / قسم تشريعات من القرآن.

عليها ولو قبلت. لأن الأعمال تسجلها آلية مزروعة في النفس ولا تسجل إلا ما يصدر من حواس تلك النفس وما تفكر فيه وتنويه. وكل ما يعمل من قبل أناس آخرين فلن يسجل، ولن يصل أجره أو وزره إلا لمن صدر منه.

وتقول سورة الأحقاف: وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(١٩).

ما تسجله صحيفة الأعمال هو ما يصدر من الإنسان لنفسه، لا ما يقوم به غيره نيابة عنه. ومن كان مريضاً أو عاجزاً فلا حرج عليه، أما القادر فبإمكانه أن يقوم بالعمل أو العبادة لو رغب في حياته وحين قدرته. وهو ما ينفي قبول أعمال الغير للميت أو الحي مثل الحج أو الإنفاق بالنيابة كما هو سائد الآن، والذي يستند على حديث مختلق على الرسول يقول: إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له.

ولعله إن كان الرسول قد قال شيئاً من هذا الحديث فهو: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله". لأن أعمال الإنسان تسجل في صحيفة أعماله تلك الآلية المودعة في النفس، وبمجرد الموت يتوقف التسجيل.

وزيد على الحديث بعد وفاة الرسول: "إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له".

والصدقة الجارية إن كان أجراها الإنسان في حياته فهي عمل صالح مقبول، وإن كان أوصى بأن تجرى له بعد موته، فليس من حقه أن يوصي لنفسه بناءً على ضوابط الوصية. ولن تسجل له على أنها أعمال خير.

والعلم الذي ينتفع به إن كان فعله لوجه الله وفي حياته فهو عمل صالح له، وإن قام به غيره فلا.

ودعاء الولد الصالح لن يُخرج مستحق النار من النار، ولن يدخل مستحق النار الجنة، ولن يغفر الله لمرتكب الكبائر بسبب دعاء ابنه. فالدعاء مجرد أمنيات، فبدل أن تقول: أرجو أن يرحمه الله، أقول: اللهم اغفر له وارحمه. وإن دخل الجنة فبعمله وإيمانه، وليس بدعاء ابنه أو كل الناس له.

وسورة الزخرف تؤكد أن الجنة يرثها من آمن بعمله، والنار يرثها من كفر بعمله، وليس

بأعمالٍ بالنيابة: وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ(٧٣) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ(٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ(٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ(٧٦).

فالإنسان هو من يرسم مصيره بنفسه.

وتقول سورة الزمر: إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٧) الزمر.

وتقول سورة إبراهيم: لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(٥١).

وتقول سورة الأنبياء: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ(٤٧).

ومثله: اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً(١٤) مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً(١٥) بني إسرائيل.

ما يصدر من الإنسان من قول أو فعل أو تصرف أو نية يكتب له أو عليه، وما يصدر من إنسان لآخر لا يكتب، سواء كان مذموماً أو عملاً صالحاً.

قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(١٦٤) الأنعام.

لا تسجل صحيفة الأعمال إلا ما يقوم به ويقوله الإنسان لنفسه، ولا تسجل ما يقوم به غيره له. وهذا يعني أن كل من يقوم بعبادة أو أعمال خيرية لغيره فلن تسجل له.

كل نفس مستقلة وليست جزء من الوالدين

الإنسان نفس، والجسد وعاء حامل للنفس. والإنسان يرث من والديه بعض صفاتهم الجسدية والمكتسبة لكنه ليس جزءً من نفس والده أو والدته، وإنما نفس مستقلة لا شأن لها بهم أمام الله.

تقول سورة هود من الحديث عن نوح وما حدث لقومه وغرقهم في الطوفان: وَقَالَ ارْكَبُواْ

فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ(٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلاَ تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ(٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ(٤٣).

وقد جزع نوح: وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ(٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ(٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ(٤٧).

الآيات تبين أن نوحاً أُبلغ بحقيقة أن كل نفس مستقلة عن غيرها وليست جزءً من أبويه. لكن بما أن النفس البشرية تحتاج لجسم يحملها لكي تنشط وتحيا فكان لابد من تخلق الجسم بواسطة التقاء الحيوان المني بالبويضة في رحم الأم ونموه ثم ولادته. وكل هذا لا يجعل الطفل جزء من نفس أبيه وإن حمل بعض الصفات الوراثية عن الأبوين. فالوالدين دورهما لا يزيد عن كونهما سبباً لتخلق الإنسان وولادته وتربيته ورعايته ما دام يحتاج الرعاية لضمان بقاء المخلوق البشري.

أما عندما يبعث الناس يوم القيامة فلن يكون هناك داع للحمل والولادة وبالتالي ينتفي دور الأبوة والأمومة. ولن يكون هناك مشاعر ود وكراهية، لأنه لا حاجة لها: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءلُونَ(١٠١) المؤمنون.

ونوح عندما جزع من هلاك ابنه كان يظن أن مشاعر الأبوة مستمرة في الدنيا والآخرة وجزء من النفس، لكنه لما عرف أنها ضرورات دنيوية ولن تكون موجودة في الآخرة، تفهم الوضع وقبله.

ولو دخل الابن النار أمام ناظري أبيه فلن يجزع لأنه نفس مستقلة وليس جزء منه. كما تقول سورة النحل: يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ(١١١) النحل.

وتقول سورة الممتحنة: لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٣).

والآية تخاطب مسلمة قريش الذين أعلنوا إسلامهم ولكنهم أبقوا على موالاتهم لأقاربهم المشركين. وتقول السورة بأنه كان يجب عليهم أن يتأسوا بإبراهيم ومن آمن معه الذين تبرءوا من قومهم وأقاربهم لأنهم استمروا على الكفر وأعلنوا حربهم على دين الله، ومن آمن: قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ(٤).

فالنسب والقربى صلات ضرورية في الدنيا لتستمر الحياة ويبقى الجنس البشري، ويوم القيامة ستختفي من النفس لانتفاء الحاجة لها.

الإسلام دعوة عالمية لكل الناس

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ(٨٧) ص.

أول مرة يقول القرآن إن دعوة الرسول للإسلام موجهة لكل الناس مستخدمة لفظ "العالمين" الذي يعني العالم. وتقول: إن هو (أي القرآن الذي يمثل دعوة محمد) ذكر للعالمين. أي أن دعوة الإسلام موجهة لكل الناس ولم تعد الدعوة محصورة بقريش.

وسورة «ص» هي أول سورة نزلت في المرحلة الخامسة للدعوة والتي تغير فيها الخطاب الدعوي من قريش فقط، لكل الناس. وهي أول سورة تخاطب بني إسرائيل الذين يعيشون في الجوار مثل يثرب وخيبر تيماء ووادي القرى. ومخاطبتهم جاءت على شكل حديث مفصل عن بعض جوانب حياة داوود وسليمان، في الآيات: (١٧-٤٦). وهما من أنبياء بني إسرائيل وجزء من تاريخهم، وذلك كدليل على صدق رسالة محمد، لأنه لم يكن يتلقى وحياً من السماء لما عرف بهذه التفاصيل.

ثم استمرت سور المرحلة الخامسة والمراحل التي تلت، تؤكد حقيقة أن رسالة محمد لكل الناس:

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(٢٨) سبأ.

وتقول سورة الفرقان، مخاطبة الرسول عن حجج قريش التي تقدمها كمبرر لرفض الدعوة:

وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً(٥٠) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً(٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً(٥٢).

قريش تسأل الرسول: لماذا لم يرسل الله رسولاً لكل قرية بدل أن يرسلك يا محمد لكل القرى والناس؟

وتقول سورة الأنبياء: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ(١٠٧).

وتقول سورة الشورى: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ(٧) الشورى.

وهذه الآية تقول إن الوحي المنزل على محمد – وهو القرآن – لينذر به ليس مكة فقط بل وكل ما حولها من قرى. والآية لم تقل إنه رسول لكل الناس، لأن المقام هنا هو لمخاطبة قريش وما حولها، ولا حاجة لأن يقال إنه رسول لكل الناس، لكن متى ما كان المقام يستدعي التأكيد أنه رسول لكل الناس فالآيات تؤكد ذلك. ومن ذلك ما ورد في سورة الأنعام: قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ(١٩).

الآية دليل على أن محمداً رسولٌ لكل من بلغه القرآن، بغض النظر عن المكان والزمان واللون والجنس واللغة.

وتأتي «عبارة يا أيها الناس» التي تدعو للإسلام في القرآن حسب السياق، كما يلي:

أحياناً تخاطب قريشاً: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ(٣٣) لقمان.

وأحياناً تخاطب المسلمين، كما في الآية (١٣) من سورة الحجرات: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ.

وأحياناً تخاطب بني إسرائيل، كما في سورة الأعراف: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ

الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٥٨).

ومثلها ما ورد في سورة البقرة: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا(١٧٠).

والخلاصة هي باختصار ما ذكرته سورة آل عمران في خطابها الموجه لأهل الكتاب: وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٨٥).

والإسلام هنا ما جاء به محمد.

وهناك الكثير من الآيات التي تطلب من أهل الكتاب الإيمان بالرسول محمد والدخول في الإسلام والتي تؤكد أن الإسلام الذي جاء به محمد لكل الناس وليس لقومه. وهو ما تتحدث عنه الفقرة التالية:

الإسلام الذي جاء به محمد هو وحده الدين المقبول عند الله

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ(٤٠) وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ(٤١) وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(٤٢) وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ(٤٣) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ(٤٤) وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ(٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(٤٦) البقرة.

الآيات تدعو بني إسرائيل يثرب للدخول في الإسلام، وهو ما يعني يقيناً أن أي دين لا يقبل بعد ظهور الإسلام. وأن كل من يتمسك بدينه فهو كافر مخلد في النار.

وتؤكد سورة البقرة كفر بني إسرائيل لأنهم رفضوا دعوة محمد: وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ(٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أنَزَلَ اللهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلُ اللهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ(٩٠).

رفض العمل بالدعوة كفر بها، وبنو إسرائيل كفروا برسالة محمد. فهم كفار وعليهم لعنة

الله لكفرهم، ولهم عذاب مهين.

وكقاعدة مستخلصة مما سبق، يمكن القول: إن الإسلام (رسالة محمد) وحده المقبول عند الله، ومن لا يؤمن به فهو كافر ولو آمن بالله على دينه السابق. والبقرة تؤكد هذا مرة أخرى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(٩١).

دين اليهود وأي دين آخر ولو كان أتباعه يؤمنون بالله فليس مقبولاً بعد رسالة محمد، ومن لا يتبع الإسلام فهو كافر.

وتعيد سورة البقرة تأكيد أن من لا يؤمن بمحمد ويتبع تشريعات الإسلام فهو كافر ولو آمن بالله: وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ(٩٩).

وتأكيد آخر على كفرهم لأنهم لم يتبعوا رسالة محمد: وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ(١٠١).

أي دين غير الإسلام لا يقبل وبنو إسرائيل كفار

تبدأ سورة البقرة بمخاطبة بني إسرائيل يثرب: الم(١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ(٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣) والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(٤) أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٥).

الآيات تقول إن القرآن هدى للمتقين، الذين من صفاتهم "والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ". فالإيمان برسالة موسى ليس كافياً لدخول الجنة ولابد من دخول الإسلام الذي جاء به رسول الله محمد.

وكل من يرفض فهو كافر، ومن يعلن الكفر فلن يؤمن: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(٦) خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ(٧).

وبنو إسرائيل يثرب زمن الرسول دعاهم القرآن للإسلام: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ(٤٠) وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ(٤١)

وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(٤٢) وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ(٤٣) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ(٤٤) وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ(٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(٤٦).

ولو كان دينهم كافياً لدخولهم الجنة ما دعاهم القرآن لدخول الإسلام.

وبعد أن تسرد السورة تفاصيل لأحداث من تاريخهم تقول: ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(٧٤) أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(٧٥).

فمن كفر بموسى في عصره وحرف الكلم عن مواضعه برغم شهادتهم لنعم الله عليهم حينها، فلن يؤمن برسالة جاء بها أحد أبناء إسماعيل المغضوب عليهم من قبل بني إسرائيل.

وتؤكد السورة أنهم لم يؤمنوا بمحمد، برغم أن ما جاء به متوافق مع ما يعرفون من الدين: وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ(٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أنَزَلَ اللّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ(٩٠).

الآيات تقول: بنو إسرائيل كفار لأنهم كفروا بدعوة محمد، وكل من يكفر برسالة محمد فهو كافر.

وتؤكد السورة مرة أخرى أنهم كفار، لتمسكهم بالإيمان بالله على ديانتهم، وعدم الدخول في الإسلام، والآيات تقول هذا غير مقبول: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(٩١).

اليهود كفار

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ(٤٤) وَاللّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللّهِ نَصِيراً(٤٥) مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً(٤٦) النساء.

الحديث عن يهود يثرب زمن الرسول، والآية تؤكد أنهم كفار وملعونون، ولن يؤمن بالرسول منهم إلا قلة قليلة.

وتعيد سورة البقرة تأكيد أن من لا يؤمن بمحمد ويتبع تشريعات الإسلام فهو كافر ولو آمن بالله: وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ(٩٩).

وتأكيد آخر على كفرهم لأنهم لم يتبعوا رسالة محمد: وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ(١٠١).

أهل الكتاب في يثرب كفار

سورة البقرة تبدأ بمخاطبة أهل الكتاب في يثرب بخطاب دعوي لقبول دعوة الإسلام: الم(١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ(٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣) والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(٤) أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٥).

والآيات تقول لهم إن الإيمان المقبول هو الإيمان بما أنزل إليك (يا محمد) مع الإيمان بما سبق ونزل من رسالة (التوراة). ومن لا يؤمن بمحمد كرسول لله ويتبع القرآن فليس بمؤمن.

وتقول السورة واصفة من يرفض دعوة الرسول محمد بأنهم كفار: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(٦) خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ(٧).

والآيات تصف حال أهل الكتاب في يثرب بأنهم رفضوا الدعوة، ومن يرفض الدعوة عند سماعها لأول مرة لن يقبلها مرة أخرى كسنة سارت عليها كل الأمم.

وتقول سورة البقرة في خطاب موجه لكل الناس بمختلف أطيافهم ومعتقداتهم في يثرب: وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ(٢٤).

فمن يبقي على معتقده السابق بعد سماع دعوة الإسلام فهو كافر مخلد في النار. ويثرب كانت تضم بني إسرائيل الذين كان أسلافهم من أتباع موسى، واليهود كمذهب استحدث بعد موسى. والنصارى الذين أسلافهم آمنوا بعيسى، وبعضهم غالوا فيه وعبدوه كإله مع الله أو أنه الله (تعالى الله وتبارك). والدعوة للإسلام موجهة لهم ولغيرهم من الوثنيين.

وتستمر سورة البقرة تُذكر بني إسرائيل بنعم الله على أسلافهم ضمن دعوتهم للإيمان برسالة محمد ودخول الإسلام، إلى أن تقول: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ(٤٠) وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ(٤١) وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(٤٢).

الوفاء بعهد الله طاعته فيما يأمر، ومن ذلك أمره لهم بالإيمان بما نزل على محمد مصدقاً لما معكم (سبق ونزل على موسى فالدين واحد)، وأنتم تعلمون أنه دين واحد. فمن لا يؤمن برسالة محمد فهو كافر.

وتستمر السورة تذكرهم بتاريخهم كدليل على صدق رسالة رسول الله وإلا لما عرف بهذه التفاصيل، إلى أن تقول موجهة الخطاب للرسول والمسلمين: أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(٧٥).

وتقول سورة النساء: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً(٤٧).

دعوة للإيمان بقبول رسالة الرسول محمد، ومن بقي على دينه ورفض الدعوة فهم كفار ملعونون.

وتعود السورة وتلعنهم مرة أخرى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ

وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً(٤٩) انظر كَيفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُّبِيناً(٥٠) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً(٥١) أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَن يَلْعَنِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً(٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً(٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً(٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً(٥٥).

وتقول سورة النساء متحدثة عن أهل الكتاب:

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً(١٥٠) أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً(١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَـئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً(١٥٢).

من لا يؤمن بمحمد ولا يتبع القرآن فهو كافر ولو آمن بالله.

من لا يؤمن بمحمد فهو كافر

منذ القرون الأولى للإسلام وأهل الديانات الأخرى – خاصة اليهودية والمسيحية – يحاولون أن يرسخوا أنهم مؤمنون بالله وهو ما يكفي لدخول الجنة، ونتيجة لأننا نعيش في هذا العصر بخنوع وذلة ويعيش الغرب «المسيحي – اليهودي» تفوقاً مادياً وعسكرياً علينا. فقد انساق الكثير من المسلمين خلف الغرب نتيجة لانبهارهم بواقعهم، لدرجة أنهم تبنوا فكرة أنهم سيدخلون الجنة ولو لم يؤمنوا برسول الله محمد ولا بالإسلام. معتبرين أن ما يقومون به من خدمة للإنسان في مختلف العلوم يجعلهم أفضل ممن ينتسبون للإسلام ولا يصدر منهم سوى العنف والبغضاء. فكيف يعذب الله من نذر حياته لخدمة البشرية بينما يدخل الجنة جلف ضيق الأفق جاهل لا ينتج إلا مواعظ لا تنفع الناس، وتحول يوم المسلم ليوم من أيام رهبان العصور الوسطى يُقضى في التعبد والأدعية ومحاربة الجن والشياطين والسحر والشعوذة.

والحقيقة أن اتباع إسلام اليوم لا يؤدي بصاحبه للجنة، لأنه يتبع تشريعات كتب التراث التي لم ينزل الله بها من سلطان والتي هي عبارة عن صناعة فقهية بشرية حولت صورة

الإسلام الناصعة لما هو عليه الآن. كما أن الغرب الخادم للبشرية لن يدخل الجنة لأن العمل الصالح مهما عظم لا ينفع صاحبه في الآخرة إن لم يصحبه إيمان: وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى(٨٢) طه.

ودخول الجنة مطلوبٌ له الإيمان بمحمد كرسول وباتباع الدين الإسلامي الذي دعا له، ومن لم يؤمن برسول الله وبدين الإسلام فلن يدخل الجنة ولو آمن بوجود الله كاليهود.

وفيما يلي بعض الآيات التي تؤكد على هذا:

قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً(٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً(٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً(٢٢) إِلَّا بَلَاغاً مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً(٢٣) الجن.

الآيات ترد على قريش والآية (٢٣) تؤكد أن من يعصي الله ورسوله (وهو هنا محمد) فله النار، وهو ما ينطبق على كل من لا يؤمن برسالة محمد، ولو آمن بالله كاليهود.

وتخاطب سورة الجاثية بني إسرائيل مذكرة إياهم أنه قد وصلتهم دعوة الحق ولكنهم اختلفوا فيها وتحولوا عنها – كغيرهم من الأمم – لتشريعات ابتدعوها: وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ(١٦) وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(١٧).

ثم تقول السورة من رغب في العودة للحق فعليه اتباع رسالة محمد: ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ(١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ(١٩).

وكل من لا يتبع رسالة محمد فهم من الظالمين.

وتقول سورة طه: كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً(٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً(١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاء لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً(١٠١).

كل من يعرض عن الذكر المعطى للرسول محمد (القرآن) فسيحمل وزراً يوم القيامة كفيلاً بتخليده بالنار. والإعراض عن القرآن يعني عدم اتباع رسالة الرسول محمد، كما يعني

الإعراض عن بعض أو كل ما ورد في القرآن. فمن يخالف أمراً أو نهياً قرآنياً فكأنه خالفه كله، ومصيره الخلود في النار أيضاً. فيكون ليس فقط اليهودي سيدخل النار لعدم اتباعه القرآن وتصديقه بالرسول، ولكن من ينتسب للإسلام ويكفر ببعض الكتاب.

وتقول سورة هود: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) وَإِنَّ كُـلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢).

دليل على أن بني إسرائيل زمن الرسول خرجوا عن دين الله الحق، وأن ما كانوا يعتنقون تشريعات بشرية، ومن يتبع تشريعات من غير الله فقد كفر بالله، ولو شهد بوحدانيته سبحانه.

وتقول سورة العنكبوت: وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧).

فمن آمن به (أي القرآن) فهو مؤمن ومن كفر به فهو كافر. ولا يمكن دخول الجنة لمن لا يؤمن بالرسول محمد والقرآن.

وهو ما تؤكده عنهم سورة يونس: وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣).

جاءهم دين من الله فاختلفوا فيه وابتعدوا عنه، فهم لم يكونوا مؤمنين حين بعث رسول الله.

لأن الإيمان الموجب للجنة يعني الإيمان بالله والعمل الصالح، الذي يعني طاعة كل أوامر الله والانتهاء عن كل نواهيه، وعدم اتباع تشريعات من غير الله.

ولو أطاع المرء بعض أوامر الله وعصى بعضها أو انتهى عن بعض نواهيه وأتى بعضها فهو في النار، لأن الدين كل لا يتجزأ ولا يقبل إيمان ببعضه دون بعض: ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) البقرة.

فما بالك بمن لم يؤمن بالرسول، أو بالقرآن.

وتقول سورة البقرة: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ(٢٨٥).

فمن لا يؤمن بمحمد كرسول لله فهو كافر: وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ(٨٩) البقرة.

عيسى مقابل يسوع، والنصارى مقابل المسيحيون[1]

بعد وفاة رسول الله وقعت حروب الردة تلتها حروب الروم والفرس التي نتج عنها الاستيلاء على بلاد العراق والشام ومصر. وبعد مقتل عثمان حدثت الحرب الأهلية بين معاوية وعلي ابن ابي طالب. ونتج عن هذه الأحداث المتسارعة الكثير من التغيرات في المفاهيم وفي المجتمع.

فالمدينة التي كانت مهد دولة المسلمين وحاضرة الإسلام هجرت كحاضرة للدولة بعدما اختار علي ابن أبي طالب نقل مقر حكومته إلى الكوفة قبل نقلها مرة أخرى إلى دمشق على يد معاوية. ومع المدينة هجر المسلمون الأتقياء القلة الذين بقوا على قيد الحياة. وأصبحت دولة المسلمين لا يعرف الغالبية العظمى من أهلها من الإسلام سوى اسمه.

وبما أن من تحول إلى الإسلام من سكان البلاد المفتوحة كان أكثرهم من المسيحيين، فإن كل ما ذكره القرآن عن النصارى وعن عيسى ابن مريم اعتبره المسلمون حديث عن يسوع والمسيحية (دياناتهم القديمة)، وهو ما ترسخ في تراث المسلمين حتى اليوم.

فأصبحت كتب المسيحين المقدسة هي إنجيل عيسى الذي ذكر في القرآن الكريم ولكن رجال دينهم، غيروا آياته وبدلوها وحرفوها حتى بدت بهذه الصورة التي عليها الآن.

ويسوع هو عيسى، والاختلاف في اللفظ هو اختلاف تهجئة خاطئة.

والمسيحيون هم النصارى الذين تحدث عنهم القرآن.

---

[1] هناك كتاب مستقل يتناول الموضوع واسمه: مسيحية بولس وقسطنطين من منشورات الجمل. وهذه الفقرة عبارة عن تلخيص لما ورد في ذلك الكتاب.

ورسوخ هذا الاعتقاد لدى المسلمين اليوم – ومنذ قرون – لا يعني صحتها. لأن الكثير من المعتقدات الراسخة غير صحيحة أو لا أساس لها ولكنها بقيت لظروف مختلفة، ومع مرور الوقت أصبحت واقعاً ممارساً لا يختلف عليه اثنان.

وبما أن الإعلام الغربي «المسيحي» هو المسيطر علينا للأسف فقد سوق بيننا طبق الهامبرجر والأكلات السريعة الأخرى التي ينتجونها، برغم أنها طعام رديء مضر بالصحة، أو كما سموها هم «Junk Food». وسوق لنا كل العادات والسلوكيات القبيحة في تلك المجتمعات وتقبلناها بقبول حسن للأسف واستبدلنا مكارم أخلاقنا القديمة بها، انسياقاً لتبعية الضعيف للقوي. وبنفس الطريقة سوق بيننا أن دينهم دين سماوي يستحق الاحترام، مع أنه عبارة عن معتقد وثني بدأ، وثني استمر. أو دينٌ «Junk» حسب تعبيرهم. لكن فساده لم يمنع من انتشاره بيننا لدرجة أن كثيراً من شباب المسلمين البعيدين عن القرآن ينظرون للمسيحية بإعجاب واحترام. ويخلطون بين هذا الإعجاب وبين ضرورة أن نتعايش مع المخالف بسلام. وهو خلط خاطئ. لأن التعايش مع المسيحي بسلام يجب إذا كان مسالماً للمسلمين ولا يعمل ضدهم، مثلهم مثل كل أتباع المعتقدات الأخرى. لكن التعايش بسلام لا يعني احترام ديانة غير الإسلام ولا اعتبارها ديانة سماوية وهي ليست كذلك.

فكان من الواجب التوسع في بيان حقيقة يسوع والمسيحية التي يجهلها كثير من المسلمين في هذه الفقرة التي سنتناول عدة محاور لتغطية الموضوع كاملا بعون الله، والبداية مع:

الاختلافات بين عيسى ويسوع

الاختلافات بين عيسى ويسوع كثيرة وجوهرية وسنقوم بإلقاء الضوء على بعضها.

عيسى اسم ويسوع اسم آخر وليسا اسما لشخص واحد

لو قرأنا الكتاب المقدس بتمعن لوجدنا أن عيسى ويسوع اسمان معروفان عند بني إسرائيل واليهود، وقد تكررا كثيراً في كتب العهد القديم. حيث ذكر عيسو (عيسى) في التكوين ٧٠ مرة، وفي التثنية ٦ مرات، أخبار الملوك الأول مرتين، أرميا مرتين، عوبديا ٦ مرات، ملاخي مرتين. بمجموع ٨٨ مرة – إن لم أخطئ في الجمع – كما تكرر ذكر يشوع (يسوع) قرابة ١٧٠ مرة.

وهناك كتاب مستقل من كتب اليهود المقدسة يسمى كتاب يشوع، يتكون من ٣٤ إصحاحاً، تكرر فيه ذكر يشوع أكثر من ١٥٠ مرة. و يشوع هنا هو يشوع بن نون الذي تصفه كتب اليهود بأنه خادم موسى ووريثه.

وكتاب يشوع ذكر فيه اسم عيسو، ومن ذلك: وأعطيت اسحق يعقوب وعيسو وأعطيت عيسو جبل سعير ليملكه. وأما يعقوب وبنوه فنزلوا إلى مصر. (٢٤ : ٤).

كما جاء ذكر عيسو في كتب المسيحيين أيضاً، وتحديداً في رسالة بولس إلى أهل روميه (الإصحاح التاسع: ١٣)، ومرتين في الرسالة إلى العبرانيين في الإصحاحين ١١، ١٢.

ويكون عيسو (عيسى) اسم يختلف عن اسم يسوع.

والملاحظ أنه كلما جاء ذكر يشوع (يسوع) في العهد القديم (كتب اليهود المقدسة) كُتِبَ بالإنجليزية Joshua بينما يكتب نفس الاسم Jesus إذا ورد في كتب العهد الجديد (كتب المسيحيين المقدسة). ولعل هذا ناتج عن أن ترجمة كتب اليهود المقدسة للغات الأوروبية تمت قبل ترجمة كتب المسيحيين بزمن طويل، ومن قبل أناس مختلفين في العصر والثقافة واختيار العبارات.

أما اسم عيسو (عيسى) فيكتب دائماً في النسخ الإنجليزية من الكتاب المقدس بهذا الشكل (Esau)، سواءً ورد في كتب العهد القديم أم في كتب العهد الجديد.

وكتب المسيحيين المقدسة كتبت أولاً باليونانية ثم بلغات ألمانية وشرق أوروبية قبل أن تصل منها إلى الإنجليزية. وبما أن تلك اللغات تنطق حرف «J» اللاتيني كما تنطق الياء العربية، فقد كتبت الياء التي يبدأ بها اسم يسوع بـ«J» وبما أنه لا وجود للعين في اليونانية فقد تحول يسوع إلى (يسو) ولأن الأسماء باليونانية تلحق في آخرها سين، فاسم مثل بيتر يصبح بيتروس، فقد أصبح يسوع (يسوس).

وعندما ترجمت الكتب للإنجليزية نطقت «J» كما تنطق بالإنجليزية (جيم) فصار يسوع ينطق (جيسوس) بدل (يسوس باليونانية).

وبقي في العربية والعبرية والآرامية كما هو في الأصل: «يسوع».

والمؤسف هو أن كل الترجمات للقرآن للغة الإنجليزية يترجم فيها عيسى على أنه Jesus ولم يتوقف أحد حول هذه الترجمة الخاطئة حتى من قبل غربيين دخلوا الإسلام وكانوا

رجال دين مسيحيين، ويفترض بهم معرفة أن Jesus ترجمة ليسوع وأن عيسى يجب أن يترجم Esau أو Esa.

أم عيسى

- هي مريم: إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ. (آل عمران:٤٥)
- ومريم أم عيسى معروفة النسب، فوالدها هو عمران: وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ. (التحريم:١٢)
- وهذا دليل آخر على أن مريم بنت لعمران وأمها زوجة لعمران: إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. (آل عمران:٣٥-٣٦).
- وهو ما يعني أن مريم كانت معروفة في مجتمعها الذي عاشت فيه، والذي حملت فيه بعيسى، وولدته فيه، ولم تكن نكرة. والمجتمع الذي عاشت فيه هو

مجتمع بني إسرائيل وفي موطنهم الأصلي الذي هو قرية مصر فرعون.

- ولم يذكر القرآن أن لمريم أخوات. ولكن لها أخوة. على الأقل هارون، الذي ذكرته الآية التالية: يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً. (مريم:٢٨)
- وهارون ذكر في القرآن كأخ لموسى، والمرسل معه لفرعون: ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ. (المؤمنون:٤٥)

وحتى لو قلنا أن مريم أخت لهارون آخر وليس هارون شقيق موسى، فلا يغير من واقع أن مريم ابنة عمران من بني إسرائيل وعاشت في مجتمع إسرائيلي وفي موطنهم الأصلي.

لكن ورد في كتاب اليهود المقدس ما يؤيد أن مريم أخت لموسى وهارون (وهو كتاب تاريخي فيه أخبار بعضها صحيح وبعضها دون ذلك)

- وهذا نص ما جاء في كتاب الخروج (١٥ : ١٩ – ٢٠): « فان خيل فرعون دخلت

بمركباته وفرسانه الى البحر. وردّ الرب عليهم ماء البحر. وأما بنو اسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط البحر. فأخذت مريم النبية أخت هرون الدف بيدها. وخرجت جميع النساء وراءها بدفوف ورقص».

وأخت هارون هي أخت لأخيه موسى لكنها لقبت بأخت هارون لأنه الأخ الأكبر سناً. وقد ورد في عدة مواضع من الكتاب لمقدس ما ينص بكل وضوح على أن عمرآن هو والد موسى وهارون وأختهم مريم، ومن ذلك:

- « واسم امرأة عمرام (عمرآن) يوكابد بنت لاوي التي ولدت للاوي في مصر. فولدت لعمرام هرون وموسى ومريم اختها. (عدد: ٢٦ : ٥٩).

وهارون وموسى ومريم ولدوا في مصر بالفعل لأنها كانت موطناً لبني إسرائيل.

- وفي مكان آخر نقرأ: « وبنو قهات عمرام ويصهار وحبرون وعزيئيل. وبنو عمرام هرون وموسى ومريم. وبنو هرون ناداب وابيهو والعازار وايثامار. (أخبار الأيام الأول :٦ : ١-٣).

فإن كانت مريم هي ابنة عمرآن، وأخت لهارون. وهارون أخ لموسى، فعمرآن أب لموسى كما ذكرت كتب اليهود، وما قد يفهم من القرآن. وقد لا يكون هارون أخو مريم هو نفسه أخو موسى، وهذا لا يغير من حقيقة أن مريم ابنة عمران وعيسى ولد في عصر تال مباشرة لعصر موسى.

- مريم، أم عيسى، كانت عذراء ولم يذكر القرآن أنها تزوجت قبل أو بعد ولادة عيسى: وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ. (التحريم:١٢)
- وتظهر الآيات القرآنية أن مريم قد أصبحت يتيمة في وقت كانت قد فقدت فيه أيضاً أخويها الذكور على ما يبدو، ولذلك احتاجت لمن يكفلها كفالة يتيم. وقد تنافس على كفالتها عدد من الناس، لمكانة أهلها آل عمران الدينية، فموسى رسول الله وهارون ساعده الأيمن: ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ. (آل عمران:٤٤)
- وقد فاز بالقرعة زكريا: فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا

دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ.(آل عمران:٣٧)

والمحراب في الآية يقصد به صالة الجلوس الرئيسية في المنزل، وليس كما ذهبت إليه في كتاب مسيحية بولس وقسطنطين من أنه المعبد.

- وزكريا، الذي كفل مريم، رزق بولد سماه يحيى: هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء. فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَـى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ. قَالَ رَبِّ أَنَّىَ يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاء.(مريم: ٣٨ – ٤٠)

وتكون مريم معروفة النسب وولدت في مجتمع بني إسرائيل، كما أن يحيى ابن زكريا قد تربى مع مريم في كنف زكريا، وعاشت مريم ويحيى كالأخ وأخته من عائلة واحدة.

أم يسوع

- أم يسوع في كتب المسيحيين المقدسة ليست ابنة لعمران، بل ويستحيل أن تكون ابنة عمران، الذي كان والد موسى وهارون، لأنها جاءت بعدهم بقرون طويلة. وقد اعتبر المسيحيون أن القرآن مخطئ عندما نعت أم عيسى بأنها أخت هارون، وللأسف المحزن فقد تبنى المفسرون المسلمون هذا القول، وحاولوا أن يأولوا كلام الله تعالى لكي يتوافق مع كلام المسيحيين، ظناً منهم أن يسوع هو عيسى[1].
- وأم يسوع لم يكن اسمها مريم، ولكن كان لها أخت اسمها مريم، أي خالة عيسى، وهذا ما يقوله بولس ويتفق معه يوحنا بقوله: وكانت واقفات عند صليب يسوع: أمه وأخت أمه مريم زوجة كلوبا ومريم المجدلية.(يوحنا ١٩:٢٥) وبولس الأب الحقيقي للمسيحية لم يذكر أن اسم والدة يسوع كان مريم على الإطلاق.
- وفي الكتب الثلاثة الأخرى (متى ومرقس ولوقا) ذكر بأن اسم أم يسوع كان مريم، ولعل هذا جاء من الإضافات والتنقيحات اللاحقة، لأنهم عندما كتبوا كتبهم كان

---

١ انظر تفسير الآية ٢٨ من سورة مريم في أحد كتب التفسير المشهورة مثل القرطبي.

قد انتشر بين الناس القول بأن شخصية يسوع هي شخصية المسيح وأنه قد ولد من عذراء، كما أراد بولس ذلك وعمل من أجله وبشر به كما سنرى لاحقا.

- وأم يسوع مجهولة الهوية والتاريخ، ولا يعرفها الناس في فلسطين، ولم يكفلها زكريا، ولها أخت.
- المطلعين على تاريخ الكتاب المقدس يعلمون أن أم يسوع لم يكن اسمها مريم Miriam كما نقرأ في كتب المسيحيين المقدسة المنتشرة حالياً، ولكنها ماريه Maria. وهو اسمها الذي كان يستخدم في الكتابات المسيحية الأولى باليونانية، لكنه استبدل بدءً من القرن الرابع باسم مريم أو ميري. وما يؤكد هذا أن لها ابنة اسمها مريم وأخت اسمها مريم.
- تذكر الكتب المسيحية أن أم يسوع تزوجت، ولم يستطع بولس، الأب الروحي للمسيحية، أن يقول بأن يسوع ولد من عذراء، كما اعترف بأن أمه تزوجت بيوسف النجار. وكل الكتب المسيحية الأربعة تقول بأن أم يسوع كانت زوجة ليوسف النجار، وهذه حقيقة.
- وقد ذكر اسم زكرايا في كتب المسيحيين المقدسة بشكل غير واضح، فكتاب لوقا يقول بأن هناك كاهن، اسمه زكرايا وأنه رزق بولد سماه يوحنا، وليس يحيى، وأن يوحنا هو يوحنا المعمدان الذي كان يعمد الناس في نهر الأردن وعمد يسوع فيمن عمد، وقتله الحاكم الروماني. وهو على ما يبدو شخصية وهمية ألبست شخصية النبي يحيى الذي عاش قبل عهد يسوع بمئات السنين، بطريقة لم تكن محكمة.
- ويوحنا، الذي تقول كتب المسيحيين بأنه ابن زكرايا، لم يجتمع بيسوع ولم يره إلا قبل صلب يسوع بسنتين، وهذا نص ما جاء في الكتاب المقدس:
- وشهد يوحنا قائلاً إني قد رأيت الروح نازلاً مثل الحمامة من السماء فاستقر عليه. (أي على يسوع) وأنا لم أكن أعرفه. (يوحنا: ١:٣٢،٣٣). وهذا ينفي أن يكون ليوحنا المعمدان أي صلة قربى أو معرفة سابقة بيسوع التي ادعاها كتاب لوقا.
- ويوحنا اسم عبري يختلف عن اسم يحيى، ولذلك فيوحنا يكتب باللغة الإنجليزية بهذا الشكل (John) أو (Johann) أما يحيى فيكتب بطريقة مختلفة، هي أقرب لهذا الشكل (Yahya) أو (Yohya).

- ولم تذكر كتب المسيحيين المقدسة أن يوحنا كان من أنبياء بني إسرائيل، ولا أن والده كان كذلك، وإن قالت تلك الكتب أن يوحنا المعمدان كان رجل دين وكان يدعوا للتخلص من حكم الرومان، ولذلك قبض عليه وأعدم.
- وتكون شخصية يوحنا المعمدان شخصية وهمية أو أنها إن وجدت فلا تمت بصلة ليحيى ابن زكريا الذي عاش في وقت عاشت فيه مريم ابنة عمران وولدها عيسى.

وسنرى كيف أن بعض الأسماء والأحداث التي كانت في عصر عيسى قد نسبت لعصر يسوع، مثلما نسب ليسوع كثير مما كان لعيسى، وذلك في حلقات قادمة بعون الله.

نسب عيسى

- عيسى بدون أب في القرآن: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (آل عمران:٥٩).

نسب يسوع

- يسوع له شجرة نسب في كتب المسيحيين المقدسة، وسلسلة نسب يسوع توصله إلى داوود ومن ثم إلى ابراهيم، وسنكتفي بإيراد سلسة النسب حتى داوود، والتي جاءت في كتاب متى بهذه الصورة: يسوع ابن يوسف ابن يعقوب ابن متّان ابن أليعازر ابن أليود ابن أخيم ابن صادوق ابن عازور ابن لياقيم ابن أبيهود ابن زربابيل ابن شألتئيل ابن يكنيا ابن يوشيا ابن آمون ابن منسى ابن حزقيا ابن أحاز ابن يوثام ابن عزيا ابن يورام ابن يهوشافط ابن آسا ابن أبيا ابن رحبعام ابن سليمان ابن داوود. (متى ١ : ١)

وعلى القراء ملاحظة أن سلسلة نسب يسوع تقول إنه ابن يوسف النجار ولا تورد سلسلة النسب من جهة الأم كما يحاول بعض رجال الدين المسيحيين أن يغالطوا الحقيقة عندما يتحدث عن سلسلة نسب يسوع وانه يتصل بداوود من ناحية الأم.

- وإيراد نسب ليسوع في كتب المسيحيين المقدسة فيه أمانة أدبية تفتقر لها كتب المسيحيين في الغالب عند نقل أحداث عصر يسوع. أو أنها حقيقة فات على المدققين ملاحظتها فوصلتنا. فيسوع بالفعل ابن ليوسف النجار الذي يتصل نسبه فعلاً بداوود، ولم يولد يسوع بدون أب كما سنرى لاحقاً. وهي حقيقة بقيت برغم محاولات بولس طمسها،

ولكن ولسبب ما لم تمتد يد لشجرة النسب وتحذفها من كتب المسيحيين المقدسة لتبقى شاهداً على حقيقة يسوع وأنه ابن ليوسف النجار ولم يولد بدون أب.

وكتب المسيحيين تقول بكل وضوح أن أم يسوع عندما حملت به كانت مخطوبة ليوسف النجار بدل أن تقول إنها كانت متزوجة به. ولابد أن من قال بهذا كاتب ليس من اليهود ولا من بني إسرائيل ولكنه يحمل ثقافة رومانية أو يونانية، لأنه يجهل أنه في ذلك الزمن لو أن امرأة يهودية أو من بني إسرائيل لم تتزوج بعد وكانت مخطوبة فقط وظهر عليها الحمل فسيقام عليها حد الزنا وهو الرجم.

حمل وولادة عيسى في القرآن

- قصة الحمل بعيسى في القرآن تتلخص بأن مريم كانت ذاهبة للخلاء: وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا. فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا. (مريم:١٦-١٧)

وعادة الذهاب لمكان ظاهر البلد لقضاء الحاجة كانت منتشرة في أجزاء من جزيرة العرب حتى بعد مبعث محمد صلوات الله وسلامه عليه.

- وأثناء ما كانت مريم في متبرزها حضر إليها أحد مخلوقات الله الروحانية من الفضاء الخارجي، والذي قد يكون من جنس رسل إبراهيم، الذين لديهم قدرات تعتبر في العرف البشري خارقة للعادة. فقد حملت امرأة ابراهيم بولد نتيجة معالجتهم لها بطريقة لم تشعر بها ولم تتعرض لعملية جراحية أو تخدير وهي عجوز طاعنة في السن، توقف عندها نزول البويضة منذ عقود. ومثل ذلك حصل لزوجة زكريا أيضاً عندما حبلت بيحيى. ومن قدرات هذه المخلوقات أنهم يستطيعون التشكل على هيئة البشر والتحدث بلغاتهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يعيشوا كبشر ولا يتناول الطعام والشراب، لأنهم أجساد نورانية، ليس لها جهاز هضمي أو تنفسي: وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ. فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ. (هود:٦٩ - ٧٠)

- وقد حضر أحدهم لمريم عندما كانت في الخلاء لقضاء حاجتها، على هيئة بشرية، وابلغها بإرادة الله التي قضت بأن تحبل بولد، وقيام ذلك المخلوق بتلقيح البويضة

التي في رحم مريم، وبطبيعة الحال بطريقة مشابهة للطريقة التي تمت بواسطتها إعادة تخلق البويضة لامرأة ابراهيم وامرأة زكريا وهما قد بلغتا من العمر عتيا، وبدون عمليات جراحية أو تماس جنسي، لأن تلك المخلوقات ليست مادية وليس لديها غرائز بشرية وليس لها جهاز تناسلي، ولا تستطيع ممارسة الجنس البشري: فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا. قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا. قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا. قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا. قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا. (مريم:١٧-٢١)

- ولعل اكتشافات الطب الحديث قد جعلت تقبل فكرة حمل مريم بدون اتصال جنسي، أكثر من أي وقت مضى، خاصة بعد أن استطاع الإنسان أن يلقح البويضة بدون اتصال جنسي فيما عرف بالاستنساخ وهو عبارة عن تفريغ بويضة المرأة وحقن خلية من الرجل فيها، والاستبسال وهو حقن بويضة المرأة بخلية امرأة، ويتم الحمل بدون اتصال جنسي بين الرجل والمرأة. وبطبيعة الحال الحمل بعيسى لم يكن عن طريق الاستبسال باستخدام خلية من أمه وإلا لولد أنثى. ولم يكن استنساخ لأن بويضة مريم لم تلقح بخلية ذكر بشري. وقد يكون الحمل حدث دون الحاجة لبويضة ولا خلية، وهو ما تؤكده الآية (٥٩) من سورة آل عمرآن في قوله تعالى: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ).
- وبعد حمل مريم بعيسى، فاجأها المخاض وهي بقرب نخلة، ومن الألم الحسي للمخاض والألم المعنوي لما سيسببه الطفل لها أمام الناس من حرج، تمنت مريم لو كانت قد ماتت ولم تر تلك اللحظة: فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا. (مريم: ٢٣)
- فلما وضعته: فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا. (مريم: ٢٤)
- وهذا قد يكون إيحاء وليس وحيا، فبمجرد ما رأت الطفل حنت عليه وشعرت بالقوة النفسية والشجاعة لمواجهة الناس والتصدي لما قد يقذفوها به من ألفاظ بذيئة واتهامات باطلة.

- ومن ثم ألهمها الله أن تهز النخلة لكي تسقط الرطب، وهو ما يعني أنها ولدته في أواخر الصيف وأوائل الخريف وهو وقت تحول معظم البلح إلى رطب، وليس كما يلغي أي ظن عند بعض المسلمين أن احتفالات عيد الميلاد التي تكون في الشتاء ترمز لميلاد عيسى[1]: وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا. فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا. (مريم:٢٥- ٢٦)
- كما أن ولادتها تحت النخلة تؤكد أنها كانت في مناطق صحراوية حارة، وهو ما ينفي أن يكون عيسى ولد في فلسطين لأنها تقع ضمن مناخ البحر الأبيض المتوسط، والذي لم تكن النخيل تنمو فيه زمن عيسى وموسى، وقبل آلاف السنين. ولم تدخل زراعة النخيل لفلسطين إلا في عصور متأخرة لعلها جاءت مع الفتوح الإسلامية.
- وكلمة صوم في الآية تعني صوماً عن الكلام وليس عن الأكل. والصوم عن الحديث في اللحظات الأولى للقاء الناس سيمكن مريم من كسب الثقة بنفسها والتفكير فيما يقال، لتكون أكثر قدرة على الرد لاحقاً بعدما تهدأ هي وتزول لحظة المفاجأة عند الناس.
- وقد فوجىء قومها كما هو منتظر، وأمطروها بالتساؤلات الملحة عن كيفية الحمل ومن كان السبب في حملها: فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا. (مريم:٢٧)
- فلم يُشهد عليها خلال حياتها السابقة بأي تصرف ينم عن فساد أخلاقها، كما أنها من أسرة محترمة، فكيف حملت بدون زواج: يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا. (مريم:٢٨)
- ويمكن فهم أن أبوي مريم كانا قد رحلا، من الآية السابقة. ولو كانا على قيد الحياة لكان الحديث عنهما بصيغة المضارع وليس الماضي. كما انه لو كانا على قيد الحياة فسيشاركان في الأحداث، وهو ما ينطبق على أخوي مريم.
- وقد ساعدها صمتها على جعل الناس يفرغون ما في جعبتهم من تهم وتساؤلات ثم

[1] الكريسماس تقليد وثني وتم تبنيه في المسيحية بعد ذلك.

تهدأ ثائرتهم، ولو ردت عليهم مريم بأي رد فسوف تؤجج عاصفة الغضب لديهم وقد يتجرأون على مهاجمتها والإضرار بها: فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا. قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا. وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا. وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا. وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا. (مريم: ٢٩ – ٣٣)

- وإن كان عيسى تحدث في المهد فهذا يعني أن تلك المخلوقات المسئولة عن الحمل به، لديها القدرة على تنمية ذاكرة المولود وقدراته العقلية التي يكتسبها مع الزمن من كلام وتفكير وخلافه، بسرعة ليكون قادراً على التحدث بعد فترة بسيطة من مولده. أو أنه بالفعل كان مخلوقا مميزاً.

ولابد من ذكر ملاحظة هامة تم إضافتها لكتاب مسيحية بولس وقسطنطين، وهي أن حمل مريم بعيسى وولادته تمت في نفس اليوم، ولم تبق حاملاً به لمدة تسعة أشهر. فالآيات تقول إنها خرجت للمتبرز فتاة عذراء وعادت للقرية وبين يديها مولودها. وهذا ما ينفي عنها شبهة الزنا من جهة وما يؤكد تميز عيسى من جهة أخرى وأنه مخلوق غير عادي حيث ابتدر الناس بالحديث وهو رضيع في المهد.

حمل وولادة يسوع في الكتاب المقدس

علينا أن نتذكر أن كل كتب المسيحيين كتبت بعد صلب يسوع بعشرات السنين وبعد أن نشر بولس فكرة أن يسوع كان ابن لله وأنه ولد من عذراء وبالتالي فكل ما قيل هو مجرد قصص مختلق، وقليل جدا من الحقيقة المشوهة.

- ولذلك اختلفت كتب المسيحيين المقدسة في كيفية ولادة يسوع، فكتاب متى يقول: لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وجدت حبلى من الروح القدس. (١٩:١) ((لاحظ التناقض هنا: المسيحيون يعتقدون أن الأب (الله تنه عن ذلك) هو الأب ليسوع، لكنهم في نفس الوقت يقولن إن من أحدث الحمل لأم يسوع به هو الروح القدس! وفي هذه الحالة فيسوع ابن للروح القدس وليس للأب)).
- أما كيف حدث الحمل فلم يذكره متى، وإنما ذكر قصصاً أسطورية بعيدة عن الواقع عن توقعات المجوس لولادته، على أنه ملك اليهود المنتظر وليس ابن الله الذي

سيقتل من أجل خطايا الناس. يقول متى: ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودس الملك إذا مجوس من المشرق قد جاءوا الى أورشليم. قائلين اين هو المولود ملك اليهود. فإننا رأينا نجمه في المشرق واتينا لنسجد له. (متى: ١ : ١-٢) هذا الكلام بالفعل يظهر أن يسوع طالب ملك وليس رسول لله (ستتوسع في هذه النقطة لاحقا).

- ويذكر متى أن يوسف وأم يسوع قد هربا بيسوع لمصر (بلاد النيل) وعاشا هناك عدد سنين، خوفاً من أن يقتله الحاكم الروماني هيرودس، وهذا لم يثبته الواقع ولم يسجله التاريخ على الإطلاق. وهذا نص ما جاء في كتاب متى: فقام واخذ الصبي وامه ليلا وانصرف الى مصر. وكان هناك الى وفاة هيرودس، لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل من مصر دعوت ابني. (متى: ٢ :١٤-١٥)
- ولا يذكر كتاب مرقس كيف حمل بيسوع ولا كيف ولد، بل إنه قال بأن يسوع ظهر فجأة في فلسطين قادماً من ناصرة الجليل: وفي تلك الايام جاء يسوع من ناصرة الجليل[١] واعتمد من يوحنا في الاردن. (مرقس: ١:٩) ولعل مرقس أصاب الحقيقة فيسوع لم يولد في فلسطين ولم يحضر إليها إلا وهو رجل بالغ كما سنرى لاحقاً.
- وللتدليل على أن ما قيل عن كيف ولد يسوع وأين ولد ما هي سوى قصص مختلق تقتبس نصوصها من كتب العهد القديم (كتب اليهود) وتحاول أن تنسبها
- ليسوع، ومن ذلك على سبيل المثال القول بأن يسوع ولد في بيت لحم، حيث يقول متى: فستلد ابنا وتدعو اسمه يسوع لأنه يخلّص شعبه من خطاياهم. وهذا كله كان لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل. هو ذا العذراء تحبل وتلد ابنا ويدعون اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا.(متى: ١ : ٢١-٢٣) وبطبيعة الحال كان اسمه يسوع ولم يسم بعمانوئيل، ولكن لا أحد من مؤرخي المسيحية يود أن يفطن لهذا الخطأ الظاهر.
- وقد ذكر متى قصصاً خرافية صاحبت مولد يسوع ومنها أن المجوس الذين لا يؤمنون بالكتب السماوية قد جاؤا إلى أورشليم قائلين أين هو المولود ملك اليهود (لاحظ أنه لم يقل ابن الله المخلص) فإننا رأينا نجمه في المشرق وأتينا لنسجد له (مع أنهم عبدة نار لا يؤمنون بالديانات السماوية) فلما سمع هيرودس الملك (الروماني) اضطرب

١ وهذه الناصرة ليست الناصرة المعروفة حاليا في فلسطين كما ستتعرف على ذلك لاحقا.

وجميع أورشليم معه. فجمع كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب وسألهم أين يولد المسيح (الملك اليهودي المنتظر). فقالوا له في بيت لحم اليهودية. لأنه هكذا مكتوب في الكتب (أي العهد القديم) وأنت يا بيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا لأن منك يخرج مدبرٌ يرعى شعبي إسرائيل. (متى: الإصحاح الثاني: ١ –٦) وبطبيعة الحال كل هذه الخرافات لم تحدث وكذبها الواقع والتاريخ، فلم يحدث أن قام هيرودس بقتل أطفال اليهود كما ذكر متى بعد ذلك خوفاً من ملك اليهود (يسوع) القادم لتأسيس مملكة يهودية مستقلة عن حكمه. ومن الواضح أن ما ذكر عن ولادة يسوع والحمل به ما هو إلا محاولة للربط بين النبوءات التي تقرأ في كتب العهد القديم وبين سيرة يسوع، أو معلومات عرفها كتبة العهد الجديد عن عيسى ابن مريم وحاولوا أن يقمصوها شخص يسوع. وهذا ما عرف عن بولس في كل كتاباته. وسوف نشير إلى بعض تلك النبوءات ونناقش مصداقيتها في فصل مستقل لاحقاً.

- وتبقى حقيقة ثابتة مفادها انه لا أحد من مؤلفي الكتاب المقدس يعرف أين ولد يسوع يقيناً. بل وأين عاش قبل أن يأتي لفلسطين.
- وعيسى ابن مريم ليس له إخوة أو أخوات في القرآن، بينما تقول كتب المسيحيين المقدسة أن يسوع له أربعة إخوة ذكور وعدد من الأخوات: أليس هذا
- ابن النجار. أليست أمه تدعى مريم وإخوته يعقوب ويوسي وسمعان ويهوذا. (متى: ١٣: ٥٤–٥٥)
- في القرآن، عيسى تكلم في المهد: وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ. (آل عمران:٤٦)
- بينما لم تذكر الكتب المسيحية المقدسة أي شيء عن أن يسوع قد تكلم في المهد أو في صغره، بل إن كتاب لوقا نسب الكلام في المهد إلى يوحنا وليس ليسوع، لأن يوحنا كان قد مات عندما كتب كتاب لوقا، ولم يعد له ذكر بين الناس، وبالتالي فلن يكذبه أحد فيما نسبه عنه، يقول لوقا في الإصحاح الأول: وفي اليوم الثامن جاؤا ليختنوا الصبي (أي يوحنا) .... وفي الحال انفتح فمه ولسانه وتكلم وبارك الله. (لوقا ١: ٥٩ – ٦٤).

- عيسى في القرآن ولد في بلاد تنمو فيها نخيل التمر، وهي ذات المناخ الصحراوي: فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِياً. (مريم:٢٣)
- وهو ما يعني بداهة أن عيسى لم يولد في بيت لحم الفلسطينية كما يقول المسيحيون، لأن بيت لحم مناخها صحراوي والنخيل ليست من أشجار البحر المتوسط.
- عيسى ولد في مجتمع بني إسرائيل وقبل ظهور ما عرف باليهود الذين لم يكن لهم وجود زمن موسى وعيسى ولم يظهروا إلا فيما بعد. بينما ظهر يسوع في وقت كان اليهود لهم التأثير الأكبر ويسيطرون على الوظائف الدينية في إيليا، بينما من ينتسب لبني إسرائيل يحتلون منزلة أقل.

النصارى والحواريون مقابل المسيحيون وتلاميذ يسوع disciples

القرآن يذكر النصارى في السور المدنية ويخاطبهم ويدعوهم للدخول في الإسلام وسور أخرى تذكر أن كثير منهم أسلم: لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُواْ

مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ(٨٣) وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ(٨٥) المائدة.

وهذا يعني أن هناك بقية باقية من النصارى كانوا يعيشون في يثرب عند هجرة الرسول.

والنصارى هم إما متحدرون من موحدين آمنوا بعيسى وهم الحواريون الذين ذكرتهم عدة سور منها: فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ(٥٢) آل عمران.

أو مشركين غالوا في عيسى. بعضهم اعتقد انه الله، وبعضهم اعتقد أنه إله مع الله وبعضهم قالوا إن الله وعيسى وأمه ثلاثة آلهة.

وكل أنواع النصارى كانوا قلة في يثرب وهم من تبقى من النصارى وقد انتهى أمرهم خلال الفتوح، فمن لم يدخل الإسلام ذاب في المجتمعات المسيحية. وعلى ما يبدو لم يكن لهم وجود خارج يثرب. وقد بينا في عدة مواضيع وفي كتاب أحسن القصص أنهم قدموا ليثرب بعد أن اجتاحت ديارهم الأصلية في جنوب غرب جزيرة العرب جيوش أجنبية.

الحواريون

يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني اسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين امنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين(١٤) الصف.

الحواريون مجموعة من الناس هم من آمن مع عيسى من بين بني إسرائيل. والحَوْرُ في اللغة يعني العودة والرجوع من شيء إلى شيء. وعيسى ابن مريم جاء لإعادة وإرجاع بني إسرائيل للتوراة والحق. فعاد ناس وصفوا بالحواريين (العائدين التائبين) وبقي أغلب بني إسرائيل على ضلالهم. ولا يحدد القرآن عدد من رجعوا للحق (الحواريون).

بينما كان ليسوع تلاميذ تقول كتب المسيحيين أن عددهم (١٢) وقد ظن المفسرون أن الحديث في القرآن عن الحواريين هو حديثٌ عن أتباع يسوع. ولهذا، جعل المفسرون الحواري يعني التلميذ والتابع المخلص، وقام مؤلفو المعاجم فثبتوا هذا المعنى للحواري، وأصبح يعرف به.

المسيحيون

هم أتباع الديانة المسيحية التي تقوم على الإيمان بأن هناك ثلاثة آلهة، هم: الأب والإبن (يسوع) وإله ثالث مجهول الهوية يسمونه الروح القدس. وأن هذا الروح القدس قد اعتلى أم يسوع وتسبب بحملها بيسوع. ومع ذلك يعتبرون يسوع ابن للأب مع أن من تسبب بحمله هو الروح القدس. وكل من يؤمن بأن يسوع قتل على الصليب لفداء ذنوبه فهو في الجنة.

فالأب قتل ابنه الوحيد لكي يكون دمه فداء لذنوب خلقه الذين خلقهم وجعل المعصية تجري في دمائهم. وبدل أن يعدل جيناتهم اتصل الروح القدس بامرأة من البشر وحملت بولد منه عاش بينهم لفترة لكي يفهم مشاعر الناس الذين خلقهم، ثم تخلى عن ابنه بحيث

تمكن منه الناس وصلبوه.

والمسيحيون والمسيحية لا ذكر لها في القرآن. بل إن القرآن عندنا يتحدث عن الراعي الرسمي للمسيحية في العالم (الرومان) كان يسميهم «الروم» ولا يطلق عليهم «مسيحيون».

إذاً، النصارى لا علاقة لهم بالمسيحيين، والحواريون لا علاقة لهم بمن سموا «تلاميذ يسوع».

** بعض النصارى كانوا يؤمنون بثلاثة آلهة والمسيحيون يؤمنون بثلاثة آلهة، لكن آلهة النصارى تختلف جذرياً عن آلهة المسيحيين. وهذا دليل قاطع على أنه لا علاقة للنصارى بالمسيحيين.

فالتثليث عند النصارى يتكون من (الله تنزه وتبارك) وعيسى وأمه.

بينما تثليث المسيحيين يتكون من الأب (الله تنزه وتبارك) ويسوع والروح القدس.

والروح القدس لا يعرفه النصارى كما أن المسيحيين لا يعتبرون أم يسوع ثالث ثلاثة وإن كان هناك فرقة مسيحية صغيرة يعبدون أم يسوع. وهذا الفرق يؤكد ان النصارى لا علاقة لهم بالمسيحيين. والنصارى لا يؤمنون أن الله قتل ابنه لفداء ذنوب البشر.

والروح القدس شخصية غامضة جدا ولا يعرف من ابن أتى؟ فالله لم يخلقه حسب معتقدات المسيحيين. وهو (أي الروح القدس) من حملت منه أم يسوع فهو أبو يسوع. لكن يسوع ينسب لله وليس لوالده المفترض.

ولا يوجد مسيحي واحد يعتبر الروح القدس أخ لله (تبارك الله وتنزه). أو أنه خلق نفسه. الكنيسة بكل أطيافها ومذاهبها لا تعرف الإجابة عن أصل هذا الإله (الروح القدس).

والقرآن لا يذكر الروح القدس بالتعريف أبداً، ولكن القرآن يذكر (روح القدس) كوصف وليس كاسم.

كيف نسب ليسوع كثير مما كان لعيسى ابن مريم؟

يسوع هو شخص من بني إسرائيل قدم إلى فلسطين رجلاً وبدأ يدعو للثورة على الحكم الروماني ليؤسس مملكة إسرائيلية تعيد مجد مملكة داوود الغابرة. واختياره فلسطين لأنها كانت تضم أكبر جالية من بني إسرائيل في المنطقة (كما يقول كمال سليمان الصليبي) الذي

يعتبر أفضل كاتب مسيحي يستطيع تعريفنا بشخص يسوع باللغة العربية. فهو أحد أشهر المختصين بدراسة التاريخ القديم واللغات السامية وألف عدة كتب تناولت الكتاب المقدس وأحدثت ردود فعل عالمية ما زال صداها يتردد، ومن هذه الكتب «البحث عن يسوع» الذي يناقش حقيقة يسوع من واقع نصوص الكتاب المقدس عند المسيحيين.

وخلاصة ما توصل إليه الصليبي حول شخصية يسوع الحقيقية ذكرها في آخر فصل من كتابه «البحث عن يسوع» ويحمل عنوان « الواقع والصورة» ويقول فيه:

((أما بالنسبة ليسوع، فالذي تبين لنا عنه بوضوح هو الآتي: كان يسوع ابن يوسف النجار المعروف بالناصري أميراً من بيت داوود، اقتدى بجد له اسمه زربابل، فحاول الوصول إلى الملك على إسرائيل، منفقاً على مسعاه ما كان قد ورثه عن أبيه من مال. ومن الإسرائيليين في زمانه، من غير اليهود، من كان لا يزال ينتظر ظهور « مسيح» من بيت داوود يعيد الملك إلى الشعب الإسرائيلي في شتاته، فاعترف بيسوع على كونه ذلك المسيح، وهب لنصرته. لكن مطالبة يسوع بعرش إسرائيل – وهي التي حدثت في «اليهودية» بفلسطين في زمن الرومان – اصطدمت بمقاومة شديدة من المؤسسة الكهنوتية اليهودية، وهي المؤسسة ذاتها التي سبق لها أن تصدت لمسعى جد يسوع زربابل إلى الملك على إسرائيل قبل خمسة قرون تقريباً، فأفشلته بطريقة أو بأخرى.

وحاول الكهنوت اليهودي أن يردع يسوع عن مسعاه في البداية عن طريق التهديد والوعيد، فلم يرتدع. وكانت نهاية الأمر أن قبض عليه، واقتيد أمام رئيس كهنة اليهود في أورشليم للمحاكمة على أساس ادعائه بأنه المسيح الداوودي المنتظر، وليس على أي اساس آخر. فحكم عليه بالموت، ثم سلم إلى السلطات الرومانية لتنفيذ هذا الحكم عليه صلباً، وقد تم تنفيذ الصلب بيسوع فعلاً.

ويكون يسوع قد حضر لفلسطين وهو رجل في مقتبل العمر بهدف واضح هو أن يصبح ملكاً على اليهود الإسرائيليين. لذا فمكان ميلاده لم يكن معروفاً مؤلفي كتب المسيحيين المقدسة عندما كتبوها. وقد تتبع رجال الدين اليهود تحركاته وقبضوا عليه في الليلة التي قرر فيها قتل الحاكم الروماني وإعلان مملكته. وحكم عليه بالصلب بتهمة محاولة الثورة))

انتهى الاقتباس

وكتب المسيحيين مليئة بالشواهد على ذلك، وهو ما سنقدمه في الفقرة القادمة.

شواهد من كتب المسيحيين المقدسة

الكتب المسيحية الرسمية التي تعترف بها الكنيسة كليئة بالشواهد على حقيقة يسوع ومن هو، وفيما يلي بعضها:

يسوع من الناصرة (بلد خارج فلسطين)

يقول كتاب متى في الإصحاح (٢١): ١٠ولما دخل اورشليم ارتجت المدينة كلها قائلة من هذا.١١ فقالت الجموع هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل.

فالناس لا يعرفونه وتساءلوا من أين أتى فقيل جاء من ناصرة الجليل. والناصرة في فلسطين لم تكن موجودة في عصر يسوع كما يؤكد المؤرخون ويقولون إنها لم توجد إلا بعد (٣٠٠) سنة بعد يسوع. يعني سميت على اسم الناصرة الأصلية.

يسوع لغته الأصلية تختلف عن اللغة التي يتكلم بها بنو إسرائيل واليهود في فلسطين

وكل المختصين بدراسة تاريخ الكتاب المقدس يعلمون أن يسوع كانت لغته الأم هي لغة تختلف عن اللغة التي كان سكان فلسطين في ذلك الوقت يتحدثون بها، بما فيهم اليهود وبني إسرائيل.

وكتاب مرقس يؤكد لنا هذه الحقيقة، حيث يقول إنه عندما تعاظم على يسوع الألم وهو مصلوب، وقبيل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، صرخ بلغته الأصلية بعبارات لم يفهمها من كان يسمعه من يهود فلسطين المتحلقين حول الصليب. وهذا نص ما جاء في كتاب مرقس: «وفي الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا: «إلوي إلوي لما شبقتني». الذي تفسيره الهي الهي لما تركتني. فقال قوم من الحاضرين لما سمعوه: هوذا ينادي ايليا. فركض واحد وملأ اسفنجة خلا وجعلها على قصبة وسقاه قائلا اتركوه لنرى هل يأتي ايليا لينزله. فصرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح.» (مرقس: ١٥ : ٣٤ - ٣٧).

وهذا يظهر أن اليهود الموجودين في فلسطين زمن صلب يسوع لم يكونوا يتكلمون نفس لغة يسوع الأم التي نطق بها من شدة الألم، وظنوا أنه يستغيث بشخص اسمه إيليا. وقد أورد متى نفس هذه الشهادة في الإصحاح (٤٦ بدءً من الفقرة ٢٧) وهو ما يعني أن يسوع جاء

إلى فلسطين، كغريب، ولم يولد فيها أو يعيش فيها مدة طويلة بما يكفي لنسيان لغته الأصلية.

يسوع من نسل داوود

كما ذكر كتاب متى في أول إصحاح:١-١٧ ومن ذلك: يسوع ابن يوسف النجار ابن يعقوب ابن متان ابن اليعازر ابن أخيم ابن أليود ابن صادوق ابن عازور ابن ألياقيم ابن أبيهود ابن زربابل ..... إلى أن نصل إلى أبيا ابن رحبعام ابن سليمان ابن داوود. وكما ذكر لوقا في الإصحاح الثالث: ٢٣-٢٨.

ليس هذا فحسب بل إن الناس المعاصرين ليسوع في فلسطين يعرفون أنه من نسل داوود لأن أبيه يوسف النجار ينحدر من نسل داوود، وهذا ما ورد في كتاب متى الإصحاح (٢٠): ((وفيما هم خارجون من أريحا تبعه جمع كثير. ٣٠ وإذا أعميان جالسان على الطريق. فلما سمعا ان يسوع مجتاز صرخا قائلين ارحمنا يا سيد يا ابن داود.٣١ فانتهرهما الجمع ليسكتا فكانا يصرخان أكثر قائلين ارحمنا يا سيد يا ابن داود)).

الفريسيون ضد قيام دولة لبني إسرائيل

الفريسيون لا يرغبون في أن تقوم مملكة لبني إسرائيل فحاولوا توريط يسوع بكلمة أمام رجال من الحكومة لكي يقبض عليه. لكن يسوع فطن لمخططهم وفوت الفرصة عليهم في إحدى المرات كما ورد في كتاب متى في الإصحاح (٢٢): حينئذ ذهب الفريسيون وتشاوروا لكي يصطادوه بكلمة.١٦ فارسلوا اليه تلاميذهم مع الهيرودسيين قائلين يا معلّم نعلم انك صادق وتعلّم طريق الله بالحق ولا تبالي بأحد لأنك لا تنظر الى وجوه الناس.١٧ فقل لنا ماذا تظن. أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا.١٨ فعلم يسوع خبثهم وقال لماذا تجربونني يا مراؤون.١٩ أروني معاملة الجزية. فقدموا له دينارا.٢٠ فقال لهم لمن هذه الصورة والكتابة.٢١ قالوا له لقيصر. فقال لهم اعطوا إذاً ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

((الهيروديسيون يعني رجال هيرودس الحاكم. يعني رجال الحكومة، يعني مباحث))

يسوع كان متزوجاً

جاء في كتاب يوحنا، الإصحاح الثاني من الفقرة الأولى إلى العاشرة، ما يلي:

وفي اليوم الثالث كان عرس في قانا الجليل وكانت ام يسوع هناك. ودعي ايضا يسوع وتلاميذه الى العرس. ولما فرغت الخمر قالت ام يسوع له: ليس لهم خمر. قال لها يسوع: ما

لي ولك يا امرأة، لم تأت ساعتي بعد. قالت امه للخدام: مهما قال لكم فافعلوه. وكانت ستة اجران من حجارة موضوعة هناك حسب تطهير اليهود يسع كل واحد مطرين او ثلاثة. قال لهم يسوع: املأوا الاجران ماء، فملأوها الى فوق. ثم قال لهم: استقوا الآن وقدموا الى رئيس المتكأ. فقدموا. فلما ذاق رئيس المتكأ الماء المتحول خمرا ولم يكن يعلم من اين هي. لكن الخدام الذين كانوا قد استقوا الماء علموا. دعا رئيس المتكأ العريس، وقال له: كل انسان انما يضع الخمر الجيدة اولا ومتى سكروا فحينئذ الدون. اما انت فقد ابقيت الخمر الجيدة الى الآن. انتهى

والآن تعالوا نراجع ما قرأنا:

تقول الفقرة الأولى: أنه كان هناك حفل زفاف أقيم في قانا الجليل، وكانت ام يسوع هناك.

ودعي أيضا يسوع وتلاميذه الى العرس.

ولو وضعنا بالحسبان أن الترجمة غير دقيقة ولغتها ضعيفة أو أن النص قد عدل، فالاحتمال أن كلمة «دُعي» المبنية للمجهول هي الفعل الماضي «دَعَا»، ليكون النص أصلاً بهذا الشكل: «ودعا أيضاً يسوع تلاميذه إلى العرس.»

ويكون يسوع هو من دعا التلاميذ للعرس.

وهذا ليس تأويلاً للنص نؤوله من عند أنفسنا، ولكن فقرات النص اللاحقة تؤكده، كما سنرى.

الفقرة الثالثة تقول بأنه لما فرغت الخمر هرولت أم يسوع قاصدة يسوع لتبلغه بنفاذ المشروب وأن عليه أن يتصرف بسرعة منعاً للحرج.

ولو كان يسوع وأمه من ضمن الضيوف المدعوين فليس من مسئوليتهما الحرص على تأمين الشراب للحفل، وليس مطلوباً منهما إنقاذ المضيف إذا هو لم يحرك ساكناً لإنقاذ ما واجهه من حرج أمام ضيوفه.

(الفقرة ٤) من الواضح أن النص قد تم العبث به، لأن إجابة يسوع لأمه عندما أبلغته بنفاذ الخمر، تبدوا لا علاقة لها بتساؤل أمه. إذ ليس الجواب المنتظر أن يقول: «ما لي ولك يا امرأة. لم تأت ساعتي بعد.» ولكن من المناسب أن يجيب بأنه لا علاقة له بالموضوع إن لم يكن هو المسئول عن خدمة المدعوين.

أو أن يكون مسئولاً فعلاً عن حفل الزفاف، ويبلغها بأنه سيعمل ما في وسعه لتأمين المزيد من الخمر، وهو ما قام به فعلاً.

حيث نقرأ أنه قد أحضر للمدعوين خمراً جيدة بشهادة رئيس المتكأ، وبطبيعة الحال لم يكن ماءً حوله يسوع لخمر، بل كان خمراً جيداً بالفعل استطاع يسوع تأمينه. لكن النص الأصلي حور وتم تغييره ليبدو وكأن هناك معجزة حسية قام بها يسوع، تتمثل بتحويل الماء خمراً معتق.

في المقطع الخامس، أم يسوع تؤكد على الخدم أن ينفذوا كل ما يطلبه منهم يسوع. ولو كانت ليست في موقع المسئولية في هذا العرس، ولو لم يكن يسوع كذلك، فلا داعي لأن تطلب من خدم يعملون في عرس ليس لها به صلة، ومدعوة هي وابنها إليه كضيوف، أن ينفذوا أوامر يسوع ويتركون مهامهم المطلوبة منهم. لكن لو أن يسوع هو العريس فعلى الخدم تنفيذ أوامره لإدارة حفل الزفاف.

الفقرات (٦-٨) تصور تحويل يسوع الماء إلى خمر وليس بالضرورة هذا ما حدث، بل هو من صنع خيال الكاتب أو المحرر.

الفقرتان التاسعة والعاشرة هامتان جداً لأنهما تقولان بالحرف الواحد: «ودعا رئيس المتكأ العريس. وقال له. كل إنسان إنما يضع الخمر الجيدة أولاً ومتى سكروا فحينئذ الدون. أما أنت فقد أبقيت الخمر الجيدة الى الآن.»

وهو تصريحٌ، وأكرر، تصريحٌ وليس تلميحٌ بأن يسوع هو العريس (ودعا رئيس المتكأ العريس).

فقد كان رئيس المتكأ يوجه كلامه للشخص الذي جلب الخمر الجيدة، والذي وفر الخمر هو يسوع، وهو من دعاه رئيس المتكأ بالعريس، لأنه هو العريس فعلاً.

ووصف يسوع بالعريس عبارة لم يفطن لها كل من عدل وبدل في كتب المسيحيين المقدسة وبقيت كما هي في كتاب يوحنا أحد الكتب الأربعة التي اعترفت بها الكنيسة، كممثل شرعي للديانة المسيحية، ومع ذلك فهو يقول بكل وضوح: أن يسوع كان هو (العريس) وهو كعريس دعا تلاميذه لحضور حفل زفافه، وهو وأمه كانا المسئولين عن تأمين احتياجات حفل العرس.

وهذا النص موجود في الترجمات العربية والإنجليزية المتداولة، وبالتأكيد في الترجمات الأخرى لكل اللغات.

وهذه شواهد أخرى من كتاب متى الإصحاح (٢٦)

يسوع يختار عيد الفصح لثورته فيذهب لأورشليم مع (١٢) من أتباعه

يظهر هذا الإصحاح أن يسوع قد احتفل بعيد الفصح مع النخبة من أتباعه (عددهم ١٢) الذين اختارهم ليصحبوه في مهمته الخاصة والحاسمة لإعلان مملكته بعد قتل الحاكم الروماني. حيث احتفل عند رجل من أنصاره في المدينة (أورشليم) مقر إقامة الحاكم الروماني: فقال (يسوع) اذهبوا الى المدينة الى فلان وقولوا له: المعلم يقول ان وقتي قريب. عندك اصنع الفصح مع تلاميذي. ففعل التلاميذ كما امرهم يسوع واعدوا الفصح. ولما كان المساء اتكأ مع الاثني عشر. (٢٦: ١٩-٢١).

العشاء الأخير تحضير لإعلان دولة يسوع

وفي هذا الإصحاح وصف لما عرف بالعشاء الأخير عند المسيحيين، وهو في الحقيقة، ليلة التخطيط للتسلل لقصر الحاكم وقتله وإعلان مملكة بني إسرائيل. وكان ذلك في بيت ذلك الرجل الذي استضافهم لعيد الفصح، ويبدو أن يسوع قرر أن يكون الاحتفال بعيد الفصح مناسبة لإعلان مملكته بعد قتل الحاكم. ولذلك كان ذلك الاجتماع في أورشليم وقرب قصر الحكم من أجل وضع اللمسات الأخيرة على خطة الهجوم المفترضة تلك الليلة:

وفيما هم يأكلون اخذ يسوع الخبز وبارك وكسر واعطى التلاميذ وقال خذوا كلوا، هذا هو جسدي. واخذ الكاس وشكر واعطاهم قائلا اشربوا منها كلكم. لان هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يسفك من اجل كثيرين لمغفرة الخطايا. واقول لكم إني من الآن لا اشرب من نتاج الكرمة هذا الى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديدا في ملكوت ابي. ثم سبحوا وخرجوا الى جبل الزيتون (٢٦: ٢٦-٣٠).

وهذه الكلمات تصف كيف أعلن يسوع أن ساعة الصفر لقيام ملك إسرائيل قد حانت، وأن الجميع عليهم الاستعداد لأسوأ الاحتمالات، وقال لهم يسوع إنه مستعد للتضحية بجسده ودمه في سبيل ذلك، وعليهم أن يكونوا مستعدين بالتضحية كذلك. وقال بأنه سيحرم شرب النبيذ حتى يتحقق له النصر ويصبح ملكاً في مملكة اسرائيل الربانية. ثم

خرجوا لجبل الزيتون تحت جنح ظلام تلك الليلة لبدء المرحلة العسكرية.

وعلى جبل الزيتون أوضح يسوع لتابعيه أن الخطة تتمثل بالتسلل وقتل الملك الحالي لضمان تبدد عسكره، وتمثل بمثل معروف لديه يقول: لأنه مكتوب أني أضرب الراعي فتتبدد خراف الرعية. (الفقرة:٣١)

وتدل الفقرة على أن يسوع هو من سيتسلل ليقتل الملك، ثم وفي فقرة لاحقة يقول: ولكن بعد قيامي أسبقكم إلى الجليل. (الفقرة:٣٢) أي أن يسوع يقول وبعد أن أقتل الملك وأصبح ملكاً (قيامي) سأذهب إلى الجليل للقاء الأتباع والمؤيدين.

وقد عاهده بطرس على ألا يتخلى عنه بقوله: إن شك فيك (تخلى عنك) الجميع فأنا لا أشك أبداً (لا أتخلى).

(الفقرة: ٣٣) ولكن يسوع راوده بعض الريبة في صدق بطرس، قائلاً: إنك في هذه الليلة قبل أن يصيح الديك تنكرني ثلاث مرات، فأكد له بطرس: ولو اضطررت أن أموت معك لن أنكرك أبداً، وهكذا قال أيضاً جميع التلاميذ. (الفقرتان: ٣٤-٣٥)

ومع اقتراب يسوع ومن معه من قصر الحكم استمر يسوع في الاستعداد للتسلل وقتل الملك، حيث أمر تلاميذه بالجلوس بينما ذهب هو وتضرع طلباً للعون من الله: حينئذ جاء معهم يسوع الى ضيعة يقال لها جثسيماني فقال للتلاميذ اجلسوا ههنا حتى امضي واصلّي هناك. (الفقرة:٣٦)

وقد اختار ثلاثة من بين أتباعه الاثنا عشر وانفرد بهم ولعله يكلفهم بمهام يريد أن تكون سرية حتى عن بقية الرجال: ثم اخذ معه بطرس وابني زبدي وابتدأ يحزن ويكتئب (الفقرة:٣٧).

ولم يأخذهم وينفرد بهم لكي يراقبوه وهو يدعوا كما تقول العبارة.

وفي الفقرة التالية يقول يسوع مخاطباً أتباعه: نفسي حزينة جداً حتى الموت. أمكثوا معي ههنا واسهروا معي.

(الفقرة:٢٨) لقد كان قلقاً جداً حتى الموت وحتى لا ينهار، طلب من أتباعه أن يسهروا معه ويشدوا من عضده ويرفعوا من معنوياته، قبل أن تحين لحظة الصفر التي حددها هو للتسلل وقتل الملك.

وطلبه منهم البقاء معه يظهر أنه لا يثق بهم ولا ببقائهم معه.

ولكي يشعر بشيء من القوة اتجه للدعاء والطلب من الله أن يهون عليه مهمته ويقوي قلبه: ثم تقدم قليلاً وخر على وجهه وكان يصلي قائلاً يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس. (أي ساعدني على تجاوز هذه المحنة) ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت (وقد رضيت بما قدرت علي). (الفقرة:٣٩)

ويصاب بالإحباط عندما يجد أتباعه وقد غلبهم النوم أثناء قنوته: فقال لبطرس أهكذا ما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة. (الفقرة:٤٠).

ويحاول حثهم على الدعاء والتضرع لكي يحميهم الله، لكن التفاعل ضعيف: اسهروا وصلّوا لئلا تدخلوا في تجربة. اما الروح فنشيط واما الجسد فضعيف (الفقرة: ٤٢).

ويعاود يسوع التضرع مرة أخرى ومرات: فمضى ايضا ثانية وصلّى قائلا يا ابتاه ان لم يمكن ان تعبر عني هذه الكاس الا ان اشربها فلتكن مشيئتك (٤٣)

مرة أخرى وثالثة وبنفس التضرع لله بأن يعينه ويحميه.

والكأس التي يتخوف من شربها هي كأس المنون لو قبض عليه قبل أن يتمكن من قتل الملك وإعلان مملكته.

ولكن أتباعه كانوا غير متحمسين: ثم جاء فوجدهم ايضا نياما. اذ كانت اعينهم ثقيلة. فتركهم ومضى ايضا وصلّى ثالثة قائلا ذلك الكلام بعينه (الفقرة:٤٤).

ثم يأمر يسوع أتباعه بالقيام للتوجه لقصر الملك: قوموا ننطلق. (الفقرة:٤٦)

القبض على يسوع

وفي تلك اللحظة ظهرت جموع فرآهم يسوع وعرف أنهم قد اكتشفوا أمره نتيجة لخيانة أحد أتباعه والإبلاغ عنه:

هو ذا الساعة قد اقتربت وابن الإنسان يسلم الى أيدي الخطاة. قوموا ننطلق. هو ذا الذي يسلمني قد اقترب. وفيما هو يتكلم إذا يهوذا واحد من الاثني عشر قد جاء ومعه جمع كثير بسيوف وعصي من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب. والذي اسلمه اعطاهم علامة قائلا الذي اقبّله هو هو. امسكوه.

فللوقت تقدم الى يسوع وقال السلام يا سيدي، وقبله. فقال له يسوع يا صاحب لماذا جئت؟ حينئذ تقدموا والقوا الايادي على يسوع وامسكوه (الفقرات: ٤٥-٥٠).

لقد عرف يسوع أنه قد أحيط به وسيسلم لأيدي الخطاة (وصفه لرجال الدين اليهود الذين قدموا لإلقاء القبض عليه).

وقد حاول يسوع أن يهرب مع رجاله وهو ما يظهره قوله: «قوموا ننطلق» لكنه لم يتمكن فقد احاط بهم جمع من الكهنة ورؤساء الشعب، وهم من كانوا يودون أن يمسكوا به منذ حضر للهيكل في السابق، ولكن منعهم من ذلك في تلك المرة أنه حضر معه جموع غفيرة.

ويسوع واتباعه كانوا مسلحين استعدادا لقتل الملك وحراسه وهو ما يظهر ما ورد في الفقرة (٥٠) التي تقول: وإذا واحد من الذين مع يسوع مدّ يده واستل سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع اذنه.

ويسوع أمر الرجل برد السيف لأنهم لو حاولوا الدفاع لقتلوا لأن المهاجمين أكثر منهم بكثير.

وقد هرب أتباعه: حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا(٥٦).

أما كيف عرف هؤلاء الكهنة بوجود يسوع مع نفر قليل من أتباعه في هذا المكان وفي تلك الساعة المتأخرة من الليل فيبدو أنهم كانوا يتجسسون عليه ويرصدون أخباره وحركاته.

وعلى ما يبدو أن أحد أتباع يسوع واسمه يهوذا هو من وشى به.

وقد سلبوه سلاحه واقتادوه إلى رئيس الكهنة للتحقيق معه حول زعمه أنه المسيح (أي ملك الإسرائيليين الذي يدهن رأسه تعهداً بخدمة الدين والوطن) فالمسيح لقب يهودي للملك الذي ينذر نفسه ليكون خادما للدين والوطن والشعب واليهود يؤمنون بأن هناك مسيح سيأتي ليقيم لهم مملكة مستقلة.

وأثناء التحقيق سأله رئيس الكهنة: أستحلفك بالله الحي أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله. (الفقرة:٦٣)

(ابن الله هنا تعني التقوى وليس ابن فعلي لأن ابن الله تأتي في كتب اليهود بهذا المعنى، واليهود يعتبرون أنفسهم أبناء الله)

قال يسوع أنت قلت! (الفقرة: ٦٤) (أي ها أنت اعترفت لي بذلك).

وهو بهذا لم ينكر أنه يسعى ليؤسس مملكة لبني إسرائيل يكون هو مسيحها.

فمزق رئيس الكهنة ثيابه قائلاً قد جدف (أو لعلها اعترف وليس جدف) ما حاجتنا بعد لشهود ها قد سمعتم تجديفه (اعترافه). ماذا تريدون. فأجابوا وقالوا إنه مستوجب الموت. (الفقرات: ٦٥-٦٦)

وهكذا قرر الكهنة أن يسوع يستحق أن يسلم للحكومة ليحاكم لأنه جاء ليكون ملكاً على بني إسرائيل. وهم كهنة يهود من غير نسل بني إسرائيل ولا يرغبون بأن يتولى عليهم الملك أحد من نسل بني إسرائيل، ولذلك يجب تسليمه للحكومة بتهمة التخطيط للثورة. وبدأوا يستهزؤون به ويبصقون في وجهه ويقولون: تنبأ لنا أيها المسيح من ضربك؟ (الفقرة:٦٨) بحكم أن خرافات اليهود تقول إن ملك اليهود يكون من الأخيار القريبين من الله والقادرين على معرفة مالا يعرفه الشخص العادي ككرامات.

الإصحاح السابق أخبرنا أن رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب ألقوا القبض على يسوع في الليلة السابقة وهرب تلاميذه، وهذا الإصحاح يخبرنا بما حدث صباح اليوم التالي:

تسليم يسوع إلى بيلاطس البنطي

ولما كان الصباح تشاور جميع رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب على يسوع حتى يقتلوه. فاوثقوه ومضوا به ودفعوه لى بيلاطس البنطي الوالي. (الفقرة:١)

«وتشاورا على يسوع ليقتلوه» قد تكون العبارة الصحيحة بهذا الشكل: «واتفقوا على تسليمه للحاكم ليحاكم بتهمة محاولة القيام بثورة ليقتل».

محاكمة يسوع

فوقف يسوع أمام الوالي فسأله الوالي قائلا: أأنت ملك اليهود؟ فقال له يسوع: أنت تقول. (الفقرة:١١)

لقد كانت تهمة محاولة الثورة وتأسيس مملكة هي التهمة الموجهة ليسوع ولا شيء غير ذلك.

وبينما كان رؤساء الكهنة والشيوخ يشتكون عليه لم يجب بشيء. (يشتكون عليه أي يشهدون عليه) فقال له بيلاطس أما تسمع كم يشهدون عليك. (أي لماذا لا تدافع عن نفسك وتقول بأنهم يكذبون) فلم يجبه ولا عن كلمة واحدة حتى تعجب الوالي جدا. (الفقرات: ١١-

١٤) ويسوع لم يجب لأنه فعلاً كان يتطلع للحصول على الملك.

الفقرات: ١٥-٢٥ تتحدث عن أن الوالي كان معتادا على أن يطلق سجيناً وسأل رؤساء الكهنة إن كانوا يودون منه إطلاق سراح يسوع فأبوا. وهو كلام لا يمكن أن يكون قد حدث، لأن يسوع متهم بمحاولة الانقلاب وهي من التهم الكبرى التي لا تهاون فيها. وتظهر الفقرات أن الوالي لم يكن يريد صلب يسوع لكن رؤساء الكهنة أصروا على صلبه. وكأن الوالي صلبه تنفيذاً لرغبتهم، وهذا أيضاً لا يمكن أن يكون حدث، لأنه هو الوالي وهم مجرد رجال دين يدينون باليهودية، وهي دين لا يؤمن به الوالي، ورجال الدين اليهود يعيشون تحت حكمه ويأتمرون بقوانينه، وليس العكس.

وتظهر الفقرة (٢٦) أن الوالي حكم على يسوع: وأخيراً جلد الوالي يسوع وأسلمه ليصلب.

تنفيذ الحكم

فأخذ عسكر الوالي يسوع إلى دار الولاية وجمعوا عليه كل الكتيبة. فعروه وألبسوه رداء قرمزياً. وضفروا إكليلاً (تاج) من شوك ووضعوه على رأسه (سخرية منه كملك) وقصبة في يمينه (عصا يمسكها الملك). وكانوا يجثون قدامه ويستهزئون به قائلين السلام على ملك اليهود.

ويصقوا عليه وأخذوا القصبة ضربوه على رأسه. وبعدما استهزأوا به ونزعوا عنه الرداء وألبسوه ثيابه ومضوا به للصلب. (الفقرات: ٢٧-٣١)

وقد وضعوا فوق رأسه لوحة مكتوب عليها هذا هو يسوع ملك اليهود. (الفقرة:٣٧)

واستمر الناس والكهنة ورجال الدين اليهود يستهزئون به ويسخرون منه وهو مصلوب، ومما قالوه: إن كان ملك إسرائيل فلينزل الآن عن الصليب فنؤمن به. إذا كان قد اتكل على الله فلينقذه الآن إن كان قد جاء بإرادة الله. (الفقرتان:٤٣-٤٤)

وبعد وقت من صلبه سمعه الناس وهو يتحدث بلغته الأصلية التي ليست لغة يهود فلسطين، قائلاً: إيلي إيلي لما شبقتني. أي إلهي إلهي لم تركتني.(الفقرة:٤٦)

(وهذا دليل واضح على أنه قدم من مكان غير فلسطين ولم يولد أو ينشأ هناك، وكل المدة التي بقي فيها في فلسطين لم تتجاوز ثلاث سنوات حسب تقديرات علماء تاريخ كتاب المسيحيين المقدس)

ولذلك لم يفهم الناس الموجودين حول الصليب ماذا قال، وظنوه ينادي إيليا (أحد الأولياء الصالحين القدامى من بني إسرائيل): فقوم من الواقفين هناك لما سمعوا قالوا إنه ينادي إيليا. وللوقت ركض واحد منهم وأخذ اسفنجة وملأها خلاً وجعلها على قصبة وسقاه. وأما الباقين فقالوا أتركه لنرى هل يأتي إيليا ليخلصه. فصرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح. (الفقرات:٤٧-٥٠)

بعد ذلك يروي الكاتب أن زلزلة وظواهر غير طبيعية حدثت بسبب موته، وهو خيال من نسج الكاتب نفسه ليصور عظم المأساة التي حدثت.

ويذكر الكاتب أن من بين من كان يراقب صلب يسوع بعض النسوة ومنهن مريم المجدلية (زوجته) ومريم أم يعقوب ويوسي وأم ابني زبدي، ولم يذكر أن أم يسوع معهم، لعله تعمد ذلك حتى لا يذكر اسمها الذي لم يكن مريم، أو لعل الكاتب الأصلي قد ذكر اسم أم يسوع، فتم حذفه لاحقاً لأنه لم يكن مريم.

أما بقية الإصحاح فيتحدث عن أن قبر يسوع قد أحيط بحرس، بناءً على طلب اليهود من بيلاطس أن يضع عليه حرس حتى لا يسرقه أتباعه.

وهكذا تم القبض على يسوع قبيل تنفيذه لمخططه بقتل الوالي الروماني وإعلان مملكته لبني إسرائيل، وقد حكم عليه وصلب ومات.

وفيما يلي بعض الحقائق عن:

عيسى ابن مريم

القرآن يتحدث عن عيسى ابن مريم وعن النصارى ولا يتحدث عن يسوع ولا المسيحية، وذلك أن عيسى كان رسولاً لبني إسرائيل وبقية منهم كانوا يعيشون في يثرب زمن رسول الله، ولكي يبرهن القرآن على أن محمداً رسول الله ذكر تفاصيل كثيرة عن تاريخهم ورسلهم وأشخاص يعرفون. وتحدث القرآن عن النصارى وخاطبهم لأن لهم بقية في يثرب في عصر رسول الله، وذكرهم القرآن بتاريخهم وفرقهم التي ظهرت بعد عيسى وغالت فيه.

ولم يتحدث القرآن عن يسوع لأنه لا علاقة له بتاريخ بني إسرائيل ولا بتاريخ النصارى، وكل الأحداث والأشخاص الذين ليس لهم علاقة بالمخاطب في القرآن لم يتحدث عنهم

القرآن. لذا لم يتحدث القرآن عن ممالك اليمن إلا حملة الفيل، التي كان لها علاقة بمكة وأهلها. ولم يتحدث القرآن عن ممالك العراق العظيمة ولا عن بلاد النيل وحضارتها الغير عادية، ولم يتحدث عن بلاد الشام وعراقتها، إلا أنه تحدث عن الروم (حماة المسيحية) لأنهم ابتدروا حرب المسلمين في الأحزاب وهزموا جيش مؤتة الذي تحدثت عنه سورة الروم. لكنه لم يسمهم المسيحيون لأن هذه التسمية لا علاقة لها بالمسيح الحقيقي عيسى ابن مريم، وإنما هم من تسموا بها. ولو تسمى المجوس بعباد الله وحدثت بينهم وبين المسلمين حادثة تستحق أن يذكرها القرآن فلن يسميهم كتاب الله عباد الله ولكن سيسميهم إما بجنس ملوكهم كما الروم أو بتسمية ملائمة أخرى.

واليوم سنرى بعض ما يقول القرآن عن عيسى ابن مريم باختصار مع بعض الاستنتاجات.

مولده

ولد عيسى في زمن لازالت القدرات الخارقة منتشرة في المجتمع، استمراراً لعصر موسى وما قبله. لذا جاء الحمل بعيسى وولادته بطريقة خارقة للعادة، كأكثر الطرق إقناعاً لهم بأنه رسول لله، لعلهم يؤمنون بما يدعوا له من العودة للدين وتصحيح ما دخله من معتقدات وتفاسير ونصوص باطلة.

فهو قد ولد بلا أب وتكلم معهم كرسول وهو في المهد، ومع ذلك يخبرهم عن نصوص التوراة وكأنه كان مع موسى عندما تلقاها من ربه: (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ(٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ(٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ(٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ(٤٨) وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ.... (٤٩) آل عمران.

أم عيسى

هي مريم ابنة عمران، واحد من الرجال الصالحين أمام الله، الذين اصطفاهم لتكون في ذريتهم الرسالة: (إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(٣٣) آل عمران.

وإبراهيم كان من ذريته أبناء ورسل مثل إسماعيل وإسحاق ويعقوب، وعمران أحد أحفاد إبراهيم، كونه من بني إسرائيل. والقرآن يؤكد أن عمران هو والد مريم أم عيسى: (وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ(٢١) التحريم.

وهناك آية تقول إن مريم، أم عيسى، هي أخت هارون: (يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً(٢٨) مريم.

لكن هل هارون مريم هو أخو موسى الذي أرسل معه لفرعون؟ (ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ(٧٥) يونس.

أم أن هناك هارون آخر غير هارون موسى؟

وسواء كانت مريم أخت لهارون وموسى أو أخت لهارون آخر، فليس مهماً، والمهم هو أنها عاشت في عصر موسى.

وأم عيسى كفلها زكريا، وهو ما يشير إلى أن والديها فارقا الحياة، ولم يكن لها إخوة أحياء عند ولادتها. كما أنها نشأت في رعاية زكريا وكفالته بعد غرق فرعون، وعودة موسى وبني إسرائيل لمصر. واحتمال أن مريم ولدت عندما كان موسى على قيد الحياة، ولما حبلت بعيسى كان موسى قد توفي. (لا شيء مؤكد)

وعيسى لم يرسل بكتاب كما أرسل موسى أو محمد، لأنه لا يحتاج لكتاب. وإنما أوتي البينات، التي ولد وهو يعرفها: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ(٨٧) البقرة.

أليست البينات هي القدرة على بيان نصوص التوراة: (وَلَمَّا جَاء عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(٦٣) الزخرف.

ومن أكثر ما اختلفوا فيه تحريم الحلال أو تحليل الحرام، فجاء عيسى ليبين لهم الحلال والحرام كما في التوراة، التي يبدو أنه قد ضاع قسم منها في ذلك الوقت: (وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ(٥٠) آل عمران.

الحمل بعيسى

قصة الحمل بعيسى بسيطة لكنها غير عادية، تخبرنا عنها سورة مريم. فقد بدأت بخروج مريم للخلاء إلى الشرق من مزارع مصر: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً(١٦)).

وبمجرد ما توارت عن الأنظار ظهر لها مخلوق من مخلوقات الله، بهيئة بشرية: (فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِياً(١٧)).

فخافت أن يكون شخص تعقبها في هذا المكان المتقي المستور عن الأنظار، لكي يفعل بها الفاحشة: (قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِياً(١٨)).

وتقياً لوصف المخلوق، حسب ظن مريم، بأنه كان يحاول أن يتقي ويتخفى لها في مكان منعزل. فطمأنها وأخبرها من يكون: (قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِياً(١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِياً(٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِياً(٢١)).

وخلال لحظات شعرت مريم بالحمل، واقتراب الولادة، فحاولت البحث عن مكان بعيد عن أعين الناس قدر ما يسمح به وقتها: (فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِياً(٢٢)).

وخلال لحظات أخرى فاجأها المخاض، فاستندت لجذع نخلة من النخيل المنتشرة حولها، وعندما أيقنت أنها ستلد، تخيلت ردة فعل قومها، وتمنت لو أنها ماتت قبل ذلك أو لم تخلق أبداً: (فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِياً(٢٣) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِياً(٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِياً(٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِياً(٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِياً(٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِياً(٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِياً(٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِياً(٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَياً(٣١) وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِياً(٣٢)).

والنخل من أشهر الأشجار المثمرة في قرية مصر كما ورد على لسان فرعون وهو يتوعد

السحرة بعد إيمانهم: (قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى(٧١) طه.

وسواءً كان هارون موسى أخ لمريم أم لا، فإن عيسى ولد في فترة تلت وجود موسى مباشرة، فهما من عصر واحد، حتى أن اسميهما متشابهين في الوزن والإيقاع. والأسماء لها دلالات هامة في تحديد المكان والزمان. فمن الملاحظ انتشار أسماء معينة في منطقة دون المناطق الأخرى، حتى في هذا الوقت الذي اختلطت فيه التسميات. ولو أخذنا جزيرة العرب حالياً، فسنلاحظ أن هناك أسماء منتشرة وشائعة في مكة وجدة والمدينة، تختلف عن تلك المنتشرة شمال الجزيرة، أو جنوبها. وأسماء تنتشر في الوسط غير التي تنتشر في الشرق. وأسماء تنتشر في البادية لا وجود لمثلها في الحواضر، والعكس. كما أن ما كان منتشراً في مكة من أسماء زمن الرسول، على سبيل المثال، أصبحت غير معروفة في أزمنة لاحقة، وحلت محلها أسماء مختلفة.

وفي مصر زمن فرعون وموسى، كانت الأسماء المنتشرة، عيسى، موسى، يحيى، زكريا، هارون، قارون، هامان، لقمان، فرعون، أحمد. ولم يعرفوا بعد أسماء كتلك التي كانت منتشرة زمن يسوع وبعد تغرب بني إسرائيل في بلاد أجنبية حيث انتشرت أسماء مثل: أندراوس، بطرس، بولس، يوحنا، فيلبس، برتلماس، متى، لوقا، مارك، توما، يهوذا .. الخ.

بينما كانت الأسماء المشهور زمن إبراهيم تبدأ بالألف مثل: آزر، إبراهيم، إسحاق، إسماعيل، أو الياء مثل: يعقوب، يوسف، والتي لم يعد لها وجود بينهم في مصر، لتغير الزمان والمكان. وسنجد أن الأسماء ستتغير مرة أخرى إلى داوود، طالوت، هاروت، ماروت، في زمان ومكان سليمان .. وهكذا.

ويضاف إلى التشابه في أوزان الأسماء، قرينة أخرى تؤكد أن عيسى كان في عصر موسى، وتلاه مباشرة، وهي: أن المجتمع كان مأخوذاً بالعجائب الخارقة للعادة، فكانت معجزات عصا موسى ويده مناسبة لذلك الزمن، الذي يجيد أهله السحر والأعمال الخارقة، كما فعل السامري. لذا جاء الحمل بعيسى بهذه الطريقة الخارقة، كون الحمل وتكون الجنين والولادة، كلها حدثت في يوم واحد، بل وخلال فترة تغيب مريم في الخلاء. وهذا ما يجعل

اتهامها بالزنا مستحيلاً. ولو استغرق الحمل تسعة أشهر، فلن يصدق أحد أنها لم تحبل به سفاحاً مهما حاولت الدفاع عن نفسها[1].

يضاف لذلك أنها عندما جاءت به تحمله وهو للتو خرج من رحمها، تحدث إليهم، مما جعل أي شك منهم في أنها قد تكون أخفت حملها عنهم طوال الأشهر الماضية، غير وارد.

وكل الخوارق التي صاحبت الحمل وولادة عيسى وما جرى على يديه بعد ذلك، امتداداً لما سبق ورأوه أو عرفوه عن خوارق موسى، وذلك لكي يسهل إقناعهم بقبول كل ما سيبينه لهم عيسى عن معاني نصوص التوراة، وما يضيفه من نصوص نقصت منها. وهذه هي الغاية من خلق عيسى بهذه الطريقة، لكن بني إسرائيل أخذوا العبرة بطريقة خاطئة.

متى بدأ عيسى دعوته

هل بدأ عيسى تجديد دعوة موسى، وتصحيح ما طرأ على التوراة من تغيير، وهو طفل في المهد، أم أنه ترعرع وكبر ولما أصبح رجلاً راشداً، بدأ دعوته؟

ولأن القرآن لا يذكر شيئاً عن عمر عيسى، سنلجأ للمنطق، ونقول عيسى استغرق حمله لحظات، وتكلم في المهد كلام الرجل العاقل الراشد الملم بالتوراة التي جاء يصحح ما أدخل عليها مما ليس منها. وهنا لابد من وضع الاحتمالات، كما يلي:

إما أنه وبعد أن رآه الناس في المهد، نما بسرعة وأصبح بحجم الرجل العاقل الراشد في نفس اليوم واللحظة، وبدأ دعوته. أو أن جسده بقي بحجم الطفل حديث الولادة، لكنه كان يكلم الناس ويصحح التوراة.

أو أنه سكت بعد أن كلم الناس عندما أحضرته أمه بعد ولادته، ونما كأي طفل آخر، ولما تجاوز المراهقة، وأصبح راشداً بعد عشرين أو خمس وعشرين سنة، بدأ يدعوا الناس وينقح التوراة لهم.

ولو أن ما حدث هو الاحتمال الثاني، فإن هناك إمكانية أن الناس سيطول بهم الزمن، ولن يتذكر ما حدث له أثناء ولادته وحديثه في المهد، إلا قلة قليلة ممن بقي على قيد الحياة،

---

[1] أخ فاضل لم أحظ بمعرفته شخصياً، له جهود حثيثة في مناقشة ما أكتب على شبكة الإنترنت وفي مواقع عديدة. وأثناء نقاشه لبعض مواضيع كتاب مسيحية بولس وقسطنطين، سألني إن كان الحمل بيسوع تم في نفس اليوم. واجبته أنه لم يخطر ببالي قبل تلك اللحظة أن أفكر بذلك. والآن وبعد إعادة مراجعة الآيات اتضح لي أن تساؤله في مكانه. هذا الرجل الفاضل يكتب في النت باسم الشايب.

وبذكرى مشوشة. وقد يصدقه البعض منهم. لكن غيرهم سينظرون لعيسى عندما يبدأ دعوته بعد هذه السنين التي قضاها بينهم كإنسان عادي، على أنه شخص يحاول أن يدعوهم لدين باطل يختلف عن دين الله الذي ورثوه. وسينظرون لما يقوم به من قدرات خارقة على أنها نوع من السحر يريد أن يسحرهم به ليصدقوا دعوته الباطلة.

لكن لو أن ما حدث هو أن عيسى تكلم في المهد وهو على شكل طفل وليد، ثم نما بسرعة غير طبيعية، حتى أصبح بهيئة رجل راشد عاقل، مع استمراره بدعوته، كونه لا يحتاج لا للخبرة ولا للحكمة، لأنه ولد وهو يتمتع بهما والدليل كلامه الحكيم وهو في المهد.

في هذه الحالة، من يريد الإيمان سيصدق ويقتنع أنه يقول الحق. بينما سيدخل الشك آخرين، وسيبالغ آخرون برواية ما هو عليه وما يقوم به وكيف حل به وكيف ولد، بقصص مختلفة.

وهؤلاء هم من سيوجد التربة المناسبة لنمو الغلو في شخص عيسى بين الأجيال اللاحقة، الذين لم يعرفوه شخصياً ولا موسى قبله، ولكنهم نشأوا على سماع قصص خيالية لميلاد عيسى وقدراته، لا يمكن أن تصدر إلا من الله، مثل شفاء المرضى وذوي العاهات. ولأن من نقل لهم هذه القصص، بدل أن يقول عن عيسى أنه كان يجعل من الطين على هيئة الطير ويطير وكأنه طائر. نقل للناس أن عيسى كان يخلق الطيور من لحم وعظم وريش حقيقية وتطير أمام أعين الناس.

عندها سيبدأ بعض الناس بالتساؤل: هل هو الله؟

هل هو إله مع الله؟

هل هو ابن لله؟

هكذا ولد الاعتقاد في أن عيسى ابن لله، ثم تطور في أجيال لاحقة بضم مريم لتكون والدة الله الابن، ليكون هناك ثلاثة: الله الأب، الله الأم، والله الابن.

وقد يكون الغلو في عيسى لم ينشأ في مصر، لأن الإسرائيليين هناك رأوا عيسى وموسى، وكانوا على أربع فرق:

١. إما مؤمنون بموسى، ولم يجدوا غضاضة في الإيمان بعيسى.

٢. أو أنهم آمنوا بموسى، ولكنهم ممن أدخل بعض المستحدثات على الدين، وبالتالي فلن

يطيعوا عيسى بالتراجع عن بعض معتقداتهم.

٣. أو أنهم آمنوا بموسى، لكنهم لما رأوا مريم مقبلة عليهم وبين يديها طفل وليد، سارعوا باتهامها: (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً(٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً(٢٨).

وقد يكونوا قد غيروا رأيهم بعد ذلك: (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً(٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً(٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً(٣١) وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً(٣٢).

٤. أو أنهم لم يؤمنوا بموسى، ولم يؤمنوا بعيسى.

وأميل للقول إن عيسى لم يطل به المقام في بني إسرائيل لأنه خلق، بطريقة مختلفة، لمهمة خاصة أنجزها لمن تقبلها، ومن ثم توفي. لذا لم يذكر القرآن أي مواجهة بينه وبين من اعتقد بألوهيته، لأن وقته كان قصيراً جداً بين الناس لدرجة أن فكرة القول بأنه ابن الله، تحتاج لوقت لكي تتبلور، أطول من فترة حياة عيسى، الذي مات قبل أن يبدأ بعض الناس بالجهر باعتقادهم أنه قد يكون ابن لله.

وفيما يلي بعض الآيات التي تحدثت عن عيسى:

(إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ(٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ(٤٦) آل عمران.

لقد أصبح كهلاً، أو بهيئة الكهل، هذا مؤكد، لكن هل بلغ سن الكهولة بنفس عدد السنوات التي يحتاجها الإنسان العادي لبلوغها؟

من المؤكد أنه لم يبق في بطن أمه سوى لحظات، وليس تسعة أشهر.

ومن المؤكد أنه لم يحتج سوى للحظات لكي يتحدث بمنطق العاقل الحكيم، بينما يحتاج الطفل العادي من البشر لسنة تقريباً ليبدأ نطق بعض العبارات البسيطة، ومع السنوات تبدأ حصيلته من المفردات اللغوية تزداد. كما أن الحكمة والرشد تأتي مع تقدم السن والاستفادة من المواقف والخبرات. لقد خلق عيسى بعقلية ناضجة، وذاكرة مكتملة، فلا حاجة له لخبرة السنوات، ولا لحفظ مزيد من الكلمات.

والقرآن لا يذكر أن عيسى ترعرع وكبر حتى أصبح رجلاً راشداً، لكنه يذكر أنه في المهد وكهلاً، وكأنها إشارة إلى أنه انتقل من طور المهد إلى الكهولة، دون المرور بالمراهقة وطيش الشباب، ودون أن يمر بسنوات طويلة.

لقد خلق مختلفاً، وعلمه الله الكتاب، والحكمة، والتوراة والإنجيل، ولم يتعلمها بنفسه أو يتلقاها أو يوحى بها إليه: (وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ(٤٨) آل عمران.

إضافة لذلك: (وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِـي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(٤٩) وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ(٥٠) إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ(٥١) آل عمران.

لقد ولد عيسى ولديه طاقة قادرة على تأثيرات عجيبة، ومن ذلك أن يصمم شكلاً على هيئة الطير ثم ينفخ فيه فيطير كالطير الحقيقي. وهذا يذكرنا بما فعل السامري، عندما قام بتصميم عجل من الذهب، واستطاع أن يجعله يخرج صوت خوار مشابه لخوار البقر. لقد صمم بقرة تتصرف كالبقر الحقيقي. وهو ما يدل على أن ذلك المجتمع يتواجد فيه من لديهم مهارات تصميم وتصنيع أشكال وهيئات بالغة الدقة، كما سبق وذكرنا مراراً.

وحتى المؤمنون من بني إسرائيل في عصر موسى وعيسى بقي الإيمان بالخوارق مسيطراً عليهم، حيث نجد أن القلة من الذين صدقوا عيسى، وهم الحواريين، طلبوا منه أن يدعوا الله لينزل عليهم مائدة من السماء، وكأنها مقابل إيمانهم: (إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(١١٢) قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ(١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(١١٤) قَالَ اللّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ(١١٥) المائدة.

والله جل وعلا أرسل لهم عيسى بطريقة يسهل عليهم فهمها. لكنه يتفوق عليهم بالقدرة

على القيام بأشياء فوق قدرة المصممين والسحرة، كم فعل موسى من قبل، عندما التهمت عصاه كل ما قام السحرة بتصميمه بمهارة فائقة. وعيسى الآن يستطيع أن يبرئ «الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ» وهو ما لا يمكن للسحرة القيام به.

كل هذه القدرات الخارقة التي تثبت أنه يتمتع بمهارات لا يمكن أن يتمتع بها البشر، للتدليل على أنه مرسل من الله، في مهمة خاصة، فهو ليس رسول جديد لبني إسرائيل، بل هو مجدد فقط، ولم يأت بأي شيء جديد لم تذكره التوراة «وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ».

فالهدف هو العودة لما في التوراة، وترك كل ما طرأ عليها وأحدث فيها. ليقتنعوا بأن التوراة بالفعل قد تم التلاعب بنصوصها، وأن بعض ما يعتقدون أنه من دين الله، ليس منه.

ويقول تعالى: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ(٥٩) آل عمران.

فآدم خلق من تراب ثم نفخت فيه الروح فقام رجلاً بالغاً عاقلاً، وكأنه مر بسنوات وتجارب، لدرجة أنه كان يعلم أسماء مخلوقات لله، وهو الذي للتو نهض من العدم، بينما الملائكة الموجودين منذ القدم، لم يعرفوها: (وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَـؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٣١) قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ(٣٣) البقرة.

فعلم عيسى وقدراته لا تحتاج للخبرة ولا للحكمة، لأنه ولد وهو يتمتع بها، مثل آدم، الذي بمجرد أن نفخت فيه الروح كان يعلم أشياء في عالم البشر لا تعرفها الملائكة.

يبشر برسول يأتي من بعده

قبل وفاة عيسى، بشر الناس بأن هناك رسول سيأتي بعده مباشرة: (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ(٦) الصف.

وهذه البشارة امتداد للقدرات التي أودعها الله فيه، حيث أن لديه القدرة على الإخبار بعض ما سيأتي، وهو ما سبق وذكرته سورة آل عمران: (وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(٤٩).

فهو يستطيع أن يتنبأ بما يأكلون خلف جدران بيوتهم، وما تحويه، من متاع ومدخرات. كما أنه تنبأ لهم برسول سيأتي من بعده وحدد اسمه بأنه أحمد. لأن أي شخص يستطيع أن يتوقع أن يأتي بعد عيسى رسول ورسل، لكن لا أحد يستطيع أن يحدد اسم الرسول التالي، إلا من أبلغه الله بذلك، أو لديه قدرة خارقة، مثل عيسى.

وأحمد كان واحداً من رسل بني إسرائيل الذين قص القرآن بعض أخبارهم، وكثيرون غيرهم لم يتحدث القرآن عنهم: (وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً(١٦٤) النساء.

والآية التي تذكر أحمد، حورها المفسرون وكأنها تتحدث عن محمد. ويريدون منا أن نتعامى عن حقيقة أن أحمد اسم، ومحمد اسم آخر، والأسماء لا تعلل، وليس لها معاني. فلا نقول أحمد بمعنى أشكر ومحمد بمعنى مشكر أو مشكور، وبناءً على ذلك يعتبران اسماً واحداً. لأنهما جاءا من الحمد والشكر. إذ لو كان الوضع كذلك فمحمود وحامد وحميد وحمد وحمدون وحمدي وقائمة طويلة من الأسماء التي تشترك في جذر واحد (ح م د) هي اسم واحد. إذاً، محمد ليس أحمد، وكل اسم من هذه الأسماء مستقل بذاته، ولا صلة له بالبقية.

وأحمد بشر به عيسى بني إسرائيل، كواحد من رسلهم، ولا علاقة لمحمد ولا لقريش به. لأن قريش في مكة منذ أيام إبراهيم، بينما بشرى عيسى كانت موجهة لبني إسرائيل في مصر، في عصر موسى وعيسى. ولا يمكن أن يبشر عيسى بني إسرائيل بمجيء محمد لقريش، لأن الغاية من بشرى عيسى هي تأكيد صدقه، وأن ما يقوله لبني إسرائيل، هو ما علمه الله. ومن ذلك أنه سيأتيهم رسول بعده اسمه أحمد، وسيأتي بعده مباشرة، وليس في وقت ما. كما أن أحمد مرسلاً لبني إسرائيل وليس لغيرهم.

وكون عيسى علم أنه سيأتي بعده رسول اسمه أحمد، ويستطيع أن يخبر بني إسرائيل بما في

بيوتهم، لا يعني أنه يستطيع أن يعلم الغيب، ويتنبأ بمجيء رسول يبعث في مكة بعد زمن طويل جداً. لأنه لا فائدة من أن يعلم ذلك، فكل قدراته الفوق عادية تهدف لإثبات أنه رسول من الله لبني إسرائيل، وليس لقريش علاقة بذلك. مثلما أن إرسال محمد لقريش في عصور لاحقة لا علاقة لبني إسرائيل زمن عيسى به.

وكبشر فعيسى لا يمكن أن يكون على علم بمجيء محمد، بل لا يمكن أن يكون قد علم بمجيء سليمان وداوود، ولا أي رسول آخر من الرسل الكثر لبني إسرائيل بعده، ما عدا أحمد، لأن الله أبلغه بذلك، كبرهان على صدق رسالته لمن عاصره. أما البقية من رسل بني إسرائيل فسيرسلون بعده بزمن طويل، ولا حكمة في إبلاغه عنهم.

وعلى القراء أن يتذكروا أن البيئة التي ولد فيها عيسى وموسى عربية اللسان، كما سبق وأثبتنا في بداية الحديث عن مصر. واسم أحمد عربي مثل كل أسماء بني إسرائيل كموسى، عيسى، يحيى، زكريا، هارون، إبراهيم، إسماعيل، وإسحاق. أما نطق موشي، عيسو، زكرايا، آرون، أبرهام، إشماعيل، ويتسحك، فهو نطق فيه عجمة اكتسبها بنو إسرائيل في وقت لاحق من تاريخهم، وبعد شتاتهم، عندما اختلطت ألسنتهم بلغات أخرى، فأصبحت عربيتهم خليط من مفردات لغات شتى، دون قواعد وضوابط خاصة بها. وأصبحت أسماؤهم أسماء البلاد التي انتقلوا إليها واعوجت ألسنتهم.

ولو وافقنا المفسرون أن أحمد هو محمد، فكأننا لم نصدق بأن محمداً رسول الله إلا لأن كتب اليهود شهدت له، وليس لأن الله قال بذلك. بل وأعظم من ذلك هو أننا نضرب بكلام الله الواضح البين عرض الحائط، ونحرف الكلم ونحن نعلم، فالآية تقول عن رسول بني إسرائيل أحمد الذي بشر بمجيئه عيسى أنه جاء وبعث لبني إسرائيل وبلغ رسالته ومات في زمانه، ولنتدبر مرة أخيرة الآية التي أوردت الخبر: (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ(٦) الصف.

فالآية تقول: عيسى أخبر بني إسرائيل أنه سيأتيهم رسول لهم بعده اسمه أحمد.

فأحمد جاء ومات مباشرة بعد عيسى، ومات قبل عصر محمد بفترة تقارب (٢٠٠٠) عام، ولو كان هو محمد فالأحرى أن تبشر به قريش لأنه رسولهم، وليس بني إسرائيل.

وفاته

ما فهمته من الآيات أن عيسى لم يدم به المقام طويلاً بين بني إسرائيل، فهو خلق لمهمة خاصة، ولم يخلق لكي ينشأ كبقية الناس ويتزوج وينجب مثلهم للحفاظ على الجنس البشري. لذا فقد أدى مهمته ثم توفاه الله: (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(٥٥) آل عمران.

ولا أشك للحظة أن «رافعك إلي» لا تعني أنه حي يرزق بجوار الله (تعالى الله عن خلقه علواً كبيراً). وكل ما يحويه الكون عبارة عن خلق لله، وكل مخلوقات الله بعيدةٌ عن ذات الله، الذي لا يحد بمكان ولا زمان. فهو سبحانه ليس داخل ملكه، ولو كان معنى «رافعك إلي» تعني التواجد بقرب الله، فهذا يعني أن الله موجود في مكان محدد، داخل هذا الكون الذي هو خلقه، وأن له جسد .... الخ.

مما يجعلنا نشبه الله بالخلق، مع أنه سبحانه: (فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(١١) الشورى.

وأي صفة لخلق من خلقه فليس لله منها شيء. وعيسى توفاه الله قبل أن يرفع روحه، أي أنه مات، كبقية مخلوقات الله التي ستموت كلها، وستحفظ أرواحها بعلم الله، لتعاد لها الحياة يوم القيامة. ولا يوجد مخلوق حي مستثنى من هذا القانون الإلهي، سواءً كان من البشر أو من غيرهم: (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ(٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ(٢٧) الرحمن.

وحفظ الأرواح لا علاقة له بهذا الكون، لأن هذا الكون سينتهي وينشأ كون جديد للقيامة: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ(٦٨) الزمر.

مما يعني أن ما تطلق عليه الكون هو خلق من خلق الله الذي لا حدود لقدرته، ولو قلنا أن عيسى رفعه الله إليه كجسد وليس نفس، فهذا يعني أن الله داخل الكون في مكان ما، وهذا تحجيم لله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. أو أن عيسى خارج الكون وخارج كل المخلوقات، وهذا كثير في حق المخلوق.

ورفع عيسى لله يعني رفع النفس بعد الوفاة دون الجسد، مثله مثل كل المخلوقات، والدليل في نفس الآية حيث تقول: «إني متوفيك ورافعك إلي».

التثليث

سنحاول التعرف، إن أمكن، على بداية ظهور عقيدة الغلو في عيسى والنظر إليه على أنه ابن لله وثالث ثلاثة. والآيات تقول إن الناس قد انقسموا حيال عيسى إلى ثلاث فرق، كما يلي:

- أناس لم يصدقوه، وهم ممن لم يصدقوا موسى قبله، وهم أكثر بني إسرائيل.
- وأناس أتقياء صدقوا موسى وصدقوه، وهم القلة: (فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ(٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ(٥٣) وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ(٥٤) آل عمران.
- وأناس بنوا حوله عقيدة لم يعلم بها، واعتقدوا أنه ابن الله. وهؤلاء لم يرهم عيسى ولم يسمع بهم أثناء حياته، لأن عقيدتهم احتاجت كغيرها من العقائد المستحدثة، للوقت الكافي للتحول من قصص وأخبار إلى عقيدة.

ويحتمل أن تكون عقيدة الغلو في عيسى واعتباره ابناً لله بدأت في مصر، التي ولد فيها عيسى، واحتمال أنها ولدت في مكان آخر غير مصر.

وأميل إلى أن الغلو في عيسى حدث خارج مصر، حيث أخذ الناس يتناقلون قصصاً وأخباراً عن عيسى بعد موته، وكما هي العادة فالراوي يضيف على القصة ما يزيد من تشويقها في أذن السامع، ويأتي قاص آخر ويقصها على مستمعيه بطريقة يريد أن يوصل بواسطتها فكرة معينة، ويأتي راو آخر، ويضيف للقصة وينقص منها لتتوائم مع الجو العام للمستمعين وما يجب مراعاته في المجلس حسب الأعراف المتبعة. ويأتي راو ويقص ما سمع حسبما فهم هو وليس كما كانت القصة.

وهكذا يتولد من خبر واحد عن عيسى عشرات الأخبار والقصص، عن شخص لم يروه ولم يعرفوه، مما يجعل اختلاق القصص أسهل وأكثر تنوعاً.

والقرآن لا يذكر أن هناك من اعتقد أن عيسى ابن لله أثناء حياته، ولكن الآيات تقول:

(وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ(١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(١١٨) المائدة.

وهذا سؤال افتراضي سيكون يوم القيامة، لعيسى إن كان هو من قال للناس أنه ابن لله أو إله مع الله.

والآيات تظهر من الجواب على لسان عيسى أنه لم يكن يعلم أن الناس قد اعتبروه إلهاً من دون الله أو مع الله « مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ».

وآيات أخرى تقول: (لعن الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ(٧٨).

ولا ذكر للتثليث زمن عيسى، لأن الناس إما مؤمن به أو كافر، لكن أجيال أخرى لم تره بدأت تتخيل عنه غير ذلك لأن الوقت اختلف ولم ير الناس معجزات موسى ولا عيسى لكنهم سمعوا ما حدث بروايات مشوشة.

ومن المؤكد، أن التثليث لم يعتقده الناس بين يوم وليلة، ولكن الفكرة بدأت باعتقاد بعض الناس أن عيسى يستطيع أن يخلق خلقاً حقيقياً لمخلوقات حية. ولأن الخلق لله وحده، فقد ظهر من يقول بأن عيسى كان هو الله، وسورة المائدة تخبرنا عن بداية هذه العقيدة وتطورها: (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ......

مع أن عيسى لم يقل سوى ما كلفه الله به: (.... وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ(٧٢).

ثم جاء من استكبر أن يكون عيسى هو الله خالق كل شيء، لكنه قد يكون ابن لله، فهو إله محدود القدرات، ومريم إله، لأنها أمه، والثالث هو الله القادر على كل شيء، فهم ثلاثة آلهة: (لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا

يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٧٣) أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٧٤) مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ(٧٥).

وهذه الآيات لا تتحدث عن عصر عيسى ولكن عمن جاءوا بعده، وهو لم يعلم بهم. مثلها مثل آية أخرى في نفس سورة المائدة، والتي تقول: (لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَللهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١٧) المائدة.

وسورة المائدة تتحدث لمحمد وتخاطب بني إسرائيل، والنصارى منهم تحديداً، الموجودين في يثرب.

ونفس السورة في آية أخرى تقول: (..... وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ(١١٠).

لقد اتهم عيسى بالسحر والدجل في حياته، لكن لا أحد قال له أو عنه أنه إله أو ابن لله، لأن المعتاد هو أن الغلو بشخص لا يأتي في حياته ولكن بعد عقود من وفاته. فعلي ابن أبي طالب لم يصبح ولياً لله في حياته، ولم تعلم زوجته فاطمة أنها الزهراء في حياتها. ولم يعلم ابن حنبل أو ابن عبد الوهاب أنهما أصبحا بهذه القداسة في حياتهما.

وبما أننا نعتقد جزماً أن قرية فرعون تقع في جنوب غرب جزيرة العرب وقد تكون فيما يعرف اليوم برنية، فقد تتوارد في ذهني تساؤل لا أجد ما يعضده، ويتمثل بحاضرة قديمة من حواضر أودية جنوب غرب جزيرة العرب الهامة، وهي تثليث التي لا تبعد كثيراً عن مصر.

وتثليث اسم قديم، قدم الحاضرة ذاتها، يبدأ بحرف التاء، مثل تبوك، تهامة، تيماء، ولعل أسماء حواضر جنوب غرب جزيرة العرب القديمة دائماً لا تلحقها «أل» التعريف.

والسؤال هو: هل تثليث اسم مكان لا يدل على معنى معين، أم أن له علاقة بالغلو في عيسى وأمه؟

التثليث لو أخذناه كلفظ، فهو من ثلاثة. وبعد عيسى وجدت عقيدة النصارى الذين

يعتقدون أنه ثالث ثلاثة، مع الله (جل جلاله) ومريم أمه. وهنا علينا أن نتذكر الفرق بين عقيدة النصارى وعقيدة من تسموا بالمسيحيين، الذي يعتقدون بالتثليث، لكن يسوع والله والروح القدس، وليس أم يسوع. وهو فارق هام جداً وجذري، لأن النصارى لا يعتبرون ما يسمى «الروح القدس» إلهاً.

ونتساءل: ترى هل ظهرت عقيدة التثليث بعيسى في مصر، وطردوا منها بسبب عقائدهم، فلجأوا لمكان على وادي تثليث، عرف ببلاد التثليث، نسبة لهم؟

مجرد تساؤل لا أملك ما يسنده، ولا ما ينفيه.

النصارى وكيف التبس أمر يسوع على اليهود

بعد غرق فرعون وبعد كتابة موسى للتوراة في وادي طوى قرب المسجد الحرام في مكة، عاد موسى وبني إسرائيل إلى قرية مصر واستمروا يعيشون هناك: وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ(٦١) البقرة.

وقد أضاع بنو إسرائيل التوراة أو بعض الألواح التي كتبت فيها في عصر موسى أو بعد وفاته مباشرة فبعث فيهم عيسى لإعادتهم لدين الله، كما سبق وذكر في اللقاء الماضي. ولم يؤمن بعيسى من بني إسرائيل إلا نفر قليل، هم الحواريون (العائدون للحق). وهم قلة قليلة من بني إسرائيل: فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ(٥٢) آل عمران.

ولابد أن معتقداتهم تحورت بعد موت عيسى مثلهم مثل كل الأمم، واتبعوا تشريعات بشرية بديلة لدين الله، متفرقين لفرق ومذاهب، منها:

- بعضهم اعتقد أن عيسى هو الله: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ(٧٢) المائدة.

- وبعضهم اعتقد أن عيسى ابن الله: وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ(٣٠) براءة.
- وبعضهم اعتقد أن عيسى وأمه آلهة مع الله: لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٧٣) المائدة.

ويمكن ملاحظة أن النصارى لا يعرفون إلهاً اسمه «الروح القدس»، بينما لا يعتبر المسيحيون يسوع هو الله، ولكنهم يعتبرونه ابن لله وثالث ثلاثة مع الله والروح القدس. وهذه الفروق جوهرية بين النصارى والمسيحيين.

وفي عصور لاحقة لما بعد موسى وعيسى تعرضت بلاد بني إسرائيل (قرية مصر) إلى اجتياح أجنبي: وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً(٤) فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً(٥).

وقد تسبب هذا الاجتياح في هروب الكثير منهم وتفرقوا يمنة ويسرة. وبعضهم سلك طريق التجارة القديم المتجه إلى بلاد الشام مروراً بالقرب من مكة ويثرب وخيبر وتيماء ووادي القرى وبقية الحواضر التي قامت بالقرب منه واستقروا فيها، وبعضهم واصلوا مسيرهم لبلاد الشام وبلاد النيل.

وقد استوطن بعض بني إسرائيل يثرب، بعضهم كانوا من نسل من لم يؤمن بعيسى وبعضهم كان من الفرق التي غالت بعيسى، وبقوا حتى هجرة الرسول، وقد خاطبهم القرآن في عدد من السور، وأخبرنا عن معتقداتهم.

ومما قاله القرآن عن بني إسرائيل الذين في يثرب: وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا(١٥٨) النساء.

لقد كانت لديهم اعتقاد أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم، أو أنهم صلبوه.

والآيات تؤكد أن المسيح مات ولم يقتل ولم يصلب.

والآيات تتحدث عن لبس بين بعض أهل الكتاب زمن رسول الله أن المسيح ابن مريم حدث له الذي حدث ليسوع أو أنهم يعتقدون أنه هو يسوع.

أما النصارى في يثرب زمن رسول الله فلم يكن عندهم هذا اللبس.

فمن هم الذين التبس الأمر عليهم؟

آيات سورة النساء السابقة تكمل لتقول: وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩) فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا(١٦٠) النساء.

إذا من التبس عليهم الأمر هم اليهود وليس كل بني إسرائيل.

فكيف حدث اللبس؟

اليهود معتقد (مذهب) استحدث بعد عصر موسى وعيسى، بل قد يكون أول ما ظهر في المملكة التي أسسها داوود. وهم يختلفون في معتقداتهم عن بني إسرائيل الذين تحدروا من أتباع موسى. والمعتقد اليهودي يعتقده أناس من أجناس مختلفة ومنهم قلة قليلة من بني إسرائيل. وهم من وقع السبي على كثير منهم في الحملة العسكرية الفارسية على مملكة داوود (التي تقع في أقصى جنوب جزيرة العرب وليس في فلسطين) واقتيدوا لبابل العراق وبقوا هناك لعشرات السنين. وهم من بدأ بكتابة تاريخهم وهم من كتبوا التلمود. وهم من حلو محل بني إسرائيل كممثلين لدين موسى: ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا(٦) إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا(٧) عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا(٨) بني إسرائيل.

وقد هرب كثير منهم أثناء اجتياح مملكة داوود بعضهم وصل لفلسطين واستوطنها وبعضهم استقر في يثرب مع بني إسرائيل والنصارى.

وبعد أن تحرروا من أسر بابل انتقل بعضهم للعيش في الخزر وأسسوا هناك دولة لهم، والبعض الآخر انتقلوا لفلسطين وانضموا لليهود وبني إسرائيل هناك. وكانت لهم اليد

الطولى على بني إسرائيل منذ ذلك الوقت.

وبما أن ثقافتهم بعصر موسى مشوشة كونهم ليسوا من بني إسرائيل ولم يعيشوا في مصر زمن موسى، وبما أنهم عاشوا في فلسطين التي ظهر فيها يسوع وقتل وصلب نتيجة لإمساك رجال الدين اليهود به قبل تنفيذه لمخططه بقتل الحاكم الروماني وإعلان مملكته، فقد اعتقدت أجيالهم التالية بعد عصر يسوع أن يسوع هو عيسى. وبما أن تواصل اليهود بعضهم مستمر فقد وصل هذا الاعتقاد ليهود يثرب.

فجاء القرآن، ليبين هذا اللبس ويوضح الحقيقة: وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) النساء.

فمريم ليست هي أم يسوع التي تزوجت بيوسف النجار، والتي ظنوا أنها زنت.

وعيسى ليس هو يسوع الذي قتل وصلب بمؤامرة يهودية.

ولكن الأمر التبس عليهم (ولكن شبه لهم). هنا المفسرون دورهم جاء لتشويه الحقيقة كالعادة، فقالوا إن يسوع هو عيسى لكنه عندما حان وقت صلبه ألقى الله شبهه على رجل آخر فصلب ذلك المسكين ونجا يسوع (عيسى)، «مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ».

هكذا حدث اللبس عند اليهود زمن الرسول عليه الصلاة والسلام.

وبعد عصر الفتوح ودخول الكثير من أهل البلاد المفتوحة الإسلام وجلهم من المسيحيين فقد رسخ لديهم أن الحديث عن عيسى في القرآن هو حديث عن يسوع. خاصة أن بقايا النصارى قد انتهى أمرهم إما بالدخول في الإسلام أو الهجرة للبلاد المفتوحة والذوبان في المجتمعات المسيحية.

ومما ساعد على ذلك هو أن المسيحي العادي لا يقرأ كتابه المقدس ليعرف أن يسوع اسم وعيسى اسم آخر. وعندما دخلت الأفواج الأولى من سكان

البلاد المفتوحة إلى الإسلام بقي القرآن بعيداً عنهم. وعندما جاء المفسرون عوضاً عن بيان اللبس رسخوا هذه الأساطير ولم يعد هناك مكان للحقيقة التي توارت عن الأنظار.

وهكذا تحول عيسى ابن مريم إلى يسوع.

ويبقى السؤال التالي:

كيف ألبس يسوع شخصية عيسى ابن مريم في الكتاب المقدس للمسيحيين ونسب له كثير مما كان يتمتع به عيسى؟

كيف أُلبس يسوع شخصية عيسى ابن مريم؟

شخصيتان ذكرتا في الكتاب المقدس للمسيحيين، أحدهما مشهور جداً وهو من قام بالتبشير بشخصية يسوع المصطنعة، والآخر لا يعرفه المسيحي العادي وكثير من رجال دينهم برغم أنه هو من ابتدع فكرة تلبيس يسوع كثير مما كان يتمتع به عيسى وزاد عليه تأليهه وأنه صلب فداء لذنوب البشر.

وفيما يلي تعريف بالرجلين وما فعلاه.

بولس الطرسوسي (واسمه الحقيقي شاؤول)

بولس (أو كما أصبح يعرف بالقديس بولس) رجل ذو شخصية غامضة، لا يُعرف متى ولد ولا أين نشأ على وجه الدقة، ولذا فالكنيسة لا تحبذ التحدث عن تاريخه أو سيرته الذاتية. وهو يعترف في رسائله بأنه حرباء يتلون حسب المناسبات، فهو يهودي مع اليهود، وروماني مع الرومان.

ظهر في فلسطين فجأة بعد سنوات من موت يسوع، الذي لم يره أو يجتمع به في حياته. وقد ولد في طرسوس ذات البيئة الوثنية الإغريقية، ولم يكن من بني إسرائيل، بل إنه لم يعتنق اليهودية إلا بعد أن أصبح رجلاً، ويزعم أنه أصبح من المتقدمين في تلك الديانة (كما يقول الصليبي في البحث عن يسوع).

وأصبح من أكثر الناشطين للقضاء على أتباع يسوع وحركتهم التحررية، حيث تولى منصب رئيس الوكلاء في القدس المكلف بمتابعة أفراد تلك الحركة (كما ذكر الصليبي في كتابه البحث عن يسوع). فطاردهم وقتل وأدخل الكثير منهم السجن. ويقول لوقا عنه: «وأما شاؤول (إسمه الحقيقي قبل أن يغيره إلى بول) فكان يسطو على الكنيسة، ويدخل البيوت ويجر الرجال والنساء ويسلمهم إلى السجن.» (أعمال الرسل: ٨ : ٣)

ويكون أول ما عُرف عنه أنه رجل من رجال أمن الدولة الرومانية في فلسطين، ولديه السلطة التي تخوله لملاحقة أتباع يسوع وسجنهم أو قتلهم في محاولة للقضاء نهائياً على حركتهم التحررية.

وهذا ما يؤكده بولس بلسانه قائلاً: أنا رجل يهودي ولدت في طرسوس كيليكية ولكن ربيت في هذه المدينة مؤدبا عند رجلي غمالائيل على تحقيق الناموس الابوي وكنت غيورا لله كما انتم جميعكم اليوم. واضطهدت (أتباع يسوع) حتى الموت مقيدا ومسلما الى السجون رجالا ونساء. كما يشهد لي ايضا رئيس الكهنة وجميع المشيخة الذين اذ اخذت ايضا منهم رسائل للإخوة والى دمشق ذهبت لآتي بالذين هناك (منهم) الى اورشليم مقيدين لكي يعاقبوا (أعمال الرسل:٢٢ : ٣ - ٥)»

لكن كيف تحول بولس من مطارد لأتباع يسوع إلى مبشر بيسوع؟

حنّايا سبب تحول بولس

يذكر بولس كيف تحولت مشاعره بقوله إن يسوع ظهر له (في المنام) وهو في طريقه إلى دمشق للقبض على مناصري حركة يسوع هناك، ومنذ تلك اللحظة تحول وأصبح المبشر الأول بما عرف فيما بعد بالمسيحية.

وهذا نص ما قاله الكتاب المقدس: «أما شاؤول فكان لم يزل ينفث تهديداً وقتلاً على تلاميذ يسوع. فتقدم إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل (توصيات) إلى دمشق إلى الجماعات حتى إذا وجد أناساً (من أتباع حركة يسوع) في الطريق رجالاً ونساءً يسوقهم موثقين إلى أورشليم. وفي الطريق حدث أنه اقترب إلى دمشق فبغتة أبرق حوله نور من السماء. فسقط على الأرض وسمع صوتاً قائلاً له شاؤول شاؤول لماذا تضطهدني؟ فقال من أنت يا سيد؟ فقال الرب أنا يسوع الذي تضطهده. صعب عليك أن ترفس مناخس. فقال وهو مرتعد ومتحير يا رب ماذا تريد أن أفعل. فقال له الرب قم وادخل المدينة فيقال لك ماذا ينبغي لك أن تفعل (أعمال الرسل: ٩ : ١-٦)

وحسب ظاهر هذا الكلام يكون شاؤول في طريقه لدمشق لمطاردة من فيها من أتباع يسوع والقبض عليهم واقتيادهم لأورشليم ليسجنوا ويحاكموا.

والنص الذي ورد على لسان بولس في أعمال الرسل يقول بأنه قد رأى رؤيا خرافية ظهر فيها يسوع، الذي لم يسبق له أن رآه حياً، ولا يعرف شكله. وطلب منه الكف عن مطاردة أتباعه، وأمره أن يدخل المدينة (دمشق) ليقال له ماذا ينبغي أن يفعل.

ومنطقياً لم يكن على شاؤول إلا أن يكف عن مطاردة أتباع يسوع فقط، لا أن يطلب منه أن يفعل شيئاً آخر. فهو كان يضطهدهم ويقتلهم ويسجنهم، وظهور يسوع المزعوم يفترض أن يكون ليطلب من شاؤول الكف عنهم فقط، أو الانضمام إليهم. لكن ما حدث لشاؤول بعد هذه الرؤيا المزعومة هو أنه تحول إلى مبشر بآراء وأفكار عن يسوع تخالف تماماً ما كان يسوع وأتباعه عليه.

وبدأ شاؤول بنشر أفكاره الجديدة التي منها أن يسوع لم يأت ليخلص اليهود من حكم الغير ويؤسس لهم مملكة مستقلة، كما ورد على لسان يسوع نفسه عندما لم يلتفت للمرأة الكنعانية وقال: لم أرسل إلا إلى خراف إسرائيل الضالة (متى: ١٥ : ٢٤)

ولكنه جاء ليخلص الناس من ذنوبهم ويؤسس لهم مملكة في السماء وليس في الأرض. وهذا يعني أن يستكين الناس ومنهم الإسرائيليون، أتباع يسوع، لحكم الرومان ولا يقوموا بثورات تحررية ضدهم كما حاول يسوع، وكما استمر أتباع يسوع يحاولون من بعده عندما ظهر شاؤول.

وقد اندفع شاؤول بحماس منقطع النظير، كما هي عادته، بنشر أفكار كثيرة جعلت الناس تنسى الغاية الأساسية التي جاء من أجلها يسوع لفلسطين، وهي البحث عن تأسيس مملكة وحكم، وتتذكر ما نسبه إليه شاؤول بعد موته فقط.

والتحول من مندفع لمطاردة أتباع يسوع بدرجة مبالغ فيها، إلى استخدام العقل للتوصل لوسيلة فعالة تهدف لنشر أفكار تتعارض مع ما كان يدعوا به يسوع في حياته، والتزم به إخوته وأتباعه من بعده، ونسبة تلك الأفكار المخالفة إلى يسوع نفسه. يجعل من المستحيل التصديق أن شاؤول، الذي يؤمن بالعنف المبالغ فيه لدرجة التطرف في ملاحقة وتقتيل وسجن أتباع حركة يسوع، يمكن أن يتحول إلى رجل يؤمن بأن الحيلة والعمل السلمي الماكر يؤديان إلى نتائج أكثر فتكاً بحركتهم من العمل المسلح.

فالشخص المتطرف في الاندفاع للعنف البدني عادة لا يملك الدهاء الكافي لاستنتاج أن

نهج وسائل سلمية المظهر ستكون فتاكة أكثر في القضاء على الحركة التي يريد القضاء على أفرادها. ولكن لو تم إقناعه بها من قبل الغير فسيتحمس ويندفع لنشرها، مثلما كان متحمساً ومندفعاً لنهج طريق العنف قبل ذلك.

فمن هو ذاك الشخص الذي اهتدى إلى استخدام شاؤول المندفع، لتنفيذ وسيلة أكثر فاعلية للقضاء النهائي على حركة أتباع يسوع التي تهدف لجمع المؤيدين لها للقيام بثورة على الحكم الروماني، كما رغب يسوع، وتأسيس مملكة إسرائيلية في فلسطين؟

والإجابة على هذا التساؤل لازال موجوداً في ثنايا نصوص الكتاب المقدس المسيحي وبالتحديد في سفر أعمال الرسل حيث نقرأ أن يسوع في تلك الرؤيا المزعومة قد طلب من شاؤول أن يذهب لدمشق ويلتقي رجلاً سيقول له ما ينبغي عليه أن يفعل، وهذا نص ما جاء في أعمال الرسل، الإصحاح الثاني والعشرين: « ١٠ فقلت ماذا افعل يا رب؟ فقال لي الرب قم واذهب الى دمشق وهناك يقال لك عن جميع ما ترتب لك ان تفعل. ١١ واذ كنت لا ابصر من اجل بهاء ذلك النور اقتادني بيدي الذين كانوا معي فجئت الى دمشق. ١٢ ثم ان حنانيا رجلا تقيا حسب الناموس ومشهودا له من جميع اليهود السكان. ١٣ أتى اليّ ووقف وقال لي ايها الاخ شاؤول ابصر. ففي تلك الساعة نظرت اليه. ١٤ فقال: إله آبائنا انتخبك لتعلم مشيئته وتبصر البار وتسمع صوتا من فمه. ١٥ لأنك ستكون له شاهدا لجميع الناس بما رأيت وسمعت. ١٦ والآن لماذا تتوانى؟ قم واعتمد واغسل خطاياك داعيا باسم الرب.»

إذاً، شاؤول لم ير يسوع في الحلم، ولم يقل له ما هي المبادئ الجديدة التي يجب عليه نشرها. وهذه حقيقة هامة يعترف بها شاؤول نفسه، عرضاً.

ولعل النص قد تم التلاعب به، وليكون ما حدث فعلياً هو أن شاؤول قد التقى رجلاً يهودياً آخر، لا يرغب في رؤية مملكة مستقلة للإسرائيليين في فلسطين، ويتمنى القضاء على حركة أتباع يسوع التحررية التي يبدو أنها استمرت كحركة تحررية سرية بعد موت يسوع، وبقيادة إخوته. وهذا الرجل اليهودي يمتلك الذكاء والدهاء والمكر، وكان متابعاً لنشاطات رجال السلطة الرومانية في ملاحقة أتباع يسوع وعلى رأسهم شاؤول طوال العشر سنوات التي تلت موت يسوع، وتوصل إلى قناعة تامة أن الملاحقة والتقتيل لن يضعفا تلك الحركة، بل سيزيد من تعاطف الناس معها، وانضمام أفراد جدد لها.

وأوصله تفكيره الماكر إلى طريقة سلمية، ولكنها فعالة جداً، وكفيلة بالقضاء على حركة أتباع يسوع من الداخل. ولم يكن هناك شخص أكثر ملائمة للقيام بها من شاؤول ذو الشخصية المندفعة.

وقد ورد نصٌ في أعمال الرسل، يؤكد أن حنّانيا هو الذي زعم أنه رأى يسوع في الحلم، وهو الذي أبلغ شاؤول أن الرب قد اختاره لتنفيذ تلك المهمة، وهو من درّسه كل ما يجب عليه أن يفعل.

وهذا هو النص: «١٠ وكان في دمشق تلميذ اسمه حنّانيا. فقال له الرب في رؤيا: يا حنّانيا. فقال هانذا يا رب. ١١ فقال له الرب قم واذهب الى الزقاق الذي يقال له المستقيم واطلب في بيت يهوذا رجلا طرسوسيا اسمه شاؤول. لأنه هو ذا يصلّي. ١٢ وقد رأى في رؤيا رجلا اسمه حنّانيا داخلا وواضعا يده عليه لكي يبصر. ١٣ فأجاب حنّانيا يا رب قد سمعت من كثيرين عن هذا الرجل كم من الشرور فعل بقديسيك في اورشليم. ١٤ وههنا له سلطان من قبل رؤساء الكهنة ان يوثق جميع الذين يدعون باسمك. ١٥ فقال له الرب اذهب. لان هذا لي اناء مختار ليحمل اسمي امام امم وملوك وبني اسرائيل. ١٦ لأني سأريه كم ينبغي ان يتألم من اجل اسمي. ١٧ فمضى حنّانيا ودخل البيت ووضع عليه يديه وقال ايها الاخ شاؤول قد ارسلني الرب يسوع الذي ظهر لك في الطريق الذي جئت فيه لكي تبصر وتمتلئ من الروح القدس. ١٨ فللوقت وقع من عينيه شيء كأنه قشور فأبصر في الحال وقام واعتمد. ١٩ وتناول طعاما فتقوى.» (الإصحاح التاسع)

وهذا هو شاؤول ينقل لنا بلسانه ما حدث في دمشق، قائلاً: ثم إن حنّانيا رجلاً تقياً حسب الناموس ومشهود له من جميع السكان (أي أنه رجل دين يهودي متعصب) أتى إلي ووقف وقال لي أيها الأخ شاؤول أبصر ففي تلك الساعة نظرت إليه فقال إله آبائنا انتخبك لتعلم مشيئته وتبصر البار وتسمع صوتاً من فمه. لأنك ستكون له شاهداً لجميع الناس بما رأيت وسمعت (أعمال الرسل: ٢٢ : ١٢-١٥)

إذاً هو حنّانيا الذي أخضع شاؤول لعملية غسيل دماغي، أوهمه بواسطتها أن إله آباء اليهود، وليس يسوع، قد اختاره لكي ينشر بين الناس أفكاراً جديدة عن يسوع لم يقل بها في حياته ولم يسمع بها أتباعه.

ويكون ما حدث لشاؤول ليس حلماً جعله يغير استراتيجيته حيال أتباع يسوع، ولكنه ذهب إلى دمشق لملاحقة بعض من ينتمون لحركة إخوة يسوع التحررية المحظورة. ولم يكن تغير موقف شاؤول ناتج من قناعته الشخصية، لأن الذي يؤمن بالقضاء على المعارضين بالبطش يعجز عن التفكير بطريقة أخرى، تعتمد على المكر والدهاء، ولكنه تبنى دوراً رسمه له شخص ماكر.

خطة حنّانيا

استغرق تلقين شاؤول الدرس عدة سنوات، وتم تنفيذ الخطة على عدة مراحل:

المرحلة الأولى «الإقناع»

إقناع شاؤول المضطهد الأول لحركة يسوع، أن يسوع قد ظهر لحنّانيا في المنام منزعجاً من اضطهاد شاؤول لأتباعه، ويطلب منه أن يكف عن ذلك، كما يبلغه أن رب اليهود قد اختاره لكي يكون المبشر بمبادئ عن يسوع، مات ولم يبلغها لأتباعه.

وقد صدق شاؤول أن حنّانيا قد رأى يسوع في المنام فعلاً، وقد أختارك رب اليهود. فأعلن إقلاعه عن ملاحقة أتباع يسوع واستعداده لأن يفني بقية حياته في التكفير عن أفعاله السابقة ضدهم. وهو ما يعني أن حنّانيا قد نجح في ترويض شاؤول لقبول وتبني أي مبادئ يتم تلقينها له، ونشرها على أنها لخدمة رب الآباء الذي اختاره لهذه المهمة، دون تساؤل عن صدق هذه المبادئ أو عقلانيتها.

وهكذا أصبح شاؤول عجينة لدنة بين يدي حنّانيا يشكله كيف يشاء.

المرحلة الثانية «ولادة المبادئ»

توصل حنّانيا إلى أن أفضل ما يمكن أن ينسب ليسوع، وهو الرجل الغريب عن فلسطين لأنه جاء منذ سنوات قليلة إليها، هو ما نسبه بعض اليهود في غابر الأيام لأحد أنبياء بني إسرائيل، عيسى، الذي ولد بدون أب، فظن الناس أن والده هو الله، وهي عقيدة لم يسمع بها الناس في فلسطين لأن عيسى كان يعيش في جزيرة العرب، ومات قبل مئات السنين من العصر الذي عاش فيه يسوع. لكن حنّانيا اليهودي سمع بها لأنه على علاقة باليهود داخل جزيرة العرب.

وبما أن الهدف هو القضاء على حركة يسوع التحررية التي يقوم عليها إخوته، والتي تسعى لجمع مؤيدين لهم ليتمكنوا من الثورة على الحكم الروماني في فلسطين وتأسيس الدولة التي صلب بسببها يسوع. فإن من الملائم أن ينسب ليسوع أنه لم يأت ليؤسس دولة دنيوية ولكنه ابن الرب الذي جاء ليقتل على الصليب بإرادة والده (الرب) لكي يخلص الناس من ذنوبهم. فهو لم يكن المخلص للإسرائيليين فقط من حكم الغير، ولكنه المخلص للناس جميعاً من الذنوب.

ولهذا توجب على حنّانيا أن يلقن شاؤول عقيدة النصارى، الغير معروفة لديه، لأنه ولد ونشأ في طرسوس البعيدة عن جزيرة العرب مسافة وثقافة، وعاش في فلسطين التي تنتشر فيها لغات وثقافة يونانية رومانية. وما بقي من عقائد النصارى مكتوب بلغة من لغات جزيرة العرب التي لا يفهمها شاؤول.

ويبدو أن حنّانيا احتاج لبعض المعلومات الإضافية عن عقيدة النصارى، فبعث شاؤول بكتاب إلى موطنهم في جزيرة العرب، لجلب ما يمكن جلبه من معلومات مكتوبة، دون أن يخشى من أن يكتشف شاؤول ما يخطط له لأنه يجهل تلك اللغات.

وقد سافر شاؤول بالفعل إلى الجزيرة العربية كما يقول هو بنفسه: «ولكن لما سر الله الذي أفرزني من بطن أمي ودعاني بنعمته أن يعلن ابنه فيّ لأبشر به بين الأمم، للوقت لم أستشر لحماً ودماً ولا صعدت إلى أورشليم إلى الرسل الذين قبلي، بل انطلقت إلى العربية، ثم رجعت أيضاً غلى دمشق. ثم بعد ثلاث سنين صعدت إلى أورشليم (غلاطية: ١ : ١٥ – ١٨)

لقد ذهب شاؤول إلى العربية يحمل رسالة من حنّانيا إلى يهود هناك، وقد عاد شاؤول ببعض اللفائف المكتوبة وسلمها حنّانيا.

المرحلة الثالثة « التلقين»

ما يؤيد ما ذهبنا إليه أن حنّانيا هو من أوحى لشاؤول أن الرب يدعوه ليكون رسوله للتبشير بالصورة الجديدة ليسوع، أن شاؤول لما عاد من جزيرة العرب، لم يذهب مباشرة لأورشليم، ولم يبدأ بنشر مبادئه، لأنه لا يعرف ماذا سيبشر به حتى تلك اللحظة. بل ذهب إلى دمشق لمقابلة حنّانيا وسلمه اللفائف التي جلبها من بلاد النصارى. وهذا ما يعترف به شاؤول بقوله: « بل انطلقت إلى العربية، ثم رجعت أيضاً إلى دمشق. ثم بعد ثلاث سنين صعدت

إلى أورشليم (غلاطية: ١ : ١٧ – ١٨)

إذا، شاؤول أحضر لفائف مكتوبة من جزيرة العرب (العربية) وسلمها إلى حنّانيا، وبقي شؤول مع حنّانيا في دمشق طوال ثلاث سنوات ولم يعد إلى أورشليم. وخلال السنوات الثلاث درس حنّانيا تلك اللفائف بكل عناية، واستقر رأيه على أن يتم تلبيس يسوع كل ما عرفه عن شخصية عيسى ابن مريم كما اعتقد النصارى القدامى، مع إضافات استوجبها صلب يسوع. وخلط ذلك بما كان يعرف عن الوثنيات المنتشرة في فلسطين وآسيا الصغرى وسوريا وما حولها في ذلك الزمن. وقد بقي شاؤول في دمشق يتلقى ما يلقيه حنّانيا في روعه، لمدة ثلاث سنوات، كما جاء في كلام شاؤول نفسه السابق: « بل انطلقت إلى العربية، ثم رجعت أيضاً إلى دمشق. ثم بعد ثلاث سنين صعدت إلى أورشليم (غلاطية: ١ : ١٧ – ١٨)

المرحلة الرابعة «التبشير»

وبعد أن أستوعب شاؤول ما سيقوم به جيداً، بعد ثلاث سنوات من التوجيه المركز من حنّانيا، غير اسمه إلى بول (بولس) ولابد أن تغيير الاسم تم بناءً على توجيه حنّانيا وضمن خطته الماكرة، ليتم حبك المؤامرة، وينسى الناس شاؤول القديم، الذي ارتبط اسمه بمحاربة حركة أتباع يسوع.

وما إن أعطى حنّانيا الضوء الأخضر لشاؤول (بولس) بالبدء بنشر الأفكار الجديدة حتى سارع بالجهر بها وهو لا يزال في دمشق. ويبدو أن اليهود الذين في دمشق لم يعجبهم ما سمعوا من شاؤول فتآمروا على قتله، لأنه تجديف وكفر مخالف لمعتقداتهم. ولكن بعض من يعمل مع حنّانيا استطاعوا تهريبه خارج أسوار المدينة ليلاً. وهذا نص ما ورد في أعمال الرسل: « وكان شاؤول مع التلاميذ الذين في دمشق اياما.٢٠ وللوقت جعل يكرز في المجامع بالمسيح ان هذا هو ابن الله.٢١ فبهت جميع الذين كانوا يسمعون وقالوا أليس هذا هو الذي اهلك في اورشليم الذين يدعون بهذا الاسم. وقد جاء الى هنا ليسوقهم موثقين الى رؤساء الكهنة.٢٢ واما شاؤول فكان يزداد قوة ويحيّر اليهود الساكنين في دمشق محققا ان هذا هو المسيح.٢٣ ولما تمت ايام كثيرة تشاور اليهود ليقتلوه.٢٤ فعلم شاؤول بمكيدتهم. وكانوا يراقبون الابواب ايضا نهارا وليلا ليقتلوه.٢٥ فأخذه التلاميذ ليلا وانزلوه من

السور مدلين اياه في سل.»

((التلاميذ الذين أدلوه في سلة خارج أسوار دمشق هم من تلاميذ حنّانيا)).

ومن هناك انطلق إلى أورشليم لمقابلة إخوة يسوع الذين يترأس حركتهم يعقوب، عله يقنعهم بالتخلي عن مبادئهم التحررية واعتناق الأفكار الجديدة عن يسوع، ولكنه لم يفلح.

وهذا ما يقوله شاؤول عن تلك الرحلة لأورشليم:١٨ ثم بعد ثلاث سنين صعدت الى اورشليم لأتعرّف ببطرس فمكثت عنده خمسة عشر يوما.١٩ ولكنني لم ار غيره من الرسل الا يعقوب اخا الرب (غلاطية:١)

ولم يبق في أورشليم سوى خمسة عشر يوماً، كما يقول في النص السابق.

أما سبب خروجه من أورشليم فيبدو أنه كان بأمر من حنّانيا، الذي لا يريده أن ينشر مبادئه بين اليهود، وهذا هو الدليل على لسان شاؤول نفسه في الإصحاح الثاني والعشرين من أعمال الرسل: «١٧ وحدث لي بعدما رجعت الى اورشليم وكنت اصلّي في الهيكل أني حصلت في غيبة.١٨ فرأيته قائلا لي أسرع واخرج عاجلا من اورشليم لأنهم لا يقبلون شهادتك عني.»

ويكون شاؤول لم ير رؤياً (غيبة) ولكنه رأى رجلاً حقيقياً أرسله حنّانيا وطلب منه الخروج من أورشليم. وها هو شاؤول يخبرنا أين ذهب: «وبعد ذلك جئت الى اقاليم سورية وكيليكية.» (غلاطية:١:٢١)

وقرار البدء بنشر المبادئ الجديدة حول شخص يسوع في أرض لا تنتشر فيها اليهودية، غاب عن شاؤول الضيق الأفق، بينما كان واضحاً في ذهن المدبر حنّانيا، الذي يرمي للقضاء على حركة تحررية، وليس نشر ديانة جديدة بين اليهود قد تشكل خطراً على عقيدتهم اليهودية.

واختيار كيليكية كان لأسباب مقنعة، منها:

- أنها البلد التي ولد فيها شاؤول، والتي معظم سكانها يعتقدون معتقدات مختلفة، إغريقية ووثنية.
- إذا كان بعض سكان تلك البلاد البعيدة عن أورشليم قد سمع عن محاولة يسوع الثورية الفاشلة ضد الرومان، فقد أصبحت ذكراها ضبابية لديهم، لأنه قد مضى على صلبه

أكثر من عشر سنوات. ولأن معظم سكانها لم يكونوا من اليهود، فهي تمثل بيئة مناسبة للدعوة إلى يسوع مخالف ليسوع الحقيقي. وعندما تنتشر تلك المبادئ فسرعان ما يصل تأثيرها إلى أورشليم، وستنمو على حساب تناسي الناس لشخص يسوع الحقيقي، وهو الهدف الذي سعى حنّانيا لتحقيقه.

وبالفعل نشط شاؤول في دعوته، وبدأ الناس يتسامعون عن شخص ولد في فلسطين قبل أكثر من أربعة عقود من الزمن، من أم عذراء بعد أن التقاها الروح القدس، لتلد يسوع الذي هو ابن الله الوحيد والذي نشأ كما البشر لكي يتعرف الله على نفسيات وطبائع البشر، لأنه لم يتمكن من فهم لماذا استمروا باقتراف الخطايا منذ أن أقدم آدم على عصيان ربه وطاعة الشيطان وتناول الفاكهة التي أمره ربه بعدم أكلها أو الاقتراب منها. وقد اقتنع الأب أن البشر لا يمكنهم الامتناع عن اقتراف الخطيئة، لأنهم جبلوا على ذلك، ولأن الأب هو من خلقهم بهذه الصفة، فيجب عليه أن يصحح خطأه، لأنه لا يمكن أن يحاسب

الناس على اقتراف الخطايا، وقد خلقهم ولديهم صفة اقتراف الخطيئة، التي لا يستطيعون منع أنفسهم بأنفسهم عنها. لذا فقد قرر الأب أن يقتل ابنه الوحيد يسوع، لكي يكون دمه فداء لذنوب وخطايا ومعاصي البشر، وبالتالي فلم يعد فعل الأعمال الصالحة والعبادات هو المعيار الذي بموجبه سيحصل الناس على النعيم أو العذاب في الآخرة كما يقول دين اليهود، واستبدل ذلك بأن الخلاص من العقاب والحصول على النعيم يكون بالإيمان بأن يسوع، ابن الله الوحيد، وأنه مات على الصليب ليس لأنه حاول الثورة على الرومان، كما يحاول إخوته ومن تبعهم الترويج له، ولكن لأن الأب، قد قرر ذلك رأفة بعباده من البشر. وهكذا بفضل دم يسوع أصبحت الحياة بالنسبة للمسيحي أكثر متعة، ولم يعد مطالباً بأي عبادات أو واجبات دينية، مع ضمان نعيم الآخرة.

وبعد أربع عشرة سنة من النشاط المحموم في بقاع كثيرة عاد شاؤول أو بولس إلى أورشليم، وهذا نص كلامه: ثم بعد أربع عشرة سنة صعدت أيضاً (أي مرة أخرى) إلى أورشليم مع برنابا آخذاً معي تيطس أيضاً. (أعمال الرسل: ٢ : ١ – ٢)

ولكن بولس لم يرحب به رجال الدين اليهود، واستمروا يطاردونه، حتى مات أو قتل. ولن نتتبع ما حدث له لأنه لا يهم موضوعنا.

ويكون حنّانيا هو العقل المدبر لبدعة يسوع الجديد، وبولس هو المنفذ لنشر تلك البدعة. ويبدو أن حنّانيا قد مات عندما كان بولس في كيليكية، لأن بولس عندما عاد لم يذهب إلى دمشق لملاقاته، ولم يذكر أنه رآه أو اجتمع به بعد ذلك.

وهكذا بدأ بولس بنشر عقيدة جديدة تعتمد على تلبيس يسوع ما ليس فيه، وأصبحت هذه العقيدة الأساس الذي قامت عليها المسيحية فيما بعد.

- فهو أول من أطلق على يسوع لقب المسيح (Christ). وذلك عندما قال: فليعلم يقيناً جميع بيت إسرائيل أن الله جعل يسوع هذا الذي صلبتموه رباً ومسيحاً. (أعمال الرسل: ٢:٣٦)

- وهو أول من قال بأن يسوع ارتفع إلى السماء، وذلك فيما زعمه بأن يسوع بعد أن تحدث إلى بعض أتباعه:

ارتفع وهم ينظرون. وأخذته سحابة عن أعينهم. وفيما كانوا يشخصون الى السماء وهو منطلق إذا رجلان قد وقفا بهم بلباس ابيض. وقالا ايها الرجال الجليليون ما بالكم واقفين تنظرون الى السماء. إن يسوع هذا الذي ارتفع عنكم الى السماء سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقا الى السماء. حينئذ رجعوا الى اورشليم. (أعمال الرسل: ١: ٦-١٢)

وهو من قال بأنه جلس على يمين الرب (أبوه)، وأن يسوع هو ابن الرب، وأن أمه كانت عذراء عندما حملت به. وهو من أمر بإلغاء الختان والسماح بأكل لحم الخنزير وشرب الخمر.

- وهو الذي ألغى جميع التشريعات الدينية التي كان اليهود يمارسونها على أنها جاءت في التوراة، واعتبر الإيمان بيسوع على أنه المخلص كاف وحده لنجاة المرء، ولا حاجة لأي أعمال أو تشريعات دينية أخرى، وهذا ما قاله: نعلم أن الإنسان لا يتبرر بأعمال الناموس، بل بالإيمان بيسوع المسيح. آمنا نحن أيضاً بيسوع المسيح لنتبرر بإيمان يسوع لا بأعمال الناموس. لأنه بأعمال الناموس لا يتبرر جسد ما. (غلاطية: ٢: ١٦)

((الناموس هو التشريعات الدينية الواردة في التوراة)).

ويقول: «ولكن إن كان بالناموس بر، فالمسيح مات بلا سبب.» (غلاطية:٢: ٢١)

أي أنه إذا كانت تشريعات الدين تنجي من النار فإن موت يسوع على الصليب لم يكن لخلاصنا، ولا فائدة منه لنا. ((يعني أن التمسك بتعاليم اليهود الدينية يجعل المسيحية بلا

معنى، لأن تعاليم اليهود تقوم على التوحيد بينما المسيحية البولسية تقوم على التثليث))

وهكذا تم إلغاء كل التشريعات التي كان يدين بها اليهود.

ونشط بول في تحركاته التبشيرية ما بين عامي (٤٠ - ٧٠م) فقام بالاتصال بروما وبآسيا الوسطى وبعدد من المناطق الأخرى، ويحتفظ لنا كتاب المسيحيين المقدس بـ ١٣ رسالة تنسب لبولس تضمنت تشريعات ومبادئ المسيحية الحالية.

وفي الفترة من (٧٠م) إلى منتصف القرن الثاني الميلادي، ظهرت، فيما يظن دارسوا تاريخ الكتاب المقدس، الكتب الرئيسية للعهد الجديد. وهي كتب تاريخية تتحدث عن الأحداث التي وقعت إبان وجود يسوع، والتي عدلت لتوافق المسار الذي استنه بولس، ومع ذلك بقيت تحتوي على كثير من الحقائق، وقد أوردنا بعضها في بحثنا هذا، لكن رجال الدين يأولون معناها لتتفق مع مبادئ المسيحية الشاؤولية، والمسيحي العادي لا يقرأ كتابه المقدس، ولو قرأ فلا يفكر بما يقرأ. ولم يعد يسمع الناس عن حركة يسوع المُطالبة بتأسيس مملكة إسرائيلية في فلسطين، وحل محلها تلك العقيدة التي رسمها حنّانيا ونشرها بولس وسماها المسيحية.

وطوال ثلاثة قرون لم يتقبل معظم الناس مبادئ بولس الجديدة، ولم يكتب لدعوته النجاح والانتشار كديانة إلا بعد أن اعتنقها الحاكم الروماني قسطنطين في بداية القرن الرابع الميلادي، وعمل على إدخال مناسبات وأعياد دينية وثنية كان يعتقدها في دينه السابق إليها، ليكمل الصورة الحالية للمسيحية التي انتشرت في كل أوروبا وأجزاء أخرى من العالم بقوة الدولة الرومانية صاحبة المبدأ الشهير «القوة تنشئ الحق وتحميه».

وفي الفقرة القادمة سنتعرف على كيف انتشرت المسيحية وكيف تطور المعتقد المسيحي.

مرحلة قسطنطين

العقيدة المسيحية التي ابتدعها اليهودي حنّانيا «الدمشقي»، ونشرها يهودي آخر هو «بول»، وجدت للقضاء نهائياً على دعوة يسوع وإخوته من بعده، الهادفة إلى تأسيس مملكة إسرائيلية لليهود. ولتحل محلها فكرة أن يسوع لم يأت ليخلص اليهود من حكم الرومان ويقيم مملكة لهم، بل جاء ليخلص العالم من ذنوبهم، من خلال دمه المسفوك على الصليب، وبالتالي فمملكة يسوع ستكون في الآخرة، وليست في الدنيا، كما يحلم الإسرائيليون.

وعندما وصل قسطنطين إلى حكم الإمبراطورية الرومانية في العام ٣١٣ كانت مسيحية بولس قد وصلت إلى روما الوثنية. لذا ارتأى الإمبراطور أن يجمع الناس تحت مسمى ديني واحد درءً للمشاكل، فأعلن اعتناقه للمسيحية، ثم عمل على تبنيها ممارسات ومناسبات دينه الوثني السابق، وبدأ بإجبار الغير على اعتناق معتقده الجديد.

ونتيجة لذلك أمر في العام ٣١٨ بقتل أساقفة يتحدرون من اقرباء يسوع، بعد مناظرتهم لأساقفة من روما، لأنهم يؤمنون ببشرية يسوع ويعلمون أنه لم يولد من عذراء ولم يأت ليخلص الناس من ذنوبهم بدمه، بل جاء ليخلصهم من حكم الرومان وتأسيس مملكة لهم في فلسطين.

وهي أفكار تختلف عن مسيحية روما التي يريد قسطنطين أن ينشرها في العالم.

وفي العام ٣٢٥ م عقد أول مجمع كنسي في نيقيه بأمر قسطنطين الذي ترأس جلسات ذلك المجمع، من أجل فرض عقيدة أثناسيوس الرومانية (العقيدة الكاثوليكية فيما بعد) وسحق كل من يعارضها[1].

وكان من أهم القرارات التي أصدرها هذا المجمع ما يلي:

١. أن الذي يترمل من الكهنة لا يتزوج مرة أخرى.

٢. إقرار قانون الإيمان المسيحي الذي ينص على النقاط التالية:

- الإيمان بإله واحد، آب ضابط للكل، خالق السماء والأرض، كل ما يرى وما لا يرى.

(المقصود هنا هو الأب «الله»)

- الإيمان برب واحد يسوع المسيح. وهذا المسيح هو ابن الله الوحيد، المولود من الآب قبل كل الدهور.

(هنا يسوع رب واحد، وفي نفس الوقت مولود وابن للإله الآب)

- وهو (أي يسوع) إله من إله، نور من نور، إله حق من إله حق.

(وهو ما يعني انتفاء أن يكون الله إله واحد كما جاء في الفقرة الأولى من هذا القانون العجيب المستعصي على الفهم)

---

١ المصدر: تاريخ الكنيسة/ الحروب بين الموحدين والثالوثيين - كنائس الله المسيحية ورابط الموقع:
http://www.originalcatholicchurch.org/arabic/s/p268.htm

- وهو (أي يسوع) مولود غير مخلوق، مساوٍ للآب في الجوهر، وبه كان كل شيء.

(أي بواسطة يسوع خلق كل شيء، فهل هذا يعني أنه هو الخالق لكل شيء وليس الأب)

- ومن أجل البشر وخلاصهم من الذنوب، نزل من السماء وتجسد بالروح القدس من مريم العذراء، وصار إنساناً وصلب عنا على عهد بيلاطس البنطي.

(أي أن يسوع كان يعيش في السماء منذ الأزل، ولأن الله عجز عن منع البشر من التوقف عن الخطيئة، ولأنه لم يستطع أن يفهم لماذا يصرون عليها، فقد قرر أن يتعرف على خلقه بأن يبعث فيهم ابنه الوحيد يسوع ليعيش بينهم كبشر، حتى يتمكن الأب من التعرف على مخلوقاته.

ولأنه يجهل مشاعر خلقه منذ الولادة إلى الممات قرر الله أن يمر ابنه بكل الأطوار التي يمر بها خلق الأنسان.

- وقد تألم ومات وقُبر. (الإله يتألم ويموت ويقبر؟)
- ثم قام في اليوم الثالث وصعد إلى السماء وهو الآن جالس عن يمين الأب. (لم يقل هذا القانون هل قام الرب يسوع من الموت من تلقاء نفسه، أم أن الأب قد أعاد إليه الحياة، لأنهم لو قالوا قام من عند نفسه فهو مناقض لكونه مات لأن الميت لا يحيط بما حوله، وإن قالوا أعاده الأب للحياة فهذا يعني أنه مخلوق)
- وسينزل إلى الأرض بمجد عظيم ليدين الأحياء والأموات الذي لا فناء لملكه. (أي أنه سيكون هو الحاكم بين الناس على الأرض، وبينهم يوم القيامة، ويحتل ما تفرد الله به)

وبناء على هذه العقائد التي شرعتها الكنيسة فإن يسوع وإخوته وأمه لم يكونوا مسيحيين، وبالتالي فلن ينالوا الحياة الأبدية، لأنهم ماتوا قبل أن تولد هذه المبادئ بثلاثمئة سنة.

ومنذ ذلك الوقت قامت حملة مسعورة بحرق وإتلاف كل الكتابات التي تقول بأن ليسوع طبيعة بشرية وأنه لم يولد من عذراء، وحلت محلها أربعة كتب هي المعروفة الآن بكتب متى ولوقا ومرقس ويوحنا، إضافة لرسائل بولس وبعض الرسائل الأخرى التي يحتويها كتاب المسيحيين المقدس الحالي. وحتى تلك الكتب تعرضت نصوصها للحذف والإضافة لتتوافق مع العقيدة الجديدة، ولم تبق على حالها المعدلة التي كانت عليها زمن كتابتها.

ونتيجة لجهود قسطنطين والكنيسة الكاثوليكية في روما تم تبني المسيحية للعديد من المناسبات والأعياد الوثنية، والتي سنمر على أهمها في لقاء قادم بعون الله.

الأطوار التي مرت بها المسيحية عبر المجامع الكنسية

توالى عقد المجامع الكنسية عبر القرون التالية لعصر قسطنطين، وفي كل مرة ينعقد أحدها يتمخض عنه قرارات ملزمة بتغيير لعقيدة مسيحية أو إضافة أخرى، وهذه أهم هذه المجامع التي عقدت عبر التاريخ، وكيف ساهمت بتغيير وتطور الديانة المسيحية حتى أصبحت بالصورة التي هي عليه اليوم.

مجمع القسطنطينية الأول في العام ٣٨١

حتى قبل وقت انعقاد ذلك المجمع كان المسيحيون يدينون لإلهين إثنين، هما: الآب والابن (يسوع) ولكن قرارات مجمع القسطنطينية الأول نصت على « أن الروح القدس هو الرب المحيي، المنبثق من الآب، وهو مع الآب والابن يُسجد له ويُمجد.»

ولكن رجال الدين المسيحي لم يبينوا معنى كون الروح القدس، الإله الثالث الجديد، «منبثقاً من الآب» وهل يعني أنه أخ ليسوع بطريقة ما، أم أنه مخلوق من الأب، وبالتالي فهو أقل درجة من الأب ومن ابنه يسوع.

وهكذا أصبح قانون الإيمان المسيحي ينص على الإيمان بوجود ثلاثة آلهة، هم الأب، وابنه المولود الذي لم يخلق، ومعهم الإله الجديد، الروح القدس، المبهم الشخصية، والذي خرج أو انبثق من الأب، ولم يولد، وذلك بعد أكثر من ٣٥٠ سنة على موت يسوع.

مجمع إفسيس عام ٤٣١

عقد هذا المجمع لمناقشة بطريك القسطنطينية، نسطور، حول إنكاره لألوهية يسوع، وإنكار أن يكون للإله أم بشرية، بحجة أن ما يولد من الجسد فهو جسد، وما يولد من الروح فهو روح، وأم يسوع ولدت يسوع كإنسان.

وقد أقر المجمع أن ليسوع طبيعة ومشيئة إلهية واحدة. وأن أمه عذراء ولدته كإله، وبالتالي فيجب أن تدعى أم الإله.

وكان من نتيجة ذلك أن أعلنت كنيسة القسطنطينية انشقاقها عن عقيدة كنيسة روما،

وأصبح هناك عقيدتين للمسيحيين حول المسيح، هما:

١. عقيدة كنيسة روما تؤمن بأن يسوع إله وأمه أم الإله، وهي العقيدة التي عرفت فيما بعد بالكاثوليكية.

٢. عقيدة كنيسة القسطنطينية التي تؤمن بأن يسوع إنسان ولد من إمرأة ولكنه أداة للقدرة الإلهية، وهي العقيدة التي سميت بالأرثوذوكسية.

مجمع إفسس الثاني عام ٤٤٩

وأهم قراراته تمثلت بإعلان أن ليسوع طبيعتين، واحدة إلهية (لاهوت) وأخرى بشرية (ناسوت) وقد امتزجتا معاً، وبالتالي فجسده ليس مساو لأجساد البشر.

مجمع خلقيدونية عام ٤٥١

ومن أهم قرارته:

- إلغاء قرارات المجمع السابق، واعتبار أن ليسوع طبيعتين ومشيئتين، إلهية وبشرية.
- تلى ذلك خلاف آخر بين الكنائس حول الإيمان بالروح القدس كثالث الثليث، والمضاف لقانون الإيمان المسيحي، حيث أضافت الكنيسة الأرثوذوكسية عبارة: «أن الروح القدس منبثق من الأب. بينما أضافت الكاثوليكية عبارة: أن الروح القدس منبثق من الأب والابن».

فأصبح هناك عقائد مسيحية مختلفة هي:

- عقيدة كنيسة الروم الأرثوذوكسية التي تؤمن بطبيعة واحدة بشرية ليسوع، متحدة مع الصفات الإلهية دون اختلاط، وأن الروح القدس منبثق من الأب فقط.
- عقيدة كنيسة القسطنطينية التي تؤمن أن للمسيح طبيعتين ومشيئتين، وأن الروح القدس منبثق من الأب فقط.
- عقيدة كنيسة روما الكاثوليكية التي تؤمن أن للمسيح طبيعتين ومشيئتين، وأن الروح القدس منبثق من الأب والابن معاً.
- ثم انفصلت كنيسة أخرى عن الكاثوليكية بزعامة البطريك يوحنا مارون، الذي أعلن في العام ٦٦٧ أن ليسوع طبيعتين ومشيئة واحدة، وأصبحت تلك العقيدة تعرف

بالمارونية على اسم مؤسسها، وهي التي تنتشر في لبنان حالياً.

وتابع انعقاد المجامع الكنسية، وفي كل اجتماع كانت تضاف عقائد وتشريعات جديدة للمسيحية.

- **تقرر في مجمع روما المنعقد عام ١٢٢٥ أن للبابا حق تملك الغفران ومنحه لمن يشاء.**
- **وأصبح البابا معصوماً بعد انعقاد مجمع روما في العام ١٨٦٩.**

ومن أهم الانشقاقات التي حدثت في المسيحية، الحركة الإصلاحية التي تزعمها مارتن لوثر في القرن السادس عشر، والتي كانت وراء ظهور الكنيسة البروتستانتية التي من أهم معتقداتها ما يلي:

- الإيمان بأن ليسوع مشيئتين وطبيعتين، وأن الروح القدس منبثق من الأب والإبن معاً، مثل الكاثوليك.

لكنهم لا يؤمنون بالاعتراف للكاهن بل إلى الله مباشرة، ولا يؤمنون بأسرار الكنيسة السبعة، ولا تحول قطعة الخبز والخمر الذي يقدمه الكاهن للناس في الكنيسة إلى دم وجسد يسوع.

- يؤمنون بأن يسوع سيعود وسيقضي على الشر، ويحكم العالم ألف سنة بسلام، أو ما يعرف عند اليهود بهر مجدون.

وقد انقسمت البروتستانتية إلى عقائد مختلفة مثلها مثل الكنائس الأخرى، وظهرت فرق بروتستانتية تؤمن بأن اليهود شعب الله المختار، وأن هناك عهد من الله لتوطينهم في فلسطين، وربط الإيمان بالمسيحية بالإيمان أن يسوع سيعود ليؤسس دولة صهيونية في فلسطين والقضاء على معارضيهم الأشرار، وهو ما يعرف بهرمجدون عند اليهود.

ومن البروتستانت ظهر ما يعرف اليوم بالمسيحيين الصهاينة، ومن أهم تأثيراتهم على الكنيسة أن المجمع الفاتيكاني الثاني المنعقد عام ١٩٦٥ قد أعلن تبرئة اليهود من دم يسوع.

ثم ظهرت فرق أحدث، ومنها:

- المسيحيون المولودون من جديد (Born Again Christians)
- وشهود ياهوه (Jehovah's Witnesses).

- المورمون.

وغيرها مئات الفرق المتباينة اليوم.

وليتذكر القراء أن المسيحيون يعتبرون كتاب اليهود المقدس كتاب لهم، برغم أن كتاب اليهود يدعوا للتوحيد بينما تؤمن المسيحية بالتثليث. وبناءً على هذا، فالمسيحي عبارة عن ربع مسيحي وثلاثة أرباع يهودي. ولا يمكن فصل المسيحية عن اليهودية.

إنجيل عيسى

الإنجيل كلمة عربية قديمة من الجذر «نجل» والنجل هو الولد، والإنجيل ليس رسالة منفصلة مستقلة، ولكنه نَجْلٌ للتوارة، ومجدد لها. لكن المفسرون تبنوا ما قال المسيحيون، ورسخوه على أنه الحقيقة.

والمسيحيون يقولون إن كلمة إنجيل الواردة في القرآن مقتبسة من كلمة يونانية هي «Euanghilion» والتي تتكون من مقطعين: «Eu» وتعني جيد أو حقيقي. والمقطع الثاني: «Anghillon» ويعني بشارة. وهذا الوصف لكتب المسيحيين لم يقل به مؤلفو الكتب المسيحية: متى، لوقا، يوحنا، ومرقس، ولم يعرفوه في حياتهم. وإنما سميت به كتب المسيحيين من قبل الكنيسة بعد مئات السنين من تأليف تلك الكتب، وبعد ترجمتها لليونانية. ولعل جستن مارتر (الشهيد) هو أول من استخدم كلمة «Anghillon» وذلك في العام (١٥٠ ميلادية)[١].

ولم يستخدمها يسوع الذي كان لا يعرف اليونانية المنتشرة في بلاد الشام، ولكن لغته كانت الآرامية كما تقول الكنيسة. وبالتالي فالكلمة اليونانية التي زعموا أنها أصل كلمة «إنجيل» العربية غير صحيح.

بل إن كلمة «Anghelos» اليونانية تعني «ملك (أحد الملائكة)» أو روح وشبح، ولا علاقة لها بالإنجيل.

والكلمة المستخدمة لكتب متى ويوحنا ولوقا ومرقس في اللغة الإنجليزية هي: «Gospel»

---

١ قاموس الكتاب المقدس – دائرة المعارف الكتابية المسيحية الذي تنشره الكنيسة القبطية على هذا الرابط: http://st-takla.org/Full-Free-Coptic-Books/FreeCopticBooks-002-Holy-Arabic-Bible-Dictionary/Kamous-Al-Engeel-index.html

وتعني التبشير والنشر. فيقال: The Gospel According to Matthew, Mark, Luke, and john.
لكنها تكتب بالعربية: إنجيل متى، مرقس، لوقا، يوحنا. للإيحاء أن ما كتبه هؤلاء هو الإنجيل. ولتوخي الأمانة الأدبية في الترجمة فيجب أن تكون عناوين الكتب الأربعة بالعربية، كما يلي: البشارة حسب رواية متى، أو لوقا، أو مرقس، أو يوحنا.

والخلاصة: إنجيل كلمة عربية تصف رسالة عيسى بأنها نجل للتوارة ومجددة لها، وليس هناك كتاب مكتوب اسمه الإنجيل، لأن عيسى كان يذكر الناس بتعاليم التوارة التي كتب موسى ولم يقم بإعادة كتابتها.

ولا علاقة للإنجيل (الكلمة العربية) بالكلمة اليونانية التي تعني البشارة والتي بدأ استخدامها للإشارة لكتب المسيحيين بعد (١٥٠) سنة من عصر يسوع، ثم اعتمدتها الكنيسة بعد ذلك. ولم يسمع بها يسوع ولا من في عصره، ولم يستخدمها.

وبعد فقد وصلنا لنهاية بحثنا وفيما يلي تلخيص لما سبق:

المحصلة النهائية

برغم أن دعوة يسوع لإقامة دولة إسرائيلية قد لاقت رواجاً عند بعض الإسرائيليين البسطاء ممن كانوا يعيشون في فلسطين، أملاً في أوضاع أفضل من أوضاعهم المعيشية التي كانوا عليها تحت الحكم الروماني، إلا أن كهنة ورجال دين اليهود من نسل غير إسرائيلي كان لهم رأي مخالف. لأنهم لا يريدون أن يتولى عليهم ملك إسرائيلي، كونهم مستفيدون من وجود الحكم الروماني في فلسطين ويديرون معبد أورشليم. فوقفوا ضد دعوة يسوع حتى استطاعوا أخيراً القبض عليه ومحاكمته بتهمة التخطيط لثورة على الحكم الروماني في البلاد، مما جعل الحاكم بيلاطس يصادق على حكمهم بالموت على يسوع ويأمر بتنفيذه صلباً.

وكان يمكن ليسوع أن يصبح ملكاً لو كان الفريسيون والكهنة من نسل إسرائيلي، حيث سيتضامنون مع دعوته، ومن المحتمل أن يوافق الرومان على تنصيبه ملكاً على اليهود في فلسطين تحت مظلة الحكم الروماني. ولو تم ذلك فلن يسمع الناس على الإطلاق بما أصبح يعرف فيما بعد بالديانة المسيحية.

كما أنه كان بالإمكان أن يعفو الزمن على ما حدث ليسوع ويتناسى التاريخ ما صاحب

وجوده من أحداث، وإن رويت قصص باقتضاب عن رجل غير معروف قدم لفلسطين بحثاً عن استعادة ملك اسرائيلي ولكنه قبض عليه وقتل، لولا أن إخوة يسوع وأتباعه المخلصين قد استمروا في اجتماعاتهم ونشر دعوتهم بسرية على أمل أن تحين لهم الفرصة يوماً ويتمكنوا من تأسيس مملكتهم المنتظرة، عندما تتغير الظروف في فلسطين. وهذا ما يفسر بقاء إخوة يسوع في فلسطين وعدم عودتهم لبلادهم بعد صلبه، وإصرارهم على تكوين تجمع لهم هناك.

وكان يمكن ألا يتمكن أولئك النفر من الثورة على الملك ومع الزمن تنتهي تجمعاتهم وينساهم التاريخ، لولا أن أحد أشد المتحمسين اليهود للدفاع عن مبادئ الكهنة والفريسيين، والمؤيدين لبقاء الحكم الروماني في فلسطين، قد أخذ على عاتقه محاربة أتباع وإخوة يسوع وملاحقة كل من ينتمي إلى تجمعهم. وبناءً على مشورة من رجل دين آخر في دمشق واسمه (حنّانيا)، قرر ذلك اليهودي المتحمس واسمه « شاؤول الذي غيره إلى بول» أن يغير تكتيكه في حرب أتباع يسوع وإخوته. فذهب إلى جزيرة العرب، ومعه توصية من حنّانيا لأناس هناك. واستطاع أن يعود لفلسطين ومعه بعض المعلومات المكتوبة عن تلك العقيدة. وبعد أن درسها حنّانيا أضافها لما يعرفه سابقاً عنها وعن الوثنيات السائدة، وقام بتلبيس كل ذاك الخليط ليسوع، ذلك الغريب الذي قدم لفلسطين، والذي كان قد مات قبل أكثر من عشر سنوات ولم يبق ما يتذكره الناس عنه سوى أنه مات مصلوباً.

وبدأ بولس بنشر ما يود حنّانيا أن يؤمن به الناس عن شخص يسوع لكي يقطع الطريق نهائياً على أتباعه وإخوته للمطالبة بملك اسرائيلي في المستقبل، وذلك إذا ما اعتقد الناس أن يسوع لم يكن مطالباً بملك بل جاء ليفتدي ذنوب البشر بموته على الصليب. فهو مسيح لم يأت ليخلص الإسرائيليون من حكم الرومان، ولكنه مخلص لكل الناس من ذنوبهم.
(المسيح عند اليهود هو رجل يأتي ليخلصهم من حكم الغير ويبني لهم مملكة مستقلة)

وهكذا ولدت المسيحية لغرض القضاء النهائي على مطالبة الإسرائيليين بحكم اليهود، وتخريب حركتهم التحررية من الداخل. ولكنها تطورت وانتشرت بصورة أكبر مما رسمه لها المبشر بها بول نفسه وأستاذه حنّانيا.

وكان يمكن ألا يكتب للديانة المسيحية التي بشر بها بول البقاء لولا أن الحاكم الروماني قد

اعتنقها، في القرون اللاحقة، ومن ثم عمل على نشرها في أوروبا والشرق الأوسط بالقوة التي كانت تتمتع بها روما في ذلك الزمن، بعد أن أغنتها بمناسبات وأعياد دينية متبناة من الوثنيات الأوروبية وغيرها.

ومع تتابع الأجيال تطورت العقيدة المسيحية وتعددت فرقها ومذاهبها مثل اي عقيدة أخرى، ولم يعد يذكر الناس كيف نشأت أو لماذا.

وأصبحت المسيحية اليوم ديانة تختلف في مجملها حتى عن تلك التي نادى بها بول أو القديس بولس كما أصبح يطلق عليه عند المسيحيين.

وكان يمكن أن تعتبر المسيحية وثنية مثل البوذية أو الهندوسية، لو لم تكن ديانة للغرب، الذين يعملون على نشر ثقافتهم وتراثهم وطريقة حياتهم بين الشعوب الأخرى كنوع من التبعية لتفوقهم العلمي والحضاري والإمكانيات المادية. فنجحوا في إظهار المسيحية وكأنها عنواناً للرحمة، وأصبح شعارها «الصليب» رمزاً للشفاء والإنقاذ والنجدة، وتقاطر الناس للدخول فيها برغم أن من أراد التحول للمسيحية فعليه أن يلغي عقله، لأن الأسس التي تقوم عليها هذه الديانة لا تتوافق مع المنطق.

ولا يهمنا أن تسمى بالمسيحية أو أن تسمى بالبولية نسبة لبول الذي نشرها، أو يسوعية نسبة لمن نسبت له. إنما المهم للمسلمين هو أن يعرفوا أن النصارى لا علاقة لهم بمسيحية بولس وقسطنطين، وأن عيسى ابن مريم لا علاقة له بيسوع.

وعلينا تذكر نقطة هامة وهي:

أن المسيحية ليست دين إلهي وأن المسيحيين كفار. وكون المسيحية دين الغرب فقد فرض علينا هذه الأيام ان نعتبر المسيحية دين وأن المسيحي مؤمن بالله ولا يطلق عليه كافر.

والإيمان بوجود الله لا يكفي، والمسيحيون مشركين، لأنهم يعتبرون يسوع والروح القدس ألهة مع الله. فالتثليث بأي شكل كفر بالله، بشهادة كتاب الله: لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٧٣) المائدة.

فكل من يعتقد بالتثليث فهو كافر، سواءً كانوا نصارى (يعتقدون بالله وعيسى وأمه) أو كانوا مسيحيون (تثليثهم يقوم على الأب ويسوع والروح القدس).

بل إن القرآن يكفر اليهود الموحدين الذين يؤمنون بالله إله واحد لا شريك له، لكنهم لا يؤمنون برسالة محمد: وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ(١٠١) البقرة.

فكل من لا يؤمن بالله ويدخل الإسلام فهو كافر: وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ(٨٩) البقرة.

أهم الأعياد والمناسبات وأصولها الوثنية وكيف تم تبنيها في المسيحية

عيد الميلاد (الكريسماس)

كان ساتورن في روما القديمة هو إله الزراعة، وكانت الاحتفالات تقام لهذا الإله كل عام لمدة أسبوع كامل فيما بين السابع عشر من ديسمبر وحتى الخامس والعشرين منه. وخلال هذا الأسبوع كانت محاكم روما تغلق، ويمنع توقيع عقاب على إتلاف الممتلكات أو التعرض للأشخاص. وخلال ذلك الأسبوع الاحتفالي يتم اختيار شخص ممن لديهم نشاطات عدائية ضد الحكومة، ويطعم من كل أصناف المأكولات ويسمح له بممارسة كل أنواع المتع، وفي اليوم الأخير يتم إعدامه، لكي يتم القضاء على قوى الشر والظلام.

وخلال أسبوع الاحتفالات يمارس الناس كل أنواع الموبقات، ومن ذلك شرب المسكرات، والتنقل من بيت لآخر وهم يغنون عراة، وتتعرض النساء والغلمان للاغتصاب العلني، وإلى غير ذلك.

كما يتم خبز أنواع من البسكويت على شكل أجساد بشرية، وهذه العادة لازالت قائمة في بعض مناطق بريطانيا وألمانيا إلى اليوم أثناء الكريسماس.

وقد تم تبني احتفالات عيد الآلهة ساترون وإدخالها للمسيحية على يد رجال الدين في القرن الرابع الميلادي في محاولة لجذب الوثنيين للمسيحية بالسماح لهم بالاحتفال بذلك العيد.

ولكي يتم تبني تلك الاحتفالات كجزء من المسيحية فقد أوحى رجال الدين أن اليوم الأخير من تلك الاحتفالات وهو الخامس والعشرين من ديسمبر، هو اليوم الذي ولد فيه يسوع.

وسمحت الكنيسة بأن تستمر الاحتفالات بالكريسماس بنفس الاحتفالات السابقة للآلهة ساترون، فأستمر المسيحيون يفرطون في شرب المسكرات، والعهر الجنسي الفاضح، والغناء عراة في الشوارع.

وبسبب أصوله الوثنية فقد تم تحريم الكريسماس في ولاية ماساتشوستس الأمريكية في العام ١٦٥٩ وبقي هذا التحريم ساري المفعول حتى العام ١٦٨١.

كما استمرت احتفالات الكريسماس المتضمنة ممارسات غير أخلاقية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

سانتا كلوس

تبدأ قصة سانتا كلوس (Santa Claus) عندما ولد في بارار في آسيا الصغرى رجل اسمه نيكولاس (Nicholas) سنة ٢٧٠ ميلادية، وقد عمل في الكنيسة حتى أصبح مطراناً، وتوفي في السادس من ديسمبر من العام ٣٤٥ ميلادية، ولم يطلق عليه لقب «قديس» إلا في القرن التاسع عشر.

والمطران نيكولاس ممن سعى لانعقاد مجمع نيقيه الكنسي في العام ٣٢٥ ميلادية، حيث تبلورت الصورة الحالية لكتاب المسيحيين المقدس، وتم تبني عقيدة القول بأن يسوع ذو طبيعة واحدة إلهية وليس بشراً، كما كان من توصيات ذلك المجمع أن وصف اليهود بأبناء الشيطان، الذين حكموا على يسوع بالموت.

وفي العام ١٠٨٧ ميلادية قامت مجموعة من البحارة الإيطاليين المتأثرين بأفكار نيكولاس، بحفر قبره، ونقلوا ما تبقى من عظامه إلى مزار في باري الإيطالية، حيث حل محل آلهة أنثى مشهورة بالهبات تسمى «الجدة» أو «باسكا إيبفانيا» والتي كان الناس يعتقدون أنها تملأ جوارب الأطفال بالهدايا. وتحول مزار الجدة إلى مزار لطائفة نيكولاس، وأصبح من المعتاد أن يتبادل أتباع نيكولاس الهدايا في ذكرى وفاته يوم السادس من ديسمبر كل عام.

وسرعان ما انتشرت أراء وطقوس أتباع نيكولاس شمالاً ووجدت من يتبناها في الجماعات الوثنية الألمانية والسلتيك الذين كانوا يعبدون مجموعة من الآلهة يتزعمها إله يسمى وودن (Woden) الذي كان لديه لحية طويلة بيضاء، والذي كان يظهر في إحدى ليالي الخريف في السماء وهو يمتطي حصاناً طائراً.

وقد امتزجت شخصية نيكولاس بشخصية وودن، فاختفى مظهر نيكولاس البحر متوسطي، وأصبح يمتطي حصاناً طائراً، وغير موعد ظهوره من ليالي الخريف إلى السادس من ديسمبر، وارتدى ملابس الشتاء الثقيلة.

وفي محاولة لإقناع الوثنيين في شمال أوروبا بالدخول في المسيحية، قامت الكنيسة الكاثوليكية بتبني عقيدة أتباع نيكولاس، وبدأت تبشر بأنه كان يعطي الهبات والهدايا، ولكن بمناسبة ميلاد المسيح في يوم الخامس والعشرين من ديسمبر وليس في اليوم السادس.

وفي ١٨٠٩ ميلادية كتب الروائي الشهير واشنطون إيرفينج (Washington Irving) رواية حول التراث الألماني بعنوان:

(Knickerbocker History) وقد أشار فيها عدة مرات إلى القديس نيكولاس ذو اللحية الطويلة البيضاء والذي يمتطي الحصان الطائر، مستخدماً اسمه الألماني سانتا كلوس (Santa Claus)

وقد قرأ الرواية الدكتور كليمنت مور البروفيسور في معهد لاهوتي. وفي العام ١٨٢٢ ميلادية نشر البروفيسور قصيدة تتحدث عن صفات سانتا كلوس كما قرأ عنها في رواية واشنطون إيرفينج، مع بعض التحوير. حيث صورت القصيدة سانتا كلوس وهو يهبط على أهل المنزل من مدخنة المدفئة ممتطياً عربة تجرها ثمانية من حيوانات الرنة، بدل الحصان الطائر.

وفيما بين عامي ١٨٦٢ و ١٨٨٦ قام الفنان البافاري توماس ناست (Thomas Nast) برسم ٢٢٠٠ شكل كرتوني لسانتا كلوس أو القديس نيكولاس، معتمداً على قصيدة كليمنت مور.

وكان القديس نيكولاس قبل ذلك يصور بصور شتى، من القديس الصارم الملامح إلى قزم في عباءة راهب. كما أوجد الفنان ناست للقديس نيكولاس بيتاً في رسوماته، في القطب

الشمالي، مليئ بالأقزام، ويحوي قائمة بأسماء كل الأطفال الطيبين والأشرار في العالم.

وبذلك اكتملت صورة سانتا الحالية فيما عدا ملابسه الخارجية الحمراء.

وفي العام ١٩٣١ ميلادية وقعت شركة كوكا كولا عقداً مع الرسام السويدي هادون صندبلوم (Haddon Sundblom) لرسم لوحات إعلانية عن مشروبها باستخدام شخصية سانتا. وقد اختار الفنان هيئة سانتا على شكل صديقه البدين (Lou Prentice) الذي يتمتع بوجه ممتلئ ولكنه بشوش جداً. ولأن شركة كوكا كولا قد أصرت على أن تظهر بدلة سانتا بلون الشركة الأحمر فقد ظهر سانتا كلوس بهيئته الحالية لأول مرة في رسومات الفنان السويدي الدعائية لمشروب الكوكا كولا في ذلك العام. (وهذه المعلومات موجودة في موقع شركة كوكا كولا على الإنترنت)

وهكذا ولد سانتا كلوس، مزيجاً من حملات التبشير الصليبية لتنصير أوروبا، مع آلهة للوثنيين الأوروبيين، إضافة لشخصية وهمية في إعلان تجاري.

شجرة الميلاد

وكما عيد الميلاد فإن شجرة الميلاد أيضا تقليد وثني سمح رجال الدين المسيحي بتبنيه في المسيحية لجذب الوثنيين الأوربيين الذين كانوا يعبدون الأشجار، ويجلبونها لبيوتهم ويزينونها كما تزين شجرة الميلاد الحالية.

قيام يسوع

كان الوثنيون في آسيا الوسطى القدماء يؤمنون بآلهة الطبيعة والإخصاب سيبل (Cybele)، وكان لها عشيق اسمه آتيس (Attis) وهو إله مولود من عذراء، ويقوم من الموت كل سنة مرة في الفترة من ٢٢ – ٢٥ مارس.

وفي حوالي ٢٠٠ قبل الميلاد بدأت هذه المعتقدات الغريبة تظهر في روما، فعرفت الآلهة سيبل ورفيقها أتيس. وأصبح الاعتقاد بأن أتيس مات في يوم الجمعة، فسميت الجمعة السوداء، أو الجمعة الحزينة، وأنه قام من الموت في اليوم الثالث، وكانت الاحتفالات تتواصل كل عام في هذه الأيام الثلاثة.

ولما اعتنق الرومان المسيحية نسبت القيامة ليسوع من أجل اجتذاب الوثنيين للدخول في

المسيحية، فأصبحت الجمعة الحزينة هي التي صلب فيها يسوع، وأصبح يوم الأحد هو اليوم الذي قام به يسوع من الموت.

عيد الفصح (Easter Day)

تم تبنيه للمسيحية من معتقدات وثنية، حيث أن إيستر كانت أم الآلهة للشعوب الأنجلو ساكسونية في شمال أوروبا.

وليس في المسيحية مناسبة دينية واحدة ليس لها أصل وثني على الإطلاق. لذا أصبحت أوروبا الوثنية مصدراً غنياً للمسيحية.

وبهذا نكون قد انتهينا من توضيح أن عيسى ابن مريم رسول الله لبني إسرائيل ليس له علاقة بيسوع لا في المكان ولا في الزمان ولا في المعتقد ولا في التكليف. وأن النصارى لا علاقة لهم بالمسيحيين. وأن كتب المسيحيين المقدسة لا علاقة لها برسالة عيسى ولا إنجيله.

والغاية من هذا هو أن يعي المسلمون هذه الفروق وأن يتعاملوا مع المسيحية على أنها ليست ديانة إلهية تحول أهلها عنها عبر الأجيال كما يحدث مع كل الأديان. ولكنها ديانة بشرية من البداية لا يهمنا أمرها. ولم يكن لديهم كتاب اسمه إنجيل نزل من السماء، ولكن كتبهم عبارة عن تسجيلات تاريخية مشوهة عن فترة يسوع وما حدث له. ولو كف المسيحيون أيديهم وألسنتهم عن المسلمين وكتاب الله القرآن ورسوله محمد ولم يحاولوا نشر خزعبلاتهم بيننا وكأنها دين إلهي، فلن يهمنا أمرهم ولا كتبهم ولا يسوعهم. مع الإبقاء على التعامل الإنساني مع المسيحيين المسالمين كما يجب أن نتعامل مع كل أهل الأرض بمختلف عقائدهم. دون أن نحترم تلك العقيدة المختلقة أو ننظر ليسوع كنظرة تبجيل كما ننظر لرسل الله عليهم الصلاة والسلام، أو نترجم عيسى في القرآن إلى Jesus في الترجمات الأجنبية بدل Esau أو Esa كما هو بالفعل[1].

[1] المصادر التي استقينا منها ما ورد في هذه الفقرة هي: القرآن الكريم، الكتاب المقدس/ طباعة ونشر جمعية الكتاب المقدس في الشرق الأدنى. هيم ماكابي/ بولس وتحريف المسيحية / ترجمة سميرة عزمي الزين/ منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية. شارل جنيبير، أستاذ المسيحية ورئيس قسم تاريخ الأديان، جامعة باريس / المسيحية « نشأتها وتطورها» / ترجمة الدكتور عبدالحليم محمود / منشورات المكتبة العصرية / صيدا، لبنان. أندريه نايتون وإدغار ويند وكارل غوستاف يونج / الأصول الوثنية للمسيحية/ ترجمة سميرة عزمي الزين/ منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية. د. إدوارد / م.هـ. بوب/ ت. رولينغ / قاموس الآلهة والأساطير/ ترجمة محمد وحيد خياطة. خليل ابن مخائيل البدوي / الكنيسة الكاثوليكية / السنة الثانية، الجزء الأول عام ١٨٨٩/ المطبعة الكاثوليكية/ بيروت. ألكسندر كرافتشوك / الوثنية والمسيحية « مرحلة الصراع الحاسمة وإيقاف الأولومبيادات في العصر القديم عام ٣٩٣م» / ترجمة: د. كبرو لحدو / الناشر: دار الحصاد باربرا براون / نظرة

اكذوبة شعب الله المختار

قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآَخِرَةُ عِندَ اللّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٩٤) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالمِينَ(٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ(٩٦) البقرة.

الآيات تنفي أي تميز لليهود عند الله وتؤكد أنهم كفار.

وتعود السورة لتأكيد ما سبق وأشارت له الآيات: (٩٤-٩٦) وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(١١٢).

بنو إسرائيل - كيهود اليوم - يعتقدون أن الله اختارهم وفضلهم على كل البشر، وبالتالي هم وحدهم من سيدخل الجنة. كما أن هذا الاعتقاد يعتقده النصارى في يثرب، والآية تنفي هذا الاعتقاد وتؤكد أن الجنة لمن أسلم وجهه لله على الطريقة المحمدية «الإسلام».

وتقول سورة المائدة: وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ(١٨).

الآية تنفي نفياً قاطعاً أن يكون اليهود أو النصارى أو غيرهم شعباً مختاراً لله، لأن الله جل وعلا خلق البشر سواسية وليس بينهم من يقربه الله أكثر من بعض وهو الغني عن كل خلقه.

أول من آمن بالإسلام من يثرب كان رجلاً من بني اسرائيل

قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ

عن قرب في المسيحية / ترجمة المهندس مناف حسين الياسري. مقالات عن تاريخ الكنيسة / المصدر كنائس الله المسيحية / رابط: http://www.originalcatholicchurch.org/arabic/s/p268.htm

موقع شركة كوكا كولا، وهذا رابطه:
http://www.coca-colacompany.com/holidays/the-true-history-of-the-modern-day-santa-claus

عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ(١١) وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ(١٢) الأحقاف.

أول مرة يذكر القرآن أن أحد بني إسرائيل قد آمن برسالة محمد، وهو دليل موثق في أن أول من أسلم من خارج مكة بعد تغير خطاب الدعوة كان من بني إسرائيل (يثرب)، ولم يكن خزرجياً أو أوسياً، كما تزعم كتب السير. وسنرى أن القرآن لم يذكر أبداً أن الأوس أو الخزرج هم أول من أسلم من يثرب، بل ستؤكد السور على أن بعض بني إسرائيل هم أول من أسلم وبالتالي هم من نقل الإسلام ونشره في يثرب. وقد تقبله غالبية الأوس والخزرج ورفضه غالبية أهل الكتاب، تبعاً لسنة الأولين التي تنص على أن من يقبل الدين هم المستضعفون ومن ليس لهم مصالح دنيوية تذكر.

الإيمان لا يعني إعلان الإسلام

وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ(٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(٢٧) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٢٩) البقرة.

الدخول في الإسلام لا يعني التلفظ بالشهادتين في جو احتفالي وإعطاء شهادة وتغيير اسم المسلم الجديد. لكنه عقد اتفاق وعهد مع الله أن يطيع كل أوامره وينتهي عن كل نواهيه، مقابل جنة في الآخرة وسعادة في الدنيا.

تعريف المسلم

الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ(٦٩) الزخرف.

الإيمان بالإسلام وبالتالي فليس الإيمان أعلى درجات الإسلام. بل الإيمان يقين واعتقاد والإسلام هو الدين الذي علينا أن نؤمن به. فالمسلم مؤمن بالإسلام.

الدعوة بلسان المرسل لهم

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا(٩٧) مريم.

كل رسول أرسل بلسان القوم المرسل لهم ويكون واحداً منهم نشأ بينهم ويعرفونه حق المعرفة.

وتقول سورة إبراهيم: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٤).

فكيف يكون الإسلام عربياً ويكون لكل الناس بألسنتهم المختلفة؟

لا لبس في هذا.

فرسالة أي رسول تكون بلسان قومه الذين يبعث فيهم، وهذا ما حدث للرسول محمد فقد أرسل بلسان عربي مبين وهو لسان من بعث فيهم وهم قريش، وهو لسان أهل يثرب وما حولها، والذين كانت لغتهم هي نفس اللغة التي نزل بها القرآن ولو كانوا من بني إسرائيل أو يهود أو نصارى أو غيرهم.

والدعوة للإيمان هي التي تبدأ بها رسالة الرسول، وهي التي تكون بلسان قوم الرسول. بينما الدين هو التشريعات، وهذه يمكن أن تقال بأي لغة. ودعوة محمد بدأت لقومه لأنه بعث فيهم وبين ظهرانيهم. ولم يؤمن في مكة إلا نفر قليل لم تسمح أعدادهم بنزول التشريعات. ولو توفي رسول الله والدعوة موجهة لقريش فقط، فلن يكون هناك إسلام. لأن الإسلام (الممثل بالتشريعات) لم تبدأ السور فرضه إلا بعد أن تكونت جالية مسلمة في يثرب، دعا لها نفر ممن أسلم من بني إسرائيل، واستجاب لها غالبية الأوس والخزرج وقلة من أهل الكتاب. ثم استكمل الدين بعد الهجرة في المدينة بعد دعوة صريحة لأهل يثرب من أهل الكتاب للدخول في الإسلام.

فالدعوة بدأت كأي رسالة بلسان قوم الرسول، لكن الدين الإسلامي المتمثل بالتشريعات، فمطلوب من كل أهل الأرض. ويمكن تبليغهم بأي لغة هيئة الصلاة والصوم، وأن الكبائر موردة للنار والأعمال الصالحة موجبة للجنة.

والخطاب الدعوي يتوقف بعد أن تفرض التشريعات. لأن الدعوة يشترط لها أن تكون بلغة

من أرسل الرسول منهم لكي يفهموا ما يقول، ليؤمنوا. لكن بعد فرض التشريعات فإن الدعوة لا تكون بخطاب دعوي، ولكن بتقديم أوامر الدين ونواهيه للناس. وبهذا ليس من الضروري أن يكون الدين (التشريعات) بلغة قوم الرسول، ولا يشترط له لغة معينة. لأنه يمكن ترجمة أوامر الدين ونواهيه لأي لغة.

وكل المطلوب من المسلم الأعجمي أن يحفظ سورة الفاتحة للصلاة، وأن يعرف ما يقال في الصلاة ومعانيها، ولا شيء أكثر من ذلك.

وله الخيار فيما بعد إن رغب في تعلم العربية لقراءة القرآن بلغته.

واللغة لم تكن عائقاً أبداً، إلا لمن يبحث عن أي شيء للنيل من الإسلام. والمستشرقون الذين يثيرون أن الإسلام للعرب لأنه نزل بالعربية يتناسون أن دينهم المسيحي يعتمد اللغة اللاتينية وهي لغة ميتة، ولم تكن عائقاً لبقاء الكنيسة. فما بالك بالعربية اللغة الحية والتي تعتبر أغنى لغات العالم وأكثرها حيوية وأقدم لغة منطوقة على الإطلاق لمن يتحرى التجرد.

لكن من لا يرغب في اتباع الحق سيبرر لنفسه رفضه ومحاولة التشكيك، ولو بتبريرات بعيدة عن المنطق. وقد سبق المستشرقين وكتب التراث، كل الأمم السابقة التي تبرر تمسكها بموروثها ورفضها للدعوة بتبريرات تصل لحد الإسفاف، وشبيهة بما يثير المستشرقون. وفيما يلي بعض هذه التبريرات التي قالت بها قريش:

تقول سورة فصلت: مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ(٤٣) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ(٤٤).

قريش نزل عليهم القرآن بالعربية، فما كان منهم إلا أن قالوا: لماذا لم ينزل بالعربي والأجنبي؟ ولو نزل القرآن بلغة أعجمية لقالوا لماذا لم ينزل بالعربية: وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ(١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ(١٩٩) كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ(٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ(٢٠١) الشعراء.

ولما كان القرآن ينزل سورة سورة ويتفاعل مع الأحداث، قالت قريش: لماذا لا ينزل دفعة واحدة: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ

تَرْتِيلاً(٣٢) الفرقان.

ولو نزل جملة واحدة لقالت قريش لماذا لم ينزل مفرقاً؟

ولما بدأ الرسول بدعوة كل الناس غير قريش، قالت قريش لو كان ما تقول من عند الله لأرسل الله لكل قرية رسولاً بدل أن يرسلك لكل القرى: وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً(٥٠) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً(٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً(٥٢) الفرقان.

ولو أرسل الله لكل قرية رسولاً لقالت قريش: لماذا لم يرسل الله رسولاً واحداً للجميع؟ وهكذا...

وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ(٧١) المؤمنون.

الدين كل لا يتجزأ وعصيان أمر واحد لله مساوٍ للكفر

أي أمر مباشر من الله فهو واجب الطاعة، وأي نهي مباشر منه سبحانه فيجب الابتعاد عنه، وكل من يخالف أمر الله عالماً بالحكم فهو في النار ولو كان يؤمن بالله ورسله.

وتخبرنا سورة «ص» أن إبليس المؤمن بالله وأحد ملائكته قد كفر، ليس بوجود الله ولكن بعصيانه أمراً واحداً له سبحانه: إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ(٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ(٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ(٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ(٧٤) ص.

وهذا دليل واضح بين على أن كل من يعصي أمراً لله أو يعمل بخلافه وهو يعلم بحرمته وما يتوجب على عصيانه فهو في النار، حتى لو آمن بالله ورسوله. وهو ما ينطبق على مقترف الكبيرة وهو عالم بحرمتها ووعيد من يقترفها، فهو في النار ولو استمر بعمل الطاعات. فالدين كل لا يتجزأ، ولا يجزئ بعضه عن كله. كما أن الدين ليس إيماناً وعبادات فقط، ولكنه استسلام تام لكل أمر أو نهي من الله جل شأنه.

وتقول سورة البقرة في حديثها عن مسلمة يثرب الذين يظهرون الإيمان ويؤدون الصلاة: الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي

الأَرْضِ أُولَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(٢٧) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٨).

فهم كفار برغم إعلانهم الإسلام، لأنهم نقضوا عهد الله وميثاقه المتمثل بقبولهم الإسلام. وقبول الإسلام يعني أن توافق على طاعة كل أمر لله وتنتهي عن كل نهي نهى الله عنه طوال حياتك. وأي مخالفة لأمر أو نهي فهو نقض للميثاق مع الله مساوٍ للكفر ومصير صاحبه النار كالكافر ولو سماه المسلمون شيخ المؤمنين والإسلام.

وتقول سورة النساء: إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً(٣١).

اجتناب الكبائر شرط لازم لدخول الجنة، ولا يمكن دخول الجنة مع الاستمرار على كبيرة أو كبائر.

وكتب التراث تحدثت بكلام كثير مختلف ومتخالف عن مرتكب الكبيرة، لن نتطرق لتفاصيله لأنه قول بشر لا يغني عن الحق شيئاً. ومجمله أن المسلم يمكن أن يرتكب كبيرة وكبائر ويصر عليها ويغفر له متى تاب قبل أن يحضره الموت. وحتى لو لم يتب ومات فسيجد رسول الله يوم القيامة ليشفع له ويدخل الجنة. وحتى لو لم يشفع له الرسول، ودخل المسلم النار فسيعذب على قدر ذنوبه ثم يخرج ويدخل الجنة.

وسنكتفي باقتباس فقرة من كتاب الحديث والقرآن بعنوان:

يخرج من النار من كان في قلبه حبة خردل من إيمان

حدَّثنا إسماعيلُ قال: حدَّثني مالكٌ عن عمرِو بنِ يحيى المازنيِّ عن أبيه عنْ أبي سعيد الخُدْريِّ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَدْخُلُ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ وأهلُ النارِ النارَ، ثمَّ يقولُ اللهُ تعالى أخرجوا مَنْ كانَ في قلبِهِ مثقالُ حبَّةٍ مِنْ خردَلٍ مِنْ إيمانٍ، فيُخرجونَ منها قدِ اسْوَدُّوا فيُلْقَوْنَ في نهرِ الحيا - أو الحياةِ، شكَّ مالكٌ - فينبتُون كما تنبُتُ الحِبَّةُ في جانبِ السَّيْلِ، ألم ترَ أنَّها تخرُجُ صفراءَ مُلْتَوِيَةً؟». (رواه البخاري في باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال- كتاب الإيمان)

مناقشة النص

إذا كان الحديث قال به الرسول، فمن أخبره بخبر الجنة والنار، وهما من عالم القيامة الذي لم يخلق بعد، بشهادة القرآن الكريم: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ. وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً. فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ. وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ. وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ. يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ(١٣-١٨) الحاقة.

وعندما يحدث ذلك سيكون هناك كون جديد غير هذا الكون: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ(٤٨) إبراهيم.

وسيضم ذلك الكون الجنة والنار: وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) آل عمران.

وكل ما سيحدث في يوم القيامة هو من عالم الغيب، الذي تفرد الله سبحانه بعلمه لوحده: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً (٢٦) الجن.

والرسول لو عصى ربه عذب وهو رسول الله: قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢٦) الأنعام.

وهو عليه الصلاة والسلام لا يعلم ما سيكون يوم القيامة وما سيحل بالناس: قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩) الأحقاف.

ونعود للحديث الذي يقول: " فَيُخْرَجونَ منها قدِ اسْوَدّوا فيُلْقَوْنَ في نَهرِ الحَيا- أو الحَياةِ" أي أنهم أخرجوا وهم على هيئاتهم، ولكن سودت ألوانهم النار، فيكون إلقاؤهم في النهر لكي ينظفهم وتعود ألوانهم لحالها الطبيعية قبل دخولهم النار.

لكن الحديث يناقض نفسه بالقول: " فَيَنْبُتُون كما تَنْبُتُ الحِبَّةُ في جانِبِ السَّيْلِ، ألَمْ تَرَ أنَّها تَخْرُجُ صَفْراءَ مُلْتَوِيَةً؟" مما يعني أنه قد أعيد خلقهم من جديد، وأنبتوا كما تنبت الحبة في جانب السيل. وهذا يناقض الكلام السابق الذي ينص على أنهم كانوا مخلوقين وبهيئات ولكن النار سودتهم.

والقرآن الكريم يخالف هذه التخاريف وينص بكل وضوح على أن الخلق سينشئون جميعاً في وقت واحد يوم القيامة: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (فاطر: ٥١)

ثم يحاسبون: ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (الأنعام: ٦٢)

وبعد الحساب يكون المصير، فمن حقت عليه الشقاوة، بما كسبت يداه، فهو في النار، ومن حقت له السعادة، فهو في الجنة، ولن يكون هناك خلق ثالث، ولن ينبتوا كما تنبت الحبة في جانب السيل صفراء ملتوية.

يقول تعالى: كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (آل عمران: ١٨٥)

ومن يدخل النار بعد الحساب فسيخلد فيها ولن يخرج منها، ولو كان بسبب سيئة (كبيرة) واحدة داوم عليها ولم يتب: بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقرة: ٨١)

وستكون وجوه من حكم عليهم بالنار مسودة مجازاً، أي مكفهرة، وليست سوداء من الاحتراق، لأن النار لم تحرقها بعد. يقول تعالى: وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (الزمر: ٦٠)

والاعتقاد بالخروج من النار، من عقائد بني إسرائيل، فهم من قال إن صاحب الكبيرة يعذب فترة في النار ويخرج، وتبنتها كتب التراث: وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٨٠) بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيـئَتُهُ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٨١) وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٨٢) البقرة.

والآيات تنفي هذا الاعتقاد، وتقول بكل وضوح. إن زعم بني إسرائيل ليس له مصدر، وهو تَقَوُّلٌ على الله ما لم يقل. فالله جل شأنه يؤكد أن من اكتسب خطيئة (كبيرة)، فسيخلد في النار ولن يخرج منها ولو أعلن الإيمان.

وأن من التزم العمل الصالح والبعد عن الكبائر مع الإيمان فسيخلد في الجنة[1].

[1] انظر فقرة: الجنة مضمونة لمن آمن وعمل صالحاً.

الكبيرة واحدة سواء عملت في الخفاء أو في العلن

وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً(٣٦) بني إسرائيل.

صحيفة الأعمال آلية مودعة في النفس، تسجل كل ما يصدر من الإنسان عبر حواسه الخمس، وسيسأل عن كل ما صدر منه وفكر به. والآية تقول: انتبه! وراقب كل ما يصدر منك وتفكر به لأن ما لا يراه الناس أو يخفى عليهم يسجل وستسأل عنه.

وكل مخالفة دينية أو ذنب يصدر من الإنسان في خلوته وبعيداً عن الناس سيحاسب عنه يوم القيامة دون تخفيف. وهو ما ينفي ما يشاع بين الناس أن التخفي لاقتراف الذنب أخف من المجاهرة به.

وتقول سورة الرعد: عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ(٩) سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ(١٠).

ويجب أن تحل ثقافة جديدة عند المسلمين مفادها أن المسلم لا يرتكب الكبائر ولو لم يشاهده أحد، لأن صحيفة أعماله ستسجل ما اقترف وسيُسأل عنه: أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠) مريم.

ولأن من يقترف الكبيرة عالماً بحرمتها سيدخل النار ولو أخفاها عن الناس: قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٣) الأعراف.

الكافر والعاصي يمني نفسه بالغفران

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً(٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً(٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً(٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً(٨٠) مريم.

هذا القرشي يعتقد أنه إن كان هناك بعث فسيدخله الله الجنة لأنه يعتبر في الدنيا من خيرة رجال المجتمع. وهذا الشعور موجود عند كل الطغاة والعصاة، يتبنونه لتبرير عصيانهم.

ولعله من خيار رجال قريش وأكرمهم. وهذا الشعور هو نفسه عند البعض اليوم الذين يقولون كيف سيعذب الله مخترع البنسلين أو الإنترنت على سبيل المثال بينما يدخل الجنة ملتح ينشر الخزعبلات فقط لأنه مسلم. وهذا الفهم قاصر، فالله لن يدخل الناس الجنة بمجرد إعلانهم الإسلام، وكثير ممن يعلن الإسلام سيخلد في النار. فالجنة لمن آمن وعمل صالحاً. والعمل الصالح يشمل أوامر القرآن إضافة للأعمال الجليلة الدنيوية التي يستطيع الإنسان القيام بها. ولو أن مخترع البنسلين على سبيل المثال مسلم تقي الإيمان فهو قد قام باكتشافه لخدمة البشرية لوجه الله، وليس للشهرة والحصول على التكريم. لكن لو أن شخصاً يعتقد بوجود الله لكنه ليس مسلماً وقام بخدمات جليلة للبشرية فهذا ليس كافياً للجنة. فهو لم يقم بأعماله لوجه الله، ولكن من أجل الشهرة والتفوق الشخصي وقد حصل عليه في الدنيا، ولن يكون له في الآخرة من خلاق.

الإنسان يقرر هو مصيره بنفسه، ولن يعذر لكفره لأي سبب، مثل قوله إن الله لو أراد هدايته لهداه، وهو ما ستستمر قريش بتكراره في سور لاحقة كما ورد في سورة الأنعام: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ(١٤٨).

وتقول سورة القيامة: بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ(١٥).

الإنسان يعرف جيداً الطريق التي يختار. ولكنه جبل على اختلاق الأعذار لكيلا يؤمن، أو إن كان مسلماً بالوراثة فيختلق الأعذار لئلا يقوم بالواجبات الدينية أو يستسهل اقتراف الكبائر، ظناً منه أن أعذاره ستقبل عند الله.

وهذا مشاهد بيننا، فالذي يشرب الخمر مثلاً يحاول أن يقنع نفسه أن قليلاً منها لن يكون كبيرة، أو أن صلاته وقيامه بكل الطاعات الأخرى سيشفع له ولن يدخل النار بسبب شرب قليل من الخمر أو ملامسة امرأة دون المعاشرة الجنسية أو شيء من هذا القبيل.

والآية تقول هذه الأعذار لن تقبل ولن تخفف من الذنب، كما أن الإنسان نفسه يعلم في قرارة نفسه أن هذه الأعذار ليست مبرراً كافياً، ومع ذلك يكررها المرء مخادعاً نفسه على أنها ستقبل.

وتقول سورة فاطر: وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ(١٨).

كل إنسان سيسجل له من الأعمال ما يقوم بها هو بنفسه لنفسه، ولن يسجل له أعمال أو عبادات يقوم بها غيره،

التهاون بعذاب الآخرة والظن أن بالإمكان النجاة منه

وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ(٣٥) سبأ.

هذا المنطق يردد مثله بعض الناس ممن ينتسبون للإسلام، ولكنهم مستمرون على الكبائر. ولديهم ظن أن الله سيغفر لهم، لأنهم ينفقون في بناء المساجد أو معاونة بعض الفقراء. والبعض يقنع نفسه أن الله لا يتلذذ بتعذيب الناس خاصة من يؤمن به. وهم يخدعون أنفسهم وهم لا يشعرون، لأن الله جل شأنه لا يتعامل بالعاطفة فيغفر لمن يعصيه ويصر على المعصية. ولكنه سبحانه وضع قواعد ثابتة واضحة للتوبة من عمل والتزم بها غفر له، ومن خالفها عذب ولو شهد بالله ورسوله.

والله جل وعلا خلق كل المخلوقات ووعد من يؤمن بالجنة ومن يكفر بالنار، فالعذاب والنعيم يختاره المخلوق لنفسه، ولا يختاره الله للمخلوق.

وتقول سورة فصلت: لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاء الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ(٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ(٥٠).

والآيات وإن كانت تتحدث عن كبراء قريش، إلا أنها تنطبق على كثير من العصاة الذين يعلنون الإسلام، حيث تجدهم يقترفون الموبقات ويشعرون أنهم إن ماتوا عليها فسيغفر الله لهم وسيدخلهم الجنة. والآية تقول لهم: " فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ".

وتخبرنا سورة مريم أن أحد كبراء قريش يظن أنه سيكون له المال والولد في الآخرة كما له في الدنيا: أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً(٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ

الرَّحْمَنِ عَهْداً(٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً(٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً(٨٠) مريم.

ومثله ما ورد في سورة الكهف على لسان ذلك الكافر الظالم لنفسه المغتر بدنياه: وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً(٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً(٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً(٣٧).

وتؤكد سورة سبأ المعيار الإلهي لدخول الجنة: وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاء الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ(٣٧).

فليس المال والأولاد ولكن الإيمان والعمل الصالح.

أما الجنة فليست بالأماني ولكنها لمن آمن بالإسلام وعمل صالحاً، كما تؤكد سورة البقرة: بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(١١٢).

الإنسان يلجأ لله عند الشدة وينساه في حال الرخاء

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ(٣١) وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ(٣٢) لقمان.

وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ(٨) الزمر.

والإيمان يحتم المواصلة، وهو ما تؤكده الآية التالية: أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ(٩) الزمر.

ومن ينسى الله ولو لفترة بسطة نسيه الله.

ومثله: فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(٤٩) الزمر.

والمؤمن لا ينسى الله ولا يغفل عنه لأنه يعلم أن كل ما يصدر منه يسجل وسيحاسب عليه.

وتقول سورة الأنعام:

قُلْ أَرَأَيْتَكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ(٤١) الأنعام.

وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ(٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ(٥٤) لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ(٥٥) النحل.

كما ورد في سور سابقة، مثل: بني إسرائيل:٨٣، وفصلت:٥١.

القرآن يخاطب الناس حسب مداركهم

إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً(٤١) فاطر.

الآية تصور السماء وكأنها سقف مبني يحتاج لدعائم لكيلا يسقط، ويصور الأرض بسطح يحتاج لأسس لكيلا ينهار. والسماء بمعنى الكون ليس سقفاً، والأرض ليست مسطحة، لكن رجال قريش - المخاطبين في الآية - لا يعون سوى ما تشاهده أعينهم المجردة لقلة مداركهم في ذلك العصر. لذا فهم يرون السماء فوقهم مرصعة بالنجوم والشمس والقمر وتبدو كسقف سقوطه محتمل. ويرون الأرض سطحاً تحتاج لدعائم لتستقر. فجاءت الآية تقول لهم إن السماء لن تسقط لأن الله ممسك بها، والأرض ستبقى مستقرة لأن الله ممسك بها أيضاً.

والله جل شأنه بالفعل ممسك بالكون كله بكواكبه ونجومه، ولكن ليس بالمعنى الحرفي، بل بقوانينه الثابتة التي يسير بموجبها هذا الكون العظيم وكل ما فيه، بما في ذلك الإنسان.

ومخاطبة القرآن الناس حسب مداركهم تتكرر في تصوير ما في الجنة والنار ومظاهر انهيار الكون وطريقة تسجيل الأعمال وغيرها.

ومثله: وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٢٧) لقمان.

الخطاب موجه لقريش، والآية عبارة عن جملة مجازية تصور عظم قدرة الله على مخاطبة الناس بما لا نهاية.

والله جل شأنه لا يصدر منه كلام بحروف وعبارات كما البشر، كما أن رسائله للناس لن تقف لو احتاجت العبارات لأكثر من سبعة أبحر. لكن الآية قالت مداد بسعة مياه سبعة أبحر لتصور عظم القدرة بصورة تفهمها قريش وبأسلوب معتاد لديهم.

مثال آخر من نفس السورة: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٢٩) لقمان.

المفسرون يقولون: يدخل ما ينقص من ساعات الليل في ساعات النهار، فما نقص من هذا زاد في هذا. وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ويدخل ما انتقص من ساعات النهار في ساعات الليل، فما نقص من طول هذا زاد في طول هذا.

ولو كنا نعيش في عصر الرسول لعرفنا أن قريشاً تشاهد مجيء الليل ويعقبه نهار ثم ليل ثم نهار وهكذا، وكأن الليل يلج في النهار ثم يلج النهار في الليل. هذا ما تراه اعينهم وهو ما صورته الآية.

وجاء في سورة النحل: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ(٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(٧٦).

والقرآن هنا لا يقرر العبودية، ولا يقرها، لكنه يضرب مثلاً من واقع اجتماعي موجود.

كما أن الآية (٧٦) لا تقرر أن الأبكم «كلٌّ» بمعنى عالة.

وكل الآيات التي تصور انهيار الكون ونشأة يوم القيامة، وما في الجنة من نعيم وما في النار من جحيم وصور صحيفة الأعمال الحسية المجازية وكل ما شابهها تخاطب قريشاً بما تدرك، وليس وصفاً حقيقياً لهذه الأشياء.

القرآن شفاء للفكر وليس للجسد

مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ(٤٣) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ(٤٤) فصلت.

قريش تتحجج بحجج واهية لرفض الحق والتمسك بالموروث، وإلا فمن يريد أن يؤمن فالمهم هو ما يقول القرآن وما يشرع وليس بأي لغة نزل. فالقرآن شفاء للفكر، ويضمن لمن تبعه الجنة. هذه هي غاية القرآن، وبالتالي فالقرآن لا يشفي أسقام الجسد كما يزعم بعض المشعوذين ورجال الدين: لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ(٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ(٥٨) يونس.

وليس كما يظن البعض أن قراءة بعض الآيات والسور يشفي من الأمراض العضوية، واستغل هذا ضعاف النفوس والإيمان واتخذوها تجارة لهم ستكسبهم المال في الدنيا والحسرة في الآخرة.

وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً(٨٢) بني إسرائيل.

وهو ما ينفي زعم من يستغل القرآن وكأنه يشفي من الأمراض ليمتص أموال الناس بالباطل.

القرآن لم يكتب في مكة

تقول سورة الشورى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٢٤).

لو شاء الله لختم على قلب محمد فنسي كل ما نسخ في ذاكرته من القرآن الذي سبق وأوحي له به. مما يعني أن القرآن لم يكتب منه شيء في مكة، لأنه لو كان الرسول يكتب كل سورة تنزل

عليه عند نزولها فحتى لو نسي ما سجل في ذاكرته فسيبقى محفوظاً في الصحف.

ومثله: وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً(٨٦) إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً(٨٧) بني إسرائيل.

وتقول سورة الأنعام: وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ(٧).

قريش تكرر طلبها للرسول بأن يظهر بعض الآيات والخوارق، ولو رأوا ما طلبوا فلن يؤمنوا. والآية تقول بأنه لو نزل القرآن مكتوباً في قرطاس لقالوا سحر. وهذا يدل على أن القرآن لم يكتب في مكة، لأن السورة نزلت في أواخر العصر المكي.

وتقول سورة العنكبوت: وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ(٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ(٤٩).

الرسول لم يكن يقرأ ولا يكتب، وكان القرآن يحفظ في الصدور. فالرسول كان ينسخ في ذاكرته، والمؤمنون يحفظون منه ما يستطيعون. وهكذا بقي الوضع طوال فترة الدعوة في مكة، لأن العنكبوت من أواخر السور التي نزلت في مكة.

ولم يكتب منه شيء عند نزول سورة البقرة: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ(١٥٩) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَـئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(١٦٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ(١٦٢) البقرة.

والآيات تحذر كل من يكتم الوحي ولا يبلغه للناس الذين لا يعرفونه. وكل من يفعل ذلك فهو كافر وعليه اللعنة وسيخلد في النار.

والآيات تشير إلى أن هناك بعض من يحفظ القرآن عندما يسأل عن حكم القرآن في مسألة لا يخبر السائل بما يقول القرآن، أو أنه يخبره بشيء مخالف وينسبه للقرآن.

القرآن ليس مخلوقاً ولا منطوقاً

تقول سورة الصافات: إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ(٦) وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ(٧) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ(٨) دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ(٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ(١٠) فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ(١١).

ويستفاد من هذه الآيات أن الجن لم يكونوا يستمعون لكلام منطوق من الملائكة قبل منعهم، مثل كلام البشر. لأن الملائكة لا يتخاطبون بكلام مثل البشر ولا تصدر منهم أصوات لأنهم لا يملكون جهازاً تنفسياً، فكيف تمكن الجن من معرفة ما يدور بين الملائكة؟

لابد أن الجن وكل المخلوقات اللاجسدية في الكون يستطيعون التقاط لغة التواصل التي يتواصلون بها فيما بينهم. وهي لغة ليست منطوقة كما لغات البشر، ولا مخلوقة، لأن المخلوقات لا تخلق. وهذا يدل على أن توصيل المعلومة ليس بالضرورة محصوراً بأن تكون منطوقة أو مخلوقة كما اقتتل أصحاب الكلام فيما بينهم في العصر العباسي حول إن كان القرآن مخلوقاً أو منطوقاً.

والقرآن لم يكن قرآناً إلا بعدما حفر في ذاكرة الرسول بنصوص عربية، أما قبل ذلك فكان عبارة عن صيغة مشفرة لا نعلمها، مطبوعة في الأرشيف الإلهي. وقد كلف جبريل بنقلها للرسول. وهو أحد الملائكة الذين لديهم قدرة على فهم شفرة الأرشيف الإلهي، وطبعه في ذاكرة الرسول على شكل نصوص عربية يمكن للرسول تذكرها وقراءتها على الناس.

وتم نقل الوحي بطريقة ليست منطوقة ولا مخلوقة. وسبق ذلك أن الله جل وعلا أودع في الأرشيف الإلهي نسخة الوحي الأصلية، دون حاجة لأن ينطق بها ولا حاجة لأن يخلقها على شكل كلام أو حروف. فالوحي في الأرشيف الإلهي ليس كلاماً ولا حروفاً محسوسة مخلوقة.

ولكن أصحاب الكلام في العصر العباسي قاسوا ما لله على ما يعرفون. فتخيلوا أن هناك تواصلاً مباشراً بين الله والملائكة. وأن الله جل وعلا أوصل الوحي لجبريل مباشرة. وبهذا وحسب مداركهم الضيقة ليس هناك مجال لنقل المعلومة إلا بطريقين: إما أن الله نطق بها، وسمعها الملك وحفظها. أو أن الله خلقها في عقل الملك.

القرآن هو ما بقي بعد الرسول / لا عيسى ولا مهدي / محمد خاتم النبيين

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧) فاطر.

بعد وفاة الرسول سيبقى الكتاب (القرآن) بين الناس لحمل الرسالة لكل زمان ومكان فمن آمن فله الجنة، ومن كفر ففي النار.

ولن يكون هناك حاجة لرسول أو مهدي لأنه لن يأتي بأكثر مما قال القرآن.

الإنجيل تجديد لشريعة موسى وليس شريعة منفصلة

للأسف فغالبية المسلمين رسخ لديهم أن الديانة الغربية المنتشرة في العالم اليوم باسم المسيحية مستمدة في الأصل من ديانة عيسى ابن مريم، وأن كتابهم المقدس هو في الأصل إنجيل عيسى. وهذا الخلط ظهر بعد الفتوح الأولى التي استولى فيها المسلمون على بلاد الشام ومصر والعراق حيث كانت تنتشر المسيحية. وفي وقت انتهى أمر البقية الباقية من النصارى الذين كانوا يعيشون في يثرب عند بعثة رسول الله. فبعضهم أسلم وقلة قليلة منهم هاجرت من يثرب وذابت في المجتمعات التي عاشت فيها. ولأن سكان البلاد المفتوحة كانوا يعتنقون المسيحية، ولأن القرآن تحدث عن النصارى، ولأن عقيدة النصارى الذين غالوا في عيسى فيها شبه من عقيدة المسيحيين في يسوع فقد ظن من دخل الإسلام من البلاد المفتوحة أن ديانتهم السابقة تحدث عنها القرآن، وأنه سماها «النصرانية» بدل

المسيحية، وتسمية يسوع عيسى. وظهر اعتقاد بأن رسالة عيسى هي كتب المسيحيين لكنها تعرضت للتبديل والتغيير. وأصبح ينظر لكتب المسيحيين وعقيدتهم بنظرة احترام كونها امتداداً لديانة إلهية مثل الديانة اليهودية. وتأول المفسرون كل الآيات التي تتحدث عن عيسى على أنها تتحدث عن يسوع. والحقيقة هي أن عيسى ابن مريم رسول لبني إسرائيل أرسل لهم مباشرة بعد موسى ليعيدهم لتشريعات التوراة وليس هناك كتاب مكتوب اسمه الإنجيل حمله عيسى في دعوته. وللمزيد عن هذا الموضوع يمكن الرجوع لكتاب: مسيحية بولس وقسطنطين[1].

أما الإنجيل فلم يكن كتاباً مكتوباً كما التوراة

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ(١١) وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِياً لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ(١٢) الأحقاف.

الحديث عن قريش ورفضها لدعوة رسول الله، والآيات تؤكد أن دعوة الرسول كتابٌ موحى به من الله، لم يسبقه كتاب إلا كتاب موسى. ولو كان إنجيل عيسى شريعة متكاملة مستقلة بذاتها كما التوراة والقرآن لذكر هنا. ولكن دعوة عيسى مجرد تجديد لدعوة موسى فقط. ولم يسبق القرآن شريعة متكاملة غير التوراة. والتوراة والقرآن هما الشريعتان الوحيدتان اللتان كتبتا على شكل كتاب في صحف من بين كل رسالات الرسل المذكورين في القرآن. وهو ما تؤكده السورة في موضع آخر: وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ(٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ(٣٠) الأحقاف.

فالجن الذين استمعوا لرسول الله وهو يتلو القرآن يؤكدون أنه لم ينزل كتاب (وحي متكامل) منذ نزول التوراة، غير القرآن، ولو كان الإنجيل كتاباً (شريعة متكاملة) لذكروه. وهي شهادة شهود عيان عاصروا زمن موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

وجاء في سورة الزخرف:

---

١ من منشورات الجمل.

وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(٦٣).

فعيسى لم يأت برسالة خاصة ولكنه جاء ليبين لبني إسرائيل ما تركوه واختلفوا فيه من التوراة.

وتسمية الإنجيل بالكتاب ولو لم يكتب، مثل قوله تعالى: لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ(١٠) الأنبياء.

والكتاب هنا يقصد به القرآن، الذي لم يكتب منه حرف واحد عند نزول سورة الأنبياء، ولم يكتب منه حرف واحد طوال فترة الدعوة في مكة، ومع ذلك سمي كتاباً. لأنه نصوص معروفة يمكن كتابتها.

العقل وحده كاف للتعرف على الحق

أصحاب الكهف فتية اهتدوا إلى أن الله الخالق أحق بالعبادة من الأصنام التي يعبدها قومهم: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى(١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً(١٤) هَؤُلَاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً(١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمَته وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً(١٦).

والعقل آلية خلقها الله كافية لأن تهدي صاحبها بأن الله واحد وأنه أحق بالعبادة لكل من يسمح لعقله بالتفكير الحر. والاهتداء لوحدانية الله بواسطة العقل كافية للجنة لكل من لم يصله رسالة، كما يفهم من هذه الآيات، ومن الآيات التي تتحدث عن اهتداء إبراهيم إلى وجود خالق واحد هو أحق بالعبادة من الأصنام.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ(٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ(٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(٢٨) الزخرف.

إبراهيم مثال وبرهان حي بأن الله جل شأنه أنعم على الإنسان بعقل لو سمح له صاحبه بالتفكير الحر لهداه لوجود خالق للكون، وهو الأحق بالتعظيم والعبادة. وهذا كاف

لدخول الجنة لكل من لم يصله رسالة أو رسول، وإجابة لمن يتساءل عن مصير من لم يسمع بدين الله.

لا يؤمن سوى قلة مستضعفة

قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ(١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ(١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ(١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(١١٥) الشعراء.

الحديث عن نوح وقومه.

ومثله: حَتَّىٰ إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ(٤٠) هود.

ومثله: وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ(١٠٣) يوسف.

فغالبية الناس تتمسك بموروثها الذي قامت عليه مصالحها الدنيوية ولا تميل للدين.

وأكثر الناس لن يؤمنوا: تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ(١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ(١٠٢) الأعراف.

وتقول سورة غافر: إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ(٥٩) غافر.

حقيقة أن أكثر الناس لن يؤمن، ليس لأن الحق غامض ولكن لأن الناس يتشبثون بالدنيا.

وهو ما تؤكده سورة الرعد: المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ(١).

من يرفض الدعوة مرة، لن يؤمن بها أبداً

يخبرنا القرآن أن من السنن الأزلية التي تسير عليها كل الأمم والمجتمعات والأفراد في كل زمان ومكان، أن من يرفض الدعوة (دينية أو إصلاحية) عندما يسمعها للمرة الأولى، فعادة لا يعود ويقبل بها أبداً. ولذلك لا غرابة في تمسك قريش والأمم السابقة بموروثها ورفض الدعوة برغم بقاء الرسل بينهم سنوات عديدة. ولا غرابة في أن ينزل القرآن يتوعد

أفراداً من قريش أحياءً بالنار، لأنهم سيبقون على كفرهم ويموتون وهم كفار.

وفيما يلي بعض الأدلة مما ورد في القرآن:

تقول سورة «يس»: يس(١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ(٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ(٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(٤) تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ(٥) لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ(٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ(٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُقْمَحُونَ(٨) وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ(٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ(١٠) إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ(١١).

الآيات تقول عن قريش إنهم غافلون عن الحق، وحق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون. فكل من قال: لا للدعوة عند سماعها لا يؤمن بها أبداً. ولهذا فالآيات تصفهم وكأن هناك أغلالاً في أعناقهم تجبرهم على تنكيسها. ونكس الرأس تعبير مجازي يستخدمه القرآن للدلالة على الإعراض ورفض الحق، بعد أن تبين لهم. ومن ذلك ما ورد في سورة الأنبياء التي تتحدث عن تكسير إبراهيم للأصنام ليثبت لقومه أنها لا تستحق العبادة وعليهم عبادة الله، وقد وجدوا في البداية فعله منطقياً، لكن التمسك بالموروث غلبهم فنكسوا على رؤوسهم (نكصوا عن الحق): قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاء يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ (٦٦).

فنكسوا على رؤوسهم كما نكست قريش على رؤوسها، ولن تقبل بدعوة الحق التي يدعوهم لها رسول الله محمد أبداً. وهو ما أكدته سورة يس نفسها في مكان آخر: وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ(٤٦).

وسيبقى رجال قريش معرضين عن الدعوة مهما دعوا.

وسورة نوح تظهر بتفصيل واضح كيف حاول نوح كل السبل لإقناع قومه بدعوته ولكنهم

أصروا على الكفر ولم يستجيبوا لدعوة الحق برغم جلد نوح وصبره ومواصلته ووضوح الحق الذي يدعو له: إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٢) أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ(٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً(٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً(٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً(٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً(٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً(٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً(١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً(١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً(١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ للهِ وَقَاراً(١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً(١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً(١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً(١٦) وَاللهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً(١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً(١٨) وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً(١٩) لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً(٢٠) قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً(٢١) وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً(٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً(٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالاً(٢٤) مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللهِ أَنصَاراً(٢٥).

وقوم نوح يشبهون قريشاً في أنهم عبدة أصنام منكرون للبعث وإن كانوا يؤمنون بوجود الله الخالق. وبرغم وضوح الحق وقوة حجة نوح إلا أن قومه أعلنوا رفضهم لها وتمسكوا بموروثهم الهش البعيد عن المنطق، حتى هلكوا على الكفر. وهو ما حدث لكبراء قريش سواء من مات أو قتل قبل فتح مكة أو من مات أو قتل بعد الفتح. ولا عبرة بزعم كتب السير والتاريخ أنهم أسلموا، لأنها كتب كتبت بإشراف قريش بعد استيلائها على حكم دولة المسلمين ولا يركن لروايتها لمخالفتها سنة أزلية أكدها القرآن وسارت عليها كل الأمم.

وتقول سورة القمر: وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ(٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ(٣) وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ(٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ(٥) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ(٦) خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ(٧) مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ(٨).

والحديث في الآيات عن قريش التي أعلنت كفرها وتمسكت بموقفها الرافض للدعوة برغم استمرار الرسول بدعوتهم لسنوات حين نزول هذه السورة التي تؤكد أنهم لن يؤمنوا مهما دعوتهم يا محمد. وهذا لا شأن له بقوة حجتك ولا وضوح الحق الذي تدعو إليه. ولا يعود تعنت قريش ورفضهم للحق لأنك يا محمد لم تظهر لهم آية (معجزة)، ولكن قريشاً تبعت سنة أزلية سارت عليها كل الأمم وستسير عليها كل الأمم إلى يوم الدين. وتتمثل بالتمسك بالموروث ونبذ أي دعوة تخالفه وحرب الداعي لها، مهما كان الموروث متهاوياً كما هو حال موروث قريش القائم على عبادة أصنام من حجارة يدعون لتركها وعبادة رب العالمين.

وتخاطب سورة الأحقاف قريش: مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ(٣) الأحقاف.

والآية تؤكد أن قريشاً التي أعرضت عن الدعوة منذ بدايتها ستستمر في معارضتها أبداً.

وتتوجه سورة الجاثية بوعيد شديد لقريش لإصرارهم على الكفر: وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ(٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ(٩) مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٠).

سخرية قريش بالقرآن لن تتوقف، ورفضهم الدعوة سيستمر، لأن من لا يتخلص من قيود الموروث ويتبع الدعوة بداية سماعه لها دون تردد فسيبقى على تمسكه بالموروث ولن يصغي للحق مهما دعي. وهذا ينطبق على كل الناس في كل زمان ومكان، فأتباع المذاهب الذين يترددون عند سماع الحق في التخلص من الموروث سيبقون على موروثهم مهما دعوا بعد ذلك وسيموتون على معتقدهم وسيذهبون للنار بمحض إرادتهم.

وتقول سورة فاطر عن قريش: إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ(١٤).

هذه السورة نزلت بعد سنوات من بدء الدعوة في مكة، وقريش باقية على رفضها للدعوة ولن تستجيب مهما دعيت.

وكررت سورة فصلت تأكيد موقف قريش الرافض للدعوة: حم(١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ

الرَّحِيمِ(٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِياً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٣) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ(٥) فصلت.

برغم أن القرآن نزل بلغة عربية سليمة واضحة وسهلة الفهم إلا أن قريشاً لم تؤمن ليس لأنها لم تفهم القرآن، ولكن لأنها رفضت الدعوة وتمسكت بموروثها، وهو ما أصم آذان رجالها عن سماع الحق وأغلق عقولهم عن التفكير بما يتلى عليهم، وكأن بينهم وبين الرسول جداراً عازلاً.

وبرغم مرور سنوات على بدء الدعوة في مكة إلا أن موقف قريش الرافض لم يتغير أبداً ويزداد تعنتاً.

وتقول سورة الكهف: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً(٥٧) الكهف.

مهما دعا الرسول قريشاً فلن يؤمنوا « وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً» ليس لأن الله قد كتب عليهم الضلال، ولكن لما يعرف بالضرورة والعادة. فحسب سنة الأولين التي سارت وتسير عليها كل الأمم، من يقول لا للدعوة لا يتراجع أبداً.

وبناءً على هذه القاعدة يمكن معرفة خاتمة كل طاغية أنه لن يتراجع وسيموت طاغية، وكل ضال سمع الحق ورفضه بأنه سيموت وهو ضال.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ(٧) أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ(٨) سبأ.

هذه الآية نزلت بعد مرور عدة سنوات على بدء رسول الله الدعوة في مكة، دون أن تتغير مواقفهم الرافضة للدعوة، ولو بقي الرسول في مكة إلى الأبد فلن يؤمن به من أهلها إلا من آمن عند بداية سماعه للدعوة.

وتقول سورة الحجر: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ(١٠) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ(١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ

سُنَّةُ الأَوَّلِينَ(١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ(١٤) لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ(١٥).

قريش لم تؤمن وأصرت على الكفر. ولكي تبرر موقفها كانت تطالب الرسول أن يريهم "آية" ليثبت صدق رسالته أو ينزل الملائكة أو مطالب تعجيزية أخرى. والآيات تؤكد للرسول أن مطالبهم للجدل فقط ولو تحقق لهم ما أرادوا فلن يؤمنوا. حتى لو فتح لهم باب إلى السماء وعرجوا منه لقالوا لم نر شيئاً ولن نؤمن.

وفتح باب للسماء يعرج منه الناس مجرد مثل افتراضي يتناسب مع مدارك قريش وما يتصورون السماء عليه في وقتهم. فهم يظنون أن الأرض طبقة دنيا تعلوها طبقة هي السماء الدنيا ثم الثانية والثالثة إلى السابعة ثم يعلوها عرش الرحمن. وهذا ليس الواقع الذي بدأ يتكشف في عصرنا، والذي يظهر أن الأرض عبارة عن كويكب تافه في مجرة حقيرة في كون هائل الاتساع يمثل عالم المخلوقات. وهناك عالم الخالق جل وعلا الذي لا يمكن تخيله. وليس هناك طبقات فوق بعض أسفلها الأرض وأعلاها العرش.

وتقول سورة المؤمنون: ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ(٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ(٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ(٤٤).

وتقول سورة يونس: قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ(٣١) فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ(٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(٣٣).

لو كانت قريش ترغب في الإيمان فإن التفكر بخلق الله كفيل بتأكيد البعث الذي ينكرون. لكن قريشاً رفضت الدعوة في البداية تمسكاً بموروثها، ولن تؤمن بعد ذلك أبداً مهما دعيت، ومهما اتضح لها أن الدعوة حق.

وتقول سورة الأنبياء: بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ(٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ(٦).

اتهام الرسول تبرير يُشعر قريشاً بأن تمسكها بموروثها هو الحق، وكل الأمم قبلها نهجوا

نفس النهج، وهو ما يسير عليه كل أتباع موروث. ولن تؤمن قريش ليس لأن الدعوة باطلة، ولكن لأن أتباع الموروث الذين لا يقبلون نقد موروثهم من البداية لن يقبلوا بنقده أبداً، بغض النظر عما يقول المخالف.

ومثله: وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ(٣٦) هود.

وتقول سورة الأنعام: وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ(٤) فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(٥) أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ(٦) وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ(٧) وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ(٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ(٩) الأنعام.

التمسك بالموروث يحتم صم الآذان عن سماع ما يخالفه ومحاولة جدال الداعي والبحث عما يحرجه لتبرير موقفهم الرافض والشعور بالرضى.

ولو كانت قريش تريد الحق لاعتبرت مما حدث لأمم قبلهم، لكنها مستمرة بالكفر وتكرر طلب آيات من الرسول. ولو رأت الآيات فلن تسلم وستبحث عن تبريرات أخرى.

وتقول نفس السورة: وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ(٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(٢٦) الأنعام.

قريش رفضت الدعوة ولن تؤمن أبداً. وكانوا يجادلون الرسول في محاولة لدحض الحق. إضافة لإلصاق تهم باطلة عند من لا يعرفه من الناس القادمين لمكة للاستماع إليه.

وتقول سورة الشعراء: قَالُوا سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ(١٣٦).

والحديث عن عاد وإعلانهم الرفض التام للدعوة، ولن يتغير موقفهم مهما دعاهم رسولهم هود. مثلهم مثل كل أتباع المعتقدات المختلفة.

وتقول سورة الرعد: كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ(٣٠) وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ(٣١).

لن تؤمن قريش ولو رأت كل آية.

وتقول سورة الحج: وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ(٥٥).

فإن كان الرسول بقي في قريش سنين عدداً يدعوهم، ولم يؤمن منهم إلا من قد آمن في بداية سماعهم للدعوة، فإن زعم كتب التراث أن رجال قريش قد آمنوا بعد فتح مكة، زعم لا أساس له لأن القرآن يؤكد أنه لا يمكن أن يحدث. وبالتالي فالتصديق بالأخبار التي تروى عن بقاء رجال قريش على الكفر بعد الفتح هي التي تصدق لأن القرآن يؤيدها، بينما القصص التي تروى عن تقوى أبي سفيان أو العباس فمناقضة للقرآن ولا يمكن ان تكون قد حدثت على أرض الواقع مهما حاولت كتب التراث التي كتبت في عهد أبنائهما تلميع صورتيهما.

وأجدني أميل بلا تحرج إلى القصص التي تظهر بقاء قريش على الكفر، ومن ذلك ما ورد في كتاب أخبار مكة وما جاء فيها من آثار للأزرقي، والذي يقول: لما كان يوم الفتح رقى بلال فأذن على ظهر الكعبة فقال بعض الناس :يا عباد الله لهذا العبد الأسود أن يؤذن على ظهر الكعبة فقال بعضهم أن يسخط الله عليه هذا الأمر يغيره فأنزل الله عز وجل" يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى "الآية وأخبرني جدي عن محمد بن إدريس الشافعي عن الواقدي عن أشياخه قالوا جاءت الظهر يوم الفتح فأمر رسول الله بلالاً أن يؤذن بالظهر فوق ظهر الكعبة وقريش فوق رؤوس الجبال وقد فر وجوههم وتغيبوا خوفاً أن يقتلوا فمنهم من يطلب الأمان، ومنهم من قد أومن فلما أذن بلال رفع صوته كأشد ما يكون قال: فلما قال أشهد أن محمداً رسول الله تقول جويرية بنت أبي جهل :قد لعمري رفع لك ذكرك، أما الصلاة فسنصلي ووالله ما نحب من قتل الأحبة أبداً ولقد جاء إلى أبي الذي كان جاء إلى

محمد من النبوة فردها ولم يرد خلاف قومه، وقال خالد بن أسيد :الحمد لله الذي أكرم أبي فلم يسمع هذا اليوم، وكان أسيد مات قبل الفتح بيوم، وقال الحارث بن هشام :واثكلاه ليتني مت قبل أن أسمع بلالاً ينهق فوق الكعبة، وقال الحكم بن أبي العاص :هذا والله الحدث الجليل أن يصبح عبد بني جمح ينهق على بنية أبي طلحة[1].

ومثل ما نقل ابن هشام عما حدث بعد هزيمة المسلمين في حنين، قال ابن إسحاق: فلما انهزم الناس، ورأى من كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من جفاة أهل مكة الهزيمة، تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وإن الأزلام لمعه في كنانته.

وصرخ جبلة بن الحنبل: ألا بطل السحر اليوم! (يقصد أن سحر الرسول على الناس بدعوته)

ولعل للعباس ابن عبد المطلب مواقف مماثلة لكن استيلاء بني العباس على السلطة مكنهم من حذف كل ما يسيء لجدهم، بينما بقي بعض القصص عن أبي سفيان وبنيه وقد يكون أضيف عليه وزيد. وقد لا يكون حدث ما تقول القصص التي أوردنا لكن دلالتها على عدم إيمان رجال قريش بعد الفتح هو الثابت بشهادة القرآن.

سنة الأولين

هي مواقف تتكرر عند كل الأمم منذ خلقت البشرية وحتى نهايتهم، ولها عدد من التشعبات، منها:

- أن غالبية الناس يرفضون دعوة الرسول ويحاربونها، ولا يقبلها إلا الضعفاء.
- أن من يؤمن تبدأ أجيالهم بعد الرسول بالتحول عن الدين إلى دين خليط يتكون من بقايا الدين الأصلي وتشريعات بشرية. بعضها مبتدع، وبعضها بقي من معتقدات سابقة.

وهذا الخليط يصبح موروث الأمة الديني، الذي يتمسك به الناس ولا يرون له بديلاً.

وكل من ينتقد هذا الموروث أو يدعو لتركه يعتبر هو الضال والخارجي، ولو كانت دعوته

---

[1] باب ما جاء في رقي الكعبة وأذانه عليها يوم الفتح.

للعودة لدين الله.

وفيما يلي بعض الأدلة على هذه الحقائق من القرآن:

التمسك بالموروث

التمسك بالموروث ورفض دعوة الرسل أو الدعوات التصحيحية للعودة للدين، سنة أزلية سار عليها البشر منذ وجدوا على ظهر الأرض وسيسيرون عليها إلى أن ينقرضوا: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ(١٠) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ(١٢) لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ(١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ(١٤) لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ(١٥) الحجر.

وتقول سورة الأعراف: أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ(١٠٠) تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ(١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ(١٠٢).

وورد في سورة مريم مثله: أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً(٥٨) فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً(٥٩).

وتقول سورة سبأ: وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ(٣٤).

وتكرر هذه الحقيقة سورة المؤمنون بشيء من التفصيل: ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ(٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ(٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاء الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ(٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ(٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ(٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ(٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ(٣٧)

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ(٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ(٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ(٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاء فَبُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٤١) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ(٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ(٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ(٤٤).

فكل الأمم تمسكت بموروثها ورفضت دعوة الرسل، وبررت كفرها بنفس التبريرات، ولم تغير من موقفها الرافض أبداً وهلكت على الكفر.

وهي حقيقة هامة بينها القرآن وغفل عنها الناس، تفسر مواقف الناس الرافضة لأي دعوة دينية أو إصلاحية في أي مجال. ويعود تمسك الناس بالموروث ورفض التغيير إلى أن الموروث هو شخصية الأمة والقبول بتغييره يعني اعترافاً بوجود قصور أو نقص أو عيب في تلك الشخصية، وهو نقد لا يحبذ الإنسان الاعتراف به داخل نفسه، ويكره سماعه من الغير، وبالتالي فلن يقره أو يقبل به، بغض النظر عن خطأ الموروث أو صحة الدعوة المناهضة له.

وقريش كانت تؤمن بوجود الله الخالق: وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ(٨٧) الزخرف.

وهو ما تؤكده سورة لقمان: وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(٢٥) لقمان.

وسور أخرى.

وإيمانهم بوجود الله بقي من دين أبيهم إبراهيم، لأن قريشاً لم يسبق أن أرسل لهم رسول: وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ(٤٤) سبأ.

وهو ما تؤكده سورة الزخرف: بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاء وَآبَاءهُمْ حَتَّى جَاءهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ(٢٩) وَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ(٣٠) الزخرف.

وسورة طه: وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى(١٣٤).

وسورة السجدة: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ(٣).

وسورة يس: يس(١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ(٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ(٣) عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٤) تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ(٥) لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ(٦).

وغيرها.

وقريش هم نسل إسماعيل ابن إبراهيم، الذي ولد في مكة وبقي نسله فيها حتى ظهور الإسلام، ولا عبرة بما ورد في بعض كتب التاريخ من أن أبناء إسماعيل طردوا من مكة وعادوا لها. وبعد وفاة إسماعيل بقي أبناؤه وأحفاده على دين أبيهم إبراهيم، لكن – وحسب قانون سنة الأولين – بدأت الأجيال تعتنق تشريعات بشرية، وشيئاً فشيئاً تحول الناس من دين الله الحق إلى تشريعات بديلة أدت بهم في النهاية إلى الوثنية. وطوال الفترة بين وفاة إسماعيل وظهور رسول الإسلام محمد عليهما الصلاة والسلام، لم تعرف قريش رسالة ولا رسولاً. وعندما بعث محمد كانت الوثنية قد ترسخت وأضحت دين السلف وتمثل الموروث المقدس. وبما أن دين الله الذي دعا له محمد يتعارض مع الوثنية وثقافتها وأعرافها المترسخة في المجتمع فقد رفضت قريش الإسلام وتمسكت بموروثها الوثني، معتبرين الحق باطلاً، والباطل هو الحق.

ورجال قريش ليس فقط يؤمنون بوجود الله، بل كانوا يعرفون أن الله يرسل الرسل للناس، ولهذا كانوا يتمنون أن يرسل الله لهم رسولاً ليهتدوا. لكن عندما أرسل لهم محمداً كفروا به: وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ(١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِّنَ الْأَوَّلِينَ(١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ(١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(١٧٠) الصافات.

وهو ما أكدته سورة فاطر التي تبين أن كفر قريش نتيجة لأن الدين الذي يدعو له الرسول يتعارض مع موروثهم، وليس لأنه غير صحيح. فرفضوا الدين الحق وتمسكوا بالموروث الباطل: وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً(٤٢) اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً(٤٣) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً(٤٤).

وتقدم سورة الزخرف بعض تبريرات قريش التي تبرر بها رفضها للدعوة، وهي تبريرات مماثلة لما صدر عن كل الأمم غيرها: بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ(٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ(٣٠) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ(٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(٣٢).

لكن السبب الرئيسي والجوهري لرفض الدعوة هو التمسك بالمورث: إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ(٦٩) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ(٧٠) وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ(٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ(٧٢) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ(٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ(٧٤) الصافات.

والتمسك بالموروث لا يعني أن المجتمعات تبقى على موروثها وتتوارثه دون تغير، بل التغيير جار في كل المجتمعات الإنسانية وباستمرار. وكل جيل سيكون في بدايته ثائراً على الموروث ويحاول فرض أسلوب حياته الجديد في طريقة التفكير والملبس والتصرف وكل جوانب الحياة الأخرى، معتبراً ما وجد الجيل السابق يفعله عتيقاً لا يتناسب مع عصره. وتمر السنين وينشأ جيل جديد بأفكار وتصرفات ومظاهر جديدة، ويصبح الجيل السابق الذي كان ثائراً، جيلاً محافظاً يتمسك بما لديه من تراث بعضه ورثه من أجيال سابقه، وبعضه كان قد أحدثه، وهذه الصورة مستمرة بالتكرار منذ نشأ البشر على الأرض وستدوم ما بقي الناس عليها. والتغير في العقائد يتم عبر الأجيال مثل التغير في الذوق الموسيقي أو طريقة المآكل والملبس، ولكن بطريقة مختلفة. لأن الدين يشتمل على مواضيع وجوانب كثيرة ومتشعبة، ويتم التحول في هذه المواضيع والجوانب حسب درجة التأثيرات المحيطة في كل منطقة أو مجتمع أو مجموعة على حدة. ولذلك لا تتغير هذه الجوانب كلها بنفس الوقت والسرعة والنوعية عند كل أهل المعتقد في كل مكان. وقد يحدث تغير في جانب من جوانب العقيدة في مكان أو عند فرقة معينة دون أن يطرأ على نفس الجانب نفس التغير في مكان آخر أو فرقة أخرى، وهذا ما يفسر ظهور الفرق والمذاهب التي تختلف في المسائل الفقهية في الدين الواحد.

والتغير في المعتقد يقابل بمعارضة اجتماعية أشد من التغير في أي مجال آخر. ولكن متى ما قبل المجتمع التغير فإن رسوخ المعتقدات تتم بصورة أعمق من رسوخ التغيرات في المجالات الأخرى، لأن المعتقدات المتبناة تصبح جزءً من ثقافة المجتمع وشخصيته يصعب التخلي عنها.

ومنذ وجد الإنسان على الأرض والمفاهيم الدينية تتحور ويتحول الناس عن جوهر الدين مع مرور الزمن، فيبعث الله الرسل لإعادة الناس للدين الصحيح: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ. (البقرة: ٢١٣).

ليتكرر المشهد بوتيرة واحدة لا تتغير، برغم اختلاف الزمان والمكان: كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ. أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ.(الذاريات: ٥٢-٥٣)

ولذلك أصبحت كل المعتقدات والأديان عند تابعيها، نقلاً وليست عقلاً. لأن النقل يعني الإبقاء على آراء السابقين والموروث الديني كما هو، أما العقل فهو نقد لتلك الآراء وكشف عيوبها أو زيفها: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ(٧) أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ(٨) سبأ.

وفي نفس السورة: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ....(٣١).

وقريش – كغيرها من الأمم – تمسكت بالموروث في تصرف مماثل لتصرف القرود الخمسة في التجربة – التي يعرفها الكثيرون – والتي تجسد بالفعل التمسك بالموروث دون وعي أو تفكير.

والتجربة عبارة عن وضع خمسة قرود في قفص واحد، وفي وسط القفص وضع سلم وفي أعلاه بعض الموز. وفي كل مرة يصعد أحد القرود لأخذ الموز يرش العلماء باقي القرود بالماء البارد. وبعد فترة أصبح كل قرد يصعد لأخذ الموز، يقوم البقية بمنعه وضربه حتى لا يتم

رشهم بالماء البارد.

بعد فترة، تم استبدال أحد القرود الخمسة ووضع مكانه قرد جديد. وبطبيعة الحال كان أول شيء قام به البديل هو محاولة صعود السلم للحصول على الموز، لكن وبمجرد أن بدأ الصعود حتى قامت القرود الأربعة بضربه وإجباره على النزول. وبعد عدة مرات من المحاولات والضرب هم القرد الجديد بأن عليه ألا يصعد السلم مع أنه لا يعرف السبب.

ثم استبدل قرد آخر من القرود القدامى وحل محله قرد جديد، ليتكرر معه ما حدث للقرد البديل الأول، حتى أن القرد البديل الأول شارك زملاءه بالضرب وهو لا يدري لماذا يضرب القرد الجديد كلما حاول الصعود لأخذ الموز؟

وهكذا حتى تم استبدال جميع القرود الخمسة الأوائل بقرود بديلة لم يرش عليها ماء بارد أبدا ومع ذلك استمروا يضربون كل وافد جديد يحاول صعود السلم للوصول للموز وهم لا يعرفون السبب. وكأنهم يقولون: إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون.

فالمجتمع السلفي يتمسك بموروثه ليس لأنه صحيح أو عقلاني ولكن لأن المجتمع يمنعه من الخروج عنه أو نقده. لذا كان النقل دون العقل معتقداً راسخاً عند أتباع أي موروث.

ويؤكد القرآن أن كل الأمم قد أرسل الله لها رسلاً، وأن كل الأمم قد تشابهت مواقفها من رسلها، برغم تباعدهم في المكان والزمان: ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ(المؤمنون:٤٤).

وأصبح التمسك بالموروث ومقاومة أي دعوة تخالفه نهجاً ومساراً وسنة أزلية سار عليها كل الناس في كل مكان وزمان، بغض النظر عن صلاح الموروث أو فساده أو صلاح الدعوة الجديدة أو فسادها. وقد أطلق عليها القرآن «سنة الأولين»: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ(١٠) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ (١٣) الحجر[1].

والتمسك بالموروث أبقى على عبادة الأبقار عند عقلاء وحكماء وعلماء الهند، وعلى الاعتقاد بأن لخالق الكون ابناً بشرياً عند الغرب. وعلى الاعتقاد أن هناك صبياً دخل مغارة قبل (١٢٠٠) عام وسيعود ليعلمنا ديننا كما يظن الشيعة. وعلى أن ما يقوله قتادة وابن جريج

١ هذه الفقرة مقتبسة بتصرف من كتاب: سنة الأولين / تحليل مواقف الناس من الدين وتعليلها. من منشورات الجمل.

وكعب الأحبار وأمثالهم هو الإسلام، كما يظن السنة.

ومهما كانت الحجة واضحة فلن يقتنع معظم الناس بخطأ الموروث. لذا فأي جدال حول الموروث الديني يأخذ منحى واحداً – وهو الدفاع عن الموروث وليس سماع عيوبه – وإن اختلفت البدايات والمواضيع.

والجدل عن الموروث وسيلة قديمة لها أصول ومنهج، وغايتها ليس سماع الحق ولكن الدفاع عن المعتقد.

هذا الجدل استخدمته الأمم السابقة التي ذكرها القرآن ضد الرسل. وهذا الجدل لا يبحث عن الحق، ولا يهمه أسلوب الجدال، ولكن يهمه أن يدحض الحجة المقابلة، وإسكات صوت المخالف، وكل وسيلة تحقق ذلك فهي مطلوبة ولو كانت غير مشروعة.

فتارة يقوم على الاستفزاز وتارة على تشتيت الفكرة الرئيسية والدخول في جدل جانبي ومرة على السخرية الشخصية ومرة أخرى على إلصاق التهم، وأساليب أخرى كثيرة. وعندما لا تفلح الأساليب السابقة يتم اللجوء لأسلوب الوعيد والتهديد. وقريش استخدمت كل أساليب هذا القانون ضد رسول الله.

من يتمسك بالموروث لا يمكن أن يصغي لما يخالفه

هذه سنة أزلية أخرى من سنن الأولين، لأن الاستماع لما يخالف الموروث إقرار ضمني بأن الموروث قد يكون على ضلال أو به عيوب أو أخطاء وهذا ما لا يقبل به أتباعه، بغض النظر إن كان المخالف على خطأ أو صواب. وبغض النظر إن كان الموروث وثنياً أو مذهبياً أو حتى إلحادياً.

تقول سورة الأعراف: وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ(١٧٩) وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(١٨٠) وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ(١٨١) الأعراف.

التمسك بالموروث أقوى من السماح للعقل بالتفكير ونقد التراث. وكأن العقل يتعطل عند أهل العقول عندما يتعلق الأمر بالتفكير بالمعتقد. فرجال قريش العقلاء يتمسكون بعبادة

الأصنام لأنها موروثهم ويرفضون عبادة الله. حق واضح وحجة بينة لكن العقلاء لا يرونها لأن عقولهم غم عليها، وهو ما تشرحه السورة في آيات أخرى: أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ(١٩١) وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ(١٩٢) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ(١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ(١٩٥) إِنَّ وَلِيِّـيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ(١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ(١٩٧) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ(١٩٨).

وتقول سورة فصلت: حم(١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٣) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ(٥) فصلت.

تذكر سورة يونس ما حدث لقوم نوح في الآيات (٧١-٧٣) ثم تقول: ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلوبِ الْمُعْتَدِينَ(٧٤).

فكل الأمم على الإطلاق سارت على نفس السنة والطريقة. حيث يؤمن قلة مستضعفة بينما يرفض الدعوة البقية وغالبيتهم ممن له مصالح دنيوية. ومن لا يؤمن في بداية سماعه الدعوة لا يؤمن أبداً.

وتقول سورة فصلت: حم(١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٣) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ(٥)

وتقول سورة بني إسرائيل: وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً(٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً(٤٦).

ومن يتمسك بالموروث فسيرفض الحق حتى لو رأى العذاب

وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(٢٨) الأنعام.

ومن يتبع الموروث لن يؤمن لأنه كالميت لا يشعر بما حوله: إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ(٣٦) الأنعام.

الآية جاءت ضمن سياق يتحدث عن حزن الرسول على إصرار قريش على الكفر ويتمنى لو أعطي معجزة لعلهم يؤمنون. وهذه الآية تقول له: لقد اتبعوا موروثهم ولن يؤمنوا مهما دعوا لأنهم كالأموات لا يشعرون بما حولهم. وسيبعثون ويحاسبهم الله.

حقيقة تفرق الناس إلى عقائد مختلفة

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ(٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ(٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ(٥٣) المؤمنون.

دعوة الرسل واحدة، والناس دائماً ما يتركون دعوة الرسول إلى تشريعات مبتدعة. فتنشأ الفرق والمذاهب، وكل أتباع فرقة أو مذهب يعتقدون أنهم هم على الصواب.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ(٤٥) فصلت.

الناس يتركون الدين ويختلفون لمذاهب وفرق.

شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ(١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ(١٤) الشورى.

الآيات تحذر المسلمين القلة في مكة من أن يتركوا دين الله إلى تشريعات بشرية يبتدعونها كغيرهم من الأمم، الذين يتفرقون لفرق ومذاهب بعد الرسالة، بحيث تصبح الرسالة

وكلام الرحمن هو المشكوك فيه والتشريعات المذهبية هي التي يتمسك بها الناس. وهو ما حدث للمسلمين في عصور لاحقة.

أتباع الموروث يرون موروثهم حسناً

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم(١٤) محمد.

المقارنة في الآية بين المسلمين وقريش. وتؤكد أن قريشاً – كغيرهم من أتباع أي موروث – يعتقدون في قرارة أنفسهم أنهم على الحق مهما كان موروثهم ظاهر الضلالة.

أتباع الموروث يعيشون داخل دائرة مظلمة ولا يعلمون بالنور خارجها

أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٢٢) الأنعام.

الآية تصور - مجازاً - أتباع الموروث وكأنهم يعيشون داخل دائرة مظلمة ولا يعلمون أن هناك عالماً مضيئاً خارجها. بمعنى أنهم بتجاهلهم لما يوجه لموروثهم من نقد وعدم إصغائهم لصوت الحق والتفكير بالموروث، فكأنهم أحاطوا أنفسهم بعازل مظلم يعزلهم عن العالم المضيء. وعاشوا في الظلام لدرجة أنهم يظنون أن ما هم فيه هو الوضع الطبيعي لأنهم لم يروا عالماً آخر.

فيما تصور الآيات المهتدي للحق بالميت الذي عاد للحياة.

التمسك بالموروث يعمي البصيرة

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً(٤١) إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً(٤٢) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً(٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً(٤٤) الفرقان.

فرجال قريش الحكماء العقلاء يسخرون من الرسول لأنه يدعوهم لترك عبادة الحجارة

والتوجه لعبادة الله خالقهم. وتظهر الآيات أن التمسك بالعقائد الموروثة لا شأن له بحكمة المرء ورجاحة عقله. وعلى محمد ألا يستغرب أن رجال قريش الذين يراهم عقلاء لا يستطيعون تبين الحق واتباعه. ولهذا يتمسك المسيحي بعقيدته التي تنافي العقل، وكذلك الهندوسي، ومثلهم أتباع المذاهب.

محمد عليه الصلاة والسلام دعا قريشاً لعبادة الله وحده، وقريش تعلم أن الله خلقهم وخلق كل شيء، وأنه هو وحده من يضر وينفع. ومع ذلك رفضت هذه الدعوة وتمسكت بعبادة الأصنام، برغم أنها حجارة مخلوقة ولا تخلق ولا تملك ضراً ولا نفعاً، لأن التمسك بالموروث أقوى من العقل والمنطق.

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ(٤٢) وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ(٤٣) إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَـكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(٤٤) يونس.

كل من يتبع الموروث لا يصغي لصوت مخالف أبداً: وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ(٥) الأحقاف.

وتقول سورة الحج: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ(٤٦).

وتصف سورة الفرقان قريش الرافضة للحق برغم وضوحه وقوة حجته: أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً(٤٤).

وضوح الحق وقوة الحجة لا يكفي لقبوله

تقدم سورة النمل حججاً لا تقبل الجدل على أن الله الخالق – الذي تعرفه قريش – أحق بالعبادة من الأصنام، وأن البعث الذي تنكره قريش سهل على الخالق: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ(٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ(٦٠) أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ

إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ(٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ(٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٦٤) قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ(٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ(٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ(٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ(٦٩).

وتقول سورة الشورى: وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ(٨) أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٩) الشورى.

كل الرسل يدعون لعبادة الله الخالق. ويواجهون بالرفض من أناس يعبدون الأصنام، برغم قوة حجة الرسل ومنطق دعوتهم.

وتقول سورة الأنعام: قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٧٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ(٧٣).

وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ(٨٣) الأنعام.

إبراهيم كان يحاج قومه بأن الخالق أحق بالعبادة من الحجارة، لكن هذا لم يكن كافياً لاقتناع القوم بترك موروثهم.

أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ(١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(١١٥) وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ

اللهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ(١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(١١٧) الأنعام.

التمسك بالموروث لا يعني صحته

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ(٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ(٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ(٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ(٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ(٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ(٧٤) الشعراء.

إبراهيم يقول إن الخالق أحق بالعبادة من حجارة جماد، لكن القوم لم يقبلوا الدعوة برغم بيان الحجة وقوتها، لأنها دعوة لترك الموروث وتعريته والاعتراف بأنه خاطئ وهذا لا يمكن قبوله. لأن التمسك بالموروث دائماً يعمي الأبصار عن الحقيقة ويعطل العقل عن التفكير.

ومثله: فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـؤُلاء مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ(١٠٩) هود.

قد يكون جال بخاطر رسول الله أحياناً تساؤل عن سبب تشبث رجال قريش العقلاء بعبادة الأصنام الصماء الجماد والإعراض عن عبادة الله الذي يعلمون أنه خلقهم ومن كان قبلهم وخلق كل شيء.

فتأتي الآية لتؤكد له أن تمسكهم بالباطل لا يعني أنه حق، ورفضهم للحق برغم وضوحه لا يعني أنه باطل. لكن التمسك بالموروث متأصل في النفس وقوته لا تقاوم.

التمسك بالموروث يقلب الحقائق: لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(٥٩) قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ(٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ(٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ(٦٤) الأعراف.

فقوم نوح يتهمونه بأنه ضل وحاد عن الصواب لأنه يدعوهم لترك الموروث الوثني والإيمان بالله.

ومثله في نفس السورة وضمن حديثها عن قوم عاد وتعليلهم لرفض الدعوة بقولهم: قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٧٠) الأعراف.

وتقول سورة سبأ على لسان قريش: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ(٧) أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ(٨).

فالقول بالبعث كذب على الله وجنون، وإنكاره هو الحق.

ومثله: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا(١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا(١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا(١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا(١٠٦) الكهف.

المتمسكون بالموروث سيلعنون بعضهم

يقول تعالى في سورة الأعراف عن كبراء قريش الرافضين للحق لتمسكهم بالموروث الذي اختلقه سلفهم وكذبوا به على الله: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَـئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ(٣٧) قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَـؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـكِن لاَّ تَعْلَمُونَ(٣٨) وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ(٣٩) إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ(٤٠) لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ(٤١) الأعراف.

الآيات تتحدث عن كبراء قريش الذين تمسكوا بموروثهم الديني الوثني ورفضوا دين الله برغم وضوح الحق. متبعين سنة سارت عليها كل الأمم قديمها وحديثها، وهي نفس السنة

التي يسير عليها أتباع المذاهب. حيث يتمسكون بموروثهم الديني ويرفضون ما سواه أو نقده. والموروث الديني هو ما تناقلته الأجيال ممن يسمون (السلف) وهم رجال تقولوا على الله ما لم يقل في كتابه وترسخت أقوالهم كتشريعات أضيفت للدين وتمسك بها الناس كدين لله، وقدسوا من قالها عوضاً عن محاكمتهم بتهمة التقول على الله.

وهذه الآيات تبدأ بذكر التقول على الله « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً" وهو ما يفعله سلف كل أمة ومذهب.

ثم تذكر حال المتمسكين بالموروث « أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ"

وتؤكد أن مصير التابع والمتبوع واحد: « أُوْلَـئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ". وكلمة الكتاب هنا تشير للعذاب.

فالذين افتروا على الله وقولوه ما لم يقل، وكل من تبعهم مصيرهم واحد.

والسورة تصور – مجازاً – ما سيحدث للمتمسكين بالموروث: « حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ".

وكأن هناك مخلوقات حية ستتوفاهم، وفي تلك اللحظة سيسألون تابع الموروث: أين ما كنتم تدعون من دون الله؟ أين موروثكم الديني الذي تمسكتم به ورفضتم الحق؟

فيجيبون: « ضَلُّواْ عَنَّا"

لن ينفعنا.

وهم بهذا يشهدون أن اتباع غير كلام الله كفر: « وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ".

وهذه المحادثة لا تحدث في الدنيا بل هي تصوير مجازي لما سيكون عليه حالهم في الآخرة، حيث الحساب ومعرفة المصير، وهو ما تؤكده الآية التالية: « قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا".

ولأن من يموت سيشعر أنه انتقل للآخرة مباشرة (لأن ذاكرته تتوقف عن التسجيل وبالتالي لن يشعر بمرور الزمن) وعندما يبعث تبدأ الذاكرة بالتسجيل مرة أخرى ويعرف أنه انتقل للآخرة وكأنه فارق الدنيا قبل لحظات. لذا صورت الآية السابقة ندم المتمسكين بالموروث وكأنه حدث لحظة الموت. لأن لحظة الموت هي – بالنسبة للميت – لحظة البعث.

والآية تبين أن التمسك بالموروث ديدن كل أمة قديماً وحديثاً وليس قريشاً فقط، وكلهم مصيرهم واحد: «قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا". وكلهم سيلعنون بعضهم بعضاً.

وتستمر السورة تصور الموقف مجازياً لتقريبه في الذهن، وبعد أن اكتمل دخولهم النار، تدعو الأجيال المتمسكة بالموروث ربها أن يزيد من عذاب أسلافهم لأنهم هم من أضلوهم عندما تبعوا تشريعاتهم على أنها هي الحق: « حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَـؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ".

فيأتي الجواب: «قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـكِن لاَّ تَعْلَمُونَ(٣٨)". التابع والمتبوع في النار.

لأنه كان بإمكان التابع تحكيم عقله وترك الموروث واتباع الحق، وهو ما يؤكده السلف (أولاهم) للأتباع (أخراهم) في المحادثة المفترضة: وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ(٣٩).

كلا الفريقين يستحقان النار، السلف بالكذب على الله، والخلف بالتمسك بموروث السلف الضال دون تحكيم للعقل.

وهو ما كررته سورة يونس التي تلت الأعراف في النزول: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ(١٧) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ(١٨) وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(١٩).

والآية (١٩) تؤكد أن الناس يتحولون من الإيمان للكفر.

وسورة يونس تعود للموضوع مرة أخرى بصورة مجازية عن الأتباع (كبراء قريش) الذين أشركوا سلفهم مع الله وضلوا باتباعهم: وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ(٢٨) فَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ(٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ(٣٠) يونس.

فالسلف الذين شرعوا من دون الله ومن تبعهم وتمسكوا بموروثهم سيكون مصيرهم النار،

وهذا ينطبق عل أي سلف وأتباع.

وتواصل سورة يونس في نفس الموضوع موجهة الخطاب لقريش الذين يتمسكون بموروثهم الذي خلفه لهم السلف وجعلوه شريكاً لله: قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ(٣٤) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(٣٥) يونس.

وتقول السورة أن إتِباع الموروث ظن لا يغني عن الحق: وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ(٣٦) يونس.

وهو ما ينطبق عل أتباع كل مذهب.

وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ(٢٥) العنكبوت.

والآية جاءت ضمن آيات تتحدث عن جدال إبراهيم لقومه، وتؤكد ما سبق وذكرته سورة الأعراف في الآيات: (٣٧-٤١) من أن الذين يتمسكون بالموروث ويرفضون دعوة الحق سيلعنون بعضهم يوم القيامة.

مثال من هذا العصر على التمسك بالموروث وحرب من يخالفه

جوزيف سميث مؤسس كنيسة يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة المعروفة باسم المورمون. وُلد سنة (١٨٠٥) في ولاية فيرمونت في الولايات المتحدة الأمريكية. قُتل سنة (١٨٤٤) في ولاية إلينوي في الولايات المتحدة الأمريكية. يعتبره أعضاء كنيسة المورمون نبيا من الأنبياء. وبدون مقدمات معروفة في عام ١٨٢٣ أعلن جوزيف سميث (وكان عمره حينها ١٨ عاماً) أن وحيًا من السماء أتاه وأخبره أنه رسول للقارة الأمريكية لتأسيس الكنيسة الأصولية، وأنه على يديه سوف تظهر الألواح الذهبية المختفية أو ما أسماه بالألواح المصرية القديمة، وفي عام (١٨٢٧) ناوله الآتي من السماء واسمه موروني (كما يروي اتباعه) نص اللوح، وقام جوزيف بترجمة النص إلى اللغة الإنجليزية وصارت هذه الترجمة كتاب المورمون المقدس، وتعتبر تكملة للعهد القديم أو التوراة (وسنعرض لما فيه لاحقا). وفي

عام (١٨٣٠) قام جوزيف سميث بتأسيس كنيسته التي سماها «كنيسة يسوع المسيح للقديسين الجدد أو العصريين» وسمى مذهبه وديانته المورمونية، وقد استجاب العديد من المسيحيين لدعوة جوزيف وبدأ يُرسي نظامًا خاصًا بكنيسته. وأشهر مخالفته لكافة المذاهب المسيحية بسماحه بتعدد الزوجات في ديانته، واستمر في نشاطه في المناطق المحيطة به. وقد اعتبرته المذاهب الأخرى مرتدًا، ونشبت عدة اضطرابات بين أتباعه وأتباع المذاهب المسيحية الأخرى، وكان أشدها في عام (١٨٤٤) والتي هاجم فيها الأهالي جوزيف وسجنوه وشقيقه ثم قتلوهما دون محاكمة. ولم يكتفوا بذلك، بل أحرقوا كنائس المورمون، وقتلوا العديد من أتباعها وأحرقوا منازلهم وممتلكاتهم وأعمالهم، مما أدى إلى هجرة قسم كبير منهم إلى الغرب الأمريكي. وكل هذه القسوة في التعامل مع سميث وأتباعه لأنه خرج عن الموروث، برغم أن الغرب يتشدقون بأنهم متحضرون لدرجة أن قوانينهم تنص على حرية المعتقد، وبرغم أن الهجرة لأمريكا - في كثير من الأحيان - تمت تحت شعار الحرية الدينية والتخلص من التعسف الكنسي في أوروبا. مما يؤكد أن التمسك بالموروث وعدم قبول الخروج عليه سنة أزلية في كل مكان وزمان. برغم أن الموروث ظن: أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(٦٦) يونس.

وحتى اللحظة فكل من يسلم من الغرب يواجه من أهله بالعداء ومعارفه بالجفاء، بل إن من ينتقل من مذهب مسيحي لآخر، يقابل بعداء وجفاء. ولولا القوانين التي تنص على حرية الاعتقاد لتعرض للأذى البدني، برغم تبجح الغرب بأنهم لا يهتمون بالأديان[1].

كثرة أتباع الباطل لا يحوله لحق

قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٠٠) المائدة.

كثرة أتباع الضلال لا تحوله لحق، وقلة أتباع الحق لا تحوله لباطل، وانتشار الخبائث كما في زماننا وكثرة الناس الذين يستحلونها أو يمارسونها لا تحولها لطيبات.

١ القوانين الغربية التي تنص على حرية الأديان وضعت من أجل المسيحيين، وقبل أن ينتشر الإسلام عندهم، وعندما كانت المذاهب المسيحية على عداء مستحكم فيما بينها، فتم سن هذه القوانين لعدم تجريم من يغير مذهبه من الكاثوليكية إلى البروتستانتية مثلاً. ولم يكن المقصود بها تشجيع الإلحاد، أو التسامح مع من يخرج من المسيحية لدين آخر.

وقلة أتباع الحق لا يحوله لباطل

إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي(١٤) إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى(١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى(١٦) طه.

المخاطب موسى في بداية تكليفه بالرسالة، حيث أمر أولاً باتباع الدين وأن يكون أول المسلمين، ولو لم يشاركه في اتباع الحق أحد. فالحق حق ولو تركه الناس جميعاً، والباطل باطل ولو تبعه كل الناس. فكثرة الأتباع لا تحول الباطل لحق وقلتهم لا تحول الحق إلى باطل.

لا يتبع الحق في البداية سوى قلة مستضعفة

وعندما تظهر دعوة إصلاح ديني (يقودها رسول أو مصلح) أو إصلاح دنيوي يقف المجتمع ضدها، ولا يؤمن بها ويتبعها إلا قلة. وهذه القلة ليسوا من صفوة المجتمع وكبرائه، ولكن من الضعفاء والمهمشين والمستضعفين في الغالب، وقلة قليلة من طبقات أخرى في المجتمع تبحث عن وضع أفضل مع الدعوة الجديدة مما حصلت عليه في مجتمعها: قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ(١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ(١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ(١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ(١١٥) الشعراء.

الحديث عن نوح وقومه.

وهو ما حدث لكل الرسل ومنهم الرسول محمد، فلم يؤمن برسالته في مكة إلا قلة غالبيتهم من المستضعفين والمهمشين.

الكبراء هم من يقود الحملة ضد الدعوة

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ(٣٤) سبأ.

والمترفون (الكبراء كالزعماء وأصحاب المنافع والنفوذ) هم من يحمي الموروث ويدافع عنه لأنه بنيت عليه مصالحهم. وقيادة الحملة ضد دعوة الحق تعني تعبئة الرأي العام ضدها، وهو ما يقوم به الكبراء الذين يملكون المال والسلطة والإعلام. وتكون تعبئة الرأي العام

بوسائل شتى منها:

اتهام الرسول أو المصلح

محاولة إلصاق التهم بالخصوم وسيلة قديمة تتكرر باستمرار على مستوى الدول والمجتمعات والأفراد. وتعتمد اختلاق تهمة ونشرها، لتشويه سمعة المعارض. وحتى لو لم يصدقها الناس، فمجرد ترديدها من منتفعين ومأجورين، يعمل على ترسيخها وفرضها كواقع، ولا يستطيع المتهم ومن يهتم بأمره نفيها علناً لئلا يتعرض للعقوبة كون من نشرها هم من يملكون السلطة أو يحتمون بها. وفي هذا العصر فكل من يطالب دولته بحقوقه المهضومة أو يدعو للإصلاح يتهم بالإرهاب والعمالة وخدمة أجندات خارجية. وكل من ينتقد عادات سيئة ويسعى لتطهير المجتمع منها يتهم بتهم مماثلة. وكل من يدعو للإصلاح الديني والعودة للحق يتهم بالزندقة والكفر. ويتم التعرض لأشخاصهم وتشويه سمعتهم، بل والتضييق عليهم وإخماد أصواتهم. فالناس لا تبحث عن الحق بقدر ما تصر على حماية موروثها.

ورسول الله محمد – ككل الرسل – تعرض لمثل هذه المواقف من قريش، إلا أن احترام حرمة مكة من قبل قريش حماه من الأذى الجسدي والقتل. لكنه لم يسلم من التعدي النفسي والسب والشتم واتهامه بكل أنواع التهم التي سنمر عليها أثناء تدبر السور، والتي منها:

ساحر أو مجنون

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ(١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ(٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ(٣) وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ(٤).

فقريش اتهمت الرسول بأنه ساحر وكذاب، لكي تبرر موقفها الرافض للحق، ولتظهر بأنها تدافع عن الحق وترفض الكذب والخداع.

وما نسبته قريش للرسول نسبته كل الأمم لرسلها: كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) الذاريات.

شاعر أو كاهن

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) الحاقة.

كذاب

أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) القمر.

الرسول يدعو لشيء غير معقول

عندما كان الرسول يقول لقريش بأن هناك بعثاً، فهو مجرد كلام لا يمكن إثباته بشكل محسوس:

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) الجاثية.

والآية تخبرنا أن قريشاً كانت تقول بأن كلام الرسول عن البعث والقيامة هو مجرد خيال لا يمكن إثباته بدليل محسوس. وبالتالي فلن يتنازلوا عن موروثهم ومصالحهم التي قامت عليه لمجرد زعمٍ لا يملك محمد عليه دليلاً محسوساً يؤكد وقوعه.

الملذات والمتع

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ.(آل عمران:١٤)

وكبراء قريش تشربوا أن قبول دعوة محمد ستحرمهم من متعهم الدنيوية التي يستمتعون بها. وهذا يماثل قول المعارضين للعودة للحق بأنها دعوة إخوانية أو تكفيرية أو خارجية.

الطبقية والامتيازات الاجتماعية

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ.(الأحقاف:١١)

والنظرة الطبقية الاجتماعية التي يؤمن بها الكبراء ويدافعون عنها ولا يقبلون بأي دعوة تحد منها أو تلغيها، يصورها المثل العامي الذي يقول: إذا كنت أميراً وأنا أمير فمن يسوق الحمير. بمعنى أنه لابد أن يكون هناك خادم ومخدوم وإلا لفسدت الأرض ولما صلح حال

الناس.

ولكن الدين له وجهة نظر مخالفة، تتمثل بأن التأفف عن القيام بأي عمل من الأعمال الخدمية الضرورية لاستمرار الحياة اليومية، هو تكبر وغطرسة تقسم الناس إلى براهما وعمال ومنبوذين. ويجب أن يحل محلها ثقافة تقول بأن الإنسان السوي مساو لكل الناس الأسوياء، وأن الأعمال يجب أن يقوم بها الناس بناءً على تقسيم حرفي وليس على تقسيم طبقي، وأن أي عمل شرف لصاحبه مادام يساهم في دفع عجلة الحياة الكريمة بغض النظر عن ماهيته. ولذلك فأي شخص يجب أن يسوق الحمير بنفسه أحياناً إذا تطلب منه الأمر ذلك ولا ينتظر غيره ليسوقها بالنيابة عنه، كما أن نفس الشخص مؤهل لأن يمارس دور الأمير إذا اقتضت الظروف منه ذلك. وليس في الثقافة الإسلامية دور محدد طوال العمر لكل شخص لا يتعداه لغيره، بل يجب أن يتداول المسلمون الأدوار حسب الحاجة أثناء مراحل الحياة المختلفة: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ.(الحجرات:١٣)

الدين كلٌ لا يتجزأ

ولهذا يحارب الدين، لأنه لا يقبل بإيمان فقط أو عمل صالح دون إيمان. ولا يتجاوز عن الاستمرار في المعاصي. والناس يريدون ديناً يسمح لهم بالموبقات ويضمن لهم الجنة في الاخرة. ولو كان هناك حد أدنى من التشريعات الدينية يلزم على جميع الناس أن يتمسكوا بها، وليس عليهم بعد ذلك من حرج بممارسة ما يوائم مصالحهم الشخصية، لكان بإمكان الكثير من الكبراء أن يبقوا على موروثاتهم وميزاتهم الاجتماعية وأن يؤمنوا بدين سيضمن لهم ميزات أغلى وأعلى في الآخرة، إن هم آمنوا بوجود آخرة فعلاً.

فمجتمع مثل مجتمع قوم لوط الذي اعتاد أفراده الشذوذ الجنسي واعتبروه ممارسات شخصية لا تخل بشرف ولا كرامة ولا تنقص من شهامة، لم يكن كثير منهم ليقف ضد دعوة لوط لو أن الدين سمح لهم بالإبقاء على تلك الممارسات، ولكن الرسول لا يستطيع تجزئة الدين الذي نزل عليه من الله كوحدة لا تتجزأ: وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ. أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ. فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ. فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا

امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ. (النحل:٥٤-٥٨)

وقد لا يكون لدى البعض من قوم شعيب مانع من الإيمان بالله وتأدية العبادات لو سمح الدين لهم بالإبقاء على ما اعتادوا من تعاملات تجارية اعتبروها نجاحاً في مجال إدارة الأعمال: وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ.

ولكن الدين يمنع الغش التجاري في المنتج وفي التعامل وفي كل المجالات التجارية، ولا يبيح سوى الربح المعقول مع ضمان جودة المنتج: بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ. (هود:٨٦)

وهذا مرفوض لأنه سيلغي تميز قوم شعيب التجاري: قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ(هود:٨٧)

وبما أن أوامر الدين ونواهيه ليس بينها هام ومهم وأهم ولا كبير وصغير وأصغر، فإن الدين إما أن يؤخذ كله ولو تعارض مع المصالح، أو يترك كله. ولذلك لم يكن من الممكن على كبراء الأمم أن يقبلوا الانضواء تحت مظلة الدين وخسارة امتيازاتهم وميزاتهم الاجتماعية وملذاتهم مقابل وعود غيبية لحياة لا يمكن لهم التأكد من أنها ستحدث فعلاً، برغم أنهم أناس لا ينقصهم الذكاء والتفكير السليم والعقلية المبدعة.

والالتزام بالدين الصحيح (إيمان وعمل صالح يتمثل باجتناب كل نواهي القرآن وطاعة كل أوامره) عبارة عن دخول في مضاربة، مثلها مثل أي مضاربة مالية، تزداد نسبة الأرباح بازدياد نسبة المخاطرة. فالإنسان كلما ارتفعت قناعاته بالآخرة - لأي سبب أو أسباب كانت - انقاد للإيمان بسهولة. لأنه يكون مستعداً لأن يخسر الجاه أو المال أو النفوذ أو المتع التي كان يتمتع بها مقابل وعود الآخرة الغيبية، التي إذا حدثت فستكون أرباحه هائلة بشكل لا يمكن مقارنتها بأي أرباح دنيوية. وكلما تناقص يقين المرء بالآخرة، كلما كان لدى الإنسان تحفظ حول الدخول في المضاربة الدينية.

ونتيجة لذلك، فمعظم الناس لن يقبلوا على الدين لأنهم يملكون من المتاع والمتع الدنيوية ما قد يخسرونها دون مقابل لو كانت الدعوة الدينية غير صحيحة، وبالتالي يكونون قد ضاربوا بكل ما يملكون من ممتلكات ذات قيمة مادية ومعنوية محسوسة مقابل وعود خيالية. وهي

وعود لا يمكن تحقيقها في هذه الحياة، ولا يمكن التأكد من أن هناك حياة أخرى بعد الممات، وإذا كان هناك حياة فليس هناك طريقة للتأكد من أن وعود الرسول ستتحقق لهم، لأن الرسول نفسه لا يستطيع تقديم دليل واحد محسوس على ذلك.

لهذا فكل الدعوات العقائدية تبدأ بالانتشار بين الفقراء والمساكين والمغلوبين على أمرهم والمسحوقين في المجتمع: فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ.(هود:٢٢-٢٨)

لأن هؤلاء الناس مكاسبهم من الدخول في الدين مضمونة. وأقل ما سيحصلون عليه سيتمثل بالخلاص من الأوضاع المتردية التي كانوا يعيشونها في الدنيا. ولن يعاملوا كعبيد ومسخرين للآخرين، بل سيصبح الجميع عباداً لله إخوانا. وسيقاسمهم الغير لقمة العيش والتي ستزيد عما كانوا يحصلون عليه من طعام مقابل سخرتهم في السابق. وإن كان هناك حياة آخرة وحصلوا على نعيمها فهو مكسب إضافي، وتكون مضاربتهم ناجحة بكل المقاييس، لأنهم لم يخسروا أي شيء ذا قيمة مقابل دخولهم في الدين.

فيما ستكون المضاربة لبقية أفراد المجتمع باهظة التكاليف، ولذلك يبقى الناس على عداوتهم لصوت الحق، ويقنعون أنفسهم بأن ما أبقوا عليه هو الحق: أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ.(فاطر:٨)

فهم يبقون على الضلال ليس لأنهم يعلمون أنهم على ضلال ولكن لأنهم يعيشون داخل دائرة الضلال فيظنون أن ما يحيط بهم هو الحق لأنهم لا يستطيعون رؤية غيره: أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ.(الأنعام:١٢٢)

وبطبيعة الحال يبقى باب الحق مشرعاً على الدوام لكل من يريد أن يراجع نفسه وأن يحكم عقله في معتقده وطريقة حياته من أي طبقة من طبقات المجتمع: يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ. (البقرة:٢٦٩)

وهذا خيار متاح للشخص نفسه: إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً.(الانسان:٣)

يحصل عليه كل من يحاول أن يسمح لعقله بالتفكير الحر، وأن يتقبل الرأي الآخر والنقد من الذات ومن الآخرين مع عدم ممانعة للتغيير إن كان للأفضل: أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ.(الرعد:١٩)

وليس أدل على ذلك من أن القرآن يخبرنا بأن قوم يونس الذين كانت أعدادهم تزيد عن مائة ألف نسمة قد آمنوا جميعاً: وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ. فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ. (الصافات:١٤٧-١٤٨)

والناس اليوم يحاولون أن يمسكوا العصا من المنتصف، فهم يريدون الجنة في الآخرة مع إبقائهم لبعض الممارسات التي تدخل ضمن الكبائر. فبعض النساء مثلاً تريد أن تتبرج وترتاد أماكن العهر، لكنها تصلي وتصوم، لأنها اقنعت نفسها وأقنعتها كتب التراث أن الحسنات (الصلاة والصوم) يذهبن السيئات (الكبائر). وبعض الرجال يريد أن يشرب الخمر أو يزني ويصوم ويصلي لنفس القناعات الموروثة.

وعندما يقال له إن القرآن يؤكد أن أفعاله ستورده النار يسارع للحكم على القائل بأنه تكفيري.

و«تكفيري» لفظ استغل في هذا العصر أسوأ استغلال للتنفير من الدين وتمييع أوامر القرآن، وتحويل دين الله إلى ممارسات تعبدية وما عداها فأشياء هامشية.

وكل الأمم تحاول إيجاد مبررات لتمسكها بموروثها ورفض دعوة الحق تتماشى مع زمانها ومكانها وثقافتها. فالأمم السابقة كانت تتهم الرسول بالكذب أو السحر أو أنه بشر مثل غيره فكيف استطاع أن يتصل بالسماء أو يطلبون منه خوارق أو رؤية الملائكة وعندما لا يستجيب يشعرون بالرضى عن أنفسهم وتمسكهم بموروثهم ورفض دعوته.

وقريش كغيرها من الأمم بررت عدم قبولها دعوة محمد لأنه مجرد شخص عادي في مكة فكيف اختير من بينهم وليس له أي تميز: وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ(٤) ص.

فمن المستحيل – في ظنهم – أن يختار الله محمداً – الشخص العادي بينهم – على سادة قريش وحكمائها، ولو أراد الله – في ظنهم – أن يرسل لهم رسولاً منهم لاختار واحدا من

سادسهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ(٣١)﴾ الزخرف.

فمن يكون هذا الرسول وماهي الصفات الخاصة التي يمتلكها والتي مكنته من مخاطبة السماء؟ ولماذا تم اختياره من بين كل الناس؟: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ(١٢٤)﴾ الأنعام.

لهذا كان أول أسئلة يواجه بها الرسول هي: من أنت لتغير دياناتنا، وعاداتنا وثقافة مجتمعنا؟

هل أنت تعرف ما لا يعرف علماؤنا؟

لا يعقل أن يكون كل العارفين على خطأ وأنت على صواب؟

كل آبائنا وأجدادنا كانوا على ضلال طوال مئات السنين وأنت من اكتشف هذا؟

وغيرها من الأسئلة التي يقابل الناس بها كل رسول أو مصلح، لكي يشعروا أنفسهم أنهم على حق وأن آباءهم ليسوا على ضلال وأن معتقداتهم صحيحة، ليتحاشوا نقد الذات أو قبول أن الموروث على خطأ.

وموقف الناس هذا من الرسل مماثل لموقفهم من أي مصلح أو مناد بالتصحيح، والذي عادة ما يواجه بأنه نكرة، أو أنه لا يمكن أن يغير العالم. أو أن ما يدعو إليه باطل لأن من يعتبرونهم مفكرين وعلماء لم يفطنوا له ولم ينادوا به طوال تاريخهم الطويل فتأتي أنت (يا نكرة) وتكتشفه. ويتناسون عمداً أن الحق ليس له رجال، ليستمر منطق الرفض واحد في كل زمان ومكان: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ(٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ(٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ(٢٥)﴾ المؤمنون.

وإذا استمرت الدعوة يبدأ أتباع الموروث بالعمل على وقفها بأي وسيلة، بداية بالسخرية والضغوط النفسية وانتهاء بتلفيق التهم والأذى الجسدي.

السخرية والضغوط النفسية

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ(٢١٢)﴾ البقرة.

محاولة إلصاق تهمة تجرم المصلح للخلاص منه

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ(٢٣) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ(٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ(٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ(٢٦) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ(٢٧) غافر.

بمجرد أن يهاجم الرسول أو المصلح الموروث الديني حتى يواجه بالتهم، بغض النظر عن صحة ما قال من عدمه. فأتباع الموروث لا يسمحون بنقد موروثهم وبالتالي لا يتمعنون فيما يقال عنه، وحكمهم على من ينتقده معروف مسبقاً.

وموسى هنا بمجرد ما قال لفرعون اتق الله واترك عبادة الأوثان لعبادة الله، فقد مس المحظور، وحق قتله لأنه جاء ليبدل الدين الموروث.

الإيذاء الجسدي أو حتى القتل يكون مشروعاً عند أتباع الموروث

فالمهم إسكات أي صوت ينتقد موروثهم بأي وسيلة: قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ(١١٦) الشعراء.

عليك بنفسك ولا تهتم لكثرة المخالفين

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(١٠٥) المائدة.

لو ضل الناس جميعاً فليس مبرراً لمن عرف الحق أن يضل معهم، واتباع الحق واجب لأنه حق ولو لم يتبعه أحد.

قل هاتوا برهانكم

يقول القرآن: كل من يزعم أن معتقده من دين الله فعليه تقديم برهانه وأدلته. والأدلة المقبولة هنا هي القطعية الثبوت، لأن الظن لا يغني عن الحق شيئاً: أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى(٢١) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى(٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن

سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ(٢٣) النجم.

وقريش تعتقد أن الملائكة بنات الله، والآيات تطلب منهم أن يقدموا أدلتهم وعلى أي أساس بنوا معتقدهم هذا. فإن لم يستطيعوا تقديم أدلة يقينية الثبوت فمعتقدهم باطل، لأنه لا يزيد عن ظن واتباع ما تهوى الأنفس.

وهذا ينطبق على أي معتقد يقول به أي مذهب من مذاهب المسلمين لم يقلبه القرآن.

وتؤكد سورة الطور ما ذكرته سورة النجم: فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ(٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ(٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ(٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ(٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ(٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ(٣٤) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ(٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ(٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ(٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ(٣٨).

فقريش تكيل التهم للرسول بلا دليل، والقرآن يطلب منهم دليلاً على مزاعمهم. وهو ما يقال لكل من يتهم الرسول أو القرآن، ولكل من يتبع معتقداً ليس في القرآن.

وتؤكد سورة الصافات هذه الحقيقة: فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ(١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ(١٥٠) أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ(١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ(١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ(١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ(١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ(١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ(١٦٠) الصافات.

وتقول سورة الأحقاف مخاطبة قريش: قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٤).

قريش لا تعتمد في معتقداتها على مصادر، فالأصنام جماد لا يخلقون شيئاً، ولا يشاركون الله في ملكه. كما أن قريشاً لا تملك سجلاً موثوقاً يقول بأن عبادة الأصنام صحيحة، وليس هناك كتاب من الله يقول بذلك.

وتقول سورة فاطر: قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً(٤٠).

تكرار لما سبق وذكرته آية سورة الأحقاف أعلاه. والآية تدعو قريشاً للتفكير بعقلانية، فأصنامهم لا تستطيع شيئاً وليس لها شرك مع الله ولا يوحى إليهم بعبادتها، فكيف يعبدونهم. وهذا الكلام ينطبق على أي تشريعات خارجة عن القرآن.

وكل من يدعي أمراً عليه تقديم البرهان: أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٦٤) النمل.

أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ(٢٤) الأنبياء.

وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١١١) البقرة.

وأتباع الموروث عليهم تقديم أدلة من القرآن على معتقداتهم أو ليعلموا أنها ظن وباطل. وعلى أهل المذاهب تقديم أدلتهم على صحة تشريعاتهم بأدلة من القرآن، وليس من كتبهم، لأنه لا يمكن قبول شهادة الظن على صحة ظن منه.

من له مصالح دنيوية لن يؤمن في الغالب

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ(١١) الأحقاف.

دائماً، وكقاعدة ثابتة، لا يؤمن أو يعود للحق إلا من غلب عقله على مصالحه الدنيوية. لذا فالغالبية من أنصار الحق من الفقراء والمستضعفين، وقلة من غيرهم ممن سمحوا لعقولهم بالتفكير فغلب العقل على المصلحة.

والآية تظهر أن كبراء قريش يبررون لأنفسهم تمسكهم بموروثهم، لأن أتباع محمد من الفقراء والمستضعفين، ولو كانت الدعوة صحيحة لتبعها علية القوم.

المال والسلطة تحول الباطل حقاً وتحميه

وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ(٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ(٥٢) فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ(٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ(٥٤) الزخرف.

فرعون زعيم طاغية له مصالح دنيوية ولن يقبل دعوة الحق التي أتى بها موسى لأنها ستشل يده من تسخير الناس له كعبيد، وتمنعه من التحكم بمعاشهم وحياتهم وكأنهم قطيع غنم مملوك له. ولن يقبل بأن يتحول من حاكم ومالك مطلق لواحد من الناس له ما لهم وعليه ما عليهم. لذا استخدم نفوذه وإعلامه لتصوير الحق باطلاً وخروجاً وما هو عليه حق يجب التمسك به. وكما هي العادة، تبعه الناس.

واليوم نرى فرعوناً على شكل دولة كأمريكا، وفراعنة على شكل حاكم كحكام العرب. وهؤلاء الفراعنة يلمعون من يخدم مصالحهم ويحولونهم لرجال الصدق والأمانة والحق والتدين، بينما يحولون كل من يخالفهم الرأي إلى خوارج ومارقين، ولو كانوا من أهل الحق والدين والصلاح.

الكبراء في أي مجتمع هم من يقود الناس لرفض الدعوة

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(١٢٣) وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ(١٢٤).

قريش كأي مجتمع آخر، الكبراء فيه يقودون بقية الناس لرفض الدعوة، لأنها تصحيحية ستغير من أوضاع الناس وستلغي التميز للكبراء. وتحجج كبراء قريش برؤية آية ويؤمنون، هو مجرد تبرير، ولو رأوا كل الآيات فلن يؤمنوا.

أي حاكم قد يصل لحالة من الزهو كما فرعون

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى(١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى(١٦) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى(١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى(١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى(٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَى(٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى(٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَى(٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى(٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى(٢٥) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى(٢٦) النازعات.

أي حاكم مستبد عندما يصل لدرجة من الزهو بالنفس يظن أنه لا قوة إلا قوته ولا حول إلا حوله، وينسى أنه مجرد خلق حقير سرعان ما يهلك.

وكل مستبد طاغية غايته الدنيا ومصيره جهنم: فَأَمَّا مَن طَغَى(٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى(٣٩) النازعات.

كل مهووس بمتع الدنيا بعيد عن الدين

فَأَمَّا مَن طَغَى(٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى(٣٩) النازعات.

ولا يمكن أن يجتمع التعلق بالدنيا ومتعها والخوف من الله. والعكس: كل من آمن سيخاف الله، ومن يخاف الله ترخص الدنيا عنده، ولا تهمه متعها: وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى(٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى(٤١) النازعات.

الناس جبلوا على حب الدنيا والتمسك بالماديات

برغم أن الدنيا قصيرة جدا، ومن يموت يترك خلفه كل ما حرص عليه في الدنيا، نجد أن كثيراً من الناس كلما تقدم بهم العمر واقتربوا من النهاية، كلما زاد تعلقهم بالدنيا وبالمال والمتع.

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ(١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ(٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ(٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ(٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ(٨) التكاثر.

السورة تخاطب قريشاً قبل بدء الدعوة الفعلي، وتذكرهم بوضع شائع بين الناس عليهم أن

يتخلو عنه. وأن يهتموا بأمور الآخرة والاستعداد لها، لأن سعادة الآخرة ومتعها دائمة لا تزول بينما متع الدنيا سطحية زائلة.

إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ(٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ(٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ(٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ(٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ(١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ(١١) العاديات.

وهو ما كررته سورة العلق: كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ(٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ(٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ(٨).

وأكدته سورة الأعلى: بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ(١٧).

وسورة الانفطار: كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ(٩).

وسورة الانشقاق: فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ(٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ(٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ(٢٣) فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٢٤).

وسورة الفجر: بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ(١٧).

وهو ما تؤكده سورة القيامة: كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ(٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ(٢١) والمخاطب هم قريش.

الإنسان يكره الفقر لكن لو ملك المال فلا ينفق لمعاونة الفقير: إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا(٢١) المعارج.

وتقول سورة يونس: إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ(٧) أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(٨).

انغماس قريش في الدنيا ومتعها، أنساها الآخرة، وهو ما نشاهد شبيهاً له في أوضاعنا الحالية.

وتقدم سورة يونس وصفاً بليغاً لمتع الحياة: إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٢٤) وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٢٥).

الإنسان يعلم أن الله موجود والإلحاد مجرد تظاهر وتصنع

في أوقات الرخاء ينكر الملحد وجود الله، ويرفض المشرك توحيد الله بالعبادة، لكن بمجرد أن يتعرض لموقف حرج حتى يعود لله: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ(٤٧) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ(٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ(٥٠) الزخرف.

فهو في داخله على يقين بوجود الله: وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(١٢) يونس.

لكنه ينسى ربه في الرخاء: وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً(٨٣) بني إسرائيل.

وفي أيامنا عندما يصاب الفرعون ببلاء يهرع ذووه للتبرع ودفع المال ومعاونة المحتاجين ويطلبون من الناس الدعاء له، وكأن الله جل وعلا تميله العواطف.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ(٣١) وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ(٣٢) لقمان.

وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ(٨) الزمر.

والإيمان يحتم المواصلة، وهو ما تؤكده الآية التالية: أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ(٩) الزمر.

ومن ينسى الله ولو لفترة بسيطة نسيه الله.

ومثله: فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ

فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(٤٩) الزمر.

والمؤمن لا ينسى الله ولا يغفل عنه لأنه يعلم أن كل ما يصدر منه يسجل وسيحاسب عليه.

وتقول سورة الأنعام:

قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ(٤١) الأنعام.

وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ(٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ(٥٤) لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ(٥٥) النحل.

كما ورد في سور سابقة، مثل: بني إسرائيل:٨٣، وفصلت:٥١.

المستضعف لا يعذر في عدم الإيمان تبعاً لسيده

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ(٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ(٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٣٣) سبأ.

ومثله:

وَبَرَزُواْ للهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ(٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٢٢) وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ(٢٣) إبراهيم.

لا عقل مع الموروث

وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ(٣٦) الأنبياء.

قريش تسخر من الرسول لأنه ينكر عبادة الأصنام، بينما هم ينكرون عبادة الرحمن.

دليل واضح على أن التمسك بالموروث يعطل العقل، وهناك قاعدة عند كل أتباع الموروث تقول: الدين نقل وليس عقلاً. لأن العقل يسمح بإظهار العيوب والمثالب. أما النقل فيبقي على الموروث دون تغيير ويحرم نقده.

النفاق

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ(٨) يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ(٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ(١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ(١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لاَّ يَشْعُرُونَ(١٢) البقرة.

كل من يصدر منه إفساد في الأرض أو ضد الناس أو عداء للإسلام بأي وسيلة فهو منافق وفي قلبه مرض وعدو وليس مسلماً. فإعلان الدخول في الإسلام لا يكفي ليكون المرء مسلماً.

الإيمان لا يعني إعلان الإسلام

وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ(٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(٢٧) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٢٩) البقرة.

الدخول في الإسلام لا يعني التلفظ بالشهادتين في جو احتفالي وإعطاء شهادة وتغيير اسم المسلم الجديد. لكنه عقد اتفاق وعهد مع الله أن يطيع كل أوامره وينتهي عن كل نواهيه،

مقابل جنة في الآخرة وسعادة في الدنيا.

والمنافق مصيره جهنم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ للهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً(١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً(١٤٥) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ للهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً(١٤٦) مَّا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِراً عَلِيماً(١٤٧) النساء.

الآيات تخاطب مسلمة قريش في محاولة أخيرة لعلهم يتراجعون عن موالاة المشركين ويتصرفون كمؤمنين. وتقول بأنهم لو لم يفعلوا فإن ولاية الكفار كفر ولو أعلنوا إسلامهم.

وتتحدث سورة الجمعة عن بني إسرائيل: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٥) الجمعة.

لقد تركوا العمل بالتوراة برغم أنهم يحتفظون ببعضها، والمسلم أيضاً الذي يحفظ القرآن ويعمل بتشريعات أخرى مثله كمثل الحمار يحمل أسفاراً.

المنافقون في المدينة معروفون بأشخاصهم من الرسول والمسلمين

وهذا يخالف مزاعم كتب التراث التي تقول إن الرسول لا يعرفهم ولا المسلمون، وهذه بعض الأدلة:

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٤١) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٤٢) المائدة.

كان الرسول يسمع أقوالهم ويعرفهم شخصياً.

وتقول سورة المائدة نفسها: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ(٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ(٥٣).

والآية (٣٥) تؤكد أن المسلمين كانوا يعرفون المنافقين بأشخاصهم.

وهذا لا يمنع ان يكون هناك نفر قليل من المنافقين لا يعلمهم الرسول والمؤمنون، وهم الذين أشارت لهم الآية (١٠١) من سورة براءة: وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ.

طه ويس حروف افتتاح أصبحت أسماء للرسول

برغم أن كتب التراث لا تسجل لنا أن رسول الله ناداه أحد صحابته أو نادته قريش في عصره بـ «طه» أو بـ «يس» إلا أنه ترسخ لدى الناس منذ العصر العباسي أنهما اسمان لمحمد عليه الصلاة والسلام، ونودي بهما في العديد من القصائد الدينية والكتابات الأدبية المتأخرة. ونتيجة لذلك تحول حرفا (ط ، هـ) وحرفي (ي ، س) إلى أسماء، وصار من المعتاد أن يسمى بهما الذكور، ولم يعد أحد يتذكر أنها مجرد حروف افتتاح للسور مثل: طس، طسم، حم، ألر، ألم ..... الخ.

وسيظن البعض أن بداية السورة خير دليل على أن «طه» اسم للرسول، فالسورة تقول: طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى(٢).

وتكون السورة – في نظرهم تقول: محمد! ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى.

وهذا سيكون منطقياً لو أننا نتحدث عن عبارة كتبناها، لكن القرآن يختلف في صياغة العبارات عما اعتدنا من عبارات. ومن الأمثلة على ذلك أن سورة الجاثية تبدأ بهذا الشكل: حم(١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(٢).

بينما تبدأ سورة الزمر بنفس عبارة الجاثية لكن بدون حروف افتتاح (حم) وبهذه الصيغة:

تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(١) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ(٢).

دون أن يتغير المعنى أو يختل.

سيقول القارئ هذا المثال بعيد ومختلف عن بداية سورة طه، ونقول نعم، لكنه يدلل على أن حروف الافتتاح ليست هي التي تقيم العبارة. فقد تأتي نفس العبارة بدون حروف الافتتاح. وهذا هو المقصود في إعطاء هذا المثال، قبل أن نعطي أمثلة قريبة ومشابهة لبداية سورة طه، كما يلي:

تبدأ سورة الأعراف بقوله تعالى: المص(١) كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢).

والسورة تخاطب الرسول. فهل هذا يعني أن "المص» اسم له عليه الصلاة والسلام؟ لا أحد يقول بذلك، لأن التراث لم يحول هذه الحروف الافتتاحية إلى اسم مثلما فعل مع طه ويس.

مثال آخر: سورة إبراهيم تبدأ بمخاطبة الرسول: الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(١).

لاحظ أن حروف الافتتاح (الر) ليست آية لوحدها بل هي ضمن الآية الأولى التي تخاطب الرسول ومع ذلك فقد بقيت حروف افتتاح وليست اسماً لمحمد. والآية تستقيم معها أو بدونها.

ومثله :المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ(١) الرعد.

ومثل «طه» نجد «يس» التي جعلت اسماً آخر للرسول.

السورة تبدأ بهذه الصيغة: يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ(٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ(٣).

لاحظ أن حروف الافتتاح «يس» يليها آية أخرى ثم آية ثالثة هي التي تخاطب الرسول. ومع ذلك اعتبرت "يس" اسماً، وألصق بالرسول.

ولو أخذنا بهذا فلابد أن نقول بأن «ن» اسم لمحمد، لأن سورة القلم تبدأ بداية مشابهة لسورة يس: حرف افتتاح ثم آية، ثم آية ثالثة تخاطب الرسول: ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ(١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ(٢).

ومثلها بداية سورة القصص: طسم(١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ(٢) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٣).

ومثلها سورة الشورى: حم(١) عسق(٢) كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٣).

وسورة الشعراء: طسم(١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ(٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(٣).

وعليه، فـ «طه» و «يس» مجرد حروف افتتاح مثل «حم» أو «طس» لكن على ما يبدو استساغ الناس تسمية أبنائهم بها ولكي يتم قبولها في المجتمع قالوا بأنها أسماء لرسول الله قال بها القرآن. ولم يكن يهمهم التقول على الله وكتابه ما لم يقل، بقدر ما يهمهم قبول المجتمع لهذه الأسماء الجديدة. وكان بالإمكان اتخاذ هذه الحروف كأسماء دون الحاجة للزعم بأن الله سمى بها نبيه.

أمية الرسول بين كتب التراث والقرآن

كل محاولات المستشرقين للتشكيك بالإسلام والرسول مصادرها كتب التراث، ومن ذلك القول بأن معنى الأمي ليس من لا يقرأ ولا يكتب، ولكنها تعني (الأممي) الذي يرد في كتب اليهود المقدسة كوصف لغير اليهود.

ومن أشهر من حاول الترويج لهذا المعنى الملتوي هو الأمريكي صاموئيل زويمر (١٨٦٧-١٩٥٢) مؤسس العمل التنصيري البروتستانتي في العالم الإسلامي. وقد حاول البحث في كتب التراث الإسلامي عن أي خبر يدعم مزاعمه، فلم يجد سوى خبرين، واحد مصدره كتب التراث السني والآخر كتب التراث الشيعي.

وخبر كتب السنة هو الذي يتحدث عن منع أهل مكة الرسول دخول مكة حتى اتفقوا معهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام فكتبوا بينهم كتاباً يقول: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله.

قالوا: لا نقر لك بهذا، لو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئًا، ولكن أنت محمد بن عبد الله!

فقال الرسول: أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله!

ثم قال لعلي بن أبي طالب: امح رسول الله! قال علي: لا والله لا أمحوك أبدًا.

فأخذ رسول الكتاب وليس يحسن يكتب، فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، لا يدخل مكة السلاح إلا السيف في القراب.

التعليق

مناقشة الخبر لا تعني أننا نعتبر الأحاديث حجة أو مصدراً موثوقاً أو أنه يتحدث عن حادثة وقعت بالفعل، ولكن لنبين من ثناياه أنه خبر فاسد لا يمكن الاستدلال به.

وقبل ذلك نُذكّر أن هناك من يصر على أن الرسول وإن كان أمياً في بداية حياته إلا أنه تعلم القراءة والكتابة في آخر أيامه. وعندما يقال لهم كيف يمكن أن يتعلم القراءة والكتابة في آخر عمره وما حاجته لذلك، خاصة أن كل أيامه كانت مشغولة بالدفاع عن الأمة والوقوف بوجه الأعداء؟ يقولون بأن الله علمه القراءة والكتابة دون معلم ودون الحاجة للدراسة والتجربة، وبدون جهد. وبطبيعة الحال هذا القول لا يستقيم لأن الله لا يتدخل مباشرة في أمور خلقه ولو كانوا من الرسل، ولأنه لو افترض – جدلاً – أن الله علم الرسول فلم لم يعلمه في بداية حياته لحاجته للقراءة حينها، وعلمه في آخر حياته بعدما جفت الأقلام ولم يعد هناك حاجة له عليه الصلاة والسلام بالقراءة والكتابة. ومن يقول بهذا القول السطحي الخرافي يستشهد بالخبر السابق الذي تعلق به المستشرقون، والذي سنناقشه في الأسطر التالية:

فالخبر جاءت صياغته ليبدو كفضيلة لعلي ابن أبي طالب أكثر من الاهتمام برواية ما حدث.

ولو تتبعنا رواياته المختلفة فسنجد التالي:

هناك رواية أخرى منسوبة للبراء الذي روى الرواية السابقة، أوردها ابن حيان، تقول: فأخذ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الكتاب وليس يحسن يكتب فأمر فكتب مكان رسول الله محمدًا، فكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله.

فالرسول أمر من يستطيع الكتابة فكتب له، ولم يكتب الرسول بنفسه لأنه كما قال الخبر: «وليس يحسن الكتابة».

وهناك روايات للخبر أوردها البخاري على لسان أنس ابن مالك والمسور ابن مخرمة وغيرهما، تقول بأن الرسول أمر بأن يكتب له، بقوله: اكتب. ولم يكتب الرسول بيده.

فهذا هو الخبر الوحيد في كتب التراث السني الذي حاول المستشرقون جعله أداة لنسف كل ما قال القرآن عن أمية الرسول.

وهناك خبر آخر من التراث الشيعي، برغم أن التراث الشيعي لا يعتد به عند المستشرقين.

والخبر يقول: إن محمد ابن علي «الرضا» (ت ٢٢٠ هـ) قيل له إن الناس يقولون بأن الرسول لا يكتب. قال: كذبوا عليهم لعنة الله أنى يكون ذلك والله تبارك وتعالى يقول في محكم كتابه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[1]؛ فكيف كان يعلمهم ما لا يحسن؟! والله لقد كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقرأ ويكتب باثنين وسبعين، أو قال بثلاثة وسبعين لسانًا، وإنما سمي الأميّ لأنه كان من أهل مكة، ومكة من أمهات القرى ... انتهى

ومحمد ابن علي لم ينقل عن الرسول ولا عمن عاصره، ولكنه أدلى برأيه الذي يظهر كم هو جاهل بمعاني ألفاظ القرآن لدرجة أنه اعتبر تلاوة الرسول القرآن على الناس دليلاً على أنه يحسن القراءة، وكأن الرسول كان يقرأ القرآن من صحف مكتوبة. وفهمه للأمي على أنه نسبة للأم، كون مكة واحدة من أمهات القرى. والقرآن - الذي لا يعرفه ولا يفهمه محمد ابن علي - لم يقل بأن مكة من أمهات القرى، ولكنها هي وحدها: أم القرى.

وجهله بمعاني ألفاظ القرآن وعباراته أضاف لها جرأته على الكذب على الرسول بقوله: إنه كان يتحدث (٧٢) أو (٧٣) لغة، وهي كذبة تؤكد أن كلامه مجرد اختلاق.

وإيراد المستشرقين لهذا الخبر المتهاوي - برغم أنهم يعلمون أن روايات الشيعة لا يمكن الأخذ بها - دليل على علمهم أن تأويل الأمي إلى أممي غير مقبول.

والمستشرقون يتمنون أن ينشروا فكرة أن الرسول لم يكن أمياً لأنه سيؤيد مزاعمهم أنه كان يقرأ كتبهم وتعلم منها رسالته.

وقد بقي من المسلمين من يردد بين فينة وأخرى مزاعم المستشرقين من أن «أميّ» جاءت من «أممي» التي يعني بها اليهود الأمم غيرهم. وهو خلط بائس متعسف بين النسبة للأمية

١ سورة الجمعة/ الآية (٢)

«أمي» وبين النسبة للأمم «أممي». كما أن المستشرقين الذين ظهرت منهم هذه البدعة أجبروا عن التخلي عنها لاكتشافهم أنه لا يعتد بها. خاصة أنهم يعلمون علم اليقين أنه وإن تقاربت حروف الأمي والأممي في اللغة العربية فهما متباعدتان في المعنى ويظهر هذا جلياً عند ترجمتهما للغات المستشرقين ومنها الإنجليزية. فالأمي: ILLITRATE تعني من لا يجيد القراءة والكتابة، بينما الأممي تأتي: GENTILE والتي تعني وثنياً، لأن اليهود يعتبرون أي أمة غيرهم وثنيين وهم وحدهم المؤمنون وأحباء الله وأبناؤه.

وتجاهل هذه الحقيقة البسيطة من قبل كتاب ومفكرين يصنفون من الكبار في الغرب، مرده لعدة أسباب، منها:

- أن المفكرين الغرب عندما تتناول بحوثهم أي موضوع له علاقة بكتب اليهود المقدسة أو تحدثت عنه، فهم يتبنون كل ما تقول تلك الكتب ولو خالف المنطق والعلم، ومن ذلك اعتبار أن اليهود هم أول قوم في التاريخ عرفوا التوحيد. مع ما تكشف لأولئك العلماء من أن كل الأمم القديمة دياناتها تظهر عقائدها على أنها كانت في السابق أمماً موحدة.
- محاولاتهم البائسة في التشكيك في الإسلام كدين سماوي، ولأنه لو سلموا بصحته فهذا يعني الاعتراف بخرافة الدين المسيحي وبطلان الدين اليهودي، وهذا ما لا يستطيعون. فالتأثير الإعلامي اليهودي في الغرب لن يسمح لهم بذلك.
- أن المستشرقين الغربيين الذين كتبوا عن الإسلام هم رجال دين مسيحيون أو ممولون من قبل الكنائس، وهذا يعني التركيز على تشويه الإسلام وليس الكتابة عنه بحياد.
- أنهم يكتبون للقارئ الغربي لترسيخ فكرة بطلان الإسلام كدين سماوي وتصوير الرسول بالناقل للموروث المسيحي واليهودي.

وقد ورد لفظ الأمي في القرآن خمس مرات، أولها سورة الأعراف التي تقول:

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي

لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٥٨) وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ(١٥٩).

والآيات تتحدث عن بعض بني إسرائيل الذين آمنوا بالرسول والذي تصفه الآيات بالنبي الأمي ومن أمة قريش الأمية التي لا تقرأ ولا تكتب. فتاريخ قريش مجهول تماماً قبل الإسلام وكل ما قيل عنه في كتب التاريخ كتب في العصر العباسي ولا يمكن أن يصل لدرجة الثقة أبداً لأنه مجرد قصص مختلق عن عصور قديمة مجهولة تماماً، ولم يوثق.

بينما بنو إسرائيل يعتبرون أمة قارئة كونهم يكتبون ويسجلون تاريخهم ويقرأون. ولا يعني هذا أنهم كلهم متعلمون ويقرأون ويكتبون. كما أنه إن وجد في قريش من يكتب ويقرأ فنفر قليل جدا لدرجة لا يمكن أن يشكل ظاهرة تنسب للمجتمع.

وورد لفظ الأمي في الآية الثانية من سورة الجمعة، وفي الآية (٢٠) والآية (٧٥) من سورة آل عمران. وكلها تؤكد أن الأمي هو الشخص الذي لا يقرأ ولا يكتب، والمجتمع الأمي هو المجتمع الذي لا تنتشر فيه ثقافة التدوين، وإن وجد نفر قليل يعرف القراءة والكتابة.

وقد جاءت آيات بينات تؤكد بكل وضوح أن الرسول لم يعرف القراءة ولا الكتابة، ومن ذلك:

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً(١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً(٢) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً(٣) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْماً وَزُوراً(٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً(٥) قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً(٦) الفرقان.

وسورة الفرقان تبدأ بالحديث عن قريش ومواقفهم من دعوة الرسول. والسورة نزلت في مرحلة بدأ القرآن يخاطب كل الناس بعد سنوات اقتصرت فيها دعوة القرآن على قريش. فصار من المعتاد تواجد أناس من خارج مكة قدموا لرؤية الرسول والاستماع له، وهذا

مقلق لقريش التي لا ترغب في انتشار الدعوة. فكانت تقوم بجدال الرسول أمام الناس لكي تحرجه وتظهره بمظهر الكاذب. كما كان بعض القرشيين يؤلف بعض النصوص ويتلوها على القادمين ويزعم أنها نصوص من القران لكي ينفر الناس من لقاء الرسول (والآيات التي تتحدث عن هذا هي تلك التي تذكر الكذب على الله، مثل: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً» أو «مَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ»). ومن محاولات قريش صد الناس هو أنهم كانوا يقولون لهم إن الرسول ليس رسولاً من الله وكل ما يتلو على الناس قصص قديم كتبه له شخص: «أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً».

هذا الكلام الذي بدأ رجال قريش يقولونه عن الرسول، لم تكن قريش تتهم به الرسول طوال سنوات الوحي الأولى التي كانت الدعوة موجهة لقريش فقط. لأن أهل مكة يعلمون أن الرسول لا يعلمه أحد ولو زعم أحدهم هذا عن محمد فلن يستمع له أهل مكة، لأنهم يعرفون بعضهم وكل من يعيش فيها. لكن عندما توسعت الدعوة وبدأ الناس من خارج مكة التوافد للقاء الرسول والاستماع له أصبح من الممكن لرجال قريش القول للغرباء إن الرسول مدع كاذب يتعلم ما يقول من أشخاص وليس من الله. ومن يأتي من خارج مكة لا يعرف مكة ولا الرسول وقد يصدق ما يقال له.

فالآية ليست لتقرير أن الرسول يعرف القراءة والكتابة ولكنها لنفي اتهام قريش الكاذب للرسول أمام الناس القادمين للقائه من خارج مكة.

والآية الثانية تقول: وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ(٤٧) وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ(٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ(٤٩) العنكبوت.

العنكبوت نزلت في آخر مراحل الدعوة في مكة وفي وقت شديد الصعوبة على المسلمين حيث كانت قريش تعذب المستضعفين بشتى أنواع التعذيب ومنها الحرق بالنيران التي تشعل في الأخاديد لكي تردهم عن الإسلام بعد أن تكاثرت أعداد الذين دخلوا الإسلام منهم ومن الناس خارج مكة، خاصة من أهل الكتاب في يثرب وهو ما تشير له الآية: (٤٧) أعلاه: « وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ»

والسورة تتساءل عن سبب رفض كبراء قريش للدعوة برغم وضوح الحق، وتقول: وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ(٤٧) وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ(٤٨).

فلو كنت يا محمد تقرأ وتكتب لكان هناك مجال للمشككين بأنك قد تعلمت القرآن من مصادر بشرية، لكنهم يعلمون أنك لا تقرأ ولا تكتب. فالآية تؤكد على مسامع قريش أن الرسول لا يعرف القراءة والكتابة، كما يعلمون، وبالتالي فلا مجال لأن يرتاب المشككون بأن الرسول قد يكون نقل القرآن من مصادر مكتوبة.

والتأكيد على أن الرسول لا يعرف القراءة والكتابة جاء في أواخر العصر المكي لأن قريشاً كانت تستخدم كل ما في وسعها لصد الناس القادمين من خارج مكة عن لقاء الرسول والدخول في الإسلام. ولم تتورع عن اختلاق عبارات منفرة ونسبتها للقرآن، كما سبق وذكرته عدة سور. وسورة العنكبوت تقول بأن قريشاً كانت تقول للناس إن الرسول لا يتلقى وحياً من السماء، ولكنه كان يقرأ كتب الرسالات القديمة ويعيد صياغتها ويقول هي قرآن منزل. وهذا الزعم تعلم قريش أنه كذب، وتعلم أن الرسول لا يقرأ ولا يكتب، لذلك لم تتهمه بهذه التهمة طوال السنوات التي كانت الدعوة موجهة لقريش فقط. كون أهل مكة يعرفون بعضهم ويعرفون كل من يقطن مكة، ويعرفون أن الرسول لا يقرأ ولا يكتب. لكن بعدما تحولت الدعوة لغير قريش، وبدأ الناس من خارج مكة يأتون إليها للقاء الرسول، كان الزعم بأن الرسول يتعلم القرآن من أناس آخرين موجهاً لمن يقدم لمكة ولا يعرف أهلها ولا يعرف نشأة الرسول.

الرسول لم يكن يعرف من الدين شيئاً قبل البعثة

ورد في سورة الشورى: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٥٢).

وهو ما يؤكد أن الرسول لم يكن يعرف شيئاً من الدين قبل البعثة، وينفي نفياً قاطعاً ما تزعمه كتب التراث من أن الرسول كان يتحنث قبل البعثة، ويتعبد الله في غار حراء. أو أنه

اطلع على كتب مسيحية ويهودية كما يحاول المستشرقون الترويج له بسبب ما ورد في كتب التراث.

وكلام كتب التراث عن تعبد رسول الله قبل البعثة، فيه خلط والتباس. حيث تسامعوا عن قضاء الرسول عليه الصلاة والسلام فترة في غار حراء، فظن القصاص أن بقاءه في الغار كان قبل البعثة وكان للتعبد، وليس بعد البعثة وبعد نزول سورة المزمل. ونقل هذا الظن المحدثون والمفسرون وترسخ بيننا على أنه ما حدث بالفعل. ولم يتساءل أحد إن كان الرسول يريد أن يتعبد الله فلماذا يبتعد عن بيت الله الحرام الذي وضع للناس ليعبدوا الله فيه، ويذهب لغار منعزل في جبل ليس مكاناً للتعبد أصلاً؟

وقد أكدت سور أخرى أن الرسول لم يكن يعرف عبادة الله قبل البعثة، وعندما جاء الإسلام كان أول من أسلم، ومنها سورة الأنعام: قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ(١٦٣).

وسورة الزمر: قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ(١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ(١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(١٣).

فالرسول كان أول من أسلم، ولم يعرف الإسلام قبل البعثة.

وليس محمد عليه الصلاة والسلام الوحيد الذي لم يعرف دين الله قبل البعثة بل يشاركه في هذا كل الرسل. ومن ذلك موسى الذي ما إن وصل لمكان النار في وادي طوى حتى سمع صوتاً يكلمه وأول شيء طُلب منه – بعد خلع نعليه – هو أن يكون أول المسلمين: فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى(١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى(١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى(١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي(١٤) إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى(١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى(١٦) طه.

لقد طلب من موسى الإيمان والصلاة والبقاء على الإيمان ولو كفر غيره قبل أن يكلف بالرسالة لفرعون، وهو ما يؤكد أنه لم يكن يعرف الدين قبل تكليفه بالذهاب لفرعون: اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(٢٤) طه.

والرسول قد يكون عرف الله – مثل قريش – لكنه لم يكن يعرف دين الله ولم يتعبد لله قبل

الإسلام. لذا فقد خاطبته سورة الضحى واصفة إياه بأنه كان ضالاً قبل الإسلام: وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى(٧).

محمد ختمت به الرسالات

مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) الأحزاب.

النبوة هي تلقي الوحي، والرسالة هي تبليغ ما يوحى. ومحمد كان آخر من نُبّئ، وآخر رسول بلغ نبوته. وختمت الرسالات به عليه الصلاة والسلام لأن هناك عوامل اجتمعت فيه لم تجتمع في غيره، منها:

- أنه لم يكن دخيلاً على النبوة والرسالات: قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٩) الأحقاف.

ولكنه سليل بيت الرسالات، فوالداه إسماعيل وإبراهيم كانا من الرسل. وإبراهيم – ككل الرسل المذكورين في القرآن – من نسل آدم. وآدم هو أبو كل الرسل المذكورين في القرآن: أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا(٥٨) مريم.

وخلق آدم بصفة منفردة تجعل له تميزاً على بقية البشر، وقد يكون أودع فيه طاقات خاصة تجعله قادراً على تلقي الوحي. وهذه القدرة ورثها منه بعض من جاء من نسله وآخرهم محمد. ولعل سورة البقرة تشير إلى شيء من هذه القدرات في قوله تعالى: قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٣١) قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ(٣٣) البقرة.

فمن قدرات آدم معرفته لأسماء (أو صفات) أشياء لا تعرفها الملائكة، وهو للتو خلق ولم يعش على الأرض ويتعلمها بالتجربة، أي أن هذه المعرفة خلقت معه.

- وقد ولد ونشأ محمد عليه الصلاة والسلام في مكة – بيت الله الوحيد على الأرض –

ومنها بعث. ولم يولد أو يبعث في مكة قبله رسول من الرسل المذكورين في القرآن.

- إضافة لكتابة رسالته وبقائها مكتوبة بين الناس كما نزلت، وهو ما لم يتوفر لأي رسالة أخرى. وإن كانت التوراة قد كتبت أيضاً إلا أنه سرعان ما ضاعت ولم يعد لها وجود.

وبقاء الرسالة كما نزلت يغني عن إرسال رسول بعده عليه الصلاة والسلام، لأن الرسول يرسل للناس بعدما تندثر رسالة من كان قبله، ولو بقيت رسالة رسول سابق كما نزلت لما كان هناك داع لإرسال رسول آخر لمن نزلت عليهم.

- أن الإسلام هو الرسالة السماوية الوحيدة الموجهة لكل الناس في كل زمان ومكان. ولم يبعث رسول قبله أبداً إلا لقومه فقط.

وعوامل أخرى تفرد بها الإسلام ورسوله.

وبالتالي فليس هناك من هو أنسب منه عليه الصلاة والسلام ليكون خاتماً للرسالات.

الرسل لا يعلمون الغيب

قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً(٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً(٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً(٢٧) لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً(٢٨) الجن.

هذه الآيات يستدل بها من يقول بأن الرسول يعلم غيب قادم الأيام، لكي يعتبروا الأحاديث المنسوبة إليه والتي تتحدث عما يأتي بعد عصره من أحداث، صحيحة وليست مختلقة. وكلما وقعت أحداث جسام انبرى البعض واختلق حديثاً على لسان الرسول وكأنه أخبر بها.

والرسول لم يعلم الغيب وما سيقع من أحداث مستقبلية سواء في عصره أو بعد مماته، لذا لم يعرف أن المسلمين سيهزمون في أحد ولم يعلم أن الأحزاب ستجتمع لحرب المسلمين ولم يعلم أن قريشاً ستخونه يوم الفتح ولم يعلم بأي حدث قبل وقوعه أبداً لا في حياته الشخصية ولا على مستوى المجتمع المسلم ولا على مستوى أشمل.

وهذه الآيات تؤكد أنه لا يعلم، لكن كتب التراث أولتها لغير معناها. ولو أعدنا قراءتها كما نزلت لوجدنا أن الآيتين: (٢٥-٢٦) تؤكدان أن الرسول لا يعلم الغيب، وأن الغيب من علم الله وحده جل وعلا. وهنا ينتهي الحديث عن الغيب، ويبدأ موضوع جديد بـ"إلا"

في الآية: (٢٧): إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً(٢٧) لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً(٢٨).

والقاعدة التي عرفناها من القرآن الكريم تقول بأنه في حال بدأ موضوع جديد بـ«إلا» فهي تأتي بمعنى «أما» وليست للاستثناء[1]، وهي كذلك هنا. فالحديث توقف عن الغيب في الآية (٢٦)، ويبدأ الحديث عن الرسل الذين يختارهم الله لنقل رسالته، سواء من الملائكة الذين ينقلون الوحي من اللوح المحفوظ لذاكرة الرسول، أو من الرسل البشر.

والآية تقول بأن من يرتضي الله ويختار من الرسل سيُراقب بكل دقة وتسجل أقواله وأفعاله (يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً) لئلا يقول على الله ما لم يقل: «ليعم أن قد أبلغوا رسالات ربهم».

وجاء في سورة الملك: وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٢٦).

قريش تسأل الرسول عن موعد البعث الذي يتحدث عنه، والآيات تؤكد لهم أن محمداً لا يزيد عن رسول يبلغهم رسالة ربه، ولا يعلم ما يحل به ولا بهم ولا ما سيكون في قادم الأيام ومن ذلك موعد البعث.

وتقول سورة «ص» ضمن آيات موجهة للرسول وتتحدث عن خلق آدم: مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ(٦٩) إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٧٠).

فالرسول لا يعلم الغيب، وكل ما يعلمه من قصص سابق علمه الله إياه وحياً على شكل قرآن يتلوه على الناس. وهذا يلغي الزعم أن الرسول يعلم الغيب لأن الله يوحي له بغير القرآن – حسب زعمهم – ويحدث به أو يبعضه لمن شاء من صحبه بما يسمى "أحاديث".

والمؤكد هو أن القرآن لا يتحدث عن أي حدث مستقبلي ولو كان بعد يوم واحد من نزول السورة. وإلا لأخبر المسلمين أن يحترزوا يوم أحد ويغيروا تكتيكهم وخططهم ليكسبوا المعركة. ولم يتحدث القرآن ولو تلميحاً عما سيحدث بعد الرسول، وإلا لتجنب المسلمون خلافاتهم، وانتبهوا لألاعيب قريش ومكرها الذي مكنها من الاستيلاء على حكم دولة المسلمين.

---

١ انظر فقرة: استخدام «إلا» بمعنى «أما»/ قسم من أساليب القرآن.

وليس هناك مخلوق من مخلوقات الله التي لا حصر لها في الكون يعلم غيب المستقبل. وفي سورة «ص» وأثناء الحديث عن خلق آدم لدينا دليلان على أن الملائكة لا تعلم الغيب، وهما:

- الملائكة لم تعلم أن آدم سيخلق: إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ(٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ(٧٢) ص.

ولما عصى أحد الملائكة – وهو إبليس – وطرد كان مما سأله ربه قوله:

- قَالَ رَبِّ فَانظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ(٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ(٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ(٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ(٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ(٨٥) ص.

لأنه لا يدري أنه سيبقى إلى نهاية البشر على الأرض، ولا يدري إلى متى سيبقى حياً.

وتقول سورة الأحقاف: قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٩).

والخطاب لقريش وبعد سنوات من بدء الدعوة، ولم يعلم الرسول من الغيب إلا كما كان يعلم قبل أن يبعث. ولو كان الله مطلعاً الرسول على علم الغيب أو شيئاً من هذا العلم لعرفه الرسول بعد سنوات من بعثته.

وتؤكد سورة الأنبياء أن الرسول لم يعلم من الغيب شيئاً: إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ(١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ(١١١).

وليس فقط الرسول بل إن الملائكة (المخلوقات الكونية) التي زارت إبراهيم لا تعلم الغيب، وهو ما تشير له سورة هود: وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ(٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ(٧٠).

المخلوقات الكونية لو كانت تعلم أن غياب إبراهيم عنهم كان لذبح العجل وتنظيفه وإشعال النار في الفرن حتى تحولت لجمر ثم تحضير العجل على شكل حنيذ لما تركوه طوال هذه المدة الطويلة التي تستغرق عدة ساعات، وهم لن يأكلوا منه؟

لكنهم لم يعلموا وظنوا أنه تغيب لسبب آخر، فانتظروه حتى عاد. فهم وإن كانوا مخلوقات كونية لا يعلمون الغيب ولا حتى ما يجري في نفس الوقت بعيداً عنهم.

وهذا يوصلنا لتساؤل آخر: إن كانوا لا يعلمون ما سيحدث في المستقبل القريب، ولا ما يجري في أماكن غير المكان الذي يتواجدون فيه، فكيف عرفوا أن براكين وزلازل ستضرب قرية لوط التي هم في طريقهم إليها؟

الجواب: لابد أنهم أبلغوا أن هذا سيحدث.

وتقول سورة الأنعام: قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ(٥٠).

فالرسول لا يعلم الغيب، ولا يستطيع أن يخبر بشيء غير ما يقول القرآن. وهذه الحقيقة البسيطة الواضحة تنسف كل ما يحاول أتباع الموروث المذهبي الترويج له من أن الرسول قد أخبر عن أحداث ستقع بعد وفاته. لذا فهم يتغافلون عن هذه الآية وآيات مماثلة، أو يؤولونها لغير معناها.

وتتحدث سورة النساء عن حادثة وقعت زمن الرسول وتظهر بكل وضوح أن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيب، وليس بينه وبين الله تواصل مباشر وخفي غير القرآن الذي ينسخ في ذاكرته: إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللّهَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنتُمْ هَؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (١٠٩) وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠) وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (١١٢) وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاُّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ

وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا(١١٥) النساء.

الآية: (١٠٥) توجه الحديث للرسول كمقدمة للموضوع، وتذكره بأن الحكم بين الناس لا يكون بمرئيات الرسول الشخصية ولكن بما نزل عليه من الكتاب (القرآن).

والآية: (١٠٦) تطلب منه الاستغفار من ذنب اقترفه، وهو ما سيتضح لنا أثناء استعراض الحادثة. وهذا يعني أن الرسول استعجل وحكم برأيه دون القرآن، فجاءه التوبيخ بألا ينسى نفسه ويظن أن بإمكانه التكلم نيابة عن الله.

وتقول الآيات: (١٠٧-١٠٩) إن الرسول جادل (دافع) عن أناس اختانوا أنفسهم (أي كذبوا وأصروا على الكذب) والله يعلم ما تخفي أنفسهم. وتوجه التوبيخ للرسول مرة أخرى، بأنه إن دافع عنهم في الدنيا وظلموا غيرهم فمن سيجادل عنهم يوم القيامة.

فالرسول استعجل ودافع عن شخص اقتنع بأنه بريء، وقد كان مذنباً.

وتقول الآيتان: (١١٠-١١١) إنه كان من الواجب على المذنب أن يعترف بذنبه ويستغفر وسيغفر الله له. لكنه قام بإلصاق التهمة ببريء وهو يعلم، كما تقول الآية: (١١٢).

والآية: (١١٣) تبين كيف اقتنع الرسول ببراءة المذنب لأنه وأهله أقنعوا الرسول أنه بريء وأن ذاك البريء هو المذنب، فصدق الرسول كلامهم ودافع عن المذنب[1].

ومثله: قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ(١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ(٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ

---

١ انظر تفاصيل القصة في فقرة: حادثة وقعت وكاد الرسول أن يصدق الجاني ويتهم البريء/ قسم أحداث من عصر الرسول.

وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ(٥) المجادلة.

الآيات تخبرنا أن امرأة جاءت للرسول تشتكي له زوجها الذي ظاهرها، ولم يستطع الرسول أن يعطيها رأياً فيما يجب عليها أن تفعل. بل ولم يذهب للزوج لينصحه بألا يظاهر زوجته، وانتظر نزول الوحي لأنه خشي لو أدلى برأيه في الموضوع فقد يتعارض مع القرآن. ولما نزلت الآيات قام بتلاوتها على الزوجين، والتي فيها حكم الظهار، وما يجب على الزوج القيام به.

وتؤكد سورة المائدة أن الرسل كلهم لا يعلمون الغيب، ولا ما سيقع بعد موتهم: يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ(١٠٩).

فإن كانت الملائكة لا تعلم غيب الغد والرسول لا يعلمه، فمن باب أولى ألا يعلم بذلك أحد من الخلق. وينفرد الله سبحانه ويختص بهذا العلم: إِنَّ اللهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٣٨) فاطر.

الرسول لم يؤت آية

والآيات في القرآن تعني بالمفهوم السائد المعجزات والخوارق.

وقريش ككل الأمم السابقة كانت تصر على رسولها أن يظهر لهم بعض الآيات والخوارق كدليل على أنه رسول من الله، والقرآن ينفي نفياً قاطعاً أن يكون الرسول محمد قد أوتي آية حسية واحدة سواء لتلبية طلب قريش المستمر أو فيما بعد. وهذه بعض الأمثلة:

وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى(١٣٣) طه.

قريش استمرت تطلب من الرسول أن يريهم آية لكي يتأكد لديهم أنه رسول من الله، لكن الرسول لم يعط آية. ولعل السبب أن رسول الله محمداً أرسل لكل الناس في كل العصور، ولم يرسل لقريش. لذا حتى لو لم تسلم قريش فالدعوة باقية إلى نهاية الجنس البشري. وقد يعطى آية لو كان الرسول كمن سبقه من الرسل، أرسل لقومه فقط.

وتقول سورة القمر: وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ(٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ(٣) وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ(٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ(٥).

وآيات سورة القمر تؤكد أن قريشاً لن تؤمن لو رأوا الآيات التي طلبوا من الرسول.

وتقول سورة بني إسرائيل: وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً(٥٩).

ومثلها: وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يِوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَـذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٢٠٣) الأعراف.

وتؤكد سورة يونس أن الرسول لم ولن يعطى آية برغم مواصلة قريش طلبها: وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ(٢٠).

وهنا تأكيد قاطع أن الرسول محمداً لم يؤت أي آية: وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً(٥٩) بني إسرائيل.

"ما منعنا" نفي قاطع أن الله لن يظهر أي معجزة على يد رسوله محمد، والله لا يبدل رأيه أبداً سبحانه. وبالتالي فكل من يظن أن الرسول قد أعطي آية فهم «يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ» ويتهمونه سبحانه بتغيير رأيه (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً).

ومثله: وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً(٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً(٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً(٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً(٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَّسُولاً(٩٤) بني إسرائيل.

والآيات تقول إن قريشاً تطلب من الرسول معجزات، ولو تحققت لهم مطالبهم فلن يؤمنوا وسيبحثون عن تبريرات أخرى. وتخبرهم أن محمداً لا يستطيع أن يقدم لهم المعجزات لأنها من الله القادر عليها أما محمد فكونه رسولاً لا يعني انه أصبح أعلى قدرة من البشر.

وترد الآية: (٩٥) على طلب قريش نزول الملائكة: قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً(٩٥).

لو كان أهل الأرض ملائكة لأرسل لهم ملائكة مثلهم، لكن الملائكة لا ترسل للبشر. فالرسول لابد أن يكون من نفس القوم المرسل لهم ويتحدث بلسانهم ويمارس نفس عاداتهم وأعرافهم: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاءُ

وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٤) إبراهيم.

وتستمر السور تنفي نفياً قاطعاً أن يكون الرسول أعطي آية: طسم(١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ(٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ(٤) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ(٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون(٦) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ(٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ(٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(٩) الشعراء.

قريش لن تؤمن لو رأت آية لذا فلن تعطى يا محمد أي آية.

وتقول سورة هود: فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(١٢).

والآية تظهر أن الرسول كان يتمنى لو يستطيع تأخير تلاوة الآيات التي تقول لن يعطى آية، لعله ينزل عليهم آية ويؤمنون كما كانوا يقولون. وتذكر الآية الرسول أنه مجرد رسول عليه تبليغ الوحي حال تلقيه.

وتقول سورة الأنعام: وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ(٧).

والآية من سور المرحلة السابعة والأخيرة في مكة، وهي تنفي بشكل قاطع أن يكون الرسول أوتي آية.

وتقول سورة العنكبوت من سور نفس المرحلة الأخيرة في مكة: وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٥١).

لن يكون هناك آيات، ومن رغب في الحق فسيكفيه القرآن.

وتقول سورة الأنعام: فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ(١٢٥).

وهذه الآية استدل بها بعض من يروج للقول إن القرآن يحوي معجزات علمية لم تكتشف

إلا في العصر الحديث، وهذا القول مجرد خيال وظن وإنهم إلا يخرصون. فالقرآن يحدث قريشاً بما تعرف ولم يتوجه بالحديث لنا في هذا العصر. لأن كل رسالات الرسل تبدأ بخطاب دعوي وبعد أن يؤمن الناس يتحول الخطاب إلى تشريعي. وبعد نزول التشريعات يختفي الخطاب الدعوي، فمن أراد أن يؤمن فليتدبر تشريعات الدين، ولن يكون هناك خطاب دعوي لمن يأتي بعد نزول التشريعات. فليس في القرآن خطاب دعوي موجه لمن سيأتون بعد عصر الرسول في أي عصر من العصور.

والآية ككثير من الآيات تعطي صوراً حسية لزيادة التأثير، وتشبيه الكافر بمن يصعد في السماء، يعني باتجاه السماء يعني إلى الأعلى يعني بالصعود إلى الأعلى سواء بدرج أو مرتفع، حيث سيشعر بضيق تنفس « صَدْرَهُ ضَيِّقاً». ولا علاقة لها بطبقات الجو العليا ونقص أو اختفاء الأوكسجين كما يروجون.

وتستمر قريش تطالب بالآيات وتكرر السور التأكيد على أن الرسول لن يعطى آية واحدة: وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ(٢٧) الرعد.

الرسل قد يعصون ويكفرون

تقول سورة غافر مخاطبة محمداً عليه الصلاة والسلام: قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(٦٦).

فالرسول أمر كغيره من البشر بالطاعة والإيمان، لأنه كغيره من البشر قد يخطئ ويعصي ويكفر.

وتقول سورة الزمر: وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ(٦٦).

فالرسل سيحاسبون كغيرهم، وقد يشركون.

وتقول سورة يونس: فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ(٩٤) وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ(٩٦)

وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ(٩٧).

والآيات تتحدث عما قد يجول في خاطر الرسول من تساؤلات بشرية، وتوجهه لطردها. والتحذير من التكذيب بآيات الله يعني إمكانية حدوث ذلك، من أي بشر بما فيهم الرسول.

وتعود سورة يونس لتوجيه الرسول: وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٠٥) وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ(١٠٦).

وتحذره من الشرك، ولو كان من المستحيل شرك أو عصيان الرسل لما افترض القرآن ذلك.

وتقول سورة الأنعام: قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكَينَ(١٤) قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(١٥) مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ(١٦).

وتقول نفس السورة: قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ(٥٨) وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ(٥٩) الأنعام.

الآيات تخاطب الرسول، وتظهر أنه مطالب بكل تعاليم الدين، ولو قصر فسيعاقب. وليس له معاملة خاصة من الله كونه رسولاً. لأن تكليفه بالرسالة جاء من خالق إلى عبده وعليه التنفيذ.

وتقول سورة القصص: وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ(٨٦) وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٨٨).

تحذير شديد اللهجة لرسول الله، لئلا يطلق لنفسه العنان بأفكار قد تجره للعصيان. فهو إنسان معرض — كغيره — للعصيان. وعليه — كغيره — مجاهدة نفسه ليبقى على الحق.

وتقول سورة الرعد مخاطبة الرسول: وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ(٣٧).

وقد أوردت سورة الأعراف خبراً عن إنسان أوتي آيات ربه فانسلخ منها وكفر بها، وقد

يكون أحد الرسل: وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦).

الرسول لم يعرف الغنى والثروة

الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً(٤٥) الكهف.

الخطاب في هذه الآية موجه للرسول، وهو دليل على أن الرسول فترة نزول السورة لا يملك مالاً وفيراً كما هي حال الكثير من رجال قريش، ولا يملك أثاثهم ومتاعهم. وهو ما ينفي ما روجته كتب الأخبار أنه تزوج سيدة أعمال (خديجة) وأنها كانت غنية.

ودليل قوي آخر على أن الرسول لم يرزق من خديجة بذرية، سواء كن إناثاً أو كانوا ذكور. والآية تشجعه وترفع من معنوياته كبشر يشعر بالانجذاب لمتاع الدنيا وتذكره بالمتاع الدائم في الآخرة.

وتقول سورة الزخرف: وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ(٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ(٣٢).

والتفاضل بين الناس يكون بالمال والولد اللذين يكسبان الجاه والشهرة الدنيوية، ومحمد بنص الآية لا يملك المال ولا الولد، فهو ليس من عظماء مكة، حسب مواصفاتهم. ولم يتزوج بامرأة غنية.

الرسول معرض للموت والقتل في أي لحظة أثناء الدعوة

أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(٤٠) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ(٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ(٤٢) الزخرف.

والقرآن لم يذكر أن محمداً خاتم النبيين في مكة ولا حتى في المدينة قبل اكتمال التشريعات في

سورة المائدة: ....الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣).

لأن الرسول عرضة للقتل والموت – كغيره من البشر – في أي لحظة. ولو مات الرسول قبل اكتمال التشريعات لأرسل الله جل وعلا رسولاً آخر يبلغ الناس كل تشريعات الله ودينه بتمامه وتختم به الرسالات.

ولكن الرسول محمداً بقي حياً واكتملت التشريعات في وقته، فجاء التأكيد في سورة الأحزاب على أنه خاتم النبيين: مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠).

وباكتمال الدين، وبقاء القرآن كاملاً كما نزل لن يكون الناس بحاجة لرسول آخر. لأن المهم هو وجود الدين الكامل وليس المهم تواجد الرسل.

وتؤكد سورة غافر احتمال قتل أو وفاة الرسول: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ(٧٧).

وهو ما كررت ذكره سورة يونس: وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ(٤٦).

وتقول سورة الأنبياء: وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ(٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ(٣٥).

وفي معركة أحد أصيب الرسول وكاد أن يقتل. ولو قتل حينها فالتشريعات قد اكتملت وسيبقى الدين: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ(١٤٤) آل عمران.

مسجد الرسول وحجراته بنيت قبل وصوله

إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ(٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥) الحجرات.

الآيات تتحدث عن وفود الأعراب الذين سارعوا للقاء الرسول بمجرد معرفتهم بوصوله

ليثرب مهاجراً، وقد ظهرت منهم تصرفات فظة بعيدة عن اللباقة ومنها أنهم إذا لم يجدوا الرسول في مجلسه ينادونه بصوت عال أجش وهو في حجراته يستريح، دون مراعاة لخصوصية.

والسورة ثاني سورة نزلت في المدينة وبعد الممتحنة. وكتب التراث تقول إنه عليه الصلاة والسلام نزل عند أبي أيوب في داره فترة حتى بني مسجده وحجراته، وهذا يحتاج وقتاً. والأعراب توافدوا على الرسول بمجرد سماعهم خبر وصوله. أي بعد عدة أيام من وصوله ليس بعد أشهر، وعندما وصلوا كان الرسول قد استقر في حجراته.

وتقول سورة براءة في حديث عن فئة منافقة حاولوا تفريق كلمة المسلمين ببناء مسجد خاص بهم ويمنع عنه المستضعفون: وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨).

وقوله: « لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ" دليل على أن المسجد أقام الرسول فيه الصلاة من أول يوم وصل ليثرب. ولو كان بني بعد وصوله فسيستغرق البناء أياماً، ولن يقيم الرسول فيه الصلاة من أول يوم.

الانتساب للرسول لا يعني الإيمان والصلاح

سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ(١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ(١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ(١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ(١١٣) الصافات.

إبراهيم رائد العقلانية على مر العصور، والتي هدته لعبادة الخالق، والذي اتخذ الله خليلاً، وكلفه سبحانه بالقيام على بيته الحرام وخدمة ضيوفه الحجاج، وهو جدّ الرسول محمد خاتم النبيين. ومع ذلك خرج من صلبه نسل كافر، فالنسب لا يغني من الحق شيئاً. وبالفعل تحولت أجيال لاحقة من نسل إسماعيل وإسحاق ابني إبراهيم إلى الوثنية والكفر، وهو ما تشير له الآية: (١١٣).

وكان أحد أبناء نوح ممن غرق، ولما جزع نوح على غرقه، جاءه الوحي يقول له إنه عمل غير صالح وليس على دينك: وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ(٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ(٤٦) هود.

وكانت امرأة نوح وامرأة لوط من الكافرين: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ(١٠) التحريم.

آل الرجل وأهل الرجل

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ(٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ(٣٤) القمر.

ولم يؤمن مع لوط ويخرج معه سوى ذريته الذين يعيشون معه في بيته. وسواء كانت ذرية لوط ذكور وبنات، أو بنات فقط، لكنهن لم يتزوجن فهن ما زلن يحملن اسمه، ويعتبرن من آله. لأن آل الرجل هم من يحملون نسبه، سواء كانوا أبناءه الذكور الذين سيبقون آله بعد زواجهم وعلى الدوام، وسيورثون نسب والدهم إلى أولادهم. أو كن بناته غير المتزوجات. وبعد زواج البنات يبقين يحملن نسب أبيهن ويكن من آله، دون أولادهن. لأن أولاد وبنات المرأة من آل زوجها (أبيهم) وليس من آل المرأة. لذا فسورة الصافات تقول: وَإِنَّ لُوطاً لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ(١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ(١٣٤) إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ(١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ(١٣٦).

ومثله: فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ(٥٧) النمل.

والآيات تقول إن الذين خرجوا مع لوط هم أهله. وأهل الرجل أعم من آله. لأن الأهل هم من يعيشون في بيت الرجل ويدخل في ذلك أبواه وإخوته وأخواته إن كانوا يعيشون معه، ومنهم زوجته التي ليست من آله، ولكنها من آل والدها وتحمل نسبه. ولكن بما أن زوجة لوط كافرة فهي مستثناة من الخروج معهم. وبالتالي فمن خرج مع لوط هم أهله باستثناء زوجته. وهم في نفس الوقت آله أي أولاده، ذكور وإناث لم يتزوجن.

ويكون آل الرجل من يحملون نسبه على الدوام، وهم أولاده الذكور والإناث. والذكور يبقون آل أبيهم يورثون نسبه لأبنائهم، بينما تحمل البنات نسب أبيهن لكن أبناءهن ينتسبون لآبائهم وليس لأبيها.

وتقول سورة الصافات: وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ(٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ(٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ(٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ(٧٨) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ(٧٩) الصافات.

فأهل نوح هنا هم أهل بيته ومن يعيش معه، كالوالدين والإخوة والأخوات والزوجة والأولاد والبنات بالتبني والرقيق إن وجدوا، وكل من يعول.

وقد نجا نوح وأولاده وبناته باستثناء واحد منهم، الذي غرق مع الكافرين: قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ(٤٣) هود.

ودون زوجته الكافرة بشهادة سورة التحريم: ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ(١٠).

كما أن آل تأتي بمعنى «بني»

تقول آل بكر يعني بني بكر، يعني قبيلة بكر: وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ(٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ(٤٢) القمر.

وآل فرعون هنا ليس المقصود بهم بنيه وذريته ولكن قومه، وقوم فرعون هم آل فرعون.

أهل البيت وآل البيت

ورد مصطلح أهل البيت في القرآن مرتين وكلاهما تؤكدان على أن أهل البيت هم من يعيش في بيت الرجل ويعولهم الرجل من زوجة وأولاد: وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ(٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ(٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ

إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ(٧٣) هود.

الآيات تتحدث عن مخاطبة المخلوقات الكونية امرأة إبراهيم ومناداتها بأهل البيت. أي أنها تمثل أهل بيت إبراهيم. وفي ذلك الوقت الذي بشرت به بولد كانت تعيش مع زوجها إبراهيم وابنها إسماعيل، وهم أهل بيت إبراهيم.

وتخاطب سورة الأحزاب نساء النبي قائلة:

يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلا مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا(٣٤).

فنساء النبي يمثلن أهل بيته.

وآل الرجل هم بنوه. يقال آل محمد لأولاده وأولادهم الذكور فقط. وبنات الرجل من آل الرجل، لكن أبناء وبنات البنات يكونون من آل بيت والدهم، وليسوا من آل بيت جدهن لأمهن، لأنهن ينتسبن لأبيهن وليس لجدهن من أمهن.

آل الرجل إذن هم سلالته، لذا يقال للقبيلة بنو فلان لأنهم ينحدرون في نسبهم من ذاك الرجل وينسبون إليه:

إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٣٤) آل عمران.

الآية تقول إن الله اصطفى آدم ونوح كأنبياء ورسل، ولم يقل آل آدم وآل نوح، لأن أبناء آدم وأبناء نوح لم يكن منهم أنبياء ورسل. بينما تقول الآية: وآل إبراهيم، لأن إسماعيل وإسحاق ويعقوب كانوا من الأنبياء، وبما أنهم يحملون نسب إبراهيم فهم آل إبراهيم. وكذلك الحال مع عمران، الذي هو والد مريم. ومريم ابنة عمران كانت صديقة وولدت عيسى ابن مريم من غير أب، ولو كان له أب فلن يكون من آل عمران. لذا قالت الآية آل عمران.

لكن القرآن لم يذكر آل محمد أبداً، لأنه عليه الصلاة والسلام لم يكن له نسل.

ولا عبرة ولا أهمية لاقتطاع جزء من الآية (٣٣) من سورة الأحزاب من سياقها الواضح وتأويلها بشكل متعسف وكأنها نزلت لوحدها وتتحدث عن آل أبي طالب (الحسن والحسين وأمهم فاطمة من آل أبي هالة) وكأنهم نسل للرسول.

ذرية الرسول

المصادر التي تحدثت عن إن كان للرسول ذرية، هي كتب التراث أو القرآن. وسنذكر ما تقول كتب التراث باختصار ثم نستعرض بعض ما ورد في القرآن بسياقه ومناسبته لنخلص لنتيجة نهائية.

وكتب التراث، تقول إن الرسول تزوج بخديجة وعمرها (٤٠) سنة، ومع ذلك رزق منها بأربع بنات وولدين أو ثلاثة أو أربعة. ولو افترضنا أن بين حمل وآخر سنتين فهذا يعني أنها بقيت تنجب إلى أن قارب عمرها الستين أو تجاوزه، وهذا مستحيل.

هذه الأخبار وحدها تكفي للشك في أن للرسول ذرية من خديجة.

وخديجة تزوجت قبل الرسول برجلين، أحدهما اسمه عتيق بن عابد المخزومي الذي توفي عنها، ثم تزوجت بأبي هالة بن زرارة التميمي. وكلا الرجلين أنجبا من خديجة. وبعد وفاة زوجها الثاني بقليل تزوجت بالرسول عليه الصلاة والسلام.

وتقول كتب التراث إن للرسول ولداً من رقيق اسمها مارية القبطية في المدينة. وهذا الخبر بني على قصة مكذوبة تتمثل في أن الرسول قام بإرسال دعوة للمقوقس ملك القبط للدخول في الإسلام. فما كان من المقوقس إلا أن أرسل له هدايا من بينها جارية اسمها «ماريه». ولو قبل الرسول الهدية فقد قبل أجرا على دعوته للناس. والدعوة ليس لها أجر في الدنيا ومن الناس ولكن أجرها على الله كما أبلغ القرآن الرسول محمد: قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(٤٧) سبأ.

وكتب التراث ينظر لها بعين الشك والريبة والكذب حتى يثبت العكس، فهي كتب كتبت بعد عصر الرسول بمئات السنين وبعد ظهور الفرق والبدع وكثرة الكذب واختلاق القصص لخدمة المعتقدات.

ومجرد ورود خبر في كتب التراث لا يعني أنه صحيح، بل لا يعني أنه قد وقع بالفعل.

فكتب التراث مثلاً أوردت أن هناك حماراً كان يتكلم مع الرسول ويكلمه الرسول. وكتب التراث اختلقت أن الرسول قتل ما بين ٦٠٠-٩٠٠ يهودي وسبى نساءهم، وأنه تزوج بطفلة عمرها ست سنوات. وأنه كان يلاحق تجارة قريش ويغير على قوافلها.. وغير ذلك الكثير الذي تمتلئ به كتب التراث، ولم يكن له وجود على أرض الواقع.

أما القرآن فهو المصدر الوحيد الموثوق الذي نقل لنا كل ما كان يحدث من أحداث ومواقف مرت بالرسول والمسلمين زمن بعثته حتى مات عليه الصلاة والسلام. مهما كان الحدث أو الخبر صغيرا أو هامشياً. فلو تهكم قرشي على الرسول لنقله القرآن. وعندما استمع نفر من الجن للرسول وهو يتلو القرآن نقله القرآن. بل لو حدث في بيت الرسول مشكلة عائلية لنقلها القرآن.

ولو تحدثت كتب التراث عن أحداث زمن الرسول ولم يذكرها القرآن فهي مكذوبة بلا شك.

والقرآن ينقل ما حدث كما حدث، ومما نقله القرآن ما يعتري الرسول من ضغوط نفسية ومضايقات وسخرية من قريش، ومن ذلك: نۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ(١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ(٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ(٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ(٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ(٥) ن والقلم.

مثلما ينقل القرآن الآيات التي تنزل لتشد من أزر رسول الله وتخفف عنه آثار الضغوط النفسية المترتبة على السخرية: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً(٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً(٢٤) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً(٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً(٢٦) إِنَّ هَؤُلَاء يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً(٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً(٢٨) الإنسان.

وتذكر سورة الأنبياء أن كل الرسل سخر منهم واستهزئ بهم: وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(٤١).

وهكذا ...

والآن سنورد بعض ما أخبر به القرآن من الأحداث التي لها علاقة بموضوعنا:

ورد في سورة الكهف: وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن

دُونِهِ مُلْتَحَداً(٢٧) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً(٢٨) الكهف.

الرسول كبشر تميل نفسه لمتاع الدنيا، المتمثل بالمال الذي يملك رجال قريش منه الكثير. وهذا دليل قوي على أن الرسول لم يكن غنياً، مما ينفي ما روجته كتب التراث أنه تزوج سيدة أعمال ثرية (خديجة).

والآيات تقول للرسول ألا يهتم بالماديات الدنيوية وأن يهتم بحاله وحال المسلمين.

ثم تعود سورة الكهف نفسها للحديث مرة أخرى عما تهفو نفس الرسول له كبشر:

الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦).

ليس فقط المال الذي تهفو له نفس الرسول، ولكن الذرية أيضاً. وهذا دليل قوي آخر على أن الرسول لم يرزق من خديجة بذرية.

وفي نفس المسار تنزل سورة الكوثر:

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ(١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ(٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ(٣).

وسورة الكوثر نزلت في أواخر المرحلة الخامسة بحق أحد زعماء قريش الذي كان يعير الرسول وينعته بالأبتر. والأبتر تعني من لا عقب له.

ومن الواضح أنها نزلت بعد وفاة خديجة، زوجة رسول الله الوحيدة في مكة، ولو كان الرسول قد ولد له أولاد ذكور، كما يزعم المؤرخون، وإن ماتوا وهم صغار، فلن يعيره القرشي بأنه أبتر. وحتى لو أن خديجة لم تنجب لمحمد سوى بنات، فلا يمكن أن يعير بالأبتر، حتى لو حاول بعض المفسرين أن يقصروا معنى الأبتر بالذي ليس له ولد ذكر. لأن من يستطيع إنجاب الإناث يمكن أن ينجب ولداً ذكراً فيما بعد. والقرشي لم يعير الرسول بأبي البنات ولكنه عيره بالأبتر. مما يؤكد أن القرشي يعلم أن الرسول لم ينجب من خديجة كما أنجبت من أزواجها السابقين. ولو كان له منها بنات فالاحتمال ما زال قائماً بزواجه مرة أخرى وإنجاب الذكور. لكن إن كان الرسول لبث زوجاً لخديجة حيناً من الدهر، ولم ينجب، لا إناثاً ولا ذكوراً، وهي قد أنجبت من رجال قبله، فهو مدعاة للقرشي أن يعيره بالأبتر، لأنه ثبت بالبرهان أنه لا ينجب. وإن كان هذا ما حدث، فلم يكن للرسول بنات

في مكة. وتكون رقية وزينب وأم كلثوم وفاطمة بنات لخديجة وربيبات لمحمد عليه الصلاة والسلام، أو بناته تجاوزاً. ولم يولد له ولد ذكر.

ثم في منتصف العصر المدني تأتي سورة الأحزاب وتقول: مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً(٤٠).

الآية تنفي نفياً قاطعاً أن يكون له أولاد عليه الصلاة والسلام. مع أن كتب التراث تقول إنه ولد له من خديجة أولاد. ويكون ما قالته كتب التراث عن إنجاب خديجة للرسول ليس صحيحا.

وآية سورة الأحزاب وردت ضمن سياق يتحدث عن زواج الرسول بمطلقة ابنه (بالتبني). أي أن الرسول كان قد تبنى ابناً.

هذه الحقيقة تثير أسئلة واحتمالات، منها:

لو كان للرسول بنات أربع وسبق وأنجب أولاداً، وهو متزوج لحظة نزول سورة الأحزاب بثلاث نساء على الأقل بينهن زوجة شابة (عائشة) التي تزوجها بداية العصر المدني، فهو ليس بحاجة لتبني ولد في المدينة.

الولد المتبنى (زيد) رجل متقدم بالعمر ومتزوج، يعني أن الرسول لم يتبناه بعد وفاة خديجة ولكنه تبناه وهو (أي زيد) طفل رضيع. لأن التبني يكون للطفل وليس للرجل العاقل. وزيد المتزوج في المدينة لابد أنه كان طفلا رضيعاً في مكة. أي عندما كان رسول الله زوجاً لخديجة.

وهذا يعني الاحتمالين التاليين:

أن خديجة لم تنجب للرسول ولدا، لأنه تزوجها وقد وصلت سن اليأس. وبالتالي فقد تبنى ولدا كعادة المجتمع حينها، لكي ينادى به كغيره من الناس حسب العادة المتبعة.

وتبني الرسول لطفل من غير خديجة وهي على قيد الحياة بعيد الاحتمال، لأن خديجة كان لديها بناتها ولديها ولد على الأقل من زوجها السابق (أبو هالة) وهو أصغر من بناتها بما فيهم فاطمة. وبالتالي فكل بنات خديجة ربيبات (بنات) للرسول، وابنها ربيبه (ابنه).

ولو ثبت هذا فالبنات وأخوهن بنات لأبي هالة.

ولو ثبت هذا فسيقودنا للاحتمال الثاني وهو: أن الطفل المتبنى للرسول هو ولد خديجة وربيبه الذي تربى في حجره. ولا يمكن أن يقوم الرسول بتبني طفل وليه في بيته أربع بنات وولد كلهم يعتبرون أبناءه ولو كانوا من زوج امرأته السابق.

وإن كان الرسول قد تزوج بخديجة ولها طفل من زوجها الذي توفي (أبو هالة) فلو كان عمره خمس سنوات عند البعثة مثلا، فسيكون بعد الهجرة قد بلغ مبلغ الرجال وتزوج ثم طلق زوجته التي تزوجها بعده رسول الله. وهذا منطقي ومقبول.

ويكون زيد المذكور في القرآن على أنه ابن رسول الله بالتبني هو ابن زوجته خديجة من زوجها السابق، وتبناه الرسول.

وليس زيد ابن حارثة كما تقول كتب التراث لأن زيد ابن حارثة عمره أصغر من الرسول بخمس سنوات فقط. ولا يمكن للرسول أن يتبناه.

صدق الله العظيم: ما كان محمداً أبا أحد من رجالكم لا في مكة ولا في المدينة.

فهل ما تقدم من طرح مقنع بأن الرسول عليه الصلاة والسلام لم ينجب لا ولداً ولا بنتاً؟

بقيت آية واحدة تقول: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا(٥٩) الأحزاب.

من هن يا ترى بنات الرسول المشار لهن في الآية؟

السورة كما سبق وذكرنا نزلت بعد معركة الأحزاب أي في منتصف العصر المدني وقبل سنوات قليلة من وفاة الرسول.

وقد سبق وذكرت في كتاب أحسن القصص أنه قد يكون أن الرسول قد أنجب بناتاً من واحدة أو أكثر من نسائه. معتمداً على أن قوله بناتك يدل على أنهن لا زلن صغيرات وفي بيت والدهن حين نزلت سورة الأحزاب. وقلت لابد أنهن متن وهن صغيرات لذا لم يكن لهن سيرة.

ولو كان هذا صحيح فالرسول أنجب بناتٍ من غير خديجة. وهذا مستبعد تماماً الآن.

أو أن قوله تعالى: «وبناتك» المقصود ربيباته، فهن بمثابة بناته. وهذا احتمال منطقي.

هناك رأي للأخ الباحث والصديق عبد الرحمن أسعد «أبو حزم» يقول إن القرآن لا يوجد

فيه تحريم لتبني البنات، كما حرم تبني الولد. وقدم لهذا تعليلاً مفاده: أن الولد يدخل في نسب والده وأبناؤه ينسبون لنسب والدهم وجدهم. لذا فلو ألحق الولد المتبنى بالنسب فهو خلط في النسب.

لكن لو أن الرجل تبنى بنتاً فحتى لو ألحقها بنسبه فلن يتسبب هذا بخلط نسب، لأن ذريتها سيعودون بنسبهم لنسب والدهم زوجها. لذا فليس هناك نص قرآني يحرم تبني البنات. ويكون الرسول قد تبنى بنات وولد خديجة، لكن القرآن نهاه عن تبني الولد، ولم ينهه عن تبني البنات. لأن نهي الرسول ورد في آيتين الأولى تقول: وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ(٤) الأحزاب.

والثانية تقول: مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً(٣٨) الأحزاب.

فأبناء ورجال جمع ابن ورجل، وهذان اللفظان يخصان الذكر دون البنت. فالبنت مؤنث ابن، والمرأة مؤنث رجل. وبالتالي فالنهي بصريح الآيتين يتجه للذكر. كما أن التعليل "ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ" امتداد النسب بالذكور وليس بالإناث، ولم يقل "أمهاتهم".

وهذا الاحتمال وارد جداً، ويحل إشكال ذكر بنات للرسول.

وسواء كان المقصود ببناتك هو ربيباته، أو أنهن بناته بالتبني فالرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن له ذرية من صلبه أبداً.

ونحن نرى الآن أن أحفاد أبي طالب وصل تقديسهم عنان السماء فقط لأن أمهم كانت ربيبة للرسول فحولوها لابنته، وجعلوا نسب أولادها على غير المتبع أولاداً لجدهم لأمهم (المفترض) مع أن الله جل وعلا يقول إن النسب يكون للأب وليس للأم والخال: ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً(٥) الأحزاب.

ترى لو كان للرسول ولد ذكر من صلبه فكيف سيقدسه الناس؟

وفي الختام نقول إن تقديس فاطمة ليس لأنها بنتاً للرسول ولكن لأنها زوجة لعلي ابن أبي

---

١ كمال الآية هو: ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً(٤) الأحزاب.

طالب وعلي والد للحسين. فهل لزواج الحسين بشاه زنان بنت يزدجرد ابن أنوشروان آخر أكاسرة الفرس علاقة بهذا التقديس في البداية؟

خاصة أن هذه الأميرة الفارسية هي التي أنجبت زين العابدين ابن الحسين الذي أصبح الإمام الرابع في سلسلة أئمة الشيعة الاثني عشرية؟

لأنه لو كان التقديس لفاطمة كونها بنت الرسول، فلماذا لا نكاد نسمع برقية وأم كلثوم وزينب؟

ولماذا قالت كتب التراث إن أولادهن ماتوا وهم صغار أو إنهن لم ينجبن؟ فالتقديس لآل أبي طالب لم يكن لأن فاطمة ابنة للرسول.

هل تزوج الرسول بطفلة

هناك حديث مشهور منسوب للرسول يقول: عَنْ أبي هُرَيرة أن رسول الله قال: « تُنْكَحُ المَرْأَةُ لأرْبَعٍ: لمالها ولِحَسَبِها ولِجَمالها ولدينها: فَاظْفَرْ بذاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ.

وبناءً على هذا الحديث نتساءل:

إن كان رسول الله تزوج أم المؤمنين عائشة وهي بنت ست كما يقول الإخباريون، فبكل تأكيد ليس لأحد الأسباب الأربعة المذكورة في الحديث؟ فهل كان السبب أنه رآها، فأثارته، فرغب بها جنسياً؟

أو أن هذا ما يريد مختلق قصة زواج الرسول بعائشة وهي بنت ست منا أن نصدقه عن الرسول؟

هم يقولون إن الرسول تزوجها لست، وبنى بها (واقعها) لتسع. والمهووس بالجنس مع الأطفال، لن يصبر ثلاث سنوات حتى يشبع رغبته. خاصة أنه تزوجها أي أصبحت زوجته وهي بنت ست. فمن يمنعه من زوجته؟ والدها، الذي ضحى بها؟

لو كان والدها يريد حمايتها لما زوجها أصلاً إلا بسن الزواج. وحتى لو كان هناك اتفاق بين والدها وزوجها على ألا يكون هناك معاشرة جنسية، فإن المهووس بجنس الأطفال لن يكون لديه ضمير يحترم معه العهود. وسيتحجج بأي حجة لينفرد بالطفلة الضحية ويفترسها. ثم إن الفقه الذي ورثناه من السلف لا يعتبر أي شرط قبل الزواج ساري

المفعول بعد الزواج. يعني حتى لو اشترط على الزوج ألا يواقع زوجته قبل ثلاث سنين، فبمجرد أن يعقد النكاح يسقط ذلك الشرط – حسب الفقه السائد.

ولو افترضنا أن الرسول جاهد نفسه وانتظر ثلاث سنوات عجاف، حتى بلغت تسعاً وذاق عسيلتها. فإن كان استمرأ جنس الأطفال، فلماذا لم يكرره؟ لماذا تزوج عجائز ونساء لسن في مقتبل العمر بعد عائشة؟ وهوس الجنس مع الأطفال مرض، وليس متعة، والمصاب به لا يكتفي بمرة واحدة أو طفل واحد.

وإن كان قد أنبه ضميره بعد أن افترس الطفلة، وأشبع نزوته، وعاد له رشده. فلماذا لم يتخلص منها ويطلقها؟ فهي في تلك السن لا يمكن أن تكون ربة منزل، ولا شريكة حياة، بل مجرد دمية للجنس، ومدعاة لأعدائه أن يشمتوا به.

وإن تمسك بها هو فلماذا لم تنسلخ منه عندما حصلت لها الفرصة، ونزلت سورة الأحزاب التي ورد فيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً(٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً(٢٩)﴾

وبعد، لو أن هذا العفن المزعوم على الرسول صحيح، فلماذا لم ينقل لنا كتاب السير احتجاجاً واحداً وجه للرسول، أو سخرية من قريش أو اليهود أو غيرهم؟

وهذا يعني أن هذا الزواج لم يحدث وعائشة بنت ست أو تسع، ولكنه حدث وعائشة بسن الزواج. هذا إذا نظرنا للموضوع بعقل. وسنترك العقل والمنطق، ونذهب للنقل الحرفي من كتب السير والحديث التي نقلت لنا أن عمر عائشة كان ست سنوات أو تسعاً في واحدة من قصصها، وسنجد قصصاً أخرى كثيرة يتجاهلها الناس تؤكد أن عائشة كانت امرأة بالغة راشدة عندما تزوجها رسول الله. ومن ذلك:

١- قالوا لنا إن الرسول تزوج عائشة وعمرها ست وإن لم يدخل بها. وهذا يعني أنه يعرفها حق المعرفة. لكن ابن هشام ينقل عن ابن اسحاق في سيرته أن الرسول عندما عزم على الهجرة لم يكن يعرف عائشة ولا كيف تبدو، وهذا نص الرواية: قال ابن إسحاق: فحدثني من لا أتهم، عن عروة بن الزبير، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: كان لا يخطئ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، إما

بكرة، وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة، والخروج من مكة من بين ظهري قومه، أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهاجرة، في ساعة كان لا يأتي فيها. قالت: فلما رآه أبو بكر، قال: ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الساعة إلا لأمر حدث. قالت: فلما دخل، تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أخرج عني من عندك؛ فقال: يا رسول الله، إنما هما ابنتاي، وما ذاك فداك أبي وأمي! فقال: إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة. قالت: فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله؛ قال: الصحبة. انتهى الاقتباس.

فكيف يجلس الرسول على طرف سرير أبي بكر في غرفة واحدة وعنده بنتان من بناته ويقول الرسول: «أخرج عني من عندك» فيرد أبو بكر قائلاً إنهما ابنتاه؟

هذا يعني أن الرسول لم ير عائشة قبل تلك اللحظة التي هاجر فيها أبداً. ولو كان قد عقد عليها لعرفها. أرجو ألا يأتي أحد ويقول قد تكونان تلبسان برقعاً أو نقاباً أو غطاء على الوجه، وهو ما لم يعرفه المجتمع المسلم إلا في عصور لاحقة.

٢- قالوا لنا إن عائشة كانت طفلة بمعنى الكلمة عندما دخل بها الرسول وهي بنت تسع، لدرجة أنها كانت تلعب مع الأطفال، وهذا ما يقوله البخاري: حدّثني فَروةُ بن أبي المَغراءِ حدَّثنا عليُّ بن مُسهرٍ عن هشامٍ عن أبيه عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالت: «تزوَّجَني النبيُّ صلى الله عليه وسلم وأنا بنتُ ستِّ سنينَ، فقَدِمْنا المدينةَ فنزَلنا في بني الحارثِ بن الخَزرَجِ، فوَعِكتُ فتمزَّقَ شعري، فوَفَى جُمَيمةً، فأتتني أمّي أمُّ رُومانَ ـ وإني لَفي أُرْجوحةٍ ومَعي صَواحبُ لي ـ فصَرَخت بي فأتيتُها، لا أدري ما تُريدُ بي، فأخذَتْ بيدي حتى أوقفَتْني على بابِ الدار، وإني لأُنهِجُ حتى سَكنَ بعضُ نَفَسي. ثمَّ أخذَتْ شيئاً من ماءٍ فمسحَتْ بهِ وَجهي ورأسي، ثمّ أدخَلَتني الدارَ، فإذا نِسوةٌ من الأنصارِ في البيتِ، فقُلْنَ: على الخيرِ والبرَكةِ، وعلى خَيرِ طائر. فأسلَمَتْني إليهنَّ، فأصلَحْنَ من شأني، فلم يَرُعني إلا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ضُحًى، فأسلَمَتْني إليه، وأنا يومئذٍ بنتُ تسعِ سنين.

ما تقدم يظهر أن عائشة طفلة في العام الذي تزوجها فيه رسول الله. وأهل السير والحديث

يقولون إنه تزوجها في العام الثاني للهجرة.

وهذا ما يقوله البخاري نفسه في حديث آخر عن أم المؤمنين بعد عام واحد من الزواج: حدَّثنا أبو مَعْمرٍ حدَّثنا عبدُ الوارثِ حدَّثنا عبدُ العزيز عن أنسٍ رضيَ اللهُ عنه قال: «لمَّا كانَ يومُ أُحُدٍ انهزَمَ الناسُ عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم. قال: ولقد رأيتُ عائشة بنتَ أبي بكرٍ وأمَّ سُلَيمٍ وإنهما لَمُشمِّرَتان أرَى خَدَمَ سُوقِهنَّ تَنقُزانِ القِرَبَ ـ وقال غيرُهُ: تَنقُلانِ القِرَبَ ـ على متونِهما ثمَّ تُفرِغانِه في أفواهِ القوم، ثمَّ ترجعانِ فتملآنِها ثمَّ تَجيئانِ فتُفْرِغانه في أفواهِ القَوم».

فكيف تحولت في ظرف سنة من طفل لا يعي ما يفعل بها، إلى امرأة تقوم بأعمال لا تقوم بها أعتى النساء؟

٣- روى البخاري في كتابه: حدَّثنا إبراهيمُ بن موسى حدَّثنا هِشامُ بن يوسف أن ابنَ جُريج أخبرهم قال: أخبرني يوسُف بن ماهَكٍ قال: «إني عند عائشةَ أمِّ المؤمنين قالت: لقد أُنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بمكة، وإني لجاريةٌ ألعَبُ: ﴿بل الساعةُ موعِدُهم، والساعةُ أدهى وأمرُّ﴾ (القمر:٤٦)

والمفسرون يقولون إن السورة نزلت قبل الهجرة بثماني سنين. وعائشة – بناءً على ما جاء في هذا الحديث – كانت جارية قبل ثماني سنين من الهجرة. وليكن سنها ثماني سنوات، كونها فهمت وحفظت الآية. وهذا يعني أنها عام الهجرة كانت تبلغ (١٦) سنة، وعندما تزوجها الرسول كانت بنت (١٨) لأنهم يقولون إن الرسول تزوجها في العام الثاني للهجرة.

٤- يؤكد المؤرخون كما ورد في البداية والنهاية أنه بعد وفاة خديجة، جاءت إحدى (الخطّابات) واسمها خولة بنت حكيم للرسول وقالت تزوج. وهذا نص ما نقلوه لنا: جاءت خولة بنت حكيم فقالت: يا رسول الله ألا تزوج؟ قال: «وَمَنْ؟» قالت: إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً. قال: «مَنِ البِكْرُ وَمَنِ الثَّيِّبُ؟» قالت: أما البكر فابنة أحب خلق الله إليك، وأما الثيب فسودة بنت زمعة، قد آمنت بك واتبعتك. قال: «فَاذْكُرِيهِمَا عَلَيَّ».

وعلينا الانتباه لعبارة «فَاذْكُرِيهِمَا عَلَيَّ» والتي تعني اذكريني لهما. أي أن الرسول قال للخاطبة اذكريني لهما فمن قبلت بي تزوجتها. فهل تدرك بنت ست سنوات معنى الزواج

لتسألها خولة بنت حكيم، رأيها في محمد، وهل ستقبل به زوجاً؟ لابد أنها كانت في سن يؤهلها للزواج، وتقرير مصيرها بنفسها.

٥- يقول الطبري في تاريخه ضمن أحداث سنة ثلاث عشرة: إن أبا بكر رزق بأطفال في الجاهلية وأطفال في الإسلام. وقد رزق بأربعة أطفال في الجاهلية، من زوجتين، من بينهم عائشة. وهذا ما يقوله الطبري في تاريخه: تزوج أبو بكر في الجاهلية قتيلة – ووافقه على ذلك الواقدي والكلبي – قالوا: وهي قتيلة ابنة عبد العزى بن عبد بن أسعد بن جابر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي فولدت له عبد الله أسماء. وتزوج أيضاً في الجاهلية أم رومان بنت عامر بن عمير بن ذهل بن دهمان بن الحارث بن غنم بن مالك بن كنانة – وقال بعضهم: هي أم رومان بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتاب بن أذنية بن سبيع بن دهمان بن الحارث بن غنم بن مالك بن كنانة – فولدت له عبد الرحمن وعائشة فكل هؤلاء الأربعة من أولاده ولدوا من زوجتيه في الجاهلية.

ولو افترضنا أن عائشة كان عمرها قبل البعثة سنتين فقط، فسيكون عمرها عند هجرة الرسول: (١٥) عاماً. وبما أنها تزوجت الرسول – كما يقولون – في العام الثاني للهجرة، فإن عمرها حينئذ كان (١٧) عاماً.

٦- ويقول الذهبي في سير أعلام النبلاء ضمن ترجمته لأسماء بنت أبي بكر: قال عبدُ الرحمن بنُ أبي الزِّناد: "كانت أسماءُ أكبرَ من عائشةَ بعشر".

وإذا عرفنا أن أسماء توفيت عام (٧٣) للهجرة – حسب ما يقولون – ولها (١٠٠) سنة، فيكون عمرها عام الهجرة (٢٧) عاماً، وعمر عائشة أقل بعشر، أي (١٧) عاماً على الأقل.

٧- يقول الطبري إن عائشة كانت ستتزوج ابن المطعم ابن عدي قبل الرسول، وذلك أن أبا بكر عندما عزم الهجرة للحبشة ذهب للمطعم ابن عدي وطلب منه أن يأخذ عائشة زوجة لابنه فرفض المطعم لأن أبابكر مسلم. والهجرة للحبشة كانت قبل (٨) أعوام من الهجرة للمدينة، لأن الإخباريين قالوا إن الهجرة للحبشة حدثت في العام الخامس. ولأن الإخباريين يقولون إن الدعوة استمرت في مكة (١٣) عاماً.

فكم كان عمر عائشة عندما أراد أبو بكر تزويجها لابن المطعم؟

إن كان الرسول دخل بها في العام الثاني للهجرة وهي بنت تسع، فعمرها عام الهجرة للحبشة

سيكون (-١). يعني أنه بقي لها عام لكي تولد، يعني لم تحبل بها أمها بعد. لكن لو كانت في سن الزواج عام الهجرة للحبشة وليكن عمرها (١٣) عاماً فسيكون عمرها في السنة الثانية للهجرة (٢١) عاماً حسب تقديراتهم.

٨- ينقل لنا الطبري وصاحب الإصابة وغيرهم أن فاطمة كانت أكبر من عائشة بخمس سنوات. فمتى ولدت فاطمة؟

يقول أتباع المذهب السني أن فاطمة ولدت في العام الخامس قبل البعثة، ليكون عمرها عند هجرة الرسول ٥ + ١٣ = ١٨ عاماً.

لكن هذا يعني أن أمها خديجة قد ولدتها قبل وفاتها بستين أي عندما كان عمر خديجة (٦٢) عاماً. لأن الإخباريين يقولون إن خديجة توفيت قبل الهجرة بثلاث سنوات وعمرها (٦٥) عاماً. وهذا غير واقعي.

هذه أخبار، لا يعرفها الكثير من الناس، لأنهم سلموا عقولهم لرجال دينهم. ورجال الدين لا يتداولون مثل هذه الأخبار لحاجة في نفس يعقوب، إن كان بعضها عن حسن نية، فالبعض الآخر ليس كذلك.

وبعد: فالاستشهاد بها في كتب التراث لا يعني أنها مصادر موثوقة، ولكن من يظن أن أم المؤمنين عائشة تزوجت الرسول وعمرها ست، هم من يؤمن بتلك الكتب، لذا لزم أن نأتي لهم بشواهد من الكتب التي يصدقون تؤكد كذب زعم زواج عائشة وهي طفلة.

علي ابن أبي طالب ونسله لم يأت لهم ذكر في القرآن

كل أجزاء الآيات التي يستشهد بها أتباع المعتقد الشيعي على أن عليا أو أبناءه ذكرهم القرآن هي أجزاء اقتطعت من الآية ومن السياق وتم تأويلها بكل تعسف وكأنها تتحدث عنهم. وسنورد أهم آيتين استشهدوا بها وإعادتها لسياقها ثم إعادة قراءتها كما نزلت لكي يتضح لكل من لديه أدنى شك أنها لا علاقة لها بما استشهد به الشيعة.

والبداية مع:

آية المائدة

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ(٥٥).

ويقولون إن المقصود بقوله «ويؤتون الزكاة وهم راكعون» هو علي ابن أبي طالب الذي ناول خاتمه لمتسول مر به وهو راكع يصلي. وبطبيعة الحال لو كان هذا ما حدث فعلياً كان لاهياً في صلاته ومنشغلا بمتابعة من هم حوله. ولو كان هذا ما حدث فالمتسولون كانوا يطوفون بين صفوف المصلين أثناء صلاتهم زمن رسول الله.

ولو أعدنا الآية لسياقها فسنجد أن الآيات: (٥١-٥٨) من سورة المائدة تحذر منافقين في المدينة كانوا يوالون اليهود والنصارى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ(٥٢).

وتقول الآيات إن من يتولى قوماً فهو منهم في المعتقد والمصير للنار، ولو أعلن الإيمان وقام بالواجبات الدينية. والآيات تتحدث عن مسلمة يثرب الذين أبقوا على موالاة اليهود والنصارى مثلما أبقى «مسلمة قريش» على موالاة المشركين. وكلا الفريقين كَفَرَ، ولو بقي يعلن إسلامه.

والآيات تخاطب المنافقين «بيا أيها الذين آمنوا» على اعتبار أن غير المسلمين يعتبرونهم من المؤمنين، كما تصفهم الآيات «بالذين في قلوبهم مرض».

وتنقل لنا السورة ما يقوله المؤمنون المخلصون من (أهل المدينة) عن هؤلاء المنافقين: وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَـؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ(٥٣).

وتعود السورة لتحذير المنافقين مرة أخيرة من الإبقاء على موالاة اليهود والنصارى لأن

موالاتهم ردة عن الإسلام، لعلهم يعقلون: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ(٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ(٥٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُواْ اللهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ(٥٨).

وقوله إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا يخاطب المنافقين ويقول لهم لو كنتم مؤمنين فلا توالوا اليهود والنصارى وليكن وليكم الله ورسوله والمؤمنون.

ولا علاقة لها بعلي ابن أبي طالب ونسله.

وتظهر الآيات أن اليهود والنصارى كانوا يسخرون من مناداة المسلمين للصلاة (الأذان).

وسنورد آية أخرى يستشهد بها الشيعة على أنها تتحدث عن علي ابن أبي طالب وهي:

جزء من آية في سورة آل عمران

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١).

ويقولون إن المقصود أبناؤنا ونساؤنا وأنفسنا هم الرسول وعلي ابن أبي طالب وامرأته فاطمة وابناهما الحسن الحسين دون بقية المسلمين في المدينة.

وسورة آل عمران تبدأ بمخاطبة أهل الكتاب في يثرب بدءً من قوله تعالى: إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) فَإنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ(٢٠).

وتستمر السورة، حيث تبدأ بالحديث عن الحمل بمريم من الآية (٣٥): إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ

عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

وتتحدث عن الحمل بعيسى وولادته وتبليغه الرسالة ومن آمن به بدءً من الآية: إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥).

ويستمر الحديث متواصلا في نفس الموضوع إلى أن نصل لقوله تعالى: فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢).

فالآية (٦١) كما هو واضح تخاطب النصارى في يثرب وتقول للرسول لو حاجوك بعد أن بينت السورة حقيقة الحمل بعيسى وولادته ونشأته ورسالته ومن آمن به ووفاته، فقل لهم: «تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ».

وتقول الآية بعدها: إن كل ما قيل عن عيسى قصص حق من رب العالمين وليس مع الله إله آخر كما يظن النصارى أن عيسى إله مع الله.

كتب التراث اقتلعت جزء من الآية (٦١) وكأنها نزلت لوحدها لتمجد علي ابن أبي طالب وأبناءه، حيث قالوا إن هناك وفداً من نصارى نجران حضروا للمدينة لمجادلة الرسول فنزلت الآية لتقول لمحمد قل لهم أن يجمعوا أبنائهم ونسائهم ويجمع الرسول علي ابن أبي طالب وزوجته فاطمة وولديها الحسن والحسين وتكون المباهلة.

وتغافلوا عمدا عن أنه حتى لو افترضنا أنها تتحدث عن وفد نجران، فكيف يأتون بأبنائهم ونسائهم وقد حضر وفد من الرجال فقط ولم يكن ضمنه نساء وأولاد كما تقول كتب التراث التي اختلقت القصة؟

الآية كما ترى ضمن الآيات التي تخاطب نصارى يثرب زمن الرسول، وبعد أن أخبرتهم عما حدث لعيسى تقول للرسول إن استمروا في جدالك لدحض الحق فاطلب منهم المباهلة.

حيث يجتمع رجال عموم المسلمين وأبناؤهم ونساؤهم، ورجال النصارى وأبناؤهم ونساؤهم، لأنهم من أهل يثرب ومن السهل إحضار أبناؤهم ونساؤهم. ولم يحضر

مسيحيون (وليس نصارى) من نجران إلى المدينة النائية لمحاورة محمد، لينتهي بهم المطاف لقبول دفع الجزية، برغم أن بينهم وبين المدينة «خرط القتاد».

لكن بحكم أن قصة جدال الرسول مع النصارى وردت في القرآن فقد اختلقت لها قصص فيما بعد عصر الظلمات والفتن. وبما أن من اختلق القصة لا يعرف أن المخاطب هم نصارى يثرب لأنه لا يعرف أن يثرب كان فيها نصارى، ولأن الناس بعد عصر الظلمات والفتن اختلط عليهم أمر النصارى فظنوهم المسيحيين. وبما أن نجران بقي فيها مسيحيون فقد ظنوا أنهم هم من تتحدث عنهم الآيات فاختلقوا عنهم القصص. بل وسموا وفدهم بأسماء عجيبة مثل: العاقب، والأيهم، وكرز... ونحوهم. ولعل من المفيد الإشارة إلى أن الجزية لم ترد في القرآن إلا مرة واحدة في سورة براءة التي نزلت في العام الذي توفي فيه رسول الله. بينما نزلت سورة آل عمران قبلها بعدة أعوام. والجزية المذكورة في سورة براءة تخص طائفة من أهل الكتاب بعينها ولم تعمم على غيرهم.

ولم يفطن كثير من الناس أن سورة آل عمران نزلت بعد معركة أحد مباشرة لأنها تتحدث عنها. ومعركة أحد وقعت في العام الثالث الهجري (كما تقول كتب التراث) وعلي ابن أبي طالب تزوج بفاطمة في العام الثاني للهجرة يعني قبل عام واحد من معركة أحد ونزول سورة آل عمران. وولد له ولده البكر (الحسن) في العام الثالث الهجري على أحد الأقوال (وقيل في العام الرابع وقيل الخامس) وسنعتبر أنه ولد في العام الثالث، وهو ما يعني أنه ولد في نفس عام المباهلة.

يعني عندما طلبت سورة آل عمران المباهلة مع النصارى كان علي للتو ولد له أول مولود ولم يولد أولاده الآخرون إلا بعد ذلك. يعني الآية لا تنطبق على علي وأولاده كما حاول المفسرون والشيعة تأويل معناها.

ونعيد التذكير أن الآية جاءت ضمن سياق آيات تخاطب نصارى يثرب ولا علاقة لها بنجران والمسيحيين الذين يعيشون فيه. والذين لم يحضروا للمدينة أبدا ولم يقابلوا الرسول طوال حياته.

والخلاصة: أنه لا يوجد آية واحدة في كتاب الله تتحدث أو تشير لعلي ابن أبي طالب على الإطلاق.

الولد يعني الذكر والأنثى

قريش تظن أن الملائكة إناث وبنات لله، والملائكة ليس لها جنس، فليست إناثاً ولا ذكوراً، لأنها لا تحتاج للتزاوج فهي لا تتكاثر: فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ(١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ(١٥٠) أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ(١٥١) وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ(١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ(١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٥٧) الصافات.

والآية: (١٥٢) تستخدم لفظ «ولد» لتعني البنت، لأن قريشاً تقول إن الملائكة بنات الله.

محمد ليس له سنة

وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ(١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ(١٣٢) البقرة.

الملة هي الطريقة الصحيحة لعبادة الله، وملة إبراهيم طريقته في عبادة الله. وإبراهيم له ملة لأنه تعبد الله بالطريقة الصحيحة. والرسول محمد تبع ملة أبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، ولم يكن له ملة منفردة، لأن الدين واحد. والصلاة التي صلاها إبراهيم صلاها محمد، والحج كذلك. السنة تأتي في القرآن على معنيين كما يلي:

القاعدة المتكررة

فالله وعد المؤمنين الذين ينصرون دينه بالدفاع عنه أن ينصرهم: وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(٤٠) الحج.

لذا فالنصر تكرر دائماً لرسل الله ومن يؤمن معهم: إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ(٥١) غافر.

هذه القاعدة والنتيجة والمآل المتكرر يسميها القرآن «سنة الله»: وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا(٢٣) الفتح.

سيهزم كل من يقاتل الرسول ومن آمن معه نصرة لدين الله.

ومن ذلك سحق المخادعين: لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلا (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلا (٦١) سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا(٦٢) الأحزاب.

ومثله: مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا(٣٩) الأحزاب.

فسنة الله هنا هي في فرض التشريعات ولو لم تعجب الناس.

وتأتي سنة في القرآن بمعنى الطريقة التي يتكرر ظهورها عند كل الأمم

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلا(٥٥) الكهف.

غالبية الناس لا يؤمنون برسلهم، وهي سنة سارت عليها كل الأمم منذ وجد الإنسان.

وهو ما أكدته سورة الحجر: وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ(١٣).

وسورة الأنفال: قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينِ(٣٨).

ومثله: وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً (٧٦) سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً(٧٧) بني إسرائيل.

والآيتان هنا تتحدثان عن أن كل الأمم تستفز رسلها وتحاول إخراجهم.

وعد الله بنصرة الرسول ومن آمن

تسرد سورة القمر أخباراً عدد من الأمم السابقة الذين كفروا – كما قريش – ثم تقول:
أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ(٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ(٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ(٤٥).

والبشرى بالنصر للمسلمين ذكرته هذه السورة في وقت كانوا قلة قليلة في مكة، ولا يتوقع أكثر المتفائلين أن يأتي يوم وينتصروا على قريش. وهذه البشرى ليست نبوءة ولكنها مما يعرف بالضرورة. فمن يتمسك بالحق ويصر عليه سيتجاوز المحن التي تمر به والاضطهاد من الكثرة المتسلطة، وتتزايد أعداد من يقبل الحق مع الأيام. وعندما يكون هناك مواجهة بين الفريقين فالنصر في النهاية سيكون حتماً من نصيب المؤمنين. لأن المؤمن يقاتل عن قضية يؤمن بها، بينما يقاتل المتسلط للسلطة وجنوده مدفوعين للقتال دونما إيمان بقضية.

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ(١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ(١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ(١٧٣) الصافات.

والنصر يكون بالبقاء وهلاك المخالف. سواء بهلاك المكذبين بكوارث طبيعية، كما حدث لأمم سابقة عندما كان الرسول ينجو ومن آمن معه ويهلك الكافرون. أو يكون النصر بالحرب، ومن ذلك ما حدث لرسول الله محمد ومن آمن، حيث كانت الغلبة لهم في النهاية على قريش، التي اضطهدتهم حينما كانوا ضعفاء قلة، ولم تقبل بالتعايش السلمي معهم. ولما هربوا من مكة ليثرب طاردتهم هناك وحدثت بين الفريقين معركتان كان من نتائجها انهيار قريش فعلياً ومعنوياً بسبب خسارتها جل رجالها، بينما قويت شوكة المسلمين. وقبل وفاة رسول الله تم إخضاع مكة للمسلمين وكانت العقبى لهم والنصر حليفهم كما وعدت هذه الآيات وغيرها.

وانتصار الرسول ومن آمن في الحرب ليس لأن الله سيتدخل فعلياً ويقلب موازين القوى، ولكن لأن المسلم يجب عليه الأخذ بأسباب النصر من تسلح واستعداد وخطط وتمويل وغيرها، إضافة للصبر وعدم التخاذل أو الشعور بالإحباط لو هزموا في معركة. فالنصر في حالة تعادل القوى يكون لمن معنوياته مرتفعة أكثر. وبما أن المؤمنين يحاربون بدافع قوي يتمثل بالذود عن دين الله، مع الإيمان بأن مصير المقتول منهم الجنة، فهم يقاتلون للعزة في الدنيا وللجنة في الآخرة. بينما يقاتل عدوهم بلا دافع معنوي قوي سوى كسب الحرب مع الحرص على تجنب القتل. فالقتل خسارة للعدو ومكسب للمؤمن. لذا ينتصر المؤمن لو أحسن تجهيز جيشه وإعداده. وهذا يتطلب أن يصنع سلاحه بيده ويعد خططه بنفسه ويهيئ أفراده على أكمل وجه. ولو لم يفعلوا فلن يتدخل الله جل وعلا مباشرة لنصرتهم،

وسيهزمون وينتصر عدو الله وعدوهم.

وتقول سورة الصافات: وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ(١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ(١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ(١٧٣).

وهذا تأكيد على أن الإيمان بالقضية يكون دافعاً في نفوس الأتباع يجعلهم يدافعون عنها بكل صلابة.

إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ(٥١) يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ(٥٢) غافر.

الإخبار هنا عن النصر لا يعني أن الله جل وعلا سيتدخل في تحويل الأوضاع، ولكن الآيات تتحدث عما يعرف بالضرورة. فمحمد أرسل لكل الناس وسيتكاثر المسلمون، ولو دخلوا في حرب مع الكفار فسيكسبون الحرب في النهاية ولو خسروا بعض المعارك. لأنه سيكون لديهم دافع وحماس وعقيدة، بينما الكفار يحاربون حمية. إضافة إلى أن تعداد المسلمين سيزداد وتقل أعداد الكفار. أما نصر الله لرسل سابقين، فتمثل بنجاة الرسول ومن آمن، وترك الكفار يهلكون بكوارث طبيعية.

وتقول سورة الأنعام: قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ(٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ(٣٤).

فالعاقبة دائماً لمن يبقى على الحق.

من آمن بالرسول في مكة من المستضعفين أو المهمشين

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ(١١) الأحقاف.

الآية تتحدث عن قريش التي تزدري من آمن، وتقول إنه لو كانت دعوة محمد صحيحة لما تسابق على قبولها الضعفاء والمستضعفون، ورفضها أعيان مكة وكبراؤها.

وهو ما ذكرته سورة الأعراف: وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَـؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ(٥٣).

وقبول الضعفاء والمستضعفين للدعوة ورفضها من الكبراء سنة أزلية سارت عليها كل الأمم في كل مكان وزمان. ومنطق قريش مشابه لمنطق الأمم السابقة وما قالوه هنا كأنه تكرار لما قاله كفار ثمود لمن آمن: قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ(٧٥) الأعراف.

وكما قال كفار قوم نوح لمن آمن: فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ(٢٧) هود.

ويمكن القول، كقاعدة: إن كل حركة إصلاح ديني أو اجتماعي أو في أي مجال إذا رفضها المنتفعون والمتنفذون وقبلها المتضررون والضعفاء فهي صحيحة.

بعد الرسول سيبقى القرآن ولن يأتي مسيح ولا مهدي

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ(٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ(٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ(٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ(٣٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ(٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ(٣٧).

ما أوحي للرسول إلا القرآن وهو الذي سيبقى بعد وفاته، فمن تبع أوامره وانتهى عن نواهيه فله الجنة ومن خالف بعض أو كل أوامر القرآن ونواهيه أو رفضها فله النار. وهذا يعني أنه لا عيسى ابن مريم سيعود ولا المهدي. لأن الحاجة للوحي وليست للأشخاص، والوحي محفوظ كما نزل في المصحف.

الحديث ليس من الدين حتى لو ثبت عن الرسول

إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَاأَنتُمْ هَؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (١٠٩) وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠) وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (١١٢) وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاُّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا(١١٥)

الآيات تتحدث عن واقعة في المدينة تعجل الرسول – على غير العادة – وأبدى رأيه فيها قبل نزول الوحي عليه. فنزل الوحي يوبخه ويبين له حقيقة ما جرى والتي غابت عن الرسول كونه بشراً.

وكل الرسل لا يؤخذ كلامهم الشخصي أو أحكامهم دون الوحي كجزء من دين الله: وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ(٥٠) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ(٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(٥٣) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(٥٤) البقرة.

الآية: (٥٤) تؤكد أن موسى هو من طلب ممن عبدوا العجل أن يقتلوا أنفسهم ليطهروها وتقبل توبتهم.

ونفس الآية تقول إن الله تاب عليهم من القتل، وبين سبحانه أن التوبة من الكبيرة كاف ولا حاجة لقتل النفس للتطهر من الذنب.

والآية دليل على أن اجتهاد موسى في دين الله لم يكن مقبولاً وجاء الوحي لنفيه. وهو ما ينطبق على أي حديث منسوب للرسول محمد حتى لو ثبت عنه فهو ليس من دين الله لأن دين الله لا يمثله سوى كلام الله جل وعلا.

لا نفرق بين أحد من رسله

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ(٢٥٣) البقرة.

المخلوقات جميعا مختلفة فيما بينها في الخلق والتفكير والقدرات ...الخ، لكنها كلها مخلوقات قاصرة ضعيفة لا يمكن أن يكون لها شيء مما لله.

والمخلوقات جميعاً خلقت لذات الحكمة، وهي في مستوى واحد من العبودية، وكلها ستحاسب.

مما يعني أنها كلها عرضة لاقتراف الخطأ، وليس منها معصوم: لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً(١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلُيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً(١٧٣) النساء

وكلها عليها الخوف من عذاب الله والعمل على الحصول على رضاه: وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ(٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ(٥٠) النحل.

ومن يعصي الله منهم سيعذب.

وكل المخلوقات في الكون ستهلك: وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ

إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٨٨) القصص.

وكلها ستقف يوم القيامة للحساب: يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً(١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً(١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً(١١٠) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً(١١١) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً(١١٢) طه.

ولن يكون هناك معيار خاص لمحاسبة محمد أو الرسل، ومعيار آخر لمحاسبة الناس، بل هناك معيار واحد للحساب لكل الناس كافرهم ومؤمنهم ورسلهم وملائكتهم وجنهم وكل مخلوقات الكون الأخرى.

إذا استوعبنا هذه النقطة الهامة كان بإمكاننا أن نقرأ القرآن ونتدبر آياته التي تتحدث عما قالت عن محمد عليه الصلاة والسلام.

والقرآن - لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ - لم يقل أبداً إن محمداً سيد الخلق أو الشفيع أو المصطفى أو أفضل الأنبياء والمرسلين أو أي لقب وصفة أخرى قالت بها كتب التراث، وانتشرت بين الناس.

وعندما استمرت قريش تطالب محمداً بدليل محسوس على صدق رسالته، نزلت السور لتجيبهم، ومن ذلك: وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعاً(٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً(٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً(٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ...

وبقية الآية تبين حقيقة محمد لهم: قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلَّا بَشَراً رَّسُولاً(٩٣) بني إسرائيل.

وهو عليه الصلاة والسلام لا يزيد عن ذلك.

والرسل جميعاً، بما فيهم محمد، حملت بهم أمهاتهم وولدوا كما ولد غيرهم من البشر، فيما عدا عيسى وآدم اللذين خلقا بطريقة مختلفة لكنهما بقيا بشراً كالبشر.

وكل ما وصفت كتب الأخبار به الرسول لا يعدو عن كونه خيالاً جامحاً أراد من كتبه

أن يضفي على شخصية الرسول هالة من القدسية والعظمة والقدرة، تظهره وكأنه خلق من طينة غير تلك الطينة التي خلق منها البشر. طينة خلطت ببعض القدسية لكي يتمكن من مخاطبة السماء، والإحاطة بعلوم ومعارف لا يعلمها البشر العاديون، وفي نفس الوقت يمكنه أن يعيش كإنسان ويتخاطب مع الناس كواحد منهم. لأن الإنسان منذ الأزل يواجه صعوبة في التصديق بأنه باستطاعة إنسان عادي أن يتلقى وحياً من الله، وكان هذا العامل من أهم أسباب عدم قبول الناس في كل العصور دعوة الرسل: قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ(١٥) يس.

ولذلك كان الناس دائماً يطلبون من رسولهم أن يسمح لهم بالكلام مع الله، كدليل حسي يؤكد صحة ما يدعيه الرسول. لأنه (حسب زعمهم) إذا كان الله يكلم الرسول وهو إنسان عادي، فلماذا لا يكلمهم الله أيضاً وهم سادة القوم؟: وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ(١١٨) البقرة.

ولكي نتعرف على شخصية محمد الحقيقية لابد من قراءة ما وصفته به الآيات القرآنية، ونبذ كل ما وصف به في كتب الأخبار. والقرآن يقول بأن كل الرسل الذين أرسلهم الله للناس اختارهم سبحانه من البشر العاديين: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٧) الأنبياء.

ولم يكونوا أنصاف ملائكة: وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ(٨) الأنبياء.

وكل ما نسب إلى محمد من قدرات خارقة في كتب الأخبار ينفيها القرآن بما في ذلك علم المستقبل (الغيب): قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(١٨٨) الأعراف.

فهو لا يعرف ماذا سيحل به وما سيحل بقومه بعد وفاته ولا بالمسلمين ولا بمقتبل الأيام وما سيطرأ على تعاليم الإسلام، وكل خبر يقول بخلاف ذلك فقد خالف قول الله تبارك وتعالى.

وحتى أخبار الأمم السابقة وما مضى من الأحداث لا يعلم محمد منها إلا ما علمه الله: تِلْكَ

مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ(٤٩) هود.

والقرآن يخبرنا بالصورة البشرية النقية لمحمد عندما أذن لكل من اعتذر عن الخروج لغزوة من الغزوات، ولم يكن يعلم من الصادق منهم ومن المخادع: عَفَا اللّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ(٤٣) براءة.

فكان الرسول كغيره من البشر بحاجة لتوجيه: وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٠٥) يونس.

وإلى تحذير: وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ(١٠٦) يونس.

وإلى بيان: وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(١٠٧) يونس.

وليس لمحمد منزلة فوق البشر ولا يعزم على الله بشيء: قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا(٢١) الجن.

ولذلك فلن يكون له حق الشفاعة عند الله لأحد من الناس، بمعنى الشفاعة الشائع.

وليس محمد فقط هو الذي يعتريه كل ما يعتري البشر غيره، ولكن الرسل الآخرين كانوا جميعاً مثله بشراً وقد يتصرفون بما يتصرف به البشر:

فآدم عصى أمر ربه: .... وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى(١٢١) طه.

وموسى قتل نفساً: فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ(١٩) القصص.

ويونس غضب من رفض قومه الدعوة، فترك الدعوة: وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(٨٧) الأنبياء.

وداوود تعدى في حكمه: قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا

فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ(٢٤) ص.

وإخوة يوسف يمثلون الإنسان بخيره وشره، حسد، إضمار الشر، الميل للعنف والجريمة، السعي للتخلص من المنافس بأي وسيلة، مع أنهم أبناء نبي: اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ(٨) يوسف.

إضافة للكذب: قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ(١٧) يوسف.

ويوسف ضعف أمام الجنس: وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ(٢٤) يوسف.

ويعقوب نفسه تطير في لحظة من اللحظات: وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ(٦٧) وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ(٦٨)يوسف.

وكان يعقوب السبب غير المباشر فيما حدث بين أبنائه، نتيجة الزواج بأكثر من واحدة وإنجاب إخوة غير أشقاء فتولدت الضغينة بينهم، نتيجة إحساسهم بالتفرقة في المعاملة من قبل والدهم: إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ(٩) يوسف.

ومحمد حذره القرآن أكثر من مرة: وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ(٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ(٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ(٤٧) الحاقة.

ومثله: وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً(٧٣) وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً(٧٤) إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً(٧٥) بني إسرائيل.

لكنه كلف بالتبليغ، وهي مهمة صعبة شاقة، قام بها بكل أمانة برغم الضغوط الهائلة: ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ(١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ(٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ(٣) وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ(٤).

وقد رسخ الموروث بيننا أن هناك رسلاً عاديين ورسلاً أعظم (أولي العزم)، ويستشهدون على ذلك بقوله تعالى: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ(٣٥) الأحقاف.

ويقولون إن أولي العزم: آدم، نوح، موسى، عيسى، ومحمد.

دون أن يزعجوا أنفسهم ببيان مصدرهم في تحديد هؤلاء الخمسة بأنهم أولو العزم وأن هوداً وصالحاً وشعيباً ولوطاً ليس لديهم عزم وأقل شأناً منهم.

وسورة الأحقاف لم تقل بما قال المفسرون، بل إنه لم يرد فيها حديث عن رسل أمم سابقين فيما عدا عاداً ورسولهم هوداً في الآيات: (٢١-٢٦). وليس هناك سورة في القرآن تصنف رسل الله على شكل مستويات بعضها أفضل من بعض، ويأتي محمد في أعلى مستوى. هذا خيال مفسرين لا يسنده برهان. كما أن النظر لأي رسول بأنه يتميز عن البشر غلو.

وكتاب الله الكريم يقول بصريح العبارة على لسان محمد: قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(٨٤) آل عمران.

والآية ضمن سياق موجه لبني إسرائيل، الذين لم يؤمنوا بمحمد بحجة أن لديهم ديناً أفضل جاء به موسى لهم. واليهود هم من لديهم هذه النظرة السقيمة في تصنيف الرسل، حيث يأتي موسى أولا. فقد ورد في سفر التثنية: ولم يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجها لوجه (٣٤:١٠).

فأصبح موسى الأعظم في نظر اليهود، ويبدو أن المفسرين المسلمين قالوا إن محمداً أفضل الأنبياء والمرسلين، كرد على مزاعم اليهود تلك. فإن كان اليهود يعتقدون أن موسى هو الأعظم فمحمد في نظر المفسرين هو الأعظم.

وقد أكد القرآن أن كل الرسل على مستوى واحد كبشر وكرسل لله، ولا يجوز تصنيفهم لمستويات: قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(١٣٦) البقرة.

وهو ما كررت تأكيده السورة في آية أخرى: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ(١٨٥) البقرة.

ويمكن ملاحظة أن الآيات الثلاث التي تؤكد على أن الرسل بمستوى واحد كلها تخاطب بني إسرائيل في يثرب الذين يظنون أن موسى أعظم الرسل.

ومما سبق يمكن الجزم أن الإيمان ببشرية الرسول محمد التامة وكل الرسل مطلب إيماني، وأن الغلو فيهم جاء نتيجة لأن الإنسان منذ الأزل يواجه صعوبة في التصديق أن باستطاعة إنسان عادي أن يتلقى وحياً من الله.

لكن هناك آية في سورة البقرة يستدل بها البعض على أن الرسل مصنفون لدرجات مختلفة، والآية هي: تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَـكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَـكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ(٢٥٣).

ولو تمعنا في الآية فسنجد أنها لا تتحدث عن تفضيل في القرب والبعد من الله لأن هذا لا يقرره الله مسبقاً، ولن يتضح قبل يوم الحساب. ولكن الآية تتحدث عن الفروقات التي تمتع بها رسول عن آخر، ومن ذلك ما أعطت الآية أمثلة عليه: فموسى كُلّم، وعيسى بدون أب، ومحمد خاتم الأنبياء ورسول لكل الناس.... وهكذا فهذا التفضيل (والذي يعني الاختلاف) فرضته الظروف التي وجد فيها الرسول عندما أرسل، ولا تعطي الرسول أفضلية على غيره من الرسل.

الناس –إذاً– هم من أوجد الفروق التفضيلية لرسول على غيره من الرسل. فموسى عند اليهود لا مثيل له أبداً، فجاء من المسلمين من قال بمثل ذلك عن محمد. فوصف بسيد الأنبياء والمرسلين وسيد أبناء آدم. والمصطفى، وكأن الله لم يصطفِ للرسالة غيره، مع أن القرآن يقول: وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ(٤٧) ص.

بعد أنه ذكر داوود وسليمان وأيوب وإبراهيم وإسحاق ويعقوب.

ويقول القرآن في مكان آخر: إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى

الْعَالَمِينَ(٣٣) آل عمران.

وحتى لو كان هناك فروق بين الرسل عند الله، فإنهم بالنسبة للبشر متساوون، بلا تفضيل واحد على آخر.

الله أرسل رسلا لكل الناس

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ فَإِذَا جَاء أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ(٧٨) غافر.

فكل أمم الأرض أرسل لها رسل، وهو ما يفسر وجود بقايا توحيد وإيمان في المعتقدات الوثنية.

ومن لم يرسل له رسول فلن يحاسب ولن يعذب: مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً(١٥) بني إسرائيل.

وهذا وعد من الله، ومنتهى العدل.

ومثله: وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ(٢٠٨) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ(٢٠٩) الشعراء.

وفي هذا العصر كل من وصله القرآن فقد وصلته الرسالة. وتصرفات المسلمين الخرقاء لا تعفي الغير ممن وصلهم القرآن أن يتدبروه.

وتقول سورة الأنعام: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَـذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ(١٣٠) ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ(١٣١).

الجن هنا قد تعني كل المخلوقات الخافية عن البشر من مخلوقات الكون، وليس فقط جنس الجن المعروفين. وتكون كل الأمم جاءها رسول، ليس فقط الإنس بل كل المخلوقات الحية في الكون.

الله جل وعلا يختار رسله بمواصفات غير مواصفات البشر

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ(٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ(٣٢) الزخرف.

ومحمد رجل من عامة قريش لم يكن يملك مالاً ولا سلطة وهي المواصفات التي يتفاضل الناس بها فيا بينهم. أما اختيار الرسول فيكون بمواصفات إلهية. وكل الرسل كانوا من الناس العاديين في مجتمعاتهم، ولم يكونوا من الكبراء.

تدوين القرآن ونسخ المصاحف

كل ما وصلنا من أخبار عن عصر رسول الله والخلفاء بعده قال بها أناس في العصر العباسي وجاء من يوثقها في كتب بعد الأحداث بمئات السنين، وكأنها هي بالفعل ما حدث. وبما أن العصر العباسي تميز بانتشار الفجور فكرياً وأخلاقياً وبكافة أشكاله، فقد امتلأت كتب التراث بالكذب الوقح والصريح على الرسول وباختلاق أحداث عن عصره لم تقع.

ولأن الصلة بين عصر الرسول وبين العصر العباسي منقطعة تماماً بسبب وجود فجوة عميقة وانقطاع ثقافي بين العصرين جاءت بعد عصر الفتوح. فإن القليل جداً من تلك القصص والأحداث والأخبار والأحاديث التي نجدها في كتب التراث عن عصر الرسول محورة أو معدلة من قصص وأحداث وأخبار وأحاديث أصلية. أما غالبيتها فمختلقة جملة وتفصيلاً من أساسها في عصر ما بعد فترة الانقطاع. وهذا يعني أن كل ما تحمله كتب التراث مكذوب، أو أن أصحه مشكوك في صحته. ومثل هذه المصادر يجب ألا تؤخذ للحكم لا على الإسلام ولا له.

والمقصود بفترة الانقطاع بين عصر الرسول وعصر ما بعد الفتوح هو أن المدينة كانت هي الممثل للإسلام عندما توفي رسول الله، وأهلها هم شهود العيان لأحداث عصر الرسول، لأنهم هم من عاصر الأحداث وصحب رسول الله. وإن كانوا على فئتين: فئة رضي الله عنهم ورضوا عنه من المهاجرين والأنصار، وفئة منافقين «اللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا».

وقد شارك المؤمنون الأتقياء في حروب الردة والفتوح، ولم تنقض تلك الفترة حتى كان من

بقي على قيد الحياة منهم لا يزيدون عن نفر قليل مبعثرين في طول الدولة المسلمة وعرضها. بينما بقيت أعداد أكبر من المنافقين، ومعهم رجال قريش الذين لم يؤمنوا على الإطلاق، حتى لو زعمت كتب التراث دخولهم الإسلام. وكل هؤلاء هم من كان ينظر لهم أهالي البلاد المفتوحة على أنهم هم الصحابة، ومنهم تستقى الأخبار عن عصر الرسول. ومع أنهم كانوا شرار الخلق في عصر الرسول وأعداء الدين، إلا أن الناس استقوا منهم أخبار الرسول والصحابة ومعها أمور الدين. ولم يروي عنهم كان عبارة عن قصص مختلق كان يقصه القصاص في مجالسهم ليسند ما يريد توصيله لمستمعيه[1].

ولو فتحنا الكتب التي تتحدث عن أعداد «الصحابة» مثل كتاب: الإصابة في تمييز الصحابة، أو الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أو أسد الغابة في معرفة الصحابة أو الطبقات لابن سعد أو سير أعلام النبلاء أو غيرها لوجدنا أن أعداد من سموا بالصحابة يقدرون بالآلاف وعشرات الآلاف. لأن تلك الكتب تعتبر كل من نسب له رؤية الرسول ولو للحظة فهو صحابي، ومن قيل عنه إنه أسلم في عصر الرسول فهو صحابي، أما الأتقياء فلم يزد عددهم عن المئات وكلهم عاشوا في المدينة في عصر الرسول.

وما روي عن الصحابة الأتقياء عن أحداث وقعت في عصر الرسول على قلته، تعرض للتشويه والتحريف أثناء تناقل الناس له عبر العصور حتى وثق في الكتب في العصر العباسي. ومن ذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان قد انعزل عن الناس في غار حراء عندما نزلت عليه سورة المزمل. وقد تحول الخبر إلى أنه كان يتحنث في الغار قبل البعثة.

ومن ذلك، العهد المبرم مع قريش عند فتح مكة في مكان اسمه الحديبية بظاهر مكة، وقد تحولت الواقعة إلى أنها وقعت قبل الفتح بعام أو عامين واختلقت لها أسباب أخرى غير السبب الحقيقي وهو استسلام قريش وقبولها بتسليم مكة للمسلمين مقابل الحفاظ على أنفسهم وأموالهم وعقائدهم.

ومنه، جلاء قبيلتين من بني إسرائيل بسبب خيانتها للمسلمين، وكان جلاء أحدهما بعد قتال مع المسلمين والأخرى بدون قتال. فتحول الخبر إلى جلاء ثلاث قبائل لبني إسرائيل في ثلاثة أوقات مختلفة. وتعرض واحدة منهم لقتل كل رجالها بعد استسلامهم وسبي

---

١ بداية ظهور القصاص كان في البلاد المفتوحة وعلى أيدي الذين دخلوا الإسلام من المسيحيين، كون المسيحية تعتمد الوعظ القصصي.

نسائهم واسترقاق صبيانهم ممن لم يبلغوا الحلم.

ومنه ما روي عما عرف «بجمع القرآن».

فكتب التراث تروي أن الرسول توفي والقرآن مكتوب على رقاع وعظام حيوانات وجلودها وسعف النخيل بل وقطع الحجارة ولم يكن مجموعاً في مكان واحد. وأن من جمعه وأعاد كتابته هو أبو بكر.

وللقراء تصور عظم حيوان وقد كتب عليه جزء من سورة الجاثية بينما كتبت بقية السورة على قطعة حجر وعلى قطعة خشب، فكيف يمكن جمع هذه السورة مع بعضها؟

خاصة أن كتب التراث رسخت أن القرآن كان ينزل آية آية، وكلما نزلت آية قام الرسول بإملائها على كتبة الوحي فكتبوها على رقعة أو عظم أو سعفة أو نحوها. ولو صدقنا هذه التخاريف فكم هي قطع الحجارة والجلود والعظام وسعف النخيل التي كتبت عليها آيات سورة بطول البقرة. ولنا أن نتصور آيات القرآن وقد أحضرت لكي ينسخها أبو بكر وهي عبارة كومة من سعف النخيل وأخرى من الحجارة وثالثة من الجلود ورابعة من الرقاع وخامسة من الصحف، وسادسة من أقمشة. وكومة سابعة وثامنة وعاشرة وعشرين من مواد أخرى.

وهناك آيات لم تكتب وأخرى كتبت وأكلتها داجن، وغيرها لم يتذكرها سوى رجل من المسلمين. وهناك سور ضاع منها آيات كثيرة. والكثير من الطوام المختلق الذي نقلته كتب التراث.

فكيف أمكن لمن كلفهم أبو بكر بترميم هذه الأكوام المتناثرة من تجميع آيات كل سورة على حدة أولاً ثم ترتيب آيات السورة الواحدة، دون أن يختلط عليهم الأمر؟

خاصة أن عدد آيات القرآن تزيد عن ستة آلاف آية، وحسب زعم كتب التراث فهناك بعض الآيات نزلت مجزأة على ثلاثة أوقات مختلفة، مما يعني أن الآية الواحدة تحتاج لتجميع، ثم بعد ذلك تجمع آيات كل سورة، ثم بعد ذلك ترتب السور. ولو كان هذا ما حدث فلن تكون مدة خلافة أبي بكر كافية لإنجاز العمل من قبل زيد ابن ثابت (الذي تقول كتب التراث إنه هو من قام بالعمل).

وزيد ابن ثابت هو وحده من يروي عنه قوله إن أبا بكر كلفه بجمع القرآن، وهو رجل

حوله الكثير من الشبهات التي أوردتها كتب التراث، منها:

- قيل عنه إنه وفد على الرسول بعد الهجرة مع أهله وهو طفل لم يتجاوز الحادية عشر. وقيل للرسول إنه يحفظ سبع عشرة سورة. فكيف حفظها والرسول للتو هاجر للمدينة، وكل السور المكية لم تكن متوفرة في المدينة قبل الهجرة لا حفظاً في الصدور ولا مكتوبة على رقاع؟
- يقول عن نفسه إن الرسول كلفه بأن يتعلم لغة يهود « تعلّمْ كتاب يهود، فإني ما آمنهم على كتابي ». ففعلتُ، فما مضى لي نصف شهر حتى حَذِقْتُهُ.

واليهود في المدينة قلة ليس لهم شأن والكثرة كانت لبني إسرائيل وهم من لديهم كتب ومنها بقية من التوراة بشهادة القرآن وليس بما يقول ثابت عن نفسه: وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ(٤٣) المائدة.

لكن بعد الفتوح انتشر استخدام لفظ «يهود» ليشمل حتى بني إسرائيل، لأنهم كانوا الأكثرية في فلسطين. فاستخدم مختلق القصة اللفظ الشائع في الزمان الذي اختلق فيه قصته عن زيد وجمع القرآن.

وما يؤكد أن القصة مختلقة هو الزعم بأن زيد ابن ثابت أتقن لغة اليهود خلال نصف شهر.

وهذه الأكاذيب عن ثابت، وضعت كمقدمة لقبول أنه استطاع جمع القرآن خلال مدة وجيزة، لأنه يتمتع بقدرات خارقة، يمكن لمجتمع العصر العباسي تصديقها، وللمستشرقين تبنيها، لكن لا يمكن لأحد الآن أن يسلم بها.

- واختلقوا لذلك حديثاً ينسب للرسول قوله: أفرض أمتي زيد». أي أنه أعلمكم بالفرائض.

والإرث أصبح في عصور لاحقة يسمى علم الفرائض بعدما تدخل الناس فيه وزادوا فيه وعدلوا وبدلوا عما ورد في كتاب الله، ولم يكن له وجود في عصر الرسول.

وإلا فالمواريث نزلت في سورة المائدة التي سبقت غزوة بدر، وزيد لم يحضر بدراً ولا أُحُداً لصغر سنه، فكيف يصبح هذا الطفل متخصص علم فرائض لم يكن له وجود في عصر الرسول؟

وكيف يتخصص زيد بوجود الرسول وعدم الحاجة لاجتهادات الناس. فما اختلفوا فيه من الحق ردوه للرسول وانتظروا نزول القرآن بالتوضيح كما هي العادة، دون حاجة لطفل يعلمهم ما لا يعلم رسول الله.

وما قيل عن زيد إنه أفرض أمتي قيل عن غيره كثير كنوع من اختلاق فضائل للبعض، ومن ذلك: «أقضاكم علي». مع أنه لم يكن هناك قضاء بمفهومه العباسي زمن الرسول. ومثله: أرحمُ أمتي أبو بكر، وأشدها في أمر الله عمر، وأشدها حياء عثمان، وأعلمها بالحلال والحرام معاذ، وأمينها أبو عبيدة.

- زيد بن ثابت نسب له قوله: قبض رسول الله ولم يكن القرآن جمع».

لكي ينسب له الفضل كله في جمع القرآن وليظهر بصورة المنقذ لكتاب الله ولو على حساب رسول الله الذي صور وكأنه أهمل القرآن.

والمرويات عن جمع القرآن لم تقتصر على ما نسب لزيد ابن ثابت، ولكن هناك مرويات تفوقها في الضعف وتختلف فيما بينها، ومنها:

- الحسن يقول إن عمر هو من جمع القرآن وليس أبو بكر، وذلك أنه سأل عن آية فقيل كانت مع فلان، وقتل في اليمامة. فأمر عمر بجمع المصحف.
- ثم يأتي ابن سيرين الذي ينسب له قوله: إنه توفي عمر ولم يجمع القرآن.

يعني لا أبو بكر ولا عمر جمعا القرآن.

- وينسب لسالم مولى أبي حذيفة قوله: أن الصحابة احتاروا في تسمية القرآن بعد جمعه زمن أبي بكر، فقال بعضهم: سموه إنجيلاً، فكرهوه. فقيل: سفر، فكرهوه. فقال ابن مسعود رأيت الحبش يسمون كتاباً عندهم المصحف، فسموه به[1].

ولن نتتبع السيرة المنسوبة لزيد ابن ثابت لتعدد شبهاتها، ولا المرويات المتخالفة عما سمي بجمع القرآن. فما قدم كافٍ للتأكد من أن كل ما قيل عن جمعه للقرآن اختلاق مثل هذه

---

١ وهذه القصة تذكرنا بالقصة المختلقة الأخرى عن الأذان، وكيف حار المسلمون كيف ينادون للصلاة. فقال بعضهم برفع راية في موعد الصلاة، فإذا رآها المسلمون أقبلوا. وقال بعضهم: نستعمل البوق لننادي به على الصلاة كما تفعل اليهود. وقال آخرون: نستعمل الناقوس كالمسيحيين، فلم يعجب الرسول ذلك. وفي اليوم التالي قدم على الرسول عبد الله ابن زيد وقال إنه رأى رؤيا علم فيها الأذان فاعتمده الرسول. وبطبيعة الحال لم يكن في المدينة نواقيس للمسيحيين، لأنه ليس فيها مسيحيون ولكن نصارى يختلفون في عقائدهم عن المسيحيين جذرياً.

الإختلاقات المنسوبة له. وكتب التراث تريدنا أن تصدق أن رسول الله أهمل القرآن لهذه الدرجة غير المسؤولة، وهو رسول الله الأمين؟

ترى لو لم يكن أميناً فهل سيحرق الرقاع التي كتب عليها القرآن أو يمزقها؟

أليست هذه الأخبار المختلقة أبقتها كتب التراث لتكون متاحة طوال القرون الماضية كخير معين لأي متطفل أو مستشرق لأن يشكك بالإسلام وليقول إن القرآن الذي بين أيدينا ليس هو القرآن الذي نزل على محمد، أو على الأقل ليقول: إن هذا القرآن الذي بين أيدينا ناقص، أو محرف أو تم التلاعب بآياته، وقد أكثروا في هذه المزاعم بالفعل.

أليست جريمة بحق الله وكتابه ورسوله أن تبقى تلك الكتب، وتجد من يحامي عنها ويجرم من ينتقدها، ويسمى مسلماً؟

وخبر جمع القرآن له أصل ولكن تم تشويهه.

فالرسول هو من جمع القرآن في مصحف واحد على رقاع بشكل منظم، ولم يكن عبارة عن جموع حجارة وعظام حيوانات ميتة وجلودها وسعف نخيل. وجمعه عليه الصلاة والسلام للمصحف ليس كرماً منه ولا مبادرة. ولكنه واجب عليه وجزء من مسئوليته كرسول لكل الناس في كل زمان ومكان.

ولو أنه تركه عليه الصلاة والسلام ولم يكتبه أو أنه كتب بتلك الطريقة الإهمالية التي تصفها كتب التراث، فيكون قد ترك المصحف يتلاعب به أصحاب الأهواء وما أكثرهم في المدينة عندما توفي الرسول. وسيكون من السهل عليهم حرق السعف وإخفاء الجلود والحجارة. وسيكون اعتماد أبي بكر في جمعه للقرآن على حفظ الناس وليس على ما في تلك الرقاع لأن غالبيتها قد تم العبث به أو إخفاؤه أو تدميره. ولو اعتمد في جمع القرآن على ما في الصدور لظهر المصحف كما هي تلك المصاحف المشبوهة التي تنسب لابن مسعود وأبي وغيرهما. والرسول لو ترك حرفاً لم يبلغه فما بلغ رسالة ربه، ولوجب عليه العذاب.

فهل هذا ما تريد منا كتب التراث أن نظن برسول الله الذي كان غصة في حلوقهم طوال فترة حياته؟

فقريش تحقد على الرسول لأنه أهان كبراءها وأجبرهم على الاستسلام حفاظاً على حياتهم بلا كرامة. وبنو إسرائيل يحقدون على الرسول لأنه أجبر كثيراً منهم على مفارقة بلدهم

يثرب، وأجبر من بقي منهم على العيش محكومين بحكم الإسلام، ولو لم يسلموا.

واليهود يحقدون على الرسول لأن الإسلام انتشر ولم يعد الناس ينظرون لهم كشعب الله المختار. وأصبحت مكة هي المقدسة وليست إيليا.

وأصحاب المصالح في البلاد المفتوحة يحقدون على الرسول لأنه أضاع مصالحهم وألغى امتيازاتهم. وهناك المنافقون وفئات مريضة أخرى كلها تحقد على الإسلام والرسول.

وكل هؤلاء لا شيء يمنعهم من اختلاق القصص للنيل من الإسلام ورسوله، أو تحريف الأحداث وتزييفها. وساعدهم على نفث سمومهم الأوضاع السائدة تحت حكم قريش (الأموي والعباسي).

ونكرر القول بأن كتابة القرآن وجمع أبي بكر للمصحف له أصل لكن تم تشويهه.

فلدينا خبر يقول إن جبريل كان يراجع القرآن مع الرسول كل عام مرة في ليالي رمضان، وفي السنة التي توفي رسول الله راجعه جبريل مرتين، لكي يتأكد أنه حفظ القرآن.

ولا أدري كيف فات على الناس ملاحظة تهافت هذه الروايات.

فالقرآن يؤكد أن الرسول عليه الصلاة والسلام ينزل على قلبه (ذاكرته) ويحفر فيها ولا يحتاج بعدها لحفظ ولا يخشى نسيانه. لذا فالقرآن لم يكتب منه حرف واحد في مكة وكتب في المدينة.

ثم لماذا يحفظ الرسول القرآن، ويموت وهو حافظ للقرآن؟ ما هي مصلحة الناس في ذلك؟

إذاً جبريل لم يكن يحضر ليتأكد أن الرسول يحفظ القرآن، لأنه عليه الصلاة والسلام يحفظه بشهادة القرآن. ولأن الرسول لم ير جبريل أو أي ملك إلا مرتين فقط طوال حياته، وكلا المرتين حدثتا في بداية بعثته، وذكرتها سورة النجم. ولو رأى الرسول الملك مرة أخرى لذكرها القرآن.

ويكون جبريل ليس هو من يراجع الرسول ليتأكد أنه يحفظ القرآن، ولكن الذي حدث هو أن الرسول بعد الهجرة كان يملي على كتبة الوحي كتابة القرآن. فكتبوا السور المكية ثم السور المدنية، ثم كانوا يكتبون كل سورة وقت نزولها ويضيفونها للمصحف الذي كان على رقاع ومجموع في مصحف واحد. وبعدما اكتمل نزول القرآن بنزول سورة النصر في السنة

التي توفي الرسول فيها، قام عليه الصلاة والسلام بمراجعة كامل المصحف المكتوب مرتين في تلك السنة، لكي يتأكد أنه قد ترك كامل الرسالة التي تلقاها من ربه دون نقصان. وبهذا يكون قد أدى الأمانة وبلغ الرسالة. وعندما توفي رسول الله ترك نسخة المصحف الكاملة مكتوبة بوضوح وعلى أفضل ما يمكن توفره من مواد للكتابة في تلك البيئة.

ولهذا أمكنه عليه الصلاة والسلام أن يقول: أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا: كِتَابَ الله فاعْمَلُوا بِهِ.

وهذه هي الرواية الأصلية والتي أضيف لها وغيرت حسب الأهواء، فيما بعد. فالشيعة قالوا: إني قد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً، كتاب الله وعترتي. والسنة قالوا: إني قد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً، كتاب الله وسنتي.

(لاحظ أن عبارة: "ما إن تمسكتم به" بقيت بضمير المفرد بعد تعديل النص وإضافة (عترتي عند الشيعة، وسنتي عند السنة).

ولو أن القرآن كان يحفظه الرسول بصدره ومات حافظاً له دون أن يكتبه فسيموت الدين معه. ولو أن القرآن كان يكتب على سعف النخيل ورقاق الحجر والعظام ومخلفات غيرها، فهو ليس فقط إهمالاً بل واستخفافاً بكلام الرحمن.

ولو صدقنا هذا الزعم فنحن نتهم الرسول بطريق غير مباشر أنه لم يؤد الأمانة ولم يبلغ الرسالة.

وأن أبا بكر قد حاول أن يتستر على إهمال الرسول فقام هو بجمع ما استطاع من القرآن.

ولو كان الأمر كذلك، فلابد أنه فاته الكثير من القرآن، كما تريد منا كتب التراث أن نصدق.

فقد روت تلك الكتب على لسان أبي ابن كعب أن سورة الأحزاب كانت بطول سورة البقرة، أي أن هناك (٢١٣) آية فقدت من السورة.

فلماذا لم يأخذها أبو بكر من أبي؟

ولماذا لم يأخذ من أبي موسى الأشعري ما نسب له أنه كان يحفظ آية تقول: «لو كان لابن آدم واديان من مالٍ لابتغى وادياً ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب».

ولماذا لم يأخذ على الأقل آية الرجم التي يحفظها أبي ابن كعب عن ظهر قلب، كما تقول كتب التراث؟

كما نسبت تلك الكتب عن أم المؤمنين عائشة قولها: إن آية الرجم وآية رضاعة الكبير كانت في صحيفة مرمية تحت سريرها وتشاغلوا عنها بموت الرسول فدخلت داجن وأكلتها.

ولو كان أبو بكر يجمع القرآن من صدور المسلمين لجمع آية الرجم وآية رضاعة الكبير من ابنته عائشة. وإن كان تحرج من النقل من ابنته فلماذا لم ينقلها من أقرب الناس إليه بعد الرسول وأقربهم لقلبه: عمر ابن الخطاب؟

فقد نسبت كتب التراث لعمر أنه كان له مصحف وأنه قال وهو على منبر رسول الله: إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ مُحَمَّداً بِالْحَقِّ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، فَكَانَ مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةُ الرَّجْمِ. قَرَأْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا، فَرَجَمَ رَسُولُ اللهِ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ.

ولماذا كتب أبو بكر سورتي الفلق والناس في المصحف وابن مسعود يعتبرهما ليستا من القرآن (بزعم كتب التراث).

ولماذا لم يدون أبو بكر سورتي «الحفد والخلع» اللتين في مصحف أبي ابن كعب كما تزعم كتب التراث؟

وهاتان السورتان المزعومتان ما زال إمام الحرم يشدو بهما في بيت الله الحرام كل يوم في رمضان، وقد حفظهما الكثير من الناس، ومن ذلك: اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك الخير كله ونشكرك ولا نكفرك ونخلع ونترك من يفجرك.

ومن سورة الحفد: اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد وإليك نسعى ونحفد نرجو رحمتك ونخشى عذابك إن عذابك بالكفار ملحق.

وكأن إمام الحرم يريد أن يبقي ذكرهما حياً، وهو بهذا يعضد ضمناً من زعم أنها كانت من القرآن. مع أن الواجب هو حرقهما كما حرق عثمان كل المصاحف المشبوهة.

إذاً، كل ما ورد في كتب التراث عن جمع أبي بكر للقرآن وإهمال الرسول لكتابته في مصحف واحد هو من نسج خيال المغرضين في عصور لاحقة ودونته كتب التراث ليصلنا ويعتبر هو الحق لا غيره.

ويكون القرآن بكماله وتمامه قد قام رسول الله بكتابته كاملاً في حياته وفي مصحف واحد من أجود المواد المستخدمة للكتابة في عصره. وحرصاً من أبي بكر قام بمراجعة المصحف الإمام الذي كتبه الرسول، والتأكد من ألا تكون بعض الحروف قد طمست. ولم يضف له

أو يجمعه من عظام وجلود وسعف وحجارة متفرقة وصدور الرجال.

وإن كان هناك أي لوم على أبي بكر فهو عدم قيامه بنسخ عدة مصاحف وتوزيعها على الأمصار، وهو لوم يوجه لعمر ابن الخطاب أيضاً. فتأخر نسخ المصاحف لعصر عثمان وعدم مواكبته للفتوح، فتح الباب على مصراعيه لانتشار مصاحف مشبوهة لابد أن وراءها قريشاً وأعداء للإسلام معهم في محاولة لإفساد كتاب الله. وتلك المصاحف المشبوهة هي التي حرص عثمان على إتلافها وقام بإتلاف مصحف ابن مسعود معها وأي مصحف شخصي آخر، ودفع ثمناً لذلك حياته.

ثم وفي عصور لاحقة انتشرت القصص عما في مصحف ابن مسعود، ولأنه صحابي فقد استغل المغرضون مصحفه لنسبة كل مطاعن يريدون إثارتها حول القرآن. فقالوا إنه كان يحوي غير ما يحوي القرآن وكان له قراءات وعبارات مختلفة .. الخ. وانتشرت هذه الأقاويل والمزاعم لأن مصحف ابن مسعود لم يعد له وجود لكي يتم التأكد من وجود ما نسب له. ويكون مصحف رسول الله «المصحف الإمام» هو الذي راجعه أبو بكر، وحفظ عند حفصة حتى نسخ منه عثمان المصاحف، دون أن يعدل فيه حرفاً واحداً عما كتبه عليه رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وما يؤكد هذه الحقيقة التي طمستها كتب التراث أن المصحف الحالي يستطيع أن يثبت بنفسه أنه كامل لكل من يتدبره بحيادية وبطريقة أكاديمية بحتة، بعيدة عن أكاديمية المستشرقين الذين ينسون البحث العلمي عندما يتعلق الأمر بدراسة القرآن. وخير دليل على ذلك ما كتبه كبارهم أمثال نولدكه وزويمر ورينان وغيرهم، والذين يتمسكون بروايات واهية من كتب التراث ولو كان من كتبها كالزمخشري والسيوطي والسجستاني.

القطع بالثبوت والدلالة

أتباع الموروث صنفوا نصوص القرآن وما أسموه بالحديث إلى أربعة أصناف، هي:

- قطعي الثبوت قطعي الدلالة
- قطعي الثبوت ظني الدلالة
- ظني الثبوت قطعي الدلالة

- ظني الثبوت ظني الدلالة

ولمن لم يسمع بهذه التعريفات نقول:

إن المقصود بقطعي الثبوت هو ما ثبت يقيناً وصوله إلينا من رسول الله. وظني الثبوت هو ما وصلنا بطرق لا يمكن الجزم بثبوتها، أي أنها ليس بالضرورة صدرت من رسول الله برغم نسبتها إليه.

ويقصدون بقطعي الدلالة أن معنى النص ظاهر واضح لا لبس فيه ولا يحتمل أكثر من معنى.

وهم يقولون إن كل القرآن قطعي الثبوت، وهذا لا شك فيه. إلا أنهم يقولون إنه ليس كل القرآن قطعي الدلالة. بمعنى أن هناك بعض العبارات تحتمل عدة معانٍ، أو أن معناها غير واضح. أي أن القرآن بعضه قطعي الدلالة وبعضه ظني الدلالة.

وبالنسبة «للحديث» فيقولون هو مثل القرآن، فهناك أحاديث قطعية الثبوت قطعية الدلالة كبعض الأحاديث التي يسمونها متواترة.

وبقية الأحاديث ظنية الثبوت، بعضها قطعي الدلالة وبعضها ظني.

والتعليق على هذا كما يلي:

القرآن لا يحتاج لشهادة أحد حول قطعية ثبوته، لكن هل هناك في نصوصه ما يمكن تصنيفه على أنه ليس واضح الدلالة؟

الجواب بوجه عام: نعم، لكن بتقييد.

فنصوص القرآن غير الواضحة الدلالة محدودة جداً، وليس من بينها ما له علاقة بالتشريع أو العبادات، ولعلها أهمها حروف افتتاحيات السور، مثل: ألم الر، طس، طسم، كهيعص، حم ..... الخ.

وأتباع الموروث قالوا عن بعض نصوص القرآن إنها تحتمل أكثر من معنى أو أنها ظنية الدلالة، لأنهم وضعوا لكل آية في القرآن تأويلات عدة، بعضها يخالف البعض الآخر. ولو وافقناهم في أقوالهم فلن نجد آية واحدة في القرآن لم يضعوا لها تأويلات عدة مختلفة، وبالتالي فكل القرآن ظني الدلالة حسب قاعدتهم. لذا فأي لفظ قرآني يقول عنه المفسرون

أنه ظني الدلالة، فهو ظني بالنسبة لهم، لأنهم أولوا الآيات لغير معناها. لكنه لا يعني إنه كان كذلك زمن رسول الله. لأن المسلمين لو لم يفهموا المقصود باللفظ لسألوا الرسول، ولو سألوا الرسول فسينزل الوحي بالتفصيل.

فمثلاً نزل تحريم أكل الميتة في مكة في البداية في قوله تعالى: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)النحل ١١٥ ثم تكرر تأكيد ذلك حرفياً بعد الهجرة: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)البقرة١٧٣

ويبدو أن بعض المسلمين تساءلوا عن المقصود بالميتة، فنزل التوضيح في سورة المائدة: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣) المائدة.

فالميتة تشمل: الْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ.

كما أن من يقرأ القرآن بعيداً عن تأثير كتب الموروث وبعيداً عن تأثير الأقوال الشاذة سيجد أنه كلام واضح يمكن فهمه من الشخص العادي كما يفهمه المتعمق في علوم اللغة. لذا لا عبرة لقول أتباع الموروث إن هناك ألفاظاً ظنية الدلالة في القرآن.

وأتباع الموروث يصنفون «الحديث» على أن ما أسموه «الحديث المتواتر» يقيني الثبوت يقيني الدلالة.

والأحاديث التي يعتبرونها "متواترة" عن الرسول لا يعني أنها كذلك. ولكن يعني أن سلسلة الرواة فيها يعتبرونها صحيحة لأن الأسماء فيها لأناس يصعب أو يستحيل تواطؤهم على الكذب. لكن لا يمكن الجزم أنهم هم من رووا الحديث، لأن سلسلة الرواة لم تبدأ مع بداية تداول «الأحاديث» زمن الفتوح، ولكنها ألحقت بالأحاديث في عصور لاحقة وبعد وفاة رواتها المنسوب لهم أنهم سمعوا الرسول. وهذا يبقي الأحاديث «المتواترة» ظنية الثبوت، وتسميتها بالمتواترة ممن يؤمنون بها لا ينفي أن تكون أحاديث مختلقة أو طرأ عليها التغير

والتبديل.

وبناءً على المحدثين فليس هناك سوى ١٢ حديثاً تعتبر متواترة، ثم جاء من زادها لعشرين وخمسين، وأوصلها البعض إلى (٣٠٠)، أما بقية الأحاديث البالغ عددها مئات الآلاف فكلها آحاد ظنية الثبوت عندهم. يعني أنهم يعترفون أن نسبتها للرسول فيها نظر، فقد لا يكون قالها عليه الصلاة والسلام، وهذه هي الحقيقة. ولا يهم إن كانت نصوص بعضها قطعي الدلالة، فقطعية الدلالة للعبارة لا تعني أن نسبتها للرسول صحيحة، فلو أورد البخاري حديثاً يقول: مَن بَلَغَتْ عندَهُ مِنَ الإبلِ صدقةُ الجَذَعةِ ولَيْستْ عندَهُ جَذَعةٌ وعندَهُ حقَّةٌ فانها تُقبَلُ منهُ الحِقَّةُ ويَجعلُ معها شاتَينِ إنِ استَيْسَرتا له أو عشرينَ دِرهماً.

فالدلالة قطعية، في تعريف الحقة والجذعة والشاة والدراهم. بمعنى أن الحقة والجذعة مفهومة ولا تحتم معاني مختلفة، لكن هذا لا يعني أن الرسول قد قال الحديث. وبناءً على ذلك فإن إنكار أي حديث ليس متواتر لا يمكن أن ينعت بالكفر من ينكره عند أهل الحديث والفقه والتفسير. هذه قاعدة فقهية يجهلها الكثير، ويتجاهلها رجال الدين ومن يتسمون بالفقهاء، وهي موجودة في صميم عقيدتهم.

بعبارة بسيطة – حسب هذه القاعدة الثابتة لديهم – يمكن لأي شخص ألا يعمل بموجب نص حديث آحاد ولا يمكن اتهامه بالكفر أو ترك شيء من الدين.

والخلاصة مما تقدم:

أن قولهم إن هناك في القرآن ما هو ظني الدلالة، غير دقيق. لأن ما كان ظني الدلالة بالنسبة للمفسرين الذين جاؤا بعد رسول الله، لا يعني أنه كان ظني الدلالة زمن رسول الله.

أن ما اعتبروه أحاديث متواترة هي على أكثر الأقوال ٣٠٠ حديث فقط، وما عداها فلكل إنسان الحق باتباعها أو تركها ولا يعتبر تركها مخالفة لدين الله أو كفراً في عقيدة أهل الحديث أنفسهم.

أن يقين الدلالة لا يعني يقين الثبوت عن الرسول.

رجال الدين

في عصر رسول الله لم يكن هناك رجال دين ولم يكن هناك مذاهب وفرق. بل إن رسول الله كان لا يستطيع أن يصدر حكماً حتى ينزل عليه القرآن فيتلوه على الناس. ولو سئل في مكة فسينتظر حتى ينزل عليه الحكم فيها، ثم سئل نفس السؤال في المدينة بعد الهجرة فسينتظر حتى ينزل عليه الوحي، حذراً من أن يكون هناك حكم بعد الهجرة لأهل يثرب والمدينة يختلف عن ذلك الحكم في مكة الموجه لقريش. لأن محمداً مجرد رسول، لا يستطيع أن يشرع نيابة عن الله.

ومن ذلك أنه عليه الصلاة والسلام سئل في مكة عما يحرم من المآكل فنزلت سورة النحل التي منها آية تقول: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(١١٥) النحل.

ونفس الحكم تكرر نزوله في المدينة لأن الرسول سئل عنه مرة أخرى، فنزلت سورة البقرة وفيها آية تبدو وكأنها تكرار حرفي لآية النحل المكية: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(١٧٣) البقرة.

وبعد أن فتح المسلمون البلاد التي تنتشر فيها المسيحية (العراق والشام وبلاد النيل) دخل الكثير من الممارسات المسيحية لتراث المسلمين ومن ذلك ما أصبح يعرف «برجال الدين» كصورة مقتبسة للرهبان. وكان دورهم في البداية لا يزيد عن حفظ القصص التي يتداولها الناس عن زمن رسول الله والتحدث بها في مجالسهم التي تغص بالمستمعين. ثم تحولوا إلى أئمة يقتدى بهم، ولهم الحق بالأخذ برواية من روايات الأخبار المنسوبة للرسول – التي انتشرت في المجتمع المسلم يتناقلها الناس مشافهة – وبناء حكم عليها وترك أخبار أخرى منسوبة للرسول تخالف ما أخذوا به، وهو ما أدى لظهور الفرق والمذاهب. ثم أصبح لهم الحق بالتشريع ليس فقط باعتماد ترجيح حديث على آخر، ولكن بسن تشريع ليس له دليل، حتى ولو كان حديثاً، فيما عرف بالاجتهاد الذي حول رجل الدين إلى «كاهن» يملك الصلاحية بالتحريم والتحليل اعتماداً على رأيه الشخصي. ولكي يسهل انقياد الناس لهم وطاعتهم فيما يشرعون انتشرت أحاديث منسوبة للرسول تقول: إن «العلماء» ورثة الأنبياء.

(كما ورد في سنن أبي داوود (ت ٢٧٥ هـ) والترمذي (ت ٢٧٩ هـ) مع أن الإسلام الذي جاء به الرسول، مطلوب من كل الناس على حد سواء، وكلهم ورثة للأنبياء بهذا المعنى.

لكن «ورثة الأنبياء» حُصرت برجال الدين، وكأن لديهم قدرة التعرف على الحلال والحرام بما يتوافق مع ما سيتنزل على الرسول لو كان حياً. أما كيف يمكنهم ذلك، فمبهمٌ يعتمد إيحاءهم لغيرهم أن الله أودع فيهم هذه القدرة، دون غيرهم، لكي يستمر تواجد رسل الله «الأنبياء» في أشخاصهم. وهذه العقيدة موجودة عند الشيعة والسنة والمذاهب الأخرى على حد سواء، وإن اتخذت مسميات مختلفة.

ولأن الابتعاد عن الدين لا يتوقف عند حد بل يتعاظم بمرور الزمن، فما كان منكراً في وقت يتحول إلى مقبول وواقع في وقت لاحق. لذا نجد قريشاً وقد تحولوا تماماً لعبادة الأصنام كبديل إلى توحيد الله الذي كان عليه إبراهيم. ولما جاء محمد ليعيدهم لدين الله سخروا منه واتهموه بالكفر بدينهم – الصحيح في نظرهم – لأنهم توارثوه وأصبح واقعهم الذي لا يحيدون عنه.

ونتيجة لهذه القاعدة، أصبح رجال الدين يوقعون عن الله في القرون التالية، لدرجة أن ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ) لم يجد أي حرج من أن يسمي أحد كتبه بـ (أعلام الموقعين عن رب العالمين) وهو على يقين أن الناس ستتقبله بقبولٍ حسنٍ، ولن يجد من يقول له: اتق الله! فالله ليس له نواب من خلقه ولم يعين من يوقع عنه في الأرض.

وهكذا أصبح لدى المسلمين رجال دين يعتبرون أنفسهم نواباً عن الله في الأرض، وينسب كلامهم لدين الله. وحتى لا يكون كلامي تنظيراً فقط، أو مغالطة أورد قليل القليل مما قاله رجال الدين السلف حول قوله تعالى: «أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا» وهي جزء من آية هذا تمامها: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا(٥٠) الكهف.

يقول الطبري في تفسيره: حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن خلاد بن عطاء، عن طاووس، عن ابن عباس قال: كان اسمه (يقصد إبليس) قبل أن يركب المعصية عزازيل، وكان من سكان الأرض، وكان من أشدّ الملائكة اجتهادا وأكثرهم

علما، فذلك هو الذي دعاه إلى الكبر، وكان من حيّ يسمى جنا.... انتهى كلام ابن عباس

(إبليس اسمه عزازيل، وهو ينتسب لقبيلة)

فهل هذا كلام الله أم كلام رجل الدين؟

والاختلاق واضح، فـ(جنا) أخذها من جني، وعزازيل مقتبس من كتب اليهود[1].

ونواصل مع تفسير الطبري: حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثني حجاج، عن ابن جريج، عن مجاهد أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي قال: ذرّيته: هم الشياطين، وكان يعدّهم «زلنبور» صاحب الأسواق ويضع رايته في كلّ سوق ما بين السماء والأرض، و«ثبر» صاحب المصائب، و«الأعور» صاحب الزنا و«مسوط» صاحب الأخبار، يأتي بها فيلقيها في أفواه الناس، ولا يجدون لها أصلاً، و«داسم» الذي إذا دخل الرجل بيته ولم يسلم ولم يذكر الله بصره من المتاع ما لم يرفع، وإذا أكل ولم يذكر اسم الله أكل معه........الخ

هل هذه التفاهات السخيفة كلام لله، أو من كلام رسوله؟ أم هي اختلاق يظهر تسطيحاً لكلام الله من رجل دين؟

وقبل ما يتساءل أحد كيف صار لإبليس أولاد، نقول إن رجال الدين فطنوا لهذا، ومما جاء في تفسير الطبري في هذا المجال قوله: قال مجاهد: إن إبليس أدخل فرجه في فرج نفسه فباض خمس بيضات؛ فهذا أصل ذريته.

وقيل: إن الله تعالى خلق له في فخذه اليمنى ذكراً وفي اليسرى فرجاً؛ فهو ينكح هذا بهذا، فيخرج له كل يوم عشر بيضات، يخرج من كل بيضة سبعون شيطاناً وشيطانة، فهو يَخْرج وهو يطير، وأعظمهم عند أبيهم منزلة أعظمهم في بني آدم فتنة.

وفي مسند أحمد بن حنبل قال: أنبأنا عبد الله بن المبارك قال حدّثنا سفيان عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السُّلَمِيّ عن أبي موسى الأشعري قال: إذا أصبح إبليس بثّ جنوده فيقول من أضل مسلماً ألبسته التاج قال فيقول له القائل لم أزل بفلان حتى طلّق

---

1 ورد لفظ «عزازيل» ثلاث مرات في سفر اللاويين الإصحاح (١٦). ومن تعريفات عزازيل في قاموس الكتاب المقدس/ دائرة المعارف الكتابية المسيحية: عزازيل هو الشيطان أو الجن في الصحاري والبراري.

زوجته، قال: يوشك أن يتزوج. ويقول آخر: لم أزل بفلان حتى عق؛ قال: يوشك أن يَبَرّ. قال ويقول القائل: لم أزل بفلان حتى شَرِب؛ قال: أنتْ قال ويقول: لم أزل بفلان حتى زنى؛ قال: أنتْ قال ويقول: لم أزل بفلان حتى قتل؛ قال: أنت أنتْ.

ولن نعلق على سخافة هذه التخيلات، ولكننا نتساءل: من أخبر هؤلاء بما قالوه عن إبليس؟

إن كان الله قد أخبرهم فهم يتلقون وحياً من الله لم ينله محمد عليه الصلاة والسلام.

وإن لم يكن وحياً فهو مجرد قصص خرافي مختلق نسبوه لدين الله، ووجدوا منا من يحامي ويدافع عنه وكأنه من دين الله للأسف. ولكي يعي الإنسان العادي هول ما يشرعه رجال الدين ما عليه سوى الرجوع لفتاوى كبار رجال الدين كابن تيمية والتي تبلغ (٣٧) مجلداً، أو فتاوى هيئة كبار العلماء في السعودية والتي كانت تبلغ عند آخر مرة راجعتها (٣٠) مجلداً، وهي تتعاظم باستمرار. ولدى كل مذهب مجلدات مماثلة.

سورة القدر لا تتحدث عن ليلة القدر بالمفهوم الشائع

سورة القدر نزلت في بداية الدعوة في مكة، وفي وقت لم يكن هناك صوم في رمضان الذي لم يفرض إلا في المدينة بعد الهجرة وفي سورة البقرة، وبعد سنوات من نزول سورة القدر وعندما كانت قريش تلاحق الرسول بالأسئلة:

متى البعث الذي تزعم؟

فيتزل القرآن ليقول لهم إن البعث سيكون بعد فناء هذا الكون، مثل:

إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت.

إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ(١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ(٢).

إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ(١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ(٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ(٣).

فيعيدون التساؤل: إذا انهارت السماء والأرض فأين سيكون البعث؟

فينزل القرآن ليقول:

يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ(٤٨) إبراهيم.

فهذا الكون سينهار وينشأ كون آخر فيه البعث:

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ(٦٨) الزمر.

وتستمر قريش بالأسئلة: هل رأيت الملك الذي تقول إنه يتنزل عليك بالوحي يا محمد، أو أنك مجنون تتخيل أن أحداً يكلمك؟

فيتنزل القرآن بالإجابة: وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ(٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ(٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ(٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ(٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ(٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ(٢٧) التكوير.

وقريش كانوا يلاحقون الرسول بالأسئلة سخرية منهم وعدم تصديق، وليس للمعرفة واليقين. ومن الأسئلة التي وجهتها قريش لمحمد كان التساؤل عن بداية تلقيه الوحي، متى كان؟

وهو سؤال كررته قريش كثيراً، وجاء جوابه في عدد من السور، لكن سورة القدر جاءت بكاملها للرد على هذا السؤال: إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ(١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ(٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ(٣) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ(٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥).

والسورة تقول بأن بداية تلقي محمد للوحي كان في ليلة أصبحت مباركة لأن الوحي بدأ التنزول فيها، وليس لأنها ليلة مقدسة أصلاً، كما ترسخ لدينا بواسطة المفسرين. وقد تكرر ذكر هذه الليلة التي بدأ فيها نزول الوحي «ليلة القدر» في سور أخرى، لأن قريشاً كررت السؤال، ومن ذلك ما جاء في سورة الدخان من سور نزلت في مكة في فترة لاحقة: إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ(٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ(٤) أَمْراً مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥).

كما تكرر ذكر ذلك مرة ثالثة في المدينة أثناء الحديث عن رمضان والصيام، وذلك في قوله تعالى: شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٨٥) البقرة.

وسورة القدر لا تقول بأن القرآن كله نزل من الأرشيف الإلهي للسماء الدنيا في تلك الليلة ثم أنزل على محمد ترتيلاً على مدى سنوات الدعوة، كما تزعم كتب التراث. لأن القرآن الكريم ينزل ليتفاعل مع الأحداث لحظة حدوثها. فحادثة الأعمى نزل بها القرآن في وقتها ولم تنزل من الأرشيف الإلهي قبل الحادثة بسنوات. ومثلها كل الأحداث التي يتحدث عنها القرآن صغيرها مثل المجادلة وكبيرها مثل معركة بدر وأحد والأحزاب وغيرها. فالقرآن لا يتحدث أبداً عن أحداث ستقع.

والمسلمون اليوم يقدسون ليلة مبهمة في رمضان، ليس لأنه بدأ الوحي ينزل فيها، لكن لأن المفسرين حولوا معناها إلى ليلة تحدث فيها أعاجيب وظواهر غير طبيعية، وزعموا أن من دعا فيها فستتحقق له أمانيه. ونسي الناس أن قدسيتها استمدت من كونها أول ليلة يتلقى فيها الرسول أول سورة من القرآن، وليس لها قدسية بذاتها. وهذه هي حقيقتها التي يمكن للمسلمين الاحتفال بها - إن شاءوا - دون انتظار لتحقق أماني أو حدوث معجزات حسية، أو تحويلها لليلة يقبل فيها الله الدعاء أكثر من غيرها، أو أنه مطلوب فيها الذكر وقراءة القرآن أكثر من غيرها، فكل هذه المزاعم لا أصل لها في دين الله وإنما ألصقت فيه بواسطة البشر.

واللافت أن أكثر من يهتم بليلة القدر بمفهوم المفسرين هم السلفيون الذين يعتبرون أشد مذاهب المسلمين تشدداً ومحاربة للغلو، كما يزعمون. فهم يحرمون الاحتفال بمولد النبي أو الهجرة، بل وقاموا بتكسير كل ما له علاقة بزمن الرسول من كتابات ونقوش عثروا عليها وهدموا بيوت الصحابة بحجة أن الناس قد يعظمونها[1]. لكنهم يتناسون ما ينهون عنه غيرهم عندما تكون المسألة مما يمارسون ويدعون له ويرسخون، مثل التراويح ومثل ليلة القدر «العجيبة».

ولأن كل ما قيل عن «ليلة القدر» هو قصص مختلق وتخاريف فإليكم هذا الحديث الموضوع المكذوب عنها:

---

1 شجعت السلطات السعودية فتاوى هؤلاء هدم بيوت مكة القديمة والقضاء على كل أثر إسلامي في مكة والمدينة. والغاية لم تكن دينية بقدر ما هي مصالح دنيوية، حيث كان هناك تعويضات مالية هائلة للأماكن المدمرة التي استطاع المتنفذون شراءها من أصحابها ولما هدمت تم تعويضهم بالمليارات. دون أدنى شعور بتأنيب الضمير للقضاء على آثار لا تقدر بثمن. وبما أن الحكومة السعودية ذات نفوذ عالمي فقد صمتت الهيئات العالمية المسئولة عن الآثار ولم تحتج على ما حدث. وقد بلغت قيمة التعويضات مبالغ فلكية.

يقول البخاري: حدَّثني محمدُ بنُ المُثنّى حدَّثني خالدُ بنُ الحارثِ حدَّثنا حُميدٌ حدَّثنا أنسٌ عنِ عُبادةَ بنِ الصامتِ قال: «خَرَجَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ليُخبِرَنا بليلةِ القَدْرِ، فتلاحىٰ رجُلانِ منَ المسلمينَ فقال: خَرجتُ لأخبِرَكم بليلةِ القَدْرِ، فتَلاحىٰ فُلانٌ وفلان فرُفِعَتْ، وعسىٰ أن يكونَ خيراً لكم، فالتَمِسوها في التاسعةِ والسابعةِ والخامسةِ».

مناقشة النص

الحديث يقول إن الرسول أبلغه الله عن ليلة القدر متى تكون، وأنه خرج ليبلغ بها الناس، ولكن التلاحي (أي الشجار والنزاع) الذي حدث بين رجلين – لم يذكر اسمها – أحدث ردة فعل لدى الله – تعالى عن ذلك علواً كبيراً – فقرر أن يرفع خبرها ويخفيها عن الناس.

وهذا الحديث فيه قدح لذات الله – جل وعلا – فهو لم يخبر الناس متى تكون عندما نزل بالقرآن على الرسول ثم قرر فيها بعد أن يخبرهم. (يعني غير رأيه وكأنه أحد زعماء العرب في هذا الزمان الذي يقرر اليوم شيئا ثم يقرر نقيضه غداً) تعالى الله وتبارك عن ذلك علواً كبيراً.

وعندما قرر أن يخبر الناس أبلغ رسوله بأن يبلغهم، ولم يبلغهم هو بقرآن. وكأن الرسول عليه الصلاة والسلام حاجب أو خادم بلاط عند الله. وليس رسولاً من البشر ينسخ الوحي في ذاكرته دون أن يكون له رأي بقبوله أو رفضه ودون أن يكلمه الله بكلام خاص وسري وعليه أن يبلغ كل ما يوحى له لحظة نزوله، وإن لم يبلغ فسيهلكه الله ويعذبه.

وليس هناك أحاديث جانبية بين الله الخالق وبين عبده من البشر محمد عليه الصلاة والسلام.

لكن قصاص السلف لديهم الجرأة أن يقولوا على الله ورسوله ما لا يقال، وتصويره سبحانه أنه قرر أن يتراجع عن إخبار الناس بليلة سيكون لهم فيها خير وستقبل دعواتهم وستحقق أمانيهم، فقط لأنه حدث شجار بين رجلين تسبب في غضب الخالق وارتفاع ضغطه (تعالى الله وتبارك علواً كبيراً من جرأة السلف).

وليلة القدر لا تعني أنها ليلة خاصة أو عجيبة أو حتى يستجاب فيها الدعاء.

فالدعاء للدنيا لا يستجاب أبداً لأنه يخالف عدل الله المطلق الذي خلق الدنيا للعمل والآخرة للحساب. ولو تدخل في أمور الدنيا فقد ألغى قانون العدل وقانون الاختيار الحر للإنسان وقوانين كثيرة وضعها سبحانه بنفسه. فالدنيا مجالها مفتوح لكل الناس والنجاحات فيها لهم

جميعاً بغض النظر عن المعتقد.

والناس بمختلف عقائدهم عرضة للمرض والحوادث والفقر والغنى والموت ولن يتدخل الله جل شأنه ليبرئ هذا ويمرض آخر.

ولو فكر الناس بأن بُرء المريض من مرض لا يعني أنه لن يصاب بغيره ولا يعني أنه لن يموت. وهذا كاف لمعرفة أن الله جل جلاله لا يبرئ ولا يمرض مباشرة. ولا يقبل دعوة من يطلب بيتاً أو مالاً. لكنه سبحانه وضع كل سبل الحياة الكريمة في الأرض لكل الناس ولو كان هناك فقر فلابد أن هناك لصاً وسارقاً يجب انتزاع حق الناس منه ووقف ظلمه، وليس الحل برفع الأكف لله الذي لم يظلم أحداً ولم يسرق مال أحد.

والله أودع للإنسان عقلاً يفكر ويخترع ويتقدم ويصنع ويتطبب ويكتشف العلاج الذي أودعه الله في العالم. فالله أودع كل شيء يحتاجه الخلق وعليهم إيجاده.

وفيما يلي ملاحظتان هامتان:

١. أن كل الأحاديث الواردة عن ليلة القدر من أناس لم يصحبوا الرسول في مكة وعايش نزول السورة، ومن هؤلاء: أبو هريرة، ابن عباس، الحسن ابن علي، أبو سعيد الخدري، أبو بكرة، وغيرهم. ولو افترضنا أن ما قيل عن ليلة القدر صحيح فإن المسلمين غفلوا عنها أكثر من عشر سنوات إلى عشرين سنة من نزول السورة في مكة وحتى بدأ الناس يسألون الرسول عنها في المدينة.

٢. أن كل ما قيل عن فضائل ليلة القدر لم يقل به الله ولم يسمع به الرسول كما سنرى، وإنما هو من اختلاق المفسرين.

ولبيان اختلاق المفسرين نورد فيما يلي بعض أقوالهم في قوله تعالى: «إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» ليتبين للقراء أنهم لا يملكون علماً وإن هم إلا يخرصون دون خوف من الله:

عن ابن عباس، قال: نزل القرآن كله جملة واحدة في ليلة القدر في رمضان إلى السماء الدنيا، فكان الله إذا أراد أن يُحدث في الأرض شيئاً أنزله منه حتى جمعه. وبمثل قوله قال الشعبي. سعيد بن جُبير: أنزل القرآن جملة واحدة، ثم أنزل ربنا في ليلة القدر: فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ.

عن ابن عباس مرة أخرى، قال: نزل القرآن في ليلة من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة، ثم فُرِّق في السنين، وتلا هذه الآية: فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ قال: نزل متفرّقا .

ومرة ثالثة يقول ابن عباس: أنزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر، إلى السماء الدنيا، فكان بموقع النجوم، فكان الله ينزله على رسوله، بعضُه في إثر بعض.

ملاحظات سريعة

القرآن ينزل ليتفاعل مع الأحداث وقت وقوعها ولا يذكر حادثة ستقع أبداً، فكيف ينزل القرآن كله في ليلة واحدة وهو يتحدث عن وقائع لم تقع؟

كيف تحدث عن حادثة الأعمى والجن وغزوة بدر وأحد والأحزاب وحرق المسلمين بالنار... الخ قبل وقوعها؟

ولو قال متحذلق إن الله يعلم الغيب وأنزل القرآن يتوافق مع ما سيحدث، فأقول لو كان الأمر كذلك لماذا لم يخبر القرآن المسلمين أنهم سيهزمون في أحد؟

لماذا لم يخبر رسوله بأن الأعمى سيأتيه فلا يعبس في وجهه؟ ..الخ

لا ندري من أين جاء ابن عباس والشعبي وابن جبير بهذه المعلومة ؟

طبعاً كل كلام المفسرين مختلق لا يحتاج لمصدر. فما يقول الشعبي أو ابن عباس أو قتادة أو غيرهم يؤخذ بلا نقاش. مع أنه لو أن أحدهم قذف غيره فسيطلب منه أربعة شهود عدول أو يجلد ثمانين جلدة ولا يؤخذ كلامه كشاهد بعدها.

فكيف يترك هؤلاء يتقولون على الله بدون شهود ويؤخذ كلامهم وكأنه كلام الله.

ابن عباس يظن أن القرآن نزل بمواقع النجوم .. كيف؟ لا أدري.

فلا شأن بقوله تعالى: فلا أقسم بمواقع النجوم بنزول القرآن.

اختلاق القصص كسبب للنزول

فيما يلي أمثلة لقصص المفسرين الذي اختلقوه لترسيخ تقديس ليلة القدر:

- قال مجاهد إن النبي ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر قال: فعجب المسلمون من ذلك قال: فأنزل الله عز وجل (إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۞ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ) التي لبس ذلك الرجل

السلاح في سبيل الله ألف شهر. رواه ابن كثير في تفسيره

- ونفس مجاهد قال: كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح ثم يجاهد العدو بالنهار حتى يمسي، ففعل ذلك ألف شهر، فأنزل الله هذه الآية (لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ) قيام تلك الليلة خير من عمل ذلك الرجل.
- علي بن عروة اختلق قصة أخرى قائلاً: ذكر رسول الله يوماً أربعة من بني إسرائيل عبدوا الله ثمانين عاماً، لم يعصوه طرفة عين فذكر أيوب وزكريا وحزقيل بن العجوز ويوشع بن نون، قال: فعجب أصحاب رسول الله من ذلك فأتاه جبريل فقال: يامحمد عجبت أمتك من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنة لم يعصوه طرفة عين، فقد أنزل الله خيراً من ذلك فقرأ عليه (إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ * لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ) هذا أفضل مما عجبت أنت وأمتك، قال: فسر بذلك رسول الله والناس معه.

ملاحظات سريعة

كعادة المفسرين يختلقون القصص ويجعلونها سبباً لنزول الآية. ومجاهد اختلق القصة الأولى ثم اختلق قصة أخرى مختلفة. ويبدو أنه اختلق القصة الأخرى في مجلس آخر وبعد مضي وقت طويل على اختلاق القصة الأولى التي نسيها.

معنى القدر عند المفسرين

مجاهد: ليلة القدر تعني ليلة الحكم في الأرزاق والآجال وغيرها.

وهو نفس الكلام المنسوب لسعيد بن جُبير الذي يقول: يؤذن للحجاج في ليلة القدر، فيُكتبون بأسمائهم وأسماء آبائهم، فلا يغادر منهم أحد، ولا يُزاد فيهم، ولا ينقص منهم.

ملاحظات سريعة

الآجال والأرزاق أودعها الله للجميع في أرضه ولم يقرر مسبقاً أن فلاناً سيكون غنيا وسيعيش مئة سنة وفلاناً سيعيش فقيراً ويموت في العشرين .كما أن اختيار الحق أو الضلال خيار شخصي حر، والله جل وعلا لا يقرر على العبد أنه شقي ويعذبه.

متى تقرر أنها في رمضان

ونقل الطبري في تفسيره أن ربيعة ابن كلثوم قال: قال رجل للحسن وأنا أسمع: رأيت ليلة القدر في كلّ رمضان هي؟ قال: نعم، والله الذي لا إله إلا هو إنها لفى كلّ رمضان، وإنها لليلة القدر، فيها يُفرق كلّ أمر حكيم، فيها يقضي الله كلّ أجل وعمل ورزق، إلى مثلها .

وعن سعيد بن جُبَير، عن ابن عمر. قال: ليلة القدر في كلّ رمضان .

ملاحظات سريعة

مثل هذه الأقوال تظهر بكل وضوح أن الجدل حول متى هي ليلة القدر وفي أي شهر كان يحدث بعد عصر الرسول وعندما بلغ الحسن مبلغ الرجال وهو الذي مات الرسول وهو في الرابعة أو الخامسة من عمره.

وهو ما ينطبق على حوار ابن جبير مع ابن عمر.

من الذي قرر أن عملها أفضل

فيما يلي بعض ما أورده الطبري في تفسيره:

- عن سفيان، قال: بلغني عن مجاهد قوله: لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ قال: عملها وصيامها وقيامها خير من ألف شهر.
- وعن عمرو بن قيس الملائي، قوله: خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ قال: عملٌ فيها خير من عمل ألف شهر .
- وقال سفيان الثوري: بلغني عن مجاهد ليلة القدر خير من ألف شهر قال: عملها وصيامها وقيامها خير من ألف شهر، رواه ابن جرير.
- وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا ابن أبي زائدة عن ابن جريج عن مجاهد: ليلة القدر خير من ألف شهر ليس في تلك الشهور ليلة القدر.
- وهكذا قال قتادة بن دعامة والشافعي وغير واحد وقال عمرو بن قيس الملائي: عمل فيها خير من عمل ألف شهر.

ملاحظات سريعة

مجاهد وعمرو ابن قيس الملائي وغيرهم هم من قرروا أن عملها وصيامها خير من ألف شهر، ولو كان الرسول هو من قال بذلك فلن يكون هناك حاجة لمجاهد والملائي وكثيرين غيرهم ليقرروا.

كيف يقنع المفسرون الناس بكلامهم أن عمل ليلة القدر خير من ألف شهر؟

باختلاق قصة!

- عن مجاهد قال: كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح، ثم يجاهد العدوّ بالنهار حتى يُمْسي، ففعل ذلك ألف شهر، فأنزل الله هذه الآية: لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ قيام تلك الليلة خير من عمر ذلك الرجل.

طبعا اختلاق القصص حسب المذهب والميول والهدف منها وهذا ظاهر في القصة التالية:

- عيسى بن مازن، قال: قلت للحسن بن عليّ رضي الله عنه: يا مسوّد وجوه المؤمنين، عمدت إلى هذا الرجل، فبايعت له، يعني معاوية بن أبي سفيان فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أُرِي في منامه بني أميّة يَعْلُون منبره خليفة خليفة، فشقّ ذلك عليه، فأنزل الله: إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ و إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ يعني مُلْكَ بني أمية قال القاسم: فحسبنا مُلْكَ بني أمية، فإذا هو ألف شهر.

ملاحظات سريعة

بطبيعة الحال لم تنزل سورة القدر بسبب القصة التي اختلقها مجاهد، ولا القصة التي اختلقها عيسى ابن مازن والتي تهدف لتبرير بيع الحسن ابن علي مبادئه لمعاوية بالمال مقابل ولائه له.

والأمر لم يقف عند اختلاق قصة لتكون سبباً للنزول، بل يصل بهم لتحريف القرآن من أجل ترسيخ أقوالهم.

وهذا ابن عباس حرف القرآن لكي يتفق مع ما يريد قوله، فقد روى الطبري وابن كثير وغيرهم من المفسرين عن ابن عباس: أنه كان يقرأ: «مِنْ كُلِّ امْرِئٍ سَلَامٌ».

ملاحظات سريعة

ابن عباس لا يتوانى عن تحريف القرآن لكي يقول إن معنى « تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ " هو: أن كل واحد منهم لا يلْقَى مؤمنا ولا مؤمنة إلا سلّم عليه.

وبدل أن يُسأل ابن عباس ويحاكم على تحريف القرآن، رُسِّخ كلامه وأصبح هو ما نفهم من خلاله كلام الله ولو أنه حرف كلام الله لأنه يرى أن عبارة القرآن خاطئة.

زيادة في اقناع الناس نسبت أقوال المفسرين للرسول على شكل أحاديث

فالأحاديث المنسوبة للرسول عن فضل ليلة القدر وعملها ظهرت لكي تكون أكثر إقناعاً للناس من كلام مجاهد وسفيان وغيرهم. وقد يكون كلام مجاهد وغيره نسب للرسول فيما بعد وتنوعت عباراته فأصبح وكأنه أحاديث مختلفة عن الرسول.

ومن ذلك:

روى أحمد بن حنبل: عن أبي هريرة قال: لما حضر رمضان قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «قد جاءكم شهر رمضان شهر مبارك افترض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة وتغلق فيه أبواب الجحيم وتغل فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر من حرم خيرها فقد حرم».

ويقول أحمد: عن مرثد قال: سألت أبا ذر قلت: كيف سألت رسول الله صلى الله عليه وسلّم عن ليلة القدر ؟ قال: أنا كنت أسأل الناس عنها قلت: يا رسول الله، أخبرني عن ليلة القدر أفي رمضان هي أو في غيره ؟ قال: «بل هي في رمضان» قلت: تكون مع الأنبياء ما كانوا فإذا قبضوا رفعت أم هي إلى يوم القيامة ؟ قال: «بل هي إلى يوم القيامة» قلت: في أي رمضان هي ؟ قال: «التمسوها في العشر الأول والعشر الأواخر» ثم حدث رسول الله صلى الله عليه وسلّم وحدث ثم اهتبلت غفلته قلت: في أي العشرين هي ؟ قال: «ابتغوها في العشر الأواخر، لا تسألني عن شيء بعدها». ثم حدث رسول الله ثم اهتبلت غفلته فقلت: يا رسول الله أقسمت عليك بحقي عليك لما أخبرتني في أي العشر هي؟ فغضب عليّ غضباً لم يغضب مثله منذ صحبته وقال: «التمسوها في السبع الأواخر، لا تسألني عن شيئاً بعدها» ورواه النسائي

- وحديث عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: من قام ليلة القدر إيماناً

واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه.

- وعن أبي بكرة أن رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلّم قال: «في تسع يبقين أوسبع يبقين أو خمس يبقين أو ثلاث يبقين أو آخر ليلة» يعني التمسوا ليلة القدر وقال الترمذي: حسن صحيح

وغيرها...

ملاحظات سريعة

حديث أبي ذر يظهر الرسول شخصاً عصبياً جدا وبشكل لا يحتمل. فهل كان الهدف من الحديث هو إظهار فضل ليلة القدر أو إظهار أن الرسول شخص سيء الخلق؟ فالسم يدس في الدسم.

وحديث أحمد الأول يقول إن الجنة تفتح أبوابها وتغلق أبواب النار.

فإن كان ورد على المجاز فإن الناس تقترف الذنوب في رمضان بنفس النسبة خارجه. وحتى لو امتنع شخص عن المعاصي في رمضان وعاد لها فيها بعد فقد قضى على حسناته السابقة. وإن كان الكلام على ظاهره وكأن الجنة والنار موجودتان الآن فهذا يكذبه كلام الله الذي يؤكد أنها لن تخلقا إلا يوم القيامة.

والحيث يظهر أنه حتى تلك اللحظة لم يكن أبو ذر يعرف متى ليلة القدر مع أن سورة القدر نزلت قبل الهجرة بعشر سنين لو افترضنا أن دعوة الرسول في مكة استمرت (١٣) سنة.

وحديث أبي هريرة عن غفران الذنوب مثله أحاديث كثيرة قيلت في الحج والعمرة وصلا الجمعة وغيرها.

وأبو بكرة لم يسلم إلا بعد حنين ومع ذلك سمع الرسول يخبر الناس عن موعد ليلة القدر. وهذا يعني أن المسلمين لم يعلموا موعدها إلا في آخر حياة الرسول لأن كتب التراث تقول إن حنيناً وقعت قبل وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام بسنتين.

فإن كانت سورة القدر نزلت قبل الهجرة بعشر سنين ويضاف لها ثماني سنوات مضت قبل إسلام أبي بكرة فإن المسلمين بقوا ١٨ سنة لم يعلموا بفضلها وضاع عليهم قيامها.

ابن عباس يعرف عن ليلة القدر أكثر من أي أحد وحتى من الرسول

تعالوا نقرأ:

وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الدبري أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن قتادة وعاصم أنهما سمعا عكرمة يقول: قال ابن عباس دعا عمر بن الخطاب أصحاب محمد صلى الله عليه وسلّم فسألهم عن ليلة القدر، فأجمعوا أنها في العشر الأواخر، قال ابن عباس فقلت لعمر إني لأعلم أو إني لأظن أي ليلة القدر هي فقال عمر: وأي ليلة هي؟ فقلت سابعة تمضي أو سابعة تبقى من العشر الأواخر فقال عمر: من أين علمت ذلك؟ قال ابن عباس فقلت خلق الله سبع سماوات وسبع أرضين وسبعة أيام، وإن الشهر يدور على سبع وخلق الإنسان من سبع، ويأكل من سبع ويسجد على سبع، والطواف بالبيت سبع ورمي الجمار سبع لأشياء ذكرها، فقال عمر لقد فطنت لأمر ما فطنا لـه .

ملاحظات سريعة

عمر ابن الخطاب أسلم قبل نزول ليلة القدر في مكة وصاحب الرسول طوال حياته بعد ذلك، واستلم الخلافة بعد وفاة الرسول بسنتين ونصف، وطوال هذه المدة لم يكن يدري شيئاً عن ليلة القدر. لدرجة أنه جمع الصحابة ليسألهم عنها.

ومن بقي من الصحابة في عصر عمر لا يرقون لمنزلته في الصحبة ولا التقوى فكيف يسألهم؟

والحديث يظهر أن ما يفعل في ليلة القدر كان غير معروف يقيناً حتى خلافة عمر على الأقل - هذا لو افترضنا أن هذه القصة صحيحة - وإن كانت غير معروفة في عصر الرسول فهي كغيرها من العبادات التي ألحقت بالدين وليست منه، في عصور لاحقة، وبالتالي فهي بدعة.

الجهاد

يعني بذل أقصى جهد ممكن، معنوي كان أو جسدي. ويأتي في القرآن على معان، منها:

بذل أقصى الجهد الممكن لإقناع المقابل أو الرد عليه

وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(١٥) لقمان.

جاهد هنا تعني بذل كل ما يمكن من جهد في الإقناع.

ومثله: فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا(٥٢) الفرقان.

حاول الرد عليهم به (بالقرآن).

ومثله: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(٩) التحريم.

لا تجاملهم وتحدث معهم بكل قسوة وغلظة.

الجهاد في الله

وهو بذل أقصى جهد ممكن للصبر على الأذى والتعذيب في سبيل التمسك بدين الله.

وهذا المعنى للجهاد تذكره بعض السور المكية دون المدنية، ومن ذلك: مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٥) وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ(٦) العنكبوت.

وتقول نفس السورة: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ(٦٩).

وسورة العنكبوت تتحدث عما واجهه المسلمون المستضعفون من تعذيب لإجبارهم على ترك الإسلام، وتحثهم على أن يصبروا (يجاهدوا في الله).

ومثله: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا

لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٠) النحل.

وهو ما ورد في سورة الحج: وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ(٧٨).

بذل أقصى جهد مستطاع للدفاع عن الإسلام ودولة المسلمين

سواء في قتال المعتدين أو في الإنفاق على تجهيز الجيش. وهذا النوع لا يرد في السور المكية أبداً، ويرد على الدوام في السور المدنية فقط. وهو أكثر الأنواع التي تحدث عنها القرآن.

والقتال فُرِضَ على المسلمين ولم يختاروه، وكان موجهاً ضد قريش فقط. وهذه النقطة هامة جداً ولا يفطن لها البعض، ويتغافل عنها البعض الآخر عمداً. فقد بدأت قريش عداءها للمسلمين في مكة قبل الهجرة عندما حاولت أن توقف الدعوة بأي وسيلة ولم تقبل التعايش السلمي مع المسلمين، كما عرض القرآن: لكم دينكم ولي دين. ومن ثم تحولت لتعذيب المستضعفين بكل أنواع التعذيب الوحشي بما في ذلك الحرق بالنار. ولو تمكنت من الإمساك بالرسول خارج مكة لقتلته، وهو ما جعل الرسول يتسلل مع صاحبه أبي بكر هاربين من مكة دون علم قريش عندما هاجرا ليثرب.

وبعد أن ترك الرسول والمسلمون مكة لم تتوقف قريش. بل أعلنت النفير العام لكي تلحق بهم في منفاهم وتسحقهم. وهو ما يدحض كلام كتب التراث التي تقول إن المسلمين هم من بدأ مطاردة قريش وقوافلهم التاريخية وأن قريشاً (التي صوروها بمظهر البريء المسكين) اضطرت لحرب المسلمين للدفاع عن أموالها.

ومنطقياً لا يمكن أن يبدأ المسلمون التحرش بقريش بعد أشهر قليلة من هربهم من مكة، لأنه لو كان لديهم القدرة على مواجهة قريش لواجهوها في مكة، ولكنهم كانوا ضعافاً قلة. وحتى بعد الهجرة وانضمامهم لإخوان لهم من الأوس والخزرج، فجمعهم وقوتهم لا تتساوى مع جمع قريش وقوتهم. بينما قريش كان لديها هدف القضاء على الإسلام والمسلمين منذ أن كانوا في مكة، ولما هربوا ليثرب عقدت العزم على مطاردتهم هناك. وهذا ما أوجب

الجهاد على المسلمين للذود عن أرواحهم ودينهم.

وبما أن المسلمين مستجيرون في يثرب، فقد كان على قريش أن تحصل على موافقة من أهل يثرب (بني إسرائيل، اليهود، النصارى، الوثنيين) كون غالبية الأوس والخزرج دخلوا الإسلام وصارت قريش تنظر لهم كمطاردين كما المهاجرين. وتأخرها لبضعة أشهر عن الخروج لابد أنه عائد لاتصالاتها ببني إسرائيل وبقية أهل الكتاب في يثرب في محاولة لإقناعهم أن يسمحوا لها بالقدوم ليثرب لحرب المسلمين. لأنه لو دخلت قريش ليثرب وهي مسلحة دون إذن من أهلها (أهل الكتاب) لاعتبر تعدياً وعدواناً ولوجب على أهل الكتاب الاشتراك مع المسلمين لحرب قريش وصد عدوانهم.

ويبدو أن أهل الكتاب قد توصلوا لإقناع قريش والمسلمين على أن تكون الحرب بعيداً عن يثرب، فوقعت المعركة بالقرب من آبار بدر. وهذا استغرق وقتاً، وهو ما يفسر تأخر خروج جيش قريش، فمعركة بدر تحدثت عنها سورة الأنفال التي نزلت بعد مرور حوالي العام على هجرة الرسول. نزل خلالها عدة سور كلها تتحدث عن القتال القادم وتحث المسلمين على الاستعداد بالنفس والمال.

وسنتتبع ما قالته السور المدنية حسب نزولها عن الجهاد في سبيل الله، بدءً من سورة البقرة التي تضع احتمالات لما قد يحدث في الصراع الذي سيطول مع قريش بحكم أن قريشاً مستمرة في عداء المسلمين وملاحقتهم وقتالهم لأنها تهدف للقضاء عليهم.

من يقتل في سبيل الله حي عند الله

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ(١٥٣) وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ(١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ(١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ(١٥٦) أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ(١٥٧).

مع أن القتال لم يحدث بعد، فقد بدأت سورة البقرة بالحديث عمن سيقتل في سبيل الله، قبل أن تتحدث عن الاستعداد للقتال. وهذا أسلوب متبع في القرآن رأينا آيات مشابهة في سور

سابقة، حيث تبدأ الآيات بالحديث عن موضوع جديد وكأنه سبق الحديث عنه، مع أن الحديث عنه سيأتي بعد ذلك[1].

والآيات تهيئ المسلمين لما قد يواجهون عندما يبدأ القتال مع قريش التي يبدو أنها مصرة على ملاحقة المسلمين، وتنامت الأخبار عن حشودها ضدهم وقدومها لحربهم.

وقوله: «أحياء عند ربهم» تعبير مجازي لتأكيد قبولهم عند الله، لأنه لا حياة بعد الموت إلا يوم القيامة، سواء من مات مقتولاً في سبيل الله أو في حادث سيارة أو على فراشه. والميت سيشعر أن القيامة قامت بعد لحظات من موته، لأن ذاكرته تتوقف عن التسجيل فيمر الزمن مهما طال وكأنه ثواني. لذا فمن يقتل في سبيل الله وهو مؤمن ويعمل صالحاً فسيجد نفسه وكأنه انتقل من الدنيا للقيامة حيث سيدخل الجنة وسيرزق فيها من الثمرات.

وأصبح من المعتاد والمتعارف عليه إطلاق الجهاد على القتال في سبيل الله. لكن المعنى انحرف كما انحرفت الكثير من معتقدات المسلمين. فصار يطلق الجهاد على حروب دولة قريش (الأمويين والعباسيين) التوسعية، وعلى كل الحروب التي قادتها دول المسلمين. واليوم أصبح لفظ «جهاد» لفظاً عالمياً في غالب اللغات، لكنه للأسف يستخدم بمعنى سيء جداً. حيث تنسب له كل ما يقوم به بعض من ينتسب للإسلام من قتل بغير حق. واستخدم الغرب اللفظ إعلامياً للنيل من الإسلام بوصفه ديناً دموياً.

أول ذكر للقتال في سبيل الله

وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ(١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ(١٩١) فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ(١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(١٩٤) البقرة.

---

1 وقد تكون قريش قد قتلت بعض من حاول الهجرة، وبما أن القتال في سبيل الله لم يفرض بعد فقد تساءل المسلمون عن مصير من قتل. وهو احتمال أورده «أبو حزم».

لأول مرة يأتي الأمر بالقتال في سبيل الله، ويمكن ملاحظة أن آيات الجهاد في سورة البقرة والنساء والمائدة ومحمد والصف والأنفال والحديد والتغابن وآل عمران كلها موجهة لقتال قريش فقط، ولا أحد غيرهم. لأن قريشاً هي التي اعتدت على المسلمين طوال هذه الفترة. ولم يكن هناك سرايا وغزوات للرسول على الناس كما تقول كتب التراث.

والآيات تبين بعض الضوابط التي يجب على المسلمين مراعاتها والأخذ بها في القتال، لكي يعتبر قتالاً في سبيل الله، كما يلي:

القاعدة الأولى للقتال في سبيل الله: عدم الاعتداء.

"وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ". فالقتال في سبيل الله يشترط له عدم الاعتداء لأي سبب كان، لأن الله لا يحب المعتدين. وأي شيء لا يحبه الله فهو كبيرة. وكل قتال بغير هذا الشرط فليس قتالاً في سبيل الله، ولكنه صراعات دنيوية.

- القتال في سبيل الله يعني صد العدوان وعدم مبادرة الغير بالقتال لأي سبب.

القاعدة الثانية للقتال في سبيل الله: القسوة في قتال المعتدي والتعدي عليه بمثل ما اعتدى.

" وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ". فعندما يعتدي أحدٌ على المسلمين ابتداءً، فيجب قتاله بكل قسوة، وملاحقته في كل مكان والتضييق عليه، والتعدي عليه كما اعتدى على المسلمين. فقريش تعدت على المسلمين في مكة واضطرتهم للخروج منها، واستمرت تعاديهم وتلاحقهم وتحشد الجيوش لقتالهم وهم بعيدون عنها. فجاءت الآيات هنا تقول للمسلمين أن يحشدوا لهم ويقاتلوهم بكل قسوة، ولو أمكن فيجب إخراجهم من مكة كما أخرجوكم أول مرة.

- المسلمون يجب أن يكونوا أشداء قساة في حربهم ضد المعتدي، ويعتدوا عليه بمثل ما اعتدى.

القاعدة الثالثة: حماية المسلم من أن يفتن في دينه من أهم دواعي القتال في سبيل الله.

«وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ». فقريش فتنت بعض المستضعفين في دينهم بإجبارهم – تحت

التعذيب – على الردة: إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ(١٠) البروج.

وقريش هي من بدأ حشد الحشود لقتال المسلمين بعد هجرتهم ليثرب وترك مكة، وغايتها القضاء عليهم وفتنتهم في دينهم. وفي كل زمان ومكان يتعرض مسلم أو جماعة من المسلمين للفتنة في دينه فيجب على كل مسلم قادر القتال في سبيل الله لحمايته من الفتنة.

القاعدة الرابعة: لا تستحل حرمة البيت إلا إذا رفعت قريش السلاح ضد المسلمين في الحرم.

«وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ». في حال طالت الحرب مع قريش ووصل المسلمون لمكة، فلا يجوز لهم القتال عند المسجد الحرام (منطقة الحرم). لكن لو أن قريشاً هاجمتهم في الحرم فلهم حق قتالها بل والقضاء عليها إن أمكن.

القاعدة الخامسة: في أي وقت تنتهي قريش عن قتال المسلمين فعلى المسلمين وقف الحرب.

«فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ». القاعدة الأولى للقتال في سبيل الله عدم الاعتداء وبدء قريش أو غيرها بالحرب برغم أنها عذبت المسلمين واضطهدتهم واضطرتهم للهرب إلى يثرب. ومع ذلك فمتى ما أعلنت قريش وقف حربها على المسلمين وتأكد المسلمون من صدقها فعليهم وقف الحرب حالاً.

القاعدة السادسة: حرب قريش لمنعها من فتنة المسلمين في دينهم.

«وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ».

فقريش تلاحق المسلمين وتحاربهم لتفتنهم في دينهم، كما فعلت بهم في مكة. فوجب قتالهم والقضاء عليهم – إن أمكن – لئلا يتمكنوا من المسلمين ويفتنوهم في دينهم.

القاعدة السابعة: متى انتهت قريش فيجب وقف الحرب.

«فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ».

هذه القاعدة تأكيد للقاعدة الأولى والقاعدة الخامسة، وتأكيد على أن قتال المسلمين لقريش لدفع أذاهم ولحماية المسلمين الذين تسعى قريش للقضاء عليهم وعلى دينهم. ومتى ما رغبوا في وقف العدوان فيجب على المسلمين التوقف.

القاعدة الثامنة: الحرمات قصاص

«الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ».

القتال في سبيل الله قصاص. يقاتل من يبدأنا بالقتال، لا نبدأ أحداً بالقتال. من حاربنا في الأشهر الحرم نحاربه فيها. لو نقضت قريش معاهدات أو أعرافاً فعلى المسلمين خرقها. ومن اعتدى علينا اعتدينا عليه. ونتقي الله ونخافه فلا نخالف أوامره ولا نخالف قواعد القتال المبينة في القرآن.

الخلاصة: القتال في سبيل الله ليس للتعدي ولكن لدفع العدوان وحماية الدين: «وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ»، «فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»، «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ»، «فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ»، وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ».

المسلمون لم يرحبوا بالقتال

وهو ما تشير له آيات أخرى في سورة البقرة: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٢١٦).

القاعدة التاسعة: لو قاتلت قريش المسلمين في الشهر الحرام

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢١٧).

قريش مصممة على ملاحقة المسلمين وحربهم حتى تردهم عن دينهم لو استطاعت.

القاعدة العاشرة: تحريم الزواج من العدو المحارب

وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَـئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٢١).

والتحريم موجه لمشركي قريش لأنهم محاربون للمسلمين، وليس لكفرهم. وهو ما ينطبق على أي حالة مماثلة.

وإذا كان هناك تزاوج مختلط مع غير المسلمين وحدث بينهم عداء فيجب التفريق بين الأزواج وإعادة المهر للزوج سواء كان المسلم أو الكافر، كما أخبرتنا الآيات: (١٠-١١) من سورة الممتحنة.

القاعدة الحادية عشر: الإنفاق لتجهيز الجيش والإعداد للحرب

هناك الكثير من الآيات التي تدعو المسلمين للإنفاق لتجهيز الجيش، وسنكتفي بآية واحدة تقول: وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(١٩٥) البقرة.

الإنفاق هو علاقة بين العبد والعبد، مثلما أن العبادات علاقة بين العبد وربه. والإنفاق مطلوب في كل وقت يكون هناك حاجة في دولة الإسلام. والآية هنا تأمر المسلمين بالإنفاق في سبيل الله. أي في تجهيز جيش المسلمين لما ينتظره من حروب مع قريش. مما يحتم على المسلمين أن يكونوا مستعدين لها بالعتاد والسلاح والرجال، وهذا يحتاج للمال الذي يجب أن يغطيه الإنفاق من القادرين. والآية تحذر من لا ينفق وهو قادر، واصفة إياه بمن ألقى بنفسه للتهلكة لأن مصيره سيكون النار، ولو قام بكل أمور الدين الأخرى. فالدين لا يتجزأ وترك أمر مثل ترك كل الأوامر.

القاعدة الثانية عشر: عدم التعرض للمسالمين وقت الحروب

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَمَ لَسْتَ

مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً(٩٤) النساء.

هذه القاعدة ذكرت في القرآن قبل معركة بدر وقبل أن يدخل المسلمون في قتال مع العدو، فهي من القواعد الاستباقية.

وتقول بتحريم التعرض للمسالمين الذين لم يرفعوا السلاح على المسلمين ولو كانوا من أقارب المقاتلين. لأن الإسلام حربٌ على المحارب وسلم على المسالم. ولأن الإسلام لا يعاقب إنساناً بجريرة غيره، ولا تزر وازرة وزر أخرى.

وهذا فيه تأكيد بعدم التعرض للنساء والأطفال والشيوخ وكل من لم يقاتل من عائلات المقاتلين وغيرهم. وهو ما ينفي نفياً قاطعاً أن يكون هناك سبي أو استرقاق في حروب دولة المسلمين زمن الرسول والخلفاء الأخيار بعده أبو بكر وعمر. وأن السبي أصبح سمة حروب المسلمين بعدما استولت قريش على حكم دولة المسلمين زمن بني أمية والعباس.

القاعدة الثالثة عشر: في حال الحرب يجب على كل مسلم النصرة في أي مكان كان

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً(٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً(٩٨) فَأُوْلَـئِكَ عَسَى اللهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوّاً غَفُوراً(٩٩) وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً(١٠٠) النساء.

الآيات تتحدث عن بعض المسلمين الذين بقوا في مكة ولم يهاجروا، وتحثهم على الهجرة لأن المسلمين مقبلون على حرب ويحتاجون لكل فرد مسلم للمشاركة لصد العدوان.

ويستفاد من هذا أنه في حال الحرب فيجب على كل مسلم يعيش في بلاد العدو أو في بلاد أخرى المشاركة في الحرب مع المسلمين، ولا يعذر المتخلف.

وفي هذا العصر يمكن المشاركة بطرق شتى منها المشاركة اللوجستية والتقنية والتسليح بالإضافة للمشاركة الفعلية في القتال.

القاعدة الرابعة عشر: لا يجوز التعدي والظلم ولو على من ظلمنا وتعدى علينا

تقول سورة المائدة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢).

تحذير شديد للمسلمين من أن يحلوا ما له علاقة بحرمة بيت الله ولو كان لمعاقبة قريش التي اعتدت عليهم وبدأتهم بالعدوان. سواء بقطع الطريق على المتجهين للحج «آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً». أو الاستيلاء على الهدي، لمن هو في طريقه للحج. والهدي كان في زمن الرسول يسوقه الحاج من خارج مكة معه وهو قادم للحج.

وكون قريش منعتكم من المسجد الحرام واعتدت عليكم وظلمتكم، وكراهيتكم الشديدة لهم ليس مبرراً للتعدي.

وتعود السورة لتأكيد أن التعرض للظلم ليس مبرراً للظلم، ولو كان ظلم الظالم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(٨) وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ(٩) وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ(١٠).

فإن كان الهدي والقلائد ممنوعاً التعرض لها ولو كانت لقريش، فمن باب أولى تحريم التعرض لقوافل قريش التجارية وأموالها. وهو ما يدحض كل مزاعم كتب التراث أن المسلمين تربصوا بقافلة لقريش للاستيلاء عليها فتسبب ذلك بمعركة بدر.

القاعدة الخامسة عشر: متى يفضل قتل الأعداء على أسرهم والعكس

فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ(٤) محمد.

قريش كانت تتفوق على المسلمين (مهاجرين وأنصار) في العدد، وفي العتاد لأنها تملك

الأموال. والآية تقول إذا ما حدثت المعركة المرتقبة فيجب على المسلمين التركيز على قتل أكبر عدد منهم لإثخانهم (إضعافهم) حتى لا يحاربوا المسلمين مرة أخرى. ولا يلجأ المسلمون للأسر إلا إذا أنهك العدو وقلت أعداده. في هذه الحالة يفضل الأسر على القتل. وتعطي الآية سبب ذلك: « فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ». ولو من المسلمين على الأسرى وأطلقوا سراحهم فسيكون هذا دعاية إعلامية لحسن تعامل المسلمين يؤلف القلوب عليهم. وإن كان المسلمون في وضع اقتصادي حرج فيمكنهم أخذ فدية مقابل إطلاق الأسرى.

القاعدة السادسة عشر: على المسلمين نصرة أنفسهم لينصرهم الله

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ(٧) محمد.

الله جل وعلا لا يتدخل في أمور الدنيا بشكل مباشر، وقد خلق الكون وما فيه بموجب قوانين ثابتة لن تتغير. وعلى المسلمين الأخذ بكل أسباب النصر، ولو فعلوا فقد نصروا الله. ولو نصروا الله فسينصرهم الله في الحرب بسواعدهم وخططهم وتجهيزاتهم وتصنيع أسلحتهم. ولا يكون النصر بالدعاء وحده كما شاع بين الناس.

ويمكن الرجوع للآيات: (١٦-٣٨) من سورة محمد للتعرف على أحوال المسلمين ومواقفهم المتراخية من الحرب ضد قريش والتي تدل على عكس ما صورته كتب التراث من أنهم كانوا تواقين للحرب.

القاعدة السابعة عشر: النصر يكون بالإخلاص والاستبسال وليس بكثرة العدد

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ(٤) محمد.

البنيان المرصوص تعبير مجازي لوصف ما يجب أن يكون عليه حال الجيش المسلم، ليس فيه ثغرات ولا ضعف وكأنه قالب واحد. وهذا يتطلب أن يكون المسلمون مؤمنين بقضيتهم ومسلحين ومتدربين كما يجب ولديهم تصور واضح عن عدوهم. ولديهم الإخلاص والعزيمة الكاملة بعقيدتهم.

القاعدة الثامنة عشر: الاستمرار بدعوة العدو المحارب للتعايش السلمي ونبذ الحرب

بعد أول معركة للمسلمين ضد قريش والتي انتصر فيها المسلمون وكسروا شوكة قريش، تنزل سورة الأنفال لتقول: قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ

مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينِ(٣٨).

دعوة صريحة لنبذ الحرب وإنهاء العداء.

القاعدة التاسعة عشر: إذا لم يقبل العدو التعايش السلمي وأصر على العداء والحرب فعلى المسلمين قتالهم بقسوة لاستئصال مصدر الخطر.

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٣٩) الأنفال.

الآية: (٣٨) تعرض التعايش السلمي، وإنهاء الحرب والعداء ولكل فريق دينه ومعتقده.

الآية: (٣٩) إن لم يقبلوا بالسلم فيجب سحقهم لأن وجودهم المعادي سيشكل خطراً دائماً على الإسلام لأنهم سيسعون باستمرار على محاولة استئصاله. فليقض عليهم قبل أن يقضوا على الإسلام.

وفي أي وقت يعلنون أنهم مع السلم فيجب وقف الحرب عليهم وقبول التعايش السلمي معهم: «فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

القاعدة العشرون: خيانة معاهدة سلام مع المسلمين إعلانٌ للحرب عليهم

تقول سورة الأنفال عن قريش: الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ(٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ(٥٧).

فقريش – كما تظهر الآية – خانوا معاهدة مع المسلمين.

ومن يخون المعاهدة مع المسلمين فيجب قتالهم بكل قسوة لأنهم لن يستجيبوا للسلام والتعايش السلمي وسيبقون خطراً يهدد المسلمين.

القاعدة الحادية والعشرون: على المسلمين الاتصال بكل من يحدث نفسه بخيانة معاهداته مع المسلمين

وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ(٥٨) وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ(٥٩) الأنفال.

يجب على المسلمين التواصل مع من وقع معاهدة سلام من الأعداء لو بدر منهم ما يشير إلى

أنهم قد يخونون المعاهدة، لتحذيرهم من أن خيانة المعاهدة يعني إعلان الحرب. ولو أعلنت الحرب فستكون حرباً قاسية بلا هوادة.

القاعدة الثانية والعشرون: وجوب تجهيز الجيش المسلم بأحدث وأقوى الأسلحة وتصنيعها محلياً وأن يكون الجيش جاهزاً على الدوام

وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ(٦٠) الأنفال.

لإرهاب كل عدو تسول له نفسه إعلان الحرب على المسلمين. فجاهزية الجيش للدفاع وحرب المعتدي وليست للاعتداء.

القاعدة الثالثة والعشرون: يجب إظهار أن المسلمين على استعداد للتعايش السلمي على الدوام

وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ(٦١) الأنفال.

القاعدة الرابعة والعشرون: الحذر من العدو واليقظة الدائمة

وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ(٦٢) الأنفال.

فتوقيع معاهدات السلام مع العدو لا يعني التخلي عن التسليح والحذر. وليكن شعار المسلمين الدائم: جيش جاهز ودعوة سلام.

القاعدة الخامسة والعشرون: عندما يتعرض المسلمون لاعتداء فتفوق العدو لا يعني الاستسلام ولا يعفي من المواجهة

يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ(٦٤) يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ(٦٥) ٱلْآنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ(٦٦) الأنفال.

متى تعرضوا لهجوم أو أجبروا على دخول قتال في أي وقت فعليهم الإقدام، دون اعتبار لكثرة العدو أو تفوقه عتاداً. لأن هذه العوامل لا يجب اعتبارها مبرراً لطلب الصلح مع عدو مهاجم أو التراجع عن القتال.

القاعدة السادسة والعشرون: كل من يعيش من المسلمين في دولة معادية فليس له حقوق على دولة المسلمين، لكن متى استنصرهم وجبت نصرته

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٧٢) الأنفال.

الآية تتحدث عن بعض المسلمين الذين لم يهاجروا وبقوا في مكة، برغم أن أهلها أعداء محاربون للمسلمين.

ويفهم من الآية أنه لو استنصر أحد المسلمين الذين يعيشون في بلاد معادية دولة الإسلام لوجب نصره ولو أدى لقيام حرب مع تلك البلاد من أجل مسلم واحد.

القاعدة السابعة والعشرون: المسلم (من ذكر وأنثى) هو من يؤمن ويهاجر (من بلاد العدو المحارب) ويجاهد في سبيل الله بالمال والنفس وكل ما يستطيع

وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ(٧٤) الأنفال.

القاعدة الثامنة والعشرون: كل من يهاجر من بلاد العدو المحارب هرباً بدينه فعلى المسلمين إيواؤه ونصرته

وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٧٥) الأنفال.

القاعدة التاسعة والعشرون: المال مال الله وعلى الناس إنفاق ما يكفي منه لتجهيز الجيش

آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ(٧) الحديد.

القاعدة الثلاثون: الإنفاق بما يكفي لتسليح الجيش

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(١٠) الحديد.

وهذا يعني وجوب تسليح الجيش وتجهيزه على الدوام.

القاعدة الواحدة والثلاثون: الإنفاق قرض لله

مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ(١١) يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(١٢) الحديد.

القاعدة الثانية والثلاثون: الإنفاق على تسليح الجيش واجب مهما كانت الظروف الاقتصادية سيئة

اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(١٧) الحديد.

سورة الحديد تتحدث عن قحط أصاب المدينة وتسبب في امتناع كثير من الناس خشية إملاق، فجاءت الآيات لتقول لهم إن تقهقر الظروف الاقتصادية ليس سبباً كافياً للامتناع عن الإنفاق على الجيش.

القاعدة الثالثة والثلاثون: لا للاعتماد على الغير

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٢٨) لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(٢٩) الحديد.

كان أهل الكتاب يعرضون على المسلمين أن يقرضوهم المال مقابل فوائد ربوية لكي يجهزوا أنفسهم للقتال، فنزلت الآيات تقول لهم ان عليهم أن يتكافلوا فيما بينهم ولا يعتمدوا على غيرهم في بناء قواهم الاقتصادية وتسليح جيوشهم وبناهم التحتية.

القاعدة الرابعة والثلاثون: وجوب الصبر والاستعداد والتجهيز والتخطيط

وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ(١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ(١٤٧) فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(١٤٨) آل عمران.

الضعف والتخاذل وعدم الصبر عوامل تؤدي للهزيمة. وعكسها يؤدي للانتصار مع التخطيط والتجهيز والتصنيع وكل أسباب النصر الأخرى، ثم يأتي دور الدعاء لكي يكلل الله جهودنا بالنجاح ويلهمنا الصواب.

القاعدة الخامسة والثلاثون: لا يجوز الهروب من المعركة

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ(١٥٥) آل عمران.

هرب بعض المسلمين في أحد والآية تلومهم وتبين أن الله عفا عنهم، وفي نفس الوقت تحرم الهرب من أرض المعركة.

القاعدة السادسة والثلاثون: الصبر وعدم الخوف من القتال

الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ(١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(١٧٣) فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ(١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(١٧٥) آل عمران.

يتقبلون الهزيمة بالصبر ولم يرتعبوا من المعركة وسيواصلون الجهاد في سبيل الله.

القاعدة السابعة والثلاثون: كل من يحجم عن الإنفاق فهو في النار

وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(١٨٠) آل عمران.

القاعدة السابعة والثلاثون: المطاردة والحصار والتقتيل لكل من يخون المسلمين

فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥) براءة.

قريش خانت معاهدة الفتح مع المسلمين، فجاءت براءة تعطيهم مهلة للتراجع، ومن لا يتراجع فيلاحق ويحاصر ويقتل في أي مكان وجد.

القاعدة الثامنة والثلاثون: عدم التعرض لمن لم يخن المسلمين

إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٤) براءة.

هذه الآية تحذر من المساس بأي قرشي مشرك لم يخن المعاهدة. فالحرب لمن بدأ حرب المسلمين، وليس بسبب الكفر. فالكافر المسالم تضمن له دولة الإسلام العيش بسلام.

القاعدة التاسعة والثلاثون: المشرك المحارب للمسلمين لو استجار بالمسلمين يجار

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ(٦) براءة.

برغم أن قريشاً بدأت حرب المسلمين وخانت المعاهدات معهم تأتي هذه الآية لتقول إن المستجير منهم يجار ويسمعه المسلمون كلام الله، فإن أسلم فهو منهم. وإن بقي على كفره فلا يسلم لقومه خوفاً على سلامته، ولكن يتم توصيله لمكان آمن لا تستطيع قريش الوصول إليه.

القاعدة الأربعون: قتال المعتدي والخائن يجب أن يكون قاسياً

وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ(١٢) أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤُمِنِينَ(١٣) براءة.

فسحقه مطلب أمني للمسلمين لأن بقاءه خطر يهددهم على الدوام.

وهناك عقوبات خاصة في زمن رسول الله موجهة لأناس بعينهم، ومن ذلك:

- **فرض جزية على قبيلة من أهل الكتاب في يثرب مقابل كيدهم للمسلمين**

قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ(٢٩) براءة.

والآية تتحدث عن قبيلة من أهل الكتاب الذين تعاونوا مع الأحزاب الثانية في حنين، وتفرض عليهم جزية كتعويض للمسلمين على كيدهم وتعاونهم مع الأعداء. فالجزية خاصة بهم، لكن المفسرين أولوها لتشمل كل أهل الكتاب في كل مكان. وهذا ما يكذبه الواقع، فالمسلمون زمن الرسول لم يتعرضوا لأهل الكتاب في تيماء ووادي القرى واليمن وغيرها. وستخبرنا سورة الحشر أن هذه الرسالة وصلت للقبيلة المعنية، فبادروا بلقاء الرسول حال وصوله المدينة وعرضوا عليه الجلاء مقابل عدم التعرض لهم وعوضاً عن الجزية.

- **جهاد المنافقين في يثرب**

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْراً لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ(٧٤) براءة.

والآيات تفرض قانوناً للتعامل مع المنافقين في مجتمع دولة الإسلام ينص: على جهادهم بكل وسيلة، فإن تابوا وإلا يغلظ لهم التعامل حتى تختفي أصواتهم ونشاطاتهم. فلا مكان لهم في المجتمع المسلم. والمنافق هو كل من قام بعمل فيه حرب للإسلام أو إفساد للمجتمع

أو كان موالياً للكفار المعادين للإسلام، ولو صلى وقام بالعبادات وأظهر الإسلام.

- **قتال القبائل**

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(١٢٣) براءة.

والكفار هنا المقصود بهم الذين اعتدوا على المسلمين فعلياً بالاشتراك في حملة الأحزاب أو حنين أو أحد، وهم من القبائل المحيطة بالمدينة وبالقرب من مكة الذين بدأوا قتال المسلمين نصرة لقريش. والأمر بقتالهم يمثل بداية ما عرف في كتب التراث بغزوات الرسول، وهي تختلف من حيث الهدف والعدد عن حقيقة ما قام به الرسول. فالرسول وجه سراياه وجيوشه لقتال القبائل التي ثبت تورطها في مناصرة أعداء المسلمين والمشاركة معهم في القتال، سواء في الأحزاب الأولى أو الثانية. والهدف من قتالهم هو معاقبتهم على عدوانهم، وكسر شوكتهم وإضعافهم لئلا يعيدوا الكرة ويقاتلوا المسلمين مرة أخرى.

وقد استكانوا وأعلنوا الدخول تحت طاعة دولة المسلمين في أواخر أيام الرسول، وما إن توفي رسول الله حتى ثاروا على المسلمين وكادت ثورتهم تعصف بالإسلام وأهله، لولا حزم المسلمين وصد تعدياتهم وملاحقتهم والقضاء على شوكتهم بما عرف بحروب الردة.

الصلاة

معنى الصلاة في القرآن، يأتي على معنيين:

١. الصلاة المعروفة من قيام وركوع وسجود، وقد كانت فرضاً في الأديان السابقة ومن شواهد ذلك:

فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) آل عمران.

والآية تتحدث عن زكريا، وقد كان يؤدي الصلاة المعروفة.

ومن ذلك ما ورد في سورة الأنبياء أثناء الحديث عن إبراهيم، وتكمل قائلة: وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ(٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ(٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ

وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ(٧٣).

ومثله ما ورد في سورة يونس: وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ(٨٧).

٢. الصلاة بمعنى أسمى التحيات

إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا(٥٦) الأحزاب.

فالله وملائكته يصلون (يحيون ويسلمون على النبي)، والآية تأمر المسلمين في عصر الرسول أن يحيوا ويسلموا على النبي أيضاً.

وهذا المعنى للصلاة هو نفس المعنى في قولنا أثناء جلوس التشهد في الصلاة: «التحيات لله والصلوات الطيبات». فالمسلم يبدأ جلوس التشهد بإهداء أسمى أنواع التحية إلى الله جل وعلا.

وتقول سورة براءة ضمن حديثها عن فئة من المسلمين: وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١٠٣) براءة

والآية (١٠٣) توجه الرسول بأن يقبل صدقاتهم ويحييهم بتحيات جيدة على التزامهم بالقيام بواجب الصدقة، وتسعدهم.

ولا ترد الصلاة بمعنى الدعاء في القرآن أبداً، كما أنها لا ترد في القرآن بمعنى آخر غير الصلاة العادية والتحية السامية.

هل تأتي الصلاة في اللغة بمعنى الدعاء؟

المعاجم اللغوية تقول إن الصلاة قد تأتي بمعنى الدعاء، وقد أورد صاحب لسان العرب دليلاً على ذلك ببيت شعر ينسب للأعشى، وهو:

وصَهْباءَ طافَ يَهُودِيُّها **** وأَبرَزَها وعليها خَتَمْ

وقابَلَها الرِّيحُ في دَنِّها **** وصلى على دَنِّها وارْتَسَمْ

والشاعر يقول إن اليهودي قد صلى لخمره ألا تحمض وتفسد.

وهناك بعض الأحاديث المنسوبة للرسول تذكر فيها الصلاة بمعنى الدعاء أو هكذا تأولوها. والأحاديث لن نعتد بها، كما أن ورود الصلاة في المعاجم بمعنى الدعاء فيه لبس، سنوضحه فيما يلي:

فدولة المسلمين بعد الفتوح كان غالبية سكانها ذوي أصول مسيحية، والمسيحيون في كنائسهم، يقومون بتلاوة بعض النصوص، فيما يسمى بالقداس. وبما أن المسلمين يؤدون صلواتهم في المسجد، فقد قوبلت صلاة المسلمين بقداس المسيحيين. والتي تعني التوسل والتضرع والدعاء، وهو ما يقوم به المسيحيون في كنائسهم وهم جلوس على الكراسي. فجاء وصف قداس المسيحيين بالصلاة، مقابل صلاة المسلمين في المساجد. ومن هنا جاء القول بأن الصلاة من معانيها الابتهال والتضرع والدعاء. وبما أن المعاجم اللغوية تأخر ظهورها كثيراً (القرن السادس الهجري)، فقد ظهر فيها هذا المعنى للصلاة.

وبناءً على ما تقدم، فعلى المسلمين وقف ترجمة الصلاة إلى "Prayer" التي تعني قداس المسيحيين، لأن الصلاة هيئة فريدة لتمجيد ذات الله، وليست أدعية وترانيم. وكتابة الصلاة في اللغات الأجنبية يجب أن تكون كما تنطق بالعربية Salat ثم وضع تعريف دقيق مختصر لها، بحيث تدخل القواميس الأجنبية كاسم علم بهذه الصيغة وتحمل معنى الصلاة عند المسلمين، البعيدة عن ابتهالات المسيحيين وترانيمهم. وفي المقابل يجب ألا نترجم ترانيم المسيحيين أو أي ترانيم أخرى لأي عبادة على أنها «صلاة»، بل نترجم إلى ترانيم أو شيء من هذا القبيل.

والخلاصة أن الصلاة تأتي في القرآن الكريم على معنيين اثنين لا ثالث لهما:

١. الصلاة المعروفة.
٢. أسمى التحيات.

وليس هناك معنى آخر للصلاة في القرآن.

هيئة الصلاة

الصلاة بهيئتها الحالية وما يقال فيها لا يمكن أن يكون رسول الله، أو أحد من البشر قد ابتدعها، لأنها تصل لدرجة الكمال في توافق كل وضع وهيئة مع ما يقال فيها. ومنذ

الدخول في الصلاة وحتى ختامها، فهي عبارة عن أقوال وأفعال مقصورة على تمجيد ذات الله وحده، فيما عدا ما يقال في جلوس التشهد، لأنه جلوس يمهد لختام الصلاة والخروج منها، وسنتطرق له لاحقاً.

الدخول في الصلاة

والدخول في الصلاة يتم عبر التلفظ بعبارة «الله أكبر» والتي تذكر الإنسان بأن الله أكبر - قدرة وعظمة وليس حجماً - من أي شيء يمكن للإنسان تصوره. والتلفظ «بالله أكبر» أيضاً يُكرر في كل مرة ينتقل فيها المصلي من وضع لآخر.

والله أكبر تترجم للغات الأجنبية وكأنها تعني «الله الأكبر» "Allah is the greatest" وهذه الترجمة لا تليق بذات الله جل وعلا لأننا لو قلنا إنه سبحانه الأعظم أو الأكبر فنحن نضع نسبة مقارنة بينه وبين غيره. فهو الأكبر لكن هناك من هو كبير وإن كان أقل من الله، والله جل وعلا ليس بينه وبين خلقه نسبة مهما صغرت.

وعلينا أن نغير هذه الترجمة لتعطي معنىً يقول: «الله أكبر من كل شيء، وهو أكبر من مقارنته بغيره". ولا أدري هل يمكن أن نقول هنا: "Allah is greater" لتعني أنه سبحانه أكبر من أي شيء وبدون مقارنة، وإلا يجب اختيار عبارة تعني أن الله أكبر من أي شيء مع ضمان انتفاء العبارة من نسبة مقارنة. وأفضل من ذلك هو أن تكتب العبارة باللغات الأجنبية بحروف أجنبية وبنفس نطق: «الله أكبر» كأن تكتب في الإنجليزية بهذه الصورة: "Allah-u-Akbar" ثم يشرح معناها باللغة الأجنبية. وهذا ما يجب أن يتم في كل المصطلحات الإسلامية في القرآن عند ترجمتها للغات الأجنبية، لأنها أسماء علم ويجب أن تكتب في كل اللغات كما تنطق ويوضع لها تعريف في القواميس الأجنبية.

الوقوف

بعد الدخول في الصلاة يتلو المصلي سورة الفاتحة، والتي لا مثيل لها في كل سور القرآن، فهي عبارة عن تمجيد لذات الله وتسبيح له مع طلب العون منه والهداية. لذا فالصلاة لا تقوم إلا بالفاتحة، وتقوم الصلاة لو اكتفينا بالفاتحة فقط.

وبما أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد صلى من أول يوم بعث فيه، ولم يكن نزل عليه سوى سورة الفاتحة، فإن بالإمكان القول إن الصلاة تقوم على تلاوة الفاتحة (التي تمثل

سورة تمجيد ذات الله، والذي يعتبر أساس الصلاة الذي تقوم عليه). وبما أن الصلاة تجوز بالفاتحة وحدها - وهو ما يقر به كل أتباع المذاهب المختلفة - فيمكن القول إن تلاوة آيات أو سور من القرآن غير الفاتحة في الصلاة دخل على الصلاة بعد الرسول. فالصلاة تقوم على الخشوع وتمجيد ذات الله جل وعلا، وليس على الإطالة والترانيم الصوتية في التلاوة. كما أن تلاوة القرآن ممكنة في أي وقت خارج الصلاة، ولا حاجة لأن يقرأ الإمام بسور وآيات لا علاقة لها بالصلاة، كقوله تعالى: «تبت يدا أبي لهب وتب، ما أغنى عنه ماله وما كسب، سيصلى ناراً ذات لهب، وامرأته حمالة الحطب، في جيدها حبل من مسد». ومن يرغب في التعبد بتلاوة القرآن فيمكنه ذلك في أي وقت خارج الصلاة.

ويمكن القول أيضاً إن على الإمام في الصلوات الجهرية أن يقرأ الفاتحة آية آية بهدوء وتؤدة مع فترة زمنية بين كل آية وأخرى تتيح للمأمومين تكرار ما يتلفظ به الإمام. لكي يتمكن الإمام والمأموم من تلاوة الفاتحة في وقتها.

والصلاة لا تتم بدون تلاوة الفاتحة، ولا عبرة بأقوال بعض أتباع الموروث التي يمارسها الناس اليوم. والتي تتيح للمأموم أن يقرأ الفاتحة أثناء تلاوة الإمام سورة أخرى، أو عدم قراءة الفاتحة في الركعات الجهرية. بأقوال مختلفة متخالفة كعادتهم. فمن يعتقد بوجوب قراءة الفاتحة للمأموم يجيز للمأموم قراءة الفاتحة أثناء تلاوة الإمام بعد الفاتحة. ومن يجيز للمأموم عدم قراءة الفاتحة في الركعات الجهرية فهو يعتبر قراءة الفاتحة له وللمأمومين.

وهذا فهم خاطئ، لأن كل مسلم مطالب بالصلاة كغيره، والإمام لا يمكن أن ينوب عن المأموم بقراءة أو بغيرها من أعمال الصلاة[1]. وكل ما يطلب من الإمام يطلب من المأموم. لذا فلكي نوفق بين تمكن الإمام من تلاوة الفاتحة مع تمكن المأموم كذلك، لابد أن يقرأ الإمام الفاتحة آية ثم ينتظر لبعض الوقت لكي يتمكن المأموم من أن يأتم بالإمام وتلاوة ما يتلو. فيقول الإمام: بسم الله الرحمن الرحيم، ويصمت لبعض الوقت ليتيح الفرصة للمأمومين لتلاوة البسملة. ثم يقول: الحمد لله رب العالمين، ويصمت لبعض الوقت لكي يتمكن المأمومين من تلاوتها بأنفسهم. ويكون الإمام قرأ الفاتحة المطلوبة في الصلاة وقرأها أيضاً المأموم.

---

١ والحديث المنسوب للرسول والذي يقول: إنما جعل الإمام ليؤتم به، حتى لو افترض أن الرسول قاله فهو لا يعني أكثر من أن يتبع المأموم الإمام، لكنه لا يلغي وجوب قراءة الفاتحة للمأموم.

ولابد أن الرسول فعل ذلك، وتعلم منه المصلون الجدد كيف يتلون الفاتحة. ولم يكن هناك ترتيل لآيات أو سور في الصلاة ولا تنميق للصوت ولا مقامات غنائية للتلاوة.

الركوع

بعد الوقوف يقول الإمام: «الله أكبر» وينحني في وضعية الركوع ويقول: سبحان ربي العظيم. وينحو المأمومون نحوه، ويقولون قوله. وانحناء المصلي في الركوع لإبداء الخضوع التام لله بينما يسبح عظمته، ويتفكر بتلك العظمة التي لا تضاهى. ويكفي أن يقول المصلي: «سبحان ربي العظيم» مرة واحدة، فالمهم أن يستحضر ما يقول، ويقوله بخشوع. أما ترديدها عدة مرات دون خشوع، فلن يفيد.

النهوض من الركوع

والانتقال من الركوع للقيام لا يقال فيها: «الله أكبر» ولكن يقال: سمع الله لمن حمده. وهذه العبارة ليست حكراً على الإمام، بل يجب على المأموم قولها، لأنها تقرر حقيقة أن كل من حمد الله فإن حمده يصل إليه سبحانه. المتبع الآن أن يكتفي المأموم بحمد الله، ولا يقول: سمع الله لمن حمده.

السجود

يضع المصلي رمز أنفته (الأنف والجبهة) على الأرض معترفاً بذلته ومسبحاً علو ربه، من التعالي والعظمة، وليس من العلو والارتفاع. ويقول الساجد: «سبحان ربي الأعلى»، مرة واحدة.

وهناك فاصل بين السجدتين ليس له أقوال، ولكنه وجد ليفصل بين السجدتين، ففي كل ركعة في الصلاة هناك سجودان.

جلوس التشهد أو جلوس التحيات

وهو يتبع كل ركعتين في الصلاة، وذلك لإنهاء أقوال وأفعال تلك الركعتين، ومن ثم الشروع بركعة أو ركعتين أخريين، أو يكون الجلوس لإنهاء الركعتين والصلاة كلها إن كانت الفجر.

وذلك الجلوس الذي تنتهي فيه أعمال الركعتين والصلاة اصطلح على تسميته جلوس التشهد أو جلوس التحيات، وهذا التعريف يدل على مضمون ما يقال فيه. فهو جلوس تشهد لأن الصلاة تنتهي بقول: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. وهو جلوس التحيات، لأن الصلاة تختم بإلقاء التحيات.

وفي هذا الجلوس يتلفظ المصلي بأقوال مناسبة لإنهاء الصلاة: حيث يبدأ بتحية الله جل وعلا، قائلاً: « التحيات لله والصلوات الطيبات لله »، والصلوات هنا – كما هو واضح – تعني أسمى أنواع التحيات. يلي ذلك تحية الرسول عليه الصلاة والسلام: «السلام على النبي ورحمة الله وبركاته ». ثم تحية المصلي وبقية المسلمين: « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ». بعد ذلك يأتي ختام المسك للصلاة، بأن يقر المصلي بالشهادة بألا إله إلا الله سبحانه: «أشهد ألا إله إلا الله»، يلي ذلك الإقرار والشهادة بأن محمداً – بالاسم – ما هو إلا عبد لله مكلف بالرسالة: «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله». حتى يتذكر الناس على الدوام بألا ينسب للرسول دور أكبر من كونه عبداً لله أولاً كلف بالرسالة وليس شريكاً له سبحانه في وحدانية أو ربوبية أو ألوهية، أو قريباً من ذلك. بعد ذلك لن يتبقى للمصلي سوى الالتفات يميناً وإلقاء السلام، إيذاناً بالخروج من الصلاة: السلام عليكم ورحمة الله، دون أن يكون هناك مجال لقول أكثر مما قيل، لأن الأقوال ختمت. وما زاد عن ذلك فليس من أقوال الصلاة، مثل قول« اللهم صل على محمد وآل محمد، وبارك على محمد وآل محمد» والتي تطفح بالتشيع الذي ابتدع بعد وفاة الرسول وظهور الفتن. ومثل قول: «اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»، ومثل أقوال وادعية كثيرة غيرها. وكلها ليست من الصلاة ولا مطلوبة فيها ولا تضيف للصلاة بل تنقص منها، لأن الصلاة لتمجيد الله وليست للدعاء أو تمجيد أناس من الناس.

وتكون الصلاة من أولها وحتى ختامها أقوالاً تتناسب مع الأوضاع التي تقال فيها، فلا يمكن أن يقال سبحان ربي الأعلى في الركوع، مثلاً، لأن سبحان ربي الأعلى تتناسب مع وضع السجود الذي يقر فيه المصلي بسمو الله وحقارته هو. وهكذا بقية الأقوال في الصلاة.

الركعة التامة

الصلاة تتكون من أربع ركعات أو ثلاث أو ركعتين، والركعة التامة هي التي يقرأ فيها

المصلي الفاتحة في الوقوف، ويكمل كل أعمال الصلاة وأقوالها كاملة. ومن أنقص عملاً كأحدى السجدات، أو أنقص قولاً كقول ربي العظيم في الركوع فهو لم يصل. ولا ينوب الإمام عن المأموم في أقوال الصلاة وأعمالها، مع تجاهل ما تقول كتب التراث، التي تقول إن المأموم لو لم يقرأ الفاتحة في الصلاة الجهرية فلا شيء عليه لأن قراءة الإمام كافية. وهذه الأقوال بلا دليل، وتخالف تمام الصلاة، وتخالف حقيقة أن كل مسلم مطالب بكل ما يطالب به غيره دون زيادة أو نقصان، ولا ينوب أحد عن أحد في الطاعات.

ومن دخل الصلاة والإمام في الركوع فقد فاتته الركعة لأنه لم يتمكن من الوقوف وتلاوة الفاتحة، التي هي جزء أساسي في الصلاة. وهو بخلاف ما يعمل به كثير من المسلمين اليوم، وبناءً على تشريعات كتب التراث، التي تقول إن من أدرك الركوع فقد أدرك الركعة.

فكيف يدرك الركعة وأهم ما فيها الفاتحة قد فاته؟

لذا على المصلي الدخول بهدوء وخشوع للمسجد فما أدركه من الصلاة مع الإمام فليصله وما فاته فليقضه. ومن دخل مع الإمام في الركوع أو حتى في القيام ولكنه لم يتمكن من تلاوة الفاتحة فقد فاته الركعة وعليه قضاؤها.

هل هذه هي هيئة الصلاة التي صلاها الرسول؟

لو كان للصلاة هيئة أخرى لوجدنا من يصلي تلك الهيئة المختلفة. والصلاة الحالية اتفق المسلمون جميعا بكل فرقهم ومذاهبهم على تأديتها بهيئتها، إذا ما استثنينا الشكليات. وهيئة الصلاة تعتبر الإجماع الوحيد الذي اجتمع المسلمون عليه، مما يدل على أنها هي نفس الهيئة التي كان الرسول يؤديها وأداها المسلمون في عصره. والمقصود بهيئة الصلاة الموحدة هي أن هناك وقوفاً (بغض النظر أين يضع المصلي يديه)، وركوعاً يلي الوقوف، ثم قياماً يلي الركوع، ثم سجوداً، ثم جلوساً ثم سجوداً ... وهكذا إلى أن نصل لجلوس التشهد وننهي الصلاة). وكل ما قيل عن وضع اليدين وتحريك الإصبع (السبابة) في جلوس التشهد، أو سجود الشيعة على حجر، فهو مما وجد في عصور لاحقة، والدليل اختلاف الأقوال فيها. مثله مثل الإضافات كالدعاء أثناء السجود أو قول: اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم...الخ، مع أن الرسول ليس له آل. وغير ذلك من أقوال تقال في الصلاة ليست منها.

وبما أنه لا وجود لصلاة بهيئة أخرى فيمكن الجزم أن هذه الهيئة هي صلاة الرسول عليه الصلاة والسلام.

وفي عصور الفتن والظلام (العصر العباسي) وجد من يقول إن الصلاة مجرد أدعية ولا حاجة لسجود وركوع، وما زالت هذه العقيدة موجودة عند بعض الفرق المنحرفة، ويرددها بعض مثقفي الانترنت الجدد.

ويمكن أن يقال لكل من يتساءل إن كانت هذه هي الصلاة التي صلاها الرسول أم لا، إن المُشكِك لا يستطيع أن يأتي بهيئة أخرى. مما يعني أنه لا خلاف في هيئة الصلاة، ولو كان هناك خلاف فسيكون هناك احتمال أن هيئتها الحالية ليست هي التي كانت زمن رسول الله.

فكل ما اختلف عليه المسلمون من المسائل الفقهية، كان لوجود آراء وأقوال متضاربة حول مسألة واحدة، إلا الصلاة فلا وجود لرأي مخالف. ولا عبرة لأقوال متناثرة لا تستحق الذكر.

ثم إن كل من يقول بصلاة مخالفة ليس لديه دليل سوى كلامه هو أو كلام شخص آخر. ومن الحمق ترك صلاة توارثها الناس عملياً لأقوال شخصية قد تتغير في آخر النهار.

وقد ذكرت عناصر الصلاة المعروفة متفرقة في القرآن (من قيام وركوع وسجود) بشكل عرضي، وتوارث الكافة ترتيب هذه العناصر عن الرسول وتوارثه منهم الكافة عبر العصور.

كيف وصلتنا الصلاة؟

أتباع الموروث الذين معرفتهم بموروثهم ليست عميقة، يسارعون بالقول لكل من ينفي علاقة «الحديث» بدين الله: لولا الحديث لما عرفنا أن نصلي.

ولو بحثوا في كتب الحديث، لن يجدوا حديثاً يقول لنا: أن نقوم ونقرأ الفاتحة، ثم نركع ونقول «سبحان ربي العظيم»، ثم نرفع ونقول «سمع الله لمن حمده»، ثم نسجد ونقول «سبحان ربي الأعلى»... الى آخر أعمال الصلاة.

ولن نجد حديثاً يقول: صلاة الفجر ركعتان والمغرب ثلاث والعشاء أربع ... الخ.

ومن أشهر الأحاديث التي يرددها أهل الحديث هو حديث مالك ابن الحويرث والذي

يقول فيه إن الرسول قال له: «صلوا كما رأيتموني أصلي».

والحديث عبارة عن خبر يرويه مالك ابن الحويرث عن ذهابه للمدينة برفقة وفد من قبيلته (في عام الوفود وهو العام الذي توفي فيه رسول الله) وبقوا هناك عشرين يوماً ولما عزموا الرجوع لأهلهم ودعهم الرسول وأوصاهم بتعليم أهلهم الدين والحرص على مواصلة تأدية الصلاة بهيئتها التي رأوا الرسول يصليها وصلوها معه طوال العشرين يوماً.

ولم يقل لهم قوموا واركعوا واجلسوا وسلموا بل قال: كما رأيتموني أصلي.

فتعلم الصلاة كان عملياً ولم يكن نظرياً.

وهذا الحديث يردده أتباع الحديث للرد على من يقول إن هيئة الصلاة لم ترد في الحديث وغفلوا – كعادتهم – أنه حجة عليهم لأنه برهان قاطع على أن الصلاة تعلمها الناس بدروس عملية وليس بحديث قولي. وكان الناس يصلون منذ بعث رسول الله عندما قدم مالك ابن الحويرث للقاء الرسول.

فالخبر تأكيد على أنها انتقلت بتواتر عملي من كل المسلمين جيلا بعد آخر. ولم نُصلِ لأن مالك ابن الحويرث أو غيره قال له الرسول في آخر حياته صلوا كما رأيتموني أصلي. أو لأن الترمذي أو النسائي بعد (٣٠٠) سنة من زمن الرسول روى لنا عن مجاهد أو شعبة أو ابن جريج أو الزهري أو كعب أو عبد الله ابن سلام أنهم رأوا الرسول يصلي الفجر ركعتين.

فالرسول صلى من اليوم الأول للبعثة، وكل من دخل الإسلام تعلم الصلاة من الرسول عملياً، واستمر الناس يتعلمون أداء الصلاة عملياً جيلاً بعد آخر، وكابراً عن كابر.

من علم الرسول الصلاة ومتى؟

لن نجد في القرآن آية تبين أن الرسول تعلم الصلاة، لكن كتاب الله يخبرنا أن الرسول قد رأى الملك المكلف بنقل الوحي، مرتين في حياته. وكلاهما في بداية البعثة، بل وفي الأيام الأولى التي بعث فيها محمد. وإذا كان الوحي لا يتلقاه الرسول مشافهة وتلقيناً[1]، ولكن نصوص الوحي تحفر في ذاكرة الرسول دون الحاجة لرؤية الملك أو الاجتماع بين الرسول والملك، فلنا أن نتساءل:

---

١ انظر فقرة: الوحي ينسخ في ذاكرة الرسول / قسم أدلة من القرآن.

لماذا رأى الرسول الملك مرتين في الأيام الأولى من البعثة، ولم يره بعدها أبداً؟

وما هي الحكمة من ذلك؟

وإذا كان الرسول قد رأى الملك للمرة الأولى – في الأفق – كبرهان على أنه أصبح رسولاً لله، وأن ما سيتلقاه وحي، من الله، وليس تهيؤات. فما المانع أن تكون رؤية الملك للمرة الثانية لتعليم الرسول الصلاة، وإلا فلا حاجة لرؤية الملك مرة ثانية وأخيرة.

يقول تعالى في سورة النجم: وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى(١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى(٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى(٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى(٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى(٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى(٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى(٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى(٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى(٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى(١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى(١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى(١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى(١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى(١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى(١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى(١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى(١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى(١٨).

والقراء يلاحظون أن رؤية الرسول للملك في المرة الثانية، كانت على الأرض، ولم يره في الفضاء، كما المرة الأولى: وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى(١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى(١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى(١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى(١٦).

لقد رآه الرسول يهبط في منطقة عشبية وبقرب شجرة سدر تقع على أطراف تلك المنطقة العشبية[1]. وبما أن القرآن لم يخبرنا لماذا رأى الرسول الملك في هذه المرة، فلا نرى ما يمنع من أن هبوط الملك على الأرض أمام الرسول في تلك البقعة المعشوشبة، كان لتعليمه كيف يصلي، وما يقول في صلاته؟

وسورة العلق تؤكد لنا ذلك بطريقة غير مباشرة أن الرسول عليه الصلاة والسلام بدأ يصلي عند الكعبة مع بداية البعثة، ومباشرة بعد رؤية الملك. فهي تتحدث عن أن أحد كبراء قريش قد انبرى للرسول أثناء صلاته قرب الكعبة، ونهره عن الصلاة: أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى(٩) عَبْداً إِذَا صَلَّى(١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى(١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى(١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى(١٣) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى(١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ(١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ

---

١ المفسرون – كعادتهم – حولوا كلام الله لخرافات بتأويلاتهم، ومن ذلك قولهم إن السدرة تقع تحت عرش الرحمن الذي يتخيلون أنه كرسي يحده زمان ومكان، ويعلو السماوات السبع التي تخيلوا أنها طبقات فوق بعض. (تعالى الله وتبارك أن يحد بزمان أو مكان أو يحتاج للجلوس)

خَاطِئَةٍ(١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَه(١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ(١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ(١٩).

والعلق نزلت في بداية الدعوة، وتخبرنا عن هذه الحادثة التي سبقت نزولها. ويكون الرسول قد صلى منذ الأيام الأولى للبعثة وفي وقت لم ينزل عليه من القرآن سوى سورة الفاتحة التي تلقاها في أول يوم لبعثته عليه الصلاة والسلام. ولهذا فقد أمكن تعليم الرسول الصلاة، ولم ينزل عليه من القرآن سوى الفاتحة، لأنها هي التي تقوم بها الصلاة. ولعل في هذا ما يؤكد أن صلوات الرسول كانت تقتصر على الفاتحة فقط.

وهناك بعض الأخبار في كتب الحديث تؤكد أن جبريل هو من علم الرسول الصلاة، ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم ومالك وغيرهم، وهذا نصه:

"أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَخَّرَ الصَّلَاةَ يَوْمًا، فَدَخَلَ عَلَيْهِ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ فَأَخْبَرَهُ أَنَّ الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ أَخَّرَ الصَّلَاةَ يَوْمًا وَهُوَ بِالْكُوفَةِ فَدَخَلَ عَلَيْهِ أَبُو مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيُّ فَقَالَ: مَا هَذَا يَا مُغِيرَةُ؟ أَلَيْسَ قَدْ عَلِمْتَ أَنَّ جِبْرِيلَ نَزَلَ فَصَلَّى فَصَلَّى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ صَلَّى فَصَلَّى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ صَلَّى فَصَلَّى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ صَلَّى فَصَلَّى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ صَلَّى فَصَلَّى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: (بِهَذَا أُمِرْتَ) فَقَالَ عُمَرُ لِعُرْوَةَ: انظر مَا تُحَدِّثُ يَا عُرْوَةُ؟ أَوَ إِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَام هُوَ أَقَامَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقْتَ الصَّلَاةِ؟ فَقَالَ عُرْوَةُ: كَذَلِكَ كَانَ بَشِيرُ بْنُ أَبِي مَسْعُودٍ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ".

ونحن نورد الخبر ليس لتأكيد كلام الله، ولكن لأن الخبر يعكس حدثاً يتناقله الناس عن زمن الرسول، وهو تعليم الصلاة للرسول بواسطة الملك.

قريش عند بعثة الرسول لا تعرف الصلاة

نهر القرشي لرسول الله عندما رآه يصلي ينفي أن تكون الصلاة معروفة لدى قريش – كما يظن البعض – لأنه لو كانت معروفة لما فطن القرشي أن الرسول يؤدي حركات غريبة اقترنت ببدئه الكلام عن بعث وحساب وتلاوة نصوص لم يسمعوا بها من قبل.

لماذا لم يذكر القرآن تفاصيل الصلاة؟

هناك قاعدة أزلية في كل الرسالات، تتمثل في أن الرسالة تبدأ بدعوة الناس للإيمان

بوحدانية الله والإيمان بالبعث، فإن آمن عدد كافٍ من الناس لتكوين مجتمع مسلم فرضت التشريعات، ولو لم يؤمن العدد الكافي من الناس فلن يكون هناك تشريعات. ويمكن ملاحظة أن أقوام نوح وعاد وثمود وشعيب لم يكن فيها سوى الإيمان بالله والنشور، لأن تلك الأقوام لم يؤمن منها إلا نفر قليل، وماتت رسلهم ولم يكن مطلوباً لدخول الجنة سوى الإيمان.

وهذه القاعدة وجدت في رسالة محمد، حيث بقي الرسول في مكة يدعو سنين عدداً للإيمان، ولم يفرض أثناء تلك الفترة سوى الصلاة والإنفاق وتحريم الغش، إلى أن تغير خطاب الدعوة وبدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فبدأت التشريعات تفرض في النصف الأخير من الدعوة في مكة وأكملت في المدينة.

والتشريعات تفرض لكي يتعلمها الناس ويعلموها ويعملوا بها، ولو كانت موجودة مسبقاً فلن ينزل القرآن ليفرض تشريعاً موجوداً ويعمل به الناس. وليست الصلاة وحدها التي لم يتحدث القرآن عنها، فهناك صيغة الزواج، لأن الناس كانوا يتزوجون قبل الإسلام واستمروا يتزوجون بنفس الطريقة في الإسلام، ولم يكن هناك حاجة لأن يتحدث عنها القرآن. لكن لو أن صيغة الزواج السائدة كانت مخالفة للدين لنزل القرآن يفرض صيغة إسلامية. أو أن هناك صيغة دينية للزواج، فسينزل القرآن ليفرضها.

كما نجد أن القرآن لم يتحدث عن كشف شعر المرأة أو تغطيته بينما أمر بالبعد عن التبرج. وذلك لأن التبرج (وهو استخدام أدوات الزينة) كان موجوداً، ويثير فتنة من في قلبه مرض فأمر القرآن بالابتعاد عنه، بينما كانت النساء يغطين شعورهن كعرف اجتماعي، فلم يتحدث القرآن عن تغطية المرأة لشعر رأسها، ولا عن تسريحات الشعر كأداة إغراء.

وهكذا.

فكل ما كان موجوداً حين بدء فرض التشريعات ويؤديه الناس فلا حاجة لفرضه، ولهذا لم يتحدث القرآن عن هيئة الصلاة لأن المسلمين اعتادوا أداءها منذ سنوات. ولن يأتي القرآن ليقول صلوا كما تصلون، أو الصلاة تكون بقيام كما تقومون، وركوع كما تركعون وسجود كما تسجدون... الخ. لهذا لم يأت تفصيل الصلاة في القرآن.

أوقات الصلاة

أول سورة ذكرت فيها الصلاة هي سورة المدثر في حديث افتراضي عن أهل الجنة وهم يتساءلون لماذا دخل أهل النار، النار: إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ(٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ(٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ(٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ(٤٣).

ثم تلتها سورة العلق التي تتحدث عن القرشي الذي ينهر الرسول عن الصلاة، وهي من أوائل السور التي نزلت على الرسول. وتوالى ذكر الصلاة والحث على أدائها في عدد من السور المكية دون تحديد أوقات معينة لذلك. وفي المرحلة الخامسة للدعوة في مكة التي تحول فيها الخطاب الدعوي في القرآن لكل الناس ولم يعد وقفاً على قريش، نزلت سورة طه، وورد فيها: وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى(١٣٢).

والخطاب موجه للرسول ويأمره بالاستمرار على أداء الصلاة، وأن يأمر أهله (زوجته وابنها وبناتها) على أدائها.

وفي المرحلة السادسة (حيث فرضت بعض التشريعات) فرض في سورة بني إسرائيل وقتين لأداء الصلاة: أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا(٧٨).

الوقت الأول يبدأ " لِدُلُوكِ الشَّمْسِ"، أي غروبها. ونهايته « إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ» أي غياب الشفق. وهي صلاة المغرب.

أما الوقت الآخر فقد أشارت له الآية بالقول «وَقُرْآنَ الْفَجْرِ». وما يعضد أنه إشارة لصلاة الفجر، هو أن هناك بالفعل صلاة للفجر، وقد ورد ذكرها عرضاً في سورة النور المدنية أثناء الحديث عن موضوع آخر: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاء ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٥٨).

ثم نزلت في نفس المرحلة سورة هود، والتي تفرض ثلاثة أوقات أخرى لأداء الصلاة: وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى

لِلذَّاكِرِينَ(١١٤).

وهذه الأوقات كما هو واضح في الآية، كما يلي:

صلاة عند كل طرف من طرفي النهار، يعني بداية النهار وبعد شروق الشمس، ونهاية النهار وقبيل غروب الشمس.

والوقت الثالث يؤدى بعد مضي زلف من الليل، وهو صلاة العشاء التي ذكرت في الآية: (٥٨) من سورة النور التي سبق ذكرها في الأسطر السابقة.

وبنزول سورة هود أصبح هناك خمسة أوقات لأداء الصلاة في اليوم والليلة، هي:

صلاة الفجر، ووقتها من بزوغ خيوط الفجر الأول، إلى شروق الشمس، وهي صلاة النهوض من النوم، وتوديع الليل.

صلاة طرف النهار الأول، والتي تؤدى بعيد شروق الشمس والاستعداد للعمل، فهي صلاة استقبال النهار.

وصلاة طرف النهار الثاني والتي تؤدى قبيل غروب الشمس، وبعد الانصراف من العمل، فهي صلاة توديع النهار.

صلاة المغرب، والتي تؤدى بعد غروب الشمس وقبل غياب حمرة الشفق، وهي صلاة استقبال الليل.

صلاة العشاء، وتؤدى بعد غياب الشفق، وهي صلاة ما قبل النوم.

وأوقات الصلاة في القرآن تتفق مع الوضع الطبيعي لما يجب أن تكون عليه الحياة، من نوم وراحة في الليل ويقظة وإنتاج في النهار: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً(٤٧) الفرقان.

فالوضع الطبيعي أن ننام باكراً في أول الليل، وبعد أن نؤدي صلاة العشاء (صلاة ما قبل النوم).

ونستيقظ لنصلي صلاة الفجر (صلاة الاستيقاظ). ثم نتناول الإفطار ونستعد للعمل او الدراسة وتكون الشمس قد أشرقت فنصلي صلاة طرف النهار الأول (صلاة استقبال اليوم). وفي آخر النهار وعندما ننتهي من العمل والدراسة نصلي صلاة طرف النهار الثاني

(صلاة توديع اليوم). وما إن نصل لمنازلنا إلا وتكون الشمس قد غربت فنصلي صلاة المغرب (صلاة استقبال الليل). وبعد الصلاة نتناول طعام العشاء وننهي استعدادات اليوم التالي ثم نؤدي صلاة العشاء إيذانا بحلول وقت النوم.

وهذه الأوقات الخمسة المذكورة في القرآن نجد أن ثلاثة منها ما زال الناس يؤدون الصلاة فيها، وهي: الفجر والمغرب والعشاء، بينما يؤدون الصلاة في وقتين في وسط النهار وليس عند طرفي النهار وهما: الظهر والعصر.

فهل حدث تأخير لصلاة طرف النهار الأول لمنتصف النهار لأن الخليفة الأموي أو العباسي كان يسهر في الليل إلى أن يؤم الناس لصلاة الفجر (كما كانت العادة) ثم يغلبه النوم قبل صلاة طرف النهار الأول، وعندما يستيقظ وسط النهار يؤدي الصلاة بالناس. وبما أن من المعتاد الإيواء للقيلولة بعد الظهر فإن الخليفة يؤم الناس عصراً قبل أن يأوي لقيلولته، فقدمت صلاة طرف النهار الثاني وأخرت صلاة طرف النهار الأول لتلائم الوقت الذي يكون فيه «طويل العمر» مستيقظاً.

وإن كان هذا ما حدث، وهو ليس بمستغرب، فهو يفسر كثرة الأحاديث التي تنهى بشدة عن الصلاة بعد شروق الشمس وقبيل الغروب وهما وقتا صلاة طرفي النهار. ونهي الأحاديث الشديد لإقناع الناس بترك وقت مفروض، واستبداله بوقت مبتدع. ولو لم يكن هناك صلاة في هذين الوقتين لما جاء النهي، لأن النهي يكون لشيء موجود.

ومن يصلي الظهر والعصر الآن فهو يصلي في وقتين لا ذكر لهما في كتاب الله، وهو يتبع كتب التراث، واحتمال خطئه وارد أكبر من الصواب. أما من يصلي وقتي طرفي النهار فهو يتبع كلام الله، ولن يحاسبه الله على اتباعه لكلامه.

هناك من يقول إن الصلوات ثلاث وليس خمساً، وهي: صلاة المغرب وهي المذكورة في سورة بني إسرائيل: أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا(٧٨).

ويقولون هي المقصودة بصلاة طرف النهار الأخير الواردة في سورة هود: وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ(١١٤).

والوقت الثاني للصلاة هو: العشاء، والمذكورة في نفس آية هود «زلفاً من الليل».

والصلاة الثالثة هي الفجر، ويقولون هي المقصودة بطرف النهار الأول الواردة في سورة هود.

بطبيعة الحال بالإمكان عدم الالتفات لهذا الرأي لأنه واهٍ لا يعتد به، ولم يقل به سوى فرق منحرفة في السابق. لكن ذكرناه لأن بعضاً من شباب اليوم قد أعجبهم.

ونقول لهم إن الدقة مطلوبة في تحديد النهار من الليل، والقرآن فرق بين الليل والنهار: وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(١٣) الأنعام.

والقول بأن الليل يبدأ بحلول الظلام، والنهار يبدأ بانبلاج الفجر ليس دقيقاً. ولكن الدقة هي أن الليل يبدأ بغياب الشمس، وليس بغياب الغسق، وهو اختفاء خيوط النور في الأفق. والنهار يبدأ بشروق الشمس وليس بانبلاج أول خيوط الفجر.

وصلاة المغرب تكون في بداية الليل أو طرف الليل، ولا يمكن أن تكون في طرف النهار. وقد ذكرها القرآن لا كصلاة لطرف النهار، بل كصلاة ليل. لأنه حدد بدايتها بدلوك الشمس خلف الأفق، ونهاية وقتها بغياب الشفق من السماء وحلول غسق الليل أي ظلامه.

ولا يمكن أن تكون هي صلاة طرف النهار، لأن طرف النهار الأخير يكون قبل انتهاء النهار، أي قبل مغيب الشمس.

ومثله صلاة الفجر. والفجر حدده القرآن بدقة في حديثه عن الصيام: " وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر ثم اتموا الصيام الى الليل". فالفجر يبدأ بانبلاج أول خيوط النور في الأفق بعدما كان ظلام الليل (الخيط الأسود) هو السائد. وانبلاج الفجر يسبق شروق الشمس بوقت طويل على الأرض فيما عدا الأقاليم المتطرفة شمالاً وجنوباً. وصلاة الفجر تؤدى في الليل وقبل شروق الشمس، بينما طرف النهار يبدأ بعد طلوع الشمس.

ونذكرهم أن سورة بني إسرائيل فرضت وقتين فقط وليس ثلاثة، ثم جاءت بعدها سورة هود، وفرضت ثلاثة أوقات أخرى. ولو كان الحديث في السورتين عن ثلاثة أوقات للصلاة وليس خمسة، لذكرتها كلا السورتين. أو لذكرت إحدى السورتين وقتاً وأضافت السورة الثانية الوقتين الآخرين. أما أن تذكر سورة بني إسرائيل وقت المغرب، وتحدد بدايته بغياب الشمس، ثم تأتي سورة هود وتقول إن ما ذكرته سورة بني إسرائيل يسمى طرف

النهار، مع أن النهار ينتهي بدلوك الشمس الذي يبدأ فيه وقت الصلاة الذي حددته سورة بني إسرائيل.

ثم يتأول المتأولون أن النهار لا ينتهي ولا يبدأ بالشمس ولكن بالضوء الذي في الأفق، فهو كمن تأول أن قطع اليد يعني كف من يريد أن يسرق عن السرقة، وأن الجبال تعني الرجال نحو ذلك الكثير من التخاريف. وكل الأوقات للعبادات وضعها القرآن لما يراه الإنسان على الأرض بعينه المجردة. فدخول صلاة المغرب يكون بدلوك الشمس إلى الأرض (غروبها) بالنسبة للإنسان الواقف على الأرض ورؤيته للغروب بعينه المجردة. وليس بلحظة غياب الشمس الفعلية من تلك البقعة من الأرض التي يقف عليها المشاهد، لأننا عرفنا الآن أن الضوء يقطع حوالي ثماني دقائق ليصلنا من الشمس أي أن الشمس قد غربت قبل رؤيتنا غروبها بثماني دقائق. لكن لو صلى أحدنا صلاة المغرب قبل خمس دقائق من رؤيته الشمس تغيب فقد صلى قبل دخول الوقت.

المناداة للصلاة

الأذان كما نسميه اليوم أيضاً ورثناه عملياً، ولم يخبرنا القرآن كيف نؤديه. والأذان كان موجوداً زمن رسول الله، وقد جاء ذكره في القرآن: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) الجمعة.

وبما أن الأذان لم يذكر في أي سورة مكية على الإطلاق، وكان أول ذكر له في سورة الجمعة التي نزلت في الأيام الأولى لهجرة الرسول، فهذا يعني أن المسلمين قبل الهجرة كانوا يصلون بدون أذان. وذلك لأن قريشاً لم تكن لتسمح للمسلمين برفع الأذان لا من المسجد الحرام ولا من أي مكان في مكة. ولما هاجر المسلمون للمدينة وتوفرت لهم حرية العبادة، وجد الأذان، أو أعيد رفع الأذان. وهذا وضع يتعرض له المسلمون كثيراً، فقد منعوا من رفع الأذان في روسيا وفي تركيا بداية القرن العشرين. وكان المسلمون يصلون بالخفاء وبدون أذان فيها وفي الأندلس وغيرها.

وقد يكون الأذان عرف مع بداية البعثة والصلاة، لكن قريشاً أجبرت المسلمين على عدم رفعه. وفي كتب التراث روايات تقول إن بلالاً قد رفع الأذان على سطح الكعبة يوم الفتح، وأن رجال قريش امتعضوا وصدر من بعضهم كلام بذيء. ولعل الحقيقة أن بلالاً رفع

الأذان في بداية البعثة فما كان من كبراء قريش إلا أن تعاملوا معه بغلظة، وحينها قام أحدهم ونهر الرسول من الصلاة قرب الكعبة، وحظروا على نفر المسلمين رفع الأذان والصلاة قرب الكعبة حينها.

وقد جاء ذكر الأذان مرة أخرى في سورة المائدة: وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ(٥٨) المائدة.

ومع أن الصلاة تجوز بلا أذان إلا أن رفع الأذان ضرورة لكي يعلم الناس بدخول الوقت ويتوجهوا للمساجد.

الوضوء والغسل

فرض الوضوء للصلاة في المدينة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٦) المائدة.

ولا بد من ملاحظة أن الوضوء واجب لكل صلاة، ولا تمكن الصلاة بوضوء واحد لوقتين أو أكثر كما يفعل البعض في عصرنا، استناداً على الأحاديث والفتاوى. فالآية تقول بوضوح إن الوضوء يكون « إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ». وهو يخالف ما يسود الآن، حيث يقول رجال الدين بجواز وضوء واحد لعدد من أوقات الصلاة.

والوضوء عبارة عن تنظيف الأطراف الظاهرة من الجسم مما قد يكون علق بها من أتربة وغبار. والجلد يحتاج للماء لتنظيفه بينما يكفي مسح الشعر، لذا جاء الأمر بغسل اليدين والذراعين والوجه والأرجل، والاكتفاء بمسح شعر الرأس.

ويأتي من يقول إن الأقدام تمسح لأن آية الوضوء تقول: «وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين». ومن يقول بهذا لا يعرف أن اللغة تجيز أن يكون عطف « أرجلكم» على «فاغسلوا» في قوله تعالى: « فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ» .

ونقول لمثل هؤلاء إنه لو كان المطلوب مسح الأقدام فلا حاجة لتحديد المسح إلى الكعبين. فالمسح هو تمرير اليد المبللة بالماء على المكان المطلوب مسحه ولا يشترط له الدقة. فقد نمرر أيدينا المبللة بالماء على الرأس ولا يصيب الماء كل الشعر، ومع ذلك فهو مسح لكل الرأس. لكن لو أن المطلوب هو الغسل فقد جاء تحديد الكعب ليكون هو الموضع الذي يجب أن يصله الغسل، كما حددت المرافق لغسل اليدين.

فالوضوء تنظيف وليس تطهراً من نجاسة، والتي فرض لها تطهر كما يلي:

التطهر الموضعي

فرض القرآن التطهر بالماء من الغائط وكل ما يخرج مخرج الغائط أو ما هو بحكمه، من بول أو ريح. ويكون بتطهير مخرج النجاسة بالماء، ولا يستعاض عن الماء بما سمي "الاستنجاء والاستجمار" وهو عبارة عن حك مكان النجاسة بحجر أو تراب. والذي شرعه رجال الدين، ولم يذكر في كتاب الله، الذي ينص على أن من لا يجد الماء فيستعاض عنه بالتيمم.

التطهر بالغسل الكامل للجسم

وذلك في حال معاشرة النساء (عبرت الآية عنها بالملامسة) وذلك للتطهر من الجنابة، ويدخل في ذلك الاحتلام. ومن لا يجد الماء فيتيمم ويصلي.

صلاة الجمعة

نبدأ بالتذكير بحقيقتين هامتين جداً، هما:

١. أن القرآن لم يذكر صلاة خاصة بيوم الجمعة.

٢. وأن كتب التراث لا تحتفظ بخطبة واحدة للرسول من خطب الجمعة.

وذكر القرآن يوم الجمعة مرة واحدة ضمن خطاب إخباري يروي واقعة حدثت للمسلمين وكان حدوثها يوم الجمعة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ

الرَّازِقِينَ(١١).

والخطاب في الآيات إخباري – كما سبق وذكر – يروي ما حدث ويوجه المسلمين لما يجب عليهم القيام به، وليس خطاباً تشريعياً يفرض صلاة معينة.

فالآية: (٩) تطلب من المؤمنين أن يسعوا للصلاة ويتركوا البيع بمجرد سماع صوت النداء للصلاة في ذلك اليوم الذي كان يوم جمعة. ويستفاد من هذا ما يلي:

- النداء للصلاة (الأذان) كان معروفاً عند نزول السورة.

وبما أن السورة نزلت في الأيام الأولى للهجرة وقبل فرض الوضوء في سورة المائدة فهذا يدل على أن الأذان وجد مع وجود الصلاة ومنذ اليوم الأول صلى الرسول في بداية البعثة في مكة. فالصلاة والأذان وجدا معاً وبنفس الطريقة التي تعلم الرسول فيها الصلاة فقد تعلم الأذان. وبالتالي يمكن القول إن الرسول كان يؤذن قبل كل صلاة صلاها. وهذا ينفي ما زعمته كتب التراث من أن الأذان ولد نتيجة لاقتراحات من بعض الصحابة وبعد أن اقترح بعضهم جرساً كالمسيحية وآخر بوقاً كاليهود ثم اتفقوا أخيراً على الصيغة الحالية. أو أن أحدهم رأى حلماً جاءه رجل فيه وعلمه الأذان وأخبر به الرسول فأقره. وهذه تخاريف مفسرين، لأن دين الله لا يفرض عن طريق الأحلام.

وللعلم فيثرب كان فيها نصارى، والنصارى ليس لهم كنائس ولكن بيع، ولا يستخدمون الأجراس كما يفعل المسيحيون. وهذا دليل على أن قصة الأذان اختلقت بعد فتح البلاد التي تنتشر فيها المسيحية واليهودية.

الآية (٩) أيضاً تشير إلى وجود بيع، والبيع يكون في السوق، والسوق فيما مضى وحتى اليوم في مناطق جنوب غرب الجزيرة العربية يكون يوماً في الأسبوع في مكان ويوم آخر في مكان آخر وهكذا، لدرجة أن هناك مدناً حالية تحمل اسم سوقها الأسبوعي، مثل: خميس مشيط، خميس مطير، أحد رفيدة، أحد المسارحة، وغيرها.

ولأن للقرآن أساليب مميزة، تختلف عما اعتدنا، ومن ذلك أن سرد الحدث لا يبدأ أحياناً من أوله. لذا سنقرأ الآيات بترتيب حسب وقوع الأحداث وليس حسب تسلسل الآيات، كما يلي: وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا

إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٠).

فالرسول كان يصلي بالناس، عندما وصلت للسوق تجارة، فتراكض البعض وتركوا الصلاة لعلهم يظفرون ببعض منها: " انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً". لقد تركوا الرسول قائماً يصلي وخرجوا من المسجد.

والآيات تتحدث عن صلاة كانت تقام وقت السوق، وتلك الأسواق الأسبوعية كانت تبدأ أول النهار ومع شروق الشمس، ولا تبدأ آخر الليل أو مع الفجر. وتنتهي عادة منتصف النهار. حيث يبدأ الباعة يتوافدون على السوق ببضائعهم، مع شروق الشمس، ويتوافد المشترون للشراء. والقافلة أو الحمولة من البضاعة التي وصلت للسوق أثناء الصلاة مع الرسول، تشير إلى أن الصلاة أقيمت في بداية السوق، أي في الصباح الباكر. وليس هناك صلاة في الصباح الباكر الذي يعقب شروق الشمس إلا صلاة طرف النهار التي نصت عليها سورة هود: وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ(١١٤).

وصلاة طرف النهار واجبة كل يوم وليست مخصصة ليوم الجمعة فقط، وهي صلاة رباعية وليس فيها خطبة. والآيات تؤكد أن الرسول كان قائماً يصلي بالناس وليس قائماً يخطب بهم. مثلما كان زكريا قائماً يصلي عندما بشر بيحيى: فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) آل عمران.

والرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن يخطب في الناس على الإطلاق. لأن الدعوة لا تقوم على الخطب ولكن بتلاوة ما ينزل من القرآن. ولهذا لا يوجد للرسول خطب لا في الجمعة ولا في غيرها. لأن الخطب والمواعظ لم يعرفها المسلمون زمن الرسول بل عرفوها عندما اختلطوا بالمسيحيين من أهل البلاد المفتوحة في العراق والشام وبلاد النيل. مما يؤكد أنه لم يكن هناك خطب في يوم الجمعة ولا صلاة خاصة بها، وإنما كان الرسول يصلي بالناس صلاة طرف النهار المفروضة، والتي تصلى كل يوم. لكنه في ذلك اليوم - وكان يوم جمعة - ترك بعض المسلمين الصلاة مع الرسول للحاق ببضاعة للتو وصلت للسوق الأسبوعي

الذي يقام قريباً من المسجد يوم الجمعة.

ويبدو أن مسجد رسول الله بني قرب السوق، أو المدينة كما كان يسمى قديماً خاصة عند بني إسرائيل[1]. وقد بنى المهاجرون مساكنهم حول المسجد، ثم في عصور لاحقة أصبحت يثرب كلها تسمى المدينة.

وما يؤكد أن الصلاة التي تركها بعض المسلمين مع الرسول، لم تكن صلاة خاصة بالجمعة، أن كتب التراث تقول إن الجمعة فرضت في المدينة وفي بداية الهجرة. ولو وافقنا - جدلاً - فلابد أن هناك مئات الخطب، فكيف اختفت هذه الخطب.

ولو تمعنا في خطب الجمعة التي يؤديها المسلمون، لوجدنا أنها مجرد توجيهات سياسية. ومن أجل إجبار الناس على سماعها والإصغاء إلى كل حرف فيها، أحيطت بهالة من التقديس لم تحظ بها الصلاة المفروضة، ومن ذلك:

- أنه لا يجوز أن تقاطع الخطيب لأي سبب من الأسباب.

وهذا يعني أن بإمكانه أن يقول أي شيء يريده دون مقاطعة. وعلى الناس أن يسمعوا ويعوا ما يريد إسماعهم دون احتجاج أو اعتراض أو مداخلة أو نقد. وهذه الحماية لا تتمتع بها الصلاة ولا أي عبادة أخرى.

- أنه ليس فقط لا يجوز مقاطعة الخطيب، بل يجب ضمان إصغاء الناس لما يقول الخطيب إصغاءً تاماً.

لدرجة أن السامع لو مس الحصى (عندما كانت أرض المسجد حصى) أو مس الفرش الآن فقد لغى (بمعنى أثم)، ومن لغى فلا جمعة له وفسدت صلاته.

هذه الإجراءات المبالغ فيها لدرجة الريبة لم تفرض للصلاة نفسها ولا أي عبادة أو تشريع. وهي تجعل سماع الخطبة والانتباه لما يقال فيها أهم من الصلاة. والتحقيقات البوليسية تقول إنه عندما يكون هناك مبالغة في النفي من المتهم فهذا مؤشر إلى أنه يخفي شيئاً. والمبالغة في التأكيد على سماع الخطبة يخفي وراءه أنها مفروضة فرضاً على الناس ولا يمكن أن تكون من الدين.

ويحضرني تساؤل هنا: إذا كان من مس الحصى فلا جمعة له، فمن لا يحضر الخطبة كلها لا

١ انظر فقرة: المدينة / قسم مواضيع من القرآن.

جمعة له من باب أولى؟

لكن لا أحد من رجال الدين السلف والخلف تجرأ وقال إن من لا يحضر الخطبة لا تقبل صلاته، بل يقولون إن من يحضر ركعة فقد صلى الجمعة.

تناقض! أليس كذلك؟

في الظاهر يبدو أن في الأمر تناقض، لكن قد يكون لهذا التناقض الظاهري تفسير.

فخطبة الجمعة أوجدت أولاً لخدمة الحاكم، وشددوا على وجوب الاستماع لها، دون أن يعيروا اهتمامهم للصلاة. لذا اختصرت الصلاة في الجمعة من أربع ركعات إلى ركعتين وخطبة. ولما جاء دور رجال دين فيما بعد، وفرضوا أن من يدرك ركعة فقد أدرك الصلاة، لم يستطيعوا استثناء صلاة الجمعة. فبقي حكم العسكر الذي يشدد على الخطبة أكثر من الصلاة ولحق به حكم رجال دين المناقض له.

- وهناك حديث في الحث على الحضور مبكراً قبل الخطبة لضمان الاستماع لها، يقول: من اغتسل يوم الجمعة غُسل الجنابة، ثم راح فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر.

والحديث رواه البخاري وعدد من كتب الحديث، ومن يتمعن فيه يجده وكأنه اختلق للسخرية.

فهو يقول قرب بقرة، ثم كبشاً، ثم دجاجة، ثم بيضة.... ما هذا؟

ومن اختلق الحديث جاء من بيئة تؤمن بالقرابين، لأن الإسلام لا يوجد فيه قرابين. وحتى الهدي وهو الذبيحة الوحيدة المطلوبة في الإسلام، فهي من أعمال الحج وبين القرآن سبب فرضها بأنه رمز لشكر الله على ما أعطانا ويسر لنا من بهيمة الأنعام ولكي يأكل منها الفقير وكل محتاج.

ثم ما هذه السخرية في قوله تقديم دجاجة وبيضة؟

فهل الأعمال التي تقدم لله ينظر لها الله بحجمها ويعطي على حجمها أو أن الأعمال تقابل بالقدرة؟

ولو قمت بإنفاق ما قيمته بيضة لأني لا أملك أكثر فسيعادل عند الله ما يقدمه من يملك قيمة بقرة.

ونص الحديث ليس فقط أقرب للسخرية ولكن من قاله لا يفقه كيف تحسب الحسنات.

- وليس في الإسلام خطبة لصلاة أبداً، وكل الصلوات المصحوبة بخطب ليست من الدين ولكنها دخيلة عليه، مثل العيدين والكسوف والخسوف والاستسقاء.

ولهذا قالت بعض كتب التراث إنه إذا صادف أن جاء العيد يوم الجمعة فلا تصل الجمعة ولكن تصلى الظهر.

وهو مخالف لقواعدهم الفقهية، لأنه يلغي صلاة الجمعة "الواجبة" لمن صلى العيد، وهي صلاة حكمها عندهم "سنة" أو ليست واجبة لأنها فرض كفاية.

وهذا الذي يبدو متعارضاً له تفسير.

فبما أن اختلاق الخطبة في الجمعة كان سياسياً يهدف لنشر قرارات وأوامر السلطان وسياساته، فلو جاء العيد في يوم الجمعة، فصلاة العيد مختلقة سياسياً، بخطبتها المشابهة لصلاة الجمعة وخطبتها، ولنفس السبب الذي اختلقت فيه خطبة الجمعة. وبما أن القرارات والأوامر الملكية ستتلى في خطبة العيد، فلم يعد هناك حاجة لخطبة الجمعة، ويعود الناس للصلاة المعتادة بأربع ركعات دون خطبة.

- وكل خطب الجمعة القديمة والحديثة لا يمكن أن تكون من دين الله. لأن الخطبة عبارة عن سرد قصصي ومواعظ لم يعرفها الإسلام ولا يستخدمها في الدعوة.

ولم يكن الرسول يخطب في المسلمين لا في صلاة ولا خارجها ابداً، وهذا لا ينفي تشاورهم وكلامهم بينهم. الذي ننفيه هو أن يقف الرسول خطيباً أو يجلس في مجلس ويعظ كما بدأ يفعل الحسن البصري وتميم الداري وغيرهم بعد رسول الله. ورسخ بين المسلمين وقويت شوكته في هذا العصر.

ويمكن تلخيص ما سبق، كما يلي:

- أن سورة الجمعة لا تتحدث عن صلاة خاصة بيوم الجمعة.
- أن الصلاة التي كان الرسول يصليها والتي تتحدث عنها سورة الجمعة كانت صلاة طرف النهار الصباحية التي تتزامن مع بداية السوق الأسبوعي.

- أن سورة الجمعة تؤكد حقيقة تاريخية أن هناك سوقاً أسبوعياً يقام في يثرب قريباً من مسجد رسول الله.
- أن شكل الخطبة وما يقال فيها وما قيل في وجوب الاستماع لها يؤكد أنها مختلقة.
- وأن على كل من يقول إن هناك صلاة للجمعة تختلف عن صلاة أي يوم آخر أن يأتي هو بالدليل.
- أن الأذان فرض مع فرض الصلاة منذ البداية، وهذا لا يعني أن المسلمين في مكة كانوا على الدوام يعلنونه بالقرب من الكعبة – خاصة في الوقت الذي صعدت فيه قريش من مضايقتها للمسلمين وبدأت تعذب المستضعفين منهم. لكن الأذان كان موجوداً ولم يكن وليد حلم. فالدين لا يفرض بالأحلام.
- ولو كان هناك خطب للجمعة لنقلتها لنا كتب التراث بغض النظر عن دقة النقل، وبما أن كتب التراث تقول إن الرسول لبث في المدينة عشر سنين والجمعة – كما يزعمون – فرضت في المدينة فأين هي تلك الخطب التي تعد بالمئات؟
- ولماذا صلاة الجمعة جهرية، والصلاة النهارية لا تكون جهرية؟
- وإن كانت صلاة الجمعة ليست الظهر، فلماذا ألغيت صلاة الظهر؟
- وإن كانت الجمعة مفروضة فلماذا اختلفوا في كل شروطها؟

تساؤلات منطقية لا يملك أهل الموروث جواباً لها، وفي نفس الوقت تثير الشكوك حول ما يعرف بصلاة الجمعة.

والآيات تتحدث عن صلاة في يوم الجمعة وتشير لسوق تجاري يقام في نفس اليوم. ولو كان السوق في أي يوم وترك الناس الصلاة بسبب التجارة فستقول الآيات: إذا نودي للصلاة من يوم الأربعاء أو السبت ... الخ

وتكون صلاة الجمعة وكل الصلوات التي تشبهها وكأنها نسخة منها مختلقة، مثل: العيدين، والكسوف، والخسوف، والاستسقاء. وهي صلوات اختلقت للمناسبات لكي يتسامع الناس خلال خطبها، ما يمل عليهم من القصر الملكي، وليس لها شأن بالله وكتابه ودينه ورسوله. واستشهدوا بآيات سورة الجمعة بعدما أولوها لغير معناها الظاهر.

القصر والجمع

جمع وقصر الصلاة بسبب السفر لا حكمة له ولا فائدة على الإطلاق. فالسفر زمن رسول الله كان على الجمال، ويمتد لأيام وأسابيع. وعندما تتوقف القافلة، فلن يكون هناك كبير فرق بين أن يركع أربعاً أو ركعتين. ولن يكون هناك عسرٌ من صلاة أربع ركعات ولا يسرٌ بالصلاة ركعتين عندما يُنيخ جماله. بل يمكن للمسافر أن يتوقف ويصلي أربعاً دون حاجة لتوقف جماله، ويلحق بها دون أن تبتعد عنه سوى أمتار.

ولو التزم الناس بصلاة طرفي النهار، فلن يكون للقصر والجمع معنى لتباعد الوقت بين الطرفين. فالمسافر يمكنه أداء صلاة طرف النهار الأول، ثم يواصل السير حتى قبيل الغروب حيث يتوقف ويصلي طرف النهار الأخير، ويهيء مكان المبيت قبل الظلام. وحتى الجمع بين المغرب والعشاء لا ضرورة له، لأن المسافر يكون قد أعد مكان مبيته ثم صلى المغرب ثم أعد عشاءه وأكله ثم صلى العشاء وأخلد للنوم.

وقصر الصلاة وجمعها للسفر، لو افترضنا أنه وجد، فاليوم لا معنى له. فمن يسافر بالسيارة حتى لو كان بالليل، لن يعيقه التوقف لبضع دقائق للصلاة في وقتها. ولو توقف فلن يعيقه أن يصلي أربع ركعات بدل ركعتين، ولن يريحه الصلاة ركعتين بدل أربع. وهو ما ينطبق على المسافر بأي وسيلة نقل أخرى. والملاحظ هو أن بعض المسافرين بالسيارة اليوم يتوقفون ويصلون صلاتين جمعا وقصرا، ثم يقضون ساعة أو بعض ساعة في التبضع وخلافه. مما يلغي حكمة أن قصر الصلاة يوفر على المسافر الوقت.

وهناك من يقصرون صلاتين ويجمعونها جمع تقديم، وهم يعلمون أنهم سيصلون وجهتهم قبل حلول وقت الصلاة الثانية، وبالفعل يصلون ويحل وقت الصلاة ولا يصلونها كونهم جمعوها مسبقاً. والصلاة قبل وقتها مثل الصلاة بعد خروج الوقت، ولو كانت تقبل بغير وقتها لما حدد لها القرآن وقت، وأمر بالمحافظة على الصلاة في وقتها.

ومثل المسافر من يقيم في بلد للدراسة أو لرحلة عمل ويجمع ويقصر بحجة فتوى من رجل دين قال له إنه يحق له ذلك لأنه بنية العودة. وهذا مخالف للحكمة من القصر – لو كان هناك حكمة – كما يقولون من أنها تيسير للمسافر. فمن وصل لبلدة وبقي فيها ولو لوقت صلاة واحد فلا يجمع ولا يقصر (على افتراض أن هناك جمعاً وقصراً) لأن الجمع والقصر

يكون لمن هو على سفر وليس للمسافر ولو كان مستريحاً.

أما القرآن فيخلو مما يعرف بالجمع البتة، ولا تقصر الصلاة إلا في حالة واحدة، وهي أن يكون المسلمون في مواجهة جيش للعدو، وقد بينها لنا قوله تعالى: وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوّاً مُّبِيناً(١٠١) وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً(١٠٢) فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً(١٠٣) النساء.

فيكون ما يقوم به بعض المسلمين اليوم من قصر الصلاة في السفر، أو الجمع بين وقتين، ومثلها المسح على الخفين، عبارة عن منتجات فقهية لم يأمر الله بها في كتابه العزيز ولم يفرضها على عباده. ومن فعلها فقد أطاع تشريعاً لم يأمر به الله وليس من دينه.

صلاة الجماعة

تقول سورة براءة التي نزلت في نفس العام الذي توفي فيه الرسول: وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠).

والآيات تتحدث عن مسلمة قريش وقد يكون معهم مسلمة يثرب، قاموا ببناء مسجد أثناء غياب الرسول في رحلته إلى تبوك، وذلك بغرض أن تكون الصلاة فيه مقتصرة عليهم دون المستضعفين من المسلمين.

ولو لم تكن صلاة الجماعة واجبة، وكان المنافقون يحرصون على أدائها، لما قاموا ببناء مسجد لهم، ولأدوا الصلاة في بيوتهم، أو لم يصلوا بتاتاً، إذا كانوا يشعرون بأنهم ينتمون لطبقة اجتماعية أعلى من المستضعفين ولا يمكن أن يصلوا معهم في مسجد واحد.

وتقول سورة الماعون المدنية: فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ(٥).

ولو كانت صلاة الجماعة ليست لازمة لأمكن للمرائين الصلاة في بيوتهم أو عدم الصلاة أساساً.

ما لا يثير الحديث حوله المسلمون كثيراً هو عدم صلاة المرأة في المسجد، ذلك أنه إن كانت صلاة الرجل في المسجد واجبة أو مستحبة، فهي كذلك بالنسبة للمرأة. ومتى عادت المرأة للصلاة في المسجد، فلا يجب أن تكون في غرف معزولة، بل في نفس الساحة التي يصلي فيها الرجال. ويمكن الفصل بين الجنسين أثناء الصلاة بتخصيص قسم في الساحة للرجال وقسم للنساء وبينهما ممر مشاة، وبدون حواجز أو حجاب، ولا تعزل النساء في غرف مغلقة في المسجد[1].

كما أنه من المشاهد حالياً كثرة من يصلون على كراسي في المسجد ومن يأتون وهم أنصاف مشلولين، مع أن الله فرض اليسر لهؤلاء وأجاز لهم الصلاة في بيوتهم: لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا(١٧) الفتح.

فالأعمى والأعرج والمريض ليس عليه أن يحضر للمسجد للصلاة، ويجب أن تزال الكراسي من المساجد، لأن من يطلب منهم الصلاة في المسجد، هم من يطيقون الصلاة بيسر وقدرة. ولابد من الإشارة إلى أن رفع الأذان وإمامة الصلاة أصبحتا وظائف حكومية وهذا خطأ ديني فادح.

لأن من يؤديهما أصبح ينظر له على أنه عالم في الدين أكثر من غيره، وهذا نوع من الرهبنة. والإسلام لا رهبانية فيه. ويجب تعليم الدين بكل تفاصيل تشريعاته لكل المسلمين على حد سواء، فلا يكون فيهم رجل دين وجاهل في الدين.

---

1 من يحرصون على حجب النساء في غرف معزولة في المسجد هم من يعتقد أن المأموم لا تجزئ صلاته ما لم يكن والإمام في مكان واحد بلا حجاب. لكنهم يحرصون بشكل مبالغ فيه لمخالفة معتقدهم هذا عندما يتعلق الأمر بالنساء.

ثم إن رفع الأذان أو إمامة الصلاة لو اعتبرتا من الوظائف التي يتلقى من يؤديها أجراً دنيوياً فهو متاجرة بالدين، لو شجعته الحكومات لكي تكون المساجد تحت سيطرتها، فلا يجب على المسلمين قبوله، إن كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر. فكل عمل ديني له أجر من الله يوم القيامة، وتلقي أجر له في الدنيا – مادي أو معنوي – يعني عدم الحصول على أجر الآخرة.

الصلاة خارج وقتها

لو كانت الصلاة تقبل خارج وقتها لما فرضت أوقات محددة للصلاة، أو لكانت الصلاة في وقتها مستحبة. لكن الأمر في القرآن دائماً للوجوب وليس للتخيير او الاستحباب. وسورة بني إسرائيل تقول: «أقم الصلاة لدلوك الشمس»، ومثلها سورة هود: «أقم الصلاة طرفي النهار».

ويكون كل من يصلي صلاة في غير وقتها فكأنه لم يصل. سواء برر فعلته بما سمي بالجمع أو تعذر بالنوم وغيره.

الصوم

صامَ صَوْماً وصِياماً واصْطامَ أمسك وامتنع. فالصوم والصيام يعني الإمساك والامتناع عن أي شيء. فقد يكون الإمساك عن الأكل والشرب والجماع كما في رمضان. وقد يكون الإمساك عن الكلام، كما حدث لمريم: فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا(٢٦) مريم.

وقد يكون الإمساك عن السير أو أي نشاط.

وقد فرض الصوم على المسلمين في السنة الأولى للهجرة وفي سورة البقرة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٨٣) أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(١٨٤) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ

بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٨٥).

وتكمل السورة تشريع الصيام بالقول: .... وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ.... (١٨٧) البقرة.

وهذه الآيات واضحة الدلالة وتقول بأسلوبنا: كتب عليكم صيام أيام شهر رمضان لمن يشهد منكم الشهر، على أن يبدأ الصيام مع بزوغ الفجر وينتهي بنهاية النهار. ومع ذلك أثير لغط كثير حول هذه الآيات، كما أثير اللغط حول كل القرآن وشخص الرسول.

ومن النقاط التي أثيرت، ما يلي:

- هل الصوم هو الصيام؟
- كيف يتم التأكد من دخول الشهر؟
- هل يتوقف الصائم عن الأكل بانبلاج أول خيوط الفجر في السماء، أو عند تمييز خيط أبيض من خيط أسود حرفياً؟
- وهل يفطر الصائم بمجرد غروب الشمس أم ينتظر حتى يغيب الشفق؟
- وما المقصود بالذين يطيقونه.

وهذا اللغط ظهر في عصر الظلام والفتن واختلاق القصص. وفي بلاد الفتوح الزراعية التي لا تعرف التقويم القمري ومعتادة على التقويم الشمسي، مثل بلاد العراق والشام ووادي النيل. ولو حدث في عصره عليه الصلاة والسلام لجاءت الإجابة في القرآن. فكل ما يكون فيه سوء فهم أو عدم وضوح للمعنى عند بعض المسلمين زمن الرسول، يعودون لسؤال الرسول عنه وينزل القرآن بتوضيحه. وهذا مثال على ذلك:

نزل تحريم الميتة مع مآكل أخرى في سورة النحل المكية :إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١١٥).

وبعد الهجرة جاء البعض وسأل الرسول عما يحرم من المآكل فجاء الجواب في سورة البقرة: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٧٣).

وهو تكرار حرفي لما ورد في سورة النحل.

ويبدو أن البعض أشكل عليه ما يدخل في مصطلح «الميتة» وسأل الرسول عن ذلك، فنزلت سورة المائدة تحمل الجواب التفصيلي: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣).

فالميتة تشمل: «ما أهل لغير الله به وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ».

وهذا ما يؤكد أن التساؤلات السابقة حول بدء الشهر وبدء الصوم والإفطار كان في أزمنة الفتن العباسية وبعد عصر الرسول.

وفيما يلي استعراض لهذه النقاط:

هل الصوم هو الصيام؟

هذه الإشكالية عند البعض مردها إلى أنهم من متابعي أناس جعلوا جل اهتمامهم بالبحث في دين الله هو في الاستغراق في بيان معانٍ غير معتادة للألفاظ الواردة في القرآن، والإطناب في ذلك. ومن ذلك القول إن الصوم شيء والصيام شيء آخر. وأن الصوم يقال لما له علاقة بالكلام بينما الصيام لما له علاقة بالطعام، أو نحواً من ذلك. وهذا التقعر محاولة للكاتب بالظهور بمظهر المفكر الذي سبق أقرانه، وقد يحقق بعض الانبهار عند بعض الناشئة، كونه يأتي بمعانٍ لم يسمعوا بها من قبل. وإن كان لا يصمد للنقد عند العارفين، كونه لا يزيد عن تأويل يشبه تأويل المفسرين القديم، وإن ظهر بثوب جديد، وليس فيه خدمة لدين الله[1].

التأكد من دخول الشهر

الصوم والحج عبادات حولية، تأتي في العام مرة واحدة، وتعتمد الأشهر القمرية التي يبدأ فيها اليوم من غروب شمس الليلة السابقة[2]. ومتى ما رؤي الهلال الوليد بعد غروب

---

١ التقعر في معاني الألفاظ والبحث عن معانٍ شاذة مشابه للقول بأن القرآن يحوي معجزات حسية أو عددية .. الخ، لا تهدف لخدمة الدين بقدر إظهار قائلها بمظهر العالم عند من يجهل ما يقول.

٢ اليوم الإسلامي يتكون من الليلة السابقة كاملة، أي منذ غروب الشمس والنهار التالي حتى غروب الشمس. وليس كما اصطلح عليه الآن من أنه يبدأ منتصف الليل، فيكون هناك نصف ليل ثم نهار كامل ثم نصف ليل من الليلة التالية ليكتمل

الشمس فهذا يعني أن أول أيام الشهر هو يوم الغد. والذين يعتمدون رؤية الهلال بالعين المجردة يعتمدون على حديث منسوب للرسول يقول: صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته.

وهذا الحديث يستحيل أن يكون رسول الله قاله، لأسباب منها:

- أن تحديد بدء الأشهر القمرية كان معروفاً للناس قبل وأثناء زمن الرسول في جزيرة العرب ومنذ القدم ولابد أن لديهم أساليب لمعرفة بدء الأشهر القمرية أكثر عملية من ترائي الهلال.
- لو أن الحديث المنسوب للرسول صحيح فهذا يعني أن الناس سألوا الرسول عن كيفية تحديد بدء شهر رمضان. ولو سألوا الرسول فلن يأتيهم الجواب من الرسول نفسه كحديث، ولكن سينزل به القرآن كما نزل تفصيل المقصود بالميتة وغيرها.

وبما أن القرآن يخلو من ذكر رؤية الهلال فهو تأكيد على أن الناس لم يشكل عليهم أبداً معرفة دخول شهر رمضان وخروجه زمن الرسول. ولو رأوه بالعين المجردة في اليوم الذين يعلمون أنه بداية الشهر القمري فهو حسن وإن لم يروه فلديهم طريقة حساب تثبت لهم دخول الشهر. وحتى لو افترضنا جدلاً أنهم كانوا يعتمدون كلياً على رؤية الهلال بالعين المجردة، فهذا لا يعني أن رؤية العين هي الوسيلة الوحيدة لإثبات دخول الشهر. ولكنها تعني أنهم حينها لم يكونوا يملكون وسيلة أنجع للتأكد من دخول الشهر، ولو كانوا يملكون أدق منها لاستخدموها. وبالتالي فمتى ما اكتشفت طرق أدق لتحديد دخول الشهر فيجب على المسلمين الأخذ بها، لأن الغاية التأكد من ثبوت دخول الشهر وليس التأكد من رؤية الهلال. وبالتالي فيمكن بوسائل متطورة التأكد من دخول الشهر ولو لم ير أحد الهلال.

- أن الشهر القمري يبدأ بظهور الهلال، ولن يتساءل الناس زمن الرسول وفي المدينة كيف يبدأ الشهر القمري، لأنهم يعلمون أنه يبدأ بظهور الهلال.

لكن لو أن الإشكال حدث لأناس لا يعرفون الأشهر القمرية ويتعاملون بالأشهر الشمسية المناسبة لطبيعتهم الزراعية فسيتساءلون عن كيفية التأكد من دخول شهر رمضان. وهذا سيكون في البلاد المفتوحة مثل الشام ومصر والعراق وليس في المدينة زمن الرسول.

اليوم. وهذا لا يطبق إلا نظرياً. فهم يعتبرون ليلة الخميس مثلاً هي الليلة التي تليه، أي نصف الليلة التي تلي نهار الخميس، بينما الليلة السابقة ليوم الخميس فتسمى «تجاوزاً» ليلة الأربعاء. بينما في التقويم الإسلامي على الدوام ليلة اليوم هي التي تسبق النهار، فليلة الخميس هي الليلة التي تسبقه.

- أن الصوم – بنص الآية – يكون لأيام شهر رمضان، وليس للأيام التي يستطيع الناس رؤية هلال الشهر، ولو تأخرت الرؤية لليوم الثاني أو الثالث من الشهر. كما أن الصوم ينتهي بنهاية شهر رمضان وليس برؤية الناس هلال شهر شوال.

ولو غم على الناس رؤية الهلال واتضح لهم فيما بعد أنهم أفطروا في أيام من رمضان لوجب عليهم القضاء. فرؤية الهلال بالعين المجردة فقط أداة للتأكد من دخول الشهر. لذا يجب عليهم البحث عن وسائل أدق للتأكد من دخول الشهر لئلا يصوموا أياماً من شهر شوال أو شعبان ويفطروا بعض أيام شهر رمضان.

- وكل الشهور القمرية تبدأ بظهور الهلال، الذي لم يكن يواجه الناس في جزيرة العرب مشكلة في معرفته وتحديده بدقة، دون حاجة لرؤيته. والدليل أن الأشهر القمرية الإثني عشر بقيت تبدأ وتنتهي في وقتها دون أن يكون هناك أي خطأ.

ولو كان الناس يحددون بدء الشهور برؤيتهم للهلال بالعين المجردة فلابد أن يحدث خطأ كما يحدث بيننا في هذا العصر، حيث صمنا في بعض السنوات يوماً أو يومين من شعبان، وصمنا في سنوات أخرى يوماً أو يومين من شوال. وكما رمضان تحدث أخطاء في تحديد بدء شهر ذي الحجة، لأننا اعتمدنا تحديد بدء الشهر برؤية الهلال وليس ببدء الشهر الفعلي.

ومن ذلك ما حدث في العام ١٤٢٥ حيث أعلن مجلس القضاء الأعلى في السعودية يوم ١٢/ ١/ ٢٠٠٥ أن بداية شهر ذي الحجة لذاك العام ١٤٢٥ هـ هو يوم الأربعاء ١٢ / ١ / ٢٠٠٥م وقد جاء في إعلانه: نظراً لأن شهر شوال ثبت دخوله يوم السبت ولم يتقدم أحد يخبر بدخول شهر ذي القعدة يوم الأحد ولأن يوم الثلاثاء / ٣٠ ذي القعدة / حسب تقويم أم القرى هو تمام ستين يوماً بعد شهر رمضان ولم يرد للمجلس عن دخول شهر ذي الحجة ليلة الثلاثاء ما يفيد دخول الشهر وإنما ورد نفي الرؤية وعليه فإن يوم الأربعاء ١ / ١٢ / ١٤٢٥هـ حسب تقويم أم القرى الموافق ١٢/ ١/ ٢٠٠٥م هو أول أيام شهر ذي الحجة وبهذا يكون الوقوف بعرفة يوم الخميس التاسع من ذي الحجة وعيد الأضحى المبارك يوم الجمعة الموافق ٢١ / ١/ ٢٠٠٥م".

ثم عاد مجلس القضاء الأعلى في السعودية وأصدر بياناً آخر بعد يومين يقرر فيه تغيير موعد الوقوف بعرفات لأن ثلاثة أشخاص قد شهدوا بأنهم رأوا الهلال، ومما جاء في البيان: "نظرا

لأنه تقدم في مساء يوم الجمعة الموافق ٣ ذي الحجة حسب تقويم أم القرى عدة شهود برؤية الهلال ليلة الثلاثاء وهم من السيح شرق محافظة الرين وتبلغت محكمة الرين بذلك فطلبهم فضيلة قاضي الرين وحضر منهم اثنان شهدا برؤيتهما هلال ذي الحجة بعد مغرب يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر ذي القعدة ومكث كل واحد منهما يراه بعد أن صليا فريضة المغرب وفي ليلة الأربعاء ذكر كل واحد منهما أنه رآه عاليا وبقي يرى إلى صلاة العشاء وجرت تزكيتهما وذكر فضيلة قاضي الرين أنهما معروفان لديه بالعدالة والثقة والثبات ومعهما شاب رآه معهما لكن لم يحضر إلى المحكمة لبعدها وبناء على ذلك ولأنه إذا ثبتت الرؤية المعتبرة للعبادة وقد ثبتت لذا فإن مجلس القضاء الأعلى في المملكة العربية السعودية يقرر أنه ثبت دخول ذي الحجة هذا العام ١٤٢٥هـ - يوم الثلاثاء الموافق ١١ يناير عام ٢٠٠٥م والوقوف بعرفة يوم الأربعاء الموافق ١٩ يناير ٢٠٠٥م وعيد الأضحى المبارك يوم الخميس الموافق ٢٠ يناير ٢٠٠٥م".

وقد تسبب هذا التغيير المفاجئ والمتأخر بمشاكل جمة مالية وتنظيمية لحجاج الخارج وشركات الطيران وللفنادق والشقق التي سيقيم فيها الحجاج. إضافة إلى أن التعديل الأخير لموعد الوقوف بعرفات جاء مخالفاً للحساب الفلكي، أي أن التغيير قد يكون تسبب في أن يبدأ الناس حجهم في يوم خطأ.

وفي العام ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ لم ير الهلال في السعودية يوم الأربعاء ليلة الخميس ٣١/ ٥/ ١٩٨٤ فأصدرت السلطات الرسمية ممثلة بمجلس القضاء الأعلى أمراً بعدم الصيام، ويبدأ الصوم الرسمي من يوم الجمعة ١/ ٦/ ١٩٨٤. وفي نهاية الشهر تحروا رؤية هلال شوال يوم الخميس ليلة الجمعة ٢٩/ ٦/ ١٩٨٤ وتقدم أشخاص زاعمون أنهم رأوا الهلال فأصدر مجلس القضاء الأعلى في السعودية بياناً أعلن فيه أن يوم الجمعة ٢٩/ ٦/ ١٩٨٤ هو أول أيام شهر شوال. وهذا يعني أن الناس صاموا ٢٨ يوماً فقط، مع أنه ليس في الأشهر القمرية شهر تكون عدد أيامه (٢٨)، ثم أعلن للناس أن يصوموا يوماً كقضاء عن يوم فاتهم صيامه. والحقيقة أن هناك يوماً آخر لم يصوموه، ذلك أنه بناءً على الحساب الفلكي فإن رمضان ذلك العام كان ٣٠ يوماً، يبدأ يوم الخميس ٣١/ ٥/ ٢٠٠٤ وينتهي بنهاية يوم الجمعة ٢٩/ ٦/ ٢٠٠٤ ويكون العيد يوم السبت ٣٠/ ٦/ ٢٠٠٤.

- ولو أن تحديد شهر رمضان يتم بالعين المجردة زمن رسول الله لحدثت بعض الأخطاء عند دخول الشهر وخروجه، وهذا لم يحدث زمن الرسول برغم أن فرض الصوم جاء في السنة الأولى للهجرة لأن البقرة نزلت بداية الهجرة وقبل معركة بدر بشهور.

ويكون المسلمون قد صاموا عشر رمضانات زمن الرسول (على اعتبار أن الرسول توفي بداية السنة الحادية عشر) دون أن يذكر التاريخ أنهم أخطأوا في تحديد بدء الشهر وخروجه، مرة واحدة أو كان هناك شك في أحد الأعوام. برغم أن شهر رمضان - طوال عصر الرسول - كان يأتي في فصل الشتاء وبداية الربيع حيث يكون احتمال وجود غيوم في سماء المدينة وارداً[1]. ومع ذلك لا يذكر التاريخ أنهم كانوا يتراءون الهلال لإثبات دخول رمضان، فيما عدا خبرين أو ثلاثة لا وزن لها. ولعل أشهرها الخبر الذي ينسب للرسول قوله: "أحصوا هلال شعبان لرمضان" وخبر آخر منسوب لابن عمر أنه رأى الهلال وأخبر الرسول فأمر الناس بالصوم.

وهناك خبر منسوب لكريب يقول: إن أم الفضل بنت الحارث بعثته إلى معاوية رضي الله عنه بالشام، قال: فقدمت الشام فقضيت حاجتها، واستهلَّ عليَّ رمضان وأنا بالشام، فرأيت الهلال ليلة الجمعة، ثم قدمت المدينة في آخر الشهر، فسألني عبد الله بن عباس ثم ذكر الهلال، فقال: متى رأيتم الهلال؟ فقلت: رأيناه ليلة الجمعة. فقال: أنتَ رأيتَهُ؟ فقلت: نعم، ورآه الناس، وصاموا وصام معاوية رضي الله عنه. فقال: لكنا رأيناه ليلة السبت، فلا نزال نصوم حتى نكمل الثلاثين، أو نراه. فقلت: أوَلا تكتفي برؤية معاوية وصيامه؟ فقال: لا، هكذا أمرنا رسول الله ... انتهى.

- وهذه القصة مختلقة، قد تكون فقط للنيل من معاوية وجاء من يستدل بها لرؤية هلال رمضان. لأن ابن عباس – الذي هو ابن أم الفضل بنت الحارث - كان في العراق ولما حدث بينه وبين علي ابن أبي طالب خلاف حول اتهامه بالاستيلاء على أموال بيت المال ترك العراق وذهب للطائف وبقي فيها حتى مات عام ٦٨ للهجرة (كما تقول كتب التراث)، ولم يعش في المدينة زمن معاوية، بل ولا في أي زمن آخر.
- ثم أن أم الفضل بنت الحارث واسمها لبابة – زوج العباس ووالدة ابن عباس – كانت

[1] لأن رمضان في السنة الأولى للهجرة وافق شهر مارس، ورمضان في السنة العاشرة وافق شهر نوفمبر. وبقية السنوات كانت فيما بين هذين الشهرين.

قد توفيت قبل حكم معاوية، حيث توفيت في خلافة عثمان وقبل زوجها العباس الذي توفي في السنة (٣٢) للهجرة، وهذا ما يؤكد اختلاق القصة السابقة.

- والأهم من كل هذا أنه حتى لو كان الناس في زمان ما اعتمدوا رؤية الهلال لإثبات دخول الشهر فهذا لا يعني أن الرؤية بالعين دليل شرعي على دخول الشهر ولا يعني عدم الأخذ بأساليب أكثر دقة عرفها الناس أو سيعرفونها في عصور لاحقة.

ونعود لتأكيد أن المهم هو دخول الشهر وليس رؤية هلاله "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ" .. "فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ". وأي وسيلة تعين على تحديد دخول الشهر بدقة فهي المطلوبة، لأنها تعين على إحقاق الحق، بغض النظر عن ماهيتها. وفي هذا العصر يمكن وبكل سهولة تحديد بدء الشهر القمري ولسنوات قادمة، ولا حاجة لمحاولة رؤيته بالعين المجردة على الإطلاق.

ويكون التمسك برؤية الهلال بالعين المجردة تمسك بالموروث المرتبط بالمصالح، ولا شأن له بدين الله. وعلى المسلمين إعداد تقويم دقيق لكل أشهر السنة في كل مكان من العالم كما هي الحال بجداول الصلاة، واعتمادها لدخول شهر رمضان وخروجه وغيره من الأشهر القمرية لسنوات قادمة[1].

متى يتوقف الصائم عن الأكل؟

لابد أن نتذكر دائماً حقيقة مفادها: أن كل التساؤلات التي أثيرت وتوجد في كتب التراث عن أي مسألة دينية ولم يشر لها القرآن، قد أثيرت في عصر الظلمات والفتن، سواءً كان الهدف منها بريئاً أو للتشكيك، أو كوسيلة لأسلمة معتقد من ديانات سابقة. ولم يتساءل عنها الناس في عصر الرسول، لأنه لو أشكل عليهم فهمها لسألوا الرسول، ولو سألوه لنزل القرآن بالتوضيح كالعادة.

---

١ يتوفر الآن على الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) عدة مواقع تظهر وبدقة متى سيدخل كل شهر من الأشهر القمرية طوال العام، ومنها هذا البرنامج المعروض على اليوتيوب تحت عنوان:
NASA | Moon Phases 2015, Northern Hemisphere
وهذه تواريخ بدايات بعض الأشهر القمرية لعام ١٤٣٦ هـ والتي ستأتي بعد طباعة هذا الكتاب:
رجب يبدأ يوم الإثنين ٢٠/ نيسان أبريل/ ٢٠١٥. شعبان يبدأ يوم الثلاثاء ١٩/ أيار مايو/ ٢٠١٥. رمضان يبدأ يوم الخميس ١٨/ حزيران يونيو/ ٢٠١٥. شوال يبدأ يوم الجمعة ١٧/ تموز يوليو/ ٢٠١٥. ذو القعدة يبدأ يوم الأحد ١٦/ آب اغسطس/ ٢٠١٥. ذو الحجة يبدأ يوم الإثنين ١٤/ أيلول سبتمبر/ ٢٠١٥. وتجمع الحجاج في عرفات يوم الثلاثاء ٢٣/ أيلول سبتمبر/ ٢٠١٥.
ورابط الفيديو هو: http://www.youtube.com/watch?v=tmmyu88wMHw

والتساؤل عن بداية صوم الصائم هي من التساؤلات التي أثيرت في عصور الفتن. لأن خيوط الفجر تعني أشعة النور التي تظهر في السماء من الجهة التي تشرق منها الشمس، كبداية للفجر. وهي التي يجب على المسلم أن يبدأ صومه عندما تبدأ بالظهور.

الآن كثيرون يثيرون التساؤل: هل يبدأ الصوم بانبلاج أول خيوط الفجر في السماء، أو عند تمييز خيط أبيض من خيط أسود حرفياً؟

والشمس تحدد النهار والليل، فالنهار يبدأ من اللحظة التي تبزغ فيها الشمس، وينتهي باختفاء كامل قرص الشمس تحت خط الأفق بالنسبة للناظر. ولو أن الآية قالت كلوا واشربوا في أيام رمضان لوجب التوقف عن الأكل والشرب مع بزوغ الشمس، وحل الأكل والشرب مع غروبها. لكن الآية تحدد بدء الصيام ببزوغ الفجر (الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر)، وليس ببداية النهار. والفجر ظاهرة تُحَدَّدُ بدقة بدء انبلاج النور وليس بدء النهار.

فالصوم يكون طوال النهار إضافة للوقت الفاصل بين بدء ظهور الفجر وشروق الشمس.

ويكون معنى «تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر» تعبيراً مجازياً يعني تبين انبلاج أول أشعة النور في صفحة السماء باتجاه المشرق بالنسبة للرائي.

وهذا الكلام لا يمكن أن يكون قد أشكل على الناس زمن الرسول ولم يسألوا الرسول عنه، خاصة أن المسلمين زمن الرسول صاموا عشر رمضانات[1]. ولو أشكل عليهم فسيكون في السنة الأولى وسيسارعون للرسول طلباً للتوضيح، ولو فعلوا لنزل القرآن بما يزيل الإشكال.

وتبين خيط أبيض من خيط آخر أسود عبث، بينما تبين شعاع الفجر في الأفق ظاهرة تتناسب مع تشريع الصوم الذي يعتمد الليل والنهار والفجر لتحديد أوقات الصوم ولا علاقة للخيوط والأقمشة في ذلك.

وهذا التساؤل يعود لعصر الظلمات والفتن وأول من قال به بعض المفسرين الذين لهم خلفية تلموديه. فقالوا إن المقصود خيوط فعلية أسود وأبيض، محاكاة لما ورد في التلمود ونصه: «يقرأ السماع فجراً منذ أن يميز بين خيوط اللونين الأزرق والأبيض إلى بزوغ

---

[1] على افتراض أن الرسول توفي بداية العام الحادي عشر الهجري، ورمضان فرض في السنة الأولى.

الشمس، وهي خيوط تتدلى من الشال الذي يلبسه اليهود».

متى يفطر الصائم

هل يفطر الصائم بمجرد غروب الشمس أم ينتظر حتى يغيب الشفق؟

يقول تعالى: .... وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ.... (١٨٧) البقرة.

اليوم عبارة عن نهار وليل، والعامل الحاسم في تحديد متى يبدأ النهار ومتى يبدأ الليل بدقة متناهية، هو الشمس، وليس اختفاء النور من السماء، كما سبق وذكرنا. لذا فالصيام يستمر إلى الليل، أي إلى أن يغيب قرص الشمس خلف الأفق.

ولو كان المقصود بالليل هو اختفاء الغسق (خيوط النور في السماء) لقالت الآية: «فأتموا الصيام إلى غسق الليل»، كما في تحديد نهاية وقت صلاة المغرب: أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) بني إسرائيل.

فالقرآن حدد بدقة بدء الصوم ليس بالنهار ولكن بخيوط الفجر، وحدد انتهاء الصوم بالليل وليس بغسق الليل.

الإفطار يكون حكماً

يعتبر الصائم مفطراً بعد غروب الشمس ولو لم يتناول شيئاً. لأن الإفطار يعني أن الأكل والشرب مباح، ولا يعني أن على الصائم أن يكسر صيامه بأكل أو شرب وإلا بقي صائماً أثناء الليل.

لكن شاع في عصر الظلمات والفتن أن على المفطر أن يكسر صيامه لئلا يستمر صائماً، واختلقوا أحاديث منسوبة للرسول تحرم ما أسموه بمواصلة الصوم. ويعنون به امتناع المرء عن الأكل والشرب أثناء ليل رمضان حتى يبزغ الفجر ويبدأ صوم اليوم التالي. كما اختلقوا أحاديث تحث وتحبب وتعطي أفضلية وأجراً وثواباً لمن يسارع بكسر صيامه حال غروب الشمس. ومن ذلك: "لاتزال أمتي بخير ما أخروا السحور وعجلوا الفطور".

ومثل هذه الأحاديث جعلت الناس في بلادنا يصابون بما يشبه الهستيريا قرب الفجر وبشكل أسوأ عند اقتراب الغروب. فتصبح الشوارع مسرحاً لسباق السيارات، ويكثر

تجاوز إشارات المرور، ويتسبب هذا التسارع إلى حوادث مميتة.

وكل هذا نتيجة لجهل من أشاع هذا المعتقد بأن الإفطار يكون حكماً ولو لم يأكل الصائم. يعني يحل للمرء الأكل والشرب بعد غروب شمس نهار رمضان، ومن لم يأكل فهو مفطر لأنه يستطيع الأكل ولا شيء عليه لكنه امتنع عن فعلٍ مباح، كمن يمتنع عن الأكل والشرب لعدة ساعات أثناء نهار أي يوم غير رمضان، فهو ليس صائماً ولكنه امتنع عن ممارسة ما يباح له فعله. لذا ليس على الناس التسابق المحموم على وضع التمر في أفواههم بمجرد سماع صوت الأذان، وليس على بعض المؤذنين وضع التمرة في فمه قبل أن يؤذن أو حال الأذان لأنه ليس هناك أجر للإسراع بالفطور. وليس هناك أجر لمن يبدأ بتمر يزيد على من يفطر بخبز أو أي نوع آخر من الطعام والشراب. وليس هناك أجر لمن يأكل آخر لقمة أو جرعة ماء مع أذان الفجر الذي اتخذ كعلامة على بزوغ الفجر وبدء الصيام في بلاد الحرمين وبعض البلاد العربية.

فالصيام – مرة أخرى – يعني تحريم الأكل والشرب من بزوغ الفجر لغروب الشمس. والإفطار يعني إباحة الأكل والشرب من غروب الشمس حتى بزوغ الفجر. فمن شاء فليأكل ويشرب أثناء هذا الوقت، ومن شاء فليمتنع لكنه مفطر حكماً في كلا الحالين.

وهذا الحل والإباحة مماثل لقوله تعالى: أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ(١٨٧) البقرة.

فهل هذا يعني أن على الصائمين ممارسة ما يحل لهم، وإلا أثموا، أم أنه يعني أن من ممارسته حلال، لمن رغب؟

ما المقصود بالذين يطيقونه؟

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٨٣) أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(١٨٤) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٨٥).

لنتذكر أن ترقيم الآيات لم يكن لها وجود في عصر الرسول، وإنما هو عمل اجتهادي توافقي بعد عصر الرسول. وهذا يعني أن الوقوف عند رقم الآية لا يعني انتهاء العبارة على الدوام.

لذا سنقوم بإعادة تقسيم الآيات حسب عباراتها وليس حسب رقم الآيات، هكذا:

(١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٨٣) أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ.

(٢) فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(١٨٤).

(٣) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ

(٤) فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ.

(٥) وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٨٥).

والآن سنعيد قراءة وفهم العبارات بترتيب مختلف لتتضح الصورة أكثر:

(١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٨٣) أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ.

الصيام كتب على المؤمنين وهو أيام معدودات من العام والمعني بالأيام المعدودات (شهر رمضان) (٣) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ

(٤) فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ

من شهد الشهر أي كان مقيماً (وليس مريضاً) فليصمه. هذا أمر وليس تخييراً.

فالصيام واجب على المقيم المتعافي، لا خيار له بتركه.

أما المريض أو الذي على سفر أي كان مرتحلاً خلال نهار يوم أو أيام في رمضان فيحل له الإفطار. كتيسير وتسهيل من الله. ومن أفطر فليصم نفس عدد الأيام التي أفطرها فيما بعد.

ومن أفطر بسبب المرض أو كونه على سفر (مرتحلاً في نهار رمضان) ثلاثة أيام مثلاً، وكان الشهر في تلك السنة (٢٩) يوماً فعلى من أفطر الثلاثة الأيام إكمال عدة الشهر (٣٠) يوماً

أي يصوم أربعة أيام، ثلاثة قضاء ما فات، ويوماً لإكمال عدة الشهر.

وتكرر الآيات الكلام للتأكيد ولتوضيح نقطة أخرى: (٢) فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(١٨٤)

من أفطر بسبب المرض أو كان مرتحلاً فليقض.

لكن من عليه قضاء وهو بصحة جيدة ومقيم، فله حق الاختيار بين أن يقضي الثلاثة الأيام التي أفطرها بمثلها أو ألا يصوم ويقدم فدية عن كل يوم طعام مسكين.

ومن اختار إطعام المسكين وقرر أن يزيد في الإطعام، سواء بكثرة الطعام أو زيادة عدد الأيام فبدل ثلاثة يطعم ستة أيام فهو خير له.

ويبقى صوم الثلاثة أيام التي أفطرها أفضل من الفدية.

مرة أخرى لم يكن فهم هذه الآيات صعباً زمن الرسول ولم يتساءل عنه الناس. ومع وضوحه يأتي الآن من يقول إنه يعني أن الناس في رمضان يمكنهم ترك الصوم والاكتفاء بإطعام المساكين. وهذا القول يعتمد على كتب التراث وتخاريف المفسرين المضحكة المبكية، التي سأذكر أهمها مع تعليق قصير، دون ذكر من قالها للاختصار:

القول الأول: قالوا إنه في أول الإسلام، خيّر الله تعالى من يطيق الصيام بين أن يصوموا ولا يكفروا، وبين أن يفطروا ويكفروا كل يوم بإطعام مسكين، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: (فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ)، وقال آخرون بل نسخ بقوله: (وَأَنْ تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ).

ومن قال بهذا لا يدري أن رمضان فرض في المدينة ولم يفرض منه شيء أول الإسلام في مكة. وسبب هذا أنهم قطعوا القرآن لآيات وأجزاء آيات. وقالوا إن جزء الآية هذا نزل في مكة والجزء الآخر في المدينة، واختلقوا لكل جزء سبب نزول، ومتى أحصروا قالوا نسخت الآية بآية أخرى.

والقول الثاني: أن من كان يطيقه في شبابه وكبرت سنه وعجز عن الصوم فليفطر ويفدي ولا قضاء.

وهذا قول بديهي فمن لا يستطيع الصوم لن يصوم، شاباً كان أو في أرذل العمر.

ومرة أخرى يتجلى جهلهم بالقرآن وأحكامه وتشريعاته، فمن لا يستطيع الصوم فلا جناح

عليه لو أفطر ولا يفدي ولا يقضي.

والقول الثالث: كان من شاء صام ومن شاء أفطر ودفع فدية عن كل يوم مسكينا حتى نزلت فمن شهد منكم الشهر فليصمه. فصار من يطيقه ولا يصومه فعليه فدية، ثم نسخت، بمن شهد منكم الشهر.

انظر كيف مزقوا الآية على شكل أجزاء كل جزء نزل في زمان ومكان مختلف عن بقية الآية.

وقول رابع: أنها نزلت في الحامل والمرضع فقط ثم نسخت.

وقول خامس: إنه أول ما فرض الصوم شق عليهم، فرخص لهم من يرغب في الإفطار فعليه فدية، إلى أن تعودوا على الصيام فنسخ الترخيص.

وقد تفرد ابن عباس بتشريع خاص. فقد كانت له أم ولد ترضع فأجهدت فأمرها أن تفطر ولا تقضي. وتأول الآية وكأنها نزلت للتسهيل على من تسرى بها خارج نطاق الزواج وبالحرام، ولما حبلت أراد ان يخفف عنها بالسماح لها بالإفطار في رمضان. فذهب ما قال مثلاً وأصبح تشريعاً للمسلمين.

لقد كان المفسرون يستسهلون التقول على الله أسهل من شرب الماء، ولكن المؤسف هو أننا تمسكنا بتخاريفهم واعتبرناها دين الله.

ولا يتوقف أحد ويتساءل: هذه ستة أقوال مختلفة في معنى جزء من آية، وكلها لا تستقيم مع المنطق قبل أن تستقيم مع عدل الله وحكمته وقدرته ومعرفته ما ينزل من أحكام. واعتمادها على علم لا صحة له والذي أسموه (الناسخ والمنسوخ).

ولو نبذنا قولهم بنزول القرآن على شكل آية وجزء من آية وقولهم بالناسخ والمنسوخ، فسنقرأ الآية ونفهمها بكل وضوح كما تقدم دون حاجة لتأويل المتأولين الذين لا يجدون غضاضة في تقويل الله ما لم يقل.

صلاة جماعية في ليالي رمضان

البعض يسميها تراويح، والبعض يسميها تهجداً، وآخرون يسمونها قياماً، وهي عبارة عن صلوات تقام خصيصاً في ليالي شهر رمضان. ويعتقد من يؤديها أن من سنها هو رسول الله عليه الصلاة والسلام ورغب فيها.

وهذا يستحيل أن يكون حدث:

- لأن الرسول لا يستطيع أن يفرض أي تشريع أو يحبب بعبادة دون القرآن.
- ولأن دين الله الذي يمثل تشريعاته كتابه، ليس فيه حكم يقول: للفاعل أجر ولا شيء على التارك، وهو ما يعرف في الفقه بالسنة والمستحب. والمباح والحلال في القرآن لا أجر لمن يقوم به، ولا ذنب لمن تركه. ومن ذلك أن الله جل وعلا يقول: أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٩٦) المائدة.

فصيد البحر حل، لكن لو لم آكله فليس علي ذنب. بينما في الفقه المعتمد على كتب التراث، يؤجر من يفعل المستحب والسنة، ولا ذنب على من تركها. ولا يأثم من فعل المكروه. مثل هذه الأحكام يخلو منها دين الله وكتابه. ويكون الرسول لم يأمر بما يسمى التراويح أو أي صلوات أو عبادات أخرى غير المفروضة، لأنها تدخل في حكم السنة والمستحب.

ويستدلون على هذه الصلوات بحديث روته كتب الحديث، وهذه إحدى رواياته في البخاري: حدَّثنا عبدُ الله بنُ يوسُفَ قال أخبرَنا مالكٌ عن ابنِ شهابٍ عن عُروةَ بنِ الزُّبيرِ عن عائشةَ أمِّ المؤمنينَ رضي اللهُ عنها أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم صلَّى ذاتَ ليلةٍ في المسجدِ فصلَّى بصلاتِهِ ناسٌ، ثمَّ صلَّى منَ القابلةِ فكَثُرَ الناسُ، ثمَّ اجتمعوا منَ الليلةِ الثالثةِ أو الرابعةِ فلم يَخرُجْ إليهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فلمَّا أصبحَ قال:قد رأيتُ الذي صنعْتم، ولم يمنَعْني منَ الخروجِ إليكم إلا أني خشيتُ أن تُفرَضَ عليكم، وذلك في رمضان.

ولو عدنا للحديث وتمعنا فيه فلن نجد أن الرسول حث الناس على أداء هذه الصلوات، لكننا سنجد أن الحديث ينص على أن الرسول نهى عنها وعن فعلها. وذلك بامتناعه من أدائها في المسجد لئلا يصلوا معه، وقوله لهم إنهم لو صلوها فيخشى أن تفرض عليهم.

ونقول هذا لمن يؤمن بالحديث.

وحتى هؤلاء يعلمون ألا أحد من الصحابة زمن رسول الله صلاها، باستثناء أولئك النفر المجهولين الذين لم يذكر من أسمائهم أحد. ولم يصلها أبو بكر، لأنه لم يصلها أحد في عصره، ولو كان صلاها لاستمر يصليها. ولم تورد كتب التراث أن أحداً من كبار الصحابة بالاسم قد صلاها.

وتقول كتب التراث إن عمر ابن الخطاب هو من أعاد أداء التراويح، وهذا هو الخبر الذي استدلوا به على ذلك: عنِ ابنِ شِهابٍ عن عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيْرِ عن عبدِ الرحمنِ بن عبدٍ القاريِّ أنهُ قال: خرَجتُ معَ عُمرَ بن الخطّابِ رضيَ الله عنهُ ليلةً في رمضانَ إلى المسجدِ فإذا الناسُ أوزاعٌ مُتفرِّقونَ يُصلِّي الرجلُ لنَفْسِهِ، ويُصلِّي الرجُلُ لنفسه ويُصلِّي الرَّجُلُ فيُصلِّي بصلاتِهِ الرَّهطُ. فقال عمرُ: إني أرَى لو جَمعتُ هؤلاءِ على قارئ واحدٍ لكانَ أمثَلَ. ثمَّ عزمَ فجمعَهم على أُبيِّ بنِ كعبٍ. ثمَّ خرَجتُ معهُ ليلةً أخرى والناسُ يُصلُّونَ بصلاةِ قارئهم، قال عمرُ: نِعْمَ البِدعةُ هذِهِ، والتي يَنامونَ عنها أفضَلُ منَ التي يَقومونَ - يُريدُ آخرَ الليلِ - وكانَ الناسُ يَقُومونَ أوَّلَهُ. رواه البخاري

وعبد الرحمن ابن عبد القاري - الذي نسب له الحديث - كل ما استطعت الاطلاع عليه حول ما قيل عنه في كتب الرجال أنه ولد في عصر الرسول.

فإذا كان عمر ابن الخطاب لم يصل هذه الصلاة طوال زمن رسول الله وزمن خلافة أبي بكر، ولم يصلها بنفسه عندما رأى الناس في خلافته يصلونها، ولم يصلها بعدما أمرهم بصلاتها جماعة «على افتراض أنه أمرهم»، فهل يعقل أن يأمر الناس بصلاة هو لم يقم بأدائها طوال عمره مرة واحدة؟ ولم يصلها بعدما أمرهم أبداً. خاصة أن الخبر ينسب لعمر أنه أطلق عليها «بدعة». فكيف سمح عمر للناس بمزاولة بدعة في مسجد رسول الله، وهو الذي ضرب عدداً من الصحابة لأنهم يحدثون عن الرسول، معتبراً تحديثهم عن الرسول بدعة.

وحتى لو افترضنا أن عمر قد أخطأ عندما قال للناس صلوا جماعة في صلاة يعلم هو قبل غيره أنها بدعة، فهل من الشرع طاعة عمر؟

وحتى لو أطاعه الناس فلن تتحول البدعة إلى فضيلة يثيبهم الله عليها، لأن عمر أو غير عمر أمر بأدائها. ولو كان عمر فعل ذلك - وهو لا يمكن أن يكون فعل - لأثم بتصرفه وتشجيعه للناس على أداء صلاة رفض الرسول أن يصليها الناس معه. وأثم الناس بصلاتهم وطاعة عمر، لأن عمر ليس نبياً يوحى إليه، ولا يستطيع تشريع صلاة لم يفرضها الله على الناس. ولو أن هذا ما حدث فيأثم كل من يصلي تلك الصلاة لأنه جعل عمر رباً من الأرباب من دون الله.

ثم إن مسمياتها لم يسمها الله ولا رسوله، بل إن هذه المسميات لم يسمع بها الناس في عصر

الرسول وحتى عصر عمر ابن الخطاب على الأقل، وقد لا يكون الناس سمعوا بها إلا فيما بعد عصر الفتوح. ولم يتفق المسلمون على عدد ركعاتها أبداً.

أصل هذه الصلوات

يبدو أن الناس في عصر الظلمات تناقلوا أخباراً عن سهر الرسول الخاص الذي كلفه القرآن به لوحده، في بداية البعثة لتهيئته لتحمل أعباء الدعوة، والذي ورد في العشر الآيات الأولى من سورة المزمل: يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ(١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً(٢) نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً(٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً(٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً(٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءاً وَأَقْوَمُ قِيلاً(٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً(٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً(٨) رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً(٩) وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً(١٠).

وكما نرى فالآيات تأمر الرسول وحده على السهر للتأمل وتلاوة القرآن وذكر الله وليس هناك أمر بأداء صلوات أبداً[١]. وبعد هجرة الرسول وقيام دولة المسلمين انتفت الحاجة لبقائه عليه الصلاة والسلام مستيقظا طوال الليل للتأمل والذكر، فنزل القرآن يعفي الرسول من قيام الليل فيما اعتبر آخر آية في سورة المزمل (وهي سورة قائمة بذاتها ألحقت بسورة المزمل أو أنها كتبت بعدها فظن الناس في عصور لاحقة أنها منها فألحقت بها): إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٢٠).

والآية (السورة) تظهر أن الرسول التزم بأمر القرآن الذي ورد في أول سورة المزمل بدقة طوال السنوات التي قضاها في مكة وداوم على ذلك بعد الهجرة حتى نزلت هذه الآية (السورة) التي نزلت بعد أشهر من الهجرة.

وتظهر الآية (السورة) أن نفراً من المسلمين كانوا يسهرون بسهر الرسول ويصلون بصلواته،

---

١ انظر قسم الأحداث واعتكاف الرسول في غار حراء للمزيد.

فجاء الأمر الصريح للرسول ومن صلى بصلاته أن يتوقفوا – لانتفاء الحاجة لها – ولكي ينصرفوا لأعمالهم الدنيوية وللجهاد وعليهم إقامة الصلوات المفروضة وإيتاء الزكاة.

فتوقف الرسول ومن تابعه من المسلمين، وانتهى أمر سهر الليل. لذا لم يكن الناس يفعلونه في عصر أبي بكر.

وفي عصر الظلمات والفتن كان البعض يبحث عن أي خبر يتحدث عن أي عبادة كان الرسول يؤديها غير ما فرض على المسلمين، ومن ثم يحاول أن يقوم بها ويأمر الناس بفعلها، تأسياً برسول الله. ومما تسامع به الناس أن الرسول كان يقوم الليل، فتناقل الناس أن الرسول كان يقوم الليل ليس فقط لذكر الله وتسبيحه وقراءة القرآن، بل وليصلي. وتحولت متابعة نفر من المسلمين له بقيام الليل لتلك القصة التي تقول إنهم رأوه يصلي فصلوا بصلاته إلى أن احتجب عنهم بعد عدة ليال[1]. وحتى لو افترضنا أن الرسول كان يصلي صلوات غير المفروضة، وصلى معه بعض الصحابة، فإنه لا يستطيع أن يمنع الناس من الصلاة. وكان سينتظر نزول القرآن ليتلو عليهم أنهم ممنوعون، كما جرت عليه عادته كرسول. ولم ينزل قرآن يأمر بوقف صلاة، لأنه لم يحدث أن صلى الرسول غير المفروضة وصلى أحد بصلاته.

ومع الأيام أصبحت هذه الحكاية تترسخ شيئاً فشيئاً وتم تقويتها بقصص أخرى مثل تلك القصة المروية عن عمر وأنه وصفها «بنعم البدعة» وأمرهم بأن يصلوها جماعة. وهكذا تحول سهر الرسول من أجل التأهيل النفسي في بداية الدعوة، إلى صلوات جماعية يؤديها الناس لأن الناس تناقلوا سهر الرسول مشافهة وزيد عليه وعدل وبدل إلى أن تحول لصلوات يحرص الناس على أدائها. وخصوا رمضان بها، مع أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يسهر طوال ليالي العام قبل أن تنزل عليه السورة الملحقة بآخر سورة المزمل والتي تعفيه ومن تبعه من المسلمين وسهروا بسهره:" إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا

1 ولعل الرسول كان في بداية الهجرة وقبل نزول سورة (آخر آية من المزمل) يسهر الليل في مسجده الملاصق لحجراته، وقد لاحظ بعض المسلمين ذلك فكانوا ينضمون إليه. ولعله بالفعل قد أخبرهم أنه لن يسهر في المسجد بعد ذلك واضطر لمواصلة السهر في حجرته بعد ذلك.

الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ".

وهذه السورة (الآية) نزلت في السنة الأولى من الهجرة وقبل أن يفرض الصوم. لكن الناس خصوا بها رمضان دون بقية الشهور بما عرف بالتراويح.

وفي تطورات أخرى قام الناس بإضافة ما عرف (بالشفع والوتر) وهي ختام التراويح بركعة واحدة أو ثلاث وتكون مصحوبة بما شاع اسمه (القنوت) وهو دعاء يعتمد السجع في ألفاظه وإسباغ الحزن على الصوت، ويقال بعد الرفع من الركوع في آخر ركعة.

وهكذا تطور مفهوم صلوات الليل زماناً بعد آخر حتى أصبحت بصورتها الحالية.

وأصبحت خاصة برمضان، ويحرص الناس على أدائها أكثر من حرص بعضهم على أداء الصلاة المفروضة. بل إن النساء يحضرن للمساجد لأداء تلك الصلوات، ولا يحضرن لأداء صلاة المغرب التي تسبقها.

وأصبحت تلاوة القرآن أثناء تلك الصلوات تجارة يتلقى المقرئ الحسن الصوت أموالاً مقابل إمامته لأن المقرئ الحسن الصوت يؤدي لامتلاء المسجد بالمصلين ويجذب النساء أكثر[1].

الاعتكاف

يعني لزوم المكان أو الشيء دون تحديد لمدة.

وسنستعرض الآيات التي ذكرت الاعتكاف لكي نلم بالمعنى الكامل للفظ بعيداً عن أقوال المفسرين.

الآية الأولى

قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١) طه.

والحديث في الآية عن بني إسرائيل الذين عبدوا العجل أثناء غياب موسى لتلقي التوراة. وعبادة العجل لا تعني أن القوم مستمرون طوال ساعات الليل والنهار على عبادة العجل،

---

[1] انظر فصل: كتب التراث المعروفة بعلوم الدين/ فقرة: تلاوة القرآن بإيقاع/ قسم تدبر القرآن.

ولكنها تعني أنهم يتبركون به ويعبدونه لبضع دقائق خلال اليوم والليلة، ومع ذلك وصفتهم الآية بأنهم عاكفون.

ويفهم من هذا أن الاعتكاف يعني أداء فعل لوقت قصير ثم معاودة ذلك بعد فترة بتكرار مستمر ولا يعني ملازمة الفعل لوقت طويل.

الآية الثانية

قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً(٩٧) طه.

موسى في الآية يخاطب السامري - الذي صنع العجل الذي عبدته بنو إسرائيل- واصفاً إياه بأنه ظل عاكفاً على عبادته. وعكوف السامري على عبادة العجل مشابهة لعبادة بني إسرائيل للعجل، ليس مستمراً طوال الليل والنهار ولكنه قد يومئ للعجل مرة أو مرات في اليوم وبقية الوقت يصرفه في أعمال أخرى لا علاقة لها بالعجل. لكن مجرد اعتقاده بعبادة العجل طوال الوقت ومعاودته التوجه بالعبادة له، فهو عاكف على عبادته.

ويفهم من هذا نفس معنى الاعتكاف في الآية السابقة.

الآية الثالثة

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ(٥٢) الأنبياء.

إبراهيم يصف عبادة أبيه وقومه للتماثيل على أنها اعتكاف، مع أنهم يقضون معظم ساعات الليل والنهار بعيداً عنها. وقد تمر أيام دون أن يتوجه أحدهم للأصنام. لكنهم وإن لم يقوموا بأداء حركات تعبدية فهم يؤمنون بعبادتها طوال الوقت. فهم عاكفون على المعتقد، وإن لم يمارسوه على الدوام.

فالاعتكاف لا يعني الالتزام بالمكان ولكن بالمعتقد.

وهو ما كررته سورة الشعراء في قوله تعالى: قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ(٧١).

الآية الرابعة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(٢٥) الحج.

الآية تتحدث عن صد قريش المسلمين من دخول البيت، في أواخر الدعوة في مكة، وهذا ليس من حقهم. لأن البيت وضع لكل الناس سواء العاكف (أي من اهل مكة) أو الباد (القادم من بلاد أخرى).

فالعاكف تعني من يتردد باستمرار على البيت كونه في مكة وقد يحضر عدة مرات في اليوم للبيت. بينما الباد يقدم لمكة لعدة أيام من أجل الحج، ولا يقضيها في الاعتكاف. فهو ليس عاكف. بمعنى مداوم على المجيء.

وهو نفس معنى الاعتكاف في الآيات السابقة.

الآية الخامسة

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(١٢٥) البقرة.

والعاكفون في الآية تشير لمن يقطن مكة، وبإمكانهم المجيء للبيت على الدوام وكل يوم.

وهو نفس معنى الاعتكاف في الآية السابقة.

الآية السادسة

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ(١٨٧) البقرة.

المسلمون في المدينة زمن الرسول لم يكونوا يقضون رمضان في المسجد كما يفعل الناس حالياً. لكنهم عاكفون على المجيء للمسجد خمس مرات في اليوم ولنفس المسجد. وقد يبقى الرجل بعض الوقت في المسجد بعد أو قبل الصلاة. لكن لا يبيتون في المسجد أو يبقون عدة أيام أو العشر الليالي الأخيرة من رمضان كما يفعل الناس اليوم. فهذا استيطان

وليس اعتكافاً.

والآية جاءت لتنهى عن مباشرة النساء في المساجد وليس من أجل تشريع الاعتكاف. فقد يبقى المصلي لبعض الوقت في المسجد، وفي حال قدمت إليه امرأته فلا يجوز له مباشرتها أو مقدمات المباشرة في المسجد. سواءً كان هذا في رمضان أو في غيره من الأشهر. لأن الحديث عن مباشرة النساء في رمضان توقف عند قوله: «ثم أتموا الصيام إلى الليل». وبدأت السورة بموضوع جديد وهو النهي عن مباشرة النساء في المسجد.

والقرآن كله يخلو من تشريع لما يسمى "الاعتكاف"، لأنه ليس هناك اعتكاف بالمعنى الشائع حالياً. والاعتكاف ورد في القرآن ضمن سياق إخباري عن أحداث وقعت ولم يرد في القرآن آية تشريع واحدة تفرض الاعتكاف.

ويكون الاعتكاف هو تكرار الحضور للمكان أو فعل الشيء ذاته مع الاعتقاد الدائم بما نفعل.

فالمسلم يؤمن بالله ودينه وأن الصلاة واجبة طوال الوقت فيتردد على المسجد دائماً لأدائها، وقد يبقى فيه لبعض الوقت خارج وقت الصلاة. وبما أن المسلمين زمن الرسول كانوا يؤدون الصلاة جماعة في المسجد نساءً ورجالاً، ومن الطبيعي أن يبقى رجل بعد أداء الصلاة في المسجد وتبقى زوجته. ولابد أنه حدث بالفعل أن رجلاً أو أكثر واقع امرأته بالفعل في المسجد، فنزل النهي، لأن القرآن لا يفترض مواقف لم تحدث ويفرض لها أحكاماً.

وليس هناك أخبار مؤكدة تشير إلى أن رسول الله كان يبقى في المسجد ليوم كامل أو لعدة أيام على شكل اعتكاف بمعناه الشائع. وعلينا أن نتذكر أنه في زمن الرسول لم تكن المساجد مليئة بالمصاحف مثل هذه الأيام، ليعتكف المسلمون لقراءة القرآن. فقد كان القرآن يحفظ في الصدور، وكل من يرغب في قراءة القرآن فليستحضره من ذاكرته وهو في بيته أو في مكان يخلو فيها لنفسه، ولا يشترط تواجده في المسجد.

وكل ما نراه اليوم من تخصيص أيام سبات وإقامة في المسجد وخلوة وانقطاع هي صورة منسوخة لحياة الدير في البلاد المفتوحة، حيث ينقطع رجال الدين المسيحيون عن الحياة العامة في أديرتهم لتلاوة الكتاب المقدس والعيش الخشن. وقد أبقى من دخل الإسلام منهم على هذه الرهبنة على شكل ما عرف بالاعتكاف.

ويبقى التذكير بحديث يقول: "كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به".

ومن اختلق الحديث يظن أن كل البشر تناسلوا من آدم. وما آدم سوى بشر خلقه الله بدون أب وأم والأرض عامرة بسكانها البشر وبسلالاتهم الحالية.

وهذا الحديث مختلق لأنه لا يمكن أن يكون قاله الله ولا قاله رسوله، والدليل هو:

إن كان الصوم فقط لله والله جل وعلا من يجزي به، فلمن الصلاة ومن يجزي بها؟

ولمن الحج ومن يجزي به؟

ولمن العدل وقول الحق والبعد عن الزور والإحسان والإنفاق وكل الأعمال الصالحة المأمور بها في القرآن، ومن يجزي بها؟

ولنفترض أن مختلق الحديث بلغ به السفه أنه لا يعي ما يقول، فكيف غُشيت عقول مؤلفي كتب الحديث وضمنوه كتبهم؟

وكيف غشيت عقول أتباع المذاهب ورددوه في مجالس قصصهم؟

وكيف غشيت عقول من يرتاد مجالسهم ومن يستمعون لهم ولم يفطنوا إلى أن هذا الحديث لا يستقيم، ونسبته لله تشبيه له بمختلق الحديث. وكأن الله غشي على عقله[1] فقال كلاماً لا معنى له. (تبارك الله وتنزه وتعالى عما يقولون علواً كبيرا)

فكل الأعمال مطلوبة من الله وعلى المسلم فعلها ليس لأن الله بحاجتها، ولكن لأنها جواز سفر للجنة لمن يرغب.

ونختم الحديث عن شهر رمضان بالقول إنه شهر لا تفتح فيه أبواب الجنان ولا تغلق أبواب النيران، بالمعنى الحرفي ولا بالمعنى المجازي. وليس فيه صلوات إضافية. وهو شهر لا تقبل فيه الأعمال الصالحة أفضل من غيره، ولا يجب أن يقل فعل الخيرات في غيره من الأشهر عنه.

في المقابل ليس شهر رمضان شهراً للمجون والسهرات، ولا للنوم في النهار. ولا للإسراف في الطعام والشراب. وليس شهرا تقصر فيه ساعات العمل، وينخفض الأداء ويقل الإنتاج. (طبعاً بلادنا العربية ليست منتجة ولن يلاحظ أي انخفاض لا للأداء ولا للإنتاج، لأنها

---

1 نسبة العقل لله من باب المجاز، استدعته ضرورة الحديث، وليس تثبيت ما للبشر للخالق الذي ليس كمثله شيء.

أصلاً في أدنى المستويات).

شهر رمضان بكل بساطة شهر لا يأكل في نهاره المسلم ولا يشرب، دون أن يكون هناك تغيير في مواعيد النوم والنهوض والعمل والنشاط.

زكاة الفطر

ليس هناك آية واحدة تشير لها، وكل ما تقوم عليه حديثان:

أحدهما ينسب لابن عباس ويقول فيه: "فَرَضَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَكَاةَ الْفِطْرِ طُهْرَةً لِلصَّائِمِ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ، وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ، مَنْ أَدَّاهَا قَبْلَ الصَّلَاةِ فَهِيَ زَكَاةٌ مَقْبُولَةٌ، وَمَنْ أَدَّاهَا بَعْدَ الصَّلَاةِ فَهِيَ صَدَقَةٌ مِنَ الصَّدَقَات".

والحديث الآخر تسب لابن عمر ويقول: «فَرَضَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَكَاةَ الْفِطْرِ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ عَلَى الْعَبْدِ وَالحُرِّ، وَالذَّكَرِ وَالأُنْثَى، وَالصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَمَرَ بِهَا أَنْ تُؤَدَّى قَبْلَ خُرُوجِ النَّاسِ إِلَى الصَّلَاةِ".

والحديثان لو افترضنا أن نسبتهما لمن نسبا له صحيحة فهما ابن عباس وابن عمر، وليس فيهما كلام للرسول.

وصوم رمضان عبادة والزكاة عمل صالح واجب، لا علاقة له بالعبادات ولا يرتبط بها. وكما أن عبادة الصلاة ليس لها زكاة، وعبادة الحج ليس لها زكاة، فلماذا يكون للصيام زكاة؟

وماهي غاية زكاة الفطر؟

فإن كانت زكاة الفطر لمعاونة المحتاج فإنها تدخل في الزكاة العامة التي هي صفةٌ للإنفاق في القرآن. والإنفاق واجب على كل قادر ويهدف لسد حاجة المحتاج في أي وقت يحتاج، ولا يقتصر على المواسم، ويؤدى كلما دعت الحاجة وليس مرة في العام.

ولماذا يجب إخراجها قبل صلاة العيد؟

فإن أخرجت بعده فتتحول إلى صدقة بالمفهوم الشائع؟

فتحديد وقت لإخراجها يجعلها كالصلاة المفروضة، وكأن لها وقتاً مفروضاً.

كما أن قولهم إنها لو أخرجت بعد الصلاة فهي صدقة يشير إلى معتقدات رسخت في عصور ما بعد الفتوح، منها:

أن إسلام القرآن عندما يذكر الصدقة فهي تعني الإنفاق.

أن الإنفاق في القرآن واجب على القادر وحق للمحتاج لسد كل احتياجاته.

أن الصدقة بمعناها الشائع عبارة عن تقديم فتات لا يغني ولا يشبع من جوع من الغني للفقير، يشعر الفقير بالذلة ويشعر الغني بالزهو. وهو بخلاف رسالة الإنفاق القرآني الذي تتمثل غايته بتحقيق التكافل الاجتماعي وحرب الفقر وسد حاجات المحتاج مع احتفاظه بكرامته. فما يدفعه القادر واجب عليه وما يحصل عليه المحتاج حق له لا مجال فيه لمنة ولا معروف ولا تفضل.

وزكاة الفطر عبارة عن صدقة بمعناها الشائع الآن، سواءً سمتها كتب التراث زكاة أو لم تسمها. وسواءً أخرجت قبل صلاة العيد أو بعده.

وذكر صلاة العيد في الحديثين يؤكد اختلافهما، لأن صلاة العيد ليست مفروضة في الإسلام ولا يمكن إثبات أن الرسول صلاها. لأنه لا وجود لها في القرآن، ولا يمكن أن يفرض الرسول صلوات ليست في القرآن.

وستتحدث عن العيدين لاحقاً.

ويكون كل ما قامت عليه «زكاة الفطر» هو حديثان منسوبان لابن عباس الذي لم يعش في المدينة زمن الرسول، ومات صلوات الله عليه وهو طفل. وقد يكون الحديث الثاني امتداداً للأول ومنسوباً أصلاً لابن عباس، ثم فصل كحديث مستقل ونسب لابن عمر.

ودين الله لا يقوم على أقوال ظنية لا يعلم من نقلها ولا من قالها، أو لماذا قالها وما هي دوافعه. ولكن الدين يقوم على كتاب الله، وكتاب الله بريء من ذكر زكاة الفطر[1].

العيدان

هل فرض الإسلام العيد؟

** القرآن المجيد يخلو تماماً من أي إشارة لفرض عيد على المسلمين.

وقد ورد لفظ «عيد» في القرآن مرة واحدة: قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(١١٤)

---

١ من يرى ما يحدث الآن في السعودية من بيع لكميات هائلة من الأرز في السعودية بأحجام مقدرة لتكون زكاة للفطر ي

المائدة.

والعيد في الآية ليس بمفهوم العيد السائد والذي يعني مناسبة دورية لإظهار الفرح، ولكنه في الآية يعني وليمة.

** والقرآن لا يتحدث عن الأعراف السائدة والعادات ما لم تتناقض مع تشريع.

** هناك أحاديث تذكر أن الرسول صلى العيد، لكن لا يوجد حديث يفرض العيد كتشريع ديني.

وأرجو أن يكون الفرق واضحاً بين أن يقال أدى الرسول صلاة العيد أو حضر عليه الصلاة والسلام العيد، وبين أن يقال أمر الرسول بالعيد أو بصلاة العيد، أو قال: صلوا العيد أو صلاة العيد فرض...الخ.

** وبما أن كتاب الله يخلو من ذكر العيد ويخلو من تشريع يفرض صلاة العيد فهذا يعني أنه عرف اجتماعي مباح ولا شأن لدين الله به.

وحكم صلاة العيد في فقه المذهب: فرض كفاية.

ويشرحون مصطلحهم هذا بأنه: إذا قام به البعض سقط عن البقية.

يعني لو صلى جماعة صلاة العيد سقط وجوبه على بقية أهل البلدة. وما لم يفطن له من قال بهذا الحكم هو: أن كان من لم يصل العيد سينال أجر من صلاه بحكم أن صلاته فرض كفاية؟

وتعريف فرض الكفاية يخرجه من أن يكون من دين الله. لأن دين الله كل تشريع فيه مطلوب من كل مسلم ومسلمة ولا يسقط عن البعض لأن البعض الآخر قام به.

ونحن هنا لا نقول بعدم إقامة العيد ولا كراهية إقامته ولا ضد أن يكون هناك أيام فرح ومتعة للناس، فليس هذا موضوعنا. ما نتحدث عنه هو: هل عيدا الفطر والأضحى من دين الله؟

هل لي أجر من الله لو شاركت بصلاة العيد أو بمظاهر العيد؟ وهل علي ذنب لو لم أفعل؟

الجواب: لا!

العيد مظهر اجتماعي ومناسبة تقرب بين الناس، وليس في الدين نهي أو أمر بإقامته.

الاعتراض ألا ينسب العيد لدين الله وينظر له على أنه تشريع وفريضة دينية.

ونتوقف هنا قليلاً عند حديث يقول: لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ.

ونسأل: لماذا يفرح المسلم بانتهاء شهر الصوم لدرجة أنه يقيم الأفراح ويعتبر انتهاء شهر الصوم عيد؟

ألا يوحي هذا وكأن الصوم هم وانزاح؟

وكأن الصائم في نهاية رمضان يتمثل بالمثل الشعبي القائل: فراقك عيد.

كيف يعقب المسلم شهر الصوم برقص وغناء وفرح؟

الخلاصة: عيد الفطر وعيد الأضحى مناسبتان اجتماعيتان ترسخت بين المسلمين وتفردوا بها عن بقية الناس، ولا أدري متى ظهرتا للوجود. ما يجب أن يعرفه الناس أن الله جل وعلا لم يأمر بصلاة العيد ولا بإقامة العيد. وهذا لا يعني أن العيد ومظاهره السعيدة حرام أو منهي عنها أو مكروهة. بل هي مباحة، لكنها ليست من دين الله.

ولو اتفق الناس على الاحتفال بمناسبة ما، واعتادوا الاحتفال بها سنوياً فلا شأن للدين بهذا، مثل الأعياد الزراعية في بعض البلاد والأعياد المحلية لبعض البلدان الأخرى فكلها لا شأن للدين بها لا أمراً ولا نهياً.

صيام ستة أيام من شوال

يعتمد رجال الدين الذين يُرغّبون الناس في صيام ستة أيام من شوال على خبر نسب للرسول، ونصه: مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ بِسِتٍّ مِنْ شَوَّالَ فَكَأَنَّمَا صَامَ الدَّهْرَ، أو فَكَأَنَّمَا صَامَ السَّنَةَ كُلَّهَا.

وهذا الخبر لم يرد في كتاب البخاري (١٩٤-٢٥٦ هـ)، وأورده مسلم،(٢٠٦-٢٦١ هـ) وكرره أحمد (١٦٤_٢٤١ هـ) في مسنده، والترمذي (٢٠٩-٢٧٩ هـ) والدارمي (١٨١-٢٥٥) وأبو داوود (٢٠٢-٢٧٥ هـ). وقد ورد الخبر إما عن طريق سعد بن سعيد الأنصاري، الذي ينسب منه الخبر إلى عمر ابن ثابت، ثم إلى أبي أيوب الأنصاري. أو عن طريق سعيد بن أبي أيوب ومنه نسب إلى عمرو بن جابر الحضرمي عن جابر بن عبد الله في

عدد من الروايات في مسند أحمد. وعمرو ابن جابر الحضرمي من غلاة الشيعة كما ورد في تاريخ الثقات للعجلي.

وقد أورد مالك ابن أنس (٩٣-١٧٩ هـ) في الموطأ خبراً أظهر بجلاء كيف بدأت فكرة صيام ستة أيام شوال بين الناس، وكيف كان موقف رجال دين والناس المتدينين من هذا الصيام، ثم توقعاته في أن هذه البدعة سوف تتحول مع الأيام إلى فضيلة تقرب من الفريضة.

وهذا نص ما ورد في الموطأ: قَالَ يَحْيَىٰ: وَسَمِعْتُ مَالِكاً يَقُولُ فِي صِيَامِ سِتَّةِ أَيَّامٍ بَعْدَ الْفِطْرِ مِنْ رَمَضَانَ إِنَّهُ لَمْ يَرَ أَحَداً مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفِقْهِ يَصُومُهَا وَلَمْ يَبْلُغْنِي ذَٰلِكَ عَنْ أَحَدٍ مِنَ السَّلَفِ وَإِنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ يَكْرَهُونَ ذَٰلِكَ وَيَخَافُونَ بِدْعَتَهُ وَأَنْ يُلْحِقَ بِرَمَضَانَ مَا لَيْسَ مِنْهُ أَهْلُ الْجَهَالَةِ وَالْجَفَاءِ لَوْ رَأَوْا فِي ذَٰلِكَ رُخْصَةً عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَرَأَوْهُمْ يَعْمَلُونَ ذَٰلِكَ. إنتهى!

وكتاب الموطأ قام مالك بتأليفه بتكليف رسمي من أحد خلفاء بني العباس وأغلب الظن أنه المنصور الذي طلب منه أن يضع كتاباً للناس يحملهم على الاستشهاد بما جاء فيه من أحاديث وترك ما عداها مما كان منتشراً بين الناس ويتناقلونه من أحاديث. ويعتبر أقدم كتب الأحاديث الموجودة لدينا الآن، وتأليفه سبق تأليف البخاري لكتابه بنحو مئة عام.

وقد بقي موطأ مالك بأحاديثه الأقل من (١٠٠٠) حديث الكتاب الوحيد للأحاديث المنسوبة للرسول أكثر من نصف قرن. وما إن بدأ البخاري بجمع الأحاديث المنتشرة في عصره وتسامع بذلك الناس حتى انبرى كثيرون غيره لجمع الأحاديث التي يتناقلها الناس في مجالس قصصهم مشافهة. وقد حوت كتب الحديث التي ألفت في تلك الحقبة أحاديث تزيد بعشرات ومئات الأضعاف عما حواه كتاب الموطأ. وهذا يعني أن دخول البدع والتشريعات البشرية للموروث الديني مستمر، وكلما مر الزمن ظهر للوجود أحاديث تعتمد عليها البدع الجديدة، لم يسمع بها الناس في عصور سابقة.

وهو ما ينطبق على بدعة صيام ست من شوال، والتي لم تكن معروفة في القرن الأول ولا بداية القرن الثاني ثم بدأت في الظهور منتصف القرن الثاني كبدعة، عندما ألف مالك الموطأ، وأصبحت فضيلة منذ منتصف القرن الثالث للهجرة. لذا نجد أن البخاري لم ينقل في كتابه أي خبر يُرَغِّبُ في هذا الصيام لأن «أَهْلُ الْجَهَالَةِ وَالْجَفَاءِ» -كما سماهم مالك- لم

يلحقوه برمضان بعد.

وأول من أورده كان مسلم، وذلك تحت باب أسماه: باب استحباب صوم ستة أيام من شوال إتباعاً لرمضان. وهو ما يشير إلى أنه في عصر مسلم انتشر صوم ستة أيام شوال أكثر بين الناس، فأورد مسلم الحديث ولكنه ذكر أنه للاستحباب فقط، مثلما أورد باباً آخر بعنوان: باب استحباب التزوج والتزويج في شوال، واستحباب الدخول فيه. وكأن التزويج في شوال له درجات عند الله أكثر ممن يتزوج في شهر آخر.

ثم تبع مسلم غيره في ذكر حديث استحباب صوم ست من شوال، وأحاديث ظهرت لاحقا، مما جعل رجال دين الذين جاؤا في عصور لاحقة، يعتقدون بأن ورود الخبر في كتب مسلم والترمذي والدارمي وأبي داوود وغيرهم يعني أن الرسول والصحابة قد صاموه بأمر من الله، فصامه «أهل العلم» (رجال الدين) في عصور لاحقة، بعدما كانوا يتكرهونه في عهد مالك، وأوصوا غيرهم بصيامه.

وهكذا صدق حدس مالك، فقد بدأ في زمانه ينتشر بين الناس صيام الستة الأيام من شوال، مع إنكار رجال الدين (أهل العلم) له باعتباره بدعة لم يفعلها السلف، ولكن هذا لم يمنعه من الانتشار.

واليوم، فصيام ستة أيام من شوال يقرب في فضله بين الناس من فضل صيام رمضان، على الأقل في بلاد الحرمين. وينظر إلى الشخص الذي لا يصوم هذه الأيام الستة، على أنه ترك عبادة من العبادات، ولم يعد أحد يجرؤ على القول بأن هذا الصيام بدعة كما قال عنه مالك، وإلا لتعرض للاتهام بالمروق من الدين وحوكم على مقولته.

صلاة وصوم الحائض

حدَّثَنا سَعيدُ بنُ أبي مَريمَ قال: أخبرَنا محمدُ بنُ جَعفرٍ قال: أخبرَني زيدٌ هوَ ابنُ أسْلَمَ عن عِياضِ بنِ عبدِالله عن أبي سَعيدِ الخُدْرِي قال: «خَرَجَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم في أضحى ـ أو في فِطرٍ ـ إلى المصلَّى، فمرَّ علَى النساءِ فقال: يا مَعشَرَ النساءِ تَصَدَّقنَ، فإني أُريتُكُنَّ أكثرَ أهلِ النارِ. فقُلنَ: وبمَ يا رسولَ الله؟ قال: تُكثِرْنَ اللَّعنَ، وَتكفُرْنَ العَشيرَ، ما رأيتُ من ناقِصاتِ عَقلٍ ودِينٍ أذهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحازِمِ مِن إحداكُنَّ. قلنَ وما نُقصانُ

دِينِنا وعَقلِنا يا رسولَ اللهِ؟ قال: أليسَ شَهادةُ المرأةِ مِثلَ نِصفِ شَهادةِ الرجُل؟ قلن: بَلى، قال: فذلِكَ من نُقصان عَقلِها. أليسَ إذا حاضَتْ لم تُصَلِّ ولم تَصُمْ؟ قلن: بَلى. قال: فذلِكَ من نُقصانِ دِينِها» رواه البخاري.

والحديث له روايات أخرى عند مسلم وغيره من كتب الحديث.

والحديث عندما قال: «شَهادةُ المرأةِ مِثلُ نِصفِ شَهادةِ الرجُل»، يشير إلى الآية (٢٨٢) من سورة البقرة، فلماذا لا نتدبر هذه الآية ونرى هل تعني فعلاً أن شهادة المرأة نصف شهادة المرأة، أم إن المفسرين على عادتهم، يؤولون آيات القرآن لغير معناها الذي نزل على محمد.

يقول تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيراً أَو كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ٢٨٢).

وقوله تعالى: «وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ» يعني أن المطلوب هو شهادة شاهدين.

ثم يقول تعالى: «فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء»، ولكنه لا يقف هنا، بل يبين سبحانه وتعالى السبب من وجود امرأتين، وهو: «أن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى»، وليس المقصود أن المرأة بنصف شهادة الرجل. لأنه لو لم تضل الشاهدة الأولى وتدلي بالشهادة كاملة، فلن نحتاج لسماع شهادة الأخرى، وتكون الشهادة تمت بامرأة واحدة ورجل واحد.

أما لماذا تضل (تنسى) المرأة ولا ينسى الرجل، فلعل كون الاشتغال بالمال والتجارة كان في عصر الرسول بيد الرجل، ولم يكن من اهتمامات المرأة في العادة. وكل ما ليس في اهتمامات الشخص فنسيانه يكون أسرع.

أما قول الحديث بأن المرأة ناقصة دين لأنها إذا حاضت لا تصلي ولا تصوم، فهي حاضت لأن الله خلقها لتحيض، كعملية طبيعية لتخرج البويضة التي لم تلقح من جهازها التناسلي وتنظفه. وهذه المهمة نبيلة ويقوم عليها استمرار الجنس البشري، وليس فيها من نقص الدين أو العقل شيء.

وتبقى المرأة تتمتع بنفس قدرات الرجل العقلية، وعليها نفس الواجبات الدينية، وهي كاملة العقل والدين، إن هي آمنت وعملت صالحاً، ولها نفس الجنة التي للرجل: مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ(٤٠) غافر.

فمن رغب في كتاب الله فالمرأة كما الرجل لا فرق. ومن رغب في كتب الأخبار فالمرأة ناقصة عقل ودين وأكثر أهل جهنم، كما قالت الأحاديث.

صوم الحائض

حدّثنا عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ : أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ مُعَاذَةَ قَالَتْ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ ، فَقُلْتُ : مَا بَالُ الْحَائِضِ تَقْضِي الصَّوْمَ وَلاَ تَقْضِي الصَّلاَةَ؟ فَقالَتْ: أَحَرُورِيَّةٌ أَنْتِ؟ قُلْتُ: لَسْتُ بِحَرُورِيَّةٍ. وَلٰكِنِّي أَسْأَلُ. قَالَتْ: كَانَ يُصِيبُنَا ذٰلِكَ فَنُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ وَلاَ نُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّلاَةِ. رواه مسلم.

هذا الحديث برواياته المختلفة هو دليل من يقول إن الحائض لا تصوم ولا تصلي، لكنها تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة. إضافة إلى أن ابن عبد البر (المتوفى بعد ٤٦٣ عام من الهجرة) والنووي (المتوفى بعد ٦٧٦ عام من الهجرة) قالا إن أهل العلم اتفقوا على أن الحائض يحرم عليها الصوم.

و"أهل العلم" يقصد بهم رجال الدين في نفس المذهب الذي يتبعانه ولا يعني كل رجال الدين في المذاهب الأخرى. وحتى لو اتفق كل رجال الدين في كل المذاهب على تشريع، فلا يعني قبوله في دين الله.

فما الذي يمكن فهمه من كتاب الله عن صلاة الحائض؟

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ

فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ(٢٢٢) البقرة.

الآية تؤكد أن الحيض أذى، وتصف المرأة التي تتجاوز فترة الحيض بأنها تطهرت. أي نظفت من ذلك النزيف المعتاد. فالمرأة مخلوق بشري طاهر، ولم تكن نجسة أثناء المحيض، ثم عادت طاهراً بعدها.

ولا حاجة لأن نقول إنه لا يوجد في كل كتاب الله ما يحرم على الحائض الصوم، لأن الصوم لا يحتاج للطهارة. ولكنه ينتقض بما يدخل الجوف كالأكل والشرب، أما ما يخرج من الجسم فلا يفسد الصيام.

ومن حرم الصيام على الحائض هم رجال الدين، وقدموا بعض التبريرات.

فهل دين الله يحكم بتبريرات رجال الدين أم بالأدلة الإلهية والبراهين وبالعقل والمنطق؟

أما صلاة المرأة أثناء الحيض فيمنعها القرآن، لأن من شروط قبول الصلاة هو التطهر بالماء. سواء كان ذلك بواسطة الوضوء أو بالغسل للتطهر من جنابة أو حيض.

والجنابة سببها خروج المني من الرجل – بالجماع أو الاحتلام – المشابه بخروجه – خروج الحيض لتنظيف رحم المرأة من البويضة غير المستعملة. فالغسل وجب لأن هناك سائلاً «مني» خرج من عضو الرجل، أو سائلاً «حيض» خرج من عضو المرأة. والمني والبويضة لازمان لتخلق الجنين، وخروجهما خارج الجسم يوجب الغسل ولا تجوز الصلاة بدونه. وكون المحيض يستمر لعدة أيام فلا يمكن الغسل منه إلا بعد انقضاء أجله.

فالصلاة يشترط لها الطهارة، بعكس الصيام. والحيض لا يحول المرأة لإنسان نجس، مثلما أن المني لا يحول الرجل لإنسان نجس.

لذا فالصلاة لا تجوز للمرأة حتى تتجاوز مرحلة المحيض.

وهي لا تقضي الصلاة تبعاً لقاعدة قرآنية التي تعفي من له عذر من الواجبات الدينية: لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً(١٧) الفتح.

فقد كانت معذورة أيام الحيض، وليس على من له عذر قضاء الصلاة.

ويبدو أن أتباع السلف وأهل الحديث قد وافقوا القرآن هنا، فهم يقولون بمثل ما قال القرآن. الحائض لا تصلي ولا تقضي.

والآن إلى صلاة المرأة في المنزل والمسجد.

فالنساء لا يصلين في المسجد جماعة مع الرجال اليوم ومنذ عقود طويلة. فهل منعها الله جل جلاله في كتابه أم أن المنع جاء مما دون ذلك؟

رجال دين بعض المذاهب يعتمدون في إبعاد النساء عن المساجد على أحاديث نورد لكم واحداً منها، يقول:

حدثنا عبد الله ، حدثني أبي ، حدثنا هارون ، حدثنا عبد الله بن وهب قال: حدثني داود بن قيس ، عن عبد الله بن سويد الأنصاري ، عن عمته أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي ، أنها جاءت النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إني أحب الصلاة معك؟ قال: «قد عَلِمتُ إنَّكِ تُحِبِّينَ الصَّلاةَ مَعي، وَصلاتُكِ في بَيْتِكِ خَيْرٌ لَكِ من صَلاتِكِ في حُجْرَتِكِ، وَصلاتُكِ في حُجْرَتِكِ خَيْرٌ مِنْ صلاتِكِ في دارِكِ، وَصلاتُكِ في دارِكِ خَيْرٌ لَكِ مِنْ صَلاتِكِ في مَسْجِدِ قَوْمِكِ، وَصَلاتُكِ في مَسْجِدِ قَوْمِكِ خَيْرٌ لكِ مِنْ صَلاتِكِ في مَسْجِدِي» قال: فأمرت فبني لها مسجد في أقصى شيء من بيتها وأظلمه، فكانت تصلي فيه حتى لقيت الله عز وجل. رواه أحمد في مسنده وورد في كتاب ابن خزيمة.[1]

ويتغافلون عن أحاديث تقول بخلاف ذلك، مثل حديث يقول: حدّثنا يوسفُ بنُ موسى حدَّثنا أبو أُسامةَ حدَّثنا عُبيدُ الله بنُ عمرَ عن نافعٍ عنِ ابنِ عمرَ قال: «كانت امرأةٌ لعمرَ تَشهدُ صلاةَ الصبحِ والعِشاءِ في الجَماعةِ في المسجدِ. فقيلَ لها: لمَ تخرُجينَ وقد تَعلَمينَ أنَّ عمرَ يَكْرَهُ ذلكَ وَيغارُ؟ قالت: وَما يمنَعُهُ أن يَنهاني؟ قال: يَمنَعُهُ قولُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم: «لا تمنعوا إماءَ الله مَساجدَ الله». رواه البخاري

وورد بصيغ مختلفة في مسلم، أحمد، الدارمي، أبو داوود، موطأ مالك، ابن خزيمة، ابن حيان، وابن ماجه.

وحديث يقول: حدّثنا زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ: حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنْ سُهَيْلٍ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،

---

1 مختلق هذا الحديث لم يعرف المدينة زمن الرسول، وإلا لعرف أن بيوت الناس كانت عبارة عن غرفة أو غرف متجاورة، وليست كبعض بيوت الأباطرة في الشام والعراق والتي يكون المنزل عبارة عن قصر متعدد الحجرات والصالات بعضها متداخل ببعض.

قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ: «خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا، وَشَرُّهَا آخِرُهَا، وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا، وَشَرُّهَا أَوَّلُهَا». رواه مسلم

وورد بصيغ أخرى في أحمد، الترمذي، الدارمي، أبي داوود، ابن خزيمة، ابن حبان، النسائي، وابن ماجه. ولو تدبرنا القرآن فلن نجد أي إشارة لتفضيل الصلاة للنساء في منازلهن أو في أظلم غرفة في البيت، كما يقول الحديث.

ولأن الدين واحد للرجال والنساء فإن المرأة يجب عليها الصلاة في المسجد إن كانت صلاة الجماعة واجبة. أو يجوز للرجل والمرأة الصلاة في البيت إن كانت صلاة الجماعة غير واجبة.

المؤسف هنا هو أننا نرى النساء في بلاد الحرمين يحضرن للمسجد قبل أذان العشاء في ليالي رمضان، لحرصهن على حضور ما يعرف بصلاة «التراويح». بينما يغبن عن المسجد في بقية الصلوات المفروضة طوال العام.

لمس الحائض للمصحف

يُحَرِّمُ رجال الدين عند بعض المذاهب مس المصحف على الحائض.

وحسب علمي فلم يجدوا حديثاً يعتمدون عليه هذه المرة، لأنه ليس هناك حديث يقول بهذا التحريم. فاعتمدوا على آية سورة الواقعة التي تقول: «لا يمسه إلا المطهرون».

على اعتبار أن الضمير في «يمسه» يعود للمصحف (الكتاب الذي يحوي سور القرآن).

وعلينا الرجوع للسياق والمخاطب لنتعرف على من يعود له الضمير ومن هم المطهرون.

الآية رقمها (٧٩) في سورة الواقعة، والسياق كما يلي:

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ(٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ(٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ(٧٨) لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ(٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ(٨٠) الواقعة.

والسورة نزلت في بداية استمرار الدعوة في مكة، والمخاطب هم قريش.

وهذه الحقيقة نستفيد منها أنه لم يكن هناك مصحف في ذلك الوقت، بل لم يكن هناك آية واحدة مكتوبة والدليل جاء من القرآن. فقد ورد في سورة العنكبوت أثناء الحديث عن مواقف قريش الآية التالية التي تتحدث عن القرآن: بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ(٤٩).

والعنكبوت نزلت في المراحل الأخيرة من الدعوة في مكة، وبالتالي فالقرآن حتى تلك اللحظة لم يكتب. والواقع يؤكد أن الرسول لم يكتب القرآن إلا في المدينة، وبالتالي فعندما هاجر الرسول لم يكن يحمل معه صحفاً مكتوبة. والتاريخ يقول إن كتابة الوحي كانت في المدينة، مما يعني أنه لا يمكن أن تكون الآية تتحدث عن مس المصحف.

وهناك حقيقة أخرى.

الآيات تؤكد لقريش (الذين تخاطبهم السورة) أن القرآن في كتاب مكنون.

هذا الكتاب المكنون سمته سورة أخرى لوحاً محفوظاً: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ(٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ(٢٢) البروج.

وفي سورة أخرى سمي أم الكتاب: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ(٤) الزخرف.

وسورة الزخرف تظهر المعنى الواضح لأم الكتاب بأنها (آلية) بعلم الله، يحفظ فيها نسخة الوحي الأصلية.

وهذا هو اللوح المحفوظ، وهو الكتاب المكنون في الواقعة.

ويكون الحديث عن نسخة القرآن الأصلية أنها محفوظة في كتاب مكنون ولا يمسه (يتعامل معه وينقله للرسول من البشر) إلا المطهرون. هنا المطهرون هم الملائكة، وهم من ينزله على قلب محمد: قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ(٩٧) البقرة.

فالمقصود هنا ليس لمس المصحف الذي لم يكن موجوداً وقت نزول الواقعة، ولكن عن نسخة الوحي الأصلية المحفوظة في الأرشيف الإلهي. ويكون الاستدلال بهذه الآية على أن الحائض لا تمس المصحف لا أساس له وهو تأويل للآية عن معناها.

فقوله «لا يمسه» الضمير يعود على نسخة الوحي الأصلية، والمس هنا كناية عن التعامل ولا يعني المس من اللمس.

ثم إن القول بأن الحائض لا تمس المصحف يعني أنهم يعتقدون أن المرأة تصبح نجسة وقت المحيض، وهذا ما لم يقل به الله وبينا أن هذا المعنى خاطئ فيما سبق. (القول بنجاسة المرأة ما زال ساري المفعول في جزيرة العرب، وإن تناقص. فهناك البعض ما زال يعقب بعد ذكر

المرأة أن يقول «أعزك الله» أو عبارات مشابهة تعني تنزه المخاطب عن ذكر نجاسة والمقصود بها المرأة. وهناك من لا يأكل مع الحائض حتى تطهر. وهناك من يعزل الحائض حتى تطهر. وعلى صغار السن من القراء سؤال آبائهم وأجدادهم عن هذه الحقائق المؤسفة).

الحج

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ(٩٧) آل عمران.

الحج هو العبادة الثالثة في الإسلام بعد الصلاة والصوم، وهي واجبة لمن يستطيع إليها سبيلاً. أي القادر على القيام بها بيسر وسهولة. ويخرج من هذا المسن والمريض ومن لا يملك مالاً للوصول لمكة وكل من لا يستطيع لأي سبب من الأسباب. وهذا بخلاف السائد عند المسلمين الذين يظنون أن الحج يكفر كل المعاصي قبله فلا يحجون إلا في أواخر العمر وعند الهرم والعجز. حتى أصبح هناك مسارات خاصة حول الكعبة وفي المسعى للعربات التي تحمل المقعدين والشيوخ والعجائز. وهذا مرده الاعتقاد كما قلنا – بأن الحج يجب ما قبله من المعاصي، واعتقاد آخر مفاده أن الثواب على قدر المشقة، وكلما صعب الحج على الإنسان لعجزه أو هرمه فكلما زاد أجره. واعتقاد ثالث مفاده أن من يموت في الحج فقد حقت له الجنة.

وكل هذه المعتقدات الثلاث باطلة ومردها كتب التراث التي روجت لها باختلاق أحاديث منسوبة للرسول تقول بها. وهناك موضوع يلي موضوع الحج يبين أن الثواب على قدر الاستطاعة وليس على قدر المشقة. وسنرى في حديثنا عن الحج أن الهرم والشيخوخة مانع للحج وكذلك الإعاقة. ويجب على المسئولين في العالم الإسلامي توعية الناس أن الحج يجب على القادر جسمانياً، وبالتالي فمن أدركه الهرم أو العجز قبل الحج فلا يحج.

وقد ورد الحج في عدة سور: الحج: (٢٥-٣٧)، البقرة: (١٥٨، ١٩٦-٢-٣)، المائدة: (١-٢)، آل عمران: (٩٧)، وسورة براءة: (٣).

وسورة الحج تحدثت عن أعمال الحج دون تفصيل.

أما سورة البقرة فقد تحدثت بتفصيل عن أعمال الحج وسنعود لها.

وتتحدث سورة المائدة عن تحريم صيد البر على الحُرُم، وسنعود لها في حينها.

وسورة آل عمران تبين من يجب عليه الحج.

وسورة براءة ذكرت يوم الحج الأكبر (تجمع الناس في عرفات لبدء الإفاضة للحج).

وسنمر بكل هذه الآيات، كما ستتحدث عن كل ما يخص الحج أو له علاقة به، والبداية مع:

وقت الحج

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ(١٩٧) البقرة.

الحج يكون في أشهر معلومات لكل الناس، وهي:

الأشهر الحرم

واتفق الناس على أنها أربعة أشهر، وإن كان هناك منذ العصر العباسي (عصر ترسخ الخلافات والاختلافات) خلاف هل هي متتابعة، أو أن هناك شهراً منفرداً؟ ولو كانت متتابعة فهي: شوال وذو القعدة وذو الحجة ومحرم. وقال آخرون إنها: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم وصفر. ومن يقول بالرأي الثاني، فالأشهر المتتابعة هي: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم، إضافة لشهر منفرد هو رجب.

وسورة براءة تبدأ بإعلان براءة الله ورسوله من خيانة المعاهدة المبرمة يوم الفتح مع قريش وأن قريش هي التي خانتها. وبناءً على خيانتها ستمهل أربعة أشهر تنتهي بنهاية الأشهر الحرم: بَرَاءةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ(١) فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَأَنَّ اللّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ(٢) وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٣) إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٤)

فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥).

فالرسول أعلن على رؤوس الأشهاد في عرفات التي يجتمع الناس فيها للتوجه للبيت وبدء الحج، بأن القرآن قد أمهل قريشاً أربعة أشهر تنتهي في آخر يوم من آخر شهر من الأشهر الحرام. فهذا يؤكد أنها أشهر أربعة متتابعة. وتكون تبدأ بشوال وتنتهي بمحرم، أو تبدأ بذي القعدة وتنتهي بصفر.

ومما يؤيد أن الأشهر الحرم أربعة متتالية هو أنها وضعت منذ عهد إبراهيم لكي تكون موسماً للحج، وليس كما تقول بعض كتب التراث من أنها وضعت في الجاهلية وذلك لكي تتوقف الحروب والسلب والنهب فيأمن الناس ويأتون للحج فيها، لأن هذا الكلام لا يمكن أن يكون صحيحاً. فمن يريد أن يسلب وينهب لن يلتزم بالتوقف خلال أشهر معينة فقط لأن أناساً غيرهم يؤمنون بالحج ويريدون أن يحجوا. ومن يعتدي على الناس ويسلبهم أموالهم لن يتوقف عن ذلك احتراماً لما يقومون به وهو لا يؤمن به. والسلب والنهب يكون من البادية المتنقلين وليس من أهل القرى. بينما عادة ما يكون الحج من أهل القرى، لأنهم هم من تنزل عليهم الرسالات، ولا تنزل الرسالات على أهل البادية المتنقلين، فكل الرسل الذين ذكرهم القرآن أرسلوا لأهل القرى.

والأشهر اسمها الحُرُم، مما يعني أن لها علاقة بالحرم والحج، وليست حرماً لأنه يحرم فيها السلب والنهب. وقد خصصت للحج منذ أن أذن إبراهيم للناس بالحج وبقيت حتى جاء الإسلام. ولذا لم يذكرها القرآن بالاسم لأنها معروفة، بل قال: الحج أشهر معلومات، والأشهر الحرم.

وعندما أصبحت مواجهة قريش عسكريا أمراً حتمياً تساءل بعض المسلمين عن القتال في الأشهر الحرم وفي المسجد الحرام: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢١٧)البقرة.

فالآية تجيب على التساؤل قائلة إنه لو قاتلتهم قريش في أشهر الحج الحرم، الذي يكون الناس فيه حاضري المسجد الحرام، أو في المسجد الحرام، فليقاتلوها. ولم تأت الآيات لتقرر أن الأشهر الحرم شهور سلام لا حرب فيها، ولا لتقر تحريم قتال المشركين لو اعتدوا على المسلمين في المسجد الحرام: وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ(١٩١) فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٩٢) البقرة.

الأشهر القمرية

هناك من يظن أن الأشهر القمرية قد سميت لتدل على الموسم الذي تأتي فيه: فرمضان من الرمضاء وهي شدة الحر، فهو يأتي في القيظ. وجمادى يأتي في شدة البرد، والربيع في وقت الربيع. ويظن البعض أن ما يسمى بالنسيء هو الذي جعل ترتيب الأشهر الأصلي يختلف وتصبح بهذا التسلسل.

وهذا ما تقول كتب التراث، فهل هذا صحيح؟

ولو كانت الأشهر سميت في الأصل لتدل على مواسمها، فيمكن إعادة ترتيبها وستتوافق مع فصول السنة. ولو أعدنا ترتيبها لتتوافق مع المواسم فسيختل تسلسلها، كما يلي:

تقول كتب التراث إن محرماً كان اسمه الأصلي هو صفر الأول وصفر الحالي هو صفر الآخر. ومحرم صفة له بعد أن أصبح من الأشهر الحرم فصار يسمى صفر المحرم، ثم غلبت الصفة فصار يسمى المحرم، وهذا كلام منطقي قد يحدث.

إلا أن كتب التراث تواصل قائلة: إن صفر سمي بهذا الاسم لأن ديار العرب تصفر أي تخلو من أهلها لخروجهم للقتال والبحث عن الطعام بسبب الحر.

- فمحرم وصفر شهرا حر.
- والربيعان شهرا ربيع. والجمادان شهرا البرد، لأن الماء يتجمد فيها.
- ورجب كان العرب يتركون فيه القتال، حسب زعم كتب التراث.
- شعبان سمي بذلك لأن العرب تتشعب للاقتتال.
- رمضان من الرمضاء وشدة الحر، فهو شهر الحر.

- شوال من تشول الإبل، ولن نناقش هذا الآن، لكن المهم هو أن شوالاً – حسب هذا الزعم – من أشهر الاعتدال المناخي.
- ذو القعدة وذو الحجة لا تدل على موسم.

وبناءً على ما سبق يكون للحر ثلاثة أشهر هي محرم وصفر ورمضان. وأشهر الشتاء: الجماديان وشعبان. وأشهر الربيع: الربيعان وشوال. وما بقي من أشهر فهي أشهر الخريف وهي: رجب وذو القعدة وذو الحجة.

ولو بدأنا السنة بالمحرم فستكون الأشهر بالترتيب المناخي الافتراضي التالي: محرم، صفر، رمضان (الصيف)، رجب، ذو القعدة، ذو الحجة (الخريف)، جمادى الأول، جمادى الآخر، شوال (الشتاء)، ربيع الأول، ربيع الآخر، شعبان (الربيع).

وبطبيعة الحال لو كان هذا الترتيب – أو أي ترتيب آخر – هو الترتيب الحقيقي فسيخبرنا القرآن أنه أمر الرسول بالعودة له. لكن لا القرآن طلب ولا الرسول قام بتغيير ترتيب الأشهر، ما يعني أن الأشهر كانت بنفس الترتيب عندما بعث رسول الله وتوفي وهي بنفس الترتيب الذي نعرفه اليوم. وهناك الكثير من النصوص والدلائل التي وصلتنا من عصر الرسول تؤكد أن شعبان يأتي قبل رمضان وذي الحجة يليه محرم وأن الترتيب الحالي للشهور هو نفسه في ذلك العصر.

ويستحيل أن يكون سبب تسمية الأشهر القمرية للدلالة على مواسمها، لأنها أشهر قمرية. والأشهر القمرية عامها يساوي ٣٥٤ يوماً تقريباً، أي بنقص ١١ يوماً عن السنة الشمسية تقريباً. وبالتالي فالشهر القمري يمر بكل مواسم العام، بحيث يأتي في الشتاء في بعض الأعوام وفي الربيع في أعوام أخرى وفي الصيف في أعوام والخريف في أعوام أخرى.

وهذا ما ينفي أن تكون تسميتها في الأصل للدلالة على مواسمها، إلا لو كانت في الأصل أشهراً شمسية، وهذا تنفيه عدة عوامل، منها:

أن الحج مستمر منذ القدم، وإن توقف لفترة وتهدم البيت، قبل أن يعيد إبراهيم بناءه ويستأنف معه الحج. والحج – كغيره من العبادات الإسلامية منذ القدم – يعتمد على القمر، وليس الشمس. والراجح أن تكون الأشهر القمرية الحالية تحمل نفس مسمياتها زمن إبراهيم – كونه عربياً يتكلم العربية – أو كانت الأشهر تحمل مسميات أخرى، وفي

كلا الحالين فليس أصل تسميتها دالاً على مواسمها.

والعرب ليسوا أهل كتابة، ولهذا فكل ما قيل عن تاريخهم القديم هو مجرد قصص كتب في العصرين الأموي والعباسي ولا يمت للحقيقة بصلة. لذا فاعتماد أقوال كتب التراث عن سبب تسمية الأشهر – التي يجهلون نشأتها – لا يمكن قبوله أو الأخذ به.

ويمكن الجزم أن سبب التسمية مجهول، كما أن زمن تسميتها ومتى كان ذلك مجهولٌ أيضاً، لقدمه، ولعدم وجود المصادر الكتابية كون عرب الحجاز لا يكتبون، على النقيض من عرب اليمن.

ولو أجرينا فحصاً لرمضان على – سبيل المثال – من الهجرة إلى وفاة الرسول، فسنجد التالي:

- في العام الأول للهجرة جاء رمضان بالتزامن مع شهر آذار (مارس) للعام المسيحي: (٦٢٣) يعني في أواخر الشتاء وبداية الربيع، يعني لم يكن الجو رمضاء.
- العام الخامس للهجرة جاء رمضان بالتزامن مع شهر شباط (فبراير) للعام المسيحي: (٦٢٧) يعني جاء رمضان في الشتاء وفيما يسمى عند أهل الجزيرة العربية بنوء شباط، وهي أيام شديدة البرد مصحوبة برياح قوية، وأبعد ما تكون عن الرمضاء وشدة الحر.
- العام العاشر للهجرة جاء رمضان بالتزامن مع شهر كانون الأول ديسمبر للعام المسيحي: (٦٣١)، يعني في الشتاء.

ويكون الرسول لم يصم يوماً واحداً من رمضان في الحر طوال حياته. ولا عبرة بقول كتب التاريخ وغيرها التي كتبت في العصر العباسي، الذي لا يتورعون عن اختلاق القصص لأي شيء لا يعرفون.

وهناك زعم آخر لكتب التراث حول الأشهر القمرية، يقول: إن لكل شهر من الشهور الحالية اسماً آخر أقدم منه، فمحرم كان اسمه المؤتمر، وصفر ناجر، وربيع الأول خوّان، وربيع الثاني بصّان، وجمادى الأول الحنين، وجمادى الآخر رنة وربى، ورجب الأصم، وشعبان عادل، ورمضان ناتق، وشوال وعل، وذو القعدة هواع و ورنة، وذو الحجة بُرك. وكل مصادرهم قال فلان عن فلان إنه قال كان شهر محرم يسمى كذا .... الخ. لذا جاء آخرون واختلقوا أسماء أخرى، هي كما يلي: المحرم ناتق، وصفر ثقيل، وربيع الأول

طليق، وربيع الآخر ناجر، وجمادى الأول أسلخ، وجمادى الآخر أميح، ورجب أحلك، وشعبان كسع، ورمضان زاهر، وشوال برك، وذو القعدة حرف، وذو الحجة نعس. وكل من يرغب الاطلاع على أقوالهم في أسماء الأيام والشهور والسنين الرجوع لكتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي (ت ٣٤٦ هـ).

وهذا الاختلاق ينفي كلامهم السابق من أن الأشهر القمرية سميت حسب مواسمها، وبالتالي فليس هناك كلام لهم واحد يمكن الأخذ به. وهذا ليس مستغرباً فكتب التراث تضم كل الأقوال المنتشرة بين الناس فقد وجد فيها القول وضده، فحين يأتياتي مختلق القصة التي تقول إن الأشهر سميت بمواسمها يأتي مختلق آخر ويقول إن لها أسماء قديمة ويختلق تلك الأسماء وهو لا يعلم أن غيره قال بخلاف قوله. ثم يأتي من يجمع كل هذه ألقوال ويضمنها الكتب وتبقى لتتمسك بها نحن ونستشهد بها على أنها الحقيقة.

وقد اختلقوا للأيام أسماء يزعمون أنها قديمة، مثلما اختلقوا للشهور، فقالوا: إن السبت شِيَار، والأحد أوَّل، والاثنين أَهْوَن وأَوْهَد، والثلاثاء جُبَار، والأربعاء: دُبَار، والخميس: مُؤْنِس، والجمعة: عَرُوبة.

وهذا يكذبه القرآن الذي يخبرنا أن أيام الأسبوع الحالية هي نفس الأيام زمن موسى وإبراهيم: وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(١٦٣) الأعراف.

وإن كان السبت معروفاً حينها، فسيكون الأحد وبقية أيام الأسبوع معروفة كذلك. وليس أدل على هذا من أن اليهود في كتبهم يظنون أن الأحد سمي الأحد (من واحد) منذ الخليقة لأن الله بدأ فيه الخلق ثم الاثنين (اليوم الثاني) والثلاثاء (الثالث) والأربعاء (الرابع) والخميس (الخامس) ويوم الجمعة (يوم الانتهاء والجمع) ويوم السبت (الراحة والسبات).

وكلام اليهود ناتج من أن مفسريهم فهموا أن الله تبارك وتعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، على أنها أيام مثل أيامنا فقالوا ما قالوا. فأيام الأسبوع قديمة بقدم اللغة العربية وكذلك أسماء الأشهر، ونكرر أنه لا عبرة بما تقول كتب التراث.

النسيء

النسيء في اللغة هو التأجيل.

وقد ورد النسيء مرة واحدة في كتاب الله، وفي سورة براءة التي نزلت في آخر عام من حياة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وتتحدث عن عدة مواضيع وأحداث تهم المسلمين في حينها، ومن ذلك إعطاء مهلة لقريش للتراجع عن خيانة معاهدة الفتح التي تعهدت بها للمسلمين. وتكشف السورة أوضاع المسلمين وكيف أنه ليس كل من أعلن الإسلام مسلماً، إضافة لضرورة تأديب كل من بدأ المسلمين بالحرب. ولم تكن السورة سورة تشريع، كون التشريع اكتمل بنزول سورة المائدة.

والحديث عن النسيء جاء ضمن مخاطبة المسلمين عن قريش، التي ما زالت تعيش في مكة بيت الله، وتقول السورة: إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلِّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(٣٧) براءة.

والآية (٣٦) تؤكد أن الأشهر الحرم أربعة أشهر. وتشير الآية إلى أن الأشهر الحرم لها علاقة بدين الله: «مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ». وهو ما يعني أن تحريم الأشهر الحرم ليس من أجل المحافظة على الطيور والحيوانات من الانقراض (وإن كان هذا مطلوباً شرعاً لكن لا يستدل بهذه الآية عليه). فالأشهر الحرم حرمت لكي يؤدى شيء ديني، وهو بلا جدال الحج. ويؤيد ذلك قوله تعالى: الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ(١٩٧) البقرة.

وتتحدث الآية (٣٧) عن النسيء الذي تمارسه قريش، دون أن تطلب من المسلمين فعله أو تركه. فهي آية إخبارية عما كان يحدث قبل الإسلام، وليست آية تشريعية تحرم أو تحل للمسلمين النسيء. لذا لا حاجة لأن نغرق أنفسنا والقراء في افتراضات لا وجود لها ونكتب الكتب عن النسيء ما هو، وما يجب أن نفعله أو كيف يجب تركه؟ لأنه ليس مطلوباً منا أي

شيء تفعله لا لتجنبه ولا لفعله، لأنه ليس له وجود منذ أن استولى المسلمون على مكة. فالنسيء بالنسبة للمسلمين هو فعل قرشي جاهلي كان موجوداً وانتهى.

والآية تقول: إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(٣٧) براءة.

النسيء زيادة في الكفر. قريش كافرة وزيادة على كفرها تمارس النسيء.

ولا حاجة لأن أفترض أن «زيادة في الكفر» جملة اعتراضية وجودها لا معنى له كما تكلف البعض.

ويكون النسيء - كما يفهم من الآيات - عبارة عن تلاعب بالأشهر الحرم من قبل قريش بحيث تحل شهراً محرماً في عام، ثم تعيد الأشهر الحرم في عام آخر كما كانت، وهكذا.

والمفسرون قرأوا «يضل» بضمة على الياء، وفي هذه الحالة نحتاج لمعرفة من الذي ضل. كون قريش هي التي تُضِل بالنسيء، حسب هذه القراءة.

لكن لو كان التشكيل فتحة على الياء وكسرة تحت الضاد «يَضِل» (مبني للمعلوم) فالمعنى أن قريش ضلت بممارستها للنسيء. هم من ضلوا بالنسيء ضلالاً على ضلالهم.

ولا حاجة لأي افتراضات أخرى.

وتكون الآية تقول: إن قريشاً ضلت بممارستها للنسيء فكان زيادة في الكفر على كفرها.

ما هو النسيء

الآية تعرفنا بالنسيء قائلة: "يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً".

فإذا كان النسيء هو التأجيل والإرجاء، وكانت الآية (٣٦) تتكلم عن أن هناك أربعة أشهر حرم ثابتة، فإن اعتبار أحد الأشهر الحرم حلال هو ما تقوم به قريش بحيث تنسأ (تؤجل وترجئ) شهراً من الأشهر الحرم ولا تعتبره شهر حرام لعام من الأعوام. ثم تعود في العام التالي وتعتبره حُرُم. سواءً كان هذا الشهر أول الأشهر الحرام أو آخرها، دون أن يتغير مكان الشهر بين الشهور، ودون أن تغير ترتيب الأشهر.

وبطبيعة الحال لا يمكن تغيير تسلسل الأشهر ونقل شهر من مكانه لمكان آخر. كأن تنقل

شهر رجب من مجيئه بعد محرم ليأتي بعد جمادى الثانية أو نحو ذلك. لأن الأشهر ليست حكراً على قريش ومكة، ولكن كثير من مناطق جزيرة العرب يتعاملون بالأشهر القمرية وبنفس مسمياتها، ولا يمكن لقريش أو غيرها تغيير تسلسل الأشهر. لكن يمكن لقريش أن تحل شهراً محرماً وتحرم شهراً ليس من الأشهر الحرم.

فالأشهر القمرية أسماؤها وترتيبها لم تتغير قبل الإسلام ولا في عصر الرسول، وكانت كما هي الآن. والنسيء تأخير شهر في عام وليس نقل الشهر من مكان تسلسله ووضعه إلى مكان آخر. فلو افترضنا أن شهر محرم هو الذي يكون عليه النسيء فقريش تعتبره من الأشهر الحرم في عام لتكون الأشهر الحرم أربعة، وفي العام التالي لا يعتبر من الأشهر الحرم، فتكون الأشهر الحرم ثلاثة دون محرم، على أن يبقى محرم في موقعه، كونه يأتي بعد شهر ذي الحجة وقبل صفر.

وتكون الأشهر الحرم في السنة التي يكون فيها التأجيل ثلاثة وليس أربعة. لذا قالت الآية: (٣٧) أن الأشهر الحرم أربعة على الدوام ولا تتغير: «مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ». وقوله: «فلا تظلموا أنفسكم فيهن» بالنسيء.

وتكون الأشهر الحرم أربعة ليس من أجل الصيد، ولكن من أجل تأدية الحج. ولا نحتاج لأن نفترض أي افتراضات أخرى.

أعمال الحج

وسنبدأ باستعراض أعمال الحج بإجمالها الذي ورد في سورة الحج ثم ننتقل لسورة البقرة لنتحدث عنها بتفصيل، وذكر ما ورد في السور الأخرى كل في محله. إضافة لمواضيع ذات علاقة بالحج.

أعمال الحج مجملة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥) وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ(٢٧) لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ

وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ(٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ(٢٩) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ(٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ(٣١) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ(٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ(٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ(٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣٥) وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٣٦) لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ(٣٧) الحج.

سورة الحج آخر سورة نزلت في مكة قبل الهجرة. والآيات تخبرنا أن قريشاً منعت المسلمين قبيل الهجرة من دخول البيت، مع أن البيت مشاع لكل الناس وليس ملكاً لقريش لكي تتصرف به كيفما تشاء. فتمنع هذا من دخوله وتسمح لآخر، لأن بيت الله في كل العصور ليس ملكاً لأحد. وتشرع الآيات بالتذكير في أن البيت لكل من يرغب في زيارته والتعبد لله، منذ أن اهتدى إبراهيم بعون من الله إلى مكانه الذي كان متهدماً وأعاد بناءه وحرص على تنظيفه وخدمة الحاج.

والآية (٢٦) تشير إلى العبادات التي تؤدى في المسجد، وهي: الطواف والصلاة: "وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ".

وتذكر السورة أعمال الحج بالإجمال:

وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ(٢٧) لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ(٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ(٢٩).

فالحج عبارة عن هذه الأعمال:

- ذكر الله في أيام معلومات.
- تذكية الهدي.
- قضاء التفث.
- الوفاء بالنذر.
- الطواف بالبيت.

والسورة تذكر أعمال الحج لكنها لا تذكرها بالترتيب، لأن ذكر الحج في سورة الحج ليس لتشريعه ولكن للحديث عما يجب فيه.

تفاصيل أعمال الحج

ورد في سورة البقرة آية واحدة لوحدها هي الآية: (١٥٨) ثم ثماني آيات متتالية: (١٩٦-٢٠٣).

والآية (١٥٨) تقول: إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ.

وسورة البقرة سورة تشريعات، كثير منها فرض إجابة لأسئلة سألها الناس الرسول. حيث تبدأ بعض آياتها بلفظ «يسألونك". مثل: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ، يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ، يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ، وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ... لذا يحتمل أنها وردت إجابة عن تساؤل تساءله بعض الناس إن كان الطواف بين الصفا والمروة من الحج فنزلت الآية لتقول: إنه لا جناح ولا إثم على من تطوف بين الصفا والمروة.

الآية (١٩٦): وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ للهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ.

- قريش كانت منعت المسلمين من دخول الحرم قبل الهجرة كما تخبرنا بذلك الآية (٢٥) من سورة الحج، والبقرة نزلت بداية الهجرة وفي وقت كانت قريش تستعد لحرب

المسلمين. ومن الطبيعي أن تتعنت قريش وتمنع أي مسلم يريد الحج من دخول مكة أو حتى من دخول الحرم. لذلك تقول الآية مخاطبة المسلمين، إنه في حال ذهبتم للحج ومنعتكم قريش فانحروا هديكم ثم احلقوا رؤوسكم، ولا تحلقوا رؤوسكم قبل النحر.

- وتقول السورة إنه في حال أمن الحاج وأكمل حجه فعليه الهدي.
- ومن لم يجد هدياً – لأي سبب كان – فعليه فدية صيام عشرة أيام، ثلاثة أثناء الحج وسبعة بعد عودته لبلده لمن هو من غير أهل مكة.
- ومن كان من أهل مكة فليواصل الصوم ليكمل العشرة أيام.

وتقول الآية (١٩٧): الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ.

- الرفث والفسوق بأي شكل والجدال يفسد الحج، والفسوق حرام في كل وقت.

والرفث هو المضاجعة الزوجية، بدليل قوله تعالى: أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ .... (١٨٧) البقرة.

ويدخل فيها كل ما له علاقة، مثل التقبيل والتحسس ... الخ.

الآية (١٩٨): لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ.

- هنا، الآية تبين كيف يبدأ الحج. وذلك بتجمع الحجاج القادمين من كل مكان في سهل عرفات.
- ثم يفيضون متوجهين للمشعر الحرام ليذكروا الله هناك.

وتواصل سورة البقرة: ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ(٢٠٠).

- بعد المشعر الحرام إفاضة أخرى لقضاء المناسك.
- وبعد قضاء المناسك يلهج الناس بذكر الله.

وتواصل سورة البقرة: وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(٢٠١) أُولَـئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ(٢٠٢) وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٢٠٣).

الحاج يمكنه أن يبقى في مكة قبل الإفاضة لمنى لتقديم الهدي يوماً أو يومين.

سورة المائدة

المائدة تبدأ بالحديث عن تحريم الصيد: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ(١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢).

لا يحل الصيد للمُحْرِم.

الآية الثانية تنهى عن عدة أمور منها تحذير من أن يُحِل المسلمون الشهر الحرام، كما كانت قريش تفعل قبل الإسلام.

وتقول إن الصيد يحل إذا حللتم.

وفي آيات أخرى تقول السورة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللّهُ عَمَّا سَلَف وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللّهُ مِنْهُ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ(٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٩٦) جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٩٧) المائدة.

تأكيد على تحريم الصيد وأنتم حرم.

وكل من يقتل صيداً وهو محرم فعليه أن يذكي ذبيحة أو يطعم مساكين أو بصوم.

سورة آل عمران

ورد فيها آية واحدة تقول: الحج يجب لكل من يقدر عليه.

وتقول إن مكة يجب أن يأمن من فيها، لأنها بيت الله: فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ(٩٧).

سورة براءة

نزلت قبل عام من وفاة الرسول، وورد فيها آية واحدة تذكر يوم الحج الأكبر، وهو الوقوف بعرفات حيث يكون أكبر تجمع للحجاج في مكان واحد، استعداداً لانطلاقهم نحو البيت لبدء أعمال الحج: وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٣).

هذه هي الآيات التي وردت في القرآن الكريم عن الحج وفيها تفاصيل أعماله كما يلي:

الحج والعمرة

مما سبق ذكره في الآيات أعلاه سنقوم بالتعرف على أعمال الحج والعمرة، ثم نضع بعض المقارنات بين ما يقول القرآن وبين ما يمارسه الناس باسم الحج ولم يقل به كتاب الله.

ونبدأ ببيان: الفرق بين الحج والعمرة.

أعمال الحج

تكون، كما يلي:

- الانطلاق من عرفات إلى البيت.
- الطواف وذكر الله وتسبيحه.

- البقاء في مكة لقضاء التفث والوفاء بالنذر والمتاجرة بالبيع والشراء.
- التوجه لمنى ونحر الهدي والأكل منها وإطعام الفقير.
- حلاقة شعر الرأس.
- إنهاء الحج كما بدأ بذكر الله، والطواف بالبيت.

فالحج صفة واحدة وليس ثلاث صفات كما يقول الناس.

مع ملاحظة أنه لا ذكر ليوم العيد، ولا يقول القرآن إن النحر يبدأ يوم العيد أو يوم العاشر. بل إن القرآن يعطي الحاج فرصة للبقاء في مكة يوماً أو يومين. أي يوم العيد واليوم التالي، ثم يخرج لمنى للنحر والحلاقة. وهناك يمكنه أن يبقى يوماً أو يومين.

أعمال العمرة

العمرة تكون كما يلي:

- تبدأ بالطواف بالبيت، دون حاجة للتجمع بعرفات كما الحج.
- العمرة عمل فردي، بينما الحج عمل جماعي.
- ليس للعمرة هدي ينحر، وبالتالي لا يحلق المعتمر رأسه، لأن الحلق لا يكون إلا بعد نحر الهدي: «وَلَا تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ».
- العمرة عبارة عن الطواف بالبيت ومن رغب طاف بالصفا والمروة فقط. ولو قدم الحاج لمكة فيمكنه أن يؤدي العمرة أولاً بالتوجه مباشرة لمكة والبدء بطواف البيت ثم ينتظر في مكة أو قريباً منها حتى يحين يوم التجمع في عرفات فيخرج لعرفات وينضم لقوافل الحجاج ويفيض معهم باتجاه البيت ليبدأ حجه معهم.

وهذا هو الذي يسميه الناس «التمتع بالعمرة مع الحج». بينما يكون وصول بعض الحجاج في موعد التجمع في عرفات، أو حتى قبل ذلك لكنهم لا يدخلون مكة بل يبقون في عرفات لعدة أيام ويفيضون مع الناس ويبدأون حجهم دون عمرة.

فروق بين ما يقول القرآن وبين ما يمارسه الناس في الحج

- الناس يقولون: إن الحج يبدأ بعيداً عن مكة فيما أطلقوا عليه مواقيت الحج. وهي أماكن تم اختيارها على الطرق المؤدية لمكة لكي يتوقف فيها الحاج ويبدل ملابسه العادية بملابس

خاصة للحج بالنسبة للرجال دون النساء. وهي عبارة عن إزار يغطي الجزء من السرة إلى أسفل الجسم، وقطعة ثانية مشابهة، يلفها الرجل على الجزء الأعلى من الجسم. ويعتبرون هذه الملابس من أعمال الحج ولا يجوز خلعها ولبس الملابس العادية إلا بعد النحر والحلاقة. وأي حاج لا يلبس هذه الملابس ولا يمر بواحد من هذه الأماكن فليس له حج، حسب اعتقادهم.

والأماكن المختارة هي: ذو الحليفة لحجاج المدينة، والجحفة لحجاج أهل الشام، وقرن المنازل لأهل نجد والعراق، ويلملم لأهل اليمن.

والملاحظ أن هناك ميقاتاً لأهل الشام والعراق والرسول توفي قبل أن تفتح تلك البلاد ويكون فيها مسلمون، وهو مما يسهل الحكم على كذب خبر (حديث) المواقيت.

ويحتمل أن الناس قبل الإسلام اتفقوا على ملابس الحج لكي يضمنوا بقاء مكة آمنة خالية من السلاح، وكل من يرغب الحج عليه أن يأتي بهذه الملابس التي لا يمكن أن يخفي فيها سلاحاً.

أقول هذا الظن لأني لا أعرف سبباً آخر، وليس هناك حكمة من لبس الرجال ملابس خاصة يجب أن تكون عبارة عن إزار ورداء. ولا عبرة في تبريرات رجال الدين الذين يقولون إن هذه الملابس لكي تضمن تساوي الناس (فقيرهم وغنيهم) في الحج. لأن الكبرياء محرمة في الحج وفي غيره، وفي مكة وفي أي مكان، ولا يجوز التباهي بمظاهر الغنى ولا الكبرياء، في كل الأوقات وفي كل مكان، وليس فقط في موسم الحج. كما أن لبس «ملابس الإحرام» لم يمنع الكبر والخيلاء في الحج، ففي أيامنا الحالية يمارس الكبر والخيلاء أثناء الحج والعمرة بشكل لا مثيل له. فالحكام والمتنفذون تخلى لهم الشوارع لكي يمروا بسياراتهم للحرم أو لمنى أو لعرفات أو لأي مكان آخر. ويخلى لهم مكان الطواف والسعي والجمرات وكل مكان. ويضيق على بقية الحجاج ويحشرون. كل هذا بحجة الخوف على حياتهم. وبطبيعة الحال كل من يخاف على حياته يسقط عنه الحج، ويبقى في بيته. لا أن يأتي للحج ويضايق خلق الله ويسامون من أجله سوء العذاب. ومن أسوأ مظاهر الكبر غسل الكعبة وتخصيص الدخول لداخل الكعبة للحكام والمتنفذين ولو كانوا فساق ويصحبون معهم فساق.

- القرآن لا يذكر ما أسماه الناس المواقيت، ويقول القرآن إن الحج يبدأ في التجمع

بعرفات، وليس بعيداً عن مكة وعن المشاعر.

- الناس يقسمون الحج إلى ثلاثة أنواع:

المفرد: وهو من يحج فقط دون عمرة، وهذا يسقط عنه الناس الهدي.

القارن: هو أن يعتمر ثم يواصل ليؤدي الحج دون أن يخلع ملابس الإحرام.

المتمتع: وهو أن يعتمر أولاً ثم يخلع ملابس الاحرام، ثم يوم الثامن من ذو الحجة يلبس ملابس الإحرام مرة أخرى ويحج.

أما القرآن فيقول: الحج واحد وليس هناك أنواع. ومن رغب أدى الحج وحده ومن رغب أدى عمرة ثم أدى الحج. والعمرة عمل قائم بذاته لا علاقة له الحج.

- الناس أسقطوا الهدي عمن أسموه «المفرد» مع أن الهدي يعتبره القرآن من أعمال الحج التي لا يجوز بدونها. ومن لا يجد لينحر الهدي أوجب القرآن عليه كفارة: «فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ».

- وسواء أدى الحاج العمرة ثم حج، أو حج بدون عمرة فالهدي واجب عليه لأنه من أعمال الحج ولا شأن له بالعمرة. بينما يقول الناس إنه لا هدي مع من يفرد الحج دون عمرة.

- ويقول الناس بتقليد الهدي إن كان من البقر والغنم بنعل قد صلى فيه، أما الإبل فيخير بين تقليدها النعل أو شق سنامها من الجانب الأيمن وتلطيخ جسدها بدمها، ويسمونه «إشعاراً». وبعضهم يجمع بين تقليدها النعل والإشعار، وهذه الممارسات من بقايا الوثنية الجاهلية بلا شك، كما أن شق السنام إيذاء للحيوان لا يقره الإسلام.

- القرآن يقول: وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣) البقرة.

فلو تأخر الحاج في مكة يومين، قبل الخروج لمنى للنحر فلا إثم عليه. لأنه ليس عليه أن ينهي طوافه بالبيت وقضاء تفثه ونذره وحوائجه في مكة في يوم محدد، ولا إنهاء حجه في يوم محدد. والناس يقولون: الحج يبدأ وينتهي بأوقات وأيام محددة لا يتجاوزها الحاج.

- الناس يعتبرون البقاء في عرفات يوماً كاملاً من الحج، وكذلك المبيت في منى عدة ليال.

ويوجبون التوجه لعرفات في وقت محدد (بعد شروق شمس التاسع من ذي الحجة) ويوجبون أن تصلى الظهر والعصر جمعاً وقصراً في وقت الظهر. ويوجبون الخروج من عرفات بعد غروب شمس التاسع ليلة العاشر والبقاء في مزدلفة طوال الليل ويقصرون صلاة العشاء ويجمعونها مع المغرب. وبعد الفجر يتوجهون لرمي الجمرات. ويعتبرون خلع ملابس الإحرام (ويسمونها التحلل) جزء من الحج. فالبعض تحلل قبل البعض الآخر حسب نوع حجه ما بين مفرد وقارن ومتمتع.

وتفاصيل كثيرة مختلفة كلها لم يذكرها القرآن من أعمال الحج، ولا يمكن أن تكون منه. فعرفات مكان تجمع لبدء الحج فقط، وتقع خارج حدود الحرم، والحج يكون في الحرم. ومنى مكان لنحر الهدي، اختاره إبراهيم عليه الصلاة والسلام بتوفيق من الله لئلا تنتشر الأوبئة والروائح الكريهة في مكة لو نحر الحجاج هديهم فيها (وليست منى كمكان من أعمال الحج)[1]. وليس في كتاب الله جمع وقصر في الصلاة لا في الحج ولا في غيره، ولم ينص القرآن على ملابس خاصة بالحج.

- فالحج في القرآن صفة واحدة تبدأ بالتجمع في عرفات ثم التوجه للبيت والطواف والبقاء في مكة لقضاء الحاجات والوفاء بالنذر وقضاء التفث مع الاختلاف من شخص لآخر. فالبعض يكفيه يوم، وغيرهم أكثر. ليكون البقاء في مكة ما بين يوم وبضعة أيام، قبل الخروج لمنى لنحر الهدي والبقاء هناك يوماً أو يومين. ثم حلق الرأس وإنهاء أعمال الحج.
- والقرآن يقول الطواف من أعمال الحج: وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ(٢٩) الحج.

لكنه لا يحدد عدداً للطواف حول الكعبة. بينما يقول الناس إن على الحاج الطواف حول الكعبة سبع مرات، لو زادت شوطاً أو نقصت فلا يقبل الطواف ويفسد الحج عند بعضهم، وبعضهم يوجب الفدية وبعضهم لهم آراء أخرى.

- القرآن يجيز الطواف بين الصفا والمروة كون الطواف يكون لبيت الله لأنه عبادة يذكر

---

١ يقول كتاب التكوين في كتب اليهود عن إبراهيم: «ثم نقل من هناك إلى الجبل شرقي بيت إيل ونصب خيمته. وله بيت إيل من المغرب وعاي من المشرق. فبنى هناك مذبحا للرب ودعا باسم الرب» (٨:١٢). وهذا المذبح الذي يقع شرقي بيت إيل (بيت الله) هو منى الحالية. وإبراهيم بعدما قدم هديه «دعا باسم الرب»، وهو ما يتفق مع قوله تعالى في القرآن الكريم: «فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا...(٢٠٠) البقرة. والمقصود بقضاء المناسك هنا هو الانتهاء من نحر الهدي وإطعام الفقراء، وهو ما فعله إبراهيم.

فيها الله ويسبح باسمه حول بيته: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ(١٥٨)﴾ البقرة.

دون تحديد لعدد أشواط الطواف. بينما يقول الناس بوجوب الطواف بين الصفا والمروة سبعة أشواط لا يجوز الحج ولا العمرة بدونها. وهم بهذا غفلوا عن حقيقة أن الحج يقوم على الطواف ببيت الله كرمز لطاعة الله ولتسبيحه وذكره سبحانه، والطواف بأي مكان آخر لا علاقة له بالحج، لذا لما سئل الرسول عن عادة كانت متبعة بين الناس وهي التردد بين الصفا والمروة أجازها القرآن ولكن هذا لا يعني أنها من أعمال الحج اللازمة. فالقرآن يقول إن من طاف بالصفا والمروة فلا جناح عليه (لا يأثم). أي أن الحج يكون بدون الطواف بهما، لكن من فعل فلا إثم عليه.

- القرآن يوجب الهدي على الحاج كرمز لشكر الله أن ذلل للناس بهيمة الأنعام، ولكي يأكلوا منها ويطعموا البائس الفقير. ولا يجوز الحج بدون هدي، ومن لا يجد فعليه صيام عشرة أيام.

بينما يقول الناس: إن الحج (كمفرد) يتم دون حاجة للهدي.

- الناس يقولون إنه بمجرد أن يتحلل الرجل من ملابس الإحرام يجوز له جماع زوجته.

أما القرآن فيحظر الجماع طوال فترة الحج: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ(١٩٧)﴾ البقرة.

ما بقي في الحرم فلا رفث ولا جدال ولا فسوق.

- القرآن ذكر حلق الشعر ولم يذكر التقصير أبداً.

بينما الناس يعطون الرجل الخيار بين الحلاقة أو التقصير.

- القرآن ذكر حلاقة الشعر، ولم يحدد هل هو للرجل فقط أم للرجل والمرأة.

الناس: يجيزون التقصير للرجل ويوجبونه على المرأة، ولا يجيزون لها حلاقة الشعر.

يعني حج القرآن يعتمد الحلاقة للرجال والنساء، فليس هناك دين للرجل وآخر للمرأة وملابس حج خاصة بالرجل دون المرأة.

- الناس يقولون إن رمي الجمرات من أعمال الحج ولا يجوز الحج بدونها وتشددوا كثيراً حتى في مكان التقاط الحصى التي يرمى بها الجمرات.

القرآن لا يذكر رمي الجمرات على الإطلاق ولا يعدها من أعمال الحج[1].

- القرآن يقول إن حلاقة شعر الرأس تكون بعد نحر الهدي ولا تجوز قبله. وبعد الحلاقة يكون الحاج قد أنهى أعمال الحج.

الناس يقولون إن للحاج أن يقدم ويؤخر بين ثلاثة أشياء: الحلاقة والنحر ورمي الجمرات، ويعتبر بعد ذلك متحللاً من الحج.

- في حال المرض أو أن الحاج يشكوا من داء يصيب فروة الرأس مثل الثعلبة والحزاز والذئبة وغيرها، ففي هذه الحالة يجب عليه فدية، وهو مخير بين أن يصوم أو يتصدق أو يقدم نسكاً.

والنسك هنا – أميل إلى – أنه نحر ذبيحة وتقديمها للفقراء. لأن النسك جاءت بهذا المعنى في قوله تعالى: قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٦٢) الأنعام.

- القرآن يقول إن الهدي يكون بنحر الحاج الواحد واحدة من بهيمة الأنعام كما ورد في الآية (٣٣) من سورة الحج، أو من البدن كما ورد في الآية (٣٦).

الناس يقولون يمكن لعدد من الحجاج الاشتراك في هدي واحد إن كان من البقر أو الإبل.

- الناس يقولون لا يجوز إطعام غير فقراء الحرم من الهدي، والقرآن يقول: وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ(٢٨) الحج.

فكل فقير يمكنه الاستفادة من لحوم الهدي، سواء كان حاجاً أو مقيماً. وفي هذا العصر يمكن الاستفادة من هذه اللحوم بطرق حديثة سواء بالتعليب أو التجميد أو التبريد وإرسالها

---

١ ورمي الجمرات يقول الناس أنها تقليد لما فعله هاجر (أم إسماعيل المزعومة) فقد تراءى لها إبليس في مكان الجمرة الأولى فحذفته بسبع حصوات (الحصاة الواحدة بحجم حبة الفاصوليا) ثم تراءى لها في مكان الجمرة الثانية فكررت حذفه بسبع حصوات لا أكثر ولا أقل. وتكرر المشهد للمرة الثالثة عند مكان الجمرة الثالثة. وبطبيعة الحال فالقصة مختلقة وغير معقولة. كما أنه ليس هناك أم لإسماعيل اسمها هاجر، ولم يترك إبراهيم أم ولده وابنه في البرية ويعود لفلسطين. كلها تخاريف يهودية لتحقير بني عمهم إسماعيل. ولابد أنها من بقايا الوثنية التي أبقتها قريش بعد الإسلام خاصة أن الرسول لم يحج سوى مرة واحدة، ومات بعدها بأشهر في وقت تنفست فيه قريش معاهداتها مع المسلمين التي وقعت بعد الفتح. مما يعني أن أهل مكة لم يدخلوا الإسلام حين توفي رسول الله.

لفقراء دول أخرى. ويبقى ضرورة أن يتم هذا بطرق علمية واضحة صادقة لا استغلال فيها ولا محاباة وبكل عدل وبحسب ضوابط ونظم واضحة تضمن وصولها لمستحقيها بعيداً عن استغلالها للكسب.

وهناك الكثير من التفاصيل لكن القاعدة الأساسية للحج هي: أن ما ذكره القرآن من الحج فهو منه، وما لم يذكره القرآن فليس منه، ولو أصر على فعله الناس.

وقفة مع آية

يقول تعالى: الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ(١٩٧) البقرة.

في نفس الوقت يفهم من آيات سورة براءة أن هناك (يوم الحج الأكبر) حيث يجتمع الحجاج في سهل عرفات لبدء أعمال الحج.

فإن كان بدء الحج يكون في يوم التاسع من شهر ذي الحجة تحديداً، ألا يعني أن العمرة هي التي يمكن أداؤها في أي يوم خلال أشهر الحج (الأشهر الحرم)؟

خاصة أن سياق الآيات التي جاءت ضمنها الآية أعلاه تتكلم عن الحج والعمرة، ومن ذلك الآية قبلها: وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ(١٩٧) البقرة.

فالأشهر الحرم يطلق عليها أشهر الحج، ليس لأن الحج ممكن في أي يوم ولكن لأن الحج أهم وأشهر من العمرة فسميت الأشهر بالحج دون العمرة. ويكون من المتاح أن تؤدى العمرة في أي وقت خلال أشهر الحج (الأشهر الأربعة الحرم) دون بقية أشهر العام. بينما

يؤدى الحج فقط بدءً من تجمع الحجاج في عرفات في اليوم التاسع لشهر ذي الحجة. والشهر سمي بذي الحجة لأن الحج يؤدى فيه ولا يؤدى في غيره. وكل من فاته الحج ووصل إلى مكة خلال الأشهر الحرم فيؤدي العمرة.

مقدسات تحيط بالكعبة لا قدسية لها في الإسلام

الكعبة هي البناء الوحيد في المسجد الحرام والتي يجب أن تبقى في مكانها، مع إباحة أن تهدم ويعاد بناؤها – لو اقتضت الحاجة ذلك – ويمكن أن يستخدم لإعادة البناء أي حجارة أو مواد بناء يتم اختيارها ولا حرج. فحجارة الكعبة لا قدسية لها، ولا سمك جدرانها، وإنما الكعبة رمز لازم الوجود. ذلك أنها رمز لبيت الله على الأرض، وقبلة يتوجه لها المسلمون في صلاتهم، ويدورون حولها في طوافهم. وهذا لا يخرجها عن كونها كومة من الحجارة لا تضر – بذاتها – ولا تنفع.

وما عدا الكعبة فليس له علاقة بدين الله، سواء كان بئراً، كزمزم، أو مخلفات قديمة كالمقام أو الحطيم أو الحجر الأسود أو الشاذروان أو القماش الذي تستر به الكعبة أو غيرها. لكن الناس توارثوا التعلق بالماديات وهو ما يؤدي للوثنية.

فالتعلق بأستار الكعبة أو تقبيل الحجر أو وضع الخد والصدر واليدين على الملتزم أو مس قفص المقام أو الحديد المقام على قبر الرسول، تبرك مماثل للتبرك بالقبور، وعبادة الأصنام. والمذهب الحنبلي عموماً والمذهب الوهابي وتفريعاته المتأخرة خصوصاً، يزعمون أنهم ضد التبرك بالقبور والحجر والشجر ويمارسون تصرفات فجة ضد من يظنون أنهم يمارسون التبرك. وبرغم هذا نجدهم يحرصون حرصاً مبالغاً فيه على تقديس الحجر الأسود وتقبيله، ويغالون كثيراً – مع غيرهم – في ماء زمزم بطرق شتى. والأمر نفسه ينطبق على الحطيم والحرص على الصلاة قرب المقام. كما أنهم وافقوا غيرهم في الغلو في مسجد رسول الله معتبرين للمدينة حرماً كحرم الله مكة، مع أن هذا مساواة للرسول مع الله (تعالى الله وتبارك عن ذلك علواً كبيراً).

وهذه التصرفات المغالية تقرب وتشابه الغلو فيما يسمى بآل البيت عند الشيعة ومزاراتهم، وتشابه التبرك بالقبور عند مذاهب أخرى وبالأولياء وبمعتقدات مختلفة عند أتباع المذاهب

الأخرى. وبالتالي يمكن القول إن كل أتباع المذاهب الإسلامية لديهم نوع أو أكثر من أنواع الغلو المقرب للشرك، لكن كل أتباع مذهب لا يرون غلوهم الذي يمارسون، فيما ينتقدون غلو غيرهم.

وفيما يلي سنتحدث عن أشياء موجودة في المسجد الحرام توارث الناس العناية بها وتقديسها واختلقوا حولها قصصاً لا ينتهي لكي تبدو وكأنها بالفعل لها مكانة دينية وليست مجرد غلو محرم. وهذه الأشياء هي: زمزم، الشاذروان، الملتزم، الحطيم، الحجر الأسود، والمقام. وكل هذه الأشياء تتفق في أن القرآن بريء منها ولم يذكرها، فيما عدا ذكر (مقام إبراهيم) وضمن سياق لا علاقة له بما يسمى المقام الآن، كما سنرى. كما أنها كلها حيكت حولها القصص واختلقت لها الأحاديث لكي يقتنع الناس بقدسيتها بطريقة أو بأخرى.

وهذه صورة للكعبة والأشياء التي تحيط بها والتي يجب تطهير المسجد الحرام منها[1]:



[1] الصورة من موقع: Dalil-alhaj.com

زمزم

أولا: ليس صحيحاً أن بئر زمزم حفرها جبريل من أجل أن يشرب منها إسماعيل. لأن قصة إسماعيل وإحضاره وأمه (التي سموها هاجر) قصة مكذوبة جملة وتفصيلاً. فإسماعيل ابن إبراهيم ولد في مكة ونشأ في مكة وبقي نسله فيها حتى قيام الإسلام. وكذلك ولد إسحاق في مكة ونشأ فيها لكنه خرج منها وعاش هو وعائلته في البادية، حسب رواية القرآن التي لا يرقى إليها الشك.

ثانيا: كان في مكة بئر أو أكثر لكل بطن من بطون قريش، سبقت في الظهور زمزم. ومن هذه الآبار كما ورد في كتب السير: الطوى لعبد شمس، وبذر لهاشم، وسجلة للمطعم ابن عدي، والحفر لأمية ابن عبد شمس، سقية لأسد بن عبد العزى، أم حراد لعبد الدار، السنبلة لبني جمح، الغمر لبني سهم. وآبار غيرها. ولو كانت زمزم من عصر إبراهيم وماؤها بهذه الغزارة الحالية فسيحرص الناس على صيانتها والانتفاع بمائها الذي لا ينضب، ولن يحتاجوا لحفر آبار أخرى بحثاً عن الماء.

ثالثا: تقول كتب التراث إن سقاية الحاج كانت لقصي الذي كان يسقي الحجيج في حياض من أدم وكان ينقل الماء إليها من آبار خارجة من مكة منها بئر ميمون الحضرمي، وكان ينبذ لهم الزبيب. ثم احتفر قصي العجول في دار أم هانئ بنت أبي طالب، وهي أول سقاية احتفرت بمكة، قبل أن يكون لزمزم وجود.

ولو كانت زمزم هبة سماوية وحفرها إبراهيم فستبقى تجود بالماء على مر العصور ولن يحتاج من عليه السقاية من قريش أن يجلب الماء للحجاج من خارج مكة.

رابعاً: العباس ابن عبد المطلب هو جد الخلفاء العباسيين.

والخلفاء العباسيون هم من كتب التاريخ الذي وصلنا. وهم يقولون في تاريخهم إن جدهم العباس تولى سقاية الحاج بعد أبيه. وهم من قال إن زمزم حفرها جدهم عبد المطلب أبو العباس.

فهل يصعب عليهم إيجاد من يختلق لهم الأحاديث التي تقدس زمزم؟

لم يصعب عليهم إيجاد من اختلق أحاديث تمتدح خليفتهم السفاح بالاسم، ومن ذلك ما أورده أحمد ابن حنبل في مسنده: دّثنا عبد الله، حدَّثني أبي، حدثنا عثمان، وسمعته أنا من

عثمان، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «يخرج عند انقطاع من الزمان وظهور من الفتن رجل يقال له السفاح، فيكون اعطاؤه المال حثياً».

فكيف يستصعبون اختلاق أحاديث تمجد زمزم؟

خامساً: أثناء استقلال عبد الله ابن الزبير بالحكم في مكة عن الأمويين، كان يسبهم يوم عرفه ويفضح فسادهم على مسمع من الحجاج ومن بينهم حُجاج الشام. فقام عبد الملك ابن مروان ببناء ما عرف بالمسجد الأقصى في القدس والقبة المعروفة حالياً بقبة الصخرة، التي كساها مثلما تكسى الكعبة وصرف الناس للحج إليها بدل مكة حتى لا يستمعوا لابن الزبير.

ومنذ عهد ابن مروان أصبحت القدس بمنزلة مكة أو تزيد وظهرت الأحاديث التي لا نهاية لها بفضلها وقدسيتها وأن الصلاة فيها تعدل آلاف الصلوات في غيرها وظهرت قصة الإسراء والمعراج وغيرها. وبقي كثير من الناس خاصة في بلاد الشام حتى اغتصاب القدس من قبل إسرائيل، يقدسون أي يذهبون للقدس، كما يحجون لمكة.

فهل من العسير ترسيخ قدسية زمزم (بئر العباسيين) وهم من كتب التاريخ؟

وكثير من الناس يظنون أن زمزم منذ حفرها عبد المطلب وهي تفيض بالماء، فهل كانت كذلك؟

سأورد شاهدين يثبتان أن ماء زمزم يغور باستمرار على مر العصور:

- يقول الطبري في تاريخه: «خرج عمر بن عبد العزيز سنة ثمان وثمانين بعدة من قريش أرسل إليهم بصلات وظهر للحمولة من قريش منهم ابن أبي مليكة وغيره. فأخبروه أن مكة قليلة الماء وأنهم يخافون على الحاج العطش، وذلك أن المطر قل.»

يعني لا زمزم ولا أي بئر في مكة بقي فيها ماء لأن المطر الذي يغذيها قل. فزمزم ليست هبة سماوية ماؤها يفور من باطن الأرض ومن أماكن لا يعرفها إلا الله.

- ورد في كتاب أخبار مكة للأزرقي (ت ٢٥٠ هـ) ما يلي:

«بابُ ذِكْرِ غَوْرِ زَمْزَمَ، وَمَا جَاءَ فِي ذَلِكَ قَالَ أَبو الوَلِيدِ: كَانَ ذَرْعُ زَمْزَمَ مِنْ أَعْلَاهَا إِلَى

أَسْفَلِهَا سِتِّينَ ذِرَاعًا، وَفِي قَعْرِهَا ثَلَاثُ عُيُونٍ، عَيْنٌ حِذَاءَ الرُّكْنِ الْأَسْوَدِ، وَعَيْنٌ حِذَاءَ أَبِي قُبَيْسٍ وَالصَّفَا، وَعَيْنٌ حِذَاءَ الْمَرْوَةِ، ثُمَّ كَانَ قَدْ قَلَّ مَاؤُهَا جِدًّا حَتَّى كَانَتْ تَجُمُّ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ وَأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ وَمِائَتَيْنِ، قَالَ: فَضُرِبَ فِيهَا تِسْعَةَ أَذْرُعٍ سَحًّا فِي الْأَرْضِ فِي تَقْوِيرِ جَوَانِبِهَا، ثُمَّ جَاءَ اللهُ بِالْأَمْطَارِ وَالسُّيُولِ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ وَمِائَتَيْنِ فَكَثُرَ مَاؤُهَا، وَقَدْ كَانَ سَالِمُ بْنُ الْجَرَّاحِ قَدْ ضَرَبَ فِيهَا فِي خِلَافَةِ الرَّشِيدِ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَذْرُعًا، وَكَانَ قَدْ ضَرَبَ فِيهَا فِي خِلَافَةِ الْمَهْدِيِّ أَيْضًا، وَكَانَ عُمَرُ بْنُ مَاهَانَ - وَهُوَ عَلَى الْبَرِيدِ وَالصَّوَافِي - فِي خِلَافَةِ الْأَمِينِ مُحَمَّدِ بْنِ الرَّشِيدِ - قَدْ ضَرَبَ فِيهَا، وَكَانَ مَاؤُهَا قَدْ قَلَّ حَتَّى كَانَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: مُحَمَّدُ بْنُ مشيرٍ مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ يَعْمَلُ فِيهَا، فَقَالَ: أَنَا صَلَّيْتُ فِي قَعْرِهَا.»

ولو كانت زمزم تفيض كما تفيض اليوم لما قامت زبيدة بالأمر بإنشاء مشروع زبيدة لسقاية مكة والحجاج من وادي نعمان وبطول يزيد عن (٤٠) كليو متراً وذلك في العام (١٩٧ هـ). وبقي هذا المشروع يزود مكة بالماء إلى سبعينات القرن الهجري الماضي، وهو عهد قريب جداً.

وماء زمزم الإلهي غار فتفضلت الملكة زبيدة بإمداد مكة من عين خارج مكة في وادي النعمان وسميت العين باسمها، كما يفعل الحكام حالياً حيث تسمى كل المشاريع والشوارع والهيئات والمدارس وكل شيء بأسمائهم.

إذاً، زمزم تكرر غور مياهها وتكرر حفر قعرها وتعميقه عبر العصور. ولم تعرف النشاط المتواصل والماء الدائم الجريان قبل حفرها من قبل السلطات السعودية في العام ١٣٧٥ هـ. وبعد ذلك أصبحت زمزم تدر مياهاً غزيرة وبمواصفات ثابتة بسبب تقنيات التنقية، وليس ببركات السماء، لأنها ليست مباركة.

ولدينا ثلاثة تقارير تؤكد أن ماء زمزم يتلوث، وهي:

١. في عام ١٣٠٤هـ نشرت القنصلية الإنجليزية في جدة تقريراً تحت عنوان: حجة مكة وكوليرا زمزم، ورد فيه أن ماء زمزم يحتوي على ميكروبات ضارة قد تصيب بالكوليرا وأنه أسوأ من مياه المجاري. وقد نشرت مجلة لواء الإسلام في عددها الرابع الصادر في أول ذي الحجة عام ١٣٦٧ في القاهرة مقالاً بعنوان: زمزم، كتبه د. محمد محفوظ، وذكر فيه خبر تقرير القنصلية الإنجليزية.

٢. في العام ١٣٥١ هـ الموافق ١٩٧١ نشرت دار نشر أوروبية تقريراً قدمه طبيب عن ماء زمزم ورد فيه أن الماء موبوء وتتجمع فيه مياه المجاري وأنه يقع تحت مستوى سطح البحر.

٣. وفي العام ٢٠١١ نشرت البي بي سي تقريراً عن تحليل مياه زمزم يفيد أنه ملوث بالزرنيخ ويحتوي على مكونات كيماوية وبيولوجية ضارة بصحة الإنسان. وقد جاء الرد على هذه التقارير بصوت الإعلام الرسمي، لكن لا يتوفر تحليل مستقل.

وسواء كان الماء ضاراً أو يتم تعقيمه، فهذا لا يجعله مقدساً ولا يهم موضوعنا.

وغزارة مياه زمزم المفاجئة والحديثة حام حولها تساؤلات كثيرة، منها:

- لماذا ملوحة ورائحة ماء زمزم مماثلة لمياه البحر؟
- وعندما كانت البئر مكشوفة إلى وقت قريب، لماذا لم تكن النباتات تنمو حولها وفي مسيل المياه التي تنساب منها مع أنها أرض ترابية؟

أليس في هذه التساؤلات إشارة إلى أن قعر بئر زمزم يقع تحت سطح البحر بالفعل؟ «كما نص التقرير الثاني».

والبئر تم حفرها وزيادة عمقها عبر التاريخ، ومع ذلك بقيت مياهها تغور وتكاد تفقد حتى بدأت أعمال توسعة الحرم في العصر السعودي. مما جعل مياهها التي كانت شحيحة أو غائرة حتى العام ١٣٧٥ هـ تصل إلى ٢٠٠ ألف عبوة في اليوم ينتجها مشروع سقاية زمزم الذي أنشئ في العام ٢٠١١.

ولو ثبت أن بئر زمزم يقع تحت مستوى سطح البحر فقد تكون وفرة مياه البئر في العصر الحديث - والناتجة عن التوسعة الرسمية للبئر - أدت لفتح فجوات لممر مائي تحت البئر متصل بالبحر.

وما قيل عن مشروع تنقية الماء يدخل ضمنه نوع من التحلية الخفيفة لماء البحر تسمح بإبقاء نوع من الملوحة، وتضمن أن يستمر طعم الماء واحداً باستمرار دون أي تغيير، وهو ما أصبح سمة لماء زمزم.

مع بقاء احتمال تلوث البئر قائماً كون مجاري مكة ستتجه إليه لانخفاضه وإن كان التلوث يمكن تعقيمه خاصة بعد مشروع سقاية زمزم الجديد، إلا أن هذا لا يلغي الاحتمالات

الأخرى.

وفي الختام نكرر أن زمزم لا قدسية لها في دين الله، سواء كان ماؤها أحلى من العسل أو كان أمر من العلقم. وأن نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل لم يعلما بوجودها. وقد حفرها عبد المطلب الذي كان مسئولاً عن سقاية الحاج، وورثها عنه ابنه العباس، الذي أصبح جداً لخلفاء بني العباس. فكان هذا أحد العوامل التي ساعدت على تعظيم شأن البئر دون سائر آبار مكة. بما في ذلك بئر طوى التي تقع في وادي طوى المقدس بشهادة القرآن، والذي كلم الله فيه موسى، وفيه تلقى موسى التوراة وكتبها.

وتقول كتب الأخبار من تاريخ وسير وحديث إن رسول الله بات في وادي طوى ليلة فتح مكة. ويصف ابن إسحاق في سيرته – حسبما نقل ابن هشام – كيف أن الرسول كان يمشي بكل سكينة وخشوع في الوادي:

- قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انتهى إلى ذي طوى وقف على راحلته معتجراً بشقة برد حبرة حمراء، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل.

وإن صدق الخبر فإن قول ابن إسحاق إن خشوع الرسول يعود لأن الله يسر له الفتح، غير صحيح، لأن مروره بطوى كان قبل دخول مكة وليس بعد الفتح. ويكون خشوعه عليه الصلاة والسلام لأنه في الوادي المقدس طوى.

- وورد في البداية والنهاية أنه في كتاب البخاري باب اسمه: باب دخول النَّبيّ صلى الله عليه وسلم إلى مكة شرّفها الله عزّ وجل، جاء فيه: حدّثنا مسدده ثنا يَحْيَى بن عبد الله، حدَّثني نافع عن ابن عمر. قال: بات النَّبيّ صلى الله عليه وسلم بذي طَوَى حتى أصبح، ثم دخل مكة وكان ابن عمر يفعله. ورواه مسلم من حديث يَحْيَى بن سعيد القطّان به. وزاد حتى صلّى الصبح، أو قال: حتى أصبح.

- وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبيت بذي طوى حتى يصبح، فيصلي الصبح حين يقدم مكة، ومصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أكمة غليظة، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم استقبل فرضتي الجبل الذي بينه وبين

الجبل الطويل نحو الكعبة، فجعل المسجد الذي بنى ثَمّ يسار المسجد بطرف الأكمة، ومصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسفل منه على الأكمة السوداء. يدع من الأكمة عشرة أذرع أو نحوها، ثم يصلي مستقبل الفرضتين من الجبل الذي بينك وبين الكعبة. أخرجه البخاري ومسلم.

- وأورد ابن كثير في موضع آخر من البداية والنهاية، ما يلي: قال غير واحد من المفسّرين من السلف والخلف لما قصد موسى إلى تلك النار التي رآها فانتهى إليها وجدها تأجج في شجرة خضراء من العوسج، وكل ما لتلك النار في اضطرام، وكل ما لخضرة تلك الشجرة في ازدياد فوقف متعجباً، وكانت تلك الشجرة في لحف جبل غربي منه عن يمينه، كما قال تعالى: (وَمَا كُنْتُ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتُ مِنَ الشَّاهِدِينَ) (القصص: ٤٤) وكان موسى في واد اسمه طوى، فكان موسى مستقبل القبلة، وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب، فناداه ربّه بالوادِ المقدّس طوى، فأمر أولاً بخلع نعليه تعظيماً وتكريماً وتوقيراً لتلك البقعة المباركة، ولا سيما في تلك الليلة المباركة.

وما تقدم يؤكد أن الوادي المقدس طوى هو القريب من مكة، وأن الرسول كان يعظمه ويبيت فيه. وكان يحاول الصلاة في مكان بحيث يكون مكان التكليم أمامه على خط واحد مع الكعبة.

وهناك أخبار في كتب التراث عن أن بني إسرائيل إذا قدموا لمكة خلعوا نعالهم في وادي طوى، ومن ذلك:

- ورد في كتاب أخبار مكة للأزرقي: حَدَّثَنِي جَدِّي، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ مِسْعَرٍ، عَنْ مُصْعَبِ بْنِ شَيْبَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: «إِنْ كَانَتِ الْأُمَّةُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَتَقْدَمُ مَكَّةَ، فَإِذَا بَلَغَتْ ذَا طُوًى، خَلَعَتْ نِعَالَهَا تَعْظِيمًا لِلْحَرَمِ».

وخلع النعال لتعظيم طوى، لأنه لو كان للحرم لخلعوها إما من حدود الحرم أو عند المسجد الحرام، وليس عند مرورهم بوادي طوى.

- وورد في حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠) : «حدثنا أحمد بن إسحاق ثنا عبد الله بن سليمان ثنا محمود بن خالد ثنا عمرو بن عبد الواحد عن الأوزاعي ثنا عبده

بن أبي لبابة عن مجاهد قال: كان يحج من بني إسرائيل مائة ألف فإذا بلغوا أنصاب الحرم قلعوا نعالهم ثم دخلوا الحرم حفاة».

وحتى لو كان هناك مبالغة في أعدادهم، فالمهم هو خلع نعالهم لقدسية المكان ولإحياء ذكرى التكليم حيث أمر موسى بخلع نعليه: إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) طه.

- ويورد الفاكهي في كتابه أخبار مكة: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عُمَرَ قَالَ : ثنا سُفْيَانُ ، عَنْ مِسْعَرٍ ، عَنْ مُصْعَبِ بْنِ شَيْبَةَ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قَالَ : « كَانَتِ الْأُمَمُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا جَاءُوا ذَا طُوًى خَلَعُوا نِعَالَهُمْ تَعْظِيمًا لِلْحَرَمِ».

وإن صدق الخبر فخلع النعال كان تعظيماً لطوى.

ونحن لا نورد الأخبار على أنها دليل قاطع، لكن نقول إن القرآن ذكر الوادي المقدس طوى وأمر موسى بخلع نعليه. وقد سبق وناقشنا موطن النبي إبراهيم في أحسن القصص وفي مواضيع نشرت على الفيس بوك، وأنه عاش في قرية قريبة من مكة ثم انتقل لمكة وعاش فيها بقية حياته. وأن موسى حج لمكة وعندما خرج منها مع زوجته أول الليل عائدا لبلاده رأى النار وكان في وادي طوى وهناك حدث التكليم. ولو وجدت أخبار تشير لهذه الحقائق فهذا يقوي صحة الأخبار وليست الأخبار هي التي تقوي ما يقول القرآن.

المهم هو أن طوى القرآن أهملت وزمزم قريش قدست.

فوادي طوى طواه النسيان بعدما اختفى تحت البنايات الشاهقة، وإن بقي جزء منه تحت أرصفة وإسفلت شارع طوى. وسجنت فوهة البئر داخل بناء كئيب وأهملت، وقد قمنا بنشر صور لمبنى البئر في كتابنا أحسن القصص. بينما أصبح ماء زمزم لما شرب له وشفاء من كل داء حسب أحاديث تم اختلاقها ونسبتها للرسول، كنوع من الترويج لزمزم. واليوم طبقت سمعة زمزم الآفاق ووصل ماؤها إلى كل بقاع الأرض. مع أنها بئر عبد المطلب ولا قدسية لها في الإسلام، واستغلت رسميا للكسب.

وجدير بالمسلمين ردم زمزم بئر عبد المطلب، وإحياء طوى القرآنية والاهتمام بواديها المقدس.

الشاذروان

وأول ما يمكن ملاحظته هو أن هذا اللفظ يبدو وكأنه فارسي أو تركي أو بلغة أعجمية أخرى وليس عربياً.

وهو مسطبة ترتفع عن الأرض بحوالي (١٣ سم) وبعرض (٤٥ سم)، وتحيط بالكعبة وملاصقة لها في ثلاث جهات من جهاتها الأربع. ويقال إن الذي بناه عبدالله ابن الزبير (قتل ٧٣ هـ) عندما كان حاكماً لمكة، وذلك لحماية الحجارة السفلى للكعبة من مياه الأمطار والسيول.

وكما هو واضح فهو مجرد بناء بشري لا علاقة له بالكعبة ولا بالحرم ولا قدسية له. لكن المشكلة أن كل من جدد في المسجد الحرام يجدد في هذا الشاذروان حتى أصبح وكأنه قطعة من الكعبة، وكأن إزالته تزلزل عرش الرحمن.

ولأنه اكتسب التقديس، يجب إزالته، فهو مجرد فكرة معمارية بغرض صد السيول. واليوم يمكن لشبكات تصريف السيول الحديثة أن تحل المشكلة (لو وجدت في مكة) دون حاجة لشاذروان ابن الزبير.

الملتزم

هو الجزء من جدار الكعبة الواقع بين الحجر الأسود وباب الكعبة، وهو جزء ضيق. وكثيرون من القراء لم يسمعوا به ولا يعرفونه، نتيجة للزحام الشديد في الحرم في السنوات الأخيرة والمصحوبة بالفوضى، مما يجعل الاقتراب من الكعبة مستحيلاً إلا على الرسميين ورجال الدين.

واليوم يمكن رؤية بعض الحجاج وهم يتبركون بمسح أيديهم ووجوههم بجدار الكعبة ونجد من ينهرهم من رجال الدين لأنه نوع من أنواع التبرك المحرم الشركي – كما يعتقدون – لكن الملتزم هو مكان خصص بجدار الكعبة، لكي يتم التبرك به وذلك بمسح اليدين والوجه والصدر بمباركة رجال الدين أنفسهم الذين ينكرون تمسح الحاج بالكعبة لأنه نوع من الشرك، ويفسحون المجال لهذا الشرك بالتمسح بالملتزم معتبرينه حلالاً، مع أن الملتزم من جدار الكعبة.

وليس التبرك بالملتزم حلالاً فقط، بل هو أكثر من ذلك. فكتب التراث تورد أحاديث ينسبون فيها أن الرسول كان يفعل ذلك، ويزعمون أن من يلتزم تقبل دعوته.
والالتزام يعني أن تكون في ذلك المكان وتضع وجهك وذراعيك وكفيك على جدار الكعبة. يعني تبرك!
فإن كان يجوز التبرك بجدار الكعبة في منطقة (الملتزم) فهو جائز في كل جزء من جدران الكعبة. وإن كان التبرك شركاً فالملتزم مكان خصص للشرك، ومما بقي من شرك ما قبل الإسلام وحافظ عليه المسلمون بالزعم أن الرسول مارسه. وحاشا لرسول الله أن يمارس التبرك والشرك.
ولو تذكرنا أن أحجار الكعبة تبقى أحجاراً ومن تبرك بها أو تبرك بهبل واللات والعزى فهو تبرك شركي، بنفس المستوى.
والكعبة رمزٌ ببنائها، لكن حجارتها لا قدسية لها، كما سبق وذكر. والدعاء سبق وناقشنا أنه لا يقبل لأمور الدنيا وهو في القرآن خاص بالاستغفار والتوبة. وحتى لو كان الدعاء يستجاب، فالله يستجيب دون حاجة لتبرك ولا لوقت معين ولا لتواجد في الحرم.

الحطيم

هو الحِجْر أو حجر إسماعيل.
حائط يقع شمال الكعبة على شكل نصف دائرة بطول (١١,٣٠ متر)، وارتفاعه (١,٣٢ متر)، وعرض الجدار (١,٦ متر).
وهناك أقوال متخالفة حول منشئه كلها ليست دقيقة، ومن ذلك قولهم: إنه كان جزءً من الكعبة ولكن عندما أعادت قريش بناء الكعبة نقصت مؤنتها فقصرت بناء الكعبة عنه. ورجال قريش متخمون بالثروات التي يكسبونها من نقل البهارات واللبان والبخور من قرب سواحل بحر العرب إلى الشام ومنها لأوروبا، ويستحيل أن تنقص مواردهم عن بناء جدار الكعبة. ومما يؤكد أن ما قيل غير صحيح هو أن شكل الكعبة بأربعة أضلاع بينما الحطيم على شكل قوس.
وسأورد رواية أميل لمغزاها، دون تفاصيلها، وهي: روي عن ابن عباس أن أبا طالب قال

في الجاهلية لقرشي قتل هاشمياً خطأ وأنكر قتله: اختر منا إحدى ثلاث؛ إن شئت أن تؤدي مائة من الإبل، وإن شئت حلف خمسون من قومك أنك لم تقتله، فإن أبيت قتلناك به[1].

قال: فأتاه قومه فذكر لهم ذلك فقالوا: نحلف. فأتته امرأة من بني هاشم كانت تحت رجل منهم قد ولدت له فقالت: يا أبا طالب أحب أن تجير ابني هذا ولا تصبر يمينه، حيث تصبر الأيمان (يعني الموضع الذي كانوا يحلفون فيه، وهو حطيم الكعبة ما بين الركن والمقام وزمزم والحجر) لأن الناس كانوا يحطمون هناك بالأيمان ويستجاب فيه الدعاء على الظالم للمظلوم، فقلّ من دعا هنالك على ظالم إلا أهلك، وقلّ من حلف هنالك إثماً إلا عجلت له العقوبة[2].

فالحطيم قد يكون في الأصل مكاناً وثنياً للاستقسام بالأزلام والأنصاب، وقد يكون مذبحاً للقرابين أيضا. وهذه الأعمال الوثنية نهت عنها سورة المائدة: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ ... (٣).

وبما أن رسول الله والمسلمين لم يبقوا في مكة إلا يوم الفتح ثم نقضت قريش معاهدتها معهم وخرجت مكة عن سيطرة المسلمين حتى ما قبيل وفاة الرسول. وبما أن الرسول حج مرة واحدة فقط في آخر أيامه ومات بعدها بأشهر قليلة فإن بقاء مخلفات وثنية حول الكعبة وارد ومحتمل. ومع الأيام أصبح التخلص منها وكأنه عبث بدين الله، خاصة أن قريشاً حكمت وتحكمت بدولة المسلمين عبر الأمويين والعباسيين لقرون. ولعل ابن الزبير عندما قال التاريخ إنه هدم الكعبة وأعاد بناءها، قد هدم هذه الملحقات وأبعدها، فلما قتل أعادتها قريش كما كانت. لأن ابن الزبير ليس لديه سبب لهدم الكعبة، وحتى لو أراد تجديدها وترميمها فيمكنه هذا دون أن يهدمها.

---

1 هذا العرف ما زال قائماً عند بعض قبائل الحجاز وجنوب غرب جزيرة العرب. ويتبع القسم الذي يحلفه الخمسون رجلاً بالعبارة التالية: «الر أن الذي حصل منا عليكم حصل منكم علينا لرضينا بما رضيتم به». ويطلق عليه «الخط والمثل» أي الحلف على خطاه ومثله.

2 تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام لابن ضياء المكي.

الحجر الأسود

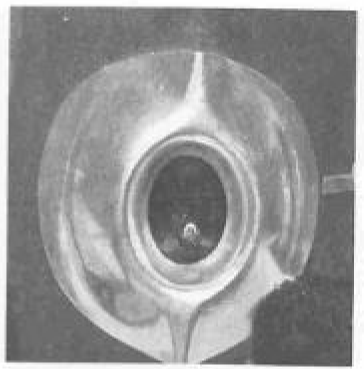
لعله الأشهر من بين كل الأشياء المحيطة بالكعبة بجانب مقام إبراهيم.

وكغيره فتاريخه مجهول، وهناك الكثير من الروايات المختلفة وكلها لا أساس لها، وما هي إلا اختلاقٌ ممن كتب عنها في العصر العباسي. بعضها لا يمكن حدوثه مثل قولهم "إنه حجر من الجنة"، لأن الجنة لم تخلق بعد.

ومثل قولهم إن الملائكة أنزلته على إبراهيم، كما ورد في حكاية خرافية تقول: إن إبراهيم عليه السلام طلب من إسماعيل أن يحضر له حجرا، فلما رجع وجد أن إبراهيم قد وجد حجرا، فقال إسماعيل: يا أبتي من أين لك هذا قال: جاءني به من لم يكلني إلى حجرك، جاء به جبريل[1].

أو القول بأنه كان أبيض فسودته ذنوب البشر، وغير ذلك من الخزعبلات التي تزخر بها كتب التراث.

ويقع مكان الحجر بسار باب الكعبة، ويرتفع عن أرض المطاف (بـ١٠ ,١ متر). وهو ليس حجراً بل فتاتٌ من حجر عددها (٨) قطع أكبرها لا يزيد طولها عن ٤ سم وبعرض لا يزيد عن ٢ سم، وأصغرها لا يزيد طولها عن نصف سم. وهذه القطع مغروسة في مادة لاصقة داخل وعاء فضي مثبت داخل الركن الشرقي لجدار الكعبة إلى يمين بابه. كما هو موضح في الصورة.



١ جبريل وكل المخلوقات اللاحسية لا تستطيع نقل الأشياء، لأنه ليس لديها جسد حسي.

وهذه هي قطع الحجر الثمان التي داخل الإطار الفضي كما رسمها بحجمها الطبيعي الرسام محمد طاهر كردي بعد أن وضع ورقة على الحجر ورسمها بنفس حجمها الصحيح، غرة ربيع الأول عام ١٣٧٦ هـ[1]:



ويقال إن الحجر الأسود كان بطول (٣٠سم)، وقد مرت أحداث تسببت في تكسيره، ولم يبق منه سوى هذه الشظايا الصغيرة.

وهو مجهول الأصل، ولا قيمة له في الإسلام، والحديث الوحيد الذي يستشهد به على قدسية الحجر مختلق وهو المنسوب لعمر ابن الخطاب ونصه في كتاب مسلم: قَبَّلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ الْحَجَرَ. ثُمَّ قَالَ: أَمَ وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ حَجَرٌ. وَلَوْلاَ أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ

ومع أن مختلقي الأحاديث لم يتمكنوا من التصريح بقدسية الحجر وكل ما استطاعوا قوله هو هذا الحديث فإنه كان كافياً مع تتابع الأجيال أن يقدس الحجر كما هو عليه الآن.

وأميل شخصياً أنه بقايا حجر وثني كان بالقرب من الكعبة، وتم تكسيره عمداً، ولعل من كسره هو عبد الله ابن الزبير عندما قام بإعادة بناء الكعبة. ولما قتل ابن الزبير وأعادت بني أمية بناء الكعبة كما كانت زمن الجاهلية احتفظوا بما استطاعوا العثور عليه من حطام الحجر، وهو الذي قد يكون بطول ٣٠ سم. وهذه هي القطعة التي استولى عليها القرامطة

١ كما ورد في الموقع الحكومي «بوابة الحرمين الشريفين» وهذا رابط موقعهم:
http://www.alharamain.gov.sa/index.cfm?do=cms.conarticle&contentid=4048&categoryid=210

وكسروها. إلا أنه تم إعادة القطع التي تم العثور عليها من حطامه وهي الشظايا الثماني الباقية لليوم، وهي التي يحتفظ بها في هذا الوعاء الفضي وقد غمست بمادة لاصقة لئلا تنتزع من مكانها. والتي يحتفظ فيها بهذا الوعاء الفضي وقد غمست بمادة لاصقة لئلا تنتزع من مكانها.

وتجدر الإشارة إلى أنه تم اكتشاف صنم عند أحد أبواب المسجد الحرام واسمه باب السلام، عن طريق الصدفة. وقد طالبت به الحكومة الهندية في عهد سعود بن عبد العزيز، لكن طلبهم رفض واختفى الصنم منذ تلك اللحظة. وقد أورد الخبر الدكتور محمد عبده يماني الذي قد تولى عدة مناصب وزارية دينية، عبر لقاء مع قناة اقرأ التلفزيونية[1]. ولعل قريش قامت بدفن أصنامها لما تأكد لديها أن المسلمون قادمون لفتح مكة.

وبقاء صنم قرشي إلى هذا العصر، والناس لا تعلم أنه صنم هو نفس العامل الذي جعل المقدسات غير المقدسة حول الكعبة تبقى والناس لا يعلمون عنها ولا عن تاريخها شيئاً[2].

المقام

من يعود لكتب التراث سيجد أن المقصود بالمقام (مقام إبراهيم) لم يُتفق عليه أبداً. وأن القول بأنه ذاك المحاط بالغطاء الزجاجي وعليه غطاء مذهب، الواقع أمام باب الكعبة، هو واحدٌ من آراء كثيرة مختلفة عن المقصود بالمقام. وإليكم بعض أقوال المفسرين، مع الاقتصار على النقل من تفسير الطبري دون غيره من كتب التفسير:

الرأي الأول: أن المقصود بمقام إبراهيم هو الحج كله، وممن قال بهذا: ابن عباس ومجاهد وعطاء. حيث قالوا: مقام إبراهيم هو الحجّ كله، لأنني قد جعلتُه إماما فمقامه عرفة والمزدلفة والجمار[3].

رأي ثاني قال به الشعبي أن مقام إبراهيم هو عرفة.

---

١ رابط اللقاء: https://www.youtube.com/watch?v=MXAgS_8ENJk&feature=youtube_gdata_player

٢ أبو حزم يميل إلى أن الحجر الأسود قطعة من صنم هبل كبير آلهة قريش والذكر بينها كون بقية الآلهة إناث: اللات والعزى ومناة. وهبل هو الذي أعلاه أبو سفيان يوم أحد كما تقول كتب التراث. ولما كسره ابن الزبير بقيت منه قطعة احتفظت بها قريش وأعادتها لجدار الكعبة. وكون لونه أسود لأن الأصنام في العادة لونها أسود كما هي الحال عند الهنود.

٣ إذا كان ابن عباس وهو من أهل مكة لا يعرف أن هناك مكاناً حول الكعبة يسمى مقام إبراهيم فهذا دليل على أن مقام إبراهيم كموضع عند الكعبة سمي بعد الرسول ولم تكن قريش تعرفه.

رأي ثالث قال هو الحرم.

وهناك من قال إنه ذلك الحجر المغطى بغطاء زجاجي.

وقد اختلفوا حول أصله.

بعضهم ومنهم ابن عباس قالوا هو الحجر الذي قام عليه إبراهيم حين ارتفع بناء الكعبة وضعف عن رفع الحجارة[1].

وقال آخرون ومنهم السدي: هو الحجر الذي كانت زوجة إسماعيل وضعته تحت قدم إبراهيم حين غسلت رأسه، فوضع إبراهيم رجله عليه وهو راكب، فغسلت شقه ثم رفعته من تحته وقد غابت رجله في الحجر، فوضعته تحت الشقّ الآخر فغسلته، فغابت رجله أيضا فيه، فجعلها الله من شعائره، فقال: وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى[2].

والخلاصة أن رجال كتب التراث لا يعرفون ما هو المقام ولا سبب تسميته.

أتدرون لماذا؟ لأن المفسرين والمحدثين قصاص يتكلمون من عند أنفسهم ويختلقون القصص لكل شيء يمرون به في كتاب الله وهم لا يعرفونه ويأولون الآيات لغير معانيها ولا يفهمون الآيات والعبارات القرآنية كما نزلت. وهو ما نكرر التأكيد عليه باستمرار.

ومن تخاريف المحدثين عن المقام ستورد مثالاً نقله شيخهم:

يقول البخاري: حدَّثنا مسدَّدٌ عن يحيى بن سعيد عن حُميد عن أنس قال: «قال عمرُ: وافقتُ اللهَ في ثلاث ـ أو وافقني ربي في ثلاث ـ قلت: يا رسولَ الله، لو اتخذْتَ مقامَ إبراهيمَ مصلًّى، فأنزل الله: وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى.

فالبخاري هنا ينقل سبباً لنزول الآية مشاركاً المفسرين في ظنهم أو ناقلاً عنهم. وسنرى فيما بعد أن الآية لم ينزل جزء منها لموافقة اقتراح عمر ابن الخطاب.

ومن أغرب ما أورده المفسرون قولهم إن الأمر في «واتخذوا» موجه لبني إسرائيل زمن الرسول فأمرهم أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلّى، فهم يصلون خلف المقام[3].

---

1 لاحظ أن ابن عباس ينسب له أنه قال إن المقصود بالمقام هو الحج كله، في الأسطر السابقة، والآن هنا ينسب له أنه قال هو الحجر الذي ارتقى عليه إبراهيم. وهو دليل على أن كل ما قيل عن المقام هو اختلاق.

٢ هذه التخاريف فيها استهزاء وتجنٍ على دين الله، حيث جعلت حجراً كان تحت أقدام إبراهيم من شعائر الله.

٣ وسورة البقرة مدنية، ونزلت بعد الهجرة عندما لم يكن لبني إسرائيل أي تواجد في مكة.

وكل ما تقدم يظهر كم هي أقوال المفسرين والمحدثين والنحويين تأويلات لكلام الله لغير معناه، ولا أساس لها.

واليوم فالناس لا يعرفون عن المقام إلا أنه ذلك الحجر الذي تعرض لعوامل تعرية حفرته فقيل للناس إنه موطئ قدمي إبراهيم فاحتفظوا به، كنوع من التقديس وحافظوا عليه. وقامت الجهات الرسمية بتغطيته بغطاء زجاجي وله غطاء علوي مذهب أو من ذهب.

ومما قاله ابن كثير في تفسيره: وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه، ولم يزل هذا معروفاً تعرفه العرب في جاهليتها، وقد أدرك المسلمون ذلك فيه كما قال عبد الله بن وهب: أخبرني يونس بن يزيد عن ابن شهاب: أن أنس ابن مالك حدثهم، قال: رأيت المقام فيه أصابعه عليه السلام وأخمص قدميه، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم. انتهى كلام ابن كثير

ولبيان كذب هذا الكلام سنفترض أن أنساً رأى المقام زمن رسول الله وعليه آخر أصابع إبراهيم وأخمص قدميه. ثم رآه آخر مرة في العام الذي توفي فيه (٩٣ هـ) وقد محيت آثار قدمي إبراهيم، والسبب كما يقول: "أذهبه مسح الناس بأيديهم". أي تبرك الناس بهذا الحجر.

وسنفترض أن التبرك بدأ زمن رسول الله يعني في السنة العاشرة للهجرة التي هي السنة التي حج فيها الرسول. فهل ٨٣ سنة من لمس الحجر للتبرك كافية لمسح آثار أصابع وأقدام إبراهيم التي قاومت عوامل التعرية وبقيت ظاهرة من زمن إبراهيم الذي سبق عصر الإسلام بثلاثة آلاف عام؟

الجواب: لا أحد يختلف عليه، وهو كاف لتكذيب هذا الحديث.

وحتى لو افترضنا جدلاً أنه بالفعل آثار قدمي إبراهيم فيمكن وضعها في متحف، لكن لا توضع للتقديس والتبرك.

والآن سنتدبر الآيات التي ورد فيها ذكر مقام إبراهيم وهما في سورتي: البقرة وآل عمران. وسنبدأ بما ورد في سورة البقرة، مع مراعاة السياق والمخاطب وعوامل التدبر الأخرى:

يقول تعالى: وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ(١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ

وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ(١٢٩).

وكما نرى فالآية التي ذكر فيها مقام إبراهيم وردت في خطاب موجه للناس زمن الرسول. ونوع الخطاب إخباري يخبرهم عن إبراهيم وبعض ما قام به، وليس هناك تشريع يأمر الناس بفعله. لذا فكلمة «واتخذوا» يجب أن تُقرأ على أنها فعل ماضي وليس فعل أمر. فالناس في عصر إبراهيم اتخذوا من مقام إبراهيم حول الكعبة مكاناً للصلاة، ولا تطلب الآية من الناس الآن أو في عصر الرسول أن يصلوا في مقام إبراهيم.

ويتبقى أن نفهم ما المقصود بمقام إبراهيم وهذا تبينه سورة آل عمران التي ورد فيها: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ(٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ(٩٧).

الآية (٩٦) تقول إن أول بيت لله وضع للناس هو الذي ببكة.

الآية (٩٧) تقول في هذا البيت آيات بينات، وهذا البيت هو مقام إبراهيم، ومن دخل هذا البيت كان آمناً.

إذا، مقام إبراهيم هو البيت الحرام أو بالأحرى ما يطلق عليه الحرم لأن إبراهيم لا يقيم في الكعبة ولا في المسجد المحيط بها ولكنه يقيم في مكة، منطقة الحرم.

ولو عدنا لآية سورة البقرة وتمعنا فيها مرة أخرى فهي تقول: وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(١٢٥).

البيت (الكعبة والمسجد المحيط بها والحرم المحيط) مثابة للناس يأتونه للحج، وأمناً. ومن يأتي لمكة فهم يصلون في مقام إبراهيم الذي هو حرم مكة. فهم يأتون لمكة الحرام ويصلون

فيها التي هي مكان إقامة إبراهيم (مقام إبراهيم) وليس هناك حجر صعد عليه وطبعت عليه آثار قدميه.

هذا هو المقام بكل بساطة ووضوح.

أما هذا الحجر المزخرف بالرخام والمحاط بغطاء مذهب فهو مجرد حجر، ظن الناس بعد قرون من زمن إبراهيم أن له قدسية فقدسوه وبقي بعد الإسلام لأن الناس نسبوه لإبراهيم لكي يبقى مقدساً وبالقرب من الكعبة ولا يحطم أو يتم التخلص منه، وهو ما يجب أن يفعل به الآن.

وختاماً لحديثنا لابد من الإشارة إلى أن الكعبة بيت رمزي لله لكي يحج الناس له، وإليه يتوجهون في صلواتهم. لكنها كبناء لا قدسية لها، ويمكن أن تهدم ويعاد بناءها كلما دعت الحاجة بأي حجارة كانت، لأن العبرة في وجود الكعبة وليس فيما بنيت منه.

واليوم نشاهد أن الكعبة قد غطيت بقماش فاخر مكتوب عليه آيات بخيوط ذهبية يقوم بإنتاجها مصنع متخصص وعمالة وتكاليف بملايين الريالات غلو لا حاجة له وتقديس. ولو صرفت ملايين تزيين الكعبة على مشاريع إنمائية لساهمت في القضاء على الفقر ولكانت أنفع للناس.

كما أن الحكومة السعودية تساهم في ترسيخ الغلو في كسوة الكعبة وذلك بالقيام سنوياً بتقطيع كسوة العام الفائت إلى قطع صغيرة وتقديمها كهدايا لزعماء الدول وبعض الأشخاص كنوع من البركة وهذا الاعتقاد يدخل في التبرك والغلو كما أن تقطيع كسوة كلفت الملايين فيه تبذير محرم.

ولا حاجة لوجود باب للكعبة ولا حاجة لصرف الملايين لتحسين داخل الكعبة ولا قدسية للصلاة داخل الكعبة وليس هناك زيادة أجر لمن يصلي داخلها عمن يصلي خارجها وإلا لكان هناك تفضيل للسلاطين وأتباعهم عن بقية الناس، لأن الكعبة لا يدخلها إلا هم ومن حولهم، ومن يختارون.

كما نلاحظ أن (الميزاب) الذي يصرف ماء السيول من سطح الكعبة يسمى الآن مزراب الرحمة. وهذا بداية لتقديسه، لأنه ليس ميزاباً للرحمة ولكن لتصريف الماء مثله مثل أي ميزاب في أي مبنى.

وعليه فلو أعيد بناء الكعبة وألغي بابها ولا حاجة لكتابة آيات قرآنية عليها، وإن كان ولابد فتطلى جدرانها الخارجية بأي لون أسود أو غيره لا فرق. ولا حاجة لباب يؤدي لداخلها وكأن هناك سر الله الأعظم. لو فعلنا فقد طهرنا بيت الله مما يجب ألا يكون فيه.

حرم المدينة

المدينة موضع في يثرب بني فيه مسجد الرسول وسكن المهاجرون حوله، ثم عمت تسمية المدينة على كل يثرب في عصور لاحقة. وليس للمدينة مكانة مقدسة أبداً، ومسجد الرسول كأي مسجد آخر في أي مكان.

والحرم والبلدة الحرام هي مكة وفيها المسجد الحرام، وهو بيت الله الوحيد على الأرض.

وقد توفي الرسول والمدينة لا أحد يعتبرها حرماً، ولا أحد يقارن مسجد الرسول بالمسجد الحرام. وفي عصر الظلمات والفتن اعتبر الناس مسجد الرسول حرماً يضاهي الحرم، وأصبحت المدينة بلدة محرمة أخرى بجانب مكة. واختلقت أحاديث كثيرة عن حرم المدينة وحرمتها، ومسجدها. وتوالت التوسعات والتحسينات على المسجد الذي كان يصلي فيه الرسول بواسطة الحكومات المتعاقبة، بعدما أصبحت زيارة المدينة للحجاج عملاً مكملاً للحج، وكأن الحج لا يكتمل بدونه. وكان الواجب على المسلمين المحافظة على مسجد رسول الله على حاله زمن الرسول بحجراته وحجرات أزواجه والمداومة على ترميمه وصيانته. وإبقاء قبر الرسول وقبري أبي بكر وعمر كما كانت، ولو أمكن إبقاء مدينة عصر الرسول كما كانت، كشاهد حي على عصر صدر الإسلام.

لكن المؤسف هو أن كل آثار المدينة مسحت من الوجود وتم توسعة المسجد توسعة مبالغاً فيها لدرجة ابتلعت مساحته كل ما كان يعرف بالمدينة زمن رسول الله بل وحدود المدينة قبل (٣٠) عاماً، بآثارها التي لا تقدر بثمن. وصرفت باسمها مليارات الريالات التي لو صرفت في مجال مكافحة الفقر والبنية التحتية لزال الفقر وأصبحت البلاد أكثر تطوراً. وتوسعة المسجد أخرجته من كونه مسجداً لرسول الله إلى مسجد هائل الاتساع لا علاقة له بالرسول ولا يمثله.

وبطبيعة الحال فإزالة كل الآثار الإسلامية من المدينة لم تكن لمرضاة الله، لأن الله لا يرضيه

أن تمسح من الوجود الشواهد التاريخية والنقوش الدالة على عصر صدر الإسلام. ومن قام بتفتيت الحجارة التي تحمل النقوش في جبل سلع وغيره، وهدم البيوت القديمة وحول أماكن الآثار لمناطق سكنية في مكة والمدينة ليس موالياً لله، ولم يفعل ذلك خوفاً من تبرك الناس بها، لو بقيت. لأن من يريد التبرك بحجر أو سياج يتبرك اليوم بالسياج المحيط بقبر الرسول وبالمقام والحطيم وزمزم والملتزم والحجر الأسود، وغيرها مما تتم رعايته وتجديده والحث على التبرك به. ولأن من يتبرك بالأشياء لن تتنزه عقيدته الفاسدة بمجرد منعه من التبرك. ولأنه يمكن وبسهولة منع الناس من التبرك بالتوعية والقوانين والأنظمة وليس بهدم آثار لأعظم دين ظهر على الأرض، لدرجة أن مكة والمدينة تحولتا من أغنى المدن العالمية في الآثار إلى مدن كالمدن الأمريكية التي بنيت على أراض بكر لم يسبق أن سكنت.

والأكثر أسفاً أنه برغم أن الآثار ملك لكل العالم فإن كل المنظمات الدولية وعلى رأسها هيئة الأمم واليونيسكو لم تعترضا على ما حدث ولو بكلمة. واستمر تجريف الآثار وتخريب مكة والمدينة على مرأى ومسمع منهم، وهم ينظرون.

حسبنا الله ونعم الوكيل، فقد أجهض من يتسمون بالإسلام على مآثر الرسول والمسلمين وآثارهم.

الثواب ليس على قدر المشقة ولكن على قدر العمل

وهذه العقيدة تعتمد على حديث منسوب للرسول روي على لسان أم المؤمنين عائشة أن الرسول قال لها أثناء أداء العمرة: إنما أجرك على قدر نفقتك أو نصبك، وفي رواية أخرى: إِنَّمَا أَجْرُكِ فِي عُمْرَتِكِ عَلَى قَدْرِ مشقتك.

وهذه العقيدة على ما يبدو لها أصل مسيحي ثم صوفي، لأنها تدعو لحياة الرهبنة ولبس الخشن وشظف العيش والمشقة والتعب. ولهذا فهم يذهبون للحج لكي يقاسوا مشقته ظناً منهم أن هذه المشاق ستزيد من أجورهم. بل إن الفكرة السائدة منذ قرون هي أن كل من يموت في الحج فله أجر عظيم أو أن ذنوبه كلها تغفر. وهناك أحاديث كثيرة تقول بذلك، ومنها: بينما رجل واقف بعرفة إذ وقع عن راحلته فوقصته فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اغسلوه بماء وسدر وكفنوه في ثوبيه ولا تحنطوه - أي لا تطيبوه لأنه كان محرماً - ولا تخمروا

رأسه فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً. وقد رواه البخاري ومسلم وغيرهم.

وبطبيعة الحال من مات ملبياً فلن يبعث ملبياً، ومن مات مبطوناً فليس شهيداً، ومن مات مقتولاً فلن يبعث والدم ينزف من جرحه.. الخ.

ومن حج ولقي نصباً وتعباً فليس عليه أن يكمل الحج ولا يجب عليه، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ(٢٨٦) البقرة.

فلو كلفنا أنفسنا ما لا طاقة لها به فسنأثم ولن ننال أجراً أكبر.

والمريض والعاجز ليس عليه حرج: لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً(١٧) الفتح.

لذا فمن المفترض ألا نرى حجاجاً في أرذل العمر، لأن أوضاعهم البدنية والصحية لا تساعدهم على الحج وبالتالي فليس عليهم حرج.

ومن لا يحج أثناء شبابه وقوته وصحته – وهو يستطيع – وينتظر إلى أرذل العمر ظناً منه أنه أكثر أجراً فقد أخطأ وأثم. وخالف كلام رب العالمين، الذي يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر، والذي يمنح حق إفطار رمضان للمريض والعاجز فما بالك بالحج: شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٨٥) البقرة.

فالدين لم يفرضه الله ليحرج به المسلمين، بل هو تسامح وتساهل، لدرجة أن من لا يجد ماء للوضوء أو الغسل يكفيه التيمم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ

وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٦) المائدة.

وقد فرض الله عل إبراهيم ومن بعده ابنه إسماعيل وذريته أن يُؤمّنوا كل ما يلزم لراحة الحجاج لتأدية الحج بيسر وسهولة ودون تعب أو نصب. وأن تُوفر لهم كل وسائل الراحة من تنقل ومأكل ومشرب ومسكن. فهم ضيوف الرحمن ومن يتولى خدمة بيت الرحمن يجب عليه أن يستضيف ضيوفه كما أمر.

الشهيد

المعنى الشائع هو: من قُتل وهو يقاتل في سبيل الله.

ثم أضيفت الشهادة لمن يموت مطعوناً أو بمرض في بطنه، أو غريق، ومن انهدم البيت عليه، وغيرهم.

والشهيد بالمعنى الشائع تعني أن ذنوبه كلها مغفورة وسيدخل الجنة، لأنه مات بطريقة معينة.

فهل للفظ «شهيد» ذكر في القرآن؟

وهل من يموت شهيداً تغفر له كل ذنوبه؟

وهل الشهادة بهذا المعنى الشائع يختص بها المسلمون؟

لفظ «شهيد» تكرر في عشرات السور، لكن ليس منها آية واحدة في كل القرآن الكريم جاءت بالمعنى الشائع للشهيد. وبعبارة أخرى: القرآن لا يستخدم لفظ «شهيد» لمن يقتل في سبيل الله، ولا لمن يموت بتلك الحوادث المذكورة آنفاً. وبالتالي فاستخدام لفظ «شهيد» بمعناه الشائع لم يعرف عند نزول القرآن في عصر النبوة.

وشهيد بمعنى المقتول في سبيل عقيدته موجود في معتقدات كثيرة، ومنها اليهودية والمسيحية. لذا يبدو أن كلمة شهيد - بمعناها السائد الآن - دخلت للمسلمين بعد الفتوح وتأثر تراث المسلمين الديني بالمسيحية في البلاد المفتوحة. فأصبحت تطلق على من يقتل في حروب التوسع التي قادها حكام المسلمين أثناء حكم قريش (الأموي والعباسي)، واستمرت إلى اليوم. وتوسعت دائرتها لتشمل شهيد الواجب وشهيد الوطن وأصنافاً كثيرة.

فهل من يقاتل مع المسلمين ويقتله الكفار تغفر له معاصيه ويدخل الجنة؟

الله عز وجل وعد بالمغفرة لمن قتل أو مات في سبيل الله: وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ(١٥٧) وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ(١٥٨).

والآيات كما هو ظاهر تقول بصريح العبارة إن من يقتل أو يموت فإلى مغفرة الله ولم تقل الآية إن الغفران يكون بسبب القتل في ساحة المعركة فقط. فقد يموت المسلم ويغفر له وقد يقتل في سبيل الله ويغفر له. فالجنة تُستحق بالإيمان والعمل الصالح، ومن العمل الصالح القتال في سبيل الله.

ومن قتل في سبيل الله وهو مؤمن ويعمل صالحا فهو في الجنة، ومن يموت على فراشه وهو مؤمن ويعمل صالحا فهو في الجنة. فليس المهم كيف تموت ولكن المهم ما كتب في صحيفة أعمالك قبل الوفاة. والقتال في سبيل الله من أعظم الأعمال الصالحة، لكنه وحده لا يكفي لدخول الجنة. فمن يقتله الكفار وهو يقاتل في صفوف المسلمين، لكنه مستمر على كبيرة توعد الله بها بالنار فسيدخل النار، ولن يغفر له لأنه قتل مع من يقاتل في سبيل الله.

الموروث من كتب التراث أن الجنة سهلة المنال ومرتكب الكبيرة يدخل النار ويخرج للجنة والمقتول يدخل الجنة ولو كانت كبائره كجبل أحد. وغير ذلك كثير مما نجد ما يخالفه ويقول بعكسه كتاب الله.

والشهيد: بمعنى المقتول في سبيل الله لا وجود له في القرآن، ولكن الشهيد في كتاب الله تأتي من الرؤية والمعاينة والإقرار.

والشهيد بالمعنى السائد موجود في أديان كثيرة منها اليهودية والمسيحية، لكنه ليس اصطلاحاً إسلامياً، وليس اسماً من أسماء الله، ولا صفة له سبحانه، ولا يرد في القرآن لفظ «الشهيد» بالتعريف.

والمقتول وهو يقاتل في سبيل الله لا يعني أنه بداهة سيدخل الجنة، لأن دخول الجنة يعتمد على الإيمان والعمل الصالح وليس على نوع الوفاة. وهذا يخرج ما تقول كتب التراث عن المبطون والذي يموت حرقا أو امرأة تموت أثناء الولادة أو من يموت بالطاعون، أو شهداء الواجب أو غيرهم ممن أدخلهم الناس الجنة ولم يدخلهم رب العالمين.

وغفران الذنوب يكون بموجب قواعد ثابتة واضحة بينها القرآن، تتلخص بالتالي: إيمان وعمل صالح. والعمل الصالح يعني ترك كل نهي قرآني والعمل بكل أمر قرآني هكذا

يمكن ضمان الجنة: مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ(٤٠) غافر.

وبعد ذلك من استزاد من صغائر البر وترك صغائر الذنوب فسيدخل المستوى الأعلى في الجنة. وهم المقربون، ومن اجتنب الكبائر واقترف الصغائر فسيدخل الجنة ولكن في المستوى الثاني وهم أصحاب اليمين كما تصفهم سورة الواقعة: وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً(٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ(٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ(٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ(١٠) أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ(١١).

ومجرد أن يقتل شخص في جيش المسلمين لا يعني أنه مؤمن. فهناك الكثير من الوثنيين والمسيحيين وغيرهم شاركوا في الفتوح الأولى مع المسلمين وقتلوا. وهؤلاء لا يمكن أن يدخلوا الجنة لأن الإيمان مفقود.

كما أن من يشهد ألا إله إلا الله ويشهد برسالة محمد لكنه يقترف الكبائر ولا يتوب حسب شروط التوبة ثم يقاتل في جيش المسلمين ويقتل، فلن تغفر له ذنوبه والله جل شأنه توعد أمثاله بالنار لاقترافهم الكبائر.

فكيفية الموت لا تؤدي لغفران الذنوب.

والآية التي تعد من يقتل في سبيل الله بالجنة هي موجهة للمؤمن الذي يعمل صالحاً ولا يقترف الكبائر وجاء للقتال بهذه الصفة وقتل فهو في الجنة. ليس لأنه قتل في الحرب ولكن لأنه مات مؤمناً وعمل صالحاً. لذا فلا صحة لضمان الجنة لمن يموت مبطوناً أو مطعوناً أو بسبب هدم أو حريق أو موت المرأة أثناء الولادة أو من قتل دون ماله أو عرضه أو نفسه أو وهو يؤدي الواجب ... الخ.

فالعبرة فيما نسخ في صحيفة أعمالهم قبل الوفاة، وليس بالطريقة التي ماتوا فيها.

فالقرآن واضح ولا يتحدث بعاطفة بل بحقائق يجب أن تكون معلومة للجميع، ولو انتبه الناس لها لعرف المرء مصيره قبل موته، وإن كانت النتيجة لن تعلن رسمياً إلا يوم القيامة. لكن لا أحد يستطيع أن يجزم بمصير غيره، لأنه ليس هناك وسيلة يمكن بواسطتها التأكد من صدق إيمان بشر آخر مهما كان قريبا منا أو نعرفه جيدا. فحقيقة إيمانه وعمله الصالح وابتعاده عن الكبائر ستسجل في صحيفة أعماله وبناء عليها سيدخل جنة أو ناراً وهذا لن

يعلن قبل يوم القيامة. لذا فلا يمكن لنا كبشر أن نقول فلان قتل في القتال فهو في الجنة، لأننا لم نكشف ما سجل في صحيفة أعماله. وقد يقتل رجل في سبيل الله ممن يبدو عليهم الصلاح والتقوى ونظن أنه من أهل الجنة، لكنه يقوم بمنكرات أو يعتقد معتقدات تؤدي للنار، فسيكون مصيره النار. فالمظاهر لا عبرة لها، ولا يجوز أن يحكم بموجبها على صاحبها.

هل قتل القاتل قصاصاً كاف لغفران ذنب القتل؟

سورة الفرقان تقول إن من صفات المؤمن أنه لا يقتل النفس: وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً(٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً(٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً(٧٠) الفرقان.

ويمكن ملاحظة أن الآية تبقي باب التوبة مفتوحاً لمن يشرك ويقتل ويزني.

وسورة الفرقان نزلت في مكة وقبل سورة البقرة التي تؤكد أن القتل العمد لا يقدم عليه مؤمن: وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً (٩٢) النساء.

وتأتي الآية التالية لتؤكد أن من يقتل عمدا فجزاؤه جهنم: وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً (٩٣) النساء.

فمن يقدم على القتل العمد فهو ليس مسلماً ولو نطق بالشهادتين وأقام بعض العبادات والتشريعات. لأن المؤمن لا ينقض العهد الذي بينه وبين الله بقبوله الإسلام والمتمثل بطاعة كل أوامر الله والانتهاء عن كل نواهيه. ومخالفة أمر واحد مساوية لمخالفة كل الأوامر.

وقتل النفس كبيرة عقوبتها النار، والنار عقوبة في الآخرة، ولا يكفي عنها تنفيذ حكم القتل بالقاتل في الدنيا، لأن عقوبة الدنيا لا تكفي عن عقوبة الآخرة.

هذا بالنسبة للقاتل، فما حكم المقتول ظلماً.

هل يدخل المقتول الجنة لأنه قتل مظلوما؟

القرآن يقول: وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً (٣٣) بني إسرائيل.

والآية لا تقول إن المقتول ظلما في الجنة، ولكنها تعطي لولي دمه الحق بقتل القاتل. أما المقتول فينطبق عليه ما ينطبق على المقتول في سبيل الله. فلو كان مؤمناً يعمل صالحا فهو في الجنة وإن كان مؤمناً ويقترف كبيرة أو كبائر فلن يعفيه قتله مظلوماً من دخول النار.

ولو ذهبنا لسورة النساء، وهي سورة نزلت قبل غزوة بدر وآياتها تحث المسلمين على الخروج للقتال، وتبين أن هناك مواقف مختلفة بين من أعلنوا إسلامهم (الصحابة)، ومن ذلك: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً(٧١).

والآية تحث على الخروج جماعات وفرادا، ثم تواصل قائلة: وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ الله لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً(٧٣).

الآيتان تبينان موقف بعض المسلمين الذين عقدوا العزم على التباطؤ عن القتال لكي تنتهي المعركة قبل وصولهم. فلو هزم المسلمون سيعتبرون أنفسهم اتخذوا القرار الصحيح، وإن انتصروا وغنموا تمنوا لو كانوا معهم للغنائم.

ولو أن واحداً منهم خرج للقتال وقتل فهل سيدخل الجنة فقط لأنه قتل في المعركة، برغم أنه لم يكن جهاده في سبيل الله؟

بكل تأكيد: لا.

ثم تقول السورة: فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً(٧٤).

فمن يقاتل في سبيل الله هم المؤمنون حقا (المتمسكون بأوامر الله ونواهيه) وهؤلاء من يقتل منهم أو لم يقتل سيجزى أجراً كبيراً. فهي تتفق مع ما سبق وذكرنا أن الجنة يستحقها المؤمن الذي يتقي أوامر الله ونواهيه وليس كيف يموت.

وتواصل السورة تخاطب الصحابة: وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ

الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً(٧٥) الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً(٧٦) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً(٧٧).

إذاً، كيفية الوفاة لا تقرر مصير الإنسان في الآخرة، ولكن المصير يقرره العمل.

هل يعي المسلم حقا ما يقول القرآن عن القتل؟

يقول تعالى :يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَف وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللهُ مِنْهُ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ(٩٥) المائدة.

الآية تقول إن من يقتل صيداً (طائراً واحداً مثلا) في الحرم بعد نزول هذه الآية فسينتقم منه الله. وانتقام الله من شخص يعني خلوده في النار.

فإن كان قتل الصيد في الحرم موجباً لانتقام الله، فما هو مصير من يقتل عمداً شخصاً غيره بعد نزول تحريم القتل؟

يقول القرآن:

المؤمن بالله لا يمكن أن يقتل عامداً أبداً

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً(٩٢) النساء.

وفي حال قتل شخص بطريق الخطأ فعلى القاتل ما يلي:

- تحرير رقبة.
- دفع دية لأهل المقتول.
- من لا يجد المال الكافي لتحرير رقبة أو لم يجد رقبة لتحريرها فعليه الصوم شهرين متتابعين.

إجراءات عملية تشعر القاتل بعظم فعلته برغم أنها حدثت عن طريق الخطأ.

كل من قتل غيره عمداً فليس بمؤمن ولا توبة له

يقول تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً (٩٣)﴾ النساء.

- قتل شخص واحد كبيرة ومصير القاتل جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه.

إذا، القرآن يقول:

لا يمكن أن يقدم على القتل مؤمن بالله. وكل من يقدم على القتل العمد بعد نزول الآية فهو كافر بما أنزل الله ومصيره جهنم وعليه غضب الله ولعنته.

قد يقول قائل: كيف نوفق بين هذه الآية التي تقول لا توبة للقاتل العمد وبين ما ورد في سورة الفرقان في الآيات التالية، والتي يفهم منها أن القاتل العمد له توبة: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١)﴾ الفرقان.

ونقول: أن آية سورة النساء نزلت بعدما تبين الرشد من الغي وتبين المسلمون تشريعات القرآن، وعرفوا أن مرتكب الكبيرة عمداً لا توبة له. وذلك في سورة النساء نفسها: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨)﴾.

بينما سورة الفرقان نزلت في مكة وفي وقت لم ينزل بيان أن مرتكب الكبيرة المتعمد لا توبة

له. وبالتالي فهي تقول إن كل من سبق له وارتكب كبيرة مثل الشرك أو قتل النفس أو زنا، فيمكنه التوبة. ومن تاب فعليه الالتزام بضوابط التوبة ومن خرقها فلا توبة له.

قتل نفس واحدة يوازي قتل الناس جميعاً

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ(٣٢) المائدة.

ما يتغافل عنه الناس أن القتل العمد لا توبة له ومن يقدم عليه فهو نفسه يعلم أنه لا يؤمن بالله. وكل من أعان عليه بشكل مباشر أو غير مباشر فهو شريك فيه. ولا يهم إن كان القاتل شخصاً أو جماعة أو حكومة، فكل من يقتل عمداً فقد غضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً. ولا يهم إن كان المقتول شخصاً واحداً اشترك في قتله جماعة أو حكومة كاملة.

التسامح هل يلغي ذنب المعتدي

مما رسخ من كتب التراث، أنه لو اعتدى شخص على غيره وسامحه المعتدى عليه، فالشائع هو أن المسامح سيكسب أجراً ولن يكتب على المعتدي ذنب.

تعالوا نتأكد مما ورد في القرآن، وعبر مثال بسيط.

لو أن التعدي كان بعبارات نابية وتنابز بالألقاب. فالمعتدي تجاوز نهياً إلهياً يقول إن التنابز بالألقاب فسوق يجب الابتعاد عنه ومن لا يفعل فهو من الظالمين وليس بمؤمن: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) الحجرات.

وبمجرد أن يعتدي شخص على آخر بمثل هذا الاعتداء فقد كتب عليه ذنب هذا الظلم. بغض النظر إن سامحه المعتدى عليه أو لا. لأن ذنب التنابز بالألقاب ليس مشروطاً بعدم مسامحة المعتدى عليه.

أما المعتدى عليه فلو سامح فسيكتب له حسنة لأن الله أمر بالتسامح. ولو لم يتسامح فهو حق من حقوقه، ولن يكتب عليه ذنب.

تذكروا أن صحيفة الأعمال تكتب ما يصدر من المرء نفسه وليس ما يصدر من غيره له. فهي تسجل أنه اعتدى بالألفاظ على غيره، لكن لا تسجل ردة فعل المعتدى عليه ولا أنه سامح أو لم يسامح.

وعلى هذا المثل البسيط يمكن قياس الاعتداءات الكبيرة والظلم العظيم.

لكن المعتدي لو تاب والتزم بضوابط التوبة فتوبته مقبولة، ولو لم يسامحه المعتدى عليه. ومن أهم ضوابط التوبة عدم معاودة الكبيرة أو أي كبيرة مرة أخرى. ولو عاود التعدي على نفس الشخص أو على شخص آخر فسيعاقب ولن تقبل توبته لأنه لم يكن جاداً في التوبة.

التوبة

هي في كتب التراث: الإقلاع عن المعصية والندم على فعلها. وإن كانت معصية بحق آدمي، فيشترط رد المظالم لأهلها.

ولا يشترط أكثر رجال الدين السنة في التوبة عدم العودة إلى الذنب مرة أخرى. أي أنه يمكن عندهم أن يتوب المرء من معصية الزنا الآن ويعود إليها مرة أخرى، ويتوب. فيعتبر كأنه يرتكب الزنا للمرة الأولى. يمكن عند كثير منهم التوبة عن معصية مع الاستمرار على معصية أخرى. أي أنه يمكن عندهم أن يتوب المرء من معصية الزنا ويداوم على السرقة أو أي معصية أخرى. وعند أحد تصح التوبة من معصية والإصرار على معصية أخرى إذا كانت المعصية التي أصر عليها ليست من نوع المعصية التي تاب عنها. فمن تاب عن الخمر وأصر على الزنى أو من تاب عن السرقة ولم يتب عن الرشوة فتوبته عن الخمر صحيحة، ولكن من تاب عن ربا الفضل ولم يتب عن ربا النسيئة فلا تصح توبته.

واشترط بعض رجال الدين لقبول التوبة ظهور علامات الصلاح، وقدروا ذلك بستة أشهر وقال البعض سنة. ولم يذكروا كيف يمكن التأكد من علامات الصلاح، ولم يضعوا لها معايير.

وقالوا بأن باب التوبة مفتوح حتى الغرغرة، أي اللحظة التي تفارق فيها النفس الجسد.

وكل ما قالوه اعتمدوا فيه على أخبار وردت في كتب الحديث، ومنها ما جاء في مسلم: وحدثنا أَبُو بَكْرِ وَ عُثْمَانُ ابْنَا أَبِي شَيْبَةَ. وَحَدَّثَنِي عَمْرٌو النَّاقِدُ .قَالُوا جميعاً: حَدَّثَنَا أَبُو خَالِدٍ

الأَحْمَرَ عَنْ يَزِيدَ بْنِ كَيْسَانَ عَنْ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ "لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ: لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ". (مسلم)

والمالكية والحنابلة وظاهر مذهب الحنفية ورأي عند الشافعية لا يجيزون توبة الزنديق.

ويعرف الزنديق - عندهم - بأنه الذي لا يتمسك بشريعة ولا يتدين بدين. (كما جاء ذلك في حاشية ابن عابدين ٣/ ٢٩٦ وحاشية القليوبي ٤/ ١٧٧ وكشاف القناع ٦/ ١٧٦ - ١٧٨).

*** هذا باختصار ما جاء عن التوبة في الموسوعة الفقهية- إصدار وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية -الكويت- الجزء الرابع عشر- توبة.

وهي عبارة عن مخدرات تحقنها كتب التراث للمسلمين ليستسهلوا ارتكاب المعاصي والكبائر، ويوم القيامة تتخلى عنهم.

والآن لنلتفت للقرآن ونذر كلام كتب التراث ورجال الدين وراء ظهورنا.

وسنجد أن ما ورد في كتاب الله يؤكد أن النطق بالشهادة ولو عن يقين راسخ، لحظة الوفاة، لا يسعف من نطق بها إن كانت أعماله سيئة في حياته: وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ(يونس:٩٠-٩١).

لأن الإيمان ليس قولاً ويقيناً فقط ولكنه يقين وأعمال: إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً(مريم:٦٠).

ولو لم يستطع المحتضر أن يتشهد فلا يعني أنه مات ميتة جاهلية أو أن مصيره النار، لأن مصيره يوم الحساب سيتقرر بناء على ما كتب في صحيفة أعماله منذ أن أصبح راشداً، وحتى مات، وليس بناءً على آخر لحظة في حياته.

والتوبة لا يقبلها الله إلا إذا استكمل المرء أربع أسس هي: التوبة المباشرة، والإيمان الصادق، والعمل الصالح، والاستمرار على الهدى (أي عدم معاودة المعاصي): وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى(طه:٨٢).

وهو ما ينفي أن تكون الأعمال معلقة بخواتيمها، أي أن المرء يمكنه أن يعمل ما يشاء من المعاصي وعندما يهرم ويعجز ولا تسعفه قوته لمزيد من ارتكاب الموبقات يعلن توبته وسيجد الله تواباً رحيماً، وإلا لقبلت توبة فرعون لأنه نطق بالشهادة وهو يعي ما يقول، ولم

يدخل في الغيبوبة التي يدخل بها الغريق والتي تستغرق وقتاً قبل أن يموت، أي أن فرعون تشهد قبل الغرغرة ولكن توبته لم تقبل.

والتوبة الموجبة للجنة في القرآن تكون عن الكبائر: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً(النساء:٣١) أي أن كل أمر أو نهي في القرآن يعاقب مخالفه بالنار فهو كبيرة يجب التوبة عنه.

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ(البقرة:١٨٦). والدعاء هنا لطلب التوبة من الذنوب والمعاصي وليس لأمور دنيوية أو مادية.

فتكون التوبة مفتوحة للعبد إذا تقيد بشروطها التي أوردها القرآن والتي جاءت على الشكل التالي:

١. أن ترتكب المعصية في لحظة ضعف بشري دون تخطيط مسبق وتعمد لفعلها، أو أن ترتكب جهلاً بحرمتها: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً(النساء:١٧).

٢. وأن تكون التوبة الصادقة مباشرة بعد اقتراف الكبيرة، وهو المقصود بقوله تعالى: "ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ".

٣. ألا يتكرر ارتكاب الكبيرة، سواء كانت من نفس نوع الكبيرة السابقة أو من غيرها. لتكون توبةً عن كل ما يخالف أوامر ونواهي الله، بكل صدق، حال فعل إحدى المعاصي دون تأخير: وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (آل عمران:١٣٥) فالتوبة تكون من الكبيرة المرتكبة ومن كل الكبائر الأخرى (فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ) وليس فقط التوبة عما تم اقترافه كل كبيرة على حدة.

٤. ويلزم أن يتبع التوبة الاستمرار بتأدية الأعمال الصالحة: وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(الأنعام:٥٤).

ويستمر التائب على أداء العمل الصالح والتقوى حتى آخر حياته: وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ

وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى(طـه:٨٢).

ولا تقبل التوبة إذا كانت بسبب الإحساس بالموت الحقيقي، أو في حال الموت المعنوي، أي العجز وعدم القدرة، جسدياً أو لأي مانع آخر: وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (النساء:١٨).

ومما ورد يتضح أن القرآن يقول بأن الدين كلٌ لا يتجزأ، فمن أراد التوبة فليتب فوراً عن كل كبيرة – الكبيرة كل أمر أو نهي إلهي مصير مخالفه النار – ولا يعود لغيرها سواء كانت من نوعها أو كبيرة من نوع آخر، وليستمر بطاعة الله واجتناب نواهيه حتى مماته. لأن الإنسان عندما قبل بالإسلام فهو بذلك يقبل بالشروط التي تنص عليها اتفاقية الإسلام وهي موضحة في الفقرة التالية:

الإسلام

الإسلام يعني عقد اتفاق بين الله والعبد، يحصل العبد بموجبه على سعادة الدنيا ونعيم الآخرة مقابل تعهده باتباع أوامر الله كلها وامتناعه عن نواهي الله كلها مدى الحياة. وأي مخالفة متعمدة مختارة لأمر أو نهي إلهي، معلوم لدى المخالف حكمه، فهو نقض للعقد الذي سبق توقيعه مع الله، شبهه القرآن بمن تنقض غزلها بعد أن نسجته وأصبح متماسكا قويا: وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ(٩١) وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(٩٢) وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٩٣) النحل.

فالدين إيمان وعمل صالح: رَّسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً(١١) الطلاق.

وهذا الكل لا يتجزأ، فلا يكفي الإيمان وحده أو العمل الصالح وحده. ولا يكفي الإيمان

والامتثال لبعض الأوامر والنواهي وترك البعض. لأن ترك بعض أوامر الدين كالكفر به كله: أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(٨٥) البقرة.

كما أن عقد الإيمان ملزم مدى الحياة، وإلا أصبح مثل إيمان بعض اليهود بمحمد: وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(٧٢) آل عمران.

وهذا ليس من الهدى، الموجب لرضا الله، في شيء: وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى(٨٢) طه.

ومن أصر على ترك العمل بأمر أو نهي إلهي، أو اعتقد أن الإيمان مع اتباع بعض الأوامر والنواهي كاف للبقاء على الإسلام فهو يخدع نفسه: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ(٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ(٩) البقرة.

لأنه قد نقض العهد الموقع مع الله، وأفسد في الأرض: الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(٢٧) البقرة.

والإفساد في الأرض يتمثل في أن المنافق إن كذب أو سرق أو زنى أو تصرف بأي تصرف لا أخلاقي فتصرفاته تلك سيعتبرها، من يراه من غير المسلمين، مما يجيزه الإسلام. وفي هذا إعطاء صورة كاذبة وضارة بدين الله، وتنفير للناس منه، وليس هناك إفساد في الأرض أكثر من صرف الناس عن الدخول في دين الله: وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ(٢٥) الرعد.

والإسلام دين يقوم على علاقة مستمرة بين الله والعبد تتمثل بطاعة الأوامر واجتناب النواهي، وأي خرق لهذا العقد يلغيه. مثله مثل أي عقد آخر. لكن لو أن العبد خرق هذا العقد بجهالة فإن التراجع والتوبة متوفرة له مرة أخرى ووحيدة، كما تبين في الحديث عن التوبة وضوابطها. أما من يوقع العقد مع الله ولا يهتم بشروطه، ويرتكب الكبيرة تلو الأخرى ويريد من الله أن يغفر له، فهذا عابث لا يستحق المغفرة حتى في العرف البشري.

الجنة مضمونة لمن آمن وعمل صالحاً

كتب التراث رسخت بين المسلمين بواسطة أحاديث منسوبة للرسول، أن الجنة لا يمكن أن يدخلها الإنسان بعمله مهما عمل، ولكن يدخلها برحمة الله فقط. والمقصود بهذا الكلام المنمق هو أنه مهما تمسك الإنسان بأوامر الله ونواهيه واجتنب كل نواهيه مع الإيمان، فقد يدخل النار بأمر من الله. ولو كان عاصياً مستمراً على الكبائر فقد يدخل الجنة لأن الله أمر به فأدخل الجنة. وهذا تصرف الحكام المتسلطين من البشر الذين يرون أنه لا يحد تصرفاتهم لا شرع ولا قانون، وان كلمتهم هي القانون، وكل شيء يسير في ممالكهم بمزاجية الحاكم. هو تصرف عبثي لا يليق برب العالمين الذي خلق الخلق ويديره بقوانين ثابتة دقيقة. ومن تلك القوانين أن الجنة مضمونة لمن آمن وعمل صالحاً كما نرى في الأدلة المقدمة.

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٤) الأحقاف.

فدخول الجنة يشترط له الإيمان والعمل الصالح، ولا تدخل الجنة بالدعاء أو بالواسطة، أو بالإيمان دون العمل أو بالعمل الصالح دون الإيمان.

وتقول سورة النجم: وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢).

الذين أحسنوا تعني من آمن وعمل صالحاً وهم – كما تصفهم الآية – "الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ". فكل من يجتنب الكبائر واللمم، وهي صغائر الذنوب، فسيدخل الجنة مع المقربين في المستوى الأعلى للجنة. ومن اجتنب الكبائر مع شيء من صغائر الذنوب (اللمم) فسيدخل الجنة مع أصحاب اليمين في المستوى الثاني للجنة، كما وصفته سورة الواقعة[١].

وتقول سورة الجاثية: وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ(٣٠) وَأَمَّا

---

١ انظر فقرة: الجنة بمستويين / قسم أدلة من القرآن.

الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ(٣١).

كل نفس آمنت وعملت صالحاً بناءً على ما سجلته صحيفة الأعمال فهي في الجنة. وكل نفس لم تؤمن أو آمنت ولم تعمل صالحاً، بناءً على صحيفة الأعمال، فهي في النار. فالجنة أو النار يدخلها المرء بما قدم، فهو من يقرر مصيره بنفسه، وليس الله جل وعلا من يقرر ذلك، وهذا منتهى العدل.

وتقول سورة فاطر: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ(٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ(٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ(٧).

فمن يكفر فقد سار بنفسه للنار، ومن آمن وعمل صالحاً فله الجنة.

وهو ما تؤكده سورة فصلت: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ(٨).

وتقول نفس السورة: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ(٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ(٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ(٣٢) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٣٣) فصلت.

فمن يؤمن ويعمل صالحاً فليطمئن بأن مآله الجنة يوم القيامة. وهذا يعني أن المرء يستطيع أن يعرف مصيره وهو ما زال حياً في الدنيا. وينفي مزاعم كتب التراث – وما هو شائع بين الناس – من أن المؤمن مهما عمل من أعمال صالحة فلا يعني أنه ضمن الجنة لأن دخول الجنة ليس بالإيمان والعمل الصالح ولكن بمشيئة الله ورحمته. ويقصدون بمشيئة الله ورحمته أنه سبحانه يمكن أن يقرر أن يدخل مستحق الجنة (من آمن وعمل صالحاً) النار، وقد يدخل مستحق النار (الكافر أو من يقترف الكبائر) الجنة. وهذا الكلام لا أساس له، وينفيه القرآن في هذه الفقرة وفي فقرة: من عدل الله المطلق ألا يدخل مستحق الجنة النار ولا مستحق النار الجنة.

وورد في سورة فصلت أيضاً: إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٤٠).

والآية تخاطب قريشاً وتقول بأنه لن يستوي الكافر (من يلقى في النار) بمن يأتي آمناً مطمئناً يوم القيامة على مصيره (لأنه آمن وعمل صالحاً) وهو تأكيد على أن من آمن وعمل صالحاً فليطمئن على مصيره يوم القيامة.

وتقول سورة الكهف: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً(٣٠) أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً(٣١). من آمن وعمل صالحاً فلن يضيع أجره وسيدخل الجنة بكل تأكيد، قانون إلهي ثابت لا يتغير.

ومرة أخرى تعد نفس السورة من آمن وعمل صالحاً بالجنة:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً(١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً(١٠٨).

وتقول سورة الزخرف: يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ(٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ(٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ(٧٠).

الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ.

إيمان وعمل صالح يساوي الجنة.

وهو ما أكدته السورة ذاتها: وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٧٢) الزخرف.

فالجنة تورّث (تعطى) مقابل ما عمله الإنسان (إيمان وعمل صالح) وليست بالواسطة أو بالعواطف. بمعنى أن الله (تبارك وتعالى) يتأثر بدعوة أو بطلب من مخلوق لآخر فيدخله الجنة مع أنه يستحق النار، أو يخرجه من النار ويدخله الجنة، فهذه التصرفات الخاضعة للمشاعر توجد عند البشر لأنها ضرورية لاستمرار الحياة، بينما يتنزه عنها الخالق الذي يدير خلقه بقوانين ثابتة وبعدل مطلق.

ومثل دخول الجنة، فدخول النار يكون بناءً على ما قدم الإنسان: وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ(٧٦) الزخرف.

وهو ما تؤكده سورة سبأ: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ(٤).

وسورة لقمان: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ(٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٩).

قانون ثابت لا يتغير: وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٤٣) الأعراف.

الجنة تورث بالعمل الصالح (مع الإيمان) ولن يدخل الجنة أحد بشفاعة غيره. ولن يغفر الله لمن مات كافراً أو مرتكباً لكبيرة استمر عليها ولم يتب عنها.

وهو ما تؤكده الآيات التالية: وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ(٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَـذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ(٥١) وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٥٢) هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ(٥٣) الأعراف.

ومثله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُواْ إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٣) هود.

ولا ينجي من النار إيمان لوحده أو عمل صالح لوحده. والعمل الصالح يعني: التمسك بكل أوامر القرآن والانتهاء عن كل نواهيه عن الكبائر جملة وتفصيلاً.

وتورد سورة المعارج بعض ما يجب على المسلم لدخول الجنة: وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ(٢٦) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ(٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ(٢٨) ...... أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ(٣٥). المعارج.

وكل ما ذكرته الآيات يدخل ضمن الإيمان.

ومثله ما جاء في سورة الفرقان: وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً(٦٥) إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً(٦٦) ...... أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ

فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً(٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً(٧٦).

وتقول سورة الشورى إن الاستجابة لله موجب للجنة: وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣٨).

الاستجابة لله تكون بالامتثال لأوامره والانتهاء عن نواهيه، وهذا هو العمل الصالح.

وتقول سورة النساء: وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً(١٢٢) لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً(١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً(١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً(١٢٥) وَلله مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً(١٢٦).

الجنة لا تتحقق بالأماني والدعوات ولكن بالإيمان والعمل الصالح معاً.

وكل من يعمل سوءاً (كبيرة) سيجزى بها وسيدخل النار.

الجنة بمستويين

تقول سورة الواقعة: إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ(١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ(٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً(٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً(٥) فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً(٦) وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً(٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ(٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ(٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ(١٠) أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ(١١).

وتعود السورة في آخرها لتؤكد هذه الحقيقة: فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ(٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ(٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ(٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ(٩١) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ(٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ(٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ(٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ(٩٥).

الآيات تقول بأن هناك مستويين في الجنة. المستوى الأعلى للمقربين والمستوى الأقل لأصحاب اليمين. والمقربون هم من آمن وعمل صالحاً وحرص على حفظ كل الجوارح من

صغائر الذنوب، مع أداء صغير الحسنات والسلوك والتعامل والبر، بحيث يمثل نموذجاً مثالياً للمؤمن في التعامل وفعل الخير. والمستوى الثاني سيكون لكل من آمن وعمل صالحاً (اجتنب الكبائر) ولو صدر منه بعض الصغائر أو قصر في صغير الفضائل والحسنات.

وهو ما تؤكده سورة الرحمن: وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ(٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ(٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ(٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ(٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ(٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ(٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ(٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ(٦٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٦١) وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ(٦٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٦٣) مُدْهَامَّتَانِ(٦٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ(٦٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ(٦٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ(٧٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٧١) حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ(٧٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ(٧٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ(٧٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ(٧٨).

عمل الكافر وحده لا يدخله الجنة

وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا(٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا(٢٤) الفرقان.

قريش كانت تقوم بأعمال دنيوية جليلة مثل خدمة الحجاج واستضافتهم وسقايتهم وتوفير كل ما يلزم لراحتهم لكن هذه الأعمال لن تنفعهم في الآخرة لأنهم لم يقرنوها بإيمان بالله.

وهذا دليل على أن العمل الصالح وحده أو الإيمان وحده ليس كافياً لدخول الجنة. بل لابد من إيمان وعمل صالح. وهذا يقاس عليه الأعمال الجليلة التي قام بها المخترعون للبشرية.

وهذه الحقيقة تؤكدها سورة إبراهيم: مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ

الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ(١٨) إبراهيم. فقريش كان لها أعمالاً دنيوية جليلة لكنها هباء منثوراً، كما هي حال أعمال المفكرين والعلماء في الدنيا مثل آينشتاين وأديسون وغيرهما. فكل ما قاموا به خدم البشرية خدمات لا توصف لكن لم يكونوا مؤمنين بالله. والجنة مضمونة لمن آمن وعمل صالحاً وليس بواحد دون الآخر.

الوصية

فقه المذهب السائد يقول إن الوصية لا تجوز بأكثر من ثلث مال الموصي. ودليلهم حديث منسوب للرسول يقول: الثلث والثلث كثير.

ولا تجوز لوارث، وأدلتهم في ذلك حديث منسوب للرسول يقول: لا وصية لوارث.

فما الذي يقوله تبارك وتعالى في كتابه؟

تقول سورة البقرة: كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ(١٨٠).

الوصية في القرآن كتبت على المسلمين، وأصبحت واجبة عليهم، لا خيار لهم بتركها. مثلما أنه لا خيار لهم بترك أي تشريع كتب عليهم، مثل الصيام: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٨٣) البقرة.

والوصية في القرآن محصورة بالوالدين والأقربين فقط، دون غيرهم من الناس. والوالدان والأقربون هم الورثة. فالوصية في القرآن تكون للورثة وليس لغيرهم، بخلاف كتب التراث التي تحصر الوصية لغير الوارث.

وتؤكد سورة النساء أن الوصية تُخرج من المال قبل توزيع التركة، وما بقي بعد الوصية فيقسم على الورثة: يوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ .... مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ .... (١١) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ .... مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ .... وَصِيَّةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ(١٢) النساء.

ويوجب القرآن توثيق الوصية في سورة المائدة التي نزلت بعد البقرة والنساء، كاستيفاء للتشريعات الخاصة بالوصية: يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ

الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الْآثِمِينَ(١٠٦).

ومما تقدم يمكن القول بكل ثقة، ما يلي:

- القرآن يوجب الوصية، والفقه يجيزها.
- القرآن يحصر الوصية بالوالدين والأقربين فقط، ولا تكون للغريب ولا كصدقة جارية للميت. بعكس ما يقول الفقه الذي يحرم الوصية للورثة، وعلى رأسهم الوالدان والأقربون الذين نص القرآن على أنهم هم وحدهم من تكون له الوصية، ويجيز أن تكون الوصية على شكل صدقة جارية يعود أجرها للميت.

وعليه فلو قام المرء ببناء مسجد أو مستشفى أو أي مشروع خيري وهو حي يرزق فأجره سيحسب له، لأنه سيكتب في صحيفة أعماله.

لكن لو وصى ببناء هذا المشروع بعد وفاته، كجزء من وصيته.

فالفقه يقول إنه سيحصل على الأجر.

بينما يقول القرآن إنه لن يطاله أجر، لأن الوصية في القرآن ليست للميت ولكن للوالدين والأقربين.

(نحن هنا بين تشريع قرآني وتشريع حديثي فقهي تفسيري يقول بعكس ما يقول القرآن تماماً).

والقرآن يوجب إخراج الوصية قبل تقسيم التركة.

والقرآن يوجب توثيق الوصية، بشاهدين في ذلك الزمن، وهذا لا يمنع استخدام وسيلة توثيقية أنجع من الشهود في هذا الوقت، كالتسجيل في المحكمة.

والقرآن لم يجعل حداً أقصى للوصية، أما الفقه فقد جعل ثلث المال حداً أعلى للوصية مع الكراهية، والأفضل أن تكون الوصية أقل من الثلث.

ونتوقف عند ما جاء في الآية (١٢) من سورة النساء أعلاه، والذي يقول: « مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ».

فهي تنهى عن أن يضار غير الموصى لهم من الورثة.

ولو أضفنا لهذا قوله تعالى: وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً(٩) النساء.

وهذه الآية تنهى عن ترك الذرية للعوز والفاقة. وهو مشابه لما تقوله الآية ١٢ «غَيْرَ مُضَآرٍّ».

ألا يعني هذا أن الموصي يجب عليه أن يتأكد من ترك مال كاف للقصر من ذريته حتى لا يضارهم، بتركهم للعوز، وما زاد عن ذلك فيمكن الوصية منه.

وإذا ما ترك الموصي ما يكفي لذريته، فليس هناك مانع من الوصية بكل ما بقي من ماله لمن لهم حق في الوصية.

وبما أن الفقه يحرم الوصية للوارث - عكس القرآن - فقد حوَّل الوصية بثلث المال وكأنها حق للموصي، تستخدم كصدقة جارية له بعد موته، كما سبق وذكرنا.

أما كيف استطاعوا تعطيل حكم الله واستبداله بحكم مخالف له من عند أنفسهم، فذلك عن طريق زعمهم أن الآية التي كتب الله فيها الوصية على الناس منسوخة، بالآية التي يسمونها آية المواريث.

وآية الوصية هي: كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ(١٨٠) البقرة

وآية المواريث هي: يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيما حَكِيماً(١١) النساء.

وسورة النساء نزلت مباشرة بعد البقرة، ولو أطعنا المفسرين وأهل الحديث والفقه، فالله كتب علينا تشريعاً، في البقرة، ثم اكتشف أنه يتعارض مع تشريع التوريث فقام بإلغاء تشريع الوصية للوالدين والأقربين «الورثة».

هذه الصورة القبيحة لله لا يمكن أن أقبلها بحق خالق السماوات والأرض: قُلْ أَتُعَلِّمُونَ

اللهَ بِدِينِكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١٦) الحجرات.

وهي من مصائب الموروث الذي فرض على الله ما أطلقوا عليه: الناسخ والمنسوخ، الذي ابتدعوه من عند أنفسهم. حيث زعموا أن القرآن يتزل آية آية، وقاموا بتأويل كل آية بمعان من عند أنفسهم، فوقعوا في تضاد بين المعاني التي اخترعوها، ولم يجدوا مخرجاً ليعالجوا المشكلة التي اختلقوا إلا بمشكلة أخطر، تمثلت بالقول بالناسخ والمنسوخ الذي يطول الحديث عنه.

ونتوقف عند شبهة يثيرها المستشرقون ومن يتبع خطواتهم من المبطلين، وتتمثل في القول: إن الإسلام لا يعدل بين الرجل والمرأة، لأن تشريعات المواريث في الإسلام تنص على أن للذكر مثل حظ الأنثيين.

فتعالوا نفهم ما يقول كتاب الله.

القرآن يعطي ولد المتوفي أو المتوفاة مثل حظ بنتين، وهذا في ظاهره قد يبدو للبعض ظلماً.

لكن ما لم يحط به من يظن أنه كذلك هو أن قوانين (تشريعات) القرآن مترابطة، وتؤخذ كلها ولا تجزأ.

ومن ذلك الحقائق القرآنية التالية:

الحقيقة الأولى: أن الإرث لا يمكن توزيعه قبل تنفيذ الوصية وسداد الدين، إن كان هناك دين، كما تنص آيات المواريث. هذه حقيقة يجب ألا تغيب عن كل من يكتب في المواريث.

الحقيقة الثانية: أن من قوانين الوصية أنها واجبة إذا كان الشخص ذا مال «ترك خيراً»: كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ(١٨٠) البقرة.

الحقيقة الثالثة: الوصية تكون للوالدين والأقربين الذين من بينهم أبناء الميت.

ولا تكون للميت (كأن يبنى له مسجد بعد موته)، ولا لغير وارث، كما تقول كتب التراث وما يفعله الناس، ولا تحدد بثلث المال فقط.

الحقيقة الرابعة: الوصية تكون للمحتاج من الورثة، بينما الإرث يكون للمحتاج ولغير المحتاج ممن يرثون.

فالوصية واجبة والإرث فضلة، وهذه النقطة تغيب عن الكثير من الناس.

الحقيقة الخامسة: المال أصلاً لصاحبه ما بقي يصونه ولا يبذره ولا يفسده وينفق منه بالمعروف وفيما أمر الله.

الحقيقة السادسة: الرجل أو المرأة بقدر ما هما مسئولان عن إعالة ورعاية وتربية أبنائهما في الصغر، فهما ليسا مسئولين عن إعالة الأبناء بعد أن يكبروا، وعلى الأبناء أن يعتمدوا على أنفسهم.

ولنفترض أن هناك أباً مليونيراً وله ولد يعيش على مرتب وظيفي في هذه الأيام. فليس للولد حق في دين الله في مال والده إلا بما تنص عليه قوانين الإنفاق: يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥) البقرة.

يعني أن للولد حقاً من مال والده بما يسد حاجته كأي محتاج، وليس لأنه ولده.

وللولد حق من مال والده بما تنص عليه قوانين الإحسان: وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا(٣٦) النساء.

لكن لو أعطاه والده أكثر من ذلك فهو تفضل وليس واجباً عليه.

وهذا المليونير قبل أن يموت يجب عليه الوصية، والوصية لها قوانين محددة في القرآن لا يستطيع الموصي تجاوزها. وهي حق لأي واحد محتاج من الورثة، وهم: الوالدان والأقربون. والأقربون يدخل ضمنهم أبناء وبنات الميت.

وهنا لنفرض أن للميت بنتين وولدين. ولد فقير وولد ميسور الحال.

والبنات واحدة فقيرة، وواحدة ميسورة الحال. فيستطيع الوالد أن يوصي للولد الفقير والبنت الفقيرة بما يشاء، وقد يوصي للبنت أكثر من الولد أو ضعف ما يوصي للولد.

وعندما يموت وتوزع التركة فحتى لو جاء البنت التي كانت فقيرة نصف ما للولد فلن تتضرر لأن الوصية ضمنت لها الغنى.

وهناك قانون آخر يوجب على الوالد ألا يوصي بماله بما يضر بذريته ويتركهم للفقر: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا(٩) النساء.

فلا يستطيع الوالد أن يحرم بنته أو ولده الفقير من الميراث ولا من الوصية التي تغنيه (إن كان يملك المال الوفير) وفي هذه الحالة فالوصية يجب أن تكون لصالح المحتاج وليست لزيادة مال الولد أو البنت اللذين يملكان المال الوفير.

ولو حاول الرجل أن يوصي لأحد أبنائه ويترك بنتاً فقيرة أو محتاجة أو أقل دخلا فلا يقر على وصيته، كما تؤكد ذلك سورة البقرة في قوله تعالى: فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٨٢).

والجنف هو الميل والمحاباة.

والخلاصة: أن المال لصاحبه في حياته يصرفه بحدود ما أوجب الله، ولو خالف بإسراف أو تبذير أو أنفقه بغير ما أمر الله أو بحرام، فيحجر عليه، كما نص قانون الحجر. (تحدثنا عنه في فقرة مستقلة)

وليس على الرجل واجب أن يعطي أبناءه الكبار وهو على قيد الحياة. لكن يجب عليه الإنفاق للمحتاج منهم كما يجب عليه للوالدين ولكل محتاج، وكذلك يجب عليه الإحسان. وتجب عليه الوصية، وتكون محصورة بالوالدين والأقربين (الورثة) ومن بينهم أولاده وبناته.

وفي هذه الحالة يمكنه أن يوصي للفقير منهم بما يشاء من ماله دون تحديد ثلث أو أكثر أو أقل.

ولو كانت الوصية ستظلم أحداً أو وصى للغني وترك الفقير فلا يقر عليها ولا تنفذ، ويُلزم بتعديلها لصالح المحتاج.

ثم ما بقي فهو إرث يوزع كما نصت قوانين الإرث.

ولو لم يبق شيء من مال الغني مهما كثر للإرث فلا شيء عليه ما دام قد أنفقه بما أمر الله وبوصية متفقة مع قانون الوصية وليس فيها ظلم لأحد.

فترك وصية تغني الفقير من الورثة واجبة، أما ترك مال للورثة فليس واجباً ولكنه فضلة.

ولو بقي مال للورثة (فضلة) فيقسم حسب قوانين الإرث.

ما يعمل به الآن في واد، وما يقول القرآن في واد آخر.

وفي بعض البلاد العربية تحرم البنت من الإرث بطرق مباشرة أو ملتوية، وخاصة في المناطق الزراعية. والسبب الذي أعرفه لهذه العادة هو أن أولاد البنت لن يكونوا من نفس العائلة ولو أعطيت حقها من الميراث وهو جزء من الأرض الزراعية فسيذهب هذا الجزء لأبنائها ووالدهم وبما أنهم ليسوا من العائلة التي تملك الأرض فستخسر العائلة هذا الجزء. وهذه العادة هي التي ساعدت على إبقاء الأرض تتوارثها نفس العائلة.

وفي كل الأحوال هذه عادة اجتماعية لو حصل بسببها ظلم لفرد أو أكثر فالظالم سيتحمل الإثم. ويمكن أن تتدخل الدولة المسلمة وتضع قوانين مدنية تكفل حق البنت وحق إبقاء الأرض في العائلة.

المواريث وتوزيع التركة

يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا(١١) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ(١٢).

الورثة بوجود أبناء للميت

- لو توفي رجل أو امرأة وله بنات وبنون، فيرثون كل المال، للذكر مثل حظ الأنثيين. ولا يرث الأبوان، ولا يتبقى شيء من التركة.

- لو توفي رجل أو امرأة وله بنتان دون أبناء، وله أب وأم. فللبنتين ثلثا ما ترك. وللأب السدس والأم السدس. ولا يتبقى شيء من التركة.
- لو توفي رجل أو امرأة وله بنتان وليس له أبناء وأحد الوالدين. فللبنتين الثلثان ولأحد الوالدين السدس... ويتبقى السدس.
- لو توفي رجل أو امرأة وله بنت واحدة وليس له أبناء، فلها النصف. ولو كان له أبوان فلكل منهما السدس. ويبقى السدس.
- لو توفي رجل أو امرأة وله بنت واحدة وليس له أبناء، وله أحد الأبوين. فللبنت النصف ولأحد الآباء السدس، ويتبقى الثلث.

ميراث ميت لم يتزوج وليس له أبناء

- لو مات رجل أو امرأة وله أبوان وليس له إخوة. فلأمه الثلث ولوالده السدس.
- لو مات رجل أو امرأة وله أبوان وله أخ أو أخت، وليس له أولاد. فلأمه السدس ولوالده السدس، وللأخ أو الأخت السدس. ويتبقى النصف.
- لو مات رجل أو امرأة وله أبوان وله أخوان أو أختان أو أخ وأخت، وليس له أولاد. فلأمه السدس ولوالده السدس، ولكل من الإخوة السدس (سدسان). ويتبقى الثلث.
- لو مات رجل أو امرأة وله أبوان وله إخوة ثلاثة أو أكثر (بغض النظر عن جنسهم) وليس له أولاد. فلأمه السدس ولأبيه السدس ويقسم الثلث على الإخوة (للذكر مثل حظ الأنثيين) والباقي الثلث.

الزوج والزوجة

- لو ماتت الزوجة ولها زوج وليس لها أولاد، فله نصف ما تركت، ويبقى نصف التركة.
- لو ماتت الزوجة ولها زوج ولها أخ أو أخت وليس لها أولاد. فللزوج النصف والسدس للأخ أو الأخت، ويبقى الثلث.
- لو ماتت الزوجة ولها أخوان أو أختان وليس لها أولاد. فللزوج النصف والسدسان للإخوة. ويبقى السدس.

- لو ماتت الزوجة ولها ثلاثة إخوة (بنات أو ذكور أو مختلط) وليس لها أولاد. فللزوج النصف والثلث للإخوة (للذكر مثل حظ الأنثيين). ويبقى السدس.
- لو ماتت الزوجة ولها ولد أو بنت أو مجموعة من الأولاد (بنات وأبناء) ولها زوج وإخوة. فللزوج الربع، والباقي يقسم بين الأبناء للذكر مثل حظ الأنثيين. ولا شيء للإخوة.
- لو مات الزوج وله زوجة وليس له أولاد. فلها ربع ما ترك.
- لو مات الزوج وله زوجة وله أخ أو أخت وليس له أولاد. فللزوجة الربع والسدس للأخ أو الأخت. والباقي ١٤ سهم من ٢٤ سهماً.
- لو مات الزوج وله ولد (فرد أو مجموعة، أولاد أو بنات) وله زوجة وإخوة. فللزوجة الثمن، والباقي للولد إن كان فيهم ذكور، وليس للإخوة شيء.
- لو مات الزوج وله بنت وله زوجة وإخوة. فللزوجة الثمن، وللبنت النصف، وليس للإخوة شيء. ويبقى ٣/ ٨ من الأسهم.

قاعدة: الأبناء واحد أو مجموعة ذكور أو إناث يحجبون الإخوة من الإرث.

ملاحظة: ليس هناك شيء اسمه عصبة في القرآن. وما بقي من مال يعود لبيت المال.

كما أنه يجب أن يؤخذ من التركة نصيب ليصرف على ذوي الحاجات: وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً(٨).

وفي هذا العصر يكون هناك بند في الميزانية لمحاربة الفقر ولمواجهة الحالات الطارئة يغذى مما يبقى بعد توزيع التركة.

كما أن الخطيب له نصيب من إرث خطيبته، وللخطيبة نصيب من إرث خطيبها، لو مات أحدهما قبل الدخول، كما ذكرت الآية (٣٣) من سورة النساء. ويمكن الرجوع لتدبر الآية لمزيد من التفاصيل. ونصيب الخطيب والخطيبة مساو لنصيب الزوج والزوجة.

كل عمل ديني لا يؤخذ له أجر دنيوي

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ(٤٦) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ(٤٧) ن والقلم.

الآية تقول لو إنك يا محمد تسأل قريشاً عوضاً مادياً مقابل دعوتهم وإرشادهم لدين الله فقد يثقل عليهم العوض ويتذمرون أو يبتعدون عنك ويرفضون دعوتك.

وهو ما أكدته حرفياً سورة الطور: أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ(٤٠).

وكل الرسل كانوا يدعون لدين الله دون انتظار مقابل مادي ودون قبول أي منفعة دنيوية نظير ذلك حفاظاً منهم على أجر الآخرة.

وهو ما أكدته سورة «ص»: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ(٨٦).

وتقول سورة سبأ: قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(٤٧).

ومثله: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً(٥٧) الفرقان.

ولو كان يؤخذ أجر لكان الرسول أولى به ولم يعط مثل ما يعطى اليتيم والمسكين وابن السبيل: مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٧) الحشر.

فبعد جلاء قبيلة من بني إسرائيل من يثرب بسبب مؤامراتهم على المسلمين، نزلت السورة وفيها تحديد من يستحق أن يقسم لهم من الفيء. وتبين الآية لماذا يعطون بالقول: «كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ».

وتقول سورة الشورى: ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ(٢٣).

والقربى هنا هم قريش عشيرة وأقارب ونسب وقبيلة الرسول، وليس المقصود بهم فقط علي ابن أبي طالب وزوجته وابنيه كما تأولت الشيعة. لأن الآية نزلت وعلي طفل في مكة وقبل زواجه بأم ابنيه بسنوات. ومعناها واضح إلا على من غم على عقله.

والآية تتحدث على لسان رسول الله موجهة لقريش التي تصر على الكفر وتقول لهم إن الرسول لا يدعوهم طمعاً بالأجر الذي لا يجوز له أخذه، ولكن أجره على الله الذي كلفه بإنذارهم.

لذا كرر الرسل هذه الحقيقة، كما ورد في سورة الشعراء:

فنوح يقول لقومه: وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٠٩) الشعراء.

وهو ما قاله هود: وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٢٧) الشعراء.

وصالح: وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٤٥) الشعراء.

ولوط: وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٦٤) الشعراء.

وشعيب: مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٨٠) الشعراء.

وهو ما يجب على كل الدعاة لدين الله في كل زمان ومكان. فكل منفعة دنيوية مادية أو معنوية يجنيها الداعي لدين الله مقابل دعوته فستفقده أجر الآخرة. لأن أجر الدعوة واحد، من حصل عليه في الدنيا فقد خسره في الآخرة.

ولو عدنا لعهد الرسول عليه الصلاة والسلام نجد أن بلالاً مؤذن مسجد رسول الله لم يكن يتلقى أجراً. كما أنه طوال عصر الخلفاء الراشدين الثلاثة لم يكن هناك وظائف دينية بأجر، فيما عدا العاملين على جمع الصدقات (الإنفاق) فكانوا يعطون منها حصة مساوية لحصص المحتاجين من فقراء ومساكين وابن السبيل واليتيم وغيرهم ممن يحق لهم الإنفاق. وعندما استولت قريش على الحكم سيست الدين وحولت الأعمال الدينية لوظائف حكومية لكي تمسك برجال الدين من رقابهم بما تهبه لهم من أعطيات ورواتب فلا يستطيعون قول الحق لو خالف سياسة السلطان. وأطلقت أيدي القائمين على الصدقات بعدما تحول الإنفاق إلى مكوس تؤخذ من الناس وتودع في خزينة الحاكم. فتحول الجباة إلى طغاة لسلب الناس أموالهم، مقابل سرقة جزء منها قبل أن تصل الحاكم. وأصبحت إمامة الناس في الصلاة والأذان وظائف حكومية بمرتبات شهرية، فتحولت إلى وظائف تنافسية كل عاطل يحاول أن يحصل عليها ليقتات من ريعها. فتم وضع شروط وضوابط لمنصب الإمامة يتم بموجبها اختيار الإمام من بين المتقدمين الكثرة. مع أن المصلين يمكن أن يؤمهم أي واحد منهم، ليس بالضرورة أن يكون أكبرهم سناً أو أحفظهم لكتاب الله. لأنه لو أمهم من لا يجيد

سوى قراءة الفاتحة فهي كافية لإتمام الصلاة. وظهرت العديد من الوظائف بمسميات دينية وبمرتبات شهرية يدفعها السلطان من الأموال التي استولى عليها كمكوس من الناس بغير وجه حق. ومنذ ذلك الحين صار الاشتغال بالدين أكثر الحرف كسباً للمال، ومن لا يتوفر له وظيفة دينية فكل ما عليه هو تنصيب نفسه كمحتسب يلاحق الناس ويراقبهم وسيتحصل على الهبات والعطايا. واليوم لا غرابة أن تصل حسابات رجال الدين في بلاد الحرمين إلى سبع وثمان وتسع وعشر خانات رقمية، كلها من مجالس الوعظ والبرامج الدينية على القنوات التلفزيونية والمحاضرات الدينية والندوات في المساجد والمراكز الخيرية والجلسات الخاصة والمناسبات والأفراح وصلوات التراويح والمواعظ في رمضان والفتوى البرقية والإنترنتية والهاتفية والهبات ومصادر أخرى.

ومما سبق عرضه من آيات يمكن استنتاج القوانين التالية:

القانون: كل عمل ديني له أجر واحد.

القانون: من تحصل على أجر مادي أو معنوي في الدنيا مقابل عمل ديني فليس له أجر في الآخرة.

الحساب بناءً على سجل صحيفة الأعمال ولا يخضع للعواطف

وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ(٢٠) الأحقاف.

العقاب والثواب سيكون بناءً على أعمال المرء، وليس خاضعاً للعواطف. فالمرء يدخل النار أو الجنة بما قدم وهم لا يظلمون. والشائع خطأً بين الناس أنه قد يدخل الجنة مقترف الكبيرة الذي لم يتب منها، أو الذي استمر عليها وهو يعلم بحرمتها ووعيد الله لمن يقترفها، وذلك برحمة الله ومشيئته. واستخدام رحمة الله ومشيئته بهذا المفهوم خاطئ. لأن من رحمة الله أن وهب للمرء كامل الحرية لاختيار الأعمال، وبين له ما يحرم وما يحل، وما يوجب النار وما يجب فعله لدخول الجنة. وكل من يستحق الجنة بعمله سيدخل الجنة برحمة الله ومشيئته. وكل من يستحق النار بعمله سيدخل النار بمشيئة الله. ورحمة الله تحتم ألا يغفر

سبحانه لمستحق النار لأن فيه ظلماً لمن استحق الجنة. ورحمة الله تحتم ألا يدخل النار مستحق الجنة لأن فيه ظلماً له، والله جل وعلا لا يظلم أبداً[1].

وهذا ما تؤكده سورة الجاثية:

وَخَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(٢٢).

فخلق الكون كان بالحق والحق يعني تسييره بقوانين ثابتة لا تتغير ولا تخضع للعواطف، وبمثل هذا سيحاسب الناس.

والله جل شأنه لا يتعامل بالعواطف ولكن بالعدل المطلق:

مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ(٤٠) غافر.

الحساب سيكون بعدل مطلق يعتمد الحقائق والسجلات، وليس بالتسول والاستجداء.

والحساب سيعتمد صحيفة الأعمال التي تسجل كل ما يصدر من حواس الإنسان الخمس وتقوم بالتسجيل آلية في النفس. يعني الإنسان يسجل على نفسه ويحاسب بناءً على تسجيله (منتهى العدل والنزاهة والتجرد). وكل من يدخل النار فقد دخلها بناءً على خياره هو، وكل من يدخل الجنة دخلها بناءً على خياره هو دون تدخل فعلي مباشر من الله جل جلاله.

وتقول سورة الحجر: نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(٤٩) وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمَ(٥٠).

فمن يستحق الجنة فسيدخلها بمغفرة الله ورحمته. ومن يستحق النار فلن يغفر له وله العذاب الأليم.

وتقول سورة بني إسرائيل:

وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً(١٣) اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً(١٤) مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا.

العرب كانت تتفاءل باتجاه طيران الطير أو تتشاءم قبل أي عمل أو سفر يريدون القيام به.

---

١ انظر فقرة: من عدل الله المطلق ألا يغفر لمستحق النار ولا يعذب مستحق الجنة / في هذا القسم: أدلة ومواضيع من القرآن.

والآيات تقول بأن كل إنسان معلق طائره في عنقه ويستطيع أن يوجهه لأي وجهة يريد، بمعنى أن الإنسان هو من يصنع طريقه بنفسه. وهو وصف يظهر أن الآلية ملتصقة بالنفس البشرية، لا تفارقها. ويوم القيامة سيتعرف على مصيره الذي رسمه هو بنفسه لنفسه. وعبرت عنه الآية وكأن هناك كتاب كان الإنسان قد كتبه في الدنيا ويوم القيامة يحضر إليه ليقرأه وبناءً عليه يكون المصير.

والإنسان هو من يختار طريق الهداية أو الضلال بنفسه دون أي تدخل أو تأثير من الله جل وعلا. وهو من يكتب كل ما يصدر منه بنفسه. وهو من سيعود ويرى صحيفة أعماله التي كتبها بنفسه، ولو كان مصيره النار فهو من أدخل نفسه النار. ولو كان مصيره الجنة، فهو من ادخل نفسه الجنة.

صحيفة الأعمال

الله جل وعلا خالق كل شيء ويعلم تفاصيل ما يجري في ملكه: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣) سبأ.

ومن عظمة الله سبحانه أنه لا يُسيّر كونه وما فيه من مخلوقات بشكل مباشر، ولكنه سبحانه يضع القوانين التي ينشأ بموجبها الخلق ويسير بكل دقة، سواء كان الكون كله أو جسد مخلوق حقير كالإنسان أو مخلوق أصغر كالبكتيريا: بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (١١٧) البقرة.

وعندما يقول سبحانه: «كن» فهي تشير للقوانين الفيزيائية والطبيعية التي ابتدع الله جل وعلا بموجبها الكون، وبموجبها يسير الآن بكل دقة واتزان بمجراته وبمخلوقاته الحية وبكل ما فيه من مواد جامدة وحية وغازات ... الخ.

فكل خلقه سبحانه يسير بموجب هذه القوانينٌ الثابتة التي أبدعها الله، ولا يتدخل سبحانه مباشرة في تسيير خلقه ولا في تغيير أو التأثير على مساره، سواء كان في الدنيا ومخلوقاته الدنيوية في الكون، أو في الآخرة وما فيه من بعث وحساب وجنة ونار. فكما أنه لا يُسيّر الشمس والكواكب مباشرة، ولكنها تسير بموجب قوانين الجاذبية وغيرها، فهو لا يعطي

شخصاً المال ويحرم منه آخر، ولا يهدي هذا أو يضل ذاك، أو يميت هذا ويبقي هذا. ولكنه أودع في الأرض من النعم ما تكفي لكل المخلوقات التي تعيش عليها، وأودع في النفس البشرية كل ما تحتاج لو اهتم بها صاحبها لوفرت له حياة صحية. وكل اختلال في التعامل مع هذه النعم هو ناجم من تعديات الخلق، ولم يقررها الخالق مسبقاً. فالفقر على سبيل المثال نتيجة لتسلط القوي على الضعيف، والموت في حادث سيارة نتيجة لأخطاء بشرية، والإصابة بالأمراض نتيجة لاختلال جهاز المناعة بسبب عادات غذائية وممارسات خاطئة من الإنسان. وهكذا فكل مصائب الدنيا نتيجة لممارسات الإنسان ولم يقررها الله. إضافة للحوادث التي لابد أن تحدث، بعضها بسبب الإنسان وبعضها خارج عن إرادته.

وكما في الدنيا فالله جل وعلا لن يقوم في الآخرة بمحاسبة الناس وكأنه محقق أو قاضي، ولكن حسابهم يتم منهم على أنفسهم. وذلك أن الله جل وعلا أودع في كل نفس حية من بشر أو غيرهم آلية نطلق عليها هنا «صحيفة الأعمال» قادرة على تسجيل كل ما يمر بكل حواس الإنسان أو يصدر منه بكل دقة، منذ ولادته وحتى وفاته. ويوم القيامة ينهض الخلق من الموت، ويستعرض كل مخلوق صحيفته: وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) بني إسرائيل.

فإن كان مؤمناً وعمل صالحاً فقد فاز ودخل الجنة: الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ(٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ... (٧٠) الزخرف.

وإن كان مؤمناً بلا عمل أو عمل صالحاً بلا إيمان، فقد خسر ومصيره النار: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ(٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ(٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ(٧٦) الزخرف.

وبهذا يكون الإنسان – وأي مخلوق حي – قد حكم بنفسه على نفسه، دون تدخل من خالقه، وهذا يمثل العدل المثالي المطلق: وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٨) هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ(٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ(٣١) الجاثية.

والله جل وعلا عدله مثالي مطلق، ولذا فمن الظلم أن يغفر سبحانه لمستحق النار أو يعذب مستحق الجنة: وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ(٥٨) غافر[١].

وآلية صحيفة الأعمال آلية مزروعة في النفس، تسجل كل ما يمر بالحواس الخمس. فحاسة التذوق ستسجل كل ما يطعمه الإنسان من شراب أو مأكل، وحاسة الشم ستسجل كل ما يشمه الإنسان عمداً أو دون قصد، وحاسة النطق ستسجل كل ما تلفظ به الإنسان وكل ما يعنيه بألفاظه، وكل ما يضمره. وحاسة اللمس ستسجل كل ما يلامس أي عضو من أعضاء الإنسان وهل كان اللمس مقصوداً أو عفوياً، ويشمل كل أفعال الإنسان وما يضمره أثناء اللمس. وحاسة السمع ستسجل كل ما سمعه الإنسان عمداً أو من غير قصد. وسيحاسب الإنسان بناءً على هذا السجل الدقيق: وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً(٤٩) الكهف.

فكل فعل أو قول أو أكل أو شرب وكل ما يضمره الإنسان أثناء قيامه بالنشاط وكل دوافعه الدفينة في نفسه ستسجلها هذه الآلية وستظهر يوم الحساب. والحديث عن صحيفة الأعمال في القرآن يأتي دائماً ضمن خطاب الدعوة الموجه لقريش كونهم لا يؤمنون بالبعث، وعندما توقف الخطاب الدعوي لقريش في القرآن، توقف معه الحديث عن صحيفة الأعمال. وهذا واضح في السور المدنية التي تخلو من ذكر صحيفة الأعمال.

وبما أن الخطاب في القرآن يتناسب مع مدارك المخاطب وما يعرف، فقد جاء الحديث عن صحيفة الأعمال وكل ما يتعلق بعالم القيامة بعبارات مجازية لتقريب الصورة من الذهن وفهم المغزى من ذكرها، وهو أن كل ما يصدر من الإنسان يسجل وبناءً عليه سيكون حسابه ومصيره يوم القيامة. وفيما يلي أمثلة للصور المجازية الحسية التي تصور صحيفة الأعمال:

١ انظر فقرة: من عدل الله المطلق ألا يغفر لمستحق النار ولا يعذب مستحق الجنة. وفقرة: كل نفس بما كسبت رهينة، وفقرة: الله لا يتدخل في أمور الدنيا مباشرة، وفقرة: الجنة مضمونة لمن آمن وعمل صالحاً، وفقرة: الحساب بناءً على سجل صحيفة الأعمال ولا يخضع للعواطف / قسم أدلة من القرآن.

أثقال في ميزان

فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ(٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ(٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ(٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ(٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ(١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ(١١) القارعة.

الآيات تصور حال الناس يوم الحساب، فمن آمن وعمل صالحاً يصور وكأنه «ثقلت موازينه» ويصور نعيم الجنة «بالعيشة الراضية». ومن لم يؤمن صورته الآيات بأنه «خفت موازينه» وصورت النار «بأمه هاوية».

ومثله: وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ(٩) الأعراف.

ومثله: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ(٤٧) الأنبياء.

تسجل كل شيء

فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ(٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ(٨) الزلزلة.

هنا تأكيد على حقيقة أن آلية تسجيل الأعمال تسجل كل شيء يمر بالإنسان (الحواس الخمس) بتفاصيله الدقيقة مهما صغرت.

وهو ما كررته سورة القيامة: يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ(١٣).

ما قدم وأخر تعني منذ ولد حتى آخر لحظة في حياته.

وكررته سورة النبأ بعبارة أخرى: وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً(٢٩).

وهذه الآية تظهر وكأن الله جل وعلا هو من يحصي الأعمال ويكتبها فعلياً، وهو من باب المجاز، كونه سبحانه هو من أودع آلية تسجيل الأعمال في النفس، فهو من يحصي ويسجل بطريقة غير مباشرة. والرسالة التي تريد الآية إيصالها للمخاطب هي أن كل ما يصدر عن الإنسان يحصى ويسجل مهما صغر.

مخلوقات حية تكتب الأعمال

وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ(١٠) كِرَاماً كَاتِبِينَ(١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ(١٢) الانفطار.

هنا تصور الانفطار صحيفة الأعمال وكأنها عبارة عن سجل تقوم مخلوقات حية بمتابعة

الإنسان وتسجيل أعماله وما يصدر منه، لأن قريشاً لا يمكن أن تتصور إمكانية تسجيل دون أن يقوم بها كائن حي. والمفسرون – كعادتهم – أطلقوا لخيالاتهم العنان واعتبروا أن هناك ملائكة (مخلوقات كونية حية) موكلة بتسجيل الأعمال والأقوال الصادرة من كل شخص، وتوسعوا في ذلك كثيرا بلا ضوابط.

وتصوير تسجيل الإعمال وكأن هناك مخلوقات حية قادرة على الحفظ وكتابة ما يصدر من النفس ومعرفة ما يفعل الإنسان، هو وصف لما تقوم به الآلية المزروعة في النفس لتسجيل الأعمال. فهي بالفعل كالكائن الحي من حيث قدرتها على حفظ وتسجيل الأفعال والأقوال والمشاعر والتعرف على كل ما يصدر من الإنسان، لكن المفسرين حولوها لملائكة.

وتقول سورة ق: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ(١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ(١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ(١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ(١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ(٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ(٢١) لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ(٢٢).

هذه الآيات اعتبرها المفسرون تتحدث عن مخلوقات حية (ملائكة) كل اثنين منهم مكلفون بتسجيل كل ما يصدر من الإنسان. وقالوا بأن أحدهم يقبع على كتف الإنسان الأيمن لإحصاء الحسنات، والآخر على الكتف الأيسر لإحصاء السيئات. وتصوروا أن كلمة رقيب اسم أحد الملائكة والآخر اسمه عتيد. وهناك كلام كثير مختلف ومتعارض وخرافي فيما قالوا لا حاجة للرجوع له، لكني سأذكر منه أنهم يقولون إن هذه الملائكة لا تدخل بيوت الخلاء. وهذا التخريف غير معقول، لأنه بإمكان الإنسان أن يقترف كل الكبائر في بيوت الخلاء ويضمن أن الله لن يحاسبه عليها لأن المكلفين بالتسجيل لم يسجلوا.

وكتب التراث تقول بأنه لا يجوز ذكر الله في بيت الخلاء!

فهل يهم إن كان يجوز أو لا يجوز ما دام هذا الذنب لن يسجل، كون من ذكر الله في بيت الخلاء لم يكن مصحوباً بالملكين اللذين يسجلان أعماله.

مضحك مبكٍ ما يرد في كتب التراث من كلام المفسرين ورجال الدين كالعادة.

ولو تركنا تخاريف المفسرين لوجدنا أن الآيات تتحدث عن دقة تسجيل كل ما يصدر عن

المرء بصورة حسية مجازية. وهذه الآيات تصور نشر الأعمال يوم القيامة وكأن الإنسان قد غطي بغطاء ويوم القيامة يكشف ويصبح بصره حديداً، كناية على حدته وأنه يستطيع رؤية أدق تفاصيل الأفعال والأقوال والأفكار التي صدرت منه في الدنيا وتم تسجيلها عليه، ولا يعني أن بصره تحول لمعدن الحديد.

وتقول سورة الجن: إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً(٢٧) لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً(٢٨).

والآيات تصور صحيفة الأعمال وكأن هناك مخلوقات ترصد الإنسان وتسجل عليه أقواله وأفعاله. وهي موجودة أمامه «من بين يديه» ومن خلفه، أي محيطة به من كل جانب تعبير مجازي على دقة التسجيل وأنه لا يفوتها شيء يصدر من الإنسان مهما صغر أو خفي.

وتقول سورة الأنعام: وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ(٦١).

وهذا لا يعني أن هناك حفظة (يكتبون ما يصدر من الإنسان) لا يرسلون للإنسان إلا عند موته. ولكنه تعبير مجازي يؤكد تسجيل الأعمال بكل دقة، وختمها بالموت.

كتاب

وتصور بعض السور عمل صحيفة الأعمال بأنها عبارة عن كتاب سجل فيه كل ما يصدر من الإنسان وما جال بذهنه. ومن ذلك ما ورد في سورة الانشقاق: يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ(٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ(٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً(٨) وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً(٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ(١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً(١١) وَيَصْلَى سَعِيراً(١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً(١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ(١٤) بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً(١٥).

الآيات تصور صحيفة الأعمال مجازاً وكأنها كتاب – دون ذكر من كتبه – ويوم القيامة يصطف الناس ويُسلمون كتبهم. فمن أعطي كتابه بيمينه فقد نجا ودخل الجنة، ومن أوتي كتابه بشماله فقد خسر ودخل النار.

وبطبيعة الحال لن يكون الحساب بهذه الطريقة، ولكن الآيات صورتها بهذه الصور المجازية:

أوتي كتابه بيمينه كناية عن صحيفة أعمال صالحة.

أوتي كتابه بشماله كناية عن صحيفة أعمال سيئة.

الحساب اليسير كناية عن الفوز.

الانقلاب للأهل مسروراً كناية عن ضمان الجنة، ولا تعني أنه سيعود لعائلته.

يدعو ثبوراً كناية عن ندب حظه للخسارة.

كان في أهله مسروراً كناية عن عبثه في الدنيا ونسيان أمر الآخرة.

ظن أن لن يحور كناية عن عدم التصديق بالآخرة.

ومثله: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ(١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ(٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ(٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ(٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ(٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ(٢٧) الحاقة.

ولن يقوم المؤمن يوم القيامة وهو ممسك بصحيفة ورقية (كتاب) ويناولها للمحكمة ويطلب قراءتها، ولن يقوم الكافر وهو ممسك بكتابه بشماله، فيولول بالويل والثبور، لأن مجرد وضع الكتاب باليد الشمال يعني أنه في النار، فكل الآيات مجازية.

ومثله: وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٩) الجاثية.

الآيات تصور صحيفة الأعمال وكأنها كتاب يجمع فيه كل أعمال الأمة ويوم القيامة تحاسب الأمة بما في الكتاب. والحساب سيكون لكل مخلوق عن نفسه ولن يكون هناك محاكمة جماعية.

وتقول سورة الكهف: وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً(٤٧) وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِداً(٤٨) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً(٤٩) الكهف.

الآيات تصور أن التسجيل سيكون دقيقاً جداً بحيث لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها

طوال حياة المرء.

وسيفاجأ الإنسان أن كل شيء مهما صغر سجل عليه لدرجة أنه نسي كثيراً من الأشياء التي ظن أنه لا أهمية لها فإذا بها تعاد له أمام ناظريه: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) المجادلة.

وكثيرة هي الآيات التي تتحدث عن صحيفة الأعمال، لكنها في الغالب تصورها بصور مجازية، أما الآية (٤٩) أعلاه فتصف الصحيفة بالكتاب، وهي بالفعل كتاب أو سجل مزروع في النفس البشرية. وبما أن الله جل وعلا من زرعه فهو سبحانه من يحصي أعمال الإنسان بصورة غير مباشرة.

ومثله: وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(٦٢) المؤمنون.

الآية تصور صحيفة الأعمال وكأنها كتاب يكتب من لدن الله جل وعلا. وبما أن الله جل وعلا هو من خلق الآلية في النفس وبقدرته ومشيئته تسجل وتحتفظ بأعمال الإنسان، فالله هو سبحانه من يسجل بطريقة غير مباشرة.

ومثله: وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً(١٣) اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً(١٤) بني إسرائيل.

العرب كانت تتفاءل باتجاه طيران الطير أو تتشاءم قبل أي عمل أو سفر يريدون القيام به. والآيات تخاطب قريشاً بما تألف، وتقول بأن كل إنسان معلق طائره في عنقه ويستطيع أن يوجهه لأي وجهة يريد، دون حاجة لانتظار الطائر أن يطير كيفما يشاء ويتحكم بوجهة الإنسان. بمعنى أن الإنسان هو من يصنع طريقه بنفسه. والوصف يظهر أن الآلية ملتصقة بالنفس البشرية، لا تفارقها، وكأنها معلقة في الرقبة. ويوم القيامة سيتعرف المرء على مصيره الذي رسمه هو بنفسه لنفسه. وعبرت الآية عن تسجيل الأعمال وكأن هناك كتاباً كان الإنسان قد كتبه في الدنيا ويوم القيامة يحضر إليه ليقرأه وبناءً عليه يكون المصير.

وفي نفس السورة تصوير آخر للصحيفة: يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَـٰئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً(٧١) بني إسرائيل.

والصحيفة هنا تصور ككتاب يكتب نيابة عن الشخص ويسلم له يوم القيامة، وينجو من يسلم كتابه بيمينه.

الصحيفة موجودة في النفس

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ(١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ(٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ(٣) إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ(٤) الطارق.

الآيات هنا تؤكد أن كل نفس عليها حافظ يسجل ما يصدر منها من اقوال وافعال، وهذا بالفعل ما تقوم به الآلية التي أودعها الله في كل نفس. والآية تصف ما تقوم به الآية بدقة، فهي حافظ لكل ما يصدر من الإنسان وما يفكر فيه.

ومثله: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ(١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ(١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ(١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ(١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ(٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ(٢١) لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ(٢٢).

هذه الآيات تقول بأن الله أقرب للمرء من حبل الوريد الموجود في جسمه، والقرب ليس مكانياً ولكنه تعبير مجازي على أن قدرة الله كفيلة بتسجيل كل ما يصدر من المرء. وهو ما يعني بطريق غير مباشر أن الله أقرب للمرء من نفسه.

وتصف الآيات آلية تسجيل الأعمال وكأن هناك مخلوقات حية مرافقة للمرء عن يمينه وشماله تسجل عليه أعماله بكل دقة.

وبعد نشأة كون القيامة يكون الحساب بناءً على ما سجل في الصحيفة. التي تصفها الآيات بأنها تسوق المرء لمصيره بناء على شهادتها المسجلة على ما صدر منه. فالصحيفة يوم القيامة ستكون سائقاً للمرء إلى المصير وشاهداً عليه. ثم تعبر الآيات عن غفلة المرء في الدنيا عن الحساب وتحققه يوم القيامة، وكأنه قد غطي بغطاء ويوم القيامة يكشف ويصبح بصره حديداً كناية عن وضوح الحقيقة في ذلك اليوم.

وورد في سورة الملك: وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ(١٤).

وهو تأكيد على أن الصحيفة مستمرة بتسجيل كل شيء بتفاصيله الدقيقة طوال حياة المرء، سواء ما صدر من الإنسان من قول أو فعل أو حتى ما فكر فيه الإنسان وأضمره.

وتسجيل الأعمال والأقوال والأفكار والنوايا ليس لكي يطلع عليها الخالق جل وعلا لأنه هو من خلق الإنسان ويعلم كل دقائق جسده وتفكيره وما يصدر منه، ولكن الأعمال تسجل لكي يطلع عليها المخلوق نفسه يوم القيامة ويعلم أن الله عادل لم يظلمه شيئاً وأنه هو نفسه من قرر مصيره.

وتقول سورة النازعات: فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى(٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى(٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى(٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَى(٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى(٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى(٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى(٤١).

والتذكر هنا إشارة لاسترجاع كل ما صدر من الإنسان ومر به في حياته من قول أو فعل أو تفكير ونوايا يوم القيامة وسيحاسب صاحبها بموجبها. وهذا يكون في تسجيل كل ما يصدر من الإنسان منذ ولد حتى يموت، ولا يكون بالاعتماد على الذاكرة، لأن الذاكرة قد تخون صاحبها وبالتالي لا يمكن محاسبته على قدر تذكره، بل على كل ما صدر منه فعلياً وسجل بتفاصيله.

السمع والأبصار والجلود تتكلم

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ(١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ(٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ(٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ(٢٤) فصلت.

الآيات تؤكد على أن كل ما يمر بالحواس الخمس من الولادة إلى الموت يسجل، وبناءً على هذا السجل يكون الحساب. فحاسة السمع تسجل ما تسمع، حاسة البصر تسجل ما ترى، الجلود تمثل حاسة اللمس، وكذلك حاسة الشم وحاسة الذوق. ولن ينطق السمع والبصر والجلود فعلياً، ولكن سيعاد للإنسان تسجيل كل ما مر بالبصر والمسمع والجلود (ما مس وحرك ونقل وفعل). وبعبارة أخرى سيعرض له كل ما صدر منه وما مر بحواسه طوال

حياته، وبناءً عليه سيحاسب.

صحيفة الأعمال تسجل حتى النوايا

وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى(٧) طه.

كل شيء تدركه حواس الإنسان يسجل في الصحيفة حتى النوايا والأفكار وعليها يحاسب. والحساب لا يكون على فكرة أو نية لم تنفذ، ولكن النية تحدد فيما إذا كان الفعل الذي قام به الإنسان مبيتاً له ومتعمداً أم أنه وكردة فعل وبلا تخطيط مسبق.

كأن رسل الله هم من يقومون بكتابة الأعمال

لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ(٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ(٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ(٨٠) الزخرف.

الآيات تخاطب قريشاً وتتوعدهم يوم القيامة، وتقول بأن كل ما يصدر من أي شخص منهم نقوم بتسجيله، وكأن رسل الله جل وعلا هم من يسجل، وليس آلية في نفس كل إنسان.

ومثله: وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٢٣) لقمان.

يوم القيامة سيعرف كل شخص مصيره إلى جنة أو نار بناءً على ما سجلته صحيفة أعماله التي زرعت في نفسه، ولن يرى الله ولن يحاكمه الله جل وعلا كما يفعل القاضي في الدنيا. ومع ذلك هذه الآية تقول إن مرجع الكفار لله الذي سينبئهم بما عملوا. وهو مجاز يعني أن صحيفة الأعمال خلقها الله والبعث خلقه الله وكذلك الجنة والنار ولو كان مصير المرء النار أو الجنة فكأن الله هو من قاده للنار أو الجنة، ولو لم يقم بذلك فعلياً. فكل شيء تم بأمر الله، وكأنه سبحانه قام به بنفسه تبارك وتعالى.

ومثله: وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ(٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ(٧٥) النمل.

ومثله: الله جل شأنه لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ(٣) سبأ.

بما أن الله جل وعلا هو من أوجد هذه الآلية فهو سبحانه هو الذي يسجل.

ومثله ما ورد في سورة غافر: وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(١١).

وجاء في سورة «يس»: إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ(١٢).

والله جل وعلا لا يحيي الموتى مباشرة، ولكنه سبحانه يضع القوانين التي تتكفل ذلك. لكن بحكم أنه سبحانه هو من أبدع تلك القوانين فهو سبحانه من يحيي الموتى. وهو سبحانه لا يكتب أعمال الإنسان لكنه أوجد تلك الآلية في كل نفس حية، فيكون هو سبحانه من يسجل بطريقة غير مباشرة.

صحيفة الأعمال على شكل آليات

لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ(١١) الرعد.

الآية تصور تسجيل الأعمال والأقوال وكأن هناك آلية تحيط بالإنسان من كل جانب تحصي عليه كل ما يصدر منه.

الخلاصة

هناك آلية في النفس تسجل كل ما يمر بالحواس الخمس منذ الولادة إلى الوفاة ويوم القيامة يكون حساب الإنسان بناءً على ما سجل في هذه الآلية. وقد صورت بصور مجازية مختلفة في السور التي تخاطب قريشاً لتقرب الصورة من أذهانهم وليعرفوا أن كل ما يصدر منهم يسجل وسيحاسبون عليه. وقد توقف الحديث عن صحيفة الأعمال بتوقف الخطاب الدعوي الموجه لقريش.

وكل من يعي حقيقة تسجيل الأعمال والأفعال والأقوال وكل شيء يصدر من الإنسان ويحضرها في نفسه فلن يقدم على القتل أو السرقة أو الظلم أو ارتكاب المعاصي أو الكيد أو أي معصية أو تهاون في عبادة أو إهمال لمكارم الأخلاق. لأني لو فطنت إلى أن مجرد

تفكيري بارتكاب المعصية سيسجل كنية مسبقة وتعمد لارتكاب المعصية. وعندما أنفذ المعصية تسجل على أنها ارتكبت مع سبق الإصرار والترصد. ولو ارتكبت المعصية مع سبق الإصرار والترصد فهي تحد لله وعصيان سافر لأوامره، أي أنها جريمة من الدرجة الأولى. وجرائم الدرجة الأولى لا تغتفر، حتى في القوانين البشرية ولا تخفف عقوباتها.

ولو فكرت بهذا فلن أعصي ولن أعتدي على أحد ولن أفعل ما يمكن أن أحاسب عليه، وحتى السيئات الصغيرة (اللمم) التي لا تدخل النار ولكنها تحرم من المستوى الأعلى في الجنة، سأعود نفسي على تجنبها ما أمكن.

ولن تُقترف الكبائر إلا في حالات نادرة وفي أوضاع استثنائية. ولن يكرر ارتكاب الكبيرة أو الكبائر إلا من ترجح كفة الظن عنده على كفة الإيمان. وسيعرف المرء هل هو مؤمن فعلاً أو غير مؤمن، وهو حي.

من عدل الله المطلق ألا يغفر لمستحق النار ولا يعذب مستحق الجنة

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ(٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ(٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ(٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ(٣٩) سَلْهُم أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ(٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ(٤١) ن والقلم.

رجال قريش يظنون أنه لو كان هناك بعث فسيغفر الله لهم. والآيات تؤكد بشكل قاطع أن الجنة للمتقين، وأن الله لن يغفر لمستحق النار. لأنه لو غفر له فهو يساوي في التعامل بين المجرم وبين المسلم، وستكون «قسمة ضيزى» منافية لعدل الله المطلق الذي يحتم أن يدخل الجنة مستحقها ولا يعذب، ويدخل النار مستحقها ولا يغفر له.

وتقول سورة «ص»: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ(٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ(٢٨).

الخطاب لقريش التي يظن كبراؤها أنه إن كان هناك بعث فسيدخلهم ربهم الجنة لأنهم رجال قريش وما يعتنقونه هو الحق، ومن ذلك ما أشارت له سورة فصلت: وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ

رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ(٥٠).

وسورة ص تؤكد في الآيتين ٢٧-٢٨ أعلاه أن هذا لن يكون لأن الله جل وعلا لا يتعامل مع خلقه بالعواطف فيغفر لهذا ولو استحق النار ويعذب هذا ولو استحق الجنة. بل حكمه عدل مطلق مثالي بعيد لا يخضع للمزاج والتقلب، ومن يستحق الجنة فلن يعذب، ومن يستحق العذاب فلن يشم رائحة الجنة.

وتقول سورة الجاثية: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ(٢١).

فالله جل شأنه وضع ضوابط لدخول الجنة: «من آمن وعمل صالحاً فله الجنة». وهو وعد من الله ثابت لا يتغير ولا يُخلفه سبحانه. وكل من خالف هذا الميثاق كلياً بالكفر أو جزئياً باقتراف الكبائر فله النار[١].

والآية ترد على من يظن أنه يمكن أن يقترف السيئات (الكبائر) ومتى شاء تاب وسيغفر له الله. لأن هذا عبث، أما التوبة فلها ضوابط وشروط من التزم بها فستقبل توبته[٢].

وتقول نفس السورة: وَخَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(٢٢).

فكل شيء خلقه الله بالحق والعدل وستجزى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون. فمن استحق الجنة فسيدخلها بما قدم وليس لأن الله غفر له وهو لا يستحق النار. ومن دخل النار فبما قدمت يداه وليس لأن الله عذبه وهو يستحق الجنة.

وسورة الجاثية نفسها تؤكد في آيات أخرى أن الإنسان نفسه – وليس الله جل وعلا – من يقرر مصيره بنفسه. فكل أعماله ستسجل في صحيفة أعماله وبناء عليها سيحكم عليه. وهذا لا يخرج عن مشيئة الله، لأنه سبحانه هو من وضع هذا القانون العادل: وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي

---

١ انظر فقرة: الجنة مضمونة لمن آمن وعمل صالحا في هذا القسم.

٢ انظر فقرة: التوبة في هذا القسم.

رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ(٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ(٣١).

وتقول سورة فاطر: وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ(١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ(٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ(٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ(٢٢).

فالبصير والنور والظل والأحياء ألفاظ استخدمت مجازاً لتشير للمؤمن، والأعمى والظلمات والحرور والأموات ألفاظ استخدمت بصفة مجازية لتشير للكافر، والآيات تقول إنه لا يمكن أن يساوي الله – جل شأنه – في مصير المؤمن والكافر لأنه ضد عدله سبحانه. ولو غفر لمستحق النار أو عذب مستحق الجنة فقد ساوى بين الأعمى والبصير، والظلمات والنور، والظل والحرور والأحياء والأموات. وهذا ظلم لمستحق الجنة ومحاباة للفاسق والكافر والعاصي.

وتقول سورة فصلت: إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٤٠).

والآية وردت ضمن آيات تخاطب قريشاً وتقول لن يستوي مصير المؤمن مع الكافر.

وتقول سورة الزخرف: أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ(٥).

الآية تقول بأنه ليس من عدل الله المطلق أن يغفر لمشركي قريش ويساويهم بالمؤمنين.

وتقول سورة غافر: وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ(٥٨).

وتؤكد سورة الحجر أن الله رحيم بمن يستحق الرحمة وشديد العذاب للمخالف: نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(٤٩) وأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمَ(٥٠).

الله جل شأنه غفور رحيم لكل من يستحق المغفرة، وهو من يتوب عن الكبائر ولا يعود لها، ويستمر بالإيمان والعمل الصالح. وعذابه سبحانه شديد لكل من يستحق النار، ولو كان يؤمن بالله ورسوله لكنه استمر على كبيرة أو أكثر، ولم يلتزم بالتوبة حسب ضوابطها القرآنية.

والمغفرة لمستحق النار مثل إدخال النار من يستحق الجنة، ظلمٌ لا يجوز على الخالق جل وعلا ولا يمكن أن يصدر منه سبحانه.

تقول سورة السجدة: أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَّا يَسْتَوُونَ(١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ(٢٠) وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ(٢٢).

عدل الله المطلق يُحتِّم أن يعذب مستحق النار ولا يغفر له، وأن يدخل مستحق الجنة، الجنة ولا يحرم منها.

فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ(٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ(٣٧) أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ(٣٨) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ(٣٩) المعارج.

ومثله: إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ(٤٠) لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ(٤١) الأعراف.

فمن استحق النار لن يغفر له. ومن استحق الجنة لن يحرم منها ولن يعذب: أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ(٩) الزمر.

ولن يستوي الفريقان، فمن كفر أو عصى فعليه اللعنة وله العذاب، ومن آمن وعمل صالحاً فله الجنة: أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ(١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ(١٩) أُولَـئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ(٢٠) أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ(٢١) لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ(٢٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُواْ إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ(٢٤) هود.

وتقول سورة الأنعام: أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(١٢٢).

أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم(١٤) محمد.

من عدل الله تعالى أن جعل في النفس البشرية آلية تسجل على المرء أفعاله وأعماله وكل ما يصدر من حواسه. وبناءً على هذا السجل الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وبكل صدق - بعيداً عن الرياء والتصنع - سيكون الحساب.

وكل من اقترف كبيرة واحدة نص القرآن على أنها موجبة للنار ولم يتب أو استمر عليها أو غيرها من الكبائر فهو مخلد في النار، بغض النظر إن جاهر بالإسلام أو الكفر. وقد بينا ذلك في موضوع التوبة.

ولأنه سبحانه عادل عدلاً مثالياً بعيداً عن العواطف، فمن عدله المطلق ألا يغفر لمستحق النار، ولا يعذب مستحق الجنة. وهناك عشرات الآيات التي تنص على هذا، ومنها:

- أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(٣٦) القلم.
- وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ(١٨) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ(١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ(٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ(٢١) فاطر.
- وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ(٥٨) غافر.
- أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَّا يَسْتَوُونَ(١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ(٢٠) وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(٢١) السجدة.

وغيرها.

أدلة على أن رسالات الرسل تبدأ بالإيمان فقط دون تشريعات

وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ(٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ(٢٩) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ(٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ(٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ(٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ(٣٣) وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ(٣٤) .... وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ(٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ(٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ(٤٠) وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ(٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ(٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ(٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ(٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ(٤٥) غافر.

الآيات أعلاه تتحدث عن رجل من «آل» فرعون، أي أنه كان فرداً من أفراد عائلة فرعون. هذا المؤمن تجنب أعمال الظلمة ونهاهم عنها وتبرأ منها وحاول الدفاع عن الحق وعن الضعفاء قدر إمكانياته. ولو أنه سكت ولم يصدع بالحق لحق عليه العذاب. والقرآن أورد محاوراته معهم ليقول بأن قول الحق واجب وتركه كبيرة.

ويمكن أن يستفاد من الآيات أيضاً أن الرسول عندما يبعث يبدأ بعثته بدعوة الناس للإيمان بالله وحده والكفر بعبادة غيره، ولا تنزل التشريعات والحلال والحرام إلا بعد تكون جالية مسلمة. وكل من يؤمن ويموت قبل نزول التشريعات فسيدخل الجنة، مثل هذا الرجل

المؤمن من آل فرعون.

ولو عدنا لما يقول القرآن عن قوم نوح وعاد وثمود ولوط وشعيب وغيرهم سنجد أن الرسول والنفر القليل المؤمنين قد نجوا من الهلاك وسيدخلون الجنة مع أنهم لم يلتزموا بأي تشريعات لأنها لم تفرض عليهم تشريعات غير الإيمان بالله.

وتتحدث سورة «يس» على قرية أرسل لها ثلاثة رسل ولم يؤمن بهم سوى رجل واحد، ودخل الجنة لإيمانه دون أن يفرض عليه أي تشريع أو عبادات، لأن أهل القرية استمروا على كفرهم وهلكوا بكارثة طبيعية دون أن يؤمن منهم أحد سوى ذلك الرجل: وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ(٢٩) يس.

ولو تتبعنا الآيات التي تتحدث عن أقوام نوح وعاد وثمود وشعيب ولوط فسنجد أنه لم يطلب منهم سوى الإيمان بوحدانية الله والبعث والتشريعات الأساسية المتمثلة بالصلاة والإنفاق والغش التجاري فقط. وهي التي بدأت بها رسالة محمد، ولم تزد عليها إلا بعد سنوات، عندما تكاثرت أعداد المسلمين، وبدأت التشريعات تنزل تباعاً في أواخر العصر المكي واكتملت في المدينة. لأن التشريعات لا تنزل إلا بعد وجود مجتمع مؤمن، وتلك الأمم لم يؤمن برسلها سوى نفر قليل لا يشكلون مجتمعاً.

ولعل أول دين مكتمل من بين كل الرسالات التي ذكر القرآن هو التوراة. ولم يأتِ بعد

التوراة رسالة بدين مكتمل سوى رسالة محمد التي ختمت بها الرسالات لأنها بقيت كما نزلت على شكل قرآن مكتوب.

وهذا لا يعني أن البشر قبل موسى لم ينزل عليهم دين كامل، فقد يكون هناك ديانات اكتملت تشريعاتها خارج جزيرة العرب وفي مناطق مختلفة من العالم، لعل منها البوذية وديانات في أمريكا وغيرها. والقرآن يؤكد أن قوم يونس آمنوا: فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ(٩٨) يونس.

وهذا يعني أنه نزل عليهم دين متكامل من عبادات الحج والصلاة والصوم ومعاملات كالانفاق وتحريم الربا وكل التشريعات الأخرى التي وردت في القرآن.

الله جل شأنه لا يحل في مخلوقاته

وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ(٨٤) الزخرف.

بعض الفرق الباطنية تعتقد بأن الله يحل في بعض خلقه. والآية لا تقول إنه يحل في كل مكان ولا تقول هو عدة آلهة. ولكنها تقول إن الله جل شأنه موجود في كل مكان من خلقه ليس فعلياً، ولكن بقوانينه التي يسير بموجبها الكون وما فيه دون حاجة لله جل وعلا أن يباشر ذلك بنفسه أو يخلق مخلوقات تديره بدلاً عنه.

بنو آدم

ليس كل الناس من بني آدم، لأن آدم خلق والأرض عامرة بالبشر. فمن هم بنو آدم الذين تخاطبهم بعض سور القرآن؟

أول سورة ذكرت بني آدم هي سورة يس من سور المرحلة الرابعة: أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ(٦٠).

والسورة تخاطب قريشاً، لأن السورة نزلت في هذه المرحلة التي تخاطب سورها قريشاً فقط، ولا تخاطب غيرهم من الناس. فبنو آدم هنا هم قريش، وهم كذلك. لأنهم من نسل إبراهيم الذي هو من نسل آدم.

ثم يأتي ذكر «بني آدم» في سورة الأعراف، والتي هي من سور المرحلة الخامسة حيث تغير الخطاب الدعوي في القرآن لكل الناس بعدما كان وقفاً على قريش فقط. وقد ورد اللفظ في السورة خمس مرات، أربع منها في سياق واحد، كما يلي:

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ (٢٧) وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٠) يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ(٣١)قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤)يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٣٥).

وهذه الآيات تخاطب قريشاً.

وهناك آية أخرى في سورة الأعراف لها سياق مختلف: وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٧١) وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ(١٧٢) أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ(١٧٣) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(١٧٤).

والآيات تخاطب بني إسرائيل، وهم من بني آدم لأنهم من نسل إبراهيم، كما قريش.

والآية الأخيرة التي ذكرت «بني آدم» في سورة المائدة: قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ(٢٧).

وهي تخاطب بني إسرائيل.

وآدم هو أبو الأنبياء والرسل المذكورون في القرآن، وهو ما أشارت له سورة مريم بعدما ذكرت عددا منهم: أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً(٥٨) مريم.

ولأن الرسل من بني آدم، فهو تكريم لآدم وذريته على غيرهم من الناس: وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً(٧٠) بني إسرائيل.

والخلاصة أن القرآن عندما يخاطب «بني آدم» فالمعني بهم إما قريش أو بنو إسرائيل، وهم من نسل إبراهيم الذي هو من ذرية آدم.

ولا يخاطب القرآن عموم الناس ببني آدم أبداً، لكن مفهوم أن بني آدم هم كل الناس موروث يهودي. فكتب اليهود هي من قالت إن آدم هو أبو البشر، وليس القرآن. وكالعادة فقد تسلل الموروث اليهودي وحل محل ثقافة القرآن.

وأد البنات

عندما نقرأ في سورة التكوير: وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ(٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ(٩).

فالمخاطب هنا قريش، والوأد ليس حدثاً افترضه القرآن وتحدث عنه، ولكنه ظاهرة كانت سائدة في المجتمع المكي (الذين تخاطبهم السورة).

والوأد هو دفن البنت بعد مولدها مباشرة وهي حية، وسورة النحل تخبرنا عن السبب الذي يدفع بعض رجال قريش وأد بناتهم: وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ(٥٦) وَيَجْعَلُونَ للهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ(٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ(٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ

عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٦٠).

الآيات تصف مشاعر القرشي عند ولادة بنت له، وكيف أن فكرة وأدها تراوده في الحال. فبعضهم يئدها وبعضهم يمسكها على كره. فوأدهم للبنت نتيجة لشعورهم بأنها مصدر للعار والعيب، والتخلص منها حين ولادتها لئلا تتسبب في كبرها بعار يلطخ سمعة والدها. فهم يكرهون أن يكون لهم بنات لهذا السبب: وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ(٦٢) النحل.

والآية تستنكر على قريش قولهم إن الملائكة بنات الله، كونهم ينسبون له ما يكرون ويعتبرونه عاراً.

وهو ما تؤكده سورة الزخرف: وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ(١٥) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ(١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ(١٧).

فقريش تعتقد أن الملائكة بنات الله، في الوقت الذي لا يرحب رجال قريش بالمولودة البنت، بل يشتد بأحدهم الغضب وتتغير ملامح وجهه من الغيظ. والأهم هو: أنه يكاد يتوارى من القوم. والتخفي والاحتجاب عن القوم لأن هناك شيئاً معيباً أصابه. فالوأد سببه خشية العار الذي تجلبه البنت لوالدها، كما يظنون.

والقرآن يخبر أيضاً أن بعض رجال قريش يقتلون أولادهم (أبناء وبنات) لسبب آخر غير الشعور بالعار، وهو خشية إملاق: وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً(٣١) بني إسرائيل.

والسورة مكية تخاطب أهل مكة، من أسلم منهم ومن لم يسلم، وتبين أنه كان يحدث بينهم أن يقتل الوالد مولوده الولد أو البنت إذا كان فقيراً لئلا يضطر للتسول ليطعمه، كون التسول معيباً بحق القرشي.

كما أن هناك من قريش من قتل ولده ليحول بينه وبين الدخول في الإسلام: وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ(١٣٧) الأنعام.

وهذا لم يكن عرفاً ولا عادة منتشرة في مكة في عصر الرسول أو قبله، ولكنه تصرف شخصي قد لا يكون صدر من أكثر من شخص واحد. بينما كان وأد البنات ظاهرة سائدة في مكة عندما بعث رسول الله، نتيجة للثقافة الذكورية التي تحتقر البنت وتعتبرها مصدراً للعار، بينما الولد فخرٌ لوالده. فهو يحمل اسمه ويلقب به، ويعتبر امتداداً له. وهذا الشعور ما زال حياً قوياً بيننا إلى اليوم، وإن اختفى الوأد الفعلي وبقي المعنوي. فما زال البعض يبادر بالقول «أعزك الله» عندما يتحدث عن امرأة، وكأن مجرد ذكرها نجاسة. وهناك من لا يأكل مع المرأة، وممارسات أخرى تئد المرأة معنويا.

الخليل

تشكيل الحروف عرفه المصحف فيما بعد عصر نسخ المصاحف، ولم يكن موجوداً في المصحف الإمام[1]. وقد خضعت الكثير من الألفاظ في القرآن لتغييرات في تشكيلها من قبل المفسرين دون ضوابط، كل مفسر يشكلها كيفما يشاء لتلائم تأويله. وذكرنا أثناء التدبر بعض هذه الألفاظ. وهو ما يعني أن احتمال قراءة قوله تعالى: «واتخذ الله إبراهيم خليلاً» قد يكون بشكل مختلف، خاصة أن تقديم المفعول به على الفاعل في اللغة العربية جائز. وهذا الاحتمال يعطينا الحق في النظر للموضوع من عدة زوايا.

والبداية مع:

معنى الخليل في اللغة

أي لفظ تذكر له معاجم اللغة عدة معانٍ بعضها معانٍ شاذة لا يؤخذ بها. وهذا ليس وقفاً على العربية، بل هو موجود في كل اللغات.

والخليل ليست استثناء، فهي تأتي في المعاجم بمعانٍ عديدة، نذكر منها:

- أنها تأتي من الخلال، أي إدخال الشيء من خلال شيء آخر.
- وخل الشيء فهو مخلول وخليل، أي مثقوب وثاقب.
- والخليل هو الصديق.
- والخليل هو المحب الذي ليس في محبته خَلَل.

[1] المصحف الإمام هو ذلك المصحف الذي كتب في حياة الرسول وراجعه الرسول قبل وفاته. وهو الذي نسخ منه عثمان المصاحف التي وزعها على الأمصار عام (٣٣) هجرية.

- والخليل الفقير المحتاج لخله.

وكتب التراث تقول إن الله اتخذ إبراهيم صديقاً ومحبوباً، في قوله تعالى: «وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً».

فيما يقول القرآن: بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١٠١) الأنعام.

فالله خالق كل شيء، ولا يتخذ من خلقه ولداً ولا صاحباً. لأنه سبحانه ليس بحاجة لولد ولا صاحب، لأنه هو من خلق الخلق وهو سبحانه غني عن كل خلقه بما فيهم إبراهيم: وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ(٦) العنكبوت.

في المقابل الناس هم الفقراء لله ويحاجته في كل شيء: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ(١٥) فاطر.

والنبي إبراهيم فقير دائم لله. لذا فقد اتخذ إبراهيم ربه خليلاً، بمعنى الحاجة له والفقير لعونه، كما قال زهير ابن أبي سلمى يمدح هرم ابن سنان: وإن أتاه خَلِيلٌ يومَ مَسْغَبةٍ *** يقول: لا غائبٌ مالي ولا حَرِمُ.

ويكون إبراهيم الخليلُ الفقيرُ المُخْتَلُّ الحالِ إلى الله.

وهذا المعنى لا يستقيم لو قرأنا الآية بالتشكيل الموجود في المصحف بحيث يكون إبراهيم هو المفعول به ولفظ الجلالة فاعلاً لكن المعنى يستقيم لو عُدّل التشكيل، بحيث يكون لفظ الجلالة بفتحة (مفعول به) وإبراهيم بضمة (فاعل). ليكون إبراهيم هو من اتخذ رب العالمين خليلاً – ليس بمعنى الحب أو الصداقة – ولكن بمعنى الحاجة والافتقار للعون.

والآن لنقرأ الآية بتمامها: وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً(١٢٥) النساء.

والآية تقول: إن أحسن دين هو اتباع ملة إبراهيم الذي اتخذ الله خليلاً (معيناً وملجأ)، والعبد دائماً في حاجة لسيده وربه. لكن لو كانت العلاقة بين الله وإبراهيم علاقة صداقة، فهذا يوحي بنوع من التكافؤ بين الخالق – الله – والمخلوق الحقير إبراهيم. وهو ما يخالف الواقع الذي يقول إن الله ليس بحاجة لعباده ولا يجوز أن يقارن أو يشبه بهم: (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً).

ولو عدنا لسياق الآيات ستقرأ: لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً(١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً(١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً(١٢٥) النساء.

هنا ذكر لأهل الكتاب الذين يقولون إنهم مفضلون على بقية البشر، ولن يؤاخذهم الله فيما يقترفون، فترد عليهم الآيات. وتواصل لتقول إن النجاة لمن يتبع ملة إبراهيم، الذي اختار أن يسلم أمره لله، وأعلن فقره لعونه.

ونختم باقتباس من تفسير القرطبي الذي نقل المعنى الصحيح للخليل، بجانب آراء أخرى مغايرة، يقول: وقيل: الخليل المحتاج؛ فإبراهيم خليل الله على معنى أنه فقير محتاج إلى الله تعالى؛ كأنه الذي به الاختلال.

ويقول: وجائز أن يسمى خليل الله أي فقيراً إلى الله تعالى؛ لأنه لم يجعل فقره ولا فاقته إلاّ إلى الله تعالى مخلصاً في ذلك. والاختلال الفقر.

وقد وافق المفسر القرطبي الحق هذه المرة.

ويكون التشكيل الصحيح في الآية هو فتحة على لفظ الجلالة، وضمة على إبراهيم. وما دمنا نتحدث عن النبي إبراهيم نورد تشكيلاً خاطئاً آخر، في قوله تعالى: وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) البقرة.

فالتشكيل السائد والموروث هو (وَاتَّخِذُواْ) بكسرة تحت الخاء، كفعل أمر. وهو ما يخالف السياق ويصبح المعنى غير متسق. لأن أول الآية يتحدث عن زمن إبراهيم « وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً» ثم فجأة وبدون مقدمات تبدو الآية وكأنها تأمر الناس – زمن الرسول – بأن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى. قبل أن تعود للحديث عن زمن إبراهيم مرة أخرى: وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ.

أما لو كان التشكيل (وَاتَّخَذُواْ) بفتحة على الخاء، كفعلٍ ماضٍ، فسيكون الحديث في كل الآية عن زمن إبراهيم. وهذا فيه اتساق للمعنى والسياق يعضده.

الصدقات هي الإنفاق

مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(٢٦١) الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنّاً وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٢٦٢) قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ(٢٦٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(٢٦٤) وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٢٦٥).

الآيات عن الإنفاق، وهي تستخدم لفظ الإنفاق ولفظ الصدقة لنفس معنى الإنفاق مما يؤكد أن الإنفاق والصدقات تدل على نفس المعنى.

وهو ما تؤكده السورة مرة أخرى: إِن تُبْدُو الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٢٧١) البقرة.

والآية جاءت ضمن سياق الآيات السابقة والتي تحث المسلمين على الإنفاق لتسليح الجيش وتجهيز المقاتلين. واستخدمت الآية لفظ «الصدقات» كمرادف للإنفاق. وإبداء الصدقات يعني إعطاءها مباشرة للمحتاج، كأن يدفع المنفق فرساً لرجل محتاج لكي يشارك في القتال في سبيل الله تحت سمع وبصر المسلمين. وإخفاء الصدقات كأن يدفع المنفق مالاً أو عيناً ويتجمع الصدقات ويجهز بها المقاتلة دون معرفة من دفع[١].

مكة بلد آمن

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ(٦٧) العنكبوت.

الآية تخاطب قريشاً مذكرة إياهم أن بلدهم آمنة.

---

١ تم الحديث بتفصيل عن الإنفاق في كتاب: رسالة في الشورى والإنفاق / منشورات الجمل.

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(١٢٥) البقرة.

فقد كانت آمنة منذ ظهرت على الوجود قبل عصر إبراهيم. ولم تكن آمنة لأن قريشاً عقدت حلفاً قبيل البعثة سموه حلف الفضول، كما تقول كتب التراث.

إسماعيل كلف بصيانة البيت وخدمة الحجاج مع أبيه دون إسحاق

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(١٢٥) البقرة.

ولهذا بقي هذا التكليف في نسل إسماعيل حتى ظهور الإسلام. وانتزاعه من قريش دليل على أنه كان حصرياً في نسل إسماعيل ما بقوا على دين الله، وعندما تحولوا للوثنية فليس لهم عند الله عهد ويسلم البيت للمؤمنين ولو كانوا من غير نسل إسماعيل.

التحية السائدة في عصر إبراهيم

السلام هو التحية السائدة زمن إبراهيم، وهو ما يعني أنها تحية دين الله قبل الإسلام: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ(٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ(٢٥) الذاريات.

واليهود إلى اليوم يرددون نفس عبارة السلام عليكم ولكن بلسان معوج من العجمة التي دخلت لهجاتهم فتحولت إلى لغة غريبة عن العربية (شلوم عليخم).

المدينة[1]

كتب التراث تزعم أن الرسول هو من سمى مقامه في يثرب، المدينة. ومن الصعب التصديق بأن هذا ما حدث، لأن مصادر تلك الكتب غير موثقة ولا موثوقة.

والمدينة، لفظ نُعرِّفه اليوم بأنه يطلق على البلدة الكبيرة المكتظة بالسكان. وهو تعريب للفظ

---

١ منقول من كتاب أحسن القصص/ تاريخ الإسلام كما ورد من المصدر، مع ترتيب السور حسب النزول - منشورات الجمل.

'city' في اللغة الإنجليزية واصطلاح جغرافي حديث. وهذا الوصف لا يمكن أن ينطبق على ذلك المكان الذي استقر فيه الرسول، ولم يتسع البنيان فيه طوال عصره لدرجة يمكن أن يسمى «مدينة» بمفهومنا العصري. لأن الأوس والخزرج بقوا في مساكنهم التي كانوا فيها قبل الهجرة، بينما توزع المهاجرون على مناطق متفرقة من أرض يثرب ولم تكتظ بهم المنطقة المحيطة بمسجد الرسول. وعندما توفي رسول الله لم يكن بجوار مسجده إلا القليل من المساكن لبعض المهاجرين، لا تشكل أكثر من تجمع سكاني محدود، ومع ذلك نعتت بالمدينة.

المدينة - بمفهومنا الحالي - في القرآن

القرآن نعت مكة، بالقرية، مع أنها تفوق يثرب سكاناً: وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ(١٣) محمد.

ومرة أخرى أطلق عليها وعلى الطائف قريتين: وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ(٣١) الزخرف.

والقرآن يصف التجمع السكاني المدني المكتظ، بالقرية، عند الحديث عن الأمم السابقة: وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكْراً(٨) الطلاق.

ومن ذلك قوم لوط الذين كانوا يعيشون في قرية: وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً(٤٠) الفرقان.

وكل الأمم السابقة كانوا يعيشون في قرى: وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ(١١) الأنبياء.

بل إن مدينة كبيرة (بمفهومنا الحالي للمدينة) سماها القرآن قرية، برغم أن الله جل شأنه أرسل لها ثلاثة رسل في وقت واحد، بسبب اتساعها وكثرة سكانها: وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ(١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ(١٤) يس.

ورسول الله يونس بعث إلى مدينة (بمفهومنا الحالي) يقطنها أكثر من ١٠٠ ألف نسمة:

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ(١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ(١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ(١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ(١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ(١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ(١٤٥) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ(١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ(١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ(١٤٨) الصافات.

هذه (البلدة المكتظة) التي بعث لها يونس، سماها القرآن قرية: فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ(٩٨) يونس.

إذاً، القرآن دائماً – وبلا استثناء – يطلق على البلدة الآهلة والمكتظة بالسكان اسم، «قرية»، ولا يسميها مدينة: وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ(٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ(٥٩) القصص.

لكن مصطلح «المدينة» تردد ذكره في القرآن فما المقصود به؟

لفظ المدينة في القرآن

لفظ «المدينة» ورد في القرآن أربع عشرة مرة، أربع منها تتحدث عن موطن الرسول، وذلك في السور التالية: الأحزاب: ٦٠، والمنافقون: ٨، وبراءة: ١٠١-١٠٢.

وهذه المدينة مع تجمعات الأوس والخزرج ومزارع بني إسرائيل ومساكنهم تقع ضمن ما يعرف بيثرب.

وهناك خمس آيات ذكر فيها لفظ «المدينة»، كلها تتحدث عن مصر وفرعون. ثلاث آيات منها في سورة القصص، وواحدة في سورة الأعراف، وأخرى في سورة يوسف.

والآية: (١٢٣) من سورة الأعراف تظهر فرعون مخاطباً السحرة: قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَـذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ.

ومصر فرعون تعني بلدة واحدة، ولا تعني الدولة بمفهومنا الحالي التي تحوي عدة مدن وقرى وتجمعات سكنية، وذلك بشهادة القرآن. وذلك أثناء الحديث بين يوسف وإخوته: ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ

حَافِظِينَ(٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ(٨٢) يوسف.

فإن كانت القرية التي كان إخوة يوسف فيها هي مصر فرعون، فما هي المدينة التي ذكرتها الآية: (١٢٣) من سورة الأعراف أعلاه والتي يتحدث عنها فرعون؟

وفي سورة القصص ذكرت «المدينة» ثلاث مرات أثناء الحديث عن موسى، كما يلي: وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ(١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ(١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ(١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ(١٩) وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ(٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٢١).

وموسى ترعرع في قرية مصر فرعون، لكن الآيات تتحدث عن دخوله المدينة، على حين غفلة من أهلها، بعدما بلغ أشده. ولو كان المقصود بالمدينة بلدة فرعون التي ولد فيها موسى وترعرع، فلا يمكن القول بأنه دخلها، وخلسة، وبعد أن بلغ أشده، لأنه كان طوال عمره داخلها. أما لو كان معنى المدينة هو مكان في قرية فرعون، فإن العبارة ستستقيم.

ويكون موسى الذي يعيش في قرية فرعون، قرر ذات مرة الذهاب للمكان المسمى «المدينة» الواقع في نفس القرية. وهذه المدينة كان لها أبواب ولا يسمح بدخولها إلا من يحمل تصريحاً. لذا فقد تسلل موسى إليها «على حين غفلة من أهلها (حراسها)». وهناك – داخل المدينة – وكز الذي من عدوه وقتله، وهناك قضى الليل خائفاً يترقب ملاحقيه بسبب قتله للرجل. وفي نفس المدينة قدم رجل يسعى في اليوم التالي ليُحذِّره. وقد استطاع موسى التسلل خارج المدينة وهو خائف يترقب ملاحقيه.

فموسى دخل خلسة مبنى محاطاً بأسوار له أبواب، وعليه حرس لو رأوه لمنعوه من الدخول، مما يشير إلى أن هذا المبنى لا يدخله إلا المصرح لهم، كما سبق وذكر. وأثناء تنقله فيها وجد أحد بني إسرائيل يتعارك مع رجل آخر، وقد وكزه موسى بقبضته فقتله. ثم فر موسى من مكان الحادث لكنه بقي في ذلك المكان «المدينة» بقية اليوم وطوال الليلة التالية، وفي اليوم التالي كان يتجول في هذه «المدينة» عندما أقبل رجل يسير بسرعة إلى موسى وأخبره أنهم يبحثون عنه ليقتلوه بالرجل المقتول. كل هذا يحدث في «المدينة»، مما يعني أن هذه المدينة تحوي مساحات واسعة يتحرك فيها مجموعات بشرية كبيرة.

ولو تساءلنا ماذا يفعل هؤلاء البشر؟

لجاءنا الجواب من سورة يوسف، التي تتحدث عن أن يوسف أصبح مسئولاً عن مخازن مصر للمحاصيل الزراعية والتجارية المختلفة، وكانت هذه المخازن تقع في مبنى مغلق له أبواب عليها حرس. وهذه المواصفات تنطبق تماماً على المدينة التي دخلها موسى خلسة بعد أجيال من دخول أجداده لها زمن يوسف.

وتكون المدينة تعني المبنى المحاط بأسوار وله أبواب، كالمبنى الذي يضم مخازن مصر وسوقها الذي دخله موسى على حين غفلة من حراس إحدى البوابات.

وقد ذكرت سورة يوسف «المدينة» أثناء الحديث عن النسوة اللاتي كن يتكلمن فيما بينهن عن محاولة زوجة العزيز إغراء غلامها يوسف: وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(٣٠) يوسف.

وهذه الآية تضيف لنا تأكيداً آخر على أن المدينة تعني مكاناً يجتمع فيه خلق كثير، للبيع والشراء ويضم مجالس لتبادل الأحاديث وتناقل الأخبار والحكايات وعقد الصفقات التجارية. وهذا المكان كان في نفس المبنى المحاط بسور والذي يضم مخازن المملكة. والنسوة اللاتي تحدثن عن امرأة العزيز كن يجتمعن في المدينة (السوق) للبيع والشراء كما كان يحدث وما زال في أسواق جنوب جزيرة العرب. وكن يتبادلن الأحاديث ويتناقلن الأخبار أثناء العمل.

وتكون المدينة هي سوق تجارية عادة ما تكون محاطة بسور وله أبواب.

وسورة الكهف تتحدث عن الفتية الذين ناموا في الكهف مع كلبهم لسنوات طويلة،

وعندما استيقظوا ظنوا أنه لم يمر عليهم سوى فترة قصيرة، فأرسلوا أحدهم ليشتري لهم طعاماً من نفس بلدتهم التي خرجوا منها: فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا(١٩) الكهف.

والآيات تؤكد أن المدينة هو المكان الذي يباع فيه القوت «فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ». أي أنه السوق الذي يقع في بلدة الفتية، وليس البلدة كلها.

وتذكر سورة الكهف «المدينة» مرة أخرى في الحديث عن موسى والعبد العالم: فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا(٧٧) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا(٧٨) ....وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا(٨٢) الكهف.

والآيات تقول بأن موسى والعبد العالم دخلا «قرية» وفي تلك القرية كان هناك جدار آيل للسقوط فأقامه. وهذا الجدار يقع في «المدينة» وخبأ فيه كنز. ويكون والد الغلامين اليتيمين قد جمع هذا الكنز من مزاولته للتجارة، وخبأه في جدار محله الواقع في المدينة التي هي مكان البيع والشراء، والتي تقع ضمن القرية.

وسورة النمل تذكر المدينة أثناء الحديث عن صالح وقومه: وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ(٤٨) النمل.

وقوم صالح مثل كل الأمم السابقة المذكورة في القرآن كانوا يعيشون في قرية: وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ(٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ(٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ(٤٤) فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ(٤٥) الحج.

والرهط التسعة المفسدون من قوم صالح الذين ذكرتهم الآية: (٤٨) من سورة النمل كانوا يتواجدون دائماً في المدينة داخل قرية قوم صالح، حيث يجتمع الناس للبيع والشراء وتناقل الأخبار.

وتتحدث الآيات (٥٨- ٧٧) من سورة الحجر عن قوم لوط، ومحاولة النيل من الملائكة - ظناً منهم أنهم رجال من البشر - ليفعلوا بهم الفاحشة، ومن ذلك قوله تعالى: وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ(٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ(٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ(٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ(٧٠) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ(٧١).

وعلينا أن نتذكر أن القرآن ينعت بلدة قوم لوط بالقرية في عدة سور منها: (الأنبياء: ٧٤)، (الفرقان: ٤٠)، (العنكبوت: ٣١ : ٣٤). فتكون آيات سورة الحجر تدل على أن المقصود بالمدينة هو مكان داخل القرية، يجتمع فيه عدد كبير من الناس. وقوم لوط كانوا يأتون المنكر في ناديهم، أي مكان تجمعهم، كما تؤكد سورة العنكبوت: أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٢٩) العنكبوت.

ويكون الرجال الذين جاؤا إلى لوط ليسوا كل رجال قريته، ولكن ممن كان في ناديهم الذي يمارسون فيه عهرهم والواقع في «المدينة» التي تقع داخل القرية.

ومن كل ما سبق يمكن القول إن المدينة عبارة عن مبنى واسع داخل القرية يكون فيه السوق والمحلات التجارية، وقد يكون مكاناً للاحتفالات.

وسورة الشعراء تذكر المدائن (جمع مدينة) مرتين، وهما المرتان الوحيدتان اللتان ذكر فيهما هذا اللفظ في القرآن. وفي كلاهما كان الحديث عن إرسال فرعون من يطوف في المدائن لإبلاغ من فيها بمرسوم فرعوني. والمرة الأولى بعث فرعون من يطوف في «المدائن» بحثاً عن سحرة حاذقين لمبارزة موسى: قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ(٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ(٣٧) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ(٣٨).

والمرة الثانية تتحدث عن إرسال فرعون من يطوف بالمدائن ليبلغهم رسالة تحذيرية لئلا يتعاونوا مع بني إسرائيل: فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ(٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ(٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ(٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ(٥٦).

والمدائن في كلا الموضعين تشير إلى أنها أماكن يتواجد فيها أهل مصر، لذا كان فرعون يبعث لهذه المدائن من يوصلهم رسائله وأوامره وتحذيراته.

وتكون المدائن هنا تعني الأسواق الصغيرة التي كانت منتشرة في أرجاء قرية مصر الزراعية

والتي يبيع أصحاب المحلات فيها منتجاتهم الزراعية التي يجمعونها من مزارعهم على أهل المساكن القريبة أو على التجار الذين يجوبون تلك الأسواق الصغيرة لشراء منتجاتهم وجلبها للسوق المركزي (المدينة).

ولا تعني المدائن جمع مدينة بمفهوم هذا العصر، ذلك أن السحرة قبل أن تبدأ المبارزة نصحهم موسى بأن يتقوا الله، وكادوا أن يتراجعوا، لكنهم تناجوا وتشاوروا فيما بينهم ثم اتفقوا على أن موسى ساحر يريد أن يخرجهم بسحره من أرضهم (مصر)، فهم مصريون. ولو كانوا قد أتوا من خارج مصر، فهي ليست أرضاً لهم، وليسوا معنيين بالخروج منها، ولن يهتموا إن خرج المصريون منها أم لا. وهذه هي الآيات: قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ(٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ(٦٢) قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ(٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ(٦٤) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ(٦٥) طه.

إذاً، هم من مصر ويعيشون فيها، وعندما أراد فرعون جمعهم أرسل لهم في مدائنهم الواقعة داخل مصر (القرية).

ولفظ المدينة معروف لدى بني إسرائيل بيثرب لأنهم قدموا من مصر فرعون بعدما هربوا منها نتيجة الغزو الخارجي. ولابد أنهم أقاموا مدينة (سوق تجاري) في يثرب. ولما تعرض المستضعفون في مكة للاضطهاد والتعذيب من قبل كبراء قريش لردهم عن دينهم واشتد التضييق على الرسول ومن آمن، وجه مسلمو يثرب برئاسة من آمن من بني إسرائيل الدعوة للرسول والمسلمين للهجرة للمدينة. وقاموا ببناء مسجد للرسول وحجرة لسكنه ملحقة بالمسجد، في مكان قريب من المدينة (السوق الأسبوعية) التي تقام هناك. ولما أقيمت حجرات (منازل) لبعض المهاجرين فيما بعد حول مسجد الرسول، غلب اسم «المدينة على كل المنازل التي بنيت في المكان. وبعد جلاء بني إسرائيل من يثرب غلب اسم المدينة على كل ما كان يعرف بيثرب.

ومما يؤكد هذا ما ورد في سورة الجمعة التي تتحدث عن ترك بعض المصلين الصلاة مع الرسول في مسجده للحاق بقافلة تجارية:

ولدينا شاهد ما زال حياً على أن المدينة تعني السوق المحاط بأسوار وله أبواب. فمدن بلاد المغرب العربي القديمة تسمى البلدة العتيقة فيها «المدينة»، وهي التي تحوي السوق التجارية.

ولمن يهتم بمعاجم اللغة، يقول صاحب لسان العرب: «المَدِينة الحِصْنُ يبنى في أُصطُمَّةِ الأَرض، وكلُّ أَرض يبنى بها حِصْنٌ في أُصطُمَّتِها فهي مدينة، والنسبة إِليها مَدِينيّ، والجمع مَدائنُ ومُدُنٌ».

وهكذا يمكننا القول بأن «المدينة» لفظ يعني في القرآن السوق التجارية أو المبنى أو الفناء، المحاط بسور، والذي يضم السوق التجارية.

أما المدينة بمفهومنا المعاصر، فهي القرية في القرآن.

الشعر مذموم في القرآن

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ(٦٩) لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ(٧٠) يس.

الآيات ترد على مزاعم قريش أن ما يسمعونه من الرسول هو نوع من الشعر وليس وحياً من الله. وتنفي الآيات أن يكون محمد شاعراً: «وما علمناه الشعر»، وتؤكد أنه لا ينبغي له عليه الصلاة والسلام ان يقول الشعر «وما ينبغي له»، سواء من نظمه أو من نظم غيره.

وهذا يظهر أن الشعر مذموم ويجب أن يتنزه رسول الله عن روايته أو نظمه، وهو ما ينفي نفياً قاطعاً كل ما نقلته كتب التراث من حب الرسول للشعر أو حثه لأصحابه أن ينظموه. كما يؤكد أن كل ما نسب لحسان ابن ثابت هو اختلاق ولم يحدث على أرض الواقع، وذلك لكي يتمكن من نسب لحسان الشعر أن يهجو الإسلام ورسول الله. وذلك بأن يقول شعراً يهجو الرسول وينتقص الإسلام ثم يختلق شعراً وينسبه لحسان، وكأنه يرد عليه.

وهو ما أكدته سورة الشعراء التي تقول: هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ(٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ(٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ(٢٢٣) وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ(٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ(٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ(٢٢٦).

فالشعر عادة يقترن بالفسق والخمر والفواحش، في كل المجتمعات. والشعراء يقولون

كلاماً يبدو وكأنه حكم وفضائل ومكارم أخلاق، لكن الشاعر لا ينهج منه في حياته شيئاً. فهم يقولون ما لا يفعلون.

لكن الشعر تحول وصار ممدوحاً لأن السلاطين بعد عصر صدر الإسلام أصبحوا يمجدونه ويدنون الشعراء، ونحن ورثنا هذا التمجيد حتى أصبح الشعر اليوم نبلاً وكرامة. والتراث ممثلاً في كتب السير والتاريخ رسخ بيننا أن للرسول شاعراً خاصاً، بعد أن أصبح للحكام شعراء للبلاط. واختلقوا شعراً وقصائد نسبوها لحسان ابن ثابت، بل وقالوا بأن الرسول سمح له بألا يشارك في القتال والجهاد مقابل أن يقول الشعر. وكأن الدين للرسول يتصرف به كيفما يشاء، كما يتصرف السلطان بمال الدولة وسياستها.

وإلا فالشعراء «يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ" و "يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ"، وهذه صفات ذميمة لا يمكن أن يقبلها الله لرسوله ولا يمكن أن يقبل بها الرسول، ولا يمدحها.

ولكن الناس لا يستمعون للقرآن ولا يصغون له، ويحاولون إيجاد أي مبرر للتمسك بما يعجبهم ولو خالف القرآن، ومن ذلك أن الشعر ليس مذموماً بدليل أن سورة الشعراء تقول: وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ(٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ(٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ(٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ(٢٢٧).

وكأن «إلا» في الآية (٢٢٧) تستثني أي شاعر مسلم من أن يكون من الغاوين، وكأن للمسلم أن يقول الشعر. وهذا غير صحيح فالآية تبدأ موضوعاً جديداً لا علاقة له بالشعر، ولكن بما تتحدث عنه آيات سابقة في قوله تعالى: هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ(٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ(٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ(٢٢٣) .... إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ(٢٢٧).

فالسورة تحدثت عمن تتنزل عليه الشياطين، ثم عن الشعراء ثم عن موضوع ثالث هو من آمن وعمل صالحاً وذكروا الله وانتصروا لظلمهم.

وتكون «إلا» في الآية (٢٢٧) ليست للاستثناء ولكن بمعنى «أما»[1].

---

1 انظر فقرة: استخدام «إلا» بمعنى «أما» / قسم من أساليب القرآن.

وإذا كان الشعر مذموماً في القرآن فإن على المسلم أن يتنزه عنه، وبالتالي فلن يكون هناك مسلم شاعر. لأن الشعر من اللغو والكلام المذموم الذي لا يليق بالمسلم: وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ(٣) المؤمنون.

عن الإسراء والمعراج

في كتاب سنة الأولين وكتاب أحسن القصص تحدثنا بإسهاب عن قصة الإسراء والمعراج الخيالية المختلقة، ونعود هنا للحديث عن جانب آخر قد يكون أحد العوامل الهامة لاختلاق القصة برمتها. تلك القصة الطويلة العريضة المتشعبة عن رحلة خيالية قام بها الرسول على ظهر حيوان خرافي بين الحمار والبغل، أسموه «البراق» مقتبس – على ما يبدو – من البرق ليدل على سرعته. وبرغم أنهم يقولون إنه لا يطير، إلا أن سيره سريع لدرجة أنه (يضع حافره عند منتهى بصره) كما ورد في وصفه في الأحاديث. وهذا يستحيل أن يحدث، لأن أي مخلوق لا يمكن أن يضع حافره عند منتهى بصره بدون طيران. نسوق هذا الكلام كمثال على سعة أفق القاص (أو القصاص) الذين ابتدعو قصة الإسراء والمعراج في كتب التراث.

والمسجد الأقصى الحالي في فلسطين لم يكن له وجود زمن رسول الله، بل لم يكن هناك مسجد اسمه الأقصى في فلسطين إلى أن وصل خامس ملوك بني أمية عبد الملك ابن مروان للحكم في العام ٦٥ للهجرة. وأثناء فترة حكمه التي امتدت من (٦٥ – ٨٦) للهجرة أمر ببناء مسجد في إيليا (القدس) وأسماه المسجد الأقصى على المسجد المذكور في أول آية من سورة بني إسرائيل، في وقت كانت فيه مكة تحت حكم عبد الله ابن الزبير وخارج سيطرة حكم بني أمية. فالسياسة هي سبب بناء قبة الصخرة والمسجد الذي سمي «المسجد الأقصى»، لأن ابن الزبير كان يحكم مكة ويخطب الناس بالحج ويبين مثالب وعيوب ابن مروان ويحرض أهل الشام عليه. فقام عبد الملك ابن مروان ببناء القبة والمسجد وجعل الناس يحجون لها بدل مكة، لئلا يسمعوا ما يقول ابن الزبير. بناءً على ما ورد في كتاب البداية والنهاية لابن كثير، وهذا نصه:

"ابتدأ عبد الملك بن مروان ببناء القبة على صخرة بيت المقدس وعمارة الجامع الأقصى؛ وكملت عمارته في سنة ثلاث وسبعين، وكان السبب في ذلك أن عبد الله بن الزبير كان قد استولى على مكة، وكان يخطب في أيام منى وعرفة، ومقام الناس بمكة، وينال من عبد الملك

ويذكر مساوي بني مروان، ويقول: إن النبيّ صلى الله عليه وسلم لعن الحكم وما نسل، وأنه طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعينه، وكان يدعو إلى نفسه، وكان فصيحاً، فمال معظم أهل الشام إليه، وبلغ ذلك عبد الملك فمنع الناس من الحج فضجوا، فبنى القبة على الصخرة والجامع الأقصى ليشغلهم بذلك عن الحج (إلى مكة) ويستعطف قلوبهم، وكانوا يقفون عند الصخرة ويطوفون حولها كما يطوفون حول الكعبة، وينحرون يوم العيد ويحلقون رؤوسهم، ففتح بذلك على نفسه بأن شنع ابن الزبير عليه، وكان يشنع عليه بمكة ويقول: ضاهى بها فعل الأكاسرة في إيوان كسرى، والخضراء، كما فعل معاوية (ونقل الطواف من بيت الله إلى قبلة بني إسرائيل ونحو ذلك). انتهى كلام ابن كثير

أما المسجد الأقصى المذكور في سورة بني إسرائيل، فليس المقصود به مسجد عبد الملك ابن مروان الذي أسماه المسجد الأقصى، ليغري الناس بالحج إليه. والذي بني لضرورة سياسية ولم يكن تجديداً لمسجد قديم، لموسى أو إبراهيم كما تزعم الإسرائيليات، لأنهما لم يريا فلسطين في حياتهما، ولم يسجدا لله فيها سجدة واحدة.

والأقصى صفة وليس اسم علم. يعني لا يمكن أن يكون هناك مسجد اسمه مسجد الأقصى. وإنما الحديث عن مسجد بعيد، لذا وصف بأنه المسجد الأقصى. وهو قصي وبعيد عن المسجد الحرام الذي خرج منه «عبده» متجهاً لذلك المسجد البعيد. ولو تمعنا بما قيل عن المعراج فلن نجد له إلا غاية واحدة، وهي توصيل محمد (رسول الإسلام) إلى إيليا، فلسطين. التي سماها اليهود (أورشليم) تيمناً بمدينتهم التي كانت عاصمة لمملكة سليمان والتي تقع في مناطق جنوب غرب جزيرة العرب، واسمها يور سالم (أورشليم) أو مدينة سالم أو السلام.

يعني أن قصة الإسراء تقوم على تقديس أورشليم اليهود على حساب مكة، بحيث إنها جُعلت كبوابة للسماء والوصول لله (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً).

هذا كل شيء!

وإلا لو كان هناك معراج فلماذا كان على الرسول السفر إلى إيليا، فلسطين، إذا كانت الوجهة إلى السماء؟

لماذا لم يرتفع من مكة؟

خاصة أن المسافة من أي مكان على الأرض إلى السماء متساوية، ولم يقل لنا المفسرون إن إيليا أقرب للسماء من مكة. بل قالوا إن الكعبة تقع مباشرة تحت البيت المعمور الذي زعموا أنه في السماء. وهذا يعني أن مكة هي التي يجب أن يعرج منها، لأنها بيت الله الحرام وأقرب نقطة على الأرض للسماء (بمفهوم المفسرين والمحدثين للسماء).

فإذا كان الهدف هو زيارة السماء، فلماذا لم تتم من مكة؟

أليس في مكة بيت الله الحرام؟

وما الذي يوجد في إيليا أقدس وأطهر من بيته سبحانه؟

الجواب:

هناك معابد لليهود، هناك حائط مبكى لليهود، وهناك بيت اليهود الحرام!

هذا هو بيت القصيد من اختلاق قصة الإسراء.

ومختلق القصة أراد أن يمجد معابد اليهود في إيليا، أو أورشليم كما سموها، وينقص من حرمة بيت الله في مكة، فزعم أن الإسراء تم من مكة إلى أورشليم. وتمجيد اليهودية على حساب الإسلام، استمر طوال قصة الإسراء والمعراج المزعومة. ومن ذلك تلك القصة عن فرض الصلاة والتي تصور أن الله جل جلاله فرض خمسين صلاة على الناس يستحيل عليهم توفير وقت لأدائها، وكأنه لا يعرف ما يفعل. لولا نبي اليهود موسى الذي برغم موته تحدث وأقنع الرسول أن يراجع ربه لتخفيض ركعات الصلاة عدة مرات حتى استقرت أخيراً على خمس بدل خمسين. والمشهد يصور محمد مسلوب الإرادة، يؤمر بخمسين فيقبل دون نقاش، فيأمره موسى بالمراجعة فيعود دون نقاش.

وعلى القراء تذكر أن الرسول صلى منذ اليوم الأول للبعثة، ولم تفرض الصلاة فيما بعد. مما يؤكد حقيقة اختلاق قصة الإسراء والمعراج.

وننتقل إلى التساؤل الآخر:

بما أن الإسراء والمعراج آية (من الخوارق والمعجزات)، فهذا يعني أنه لم يحدث لمحمد. لأن الله سبحانه وتعالى ينفي نفيا قاطعا أن يكون الرسول أعطي آية واحدة طوال حياته، في مواضع كثيرة من القرآن الكريم. بل ورد النفي في سورة بني إسرائيل نفسها التي يقول

المفسرون إنها تتحدث عن الإسراء والمعراج: وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً(٥٩) بني إسرائيل.

فلا وجود للمعجزات الحسية للرسول محمد على الإطلاق.

ولم يعط عليه الصلاة والسلام معجزات حسية، لأنه لم يرسل لقومه فقط، ولا لزمانه فقط، وإنما لكل الناس في كل العصور.

والمعجزة أعطيت لرسل سابقين مرسلين لأقوامهم، فإن لم يؤمنوا بعد حدوث المعجزة حل بهم العذاب، أما قريش فليس إسلامها ضرورياً، وسيبقى دين الله بعدها لكل الناس.

ثم ما هي الفائدة من الإسراء والمعراج للرسول؟

إن كان لإثبات أنه رسول فهو يعلم ذلك منذ سنوات سبقت نزول هذه السورة ومنذ رأى الملك في الأفق ومنذ نزلت عليه سورة الفاتحة. والآيات والخوارق المعجزة لا تكون موجهة لشخص الرسول. لأن رسل الله جميعاً يعطون الآيات ليراها قومهم المكذبون برسالتهم لتكون حجة عليهم، أما الرسل فلا حاجة لهم بآية وخوارق تثبت لهم أنهم رسل من الله.

وسورة بني إسرائيل تنفي في آخرها نفياً قاطعاً أن يكون الرسول محمد قد عرج به للسماء. يقول تعالى على لسان قريش: وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً(٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً(٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً(٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً(٩٣) بني إسرائيل.

فالسورة التي تم تأويل آياتها الأولى لتعني الإسراء والمعراج، تنفي نفياً قاطعاً واضحاً أن يكون الرسول عرج به للسماء: «أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء».

ولو تمعنا بقصة الإسراء والمعراج فسنجدها قد حولت الرسول لحالم يحلم ويقص حلمه على أنه حقيقة. كما فعل حزقيال في كتاب اليهود المقدس، وكما فعل يوحنا في كتاب المسيحيين المقدس.

أو بعبارة أخرى، لقد نسب للرسول رحلة خيالية سماوية من أناس على علم واطلاع

بالكتاب المقدس لليهود والمسيحيين. (أرجوا ممن يهتم بالموضوع من القراء أن يقرأ كتاب حزقيال وكتاب رؤيا يوحنا اللاهوتي لمعرفة مصدر ما عرف عندنا بالمعراج). وتم إقناع الناس بهذه القصة الخيالية، برغم أن مختلقيها لم يتمكنوا من التفكير بسبب معقول ومقبول لها. لكن المهم عندهم هو ترسيخ فكرة أفضلية موسى على محمد ورب محمد، في موضوع فرض الصلوات.

وترسيخ أفضلية حرم اليهود في إيليا على حرم رب محمد في مكة.

وترسيخ فكرة أن رسول اليهود "موسى" هو المسيطر في السماء.

وترسيخ أفكار كثيرة شربناها وندافع عنها، مع أنها شرك وكفر بالله.

ومن قرأ سيرة كعب الأحبار، فسيعرف أنه أحد أهم مَسْلَمَة اليهود الذين رسخوا تقديس ما يعرف اليوم "بالقدس". وكان يقول إن الله (تعالى الله عن ذلك) قال عن الصخرة: أنت عرشي ومنك صعدت إلى السماء». وكان كعب حاضراً فتح إيليا (القدس) مع عمر ابن الخطاب، وحاول أن يختار لعمر موضعاً للصلاة بحيث يستقبل الصخرة، لكي يعظمها المسلمون فيما بعد. لكن عمر فطن لخبثه ونهره بشدة، كما ورد في كتب التراث.

وتقديس الصخرة وإيليا ترسخ عند اليهود، منذ أن جعلوها بيت الله بالنسبة لهم بدل مكة وطن الإسماعيليين. وهذا يظهر لنا أن مسلمة اليهود هم وراء قصة الإسراء والمعراج، وهم من تأول الآية الأولى في سورة بني إسرائيل لتبدو وكأنها تتحدث عن إسراء لمحمد من مكة لأورشليم الجديدة. وبعد ذلك اختلقوا قصة المعراج الطويلة العجيبة، لكي يترسخ تعظيمها عند المسلمين.

وقد نجحوا!

ولو عدنا للآيات الثماني الأولى في سورة بني إسرائيل فسنجد أنها تتحدث عن إسراء (ترحال) لموسى مع زوجته في الليل عندما رأى النار وتم التكليم، كما ورد في سور كثيرة منها: فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ(٢٩) القصص.

وقد ذكرنا في كتاب أحسن القصص أن موسى بعد أن قضى أجل العهد الذي بينه وبين الشيخ الذي كان يقطن قرب بئر مدين على رعي الغنم مقابل الزواج بابنته. وبعد الزواج

صحب امرأته إلى مكة للحج أو العمرة، وبعد ذلك خرج من مكة مساءً ليعود إلى بلاد والد زوجته التي أصبحت بلده. وبما أنهم مؤمنون فلديهم مسجد، هو المسجد الأقصى في الآية. ويقع جنوب غرب جزيرة العرب (موطن شيخ مدين وقرب قرية فرعون «مصر» التي كانت موطن موسى).

ولكن موسى عند خروجه من مكة مساءً ضل الطريق ووصل إلى وادي طوى الذي لا يبعد كثيراً عن الحرم، وقد اختفى الآن تحت العمارات الشاهقة والشوارع[1]. وفي بقعة ما في وادي طوى توقف موسى هو وزوجه للمبيت، عندما رأى النار، وذهب إليها لسؤال من على النار عن الطريق الصحيح وليجلب منها قبساً، وهناك حدث التكليم: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (١٧) النازعات.

وخلاصة الكلام أن قصة الإسراء والمعراج مستحيلة عقلياً وعلمياً، لاستحالة أن يرى أي بشر الله جل وعلا، ولاستحالة أن يكلم أحد الموتى (اجتماع الرسول بالرسل الذين ماتوا قبل مئات وآلاف السنين قبله)، ولاحتواء القصة على خرافات لا تعقل، ولأنها تؤول الآية لغير معناها.

نسف لمعتقد شيعي

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) الأنبياء.

الشيعة تظن أن إمامهم الثاني عشر دخل مغارة وهو طفل في العام (٢٥٥ للهجرة) وهو باقٍ فيها إلى الآن، برغم مضي قرابة (١٢٠٠) عام على دخوله المزعوم.

والإنسان لم يجعل الله له الخلد الأبدي ولا حتى الخلود لمثل هذه المدة.

والمؤسف أن من يؤمن بهذه الخرافة لا يسأل نفسه لماذا هو في المغارة وماذا يفعل؟

وإن كان دخلها - جدلاً - وهو طفل، فمن أين سيتعلم ما يظن بعض أتباع المذهب الشيعي أنه سيكون عالماً به عندما يخرج؟

---

١ انظر فقرة: وادي طوى / قسم مفردات من القرآن.

وكل المعتقد الشيعي يقوم على هذه الخرافة، ولو وعاها الناس لعادوا لرشدهم وأنقذوا أنفسهم. ولكنهم كغيرهم من المذاهب، أتباع موروث لا يفكرون بموروثهم ولا يقبلون نقده.

الطلاق في كتاب الله / كما فهمته

سورة النساء تتحدث عن تشريعات كثيرة تخص المرأة، اليتيمة والمتزوجة والمطلقة والوارثة والأم وكل الصفات الأخرى التي تكون عليها. وتشرع السورة معاملات جديدة تخالف ما اعتاده الرجل العربي عند تعامله مع المرأة في ذلك العصر.

وتبدأ السورة بقوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً(النساء:١).

مؤكدة أن الرجل والمرأة خلقهما الله من نفس واحدة، أي بنفس الصفات والمشاعر والقدرات الذهنية. وأن المرأة خلقت من نفس ما خلق منه الرجل (خلق منها زوجها) سواء جسدياً أو ذهنياً، ولا يعني اختلاف الجنس أن الرجل أكثر إنسانية من المرأة كما كان الناس يعتقدون قبل الإسلام.

والرجل نفسه هو نتاج تزاوج بين رجل وامرأة، أو بمعنى آخر هو نصف رجل ونصف امرأة، كما أن المرأة نصف امرأة ونصف رجل، كما أصبحنا نعرف الآن. حيث إن جسم المرأة يحوي هرمونات ذكرية، وجسد الرجل يحوي هرمونات أنثوية. ولو اضطربت النسبة لأي سبب عارض أو نتيجة لمعالجة معينة، وزادت هرمونات المرأة الذكورية فسينبت الشعر في أنحاء جسدها ووجهها كما الرجل، وسيصبح صوتها أجش، وسيضمر ثدياها. بينما لو حدث وزادت الهرمونات الأنثوية لدى الرجل فسيختفي شعر الوجه وفي مناطق من الجسم، وسيرق صوته وسيبدو كالمرأة.

المهم أن السورة تؤكد أنه لا فرق بين الجنسين، مخالفاً بذلك العرف السائد في المجتمع.

والتشريع الثاني في السورة جاء ليقول بأن الفتاة اليتيمة ليست أقل شأناً من أي فتاة أخرى في الإنسانية، ولا أقل من الرجل نفسه وتحرم استغلال ضعف المرأة اليتيمة، والزواج بها

فقط للاستيلاء على مالها: وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً(النساء:٢).

والتشريع الثالث الخاص بالمرأة والذي خالف ما اعتاد عليه العرب هو أن التعدد مشروط بالعدل، وأول العدل هو أن توافق الزوجة الأولى على زواج زوجها بغيرها، ولو تزوج دون رضاها أو علمها فهو ظلم يبطل التعدد (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة).

وهناك آية أخرى في السورة تشير إلى أن الوضع الطبيعي هو زوج وزوجة واحدة: وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً. وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً(النساء:٢٠-٢١).

استبدال زوج مكان زوج، ولم تقل الآية الزواج بأخرى.

ومن التشريعات الجديدة المخالفة لعادات العرب في سورة النساء والخاصة بالمرأة أنها ترث مثلها مثل الرجل، وهو شيء لم يكن يعمل به رجال ذلك المجتمع الذي اعتاد أن يرث المرأة نفسها، حيث أن العادة جرت أن يرث الولد زوجة والده بعد وفاته.

يقول تعالى: لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً(النساء:٧).

وبعد سرد بعض تفاصيل المواريث تأتي الآيتان (١٣ - ١٤) لتقولا لذلك المجتمع بأن توريث المرأة من حدود الله ومن يتعد حدود الله ولا يعمل بها فله نار جهنم: تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ.

وقد جاءت الآية (١٩) لتضع حداً للعادة التي تسمح بأن يرث الابن أو القريب زوجة أبيه أو قريبه من ضمن ما تركه من متاع: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً.

وبقية الآية تحرم عادات أخرى، هي العضل، وهو إجبار المرأة على الزواج بمن لا ترغب. وهذا هام جداً حيث يلغي أن يكون للأب حق تزويج ابنته بمن يريد وبدون رغبتها هي، سواء كانت بكراً أو ثيبا، فالعضل ليس فقط إجبار المرأة على البقاء مع زوج لا ترغبه لكي يضغط عليها لرد ما دفع لها من مهر: وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ.

وتكمل الآية (١٩) بتذكير رجال تلك الحقبة أن الزواج عقد بين الرجل والمرأة يقوم على المعاشرة الحسنة (بالمعروف) وأنه متى ما استحالت العشرة بين الزوجين فالحل هو الطلاق دون إضرار بالمرأة: وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً.

والحديث وإن كان موجهاً للرجل لأنه هو سبب مشاكل المرأة، وهو من سلبها حقها وإنسانيتها، إلا أن الآيات تعطي الحق في التخلص من الزواج للمرأة أيضاً متى ما شعرت بأن العشرة مع زوجها أصبحت مستحيلة، وتلغي أن يكون الطلاق حقاً مطلقاً للرجل دون المرأة كما صورت لنا ذلك كتب التراث، وهذا سيتضح أكثر في الآيات اللاحقة.

ونعود إلى الآيتين التاليتين: وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً. وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً(النساء: ٢٠-٢١).

فمتى ما دفع الرجل المهر للمرأة، قل أو كثر، فلا يجوز استرداد بعضه أو كله بعد المعاشرة الزوجية، ولو لم تتم إلا مرة واحدة بين الزوجين، لأن المهر مقابل مادي لقبول الزوجة الزواج بذلك الرجل. ولو كان الصداق مقابل الممارسات الجنسية فهو بغاء وليس زواجاً.

وتعود الآية التالية لتؤكد تحريم تلك العادة القديمة المتمثلة بنكاح زوجة الأب والذي ذكر في الآية (١٩) سواء كان بأن يرث الابن زوجة أبيه من بين المتاع الذي يرثه عنه، أو بزواجه منها برضاهما: وَلا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً(النساء: ٢٢).

ثم تتحدث السورة عن أن الرجال يفضلون النساء ويتميزون عنهن بصفات، وأن النساء يفضلن الرجال ويتميزن عنهم بصفات أخرى، وأن كل جنس خلق بمواصفات تتناسب مع مهامه في الحياة، ولذلك يجب ألا يتمنى الرجال بعض ما للنساء من صفات ليست عندهم ولا تتمنى النساء بعض الصفات الرجولية التي ليست عندهن، لأن هذه الصفات المختلفة لا تعني تفضيل جنس على آخر من الناحية الإنسانية، أو أن لأي منهما حقاً في الزواج أو الطلاق أكثر من الآخر: وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ

عَلِيماً. (النساء: ٣٢)

والآية (٣٣) تؤكد ما قالته الآية (٧) من أن النساء أصبحن يرثن كالرجال مبطلة عادة قديمة تمنع النساء أن يرثن، حيث تقول بأن الرجال أو النساء يرثون أقرباءهم (موالي)، ومن التركة يجب أن يعطى أيضاً من له عهد بهبة أو وصية: وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً.

والآية (٣٤) تقول: الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً. وهي تتحدث عن موضوعين:

الأول يتمثل في قوله تعالى: الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ.

حيث تؤكد الآية أن من الصفات التي يتمتع بها الرجال دون النساء، القوامة، وهي القيادة العائلية. ذلك أن التركيبة الجسمانية والمشاعر الرجولية خلقت بصورة أكثر مناسبة للدور القيادي «بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ»

والقيادة لا تختزل بالصرف المادي على العائلة بل وبكل أدوار القيادة التي يقوم بها الرجل ومن ذلك حماية العائلة، وأدوار أخرى تناسب طبيعة الرجل ولا تنقص من قيمة المرأة التي يناسبها أدوار أخرى.

هذه هي القاعدة في المعتاد، ولا عبرة للاستثناءات، كوجود امرأة تفوق زوجها في القيادة مثلا.

ولن أتعرض لبقية الآية لأن الحديث عنها مختلف وسبق الحديث عنه.

والآية رقم (٣٥) تقول: وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً.

أي أنه في حال ووجد خلاف بين الزوج والزوجة يُعرِّض استمرار الزواج للخطر، فأول ما يجب القيام به هو تحكيم الآخرين في محاولة لرأب الصدع والخروج بحل للمشكلة القائمة وتوقيع معاهدة تمنع وقوع مشاحنات في المستقبل حفاظاً على تماسك رابط الزواج.

والشحناء بين الزوجين تكون بسبب تعنت أو نشوز الزوجة وتكون بسبب تعنت أو نشوز الزوج. فالزوجة قد تعرض عن الزوج وقد يعرض الزوج عن الزوجة، وهذا ما تقوله لنا نفس السورة في هذه الآية وفي الآية رقم (١٢٨): وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً.

ويكون أول ما نقوم به هو محاولة الصلح كما ذكرت الآية (٣٥)، ولكن إن كان الشقاق بين الزوجين كبيراً فقد يكون الطلاق أفضل من استمرار الزواج مع تكرر المشاحنات، وهو ما تقول به الآية (١٣٠): وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللهُ وَاسِعاً حَكِيماً.

كيف يقع الطلاق في القرآن؟

في الأسطر السابقة تحدثنا عن الشحناء بين الزوجين، وذكرنا أن الرجل قد ينشز عن الزوجة كما تنشز الزوجة عن الرجل. وفي هذه الحالة يلجأ إلى لجنة من أهل الطرفين يحاولون رأب الصدع. ولو كانت المشكلة كبيرة فالحل هو الطلاق.

ولا يقع الطلاق بمجرد تفوه الرجل بكلمة أو كلمات تعني الطلاق، كقوله لزوجته أنت طالق ولو كررها مائة مرة. فليس في القرآن ما يؤيد ذلك على الإطلاق. ولكن الطلاق في القرآن يمر بعدة إجراءات طويلة إذا استكملت حدث الطلاق.

ولو أردنا تطبيق الطلاق القرآني في هذا العصر فسيمر بالإجراءات التالية:

١. وجود رغبة للطلاق عند أحد الزوجين، بسبب خلافات بينهما، أو لكراهية أحد الزوجين للآخر لدرجة أصبح لا يستطيع الاستمرار في الحياة الزوجية، سواء كان نشوزاً من الزوج أو من الزوجة كما رأينا في الأسطر السابقة.

٢. فلا يجوز إبقاء الزوجة مع زوج لا ترغب في البقاء معه، مثلما لا يجبر الزوج على البقاء مع زوجة لا يرغب البقاء معها: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً (النساء:١٩).

والآية تقول: لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً. وهذا لا يعني فقط ما قاله المفسرون من

أن المرأة كانت تورث كمتاع في الجاهلية فقط، بل ويشمل أيضاً تحريم أن تكره الزوجة على البقاء مع زوج لا ترغب البقاء معه. مثلما أن للزوج أن يترك زوجته التي يكره البقاء معها: فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيرا. وهذا يعني أن الطلاق حق مشاع للرجل والمرأة على حد سواء، دون أن يكون هناك أسباب معلنة. ومخاطبة الآيات للرجل لا تعني أن حق الطلاق له وحده، ولكن الآيات نزلت في مجتمع رجالي، كان لا يعتبر المرأة أكثر من وعاء للشهوة وإنجاب الأولاد. وإلا فيحرم على المرأة كل ما يحرم على الرجل في كل الآيات التي خاطبت الرجل في القرآن، لأنها تقصد الرجل والمرأة على حد سواء، إذ ليس هناك نواهياً على الرجل فقط ونواهياً على المرأة فقط.

٣. إذا رغب أحد الزوجين في الطلاق، فيجب أن تسجل تلك الرغبة رسمياً عند جهة مختصة بذلك، ولتكن دائرة الأحوال الشخصية في دولة الإسلام. ولا اعتبار لتلفظ الرجل بألفاظ الطلاق، لأنها لا تعتبر طلاقاً، فليس في القرآن ما يدل على أنها طلاق على الإطلاق، وإنما هي تدخل تحت رغبة إمضاء الطلاق وعليه أن يكمل الإجراءات اللاحقة ليتم الطلاق.

٤. يتبع هذه الخطوة، قيام دائرة الأحوال الشخصية بتحديد موعد للزوجين، للحضور أمام لجنة الصلح المختصة في محاولة لرأب الصدع وتذليل المشاكل الموجودة بينهما: وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً. (النساء:٣٥) ويمكن أن تكون لجنة الصلح من أهل الاختصاص وليس بالضرورة من الأقارب: وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً.(النساء:١٢٨)

٥. يحق لأي من الزوجين فرض شروط يختارها للعودة لعش الزوجية وإلزام الطرف الثاني بالتقيد بها: ..... وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ(النساء:٢٢٨).

٦. إذا لم تتمكن جهود اللجنة، من حل النزاع، وكان الخلاف مستحكماً وفشلت جهود الصلح، فيمضى الطلاق لأنه في هذه الحالة سيكون الحل الأمثل لكليهما حتى يبحث

كل واحد منهما عن زوج أكثر مناسبة له وليعيشا حياة أفضل مع زواج جديد: وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً(النساء: ١٣٠).

٧. عند هذه المرحلة تقوم دائرة الأحوال الشخصية بتسجيل رغبة الطلاق، وتبدأ عدة التربص منذ ذلك اليوم الذي سجلت فيه: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ.....(الطلاق:١).

٨. مدة التربص ذكرت في الموضوع الذي نشر بالتفصيل.

٩. خلال مدة التربص تبقى الزوجة في بيت الزوجية وتتمتع بكامل حقوقها الزوجية ونفقتها، ولا يجوز أن تخرج من البيت، أو تحرم من أي من حقوقها أو نفقتها المعتادة: .... وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا(الطلاق:١).

١٠. إذا ما قرر الزوجان التراجع عن رغبة الطلاق خلال مدة التربص فلهما ذلك، ويتم توثيقه لدى دائرة الأحوال الشخصية. ويكون بشروط الزواج القديمة أو بشروط جديدة يتفقان عليها: الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ..... (البقرة:٢٢٩).

١١. إذا انتهت مدة التربص ولم يتراجع الزوجان عن رغبة الطلاق، فيتم الطلاق: فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا(الطلاق:٢). والشهادة هنا تعني بلغة العصر تسجيل أن الطلاق قد حدث للمرة الأولى في ملفي الزوجين لدى دائرة الأحوال الشخصية.

١٢. الطلاق في الإسلام يأتي كحل أخير لمشاكل قائمة بين الزوجين أو لوقف معاناة أحدهما، ولذلك يجب أن يتم بروح أخوية وبشكل إنساني لا ضرر منه ولا ضرار: وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ

وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(البقرة: ٢٣١).

١٣. كما لا يجوز أن يسترد الزوج بعض أو كل المهر الذي دفعه للزوجة، لأن المهر كان مقابل رضاها بالزواج منه: .... وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً.

١٤. لكن إذا تبرعت الزوجة من تلقاء نفسها وعرضت على الزوج استرداد بعض المهر ليطلقها بسلام ودون انتظار مدة التربص فله الحق بالقبول، ليبقيا احترام حدود الله وعدم تجاوزها بالإضرار ببعض: ... إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(البقرة: ٢٢٩).

١٥. وهذا العرض ليس مفروضاً على الزوجة التي يمكنها التقدم لدائرة الأحوال الشخصية برغبة الطلاق والاستمرار بالإجراءات مثلها مثل الرجل وستحصل في النهاية على الطلاق رغب الزوج أو لم يرغب.

١٦. في حالة وقوع الطلاق قبل الدخول فللزوج الحق باسترجاع نصف المهر أو بعضه إن رغب، ولو تركه لكان أفضل. خاصة إذا كان الطلاق برغبة الزوج: وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(البقرة: ٢٣٧).

١٧. إذا تم الطلاق قبل الدخول فلا عدة تربص له: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً(الأحزاب: ٤٩).

١٨. بعد الطلاق، للزوجة الحق بالزواج بمن ترغب من الرجال.

١٩. يحق للزوجين العودة للحياة الزوجية قبل انتهاء مدة التربص بنفس شروط الزواج الأولى أو بشروط جديدة، ويحق لها العودة للحياة الزوجية بعد انتهاء مدة التربص وبعقد زواج جديد.

٢٠. إذا تكررت بينهما الرغبة بالطلاق بسبب تجدد المشاكل أو تجدد رغبة أحد الزوجين بالطلاق، فعليهما تسجيل رغبتهما لدى دائرة الأحوال الشخصية كما حدث في المرة

الأولى، ويمران بنفس الخطوات، من الاحتكام أولاً للجنة الصلح، ثم تسجيل رغبة الطلاق وابتداء فترة التربص، وبقاء الزوجة في البيت وتمتعها بكامل حقوقها ونفقتها خلال فترة التربص.

٢١. يحق للزوجين التراجع وللمرة الأخيرة أثناء فترة التربص للطلاق الثاني، بالشروط القديمة أو بشروط جديدة.

٢٢. إذا انتهت مدة التربص للطلاق الثاني قبل أن يتراجع الزوجان فيعتبر الطلاق بائناً (ماضياً) وتخرج الزوجة من بيت الزوجية وتتوقف نفقتها الزوجية، وتصبح امرأة أجنبية بالنسبة للزوج.

٢٣. لا يجوز للزوجين العودة للحياة الزوجية، بعد انتهاء فترة التربص للطلاق الثاني، إلا في حال أن الزوجة تزوجت برجل آخر وعاشت معه حياة زوجية جديدة، فإن نشأ بينهما خلافات أو كراهية استحال معها استمرار الزواج بينهما، وخضعا لنفس مراحل الطلاق السالفة الذكر وانتهى بهما المطاف للطلاق الثاني (البائن)، عندها فقط يجوز للزوج السابق التقدم لخطبة الزوجة، فإن رغبته فيجوز لها الزواج به مثله مثل أي رجل آخر تقدم لخطبتها. وليس هناك في الإسلام ما عرفه المسلمون بالمحلل: فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(البقرة: ٢٣٠).

٢٤. لو تقدم الزوج السابق يفضل أن تختاره الزوجة على أي رجل آخر، وذلك لمصلحة الأولاد، ولما بينهما من حياة مشتركة سابقاً: وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(البقرة: ٢٣٢).

٢٥. الطلاق في الإسلام حل لمواقف شائكة بين الزوجين، وليس للتشفي أو الإضرار بأحد الزوجين، ولذلك يجب أن يتم بتسامح وإحسان: وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ......(البقرة: ٢٣١).

٢٦. يجب حماية الزوجين من الضرر، وبما أن الزوجة عادة ما تكون المتضررة، فيجب

حمايتها من أن يقع عليها أي ضرر بسبب الطلاق. فلا تمنع من نفقة ولا تضار بأي طريقة، ويتم ذلك باستصدار القوانين الكفيلة بمنع تعسف الرجل: ..... أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(البقرة:٢٣١).

٢٧. تكون عدة التربص ليس للتأكد من خلو رحم المرأة من الحمل، كما يظن رجال دين، ولكنها عدة تربص وانتظار ومراجعة للنفس لكلا الزوجين، لأن الآية الرابعة من سورة الطلاق تبين أن الطلاق يمكن أن يحدث للحامل، يقول تعالى: وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا(الطلاق:٤).

٢٨. يقع الطلاق إذا اقترف أحد الزوجين الفاحشة، أو تلاعنا، بدون أن يكون هناك حاجة للجنة المصالحة، أو فترة تربص.

ونختم موضوعنا بالقول بأن مفهوم الزواج في الإسلام هو اتفاق رجل وامرأة على أن يشتركا في تكوين حياة زوجية بينهما، لبناء أسرة وتربية أطفال، وبشروط يشترطانها ويجب عليهما الوفاء بها وإلا تعرضا لعقوبات جزائية.

أما زواج المسيار وزواج الصيف وكل أنواع الزيجات التي انتشرت حديثاً، فهي في ظاهرها مغلفة بتبريرات تقربها من مظهر الزواج الشرعي، وباطنها تحايل لجعل المتعة الجنسية المحرمة (الزنى) تبدو وكأنها علاقة شرعية. وهذه (الزيجات) يجب أن تستكمل ضوابط وشروط الزواج الشرعي، لتكون زواجاً شرعياً، ومن ذلك: الإعلان والتوثيق لدى الجهة الرسمية بتوثيق الزواجات، وليس توثيقاً صورياً، يتم في الشقق المفروشة في بعض البلاد العربية والإسلامية.

والتوثيق لا يجب أن يتم إذا ثبت أن للزوج زوجة ثانية، ما لم يسجل توثيق رضى الزوجة وهي بكامل أهليتها العقلية بأن يتزوج زوجها زوجة أخرى، لأن هذا يدخل ضمن العدل مع الزوجة وعدم ظلمها، ومن الظلم أن يخدعها الزوج بالتستر على زواجه الثاني أو بالزواج بامرأة ثانية بدون رضى الزوجة الأولى وما سيسببه لها من ألم نفسي وجرح للكبرياء

ومشاكل نفسية تعلمها جيداً نساء بلاد الحرمين أكثر من غيرهن من نساء العالم. وإذا لم ترغب الزوجة في زواج زوجها فله الخيار بتطليقها والزواج بالفتاة الأخرى، أو الإبقاء على زوجته والتراجع عن الشروع بزواجه الجديد.

وكل ما شرعه رجال دين بخلاف ذلك فهو مجرد تبريرات من عند أنفسهم لتعدد الزواج وتسهيل الطلاق، وذلك لكي يتمتعوا جنسياً بالتنقل بين نساء مختلفات، ولم ينزل به الله من سلطان.

وكل زواج لا يستكمل ضوابط الشرع فهو فحش وزنا، وكل زواج يعمل على تحويل الزواج لما يشبه الزنا فهو كذلك ولو أطلق عليه لقب شرعي. ومن يراقب تلك الزيجات ذات المسميات المتعددة، فسيجد أن المرأة الواحدة تشارك العديد من الرجال المختلفين الفراش خلال أشهر قليلة، وأنها هي نفسها تعلم ذلك وتسعى إليه، ليس من أجل تكوين أسرة وبناء عائلة كما هو الهدف الأساسي من الزواج الإسلامي الذي يقوم على الرحمة والمودة: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.(الروم:٢١) ولكن الهدف المبطن هو إمتاع أولئك الرجال الذين يدفعون لها مقابل ذلك مادياً. بينما يعلم الرجل بأنه يشارك المرأة في الفراش لمدة محددة وقصيرة قبل أن ينتقل لمرأة أخرى وهكذا، وهو يعلم أن الدافع هو إشباع رغباته الجنسية مع أكبر عدد من النساء المختلفات في أقل وقت ممكن، مع التبرير لنفسه بأنه يقوم بذلك تحت مسمى وغطاء ديني، حتى يبعد عن نفسه أي وساوس من أن ما يقوم به قد لا يكون جائزاً شرعاً، حتى لا يؤرقه ضميره فيما لو صحا ولو للحظة في يوم من الأيام.

وقد وجد هؤلاء العون من عدة جهات، فهناك سماسرة الجنس الذين لا يهتمون كثيراً بالتجاوزات الدينية وكل ما يهمهم كسب المال عن طريق تلك الدعارة الحلال، كما سماها عبد الله كمال في كتابه الدعارة الحلال، وشيلا حائري الكاتبة الإيرانية في كتابها المسمى المتعة. وهناك الحظ العاثر لفتيات معدمات مادياً الذي أوقعهن في تلك الطريق الشائكة وهن يعلمن أن ما يقمن به ما هو إلا فاحشة محرمة. كما ساعد أولئك الرجال في متعتهم ما وجدوه من تشريعات (فتاوى) رجال دين قديماً وحديثاً، ولا غرابة في تزاحم الفتاوى المحللة لتلك الزيجات لأن رجال دين أنفسهم هم أول من استفاد من ذلك.

فابن جريج (٨٠ – ١٥٠ للهجرة) كان ممن يرى إباحة زواج المتعة لأنه تزوج بتسعين امرأة

زواج متعة، كما نقل الذهبي في ترجمته للمذكور في كتابه سير أعلام النبلاء ما يلي: وقال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، سمعتُ الشافعي يقول: استمتع ابن جُريج بتسعين امرأة، حتى إنه كان يحتقن في الليل بأوقية شيرج طلباً للجماع. إنتهى

وهناك رجال دين يجيزون زواج المسيار الحالي، وهناك رجال دين يجيزون التعدد بلا شروط لأنهم يمارسونه، وهؤلاء هم من يقول بأن الطلاق ملك خاص بالرجل يتم بمجرد تطلقه بلفظ يدل على الطلاق ولا يسأل عن السبب ولا حاجة لتسجيل ذلك في المحكمة أو في أي جهة رسمية.

والجميع يعلم أن كثيراً من رجال الدين هم من يحرص على التعدد وتسهيل الطلاق والتزوج من جديد بجانب المسيار والمسبار وهذه المسميات التي اختلقوا للتحايل.

أما الزواج الشرعي فيقوم أساساً لتكوين أسرة وتربية أطفال وليس فقط للمتعة الجنسية، ولذلك فليس للزوج الحق بالتعدد إذا لم ترغب الزوجة بذلك لأنه إضرار بها وخلاف للعدل معها، ويؤدي للعول، وهو سوء تربية الأطفال: .... فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا(النساء:٣)

ولكن يمكن للرجل والمرأة أن يتزوجا بشروط يشترطانها، ويجب احترامها، وتوقيع الشروط الجزائية على من يخالفها من الزوجين، ومن هذه الشروط، عدم ممانعة الزوجة بأن يتزوج عليها زوجها متى شاء أو بعدد محدد من النساء غيرها، فإن قبلت فله ذلك. كما يمكن للزوجة اشتراط عدم زواج زوجها بغيرها وإن فعل فلها الحق بعقوبات جزائية أو الطلاق أو بهما معاً.

وللزوجين اشتراط عدم الإنجاب، لمدة معينة أو على الدوام، كما يمكن للزوجين اشتراط إنجاب عدد محدد من الأولاد، أو أي شروط أخرى يريانها ويقرآنها عند عقد الزواج أو عند نشوب خلافات بينهما بعد الزواج.

لكن أن يتمتع الزوج بمتع جنسية بخفية وبخلاف موافقة الزوجة فهذا ليس بزواج، كما أن عدم تسجيل وتوثيق الزواج يجلب الضرر ليس لأنه يصعب تحديد عدد الزوجات ونسب الأولاد وغير ذلك الكثير من المشاكل فقط، بل لأنه تدليس وإخفاء للحقيقة وهذا لا يقره الإسلام.

وعليه ففي لغة العصر يجب أن يكون تسجيل الزواج وتسجيل الشروط التي اتفق عليها الزوجان والعقوبات الجزائية، وتسجيل الطلاق، حقاً مشروعاً للزوجين يجب أن تضمنه دولة الإسلام بموجب قوانين مكتوبة وثابتة.

عدد الطلقات وعدة الطلاق بين القرآن وكتب التراث

فقه كتب التراث يقول: هناك طلاق شرعي وطلاق بدعي.

الشرعي

هو أن يطلق الزوج زوجته طلقة واحدة في طهرٍ (غير حائض)، لم يمسسها فيه.

البدعي

هو أن يطلق الرجل امرأته ثلاثًا بكلمة واحدة، كأن يقول: أنت طالق، طالق، طالق. أو يطلقها في حيض أو نفاس أو في طهر جامعها فيه.

(وتصف كتب التراث هذا النوع بأنه محرم ولكنه يقع)

السؤال هنا: كيف يقع شيء محرم ويقبل في الدين؟

عدد الطلقات في فقه كتب التراث

ثلاث طلقات، وفي كل مرة يكون هناك طلاق يتبعها عدة للطلاق. مما يعني أن:

عدة الطلاق تتكرر ثلاث مرات بعدد تكرار الطلقات.

في القرآن الأمر مختلف

الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٢٢٩) البقرة.

عدد الطلقات اثنتان

وهذا يعني أن هناك عدتين فقط.

حيث إن هناك عدة طلاق تلي الطلاق الأول، ويعود أثناءها الزوجان للحياة الزوجية.

ثم تكون مشاكل ويكون هناك خيار الطلاق للمرة الثانية ويكون هناك عدة مرة أخرى.

وإذا لم يتراجعا عن الطلاق خلالها انتهى الزواج.

وإن تراجعا وبعد فترة تجددت المشاكل واختارا الطلاق للمرة الثالثة فيقع الطلاق بلا عدة.

فعدة الطلاق تكون لإعطاء فرصة للزوجين للتراجع والعودة للحياة الزوجية.

ويفهم من هذا ما يلي:

العدة ليست لكي يتم التأكد أن هناك حملاً، وليس لها علاقة بحدوث الحمل من عدمه.

كما أن القرآن يحرم أن تخرج أو تُخرج المرأة من بيت الزوجية أثناء عدة الطلاق: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا(١)﴾ الطلاق.

بينما في فقه كتب التراث الرجل يطلق المرأة دون علمها ويخرجها من البيت قبل انقضاء عدة الطلاق دون أن يكترث لتجاوز حدود الله والتعدي عليها برغم تحذيره سبحانه.

عدة المطلقة في فقه كتب التراث البشري

من تناقضات كتب التراث قولهم: الحامل طلاقها حرام، لكن لو طلقها زوجها فالطلاق يقع. فكيف يكون حراماً ويقع؟

وعدتها وضع الحمل.

- المطلقة غير الحامل هناك نوعان من العدة حسب وضع المرأة من حيث إمكانية حيضها من عدمه:

الأول: إذا طلقت المرأة وكانت من ذوات الحيض فعدتها ثلاثة قروء.

والمقصود بذوات الحيض، من بلغت سن الحيض، وليس من هي حائض عندما وقع الطلاق.

الثاني: إذا كانت المرأة من غير ذوات الحيض، كالصغيرة التي لم تبلغ أو الكبيرة التي لا تحيض حيث بلغت سن اليأس، فعدتها ثلاثة أشهر.

فالعدة إما ثلاثة قروء (حيضات) أو ثلاثة أشهر، يعني نفس المدة، بمسميين مختلفين.

والتصنيف تم بناءً على إمكانية الحيض من عدمه وليس على حالة المرأة عند الطلاق. وسنعود للحديث عن الصغيرة فيما بعد.

في القرآن

الطلاق يقع بناءً على إجراءات عملية وليس بمجرد تلفظ الرجل بلفظ «طالق»، ويخلو القرآن تماماً من ذكر هذا اللفظ.

ويقع في أي وقت بغض النظر عن وضع المرأة من حيث الطهر أو الحمل، ولا عبرة لوقوع الجماع أو عدمه. وليس هناك طلاق شرعي وطلاق بدعي.

والعدة في القرآن تختلف باختلاف حالة المرأة عند الطلاق وليس على إمكانية حيضها من عدمه (كما في كتب التراث) وذلك كما يلي:

أولا: جاء في سورة البقرة ثلاثة قروء للمطلقة بإجمال دون تفصيل: وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكُيمٌ(٢٢٨) البقرة.

ثم نزلت فيما بعد سورة الطلاق التي تتحدث بتفاصيل أكثر، ومما ورد فيها:

وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً(٤).

وفي هذه الآية ثلاثة أنواع للعدة حسب حالة المرأة، وهي:

الحالة الأولى: اللائي يئسن من المحيض: ثلاثة أشهر.

واللائي يئسن من المحيض من تقدمن في السن وبلغن سن اليأس.

الحالة الثانية: اللائي لم يحضن: ثلاثة أشهر.

وهن من لم يكن في فترة الحيض عندما وقع الطلاق.

الحالة الثالثة: الحامل، وعدتها وضعها للحمل.

وهذه الأنواع تضاف للعدة المذكورة في البقرة، وهي:

الحالة الرابعة: التي يتم طلاقها وهي في الحيض، وعدتها: ثلاثة قروء.

ويكون هناك أربع أنواع من العدة في القرآن وليس نوعان كما يقول الفقه البشري في كتب التراث.

ونعود لقوله: واللائي لم يحضن

فقه كتب التراث اعتبرها الصغيرة (الطفلة التي لم تبلغ) وهذا تأويل قبيح.

فالطفل الصغيرة في الإسلام لا يجوز أن تتزوج، لأن الزواج لا يكون إلا بعد سن البلوغ: وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيباً(٦) النساء.

وبلوغ النكاح يعني تجاوز سن الطفولة إلى سن البلوغ واكتمال نمو الأعضاء التناسلية.

ويكون معنى قوله تعالى: « واللائي لم يحضن» اللائي لسن في فترة المحيض، أي من تطلق في طهرها.

ويكون هناك أربع أنواع من العدة للمطلقة – حسب حالة المرأة عند الطلاق – بينها القرآن بوضوح.

الخلع

الخلع كلفظ ليس موجوداً في القرآن. وما هو إلا اصطلاح فقهي (وضعه رجال الدين). ويعني أن تدفع المرأة تعويضاً مالياً لزوجها على أن يطلقها ويخلي سبيلها إذا كرهته لأي سبب. في المقابل يعطون الرجل كامل الحق في طلاق زوجته متى شاء دون أدنى تبعية ودون أن يدفع تعويضاً للمطلقة. (هذا التناقض يظهر أنه ليس من دين الله الذي لا يفرق بين رجل وامرأة في التعامل).

ويستندون في هذا التشريع على جزء من الآية: (٢٢٩) من سورة البقرة وهو (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ) ويقول بعضهم إن للزوج الحق في طلب أكثر مما دفع لكي يوافق على الطلاق. كما يقولون إن "الخلع" يتم فقط لو حكم به القاضي. لكن لو أن القاضي لم يحكم به فلا تحصل المرأة على الطلاق مما وقع عليها من ظلم. وكأنها لا تملك من أمرها شيئاً.

فهل دليلهم على ما سموه بالخلع صحيح، بحيث لا يمكن للزوجة الحصول على الطلاق إلا بهذه الطريقة؟

أم أن للزوجة الحق بالحصول على الطلاق مثلها مثل الزوج؟

لنبدأ بالسياق في سورة البقرة الذي جاءت ضمنه الآية التي يستدلون بجزئها. والآيات تخاطب المسلمين زمن رسول الله وفي المدينة، فتحظر عادات كانت متبعة وتبيح أخرى وتشرع ضوابط جديدة.

وتبدأ الآيات بتحديد الإيلاء بأربعة أشهر كحد أقصى. والإيلاء هو حلف الزوج أن يهجر زوجته وكانت تتم بلا حد أقصى. فشرع القرآن أربعة أشهر كحد أقصى، ومن ثم الطلاق أو العودة للحياة الزوجية العادية، في الآيتين: (٢٢٦-٢٢٧).

الآية: (٢٢٨) تتحدث عن مدة التربص للمطلقة.

والآية: (٢٢٩) هي التي يستشهد بجزء منها من يقول بالخلع، وتقول: الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.

تبدأ الآية بتحريم استرداد أي شيء من الصداق المقدم للمرأة في حال الطلاق: «وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً» وهذه هي القاعدة والأصل.

لكن لو خافا ألا يقيما حدود الله، ففي هذه الحالة للزوجة الحق في التنازل عن بعض ما دفع الزوج للحصول على الطلاق.

والآيتان (٢٣٦-٢٣٧) تقول: لاَّ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنُّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ(٢٣٦) وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إَلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٢٣٧). فلو قدم الزوج مهراً «فريضة» ثم طلق المرأة قبل أن يدخل بها، فله حق استرجاع نصف المهر «الفريضة». أي من حق الزوجة شرعاً وبقانون إلهي الاحتفاظ بنصف المهر «الفريضة» وإعادة النصف الثاني. وليس للرجل الحق

في استرجاع نصف المرأة. لكن لو أن المرأة أرجعت له كل ما دفع عن طيب خاطر فهو حلال عليه. فكيف يستقيم هذا مع قولهم إن المرأة إذا ما رغبت الطلاق (بعد زواجها بمدة ودخول الزوج بها) فعليها أن تدفع للزوج كل ما دفع بل وقد يزيد عما دفع؟

وتقارن هذا أيضاً بآيات من سورة النساء التي نزلت بعد البقرة: وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً(٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً(٢١) النساء.

تقول الآيتان إن الزوج لو طلق المرأة فلا يجوز له أن يأخذ شيئاً مما سبق ودفعه لها كمهر حتى ولو بلغ قنطار (القنطار = ألف ألف ألف ثلاث مرات، كما يقول ابن خلدون. أي مليار بلغة العصر).

ولو قال رجال الدين نعم لا يجوز للزوج أن يسترد مهره لو طلق هو، لكن لو أن المرأة طلبت الطلاق فهذا يختلف وبالتالي فله حق استرداد المهر كله أو يزيد.

نقول لهم الآية (٢١) من سورة النساء التي نزلت بعد البقرة، تقول متى ما دفع الرجل المهر للمرأة، قل أو كثر، فلا يجوز استرداد بعضه أو كله بعد أن (يفضي الزوج للزوجة)، لأن المهر مقابل مادي لقبول الزوجة الزواج بذلك الرجل.

إضافة لذلك هناك آية في سورة النساء تقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهاً وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً(١٩) النساء.

الآية تقول للرجال: لا يجوز إكراه المرأة على البقاء في عصمة الرجل وهي كارهه فقط لكي يجبرها على أن تدفع له (بعض ما آتيتموهن) وليس كله أو أكثر منه (كما تقول كتب التراث).

والعضل من الزوج للزوجة هو منعها من الحصول على الطلاق لكي يبتزها.

فكيف تقول هذه الآيات إنه لا يجوز عضل المرأة لابتزازها وهي قد نزلت بعد آيات سورة البقرة، ويكون على المرأة أن تعيد للرجل مهره وقد أفضى إليها وأفضت إليه سنوات أو أشهراً أو حتى يوماً واحداً؟

والآن: هل يقع الطلاق بمجرد قول الرجل للمرأة أنت طالق؟

الفقه (تشريع رجال الدين) يقول نعم. لأن الطلاق في الفقه (وليس في القرآن) هو ملك

للزوج وحله، ويتم بعباراته وإرادته المنفردة يحدثه بلا سبب، فيقطع النكاح، ولا يسأل الزوج عن أسباب إقدامه على الطلاق.

القرآن لا يقول إن الطلاق يقع بكلمة طلاق تصدر من الزوج أبداً.

القرآن يضع ضوابط للطلاق ليس منها التلفظ بكلمة «طالق» على الإطلاق.

القرآن يقول إن الطلاق بين الزوجين يقع بعد استكمال مراحله بانتهاء مدة التربص، وليس بمجرد تلفظ الرجل بكلمة طالق. وقد وردت هذه التفاصيل في كتاب: سنة الأولين.

كما أن القرآن يقرر حق الطلاق للزوجة كما للزوج: وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً(١٢٨) وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً(١٢٩) وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللّهُ وَاسِعاً حَكِيماً(١٣٠) النساء.

فالآيات تقول إنه لو كان هناك نشوز وتنافر ورغبت الزوجة الطلاق فأول خطوة هي محاولة الصلح فإن لم ينجح الصلح فليتفرقا (الطلاق). ويتبع ذلك بالتأكيد مدة التربص ومتى انتهت فالطلاق يقع.

والنشوز يكون من الرجل للمرأة كما في هذه الآيات، ومن المرأة للرجل كما في آيات أخرى.

والنشوز لا يعني عدم الرغبة في الجماع (كما يقول المفسرون ورجال دين) ولكن يعني التنافر ولو بدون سبب ظاهر.

والآن ما المقصود بقوله تعالى: « فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ».

ولو عدنا لسورة الممتحنة التي نزلت في بداية الهجرة وقبل نزول سورتي البقرة والنساء، فسنجد أن السورة تقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ

أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ(١١).

والآيات تتحدث عن قدوم نساء من قريش مهاجرات، وتفرض تشريعاً مفاده: أن من لها زوج مشرك فتطلق منه ويعطى المال الذي قدمه لها كصداق. ومن من المسلمين له زوجة مشركة فيطلقها ويطالب بصداقه الذي سبق وقدمه لها، فإن لم يرجعه له الكفار يعوض عنه من بيت المال.

ويستفاد من هذا أن الطلاق لو كان بسبب كفر أو إلحاد الزوجة أو استمرارها على كبيرة فللزوج الحق باسترداد الصداق لأن الطلاق لم يكن بسبب خطأ منه أو سوء خلق ولكن بسبب معتقد الزوجة الفاسد.

وبناءً على هذا يمكن فهم قوله تعالى: « فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ". فكل من طلبت الطلاق من زوجها بسبب معتقده الفاسد، فله الحق بالمطالبة بصداقه أو بعضه، لكن لا يحكم له بأكثر من ذلك. ولو لم تملك الزوجة قيمة الصداق فيتم تعويض الزوج من بيت المال، قياساً على ما تقول سورة الممتحنة.

أما لو طلبت الزوجة الطلاق لأن زوجها سيء الخلق معها ولكنه مقيم لحدود الله، أو أنها كرهته بدون سبب ظاهر فلا تجبر بالبقاء معه (لأنه نوع من العضل) ولا يحق له استرداد شيء من صداقه: "وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً".

الحجاب

ورد لفظ «حجاب» في القرآن سبع مرات في سبع سور، بمعنيين مختلفين.

١. الاختفاء عن الأنظار

وجاء هذا المعنى في سورة «ص» ضمن سياق يتحدث عن سليمان وتعلقه بالخيل: وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ(٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ(٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ(٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ(٣٣).

فالآية تقول بأسلوب قرآني إن الخيل توارت وحُجبت عن ناظر سليمان، لأنها ابتعدت عنه ولم يعد يراها. ولا تتحدث الآية عن الحجاب بمعنى الحاجز والعازل.

وبنفس المعنى جاء الحجاب في سورة مريم، ضمن الحديث عن قصة الحمل بعيسى وولادته: وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً(١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً(١٧).

فمريم خرجت من البلدة للخلاء، ولما توارت عن الأنظار ظهر لها الروح الذي تمثل (تشكل) على هيئة رجل بشر.

٢. الجدار العازل

وتقول سورة فصلت: حم(١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِياً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٣) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ(٥).

والسياق هنا يظهر أن المخاطب هم قريش الذين أعلنوا رفضهم لدعوة الرسول ولن يتراجعوا عن موقفهم. والآية الخامسة تصف موقفهم الرافض وصفاً مجازيا، مصورة إعراضهم وكأنهم لا يسمعون الرسول وهو يتلو القرآن عليهم لأن في آذانهم صمماً، وكأن بينهم وبين الرسول جداراً عازلاً «حجاب».

وبنفس المعنى ورد الحجاب في سورة الأعراف: وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ(٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ(٤٥) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ... (٤٦).

والتصوير هنا مجازي وكأن أهل الجنة يتخاطبون مع أهل النار، وتقول الآية: (٤٦) إن بين أهل الجنة وأهل النار «حجاباً» يفصل بينهما.

فحجاب هنا تعني حاجزاً وساتراً.

وقريب من هذا المعنى ما ورد في سورة الشورى: وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ(٥١).

وكما هو واضح فالآية تقول إن الوحي لا يكون مشافهة ولكن وحي (كالإلهام)، أو من وراء حجاب (أي سماع صوت دون رؤية الملقن كما هو الحال مع موسى). أو يرسل رسولاً

فيوحي بإذن الله ما يشاء الله للرسول من البشر (كما هو الحال مع محمد حيث يحفر في ذاكرته).

فالحجاب هنا عازل يمنع اللقاء المباشر وجهاً لوجه.

وبنفس معنى الحجاب ما ورد في سورة بني إسرائيل: وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً(٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً(٤٦).

فالآيات تصور موقف قريش الرافض للدعوة تصويراً مجازياً، وكأن بينهم وبين الرسول جداراً عازلاً لا يسمعون ما يقول من ورائه.

ويكون الحجاب حسبما سبق من آيات هو جدار عازل يمنع الرؤية والتواصل المباشر، وهو مستقل بذاته يفصل بين أشياء أو أشخاص. وليس الجدار جزء من الأشخاص أو الأشياء التي يفصل بينها.

السورة السابعة هي سورة الأحزاب المدنية التي نزلت على رسول الله بعد حملة الأحزاب: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً(٥٣).

والحجاب في الآية هو بنفس معنى الحجاب في الآيات السابقة، والذي يعني الجدار العازل. لأن المطلوب هو ألا يدخل الرجال حجرات أزواج النبي ولكن يتحدثون معهن وهم خارج الحجرة (المنزل) وبينهما جدار الحجرة.

وسورة الأحزاب تتحدث عن حدث وقع في المدينة أثناء غياب الرسول والمسلمين لحفر الخندق وعندما استأذنت مجموعة من المنافقين الرسول وعادوا للمدينة واستغلوا خلو البلدة من الرجال فلاحقوا النساء وكانوا يدخلون عليهن بيوتهن بحجج واهية وبلا استئذان لعلهم يغنمون نظرة محرمة أو حتى ممارسة الفاحشة معهن.

وقد تحدثنا عن هذا بالتفصيل في قسم الأحداث. وسورة الأحزاب وبعدها سورة النور

وضعت ضوابط وسنت إجراءات صارمة للقضاء على تلك الظاهرة التي أحدثها الذين في قلوبهم مرض من المنافقين، ومن ذلك:

- **عدم دخول بيوت النبي (حجرات أزواجه) إلا بدعوة**

مما يعني أن رجال المسلمين اعتادوا الدخول لحجرات نساء الرسول بلا استئذان ولا دعوة، طوال السنوات الماضية. لكن بعد الأحداث التي قام بها من في قلوبهم مرض سن هذا القانون الاحترازي الطارئ: "وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ".

كما أن بعض الرجال كانوا يدخلون حجرات نساء النبي طلباً للطعام، فالآن – وبعدما حدث في المدينة – يمنع الدخول. وعلى طالب المتاع أن يطلبه وهو خارج الحجرة، لتكون جدران الحجرة بينه وبين زوجة الرسول وهو يسألها حاجته.

وبينت الآية سبب سن هذا القانون: "ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ".

حتى لا يكون هناك أي مجال للشك والريبة في سبب الدخول عليهن ممن يتحين الفرص لتسجيل أي هفوة على الرسول ونسائه ليستغلها ضد دعوته.

وأضافت الآية قانوناً آخر له علاقة، هو: "وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً".

تحريم الزواج بنساء الرسول بعد وفاته أو حتى مطلقاته. وهذا القانون يقطع الطريق على كل من في نفسه هوى بإحداهن. فحتى لو طلقها الرسول أو توفي عنها فلا يحل له أن يتزوجها. لأن نساء الرسول بمقام الأم للمسلمين كما تقول آية أخرى في بداية سورة الأحزاب: النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ... (٦).

وكما هو واضح فالآية: (٥٣) من سورة الأحزاب لا تتحدث عن تغطية المرأة لوجهها ولا حتى تغطية نساء الرسول لوجوههن.

والبعض ما زال يظن أن الآية تأمر نساء الرسول – خاصة دون نساء المؤمنين – بتغطية وجوههن، وهذا لم تقل به الآية ولا كل سورة الأحزاب. بل إن نعت أزواج النبي بأمهات المؤمنين وتحريم الزواج بهن بعده يجعل تغطية وجوههن عن الرجال حراماً – بمقياس الفقه السائد – الذي يحرم على الأم ومن هي بمقام الأم كأم الزوجة أن تغطي وجهها عن

محارمها وعن زوج بنتها. أي أنه لا يمكن أن يكون معنى الآية غطاء الوجه، وخاص بنساء الرسول. لأنهن أمهات المؤمنين، والأم لا تتغطى عن أبنائها.

النتيجة: لفظ «الحجاب» في كتاب الله لا علاقة له بتغطية المرأة لوجهها.

واستمراراً لفرض ضوابط وإجراءات للقضاء على تلك الظاهرة التي أحدثها الذين في قلوبهم مرض من المنافقين في المدينة أثناء حفر الخندق، فرضت سورة الأحزاب القانون التالي:

- **ضرورة أن تدني المرأة عليها جلبابها، سواء كانت زوجة للنبي أو من نساء المسلمين**

وإدناء الجلباب هنا على الجسم، أي تغطيته. وذلك أثناء خروجهن للشارع، وهذا يفهم من قوله: «ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ» لأن المرأة أثناء سيرها في الشارع ستجد من يسير بمحاذاتها ويقابلها من الرجال الأجانب. وإذا ما حرصت على ستر جسدها بجلبابها فهذا سيميزها عن نساء أخريات – غير مسلمات – لا يمانعن إظهار مفاتن أجسادهن.

وهذه الآية تفرض الحشمة كعنوان للمرأة المسلمة يميزها عن غيرها.

هذا القانون هو الذي تخلت عنه كثير من نساء المسلمين فنجد من تضع قطعة قماش على رأسها وكأنه هو الستر وتصبغ وجهها بمساحيق بألوان الطيف، وتلبس ملابس ضيقة تصف تقاطيع البدن وتتحدث بصفاقة وتتصرف بسلوكيات مبتذلة لا حشمة فيها. فلا حاجة لها بقطعة قماش على رأسها.

ومثلها من تغطي وجهها إلا العينين، لكنها تبالغ في وضع أدوات التجميل حول العينين ووضع عدسات لاصقة بالألوان وتحديد الحواجب بطرق إغراء تفوق ممثلات الإغراء. فهذا ليس ستراً، وتغطية بقية الوجه تعني إضافة الإثارة وليست حشمة ولا وقاراً.

وهناك من تقوم بتغطية كامل جسدها بعباءة ثم تذهب لناد للعراة أو تسهر في ملهى ليلي وترقص بعباءتها، فيكون دخولها الملهى بالعباءة حشفاً، ورقصها ومجونها سوء كيلة.

وهذه السلوكيات تختزل قانون الحشمة العظيم في الإسلام إلى مجرد تغطية الوجه والشعر، وهي بهذا تضر بدين الله الذي تحمل اسمه.

فالمقصود والهدف من احتشام المرأة هو بعدها عن الابتذال والإغراء والفحش واعتدادها

بكونها محتشمة، وفخرها بشخصية المرأة المسلمة المتميزة.

وقانون الحشمة ليس موجهاً للنساء فقط، بل إن الرجل معني به تماماً كالمرأة أو أكثر (وهذا الجانب يتناساه الرجال عمداً).

وعليهم أن يعلموا أن الرجل والمرأة سواء بسواء، وأن المرأة لم يطلب منها الحشمة والبعد عن الإغراء، إلا بسبب فساد الرجل ومرض قلبه ومحاولاته نشر الرذيلة في المدينة. لذا طلب منه أولاً أن يغض بصره عن أكل النساء بعيونه: قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ(٣٠) النور.

وهذا القانون الرباني الصريح لا يعيره الرجال أهمية، فهم أكثر من يخالفه، مع أن مخالفته أشد من ترك المرأة للحشمة والتبرج.

ونفس القانون فرض على النساء، مع شرح واف لقانون الحشمة الذي سبق الحديث عنه: وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٣١)النور.

فكل إغراء في اللبس أو مساحيق التجمل أو تسريح الشعر أو الجواهر، أو غيرها محرم على المرأة إبداؤها في الأماكن العامة.

وقد أصبح من الواضح أن سورتي الأحزاب والنور اللتين فرضتا بعض ضوابط وقواعد سلوكية لمحاربة ظاهرة ملاحقة النساء لا تتحدث عن تغطية وجه المرأة ولا عن عزلها عن المجتمع بل على الحرص على التزام الحشمة في الأماكن العامة والعمل إن كان يشاركها الرجال، مع الكلام الرزين البعيد عن نزع الكلفة لئلا يطمع الذي في قلبه مرض: يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً(٣٢)الأحزاب فالقرآن يبين أن الرجل هو من يبدأ بالملاحقة – عادة – وعلى المرأة أن تصده قبل أن يبدأ

وذلك بتطبيق هذه القوانين القرآنية. وعلى الرجل - كما بين القرآن - أن يغض بصره ولا يلاحق به النساء، وعليه ألا يلين القول للمرأة الأجنبية التي قد تشاركه مكان العمل أو الأماكن العامة لئلا يكون ممن وصفهم القرآن (بمن في قلوبهم مرض) وتوعدتهم سورة الأحزاب: لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً(٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً(٦١).

فكل من يلاحق النساء فعلياً أو لا يغض بصره عن ملاحقتهن أو يتعمد التودد لهن بكلام معسول (لين) لخبث في نفسه ومرض في قلبه فهو ملعون وعقابه الطرد والعقاب الذي قد يصل للقتل. وهذه العقوبات لم تسن بحق النساء. وهو ما يتغافل عنه الكثيرون ويعتبرون أن سورتي الأحزاب والنور جاءت لتقييد النساء.

إذاً، لا وجود لأي تشريع قرآني لنساء المسلمين بعدم مخالطة الرجال ولكن هناك قواعد للحشمة يجب الأخذ بها.

ونساء الرسول - وحدهن - أمرن بالقرار في البيوت إذا لم يكن هناك حاجة للخروج، ذلك أن لهن وضعاً خاصاً كونهن نساء الرسول وأي إشاعة عنهن تؤثر سلباً على مصداقية دعوته عند الناس: وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً(٣٣) الأحزاب.

ويجب على الرجال غض البصر، ويحرم عليهم ملاحقة النساء فعلياً أو مجرد تليين القول للنساء لمرض في قلوبهم. وكل من يلاحق النساء فيجب أن تسن بحقه عقوبات صارمة تصل للقتل.

والرجل هو المسئول عن انتشار الرذيلة التي تكون ضحيتها المرأة، وليست المرأة هي التي ولدت وبين فخذيها شيطان. فالمرأة ليست هي التي تبدأ بإغراء الرجال، لكن متى انتشرت الرذيلة تفننت النساء في طرق الإغراء لجذب من في قلبه مرض.

والرجال الذين يحرم موروثهم على المرأة أن تكشف وجهها، هم من يقترف معها الفاحشة بمسميات تبدو وكأن الإسلام يقرها، فهو يريد أن يغطي وجه المرأة ويمارس الزنا معها تحت مسميات تبدوا في ظاهرها زواجاً، مثل: زواج المسيار، المتعة، الصداقة، الزواج بنية

الطلاق، العرفي، الزواج السياحي، نكاح الجهاد.... ومسميات كثيرة كلها زنا حرام. وكلها من اختلاق الرجل وليس منها واحد اختلقته النساء أبداً. فالرجل هو وراء انتشار الرذيلة وهو من يجب عليه أن يلتزم بقوانين الحشمة التي أوجبها القرآن عليه، وأن يبتعد عن تأويل كلام الله البين لغير معناه.

الخمُر والجيوب لا تعني تغطية شعر الرأس

الخمار لباس كان معروفا في المجتمع قبل نزول السورة وقبل الإسلام وبالتالي السورة لا تفرض لبسه ولكنها تطلب من النساء أن يغطين جيوبهن بخمرهن: وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ والجيب ليس الوجه ولكنه أعلى الصدر وتحت العنق.

وتغطية الشعر لم يتحدث عنها القرآن لأن المجتمع حينها كان من المعتاد أن تغطي النساء شعورهن، وإلا فكشف الشعر يقلل الحشمة بكل تأكيد، بعكس الوجه الذي هو عنوان الشخص رجلا كان أو امرأة.

بعض أتباع الموروث يقول إنه يجب أن تتوارى المرأة عن الرجال وهذا يكون بتغطية كامل جسدها بما فيه الوجه. وهذا الكلام إغفال لكل ما ورد في الآيات عن الحجاب وما ورد في سورتي الأحزاب والنور، وإغفال أن القرآن كله لا يقول بغطاء وجه المرأة، ولا عزلها ولكنه يؤكد على الحشمة التي لا شأن لها بحجب المرأة عن المجتمع أو تغطية وجهها.

والقرآن يشدد على الحشمة وإخفاء الزينة، سواء كانت مساحيق تجميل أو مجوهرات أو قصة شعر. مع الاعتزاز بالشخصية المسلمة، لكي يعرفن فلا يؤذين.

وعندما نقول مسلمة، فليست التي تشهد الشهادتين، ولكن المؤمنة التقية التي تمارس الإسلام كسلوك.

وكثيرون يتساءلون: ماذا لو ذهبت المرأة المسلمة للغرب فهل تغطي شعر رأسها وتبدو مختلفة وتلفت لها الأنظار؟

لو كانت فخورة ومعتزة بإسلامها لما تساءلت هذا السؤال، ولن يكون من المهم أن تذهب المسلمة لأوروبا وتبدو كأوروبية، لأنها إن كانت تبحث عما يرضي الأوربيون عنها، فعليها أن تعلم أنه لن يهتم بها أحد ولن يشعر بها من مر بجوارها للحظة في الشارع، ثم إن رضاهم

بما يخالف الدين معصية لله، وفقدان للثقة، ينتهي بفقدان التقدير والاحترام لها ممن حاولت البحث عن رضاهم.

ولو تذهب المسلمة لأوروبا وتبدو محتشمة وقوراً فلن ينقص من قدرها لمن يمر بجوارها لأن الناس هناك لا يعيرون انتباههم لما يلبسه الآخرون. وكما هو مشاهد فنساؤهم ورجالهم يلبسون الأعاجيب ولا أحد يتوقف للحظة للنظر إليهم أو يستغرب وجودهم.

ما يجعل المسلمة تتساءل عما تلبسه في بلاد الغرب هو فقدانها الثقة بما تعتقد، وهذا يعني أن يقينها بدينها لم يبلغ حد الإيمان وأنها تدين بالتبعية وليس بالاقتناع.

وعليها أن تكون إسلاماً يمشي على الأرض بحشمتها ووقارها. وهذا لا يكون بلبس العباءة السوداء وغطاء الوجه واليدين. لأن العباءة نوع من التخفي وهو ما يعني عدم ثقة المرأة بنفسها ووقارها ودينها لأن مجرد إظهار وجهها لرجل أجنبي يعني أنها لا تمانع أن تلين له، هذا ليس ديناً ولا ثقة.

هذه هي الثقافة المغروسة في نفوس نسائنا للأسف فإظهار الوجه يعني إظهاراً للعورة.

يجب أن نغرس في النفس أن المرأة شخص سوي كالرجل لها ما له وعليها ما عليه. وأن هناك فارق بين الحشمة وبين العزل والتهميش والتحقير ونزع الثقة من المرأة بنفسها وغرس أن عفافها مرتبط بإخفائها، وأن وجهها عورة كما تحت سرتها.

والمرأة قادرة على أن تكون رأساً للدولة وقاضياً ومدير إدارة ومبرمجة ومحاضرة وزوجة وأماً وقدوة حسنة مع حشمة ووقار.

للأسف اليوم الغرب أخرج المرأة من وقارها وجعلها رمزاً جنسياً، ولم يتعامل معها على ما يزعم في الإعلام عنها.

لقد تعرت المرأة في الغرب وبقي الرجل في كامل ملابسه لأنه يعلم أن الحشمة لا يمكن أن تكون بالتعري ولو كان جزئيا.

العباءة رمز للهمجية وخلق الوقار والتبرج رمز للانتساب لدين الله واعتزاز بهذا الانتساب.

تقول أمينة السلمي[1]: ((على المسلمة أن تكون فخورة باختلافها عن الأخريات، بثقة وفخر

---

1 اسمها Janice Huff صحافية أمريكية كانت تكره الإسلام وتتهم القرآن بالتخلف والرسول بأنه دجال. وبعد تحولها للإسلام في عام ١٩٧٧، أصبحت داعية إسلامية مميزة ونشطة جداً، ونالت شهرة واسعة، حيث دأبت، خلال حياتها، على

نابع من ممارسة السلوك الإسلامي في الحياة اليومية، والذي يعطي المسلمة قوة وصلابة وشجاعة ونزاهة. فالمسلمة لا تكذب ولا تغدر ولا تغش. وفي نفس الوقت تمثل أفضل عاملة وأفضل مسئولة وأفضل صديق وأفضل ناصح وأفضل خبير، وأفضل منتج، ومحل للثقة التي لا يدانيها شك.

ويكون الاحتشام تحذيراً للآخرين (من في قلبه مرض) فكل من يراها يعلم أنها المرأة الواثقة من نفسها التي تعلم قيمة كلامها لو تحدثت وقيمتها كإنسان، فهي ليست لعبة ولا دمية فلا تحاول اللعب معها. والحشمة تجعل المقابل يأخذ التعامل معها بكل جدية ووقار. الحشمة تقول للآخرين: نعم أنا أريد أن أكون مختلفة، وعليك أن تتعامل معي من هذا المنطق. وعندما تتعامل معي اترك قذارة منطقك بعيداً عني، لأني لن أستمع لها، وعندما تتعامل معي لا تخبرني عن أناس آخرين لأن ديني يحرم علي أكل لحم أخي ميتاً. ولأن الإساءة تأتي نتيجة التصرف والسلوك والمنطق، فإن الحشمة تحمي المرأة المسلمة من التعرض للإساءة وقلة الأدب.

المرأة المسلمة هي التي تعلم ما قاله الله عنها، وعليها أن تظهره على شكل سلوك إسلامي مستقيم.

هي لست لعبة أو دمية، أنا حقيقة صادقة محل ثقة. وهذا السلوك سيبقى معها أينما تنقلت وسيفرض سلوكها على الآخرين. فعندما تذهب لمتجر، تجد من يفتح لها الباب (لأنها مختلفة) تتقبل هذا وتشكره. وعندما تركب الباص ويتخلى أحدهم عن مقعده لها تتقبل أريحيته وتشكره. وعندما تدخل مكاناً فيه من يتحدثون عن قصة خليعة، يتوقفون بمجرد رؤيتها لأنهم يعلمون أنها لا تقبله وضد سلوكها ومبادئها. السلوك الإسلامي يجعل الآخرين يتوقعون ما يصدر من المسلمة، وما يجب أن يتعاملوا به معها.

وإن كان هناك من يعتبر سلوك أو مظهر المرأة المسلمة مزعجاً، فليأت لها ويتحدث معها عن مشكلته هو مع سلوكي)). انتهى كلام أمينة السلمي رحمها الله.

التجوال الدائم في أرجاء الولايات المتحدة وإلقاء المحاضرات عن الإسلام. ومن أقوالها: «إنني في غاية السرور لكوني امرأة تنتمي إلى الدين الإسلامي، حيث إن الإسلام هو حياتي، وهو نبضات قلبي، وكذلك هو الدم الذي ينساب في شراييني، وهو مصدر قوتي، إذ جعل حياتي في غاية الجمال والروعة. وإنني لا شيء بدون الإسلام، ولا حياة لي إذا لم يرعني الله بوجهه الكريم».
وغيرت اسمها إلى: Aminah Assilmi بعدما تزوجت في وقت لاحق بمسلم.

هكذا ما يجب أن تكون عليه المرأة المسلمة، أما ما تفعله كثير من نساء هذه البلاد وغيرهن من نساء المسلمين عند سفرهن لبلاد العالم فهو مخز ومسيء لها وللإسلام. سواء تلك التي تجللت بالسواد من رأسها إلى أخمص قدميها أو تلك التي وضعت خرقة على رأسها وأبرزت مفاتنها أو تلك التي لم تخف لحمها ولا عهرها.

فالأولى تلبس السواد وتذهب إلى شواطئ العراة أو الأندية الليلية. ومن لا تذهب تتصرف بعزلة عن الناس وتوجس وخيفة يتوجس منها غيرها ويخاف منها، وهي محل شك من الجميع.

والأخريات لا علاقة لهن بالسلوك الإسلامي، ولبسهن في الداخل يفرضه عليهن كلام الناس وسوط المطوع، أما الله والقرآن فآخر اهتماماتهن.

والرجال أسوأ من النساء، وهم أنواع مثلهن.

فنجد رجالاً بثياب قصيرة وشماغ بلا عقال[1] ولحية كثة ومنظر بعيد عن الأناقة معه جلافة أخلاق وبعد عن التصرف الحضاري يجوبون العالم باسم الدعوة (ليس لدين الله ولكن للوهابية التي تشبعوا بها والتي تتحمل مصاريفهم).

ولو سألت أحدهم لم لا يلبس كما يلبس الناس في الدول الغربية؟ (كون اللبس العادي الغربي للرجل أنيقاً وبعيداً عن الفحش) ولماذا لا يأكل بطريقة عصرية بشوكة وملعقة بدل دوس الطعام بيديه؟ ولماذا لا يتعلم التعامل الراقي ويلتزم بالقوانين ويتعلم كل ما يزخر به الغرب من حسنات بدل أن يفترش المسجد وينام فيه وينشر في صحنه غسيل ملابسه ويأكل؟ ...الخ

يأتي الجواب: لأنهم يريدون أن يبدو مختلفين لكي يثيروا الاستغراب فيأتي الناس إليهم ليسألوهم عن حالهم فيدعوهم للدين. وهذا منطق أهوج أعوج.

فالناس سيلفت انتباههم مناظرهم ليس إعجاباً ولكن تقززاً، وهذا الشعور لا يساعد على الدعوة.

وكثير منهم اتخذ الدعوة مغنماً، فهو يكثر الزيجات بفتيات البلاد التي يحلون فيها، وهو يعلم

---

١ الشماغ غطاء للرأس معروف عند رجال جزيرة العرب والعراق والشام. والعقال حبل مفتول يعقد على الرأس فوق الشماغ ويكون لونه أسود عادة.

في قرارة نفسه أنه يريد أن يستمتع بها ما بقي هناك، وينساها بمجرد عودته لبلده، معتبراً أن ما فعله زواج يبيحه الدين، وما هو سوى سفاح تسبب بمشاكل اجتماعية وولادة أطفال بلا آباء في كوريا واليابان ودول آسيا الوسطى وكل البلاد التي يتواجد فيها هؤلاء.

أما من لا يتقمص المظهر المتدين فخزيهم وعهرهم يتجاوز حد الوصف والعجب، وهم من رسخ فكرة أن العرب عربدة وسكر وفجور وقمار ومخدرات.

والكلام طويل.

فلا الرجل المسلم ولا المرأة المسلمة في هذا العصر يتصرفون كمسلمين، بينما نجد أخلاق وسلوكيات الإسلام في الغرب بلا إسلام، وهذه الحالة ليست وليدة اليوم ولكنها مستمرة منذ قرون. فقد لاحظها محمد عبده في العام ١٨٨٤ عندما عاش لبعض الوقت في باريس، وقال كلمته المشهورة: « وجدت الإسلام في الغرب بلا مسلمين، ووجدت المسلمين هنا بلا إسلام»[١].

والخلاصة الحشمة مطلوبة أولاً من الرجل ومن المرأة كذلك، وهي عبارة عن ثقافة سلوكية إسلامية متكاملة. تبدأ بإحضار أن الكبيرة لو ارتكبت مع علم بحرمتها لا تغتفر ومصير من ارتكبها النار. وأن النظر للمرأة بشهوة حرام. وأن الحشمة للمرأة واجبة والتي تعني اللباس المحتشم والسلوك والكلام المحتشم، وعدم عرض الزينة والتبرج، ولا علاقة لكل هذا بتغطية الوجه.

ملك اليمين

في البداية سنستعرض الآيات التي أوردت «ملك اليمين» وسنناقشها على أنها تعني تملك الإماء.

ثم سنتحدث عن احتمال آخر ونستعرض آيات أخرى في هذا المجال، لنخلص لنتيجة أخيرة حول معنى هذا الاصطلاح.

افتراض أن ملك اليمين هي الأمة المملوكة

---

١ وهذا رابط لتقرير صحفي صدر حديثاً يؤكد أن الغرب أكثر ممارسة لتعاليم القرآن من المسلمين:
http://www.telegraph.co.uk/news/worldnews/europe/ireland/10888707/Ireland-leads-the-world-in-Islamic-values-as-Muslim-states-lag.html

في مكة لم تفرض تشريعات كثيرة، ومع ذلك نقرأ في سورة المؤمنون: وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧).

وكررت هذا سورة المعارج.

والآيات تحث على حفظ الفرج من الحرام والاكتفاء بالحلال المحصور بالأزواج أو «ملك اليمين».

وفي السور المدنية تقول سورة النساء: وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٤).

الآية تقول: نكاح بأجر (صداق) محصنات وليس سفاحاً، ولا تجيز أي اتصال خارج نطاق الزواج، سواء كان زواجاً بالمحصنات أو بملك اليمين من الفتيات المؤمنات.

والآية تضع فرقاً بين المحصنات والفتيات المؤمنات. ولو افترضنا أن المقصود بالفتيات المؤمنات هن الإماء، فالآية تقول إنهن لسن للتسري والمتعة الحرام بل للزواج.

والخلاصة أن القرآن لا يجيز معاشرة ملك اليمين (لو كانت تعني الأمة) خارج نطاق الزوجية. أما الرق للرجال والنساء فكان موجوداً منذ القدم وعندما بعث محمد كرسول لله نزل القرآن بفرض تشريعات لعتق الرقيق. وليس في القرآن آية واحدة تجيز معاشرة الأمة خارج نطاق الزوجية. ولم يكن الرسول في حربه مع أعداء الإسلام يسبي النساء ولا يسترق الرجال (لو تجاوزنا ما اختلقته كتب التراث).

لكن الأوضاع تبدلت بعدما استولت قريش على حكم دولة المسلمين فيما سمي بدولة بني أمية والعباس وأعادت العادات الجاهلية كما كانت، ومنها سبي النساء ومعاشرتهن سفاحا. وفي تلك العصور أطلقوا على السبي ملك يمين، وتحولت مدن المسلمين لأكبر أسواق النخاسة في العالم القديم. واشتهرت بغداد والقاهرة ودمشق وقرطبة وطليطلة والقيروان وخراسان بذلك. بل وبقي الرق إلى الأمس القريب، كما بقي الزنا بيننا بمسميات احتيالية

أطلقها رجال الدين الذين يحرصون على ممارستها باسم الدين، ومن ذلك زواج المسيار والمسبار والصداقة والمتعة.. الخ.

ولم يتسر الرسول بامرأة خارج نطاق الزواج أبداً، ولا ينبغي له ولا يستطيع. وكل ما تحويه كتب التراث عن ذلك هو قصص اختلق شخصيات وهمية وكأنهن سبايا وسرايا للرسول، مثل من أسموها صفية بنت حيي، وزينب بنت جحش ومارية القبطية، واللاتي لم يعشن يوماً على وجه الأرض ولم يكن لهن وجود إلا في خيال من اختلق قصصهن وألصقها بالرسول.

الافتراض الثاني أن ما ملكت أيمانكم لا تعني الرقيق

يقول تعالى: وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً(٣٣).

الآية تؤكد على من يكون له حق في الميراث، وهم الوالدان والأقربون إضافة للذين عقدت أيمانكم.

فمن هم الذين عقدت أيمانكم؟ أو الذين عُقدت لهم الأيمان؟

سنحاول التعرف على المعنى بعيداً عن تخاريف المفسرين والذين قالوا إن المقصود بهم (من بيننا وبينهم أحلاف من قبائل أخرى) وهذا مستحيل، لأن الميراث يكون للأقارب من النسب أو الزواج فقط، ولا علاقة له بأعراف جاهلية وأحلاف قبلية.

ولكي نعرف المعنى علينا التعرف على ما تعنيه "الأيمان" التي وردت في الآية.

يقول تعالى: إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٩٠) وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(٩٢) النحل.

الأيمان وردت هنا بمعنى العهد والميثاق الذي قطعه المسلم على نفسه مع الله بالدخول في الإسلام.

ويكون معنى عقد اليمين هو أن يقطع المرء على نفسه عهداً وميثاقاً.

وامتلاك الرقيق سواء كان أمة أو عبداً كان يتم على شكل صفقة تجارية كأي صفقة بيع وشراء. ولا يدخل فيها عهد وميثاق، ولا تعقد لها الأيمان.

ولو أخذنا بهذا فإن ملك اليمين تعني امتلاكاً بموجب يمين أو بموجب عهد وميثاق. وهذا يُخرج معنى «ملك اليمين» من أن تكون الأمة أو العبد.

ويكون الأشخاص الذين يمكن أن نطلق عليهم «ملك يمين» هم من بيننا وبينهم عهد وميثاق. والعهد والميثاق ليس لتملكهم لأن تملك الرقيق لا يحتاج من السيد أن يعقد عهداً مع الرقيق لكي يصبح ملكاً له.

يقول تعالى في سورة النساء: وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا(٢١).

يفهم من الآية أن الزواج ميثاق وعهد بين الزوج والزوجة. وهذا الميثاق هو ذلك الاتفاق على الزواج بينهما بقبول وإيجاب قبل دخول الزوج بزوجته، والذي أطلقت عليه الآية: «إفضاء الزوجين بعضهما لبعض» أي الخلوة والمعاشرة الزوجية.

وبمفهومنا الحالي، فالدخلة هي إفضاء الزوج لزوجته والزوجة لزوجها.

أما العهد والميثاق بين الزوجين فهو اتفاق بين الرجل والمرأة على الزواج. وهو الذي يسبق الإفضاء بفترة تطول وتقصر حسب العرف وظروف الزوجين.

وبناءً على ما تقدم، يكون معنى ملك اليمين هو من بيننا وبينهم عهد وميثاق بالزواج. أي من قبل الزواج بنا وقبلنا الزواج به، وليس ما نملكه من رقيق وإماء.

ويكون كل ما ورد في القرآن مصطلح «ملك اليمين" فالمقصود به الخطيب والخطيبة اللذين اتفقا على الزواج ولم يدخلا بعد.

وتأتي سورة النور لتقول: وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢).

والآية تحث على نكاح الأيامى والإماء. أي الحث على أن تتزوج المرأة المسلمة بعبدها الصالح (والصالحين من عبادكم) ويتزوج الرجل المسلم بأمته. ولا يوجد ذكر للتسري،

في آيات القرآن.

والآية التي تلت تؤكد على العفة لمن لا يستطيع النكاح: وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ.... (٣٣).

وتستمر نفس الآية لتوضح المقصود بها ملكت أيمانكم: وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ .... (٣٣).

الآية تقول لو أن أحدكم كاتب امرأة للزواج (خطبة) وأرادت المرأة أن تتم الملكة (عهد وميثاق بالموافقة على الزواج)، فعلى الرجل أن يكاتبهن ويدفع لهن الصداق مما أتاه الله من مال[1].

والخلاصة أن ملك اليمين في القرآن تعني بالنسبة للرجل من بينه وبينها اتفاق وموافقة على الزواج لكن لم يدخل بها بعد.

في المقابل، القرآن يخلو من أي إشارة تبيح الاتصال الجنسي خارج الزواج. سواء كانت المرأة حرة أو كانت أمة. لأن استرقاقها لا يخرجها من الإنسانية، ولكنه ظلم وقع عليها من متسلط. ووطء الحيوان فاحشة من الفواحش وكبيرة. فكيف يتصور أن يكون في القرآن إباحة لوطء المسلوبة على أمرها من البشر.

وكالعادة استغل المتنفذون ورجال الدين تأويلات كتب التراث وتقولها على الله، وتوسعوا في متعهم الجنسية الحرام تحت غطاء ديني.

---

1 بقية الآية تتحدث عن موضوع آخر وأناس آخرين: وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣٣) النور. والآية تقول: بأن هناك من يكره فتياته على البغاء للكسب المالي. والمفسرون اعتبروا الآية تخاطب رجالاً من المسلمين، سواء كانوا من الأنصار أو عبد الله ابن أبي. وكلامهم ليس قطعياً حتى لو ترسخ وأخذ به المستشرقون واعتبروه دليلاً على أن الإسلام يبيح ليس فقط ممارسة الزنا مع الإماء ولكن فتح مواخير للكسب المادي من البغاء. وسورة النور التي من آياتها هذه الآية نزلت خصيصاً لتقضي على أي تصرف يؤدي للزنا أو يقرب منه، من ذلك تحريم الزواج بالزاني والزانية: الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣). ووضعت ضوابط متشددة للنساء والرجال لدرجة تحريم إظهار الزينة للرجال الأجانب ووجوب غض النظر من الرجل للمرأة والعكس وتحريم الملاطفة المؤدية للتفكير بالزنا وغيرها من الضوابط المتشددة. فهل يعقل أن تأتي بعد ذلك وتقول: لو سمحتم أيها المسلمون لا تجبروا فتياتكم اللاتي يردن التعفف على البغاء. واكتفوا بمن ترغب في ذلك. قطعاً لا. ونقول لكتب التراث والمستشرقين والمبطلين: حتى لو كان القرآن كتبه الرسول فلن يفوته هذا التناقض الذي سيفطن له حتى أغبى الناس. ولو فطن له الناس لتكلموا واعترضوا ولكن لم يحدث شيء من هذا القبيل في حياة الرسول، لأن الناس فهموا أن الآية تخاطب غير المسلمين في يثرب (سواء كانوا من أهل الكتاب أو من غيرهم) كانوا هم من يجبر فتياته على البغاء. ولذا تقول الآية مخاطبة تعيسات الحظ: بأن الله غفور رحيم لمن تاب منهن وأسلم. ومن أسلم منهن فلن يتمكن سيدها من مواصلة إجبارها على البغاء بل ولن يستطيع أن يمارس هو معها الزنا. ولما ازدهر عصر اختلاق القصص وكتابة كتب التراث لم يجد المفسرون غضاضة في لي معنى الآية كيفما يريدون ونسبوها لبعض رجال الأنصار ولعبد الله ابن أبي في وقت قد مضى على عصر الرسول مئات السنين ولم يعد ممكنا سؤال أهله عما حدث.

التعدد

للحديث عن التعدد لابد من تذكر الحقائق التالية:

١. مراعاة أسلوب القرآن وأنه أحياناً لا يبدأ الموضوع من أوله.

٢. مراعاة أن القرآن قد يتحدث عن موضوع ثم يتركه ويتحدث عن مواضيع أخرى ثم يعود للموضوع الأول.

٣. وأن الحديث عن التعدد في القرآن جاء عرضاً ضمن الحديث عن وجوب معاملة المرأة اليتيم معاملة إنسانية وحفظ حقوقها.

٤. أن الحديث عن حقوق اليتامى ليس حديثاً افتراضياً، بل هو تفاعلي مع ما يحدث. فالناس حين نزول السورة اعتادوا هضم حقوق اليتامى وأكل أموالهم بسبل شتى، من بينها الزواج باليتيمة للاستيلاء على مالها.

وبناءً عليه فالحديث عن حقوق اليتيم يبدأ من أول سورة النساء: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نفس واحدة وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً(١).

والخطاب موجه للمسلمين زمن الرسول ليقول لهم إن كل الناس متساوون في الإنسانية فقيرهم وغنيهم أسودهم وأبيضهم، يتيمهم ومن له أبوان، رجالهم ونساؤهم، وليس هناك من هو أدنى إنسانية من غيره. وهذه الآية مقدمة للحديث عن اليتامى، الذين كان ينظر لهم على أنهم أقل إنسانية من غيرهم. لدرجة اعتاد الناس على الاستيلاء على أموالهم ومعاملتهم بمهانة: وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء اللاَّتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً(١٢٧).

وتوجب السورة حفظ مال اليتامى: وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً(٢).

فالزواج من اليتيمة بغرض الاستيلاء على مالها يجب أن يتوقف لأنه لا يجوز. إذاً، الزواج باليتامى من أجل الاستيلاء على أموالهن هو الدافع للحديث عنهن، وتشريع قوانين تحق

حقوقهن وتحفظها. ومن ذلك منع الزواج باليتيمة ما لم يكن هناك ضمانات موثقة من أن الزوج سيعاملها معاملة إنسانية كاملة وألا يتعرض لمالها. فإن لم تتحقق هذه الضمانات فلا يجوز الزواج باليتيمة، وعلى من سعى للزواج باليتيمة أن يبحث عن الزواج بغيرها وبالعدد الذي يريد: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ ... (٣).

فالحديث عن الزواج باليتامى من أجل مالهن ومن يخاف على نفسه أن يمد يده لمال اليتيمة فلا يجوز له الزواج بها، وليتزوج بغيرها. وهنا تقول له السورة: تزوج ما تشاء من النساء غيرها واحدة، ثنتين، ثلاثاً، أربعاً، ... أي بأي عدد من النساء تشاء.

وكما هو واضح فالحديث هنا ليس عن التعدد.

ثم تواصل هذه الآية لتقول: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ(٣).

على كل من يرغب الزواج بأكثر من امرأة أن يعدل، ومن لا يمكنه العدل فلا يجوز له الزواج بأكثر من واحدة. وليس العدل توفير الماديات بين الزوجات بالتساوي، بحيث يشتري لكل واحدة من الأغراض والملابس والسكن ما للأخرى أو الأخريات – كما سبق وذكر – بل العدل يعني ضد الظلم ويشمل المعنويات والمشاعر وكل شيء. والتأكد من تحقق العدل لا يكون بالسماح بالزواج بامرأة ثانية فإن لم يتمكن الزوج من العدل بين الزوجتين يمكنه أن يطلق إحداهما. فهذا ظلم مركب وإضرار لم يأمر به الله.

ولكن العدل يبدأ قبل الزواج بالثانية وذلك بعدم وقوع أي ظلم على الزوجة الأولى.

فهجرها ظلم، والتضييق عليها ظلم، وعدم رضاها بزواج زوجها بأخرى ظلم.

ويكون بداية العدل هو ضمان رضى الزوجة أن يتزوج زوجها امرأة ثانية، فإن لم ترض فقد وقع الظلم وانتفى العدل اللازم للزواج بأكثر من واحدة. ولو تزوج رجل بامرأة أخرى دون رضى الأولى فقد أوقع عليها الظلم وخالف أمر الله الذي تنص عليه الآية.

(وهذا يعني أن أي زواج سري باطل، لأنه لا يحقق العدل للزوجة الأولى)

وتقول الآية: أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ(٣).

كل من لا يستطيع العدل عليه أن يكتفي بواحدة أو الاكتفاء بالزواج بملك اليمين[1].

والآية (٢٠) من سورة النساء تؤكد أن الزواج يجب أن يكون بامرأة واحدة: وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا.

فالآية تذكر استبدال زوج مكان زوج، بما يوحي بأنه ليس هناك سوى امرأة واحدة لرجل واحد في وقت واحد.

وبرغم أن القرآن جاء صريحاً بالاقتصار على زوجة واحدة، إلا أن المسلمين تناسوا ذلك، واستمر الزواج بأربع، كما استمر الطلاق بيسر وسهولة، بل واستطاع الرجل المسلم (العربي) أن يغلف ممارسته تلك بغلاف يبدو وكأنه من دين الله. فاستحدث زواج المتعة، والمسيار، والمسيار، والصداقة، ومسميات أخرى كلها زنا، ولو عقد لها مأذون أنكحة بيده قرآن.

وللعلم فالقرآن المجيد هو الكتاب الديني الوحيد الموجود على سطح الأرض، الذي ينص على أن الزواج يكون بواحدة فقط: " فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ".

وهنا أود أن أعرج ولو باختصار على موضوع له علاقة بالتعدد، وهو:

جمع الرسول لعدد من الزوجات في وقت واحد

فالرسول قد جمع عدداً من النساء في وقت واحد (وهناك فصل كامل في أحسن القصص يتحدث عن زوجاته عليه الصلاة والسلام)، ومع ذلك لم ير أعداء الرسول من أهل مكة ويثرب وغيرها أن الرسول قد فعل ما يوجب النقد. ولم يقولوا إنه تزوج بعدد من النساء لأنه استغل دعوته لتحقيق ذلك، لأن الزواج بأكثر من واحدة في عرف ذلك الوقت لم يكن خروجاً عن المألوف، ويمكن لأي رجل أن يفعله.

وبما أن الرسول بشر مثل غيره من البشر ويعيش في ذلك المجتمع فقد جمع ثلاثاً من النساء فقط وليس عشراً أو عشرين كما تقول كتب التراث، وكان ذلك مباحاً في معظم أيام بعثته عليه الصلاة والسلام. ثم حرم على الرسول الحصول على المزيد من الزوجات، وهو ما

---

١ انظر فقرة ملك اليمين.

ذكرته الآية (٥٢) في سورة الأحزاب: لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا.

لا يحل للرسول زواج جديد ولا يحل له تطليق واحدة ليتزوج بديلاً لها. وهذه الحقيقة لا يتداولها رجال الدين ولا يحدثون بها في مجالس قصصهم وأمام أتباعهم.

أما لماذا لم يؤمر الرسول بالاكتفاء بواحدة؟ فهذا يعود إلى أن نساء الرسول اللاتي بقين معه حتى آخر حياته هن من اخترن العيش معه وتركن كل متع الدنيا من أجل ذلك بعد أن خيرتهن الآيتان (٢٨-٢٩) من سورة الأحزاب، بالبقاء والصبر على شظف العيش وبين الطلاق والتمتع بالدنيا: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا. وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا.

وطلاقهن بعد ذلك لن يبدو مكافأة مناسبة لصبرهن.

وقد كافأهن الله سبحانه بثواب عظيم في الآخرة وبنيشان دنيوي تمثل بتلقيبهن أمهات المؤمنين، وبذلك حرم على الرجال الزواج بهن بعد الرسول: النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا(٦) الأحزاب.

ولأنهن فضلن البقاء مع الرسول على متع الدنيا فكان من حقهن أن يؤمر الرسول على الإبقاء عليهن ومُنع من طلاقهن أو إحداهن، كما منع من التزوج عليهن بنساء أخريات.

ونأتي الآن للحديث عن قوله تعالى في سورة النساء: وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا(١٢٩) النساء.

لأن هذه الآية يستشهد بها من يتزوج بأكثر من واحدة زاعمين أن الله يقرر أن الرجل لا يستطيع أن يعدل بين الزوجات لكن عليه أن يحاول قدر المستطاع.

وهذا تقويل لله ما لم يقل، لأن هذه الآية لا علاقة لها بالعدل بين الزوجات. وسنعيد قراءة الآية بسياقها ليتضح المعنى.

يقول تعالى: وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا

صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا(١٢٨) وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا. وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا(١٢٩) النساء.

فالعرب يبدو أنهم لم يصدقوا أن القرآن قد جاء في أول سورة النساء ليقول بأن اليتيم ولو كان امرأة، لها حقوق موازية لكل فرد آخر في المجتمع، ومساوية لحقوق وكيلها الرجل. وأن للمرأة الحق برفض الزوج أو الامتناع عن معاشرة الرجل، وأن للمرأة حقوقاً مثلما له تماماً. فجاءت هذه الآيات لتؤكده.

والعدل الوارد في الآية: وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا. جاء بعد الآية رقم: (١٢٨) التي لا تتحدث عن العدل بين زوجتين وأكثر في اللبس والسكن والمآكل.. الخ، ولكنها تقول إن من حق الزوجة على الزوج ألا يهجرها زوجها ولا يتصرف معها بغلظة، وأن على الرجل معاملة زوجته بإنسانية ليس تفضلاً منه ولكن لأن ذلك من ضمن حقوقها التي ضمنها لها الإسلام، والتي تتعارض مع ما كان سائداً في ذلك العصر. فإن استحالت العشرة بينهما لتعنت كل جانب بموقفه (وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ) فالطلاق هو الحل الأمثل. فيكون معنى العدل في الآية: (١٢٩) هو إحقاق حقوق المرأة وعدم هضم حقوقها، ولكن بما أن المخاطب في الآية هم المسلمون زمن الرسول الذين اعتادوا التعامل مع الزوجة بجفاء وظلم، فمهما حرصوا على العدل كاستجابة لشرع الله فسيغلب الطبع الذي تطبعوا عليه خلال تاريخهم الطويل في معاملة المرأة على ما يحاول القرآن تطبيعهم عليه من وضع تعاملي جديد، ولذلك فالمطلوب منهم في تلك المرحلة الحرص على تذكر شرع الله الجديد وأن يتراجعوا قدر الإمكان كلما ظلموا المرأة أو قسوا عليها إن كانوا يتقون الله وأن يصلحوا ويعدلوا ما أفسده ظلمهم لها: وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا.

أما بعد عصر الرسول وبعد أن تترسخ ثقافة القرآن، وبعد أن يصبح لدولة الإسلام دستور مستمد من القرآن، فيجب أن تنص فقراته على أن تعامل المرأة بكل عدل مع الرجل، ولا

يسمح بأي تجاوزات في هذا المجال.

وتختم الموضوع الآية: (١٣٠) بالقول بأنه إن لم تنفع الحلول الوسط، ولم يستطع الرجل العدل في تعامله مع زوجته، فالطلاق هو الحل المثالي لهما: وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللهُ وَاسِعًا حَكِيمًا.

وهكذا منعت سورة الأحزاب على الرسول الزواج أو الطلاق في آخر أيامه، كما منعت بداية سورة النساء بقية الناس من التعدد، إلا بشرط العدل المطلق، والذي لا يمكن الوفاء به في الظروف العادية. كما منعت الآيات (١٢٧–١٣٠) من سورة النساء أن تعامل المرأة بأقل مما يعامل به الرجل في كل شيء، ومن ذلك أن لها حق الطلاق من زوجها كحق مماثل لحقه في طلاقها.

وكل أمر في القرآن أو نهي هو حد من حدود الله التي نهى الله عن المساس بها: تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ. (جزء من الآية ١٨٧ من سورة البقرة)

وإذا أمر الله بأمر فليس للناس أن يصنفوا العمل به إلى واجب ومستحب وجائز، لأن أي أمر ورد في القرآن فيجب العمل به: وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً(٣٦) الأحزاب.

ويكون الإسلام لم يأمر بالتعدد لأن التعدد كان موجوداً قبل مجيئه، ولم يحدد عدد النساء اللاتي يمكن أن يتزوج بهن الرجل حتى لو زاد على الأربع أو التسع، ولكن الإسلام وضع شرطاً صارماً للزواج بأكثر من امرأة واحدة، من النادر تجاوزه.

ونكرر أن المنع جاء كعمل احترازي لمنع ظلم قد يقع، وليس علاجاً للظلم بعد وقوعه، بمعنى أن الزواج بأكثر من واحدة يمنع حتى لا يقع الرجل في الظلم، وليس المعنى أن يعطى الرجل فرصة للتعدد فإن ظلم إحدى زوجاته أو فرق في تعامله مع أبنائه أجبر على الاكتفاء بواحدة.

كما صحح الإسلام النظرة إلى المرأة من مخلوق جالب للعار وليس له من المشاعر ما يستحق المراعاة، إلى إنسان سوي مثله مثل الرجل سواء بسواء، ولا ينقص اختلاف جنس المرأة من قيمتها الإنسانية وحقوقها شيئاً.

ولو قدر وجاءت دولة إسلامية عصرية بعد الرسول، تعتمد على دستور مكتوب، لوجدنا في دستورها فقرة في قانون الأحوال الشخصية تنص على أن الزواج بأكثر من واحدة ممنوع، إلا برضى الزوجة. وهناك من النساء من لا تمانع أن تشاركها زوجة أخرى بينما هناك نساء لو تزوج عليها زوجها فقد سحق كرامتها وحولها إلى ركام.

وسينص الدستور على أن الرجل والمرأة شريكان متساويان في مؤسسة الزواج لكل واحد من الحقوق والواجبات ما للآخر دون تمييز[1].

لماذا فرض جلد الزاني والزانية

تحريم الزنا فرض في مكة، وفي سورة بني إسرائيل تحديداً: وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً(٣٢).

وجاء التأكيد على التحريم والتذكير به في سورة مكية أخرى هي الفرقان: وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً(٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً(٦٩).

فلماذا نزلت سورة النور بعد سنوات في المدينة لتفرض عقوبة دنيوية تتمثل بجلد الزناة، مع أن من يقترف الزنا سيلقى آثاماً في الآخرة وسيخلد في النار لو أصر على هذه المعصية ولم يقلع مباشرة ويتوب، كأي كبيرة أخرى؟

ومع أن المرتد نفسه لا يجلد في القرآن، وليس له عقوبة دنيوية، برغم أنه خالد في النار، وكذلك من يشرب الخمر أو يأكل الخنزير أو الربا أو الميتة... لا عقوبة دنيوية.

الجواب حمله لنا سورتا الأحزاب والنور، وإليكم القصة كاملة:

برغم هزيمة المسلمين في أحد نتيجة لخطأ تكتيكي أثناء المعركة، إلا أن قريشاً عرفت أن قوة المسلمين تزداد مع الأيام بينما قوتهم تضعف. ولابد من القضاء على المسلمين قبل أن يهاجموا قريشاً في عقر دارهم.

وكتب التاريخ والسير تتحدث عن لقاء بين أبي سفيان ووفد من قريش بهرقل –عظيم الروم – في إيليا (القدس الحالية)، وتقول هذه الأخبار إن أبا سفيان قد امتدح الرسول في

---

[1] يمكن مراجعة موضوع القوامة.

تلك المقابلة، وهذا يستحيل أن يكون قد حدث. لأن أبا سفيان وكل كبراء قريش أعداء للإسلام ويسعون للقضاء التام عليه وتشويه سمعة محمد.

ولعل اللقاء قد حدث بين قيصر ورجال من قريش على رأسهم أبو سفيان، الذين قدموا لطلب معاونة الروم للقضاء على المسلمين، بحجة أن وجودهم في يثرب يشكل خطراً على إمدادات الروم من البخور والتوابل واللبان الذي تنقله قريش من بحر العرب جنوب الجزيرة.

وقد علم المسلمون بتحركات قريش وسفر أبي سفيان والوفد المرافق له للقاء هرقل. وقد يكون الرسول أرسل وفداً وخطاباً لهرقل يشرح له دعوته ولماذا تحاربه قريش، لعله يثنيه عن معاونتهم. وهو الخطاب الذي حور الإخباريون نصه وكأنه خطاب من محمد لهرقل يدعوه فيه للإسلام. لأنه من الصعب تصور أن يقوم الرسول بإرسال خطابات للروم والفرس وهو بالكاد يسيطر على المدينة التي لا تمثل إلا بقعة محدودة جداً من يثرب، ومحاطة بقبائل وثنية، ويبعدها حواضر وثنية ومن بني إسرائيل وغيرهم، أقرب من الفرس والروم، على الرسول أن يدعوهم أولاً، ولو آمنوا ووصل الإسلام لحدود تلك الدولتين العظميين، حينها سيكون بإمكان الرسول مراسلة قيصر وكسرى، ودعوتهما للإسلام، ولكن ليس قبل ذلك.

وعاد وفد الرسول مسرعاً للمدينة ليخبرهم أن هرقل وافق على نجدة قريش وأنه أمر بإعداد جيش عرمرم للقضاء على المسلمين. وهو ما أدخل الرعب في قلوبهم وزلزل الأرض من تحت أرجلهم، وفي نفس الوقت كان لديهم الوقت الكافي لحفر الخندق قبل وصول جيش الروم.

وقد تحدثت سورة الأحزاب عن تلك الحملة، ووصفت الخوف الهائل الذي أصاب المسلمين عندما علموا أن جيشاً من الروم قادم لحربهم مع قريش: : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً(٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا(١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً(١١)﴾.

وهذا الرعب لا يمكن أن يكون نتيجة لتجمع بعض قبائل جزيرة العرب مع قريش، كما

تقول كتب الأخبار. لأن محاربتهم ممكنة بالنسبة للمسلمين، وقد استعانت قريش ببعض القبائل في غزوة أحد، ولم يشعر المسلمون بالهلع.

لكن أن يتجه إليهم جيش رومي فهذا أمر مختلف. ذلك أن جيش الروم كثير العدد ومجهز بعدة وعتاد لا قبل للعرب به، وهو ما أقلق المسلمين ووصفته السورة بدقة. كما أن حفر الخندق دلالة على أن المسلمين متيقنون أنه لا قبل لهم بالجيش الغازي، وأن عليهم أن يحموا المدينة بطريقة أكثر فاعلية من القتال.

ولأن جيش الروم سيحتاج لأسابيع ليصل للمدينة فقد استطاع المسلمون حفر خندق يصل طوله ٥٠٠٠ ذراع (٢٥٠٠متر) وعرض تسعة أذرع وعمق سبعة إلى عشرة أذرع، كما ذكر الواقدي في المغازي.

واحتاج الحفر لجهود كل رجل يعلن إسلامه في المدينة، وكانوا يبيتون في مكان العمل، نظراً لبعد الخندق عن المدينة.

وقد تسبب هذا بوقوع أحداث في المدينة، أخبرتنا بها سورة الأحزاب وسورة النور التي تلتها في النزول وأكملت الحديث عن نفس المواضيع.

وسبب تلك الأحداث أنه أثناء حفر الخندق أعلنت فئة من المنافقين أنها مضطرة للعودة للمدينة (سواء للمبيت هناك فقط أو عودة نهائية)، وبحجة ذكرتها آيات سورة الأحزاب: وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً(١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً(١٣).

وبقاؤهم في المدينة تسبب في إحداث مشاكل سنبينها فيما بعد، وقد أشارت لها السورة كما يلي:

الحدث الأول: شيء قاله الكافرون والمنافقون والآيات تنزل لتحذر الرسول من الاستماع له والتصديق به: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً(١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً(٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً(٣).

وهو ما أكدته السورة في آية لاحقة: (وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى

اللهَ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً(٤٨).

فما الذي كان يقوله الكفار والمنافقون وصدقه الرسول؟

الحدث الثاني: تتحدث السورة عن نساء النبي وتشريع ضوابط عليهن التقيد بها: (يا أَيُّها النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً(٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً(٢٩) يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً(٣٠) وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ للهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً(٣١) يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً(٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً(٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً(٣٤).

ما هو السبب في أن تُخير نساء النبي بين التمتع بالدنيا وسيطلقهن الرسول أو اختيار الآخرة والالتزام بضوابط صارمة: عدم الخروج من المنزل، تلاوة القرآن، عدم التبرج والتزين ...الخ.

لماذا يحذرن من الزنا، وأن من تزني منهن فسيكون عقابها ضعف عقاب أي امرأة مسلمة أخرى ليست زوجة للرسول، لأنهن لو لاكت سمعتهن الألسن فسيكون هذا مجالاً لشن حرب معنوية على الإسلام والرسول من قبل الأعداء. وسيؤثر على مسار الدعوة لله ودخول الناس في الإسلام.

فما الذي حدث لكي يتم تحذيرهن من الزنا؟

خاصة أن سور القرآن لا تفترض مواقف أو أحداثاً لم تقع ثم تبني عليها تشريعات أو أوامر.

الحدث الثالث: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ

مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً(٥٣) إِن تبدو شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً(٥٤) لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً(٥٥)

هذه الآيات تنهى عن دخول بيوت (حجرات الرسول) بدون إذن.

يعني أنه قد حدث أن دخل مسلمون لبيوت الرسول بدون إذن واطلعوا على زوجات الرسول وهن متحللات من ملابسهن. والنهي لكي لا يتكرر رؤيتهن (ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ).

وإن كان ولابد من الحديث معهن فقفوا بالخارج حتى يكون الجدار حاجبا بينكم وبينهن، أما الدخول بغتة وإطلاعكم على ما تكشف من أجسادهن فلا يجوز.

كما أنه يؤذي مشاعر الرسول ويضايقه (ويبدو أن الرسول كتم مشاعره لئلا يزعج أصحابه).

وما حدث هنا كان مناسبة لفرض تحريم زواج الرجال بزوجات الرسول بعده، لكي لا يفكر أحد بالتسلل للنظر إليهن. وتقول الآيات إن تلك الأفكار التي تراود الذين يتحينون الفرص لغياب الرسول ويدخلون بيوته دون استئذان طمعاً في الاطلاع على عورات نسائه، يعلمه الله ولو أنه مجرد تفكير.

وتؤكد السورة في آية لاحقة أن تلك التصرفات تؤذي مشاعر الرسول: (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً(٥٧).

الحدث الرابع: تقول السورة إن هناك أذى مماثلاً حصل لزوجات بعض المسلمين: (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً(٥٨).

فالرجال الذين كانوا يجوبون طرقات المدينة ويتسللون لبيوت الرسول فجأة ودون استئذان، كانوا أيضاً يتسللون لأي بيت ممكن دون استئذان وليس فقط بيوت الرسول، وهذه الظاهرة عمت المدينة.

هنا يمكننا القول إن المنافقين الذين استأذنوا الرسول للعودة للمدينة وترك حفر الخندق – بحجة أن بيوتهم عورة – هم من عاث في طرقات المدينة فساداً، مستغلين خلوها من

الرجال.

وبما أن السورة نزلت بعد فشل حملة الأحزاب وعودة رجال المسلمين للمدينة، إلا أن ظاهرة مطاردة النساء ودخول البيوت خلسة لم تتوقف، والدليل أن تلك التصرفات كانت تتم تحت سمع وبصر المسلمين وكانت تؤذي الرسول.

فجاء تخيير نساء الرسول بأحد أمرين إما التزام أقصى حدود الحشمة (كما بينت الآية) أو تسريحهن، لأن تسامحهن وتبسطهن في الحديث مع الرجال، يعطي من في قلبه مرض انطباعا أنهن لا يمانعن الفاحشة، حتى لو أنهن بريئات. كما يفتح الباب على مصراعيه لأن يتقول عليهن من بقلبه مرض وينشر إشاعات كاذبة عنهن أنهن قلن كلاما لم يقلنه أو تصرفن تصرفاً لم يصدر منهن. وبحكم أن سمعة رسول الله هامة لنشر الدعوة فلا تساهل في هذا المجال. لذا فرض عليهن ضوابط للحشمة يجب عليهن التقيد والالتزام بها، ليقطعن دابر الإشاعات وليكن قدوة لكل نساء المسلمين اللاتي تعرضن لنفس المضايقات التي تعرضت له نساء النبي: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً(٥٩).

والكلام الذي قد يكون بعضه صدقه الرسول هو تلك الإشاعات الكاذبة التي كان يطلقها المنافقون والذين في قلوبهم مرض عن نساء المدينة.

وتفرض السورة عقاباً لأولئك العابثين مرضى القلوب: لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً(٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً(٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً(٦٢).

إذا لم يتوقفوا عن عبثهم فوراً فيجب نفيهم: لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً.

ومن لم يقبل بالنفي فيجب قتلهم: مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً.

((وهذا الحكم ساري المفعول في أي زمان، فكل من يعمل على إشاعة الفاحشة بأي وسيلة في المجتمع المسلم فيجب نفيه، فإن استمر يشيع الفاحشة وهو في منفاه فيجب قتله)).

وتواصل السورة لتؤكد على المسلمين أن يتقوا الله ولا يقولوا إلا أقوالا سديدة (أي بعيدة عن تناقل الإشاعات الكاذبة التي يطلقها من في قلوبهم مرض على النساء): (يا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً(٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً(٧١).

فمرضى القلوب لم يكتفوا بملاحقة النساء والتسلل للبيوت، بل وأطلقوا الإشاعات الكاذبة عن أن بعضهن مارسن الفاحشة معهم أو أنهن لا يمانعن .....الخ.

وتواصل سورة النور – التي تلت الأحزاب في النزول- فرض ضوابط فرضتها الأحداث التي نتجت عن ممارسات مرضى القلوب.

تبدأ سورة النور بالقول أنها نزلت لمعالجة ظروف طارئة: سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(١).

فالمجتمع المسلم المدني يعاني من نتائج ممارسات مرضى القلوب ولابد من وضع ضوابط صارمة ليس فقط تجتث تلك الظواهر وتعيد المجتمع لحالته الطبيعية، بل وتضمن حماية المجتمع من تكرار حدوث مثل تلك الممارسات.

ومن الآيات (الضوابط) التي فرضتها الآية للقضاء على تلك الظاهرة التي عمت أرجاء المدينة:

(١) كل من ثبت عليه الزنا من رجل أو امرأة يجلد: (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ(٢).

(٢) كل من يكرر الزنا فلا يجوز للمسلمين الزواج به أو بها: الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ(٣).

لأن كل من يواصل اقتراف أي كبيرة وهو يعلم بتحريمها فلن تقبل توبته وبالتالي فهو خالد في النار ولو بقي ينتسب للإسلام (يمكن مراجعة شروط قبول التوبة).

وعليه فالزاني لا يجوز أن ينكح مسلمة والزانية لا يجوز أن تنكح مسلماً.

وهذا يعني عزل الزناة عن المجتمع المسلم عزلاً يعذبهم معنوياً، وكأنهم مصابون بمرض قاتل شديد العدوى.

(٣) فيما سبق ذكرنا أن مرضى القلوب أشاعوا الإشاعات الكاذبة عن بعض نساء المدينة،

فرضت السورة حكماً بحق كل من يروج أن تصدر منه إشاعة كاذبة تتهم امرأة بالزنا: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥).

فكل من يتهم امرأة بالزنا فعليه أن يحضر أربعة شهود يؤكدون زعمه، وإلا فليجلد ثمانين جلدة، ولا تقبل لهم شهادة أبداً. وهذا نوع آخر من عزلهم عن المجتمع كعذاب مستمر لهم. إلا من تاب.

((هنا يجب أن نشير إلى ما رسخه الفقه الموروث أن الزنا يثبت بأربعة شهود يؤكدون دخول الميل بالمكحلة. وكأن هذا ما تقصده الآية. والحقيقة أن رؤية الميل بالمكحلة مستحيل، كما أن الآية لم تقصده. الآية تقول إن الشهود مطلوبون في حال أشاع رجل أن امرأة بعينها تمارس الزنا. وفي هذه الحالة عليه أن يحضر أربعة شهود معه يؤكدون بطريقة لا تقبل الجدل أن المرأة تزني. والتأكد من صحة أقوال الشهود من عدمه لا يقاس برؤيتهم الميل بالمكحلة، بل بما يقدمونه من أدلة وقرائن)).

(٤) كل من يتهم زوجه بالزنا بدون دليل وقرينة فلابد من اللجوء لهذه الإجراءات: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاء إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ(٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَيَدْرَأُ(٧) عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ(٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٩).

ولو حدثت الملاعنة فيفرق بينهما ويعتبر الزواج لاغياً.

(٥) ثم تواصل السورة الحديث عما حصل في المدينة وما اجتاح المجتمع نتيجة لممارسات مرضى القلوب وما أشاعوه من أكاذيب بحق النساء وتصديق بعض الرجال لما وصلهم لدرجة اتهام أزواجهم: (إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١١).

تقول الآية إنه رب ضارة نافعة. صحيح أن ما حدث كان مزعجاً وتسبب بمشاكل اجتماعية، لكنه كان سببا في نزول ضوابط تمنع حدوث ما حدث مرة أخرى، وهذا خير.

ثم تعود الآيات لمخاطبة المسلمين، الذين تناقلوا الإشاعات دون أن يتحققوا من صحتها، وتذكرهم بما كان يجب عليهم أن يفعلوه عندما سمعوا تلك الإشاعات الكاذبة عن نسائهم: (لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ(١٢) لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ(١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ(١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ(١٦) يَعِظُكُمُ اللهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(١٧) وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(١٨).

فلو أنهم أحسنوا الظن بأنفسهم ونسائهم، لقالوا لكل من يتكلم عن النساء بأن يؤكد كلامه بشهود أو أن كلامه مرفوض. لكنكم استمعتم لتلك الإشاعات، بل وتناقلتموها، في وقت كان يجب عليكم أن تقولوا: مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ.

وتحرم الآيات العودة لتناقل مثل تلك الإشاعات والخوض في أعراض الناس تحريماً قاطعاً.

ثم توجه الآيات الحديث إلى مرضى القلوب الذين كانوا السبب وراء ما حدث: (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ(٢٠).

وتعود لتحذير المسلمين مرة أخرى في الخوض في أعراض الناس، خاصة أن ما قد يقترفه شخص قد يقترفه شخص آخر ولا أحد معصوم، فكيف ننتقد تصرفاً قد نتصرف مثله نحن: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢١).

إذاً، حكم الزنا حرام لو حدث بين شخصين في الخفاء. لكن لو أن الزنا أصبح ظاهرة فيجب جلد الزناة ومعاقبة كل من شجع على انتشاره في المجتمع بكل صرامة.

ويكون جلد الزاني حكماً يطبق في حالات معينة، وهو عقوبة دنيوية وليس تشريعاً دينياً، ويمكن للمسلمين استبداله بعقوبة أشد لو انتشرت ظاهرة التفسخ الأخلاقي. وعقوبة

الزناة والشواذ بكل قسوة، لتطهير المجتمع المسلم منهم. وتشمل العقوبات القاسية كل من عاون على انتشار الرذيلة بأي وسيلة متاحة. وفي عصرنا فإن أشد الوسائل تأثيراً هي وسائل الإعلام المرئية والمقروءة والمسموعة، وكلها تم استغلالها لتسميم أفكار الشباب من الجنسين ونشر الانحلال الأخلاقي، في حرب عاهرة ظاهرة على دين الله يجب أن تواجه بكل ما يلزم وبكل عقوبة للقضاء عليها.

وتكون سورة النور لا تقص علينا حادثة ألصقها سلف المحدثين والمفسرين والمؤرخين بأم المؤمنين عائشة، والتي ورثناها كواحدة من القصص المختلقة الكثيرة التي رسخها التراث ولم نعد نفهم من آيات القرآن غيرها.

العصبية القبلية دعوها فإنها منتنة

الخضيري والبيسري وألقاب أخرى لمن لا يعرفها لفظ للتنابز يطلق في جزيرة العرب على من لا ينتمي لقبيلة عربية. وعرب جزيرة العرب والعراق وأجزاء من الشام الذين يجعلون من الانتساب للقبيلة أولوية في حياتهم لا يزيدون عن أربعين مليون من أصل ٣٥٠ مليون عربي.

ولن نتحدث عن أصول هذه التسميات، ولا عن أن من ينتسب للقبيلة قد لا يكون منها وأن القبيلة لا تعني بالضرورة نسباً واحداً أو حتى نسباً معروفاً، مما بدأ يتضح مع ظهور أبحاث الحمض النووي، فغيرنا كتب وأطال في هذه المواضيع، إضافة إلى أنها لا تفيد موضوعنا بشيء.

ما سنتحدث عنه هو موقف قريش (القبيلة) من الدين، مقابل موقف الموالي والعبيد السابقين (الذين يمثلون الخضيري والبيسري في عصرنا) ولنتعرف على ما قاله الله جل شأنه في كتابه عن مواقف الفريقين.

لقد بدأت دعوة محمد عليه الصلاة والسلام في مكة وموجهة لقريش تلك القبيلة العريقة التي تنتمي للنبي إبراهيم. وكانت الموالي والعبيد السابقين هم من استجاب لدعوة الحق وشكلوا أغلبية المسلمين بينما أعرض عنها معظم أبناء القبيلة إلا نفراً قليلاً بعضهم اهتدى للحق وكفر بالقبيلة، وبعضهم أعلن إسلامه وأبقى على مفاخرته بالانتساب للقبيلة.

وهؤلاء وغيرهم من رجال القبيلة عرضوا على الرسول أن يطرد المستضعفين من الموالي (الخضيرية) وسيدخلون الإسلام، كونهم يعتبرون مساواتهم معهم إقلالاً وعيباً لهم.

فجاء الخطاب القرآني الموجه للرسول صارماً: وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ(٥٢) الأنعام.

فلو طردتهم يا محمد فستكون من الظالمين

والظالمون يقول الله إن مأواهم النار: لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ(٤١) الأعراف.

فالرسول لو اتبع رجال القبيلة على حساب الخضيرية فسيكون مصيره مصير الظالمين.

وفي المقابل تواصل السورة لتقول للرسول إنه يجب أن يعامل (الخضيرية) بكل احترام لأنهم هم من جعل الدين أولوية: وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥٤) وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ(٥٥) الأنعام

فما الذي حدث لرجال القبيلة الذين عرضوا على الرسول طرد الخضيرية؟

لقد ارتد البعض منهم كون القبيلة أهم شيء في حياته، أو كما يقول مثل عامي ساري المفعول حتى اليوم: النار ولا العار.

يعني أن يدخل القبيلي النار ولا يُعيّر في الدنيا.

القبيلي الذي طلب طرد الخضيرية لكي يسلم، لأنه ينظر لهم أنهم أقل إنسانية منه: كَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ(٥٣) الأنعام وبقي غالبية من دخل الإسلام من القبيلية يوالون القبيلة ويعتبرون النسب أهم من الدين برغم تحذير القرآن: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ(٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ(٤٣) العنكبوت.

ولكنهم لم يلتفتوا للتحذيرات القرآنية فتكرر التحذير: وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ(١١٣) هود.

واستمروا يعيرون المسلمين الخضيرية ويتفاخرون بقبليتهم فتكرر التحذير: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ(١٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(١٣).

ورجال القبيلة استمروا حتى بعد الهجرة في التفاخر بالقبيلة وتعيير من لا ينتسب لها، فكانوا يوالون الكفار من قبيلتهم ويعادون الخضيرية المسلمين: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ(١) الممتحنة.

ورجال القبيلة هم من حاول ثني عزم الرسول والمسلمين عن قتال رجال قبيلتهم في بدر: كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ(٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ(٦) الأنفال.

وقبل بدر نزلت سورة محمد التي تنص على عدم أسر الكفار بل قتلهم لإثخانهم وإضعاف قوتهم: فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ(٤) محمد.

هذا القانون الإلهي عمل رجال القبيلة (قريش) على مخالفته في معركة بدر، فقد فضلوا أسر أقاربهم الكفار لكي لا يقتلوا: مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٦٧) لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٦٨) فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ

رَّحِيمٌ(٦٩) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٧٠) وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٧١) الأنفال.

ورجال القبيلة هم من تسبب في هزيمة المسلمين في معركة أحد. ذلك أن المسلمين انتصروا في البداية وهرب المشركون ولما حاول المسلمون اللحاق بهم وإثخانهم بزيادة القتل اعترضهم رجال القبيلة الذين يوالون أقاربهم الكفار وحصلت مشادة بين الفريقين تسببت في بلبلة الصفوف استغلتها قريش الكافرة وكرت على المسلمين وهزمتهم: وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ(١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غُمَّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) آل عمران.

واستمر رجال القبيلة بموالاة قبيلتهم المشركة حتى توفي رسول الله، وهو ما تظهره سورة براءة التي كانت من أواخر السور التي نزلت على رسول الله، والتي تقول: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(٢٤).

مما يعني أن الرسول عندما توفي كان رجال القبيلة أكثر ميلاً وموالاة لمشركي قريش، مما مضى، وبينهم وبين بقية المسلمين فجوة لا يمكن رقعها. وإن حدث خلاف بين قريش المشركة وبين المسلمين، بعد رسول الله، فلن يكتفي رجال القبيلة بالموالاة والعمل كطابور خامس بين المسلمين، بل سيسارعون بالعون الفعلي للمشركين على المؤمنين وبكل وسيلة.

وهناك الكثير من الآيات التي تجاوزنا ذكرها تتحدث عن أن الإسلام هو ما يجب أن ينتسب له المسلم وأن يكفر بالانتساب للقبيلة كتفاخر وعصبية لأن هذا من الجاهلية وليس من الدين: إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ

وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً(٢٦) الفتح.

فالذين في قلوبهم الحمية هم قريش أو القبيلة.

ونختم في وصف الله للمهاجرين (الذين غالبيتهم من الخضيرية) أو ممن انتسب للإسلام وتناسى الانتساب للقبيلة وما وصف الله به الأنصار الذين يمثلون النسب الأقل شأناً في يثرب من بني إسرائيل الذين يمثلون (القبيلة الأعلى شأناً)، يقول تعالى: وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(١٠٠) براءة.

فرجال القبيلة هم من حاول قتل الرسول وهم من حارب الإسلام بينما نصره الخضيرية كابن مسعود واليسري خباب والزنجي بلال وقلة من قريش نبذوا القبيلة وانتسبوا للإسلام كابي بكر وعمر وسعد وغيرهم.

وبعد

ما الذي استفاده الإسلام من الانتساب للقبيلة؟

لو كان الأعراب في الأندلس تخلو عن التفاخر بالأنساب لتعلموا صناعة السلاح واستطاعوا حماية أنفسهم من الصليبيين ولما طردوا منها كالجرذان.

مرة أخرى أتساءل: ما هي الفائدة من الانتساب القبلي للدين أو للبشرية أو للمجتمع أو للفرد نفسه.

ونقول لمن يضع الانتساب للقبيلة كأولوية وهو من أتباع كتب التراث والمذاهب، إن عقديته يأخذها من الخضيرية. فابن باز خضيري وابن تيمية والبخاري ومسلم والنسائي وغيرهم فأنت مدين بدينك ليس لرجال القبيلة بل للخضيرية.

المؤسف أن هناك عائلات كريمة محترمة مثقفة واعية وكثير منها ذات جاه دنيوي ومال، تسعى للانتماء لأي قبيلة لتحظى بما تظنه شرفاً قبلياً، وما هو سوى حمية يجب التخلص منها.

هل صاحب المال حر بماله

ثقافتنا الحالية تعتبر جمع المال غاية بذاتها، ونقيس نجاح الإنسان بقدرته على ذلك.

والمفهوم السائد اليوم هو أن الغني لو سكن قصرا جدرانه مطلية بالذهب وأوانيه من الذهب وسيارته بملايين الريالات ولبس أغلى المجوهرات، فهذا من باب إظهار نعمة الله عليه والتحدث بها مصداقاً لقوله تعالى: وأما بنعمة ربك فحدث.

فهل هذا ما تقوله الآية، وهل للغني الحق بصرف ماله كيفما يشاء؟

المعتاد بيننا الآن هو أن أصحاب الأموال يوصون بإخراج الثلث من أموالهم لتصرف – بعد موتهم – في أعمال يظنون أنها خيرية، وكأنهم بهذا أدوا ما عليهم في أموالهم لله. ولن نتحدث عن هذا لأننا سبق وبينا خطأ هذا المفهوم، في موضوع خاص بالوصية وأنها ليست للميت ولكنها للوالدين والأقربين.

وهنا سنحاول استعراض بعض الآيات ونرى هل لصاحب المال الحق في صرفه كيف يشاء وأين يشاء؟

يقول تعالى: وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً(٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً(٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً(٢٨) وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً(٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً(٣٠) بني إسرائيل.

الآية (٢٦) تأمر بإيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل (وكل محتاج) وتصف هذا الإيتاء بأنه حق مفروض لهم وليس تفضلاً من الغني، إن شاء فعله وله أجر وإن شاء منعه وليس عليه ذنب. بل هو واجب عليه.

وتنهى بشدة عن التبذير، في أي مجال.

وتصف الآية (٢٧) المبذرين بأنهم إخوان الشياطين، وكفروا بما أمر الله (الذي نهاهم عن التبذير).

ونهت الآية (٢٩) عن التقتير والبخل على النفس والآخرين.

فالصرف المعقول على النفس والغير هو المطلوب.

ويقول تعالى في سورة النور: وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٢٢).

الآية واضحة المعنى فهي تنهى أصحاب الأموال من أن يمتنعوا عن إيتاء أولي القربى والمساكين والمهاجرين (وكل أهل الحاجة). فهي تؤكد أن المال لصاحبه ما صرفه فيما أمر الله وفي وقت الحاجة للمحتاج، وليس بعد موته.

ويقول تعالى: يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ(٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٣) الأعراف.

الآية (٣١) تأمر قريشاً بالأكل والشرب بالمعقول، وتنهى ألا يصلوا إلى الإسراف في الأكل والشرب وغيره.

الآية (٣٢) تقول إن التزين في الملبس حلال (ما دام في حدود المعقول) فيمكنني أن ألبس لباساً أنيقاً نظيفاً لكن سعره لا يصل للإسراف (اللبس يدخل في ذلك الساعة والمجوهرات والعطور ونحوها). ويمكن الأكل والشرب والمركب والمسكن بالمعقول كذلك. هذا هو الحلال البعيد عن الإسراف الحرام.

وسورة الزمر تؤكد أن كسب المال ليس غاية في الدنيا، وعلى من يملك المال صرفه بالحق، وليس حفظه وجمعه: وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ(٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(٤٨) فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ(٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاء سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ(٥١) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ

الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٥٢) الزمر.

إذاً، المال هنا ليس أداة للتفاخر، ومن لا يصرفه في حقه فسيتحول فتنة لصاحبه وعذاباً له يوم القيامة.

وتخبرنا سورة سبأ أن أصحاب المال والجاه هم من محارب الدين لأنه يحد من تصرفهم بأموالهم كيفما يشاؤون: وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ(٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ(٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاء الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ(٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ(٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(٣٩) سبأ.

الآية (٣٤) تعني أصحاب المال والجاه ضد الدين لأنه يحد من فسقهم.

الآية (٣٥) قد يصل بالغني التفكير الخاطئ أنه يمكن له أن يصرف قليلا من أمواله في بعض مجالات الخير وسوف يغفر له الله ذنوبه وفسقه وتكبره ويدخله الجنة.

الآية (٣٦) المال ليس مقياساً لأي صفة نبيلة.

الآية (٣٧) المال لن يُقرِّبَ صاحبه من الله إلا إذا صرفه فيما أمر الله وابتعد عن كل تصرف أو مظهر محرم.

الآية (٣٨) من فعل غير ما أمر الله بالمال ففي العذاب محضرون.

الآية (٣٩) الغنى والفقر ليس مقياساً للإنسانية، والإنفاق واجب على الغني.

وتخبرنا سورة القصص عما قال القرآن عن قارون، الذي هو رمز لكل من يملك رؤوس الأموال الهائلة ويتباهى بما يملك ويشعر بالكبر والخيلاء نتيجة لذلك (أو بمعنى مفهوم شائع الآن عند البعض بأنه إظهار النعمة والتمتع بها كيفما يشاء صاحبها): إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ(٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا

يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ(٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ(٧٨) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ(٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ(٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ(٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(٨٣) القصص.

الآية (٧٦) تصف قارون بأنه من أصحاب الأموال الطائلة، وكان يتباهى بذلك (فرح).

الآية (٧٧) وكان عليه ألا يتباهى بل ينفق ثروته بمجالات الخير، ويبقي منها ما يكفيه في حياته: (ولا تنس نصيبك من الدنيا).

والمال عادة يؤدي لأنواع الفساد في مجالات كثيرة وشراء الذمم.

الآية (٧٨) تظهر منطق قارون وهو مطابق لمنطق كل قارون في كل زمان ومكان (المال مالي وأنا حر في صرفه كيفما أشاء) وهذا المنطق مرفوض من الله.

الآية (٧٩) تظهر قارون في صورة من صور التباهي، والتي عادة ما تأسر قلوب الفقراء والمحرومين ويتمنون لو كان لهم ما لقارون.

الآية (٨٠) العقلاء يعلمون أن مظاهر الدنيا ليست هدفا بحد ذاتها.

الآية (٨٣) الجنة لن يدخلها من يتعالى في الأرض (يتكبر) ويفسد أو ينشر الفساد، وهو ما يقوم به عادة أصحاب المال والنفوذ.

وكان عليهم أن يعلموا أن ميزان التفاضل بين الناس ليس الجاه والمال والسلطة والنفوذ، ولكن اتباع شرع الله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(١٣) الحجرات.

وخلاصة كلامنا السابق توجزه سورة البقرة بالقول إن البر الذي يفخر به المسلم هو إقامة شعائر الدين وإيتاء المال برغم تعلق النفس به (في كل مجالات الخير والتنمية وليس بجمعه

أو التباهي به أو صرفه كيفما يشاء بأشكال مبالغ فيها لدرجة التبذير): لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ(١٧٧) البقرة.

وتفرض سورة النساء قانون الحجر على من يبذر ماله ولو بطرق مشروعة في الأصل، وتنعته بالسفيه: (وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً(٥) النساء.

ونختم بالتذكير بالمقصود بقوله تعالى (وأما بنعمة ربك فحدث) في الأسطر التالية:

الآية وردت في سورة الضحى: وَالضُّحَى(١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى(٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى(٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى(٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى(٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى(٦) وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى(٧) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى(٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ(٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ(١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ(١١).

والسورة نزلت في وقت اشتد فيه الأذى النفسي على رسول الله من قريش، وذلك لتشد من عضده وتذكره بأن الله معه وقد أسبغ عليه الكثير من النعم، وتقول: إن الله لم يترك، وسيجزيك خيرا في الآخرة، حيث ستنال في الجنة ما يرضيك.

وبالنسبة للدنيا فمن نعم الله عليك أن يسر لك المأوى وأنت يتيم في صغرك، وهداك لدينه، وكنت في ضائقة مالية فأغناك.

فلا تقهر اليتيم، ولا تنهر السائل، وبنعم الله المختلفة حدث من باب الشكر والعرفان.

فكما ترى نعمة ربك فحدث بها لا تعني التباهي بالمال والأملاك ولكن بشكر ما يسر الله للرسول خلال مراحل حياته.

وبالتالي فالاستشهاد بها على صرف المال كيفما نشاء بلا ضوابط فقط لأننا نملكه هو استشهاد في غير محله.

ويمكن القول إن تنمية المال مطلوبة في الإسلام لكي يصرف على بناء الأمة ومشاريعها وقوتها وعزتها وحرب الفقر والفاقة. ويحرم جمع المال من مجموعة من فرعون وهامان

وقارون يتلاعبون به ويتكبرون على غيرهم ويكون المال مجالاً للإفساد وفساد غيرهم كما يحرم اعتبار المال صفة للجاه والسلطة وتقسيم الناس بناء على مقدار رأس المال إلى بشر وأنصاف بشر.[1]

الإسلام وشهادة غير المسلمين

يبتهج كثير من المسلمين عندما يتحدث أحد من غير المسلمين عن الإسلام بأريحية أو عندما يدلون بشهادة حق عن الرسول.

والسؤال هنا هو: هل يحتاج الإسلام أن يشهد له هؤلاء لكي تتأكد أنه حق؟

أم أنه يجب ألا ينظر لأي كلام عن الإسلام أو عن نبي الإسلام من غير المسلمين – ولو كان حقاً – على أنه شهادة بصدق الإسلام والرسول، بل ينظر له على أنها مجرد رأي شخصي لشخص لا وزن له في تقييم دين الله.

وأن دين الله حق ولو كفر به كل الناس.

وهذا يجعلنا نتوقف عند:

البحوث الغربية عن الإسلام

أوروبا قارة وثنية منذ أمد طويل جداً، وبدءً من القرن الرابع دخلتها المسيحية وانتشرت في كل أرجائها مبقية على الكثير من الطقوس الوثنية عن طريق تبنيها في الدين الجديد. ولما جاء عصر النهضة ونادى بحرية الفكر والمعتقد أخضع الأوربيون دينهم الذي فرضته عليهم روما بالقوة والجبروت، إلى المحاكمات العقلية. فاكتشفوا أن دين روما ليس دينا لله ولا يمكن أن يكون، ولكنه دين بعيد عن العقل ويجعل الناس عبيدا للكنيسة والحكام. فتخلصوا من السلطة الدينية – وإن بقي التراث الديني المسيحي جزء من الشخصية الغربية.

ولأن الثقافة الغربية هي المسيطرة على العالم نتيجة لسيطرة الغرب وتفوقهم العلمي والعسكري، فإن الغرب ينظرون لكل ما لديهم على أنه هو الأكثر تطوراً وينظرون لغيرهم على أنهم أتباع لهم. لذلك فهم يفرضون ويروجون لثقافتهم وكل ما ينتمي لهم على أنه

[1] انظر فقرة: الوصاية على مال السفيه وفقرة: الوصاية على مال اليتيم / قسم تشريعات من القرآن.

الأفضل.

ولأنهم اكتشفوا تفاهة دينهم، فقد تعاملوا مع كل الأديان بما فيها الإسلام على أنها كدينهم – لا تصلح لتسيير الحياة، ولا يمكن أن تكون صادرة من خالق الكون. خاصة أن الإسلام الذي تعرفوا عليه قد خربته كتب التراث ورجال الدين.

والعداء الأوروبي للمسلمين متجذر وعميق. والمسلمون وحدهم من بين كل الشعوب الأخرى هم من هزم الأوربيون واستولى على أجزاء واسعة من بلادهم وطردوهم من بلاد الشام وشمال أفريقيا والأناضول، بل وقضوا على الكنيسة الشرقية في القسطنطينية ودكوا أسوار روما وكادت تقع في أيديهم. في المقابل كان هناك حملات صليبية وحشية على الشرق الأوسط المسلم دام لمئات السنين. ومنذ ظهور الإسلام وهناك ثارات متبادلة بين الغرب والمسلمين، أورثت كراهية وعداء عميقاً جداً بين الكنيسة والمسجد، لن تسمح للباحث الأوروبي أن يدرس القرآن دراسة أكاديمية بتجرد. خاصة أن الكنيسة هي التي كانت تمول رحلات المستشرقين للتعرف على المجتمعات الإسلامية ودراسة القرآن بهدف حربه وتنفير المجتمع الغربي منه. فلم يكن متوقعاً أبداً أن تظهر أي دراسة محايدة أو متجردة عن الإسلام والقرآن. وحتى لو حاول أحد المستشرقين أن يكتب ما تعرف عليه من القرآن وهو مخالف لما هو سائد في الغرب عنه، فلن يقبل منه ولن يجد من ينشره. لذا قامت دراسات الغربيين للإسلام على ما قالته كتب التراث ولم يدرسوا القرآن أو يتعرفوا عليه مباشرة.

وكل ما قيل عن أن البحوث الغربية بحوث علمية متجردة، يتحول إلى فرضية لا وجود لها عندما يدور البحث عن الإسلام وكتابه ورسوله. وتتحول إلى بحوث موجهة وتسعى لترسيخ فكرة موجودة مسبقاً عن الإسلام ومنتشرة في المجتمعات الغربية، تتمثل بتصوير الرسول برجل بوهيمي معتوه ومهووس جنسياً، وكتابه عبارة عن اقتباسات مشوهة من كتب المسيحيين واليهود.

وعادة ما تعتمد البحوث الغربية عن الإسلام على طرح الأسئلة، وهذا شيء هام، لكنها لا تطرحها لتبحث عن إجابة، ولكن لتثير الشك وتتركها بلا إجابة لترسيخ الشك الذي أثارته. كما تعتمد الإثارة في العناوين: الإسلام: القصة التي لم ترو، تاريخ القرآن، مصادر الإسلام، التطور التاريخي للإسلام، القرآن الجهادي في المدينة والقرآن الوادع في مكة.... الخ

هذه العناوين ترسخ لدى القارئ انطباعاً أن هناك نتيجة تم التوصل إليها في الكتاب أو الفيلم. بعبارة أخرى: العنوان يوحي إلى أن المعد أو المؤلف استطاع التوصل إلى حقيقة للإسلام غير تلك التي يروج لها المسلمون، فاختار هذا العنوان. أو أن المؤلف عرف وتوصل إلى أن للقرآن تاريخاً يختلف عما هو معروف فاختار اسم كتابه: تاريخ القرآن، أو أن المؤلف قد توصل وعرف أن الإسلام يقوم على مصادر بشرية فاختار عنواناً لكتابه: مصادر الإسلام. أو أن القرآن أصبح عدائياً في المدينة بعدما أصبح لأهله دولة... وهكذا.

وهذه العناوين من شأنها أن ترسخ في عقل القارئ أن الإسلام عمل بشري، وهذا هو المغزى أصلاً للتأليف، بحيث إنه لو لم يقرأ القارئ الكتاب أو لم ير الفيلم فسيترسخ في ذهنه ما رغب المؤلف أن يوصله من رسالة عن الإسلام.

للأسف كل ما تخرج به هذه البحوث سواء كانت مرئية أو مقروءة هو إثارة فقط وأسئلة – كثير منها تعسفي – بلا إجابة. يظهر تحيزاً وعدائية أكثر من الحيادية. وتنطوي سطورها على اتهامات وتهجم مبطن ومكشوف على الإسلام ورسوله. وتعتمد البحوث الغربية على أن المؤلف يضع فرضية لم تقع ويقر بأنها كذلك، ثم في صفحات لاحقة من الكتاب أو الفيلم نجده يعتمد تلك الفرضية كأنها حقيقة ويبني عليها ما يرغب في بثه وما يريد أن يلصقه بالإسلام ورسوله.

وتتبنى البحوث الغربية تبجيل الكتاب المقدس لليهود، وترسيخ فكرة أن اليهود هم أول من عرف التوحيد في العالم، وكل من جاء بعدهم هو مجرد مقتبس منهم، مما يرسخ أن الإسلام مجرد اقتباسات مشوهة من اليهودية.

والكتابات الغربية يستحيل أن تكتب عن الإسلام بتجرد. وهذا بالنسبة لي شيء مفهوم ومتوقع. فالكتاب الغربيون والمستشرقون القدماء والمعاصرون، تم تمويلهم من قبل الكنيسة والمؤسسات التبشيرية. ولن يكون من المتوقع ولا المقبول أن يكتب الكاتب بحيادية عن الإسلام أو يتحدث عن حقيقة الإسلام. وحتى لو فعل بقصد أو بدون قصد فلن تنشر كتاباته. ولهذا يمكن ملاحظة أن غالبية كتابات المستشرقين لا تنشر حال انتهاء الكاتب من كتابتها بل تمر سنوات بعد ذلك قبل النشر. ولعل هذا يعود إلى أنه يتم مراجعتها وتعديلها وتنقيحها.

وبما أن الكتاب الغربيون يكتبون للمجتمع الغربي فكل كلام يصور الإسلام ورسوله بمظهر سيء سيلقى الترحيب، لأن المجتمع خاصة – فيما مضى – تقوم ثقافته المتوارثة على تصور الإسلام ديناً وثنياً مقيتاً، ورسوله رجلاً فاسداً. ولو كتب شيء جيد عن الإسلام والرسول فسيكون مثار استهجان الرأي العام الغربي.

ويضاف لهم بعض الكتاب العرب الذين تملأ كتبهم المكتبات. وهي كتابات متشابهة تقول إنها تكشف للناس حقائق عن الإسلام مسكوتاً عنها ولا يعرفها عامة المسلمين. وعندما تقرأ هذه الكتب فهي – بلا استثناء – تورد قصصاً وروايات من كتب التراث التي كتبت في العصر العباسي، وهو ما يعني أن هذه القصص لم يسكت عنها ولم تكن مخطوطات أثرية وهؤلاء أول من اكتشفها.

وهذه المؤلفات لا تأتي بجديد وإنما تعتمد على إيراد خبر يمكن استخدامه لخدمة ما يريد المؤلف قوله ونسبته للإسلام من أي كتاب تراثي، ثم الحديث عنه على مدى صفحات من كلام الكاتب الشخصي لمهاجمة القرآن والإسلام.

وحتى اللحظة، لم أجد – وأنا أتحدث عن نفسي – وأكرر: "لم أجد كتاباً واحداً يكتب بحيادية وينهج منهجاً أكاديمياً يهمه نقد النص القرآني أو محاولة دراسته دراسة أكاديمية متجردة من بين عشرات ومئات الكتب التي قرأت، سواء كتبت بالعربية أو المترجمة للعربية من لغات أجنبية أو مكتوبةً باللغة الإنجليزية".

وكل ما قرأت تتبع أسلوباً واحداً ابتدعه أولاً المستشرقون، وقلدهم غيرهم بعد ذلك. ويعتمد البحث في أي كتاب عن عبارة أو خبر يمكن لهم أن يجدوا فيه ما يخدم ما يبحثون عنه ويريدون قوله، ثم يكتبون حوله صفحات وصفحات.

وليس هناك كتاب واحد حاكم القرآن بما ورد في القرآن، ولن يفعلوا ولن يستطيعوا.

وكل ما يستطيعون فعله هو الاقتباس مما ورد في كتب التراث التي كتبت في العصر العباسي بعد أن عرف العرب الكتابة وأدوات الكتابة، وبعد أن وجدت طوائف لا حصر لها من ملحدين ومذاهب وعقائد، كل يكتب كيفما يشاء وينسبه للإسلام والرسول بأثر رجعي. وكل ما في هذه الكتب اتهامات سطحية هشة تدين من قالها ومن نقلها وتفضح ضحالتها.

كما ابتلي الإسلام في عصرنا بمن يمكن تسميتهم:

قُصّاص العصر

الليبراليون والعلمانيون والملحدون المعاصرون يلومون الإسلام على ما يفعل البعض باسم الإسلام من جرائم في طول الأرض وعرضها لأنه - كما يزعمون - اتباع لتعاليم الإسلام وتقليد هدي الرسول.

ونقول لهم هذا الإسلام وهذا الهدي لم ينزل به الله من سلطان ولم يعلم به رسول الله، ولكنه من صنع أناس وجدوا في العصر الأموي والعباسي، يتفقون معكم في محاولة التشكيك بالدين كهدف وغاية.

وهم من قام باختلاق القصص على الرسول بعد وفاته عليه الصلاة والسلام بعشرات ومئات السنين، ومنها تلك القصة التي جعلوا بطلتها شخصية يهودية خيالية أسموها صفية بنت حيي ونسبوا للرسول أنه قتل والدها ثم قتل زوجها وفي نفس اليوم سباها وتسرى بها. وكل القصص والأحاديث المختلقة عن السبي والتسري زمن الرسول اختلقها أولئك لكي يهدموا الدين بيد وليخدموا الحكام باليد الأخرى، وذلك بتصوير جرائمهم ضد الشعوب الأخرى بأنها سير على هدي النبوة.

وكأن من اختلق القصص على الرسول والإسلام في العصور الغابرة أسلاف لمن يسمى اليوم بالليبراليين والعلمانيين والملاحدة لأن غاية الفريقين واحدة والوسيلة كذلك. فالسلف اختلقوا القصص وهؤلاء الخلف استغلوها في محاولات التهجم على الدين.

وسيخسئون كما خسئ الغابرون. فالإسلام ليس ما قال كعب الأحبار وابن سلام وابن جريج وقتادة والزهري مثلما أنه ليس ما يزعم المبطلون المُحْدَثُون، ولكن ما قال الله في كتابه العزيز ونقله لنا رسوله الأمين.

الأحلام

الأحلام علم بلا شك، والإنسان والحيوان والطيور تحلم. والنائم لابد أن يحلم لكنه ينسى معظم أحلامه التي رآها في المنام بعد دقائق من يقظته. ولو لم يهتم بأحلامه فسينسى البقية الباقية ويكون كمن لم يحلم.

وسأورد تسؤلاً ساذجاً هنا: إن كانت الأحلام - كما يظن البعض - تخبرنا عن شيء

سيحدث مستقبلاً لكننا نحتاج لمفسر أحلام لكي يخبرنا بذلك ولا نستطيع معرفته بأنفسنا.
فمن يخبر الحيوانات والطيور بأحلامها التي يعتمد عليها مستقبلها؟

ولماذا يجب أن يفسر الحلم، بدل أن تظهر الأحلام لنا بوضوح ونفهم ما تقول دون حاجة لمفسر؟

والناس درجوا على القول إن هناك أحلاماً وهناك رؤيا، وكأن بينهما فارقاً.

والحقيقة أن ما نراه أثناء النوم هو حلم، فنحن نرى الحلم وهو مشابه لما تراه العين أثناء اليقظة ولكن بطريقة خاصة ونحن نائمون فهو رؤية في وضع معين، وكونه ليس رؤية حقيقية فهو حلم.

الكل يحلم سواء كان رسولاً أو مؤمناً أو كافراً، صغيراً أو كبيراً، بل إن الأحلام تبدأ معنا منذ الولادة.

ومن الطبيعي أن يصدق البعض أن الأحلام تتحقق والبعض لا يصدق. المهم هو ألا تدخل التصديق بأي شيء يتعلق بالأحلام على أنه له علاقة بالدين. وكأن من يصدق به يؤمن ومن يكذبه يكفر أو حتى يأثم. ولو كان له علاقة بالدين لذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه العلاقة ولقال بوجوب الإيمان به أو إنكاره. كما هي الحال بالنسبة للرقية والسحر والجن ونحوها.

لكن لو قال مفسرو الأحلام إنهم يفسرون من عند أنفسهم فلهم ذلك، ومن صدقهم فسيأتيهم ومن كذبهم فسيتجنبهم.

وأكرر أن ما يراه الرسول في حلمه سببه هو نفس سبب الأحلام التي يراها غيره من الناس وينطبق على ما يراه الرسول كل ما ينطبق على ما يراه الناس غيره.

وكل ما قيل عن الآيات التي يستدل بها عن حقيقة الأحلام هو مجرد تأويل للآيات عن معانيها وسياقها. وفيما يلي استعراض لآيات ذكرت فيها الأحلام.

تقول سورة الصافات:

فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ(١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ(١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ(١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ(١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي

الْمُحْسِنِينَ(١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ(١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ(١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ(١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ(١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ(١١١) الصافات.

كعادة القرآن عندما يسرد لنا حدثاً من التاريخ القديم، فالآيات لا تفرض تشريعاً ولكنها تروي ما حدث كما حدث، ولا تقرر ما يجب أن يكون أو هل ما حدث صحيح أو خطأ؟

ولو تمعنا في الآيات فيمكن أن نفهم ما يلي:

** المؤكد أن إبراهيم عاش في زمن ومجتمع يؤمن بالأحلام، لأنه بمجرد أن رأى في المنام أنه يذبح ابنه كقربان لله، صدق ذلك وكاد أن ينفذه.

** والآيات عندما روت ما حدث لا تشرع أن الأحلام يجب أن نصدقها أو ننفذ ما رأينا فيها.

** بل إن الآيات تنفي أن نصدق الأحلام وننفذ ما رأينا فيها، بدليل أنها وجهت إبراهيم لأن يضحي بذبح عظيم قد يكون من أي نوع من الأنعام: الإبل، البقر، أو الغنم (شاع أنه كبش).

فقوله تعالى: " قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ" لا تمتدح إبراهيم لأنه صدق الرؤيا، ولكنها تقول له: لقد كدت تضحي بابنك من أجل حلم رأيته في منامك. وإن كنت ستقدم قرباناً لله فاذبح واحدة من الأنعام. وإبراهيم يملك بعض الماشية بدليل أنه عندما قدمت عليه مخلوقات كونية بهيئات بشرية ذبح لهم عجلاً: وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ(٦٩) هود.

لكن الناس رسخ لديهم – بسبب ما ورد في كتب التراث – أن إبراهيم أراه الله حلماً يطلب فيه منه أن يضحي بابنه – كاختبار لمدى قوة إيمانه – وقد نجح إبراهيم في الاختبار وكان سيضحي بالولد. وهذا تأويل للآيات عن معانيها.

فالله لا يحتاج لأن يمتحن إبراهيم عملياً لكي يعرف عمق إيمانه. وصحيفة أعماله المغروسة في نفسه كفيلة بتسجيل عمق إيمانه، ولن يتدخل سبحانه في الامتحان فعلياً. وسيكون الحساب يوم القيامة.

ثم إن الله جل شأنه لا يحتاج لأن يمتحن إبراهيم فعلياً ليعرف عمق إيمانه، فهو من خلقه

وأقرب إليه من حبل الوريد. ((نقول هذا الكلام من باب الجدل فقط))

وكل ما حدث هو أن إبراهيم رأى مناماً يظهر فيه وهو يضحي بابنه لله، فصدق هو أن ما يراه في المنام كطاعة لله يجب عليه أن ينفذه حقيقة وإلا نقص إيمانه. فإبراهيم هو من ظن أن الأحلام تمثل الحقيقة. وحلمه يظهر جزءً مما كان سائداً في المجتمع وليس له علاقة بالله، ولم يأمر به سبحانه. ولعل الآية تشير إلى أن التضحية بالبشر للآلهة ممارسة معروفة في المجتمع زمن إبراهيم، ولما رأى الحلم كان سينفذه لأنه شيء معتاد. ولو كانت التضحية بالبشر غير معروفة فلن يرى إبراهيم حلماً يصوره وهو يضحي بابنه، لأنه لن يخطر على باله. وما لا يخطر على البال لا يراه النائم في حلمه[1]. والله جل وعلا أرشد إبراهيم أن الحلم لا علاقة له بعلاقة المخلوق بالخالق، ولا الخالق بالمخلوق. وأن عليه أن يضحي بواحدة من الأنعام — إن كان سيضحي لله — وليس بابنه.

إذاً، هناك فارق كبير بين فهم ما تقول الآيات وبين ما قالته كتب التراث عنها.

إبراهيم رأى حلماً يصوره وهو يضحي بابنه لله،و صدق أن هذا مطلوب منه من الله، فكاد أن يفعله لوجه الله كونه هو من صدق الحلم وليس لأن الحلم من الله. الله جل شأنه هدى إبراهيم (بطريقة لم يذكرها القرآن) إلى أن يضحي بأحد الأنعام بدل أن يضحي بابنه.

ولو كان الله قد أمر إبراهيم (في المنام كحلم) أن يضحي بابنه ثم وفي اللحظة الأخيرة فداه بكبش فالله أراد أن يختبر قوة إيمان إبراهيم ولما تأكد أنه قوي فداه (قال له أن يضحي بأحد الأنعام بدل ابنه) لأن الله تأكد من إخلاص إبراهيم.

هذا ما تقول وهذا ما تقوله كتب التراث... أنا لا أستطيع أن أقول عن الله هذا الكلام. فالله لا يحتاج لأن يمتحن قوة إيمان إبراهيم. والآية تصف تصرف إبراهيم بالبلاء العظيم لأنه كان سيقتل ابنه تصديقاً لحلم. والمنام هو الرؤيا وهو الأحلام وليس هناك فرق بينها. مفسرو الأحلام يحاولون الإيحاء أن الرؤيا هي التي يتم تفسيرها والحلم لا يمكن. فقط ليضفوا شيئاً من الاحترافية لدجلهم. الرؤيا ما تراه وأنت نائم والحلم ما تراه وأنت نائم.

---

1 وقد ذكرنا في حاشية سفلية عند تدبر سورة الصافات أن الآية قد تشير إلى أن التضحية بالبشر للآلهة قد تكون منتشرة في المجتمع الذي كان يعيش فيه إبراهيم في قريته. وأن الآية تأمره باستبدال هذه الممارسة بتقديم أضاحي من الأنعام، وتكون لله.

وهناك آيتان تتحدثان عن رسول الله محمد، والآية الأولى هي: وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً (٦٠) بني إسرائيل.

والسورة من سور المرحلة السادسة للدعوة في مكة حيث بدأت قريش تصعد من تعدياتها الجسدية على ضعفاء المسلمين، وفي خضم هذه الظروف الحالكة المحيطة بالرسول والمسلمين القلة معه، يرى الرسول رؤياً أشعرته بالراحة والطمأنينة والقوة، وأغضبت قريشاً لما قصها عليهم.

فما هي هذه الرؤيا؟

لا يرد ذكر للرؤيا التي رآها الرسول في القرآن، ولا ندري ما تكون. حتى نزلت سورة الفتح المدنية، التي نزلت بعد أن دخل الرسول والمسلمون مكة فاتحين، وأعلنت قريش استسلامها: لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً(٢٧) الفتح.

ويكون الرسول في مكة قد رأى أن المسلمين سيتغلبون على قريش وسيحكمون مكة، وهو ما أغاظ قريشاً لما قص رؤياه عليهم، لأنهم ممن يعتقدون بالأحلام. وقريش سلالة إبراهيم، وقد بقيت عادة التصديق بالأحلام بينهم.

فرؤيا الرسول كانت تعبر عما كان الرسول يتمناه، وليست وحي ولم تنزل من الله. فالرسول وقلة المسلمين معه كانوا في ضائقة ويواجهون قسوة وتعنت قريش، ولو قال شخص أن الرسول والمسلمين سينتصرون على قريش لاتهم بالخبل والغباء. لأنه لا يمكن تخيل أن تنقلب الأوضاع ويتفوق نفر قليل من المستضعفين على كبراء وسادة قريش الكثر.

ومع ذلك تشاءم رجال قريش عندما قص الرسول ما رآه في منامه عليهم، لأنهم يؤمنون بالأحلام. ولما فتحت مكة فحلم الرسول كأنه تحول لحقيقة.

لكن تبقى الأحلام أحلاماً ولا تتحقق. لذا فالمثل يقول: حلم وتحقق، وكأنه مستحيل حدث. وإذا ما رغبنا في التعبير عن شيء لا يمكن حدوثه لكنه حدث نقول: ولا في الأحلام.

فالرسول رأى رؤيا تعبر عما كان يشعر به، والأحداث تتابعت وفتحت مكة لأن الظروف

وموازين القوى تغيرت وصار من الواجب تأديب قريش على مواقفهم العدائية للإسلام ففتحت مكة، ولم تفتح لأن الرسول حلم بذلك.

وللعلم فقط، ففتح مكة الذي تحدث عنه الآية قد نقضته قريش وعادت مكة خارج سلطة المسلمين إلى آخر سنة من حياة الرسول وبعد نزول سورة براءة التي نزلت بحق قريش ونقضهم معاهدة فتح مكة مع المسلمين.

ماذا قالت سورة يوسف عن الأحلام

سورة يوسف تتحدث عن يعقوب وأبنائه، وإبراهيم جد يعقوب، وهذا يعني أن المعتقدات الاجتماعية التي كانت منتشرة في عصر إبراهيم هي ذاتها التي يحملها ويصدق بها يعقوب وأبناؤه، ومن ذلك التصديق بالأحلام.

وعلينا أن نتذكر أن القرآن يقص الحدث دون أن يقول إن ما حدث صحيح أو خطأ.

وبداية السورة تظهر أن يوسف قد أخبر والده أنه رأى حلماً: إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ(٤).

يستفاد من هذا أن الحديث عن الأحلام شائع. لذا أخبر يوسف والده بما رأى.

ويعقوب يعتقد – كجده إبراهيم – أن الأحلام لها مصداقية، لذا كانت ردة فعله عند سماع حلم يوسف أن حذره من الإفصاح عنه لإخوته: قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ(٥).

الآية تظهر ما شعر به يعقوب، ولا تقرر حقيقة.

فيعقوب يعلم مسبقاً أن يوسف وإخوته من أبيه ليسوا على وفاق، ويعقوب يقوم بدور الحامي ليوسف من أي ضرر يتوقع هو أنهم سيقومون به ضد يوسف.

وسبب هذه العلاقة المتوترة لم يفطن لها يعقوب كما يجب، وإلا لأدرك أنه هو السبب في حدوثها، كونه قرب يوسف وأخاه أكثر من أبنائه الآخرين، وأظهر مشاعره تلك بشكل أوغر صدور إخوته، كون يعقوب والد الجميع وكان عليه أن يعدل في التعامل معهم.

ويعقوب – وليس الله جل شأنه – هو من خاطب يوسف في تلك اللحظة قائلاً: وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا

عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٦).

المفسرون أظهروا أن الله جل شأنه هو من قال إنه اجتبى يوسف وعلمه تأويل الأحاديث. وهم من قال إن الأحاديث هي الأحلام.

هذه بداية الحكاية... وكان يمكن أن ينسى يوسف ويعقوب الحلم لولا أن الأحداث تتابعت بطريقة مختلفة وانتهت بطريقة ذكرت يوسف بهذا الحلم.

وعندما سجن يوسف شاركه في السجن رجلان، وكل منهما رأى حلماً، وقصه على يوسف: وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ(٣٦).

يوسف لم يخبرهما بتأويل الحلمين مباشرة، لكنه بدأ بعظهما في خطبة طويلة مما قال فيها: قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ(٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ(٣٨) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ(٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ(٤٠).

يوسف هنا هو المتحدث، وهو في تلك اللحظة لم يكن رسولاً لله ويتنزل عليه الوحي، ومع ذلك قال: أنه يستطيع أن يخبر السجينين بنوع الطعام الذي يأتيهما في السجن قبل أن يصل إليهما. ويقول إن هذه المعرفة (مما علمني ربي) وهذا بمفهومه الحرفي لم يحدث. فالله لا ينزل وحياً على يوسف كلما جاء طعام ليخبره بنوعه، ولم يعط يوسف قدرة على التنبؤ بما سيأتي من الطعام والأحداث.

ولعل يوسف أراد بخطبته الوعظية تلك أن يظهر للرجلين أنه قادر بالفعل على تأويل أحلامهما لأن الله يعلمه بذلك.

وقد قام بتفسير الحلمين كما يلي: يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ(٤١).

واحد سينجو ويعفى عنه بل وسيعود لوظيفته السابقة وهي ساقي الملك، كما سنرى.

الآخر سيصلب.

والسجينان أمضيا فترة في سجن واحد مع يوسف وكل واحد أخبر الآخرين بقصة سجنه وببعض ما مر عليه من حياته.

وقد عرف من كلام أحد السجينين أنه بريء أو أن تهمته بسيطة. لذا كان من السهل أن يقول له يوسف إن حلمه الذي يظهره وهو يعصر خمراً، يعني براءته وخروجه من السجن، وعودته لممارسة وظيفته كساقٍ للملك. وبراءة الرجل ليس لأن الحلم يقول هذا ولكن لأن الرجل سبق وأخبر يوسف بتهمته. وحلم الرجل كان نتيجة لانشغاله بأمر سجنه وانتظاره قرار الإفراج عنه.

أما الرجل الآخر الذي عرف يوسف أن تهمته خطيرة وحكمها الموت، فقد كان هاجسه انتظار الموت الذي ترجم على شكل ذلك الحلم: "وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً".

ويظهر أن الصلب هو وسيلة الإعدام على العموم في تلك الفترة والمكان أو أنه وسيلة للإعدام لقضايا معينة منها ما فعله هذا السجين وثبت عليه.

لذا كان من السهل على يوسف أن يخبره أن تأويل حلمه هو الصلب. وكان حلم الرجل يعكس ما يدور في تفكيره.

ثم كان حلم الملك الذي يعكس اهتماماته وقلقه:

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ(٤٣)

ويبدو أن هناك من لا يؤمن بالأحلام في مجتمع (قرية مصر) ولما أخبرهم الملك بحلمه جاء الجواب: قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ(٤٤).

الآيات تروي فقط ما حدث، لذا لم تقل إن كلامهم صحيح أو خطأ.

وبما أن السجين الذي خرج من السجن عاد يخدم ربه – الذي يبدو أنه الملك – فقد أتاح له عمله أن يسمع الملك وهو يتحدث عن حلمه فطلب منه أن يسمح له بزيارة يوسف في

السجن وسيأتيه بتفسير حلمه، وقد وافق الملك، فكان أن فسر يوسف الحلم كما يلي: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ(٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ(٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ(٤٩)﴾.

هنا بعض الحقائق التي يجب ذكرها:

- يوسف قدم من بادية قريبة من قرية (مصر) ولها نفس المناخ. ومن المعتاد تعرض المنطقة لسنوات جفاف يعقبها سنوات مطيرة، وهذا يعرفه الملك ويعرفه يوسف.

وقد استطاع يوسف أن يترجم حلم الملك إلى ما يقع في الطبيعة ويشغل فكر الملك في نفس الوقت.

مثلما استطاع أن يفسر حلم السجينين بما سيقع، كونه متوقعاً.

فيوسف استطاع أن يعيد ترجمة أفكار الرجلين التي صورتها أحلامهما بعبارته هو، وكذلك فعل مع الملك. ولم يكن يفسر حلماً غير واضح المعالم أو عبارة عن رموز غير مفهومة لأحداث ستقع.

فهل فعلاً حدث لمصر ما قال يوسف أنه سيحدث كتفسير لحلم الملك؟

وهل عاش الملك (١٤) عاماً ليرى تحقق حلمه؟

هذا ما لا تقوله الآيات، ولا نعلم عنه شيئاً.

المؤكد أن الملك وقتها لم يفكر إن كان هذا يحدث أم لا؟ ولكنه أعجب بتفسير يوسف. فأمر بإخراج يوسف من السجن وتم تعيينه مسئولاً على سوق المحاصيل الزراعية التي أتاحت له التعرف على إخوته واستدعاء والديه وإخوته للعيش معه في مصر: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ(٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(١٠٠)﴾.

والآيات هنا تقول إن يوسف رفع أبويه على العرش (الكرسي المخصص له) ثم خروا له

سجداً شكراً وعرفاناً، وليس كتحقيق للحلم الذي رآه في صغره..

وهنا نتساءل: هل خر له إخوته دون والديه؟ لأن الآية تظهر أن الأبوين جلسا على كرسي يوسف ثم كان السجود. أو أن الأبوين مع الأبناء سجدوا ليوسف؟

وحتى لو سجد له والداه وكل إخوته فليس لكي يتحقق حلمه الذي رآه وهو طفل، ولكن الموقف استوجب أن يظهروا له تقديرهم.

شيء آخر.

تقول الآية التالية على لسان يوسف: رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ(١٠١).

يوسف هنا هو من يقول: علمتني من تأويل الحديث، وليس الله سبحانه هو من يقول ذلك. فيوسف يعتقد أن لديه القدرة على تأويل الأحاديث. ويوسف يقول بنفسه إنه يؤول ما يسمع من الحالم، فهو يؤول كلامه ولا يؤول الحلم لأنه لم يره. وتأويله يتلاءم مع ما كان مجتمع يعقوب ويوسف يؤمنون به ولا يعني أن الله جل وعلا قد أعطى يوسف خاصية لم يعطها لأحد غيره. وقد استمر كثير من الناس يعتبرون أنفسهم قادرين على تعبير الأحلام. مع أنهم يعلمون وغيرهم يعلم أنهم لا يعتمدون في تأويلاتهم على حقائق. ولو أصابوا مرة فلأن الحلم – الذي يعكس مشاعر الحالم – واضحة. والناس لا يتتبعون مفسري الأحلام ويحصون عليهم أخطائهم. لذا فلو صدق مرة فلن يتذكر الناس كم مرة أخطأ.

وعندما تقول السورة: وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ(٢١).

فهي تدل على أن يوسف كان عنده ملكة تأويل الأحاديث، ليس لأن الله جل وعلا زرعها فيه كمعجزة له دون غيره، ولكن لأنها ملكة طورها يوسف بالخبرة، وبما أن كل شيء لا يخرج عن مشيئة الله فكأن الله هو سبحانه من علمه إياها.

مثل أن يتقن شخص ما ملكة كالرسم ويقول إن الله علمه إياها. فالله علمه اياها ليس مباشرة وفعلياً، ولكن الشخص نفسه تعلمها وأتقنها بتجاربه ولولا مشيئة الله لما أتقنها.

ولولا أن الله غرس في النفس البشرية القدرة على الإتقان بالتجربة لما أتقنها. وهو ما حدث ليوسف الذي كان مهتماً بالأحلام منذ طفولته وبتأويل الأحلام ومع السنين أصبح متأولا للأحلام. لكن هذا لا يعني أن الأحلام ستقع كما يتأولها كل مرة.

ولا اعتراض على من درس الأحلام كعلم، وخلص لنتائج في هذا المجال، لكن الاعتراض على الزعم بأن الأحلام يمكن تفسيرها على شكل أحداث مستقبلية ستقع. لأن هذا يعني عرفة الغيب، ومعرفة الغيب يختص بها الله سبحانه. والاعتراض أكثر على من ينسب تأويله للأحلام إلى الدين، لأنه يوحي إلى أنه يتلقى وحياً خاصاً من الله.

القوامة والمحرم

سأقدم تعريفاً للقوامة وللمحرم كما أوردته كتب التراث ثم بعد ذلك وفي وقت لاحق سأبين ما يقول القرآن.

القوامة كما وردت في كتب الموروث الديني باختصار

((أرجو أن تتذكر أن ما ستقرأ هو ما ورد في كتب التراث وليس ما يقول رب العالمين))

يقول رجال الدين السلف في كتب الموروث إن القوامة من القيام على الشيء يعني المحافظة عليه ورعاية مصالحه. وجعلوا القوامة على القاصر وقوامة على الوقف وقوامة على المرأة وهو ما يهمنا.

حيث يعرفون قوامة الرجل على المرأة بالتالي:

ولاية يفوض بموجبها الزوج بتدبير شئون زوجته وتأديبها وإمساكها في بيتها ومنعها من البروز.

ويقولون: الزوج قيم على زوجته.

يعني أميناً عليها يتولى أمرها ويصلحها في حالها ويقوم عليها آمراً ناهياً. كما يقوم الوالي على رعيته.

يقول ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: (الرجال قوامون على النساء) أي أن الرجل قيم على المرأة. أي هو رئيسها كبيرها والحاكم عليها ومؤدبها إذا اعوجت.

ويقول الجصاص في تفسيره لنفس الآية: قيامهم (أي الرجال) عليهن (أي النساء) بالتأديب والتدبير والصيانة لما فضل الله الرجل على المرأة في العقل والرأي، وبما ألزمه الله تعالى من الإنفاق عليها.

فدلت الآية (والكلام للجصاص) على معان، أحدها: تفضيل الرجل على المرأة في المنزلة. وأنه هو من يقوم بتدبيرها وتأديبها، وهذا يدل على أن له إمساكها في البيت ومنعها من الخروج. وأن عليها طاعته وقبول أمره ما لم تكن معصية.

ويسرد رجال الدين السلف أسباب قوامة الرجل – كما عرفوها – بأنها ثلاثة اسباب، هي:

الأول: كمال العقل والتمييز. ويقول القرطبي في تفسيره: إن الرجال لهم فضيلة في زيادة العقل والتدبير فجعل لهم حق القيام عليهن لذلك.

الثاني: كمال الدين للرجل ونقصه عند المرأة.

** لا نحتاج لذكاء خارق لتعلم أن هذين السببين اقتبسوهما من حديث منسوب للرسول (وهو مكذوب عليه) يقول: النساء ناقصات عقل ودين.

الثالث: بذل المال من الصداق والنفقة.

المحرم

برغم أنها تكتب بفتحة على الميم وسكون على الحاء وفتحة على الراء إلا أنهم يعرفونها وكأنها المُحرّم بضمة على الميم وفتحة على الحاء وشدة على الراء. فهم يقولون إن المحرم هو الحرام، وذو المحرم للمرأة الذي لا يحل له نكاحها.

** من المهم جداً أن نتذكر أن لفظ (محرم) لا وجود له في كتاب الله على الإطلاق.

ما يرد هو الأرحام وأولو الأرحام والمقصود بهم الأقارب.

وليس في القرآن ما يدل على المرأة أن يجب عليها أن يمثلها رجل (محرم) لا في إثبات شخصيتها ولا في مرافقتها في السفر ولا في زواجها أو أي أمر آخر.

لكن رجال الدين السلف أسهبوا فيما يحل للمحرم ومن ذلك مما يندر تداوله ما يلي:

** يحل للمحرم النظر للنساء من محارمه كل جسدها ما عدا ما بين السرة والركبة – على خلاف بينهم كعادتهم – فبعضهم أجاز النظر للصدر والثديين والساقين . والبعض منع

النظر للظهر. وبعضهم منع النظر للثدين.

وكل ما أجازوا النظر إليه أجازوا مسه. (أشعر بقشعريرة وأنا أكتب)

وقد منعوا المرأة من السفر بدون محرم، واختلفوا هل تحج بدون محرم أم لا؟

**** يجب الانتباه إلى أن رجال الدين لا يستخدمون لفظ يحرم على المرأة السفر بلا محرم ولكنهم يستخدمون عبارة: ليس للمرأة أن تسافر بلا محرم.

ولعل هذا أنهم يعلمون أنهم لا يملكون دليلاً يعتبرونه صحيحاً بحرم سفر المرأ بدون محرم فقال: ليس عليها الخروج ولم يقول يحرم عليها الخروج.

هذا ما يقوله رجال الدين وكتب التراث وسنعود له – بعون الله – ونناقشه ونورد تعارضه مع كتاب الله ثم وفي وقفة ثالثة بعد ذلك سنبين المقصود بالقوامة التي وردت في كتاب الله.

القوامة في كتاب الله

يقول تعالى: الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً(٣٤) النساء.

هذه الآية قوّلها سلف المفسرين وغيرهم من رجال الدين ما لم تقل كما رأينا.

فلا يمكن أن يفهم منها أنها تبيح للرجل أن يكون له ولاية وحق تدبير شئون زوجته وتأديبها وإمساكها في بيتها ومنعها مغادرته. ولا تقول الآية للرجل أن يؤدب زوجته والحاكم عليها.

ولم تقل الآية إن الله فضل الرجل بالعقل على المرأة ولا الرأي.

ولم تقل هذه الآية أو أي آية أخرى في القرآن إنه يجب على المرأة أن يمثلها رجل (محرم) لا في إثبات شخصيتها ولا في مرافقتها في السفر ولا في زواجها أو أي أمر آخر.

لو تمعنا في الآية بهدوء فسنجد أنها تقول: « الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ».

فالقوامة تفهم من أمرين ذكرتهما الآية، هما:

ونبدأ بالأمر الثاني: هو بما أنفقوا من أموالهم.

أي أن الرجل هو المسئول بالإنفاق على الأسرة وليست المرأة...

هذا الأمر يقول إن القوامة مسئولية وليست تميزاً يتفوق فيه الرجل على المرأة. فهو مسئول عن إعالة العائلة، وهو ممثل العائلة في كل أمر. هو من عليه أن يعمل، وهو المسئول في كل حال تجد العائلة فيها أنها بحاجة. المرأة ليس عليها أي مسئولية في الإنفاق وإعالة العائلة. وهذا لا ينفي أنه يمكنها لو كانت تملك المال أن تساهم أو حتى تكون المعيل للعائلة، لكن ليس عليها ذلك، وإنما تفضلاً منها. بينما الرجل عليه مسئولية إعالة العائلة كواجب وليس تفضل.

* إذا، الرجال يفضلون النساء بمعنى أنهم يتحملون مسئولية أكبر في إدارة البيت والعائلة.

الأمر الثاني: قوامة الرجل ﴿بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

والآية تقول فضل بعضهم على بعض وليس بما فضل به الرجل على المرأة. أي أن هناك تميز للمرأة في جوانب وتميز للرجل في جوانب، نتيجة لطبيعة المرأة والرجل.

ومما تفضل به المرأة إدارة شئون البيت ولا أقصد المطبخ هنا، ولكن شئون أفراد العائلة في البيت بما فيهم الرجل. بينما مما يفضل الرجل هو قدرته على إدارة شئون العائلة مع الغير، كإعالة العائلة وتوفير الطعام والحماية والتمثيل دون تغييب لشخص المرأة أو إلغائها.

فمسئولية حماية العائلة والدفاع عن حقوقها وتمثيلها هو وظيفة رجولية.

إذاً، القوامة تعني قوامة مسئوليات تقسم بين الرجل والمرأة بما يتناسب مع تكوين كل منهما. وليست قوامة تسلط، أو إلغاء لشخص المرأة أو إذلالها أو جواز التعدي عليها أو تهميش وجودها أو التصرف بشئونها وكأنها قاصر. أو مرافقتها في السفر أو منعها من الخروج من المنزل.

فالزواج: اتفاق بين شخصين (ذكر وأنثى) لتكوين عائلة لا يلغي شخصية أحدهما ولا مكانته ولا حقوقه ولا يحوله لقاصر أو سفيه يحتاج رعاية وكأنه لا يستطيع تصريف شئونه بنفسه.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٢١) الروم.

فكيف تسكن الزوجة لزوجها ويكون بينهما علاقة مشتركة تقوم على الود والتراحم إذا كان هو السيد وهي الأمة. هو الوالي وهي الرعية، هو المتصرف وهي القاصر، كما رسخ السلف وصدقتهم النساء وانقادت وخضعت ظناً منهن أن طاعة الرجل هي الطريق للجنة.

القرآن يقول قوامة الرجل قوامة مسئوليات وتعب وقيام بالأعمال المضنية وليست قوامة تسلط أو تغييب لشخص المرأة.

أما أن يكون للمرأة استقلاليتها وشخصيتها وحريتها الموازية لحرية الرجل فأمور بديهية في الإسلام لا يغفلها ويتجاهلها إلا سلف رجال الدين ومن تبعهم.

وكل من يقول أن على المرأة أن تكون كظل للرجل أن يأتي بدليله لنناقشه وكل من لا يملك الدليل فلا يقول القرآن ما لم يقل.

والآية التي تتحدث عن القوامة تختم بقوله تعالى: وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً (٣٤) النساء. وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً (٣٤) النساء.

وهذه الآية يستدل بها البعض على أن من حق الزوج ضرب زوجته.

ولكن لو تعمنا في الاية فهي تتحدث عن نشوز المرأة أي عدم رغبتها بمعاشرة زوجها. ولو كان النشوز بسبب كرهها لزوجها فلا يوجد في القرآن ما يجبرها على البقاء معه، بل أن القرآن ينهى عن إجبار المرأة على البقاء مع الرجل: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهاً وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً) النساء١٩

وآية النساء تقول: إلا أن يأتين بفاحشة

وهذا يأتي لعدة أسباب، أحدها أنها على علاقة شاذة بامرأة أخرى (السحاق).

الدفاع عن الإسلام والرسول ليس بالعويل والتهديد

صحيح أن الفيلم الذي أنتجه الأقباط في أمريكا واسمه «محمد رسول الإسلام» مسيئ للرسول، وكذلك الرسومات التي رسمها الرسام الدانمركي وغيره وكذلك كتاب سلمان شدي «آيات شيطانية». قابله المسلمون بتصرفات انفعالية وعويل وصراخ وصل لعنان السماء، لكنه لن يمنع تكرار حدوث ما حدث مستقبلاً. لأن كتب التراث الموجودة بين يدي المسلمين والتي يحامون عنها ويعتبرونها مصدراً موثوقاً يقول الحقيقة عن الإسلام وكتابه ورسوله، هي المصدر الذي اعتمد عليه الرسام في رسوماته المسيئة، والمنتج في فيلمه المسيء والكاتب في كتابه المسيء، ولم يختلقوا شيئاً من عند أنفسهم.

فلماذا نعتبر ما جاء في كتب التراث صحيحاً ويمثل الإسلام وأخلاق الرسول، وعندما ينشرها غيرنا بطرق مختلفة نعتبرها إساءة للدين وللرسول ونقابله بالاستهجان والاحتجاج والصراخ والعويل؟

أليس من الواجب علينا، إن كنا سنغضب لله والرسول ونمنع تكرار ما حدث أن نكون واقعيين وواعين للحقائق، ونقول بكل شجاعة إن ما في كتب التراث يمثل من قاله ولا يمثل الرسول ولا الإسلام. وبدل تقديس وترسيخ وتوارث تلك الكتب، علينا محاكمتها لما نسبت لله ما لا يليق، ولرسوله ما لا يعقل؟

وعلينا ألا ننسى أن الغرب له الحق - في نظر القانون - أن ينشر ما يجد في كتب تراثنا بالكيفية التي يرى، سواء على شكل رسومات، أو مقالات، أو أفلام، أو غيرها. وسيستمرون بين فترة وأخرى بنشر ما يرون مما تحمله كتب تراثنا الديني، ولو تعرضنا لهم بسوء فسيحميهم القضاء وسيحكم لهم علينا. فهم اعتمدوا مصادر كتبتها أيدينا، ولم يختلقوا أو يكذبوا.

وحتى لو رفعنا ضدهم قضية فسنخسرها ليس لأن قوانين الغرب ليست إسلامية، ولكن لأن تلك القوانين تضمن لهم ولنا نشر ما تسمح به تلك القوانين. ومثلما ينشرون ما يجدون في كتب تراثنا ونشعر أنه مسيء لرسولنا ولديننا، فهم ينشرون ما يجدونه في كتبهم الدينية ويجده المتدينون أو المتنفعون بالدين منهم مسيء لدينهم. لكن الكنيسة لا تستطيع أن توقف أو تمنع النشر، لأنهم يعلمون أن القانون ليس في صفهم.

علينا أن نعلم أن الوسيلة الوحيدة التي تمنعهم من نشر ما يسيء لديننا ورسولنا هي أن

نقف مع الدين بكل شجاعة ونعلن للعالم أن التفسير والحديث والسير والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول وكل ما له علاقة بها من كتب التراث كتب لا تمثل الإسلام ولا تمت له ولا للرسول بصلة.

ثم نقوم باستبدال أوصاف الرسول وسيرته التراثية بوصف وسيرة من القرآن سيفخر كل مسلم بها، وستعجب كل من يعرفها من غير المسلمين، ولن يجد الساخر فيها ما يمكن السخرية منه.

ولو نبذنا كتب التراث فسنقدم للعالم إسلام الله كما في القرآن، وسيشهد له كل من يعرفه عن قرب أنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، سواءً آمن به أو لم يؤمن.

ولو فعلنا فلن يستطيع أي شخص أن يسيء للإسلام أو للرسول بالنقل من نصوص القرآن، إلا أن يؤولها لغير معناها، وفي هذه الحالة فلن يجد من ينشر له إساءته المزعومة، ولو وجد فسيدان المسيء والناشر من أي محكمة يرفع فيها عليهم قضية، ولو كانت محكمة ابتدائية.

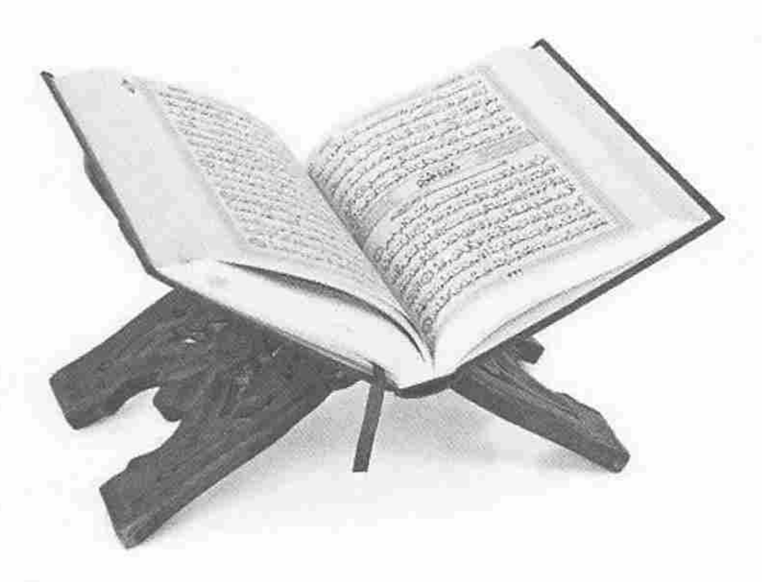
لكن أعداء الإسلام، لا يريدون أن ينزهوا الإسلام مما ليس منه. وأعداء الإسلام ليس فقط من ينقل من كتب التراث صوراً مسيئة، ولكن الأعداء الحقيقيون للإسلام هم من يحمون كتب التراث ويقدسونها ويمنعون نقدها باسم الله والرسول. هؤلاء هم أعداء الرسول والإسلام، لأنه لا يهمهم إسلام الله، فمصالحهم مرتبطة مع إسلام الموروث.

ابن قرناس

الشرعة والمنهاج

نافذة للتعرف على الإسلام من مصدره

الجزء الثاني



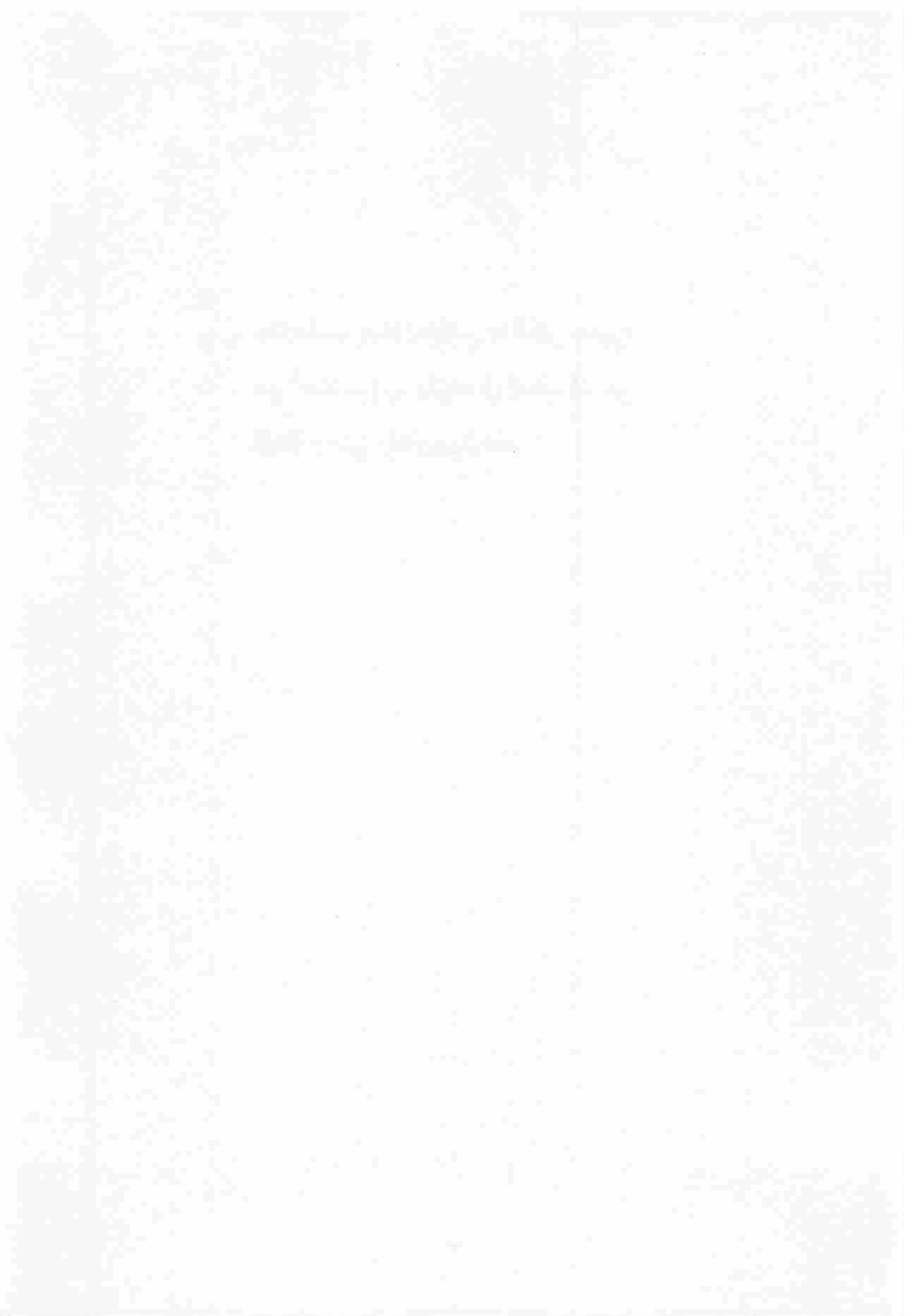
القسم الثاني

أحداث من عصر الرسول

منشورات الجمل



هذا القسم يتناول بعض ما أمكن حصره من أحداث ورد ذكرها في كتاب الله من البعثة وحتى وفاة رسول الله.



المحتويات

تقديم

«القرآن كتابٌ دينيٌ وليس كتاباً تاريخياً» هذه العبارة يرددها الناس كثيراً لدرجة وكأنها لا تقبل الجدل أو الشك. والحقيقة هي أن القرآن مصدر للتاريخ بتفاصيل دقيقة، سواء كان الحديث عن التاريخ القديم لشعوبٍ عاشت في مناطق من جنوب غرب جزيرة العرب كإبراهيم وبني إسرائيل، أو أمم آخرين كنوح وعاد وثمود وشعيب وغيرهم. أو كان عن تاريخ دعوة الإسلام والأحداث التي وقعت زمن رسول الله. إلا أن الناس أُبعدوا وابتعدوا عن القرآن بطرق شتى، وتشربوا القول بأنه كتاب تشريع فقط ولا علاقة له بالتاريخ.

ولو اقترب الناس من القرآن لعرفوا أنه وإن لم ينزل ككتاب تاريخي، إلا أنه في خطابه الدعوي تعرض لأمم قديمة بعضها تُروى أخبارها لعل قريشاً تعتبر من هلاكها كافرة. وبعضها أمم وشخصيات توجه القرآن بالحديث عنها لبني إسرائيل، لأنها تعطي تفاصيل لأحداث من تاريخهم كدليل على أن محمداً رسول من الله وإلا لما عرف بهذه التفاصيل التي لا توجد في كتاب، ولا يعرفها الناس. وقد خصص لهذه الأمم كتاب مستقل، اسمه: من آدم إلى محمد «تاريخ الأمم والأشخاص المذكورين في القرآن».

من ناحية أخرى فسور القرآن تتفاعل مع الأحداث الجارية للرسول والمسلمين، فتروي ما حدث، وتعطي توجيهات لما يجب القيام به حيالها إن كان لها شأن بالمسلمين وحياتهم. مما يجعل القرآن السجل الوحيد لتاريخ عصر الرسول الذي وثق في حينه. وهو ما سنتتبعه في هذا القسم، بدءً من نزول الوحي على رسول الله وحتى وفاته عليه الصلاة والسلام، بشكل أكثر تفصيلاً ودقة وتنقيحاً مما ورد في كتاب أحسن القصص. متتبعين السور حسب نزولها والمراحل السبع التي مرت بها الدعوة في مكة والمراحل الثماني التي مرت بها الدعوة في المدينة.

أحداث المراحل الأربع الأولى للدعوة في مكة

بدء البعثة وميلاد الإسلام

في أمسية أحد أيام العقد الثاني من القرن السابع الميلادي، لاحظ أحد شباب قريش واسمه محمد مخلوقاً غريباً في الأفق: وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ(٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ(٢٣) التكوير. وتقول سورة النجم إن الملك بدأ يقترب منه شيئاً فشيئاً حتى كاد يلامسه: وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى(١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى(٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى(٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى(٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى(٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى(٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى(٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى(٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى(٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى(١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى(١١) النجم.

والقرآن لم يتحدث عن كيفية بداية الوحي فقط ليرويها كخبر، لأن القرآن ليس كتاباً قصصياً. وإن ذكر بعض الأحداث والأقوام التاريخية فليس من أجل رواية الخبر أو الحدث، ولكن لأن رواية الخبر وسيلة لغاية معينة. وقد ذكر القرآن أن الرسول رأى الملك المكلف بنقل الوحي مرتين في حياته جواباً لتساؤلات قريش المتواصلة عن كيفية تلقي الرسول الوحي. كما ذكر القرآن أن الوحي بدأ بالنزول في ليلة مباركة: إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ(٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ(٤) أَمْراً مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ(٥) الدخان.

ولا ندري يقيناً هل كان الرسول في منزله في مكة أو خارج المنزل أو خارج مكة، عندما رأى الملك في الأفق، إلا أنه من البديهي أن يخبر أهله وأقرب الناس إليه بما حدث له. والمؤكد أن رؤية ذلك المخلوق الكوني في الأفق لم تصبه بالرهبة ولا بالخوف، ولم تجعله يهرول لخديجة وابن عمها «ورقة المسيحي المزعوم»، كما سطرت كتب التراث. لأن رؤية الملائكة

تكون للرسل وأناس مختارين فقط، وتكون مصحوبة بالطمأنينة والسكينة، كالتي شعر بها إبراهيم وزكريا ومريم.

ومع أن هذا المخلوق العجيب لم يخاطبه، إلا أن محمداً شعر حينها بأنه يحفظ نصوصاً غريبة لم يسمع بها من قبل: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ(١) الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٢) الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ(٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ(٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ(٥) اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ(٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ(٧).

ومحمد أميٌ لا يقرأ ولا يكتب[1]، حاله حال رجال قومه قريش: وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ(٤٨) العنكبوت.

ولم يتخيل محمد أن تلك اللحظة المفاجئة البسيطة، مثلت إعلان ميلاد أهم حدث في تاريخ البشرية المكتوب.

لقد كان الوقت ليلاً: « إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» وكان ذلك في شهر رمضان: « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ .... (١٨٥) البقرة. وكان في فصل الربيع من عام ممطر، سمح بنمو الحشائش، بدليل أن الرسول عندما رأى الملك في المرة الثانية بعد أيام، كان الملك قد هبط في منطقة عشبية (جنة): وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى(١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى(١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى(١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى(١٦) النجم.

والنصوص التي نزلت على محمد تدعوه لأن يطلب من الله أن يهديه إلى الصراط المستقيم، المخالف لما عليه قومه من الضلال. كل هذا يؤكد أن ما رآه لم يكن من الجن أو الشياطين، ولم يكن خيالاً أو تهيؤات.

ومن المؤكد أن محمداً تساءل إن كان ما حدث له سيتكرر. لكن حيرته سرعان ما تبددت، حيث وجد – بعد عدة أيام – أنه يحفظ نصوصاً أخرى، تُذَكِّرُ قريشاً ببعض نعم الله عليهم، والتي منها رد كيد أصحاب الفيل وهلاكهم قبيل دخول مكة (سورة الفيل). ورحلاتهم المكوكية للتجارة، من أقصى جنوب جزيرة العرب إلى بلاد الشام، وحياتهم الآمنة في مكة (سورة قريش).

ثم نزلت عليه سور أخرى « العصر، التين، التكاثر، والعاديات» وهذه السور تؤكد أن

---

[1] انظر موضوع: أمية الرسول بين المستشرقين والقرآن/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

هناك بعثاً وحساباً، فسارع لتلاوة هذه النصوص على مسامع أهله وقبيلته قريش، برغم أن هذه السور ليس فيها أمرٌ بالتبليغ، ولكنها فقط سور تهيئ قريشاً للاستماع للدعوة، التي ستبدأ لاحقاً.

وقد صورت كتب التراث الرسول بتلك الصورة الخرقاء، وكأنه فقد صوابه عندما رأى الملك لولا ورقة المسيحي المزعوم الذي عرّفه بحقيقة ما رأى[1]. وهذه الصورة مماثلة لتلك الصور التي نسجتها لنا تلك الكتب، حول رعاية وحماية عمه أبو طالب له بعد البعثة، ولولا تلك الحماية لما تمكن الرسول من إبلاغ رسالة ربه. وكل ما قيل عن حماية الرسول من قبل أبي طالب هو مجرد قصص مختلق يهدف لتلميع صورة أبي طالب كونه والد علي ابن أبي طالب الذي ينتمي إليه أتباع المذهب الشيعي، ولا يهم إن صورت القصة الرسول بالشخص الساذج غير الواثق من نفسه الذي يحتاج لرجل آخر يحميه ويستظل بظله. وإلا فحقيقة أبي طالب أنه مثل عم الرسول المشرك الآخر «أبي لهب» الذي كان حرباً على الإسلام، ولم يمنعه كونه عم الرسول من السخرية منه ومضايقته وتعذيب المسلمين المستضعفين بالنار لإجبارهم على الردة: تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ(٢) سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ(٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ(٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ(٥) المسد.

والرسول بعث بعدما أصبح رجلاً بالغاً عاقلاً لا يحتاج لوصاية، وكان محفوظاً بعناية الله وليس بجناح المشرك أبي طالب: وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ(٤٨) الطور.

والقول بأن «ورقة» هو من طمأن الرسول أنه رأى ملكاً لا شيطاناً وأنه هو من أخبره أنه سيكون رسولا لله إلى غير ذلك، كله قصص مختلق، يهدف لتمجيد المسيحية، بدءً من شخصية ورقة التي لا وجود لها على أرض الواقع. وكالعادة استغل المستشرقون وجود هذه القصة في كتب التراث ليقولوا بأن ورقة درّس الرسول وعلمه، متغافلين عن التحقق من وجود شخصية ورقة على أرض الواقع. ولو كان ورقة هو من علم الرسول فلماذا لم يحظ هو بالشرف ويدع هو لما علم الرسول أن يدعو به؟

---

١ للدلالة على اختلاق قصة ورقة أن الديانة المسيحية لا تؤمن بأن هناك ديناً لله سيأتي بعدها، خاصة إذا كان ديناً توحيدياً كالإسلام الذي لا يؤمن بالتثليث الذي هو عماد دين المسيحية. والقول بأن الإسلام دين صحيح يعني الكفر بالقول إن يسوع ابن لله ومات لمغفرة ذنوب البشر.

وماذا يمكن أن يدرس رجل دين مسيحي؟

فالمسيحية فقيرة في المبادئ والتشريعات، وكل ما في المسيحية هو الإيمان بوجود ثلاثة آلهة، وهو ما يتنافى جذرياً مع القرآن. فكيف يعلم ورقة محمداً ما لا يؤمن به هو. ونقول هذا من باب الافتراض الجدلي فقط.

وورقة – كما كتبت كتب التراث – كان له موقف واحد مع الرسول لم يتكرر، فلم يكتب عنه أنه لازم الرسول بعد البعثة، بل قيل إنه مات مباشرة بعد أن بدأ الرسول دعوته[1] فمن علم الرسول دعوة امتدت بعد ذلك قرابة ربع قرن، حسب تقديرات كتب التراث؟

وورقة لو فحصنا ما ذكر عنه فلن نجد مصادر موثوقة تخبرنا عنه شيئاً ذا قيمة. وما قيل عنه لا يزيد عما قيل عن مسيلمة الكذاب، صاحب اليمامة، الذي تقول كتب التراث إن الرسول أخذ منه أيضاً. وسنكتفي بإيراد ما نسبته تلك الكتب لمسيلمة من سور على أنها هي أصل بعض سور القرآن، وسنرى كيف تبدو سور مسيلمة «الأصلية»، وسور الرسول «المقلدة»:

يقول مسيلمة: ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلى. أخرج منها نسمة تسعى. بين صفاق وحشا. وأن إلى الله المنتهى.

بينما يقول محمد: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ(١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ(٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ(٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ(٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ(٥).

ويقول مسيلمة: والشمس وضحاها. في ضوئها ومجلاها. والليل إذا عداها. يطلبها ليغشاها. فأدركها حتى أتاها وأطفأ نورها ومحياها.

وقارن بينها وبين ما يقول محمد: وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا

(٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤).

والمؤكد أن مسيلمة نفسه لم يعلم أنه قال هذه الصفاقات، وأنها نسبت له في عصور لاحقة. في محاولة بائسة لمن اختلقها أن يجعلها تحاكي سور القرآن لعله ينجح في القول بأن آيات

---

١ كان لابد على مختلق شخصية ورقة أن يميته بسرعة لأنه لو لم يقل مات فسيضطر لأن يروي أنه كان مصاحباً للرسول وسيضطر لاختلاق قصة بعد أخرى لهذا، فكان من الأسهل عليه أن يقول إن ورقة علم الرسول مرة واحدة ومات بعدها.

القرآن يمكن أن تحاكى، فظهرت بهذه الصورة المضحكة.

ومثله ما نسب لقس ابن ساعدة الإيادي الجاهلي، ومن ذلك: أين من بغى وطغى وجمع فأوعى، وقال: أنا ربكم الأعلى. ألم يكونوا أكثر منكم أموالاً، وأطول منكم آجالاً. طحنهم الثرى بكلكله ومزقهم بتطاوله. فتلك عظامهم بالية. وبيوتهم خاوية.

وقارن هذا الذي يسمونه «الأصل» بالتقليد وهو القرآن كما يزعمون: فَأَمَّا مَن طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١) النازعات.

وبطبيعة الحال قس لم يعلم أنه ركبت باسمه تلك العبارات الركيكة في العصر العباسي لأنه قد هلك قبلها بمئات السنين.

ومثل ما اختلقت تلك العبارات الركيكة في القديم فقد اختلقت عبارات مشابهة في هذا العصر حيث ظهرت «سورٌ» في كتاب صدر في أمريكا وسمي «الفرقان الحق» قام بكتابته مبشر مسيحي فلسطيني الأصل اسمه شروش[1]، وإليكم واحدة من سوره، واسمها سورة الإيمان:

واذكر في الكتاب الحواريين إذ عصفت الرياح بهم ليلاً وهم يبحرون (١) إذ تراءى على المياه لهم طيف المسيح يمشي فقالوا أهو ربنا يهزأ بنا أم قد مسنا ضرب من جنون (٢) فجاءهم صوت المعلم أن لا تخافوا إني أنا هو أفلا تبصرون (٣) فهتف هاتف منهم يقول ربي مرني إن كنت حقاً هو آتي على المياه إليك عسى أن يبدل الله شكي بيقين (٤) قال فاسع إلي ولتكن للناس آية لعلهم يتذكرون (٥) وإذ طفق الحواري يمشي رأى شدة الريح فخاف وبدأ يغرق فصاح بربه يستعين (٦) فمد بيمينه له فأخذه بها وقال يا قليل الإيمان هذا جزاء الممترين (٧) وإذ ركب السفينة معه سكنت الرياح لتوها فسبح الحواريون بحمده وهتفوا له قائلين (٨).

وبما أن كل كتب السير والأخبار كتبت في العصر العباسي بعد مئات السنين من عصر الرسول، وبعد عصر الظلمات والفتن الذي وجدت فيه طوائف لا حصر لها من ملاحدة

---

١ أنيس شروش مبشر أمريكي مسيحي من أصل فلسطيني. واصل دراسته بجامعة الميسيسبي، وحصل على الدكتوراه في الكهنوت، وعمل مبشراً في أفريقيا. كما عمل في نيوزيلندا، وإنجلترا، والبرتغال. وقد اعتقلته شرطة مدينة دافني بولاية الأباما الأمريكية بتهمة محاولة إحراق برج سكني، وإلصاق التهمة بالمسلمين.

وأتباع مذاهب وعقائد يكتبون كيفما يشاؤون، وينسبونه للتاريخ بأثر رجعي. امتلأت كتب التراث بالقصص والأحداث والشخصيات المختلقة ونسبتها لعصر الرسول، وكأنها حدثت ووجدت بالفعل.

وليست شخصية ورقة هي الشخصية المختلقة الوحيدة في السيرة فهناك الكثير، ومنهم:

شخصية ماعز وشخصية الغامدية اللذين اختلقا لكي يقال عنهما إنهما زنيا ورجما في عصر الرسول لترسيخ حكم الرجم للزناة، وهو حكم لم يرد في كتاب الله ولم يأمر به الله، ولم ينفذ مرة واحدة في عصر رسول الله.

وهناك «فنحاص» شخصية اختلقت لتكون سبباً في نزول العديد من الآيات، ومنها:

لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ(١٨١) آل عمران.

فالطبري ينقل عن المفسرين أن سبب نزولها هو أن أبا بكر طلب من هذا الفنحاص اليهودي أن يُسْلِم فرد عليه أنهم ليسوا بحاجة لله لأنه فقير.

وبطبيعة الحال سياق الآية يكذب هذه القصة المختلقة، والسياق يقول: وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(١٨٠) لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ(١٨١) آل عمران.

فالحديث عن أهل الكتاب وأنهم بخلوا ولم ينفقوا كما طلب منهم، وأنهم قالوا بأن إله المسلمين فقير لأنه يطلب منا أن ننفق عليهم ولو كان غنياً لأنزل عليهم المال. وهذا التصور القاصر عن الله هو ما تتحدث عنه الآية.

ولكي يتأكد القراء أن فنحاص لا وجود له نُذكّرهم أنه استخدم عند المفسرين كسبب لنزول عشر آيات في سور مختلفة، بعضها مكي. أي قبل الهجرة وقبل أن يكون هناك احتكاك بأهل الكتب واليهود في يثرب، ومنها ما أورده الطبري في تفسيره:

أن فنحاص ومجموعة من اليهود سألوا الرسول من أين يأتيه الوحي فنزلت الآية: قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ

لِبَعْضٍ ظَهِيراً(٨٨) بني إسرائيل.

وسورة بني إسرائيل مكية والآية جاءت من آيات تخاطب قريشاً ولا شأن لها بيهود: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً(٨٥) وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً(٨٦) إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً(٨٧) قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً(٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً(٨٩) وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً(٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً(٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً(٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً(٩٣).

وكما هو واضح فالخطاب لقريش التي لا تؤمن بأن القرآن وحي من الله، وجاء التحدي لإثبات أنه ليس كلام الرسول ولا كلام بشر بل هو من عند الله.

وحشر المفسرون اسم فنحاص كسبب لنزول الآية: (٩١) من سورة الأنعام المكية، والآية: (١٧٦) من سورة الأعراف، وفي غيرها.

وقالوا بأن فنحاص هو من قال: عزير ابن الله، وهو جهل فاضح للمفسرين بالقرآن، لأن القرآن ذكر أن قدماء اليهود هم من قال عزير ابن الله ولم يكن في عصر الرسول. وقد ورد هذا في القرآن مرة واحدة في سورة براءة التي نزلت قبيل وفاة الرسول وبعد أن خمد صوت يهود يثرب وأهل الكتاب فيها، والآية تقول: وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ(٣٠) براءة.

ومن الشخصيات المختلقة صفية بنت حيي التي نسبت كتب التراث للرسول أنه تسرى بها يوم قتل زوجها، وبعد أن قتل أباها في وقت سابق. وهو ما يأباه الله ورسوله ويكذبه الواقع، ولو تجرأ الرسول على ذلك لفضحه القرآن وتوعده.

وكذلك مارية القبطية التي قالوا بأن المقوقس ملك مصر قد أهداها له وولدت له ولداً

أسموه إبراهيم. وليس هناك ملك لبلاد النيل زمن رسول الله اسمه «المقوقس» لكن بعض الباحثين يقول بأن هذا الاسم أطلقه العرب على كيرس، الذي عينه هرقل بطريقاً لكنيسة الإسكندرية ووالياً لمصر عام (٦٣١) ميلادية. أي قبل وفاة الرسول بعام واحد، كون الرسول توفي في العام (٦٣٢م). بينما تزعم كتب التراث أن المراسلات بين المقوقس (كيركس) ورسول الله تمت قبل خمس سنوات من وفاة رسول الله، وهو ما يفضح أمر كذبتهم، وينفي وجود أي مراسلات بينهما. وقد بقي كيركس في منصبه منذ العام (٦٣١) حتى استولى المسلمون على مصر في العام (٦٤٢) الموافق للعام (٢١) للهجرة، بعد معارك ضارية قادها كيركس، مما يؤكد أنه لم يسبق له أن كان بينه وبين الرسول مراسلات ولا علاقات ود. وحتى الحديث الذي يقول: «استوصوا بالقبط خيراً». لا يمكن أن يكون صدر من الرسول، لأنه عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيب ولا يعلم أن المسلمين يوماً سيدخلون بلاد القبط.

كما اختلقوا شخصية بحيرا ذلك الراهب المسيحي المزعوم الذي عرف أن الطفل ذا التسع سنوات سيكون رسولاً، عندما رآه مع جده أبي طالب حين قدم الشام. وبطبيعة الحال الرسول لم يذهب للشام في تلك الرحلة المزعومة، لأنه طفل لا يقوى على تحمل مشاق السفر الطويل والشاق. ولم يكن من المعتاد سفر أطفال قريش مع قوافل أهلهم التجارية التي تسير من أقصى جنوب جزيرة العرب لبلاد الشام والعراق، والتي يسوقها عادة مجموعة من العبيد ومعهم بعض الكبراء. وهي رحلات ضنك ومشقة، وتتعرض للمتاعب غير المتوقعة، والظروف الجوية القاسية، ولا مجال فيها للأطفال. ولكن القصة اختلقت للتشكيك في صحة رسالة الرسول وأنها ليست ديناً لله بل هي دروس تلقاها من رجال دين مسيحيين، وأعاد صياغتها. وقد راجت القصة برغم أن كل من يعرف تفاصيل العقيدة المسيحية يعرف أنها فقيرة جداً بالتعاليم الإلهية، ولا يمكن أن تكون مصدراً لغيرها ليقتبس منها، كما أنها ديانة شرك تثليثي، والإسلام دينٌ توحيدي. فكيف يتعلم الرسول التوحيد ممن يؤمنون بالتثليث؟

وهناك الكثير من الشخصيات التي يختلقها القُصّاص الذين كانت المسيحية ديانتهم القديمة، في مجالسهم لحبك قصصهم ثم يتداولها الناس وتترسخ بينهم حتى يأتي كتاب السير والتفسير والحديث ويوثقونها، ويصدقها الناس بعد ذلك.

ولم يكتف القصاص باختلاق شخصيات من البشر لا وجود لها بل اختلقوا شخصيات من الجن ومنهم الذين نزلت فيهم آيات سورة الجن الذين استمعوا للرسول. بل واختلقوا لإبليس أسماءً لم يعلم هو بها، ومن أسمائه عند المفسرين: الحارث والحكم، ويكنى عندهم بأبي مرة وغيره ذلك. ومن أعجب أسمائه خنزب وعزازيل.

وخنزب جعلوه لإبليس عندما يقوم بالوسوسة أثناء الصلاة، أما عزازيل فقد اقتبسوه من كتب اليهود، حيث ورد في كتاب اللاويين[1].

واختلاق الشخصيات كان شائعاً في عصر تدوين كتب الحديث والتفسير وغيرها من كتب التراث، وكان الناس يستمتعون بقصص الشخصيات الخرافية لدرجة الهوس. فراجت قصص البطولات الخارقة لعنترة وسيف ابن ذي يزن والمهلهل وامرئ القيس، وقصص الجنس الخرافي كما في ألف ليلة وليلة وغيرها.

وإلا لو أن أحداً من قريش قد تحول للمسيحية في مكة لحاربه المجتمع ونبذه كما فعلوا مع الرسول والمسلمين، لأن التمسك بالموروث سنة أزلية لدى الناس لا تتسامح مع من يخالفها أو يخرج عنها، بغض النظر عن حقيقة المعتقد الجديد. ولو كان بالفعل هناك شخص اسمه ورقة تحول للمسيحية وأصبح قساً في مكة وله نشاط كنسي وتبشيري، كما يروج بعض المستشرقين بتعسف، فسوف تحاربه قريش ولن يستطيع البقاء في مكة ويتقبله المجتمع بسلام. والمزعوم «ورقة» لم يحاربه أحد، لأنه لم يكن له وجود.

ونعود لمحمد عليه الصلاة والسلام، الذي كان قد رأى الملك للمرة الثانية والأخيرة[2]، وقد نزل على الأرض في تلك البقعة العشبية، كما تخبرنا سورة النجم في الآيات (١٣-١٧). وقد وجد الرسول نفسه يحفظ سورة الفاتحة، وبدأ يصلي قرب الكعبة حيث نادي قريش وملتقاهم[3].

---

١ ورد في الإصحاح (١٦) من كتاب اللاويين : ((٨) وَيُلْقِي هَارُونُ عَلَى التَّيْسَيْنِ قُرْعَتَيْنِ: قُرْعَةً لِلرَّبِّ وَقُرْعَةً لِعَزَازِيلَ (٩) وَيُقَرِّبُ هَارُونُ التَّيْسَ الَّذِي خَرَجَتْ عَلَيْهِ الْقُرْعَةُ لِلرَّبِّ وَيَعْمَلُهُ ذَبِيحَةَ خَطِيَّةٍ (١٠) وَأَمَّا التَّيْسُ الَّذِي خَرَجَتْ عَلَيْهِ الْقُرْعَةُ لِعَزَازِيلَ فَيُوقَفُ حَيًّا أَمَامَ الرَّبِّ، لِيُكَفِّرَ عَنْهُ لِيُرْسِلَهُ إِلَى عَزَازِيلَ إِلَى الْبَرِّيَّةِ.)
وهناك رواية ليوسف زيدان باسم «عزازيل» يقول المؤلف إنها ترجمة لمجموعة لفائف مكتوبة باللغة السريانية، وجدت مدفونة في صندوق خشبي قرب حلب، وقد كُتبت في القرن الخامس الميلادي. وهي عبارة عن سيرة ذاتية للراهب المسيحي المصري هيبا، وتكشف فترة مضطربة من تاريخ الكنيسة والانقسامات حول شخصية يسوع.

٢ الرسول لم ير الملك سوى المرتين اللتين ذكرتا في سورة النجم، ولم يره غيرهما أبداً.

٣ أشارت سورة العلق إلى أن أحد كبراء قريش نهر الرسول عن الصلاة عندما شاهده يصلي (الآيات:٩-١٩) ولابد أنه صلى

وبعد عدة أيام نزلت عليه سورة الفيل فسارع لإسماعها قريش: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥).

وتوالى نزول السور كل بضعة أيام سورة، وكلما نزلت سورة سارع الرسول بحماس ظاهر لتلاوتها على قريش: لإيلاف قريش ... والعصر إن الإنسان لفي خسر ... والتين والزيتون وطور سينين ... ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ... والعاديات ضبحا، فالموريات قدحا...

ورجال قريش يتساءلون عما حدث للشاب محمد بذهول!

وما هذه العبارات الغريبة التي يسمعونها منه؟

ولماذا يقول بأن الموتى سيحيون بعد أن تبلى عظامهم؟

وكانت هذه الفترة عبارة عن تهيئة لقريش لما سيدعوهم له الرسول في قادم الأيام من توحيد الله والإيمان بالآخرة ونبذ الوثنية.

تأهيل الرسول

استمر الرسول قرابة شهرين يتلو على قريش تلك العبارات العجيبة التي لم يسمعوا بها من قبل. ثم نزلت عليه في يوم من الأيام سورة المزمل. وهذه السورة ليست موجهة لقريش، بخلاف ما سبقها. فهي تخاطب الرسول، طالبة منه أن يخضع لبرنامج تأهيلي نفسي، شرحته السورة بالتفصيل، كما يلي:

- السهر أطول مدة ممكنة من الليل: « يا أيها المزمل(٢) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً(٢) نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً(٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ».

وعلى الرسول أن يقوم خلال سهره بالتالي:

- قراءة ما سبق نزوله عليه من القرآن بتؤدة والتأمل: « وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً».
- مع ذكر الله وتسبيحه: « وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً».

واختيار سهر الليل لأن: ناشئة الليل أشد وطئاً (أكثر تأثيراً في النفس) وأقوم قيلاً (تركيزاً).

عند الكعبة حيث المكان الذي تجتمع فيه قريش. ونهر القرشي للرسول يؤكد أنه لم يسبق له أن رآه يصلي قبل ذلك، وأن الرسول بدأ الصلاة مع بداية البعثة.

ويهدف هذا البرنامج للوصول بالرسول إلى مستوى عالٍ من الاستعداد النفسي والذهني يؤهله ليكون قادراً على تحمل المضايقات والضغوط النفسية جراء سخرية الناس المتوقعة وحربهم النفسية له عندما يبدأ دعوته: « إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً». فالدعوة عبارة عن قول ثقيل على أنفس من لا يرغب في الإيمان، سينتج عنه تهجم وسخرية وحرب نفسية ضد الرسول.

ولأن سهر الليل سيتبعه نوم في النهار فلابد أن يختار الرسول مكاناً ملائماً لبرنامجه التأهيلي، وهو ما جعله ينتقل إلى غار حراء ويترك مكة طوال فترة البرنامج التأهيلي. ذلك أنه كان يعيش مع امرأته خديجة وولدها وبناتها في بيت واحد صغير مزدحم، لن يوفر للرسول الهدوء المطلوب.

الرسول وغار حراء

رسول الله لجأ إلى غار حراء بعد أن نزلت عليه سورة المزمل وأمرته بسهر الليل، وليس قبل بعثته كما يقول أهل السير والحديث والتفسير. لأنه قبل البعثة لم يعلم أنه سيكون رسولاً لله، ولم يعلم أنه سيحتاج لتأهيل نفسي ذهني للقيام بالدعوة، وذلك بشهادة القرآن: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٥٢) الشورى.

ولم يَطَّلِع - ولو عن طريق المصادفة - على أي دين من الأديان السابقة، لا قراءة ولا كتابة: وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ(٤٨) العنكبوت.

وكلام المفسرين والمحدثين وأهل السير مجرد قصص مختلق بأثر رجعي. بمعنى أن القُصَّاص بعد ظهورهم، كانوا في مجالسهم عندما يقرأون الآية يختلقون لها قصة، ومن ثم يتداولها الناس فيما بينهم، حتى يأتي كتبة الحديث والتفسير والسير ويوثقوها في كتبهم، بعد أن تكون قد اكتسبت سنداً يوصلها للرسول. وفيما يلي بعض ما جاء في كتاب شيخ المفسرين الطبري، وبعض ما ورد في كتاب شيخ المحدثين البخاري، كأمثلة على ما نقول:

يقول الطبري في قوله تعالى: يا أيها المزمل، «أن عكرمة يقول: «زُمِّلت (يا محمد) هذا الأمر فقم به». يعني ألزمت أو كلفت بالدعوة فقم بها.» وهذا المعنى من اختلاق عكرمة.

أما قتادة فيقول: « المزمل، هو: المُتزمل في ثيابه، متأهب للصلاة.» والطبري يميل لهذا القول، وهذا ما يقول: «قال أبو جعفر (كنية الطبري): والذي هو أولى القولين بتأويل ذلك، ما قاله قتادة، لأنه قد عقبه بقوله: قُم اللَّيْلَ فكان ذلك بيانا عن أن وصفه بالتزمُّل بالثياب للصلاة، وأن ذلك هو أظهر معنييه.»

وبطبيعة الحال لو كان الرسول قد تزمل (التف) بثيابه تأهباً للصلاة، فإن دعوته للصلاة تحصيل حاصل، لأنه متجه لتأديتها. وهذا تسطيح لكلام الله جل شأنه.

ويستمر الطبري ليقول: «وقوله: قُم اللَّيْلَ إلاَّ قَلِيلاً يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم: قم الليل يا محمد كله إلا قليلاً منه، نِصْفَهُ يقول: قم نصف الليل أو انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ يقول: أو زد عليه خَيره الله تعالى ذكره حين فرض عليه قيام الليل بين هذه المنازل أيّ ذلك شاء فعل، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيما ذُكر يقومون الليل، نحو قيامهم في شهر رمضان فيما ذُكر حتى خفف ذلك عنهم. ذكر من قال ذلك:

حدثنا أبو كريب، قال: ثنا أبو أُسامة، عن مسعر، قال: ثنا سماك الحنفي، قال: سمعت ابن عباس يقول: لما نزل أوّل المزمل، كانوا يقومون نحوا من قيامهم في رمضان، وكان بين أوّلها وآخرها قريب من سنة. (وقيل ثمان وقيل أكثر وأقل).» انتهى كلام الطبري.

ويمكن ملاحظة أن المفسرين يقولون إن أمر الرسول بقيام الليل في أول آيات سورة المزمل يعني إلزام المسلمين بقيام الليل واستمروا على هذا سنة أو سنوات حتى نزلت آخر آية من المزمل فخفف عنهم. وهذا لم يحدث لأسباب منها:

- أن الواقع يكذب وقوعه، فلم يكن المسلمون يقومون الليل في مكة.
- أن المزمل نزلت في مكة وفي أول أيام البعثة – وهو ما يوافق عليه المفسرون والمحدثون وأهل السير –. ففي ترتيبهم للسور يضعون سورة المزمل ثالث سورة نزلت من القرآن، بعد العلق، والقلم. وفي الأيام الأولى للدعوة الاهتمام ينصب على دعوة قريش للدخول في الإسلام، وليس على تشريع قيام ليل منهك.
- لو تتبعنا الأمر بالصلاة فقد ورد أول ذكر لأداء الصلاة في سورة العلق، وهو موجه لأحد كبراء قريش والذي يحاول أن ينهر الرسول عندما يراه يصلي. ولم تذكر الصلاة في سورة العلق كأمر للمسلمين بأدائها، لأنه لم يكن هناك مسلمون وقت نزول السورة،

مما يعني بداهة أنه لم يكن هناك مسلمون عند نزول المزمل التي سبقتها لكي يشرع لهم صلاة وسهر مضن.

- ولو كان المقصود بالآيات العشر الأولى لسورة المزمل، المسلمين، فستكون عامل طرد وتنفير لأي شخص يفكر في الدخول للإسلام. لأن عليه أن يسهر أغلب ساعات الليل للتسبيح والصلاة. والمسلم الجديد لا يمكن أن يقبل بمثل هذا التشريع المضني.
- ولم تذكر الصلاة بعد ذلك إلا بعد نزول خمسين سورة من القرآن، وفي سورة فاطر: وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللهِ المَصِيرُ(١٨) فاطر.

لأن السور المكية الأولى بالفعل معنية بالدعوة، والتشريعات - كقاعدة إلهية - لا تفرض إلا بعد وجود جالية مؤمنة. لذا نجد أن الأمر بالصلاة وفرض أوقات لأدائها لم يحدث إلا بعد أن بدأت السور تخاطب كل الناس ودخل بعض بني إسرائيل يثرب والمستضعفين في مكة للإسلام.

وكانت البداية مع الآية التالية: وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى(١٣٢) طه.

فالآية تطلب من الرسول أن يأمر أهله بالصلاة وذلك قبل أمر الناس، وأن يصطبر عليها هو، ولا ذكر لأمر الناس. ثم وعندما تكونت جالية مسلمة قلة في مكة، وأكثر منهم في يثرب، بعد أن دخل بعض بني إسرائيل وغالبية الأوس والخزرج، نزلت سورة بني إسرائيل تحدد وقتين للصلاة: أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً(٧٨) الإسراء.

وفي نفس الفترة نزلت سورة هود، تفرض ثلاثة أوقات أخرى: وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ(١١٤) هود.

وهكذا يتضح أن كلام المفسرين وأصحاب السير مجرد خيال مصحوب بجهل مطبق لأحداث عصر الرسول. وفيما يلي سنورد حديثاً من البخاري هو عبارة عن تهيئوات مماثلة لما قاله الطبري في تفسيره وابن هشام في سيرته:

يقول البخاري: «حدّثنا يحيى بن بُكير حدّثنا الليثُ عن عُقَيل عن ابن شهاب ح وحدثني عبدُ الله بن محمد حدثنا عبدُ الرزّاق حدّثنا معمرٌ قال الزُّهريُّ : فأخبرني عروة عن عائشة رضيَ الله عنها أنها قالت: «أوَّلُ ما بُدِيءَ به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرُّؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يَرَى رُؤيا إلا جاءتهُ مثلَ فَلَقِ الصُّبح فكان يأتِي حِراءً فيتحَنَّثُ فيه ـ وهو التعبدُ ـ الليالِيَ ذواتِ العدد، ويَتزوَّدُ لذلك، ثم يَرجعُ إلى خديجةَ فتزوِّدُهُ لمثلها، حتى فَجِئَهُ الحقُّ وهو في غارِ حِراء، فجاءهُ الملك فيه فقال: اقرَأ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ما أنا بقارىء، فأخذَني فغَطَّني حتى بلغَ مني الجَهْدُ ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلتُ: ما أنا بقارىء، فأخذَني فغَطَّني الثانية حتى بلغ مني الجهدُ، ثم أرسلني فقال: اقرَأ، فقلتُ ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغَ مني الجهدُ ثم أرسلني فقال: (اقرَأ باسم ربِّكَ الذي خلق ـ حتى بلغَ ـ مالم يَعلم) (العلق: ١ـ ٥)، فرجَعَ بها ترجفُ بَوادِرُه، حتى دخلَ على خديجةَ فقال: زَمِّلوني، زملوني. فزَمَّلوه حتى ذهبَ عنه الرَّوع فقال: يا خديجةُ مالي؟ وأخبرَها الخبرَ وقال: قد خَشِيتُ على نفسي، فقالت له: كلاّ، أبشرْ، فوَ الله لا يُخزيكَ الله أبداً، إنكَ لتصِلُ الرَّحمَ، وتصْدقُ الحديث، وتحملُ الكلَّ، وتَقرِي الضيفَ، وتعين على نوائبِ الحقّ. ثمَّ انطلَقتْ به خديجةُ حتى أتت به ورقةَ بن نوْفل بنِ أَسَد بن عبدِ العُزَّى بن قصيّ ـ وهو ابنُ عمِّ خديجةَ أخو أَبيها ـ وكان امرأً تنصرَ في الجاهلية، وكان يكتبُ الكتابَ العربيَّ فيكتبُ بالعربيةِ منَ الإنجيل ما شاء الله أن يكتبَ، وكان شيخاً كبيراً قد عميَ، فقالت له خديجةُ: أي ابنَ عمٍّ، اسمَعْ منَ ابن أخيك. فقال ورقةُ: ابنَ أخي ماذا ترى؟ فأَخبرهُ النبيُ صلى الله عليه وسلم ما رأَى، فقال ورقةُ: هذا الناموسُ الذي أُنزِلَ على موسى، ياليتني فيها جذَعاً أكون حيّاً حينَ يخرجُكَ قومك. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: أَوَ مُخرجِيَّ هم؟ فقال ورقةُ: نعم، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بما جِئتَ به إلاّ عودِي، وإنْ يُدرِكْنِي يَومكَ أَنصرْك نصراً مُؤزَّراً. ثمَّ لم يَنشبْ ورقةُ أن تُوفيَ، وفتر الوحيُ فترةً حتى حَزنَ النبيُ صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا حُزناً غدا منه مراراً كي يَتَرَدَّى من رؤُوسِ شواهقِ الجبال، فكلما أوفى بذِروة جَبلٍ لكي يُلقي منه نفسه تبدَّى له جبريل فقال: يا محمدُ، إنكَ رسولُ الله حقاً فيسكنُ لذلك جأشه وتقرُّ نفسه فيرجعُ، فإذا طالت عليه فَترةُ الوحي غدا لمثلِ ذلك، فإذا أَوفى بذِروَةِ جبلٍ تَبدَّى له جبريلُ فقال له مثل ذلك»» .... انتهى.

ونقول: اعتكاف الرسول في غار حراء حقيقة تناقلها الناس مشافهة. وعندما بدأ القصاص

والمحدثون في عصر الفتن والظلمات، في تناول سيرته عليه الصلاة والسلام في مجالسهم، كان القاص يورد قصة سمعها عن الرسول ثم يضيف لها ويقلمها حسب المغزى الذي يريد توصيله لمستمعيه. وقد تسامع الناس أن الرسول كان معتكفاً في غار حراء، لكنهم لا يعرفون متى حدث هذا، فتصوروا أنه حدث قبل البعثة، وغذي بقصص مختلق ومتنوع.

والرسول لم يذهب لغار حراء إلا بعد نزول سورة المزمل وحاجته لمكان هادئ يزاول فيه برنامجه التأهيلي الذي أمرت به الآيات العشر الأولى من السورة. ولم يكن تواجد الرسول في حراء قبل البعثة، لأنه لم يكن يدري أنه سيكون رسولاً لله، ولم يكن يتعبد، لأنه لم يعرف الحق قبل البعثة: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) الشورى.

وقد تناقل الناس أخبار تواجد الرسول في غار حراء، وجاء القُصاص فحولوا وقتها لما قبل البعثة لكي تلائم ما أشيع من أن أول ما نزل هو أول سورة العلق. وأضيف لها اختلاق قصة استشارة ورقة ابن نوفل الخرافية، وقصص كثير مختلف.

أما آخر القصة في الحديث ففيها استخفاف بالرسول وتصوير له وكأنه معتوه: «ثمَّ لم يَنشبْ ورقةُ أَن تُوفيَ، وفتر الوحيُ فترةً حتى حَزنَ النبيُ صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا حُزناً غدا منه مراراً كي يَتَرَدَّى من رؤُوسِ شواهقِ الجبال، فكلما أوفى بذِروة جَبلٍ لكي يُلقي منه نفسه تبدَّى له جبريل فقال: يا محمدُ، إنكَ رسولُ الله حقاً فيسكنُ لذلك جأشه وتقرُّ نفسه فيرجعُ، فإذا طالت عليه فَترةُ الوحي غدا لمثلِ ذلك، فإذا أَوفى بذِروَةِ جبلٍ تَبدَّى له جبريلُ فقال له مثل ذلك».

والملاحظ أن المفسرين والمحدثين ينقلون لنا أن الرسول لما رأى الملك وأصيب بالذعر رجع لبيته يرتجف ويقول: زملوني زملوني.... فتنزل عليه سورة تبدأ بيا أيها المدثر. ويفترض أن تنزل عليه سورة المزمل. لكنهم تجاهلوا هذا لأنه لا يستقيم مع قصصهم الذي اختلقوه حول بداية نزول الوحي. ويكون الرسول قد نزل عليه الوحي أولاً بسورة الفاتحة، وتلتها ست سور أخرى هي: الفيل، قريش، العصر، التين، التكاثر، والعاديات، قبل أن تنزل عليه سورة المزمل التي تهيؤه للقيام بالدعوة التي ستبدأ فعلياً بعد ذلك بنزول سورة المدثر: يا أيها

المدثر، قم فأنذر.

والمزمل في قوله «يا أيها المزمل» من الزمْل وليس من التزمُّل. والمُزمَّل بفتحة على الميم الثانية هو التلفف بالثياب. أما المُزمِّل – بكسرة تحت الميم الثانية فتعني العدو والحركة والنشاط[1]. وكأنها تشير إلى أن محمداً عندما نزلت عليه سور المرحلة الأولى أبدى حماساً ونشاطاً متقداً لملاحقة رجال قريش في أماكن تجمعاتهم لتلاوتها عليهم. فنزلت هذه السورة تقول له أن يتروى فالأمر أكثر ثقلاً وصعوبة مما يظن، لأنه سيواجه العنت والأذى النفسي من المشركين، وعليه أن يكون مستعداً نفسياً أولاً قبل البدء الفعلي بالدعوة. وهو ما يتطلب أن يخضع لبرنامج تأهيل نفسي قاسٍ، يتمثل بالسهر والتأمل والعزلة. فكان أن اختار أن يمضي وقته في غار حراء.

وقد اختفى محمد من شوارع مكة ولم تعد قريش تراه[2].

إعلان أن محمداً رسول من الله

إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً(١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً(١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً(١٧) المزمل.

لابد أن الرسول قد قرأ سورة المزمل على أهل مكة قبل أن يغادرها لغار حراء، وهذه الآيات إعلان يؤكد لهم أن محمداً – ذلك الفتى الذي يعرفون من فتيانهم – قد أصبح رسولاً لله.

وهذا الإعلان الإلهي جاء بعد عدة أشهر من رؤية الرسول للمَلَك، ونزول سورة الفاتحة كبداية لنزول الوحي وبدء البعثة. فبدء البعثة كان بنزول سورة الفاتحة، وإعلان أن الرسول أصبح رسولاً لله جاء في سورة المزمل.

١ مما ورد في لسان العرب: الزَّمَل الخِفَّة والسُّرْعة. زَمَلَ يَزْمِل ويَزْمُلُ زِمَالاً: عَدَا وأَسْرَعَ مُعْتَمِداً في أَحد شِقَّيْه رافعاً جنبه الآخر، وكأَنه يعتمد على رِجْل واحدة. قال ابن جني: هكذا رويناه عن أَبي عمرو الزَّمَل، بالزاي المعجمة، ورواه غيره الرَّمَل، بالراء أَيضاً غير معجمة، قال: ولكل واحد منهما صحة في طريق الاشتقاق، لأَن الزَّمَل الخِفَّة والسُّرْعة، وكذلك الرَّمَل بالراء أَيضاً، أَلا ترى أَنه يقال زَمَلَ يَزْمُل زِمالاً إِذا عَدَا وأَسرع معتمداً على أَحد شِقَّيه، كأَنه يعتمد على رجل واحدة، وليس له تمكن المعتمد على رِجْليه جميعاً.

٢ انظر فقرة: غار حراء/ قسم أماكن وشخصيات.

البدء الفعلي للدعوة

بعد فترة انقطاع عن الناس وانعزال في غار حراء - امتدت لبضعة أشهر – مارس خلالها محمد البرنامج التأهيلي، حان الوقت لبدء الدعوة، بعد أن أصبح جاهزاً نفسياً وذهنياً لتحمل المتاعب النفسية القادمة، فنزلت عليه سورة المدثر التي تأمره ببدء الدعوة:
يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ(١) قُمْ فَأَنذِرْ(٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ(٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ(٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ(٥).

كان الرسول متدثراً وهو نائم في النهار كعادته أثناء بقائه في الغار، وهو ما يشير إلى أن السورة نزلت في وقت الشتاء في مكة والذي يميل للبرودة. وإذا ما تذكرنا أن الرسول قد نزلت عليه السور السبع الأولى خلال شهرين، ثم بقي في غار حراء لبضعة أشهر، فيمكن القول بأن نزول سورة المدثر كان بعد مضي قرابة العام على بداية نزول الوحي. وبنزول سورة المدثر، حزم الرسول أمره وعاد لمكة بادئاً رحلته للدعوة التي امتدت طوال حياته.

وخلال الأشهر الأولى للبعثة لم يحدث للرسول أي أذى نفسي أو بدني من قريش، وهذا الموقف الذي يبدو في ظاهره متسامحاً، يمكن فهمه. فقريش تجاهلت الرسول خلال هذه الفترة برغم سماعها له وما يتلو عليهم من عبارات غريبة، معتبرة ما يقوم به مجرد نزوة عابرة من فتىً سرعان ما تخبو. وسارت الحياة في مكة بشكلها الاعتيادي، فيما عدا مواقف وأحداث قليلة متفرقة، وأحدها:

قرشي يستمع ثم ينكص

لقد استمع أحد كبراء قريش ممن يملك المال والولد للقرآن (سور المرحلة الأولى السبع) فمال للحق، لكنه تراجع وغلب عليه التمسك بالموروث. ولكي يبرر لنفسه أن تراجعه عن تصديق الرسول هو الحق، اتهم الرسول بأنه قرأ عليه طلاسم سحرية غيبت عقله، لكنه ثاب لعقله وأدرك أنها ليست من الله: ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً(١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً(١٢) وَبَنِينَ شُهُوداً(١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً(١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ(١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً(١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً(١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ(١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(٢٠) ثُمَّ نَظَرَ(٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ(٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ(٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ(٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ(٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ(٢٦) المدثر.

وهذا القرشي لم يذكر القرآن اسمه، لأنه كان معروفاً للرسول، ولأنه عرف أن هذه الآيات تتحدث عنه، وهذا هو المهم. فالحديث موجه لذلك الشخص وقد تبلغ الرسالة، وليس الحديث موجهاً لمن سيأتي بعد عصر الرسول لأنه لا حكمة من إبلاغهم بذلك الموقف الشخصي، لكن بما أن القرآن كلام الله فكل ما نزل على الرسول منه يجب أن يبقى كما نزل. وبما أن المفسرين لا يمكن أن يفوتوا فرصة لاختلاق القصص إلا وأقدموا عليها، فقد اهتموا بمن يكون، أكثر من اهتمامهم بالحدث. وقالوا (كما أورد الطبري في تفسيره للآية) إن المعني هو الوليد بن المغيرة، وكان ماله من الدنانير، بل قالوا هي ألف دينار، وزادها بعضهم إلى أربعة آلاف، وقال بعضهم ماله عبارة عن أراضٍ، ومرة أخرى قالوا بل ماله غلة شهر بشهر. وكالعادة فلم يخبرهم بما قالوا عن المغيرة من عاش زمن المغيرة، ولكنهم اختلقوا قصصهم كيفما يحلو لهم. والآية لا تحتاج لقصص المفسرين، لأنها تقول ببساطة إن الرجل ثري، بلغة ذاك العصر، لأن ثراءه أحد الأسباب في نكوصه عن الحق. وقد أبلغه القرآن برسالة التهديد، وعرفت قريش ذلك، وهذا المهم في إيرادها. وليس المهم أن يخبر القرآن أجيالاً قادمة باسمه أو مقدار ثروته، لأن القرآن ليس كتاب روايات، والخطاب ليس لدعوة من سيأتي بعد عصر الرسول.

وهذا القرشي عندما قال لا، فلن يؤمن أبداً، لأن هناك سنة أزلية ذكرها القرآن تؤكد أن من يرفض الدعوة مرة فلن يقبل بها أبداً[1]. لذا جاءت الآيات تتوعده، لأنه مهما طال به العمر فسيموت على كفره ولن يؤمن، مهما دعي ومهما تبين له الحق. ولم تتوعده الآيات لأن الله قد كتب عليه الشقاء والضلال. وهذا القرشي كان أول من جاء ذكره في القرآن يسخر من الدعوة والرسول.

استمرار الدعوة

بنزول سورة المدثر يكون قد مضي حوالي عام من بدء البعثة، ذلك أن نزول السور السبع الأولى من القرآن (مرحلة التعريف والتهيئة) استغرق ما بين شهرين إلى ثلاثة أشهر، قبل أن تنزل سورة المزمل ويبقى الرسول في غار حراء لبضعة أشهر، إلى أن نزلت عليه سورة المدثر معلنة بدء الدعوة الفعلي بعد حوالي العام من بدء البعثة.

---

١ انظر فقرة: من يرفض الدعوة مرة لن يؤمن بها أبداً / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

ثم توالى بعد ذلك نزول السور للمرحلة الرابعة (مرحلة استمرار الدعوة) والتي نزل خلالها سبع وثلاثون سورة كلها تخاطب قريشاً فقط، وكأن الدعوة للإسلام موجهة لأهل مكة حصرياً. والسور هي: الأعلى، العلق، القارعة، الزلزلة، الانفطار، الانشقاق، التكوير، الشمس، الليل، الطارق، الفجر، البلد، القيامة، النبأ، ق، الواقعة، الغاشية، الحاقة، المطففين، عبس، المرسلات، الجن، الفلق، الناس، الإنسان، الملك، يس، القدر، والرحمن، النجم، الهمزة، ن والقلم، الطور، الضحى، الشرح، نوح، والقمر.

ولو قدرنا أن الفترة بين نزول سورة وأخرى في هذه المرحلة، هو شهر، فقد استمرت هذه المرحلة لحوالي ثلاث سنوات أو تزيد قليلاً. كانت الدعوة موجهة لقريش فقط دون بقية الناس، ودون أن يغيروا موقفهم الرافض للحق.

ولو توفي رسول الله أو قتل في هذه المرحلة فلن يكون هناك إسلام، ولا قرآن مكتوب، ولا تشريعات. ولكن سيكون هناك قلة قليلة موحدة، تؤمن بعبادة الله وحده، وبالبعث والحساب، وأن عليها أن تنفق لسد حاجة المحتاج وتصلي في أي وقت تشاء دون تحديد. وسينتهي أمر هذه الفئة من الناس مع تتابع الأجيال.

وفي هذه المرحلة تجلت سنة الأولين التي تؤكد أن الدعوة لا يقبل عليها الكبراء والأغنياء وأصحاب المصالح والجاه، ولن يؤمنوا بها مهما دعوا. وسيقبل بها قلة قليلة من المستضعفين والمهمشين، وقلة ممن يبحث عن وضع أفضل في ظل الدعوة مما حصل عليه في مجتمعه، ومن هؤلاء يكون المنافقون عادة. وهناك أعداد أقل تقبل الدعوة من طبقات اجتماعية متنوعة. ومن لم يؤمن بالدعوة في هذه المرحلة فلن يؤمن بها مهما دعي بعد ذلك. وكل من يعلن إسلامه فيما بعد فلأسباب أخرى ليس منها الاقتناع بالدعوة.

أحد كبراء قريش ينهر الرسول عن أداء الصلاة

أول الأحداث التي وقعت في هذه المرحلة وذكرها القرآن كان في أول سور المرحلة نزولاً، العلق. وتروي لنا أن أحد كبراء قريش لاحظ أن الرسول منذ أن بدأ دعوته وهو يؤدي صلاة غريبة عند الكعبة – حيث يجتمع سادة قريش – فكان ينهره لئلا يؤديها: أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى(٩) عَبْداً إِذَا صَلَّى(١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى(١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى(١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى(١٣) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى(١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ(١٥)

نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ(١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَه(١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ(١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ(١٩) العلق.

ويمكن أن نفهم ما حدث كما يلي: فالرسول بعد أن بعث، بدأ يصلي في المسجد الحرام وقرب الكعبة – حيث مجالس قريش وتجمعهم – فلاحظوا هذه الحركات غير المألوفة لديهم التي يقوم بها الرسول، والتي لم يبدأ بأدائها إلا بعد أن زعم أنه رسول من الله ويدعو لدين جديد. ولما عاد من غار حراء وعاود تلاوة عباراته الغريبة عليهم، عاود الصلاة كما كان يفعل قبل اعتزاله في الغار. فما كان من أحدهم إلا أن سارع لنهر الرسول وزجره عن أداء صلاته.

قريش بدأت تتساءل عن البعث

وتساؤلهم عن البعث مشوب – عند غالبيتهم – بسخرية، فكانوا كلما التقوا الرسول سألوه: متى البعث يا محمد؟

فنزلت السور التي تبدأ «بإذا» كإجابة لتساؤلاتهم، وهي: الزلزلة، والانفطار، والانشقاق، والتكوير.

والبعث بالنسبة لقريش شيء محير، لأنهم يظنون أن الجسد الذي تحلل بعد الموت وانتهى سيعاد للحياة مرة أخرى، ويرون هذا ضرباً من الخيال. ولأن قريشاً لن تستوعب حقيقة البعث المتمثلة في أن الإنسان هو النفس وأن الجسد المتحلل هو عبارة عن حامل يمكن استبداله بحامل آخر يوم القيامة، فقد توجه القرآن لإقناع قريش بما يمكن لمداركهم أن تفهمه، وهو أن يؤمنوا أن هناك بعثاً وحياة بعد الموت، حتى لو تصوروا أن الإنسان سيبعث بجسمه الدنيوي. لذا جاءت السور لتقنعهم بإمكانية البعث بصور حسية مجازية يفهمونها، دون التصريح بما سيكون عليه الحامل الجديد للنفس يوم القيامة.

قريش بدأت تتهكم على الرسول

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ(١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ(١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ(١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ(١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ(١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ(٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ(٢١) وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ(٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ(٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى

الْغَيْبِ بِضَنِينٍ(٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ(٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ(٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ(٢٧) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ(٢٨) وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٢٩) التكوير.

الآيات تشير إلى أن رجال قريش بدأوا يتهمون الرسول بالجنون، وهم يعلمون أنه ليس كذلك، ولكن من باب التهكم والسخرية. كونه يتلو عليهم قرآناً عجيباً يدعو للإيمان بحياة بعد الموت التي يعتبرونها مستحيلة. وإن كان الرسول ليس بمجنون فلابد أن من يوحي له بهذه الأفكار شيطان، كونهم يؤمنون بالخرافات وتواصل شياطين الجن مع الناس. وهذا مؤشر على أن قريشاً لم تعد تتجاهل الرسول ودعوته، ولكنها بدأت تحتك به وتضايقه، وهذا تطور سيء سيتطور مع الأيام للأسوأ.

رجال قريش يختلفون حول البعث

استمرت الدعوة وتتابع نزول سور القرآن في هذه المرحلة: الأعلى، العلق، القارعة، الزلزلة، الانفطار، الانشقاق، التكوير، الشمس، الليل، الطارق، الفجر، البلد، والقيامة. وكلها سور تؤكد لقريش وقوع البعث، وتقول لهم إن التفكير بالخلق وقدرة الخالق دليل على إمكانية بعث الناس بعد الموت، مما أحدث آراءً مختلفة بين رجال مكة. فالبعض بدأ يميل للتصديق بإمكانية البعث وهؤلاء دخلوا في جدال ومناظرات مع الفريق الآخر الذين أصروا على إنكار إمكانية البعث. وأول سورة أظهرت هذا النزاع في مكة هي سورة النبأ، التي نزلت بعد القيامة: عَمَّ يَتَسَاءلُونَ(١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ(٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ(٣).

رجال قريش بدأوا يتساءلون في نواديهم: هل يمكن أن يحدث البعث؟

وقد انقسموا حول الإجابة: الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ(٣).

وهو ما أشارت له سورة «ق» التي تلت النبأ في النزول:

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ(١) بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ(٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ(٣).

العجب والتعجب حول ما يقوله محمد – الذي هو منهم – عن البعث. والآيات تظهر حدة الجدل حول البعث في مكة بين رجال قريش. وفكرة البعث جديدة، ومن اقتنع بإمكانيته

صدم بآخرين ينفون حدوثه. ومع أن الأيام الأولى للجدل كانت مشحونة إلا أن كلا الفريقين متفقان على تكذيب محمد وعدم قبول دعوته، سواء كان هناك بعث أم لم يكن.

وقد استمر اختلاف رجال قريش حول إمكانية البعث، ولم يتوقف. فقد أشارت لاستمراره سورة «ص» أول سورة نزلت في المرحلة الخامسة للدعوة في مكة وبعد قرابة سنتين من بدء اختلاف قريش حول البعث: ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ(١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ(٢).

وهو ما أكدته سورة الذاريات التي نزلت في نفس المرحلة الخامسة: وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ(٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ(٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ(٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ(١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ(١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ(١٢).

والخراصون الذين لا يعتمدون في كلامهم على مصادر وحقائق، وإنما على ظنون.

وتقول سورة الجاثية التي نزلت في نفس المرحلة، وبعد حوالي ثلاث سنوات من بدء بعض رجال قريش بالتصديق باحتمال وقوع البعث: وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ(٣٢) الجاثية.

قريش تطالب الرسول بدليل محسوس يؤكد البعث والقيامة ليؤمنوا، لأنهم لن يتركوا موروثهم لمجرد احتمال أن هناك بعثاً، والاحتمال مجرد ظن قد لا يقع. وهذا يظهر أن الاقتناع بالبعث أصبح عند بعض رجال قريش محتملاً، بعدما كان لا أحد منهم في بداية الدعوة يتصور احتمال حدوثه.

الرسول يتعرض للضغوط

فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ(٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ(٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ(٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ(٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ(٤٣) ق.

يمكن القول إن السورة تشير لبداية تعرض الرسول للمضايقات والسخرية من قريش، وذلك بعد مضى أكثر من عام على بدء الدعوة بالمدثر، وسنتين على بدء البعثة. فسورة «ق» رقمها من حيث تسلسل النزول (٢٤) منذ البعثة، وهي السورة الثالثة عشرة بعد نزول

المدثر، وبدء الدعوة. وكل السور التي نزلت قبلها في هذه المرحلة تدعو قريشاً للإيمان بالله والبعث، دون أن يتزحزحوا قيد أنملة عن التمسك بموروثهم الديني القائم على عبادة الأصنام. ولكي يبرروا لأنفسهم أنهم على حق، بدأوا يسخرون من الرسول بطريقة مؤذية لمشاعره، برغم أنه استعد جيداً في غار حراء ليكون قادراً على تحمل هذه المضايقات المتوقعة. لكنه بشر عرضة للأذى ويحتاج لتجديد برنامجه التأهيلي باستمرار، فجاءت هذه الآيات لتشد من عزيمته بتذكيره أن الله قريب منه.

وسنرى أنه كلما تدنت معنويات الرسول نتيجة للضغوط النفسية تنزل السور لتشد من عضده وترفع من معنوياته، وحثه على ذكر الله وتسبيحه ليشعر بقربه منه، ويتقوى نفسياً وذهنياً.

أول إشارة لوجود نفر مسلم في مكة

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ(٢٩) وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ(٣٠) وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ(٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاء لَضَالُّونَ(٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ(٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ(٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ(٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ(٣٦) المطففين.

هذه أول مرة يشير القرآن لوجود مسلمين، وذلك بعد نزول (١٨) سورة سبقت هذه السورة منذ بداية الدعوة، وسبع وعشرين سورة من بداية البعثة. وهي فترة يمكن تقديرها بسنتين ونصف منذ بدء البعثة، وسنة ونصف منذ بدء الدعوة.

الرسول والأعمى

الآيات العشر الأولى من سورة عبس (ورقمها من حيث تسلسل النزول هو:٢٩) تشير إلى أنه بينما كان الرسول مستغرقاً في حديثه مع أحد كبراء قريش، قاطعه رجل أعمى مسلم بسؤال، فأفلت القرشي وابتعد. فما كان من الرسول إلا أن امتعض وتغيرت ملامح وجهه «عبس»، لأنه – على ما يبدو - كان يأمل أن يقتنع القرشي بالدخول في الإسلام.

عَبَسَ وَتَوَلَّى(١) أَن جَاءهُ الْأَعْمَى(٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى(٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى(٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى(٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى(٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى(٧) وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى(٨)

وَهُوَ يَخْشَى(٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى(١٠)

والأعمى هو أحد المسلمين القلائل في ذلك الوقت، والذين معظمهم من الضعفاء والمساكين، الذين عادة ما يسارعون للدخول في الدين كما درجت سنة الأولين، مع كل الرسل السابقين، ومنهم من آمن مع نوح: فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ(٢٧) هود.

ومن آمن بصالح: قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ(٧٥) الأعراف.

وتوبيخ الرسول على ما حدث، تحريمٌ للعبوس في وجه المسلم، أو الصد عنه. وهذا التشريع التوجيهي المبكر ومنذ الأيام الأولى للإسلام، جاء لضمان حياة كريمة للمسلم، تصان فيها كرامته ومشاعره، ولم يتهاون القرآن مع محمد، برغم أنه رسول الله، وأنه في بداية الدعوة، والضغوط النفسية عليه كبيرة جداً، وبحاجة للتشجيع وليس التوبيخ، لكن كرامة المسلم فوق كل اعتبار. والله جل وعلا لا يتعامل بالعواطف، فالقانون قانون ويجب أن يحترم من الجميع، مهما كانت الظروف.

استماع الجن للرسول وهو يتلو القرآن

مضى على بدء بعثة الرسول قرابة الثلاثة الأعوام، وعامين منذ بدء الدعوة[1]، كان الرسول خلالها يتلو ما ينزل عليه من الوحي على قريش التي صم رجالها آذانهم عن سماع الحق وأصروا على التمسك بموروثهم. وكانت الحياة في مكة تسير بشكل اعتيادي فيما عدا اللحظات التي يتواجد فيها الرسول مع جمع من كبراء مكة حيث يرفع صوته بتلاوة القرآن ويقابلونه بالسخرية. وفي لحظة من تلك اللحظات صدف مرور نفر من الجن بنفس المكان الذي كان رسول الله يتلو القرآن فيه – على قريش – فأثار انتباههم واستمعوا له، ثم ارتحلوا لأقوامهم يخبروهم بما سمعوا ويدعونهم للإيمان:

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً(١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ

---

١ لنتذكر أن البعثة بدأت بتلقي الرسول الوحي ونزول الفاتحة، بينما بدأت الدعوة بنزول سورة المدثر، وذلك بعد حوالي عام على بدء البعثة.

فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحداً(٢) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً(٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطاً(٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِباً(٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً(٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللهُ أَحَداً(٧) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً(٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً(٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً(١٠) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً(١١) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً(١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً(١٣) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً(١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً(١٥) وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً(١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً(١٧) وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تدعو مَعَ اللهِ أَحَداً(١٨) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يكونوانَ عَلَيْهِ لِبَداً(١٩).

ويمكن الرجوع لموضوع: الجن / قسم أدلة ومواضيع من القرآن، للتفاصيل.

تزايد الضغوط النفسية على الرسول

عندما نزلت سورة الإنسان (٣٤ من حيث ترتيب النزول) كانت قريش قد أعلنت رفضها التام للدعوة، ومن يرفض الدعوة لن يقبل بها أبداً، لكن الوحي استمر بالنزول واستمر الرسول يتلو ما ينزل عليه من القرآن. فكان رجال قريش يقابلونه بالسخرية التي تؤذي مشاعره. وقد سبق ونزلت آيات في سورة «ق» لتشد من أزره، لكن الرسول كان يتلقى السخرية يومياً من قريش. ومع مرور الوقت كانت معنوياته تتدنى فيأتي القرآن ليشد من أزره، ويرفع من معنوياته ويجدد تأهيله النفسي ويحثه على الصبر، ويشعره بقربه من خالقه: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً(٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً(٢٤) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً(٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً(٢٦) إِنَّ هَؤُلَاء يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً(٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً(٢٨) الإنسان.

وقوله: «ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً» تأكيد على أن برنامج التأهيل النفسي

الذي بدأ في غار حراء المعتمد على السهر للتأمل، مستمر بعد بدء الدعوة.

إشارة للمرة الثانية على وجود مسلمين في مكة

كانت سورة المطففين أول سورة أشارت لوجود نفر مسلم، وتأتي سورة الملك (وترتيبها ٣٥ حسب النزول) لتخاطبهم وتعدهم بالمغفرة والنعيم: إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ(١٢).

وتعود سورة الملك في آخرها لتشير لوجودهم: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(٢٨).

فالرسول أصبح معه مؤمنون، وانقسمت مكة إلى غالبية مشركة، وقلة قليلة مؤمنة.

الرسول يشعر بالحزن من سخرية قريش

فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ(٧٦) يس.

ومما تتهم قريش الرسول به، هو أن ما يتلو عليهم نوع من الشعر وليس وحياً من الله: وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ(٦٩) لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ(٧٠) يس.

وهذا التسطيح لفكرة الدعوة من قريش ليقنعوا أنفسهم أنهم على صواب برفضها، وكان رفضهم لدعوة الحق الواضحة يُحزن الرسول، لأنه يعلم أنهم بذلك يسعون للنار بأنفسهم، فضلاً عن سخريتهم من شخصه.

وتكرار الإشارة في السورة إلى أن الرسول يحزن ويشعر بالأسى يظهر أن قريشاً مستمرة بالسخرية منه كلما رأوه، وليس فقط في مناسبة دون أخرى.

ولنا أن نتخيل الحالة النفسية التي يكون عليها رسول الله عندما يخرج من بيته وهو يعلم أنه سيلاقي الاستهزاء والسخرية طوال الساعات التي يقضيها خارج المنزل وفي طرقات مكة أو حول الحرم وأينما يتواجد رجالٌ من قريش. فهو مكلف بالدعوة، ولا يمكنه تركها أو التراخي في تبليغها، بغض النظر عن الصعوبات التي يواجهها.

وعندما يعود في المساء يكون قد أنهك تماماً ليس جسدياً من المشي ولكن من الضغوط النفسية الهائلة التي تعرض لها خلال الساعات الطويلة البطيئة المتواصلة الماضية.

قرشي ينفق مرة واحدة ثم يمتنع

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى(٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى(٣٤) أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى(٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى(٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى(٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى(٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى(٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى(٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى(٤١) النجم.

واحد من كبراء قريش وأغنيائهم استمع للرسول وهو يتلو آيات تحث على الإنفاق وسد حاجات المحتاجين بغض النظر عن معتقد المستفيد والمنفق، كما في المدثر: ٣٩-٤٧، والليل: ١-١١، والفجر: ١٤ -٢٠، والإنسان: ٧ – ٩ والجن: ٣٣ – ٤١، وغيرها. فما كان منه إلا أن بادر ودفع بعض المال لسد بعض حاجات المحتاجين، لكنه لما طلب منه أن يدفع مرة أخرى لسد حاجات أخرى امتنع. وكأنه ظن أن ما دفعه لمرة واحدة كاف ليكسب الأجر عند الله، فجاءت الآيات لتنفي هذا الظن: «أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى». وتقول له الآيات إن الأجر يكون لمن يفعل الخير بنفسه لنفسه، ولا يمكن أن يكتب الأجر بالنيابة عن الآخرين. والإنفاق عمل صالح يشترط له الاستمرارية، بحيث ينفق القادر كلما كان هناك حاجة لفرد أو مجتمع.

قريش تواصل سخريتها من الرسول وأذاها النفسي

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ(١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ(٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ(٣) وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ(٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ(٥) ن والقلم.

من أشد ما يؤذي العربي قديماً أن تصفه بالجنون، فهو وصف مخزٍ ومُشين. لأنهم يعتبرون المجنون خرج من التصنيف البشري. وما زال بعض أبناء البادية في جزيرة العرب لا يحبذون التعامل مع المجنون ولو كان من أبنائهم.

وقريش تتعمد أن تصف الرسول به لتكيده وتؤذيه. وبالفعل فقد كان الرسول يتأذى كثيراً، لدرجة أن سورة ن والقلم تشير إلى أنه قد خطر له ترك الدعوة والهرب، كما فعل يونس، وذلك في الآيات: (٤٨-٥٠) التي سنأتي عليها.

قريش تتمنى مداهنة الرسول

فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ(٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ(٩) ن والقلم.

بنزول سورة ن والقلم يكون قد مضى على بدء البعثة قرابة ثلاث سنوات ونصف «حسب تقديراتنا[١]» والرسول مستمر بدعوته برغم أن دعوته لم تلق آذاناً صاغية في مكة. بل إن رجال قريش فكروا في محاولة إقناع الرسول بالتوقف عن الدعوة. فجاءه التحذير الاستباقي: «فلا تطع المكذبين» فيما لو عرضوا عليك تسوية يتم بموجبها توقفك عن الدعوة مقابل توقفهم عن محاربتك والتضييق على أصحابك: «ودوا لو تدهن فيدهنون».

وعيد لأحد كبراء قريش

بعد مضي أكثر من ثلاث سنوات ونصف، ما زال الوضع في مكة لم يختلف كثيراً عما كان عليه منذ بداية الدعوة. فمن دخل الإسلام نفر لا يزيدون عن بضعة رجال مع الرسول، وقريش قد وصل بها الغيظ والغضب من استمرار الرسول في دعوته كل مبلغ، فكانت السور تنزل تتوعد كل من يصدر منه موقف عدائي للدعوة أو للرسول أو لأي مسلم، ومن ذلك: وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ(١٠) هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ(١١) مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ(١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ(١٣) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ(١٤) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ(١٦) ن والقلم.

وهذا القرشي ممن حاز كل مقومات الشرف الاجتماعي الذي كانت قريش تتمتع به وتفاخر، وهو كثرة المال والأبناء الذكور. وكان يصف القرآن بأنه خرافات قديمة: «إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ». فيأتي الرسول محمد الذي لا يملك مالاً ولا سلطة وكل كبراء قريش ضده، ويقف أمام هذا الصنديد ويتلو عليه هذا الآيات وجهاً لوجه. برغم أنها تحمل له تهديداً شديد اللهجة وتعده بمصير أسود مستخدمة مثلاً شائعاً حينها في مكة للوعيد على ما يبدو، وهو: «سنسمه على الخرطوم». والأمثال يكون وقعها أشد في النفس. ويكون القرآن قد واجه هذا المتكبر بوعيد شديد وبعبارات قاسية، مقابل وصفه للقرآن بالأساطير القديمة، ومقابل أخلاقه السيئة «حَلَّافٍ مَّهِينٍ، هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ».

---

١ تم تقدير الفترة من بدء البعثة وحتى نزول سورة المدثر بحوالي العام، وتقدير الفترة بين نزول سورة وأخرى في مرحلة استمرار الدعوة بحوالي الشهر. وسورة ن والقلم ترتيبها من حيث النزول هو التاسع والثلاثون. أي بعد ٣٠ شهراً من استمرار الدعوة، ويضاف لها سنة سبقت ذلك منذ بدء الدعوة.

الرسول فكر بالهرب

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ(٤٨) لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ(٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ(٥٠) ن والقلم.

الضغط النفسي كبيرٌ على رسول الله من رجال قريش، الذين يقابلونه بالسخرية والاستهزاء والنعت بالجنون وكل أنواع المضايقات والأذى النفسي. ونعت العربي القديم بالجنون وقعه أشد على النفس من القتل، ولا يقبل به رجل محترم بمواصفات ذلك المجتمع، كما سبق وذكر. وقد تكون من العيب الذي لا يغسله سوى قتل من صدر منه. ولذلك فقد كان الرسول محمد يعود لبيته في المساء وهو مثقل بالهموم والأسى والأذى، وهو يعلم ان مآسيه ستتكرر غداً. وكإنسان فقد كان لا يتوقف عن التفكير، وكانت الهواجس تدور في رأسه بمختلف أطيافها، ومن ذلك تفكيره بالهرب.

فنزل القرآن كالعادة يحثه على الصبر والمواصلة، فما بعد الهم إلا الفرج. وتحذره من أن ينفذ فكرة الهرب التي خطرت له في لحظة ضعف، فيكون كصاحب الحوت. وهو يونس الذي هرب بالفعل من قومه لما يئس من طاعتهم له، في موقف مماثل لموقف قريش من محمد. وقد تاب يونس، بعد أن تعرض لهجوم حوت. ولما شفي عاد مرة أخرى لقومه ودعاهم فاهتدوا، كما ستخبرنا الآيات: (١٣٩-١٤٧) من سورة الصافات إحدى سور المرحلة الخامسة، والتي ستأتي لاحقاً. ويمكن الاطلاع على كامل القصة في فقرة: يونس / كتاب: من آدم إلى محمد «تاريخ الرسل والأمم والأشخاص المذكورين في القرآن».

قريش يتميزون من الغيظ كلما رأوا الرسول

وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ(٥١).

كلما مر الرسول بجمع من قريش لاحقوه بنظراتهم الحادة وهم يتميزون من الغيظ، ويخاطبون بعضهم بأنه مجنون، لأنه يقول ما لا يعقل وهو البعث. تقول العرب: «كاد فلان يصرعني بشدّة نظره إليّ». ولا عبرة لاستدلال بعض رجال الدين المتأخرين بالآية على أنها دليل على ما يسمى بالعين، لأنهم لم يجدوا ما يسند ما يؤمنون به في كتاب الله، فتأولوا

هذه الآية لغير معناها وقالوا هي تعني أنهم يريدون إصابة الرسول بالعين. وهذا الكلام مخالف لمعتقد من يعتقد بضرر العين. لأنهم يقولون إن العائن لا يصيب عدوه، والرسول عدو لقريش، وبالتالي فلن يصيبوه بالعين حسب القانون الخرافي لمن يؤمن بالعين. كما أن العين – حسب ما يظنون – تكون لحسد المعيون على شيء يملكه أو على هيئته، وقريش لا تحسد الرسول على كونه رسولاً ولا تكاد نظراتهم الحادة تلتهمه لأن هيئته فيها ما يثيرهم. وإنما يكادون أن يزلقوه بأبصارهم، أن يحرقوه بنظرات حداد من الغيظ. فالنظرات الحادة البغيضة تدعى الزَّلْق، وهو حدة النظر للشخص المقابل بغيظ. بينما يطلق على الكلام الحاد البغيض «السَّلْق». وهو شدة القول باللسان، كما وصفت سورة الأحزاب المنافقين: فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا (١٩) الأحزاب.

استمرار قريش بوصف الرسول بالمجنون

فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ(٢٩) الطور.

وهو ما ذكرته الآيات الخمس الأولى من سورة ن والقلم السابقة. ونعته بالجنون يتسبب بأذى نفسي عميق للرسول، فينزل القرآن يحثه على الصبر ويقوي عزيمته ويشد من أزره. وتقول له الآية إنه حتى لو نعته قرشي بأي نعت بذيء، فلن يتحول الرسول لما قيل عنه، ولكنه يظهر فساد خلق من صدر منه. فالرسول لن يتحول لكاهن ولا مجنون، لمجرد أنه نعت بذلك.

قريش بدأت تفكر بقتل الرسول

أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ(٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ(٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ(٣٢) الطور.

بعد مرور ثلاث سنوات ونصف أو أكثر قليلاً من بدء بعثة محمد، يتحدث القرآن لأول مرة عن طرح رجال قريش فكرة قتل الرسول للبحث، وكيف يمكن تنفيذها. وقريش لم تمتنع عن قتل الرسول بسبب دفاع عمه أبي طالب عنه، كما تزعم كتب التراث. لأن أبا طالب هلك وبقي الرسول بعده سنوات في مكة وهو لم يغير طريقته في الدعوة ولم يجفل من قريش

ولم يداهنهم، ومع ذلك لم تقتله قريش[1]. والرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن سفيهاً لكي يحامي عنه عمه أو غيره بل كان رجلاً رسولاً يدعو لدين الله، بحمى الله. وقريش عندما فكرت وأرادت قتله لم يكن أبو طالب أو غيره ليمنعها، ولكن حرمة مكة منعتها من تنفيذ ما تصبو إليه. والدليل على ذلك أن قريشاً عندما خرج الرسول من مكة مهاجراً لاحقوه ولو ظفروا به لقتلوه. وقد يكون رجال قريش فكروا في استدراج الرسول خارج الحرم وقتله، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك. والآيات تصف مشركي قريشاً بأنهم «قوم طاغون» لن يتورعوا عن قتل الرسول لو استطاعوا. وحرمة مكة فرضت على قريش عدم المساس بالرسول لأن سمعة قريش وجاهها بين سكان جزيرة العرب تقوم على احترامهم لحرمة مكة وأنها بلد آمن لا يمس قاطنوه ولا يتعرض لهم بسوء، ولنفس السبب لم يمس بسوء أحد من القرشيين الذين دخلوا الإسلام، ولا أي مسلم ينتمي لقبيلة. وكل من تعرض لأذى جسدي وتعذيب كانوا من المستضعفين الذين هم موالي وعبيد مكة الذين أسلموا، كما سنرى عند تدبر سور المرحلة السابعة والأخيرة للدعوة في مكة.

الرسول يمر بمرحلة صعبة نفسياً

مع استمرار الرسول بالدعوة لم تعد قريش تتجاهله لأنه أصبح مصدر إزعاج دائم لهم. ومع أنهم سخروا منه منذ بداية دعوته، إلا أن السخرية تزايدت وتنوعت، وأضحت أشد إيلاماً، لدرجة أن الرسول فكر بالهرب، كما مر بنا. فكان القرآن ينزل ليشحذ همته ويشعره بأن الله معه. وقد تكرر نزول مثل هذه الآيات وتقاربت، لأن المضايقات التي يتعرض لها الرسول متواصلة وقاسية: فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ(٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ(٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(٤٧) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ(٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ(٤٩) الطور.

ثم نزلت سورة الضحى بعد سورة الطور: وَالضُّحَى(١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى(٢) مَا وَدَّعَكَ

١ تقول كتب التراث إن أبا طالب مات قبل الهجرة بثلاث سنين، ولم يهن الرسول بعده ولم يضعف، مما يعني أن كل ما قيل عن نشاط أبي طالب لحماية الرسول والدفاع عن الإسلام تخريف مختلق، فقط لأن ابنه علي رأس أئمة الشيعة. ومما قالته كتب التراث أن الرسول حاول أن يقنع أبا طالب عند موته بأن ينطق بالشهادة، وأتباع المذهب الشيعي يقولون إنه نطق بها فهو مسلم وفي الجنة. وهذا ما يظهر أنهم لا يعرفون أن الإيمان عند الموت لا يفيد صاحبه. انظر فقرة: الإيمان عند الموت لا يقبل / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

رَبُّكَ وَمَا قَلَى(٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى(٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى(٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى(٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى(٧) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى(٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ(٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ(١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ(١١).

وهي سورة تقول بأن الله الذي أعانه على تجاوز محن وأزمات وأوقات صعبة مرت به في بداية حياته، لن يتخلى عنه الآن. وسيعينه على تجاوز الأوقات العصيبة التي يمر بها نتيجة أذى قريش النفسي له.

وتلت الضحى سورة الشرح: أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ(١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ(٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ(٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ(٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً(٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً(٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ(٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ(٨).

وهي استمرار لما ورد في الضحى. حيث تذكر الرسول بما سبق عليه من نعم الله، وأن الله لن يتخلى عنه. وما يمر به من ظروف قاسية ستمر سريعاً، ويحل محلها اليسر والسرور.

أصبح للمسلمين وجود في مكة

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ(٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ(٥٥) القمر.

الآية تتحدث عن المؤمنين، وهو ما يعني وجودهم في مكة ولو بأعداد قليلة، وليس من المتوقع أن تكون أعدادهم زادت عما كانت عليه منذ بداية الدعوة. لأن الدعوة موجهة لأهل مكة فقط، وغالبية قريش رفضت الدعوة ولن تؤمن، والقلة القليلة التي أسلمت منذ سمعت بالدعوة بقيت على حالها، ولم تتزايد أعدادها. وقد سبق وأشارت للمؤمنين القلة في مكة سورتا المطففين والملك.

المرحلة الخامسة للدعوة في مكة
مرحلة تحول الخطاب الدعوي لغير قريش

حسب تقديراتنا فمع بداية هذه المرحلة يكون قد مضى قرابة أربعة أعوام ونصف على البعثة حين رأى الرسول الملك في الأفق، ونزلت عليه سورة الفاتحة، وست سور قصار تلت. قبل أن ينعزل في غار حراء لبضعة أشهر خاضعاً للبرنامج التأهيلي النفسي الذي أمر به في سورة المزمل. ثم نزلت عليه سورة المدثر التي تعتبر بداية الدعوة، تلاها نزول (٣٧) سورة مثلت المرحلة الرابعة للدعوة في مكة.

وقد مرت هذه السنوات ثقيلة منهكة على رسول الله، ولم يزد عدد الداخلين في الإسلام عن النفر القليل الذين قبلوا الإسلام في بداية الدعوة. فسارت الأيام على وتيرة واحدة لا تتغير: الرسول يقضي جل يومه يتلو على قريش ما نزل عليه من القرآن، وقريش لاهية عن الحق ولا تصغي. وكلما مر الرسول بجمع منهم سخروا منه وأسمعوه أقذع العبارات. ولم يكن الرسول يرد على سخريتهم، لكنه كان يتألم، فتنزل عليه الآيات تطمئنه وتشعره بقربه من الله، وأن ما يمر به من محن سرعان ما تزول.

ولابد من ذكر أن الرسول أو أي مسلم، سواء كان من الموالي والعبيد أو من قريش لم يتعرض لأي أذى جسدي من مشركي مكة منذ بداية البعثة وحتى نهاية المرحلة الرابعة، وسبب ذلك عائد إلى أن من دخل الإسلام لم يزد عن نفر قليل غالبيتهم من المستضعفين وآخرين لا وزن لهم في المجتمع. فسارت الحياة في مكة على وتيرة واحدة: قريش لاهية في حياتها ومتعها، والرسول يدعو ولا أحد يصغي لما يدعو له، ومن يراه منهم يسخر منه. بينما يعيش المسلمون القلة حياتهم بهدوء، وإن كانوا منبوذين من المجتمع المكي وينظر لهم على

أنهم خوارج. دون أن يتعرض لهم أحد بأي أذى جسدي، وما يتلقونه من سخرية لا يكاد يذكر ولا يقارن بما يلقاه رسول الله.

وفي هذه المرحلة تغير الخطاب الدعوي من قريش فقط إلى كل الناس، وقد نزل في هذه المرحلة (٣١) سورة، ولو قدرنا الفترة بين نزول سورة وأخرى بحوالي الشهر كما هي الحال في المرحلة السابقة، فإن هذه المرحلة امتدت لحوالي سنتين ونصف.

وقد نتج عن تغير الخطاب الدعوي تغير في الأوضاع، ووقوع أحداث.

إعلان الإسلام ديناً عالمياً

طوال الست والأربعين سورة التي نزلت قبل سورة «ص» وعلى مدى أربع سنوات، كان المخاطب قريشاً، ولم يخاطب القرآن أحداً من الناس غيرهم، وكأنهم وحدهم من أرسل لهم الرسول. وعندما نقول قريشاً نقصد رجالها. فهم من يقود مجتمع مكة، ولو أمنوا آمن الجميع، وإن كفروا تبعهم غيرهم. وبما أن الناس في كل العصور ساروا على وتيرة واحدة تتمثل برفض الغالبية لدعوة الرسل وإيمان قلة قليلة من المستضعفين، فإن قريشاً قد صمت آذانها عن الحق، ولم تؤمن برغم استمرار الرسول بالدعوة. ولو بقي الرسول يدعو أهل مكة فلن يتغير الوضع كثيراً، وقد يموت الرسول ولم يؤمن إلا من قد آمن. ولو حدث هذا فلن يكون هناك دين لله اسمه الإسلام كما هو اليوم بتشريعاته وكماله، لأن السور الست والأربعين الأولى التي نزلت في مكة لم تحتو تشريعات – فيما عدا الإنفاق والصلاة – بدون تحديد أوقات – إضافة للدعوة إلى محاربة الغش التجاري، ولا شيء غير ذلك. وسينتهي أمر المؤمنين القلة كما انتهى أمر من نجا مع نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم، وسيبعث الله رسولاً آخر للناس.

لكن الخطاب الدعوي – في سورة ص – تغير لغير قريش بشكل غير مباشر أولاً. حيث تحدثت السورة أولاً عن داوود وسليمان وأيوب وخلق آدم وإبراهيم وإسحاق ويعقوب، كونها قصصاً لأحداث قديمة لا تهم قريشاً بقدر ما تهم بني إسرائيل الذين يقطنون إلى الشمال من مكة، في واحات ممتدة على طول طريق التجارة القديم الواصل بين بحر العرب في الجنوب وبلاد الشام. مثل تيماء، وادي القرى، خيبر، ويثرب الواحة الأقرب لمكة.

وحديث القرآن عن أولئك الأشخاص المتميزين في تاريخ بني إسرائيل سيلفت انتباههم ويجعلهم يتساءلون عن الرسول وما يدعو له، وسيحضر البعض منهم للقائه والاستماع إليه.

وقد صرحت سورة «ص» في آخر آية أن دعوة الرسول المتمثلة بالقرآن هي دعوة لكل الناس وليست لقريش فقط: إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ(٨٦)، وكررته سور أخرى فيما بعد[1].

وسنرى أن تحول الدعوة لمخاطبة بني إسرائيل جعل البعض منهم يدخلون الإسلام وينشرونه في يثرب، حيث تقبله غالبية المستضعفين هناك (الأوس والخزرج) وقلة من السادة من أهل الكتاب بمختلف معتقداتهم، بينما امتنع ورفض الدعوة الكبراء سواء كانوا غالبية بني إسرائيل وبقية أهل الكتاب، أو زعماء الأوس والخزرج ومعهم من له مصالح في بقاء الوضع السابق. وعندما ضيقت قريش على من أسلم من المستضعفين وعذبتهم لتفتنهم في دينهم، دعاهم إخوانهم المسلمون الجدد في يثرب للهجرة إليهم، ورحبوا باستضافتهم في بلدهم. فهاجروا وهاجر معهم كل المسلمين ورسول الله. وفي يثرب أصبح للمسلمين دولة خاصة بهم وتغيرت أحوالهم، كما سنرى في الفترة المدنية.

وحديث القرآن في سور هذه المرحلة وما بعدها عن أحداث وشخصيات بني إسرائيل التاريخية إثبات لهم أن محمداً رسول الله وإلا لما استطاع أن يتحدث عن تفاصيل أحداث غابرة، وهو لا يقرأ ولا يكتب. وحتى لو ظن أحد أنه يقرأ ويكتب، فليس هناك مصادر مكتوبة يمكن لمحمد أن ينقل منها هذه التفاصيل التي يتلو عليهم.

وبنزول سورة «ص» أصبح القرآن بكل وضوح ذكراً ودعوة لكل العالم، ولم يعد حكراً على قريش. وهذا يعني ميلاداً جديداً للإسلام، وتحولاً هاماً جداً في مسار الدعوة من المحلية المحصورة بمكة إلى كل العالم. وبطبيعة الحال ستشهد هذه المرحلة وقوع أحداث تتماشى مع الوضع الجديد في مكة والذي فرضه تغير الخطاب الدعوي.

وقد نزل في هذه المرحلة (٣١) سورة سنتتبع الأحداث التي تذكرها، بنفس ترتيب نزولها،

---

١ عبارة «ذكر للعالمين» وردت في سور سابقة لسورة «ص» من سور المرحلة الرابعة التي كان المخاطب فيها قريشاً، في الآية (٢٧) من سورة التكوير، والآية (٥٢) من سورة ن والقلم، وكان المقصود بالعالمين أهل مكة فقط، لأن الخطاب موجه لهم. لكن العبارة وردت في هذه السورة مسبوقة بالحديث عن شخصيات تاريخية تهم بني إسرائيل مما يعني أن الخطاب الدعوي موجه لهم، وبالتالي فعبارة «ذكر للعالمين» المقصود بها هنا كل الناس.

كما فعلنا مع سور المراحل السابقة. وسنقدر أن القرآن كان ينزل في هذه المرحلة بمعدل سورة لكل شهر، وهي نفس الفترة التي قدرناها بين سورة وأخرى للمرحلة السابقة. والسور هي: ص، الصافات، النازعات، الذاريات، الأحقاف، الجاثية، فاطر، فصلت، الدخان، مريم، الإخلاص، الكهف، الزخرف، غافر، سبأ، الكافرون، لقمان، النمل، الحجر، طه، السجدة، المؤمنون، المعارج، الفرقان، الزمر، الأعراف، يونس، إبراهيم، يوسف، الأنبياء، والكوثر.

إعلان رفض الدعوة أصبح شعار المجتمع المكي

وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ(٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ(٧) ص.

رفض أي دعوة إصلاحية أو دينية يبدأ بمواقف فردية، ثم يتحول إلى نظرة اجتماعية يتفق عليها كل أفراد المجتمع. وعندما يصبح كذلك يكون حائلاً ضد الأفراد للاستجابة للدعوة خوفاً من تجريم المجتمع لهم ونقدهم. فيتمسك الناس بموروثهم، قلة منهم بقناعة، والغالبية بالتبعية.

وسورة «ص» تخبرنا في هذه الآيات ما وصلت إليه حال قريش في المرحلة التي سبقت تحول خطاب الدعوة لكل الناس، وأن قريشاً لن يتحول منها أحد للإسلام بعد الآن، وستمر علينا سور تؤكد واقع قريش هذا.

قريش تسخر من الدعوة

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ(١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ(١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ(١٤) وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ(١٥) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ(١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ(١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ(١٨) ص.

سخرية قريش بالرسول التي بدأت مع بداية الدعوة، مستمرة، وتزداد شراسة.

رجال قريش يحاولون أن يشككوا من أسلم منهم بالبعث

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ(٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ(٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ(٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ(٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ(٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاء الْجَحِيمِ(٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ(٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ(٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ(٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ(٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(٦٠) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ(٦١) الصافات.

الآيات عبارة عن مشهد مجازي يصور مجموعة من المسلمين (من قريش) في الجنة وهم يتجاذبون أطراف الحديث. وأثناء الحديث يتذكر أحدهم أنه كان له صاحب في الدنيا دائماً يحاول أن يشككه بالبعث بعد الموت، ويتساءل ما حدث له. فقيل له انظر للنار، فوجد صاحبه فيها، فخاطبه قائلاً: إني كدت أن أصدقك ولكن الله رحمني بثباتي على الحق.

وبرغم أن هذا المشهد افتراضي ولن يحدث لأن أهل الجنة وأهل النار لن يكون بينهم هذا التواصل الحسي المباشر، إلا أن الآيات تتحدث بهذا الأسلوب المجازي لتصوير ما كان يحدث في مكة بالفعل. فهناك بعضٌ من رجال قريش عندما يلتقون أصحابهم ممن أسلم يكون بينهم حديث يحاولون من خلاله أن يشككوهم باستحالة البعث. وكانت تمر لحظات تسيطر الشكوك فيها على أفكار بعض المسلمين.

إيمان أول رجل من بني إسرائيل

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(١٠) الأحقاف.

سورة الأحقاف ترتيبها من حيث النزول هو (٥١)، وهي خامس سورة تنزل في هذه المرحلة. أي أنها نزلت بعد حوالي خمسة أشهر من تحول الخطاب الدعوي، على اعتبار أن هناك فترة زمنية بين نزول سورة وأخرى تقدر بشهر. وخلال هذه المدة وصلت أخبار دعوة الرسول وحديثه عن تاريخ بني إسرائيل إلى يثرب فحضر بعضهم لمكة واستمعوا للرسول، وآمن أحدهم.

والآية وردت ضمن آيات تخاطب قريشاً وتتساءل عن إصرارهم على الكفر برغم وضوح

الحقيقة لدرجة أن أحد بني إسرائيل (يثرب) آمن. وهذا الرجل هو أول من آمن من أهل يثرب، لأنها المرة الأولى التي يذكر فيها القرآن إيمان أحد منهم. ولابد أنه عاد وبدأ يتحدث عن الإسلام هناك، ومن دعوته ودعوة غيره ممن تبعه في الدخول في الإسلام انتشر الإسلام على أيديهم بين الأوس والخزرج كونهم يمثلون الضعفاء في يثرب، بينما امتنع عن قبول الدين غالبية بني إسرائيل واليهود والنصارى كونهم يمثلون الكبراء وأصحاب المصالح.

ودخول بني إسرائيل أولاً في الإسلام ينفي ما تناقلته كتب السير من قصص لا أساس له حول إيمان رجال من الأوس والخزرج أولاً ومقابلة الرسول بما أسموه بيعة العقبة، وأنهم هم من نشر الإسلام في يثرب.

ويعتبر إسلام أول رجل من بني إسرائيل يثرب واقعة تاريخية هامة جداً لأنها تمثل منعطفاً هاماً في مسار الدعوة وبقاء الإسلام وانتشاره.

من أسلم في مكة كانوا من الضعفاء والمستضعفين

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ(١١) وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ(١٢).

الآية (١١) فيها إشارة إلى أن من أسلم لم يكونوا من علية القوم اجتماعيا (مال وجاه)، وهذا متوقع. فسنة الأولين التي سارت عليها الأمم تقول بأن الضعفاء هم أغلب من يستجيب للدعوة، ومعهم بعض من يبحث عن وضع أفضل من الطبقات الأخرى. بينما يتمسك الكبراء وأصحاب المصالح ومن تبعهم بموروثهم. والضعفاء نقصد بهم من ليس من الكبراء في المجتمع وإن كانوا ينتسبون لقريش بالنسب، أما المستضعفون فهم الموالي والعبيد.

رجل من قريش يتأفف من دعوة والديه له لكي يسلم

وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ(١٥)

أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ(١٦) الأحقاف.

الآيات أعلاه عبارة عن مقدمة لما ستتحدث عنه الآيات: (١٧-١٨) التالية. وهي عبارة عن تذكير ببعض واجبات الوالدين المتمثلة بالإحسان لهما في القول والفعل، كتقدير لفضلهما على الولد.

ثم يأتي الحديث عن صلب الموضوع:

وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(١٧) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ(١٨).

فالآيات تخبرنا عن حالة خاصة وليست تشريعاً عاماً. وتبدأ بالتذكير بالتأدب مع الوالدين والإحسان لهما، خاصة من رجل بلغ الأربعين. فبلوغ هذه السن مناسبة لأي عاقل أن يفكر ويهتدي للحق ولو لم يدعه أحد. لكن هذا القرشي الأربعيني ليس فقط رفض عرض والديه بغلظة، ولكنه تأفف من حديثهما ونهرهما ولم يتأدب معها بدل أن يحسن إليهما ويلاطفهما. وكان بإمكانه رفض عرضهما بطريقة مؤدبة ودون تأفف، خاصة أن العرض فيه نجاته من النار.

ولا تتحدث الآية (١٥) عن أن المعاصي قبل الأربعين مقبولة أو أخف أو تغفر، وبعد الأربعين على المسلم أن يتوب، كما تأول المفسرون. لأن المعاصي حالها ومصيرها واحد للشاب وللعجوز، والتوبة شروط قبولها واحدة. وليس هناك تساهل مع الشاب وتشدد على العجوز. لكنه أسلوب القرآن في عرض المواضيع.

الضغوط النفسية تتزايد على الرسول

فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ(٣٥) الأحقاف.

كلما وردت آية أو آيات تحث الرسول على الصبر والاستعانة بالله وتسبيحه فهي إشارة إلى تزايد الضغوط عليه من قريش. وسورة الأحقاف نزلت في وقت تحول فيه الخطاب الدعوي

لكل الناس بعدما كان حصراً على قريش. وهذه النقلة التاريخية أثارت حفيظة قريش على الرسول وقلقها من انتشار الإسلام. فصعدت من سخريتها من رسول الله ومضايقته، إلا أن هذه السورة وكل السور التي نزلت قبلها لا تذكر أنه عليه الصلاة والسلام قد تعرض لأي أذى جسدي.

بعض رجال قريش يسخرون من القرآن

قريش سخرت من الرسول منذ بداية الدعوة، وفي هذه المرحلة تذكر لنا سورة الجاثية أن البعض بدأ يسخر من نصوص القرآن: وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيم(٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللهَّ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيم(٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ(٩) مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهَّ أَوْلِيَاء وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٠) الجاثية.

وهذا تطور سيء سيتبعه تطورات أسوأ.

لأول مرة: الضغوط بدأت تطال المسلمين أيضاً

قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُون أَيَّامَ اللهَّ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كَانُوا يَكْسِبُونَ(١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ(١٥) الجاثية.

فيما سبق كررت العديد من السور الأذى النفسي الذي يطال الرسول من سخرية قريش، لكن لم يذكر القرآن في أي سورة سابقة، أن قريشاً كانت تؤذي المسلمين ولو بالسخرية. بل إن الآيات: (٥٠-٦١) من سورة الصافات تتحدث عن محاولات بعض مشركي قريش إقناع معارفهم أو أقاربهم ممن أسلم باستحالة البعث، ولا تذكر أي سورة نزلت سابقاً أن هناك أي أذى أو مضايقات لحقت بالمسلمين، سواء من هم من قريش أو من المستضعفين. لكن هذه الآيات تطلب من المسلمين أن يتسامحوا مع من يؤذيهم (نفسياً بالسب والسخرية) من مشركي قريش. مما يعني أن قريشاً بدأت تستفز المسلمين وتسخر منهم، فقام البعض برد السخرية بمثلها، فجاءت السورة تقول للمسلمين ألا يبادلوهم السيئة بالسيئة بل عليهم الصبر والتسامح. لأن مبادلة قريش السب والشتم سيعطيها ذريعة للتعدي الجسدي عليهم.

وهذه الآيات تحول خطير يظهر أن قريشاً تصعد من عدائيتها، ولم تعد تكتفي بالسخرية من الرسول بل بدأت تسخر وتؤذي المسلمين. وذلك لأن تحول الخطاب الدعوي لكل الناس وللمستضعفين (عبيد قريش ومواليها) بالذات أشعرها بالخطر، لأنهم لو آمنوا لشلت الخدمات في مكة، كون المستضعفين هم من يقوم بها. ولو انتشر الإسلام خارج مكة فهو نصر لمحمد وهزيمة لموروث قريش، وتهديد لمكانتها بين أهل جزيرة العرب. وستحدثنا سور قادمة عن تطورات أسوأ.

الرسول يلوم نفسه على رفض قريش للدعوة

إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ(٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ(٢٤) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ(٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ(٢٦) فاطر.

الآيات تؤكد للرسول أن مسئوليته تتوقف عند التبليغ، وليس عليه هداية الناس للحق، فلا يشعر بأي حسرة ولا يلوم نفسه على بقاء قريش على الضلال. فرفضهم الحق ليس بسبب أن الحق غير واضح ولا يعني أنك يا محمد لم تقم بالتبليغ كما أمرت، لكنه عائد لتمسكهم بموروثهم الذي لن يتركوه ولو رأوا الله جهرة، فلا تبتئس.

قريش تؤكد التمسك بالكفر وعدم التراجع

كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٣) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ(٥) فصلت.

الآن الوضع في مكة أصبح واضحاً، قريش لن تتراجع عن موقفها الرافض للدعوة، وهو ما يتوافق مع السنة الأزلية التي ذكرها القرآن من أن من لم يؤمن بالدعوة من بداية سماعه بها ورفضها فلن يؤمن بها أبداً مهما دعي.

ما يلفت الانتباه في الآية الخامسة أنها تؤكد ما سبق وذكرته الآيات: (٦-٨) من سورة «ص» من أن رجال قريش بدأوا يتحدثون عن موقفهم الرافض للدعوة بشكل جماعي، وكمجتمع، وليس كآراء شخصية لكل فرد على حدة. وهو ما يعني أنهم اتفقوا على الكفر

ورفض الدعوة اتفاقا صريحاً ومن يخالف هذا الاتفاق «للأمة» فهو عدو يجب حربه. وهذا الإجماع المجتمعي هو الذي يقف حائلاً لكثير من الناس لتجاوز الموروث ولو اقتنعوا ببطلانه، لأنه يخاف من نقد المجتمع ونبذهم له. وهو يظهر في كل مجتمع وفي كل زمان، كقانون غير مكتوب وعرف لا يجوز تجاوزه. وقد عادت سورة فصلت نفسها لتأكيده: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ(٢٦) فصلت

فحث رجال قريش بعضهم لبعض بالتمسك بالموروث سنة سارت عليها كل الأمم. ورفض دعوات الرسل برغم أنها منطقية وحجتها قوية، يعود إلى تغلغل الموروث في النفوس ورفض الناس نقده. وهو ما درجت عليه كل الأمم، ومنهم قوم إبراهيم: قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ(٦٨) الأنبياء.

وهو ما قاله قوم نوح: وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً(٢٣) نوح.

فقرناء السوء يوحون لقرنائهم التمسك بما هم عليه من الضلال. والتمسك بالموروث دافعه القوي في النفوس هو اتفاق المجتمع عليه، والخروج عنه ينظر له على أنه شذوذ وعيب. ولهذا يتمسك به الأفراد خوفاً من نقد المجتمع، ولو لم يكونوا مقتنعين به. وهو ما تعود وتؤكده سورة فصلت: وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ(٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ(٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ(٢٧) ذَلِكَ جَزَاء أَعْدَاء اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاء بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ(٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ(٢٩).

المسلمون أصبح لهم حضور في مكة

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ(٣٠) فصلت.

قليلة هي الآيات في المرحلة السابقة للدعوة التي تخاطب المسلمين في مكة، لأن أعدادهم

قليلة جداً، لكن يبدو أنه أصبح لهم حضور أكبر في هذه المرحلة نتيجة لدخول أعداد من المستضعفين وغيرهم الإسلام. والآية أعلاه واحدة من الآيات التي تخاطبهم في هذه المرحلة.

الحاجة لمشاركة المسلمين في مكة بالدعوة

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ(٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ(٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ(٣٢) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٣٣) فصلت.

الآيات تخاطب المسلمين القلة في مكة، وبعد أن تعدهم بالجنة في الآخرة والطمأنينة في الدنيا، تحثهم على المشاركة في الدعوة لدين الله. وفيه إشارة إلى أن أعداد من يرغب في الاستماع للقرآن قد تزايدت، سواء قدموا من خارج مكة أو من مستضعفيها. ولم يعد الرسول وحده يستطيع إسماع كل من يريد سماع القرآن في نفس الوقت، فجاءت الحاجة لجهود المسلمين. وهذا دليل قوي على أن الدعوة لم يكن يستخدم فيها حديث الرسول، ولكنها تعتمد تلاوة القرآن على الناس. لذا ساهم المسلمون فيها، ولو كانت تعتمد حديث الرسول لما استطاع المسلمون المساهمة فيها لأنهم لا يعلمون ما الذي سيقوله الرسول في كل موقف.

الرسول لم يحتمل سخرية قريش ويرد على من سخر منه

وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ(٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٣٦) فصلت.

سخرية قريش من الرسول بدأت مع بداية البعثة واستمرت بشكل متواصل ويومي، ولم يكن الرسول يرد على السخرية بمثلها أبداً طوال الفترة السابقة التي تقدر بحوالي خمس سنوات عند نزول هذه السورة. إلا أن الآيات أعلاه تظهر أن الرسول قد بادر برد الإساءة بمثلها، على غير العادة. ولعل هذا ناتج عن أن السخرية اتخذت منحى آخر أكثر إيلاماً،

لم يستطع معه الرسول السكوت والتحمل. والآيات تنهاه عن مبادلة قريش الشتائم، لأنه سيعطيها مبرراً لتصعيد أذاها ضده وضد المسلمين.

وتطور أذى قريش جاء نتيجة لتحول القرآن إلى دعوة المستضعفين في مكة للدخول في الإسلام وهو ما أشعر كبراء قريش بالقلق لأنه لو آمن المستضعفون لشلت الخدمات في مكة كونهم من يقوم بها. كما أن دخول غير قريش في الإسلام يعني قوة لمحمد الذي سفه معتقداتهم ولم يراع كبرياءهم، وهو وضع لن يرحب به سادة مكة.

قريش مستمرة بالسخرية من المسلمين

تحول القرآن لدعوة كل الناس، أثار قلق قريش من انتشار الإسلام. فصعدوا من سخريتهم من المسلمين، والتركيز على تذكير الناس القادمين لمكة لرؤية الرسول أنه لم يتبعه من الناس سوى الفقراء والعبيد، لعل هذا ينفرهم من الانضمام لمعسكر المسلمين: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً(٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً(٧٤) مريم.

وسخرية قريش من فقر وضعف المسلمين، لتقول للقادمين إلى مكة للاستماع للرسول: إنه من الغباء أن ينضم لهم أحد وهم بهذه الحالة المزرية.

أحد كبراء قريش يعتقد أن الله سيكرمه لو كان هناك بعث

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً(٧٧) أَاطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً(٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً(٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً(٨٠) مريم.

هذا القرشي من أصحاب المال والولد، يقول بتبجح إنه لو كان هناك بعث فسيكون له المال والولد يوم القيامة كما في الدنيا. وهذا المنطق موجود لدى كل الطغاة في كل زمان ومكان حيث يعتقدون أن الله سيتجاوز عنهم.

الرسول يشعر بالأسى على ضلال قومه

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً(٦) الكهف.

الرسول لا يفهم لماذا يصر رجال قومه العقلاء على رفض دعوة منطقية عقلانية تتمثل بعبادة الله الذي يعرفون، كبديل لعبادة الحجارة. ويشعر بالمرارة والحسرة عليهم، لأنه يعلم أنهم لو ماتوا على الكفر فسيخلدون في النار.

الرسول تتوق نفسه لبعض الماديات التي يتمتع بها أثرياء قريش

وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً(٢٧) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً(٢٨) الكهف.

الرسول كبشر تميل نفسه لمتاع الدنيا، المتمثل بالمال الذي يملك رجال قريش منه الكثير. وهذا دليل قوي على أن الرسول لم يكن غنياً، مما ينفي ما روجته كتب الأخبار أنه تزوج سيدة أعمال ثرية (خديجة).

والآيات تقول للرسول ألا يهتم بالماديات الدنيوية وأن يهتم بحاله وحال المسلمين.

الرسول لا يملك مالاً ولا بنين

تعود سورة الكهف للحديث مرة أخرى عما تهفو نفس الرسول له كبشر:

الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦).

ليس فقط المال الذي تهفو له نفس الرسول، ولكن الذرية أيضاً. وهذا دليل قوي آخر على أن الرسول لم يرزق من خديجة بذرية، وأن بناتها الأربع لسن بنات للرسول وولدها ليس ولده، ولكن من زوج قبله. ومن الطبيعي أن تصبح بنات خديجة بعد زواجها بالرسول ربيبات له عليه الصلاة والسلام ويعرفن ببناته. كما أن ولد خديجة من زوجها السابق سينظر له في ذلك المجتمع على أنه ابن للرسول. والآية ذكرت البنين دون البنات، لأن الابن عند العرب هو المهم، فهو من يحمل اسم أبيه، ويسمى أبوه به فيقال أبو (ابنه الأول).

قريش بدأت تدخل في جدال مع الرسول لدحض الحق

في المراحل الأربع الأولى من الدعوة في مكة كانت قريش تكثر من توجيه الأسئلة للرسول عن البعث ومتى يكون، وعن الحساب والجنة والنار للسخرية، بالإضافة لسخريتها منه. لكن بعد أن تحول خطاب الدعوة من قريش فقط إلى كل الناس ودخل أناس من غير قريش ومن خارج مكة الإسلام، بدأت قريش تدخل في جدل مع الرسول تسعى من خلاله إلى إثبات كذب دعوته وتنفير الناس القادمين من خارج مكة للقائه والاستماع إليه. وأول سورة أشارت لهذا هي الكهف التي نزلت بعد مضي قرابة عام على بدء المرحلة الخامسة للدعوة في مكة، أي بعد أن بدأ تغير الخطاب الدعوي يؤتي ثماره: وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُواً(٥٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً(٥٧) الكهف.

وقريش أعرضت من البداية عن الحق ولن تلتفت له أبداً كسنة أزلية سارت عليها كل الأمم. والجدال وسيلة يلجأ لها المخالف لكي يحرج خصمه ويظهره أمام الغير كمدعٍ كاذب، وليس لتبادل الحديث والآراء أو للكشف عن الحقيقة. ولذلك تعرض له كل الرسل، ويتعرض له كل مناد بأي نوع من الإصلاح من قبل كل متمسك بالموروث.

وبما أن مكة أضحت قبلة للناس من كل فج عميق يأتون للقاء الرسول فقد نشطت قريش في استخدام كل وسيلة ممكنة لتنفير الناس منه وصد الناس عنه، ومن ذلك الجدال الذي ستستمر عليه قريش طوال بقاء الرسول في مكة.

قريش تجادل الرسول حول ما ذكر القرآن عن عيسى

أول ذكر في القرآن لحمل وولادة عيسى ورد في سورة مريم، وبرغم أن الآيات موجهة لبني إسرائيل إلا أن الرسول قرأ السورة على قريش، كعادته كلما نزل عليه الوحي. فأحدثت تساؤلاً عندهم، تخبرنا به سورة الزخرف في قوله: وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ(٥٧) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ(٥٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ(٥٩).

وجدال قريش ليس لبيان الحق ولكن لمحاولة دحضه وإثبات كذب الرسول. وهو دليل على أن قريشاً لم تكن تعرف عن النصرانية ولا عن عيسى شيئاً. ومن باب أولى أنها لم تكن تعرف شيئاً عن «المسيحية» وهو ما يؤكد أن ورقة ابن نوفل شخصية مختلقة. ولكن بما أن النصارى من سكان يثرب يحضرون لمكة للاستماع لما يقول عن عيسى ابن مريم فقد جادلت قريش الرسول حول عيسى لتنفير النصارى.

واستمرت قريش تجادل الرسول، وقد ذكرت ذلك سورة غافر التي تلت في النزول سورة الزخرف: مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ(٤).

وتعود سورة غافر وتؤكد مرة أخرى جدل قريش للرسول:

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(٥٦).

قريش تبدأ باختلاق نصوص وتنسبها للقرآن لتنفير غيرها من الاستماع للرسول

تؤكد سورة لقمان (من سور المرحلة الخامسة) استمرار جدال قريش الرسول في محاولة لإظهاره للقادمين إلى مكة أنه كاذب وليس رسولاً لله. وهذه المرة ابتكروا طريقة جديدة، تتمثل في اختلاق نصوص وعبارات منفرة وإسماعها للناس على أنها من القرآن:

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ(٦) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٧) لقمان.

فلهو الحديث هو تلك النصوص الساخرة والقبيحة التي يختلقها رجالٌ من قريش ويسمعونها لمن قدم مكة للقاء الرسول، على أنها من القرآن. وأولئك الكبراء الذين يختلقون النصوص، كلما سمعوا تلاوة القرآن ولوا مستكبرين. وسيتكرر ذكر اختلاق قريش للنصوص ونسبتها للقرآن في عدة سور قادمة كما سنرى.

وكتب التراث نزعت جزءً من الآية (لهو الحديث) وحولت معناه إلى أنه يعني الغناء، فقط لكي يجدوا لهم دليلاً على تحريمه. وإلا فالسياق يظهر بوضوح أن الآيات تتحدث عن أناس

(كبراء قريش) يشترون لهو الحديث (نصوص مختلقة) ليسمعوها غيرهم على أنها قرآن، ليضلوهم عن سماع الحق. والعبارات المختلقة تدل على سخرية قريش من القرآن. والسورة مكية وقبل أن تفرض التشريعات.

وسورة لقمان تعود وتؤكد أن قريشاً مستمرة في جدال الرسول: وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ(٢٠).

تزايد أعداد الداخلين في الإسلام

سورة غافر رقمها (٦٠) حسب تسلسل النزول، أي أنها نزلت بعد مضي أكثر من خمس سنوات على بدء البعثة، وحوالي (١٤) شهراً منذ بداية المرحلة الخامسة التي تغير فيها خطاب الدعوة من قريش لكل الناس وبني إسرائيل يثرب ومستضعفي مكة. ولابد أن بعض مستضعفي مكة قد دخلوا الإسلام، والسورة تخاطبهم: هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقاً وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ(١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ(١٤) غافر.

والآية تطلب منهم أن يخلصوا الدين لله ولو غضب أسيادهم السابقون من كفار قريش.

ومع تزايد أعداد المستضعفين الداخلين في الإسلام تتكرر دعوة الباقين للانضمام لركب الحق. فتأتي سورة غافر لتصور ما سيكون عليه حال من يبقى على الكفر منهم يوم القيامة، وكيف أنهم سيشاركون أسيادهم مصيرهم في النار:

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ(٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ(٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ الْعَذَابِ(٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ(٥٠) غافر.

والآيات تقدم مشهداً حسياً للمستضعفين وهم يتحاجون مع أسيادهم في النار، ويلومونهم على أنهم تبعوهم في الضلال في الدنيا والآن لا يستطيعون تخفيف العذاب عنهم.

تزايد أذى قريش

سورة غافر تظهر أيضاً أن الرسول ومن معه من المؤمنين يتعرضون لأذى متزايد من قريش، وتطلب منهم الصبر، وسيكون النصر لهم في النهاية:

إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ(٥١) يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ(٥٢) غافر.

وتستمر السورة لتقول: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ(٥٥).

والوعد بالنصر في النهاية لا يعني أن الله سيتدخل في الدنيا فعلياً، ولكن أسباب النصر ستتوفر للمؤمنين لو صبروا وثابروا[1].

الرسول يتصرف كبشر / مد عينيه

لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ(٨٨) الحجر.

كانت سورة الكهف قد أشارت إلى أن الرسول تتوق نفسه لما لا يملك من مال وبنين، والآية هنا تشير إلى أن الرسول أيضاً تتوق نفسه لامرأة مثل بعض نساء قريش. ولابد أنه عليه الصلاة والسلام كبشر لفت انتباهه جمال امرأة أو تناسق جسدها فتابعها بنظره (مد عينيه). وإذا ما عرفنا أن الرسول تزوج وهو في العشرينات من عمره وقبل البعثة ببضع سنوات بخديجة التي كانت تكبره بسنوات كثيرة بعيداً عما تقول كتب التراث. وسورة الحجر نزلت بعد سنوات من البعثة في وقت تقدم العمر بخديجة بينما كان الرسول في مقتبل العمر وفي أوج نشاطه وحيويته وريعان شبابه، فمن البديهي أن يلفت انتباهه امرأة جميلة تمر أمامه. وهذه الآية تؤكد أن مجرد النظر للمرأة الأجنبية محرم، ومن باب أولى أن يحرم القرآن النظر لجسد الأمة أو مواقعتها.

وفي محاولة لتصوير الرسول وكأنه من عالم غير البشر قال المفسرون إن الآية لا تتحدث عن أن الرسول نظر لامرأة، وأولوا الآية لمعانٍ كثيرة منها:

---

١ انظر فقرة: وعد الله بنصرة الرسول ومن آمن / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

قال القرطبي في تفسيره: (يقال: إنه وافى سبع قوافل من بُصْرَى وأذْرِعات ليهود قُريظة والنّضِير في يوم واحد، فيها البُرّ والطِّيب والجوهر وأمتعة البحر، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها في سبيل الله، فأنزل الله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ» أي فهي خير لكم من القوافل السبع، فلا تمدّن أعينكم إليها).

وهذا التأويل الأعوج ليس فقط أخرج الآية من معناها بل وأظهر كم يجهل المفسرون القرآن وأين نزلت السور. فالحجر لم تنزل في المدينة بل في مكة والحديث ونفس الآية تظهر أن الرسول عليه الصلاة والسلام يشعر بالأسى والحزن على إصرار قومه على الكفر، لأنه لا يتمنى أن يذهبوا للنار، فتقول له الآية: « وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ» وهو ما أشارت له العديد من السور مثل:

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً(٦) الكهف.

وقوله: وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ(٧٠) النمل.

فهو يحزن عليهم لإصرارهم على الكفر من ناحية، وتهفو نفسه لما يملكون من مال وبنين، كما تقول سورة الكهف، ولامرأة جميلة شابة كما تقول السورة هنا.

ولا تتحدث آيات الحجر عن المسلمين ولا تشير لهم، ولكن الخطاب موجه للرسول.

ومما أورد الطبري في تفسيره حول نفس آية الحجر قوله: يقول تعالى لنبيه محمد: لا تتمنينّ يا محمد ما جعلنا من زينة هذه الدنيا متاعا للأغنياء من قومك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، يتمتعون فيها، فإن مِنْ ورائهم عذابا غليظا.

وهذا التأويل يتعارض مع ما يروج له المفسرون أنفسهم من أن الرسول قد تزوج خديجة التي صوروها كأغنى امرأة في قريش وتنافس كبار أغنياء قريش في التجارة.

وقد سهوا عن ذلك أو تناسوه، وإلا لو فطنوا لما نسبوه من ثراء لخديجة لما أمكنهم أن يأولوا آية الحجر على أنها تعني أن الرسول يتمنى بعض ما يملك أغنياء قريش من مال، لأنه عندما نزلت الآية كانت خديجة زوجته. وهو ما يعني أن الرسول يعيش في بيت غنى وليس بحاجة لتمني ما لدى أغنياء قريش لأنه يستطيع الحصول على مثله.

والرسول مد عينيه إلى امرأة أكثر من مرة عندما كان في مكة، وتمنى في داخل نفسه أن يكون له زوجة مثل جمالها وجاذبيتها، وليس المقصود أن الرسول تمنى بعض النعم والماديات التي

ترفل بها قريش، لأنه عندما تمنى ذلك ذكره القرآن في سورة الكهف: وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً(٢٨).

والفرق واضح بين مد العين لامرأة أو تمني بعض الثراء.

وقد كرر الرسول النظر لأحدى نساء قريش فجاءه النهي مرة ثانية في سورة طه التي تلت مباشرة في النزول سورة الحجر: وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٣١).

وكان هذا وزوجته خديجة ما زالت على قيد الحياة بدليل أن سورة طه بعد أن نهته عن النظر للنساء الأجنبيات تقول: وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢). وسنتحدث عن هذه الآية عندما نصل إليها.

وأهل الرجل زوجته ومن يعول في بيته[1].

تزايد المضايقات على الرسول

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ(٨٥) الحجر.

فدعوة الآية رسول الله بالصفح والتسامح يشير إلى ما يتعرض له الرسول من مضايقات وحرب نفسية وسخرية. والعفو والتسامح المطلوب من الرسول عليه الصلاة والسلام ليس لأن قريشاً تستحق التسامح، ولكن لأن رد السخرية التي يتلقاها الرسول على قريش يؤجج الموقف أكثر ويعطي قريشاً مبرراً تبحث عنه لتصعيد تهجمها على الرسول وعلى المسلمين. فكان الصبر والتسامح هو الحل الأمثل كون الرسول في موقف ضعف وليس حوله سوى نفر قليل من المستضعفين وسط مجتمع قرشي عدائي.

وتعود سورة الحجر مرة أخرى لتشير إلى ما يتعرض له الرسول في تلك الفترة: وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ(٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ(٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ(٩٩) الحجر.

---

١ انظر فقرة: آل الرجل وأهل الرجل/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

وما يتلقاه الرسول من قريش يتمثل بالسخرية والاستهزاء والاتهام بالجنون والكذب والسحر والشعر وغيرها. وهو ما يشعره بالإحباط، فتنزل الآيات تشد من عضده وتحثه على استحضار الله في النفس ليتقوى به على المصاعب، أما كبراء قريش فمآلهم للموت وسيندمون.

وتشير سورة طه التي نزلت مباشرة بعد الحجر إلى استمرار تلقي الرسول للمضايقات: طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى(٢) إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى(٣) طه.

ولعل الرسول يشعر في قرارة نفسه وفي حالة ضعف أن تكليفه بالدعوة سبب له العناء، والآية تقول له إن التكليف بالدعوة والذي عبرت عنه الآية «بنزول القرآن» لم يكن لشقائك وتعريضك للأذى النفسي، ولكن تبليغ الرسالة يصحب بالصعاب التي على الرسول تحملها.

وفي آخر سورة طه تعيد السورة شحذ همة الرسول: فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى(١٣٠).

فشعور الرسول بقرب الله منه سيريحه ويرضيه، ويقوي عزيمته.

أمر أهل الرسول بالصلاة

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى(١٣٢) طه.

نزلت سورة طه في النصف الأخير من المرحلة الخامسة للدعوة في مكة، ورقمها حسب النزول (٦٦) أي أنها نزلت بعد حوالي خمس سنوات من بدء الدعوة في مكة، وست سنوات من بداية البعثة. كان الناس طوال هذه السنين يصلون دون تحديد لأوقات معينة لأدائها. وهذه الآية تطلب من الرسول أن يأمر أهل بيته (خديجة وبناتها وولدها) الحرص على تأدية الصلاة، وأن يستمر هو بالمداومة عليها.

الرسول يؤمر بمقابلة الإساءة بالحسنى

ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ(٩٦) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ(٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ(٩٨) المؤمنون.

الآيات تشير إلى أن الرسول أحياناً لا يستطيع تمالك نفسه من الرد على إساءة قريش، مكررا ما سبق وأشارت له الآيات: (٣٤-٣٦) من سورة فصلت. والآيات تأمر الرسول بالتسامح مع من يسيء إليه، وهو ما يشير إلى أن قريشاً لم تتجرأ بعد لأذى المسلمين جسدياً. والشياطين هنا تعني وساوس النفس.

قريش مستمرة بالسخرية من الرسول والمسلمين والقرآن

فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ(١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ(١١١) المؤمنون.

الآيات جاءت ضمن سياق يصور حال قريش يوم القيامة، ويقال لهم إن دخولهم النار بسبب رفضهم الدعوة وسخريتهم. وفي هذا إشارة إلى أن قريشاً عند نزول سورة المؤمنون مستمرة بالسخرية من الرسول والقرآن والمسلمين، كما كانت تفعل منذ بداية الدعوة.

قريش تتهم الرسول أنه يفتري القرآن

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ(٣) السجدة.

منذ بداية البعثة وكبراء قريش صموا آذانهم عن سماع صوت الحق، وقد حاربوا الحق بوسائل مختلفة، كما يلي:

- في البداية اتهموا الرسول بالكذب وأنه يسحر عقولهم بكلام معسول لكنه غير صحيح، أو أنه مجنون يقول شعراً لم يسبق لهم أن سمعوا بمثل تركيب عباراته.
- ثم بدأوا يسخرون من الرسول.

وعندما تحول خطاب الدعوة وبدأ الناس من خارج مكة يفدون للاستماع للرسول، تحولت قريش لأساليب أخرى لحرب الحق ومحاولة منع انتشاره، كما يلي:

- الدخول مع الرسول في جدال لعلهم يظهرونه بمظهر المدعي الكاذب.
- ثم بدأوا يختلقون نصوصاً منفرة يسمعونها للناس القادمين لمكة للقاء الرسول على أنها من القرآن، لعلهم يصرفونهم عنه.
- وهذه الآية من سورة السجدة تقول بأن قريشاً انتهجوا أسلوباً جديداً يتمثل باتهام الرسول أنه يختلق نصوص القرآن من عنده ويقول هي من عند الله.

وهذه التهمة بدأت قريش ترددها في هذه المرحلة على مسامع الناس الذين يتوافدون من خارج مكة لرؤية الرسول والاستماع له. وهم أناس لا يعرفون الرسول، ولا يعرفون مكة.

- ثم تطورت هذه التهمة، وبدأت قريش تقول للناس إن ما لا يختلقه محمد من القرآن هناك أشخاص آخرون يعينونه على اختلاقه: وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً(٣) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْماً وَزُوراً(٤) الفرقان.
- وأن القرآن يحوي قصصاً خرافية قديمة (أساطير الأولين) قام أشخاص بإعانة محمد على نسخها من كتب قديمة، وقال هي من عند الله: وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً(٥) الفرقان.

وهذه التهم لم تكن لتخطر على بال أحد من رجال قريش طوال المراحل الأربع الأولى للدعوة في مكة، عندما كانت الدعوة موجهة لقريش فقط. ذلك أن قريشاً تعرف محمداً معرفة تامة، فهو أحد رجالها. وتعرف أنه لا يقرأ ولا يكتب، وليس في مكة أشخاص يتداولون كتب الغابرين لكي يتهموا محمداً بالاتصال بهم. ولو كان في مكة من يقرأ ويهتم بكتب السابقين لعرفته مكة ولو كان الرسول اتصل به لذكروا اسمه. لكن الآن وبعد أن أصبحت مكة محجاً للناس من أنحاء جزيرة العرب المختلفة لمقابلة الرسول وسماع ما يقول، فقد سعى رجالٌ من قريش إلى نشر أن الرسول يعلمه أناس آخرون القرآن، لأن القادمين لا يعرفون مكة ولا يعرفون سيرة الرسول وقد يصدق بعضهم ما تنشره قريش حوله ويعود أدراجه ولا يسلم.

وبرغم كل الحرب الشعواء المتنوعة الأساليب على الإسلام من قريش ومحاولاتها المستميتة

في تشويه سمعة الرسول ودعوته وكل محاولاتها لتنفير الناس عنه والحيلولة دون الوصول إليه، فقد استمر قبول الناس الإسلام من خارج مكة ومن داخلها، وتكون مجتمع مسلم في مكة بدأت السور تتحدث عنه أكثر: إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ(١٥) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٧) السجدة.

وهذا المجتمع المؤمن في مكة كان ينمو باطراد.

الهجرة إلى الحبشة

(الآية: ١٠) من سورة الزمر تعطي الضوء الأخضر للمضطهدين من المسلمين في مكة في تلك الفترة، لكي يهاجروا: قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ(١٠).

وهو ما يعني تزايد دخول أعداد من مستضعفي مكة للإسلام، مما ترتب عليه تصاعد الأذى عليهم من قريش. والآية تشير لما عرف في كتب التراث بهجرة الحبشة. وهي هجرة خاصة بالمستضعفين، وخاصة من دخل الإسلام منهم في هذه الفترة تحديداً. ولم يهاجر أي قرشي مسلم، لأنهم لم يتعرضوا لأذى يجبرهم على ترك مكة، وإن تعرضوا للسخرية.

وسورة الزمر ترتيبها حسب النزول هو (٧١) أي أنها نزلت بعد أكثر من ست سنوات على بدء الدعوة، وسبع سنوات من بدء البعثة. والهجرة كانت للحبشة، التي قالت عنها كتب التراث إنها تعني إثيوبيا الحالية، أو مملكة أكسوم القديمة. وكتب التاريخ التي نستقي منها المعلومات عن هذه الهجرة، تستند في مصادرها على أشخاص جلهم من اليمن. مثل عبيد ابن شرية الجرهمي الذي أوكل إليه معاوية كتابة أول كتاب تاريخي في الإسلام. ومثل مجموعة من يهود اليمن الذين أصبحوا مصادر لأهم أحداث التاريخ الإسلامي، وعلى رأسهم كعب الأحبار، عبد الله ابن سلام، ابن بنيامين، وغيرهم ممن أخذ عنهم ابن إسحاق وغيره. وهؤلاء اليمنيون يعرفون مملكة أكسوم جيداً، وغلب على ظنهم أن عرب مكة وما حولها لهم علاقة بتلك المملكة كما لليمنيين.

واليمن كانت على علاقة بأثيوبيا الحالية التي كانت تسمى مملكة أكسوم، والتي سيطرت على قطاعات واسعة من اليمن وعلى حضرموت وسبأ والمهرة في فترات تاريخية مختلفة، وكانت تدين بالمسيحية التي نقلتها وفرضتها على اليمن. بينما لم يكن هناك أي علاقات تجارية أو سياسية بين أثيوبيا المسيحية التي لا تتحدث العربية ولا تمت بصلة للعرب، وبين مكة. ولم يكن هناك بينهما إلا عداء قديم سببه غزوة أبرهة الأكسومي – حاكم اليمن – لمكة في محاولة لهدم الكعبة. لذا فمن المستبعد تماماً أن يكون مستضعفو المسلمين قد هاجروا لأثيوبيا. والراجح أنهم هاجروا إلى مناطق شرق ما يسمى اليوم بدولة السودان، والمحاذية لسواحل البحر الأحمر، قبالة جدة. وهي مناطق كانت مأهولةً بالعرب زمن رسول الله، من الذين نزحوا إليها في فترات تاريخية سابقة للإسلام من البر الشرقي للبحر الأحمر.

وكان من الطبيعي أن تبقى الصلات بين العرب على جانبي شواطئ البحر الأحمر، سواء العائلية أو التجارية منها. وبما أن أهل مكة يملكون المال، فقد كان من الطبيعي أيضاً أن يكون هناك تواصل تجاري مع البر السوداني، خاصة أن المسافة بين جدة القريبة من مكة، وبين البر السوداني المقابل، لا تزيد عن ١٩٠ كيلومتر بخط مستقيم، فيما تبتعد مصوع – أقرب الموانئ الأثيوبية – عن جدة بحوالي ٦٥٠ كيلو متر بخط مستقيم، وتبتعد الموانئ الجنوبية لأثيوبيا عن جدة بأكثر من ١٠٠٠ كيلو بخط مستقيم. وفي نفس الوقت لا يبتعد ميناء المخا اليمنية عن عصب الأثيوبية أكثر من ٦٠ كيلو متر فقط، والحديدة اليمنية عن مصوع الأثيوبية ٣٨٠ كيلومتر. لذا من المستحيل التصديق أن ضعفاء المسلمين قد فضلوا ركوب البحر في رحلة بعيدة صعبة مجهولة لأثيوبيا واللجوء لقوم هم أقرب للأعداء – بحكم التاريخ – لهم من الأصدقاء. ولا تربطهم بهم أي علاقة ولا يعرفون لغتهم، بينما كان بإمكانهم السفر برحلة قصيرة لعرب مثلهم يتحدثون لغتهم، ولديهم نفس العادات، والتي من بينها حماية المستجير، التي لا يعرفها الأثيوبيون.

أما كيف حدث الخلط بين السودان الحالي وأكسوم القديمة، فيعود إلى أن الحبشي يطلقه العرب على أي شخص لونه أسود وشعره قطط – أي من الجنس الزنجي، أو خليط بين الجنس الزنجي وغيرهم. فكل أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى بالنسبة للعرب أحباش، وفي زمن متأخر (العصر العباسي) أطلق العرب على دولة أثيوبيا الحبشة، فظن القصاص وناقلو الأحاديث أن الحبشة (أثيوبيا) هي الحبشة (السودان) التي هاجر لها المستضعفون من

المسلمين، لأن الأذى الجسدي طال مستضعفي قريش من عبيد وموالي، دون بقية المسلمين الذين ينتمون لقريش بالنسب[1]. كما أطلقوا على مناطق الأنباط قرب وادي القرى شمال الحجاز، مدائن صالح، ظناً منهم أنها هي. وأطلقوا على محارق قديمة في نجران، الأخدود ظناً منهم أن سورة البروج تتحدث عنها .. إلى غير ذلك.

والهجرة للحبشة تشير إلى أن أعداد المسلمين في يثرب لم يكن كبيراً حينها، لأنه لو كان هناك أعداد كبيرة في يثرب لكانت الهجرة لهم. وهو ما سيحدث بعد أقل من عامين من هذه الهجرة، حيث اعتنق الإسلام غالبية الأوس والخزرج مع بعض بني إسرائيل ونفر من أهل الكتاب من طوائف مختلفة، وتزامن هذا مع تضييق قريش الخناق على من آمن من المستضعفين في مكة. فما كان من مسلمي يثرب إلا أن دعوا إخوانهم في مكة للهجرة إليهم واستضافوهم في بلادهم.

استمرار قريش باختلاق نصوص ونسبتها للقرآن

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ(٣٢) الزمر.

هذه الآية تؤكد أن قريشاً مستمرة باختلاق عبارات ونصوص ونسبتها للقرآن، الذي سبق وذكرته سورة الفرقان السابقة.

وتقول سورة الزمر: على الناس سماع الحق من مصدره «محمد» وممن آمن، وليس من قريش المعارضة: وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ(٣٣) الزمر.

قريش بدأت تهدد وتتوعد محمداً بشكل علني

أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ(٣٦) الزمر.

برغم كل ما قامت به من جهود ونشاط محموم لصد الناس عن الدخول في الإسلام والاستماع للرسول، إلا أن الناس استمروا يفدون لمكة ويقابلون الرسول ويدخلون في دين الله، وهو ما زاد من حنق قريش لدرجة أنها بدأت تتوعد وتهدد الرسول علانية.

---

١ منقول بتصرف من كتاب: أحسن القصص/ تاريخ الإسلام كما ورد من المصدر، مع ترتيب السور حسب النزول منشورات الجمل.

وقد سبق وذكرت الآيات: (٣٠-٣١) من سورة الطور إحدى سور المرحلة الرابعة، أن قريشاً كانت تتربص بمحمد سراً لتقتله (لو خرج خارج مكة)، وسورة الزمر هنا تشير إلى أنهم بدأوا يهددون الرسول بالقتل علناً. وتقول للرسول أن يتوكل على الله فهو حسبه، ولا يقلقه تهديدات من هم دون الله (قريش).

الرسول يتحرج أحياناً من تلاوة بعض الآيات على قريش

كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ(٢) الأعراف.

الآية تشير إلى أن الرسول كان يشعر بالحرج من تلاوة بعض الآيات على قريش، لكن وبرغم ما ستسببه له تلاوة بعض الآيات على قريش من حرج فإنه لا يستطيع إلا قراءتها. والآية تحث الرسول أن يطرد مثل هذه الأفكار.

قريش تقترف الفواحش والفجور تحت تأثير السكر

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ(٢٦) يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ(٢٧) وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٢٨) الأعراف.

السورة هنا تخاطب بني آدم وليس المسلمين الذين يخاطبهم القرآن عادة (بيا أيها المؤمنون). وآدم ليس أبا البشر كلهم، ولكنه أبو الأنبياء والرسل المذكورين في القرآن، وقريش من بني آدم[١]. والآيات تنهى قريشاً عن تصرفات تصدر من رجالها، حيث يتحللون من ملابسهم ويمارسون العهر الجماعي تحت تأثير السكر. وهذه التصرفات تشابه ما حدث لأبويهم: آدم وزوجه في الجنة عندما أكلا من الشجرة فغاب عقلهما وتصرفا بعيداً عن الحشمة وخلعا ثيابهما: فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى(١٢١) طه.

١ يرجى العودة لكتابنا: من آدم إلى محمد/ تاريخ الأمم والأشخاص المذكورين في القرآن. والكتاب من منشورات الجمل.

رجال قريش يقولون بأن ممارستهم للفجور أباحها الله لهم

وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٢٨) الأعراف.

الآية تؤكد أن رجال قريش كانوا يمارسون الفواحش في حفلاتهم الماجنة، ويبررون ذلك بأن الله لو لم يرد لهم ذلك ويرضاه، لمنعهم. وهو مفهوم للقضاء والقدر مماثل للمفهوم الشائع بين كثير من المسلمين اليوم للأسف. وقريش تؤمن بوجود الله، وعلى ما يبدو تؤمن بأنه هو من يقرر حدوث الأحداث مسبقاً[1].

وكانوا يحضرون للمسجد الحرام بملابس مدنسة وغير لائقة

يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ...(٣١) الأعراف.

وعلى ما يبدو فقد كان البعض منهم يخرج من مكان إقامة الحفلات العاهرة ويتوجه لبيت الله بحالة من السكر الشديد وملابسه غير لائقة وفاضحة.

وكانوا يسرفون في الأكل والشرب

.... وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ(٣١) الأعراف.

وخلال حفلات المجون كانت تقدم المأكولات بإسراف والخمور.

قريش تحرم بعض المظاهر والطيبات

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٣) الأعراف.

في الوقت الذي تبيح قريش الفجور والخمور، فهي تحرم بعض المظاهر والملبس، وبعض المآكل. والآيات تقول إن الحرام هو الفواحش التي تمارسون في حفلاتكم وفي مجالسكم

---

١ انظر فقرة: القضاء والقدر / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

الخاصة. وكذلك البغي الذي تمارسون على المسلمين، والشرك. ومن الحرام الكذب على الله والتقول عليه مالم يقل « وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ». وهو ما أكدته نفس السورة في الآية التالية: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَـئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ(٣٧) الأعراف.

وقريش جربت كل وسيلة استطاعت التفكير بها للصد عن الإسلام وتنفير الناس القادمين لمكة من الاجتماع بالرسول. وهذه الآية تتوعد بعض رجال قريش الذين بدأوا يختلقون نصوصاً ويسمعونها للقادمين لمكة ويقولون إنها نصوص من القرآن. وأول سورة ذكرت هذه الوسيلة من وسائل صد الناس عن الدين هي سورة الزمر السابقة في الآية: (٣٢)، وكررت عدة سور ذكرها.

الرسول يتملكه الغضب من سخرية قريش

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ(١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ(٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ(٢٠٢) الأعراف.

رجال قريش يسخرون عقولهم لعبادة الأصنام وهو أمر لا يعقل، ويسخرون من الحق، مما يشعر الرسول بالغضب. فتأتي الآيات لتقول له أن يهدأ وأن يتعامل مع الموضوع بحكمة. فرجال قريش يجب أن يتعامل معهم على أنهم جهلة وليسوا عقلاء كما يبدو. ذلك أن التمسك بالموروث يلغي العقل، وعلى الرسول أن يتعامل معهم من هذا المنطق.

وكلما شعر بالغضب فليتذكر وضعهم، ويستعذ بالله من شيطان النفس، وسيهدأ. ومس الطائف من الشيطان تعني موجة غضب عارم بسبب مشاعر الإنسان نفسه (شيطان من داخله).

بعض المسلمين «القلة» في مكة كانوا ينشغلون عن متابعة الرسول وهو يتلو القرآن

هَـذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٢٠٣) وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(٢٠٤) الأعراف.

الآية تظهر أنه عندما يبدأ الرسول تلاوة ما ينزل عليه من القرآن على مسامعهم، فإن البعض من المسلمين لا يعيرون التلاوة اهتمامهم أو يستمرون في الحديث أو الأعمال التي يؤدونها قبل التلاوة. وعادة الحديث الجانبي بين اثنين أثناء كلام المتحدث الرئيسي، من السلوكيات السيئة التي ما زالت شائعة بيننا.

قريش مستمرة باختلاق عبارات ونسبتها للقرآن

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ(١٧) يونس.

الآية هنا تكرر ما ذكرته الآية (٣٧) من السورة السابقة الأعراف، وهي عبارة عن وعيد لرجال من قريش كانوا يُسمِعُون الناس القادمين لمكة عبارات يختلقونها ويقولون هي من القرآن لتنفيرهم من لقاء الرسول. وهو ما يعني أن قريشاً استمرت تنتهج هذه الوسيلة.

وكلما وردت عبارة: «افترى على الله الكذب» فهي تتحدث عن اختلاق قريش لعبارات منفرة وإسماعها للناس على أنها من القرآن. وتكرر الآيات التي تذكر هذه العبارة يشير إلى استمرار قريش في اختلاق النصوص.

وتُحرِّم بعض المأكل

قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ(٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ(٦٠) يونس.

سبق ومر بنا في سورة الأعراف أن قريشاً تحرم بعض المظاهر واللباس والطيبات، وتحل الفجور والفواحش، وسورة يونس هنا تذكر أنهم كانوا يحرمون بعض اللحوم. وتحريم ما لم يحرمه الله افتراء على الله، وهو ما ينطبق على الفتاوى المنتشرة بين المسلمين من رجال الدين.

قريش مستمرة بالسخرية من الرسول

وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٦٥) يونس.

معاناة الرسول من سخرية قريش وشتائمهم استمرت منذ اليوم الأول لبعثته، ولنا أن نتخيل الآثار النفسية التي تسببها تلك الضغوط. لقد كانت رحلة التبليغ صعبة ومرهقة، ولولا أنه عليه الصلاة والسلام خضع لبرنامج التأهيل النفسي في بداية البعثة واستمرت الآيات تنزل عليه لتجديد هذا البرنامج لما تمكن من مواصلة الدعوة بهذا العنفوان.

الرسول يصاب بالحيرة عن سبب إحجام عقلاء قريش عن قبول الدعوة

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ(٩٤) وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ(٩٦) وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ(٩٧).

لقد كانت الخواطر تعبر مخيلة رسول الله:

هل يعقل ألا يعقل العقلاء؟

هل هو فعلاً على الحق وحده وكل قريش على الباطل؟

والآيات تقول له أن يسأل «الذين يقرأون الكتاب من قبلك» يعني بني إسرائيل الذين أصبح لهم تواجد في مكة بعد أن آمن بعضهم وأوصلوا أخبار الدعوة ليثرب. فحضر بعضهم إما لاستطلاع أمر الرسول أو للإيمان به. ولو كانت السورة من سور المرحلة الرابعة لما طلبت من الرسول أن يسألهم، لأنه لم يكن لهم وجود في مكة حينها.

والآية (٩٦) تؤكد للرسول عليه الصلاة والسلام أن رجال قريش استمروا على الكفر برغم ترديد قول الحق عليهم منذ سنوات وبشكل مستمر، لأن هذا راجع إلى حقيقة أن من لم يؤمن بالدعوة من البداية فلن يؤمن أبداً، حتى لو جاءتهم الآيات «الخوارق» التي طلبوا: وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ(٩٧). لأن طلب الآيات فقط للتعجيز، ولو رأوها فسيجدون مبررات أخرى للبقاء على الكفر. وهذه سنة سارت عليها كل الأمم،

والاستثناء الوحيد هم قوم يونس: فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ(٩٨).

والخواطر التي كانت تمر بذهن الرسول كانت مصحوبة بعواطف جياشة تجاه رجال عشيرته قريش. فكان يتحسر على كفرهم واختيارهم طريق جهنم، مع ما يبدو عليهم من رجاحة عقل: وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يكونوا مُؤْمِنِينَ(٩٩).

فتأتي الهواجس التي تجر بعضها إلى أن جال بخاطره التساؤل إن كان هو وحده على الحق وكل رجال مكة على الباطل.

استمرار محاولات قريش صد الناس عن الدعوة

اللهِّ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ(٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِّ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُوْلَـئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ(٣) إبراهيم.

قريش تسب وتشتم الرسول ومن معه

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء(٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٥) وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ(٢٦) يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ(٢٧) إبراهيم.

فالمخاطب هو الرسول والمعني هم المؤمنون الذين يسمعون من قريش أقذع العبارات. والآيات تقول إن الكلام الفاحش لا يضر من يقال له ولكنه دليل على فساد من قاله: فكل إناء بما فيه ينضح. ولو بادلهم الرسول والمؤمنون الكلام الفاحش بمثله لصاروا مثلهم.

وسب قريش الرسول ومن معه يظهر العدائية التي تضمرها قريش لهم لا لشيء سوى أنهم اختاروا الخروج عن الموروث واتباع معتقد مخالف. فأتباع الموروث – أي موروث – لا

يقبلون التعايش السلمي مع من يخرج على موروثهم أبداً في كل مكان وزمان. وبالتالي فمن البديهي أن يهاجم أتباع المذاهب كل من يحاول نقد مذهبهم بما فيه وبيان عيوبه. فالتمسك بالموروث لا يعني أنه حق ولكن يعني أنه شخصية الأمة. وقبول نقده ولو بما فيه قبول بأن الأمة كانت على ضلال، وهو ما لا يقبله الناس، إلا من تحلى بالشجاعة الكافية لقبول النقد وسمح لعقله بالتفكير، وهذا قليل.

بعض المسلمين يردون على من يسبهم من رجال قريش

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّماء(٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ(٢٦) يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ(٢٧) إبراهيم.

الآيات تطلب من بعض المؤمنين في مكة أن يقابلوا كلام رجال قريش البذيء بكلام طيب، ذلك أنه يؤدي لتخفيف حدة التوتر بين الطرفين. ولأن مبادلتهم الكلام البذيء يعطي قريشاً المبرر الذي يبحثون عنه للتعدي على المسلمين.

الرسول يعاني من السخرية

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون(٤١) الأنبياء.

الآية ترفع من معنويات الرسول الذي يعاني من سخرية قريش التي تصاعدت، وتقول له إن كل الرسل عانوا مما تعاني فلا تحزن.

نعت الرسول بالأبتر

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ(١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ(٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ(٣).

سورة الكوثر نزلت في أواخر المرحلة الخامسة بحق أحد زعماء قريش الذي كان يعير الرسول وينعته بالأبتر. والأبتر تعني من لا عقب له.

ومن الواضح أنها نزلت بعد وفاة خديجة، زوجة رسول الله الوحيدة في مكة، ولو كان الرسول قد ولد له أولاد ذكور، كما يزعم المؤرخون، وإن ماتوا وهم صغار، فلن يعيره القرشي بأنه أبتر. وحتى لو أن خديجة لم تنجب لمحمد سوى بنات، فلا يمكن أن يعير بالأبتر، حتى لو حاول بعض اللغويين أن يقصروا معنى الأبتر بالذي ليس له ولد ذكر. لأن من يستطيع إنجاب الإناث يمكن أن ينجب ولداً ذكراً فيما بعد. والقرشي لم يعير الرسول بأبي البنات ولكنه عيره بالأبتر. مما يؤكد أن القرشي يعلم أن الرسول لم ينجب من خديجة كما أنجبت من أزواجها السابقين. ولو كان له منها بنات فالاحتمال ما زال قائماً بزواجه مرة أخرى وإنجاب الذكور. لكن إن كان الرسول لبث زوجاً لخديجة حيناً من الدهر، ولم ينجب، لا إناثاً ولا ذكوراً، وهي قد أنجبت من رجال قبله، فهو مدعاة للقرشي أن يعيره بالأبتر، لأنه ثبت بالبرهان أنه لا ينجب. وإن كان هذا ما حدث، فلم يكن للرسول بنات في مكة. وتكون رقية وزينب وأم كلثوم وفاطمة بنات لخديجة وربيبات لمحمد عليه الصلاة والسلام، أو بناته تجاوزاً. ولم يولد له ولد ذكر، ويحتمل أن يكون الرسول قد تبنى ابن خديجة والذي تسميه كتب التراث هند ابن أبي هالة. وسنتحدث عن هذا بالتفصيل في فقرة قادمة بعنوان: هل تبنى الرسول زيد ابن حارثة؟

المرحلة السادسة

مرحلة الأذى الجسدي ودفع الظلم

هي مرحلة تصاعدت فيها تعديات قريش على المسلمين من السب والشتم والسخرية إلى التعديات الجسدية، وكانت عنيفة لدرجة أنها أدت لموت عدد من المعتدى عليهم من المسلمين، كما سنرى. فجاءت سور هذه المرحلة تعطي للمسلمين الحق بمعاقبة المعتدي بمثل ما اعتدى، مع الحث على التسامح لتهدئة النفوس وعدم تأجيج غضب قريش فتضاعف من تعدياتها.

وقد نزل في هذه المرحلة أربع سور طوال، هي: الشورى، بني إسرائيل، الشعراء، وهود. ويمكن تقدير فترة هذه المرحلة ببضعة أشهر، على اعتبار نزول سورة كل شهر ونصف إلى شهرين.

الرسول لم يذهب في بداية الدعوة للطائف

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِياً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) الشورى.

أول سورة تذكر أن على الرسول أن ينذر أم القرى وما حولها، مما يحتم على الرسول أن يتصل بالقرى حول مكة. وبالتالي فإن كان عليه الصلاة والسلام قد ذهب للطائف بالفعل، فهو قد ذهب في هذه المرحلة وليس في بداية البعثة (كما تزعم كتب التراث). لأن بداية الدعوة كان الخطاب الدعوي في القرآن موجهاً لقريش وحدها ولم يخاطب القرآن أحداً غيرها. وبالتالي يستحيل أن يذهب الرسول لدعوة أهل الطائف أو حتى دعوة من يحضر

لمكة أو يمر بها من غير أهلها لأن دعوته تعتمد تلاوة القرآن على من يخاطبه القرآن. والقرآن لم يخاطب سوى قريش طوال السنوات الأولى للدعوة. وحتى المرحلة الخامسة للدعوة في مكة والتي تحول الخطاب لكل الناس ولبني إسرائيل ومستضعفي مكة، إلا أن الرسول لم يؤمر بالدعوة خارج مكة.

أما في هذه المرحلة فهذه الآية تأمر الرسول ولأول مرة بدعوة من هم حول أم القرى، ومنهم أهل الطائف. والرسول إن كان قد ذهب للطائف فلابد أنه خرج برفقة وحماية من أصحابه، لأن قريشاً تتربص به لتقتله، ولو خرج للطائف لوحده فستلحق به قريش وتتخلص منه للأبد. ولا يعنينا قصص كتب التراث وما قالوه عما حدث للرسول في الطائف لأنه مجرد اختلاق لا أساس له.

والآية لا تقول إن الدعوة لمكة وما حولها فقط، ولكن مناسبة الحديث هي أمر الرسول بتوصيل الدعوة لمكة وما حولها من مناطق.

المسلمون في مكة أصبح لهم حضور

شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) الشورى.

الآية تخاطب المسلمين في مكة، مما يشير إلى أن أعدادهم تزايدت بقبول بعض المستضعفين دعوة القرآن بعدما توجهت السور لمخاطبتهم وتحذيرهم من مغبة اتباع ساداتهم في الكفر.

استمرار جدال قريش للرسول لدحض الحق

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ(١٦) الشورى.

وسيتكرر كثيراً ذكر جدال قريش للرسول في سور قادمة، كون قريش استخدمت هذا الأسلوب في محاولة يائسة للحد من دخول الناس للإسلام، مع وسائل أخرى مررنا على ذكرها في سور سابقة.

بعض المسلمين تساءل لماذا لا يُحرِم الله قريشاً من أموالها لكفرها؟

مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ(٢٠) الشورى.

وفاتهم أن الدنيا ومتاعها لا تساوي شيئاً، وأنها مشاعة لكل الناس بغض النظر عن المعتقد. وكسب المال يعتمد على عوامل عدة ليس منها الإيمان والكفر.

بعض رجال قريش كانوا يقتلون أولادهم لأنهم فقراء

وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خطئا كَبِيراً(٣١) بني إسرائيل.

ونهيهم في الآية عن قتل الأولاد لا يعني إقرار بالسؤال عند الحاجة وإضاعة ماء وجه الإنسان الحر. ولكنها تقول حاولوا طلب الرزق وسيرزقكم الله بما يكفي لكم ولهم، بدل ندب الحظ العاثر والصبر على الفاقة.

قريش تقول: «الملائكة بنات الله»

أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً(٤٠) بني إسرائيل.

وهذا المعتقد راسخ عند قريش وتحدثت عنه سور عديدة.

رجال قريش كانوا يتحدثون حول ما يسمعون من القرآن

وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً(٤٦) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً(٤٧) انظر كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً(٤٨) وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً(٤٩) بني إسرائيل.

رجال قريش عندما يسمعون القرآن يتلى عليهم من الرسول لا ينصتون له ليتدبروه ولكنهم يستمعون له بحثاً عما يمكنهم مهاجمته ونقده منه. وكانوا إذا ما عادوا لمجالسهم يتحدثون

حول ما سمعوا. وكان بعضهم يعجبه، فيرد عليهم آخرون بأنه نوع من السحر الذي يسحر به محمد العقول فيؤمنون بما لا يعقل، وإلا فكيف نصدق أن من يموتون وتبلى عظامهم وتتحلل أجسادهم سيعودون أحياء؟

وقريش هنا تفكر بمدارك محدودة جداً عن كيفية البعث، لأنها تظن أن هذا الجسد الدنيوي سيعاد للحياة، برغم أن سوراً كثيرة أخبرتهم أن البعث لن يكون على هذه الأرض ولا في هذا العالم، ولكن في كون جديد. وبالتالي سيكون هناك هيئات جديدة للناس تتناسب مع عالم القيامة، مختلفة عن هيئاتهم الجسدية الحالية التي تناسب الدنيا.

وتستمر السور: قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً(٥٠) أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً(٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً(٥٢) بني إسرائيل.

أول خلاف بين المسلمين / أول ذكر لمسلمة قريش

وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً(٥٣) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً(٥٤) بني إسرائيل.

السورة تتوجه لمسلمي مكة طالبة منهم أن يبتعدوا عن المشاحنات والخلاف. وهذه السورة لم تذكر من هما الفريقان من المسلمين اللذان حدث بينهم الخلاف، لكننا سنعرف فيما بعد أن أحدهما (مسلمة قريش) وهم مجموعة ممن أسلم من قريش، وفي الغالب من بني عبد مناف خصوصاً كما سنرى، واستمروا يوالون ويوادون مشركي قريش، والفريق الآخر من أسلم من مستضعفي مكة (موالي وعبيد قريش السابقين).

وهو وإن كان أول خلاف نشأ بين هذين الفريقين، إلا أنه سيتكرر كثيراً. كما أن مسلمة قريش سيهاجرون مع المسلمين إلى المدينة وسيسببون المشاكل إلى ما بعد وفاة رسول الله. وسيكون وجودهم من أهم أسباب ما حدث أثناء القتال في بدر وأسر المشركين بدل قتلهم. ومن أهم الأسباب التي أدت لهزيمة المسلمين في أحد، وبعد الرسول سيكون وجودهم

عاملاً هاماً في تقويض الإسلام، وتمكين قريش من حكم دولة المسلمين.

والخلاف نشأ في وقت تتابع دخول المستضعفين للإسلام، ولم يتمكن بعض المسلمين من قريش أن يتقبل مساواته بعبيد الأمس. ولابد أن التصرفات العنصرية كانت تظهر عليهم عند تعاملهم مع المستضعفين، وقد ينعتونهم بنعوت وضيعة ويذكرونهم بأنهم عبيد وسيبقون كذلك. مما يتسبب في إغاظة المستضعفين والرد عليهم. إلى أن جاء يوم وتطور الوضع إلى شجار، فجاءت الآيات تذكرهم أنهم جميعاً عباد لله، وأن أي خلاف بينهم يحركه الشيطان الذي يجب ألا يسمح له بإحداث عداء بين الإخوة في الإسلام.

والشيطان هنا مشاعر الكبر والعنصرية التي يشعر بها القرشي ضد المولى السابق.

رؤيا الرسول

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً(٦٠) بني إسرائيل.

الأحلام تعكس المشاعر التي تختلج في النفس وتسيطر على الوجدان، والرسول يشغله على الدوام أمر الدعوة وموقف قريش الرافض لها برغم قوة الحجة وسطوع الحق. ويشغله بقاء تسلط قريش ويتمنى لو تهتدي، أو ينتصر الحق.

والآية تذكر الرسول بما تردده بعض السور أن الله محيط بالكافرين وأن العاقبة للمتقين، وبوعود الله لهم بالنصر.

فما هي هذه الرؤيا التي سببت فتنة للناس؟

لا يرد ذكر للرؤيا التي رآها الرسول في القرآن إلا في سورة الفتح المدنية، التي نزلت بعد أن دخل الرسول والمسلمون مكة فاتحين، وأعلنت قريش استسلامها: لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً(٢٧) الفتح.

ويكون الرسول في مكة قد رأى أن المسلمين سيتغلبون على قريش وسيحكمون مكة، وهو ما أغاظ قريشاً لما قص رؤياه عليهم، لأنهم ممن يعتقدون بالأحلام. وكون الرسول رأى أنه سينتصر على قريش وهو في مكة، ثم بعد سنين استطاع المسلمون دخول مكة فاتحين

منتصرين، واستسلمت قريش صاغرة، لا يعني أن الفتح تحقيق لحلم الرسول ولا تعني أن حلم الرسول تحقق. فما رآه الرسول في منامه يعكس حالة نفسية معينة وأمنية يتمناها على الدوام عندما كان الإسلام ضعيفاً في مكة. واستسلام قريش للمسلمين يوم الفتح نتيجة لتطور الأحداث. وقد كان استسلام قريش يوم الفتح استسلاماً مخادعاً، ضمن مكيدة قرشية في محاولة للقضاء على المسلمين لكنها لم تنجح. وذلك بحملة تقوم بها قوات حليفة قادمة من الطائف تهاجم المسلمين فيما تقوم قريش بمهاجمة المسلمين من الخلف لتسهل هزيمتهم والقضاء عليهم. وسنتحدث عن هذا عند الحديث عن معركة حنين. ولو كان الفتح تحقيقاً لرؤيا الرسول لدانت مكة للمسلمين ولم تخرج من سيطرتهم مباشرة بعد الفتح.

قريش معتادة على ركوب البحر

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً(٧٠) بني إسرائيل.

ذكر السفن في البحر في عدد من السور التي تخاطب قريشاً دليل على أن أهل مكة معتادون على السفر في البحر، وقد يكون ذلك من وإلى الشاطئ المقابل في البر الأفريقي (شرق السودان الحالي)، وهو ما يعضد ما ذهبنا إليه من أن مستضعفي مكة قد هاجروا لتلك البقاع، في المرحلة الخامسة للدعوة في مكة، وليس لما يعرف اليوم عند العرب بالحبشة (إثيوبيا).

قريش حاولت استمالة محمد وكاد أن يضعف

وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً(٧٣) وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً(٧٤) إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً(٧٥) بني إسرائيل.

كل ما قد يخطر على بال إنسان في أي لحظة قد يخطر على بال الرسول وأي رسول. والآية لم تبين ما الذي كاد الرسول أن يفعله أو يقوله، لكنها تقول إن قريشاً كادت أن تنجح في فتنة الرسول ليقول بخلاف القرآن. والرسول كان دائماً يتحسر على قريش ويتمنى أن

يؤمنوا رأفة بهم من النار. وكان يتمنى لو يعطيه الله آية ليظهرها لقريش لعلهم يؤمنون كما وعدوه. كما أخبرتنا الآية الثانية من سورة الأعراف أن الرسول كان يتحرج من تلاوة بعض الآيات على قريش ويتمنى لو كان باستطاعته ألا يقرأها. وأخبرتنا الآية: (٤٨) من سورة ن والقلم أن الرسول خطر بباله ترك الدعوة والهرب، كما فعل يونس. والآيات أعلاه تقول إن الرسول في لحظة من لحظات الضعف البشري كاد يميل (يركن) لرأي رجال قريش الذين كانوا يجادلونه وكادت بلاغتهم وسحر بيانهم أن تقنعه بما يقولون برغم أنه باطل، فجاءت الآيات تحذره.

فالحق لا يضيع لأن رجل الباطل استطاع في لحظة أن يحرجه أو يتفوق عليه في العبارات. ويمكن أن نرى مثيلا لهذا في مجادلات بعض المسلمين مع رجال الدين المسيحيين، حيث يستطيع بعضهم صياغة عبارات متماسكة تبدو أكثر إقناعاً مما يقول المسلم. لكن هذا لا يمكن أن يحول المسيحية لحق لأنها تقوم على معتقد يخالف العقل والمنطق، يقول بأن الله (خالق كل شيء) ابن من البشر ومعهما شريك آخر. لا إله إلا هو. بينما يقوم الإسلام على أن الله واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

وقد يكون الرسول قد شعر في لحظة من اللحظات أن كلام رجال قريش حول استحالة البعث قد تكون صحيحة لأن بلاغتهم كانت كفيلة بتشويش الصورة في ذهنه للحظات.

ولما يئست من استمالته سعت لطرده

وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً(٧٦) سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً(٧٧) بني إسرائيل.

عندما لم تنجح قريش في إقناع الرسول بالباطل، سعوا لإخراجه وطرده من مكة. وهذه سنة سارت عليها كل الأمم، ولم تتفرد بها قريش. فأتباع الموروث سيحاولون إقناع من يخالفهم فإن لم يقتنع تحولوا لمهاجمته. وسعوا لطرده أو قتله او التخلص منه وإسكات صوته بأي طريقة.

وقد حاولت كل الأمم السابقة طرد رسلها: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) إبراهيم.

فرض أول وقتين لأداء الصلاة

سورة بني إسرائيل رقمها من حيث تسلسل النزول هو (٧٩) وهو ما يعني أنها نزلت بعد قرابة سبع سنوات من بدء البعثة وفي الثلث الأخير للدعوة في مكة. وطوال الفترة الماضية كانت السور تنزل لتأمر وتحث المسلمين على الصلاة دون تحديد أوقات لأدائها. وقد ورد ذكر الصلاة في عدة سور من سور المرحلة الخامسة السابقة، مثل فاطر، مريم، طه، إبراهيم، الأنبياء وغيرها، فكان المسلمون يصلون في أي وقت أو أوقات يشاؤون.

وبنزول هذه السورة فرض وقتان للصلاة: أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً(٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً(٧٩) بني إسرائيل.

الوقت الأول حددت السورة بدايته ونهايته كما يلي:

- « أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ». بداية الوقت يكون مع دلوك (غياب) الشمس تحت الأفق.
- «إلى غسق الليل». وينتهي وقت هذه الصلاة بحلول ظلام الليل. فمجرد مغيب الشمس يحل الشفق جهة المغرب على شكل صفرة في السماء تختفي تدريجياً حتى يحل ظلام الليل بالكامل.

وكما هو واضح فهذا الوقت هو وقت صلاة المغرب.

والوقت الثاني أشارت له السورة: «وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً». ولأن وقت الفجر معروف لدى الناس بدايته بظهور خيوط الفجر وينتهي بشروق الشمس فلم تحدده السورة، واكتفت بالإشارة لصلاة الفجر بقرآن الفجر، لأن الصلاة يتلى فيها فاتحة الكتاب.

وقد ورد ذكر صلاة الفجر عرضاً في سورة النور أثناء الحديث عن الأوقات التي يمنع فيها دخول الأطفال مخادع نوم ذويهم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاء ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) النور.

وأصبح المسلمون يصلون وقتين معلومين: الأول بعد غروب الشمس واستقبال الليل، والآخر قبل شروق الشمس وما قبل استقبال النهار.

الوجود الإسلامي أصبح ظاهراً

وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً(٨٠) وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً(٨١) بني إسرائيل.

السورة هنا تخاطب الرسول ليس لشحذ همته بقدر ما تظهر كيف أصبح المسلمون أعزة ظاهرين ولم يعد المسلم ذليلاً يتحرج من إظهار التفاخر بدينه.

إسلام قريش لم يعد مهماً بعد إسلام أعداد من أهل الكتاب

وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً(١٠٥) وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً(١٠٦) قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً(١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً(١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً(١٠٩) بني إسرائيل.

الآية تخاطب قريشاً وتقول لهم لم يعد مهماً أن تؤمنوا بالقرآن فالإسلام غني عنكم الآن بإسلام الذين أوتوا العلم من قبله، وهي إشارة لبني إسرائيل الذين تواصلوا مع الرسول وآمن بعضهم ونشروا الإسلام في يثرب.

الرسول استمر يشعر بالأسى على قريش الرافضة للحق

طسم(١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ(٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يكونوا مُؤْمِنِينَ(٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ(٤) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ(٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون(٦) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ(٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ(٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(٩) الشعراء.

الآيات تشير إلى أن الرسول برغم ما يتعرض له من سخرية وسب وشتم من رجال قريش إلا أنه استمر يحزنه رفضهم للدعوة برغم وضوح الحق وقوة الحجة. واستمر يتحسر عليهم

لأنه يعلم يقيناً أنهم يسيرون بأنفسهم نحو الهاوية.

كما تشير الآيات إلى أن الرسول يتمنى بينه وبين نفسه لو أعطي آية لتحقيق طلب قريش الذي يطلبونه منه باستمرار، ظناً منه أن قريشاً صادقة في أنها ستؤمن لو رأت منه آية.

والآيات تقول للرسول: لا تقطع نفسك أسى عليهم فلن يؤمنوا (فهم تبعوا سنة الأولين التي تتبعها كل الأمم) فمن لا يؤمن بداية سماعه للحق لن يؤمن أبداً مهما دعي.

وتخبر السورة رسول الله بسنة أخرى للأولين تتمثل في أن كل من طلب آية من الأمم السابقة ورآها لم يؤمن، وقريش – بالتالي – لن تؤمن لو رأت كل آية. لذا لن تعطى يا محمد آية لتظهرها لقريش، التي لو أرادت الإيمان لكفاها تفكيرها بما حولها من خلق عظيم يدل على قدرة الخالق على البعث الذي ينكرون.

بعض رجال الدين من بني إسرائيل أسلموا

وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ(١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ(١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ(١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ(١٩٦) أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ(١٩٧) الشعراء.

الآيات تخاطب قريشاً وتؤكد أن القرآن ينسخ في ذاكرة الرسول بواسطة أحد الملائكة، وهو نفس الدين الذي نزل على الرسل السابقين، لذا عرفه وآمن به بعض من رجال بني إسرائيل الذين على علم بدين موسى. وهم ممن حضر لمكة من يثرب وقابل الرسول واستمع للقرآن واقتنع بصدق رسالته وأسلم.

من التهم الجديدة للقرآن أنه من كلام الشياطين

وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ(٢١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ(٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ(٢١٢) الشعراء.

قريش كانت في المرحلة الرابعة للدعوة في مكة تتهم الرسول بالجنون وأن القرآن كلام يسحر العقول أو أنه أساطير وكلام قديم. لكن لما تغير خطاب الدعوة وبدأ الناس يتوافدون على مكة للقاء الرسول والاستماع للقرآن، كان من محاولات قريش المستميتة لصد الناس عن

الدين أن بدأت تنشر إشاعات عن القرآن وأنه ليس من الله ولكن من كلام شياطين الجن.
وهذه التهمة يمكن أن تلاقي رواجاً في ذلك المجتمع الذي يؤمن بأن الجن يتواصلون مع البشر ويؤثرون عليهم ويتكلمون معهم. فجاء النفي من أن يكون من شياطين الجن، لأن الجن معزولون عن التجوال في الكون ولا يستطيعون أن يستمعوا للملائكة وينقلوا عنهم القرآن الذي تحمله الملائكة للرسول. وتبين السورة في آيات لاحقة على من تتنزل الشياطين:
هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ(٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ(٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ(٢٢٣) وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ(٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ(٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ(٢٢٦) الشعراء.

دفع الظلم

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ(٢٢٧) الشعراء.
آيات دفع الظلم نزلت في وقت كان عدد المسلمين في مكة قليلاً وضعيفاً، ومع ذلك أمروا بدفع الظلم ومعاقبة الظالم، وهو ما يتنافى مع ما في الحديث والتفسير وفتاوى رجال الدين من الصبر على الظلم ولو ضرب ظهرك وأخذ مالك[1].

قريش تسخر: أين العذاب؟

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(٨) هود.
قريش تتساءل من باب السخرية لماذا لا يعذبهم الله الآن على كفرهم، وتساؤلاتهم هذه للسخرية. والله سيعذبهم يوم الحساب، وعندها لن يكشف عنهم. وهذه السخرية باستعجال العذاب ذكرتها سور عديدة[2].

---

١ انظر فقرة: دفع الظلم والبغي/ قسم تشريعات من القرآن.
٢ انظر فقرة: المكذبون يستعجلون وقوع الحساب والعذاب / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

رسول الله تمنى لو بإمكانه ألا يقرأ بعض الآيات على قريش

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(١٢) هود.

الآية تقول إن الرسول تمنى لو بإمكانه ألا يقرأ بعض الآيات. والآية تخبرنا بالآيات التي كان الرسول لا يود قراءتها على قريش: «أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ».

فقريش كررت كثيراً الطلب من الرسول أن يظهر لهم آية وسيؤمنون. فكان القرآن ينزل ليؤكد أنه لن ينزل على الرسول آيات، ويبين سبب عدم إرسال الآيات: وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً(٥٩) بني إسرائيل.

إذاً، فالرسول تمنى لو أنه يستطيع أن يخفي الآيات التي تؤكد أنه لن يكون هناك آيات ولا يقرؤها على قريش أملاً في أن ينزل عليه «آية» يقدمها لهم تحقيقاً لطلبهم فيؤمنوا كما أكدوا له.

وتقول سورة الشعراء: طسم(١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ(٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يكونوا مُؤْمِنِينَ(٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ(٤) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ(٥).

والآيات تقول للرسول إن قريشاً لن تؤمن لو رأت الآيات، لأنهم لو أرادوا الإيمان لآمنوا بما يسمعون من القرآن دون حاجة لآية، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات لعدم إيمانهم.

الرد على تهمة قريش

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٣) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ(١٤) هود.

في السور التي نزلت في المرحلة السابقة للدعوة، ذكر القرآن أن قريشاً تتهم الرسول أمام الناس القادمين لمكة لرؤيته، بأنه يختلق القرآن. وهذه الآيات تقول لقريش: إن كنتم تقولون إن محمداً يختلق القرآن فأتوا بعشر سور مماثلة لسور القرآن. لأن محمداً ابن مكة ولغته

لغتكم، وفصاحة لسانه مساوية لفصاحة ألسنتكم، بل إنكم قد تغلبونه في الخطاب، فلماذا لا تأتون بسور مثل سور القرآن؟

وتخاطب الآية (١٤) المسلمين قائلة إن قريشاً لن تستطيع محاكاة القرآن لتتأكدوا أنه أنزل بعلم الله فتمسكوا بدينكم.

بعض بني إسرائيل آمن وقبائل لم تؤمن

أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إَمَاماً وَرَحْمَةً أُوْلَـئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ(١٧) هود.

ولعل هذا إشارة إلى أن الرسول بعدما أمر بأن ينذر أم القرى وما حولها في الآية (٧) من سورة الشورى، بدأ يتصل برجال القبائل ويدعوهم للإسلام، أو يرسل لهم مبعوثين، والآية تظهر أن القبائل لم تستجب. وقد يكون عدم استجابة القبائل راجعاً إلى أن الدعوة كانت توجه للزعماء الذين من المتوقع رفضهم للدعوة بناءً على قانون سنة الأولين. وبما أنهم رفضوها فلم يكن من الممكن أن يسمحوا بنشر الإسلام في قبائلهم.

والآية تؤكد ما سبق أن ذكرته سور سابقة من أن بعض بني إسرائيل (يثرب) قد آمنوا.

قريش استمرت تختلق العبارات وتنسبها للقرآن

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أُوْلَـئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَـؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ(١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ(١٩) أُولَـئِكَ لَمْ يكونوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ(٢٠) أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ(٢١) لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ(٢٢) هود.

وبدأ هذا منتصف المرحلة الخامسة، وتحديداً في الآية (٣٢) من سورة الزمر، بعد أن توالى حضور الناس من خارج مكة للقاء الرسول والاستماع له وهل هو رسول من الله بالفعل

كما سمعوا. فكانت قريش تحاول صدهم عن اللقاء وعن الدخول في الإسلام بطرق مختلفة منها: اختلاق نصوص منفرة ونسبتها للقرآن.

وسورة هود أوردت في بدايتها تحدياً لقريش بأن تأتي بعشر سور مثل سور القرآن لتثبت للناس أن الرسول لا يستطيع أن يختلق عبارات القرآن، وأن قريشاً لن يتمكنوا من محاكاة القرآن.

وفي آية لاحقة تقول سورة هود: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ(٣٥) هود.

لنفترض يا قريش أن محمداً يفتري القرآن، فسيكون عليه جرم افترائه، ولن يضركم. لكن لو كان القرآن من الله وكفرتم به، فسيكون مصيركم سيئاً. وكأن الآية تقول: لماذا لا تؤمنون من باب أنه لو كان هناك آخرة فستفوزون، لكن لو متم ولم يكن هناك بعث فلن تعلموا بذلك أبداً. وهذا جدل افتراضي.

بعض بني إسرائيل آمن وبعضهم لم يؤمن

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ(١١٠) وَإِنَّ كُـلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(١١١) فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(١١٢) هود.

الآيات تشير إلى أن بعض بني إسرائيل ممن حضر لمكة لم يؤمن، وتخاطب الرسول قائلة إن بني إسرائيل اختلفوا في الحق زمن موسى وابتعدوا عن الدين، ولو لم يؤمنوا بالإسلام فهم وقريش على باطل وسيحكم بينهم يوم القيامة. وعليكم – كمسلمين – التمسك بالحق الذي معكم ولا تطغوا.

تحذير من يوالي المشركين «مسلمة قريش»

وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ(١١٣) هود.

الآية تحذر بعض من أسلم من قريش (مسلمة قريش) الذي أبقوا على موالاتهم لأقاربهم

المشركين، وتقول لهم إن استمرارهم في موالاة الذين ظلموا سيؤدي بهم للنار، ولو كانوا يشهدون بوحدانية الله وآمنوا برسالة محمد.

وهذه الآية تتحدث عن وضع جديد ظهر على الساحة الإسلامية، يتمثل بموالاة فئة من مسلمي قريش لأقاربهم المشركين وموالاتهم. وهذه الفئة هم من تحدثت عنهم (الآية: ٥٣) من سورة بني إسرائيل، وأخبرتنا أنهم اشتبكوا مع فئة مسلمة أخرى في خلاف. وسنرى أن هذه الفئة التي توالي قريشاً ستستمر في موالاتها برغم تحذير القرآن لهم، وسيستمرون بخلافاتهم مع الفئة الأخرى من المسلمين الذين سنتبين أنهم من المستضعفين، كما سيتسببون في مشاكل جمة للمسلمين والإسلام. و «مسْلَمَة قريش» اصطلاح يعني من أسلم من قريش ولكنهم أبقوا على موالاة أقاربهم من المشركين. وهم – كما سنرى – من بني عبد مناف[1].

فرض ثلاثة أوقات إضافية لأداء الصلاة

وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّـيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ(١١٤) هود.

ولو أضفنا هذه الأوقات الثلاثة للوقتين اللذين فُرضا في الآية (٧٨) من سورة بني إسرائيل، فإن الأوقات المطلوبة للصلاة أصبحت خمسة في اليوم والليلة، وليس هناك آية أخرى تضيف أي وقت آخر غير ما ذكر.

والملاحظ هو أن هناك صلاة عند طرف النهار الأول (أي بعد شروق الشمس)، وصلاة أخرى عند طرف النهار الأخير (أي قبيل غروب الشمس). ولا يذكر القرآن صلاة الظهر أو العصر اللتين يصليهما المسلمون اليوم، ويتركون صلاتي طرفي النهار المذكورين في القرآن.

البعض يقول إن المقصود بصلاتي طرفي النهار صلاتا المغرب والفجر. ولو تحرينا الدقة في تحديد بداية الليل والنهار، فستكون الشمس هي العامل الحاسم لتحديد بداية الليل وبداية النهار. فالنهار يبدأ مع بزوغ قرص الشمس وليس مع بداية انبلاج النور في الفضاء مع الفجر. فصلاة الفجر تكون في الليل، وليست في طرف النهار. وكذلك صلاة المغرب لأنها تؤدى بعد غروب الشمس وبالتالي فهي صلاة ليلية تكون في بداية الليل. ولا يمكن

١ كتاب: كعب الأحبار مسلمة بني إسرائيل في الإسلام لمؤلفه إسرائيل ولفينسون Israeal Wolfensohn استخدم مصطلح «مسلمة بني إسرائيل» الذي أوحى لنا بمصطلحي «مسلمة قريش» و «مسلمة يثرب».

أن نطلق على طرفي الليل (الفجر والمغرب) طرفي النهار، لأن لليل طرفين وللنهار طرفان أيضاً. ولو كان المقصود بصلاتي طرفي النهار هو المغرب والفجر لقال القرآن طرفي الليل. ولما ذكر وقت صلاة المغرب وحدد وقتها بدقة في الآية (٧٨) من سورة بني إسرائيل، وذلك بدلوك الشمس (غروبها) وانتهاء وقتها بغياب الشفق من السماء. ولو عدنا لآية بني إسرائيل لوجدناها تقول: «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا». ويمكن القول إنها ذكرت وقتاً واحداً فقط للصلاة وهو صلاة المغرب. وبقية الآية تحث الرسول على قراءة القرآن وقت الفجر، وتستمر الآية التالية لتقول: وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٧٩).

فالحديث مستمر عن تلاوة القرآن وليس عن وقت لأداء الصلاة. ولو أضفنا لهذا الوقت الأوقات التي ذكرتها سورة هود فسيكون لدينا أربعة أوقات، هي:

صلاة بعد دلوك الشمس، وطرفي النهار، والصلاة بعد زلف من الليل (العشاء).

ولن يكون هناك حكمة من إعادة تكرار الأمر بوقت المغرب مرتين.

لكن لو قلنا إن سورة بني إسرائيل تأمر بوقتين: المغرب والفجر، وسورة هود تضيف ثلاثة أوقات أخرى، هي: طرفا النهار وصلاة العشاء، فسيكون عندنا خمس صلوات وليس أربعاً أو ثلاثاً. وبهذا تتفق مع ما يؤديه المسلمون الآن فيما عدا تعديل لوقت طرفي النهار باتجاه وسط النهار. وهذا قد يكون نتيجة عملية لممارسات المسلمين بعد عصر الرسول. حيث كان الخليفة مطلوباً منه إمامة المسلمين في المسجد، وفي عصور الأمويين والعباسيين، كان الخليفة يحرص على السهر والفجور أكثر من المحافظة على الصلاة. فكان يسهر حتى يصلي بالناس ثم يغلبه النوم حتى الظهر. والمتسلطون من الحكام حتى اليوم لا يوقظهم أحد حتى يستيقظوا. وبما أن القيلولة عرف عربي فقد كان الخليفة يصلي بالنهار بما عرف بصلاة العصر قبل أن يغفو في قيلولته.

أحداث المرحلة السابعة
التعذيب والهجرة

هي آخر مراحل الدعوة في مكة، وأشدها وطأة عليهم. حيث تعرض المستضعفون منهم لأشد أنواع التعذيب على أيدي كبراء قريش ليفتنوهم في دينهم ويردوهم للكفر. ومن الأساليب الجديدة التي استخدمتها قريش لتعذيب المسلمين في هذه المرحلة تعذيبهم بالنار. وقد نزل في هذه المرحلة ثماني سور تحدثت عن التعذيب والردة والهجرة وهي أهم الأحداث التي صبغت هذه المرحلة، والسور هي: الأنعام، العنكبوت، البروج، المسد، النحل، القصص، الرعد، والحج.

ولو افترضنا أن الفترة بين نزول سورة وأخرى هي شهر، فستكون هذه المرحلة امتدت إلى (٨) أشهر عصيبة.

تأكيد على إسلام بعض بني إسرائيل، وبالتالي لم يعد مهماً إسلام قريش

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ(١٩) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(٢٠) الأنعام.

الخطاب موجه لقريش التي رفضت الدعوة، وتقول الآية إن القرآن أوحي لينذر به كل الناس وليس أنتم فقط يا قريش، وقد آمن به بعض أهل الكتاب. ولم يعد مهماً أن تسلموا فالله قد نصر دينه بغيركم ومنهم بعض أهل الكتاب الذين تبينوا أنه حق فاتبعوه.

وما ذكرته الآيات هنا هو تأكيد وتكرار لما سبق وذكرته الآيات: (١٠٦-١٠٩) من سورة

بني إسرائيل من سور المرحلة السادسة السابقة. فالدين سينتصر بأقوام مختلفة، وليس حكراً على قريش أو غيرها. وحال الإسلام اليوم يبدو مشابهاً لهذا، فالعرب عموماً وسكان جزيرة العرب خاصة، يعتقدون أنهم من يمثلون الدين وهم المعنيون به، وإن لم يعودوا هم للدين فلن يعود الناس له وسيضيع دين الله. وهذا وأيم الله وهم، فدين الله يمكن أن يعود الناس إليه من أي لون وجنسية. ودخول غير العرب للإسلام سيجعل منهم القادة لعودة غيرهم لصافي الدين، لأنهم لم يتلوثوا بمذهبية ولا يعرفون الإسلام إلا من مصدره. وسيحدث هذا متى ما فطنوا ورفضوا مساعي أتباع المذاهب لجذبهم لحظائرهم.

استمرار قريش تلفيق عبارات وإسماعها للناس على أنها قرآن

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ(٢١) الأنعام.

وهو ما تكرره نفس السورة: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ(٩٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ(٩٤) الأنعام.

استمرار قريش بالكفر وصد الناس عن لقاء الرسول أو سماع القرآن

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ(٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(٢٦) الأنعام.

من وسائلهم لصد الناس عن القرآن محاولة إقناع من يأتي لمكة للقاء الرسول بألا يفعل لأن ما سيسمعه منه مجرد حكايات (أساطير) قديمة جمعها ويتلوها على الناس.

وهي طريقة استخدمتها قريش في السابق كما أشارت لذلك سور منها الفرقان في الآية الثالثة. ويبدو أنها عادت لهذه الوسيلة في هذه المرحلة لأننا سنرى أن عددا من آيات سور هذه المرحلة ذكرتها.

الرسول يتأذى من سخرية قريش ويتحسر على كفرهم

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ(٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقَدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ(٣٤) وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ(٣٥) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ(٣٦) وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلٍ آيَةً وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ(٣٧) الأنعام.

استمر الرسول يشعر بالأسى على قريش لاستمرارهم بالكفر الذي سيؤدي بهم للخلود في النار. واستمر عليه الصلاة والسلام يتمنى لو يعطى آية لعلهم يؤمنون لو رأوها. فيأتي القرآن يشد من أزره ويرفع معنوياته ويؤكد له أن ما يلاقيه قد سبقه إليه كل الرسل قبله، وأن الله وعد الرسول ومن آمن بالنصر والظهور في النهاية، وفي نفس الوقت يوبخه ويرشده.

يا محمد: الله لن يؤتيك آية لتريها قريشاً، لأن قريشاً لن تؤمن. وإن كنت تظن أنهم سيؤمنون لو رأوا آية – كما يزعمون لك – فلماذا لا تجرب أن تخرق الأرض أو تصعد للسماء وتأتي بآية لهم من دون الله. وخير لك أن تدرك هذا الأمر ولا تكن من الجاهلين.

وتستمر السورة لتقول: إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ(٣٦) الأنعام.

من يرغب في الإيمان فسيؤمن دون آيات وخوارق، أما من صم أذنيه عن الحق واتبع الموروث فلن يؤمن، لأنه كالميت لا يشعر بما حوله، وسيحاسبه الله.

طلب قريش طرد المستضعفين

وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ(٥٢) الأنعام.

بعد أن توجه الخطاب الدعوي في مكة من قريش إلى المستضعفين بدأوا يدخلون في دين الله فصعقت قريش، لأن إسلامهم سيشل الحياة المدنية في مكة كونهم هم من يقوم بكل

الأعمال الخدمية. فحاولت بشتى الوسائل استعادة من أسلم ومنع من لم يسلم الدخول في الإسلام. ومن الوسائل التي قام بها كبراء قريش محاولة إقناع رسول الله بأن يطرد من أسلم من المستضعفين مقابل إيمانهم هم. لأنهم هم السادة ولا يمكن أن يقبلوا أن يعاملوا مع عبيدهم ومواليهم بمستوى واحد. وبطبيعة الحال لو طرد الرسول المستضعفين فلن تؤمن قريش ولكنها ستضمن أن المستضعفين لن يعودوا للإسلام وبالتالي سيبقون تحت سيطرة الكبراء وتعود الأوضاع في مكة لما كانت عليه.

ومحاولة قريش الماكرة سبقهم بها قوم نوح، الذين يبدو أنهم أيضاً كانوا تجاراً يعتمدون على الموالي والعبيد للقيام بالخدمات، ولما بدأوا يدخلون في دين الله الذي دعا له نوح سيطر الذعر على كبراء قوم نوح فعرضوا على نوح أن يسلموا مقابل طرد المستضعفين، لأنهم سادة ولا يمكن – حسب الأعراف والتقاليد – أن يساوى بين السيد والمسود. وهو ما تشير له سورة الشعراء: قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ(١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ(١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ(١١٤).

ولو طرد نوح المستضعفين لما آمن كبراء قومه ولكنهم سيضمنون عداوة مواليهم لنوح الذي طردهم، وهو ما حاولت قريش الوصول إليه.

يهود يجادلون الرسول في مكة

وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ(٩١) وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ(٩٢) الأنعام.

الآيات تتحدث عن فئة من اليهود، أثناء جدالهم للرسول تعمدوا أن ينكروا أن يكون الله قد أنزل على بشر شيئاً (وحي). وهم يقصدون أن موسى لم يتلق وحياً ينسخ في ذاكرته كما يحدث لمحمد، ولكن الله كلمه. وبما أن الله لم يكلم محمداً فليس برسول لله.

والآيات ترد عليهم قائلة إن كلام الله الذي تقولون إنه كلم به موسى استنسختم منه في

قراطيس ما رغبتم وأخفيتم ما لا يعجبكم منه. فأنتم كفرتم بها تقولون إنه كلام الله. ولو كنتم تريدون الحق لقارنتم بين ما لديكم من بقايا التوراة وبين ما ورد في القرآن وستجدون أنهما متطابقان مما يؤكد أنهما كل من عند الله، ويتوجب عليكم اتباع الرسول محمد لتهتدوا.

القرآن يكرر أمر الرسول بدعوة من حول مكة

وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ(٩٢) الأنعام.

للمرة الثانية يذكر القرآن أن محمداً رسولٌ لأهل مكة وما حولها مثل الطائف وكذلك لبني إسرائيل يثرب. بعد الآية السابعة من سورة الشورى، إحدى سور المرحلة السادسة السابقة. وهذا تأكيد للمرة الثانية أن الرسول لم يتصل بأهل الطائف – إن كان قد اتصل بهم أو ذهب إليهم – إلا في هذه المرحلة أو المرحلة السابقة، بعد تغير الخطاب من دعوة قريش فقط إلى دعوة كل الناس. وهو ما يخالف ما ورد في كتب التراث أن الرسول ذهب للطائف وكان يعترض القوافل في بداية بعثته، ويعرض نفسه على القبال في أسواق العرب.

توجيه عند قراءة القرآن

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ(٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ(١٠٠) النحل.

الآيات تخاطب الرسول، وهو ما يشير إلى أن رسول الله قد يكون تعترضه بعض الوساوس عند قراءة بعض الآيات. وسبق وأخبرتنا السور أنه عليه الصلاة والسلام كان يتمنى لو تنزل عليه آية ليريها قريشاً كما طلبوا لعلهم يؤمنون.

والآيات توجهه إلى أن يستعيذ بالله من الشيطان ليطرد كل الوساوس. وتخبره أن سيطرة شيطان الوساوس على النفس يكون لمن يستسلم له، وليس على من يتوكل على الله. ولا يمكن أن تكون الآية تشريعاً يتوجب على المسلمين اتباعه عند تلاوة القرآن بحيث لا يجوز أن نتلو شيئاً من القرآن قبل أن نستعيذ من الشيطان. ولكن لو أن أحدنا كان مشوش الفكر عندما أراد قراءة القرآن فالاستعاذة من الشيطان ستعمل على عودة التركيز. كما أن الحرص

على الاستعاذة من الشيطان قبل التلاوة فضيلة ولكن لو لم يفعلها المسلم فلا ذنب عليه، لأنها وردت في خطاب توجيهي ولم ترد كتشريع.

قريش تبتدع تهما جديدة للرسول

وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(١٠٥) الأنعام.

إشارة إلى أن مما تحاول قريش إشاعته بين من يقدم لمكة للقاء الرسول أنه يتلقى ما يتلو عليهم من غيره (درسه وتعلمه). وهذا الكلام لم تكن قريش تقوله لمحمد عندما كانت الدعوة محصورة في أهل مكة فقط، لأنهم يعرفون أنه لا أحد يعلمه. لكن الآن وفي هذا الوقت، فمن يأتي من خارج مكة لا يعلم ذلك، فصار بإمكان رجال قريش أن يكذبوا على الرسول دون خشية من أن يكتشف الغرباء كذبهم.

بعض المسلمين يسبون آلهة قريش فتسب قريش الله

وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(١٠٨) الأنعام.

بعض المسلمين يسبون آلهة قريش، فيرد عليهم القرشيون بسب إله المسلمين، فيكون السب موجهاً لله الذي هو إله المسلمين. وإلا فقريش تؤمن بوجود الله وبأن اسمه «الله» جل جلاله، ولن تسب لفظ الجلالة بشكل مباشر.

قريش وكل مشرك من الإنس والجن يوحون لبعضهم البعض التبريرات والحجج لرفض الحق

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ(١١٢) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ(١١٣) الأنعام.

ما يسمعه الرسول من رجال قريش ويبدو متشابهاً هو شيء معتاد، فالكافر يحاول تبرير كفره بما يقترحه بعض الكفار لبعض. مثل طلب آيات أو نزول الملائكة أو كون الرسول بشراً ولماذا لم يكن من زعماء القريتين؟ ولو تحقق لهم ما يطلبون فسيجدون مبررات غيرها.

وقوله: «يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول» لا يعني أن الجن والمشركين يعقدون الاجتماعات ويقررون ما يقولون. ولكنه يعني أن شياطين الجن يتذاكرون فيما بينهم، وشياطين الإنس فيما بينهم. فتأتي حججهم متشابهة.

الإشارة لإسلام بعض أهل الكتاب

أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ(١١٤) الأنعام.

الإشارة جاءت ضمن آيات تخاطب الرسول وتؤكد له أن رسالته حق ولو رفضتها قريش فقد آمن بها بعض من أصحاب الديانات السابقة، والمقصود بهم بعض بني إسرائيل في يثرب.

بعض رجال قريش قتلوا أولادهم لئلا يسلموا

وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ(١٣٧) الأنعام.

بعض المشركين يزينون لبعض قتل أولادهم لئلا يدخلوا الإسلام. والمفسرون يقولون الآية تتحدث عن الوأد وهذا غير صحيح، لأن الوأد يكون بعد الولادة مباشرة، والآية تتحدث عن قتل ولد بالغ عاقل أراد الإسلام، وليس مولوداً رضيعاً لم يعلم من الدنيا شيئاً. وسبب قتلهم أوضحته الآية: «لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ».

منطق الرضى عن النفس

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ(١٤٨) قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ(١٤٩) الأنعام.

قول قريش لو شاء الله ما أشركنا منطق يردده الناس في كل العصور، وهو مجرد تبرير للرفض. وإلا فالله لم يفرض عليهم ولم يجبرهم على الكفر، بل هم من اختار ذلك طواعية، وبناءً على عقائد موروثة لا أساس لها.

وهو ما كررت ذكره عدة سور سابقة ولاحقة، مثل:

سورة يس: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاء اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ(٤٧).

وسورة الأعراف: وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٢٨) الأعراف.

وسورة النحل: وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ(٣٥).

وهو منطق التنصل من المسئولية ومن لوم النفس. وهذا الفهم الخاطئ لقدر الله وقضائه ما زال منتشراً بين المسلمين. حيث يربطون كل ما يصدر منهم على أنه مقدر عليهم ولا مناص لهم عنه. كمن يموت بحادث سير نتيجة تهوره، أو من يدهس طفله أمام عينيه لأنه أهمل مراقبته، أو أصيب بمرض أو أصاب ثروة أو خسر كل ماله في مضاربات مالية، أو تم القبض عليه بلا تهمة ....الخ.

وهذا يريحنا كثيراً لأننا سنتخلص من تأنيب الضمير الذي سيسيطر علينا لو اعترفنا بأننا كنا المتسببين بما حدث. والبديل هو أن ننسب تقصيرنا وعجزنا إلى القضاء والقدر وبالتالي نشعر أننا لا نستطيع محاكمة الله على ما يفعل بنا، فنحن ملكه يفعل بنا ما يشاء.

وقريش لم تؤمن لأنها اختارت طريق الضلال، دون أن يكتبه الله جل وعلا عليها: وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(٣٦) إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ(٣٧).

وقوله: « فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ» وقوله: « فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ». لا يعني أن الله قرر من يهتدي ومن يضل مسبقاً، كما سبق وكررنا سابقاً، ولكنه يعني أن كل ما في الكون يسير بإذن الله ولو أراد الله فلن يتم. لكن هذا لا يعني أن الله يتدخل في تصرفات مخلوقاته في أي مكان كان في الكون. بل يترك لهم حرية الاختيار، ويوم القيامة سيحاسبهم بكل عدل بناءً على ما اقترفوه وسجلته صحف أعمالهم وهم لا يظلمون: وَاتَّقُواْ

يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ(٢٨١) البقرة.

بداية تعرض المهتدون للإسلام من المستضعفين للتعذيب

الم(١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ(٣) العنكبوت.

إشارة إلى ما بدأ المسلمون من مستضعفي مكة يتعرضون له من أذى من بعض رجال قريش لإرغامهم على الردة، وقد ارتد بعضهم بالفعل. وسنرى أن ما تشير له الآيات من التعذيب هو الحرق بالنار. ولابد من الإشارة إلى أن من بدأ هذا النوع من التعذيب هم بعض رجال قريش وليس كلهم، بل إن الغالبية منهم لم يشاركوا، وإلا لأشار له القرآن.

ثم تعود السورة لمخاطبة المستضعفين من المسلمين الذين يتعرضون للتعذيب، وتحثهم على الصبر، وتسمي صبرهم جهاداً، وتعدهم بالجزاء الحسن: مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٥) وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ(٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ(٧).

فكل من يقينه قوي ويؤمن بالله واليوم الآخر فسيصبر على الأذى، وصبره جهاد سيحفظ له عند الله.

أحد المسلمين يواجه ضغوطاً من والديه المشركين ليرتد

وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٨) العنكبوت.

هذه الآية تبدو وكأنها تكرار لآية وردت في سورة لقمان من سور المرحلة الخامسة تقول: وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ(١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(١٥).

والآية هنا تتحدث عن مسلم آخر تعرض لضغوط من والديه في هذه المرحلة السابعة

لكي يكفر. والاحتمال أنه من المستضعفين، الذين يتعرضون للتعذيب، وأراد والداه إقناعه بالردة لئلا يهلك تحت التعذيب، بحجة أنه لا قبل له بقوة الظالم وجبروته.

وهذا الموقف من الوالدين نعيشه اليوم في عالمنا العربي، فكم من والد ضغط على أبنائه بألا ينتقدوا الحكومات وأن يصبروا على الظلم وهضم الحقوق ومصادرة الحريات لئلا يتعرضوا للاعتقال. والوالد يعلم أن الله لا يرضى بالظلم وأن كتابه أمر بدفعه وأن الحكام ليس من حقهم التصرف بالناس كيفما يشاؤون. ويرى أن عصيان الله قد يغفره الله، أما الحكام المتسلطون فسيبطشون بلا رحمة. ويرى أن كلباً حياً أفضل من أسد ميت. وبطبيعة الحال هذا وضع مزر لا يقبله الإسلام للمسلم، فمسلم ميت خير من خانع حي. ومن لا يموت مطالباً بالحق سيموت مع جلاده بطرق أخرى. فجاءت الآية تقول للولد: لا تطع والديك فيما يأمرانك به مخالف لما يأمرك به الله، الذي يأمر بدفع الظلم مهما كانت الظروف وعدم الاستسلام للظالم لأنه قوي.

ونظرة الوالدين آنية قاصرة، وأنانية في نفس الوقت. فما يهم الوالدين هو ألا ييأسا على هلاك ولدهما، وخير لهما أن يعيش حياة ذل من أن يكون ابنهما قدوة لغيره في تحقيق التصحيح.

أول ذكر للمنافقين في مكة

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ(١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ(١١) العنكبوت.

هذه أول مرة يتحدث القرآن عن «منافقين» في الإسلام. وهم نفر أعلنوا إسلامهم – كما تقول الآيات – ثم أعلنوا ردتهم خوف التعذيب، أو تحت التعذيب. ولو ظهر الإسلام فسيعلنون أنهم مسلمون. وقد أطلقت عليهم الآيات «منافقين» لأن المنافق هو من يعلن الإسلام ولو لم يؤمن به من داخله. وهم كانوا ممن لم يقتنع بالإسلام عندما أعلنوا إسلامهم، ولكن قد تكون غايتهم التخلص من الرق، ولما طالهم التعذيب تراجعوا لحياة العبودية التي اعتادوا مقابل البقاء أحياء.

قريش تستخدم وسائل الترغيب والترهيب مع الضحايا

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ(١٣) العنكبوت.

كفار قريش الذين يعذبون مستضعفي المؤمنين يقولون لهم إن أنتم تركتم الإسلام فنعدكم أن نحمل عنكم ذنوبكم يوم القيامة ونتلقى العذاب بدلاً عنكم. مما يظهر أن قريشاً كانت تستخدم التعذيب البدني مصحوباً بالترغيب. تماماً كما يحدث في معتقلات المباحث العربية، تعذيب لا يحتمل ووعود خيالية لن تتحقق لو استجاب المعتقل لما يريد السجان.

تحذير لمسلمة قريش

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ(٤١) إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ(٤٣) العنكبوت.

وهم من أشارت لهم الآية: (١١٣) من سورة هود، والآية: (٥٣) من سورة بني إسرائيل. وآيات سورة العنكبوت تقول لهم إن موالاتهم للمشركين كمن اتخذ بيتاً من خيوط العنكبوت. وهو مثال للوهن والضعف حسب مدارك المخاطب الذي يعرف أن خيوط العنكبوت تتمزق بمجرد ملامسة اليد لها.

ولا تتحدث الآيات عن معجزة علمية، لم يكتشفها العلماء إلا في هذا العصر، وتتمثل في أن المادة التي تتكون منها خيوط العنكبوت قوية جداً لدرجة أنها لو جمعت لأمكن صناعة درع منها واق من الرصاص. لأن الخطاب في السورة موجه لرجال من قريش أعلنوا إسلامهم وأبقوا على مولاة أقاربهم المشركين. والخطاب في القرآن يأتي مناسباً لمدارك ومعارف المخاطب. وقريش لا تعرف الحقائق العلمية، ولكنها تعرف ما ترى وتلمس. وما يرونه أنه عندما تتعرض خيوط العنكبوت للمس تتهاوى. فهي من أوهن وأوهى المواد عندهم، ولذا ضرب القرآن بها المثل، مشبهاً موالاة بعض من أسلم للكفار بأنها موالاة واهية ضعيفة. وكان يجدر بهم موالاة المسلمين والتوكل على الله.

للمرة الثانية يذكر القرآن أن بعض أهل الكتاب يحضرون لمكة لمجادلة الرسول والمسلمين

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(٤٦) العنكبوت.

بعض أهل الكتاب يحضرون من يثرب لمجادلة الرسول والمسلمين ليس لإحقاق الحق ولكن لعلهم يظهرون كذب الرسول. وهو تأكيدٌ لما سبق وذكرته الآيتان: (٩١-٩٢) من سورة الأنعام، أول سور هذه المرحلة نزولاً.

وهؤلاء حضروا لمكة بعد أن انتشر الإسلام في يثرب بين الأوس والخزرج عموماً وقلة من غيرهم على أيدي من أسلم من بني إسرائيل. ولأن انتشار الإسلام يهدد مصالح أهل الكتاب ويسفه موروثهم فقد انبرى بعض عبدة الموروث لصد المد الإسلامي. فكانوا يسافرون لمكة ويدخلون مع الرسول والمسلمين في جدال. وهذه الآية تقول لا تجادلوهم إلا بالحسنى دون تشنج، وقولوا لهم: إن دين الله واحد، ودعوة الرسول لا تختلف عما تلقاه موسى، فإن كنتم تؤمنون بالله وبموسى رسول لله فآمنوا بمحمد، وإن لم تؤمنوا فدونكم وما تريدون، دون الدخول معهم في جدل لا طائل تحته.

والآية ليست تشريعاً يفرض على المسلمين أن نجادل اليهود وغيرهم من أصحاب الملل بالكلام اللين.

وترد عليهم السورة: وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ(٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ(٤٩) العنكبوت.

فالآية تقول لأهل الكتاب إن محمدا لو كان يقرأ ويكتب قبل نزول الوحي لكان هذا مثاراً للشك والريبة من أنه قد يكون يقرأ عليكم من كتب وجدها وبدأ يتلوها على الناس ويقول هي من عند الله. لكنه لا يقرأ ولا يكتب، ومع ذلك يتلو عليكم كتاباً فيه ذكركم وذكر من سبقكم وتفاصيل عن تاريخكم لا يوجد لها مصدر غير الوحي.

بعض أهل الكتاب آمنوا مثلهم مثل بعض رجال من قريش

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ(٤٧) العنكبوت.

هناك من آمن من أهل الكتاب ومن قريش، والكثيرون من الفريقين لم يؤمنوا.

قريش مستمرة بطلب آيات

وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٥١) العنكبوت.

والرسول لم يعط أي آية. ولو كانت قريش جادة في البحث عن الحق لكفاها القرآن.

قريش ساخرة: أوقع علينا العذاب الذي تعدنا

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ(٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٥٥) العنكبوت.

نفس منطق الأمم السابقة، ومن ذلك ما قاله قوم شعيب: فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) الشعراء.

بداية الحديث عن الهجرة

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ(٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ(٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ(٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(٥٩) وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٦٠) العنكبوت.

الوضع في مكة أصبح لا يطاق فالمسلمون المستضعفون يتعرضون للتعذيب بالنار لردهم عن دينهم، وقد ارتد البعض بالفعل. ويبدو أن أخبار مكة قد وصلت للمسلمين في يثرب،

الذين وجهوا دعوة لاستضافة إخوانهم – مسلمي مكة – عندهم في يثرب.

والآية (٥٦) أول آية تشير للهجرة إلى المدينة (سبق وذُكرت الهجرة للحبشة في الآية(١٠) من سورة الزمر، المرحلة الخامسة). وسورة العنكبوت ثاني سورة نزلت في هذه المرحلة، وبما أننا قدرنا أن الفترة بين نزول سورة وأخرى في هذه المرحلة هو أسبوعان فإن سورة العنكبوت قد نزلت بعد بدء قريش تعذيب المسلمين بأسبوعين أو ثلاثة.

والآية: (٥٧) تقول بأن كل بشر سيموت سواء تحت التعذيب أو بسبب آخر، ومن مات على الإيمان فهو في الجنة. وعلى من يعذب أن يصبر ولا يرتد عن دينه فيخسر الدنيا (كونه سيعود للرق) وسيخسر الآخرة بالردة.

وتقول نفس السورة: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ(٦٩).

والجهاد في الله يعني الصبر على الأذى في سبيل التمسك بدين الله، ولا يعني القتال للذود عن الدين ودولة المسلمين والذي يسميه القرآن: الجهاد في سبيل الله. وهو جهاد لم يكن ممكناً طوال فترة الدعوة في مكة.

الآية (٦٠) تقول لمؤمني مكة هاجروا (ليثرب) وسيرزقكم الله ويعوضكم عما ستخسرونه من منازل وأثاث ومال في مكة. وهذا فيه إشارة إلى تردد بعض مسلمي قريش حول الهجرة لئلا يخسروا أموالهم.

ولابد أن الهجرة ليثرب أصبحت متاحة نتيجة لأن أهل يثرب من المسلمين استطاعوا إقناع أهل الكتاب الذين لم يسلموا بالموافقة على استضافة وإجارة المسلمين من أهل مكة. ولما وافق بنو إسرائيل وبقية اهل الكتاب سارع المسلمون منهم لدعوة المسلمين في مكة للهجرة إليهم.

قريش تعرف ركوب البحر

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ(٦٣) وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ(٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ(٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(٦٦) العنكبوت.

الآيات تخاطب قريشاً بصورة عقلانية، وتذكرهم بما يتعرضون له في البحر وكيف أنهم متى تعرضوا لعواصف وأمواج عاتية دعوا الله أن ينجيهم ولا يدعون آلهتهم لأنهم يعرفون أنها مجرد حجارة صماء.

وهذا فيه دلالة على أن قريشاً تعرف ركوب البحر ومعتادة عليه. وهو ما ذكرته سور أخرى، ومن ذلك: قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ(٦٣) قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ(٦٤) الأنعام.

ولو كانت قريش لا تعرف ركوب البحر فلا يمكن أن يخاطبها القرآن عن الموضوع. وقريش إن ركبت البحر فهذا يعني أنهم يقطعون البحر الأحمر ويذهبون للجهة المقابلة لجدة الحالية وهي السودان الحالية حيث يقيم قبائل عربية نزحت هناك منذ القدم وقبل الإسلام بزمن طويل.

ومثله: وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٤) النحل.

قريش مستمرة باختلاق عبارات منفرة ونسبتها للقرآن

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ(٦٨) العنكبوت.

وقد تكررت كثيرا في عدة سور وتشير إلى اختلاق قريش بعض النصوص ونسبتها للقرآن وإسماعها لمن يأتي من خارج مكة لمقابلة محمد كطريقة للصد عن الإسلام.

كيفية التعذيب بالنار

تصف سورة البروج بوضوح ما كان يحدث:

وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ(١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ(٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ(٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ(٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ(٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ(٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ(٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ(١٠).

السورة تبدأ بقسم وتقول بأن يوم القيامة التي سيعتمد فيها على الشاهد (صحيفة الأعمال) لمحاسبة المشهود (عليه وهو الإنسان)، وسيهلك أصحاب الأخدود.

وأصحاب الأخدود هم قريش الذين حفروها. والأخدود حفرة مستطيلة تحفر في الأرض. وكان رجال قريش يخدون الأخاديد ويضعون فيها الحطب وتشعل فيها النيران لتعذيب من أسلم من المستضعفين (الموالي والعبيد) بالكي والحرق بالنار لإرغامهم على الكفر: وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(٨).

لأن إسلام المستضعفين سيتسبب في تعطل الأعمال الخدمية في مكة، كون من يقوم بها هم أولئك العبيد والموالي، وهذا ما لن تسمح به قريش.

وتتوعد السورة كل من عذب المسلمين ولم يتب.

وفي نفس السياق نزلت سورة المسد:

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ(٢) سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ(٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ(٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ(٥).

السورة تقول تبت يدا أبي لهب وتباً له بما يقوم به من حفر للأخاديد وتسجير للنيران فيها لتعذيب المسلمين. (التب هو الخسران).

وتتوعده بنار جهنم.

كما تتوعد امرأته نظير حماسها في جمع الحطب. وقوله «في جيدها حبل من مسد» تصوير لما ستلقاه من عذاب في جهنم يتناسب لما تقوم به. فهي تنقل الحطب على جيدها الذي سيتعرض للعذاب، وإلا فإذا دخلت النار فستلقى العذاب كلها.

والتأكيد على أن أبا لهب في النار وهو ما زال حياً من باب ما يعرف بالضرورة. فالقرآن يخبرنا مراراً وتكراراً عن حقيقة أن من لا يؤمن بداية سماع لدعوة الحق فلن يؤمن أبداً. لذا فأبو لهب لن يؤمن وسيموت مهما طال به العمر وهو مشرك وسيدخل النار.

قريش مستمرة بمحاولاتها صد الناس من خارج مكة عن الإسلام

وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ(٢٤) لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ(٢٥) النحل.

بعض القادمين لمكة للقاء الرسول يتلقفهم رجال قريش، فيسأل القادمون قريشاً عن الوحي: «مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ». يجيبهم رجال قريش بأنهم مخطئون فمحمد لا يأتيه وحي وإنما يتلو قصصاً أسطورية قديمة.

بدء الهجرة «في الله»

بعد نزول سورة العنكبوت التي كانت تحث المسلمين على الهجرة: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ(٥٦).

بدأ المسلمون الهجرة ليثرب، وهو ما تؤكده سورة النحل التي نزلت بعد حوالي شهر ونصف من نزول سورة العنكبوت، وتقول: وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ(٤١) الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(٤٢).

والآيات تعد المهاجرين خيراً عند ربهم، نتيجة صبرهم وهجرتهم، التي تسميها «هجرة في الله» لأنهم تركوا أوطانهم وذويهم ومتاعهم في سبيل الله، وحفاظاً على دينهم.

قريش مستمرة بصد الناس عن لقاء الرسول بالحلف لمن يريد لقاء الرسول أنه كاذب

الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ(٨٨) النحل

ومن الأساليب التي تقوم بها قريش هي إقناع القادمين بما يقولون عنه وينسبونه له بالحلف لهم بأغلظ الأيمان إنهم لصادقون: وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ الْسُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٩٤) النحل.

وهذه وسيلة أخرى

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ(١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٠٤) النحل.

أخبرتنا سور سابقة بأن قريشاً نشطت في حربها المضادة للإسلام ومحاولاتها صد غيرها من الناس للدخول فيه أو لقاء الرسول. والآيتان أعلاه تخبران أن قريشاً بدأت تستخدم وسيلة جديدة تتمثل باعتراض طريق من يصل لمكة لمقابلة الرسول وتقول لهم إن ما سيتلو عليهم محمد هو كلام علمه إياه إنسان آخر، ويذكرون لهم اسم رجل أعجمي عابر سبيل صادف تواجده في مكة في الفترة التي نزلت فيها سورة النحل. وكونه أعجمي اللسان فمن الصعب على الناس أن يسألوه هل حقاً هو من يعلم الرسول القرآن؟ فيصدق البعض مزاعم قريش.

ومثل هذه المزاعم لم تكن قريش تتهم بها الرسول طوال السنوات التي كانت الدعوة موجهة لهم فقط دون الناس. لأن أهل مكة يعرفون بعضهم ولو قال كبراؤهم إن هناك من يعلم الرسول القرآن لما صدقهم بقية أهل مكة لأنهم يعرفون الرسول، ويعرفون كل من يعيش في مكة. لكن بعد تحول الخطاب الدعوي في القرآن لكل الناس وبدء الناس الوصول لمكة للاستماع للرسول فقد كان بعض كبراء قريش يعترضون القادمين ويحاولون أن يثنوهم عن لقاء الرسول ومن ذلك أنهم استغلوا وجود رجل أعجمي في مكة فكانوا يقولون للقادمين إن محمداً ليس رسولاً لله كما يزعم ولكن هذا الرجل الأعجمي هو من يعلمه ما يسميه قرآناً. وكان من الممكن أن يصدق بعض القادمين هذا الزعم لأنهم لا يعرفون مكة ولا من يقطنها. ولأن الرجل الأعجمي قد غادر مكة فلم تعد قريش تذكره للقادمين لمكة فيما بعد، كما سنرى في سور قادمة.

وتستمر السورة لتقول إن قريشاً تفتري الكذب، لأنها لا تؤمن بكلام الله: إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأُوْلـئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ(١٠٥) النحل.

واستمرت قريش باختلاق العبارات ونسبتها للقرآن

إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأُوْلـئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ(١٠٥) النحل.

ولعلها الوسيلة التي استخدمتها قريش أكثر من غيرها، لأن السور كررت ذكرها أكثر من

الوسائل الأخرى، لأنها الأكثر نجاعة من الوسائل الأخرى التي استخدمتها قريش على ما يبدو.

بعض المعذبين صامدون

مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(٩٦) النحل.

والآية تحثهم على الاستمرار بالتحمل والصبر وسيلقون جزاءهم من الله نظير جهادهم في الله.

النساء أيضاً عذبن بالنار

مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(٩٧).

هذه الآية تؤكد أن لهن الجنة كما الرجال. وذلك لأن كل السور السابقة تعد من يؤمن من الرجال بالجنة، ولم تذكر النساء. ذلك أن الدعوة موجهة لرجال قريش كونهم صناع القرار في المجتمع ولو آمنوا لآمن المجتمع كله، وليس لأنهم وحدهم من سيدخل الجنة.

مسلمة قريش مرة أخرى

إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٩٠) وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ(٩١) وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(٩٢) النحل.

الآيات تُذكِّر بأن الله يأمر بالعدل والإحسان والبعد عن الفحشاء والمنكر والبغي (التعدي على الآخرين). وتتجه للمسلمين محذرة من نقض عهدهم مع الله، وهو الإسلام.

وتقول: « أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ به» وأميل هنا أن الآية تشير لمسلمة قريش الذين يعتبرون أنفسهم سادة وينظرون للمستضعفين بأنهم أقل إنسانية منهم. والآية

تقول إن هذه النظرة ستخرجكم من الإسلام وستكونون كمن نقضت غزلها بعد إحكام غزله.

مجمل أوضاع المستضعفين حين نزول سورة النحل

مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(١٠٧) أُولَـئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ(١٠٨) لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ(١٠٩) النحل.

- البعض ارتد، وهم من أشارت لهم الآيات: ١٠-١١، ٩٥. وهؤلاء لهم عذاب عظيم عند الله، لأنهم نقضوا عهدهم مع الله مقابل البقاء أحياء لفترة وجيزة.
- البعض أعلن ردته وقلبه مطمئن بالإيمان، فهؤلاء سيجزيهم الله ويحسن إليهم.

حث المعذبين على الهجرة

بعد أن قالت السورة إنه لا بأس من إعلان الكفر مع اطمئنان القلب بالإيمان: مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٠٦) النحل.

تحث السورة من تعرض للتعذيب وأجبر على إعلان الكفر، على الهجرة (إلى يثرب) للنجاة بالنفس والدين: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ(١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ(١١١) النحل.

المسلمون كانوا يتسللون خفية من مكة إلى يثرب

وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(٥٧) القصص.

الآية تتحدث على لسان كبراء قريش الذين يسخرون من الرسول بقولهم لو آمنا بك

فسيكون حالنا حال من آمن معك الذين يتسللون هاربين. وهي تشير إلى أن المسلمين كانوا يتسللون خارج مكة باتجاه يثرب خفية خوفاً من بطش قريش.

وضع المسلمين في مكة عند نزول سورة الرعد

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(١٨) أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ(١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ(٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ(٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ(٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ(٢٣) سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ(٢٤) وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ(٢٥) اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقَدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ(٢٦).

الناس إما مؤمنون (استجابوا لربهم) ولهم الحسنى، أو رفضوا الدعوة (لم يستجيبوا) ولهم النار.

والمسلمون بعضهم بقي مؤمناً يفي بعهد الله ولا ينقض ميثاقه (يرتدون) مهما تعرضوا للشدائد.

وهناك من نقض عهد الله ميثاقه وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل (تركوا أوامره وتجاوزوا نواهيه) وأفسدوا في الأرض بردتهم.

الرسول استمر يتعرض للسخرية

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ(٣٢) الرعد.

الآيات تخاطب الرسول وتقول له ما تتعرض له تعرض له رسلٌ قبلك.

الرسول يتمنى لو تلبى مطالب قريش

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ(٣٨)

كل الرسل قبل الرسول بشر لهم أزواج وذرية، ولم يكونوا ملائكة كما تطلب قريش. ولن تعطى يا محمد أي آية، لأن الآيات تأتي بإذن الله الذي لن يري قريشاً أياً منها كما أكدت سور أخرى.

والآية تشير إلى أن الرسول استمر منذ سنوات يتمنى لو أظهر آية وخوارق أو نزلت الملائكة ورأتها قريش حتى تؤمن، كما كانوا يقولون له.

لم يعد مهماً أن تؤمن قريش

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ(١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ(٢) الحج.

سورة الحج آخر سورة في مكة ونزلت وقد بدأ المسلمون يهاجرون ليثرب. والسورة تعلن أن قريش لم تعد هي المقصودة بالدعوة، بعد أن آمن بالإسلام بعض رجال القبائل، وغالبية مستضعفي يثرب، ونفر من بني إسرائيل. وبعد أن هاجر كثير من المسلمين ومن بقي في طريقه للهجرة. وبالتالي فالدعوة من الآن وصاعداً لكل الناس ولا يهم إن استمعت قريش أم لم تستمع فلم يعد قبولها أو رفضها يمثل الأهمية للإسلام.

وهذه نقلة نوعية في الخطاب الدعوي.

استمرت قريش تجادل الرسول لدحض الحق

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ(٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ(٤) الحج.

لقد استمر رجال قريش يجادلون الرسول لكي يدحضوا الحق وليعطوا صورة مشوشة للإسلام لمن يحاول الاتصال بالرسول.

منع المسلمين من دخول المسجد الحرام

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥) الحج.

هذه الواقعة حدثت بعد نزول سورة الرعد السابقة، لأنها لم تذكرها. وتمثل تطوراً آخر لتضييق قريش على المسلمين بعد تعذيب مستضعفيهم.

وكيف تتجرأ قريش على منع الناس من البيت الحرام الذي جعل للناس كافة منذ القدم، وليس ملكاً لقريش. وإن كان الله قد كلف إبراهيم وإسماعيل – أجداد قريش – بخدمة الحجاج والقيام على البيت فهذا لا يعني أنه أعطاهم الحق ببسط سيطرتهم على مكة. لأن مكة لا يجب أن يحكمها بشر، ولا يجب أن تدخل تحت سيطرة أحد. هي بلد حرام وبيت الله آمن لمن فيه. ولكل الناس الحق بزيارته وتعبد الله فيه. وقريش احترمت هذا الميثاق، ولهذا كانت مكة بلا حاكم. ولم يكن أحد من قريش يزعم أنه حاكم لها. فهي الدولة (المدينة) الوحيدة في العالم في ذلك الوقت التي ليس لها حاكم.

المسلمون كانوا يعاونون الرسول بالدعوة

تقول سورة الحج: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢).

ذكرت الآية (٣٣) من سورة فصلت أن من أحسن الأعمال هي الدعوة إلى الله. وما عدا ذلك فلم يذكر القرآن أن المسلمين كانوا يعاونون الرسول في الدعوة، قبل هذه الآية التي تخبرنا أنه كان من المعتاد انتشار المسلمين في مكة للدعوة وذلك بتلاوة القرآن على الناس تماماً كما يفعل عليه الصلاة والسلام.

وقوله: « وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا». تصوير لمشاعر الغيظ والحنق التي يشعر بها كبراء قريش عند سماع الدعوة، وكأنه تكرار لنفس المشاعر التي سبق وأخبرت بها سورة القلم حينما ذكرت ما يشعر به رجال قريش عندما يتلو عليهم الرسول القرآن: وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ

بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١).

وبهذا انتهى العصر المكي.

تلخيصٌ لبعض الأساليب التي جربتها قريش لحرب دعوة الرسول

في بداية الدعوة اتهموه

مرة بالجنون: وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢) التكوير.

وبتهم أخرى

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) الحاقة.

ثم سخروا منه

فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ(٣٩) ق.

ثم حاولوا التوصل معه إلى اتفاق

وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) ن والقلم.

ثم فكروا بقتله

أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ(٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ(٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ(٣٢) الطور.

ولما تغير الخطاب الدعوي لكل الناس وبدأ الناس يحضرون لمكة لرؤية الرسول

بدأوا يجادلون الرسول ليدحضوا الحق

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ(١٦) الشورى.

ثم حاولوا استمالته

وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً(٧٣) وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً(٧٤) إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ

الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً(٧٥) بني إسرائيل.

ولما يئسوا من استمالته سعوا لطرده

وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً(٧٦) سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً(٧٧) بني إسرائيل.

ثم عادوا لاتهامه

مرة أن القرآن وحي شياطين

وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ(٢١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ(٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ(٢١٢) الشعراء.

ومرة يقولون إن الرسول تعلم القرآن من كتب

وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(١٠٥) الأنعام.

ثم حاولوا أن يوقعوا بينه وبين من أسلم من المستضعفين

وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ(٥٢) الأنعام.

ثم بدأوا يختلقون عبارات منفرة وسيئة ويسمعونها للناس الذين يقدمون لمكة لمقابلة الرسول على أنها من القرآن

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ(٦٨) العنكبوت.

وإذا سألهم الناس القادمون لمكة عن الرسول قالوا إنه يجمع قصصاً خرافية قديمة ويقول هي وحي

وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ(٢٤) لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ(٢٥) النحل.

وأحياناً يحلفون للقادمين لرؤية الرسول أنه كاذب

وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ الْسُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٩٤) النحل.

ولم تترك قريش وسيلة للصد عن الإسلام إلا وجربتها.

وبهذا نكون قد أتينا على ختام الأحداث التي صاحبت الدعوة في مكة.

أحداث مراحل الدعوة في المدينة

عندما وصل الرسول وصاحبه أبو بكر ليثرب كانت الغالبية العظمى من المسلمين قد سبقتهم إلى هناك، وبقي قلة في مكة. بعضهم التحق بركب المهاجرين فيما بعد، والبعض الآخر بقي في مكة ولم يهاجر أبداً: إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٤٠) براءة.

وقد أوجدت الهجرة بيئة مختلفة لكل من المهاجرين من مكة، ولأهل يثرب. من الأنصار المسلمين، ومن بقية أهل يثرب غير المسلمين على حد سواء. فنتج عن ذلك أحداث ومواقف بعضها له علاقة بما اعتاد الناس من سلوك، وبعضها فرضه وجود المهاجرين، وبعضها فرضه قيام دولة إسلامية في مواطن بني إسرائيل، إضافة لاستمرار قريش بملاحقة المسلمين وحربهم. فنزلت الآيات المدنية تعالج هذه المشاكل التي صاحبت الهجرة أو ظهرت بسببها، والظروف التي تولدت منها.

هجرة الرسول وصاحبه

إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٤٠) براءة.

القرآن لم يورد تفاصيل هجرة الرسول ولكن آية سورة براءة أعلاه ذكرت الرسول وهو في الغار يحاول أن يطمئن صاحبه أبا بكر بعدما غلبه القلق من أن تعثر عليهما قريش وتقتلهما، أثناء هجرتهما ليثرب. وقريش لم تقتل الرسول طوال دعوته في مكة التي امتدت لسنوات،

لأنهم احترموا حرمة البيت، الذي لا يضام ساكنه. ولهذا لم يتعرض أي مسلم ينتسب لقريش لأي عنف جسدي من كبراء قريش الذين صبوا جام غضبهم على المستضعفين وأوقعوا بهم أشد أنواع التعذيب بما في ذلك الكي والحرق بالنار. وجرأتهم على المستضعفين كونهم موالي وعبيداً ينظر لهم الكبراء كسقط المتاع والملكية الشخصية التي يتصرف بها صاحبها كيفما يشاء، وهذه النظرة المقبولة اجتماعياً في حينها أشعرت الكبراء أن تعديهم على عبيدهم ومواليهم لا يعتبر تعدياً على حرمة مكة التي حافظوا عليها منذ عصر جدهم إبراهيم. لذا لم يتعرض كبراء قريش لأي نوع من النقد من قبائل جزيرة العرب، الذين يشاركون قريشاً نظرتهم الاجتماعية للعبيد.

وما إن بدأ المسلمون يتسللون من مكة مهاجرين إلى المدينة زرافات ووحداناً حتى كثفت قريش من مراقبتها للرسول لكي يلحقوا به عند خروجه من مكة ويقتلوه. ولهذا السبب – الذي كان الرسول على علم به – اتفق مع أبي بكر للتسلل من مكة خفية وبسرية تامة، وكان لابد أن يسلكوا طريقاً غر معتاد لتضليل من قد يلحق بهم. وما تقوله كتب التراث أن الرسول قد طلب من علي ابن ابي طالب أن ينام في فراشه ليوهم رجال قريش على أنه هو بينما يكون قد ابتعد خارج مكة ليس صحيحاً، ولكنه مجرد تلميع لصورة علي وإضافة فضيلة له لم يقم بها. لأن كتب التراث تقول بأن قريشاً كانت تنتظر الصباح لتقتل الرسول. ولو قررت قريش قتل الرسول في مكة لقتلته، دون الحاجة لانتظاره حتى يستيقظ ويتناول طعام الإفطار، لأن من يريد أن يقتل لا يهمه إزعاج الضحية.

ولعل ما حدث هو أنه في الأيام التي سبقت خروج الرسول من مكة مهاجراً، كانت الغالبية من المسلمين في مكة قد هاجروا بالفعل ولم يبق إلا نفر قليل بعضهم لم يهاجر أبداً. وبالتالي فقد كانت قريش تتوقع أن يتسلل رسول الله من مكة في أي لحظة، فشددت مراقبتها لتحركاته واللحاق به متى خرج من مكة وقتله. لذا اتفق الرسول وصاحبه أبو بكر على أن يتسللا من مكة خفية وعندما تغفل العين ويستغرق رجال قريش في النوم.

وهذا القرار اتخذه الرسول مستفيداً مما كان يتلو من القرآن على قريش عن أخبار بعض الأمم السابقة، والتي هلكت. فقد كانت الرسل تؤمر بالخروج من القرية مع من آمن في الليل، عادة، ومن ذلك أمر رسول الله لوط: فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ

وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ(٦٥) الحجر.

ومثله أمر موسى بالخروج ببني إسرائيل من قرية مصر فرعون: وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَّا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى (٧٧) طه.

فما كان من الرسول وصاحبه إلا أن اتفقا على التسلل لخارج مكة «بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ». وكتب التراث تقول بأنهما لجئا إلى غار ثور والذي يقع جنوب مكة ويبعد عنها بحوالي سبعة كيلومترات عبر طرق جبلية وعرة يستغرق قطعها للماشي في ذلك الوقت حوالي ساعتين إلى ثلاث ساعات. وقد يكون بالفعل هذا ما حدث، ووصل الرسول وصاحبه للغار قبل بزوغ الفجر واكتشاف قريش هربهما.

أما ما قيل عن تفاصيل هجرة الرسول في كتب التراث فلا يمكن الثقة به، ومن ذلك أن الرسول وأبا بكر (صاحبه) كان معهما عامر ابن فهيرة (مولى أبي بكر) ودليل اسمه ابن أرقط أو أريقط، وهذا عدد يحولهم لعصبة لا يتناسب مع حاجة الرسول للتخفي وسرعة التنقل لكي يفلت من ملاحقة قريش.

ولا يستبعد أن يكون الرسول وأبو بكر مكثا بالفعل في غار ثور ثلاثة أيام ثم توجها منه بمعية دليل دون حاجة لاصطحاب مولى أبي بكر لخدمتهما. ويحتمل أن يكون الدليل من أهل يثرب وليس من أهل مكة لما يلي:

- أن قريشاً قد رصدت لمن يدل على الرسول أو يحضره حياً أو ميتاً مكافأة ضخمة قوامها (١٠٠) من الإبل، يسيل لها لعاب رجل فقير كابن أريقط المشرك.
- أن ابن أريقط لو افترض أنه زهد بالمكافأة أو أنه لم يكن هناك مكافأة، وأراد أن يصحب الرسول وأبا بكر كدليل إلى يثرب للفرار من قريش، فسوف يلقى العنت من قريش وقد تتعرض حياته للخطر، كونه عاون المطلوب رقم واحد على الهرب. وهي جريمة تعتبر خيانة عظمى لا يمكن لمشرك من مشركي مكة أن يغامر بحياته من أجل خدمة رجل لا يؤمن بما يقول. وابن أريقط هذا لم يتعرض لأي أذى من قريش ولا حتى مجرد التوبيخ. مما يضع ألف علامة استفهام حول حقيقة شخصيته أو ما نسب له أنه قام به للرسول.
- أن هجرة المسلمين والرسول ليثرب لم تكن ممكنة لو لم يوجه أهل يثرب المسلمون

الدعوة للرسول وللمسلمين ليهاجروا إليهم ويعيشوا بينهم. وأهل يثرب هم من قام ببناء مسجد الرسول وحجرته قبل قدومه وكانوا يعلمون متى سيقدم، مما يعني أنهم هم من اتفق مع الرسول وأبي بكر على خطة الهرب من مكة، وكانوا على اطلاع من أن قريشاً تتمنى أن تجد الرسول خارج الحرم لتقتله. وبالتالي لن يقولوا للرسول تعال ليثرب وسنحميك، تاركين إياه عرضة للخطر طوال الطريق دون تقديم العون وحمايته منذ خروجه من مكة. وحمايته تبدأ بتأمين وصوله من مكة ليثرب، وذلك بوضع خطة تخفٍ وسلوك طريق لا يطرق عادة يوصل ليثرب. وهو ما قام به رجل من يثرب مؤمن برسالة رسول الله، ولن يخونه أو يسلمه لقريش طمعاً في مكافأة دنيوية وهو يؤمن بمكافأة أكبر عند الله.

وبالتالي فإن كان صحب الرسول أي دليل فلن يكون ابن أريقط المكي المشرك، ولكن سيكون مسلماً من يثرب. وقد تكون الخطة تضمنت خروج الرسول وصاحبه من مكة ليلاً والبقاء في غار ثور لثلاث ليال أو أكثر أو أقل، ثم السير مع الدليل باتجاه الشمال الشرقي سالكين الطريق التي تصل مكة بالعراق باتجاه الشرق حتى تجاوزوا جبال السروات واستقبلوا نجداً. ثم اتجهوا شمالاً بمحاذاة المرتفعات الجبلية عبر الطريق التي تسمى «الطريق النجدية». ومنها انحرفوا نحو الغرب حتى وصلوا لقباء ومنها إلى المدينة (مسجد الرسول). وهذه الطريق بعيدة عن الطريقين المعروفين المتجهين من مكة إلى الشام والمارين بالقرب من يثرب، أحدهما يمر بالقرب من ساحل البحر الأحمر والآخر يسلك طريقاً محاذياً من جهة الشرق وبين الجبال. وكلا الطريقين وما بينهما سيكونان عرضة لعيون قريش التي تلاحق الرسول. أما تلك الطريق التي سلكها الرسول وصاحبه ودليلهما «اليثربي» فمن المستبعد جدا أن تفكر قريش أنهما سلكاها.

وفي النهاية فقد وصل الرسول وصاحبه سالمين ليثرب واستقبلا من قبل المسلمين من المهاجرين ومن الأنصار (الذين يتكونون من نفر من بني إسرائيل وغالبية الأوس والخزرج). وكان المسجد قد بني وبنيت حجرة ملاصقة له كبيت للرسول الذي كان أعزب منذ وفاة زوجته خديجة.

ولا صحة – كالعادة – لأقوال كتب التراث، ومنها أن الرسول هو من اختار مكان إقامته،

لعدة أسباب، أهمها:

- أن الأعراف السائدة حينها تحتم أن يكون المستجير بحكم المجير، وليس بإمكانه أن يقدم لأرض أناس أجاروه ويختار مكان إقامته.
- أن النفر من بني إسرائيل الذين سبقوا للإسلام ونشروا الدعوة في يثرب هم من تبنى فكرة استضافة الرسول ومسلمي مكة وهم من دعاهم وليس الأوس والخزرج. لأن بني إسرائيل يمثلون طبقة الكبراء والسادة في يثرب ولهم تعود القرارات الاستراتيجية. ولو كانت فكرة استضافة الرسول ومسلمي مكة خرجت من الأوس والخزرج فلن يقبل بها بنو إسرائيل وبقية أهل الكتاب – الذين لم يسلموا – كونها فكرة من مستضعفين للسادة. والسادة لا يستمعون للمستضعفين، كما أن المستضعفين لا يستطيعون اقتراح أي قرار على السادة.
- وإن كان أهل يثرب هم من دعا الرسول والمسلمين فمن البديهي أن يقوموا باختيار مكان إقامتهم قبل قدومهم ويقوموا ببناء مسجد للرسول ومكان لإقامته كوسيلة للتعبير عن الترحيب به. فمن الصعب تصور أن يدعى الرسول للقدوم إلى يثرب وعندما يصل لا يجد من ينتظره ولا من يؤويه، وعليه أن يتدبر أمر ذلك سواء بشراء أرض كانت معاطن للإبل ومبركها، أو بنبش قبور المشركين وهدم الخرائب وتقطيع النخل، كما تزعم كتب التراث التي تصور الرسول بهذه الصور المشينة للنيل منه وليس لرواية حقيقة ما حدث والتي لا يعرفونها.
- ولابد أن موافقة أهل الكتاب - غير المسلمين - على قدوم المهاجرين مشروطة بأن تكون منازلهم بعيدة عن مزارعهم ومكان إقاماتهم. ولهذا تم اختيار مكان إقامة المهاجرين شرق جبل سلع البعيد وفي شمال غرب أرض يثرب فيما تقع مزارع أهل الكتاب في أقصى الجنوب.

ولابد أن الرسول عندما وصل يثرب كان كل من سبقه من المهاجرين قد استقروا في المنطقة التي بني فيها مسجد رسول الله وحجرته. وكانت بالقرب من سوق أسبوعي يقام كل جمعة. والسوق يسمى «المدينة» عند بني إسرائيل منذ أن كانوا في مصر فرعون. ويكون داخل أسوار وله أبواب. وقد غلب اسم المدينة على كل المنطقة التي تحوي مسجد الرسول

ومساكن المهاجرين، وفي عصور تالية غلب الاسم على كل يثرب[1].

وما إن استقر رسول الله في يثرب وفي حجرته المجاورة لمسجده، حتى بدأت الأحداث تتوالى:

١ انظر فقرة: المدينة/ قسم أماكن وشخصيات.

المرحلة الأولى للدعوة في المدينة
مرحلة التوطن والاستقرار

ما إن حط الرسول الرحال في المدينة حتى توالت الأحداث المصاحبة لوصوله. بعضها لها علاقة بوصوله، كمن جاء يسأله عن مسائل دينية وهناك من قدم للسلام ظناً منهم أنه سيحصل منه على منافع دنيوية ونحو ذلك. وهناك أحداث حدثت في هذه الأيام في المجتمع المسلم، كإبقاء مسلمة قريش علاقاتهم الودية والموالاة لمشركي قريش، ومثل ترك الصلاة مع الرسول ونحو ذلك.

وقد نزل في هذه المرحلة أربع سور، هي: الممتحنة، الحجرات، المجادلة، والجمعة. وكلها سور تخلو من الخطاب الدعوي أو التشريعي، وإنما هي سور تفاعلية، تتفاعل مع الأحداث التي جرت وتعطي التوصيات والتوجيه لما يجب حيالها. كما يلي:

استمرار موالاة مسلمة قريش للمشركين بعد الهجرة

برغم أن عدة سور مكية قد حذرت مسلمة قريش من استمرار موالاتهم لأقاربهم مشركي قريش، ومنها سور: بني إسرائيل وهود والعنكبوت والنحل. وبرغم هجرتهم ليثرب مع المسلمين، إلا أنهم أبقوا على مولاتهم ومودتهم لمشركي قريش وهم في المهجر. فنزلت أول سورة في المدينة لتبدأ أول آياتها بتكرار تحذيرهم من الإبقاء على صلة المودة والولاء مع المشركين. كأول حدث وقع للمسلمين في يثرب يخبرنا به القرآن، وتتحدث عنه الآيات: (١-٩، ١٣) من سورة الممتحنة. وتبدأ السورة بتكرار تحذير «مسلمة مكة» من الإبقاء على صلة المودة مع مشركي قريش، التي كررتها سور مكية سابقة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ.....

لأن قريشاً حاربت الإسلام وأخرجت المسلمين والرسول من مكة: ... يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ....

فكانت هجرتهم طلباً لمرضاة الله وهرباً من اضطهاد قريش، فكيف يتعاطف بعض المسلمين مع من يحارب الله ودينه، إن كانوا مؤمنين حقاً: ... أَن تُؤْمِنُوا بِاللهِّ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي...(١).

والآية تضع علامة استفهام لهجرة مسلمة قريش، وهل كانت بالفعل إيماناً بالله وجهاداً في سبيله، أم لمآرب أخرى. ولعل ما سيصدر منهم في قادم الأيام سيثبت أنهم هاجروا بالفعل لمآرب أخرى تأذى منها المسلمون والإسلام طوال عصر الرسول وبعد وفاته.

ولأن «مسلمة قريش» يشعرون في قرارة أنفسهم أن موالاة أعداء الإسلام خيانة، فقد كانوا يوالونهم في الخفاء: ... تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ(١)

وكبراء قريش لو تمكنوا من المسلمين لقذفوهم بشتى أنواع الشتائم، واعتدوا عليهم جسدياً، وأعادوهم للكفر إن استطاعوا: إِن يَثْقَفُوكُمْ يكونوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ(٢).

وحجة «مسلمة قريش» في موالاتهم كفار قريش، أنه تربطهم بهم صلات قربى ونسب. وتناسوا أن الكفر يلغي قرابة النسب، لأن مصير الكافر يوم القيامة سيكون مختلفاً. فهم ليسوا من المؤمنين وليس المؤمنون منهم، مثلما أن ابن نوح الكافر ليس من أهل نوح ولم يعد ابنا له. وعلاقات القربى تنظيم أسري في الدنيا، لكنها لا تعني أن الابن جزء من والده. فكل إنسان روح منفصلة ومستقلة عن غيرها، ولن يكون هناك صلة قربى بين الناس يوم القيامة، لانتفاء الحاجة لها: لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُّ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٣).

وكان يجب على «مسلمة قريش» إن كانوا مسلمين أن يتأسوا بإبراهيم ومن آمن معه الذين تبرءوا من قومهم وأقاربهم لأنهم استمروا على الكفر وأعلنوا حربهم على دين الله، ومن آمن: قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِّ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِّ

وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ(٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ(٦).

إبراهيم لم يكن معه سوى لوط، عندما خرج من قريته، ولما وصل مكة تزوج وأصبح له عائلة، هم الذين معه.

وإبراهيم وإن دعا لوالده بالهداية إلا أنه لما تبين له أنه عدو لله ولدينه تبرأ منه: وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ(١١٤) براءة.

ولو أن كفار قريش لم يحاربوا دين الله والمؤمنين، وقبلوا التعايش معهم بسلام، ولكل فريق دينه، فلن ينهاهم الله عن مودتهم والتقرب إليهم. لأن المسلم مأمور بالتعامل مع الناس بكل إنسانية إذا قبلوا التعايش معه بغض النظر عن المعتقد، ولم يحاربوا الإسلام أو يضيقوا على المسلمين: عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٩).

فالنهي الصريح عن موالاة الكفار موجه للمعادين للإسلام، المنكرين للبعث، والذين غضب الله عليهم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ(١٣).

وصول مجموعة من نساء مكة مهاجرات ليثرب

المسلمون في مكة بدأوا الهجرة ليثرب قبل رسول الله واستمر تقاطر المهاجرين من مكة حتى بعد هجرته عليه الصلاة والسلام. وكان ممن لحق به، مجموعة من النساء، بعضهن أو جميعهن فارقن أزواجهن الكفار في مكة. ويبدو أن المسلمين ترددوا في قبولهن بينهم،

فنزلت الآيات تأمرهم بإخضاعهن لامتحان يكشف إن كن بالفعل مسلمات أو راغبات في الدخول في الإسلام. وهذا الامتحان فرضته الظروف القائمة في تلك الفترة، حيث أن المسلمين للتو وصلوا يثرب وكونوا مجتمعهم المسلم مع إخوانهم ممن أسلم من بني إسرائيل ومن الأوس والخزرج، إلا أن قريشاً لم تكف عن ملاحقة المسلمين ومحاولة القضاء على الإسلام. لذا كان هناك احتمال أن ترسل قريش بعض النساء ممن يتظاهرن بالإسلام، للتجسس على أحوال المسلمين:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(١٠) الممتحنة.

وبعد الامتحان، فكل امرأة مسلمة بالفعل أو لديها الرغبة الصادقة بالدخول في الإسلام، يجب قبولها في المجتمع المسلم ولا يجوز بأي حال من الأحوال إعادتها للكفار.

وإن كان بعضهن متزوجات بكفار من قريش، فيجب على المسلمين القيام بما يلي:

- يفسخ عقد النكاح، لأنها تحرم على زوجها الكافر، ويحرم عليها.

وبناءً على عدل الإسلام، فإذا فسخ النكاح، فيعاد للزوج الكافر ما دفعه للمرأة كصداق. ويتم تأمين المال عن طريق الإنفاق، أو من بيت المال الذي يغذيه الإنفاق. وتصبح المرأة مطلقة ويمكنها الزواج بأي مسلم تختاره.

- كما أمر الرجال المسلمون بتطليق زوجاتهم القرشيات الكافرات، وإلحاقهن بأهلهن، ولا يجوز للمسلم أن يبقي على زوجه الكافر: « وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ».

وإذا ما سرح المسلم زوجته الكافر، فله الحق بالمطالبة باسترداد ما دفعه لها من صداق، كما للزوج الكافر الحق باسترداد صداقه: « وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(١٠)».

- في حال سرح رجل مسلم زوجته الكافر، ولم تعد له زوجته أو أهلها صداقه، فعلى المسلمين أن يعوضوه بقيمة مماثلة، من بيت المال الذي يغذيه الإنفاق: وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ

مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ(١١)

والمهاجرات الجدد يلزمهن المبايعة للدخول في الإسلام. والمبايعة لا تعني نطق الشهادتين في جو احتفالي وتكبير وعرض مسرحي، كما يحدث الآن فيما يسمى بالهيئات الدعوية، ولكنها تتمثل بقطع العهد على النفس أمام الله أنها لا تشرك بالله شيئاً (كاتباع تشريعات غير تشريعاته سبحانه) ولا تسرق، ولا تزني، ولا تقتل أولادها، ولا تكذب، ولا تعص الرسول في كل معروف: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٢).

وهذا لا يعني أنه يمكن للمسلمة الجديدة أو المسلم ألا يتبع بقية أوامر القرآن وينتهي عن نواهيه الأخرى. لكنه يعني أن من يريد الدخول في الإسلام فليعلم أنه عهد وميثاق بينه وبين الله، يتم بموجبه التزام العبد باتباع كل أوامر الله والانتهاء عن كل نواهيه، مقابل وعد من الله له بالجنة في الآخرة والعزة في الدنيا.

وفود من الأعراب حضرت للقاء الرسول

ما إن تسامع الأعراب حول يثرب بأن رسول الله وصل من مكة، حتى تقاطرت مجموعات منهم لرؤيته وإعلان الولاء أملاً في العطايا. وقد أظهروا سلوكيات فجة، فكانوا يتدافعون في المجلس بطريقة بعيدة عن التهذيب، ويتسابقون على أماكن الجلوس، ويجلسون بأي طريقة أو هيئة ممكنة. ويتحدثون بأصوات جهورية عالية، وبشكل جماعي – وما زال هذا السلوك يمارس من قبل الكثير من سكان جزيرة العرب – لدرجة أن المجلس الغاص بالناس يبدو وكأن من فيه يتحدثون جميعاً في وقت واحد، ولا أحد يستمع لما يقال. وهو ما كان يصدر من الأعراب، لدرجة أن أصواتهم تعج بالمكان وتطغى على صوت الرسول الذي كان يحاول التحدث إليهم:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ(٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ

أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ(٣) الحجرات.

وقوله: «لا تقدموا بين يدي الله ورسوله» لا تستبقوا الحديث والرسول يتلو القرآن، ولا وهو يحاول التحدث إليكم. وعندما يتحدث رسول الله فلا تقاطعوه، ولا ترفعوا أصواتكم في الحديث فوق صوت الرسول. وعندما تتحدثون إليه فليكن بلطف وهدوء وليس كما اعتدتم الحديث فيما بينكم بأصوات عالية وتداخل في الحديث. وتصف الآيات من يغض صوته عند الرسول بمن عرف التقوى. والمخاطبة بلطف وتأدب وعدم تداخل المتحدثين ليست واجبة فقط للرسول ولكنها من آداب المجلس التي يجب أن يتحلى بها المؤمن التقي.

كما أظهرت تلك الجموع عدم مراعاة الخصوصيات الشخصية، والقيام بإزعاج الآخرين في أوقات غير مناسبة. ذلك أنه إذا قدم أحدهم ولم يجد الرسول، فإنه يتوجه لبيته ويناديه بصوت عالٍ أجش، دون مراعاة لخصوصية الرسول أو حريته الشخصية، ودون أن يكلف نفسه قرع الباب بهدوء فإن أجيب وإلا انصرف، بل كانوا يصرخون منادين بأصوات عالية في أوقات الراحة والنوم.

وهو تصرف ما زال حياً بيننا.

فمن غير المستهجن أن يتوقف صاحب الحاجة بسيارته أمام بيت صاحبه ويطلق مزمار سيارته بكل قوة لكي ينبه من في البيت أن هناك شخصاً في الخارج يريد التحدث إليهم، دون مراعاة لما يسببه من إزعاج لأهل البيت والبيوت المجاورة والمارة. وتصرفات أخرى لا حصر لها سيتذكرها القارئ أثناء قراءة هذه الأسطر.

والرسول كان يجلس معظم الوقت مع الناس، ولا يدخل بيته إلا في أوقات الأكل والشرب والراحة، والنوم. وهذه الآيات تتحدث عن أن الرسول فوجع بهذه التصرفات الرعناء، التي نزلت الآيات لتهذيبها:

إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ(٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥) الحجرات.

وهذه التصرفات لا يمكن أن تكون صدرت من المهاجرين، لأنهم والرسول جاؤا من بيئة واحدة، وبما أن الرسول أزعجته تلك التصرفات فلابد أنه لم يعهدها في مكة ولا من المهاجرين. كما أن تلك التصرفات لا يمكن أن تصدر من الأنصار وأهل يثرب، لأنهم

بكل تأكيد كانوا أول من قابل الرسول عندما قدم مهاجراً، ولو كانت تلك التصرفات صدرت منهم فستتحدث عنها أول سورة نزلت في المدينة. ويكون من صدرت منهم تلك التصرفات الخشنة والبعيدة عن التهذيب أناس قدموا بعد فترة من وصول الرسول، وبالتالي هم من خارج يثرب، ويمتازون بالخشونة وهذه الصفات تنطبق على الأعراب، وهو ما ستؤكده الآيات في آخر السورة.

والآيات تحاول تهذيب سلوك أولئك الأقوام وتعطيهم بعض الدروس في آداب الجلوس والحديث.

ثم تعود آخر آيات السورة لاستكمال الحديث عن تلك الجموع من الأعراب: قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ(١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٨).

جموع الأعراب تلك وفدت على الرسول حال سماعهم أنه وصل يثرب، ظناً منهم أنه يحمل المتاع والمال، لعله يصيبهم شيء منها. وقدموا أنفسهم على أنهم مؤمنون، برغم أن الإيمان لم يدخل قلوبهم في ذلك الوقت، ولم يدخل الإيمان قلوب كثير منهم فيما بعد ولا في آخر أيام رسول الله، كما سيخبر القرآن في سور قادمة.

والذين قدموا على الرسول كانوا يرددون على مسامعه أنهم مؤمنون برسالته بطريقة مُلِحَّة ظناً منهم أنها ستجعله يغدق عليهم الهبات. فنزلت الآيات تقول لهم إن أمرهم يعلمه الله، وإن إعلانهم الإسلام بألسنتهم، لا يعني أنهم بالفعل يؤمنون به: قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٤).

وأولئك الأعراب كانوا يكررون على مسامع الرسول دون كلل، تذكيره بأنهم دخلوا في الإسلام، لتوصيل فكرة أن لهم على الرسول معروفاً ومنّة، بسبب دخولهم الإسلام، وأن

عليه أن يدفع لهم مقابل ذلك. وإسلامهم ليس منة على محمد، ولكنه منةّ من الله عليهم أن اهتدوا للإيمان، لو كانوا بالفعل يؤمنون بالإسلام: يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٨).

وتبين لهم الآيات أن الإيمان لا يكون بإعلان المرء نفسه مؤمناً، ولكن يحتاج للاعتقاد الصادق بوحدانية الله والإيمان باليوم الآخر إضافة للأعمال الصالحة المطلوبة في تلك الفترة: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ(١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١٦).

والآيات تبين بعض طبائع الأعراب، المتمثلة بالتذكير بأي فعل قاموا به على أنه منة ومعروف للشخص المقابل، ولو لم يكن كذلك. كنوع من الابتزاز، لكي يتسنى لهم طلب مقابل مادي أو معنوي عنه. لأن المقابل المادي هو مقياس الولاء عندهم، دون أي اعتبار للمبادئ، وهو ما تؤكده سورة المجادلة التي تلت في النزول هذه السورة، والتي تقول بأن الأعراب إذا حضروا مجلس الرسول كانوا يتسابقون على احتلال الأماكن قبل غيرهم بشكل أرعن، ويجلسون بطريقة فوضوية، تحرم غيرهم من إيجاد مكان للجلوس. إضافة إلى أنهم كانوا يطيلون الجلوس بعد إعلان انتهاء الاجتماع وفض الجلسة:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(١١) المجادلة.

والأعراب لا يعرفون اللباقة والتصرف المهذب، ولذا فهم يحضرون لمجلس الرسول دون أن يحضروا معهم ما يمكن أكله – والذي سمته السورة صدقة – لأن الصدقة تأتي بمعنى الهبة.

ولو كانوا يحرصون على اللباقة والتهذيب في السلوك لفكروا بإحضار ما يؤكل لأن مجلس الرسول دائماً عامر بالناس، وهو للتو وصل من مكة، ولا يملك ما يقدمه للحاضرين. ولو أن كل من حضر من الأعراب ومن غيرهم أحضر معه قليلاً من الطعام لتوفرت كميات كافية لكل الحضور.

وبما أن الأعراب يفتقرون للسلوك الحضاري فلن يفطنوا لتقديم ما تفرضه عليهم اللباقة، والله لن يوجبه عليهم.

اقتتال بين مسلمة قريش والمستضعفين

في هذه الفترة المبكرة من العصر المدني، ولم يمض على وصول الرسول ليثرب سوى أيام أو أسابيع، سعى أحد الأشخاص بوشاية بين مجموعتين عرقيتين من المسلمين: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ(٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ(٧) فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٨) الحجرات.

وتبين الآيات كيف يتم حسم مثل هذه المواقف: وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(١٠) الحجرات.

ونستطيع القول بأن النزاع كان بين «مسلمة قريش» والمستضعفين، وهو عبارة عن تجدد للنزاعات القديمة بينهما التي حدثت مراراً في مكة قبل الهجرة، وذكرته سور مكية مررنا بها، كما في سورة بني إسرائيل: (الآية:٥٣) وسورة النحل: (الآية: ٩١) وغيرها. وما يؤكد هذا الاحتمال هو الآيات التالية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ(١٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(١٣) الحجرات.

إذاً، الوشاية كان لها علاقة بالتفاخر بالأنساب، لأن الآيات تُذكّر المتقاتلين أن انتسابهم لقبيلة معينة لا يعني أنهم خير من أفراد الفريق الآخر، الذي يبدو أنه ليس لهم نسب قبلي:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(١٣). فالكريم عند الله ليس سليل النسب كقريش، بل التقي ولو لم يكن له قبيلة (المقصود العبيد والموالي). والتأكيد على أن النسب أو اللون ليس هو المعيار الذي يقسم الناس إلى كريم ولئيم، ولكن التقوى. والكريم هنا من الكرامة وليس من البذل والعطاء، لأن مسلمة قريش تفاخروا بنبل نسبهم وكرمه ووصفوا الفريق المقابل بأنهم عبيد وموالي أذلاء.

ولا عبرة لما ذكر في كتب السير والتاريخ التي كتبت بإشراف قريش والتي تقول بأن يهودياً قد ذكر واقعة حدثت بين الأوس والخزرج قبل الإسلام، فبدأ كل فريق يعيب على الفريق الآخر، وتطور الوضع للاشتباك ودُقت طبول الحرب بينهما. إذ لو كان الاقتتال بين الأوس والخزرج، فلن يكون السبب هو تفاخر فريق على آخر بالنسب، لأنهم ينتمون لقبيلة واحدة هي الأزد. وبالتالي يمكننا القول بأن «مسلمة قريش» والمسلمين من عبيد وموالي قريش قد تكررت بينهم الشحناء التي بدأت في مكة. وتبادل الفريقان الشتائم والتنابز بالألقاب، ثم تطور الوضع للاقتتال، بسبب نقل شخص لأحد الفريقين كلاماً قاله عنهم الفريق الآخر.

والاقتتال لم يقتصر على الرجال بل اشتركت فيه النساء من الفريقين، كما تبادلن الشتائم والسخرية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(١١).

وتختم السورة الحديث عما حصل بالنهي عن نقل الوشاية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ(١٢).

وقد نجم عن الاقتتال خسائر في الأرواح، فجاءت سورة البقرة التي نزلت فيها بعد تبين كيفية ودي القتلى بعدما تمت تهدئة الوضع، وذلك كما يلي: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٧٩).

ولو تمعنا في الآية لوجدنا أنها لا تتحدث عن قتل شخص لآخر عمداً أو خطأً، ولكنها تتحدث عن ودي القتلى الذين سقطوا في الاقتتال الذي ذكرته الآيات أعلاه من سورة الحجرات. ويبدو أنه لم يتم التوصل لاتفاق بين الفريقين في ودي قتلاهم، فنزل القرآن ليقول بإحصاء قتلى كل فريق وتصنيف القتلى: كم رجلاً حراً؟ وكم عبداً؟ وكم امرأة حرة؟ وكم أمه؟ ويقابل كل قتيل بمثيله: الحر بالحر، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى. ولابد أن هناك فريقاً قتل منه أكثر مما قتل من الفريق الآخر، والقتلى الزائدون لن يكون لهم قتلى يقابلون بهم، فتدفع لهم دية. ولو تنازل الفريق الذي سيحصل على الدية لقتلاه فهو خير له.

وبما أن الاقتتال حدث للمرة الأولى فإن الله غفور رحيم، لكن لو تجدد القتال بين الفريقين أو بين أي فريقين من المسلمين فهو عدوان توعد الله من يصدر منه بالعذاب الأليم: « فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ». ولن تقبل له توبة لأنه أقدم على كبيرة يعلم مسبقاً أن من يقدم عليها فهو في النار.

وبما أن هناك قتلى أحراراً وعبيداً فهذا يعني أن المستضعفين يتكونون من عبيد ومعهم بعض الضعفاء الأحرار، الذين هبوا لمعاونتهم. كما أن من ضمن قتلى فريق مسلمة قريش بعض عبيدهم. ويكون الاقتتال اشترك فيه مسلمة قريش الأحرار ومعهم بعض عبيدهم ضد المستضعفين من المهاجرين الذين يتكونون من عبيد وموالي سابقين وضعفاء أحرار وقد يكون ساعدهم بعض المسلمين الأحرار الذين ينتمون لقريش أو لغيرها.

وتعود سورة البقرة لتأكيد وجوب الدخول في السلم لكل فئات المجتمع المسلم ونبذ النزاعات العصبية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ(٢٠٨) فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٢٠٩) هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ(٢١٠) سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢١١) البقرة.

والآيات تحذر كل من يعود للعصبية والمشاحنات.

المؤسف هو أن العرب، وخاصة أهل جزيرة العرب الآن قد استعرت بينهم العصبيات القبلية أشد مما كان عليه الحال في الجاهلية، وإن جاء بتشجيع سياسي مبطن.

امرأة تشتكي زوجها للرسول لمظاهرته لها

قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ(١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ(٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٤) المجادلة.

الظهار عادة جاهلية يقوم فيها الزوج بإهمال زوجته وإسقاط حقوقها بقوله: «أنت علي كظهر أمي». وليس للزوجة حق المطالبة بحقوقها أو الطلاق، كما أن مدة الظهار ليست محددة ويعود تقديرها للزوج.

وفي الأيام الأولى للهجرة جاءت امرأة للرسول عليه الصلاة والسلام تشتكي له أن زوجها ظاهرها وأصبحت معلقة لا مطلقة ولا متزوجة. فنزل القرآن يحرم الظهار ويلزم كل من كان مظاهراً لزوجته حينها بالتوبة عن الظهار والتوقف نهائياً عن ممارسته. وكل من كان مظاهراً لزوجته حين نزول سورة المجادلة يجب عليه فدية ظهاره بتحرير رقبة. ومن لم يجد قيمة تحرير الرقبة أو لم يجد رقبة يحررها فعليه أن يصوم ستين يوماً متتابعة، ومن لم يستطع الصوم فإطعام مسكين عن كل يوم صوم. ولا يقبل الظهار بعد ذلك، ولا ينفذ بعد نزول السورة. ولو حلف زوج الآن بمظاهرة زوجته فلا يعتد بحلفه ولا يقع على المرأة، ويأثم بحلفه.

مسلمة قريش مصرون ومستمرون على موالاة أقاربهم المشركين

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ(٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٧) أَلَمْ تَرَ

إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ(٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٩) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(١٠) المجادلة.

الآيات تبدأ بوعيد للمشركين (الذين يحادون الله ورسوله) ثم تقول لمسلمة قريش الذين أبقوا على موالاتهم إن الله يعلم أنهم يتناجون فيما بينهم بما يخالف كلام الله المنزل على الرسول، وكان عليهم ان تكون نجواهم في الخير لو كانوا مؤمنين. وكانوا إذا حضروا للرسول أبدوا أنهم قد انتهوا وامتثلوا. والسورة تتوعدهم بعذاب جهنم إن لم يتوبوا عن معصية الرسول في الخفاء.

وتعود الآيات لتهديدهم في نفس السورة مرة أخرى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ(١٦) لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ(١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ(١٩) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ(٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ(٢١) لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٢٢) المجادلة.

لقد كانوا يوالون الذين غضب الله عليهم لكفرهم، وهم قريش، وكانوا يحلفون للرسول والمسلمين أنهم مسلمون ليخفوا حقيقة نواياهم.

والآية: (١٨) تقول إنهم سيحلفون لله يوم القيامة أنهم مؤمنون كما حلفوا للرسول والمسلمين، وهو تعبير مجازي يعني أن محاولة خداع الرسول والمسلمين تأصلت في نفوسهم لدرجة أنهم صدقوها. ولا تعني أنهم سيقابلون الله جل وعلا أو أنه سيخاطبهم يوم القيامة.

وتؤكد الآيات أن من يوالي غير المؤمنين فقد كفر بالله ولو أعلن الإسلام. ومسلمة قريش استمروا يوالون قريشاً لأنهم أقاربهم وعشيرتهم.

والسؤال هنا هو: لماذا هاجروا مع المسلمين وهم لم يؤمنوا؟

ويمكن القول إنهم عندما أعلنوا إسلامهم في مكة كانوا يطمعون أن يكون لهم شأن ومناصب، ولما اكتشفوا أن الإسلام لا يمنح وجاهات دنيوية، ارتد بعضهم، وبقي البعض ولم يعد بإمكانهم التراجع خوفاً من أن يعيروا بأنهم مذبذبون. فأبقوا على إعلان الإسلام وفي نفس الوقت موالاة عشيرتهم قريش.

لأول مرة يخاطب القرآن أهل الكتاب في يثرب مباشرة

جاءت بداية سورة الجمعة لتقول لأهل الكتاب أن الهداية ليست قصراً على قبيلة أو جنس أو شعب دون آخر، وأن الله سبحانه قد شمل برحمته قريشاً (الأميون). وأرسل لهم رسولاً منهم ليزكيهم ويهديهم سبيل الرشاد: يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(٤).

وتواصل السورة مخاطبة أهل الكتاب مشبهة إياهم بالحمار الذي يحمل الأسفار والكتب على ظهره ولا يستفيد من العلم الذي تحويه، كونهم لم يحملوا أمانة ما ورد في توراة موسى وتركوا العمل بها: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٥).

وتستمر السورة قائلة، إن كنتم تظنون أنكم أولياء الله وأحباؤه من بين البشر، فلماذا لا تتمنون الموت لتسارعوا للقاء ربكم؟: قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن

دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٦).

وتؤكد السورة أنهم يكرهون الموت لأنهم لا يطمئنون لمصيرهم يوم القيامة: وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ(٧) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٨).

وتظهر الآيات أن غالبية أهل الكتاب في يثرب أعلنوا موقفهم الرافض للإسلام منذ الأيام الأولى لهجرة محمد، وكسنة متبعة: فمن يعلن الكفر في البداية لن يؤمن أبداً مهما دعي.

خروج بعض المصلين مع الرسول من المسجد أثناء الصلاة

من أساليب القرآن ألا تبدأ الآيات الحديث عن موضوع من أوله، وهو ما نجده هنا. حيث تبدأ الآيات بفرض قانون (تشريع) يوجب ترك البيع والشراء بعد سماع أذان الصلاة في يوم الجمعة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٠) الجمعة.

وهذا التشريع جاء بسبب خروج مجموعة من المصلين من المسجد وترك الصلاة مع الرسول، كما تخبرنا الآية التالية من نفس سورة الجمعة: وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(١١).

ففي يوم جمعة من الأيام الأولى للهجرة كان الرسول يؤم المصلين في مسجده لفريضة ما حضر وقتها والسوق قائم. وأثناء الصلاة تراكض بعض المصلين خارج المسجد تاركين الصلاة مع الرسول. والآية تخبرنا أن هرولتهم خارج المسجد كان للحاق بقافلة وصلت للتو للحصول منها على ما يحتاجون من متاع. وهو ما يستفاد من قوله تعالى: « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً».

والاحتمال الأكثر أن من خرج من المسجد وترك الصلاة كانوا من مسلمي يثرب، وليس من المهاجرين. ذلك أن المهاجرين صلوا مع رسول الله مدة طويلة وعرفوا أهمية الصلاة، لأن الآيات التي تحث على المواظبة على الصلاة وأدائها بخشوع قد تكرر نزولها في عدد من السور المكية ومنها سورة المؤمنون: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ(٢) ...

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ(٩).

أما مسلمو يثرب فقد دخل بعضهم الإسلام بلقاء واحد مع الرسول، وعاد ليثرب، والبعض الآخر دخلوا الإسلام عن طريق شخص قابل الرسول، لكنهم هم لم يروه أو يجتمعوا به في مكة. وتكون معرفتهم بتفاصيل الدين - ومنها الصلاة – قليلة وبالسماع دون الممارسة.

وتسابقهم على القافلة قد يعود إلى أن من فاته الحصول على ما يحتاج منها، سيبقى زمناً طويلاً قبل أن تأتي قافلة أخرى، أو يضطر لدفع مقابل مادي أكبر للحصول على ما يريد ممن حصل عليها من القافلة قبله. فجاءت سورة الجمعة لتقول لهم إن ضياع أجر الدنيا لا يقارن بضياع أجر الآخرة، وأن التجارة الرابحة هي ضمان الجنة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً ان فَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(١١).

والآيات تشير إلى أن هناك سوقاً تجارية تقام يوم الجمعة في يثرب، وبالقرب من مسجد الرسول « رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ». وسورة الجمعة لا تعني أن هناك صلاة خاصة بيوم الجمعة، ولكن بما أن السوق الأسبوعية تقام يوم الجمعة، فقد قالت السورة: «إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة». ولو كانت السوق تقام يوم السبت وخرج المصلون من المسجد فستقول السورة: « إذا نودي للصلاة من يوم السبت». والأسواق الأسبوعية كانت منتشرة في جزيرة العرب وما زالت إلى اليوم. وتبدأ مع شروق الشمس وتنتهي قبل الظهر في العادة. وليس هناك صلاة مفروضة في هذا الوقت إلا صلاة طرف النهار الأول. وهو الوقت الأول الذي يبدأ بعد شروق الشمس مباشرة، وبداية السوق وتوالي حضور البضائع. ومن ذلك تلك البضاعة التي قدمت للسوق والناس يؤدون الصلاة. والأسواق الأسبوعية تلك كانت تبدأ أول النهار مع شروق الشمس وتنتهي قبل الظهيرة، ولو كان هناك صلاة الظهر التي تقام الآن فسيحل وقتها بعد انتهاء السوق. لكن لو أن الصلاة طرف النهار فهي تؤدى في بداية وقت السوق وحضور البضائع.

المرحلة المدنية الثانية

فترة التشريع

أهل الكتاب في يثرب أعلنوا رفضهم لرسالة محمد ولن يؤمنوا

الم(١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ(٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣) والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(٤) أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٥) البقرة.

والسورة نزلت بعد أشهر قليلة على وصول الرسول مهاجراً، والآيات تقول لهم إن المتقين المفلحين الذين سينالون رضى الله هم من يؤمن برسالة محمد وعدم الاكتفاء برسالتهم السابقة.

وبما أنهم رفضوا دعوة الإسلام فالبقرة تصفهم بالكفار: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(٦) خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ(٧).

ولن يهتدوا أبداً، ليس لأن الله كتب عليهم الضلال، ولكن لأن هناك سنة أزلية مفادها أن من لا يؤمن بداية سماعه للدعوة لن يؤمن بها أبداً.

أول ذكر لمنافقي يثرب «مسلمة يثرب»

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ(٨) يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ(٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ(١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ

مُصْلِحُونَ(١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لاَّ يَشْعُرُونَ(١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَـكِن لاَّ يَعْلَمُونَ(١٣) وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ(١٤) اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(١٥) أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ(١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ(١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ(١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ(١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٠).

الآيات تتحدث عن فئة من أهل يثرب أعلنوا إسلامهم ولم يؤمنوا، وهؤلاء عادة ما يكونوان ممن كان يبحث عن مكانة أفضل مع الدين الجديد من وضعه في مجتمعه، ولم يعلن الإسلام لاقتناعه بالحق. وهؤلاء لا يؤمنون أبداً، ولا يعلنون العودة للكفر، لئلا ينظر لهم على أن مواقفهم مذبذبة.

وستؤكد لنا آيات قادمة أنهم من أهل الكتاب وقد يكون بينهم من ينتمي للأوس والخزرج وممن كانوا يمنون النفس بسلطة أو مناصب عالية. وانتماؤهم القبلي جعلهم ينظرون لأغلب المهاجرين على أنهم طبقة اجتماعية منحطة، كونهم من الموالي والعبيد السابقين. كما أن مسلمة يثرب منهم من يحب أن تنتشر الفاحشة في المجتمع، أو كما يطلق عليهم القرآن «في قلوبهم مرض». وهؤلاء ومعهم مسلمة قريش لن يؤمنوا أبداً وسيعاني منهم المسلمون باستمرار.

وتعود السورة للحديث عنهم: وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ(٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(٢٧) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٢٩) البقرة.

فالدخول في الإسلام لا يعني التلفظ بالشهادتين في جو احتفالي وإعطاء شهادة وتغيير اسم المسلم الجديد. لكنه يعني عقد اتفاق وعهداً مع الله أن يطيع كل أوامره وينتهي عن كل نواهيه، مقابل جنة في الآخرة وسعادة في الدنيا. وأي نقض لجزء من المعاهدة مع الله فهو نقض لكل المعاهدة.

ولعلنا مررنا بآيات وسنمر بمثلها تؤكد أن من يقترف كبيرة وهو عالم عاقل ويصر عليها فهو مخلد في النار. وإن كانت فرق إسلامية قديمة قالت بهذا فقد وافقوا الحق، فالقرآن هو من يقول بذلك وليس الأشاعرة أو الخوارج أو المعتزلة أو غيرهم.

ومرة أخرى تعود سورة البقرة للحديث عنهم: وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ(٧٦) أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ(٧٧).

فقد كانوا يظهرون تصديق رسالة محمد ويقومون باطلاع المسلمين على بعض ما تقول بقية ما بقي من التوراة معهم، لمقارنته بما في القرآن - على ما يبدو - فيأتي أناس آخرون منهم وينهونهم عن ذلك، كون عقيدتهم ميزهم الله بها عن بقية البشر (كما يظنون).

وتعود البقرة للحديث عنهم: وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ(٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ(٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ(٢٠٦).

كلامهم يفيض بالتدين والخوف من الله، ولكنهم يضمرون عكس ذلك.

أول دعوة لبني إسرائيل يثرب بعد الهجرة

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ(٤٠) وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ(٤١) وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(٤٢) وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ(٤٣) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ(٤٤) وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ

إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ(٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(٤٦) البقرة.

ويأتي هذا الخطاب بعد أن أظهرت سورة الجمعة السابقة أن أهل الكتاب عموماً في يثرب قد أعلنوا رفضهم – الذي لن يتراجعوا عنه – لدعوة الإسلام.

والآيات تقول لبني إسرائيل أن يتعقلوا ويتريثوا ولا يعلنوا رفضهم دعوة تدعوهم للعودة لنفس الدين الذي جاء به موسى، وكثير منهم يعلمون ذلك. وليؤمنوا كما آمن بعض منهم: «الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ».

بنو إسرائيل يثرب لن يؤمنوا برسالة الإسلام

بعد أن سردت سورة البقرة أحداثاً تاريخية تظهر عدم قبول بني إسرائيل للحق في عصر موسى، تقول مخاطبة الرسول والمسلمين في يثرب: أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(٧٥).

فمن كفر بموسى في عصره وحرف الكلم عن مواضعه برغم شهادتهم لنعم الله عليهم حينها، فلن يؤمن برسالة جاء بها أحد أبناء إسماعيل المغضوب عليهم من قبل بني إسرائيل.

وهذا التأكيد جاء مبكر جداً وفي الشهور الأولى بعد وصول الرسول مهاجراً، ليس لأن الله كتب عليهم الشقاء، ولكن مما يعرف بالضرورة. ومما يعرف بالضرورة هو أن من لا يؤمن بالدعوة عند سماعها أول مرة فلن يؤمن بها أبداً، وهي سنة سارت عليها كل الأمم.

ولهذا تكرر السورة التأكيد على أنهم لن يؤمنوا برسالة محمد وسيبقون على كفرهم: وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ(٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أنَزَلَ اللّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ(٩٠) البقرة.

عامة بني إسرائيل يثرب إمعات

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ(٧٨) البقرة.

وهؤلاء لا يقرأون كتبهم ولا يبحثون بأنفسهم ولكنهم إمعات يعتمدون في معرفة

معتقداتهم على ما يقوله لهم رجال الدين. مثلهم مثل غالبية أتباع المذاهب المختلفة عند المسلمين.

رجال الدين من بني إسرائيل يشرعون بخلاف ما أنزل الله وينسبونه لدينه

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ(٧٩) البقرة.

فهم من يشرع ويقول إن ما يشرعه من حلال وحرام وغيره يمثل دين الله. وهذا اقتبسه المسلمون منهم وترسخ بيننا في كل المذاهب، فأصبح لدينا من يكتب الكتاب بأيديهم على شكل فتاوى ويقولون هي من عند الله، ويجدون أميين إمعات يتبعونهم في كل ما يقولون دون تفكير.

حادثة وقعت لبني إسرائيل

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ(٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَـؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(٨٥) أُولَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ(٨٦).

لقد اقتتلوا فيما بينهم وقام المنتصر بطرد المهزوم من الديار. فهل حدث هذا بعد هجرة الرسول والسورة تسجل حدثاً تاريخياً للتو وقع، أم أن السورة تُذَكِّرُ بحدث تاريخي قديم من تاريخهم؟

بنو إسرائيل يثرب رفضوا دعوة محمد ولن يؤمنوا

وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ(٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن

يَكْفُرُواْ بِمَا أنَزَلَ اللهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ(٩٠) البقرة.

وكل من يكفر برسالة محمد فهو كافر. دليل لا يقبل الجدل في أن الإسلام (رسالة محمد) وحده المقبول عند الله ومن لا يؤمن بالإسلام فهو كافر. اليهود والنصارى والمسيحيون والهندوس والمجوس وغيرهم، كلهم كفار.

وتؤكد السورة مرة أخرى أنهم كفار، لتمسكهم بالإيمان بالله على ديانتهم، وعدم الدخول في الإسلام، والآيات تقول هذا غير مقبول: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(٩١) البقرة.

وتقول الآية لهم: إن محمداً مجددٌ لدين الله، ومن لا يؤمن به كافر، وأنتم لو كنتم مؤمنين لتبعتم الرسل الذين أتوا بعد موسى والذين جاؤا لتجديد الدعوة، ولما قتلتموهم.

وتستمر الآية في نفس السياق وتقول إنكم أشركتم وموسى بينكم، وعصيتم وكفرتم: وَلَقَدْ جَاءكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ(٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ(٩٣) البقرة.

تحذير من الإسرائيليات

وتحذر السورة المؤمنين أن يقلدوا بني إسرائيل في بعض ألفاظهم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُواْ وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٠٤).

وقد يكون للفظ «راعنا» معنى دارج سيء عندهم، وبالتالي يجب على المسلمين ألا يوجهوه لرب العالمين. وهو ما أكدت عليه سورة النساء التي نزلت بعد البقرة مباشرة: مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً(٤٦) النساء.

والآيات تؤكد وتكرر التأكيد على أنهم كفار.

بعض المسلمين تأثروا بفكر بني إسرائيل

وتظهر السورة أن بعض المسلمين، ونتيجة لمعاشرة بني إسرائيل، تشبهوا بهم حتى في نوع الأسئلة التي يسألون الرسول عنها: أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ(١٠٨) البقرة.

وسؤال بني إسرائيل لموسى أخبرتنا به سورة النساء: يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِيناً(١٥٣) النساء.

عود للتحذير من الإسرائيليات

وتستمر السورة تخاطب المسلمين وتحذرهم من الاستماع لبني إسرائيل: وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١٠٩) وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(١١٠) البقرة.

وسنرى أن تحذيرات القرآن من الاستماع لبني إسرائيل تكررت كثيراً على أسماع المسلمين، لكن الأيام ستثبت أن المسلمين سيتشربون الإسرائيليات وسيبنون عليها عقائدهم، وهو ما تغص به كتب التراث الديني لكل المذاهب اليوم.

يهود ونصارى يثرب لن يؤمنوا

وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ(١٢٠) البقرة.

وهو ما أشارت له السورة في آيتين سابقتين: وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(١١٢) البقرة.

والحديث هنا عمن لم يؤمن، لأن بعض اليهود والنصارى آمن أول سماعه للدعوة، كما تقول الآية التالية: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَـئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(١٢١) البقرة.

اليهود والنصارى في يثرب لم يكونوا على وفاق

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(١١٣) البقرة.

والسورة تتحدث عن يهود ونصارى يثرب زمن الرسول، ولا تتحدث عن يهود ونصارى في مكان أو زمان آخر.

مقدمة للحديث عن تثبيت القبلة

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَـئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١١٤) وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(١١٥) البقرة.

قريش هم من منعوا المسلمين من دخول المسجد الحرام في أواخر العهد المكي قبل الهجرة، كما أشارت لذلك سورة الحج: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(٢٥).

فهم صدوا المسلمين عن المسجد الحرام للصلاة فيه برغم أنه وجد أصلاً لذكر الله.

وتقول السورة إن التوجه في الصلاة لأي جهة مقبول، لأن المشارق والمغارب وكل اتجاه لله جل وعلا. وهو إشارة إلى أن بعض المسلمين – بعد الهجرة – كانوا يصلون باتجاه غير اتجاه البيت.

وكأن الآية تقول لهم إن صلاتهم السابقة مقبولة عند الله برغم أنهم كانوا يتوجهون إلى غير القبلة.

ثم تتحدث السورة عن مواضيع أخرى قبل أن تعود للحديث عن:

تثبيت القبلة

تتحدث سورة البقرة عن تحويل القبلة في الآيات: (١٤٢-١٥٠، ١٧٧)، وهو ما يعني أنه حدث في أول العهد المدني، لأن سورة البقرة خامس سورة نزلت في المدينة. وحسب تقديراتنا المذكورة في بداية الحديث عن هذه المرحلة، فالبقرة نزلت بعد حوالي ثلاثة أشهر من هجرة الرسول. والآيات تتحدث في الواقع عن تصحيح اتجاه القبلة التي وجد الرسول المسلمين في يثرب يتوجهون إليها في صلاتهم، وليس تغييراً لقبلة عرفها الرسول منذ بداية الدعوة.

فالرسول بعث في مكة، وصلى منذ اليوم الأول لله في بيته المسجد الحرام، فليس من المعقول أن يفكر بالاتجاه لغير البيت الوحيد لله على وجه الأرض. لكن كتب التراث بدل أن تناقش معاني الآيات الواضحة، قامت بلي معانيها لكي تقول إن الله جل شأنه، ومنذ فرضت الصلاة قد أمر الرسول بالتوجه في صلاته لإيليا، المعروفة اليوم بالقدس، والتي تقع في فلسطين الحالية. وبناءً على مزاعمهم، فالرسول طوال دعوته في مكة التي امتدت لثلاثة عشر عاماً – حسب تقديراتهم – كان يضع الكعبة بينه وبين إيليا أثناء صلاته، بحيث يتوجه لإيليا، كما أُمر، وللكعبة في نفس الوقت. وعندما هاجر إلى المدينة نزلت آياتٌ في سورة البقرة تأمره بتغيير القبلة من إيليا إلى مكة.

وبطبيعة الحال ليس في كتاب الله أي إشارة لهذه الأقوال الكاذبة، ولم يؤمر الرسول بالتوجه لغير الكعبة، ولم يكن منتظراً أن يؤمر بالصلاة لغير بيت الله الوحيد على الأرض.

ولو صدقنا هذه التفاهات اليهودية الأصل، فإن الرسول والمسلمين في مكة قبل الهجرة كانوا يصلون دائماً إلى الجنوب من الكعبة فقط، لكي تكون الكعبة وإيليا على خط واحد، ولا يصلون في أي مكان آخر حول الكعبة. وهذه التفاهات لم يقل بها أحد أبداً، لأنها لم تحدث.

ولا نحتاج لأنف حساس لكي نشتم رائحة يهودية وراء تأويل الآيات عن معانيها لكي يرسخوا لدى المسلمين أن إيليا المقدسة عندهم مقدسة عند الله، وأن مكة ليست بيت الله

الوحيد على الأرض وليس لها قدسية. وكالعادة هرع المفسرون والمحدثون لتلقف وتبني كل ما يدسه اليهود في دين الله ويرسخونه ويتوارثونه حتى وصلنا وكأنه هو الحق، ومعاني الآيات الواضحة هي الباطل. وأصبح الزعم بتوجه الرسول لإيليا عقيدة راسخة، بين المسلمين بمختلف طوائفهم، لا تقبل الجدل، مع أن إيليا وفلسطين كلها لم تذكر في القرآن ولو بشكل عارض، وليس لها عند الله أي قدسية أبداً.

ولم يكن هناك مسجد اسمه الأقصى في فلسطين زمن رسول الله، بل لم يكن هناك مسجد اسمه الأقصى في فلسطين إلى أن وصل خامس ملوك بني أمية عبد الملك ابن مروان للحكم في العام ٦٥ للهجرة. وأثناء فترة حكمه التي امتدت من (٦٥ – ٨٦) للهجرة أمر ببناء مسجد في إيليا (القدس) وأسماه المسجد الأقصى على المسجد المذكور في أول آية من سورة بني إسرائيل. في وقت كانت فيه مكة تحت حكم عبد الله ابن الزبير وخارج سيطرة حكم بني أمية.

فالسياسة هي سبب بناء قبة الصخرة والمسجد الذي سمي «المسجد الأقصى»، لأن ابن الزبير كان يحكم مكة ويخطب الناس بالحج ويبين مثالب وعيوب ابن مروان ويحرض أهل الشام عليه، فقام عبد الملك ابن مروان ببناء القبة والمسجد وجعل الناس يحجون لها بدل مكة. بناءً على ما ورد في كتب التراث، ومنها كتاب البداية والنهاية لابن كثير، وهذا نصه:

ابتدأ عبد الملك بن مروان ببناء القبة على صخرة بيت المقدس وعمارة الجامع الأقصى؛ وكملت عمارته في سنة ثلاث وسبعين، وكان السبب في ذلك أن عبد الله بن الزبير كان قد استولى على مكة، وكان يخطب في أيام منى وعرفة، ومقام الناس بمكة، وينال من عبد الملك ويذكر مساوي بني مروان، ويقول: إن النبيّ صلى الله عليه وسلم لعن الحكم وما نسل، وأنه طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعينه، وكان يدعو إلى نفسه، وكان فصيحاً، فمال معظم أهل الشام إليه. وبلغ ذلك عبد الملك فمنع الناس من الحج فضجوا، فبنى القبة على الصخرة والجامع الأقصى ليشغلهم بذلك عن الحج (إلى مكة) ويستعطف قلوبهم، وكانوا يقفون عند الصخرة ويطوفون حولها كما يطوفون حول الكعبة، وينحرون يوم العيد ويحلقون رؤوسهم، ففتح بذلك على نفسه بأن شنع ابن الزبير عليه، وكان يشنع عليه بمكة ويقول: ضاهى بها فعل الأكاسرة في إيوان كسرى، والخضراء، كما فعل معاوية ونقل

الطواف من بيت الله إلى قبلة بني إسرائيل ونحو ذلك. .... انتهى كلام ابن كثير

أما المسجد الأقصى المذكور في سورة بني إسرائيل، فليس المقصود به مسجد عبد الملك ابن مروان الذي أسماه المسجد الأقصى، ليغري الناس بالحج إليه. والذي بني لضرورة سياسية ولم يكن تجديداً لمسجد قديم، لموسى أو إبراهيم كما تزعم الإسرائيليات، لأنهما لم يريا فلسطين في حياتهما، ولم يسجدا لله فيها سجدة واحدة.

ولعل ما حدث فيما عرف عند المسلمين بتغيير القبلة، هو كما يلي:

عندما بدأت الدعوة في مكة وأُمر الرسول بالصلاة، كان رسول الله يصلي بالقرب من الكعبة ويتوجه لها، بشكل عفوي وطبيعي، من أي مكان كان يتواجد فيه حولها، لأن الصلاة لله، والكعبة بيت الله: جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ... ....(٩٧) المائدة.

وليس هناك بيت آخر لله ذكر في القرآن، وهذا البيت هو ما صلى نحوه إبراهيم قبل عصر محمد بآلاف السنين. ولم يخطر على بال الرسول أن يتوجه لأي اتجاه آخر، ولم يوجد سبب يحمله على التوجه لغير بيت الله الوحيد على الأرض.

وعندما نعود للكيفية التي أسلم بها من أسلم من يثرب، فسنجد أن قلة من بني إسرائيل هم أول من أسلم بعد لقاء الرسول في مكة والاقتناع بصدق دعوته – بخلاف ما تقول كتب التراث أن الأوس والخزرج هم أول من آمن – وأن النفر من بني إسرائيل الذين آمنوا بالرسول في مكة عادوا لموطنهم وبدأوا دعوة قومهم وبقية أهل يثرب للدخول في الإسلام، فدخل الإسلام الناس في يثرب بهذه الطريقة، دون أن يروا الرسول أو يعيشوا بالقرب منه. ومع أن غالبية من أسلم هم من الأوس والخزرج إلا أنهم وثنيون وسيتوجهون لأي جهة في الصلاة لمن علمهم الدين. أما بنو إسرائيل الذين أسلموا ونقلوا الإسلام ليثرب فقد كان لهم دين، ومن معتقداتهم الراسخة تراثياً تعظيم إيليا (القدس)، فكانت إيليا بالنسبة لبني إسرائيل في يثرب المكان المقدس الذي يتوجهون له عند «صلاتهم». ويبدو أن أوائل مسلمي يثرب من بني إسرائيل استمروا في التوجه لإيليا في صلواتهم الإسلامية، وتبعهم كل من أسلم على أيديهم من قومهم أو من وثنيي الأوس والخزرج والأعراب.

وعندما وصل الرسول مهاجراً، كان مسجده قد بني قبل وصوله. وقد بناه من دخل الإسلام من أهل يثرب، وليس صحيحاً زعم كتب التراث أن المسجد بني بعد وصوله.

وكان المسلمون في يثرب يتجهون في صلواتهم للشمال مع ميل قليل للغرب، بينما كعبة مكة تقع إلى الجنوب مع ميل قليل للغرب. وبحكم أن الرسول لا يستطيع أن يأمر الناس بأمر ديني أو ينهاهم إلا بعد أن ينزل عليه قرآن يتلى عليهم، فلم يستطع أن يتحدث معهم عن وجهتهم في الصلاة، حتى نزلت عليه سورة البقرة بعد ستة أشهر من وصوله مهاجراً ليثرب، وفيها آيات تغيير القبلة:

سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(١٤٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ(١٤٣) قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ(١٤٤) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ(١٤٥) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(١٤٦) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ(١٤٧) وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١٤٨) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٥٠).

والسفهاء هنا المقصود بهم بقية أهل يثرب من غير المسلمين الذين سيتساءلون لماذا غير المسلمون قبلتهم التي اعتادوا هم رؤيتهم عليها؟ ولا يعني أن هذه قبلة الرسول والمسلمين منذ بداية الدعوة، قبل سنوات ثم غيروها الآن. فتغيير القبلة هنا لمن توجه لقبلة خطأ، وليس كما رسخ التراث أن قبلة الرسول كانت من البداية لغير مكة.

أما الرسول فلما هاجر وجد الناس تصلي للشمال، فلم يأمرهم بتحويل قبلتهم لمكة لأنه لم ينزل عليه قرآن بذلك.

فتغيير القبلة – لمن يتوجه لغيرها – جاء ليتوافق مع قبلة الرسول التي كان عليها منذ بعث وصلى لأول مرة: «وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ».

فمن يؤمن سيتبع الرسول ويغير قبلته لمكة، ومن بقي على يهوديته ولو أعلن الإسلام فسينقلب على عقبيه ويرتد.

وتستمر الآيات لتقول للرسول إن القبلة باتجاه الكعبة ثابتة، سواء كنت في مكة أو بعيداً عنها «وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ» فكونك هاجرت إلى المدينة لا يعني تغيير القبلة.

ولا يجوز لأحد التوجه لغيرها بأي حجة أو تبرير بعد الآن « لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.«

ومسلمو يثرب الأوائل من بني إسرائيل، توجهوا إلى إيليا لغلبة الموروث الديني عندهم، ظناً منهم أن إيليا بالفعل مقدسة عند الله، لأنهم توارثوا هذه القدسية. لذا قد يشعر بعضهم بعدم الارتياح للتوجه لمكة لأن موروثهم الديني والثقافي لا يحمل أي مشاعر تقديس لمكة، حتى بعد أن أسلموا، لأنهم يعتبرونها معبداً للأميين الإسماعيليين، وليست بيتاً لله. وهذه الثقافة غرست في بني إسرائيل منذ القدم. وقد طمأنتهم الآية: (١١٥) التي سبقت الحديث عن تثبيت القبلة، بأن صلاتهم السابقة التي صلوها باتجاه إيليا مقبولة: وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(١١٥) البقرة.

أما بعدما ثبّت القرآن القبلة فلا يجوز لأحد أن يتجه لغير مكة في صلاته إن كان يستطيع. والمفسرون ذكروا قصصاً مختلقاً كثيراً ومختلفاً، ومنه يمكن دحض ادعاءاتهم. وسأعطي مثالاً على ذلك دون تتبع كل ما قالوا حتى لا نطيل: فهم يقولون إن تغيير القبلة حدث بعد أشهر من قدوم الرسول إلى المدينة، وكان ذلك في صلاة الظهر أو العصر، حيث نزل عليه الوحي بعد أن صلى ركعتين باتجاه فلسطين. فاستدار واستدار الناس معه، وأكملوا الركعتين باتجاه الكعبة. ويستحيل أن يكون هذا حدث، ويظهر أن من اختلق قصص تغيير

القبلة لا يعرف مكة بأي اتجاه. ولو عرف أن الاتجاه لإيليا في المدينة يكون باتجاه الشمال الغربي، والاتجاه لمكة يكون باتجاه الجنوب الغربي. ولو عرف ذلك لما قال إن الرسول استدار – وهو في صلاته – من اتجاه فلسطين إلى اتجاه مكة. لأنه لو كان الرسول يصلي بالناس باتجاه فلسطين وأراد أن يتجه لمكة التي تقع بالاتجاه المقابل، فعليه أن ينتقل من مكانه الذي يقع في مقدمة المسجد ليكون في بقعة ما آخر المسجد. كما أن المأمومين لن يتمكنوا من الدوران ١٨٠ درجة تقريباً وهم في أماكنهم وفي صلاتهم للتحول لمكة.

ويمكن لمن يرغب من القراء تطبيق هذه التجربة عملياً، وذلك بالوقوف في غرفة، ويكونوان على شكل إمام ومأمومين، ثم يحاولوا التوجه للجهة المعاكسة، والدوران (١٦٠) درجة تقريباً. وسيكتشفون أن هذا مستحيل، لأن المأمومين سيكونوان في مكان الإمام في المقدمة، والإمام سيكون في المؤخرة بعد الدوران، هذا لو استطاعوا الدوران وهم في الصلاة.

الخلاصة: لا يمكن أن يكون النبي قد صلى باتجاه فلسطين وترك التوجه لبيت الله الوحيد على الأرض، ولكنه وجد مسلمي يثرب يصلون إليها، ولم يكن يستطيع أمرهم بكلامه الشخصي فانتظر حتى نزل الوحي يأمرهم بالتوجه للقبلة، ففعلوا. وكان منذ قدم ليثرب يضيق صدره لتوجههم لغير بيت الله: «قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ». لأن الرسول يعلم أن القبلة المقبولة هي التوجه لمكة.

وللعلم فقط نقول: إنه لم يكن لمسجد الرسول محراب، لأن المحراب لم يعرف إلا في عصور ما بعد الفتوح. ولابد أن مسجد الرسول الذي بني قبل وصوله مهاجراً يتجه إلى الشمال الغربي إلى إيليا. وقد يكون الرسول قام بهدمه لما نزلت آيات تثبيت القبلة لمكة، وتم توجيه قبلته لمكة أي باتجاه الجنوب الغربي. وهذا التعديل هو ما روته كتب التراث على أنه إنشاء مسجد الرسول، والذي يقولون إنه حدث بعد وصول الرسول إلى المدينة بعدة أشهر.

وتكون السورة نزلت على الرسول خارج وقت الصلاة، فتلاها على الناس وتم التحول لمكة بعد ذلك دون حاجة للدوران وهم يصلون في حركة مسرحية.

شحذ الهمم استعداداً للقتال

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ(١٥٣) وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ(١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ(١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ(١٥٦) أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ(١٥٧).

القتال لم يحدث بعد، بل إن القتال لم يفرض إلا في آيات قادمة، وهذا أسلوب متبع في القرآن رأينا آيات مشابهة في سور سابقة، حيث تبدأ الآيات بالحديث عن موضوع جديد وكأنه سبق الحديث عنه، مع أن الحديث عنه سيأتي بعد ذلك.

والآيات تهيئ المسلمين لما قد يواجهون عندما يبدأ القتال مع قريش التي يبدو أنها مصرة على ملاحقة المسلمين، وتنامت الأخبار عن حشودها ضدهم وقدومها لحربهم.

وعندما تقع الحرب سيكون هناك قتلى وعلى المسلمين احتساب قتلاهم عند الله والصبر على المحن وعلى نقص أموالهم نتيجة إنفاقهم على الحرب وتجهيز الجيش.

بعض المسلمين يكتمون الوحي

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ(١٥٩) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَـئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(١٦٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ(١٦٢).

الآيات تحذر كل من يكتم الوحي ولا يبلغه للناس الذين لا يعرفونه. وكل من يفعل ذلك فهو كافر وعليه اللعنة وسيخلد في النار.

والآيات تشير إلى أن هناك بعض من يحفظ بعض سور القرآن عندما يسأل عن حكم القرآن في مسألة لا يخبر السائل بما يقول القرآن، أو أنه يخبره بشيء مخالف وينسبه للقرآن.

وتعود السورة لتحذير رجال الدين من بني إسرائيل الذي أشارت له في الآية (١٥٩): إِنَّ

الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَـئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٧٤) أُولَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ(١٧٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ(١٧٦).

الاستعداد للقتال

وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ(١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ(١٩١) فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ(١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(١٩٤).

لأول مرة يأتي الأمر بالقتال في سبيل الله. والقتال في سبيل الله بينت معناه بقية الآية بالقول: «وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ». فالقتال في سبيل الله يعني صد العدوان وعدم مبادرة الغير بالاعتداء لأي سبب كان، لأن الله لا يحب المعتدين. وأي شيء لا يحبه الله فهو كبيرة.

وسورة البقرة نزلت بعد أشهر من هجرة الرسول، كما سبق وذكر، وبعد أن تواترت الأخبار عن أن قريشاً تحشد حشودها العسكرية لغزو المسلمين في يثرب والقضاء عليهم. فبدأت الآيات تحث المسلمين على الاستعداد لدفع الهجوم وعلى الإنفاق لكي يتم تسليح الناس تسليحاً مناسباً. وهذه أول آيات تتحدث عن القتال وتسميه: «جهاداً في سبيل الله» لأنه يدافع عن المسلمين وبقاء دين الله.

والآيات تفرض بعض ضوابط الجهاد التي تظهر أن القتال يجب أن يوجه لمن يعتدي ويحمل السلاح، أما من لا يشارك في القتال ولا يحمل السلاح فهو مسالم يحرم التعرض له. كما أن المعتدين متى ما كفوا وانتهوا فيجب التعايش معهم بسلام.

وبما أن شغل المسلمين الشاغل عند نزول سورة البقرة هو الحديث عن تحركات قريش واستعداداتها للحرب، وما يجب أن يفعل المسلمون حياله، فقد جاءت الآيات تشير لما

يحدث بين المسلمين. فبعضهم كان ضد الدخول في حرب مع قريش، وبعضهم اعترض على الحرب خلال الأشهر الحرم، لأنها أشهر تحترمها شعوب جزيرة العرب، وبعضهم تساءل إن كان بالإمكان حرب قريش في مكة بلد الله الحرام: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٢١٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢١٧) البقرة.

الآيات تظهر أن بعض المسلمين كرهوا قتال قريش، وهو ما يخالف ما ورد في كتب التراث التي وصفت المسلمين وكأنهم هم من بدأ الحرب وذلك باعتراض عير قريش.

كثير من المستضعفين في مكة بقوا على كفرهم

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ(١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ(١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ(١٦٧)البقرة.

الآيات تخاطب من لم يسلم من مستضعفي مكة تبعاً لسادتهم، وتصور لهم الحال فيما يكونوا عليه يوم القيامة لو ماتوا وهم كفار.

اقتتال بين طائفتين من المسلمين

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٧٩) البقرة.

الناس تقرأ هذه الآيات وكأنها تتحدث عن حوادث القتل التي تحدث باستمرار، ولو توقفوا عندها وتدبروها لاتضح لهم أنه لا يمكن تطبيقها على مفهومها السائد. فلو أن امرأة قتلت رجلاً عمداً فالمفترض أن تقتل به، ولو قتل رجل امرأة قتل بها، ولو قتل حر عبداً يقتل به. وهكذا كل شخص يقتل آخر يقتل به بغض النظر عن جنس القاتل وجنس المقتول. فكيف تقول الآية: « الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى»؟

الجواب هو أن الآية تتحدث عن وضع آخر، لا علاقة له بقتل شخص لآخر، والدليل على ما نقول جاء في نفس الآية: «فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ».

لأن القاتل العمد لا يعفى عنه في القرآن، ولأن من قتل عمداً يقتل ولن يكون له فرصة أخرى ليعتدي على شخص آخر ويقتله: وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) المائدة.

وما نفعله الآن من العفو عن القاتل العمد سواء بمال أو بدون مال هو تعد وتجاوز لحدود الله وأوامره، لأن العفو يكون عن دية المقتول خطأ فقط[١]. ودم المقتول عمداً ليس ملكاً لذويه ليشتروه بالمال أو ليعفوا عن قاتل تجاوز أمر الله.

والآيات: (١٧٨-١٧٩) من سورة البقرة، امتداد لما تحدثت عنه الآيات: (٦-١٣) من سورة الحجرات التي نزلت قبل بضعة أشهر من نزول البقرة. ومما ورد في تلك السورة: وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٩) الحجرات.

والاقتتال الذي تحدثت عنه سورة الحجرات وقع بين مسلمة قريش والمستضعفين، ونتج عنه قتلى بين الفريقين، وكان لابد من ودي القتلى وإطفاء نار الفتنة لئلا يتجدد القتال. فجاءت الآيات التي تسمى «آيات القصاص» تقول: على المسلمين إحصاء قتلى كل فريق وتصنيف القتلى: كم رجل حراً؟ وكم عبداً؟ وكم امرأة حرةً؟ وكم أمه؟ ويقابل كل قتيل

---

١ انظر فقرة: القتل / العمد والخطأ - قسم تشريعات من القرآن.

بمثيله: الحر بالحر، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى، وكل من ليس له مقابل مثيل له فتدفع ديته. ولابد أن هناك فريقاً قتل منه أكثر مما قتل من الفريق الآخر – كما سبق وذرنا – والقتلى الزائدون لن يكون لهم قتلى يقابلون بهم، فتدفع لهم دية. ولو تنازل الفريق الذي سيحصل على الدية لقتلاه فهو خير له.

وبما أن الاقتتال حدث للمرة الأولى فإن الله غفور رحيم، لكن لو تجدد القتال بين الفريقين أو بين أي فريقين من المسلمين فهو عدوان توعد الله من يصدر منه بالعذاب الأليم: « فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ». ولن تقبل له توبة لأنه أقدم على كبيرة يعلم مسبقاً أن من يقدم عليها فهو في النار.

ويكون الحديث عن تلك الواقعة المحددة التي اقتتل فيها مسلمة قريش مع المستضعفين ومن ناصرهم، ولم ترد الآيات (التي تسمى آيات القصاص) كتشريع للقتل العمد أو الخطأ. وإنما هي حلٌ لمشكلة وقعت وليست تشريعاً لكل زمان ومكان. وسيأتي حكم القتل العمد والقتل الخطأ في الآيات: (٩٢-٩٣) من سورة النساء.

وقد عادت سورة البقرة لتحذير المسلمين من الاقتتال مرة أخرى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ(٢٠٨) فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٢٠٩) هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ(٢١٠) سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢١١) البقرة.

وتخبرنا سورة البقرة أن المستضعفين يمثلون الغالبية بين المسلمين: زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ اتَّقَواْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ(٢١٢).

وسخريتهم من أحوالهم المادية. والشعور بالتفوق الاجتماعي هو السبب وراء اقتتال مسلمة قريش مع المستضعفين. ويمكن تخيل الأوضاع هناك في تلك الفترة. فالمهاجرون خرجوا من مكة بلا أمتعة ولا أموال، إما هرباً من قريش أو لأنهم فقراء أصلاً كونهم من المستضعفين، وكانت أيامهم الأولى في يثرب قاسية عليهم فعلاً، فلم يعثروا على مصادر للرزق بعد، والأوس والخزرج لا يملكون من المال الكثير، بل إن أكثرهم فقراء.

بعض الحكام في يثرب يتلقى الرشوة

وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(١٨٨) البقرة.

الحكام هنا من الاحتكام، وليس من الحُكم والسلطة، فيثرب زمن الرسول لم يكن فيها حكام وملوك.

والآية تشير إلى وضع كان سائداً زمن الرسول وهو أن القضاء ليس منصباً دينياً، بل هو تحكيم دنيوي، لأنه يكون لفض المنازعات الدنيوية، وهذا ما يجب أن يكون عليه الآن. ويتولى القضاء أي شخص بغض النظر عن جنسه أو لونه أو معتقده بعد حصوله على شهادة دراسية من كلية حقوق يدرس فيها كل العقوبات والأحكام، ويكون على القاضي تطبيق الأحكام والعقوبات المقررة مسبقاً بناءً على الدستور الذي بموجبه فرض القوانين المدنية باستفتاء عام. بجانب القوانين الدينية (التشريعات القرآنية). وكلما دعت الحاجة لعقوبة أو جزاء فلا يبت فيه القاضي بمرئياته الشخصية ولكن يقنن عبر الاستفتاء العام كأي قانون يهم الأمة. وقد تحدثنا عن هذا بالتفصيل في كتاب: رسالة في الشورى والإنفاق.

ونعود للآية التي تظهر أنه كان في يثرب حين نزول السورة حكام (قضاة) يتلقون رشوة من أحد الأطراف المتنازعة مقابل أن يحكم له فيأكل حق البريء بالباطل.

المؤسف هو أننا في هذا العصر سمينا المحكمة «بالشرعية» في إشارة إلى أن كل ما يقول القاضي يمثل حكم الله، برغم أنه عبارة عن موظف براتب، لا يستطيع أن يحكم على سيده. وفي هذا العصر وصلت رائحة رشاوي القضاة عنان السماء. وكلما اكتشفت قضية رشوة بالملايين، سارعت الجهات الرسمية بوقف التحقيق وتناسي القضية. ليبقى القاضي المرتشي يحكم بين الناس باسم الله والله منه براء. وليس فقط قضايا الرشوة والاستيلاء على الأراضي، هي التي يتم التكتم عليها ضد القضاة في هذا العصر في بلادنا، بل كل أنواع القضايا، بما فيها قضايا الزنا والقضايا الأخلاقية المختلفة.

غالبية المسلمين في يثرب في تلك الفترة فقراء ومن المستضعفين

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ اتَّقَواْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ(٢١٢) كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٢١٣) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ(٢١٤) البقرة.

الذين كفروا في يثرب غالبيتهم من أهل الكتاب، وتسميهم الآيات بالكفار لأنهم رفضوا دعوة محمد وليس لأنهم كفروا بالله، لأن من لا يؤمن بالرسول محمد فهو كافر ولو آمن بالله. وهؤلاء يملكون المال ويسخرون من قلة ذات اليد لغالبية المسلمين. والآية: (٢١٤) تشير إلى الأوضاع المعيشية الصعبة التي يعيشها غالبية المسلمين في يثرب في بداية الهجرة، وتحثهم على الصبر بتذكيرهم أن من سبقهم ممن آمن في أزمنة قديمة مستهم الضراء.

ويمكن تخيل الأوضاع هناك في تلك الفترة. فالمهاجرون خرجوا من مكة بلا أمتعة ولا أموال، إما هرباً من قريش أو لأنهم فقراء أصلاً كونهم من المستضعفين، وكانت أيامهم الأولى في يثرب قاسية عليهم فعلاً، فلم يعثروا على مصادر للرزق بعد، والأوس والخزرج لا يملكون من المال الكثير، بل إن أكثرهم فقراء. والقلة القليلة التي تملك المال تتحفظ على الإنفاق لئلا يجدوا أنفسهم يشاركون غيرهم الفقر والفاقة. لذا تخبرنا السورة أنهم كانوا لا يسارعون في الإنفاق وإذا أمروا بذلك تساءلوا: يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ(٢١٥).

سؤال عن الخمر والميسر

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ(٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

بعض المسلمين الذين قد يكونوان يتاجرون بالخمر والميسر، سألوا الرسول عن تجارتهم، فنزلت الآية تقول إن المتاجرة في الخمر والميسر قد تكون مربحة مادياً لكن فيها إثم ومعصية. ولا يمكن مقارنة الربح المادي الدنيوي مهما كان كبيراً بالإثم الذي سيكتب عليهم ويسألون عنه يوم القيامة.

فالآية تقول دعوا تجارة الخمر والميسر فهي حرام ولو كانت مكاسبها كبيرة.

الزواج من مشركي قريش

وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَـئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٢١) البقرة.

قريش عدو محارب للمسلمين، وسبق وأخبرتنا سورة الممتحنة عن تحريم إبقاء الزوج المشرك أو الزوجة المشركة من قريش، وهي هنا تقول لا تتزوجوا منهم. ومن الواضح أن السبب ليس الكفر ولكن العداء للمسلمين وشن الحرب عليهم. والآية إشارة إلى أن قريشاً عازمة على حرب المسلمين وقد انتشر هذا الخبر بين القاصي والداني وصار جميع الناس في المناطق المحيطة بيثرب ومكة يعرفون أن قريشاً تعد العدة للهجوم على المسلمين.

عود للحث على القتال والإنفاق في سبيل الله

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ(٢٤٣) وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢٤٤) مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٤٥) البقرة.

الآية تقول إن الموت قادم ولن ينجو منه أحد، وإن كنتم مسلمين وتؤمنون أن هناك آخرة ونعيماً دائماً فلماذا تخافون الموت؟

وتكرر الآية (٢٤٥) أن الإنفاق في سبيل الله عبارة عن قرض لله سيسدده بفوائد مضاعفة.

وتؤكد الآية أن الإنفاق لن يقود المنفق للفاقة كما يظن بعض المسلمين الذين أحجموا عن الإنفاق خوف العوز.

وتقول سورة البقرة: الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنّاً وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٢٦٢).

بعض المسلمين كانوا ينفقون بمنة ويؤذون من يدفعون إليهم نفقاتهم بإشعارهم بالمهانة والذلة.

أحد المسلمين أو بعضهم حضروا للصلاة مع الرسول في المسجد وهم سكارى

تقول سورة النساء: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً(٤٣).

السكران يفقد السيطرة على منطقه وتصرفاته، وهو ما حدث لمسلم أو نفر من المسلمين حضروا المسجد للصلاة مع الرسول وجماعة المسلمين وكانوا سكارى. فصدرت منهم عبارات وتصرفات أفسدت على بعض المصلين صلاتهم. فجاءت الآية تنهى أي مسلم عن الحضور للصلاة بعد أن يشرب الخمر حتى تزول تماماً آثار السكر ويكون بإمكانه التحكم التام بمنطقه.

وهذه الآية ليس فيها تشريع، ولكنها تتفاعل مع ما حدث وتوجه المسلمين لما يجب عليهم فعله في حالات مماثلة، وذلك قبل تحريم الخمر.

مسلمة يثرب يحتكمون لكتب اليهود

الآيات: (٥٩-٧٠) من سورة النساء تخبرنا بحادثة وقعت لمسلمة يثرب، تتلخص في أنهم احتاجوا لمعرفة حكم ديني حول مسألة فسارعوا لسؤال رجال دين بني إسرائيل واليهود عن حكمها.

وكمقدمة تقول السورة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً(٥٩).

الإسلام يعني الالتزام بأوامر الله ونواهيه وعدم الاحتكام لغير كتابه. وفي حال تنازع المسلمون حول مسألة لا يجدون لها حكماً في كتاب الله فعليهم سؤال الرسول عنها. والرسول كالعادة سينتظر الوحي، وعندما يأتيه يقوم بتلاوته عليهم ليتبينوا حكم الله فيما شجر بينهم. وبطبيعة الحال هذا كان قبل اكتمال تشريعات الدين، ولو أن النزاع حدث بعد نزول سورة المائدة، فلن يكون للمسألة حكم ديني، وعلى كل شخص أن يعتقد ما يراه حولها. فمن كرهها فلا يقدم عليها ومن ظن أنها مباحة فهي كذلك. وفي كل الأحوال لا يسأل غير الرسول في أي مسألة، لأن الرسول هو من ينزل عليه الوحي. وأي حكم بغير ما نزل به الوحي فهو ضلال، ويدخل في هذا كل فقه يعتمد كتب التراث، وكل فتوى خارج كتاب الله.

وتقول السورة: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً(٦٠)

هناك فئة من الذين يزعمون أنهم آمنوا يريدون أن يحتكموا لحكم «الطاغوت». أي حكم ضال غير إسلامي. والآية تظهر أنهم ممن أعلن دخول الإسلام من أهل الكتاب في يثرب، وهم من أطلقنا عليهم «مسلمة يثرب» لأن الآية تعرفهم بأنهم « آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ». أي ممن آمن بمن قبل محمد والإشارة هنا لموسى. ويبدو أنهم سارعوا للبحث عن حكم فيما اختلفوا فيه إلى كتب اليهود أو رجال دينهم، وكان عليهم أن يسألوا الرسول.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً(٦١).

ومسلمة يثرب لم يحاولوا سؤال الرسول، وإنما سارعوا لسؤال رجال الدين من أهل الكتاب. وهذه الآية تصفهم بالمنافقين. لأنهم ممن يعلن الإسلام ولم يسلموا. وهم من تحدثت عنهم سورة البقرة في الآيات (٨-٢٠).

ولو أصابتهم مصيبة لتراكضوا للرسول ليدعو لهم وليعينهم، ويحلفون له أنهم مؤمنون: فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً(٦٢).

ثم تصفهم الآية التالية بأن قلوبهم (ضمائرهم وأفكارهم) ليست سليمة: أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً(٦٣).

وقد وصفتهم سورة البقرة أنهم: «في قلوبهم مرض (١٠).

وتقول السورة إن المؤمن يطيع الرسول لأن الرسول لا ينطق من هواه ولكنه يتلو ما يوحي به الله إليه: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً(٦٤).

واستغفار الرسول لهم هنا لا يعني أن الله سيقبله ويغفر لهم لأن رسوله استغفر لهم، ولكن الآية تقول بأن المسلمين كانوا يستغفرون الله ويشهدون الرسول على التوبة. واستغفار الرسول لهم مثل دعوة الملائكة للمؤمنين معنوية تشعرهم بأن الله ورسوله معهم.

ثم تؤكد السورة حقيقتهم وأنهم كفار: فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً(٦٥).

هنا الآية تؤكد أن المؤمن هو من يحتكم لكتاب الله (القرآن) وما عداه فلا يمثل دين الله.

ثم تقدم السورة خلاصة القول عنهم: وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً(٦٦) وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّـا أَجْراً عَظِيماً(٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً(٦٨) وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً(٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ عَلِيماً(٧٠) النساء.

فهم ممن أعلن إسلامه من بني إسرائيل واليهود ولم يسلموا، بل كانوا يبحثون عن منافع سلطوية أو جاه أو معنويات.

ويكون قد ظهر في عصر الرسول حتى نزول سورة النساء فئتان منافقتان، ولم يمض على الهجرة إلا بضعة أشهر:

١. مسلمة قريش: وهم منافقون من بعض من أعلن إسلامه من قريش، بعضهم ارتد قبل الهجرة، وبعضهم هاجر ولكنه بقي يوالي أقاربه المشركين.

٢. مسلمة يثرب: وهم منافقون من بعض من أعلن إسلامه من أهل الكتاب في يثرب بحثاً

عن أوضاع أفضل. لكنهم بقوا يؤمنون بكتبهم وديانتهم السابقة، ويوالون أقوامهم الذين لم يسلموا، ويتظاهرون بالإسلام فقط، وهم من تتكلم عنهم هذه الآيات.

وهو ما يظهر أن مجتمع الصحابة لم يكن مسلماً بمثالية، حتى في الأيام الأولى للهجرة، وبقي بعيداً عن المثالية طوال عصر الرسول.

وهناك وقائع تحدثنا عنها بتفصيل أثناء التدبر ولا نرى حاجة لإعادة الحديث عنها هنا، ومن ذلك:

مواقف المسلمين من القتال متباينة

الآيات: (٧٣-٨٥) تبين أن مواقف المسلمين من الخروج لقتال قريش متباينة.

فئتان من مسلمة قريش لم يهاجروا

الآيات: (٨٨-٩١)

والحديث عن ذلك مفصل أثناء تدبر سورة النساء.

حادثة وقعت وكاد الرسول أن يصدق الجاني ويتهم البريء

والتفاصيل مذكورة في تدبر الآيات: (١٠٥-١١٥) من سورة النساء.

مسلمة قريش كانوا يسخرون من القرآن في المدينة

في البداية تخبرنا سورة النساء أنهم كفار ولو أعلنوا الإسلام: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً(١٣٧) بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً(١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً(١٣٩) النساء.

ثم تقول السورة إنهم كانوا يسخرون من القرآن، وعلى المسلمين عدم مجالستهم:

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً(١٤٠) النساء.

والآية تؤكد أن الرسول والمسلمين يعرفون المنافقين بأشخاصهم وأسمائهم، ولو كانوا لا يعرفونهم كما تزعم كتب التراث لما أمرت الآية الرسول والمسلمين عدم الجلوس معهم.

وكان مسلمة قريش يتحرون هزيمة المسلمين وسحقهم على أيدي قريش القادمة لحربهم: الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللّهِ قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً(١٤١) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً(١٤٢) مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلاء وَلاَ إِلَى هَـؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً(١٤٣) النساء.

وبإعلانهم الإسلام يظنون أنهم يستطيعون خداع الله والله يعلم سرهم ونجواهم. وهم مذبذبون ليس لهم رؤية واضحة لما يجب عليهم فعله.

غارة على المسلمين

تقول سورة المائدة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(١١).

هناك من حاول أن يبسط يديه إلى المسلمين، بمعنى الاعتداء عليهم، لكن محاولاتهم فشلت، ولم يتعرض المسلمون لأذى.

فمن الذين حاولوا مهاجمة المسلمين في السنة الأولى للهجرة، وقبل معركة بدر ببضعة أشهر؟

كتب السير لم تشر لهذه الحادثة لأن القرآن أشار لها إشارة عابرة دون تفاصيل، مما تعذر على القصاص اختلاق القصص حولها، أو أنهم أهملوها عمداً.

ولو حاولنا البحث عمن حاول مهاجمة المسلمين فسنستبعد أهل الكتاب في يثرب، لعدة أسباب، منها:

- أن العلاقة بينهم وبين المسلمين ما زالت غير عدائية، لدرجة أن القرآن أباح الزواج بالكتابيات في نفس هذه السورة: الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ

الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٥) المائدة.

- لو كانت محاولة الهجوم من أهل الكتاب أو غيرهم من سكان يثرب لعاقبهم المسلمون عليها، وهذا لم يحدث.
- أنه حتى بعد أن استحكم العداء بين بعض أهل الكتاب والمسلمين لم يتعرض المسلمون لهجوم من أهل الكتاب أبداً.

كما يمكن استبعاد قريش من أن تكون هي من حاولت الهجوم على المسلمين، لأسباب منها:

- أن قريشاً ما زالت تعد العدة وتجهز جيشاً لمهاجمة المسلمين، ولن تكتفي بغارة خاطفة.
- أن قريشاً لا تستطيع التوغل في أراضي يثرب للوصول للمسلمين دون تنسيق مسبق مع أهل الكتاب (أهل يثرب) وإلا اعتبرت غارتهم تعدياً على حمى اليثربيين وإعلاناً للحرب بين قريش ويثرب. وهذا لم يحدث ولا رغبة لقريش ولا لأهل الكتاب في حدوثه.

فإن كان من حاول الهجوم على المسلمين ليس أهل الكتاب ولا قريشاً، فمن يكون؟

نتذكر أنه في الأيام الأولى لوصول الرسول مهاجراً توافدت جموع من الأعراب عليه معلنين إسلامهم وطامعين في الهبات والعطايا، كما أخبرتنا الحجرات: (١٣-١٧)، المجادلة: (١١-١٣) لكنهم لم يحصلوا على بغيتهم، وحصلوا على توبيخ على تصرفاتهم الفجة البعيدة عن التهذيب. وقد عادوا أدراجهم محملين بالخيبة وبمشاعر الحنق. وبما أن كثيراً من الأعراب كانوا يعيشون على غارات السلب والنهب في ذلك الوقت، فإن أصابع الاتهام تتجه إلى بعض من حضر للرسول. ومن الشواهد التي تؤيد هذا الاعتقاد أن ما حدث كان عبارة عن محاولة لغارة سلب خاطفة، ولم تكن جيشاً حربياً. لأن الآية تقول: «إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ». فالغارة كانت عبارة عن عدد محدود تسللوا إلى يثرب تحت جنح الظلام ووصلوا لمساكن المسلمين علهم يظفرون ببعض الإبل أو المتاع، لكن المسلمين تنبهوا لهم وتنادوا عليهم، ففشلت المحاولة وهرب الغزاة دون أن يكون هناك قتال. وهو تصرف معتاد من عصابات السلب والنهب، حيث يهاجمون بأعداد قليلة فإن

نجح مسعاهم ساقوا غنيمتهم وعادوا أدراجهم، وإن تمت مواجهتهم ولوا الأدبار.

وما يؤكد أن ما حدث عبارة عن غارة سلب ونهب، هو أن السورة فرضت عقوبات دنيوية على كل من تسول له نفسه أن يقوم بمثل هذه الأعمال الإجرامية مستقبلاً، في قوله تعالى: إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٣٣) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣٤) المائدة.

كما فرضت عقوبة على كل من يمد يده لسرقة أموال الغير: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٣٨) فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣٩) المائدة.

جاءت الآيات: (٣٨-٣٩) لتفرض عقوبة على من كان يحترف السرقة لعلاقتها بموضوع السلب والنهب. وللمزيد من التفاصيل يمكن العودة لفقرة: عقوبات على من يغير على أموال الناس ويسلبها/ وفقرة: عقوبة السارق والسارقة: قسم تشريعات من القرآن.

تحريم الخمر

ورد ذكر الخمر في الآية: (٢١٩) من سورة البقرة لأن بعض المسلمين سألوا الرسول عن المتاجرة بالخمر والميسر، فجاء الحكم كما يلي: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ(٢١٩).

ففيهما مكاسب مادية، لكن المتاجرة فيهما إثم كبير (كبيرة)، والكبيرة موجبة للنار.

ثم حدث أن بعض المسلمين حضروا للصلاة مع الرسول وجماعة المسلمين في المسجد وهم سكارى فصدر منهم كلام وتصرفات أفسدت الصلاة على المصلين، فنزل قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُورا(٤٣) النساء.

ولم تحمل الآيات تحريماً للخمر.

ثم نزلت سورة المائدة والتي ورد فيها: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ(٩١) وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ(٩٢) المائدة.

وهذا هو النص المحرم للخمر والميسر. فالآيات جعلتهما في منزلة واحدة مع الأنصاب والأزلام وهما من الأعمال الوثنية. ووصفتهما بالرجس ومن عمل الشيطان. وليس هناك وثنيات ولا رجس ولا عمل للشيطان جائز أو مباح في الإسلام. وليس هناك في الإسلام أعمال مباحة تصد عن ذكر الله وتسبب البغضاء. وتقول الآية مخاطبة المسلمين: «فهل أنتم منتهون» ليس كتساؤل متروك للمسلمين الخيار للإجابة عليه بنعم أو لا. ولكنه بمعنى «أفلا تنتهون». لأن الناهي هو الله ونهي الله للامتثال وليس للتخيير. لذا فقد قالت الآية التالية: « وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ». ومن لا يطع الله والرسول وينتهي عن نواهيه سبحانه فليحذر عذاب الله.

معركة بدر

صورٌ لفئات المجتمع المسلم في يثرب، قبيل معركة بدر المرتقبة

الآيات: (١٦-٣٨) من سورة محمد والخطاب إخباري

- مسلمة يثرب

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ(١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ(١٧) فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاء أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ(١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ(١٩).

وكانوا يظهرون الموافقة على ما يقول الرسول في مجلسه دون اقتناع. لأنهم لم يؤمنوا ولو

أظهروا الإسلام، وهم الذين طبع الله على قلوبهم ولن يهتدوا.

وقد أصيبوا بالهلع عندما فرض القتال: وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ(٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ(٢١).

وهؤلاء لن يخرجوا للقتال: فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ(٢٢).

و (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ(٢٣) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا(٢٤).

لأنهم بعزمهم على عدم الخروج اقترفوا عصيانا لأمر الله. وعصيان أمر الله ردة عن الإسلام: إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ(٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ(٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ(٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ(٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ(٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ(٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ(٣١).

والآية: (٢٧) تعبير مجازي لسوء خاتمتهم وذلتهم، لأن ضربهم على وجوههم وأدبارهم لحظة الوفاة ليس عقاباً رادعاً ولا مؤثراً، والعذاب الذي ينتظرهم يوم القيامة وليس لحظة الوفاة. كما أن استخدام الملائكة للموت وكأن هناك مخلوقات حية لنزع الأنفس من الأجساد هو تعبير مجازي أيضاً، لأن الموت يحدث بطريقة آلية لا يتدخل فيها مخلوقات حية، مثلها مثل كل ما يحدث في الكون الذي يسير بقوانين وآليات إلهية ثابتة ولا يسير الكون وما فيه بواسطة مخلوقات تديره.

- مسلمة قريش

وقد أعلنوا على الملأ معارضتهم لحرب قريش، الذين تصفهم السورة كما يلي: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً

وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ(٣٢).

ويتجه الخطاب لمسلمة قريش: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ(٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ(٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتدعو إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ(٣٥) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ(٣٦) إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ(٣٧).

والآية: (٣٥) تظهر أن مسلمة قريش كانوا يقترحون عدم الدخول في حرب مع قريش: « فَلَا تَهِنُوا وَتدعو إِلَى السَّلْمِ». لأنهم يوالونهم ولا يرغبون في رؤيتهم يقتلون أو يتعرضون للهزيمة والذل.

- **بعض المسلمين تباطأ في الإنفاق، وبعضهم امتنع**

هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يكونوا أَمْثَالَكُمْ(٣٨).

وكما رأينا منذ نزول سورة البقرة والتي فرض فيها الجهاد وآياتها وآيات سورة النساء بعدها وهذه السورة تحث المسلمين على الاستعداد للخروج وعلى الإنفاق لتسليح الجيش وتجهيزه. ولكن فئات كثيرة من المسلمين امتنعوا عن الإنفاق، وغيرهم ينفق القليل، وأناس ينفقون أسوأ ما لديهم.

وهذه الصور التي كان عليها المسلمون في يثرب لم تكن مشجعة ولا مثالية قبيل أول معركة مصيرية للمسلمين ضد قريش التي تحاول القضاء عليهم وعلى دينهم. ولو هزم المسلمون في تلك المعركة فقد يمحون من الوجود ويزول دين الله، ومع ذلك فقد كانوا يبدون بصور بعيدة عن المثالية. وهي صور مخالفة لما ذكرت كتب التراث التي تصور المسلمين على أنهم هم من كان يلاحق قريشاً ويُغِيْرُ على قوافلها التجارية، وكانوا تواقين للقاء العدو، ويتسابقون للخروج والإنفاق.

الضعيف الملاحق لا يجرؤ على التحرش بالمتسلط الذي يطارده

لقد هرب المسلمين من مكة لأن قريشاً كانت مصممة على اضطهادهم وتعذيبهم حتى يرتدوا عن دينهم، ولم يكن لهم قبل بها ولا قدرة على صد عدوانها. وحتى بعد الهجرة وانضمام الأنصار لهم، لم تكن أعدادهم ولا قوتهم تقارن بأعداد قريش وقوتهم والدليل هو أن جيش قريش الذي دخل معركة بدر لم يكن هو كل ما تستطيع قريش تجهيزه، ومع ذلك كان يفوق جيش المسلمين عدداً بحوالي الضعف، ويتفوق عليهم عدة وتجهيزاً.

ومعركة بدر تحدثت عنها سورة الأنفال، والتي نزل قبلها عشر سور في المدينة. وقد وقعت بعد (٢١) شهراً من هجرة الرسول. وخلال تلك الفترة كانت قوافل قريش تجوب طريق القوافل المتجه للشام جيئة وإياباً، في وقت كان المسلمون في بداية استقرارهم في يثرب فقراء بحاجة ماسة لما تحويه تلك القوافل من متع وأموال. ولو كان سبب معركة بدر هو الحصول على ما تحمله قافلة قريش لتكررت غارات المسلمين على قوافل قريش طوال الأشهر الماضية.

ولماذا لم يغيروا على قوافل قريش منذ الهجرة، وتأخروا قرابة العامين لكي ينتفضوا فجأة بغارة فاشلة لم يحصلوا بموجبها على بعير واحدٍ من عير قريش؟

والقرآن بدأ الحديث عن القتال من سورة البقرة، ثم في سورة النساء، ثم في سورة المائدة، ثم في سورة محمد، ثم في سورة الصف، قبل أن يحصل القتال في بدر، وهي مدة طويلة. وخلال هذه المدة الطويلة استمر القرآن يحث المسلمين على الاستعداد للخروج والإنفاق لتجهيز الجيش. فهل الاستعداد للغارة على قافلة تجارية لا يسير معها سوى نفر من العبيد يحتاج لهذه المدة الطويلة ويحتاج لإنفاق وتجهيز جيش؟

أم أن الأخبار تواترت أن قريشاً تعد العدة لمهاجمة المسلمين في يثرب، لأنها تسعى وستبقى تسعى للقضاء على الإسلام وأهله. وزاد إصرارها لأن الرسول استطاع التسلل من مكة ووصل ليثرب وأسس دولة. وقريش سعت من البداية ضد توسع الإسلام، وبالتالي فلديها دافع لحرب المسلمين. وانقضاء عدة أشهر قبل أن يخرج جيش قريش من مكة يعود لأن مهاجمة قريش للمسلمين في يثرب احتاجت لمفاوضات مع أهلها اليهود وبني إسرائيل والنصارى، لأن مهاجمة من في يثرب من المسلمين سيعتبر اعتداءً على أرض يثرب وأهلها.

وقد يكون هذا السبب هو الذي جعل المسلمين يخرجون من المدينة لملاقاة قريش عند بدر، لأن أهل يثرب لم يرغبوا أن تكون المعركة في بلدهم. وتم الاتفاق أن يلتقي جيش المسلمين بجيش قريش على الطريق المؤدية لمكة، وبعيداً عن يثرب.

وأول ذكر للقتال جاء في سورة البقرة ليضع ضوابط للقتال المرتقب الذي لم يعد للمسلمين مناص عنه: وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ(١٩٠).

وأول أمر في هذه الآيات هو قتال من يقاتل المسلمين، والتحذير من قتال من لا يقاتلهم أو يبدأ بقتالهم: «وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ». ولو كان المسلمون يخططون لغزوٍ على قافلة وبمباركة القرآن، فستأتي الآيات تحثهم على التربص بالقافلة والغدر بحراسها، وكيفية سوق الغنيمة ليثرب. بينما تشير الآية إلى أن الإغارة على قافلة تجارية تعدٍ وظلم وتنهى عنه. بل وتنهى عن قتال من لا يقاتل المسلمين ولو كان من قريش أو من عبيدها الذين يرافقون قوافلهم التجارية. وهذا يؤكد أن الحديث هو عن قتال فرض على المسلمين ولم يفرضه المسلمون على قريش، وليس الحديث عن الاستعداد لغارة سلب ونهب.

وتعود سورة البقرة لتؤكد أن القتال فُرِضَ على المسلمين ولم يختاروه، وذلك بإظهار مشاعر المسلمين حول الخروج للقتال: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٢١٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢١٧).

لقد كرهوا الخروج للقتال، قبل أن تفرضه عليهم سورة البقرة، لأن الأخبار تواترت عن حشد قريش واستعداداتها. ومن يكره القتال فسيتجنب أسبابه، ولن يقدم على مهاجمة عيرٍ لقريش، لأنه يعلم أنهم سيحمون عيرهم وسيقاتلون كل من يتعرض لها.

وتتوالى الآيات في الحث على الإنفاق في سبيل الله (تجهيز الجيش)، ومن ذلك: مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ

لِمَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(٢٦١) الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنّاً وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٢٦٢).

ولو كان المسلمون هدفهم الإغارة على عير قريش لما كان هناك داع لتجهيز جيش، لأن العير يكون معها عدد محدود من الرجال، وكل ما على المسلمين هو مباغتتهم بعدد أكثر قليلا والقضاء عليهم والاستيلاء على القافلة. وبما أن طريق القوافل يمر بالقرب من يثرب فسيتمكن الغزاة المسلمون من إيصال القافلة ليثرب قبل أن يصل الخبر لمكة وخروج رجال قريش للدفاع عن أموالهم.

ولو فعل المسلمون ذلك فسيحصلون على أموال طائلة تكفي لتجهيز جيشهم ولا حاجة لحث المسلمين متوسطي الحال على الإنفاق.

وتستمر سورة البقرة بالحث على الإنفاق حتى الآية: (٢٧٢) التي تخاطب الرسول: لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ(٢٧٢).

لقد كانت استجابة المسلمين للخروج للقاء العدو والإنفاق لتجهيز الجيش غير مرضية.

والإنفاق والاستعداد كان لمعركة وليس لغزوة سلب ونهب.

وتظهر سورة النساء أن طائفة من المسلمين أصيبوا بالهلع لما كتب عليهم القتال خوف الموت: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً(٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللهِ فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً(٧٨).

والغارة للسلب والنهب عادة لا يصاب فيها المهاجمون أو يقتل منهم أحد إلا نادراً، وهو ما يعني أن الغزاة لا تعتريهم موجة من الهلع للخروج للغزو. بينما لو كانت الدعوة لمعركة وقتال للعدو وجهاً لوجه فالخوف من القتال حاضر.

ولو تذكرنا أن قريشاً لديها الدافع لملاحقة المسلمين وقتالهم، لأنها تسعى للقضاء عليهم،

بينما المسلمون يتكونون من مستضعفي مكة من عبيد وموالٍ تطبعوا على الخنوع للسيد، إضافة لمستضعفي يثرب من الأوس والخزرج الذين لا يريدون الدخول في قتال مع قريش. لو تذكرنا هذا لعرفنا أنه لا المستضعفون ولا الأوس والخزرج سيبادرون بقطع الطريق على قوافل قريش خوفاً من تبعات هذا العمل. خاصة أن قريشاً اكتسبت احترام كل سكان جزيرة العرب، ولذلك فقوافلها لا تتعرض للسلب والنهب من قبل تلك القبائل التي تعيش على النهب والسلب احتراماً لمكانة قريش. ولو قام أحد بالاعتداء على قوافل قريش فسيسخط عليه مجتمع جزيرة العرب قاطبة. ولهذا وجدنا فيما بعد أن قبائل عدة ناصرت قريش في حربها ضد المسلمين في الأحزاب وفي حنين، برغم معرفتهم أن قريشاً هي من بادر بحرب المسلمين. ودون أن يهاجمهم المسلمون أو يعتدوا عليهم ولكن استجابة لدعوة قريش التي دعتهم لنصرتها. وقد تكون قريش قد دفعت لرجال تلك القبائل الأموال بمعاونتها على حرب المسلمين، وقد تكون سورة الأنفال قد أشارت لهذا في قوله تعالى متحدثاً عن قريش: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦).

وتستمر سورة النساء تحث على القتال والإنفاق وفي نفس الوقت تظهر مواقف المسلمين من الخروج: فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَاللّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً(٨٤).

والخطاب للرسول وتقول له الآية إنه لو لم يخرج إلا أنت والقلة المخلصة فقاتلوا في سبيل الله والذود عن دينه. وهذه الصورة تظهر أن غالبية المسلمين لم يرحبوا بالخروج وظهرت مواقفهم الرافضة للعيان.

ولنتذكر أن أول آية ذكرت القتال أكدت على قتال المقاتلين فقط وعدم الاعتداء (على الأموال أو الأنفس التي لا تقاتل). وسورة النساء تعود وتؤكد على عدم التعرض لمن ألقى السلم ولم يقاتل المسلمين، ولو كان من الأعداء: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً(٩٤).

ونتوقف عند هذه الآية لأنها تنفي نفياً قاطعاً أن يخرج المسلمون لقطع الطريق والاستيلاء

على القوافل. وتقول لا يجوز لكم أن تعترضوا المسالمين (كالذين يقودون القوافل) لكي تستولوا على (عرض الحياة الدنيا من أموال ومتاع) بحجة أنهم ليسوا مؤمنين (مسلمين).

وتستمر السورة تحث على القتال في الآيات: (٩٥-٩٦).

ثم تتحدث السورة عن حالة قد يتعرض لها المسلمون عند لقاء العدو في أرض المعركة (الحديث عن لقاء جيشين للقتال وجهاً لوجه، وليس الاختباء خلف الصخور للانقضاض على حراس القافلة وقتلهم والاستيلاء على قافلتهم): وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوّاً مُّبِيناً(١٠١) وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونوا مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً(١٠٢).

ولو كان المسلمون خرجوا للغارة والسلب فلن يكون هناك لقاء بالعدو وجهاً لوجه، ولن يكونوا بحاجة لصلاة خوف لأن حراس القافلة هم الذين سيخافون لتعرضهم لهجوم خاطف، ولن يحتاج الغزاة لوقت طويل لتنفيذ العملية.

ثم تبدأ سورة المائدة بتحذير المسلمين من أن يتعرضوا لغير المقاتلة، حتى ولو كانوا من قريش: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢).

لا تحلوا شعائر الله والشهر الحرام بحجة أنكم تقاتلون العدو. ولا تتعرضوا لمن هو متجه للبيت ويسوق هديه، ولا لمن يقود قلائده، كالقافلة. وتعدي قريش عليكم وأنتم في مكة وخروج جيشها لملاحقتكم ليس مبرراً لتعتدوا.

مرة أخرى التحذير من مهاجمة العير ونحوها، فهدف المسلمين ليس عرض الحياة الدنيا (القافلة) ولكن قتال من يعتدي عليهم ويحاول القضاء عليهم وعلى دينهم، وهو ما سعت

له قريش. فقد آذت المسلمين في مكة وهرب المسلمون منها ليثرب اتقاء لشرها. فهل يعقل أن يلاحقوا قوافلها ويعطوا قريش سببا للهجوم عليهم والقضاء عليهم؟

وتستمر السورة لتؤكد على المسلمين ألا يعتدوا: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(٨) وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ(٩) وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ(١٠) المائدة.

والتعدي على القوافل اعتداء وظلم.

وتستمر السورة تحث المسلمين على القتال وليس على غارات السلب والنهب: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٣٥).

وتأتي سورة محمد لتكمل فرض ضوابط للقتال المرتقب الذي استعدت وحشدت له قريش منذ فترة طويلة: فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ(٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ(٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ(٦).

الاستعداد للقتال وليس للغارات، وحثٌ عليه ووعد بالجنة لمن يخرج للقتال. إشارة إلى استمرار تثاقل كثير من المسلمين عن الخروج.

وتسمي السورة قتال قريش بنصرٍ لله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ(٧).

وهو ما يشير إلى أن قريشاً هي القادمة لقتال المسلمين لكي تقضي عليهم وعلى دينهم، ونصر الله يكون بنصرة دينه والدفاع عنه، وليس بغارة سلب ونهب.

وتستمر السورة بوعد المؤمنين بالجنة، لكن المسلمين استمروا بالتثاقل وعدم الحماس للقتال.

وبعضهم أصيب بالهلع عندما فرض القتال: وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ(٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ

لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ(٢١) محمد.

وهذه الصورة من الهلع الشديد لا يمكن أن يتسلح بها عصابات الغزو والسلب والنهب.

بل إن بعضهم ارتد عندما فرض القتال: إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ(٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ(٢٦) محمد.

ولو كان الأمر يتعلق بالغارة على قافلة تجارية فلن يكون هناك مثل هذه المواقف المتشنجة والخوف والقلق، لأن المطلوب لقطع الطريق نفر قليل وليس كل من يستطيع حمل السلاح.

وتستمر سورة محمد كالسور السابقة تحث على الإنفاق في سبيل الله: هَا أَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يكونوا أَمْثَالَكُمْ(٣٨).

والإنفاق لا حاجة له لو لم يكن هناك جيش يجب تجهيزه، والصورة التي تقدمها السورة لاستجابة المسلمين للإنفاق ليست ناصعة.

وتأتي سورة الصف آخر سورة نزلت قبل معركة بدر تحث على القتال وليس الغزو: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ(٤).

وتظهر سورة الصف أن التردد للخروج والإحجام عن الإنفاق هو السائد برغم أن المعركة أصبحت على الأبواب: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ(١٣) الصف.

ويستمر التلكؤ من المسلمين ويستمر الحث على الخروج: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ(١٤) الصف.

وهكذا كان حال المسلمين قبل بدر، وهي حال أناس أرعبتهم فكرة قتال قريش السيد

السابق، ومن معه مال أحجم أن ينفق لتجهيز جيش يظن أنه خاسر لا محالة، لأن إمكانيات الفارين من مكة والأوس والخزرج من يثرب لا تقارن بإمكانيات قريش.

ولكن قريشاً قادمة ولابد من قتالها لئلا تسحق المسلمين. فالمعركة فرضت على المسلمين ولم يطلبوها، كما أن المسلمين لم يكونواا في وضع يؤهلهم لتحدي قريش بالإغارة على قوافلها وجرها لقتالهم وهم لا قبل لهم بها.

إضافة إلى أن أول ما أوجب القرآن على المسلمين عندما فرض القتال هو تحريم التعدي على المسالم أو الأموال تحريماً قاطعاً، وقتال المقاتلة فقط.

سورة الأنفال تروي ما حدث في أرض المعركة

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ(٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ(٦).

بعض من خرج مكرهاً استمر يجادل الرسول وهم في الطريق إلى المعركة على أن يجد وسيلة لتجنب القتال، لأنهم لا يريدون أن يقتلوا.

هؤلاء خرجوا مكرهين وهم خائفون من الموت، وإن كانوا يتمنون أن لو حصلوا على الغنائم. ولو كانوا مؤمنين حقا لأقدموا فإن قتلوا ففي الجنة وإن انتصروا حصلوا على الغنائم: وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ(٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ(٨) الأنفال.

لكن كثيراً من المسلمين لا يريدون ذات الشوكة (القتال) بل يريدون غنائم بلا قتال. والله جل وعلا فرض القتال ليقطع دابر الكافرين وليحق الحق ويبطل الباطل. فقريش ستبقى خطراً على الدين وها هي مصممة على ملاحقة المسلمين في مهجرهم، ولم تتركهم بعدما تركوا مكة. لذا توجب أن يواجهوا ويقاتلوا ويسحقوا ليأمن المسلمون شرهم مستقبلاً.

والحديث موجه لمن خرج وهو كاره للقتال ويمني النفس بالغنائم فقط. وليس المعنى أن الله قد أمر المسلمين بالغارات على قوافل قريش وتجنب قتالهم ولكن قريشاً لاحقتهم فقاتلوا مجبرين.

متى وقعت معركة بدر؟

كتب التراث تقول إنها وقعت في رمضان من العام الثاني للهجرة، ولن نسلم بهذا، وإنما سنحاول تقدير الفترة بين هجرة الرسول ووقوع المعركة بعدد السور التي نزلت في ذات الفترة. فقد نزل الوحي على الرسول إحدى عشر مرة منذ وصوله المدينة حتى معركة بدر والتي تخبرنا بها سورة الأنفال، والسور هي: الممتحنة، الحجرات، المجادلة، الجمعة، البقرة، النساء، المائدة، والسورة التي ألحقت بآخر المزمل، الماعون، محمد، والصف.

والسور الأربع الأولى نزلت في الأيام الأولى للهجرة وتناولت الأحداث حينها، ولم يكن بين نزول سورة وأخرى سوى أيام. ولو قدرنا الفترة بين نزول كل سورة وأخرى بأسبوعين فإن نزول الأربع سور الأولى لم يزد عن شهرين إلى ثلاثة أشهر من الهجرة. وهي فترة كافية للاستقرار وإفهام الأعراب أن الرسول لم يأت كملك ولا يملك المال، فعادوا أدراجهم ولم يبق في المدينة إلا المهاجرون وفي يثرب أهلها. فبدأ نزول سور التشريع: البقرة، النساء، المائدة، والسورة الملحقة بآخر المزمل. ولو افترضنا أن بين كل سورة وأخرى ثلاثة أشهر، فقد استغرق نزولها قرابة العام. ثم نزلت سور الحث على القتال والإنفاق: الماعون، محمد، والصف، وسنفترض أن بين كل سورة وأخرى شهراً. وهو ما يعني ثلاثة أشهر أخرى. فيكون قد مضى على الرسول في المدينة قرابة (٢١) شهراً حين وقعت معركة بدر.

وما قيل إن الهجرة كانت في ربيع مجرد تخمين وخرص وظن قالت به كتب التراث التي كتبت بعد عصر الفتن والظلمات، ولا يعتد بما قالت كالعادة. والهجرة ومعركة بدر يحتمل أن تكونا حدثتا في أي شهر. وقد تكون الهجرة حدثت بالفعل في محرم، ولهذا اعتبر أول شهور السنة الهجرية، من الهجرة. ولم يكن شهر محرم أول شهور السنة الهجرية، لأن الناس كانوا يعرفون الأشهر القمرية لكنهم لا يؤرخون بسنواتها. أي لم يكن لهم سنوات قمرية، تبدأ بشهر معين، لأنهم لا يؤرخون، وبالتالي لا يحتاجون لمعرفة متى تبدأ السنة القمرية. ولا يعني لهم شيئاً أن يكون للسنة أول أو آخر. ولكن يهمهم أن يكون لكل شهر قمري اسم، وهو ما يعرفون.

ولو كانت الهجرة حدثت في محرم، فإن معركة بدر قد وقعت في رمضان من السنة التالية (كما تقول كتب التراث). ويكون بين الهجرة وبدر حوالي (٢١) شهراً، وهو ما يتفق مع

تقديراتنا لنزول السور بين الهجرة ومعركة بدر.

لماذا تأخر القتال قرابة العامين بعد الهجرة؟

وهو ما أشرنا له في صفحات سابقة، وهنا نقول:

المعركة لم تحدث بسبب طمع المسلمين بقافلة قرشية قادمة من الشام، كما رسخت كتب السير والتاريخ التي دونتها قريش. ولكنها حدثت بسبب إصرار قريش على ملاحقة المسلمين، وهو ما بينته سور المرحلتين الأولى والثانية من مراحل الدعوة في المدينة، التي تحث المسلمين على الاستعداد للمعركة التي كانت مرتقبة قبل شهور، لأن الأخبار تواترت بأن مشركي مكة عازمون على ملاحقة المسلمين. وبما أن قريشاً لا تستطيع مهاجمة المسلمين في بيوتهم، لأنهم يعيشون ضمن أراضي يثرب. وأهل يثرب (أهل الكتاب) لن يسمحوا لجيش قريش أن يطأ أرضهم، حتى ولو لقتال المسلمين الذين لا يرغبون بهم. ولابد أن مفاوضات بين قريش وأهل يثرب حول ما يمكن فعله، قد طالت لبضعة أشهر وانتهت بإقناع الطرفين (المسلمين وقريش) بالاقتتال بعيداً عن يثرب، فكان التقاؤهم قرب آبار بدر. ومن المحتمل أن مكان المعركة قد تم الاتفاق عليه أيضاً، فقد ورد في سورة النساء: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً(٧١). وسورة النساء نزلت قبل المعركة بأشهر ومع ذلك تطلب من المسلمين أن يخرجوا من المدينة للمعركة إذا حان وقتها على شكل جماعات (ثُبات) وفي أرض المعركة يتجمعوا على شكل جيش واحد. أو يخرجون من المدينة كلهم دفعة واحدة على شكل جيش واحد.

وبالفعل التقى الجيشان بالقرب من آبار بدر التي يستقي منها عابرو طريق القوافل الدولية، وهناك دارت المعركة. ولم تكن خيول وجمال قريش تحمل المؤن، كما تزعم كتب التراث، ولكن تحمل السيوف والدروع.

ورفض أهل يثرب السماح لجيش قريش بدخول يثرب والمفاوضات التي دارت بينهم وبين قريش تفسر سبب تأخر قدوم جيش قريش لحرب المسلمين لأشهر طويلة، في وقت لا يحتاجون فيه سوى بضعة أيام للوصول إلى يثرب من مكة.

تتبع ما حدث حسب سير الأحداث

فيما يلي سنتخلى عن ترتيب الآيات، لنتتبع سير الأحداث حسب تسلسل وقوعها.

الخروج للمعركة ومحاولة مسلمة قريش ثني الرسول عن مواصلة المسير

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ(٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ(٦) الأنفال.

مسلمة قريش والوا مشركي قريش في مكة، وعندما نزلت آيات الهجرة، وبدأ الرسول يحث الناس على الخروج من مكة، لم يرغبوا في الهجرة. وسورة الصف السابقة، والتي نزلت قبيل وقوع معركة بدر، أشارت إلى أنهم لم يرغبوا في حرب قريش الذين يوالونهم، وكانوا يطلبون من الرسول الدخول في مناقشات مع قريش بدل حربهم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ(٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ(٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتدعو إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ(٣٥).

وحتى عندما تجهز المسلمون وخرجوا من يثرب لملاقاة جيش قريش استمر مسلمة قريش يحاولون ثني الرسول عن مواصلة المسير ودخلوا معه في جدال حاد: كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ(٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ(٦) الأنفال.

لأنهم اعتبروا قتال قريش موتاً لا محالة، ولم يعتبروه مرحلة صعبة لكنها ضرورية في سبيل الله وإعلاء كلمة الحق، لأنهم لم يؤمنوا. ورافقوا جيش المسلمين وهم يمنون أنفسهم بالحصول على الغنائم دون خوض الحرب: وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ(٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ(٨).

والوعد المذكور في الآية لم يكن وعداً مسبقاً من الله، نزل به نص. ولكن الآية تتحدث عما هو حاصل على أرض الوقع، فالمعركة ستخلف أسلاباً وغنائم. والخروج للمعركة يحتمل الهزيمة والنصر، ويحتمل القتل أو البقاء على قيد الحياة. لذا فهذه الفئة تمني نفسها بالحصول

على الغنائم دون التعرض للقتل. والسورة عبرت عن ذلك وكأن الله وعد بإحدى الحسنيين إما الغنائم أو القتل في سبيل الله والجنة. لأن الله وعد من يقتل في سبيل الله بالجنة، وأعطى المنتصر الحق باقتسام الأسلاب والغنائم.

في الطريق إلى المعركة

تشير الآية إلى أن المسلمين وهم متجهون لميدان المعركة كانوا يتضرعون لله أن ينصرهم، وكانوا قلقين، فأنزل الله سكينته عليهم: إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ(٩).

ولم يمد الله المسلمين بمخلوقات حية تقاتل فعلياً معهم، ولكنه كان مدداً معنوياً وسكينة تشعرهم بالراحة وتذهب عنهم القلق ورهبة المعركة، وهو ما تبينه الآية التالية: وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(١٠).

وكان المدد المعنوي مؤثراً بالفعل لدرجة أن عدداً من المسلمين غلبه النعاس وهو ينتظر بدء المعركة، مما يعني أن القلق الذي تملكهم قد ذهب وحل محله حالة نفسية مسترخية تماماً: إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ..... (١١).

كما نزل المطر عليهم في تلك اللحظة، مما زادهم ارتياحاً نفسياً: .... وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ(١١).

ونزول المطر في المناطق الصحراوية يشعر الناس بالحبور والراحة النفسية، بعكس نزوله في المناطق المطيرة حيث يكون مصدر إزعاج.

رؤيا الرسول

في الطريق لميدان المعركة (قرب آبار بدر) احتاج المسلمون للمبيت في الطريق لعدة ليال لأن المسافة تقدر بحوالي (١٢٠) كيلومتر. وفي واحدة من تلك الليالي رأى الرسول رؤيا وكأن جيش المسلمين قد اصطف مقابل جيش المشركين في ميدان المعركة. وكان جيش العدو هزيلاً قليل العدد. وكعادة الناس في ذلك الوقت، قص الرسول رؤياه على أصحابه. وكان لها تأثير سحري في رفع معنويات الرسول والمسلمين، إذ قد يكون الناس ظنوا أن رؤيا الرسول ليست كرؤيا أحدهم، ولابد أن جيش قريش قليل بالفعل: إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّهُ فِي

مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَـكِنَّ اللّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٤٣).

ورؤيا الرسول كأي رؤيا لأي شخص، ولا يمكن أن تصور الحقيقة. فقد رأى جيش المشركين أقل عدداً مما هم عليه بالفعل، مما يعني أن الحلم الذي رآه يصور ما يتمناه الرسول وشغل باله قبل المعركة، ولا يصور حقيقة عدد جيش المشركين.

في ميدان المعركة

تُحدثنا سورة الأنفال عن بعض أوضاع المسلمين قبل المعركة، كما يلي:

- بعض المسلمين حدّث نفسه بالهرب: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ(٤٥).
- كان هناك خلاف حول الكيفية التي تدار بها العمليات، وتداخلت الآراء ولم يعد الكثير منهم يستمع لتوجيهات الرسول: وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ(٤٦) وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ(٤٧) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٤٨).

وهذه الآيات تحذر المسلمين من تكرار التضارب في الآراء أثناء المعارك، وأنه يجب على كل المحاربين الاستماع والطاعة لأوامر الرسول وتنفيذها. فالمعركة يجب أن تسير بمرئيات قائد واحد، ولو تعددت الآراء وتضاربت الأوامر فسيؤدي ذلك للخسارة وانتصار العدو. وقد وقع ما حذرت منه الآيات هنا، في غزوة أحد القادمة، وتسبب بهزيمة جيش المسلمين، كما سنرى.

- تورد السورة وصفاً لميدان المعركة قبل نشوب القتال، وأين تواجد جيش المسلمين وجيش الكفار؟: إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتَّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَـكِن لِّيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ

عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ(٤٢).

لقد تمركز المسلمون على تل مرتفع من الأرض (عدوة)، وتمركز العدو على تل آخر مقابل له. لكن جيش المسلمين كان على مرتفع يعلو المكان الذي تمركز فيه المشركون، مما أعطاهم أفضلية استراتيجية هامة لكسب الحرب، لم يخطط لها المسلمون مسبقاً، ولكنها حدثت بالصدفة المباركة. وهو مخالف لما ذكرته كتب السير والحديث والتفسير من أن (رسول الله سار ليبادر قريشاً، إلى ماء بدر، فلما جاء أدنى ماء من بدر نزل عليه، فقال الحباب بن المنذر بن الجموح: يا رسول الله، منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتعداه، ولا نقصر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال رسول الله: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة»، قال الحباب: يا رسول الله، ليس بمنزل، ولكن انهض حتى تجعل القلب كلها من وراء ظهرك، ثم غور كل قليب بها إلا قليباً واحداً، ثم احفر عليه حوضاً، فنقاتل القوم ونشرب ولا يشربون، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قد أشرت بالرأي»، ففعل ذلك) انتهى ما ذكره ابن إسحاق في سيرته.

والقصة مختلقة لأنها تخالف الآية السابقة التي تقول إن نزول جيش المسلمين لم يكن نتيجة تخطيط لا من الحباب ولا من غيره ولا حتى من الرسول، ولكنها صدفة فقط.

- وعندما التقى الجمعان قبل نشوب المعركة، كان المسلمون بمعنويات مرتفعة، لدرجة كان يتراءى لهم أن جيش العدو أقل مما هو في الحقيقة، كما أن المشركين كان يتراءى لهم أن جيش المسلمين قليلو العدد، كما هو بالفعل. وهو ما شجعهم على أن يقدموا على المعركة ويقتل عدد من كبرائهم، وتحل بهم الهزيمة. ولو تخيلوا جيش المسلمين بعدد كبير، فقد يتراجعون عن القتال قبل نشوبه: وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأمُورُ(٤٤).

أثناء المعركة

مسلمة قريش يخالفون أمر الله

في سورة محمد التي سبقت معركة بدر، فُرض قانونٌ حربيٌ ينص على وجوب قتل أكبر عدد ممكن من المشركين، لأن قريشاً أكثر عدداً من المسلمين، وقتل أكبر عدد منهم إضعاف وإثخان لهم. ولا يؤسر منهم أحد إلا في معركة يكون المسلمون فيها متفوقين عدداً وعتاداً:

فَإذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ(٤) محمد.

هذا القانون الإلهي عمل بعض المسلمين على مخالفته في معركة بدر، وهو ما أخبرتنا به الآيات التي أجلنا الحديث عنها من سورة الأنفال، وهي: مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٦٧) لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٦٨) فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٦٩) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٧٠) وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٧١) الأنفال.

والذين أقدموا على مخالفة قانون سورة محمد، وأسروا مشركي قريش ولم يقتلوهم، هم من أسميناهم مسلمة قريش، الذين بدأوا موالاة مشركي قريش قبل الهجرة، والذين كرهوا الدخول في حرب مع قريش بعد الهجرة، والذين حاولوا إقناع الرسول بالدخول في محادثات مع قريش بدل الحرب، مع أن قريشاً هي من طردت المسلمين في مكة، وهي من لاحقتهم بعد هجرتهم.

والآيات تُذكِّرُ بقانون سورة محمد «مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ». وتبين سبب إقدام مسلمة قريش على أسر أقاربهم، لأنهم يوالونهم ولا يريدون قتلهم «تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ». ولم يقع بهم عذاب من الله لأن الله سبحانه يؤخرهم ليوم القيامة: «لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

ومسلمة قريش تابعوا مخالفاتهم للوحي، كما فعل بنو إسرائيل زمن موسى قبلهم. الذين طالبوا موسى باتخاذ أصنام، ثم اتخذوا العجل، ثم امتنعوا عن دخول القرية المقدسة..... الخ

وقد قال الله فيهم: أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(٧٥) البقرة.

وهو ما ينطبق على مسلمة قريش، الذين ستستمر مخالفاتهم للوحي وسيتسببون بمشاكل

للمسلمين ودولته طوال عصر الرسول وبعد موته، ولن يحسن إسلامهم ولن يؤمنوا.

ولو عدنا إلى الآيات: (١٤١-١٤٣) من سورة النساء لوجدنا أنها تقول إن مسلمة قريش قد يصدر منه أي شيء لمؤازرة قريش وحمايتها:

الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللّهِ قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً(١٤١) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً(١٤٢) مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلاء وَلاَ إِلَى هَـؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً(١٤٣).

بعد المعركة

- **الأنفال وتوزيعها**

معركة بدر أول حرب يخوضها المسلمون في تاريخهم، وهي المواجهة الحربية الأولى مع قريش. وقد انتصر فيها المسلمون، وقتلوا عددا كبيراً من كبراء قريش، واسروا عدداً آخر، واستولوا على أسلاب وغنائم كثيرة. وغنائم الحرب لها قيمة عالية عند الناس في ذلك الزمان، لأنها عبارة عن سيوف ودروع وعتاد حربي يعز تواجده بكثرة بين أيدي سكان جزيرة العرب، كونها في الغالب لا تصنع محلياً، بل تأتي من الهند والشام ومن بلاد أخرى غيرها. لذا فهي قليلة وغالية الثمن.

والحروب في الجاهلية لها قوانينها المتعارف عليها في اقتسام الغنائم بين أفراد الجيش المنتصر، وتنص تلك القوانين على أن كل من قتل محارباً من العدو فله سلبه، أي ملابسه وسلاحه ومركبه إن كان راكباً. أما بقية الغنائم التي يتركها العدو خلفه بعد هزيمته فهذه هي الأنفال، وكان زعيم القبيلة هو من يقوم بتوزيعها، حسبما يرى.

ولأن بدراً أول حرب يخوضها المسلمون في الإسلام، فقد كان أول اهتماماتهم فيما لو انتصروا على عدوهم، هو كيف سيتم تقسيم الأنفال؟ أما الأسلاب فستذهب لمن حصل عليها، كما كان متبعاً في الجاهلية. فكان أول ما تحدثت عنه السورة هو توزيع الأنفال:

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ

وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(١).

ومعنى أن تصرف الأنفال لله، أي يصرف منها للنفقات التي تدفعها دولة المسلمين. ومن ذلك تجهيز الجيش وسد حاجات المحتاجين من فقراء ومساكين. ومعنى أن تصرف للرسول أي يؤخذ منها ما يقيم قوته اليومي، لأنه لا دخل له ولا عمل، حيث يقضي كل وقته في الدعوة، ويحتاج للإنفاق على مصروفاته وأهل بيته.

ولأن النفس البشرية ضعيفة فقد يتساءل البعض كيف لنا أن نعرف ما يقسم لدولة المسلمين وما يعطى الرسول؟

أو هل يمكن للرسول أن يأخذ كيفما يشاء من الأنفال دون محاسبة، مثلما يفعل بعض القائمين على الجمعيات الخيرية في بلادنا في هذا العصر بحجة تأويل أن الصدقة يعطى منها القائمون عليها؟

لذا جاءت آية أخرى في السورة توضح هذا الأمر:

وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٤١).

فالله له خمس الأنفال. أي أن الخمس يخصص لمصروفات دولة المسلمين، وأهمها في تلك الفترة تسليح الجيش وتجهيزه. ولا يذهب لرجل الدين كما يفعل أتباع المذهب الشيعي. والباقي يصرف للرسول والمحتاجين الذين أمر الله أن يعطوا من الإنفاق وهم: المحتاج من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وبنسب متساوية. أي أن الرسول يأخذ ما يأخذه اليتيم أو المسكين لا أكثر. وهو ما يجب أن يصرف للقائمين عليها، في حال تفرغهم للعمل في الجمعيات الخيرية وليس لهم دخل سواه. ولا يأخذون كيفما يشاؤون أو يعطون أكثر من سهم الفقير والمسكين.

وصرف الأنفال كما ورد في الآية لن يعجب البعض من القادرين وغير المحتاجين، الذين يرغبون في قسم منها لأنفسهم، متناسين أنهم لديهم مداخيل تمكنهم من الصرف على أنفسهم وأهلهم. ولن يتقبل حكم القرآن في الأنفال إلا من يؤمن بالله حقاً: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(٢) الَّذِينَ

يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣) أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ(٤) الأنفال.

والمؤمنون حقاً ليس فقط رضوا بحكم الله في الأنفال بل وينفقون من أموالهم في كل المجالات التي تحتاجها دولة المسلمين والمجالات التي أمر بها القرآن، ويقيمون الصلاة وكل أوامر الدين. بينما الذين يطالبون بجزء من الأنفال يتباطؤون في الإنفاق، وقد لا يقيمون كل أوامر الدين، وهم مسلمة يثرب الذين تحدثت عنهم سورة الصف ومحمد والنساء والبقرة وغيرها من السور، والذين أعلنوا إسلامهم ولم يؤمنوا.

- **مسلمة قريش (بعد المعركة)**

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ(٢٠) وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ(٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابَّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ(٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ(٢٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٢٤) وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢٥) وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(٢٧) وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ(٢٨) يِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(٢٩) الأنفال.

المخاطب هم «مسلمة قريش» الذين لا يستمعون لأوامر الرسول. وتذكرهم الآية (٢٦) ببداية الإسلام في مكة عندما كانوا مع بقية المسلمين قلة مستضعفين خائفين، وتقارن ذلك بحال المسلمين اليوم (بعد بدر)، وما هم عليه من عزة. وكون هذه الفئة توالي مشركي قريش معللين ذلك بصلات القربى وهو غير مقبول عند الله، كما حذرتهم سورة المجادلة: لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا

إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٢٢).

- **ردة فعل المنافقين بعد بدر**

إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـؤُلاء دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٤٩) الأنفال.

لقد كان المنافقون يراهنون على نهاية الإسلام وسحق المسلمين في بدر، بناءً على معطيات الواقع. فقريش أكثر عدداً، وتملك المال الوفير لتجهيز جيشها بأفضل العتاد الحربي المتاح. بينما المسلمون أقل عدداً ولا يملكون المال الكافي لتجهيز جيشهم بتجهيزات موازية لتجهيزات قريش. لكن نتيجة المعركة أصابتهم بخيبة أمل، فقد انتصر المسلمون واندحرت قريش، بعكس كل التوقعات والمؤشرات. فعاد المنافقون إلى المدينة وهم غير مصدقين، وكانوا يتناجون فيما بينهم أن ما حدث هو مجرد صدفة، وأن المسلمين مقضي عليهم لا محالة، فلا يغرنهم انتصارهم غير المتوقع في بدر.

انقلاب الموازين

في بدر اشتبك المسلمون مع مشركي قريش في أهم معركة في التاريخ. إذ إن نتيجتها تحدد بقاء الإسلام وميلاد أول دولة إسلامية، أو زوال الإسلام من سطح الأرض وإبادة المسلمين.

وفي ذلك اليوم، وخلال وقت قياسي قصير، ألحق جيش المسلمين الضعيف والقليل العدد، بجيش مشركي قريش، القوي في كل شيء، إلا في المعنويات، هزيمة أليمة، لم تتعاف منها قريش أبداً. لقد سُحقت كبرياء قريش، التي قدمت ليثرب بصورة السيد الذي سيعاقب عبده الآبق (المسلمين). وكانت تشعر بأنها ليس فقط تتفوق عدداً وتسلحاً، بل إنها تتفوق نفسياً وبدون مقارنة. لأن كثيراً من المسلمين عبارة عن عبيد سابقين وموالٍ مستضعفين اعتادوا الخنوع وعدم القدرة على الوقوف في وجه السيد (قريش). لذا لم يخطر على بال أكثر المتشائمين من قريش أن تحل الهزيمة بهم على أيدي عبيد الأمس ومستضعفي مكة ويثرب. لكن جرأة أتقياء المسلمين في القتال نتيجة معنوياتهم المرتفعة – والتي لم تتوقعها قريش – أدت لانهيار معنويات المشركين، ولم يفيقوا من الصدمة إلا ومن بقي منهم يهرولون فارين بأرواحهم قبل أن تتخطفها سيوف بلال وعمار وخباب وابن مسعود، تاركين وراءهم عتادهم وركابهم وجثث قتلاهم.

وقد قتل عدد كبير جداً من سادة قريش – بالنسبة لمجموعهم العام – تقول كتب السير والأخبار إنه بلغ سبعين رجلاً من خيرة كبراء مكة. والهزيمة انطوت على أكثر من خسارة الرجال والعتاد، فقد أحدثت في نفسيات قريش جرحاً غائراً، لم يندمل مع الأيام. واستمر ينزف تبعات هدت جسد أهل مكة حتى أنهكته، وأجبرت كبراءها على استسلام مهين لمستضعفيها وعبيدها السابقين بعد وقت قصير من هذه المعركة، دخلت بموجبه مكة تحت حكم المسلمين وأهلها صاغرون.

أما المسلمون فقد مثلت بدر مولداً جديداً لدولة المسلمين التي ولدت ضعيفة هزيلة في المدينة بعد الهجرة، وذلك قبل أشهر من هذه المعركة، وها هي تولد من جديد بروح معنوية وثقة عالية لأفرادها الذين خلعوا أردان الذل وتذوقوا للمرة الأولى ثوب العزة والتمكين.

ولم يعد مقبولاً الآن من المسلمين التفكير بالتردد في قتال العدو، أو التراخي عن القتال أو الهرب من المعركة، كما كان حالهم قبل بدر: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ(١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(١٦) الأنفال.

وقتال الكفار لم يأت لأن المسلمين أرادوا ذلك ورغبوا فيه. فقد حدثتنا سور سابقة عن وضع بعض المسلمين قبل بدر وكيف كانوا لا يرغبون في الحرب، لكن الله جل شأنه مهلك الكافرين الذين يحاربون دينه، كسنة مرت على كل الأمم، وهلاك كبراء قريش وقادة الصد عن الدين وحرب المسلمين، جاء علي أيدي المسلمين. فقتلهم كان لمشيئة الله، وما سيوف المسلمين إلا أداة لتنفيذ تلك المشيئة. كما أن الزلازل والبراكين أداة لهلاك قوم لوط، والطوفان أداة لهلاك قوم نوح: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١٧) ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ(١٨) الأنفال.

ثم تتوجه الآيات بالخطاب لقريش قائلة: إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ(١٩) الأنفال.

لقد قدمتم ليثرب للقضاء على المسلمين، كفتح ونصر لكم، كنتم تظنون أنه في متناول

أيديكم دون عناء. لكن الفتح والنصر تحول للمسلمين. ولم تغن عنكم قوتكم، ولن تغني عنكم مستقبلاً في صراعكم مع المسلمين. والخيار الأفضل لكم هو أن تنتهوا عن حرب المسلمين ومطاردتهم وصد غيركم عن الإسلام. وإن غلبت عليكم شقاوتكم وعدتم لحرب المسلمين فسيكون ذلك وبالاً عليكم.

لقد انقلبت الموازين بالفعل، بعد المعركة. فأصبح المسلمون في موقف أقوى وأصبحت قريش في موقف أضعف. مع نقص عدد كبراء قريش بشكل ظاهر بسبب من قتل منهم، بينما كان عدد المسلمين يزيد كل يوم، وسرعان ما ستجد قريش نفسها هي الجانب الأضعف عدداً وعتاداً ومعنويات.

ثم تخاطب السورة فئة من المسلمين الذين كان لهم موقف متخاذل من الحرب، وتحدثت عنهم السور السابقة.

استراتيجية المستقبل

من يخن معاهدة مع المسلمين يجب القضاء عليه

وقريش خانت معاهدة لها مع المسلمين بعدم الاعتداء وقدمت لحربهم، كما تبين الآية التالية: الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ(٥٦) الأنفال.

وهؤلاء لا عهد لهم عند المسلمين، ومتى لقيهم المسلمون في قتال وهزموا فعلى المسلمين ملاحقتهم وقتل أكبر عدد منهم لأنهم سيبقون خطراً على الإسلام: فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ(٥٧) الأنفال.

والسورة تأمر الرسول بالاتصال بكل من تبدر منه بوادر بخيانة المعاهدات مع المسلمين وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ(٥٨) وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ(٥٩) الأنفال.

وتذكيره بالعواقب الوخيمة المترتبة على ذلك، وأنها ستعني الحرب بلا هوادة.

في ذات الوقت على المسلمين أن يكونوا بكامل جاهزيتهم للحرب، وأن يكون جيشهم كامل التسليح، والاستعداد في حال خان العدو المعاهدة:

وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ

مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ(٦٠) الأنفال.

فإن أبقت قريش على معاهدة السلام فعلى المسلمين احترامها وعدم التعرض للمشركين: وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنه هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٦١) الأنفال.

وإن تبين أنهم يريدون خداع المسلمين فليحذر المسلمون وليكونوا على أهبة الاستعداد دائماً، وليتذكروا أنه بسبب الدخول في الإسلام فقد ائتلفت قلوب فئتين من المسلمين كان بينهما عداء تاريخي، وأصبحوا يشعرون فيما بينهم بروح الأخوة في الإسلام: وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ(٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٦٣) الأنفال.

وتشير السورة إلى أنه كان هناك عدة معاهدات سلام بين المسلمين وقريش، وكانت قريش تنقض المعاهدات باستمرار. وبسبب عدم احترام قريش لتلك المعاهدات، حدثت معركة بدر، التي لم تكن لحرب قريش بسبب بقائهم على الكفر. وبعد المعركة يبدو أن هناك معاهدة سلام جديدة أبرمت بين الرسول وقريش، وقد أمرت الآيات الرسول أن يتصل بقريش ويحذرهم من التفكير بنقض تلك المعاهدة، لأن نقضها يعني إعلان الحرب بين قريش والمسلمين.

وعلى المسلمين إعداد العدة للحرب بكل الوسائل، من عتاد ومدد وسلاح ونفقة، وإذا ما وجب القتال فعليهم أن يتعاملوا مع العدو في ميدان المعركة بكل قسوة وغلظة لكي يرهب الدخول معهم في حرب مستقبلاً. وفي ذلك حقن للدماء، فالمسلمون لا يبحثون عن القتال، ولكنه فرض عليهم وأجبروا على الدخول فيه. وإذا كان لابد من القتال فليكن عنيفا لدرجة سحق الخصم وإضعاف قوته، لئلا يعاود الحرب مرة أخرى.

وإذا أعلن العدو رغبته في السلم، فيجب على المسلمين القبول مع الحذر والحيطة، لأن قريشاً نقضت المعاهدات عدة مرات في السابق، ومع ذلك فدولة المسلمين تقبل السلم لأنها لا تبحث عن الحرب. وتوقيع معاهدة سلام مع قريش لا يعني أن يهمل شأن الجيش، بل يجب أن يكون هناك تسليح واستعداد كامل، طوال الوقت.

معركة أُحُد

سورة آل عمران تتحدث عن معركة أُحُد، لكنها لا تتحدث عنها حسب ترتيب وقوع الأحداث. ولذا سنحاول سرد الأحداث حسب تسلسلها وليس حسب ترتيب الآيات، كما يلي:

أسباب الهزيمة

ويمكن تقسمها لقسمين:

أسباب قبل المعركة، وأسباب أثناء المعركة.

أسباب ما قبل المعركة

الشح في الإنفاق

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ(١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ(١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ(١٧) آل عمران.

وذكر الشهوات الدنيوية والتي منها النساء والأولاد في الآيات السابقة، يشير إلى ما سبق وتحدثت عنه الآيات (١١-١٨) من سورة التغابن التي نزلت قبل المعركة، والتي تشير إلى أن امتناع بعض المسلمين عن الإنفاق لتجهيز الجيش، جاء بإيحاء من أزواجهم وأولادهم، لأن الدخل كان قليلا بسبب القحط الذي أصاب المدينة، ولو أنفق منه على الجيش فسينقص عن الوفاء بمتطلباتهم. كما أن سورة الحديد بمجملها تتحدث عن امتناع بعض مسلمي يثرب من الإنفاق على تجهيز الجيش لمعركة أحد، بسبب شح الأمطار في ذلك العام وقلة الدخل.

ويفهم من آيات آل عمران والحديد والتغابن أن الإنفاق على تجهيز الجيش المسلم قبل أحد

لم يكن كافياً، لأن الناس جبلوا على حب المال والمتاع والنساء والبنين. وبما أن القحط كان سائداً فقد امتنع البعض عن الإنفاق ليوفر المال لنسائه وبنيه ومتطلباتهم الدنيوية.

ونتيجة لذلك عانى جيش المسلمين من قلة التجهيز والعتاد في معركة أُحُد.

العامل النفسي

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ(١٢٤) بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ(١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ(١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذَّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ(١٢٨) وَللهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٢٩) آل عمران.

الآيات تُذكّر المسلمين بوضعهم في معركة بدر، وكيف كانوا قلة ضعيفة بالنسبة لجيش قريش، ومع ذلك انتصروا بفضل الاستعداد النفسي الذي كان ناجحاً، وكان هو العامل الحاسم في نصر المسلمين في تلك المعركة. وقد أنزل الله سكينته عليهم لأنهم كانوا مستعدين نفسياً، ومعنوياتهم عالية جداً، وألقى الرعب في نفوس أعدائهم.

أما في أحد فقد كان الوضع على العكس تماماً. فبرغم أن جيش المسلمين كان أكثر عدداً مما كانوا عليه في بدر، إلا أن معنوياتهم كانت ضعيفة، وهو سبب هام آخر أدى لهزيمتهم.

ولم تنزل عليهم ملائكة لتحل عليهم السكينة لأنهم نفسياً لم يكونوا مستعدين. وهذه نقطة هامة، تؤكد أن على المسلمين معاونة أنفسهم وتهيئة جيوشهم بكل ما يستطيعون مادياً ونفسياً وأسلحة، وسيأتي بعد ذلك دور إحلال السكينة والطمأنينة بواسطة جند الله الملائكة التي قد تكون مشاعر في النفس ذاتها.

التنافر والبعد عن التجانس

وهذا قد يكون مرده إلى الاقتتال والمشاحنات بين مسلمة قريش والمستضعفين والتي تحدثت عنها الآيات: (٦-١٣) من سورة الحجرات. ثم جاءت الآيات: (١٧٨-١٧٩) من سورة

البقرة توجه المسلمين لحل مشكلة ديات القتلى بين الفريقين.

ومن ذلك مواقف مسلمة يثرب من المسلمين وموالاتهم لأهل الكتاب والذي تحدثت عنه سور البقرة والنساء والمائدة. وقد لخصت سورة آل عمران مواقف المسلمين من القتال والإنفاق في سبيل الله: الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ للهِّ وَالنبي مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ(١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(١٧٣) فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِّ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللهِّ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ(١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(١٧٥) وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللهَّ شَيْئاً يُرِيدُ اللهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّواْ اللهَّ شَيْئاً وَلهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٧٧) وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ(١٧٨) مَّا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَّ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُواْ بِاللهِّ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ(١٧٩) وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَللهِّ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(١٨٠) آل عمران.

الآيات تعطي صورة إجمالية لبعض المواقف المختلفة للمسلمين من الحرب، كما يلي:

- **كان هناك أناس صادقون في إيمانهم**

تقبلوا الأوضاع منذ البداية بكل صبر، ولم يرتعبوا قبل المعركة لما علموا بقدوم قريش ومن عاونها «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ». كما لم يقنطوا ولم يحبطوا لما خسروا المعركة، لعلمهم أن الله معهم وأن النصر سيكون حليفهم في النهاية.

وهؤلاء بعضهم من مسلمي مكة (المهاجرون الأتقياء) وبعضهم من مسلمي يثرب من أهل الكتاب والأوس والخزرج والأعراب (الأنصار الأتقياء).

والآية تقول: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ». وقد تكون فيها إشارة إلى ما

ذكرته كتب السير: من أن قريشاً جمعت أحابيشها ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة لحرب المسلمين.

- **البعض ممن أعلن إسلامه في يثرب ارتدوا**

وقد أعلنوا ردتهم عندما خرج المسلمون لملاقاة قريش في أحد «وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ». فهم أعلنوا إسلامهم ليس عن قناعة، ولكن بحثاً عن أوضاع أفضل. وبما أن الإسلام يعني حروباً مستمرة ضد الأعداء، فلا حاجة لهم به.

- **والبعض منهم امتنع عن الإنفاق لتسليح وتجهيز جيش المسلمين**

وهؤلاء مصيرهم جهنم، ولو استمروا بالتظاهر بالإسلام.

وهذه الصورة بعيدة كل البعد عن التراص والتكافل في المجتمع والتي أمر وحث عليها القرآن باستمرار، والتي بكل تأكيد كانت عاملاً هاماً وجوهرياً لهزيمة المسلمين.

استغلال الحرب للمتاجرة

يبدو أن سبب امتناع البعض عن الإنفاق لكي يستغلوا الحرب للكسب الربوي. فقد كانوا يجهزون ويسلحون غيرهم من المجاهدين الخارجين لمعركة أُحُد، على أن تعاد قيمة التجهيزات مع فوائد في وقت لاحق. فنزلت الآيات تحذرهم للمرة الأخيرة – بعد أن حذرتهم الآيات: (٢٧٥-٢٨١) من سورة البقرة، عن التعامل بالربا تحت أي ظرف. وتقول لهم الآيات إن من يؤمن بالآخرة فعليه أن ينفق، والإنفاق عكس الربا، إذ إنه بذل للمال أو العين دون توقع استرجاعه بفوائد أو بدون: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٣٠) وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ(١٣١) وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالنبيلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(١٣٢) وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ(١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ

(١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) آل عمران.

والآيات واضحة الدلالة على ما كانت عليه هذه الفئة من المسلمين، الذين ينظرون للحرب على أنها فرص للكسب، وليست للذود عن دولة المسلمين وحماية الدين. وبالتالي فالدافع للقتال ضعيف عندهم، لأنهم لا يرغبون في الموت ويحبون الحياة والمال.

أسباب حدثت في ميدان المعركة تسببت في الهزيمة

التنافر وعدم الانسجام (في الميدان)

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١٢١) إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(١٢٢) آل عمران.

هاتان الآيتان تظهران أنه أثناء تنظيم النبي لجند المسلمين في الميدان استعدادا للقتال، حدث خلاف بينهم حول المواقع والتمركز، وتطور الخلاف لدرجة أن فئتين من المسلمين كادتا تنسحبان من أرض المعركة. والانسجام يعني أن هناك رأياً واحداً يتبعه الجميع، وأن يكون العمل كفريق واحد، وهو عامل هام جداً ومطلوب للجيش لكي ينتصر. وقد دخل المسلمون المعركة وتركيزهم مشتت، والاستعداد النفسي والانسجام مواز في أهميته للعدة والعتاد، ودخول الجيش للمعركة وهو ناقص التسليح الفعلي أو النفسي يعرضه للهزيمة.

شجار في أرض المعركة

الله وعد المسلمين إن هم أخلصوا النية له وقاتلوا الكفار فسوف يلقي الرعب في قلوب أعدائهم وسينزل السكينة عليهم وسينصرهم. وقد صدق الله جل وعلا وعده للمسلمين في بدر، وفي أحد أيضاً. فبرغم أن جيش المسلمين ليس مسلحاً كما يجب، وبرغم الخلافات بين أفراده في أرض المعركة، وبرغم السلبيات الكثيرة والحالة النفسية الضعيفة التي كان عليها المسلمون، إلا أنهم استطاعوا في بداية المعركة أن يحسوهم بالسيف حساً، فانهزم المشركون وتسابقوا على الهرب. إلا أن الشجار الذي حدث بين المسلمين حول ملاحقة الكفار أدى إلى أن يستغل المشركون الوضع ويكروا عليهم ويهزموهم: وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم

مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ(١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالنبي يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غُمّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٥٣) آل عمران.

لقد كان هناك شجار أثناء المعركة تسبب في خسارة المسلمين بعد أن كانوا منتصرين، ولم يكن كما روت كتب التراث أن السبب ترك الرماة أماكنهم لكي يحصلوا على بعض الغنائم قبل أن يصل إليها غيرهم. لأن غنائم المعركة لا تؤخذ غلاباً ومن التقط شيئاً فهو له. ولكنها تقسم حسب قانون الأنفال والفيء الذي بينته سورة الأنفال.

ولو عدنا للآيات: (١-١٣،٩) في سورة الممتحنة، والآيات: (١٦-٣٨) في سورة محمد، إضافة للأنفال، فسنجدها تتحدث عن إبقاء بعض مسلمة قريش على علاقة ود وموالاة لأقاربهم من المشركين، ومحاولاتهم ألا يدخل المسلمون في قتال ضدهم. ولما أصبحت معركة بدر حقيقة لا مناص منها، كادوا أن يتأخروا عن الخروج، وعندما التحم جيش المسلمين مع العدو، كانوا يقومون بأسر رجال قريش بدل قتلهم، مخالفين أمر الله بأن يثخن المسلمون عدوهم أولاً وذلك بقتل أكبر عدد منهم، ولا يكون الأسر إلا في المعارك التي يكون فيها تفوق المسلمين العددي واضحاً.

وفي سورة آل عمران التي بين أيدينا، يأتي التحذير لهؤلاء بأن من يصر منهم على علاقته بالمشركين فليس من الله في شيء، حتى لو أخفاها على النبي والمسلمين: لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ(٢٨) قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ(٣٠) آل عمران.

وعندما بدأ القتال في أحد، كان النصر في بداية المعركة للمسلمين، وبدأت جنود قريش بالتقهقر والانهزام، عندها حدث نزاع بين المسلمين. طائفة تقول بوجوب مطاردة فلول الأعداء وقتل أكبر عدد منهم، حتى ينهك العدو ويضعف، كما أمرت سورة الأنفال، وهذا

الفريق كان في مقدمته رسول الله. وفريق آخر وقف ضد تنفيذ ذلك بحجة أنهم هزموا وهذا هو المهم، ولا حاجة لقتلهم، وهؤلاء كانوا مسلمة قريش الموالين للمشركين.

وهذا الجدال الذي حدث في أرض المعركة، لاحظه المشركون. فالتفوا عليهم وأعملوا فيهم السيف، مما أصابهم بالارتباك، الذي أدى لفرار غالبيتهم من أرض المعركة تاركين خلفهم رسول الله وطائفة من المؤمنين: وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ(١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالنبي يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ .... (١٥٣) آل عمران.

الرسول أصيب وأشيع أنه قتل

وعندما بدأ المسلمون بإعادة ترتيب أوضاعهم والعودة للمعركة، أشيع أن رسول الله قد قتل، فسارع عدد كبير منهم بالهرب من أرض المعركة: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ(١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَاباً مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ(١٤٥) آل عمران.

والنبي بالفعل أصيب أثناء المعركة، كما توحي الآيات، التي تقول للمسلمين: الدين لله، والدفاع عن دولته واجب في كل الأحوال والأوقات، وما محمد إلا رسول فقط، ولو قتل أو مات فلا يعني أن الناس تترك الدين أو تتخلى عن الدعوة له، أو حماية دولته والدفاع عن وجوده، أو محاربة أعدائه.

ويكون سبب الهزيمة المباشر هو الخلاف الذي وقع بين المسلمين حول محاولة بعض مسلمي مكة ثني بقية المسلمين عن ملاحقة جيش الأعداء المنهزم وإعمال السيف فيهم، مما أدى لنزاعهم ولاحظ المشركون ذلك فارتدوا عليهم وأحاطوا بهم، مما أربك المسلمين وأدى لهرب الكثير منهم وانهزامهم: وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ...... (١٥٢) آل عمران.

وتستمر السورة تخبرنا بما حدث بعد ذلك: إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالنبي يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غُمَّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٥٣) آل عمران.

لقد هرب غالبية المسلمين من أرض المعركة التي بقي فيها الرسول.

والسورة تقول: «إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ» فهل تقرأ (أَحَد) بمعنى شخص أو (أُحُد) ويعني المكان الذي سميت به المعركة. المعنى يستقيم لو تقرأ ولا تلوون على أُحُدْ، وليس على أَحَد. والمنهزمون هربوا باتجاه المدينة مخلفين أُحُداً الجبل ومكان المعركة التي وقعت تحت سفحه، خلف ظهورهم. والهارب الذي لا يلوي على شيء، هو من لا يلتفت. ومن هرب من المسلمين باتجاه المدينة وصفتهم الآية بأنهم: «لا يلوون على أُحُد» أي مسرعون في هربهم يلتفون إلى الجبل ومكان المعركة.

وتبين السورة أن مسلمة قريش أفصحوا بعد المعركة عن مشاعرهم الدفينة المعارضة لحرب أقاربهم المشركين، وذلك بإعلان عدم جدوى هذه الحروب التي فرضت عليهم قتال أهلهم وقبيلتهم. وصرحوا بأنه لو وافق المسلمون على رأيهم الرافض لحرب قريش منذ البداية، لكان بالإمكان إيجاد حل سلمي بين الطرفين، ولو تم هذا فسيكون القتلى قد بقوا على قيد الحياة بيننا ولم يموتوا، فنزلت الآيات تنهاهم عن هذا الشعور الذي يوحي بعدم إيمان من قال به بمغزى الجهاد والدفاع عن دين الله ودولته: ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ للهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(١٥٤) آل عمران.

وتعود السورة للتحذير من الهرب: إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ(١٥٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(١٥٦) آل عمران.

فلا يوجد مبرر للمسلم يجيز له الفرار. إذ إنه إن قتل فله الجنة، وغاية المسلم في قبوله للإسلام هو دخول الجنة. لذا فمن قتل في المعركة فهو مدعاة للفرح وليس الحزن، وإن لم يمت وانتصر على العدو ففيه نصر لدين الله وإنهاك للعدو ودفاع عن دولة المسلمين.

ويفهم من الآيات السابقة أنه يجب مطاردة فلول العدو والتأكد من خلو أرض المعركة منهم.

ثم تتجه السورة لمخاطبة المؤمنين: وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ(١٥٧) وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ(١٥٨) آل عمران.

عدد قتلى المسلمين في أُحُد

أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١٦٥) آل عمران.

من هذه الآية يمكن أن نفهم أن خسائر المسلمين من القتلى في أحد لم تكن بعدد قتلى قريش في بدر، بل إنها لا تزيد عن النصف « أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا».

وكتب التراث تزعم أن قتلى قريش في بدر كانوا سبعين وأن قتلى المسلمين في أحد كانوا سبعين لكي يظهروا أن قريشاً أخذت بثأرها، وهذا لا أساس له من الصحة. فالآية تقول إن قتلى قريش في بدر ضعف قتلى المسلمين في أحد، وإن كان قتلى قريش سبعين في بدر، فقتلى المسلمين كانوا في الثلاثينات في أحد.

النتائج والعبر

تبتعد السورة عن الحديث عن أسباب الهزيمة لتتحدث عن النتائج والعبر التي ترتبت على خسارة المعركة، وتقييم ما حدث.

العلاج النفسي

وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ(١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن

تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ(١٤٢) وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ(١٤٣) آل عمران.

لعل أول ما كان يحتاجه المسلمون بعد الهزيمة هو رفع المعنويات وشحذ الهمم وحثهم على الصبر والاستعداد للتضحية في قادم الأيام للذود عن دين الله. فقد كان وقع الهزيمة على المسلمين عظيماً، وأصابهم اليأس والحزن. فجاءت الآيات لتقول لهم إن عليهم أن يتذكروا أن الأيام دول، وأنهم وإن خسروا معركة، فالخاتمة في النهاية هي انتصارهم بالحرب الدائرة بينهم وبين قريش.

وقد كان المسلمون (بعضهم) يتمنون أن يلاقوا كفار قريش لينتقموا مما لاقوه منهم من تعذيب وطرد من مكة، لكن لما كتب عليهم القتال، حزنوا وأحبطوا من أول خسارة. والحرب هزيمة وانتصار، والهزيمة درس يستفاد منه لتفادي الأخطاء وليس مجالاً للحزن والأسى. كما أن الصبر على المحن جزء من الجهاد.

وتقول السورة للمسلمين إن الإسلام ليس محمداً، فلو قتل، وهو قد يقتل، فهذا لا يعني ضياع الإسلام أو يكون عذراً لترك الإسلام: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ(١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَاباً مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ(١٤٥) آل عمران.

وسنعود للحديث عن هذه الآيات فيما بعد.

وتستمر الآيات تحث المسلمين على أن يكون شعارهم في القتال هو نصرة دين الله، ولا شيء سواه. والصبر على المحن والشدائد، وعدم التخاذل أو الضعف أو الهرب من المعركة: وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ(١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ(١٤٧) فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(١٤٨) آل عمران.

تحذير من الاستماع لأهل الكتاب الكفار

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ(١٤٩)

بَلِ اللهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ(١٥٠) آل عمران.

لأنهم يستمعون لأهل الكتاب الذين يثبطونهم عن الخروج ويشككونهم في الدين.

تطمين للمسلمين أن كسبهم للحرب مع قريش مضمون

في وقت كانت المعنويات متدنية والحزن يعم المعسكر المسلم نتيجة هزيمتهم في أحد وقتل عدد كبير منهم، تأتي الآيات لتؤكد لهم أن النصر في النهاية سيكون حليفهم في هذه الحرب ضد قريش: سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ(١٥١) آل عمران.

النبي تعامل مع المسلمين بعد المعركة بكل لطف

وتظهر لنا السورة تعامل النبي مع المسلمين بعد المعركة: فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ(١٥٩) آل عمران.

لقد كان النبي متسامحاً معهم ولم يوبخ أحداً على هروبه، كما لم يؤنب الفريقين المتنازعين من المسلمين أثناء المعركة، ولم يلق باللوم على أحد للهزيمة.

والآية تؤكد على النبي أن يستفيد المسلمون مما حدث للمستقبل، وأن تُرْسَم خطط المعركة بالتشاور بين المسلمين، ومتى ما اتفقوا تنفذ. ولأن هذه الخطط وما يجب فعله أمور دنيوية تهم الأمة فيجب ألا يبتِ فيها رجل واحد أو جماعة دون الباقين، ولكن تقرر بالتشاور بين الجميع (شورى). (هنا دستور دولة المسلمين، يقرر كيف تشرع القوانين، ويقول: السلطة التشريعية لأمور الأمة لا يتفرد بسنها شخص واحد ولا مجموعة واحدة بل تسن بموجب استفتاء عام).

وتعود السورة للحديث عن النتائج والعبر

إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(١٦٠) آل عمران.

على المسلمين أن يخلصوا نيتهم لله، ومتى ما خلصت النيات لله، وخرج المسلمون للقتال

تحت شعار الدفاع عن الدين فسينصرهم الله على عدوه وعدوهم. وعلى المسلم أن يتوكل على الله ويثق أنه سيكسب الحرب مع الكفار، ولو خسر معركة من المعارك.

مخاطبة المسلمين

المعارك تمحيص للمواقف: لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ(١٨٦) آل عمران.

فالقتل ونقص الأموال بسبب القحط أو غيره وسماع الدعايات المغرضة وعبارات التثبيط والتشكيك من بني إسرائيل والمشركين كلها امتحان للمسلمين لمعرفة المؤمن من المنافق.

وبنو إسرائيل نسوا دين الله واتبعوا تشريعات بشرية: وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ(١٨٧) آل عمران.

وهم يحبون المديح لأنفسهم، ويتباهون بما يملكون من مال، فلا تظن يا محمد أنهم سينجون من عذاب الله: لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٨٨) وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١٨٩) آل عمران.

مسلمة يثرب وموقفهم مما حدث في أُحد

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ(١٦٦) وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ(١٦٧) الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٦٨) آل عمران.

كان هناك بعض مسلمة يثرب، لم يخرجوا مع المسلمين لأحد، ولم ينفقوا على تسليح الجيش المسلم. وقد استغلوا فرصة هزيمة المسلمين، وأخذوا يلومون المسلمين على الخروج للقتال، ويقولون لهم إنه لو لم يخرجوا لما قتل من قتل منهم، ولما هزموا وخسروا متاعهم ولما أصابهم

ما أصابهم.

وترد عليهم السورة: وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ(١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ(١٧١) آل عمران.

وأسلوب الآيات يتناسب مع المناسبة، فالمنافقون اعتبروا القتال مجرد خسارة أرواح إلى الأبد، بينما السورة تقول إن من يقتل في الحرب فهو لم يخسر حياته، بل هو حي عند ربه. كون الفترة بين الموت وقيام الساعة بالنسبة للميت هي لحظات. فمجرد ما قتل سيجد نفسه وقد حوسب ودخل الجنة. ولا تعني أنه حي الآن بعد موته. وبهذا المعنى يمكن أن يقال للميت من الكفار بأنه يعذب في النار. لأنه بمجرد موته سيمر الزمن سريعاً ولن يشعر إلا وهو في يوم الحساب وقد دخل النار، وكأن هذا حدث لحظة وفاته.

المفسرون كالعادة حملوا الآية معاني لم تقلها، بزعمهم أن قتيل الحرب حي وموجود عند الله، وهو قول مشابه لما قالوه عن عيسى في تأويلهم لمعنى الآية: بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً(١٥٨) النساء.

والله جل وعلا لا يجتمع عنده الأموات، حتى لو كانوا صالحين، لأنه سبحانه هو من خلق الموت كوسيلة عبور للآخرة، ولابد أن يمر بها كل مخلوق حي في الكون كله وليست حكراً على الإنسان أو مخلوقات الأرض: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ(٢٧) الرحمن.

ردة فعل بني إسرائيل وبقية أهل الكتاب على ما حدث للمسلمين

لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ(١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ(١٨٢) الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٨٣) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ(١٨٤) آل عمران.

فبعد أن انجلت معركة أحد كانوا يتحدثون في مجالسهم بسخرية، عمن يصفون أنفسهم بجند الله – يقصدون المسلمين – وأن ربهم فقير لدرجة لم يستطع تسليحهم كما يجب لينتصروا في المعركة. وهم من طلبوا من النبي آية تثبت صحة رسالته ليؤمنوا، وقد كفروا بدين الله برغم رؤيتهم الآيات على زمن موسى، ولن يؤمنوا ولو رأوا كل آية.

وتقول لهم الآية التالية إن العبرة في نتيجة الحساب يوم القيامة، أما الحياة الدنيا فسرعان ما تزول: كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ(١٨٥) آل عمران.

مشكلة عائلية في بيت الرسول

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١) قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ(٣) إِن تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ(٤) عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً(٥) التحريم.

لقد أسر النبي لإحدى أزواجه شيئاً، فأخبرت به بقية الأزواج. فجئن يسألنه عن حقيقة ما وصل لأسماعهن، ويطالبن بتفسير. فاعترف ببعضه، ولم يفصح عن بعضه الآخر.

ثم ذهب إلى زوجته التي أسر إليها الخبر، وعاتبها على نشره. وعندما سألته عمن أخبره، قال لها إن الله هو من أنبأه بذلك. ليس ادعاءً بأن وحياً أخبره، ولكنه استعارة تعني أنه علم بتوفيق من الله. وهو أسلوب من المعتاد استخدامه. يقال: كيف اهتديت إلى هذا البيت؟ فتجيب: هداني الله.

وكان من نتيجة هذا أن حلف النبي ألا يفعل شيئاً مباحاً له فعله في العادة، فنزلت الآيات تقول له لا يجوز له أن يحرم ما أحل له لكسب رضا أزواجه، وأن عليه أن يتحلل من قسمه بكفارة اليمين.

موقعة الأحزاب

الأحزاب تعني بلغة هذا العصر، اصطلاحاً قريباً من «قوات الائتلاف». فهي قوة مؤلفة من عدة جيوش من قبائل وشعوب مختلفة اتفقت فيما بينها لغزو المسلمين، ونصرة قريش[1].

وقبل الأحزاب، خاض المسلمون معركتين حربيتين ضد قريش، انتصروا في الأولى نصراً صريحاً، ومذلاً لقريش. وخسروا المعركة الثانية بطريقة غير متوقعة، بعد أن كانوا منتصرين في بدايتها، بسبب نزاع ومشاحنات بينهم أثناء المعركة. وقد اتفق الطرفان المتنازعان على معاهدات عدم اعتداء، لكن قريشاً لم تلتزم بها. مما أعطى دلالة واضحة على أن قريشاً لن تسمح للمسلمين بالعيش بسلام، وستعمل كل ما تستطيع للقضاء على دولتهم.

وفي يثرب كانت غالبية بني إسرائيل واليهود والنصارى قد وقفوا موقف العداء للإسلام، وكانوا يتمنون زواله، ويتعاطفون مع قريش ضد المسلمين: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً(٥١) النساء.

ومع أن معركة أحد قد خسرها المسلمون إلا أنها لم تثن من عزائمهم، ولم تضعف دولتهم. والآيات التي نزلت بعد المعركة كشفت لهم أسباب الهزيمة، وأظهرت لهم مواقف الناس منهم، ومن يعادي الإسلام ودولته. سواء ممن لم يؤمن من بني إسرائيل والأعراب، أو أولئك الذين يعلنون إسلامهم وما هم بمسلمين من المنافقين (مسلمة قريش ومسلمة يثرب). وهو ما ساهم بسرعة تجاوز المسلمين لآثار الهزيمة، واستفادتهم مما حدث. فأصبحت دولة المسلمين أكثر قوة مما كانت عليه، وأفرادها أشد تلاحماً، واستعداداً لملاقاة أعدائهم، بعكس أماني بني إسرائيل والمنافقين الذين كانوا قبل أحد يراهنون على زوال تلك الدولة.

---

١ مثلما حدث في غزو العراق عام ١٩٩٠ عندما هاجمت أمريكا بمعاونة بريطانيا وأستراليا وكوريا الجنوبية والدانمارك وبولندا وبمشاركة من عشرات الدول من بينها للأسف دول عربية. بل واستخدمت أراضيها لانطلاق الطائرات الحربية لضرب المدن العراقية وكمقرات للقيادة. والآن هناك حرب ضروس على غزة بدأت في ٨/ ٧/ ٢٠١٤ وافتعلت لها إسرائيل سبباً هو اختطاف ثلاثة شبان إسرائيليين في الضفة الغربية وقتلهم. وقد تأكد أن حماس لا علاقة لها بالحادث وأنه حادث تم بعمل إسرائيل وتدبيرها. ويقول رئيس الوزراء الإسرائيلي عن هذه الحرب إنها تعتمد على ائتلاف إقليمي مكون من إسرائيل والدول العربية «المعتدلة في المنطقة». كما ذكرت وسائل الإعلام الإسرائيلية والعالمية.

الجو العام في المدينة قبل الغزوة

عندما علم المسلمون بتوجه جيش الأحزاب إلى المدينة، أصيب بعضهم بحالة من الهلع والرعب والانهيار التام، وأيقنوا أنه مقضي عليهم لا محالة. وسرت بينهم حالة من الهستيريا غير الطبيعية، لدرجة وصفها القرآن بقوله: «وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا». كما ورد في الآية العاشرة من سورة الأحزاب.

وهذه المشاعر تخالف ما وصلوا إليه من استعداد نفسي لمواجهة الشدائد، فهم يعلمون أنهم محاطون بالأعداء، وأن قريشاً مستمرة بحربها عليهم. ولن يكون مفاجئاً لهم لو أن قريشاً حشدت جمعاً معها من القبائل وهاجمت المسلمين في أي لحظة.

فلماذا أصيبوا بهذا التوتر والقنوط المفرط، بمجرد سماعهم توجه الجيش إليهم، وقبل أن يروه؟

كما أن حفر الخندق دلالة على أن المسلمين متيقنون أنه لا قبل لهم بالجيش الغازي، وأن عليهم أن يحموا المدينة بطريقة أكثر فاعلية من القتال.

قرائن كثيرة تجعلنا نقول إن المسلمين شعروا أن الجيش القادم لحربهم لا يشبه جيش قريش في بدر وأحد. ولو كان جيش الأحزاب - كما تقول كتب الأخبار - مكوناً من قريش ومن عاونها من بعض القبائل في جزيرة العرب، لكان شبيهاً بجيش قريش في المعركتين السابقتين، حتى لو كان أكثر عدداً، ولن يصاب المسلمون بالهلع لدرجة أن دخل الشك قلوب بعضهم من الإسلام « وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا».

ولقد استعانت قريش بقبائل كثيرة خرجوا معها لحرب المسلمين في أحد - كما تقول كتب الأخبار - وخرج المسلمون لملاقاتهم، دون وجل. وفي كلا المعركتين السابقتين - بدر وأحد - كان جيش المسلمين أقل عدداً من جيش العدو، لكن هذا لم يشعرهم بما شعروا به من قنوط عند سماعهم بتوجه جيش الأحزاب إلى المدينة.

وكلما اقترب وصول جيش الأحزاب إلى المدينة كلما انهارت المعنويات أكثر، لدرجة أن المنافقين استأذنوا الرسول بالرجوع إلى المدينة وترك بقية المسلمين يحفرون الخندق، بحجة أن بيوتهم عورة، وهم في الحقيقة عازمون على الهرب حتى لا يقضى عليهم مع المسلمين: وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً(١٣) الأحزاب.

جيش الأحزاب

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِّ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُّ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً(٩) إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهَّ الظُّنُونَا(١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً(١١) الأحزاب.

لقد كان جيش الأحزاب يتكون من قوات مهاجمة «من فوقكم»، وقوات تتربص في الخلف «من أسفل منكم». والجيوش المهاجمة هي قريش ومن معها ممن ناصرها من قبائل عربية وغيرها. أما القوات المتربصة فهي من بني إسرائيل يثرب، والتي لن تشارك في القتال ولكنها ستستقبل المسلمين لو انهزموا بالسيف، كما سنرى.

فشل خطة الهجوم على المدينة

لقد كانت الخطة تقضي بأن تبدأ جيوش الأحزاب المهاجمة بالهجوم على المدينة من جهة الشمال - حيث حفر الخندق - وإذا ما انهزم المسلمون، خرج بنو إسرائيل (القوات المتربصة) من حصونهم في جنوب يثرب، وهاجموهم. فيقع جيش المسلمين بين كماشتي القوات المهاجمة من الشمال وبنو إسرائيل من الجنوب، وبالتالي يقضى عليهم عن بكرة أبيهم « إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ».

لكن القوات المهاجمة عندما وصلت لمشارف المدينة فوجئت بالخندق يحول بينها وبين الوصول للمسلمين، فعسكرت الجيوش على طول الخندق وبمحاذاته من الجهة الشمالية، في محاولة للبحث عن منفذ للتسلل إلى المدينة. لكن انتظارهم طال إلى أن هبت عليهم ريح صرصر عاتية في إحدى الليالي، بعثرت عدتهم ونفرت خيولهم ومطاياهم، فتفرق شملهم وارتدوا على أعقابهم دون أن يناولوا من المسلمين: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِّ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُّ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً(٩) الأحزاب.

وفي صبيحة اليوم التالي عاد المسلمون إلى المدينة، بعد تأكدهم أن جيش التحالف قد انفرط عقده وهرب جنده لا يلوون على شيء.

المشاركون في جيش الأحزاب

ما نقلته لنا كتب التراث عن الأحزاب لا يمكن الركون إليه. لذا سنقدم فيما يلي تصورنا عما حدث، معتمدين على إعادة لقراءة الآيات، ووضع الافتراضات، كما يلي:

جيش الأحزاب الذي هاجم المدينة لم يكن مكوناً من قبائل عربية كما يقول المؤرخون، وإن كان بينهم رجال من قريش وقضاعة وأفراد من قبائل أخرى. لأن الجيش الذي أرعب المسلمين قدم من مكان بعيد، ويمتلك عتاداً يفوق ما كان متوفراً في جزيرة العرب، وفيما يلي بعض النقاط التي تبين القناعات التي بنينا عليها هذا الاستنتاج:

- الجيوش التي سمع المسلمون أنها قادمة لحربهم كانت لا تقارن بما هو متعارف عليه في جزيرة العرب، بمقاييس ذلك العصر. بدليل أن المسلمين، وقبل أن تصل جموع الأحزاب إلى المدينة استشعروا عظم هذه القوات، وحجمها، وقدراتها وعتادها الذي يستحيل أن يكون لهم قبل بمواجهته، فقاموا بحفر الخندق.
- تقول كتب التراث إن جيش الأحزاب بلغ عشرة آلاف مقاتل كلهم من قبائل عربية قريبة من مكة والمدينة. وهذا الكلام غير مقبول، لأن أعداد القبائل كان بالمئات وليس بالآلاف، ولا يمكن جمع عشرة آلاف مقاتل من القبائل التي ذكرتها كتب التراث. وخلال تاريخ جزيرة العرب المعروف، لم يحدث أن اجتمع جيش مكون من رجال عدة قبائل من جزيرة العرب بأعداد تصل لآلاف المقاتلين لحرب قبيلة عربية. ولم يسبق أن اجتمع آلاف المقاتلين من قبائل جزيرة العرب في حرب ولا حتى يوم ذي قار (يوم انتصر فيه جيش مؤلف من قبائل عربية على جيش من الفرس قبل الإسلام).

وهذا المثنى ابن حارثة الشيباني الذي كان يغير على الفرس ويستولي على غنائم منهم قبل الإسلام، عندما سأله أبو بكر عن عدد مقاتلي قبيلته، قال متباهياً بكثرتهم التي يتفوقون بها على غيرهم من القبائل: «إنا لنزيد على ألف، ولن تغلب ألفٌ من قلة» (كما ورد في سيرة ابن هشام).

فهو يرى أن الألف عدد استثنائي في القبائل العربية في ذلك الوقت، ولا يمكن أن يتوفر إلا في النادر، وفي قبيلة هائلة العدد مثل قبيلته. هذا في حال سلمنا أن المثنى عدهم بالفعل، وهو لم يفعل، ولكنه قدر عددهم الذي لابد أنه كان أقل. لأن العرب لا يجيدون التعامل

مع الأرقام بدقة، ولا يعتمدون على الإحصاء الدقيق، وإنما يعتمدون على التقديرات. لذا نجد أنهم يقولون إن جيش فتح مكة (١٠) آلاف وجيش الأحزاب (١٠) آلاف، للدلالة على ضخامته، وهم لم يقوموا بإحصاء دقيق لأي من الجيشين. وسوف نتبين عند حديثنا عن سورة الفتح، أن جيش فتح مكة لم يصل إلى عشرة آلاف بل ولا ربع هذا العدد.

وبالنسبة للأحزاب فقد يكون الجيش الغازي أقل أو أكثر من عشرة آلاف، لكن الرقم الذي ذكره المؤرخون العرب جاء تقديراً غيبياً من قصاص عاشوا بعد الأحداث بأزمنة طويلة، ولم يكونوا شهود عيان، ولم تأت تقديراتهم نتيجة تعداد وإحصاء.

- كما أنه من الصعب تصور أن تجتمع عدة قبائل لحرب المسلمين، في وقت لم يكن بين تلك القبائل والمسلمين عداء أو حروب، وإن كان هذا لا ينفي أن تكون قضاعة وقبيلة أخرى أو أكثر قد انضم منها أفراد لقريش من باب الحمية المدفوعة الثمن من قريش، وطلباً للغنائم.
- ولو افترضنا جدلاً أن كل تلك القبائل التي ذكرها المؤرخون، بالفعل اجتمعت على حرب المسلمين، فلن يخيفوا المسلمين بالدرجة التي صورها القرآن. لأنه مهما اجتمع من تلك القبائل فلن يكون بالآلاف، وإن فاق عدد جيش المسلمين. ولو افترضنا أن هناك سبع قبائل وكل قبيلة حشدت ١٥٠-٢٠٠ مقاتل فلن يزيد جيش الأحزاب عن ألف وخمس مئة رجل، بما فيهم رجال قريش. فيما يستطيع المسلمون جمع بضع مئات، وبالتالي فمن المتيسر على المسلمين مواجهة جيش يبلغ ضعفي عددهم: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ (٦٥) الأنفال.
- ولو تمادينا بالافتراض، وقلنا: إن جيش الأحزاب يتكون من قريش وجمع من كنانة وغطفان وفزارة وبني مرة وأشجع وبنو أسد وسُليم، فلن يستغرق وصولهم المدينة أكثر من أسبوع إلى عشرة أيام. ولن يتأخر وصولهم إلى المدينة لمدة طويلة تمكن خلالها المسلمون من حفر خندق يصفه الواقدي (١٣٠-٢٠٧ هـ) في كتابه المغازي، بقوله: «وكان طوله خمسة آلاف ذراع، وعرضه تسعة أذرع، وعمقه من سبعة أذرع إلى عشرة. وكان على كل عشرة من المسلمين حفر أربعين ذراعاً». وهو ما يعني أن المسلمين قد

حفروا ما مجموعه (٣٤٠) ألف ذراع مكعب، نتيجة ضرب طول الخندق في عرضه في معدل عمقه. ويقول البلاذري إن كل عشرة رجال من الصحابة قد قاموا بحفر أربعين ذراعاً، بعرض تسعة أذرع، وعمق سبعة إلى عشرة أذرع، خلال فترة حفر الخندق التي قدرها بـ (٢٤) يوماً. أي أن الرجل الواحد حفر ما معدله (٢٧٢) ذراعاً مكعباً. وهو ما يعني أن هناك (١٢٥٠) رجلاً كانوا يعملون في وقت واحد في حفر الخندق من بدايته إلى النهاية. ولن نقف هنا عند عدد الرجال الذي لا يمكن أن يتوفر للمسلمين في تلك الفترة، لكننا نقول:

إذا كان الذراع يساوي نصف متر تقريباً، فإن طول الخندق سيكون (٢٥٠٠) متر، وعرضه (٤,٥) متر، ومعدل عمقه (٤,٢٥) متر. وإجمالي ما تم حفره (٤٧٨١٢) متراً مكعباً. أي أن الرجل الواحد حفر ما معدله (٣٨,٢٥) متراً مكعباً، في (٢٤) يوماً. أي بمعدل (١,٦) متر مكعب يومياً. وهذا يقرب من المستحيل في أرض صخرية جبلية صلدة، ومعدات بدائية، وكلما زاد عمق الحفر زادت الصعوبة. كما أن الحفر يحتم أن يكون هناك من يحفر وآخرون يخرجون التراب والصخور، مما يعني أن عدد الرجال الذين شاركوا في الحفر أكبر مما ذكرته كتب الأخبار، أو أن المدة التي قضوها في حفر الخندق تزيد عن (٢٤) يوماً. لذا أميل إلى أن حفر الخندق زاد عن شهر ونصف كما تقول بعض الروايات وليس كما يقول الواقدي.

وتصورنا هو أن هناك عدداً محدوداً من المعاول، وعدداً أقل من (١٢٥٠) رجلاً من المسلمين. وكان المسلمون يتناوبون العمل عليها لتكسير الصخور، ثم يقوم آخرون برفع الحجارة والتراب الذي أحدثته المعاول قبل أن يعاود الحفارون طرق الأرض مرة أخرى.

وكان العمل في حفر الخندق قد بدأ من نقطة معينة، بالقرب من جبل سلع، وبسرعة تحددها عدد المعاول المتوفرة للحفر. فلو كان هناك (١٠٠) معول وكل معول اتفق على أن يحفر ذراعاً طولياً، فإن الحفر سيستمر لفترة في خط طوله مئة ذراع، إلى أن يكتمل الحفر بعرض تسعة أذرع، وعمق تسعة أخرى. ثم ينتقل الحفر لخط تال، وهكذا حتى اكتمال حفر الخندق كله.

وأرجح ألا يكون هناك أكثر من (١٠٠) معول متوفر للمسلمين في ذلك الوقت، سواء كانوا

يملكونها، أو أنهم استعاروها من بني قريظة – كما تقول كتب الأخبار - الذين يملكونها بحكم مزاولتهم لمهنة الزراعة. ولن نناقش حقيقة إعارة بني قريظة المسلمين المعاول وفي نفس الوقت يعاونون الغزاة ضد المسلمين.

وبناءً على ما تقدم يمكن أن نقول:

إن جيش الأحزاب قدم من مناطق بعيدة، بجموع غفيرة لا يمكن توفرها في جزيرة العرب، وسمعته تسبقه في امتلاك عدة وعتاد تفوق ما يمكن للعرب توفيره. لذا أصيب المسلمون بالذعر والقنوط، لأنهم يعلمون ألا قبل لهم بهذا الجيش. وعندما تفتقت أذهانهم عن حفر خندق لصد العدوان، كان لديهم الوقت الكافي للانتهاء من الحفر قبل وصول الأحزاب، لأن المسافة بين موطن الجيش الغازي والمدينة بعيدة. وهذا لا ينفي أن يكون قد اشترك مع الأحزاب رجال من بعض القبائل إضافة لقريش.

ومن الوصف القرآني، فالجيش القادم من بعيد كان مخيفاً في عدده وعتاده بدرجة غير مألوفة لعرب الجزيرة، وعرف المسلمون ألا قبل لهم به، فقاموا بحفر خندق شمال المدينة يمتد من حرة وبرة غرب جبل سلع وغرب يثرب، إلى حرة واقم الواقعة شرق يثرب. وقد أغلق الخندق كل المساحة المفتوحة الوحيدة لمنطقة يثرب من جهة الشمال، وأصبحت يثرب بكاملها عبارة عن منطقة مغلقة. تحدها الحرات الشديدة الوعورة من ثلاث جهات، والخندق من الجهة الشمالية الباقية.

وبمجرد وصول قوات الائتلاف الغازية إلى المدينة، حتى هبت عليهم ريح عاتية، قضت على آخر معنوياتهم التي تكاد تكون منهارة من بعد السفر ومشقة الطريق. فأصابهم الذعر والخوف، خاصة أنه لم يكن لديهم دافع لحرب المسلمين، وليس بينهم عداوة، ولكنهم حضروا نتيجة لإقناع قريش بمعاونتهم. فما كان من قوات الائتلاف إلا أن لاذوا بالفرار وعادوا أدراجهم تحت جنح الظلام من حيث أتوا. وتفرق أفراد القبائل الذين انحازوا إليهم، وعاد القرشيون أدراجهم لمكة يجرون أذيال الخيبة. وعاد المسلمون لمساكنهم دون قتال. ليقابلهم المنافقون بألسنة حداد لإقناعهم أنهم معهم، وهم في الحقيقة سيهربون لو عاد الأحزاب.

سبب مهاجمة الأحزاب إلى المدينة

لعل الباعث لهذا الهجوم على المدينة من الأحزاب هو أن قريشاً – بقناعة من رجالها أو بإقناع من بني إسرائيل – قامت بطلب النجدة من الروم على حرب المسلمين. وكتب التراث تتحدث عن لقاء بين أبي سفيان ووفد من قريش وهرقل – عظيم الروم – في إيليا (القدس الحالية). وهو لقاء قد يكون تم بالفعل، ولكن لسبب آخر غير الذي أوردته كتب التراث التي تقول إن اللقاء تم بناءً على رغبة هرقل سؤال أبي سفيان عن محمد، الذي امتدحه. وهذا يستحيل أن يحدث، لأن أبا سفيان وكل كبراء قريش يعملون على تشويه سمعة الرسول والإسلام وصد الناس عن الدخول فيه كما أخبرنا القرآن: الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ(١٩) هود.

وقد حاربوا الإسلام والمسلمين وحاولوا صد الناس عن لقاء الرسول والدخول في الإسلام كما أخبرتنا عدة سور مكية. ولعل اللقاء قد تم بناءً على رغبة قريش، وقد هول أبو سفيان لهرقل خطر المسلمين على قطع إمدادات البهارات واللبان والبخور التي تقوم قريش بتوصيلها للروم. وأقنع هرقل بضرورة إرسال جيش رومي للقضاء على محمد وأتباعه، وقد وافق هرقل على ذلك. ولما تسامعت قضاعة وبعض القبائل الأخرى بقدوم جيش الروم انضم بعض رجالها إلى الأحزاب كمرتزقة طلباً للغنائم كعادتهم في ذلك الزمن.

وموافقة هرقل على معاونة قريش من الممكن حدوثها، لأن تجار قريش هم من يجلب البخور واللبان والتوابل من جنوب الجزيرة إلى الشام ليبيعوها على تجار ينقلونها لروما وأوروبا، وقد أوحوا لهرقل أن وجود المسلمين في يثرب يشكل خطراً على هذه الإمدادات، كما سبق وذكر.

وقد علم المسلمون بتحركات قريش وسفر أبي سفيان والوفد المرافق له للقاء هرقل. ولعل الرسول قد أرسل وفداً وخطاباً لهرقل يشرح له دعوته ولماذا تحاربه قريش، لعله يثنيه عن معاونتهم. وهو الخطاب الذي حورت كتب التراث نصه ليبدو وكأنه خطاب من الرسول لهرقل يدعوه فيه للإسلام. لأنه من الصعب تصور أن يقوم الرسول بإرسال خطابات للروم والفرس وهو بالكاد يسيطر على المدينة التي لا تمثل إلا بقعة محدودة جداً من يثرب، ومحاطة بقبائل وثنية، وبعدها حواضر وثنية ومن بني إسرائيل وغيرهم، أقرب من الفرس

والروم، على الرسول أن يدعوهم أولاً، ولو آمنوا ووصل الإسلام لحدود تلك الدولتين العظميين، حينها سيكون بإمكان الرسول مراسلة قيصر وكسرى، ودعوتهما للإسلام.

ولعل أبا سفيان ومن معه من قريش لم يتوجهوا مباشرة إلى إيليا ولكنهم قابلوا الحاكم الإقليمي الغساني أولاً، والذي اقترح عليهم مقابلة هرقل، لأنه لا يستطيع أن يجهز جيشاً ويأمره بالسفر لعمق جزيرة العرب لقتال دون موافقة مسبقة، وأمر من هرقل.

وقد عاد وفد الرسول مسرعاً إلى المدينة ليخبرهم أن هرقل وافق على نجدة قريش وأنه أمر بإعداد جيش عرمرم للقضاء على المسلمين. وهو ما أدخل الرعب في قلوبهم وزلزل الأرض من تحت أرجلهم، وفي نفس الوقت كان لديهم الوقت الكافي لحفر الخندق قبل وصول جيش الروم.

وإن كان هذا ما حدث فالأحزاب إعلان من الروم الحرب على المسلمين، وأول لقاء حربي بينهم. ويكون الروم هم من بدأ العداء، الذي نتج عنه أمر الله المسلمين في سور الأحزاب وبراءة بقتال كل من شارك في قوات الأحزاب وسحقهم، لأن بقاءهم سيشكل خطراً دائماً على وجود الإسلام. وقد نفذ المسلمون تعاليم القرآن، وأرسلوا الجيش تلو الآخر لحرب الروم في عصر رسول الله وبعد وفاته حتى تم القضاء على الوجود الروماني في الشرق الأوسط. نقول هذا لأنه يفسر الكثير من الغموض حول الأحزاب، وحول إرسال الرسول لجيش مؤتة لحرب الروم، وحملة تبوك بعدها، وجيش أسامة ابن زيد، فيما بعد، مع أنه محاط بأعداء أقرب منهم، وحول أسباب بدء ما عرف بالفتوح التي يصورها لنا التاريخ على أنها حروب توسعية[1].

كما يفسر جلاء قبيلة من بني إسرائيل **عن يثرب**، التي استوطنوها لمئات طويلة من **السنين**، وقد يكونوان هم أول من سكنها. فغدرهم بالمسلمين وتعاونهم مع قريش وإيحائهم لهم بطلب العون من الروم، واستعدادهم لفتح جبهة خلفية على المسلمين إذا بدأت الحرب، ذنب لا يغتفر، وهم يعلمون ذلك. لذا سارعوا بعرض أن يخرجوا من يثرب ويتركوا أملاكهم للمسلمين مقابل الإبقاء على حياة من بقي منهم، بعد أن انكشف تآمرهم ضد المسلمين. وقد يكون افتراضنا هذا بعيداً عن الواقع عند البعض لأول وهلة، لكن بقية

---

١ انظر فقرة: حروب الردة والفتوح/ في هذا القسم.

السور المدنية التي لم نتطرق لها بعد، ستظهر أننا لم نجنح للخيال، وأن افتراضنا أقرب للحقيقة من أي رواية تقرأ في كتب التراث.

عودة مسلمة يثرب إلى المدينة وترك الحفر مع المسلمين

وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً(١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً(١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً(١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً(١٥) قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً(١٦) قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً(١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً(١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً(١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً(٢٠) الأحزاب.

لقد عاد المنافقون (مسلمة يثرب) إلى المدينة أثناء حفر الخندق، بحجة أن بيوتهم ليست محمية، ولكن السبب الحقيقي هو خوفهم من الموت في سبيل قضية لا يؤمنون بها. وبعد عودتهم إلى المدينة، عاثوا فيها فساداً مستغلين خلوها من رجال المسلمين، وسنعود للحديث عنهم وما فعلوه.

ما بعد الغزوة

لقد اندحر الغزاة دون قتال: وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً(٢٥) الأحزاب.

وكانت خطة جيوش الأحزاب قاصمة، ولو نجحت فقد يسحق المسلمون ويفنون عن بكرة أبيهم. فكان لابد من معاقبة كل من ثبت تورطه في فكرة تجمع مثل هذه الجيوش، أو

اشترك فيها، لئلا يعاودوا التآمر على الإسلام ودولته. لأن فشلهم هذه المرة لا يعني أنهم سيفشلون مرة أخرى، وبقاؤهم يعني تهديداً مستمراً لوجود الإسلام والمسلمين.

الجلاء الأول لقبيلة من بني إسرائيل

بعد أن تأكد المسلمون يقيناً أن قوات الائتلاف ذهبت إلى غير رجعة، توجهوا للقبيلة الخائنة من بني إسرائيل لمعاقبتهم على المشاركة في فكرة جمع الأحزاب وعقدهم العزم على المشاركة في مهاجمة المسلمين من الخلف، ناقضين العهد والميثاق بينهم وبين المسلمين الذي ينص على عدم الاعتداء أو معاونة الأعداء أو الكيد للمسلمين.

ولأن هذا الفريق من بني إسرائيل يعلمون أن ما اقترفوه بحق المسلمين لا يمكن أن يغتفر، فقد حاولوا الدفاع عن أنفسهم في البداية لكن سرعان ما تبين لهم أن القتال يعني الفناء، فعرضوا على المسلمين استعدادهم للجلاء من يثرب، وتسليم قلاعهم ومنازلهم ومزارعهم للمسلمين، مقابل الاحتفاظ بأرواحهم وما يستطيعون حمله من متاع ومال، فوافق الرسول والمسلمون على ذلك: وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً(٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً(٢٧) الأحزاب.

وهكذا تم إجلاء قبيلة من قبائل بني إسرائيل يثرب، لخيانتهم المسلمين، أما بقية بني إسرائيل وأهل الكتاب الآخرون فلم يمسسهم سوء، لأنه لم يكن لهم يد فيها حدث. وكان هذا هو الجلاء الأول لأي قبيلة من بني إسرائيل من يثرب، بخلاف ما نقلته كتب التراث التي تقول إن الجلاء الأول كان بعد بدر، والثاني كان بعد أحد، أعقبه ثالث وأخير بعد الأحزاب، وكل هذا مجرد اختلاق لا وجود له على أرض الواقع، ولم يتحدث عنه القرآن.

ولابد من التوقف مع المفسرين حول جلاء القبيلة من بني إسرائيل بعد الأحزاب، الذين لم يبخلوا كعادتهم باختراع القصص، فجعلوا سبب إعلان المسلمين الحرب على بني إسرائيل أمراً إلهياً أرسل به جبريل ولم يطلع المسلمون على حكمته أبداً، يقول ابن هشام في سيرته، إن الزهري أخبره عما حدث (والزهري لعلم القراء ولد سنة ٥٨ للهجرة، ومات سنة ١٢٤، ولم يكن شاهد عيان، ومع ذلك يقص ويختلق كيفما يشاء، وينقله لنا ابن هشام وغيره على أنه

الحق من ربك) يقول الزهري: فلما كانت الظهر (أي ظهر اليوم التالي لرحيل الأحزاب)، أتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم، معتجرا بعمامة من إستبرق، على بغلة عليها رحالة، عليها قطيفة من ديباج، فقال: أوَ قد وضعت السلاح يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : نعم ؛ فقال جبريل: فما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلزل بهم. فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذنا، فأذن في الناس: من كان سامعا مطيعا، فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة.

وقد تقمص جبريل شخصية دحية بن خليفة الكلبي، على بغلة بيضاء عليها رحالة، عليها قطيفة ديباج، ومر بالمسلمين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك جبريل، بعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم، ويقذف الرعب في قلوبهم. ((مرة أخرى كل ما ورد قاله الزهري، وليس شاهد عيان)).

أرجو أن يلاحظ القراء عبارة: « أوَ قد وضعت السلاح يا رسول الله صلى الله عليه وسلم» وهي عبارة لا تستقيم أبداً، لأنه إن كان المتكلم هو جبريل كما يزعم القاص، فالعبارة يجب أن تكون: يا رسول الله صلى الله عليك وليس عليه.

ومن الواضح أن المفسرين الذين منهم الزهري لا يعرفون القرآن، وإلا لعرفوا أن الرسول لم ير الملائكة إلا مرتين، كلاهما في بداية البعثة. ولعرفوا أن الملائكة لو رآها البشر لهلكوا بنص القرآن. وعرفوا أن الملائكة وكل المخلوقات النورانية لا تستطيع حمل الأشياء ولا تستطيع القتال.

وتستمر كتب السير بسرد القصص المختلق وتقول:

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حاصرهم خمسا وعشرين ليلة، فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمر سعد ابن معاذ، فحكم فيهم أن تُقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتُسبى الذراري والنساء. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة. ((لاحظ أن مختلق القصة استخدم أرقعة، ويعني سماوات))

ثم استنزلوا، فحبسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة في دار بنت الحارث، امرأة من

بني النجار، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سوق المدينة، التي هي سوقها اليوم (أي سوقها عندما وثقت القصة في عصر ابن إسحاق) فخندق بها خنادق، ثم بعث إليهم، فضرب أعناق كل من بلغ الحلم منهم ودفنوا في تلك الخنادق، وهم ستمائة أو سبعمائة، والمكثِّر لهم يقول: كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة[1].

هذا باختصار ما نقله ابن هشام في سيرته، وغيره من الإخباريين في كتبهم، نسوقها للقراء ليعلموا أن الرسول لم يفعل ولكن كتب السير والتاريخ والحديث والتفسير قولت الرسول ما لم يقل ونسبت له ما لم يفعل ولا يستطيع أن يفعل. فالرسول لا يستطيع فعل ما نسبت له كتب الأخبار ببني إسرائيل ولا بغيرهم، لأن القرآن يمنع ذلك، ولو فعل لعاقبه الله. وقد ناقشنا هذه القصص المختلقة في سنة الأولين، ولم يعد القراء يحتاجون لأدلة تثبت اختلاق هذه القصص، لأن القرآن أصبح رفيقهم الذي يخبرهم بحقيقة ما حدث، وليس ما تخيله واختلقه الرواة. وهو ما سبق وذكرته الآيات التي بين أيدينا والتي تقول إنه بعد قتال قصير عرض بنو إسرائيل الجلاء مقابل أرواحهم فوافق الرسول، ولم يكن هناك لا سبي للنساء ولا قتل للرجال العُزَّل. وسنرى في سور قادمة كيف واصل المسلمون معاقبة كل من شارك في جيوش التحالف، تنفيذاً لأمر القرآن.

زواج الرسول بمطلقة ابنه بالتبني

مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ(٤) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً(٥) الأحزاب.

الآيتان مقدمة للحديث عن زواج الرسول بمطلقة ابنه بالتبني واسمه زيد. والآيات تطمئن الرسول أن زواجه بمطلقة ابنه بالتبني ليست معصية، لأن زيد ليس ابناً للرسول من نسله، والتبني عرف، كما كان الظهار عرف، والظهار اعتقاد الناس أن من يقول لها زوجها:

---

[1] ما يؤكد أن هذه القصة خرقاء مختلقة هو أن دار بنت الحارث (إن كان لها وجود) فلا يمكن أن تسع عشرة رجال لأن دور ذلك الزمن لا تزيد عن غرفة أو غرفتين وبمساحة إجمالية ما بين (٢٥-١٠٠) متر مربع. وقد بقيت بيوت أهل جزيرة العرب بهذا الضيق إلى منتصف السبعينات من القرن العشرين. ويستحيل أن تتسع لمئة أو ستمئة أو تسعمئة نفس.

«أنت علي كظهر أمي» تحرم عليه كما أمه، أو أنها تصبح أماً له، لأن الآية تقول: « وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ».

والحادثة تناولتها كتب السير بتفاصيل لا يمكن الركون إليها.

وتعود السورة لاستكمال الحديث:

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً(٣٧) مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَّقْدُوراً(٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً(٣٩) الأحزاب.

وعلينا أن نقرأ الآيات بتأنٍ، بعيداً عما روي حولها من قصص وحكايات، ونقول:

- زواج الرسول بمطلقة ابنه بالتبني حدث قبل نزول سورة الأحزاب، ولم تنزل هذه الآيات لتبيح للرسول الزواج بها.

الآية: (٣٧) تخبرنا عن أحداث متتالية وبينهما فترات زمنية، كما يلي:

- في البداية كان هناك خلاف بين زيد وامرأته وتدخل الرسول لإقناع زيد بأن يبقي المرأة ولا يطلقها وأن يحاول حل المشاكل التي أدت لهذا الخلاف: « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ».

والذي أخفاه الرسول في نفسه قد يكون إصراره على زيد أن يبقي المرأة في عصمته ولا يطلقها، وهو يعلم أن حياتها معه لا تطاق. وليس كما زعمت كتب التراث – كما سنرى – أنه عشقها.

- كل مساعي الإصلاح فشلت وانتهى الأمر بالطلاق.
- تلا ذلك تربص امرأة زيد عدة الطلاق والتي هي عبارة عن ثلاثة قروء أو ثلاثة أشهر حسب حالتها عندما وقع الطلاق.

- بعد انقضاء مدة التربص تقدم الرسول لخطبتها ووافقت على الزواج: « فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا».
- والله لم يزوجها الرسول فعلياً ولم ينزل عليه وحياً يأمره بالزواج منها لكي يكسر عادة شائعة في المجتمع والتي تتمثل باعتبار الابن المُتبَنى ابناً حقيقياً للمتبنِّي. ولكن الذي حدث هو أن الرسول تزوجها باختيار شخصي. ونزل القرآن يؤكد أن الزواج بمطلقة الابن بالتبني صحيح، لأنه ليس ابناً بالنسب. مثله مثل الظهار الذي يعتبر الزوجة أماً لزوجها الذي ظاهرها. وكان هذا العرف متأصلاً في المجتمع حتى نزلت سورة المجادلة بتعطيله: الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ(٢).
- الرسول أقدم على الزواج وهو متحرج من كلام الناس لأنه خالف عرفاً موروثاً وليس لأنه اقترف معصية. فجاء القرآن يطمئنه أن ما فعله صواب.
- فسورة الأحزاب لا تتحدث عما سيقوم به الرسول وتاركه، ولكنها تخبر بما سبق وحدث قبل نزولها. فالآيات التي تتحدث عن الواقعة آيات إخبارية بما سبق وحدث، وليست توجيهية توجه الرسول لأن يتزوج بمطلقة ابنه بالتبني.

ويكون زواج الرسول بمطلقة ابنه بالتبني سبق غزوة الأحزاب والتحضير لها وفي الفترة التي تقع بين تعافي المسلمين من هزيمة أحد وبين تنامي الأخبار حول سعي قريش لإقناع الروم بمعاونتهم على حرب المسلمين. وبعد عدة أشهر حدثت حملة الأحزاب التي تحدثت عنها سورة الأحزاب وتحدثت السورة عن زواج الرسول بعد وقوعها بفترة من الزمن تقدر بالأشهر.

- وقد انتهت القصة ولم يعد لها ذكر بعد ذلك.

لكن في عصر الفتن والظلمات توسع الناس في تناول ما حدث للنيل من الرسول والتشنيع عليه واختلقت لذلك القصص التي لم تبخل كتب التراث – كالعادة – في توثيقها وترسيخها لتبدو وكأنها عين الحقيقة. وأول من اختلق قصة عشق الرسول لزوجة زيد هو يوحنا الدمشقي[1] ثم تناقلها عنه المفسرون وتفننوا في تعديلها وتبديلها في روايات متعددة،

---

[1] يوحنا ابن منصور ابن سيرجون مسيحي ولد في القصور الملكية الأموية أثناء عصر معاوية ابن ابي سفيان في العام ٥٦

وجاء من يوثقها في الكتب. ومن ذلك نورد بعض ما جاء في تفسير القرطبي، حيث يقول: واختلف الناس في تأويل هذه الآية (٣٧ من سورة الأحزاب) فذهب قتادة وابن زيد وجماعة من المفسرين، منهم الطبري وغيره إلى أن النبيّ وقع منه استحسان لزينب بنت جحش، وهي في عِصْمة زيد، وكان حريصاً على أن يطلّقها زيد فيتزوّجها هو؛ ثم إن زيداً لما أخبره بأنه يريد فراقها، ويشكو منها غِلظةَ قولٍ وعصيان أمرٍ، وأذًى باللسان وتعظُّماً بالشرف، قال له: «اتق الله أي فيما تقول عنها وأمسك عليك زوجك» وهو يخفي الحرص على طلاق زيد إيّاها.

** يمكن ملاحظة أن الكلام أعلاه لم ينقل عن الرسول ولا عن زيد ولا عن مطلقته ولا عن شهود عيان، ولكنه اختلاق قال به قتادة (ت ١١٨هـ) وابن زيد (ت ١٨٢هـ) وجماعة من المفسرين ومنهم الطبري (ت ٣١٠هـ). وكل ما سنقتبس من تفسير القرطبي هنا هو قصص مختلق ممن نسب له كما سنرى، وليس له مصدر ولا أساس. وكل من اختلق القصص هم أناس عاشوا في أزمنة بعيدة عن عصر الرسول، كما يظهر من تاريخ وفياتهم، ويفصلهم عنه هوة سحيقة سميناها عصر الفتن والظلمات، وتحدثنا عنها في أول الكتاب.

يقول القرطبي: وقال مقاتل (ت ١٥٥هـ) زوّج النبيّ صلى الله عليه وسلّم زينب بنت جحش من زيد فمكثت عنده حيناً، ثم إنه عليه السلام أتى زيداً يوماً يطلبه، فأبصر زينب قائمة، كانت بيضاء جميلة جسيمة من أتمّ نساء قريش، فهوِيَها وقال: «سبحان الله مقلّبِ القلوب» فسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد، ففطِن زيد فقال: يا رسول الله، ائذن لي في طلاقها، فإن فيها كبراً، تعظُم عليّ وتؤذيني بلسانها، فقال عليه السلام: «أمسك عليك زوجك واتقِ الله». وقيل: إن الله بعث ريحاً فرفعت الستر وزينب مُتَفَضِّلة في منزلها، فرأى زينب فوقعت في نفسه، ووقع في نفس زينب أنها وقعت في نفس النبي صلى الله عليه وسلّم، وذلك لما جاء يطلب زيداً، فجاء زيد فأخبرته بذلك، فوقع في نفس زيد أن يطلقها.

وهذا الهراء الذي قدمه مقاتل من بنات أفكاره هو تلقفه المستشرقون واعتبروا سورة

هـ، عندما كان جده سيرجون يعمل ككاتب للقصر وصاحب أمر الحاكم معاوية. ولما مات سرجون خلفه ابنه منصور، والد يوحنا، والذي توفي في خلافة عبد الملك ابن مروان. ليرثه ابنه يوحنا وبقي يعمل في قصور بني أمية حتى العام (١١٢هـ) حيث ترك العمل والتحق بأحد الأديرة القريبة من إيليا (القدس) وبقي حتى مات عام (١٣٢هـ) حيث خلد اسمه عند المسيحيين كأول من هاجم الإسلام في كتابه (هرطقات محمد) والذي بقي مصدراً هاماً للمبشرين حتى اليوم، لما يحويه من قصص مختلق عن رسول الله، ومنها قصة زوجة زيد.

الأحزاب تتحدث عنه. وهذه بعض الأقوال عن هذا الأفاك مقاتل والتي نقلها الذهبي في سير أعلام النبلاء:

قال ابن المبارك: ما أحسن تفسيره لو كان ثقة.

وقال ابن عيينة: قلت لمقاتل: زعموا أنك لم تسمع من الضحاك. قال: كان يغلق علي وعليه باب. فقلت في نفسي (ساخراً): أجل، باب المدينة.

وكان من يعرفه يعلم كذبه ويسخر منه، فقد قيل: إنه قال: سلوني عما دون العرش. فقالوا: أين أمعاء النملة؟ فسكت. وسألوه: لما حج آدم من حلق رأسه؟ فقال: لا أدري. قال وكيع: كان كذابا.

وعن أبي حنيفة قال: أتانا من المشرق رأيان خبيثان: جهم معطل، ومقاتل مشبه.

وقال عنه البخاري: مقاتل لا شيء البتة.

ويقول الذهبي: قلت: أجمعوا على تركه.

فإن كان هذه بعض آراء من يعرفه فكيف تم توثيق قصصه الكاذب ليستغله المستشرقون للتهجم على الرسول؟

ومثل قتادة كل أعلام كتب التراث.

فابن عباس هو من قال إن الله جل وعلا هو من أخبر الرسول بالزواج من زوجة زيد وهي ما زالت في عصمته، يقول ابن عباس كما نقل القرطبي: وقيل: والله أحق أن تستحيي منه، ولا تأمر زيداً بإمساك زوجته بعد أن أعلمك الله أنها ستكون زوجتك، فعاتبه الله على جميع هذا.

ومثل ابن عباس عليّ بن الحسين الذي يقول: إن النبيّ صلى الله عليه وسلّم كان قد أوحى الله تعالى إليه أن زيداً يطلق زينب، وأنه يتزوّجها بتزويج الله إياها، فلما تشكّى زيد للنبيّ صلى الله عليه وسلّم خُلُقَ زينب، وأنها لا تطيعه، وأعلمه أنه يريد طلاقها، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلّم على جهة الأدب والوصية: «اتق الله في قولك وأمسك عليك زوجك» وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوّجها، وهذا هو الذي أخفى في نفسه، ولم يرد أن يأمره بالطلاق لِما علم أنه سيتزوّجها؛ وخشي رسول الله صلى الله عليه وسلّم أن يلحقه

قول من الناس في أن يتزوّج زينب بعد زيد، وهو مولاه، وقد أمره بطلاقها، فعاتبه اللـه تعالى على هذا القدر من أن خشِي الناس في شيء قد أباحه اللـه لـه؛ بأن قال: «أَمْسِكْ» مع علمه بأنه يطلّق. وأعلمه أن اللـه أحق بالخشية، أي في كل حال.

ولو كان الله قد أوحى للرسول بشيء لقرأناه في كتابه الكريم، ولكن – وكما جرت العادة – يقول المفسرون ما يحلو لهم وتقوم كتب التراث بتسجيله ونقوم بتبنيه دون تفكير.

وكلام علي ابن الحسين المختلق يقول عنه القرطبي: قال علماؤنا رحمة اللـه عليهم: وهذا القول أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية، وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين؛ كالزهريّ والقاضي بكر بن العلاء القشيريّ، والقاضي أبي بكر بن العربيّ وغيرهم. والمراد بقولـه تعالى: وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولا.

ويأتي متقول آخر على الله ويقول بأعظم مما قال من سبقه، يقول القرطبي: وروى الإمام جعفر بن محمد عن آبائه عن النبي صلى اللـه عليه وسلّم «وَطَراً زَوَّجْتُكَها». ولما أعلمه اللـه بذلك دخل عليها بغير إذن، ولا تجديد عقد ولا تقرير صداق، ولا شيء مما يكون شرطاً في حقوقنا ومشروعاً لنا. وهذا من خصوصياته صلى اللـه عليه وسلّم، التي لا يشاركه فيها أحد بإجماع من المسلمين. ولـهذا كانت زينب تفاخر نساء النبي صلى اللـه عليه وسلّم وتقول: زوجكنّ آباؤكنّ وزوّجني اللـه تعالى. أخرجه النسائي عن أنس بن مالك قال: كانت زينب تَفْخَر على نساء النبي صلى اللـه عليه وسلّم تقول: إن اللـه عز وجل أنكحني من السماء. وفيها نزلت آية الحجاب؛ وسيأتي. انتهى.

والله لم يزوج الرسول بمطلقة زيد، ولكن الرسول تزوجها بإرادته الشخصية. ولم يدخل بها الرسول سفاحاً، كما صور جعفر ابن محمد في قوله: « دخل عليها بغير إذن، ولا تجديد عقد ولا تقرير صداق، ولا شيء مما يكون شرطاً في حقوقنا ومشروعاً لنا». ولم يعشقها لأنه رأى من جسدها ما فتنه بها، ولم يحدث أي شيء مما اختلقه القصاص الذين استكبروا في أنفسهم وعتو عتوا كبيرا.

وسورة الأحزاب – كما سبق وذكرنا – تخبرنا بحادثة وقعت ولا تتحدث عن شيء سيقع. وعندما قالت» زوجناكها» لا تعني أن الزواج تم بوحي من الله، ولكنها تعني أن الزواج تم بمشيئة الله، كغيره من الأحداث.

وبداية القصة أن زيداً الذي تبناه الرسول وقع بينه وبين امرأته شقاق مؤدٍ للطلاق. وقد حاول الرسول إقناع زيد برأب الصدع: « أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ». والرسول حينها يعلم أن الزوجة كانت ستتعرض للاضطهاد لو بقيت مع زوجها. لكن يبدو أن الرسول قد جامل ابنه بالتبني عندما حاول إقناعه بالإبقاء على زوجته، بدل أن يقول له إنها تعيش حياة بائسة معك ويجب عليك طلاقها: « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ»

وبعد الطلاق فكر الرسول بخطبتها لكنه شعر بنوع من الحرج فيما سيقوله الناس عنه من أنه تزوج مطلقة ابنه: «وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ».

ولعل هنا إشارة إلى أن الرسول فكر بخطبتها بمجرد إعلان زيد طلاقها، ليس لأنه عشقها ورأى من جسدها ما أثار شهوته كما لفقت كتب التراث، ولكن لشعور الرسول بالتعاطف معها فيما لاقته من ابنه فأراد أن يعوضها بمعاملة أفضل. وهذا الشعور جعله يتغلب على شعوره بالحرج من الناس، خاصة أنه يعلم أن التبني لا يحول المتبنى لولدٍ للمتبني.

وخلال فترة تربص المطلقة بعدتها، استقر رأي الرسول على خطبتها، فتقدم لخطبتها وتم الزواج. وقد يكون هذا الزواج أحدث ردة فعل في المجتمع حينها كون الناس تنظر للتبني على أنه إلحاق للمتبنى بالنسب وكأنه ولد من صلب المتبني وهذا بخلاف الواقع. لكن ردة الفعل كانت محدودة وانتهت في حينها مثلما انتهت ردة الفعل حول اعتبار من يظاهرها زوجها كالأم الحقيقية. ولكن التشنيع على الرسول جاء في عصور الفتن والظلمات حيث اختلقت القصص حول الحادثة.

وتؤكد السورة حقيقة يعرفها رجال قريش ورجال يثرب وكل من عرف الرسول، بأنه لم يرزق بأولاد أبداً ولن يكون أباً لأحد أبداً، كونه لا ينجب: مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً(٤٠) الأحزاب.

فلم يكن أباً لأي طفل ذكر، سبق تبني زيد ولا بعده، ولن يكون أباً لأي طفل يكون لاحقاً

من رجال قومه. وزيد المتبنى لن يلحق بنسب الرسول الذي توقف ولن يكون له امتداد، لأنه لا ينجب عليه الصلاة والسلام[1].

هل تبنى الرسول زيد ابن حارثة

كتب التراث تقول إن زيداً هو زيد ابن حارثة، ويوردون له نسباً وقصصاً متخالفاً عن كيفية تبني الرسول له، نورد ملخصاً لها كما يلي:

نسبه في كتب التراث

يوردون لزيد نسباً طويلاً جداً يوصله إلى كلب ثم قضاعة ثم إلى قحطان.

كما يوردون لأمه نسباً مماثلاً يوصلها لطي ثم قحطان. وهذه الأنساب الطويلة والموغلة في القدم لا سبيل للتأكد من صحتها، كما أن إيرادها بهذه الدقة المبالغ فيها يجعل الشك يحوم حول اختلاقها، ولماذا اختلقت؟

ثم يصفونه بقولهم: «كان زيد رجلاً قصيراً، أسمرا، أفطس الأنف». وهذه الصفات تنطبق على رجل أسود من أصل زنجي، ولا يمكن أن تنطبق على رجل عربي سليم النسب لكلب فقضاعة ثم قحطان.

كيف حصل عليه الرسول

تقول كتب التراث إن حكيم بن حزام بن خويلد قدم من الشام برقيق فيهم زيد بن حارثة، وأهداه لخديجة، التي أهدته لزوجها محمد، الذي أعتقه ثم تبناه.

ومرة يقولون: إن حكيم ابن حزام ابن خويلد قد اشتراه من سوق عكاظ، وليس من الشام.

ومرة أخرى يقولون: إن الرسول هو من رآه بالبطحاء بمكة ينادى عليه ليباع، فأتى خديجة فذكره لها، فاشتراه من مالها، فوهبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتقه وتبناه.

وبطبيعة الحال تتفق هذه القصص في أن الرسول حصل عليه كعبد ثم تبناه، وهذا يؤكد خرافة هذه الأقوال. لأن التبني لا يكون للعبيد، ولكن للأيتام ومعروفي النسب.

---

١ ولو كان للرسول أبناء فإن الناس سيغالون في تقدير نسل رسول الله لدرجة التعظيم. ولعل ما نراه من تعظيم لنسل علي ابن أبي طالب بحجة أن زوجته كانت بنتاً لرسول الله، خير دليل. مع أن المرأة لا تحمل النسب، ولا تورثه لأبنائها.

ولكي يتأكد القراء أن كل ما نقلته كتب الأخبار عن زيد ليس صحيحاً، وأنه ليس ابن حارثة، وأن تسمية زوجته بزينب بنت جحش ما هو إلا محض اختلاق، تعالوا نحلل بعض المعلومات التي قالوها عن زيد، مقتبسة من كتاب أحسن القصص:

يقولون إن زيد ابن حارثة مات سنة (٨) للهجرة في معركة مؤتة، وعمره خمس وخمسون سنة. أي أن عمره عندما هاجر الرسول كان (٤٧) سنة، وبما أن الرسول - حسب زعمهم - هاجر وعمره ثلاث وخمسين سنة، فإن فارق السن بين الرسول وزيد كان ست سنوات فقط[١].

وحسب زعمهم، فالرسول تزوج خديجة وعمره خمس وعشرون، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين، أي عندما كان عمر الرسول خمسين سنة. والرسول تبنى زيداً، كما يقولون، في حياة خديجة، ولنقل قبل وفاتها بعامين. وكان عمر الرسول ٤٨ سنة، وعمر زيد ٤٢ سنة. فهل يعقل أن يتبنى الرسول رجلاً بعمر ٤٢ وقريباً من سنه؟

وحتى لو افترضنا أن الرسول تبنى زيداً في السنة الأولى من زواجه بخديجة، أي عندما كان عمره ٢٥، حسب زعمهم، فإن عمر زيد سيكون ١٩ سنة. أي أنه رجل بالغ عاقل. وحتى لو كان رقيقاً واشتراه الرسول أو غيره وأعتقه الرسول، فلا يمكنه تبنيه وهو في تلك السن، لأن التبني يكون للأطفال، ولا يكون للرجال أبداً.

ولن نتتبع كل ما قاله الإخباريون عن زيد، ولن نسلم به، وما يهمنا من أمره، هو أن محمداً قد تبنى طفلاً في مكة. وتبني محمد للطفل زيد كان فعلاً غير منكر، في بيئة اعتادت على التبني، وقام بإلحاقه بنسبه، كما يفعل الناس. وأصبح يسمى زيد ابن محمد، واستمر كذلك منذ تبنيه في مكة، وحتى نزول سورة الأحزاب في المدينة.

وزيد ابن حارثة المشهور كان له ولد اسمه أسامة ابن زيد قد ولاه الرسول قيادة جيش لحرب الروم في آخر حياته، مما ينفي نفياً قاطعاً أن يكون الرسول قد تبناه في وقت من الأوقات لقرب سنه من سن الرسول.

كما أن زينب بنت جحش «المزعومة» من المسلمين القدماء وتقول كتب التراث إنها ولدت

---

١ عمر الرسول - كما ثبت لدينا - كان أقل من الخمسين عندما توفي. على أساس أنه بعث قبل أن يصل عمره الثلاثين، وبقي يدعو في مكة قرابة ثمان سنوات، ومثلها أو أقل في المدينة.

قبل البعثة وكان عمرها (٣٣) عاماً عند هجرة الرسول. ولما تزوجها رسول الله كان عمرها يزيد عن (٣٨) عاماً. أي كانت قد هرمت بمقاييس ذلك العصر، وتجاوزت نضارة الشباب، وقاربت سن اليأس. مما ينفي أن تكون قد سحرت الرسول بجمالها كما زعمت كتب التراث. ولم يكن زواج الرسول بها زواج عجوز متصابٍ بفتاة يافعة، كما تحاول أن تصوره كتب التراث. ولكنه زواج رجل هرم بسيدة قاربت سن اليأس. نقول هذا الكلام على سبيل الافتراض من أن زوجة زيد هي بالفعل زينب بنت جحش.

من هو زيد ابن محمد؟

نقول كتب التراث إن الرسول تزوج بخديجة بنت خويلد التي سبق وتزوجت قبله برجيلين أحدهما هلك ولم تنجب منه، واسمه عتيق بن عائذ من بني مخزوم. والآخر أنجبت منه واسمه أبو هالة. وقد اختلف في اسمه، فقيل هو زرارة وقيل نباش وقيل هند، وقيل غير ذلك. وقد أنجبت خديجة منه ولد تذكر كتب التراث أن اسمه هند. وقال ابن الكلبي: أبو هالة هند بن النباش بن زرارة، كان زوج خديجة قبل النبي صلى الله عليه وسلم، فولدت له هند بن هند، وابن ابن ابنه هند بن هند بن هند. انتهى

وهذا التكرار في اسم هند يثير الريبة، ويضع احتمالاً ألا يكون ولد ابن أبي هالة اسمه هند.

وسنحاول في الأسطر القادمة التعمق أكثر في بعض الروايات، ونقول:

إن الأخبار عن أبي هالة زوج خديجة ضبابية وتم تعتيمها، لدرجة أن اسمه الأول ذكر فيه عدة آراء، منها: أنه نباش أو نباش أو زرارة أو مالك وقيل هند.

والتعتيم على حياة الرجل طال نسله من خديجة، فقيل إنه أنجب منها ولدين بينما أنجب منها الرسول أولاداً وبناتاً. ولو تساءلنا اين هم أولاد رسول الله من خديجة؟ لأجابت كتب التراث بأنهم: عبد الله والطاهر وأحياناً يضاف لهم غيرهم. وكلهم ماتوا وهم أطفال، بينما بقيت البنات.

والقرآن يؤكد أن الرسول لم ينجب من خديجة لا بنين ولا بنات. ولو كان قد أنجب فلن يعيره القرشي بالأبتر: إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ(٣) الكوثر.

وحتى لو افترضنا أنه لم يرزق من خديجة بأولاد ذكور وكان له بنات فقط، فلن يعيره القرشي بالأبتر التي تعني مقطوع النسب. لأن من ينجب بنات قد ينجب الذكور، ولأن القرشي لم يعيره بأنه أب للبنات، بل عيره بالأبتر مع وجود بنات خديجة. مما يعني أنهن لسن بناته صلوات الله عليه، ولكن ربيباته.

ويكون التعتيم على أبي هالة متعمداً.

وكتب التراث، فيما نقل الطبري، تقول: (تزوّج أبو هالة خديجة بنت خويلد، فولدت له هندا وهالة، رجلين فمات هالة، قال: فخلف عليها رسول اللهّ وعندها ابن أبي هالة، هند، فأدرك هذا الاسلام، فأسلم، وحدّث عنه الحسن بن علي).

فخديجة رزقت بولدين من أبي هالة، واحد اسمه هالة مات وهو صغير، والآخر «هند» أدرك الإسلام، وهو الذي وصف رسول الله للحسن ابن علي.

وهالة هذا يقول عنه صاحب كتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة: (أخبرنا أبو موسى إجازة، أخبرنا أبو عدنان محمد بن أحمد بن المظهر بن أبي نزار وغيره قالا: أخبرنا محمد بن عبد الله الضبي، أخبرنا سليمان بن أحمد الطبراني، حدثنا علي بن محمد بن عمرو بن تميم بن زيد بن هالة بن أبي هالة التميمي بمصر، حدثني أبي محمد، عن أبيه عمرو، عن أبيه تميم، عن أبيه زيد، عن أبيه هالة بن أبي هالة: أنه دخل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو راقد، فاستيقظ النبي صلى الله عليه وسلم فضم هالة إلى صدره، فقال: هالة ! هالة ! هالة !.)

وكان هذا وهالة طفل صغير.

والمؤرخون وكتاب السير يكادون يجمعون على أن خديجة لم تنجب سوى ولد واحد من أبي هالة، فهل هذا يعني أن هالة هو ذاك الطفل وهو الذي يسمى أحياناً هنداً.

وهالة قد لا يكون اسمه، ولكن المؤرخين ظنوا أنه اسمه لأن لقب والده «أبو هالة» فظنوا أنه سمي بأبي هالة لأن له ولداً اسمه هالة. وهذا قد يكون أصبح سارياً في عصور لاحقة، لكن في الجاهلية وعصر الرسول كان الرجل يلقب باسم ليس بالضرورة أن يكون له ولد يحمل نفس الاسم، مثل أبي طالب، أبي بكر، وغيرهما كثير.

ويكون هالة ابن أبي هالة هو هند ابن ابي هالة وهو الولد الوحيد لخديجة، ولكن بما أن البعض نقل إن اسمه هالة والبعض ذكر أن اسمه هند قال بعض المؤرخين إن خديجة

أنجبت ولدين من أبي هالة، واحد مات صغيراً وهو هالة بينما أدرك الإسلام أخوه هند.

ويكون هالة الذي ضمه الرسول لصدره هو الولد الوحيد لخديجة، وكان طفلاً صغيراً بعدما تزوج الرسول بخديجة. أي أن أبي هالة قد توفي وابنه مولود حديثاً وبقيت بعده خديجة عاماً أو عامين ثم تزوجت الرسول.

وهذا الطفل هالة، كان يلقب بالطاهر، كما ورد في ترجمته في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب: (الطاهر بن أبي هالة أخو هند وهالة، بنو أبي هالة الأسيدي التميمي، حليف بني عبد الدار بن قصي، أُمّه خديجة زوج النبي). وذكره ابن ألأثير في أسد الغابة، وجاء ذكره في الإصابة أيضاً، وذكره البغوي أيضاً ضمن ترجمته لعبيد ابن صخر ابن لوذان.

وهذا يجعلنا نقول إن الطاهر الذي قيل إنه ابن رسول الله من خديجة هو لقب ولد خديجة من زوجها أبي هالة، والذي اختلف في اسمه هل هو هالة أو هند؟ أو كما نظن أنه زيد.

ويكون الولد الوحيد لخديجة من أبي هالة هو أصغر أولادها منه، وبالتالي ففاطمة أصغر بنات خديجة تكبر أخاها الذي سمته كتب التراث هالة أو هنداً.

وفاطمة تقول كتب التراث إنها ولدت قبل البعثة بخمس سنين، وسنفترض أن أخاها ولد بعدها بسنتين وفي نفس السنة أو التي تليها توفي أبو هالة، أي قبل البعثة بسنتين أو ثلاث. وتزوجها الرسول في نفس السنة أو التي تلتها، أي قبل البعثة بثلاث سنوات أو سنتين. وكانت تعيش مع بناتها الأربع من أبي هالة وولدها.

وولد خديجة من أبي هالة الذي تسميه كتب التراث (هنداً، أو هالة وتلقبه بالطاهر) تربى في حجر الرسول. ويروي أبو عبيدة أن الرسول قد صحب ربيبه هذا معه ومع أبي بكر عندما خرج من مكة مهاجراً. وأنه بعدما وصل لغار ثور أمره بالرجوع إلى مكة[1]. وقد قتل مع علي يوم الجمل، ومات ابنه هند بالبصرة. وجاء في الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني: أخرج الزبير بن بكار والدولابي من طريق محمد بن الحجاج عن رجل من بني تميم قال رأيت هند بن هند بن أبي هالة وعليه حلة خضراء فمات في الطاعون فخرجوا به بين أربعة لشغل الناس بموتاهم فصاحت امرأة واهند بن هنداه وابن ربيب رسول الله قال

---

١ وإن كان الرسول عندما بعث كان عمر الطفل سنتين أو ثلاث فعمره حين هاجر الرسول كان عشراً أو إحدى عشرة سنة، على حسب تقديرنا أن الدعوة في مكة بقيت ثمان سنوات وليس (١٣) كما تقول كتب التراث. ويؤيد هذا أن هناك رواية تقول إن هذا الولد لم يحضر معركة بدر (لصغر سنه) لكنه حضر أحد، كما ورد في أسد الغابة.

فازدحم الناس على جنازته وتركوا موتاهم.

كما جاء في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر: أخبرني خلف بن القاسم، ثنا الحسن بن رشيق، حدثنا الدولابي، نا أبو بكر الوجيهي أنا جعفر بن حدان قال: حدثني أبي، عن محمد بن الحجاج، عن رجل من بني تميم قال: رأيت هند ابن هند بن أبي هالة بالبصرة وعليه حلة خضراء من غير قميص، فمات في الطاعون، فخرجوا به بين أربعة لشغل الناس بموتاهم، فصاحت امرأة: واهند بن هنداه وابن ربيب رسول الله، فازدحم الناس على جنازته، وتركوا موتاهم، وهذا هو الصحيح إن شاء الله تعالى. انتهى.

هند هذا كان ربيباً لرسول الله لأنه ابن زوجته. ومن المعتاد حينها أن ينسب الربيب لمن تربى عنده، وقد يكون الناس يسمونه ابن محمد.

كما أن خديجة لديها أربع بنات بجانب الصبي مما يجعل حاجة الرسول لتبني طفل إضافة لابن وبنات خديجة غير موجودة ولا حاجة لها.

وهند ربيب رسول الله وابن زوجته هو من كان يتفوق على غيره في وصف هيئة وسلوك رسول الله. فقد جاء في المعجم الكبير للطبراني قوله:

حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل النهدي، ثنا جميع بن عمر العجلي، قال: حدثني رجل بمكة، عن ابن أبي هالة التميمي، عن الحسن بن علي بن أبي طالب، قال: سألت خالي هند بن أبي هالة وكان وصافا عن حلية النبي -صلى الله عليه وسلم - وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئا أتعلق به. فقال: كان رسول الله فخما مفخما، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر. أطول من المربوع، وأقصر من المشذب. عظيم الهامة، رجل الشعر، إن انفرقت عقيصته فرق، وإلا فلا، يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره. أزهر اللون، واسع الجبين، أزج الحواجب سوابغ في غير قرن، بينهما عرق يدره الغضب. أقنى العرنين، له نور يعلوه. يحسبه من لم يتأمله أشم، كث اللحية، سهل الخدين، ضليع الفم، أشنب، مفلج الأسنان. دقيق المسربة، كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة. معتدل الخلق، بادن متماسك، سواء البطن والصدر. عريض الصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس. أنور المتجرد، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجري كالخط. عاري الثديين والبطن مما سوى ذلك، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر. طويل الزندين، رحب

الراحة، سبط القصب، شثن الكفين والقدمين، سائل الأطراف. خمصان الأخمصين، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء. إذا زال زال قلعا، يخطو تكفيا، ويمشي هونا. ذريع المشية، إذا مشى كأنما ينحط من صبب. وإذا التفت التفت جميعا. خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء. جل نظره الملاحظة، يسبق أصحابه، يبدر من لقيه بالسلام». قلت: صف لي منطقه. قال: « كان رسول الله متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، لا يتكلم في غير حاجة، طويل السكت. يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم. فصل، لا فضول ولا تقصير. دمث، ليس بالجافي ولا المهين. يعظم النعمة وإن دقت، لا يذم منها شيئا، لا يذم ذواقا ولا يمدحه، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها. فإذا تعوطي الحق لم يعرفه أحد، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له. لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها. إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها فيضرب بباطن راحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى. وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه. جل ضحكه التبسم، ويفتر عن مثل حب الغمام». انتهى[1]

وسؤال الحسن ابن علي لخاله عن صفات الرسول يؤكد أن الخال كان قريباً من الرسول، قرب الابن من والده[2].

ألا يكون هند هو زيد المذكور في سورة الأحزاب، وقد تم تغيير اسمه في عصور الفتن والظلمات عمداً، لكيلا يعلم الناس أن بنات وولد خديجة من ذرية ابن أبي هالة ولم تنجب من الرسول. ولا يمكن أن نحسن الظن هنا ونقول إنه قد يكون اشتبه الأمر على كتبة التراث فظنوا أن اسم ابن أبي هالة –الزوج السابق لخديجة – هو هند وليس زيداً. وأنه هو من أصبح ابناً للرسول بالتبني بحكم زواجه بأمه خديجة. ونقول إننا لا نحسن الظن، لأنه قد يحدث أحياناً أن يسمى الولد باسم والده فيقال سيف ابن سيف، لكن لم يحدث أن سمي رجل باسم والده وسمى ولده باسمه، كما تقول كتب التراث عن أبي هالة أن اسمه هند، وأن اسم ابنه من خديجة كان هنداً، وأن هنداً هذا أنجب ولداً سماه هنداً. هذه ليست صدفة

---

١ ليس المهم إن كان هذا ما قاله أو أنه قيل على لسانه، لكن المهم هو سؤال الحسن له عن صفات الرسول وما يحمل من دلالة، أنه كان يعيش مع الرسول ويعرف تفاصيل حياته في بيته.

٢ سؤال الحسن ابن علي عن صفات الرسول يؤكد أنه عندما توفي رسول الله كان الحسن صغير السن. وقد قيل إنه ابن ثلاث وقيل خمس وقيل سبع. وهذه القصة تؤكد أنه لا يمكن أن يكون قد تجاوز الخمس. وكل ما نسب للحسن والحسين من أحاديث حتى لو كانت عن حياة الرسول وسلوكه فهي مكذوبة لصغر سنهما.

ولم تحدث، ولكنها فبركة لكي يتم ترسيخ أن من تتحدث عنه سورة الأحزاب على أنه ابن للرسول بالتبني ليس له علاقة بابن خديجة ربيب الرسول وابنه بالتبني. وذلك بالإصرار على تسميته هنداً لينسى الناس اسمه الحقيقي وهو زيد. فيكون هند ابن أبي هالة هو زيد ابن ابي هالة.

ويكون زيد القرآن هو هند كتب التراث، وهذا يزيل الريبة حول تكرار اسم هند من الأب للابن للحفيد كما ذكر ابن الكلبي، في ظاهرة لم تتكرر. ويكون اسم ابن الرسول بالتبني هو زيد ابن هند أبي هالة، الذي قتل مع علي ابن ابي طالب يوم الجمل. وله ولد اسمه هند ابن زيد ابن هند أبي هالة، وهو الذي مات بالطاعون بالبصرة وبكت عليه المرأة.

ولو كان هذا ما حدث فإن تبني الرسول لزيد ابن هند أبي هالة سيكون طبيعياً لأنه ابن زوجته. أما لو كان زيد شخصاً آخر فإن الرسول ليس بحاجة لتبني طفل وهو يعيش مع زوجته خديجة التي لديها أربع بنات وولد، وكلهم يعتبرون أبناء للرسول.

وإن كان ما تقدم صحيح فإن ابن خديجة أصغر من كل بناتها- وهو ما يؤكد أنهن بنات لأبي هالة من باب أولى وليس للرسول.

لو هذا الكلام صحيحاً فكيف تأتي سورة الأحزاب وتقول: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً(٥٩)؟

وفي سنة الأولين اعتبرت أن للرسول بنات ولكنه رزق بهن من إحدى زوجاته في المدينة ورجحت أن تكون عائشة، وأن البنات توفين وهن صغيرات. ولكني الآن أرى أن قول الآية: «وبناتك» تعني بها بنات خديجة اللاتي يعتبرن بنات للرسول تجاوزاً كونهن ربيباته، والحديث هنا ليس لتأكيد نسبهن للرسول ولكن الخطاب هنا لتوجيههن ونساء المسلمين لاتخاذ بعض الاحتياطات وتحري الحشمة. بينما جاء تقرير أن زيداً ليس ابناً للرسول ولكنه متبنى، لأن الخطاب تقريري وتشريعي يؤكد أن التبني لا يعني أن يلحق الولد بنسب من تبناه.

وعندما نزلت سورة الأحزاب، كانت زينب وأم كلثوم وفاطمة على قيد الحياة، فيما توفيت رقية بداية الهجرة، حسبما ورد في كتب التراث. ويكون الرسول عليه الصلاة والسلام لم

يرزق بذرية أبداً، وقد جاء القرآن يعزيه ويرفع من معنوياته في هذا المجال، ومن ذلك: الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلا(٥٩) الكهف.

حظر الزواج والطلاق على الرسول

لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاء مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً(٥٢) الأحزاب.

- لا يحل للرسول بعد هذه الآية النساء، أي الزواج بالنساء.
- ولا يحل له استبدال، أي تطليق زوجة للزواج ببديلة لها.
- ويستثنى من هذا ما ملكت يمينه، وهي التي عقد عليها عقد النكاح ولم يدخل بها بعد[1].

ما الذي حدث في المدينة بعد عودة مسلمة يثرب إليها

أثناء حفر المسلمين للخندق استأذنت فئة من مسلمة يثرب رسول الله في العودة إلى المدينة بحجة أن بيوتهم عورة: وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً(١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً(١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً(١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً(١٥) قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً(١٦) قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً(١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً(١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً(١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً(٢٠) الأحزاب.

١ انظر فقرة: ملك اليمين/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

استئذانهم للعودة خوفاً على أنفسهم من القتل وهروباً من مواجهة العدو، وليس كما زعموا أن بيوتهم عورة.

وذكر عودتهم ارتبط في السورة بذكر بعض الضوابط والاحترازات التي يجب أن تلتزم بها نساء النبي وبعض الضوابط على الرجال الالتزام بها وبعض الضوابط على نساء المسلمين الالتزام بها. وكل هذه الضوابط لحماية المجتمع ممن في قلوبهم مرض ويريدون أن تشيع الفاحشة في المجتمع.

وتتبع هذه الضوابط والاحترازات سيظهر لنا ما الذي حدث، والبداية مع تخيير الرسول لأزواجه بين المتع الدنيوية والطلاق، وبين البقاء معه والالتزام بضوابط صارمة: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً(٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَّ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَّ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيما (٢٩) الأحزاب.

وسبب هذا التخيير: يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهَّ يَسِيراً(٣٠) وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ للهَّ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً(٣١) يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً(٣٢) الأحزاب.

نساء النبي لسن كغيرهن من النساء، لأن أي تصرف منهن يحسب على الدعوة ورسالة الرسول. لذا يجب عليهن أن يتقيدن بضوابط تنزههن من أي إشاعة كاذبة قد يسعى لترويجها من في قلبه مرض ويستغلها أعداء الدعوة للطعن في دين الله. ولهذا جاءت عقوبتهن أشد وثوابهن أعظم من بقية النساء.

الضوابط والاحترازات التي يجب أن تتقيد بها نساء الرسول

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَّ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهَّ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً(٣٣) الأحزاب.

- يجب عليهن أن يقرن في بيوتهن ولا يخرجن إلا لحاجة ملحة.
- في حال اضطرارهن للخروج من البيت فعليهن أن يلتزمن بأقصى حدود الحشمة

والبعد عن التبرج، وهو التزين ووضع مساحيق التجميل وما ينحى منحاها، مما يثير الرجال «ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى».

- وليكن اهتمامهن منصباً على التقوى وليس على أمور الدنيا « وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ»....... وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً(٣٤).
- كل هذا لإبعاد الإشاعات عنهن وإبقاء سمعتهن نظيفة عفيفة « إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً».
- وكمكافأة لبقاء نساء الرسول والتزامهن بالضوابط، جاء الأمر الإلهي بحظر الزواج على الرسول أو الطلاق: لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاء مِن بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا (٥٢) الأحزاب.

كما وضعت السورة:

ضوابط واحترازات ملزمة للرجال عند تعاملهم مع نساء الرسول

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللهِ عَظِيمًا(٥٣) الأحزاب.

- لا يجوز الدخول لبيوت (حجرات) أزواج النبي إلا بدعوة (لطعام مثلاً): «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ».
- وعلى المدعو أن يدخل غاض البصر ويكون نظره على الطعام، ولا يجول بناظريه في أرجاء المكان: «غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا» لأن البيت عبارة عن حجرة واحدة وستكون زوجة الرسول في نفس الحجرة.
- بمجرد الانتهاء من الطعام على المدعو الخروج مباشرة دون تباطؤ: «فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا».

- لا يجوز الدخول لبيوت أزواج النبي للحديث: «وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ». فهذه العبارة معطوفة على «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ».

وقد كان الدخول لبيوت الرسول دون استئذان يؤذي (يزعج) الرسول: «إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ».

- عندما يحتاج رجل سؤال أمهات المؤمنين متاعاً فليسألها وهو في الشارع وبينه بين أم المؤمنين جدار الغرفة يحجبه عنها ويحجبها عنه: «وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ».

وهذا السلوك يبعد وساوس النفس عن الرجل لو حدثته بفسق، ويذهب وساس النفس عن أم المؤمنين من أن تظن بالرجل أنه يسعى لفحش: «ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ».

وهذه الاحترازات ليس فقط تبعد الشبهات والإشاعات الكاذبة عن نساء الرسول بل وتريح الرسول الذي كان يزعجه حديث الرجال مع نسائه ودخولهم عليهن في بيوتهن: « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ».

- وعلى الرجال أن يعلموا أن زوجات الرسول أمهاتهم ولا يجوز لهم الزواج بهن بعد الرسول: « وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللهِ عَظِيمًا». بما أن زوجة الرسول بمقام أم للمؤمنين فالزواج بالأم بهتان عظيم.
- وتخاطب سورة الأحزاب الرجال مذكرة إياهم أن كل ما يضمرون من وساوس ونوايا سيئة وخبيثة يعلمها الله ولو خفيت على الناس: إِن تبدو شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً(٥٤).
- كل الاحترازات السابقة تلتزم بها نساء الرسول أمام الرجال الأجانب فقط: لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاء إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاء أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً(٥٥) الأحزاب.

وكل من في قلبه مرض ويتعمد الحديث مع نساء النبي أو يدخل بيوتهن بلا استئذان فقد حقت عليه اللعنة: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً(٥٧) الأحزاب.

وهؤلاء الذين كانوا يضايقون نساء النبي بالحديث معهن وبالدخول على بيوتهن بلا استئذان، تعرضوا لنساء المسلمين بأكثر من ذلك. فقد كانوا يلاحقونهن في الطرقات ويتعرضون لهن بفحش القول ويتهمونهن بأعراضهن: وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً(٥٨) الأحزاب.

ومما سبق يمكن القول إن هناك رجالاً كانوا يتعمدون الدخول على نساء النبي في بيوتهن بلا استئذان، في وقت قد يكن قد تخففن من ثيابهن وقد يرى من أجسامهن ما لا يجوز للرجال النظر إليه. وكانوا يتعمدون البقاء أطول مدة ممكنة والتحدث معهن. إضافة لملاحقة نساء المسلمين في الطرقات بغرض ممارسة الفاحشة. وهذه التصرفات المريضة لا تصدر إلا من في قلبه مرض، ولا يمكن أن تصدر ورجال المسلمين في المدينة. والذين في قلوبهم مرض عندما ترد في القرآن فهي وصف لبعض الرجال الذين يحبون أن تشيع الفاحشة. ومن هؤلاء تلك الفئة من المنافقين الذين استأذنوا الرسول لترك حفر الخندق مع المسلمين وعادوا إلى المدينة: وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا(١٣) الأحزاب.

وتكون المدينة قد تعرضت لموجة عهر من قبل أولئك المنافقين والذين في قلوبهم مرض الذين استأذنوا الرسول وتركوا حفر الخندق مع رجال المسلمين[1]. وقد استغلوا خلو المدينة من الرجال فعاثوا فيها فساداً، تمثل بملاحقة النساء في الطرقات والتحدث لهن بفحش والطلب منهن أن يمارسن الفاحشة معهم، بل ونشر الأكاذيب عنهن بأنهن يرغبن ممارسة الفاحشة أو ممارستها. ولم تسلم نساء النبي من مضايقاتهم، كما سبق وذكرنا. فجاءت السورة تضع احترازات لحماية المجتمع من هذه الظاهرة القذرة، ومن ذلك ما يخص نساء النبي وما يخص الرجال، وهو ما سبق ذكره. ومنه ما يخص نساء الرسول والمسلمين عامة، كما يلي:

---

١ أبو حزم (المصحح اللغوي) ذكر أن تحجج المنافقين بالعودة إلى المدينة بحجة أن بيوتهم عورة، قد يكون إشارة إلى أن بعض المنافقين الذين لم يخرجوا مع الرسول والمسلمين لحفر الخندق قد بدأوا العبث في شوارع المدينة وتسامع المسلمون بهذا. لذا جاء تحجج المنافقين بأن بيوتهم عورة وأن عليهم العودة لحمايتها من أولئك العابثين. وهذا قد يكون احتمال قائم. إلا أنه لو كان العابثون قد بدأوا العبث في المدينة قبل عودة المنافقين فسيتسامع به الرسول والمسلمين وسيفعلون شيئاً لجناية النساء ودفع العابثين. ولو حدث هذا فسيتحدث عنه القرآن. وبما أن القرآن يخلوا من أي إشارة إلى هذا.

احترازات لنساء النبي ونساء المسلمين

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً(٥٩) الأحزاب.

- على النسوة في المدينة الالتزام بالاحتشام في اللبس بحيث يغطين كل ما يمكن أن يثير فتنة من في قلبه مرض من أجسامهن. والجلباب الثوب الواسع ومنه جلباب النوم، وليس له علاقة بغطاء الوجه.

عقوبة من لا يرتدع ممن في قلوبهم مرض

لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً(٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً(٦١) سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً(٦٢) الأحزاب.

بعد أن ذكرت الاحترازات التي يجب أن يتقيد بها المسلمون (نساءٌ ورجال) تختتم سورة الأحزاب باقتراح عقوبة تجتث الظاهرة من المجتمع المسلم بشكل جذري. وتتمثل في طردهم من المدينة، ومن لا يمتثل يقتل.

وهذه العقوبة يمكن أن تطبق بحق كل من يسعى لنشر الرذيلة في المجتمع المسلم بأي طريقة، ومن ذلك وسائل الإعلام المرئي والمسموع والمقروء ومواقع الإنترنت وغيرها. وهذه العقوبات وكل العقوبات البدنية التي ذكرت في القرآن بعد اكتمال التشريعات في سورة المائدة، لا تعتبر تشريعاً دينياً. ولكنها عقوبات دنيوية من حق المسلمين توقيع عقوبات مختلفة على من يصدر منه مثل هذه التجاوزات وتكون كفيلة بقطع دابر أي ظاهرة فساد في المجتمع.

عقوبة الزناة

تواصل سورة النور التفاعل مع ما حدث، وتبدأ بفرض عقوبة جسدية للزنا، وهي الفاحشة التي يود الذين في قلوبهم مرض أن تشيع في المجتمع: الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ

عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ(٢).

وعقوبة الزنا تجمع الألم الجسدي من الجلد، والألم النفسي المتمثل بالإهانة وجرح الكرامة نتيجة الجلد أمام الناس، يبقى محفوراً في النفس الكريمة طوال الحياة، ولا يندمل جرحه الغائر مع الزمن. وهو موت معنوي يعذب الإنسان العزيز طوال ثواني ودقائق حياته. لذا فجلد الزناة يجب أن يكون على مرأى ومشهد الناس.

وعقوبة الزنا لا تتوقف عند الجلد فقط، فالسورة تواصل قائلة إن من يكرر الزنا وهو عالم بحرمته، فليس بمسلم، ولا يجوز أن يتزوج من المسلمين: الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ(٣).

ولو زنا شخص عاقل مختار وهو عالم بحرمة الزنا فقد خرج من الإسلام، ولو بقي يقر بالشهادة ويقيم العبادات ويتجنب بقية النواهي ويأتمر بكل أوامر القرآن. لأن الزنا كبيرة، والإقدام على فعل الكبيرة للعالم بحكمها موجب للخلود في النار، كما تؤكده هذه السورة وسور عدة مرت بنا.

وتحريم الزواج بالزناة عقوبة مناسبة، تعزلهم عن المجتمع وتشعرهم بأنهم منبوذون ملوثون وأعضاء فاسدون.

وتحريم الزواج بالزاني والزانية مماثل لتحريم الزواج بالمشركة أو المشرك، لأن من يمارس الزنا وهو يعلم بأنه كبيرة فليس من المسلمين: وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَـئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٢١) البقرة.

لكن المعايير نُكّست، وأصبح المسلمون يمارسون الزنا بكل تبجح، وأصبح الذين في قلوبهم مرض هم قادتهم. ويريدون أن يتسموا بالمسلمين ويرجون لقاء الله وجنته، مع أنهم ألقوا بوعيد الله وراء ظهورهم. وكأن كلام الله مجرد آيات للتلاوة ولا شأن لها بحياة المسلم. والتشجيع على الزنا في بلاد المسلمين بلغ حداً تجاوز التشجيع عليه في بلاد الكفر، ويعرض على شاشات التلفزة العربية ما لا يمكن عرضه في بلاد غيرها. وعندما يُذكّرون بأن الزاني والزانية لا ينكحهما إلا مشرك او مشركة ينعتون من يذكرهم بالتكفير. والتكفير أصبح

عصا ترفع أمام كل من يذكر الناس بأن دين الله كل لا يتجزأ، وأن من ترك أمراً إلهياً أو اقترف كبيرة وهو يعلم بحكمها فهو في النار، بنص القرآن، ولو أطلق عليه لقب أمير المؤمنين وإمام المهتدين.

ولم يعد بالإمكان تطبيق ما ورد في آخر سورة الأحزاب، ولا ما ورد في أول سورة النور، وغيرها من السور على من في قلوبهم مرض في بلاد العرب والمسلمين لأنهم هم من يمتلك وسائل الإعلام والسلطة، وهم من يسعون في الأرض فساداً: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ (١٤) اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ(١٦) البقرة.

مما ترتب على عبث المنافقين في طرقات المدينة

تقول سورة النور: وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥).

فبعد عودة المسلمين من حفر الخندق وجدوا الأوضاع في المدينة في وضع سيء، والكلام في الأعراض مستشرياً، لدرجة أن الألسن بدأت تلوك سمعة بعض نساء المسلمين وتتهمهن باقتراف الفاحشة. فجاءت هذه الآيات ضمن إجراءات وعقوبة لبتر ظاهرة العبث الأخلاقي التي تسبب بها المنافقون. فكل من يلوك (يرمي) سمعة المحصن (العفيفة) فعليه إثبات أنها اقترفت الفاحشة أو يعاقب بما يلي:

- الجلد ثمانين جلدة.
- عدم قبول شهادته.

والجلد كفيل بإهانة المجلود اجتماعياً، بينما عدم قبول شهادته يعزله عن المجتمع ويسقط عنه الاحترام والثقة، ويجعله منبوذاً لا مكان له بين المسلمين.

إجراءات تطبق بحق من يتهم زوجه

لابد أن بعض الأزواج اتهم زوجه بالزنا أو شك بأنها اقترفت الزنا. فجاءت آيات في سورة النور تفرض إجراءات يجب أن تطبق في هذه الحالة:

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاء إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ(٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ(٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ(٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ(١٠) النور.

كل من يرمي زوجته بالزنا فعليه إحضار أربعة شهود يشهدون أنها تزني

وشهادة الشهود لا تكون برؤيتهم للميل والمكحلة، لأن هذا مستحيل. ولكن الشهادة تكون بأن هناك قرائن تدل الزنا وتؤكد عليه مثل لقاءاتها برجال في قلوبهم مرض في أماكن معزولة أو ترددهم على بيتها أو نحو ذلك مما يؤكد أن سمعتها سيئة. ويجب ملاحظة أن الشهادة هنا ليست للحكم عليها بالجلد كزانية بل لإثبات صدق أو كذب اتهام زوجها لها. وفي هذا العصر يجب أن يكون الفيصل هو التحقيق النزيه والمحترف وامتحان شهادة الشهود وجمع القرائن، وليس فقط التسليم بشهادة الشهود.

فإن لم يتمكن الزوج من إحضار شهود فيتم اللجوء للملاعنة.

الملاعنة

- تكون بأن يشهد الزوج أولاً أنه صادق أربع مرات، ثم يقول: إن عليه لعنة الله إن كان من الكاذبين.
- ثم تشهد الزوجة أربع شهادات بأنه من الكاذبين وأن غضب الله عليها إن كان من الصادقين.

ولو لم تشهد الزوجة فتجلد (١٠٠) جلدة، ويفرق بين الزوجين.

وإن شهدت فيتم التفريق بينهما ولا يعاقب أحد منهما.

- نص الشهادة تكون كالتالي: أشهد الله أني صادق، أو أشهد الله أنه كاذب، ولا يستخدم الحلف هنا.

فلا يقول: والله العظيم أني صادق، ولا تقول الزوجة: والله العظيم أنه كاذب.

ويمكن الرجوع لتدبر السورة لتتبع سير الأحداث.

الغيث بعد القحط

في العام السابق أصاب القحط المدينة وما حولها، وتسبب في إحجام كثير من المسلمين عن الإنفاق فجاءت تجهيزات جيش المسلمين هزيلة في معركة أحد، وكانت أحد الأسباب التي أدت لهزيمة المسلمين. وقد أشارت الآيات (٢٠-٢٣) من سورة الحديد إلى ذلك: اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ(٢٠) سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(٢١) مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ(٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ(٢٣).

وأشارت له الآيات (١١-١٣) من سورة التغابن: مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١١) وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ(١٢) اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(١٣).

وفي العام التالي تغيرت الأحوال وأغيث الناس ونزلت أمطار غزيرة في ذلك العام. وقد أشارت لذلك سورة النور: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ(٤٣).

وسورة الروم: وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٤٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ(٤٧) اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ

خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ(٤٨) وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ(٤٩) فَانظر إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ(٥١).

لقد كان عاماً مطيراً مصحوباً ببرق ورعد ومسبوقة برياح شديدة أحياناً، ومن ذلك تلك الرياح التي أدت إلى هروب جيوش الأحزاب الذين كانوا يحاصرون المدينة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا(٩) الأحزاب.

والرياح الشديدة التي يتبعها أمطار ظاهرة معروفة في جزيرة العرب حتى اليوم، وعادة ما تكون في أواخر الشتاء وخلال فصل الربيع.

وتوفر المطر أدى لنمو الحشائش التي تقتات عليها الماشية فكثر الإنتاج وعم الرخاء، مما ساهم في قوة استعداد المسلمين وتجهيز جيشهم سواءً لفتح مكة أو لحرب الروم والقبائل التي شاركت في حملة الأحزاب.

فتح مكة

لم يخطط الرسول والمسلمون مسبقاً لفتح مكة، ولم يكن ذلك وارد أبداً في حساباتهم، لأنهم كانوا في وضع المدافع وقريش هي من يلاحقهم ويفرض الحرب عليهم. وكان من الممكن جداً ان يموت رسول الله ومكة بيد قريش وتحت سيطرتها. لكن الأحداث تسارعت بشكل غير متوقع، بعد حملة الأحزاب. فبعد فشل الحملة بسبب ظروف مناخية، كان لابد من أن يتخذ المسلمون كل ما يستطيعون لكي لا تتكرر الحملة عليهم. وقد ينجح المهاجمون في المرة القادمة ويتمكنون من المسلمين ويقضون عليهم وعلى دينهم. وبما أن خير وسيلة للدفاع هي الهجوم ونقل المعركة لأرض العدو، فقد تقرر معاقبة كل من شارك في حملة الأحزاب، والقضاء عليهم لأن بقاءهم سيكون خطراً يهدد المسلمين على الدوام.

والذين شاركوا في حملة الأحزاب هم قريش، وقبيلة من قبائل بني إسرائيل يثرب، وبعض من قبائل عربية حول مكة ويثرب، إضافة للروم. وبمجرد فشل الحملة وتفرق الأحزاب

سارع المسلمون لمهاجمة القبيلة الإسرائيلية واشتبكوا معهم في قتال لفترة قصيرة تكبد فيه الإسرائيليون خسائر في الأرواح بين قتيل وأسير، قبل أن ينسحبوا داخل حصونهم ويحاصرهم المسلمون. ثم عرضوا على المسلمين أن يخلوا مساكنهم ويسلموا للمسلمين قلاعهم ومزارعهم مقابل استرداد أسراهم والسماح لكل القبيلة بالجلاء من يثرب بسلام. فوافق المسلمون على ذلك، وتخلص المسلمون منهم ومن مكائدهم. وقد حدثتنا عن ذلك سورة الأحزاب: وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً(٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً(٢٧).

وقد تسببت الأحداث التي وقعت في المدينة نتيجة لعبث بعض المنافقين بتأخر مواصلة المسلمين معاقبة كل من اشترك في حملة الأحزاب. ولما انجلت تلك الغمة، وتم القضاء على تلك الظاهرة اللاأخلاقية، كان لابد من مواصلة معاقبة المعتدين لأمن شرهم. وكان الخيار بين ملاحقة القبائل العربية التي شاركت في الأحزاب أو إرسال الجيوش لحرب الروم، أو التوجه لمكة لمعاقبة قريش.

ويبدو أن المسلمين اتفقوا على التوجه إلى مكة أولاً، وفيما يلي تفاصيل فتح مكة كما ورد في كتاب أحسن القصص[١]، ننقله حرفياً مع بعض التعديلات:

حشد الحشود والمسير إلى مكة

أعلن الرسول العزم على التوجه لمكة للقضاء على سلطة قريش، بعد أن قضى على وجود من عاونهم من بني إسرائيل في يثرب. وقد تقاطر المسلمون للانضمام لذلك الجيش، بعضهم خرج في سبيل الله، وكثير منهم خرج طمعاً في الحصول على الغنائم ظناً منهم أن مكة سوف تستباح، وسيحصلون على الأموال الطائلة التي تملكها قريش.

إلا أن بعضاً ممن كان يعتبر من المسلمين لم يخرج، لأسباب مختلفة، تخبرنا عنهم سورة الفتح كما يلي:

---

١ أحسن القصص/ تاريخ الإسلام كما ورد من المصدر، مع ترتيب السور حسب النزول - منشورات الجمل.

الأعراب

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً(١١) بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً(١٢) وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً(١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً(١٤) الفتح.

ونتذكر أنه عندما وطئت قدما رسول الله المدينة للمرة الأولى حضر إليه أعداد كبيرة من الأعراب يعلنون دخولهم الإسلام، والواقع أن أغلبية من أعلن إسلامه منهم لم يؤمن، ولكن كانوا يسعون للحصول على مغانم دنيوية: قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٤) الحجرات.

وقد بقي المنافقون منهم على نفاقهم وسعيهم المستمر للحصول على المكاسب المادية، وبعد رجوع المسلمين من فتح مكة، حضروا يعتذرون للرسول من عدم خروجهم، وأنه بالفعل تعذر عليهم الخروج: سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً(١٥الفتح).

فتجيبهم الآية التالية بأنه إن كان اعتذارهم للرسول عن عدم خروجهم لمكة، صحيحاً، فعليهم إثبات صدق نواياهم بالخروج مع جيش المسلمين القادم الذي سيقاتل قوماً قوتهم لا تقارن بقوة قريش: قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً(١٦) الفتح.

والمقصود بالقوم أولي بأس شديد، الروم، الذين سيبادر المسلمون قتالهم بعد الانتهاء من تأديب قريش. وقد توجه المسلمون بالفعل لحربهم واشتبكوا معهم في قتال فيما عرف بمؤتة، كما سنتبين فيما بعد.

وبما أن الأعراب يسارعون في الخروج مع المسلمين عندما يتيقنون أن هناك غنائم دون قتال، فلن يخرجوا مع أي جيش يحتمل أن يلتحم مع العدو، وما اعتذارهم للرسول إلا محاولة منهم لأن يحصلوا على بعض ما غنمه المسلمون في غزوتهم تلك، ظناً منهم أن المسلمين قد استولوا على أملاك قريش.

بعض المسلمين تخلفوا

لم يكن الأعراب وحدهم من تخلف عن جيش الفتح، ولكن بعض المؤمنين الصادقين تخلفوا أيضاً، لكن تخلفهم كان بسبب صحي، لذا فليس عليهم حرج، وسيكون لهم أجر المجاهدين: لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً(١٧) الفتح.

فالخروج للقتال ليس مطلوباً من الأعمى أو الأعرج أو من لديه إعاقة أو مرض، ولكنه مطلوب من القادر.

البيعة / الحديبية

توقف جيش المسلمين عندما اقترب من مكة في مكان يسمى الحديبية، لأخذ الاستعداد اللازم، وهناك تمت مبايعة المسلمين للرسول على الثبات في قتالهم المتوقع ضد قريش: إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً(١٠) الفتح.

وقد تتابع المسلمون يبايعون الرسول بوضع أيديهم في يده، كرمز للتعهد أمام الله بالثبات في حربهم ضد قريش. وهي أول مرة يبايع المسلمون الرسول على الثبات في القتال، فلم يبايعوه في حروبهم السابقة ضد قريش في بدر وأحد.

والسبب يعود إلى أن هناك فئة من المسلمين ما زالوا يوالون مشركي قريش، وهم من أسميناهم «مسلمة قريش». والمبايعة تعني تعهدهم بالتفاني في القتال، وألا يصدر منهم ما صدر في بدر حين فضلوا أسر مشركي قريش على قتلهم، حفاظاً على أرواحهم ومحاباة لهم. ولا ما صدر منهم يوم أُحُد عندما اعترضوا طريق المسلمين الذين كانوا سيلاحقون فلول جيش قريش ويقتلون أكبر عدد منهم. فالبيعة هنا ضرورية لإظهار ولاء مسلمة قريش إما

للمسلمين وإعلان البيعة أو رفض البيعة وإعلان انحيازهم لقريش الذين يوالون.

وقد سبق وأباحت سورة البقرة قتال قريش ولو تحت جدران الكعبة، إن هم قاتلوا المسلمين ولم يستسلموا لهم: ......ولا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ(١٩١) البقرة.

وكل من تعهد بالثبات وثبت فقد باع نفسه في سبيل الله: لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً(١٨).

وكان بعض المسلمين يمني النفس بالفعل أن تواجههم قريش لأن ذلك سيكون سبباً للحصول على غنائم، لكن هذا لم يحدث: وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً(١٩) وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً(٢٠) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً(٢١) الفتح.

والله جل وعلا لم يسبق أن وعد المسلمين غنائم من مكة، ومع ذلك تقول الآية: «وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها». والمقصود هنا هو أنه لو حدث قتال وانتصر المسلمون فسيكون هناك مغانم على شكل أنفال، إضافة لأسلاب قتلى قريش. وبما أن الله جل وعلا أباحها في ساحات القتال فكأن الله وعد المسلمين بها.

وهذه البيعة التي يتحدث عنها كتاب الله بكل وضوح كانت يوم فتح مكة أو قبله بيوم. هي التي وقعت في الحديبية، وهي التي حورتها كتب التراث وكأنها وقعت في السنة السادسة من الهجرة، أي قبل التاريخ الذي وضعوه لفتح مكة بسنتين. واختلقوا لها أسباباً لم تحدث. وقالوا إنها انتهت بتوقيع صلح بين المسلمين وقريش جاء فيه:

- أن تتوقف الحرب بينهم لمدة ١٠ سنين.
- أن يعود المسلمون ذلك العام على أن يدخلوا مكة معتمرين في العام المقبل.
- أن يرد المسلمون من يأتيهم من قريش مسلما بدون إذن وليه، وألا ترد قريش من يعود إليها من المسلمين.

وهذه البنود لا يمكن أن يكون المسلمون قد وافقوا عليها، وإليكم الدليل:

- المسلمون قدموا لمكة لتأديب قريش على تأليب الروم وقبائل عربية عليهم، ولم يقدموا لمكة للعمرة.

وحتى لو كانوا قدموا للعمرة (جدلاً) فلن يقبلوا بالعودة إلى المدينة دون عمرة على أن يعودوا لأداء العمرة في العام القادم. لأنه إن كان هناك صلح بين الطرفين لمدة عشر سنوات، ويدخل حيز التنفيذ بمجرد الموافقة عليه، فلماذا اشترطت قريش عودة المسلمين دون أداء العمرة؟ ولماذا قبل الرسول والمسلمين العودة إلى المدينة وهم على مشارف مكة، أن يعودوا لمكة في العام القادم، وكان بإمكانهم دخولها في ذلك اليوم؟

- والشرط الآخر ينص على أن يرُدّ المسلمون من يأتيهم مسلماً من قريش، هذا الشرط لا يستطيع الرسول قبوله لأنه يخالف ما ورد في سورة الممتحنة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(١١).

والممتحنة نزلت بداية العصر المدني وقبل نزول سورة الفتح بسنوات. والآية تحرم تحريماً قاطعاً إعادة مسلمة جاءت للمسلمين إلى قريش: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّار».

وبالتالي فقبول الرسول والمسلمين إعادة من يأتيهم مسلماً من قريش شرط لا يمكن أن يكون، مثله مثل كل شروط ما سمي بصلح الحديبية التي وضعت في عصور لاحقة ولم يسمع بها رسول الله والمسلمون في عصره.

وهذا لا ينفي أن يكون هناك اتفاق بين المسلمين وقريش في الحديبية يوم فتح مكة، لكنه عقد وميثاق مختلف تماماً عما اختلقته كتب التراث. فقد اتفق المسلمون مع قريش على أن تدخل قريش ومكة تحت حكم المسلمين وتحقن دماء كبراء قريش ويعفى عنهم من مواقفهم العدائية السابقة ضد المسلمين، وهو ما حدث. وسورة براءة التي نزلت في آخر عصر الرسول تخبرنا عن فحوى هذه المعاهدة: بَرَاءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ

الْمُشْرِكِينَ(١).

فهناك معاهدة مع المشركين (قريش)، وتستمر السورة لتخبرنا أين تم الاتفاق بين المسلمين وقريش: كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٧) براءة.

لقد تمت المعاهدة عند المسجد الحرام، وهي التي كانت يوم فتح مكة وفي الحديبية، والتي تم تأويل أسبابها ونصها في كتب التراث. وتكون الحديبية معاهدة استسلام لقريش للمسلمين وتسليم مكة وتعهدهم بألا يكيدوا للمسلمين ولا يتعاونوا مع أعدائهم مقابل الإبقاء على أشخاص رجال قريش ومعتقداتهم. وقريش اضطرت صاغرة لعرض الاستسلام، ولم تحاول أن تواجه جيش المسلمين، لأنه لم يكن لهم قبل به في تلك اللحظة. فقد أصبح جيش المسلمين مرهوب الجانب، فيما أصيبت قريش بالذعر المماثل لما شعر به المسلمون عندما علموا بتوجه جيش الأحزاب إليهم، قبل وقت قصير مضى.

دخول مكة

بعد توقيع معاهدة الاستسلام في الحديبية تقدم الرسول المسلمين في مسيرتهم الخاشعة نحو بيت الله الحرام، وكانت مشاعرهم خليطاً من الغبطة والطمأنينة التي حلت عليهم: هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَللهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً(٤) الفتح.

ودخلوا مكة منتصرين أعزة، بينما رجال قريش لزموا بيوتهم أذلة صاغرين، والألم يعتصر قلوبهم وقلوب كل منافق موالٍ لهم: لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً(٥) وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً(٦) وَللهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً(٧) الفتح.

لقد كان الفتح عذاباً معنوياً هائلاً على المشركين الذين فقدوا هيبتهم وعظمتهم وسلطتهم من قبل عبيد ومستضعفي الأمس. وهو عذاب نفسي للمنافقين مساو لعذاب المشركين، لأن المنافقين راهنوا على القضاء على المسلمين وزوال دولتهم، وعملوا على ذلك بجانب

قريش وبني إسرائيل، لكن الفتح يعني أن مساعيهم قد أحبطت ومشاريعهم انهارت، وهم قلقون لما قد يفعله المسلمون بهم.

وسار جيش المسلمين في أزقة مكة إلى أن وصل البيت الحرام، وكبراء قريش الذين كانوا بالأمس سادة قد أغلقوا عليهم بيوتهم، ولا يملكون الجرأة لحمل السلاح للدفاع عن سمعتهم التي تمرغت بالتراب: وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً(٢٢) سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً(٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً(٢٤) الفتح.

لقد كان دخول مكة سلمياً، بلا قتال، لأن المسلمين هم الجانب الأقوى والأكثر عدة واستعداداً معنوياً، بينما كانت قوة قريش العسكرية وجبروتها المعنوي قد انهارتا تماماً، ولم يعد لدى أفرادها القدرة على أن يحملوا السلاح، وكل ما استطاعوا القيام به هو الاستسلام لمحمد بعد سنوات قليلة من طرد قريش المسلمين من مكة ومنعهم من الحج: هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً(٢٥) الفتح.

وكان الفتح فرصة لتأديبهم، لكن الإسلام لا يسعى للقضاء على الأشخاص بقدر ما يسعى للقضاء على المعارضة. وما دامت قريش أعلنت استسلامها - ظاهرياً - فقد كان دخول المسلمين مكة بخشوع، بدون خوف، وبكل طمأنينة: إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً(٢٦) الفتح.

صدق الله وعده

كان رسول الله قد رأى رؤيا وهو في مكة قبل الهجرة، أن الله نصره على قريش، وقد جاء ذكر الرؤيا في سورة بني إسرائيل: وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً(٦٠).

وقد تحققت الرؤيا بفتح مكة: لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً(٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً(٢٨) الفتح.

ليس لأنها رؤيا للرسول، ولكنها تتوافق مع تحقيق وعد الله الدائم بنصر من ينصره، وهو ما تحدثت به سور مكية في وقت كان المسلمون قلة مستضعفين، وكل ما يتمنونه هو البقاء أحياء، ومن ذلك: ..... وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(٤٠) الحج.

وفي سورة غافر: إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ(٥١).

والأنعام: وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ(٣٤).

وفي أحلك الظروف التي مرت على المسلمين تأتي سورة الحج لتذكرهم بأن وعد الله لهم بالنصر والتمكين كائن لا محالة: «مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ(١٥) الحج».

والآن وقد تحقق لهم وعد الله فعلى المسلمين ألا يداخلهم الشك في رسالة محمد وأن يطيعوه في كل ما نزل عليه: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً(٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً(٩) الفتح.

وبفتح مكة أصبح للمسلمين دولة مرهوبة الجانب، تضم بالإضافة إلى المدينة، مكة التي يقدسها كل سكان جزيرة العرب. كما تضم دولة المسلمين مجموعة من الناس أشداء على الكفار رحماء بينهم، ولهم حقوق متساوية: مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً(٢٩) الفتح.

والآية تبين استراتيجية دولة المسلمين في الوصول بالناس إلى أن يكونوا كحقل مزروع بسنابل القمح، كل سنابله متشابهة في القوة والصحة والغذاء والرعاية والأهمية، لا فرق

بين سنبلة وأخرى على الإطلاق.

وانهيار قريش لم يحدث فجأة يوم الفتح، لكنه بدأ في مكة قبل الهجرة بسنوات. عندما تغيرت وجهة الخطاب في القرآن من قريش إلى غيرهم من الناس، وكان ذلك مع بداية المرحلة الخامسة من مراحل الدعوة في مكة. وقد جن جنون كبراء قريش وصبوا جام غضبهم على المسلمين يعذبونهم بأقسى صنوف التعذيب ليردوهم عن دينهم، إضافة للعمل على صد الناس عن الدخول في الإسلام أو الاستماع للرسول، لأنهم يعلمون يقيناً أن دخول أناس من خارج مكة للإسلام يعني انتشاره واتساع رقعته. وكلما قوية شوكة المسلمين، ضعفت في المقابل قوة قريش.

وهذا بالفعل ما حدث. فقد دعا المسلمون الجدد من يثرب إخوانهم مسلمي مكة للهجرة إليهم والنجاة بدينهم وأرواحهم من اضطهاد قريش. وكانت هذه خطوة أخرى لقوة المسلمين ومسمار آخر دق في نعش قريش.

وجاءت هزيمة بدر لتبرز بالفعل مدى القوة التي وصل لها المسلمون في فترة وجيزة جداً بعد الهجرة، مصحوباً بارتفاع لمعنويات المسلمين وتخلصهم من الشعور بالذلة الذي فرضته عليهم قريش، عندما كان أكثرهم عبيداً ومستضعفين في مكة.

وبرغم هزيمة المسلمين في أحد، إلا أن معنويات المسلمين لم تتراجع، ولم تسترجع قريش ما فقدته من معنويات. ذلك أن الهزيمة لم تكن بسبب تصميم المسلمين، ولكن بسببٍ تكتيكيٍ كان يجب ألا يحدث.

وبنهاية معركة أحد التي قتل فيها ما بين ١٤ — ٢٤ قرشي مشرك (حسب تقديرات كتب التراث)، تكون قريش قد فقدت ما يقارب التسعين من أبرز كبرائها وسادتها، منذ بدء نزاعها المسلح مع المسلمين. فيما فقد المسلمون ما يقارب نصف هذا العدد. لكن الفرق بين قريش وبين المسلمين هو أن قريشاً لا تستطيع تعويض من فقدته من كبرائها، ذلك أنهم يمثلون الجيل القديم المتمسك بالتراث والذي يقود المجتمع القرشي لحرب المسلمين. أما من يفقد من المسلمين فيمكن تعويضه بالمسلمين الجدد.

لذا استشعر من بقي من سادة قريش بعد أُحُد خطر موقفهم، وتنامي قوة الجانب المسلم، فسارعوا بطلب العون من الروم وبعض القبائل العربية، وقد يكون ذلك تم بإشراف

ومشورة وعون بعض بني إسرائيل في يثرب، الذين يرون أن قوة الإسلام خطر عليهم، كما هي على قريش.

ومثلت حادثة الأحزاب مفترق طرق. فلو تمكن جيش التحالف من اجتياح المدينة فسيكتب نهاية الإسلام والمسلمين، ولكنه فشل. وفشل الأحزاب وتفرقهم كشف للمسلمين موقف واحدة من قبائل بني إسرائيل في يثرب المعادي لهم والمتعاون مع أعدائهم قريش، وكان ذلك سبباً لإجلائهم من يثرب، والتخلص من عدو ملاصق للمسلمين يهدد أمنهم. وجلاء بني إسرائيل خسارة فادحة لا تعوض لقريش، فقد كانوا مصدر عون لوجستي يمدونهم بالسلاح والمشورة. وفقدان قريش لهذا الحليف الهام، أضعف موقفها كثيراً وبدرجة كبيرة جداً.

كما أن قدرة المسلمين على التفوق على بني إسرائيل، الأقوياء، الأغنياء، الذين يملكون السلاح والمال، أشعر قريشاً بأن قوة المسلمين وصلت لمستوى لا يمكن لأهل مكة وحدهم مواجهته. حتى لو ضمنوا ولاء أولئك الأعراب الذين انضموا للأحزاب، لأن عددهم قليل وتسليحهم هزيل، ولا يملكون الدافع، ولا يركن لولائهم.

ووجدت قريش نفسها بعد الأحزاب وحيدة تواجه عدواً تعاظمت قوته لدرجة لا تستطيع الوقوف أمامه. ولم يعد بإمكان قريش أن تتلقى أي معاونة عسكرية من هرقل والغساسنة، الذين كانت تجربتهم مع الأحزاب - غير الضرورية - مريرة للغاية.

وبمجرد ما وصلت الأنباء لقريش أن الرسول يقود جيشاً كبيراً باتجاه مكة، حتى انهارت معنوياتهم وبدأت تبحث عن وسيلة تؤمن بها حياة أفرادها، ولم يعد يهمها كرامة أو سمعة أو مكانة اجتماعية. إلا أن الرسول لم يحضر لمكة للانتقام أو سفك الدماء، وكل ما يرمي إليه هو أن تدخل مكة تحت حكم دولة المسلمين والقضاء النهائي على سلطة وتسلط كبراء قريش دون أشخاصهم. وبالفعل دخل المسلمون الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ آمِنِينَ، وأصبحت مكة تحت سلطة دولة المسلمين، ولم يكن متوقعاً إيمان رجالها بالدعوة بعدما رفضوها[1].

---

١ وهذه رواية تظهر أن رجال قريش لم يؤمنوا حتى بعد أن أعلن بعضهم إيمانه. حدثنا أبوالوليد قال: حدثنيجديقال: حدثناعبدالجباربنالوردالمكيعنابنأبيمليكةقال: لما كانيومالفتحر قيبلالفأذنعليظهر الكعبةفقالبعضالناس: يا عباد الله لهذا العبد الأسود أن يؤذن على ظهر الكعبة فقال بعضهم إن يسخط الله عليه هذا الأمر يغيره فأنزل الله عزوجل «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى» الآية وأخبرني جدي عن محمد بن ادريس الشافعي عن الواقدي عن أشياخه قالوا جاءت الظهر يوم الفتح فأمر رسول الله «ص» بلالاً أن يؤذن بالظهر فوق ظهر الكعبة وقريش فوق رؤوس الجبال وقد فر وجوههم و تغيبوا خوفاً أن يقتلوا فمنهم من يطلب الأمان، ومنهم من قد امن فلما أذن بلال رفع صوته كأشد مايكون قال: فلما قال أشهد

ولا وجود لما يعرف بصلح الحديبية بالصورة التي وردت في كتب التراث، وكأنه عقد بين الرسول وقريش، وقع قبل الفتح بعامين. وينص على عودة المسلمين دون تحقيق ما قدموا من أجله (كما صورت كتب التراث) على أن يعودوا لمكة في العام القادم لأداء العمرة. وكأن مكة كانت تحت الصيانة في ذلك العام ولا تتسع للرسول والمسلمين. كما أن اشتراط دخول المسلمين مكة دون سلاح والبقاء في مكة ثلاثة أيام يعتبر انتحار. لأن هذا يناقض طبيعة العداء المستحكم عند قريش للمسلمين، ولا يمكن أن يؤمن جانب قريش التي حزبت الأحزاب بالأمس للقضاء على المسلمين، وهي ترحب بهم لدخول مكة والبقاء فيها ثلاثة أيام بسلام. والقرآن يؤكد أن قريش لو ظفرت بالمسلمين فلن تحترم أي عهد تعهدت به لهم: كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ(٨) براءة.

ويكون صلح الحديبية عبارة عن عقد استسلام قريش للمسلمين وتسليم مكة لتكون تحت حكم دولة المسلمين، مقابل الإبقاء على أرواح رجال قريش ومعتقداتهم، على ألا يخونوا المسلمين ولا يكيدوهم ولا يتعاونوا مع أعدائهم. وتم الاتفاق على هذا الميثاق في اليوم الذي فتحت فيه مكة أو قبله بيوم، وليس قبل ذلك بعامين.

معركة مؤتة

بعد عودة المسلمين من فتح مكة، قام الرسول بتعبئة سرية وأرسلها لقتال الروم . لأن الروم هم من ابتدر عداء المسلمين وأرسلوا جيشاً عرمرماً لقتال المسلمين نصرة لقريش دون أن يتعرض لهم المسلمون أو يعادوهم. وبالتالي أصبح القضاء عليهم - كغيرهم ممن شارك في حملة الأحزاب - ضرورة لبقاء دولة المسلمين ولكي يأمن المسلمون شرهم.

أن محمداً رسول الله تقول جويرية بنت أبي جهل: قد لعمري رفع لك ذكرك، أما الصلاة فسنصلي ووالله مانحب من قتل الأحبة أبداً ولقد جاء إلى أبي الذي كان جاء إلى محمد من النبوة فردها ولم يرد خلاف قومه، وقال خالد بن أسيد: الحمد لله الذي أكرم أبي فلم يسمع هذا اليوم، وكان أسيد مات قبل الفتح بيوم، وقال الحارث بن هشام: واثكلاه ليتني مت قبل أن أسمع بلالاً ينهق فوق الكعبة، وقال الحكم بن أبي العاص: هذا والله الحدث الجليل أن يصبح عبد بني جمح ينهق على بنية أبي طلحة، وقال سهيل بن عمرو: إن كان هذا سخطاً لله فسيغيره الله، وقال أبوسفيان بن حرب: أما أنا فلا أقول شيئاً لوقلت شيئاً لأخبرته هذه الحصاة، فأتى جبريل عليه السلام رسول الله «ص» فأخبره خبرهم فأقبل حتى وقف عليهم فقال: أما أنت يافلان فقلت: كذا، وأما أنت يا فلان فقلت: كذا، وأما أنت يا فلان فقلت: كذا، فقال أبوسفيان: أما أنا يارسول الله فما قلت شيئاً فضحك رسول الله «ص»،قال أبو الوليد: وكان بلال لأيتام من بني السباق ابن عبد الدار أوصى به أبوهم إلى أمية بن خلف الجمحي وأمية الذي كان يعذبه وكان اسم أخيه كحيل بن رباح. نقلا عن أخبار مكة وما جاء فيها من آثار للآزرقي - باب ماجاءفيرقيبلالالكعبة وأذانهعليهايوم الفتح.

وقد توغلت السرية في البلاد التي يسيطر عليها الروم ووصلت إلى مؤتة قرب الكرك في بلاد الأردن الحالية. وهناك التقوا بحامية رومية، الحقت الهزيمة بسرية المسلمين وقتل منهم (١٢) رجلاً، كما تقول كتب التراث. وهذه الموقعة هي التي تبدأ سورة الروم بالحديث عنها:

الم(١) غَلَبَتِ الرُّومُ (بفتح الغين واللام في غلبت)(٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيُغْلَبُونَ(بضم الياء في سيغلبون)(٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ(٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(٥) وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(٦).

وكعادة المفسرين قاموا بلي الآيات وتأويلها وكأنها تتحدث عن قصص اختلقوه. فقرأوا: غُلبت الروم (بضمة على الغين) وقرأوا: سيغلِبون (بكسرة تحت اللام) وكأن الروم هزموا وسينتصرون في بضع سنين. وقالوا إن الآيات تتحدث عن حرب بين الفرس والروم انتصر فيها الفرس فحزن المسلمون لانتصار المجوس على عباد الصليب، وعندما ينتصر عباد الصليب سيفرح المسلمون. وكأن هناك فرقاً بين ملل الكفر.

ثم إن القرآن لا يتحدث إلا عما له علاقة بحياة المسلمين أو ما له علاقة بالذين توجه لهم دعوة الدخول في الإسلام. والقرآن وجه الدعوة لقريش أو لأهل الكتاب في يثرب أو لكل الناس غيرهم. ولم يخاطب الروم ولا الفرس لأنهم بعيدون عن محيط مكة والمدينة، ولم تصل الدعوة لمن هم أقرب منهم وبينهم وبين المسلمين، ولم يقم الرسول بدعوتهم. ولا عبرة لما روته كتب التراث عن أن الرسول كاتبهم يطلب منهم الدخول في الإسلام.

وفيما يلي نقاش ما قيل عن أن الآيات تتحدث عن هزيمة الروم من الفرس، لإثبات أن ما حدث بين تلك الدولتين من حروب لا يعني المسلمين ولا يهمهم.

فالحرب كانت سجالاً بين الدولتين ومنذ قرون قبل الإسلام، ومن أواخر الحروب بينهما تلك الحرب الطويلة التي كانت إبان حكم كسرى الثاني (٥٩٠-٦٢٨) والتي بدأت في العام (٦٠٢) أي قبل بعثة الرسول بثمان سنوات. واستمرت إلى أن وصل الجيش الفارسي إيليا (القدس) واحتلها عام (٦١٤م الموافق للسنة الخامسة للبعثة حسب تقديرات كتب التراث) وهي المعركة التي يقولون إن سورة الروم تتحدث عنها.

وفي العام (٦٢٢) قام هرقل حاكم قرطاجة بانقلاب عسكري وتم له الاستيلاء على القسطنطينية، ثم بدأ حرب الفرس في العام (٦٢٤ الموافق للسنة الثانية للهجرة حسب تقديرات كتب التراث). وفي العام (٦٢٧ الموافق للسنة الخامسة للهجرة حسب تقدير كتب التراث) انتصر هرقل على الفرس في معركة نينوى الحاسمة.

وهناك قصص في كتب التراث تقول إن انتصار الروم حدث في نفس اليوم الذي انتصر فيه المسلمون في بدر على المشركين. وبدر - حسب تقديرات كتب التراث - وقعت في السنة الثانية للهجرة (الموافقة للعام ٦٢٤) وهو العام الذي بدأ فيه هرقل حرب الفرس، بينما معركة نينوى وقعت بعد ذلك التاريخ بثلاث سنوات.

وكل ما تقدم على افتراض أن سورة الروم نزلت في مكة، كما تزعم كتب التراث والمفسرين. ومع ذلك لا يوجد تطابق بين تواريخ انتصار الفرس وانتصار الروم عليهم وبين نزول السورة، وما قيل عنها من قصص مختلق.

ولو نبذنا تخاريف المفسرين وما تحويه كتب التراث، فإن سورة الروم نزلت في المدينة وبعد فتح مكة. وقد جاءت للحديث عن معركة مؤتة - كما سبق وذكر - والتي تزامن إرسال الرسول سريتها مع خروج المسلمين لفتح مكة. وقد هزمت سرية المسلمين في مؤتة، لكنها كانت رسالة تحذيرية للروم تقول بأن المسلمين سيأتون لمعاقبتكم، وهو ما حدث. فقد توالت جيوش المسلمين لحرب الروم، كان منها جيشان في عصر الرسول، هما حملة تبوك التي قادها بنفسه عليه الصلاة والسلام. وجيش أسامة ابن زيد الذي أمر بإعداده عليه الصلاة والسلام ولكنه توفي قبل أن يخرج، فأمر أبو بكر الجيش بالمضي في المهمة التي أعدها الرسول. وبالفعل خرج الجيش لحرب الروم، ثم استمر إرسال الجيوش للشام في خلافة أبي بكر وعمر انتهت باستسلام إيليا وجلاء الروم من أرض الشام. وقد وقعت معركة مؤتة (التي تتحدث عنها سورة الروم) بعد فتح مكة وفي أواخر عصر الرسول، وخسر الروم معركة اليرموك سنة (١٣) للهجرة، وبينهما بضع سنين. كما أن استسلام إيليا وقع في العام (١٧) للهجرة، وبينها وبين مؤتة بضع سنين أيضاً.

ولا يمكن أن تكون سورة الروم نزلت في مكة وفي السنوات الأولى للدعوة، وقبل نزول التشريعات، مما يعني أن عدد المسلمين كان قليلاً جداً. وكان اهتمامهم ينصب حول

مضايقات قريش لهم، وهل سيتمكنون من البقاء؟ أم أن قريشاً قد تعتدي عليهم أو تقوم بقتلهم، فهم قلة لا حول لهم ولا قوة. ولا يهمهم إن انتصرت الروم أو خسرت من الفرس، وليس في نزول القرآن بتلك الأخبار أي منفعة ولا تعزية ولا تشجيع، ولا أي فائدة لهم. فكيف يهتم القرآن بنقل أخبار حرب بين أمتين كافرتين بعيدتين، لأناس يعانون من القلة والضعف والعنت والضغوط من قريش المستبدة؟

نقض قريش لمعاهدة الحديبية يوم فتح مكة

سورة براءة نزلت للتفاعل مع خيانة قريش للمعاهدة التي وقعتها مع المسلمين، وذلك بمظاهرتها لأعداء المسلمين الذي خططوا مع قريش بمهاجمة المسلمين والقضاء عليهم حينما كانوا في مكة بعد الفتح، فوقعت معركة حنين التي انتصر فيها المسلمون وفشلت خطة أعدائهم. وسنتحدث عن حنين لاحقاً.

والمعاهدة التي خانتها قريش هي التي وقعتها مع المسلمين يوم الفتح في الحديبية خارج مكة: كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٧) براءة.

فالمعاهدة تم إبرامها عند المسجد الحرام، ولم يلتق المسلمون وقريش عند المسجد الحرام إلا عندما توجهوا لفتح مكة. وعندما كان الرسول والمسلمون يعسكرون في الحديبية استعداداً للهجوم على مكة، جاء رجال من قريش وعرضوا على المسلمين أن يسلموا مكة لحكم دولة المسلمين مقابل ألا يتعرضوا لرجال قريش وأن يحتفظ القرشيون بمعتقداتهم. وهذه المعاهدة هي التي خانتها قريش بمظاهرة أهل الطائف وقبائل أخرى مع جيش فارسي لمهاجمة المسلمين أثناء تواجدهم في مكة، ولو حدث هذا فستطعنهم قريش من الخلف وسيتم القضاء عليهم. لكن ما حدث هو أن المسلمين سمعوا بقدوم جيش من الطائف لمهاجمتهم فخرجوا لملاقاته خارج الحرم وحدثت معركة حنين التي انتصر فيها المسلمين وأفسدوا مخطط قريش ومن ظاهرهم.

والسورة تبدأ بإعلان صحفي ببراءة المسلمين من خيانة المعاهدة الموقعة مع قريش يوم الفتح، وهو ما يعني تحميل قريش مسئولية نقض تلك المعاهدة: بَرَاءةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى

الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ(١) براءة.

وإعلان خبر خيانة قريش يجب أن يكون على رؤوس الأشهاد: وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٣) براءة.

وليس هناك أفضل من إعلان البراءة من الخيانة يوم تجمع الحجاج من كل بقاع جزيرة العرب في عرفات لينطلقوا من هناك لبدء حجهم. والآية تأمر الرسول أن يتلو على التجمع ما حدث مع قريش ونقضها لمعاهدتها مع المسلمين، وكل ما سيترتب على ذلك من إجراءات سيقوم بها المسلمون ضد قريش.

وهذا الإعلان ليظهر لكل شعوب جزيرة العرب أن المسلمين لا يمكن أن ينقضوا عهداً أبرموه، ولكي يقطعوا الطريق على قريش لنشر إشاعات بين الناس أن المسلمين هم من نقض المعاهدة.

وتعلن السورة عدة إجراءات ترتبت على نقض قريش للمعاهدة، كما يلي:

- **إعطاء قريش مهلة للتراجع**

فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ(٢) براءة.

المهلة المعطاة للتراجع مدتها أربعة أشهر.

- **عدم التعرض لمن لم يخن المسلمين ولم ينقض المعاهدة من كفار قريش**

إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٤) براءة.

الآية تتعهد بعدم التعرض لمشركي قريش الذين احترموا معاهدتهم مع المسلمين ولم يتعاونوا مع أعداء الإسلام. فالحرب ليست على الكفر ولكن على من يسعى لحرب المسلمين والقضاء على الإسلام.

- **كل من خان المعاهدة يطارد ويحارب بكل الوسائل بعد انتهاء مدة التراجع**

فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ

وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥) براءة.

إن لم تتراجع قريش عن عدائهم للمسلمين بعد انتهاء المهلة المعطاة، فيجب حصارهم اقتصادياً، والترصد لهم، وملاحقة رجالها في كل مكان يتواجدون فيه، ومن عُثر عليه منهم فاقتلوه، لأن بقاءهم سيشكل خطراً دائماً على الإسلام والمسلمين بدسائسهم ومناصرتهم للأعداء.

- **كل مشرك محارب لو استجار يجار**

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ(٦) براءة.

برغم أن قريشاً خانت المعاهدة مع المسلمين وبرغم أنهم في حالة حرب مع المسلمين، تقول الآية بوجوب أن يجير المسلمون أي قرشي مشرك ينشق ويستجير بهم، بشروط:

  - يجيره المسلمون، ويسمعونه كلام الله.
  - إذا لم يقبل الدخول في الإسلام فلا يقتل ولا يسلم لمن انشق عنهم، بل تتكفل دولة المسلمين بإيصاله لمكان آمن لا يمكن لقومه الوصول له والنيل منه.

- **التعامل بحذر وبكل حزم وقسوة مع من خان المعاهدة من المشركين (قريش)**

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٧) كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ(٨) اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(٩) لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ(١٠) براءة.

تأكيدٌ على عدم التعرض للمشركين الذين احترموا المعاهدة ولم يظاهروا أعداء المسلمين عليهم.

والتعامل بحذر شديد مع من خانوا المعاهدة لأنهم لا يحترمون المواثيق. فقد عاهدوا المسلمين وهم في نفس الوقت يخططون مع أعدائهم. لذا يجب التعامل معهم بحزم وقسوة

لأنهم لو تمكنوا من المسلمين لسحقوهم، فوجب سحقهم لضمان سلامة المسلمين من شرهم.

- **بعد انتهاء المهلة**

فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(١١) وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ(١٢) براءة.

إن ثابت قريش وعاد من أعلن إسلامه منهم يوم الفتح للإسلام، فأهلا بهم. وإن نكثوا وطعنوا في الدين فقاتلوهم بكل قسوة حتى تقضوا عليهم. وفي هذه الحالة فقتالهم واجب لما سبق وصدر منهم: أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤُمِنِينَ(١٣) براءة.

فهم نكثوا أيمانهم بنقضهم للمعاهدة، وهموا بإخراج الرسول من مكة (قد يكون هذا قبل الهجرة)، كما أنهم هم من بدأ حرب المسلمين ولم يبدأ المسلمون حربهم. وهذا دليل قاطع آخر على أن معركة بدر لم تكن الخيار المفضل للمسلمين ولم تكن بسبب ملاحقة المسلمين لعير قريش كما صورت كتب التراث.

وإن لم تثب قريش لرشدها ولم تعد للالتزام ببنود المعاهدة فعلى المسلمين قتالهم بكل قسوة للقضاء عليهم لئلا يكونواا مصدر إزعاج ومكائد مستقبلاً.

والتراجع لا يعني أن يعلن كل رجال قريش الدخول في الإسلام أو يقاتلوا، ولكن الآية تقول على من أعلن إسلامه يوم الفتح أن يعود للإسلام كدليل على تراجعه عن نقض المعاهدة. لكن لو تراجع ولم يعد للإسلام أو أنه لم يعلن إسلامه أصلاً فليس مطلوباً منه الدخول في الإسلام. فالمدينة ويثرب مليئة بالمنافقين الذين يقول عنهم القرآن: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (٣) المنافقون.

ولم يأمر القرآن بقتالهم ولا قتلهم لأنهم كفروا بعد إيمان. فالقسوة في قتال قريش لأنهم نقضوا عهدهم مع المسلمين وليس لأن بعضهم أعلن إسلامه وارتد. وما يؤيد هذا أن سورة براءة تؤكد على عدم التعرض للمشركين من قريش الذين التزموا بالمعاهدة مع المسلمين ولم يخونوها في الآية الرابعة والسابعة. فهناك رجال من قريش – وليس كلهم

- أعلنوا إسلامهم يوم الفتح وهم كاذبون. لأنهم كانوا في نفس اللحظة يكيدون المكائد للمسلمين مع أعدائهم، ولما انكشف أمرهم في حنين ارتدوا. وهم من تطالبهم السورة بالعودة لحظيرة الدين.

أما بقية رجال قريش الذين لم يعلنوا الإسلام ولم يؤمنوا، فليس مطلوباً منهم الدخول في الإسلام، ولكن العودة للتمسك بالمعاهدة.

- **قتال من لم يقبل التراجع من قريش عذاب لهم على أيدي المسلمين في الدنيا**

قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ(١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(١٥) براءة.

وشفاء صدور قوم مؤمنين المقصود بهم المستضعفون الذين تعرضوا لأقسى أنواع التعذيب على أيدي كبراء قريش، قبل الهجرة، لأنهم قالوا ربنا الله.

- **قتال المعاندين من قريش سيكون تمحيصاً وامتحاناً لمسلمة قريش**

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٦) براءة.

لقد كانوا يوالون مشركي قريش، والبيعة التي تبايع عليها المسلمون في الحديبية قبل دخول مكة كانت لأجل ضمان ولاء مسلمة قريش للمسلمين وتعهدهم بقتال مشركي مكة وعدم موالاتهم. وبما أنه لم يحدث قتال عند فتح مكة، لأن قريشاً عرضت الاستسلام، فإن قتال قريش الآن بسبب نقض المعاهدة سيكشف صدق نوايا مسلمة قريش، وهل ما زالوا يوالون مشركي قريش، أو أنهم سيقاتلونهم مع المسلمين.

وفي مكان آخر تعود السورة لتحذير مسلمة قريش: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(٢٤) براءة.

مما يشير إلى أن مشاعر الولاء للمشركين عندهم لم تتغير.

- **عقوبات على قريش**

إمعاناً في إهانة قريش الناقضة للعهد، تم فرض عقوبتين قاسيتين بحقها:

العقوبة الأولى: سحب شرف صيانة البيت من رجالها

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ(١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهّ مَنْ آمَنَ بِاللهّ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهّ فَعَسَى أُوْلَـئِكَ أَن يَكونوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ(١٨) أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهّ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهّ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللهّ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(١٩) الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللهّ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللهّ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ(٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ(٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللهّ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ(٢٢).

تقول السورة إذا كانت قريش تتباهى بأنها تقوم على بيت الله وخدمة الحجاج، فهذه الخدمات لا تساوي شيئاً بدون الإيمان بالله.

وبما أن قريشاً فسقت عن معاهدتها مع المسلمين فيجب أن يسحب منها شرف خدمة بيت الله وحجاجه، ويسند للمسلمين الذين آمنوا بالرسالة ولا تترك بأيدي المشركين. فالمسلمون هم من يعمر مساجد الله بالطاعة، ولهم حق تعمير المسجد الحرام وصيانته وخدمة حجاجه، ولا تترك للمشركين.

والآيات تقول بإلغاء حق قريش في القيام على البيت وخدمة الحجاج، منذ تلك اللحظة التي نزلت فيها سورة براءة.

وهذا يعني أن قريشاً إن كانت عادت لتولي القيام على البيت وخدمة الحجاج بعد عصر الرسول فهو عود للجاهلية وتجاهل لأمر القرآن الصريح. كما ينفي أن يكون أحد من قريش بقي له خدمة وتشريف في المسجد الحرام، ولو غضبت أسرة بني شيبة القرشية الذين توارثوا الاحتفاظ بحق صوري لا يقدم ولا يؤخر وهو عبارة عن الاحتفاظ بمفتاح للكعبة، يؤمرون فيفتح ويؤمرون فيغلق[1]. وخدمة البيت أكبر من ذلك، وتتمثل بالقيام على

١ يطلق عليهم سدنة الكعبة، وهو لقب خاطئ بحق بيت الله. فالسدنة يكونوان للمعابد الوثنية أما بيت الله فليس له سادن كسادن بيت النار عند المجوس مثلا، لكن لبيت الله أناس يقومون على ترميمه وتنظيفه وتهيئته للحجاج، وهذا لا يقوم به بنو

صيانة وعمارة البيت وتوفير الضيافة المناسبة لحجاج وزوار البيت من سكن وتنقل وأكل وشرب بلا مقابل.

ويستفاد من هذه الآيات تشريع يقول: إن القيام على المسجد الحرام وخدمة الحجاج يجب أن يكون بأيدي مسلمين مؤمنين تقاة، ولا يكون بيد كفار أو فسّاق ولو أعلنوا إسلامهم. ويتم تأمين المبالغ المطلوبة من عامة المسلمين حول العالم.

العقوبة الثانية: حرمان مشركي قريش من دخول المسجد الحرام

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٢٨).

الآية تحرم دخول المشركين المسجد الحرام بعد ذلك العام الذي نزلت فيه سورة براءة. والمشركون هنا المقصود بهم قريش فقط، لأن السياق يتحدث عن قريش وخيانتهم للمعاهدة مع المسلمين وفرض عقوبات عليهم بسبب خيانتهم.

وقد حولت كتب التراث هذا المنع من قريش إلى الكفار عموماً، ووسعت المنع ليشمل منطقة الحرم. وهو ما نراه مطبقاً الآن، حيث يمنع «رسمياً» غير المسلمين من دخول مكة، بل وزيد عليه منعهم من دخول المدينة، وهي ليست حرماً، ولا بلداً حراماً. والمنع الحالي رسمي فقط. لذا فلم يمنع أبداً دخول غير المسلمين مكة بالخفاء أو بالتواطؤ الرسمي لمن لديهم حظوة طوال القرون الماضية.

فمكة كبلد لم يمنع الكفار من دخولها، ولم تمنع قريش الكافرة من البقاء فيها. وإنما عوقبت قريش بعدم دخول المسجد الحرام، وسحب منها شرف القيام عليه وخدمة الحجاج. ولا تتحدث الآيات بصورة عامة، ولا تفرض تشريعاً ضد كل مشرك وكافر.

شيبة. إضافة لخدمة الحجاج واستضافتهم بتهيئة السكن والمأكل لهم، وهذا لا وجود له الآن للأسف. ويجب وجوده ويتم توفير المبالغ المطلوبة لاستضافة الحجاج من كل المسلمين حول العالم، لأن القرآن عندما سحب شرف استضافة الحجاج من قريش لم يعطها لعائلة بعينها، وإنما جعله واجباً على كل قادر من المسلمين. وكذلك الأمر بالنسبة لترميم البيت وتهيئته.

معركة حنين / الأحزاب الثانية[1]

سورة الفتح تتحدث عن فتح مكة وكيف دخلها المسلمون، وعن المتخلفين عن الفتح من الأعراب والمنافقين، لكنها لم تتحدث عن حنين. والإخباريون يقولون إن الفتح كان في أواخر رمضان من السنة الثامنة، وحنين بعده في شوال من نفس العام. وليس مهماً أن يكون الفتح قد وقع في رمضان، لكن المهم هنا هو أن المسلمين بعد الفتح، وأثناء تواجدهم في مكة وصلتهم أخبار تفيد أن هناك جيشاً قادماً من الطائف لمهاجمتهم، فخرجوا لملاقاته خارج بيت الله الحرام.

والقرآن يؤكد أن قريشاً قد خانت معاهدة الفتح التي تنص على دخول مكة تحت حكم دولة المسلمين، وتعهد قريش ألا تكيد للمسلمين ولا تعاون من يعاديهم. والقرآن يقول: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٤)﴾ براءة.

والآية تشير إلى أن قريشاً ظاهرت على المسلمين أعداءٌ لهم.

وتكون معركة حنين نتيجة لتحريض قريش أهل الطائف وبعض رجال من القبائل، وأعتقد أن معهم جيشاً فارسياً حضر لمعاونتهم بناءً على طلب من قريش التي ترتبط بالحيرة بروابط تجارية وعلاقات قديمة. وكانت الخطة تقضي أن يشن القادمون من الطائف هجوماً على المسلمين، وإذا ما احتدمت المعركة، تهاجمهم قريش من الخلف لتربكهم وتشتت صفوفهم، ويسهل القضاء عليهم.

ولو كان هذا ما خطط له، فهو صورة طبق الأصل للسيناريو الذي كان متفقاً على تنفيذه في غزوة الأحزاب. والمتمثل بأن تهاجم جيوش التحالف المدينة من الشمال، فإذا احتدمت المعركة، أو هرب المسلمون، تلقاهم بنو إسرائيل من الجنوب.

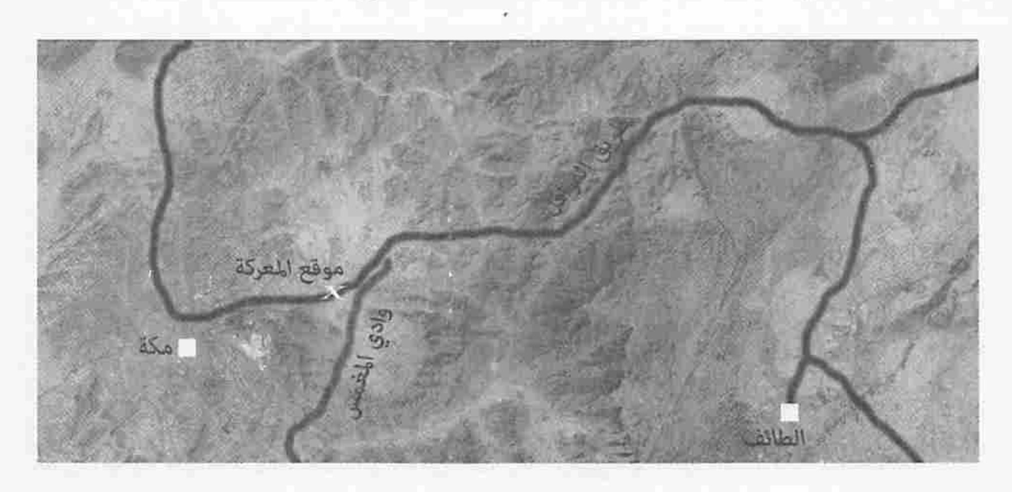
وبعد هزيمة أحزاب الطائف، عاد الرسول والمسلمون إلى المدينة. ولعل المسلمين لم يكتشفوا مظاهرة قريش لجيش التحالف في حنين إلا في وقت لاحق، خاصة أن المسلمين استطاعوا حسم المعركة ولم يتقهقروا لكي تستقبلهم قريش بالسيوف وينكشف دورها التآمري.

---

١ ما ورد في هذه الفقرة مقتبس بتصرف من كتاب أحسن القصص/ تاريخ الإسلام كما ورد من المصدر، مع ترتيب السور حسب النزول. من منشورات الجمل.

ومعركة حنين حدثت بالقرب من مكة، وفيما يعرف اليوم بالشرائع العليا أو شرائع النخيل، والتي تبعد عن الحرم المكي بأقل من (٢٥ كم)، بينما تزيد المسافة بينها وبين الطائف عن (١٠٠كم) عن طريق السيل الكبير، طريق القوافل. مما يعني أن تحالف الطائف هم من خرج لمهاجمة المسلمين أثناء تواجدهم في مكة. إلا أن المسلمين علموا بخبر قدوم جيش الطائف وخرجوا لملاقاتهم، فحدثت المعركة في حنين خارج مكة التي قبعت فيها قريش بانتظار تقهقر جيش المسلمين لتتلقاهم بالسيوف من الخلف.

وتكون حنين هي الأحزاب الثانية، وهذه خارطة تبين موقع المعركة:



سير القتال

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ(٢٥) ثُمَّ أَنزلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ(٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٢٧) براءة.

منذ بدء الدعوة لم يكن هناك احتكاك أو عداء بين المسلمين وأهل الطائف، فيما عدا ما زعمته كتب التراث من طرد أهل الطائف للرسول وإغراء صبيانهم بالسخرية منه، وهو كلام لا يعتد به. وهذا يؤكد أن هجوم أهل الطائف ومن معهم جاء تلبية لطلب قرشي. ونميل إلى أن هناك جيشاً فارسياً شارك مع جيوش الإئتلاف في حنين ضد المسلمين، تلبية لطلب قريش. ولم يكن هناك أي عداء سابق بين المسلمين والفرس، ولا أي اتصال بأي

شكل من الأشكال.

ولعل قريشاً توجهت للفرس بعدما رفض الروم إرسال جيش آخر نتيجة لفشل جيشهم الأول الذي قدم إلى المدينة يوم الأحزاب، وعاد يجر أذيال الخيبة. خاصة أن الروم لم يكن بينهم وبين المسلمين أي عداء سابق، وليس للروم مصلحة بإرسال جيوشها لمناطق بعيدة صعبة. ويبدو أن هرقل قد تأكد أن المسلمين لا يشكلون خطراً عليه ولا يسعون لقطع إمدادات البهارات واللبان والبخور القادمة لروما من جنوب جزيرة العرب بواسطة قوافل قريش.

والاستعانة بالفرس لحرب المسلمين واردة ومحتملة، نظراً لقوة الروابط التي تربط قريشاً بهم، ووجود طريق قوافل مطروق بين مكة والعراق منذ القدم، يغذي فارس بما تحتاج من بهارات ولبان وبخور.

وما إن تيقن المسلمون - أثناء تواجدهم في مكة بعد الفتح - أن جيشاً قادماً من الطائف لحربهم، حتى خرجوا لملاقاته، إلا أنهم فوجئوا بالعدو وقد نصب لهم كميناً في أحد المضايق على الطريق. ولأن كثيراً من جيش المسلمين خرجوا من المدينة طلباً للغنائم، ظناً منهم أن الرسول سوف يستبيح مكة، ولم يخرجوا في سبيل الله، فإنهم لاذوا بالفرار، مما تسبب في بلبلة جيش المسلمين لبعض الوقت، إلى أن استطاع المؤمنين لملمة صفوفهم، والاشتباك مع العدو وهزيمته[1]: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ(٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ(٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٢٧) براءة.

وبعد هزيمة جيش الأحزاب الثاني في حنين توجه الرسول والمسلمون إلى المدينة، وليس هناك ما يشير إلى أنهم اكتشفوا حينها أي تواطؤ من قريش مع أعدائهم. ونؤكد استحالة أن يكون الرسول قد حاصر الطائف أو سبى نساءهم، واستحالة حدوث المعركة بالشكل الذي روته كتب التراث، التي شوهت الحقيقة لتغطية خيانة قريش.

---

١ ذكرت كتب التراث أن المشركين نصبوا كميناً لجيش المسلمين في حنين، والآيات تشير إلى أن هناك بلبلة وهروباً وفوضى حدثت في بداية المعركة في جيش المسلمين، مما يعني أن خبر كتب التراث قد يكون صحيحاً.

التأكيد على معاقبة بعض أهل الكتاب الذين ظاهروا أهل الطائف في حرب المسلمين

قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ(٢٩) براءة.

سورة براءة نزلت لتخبر الرسول أن قريشاً خانت معاهدة أبرمتها مع المسلمين يوم الفتح وكان الرسول في تبوك فعاد من هناك ولم يواصل مسيره لحرب الروم كما كان هدف الحملة. لأن السورة تطلب من الرسول أن يوصل لقريش رسالة أنهم أعطوا مهلة (٤) أشهر للتراجع، وأن يعلن على الملأ في عرفات أن قريشاً هي من خان الميثاق، وأن المسلمين أعطوها مهلة تنتهي بنهاية الأشهر الحرم. وأنهم إن لم يعودوا فسيقوم المسلمون بحصارهم وملاحقتهم وقتالهم في أي مكان يجدونهم.

وسورة براءة أيضا تشدد على أن يتابع المسلمون معاقبة كل من بدأهم الحرب سواء في الأحزاب الأولى وهم الروم وقريش وبعض القبائل العربية، إضافة لقبيلة من قبائل بني إسرائيل يثرب. أو من شارك في حرب الأحزاب الثانية (حنين) من أهل الطائف وبعض القبائل حولها مع جيش من فارس، وقبيلة من قبائل بني إسرائيل يثرب.

فكان فتح مكة لعقاب قريش وأرسلت سرية للروم هزمت في مؤتة، كانت لجس نبض الروم. وقد هوجمت القبيلة الإسرائيلية التي تعاونت مع الأحزاب، وحصل قتال بينهم وبين المسلمين لبعض الوقت ثم هزموا وتحصنوا بحصونهم ثم أعلنوا استسلامهم بشرط أن يخلى سبيل أسراهم ويتركوا يرحلون من يثرب، وقد وافق المسلمون على هذا العرض. وهو ما تحدثت عنه سورة الأحزاب التي سبقت في النزول سورة الفتح وبراءة.

وبعد حنين نزلت سورة براءة تؤكد على ضرورة معاقبة كل من بادر بحرب المسلمين أو تعاون مع أعدائهم، ومما ورد في هذا السياق قوله تعالى: قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ(٢٩) براءة.

والآية تتحدث عن عقوبة خاصة بقبيلة من قبائل بني إسرائيل التي تعاونت مع أعداء الإسلام في حنين، وتأمر المسلمين بحرب تلك القبيلة حتى يستسلموا صاغرين ويدفعوا

جزية كتعويض لما لحق بالمسلمين من أضرار نتيجة لتلك المعركة.

وستخبرنا سورة الحشر التي نزلت بعد براءة أن هذه الرسالة وصلت للقبيلة المعنية، فبادروا بلقاء الرسول حال وصوله المدينة قادما من تبوك وعرضوا عليه الجلاء وترك منازلهم ومزارعهم للمسلمين مقابل عدم التعرض لهم، وقد قبل الرسول والمسلمون العرض.

وعقابهم كان، كما تنص الآية، يتمثل بقتالهم، حتى يستسلموا ويرضوا بدفع جزية للمسلمين كبدل ضرر للمسلمين على خيانتهم، وهم صاغرون. والجزية هي تعويض مالي يدفع مرة واحدة من هذه القبيلة بالذات ولا يطبق على سواها، مقابل الضرر الذي تسببت به خيانتها للمسلمين وتعاونها مع الأعداء. لكن الأوضاع تغيرت بعد عصر الرسول واستيلاء قريش على حكم دولة المسلمين وبدأت حروبها التوسعية في العصر الأموي والعباسي فأولوها لتشمل كل أهل الكتاب في كل مكان. وحولوا الجزية إلى ضريبة سنوية على كل سكان البلاد المفتوحة الذين احتفظوا بدياناتهم ولم يعلنوا الإسلام. وهذا التعميم لم يعرفه عصر الرسول ولا الخلفاء الثلاثة من بعده.

فالمسلمون زمن الرسول لم يتعرضوا لأهل الكتاب في شمال الحجاز واليمن وغيرها. ولم يفرضوا عليهم جزية لأنهم أبقوا على دينهم.

فهذه الآية تأمر المسلمين بقتال قبيلة معينة من أهل الكتاب في يثرب حتى يستسلموا ويرضوا بدفع جزية (جزاءً) على ثبوت تورطهم في الكيد للمسلمين.

ولم تذكر الجزية في القرآن مرة أخرى أو بحق أحد آخر غير تلك القبيلة.

وسورة الحشر التي نزلت بعد براءة تخبرنا ماذا حدث لتلك القبيلة لما علمت بما نزل بحقهم في القرآن. حيث تشير الآيات الأربع الأولى من سورة الحشر أن رجال القبيلة قد سارعوا في الاتصال بالرسول حال وصوله إلى المدينة قادماً من تبوك وأبلغوه رغبتهم بالجلاء من يثرب كبديل للجزية ومقابل عدم تعرض المسلمين لهم: سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ(٢) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ

النَّارِ(٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٤).
وطلب هذه القبيلة من أهل الكتاب (بني إسرائيل) الجلاء من يثرب بهذه الصورة، استباقٌ للأحداث، وتجنب لهجوم المسلمين عليهم قبل أن يحدث، لأنهم علموا أن سورة براءة قد أبلغت الرسول بخيانتهم، وأمرته بحربهم. وقد وافق الرسول والمسلمون على عرض قبيلة أهل الكتاب، الذين تركوا أملاكهم وقصورهم ومزارعهم وخرجوا من يثرب بلا رجعة.
وهو الجلاء الثاني والأخير لأهل الكتاب من يثرب في عصر الرسول، ولم يتم التعرض لمن بقي منهم بسوء، لأنه لم يثبت تورطهم بالكيد للمسلمين ولا معاونة أعدائهم. ولا نعلم متى خلت يثرب من سكانها من أهل الكتاب، وإن كنا نرجح أنهم نزحوا لفلسطين باختيارهم بعدما أصبحت تحت حكم المسلمين في عصر عمر ابن الخطاب، عندما تأكد لديهم أن اليهود فيها يعيشون بارتياح تحت حكم المسلمين[١].

غزوة تبوك

سمتها كتب التراث بهذا الاسم، ولعل السبب أن الرسول وجيش المسلمين وصلوا إلى تبوك وعادوا من هناك. وهي حملة لم تشتبك مع أحد في قتال، ولم تكن موجهة لأهل الكتاب بكل تأكيد، لأن قراهم التي تمتد على طول طريق القوافل المتجه للشام شمال يثرب، مر بها المسلمون ولم يهاجموها أو يتعرضوا لأهلها بسوء[٢].
وبما أن أهل الكتاب لم يكونوا هم المستهدفين فالمستهدف بكل تأكيد هم الروم، كاستمرار لإرسال الجيوش لتأديبهم ومعاقبتهم ومحاولة القضاء عليهم لأنهم ابتدروا المسلمين بالاعتداء عندما اشترك جيش رومي مع جيوش الأحزاب للقضاء على المسلمين نصرة لقريش. وهذه الحملة هي الثانية بعد سرية مؤتة، التي كانت – على ما يبدو – لجس نبض الروم وامتحان قوتهم، وفي نفس الوقت رسالة لهم أن المسلمين قادمون لمعاقبتهم.
فلماذا عاد المسلمون من تبوك التي تقع على مشارف حدود الروم، ولم يواصلوا مشوارهم الذي قدموا لأجله؟

---

١ انظر فقرة: الجزية / سم تشريعات من القرآن.

٢ في كتاب أحسن القصص ذكر أن الحملة لتعقب بني إسرائيل الذين أجلوا من يثرب لأنهم استمروا يكيدون للمسلمين، وأن الرسول عاد من تبوك لأن بني إسرائيل دخلوا بلاد الشام التي تحكمها روما، ولم يرغب الرسول بالتعدي على الروم ومعاداتهم. وهذا الاستنتاج ثبت لي أنه خاطئ وأن الحملة كانت بالفعل موجهة للروم، ولكن الرسول عاد من تبوك بسبب نزول سورة براءة عليه في تبوك، كما سنرى.

لقد وضعت بعض الاحتمالات في كتب أحسن القصص، دون أن أملك ما يدعمها. أما الآن فهناك بعض المستجدات التي تجعلني أشعر أن الرؤية أصبحت أكثر وضوحاً، وأن هناك احتمالا معقولاً لعودة جيش المسلمين من تبوك دون أن يكمل مهمته، أعرضه كما يلي:

لعل سورة براءة نزلت على الرسول عندما وصل جيش المسلمين تبوك، وهي السورة التي تخبرهم بخيانة قريش لمعاهدة الفتح. كما أن السورة تخبر أن هناك قبيلة من بني إسرائيل يثرب قد تورطت في مظاهرة الأحزاب الثانية في حنين ضد المسلمين. فآثر الرسول العودة خشية أن تقوم قريش أو القبيلة الإسرائيلية أو كلاهما بمهاجمة العدد القليل من المسلمين في المدينة وقتل النساء والأطفال.

أحوال المسلمين من الخروج لغزوة تبوك

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ(٣٨) إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٣٩) إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٤٠) انْفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٤١) براءة.

هذه الآيات تلخص حال المسلمين عندما دعاهم الرسول للخروج لحرب الروم فيما عرف بغزوة تبوك.

لقد بدا على الأكثرية منهم التثاقل وعدم الحماس للخروج، والآيات تحذرهم من أن تأخرهم في الخروج للقتال في سبيل الله مآله جهنم. وتقول السورة إن دين الإسلام لا يتوقف عليهم، وسينتصر بهم أو بغيرهم، كما نصر الله عبده محمداً عندما هاجر لوحده مع صاحبه «أبي بكر»[1].

---

١ الآية (٣٩) تؤكد أن الصحابة ليسوا أفضل عصور المسلمين، وأن رؤية الرسول والعيش معه لا يعني أن إيمان الناس سيكون مثالياً، كما صورت لنا كتب التراث عن الصحابة. فغالبيتهم أعطوا صوراً بعيدة جداً عن مثالية المؤمن وطاعته لله والرسول، منذ بدأت الدعوة وحتى وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، ومنها مواقفهم المتخاذلة عن الخروج للجهاد في هذه الغزوة كما في بدر وأحد وكل الحروب التي خاضوها.

البعض كان قادراً على الخروج ولم يخرج

لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاَّتَّبَعُوكَ وَلَـكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(٤٢) براءة.

وهؤلاء هم المنافقون، سواء كانوا مسلمة يثرب أو مسلمة قريش، وقد حلفوا للرسول أنهم لا يستطيعون الخروج وهم كاذبون. ومع أن بعضهم سبق وكذبوا على الرسول أثناء حفر الخندق، واستأذنوه بحجة أن بيوتهم عورة، وما هي بعورة، إلا أن محمداً غلبت عليه بشريته مرة أخرى وصدقهم عندما حلفوا له أنهم لا يستطيعون الخروج، فأذن لهم بالبقاء. فجاءه العتاب من السماء على ذلك: عَفَا اللّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ(٤٣) براءة.

ولو أنهم كانوا يؤمنون بالله ورسوله لخرجوا.

فئة أخرى من المسلمين يريدون الحصول على الإنفاق وهم ليسوا بحاجته

وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ(٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ(٥٩) براءة.

والصدقات هنا هي الإنفاق الذي ليس لهم حق فيه لأنهم يملكون المال: إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٦٠) براءة.

فئة أخرى سيئة

وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٦١) براءة.

فهم يسخرون من الرسول في مجالسهم ويقولون عنه إنه يغير رأيه كلما اقترح عليه رأي آخر. والآية تقول إن هذا لا يعني أنه لا رأي له، ولكنه نوع من الشورى وعدم التفرد بالقرار، وهو خير لمصلحة المسلمين.

فئة سيئة أخرى

وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ(٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ(٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ(٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ(٧٨) الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٧٩) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(٨٠) براءة.

هذه الفئة كانت أحوالهم المادية ضعيفة، وكانوا قد عاهدوا الله لئن أغناهم من فضله ليتصدقن (ينفقون) لكنهم نكثوا عهدهم مع الله بعدما أصبح لديهم المال وامتنعوا عن الإنفاق. بل وكانوا يسخرون من بعض المسلمين الذين لا يجدوا ما يتصدقون به (ينفقون) إلا جهدهم في سبيل الله. وهؤلاء كفار ولو أعلنوا إسلامهم. فالإسلام إيمان وعمل صالح، وليس تظاهراً وشهادة.

المؤمنون حقاً

لَـكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٨٨) أَعَدَّ اللّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(٨٩) براءة.

الذين يجاهدون بأنفسهم وأموالهم مع الرسول هم المؤمنون الذين يحمون الإسلام ودولة المسلمين.

متخلفون من الأعراب

وَجَاء الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٩٠) براءة.

اعتذروا من الخروج وهم قادرون مثلهم مثل بعض مسلمة يثرب ومسلمة قريش.

توجيه للرسول بما يجب فعله حيال المتخلفين

فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ(٨٣) براءة.

- عندما تعود إلى المدينة، وجاءك المتخلفون ليستأذنوك في الخروج معكم للقتال فأخبرهم أنهم لن يخرجوا مع المسلمين أبداً، لأنهم اختاروا التخلف عنهم بلا سبب.

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٩٤) براءة.

- سيأتون إليكم عند رجوعكم إلى المدينة معتذرين عن التخلف، فأخبرهم أنه لا يقبل عذرهم، ولن تصدق أقوالهم، وأن حسابهم على الله.

سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ(٩٥) براءة.

- سيحلفون لكم لكي تعرضوا عنهم ولا تلوموهم على عدم الخروج. فأعرضوا عنهم ولا تلوموهم، ليس لأنهم يستحقون من يعفو عنهم، ولكن لأنهم رجس ومأواهم النار. ولو صدقتموهم عندما يحلفون لكم فالله يعلم سرائرهم ولن يرض عنهم: يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ(٩٦) براءة.

والأعراب فئات مختلفة كما يلي:

أعراب منافقون

الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) براءة.

بعضهم أشد كفراً ونفاقاً من مسلمة يثرب ومسلمة قريش.

أعراب ينفقون لابتزاز المسلمين

وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٩٨) براءة.

وبعضهم ينفق لكنهم يحاولون استخدام إنفاقهم لابتزاز الرسول والمسلمين للحصول على منافع. كما أنهم يتربصون بالمسلمين ولو حلت بهم مصيبة استغلوها للاستيلاء على الأملاك والأموال.

ومنهم مؤمنون

وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٩٩) براءة.

وهؤلاء يشكلون المؤمنون الأتقياء مع:

السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار

وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(١٠٠) براءة.

وهناك منافقون لا يعلم بهم الرسول

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ(١٠١) براءة.

بعضهم من الأعراب وبعضهم من أهل المدينة، وهؤلاء لا يعلم الرسول ولا المسلمون أنهم منافقون، لأنهم لا يوالون غير المؤمنين، وهم مع المسلمين في كل شيء، ولا تبدر منهم أي علامات تدل على نفاقهم. أما مسلمة يثرب ومسلمة قريش وأغلب منافقي الأعراب فالرسول والمسلمون يعرفونهم، وتصرفاتهم واضحة تفضحهم. وهؤلاء الذين يجيدون التخفي قلة قليلة من المنافقين، أما الغالبية فهم معروفون بأشخاصهم من الرسول والمسلمين.

وهناك مسلمون عصوا

وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ

سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(١٠٤) وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(١٠٥) براءة.

هؤلاء مسلمون تقاة لكن الضعف غلبهم، بعضهم لم ينفق لتجهيز جيش الحملة، وبعضهم لم يخرج مع الحملة، وهم يعلمون أنهم عصوا الله. ولو تابوا فسيتوب الله عليهم. وخلطهم العمل الصالح بالسيء لا يعني أنهم يقترفون الكبائر عالمين بحكمها ويعملون الصالحات، وأن الصالحات ستمحو ذنوب الكبائر كما هو شائع. لكنه يعني أنهم مؤمنون تقاة يعملون الصالحات ويجتنبون الكبائر لكن بعضهم لم يخرج للقتال أو لم ينفقوا كما يجب. ولو تابوا ولم يعودوا فسيتوب الله عليهم، ومن أصر على تكرار المعصية فسيعذب.

فئة متأرجحة

وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(١٠٦) براءة.

لو حسن إسلامهم فسيتوب الله عليهم، وإن مالوا على الضلال فسينالهم عذاب النار.

مسلمة قريش وبناء مسجد خاص بهم

وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(١٠٧) لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ(١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(١٠٩) لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(١١٠) براءة.

في الفترة التي غاب فيها الرسول والمسلمون عن المدينة أثناء حملة تبوك، قامت مجموعة من مسلمة قريش ببناء مسجد ليكون خاصاً بهم لئلا يختلطوا بالمستضعفين. وهو مسجد قام على العنصرية البغيضة المحرمة.

وما يؤكد أنهم مسلمة قريش أنهم دائماً يرون أنفسهم أعلى درجة اجتماعية من المستضعفين. ومنذ أن كانوا في مكة وقبل الهجرة وهم يريدون من الرسول أن يطرد المستضعفين: وَلاَ

تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ(٥٢) الأنعام.

واستمروا يسخرون من المستضعفين، ومن ذلك ما أخبرتنا به سورة الحجرات: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يكونوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١). ثم استمرت مصادماتهم كما تخبرنا عدة سور، بل ووصل بهم الحال للاقتتال، كما ورد في نفس سورة الحجرات: وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(١٠).

وبقي نفورهم من المستضعفين واحتقارهم.

جلاء قبيلة ثانية من قبائل بني إسرائيل يثرب

سورة براءة - كما سبق وذكر - تطلب من المسلمين أن يتابعوا معاقبة كل من بدأهم الحرب سواء في الأحزاب الأولى أو الأحزاب الثانية (حنين).

ومن ذلك معاقبة قبيلة من قبائل أهل الكتاب في يثرب، ظاهروا على المسلمين أعداءً لهم، في حنين، وإن لم يشتركوا مباشرة في القتال. وقد نزل بحقهم في سورة براءة: قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ(٢٩) براءة.

عليكم أن تقاتلوا هذه القبيلة لأنهم خانوا العهد وعاونوا أعداءكم عليكم، وإجبارهم على دفع جزية لكم على ما سببه تعاونهم مع الأعداء من أضرار لكم. والجزية تعني تعويضاً مادياً يدفع مرة واحدة بذلة وصغار.

وسورة الحشر التي نزلت بعد براءة تخبرنا بما حدث لتلك القبيلة لما علمت بما نزل بحقهم في القرآن: سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم

مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ(٢) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ(٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٤).

ما أن وطئت قدما الرسول المدينة عائداً من تبوك حتى تسامع أفراد تلك القبيلة بما نزل بحقهم، فبادروا بلقاء الرسول وعرضوا عليه تسليم مزارعهم وقلاعهم وممتلكاتهم (كتعويض وجزية) والجلاء من يثرب مقابل عدم التعرض لهم، أو الدخول معهم في قتال. وقد قبل الرسول والمسلمون العرض، ولم يحدث قتال بين الفريقين، وغادرت القبيلة يثرب إلى غير رجعة.

وهو الجلاء الثاني والأخير لأهل الكتاب من يثرب في عصر الرسول، ولم يتم التعرض لمن بقي من بني إسرائيل أو اليهود أو من بقي من النصارى في يثرب بسوء، لأنه لم يثبت تورطهم بالكيد للمسلمين ولا معاونة أعدائهم. ولا نعلم متى خلت يثرب من سكانها من أهل الكتاب، وإن كنا نرجح أنهم نزحوا لفلسطين باختيارهم بعدما أصبحت تحت حكم المسلمين في عصر عمر ابن الخطاب، عندما تأكد لديهم أن اليهود فيها يعيشون بارتياح تحت حكم المسلمين هناك.

والجزية تعويض مالي يدفع مرة واحدة من هذه القبيلة بالذات ولا يطبق على سواها. مقابل الضرر الذي تسبب به خيانتها للمسلمين وتعاونها مع الأعداء. ولم تذكر الجزية في القرآن مرة أخرى أو بحق أحد آخر غير تلك القبيلة. لكن الأوضاع تغيرت بعد عصر الرسول واستيلاء قريش على حكم دولة المسلمين وبدأت حروبها التوسعية في العصر الأموي والعباسي فأولوا ذلك التوجيه الإلهي الخاص بتلك القبيلة من أهل الكتاب في يثرب، وكأنه تشريع إلهي يطبق بحق كل من لا يقبل الاستسلام لجيوش قريش الغازية في كل مكان. وحولوا الجزية إلى ضريبة سنوية على كل سكان البلاد المفتوحة الذين احتفظوا بدياناتهم ولم يعلنوا الإسلام. وهذا التعميم لم يعرفه عصر الرسول ولا الخلفاء الثلاثة من بعده، لأن دين الله بريء منه. بل إن الجزية لم تطبق أبداً لأن القبيلة المعنية بها قررت الجلاء مقابل عدم التعرض لها. ولو بقيت في يثرب، فستجبر على دفع الجزية مرة واحدة فقط نظير خيانتهم،

ولن يتكرر أخذها منهم لو لم يعاودوا خيانة المسلمين. ولم يكن بالإمكان تطبيقها على غير تلك القبيلة لأن الجزية نزلت بحق تلك القبيلة بعينها، وليست تشريعاً عاماً. ولهذا لم يتعرض المسلمون زمن الرسول لبقية أهل الكتاب في يثرب ولا في تيماء ووادي القرى واليمن وغيرها.

أين غزوة خيبر؟

كل الأحداث التي تهم المسلمين زمن الرسول ولها علاقة بهم ذكرها القرآن، حتى لو كانت أحداثاً صغيرة مثل استماع أحد كبراء قريش ممن يملك المال والولد للقرآن فمال للحق، لكنه تراجع وغلب عليه التمسك بالموروث (المدثر: ١١-٢٦). ومثل: ذكر القرشي الذي أنفق مرة واحدة ثم امتنع (النجم: ٣٣-٤١). أو ذكر رجل من قريش يتأفف من دعوة والديه له لكي يسلم (الأحقاف: ١٤-١٨). أو ذكر خبر منع قريش المسلمين من دخول المسجد الحرام (الحج: ٢٥). أو هجرة نساء من مكة (الممتحنة: ١٠) أو حضور وفود الأعراب للقاء الرسول (الحجرات: ١-٥، ١٤-١٨). أو ذكر مشاحنات واقتتال بين مسلمة قريش والمستضعفين (الحجرات: ٦-١٣). وغيرها العديد من الأحداث الصغيرة التي تحدث عنها القرآن بتفصيل، مثلما تحدث عن المعارك والمواقع التي مرت بالمسلمين: بدر وأحد والأحزاب وفتح مكة وغزوة مؤتة والحملة ضد الروم (التي سميت غزوة تبوك في كتب التراث)، وحتى عام الوفود ذكرته سورة النصر.

وباختصار فالقرآن لم يترك حادثة مرت بالمسلمين منذ بعثة الرسول وحتى وفاته إلا ذكرها، فكيف لم يتحدث القرآن عما سمي بغزوة خيبر ولو حتى بإشارة عارضة؟

وهي تلك المعركة التي تقول كتب التراث أنه حدث فيها سبي للنساء وقد حظي الرسول بأجملهن التي أسموها صفية بنت حيي ابن أخطب اليهودي. بل إن ما قيل عن غزوة خيبر يعتبر أسوأ صورة سيئة قدمتها كتب السير للرسول عليه الصلاة والسلام، بجانب ما قيل عما حدث لبني قريظة. وكلا الخبرين اختص برواية تفاصيلهما ابن إسحاق، وكلاهما لم يرد لهما ذكر ولا إشارة في القرآن، لأنهما لم يحدث على أرض الواقع.

والأسطر التالية مقتبسة من كتاب سنة الأولين بتصرف وبعض التعديل تناقش مزاعم ما

قيل عن موقعة خيبر. وسنبدأ بمن قيل إنهم قتلوا من المسلمين يوم خيبر. وسنجد أن تلك الأسماء في المجمل وجودها مشكوك فيه أو أنها قتلت بأسباب أخرى وليس في قتال يهود خيبر، وجلها أسماء ليس لها تراجم ولا يتحدث عنها إلا ابن اسحاق.

يقول ابن هشام (الناقل عن ابن إسحاق) أن ممن استشهد من بني أسد ابن عبد العزى: عبدالله الهبيب، ويقال: ابن الهبيب، فيما قال ابن هشام ، ابن أهيب بن سحيم بن غيره، من بني سعد ابن ليث، حليف لبني أسد، وابن أختهم.

وليس لعبد الله الهبيب أو ابن أهيب بن سحيم أي ذكر في كتب الرجال مثل الإصابة في تمييز الصحابة أو الاستيعاب في معرفة الأصحاب أو تهذيب الكمال، إلا ما ذكره عنه ابن إسحاق أنه قتل في خيبر. بينما عده ابن سعد في طبقاته ممن قتل في أحد. أي أنه لم يقتل في خيبر إن كان له وجود.

ويقول ابن إسحاق أن ممن استشهد من الأنصار ثم من بني سلمة : بشر بن البراء بن معرور ، مات من الشاة التي سم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفضيل بن النعمان. رجلان. انتهى

وسوف نسلم جدلاً أن بشر قد مات من السم كما يزعم ابن هشام، وهذا يعني أنه لم يقتل في قتال لفتح خيبر.

أما فضيل بن النعمان، فهذا ما قيل عنه في الاستيعاب في معرفة الأصحاب: الفضيل بن النعمان الأنصاري، من بني سلمة، قتل بخيبر شهيداً فيما ذكر ابن إسحاق، قال محمد بن سعد: هكذا وجدناه في غزوة خيبر، وطلبناه في نسب بني سلمة، فلم نجده، قال، قال: ولا أحسبه إلا وهماً في الكتاب، وإنما أراد الطفيل بن النعمان بن خنساء بن سنان والله أعلم.

ونفس الصيغة وردت في الإصابة في تمييز الصحابة. وهذا يعني أنه لا وجود لرجل بذلك الاسم ينسب لبني سلمة، وبالتالي فوجوده كشخص، مجرد وهم.

وحتى الطفيل بن النعمان بن خنساء لا وجود له، وهذا ما قيل عنه في الإصابة: بن خنساء بن سنان بن عم الماضي ذكروه كلهم فيمن شهد بدرا وذكره عروة فيمن شهد العقبة وقال بن إسحاق وموسى بن عقبة استشهد الطفيل بن النعمان بالخندق.

ويواصل ابن هشام قائلاً: من زريق: مسعود بن سعد بن قيس بن خلده بن عامر بن زريق.

وهذا ما أورده ابن حجر العسقلاني عنه في الإصابة: مسعود بن سعد بن قيس بن خلدة بن عامر بن زريق الأنصاري الزرقي ذكره موسى بن عقبة عن بن شهاب فيمن شهد بدرا وكذا بن إسحاق وقال أبو نعيم قال بن عمارة استشهد بخيبر وخالفه الواقدي فقال قتل يوم بئر معونة وأخرجه البغوي مختصرا وكرره أبو عمر فذكره مطولا ومختصرا. (أي أنه لم يقتل في خيبر).

ويقول ابن هشام أن ممن استشهد من الأوس ثم من بني عبد الأشهل: محمود بن مسلمة بن خالد بن عدي بن مجدعة بن حارثة بن الحارث ، حليف لهم من بني حارثة. أدلى عليه مرحب رحى، فأصابت رأسه فهشمت البيضة رأسه، وسقطت جلدة جبينه على وجهه. ويكون موته نتيجة سقوط الرحى عليه وليس نتيجة لمواجهة قتالية.

ويقول ابن هشام أن ممن استشهد من بني عمرو بن عوف: أبو ضياح بن ثابت بن النعمان بن أمية بن امرئ القيس بن ثعلبة بن عمرو بن عوف؛ والحارث بن حاطب؛ وعروة بن مرة بن سراقة؛ وأوس بن القائد؛ وأنيف بن حبيب؛ وثابت بن أثلة؛ وطلحة.

والاسم الأول ليس له وجود لأنه اختلف فيمن يكون، ومن ذلك ما قاله ابن الأثير الجوزي صاحب كتاب أسد الغابة في ترجمته، بعدما ذكر الاختلافات: قلت: قد أخرج أبو موسى عن ابن شاهين في هذه الترجمة نسب ثابت بن النعمان كما ذكرناه فقال: ثابت بن النعمان بن زيد بن عامر بن سواد بن ظفر، قال: ويقال: ثابت بن النعمان بن الحارث بن عبد رزاح بن ظفر، وقال: ويقال: ثابت بن النعمان بن أمية بن امرىء القيس بن ثعلبة ابن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس، كنيته: أبو الضياح، فقد ظن أبو موسى وابن شاهين أن هذه الأنساب الثلاثة لرجل واحد، فلهذا جمعاها في ترجمة واحدة؛ أما النسبان الأولان فلهما فيهما بعض العذر، إذ هما من بطن واحدة وهو ظفر، وعلى الحقيقة فلا عذر؛ فإن أحدهما من بني سواد بن ظفر والآخر من بني عبد رزاح بن ظفر، وأما النسب الثالث الذي هو من بني ثعلبة ابن عمرو بن عوف فلا عذر لهما؛ فإن ظفراً وثعلبة لا يجتمعان إلاّ في مالك بن الأوس، فكيف يشتبه أن يكون هو هو، هذا بعيد وقوعه، وأما النسبان اللذان إلى ظفر فقد فرّق أبو عمر بينهما كما ذكرناه عنه، وجعلهما اثنين؛ الأول: ثابت بن النعمان بن الحارث بن عبد رزاح بن ظفر، والثاني: ثابت بن النعمان بن زيد بن عامر ابن سواد بن ظفر، والحق معه؛ فإنه ليس

بينهما ما يوجب أن يكونا واحداً إلاّ اجتماعهما في ظفر، وكل البطون يكون منها جماعة من الصحابة، فعلى هذا يجعل الجميع واحداً؛ لاجتماعهم في بطن واحد، والله أعلم. انتهى.

فشخصيته ليست مؤكدة مما سهل القول إنه قتل في خيبر.

أما الحارث ابن حاطب فقد ورد عنه في كتاب الإصابة وكتاب أسد الغابة أنه شهد صفين مع علي. والواقدي فقط هو من قال أنه قتل في خيبر، ونص ما قال: « رماه رجل من فوق الحصن فدمغه». وحتى لو سلمنا بهذا الخبر الواقدي، فالرجل لم يقتل في معركة وقتال تحت صليل السيوف.

وعروة بن مرة بن سراقة الأنصاري الأوسي لا يعرف عنه إلا أنه قتل بخيبر نقلاً عن ابن هشام، ولا يعرف عنه شيء غير هذا، مما يؤكد أنه شخصية وهمية.

وأوس ابن القائد ليس له وجود، وأنيف بن حبيب من بني عمرو بن عوف ذكره بن إسحاق فيمن استشهد يوم خيبر وعزاه أبو عمر للطبري، وما عدى ذلك فلا يعرف عنه شيء. أي أنه لا وجود له أيضاً.

وثابت بن إثلة الأنصاري الأوسي من بن عمرو بن عوف ذكره بن إسحاق فيمن استشهد بخيبر واستدركه أبو موسى عن عبدان وحرف بن عبد البر أباه. وذكر ابن هشام رجل آخر قال قتل في خيبر وهو طلحة ولم يضع له نسب.

وباستعراضنا لجميع من زعم ابن اسحاق أنهم قتلوا في معركة مع يهود خيبر، نجد أن كلهم فيما عدا اثنين لم يذكرهم أحد غيره، مما يؤكد الشك حول صحة وقوع قتال بين المسلمين ويهود خيبر.

كما تفرد ابن هشام نقلا عن ابن إسحاق برواية تفاصيل ما حدث في خيبر، بقصص وأخبار مهلهلة وغير محبوكة، ومن ذلك ما كتبه في سيرته تحت عنوان:

مصالحة الرسول أهل خيبر

وهذا نص الخبر: وحاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم، أهل خيبر في حصنيهم الوطيح والسلالم، حتى إذا أيقنوا بالهلكة، سألوه أن يسيرهم وأن يحقن لهم دماءهم ، ففعل.

وبفهم من هذا أن المسلمين لم يشتبكوا مع اليهود في قتال، وأن الرسول قد حقن دمائهم

وسيرهم أي أجلاهم عن خيبر. ولكن الخبر لا ينتهي هنا فابن هشام يواصل قائلاً: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حاز الأموال كلها: الشق ونطاة والكتيبة وجميع حصونهم، إلا ما كان من ذينك الحصنين.

فلما سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه أن يسيرهم، وأن يحقن دماءهم، ويخلوا له الأموال، ففعل وبفهم من هذا أن الرسول أجلى أهل فدك أيضا.

لكن ابن هشام يواصل قائلاً: وكان فيمن مشى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهم في ذلك محيصة بن مسعود، أخو بني حارثة، فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعاملهم في الأموال على النصف، وقالوا: نحن أعلم بها منكم، وأعمر لها.

فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصف، على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم؛ فصالحه أهل فدك على مثل ذلك، فكانت خيبر فيئاً بين المسلمين، وكانت فدك خالصةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب. انتهى كلام ابن هشام

ويفهم هنا أن الرسول صالح خيبر وفدك ولم يكن هناك جلاء لا لأهل خيبر ولا لأهل فدك، وأنهم بقوا في مساكنهم ومزارعهم على أن يدفعوا نصف المحصول للمسلمين. وهذا بعد أن كانوا قد اتفقوا مع الرسول على الجلاء؟

ويبدوا أن ابن هشام اقتبس كلاماً من هنا وكلاماً من هناك ولم يحسن تنسيقه، فظهر بهذه الصورة المتناقضة- التي مرت مرور الكرام على الناس ولم يتوقف عندها أحد.

وابن هشام فيما ينسبه لابن إسحاق اختلق أعظم من موقعة خيبر. فهو من اختلق قصة قتل (٦٠٠ - ٩٠٠) رجل من بني قريظة صبراً وسبي نسائهم واسترقاق أطفالهم، في قصة تصور منتهى الوحشية والهمجية للرسول. وهو هنا يكمل تلك القصة بصورة همجية أخرى سماها موقعة خيبر، لكي يقول إن الرسول قد سبى نساء خيبر أو بعبارة أخرى، أن الرسول كان يلاحق اليهود (المساكين) ويقتل رجالهم ويسبي نسائهم ليتمتع بهن. فاختلق شخصية صفية بنت حيي التي قال إن الرسول كان قد قتل والدها مع قتلى بني قريظة ثم

أتي بها ابن هشام (ابن إسحاق) إلى خيبر ليقول إن الرسول قد قتل زوجها ثم نزا عليها في نفس اليوم. ولم يتوقف رجل واحد ذو عقل، وتساءل: صفية بنت حيي ابن أخطب من بني قريظة، فكيف نجت هي من السبي لما سبى السول نسائهم وقتل رجالهم؟ وكيف أصبحت صفية القرظية من يهود خيبر؟ وكيف تتزوج في وقت كان المسلمين محاصرين خيبر وكانت الأوضاع داخل حصون اليهود ينتشر فيها الخوف والترقب ولم تكن أوضاع زواج (على افتراض مزاعم ابن هشام فيما ينسبه لابن إسحاق)؟ فكيف تزوجت هذه الصفية في ذلك اليوم الذي استسلم فيها يهود خيبر للرسول؟ وكيف يقتل الرسول زوجها وقد استسلموا؟ ليس المهم عند ابن إسحاق وخليفته ابن هشام دقة حبك القصص لكن المهم هو المغزى.

ونعود لتخاريف السيرة ونقول: لو كان هناك قتال واقتحم المسلمون قلاع وحصون يهود خيبر بالقوة لنفذ فيهم ما نفذ في حق بني قريظة (حسب مزاعم ابن هشام وشيخه ابن إسحاق) من قتل الرجال وسبي النساء، فكيف وافق المسلمون على جلائهم؟

ثم كيف عاد المسلمون بعد أن اتفقوا معهم على الجلاء وقبلوا منهم أن يبقوا ويدفعوا للمسلمين الجزية؟

نقول هذا ليس لأنه قد يكون حدث قتال في خيبر أو حتى حملة على خيبر، ولكن فقط لمناقشة نصوص قصص السيرة المختلقة.

ولم يناقش أحد لماذا بادر أهل فدك بعرض نصف محصولهم للرسول، وهو لم يهاجمهم، ولم يكن بينه وبينهم أي عداء؟ ولم يتساءل أحد إن كانت قصة فدك كلها مختلقة لكي يصبح لها تلك الهالة الكبيرة التي يرددها عنها الشيعة اليوم؟ والتي لن نتعرض لها.

ولتأكيد أن جل ما زعمه ابن هشام من أحداث وقعت في غزوة خيبر ما هي إلا أساطير، نورد ونناقش ثلاثة منها، وهي:

أمر الشاة المسمومة

يقول ابن هشام: فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدت له زينب بنت الحارث، امرأة سلام بن مشكم، شاة مصلية، وقد سألت أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقيل لها: الذراع؛ فأكثرت فيها من السم، ثم سمت سائر الشاة، ثم جاءت بها؛ فلما وضعتها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، تناول الذراع، فلاك منها

مضغة، فلم يسغها، ومعه بشر بن البراء بن معرور، قد أخذ منها كما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فأما بشر فأساغها. وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلفظها، ثم قال: إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم، فاعترفت؛ فقال: ما حملك على ذلك قالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكاً استرحت منه، وإن كان نبياً فسيخبر، قال: فتجاوز عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومات بشر من أكلته التي أكل.

ولا يمكن تصور أن يقاتل الرسول اليهود ويقتل رجالهم ويسبي نسائهم ويتبقى منهن واحدة لكي تطبخ للرسول وليمة.

ولو افترضنا أن اللامعقول حصل، فكيف يأمن الرسول امرأة من قوم للتو قتل رجالهم وسبى نساءهم لتقدم له الطعام. وحتى لو افترضنا أن هذه القصة قد حدثت، فإن الرسول وإن سامح المرأة على محاولة قتله، فقد كان يجب أن يقيم عليها حد القصاص لأن سمها قتل بشر، وهذا ما غفل عنه مختلق القصة.

ومثل هذه القصة ما رواه ابن هشام في قوله:

مقتل غلام رفاعة الذي أهداه للرسول

قال ابن إسحاق : فحدثني ثور بن يزيد، عن سالم، مولى عبدالله بن مطيع، عن أبي هريرة، قال: فلما انصرفنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن خيبر إلى وادي القرى نزلنا بها أصيلا مع مغرب الشمس، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم غلام له، أهداه له رفاعة بن زيد الجذامي، ثم الضبيني. قال ابن هشام: جذام، أخو لخم. قال: فوالله إنه ليضع رحل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أتاه سهم غرب فأصابه فقتله؛ فقلنا: هنيئاً له الجنة؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلا، والذي نفس محمد بيده، إن شملته الآن لتحترق عليه في النار، كان غلها من فيء المسلمين يوم خيبر. أهـ

ويلاحظ أن الرجل قتل بعد انصراف الناس من خيبر ووصولهم لوادي القرى، ولم يكن في جيش المسلمين إلا المسلمين. ويكون السهم الذي قتل الغلام قد جاء من جيش المسلمين. فكيف لم يُعرف القاتل ولم يقتل قصاصاً؟

ثم كيف يحكم عليه الرسول بأنه في جهنم، وكأن أمر عباد الله ومصيرهم في الآخرة، يشاور فيه الرسول أو يكون له فيه رأي، تعالى الله عن ذلك. فالرسول لا يعلم الغيب، ولا يعلم ما

سيحل به وبأمته يوم القيامة: قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ.(الأحقاف:٩)

والخبر الثالث الذي أورده ابن هشام، جاء بهذا النص:

عقوبة كنانة بن الربيع

وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكنانة بن الربيع، وكان عنده كنز بني النضير، فسأله عنه، فجحد أن يكون يعرف مكانه، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من يهود، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إني رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنانة: أرأيت إن وجدناه عندك، أأقتلك قال: نعم فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخربة فحفرت، فأخرج منها بعض كنزهم، ثم سأله عما بقي، فأبى أن يؤديه. أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام، فقال: عذبه حتى تستأصل ما عنده، فكان الزبير يقدح بزندٍ في صدره، حتى أشرف على نفسه، ثم دفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى محمد بن مسلمة، فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة.

انتهى هذا الخبر الذي من الواضح أن من اختلقه عاش في عصر تسلط السلاطين وزبانيتهم على الناس، وإلا فرسول الله لا يستطيع أن يأخذ الناس بالتهمة بدون تثبت، ولا يستطيع أن يعذب الناس ليجبرهم على الاعتراف، ولا يستطيع أن يستولي على أموال الغير ولو كانوا يهوداً، ولو فعل الرسول ذلك فإن ما يفعله شطار المباحث والاستخبارات العرب بالمسلمين سنة نبوية يثابون عليها عند أرحم الراحمين.

وإن كان في هذا الخبر أي حقيقة فهي أن هناك رجل يهودي قتل محمود ابن مسلمة وأن أخيه محمد ابن سلمة قتل اليهودي بثأر أخيه، ويكون الرسول عليه الصلاة والسلام لا ناقة له في القصة ولا جمل. ومحمود يزعم ابن هشام أنه قد أسقط عليه رحى من أحد حصون خيبر، ولكنه يقول بأن من أدلى الرحى يهودي إسمه « مرحب « وليس كما يقول هذا الخبر من أن اسمه كنانة ابن الربيع.

ويكون ما حدث هو أن الرسول لم يحاصر خيبر ولم يقاتل أهلها ولم يسر إليها، ولا إلى فدك، ولم يوقع على أهل البلدتين جزية. ويبدو أن كتاب السيرة تسامعوا أن القرآن يتحدث عن جزية، وبما أنه لم يوقع جزية على قريش في مكة ولا على غيرها في معارك الرسول الفعلية

التي ذكرها القرآن، فما كان منهم إلا اختلقوا موقعة خيبر وقالوا بأنه قد فرضت الجزية على أهلها.

والجزية لم تطبق بحق أحد أبداً في عصر الرسول، لأن سورة براءة نزلت تطلب من الرسول أن يطبقها بحق قبيلة من بني إسرائيل يثرب الذين ظاهروا أعداء المسلمين في حنين على المسلمين، وذلك كجزاء لخيانتهم المسلمين. إلا أن تلك القبيلة بادرت بعرض الجلاء على الرسول بعد وصوله إلى المدينة راجعاً من تبوك، قبل الرسول ولم يكن هناك جزية، كما سبق ومر بنا.

ولو رجعنا إلى كتب الحديث فسنجد مالك ابن أنس يورد حديثاً في الموطأ برقم (١٦٢٨) يؤكد فيه أن عمر ابن الخطاب هو من أجلى يهود خيبر ويهود فدك وليس الرسول، وهذا نص الحديث: وَحَدَّثَنِي عَنْ مَالِكٍ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ؛ أَنَّ رَسُولَ الله قَالَ: لاَ يَجْتَمِعُ دِينَانِ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ. قَالَ مَالِكٌ: قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: فَفَحَصَ عَنْ ذٰلِكَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ حَتَّى أَتَاهُ الثَّلْجُ وَاليَقِينُ، أَنَّ رَسُولَ الله قَالَ: لاَ يَجْتَمِعُ دِينَانِ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ. فَأَجْلَى يَهُودَ خَيْبَرَ.

قَالَ مَالِكٌ: وَقَدْ أَجْلَى عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ يَهُودَ نَجْرَانَ وَفَدَكَ. فَأَمَّا يَهُودُ خَيْبَرَ فَخَرَجُوا مِنْهَا لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الثَّمَرِ وَلاَ مِنَ الأَرْضِ شَيْءٌ. وَأَمَّا يَهُودُ فَدَكَ فَكَانَ لَهُمْ نِصْفُ الثَّمَرِ وَنِصْفُ الأَرْضِ. لأَنَّ رَسُولَ الله كَانَ صَالَحَهُمْ عَلَى نِصْفِ الثَّمَرِ وَنِصْف الأَرْضِ. فَأَقَامَ لَهُمْ عُمَرُ نِصْفَ الثَّمَرِ وَنِصْفَ الأَرْضِ. قِيمَةً مِنْ ذَهَبٍ وَوَرَقٍ وَإِبْلٍ وَحِبَالٍ وَأَقْتَابٍ. ثُمَّ أَعْطَاهُمْ القِيمَةَ وَأَجْلاَهُمْ مِنْهَا.

مع ملاحظة أن من زعم أن الرسول قال لا يجتمع دينان في جزيرة العرب هو ابن شهاب الزهري، وليس الرسول، لأن الرسول وبكلام ابن شهاب نفسه، لم يجلهم، ومات عليه الصلاة والسلام وفي جزيرة العرب إسلام ويهودية ووثنية ومسيحية، على الأقل، ولم يخرج اليهود من خيبر إلا عمر ابن الخطاب، إن كان قد أخرجهم بالفعل.

ومما يؤيد أن ابن شهاب لم يكن دقيقاً في خبره حول اجتماع دينان في جزيرة العرب، أن يهود نجران الذي يزعم أن عمر أجلاهم بقوا فيها على الأقل إلى أن قامت إسرائيل، إن لم يبقوا فيها إلى اليوم، مثلما بقي يهود اليمن فيها حتى الآن.

ويكون ما نقله ابن هشام من زعمه أو زعم ابن إسحاق أو غيره، عن موقعة خيبر ما هو

إلا أساطير مختلقة لا تتوافق مع الواقع. ولو كان هناك موقعة في خيبر لأخبر بها القرآن ولن نكون بحاجة لتتبع قصص ابن إسحاق وابن هشام وابن شهاب وغيرهم ممن لا يتحرجون في اختلاق القصص ونسبتها للرسول للنيل منه وتصويره بصور شيطانية يأبى الله أن يتصف بها رسوله.

غزوات الرسول

لقد نزلت سورة الأحزاب والنور تأمر المسلمين بمعاقبة كل من شارك في الأحزاب الأولى. فتم فتح مكة، بعد استسلام قريش (الظاهري) للمسلمين وإعلانها قبول دخول مكة تحت حكم دولة المسلمين، مقابل عدم التعرض لأشخاص رجال قريش ومعتقداتهم مقابل عدم قيام قريش بمظاهرة أعداء المسلمين أو الكيد للإسلام وأهله. كما قام الرسول بإرسال سرية لحرب الروم، قبل أن يتوجه على رأس جيش لحربهم، لكنه عاد قبل أن يلتقيهم، لأن القرآن أخبره أن قريشاً قد خانت معاهدة يوم الفتح وأنها ظاهرت الجيش الذي قاتلهم في حنين.

وسورة براءة تؤكد على وجوب الاستمرار بقتال كل من ابتدر المسلمين بالعداء، ومن ذلك قبيلة من قبائل أهل الكتاب في يثرب، ظاهرت أعداء المسلمين الذي شنوا حرباً عليهم في حنين، فجاءت براءة بوجوب معاقبتهم: قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ(٢٩) براءة.

لابد من قتالهم والتضييق عليهم حتى ينصاعوا صاغرين لدفع الجزية للمسلمين عقاباً لهم على مظاهرة أعدائهم عليهم، وهذه العقوبة خاصة بهذه القبيلة[١].

وطالبت السورة أن يقاتل المسلمون المشركين الذين قاتلوهم كافة، لأنهم قاتلوا المسلمين كافة: وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(٣٦) براءة.

كما أكدت براءة على الاستمرار بمعاقبة القبائل التي شاركت في الحروب ضد المسلمين،

١ فالجزية لم ترد في القرآن مرة أخرى، ولم يأمر القرآن بفرضها كعقوبة على غير هذه القبيلة من أهل الكتاب، وهي عقوبة مالية تؤخذ لمرة واحدة وليست ضريبة تؤخذ كل عام. لكن جيوش المسلمين بعد استيلاء قريش على حكم الدولة، كانت تهاجم البلاد المجاورة وتخير أهلها بين ثلاث: الدخول في الإسلام، أو دفع ضريبة سنوية يقررها الجيش الغازي باسم الجزية، أو القتال.

سواء في الأحزاب الأولى أو الثانية (حنين): يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(١٢٣) براءة.

والكفار الذين يلون المسلمين، هم تلك القبائل بالقرب من المدينة ومكة الذين اشتركوا مع قريش وبقية الأحزاب في محاربة المسلمين. والسورة نزلت في العام الذي توفي فيه الرسول، ولم يكن القتال للتوسع، ولا للسلب والنهب كما تقولت كتب التراث.

والأمر بقتال تلك القبائل هو ما عرف في كتب التراث بغزوات الرسول، والتي لم تبدأ كما تزعم كتب التراث من الأيام الأولى للهجرة ولكنها بدأت بعد نزول هذه الآية، التي تعتبر أول آية قرآنية تأمر بقتال القبائل. ولعل ذلك عائد إلى أن الرسول والمسلمين انشغلوا بعد حملة الأحزاب عن تأديب القبائل بفتح مكة وإرسال الجيوش لتأديب الروم. فنزلت هذه الآية تأمر بتأديب تلك القبائل على مبادرتهم بالاعتداء على المسلمين في الأحزاب الأولى والأحزاب الثانية. ووجوب القضاء على شوكتهم لئلا يعاودوا الاعتداء على المسلمين.

وتكون الغزوات التي شنها المسلمون على القبائل بدأت بعد فتح مكة، وتحديداً بعد نزول سورة براءة، أي في السنة الأخيرة من حياة الرسول، ولم تستمر لأكثر من بضعة أشهر لأن القبائل سارعت لإعلان استسلامها لدولة المسلمين بعد أن عادت قريش للخضوع لدولة المسلمين.

عام الوفود

وهذه التسمية أطلقتها كتب التراث على آخر عام من حياة الرسول والتي توافد فيها على المدينة رؤساء القبائل لتقديم الولاء لدولة المسلمين والدخول تحت حكمها، وهو ما تحدثت عنه آخر سورة نزلت من القرآن، سورة النصر: إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ(١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً(٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً(٣).

وسورة براءة التي سبقتها بالنزول، تطلب من الرسول أن يذهب إلى عرفات ليتلو على الناس في يوم الحج الأكبر آيات سورة براءة التي تعلن أن الله ورسوله لم يخونا معاهدة الفتح التي وقعت في الحديبية يوم فتح مكة مع قريش: بَرَاءةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١).

وأن قريشاً هم من خانوها وتعاونوا مع أعداء المسلمين: كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللهَّ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) براءة.

وبما أن موقعة حنين حدثت بعد الفتح مباشرة فهي المعركة التي ظاهرت فيها قريش أعداء المسلمين عليهم، وبذلك خانت معاهدة الفتح.

وتعلن سورة براءة على مسمع من الحجاج القادمين من كل أرجاء جزيرة العرب أن قريشاً أعطيت مهلة أربعة أشهر لتعود عما بدر منها وتعلن تمسكها بالمعاهدة، والتي تدخل بموجبها مكة تحت حكم دولة المسلمين، ويبقى رجال قريش على معتقداتهم بشرط عدم التعاون مع أعداء المسلمين أو الكيد لهم: فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهَّ وَأَنَّ اللهَّ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِّنَ اللهَّ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَّ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهَّ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣).

وكل قرشي لم يتورط في مظاهرة أعداء المسلمين ولم يكدهم، فلن يتعرض له المسلمون بسوء: إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤).

وأن مهلة الأربعة أشهر المعطاة لقريش تنتهي بنهاية الأشهر الحرم: فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥).

وبنهايتها سيضيق على قريش وسيحاصرون وكل من يعثر عليه منهم سيقتل.

ولابد أن قريشاً اضطرت أن تعلن تراجعها وإعادة مكة لسيطرة دولة المسلمين، لأن القرآن لا يذكر أن المسلمين قاتلوا قريشاً ولا ضيقوا عليهم ولا حاصروهم. ولما تسامعت هوازن وثقيف وبقية أهل الطائف بما حدث لمكة سارع رؤساء قبائلهم إلى المدينة لتقديم الولاء.

وكتب التراث تقول إنه بعد حنين وصل وفد من أهل الطائف إلى المدينة يطلبون من الرسول رد ما سبى من نسائهم ويعلنون استسلامهم، فقبل منهم الرسول ذلك، ورد لهم ما طلبوا. ولعل الحقيقة تتمثل في أن أهل الطائف بالفعل حضروا إلى المدينة وأعلنوا ندمهم على ما

بدر منهم واستسلامهم لدولة المسلمين، ولم يحضروا لطلب رد النساء، لأن الرسول لم يسب لهم نساء ولا لغيرهم، لأنه لا يستطيع فعل ذلك، ولم يسجل عليه ولا على أصحابه في حياته أن صدر منهم هذا. ولما تسامعت بذلك القبائل الأخرى التي شارك بعض رجالها في حرب المسلمين مع قريش أو مع أهل الطائف، سارع زعماؤها للحضور إلى المدينة وإعلان الاستسلام، بعد أن علموا أن الرسول لم يعاقب أهل الطائف ولا قريشاً.

ولما تسامعت القبائل والتجمعات السكانية الأخرى في جزيرة العرب بما حدث، سارعت هي الأخرى لإرسال وفودها إلى المدينة لتقديم ولاء الطاعة لدولة المسلمين التي أصبحت قوة ضاربة لا تضاهى في جزيرة العرب.

وفي خلال بضعة أشهر، وقبل وفاة رسول الله، أصبحت جزيرة العرب كلها تحت حكم دولة المسلمين، ولو لم يسلم إلا عدد قليل جداً، يعيشون في المدينة ويشاركهم السكن فيها طوائف مختلفة ممن أعلن إسلامه ولم يسلم، وما بقي من قرى وبلاد جزيرة العرب فاستسلموا ولم يسلموا، بما في ذلك من بقي من كبراء قريش والطائف.

وفاة رسول الله

مما سبق عرفنا الحقائق التالية:

- أن الرسول عليه الصلاة والسلام هو من قرأ على الناس في عرفات آيات سورة براءة، لأن القرآن يأمره بذلك فهو الرسول وهو المتحدث باسم دين الله، ولا يحق له أن ينيب في جزء من رسالته غيره من البشر: «وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ». وليس كما تتقول كتب التراث من أنه أرسل بها أبا بكر ثم غير رأيه وأرسل بديلاً عنه علي ابن ابي طالب. فهذه الأقاويل لا أساس لها، وكلها أقاويل مذهبية تحاول ترسيخ فضيلة لعلي ابن ابي طالب الرأس المقدس للمعتقد الشيعي على حساب أبي بكر الرمز للمعتقد السني.
- أن مهلة الأربعة أشهر تنتهي بنهاية الأشهر الحرم، وهو نهاية شهر محرم، كون الأشهر الحرم، هي: شوال، ذو القعدة، ذو الحجة، ومحرم، ولو كان رجب أحد الأشهر الحرم فلن يكون بالإمكان تحديد المهلة بالأربعة أشهر الحرم، لأن رجباً بعيد عن ذي القعدة

وذي الحجة ومحرم، ولابد أن تكون الأشهر الحرم متتابعة. لذا فهي شوال وذو القعدة وذو الحجة ومحرم[1].

- أن إعلان براءة الله والرسول من خيانة قريش ستكون يوم الحج الأكبر، وهو يوم تجمع الحجاج في عرفات يوم التاسع من ذي الحجة، ومنه ينطلق الحجاج باتجاه المسجد الحرام لبدء الحج.

ويستحيل أن يكون إعلان خيانة قريش يوم الحج الأكبر هو نفس اليوم الذي تبدأ فيه مهلة قريش. لأن مدة المهلة أربعة أشهر تنتهي بنهاية الأشهر الحرم، أي أن المهلة تكون طوال الأشهر الحرم الأربعة. والأشهر الحرم تنتهي بعد يوم الحج الأكبر بأقل من أربعة أشهر، على اعتبار أن يوم الحج الأكبر هو يوم التاسع من ذي الحجة، والأشهر الحرم تنتهي بنهاية محرم، أي بعد شهر وعشرين يوماً من يوم الحج الأكبر. وحتى لو افترضنا – جدلاً – أن المقصود بقوله تعالى: « الحج أشهر معلومات» يعني إمكانية الحج في أي يوم خلال الأشهر الحرم، فلن يكون هناك أربعة أشهر حرم بعد إعلان الرسول المهلة يوم للحج الأكبر. ويكون ما حدث هو أن إعلان خيانة قريش على الناس قام به الرسول يوم الحج الأكبر، لكن المهلة المعطاة لقريش للتراجع بدأت ببداية شوال الشهر الأول من الأشهر الحرم، وتنتهي بنهاية الشهر الأخير وهو محرم.

- وتكون سورة براءة نزلت في رمضان أو شعبان، واحتاج الرسول والمسلمون شهراً تقريباً للعودة إلى المدينة ومدة إضافية لوصول الخبر إلى قريش، وتبلغهم أنهم قد أعطوا مهلة الأربعة الأشهر الحرم ليتراجعوا عن نقضهم الميثاق مع المسلمين.
- وسورة براءة فيها آية تشير إلى أن مسير الجيش من المدينة كان في فصل الصيف: فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللّهِ وَكَرِهُواْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ(٨١).

ولو افترضنا أن غياب الرسول عن المدينة ذهاباً لتبوك شهراً والعودة استغرقت شهراً آخر. وأنهم قد عادوا إلى المدينة قبل بدء الأشهر الحرم، يعني في رمضان. فيمكن القول إن الرسول وجيش المسلمين خرجوا من المدينة باتجاه الروم في شهر رجب. وسنحاول

---

١ انظر فقرة: الأشهر الحرم/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

التعرف على السنة التي كانت فيها حجة الوداع وفي أي سنة توفي رسول الله، بعيداً عن تقديرات كتب التراث.

ولعل ما حدث هو أن الرسول بعد وصوله إلى المدينة قادماً من تبوك وجلاء القبيلة من أهل الكتاب وضمان قطع ألسنة المنافقين والحد من تصرفاتهم، توجه بنفس الجيش لمكة، وقاموا بأداء الحج لإعلان البراءة من قريش على ملأ الحجاج، فما كان من قريش إلا أن أعلنت الإذعان وتم استعادة مكة، ومنعت قريش من دخول المسجد الحرام ونزع منها شرف خدمة الحجاج والقيام على البيت وأعطيت لمسلمين أتقياء قد يكونوا من قريش. وقد يكونوا من المهاجرين الذين أعيدوا لمكة.

بينما عاد الرسول وبقية من معه من مهاجرين وأنصار إلى المدينة بعد قضاء الحج، وما إن استقر الرسول في المدينة بعد حجة الوداع حتى تقاطرت وفود القبائل تقدم ولاء الطاعة. وقد حدث هذا في الفترة ما بين عودة الرسول والمسلمين الذين معه من الحج، ووفاته صلوات الله عليه. وتلك الحجة هي التي أعلنت فيها براءة الله ورسوله من خيانة قريش وأن قريشاً هم من خانوا الميثاق. وهي حجة الوداع، والحجة الوحيدة للرسول. ويكون عام الوفود عبارة عن بضعة أشهر ولم يدم عاماً كاملاً. ويحتمل أن قبائل أخرى لم يسبق لها محاربة المسلمين، قد تسامعت بوفود القبائل فحذوت حذوهم، وأرسلت وفودها للرسول لتقديم الطاعة. وقد نزلت سورة النصر بعدما أصبحت جزيرة العرب بكامل ترابها تخضع لدولة المسلمين في المدينة. ولم يطل بالرسول البقاء على قيد الحياة بعد نزول سورة النصر، وانتقل للدار الآخرة بعدها بقليل.

متى توفي رسول الله

لا عبرة أبداً بما تقول كتب التراث، كما نقول باستمرار. لذا فالقول إنه عليه الصلاة والسلام توفي في شهر ربيع من العام الحادي عشر للهجرة لا يمكن التسليم به. وتحديد العام الذي توفي فيه الرسول عليه الصلاة والسلام غامض، وقد يكون قد توفي بتاريخ يختلف عما يشاع بسنوات وليس بأشهر أو أيام.

ومما نعرفه مما مر بنا من القرآن أنه توفي بعد نزول سورة النصر بفترة قصيرة، لأنه لو عاش عليه الصلاة والسلام فترة طويلة فلابد أن تنزل سورة أو سور لتتفاعل مع الأحداث التي

تقع في تلك الفترة. وسورة النصر نزلت بعد اكتمال وصول وفود القبائل إلى المدينة، ووفود القبائل بدأت تتقاطر على المدينة بعد عودة الرسول من الحج. وقلنا بأن تتابع الوفود استغرق بضعة أشهر، بعد تلك الحجة التي حجها الرسول وقرأ على الحجاج في عرفات آيات براءة الله ورسوله عن خيانة قريش، وهي الحجة التي سمتها كتب التراث حجة الوداع.

وحجة الوداع جاءت بعد أشهر من نزول سورة براءة في تبوك، والتي أدت إلى عودة الرسول وجيش المسلمين إلى المدينة، لكي يتمكن الرسول من الحج في ذلك العام وإعلان خيانة قريش على الملأ. وفي نفس الوقت يصل خبر سورة براءة لقريش لتعلم أنها قد أعطيت مهلة أربعة أشهر تنتهي بنهاية الأشهر الحرم. وهو ما يعني أن بلوغ الخبر لقريش حدث قبل بدء سريان المهلة، أي قبل بدء الأشهر الحرم، أي أن وصول الرسول وجيش المسلمين للمدينة كان في شهر شوال أو رمضان. والمسافة بين تبوك والمدينة تقدر بحوالي (٧٥٠) كيلومتر، ولو قدرنا أن جيش المسلمين كان يقطع حوالي (٢٥) كيلومتر في اليوم، فقد استغرقت رحلة العودة إلى المدينة حوالي شهراً. وتكون مغادرتهم المدينة عندما توجهوا لتبوك قبل شهرين من عودتهم، على اعتبار أن وصولهم لتبوك من المدينة استغرق شهراً أيضاً. فإن كانوا عادوا إلى المدينة في رمضان فقد غادروها في رجب، وإن كانوا عادوا في شوال فقد غادروها في شعبان.

ولو تعرفنا على السنة التي خرج فيها الرسول لحرب الروم فسنعرف متى توفي عليه الصلاة والسلام؟ ولمعرفة ذلك علينا أن نعرف متى جاء شهر رجب وشهر شعبان في الحر، لأن سورة براءة تؤكد أن الحملة خرجت من المدينة في الحر.

وفصل الحر في المدينة وما جاورها يمتد من الشهر الشمسي الخامس إلى الشهر نهاية الشهر العاشر، حيث تصل الحرارة إلى ما فوق الأربعين درجة مئوية، فيما تكون درجة الحرارة خلال الأشهر الثاني عشر والشهر الأول والثاني في العشرينات، وفي الثلاثينات في الشهرين الثالث والرابع والحادي عشر[١].

ولو استخدمنا برامج تحويل التاريخ من هجري إلى ميلادي وبالعكس فسنجد أن رجباً يبدأ المجيء في فصل الحر من السنة السادسة للهجرة، وشعبان يبدأ في فصل الحر من السنة

١ حسب إحصائيات الرئاسة العامة للأرصاد وحماية البيئة السعودية.

الثامنة. ويكون خروج الرسول لتبوك حدث في رجب من العام السادس أو السابع أو الثامن أو التاسع الهجري، وعاد في رمضان. أو أن الرسول والمسلمين خرجوا إلى تبوك في شهر شعبان من السنة الثامنة أو التاسعة أو العاشرة وعادوا في شوال، وفي نفس العام كانت حجة الوداع.

والأقرب أن تكون عودة الرسول والمسلمين من تبوك قد حدثت قبل بدء الأشهر الحرم بوقت يسمح بوصول خبر المهلة لقريش قبل أن تبدأ، ليقال لهم متى تبدأ ومتى تنتهي. أما وصولهم في شوال وقد بدأ سريان المهلة فستبلغ قريشاً أنها أعطيت مهلة أربعة أشهر بدأت قبل تبليغهم ببدايتها.

وقد حج الرسول عليه الصلاة والسلام في نفس العام حجة الوداع وأعلن براءة الله ورسوله من خيانة قريش.

لكن في أي عام كان ذلك؟

لابد من العودة للسور المدنية ومراحلها ومحاولة تقدير معدل للفترة التي تفصل بين نزول سورة وأخرى في كل مرحلة على حدة، حسب الظروف والأحداث، للتعرف على العام الذي نزلت فيه سورة براءة.

المرحلة الأولى / مرحلة الاستيطان والاستقرار

نزل فيها أربع سور – كما سبق وذكر – وهي: الممتحنة، الحجرات، المجادلة، والجمعة.

فيما سبق قدرنا أن الرسول بعد وصوله المدينة بأسبوع أو حتى شهر نزلت عليه سورة الممتحنة التي تتحدث عن وصول نساء من مكة مهاجرات إلى المدينة. وخلال هذه الفترة تسامعت الأعراب حول يثرب بوصوله فتقاطرت جموع منهم للقائه أملاً في العطايا، وهو ما تخبرنا به سورة الحجرات وسورة المجادلة. وهما سورتان تتحدثان عن نفس المواضيع وهو ما يعني أنهما نزلتا تباعاً، وبفاصل أسبوعين بينهما على الأكثر. ولا يمكن أن يستمر بقاء الأعراب في المدينة أكثر من أسبوعين. وبعد أسبوعين آخرين نزلت سورة الجمعة، ليكون قد مر على هجرة الرسول قرابة ثلاثة أشهر، عند نزول آخر سور المرحلة المدنية الأولى.

المرحلة الثانية/ مرحلة التشريع

ونزل فيها ست سور إضافة للسورة التي ألحقت بآخر سورة المزمل، والسور هي: البقرة، النساء، المائدة، السورة الملحقة بالمزمل، الماعون، محمد، والصف.

وسنقدر أن هناك فترة فاصلة بين نزول سورة الجمعة وسورة البقرة، طولها شهر.

وثلاثة أشهر بين نزول البقرة ونزول النساء، ومثلها فترة بين نزول النساء والمائدة.

وبعد ثلاثة أشهر نزلت السورة التي ألحقت بآخر سورة المزمل[1].

وبعد شهر آخر نزلت سورة الماعون، وبعدها بشهر نزلت سورة محمد، ثم سورة الصف بعد شهر آخر. ليستغرق نزول سور المرحلة (١٣) شهراً. ولو أضفنا لها (٣) أشهر التي نزلت فيها سور المرحلة الأولى للدعوة في المدينة، فيكون قد مر على هجرة الرسول (١٦) شهراً بنهاية المرحلة الثانية.

المرحلة الثالثة/ ما بعد بدر

ونزل فيها أربع سور: الأنفال، الحديد، التغابن، والطلاق.

ولو قدرنا أن معركة بدر التي تحدثت عنها سورة الأنفال قد وقعت بعد ثلاثة أشهر من نزول سورة الصف، فيكون قد مضى على هجرة الرسول قرابة (١٩) شهراً حين وقعت معركة بدر.

ولنقل إن هناك فترة هدوء ونقاهة بعد المعركة استمرت ثلاثة أشهر قبل نزول سور الحديد، والتغابن، والطلاق. وهي سور تخاطب المسلمين وتدعوهم للاستعداد للحرب، ولو قدرنا أن بين سورة وأخرى شهرين، فإن سور المرحلة الثالثة قد تكامل نزولها خلال فترة تقدر بحوالي (٧) أشهر. ويكون قد مضى قرابة (٢٦) شهراً على هجرة الرسول بنهاية المرحلة الثالثة.

المرحلة الرابعة/ ما بعد أُحُد

ونزلت فيها ثلاث سور: آل عمران، التحريم، والبينة.

ولو قلنا إن الفترة بين سورة الطلاق وآل عمران التي تتحدث عن معركة أحد هي ثلاثة

---

١ وهذه الفترات الفاصلة بين نزول سورة وأخرى مبالغ فيها جداً، لكي نقول إنه مهما بالغنا في تقدير الفترات الفاصلة بين السور فلن يصل بقاء الرسول في المدينة إلى عشر سنوات كما تقول كتب التراث.

أشهر فسيكون قد مر عشرة أشهر بعد معركة بدر، حين وقعت معركة أُحُد. كما مر (٢٩) شهراً بين الهجرة ومعركة أُحُد.

ثم نزلت سورة التحريم بعد ثلاثة أشهر، وسورة البينة بعد ثلاثة أشهر من التحريم. فيكون قد مر على هجرة الرسول بنهاية هذه المرحلة (٣٦) شهراً.

المرحلة الخامسة/ ما بعد الأحزاب

ونزل فيها ثلاث سور، هي: الأحزاب، النور، والمنافقون.

وقد يكون مر بضعة أشهر ما بين نزول سورة البينة من المرحلة السابقة وبين نزول سورة الأحزاب التي تروي أخبار حملة الأحزاب، تم خلال هذه الفترة تواصل قريش بالروم لإقناعهم بمعاونتهم للقضاء على المسلمين، ومحاولة المسلمين ثني الروم عن ذلك.

ولتكن الفترة بين نزول سورة البينة ونزول سورة الأحزاب ستة أشهر تضاف على الـ (٣٦) شهراً السابقة، ليكون قد مر (٤٢) شهراً على هجرة الرسول عندما وقعت الأحزاب.

ثم نزلت سورة النور التي تواصل الحديث عما تحدثت عنه سورة الأحزاب، مما يعني أنه لم يكن بينهما مدة طويلة، ولتكن شهراً واحداً. وتلتها سورة المنافقين التي تكمل ما تتحدث عنه السورتان قبلها وبفترة مقاربة، أي بعد شهر من نزول سورة النور.

فيكون قد مر (٤٤) شهراً على هجرة الرسول بنهاية هذه الفترة.

المرحلة السادسة/ فتح مكة

ونزل فيها سورتان: الفتح، والروم.

ولنقل إنه مر فترة للتأهب والاستعداد تقدر بستة أشهر بين نزول سورة المنافقين وبين سورة الفتح. وبما أنه بين الأحزاب ونزول سورة المنافقون شهران فإن الفتح قد وقع بعد الأحزاب بثمانية أشهر، أو (٥٠) شهراً من الهجرة.

وبعد الفتح بثلاثة أشهر نزلت سورة الروم التي تتحدث عن السرية التي بعثها الرسول للروم وقاتلتهم في مؤتة. ولما عاد من مكة وعاد جيش مؤتة نزلت سورة الروم، أي بعد حوالي ثلاثة أشهر من نزول سورة الفتح التي نزلت في مكة بعد دخول المسلمين إليها.

وبنهاية هذه المرحلة يكون قد مر على هجرة الرسول (٥٣) شهراً.

المرحلة السابعة/ قلاقل ما بعد الفتح

ونزل فيها سورتان: براءة والتحريم.

وسنقدر أن جيش تبوك قد خرج من المدينة بعد عودة السرية المرسلة لمؤتة والتي تحدثت عنها سورة الروم، بشهر لأن الرسول حاول الرد على هزيمة المسلمين في مؤتة بسرعة، وكان خروج الجيش في شهر رجب. ولم يمر على هجرة الرسول سوى (٥٤) شهراً أي أربع سنوات وستة أشهر منذ اللحظة التي وطئت فيها قدما رسول الله أرض يثرب. وعاد في رمضان إلى المدينة وفي نفس العام حج وأعلن براءة الله ورسوله من خيانة قريش بعد مضي (٥٩) شهراً على هجرته.

وكانت سورة الحشر قد نزلت في الفترة ما بين عودة الرسول من تبوك وحجته.

وبعد بضعة أشهر من حجة الرسول نزلت سورة النصر، ونقدر أن الفترة بينهما ثلاثة أشهر. كما نقدر أن الرسول توفي بعد نزول سورة النصر بثلاثة أشهر، أي ستة أشهر بعد الحج.

فتكون وفاته عليه الصلاة والسلام بعد مضي (٦٥) شهراً على الهجرة.

وإن كانت التقديرات قريبة من الصحة فإن الرسول قد توفي بداية السنة السادسة للهجرة وليس الحادية عشر كما تقول كتب التراث، وبينهما فرق هائل يقدر بخمس سنوات، لا يستطيع كثير من الناس تصديق حدوثه. لكن كل من هو على إطلاع تام بما في كتب التراث سيعلم أن مثل هذه الفروق تمتلئ بها كتب التراث وليست مستغربة، لأنها كلها تقديرات لا تقوم على أسس وليس لها مصدر.

ومن ذلك أن الطبري في تاريخه ينقل عدة تواريخ لوفاة أبي التاريخ الهجري عمر ابن الخطاب، حيث يقول: قيل توفي ليلة الأربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، وقيل لأربع ليال بقين من ذي الحجة. وقيل إن وفاته كانت في غرة محرم سنة أربع وعشرين، وهناك من قال بأن عمر طعن لسبع بقين من ذي الحجة وقال غيرهم لست. وكما اختلف في يوم طعنه ووفاته، اختلف في مدة خلافته. فهل كانت عشر سنين وخمسة أشهر وإحدى وعشرين ليلة، أم عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام، أم غير ذلك.

وكل كتب السير والتاريخ والرجال تعطي عدة تواريخ لولادة أو وفاة أحد الأعلام، ويكون بين كل تاريخ وآخر فارق زمني بالسنوات. ومن ذلك ما تم إيراده عن زيد ابن

خالد الجهني الذي اختلف بكنيته وتاريخ وفاته مع أنه من كبار الصحابة وكان قد تولى لواء جهينة يوم الفتح (كما تقول كتب التراث) فقيل كان يكنى أبا عبد الرحمن، وقيل أبا طلحة، وقيل أبا زرعة. وقيل توفي في مصر سنة (٦٨) وهو ابن خمس وثمانين (يعني ولد قبل بعثة الرسول بأربع سنوات حسب تقديرات كتب التراث)، وقيل سنة (٥٠) وهو ابن ثمان وسبعين (يعني ولد قبل بعثة الرسول بخمسة عشر عاماً). وقيل توفي بالكوفة في آخر خلافة معاوية (يعني حوالي عام ٦٠). وقيل توفي سنة (٧٨) وهو ابن خمس وثمانين (يعني ولد قبل الهجرة بسبع سنوات)، وقيل سنة (٧٢) وهو ابن ثمانين.

يعني أن هناك فارقاً زمنياً يقدر باثنتين وعشرين سنة حول تاريخ ميلاده، وفارق زمني يقدر بثمان وعشرين سنة حول تاريخ وفاته. ولا يعرف هل توفي في مصر أو في الكوفة أو في مكان آخر، ولا ما هي كنيته على وجه التحديد.

وهذا نص ما نقله الذهبي في سير أعلام النبلاء عن واحد من أشهر رجال كتب التراث: «قال أبو عمر الضرير: مات مجاهد سنة مائة. قلت: هذا قول شاذٌ، فإنَّ مجاهداً رأى عُمَر بن عبد العزيز يموت. وقال أبو نُعيم: مات مجاهد وهو ساجد سنة ثنتين ومائة. وكذا أَرَّخَهُ الهيثم بن عديّ، والمدائنيُّ، وجماعة. وقال حمَّاد الخياط، وأبو عبيد، وجماعة: مات سنة ثلاث ومائة. وقال ابن المدِينيّ وغيرُه: سنة أربع ومائة، وجاء عن ابنِ المدينيّ: سنةَ ثمان ومائة. رواه عنه ابنُه عبدُ الله. وعنه سنةَ سبع ومائة.

وكما نرى هناك فوارق في تاريخ موت مجاهد وصلت لثمان سنوات، مع أنه مات بعد انتشار الكتابة والتدوين، فلا نستغرب من فارق خمس سنوات لفترة الدعوة في المدينة المجهولة لهم. خاصة أن عصر الرسول كان عصراً لا يهتم الناس فيه بتدوين تواريخهم ولا متى حدثت وقائعهم. وإنما يؤرخون بالواقعة، وإذا ما وقعت حادثة أخرى أرخوا بها ونسوا متى وقت الحادثة الأولى ... وهكذا. وهو ما بقيت الحال عليه في كثير من أجزاء جزيرة العرب إلى سبعينيات وثمانينيات القرن الرابع عشر الهجري. فلا غرابة أن يكون الرسول قد توفي في السنة السادسة للهجرة أو السابعة على أكثر تقدير، ويكون أبو بكر قد بقي خليفة أكثر مما قيل عنه. وكتب التراث تقول إن أبا بكر استعاد كامل تراب جزيرة العرب لسيادة دولة المسلمين في عام واحد تقريباً وبدأ حرب فارس وتوغل في بلادهم خلال عام آخر،

هي مدة خلافته حسب تقديرات كتب التراث. وهي فترة قصيرة جداً وشبه مستحيلة. لكن لو أن أبا بكر امتدت خلافته لسنتين أخريين أو ثلاث فستكون الفترة معقولة. وقد تكون خلافة عمر أيضاً أطول بعام أو عامين عما قدرته كتب التراث، وكذلك خلافة عثمان.

وقد يقول قائل إن هناك فارقاً بين تاريخ وفاة شخص مهما كان مشهوراً وبين تواريخ سيرة الرسول وما حدث فيها من أحداث. فنقول من حيث الأهمية نعم هناك فروق ولا وجه للمقارنة، لكننا نتحدث عن تدوين تلك الأحداث في عصور لاحقة وبعيدة ولم تعتمد على مصادر موثوقة ولكنها خضعت لتقديرات من كتبها. لذا لم يكن مستغرباً أن نجد أن كل ما نسب لعصر الرسول في كتب التراث يختلف عما قاله القرآن عنها، ونجد أن كتب التراث اختلقت أحداثاً نسبت لعصر الرسول لم تحدث، ولعل من أهمها ما سمي بغزوة بني قريظة وقتل مئات منهم صبراً بعد أسرهم، وسبي نسائهم. فمن يختلق مثل هذه القصة ويجد من يسجلها كحادثة تاريخية مع عدم حدوثها، يجعل من تمديد العصر المدني من ست وسبع سنوات لأحدى عشر سنة أسهل وأيسر.

وبالتالي فمن يريد التأكد من إمكانية أن يكون العصر المدني كما قلنا أو قريباً منه، فعليه أن يعود لمراحل الدعوة ويضع بنفسه فواصل زمنية تتناسب مع الظروف السائدة بين سورة وأخرى كما يقدرها هو، وسيجد أنه لن يبتعد كثيراً عن التقديرات هنا.

عمره عليه الصلاة والسلام

جاء في كتب التراث أن الرسول عليه الصلاة والسلام ولد عام الفيل، وبُعث وعمره أربعون سنة، وهاجر بعد (١٣) سنة، وتوفي بعد عشر سنوات. وكل هذه الأقوال لا يمكن اعتبارها حقائق لأن ميلاد الرسول وبعثته وهجرته ووفاته كانت في زمن الأمية عندما كانت قريش لا توثق أحداثها، ومن قال بهذه التواريخ أناس عاشوا بعد عصر الرسول بمئات السنين.

والمؤكد أنه لا يمكن أن يكون الرسول قد بعث وهو في الأربعين من عمره، لأن ابن الأربعين يكون في منتصف العمر وقد تشبع بالموروث وهدأت فيه روح الثورة والمغامرة، ولا يتقبل التغيير. أما الثوار والمصلحون فيبدأون نشاطهم بسن الشباب والعنفوان كما هي حال الرسل. بل إن ابن الأربعين في تلك العصور يعتبر متقدماً في العمر وأقرب للشيخوخة

والهرم من الشباب والحيوية. والقرآن يظهر لنا أن إبراهيم عليه السلام كان فتى عندما ثار على معتقدات قومه وكسر أصنامهم: قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ(٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ(٦٠) الأنبياء.

والفتى هو الشاب اليافع في مقتبل العمر.

ومثله موسى عليه السلام الذي هرب من مصر بعدما قتل الذي من عدوه وكان مراهقاً، ثم بقي يعمل كأجير عند الشيخ الذي وجد بنتيه عند بئر مدين لمدة ثمان أو عشر حجج، ليبعث بعد ذلك لفرعون وعمره في منتصف العشرينات.

لكن المفسرين الذين حولوا العروة الوثقى التي وردت في سورة البقرة، إلى حلقة معدنية، وحولوا الصراط – الطريق المستقيم – إلى ممر فوق جهنم يجب على كل من يريد دخول الجنة أن يعبره. وهو أدق من الشعرة وأحد من السيف، وكأننا في لعبة تحد هزلية كالتي تعرضها القنوات التليفزيونية. أولئك المفسرون لن يصعب عليهم تقدير أن عمر الرسول عندما بعث كان أربعين سنة لأن هناك آية قرأوها تقول: « حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ... (١٥) الأحقاف».

وقالوا ولد عام الفيل لأنهم قرأوا إن القرآن يتحدث عن حملة أصحاب الفيل. ولو افترضنا أن رسول الله قد تزوج خديجة وهو في الخامسة والعشرين فلابد أن زواجه بها كان قبل البعثة بعامين أو ثلاثة لا أكثر، كما سبق وذكرنا عند الحديث عن ابن الرسول بالتبني. ويكون قد بعث عليه الصلاة والسلام وعمره أقل من الثلاثين.

وبقي في مكة قرابة الثماني سنوات يدعو قبل الهجرة، وفي المدينة لم يطل به المقام أكثر من ست سنوات، حسبما تقدم. ويكون عمره في بداية أو منتصف الأربعينات عندما توفي.

عليه الصلاة والسلام.

أمر دولة المسلمين بعد الرسول

قريش استسلمت صاغرة لدولة المسلمين مرة عند الفتح، لأنها كانت أضعف من أن تقاتلهم. وحاولت أن تظاهر أهل الطائف ومعهم بعض القبائل وجيش فارسي لسحق المسلمين لكنها فشلت وانتصر المسلمون في حنين، فاضطرت قريش أن تعود للاستسلام

صاغرة مرة أخرى لئلا تتعرض للمطاردة والحصار. واستسلامها لم يخفف من عدائها، بل زاده تأججاً، واستمرت تحيك المؤامرات في الخفاء.

وبمجرد وفاة رسول الله سعت قريش بقيادة أبي سفيان والعباس ومن بقي من بني عبد مناف خصوصاً إلى محاولة تأجيج الفتنة بين المسلمين فيما عرف بسقيفة بني ساعدة والتي لا نملك عنها تفاصيل إلا ما قالت كتب التراث، وهو مجرد تخيل لما حدث قيل بعد قرون من حدوثه. لكنه يظهر أن رأسي الفتنة القرشيين – أبا سفيان والعباس – كانا متواجدين في المدينة عند وفاة رسول الله. وهو ما يثير التساؤلات والشبهات حول سبب وجودهما، والذي لا يمكن أن يكون للاطمئنان على صحة رسول الله.

لقد تواردت الأخبار إلى مكة أن رسول الله مريض فهبا مسرعين للتواجد في المدينة في محاولة لتحويل حكم الدولة ليد واحد من مسلمة قريش الموالين. ولو تمكنا ومن معهما من ذلك فسينتقمون من الإسلام والمسلمين باسم حكومة مسلمة. أو بث الفرقة بين المسلمين في محاولة لتنازعهم وذهاب ريحهم وتفكك دولتهم.

وكتب التراث تقول إنهما تحزبا في دار علي ابن أبي طالب معه ومع طلحة والزبير وخالد ابن سعيد ابن العاص، ومعهم رجال من بني عبد مناف. وهؤلاء سعوا لتولية علي ابن أبي طالب، ولم يقبلوا بتولي أبي بكر.

وتفاصيل ما حدث فيما عرف بالسقيفة لا يمكن الركون له، لكنه يظهر أن الأوس بوجه عام والمهاجرين كانوا مع تولي أبي بكر أمر المسلمين بعد الرسول، بينما لم يقبل به غالبية الخزرج ومالوا لتولي سعد ابن عبادة. ومن الأسماء التي ذكرتها كتب التراث كمعارضين من الخزرج لتولي أبي بكر: الحباب بن المنذر والبراء بن عازب وأبي بن كعب.

ولنتذكر مواقف مسلمة يثرب ومسلمة قريش المعادية للإسلام زمن رسول الله، وفي وقت ينزل القرآن، ولا غرابة لو يصدر منهم أي تصرف أو مكائد للمسلمين علنية بعد وفاة الرسول.

فهل كان مسلمة يثرب يتكونون في غالبيتهم من الخزرج؟

ومسلمة قريش يتكونون في غالبيتهم من بني عبد مناف؟

بينما كان المهاجرون الآخرون يمثلون أتقياء الصحابة مع الأوس وقلة من الخزرج الذين

يمثلون أتقياء الأنصار.

شخصياً أميل لهذا، لأن مسلمة قريش كانوا ينتسبون لقريش ومن خيرتهم، وكانت لهم مواقف عنصرية جداً ضد من أسلم من مستضعفي مكة لأنهم كانوا يرون أنفسهم سادة من سادة ولا يقبلون مساواتهم بأي وجه أو موقف بالموالي والعبيد. لقد حاولوا إقناع الرسول في مكة طرد المستضعفين: وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ(٥٢) الأنعام.

واقتتلوا معهم في بداية الهجرة، وبنوا مسجدا لكي يصلوا فيه وحدهم ولا يختلطوا بالمستضعفين، وكان ذلك في أواخر عصر الرسول: وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(١٠٧) براءة.

ومسلمة يثرب كانوا يمثلون عدداً كبيراً ممن أسلم من أهل يثرب، فهم إما من الأوس أو الخزرج أو منهما. والمواقف بعد وفاة الرسول أظهرت أن أكثرهم من الخزرج، القبيلة الأكثر عدداً. وأن الأوس الذين كانوا يمثلون أتقياء الأنصار، قد اصطفوا مع أبي بكر وبقية أتقياء المهاجرين.

ومع أن أتقياء المهاجرين (المهاجرون من غير بني عبد مناف)، وأتقياء الأنصار (الأوس في الغالب) كانوا عند وفاة الرسول يمثلون القلة بين من أعلن إسلامه، إلا أنهم أبقوا إدارة دولة المسلمين بين أيديهم بتولي أبي بكر، مبعدين عنها قريشاً، ولو إلى حين.

وما يجب التشديد عليه هنا هو أن أبا بكر لم يبايعه الناس بمفهوم إعلان الطاعة له والولاء، أو على المنشط والمكره أو بأي صيغة أخرى للبيعة، لأن مثل هذه البيعة لم تظهر على الساحة إلا بعدما فقد المسلمون الأتقياء إدارة الدولة باستيلاء قريش على حكمها. والقول بأن عمر مد يده وبايع أبا بكر وتوالى الناس بعد ذلك وحذو حذوه، هو من تصورات القصاص في عصور لاحقة. لذا لم يكن هناك بيعة خاصة في السقيفة وبيعة عامة في مجلس أبي بكر اصطف الناس لمصافحته وإعلان البيعة له. ولم يكن هناك ملاحقة لكل من لم يقبل بتولي أبي بكر، كما قالت كتب التراث عن أن علي ابن ابي طالب تمت ملاحقته أو أجبر على البيعة.

لأنه لو كان هناك إجبار للناس على إعلان البيعة لأجبر العباس وأبا سفيان وغيرهم من أهل مكة الذين حضروا إلى المدينة للتأثير على قرارات المسلمين حول من يتولى أمرهم بعد الرسول. لكن لا العباس ولا صديقه أبو سفيان طُلب منهم البيعة، مثلما أنه لم يطلب من علي ابن ابي طالب ولا من سعد بن عبادة ولا من غيرهم.

لكن عدم التعرض لشخصي أبي سفيان والعباس وأشخاص بني عبد مناف (مسلمة قريش) وغيرهم، لم يوقف مكائد هؤلاء ضد المسلمين ودولتهم.

حروب الردة

لقد خسرت قريش ومن والاها من بني عبد مناف جولة أخرى ضد أتقياء المسلمين، بعدم تمكنهم من الإبقاء على إدارة دولة المسلمين بعد وفاة الرسول، وهي خسارة تضاف لخساراتهم المتكررة منذ البعثة، لكن هذا لم يثنهم أبداً عن مواصلة المكائد. فقد وجد المسلمون أنفسهم وقد انتقضت عليهم القبائل والشعوب في كل جزيرة العرب، بعد وقت قصير من وفاة رسول الله. وانتفاض القبائل لابد أن قريشاً سعت له وحثت عليه، موحية لرؤساء القبائل أن وفاة الرسول فرصة للانتفاض والتخلص من التبعية لمستضعفي مكة ويثرب الذين أصبحوا سادة عليهم.

إلا أن المسلمين استطاعوا بصرامة أبي بكر، استرداد السيطرة على أرض جزيرة العرب، بل والاستمرار بمعاقبة من عاون على حرب المسلمين من الفرس والروم، التي بدأت في عصر الرسول، وهو ما عرف تاريخياً بالفتوح.

ولتناول موضوع حروب الردة والفتوح لابد من بيان المنهجية المتبعة لكي يسهل تتبعها وفهمها، وهي كما يلي:

- بحثنا لا يسعى لتبرئة أحد ولا إلصاق التهم، ولكن نحلل ونعلل ونستنتج لعلنا نصل للحقيقة أو أقرب ما يمكن منها.
- سنستند على الأدلة فإن لم توجد فسنعتمد القرائن.
- لابد من العودة للتعرف على الأحداث في عصر الرسول لأن حروب الردة والفتوح امتداد لتلك الأحداث.

- أحداث عصر الرسول سنعتمد في روايتها على القرآن وحده، ولا عبرة لما ورد في كتب السير والحديث والتفسير وغيرها من كتب التراث.
- سنورد بعض الآيات القرآنية التي تظهر ضوابط القتال التي يجب على المسلمين مراعاتها وعدم تجاوزها.
- الخطأ وارد، وليس عائقاً عن البحث، ويمكن العودة عنه متى اكتشف.
- في عصر ما بعد الرسول وتوقف الوحي، سنعتمد على أحداث عصر الرسول ونستنتج امتدادها فإن لم نستطع سنلتفت لما تقول كتب التراث بعين فاحصة وأخذ ما لا يخالف أوامر القرآن ونواهيه، ولا سير الأحداث.
- سنعتبر تصرفات أبي بكر تصرفات شخصية ولا تمثل الإسلام، لكن في نفس الوقت، سنرجح عدم مخالفة تلك التصرفات أوامر القرآن – عمداً –لأننا سننظر لأبي بكر على أنه صاحب رسول الله ورفيق صباه وهجرته، وأنه من أتقياء الصحابة ومن الحريصين على تنفيذ أوامر القرآن، وهو ما أثبتته الوقائع، وما عرفناه مما مر من أحداث.

وللدخول في الموضوع لابد من أن نتعقب حروب المسلمين زمن الرسول وكيف بدأت، وهذا يعيدنا إلى ما كان عليه المسلمون في مكة قبل الهجرة. فالقرآن من بداية الدعوة وهو يدعو للتعايش السلمي في مكة بغض النظر عن المعتقد، ومن ذلك: سورة الكافرون وسور غيرها. والسور التي تدعو قريشاً للإنفاق لبناء مجتمع متكافل اجتماعياً ولو لم يؤمنوا، لكن قريشًا أعلنت الحرب وعداءها للمسلمين ورفضها المطلق لأي تعايش سلمي، وسخرت من الرسول وضايقت المسلمين القلة. ثم بدأت الاعتداء الجسدي على المستضعفين منهم في المرحلة الخامسة. وبما أن الرسول مرتبط بتعاليم وإرشادات القرآن ولا يستطيع أن يتصرف بمرئياته الشخصية فيما يخص أمور الإسلام والمسلمين، فهو لم يدعو المستضعفين للهجرة إلى الحبشة – برغم تعرضهم للأذى– حتى نزل القرآن: قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ(١٠) الزمر.

وهو لم يستطع أن يقول للمسلمين في مكة أن يدفعوا الظلم عن أنفسهم ضد قريش المتسلطة ويعاقبوهم بمثل ما عاقبوا به المسلمين في المراحل اللاحقة عندما صعدت قريش

من اعتداءاتها على المسلمين حتى نزل القرآن: وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ(٣٩) وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهَّ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ(٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ(٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(٤٣) الشورى.

وكما رأينا في سور المرحلة الأخيرة للدعوة في مكة كالعنكبوت والبروج والمسد كيف أن المستضعفين كانوا يتعرضون لأشد أنواع التعذيب والحرق بالنار لإجبارهم على الردة ومع ذلك لم يستطع الرسول أن يطلب منهم أن يفروا خارج مكة، حتى نزل القرآن يبيح لهم ذلك: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ(٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ(٥٧) العنكبوت.

وعندما هرب المسلمون من مكة لم تكف قريش عن ملاحقتهم، وبدأت تعد العدة لحربهم لأنها مصممة على القضاء عليهم. ففرض القتال على المسلمين فرضاً لكي يدافع المسلمون عن أنفسهم ودينهم وأموالهم. ولم يظهر المسلمون ترحيباً بالقتال ولا رغبة فيه بل كرهوه: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُّ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٢١٦) البقرة.

وقد نزلت خمس سور قبل بدر تحث المسلمين على الاستعداد لقتال المعتدي قريش، وهي: البقرة، النساء، المائدة، محمد، والصف. مما يدل على كراهية المسلمين للقتال ورغبتهم تجنبه.

والآيات تطمئنهم مرة بأن من يموت منهم في القتال سيكون حياً عند الله (بمعنى أنه سيذهب للجنة) وتحثهم على تقبل فقد الأقارب في الحرب: وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللهِّ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ(١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ(١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا للهِّ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ(١٥٦) أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ(١٥٧) البقرة.

وفي مكان آخر من السورة تأتي الآيات لتقول: أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ

مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ(٢١٤).

وتبين السورة أن القتال ليس لمهاجمة أي أحد ولكنه دفاعي بحت، وهو في هذه الفترة ضد قريش التي تعد العدة للهجوم على المسلمين: وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ(١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ(١٩١) فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٩٢).

والآيات تؤكد أنه للدفاع: فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم.

وتواصل السورة لتبين للمسلمين أنه إن لم يدافعوا فستتمكن قريش من تحقيق ما خرجت من أجله وهو استئصال الدين (الفتنة) والقضاء على المسلمين: وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ(١٩٣).

مع التشديد على أن الحرب للدفاع: «فإن انتهوا فلا عدوان»، فالحرب ليست للهجوم ولا للقضاء على قريش الكافرة هي فقط للدفاع ضد اعتداء قريش القادم.

وتستمر السورة تظهر أن المسلمين كرهوا القتال، ولم يرغبوا فيه: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٢١٦).

ثم تأتي سورة النساء ليستمر حث وتشجيع المسلمين المتثاقلين عن الخروج لصد جيش الغزاة (قريش). وتحذر السورة بحزم - مستبقة الأحداث - من قتل أي شخص مسالم، فالكفر وحده ليس سبباً لقتال الناس: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً(٩٤) النساء.

أرجو ألا نهتم بما يقول المفسرون ههنا فالآية نزلت مع بقية آيات سورة النساء مرة واحدة وفي وقت سبق أول معركة يخوضها المسلمون وهي تفرض على المسلمين أن يتحروا أعلى درجات الحذر فلا يقتلوا كافراً لأنه كافر: « وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً».

فالذي ألقى إليكم السلم يعني المسالم (المفسرون حولوها إلى من ألقى عليكم السلام) والآية واضحة : لمن ألقى إليكم وليس عليكم، والسلم من السِّلميَّة ويعني المسالم.

فالآية تؤكد وتشدد أن القتال موجه للمحاربين الذين يبادرون بالحرب... وهذا الشعار بقي ساري المفعول طوال حياة الرسول وهو عنوان لكل حروب دولة المسلمين.

واستمرت سور النساء والمائدة والصف ومحمد تشجع وتحث المسلمين على القتال الدفاعي وسنكتفي بما ذكر من آيات لئلا نطيل.

وبقي شعار قتال المحاربين المعتدين فقط دون المسالمين هو شعار القتال في الإسلام حتى توفي رسول الله، فسورة براءة التي توفي رسول الله بعد نزولها بأقل من عام تؤكد على هذا المبدأ: كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٧).

ومعركة بدر وقعت قرب آبار بدر التي تقع على الطريق التجاري للقوافل الذي يمر بمكة ثم يثرب ثم يواصل للشام. ويبعد مكان المعركة عن مكة أكثر من (٣٠٠) كيلو متر وعن يثرب حوالي (١٢٠) كيلو متر. وهو ما يشير على أن قريشاً هي من خرج من مكة ليثرب بقصد الحرب، ولو كان المسلمون هم من هاجم قريشاً فستكون المعركة أقرب لمكة. (ولا يلتفت لكتب التراث التي صورت المعركة وكأنها لطمع المسلمين بقوافل قريش التجارية وأن قريشاً المسكينة اضطرت للخروج لحماية قافلتها وتورطت بالحرب ضد المسلمين)[١].

لأنه لو كان الأمر يتعلق بالاستيلاء على قافلة تجارية فسيتولى هذا عصابة مكونة من عشرة رجال أو عشرين أو حتى (٥٠)، ولن يذيعوا بالخبر لكي يصل مكة وتخرج قريش لحماية قافلتها. كما أن قريشاً لو خرجت لحماية القافلة فلن تخرج بجيش قوامه مئات الأشخاص وهو ما يعتبر جيشاً عرمرماً بأرقام جزيرة العرب في ذلك الوقت، ولخرج عشرة أو عشرون أو مئة.

لكن المعركة كانت امتداداً لمساعي قريش التي بدأت في مكة للقضاء على المسلمين.

وطوال حياة الرسول التزم المسلمون بضوابط القتال القرآنية ومات الرسول على هذا. لا سبي ولا قتل لمسالم ولا هجوم على كفار لم يبادروا بالعداء والحرب[٢].

---

١ ويمكن الرجوع للحديث عن معركة بدر في هذا القسم لمعرفة لماذا وقعت المعركة قرب آبار بدر.

٢ يمكن الاطلاع على ضوابط الجهاد بالعودة لفقرة: الجهاد/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

الحدث يولد أحداثاً

لقد جاءت قريش إلى بدر لتؤدب الرسول وتقضي على المسلمين مصحوبة بمواليها وعبيدها، لكنها تلقت هزيمة نكراء بشكل غير متوقع، وقتل عدد كبير من كبرائها، وانقلبت الموازين. فالمسلمون أصبحوا أعزة لهم اليد الطولى على قريش بينما كسر جبروت قريش وعادت تجر أذيال الخيبة إلى مكة.

وقد حاولت أن تلملم شملها وتضمد جراحها وتأخذ بثأرها من المسلمين في العام التالي، عندما عاودت الهجوم على المدينة مستعينة ببعض القبائل الموالية لها من كنانة وبعض أهل تهامة (حسبما جاء في كتب التراث)، وقد تلقاهم المسلمون تحت سفح جبل أُحُد. وحلت بالمسلمين الهزيمة بسبب تكتيكي، بعدما كانوا قد انتصروا في بداية المعركة وبدأ رجال قريش يفرون[1]. إلا أن قريشاً فقدت عدداً لا يستهان به من رجالها الذين لن تستطيع تعويضهم، بعكس المسلمين الذين قتل منهم عدد لا يزيد عن نصف عدد قتلى المشركين في بدر: أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١٦٥) آل عمران.

ومع أن النصر سجل في المعركة لصالح قريش، إلا أن أهل مكة أدركوا أنهم لن يتمكنوا من كسب الحرب مع المسلمين بجهودهم الذاتية أو بمعاونة قبائل تهامة القريبة من مكة. فقرروا أن يطلبوا من الروم معاونتهم وإرسال جيش يقضي على المسلمين. وكتب التراث تذكر أن أبا سفيان ووفداً من قريش قابلوا هرقل. وإن صدق الخبر فوفد قريش جاء لإقناع هرقل بمعاونتهم على سحق المسلمين.

كما أن كتب التراث تذكر أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد أرسل لقيصر كتاباً في نفس الوقت الذي كان فيه أبو سفيان ووفد قريش عنده. ولو صدق الخبر، فإن الرسول قد أرسل وفداً وكتاباً لقيصر في محاولة لتطمينه أنه لا يشكل أي خطر على مصالح الروم ولن يقطع إمداداتهم من جنوب جزيرة العرب من التوابل واللبان والبخور والذي قد تكون قريش استخدمته لتكسب تعاطف هرقل وموافقته على معاونتهم. ويبدو أن وفد المسلمين قد عاد بخيبة أمل وبأخبار غير سارة، بل ومخيفة للمسلمين، فقد وافق هرقل على إرسال جيش

---

١ انظر الحديث عن معركة أحد في هذا القسم/ أحداث من عصر الرسول.

لحرب المسلمين معاونة لقريش[1].

فكانت حملة الأحزاب والتي اشترك فيها عدد من رجال بعض القبائل حول مكة والمدينة إضافة لقريش في قوات ائتلاف دولية في ذلك العصر مماثلاً لقوات ائتلاف أمريكا ضد العراق. وقد صورت سورة الأحزاب الرهبة والقنوط الذي أصاب المسلمين عندما تأكد لديهم قدوم جيش الائتلاف بقيادة الرومان: إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا(١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً(١١) الأحزاب.

لأن امبراطورية الروم بجيوشها النظامية وأسلحتها الفتاكة لا يمكن لبضع مئات من المسلمين بقدرات مالية محدودة جداً وتسليح متواضع، أن ينازلوهم أو يقفوا ضدهم. مما حدا بهم لأن يقوموا بحفر الخندق على طول الجهة الشمالية ليثرب، لكي يكتمل إغلاق يثرب من جميع الجهات، كون الجهات الثلاث الأخرى محاطة بحرات يستحيل على الجيوش أن تجتازها بسبب حجارتها الحادة.

وما يؤكد أن جيش الروم قدم للهجوم على المدينة، هو أن حفر الخندق استغرق شهراً أو يزيد، وتم إنجازه قبل وصول الجيوش الغازية. ولو كانت الجيوش من قبائل غطفان وبني أسد وسليم وكنانة ومعهم قريش لأمكنهم الوصول إلى المدينة خلال أسبوع، وقبل أن ينتهي المسلمون من حفر الخندق. بل ولما لجأ المسلمون لحفر الخندق أصلاً، لأن ما يمكن جمعه من تلك القبائل لن يزيد كثيراً عما جمعته قريش في معركة أحد، وسيكون بإمكان المسلمين مواجهتهم، حتى ولو كان تعدادهم ضعف جيش المسلمين: فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ(٦٦) الأنفال.

وهذا أحد النقوش التي كتبت في جبل سلع أثناء حفر الخندق:

---

١ انظر ما كتب عن حملة الأحزاب في هذا القسم/ أحداث من عصر الرسول.



والنص المكتوب يظهر قلقاً ووجلاً، ونصه: «أمسى وأصبح عمر وأبو بكر يتضرعان إلى الله من كل ما يكره»[1].

وهذا نقش آخر:



ويظهر في النقش أسماء بعض الصحابة مثل عمارة بن حزم، وميمون، والرسول محمد بن عبد الله، وابن عوسجة، وسليمان الأحمر، سهل، معقل الجهني وسعد ابن معاذ وعلي ابن أبي طالب[2].

١ المصدر: http://www.islamic-awareness.org/History/Islam/Inscriptions/hamid1.html

٢ المصدر: http://www.islamic-awareness.org/History/Islam/Inscriptions/hamid2.html
وهذه النقوش بكل أسف وأسى لم يعد لها وجود لأن الجبل طالته يد التجريف سواء لعوامل اقتصادية وكسب مادي لتحويله إلى منطقة سكنية أو على أيدي «مطاوعة» تم استغلالهم باسم الدين ليقضوا على شواهد إسلامية هامة لا يمكن أن تقدر بثمن. وهذا واحد من مضار المذهبية الكثيرة على دين الإسلام. ونقدم الشكر الجزيل للعاملين على الموقع المذكور الذين لولا الله ومن ثم جهودهم لضاعت صور هذه النقوش التي لا تقدر بثمن.

وكانت خطة الهجوم على المسلمين تقضي بأن تبدأ قوات الائتلاف بالهجوم على المدينة من جهة الشمال - حيث حفر الخندق - وإذا ما انهزم المسلمون وهربوا باتجاه المدينة، خرج بنو إسرائيل من حصونهم في جنوب يثرب، وهاجموا المسلمين. فيرتبك جيش المسلمين وينهار لوقوعه بين كماشتي قوات الائتلاف من الشمال واليهود من الجنوب، فيقضى عليهم عن بكرة أبيهم «إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ».

لكن قوات الائتلاف عندما وصلت لمشارف المدينة فوجئت بالخندق يحول بينها وبين الوصول للمسلمين، فعسكرت الجيوش على طول الخندق وبمحاذاته من الجهة الشمالية، في محاولة للبحث عن منفذ للتسلل إلى المدينة. لكن انتظارهم طال إلى أن هبت عليهم ريح صرصر عاتية في إحدى الليالي، بعثرت عدتهم ونفرت خيولهم ومطاياهم، فتفرق شملهم وارتدوا على أعقابهم دون أن ينالوا من المسلمين: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً(٩) الأحزاب.

وفي صبيحة اليوم التالي عاد المسلمون إلى المدينة، بعد تأكدهم أن جيش التحالف قد انفرط عقده وهرب جنده لا يلوون على شيء. ومن هنا صار التحول في مسيرة دولة المسلمين وعلاقتها بكل من شارك مع الجيش الغازي.

وكان أول شيء قام به المسلمون هو مهاجمة تلك القبيلة من بني إسرائيل الذين تواطأوا مع جيش الائتلاف، وكانوا سيغدرون بالمسلمين من الخلف: وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً(٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً(٢٧) الأحزاب.

كان هناك قتال بينهم وبين المسلمين وقتل المسلمون منهم فريقاً وأسروا فريقاً، لكن لم يكن هناك سبي، ولا قتل أحد من الأسرى.

وكان **هناك** تهجير وجلاء: «وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوهَا». وهذا يعني بداهة أنهم قايضوا أسراهم وبقاءهم في يثرب بأرضهم، فقبل المسلمون وتم جلاء من بقي حياً منهم بنسائهم وأطفالهم لم يمسسهم سوء. فالقتل والأسر كان للمحاربين، ولم يتم

التعرض للنساء والأطفال، بل وأعيد الأسرى وخرجوا مع قومهم من يثرب.

أما كتب التراث فقد ورد فيها: ((فأنزل الله: يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَـخُونُوا اللهَ والرَّسُولَ وتَـخُونُوا أماناتكمْ وأَنْتُـمْ تَعْلَـمُونَ فحكم فـيهم أن تقتل مقاتلتهم، وأن تسبى ذراريهم، وأن عقارهم للـمهاجرين دون الأنصار، فقال قومه وعشيرته: آثرت الـمهاجرين بـالعقار علـينا قال: فإنكم كنتـم ذوي عقار، وإن الـمهاجرين كانوا لا عقار لهم)).

وكما نرى هنا فالسبي وتوزيع العقار الظالم للمهاجرين (قريش) دون الأنصار (أهل يثرب) فيه محاباة لقوم الرسول وظلم لأهل يثرب، لا يمكن أن يصدر من الرسول. لكن من ألصق بالرسول والمسلمين تهم السبي وقتل الأسرى من اليسير عليه اتهام الرسول بالظلم والمحاباة.

وللعلم فالآية التي ذكر المفسرون أنها نزلت بعد الأحزاب لتقول للرسول اقتل بني إسرائيل لم تنزل في ذلك اليوم كما يزعم المفسرون ولكنها نزلت بعد معركة بدر وقبل أحد التي سبقت الأحزاب. أي قبل أن يعلم أحد أنه سيكون حملة أحزاب، والآية في سياق آيات تخاطب المسلمين ولا علاقة لها ببني قريظة أو غيرهم من بني إسرائيل يثرب، ومن ذلك: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ(٢٠) وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ(٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ(٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ(٢٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٢٤) وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢٥) وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٢٦) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُواْ اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(٢٧) وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ(٢٨) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(٢٩) الأنفال.

إذاً، المسلمون هاجموا قبيلة من قبائل بني إسرائيل يثرب دون المساس بباقي القبائل الإسرائيلية في يثرب لأنهم لم يظهروا معاداة للمسلمين ولم يظاهروا الأعداء. أما تلك القبيلة

فخانت معاداتها مع المسلمين وغدرت بهم وتعاونت مع أعدائهم... فكان قتالهم مشروعاً، بل واجباً لأنهم أعلنوا العداء وأصبح وجودهم خطراً على المسلمين وبقاء الدين. مثلهم مثل القبائل العربية التي ساهمت بحملة الأحزاب، ومثل قريش التي ثبت يقيناً أنها لن تستكين حتى تقضي على المسلمين فوجب القضاء عليها. إضافة للروم الذين بدأوا حربهم للمسلمين ولم يتعرض لهم المسلمون بسوء.

وبقي القانون القرآني بعدم التعرض للكفار المسالمين، حيث ورد في نفس سورة الأحزاب: وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِّ وَكَفَى بِاللهِّ وَكِيلاً(٤٨) الأحزاب. والخطاب موجه للرسول، لا تطعهم لكن لا تؤذهم، أما من بدأ العداء فيجب تأديبه. ومن يسعى للقضاء على الإسلام والمسلمين فيجب القضاء عليه.

فكانت الأحزاب سبباً لتوجه المسلمين لمكة لتأديب قريش وكسر شوكتها للأبد، وهو ما نتج عنه فتح مكة الذي لم يكن ضمن جدول أعمال المسلمين لولا موقعة الأحزاب. فهذه الموقعة هي التي تسببت في فتح مكة، الذي قصد منه إخماد نشاط قريش العدائي للإسلام الذي لن يتوقف بطرق سلمية.

ولو تتبعنا ترتيب سور القرآن حسب النزول لوجدنا أن سورة النور تلت سورة الأحزاب تلاها سورة المنافقون، وكل السور الثلاث تعالج ظاهرة تفشت في المدينة أثناء حفر الخندق بسبب ملاحقة منافقين لنساء المدينة، والذي تحدثنا عنه ضمن الحديث عن هذه السور.

وبعد أن عولجت المشاكل في المدينة نزلت سورة الفتح والتي تتحدث عن فتح مكة، وهو ما يعني أن الفتح تم بعد اندحار الأحزاب وجلاء فريق من بني إسرائيل، والقضاء على ظاهرة الفساد التي تسبب فيها فئة من المنافقين أثناء حفر الخندق.

وسورة الفتح تنقل ما حدث، ومن ذلك مبايعة المسلمين على الصبر والقتال ضد قريش، فقد كان متوقعاً خروج قريش للدفاع عن مكة: إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَّ يَدُ اللهَّ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَّ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً(١٠) الفتح.

والمبايعة باسم الله على القتال لضمان قتال مسلمة قريش الموالين لأقاربهم من مشركي قريش والذين تحدثت عنهم سور كثيرة مررنا بها. والسورة تكمل الحديث عن هذه البيعة، وتبين

مغزاها وهو الصبر على قتال قريش والظفر بغنائم الحرب: لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً(١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً(١٩).

ولكن قريشاً أتت صاغرة تعرض على المسلمين إبرام معاهدة تدخل بموجبها مكة تحت حكم دولة المسلمين، مقابل احتفاظ قريش بمعتقداتها وحياتها. وهو ما تبينه الآيات التالية: وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً(٢٠) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً(٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً(٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً(٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً(٢٤) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً(٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً(٢٦) لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً(٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً(٢٨) الفتح.

وهذه المعاهدة هي التي سمتها كتب التراث صلح الحديبية، وقد أبرمت في الحديبية بظاهر مكة في نفس يوم الفتح، وليس كما تقول كتب التراث إنها وقعت قبل فتح مكة بسنة أو سنتين وأن الرسول والمسلمين عادوا دون فتح مكة كما تزعم كتب التراث.

وتتحدث سورة الفتح أن بعض الأعراب تخلفوا عن الخروج مع الجيش المتوجه لمكة ثم أبدوا أسفهم، وتخاطب السورة الرسول بحقهم قائلة: قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً(١٦) الفتح.

والقوم أولو البأس الشديد (غير المعتاد وفوق العادي) هم الروم.

فالسورة تقول لمن تخلف من الأعراب سيمنحون فرصة لإثبات صدق زعمهم وذلك بالخروج مع جيش للمسلمين الذي سيخرج لمقاتلة الروم. فقد تم إجلاء بني إسرائيل وفتحت مكة ولابد من التوجه لتأديب الروم ليتبقى تأديب القبائل التي اشتركت في حملة الأحزاب.

وكما قلنا في البداية: فالحدث يولد أحداثاً.

إرسال جيش لحرب الروم

وسورة الروم نزلت بعد سورة الفتح، وهي تبدأ بالحديث عن هزيمة جيش المسلمين المرسل لحرب الروم: الم(١) غُلِبَتِ الرُّومُ(٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ(٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ(٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(٥) وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(٦) الروم.

والمفسرون قلبوا تشكيل الآيات فأخفوا ما تتحدث عنه السورة، ونسبوه لحرب قامت بين فارس الروم لا ناقة فيها للمسلمين ولا جمل. فالأمر سيان لو انتصر الروم (المسيحيون) على الفرس (المجوس) أو العكس.

ولو قرأنا الآيات كما نزلت فعلينا أن نقرأ «غلبت الروم» بفتح الغين. فالروم غلبوا جيش المسلمين، في أدنى الأرض، لأن الحديث عما عرف بمعركة مؤتة.

ونقرأ «وهم من بعد غلبهم سيغلبون» بضم الياء في يغلبون. لأن الروم بالفعل غُلبوا في اليرموك وفي غيرها في بضع سنين من انتصارهم في مؤتة، وتم تطهير بلاد الشام منهم بسبب اعتدائهم غير المبرر في الأحزاب على المسلمين الذين لم يتعرضوا لهم.

ثم نزلت سورة براءة التي تتحدث عن خيانة قريش لمعاهدة يوم الفتح التي أبرمتها مع المسلمين والتي بموجبها دخلت مكة تحت حكم المسلمين دون قتال. وهو ما تشير له الآيات التالية: إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٤) براءة.

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٧) براءة ((لاحظ أن قانون القتال في الإسلام لم يتغير ولم يتبدل، والذي ينص على قتال المقاتلة فقط وكل من رضي بالسلم فلا يقاتل)).

وتخبر السورة كيف حدثت الخيانة: أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤُمِنِينَ(١٣) براءة.

نكثوا أيمانهم، وهي معاهدة الاستسلام يوم فتح مكة.

فمتى حدث هذا؟

بما أن سورة براءة تتحدث عنه، ولم تتحدث عنه سورة الفتح، فلابد أن المسلمين عندما كانوا في مكة بعد الفتح لم يكتشفوا خيانة قريش ومظاهرتهم لجيش الائتلاف الثاني في حنين.

وسورة براءة نزلت على الرسول عندما وصل تبوك متوجهاً في حملة عسكرية لقتال الروم. فما كان من الرسول إلا أن عاد إلى المدينة من هناك، بعد اكتشاف غدر قريش، ومعهم قبيلة من بني إسرائيل يثرب. وما إن وصل الرسول إلى المدينة حتى قدم وفد من القبيلة الإسرائيلية التي ظاهرت قوات الائتلاف الثانية ضد المسلمين يعرضون فيها جلاءهم من يثرب وتسليم مزارعهم وممتلكاتهم للمسلمين مقابل عدم تعرض المسلمين لأرواحهم، وهو ما حدث.

ولابد أن الرسول لم يطل به المقام في المدينة بعد عودته من تبوك، وواصل المسير لمكة لأداء الحج وإعلان خيانة قريش على الملأ يوم عرفات، بتلاوة سورة براءة. وهي سورة تعطي قريشاً مهلة أربعة أشهر للتراجع: بَرَاءةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ(١) فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَأَنَّ اللّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ(٢) وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٣) براءة.

وإلا فالحرب: إِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ

إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥) براءة.

ومع ذلك فيجب احترام قانون القتال في القرآن، فالمشرك القرشي الذي لم يخن ولم ينقض المعاهدة لا يمس: لاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٤) براءة.

والسورة تتحدث عن معركة حنين: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ(٢٥) ثُمَّ أَنَزلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ(٢٦) براءة.

وحنين حدثت أثناء وجود الرسول والمسلمين في مكة يوم الفتح، حيث علموا بقدوم جيش كبير لمهاجمتهم من الطائف، فالتقاهم المسلمون خارج مكة وبالقرب من حي الشرائع الحالي في أعلى وادي المغمس (عرنة).

وحنين حملة أحزاب أخرى تمت بتدبير من قريش وأهل الطائف وقبائل أخرى ومدد فارسي (لما بين فارس ومكة والطائف من علاقات تجارية) ومعهم قبيلة أخرى من قبائل بني إسرائيل في يثرب، وهو ما ستحدثنا عنه سورة الحشر التي تلت براءة في النزول.

ويبدو أن خطة حنين تتشابه مع خطة غزوة الخندق، بحيث يقوم الجيش الغازي القادم من الطائف بمهاجمة المسلمين فإن تقهقروا تلقت قريش فلولهم، فيما يقوم بنو إسرائيل في يثرب بسبي النساء وقتل الرجال والأطفال.

وكادت الخطة أن تنجح وينهزم المسلمون: « وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ». لولا تماسك الرسول وقلة من الأتقياء وصمودهم مما جعل الهاربين يكرون وتنتهي المعركة بهزيمة المعتدين[1].

---

١ وسورة الحشر التي تلت في النزول سورة براءة تحدثنا بتفاصيل ما حدث للقبيلة الإسرائيلية: هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ(٢) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاء لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ(٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٤) مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ(٥) الحشر.
وكما تقول الآيات، فبمجرد وصول الرسول إلى المدينة من تبوك سارعوا بعرض استسلامهم وجلائهم من يثرب مقابل الحفاظ على حياتهم، فقبل منهم الرسول ذلك. وتخريب بيوتهم بأيديهم دلالة على أنهم كانوا يخفون مدخراتهم المالية في الجدران فلما

والسورة تؤكد للرسول ما يجب عليه القيام به ضد كل من ابتدر المسلمين بالعداء والحرب، سواء من القبائل أو قريش أو الروم أو الفرس: وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(٣٦) براءة.

فكل من ابتدأكم بالعداء وجب حربه وملاحقته، وأولهم تلك القبيلة من بني إسرائيل يثرب: قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ(٢٩) براءة.

ويكون المسلمون حتى الآن قد أدبوا قريشاً وبدأوا تأديب الروم وأدبوا فريقين من بني إسرائيل يثرب وجلوا منها. وبقي الفرس ومواصلة تأديب الروم وتأديب القبائل العربية التي شاركت في قوات الائتلاف الأولى في الأحزاب من حول مكة وفي الثانية في حنين من القبائل حول الطائف.

وهنا يمكن لنا أن نكمل ما بدأ القرآن الحديث عنه ونقول إن المسلمين بدأوا تسيير جيوشهم لقتال القبائل. وبما أن القبائل أعدادهم قليلة فلابد أن المسلمين سيروا لهم ما يعرف بالسرايا وهي جيوش قليلة العدد، وهذا قد يشير لما عرف في كتب التراث بغزوات الرسول. والتي لم تبدأ منذ قدم الرسول المدينة – كما تزعم كتب التراث – ولكنها بدأت في آخر حياة الرسول وبعد الأحزاب وبعد نزول براءة تحديداً، أي في آخر سنة من حياة الرسول.

وبما أن قريشاً تراجعت وعادت لحكم المسلمين فقد تبعهم أهل الطائف وفعلوا نفس الشيء. ومن ثم تتابعت القبائل في إرسال وفودها لإعلان الدخول في طاعة الدولة المسلمة، وهو ما عرف بعام الوفود والذي تلا نزول سورة براءة والذي تصفه آخر سورة نزلت من القرآن وهي سورة النصر: إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ(١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً(٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً(٣).

الناس (القبائل) يدخلون تحت حكم الدولة أفواجاً، تصوير لحضور الوفود أفواجاً إلى المدينة من كافة أصقاع جزيرة العرب.

وتكون السرايا والغزوات لتأديب القبائل المعتدية قد بدأت في آخر سنة في حياة الرسول،

عزموا الجلاء بدأوا يهدمونها ويستخرجون أموالهم. ولما خرجوا جاء المسلمون وبدأوا يخربون ما بقي قائماً بحثاً عن أموال باقية.

لكنها توقفت بعد أشهر قليلة لأن القبائل سارعت بإرسال وفودها إلى المدينة معلنة الاستسلام والدخول في طاعة دولة المسلمين. ولم يبق سوى فارس والروم التي لابد من الاستمرار بإرسال الجيوش لتأديبها حتى ترضخ، والبادئ أظلم.

ويمكن تخيل آخر الأيام من حياة الرسول بأنها فترة اتسمت بسلام شامل مع سكان جزيرة العرب الذين استسلموا ولم يُسلموا، مثلهم مثل قريش التي لم تؤمن بالرسالة ولكنها اضطرت للاستسلام. وسنرى أن بعض القبائل ستسارع بالانتفاض والخروج عن الطاعة بمجرد وفاة الرسول.

ولا ندري هل وقعت معارك بين المسلمين والفرس في حياة الرسول أو أن الرسول توفي قبل ذلك؟ لكن المهم هو أن الرسول توفي وقد توحدت كل جزيرة العرب تحت راية دولة المسلمين بمختلف معتقدات أهلها. فكانت دولة إسلامية لأناس يعتنقون عقائد مختلفة.

وكتب التراث تقول إن الرسول قد أعد جيشاً لحرب الروم بقيادة زيد ابن حارثة وأنه توفي والجيش لم يخرج من المدينة فقام أبو بكر بإرساله.

حروب ردة أم حروب زكاة أم حروب فرضت على المسلمين

الصورة التي قدمنا تظهر أن الحرب مع الروم والفرس بدأت في حياة رسول الله، وأنهم هم من بدأها تعدياً وعدواناً. وأصبحت ملاحقتهم ضرورة ملحة لبقاء دولة المسلمين لأنهم لن يقبلوا بالتعايش السلمي معها، وستستمر محاولاتهم للقضاء عليها. وهو ما دفع بالمسلمين إلى الدخول في حرب مع الروم في آخر حياة الرسول، بدأت بسرية مؤتة، ثم حملة تبوك، ثم جيش أسامة ابن زيد. ثم توفي الرسول فجأة، فكان من البديهي أن تستمر بعده حتى تكمل مهمتها.

وأميل إلى أن المسلمين لم يتمكنوا من إرسال جيش لحرب الفرس زمن الرسول. وهذا قد يعود إلى أن موقعة حنين – التي شارك فيها جيش فارسي – وقعت في أواخر حياة الرسول ومات عليه الصلاة والسلام ولم يتمكن من إرسال جيش لقتال الفرس. لكن هذا لا يلغي مشروعية حربهم درءً لشرهم الذي ابتدروا به الإسلام. وقد تأخر إرسال الجيوش لفارس بعد وفاة الرسول لبضعة أشهر بسبب انشغال المسلمين بحروب الردة.

وعرفنا أن القبائل التي ابتدأت العداء للمسلمين لنجدة قريش استسلمت لدولة المسلمين ولم تؤمن لكي تأمن، بعد أن بعث لها الرسول السرايا لتأديبها. فبقيت عبارة عن قنابل موقوتة تتحين الفرص للانقضاض على المسلمين. ومثلهم بعض القبائل الأخرى التي لم تبادر بقتال المسلمين لكنها دخلت مستسلمة تحت حكمهم، والتي لو شعرت أن دولة المسلمين تراخت قبضتها فستنتفض.

وهناك قريش العدو اللدود الأول والدائم للإسلام والتي استسلمت بخبث للمسلمين يوم الفتح ثم نقضت العهد وظاهرت على المسلمين أعداءهم في حنين وخسرت الرهان فاضطرت لإعلان العودة والتوبة الظاهرية مرة أخرى. وبقيت مشاعر العداء وأضيف لها مشاعر الكراهية التي نتجت عن إذلال المسلمين لها. فكانت تظهر الولاء وهي تتحين الفرص لإذلال المسلمين والقضاء عليهم وعلى دينهم الذي أمد مواليها وعبيدها السابقين بالعزة والغلبة عليهم، فأصبح السيد مسوداً والمسود سيداً. ولن تألو جهداً – متى سنحت الفرصة – أن تؤلب القبائل مرة أخرى، وتتحالف مع الشيطان ولن توفر وسيلة إلا استخدمتها للقضاء على الإسلام والثأر من دولته، وأفضل وسيلة هي الاستيلاء على الحكم، ولو بطريق غير مباشر.

يضاف لهم بنو إسرائيل، سواء من بقي في يثرب أو من اضطر للجلاء منها. وهؤلاء يتعاطف معهم كل يهود جزيرة العرب وما حولها، لأن القرآن أظهر هشاشة دين بني إسرائيل واليهود وأنه دين بشري وليس كما خدعوا غيرهم بزعمهم أنه دين الله، وأنهم خلقه المصطفون. لذا فقد أصبح همهم وغايتهم السعي إلى تخريب دين المسلمين من الداخل.

كل هؤلاء وغيرهم أعداء مغلوبون على أمرهم يتحينون الفرصة للانقضاض على الدولة المسلمة.

ونضيف أن أعداد المسلمين الأتقياء في المدينة لا يزيد عن بضع مئات، إلا أن رهبتهم في قلوب المنافقين والكفار جعلتهم كالبنيان المرصوص لا يستطيع غيرهم اختراقه، فكانت لهم اليد الطولى في تسيير شئون الدولة.

وفي أوج النشاط السياسي والحربي لدولة المسلمين يسقط الرسول عليه الصلاة والسلام مريضاً وخلال أيام يفارق الحياة.

فانتفضت القبائل انتفاضات متنوعة: سياسية وثورية.

والسياسية إن كانت حصلت فقد قامت بها قريش، وتتمثل في محاولة الوصول للحكم ولو بطريق غير مباشر، وذلك بدفع أحد الأشخاص المقربين لها للوصول لحكم دولة المسلمين لكي يتسنى لهم التأثير عليه.

وهذا إن كان حدث لم يلق نجاحاً لأن المسلمين الأتقياء ما زالت هيبتهم قوية ولا يمكن اختراقهم، فتولى مهمة تسيير شئون الدولة أبي بكر. صاحب رسول الله ورفيقه في الهجرة وأقرب الرجال إليه، وتقواه لا يرقى إليها الشك.

أما الانتفاضات الثورية على الدولة فقد اندلعت في كل أرجاء جزيرة العرب، بمجرد وفاة رسول الله، ولم يمض على انضوائها تحت حكم دولة المسلمين سوى بضعة أشهر.

وكتب التراث تصور المسألة وكأنها مجرد امتناع عن تأدية الزكاة لأبي بكر وأنهم سيقومون هم بتوزيعها بأنفسهم. وبطبيعة الحال هذا ينفيه الواقع.

فأشهر حرب طاحنة حدثت فيما يسمى بحروب الردة كانت في اليمامة وضد مسيلمة الكذاب. الذي لم يكن ممتنعاً عن دفع الزكاة فقط بل حارب دولة المسلمين لأنه لا يؤمن بدينها، بغض النظر إن كان ادعى النبوة أو لم يفعل.

ومثله الأسود العنسي وطلحة ابن خويلد.

والسؤال هنا: لو رغب مسيلمة أو غيره في الانفصال عن الدولة – كونه غير مسلم – فهل يجوز للمسلمين قتاله لهذا السبب؟

القانون القرآني الذي سار عليه المسلمون زمن الرسول ويسير عليه المسلمون الأتقياء بعده هو: لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٩) الممتحنة.

وحتى لو عاد الكفار وخرجوا عن طاعة دولة المسلمين وهم لم يقاتلوهم فلا يجوز للمسلمين قتالهم: عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٧) الممتحنة.

إذاً، قتال الناس ليس لكفرهم ولكن لمعاداتهم المسلمين ومبادرتهم حربهم، وقد يكون من حركهم قريش، وهو الراجح عندي.

فهل قام مسيلمة وطلحة والأسود بتجييش الجيوش للغارة على المدينة والقضاء على المسلمين؟

حروب الردة كتب عنها الكثير من الكلام المتناقض والذي يظهر أن هناك عدة أشخاص تقولوه في عصور متأخرة وكل شخص لا يعلم ما قاله غيره. ثم جاء من يجمع هذه الأقوال والقصص مثل الطبري، حيث نجد الرواية ونقيضها.

ومن الأخبار وصف حال المسلمين في المدينة يوم وفاة رسول الله، على لسان أم المؤمنين عائشة قائلة: «لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب قاطبة واشرأب النفاق، والله لقد نزل بأبي ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها، وصار أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كأنهم معزى في حش في ليلة مطيرة بأرض مسبعة».

ومما أورد الطبري: «عن هشام بن عروة عن أبيه قال: لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وفصل أسامة ارتدت العرب عوام أو خواص وتوحى مسيلمة وطليحة فاستغلظ أمرهما واجتمع على طليحة عوام طيئ وأسد وارتدت غطفان إلى ما كان من أشجع وخواص من الأفناء فبايعوه وقدمت هوازن رجلاً وأخرت رجلاً أمسكوا الصدقة إلا ما كان من ثقيف ولفها فإنهم اقتدى بهم عوام جديلة والأعجاز وارتدت خواص من بني سليم وكذلك سائر الناس بكل مكان».

لقد كان هناك انتفاضة عامة على دولة المسلمين. ولم يكن الدافع هو مجرد مطالبتهم بأن تتولى كل قبيلة توزيع زكاتها بنفسها، لأن هذا يمكن أن يناقش كلاماً ولا يمكن أن يبادر فيه بالسيف. وطليحة ومسيلمة والأسود وغيرهم جيشوا الجيوش بمجرد سماعهم وفاة الرسول.

يقول الطبري: «حدثنا شعيب عن سيف عن سهل بن يوسف عن القاسم بن محمد قال: مات رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتمعت أسد وغطفان وطيئ على طليحة إلا ما كان من خواص أقوام في القبائل الثلاث فاجتمعت أسد بسميراء وفزارة ومن يليهم من غطفان بجنوب طيبة وطيئ على حدود أرضهم. واجتمعت ثعلبة بن سعد ومن يليهم من

مرة وعبس بالأبرق من الربذة وتأشب إليهم ناس من بني كنانة فلم تحملهم البلاد فافترقوا فرقتين فأقامت فرقة منهم بالأبرق وسارت الأخرى إلى ذي القصة وأمدهم طليحة بحبال فكان حبال على أهل ذي القصة من بني أسد ومن تأشب من ليث والديل ومدلج. وكان على مرة بالأبرق عوف بن فلان بن سنان وعلى ثعلبة وعبس الحارث ابن فلان أحد بني سبيع وقد بعثوا وفوداً فقدموا المدينة فنزلوا على وجوه الناس فأنزلوهم ما خلا عباساً فتحملوا بهم على أبي بكر على أن يقيموا الصلاة وعلى ألا يؤتوا الزكاة فعزم الله لأبي بكر على الحق وقال: لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه - وكانت عقل الصدقة على أهل الصدقة مع الصدقة - فردهم فرجع وفد من يلي المدينة من المرتدة إليهم فأخبروا عشائرهم بقلة من أهل المدينة وأطمعوهم فيها».

سنتوقف هنا لبعض الوقت لمناقشة النص ثم نتابع قراءة بقيته.

بمجرد وفاة رسول الله اجتمع محاربو أسد وغطفان وطي تحت إمرة طليحة.

واجتمع بقية أسد بسميراء ومحاربي فزارة ومن يليهم وبقية رجال غطفان تحت إمرة ثانية.

واجتمع محاربو ثعلبة ومن يليهم وعبس وبعض كنانة (فلم تحملهم البلاد لكثرتهم، فانقسموا فرقتين) فرقة بالأبرق والأخرى بذي القصة.

هذه حشود جرارة للحرب، وليست وفوداً لأبي بكر لكي يأذن لهم بتوزيع زكاتهم في بلادهم لا يحتاج لتجييش الجيوش.

فالقبائل بمجرد وفاة الرسول حشدت جيوشها في مناطق مختلفة للغارة على المدينة ولا شيء آخر. وقد سبق تجييش الجيوش وفود قدموا المدينة للتجسس على أحوال المسلمين وليس لطلب الإذن بتوزيع الزكاة بأنفسهم. وقد عرف أبو بكر ذلك فكان لابد من الحذر واليقظة، فجعل مراقبين على أطراف المدينة وأمر كل رجال المسلمين بالاجتماع بالمسجد ليكونوا على أهبة الاستعداد لصد أي هجوم محتمل، خاصة أن أقرب الأعداء على مسافة بريد من المدينة.

ونواصل مع الطبري الذي يقول: «وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم وقد أبينا عليهم ونبذنا إليهم عهدهم فاستعدوا وأعدوا».

وليس بالضرورة أن يكون الخبر صحيحاً بتفاصيل عباراته، وهذه الفقرة قد تكون مضافة

لتأكيد أن الحرب سببها منع الزكاة.

ونواصل مع ما يقول الطبري: «فما لبثوا إلا ثلاثاً حتى طرقوا المدينة غارة مع الليل وخلفوا بعضهم بذي حسي ليكونوا لهم ردءاً فوافق الغوار ليلا الأنقاب وعليها المقاتلة ودونهم أقوام يدرجون فنبهوهم وأرسلوا إلى أبي بكر بالخبر فأرسل إليهم أبو بكر أن الزموا أماكنكم ففعلوا. وخرج في أهل المسجد على النواضح إليهم فانفش العدو فاتبعهم المسلمون على إبلهم حتى بلغوا ذا حسي فخرج عليهم الردء بأنحاء قد نفخوها وجعلوا فيها الحبال ثم دهدهوها بأرجلهم في وجوه الإبل فتدهده كل نحي في طوله فنفرت إبل المسلمين وهم عليها – ولا تنفر الإبل من شيء نفارها من الأنحاء – فعاجت بهم ما يملكونها حتى دخلت بهم المدينة فلم يصرع مسلم ولم يصب».

لقد بدأت حروب الردة بغارة على المدينة، سواء سبق ذلك وفود أم لا... وتكون القبائل هي من ابتدر المسلمين الحرب.

والخبر يروي استدراجاً للمسلمين إلى كمين أقاموه مسبقاً وهو الأنحاء[1] المنفوخة والمربوطة بالحبال لإجفال الإبل والخيل وبالتالي سهولة القضاء على المسلمين. ولا يهمنا هل هذا ما حدث أم لا، وإنما المهم هو أن المرتدين هم من بدأ الحرب والهجوم على المدينة.

ويواصل الطبري الخبر قائلاً: «فظن القوم بالمسلمين الوهن وبعثوا إلى أهل ذي القصة بالخبر فقدموا عليهم اعتماداً في الذين أخبروهم وهم لا يشعرون لأمر الله عز وجل الذي أراده وأحب أن يبلغه فيهم فبات أبو بكر ليلته يتهيأ فعبى الناس ثم خرج على تعبية من أعجاز ليلته يمشي وعلى ميمنته النعمان بن مقرن وعلى ميسرته عبد الله بن مقرن وعلى الساقة سويد بن مقرن معه الركاب فما طلع الفجر إلا وهم والعدو في صعيد واحد فما سمعوا للمسلمين همساً ولا حساً حتى وضعوا فيهم السيوف فاقتتلوا أعجاز ليلتهم فما ذر قرن الشمس حتى ولوهم الأدبار وغلبوهم على عامة ظهرهم وقتل حبال واتبعهم أبو بكر حتى نزل بذي القصة – وكان أول الفتح – ووضع بها النعمان ابن مقرن في عدد ورجع إلى المدينة فذل بها المشركون فوثب بنو ذبيان وعبس على من فيهم من المسلمين فقتلوهم كل قتلة وفعل من وراءهم فعلهم. وعز المسلمون بوقعة أبي بكر وحلف أبو بكر ليقتلن في المشركين كل قتلة

---

١ الأنحاء هي القِرب جمع قربة.

وليقتلن في كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة».

لقد بدأت حرب الردة من قبائل انتفضت على حكم دولة المسلمين، وهم نفس القبائل التي عاونت قريشاً وأهل الطائف في حربهم على المسلمين، ولم تكن الزكاة هي السبب.

وكتب التراث فيها غث وغث ومن ذلك، وصية أبي بكر – المزعومة – لجيوش حرب الردة، والتي يقول الطبري إنها كما يلي: «إذا نزلتم منزلا فأذنوا وأقيموا فإن أذن القوم وأقاموا فكفوا عنهم وإن لم يفعلوا فلا شيء إلا الغارة ثم اقتلوهم كل قتلة الحرق فما سواه وإن أجابوكم إلى داعية الإسلام فسائلوهم فإن أقروا بالزكاة فاقبلوا منهم وإن أبوها فلا شيء إلا الغارة ولا كلمة».

الحرق فما سواه؟

أي دين هذا الذي يأمر بالحرق؟

حتى لو افترضنا أن أبا بكر خان الله ورسوله وعمل بخلاف القرآن فهل يعقل أن يوافق مئات الصحابة الأخيار الذين ما زالوا أحياءً ولا تأخذهم بالحق لومة لائم؟

هذا مستبعد تماماً، وينفي أن يكون قد حدث. وكل ما في الأمر أن هذه الخطبة كتبت لأبي بكر في العصر العباسي ولم يعلم بها. والدليل هو خطبة مزعومة أخرى لأبي بكر يوصي بها جيش أسامة ابن زيد الذي خرج لحرب الروم قبل بدء حروب الردة. يقول الطبري إن أبا بكر قال: «يأيها الناس قفوا أوصكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها. وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً. اندفعوا باسم الله أفناكم الله بالطعن والطاعون».

هي بعكس وصيته لحروب الردة لكنها غير معقولة أيضاً. فكيف عرف بما قال إنه سيحدث لهم، وكيف عرف أن الرهبان يحلقون وسط الرأس ويتركون ما حوله مثل العصائب؟

ثم كيف يقول ستمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم، ثم يقول في آخر

الخطبة اخفقوهم بالسيف؟

كلها قصص مختلق في العصر العباسي لا قيمة له.

ولا ندري هل بالفعل انتفضت كل جزيرة العرب، أم أن هناك قبائل بعينها هي التي اجتمعت لحرب المسلمين لثارات في نفوسهم واجتمع معها غيرها حمية ونجدة؟

لنتذكر أن قبائل مثل غطفان وبني أسد وسليم وكنانة ومعها عبس وذبيان هي نفس القبائل التي شاركت في حرب الأحزاب الأولى (الخندق) وهي نفسها التي قادها طلحة ابن خويلد لحرب المسلمين بمجرد وفاة رسول الله، وهي التي وقع بينها وبين المسلمين أول معركة في حروب الردة. وحروب الردة يستحيل أن تكون بسبب منع الزكاة، لأن ما قيل على لسان أبي بكر من أنهم لو منعوه عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله لحاربهم عليه. فيه إشارة إلى أن النص اختلق في عصور لاحقة.

لأن الإنفاق يؤخذ من الأغنياء في أي مكان ويرد للفقراء في نفس المكان، وعادة الإنفاق يؤخذ قدر الحاجة ولا يؤخذ بمقادير تزيد عن الحاجة. وهو ما ينفي أن تستفيد المدينة من إنفاق بلاد أخرى مثلاً. لكن في أوقات لاحقة أصبحت الإتاوات تفرض على الناس بتقديرات رجال يجبونها وكلما زادوا على الناس زاد ما يأخذونه منها، ثم تجمع وترسل للحاكم. هذا لم يكن معروفا زمن الرسول ولكنه كان معروفا عندما بدأ القصاص يختلقون القصص عما حدث في الردة فاختلقوا القصص بما يتناسب مع ما يعرفون والدارج في أيامهم.

ولأن الإنفاق زمن الرسول كان في الغالب يدفع كقيمة للأشياء ولا يؤخذ من كل شيء إنفاق من جنسه. فلا يؤخذ ممن لديه إبل حقة أو جدعة بل يؤخذ مال. والحقة والجدعة وبنت لبون وغيرها باتت معروفة عندما تحول الإنفاق إلى زكاة قسمها رجال الدين إلى زكاة عروض وغيرها. وهم من اخترع الحقة والجدعة وهم من قال زكاة الماشية رؤوس من الماشية ...الخ

ولهذا فمختلق الكلام المنسوب لأبي بكر لم يفطن أن الرسول لم يكن يأخذ من الناس عقلاً ولكنه يأخذ من الأموال. ولا يوجد في القرآن ما يشير لأخذ العين إلا آية واحدة تقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ

الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ(٢٦٧) البقرة.

فالإنفاق العيني يكون مما يؤكل من الطيبات ومن المزروعات. وليس من العقل أو نحوها. لأن ما يؤكل يستفيد منه المحتاج بينما العقل لن تغنيه، وبدل أن يعطى عقالاً يعطى طعاماً أو مالاً.

وتكون حروب الردة بدأتها تلك القبائل التي عاونت المعتدين على المسلمين زمن الرسول وانضم لها قبائل أخرى لأسباب متنوعة. كما أن حرب اليمامة ضد مسيلمة لابد أن لها أسباباً أغفلها التاريخ كانت السبب وراء مبادرة مسيلمة حرب المسلمين.

وإن كان هناك ممارسات لا أخلاقية حدثت في حروب الردة فلا يمكن أن تكون ممنهجة أو أقرها أبو بكر أو غيره من المسلمين الأتقياء لأنها ضد تعاليم القرآن الذي ما زال حياً في قلوبهم ولا يمكن مخالفته. لكنها قد تكون حدثت كتصرفات شخصية لعل أشهرها أو لنقل لعلها الحادثة الوحيدة التي حدثت أثناء حروب الردة عندما قتل خالد ابن الوليد مالك ابن نويرة ودخل بامرأته. ولم يكن هناك سبي لنساء غيرها لا من قبيلة مالك ولا من غيرها. وإن كانت بالفعل حدثت فخالد ابن الوليد ممن دخل الإسلام بعدما تأكد له أن قريشاً في طريقها للانهيار، وكان يبحث عن نجاحات شخصية تيقن أنه سيجدها في الإسلام فأعلن الإسلام، مثله مثل عمرو ابن العاص. وقد تحدثنا في فصل خاص عن إسلامهما ودوافعه في كتاب سنة الأولين.

وإن كان حدث من خالد ما نسب له فمتوقع، وفي نفس الوقت هو دليل على أن حروب الردة لم يحدث فيها سبي أو قتل مسالم وإلا لما أصبحت فعلة خالد ابن الوليد منكرة، ووصمة لا ينساها التاريخ.

ويمكن الجزم أن سياسة حروب الردة كانت سياسة إسلامية، لا سبي ولا قتل للمسالمين، ولا يمكن أن تكون بسبب ما سمي بالزكاة، لكنها لصد عدوان حدث أو متوقع.

ولا علاقة لها بالفتوح لأن الفتوح بدأت في حياة رسول الله بمؤتة وتبوك وكان لابد من مواصلة حرب الروم والفرس الذين ابتدروا حرب المسلمين، فأصبح بقاؤهم خطراً على الإسلام.

ولابد أن حروب الردة قد أشغلت المسلمين، ولما انتهت التفت الناس للروم والفرس وكان هذا في نهاية أيام أبي بكر وتواصلت في عهد عمر.

وتكون حروب الردة لا علاقة لها بالفتوح، ولو لم تحدث حروب الردة لواصل المسلمون حربهم ضد الفرس والروم مباشرة بعد وفاة الرسول.

الفتوح أحداث تولدت من حدث

لو لم يرسل هرقل جيشه لنصرة قريش في محاولة لسحق المسلمين لما كان هناك حملة أحزاب.

ولو لم يكن هناك حملة أحزاب لما كان هناك حرب مع الروم امتدت لما عرف بفتوح الشام ومصر.

ولو لم يكن هناك حملة أحزاب لما كان هناك ما سمي بحروب الردة، لأن الدولة المسلمة في المدينة لن تهاجم القبائل ويضطرون للاستسلام ثم يثورون بعد وفاة رسول الله.

ولو لم يكن حملة أحزاب لما فتحت مكة، ولو لم تفتح مكة لما كان هناك حملة أحزاب ثانية في حنين.

ولو لم يكن هناك حملة أحزاب ثانية في حنين لما كان هناك فتوح للعراق وفارس.

ولو رضيت قريش بالتعايش السلمي مع المسلمين في مكة لما كان هناك هجرة.

ولو لم يكن هجرة فلن يكون هناك أي نوع من الحروب بين المسلمين وغيرهم. وسينتشر الإسلام سلمياً.

ولو أن قريشاً لم تصر على ملاحقة المسلمين بعد هجرتهم إلى المدينة لما كان هناك معارك في بدر وأحد والأحزاب.

ولو لم يكن هناك عداء مستمر من قريش للمسلمين لما تجرأت قبيلتان من بني إسرائيل يثرب للدخول في مؤامرة مع أعداء المسلمين في الأحزاب وحنين. ولو لم يحدث هذا فسيعيش المسلمون وبنو إسرائيل واليهود والنصارى في يثرب بسلام.

والخلاصة أنه لو أن قريشاً عندما لم تقبل الدخول في الإسلام قبلت التعايش مع المسلمين سلمياً لما كان هناك معركة واحدة في تاريخ الإسلام في عصر الرسول.

أما أن تتطور الأحداث بالشكل الذي سردنا ويصبح بقاء الإسلام مشروط بالقضاء على المعتدين من الروم وفارس فالفتوح مبررة بل ومشروعة بل وواجبة وضرورية فهي صراع من أجل البقاء ولم تكن خياراً للتوسع والبغي.

وإن حدث في تلك الحروب تجاوزات إنسانية ومخالفة لقوانين القتال في القرآن، فهي قد تكون حدثت وقد لا تكون، لأن المصادر التي تقول إنها حدثت غير موثوقة.

لكن لو أنها حدثت فهي لا تمثل رأي دولة المسلمين وإن كان الخليفة وافق عليها فقد عصى الله ورسوله وإن لم يعلم بها فقد قصر في مراقبة جيوشه.

وكما رأينا فإن حروب ما سمي بالردة وصفت بأن فيها تجاوزات لكن لا نجد إلا حادثة واحدة صدرت من شخص خالد ابن الوليد وقد أنكرها من كان معه وشكوه للخليفة وكان لها وقع سيء وأصبحت وصمة عار وهو ما يؤكد أنه لم يكن هناك تجاوزات غيرها.

وفي الفتوح نجد أن الحديث عن التجاوزات في تاريخ الطبري مثلاً تتعاظم في كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير (المتوفى عام ٦٣٠ للهجرة) يعني بعد أكثر من ٦٠٠ عام على الأحداث وبعد أن تغيرت المفاهيم في الحروب ولم يعد أحد يتذكر قوانين القتال في القرآن.

وقريش كانت هي الجيش المحارب للمسلمين في بدر وأحد، أو طرفاً مشاركاً مع غيرها في تلك الحروب مثل حملة الأحزاب، أو كانت مشاركة بالمكيدة والتحريض، كما في حنين (الأحزاب الثانية) وحروب الردة. وبقيت تحيك المؤامرات على الإسلام والمسلمين حتى استطاعت الاستيلاء على حكم دولتهم ولم يمض على وفاة رسول الله سوى ثلاثين عاماً.

ولم يؤمن كبراء قريش الذين بقوا على قيد الحياة بعد رسول الله، وعلى رأسهم أبو سفيان والعباس. وكما رأينا فقد حاولت قريش أن يصل لحكم دولة المسلمين رجل موالٍ لهم، كعلي ابن أبي طالب، لكنهم فشلوا.

ولابد أن قريشاً اتصلوا بزعماء القبائل وبمسيلمة والأسود العنسي وكل من ثار على دولة المسلمين لحثهم على الثورة وصورت لهم أوضاع المسلمين بأنها ضعيفة وأعدادهم قليلة. ولكن المسلمين استطاعوا إخماد الثورات واستعادة السيطرة على كامل تراب جزيرة العرب في عصر أبي بكر الذي كان صخرة صماء تكسرت عليها آمال قريش في زعزعة استقرار الدولة.

ثم تولى عمر ابن الخطاب الذي لا يقل صلابة في الحق من سلفه، وواصل حرب الفرس والروم، في وقت لم يعد بإمكان أبي سفيان والعباس وبني عبد مناف ومن معهم رفع أصواتهم، لكنهم واصلوا مكائدهم بخفية. واستطاعوا التخلص من عمر بقتله على يد عبد مجوسي اسمه أبو لؤلؤة للثقفي المغيرة ابن شعبة الموالي لبني عبد مناف وبتواطؤ وتخطيط من بعض اليهود مثل كعب الأحبار.

وظنت قريش أن بإمكانها استمالة عثمان ابن عفان، لكن توقعاتهم لم تكن صائبة، وثبت أن عثمان لا يقل صلابة عن صاحبيه اللذين سبقاه.

قتل عثمان

لم نتوسع في الحديث عن قتل عمر، لأننا سبق وتحدثنا عن ذلك في أحسن القصص، ولأن تورط قريش في قتله لا يحتاج لنقاش. أما عثمان فقد يظن البعض ألا علاقة لقريش بما حدث له وأدى لقتله.

وفيما يلي بعض الحقائق التي بنيت عليها استنتاجي لما حدث لعثمان، كما يلي:

الحقيقة الأولى: رجال قريش لم يؤمنوا أبداً

رجال قريش الذين لم يؤمنوا برسول الله وهو يدعوهم في مكة لم يؤمنوا أبداً والأدلة على هذا وردت في القرآن، وفيما يلي بعضها:

- وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(٢٨) الأنعام.
- وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ(١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(١١٠) وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ(١١١) الأنعام.
- وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ

لَنَاكِبُونَ(٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(٧٥) المؤمنون.

- يس(١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ(٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ(٣) عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٤) تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ(٥) لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ(٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ(٨) وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ(٩) وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(١٠) إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ(١١).

فالقرآن يقول من لم يؤمن عند سماعه الدعوة لن يؤمن أبدا، وبالتالي فكل رجال قريش الذين لم يؤمنوا بدعوة الرسول لم يؤمنوا بها بعد فتح مكة وأبقوا على عدائهم للإسلام ومكائدهم[١].

الحقيقة الثانية

قريش خانت معاهدتها مع المسلمين يوم فتح مكة، ونزلت سورة براءة - التي سبقت وفاة الرسول بعدة أشهر - تعطيهم مهلة أربعة أشهر للتراجع. بينما كتب التراث تقول إن قريشاً آمنت يوم الفتح وحسن إيمانها.
قريش لم تؤمن أبداً.

الحقيقة الثالثة / استمرار قريش لكيد المسلمين

القرآن يخبرنا أن قريشاً تآمرت مع الروم وكل من استطاعت استمالته لسحق المسلمين في الأحزاب، ثم تآمرت مع أعداء آخرين بعد الفتح وفي حنين.. مما يعني أنها ليس فقط لم تؤمن بل وستستمر في المؤامرات على الإسلام والكيد للمسلمين.

الحقيقة الرابعة

لو عدنا للواقع فسنجد أن قريشاً لما استولت على حكم دولة المسلمين (الأمويين والعباسيين) أضاعت الدين وحولت إدارة دولة المسلمين إلى حكم عضوض. وهو ما يعني أن أبا سفيان

١ انظر فقرة: من يرفض الدعوة مرة لا يؤمن بها أبداً/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

والعباس ومن بقي من كبراء قريش ليس فقط هم الذين لم يؤمنوا ولكن نسلهم أيضاً.

من هذه الحقائق يمكن القول إن قريشاً وما يصدر منها لا يمكن أن يكون في مصلحة الإسلام بل ضده وحرب عليه، ولن نستغرب أي شيء يقومون به بعد وفاة رسول الله. وكل ما يخدم مخططات قريش لا يمكن أن يقوم به إلا من يواليهم على المسلمين.

الحقيقة الخامسة

بعد الرسول وخلافة أبي بكر استمرت المدينة هي التي تقرر الخليفة دون استشارة لأهل الأمصار، لعدة أسباب، لعل منها أن الصحابة والأتقياء منهم بالذات هم من يعتبرون أهل الإيمان وهم المؤهلون لإدارة دولة المسلمين، ولم يعترض أحد من الأمصار على هذا أبداً.

وعندما تولى عثمان سارت أمور الدولة دون مشاكل من بداية العام (٢٤) الذي تولى فيه الخلافة وحتى العام (٣٣).

الحقيقة السادسة

في العام (٣٣) قام عثمان بحرق المصاحف المشبوهة التي بدأت تنتشر في الأمصار. ونقول مشبوهة لأنها تحوي عبارات محرفة وإضافات لا وجود لها في القرآن.

والسؤال هنا هو: من المستفيد من انتشار المصاحف المشبوهة؟

لا يمكن أن يكون الإسلام ولا المسلمون الأتقياء، ولكن من يتمنى فساد الدين.

ومن يتمنى فساد الدين هم قريش من والاهم ممن يعلن إسلامه من مسلمة قريش ومسلمة يثرب، وبني إسرائيل لأن الإسلام كَلَمَهم ومسح بوجاهتهم الأرض.

فإن كانت قريش مستفيدة فهي التي كانت وراء نشر تلك المصاحف، بعد أن يئست من استمالة عثمان. وما يؤكد هذا أن تلك المصاحف انتشرت في الأمصار المفتوحة والبعيدة وبين أهلها الذين لم يعرفوا من الإسلام سوى الإسلام ولم يسبق لهم التعرف على القرآن. ولم يكن لتلك المصاحف وجود في المدينة التي يعرف أهلها القرآن كما نزل ويمكنهم التعرف على أي تلاعب.

ولما وقف عثمان ضد هذه الفتنة وأحرق المصاحف المشبوهة ونسخ نسخاً صحيحة من المصحف الإمام، قررت قريش التخلص منه كما تخلصوا من عمر ابن الخطاب قبله.

الحقيقة السابعة

ما إن نجحت مساعي عثمان في التصدي للعبث بالقرآن وأحرق تلك المصاحف المشبوهة واعتمد نسخ المصحف الإمام حتى بدأت الإشاعات تنتشر حول استبداد عثمان وكل التهم التي قيلت بحقه.

بعبارة أخرى: بقي عثمان (١٠) سنوات دون أن توجه له أي تهمة، ثم فجأة وفي عام واحد وجهت له تهم كثيرة وقتل.

ولو قال قائل: التهم وجهت لعثمان في آخر عام من حياته لأن مخالفاته تراكمت حتى وصلت لحد لا يمكن السكوت عليها.

والجواب هو:

الحقيقة الثامنة

لو كانت الاتهامات الموجهة لعثمان صحيحة لبدأت تنتشر في المدينة أولاً، ولتولى أهل المدينة مساءلة عثمان. فهم الصحابة وأهل الحل والعقد بالنسبة لدولة المسلمين، وليس أناس في الأمصار لا يعرفون من الدين إلا اسمه.

التاريخ يقول إنه لم يتقدم صحابي واحد من الأتقياء لمساءلة عثمان، ولم يتم مساءلة عثمان أبداً من أهل المدينة.

ولم يكن من بين الثوار صحابة أتقياء إلا ما قيل إن أم المؤمنين عائشة كانت تشجع على قتل عثمان، وتقول: «اقتلوا نعثلاً».

وهذا لا يمكن الاطمئنان له لأنه لا يمكن أن يصدر من أم المؤمنين ولو كانت منتقدة عثمان فستنتقده بما فعل وليس بالتنابز بالألقاب وهي تقرأ كتاب الله ومن أقرب المسلمين له. ثم كيف تجتمع هذه التهمة مع التهمة الأخرى التي تقول إنها جيشت الجيوش ضد علي لتأخذ بثأر عثمان.

فكيف تجتمع التهمتان؟

قصص مختلق متناقض.

وقريش رسخت في كتب التراث الويل والثبور عن أم المؤمنين في محاولة لتلطيخ سمعتها

لأنها كانت ممن وقف مع الحق ضد استيلاء قريش على حكم المسلمين، فلا عبرة بكل ما نسب لها.

الاستنتاج

عثمان لم تصدر منه تلك التهم لأن من اتهمه بها ليس أهل المدينة ولكن أهل الأمصار المفتوحة الذين لا يعرفون قدر عثمان وليست لديهم ثقافة الإسلام النقي الذي عرفه أتقياء الصحابة.

وعدم اتهام عثمان من قبل الصحابة واتهامه من الأمصار دليل قاطع على نزاهته وبراءته. وفي نفس الوقت دليل على أن الاتهامات الكاذبة تم بثها وإشعالها بفعل فاعل مستفيد من نتائجها.

وليس هناك مستفيد سوى قريش.

وتقول كتب التراث إن ثوار الأمصار لما قابلوا عثمان وشرح لهم الوضع اقتنعوا بكذب الاتهامات وبراءته منها، ورجعوا لديارهم، لكن أناساً يديرون المكيدة ضد عثمان أعادوهم مرة أخرى بحجة أن عثمان يكذب.

ومن ذلك زعم كتب التراث أن عثمان قَبِل أن يستبدل عبد الله ابن أبي السرح بمحمد ابن أبي بكر لولاية مصر. بمعنى أن ثوار مصر لم ينقموا على عثمان إلا بسبب تولي ابن أبي السرح ولما قبل عثمان تغييره عادوا. وهذه التهمة – لو ثبتت على عثمان – فلا توجب قتله.

وتقول كتب التراث إنهم أثناء سيرهم قافلين لمصر كان يمشي بمشيهم رجل غريب فاستوقفوه وسألوه عن أمره ووجدوا معه كتاباً من عثمان يقول لابن أبي السرح أن يقتل الوفد المصري ويبقى في منصبه.

وهذه القصة تصور عثمان مجرماً مخادعاً وهو ما لم يفعله ولم يقدم عليه في بداية حياته ونشاطه فكيف يعقل أن يفعله وقد تجاوز الثمانين.

كما أن رسول عثمان – لو كان بالفعل رسولاً له – فلا يمكن أن يسير بمحاذاة الركب المصري وكأنه يقول لهم : إنه مريب فخذوه. هذه سذاجة غفل عنها مختلق القصة.

وتقول كتب التراث إن وفد مصر قابل عثمان وأن عثمان أنكر إرسال الرسول المزعوم. ولو

كان الأمر كذلك فالمنطق يقول إن وفد مصر سيطلب من عثمان أن يرسل لواليه على مصر – ابن أبي السرح – ويعيده إلى المدينة ويولي غيره وعندها يمكنهم العودة لمصر وتستقر الحال.

لكن ما حدث هو أنهم لم يقبلوا من عثمان أي تبرير ولا تصرف وكان ممن قتله محمد ابن أبي بكر (الذي تزعم كتب التراث أنه المفضل لأهل مصر ليكون بديلا عن ابن أبي السرح) ومحمد ابن أبي بكر لم يتول مصر ولم يعرف مصر زمن عثمان فكيف رشح المصريون والياً عليهم ليس منهم ولا يعرفونه وفي مصر أناس من الصحابة يمكنهم أن يرشحوا واحدا منهم للولاية (لو كانت المشكلة هي تغيير الوالي) كما تزعم كتب التراث.

يعني الزعم بأن نقمة ثوار مصر على عثمان تنحصر في تغيير الوالي زعم باطل غير صحيح.

وإن كان وفد ثوار مصر عاد إلى المدينة لأن عثمان خدعهم فما الذي أعاد ثوار الأمصار الأخرى إلى المدينة بعد أن وصل بعضهم لبلاده؟

فحسب ما ورد في كتب التراث أن ثوار البصرة والكوفة وغيرهم عادوا ووصل بعضهم لبلاده وانشغلوا بحياتهم العادية ثم عادوا إلى المدينة وحاصروا عثمان مرة أخرى وانتهى الحصار بقتله.

الاستنتاج المنطقي هنا هو: أن من حرك الثوار في البداية بإشاعة الاتهامات ضد عثمان وأوحى لهم أنه تقع على عواتقهم محاكمة الخليفة وليس أهل المدينة كالمعتاد، هو من أعادهم إلى المدينة بعد مغادرتها بعد لقاء عثمان واقتناعهم ببراءته.

وبما أن بني إسرائيل لم يعد لهم وجود في الحياة العامة للمسلمين، فإن قريشاً لوحدها هي من كان يحرك الأحداث ضد عثمان للتخلص منه، كآخر عقبة ضد استيلائها على الحكم.

وكتب التراث تروي لنا تصريحاً لعمرو ابن العاص (أحد دهاة تلك الفترة الأربعة، بجانب معاوية والمغيرة وزياد ابن أبيه) أنه ممن شارك بتحريك الأحداث لقتل عثمان وهو بعيد عن المدينة وفي أرض الشام.

حقيقة أخرى

لم يقم من سموا بمعتزلي الفتنة (من الصحابة) بالدفاع عن عثمان. فلم نسمع صوتاً في هذا المجال لسعد ابن أبي وقاص أو غيره ممن وردت أسماؤهم ممن آثروا السكوت.

بالنسبة لعلي ابن ابي طالب - الذي حاول الحصول على الحكم بعد عثمان - فهناك أقوال في كتب التراث تقول إنه كان يراقب بيت عثمان وأنه يمده بالماء والطعام، وهناك بعض الأقوال تتهم علي بتأجيج الفتنة ضد عثمان.

وإن صدقت كتب التراث التي تقول إن محمد ابن أبي بكر هو من قتل عثمان أو شارك في قتله، فمحمد المولود في العام العاشر للهجرة وتوفي والده وهو رضيع، تربى في كنف علي ابن ابي طالب كواحد من أولاده، لأن علياً تزوج بأم محمد وهي أسماء بنت عميس. وقد شارك محمد ابن أبي بكر في معركة الجمل مع علي ابن أبي طالب، ثم كان والياً له على مصر. وقتله معاوية ابن خديج القائد العسكري الممثل لمعاوية ابن أبي سفيان وعمرو ابن العاص وقام بحشو جثته في جيفة حمار وإحراقها.

ولو كان ابن أبي بكر هو من قتل عثمان أمام سمع ونظر والده (الذي رباه) علي ابن أبي طالب فهذا يجعل القول أن قتل عثمان كان تنفيذاً لرغبة علي ابن أبي طالب، وقبول القول الذي يقول أن علياً تآمر أو على الأقل رضي بقتل عثمان أو على الأقل لم يدافع عن عثمان، أقرب من القول بأن علي دافع عن عثمان أو لم يرض بقتله.

وعلي ابن أبي طالب لديه دافع لقتل عثمان لأنه كان يتطلع للحكم، وكان ممن نافس عليه بعد وفاة الرسول. وإن كان هذا ما حدث فرغبة علي توافقت مع رغبة كبراء قريش في التخلص من عثمان وإن اختلفت النوايا. أو أن نوايا علي تتفق مع نوايا قريش.

وما إن قتل الثوار عثمان حتى توجه بعضهم لمبايعة علي. ولا صحة لما قيل إنه قال: »والله إني لأستحي أن أبايع قومًا قتلوا عثمان، وإني لأستحي من الله تعالى أن أبايع وعثمان لم يدفن«.

لأن الواقع يقول إنه سعى للحكم وقبل مبايعته من قبل بعض الثوار.

وفيما يلي بعض الأخبار التي تظهر براءة عثمان:

تقول كتب التراث: «إن عثمان عندما قتل حاول بعض الصحابة غسل جثمانه والصلاة عليه وقبره، لكن الثوار رفضوا، وألقي جثمانه على مكان للكناسة لعدة ليالي حتى هب نفر قليل وحملوا جثمانه في الليل لقبره، لكن الثوار علموا بذلك ولحقوا بهم عند مدخل مقبرة البقيع ورفسوا الجثة بقوة كسرت معها بعض الأضلاع، فاضطر النفر لدفنه في «حش كوكب» وهو مكان كان اليهود يقبرون فيه موتاهم، ومنع الناس من تكفينه وتغسيله.... الخ».

هنا نقول:

هناك احتمال أن هذا ما حدث برغم غرابته ووحشيته، وهناك احتمال أنه لم يحدث وكل ما قيل قصص مختلق.

لكن إن كان حدث أو لم يحدث فهو ينم عن حقد شخصي دفين وتشف من عثمان، أظهرته هذه الروايات، وتعكس وجهة نظر رسمية ترعى هذه الروايات وتحرص على نشرها، ولا يمكن أن تصدر من أناس قتلوا عثمان من أجل تجاوزات يعتقد أنها صدرت منه.

وهذا يعني أن من مثّل بعثمان بعد موته ومنع تغسيله أو دفنه في مقبرة المسلمين البقيع، يريد أن يرسخ للأجيال أن عثمان خرج عن الدين. وهذا لم يفكر به الثوار ولا يمكن أن يكونوا فعلوه.

لكن قريشاً هي من فعل، لأنها تسعى وتخطط للاستيلاء على الحكم، ولن تنجح دون الظهور بمظهر الممثل للمسلم الحق في نظر أهل البلاد المفتوحة. ولا يهمها رأي من بقي من الصحابة في المدينة الذين يعرفون حقيقتها، لأنهم قلة وتحت السيطرة ولو تكلم أحد منهم فمن السهل أن يخمد صوته.

وبالتالي فما روته كتب التراث عما حدث لجثمان عثمان يشير إلى أن كل ما اتهم به عثمان كان غير صحيح، وأن من بقي من الصحابة يعرفون ذلك، لكن من أثار تلك الشبهات وجهها للرأي العام في البلاد المفتوحة لأنه يسعى للاعتماد عليهم عندما يستولي على الحكم. واستيلاء قريش على الحكم حرب على من بقي من الصحابة وعلى دينهم.

ولعل قلة أعداد الصحابة الأتقياء أحد الأسباب في اضطرارهم للسكوت.

وتروي بعض كتب التراث أن طلحة والزبير غادرا المدينة بعد أن ثبت أن الثوار عقدوا العزم على قتل عثمان. فهل شعرا بالندم على السكوت عن الدفاع عن الحق وفضح المؤامرات التي أدت لقتل عثمان، أم أنهما على اطلاع بتفاصيل المخطط لقتل عثمان ومتى سينفذ فخرجا ليبقيا على سمعتهما بعد مقتل عثمان، أملا في المنافسة على الحكم؟

علي ابن ابي طالب

عندما قتل عثمان كان العباس وأبو سفيان قد سبقاه للآخرة حيث توفيا في العامين (٣٢) و (٣٣) على التوالي. وبموتهما تحولت إدارة مخططات قريش إلى معاوية وعمرو ابن العاص والمغيرة ابن شعبة وآخرين ومن بقي من بني عبد مناف وإلى علي ابن ابي طالب، إضافة لمن وقف معهم مثل طلحة والزبير. وأصبح كرسي دولة المسلمين سهل المنال بعدما تم تحييد من بقي من أتقياء الصحابة وأجبروا على السكوت وسكتوا دون مقاومة.

لكن كرسي الحكم الذي أصبح في متناول اليد، كان كرسياً واحداً يتنافس عليه كل أفراد الحزب الواحد ومن كان معهم، وكل واحد منهم يعتقد أنه الأفضل.

لذا عندما أُعلن عن ترشيح علي ابن ابي طالب للكرسي، شعر طلحة والزبير بأنهما أحق منه، أو على الأقل بمستوى مساوٍ له، فلماذا يتفرد بالسلطة دونهما. فقاما بالاتصال بأم المؤمنين عائشة وأخبراها أن علياً قد وقف مع من قتل عثمان، وأن قتلة عثمان هم من انتخبوه ليكون خليفة. فتعالى صوت أم المؤمنين في فضح مؤامرة قتل عثمان، والتي شارك فيها علي مع قريش، كما رواها لها طلحة والزبير. فقرر علي إسكات أم المؤمنين والتخلص من المنافسين طلحة والزبير، لكن الثلاثة استطاعوا التسلل من المدينة وتوجهوا لمكة، فلحق بهم علي على رأس جيش من أتباعه. وبما أن مكة – بلد قريش – حلفاء علي، فلن تجد أم المؤمنين فيها الملاذ الآمن. لذا قرر الثلاثة التوجه للبصرة، التي لم تقبل بتولي علي.

لكنه لحق بهم هناك، فخرج أهل البصرة لملاقاة جيش علي حماية ودفاعاً عن أم المؤمنين، فوقعت المعركة على مشارف البصرة من جهة الغرب وفي مكان قريب من بلدة الزبير الحالية. وقد قتل طلحة والزبير في المعركة، إضافة لآلاف غيرهم. وكانت أم المؤمنين معرضة للقتل لولا أن علياً على ما يبدو منع ذلك لئلا يثور عليه مناصروه، لمكانة أم المؤمنين في قلوب الناس. وقد شوهت هذه الحقائق وقلبت فأصبحت أم المؤمنين وطلحة والزبير هم الأشرار، بينما أسبغ على علي ثوب الطهر والقداسة، وصورت حملات التطهير التي قادها للتخلص ممن يعارض توليه سلطة الدولة المسلمة لعلمهم بميوله، إلى حملات لخدمة الإسلام.

هنا نستطيع القول إن السعي لنيل الكرسي أصبح هو الهدف والغاية، وتوارى الحكم

الإسلامي بتواري صوت أتقياء الصحابة الذين غيبهم الموت أو الخوف من البطش. ولم يعد قتل الناس جريمة، ولكنه أصبح وسيلة لغاية أهم منه، ممثلة بالحكم. ومنذ ذلك التاريخ بقي الكرسي هو الإله المقدس، تهون له رقاب الناس في بلاد المسلمين. وطويت صفحة حكم الله، الذي كان يحكم بين الناس، واعتبر الدين شعارات يرفعها السياسي لتحقيق مآربه. ومنذ ذلك الحين أصبح رأس الدولة مالكاً لها ولأهلها ومالها ومائها وهوائها، وأعطى لنفسه الحرية المطلقة للتصرف بملكه كيفما يشاء. ومنذ ذلك الحين أصبح من يعصي الله فهو شأنه، ومن يعصي الحاكم فقد خرج عن الدين وأصبح من المغضوب عليهم والضالين.

لذا لم يجد علي ابن أبي طالب غضاضة في نقل مقر حكومته إلى الكوفة، وترك المدينة التي لم يعد له علاقة بها، ولا بما كانت ترمز له. إضافة إلى أن أهلها لا يرحبون به.

تحول المفاهيم

عندما أعلن معاوية عدم قبوله تسليم الشام لعلي أعلن علي الحرب عليه وتوجه بجيوشه للشام لمقاتلته وإرغامه على الطاعة، وقد التقى الجيشان في صفين قرب حلب. وبعد اقتتال عنيف لم يتمكن أي من الطرفين التغلب على الآخر، برغم قتل عشرات الآلاف من كل جانب. فقرر الزعيمان اقتسام الدولة بينهما، بحيث يكون لعلي جزيرة العرب والعراق وما يقع شرقها، ويكون لمعاوية الشام ومصر ما يقع غربها.

وهذا الاتفاق السياسي أغضب القراء. وهم جماعة من حفظة القرآن ومن أول من بايع علياً ظناً منهم أنه سيقيم حدود الله ويحكم بالقرآن، لكن موافقته على اقتسام دولة المسلمين مع معاوية أظهر لهم الجانب السياسي من علي البعيد كل البعد عن الصورة التي رسموها عنه، والتي حملتهم على القتال معه، وقتل الكثير منهم في حرب ظنوها في سبيل الله، وتبين لهم أنها في سبيل حصول علي على الكرسي. فأعلنوا تخليهم عن معاونته، واعتزال العمل السياسي والقتال مع أي أحد، بعدما تبين لهم أن ما يحدث صراعات لا علاقة لها بدين الله. ومع أنهم فضلوا التنحي والعيش في معزل عن الفتن والتطاحن على السلطة، إلا أن علياً لحق بهم لمسافة تزيد عن (٨٠٠) كيلومتر وأدركهم في النهروان (قرب بغداد الحالية)، وقضى عليهم. وأصبح حفظة القرآن خوارج على دين الله وليس على سلطة علي وقريش. ومنذ ذلك الحين فالخوارج عن الدين هم من يخرج على الحاكم.

وقد قام التاريخ السياسي بمسخ الحقائق، وأظهر أم المؤمنين على أنها امرأة سوء، وحفظة القرآن على أنهم خوارج على الدين، أما علي ومعاوية وعمرو ابن العاص والمغيرة ابن شعبة ومن وراءهم من قريش فهم الفرقة الناجية. وبقي علي وأبناؤه خارج دائرة الشك والنقد، عندما أسبغت عليهم قداسة ربانية لم يحظ بها رسول الله. ولو أن العباسيين استولوا على حكم الدولة أولاً ثم تلاهم الأمويون فلن يكون هناك تشيع لعلي ولن يكون لعلي أي تقديس، بل سيسطر التاريخ له صورة سيئة مماثلة لما سطره العباسيون عن الأمويين.

وما حدث لتشويه تاريخ أم المؤمنين ومواقفها الصارمة ضد استيلاء قريش على السلطة، هو مماثل للتشويه الذي أسبغه بنو إسرائيل على تاريخ بني إسماعيل ومكة وعموم تاريخ منطقة الشرق العربي.

وقد ساهم في استشراء السياسة على حساب الدين، أن البقية الباقية من الصحابة الأتقياء قد آثروا الصمت والانعزال بدل أن يتحملوا مسئولياتهم الدينية أمام الله والصدح بالحق وفضح مكائد قريش ونشرها للأكاذيب في الأمصار عن عثمان حتى يتم التخلص منه لأنه كان عقبة في طريق استيلاء قريش على الحكم[1]. ثم واصلوا صمتهم بعد مقتل عثمان، ولم يعلنوا أن ما يحدث هو عراك على الكرسي وأن علياً ومعاوية خرجا من حزب واحد تمثله قريش التي لم تؤمن. وهذا الحزب ظهر للوجود منذ توفي رسول الله بهدف إلغاء حكم الله والثأر من الإسلام الذي حطم كبراء قريش.

وصمتهم أوجد فقهاً موروثاً يقدس الحكام ويحرم نقدهم أو سؤالهم حقوق الناس والصبر على أذاهم، واعتبار كل من يخالف الله في علاه. وساهم في طي صفحة عصر رسول الله وصحابته الأخيار، ونسيانها وكأنها لم توجد يوماً على أرض الواقع. وبدأ إسلام غريب ينبت في تلك البيئة السياسية المشحونة، وهذه الفترة هي ما سميناها عصر الفتن والظلمات، وتحدثنا عنها في بداية الكتاب، والتي أنتجت كل مذاهب وفرق المسلمين الحالية.

---

[1] ومن الأحاديث التي اختلقت في هذا المجال: خير الناس في الفتنة رجل معتزل (مسند أحمد). إذا رأيت الناس يقتتلون على الدنيا فاعمد بسيفك على أعظم صخرة في الحرة فاضربه بها (الطبراني). جاهد بهذا في سبيل الله فإذا اختلفت أعناق الناس فاضرب به الحجر (الطبراني). ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشي (البخاري ومسلم). كسروا قسيكم وقطعوا أوتاركم ولزموا أجواف البيوت (أحمد والترمذي وابن ماجه). سلامة الرجل في الفتنة أن يلزم بيته (كنز العمال). الزم بيتك واملك عليك لسانك (أبو داوود النسائي والحاكم والطبراني). إن السعيد لمن جنب الفتن (أبو داوود). وكثير غيرها. وكلها تدعو الناس أن يلزموا الصمت عندما يقتتل الحكام ولا يجرمون المجرم، وهو ما يرغبه الحكام حتى اليوم ويشجعون عليه.

وممن آثر السلامة والسكوت وعدم فضح مخططات قريش ومن والاها: سعد ابن أبي وقاص، سعيد ابن العاص، محمد ابن مسلمة، أسامة ابن زيد، أبو أسيد مالك ابن ربيعة الساعدي، عمران ابن حصين، شداد ابن أوس الأنصاري، سلمة ابن الأكوع، حنظلة ابن الربيع، الحكم ابن عمرو الغفاري، عبد الله ابن عمر، سعيد ابن زيد، صهيب ابن سنان الرومي، هبيب ابن مغفل، عبد الله ابن مغفل، معاوية ابن حديج، زيد ابن ثابت، كعب ابن عجرة، سليمان ابن ثمامة بن شراحيل، جرير ابن عبد الله، عقبة ابن عمرو الأنصاري، أبان ابن صيفي. وقد نسب لسعد ابن أبي وقاص أنه قال لن أقاتل لا مع علي ولا مع معاوية حتى يعطيني الله سيفاً إن ضربت به مؤمنا نبا عنه، وإن ضربت به كافرا قتلته. ونسب للآخرين أقوال مماثلة.

وصمتهم الذي ظنوا أنه اعتزال للفتن، كان خير معين لقريش للاستيلاء على حكم دولة المسلمين، ووجود بيئة منحرفة أنتجت المذاهب، وأبعدت الناس عن القرآن الذي يدين كل تصرفات الحكام ويلغي وجود حكم مستبد، ويعتبر الدولة ملكاً للجميع تدار ولا تملك.

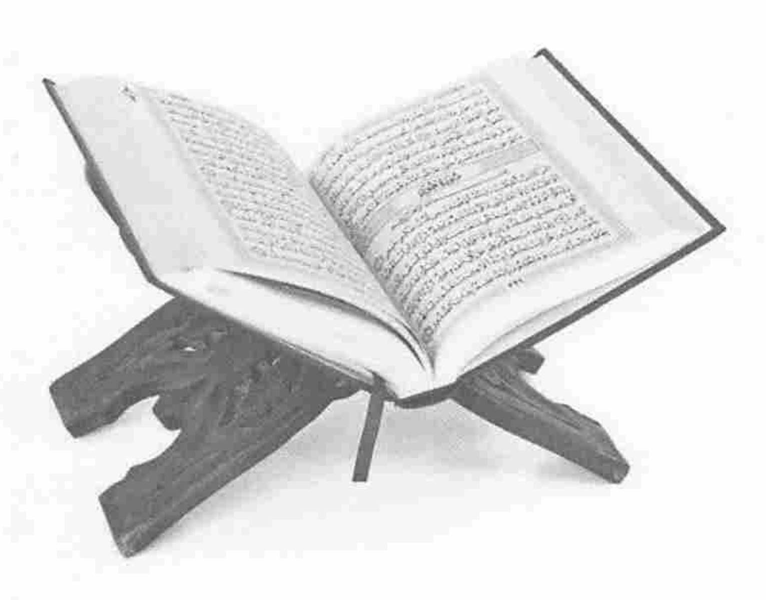
وقد قتل علي ابن ابي طالب على يد أحد القراء، كعقوبة له على قتله آلافاً منهم في النهروان وغيرها. وبمقتله دانت دولة المسلمين لقريش وكان أول ملوكها معاوية ابن أبي سفيان، وبقيت فيهم إلى منتصف القرن السابع عندما انهارت خلافة العباسيين في بغداد على أيدي المغول. لكن الحكم القرشي بقي حاضراً في كل الحكومات التي تتابعت على دول المسلمين حتى اليوم. فقد بقي الحكم الفردي المتسلط الذي يحق له أن يتجاوز القرآن وكل القيم لكي يحافظ على حكمه ولو اضطر لقتل أقاربه وأبناء عمه وإخوته بل ووالده أو بنيه.

ابن قرناس

الشرعة والمنهاج

نافذة للتعرف على الإسلام من مصدره

الجزء الثاني



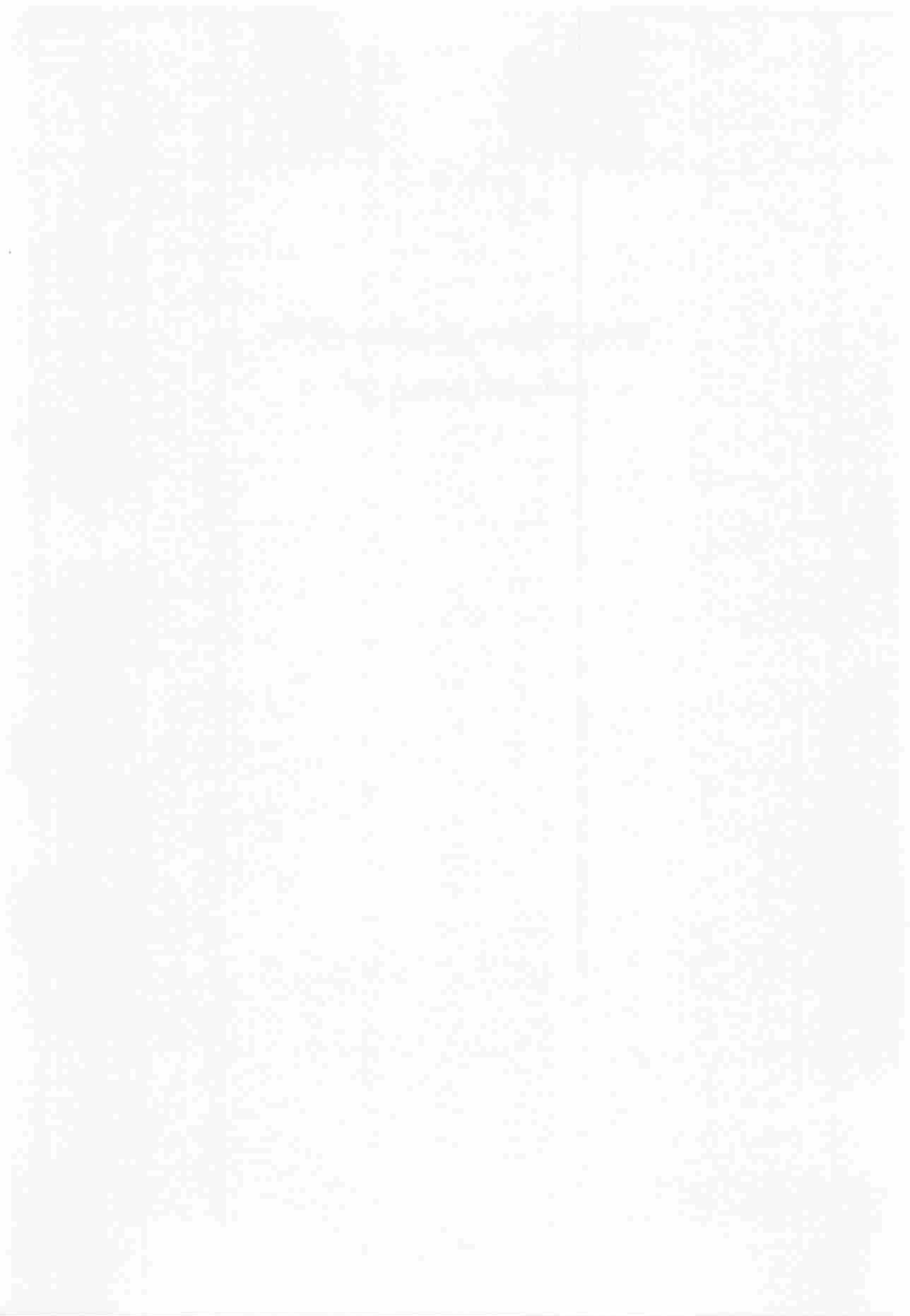
القسم الثالث

تشريعات من القرآن

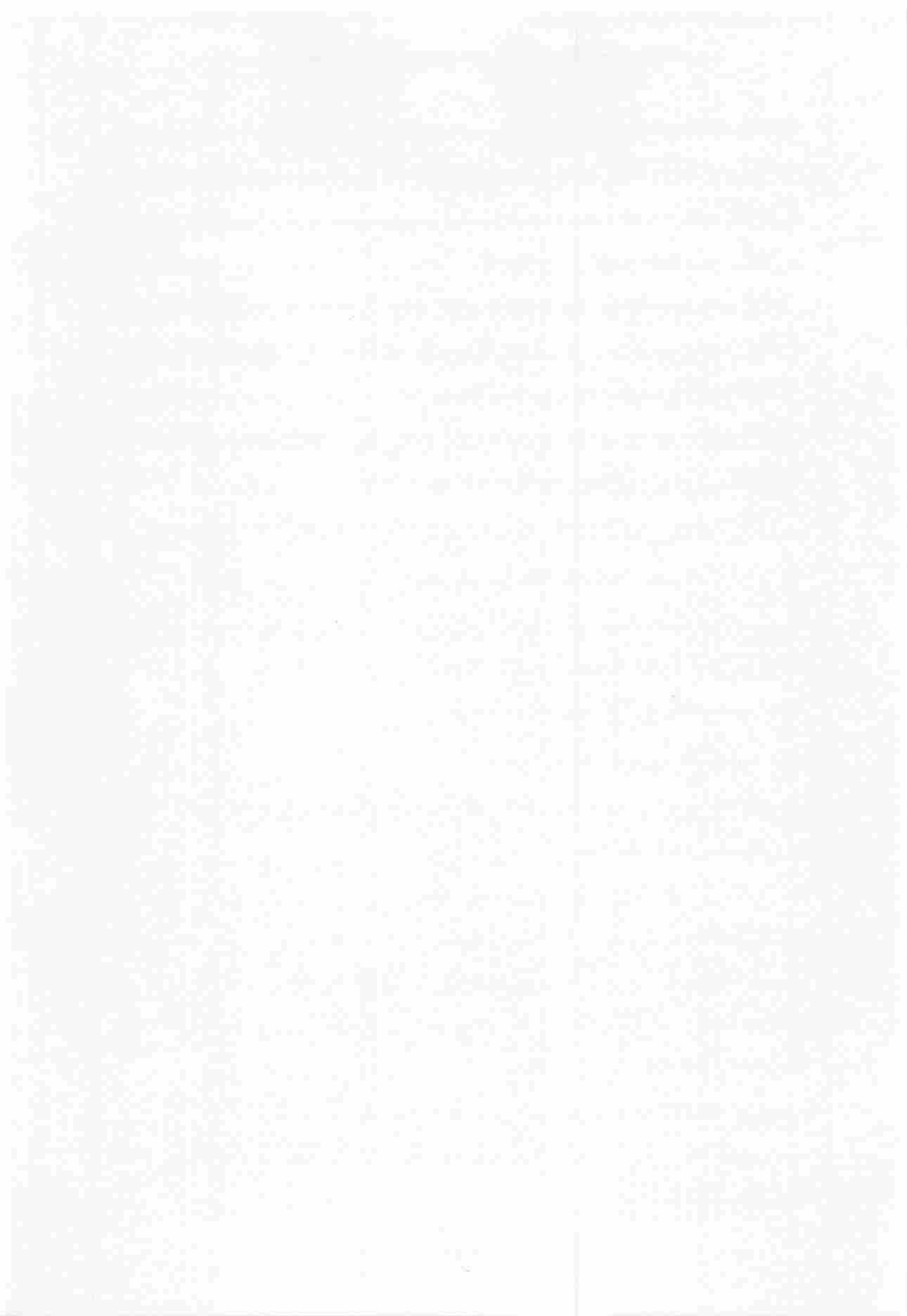
منشورات الجمل



هذا القسم يحتوي على بعض التشريعات
التي وردت في كتاب الله



المحتويات



مدخل

التشريعات في القرآن هي كل أمر أو نهي أو أمر بالاجتناب ورد في خطاب تشريعي عادة[1].

والتشريعات الإلهية يجب تطبيقها في كل مكان وزمان. والقرآن لا يعطي التفاصيل الدقيقة للتشريعات، وإنما يعطينا المادة الأصلية للقانون وعلينا نحن أن نكتب التفاصيل بما يتلاءم مع الزمان والمكان. مثل تغيير طريقة قتل القاتل بالرصاص بدل السيف، دون المساس بحكم قتل القاتل العمد. وتشريعات القرآن تشمل السلوك والآداب والمعاملات والأحوال الشخصية والعبادات والحلال والحرام، وغيرها. ويتم فرض هذه التشريعات، بإحدى الطرق التالية:

- الأمر الصريح

مثل: وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ .....(٩) الرحمن.

- النهي الصريح

ومن ذلك: وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(١٨٨) البقرة.

- الأمر بالاجتناب

ومن ذلك: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٩٠) المائدة.

- النص الصريح بالتحريم

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ ...... (٣) المائدة.

---

١ انظر أنواع الخطاب في مقدمة الكتاب.

- النص الصريح بالحل

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ .... (١٨٧) البقرة.

وهذه التشريعات ثابتة في كل الأديان، مثل الصلاة والصيام والحج والإنفاق والبعد عن الفواحش والربا وقتل النفس، ونحوها.

- وهناك توجيه إلهي للرسول أو المسلمين بسبب وقوع حدث ما، وكل توجيه يتحول لتشريع واجب الامتثال في كل حالة مماثلة. ومن ذلك: وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠) الأنفال.

والآية تتحدث عن الحرب مع قريش وتأمر المسلمين بأن يعدوا كل قوة في استطاعتهم للقتال: وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ (٦١) الأنفال.

ثم تقول متى ما أعلنت قريش قبولها التعايش السلمي مع المسلمين ووقف الحرب فعلى المسلمين أن يوافقوا على الفور.

وهناك توجيهات لا يمكن تطبيقها بعد عصر الرسول لانتفاء وجودها في دولة المسلمين، ومن ذلك: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ(٢٧٩) البقرة.

فتحريم الربا حدث زمن الرسول ولا يجوز لمسلم ممارسته بعد ذلك، ومن يمارسه بعد ذلك فليس بمسلم ولو أعلن الإسلام. كما أنه يجب على دولة المسلمين أن تسن القوانين التي تمنع تداول الربا لئلا يمارسه غير المسلمين في بلادهم. لذا فالآيات تخاطب المسلمين زمن الرسول وتعطي من يتوب منهم ويقلع عن الربا فرصة للاحتفاظ برأس ماله. أما بعد ذلك فلا يطبق على الناس هذا الحكم، لأنه يجب ألا يكون هناك ربا في بلاد المسلمين.

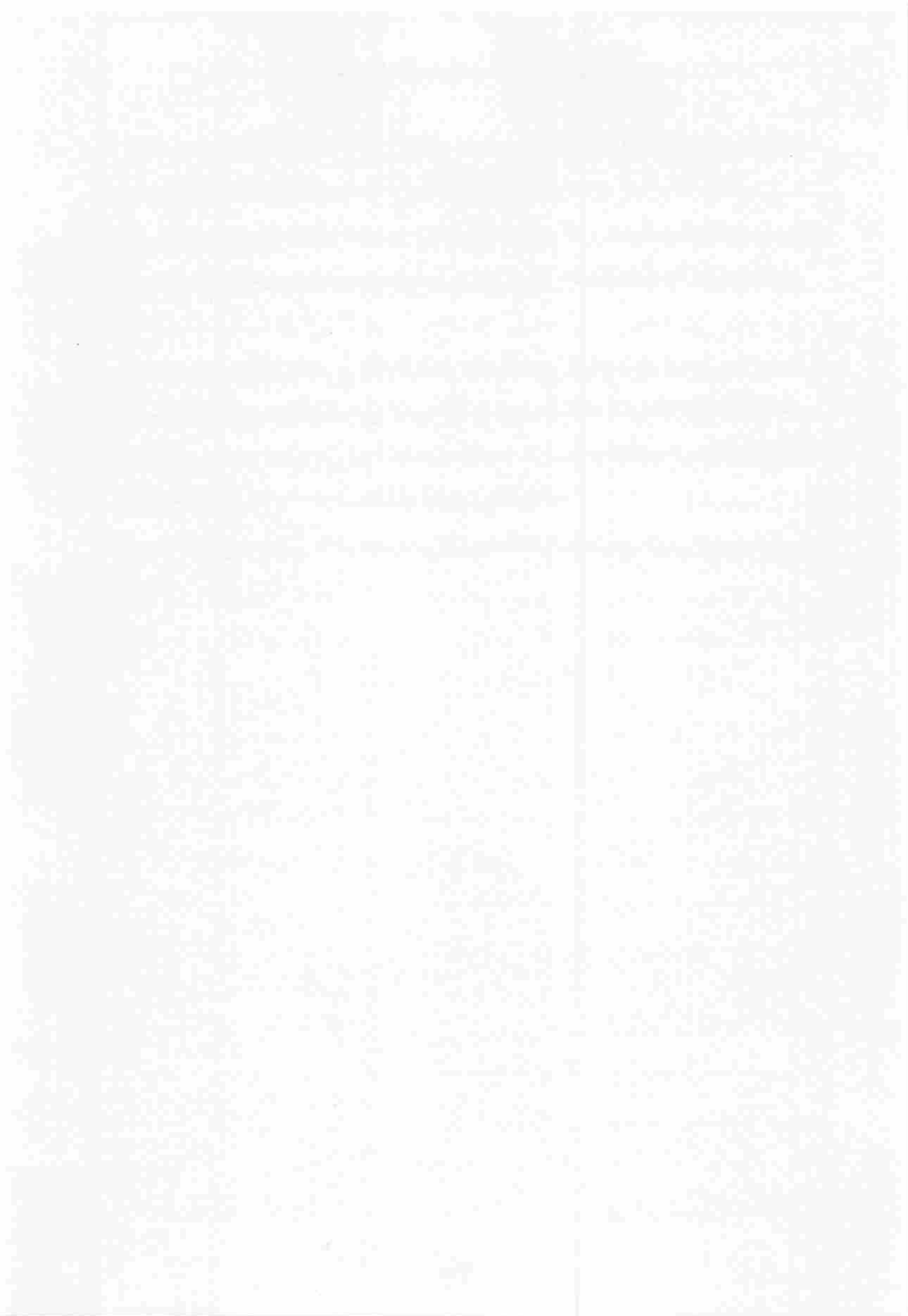
- وهناك توجيهات ردع، وهي تفرض بسبب انتشار ظاهرة فساد في المجتمع المسلم يتوجب القضاء عليها. ومن ذلك فرض جلد الزانية والزاني وتحريم الزواج بهما من

المسلمين، وجلد القذف. فهي أحكام تفرض في حال تكرر انتشار هذه المفاسد، ويمكن للمسلمين أن يفرضوا قوانين أشد قسوة للقضاء على ظواهر الفساد.

وكل ما لم يتحدث عنه القرآن فلا يعتبر من دين الله، ولكنه أمور دنيوية، يمكن للناس سن قوانين لها، كما يمكنهم تعديلها وتبديلها بما يتوافق مع الزمان والمكان، ولا ينسبونها لدين الله.

وعندما يحتاجون لفرض تشريع فالقرآن أخبرنا أن التشريع لا يكون بيد شخص ولا جماعة تنوب عن الآخرين، ولكن تفرض التشريعات بموجب استفتاء عام يشارك فيه كل مسلم ومسلمة أو مواطن صالح من غير المسلمين. وهو ما يعرف بقانون الشورى، والذي تحدثنا عنه بالتفصيل في كتاب اسمه: رسالة في الشورى والإنفاق.

وفي هذا الفصل سنعرض ما تم حصره من تشريعات القرآن، متتبعين السور حسب ترتيب نزولها:



بسم الله الرحمن الرحيم

افتتح الوحي «باسم الله»، كونها أول آية في سورة الفاتحة، التي هي أول سور القرآن نزولاً. وهذا يعني أن أي نشاط ينوي المسلم القيام به لابد أن يبدأ باسم الله، كما بدأ الله سبحانه الوحي. فالبدء باسم الله فُرض في البداية بأسلوب الاقتداء ثم فرض بالأمر المباشر في سور لاحقة.

والقرآن يخبرنا أن سليمان قد بدأ بها رسالته التي وجهها لملكة سبأ: إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) النمل.

وهذا نوح يركب السفينة ويبدأ رحلتها باسم الله: وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) هود.

ثم جاء في القرآن أن كل مأكل حلال إذا ذكر اسم الله عليه (عند الذبح) في خطاب تشريعي: فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ(١١٨) الأنعام.

ثم جاء أمر صريح في خطاب تشريعي بوجوب ذكر اسم الله قبل أن نُطلق الجوارح أو كلاب الصيد أو السهام أو القذيفة، أو نضع الشباك للصيد: يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤) المائدة.

فالبدء باسم الله لازم لكل نشاط، والمقصود بالبدء باسم الله هو النشاط نفسه (الكتابة أو الحديث أو الفعل) وليس ما تحويه الرسالة أو الحديث من عبارات وألفاظ تعبر عما يقوله الشخص.

فأنا أبدأ الكتابة مستعيناً باسم الله، وأبدأ الأكل مستعيناً باسم الله، وأبدأ الكلام مستعيناً

باسم الله. ولا تعني أني أكتب أو آكل أو أتكلم نيابة عن الله ..... كما يظن البعض.

القانون: يجب الاستعانة باسم الله قبل البدء بأي نشاط.

ذكر اسم الله قبل الأكل

فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ(١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ(١١٩) الأنعام.

الخطاب هنا تشريعي.

القانون: ذكر اسم الله على الأكل من صفات المؤمن.

القانون: صفات المؤمن تتمثل بالتمسك بالأعمال الصالحة.

وتقول السورة: وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ(١٢١) الأنعام.

الآية تشير إلى أن مشركي قريش يعرضون على بعض المسلمين أكل ذبائحهم، والآية تقول لهم لا يجوز أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، وذبائح قريش لم يذكر اسم الله عليها. وعندما يمتنع المسلمون عن أكل ما يعرض عليهم، يحاول رجال قريش إقناعهم بأنه حلال. فتأتي الآية لتقول إن جدالهم لكم لإضلالكم، ومن وافقهم بأن أكلهم حلال فهو مشرك مثلهم.

القانون: ما ذبح ولم يذكر اسم الله عليه فأكله فسق.

فإن كانت ذبائح قريش التي تتحدث عنها الآية هي مما يذبح على النصب كقرابين للأصنام، فإن أي ذبيحة لغير المسلم إن كان ذبحها للأكل وليست كقربان لآلهة فلا تدخل في هذا التحريم.

وفي هذه الحالة يمكن أن يسن القانون التالي:

يحل للمسلم أكل اللحم الذي ذبحه غير المسلم إن لم يذبح كقربان لآلهة.

لأن التحريم ليس لأن قريشاً الكافرة ذبحت الذبيحة، ولكن لأنها لم تذكر اسم الله عليها عند ذبحها، أي أنها ذكرت اسم الآلهة، وهذا هو سبب التحريم.

ولو أن الذبيحة قام بذبحها ياباني غير مسلم ليأكلها فللمسلم أن يأكل منها.

الحمد لله

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٢) الفاتحة.

الحمد هو الشكر المثالي، وأرفع درجات الشكر، ولا يستحقه سوى الله جل جلاله. فلا يقال لشخص ما: حمداً لك والحمد لك، بل يقال شكراً لك، والشكر لك.

والحمد يكون لله على الدوام في الدنيا: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا(١) الكهف.

ومثل قوله تعالى: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ(١) سبأ.

والله جل شأنه يُحمد لكل ما أنعم به سبحانه علينا: وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ(١٥) النمل.

كما دعا بها إبراهيم في آخر حياته: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء(٣٩) إبراهيم.

وكما طُلِبَ من نوح أن يفعل: فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٢٨) المؤمنون.

وكما طلب من محمد: وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً(١١١) بني إسرائيل.

والحمد لله مستمر في الآخرة، فالمؤمنون يحمدون ربهم أن أدخلهم الجنة: وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ(٧٤) الزمر.

وحمد الله على كل شيء.

وإذا كانت "بسم الله" يُبدأ بها كل نشاط، فإن «الحمد لله» يختم بها كل نشاط.

فهي خير ختام لكلام الرحمن: سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ(١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ(١٨١) وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٨٢) الصافات.

والحساب يوم القيامة يختم بها: وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ

وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٧٥) الزمر.

وتقول سورة يونس: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ(٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٠).

الآيات تتحدث عن أهل الجنة وتقول بأنهم يذكرون الله على الدوام، وتحيتهم السلام، ويختمون أفعالهم واقوالهم بعبارة: الحمد لله رب العالمين.

القانون: تحية المسلم السلام.

القانون: ختم النشاط بالحمد لله رب العالمين فضيلة.

وتقول سورة الصافات: سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ(١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ(١٨١) وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٨٢).

كما أن سورة الزمر تتحدث عن الحساب ودخول الناس الجنة او النار وبعد أن ينتهي ويدخل الناس الجنة أو النار وتنتهي أعمال الآخرة تختم الحديث بالحمد لله رب العالمين: وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٧٥).

وبهذا يمكن أن نقتدي. فنختم كلامنا المنطوق أو المكتوب على شكل موضوع بعبارة: والحمد لله رب العالمين. كما بدأناها بـ «بسم الله الرحمن الرحيم».

القانون: يختم المسلم كلامه أو خطابه أو كتابته بقول: الحمد لله رب العالمين.

القانون: هذا الختام استخدمه الرحمن، وسيكون من العلامات الفارقة للمسلم.

الله وحده المعبود

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ(٥) الفاتحة.

ولا معبود سواه. والعبادة تعني أحد شيئين:

الأول: القيام بعبادة المعبود عبر أوضاع وهيئات محددة يتلو فيها العبد عبارات تمجد المعبود، كالصلاة والحج.

الثاني: قبول تشريعات المعبود، بإتباع كل أوامره، والانتهاء عن كل نواهيه.

والعبادة بشقيها خاصة بالله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له فيها. وأي اتباع لتشريع صادر من غير الله فهو عبادة لمن صدر منه، وإشراك له في العبادة مع الله. ويدخل في ذلك أي تشريع خارج نصوص كتاب الله، ولو نسبت للرسول على شكل حديث. كما يدخل في ذلك فتاوي رجال الدين وتشريعاتهم وما يحللون ويحرمون، ومن تبعهم فقد عبدهم من دون الله.

القانون: الله وحده هو المعبود.

القانون: يحرم قطعياً عبادة غير الله.

القانون: اتباع تشريع لغير الله عبادة للمشرع وشرك بالله.

** وكل الآيات التي تنهى عن الشرك تدخل في هذا.

الله وحده المستعان

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ(٥) الفاتحة.

كما أن الله وحده هو المعبود فهو وحده المستعان، لكن هناك تفصيل.

والاستعانة بالله تعني: طلب العون للوصول للهداية، وهذه لا تطلب من غير الله.

أما الاستعانة بأمور الدنيا فتعني أني وضعت ثقتي بربي ليكون معيناً لي في كل ما يصدر مني من قول أو نشاط. والاستعانة بالآخرين في الأمور الدنيوية لا تتعارض مع طلب العون من الله.

القانون: طلب العون للهداية لا يكون لغير الله.

القانون: الاستعانة بالآخرين في أمور الدنيا لا تتعارض مع طلب العون من الله.

القانون: طلب العون من الله في أمور الدنيا لا يعني أن الله سيتدخل مباشرة لعوننا بل يعني أن نعمل ونخلص في العمل ونبحث عن أسباب النجاح وسنصل لها بفضل ما أودعه الله من قوى داخل النفس وقوى أخرى حولنا ستعين على النجاح.

الصلاة واجبة

أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى(٩) عَبْداً إِذَا صَلَّى(١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى(١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى(١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى(١٣) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى(١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ(١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ(١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَه(١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ(١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ(١٩) العلق.

الآيات تتحدث عن نهر أحد كبراء قريش الرسول عندما رآه يؤدي الصلاة، وهي صلاة لا تعرفها قريش واقترن أداء الرسول لها ببعثته. والآيات تقول للرسول أن يصلي ولا يتوقف بسبب نهر القرشي له، وهو ما يعني التالي:

القانون: أداء الصلاة واجب تحت أي ظرف ما دام الإنسان قادراً على أدائها.

وتقول سورة لقمان: الم(١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ(٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ(٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(٤) أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٥).

وتقول سورة الشورى في خطاب تشريعي: وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣٨).

فمن ميزات المسلم أنه يقيم الصلاة، أي يؤديها باستمرار وبلا تهاون.

القانون: إقامة الصلاة عمل صالح.

القانون: التهاون في الصلاة أو تركها كبيرة.

الخشوع في الصلاة

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ(٢) المؤمنون.

الخطاب تشريعي.

القانون: من لا يخشع في الصلاة فلم يؤد الصلاة، ومن لا يصلي فقد ارتكب كبيرة.

المداومة على الصلاة

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ(٩) المؤمنون.

وتقول سورة المعارج: إِلَّا الْمُصَلِّينَ(٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ(٢٣) ...... أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ(٣٥). وتقول: وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ(٣٤) أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ(٣٥).

القانون: من يترك الصلاة أو بعض أوقاتها كبيرة والوفاء بها عمل صالح.

وتقول سورة الفرقان: وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً(٦٤) .... أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً(٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً(٧٦).

تعبير مجازي يقصد به المداومة على الصلاة.

وتقول سورة الشورى: وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣٨).

والخطاب في الآيات أعلاه تشريعي.

خلع النعلين في أماكن العبادة

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى(٩) إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى(١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى(١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى(١٢) طه.

الخطاب إخباري قصصي.

الآيات تتحدث عن موسى وهو في الوادي المقدس: طوى، حيث التكليم. وقد أمر بخلع نعليه تقديساً واحتراماً للمكان الذي أصبح مقدساً بالتكليم.

ويقاس عليه القانون التالي: وجوب خلع النعلين في المساجد كونها بيوت الله، وبيوت الله مقدسة.

القانون: وجوب خلع النعلين في أي مكان تقام فيه الصلاة ولو لم يكن مسجداً، لأن الصلاة عبادة لله وتقديسه سبحانه يوجب خلع النعلين كما في وادي طوى.

القانون: لا تجوز الصلاة بالنعلين.

الأمر بأخذ الزينة عند كل مسجد

يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ(٣١) الأعراف.

الخطاب لقريش التي كان رجالها يكثرون من شرب الخمر لدرجة يفقدون الوقار ويرتكبون الفواحش في نواديهم ويخرج بعضهم للمسجد الحرام وملابسه بعيدة عن الحشمة.

المسجد هنا المقصود به المسجد الحرام ولكن يمكن أن يقاس عليه أي مسجد.

القانون: الأمر بأخذ الزينة لدخول المسجد.

القانون: الزينة تعني الملابس المناسبة المحتشمة والنظيفة.

تحريم ترك الصلاة أو الإنفاق لأي سبب أو ظرف

قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ(٣١) إبراهيم.

الآية تأمر المسلمين في مكة الاستمرار بأداء الصلاة (التي لم تحدد لها أوقات لأدائها بعد) والاستمرار بالإنفاق متى وجد محتاج، بغض النظر عن ظروف المسلمين.

الملاحظ هنا هو أن السورة نزلت في وقت اشتدت وطأة قريش على المسلمين، لدخول الكثير من المستضعفين الإسلام. ومن المؤكد أن المسلمين لن يتمكنوا من أداء الصلاة في بيت الله. لكن هذا لا يعني أنه يحل لهم تركها. بل يجب عليهم أداؤها في أي مكان. ولابد أن من أسلم من قريش حتى ولو كانت ظروفه المادية جيدة قبل الإسلام فهو يمر في هذه المرحلة بظروف حرجة لأن قريشاً ستضيق الخناق عليهم وعلى تجارتهم. ومع ذلك فالآية تطلب منهم الإنفاق لمعاونة المحتاجين وخاصة العبيد والموالي السابقين الذين أسلموا. حيث إنه لا دخل لهم وكثير منهم يحتاج لمؤونة الهجرة للحبشة للحاق بمن سبقه هناك.

وهناك عشرات الآيات التي تمر بأداء الصلاة وإيتاء الزكاة.

القانون: الصلاة لا تسقط على العاقل القادر تحت أي ظرف.

القانون: الإنفاق واجب على الدوام متى وجد محتاج.

القانون: الإنفاق لا يسقط على القادر لأنه يمر بظروف مالية صعبة. بل يجب عليه مشاركة ما يجد مع من لا يجد.

التقويم القمري هو المعتبر للعبادات

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٥) يونس.

قدر القمر منازل لتعلموا عدد السنين والحساب.

القانون: التقويم القمري هو المعتمد في دولة المسلمين لأنه تقوم عليه عباداتهم.

القانون: التقويم الشمسي هو الأنسب للزراعة، ولا يتعارض مع اعتماد التقويم القمري للعبادات، وتحديد بدء اليوم.

وبما أن التقويم القمري يعتبر الليلة السابقة تابعة لليوم الذي يليها. فمثلاً عند رؤية الهلال بعد مغيب الشمس أول الشهر فهذا يعني أن يوم الغد أول أيام الشهر.

القانون: اليوم بمعنى (اليوم والليلة) في دولة المسلمين يبدأ بغياب الشمس وينتهي بغياب الشمس من اليوم التالي، أي ليلة كاملة ويوم كامل يليها. ولا يبدأ بمنتصف الليل، كما اقترح الغرب حالياً، بحيث يكون اليوم عبارة عن منتصف ليلة ثم يوم كامل ثم منتصف ليلة تالية.

وجوب التراحم والتلاحم بين المسلمين

أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ(٨) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ(٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ(١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ(١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ(١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ(١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ(١٤) يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ(١٥) أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ(١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ(١٧) البلد.

الآيات تخاطب قريشاً التي أعلنت كفرها ولن تتراجع، متسائلة: كيف لا تنتبه قريش إلى أن الله جل وعلا خلق لهم القدرة على البصر والكلام والعقل، فكيف لا يقتحمون عقبة تخطي الموروث ويؤمنون لينعموا بالجنة. والتمسك بالموروث عقبة كأداء، لابد من

التحلي بالشجاعة والإقدام لتخطيها. والإيمان يحتاج معه لعمل لدخول الجنة. ومن العمل المطلوب عند نزول السورة كان بالإنفاق، الذي يجب أن يوجه لتحرير الرقاب من الأسر والعبودية. ومكة كانت مليئة بالعبيد والموالي الذين استرقتهم قريش للقيام بأعمالها الخدمية. وتحرير الرقاب مبدأ ينص على تساوي الناس في الإنسانية والعيش بكرامة، بلا فروق طبقية اجتماعية وسيد ومسود، وهو ما يجسد التلاحم والتراحم في المجتمع المسلم.

القانون: تحرير الاسترقاق.

القانون: الإسلام يضمن حق المساواة بين البشر.

القانون: لا مكان للطبقية الاجتماعية في الإسلام.

القانون: الإسلام يضمن حفظ الكرامة لكل إنسان بغض النظر عن لونه وجنسه ودينه ما دام مسالماً.

القانون: لا كرامة مع الفقر والفاقة والعوز. لذا يجب محاربة هذه الآفات والقضاء عليها.

القانون: الإنفاق واجب على الأغنياء لسد حاجات المجتمع والأفراد. سواء كانت الحاجة طارئة: «إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ. حدثت بسبب أزمة اقتصادية، مما يوجب توفير الغذاء والحاجات الأخرى للمتضررين. أو كانت ظاهرة مثل رعاية الأيتام وتوفير احتياجاتهم، والأجواء الصحية والطبيعية لنشأتهم.

القانون: يجب القضاء على ظاهرة الفقر والعوز في المجتمع بخطط استراتيجية فعالة وطويلة المدى.

القانون: وجوب التلاحم والتراحم بين المسلمين بكافة الوسائل.

القانون: الإنفاق وسد حاجة المحتاج وسيلة عملية للتراحم والتلاحم بين المسلمين.

القانون: لا يمكن أن يكون المجتمع مسلماً وهناك فقير أو محتاج أو رقيق أو اسير.

القانون: تحرير الرقيق واجب. وهو ما خالفه المسلمون في عصور لاحقة بعد عصر النبوة، من سبي واسترقاق للأمم المغلوبة.

العبوس في وجه المسلم

تبدأ سورة عبس بتوبيخ الرسول على موقفه من رجل أعمى قابل الرسول ليستفسر:
عَبَسَ وَتَوَلَّى(١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى(٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى(٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى(٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى(٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى(٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى(٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى(٨) وَهُوَ يَخْشَى(٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى(١٠).

فالرسول عبس وتغيرت ملامح وجهه لأن الأعمى سأله في وقت غير مناسب – حسب تقديره الشخصي – فقد كان مستغرقاً في الحديث مع أحد كبراء قريش الذي كان يصغي لما يسمع من الرسول مما جعل الرسول يظن أنه في طريقه للدخول في الإسلام.

وتوبيخ الرسول على ما حدث، تحريمٌ للعبوس في وجه المسلم، أو الصد عنه. وهذا التشريع المبكر ومنذ الأيام الأولى للإسلام، جاء لضمان حياة كريمة للمسلم، تصان فيها كرامته ومشاعره، ولم يتهاون القرآن مع الرسول، برغم أنه رسول الله، وأنه في بداية الدعوة، والضغوط النفسية عليه كبيرة جداً، وبحاجة للتشجيع وليس التوبيخ، لكن كرامة المسلم فوق كل اعتبار. والله جل وعلا لا يتعامل بالعواطف، فالقانون قانون ويجب أن يحترم مهما كانت الظروف.

القانون: لا يجوز بأي حال من الأحوال العبوس في وجه أي مسلم.

القانون: العبوس في وجه المسلم معصية.

القانون: كرامة المسلم مصانة في كل الظروف ولا يجوز إهانتها أو الإنقاص منها أو مسها بأي حال من الأحوال.

القانون: عندما يستحق شخص اللوم يوجه له اللوم حتى ولو كانت حالته النفسية منخفضة.

خفض الجناح للمسلم واجب

وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ(٨٨) الحجر.

الخطاب موجه لمحمد عليه الصلاة والسلام، رأس الدولة ورسول الله، ويوجب عليه أن يخفض جناحه للمؤمنين وأن يتعامل معهم بكل رحابة صدر ولين.

القانون: يجب على كل مسئول وموظف أن يتعامل مع المسلم بكل رحابة صدر ولين بعيداً عن الخشونة أو التغطرس والكبرياء.

طرد المسلم كبيرة

وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ(٥٢) الأنعام.

الخطاب موجه للرسول عندما طلبت قريش منه أن يطرد المستضعفين وسيؤمنون. والآية تتوعد الرسول بأنه لو فعل فسيكون من الظالمين. والظالمون مأواهم النار: إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤١) لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤٢) الأعراف.

فإذا كان القرآن توعد الرسول لو طرد العبيد والموالي بأنه سيكون من أصحاب النار، فهذا يعني ما يلي:

القانون: الإسلام يوجب العزة للمسلم.

القانون: لا يجوز طرد المسلم لأي سبب.

القانون: طرد المسلم ظلم، والظالم في جهنم.

القانون: طرد المسلم كبيرة.

القانون: تسن عقوبات رادعة لمن يطرد مسلماً أو يسيء معاملته.

القانون: ما يجب للمسلم هنا يجب لغيره من غير المسلمين المسالمين.

القانون: كما تسن قوانين كفيلة بحماية المسلم خارج دولته.

احترام شخص المسلم

وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥٤) الأنعام.

الآيات تخاطب الرسول وتوجب عليه أن يخفض جناحه للمسلم.

القانون: يجب أن يعامل المسلم بكل ود.

القانون: يجب أن يعامل المسلم بكل بشاشة.

القانون: يجب تدريس التعامل الودي ونشره كثقافة اجتماعية.

القانون: يجب وضع برامج توعية مستمرة للتعامل الراقي بين الناس.

القانون: كل ما يجب للمسلم يجب لكل مسالم.

التعايش السلمي بين الناس بغض النظر عن المعتقد

لا يوجد في القرآن آية واحدة تقول بعداء الناس لأنهم ليسوا مسلمين أو لم يقبلوا بالإسلام. والمتتبع للحروب التي وقعت زمن رسول الله والخلفاء الثلاثة من بعده سيجد أنها كانت حروباً دفاعية عن بقاء الإسلام ودولته، ومختلفة عما يمارس في حروب ذلك الزمان من وحشية وتعديات. فلم تسب النساء ولم يقتل المسالمون ولم يعتد على أملاك أحد. برغم ما ترسخ بين غير المسلمين من أن الإسلام انتشر بالسيف وأنه يخير أهل البلاد المفتوحة بين ثلاث: إما الإسلام، أو الجزية (ضريبة يحدد مقدارها الغزاة)، أو القتال. والقتال يعني قتل كل من يعترضهم أو يرفع السلاح عليهم، وسبي نسائهم واغتصاب أملاكهم. وهذه الممارسات وقعت بالفعل، لكن بعدما استولت قريش على الحكم في العصر الأموي وما بعده. فقد ابتدرت تلك الدولة الناس المجاورين لها بالحرب من أجل التوسع وزيادة الخراج والجزية التي كانت تصب في خزينة الحاكم، ولم تكن جهاداً في سبيل الله. فتمددت تلك الدولة بسرعة مفرطة وفي وقت قصير وصلت فرنسا غرباً والصين شرقاً، ومورست فيها التعديات على المسالمين وعلى الأملاك وسبيت النساء. وقد ساهم رجال الدين في أسلمة تلك الممارسات الشنيعة، بأحاديث وقصص مختلقة نسبت للرسول، وتطورت لتكون علماً قائمة بذاتها من بينها ما عرف بالناسخ والمنسوخ. وفي هذا «العلم» الضار قال رجال الدين إن كل الآيات التي تدعو للتعايش في القرآن وعددها يربو عن (١١٠) آية نسخت بآية واحدة أسموها: «آية السيف». وآية السيف في الواقع أربع آيات كل واحدة منها تسمى آية السيف، وكلها في سورة براءة التي نزلت قبل وفاة الرسول ببضعة أشهر. ولو وافقناهم فكأن الرسول طوال عمره كان ملتزماً بقتال من يبدأ بقتال المسلمين ويعتدي عليهم، ولا يقاتل إلا المقاتلة منهم ويتجنب المسالمين. وقبيل وفاته نزل عليه الوحي يأمر الناس بقتال

كل الناس والاستيلاء على أراضيهم ونهب ممتلكاتهم وسبي نسائهم.

وسورة براءة تتحدث عن قريش التي خانت معاهدة وقعتها مع المسلمين يوم فتح مكة، وتعطيهم مهلة أربعة أشهر للعودة والالتزام وإلا سيشن عليهم المسلمون حرباً شاملة ويلاحقون ويقضى عليهم أينما كانوا لأنهم استمروا في حرب الإسلام والكيد له، ووجودهم خطر عليه. كما أن السورة تأمر بقتال كل من اعتدى على المسلمين من قبائل جزيرة العرب أو من أهل الكتاب الذين تعاونوا مع قريش ومع الروم والفرس للقضاء على الإسلام ودولة المسلمين. ولا تتحدث السورة عن حرب غير أولئك المعتدين، بل إن السورة ذاتها تُذكّر المسلمين بالالتزام بتجنب حرب المسالمين ولو كان قومهم ممن اعتدى على المسلمين: إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) براءة.

والسورة توجب إجارة المشرك إذا استجار بالمسلمين ولجأ إليهم، ولو كان قومه محاربين للمسلمين: وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ (٥) براءة.

ولو عرض على المستجير الإسلام ولم يقبله فلا يقتل أو يسلم لقومه ليقتلوه على هروبه منهم، بل يوصل لمكان آمن.

وتؤكد السورة أن الأصل في تعامل المسلمين مع غيرهم هو التعايش السلمي، ولا يجبر أحد على قبول الإسلام: لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ(٢٩) براءة.

وفيما يلي نورد الآيات التي سمتها كتب التراث بآية السيف وبيان كيف تأولوها لغير معناها واقتطعوها من سياقها ومن تخاطب:

الآية الأولى: فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) براءة.

والحديث في الآية عن قريش التي خانت معاهدة يوم الفتح مع المسلمين، ضمن سياق

الآيات من بداية السورة كما يلي: بَرَاءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) براءة.

ولا شأن للآيات بقتال الناس الذين لم يعتدوا على المسلمين.

الآية الثانية: قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ(٢٩) براءة.

والمقصود هنا هم قبيلة من بني إسرائيل يثرب تعاونت مع أعداء الإسلام وظاهرت على المسلمين في حنين، والسورة توجب أن يهاجموا ويقاتلوا حتى يقبلوا بدفع جزية (جزاء وتعويض) للمسلمين على ما تسبب فيه مظاهرة أعداء الإسلام عليهم. وهي خاصة بهم دون الناس، لكن المسلمين في عصور لاحقة جعلوها ضريبة تفرض على كل من لا يرغب في دخول الإسلام من البلاد التي يستولي عليها المسلمون[٢].

الآية الثالثة، هي جزء من الآية ٣٦ ونصها: « وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً".

وتمام الآية هو: إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(٣٦) براءة.

والمقصود «بالمشركين كافة» هم تلك القبائل التي قاتلت المسلمين كافة عوناً لقريش وحرباً على الإسلام، في الأحزاب وحنين، فأولئك يقاتلون كافة عقاباً لهم على البدء بحرب المسلمين.

---

٢ انظر تدبر سورة براءة.

الآية الرابعة، هي جزء من آية، ونصها: «انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا».

وتمام الآية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ(٣٨) براءة.

لقد كان هناك حرب شعواء على المسلمين من قريش والقبائل وأهل الكتاب ومن ورائهم الروم والفرس، وتجلى هذا في موقعتي الأحزاب وحنين. وبالتالي فالجيش الإسلامي يحتاج لكل مسلم ولكل عون وإسهام في تجهيز الجيش لحرب أولئك المعتدين، ولا تتحدث عن قتال أي أناس فقط لإجبارهم على الإسلام أو لسبي نسائهم والاستيلاء على أملاكهم.

وهناك آيات سيف أخرى عند من قال بالناسخ والمنسوخ منها: فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ(٤) محمد.

وسورة محمد نزلت قبل معركة بدر – كما سبق ورأينا في قسم التدبر – وتحث الناس على الخروج لحرب قريش التي ثبت يقيناً أنها تعد العدة للقدوم لحربهم ولن تتركهم بعد أن هاجروا ليثرب وغادروا مكة. وتضع السورة وسور أخرى نزلت في نفس الفترة بعض الضوابط للقتال المرتقب، ومنها ما تتحدث عنه الآية. ومن ذلك ألا يكون هناك أسر لكفار قريش لأن قريشاً أقوى من المسلمين وأكثر عددا، ولكن يقتلون لكي يثخنوا (يضعفوا) وتقل قوتهم ويسلم المسلمون من شرهم. ومتى أصبح المسلمون هم الأقوى وقريش أو أي عدو هو الأضعف، فللمسلمين حق الأسر بل ويفضل الأسر. وبعد انتهاء المعركة للمسلمين الحق بالمن على الأسير وتحريره دون مقابل لأن ذلك سيؤلف قلبه على المسلمين ويبث دعاية حسنة عنهم وأنهم تعاملوا معه بإنسانية. أو يكون فك أسره بفدية يستعين بها المسلمون على تجهيز جيوشهم وسد حاجات مجتمعهم. ولم تقل الآية باسترقاق الأسرى، كما أنه لا شأن للآية بنسخ آيات التعامل الإنساني والتعايش السلمي مع المسالمين من غير المسلمين.

وسورة براءة نزلت قبل وفاة الرسول ببضعة شهور – كما أسلفنا – وبالتالي فكل حروب الرسول والخلفاء الثلاثة من بعده لدفع العدوان ولم تبادر أحداً بالحرب. وكانت استثناء

من كل حروب ذلك العصر، فلم يعتد فيها على مسالم ولم تسب نساء المهزومين ولم تغتصب أملاكهم.

وممارسات دولة قريش الأموية والعباسية التي اتسمت بالتسلط والسبي وابتدار الناس بالحرب، وإن كانت غير مبررة ولا مقبولة إلا أنها كانت سمة لكل الحروب في ذلك العصر في كل العالم القديم، وليست وقفاً على المسلمين. لكن روما الكاثوليكية كانت وراء ترسيخ أن هذه الممارسات إسلامية يدعو لها القرآن، لأنها طردت وأهينت على أيدي المسلمين في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا وجزيرة ليبيريا وجنوب فرنسا وجزر البحر المتوسط، بل إن مدينة روما – معقل الفاتيكان - كانت قاب قوسين من السقوط في أيديهم.

وفي هذا الفصل سنورد أدلة من القرآن الكريم تحث على التعايش السلمي مع كل المسالمين بغض النظر عن المعتقد، وتوجبه على المسلمين، للتأكيد على أن الإسلام دين سلام، وليس دين حرب مع كل من يقبل التعايش معه بسلام. أما من يبادر الإسلام والمسلمين بالعداء والحرب أو المكائد فيجب حربه بقسوة وبلا هوادة والقضاء عليه لئلا يقضي على دين الله:

في بداية الدعوة وردت آيات تحث على الإنفاق لتحرير الرقاب ومعاونة المسكين وإطعام الأسير وسد حاجة كل محتاج، ومن ذلك: وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ(١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) البلد.

وكانت دعوة عامة للمسلمين ولغيرهم من أهل مكة، فتجاوب معها أحد كبراء قريش الأثرياء، وقام بدفع قدر من المال للمساهمة في الإنفاق الذي يصرف على احتياجات المحتاجين في المجتمع بغض النظر عن المعتقد. وبما أن الحاجات مستمرة فقد طلب منه أن يستمر في الإنفاق لكنه امتنع، كما تخبرنا سورة النجم: أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى(٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى(٣٤) أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى(٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى(٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى(٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى(٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى(٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى(٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى(٤١).

ثم نزلت سورة الهمزة: وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ(١) الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ(٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ(٣) كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ(٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ(٥) نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ(٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ(٧) إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ(٨) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ(٩).

وهي تتوعد من يجمع المال ولا ينفقه في مصلحة المجتمع والتكافل الاجتماعي. والمقصود هنا كبراء قريش الذين يملكون الأموال الطائلة ولا ينفقون منها القليل لسد حاجة المحتاجين في مكة. وهذه السورة والآيات السابقة التي تتحدث عن القرشي الذي أنفق مرة وتوقف، دليل على أن الإسلام سعى للتعايش السلمي مع قريش الكافرة إذا ما قبلت الإسهام في الإنفاق للصرف على المحتاجين بغض النظر عن المعتقد، لكن قريشاً لم ترغب في ذلك.

وتقول سورة سبأ: قُلْ جَاء الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ(٤٩) قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ(٥٠).

قريش تعتبر الرسول ومن تبعه ضالين، والآية تقول إن كُنْتُ (أنا محمد) قد ضللت، فضلالي على نفسي ولا يوجب حربكم علي.

وتقول سورة الكافرون: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ(١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ(٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ(٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ(٦).

دعوة صريحة للتعايش السلمي في مكة بين المسلمين وغيرهم، لكن قريشاً لم تقبل بالتعايش السلمي مع المسلمين وحاربتهم. لأنه لم يحدث أبداً في كل المجتمعات وفي كل زمان ومكان، أن تُرك الناس يؤمنون بما يشاؤون دون محاربتهم والتضييق عليهم. حتى في أوروبا الكافرة فمن يغير دينه يعاديه أهله وأصدقاؤه، برغم أن القوانين تنص على حرية المعتقد.

وجاء في سورة يونس: وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ(٤١).

الآية تكرر ما طلبته آيات في سور أخرى للتعايش السلمي بين المسلمين وقريش، لكن قريشاً رفضت وستستمر بالرفض ولن تقبل أبداً ولن تتوقف عن عداء المسلمين.

وتقول سورة الأنبياء: قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ(١٠٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاء وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ(١٠٩).

ومثله: وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ(٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ(٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ(٨) فصلت.

والآيات تطلب من قريش الكافرة أن تنفق لبناء مجتمع متسامح ومتعاون بغض النظر عن العقيدة، لأن الكفر لا يلغي التعامل الإنساني: وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى

وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ(١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(١٥) لقمان.

القانون: الكفر لا يبيح معاملة الكافر المسالم بجفاء أو كراهية، بل يجب معاملته بإنسانية ومعروف.

وبعد أن تنهى سورة الممتحنة مسلمة قريش من موالاة ومودة مشركي قريش لأنهم أخرجوا المسلمين من مكة ولو ظفروا بهم فسيبيدونهم، تقول السورة: عَسَى اللهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللهُ قَدِيرٌ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٩).

فحتى مشركو قريش الذين ناصبوا الإسلام والمسلمين العداء وسعوا للقضاء عليهم، يأمر القرآن المسلمين أن يتعاملوا مع المسالمين من قريش – إن وجد بينهم مسالمين – بالحسنى والمعروف والمودة.

القانون: الأصل في تعامل المسلم مع غيره هو المودة والحسنى.

وليس في القرآن آية واحدة تشير ولو إشارة خفية إلى إباحة بدء الناس بالقتال والغارة عليهم وسلبهم أموالهم واستحياء نسائهم. لكنها كتب التراث التي صبغت الإسلام بصبغتها المقيتة.

مخالطة من يسخر من القرآن

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٦٨) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَـكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ(٦٩) الأنعام.

الآيات تشير إلى أن الرسول كان يخالط بعض مشركي قريش ويشاركهم مجالسهم، ولم تنهه عن ذلك إلا في حال تعرضوا للقرآن بالسخرية.

القانون: مخالطة الناس بغض النظر عن المعتقد هي الأصل.

القانون: في حال سخر غير المسلمين من القرآن فلا يجوز مجالستهم أثناء سخريتهم.

القانون: يمكن معاودة الجلوس معهم لو كفوا عن السخرية من القرآن" وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ".

القانون: في حال عاودوا السخرية من القرآن فلا يجوز مخالطتهم أبداً « وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».

القانون: على كل المسلمين الدعوة لله، دون أن ينصبوا أنفسهم هداة لدين الله والاكتفاء بما أمر به الرسول من تبليغ القرآن فقط « وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَـكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» (لا للوعظ القصصي).

وتقول سورة النساء: وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا(١٤٠).

القانون: لا يجوز القعود ولا الحديث مع من يسخرون من القرآن أو يتقولون عليه أو يؤولون عباراته لغير معناها.

التعامل مع الوالدين

وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ(١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(١٥) لقمان.

القانون: يجب على الولد شكر والديه وإظهار العرفان لهما.

القانون: لا يطاع الوالدان في معصية الله.

القانون: كفرهما ليس سبباً في هجرهما أو التعامل معهما بغلظة.

القانون: الوالدان الكافران تجب لهما الطاعة والتعامل اللطيف والإحسان كما المؤمنين.

وتقول سورة بني إسرائيل: وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً .... (٢٣).

الإحسان يدخل فيه كل تعامل حسن ودود وكل معاونة مادية أو معنوية أو مشاركة وجدانية.

القانون: الإحسان للوالدين عمل صالح، ومخالفته كبيرة.

وتقول نفس السورة: إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً (٢٣) بني إسرائيل.

القانون: مجرد التأفف وإظهار الانزعاج أو الملل منهما مخالف للإحسان إليهما.

القانون: نهر الوالدين أو توجيه كلام بذيء لهما مخالف للإحسان.

القانون: القول الكريم والكلام الودي اللطيف هو ما يجب أن يعامل به الوالدان.

وتقول سورة بني إسرائيل: وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً(٢٤).

القانون: من الإحسان للوالدين إظهار التذلل لهما.

القانون: الدعاء لهما من الإحسان لأنه يدخل البهجة لنفسيهما.

القانون: حقوق الوالدين لا تسقط بكفرهما.

وتواصل نفس السورة قائلة: وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً(٢٨).

القانون: إذا كان الوالدان (أو أحدهما) كافراً فمن حق الولد الإعراض عنهما. والإعراض هنا يعني عدم مشاركتهما في أي نشاط مخالف للدين.

القانون: كفر الوالدين لا يسقط حقوقهما.

القانون: كفر الوالدين لا يبرر هجرهما.

القانون: الكلام اللين والميسور للوالدين من حقوقهما ولو كانا كافرين.

وتقول سورة الأنعام: قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ...... (١٥١).

القانون: الإحسان للوالدين بالقول والفعل والعون المادي والمعنوي عمل صالح.

الغش التجاري

أول سورة ذكرت الغش هي سورة المطففين: وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ(١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ(٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ(٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ(٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ(٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(٦).

وبما أن القرآن لا يفترض واقعة ويتحدث عنها، ولكن السورة تنزل لتتفاعل مع ما يجري على الأرض عند نزولها، فالحديث عن المطففين هنا يشير إلى أن بعض تجار مكة يتعاملون بالغش التجاري كونهم يبحثون عن الربح بأي وسيلة. وهو منطق رأسمالي ما زال حياً بيننا إلى اليوم. فالغرب الرأسمالي أغرق أسواق العالم بأطعمة ومنتجات غذائية متنوعة كلها تحوي على أضرار جسيمة للمستهلك وتسبب أمراضاً مهلكة. والرأسمالية تعتمد في تسويق منتجاتها على الإعلانات الدعائية التي تقوم على جذب المستهلك وليس على توضيح محتويات السلعة. حيث نجد إعلاناً عن مشروب غازي أو وجبة سريعة يبين كم هي لذيذة المذاق، لكنه يتجاهل أنها تحوي دهوناً ثلاثية وأصباغاً ومواد مسرطنة. فالمهم في الفكر الرأسمالي هو الربح وليس المصلحة العامة، وهو مناقض لما يدعو له الإسلام.

ونعود للآيات التي تبدأ مع لفظ وعيد «ويل» المستخدم في اللغة العربية حتى اليوم بنفس المعنى وفي كل اللهجات العربية، لكن المفسرين أولوه ليكون وادياً في جهنم، وكلامهم لا عبرة به ولكن يُظهر أنهم يجهلون العربية وأن مجتمعاتهم التي عاشوا فيها مجتمعات انتشرت فيها العجمة لا تماثل من تخاطبهم السورة وقت نزولها.

والآيات تتوعد بشدة المطففين من قريش، الذين وصفتهم بأنهم: «إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ». فهم لا يشترون إلا الجيد والنافع من البضائع ولكنهم يبيعون بضائع مغشوشة ورديئة. وتحريم الغش التجاري يشمل كل نوع أو أسلوب للغش التجاري، الذي اعتبرته السورة من أعظم الكبائر. ويدخل في ذلك الإعلانات التجارية التي تروج لمنتج بإخفاء أضراره. أو تبالغ بمنافعه أو الحديث عنه بما ليس فيه. كما أن قوانين مكافحة الغش التجاري المستمدة من القرآن تلزم المنتجين أو المستوردين ببيان كل محتويات المنتج وما تسببه من أمراض أو ضرر بالصحة وما تفيده وما تنفع له بكل شفافية. وهذا سيغير جذرياً الإعلانات وكذلك المنتجات المباعة. ولن يكون

هناك مجال في دولة المسلمين لبيع المشروبات أو المأكولات الضارة. فالقرآن قال بحرمة الغش التجاري وترك للمسلمين حق تشريع القوانين الرادعة التي تضمن ذلك.

القانون: الغش التجاري بكافة أساليبه وطرقه، وفي كل مراحل الإنتاج، كبيرة.

القانون: الإعلانات التجارية التي لا تبين حقيقة المنتج والضار منها والمفيد تدخل ضمن الغش التجاري.

القانون: الإعلانات التجارية يجب أن تقوم على بيان حقيقة المنتج وليس التسويق لبيعه.

القانون: تشرع العقوبات الرادعة لكل من يقوم بإنتاج أو بيع أو تسويق أي منتج مغشوش.

القانون: المنتج المغشوش يعني كل منتج مضر بالصحة أو البيئة، أو يحوي عيوباً تصنيعية.

وجاء في سورة الرحمن: وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ(٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ(٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ(٩).

فالله جل وعلا خلق الكون بالميزان أي بدقة مثالية، وأوجب أن يكون التعامل التجاري بدقة مثالية لا طغيان فيها ولا ظلم متمثل بالغش (الخسران في الميزان).

القانون: يجب أن تخلو التعاملات التجارية من أي مظهر من مظاهر الغش بأي أسلوب ولو خفي على العميل.

القانون: التجارة أمانة ويجب أن تتم بكل نزاهة وشفافية.

القانون: الله خلق كل خلقه بدقة مثالية، والتعامل التجاري يجب أن يكون بدقة ونزاهة متناهية.

القانون: يجب القضاء النهائي على كل أنواع وأساليب الغش التجاري بأنواعها.

القانون: كل ما يؤدي للغش فهو غش يجب محاربته بنفس الصرامة التي يحارب فيها الغش.

وتقول سورة الأعراف في حديثها عن قوم شعيب: وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(٨٥) الأعراف.

والآيات تظهر أن الغش التجاري فساد في الأرض.

وتقول سورة بني إسرائيل: وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً(٣٥).

وتقول سورة الأنعام: وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(١٥٢).

الوفاء بالكيل والوزن بالقسط يعني بلغة العصر عدم غش المنتج بأي وسيلة والبعد عن التدليس في الدعاية له.

القانون: أي تدليس في التعامل التجاري كبيرة.

القانون: إخفاء أي حقيقة في المنتج يعتبر غشاً تجارياً.

القانون: يجب فرض عقوبات رادعة لكل من يخالف قوانين الحماية من الغش.

القانون: يجب التوعية المستمرة من الغش.

وتقول سورة البقرة: وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(١٨٨).

وأكل أموال الناس بالباطل (بغير وجه حق مشروع) فهو تحايل ومن الغش التجاري.

القانون: يجب سن القوانين التي تحمي الناس من التحايل.

القانون: يجب سن العقوبات الرادعة لمن يتحايل.

وتقول سورة النساء: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً(٢٩) وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً(٣٠)

لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل تعني بلغتنا البسيطة: لا يأكل بعضكم أموال بعض بالباطل (بالتحايل) لأن الشخص لا يتحايل ليأكل ماله هو بالباطل.

والتحايل هو نوع من الغش التجاري وإخفاء الحقائق والتدليس في البيع والشراء. أما الحلال فهو عرض البضاعة كما هي وبيان عيوبها ومحاسنها ومن رغب شراءها حصل عليها.

السورة هنا تفرض تشريعاً (قانون) يحرم أي نوع من أنواع الخداع والحيل للاستيلاء على أموال الغير، ومن يفعل ذلك فسيصلى النار. سواء تعرض لعقوبة بشرية في الدنيا أو لم يعاقب.

القانون: المسلم لا يغش، ومن يغش فقد ارتكب كبيرة، ومرتكب الكبيرة عالماً بحكمها فليس بمسلم ولو تسمى بالإسلام.

وتقول سورة الحديد، ومما جاء فيها: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥).

والآية تؤكد أن التعامل بين الناس يجب أن يقوم على القسط، وهو أعلى مراتب العدل. ولو أردنا أن نستخلص قانوناً مدنياً يعمل به في دولة الإسلام لكان كما يلي:

- وجوب أن يكون المشتري على علم تام بقيمة إنتاج السلعة – إن كانت منتجة محلياً – وكل التكاليف الأخرى ونسبة ربح المنتج وربح بائع الجملة وربح بائع التجزئة. ويكون سعر السلعة محدداً بناء على ما تقدم.
- وجوب معرفة المستهلك لكل ما تحتويه السلعة من عناصر.
- يجب عدم السماح ببيع أي سلعة تحتوي على مضار صحية أو بيئية أو أي مضار أخرى.

وهكذا ... ويجب سن قوانين واضحة شاملة تضمن خلو السوق من الغش، وتحمي المستهلك والبيئة. ومن ذلك عقوبات رادعة للتجاوزات في الدنيا، تسبق عذاب النار في الآخرة.

ومما تقدم يمكن تعريف الغش بصيغ عدة، منها:

ممارسة متعمدة للكسب غير المشروع أو العادل أو النزيه، عبر تضليل وتوجيه متعمد لإخفاء حقيقة المنتج عن المستهلك.

مهارة شيطانية للإقناع بقبول ما لا يقبل، وخداع وتغرير لاستغلال جهل وحاجة المستفيد لتصريف بضاعة أو خدمة سيئة.

وخيانة للأمانة وموت للضمير، واحتيال وغدر للكسب المادي.

ويدخل فيه صناعة أو بيع أو تسويق أو ترويج سلعة أو خدمة رديئة أو تحتوي على محاذير صحية أو مبالغة في أسعارها.

الغش التجاري، إذاً، يمكن تعريفه بصيغ عدة، مثل:

هو عبارة عن ممارسة متعمدة للكسب غير المشروع أو العادل. فهو تضليل وتوجيه متعمد لإخفاء الحقيقة. ومهارة شيطانية للإقناع بقبول ما لا يقبل. وخداع وتغرير لاستغلال جهل وحاجة المستفيد لتصريف بضاعة أو خدمة سيئة. و خيانة للأمانة وموت للضمير، واحتيال وغدر لتبرير الوسيلة للكسب المادي.

الإنفاق (تعامل)

هو مصطلح يعني أن يدفع القادر جزء من ماله كلما كان هناك حاجة لمحتاج أو للمجتمع، دون انتظار لاسترداد ما ينفق. ومن مسمياته في القرآن: الصدقات، ويدخل فيه ما أسماه القرآن الإحسان. وقد عطل العمل بالإنفاق كما ورد في القرآن منذ العصر الأموي واستبدل بما يعرف اليوم بالزكاة، مع أن الزكاة تأتي في القرآن لوصف الإنفاق وليس للدلالة على تشريع مستقل.

والزكاة الحالية يخلو القرآن من ذكر نصابها والنسبة الواجبة لدفعها وشروطها وكل ضوابطها. فكل ما يطبق باسم الزكاة هو مجرد فقه بشري محض يعتمد على ما ورد في كتب التراث ولا وجود له في القرآن. بينما يتكرر الأمر بالإنفاق كثيراً في القرآن منذ بداية الدعوة (سورة المدثر) وحتى وفاة رسول الله (سورة براءة)، مؤكداً أنه يجب أداؤه على المسلم القادر متى كان هناك حاجة سواء كانت لأفراد أو للمجتمع ككل. كما أن الإنفاق القرآني يشمل الدعم المالي والتعامل الإنساني واللباقة الاجتماعية، مما يوجد الألفة والمحبة بين أفراد المجتمع. ويضمن حياة كريمة لكل محتاج دون إهدار لكرامته أو النيل من إنسانيته.

ولأنه تم الحديث عن الإنفاق في كتاب مستقل فلن نعيد الحديث عنه هنا. والكتاب اسمه: رسالة في الشورى والإنفاق[٣].

---

٣ من منشورات الجمل.

النهار للمعاش والليل للسبات

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً(١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً(١١) النبأ

القانون: كل الأعمال التجارية تكون في النهار.

القانون: العمل بالليل للأعمال الضرورية التي يحددها وينص عليها القانون.

القانون: يجب تحديد الأعمال التي يسمح بمزاولتها في الليل.

تحريم الطغيان

فَأَمَّا مَن طَغَى(٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى(٣٩) النازعات.

كل من يؤثر مباهج الحياة على الآخرة فهو في النار.

وكل من يطغى ويتجبر فهو في النار.

وعادة من يطغى ويتجبر فهو ممن يؤثر مباهج الدنيا.

القانون: مباهج الدنيا لا يجب أن تؤخذ كغاية وهدف.

القانون: التكبر والغطرسة من الممارسات المحرمة التي يجب أن يحاربها المجتمع المسلم.

القانون: فرض توعية مستمرة للبعد عن أي مظهر من مظاهر الطغيان والغطرسة.

القانون: فرض توعية مستمرة لزرع أن مباهج الحياة ليست هدفاً بذاتها ولكنها وسائل لعمل الخير وما ينفع الناس.

النهي عن الصغار والذلة والبعد عن الكبرياء

وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ(١٨) لقمان.

الآية تورد ما قاله لقمان لابنه وهو يعظه، وهو مما فهمه من تعاليم الدين.

القانون: نهي المسلم عن الصغار والذلة.

القانون: المسلم عزيز ويجب أن يبقى عزيزاً لا يهان.

القانون: البعد عن أي شكل من أشكال الكبرياء والخيلاء.

وتقول سورة الفرقان: وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً(٦٣).

المشي على الأرض هوناً تعبير مجازي يقصد به البعد عن الخيلاء.

القانون: كل تصرف أو قول فيه رائحة كبر وخيلاء فهو كبيرة.

وتقول سورة بني إسرائيل: وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً(٣٧).

القانون: أي نوع من الخيلاء كبيرة.

القانون: يجب على الإنسان أن يتصرف كإنسان بحجمه الطبيعي بلا خيلاء وبلا صغار.

وسورة القصص بعد أن أخبرت عن قارون وأنه كان يملك المال وكان متكبراً تقول: تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(٨٣).

العلو التكبر والخيلاء، والفساد يكون بالظلم والتعدي.

القانون: الجنة لا تكون لمتكبر أو ظالم أو معتد.

التوبة

يقول تعالى: وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ(٢٥) الشورى.

فهل يقبل عز وجل التوبة على الدوام وبلا شروط؟

وهل يعفو سبحانه عن أي سيئة؟

وتقول سورة غافر: غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ(٣) غافر.

فمن الذي يُغفر ذنبه، وتُقبل توبته؟

ومن الذي ينتظره عقاب شديد؟

سنحاول الإجابة فيما يلي:

توبة غير المسلم

دخول الإسلام يعني التوبة عن الكفر، وهذه التوبة مقبولة في أي وقت ما لم تحضر الوفاة، لأن الله جل وعلا لم يقبل توبة فرعون: وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) يونس.

القانون: غير المسلم يمكنه الدخول في الإسلام في أي وقت يشاء ما لم تحضره الوفاة.

القانون: توبة الكافر أو مرتكب الكبيرة عند الوفاة لا تقبل.

وقد أكدت هذه الحقيقة سور كثيرة نختار منها ما ورد في سورة غافر: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ(٨٢) فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون(٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ(٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ(٨٥).

والآيات تخاطب قريشاً وتدعوهم للتفكير والاعتبار بما حدث لأمم سابقة هلكت وهي كافرة.

وتقول بأن بعضهم حاول أن يعلن إيمانه وتوبته لما رأى أن الكارثة حلت بهم، لكن مثل هؤلاء لن تقبل توبتهم لأنها جاءت متأخرة ولم يؤمنوا وقت الرخاء. وهذا دليل على أن التوبة لا تقبل من الكافر عند الموت، وهو ما يخالف ما تقول كتب التراث من أن التوبة مفتوحة حتى الغرغرة، لأن العاصي مصيره مصير الكافر ولو كان يعلن الإسلام كما سنرى.

القانون: التوبة للكافر أو مرتكب الكبيرة لا تقبل عند تأكد وقوع الكارثة كالزلزال أو البركان أو غيرها.

القانون: الكافر ومرتكب الكبيرة إن كان عالماً أن ما يفعله كفر أو كبيرة، فلا تقبل توبته عند العجز.

التوبة للمسلم

عندما يعتنق المرء الإسلام فهو قد وقع عقداً وعهداً وميثاقاً مع الله تنص بنوده على طاعة كل أوامر الله والانتهاء عن كل نواهيه: وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) المائدة.

القانون: دخول الإسلام يعني توقيع ميثاق وعهد مع الله يستمر مدى الحياة يقوم بموجبه العبد بطاعة كل أمر إلهي والانتهاء عن كل نهي إلهي، مقابل أن يحصل على سعادة الدنيا ونعيم الآخرة.

والدين كل لا يتجزأ، وهو ما يمكن فهمه من الآيات التالية التي تخاطب بني إسرائيل: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ (٨٦) البقرة.

وشاهدنا هو قوله تعالى: « أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ:".

القانون: الدين كل لا يتجزأ، وترك بعضه كترك كله.

وتعهد المسلم بطاعة أوامر الله واجتناب نواهيه يقابله تعهد من رب العالمين له بسعادة في الدين (لو طبق تشريعات القرآن):

الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ(٨٢) الأنعام.

القانون: من يؤمن ولم يدنس إيمانه بظلم (كبائر) فلهم الأمن.

ويقول تعالى: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (٩٦) الأعراف.

القانون: سعادة الدنيا مضمونة لمن يؤمن (ويعمل صالحاً).

كما يتعهد رب العالمين للمسلم بجنة في الآخرة: وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً (١٢٢) النساء.

القانون: الجنة مضمونة بالإيمان والعمل الصالح.

والآن: هل لمرتكب الكبيرة وهو مسلم توبة؟

يقول تعالى: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ(٢١) الجاثية.

من اجترح السيئات (الكبائر) ولو كان مسلماً فمصيره لن يكون كمصير من آمن وعمل صالحاً. وبما أن الآخرة فيها طريقان: الجنة، أو النار، فمن كان مصيره مختلفاً عن مصير من آمن وعمل صالحاً، فهو في النار.

والآية تقول بأن من اجترح (اقترف وكسب) الكبائر فهو في النار. وهذا لمن لم يتب.

أما من تاب فتقول عنه سورة غافر: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ(٧).

المغفرة للذين تابوا، وهو ما يؤكد أن التوبة متوفرة.

وتقول سورة الفرقان بعدما سردت بعض الكبائر: وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً(٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً(٦٩)إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً(٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً(٧١).

لكن التوبة ليست مطلقة ومتيسرة في أي وقت وفي كل الظروف، ولكنها مقيدة بضوابط بيّنها كتاب الله، ومن ذلك:

ما ورد في سورة النساء: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً(١٧).

الضوابط المذكورة في الآية لقبول التوبة، كما يلي:

- «للذين يعملون السوء بجهالة» تقبل التوبة لمن يعمل السوء (الكبائر) جاهلاً حكمها في الإسلام أبداً أو في تلك اللحظة.
- «ثم يتوبون من قريب» يجب أن تكون التوبة مباشرة بعد كسب الكبيرة.

«من قريب» تعني مباشرة بعد اقتراف الكبيرة. فقريب تعني وقتاً قصيراً، أي وقت غير بعيد. وهو ما يمكن فهمه مما ورد في سورة النمل أثناء الحديث عن تفقد سليمان لطيوره، وملاحظته أن الهدهد متغيب: وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ(٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ(٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ(٢٢).

وشاهدنا من الآيات هي قوله: «فمكث غير بعيد». والمقصود هنا هو أن سليمان بعدما افتقد الهدهد لم يمكث غير قليل من الوقت وحضر الهدهد المتغيب. «فمكث غير بعيد» تعبير عن الوقت القصير، وهو نفس التعبير الذي استخدمته سورة النساء لتقول بأن شرط قبول التوبة يجب أن يتبع الفعل مباشرة دون تأخير: « ثم يتوبون من قريب».

القانون: تقبل توبة من اقترف الكبيرة لمرة واحدة جاهلاً حكمها وما يترتب عليه في الآخرة.

فقد يعرف العاصي أن الخمر حرام لكن غاب عنه أن من لا يتوب عنه «من قريب» سيخلد في النار.

القانون: تقبل التوبة ممن اقترف الكبيرة وتاب مباشرة ودون تأخير.

وما ذكرته سورة النساء سبق وجاء في سورة الأنعام: وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥٤).

القانون: التوبة تقبل من الجاهل للحكم، إذا أصلح.

"أصلح" تعني استمر بفعل الأعمال الصالحة ولم يعد لاقتراف كبيرة.

القانون: قبول توبة من يقترف كبيرة جاهلاً بحكمها، ولا يعود لها مرة أخرى ولا لغيرها من الكبائر ويستمر بالأعمال الصالحة.

في المقابل!

كل من يخالف ضوابط قبول التوبة لا تقبل توبته، ويستفاد من ذلك القوانين التالية:

القانون: كل من يرتكب كبيرة وهو عالم بحرمتها فلا تقبل توبته.

القانون: كل من يستمر بفعل كبيرة عالماً بحكمها فلا تقبل توبته.

وقد ذكرت سورة النحل نفس هذه الضوابط: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٩).

القانون: تقبل توبة من يعمل السوء (الكبيرة) بجهالة، بشرط أن يتوب (مباشرة) ويصلح بعدها.

"أصلح" استمر في عمل الأعمال الصالحة والبعد عن السوء (الكبائر).

القانون: من عاود الكبيرة فقد خالف ضوابط التوبة، ومن خالف ضوابط التوبة فلا توبة له ولو بقي يعلن الإسلام.

ومعاودة الكبيرة أو الإقدام عليها ولو لمرة واحدة عالماً بحكمها يعتبر نقضاً للميثاق الموقع مع الله: الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ (٢١) الرعد.

وقد توعدت نفس سورة الرعد من يفعل ذلك: وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) الرعد.

القانون: فعل الكبيرة عالماً بحكمها نقض لعهد الله.

القانون: من ينقض العهد مع الله وهو عالم فليس له توبة.

وتؤكد سور كثيرة أن عدل الله المطلق يحتم عدم الغفران لمستحق النار أو تعذيب مستحق الجنة، ومن ذلك ما ورد في سورة الجاثية: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ (٢١).

ومجترح السيئات (الكبائر) بعلم مستحق للنار وكذلك من داوم عليها ولم يتب من قريب. ولو غفر الله له فقد ساواه بمن آمن وعمل صالحاً وهذا ظلم مناقض لعدل الله المطلق الذي لا يخضع للعواطف.

وتقول سورة النساء: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً

عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا (٣٠) إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا(٣١).

الآية (٢٩) تحرم أكل أموال الناس بالباطل، وتحرم قتل النفس.

الآية (٣٠) تقول إن من يفعل ذلك عدواناً وظلماً (متعمد) فسوف نصليه ناراً(ومن دخل النار خلد فيها).

الآية (٣١) تقول إن من يجتنب الكبائر تكفر سيئاته (الصغائر) وسيدخل الجنة. (أي أن مرتكب الكبيرة عالماً بحكمها مخلد في النار ولا توبة له).

القانون: من لا يجتنب الكبائر لن يدخل الجنة.

القانون: من يقترف الكبيرة وهو عالم بحرمتها وبحكمها فهو مخلد في النار.

التوبة للمرتد تحت التعذيب

تتحدث سورة النحل عن المستضعفين المسلمين الذين يتعرضون للتعذيب والكي بالنار لإجبارهم على الردة: مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(١٠٧) أُولَـئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ(١٠٨) لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ(١٠٩).

كل من أكره على الردة وقبل الردة فعليه غضب من الله وله عذاب أليم. وهذا يعني:

القانون: لا تجوز الردة حتى ولو تعرض المسلم للتعذيب.

القانون: يجوز إعلان الردة دون اعتقادها في القلب بشرط.

وهذا الشرط تخبرنا به نفس سورة النحل: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ(١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ(١١١).

كل من يعلن الردة تحت التعذيب، عليه عقد العزم على الهجرة والعمل الصالح وعدم البقاء

في أرض الكفر « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ".

ويستفاد من هذا ما يلي:

القانون: إعلان الردة تحت التعذيب جائز إذا عقد المعذب النية على مفارقة البلد بأسرع وقت يستطيع.

القانون: إذا هاجر وعمل صالحاً فتوبته مقبولة.

القانون: من أعلن الكفر وهو مؤمن فلا يجوز له البقاء في بلد العدو، وعليه مغادرته بأقرب فرصة سانحة.

القانون: من بقي في بلد العدو مخفياً إيمانه وهو يستطيع الهجرة فلا يقبل إيمانه.

القانون: قبول الإيمان مشروط بمغادرة بلد العدو، لأن البقاء فيه يعني إجباره على التخلي عن الدين، أو بعضه.

النطق بالشهادة عند الموت

نطق الشهادة عند الموت لا يكفي لقبول التوبة – كما سبق وذكر – وبالتالي فهي لا تضمن لقائلها الجنة ولا تغير من مصيره قبل أن يتفوه بها. فمن آمن وعمل صالحاً فسيدخل الجنة ولو لم ينطق بالشهادة عند الموت، ومن كان كافراً أو مرتكباً للكبائر فمصيره النار ولو نطق بالشهادة عند الموت. فالأعمال ليست بالخواتيم للمسلم، كما تقول كتب التراث، ولكن بالمداومة على الإيمان والعمل الصالح في الحياة.

والنطق بالشهادة عند الموت موروث يهودي، قد يكون تسلل لموروث المسلمين بعد الفتوح.

ولو نطق المسلم بشهادة التوحيد قبل موته فمن الفضائل وسيكتب له بها أجر إن كان مؤمناً يعمل صالحاً، لكن لو كان فاسقاً مرتكباً للكبائر فلن يشفع له نطقه بها. مثلما أن التوبة عند الموت للكافر والعاصي لا تقبل: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ(٨٢) فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون(٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ(٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ(٨٥) غافر.

القانون: لا تقبل التوبة (من مرتكب الكبيرة أو الكافر) ممن يتوب عند الوفاة، سواء كانت وفاته طبيعية أو بسبب كارثة طبيعية.

كل مخالفة لأمر أو نهي إلهي فعاقبته النار

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ(٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ(٢٧) ذَلِكَ جَزَاء أَعْدَاء اللهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاء بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ(٢٨) فصلت.

الآيات تخاطب قريشاً الكافرة، ولكنها دليل على أن من يخالف أمر الله أو نهيه فهو عدو لله وجزاؤه جهنم، لأنه جحد أمراً أو نهياً لله. ولا أهمية لكونه كافراً أو أنه يؤمن بالله وبرسوله، لأن الدين لا يتجزأ ولا يكفي أن نؤمن بأمر أو نهي ونكفر بآخر، لأن كل أوامر الله ونواهيه لها نفس الأهمية، ومخالفة واحد منها جحود بآيات الله موجب للنار.

وتقول سورة الشورى: وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣٨).

فمن صفات المسلم أن يستجيب لربه. والاستجابة هنا تعني الامتثال لأوامره وتنفيذها، والانتهاء عن نواهيه والبعد عنها.

القانون: كل أمر إلهي واجب التنفيذ.

القانون: كل نهي إلهي يجب الابتعاد عنه.

القانون: مخالفة أوامر الله ونواهيه كبيرة.

وتقول سورة النساء:

تجنب اللغو

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ(٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ(٣) المؤمنون.

اللغو هو سقط الحديث والإسفاف والكلام البذيء والفاحش.

القانون: الإعراض عن اللغو عمل صالح، ومخالفته كبيرة.

وهو ما تؤكده سورة الفرقان: وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً(٦٣).

وتقول سورة الفرقان في آية أخرى: وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً(٧٢).

القانون: إذا تعرض المسلم لكلام بذيء فعليه تجاهله والترفع عن مواجهته.

وتقول سورة الحج تصف المؤمنين: وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ(٢٤).

القانون: من صفات المؤمن الالتزام بالكلام الطيب، والبعد عن القول الفاحش.

وهذا لا يعني أن نتصنع الوقار الزائد عن الحد لدرجة الكبر، كما يظهر على رجال الدين اليوم. حيث يتعمدون تصنع الكلام المقتضب والتصرف بنوع من الجلافة والتقعر في الكلام وعدم التبسط في الحديث، ويتواصون بهذا على أنه المقصود بالوقار والطيب من القول.

هذا عبارة عن تجاهل للمتحدث ومن يخاطبهم إما لأنهم لا يريدون أن تنكشف سطحية معارفهم، أو لأنهم يحرصون على أن يحيطوا أنفسهم بهالة. وفي كلا الحالين فهو كبر وتكبر ولا علاقة له بالكلام الطيب والبعد عن فحش القول.

وتقول سورة النساء: لاَّ يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً عَلِيماً(١٤٨) النساء.

مقابلة السيئة بالحسنة

وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ(٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٣٦) فصلت.

الآيات تخاطب الرسول الذي وصلت إساءات قريش له إلى وضع مزعج في الفترة التي نزلت فيها سورة فصلت. وقد أمر الرسول بضرورة مبادلة الشتيمة بكلام حسن، لأن هذا سيجعل الشاتم يشعر بالأسف على شتيمته. لكن مبادلة الشاتم الشتائم تؤجج الوضع وتوجد للشاتم المبرر للتصعيد.

القانون: مبادلة التصرفات السيئة بالحسنى فضيلة[٤].

القانون: مبادلة الكلام البذيء بالكلام الطيب الحسن فضيلة.

القانون: ضبط النفس فضيلة.

القانون: ضبط النفس يكون بالاستعاذة من الشيطان لكي يبتعد الإنسان بتفكيره بالإساءة والتحول من الغضب للهدوء.

البعد عن الغضب

وتقول سورة الشورى: وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ(٣٧).

من صفات المؤمن أنه متى غضب من تصرف أو قول سيء صدر بحقه من الغير سارع للغفران والتحول من الغضب للهدوء.

القانون: من الفضائل أن تقابل السيئة بالحسنة.

القانون: من الفضائل ألا يغضب المسلم ولو أغضب.

القانون: الغضب صفة مذمومة، والمؤمن يجب أن يتحلى بالصفات الحميدة.

القانون: حث المسلم على التعود على السيطرة على النفس وعدم الغضب من أي موقف.

القانون: في حال حاول الغير إغضاب المسلم فعلى المسلم الهدوء، والتسامح مع من أغضبه.

القانون: عدم الغضب من المعتدي لا يلغي دفع عدوانه وظلمه وإيقافه عن التعدي.

التشريعات واحدة للرجل والمرأة على حد سواء

مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ(٤٠) غافر.

الآية **دليل** على أن الرجل والمرأة متساويان **كلياً** أمام الله، والمطلوب منهما من أعمال واحدة، وليس هناك تشريعات خاصة بالرجل وأخرى خاصة بالمرأة. وبناءً عليه يمكن القول بأنه

---

٤ الفضائل هي تلك الأعمال والسلوكيات الحسنة التي تزيد أجر صاحبها ليكون من الأبرار في المستوى الأعلى من الجنة، لكنها لا تؤدي بتاركها للنار.

ليس هناك جنة للرجل وجنة أخرى للمرأة أو نعيم في الجنة للرجل مختلف عن المرأة. وهذا ما يؤكد أن تلك الصور المجازية الحسية التي تصور ما في الجنة من نعيم بصور حسية معروفة لدى قريش هي لتقريبها لذهن المدعو وهو الرجل القرشي. فكأنها تقول له إن كنت تعتقد أن المتع في الخمر والنساء والجو البارد والطبيعة الخضراء، فالجنة كذلك. لذا فكل المتع التي تصورها الآيات بصور حسية موجهة لمخاطبة كبراء قريش الرجال لأنهم هم من يقود المجتمع المكي إلى البقاء على الكفر ولو آمنوا لآمنت مكة بنسائها وأطفالها ومواليها وعبيدها. ولم يخاطب القرآن المرأة لأنها لم تكن تقف ضد الدعوة ولم يكن لها كلمة فصل في تقرير مستقبل المجتمع أو العائلة.

حفظ الفرج

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ(٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ(٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ(٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ(٧) المؤمنون.

وتقول سورة المعارج: وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(٢٩) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(٣٠) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ(٣١) .... أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ(٣٥) المعارج.

حفظ الفرج يكون من ممارسة أي فاحشة كانت، أو حتى الإثارة المتعمدة الجنسية الحرام.

القانون: حفظ الفرج عن الحرام عمل صالح، ومخالفتها كبيرة.

القانون: الممارسة الجنسية يدخل ضمنها: اللمس والتقبيل وكل المقدمات الجنسية الأخرى، بين شخصين خارج نطاق الزوجية المباح، ولو لم تؤد لممارسة الفاحشة بشكل كامل.

القانون: كل من يبتغي شيئاً من هذه الممارسات - قلت أو كثرت - فهو من العادين المتجاوزين لأمر الله وحدوده.

القانون: كل من تعدى حدود الله واوامره فهو من الظالمين، كما تقول الآية: (٢٢٩) من سورة البقرة: « ومن يتعد حدود الله فاولئك هم الظالمون».

القانون: جزاء الظالمين النار: لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) الأعراف.

القانون: من يحفظ فرجه فهو في الجنة (لو التزم ببقية الأعمال الصالحة).

القانون: إن كان الملتزم بحفظ الفرج في الجنة فمن لا يحفظ فرجه فهو في النار.

القانون: توعية المجتمع توعية مستمرة مؤثرة بالبعد عن الفواحش وغرس القيم والفضائل، بعض ما يجري الآن في بلاد المسلمين من تحريض على الفساد والانحلال والمتع الحرام بما تعرضه شاشات التلفزيون من برامج وأفلام لا تعرض في قنوات التلفزة في كثير من الدول الكافرة.

كل ما قرب للفواحش من قول أو عمل فهو كبيرة

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ(٢٦) يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ(٢٧) الأعراف.

الآيات تخاطب قريشاً وتذكرهم ببعض نعم الله عليهم، ومن ذلك نعمة توفر اللباس والحشمة. ثم جاءت آيات تتحدث عن آدم وامرأته وكيف أغواهما الشيطان فأكلا من الشجرة التي كانت شجرة مخدرة فخلعا ثيابهما وتصرفا بعيداً عن الحشمة ولما أفاقا واكتشفا أنهما عاريان طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ليواريا سوآتهما.

القانون: يحرم التعري الكامل أو الجزئي لأنه مخل بالحشمة ومدعاة للفجور وتحبيب للفاحشة.

القانون: السباحة على البحر بالشكل الجماعي الشائع في العالم اليوم مخل بالحشمة ومدعاة للفجور والفاحشة فهو حرام.

القانون: لا يجوز السماح بالسباحة العارية أو العارية جزئياً على الشواطئ.

القانون: كل أكل أو شرب يغيب العقل حرام.

وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء

أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٢٨) الأعراف.

على ما يبدو أن جلسات المدام القرشية يتخللها فجور وفقد للحشمة، وكانت قريش تقول إن هذا اباحه الله لها، بحجة أنه سبحانه هو من خلق الثمار التي يصنع منها الخمر، ولو لم يبحها الله لما خلقها.

القانون: أي نوع من الفواحش قل أو كثر فهو حرام.

القانون: كل ما يصدر من شارب الخمر يعاقب عليه كفعل عمد.

القانون: كل فعل أو قول أو تصرف فاحش أو يؤدي لفاحشة أو يحبب لها فهو حرام.

القانون: لا يجوز الترويج لأي نشاط يُقرّب من الفواحش بأي وسيلة.

وتستمر آيات الأعراف لتقول في نفس الموضوع: قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٣).

القانون: أي فاحشة كبيرة بغض النظر اقترفت بالخفاء أو بالجهر.

القانون: كل محرم لا تقل حرمته لو مورس في الخفاء عن حرمته في العلن.

القانون: كل كبيرة حرام.

لأن الله جل وعلا لا يخفى عليه شيء، وهو المعني بتجنب الكبائر وليس المهم في الكبيرة التخفي عن الناس: وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ(٦٩) القصص.

وتقول سورة الشورى: وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ(٣٧).

الآية تقول إن من صفات المؤمن اجتناب كبائر الإثم، واجتناب الفواحش. فاجتناب الفواحش يعني اجتناب كل ما يقرب لها ويرغب فيها ويحسنها من قول أو عمل، بما في ذلك المسلسلات والأفلام والبرامج.

القانون: كل ما يعتبر تحريضاً على الفواحش كبيرة.

القانون: يجب سن قوانين تمنع ما يقرب من الفواحش بأي وسيلة وسن عقوبات رادعة للمخالف.

وتقول سورة الأنعام: قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(١٥١).

القانون: الاقتراب من الفواحش بأي وسيلة كبيرة سواء كان في الخفاء أو الجهر.

وتقول سورة النحل: إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٩٠).

النهي الإلهي ليس للتخيير ولكن للتنفيذ.

القانون: الانتهاء عن الفواحش عمل صالح، وإتيان أي شيء منها كبيرة.

الزنا

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً(٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً(٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً(٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً(٧١) الفرقان[٥].

القانون: الزنا محرم، ومن يقترفه فقد ارتكب كبيرة.

القانون: من يمارس الزنا وهو عالم بحرمته، فهو في النار.

القانون: من فعل فاحشة الزنا وهو لا يعلم بعظمها وتاب، والتزم بضوابط وشروط التوبة، فالله تواب رحيم.

وتقول سورة بني إسرائيل: وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً(٣٢).

القانون: كل ما يقرب للزنا أو يحبب له أو يهون إتيانه فهو منهي عنه بنفس مستوى النهي عن ممارسة الزنا.

القانون: كل ما له علاقة بالزنا فهو كبيرة كما الزنا.

والآية تنفي زعم قريش أن الفواحش التي يرتكبونها في مجالسهم الخاصة للشراب مباحة.

---

٥ «إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً» إلا هنا بمعنى «أما». وشكرا لأخي موسى المالكي الذي لفت انتباهي لها.

وتكرر سورة الشورى هذه الأحكام: وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ(٣٧).

القانون: تجنب كبائر الإثم (المعاصي) والفواحش عمل صالح.

القانون: اقتراف أو الاقتراب من كبائر الإثم والفواحش كبيرة.

حفظ الأمانة والعهد

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(١) ..... وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ(٨) المؤمنون.

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ(٣٢) ...... أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ(٣٥). المعارج.

حفظ الأمانة يعني الالتزام بكل وعد أو عهد أو ميثاق، صغيراً كان وعلى المستوى الشخصي أو كبيراً وعلى مستوى الأمم.

القانون: الأمانة في كل شيء صغر أو كبر عمل صالح.

ويدخل في ذلك الحرص على إجادة العمل ودقته، وقول الحق.

القانون: المحافظة على العهد عمل صالح.

ويدخل في ذلك المواعيد والمواثيق والمعاهدات.

القانون: الالتزام بالمواعيد والعهود والمواثيق عمل صالح، وخيانتها كبيرة.

وتخاطب سورة النساء المسلمين قائلة: إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً(٥٨).

القانون: أداء الأمانة أمر إلهي مباشر.

القانون: خيانة الأمانة خيانة لأمر الله وكبيرة.

إحضار الله والحساب في النفس

إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ(٥٧) المؤمنون.

وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ(٢٦) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ(٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ(٢٨) المعارج.

وتقول سورة الفرقان: وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً(٦٥) إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً(٦٦).

القانون: المؤمن يحضر الله والحساب في نفسه على الدوام.

وإحضار الله في النفس على الدوام رادع عن فعل السيئات، مثل تذكر أن كل شيء تسجله صحيفة الأعمال حتى الأفكار، وإحضار هذا في النفس على الدوام يعمل على إحجام المرء عن فعل السيئات من قول أو عمل، والسعي لفعل الخيرات.

البعد عن الشرك

وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ(٥٩) المؤمنون.

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً(٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً(٦٩) ...... أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً(٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً(٧٦) الفرقان.

البعد عن الشرك يعني عن كل ما له علاقة بالشرك أو يقرب منه، ويدخل في ذلك أمور كثيرة، منها:

- الاستعانة بغير الله.
- اتباع تشريع لغير الله. ويدخل في هذا فقه المذاهب لأن مصادرها بشرية.
- الاعتقاد بأن هناك من يضر أو ينفع من دون الله. كالاعتقاد بالسحر والعين وتلبس الجن والاعتقاد بالطالع والتشاؤم.

القانون: الشرك مع الله بأي وسيلة كبيرة موجبة للنار.

وتقول سورة الأعراف: قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٣).

الشرك بالله يعني عبادة غير الله مع الله، ويعني اتباع تشريعات غير الله.

القانون: اتباع أي تشريع من غير الله شرك مع الله.

القانون: فقه المذاهب التي تعتمد على غير القرآن مما لم ينزل الله به سلطاناً.

القانون: ما يسمى بالفتوى تدخل ضمن التقول على الله ما لم يقل.

وتقول سورة بني إسرائيل: لاَّ تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَـهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً(٢٢) .... ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً(٣٩).

ومن يتوعده الله بالذم والدحر لن يشم رائحة الجنة.

القانون: اتخاذ أي إله مع الله شرك موجب للنار.

القانون: اتباع أي تشريع لغير الله إشراك له مع الله.

وتقول سورة الأنعام: قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(١٥١).

موالاة غير الله شرك وعبادة لغير الله

أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ(٣) الزمر.

الآية تخاطب قريشاً وتنكر عليهم موالاة غير الله. والآية تسمي عبادة الأصنام موالاة، وهو ما يعني أن الموالاة عبادة، ومن والى شيئاً أو إنساناً فقد عبده من دون الله.

القانون: موالاة غير الله عبادة له من دون الله.

القانون: موالاة غير الله شرك.

وتقول سورة بني إسرائيل: لاَّ تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَـهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً(٢٢).

القانون: كل مشرك مذموم من الله، مدحور منه سبحانه.

القانون: من يذمه الله أو يدحره فلن يدخل الجنة.

وتقول سورة الأنعام: وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن

سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٥٣).

صراط الله المستقيم مثله كتابه، وكل كتاب يمثل من قاله.

القانون: اتباع أي تشريع من خارج القرآن خروج عن صراط الله المستقيم.

الخروج عن الصراط يؤدي لجهنم.

وتقول سورة الأنعام: قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ(٥٦) الأنعام.

الآية تخبر قريشاً أن الرسول نُهي عن عبادة ما تعبد قريش من دون الله، وهي الأصنام. وهي عبادة تقوم على الهوى.

ويستفاد من هذا ما يلي:

القانون: يحرم اتباع أي تشريع لم يقل به الله.

القانون: الرسول كغيره من الناس يجب عليه الإيمان بدين الله.

القانون: الرسول ليس مشرعاً ولكنه متبع لدين الله الذي يوحى إليه.

كل ما حرم بدون دليل من القرآن فليس حراماً ولكنه تقول على الله

تقول سورة الأنعام مخاطبة قريشاً: قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللّهَ حَرَّمَ هَـذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ(١٥٠).

والآية ترد عليهم ما أشارت له الآية السابقة التي تقول: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ(١٤٨).

فقريش يحرمون أشياء ويقولون بأن الله لو لم يشأ أن نحرمها فلن نحرمها، ولو شاء لنا ألا نشرك لما أشركنا. وكلامهم هذا مردود عليهم لأنه مجرد خرص وظن ولا يعتمد على علم ولا مصدر.

وقد تكرر ذكره في سورة النحل: وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا

حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللهِّ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِّ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ(١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١١٧).

القانون: كل ما يحرمه الناس دون دليل صريح من القرآن فليس من دين الله.

القانون: كل تحريم أو تشريع بخلاف القرآن فهو خرص وليس من دين الله.

تحريم الإسراف والبخل

وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً(٦٧) الفرقان.

وتقول سورة الأعراف: يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ(٣١).

القانون: النهي عن الإسراف.

القانون: الإسراف يكون في الأشياء المباحة أصلاً كالأكل والشرب والملبس والمسكن والمركب. لأن الصرف على محرم حرام ولو قل، ولا يعتبر إسرافاً.

وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ(١٤١) الأنعام.

الآية تخاطب قريشاً ومع ذلك تطلب منهم أن يأكلوا ولا يسرفوا. ويستفاد من هذا ما يلي:

القانون: الإسراف في كل شيء حرام.

القانون: يمنع الإسراف لكل من يعيش في دولة الإسلام ولو لم يكن مسلماً.

وتقول سورة بني إسرائيل: وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً(٢٩).

الآية تعبر عن البخل بتعبير مجازي واصفة إياه وكأنه غل اليد وربطها بالعنق لئلا تمتد للجيب وتخرج بعض المال منه. ويكون البخل هو التقتير على المصروفات الحلال من أجل الاحتفاظ بالمال. وعبرت الآية عن الإسراف بتعبير مجازي أيضاً واصفة إياه وكأنه بسط لليد فلا يستقر على راحتها شيء من المال. ويكون الإسراف هو صرف المال على أشياء غير

ضرورية ومتع ولو كانت في الأصل حلالاً ولو لم تكن أسعارها مبالغاً فيها.

ويكون الفرق بين التبذير والإسراف هو أن التبذير صرف بعض المال على أشياء حلال في الأصل لكن أسعارها فاحشة. بينما الإسراف هو إضاعة المال في مجالات مباحة لكنها ليست ضرورية، حتى لو كانت أسعارها زهيدة. لكنها تؤدي مجتمعة إلى ضياع المال.

فالمبذر قد لا يضيع ماله ولكنه يدفع للسلع الفاحشة الغلاء، بينما المسرف يدفع لسلع رخيصة لكنه يضيع عليها المال.

القانون: البخل رذيلة.

القانون: الإسراف رذيلة.

القانون: الإسراف مذموم مماثل لذم البخل.

البخل

هو الامتناع عن الصرف الحلال أو التقتير.

تقول سورة بني إسرائيل: وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً(٢٩).

فوصف اليد المغلولة (المربوطة) للعنق وصف مجازي وكناية عن الامتناع عن الصرف الحلال.

القانون: البخل رذيلة.

وتقول سورة النساء: الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا(٣٧).

البخل هنا يقصد به الامتناع عن الإنفاق بدليل سياق الآيات، حيث نقرأ في الآيتين التاليتين ما يلي: وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاء قِرِينًا(٣٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللّهُ وَكَانَ اللّهُ بِهِم عَلِيمًا(٣٩) البقرة.

القانون: الامتناع عن الإنفاق مورد للنار.

الأمر بالقسط والنهي عن الظلم

تقول سورة الأعراف: قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ(٢٩).

القانون: القسط في التعامل مع كل خلق الله.

وتقول سورة النحل: إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٩٠).

الآية تُذكّر بتشريعات سبق وفرضها القرآن، ولابد أن حادثة وقعت كانت وراء التذكير بهذه التشريعات. والسورة نزلت في وقت كانت قريش قد شددت من تضييقها على المسلمين وكانت تقوم بتعذيب المستضعفين منهم، وتأتي السورة في مثل هذه الظروف لتأمر بالعدل، ليس فقط في تعامل المسلم مع المسلم ولكن في تعامل المسلمين مع قريش التي تعذبهم وتضطهدهم، وهو ما أكدته سور أخرى، مثل: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(٨)المائدة.

القانون: العدل واجب على المسلم بأمر من الله.

القانون: العدل يشمل كل تعامل، قول أو فعل، أو اتفاقيات أو غيرها.

القانون: العدل يكون بين المسلمين وبينهم وبين غيرهم.

وتقول سورة النساء موجهة الحديث للمسلمين: إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً(٥٨).

الحكم بالعدل ليس في المحكمة، ولكن في الحياة اليومية.

القانون: التعامل بالعدل من الأعمال الصالحة.

قول الحق وعدم كتم الشهادة

وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ(٣٣) ...... أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ(٣٥). المعارج.

قول الحق بغض النظر عمن سيتضرر عمل صالح.

القانون: كتم الشهادة كبيرة.

وتقول سورة الفرقان: وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً(٧٢).

القانون: قول الحق عمل صالح، والكذب، أو إخفاء شهادة الحق، كبيرة.

القانون: الكذب وشهادة الزور من الكبائر، وتجنبها عمل صالح.

وتقول سورة الأنعام: وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(١٥٢).

إذا قلتم فاعدلوا أو لا تقولوا، والعدل هنا يقصد به قول الحق المجرد دون مواربة بغض النظر عمن يتضرر « وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ".

القانون: قول الحقيقة عمل صالح، ومخالفته كبيرة، ولو كان قول الحقيقة سيضر بذي قربى وينصف عدواً.

وتقول سورة الحج: ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ(٣٠).

القانون: قول الزور كبيرة.

والزور هو بخلاف الحقيقة وهو الكذب. والتزوير هو التدليس وإخفاء الحقيقة.

الشهادة بالظن

تقول سورة بني إسرائيل: وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً(٣٦).

الآية تنهى عن التحدث أو الشهادة بالظن.

القانون: الشهادة بالظن كبيرة.

القانون: سوء النية بالآخرين بلا دليل رذيلة.

دفع الظلم والبغي

وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ(٣٩) وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ(٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ(٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(٤٣) الشورى.

أول سورة تنزل في المرحلة السادسة للدعوة في مكة التي بدأت قريش فيها بالتعدي الجسدي على مستضعفي المسلمين من موالي وعبيد قريش السابقين. وهذه الآيات أول آيات توجه المسلمين بما يجب عليهم فعله حيال هذه التعديات، برغم أن عدد المسلمين قليل وليس لهم قوة تمنعهم من سطوة قريش وبطشها. ومع ذلك تقول الآيات إن الانتصار ضد البغي واجب، وعليهم معاقبة كل من يسيء لهم بمثل إساءته. ولم تطلب السورة من المسلمين الصبر لأنهم ضعفاء قلة، وهو ما يخالف ما رسخ وشاع بين المسلمين من أقوال في كتب التراث تطلب ألا يطالب الناس بحقوقهم ضد الباغي إذا كان متسلطاً وأن عليهم الصبر عليه.

ومن القوانين المستفادة من الآيات ما يلي:

القانون: يجب دفع الظلم والبغي بغض النظر عن ضعف المسلمين وتسلط وجبروت الباغي.

القانون: دفع البغي والظلم عمل صالح.

القانون: ترك دفع البغي والظلم أو التهاون فيه كبيرة.

القانون: معاقبة المسيء بمثل ما أساء واجب.

القانون: التسامح مع المسيء والمعتدي فضيلة.

القانون: الانتصار من الظالم والباغي حق للمظلوم والمعتدى عليه.

القانون: يجب رد المظلمة على المظلوم.

القانون: البغي والظلم كبيرة موجبة للنار.

القانون: تسامح المظلوم لا يعفي الظالم والباغي من العقاب ما لم يتب عن البغي ولا يعود.

وتقول سورة الشعراء التي نزلت في نفس مرحلة سورة الشورى:

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ(٢٢٧).

من الأعمال الصالحة الموجبة للجنة الانتصار للظلم الواقع عليهم.

القانون: دفع ظلم الظالم انتصار على الظلم.

القانون: الانتصار على الظلم عمل صالح موجب للجنة.

القانون: دفع الظلم واجب تحت أي ظرف.

فالآية أمرت المسلمين القلة الضعيفة بدفع الظلم ولم تأمرهم بالصبر عليه لأنهم ضعفاء.

وتقول سورة الأعراف: قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٣).

القانون: البغي بغير الحق جريمة.

البغي هو التعدي على حقوق الآخرين أياً كانت، ولا فرق إن كانت معنوية أو مادية، قليلة أو كثيرة.

وتقول سورة النحل من سور المرحلة الأخيرة للدعوة في مكة:

إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٩٠).

القانون: الانتهاء عما نهى الله عنه عمل صالح ومخالفته ولو بالقليل كبيرة.

القانون: البغي مما نهى الله عنه.

وتقول نفس السورة: وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ(١٢٦).

القانون: عقاب المعتدي بمثل ما اعتدى دون تجاوز.

القانون: الصبر وعدم معاقبة المعتدي عمل صالح.

وتقول سورة الحج آخر سورة نزلت في مكة والمسلمون يتعرضون لأشد أنواع التعذيب:

ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ(٦٠).

القانون: لا يجوز ترك دفع الظلم تحت أي ظرف ولأي سبب.

ما يحرم من المآكل

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِّ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِّ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِّ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٣) الأعراف.

قريش كانت تحرم أموراً لم يأمر الله بتحريمها فجاءت هذه الآيات تبين ما الذي حرمه الله، وتقول بأنه لا حرام إلا ما يحرمه الله، وليس ما يحرمه الناس.

القانون: كل ما لم يحرمه الله من الزينة والطيبات من الرزق فهو حلال.

القانون: الزينة تعني الملابس والحلي. ويدخل فيها المركب والمسكن وضروريات الحياة حسب الزمن.

القانون: كل مباح يكون بشرط عدم الإسراف المنهي عنه في آية سابقة: يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ(٣١) الأعراف.

القانون: كل إسراف في مباح فهو حرام.

القانون: كل الطيبات من المأكل حلال.

القانون: الطيبات هي التي لا تكرهها النفس السوية عادة. (يوضع لها تعريف مفصل).

القانون: الخبائث حرام.

الخبائث: هي كل ما تعافه النفس السوية عادة. (يوضع لها تعريف مفصل).

قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِّ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٤٥) الأنعام.

وقد أعادت سورة النحل ذكره: فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ(١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِّ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللهَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١١٥).

القانون: الحرام هو: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، والفسق الذي أهل به لغير الله (ما ذبح

لنصب أو وثن أو بأي مسمى ليس لله).

القانون: من اضطر غير باغ ولا عاد (أي متجاوز للحلال وهو يعلم) فلا إثم عليه.

وتأتي سورة المائدة بتفاصيل ما يمكن اعتباره من الميتة أو في حكمها: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣).

الميتة تشمل: « المنخنقة وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ».

القانون: الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به (ما ذبح كقرابين للآلهة) أكلها حرام وكبيرة.

القانون: ما يدخل في حكم الميتة: «مَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ»، « وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ».

القانون: ما اصطاده السبع أو الطائر المدبر على الصيد إذا ما ذكي قبل موته فهو حلال.

القانون: الاستقسام بالأزلام وكل ما في حكمها للتطير أو التفاؤل أو الاعتقاد بنفعه أو ضرره من الجماد فهو ممارسة وثنية. ويدخل في ذلك الاعتقاد بما يسمى «العين».

وتقول السورة نفسها: يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(٤) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ .. (٥).

الطيبات هي ما لا يكره في العادة، وليس من القاذورات. وهي قد تختلف من مجتمع لآخر.

القانون: كل ما هو طيب وطاهر فهو حلال.

القانون: كل ما صاده طير أو حيوان مدرب على الصيد وذكر اسم الله عليه فهو حلال.

القانون: طعام أهل الكتاب حلال.

القانون: كل طعام طيب لأي ملة حلال ما لم يتأكد ذبحه لنصب أو أوثان أو ذكر غير اسم الله عليه.

وتقول سورة الحج: وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللهَّ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهَّ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٣٦) لَن يَنَالَ اللهَّ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَّ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ(٣٧).

البدن تقول قواميس اللغة أنها حيوان الوعل وإذا كانت حلالاً فيمكن أن يقاس عليها حيوانات أخرى، على ألا يكون قتلها إلا بسبب الحاجة لأكلها وليس للمتعة.

وقد يكون المقصود بالبدن هنا الجمال.

ذوات الظفر مباحة

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ(١٤٦) الأنعام.

الآية تذكر أن الذين هادوا حرم عليهم ما ليس محرماً عقوبة لهم لبغيهم. والمفسرون يقولون إن الظفر يعني «كل ما لم يكن مشقوق الأصابع كالإبل والنّعام». وهذا الكلام غير دقيق، فالنعام طائر وليس حيواناً، كما أن الإبل والبقر والضأن والمعز لها أقدام (حوافر) مزدوجة تبدو كإصبعين. بينما نجد أن الخيل والبغال والحمير لها حافر واحد وليست مشقوقة. وتبدو وكأنها ظفر، فتكون هي المقصودة في الآية والتي حرمت على الذين هادوا ولم تحرم على غيرهم.

وكلام المفسرين لا يعتمد عليه لأنهم يعتقدون أن ذوات الظفر (الحافر المفرد) يحرم أكلها، وهو ما أخذ به بعض أتباه المذاهب، ولم يقل به القرآن.

القانون: الأنعام بأنواعها الأربعة مباحة.

القانون: ذوت الظفر مباحة أصلاً لكنها حرمت على الذين هادوا عقاباً لهم لظلمهم.

وتقول سورة البقرة: يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ

الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ(١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(١٦٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ(١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ(١٧١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ(١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٧٣) البقرة.

يبدو أن بعض من دخل الإسلام بقي يحرم ما كان يراه محرماً قبل إسلامه ولا يأكله برغم أن الله لم يحرمه. فجاءت السورة لتقول لهم أن يتركوا تمسكهم بالموروث كما يتمسك المشركون، وأن يتبعوا ما يقول لهم القرآن. ولا يحرموا إلا ما حرم، والقرآن لم يحرم سوى ما ذكرته الآية (١١٥) من سورة النحل المكية والذي تذكر به الآية (١٧٣) هنا بالنص: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١١٥) النحل.

معاملة المخلوقات الحية على الأرض

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ(٣٨) الأنعام.

كل المخلوقات الحية لها حياة اجتماعية تتناسب مع ما خلقت من أجله. وكلها ستبعث، وهو ما يعني أنها ستحاسب. وسيكون منها ما هو من أهل الجنة ومنها ما هو من أهل النار كالبشر.

هذه الآية تحتم على البشر أن يتعاملوا مع المخلوقات الأخرى بكل إنسانية ولا يجوز التعامل معها بخلاف ذلك.

القانون: سن قوانين لحماية الحيوان تضمن عدم تعرضه للتعذيب أو تؤدي لانقراضه.

القانون: وضع برامج تثقيفية تزرع احترام المخلوقات الحية والتعامل معها بكل إنسانية.

القانون: سن القوانين الرادعة لكل من يعرض حياة المخلوق للخطر أو يعذبه أو يضر به أو ببيئته.

ذكر الله والتسبيح يكون في النفس

وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ(٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ(٢٠٦) الأعراف.

الملاحظ والمعتاد الآن هو سماع التسبيح وذكر الله بصوت جهوري، والآية - كما هو واضح - تأمر الرسول بأن يكون التسبيح وذكر الله فيما بين المرء ونفسه، وليس بصوت جهوري.

القانون: التسبيح وذكر الله يكون في النفس.

القانون: التسبيح وذكر الله بصوت جهوري قد يدخل في باب التظاهر.

التحريم، بلا دليل من كلام الله، افتراء على الله

قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ(٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ(٦٠) يونس.

قريش تحرم بعض المآكل، والآية تقول بأن الحرام يحتاج لدليل من الله، ولا يحرم ما يحرمه الناس من عند أنفسهم.

وكل تحريم بدون دليل من كلام الله فهو كذب على الله مفترى، مصير صاحبه النار.

القانون: كل تحريم يجب له دليل من كلام الله.

القانون: ما ليس عليه دليل من كتاب الله، أو يمكن قياسه على دليل من كتاب الله، فليس حراماً.

القانون: ما يحرمه الناس بدون دليل من القرآن فهو افتراء على الله.

القانون: الافتراء على الله – قل أو كثر – مصير صاحبه النار.

رجال الدين

في عصر رسول الله لم يكن هناك رجال دين ولم يكن هناك مذاهب وفرق. بل إن رسول الله كان لا يستطيع أن يصدر حكماً حتى ينزل عليه القرآن فيتلوه على الناس. ولو سئل في مكة فسينتظر حتى ينزل عليه الحكم فيها، ثم سئل نفس السؤال في المدينة بعد الهجرة فسينتظر حتى ينزل عليه الوحي، حذراً من أن يكون هناك حكم بعد الهجرة لأهل يثرب والمدينة يختلف عن ذلك الحكم في مكة الموجه لقريش. لأن محمداً مجرد رسول، لا يستطيع أن يشرع نيابة عن الله.

ومن ذلك أنه عليه الصلاة والسلام سئل في مكة عما يحرم من المأكل فنزلت سورة النحل التي منها آية تقول: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١١٥) النحل.

ونفس الحكم تكرر نزوله في المدينة لأن الرسول سئل عنه مرة أخرى، فنزلت سورة البقرة وفيها آية تبدو وكأنها تكرار حرفي لآية النحل المكية: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٧٣) البقرة.

وما إن توفي رسول الله إلا وبدأ التحول عن الدين - كما فعلت كل الأمم - وأصبح المسلمون يعتقدون عقائد موروثة تخالف ما كان عليه الإسلام زمن رسول الله، ويعضون عليها بالنواجذ على أنها هي دين الله.

وبما أن البلاد المفتوحة (العراق، والشام، ومصر) كانت المسيحية منتشرة فيها، والمسيحية تعتمد على سلم كهنوت لرجال الدين فيها، فقد وجد هذا الموروث طريقه لتراث المسلمين. وأصبح للمسلمين «رجال دين»، كما للمسيحية. وكان دورهم في البداية لا يزيد عن حفظ القصص التي يتداولها الناس عن زمن رسول الله والتحدث بها في مجالسهم التي تغص بالمستمعين. ثم تحولوا إلى أئمة يقتدى بهم، ولهم الحق بالأخذ برواية من روايات الأخبار المنسوبة للرسول - التي انتشرت في المجتمع المسلم يتناقلها الناس مشافهة - وبناء حكم عليها وترك أخبار أخرى منسوبة للرسول تخالف ما أخذوا به، وهو ما أدى لظهور الفرق والمذاهب.

ثم أصبح لهم الحق بالتشريع ليس فقط باعتماد ترجيح حديث على آخر، ولكن بسن تشريع ليس له دليل. وهو ما عرف بالاجتهاد الذي حول رجل الدين إلى «قس» يملك الصلاحية بالتحريم والتحليل اعتماداً على رأيه الشخصي. ولكي يسهل انقياد الناس لهم وطاعتهم فيما يشرعون انتشرت أحاديث منسوبة للرسول تقول: إن «العلماء» ورثة الأنبياء، كما ورد في سنن أبي داوود (ت ٢٧٥ هـ)، والترمذي (ت ٢٧٩ هـ). مع أن الإسلام الذي جاء به الرسول، مطلوب من كل الناس على حد سواء، وكلهم ورثة للأنبياء من هذه الزاوية.

لكن" ورثة الأنبياء» حُصرت برجال الدين، وكأن لديهم قدرة التعرف على الحلال والحرام الذي فات النبي قوله، وعلى الله إنزال وحي به. وهذا المعتقد يعتمد الإيحاء إلى أن الله أودع في رجال الدين هذه القدرة، دون غيرهم، لكي يستمر تواجد رسل الله «الأنبياء» في أشخاصهم. وهو معتقد موجود عند الشيعة والسنة والمذاهب الأخرى على حد سواء، وإن اتخذ مسميات مختلفة.

ولأن الابتعاد عن الدين لا يتوقف عند حد بل يتعاظم بمرور الزمن، فما كان منكراً في وقت يتحول إلى مقبول وواقع في وقت لاحق. لذا أصبح رجال الدين يوقعون عن الله في القرون التالية، لدرجة أن ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ) لم يجد أي حرج من أن يسمي أحد كتبه بـ (أعلام الموقعين عن رب العالمين) وهو على يقين أن الناس ستتقبله قبولاً حسناً، ولن يجد من يقول له إنه تطاول على الله.

فالله ليس له نواب من خلقه ولم يعين من يوقع عنه في الأرض.

والدين اكتمل باكتمال تشريعاته بنزول سورة المائدة: .... ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣).

وكل ما لم يذكره القرآن فلا يجب أن يسأل عنه المسلمون الرسول في حياته، ولا يعتبر من دين الله بعد وفاته: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنْهَا وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (١٠١) المائدة.

وكل مسألة تستجد وتحتاج لتشريع فهي مسائل دنيوية وتشريعها يتم بواسطة المسلمين بما يتفقون عليه.

القانون: لا وجود لرجال الدين في الإسلام.

القانون: يجب إلغاء كل وظيفة دينية في دولة المسلمين.

القانون: لا يجوز التشريع بغير ما في القرآن.

القانون: كل ما لم يرد له حكم في القرآن فليس من الدين.

القانون: كل ما ليس من الدين فتشريعاته مدنية يتفق على تشريعها المسلمون[٦].

الشورى

وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣٨) الشورى.

السورة نزلت في مكة وتخاطب المسلمين القلة وتوجههم بأن يكون البت في أي أمر يهمهم كجماعة ناتجاً من تشاورهم جميعا فيما بينهم والتوصل لقرار يتفقون عليه. ولا يكون أمر المسلمين لشئون دنياهم بيد رجل واحد أو مجموعة قليلة تنوب عن الغالبية.

القانون: كل القوانين والقرارات الدنيوية التي تهم الأمة يصوت عليها من قبل الجميع في استفتاء عام.

القانون: الشخص الواحد في دولة المسلمين مواز لأي شخص آخر بلا زيادة أو نقصان.

القانون: لا ينوب شخص عن آخر في المشاركة في اتخاذ القرارات الوطنية أو تعديلها أو إلغائها.

القانون: لا ينوب مجموعة قليلة عن بقية المجتمع في اتخاذ القرارات أو رسم السياسات للمسلمين. سواء كانت الجماعة تم اختيارها أو كانت منتخبة.

القانون: نيابة مجموعة عن بقية المجتمع في اتخاذ القرارات تعني وصاية البعض على البعض الآخر، والوصاية في الإسلام لا تكون إلا على غير القادر على تصريف شئون نفسه كالمجنون والسفيه.

---

٦ انظر فقرة: ما لم يذكره القرآن فليس له حكم في الإسلام، وفقرة: اكتمال الدين / قسم تشريعات من القرآن.

التبذير

وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً(٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً(٢٧) بني إسرائيل.

التبذير هو صرف المال في أي مجال بكميات كبيرة للزهو والتفاخر والتباهي حتى لو كان المجال في الأصل حلالاً. مثل شراء السيارات الفارهة، والمجوهرات الغالية الثمن والملابس والبيوت ...الخ.

القانون: المبذر أخ للشيطان، أي مثيل له.

القانون: الشيطان كافر بربه.

القانون: مثيل الشيطان كافر مثله.

القانون: التبذير كبيرة.

قتل الأولاد

وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خطئا كَبِيراً(٣١) بني إسرائيل.

وتقول سورة الأنعام: قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ .... ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(١٥١).

الآيتان تخاطبان أهل مكة حيث كانت تنتشر ظاهرة قتل الولد إذا ولد في أسرة فقيرة لئلا يثقل على والديه بمصروفاته ويضطر والداه للتسول أو القيام بحرف وضيعة لا تليق بقرشي. إلا أن قتل الأولاد لسبب آخر خطأ مماثل لقتل قريش لأولادها.

والخِطْء يعني الذنب العظيم وليس الهفوة الصغيرة. لأن المتحدث هو رب العالمين، ووصفه سبحانه لشيء بأنه خطأ يعني أنه جريمة وذنب عظيم. ولذا فالنار جزاء من يفعل ذلك أو أي مما ذكر ضمن الآيات: ٢٢-٣٩ من سورة بني إسرائيل. والنار لا يدخلها إلا من يرتكب الكبائر وليس الهفوات.

القانون: قتل الأولاد كبيرة لأي سبب كان.

قتل النفس

وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً(٣٣) بني إسرائيل.

وتؤكد هذا سورة الأنعام: قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(١٥١).

النفس التي حرم الله، هي كل نفس لم تعتد علينا ولم تقاتلنا، بغض النظر عن المعتقد. وليس التحريم كما ورد في كتب التراث من أن النفس يقصد بها المسلم فقط، وأن قتله بالحق يعني أن يكون قتل عمداً أو زنا وهو متزوج، أو ارتد عن الإسلام. فالزاني لو زنا عمداً وهو يعرف فقد ارتكب كبيرة ولا توبة له وهو في النار، ولا يجوز الزواج به من المسلمين، لكن لا يقتل.

والمرتد لا يقتل، لأنه ارتد. أما القاتل العمد فيقتل لأن الله في كتابه أمر بذلك.

والآية تقول بتحريم القتل لأي نفس سواء كانت مؤمنة أو كافرة. هذا هو القانون.

وقوله «إلا بالحق» يعني ألا نقتل غير المسلم غير المحارب. ولا يقتل إلا المحارب لنا، وهذا هو القتل بالحق.

القانون: قتل الإنسان كبيرة بغض النظر عن المعتقد.

القانون: الاستثناء الوحيد لقتل إنسان هو أن يحارب الإسلام وأهله بالسلاح أو بأي وسيلة.

القانون: حرب الإسلام جريمة لا تغتفر، ويجب التعامل مع المحارب بكل قسوة لقطع دابره وتخليص الإسلام والمسلمين من شره.

من حقوق اليتيم

كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ(١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ(١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً(١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً(٢٠) الفجر.

الآيات تخاطب قريشاً، ومما تعيب عليهم أنهم لا يكرمون اليتيم. وإكرامه يكون بالتعامل الحسن وسد حاجاته المادية إن كان فقيراً.

القانون: إكرام اليتيم عمل صالح، ومخالفته كبيرة.

القانون: إكرام اليتيم ليس عطفاً ومنة، بل واجب.

وتقول سورة البلد مخاطبة قريشاً:

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ(١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ(١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ(١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ(١٤) يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ(١٥) أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ(١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ(١٧) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ(١٨).

القانون: إطعام اليتيم يوم المجاعة عمل صالح مطلوب لدخول الجنة.

وتقول سورة الضحى مخاطبة الرسول: فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ(٩).

قهر اليتيم يكون بالحط من قدره أو إشعاره بالضعة والنقص أو التعامل معه بفوقية وترفع.

القانون: قهر اليتيم كبيرة.

وسورة بني إسرائيل التي تفرض على المسلمين تشريعات واجبة لدخول الجنة تقول: وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً(٣٤). وهو ما تؤكده سورة الأنعام: وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(١٥٢).

وقرب مال اليتيم يعني التلاعب به أو أكل بعضه أو حتى إهماله وتعريضه للضياع والتلف.

القانون: قرب مال اليتيم كبيرة.

القانون: المحافظة على مال اليتيم وتنميته عمل صالح.

القانون: التعامل مع مال اليتيم يتم بالطرق الحسنة والبعد عن سوء النية.

الوفاء بالعهود والمواثيق والمواعيد

وتقول سورة بني إسرائيل ضمن فرض بعض التشريعات الواجبة لدخول الجنة: وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً(٣٤).

الوفاء بالعهد والمواعيد والمواثيق للفرد والجماعة (وهذا مفقود تماماً في حياة المسلمين اليوم، للأسف).

القانون: الوفاء بالعهد عمل صالح، ومخالفته كبيرة.

وتفتتح سورة المائدة التي تختتم بها تشريعات الإسلام بالتذكير بهذا القانون العظيم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ(١).

القانون: الوفاء بالعهد والوعد والمواثيق عمل صالح.

القانون: ترك العمل بهذا القانون أو مخالفته كبيرة.

الوفاء بالنذر لازم لدخول الجنة

يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً(٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً(٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً(٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً(١٠).

الآيات تتحدث عما يجب أن يكون عليه المرء لكي يضمن الجنة في الفترة التي نزلت فيها سورة الإنسان. والسورة نزلت في بداية الدعوة وعندما كانت أعداد المسلمين قلة قليلة لا تسمح بنزول التشريعات التفصيلية للإسلام. فكان كل المطلوب لدخول الجنة حينها الإيمان والإنفاق والصلاة دون تحديد أوقات لأدائها. وهذا يعني أن الوفاء بأي تعهد شأنه عظيم في الإسلام ومخالفته تورد صاحبها النار. والمؤسف هو أن المسلمين اليوم أقل الناس اكتراثاً بالوفاء بالعهود والمواثيق سواء الشخصية أو الجماعية أو الدولية.

والنذر يعني عهداً وميثاقاً يقطعه المرء على نفسه مشروطاً بتحقق أمر ما. والنذر وإن كان مباحاً إلا أن الإسلام لم يفرضه، فقد كان موجوداً قبل بعثة الرسول. ولكن الإسلام أوجب الوفاء به متى حدث، دون ترغيب فيه أو حث عليه.

القانون: عدم الوفاء بالنذر كبيرة موردة للنار.

الدين هو ما في القرآن، وما عداه كلام الناس

أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ(١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(١١٥) وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ

اللهّ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ(١١٦) الأنعام.

الآيات تؤكد أنه لا يوجد حكم (تشريع) بديل لحكم الله أو حتى يؤخذ معه، والقرآن فيه كل ما يحتاج المرء لدينه. وما عداه فكلام لأهل الأرض (كلام بشري) لو أطعناه لأضعنا دين الله.

القانون: اتباع تشريع ما عبادة لقائله.

القانون: اتباع حكم الله وتشريعاته عبادة له سبحانه.

القانون: دين الله يمثله كتاب الله المفصل فيه كل ما يحتاج المرء لدينه.

القانون: تمام الدين بتمام كلمات الله.

القانون: ما يقال في الدين بغير القرآن كلام أهل الأرض (البشر).

القانون: كلام أهل الأرض خرص لا يمت للحقيقة بصلة، بغض النظر عمن قاله.

القانون: كلام الله هو اليقين الوحيد.

القانون: دين الله يقوم على اليقين.

القانون: طاعة كلام أهل الأرض عبادة لهم، بغض النظر عن الشخص الذي قال أو شرع.

القانون: كل تشريع من رجل دين خرص وتقول على الله ودينه، واتباعه عبادة له من دون الله.

القول بالأهواء

فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهّ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ(١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهّ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ(١١٩)

القانون: القول بالأهواء (الآراء والفتاوى) في الدين ضلال.

نقض العهد مع الله

تقول سورة الأنعام: وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(١٥٢).

"وبعهد الله أوفوا"

الإسلام عبارة عن عهد وميثاق بين العبد وربه، يحصل العبد بموجبه على سعادة في الدنيا وسعادة في الآخرة، مقابل أن يلتزم بأوامر الله ويتجنب نواهيه طوال حياته.

القانون: عهد الله عهد دائم مدى الحياة.

وتقول سورة العنكبوت: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ(١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ(١١) العنكبوت.

الآيات تشير إلى أن بعض من أعلنوا إسلامهم من المستضعفين لم يؤمنوا، ولعل إعلان إسلامهم لكي يتحرروا من الرق. ولما تعرضوا للتعذيب بالنار، أو أنهم رأوا غيرهم يعذبون، سارعوا للردة خوف التعذيب.

ويستفاد من الآيات القانون الإلهي التالي: لا تجوز الردة لأي سبب كان.

وهناك استثناء تذكره الآيات التالية:

مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(١٠٧) أُولَـئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ(١٠٨) لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ(١٠٩) النحل.

هذه الآيات تقول:

القانون: الردة لا تجوز تحت أي ظرف من الظروف.

القانون: إعلان الكفر دون الاعتقاد به جائز كوسيلة للتخلص من العذاب والتمكن من الهجرة.

وتقول سورة النحل: وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ(٩١).

نقض الأيمان هنا لا تعني الحنث في يمين، ولكنها تعني الخروج من الإسلام. ذلك أن الإسلام معاهدة بين العبد وربه كما سبق وذكر.

القانون: لا يجوز نقض العهد مع الله.

وتقول نفس السورة: وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(٩٢).

ميثاق الدخول في الإسلام صورته الآية كأنه صوف تم غزله بإتقان، والردة كأنها نقضت الغزل أنكاثاً، وصوف متطاير منفوش.

القانون: هدم ونقض للميثاق الموقع مع الله.

وتقول سورة الرعد: وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ(٢٥) اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقَدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ(٢٦).

الردة نقض لعهد الله وميثاقه، وقطع ما أمر الله به أن يوصل لأنه ميثاق لمدى الحياة مستمر. وفساد في الأرض لأنه منع لانتشار دين الله.

القانون: المرتد عليه لعنة الله.

وتقول سورة المائدة مخاطبة المسلمين: وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٧).

الآية دليل على أن الدخول في الإسلام يعني عقداً واتفاقاً وميثاقاً بين العبد وربه، يوجب على العبد الالتزام التام بأوامر القرآن والانتهاء التام عن كل نواهي القرآن. مما يعني أن أي خرق لهذا العقد بارتكاب كبيرة غير مسموح، وبالتالي فكل مرتكب للكبيرة عالماً بحرمتها وحكمها فهو في النار.

القدوة الحسنة والتربية

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً(٧٤) أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً(٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً(٧٦) الفرقان.

"اجعلنا للمتقين إماماً" تعبير مجازي يعني أن نكون قدوة صالحة. والدعاء بأن يهب الله ذرية صالحة مقترن بأن نكون (كوالدين) قدوة صالحة، فينشأ الأولاد صالحين.

القانون: المسلم يجب أن يكون قدوة صالحة قولاً وفعلاً.

القانون: الوالدان الصالحان سيربيان أبناءهما تربية صالحة لأنهما سيكونان مثالاً يحتذى في التعامل.

القانون: تنشئة الذرية في بيئة صالحة عمل صالح، ومخالفتها كبيرة.

اليمين والحلف

وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ الْسُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٩٤).

القانون: اتخاذ اليمين وسيلة للإقناع بحدوث حدث لم يحدث كبيرة.

القانون: لا يجب استخدام الحلف في المحكمة بين المتخاصمين، فمن ظلم وبغى وهو يعلم أنه كبيرة لن يتورع عن الحلف بأغلظ الأيمان كذباً.

مكة يجب أن تبقى بلدة محرمة

إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٩١) النمل.

القانون: مكة حرمها الله، ولا يجوز لبشر أن ينتهك حرمتها أو يلغيها.

ومن حرمة مكة ألا يطال من فيها أذى ويأمنون على أنفسهم وأموالهم.

ومن حرمة مكة ألا يتم التصرف بها كيفما يشاء شخص أو جماعة. ويجب أن يكون لها إدارة خاصة مستقلة تحكم بقوانين واضحة تحميها من الجشع والتعديات وتضمن بقاءها منطقة

محايدة لا تخضع لحكم دولة كما أرادها الله على الدوام[٧].

المسجد الحرام لا يملك

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(٢٥).

الآيات تقول إن قريشاً منعت المسلمين من دخول المسجد، مستنكرة هذا التصرف. لأن قريشاً لا تملك حق منع الناس أو السماح لهم لدخول البيت. فهو بيت الله جعل للناس كافة منذ القدم، وليس ملكاً لقريش. وإن كان الله قد كلف إبراهيم وإسماعيل – أجداد قريش – بخدمة الحجاج والقيام على البيت فهذا لا يعني أنه أعطاهم الحق ببسط سيطرتهم على مكة. لأن مكة لا يجب أن يحكمها بشر، ولا يجب أن تدخل تحت سيطرة أحد. هي بلد حرام وبيت لله آمنا لمن فيه. ولكل الناس الحق بزيارته وتعبد الله فيه. وقريش احترمت هذا الميثاق، ولهذا كانت مكة بلا حاكم. ولم يكن أحد من قريش يزعم أنه حاكم لها. فهي الدولة (المدينة) الوحيدة في العالم في ذلك الوقت التي ليس لها حاكم.

القانون: مكة بيت الله الذي لا يجوز أن يحكمه بشر.

القانون: مكة يجب أن تكون إدارتها تحت هيئة إسلامية دولية تتولى القيام على البيت وخدمة الحجاج. وتكون خارج سيطرة أي حكومة، مباشرة أو بتأثير غير مباشر.

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(٢٦) الحج.

مما يجب على الهيئة القائمة على شئون مكة:

- ترميم وتوسعة وصيانة البيت، وتنظيفه باستمرار.

وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ(٢٧) الحج.

- نشر المعلومات عن الحج وعن مكة وما يقدم للحاج والمعتمر.
- الترويج للحج والعمرة وزيارة مكة.

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ

٧ انظر فقرة الحج/ قسم تشريعات من القرآن.

فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ(٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ(٢٩) الحج.

- تحديث الطرق والخدمات
- ونشر البرامج التوعوية للحاج والزائر.
- توفير السكن والأكل والشرب للحاج.

على أن يتحمل الحاج تكاليف سفره من بلده للمسجد الحرام والعودة، والمواصلات في مكة والمشاعر والأضحية ومصاريفه الشخصية غير الوجبات اليومية الثلاث.

موالاة أعداء الإسلام

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ(١) الممتحنة.

أول سورة مدنية وأول آية منها تخاطب مسلمة قريش الذين أبقوا على موالاتهم لمشركي مكة وتحذرهم أن هذه الموالاة تؤدي بهم للضلال.

والقرآن يصف الكافر المخلد في النار بمن ضل سواء السبيل، ومن ذلك: أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ(١٠٨) البقرة.

ومثله ما ورد في سورة المائدة: ..... فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ(١٢).

القانون: موالاة الكفر المعادين للإسلام والمسلمين ضلال عن سواء السبيل.

القانون: من يضل سواء السبيل فقد كفر.

القانون: من كفر فهو مخلد في النار.

القانون: من يوالي أعداء الإسلام والمسلمين ولو بالسر فهو كافر مخلد في النار ولو أعلن الإسلام.

القانون: من يوالي أعداء الإسلام والمسلمين قليلاً أو كثيراً فهو كافر مخلد في النار ولو أعلن

الإسلام.

إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ(٢) الممتحنة.

القانون: من مظاهر العداء الاضطهاد أو الطرد أو المضايقة أو الملاحقة أو التقتيل.

القانون: السب والشتم أو السخرية بأي وسيلة من مظاهر العداء، مثلها مثل حياكة المؤامرات ضد الإسلام والمسلمين.

لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ(٤) الممتحنة.

الآيات تقول بأن مسلمة قريش يوالون المشركين بحجة أنهم أقارب ونسب، وكان يجب أن يقتدوا بإبراهيم الذي تبرأ من والده عندما تيقن أنه مصر على الكفر.

القانون: موالاة الأعداء لا تجوز تحت أي مبرر كان.

القانون: موالاة الأعداء لا تجوز ولو كانوا آباءنا وإخواننا وأقاربنا وعشيرتنا.

القانون: كل من يعادي الدين ويسعى لحرب المسلمين فهو عدو بغض النظر عن صلة النسب.

القانون: صلة الدين أهم وأولى من صلة النسب.

الأصل التعايش السلمي بين المسلمين وغيرهم

عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٧) الممتحنة.

الآية تتفاءل بحلول السلم بين المسلمين وقريش التي أعلنت عداءهم.

القانون: الإسلام دين التعايش مع الآخر شريطة ألا يحاربوا المسلمين وأن يقبلوا التعايش السلمي معهم.

لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٩) الممتحنة.

القانون: يجب التواصل الإنساني مع غير المسلمين الذين يتعاملون مع المسلمين بود.

القانون: الموالاة للمسالم الذي لا يحارب الإسلام والمسلمين مباحة.

القانون: الأصل في التعامل بين المسلم وغيره هو السلم والمودة.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ(١٣) الممتحنة.

القانون: موالاة المعادين للإسلام عداء للإسلام.

زواج المسلمين بالمشركين

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(١٠) وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ(١١) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٢) الممتحنة.

نساء قرشيات حضرن للمدينة مهاجرات، في وقت هرب فيه المسلمون من مكة للمدينة خوفاً على حياتهم ودينهم من قريش. والآيات تضع بعض القوانين الواجب اتباعها في مثل هذه الحالة، كما يلي:

القانون: عند حضور نساء يدعين أنهن مسلمات من دولة أو مجتمع في حالة عداء وحرب على المسلمين، فيجب امتحان إيمانهن والتأكد من أنهن لم يقدمن للتجسس.

القانون: عند ثبوت أنهن مسلمات فعلاً لا يجوز بأي حال من الأحوال إرجاعهن لقومهن الكفار.

القانون: كل ما ينطبق على النساء ينطبق على الرجال.

القانون: لا يجوز رد أو إرسال مسلمين لأرض عدو محارب أبداً بأي حال من الأحوال، حتى ولو كانوا أبناءً لأباء مشركين أو إخوة لهم.

القانون: النسب ليس كافياً لأن يَحْضُن الكافر صغيره المسلم.

القانون: في حال كان هناك مسلمون متزوجون بمشركات قومهم أعداء محاربون للإسلام والمسلمين فيجب التفريق بينهم.

القانون: إذا تم التفريق بين رجل مسلم وزوجته المشركة، فللزوج حق المطالبة بمهره الذي دفعه لها.

القانون: إن لم يقبل أهل الزوجة المشركة رد الصداق للزوج يقوم المسلمون بتعويضه بمقدار صداقه من بيت المال.

القانون: إذا تم التفريق بين الزوجة المسلمة وزوجها المشرك بفسخ نكاحها فيجب عليها رد صداقه إليه.

القانون: إن لم تكن تملك الصداق أو قيمته، يقوم بيت المال بدفعه عنها.

القانون: لا يجوز لمسلم أن يبقي على زوجته المشركة التي من قوم معادين للإسلام ومحاربين للمسلمين.

القانون: كل من جاء للمسلمين من بلاد المشركين المعادين للإسلام والمحاربين للمسلمين يريد الدخول في الإسلام وهو صادق فيقبل ولا يرد للمشركين.

وجاء تأكيد التحريم في سورة البقرة: وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَـئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٢١) البقرة.

المشركون قد يكونون من قريش ومن غيرها، لكن ما يؤكد أن الكلام هنا موجه لقريش هو:

أنهم عدو محارب للمسلمين.

القانون: لا يجوز التزاوج مع المشركين المحاربين للإسلام والمسلمين.

القانون: منع التزاوج بسبب معاداتهم للإسلام وليس لكفرهم.

القانون: كل من كانت دولته معادية لدولة المسلمين فلا يجوز التزاوج معهم.

القانون: مما سبق ذكره في سورة الممتحنة فكل من هو متزوج بمشركة أو مشرك من دولة معادية يفسخ النكاح بينهما.

يضاف هنا جواز الزواج بأهل الكتاب

سلوكيات

إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ(٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥) الحجرات.

الآيات تتحدث عن سلوكيات بعض الأعراب.

القانون: احترام الخصوصية واجب.

القانون: الزيارات المفاجئة غير حضارية.

القانون: الزيارات بدون موعد وفي أوقات الراحة غير حضارية.

القانون: الإزعاج بأي شكل مرفوض.

القانون: ضرورة وجود برنامج توعية مستمر لاحترام الخصوصية والبعد عن إزعاج الناس في بيوتهم أو خارجها.

الإيمان قول وفعل

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ(١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ

أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٨) الحجرات.

القانون: ليس كل من أعلن الإيمان مؤمناً.

القانون: الإيمان يعني تصديقاً في القلب وعملاً للجوارح.

القانون: الإيمان وحده لا يكفي.

القانون: العمل الصالح بدون إيمان لا يكفي.

القانون: الدخول في الدين ليس منة يكافأ عليها المسلم الجديد.

المتهم بريء حتى يثبت العكس

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ(٦) الحجرات.

الآية جاءت ضمن سياق يتحدث عن شجار وقع بين مسلمة قريش والمستضعفين نتيجة لوشاية كاذبة.

القانون: المتهم بريء حتى يثبت العكس. (وهو بخلاف المعمول به في كثير من بلاد المسلمين)

القانون: الوشاية لا يؤخذ بها.

القانون: من ينشر وشاية فهو فاسق.

القانون: نشر الوشاية جرم يجب أن يوضع له عقاب.

"الوشاية ما له علاقة بالناس وليس الحديث في سياسات دول فاسقة، هي تقوم بنشر الوشايات التي تخدم سياساتها التي فيها الغاية تبرر الوسيلة".

الفسق والعصيان مخالف للإيمان

وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ(٧) فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٨) الحجرات.

القانون: الوشاية فسق.

القانون: الوشاية معصية.

القانون: العاصي والفاسق ليس مؤمناً ولو أعلن الإسلام.

التنابز بالألقاب

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ(١٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(١٣) الحجرات.

القانون: السخرية محرمة.

القانون: السخرية يسن لها عقوبة.

القانون: التنابز بالألقاب يعاقب عليه.

القانون: يسن عقوبات للتنابز.

القانون: التنابز بالألقاب يعني مثل نعت أحدهم بالخضيري، أو نعت صاحب البشرة السوداء بالعبد.

القانون: التنابز بالألقاب والسخرية فسوق.

القانون: الفسوق مناف للإيمان.

القانون: الفسوق كبيرة ومن استمر عليها أو لم يتب منها فهو من الظالمين.

القانون: الظالمون مأواهم النار.

القانون: مما يحرم في الإسلام: الظن، التجسس، الغيبة، وهي كما لو أن أحدنا أكل لحم الآخر وهو ميت.

القانون: النسب ليس للتفاخر، ولكن للتعارف فقط. فيقال فلان من آل فلان للتفريق بينه وبين شخص آخر يحمل نفس الإسلام.

القانون: القبلية حمية جاهلية لا يجب إقرارها في الإسلام[8].

الظهار

قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ(١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ(٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٤) المجادلة.

القانون: الظهار حرم زمن الرسول.

القانون: لا يقبل تفعيل الظهار تحت أي مسمى وبأي شكل من الأشكال.

القانون: الحديث عن الظهار للإخبار بتاريخ تحريمه وليس لإقراره الآن.

القانون: من عاد للظهار فقد تجاوز حدود الله وله ما للكافرين من عذاب أليم.

القانون: كل من عاد لممارسة كبيرة نهى عنها القرآن فله عذاب مماثل لعذاب الكفار ولو كان يؤمن بالله ورسوله.

وجاء في سورة البقرة: لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَآؤُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلاَقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢٢٧).

والإيلاء هو الظهار ولكن بدون حلف. حيث يقوم الرجل بهجر زوجته وإهمالها دون تطليقها. والآيات تقول: إن أقصى مدة لترك الزوجة هو أربعة أشهر، وبعدها الطلاق أو الوفاق.

القانون: الحد الأقصى لهجر الزوجة هو أربعة أشهر.

القانون: هجر الزوجة ليس فقط في المعاشرة الجنسية ولكن بالنفقة والتعامل.

---

٨ انظر موضوع: دعوها فإنها منتنة/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

القانون: يجب وضع قانون ينص على أن من هجر زوجته لأكثر من أربعة أشهر فلها حق الطلاق الفوري.

الإثم واحد سواء جهر بالمعصية أو كانت في الخفاء

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَّ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَّ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُّ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُّ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ(٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَّ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٩) المجادلة.

الآيات تتحدث عن منافقين من يثرب كانوا يعلنون إسلامهم ويحلفون للرسول والمسلمين أنهم مسلمون ولكنهم يضمرون الكفر وموالاة أهل الكتاب. وفي جلساتهم الخاصة كانوا يأتون المعاصي.

القانون: إتيان المعاصي في الخفاء لا يقلل من ذنبها ولا من عقابها عن إتيانها جهراً.

القانون: أن تكون مسلماً يعني العمل بكل أوامر الله ونواهيه.

القانون: موالاة الكافر كفر ولو صدرت من مسلم يؤدي الواجبات وينتهي عن النواهي.

السلوك الحضاري واللباقة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٢) أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُّ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللهَّ وَرَسُولَهُ وَاللهُّ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٣) المجادلة.

هذه الآيات تخاطب عموم المسلمين في تلك الفترة وإن نزلت ضمن سياق بحق الأعراب الذين سارعوا للقاء الرسول عندما سمعوا بوصوله ليثرب مظهرين إيمانهم طمعاً في

الأعطيات، وأظهروا الكثير من التصرفات الفجة. وكان عليهم التحلي بالسلوك الحضاري، وأن يحرصوا على تقديم بعض الطعام لمجلس الرسول للمشاركة في توفير الطعام للحضور.

ويستفاد من هذا:

القانون: المشاركة في توفير الطعام لاجتماع يهم الجميع سلوك حضاري لئلا يتحمل البعض تكاليف توفير الطعام للجميع.

القانون: من السلوك الحضاري الذي يجب أن يحرص عليه المسلم هو إحضار هدية بسيطة لمن يزور للمرة الأولى ولا يذهب بأيد فارغة.

موالاة الأعداء

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(١٤) أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ(١٦) لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللهِ شَيْئاً أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ(١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ(١٩) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ(٢٠) كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ(٢١) لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٢٢) المجادلة.

الآيات تتحدث عن موالاة منافقين من يثرب لأهل الكتاب الذين رفضوا الإسلام، وأخرجوا الرسول والمسلمين من مكة، الذين هاجروا طلباً لمرضاة الله وهرباً من الاضطهاد.

فكيف يتعاطف بعض المسلمين مع من يحارب الله ودينه، إن كانوا مؤمنين حقاً؟

القانون: كل من يوالي غير المسلمين الرافضين دعوة الإسلام فليسوا مسلمين ولو أعلنوا الإسلام.

القانون: من يوالي الأعداء فمصيرهم النار.

القانون: التظاهر بالدين لا يعني الإسلام،

القانون: موالاة غير المسلمين ناقض للإسلام.

القانون: موالاة غير المسلمين لا تقبل ولو كانوا من الأقارب ومشاركين في النسب.

القانون: النسب لا أهمية له ولا تبنى عليه علاقة المسلم بالغير.

القانون: يجب معاداة الأقارب المعادين للإسلام.

القانون: العلاقة بين المسلمين تقوم على الإيمان وليس النسب.

القانون: من يوالي الأعداء فقد حاد الله ورسوله.

القانون: الإسلام كل لا يتجزأ، ولو قام المرء بكل أوامر القرآن وانتهى عن نواهيه وأبقى على واحدة كموالاة الكفار فهو في النار.

البيع أثناء الصلاة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(١١) الجمعة.

القانون: وجوب إغلاق المحلات وترك البيع عند دخول وقت الصلاة.

القانون: تحريم الخروج من المسجد بغرض التجارة أو اللهو أو أي سبب أثناء الصلاة إلا للضرورة.

القانون: وجوب ترك البيع وعدم الخروج من المسجد يكون في كل يوم وليس خاصاً بيوم الجمعة. وذكر الجمعة في السورة لأن السوق كان يقام فيها.

القانون: صلاة الجماعة واجبة.

القانون: لا يوجد صلاة خاصة ليوم الجمعة.

الدخول في الإسلام

وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ(٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(٢٧) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٢٩) البقرة.

الدخول في الإسلام يعني عقداً اتفاقاً وعهداً مع الله أن يطيع كل أوامره وينتهي عن كل نواهيه، مقابل جنة في الآخرة وسعادة في الدنيا.

القانون: الدخول في الإسلام ليس احتفالاً علنياً بالنطق بالشهادتين.

القانون: الدخول في الإسلام يعني معاهدة بين المخلوق والخالق باتباع أوامره والانتهاء عن نواهيه.

القانون: عصيان أمر لله كعصيان كل أوامره.

القانون: عصيان أوامر الله نقض لميثاق الإسلام المبرم بين العبد والخالق.

القانون: العمل بخلاف أمر الله أو نواهيه قطع لتلك الأوامر.

القانون: مخالفة أوامر الله ونواهيه فساد في الأرض.

الحج / الطواف بالصفا والمروة

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ(١٥٨) البقرة.

قد يكون بعض المسلمين الجدد في يثرب سأل الرسول إن كان الطواف بين الصفا والمروة من الحج؟ فأجابته السورة بأنه لا جناح على من يتطوف بالصفا والمروة ومن لم يفعل فلا جناح عليه أيضاً.

القانون: الطواف بين الصفا والمروة ليس واجباً على الحاج.

القانون: يباح الطواف بين الصفا والمروة.

القانون: ليس هناك عدد محدد للطواف بين الصفا والمروة.

كتمان الوحي

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـئِكَ يَلعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ(١٥٩) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَـئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(١٦٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ(١٦٢) البقرة.

الآيات تشير إلى بعض من يعلن الإسلام الذين إذا ما سئلوا عن بعض ما يقول القرآن لم يخبروا به وكتموه وهم يعلمون.

القانون: كل من يعلم شيئاً من القرآن ويكتمه عمن لا يعرفه فعليه لعنة الله واللاعنين.

قوله: «يعلنه اللاعنون» تعني جواز لعنه من الناس.

القانون: كل من يكتم شيئاً من القرآن ومات ولم يتب فهو كافر وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ومخلد في النار.

القانون: يأتي تحت كتم القرآن تأويله عمداً لغير معناه. أو التشريع بما يخالف صريح القرآن.

وتعود سورة البقرة لتحذير من يكتم الوحي: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَـئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٧٤) أُولَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ(١٧٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ(١٧٦).

من كتمان الوحي كتمان الوحي التغافل عن بعض الآيات التي تخالف سياسة السلطان، أو تجرمه. ومن ذلك أيضاً تأويل بعض الآيات لغير معناها لتخدم مصالح السلطان أو مصالح من يستفيد منه كالسلطان، ويغفل آيات صريحة تقول بخلاف تأويله.

القانون: كل من يكتم بعض الوحي أو يغفله لئلا يفطن له الناس فهو في النار.

الدين كل لا يتجزأ وليس هناك عبادة تعوض عملاً صالحاً

لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ(١٧٧) البقرة.

فالدين كل لا يتجزأ. ولا يكفي أن نصلي باتجاه الكعبة لنصل لمرتبة البر، بل علينا أن نأتمر بكل أمر قرآني وننتهي عن نواهيه. ومن الأوامر ما ذكر هنا من تشريعات. ومنه: إيتاء المال (الإنفاق) على كل ما يحتاجه المجتمع المسلم وذكرت الآية بعضها.

القانون: الدين كل لا يتجزأ، و ترك أمر أو نهي كفر يؤدي للنار.

القانون: الصلاة لا تكفي لدخول الجنة.

القانون: الصلاة لا تكفر المعاصي.

القانون: الدين إيمان وعمل صالح.

القانون: الإيمان بالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ.

القانون: العمل الصالح يعني طاعة كل أمر والانتهاء عن كل نهي في القرآن.

القانون: من العمل الصالح: وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ.

وتقول سورة البقرة متحدثة عن أهل الكتاب في يثرب الذين يطيعون بعض أوامر الله ويعصون البعض: ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) البقرة.

وتقول الآيات إن من يؤمن ببعض ويكفر ببعض فهو كافر ومصيره جهنم.

الوصية

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ(١٨٠) فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١٨١) فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٨٢) البقرة.

فقه المذهب السائد يقول بأن الوصية لا تجوز بأكثر من ثلث مال الموصي، ودليلهم حديث منسوب للرسول يقول: الثلث والثلث كثير.

ولا تجوز لوارث، ودليلهم على ذلك حديث منسوب للرسول يقول: لا وصية لوارث.

فما الذي يقوله تبارك وتعالى في كتابه؟

بعدما استقر رسول الله في المدينة حيث المجتمع المسلم وتكونت نواة الدولة المسلمة، توالت التشريعات بالنزول، بدءً من سورة البقرة.

ومما فرض في هذه السورة، الوصية:

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ(١٨٠) البقرة.

والآية تقول بأن الوصية كتبت على كل مسلم «ترك خيراً» يملك المال الفائض عن حاجته وحاجة عياله. ومن تجب عليه، فلا خيار له بتركها. مثلما أنه لا خيار بترك أي تشريع كتب على المسلمين، مثل الصيام: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٨٣) البقرة.

والوصية محصورة بالوالدين والأقربين فقط، دون غيرهم من الناس.

وتؤكد سورة النساء أن الوصية تُخرج من المال قبل توزيع التركة، وما بقي بعد الوصية فيقسم على الورثة: يوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ .... مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ .... (١١) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ .... مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ .... وَصِيَّةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ(١٢) النساء.

فالوصية للمحتاج من الوالدين والأقربين، بينما التركة تقسم على المحتاج وغير المحتاج من الورثة.

ويوجب القرآن توثيق الوصية في سورة المائدة التي نزلت بعد البقرة والنساء، كاستيفاء للتشريعات الخاصة بالوصية: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاَةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللّهِ إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الآثِمِينَ(١٠٦) المائدة.

ومما تقدم يمكن القول بكل ثقة، ما يلي:

- القرآن يوجب الوصية، والفقه يجيزها.
- القرآن يحصر الوصية بالوالدين والأقربين فقط، ولا تكون للغريب ولا كصدقة جارية للميت. بعكس ما يقول الفقه الذي يحرم الوصية للورثة، وعلى رأسهم الوالدان والأقربون الذين نص القرآن على أنهم هم وحدهم من تكون له الوصية، ويجيز أن تكون الوصية على شكل صدقة جارية يعود أجرها للميت.

وعليه فلو قام المرء ببناء مسجد أو مستشفى أو أي مشروع خيري وهو حي يرزق فأجره سيحسب له، لأنه سيكتب في صحيفة أعماله أنه فعل عملاً صالحاً.

لكن لو وصى ببناء هذا المشروع بعد وفاته، كجزء من وصيته، فالفقه المذهبي يقول بأنه سيحصل على الأجر. بينما يقول القرآن إنه لن يطاله أجر، لأن الوصية في القرآن ليست للميت ولكن للوالدين والأقربين الأحياء.

ونحن هنا بين تشريع قرآني وتشريع حديثي فقهي تفسيري بشري يقول بعكس ما يقول القرآن تماماً.

- والقرآن يوجب إخراج الوصية قبل تقسيم التركة.
- والقرآن يوجب توثيق الوصية، بشاهدين في ذلك الزمن، وهذا لا يمنع استخدام وسيلة توثيقية أنجع من الشهود في هذا الوقت، كالتسجيل في المحكمة، أو تسجيل أليكتروني في حال تطبيق حكومة أليكترونية.
- والفقه البشري جعل ثلث المال حداً أعلى للوصية مع الكراهية، والأفضل أن تكون الوصية أقل من الثلث.

ولمعرفة ما يقول القرآن حول هذه النقطة نتوقف عند ما جاء في الآية: (١٢) من سورة النساء أعلاه، والذي يقول: «مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ."

فهي تنهى عن أن يضار غير الموصى لهم من الورثة، والمقصود بهم المحتاجون منهم.

ولو أضفنا لهذا قوله تعالى: وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً(٩) النساء.

وهذه الآية تنهى عن ترك الذرية للعوز والفاقة. وهو مشابه لما تقوله الآية ١٢ « غَيْرَ مُضَآرٍّ."

وهذا يعني أن الموصي يجب عليه أن يتأكد من ترك مال كاف للقصر من ذريته حتى لا يضارهم، بتركهم للعوز، وما زاد عن ذلك فيمكن الوصية منه.

وإذا ما ترك الموصي ما يكفي لذريته، فليس هناك مانع من الوصية بكل ما بقي من ماله لمن لهم حق في الوصية.

وبما أن الفقه يحرم الوصية للوارث – عكس القرآن – فقد حوَّلَ الوصية بثلث المال وكأنها حق للموصي، تستخدم كصدقة جارية له بعد موته، كما سبق وذكرنا.

أما كيف استطاعوا تعطيل حكم الله واستبداله بحكم مخالف له من عند أنفسهم، فذلك عن طريق زعمهم أن الآية التي كتب الله فيها الوصية على الناس منسوخة، بالآية التي يسمونها آية المواريث.

وآية الوصية هي: كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ(١٨٠) البقرة

وآية المواريث هي: يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيما حَكِيماً(١١) النساء.

وسورة النساء نزلت مباشرة بعد البقرة، ولو أطعنا المفسرين وأهل الحديث والفقه، فالله كتب علينا تشريعاً، في البقرة، ثم اكتشف أنه يتعارض مع تشريع التوريث فقام بإلغاء

تشريع الوصية للوالدين والأقربين «الورثة."

هذه الصورة القبيحة لله لا يمكن أن أقبلها بحق خالق السموات والأرض: قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَّ بِدِينِكُمْ وَاللهُّ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُّ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١٦) الحجرات.

وهي من مصائب الموروث الذي فرض على الله ما أطلقوا عليه: الناسخ والمنسوخ، الذي ابتدعوه من عند أنفسهم. حيث زعموا أن القرآن ينزل آية آية، وقاموا بتأويل كل آية بمعان من عند أنفسهم، فوقعوا في تضاد بين المعاني التي اخترعوها، ولم يجدوا مخرجاً ليعالجوا المشكلة التي اختلقوا إلا بمشكلة أخطر، تمثلت بالقول بالناسخ والمنسوخ.

القانون: الوصية تكون للوالدين والأقربين حصرياً، ومن أوصى بغير ذلك فقد بدله بعدما سمعه.

القانون: يجب عدم قبول تسجيل الوصية المخالفة للقرآن.

القانون: يجب عدم تنفيذ الوصية المخالفة للقرآن.

القانون: الوصية ليست محددة بثلث المال أو أقل أو أكثر بشرط عدم الإضرار بورثة محتاجين.

القانون: في حال اتضح أن الموصي تعمد الإضرار بورثة آخرين بواسطة الوصية فلابد من نصحه وثنيه عن وصيته.

القانون: إن أصر على وصيته التي تضر بورثة آخرين محتاجين فلا تسجل ولا تنفذ.

القانون: يجب أن يكون هناك ضوابط ثابتة لتسجيل الوصية.

القانون: كل ما قيل عن الوصية من خارج القرآن فلا ينفذ ويعتبر خارج القانون.

القانون: الوصية ليست للميت ولكن للحي من الوالدين والأقربين.

وتقول سورة المائدة:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاَةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِّ إِنِ ارْتَبْتُمْ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِّ إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الآثِمِينَ(١٠٦) فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرَانِ يِقُومَانُ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِّ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذاً لَّمِنَ

الظَّالِمِينَ(١٠٧) ذَلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُواْ بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُواْ أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللّهَ وَاسْمَعُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(١٠٨).

القانون: يجب توثيق الوصية بدقة.

القانون: التوثيق زمن الرسول كان بشهادة الشهود ولذلك جاءت الآيات بالحرص على أن تُبلغ الوصية ولا تكتم.

الصيام

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٨٣) البقرة.

الصيام كتب على الأمم السابقة، وهو ما يعني أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد صامه. لكن – على ما يبدو – فإن قريشاً قد نسيته تماماً منذ زمن قديم، ولم يعد له ذكر حتى في موروثهم الشعبي.

أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(١٨٤).

القانون: المريض والمسافر فقط هم من يحق لهم الإفطار.

القانون: من أفطر لأحد هذين السببين فهو مخير بين صيام أيام مماثلة فيها بعد كقضاء، أو فدية طعام يوم كامل (فطور، غداء، عشاء) لمسكين عن كل يوم أفطره.

القانون: يمكن تقدير قيمة الوجبات وتعطى للمسكين بدل الطعام.

القانون: من يرغب في زيادة ما يعطي المسكين فهو خير يحسب له. (لأنه سيكون من الإحسان المطلوب على الدوام).

القانون: من يصوم في السفر أو في المرض (إن استطاع) فهو خير له من الإفطار.

وهذا هام، فالناس يظنون أن الإفطار في السفر أفضل.

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ

مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٨٥).

القانون: الصيام المطلوب من رب العالمين هو شهر رمضان، فقط لا غير.

القانون: كل صيام لغير أيام رمضان فهو زيادة لم يقل بها كتاب الله.

القانون: إباحة الإفطار للمريض ومن هو على سفر للتيسير على الناس.

القانون: المشقة ليست مطلوبة في العبادات.

القانون: السفر الشاق هو ما يجوز للصائم إفطاره، وليس السفر بالسيارة أو الطائرة كما اليوم.

القانون: من أفطر يوماً أو أياماً لمرض أو كان على سفر فعليه قضاء الأيام التي أفطرها وإن كان الشهر ٢٩ يوماً فعليه اعتباره كاملاً ٣٠ يوماً. وهذا القانون يفهم من قوله تعالى: « فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ». فإكمال عدة الشهر ٣٠ يوماً ولو كان في ذلك العام ٢٩ للصائم المقيم السليم.

وتكمل السورة الحديث عن الصيام: أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ(١٨٧).

القانون: ليالي رمضان يباح فيها كل ما يباح في الأيام العادية في غير شهر رمضان، ومن ذلك مباشرة النساء.

القانون: الاعتكاف لا يعني المكوث في المسجد لعدة أيام، ولكن المكوث في المسجد لبعض الوقت بعد الصلوات.

القانون: المكوث في المسجد لعدة أيام رهبانية لا شأن للإسلام بها.

أكل البعض أموال البعض الآخر بالتحايل أو القوة

وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(١٨٨) البقرة.

الآية تعني المتنفذين الإقطاعيين الذين لا يتورعون عن أكل أموال الغير بالباطل وبأي وسيلة وهو ما ينطبق على الحكام.

القانون: كل كسب مادي أو معنوي بغير وجه حق فهو أكل مال الغير بالباطل.

القانون: أكل مال الغير بالباطل كبيرة.

الأهلة

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٨٩) البقرة.

الأهلة جمع هلال، والمقصود الأشهر القمرية.

القانون: الأشهر القمرية هي المعتبرة للعبادات في الإسلام كرمضان والحج.

دخول البيوت والأحراز

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٨٩) البقرة.

القانون: الطريقة الوحيدة المباحة لدخول البيوت هو الباب المخصص للدخول.

القانون: لا يجوز أن يدخل من النافذة أو من فتحة في الجدار أو من فتحة تؤدي إلى أي مكان في المنزل أو عن طريق بيت مجاور أو بواسطة حفرة موجودة حول البيت أو بعيدة عنه تؤدي لداخله أو بواسطة قنوات المجاري وتصريف السيول أو أي قنوات أخرى. أو باستحداث حفرة قريبة أو بعيدة من المنزل وتؤدي إليه. أو باستحداث فتحة في الجدار..... إلخ.

من ضوابط الجهاد

وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ(١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ(١٩١) فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ(١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(١٩٤)البقرة.

القانون: القتال موجه لمن يقاتل المسلمين فقط.

القانون: لا يجوز بداية الناس بالقتال، فهو تعد لا يحبه الله.

القانون: عندما يضطر المسلمون لقتال المعتدي، عليهم أن يقاتلوه بكل قوة وصرامة لكي يقضوا عليه وينتهي أمره ولا يعاود حرب المسلمين.

القانون: الأصل أنه لا قتال في المسجد الحرام، لكن لو قاتلتهم قريش فيه فعليهم قتالهم.

القانون: القتال يكون للدفاع عن النفس والمال والدين.

القانون: إن توقفت قريش عن قتال المسلمين فيجب التوقف عن قتالهم، ويحرم التعدي عليهم.

القانون: لا يقاتل الناس لأنهم كفار ولكن لأنهم معتدون.

القانون: لا يجوز التعدي والعدوان، بل يعتدى على المعتدي بمثل ما اعتدى على المسلمين.

وتقول سورة البقرة: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٢١٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢١٧) البقرة.

القانون: الأصل أن يتجنب المسلمون القتال في الأشهر الحرم.

القانون: إذا قاتل المعتدون المسلمين في الشهر الحرام فيجب على المسلمين قتالهم.

القانون: القتال في الحرم محرم، لكن لو قاتل الأعداء المسلمين في الحرم فيجب على المسلمين قتالهم.

القانون: يجب على المسلمين احترام المعاهدات الدولية، لكن لو أن احترامها يضر بمصالح المسلمين أو يعرضهم أو بلادهم للخطر، فعلى المسلمين المحافظة على أرواحهم وبلادهم ولو خالفوا تلك المعاهدات.

الإنفاق أو التهلكة

وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(١٩٥) البقرة.

القانون: من لا ينفق فهو يلقي بنفسه بيديه إلى التهلكة (النار).

الحج

وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(١٩٦).

القانون: من لم يتمكن من إتمام الحج فلينحر الهدي ويحلق ويعود لبلاده.

وعدم التمكن من الحج هو عدم القدرة لدخول مكة للطواف بالبيت لأي سبب. كما حدث للمسلمين عندما منعوا من دخول المسجد الحرام في أواخر العصر المكي زمن رسول الله.

القانون: إتمام الحج هنا المقصود به تعذر الوصول للبيت بعد أن حضر للحج. إما لمنعه من قريش كما فعلت مع المسلمين في أواخر العصر المكي. أو لأسباب أخرى.

القانون: حلاقة الرأس تكون بعد نحر الهدي، وليس قبله

القانون: من لم يتمكن من حلاقة شعره كونه مريضاً أو لأن رأسه به أذى (مرض جلدي) فعليه فدية.

القانون: الفدية تكون أحد ثلاثة أمور: صيام، أو صدقة، أو نسك.

ولم يحدد هنا الصيام هل هو ليوم أو أكثر، وكتب التراث تقول ثلاثة أيام.

كما لم يحدد كمية الصدقة هل هي إطعام مسكين ليوم أو أكثر.

وبالنسبة لي فالأمر يحتاج لبحث أعمق.

..... فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(١٩٦).

القانون: الهدي يكون بعد أداء الطواف حول الكعبة للحج.

القانون: من لا يجد هدياً فعليه فدية صيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة بعد العودة للديار.

القانون: صيام ثلاثة أيام في الحج تبدأ من بعد يوم النحر (المسمى العيد اليوم).

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ(١٩٧).

القانون: الرفث والفسوق والجدال من مبطلات الحج.

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ(١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ(١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ(٢٠٠) وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(٢٠١) أُولَـئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ(٢٠٢) وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللّهَ

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٢٠٣)البقرة.

الآيات أعلاه تشرح كيف يكون الحج:

القانون: يبدأ الحجاج التجمع في عرفات، وليس هناك خطبة.

القانون: الإفاضة من عرفات باتجاه المشعر الحرام (البيت) والإفاضة تعني السير الجماعي للحجاج.

القانون: رفع الصوت بالتكبير وذكر الله أثناء الإفاضة وأثناء الطواف عند المشعر الحرام (الكعبة).

القانون: بعد الطواف يتجه الحاج إلى منى حيث يتم نحر الهدي ثم حلاقة شعر الرأس.

تجارة الخمور والميسر

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ(٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. البقرة.

من سأل الرسول هم من كانوا يتاجرون بالخمر والميسر، والجواب جاء يحمل التشريعات التالية:

التجارة في الخمر والميسر تدر ربحاً مادياً كبيراً، لمن تهمه الدنيا.

القانون: لمن يؤمن بالله واليوم الآخر وتهمه الآخرة فإن التجارة في الخمر والميسر كبيرة (إثم كبير).

والإثم سيترتب عليه عذابٌ في الآخرة، وهو أكبر من الانتفاع بالأرباح في الدنيا.

هذا القانون يقول إن كل من اشتغل بتجارة الخمور من المسلمين أو أماكن الميسر سواء كمالك للمحل أو عامل فيه فله عذاب شديد. وكم من مسلم يعمل في الملاهي الليلية والبارات ومحلات القمار في بلاد المسلمين. وكم من

منع الزواج بالأعداء المحاربين

وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَـئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ

وَاللهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمُغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٢١) البقرة.

المعني هم قريش وهي عدو محارب للمؤمنين، ولذلك حرم الزواج منهم، وليس التحريم لكفرهم.

وقد ورد في الآيات: (١٠-١١) من سورة الممتحنة، وجوب التفريق بين أي زوجين مسلم وقرشي مشرك أو قرشية مشركة ومسلم.

كما ورد في سورة المائدة إباحة الزواج بنساء أهل الكتاب: الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٥).

ومما تقدم يمكن أن نستنتج القوانين التالية:

القانون: كل من كان متزوجاً من الأعداء المحاربين يفسخ النكاح، ويعوض الزوج المسلم أو الكافر عن صداقه من بيت مال المسلمين.

القانون: لا يجوز الزواج من الأعداء المحاربين.

القانون: يجوز الزواج من الكفار المسالمين كما كانت حال أهل الكتاب في يثرب عند نزول سورة المائدة.

المعاشرة الزوجية أثناء المحيض

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ(٢٢٢) نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ(٢٢٣) البقرة.

الآيات توجيهية تجيب على سؤال سأله بعض الناس للرسول، وتتضمن تشريعاً بوجوب تجنب المعاشرة الزوجية أثناء المحيض، ليس لأنه ضار بالصحة كما تقول البعض ولكن لأنه فيه دم والله يحب للمسلم النظافة والتطهر. والتطهر هنا من الدم ولا يعني أن الحائض أصبحت مخلوقاً نجساً.

فالبعض سأل الرسول عن المعاشرة الزوجية أثناء المحيض فجاء الجواب.

القانون: المعاشرة الجنسية أثناء المحيض لا تجوز.

القانون: المحيض أذى بمعنى وسخ وقذارة.

القانون: المرأة الحائض ليست نجسة.

اليمين

وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ النَّاسِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢٢٤) لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ(٢٢٥) البقرة.

القانون: لا يجوز استخدام الحلف في الكلام، كما يفعل الناس الآن.

القانون: لا يجوز استخدام الحلف لتأكيد صدق المتكلم.

القانون: قياساً على عدم جواز استخدام الحلف لتأكيد صدق المتكلم فإنه لا يجوز أن يستخدم الحلف لإثبات حق أو نفي باطل في المحاكم[٩].

القانون: اليمين المنهي عنه هو الأيمان المغلظة وليس قول: والله كلفظ عابر.

الإيلاء

لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَآؤُوا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلاَقَ فَإِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢٢٧).

والإيلاء هو هجر الزوجة وإهمال نفقتها دون طلاق لفترة غير محدودة، فجاءت الآية تقول بأنه لا يجوز ترك الزوجة أكثر من أربعة أشهر، ثم الطلاق أو الوفاق.

القانون: لا يجوز للزوج إهمال زوجته أكثر من أربعة أشهر.

القانون: بعد ذلك إما التوافق أو الطلاق.

القانون: لا يجوز للزوج إهمال نفقة زوجته يوم واحد. وهذا يفهم من سور أخرى.

---

٩ في السعودية تقوم المحاكمات على مبدأ خاطئ وجاهلي المنشأ يقول: البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر. وهذا المبدأ باطل فمن جاء للمحكمة وهو يعلم أنه ظلم خصمه فلن يتوانى عن اليمين. كما أن التوصل للحقيقة يجب أن يتم بواسطة الاستجواب والتحقيق وتحليل كلام المدعي والشهود.

وتقول سورة البقرة: وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لَّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُواً وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٢٣١) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٢٣٢).

القانون: لا يجوز أن يبقي الزوج زوجته بعد انتهاء عدة الطلاق ضراراً وتعدياً.

القانون: يجب أن يوثق بدء عدة الطلاق.

القانون: عند انتهاء العدة ولم يتراجع الزوجان فالطلاق يقع.

القانون: إذا وقع الطلاق فعلى الزوجة الخروج من بيت الزوج.

القانون: يجب سن القوانين الكفيلة بحماية الزوجة من أي ضرر يلحقه بها زوجها.

القانون: أثناء عدة الطلاق لو رغبت الزوجة العودة لزوجها فلا يجوز لأهلها منعها.

القانون: يجب فرض القوانين الكفيلة بحفظ حق العودة للزوجة.

القانون: كل القرارات المتعلقة بحياة الزوجين حق محفوظ للزوجين دون تدخل خارجي بغير رغبتهما ورضاهما.

العلاقة بين الزوجين

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٢٣٢) البقرة.

القانون: العلاقة بين الزوجين يجب أن تكون إنسانية في حال التوافق وفي حال الخلاف.

القانون: لو حدث خلاف وتم الطلاق للمرة الأولى ثم أراد الزوجان التراجع، فلا يقف ذوو الزوجين ضد هذه الرغبة لأي سبب.

القانون: لا يجوز لأهل الزوجة منعها من العودة لزوجها أثناء عدة تربصها بعد الطلاق.

رضاعة المولود وحضانته

في حال أن الأب والأم يعيشان حياة زوجية عادية فالمولود ترضعه أمه لو كانت تستطيع ذلك وعلى الأب توفير حياة صحية للأم والرضيع. نتحدث هنا عما كانت عليه الحال قديماً عندما كان الأب هو المسئول عن إعاشة الأسرة والأم ربة بيت. لكن الوضع الآن تغير فالمرأة أصبحت تعمل، وهذا وضع صحي. لكن غير الصحي حوله هو أن هناك حالات من الشحناء والخلاف بين الزوجين حول التعاون فيما بينهما وتقاسم تحمل تكاليف الحياة فيما بينهما.

والقرآن لا يتحدث عن رضاعة الوليد في حال ولد في بيت يعيش فيه أبواه حياة زوجية عادية، مما يعني أن عليهما الاعتناء بالطفل مشاركة بينهما كل بما يستطيع.

فالأب قديما عليه توفي سبل العيش كونه كان العائل، واليوم يمكن للمرأة أن تساهم في هذا المجال لو كانت تعمل أو لديها دخل مادي. لأن الحياة الزوجية تقوم على الود والتعاون: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٢١) الروم.

والقرآن تحدث عن الرضاعة في سورتين هما البقرة والطلاق.

تقول سورة البقرة: وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُواْ أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٢٣٣).

الآية تتحدث عن قوانين الإرضاع: حيث يجب على الأم إرضاع وليدها حولين كاملين إذا أرادت أن تتم الرضاعة، وهذا يعني أنه يمكنها ترك الرضاعة قبل ذلك. هذا إذا كان الزوجان يعيشان حياة زوجية مشتركة.

وفي حال وقع الطلاق بين الأبوين فيجب على الزوج أن ينفق على مطلقته وعلى الوليد.

ويجوز للوالدين أن يسترضعا لوليدهما، أي يبحثان له عن مرضعة. وهو ما يعني جواز الرضاعة البديلة الحالية من الحليب الصناعي شريطة ضمان توفر احتياجات الرضيع

الغذائية. أو عدم قدرة الأم على الرضاعة.

المهم هنا هو مصلحة الرضيع وليس الأب أو الأم. كما أنه لا يجوز أن تضار الأم بوليدها، مثل أن يؤخذ قسراً من حضانتها. ولا يجوز أن يضار الأب بوليده مثل أن يمنع من رؤيته.

ويمكن استخلاص القوانين التالية:

القانون: يجب على الأم القادرة على الرضاع أن ترضع وليدها.

القانون: المدة الكاملة لإرضاع الوليد هي حولان كاملان.

القانون: يجوز للأم أن تتوقف عن إرضاع وليدها قبل تمام الحولين عند وجود سبب جوهري.

القانون: في حال وقع الطلاق بين الأبوين، فيجب على الزوج أن ينفق على الأم والوليد.

القانون: وجوب بقاء الرضيع مع أمه ولا يعطى الرجل حق الحضانة طالما رغبت الأم بحضانة ورضاعة ولديها، ولا يجوز أخذها منه «لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا».

القانون: لا يمنع الرجل من رؤية وليده «وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ».

القانون: في حال وجود سبب أدى لتوقف الأم عن إرضاع الوليد فيباح للزوجين طلب إرضاع طفلهما من امرأة أخرى.

القانون: يفهم من الآية جواز الرضاعة البديلة من الحليب الصناعي شريطة ضمان توفر احتياجات الرضيع الغذائية.

القانون: لو ترتب على الرضاعة البديلة أتعاب مالية فعلى الزوج دفعها، سواء كانت لمرضعة بديل أو حليب صناعي.

وقوانين أخرى.

وتقول سورة الطلاق:

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى(٦) لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً(٧).

في حال الطلاق والمرأة حامل، فيجب على الزوج الإنفاق عليها وتوفير احتياجاتها حتى تضع حملها.

ومن الآيات يمكن أن تفرض القوانين التالية:

القانون: بعد الولادة فلو أرضعت الأم وليدها فيلزم الزوج أن يفرض لها أجراً مقابل الإرضاع يتفقان عليه.

القانون: للمطلقة حق رفض إرضاع وليدها وابن مطلقها.

القانون: يجب أن يكون الاهتمام بين الزوجين هو بالرضيع فهو المهم « وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ».

القانون: لو اختلفا حول الإرضاع أو الأجر أو غيره، فعلى الزوج أن يبحث عن مرضع بديل لطفله.

القانون: النفقة والأجور وتأمين متطلبات الرضيع تكون على الزوج لو كان دخله يسمح وبقدر ما يستطيع. وللمرأة المساهمة بما تستطيع.

وقوانين أخرى.

مدة التربص لمن توفي عنها زوجها

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٢٣٤).

القانون: المتوفى عنها زوجها تتربص أربعة أشهر وعشرة أيام قبل أن تتزوج برجل آخر.

القانون: لا يوجد في الإسلام ما يعرف بحداد المرأة على زوجها المتوفى.

القانون: التربص للزواج برجل آخر وليس تقديساً للزوج المتوفى.

القانون: المتوفى عنها زوجها تعيش حياتها العادية ولا تمنع من أي مباح.

التعارف بين الرجل والمرأة بقصد الزواج

وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَـكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً وَلاَ تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ

حَتَّىَ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ(٢٣٥) البقرة.

القانون: يباح أن يصرح الرجل برغبته خطبة امرأة بعينها.

القانون: يباح أن يلتقي الرجل بالمرأة ليعرفها بنفسه ويبلغها رغبته الزواج بها.

القانون: يكون اللقاء في مكان عام.

القانون: لا يجوز اللقاء في مكان منعزل.

القانون: الكلام يجب أن يكون جاداً من الطرفين.

القانون: يحرم الكلام الذي يوحي بما لا يجوز.

القانون: في حال كان اللقاء أثناء فترة تربص المتوفى عنها فلا يجوز إتمام الزواج إلا بعد انتهاء المدة.

من طلقها زوجها قبل الدخول بها

لاَّ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنُّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ(٢٣٦) البقرة.

القانون: الذي يطلق زوجته قبل الدخول بها فلا يجب عليه شيء لها.

القانون: القادر يجب عليه أن ينفق على المطلقة فترة التربص.

القانون: غير القادر لا يجب عليه نفقة.

وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إَلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٢٣٧).

القانون: الذي يطلق زوجته قبل أن يدخل بها وقد قدم لها صداقاً فله حق استرجاع نصفه.

القانون: الأفضل أن يترك الزوج كامل الصداق للمطلقة ولا يسترد منه شيء.

القانون: لو أعادت الزوجة كامل الصداق للرجل فيباح له أخذه.

القانون: لابد من تذكر وترسيخ أن العلاقة بين الرجل والمرأة هو المودة والإحسان حتى في حالة الطلاق.

وجوب أداء الصلاة في وقتها

حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ للهِّ قَانِتِينَ(٢٣٨) فَإنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللهَّ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ(٢٣٩) البقرة.

القانون: وجوب المحافظة على أداء الصلوات في أوقاتها.

القانون: أداء الصلاة خارج وقتها لا يجزئ.

القانون: أداء الصلاة خارج وقتها، مماثلٌ لتركها.

القانون: في حال مطاردة عدو للمسلم وحضر وقت الصلاة أثناء المطاردة فعليه أن يؤديها ولو كان على ظهر راحلته ولو توجه لغير القبلة.

القانون: في حال المطاردة لن يتسنى للمسلم أن يتوضأ، وهذا يمكن القياس عليه ما يلي:

القانون: في حال عدم التمكن من الوضوء فيمكن الصلاة بدون وضوء.

القانون: إن تمكن من التيمم وإلا يسقط عنه.

من حقوق المتوفى عنها زوجها

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيَ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللهُّ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٢٤٠) البقرة.

القانون: يجب على الزوج أن يوصي ببقاء زوجته في المنزل لمدة عام كامل.

القانون: من حق الزوجة الخروج من المنزل قبل نهاية العام، إن هي رغبت بذلك.

من حقوق المطلقة

وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ(٢٤١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُّ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٢٤٢).

القانون: حق النفقة الكاملة للمطلقة واجب على الزوج طوال فترة التربص.

الإنفاق العيني يجب أن يكون من أطايب الطعام والأشياء ولا يقبل الرديء

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ(٢٦٧) البقرة.

الطيب هو ما يقبله المنفق لنفسه من طعام أو منتج.

القانون: كل طعام أو منتج تعافه النفس ولا يقبل المنفق شراءه لرداءته (إلا أن يُغش فيه) فلا يجوز إنفاقه.

القانون: لو أنفق الخبيث فلن يقبل من المنفق ولن يكون له به أجر، بل يأثم.

الدين خيار شخصي

لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢٥٦) اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٥٧) البقرة.

الآية نزلت بعد قيام دولة للمسلمين وتحررهم من تسلط قريش، ودخول كثير من الناس من أطياف مختلفة للإسلام. والآية تقول بأن الدخول في الإسلام خيار شخصي لا إكراه فيه، ولا يحق للمسلمين إجبار غيرهم على قبول دينهم.

القانون: الدين خيار شخصي.

القانون: لا يجوز للمسلمين أن يجبروا غيرهم على قبول الإسلام.

القانون: قوة دولة المسلمين ليست مبرراً لفرض الإسلام على الغير.

القانون: عدم فرض الإسلام على الناس بالقوة يؤكد أن الإسلام المقبول ليس إسلام الاتباع ولكن إسلام الاقتناع. والمقصود بإسلام الاتباع هو الولادة على الإسلام وتأدية بعض واجبات الدين والانتهاء عن بعض نواهيه كموروث، وليس نتيجة لاقتناع بالدين

وخوف من عذاب الآخرة.

وبناءً عليه يفرض القانون التالي:

القانون: يجب توعية المسلمين بدينهم وما يجنونه منه في الدنيا والآخرة منذ الصغر وباستمرار.

وتتحدث سورة النساء عن فئتين من مسلمة قريش لم يهاجروا وبقوا في مكة: فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً(٨٨) وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً(٨٩) إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً(٩٠) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوَاْ إِلَى الْفِتْنِةِ أُرْكِسُواْ فِيِهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُواْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوَاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثِقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَـئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً(٩١).

والفئة الأولى يخيرون بين الهجرة والانضمام للمسلمين أو يعتبرون أعداء ويعاملون كبقية قريش المحاربين.

والفئة الثانية: لا يرغبون في قتال المسلمين ولا قتال عشيرتهم قريش، والآيات تقول أن يتعامل المسلمون معهم بالحسنى لأنهم وإن ارتدوا (كونهم منافقين والمنافق كافر) إلا أنهم لم يحاربوا المسلمين ولم يتعاونوا مع أعدائهم، فلا يجوز قتالهم أو التعرض لهم.

القانون: من تعاون مع الأعداء فهو عدو.

القانون: من ارتد واعتزل المسلمين ولم يقاتلهم أو يتعاون مع أعدائهم فيجب التعامل معه بسلمية.

القانون: القتال موجه لمن يعادي الإسلام لعدائه للإسلام وليس كفره.

القانون: الكفر وحده ليس سبباً في عداء الناس أو قتالهم.

الناس سواسية

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً(١) النساء.

الناس جميعاً متساوون في الإنسانية فقيرهم وغنيهم أسودهم وأبيضهم يتيمهم ومن له أبوان، رجالهم ونساؤهم، وليس هناك من هو أدنى إنسانية من غيره. والآية تؤكد أن الرجل والمرأة خلقا من «نفس واحدة» أي من نفس المواصفات وليس من إنسان واحد.

القانون: كل شخص مساو لشخص آخر في الحقوق والواجبات بغض النظر عن اللون والجنس والمعتقد.

القانون: المعادي للإسلام لا يعامل كشخص أقل إنسانية، ولكن كشخص عدو.

الدين والرهن

المقصود بالرهن ضمان استرداد الدائن لماله من المدين، وذلك بتقييد وحجز التصرف بعين لها قيمة كعقار أو حلي أو معدات أو غيرها يملكها المدين لصالح الدائن. بحيث يمكنه أن يبيعها ويستوفي ماله في حال تأخر الدائن عن السداد في الوقت المحدد.

ولابد من الإشارة إلى أن التداين في القرآن يكون بين قادر وقادر ولا يكون بين غني ومحتاج. لأن المحتاج تضمن له قوانين الإنفاق القرآنية سد حاجته دون اضطراره للدين. وبالتالي فالرهن لا يكون من المحتاج، ولكنه تعامل تجاري بين التجار أو بين البنك والتاجر.

ولأن التداين يكون بين قادر وقادر فالقرآن يشدد على ضمان حق الدائن ووجوب رد ماله له. وقد ورد قانون التداين في سورة البقرة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيرًا أَو كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ

فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُواْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣).

ويمكن استخلاص القوانين التالية:

القانون: التداين لا يكون لسد حاجة المحتاج، لأن حاجات المحتاج تكفل قوانين الإنفاق سداداها من مال القادر بلا مقابل.

القانون: التداين يكون بين قادر وقادر، مثل حاجة الغني لتوسيع تجارته، واستدانته مالاً من أجل ذلك. فالتداين لا يكون للحاجات الضرورية، ولكنه تعامل تجاري خاص بالتجار.

القانون: وجوب توثيق الدين وقيمته وتاريخه وتاريخ استحقاقه وكل ما يتعلق به « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ".

القانون: الآية تؤكد على توثيق الدين بالكتابة، وهو توثيق غير معتاد في عصر الرسول عندما كانت الأمية سائدة، ومع ذلك فالآية تنص على أن يكون التوثيق بالكتابة. ويستفاد من هذا:

القانون: التوثيق يكون بأدق وسيلة متاحة، وهذا يعني استخدام التوثيق الإليكتروني حاليا أو أي توثيق مستقبلي يكون أكثر دقة.

القانون: يجب أن يتأكد الدائن والمدين من نص اتفاقية الدين ويوقعا عليها، وهذا مقابل تأكيد الآية على أن يكون الكاتب والمملي حريصان ويخافان الله. فالمهم هنا هو تأكد الدائن والمدين من أن التوثيق دقيق وصحيح.

القانون: الآية تقول إن المملي هو المستدين « وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ" لكي يؤكد بنفسه ما عليه. وهذا يمكن استبداله بتوقيع اتفاقية ببنود يوافق عليها الدائن والمدين. وقد تكون اتفاقية تم صياغتها بصيغة قانونية تتفق مع القواعد المرعية ومع القوانين. وهو متاح في هذا العصر.

وتقول الآية: « فَإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ". ويفهم من هذا أن ولي السفيه والضعيف (القليل العقل) يحق له الاستدانة

باسم السفيه أو الضعيف لتنمية أموالها واستثماراتها.

القانون: لولي السفيه والضعيف الحق في الاستدانة لتنمية مالهما، ولا يحق له الاستدانة باسميهما لمصلحته الشخصية.

وتقول الآية: « وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيرًا أَو كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ".

وهو ما يبين أن القرآن يشدد على حفظ مال الدائن وذلك بكتابة الدين إضافة لشهادتين من شخصين.

القانون: التأكد من أن الدين تم توثيقه بأفضل آلية متاحة، حسب العصر. ففي ذلك العصر كانت الكتابة ومعها الشهود هي أكثر الوسائل دقة وضماناً واماناً، وفي هذا العصر فهناك التوثيق الإليكتروني والذي يمكن أن يكفي دون حاجة لشهادة شهود.

في حال كان البيع والشراء حاضراً بحاضر، يعني بيع وشراء بالنقد فيباح بدون كتابة: « إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا".

القانون: البيع بالنقد لا يجب توثيقه، لكن لو وثق فمباح. وفي هذا العصر فالتوثيق هام حتى للبيع المباشر لعدة أسباب لعل أقلها ارجاع البضاعة.

وجزء الآية هذا يؤكد على أن التداين يكون بين تاجر وتاجر وليس لحاجة محتاج.

القانون: التلاعب بالشهادة ومثلها التوثيق فسوق لأن فيه إضاعة حق صاحب الحق « وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ".

متى يكون الرهن؟

"وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ".

القانون: الرهن يكون في حال عدم توفر وسيلة لتوثيق الدين.

وفي عصر الرسول كان ذلك إذا ما كان الدائن والمدين على سفر ولم يحضر عملية الدين غيرهما وليس بإمكانهما توثيق الدين. ففي هذه الحالة فالرهن هو الوسيلة الوحيدة لضمان

الدائن استرداد ماله من المدين. بحيث يقوم المدين تسليم الدائن مطيته أو عين آخر يملكه كرهن يحتفظ به الدائن حتى يسترد ماله.

في حال أمن الدائن المدين ووثق به سقط الرهن، وأصبح الدين وكأنه أمانة استودعها الدائن عند المدين وعلى المدين أن يردها في وقتها ولا ينكرها « فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ".

إذاً، الرهن عبارة عن وسيلة يقرها القرآن لضمان استرداد مال الدائن. كونه قد قدم معروفا للمدين وأقل حقوقه ضمان استرداد ماله.

ومتى وجدت وسيلة لضمان استرداد مال الدائن فالرهن ليس لازما.

ويدخل في الرهن التأجير المنتهي بالتمليك، والضمان البنكي.

من حقوق اليتامى

وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً(٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ(٣) النساء.

القانون: يجب حفظ مال اليتيم حتى يرشد ويسلم له.

القانون: لا يجوز إضاعة مال اليتيم أو إهماله أو التلاعب به أو استبداله.

القانون: في عصرنا لا يسلم مال اليتيم لشخص ليرعاه بل يجب أن يكون هناك لجنة رسمية مختصة ترعى أموال اليتامى وتنميها وتستثمرها وتحافظ عليها.

القانون: كل من لا يجد في نفسه القدرة على معاملة الفتاة اليتيم بالعدل وحفظ الحقوق فيحرم الزواج بها.

قوله: « وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ" فهمها الناس على أن القرآن هو من أباح التعدد وهو من قال إن سقف التعدد هو الجمع بين أربع زوجات. وهذا الكلام فيه تقويل لله ما لم يقل.

فالآية تقول لمن يخاف ألا يعدل في معاملته للفتاة اليتيم ألا يتزوجها وليتزوج بغيرها من

النساء وبالعدد الذي يريد. وهناك آية مماثلة، وهي الآية التي تفتتح بها سورة فاطر: الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاء إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١).

فقوله: «مثنى وثلاث ورباع» لا تعني أن العدد محدد بأربعة كحد أعلى، وهو نفس المعنى في آية سورة النساء. ولا تحدد الآية الزواج بأربع نساء كحد أعلى.

التعدد

من الآية السابقة يمكن استنتاج ما يلي:

القانون: لا يجوز الزواج بأكثر من واحدة إلا بتوفر العدل.

القانون: العدل هنا يعني عدم وقوع الجور والظلم على أحد له علاقة باقتران الزوج بزوجة أخرى.

القانون: عدم قبول الزوجة الأولى بزواج زوجها بأخرى من الظلم والجور المانع للتعدد.

القانون: في حال الخوف من وقوع الظلم على الزوجة الأولى فلا يجوز التعدد.

القانون: يجب أن يشترط قبول الزوجة لكي يستطيع الزوج الزواج بأخرى. ويكون القبول بدون ضغوط وبكامل رضاها وهي بكامل قواها العقلية.

القانون: القرآن هو الكتاب الديني الوحيد في العالم الذي ينص على أن الأصل واحدة.

القانون: التعدد ينتج عنه العول « فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ".

والعول له عدة معانٍ، منها: الميل والجور أو كثرة العيال وقلة ذات اليد لإعالتهم.

وكلا المعنيين يمكن أن يكونا نتاج التعدد.

وقوله: « فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ"

فهل يفهم من الآية أن معاشرة ملك اليمن جنسياً مباح؟

الجواب: لا! والتفاصيل يجدها القراء في موضوع: ملك اليمين / قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

الصداق

وَآتُواْ النَّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً(٤) النساء.

الصدقات هنا هي جمعٌ للصداق أو المهر. وهو ما يدفعه الرجل في بعض المجتمعات مقابل زواجه بالمرأة. والنحلة إعطاء الشيء بلا عوض أو مقابل.

القانون: الصداق يجب على الزوج.

القانون: الصداق يكون نحلة دون استرداد.

القانون: للزوجة الحق في التنازل عن الصداق أو بعضه.

القانون: لو اعتاد الناس الزواج بلا صداق فهو مباح وكأنه تنازل من الزوجة لحق من حقوقها برضاها.

الوصاية على مال السفيه

وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً.(النساء:٥)

القانون: المال لمالكه ما دام يصونه ويستثمره بالحلال.

القانون: الوصاية تكون لحفظ المال من العبث.

القانون: صاحب المال إذا أساء استخدامه فهو سفيه يجب الحجر عليه والوصاية على المال.

القانون: المال يجب أن يعود بالخير للمجتمع.

القانون: إذا حجر على السفيه فيصرف على احتياجاته من طعام وشراب وكسوة وغيرها دون إسراف أو تبذير.

القانون: يجب التعامل مع السفيه بكل إنسانية ومودة ويخاطب بكل أدب.

القانون: التبذير والإسراف يجب أن يوضع لهما مواصفات تتفق مع مفاهيم المجتمع في عصر معين. ويمكن تعديلها حسب تغير المفاهيم.

الوصاية على مال اليتيم

وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً. (النساء:٦).

القانون: الوصاية على مال اليتيم تكون قبل بلوغه سن الرشد.

القانون: إذا بلغ سن النكاح يسلم له ماله إذا كان راشدا.

الرشد هو التصرف بحكمة وعقلانية بعيداً عن الشطط.

القانون: لا يجوز للوصي أن يأكل مال اليتيم كله أو بعضه، بأي حجة أو تبرير.

القانون: الوصاية على مال اليتامى تكون حسبة بدون مقابل مادي.

القانون: إذا كان الوصي فقيراً أو افتقر، فله أن يأكل من مال اليتيم ما يقيم أوده دون تبذير أو إسراف.

القانون: إباحة الأخذ من مال اليتيم للوصي الفقير مشروط بعدم تضرر مال اليتيم أو نقصه أو ضياعه.

القانون: لضمان عدم نقص مال اليتيم يجب استثماره بوعي.

القانون: في عصر مثل عصرنا لا يقوم بالوصاية أفراد ولكن هيئة رسمية مختصة بموظفيها الرسميين لديها القدرة على استثمار المال وحفظه.

القانون: يتم تسليم اليتيم ماله بعد بلوغه سن النكاح وثبات رشده تسليماً رسمياً موثقاً بأفضل طريقة توثيق ممكنة.

وتعود سورة النساء لتتوعد كل من تسول له نفسه أكل مال اليتيم – كلٌ أو جزء – تحت أي مسمى: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً(١٠).

القانون: قد يفلت آكل مال اليتيم من العقوبات الدنيوية التي ينص عليها قانون الدولة، لكنه لن ينجو من نار جهنم.

القانون: آكل مال اليتيم أو المتلاعب به مصيره جهنم[١٠].

١٠ انظر فقرة: هل صاحب المال حر بماله؟ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

لا يجوز الزواج بطفل

وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيباً(٦) النساء.

الآية تقول بكل وضوح إن مال اليتيم يدفع له بعد سن الرشد وهو سن النكاح.

القانون: لا يجوز الزواج قبل سن الرشد.

القانون: لا يجوز الزواج بطفل.

يجوز للإنسان أن يصرف كل ماله في حياته بشرط

وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً(٩) النساء.

الآية تحذر من صرف المال قبل الموت في حال أن ذرية الميت ستتضرر وتشكو العوز، لكن لو أن ذريته تملك ما يكفي لحياة كريمة فللرجل أو المرأة حق صرف كل المال في أعمال الخير أو لمن يحق الوصية.

القانون: يحرم صرف المال لو أن الذرية ستتضرر.

القانون: في حال أن أبناء الميت لديهم ما يكفي لحياة كريمة، فيجوز للمرء صرف كل ماله في حياته على وصيته وأعمال الخير.

ويستفاد من القانونين السابقين ما يلي:

القانون: الرجل ليس مسئولاً عن إعالة أبنائه بعد بلوغهم سن الرشد. وفي هذا العصر يمكن أن يكون (بعد تخرجهم من الجامعة وحصولهم على عمل).

وآيات المواريث تؤيد هذه القانون، حيث إنها لا تعطي الأبناء كل مال أبيهم، في كثير من الأحيان.

المواريث

يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيما حَكِيماً(١١) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوَاْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ(١٢) النساء.

بناءً على ما ورد في الآيات أعلاه يمكن تقسيم الإرث حسب الورثة كما يلي:

الورثة فيهم أبناء للميت

- لو توفي رجل أو امرأة وله أبوان وبنات وبنون. فيرث الأب السدس والأم السدس، وبقية المال يرثه الأبناء، للذكر مثل حظ الأنثيين. ولا يتبقى شيء من التركة.
- لو توفي رجل أو امرأة وله بنتان أو أكثر دون أبناء، وله أب وأم. فللبنتين ثلثا ما ترك. وللأب السدس والأم السدس. ولا يتبقى شيء من التركة.
- لو توفي رجل أو امرأة وله بنتان أو أكثر وليس له أبناء وأحد الوالدين. فللبنات الثلثين ولأحد الوالدين السدس، ويتبقى سدس.
- لو توفي رجل أو امرأة وله بنت واحة وليس له أبناء، فلها النصف. ولو كان له أبوان فلكل منهما السدس، ويبقى السدس.
- لو توفي رجل أو امرأة وله بنت واحدة وليس له أبناء، وله أحد الأبوين. فللبنت النصف ولأحد الآباء السدس، ويتبقى سدسان.

الورثة ليس بينهم أبناء للميت

- لو مات رجل أو امرأة وله أبوان وليس له إخوة. فلأمه الثلث ولوالده السدس.
- لو مات رجل أو امرأة وله أبوان وله أخ أو أخت، وليس له أولاد. فلأمه السدس ولوالده السدس، وللأخ أو الأخت السدس. ويتبقى النصف.
- لو مات رجل أو امرأة وله أبوان وله أخوان أو أختان أو أخ وأخت، وليس له أولاد. فلأمه السدس ولوالده السدس، ولكل من الإخوة السدس (سدسان). ويتبقى سدسان.
- لو مات رجل أو امرأة وله أبوان وله إخوة ثلاثة أو أكثر (بغض النظر عن جنسهم) وليس له أولاد. فلأمه السدس ولأبيه السدس ويقسم الثلث على الإخوة (للذكر مثل حظ الأنثيين)، والباقي سدسان.

الزوج والزوجة

- لو ماتت الزوجة ولها زوج وليس لها أولاد. فله نصف ما تركت.
- لو ماتت الزوجة ولها زوج ولها أخ أو أخت وليس لها أولاد. فللزوج النصف والسدس للأخ أو الأخت. ويبقى سدسان.
- لو ماتت الزوجة ولها أخوان أو أختان وليس لها أولاد. فللزوج النصف والسدسين للإخوة. ويبقى السدس.
- لو ماتت الزوجة ولها ولها ثلاثة إخوة (بنات أو ذكور أو مختلط) وليس لها أولاد. فللزوج النصف والثلث للإخوة (للذكر مثل حظ الأنثيين). ويبقى السدس.
- لو ماتت الزوجة ولها ولد أو بنت أو مجموعة من الأولاد (بنات وأبناء) ولها زوج وإخوة. فللزوج الربع، والباقي يقسم بين الأبناء، للذكر مثل حظ الأنثيين. ولا شيء للإخوة.
- لو مات الزوج وله زوجة وليس له أولاد. فلها ربع ما ترك.
- لو مات الزوج وله زوجة وله أخ أو أخت وليس له أولاد. فللزوجة الربع والسدس للأخ أو الأخت. والباقي ١٤ سهم من ٢٤ سهم.

- لو مات الزوج وله ولد (فرد أو مجموعة، أولاد أو بنات) وله زوجة وإخوة. فللزوجة الثمن، والباقي للولد إن كان فيهم ذكور، وليس للإخوة شيء.
- لو مات الزوج وله بنت وله زوجة وإخوة. فللزوجة الثمن، وللبنت النصف. وليس للإخوة شيء. ويبقى ٣/ ٨ من الأسهم.

قاعدة: الأبناء واحد أو مجموعة ذكور أو إناث يحجبون الإخوة من الإرث.

هل يرث المسلم الكافر أو العكس

قوانين الإرث في الإسلام وردت في سورة النساء، ثاني سورة من بين ثلاث سور متتالية في النزول تعتبر سوراً للتشريع في القرآن وبها اكتملت، والسور هي: البقرة، النساء، والمائدة. وقد نزلت بعد فترة من هجرة الرسول واستقراره في المدينة مع أصحابه المهاجرين والأنصار.

والآيات هي: (٧-٨)، (١١-١٤)، والآية (١٧٦) وفيما يلي بعض النقاط الهامة:

- لو نظرنا لورثة أي ميت فسنجد أن هناك ورثة يرثون في حالات معينة وورثة يرثون على الدوام، والوالدان من الورثة الذين يرثون على الدوام إلا في حال وجود أبناء ذكور وبنات للميت.
- والوالدان أمرنا القرآن بهما خيراً، بغض النظر عن معتقدهما: وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً(٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً(٢٤) بني إسرائيل.
- وأوجب القرآن لهما من الإنفاق وسد حاجاتهما بغض النظر عن معتقدهما: يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ(٢١٥) البقرة.
- بل وفرض القرآن الوصية لهما حصرياً ومن نختار من الورثة الآخرين: كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ(١٨٠) البقرة.

- وأوجب القرآن البر بهما ولو كانا كافرين: وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) العنكبوت.

بعد كل هذا الحرص عليهما في القرآن، فلو مات شخص عن والديه اللذين يعتمدان عليه في معيشتهما وليس لهما معيل غيره، فليس من المنتظر أن يحرم توريثهما؟

وبما أن القرآن يخلو من حرمانهما من الميراث بسبب الكفر، فهل يحرمان؟

وإن كان الوالدان لا يحرمان من الميراث بسبب كفرهما، فغيرهما من الورثة لهم نفس الحكم.

وإن كان ما قدم صحيحاً، فالدين ليس عائقاً من الميراث.

مخالفة أمر أو نهي إلهي واحد كمخالفة كل أوامر الدين

تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(١٣) وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ(١٤).

بعد أن ذكرت السورة عدداً من التشريعات والتي في غالبها لم يعتدها الناس من قبل تقول بأن من يتقيد بهذه الحدود (التشريعات والقوانين الإلهية) فقد أطاع الله ورسوله، ومن خالفها كلها أو بعضها فقد عصى الله ورسوله. ومن يعص الله ورسوله يخلد في نار جهنم. والرسول لم يشرع منها شيء، ومع ذلك قرنت السورة اسمه باسم الله، لأنه هو من يبلغنا ما يوحى له من ربه.

القانون: كل أمر أو نهي في القرآن فهو واجب الطاعة.

القانون: كل من يعصي أمراً (تشريعاً) في القرآن فهو مخلد في النار.

القانون: الإسلام ليس إيماناً فقط، ولكن إيمان وعمل صالح. والعمل الصالح يعني طاعة أوامر الله كلها والانتهاء عن نواهيه كلها.

القانون: طاعة بعض الأوامر أو عصيان البعض كعصيان كل الأوامر. فالدين كل لا يتجزأ.

الإسلام عقد بين الله والعبد

تخاطب المائدة المسلمين: وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٧).

الآية دليل على أن الدخول في الإسلام يعني عقداً واتفاقاً وميثاقاً بين العبد وربه. يحصل العبد بموجبه على سعادة الدنيا ونعيم الآخرة مقابل تعهده باتباع أوامر الله كلها وامتناعه عن نواهي الله كلها مدى الحياة. وأي مخالفة متعمدة مختارة لأمر أو نهي إلهي، معلوم لدى المخالف حكمه، فهو نقض لعهد الدخول في الإسلام الذي سبق توقيعه مع الله، شبيه بمن تنقض غزلها بعد أن نسجته وأصبح متماسكاً قوياً، كما تقول سورة النحل: وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ(٩١) وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(٩٢) وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٩٣).

وكما تؤكد سورة الرعد أن الدخول في الإسلام عهد طوال الحياة موقع بين العبد وربه: الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيْثَاقَ(٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ(٢١).

القانون: الردة نقض للعهد مع الله.

القانون: مخالفة أمر لله أو نهي نقض للعهد مع الله، مماثل للخروج من الإسلام.

عقوبة من تقترف الفاحشة مع نساء

وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً(١٥) وتفرض السورة حداً للأنثى التي تقترف الفاحشة مع أنثى، وحداً للذكر الذي يقترف الفاحشة مع الذكر:

القانون: اقتراف المرأة الغير متزوجة الفاحشة مع امرأة أخرى تكون بحبسها في البيت.

القانون: معالجتها واجبة.

عقوبة من يقترف فاحشة قوم لوط

وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ تَوَّاباً رَّحِيماً(١٦).

والأذى ليس بالضرب، ولكن نفسياً، لكي يضيق عليه، ويشعر بالخزي. ولا ينظر له كما هو حاصل الآن وكأنه مريض. بل هو فاسق ويجب أن يعزل، ويلفظ من المجتمع، إلا أن يعود لرشده ويستقيم ويتوب. فهذه الفواحش في منتهى القذارة ولا يجب التهاون معها، وليس مهماً، تأثير الإعلام الغربي المنحرف.

وقف أن يرث الابن زوجة أبيه

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهاً وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً(١٩) النساء.

الآية تشير لعرفين كانا سائدين قبل الإسلام:

الأول: أن يرث الابن زوجة أبيه

هو أنه كان من المعتاد أن يرث الابن زوجة أبيه، كما ورد في كتب التراث وأكدته الآية التي تحرمه وتدعو لوقف العمل به. وقد بقي له بقايا حتى الآن حيث ما زالت بعض مجتمعات جزيرة العرب تجبر زوجة المتوفى على الزواج بأخيه.

القانون: لا يحل وراثة النساء.

الثاني: إذا كان الطلاق بسبب أن الزوجة اقترفت فاحشة (سحاق أو زنا) فتطلق ويسترد منها الصداق. وهذا موافق لقوله تعالى: الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ(٣) النور.

القانون: اقتراف الفاحشة موجب للتفريق بين الزوجين.

القانون: من يقترف فاحشة فلم يعد مسلماً (ككل من يقترف أي كبيرة).

العضل

وهو التضييق على المرأة المطلقة لإجبارها على أن تدفع لمطلقها مقابل حصولها على الطلاق: «وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ». وقد وصفت الآية التالية العضل بأنه: « بهتان وأثم مبين»

والمؤسف هو أنه حتى الآن ونحن في القرن الخامس عشر الهجري هناك من يمارس العضل في جزيرة العرب حيث نشهد أن الزوج يأبى تطليق زوجته إلا بمبلغ قد يفوق ما دفع لها كصداق. وتصل القضية للمحاكم ويقف القاضي في صف الزوج ليس فقط ضد المرأة المظلومة، بل ضد حد من حدود الله وشرعه وصريح قرآنه: تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(١٣) وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ(١٤) النساء.

والعضل يمكن أن يكون على شكل إرغام البنت على الزواج بمن لا ترغب.

القانون: تجريم العضل بكل أشكاله وأساليبه.

القانون: من العضل التضييق على الزوجة لكي تدفع مقابل حصولها على الطلاق.

القانون: من العضل إجبار البنت على الزواج بمن لا ترغب.

يقول تعالى: وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً(٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً(٢١).

الآية تقول: إذا دخل الزوج بزوجته ولو لليلة واحدة، فلا يجوز أخذ شيء مما سبق ودفع لها على شكل صداق. وكل من يسترد شيئاً من الصداق فقد اقترف بهتاناً وإثماً مبيناً.

فالصداق يكون مقابل قبول الزوجة الزواج، ولو كان لمواقعتها فهو بغي. وبمجرد أن يفضي الرجل لزوجته في الليلة الأولى فقد حصل على المقابل للصداق. فالصداق لقبول الزواج وليس لشيء آخر.

القانون: استرداد أي مبلغ من الصداق من المطلقة بهتان (فرية وظلم عظيم).

القانون: استرداد أي مبلغ من الصداق من المطلقة إثم مبين، وهو مواز للكذب على الله:

انظر كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُّبِيناً (٢١) النساء.

القانون: الكذب على الله هذا جزاؤه: قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ(٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ(٧٠) يونس.

القتل/ العمد والخطأ

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً{٢٩} وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً{٣٩} النساء.

بعد نزول القرآن لا يمكن لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقتل عمداً، لأنه يقرأ في كتاب الله أن قتل العمد موجب للنار. ومن قتل وهو يعلم فمصيره النار ولا توبة له: « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً" .... "مَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً".

قتل العمد

القانون: قاتل العمد ليس مسلماً ولو أعلن إسلامه.

القانون: من يقتل عمداً فهو مخلد في النار.

القانون: من يقتل عمداً وهو عالم بالحكم فلا توبة له.

القانون: قتل العمد ليس فيه دية، ويقتل القاتل.

قاتل الخطأ

هناك حالتان لقتل الخطأ:

الحالة الأولى: أن يكون القاتل والقتيل من مجتمع مـسلم واحد. أو كان القتيل من دولة بينها وبين دولة المسلمين ميثاق وتعايش سلمي، ففي هذه الحالة يكون التالي:

القانون: من يقتل شخصاً عن طريق الخطأ فعليه التالي:

تحرير رقبة مؤمنة.

دية مسلمة لأهل القتيل.

ولأهل القتيل أن يتنازلوا عن الدية.

الحالة الثانية: أن يكون القتيل مؤمناً ولكنه من مواطني دولة عدو للمسلمين.

القانون: يتم تحرير رقبة مؤمنة، ولا يدفع لأهل القتيل دية.

القانون: لو تعذر وجود رقبة مؤمنة لتحريرها، أو أن القاتل لا يملك المال الكافي لتحرير رقبة فعليه صيام شهرين متتابعين.

القانون: القاتل عمداً يجب أن يقتل ولا يملك أحد حق التنازل عن قتله. ولا يستعاض بالدية مهما كبرت عن قتل القاتل.

القانون: دم القتيل ليس له ثمن يباع ويشترى، وليس ملكاً لأهله وورثته.

القانون: الدية للمقتول خطأً ليست مقابل الدم بل هي تعويض للورثة عن فقدان القتيل.

التحذير من قتل المسالمين بحجة أنهم كفار

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً(٩٤) النساء.

كتب التراث حولت «من ألقى السلم» إلى «من ألقى السلام». والآية تحذر المسلمين من التعرض لغير المسلم المسالم الذي لا يرفع السلاح على المسلمين ولا يعاديهم، لأن الإسلام لا يقاتل الناس لأنهم كفار، ولكنه يقاتل من يعاديه منهم فقط.

فحول المفسرون والمحدثون معنى الآية إلى قتل الكافر لكفره سواء حارب المسلمين أو كان مسالماً. وقالوا إن الآية تتحدث عن مسلمين لقوا رجلاً فسلم عليهم فقتلوه لأنهم اعتبروه غير مسلم وسلامه عليهم خداعا لهم. فنزلت الآية تلومهم لأنهم قتلوه وهو مسلم. ولو كان بالفعل كافراً فلن تلومهم الآية ولو كان مسالماً، وهذا قلب لمعنى الآية وتقويل لله ما لم يقل.

القانون: لا يجوز بأي حال من الأحوال قتل غير المسلم المسالم.

القانون: لا يجوز بأي حال من الأحوال التعرض لغير المسلم المسالم.

قول الحق ولو تضرر الإنسان أو أقرب قريب

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء للهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً(١٣٥) النساء.

والآية جاءت بعد ان تحدثت السورة عن تهمة ألصقت بشخص لم يقترف الجرم وحاول أهل من صدرت منه تضليل العدالة، وذلك في الآيات: (١٠٥-١١٥) من سورة النساء. وتعود في الآية لتؤكد على قول الحق بغض النظر عن المتضرر.

القانون: يجب قول الحق ولو تضرر المرء أو والداه أو أقاربه واستفاد شخص بعيد أو عدو.

وتستمر السورة لتقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً(١٣٦) النساء.

القانون: الإيمان بالله ورسوله تعني طاعة أوامره سبحانه وتطبيقها على حياتنا اليومية.

القانون: من لا يطبق أوامر الله ونواهيه على حياته فليس بمؤمن.

الجهر بالسوء

لاَّ يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً عَلِيماً(١٤٨) إِن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً(١٤٩) النساء.

الآيات جاءت تستكمل الحديث عن تلك الحادثة التي تحدثت عنها الآيات (١٠٥-١١٥، ١٣٥) حول اتهام بريء ظلماً وعدواناً. والآيات هنا تقول إن المجاهرة بالسوء (الكلام الفاحش والسب) لا يحبه الله في الأحوال العادية ولا يجب أن يصدر من مسلم، لكن لو صدر من مظلوم لمن ظلمه فهو مباح.

الوفاء بالعهود

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ(١) المائدة.

القانون: الوفاء بالعهود عمل صالح ومخالفته كبيرة.

القانون: الوفاء بالعهود تكون على المستوى الشخصي وعلى مستوى المجتمع والدول.

الصيد يحرم والمسلم حُرُم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ(١) المائدة.

والحُرُم تعني حاضري المسجد الحرام ولا تعني وأنتم تلبسون ما سمي «بملابس الإحرام».
فأنتم حرم أي حاضرو الحرم أي موجودون داخل منطقة الحرم.

القانون: الصيد داخل منطقة الحرم في أي وقت حرام.

وتقول سورة المائدة: وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢).

"وإذا حللتم" تعني إذا خرجتم خارج الحرم، ولا تعني إذا خلعتم ملابس الإحرام التي ليس لها ذكر في القرآن أبداً.

القانون: يحل الصيد خارج الحرم في أي وقت.

القانون: حل الصيد لا يعني أنه جائز بدون حاجة ولمجرد المتعة كما يفعل الكثير منها في هذه الأيام.

وتعود سورة المائدة للحديث عن الصيد مرة أخرى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ

مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللّهُ عَمَّا سَلَف وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللّهُ مِنْهُ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَام(٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٩٦).

القانون: بعد تحريم صيد الحَرَم، تقول السورة أن من يعود له فله عذاب أليم.

القانون: من سبق منكم وقتل صيد الحرم فعليه كفارة إطعام مساكين أو صوم.

القانون: عفا الله عما سلف وسيغفر لمن يلتزم بأمر الله ولا يصطاد في الحرم.

القانون: من تعمد قتل الصيد في الحرم وهو عالم بحكمه في هذه الآيات والآيات في أول السورة فقد ارتكب كبيرة لا تغتفر، وسينتقم الله منه.

القانون: صيد البحر كله حلال. وبما أن البحر خارج نطاق الحرم فصيد البحر حلال على الدوام وفي كل الأوقات.

أوامر الله ونواهيه للانصياع وتحذير لمن يتجاوزها

اعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٩٨) مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ(٩٩) المائدة.

القانون: الله غفور لمن يتبع أوامره ويجتنب نواهيه ويلتزم بعهده مع الله.

القانون: الله شديد العقاب للكافر ولمن ينقض عهده مع الله بالخروج من الإسلام، أو بمخالفة أمر أو نهي إلهي.

القانون: مخالفة أوامر الله ونواهيه في السر مساوية لمخالفتها في العلن.

لا يجوز التعدي حتى على المعتدي

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شعائر اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢).

إن كانت قريش قد منعت المسلمين من الحج ومن دخول المسجد الحرام قبل الهجرة وسعت

لمنع الناس من الوصول للرسول فلا يحل للمسلمين أن يفعلوا مثلهم.

القانون: لا يجوز حل شعائر الله والأشهر الحرم ولا الهدي ولا القلائد.

القانون: لا يجوز للمسلمين منع من يريد الذهاب لبيت الله.

وتستمر سورة المائدة تخاطب المسلمين: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(٨).

القانون: التعدي والظلم من الآخرين لا يخولنا لأن نظلم أو نعتدي.

القانون: التعدي والظلم حرام حتى ضد المعتدي وضد الظالم.

القانون: معاقبة الظالم والمتعدي يكون بمثل تعديه وظلمه لا أكثر.

القانون: التعامل بأقصى درجات العدل عمل صالح ومخالفته كبيرة.

الزواج بالكتابيات

التفاصيل ذكرت في تدبر الآية الخامسة من سورة المائدة.

تحريم الاستقسام بالأزلام

" وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ "

وهي (عادة قدح أحجار معينة للتفاؤل أو التشاؤم). ويدخل في هذا أي تصرف للتفاؤل أو التشاؤم، وما أكثره بيننا اليوم، ومن ذلك الاعتقاد بالعين فهو من التشاؤم. ومثله رش الملح على أرضية البيت وقرع الخشب باليد وتعليق ما يسمى بالحجاب حول عنق الطفل، وممارسات كثيرة غيرها.

القانون: الاستقسام بالأزلام كبيرة.

القانون: كل ما يدخل ضمن التشاؤم والتفاؤل فالاعتقاد به كبيرة.

اكتمال الدين

بنزول سورة المائدة اكتمل الدين الإسلامي باكتمال تشريعاته: الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣) المائدة.

القانون: كل ما أضيف للدين بعد اكتمال التشريعات فهو على قسمين:

الأول: ذكر في القرآن، مثل جلد الزانية والزاني وجلد القاذف والملاعنة بين الزوجين ونحوها. فهذه عقوبات جسدية للقضاء على ظاهرة انتشرت في المجتمع، ويمكن تطبقيها في حالات مماثلة. كما يمكن تطبيق أشد منها للقضاء على ظاهرة فساد إذا ما ارتأى المسلمون ذلك، ولو فعلوا فهو من الأمور الدنيوية وليس من الدين.

الأمر الثاني: أن ما أضيف للدين يكون من غير القرآن، فهذا ليس من الدين ومن اعتقد به فقد أدخل في دين الله ما ليس فيه. ومن ذلك معتقدات وفقه المذاهب التي تعتمد على كتب التراث أو أقوال رجال الدين.

وتقول نفس سورة المائدة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنْهَا وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ(١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ(١٠٢).

بعد إعلان الآية الثالثة اكتمال الدين تأتي هذه الآية ناهية المسلمين (زمن الرسول) عن السؤال عن حكم أي مسألة لم يسبق أن ذكرها القرآن. وكل ما يعترضهم في حياتهم وليس له حكم قرآني فهو أمر دنيوي عليهم أن يضعوا له حكماً بآلياتهم الدستورية. وتعلل الآية النهي عن السؤال لأنه لو سألوا فسينزل القرآن بحكم، ولو نزل بحكم فهو ملزم.

القانون: الدين الإسلامي اكتملت تشريعاته.

القانون: كل ما ليس له حكم في القرآن فليس له حكم ديني.

القانون: كل ما ليس له حكم في القرآن فهو أمر دنيوي وكل حكم فيه فلا علاقة له بدين الله.

القانون: كل الأحكام التي يسير عليها المسلمون على أنها من دين الله وهي تعتمد على أدلة من غير القرآن فليست من دين الله في شيء.

الغسل والتطهر

تقول سورة النساء: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً(٤٣).

تجنب الصلاة تحت تأثير الخمر كان خطاباً توجيهياً للمسلمين، لأن الآية نزلت والخمر لم تحرم بعد. وكانت لتوجيه المسلمين لأن بعضهم أو أحدهم جاء للصلاة وهو سكران وتلفظ بألفاظ لا تليق أفسدت على المصلين صلاتهم.

والآية تفرض التشريعات التالية للصلاة:

القانون: عدم الصلاة مع الجنابة « لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ .... وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ".

القانون: من هو جنب وهو عابر سبيل ليس له مكان يستحم فيه، فليس عليه غسل.

القانون: الجنابة تكون من الاحتلام أو ملامسة النساء (مباشرتهن).

القانون: من جاء من الغائط أو ما في حكمه كالبول والريح فعليه تطهير السبيلين بالماء.

القانون: لا يجزئ التراب كبديل للماء لتطهير السبيلين.

القانون: الآية تنفي ما يسمى الاستنجاء والاستجمار.

القانون: من كان عابر سبيل ولم يجد مكاناً للاغتسال أو مريضاً أو على سفر فليس عليه غسل، ويكفيه التيمم.

القانون: صفة التيمم: ضرب راحتي اليد بالتراب ومسح الوحه والكفين.

ثم جاءت سورة المائدة لتوضح وتفصل موضوع الغسل والتطهر، وتضيف الوضوء:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ

نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٦).

وتبدأ الآية بفرض تشريع الوضوء:

القانون: الوضوء يجب عند القيام إلى الصلاة، أي بعد دخول الوقت على المسلم والمسلمة أن يتوضأ استعداداً للصلاة.

القانون: لا يكون الوضوء قبل دخول وقت الصلاة، ولا يجوز الصلاة وقتين أو أكثر بوضوء واحد، كما هو دارج الآن عند الكثير من المسلمين.

القانون: الوضوء غسل خاص بالصلاة، يجب أن يؤدى والإنسان على طهارة. فلا يجزئ الوضوء لمن عليه جنابة إلا بعد أن يغتسل، ولا يجزئ الوضوء لمن أتى شيئاً من الغائط حتى يتطهر.

القانون: التطهر بالماء من الغائط وما في حكمه (البول والريح) يسبق الوضوء ولا علاقة له به.

القانون: الوضوء يبدأ بغسل الوجه واليدين إلى المرافق، ثم مسح شعر الرأس باليدين المبللتين بالماء دون حاجة لغسل الشعر. ثم غسل الرجلين إلى الكعبين.

وأرجلكم معطوفة على أيديكم، وبالتالي فتقرأ بفتحة على اللام وليس كسرة.

واللغة العربية تسمح بتقدم عبارة (وامسحوا برؤوسكم) لتكون بين الجملتين المعطوفتين: «فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ» و « وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ». لأن مسح الرأس يسبق غسل الرجلين في ترتيب الوضوء. كما سمحت بتقدم المفعول به (الله) على الفاعل (إبراهيم) في قوله تعالى: « واتخذ اللهَ إبراهيمُ خليلاً». فإبراهيم هو من اتخذ الله خليلاً وليس العكس، لئلا يتقدم ذكر إبراهيم على لفظ الجلالة[11].

القانون: عند خروج الريح فيجب غسل مكان الخروج قبل الوضوء، ولا يجزئ الوضوء بدون ذلك. المؤسف هو أن كثيراً من المسلمين إذا ما خرجت ريح قاموا بالوضوء دون غسل لمكان خروج الريح. وهذا لا يجزئ لأن المعني بالتطهر هو مكان خروج الريح أولاً لكي يكون الإنسان طاهراً ومستعداً للوضوء الذي يجب أن يتم والإنسان على طهارة. فالوضوء غسل خاص بالصلاة وغسل مكان الخارج من السبيلين تطهر.

١١ انظر تدبر الآية: ١٢٥ من سورة النساء.

حكم الخمر

انظر تدبر الآيات: (٩٠-٩٢) من سورة المائدة.

حكم الصيد

تبدأ سورة المائدة بالقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ(١).

الحرم تعني البقاء في الحرم ولا تعني لبس ملابس الإحرام المعروفة الآن. فلبس ملابس خاصة للحج والعمرة لم يرد لها ذكر في القرآن، وسماها الناس ملابس «الإحرام» ولم يطلبها القرآن للحج والعمرة، ولم يسمها. ولهذا فالحرم تعني ما بقي المرء داخل محيط الحرم فلا يجوز له الصيد. ولذا فلا يجوز قتل الطيور أو الحيوانات في مكة وفي محيط الحرم في كل الأوقات. وهو ما يعني وجوب جعل منطقة الحرم محمية طبيعية للحياة الفطرية من حيوان ونبات لا تمس.

القانون: لا يجوز الصيد في الحرم بأي حال من الأحوال وفي كل الأوقات وعلى الدوام.

القانون: منطقة الحرم يجب أن تكون محمية طبيعية للحياة الفطرية لا يمس حيوانها ولا نباتها. وتقول السورة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شعائر اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ القلائد وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢).

القانون: الصيد خارج الحرم حلال.

وتقول السورة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللّهُ عَمَّا سَلَف وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللّهُ مِنْهُ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ(٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ

إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٩٦) المائدة.

القانون: الصيد حلال في الأصل، لكنه مقيد بعدم التعدي.

القانون: الصيد لمن لا يجد ما يأكل سوى الصيد فله حق الصيد بما يسد رمقه ويشبع جوعه.

القانون: التعدي يكون في الصيد الجائر والإسراف فه وصيد ما يزيد عن سد الجوع، كما يحدث حالياً من كثير من أبناء جزيرة العرب في بلادهم وبلاد أخرى.

القانون: الصيد الجائر تعد توعد الله من يصدر منه بالعذاب الأليم.

القانون: كل من يقتل طائراً في الحرم فجزاؤه فدية من النعم ، فمن لم يجد فإطعام مساكين يحدد عددهم، أو صيام عشرة أيام قياساً على قوله تعالى: وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب (١٩٦) البقرة.

القانون: ويمكن سن عقوبات صارمة لصيد الحرم.

القانون: إذا كان صيد الحرم حراماً والبلد حرام وشجره حرام فهذا يعني وضعه كمحمية طبيعية لا يمس شجرها ولا طيرها ولا حيواناتها البرية، وتكون كل المنشئات الحضرية خارج حدود الحرم. ويكون ما يتم في مكة حالياً باسم توسعة الحرم انتهاكاً لحرمة بيت الله بمباركة رجال الدين.

التعرض للظلم ليس مبرراً للظلم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شعائر اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ القلائد وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢).

برغم الظلم العظيم الذي واجهه المسلمون من قريش فالآيات تقول إن تعدي قريش ليس

مبرراً لتعتدوا.

القانون: التعدي والظلم يجب صده بكل وسيلة فعالة.

القانون: التعدي لا يجوز ولو مقابل التعدي، والظلم لا يجوز حتى ولو كان مقابل ظلم وقع.

وتستمر السورة تخاطب المسلمين: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(٨) وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ(٩) وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ(١٠).

القانون: مهما تعرض المسلم للظلم والتعدي فليس مبرراً لظلم من ظلمه أو التعدي عليه أو هضم حق من حقوقه أو شهادة كاذبة ضده او كتم شهادة حق لصالحه وغيرها.

ما لم يذكره القرآن فليس له حكم في دين الله

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللهُ عَنْهَا وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ(١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ(١٠٢) المائدة.

سورة المائدة آخر ثلاث سور تشريعية هي: البقرة، النساء، والمائدة، نزلت متتالية في المدينة لتفرض كل ما تبقى من تشريعات الإسلام، وذلك بعد أن استقر الرسول والمهاجرين وأصبح للإسلام دولة وكيان مستقل.

والآيات تعلن ختام التشريعات، وكل ما لم يذكر في القرآن له حكم فليس له حكم في الإسلام. وعلى المسلمين ألا يسألوا الرسول عن حكم ما لم يسبق أن شرع له القرآن حكم. ويعتبروه مباحاً، من رغب منهم فعله فليفعله ومن رغب تركه فله ذلك. وتنهاهم عن سؤال الرسول لأنه لو سألوا الرسول فسينزل الوحي، وسيفرض للمسألة حكم، ولو فرض لها حكم فسيكون ملزماً للمسلمين وتركه يوجب غضب الله، بعدما كان مباحاً لهم تركه أو فعله. فكل أمر لله يجب الالتزام به، ولا خيار للناس في تركه.

القانون: كل ما لم يذكر القرآن له حكم فهو مباح.

القانون: كل ما سأل الناس عنه الرسول نزل فيه حكم في كتاب الله، وهذا ينفي أن يكون الرسول يتحدث بكلامه الشخصي ويعتبر من دين الله.

القانون: كل أمر أو نهي من الله فهو واجب الامتثال ومن يخالفه فقد وجب عليه غضب الله، لأن أوامر الله تسامح في تجاوزها. وهذا ينفي أن يكون هناك غفران لمرتكب الكبيرة وهو يعلم بحكمها.

عقوبات على من يغير على أموال الناس ويسلبها

إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٣٣) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣٤).

هذه الآيات استخدمها الحكام للتخلص ممن لا يرغبون فيه باسم الدين، فكل معارض سياسي أو مصلح بالنسبة لهم هو مفسد في الأرض ويحكم عليهم بالقتل. وهذا لا شأن له بالآية التي لم تنزل لخدمة الحكام. وليس في القرآن آية واحدة تعين الحكام أو تقر بوجودهم.

ولكي نفهم فيمن نزلت وعلى من تطبق لابد من التذكير في بعض ضوابط فهم القرآن، ومن ذلك:

- أن من أساليب القرآن أن يتحدث عن موضوع ثم تبتعد الآيات للحديث عن مواضيع أخرى قبل أن تعود للحديث عن الموضوع الأول.
- وأن فهم السياق هنا يعني أن نتتبع كل الآيات التي تتحدث عن موضوع واحد.
- وأن السورة تنزل كلها مرة واحدة.

ولو فعلنا هذا فسنجد أن سورة المائدة تحدثت عن تعرض المسلمين لغارة سلب لم تنجح وهرب الغزاة في الآية: (١١).

وهاتان الآيتان: (٣٣-٣٤) جاءتا لفرض عقوبات صارمة لكل من يقوم بغارة سلب، تتمثل بقتلهم في حال ملاحقتهم. أو صلبهم في حال القبض عليهم ومحاكمتهم إن كانت جريمتهم عظيمة. أو يكتفى بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف لو كانت جرائمهم أقل.

والهدف من هذه العقوبة القضاء التام على ظاهرة عمت جزيرة العرب ومنذ زمن قديم، تتمثل في غارات الأعراب على القوافل وعلى التجمعات السكانية والقرى والمزارع والمراعي وقتل الحراس والمزارعين والرعاة والاستيلاء على الجمال والأغنام. وهي فساد في الأرض يجب تطهيرها منه.

على أن تعطى الفرصة لكل من يرغب في التوبة ولن يحاسب على ما سبق وقام به من سلب ونهب.

وتلا ذلك فرض عقوبة دنيوية أخرى لها علاقة بالسلب والنهب، وهي عقوبة من يدخل البيوت والأحراز ويسرق ممتلكات الغير: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٣٨) فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣٩) المائدة.

وعقوبة السرقة تكون بقطع يد السارق، لأن السرقة عادة تقتصر على ما في البيوت من طعام أو متاع قليل أو بعض المال، ولا يصحبه قتل ولا ترويع للناس، بخلاف غارات السلب والنهب.

وتمنح الآية: (٣٩) الفرصة لمن احترف السرقة للتوبة، ومن يتوب فلن تقطع يده ولن يحاسب على سرقاته السابقة. وهذا ما يؤكد أن العقوبة لقطع دابر ظاهرة السرقة من المجتمع للأبد. على أساس أن المجتمع بعد أن يطهر من السرقة لن يوجد فيه من يعاود السرقة بعد ذلك لأن قوانين الإنفاق تضمن لكل من يعيش في دولة الإسلام حياة كريمة بعيدة عن العوز والفاقة. وستسد حاجاته الضرورية بحيث لا يفكر بالسرقة او الحصول على المال بطرق غير مشروعة او حرام.

فمن كان ينهب عليه التوبة وستوفر له حاجياته دون مقابل وكذلك الحال بالنسبة لمن كان يحترف السرقة.

وبما أنه يفترض أن تسود قوانين الدين (القرآن) في دولة المسلمين على الدوام فإن السرقة والسلب والنهب لن يكون لها وجود بعد ذلك ولن يكون هناك حاجة لتطبيق عقوباتها. لكن استيلاء قريش على حكم دولة المسلمين ألغى الإنفاق، فعم الفقر. وترك العمل بالقرآن فانتشرت البدع. وكان لابد للناس من توفير طعامهم واحتياجاتهم فعادوا لما اعتادوا قبل

الإسلام من سرقة وسلب ونهب.

وتم تحويل معنى الآيات: (٣٣-٣٤) لتطبق بحق كل من يخرج على ظلم الحاكم أو ينتقد سياساته الظالمة. فكانت سيفاً للظالم على المظلوم بدل أن تكون قوانين حماية له ولأمنه وماله.

كما تم تنفيذ قطع اليد بمساكين سرقوا ليأكلوا. وهؤلاء ليس عليهم قطع يد. لأن قطع اليد فرض ضد من يعتدي على أموال الناس ظلماً وعدواناً مع سد احتياجاته. ولم يفرض لقطع يد الجائع لأن الحكام أوقفوا العمل بقانون الإنفاق الذي سيوفر له لقمة بالحلال.

القانون: يجب إعادة تطبيق قوانين الإنفاق.

القانون: الإسلام يضمن الأمن لسكان دولة المسلمين: الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ(٨٢) الأنعام.

القانون: السلب والنهب استيلاء على مال الغير وقتل لأنفس بريئة وترويع للناس.

القانون: كل من يقوم بالسلب والنهب يطبق بحقه العقوبات الواردة في الآية: (٣٤) كل حسب جريمته.

فمن قتل يقتل. ومن قتل وأفسد يصلب. ومن سلب دون قتل تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف. ومن سلب القليل ينفى من الأرض.

القانون: كل من كان يسلب وينهب قبل نزول سورة المائدة، وأعلن توبته تقبل توبته ولا يحاكم على غزواته السابقة.

القانون: كل من يعيش في دولة المسلمين تسد حاجاته الضرورية بموجب قوانين الإنفاق.

القانون: كل من يسرق بعد ذلك تقطع يده.

القانون: كل من كان يسرق قبل نزول سورة المائدة وأعلن توبته، تقبل توبته ولا يحاكم على سرقاته السابقة.

القانون: بعد استتباب الأمن في دولة المسلمين وسد حاجات الناس في كل الدولة بموجب قوانين الإنفاق لن يكون هناك سرقات ولا سلب ونهب.

القانون: لو حدث سلب ونهب أو سرقة بعد ذلك مع انتفاع الغزاة أو السارق من قوانين الإنفاق فليس هناك مجال للتوبة ولا تقبل. لأنه سلب وسرق وهو يعلم بالحكم مسبقاً.

القانون: تطبيق قوانين الإنفاق سبقت تطبيق عقوبة السلب والسرقة.

ويمكن تطبيق العقوبة الواردة في الآيات: (٣٣-٣٤) بحق كثير من الحالات المعاصرة، منها من يستولي على أموال الناس بطريقة مشابهة للسلب والنهب الجاهلي. وكل من يستولي على الأموال العامة شريطة أن يستتاب فإن تاب فترد الأموال ولا يعاقب، وإن أصر تنفذ فيه العقوبة. وكذلك على كل من يغتصب شخصاً آخر.

عليك بنفسك ولا تهتم بكثرة المخالفين

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(١٠٥).

الآية تخاطب المسلمين زمن الرسول في يثرب، وهي تنطبق على أي مسلم في أي مكان وزمان. فكثرة الخبيث لا يعني أنه طيب. وكما قالت سورة المائدة في آية سابقة: قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُواْ اللهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٠٠).

والخبيث في الآية يقصد به غير المسلمين وهم الكثرة. وسيبقى المؤمنون هم القلة في كل زمان ومكان: وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) يوسف.

القانون: عندما يهتدي الإنسان للحق لا يهتم بما يعتقد غيره.

القانون: كثرة المخالفين لا يعني أنهم على حق.

عقوبة السارق والسارقة

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٣٨) فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣٩) المائدة.

القاعدة في الإسلام أن الكبائر ليس لها عقوبة جسدية، فليس هناك عقوبة لمن يأكل لحم الخنزير أو الميتة أو يشرب الخمر أو الربا أو غيرها، لأن عقوبتها ستكون يوم القيامة بالخلود في النار. ومع ذلك فهناك عقوبة جلد الزاني والقاذف وعقوبة قتل القاتل العمد وعقوبة قطع يد السارق. وهذه العقوبات ليست بديلاً لعذاب النار، ولكنها عقوبات ردع لمنع انتشار ظاهرة فاسدة من أن تنتشر في المجتمع المسلم، فوجب تطهير المجتمع منها تطهيراً تاماً. وسنتحدث عن كل عقوبة في حينها.

وبين أيدينا الآن قطع يد السارق والسارقة، فإن كان هناك واقعة وقعت في المجتمع أدت إلى فرض هذه العقوبة فهي عقوبة ردع، وليست تشريعاً ثابتاً في الدين. وإن لم يكن هناك حادثة تسببت في وقوع الآية، فالتشريع ثابت في الدين مثل قتل القاتل أو الإنفاق أو الصلاة ... الخ.

وآيات عقوبة قطع يد السارق والسارقة لم تنزل في سياق يفهم منه وقوع حوادث سرقة في المجتمع. لذا فهي عقوبة ثابتة في كل الرسالات التي سبقت رسالة محمد.

وهكذا كل عقوبة سواء جسدية أو معنوية فهي لمن اقترف الإثم قبل نزول الآيات التي تحرمه وتفرض العقوبة. وبعد نزول الحكم فلا توبة لأن من يقترف الإثم عالماً مختاراً فلا توبة له.

ولهذا فلا يجب أن يكون هناك مسلم يسرق أبداً، وتكون عقوبة السرقة أو الزنا أو قطع الطريق أو غيرها من العقوبات الجسدية موجهة لغير المسلمين لتطهير المجتمع من هذه القاذورات.

ونعود لآيات السرقة: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٣٨) المائدة.

الآية واضحة في القول إن هناك قطعاً فعلياً للأيدي جزاءً بما كسبا، وهو ما يبعد أي احتمال للمجاز. والقطع في اللغة: إِبانةُ بعض أَجزاء الجِرْمِ من بعضٍ فَصلاً، كما يقول ابن منظور في لسان العرب. وقَطَعاتُ الشجرِ: أُبَنُها التي تَخْرُجُ منها إذا قُطِعَت، الواحدة قَطَعَةٌ. والمِقْطاعُ: ما قَطَعْتَه به. والأَقْطَعُ المقطوعُ اليَدِ ويَدٌ قَطعاءُ: مقطوعةٌ.

ولأن كل لفظ في اللغة يمكن أن يستخدم للمجاز فمن المجاز أن نقول:

قَطَعَ النهر إذا شَقَّه وجازَه وعبره. وقَطَعَ لسانه إذا أسكته. وقطع الرحم إذا لم يتواصل مع أقاربه وذوي رحمه. وآية قطع يد السارق والسارقة جاء القطع فيها بمعنى بتر وفصل جزء من اليد. وسنعود للحديث عما اعتبره البعض خلافاً فيما يقطع.

والقطع بمعنى فصل جزء من اليد مماثل لما ورد في قوله تعالى ضمن الحديث عن هلاك عاد ونجاة هود ومن آمن معه: فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ(٧٢)الأعراف.

فهلاكهم عبرت عنه الآية بقطع دابرهم وأثرهم بمعنى بترناهم واجتثثناهم.

ومثله ما ورد في سورة الأنعام عن هلاك أمم كفرت: فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ(٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٤٥) الأنعام.

ومثله ما ورد في الحديث عن هزيمة قريش في بدر وقتل عدد من الكبراء: وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ(١٢٧) آل عمران.

فقطع طرفاً من الذين كفروا (بترهم واجتثهم وأبادهم) وهم قتلى قريش في بدر.

ومن الآيات التي تتحدث عن القطع بمعنى البتر بأسلوب مجازي قوله تعالى: هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ(١٩)الحج.

وكأن هناك قطعة كبيرة من الثياب النارية تقطع إلى قطع صغيرة بحجم ثوبٍ للكافر يلبسه.

فقطع هنا تعني فصلَ وبترَ وأبانَ جزءً من الجرم.

وقريب منه، قوله: فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَـذَا بَشَراً إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ(٣١) يوسف.

فقطعن أيديهن تعني خدشن أيديهن وهو قول ما زال مستعملاً في كل اللغات: تقول: قطعت يدي بالسكين. وتعني خدشتها ولم أبترها (مجاز).

ومثله تحذير موجه للرسول عليه الصلاة والسلام لو تقول على الله غير القرآن: وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ(٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ(٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(٤٦) الحاقة.

فقطع الوتين لا يعني اجتثاثه ولكن فصد الوتين (العرق) وخدشه، والعبارة هنا مجازية تعني هلاك الرسول وموته لو فعل.

ونعود لتشكيكٍ طالما أثير حول قطع يد السارق ومن أين تقطع؟ ويعتبرون أن القرآن عندما لم يحدد من أين فهو نقص فيه وعيب.

واليد في اللغة تطلق على الكف، وهو الأصابع وراحة اليد.

هذا هو المعنى الأول لليد بلا خلاف، وهو في كثير من اللغات وليس في العربية فقط.

وتطلق اليد على الأجزاء الثلاثة: اليد (الكف) والذراع والعضد (الزند) معاً، يعني من بداية الأصابع إلى الكتف.

وإطلاق اليد على هذه الأعضاء الثلاثة من باب إطلاق البعض ليقصد به الكل. مثل قولنا رأس فلان ونقصد به كله. ومثل قوله تعالى: فتحرير رقبة والمقصود تحرير كل الإنسان.

لذا فالآية واضحة لا لبس فيها: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٣٨) المائدة.

ويكون القطع من الرسغ، وهو الفاصل بين اليد والذراع.

إلا أن بعض أتباع المذاهب قالوا بخلاف ذلك، فبعضهم يقول إن القطع يكون للأصابع دون الإبهام وغيرهم قال تقطع اليد من الكوع. ولو قطعت الأصابع فسيتبقى جزء من اليد، كون اليد تطلق على راحة الكف والأصابع معاً، وهو قصور عن نص الآية. ولو قطعت من الكوع فهذا يعني قطع لليد والذراع، وهو زيادة عن نص الآية.

ولابد أن يتذكر القراء أن هذه الخلافات لم تكن تثار في عصر الرسول أو الخلفاء الأوائل (الراشدين) ولكنها أثيرت في عصور الفتن والمعتقدات الضالة في العصر العباسي، كغيرها من الخلافات بين رجال الدين. وبقيت هذه الأقوال الجدلية حية إلى اليوم، حيث نجد من يتباكى على قطع يد السارق.

مرة بحجة أن كلمة قطع لا تعني قطعاً ولكن تعني كف يد السارق ومنعه من السرقة. وهذا الكلام يفترض أن يتم التنبؤ بعزم السارق على السرقة قبل الإقدام عليها فيتم منعه. لأنه عندما يسرق فلا يمكن منعه، حتى لو سجن أو أخضع لجلسات نفسية لإقناعه بعدم السرقة، لأن فعل السرقة قد حدث.

ومرة تجدهم يتباكون على السارق وأن قطع يده سيؤدي لضرر أكثر من السرقة. كون السارق سيصبح معاقاً ولن يتمكن من تأمين قوته وقوت عياله، والإسلام لا يمكن أن يأمر بمضرة.

وهذا الكلام فضفاض لمن يراه من بُعْد، وليس ملماً بتشريعات القرآن، وإلا لعرف أن المسلم لا يسرق. لأن إعلان الإسلام لا يعني المفهوم السائد وهو الإيمان (باعتقاد أن الله موجود ومحمد رسول وإقامة بعض الأوامر والنواهي) ولكن الإسلام في القرآن يعني إبرام المسلم ميثاقاً مدى الحياة مع ربه يتعهد بموجبه باجتناب كل نواهي القرآن، والامتثال لكل أوامره: وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٧) المائدة.

وأي مخالفة لأمر أو نهي قرآني فهو نقض لذلك الميثاق. لذا فالمسلم لا يسرق ولا يزني ولا يرتكب أي كبيرة، مع الحرص على كل الأعمال الصالحة، والأبرار من المسلمين يحرصون فوق هذا على أداء الفضائل والبعد عن اللمم وهي صغائر الذنوب. (انظر فقرة: نقض العهد مع الله / قسم تشريعات من القرآن).

وبما أن المسلم المرتكب للكبيرة لمرة واحدة تقبل توبته لضوابط ذكرناها في فقرة: التوبة / قسم تشريعات من القرآن، فإن آية السرقة تمنح السارق الفرصة للتوبة: فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣٩) المائدة.

والتوبة ستمنع قطع اليد، فإن كان مسلماً فلن يعود للسرقة أبداً. وإن عاد للسرقة فليس بمسلم - ولو أعلن الإسلام – ويجب تطبيق العقوبة بحقه «جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللهِ». ومن لا يقبل بحكم الله، فلم يحكم بما أنزل الله: ...ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون(٤٤) المائدة.

والمسلم لن يسرق لسد العوز والفاقة والفقر والحاجة، لأن قوانين الإنفاق في القرآن تضمن لكل من يعيش في دولة المسلمين توفير حاجاته ليعيش حياة كريمة، تكفيه من السرقة أو التسول وإهانة النفس غير اللائق للمسلم. وكل دولة تدعي الإسلام وينتشر فيها الفقر وهي دولة غنية فهذا دليل على عدم تطبيق قوانين الإسلام.

وحتى لو ارتكب من لا يخاف الله السرقة وقطعت يده فهو ومن يعول سيتكفل بهم قانون الإنفاق، ولن تحرم عائلة السارق وأولاده من الإنفاق لأن والدهم ارتكب السرقة أو أي معصية أخرى ولو قتل غيره عمداً وقُتل، لأن قوانين القرآن تنص على أنه لاتزر وازرة وزر أخرى.

والتباكي على من يخالف أمر الله ويسرق برغم النهي الصريح، رفض لأمر الله: وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا مُّبِينًا (٣٦) الأحزاب.

أما محاولة تكييف الإسلام على أهواء الناس فالأهواء لا تتوقف عند حد. لذا نهي محمد وهو رسول الله عن اتباع أهواء الناس: وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ (٣٧) الرعد.

بل إن الله جل وعلا يقول: وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ(٧١) المؤمنون.

أهل الكتاب كفار

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ(٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللهِ مَن لَّعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَـئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ(٦٠) وَإِذَا جَآؤُوكُمْ قَالُوَاْ آمَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ(٦١) وَتَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(٦٢) لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ(٦٣).

الآيات تخاطب أهل الكتاب في يثرب زمن الرسول، وتتساءل لماذا لا يؤمنون (يدخلون الإسلام)؟

القانون: كل من لا يؤمن بالرسول محمد وبالإسلام فهو كافر ولو كان يؤمن بالله كما هي حال أهل الكتاب في يثرب زمن الرسول.

القانون: أهل الكتاب كفار.

النهي عن الحلف

لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَـكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٨٩) المائدة.

اللغو في اليمين، مثل قول: « لا والله» أثناء الحديث، والأيمان المغلظة هي المقصودة بقوله: «عقدتم الأيمان».

القانون: اللغو في اليمن ليس المنهي عنه.

القانون: الأيمان المغلظة هي المنهي عنها.

القانون: الحنث في اليمين المغلظة يوجب كفارة.

القانون: كفارة اليمين المغلظة، كما يلي:

إطعام عشرة مساكين من أفضل الطعام.

أو كسوتهم من أفضل الملابس.

أو تحرير رقبة.

فمن لا يجد المال أو رقبة، فعليه صيام ثلاثة أيام.

القانون: برغم أن اللغو في اليمين مباح إلا أنه من الأفضل عدم استخدام اليمين أثناء الحديث أبداً: « وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ".

القانون: حفظ اليمين فضيلة.

تحريم الخمر

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ(٩١).

الآية: (٩٠) تذكر: الخمر والميسر والأنصاب والأزلام على أنها كلها بمستوى واحد من

التحريم، وكلها رجس من عمل الشيطان. وتقول: «فاجتنبوه» وهو امر إلهي صريح بتجنب هذه الأشياء. وكل أمر صريح في القرآن فهو واجب الاتباع، وتركه كبيرة.

والآية: (٩١) تبين بعض ما تسببه الخمر والميسر، ثم تقول: « فهل أنتم منتهون». بمعنى لقد حان لكم يا مسلمون أن تنتهوا عن ممارسة هذه الأرجاس، لأن الخطاب للمسلمين زمن الرسول.

وليس التساؤل في «هل أنتم منتهون» للتخيير كما يحلو للبعض أن يعتبره، لكي يبرر لنفسه أن يكرع كأساً من الخمر.

القانون: الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان.

القانون: كل رجس حرام وفعله كبيرة.

القانون: الأمر باجتناب هذه الأرجاس واجب الطاعة.

القانون: كل أمر إلهي صريح واجب الطاعة.

القانون: «فهل أنتم منتهون» ليست للتخيير ولكن لتقول: لقد حان الوقت للانتهاء والتوقف.

القانون: ليس هناك أمر أو نهي إلهي في القرآن للتخيير ولكن للتنفيذ: وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا مُّبِينًا (٣٦) الأحزاب.

وتحريم الخمر واضح بوصفها أنها رجس. والرجس في القرآن وصف للأعمال الوثنية: ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) الحج.

والرجس هو وصف للميتة والدم ولحم الخنزير المحرم: قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٤٥) الأنعام.

ومقارنة الخمر بالميسر والأنصاب والأزلام الوثنية، إضافة لأمر الله جل وعلا باجتنابه:« فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».

وبرغم كل هذه الأدلة، إلا أن هناك من يتمنى ألا تكون الخمر محرمة فيبحث عن أي مبرر لتحقيق أمنيته. ومن ذلك قولهم إنه لا وجود لتحريم الخمر في القرآن لأنه يخلو من نص صريح يقول «حرمت عليكم الخمر».

تلك أمانيهم، فعدم وجود نص التحريم لا ينفي أن تكون الخمر حراماً. لأن هناك أمراً إلهياً بعدم شربها. وعصيان أمر أو نهي إلهي واحد وارد في القرآن، يوازي عصيان أوامر الله ونواهيه كلها.

والنهي الإلهي يوازي نص التحريم، وإلا لأصبح الزنا مباحاً لأنه ليس في القرآن عبارة: حرم عليكم الزنا، وإنما عبارة مشابهة لتحريم الخمر، وهي: وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً(٣٢) بني إسرائيل.

ولا عبرة لما أوردته كتب التراث من قصص كله مختلق، ومنه أن أبا حنيفة (أحد أئمة المذاهب السنية الأربعة) كان يبيح شرب النبيذ المصنوع من الْعَسَل وَالتِّينِ وَالْبُرِّ وَالشَّعِيرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، بل نسب عنه قوله إن المحرم هو السكر وليس ما صنع منه. بمعنى أنك لو شربت قليلا من أي مسكر ولم تصل لحد السكر فهو مباح. وبطبيعة الحال فنحن عباد الله ولسنا عباداً لخلقه. وتشريع أبي حنيفة لاقى ترحيباً من السلاطين العباسيين الذين كانت موائد طعامهم تتصدرها الخمور بأنواع ومسميات مختلفة. وفتاوى رجال الدين عموماً لا عبرة بها في الإسلام، فهي دين ليس من دين الله.

من ضوابط القتال

فَإذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ(٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ(٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ(٦) محمد.

السورة نزلت قبيل معركة بدر وتوجه المسلمين لما يجب عليهم فعله في تلك المعركة، ومن ذلك عدم اللجوء لأسر مقاتلة قريش بل قتلهم، لأن قريشاً العدو اللدود للإسلام والمسلمين أقوى من المسلمين وأكثر عدداً ويجب إضعافهم (إثخانهم). لأن أسرهم سيجعلهم يعودون لقتال المسلمين بعد تحريرهم. لكن متى ما أثخنوا وكان المسلمون

الأقوى والأكثر عدداً فيفضل الأسر على القتل.

ويستفاد التالي:

القانون: في حال قابل المسلمون عدواً يفوقهم عدداً وعدة، فيجب على المسلمين عدم أخذ أسرى، لأن المطلوب في هذه المرحلة من الصراع هو إضعاف العدو، بقتل كل من يقدر عليه المسلمون منهم.

القانون: إذا دخل المسلمون حرباً مع العدو وهو مثخن وضعيف، فيفضل الأسر على القتل، لأن الأسر فرصة لتأليف قلوب الأسرى للإسلام، ولو لم يسلموا، نتيجة للتعامل الحسن الذي يلقونه من المسلمين.

القانون: يمكن للمسلمين إطلاق سراح الأسرى بلا مقابل إن كانت دولة الإسلام غنية، للدلالة على سماحة الإسلام. أو إطلاق سراح الأسرى بفدية لدعم الاقتصاد لو كان اقتصاد الدولة بحاجة.

القول بخلاف الفعل

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ(٢) كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ(٣) الصف.

القانون: القول بخلاف الفعل مقت.

المقت هنا تعني الجرم البغيض عند الله.

عقوبة الزنا

تحريم الزنا فرض في مكة، وفي سورة بني إسرائيل تحديداً: وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً(٣٢).

وجاء التأكيد على التحريم والتذكير به في سور مكية أخرى مثل الفرقان: وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً(٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً(٦٩).

فالحكم واضح هنا.

فلماذا نزلت سورة النور بعد سنوات في المدينة لتفرض عقوبة دنيوية تتمثل بجلد الزناة، مع أن من يقترف الزنا سيلقى آثاماً في الآخرة وسيخلد في النار لو أصر على هذه المعصية ولم يقلع مباشرة ويتوب، كأي كبيرة أخرى؟

ذلك أن الكبائر لا يعاقب فاعلها جسدياً في الدنيا، فالمرتد لا يجلد في القرآن، وليس له عقوبة دنيوية، برغم أنه خالد في النار، وكذلك من يشرب الخمر أو يأكل الخنزير أو الربا أو الميتة أو غيرها من كبائر.

الجواب حملته لنا سورتا الأحزاب والنور، وإليكم القصة كاملة:

برغم هزيمة المسلمين في معركة أُحد نتيجة لخطأ تكتيكي أثناء المعركة، إلا أن قريشا عرفت أن قوة المسلمين تزداد مع الأيام بينما قوتها تضعف، ولابد من القضاء على المسلمين قبل أن يهاجموا قريشاً في عقر دارهم.

وكتب التاريخ والسير تتحدث عن لقاء بين أبي سفيان ووفد من قريش مع هرقل -عظيم الروم - في إيليا (القدس الحالية)، وتقول هذه الأخبار إن أبا سفيان قد امتدح الرسول في تلك المقابلة، وهذا يستحيل أن يكون قد حدث. لأن أبا سفيان وكل كبراء قريش أعداء للإسلام ويسعون للقضاء التام عليه وتشويه سمعة محمد. فكيف يمتدحونه عند هرقل؟

ولعل اللقاء قد حدث بالفعل بين قيصر ورجال من قريش على رأسهم أبو سفيان، الذين قدموا لطلب معاونة الروم للقضاء على المسلمين، بحجة أن وجودهم في يثرب يشكل خطراً على إمدادات الروم من البخور والتوابل واللبان التي تنقلها قريش من بحر العرب جنوب الجزيرة العربية. وقد علم المسلمون بتحركات قريش وسفر أبو سفيان والوفد المرافق له للقاء هرقل، فما كان من الرسول إلا أن أرسل وفداً وخطاباً لهرقل يشرح له دعوته ولماذا تحاربه قريش، لعله يثنيه عن معاونتهم. وهو الخطاب الذي حور الإخباريون نصه وكأنه خطاب من محمد لهرقل يدعوه فيه للإسلام. لأنه من الصعب تصور أن يقوم الرسول بإرسال خطابات للروم والفرس وهو بالكاد يسيطر على المدينة التي لا تمثل إلا بقعة محدودة جداً من يثرب، ومحاطة بقبائل وثنية، وبعدها حواضر وثنية ومن بني إسرائيل وغيرهم، أقرب من الفرس والروم، على الرسول أن يدعوهم أولاً، ولو آمنوا ووصل الإسلام لحدود تلك الدولتين العظميين، حينها سيكون بإمكان الرسول مراسلة قيصر

وكسرى، ودعوتها للإسلام، ولكن ليس قبل ذلك.

وقد عاد وفد الرسول مسرعاً للمدينة ليخبرهم أن هرقل وافق على نجدة قريش وأنه أمر بإعداد جيش عرمرم للقضاء على المسلمين. وهو ما أدخل الرعب في قلوبهم وزلزل الأرض من تحت أقدامهم، وفي نفس الوقت كان لديهم الوقت الكافي لحفر الخندق قبل وصول جيش الروم.

وأثناء حفر الخندق أعلنت فئة من المنافقين أنها مضطرة للعودة للمدينة، وبحجة ذكرتها آيات سورة الأحزاب: وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً(١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً(١٣).

وبقاؤهم في المدينة تسبب في إحداث مشاكل اجتماعية خطيرة تمثلت في أنهم كانوا يجوبون طرقات المدينة ويتسللون للبيوت دون استئذان، بما في ذلك بيوت الرسول. وبعد عودة المسلمين من الأحزاب كانت الإشاعات الكاذبة قد عمت المدينة وطالت سمعة الكثير من النساء العفيفات، لدرجة أن بعض الرجال صدقوا ما أشيع عن زوجاتهم واتهموها بالزنا. فكان لابد من فرض عقوبات رادعة للقضاء على هذه الظاهرة القبيحة التي لا تليق بالمجتمع المسلم.

فنزل في سورة الأحزاب لأولئك العابثين مرضى القلوب: لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً(٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً(٦١) سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً(٦٢).

إذا لم يتوقفوا عن عبثهم فوراً فيجب نفيهم: لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً.

ومن لم يقبل بالنفي فيجب قتلهم: مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً.

ولابد من وضع ضوابط صارمة ليس فقط تجتث تلك النتائج وتعيد المجتمع لحالته الطبيعية، بل وتضمن حماية المجتمع من تكرار حدوث مثل تلك الممارسات. فنزلت سورة النور خصيصاً لتفرض عدداً من الضوابط للقضاء على تلك الظاهرة التي عمت أرجاء المدينة، والتي منها:

- كل من ثبت عليه الزنا من رجل أو امرأة يجلد: الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ(٢).
- كل من يكرر الزنا فلا يجوز للمسلمين الزواج به أو بها: الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ(٣).

لأن كل من يواصل ارتكاب أي كبيرة وهو يعلم بتحريمها فلن تقبل توبته وبالتالي فهو خالد في النار وخرج من جماعة المسلمين، ولو بقي ينتسب للإسلام. وعليه فالزاني لا يجوز أن ينكح مسلمة والزانية لا يجوز أن تنكح مسلماً.

وهذا يعني عزل الزناة عن المجتمع المسلم عزلاً يعذبهم معنوياً ، وكأنهم مصابون بمرض قاتل شديد العدوى.

- بما أن مرضى القلوب أشاعوا الإشاعات الكاذبة عن بعض نساء المدينة، فقد فرضت السورة حكماً بحق كل من يروج أو تصدر منه إشاعة كاذبة تتهم امرأة بالزنا: وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥).

فكل من يتهم امرأة بالزنا فعليه أن يحضر أربعة شهود يؤكدون زعمه، وإلا فليجلد ثمانين جلدة، ولا تقبل لهم شهادة أبداً. وهذا نوع آخر من عزلهم عن المجتمع كعذاب مستمر لهم، إلا من تاب.

هنا يجب أن نشير إلى ما رسخه الفقه الموروث أن الزنا يثبت بأربعة شهود يؤكدون دخول الميل بالمكحلة، وكأن هذا ما تقصده الآية. والحقيقة أن رؤية الميل بالمكحلة مستحيل، كما أن الآية تقول إن الشهود مطلوبون في حال أشاع رجل عن امرأة بعينها أنها تمارس الزنا. وفي هذه الحالة عليه أن يحضر أربعة شهود معه يؤكدون بطريقة لا تقبل الجدل أن المرأة تزني، والتأكد من صحة أقوال الشهود من عدمه لا يقاس برؤيتهم الميل بالمكحلة، بل بما يقدمونه من أدلة وقرائن.

- كل من يتهم زوجه بالزنا بدون دليل وقرينة فلابد من اللجوء لهذه الإجراءات: وَالَّذِينَ

يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاء إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ(٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَيَدْرَأُ(٧) عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ(٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٤).

ولو حدثت الملاعنة فيفرق بينهما ويعتبر الزواج لاغياً.

- وتقول السورة إنه رب ضارة نافعة. صحيح أن ما حدث كان مزعجاً وتسبب بمشاكل اجتماعية، لكنه كان سببا في نزول ضوابط تمنع حدوث ما حدث مرة أخرى، وهذا خير: إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١١).
- ثم تعود الآيات لمخاطبة المسلمين، الذين تناقلوا الإشاعات دون أن يتحققوا من صحتها، وتذكرهم بما كان يجب عليهم أن يفعلوه عندما سمعوا تلك الإشاعات الكاذبة عن نسائهم: (لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ(١٢) لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ(١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ(١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ(١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨).

فلو أنهم أحسنوا الظن بأنفسهم ونسائهم، لقالوا لكل من يتكلم عن النساء بأن يؤكد كلامه بشهود أو أن كلامه مرفوض. لكنكم استمعتم لتلك الإشاعات، بل وتناقلتموها، في وقت كان يجب عليكم أن تقولوا: مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ.

وتحرم الآيات العودة لتناقل مثل تلك الإشاعات والخوض في أعراض الناس تحريماً قاطعاً.

ثم توجه الآيات الحديث إلى مرضى القلوب الذين كانوا السبب وراء ما حدث: إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ(٢٠).

إذا، حكم الزنا حرام لو حدث بين شخصين في الخفاء. لكن لو أن الزنا أصبح ظاهرة فيجب جلد الزناة ومعاقبة كل من شجع على انتشاره في المجتمع بكل صرامة.

ويكون جلد الزاني حكماً يطبق في حالات معينة، ولم يفرض لكي يكون عقوبة للزاني وكأنها تطهره من ذنب الزنا ويعود بعدها نظيفاً من المعاصي. ويكون جدل الزناة ليس موجهاً للمسلمين، لأن المسلم والمسلمة لا يزنون ولا يرتكبون أي كبيرة نص القرآن على أنها تؤدي لجهنم وهم يعلمون بالحكم. لأن من فعل ذلك فقد خرج من ربقة الإسلام ولو تسمى بالمسلم.

إقامة دولة للمسلمين واجبة

وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(٥٥) النور.

- إقامة الدولة واجب على المسلمين، وليس ضرورة فقط، لأنه لا يمكن تطبيق شرع الله إلا في دولة للإسلام.
- ومتى ما أخلص المسلمون النية لله وعملوا على تأسيس دولة الإسلام فسيعينهم الله على تحقيق ما سعوا إليه.
- ومتى أقيمت دولة مسلمة تحكم شرع الله فسيتمتعون في ظلها بالأمن، وسيتغلبون على من يعاديهم.

الجزية

سورة براءة نزلت لتخبر الرسول أن قريشاً خانت معاهدة أبرمتها مع المسلمين يوم الفتح وكان الرسول في تبوك فعاد من هناك ولم يواصل مسيره لحرب الروم كما كان هدف الحملة. لأن السورة تطلب من الرسول أن يوصل لقريش رسالة أنهم أعطوا مهلة (٤) أشهر للتراجع وأن يعلن على الملأ في عرفات أن قريش هي من خان الميثاق وأن المسلمين أعطوها مهلة تنتهي بنهاية الأشهر الحرم. وأنهم إن لم يعودوا فسيقوم المسلمين بحصارهم وملاحقتهم وقتالهم في أي مكان يجدونهم.

سورة براءة - كما سبق وذكر- تشدد أيضاً على أن يتابع المسلمون معاقبة كل من بدأهم الحرب سواء في الأحزاب الأولى أو الأحزاب الثانية (حنين).

ومن ذلك معاقبة قبيلة من قبائل أهل الكتاب في يثرب، ظاهروا على المسلمين أعداءً لهم، في حنين، وإن لم يشتركوا مباشرة في القتال. وقد نزل بحقهم في سورة براءة: قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ(٢٩) براءة.

عليكم أن تقاتلوا هذه القبيلة لأنهم خانوا العهد وعاونوا أعداءكم عليكم، وإجبارهم على دفع جزية لكم على ما سببه تعاونهم مع الأعداء من أضرار لكم. والجزية تعني تعويضاً مادياً يدفع مرة واحدة بذلة وصغار.

وسورة الحشر التي نزلت بعد براءة تخبرنا بما حدث لتلك القبيلة لما علمت بما نزل بحقهم في القرآن: سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ(٢) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاء لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ(٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٤).

ما إن وطئت قدما الرسول المدينة عائداً من تبوك حتى تسامع أفراد تلك القبيلة بما نزل بحقهم، فبادروا بلقاء الرسول وعرضوا عليه تسليم مزارعهم وقلاعهم وممتلكاتهم (كتعويض وجزية) والجلاء من يثرب مقابل عدم التعرض لهم، أو الدخول معهم في قتال. وقد قبل الرسول والمسلمون العرض، ولم يحدث قتال بين الفريقين، وغادرت القبيلة يثرب إلى غير رجعة.

وهو الجلاء الثاني والأخير لأهل الكتاب من يثرب في عصر الرسول، ولم يتم التعرض لمن بقي منهم بسوء، لأنه لم يثبت تورطهم بالكيد للمسلمين ولا معاونة أعدائهم. ولا نعلم متى خلت يثرب من سكانها من أهل الكتاب، وإن كنا نرجح أنهم نزحوا لفلسطين باختيارهم بعدما أصبحت تحت حكم المسلمين في عصر عمر ابن الخطاب، عندما تأكد

لديهم أن اليهود فيها يعيشون بارتياح تحت حكم المسلمين هناك.

وتكون الجزية تعويضاً مالياً كعقوبة نزلت بحق هذه القبيلة بالذات دون غيرها من قبائل بني إسرائيل وأهل الكتاب في يثرب وغيرهم من الكفار، مقابل الضرر الذي تسببت به خيانتها للمسلمين وتعاونها مع الأعداء.

ولم تنزل الجزية كتشريع يطبق على الدوام على غير المسلمين. ولذلك لم يتعرض المسلمون لأهل الكتاب في تيماء ووادي القرى واليمن وغيرها. ولم يفرضوا عليهم جزية لأنهم من اهل الكتاب[12].

لكن الأوضاع تغيرت بعد عصر الرسول واستيلاء قريش على حكم دولة المسلمين. فعندما بدأت حروبها التوسعية في العصر الأموي والعباسي، قام رجال الدين بتأويل معنى الآية التي ورد فيها ذكر الجزية، وكأنها تشريع يطبق بحق كل من لا يقبل الدخول في الإسلام من سكان البلاد التي تقع تحت حكم قريش. وجعلوا الجزية ضريبة سنوية على كل سكان تلك البلاد الذين احتفظوا بدياناتهم ولم يعلنوا الإسلام. وهذا التعميم لم يعرفه عصر الرسول ولا الخلفاء الثلاثة من بعده.

كما أن الجوية نزلت بعد اكتمال التشريع وكعقوبة دنيوية. والإسلام يعطي المسلمين الحق بتطبيق العقوبات الدنيوية على من يحارب الإسلام أو يسعى في الأرض فساداً، بما يتناسب معها ويقضي عليها. لكن هذه العقوبات دنيوية ولا علاقة لها بالإسلام، ولا يجب أن تنسب للإسلام. فلو أصدر المسلمون قانوناً بقتل من ينشر الفساد الأخلاقي فهذا من حقهم، لكنه ليس تشريعاً دينياً ولا يجب أن ينسب للإسلام.

الرهن

المقصود بالرهن ضمان استرداد الدائن لماله من المدين، وذلك بتقييد وحجز التصرف بعين لها قيمة كعقار أو حلي أو معدات أو غيرها يملكها المدين لصالح الدائن. بحيث يمكنه أن يبيعها ويستوفي ماله في حال تأخر الدائن عن السداد في الوقت المحدد.

١٢ سنضع احتمالًا هنا يقول: إن كان هناك ما سمي بموقعة خيبر، فلعل الجزية كانت موجهة لأهل خيبر، لأنهم هم من عاون أعداء الإسلام ضد المسلمين، دون ان يتعرض لهم المسلمون. وإن كان هذا ما حدث فيكون الرسول والمسلمون تجهزوا لخيبر وعند وصولهم قبل أهل خيبر بدفع الجزية للرسول والمسلمين ولم يقع قتال بين الفريقين. وكانت الجزية لمرة واحدة كما نص القرآن. وتكون خيبر قد وقعت في آخر عام من حياة الرسول.

ولا بد من الإشارة إلى أن التداين في القرآن يكون بين قادر وقادر ولا يكون بين غني ومحتاج. لأن المحتاج تضمن له قوانين الإنفاق القرآنية سد حاجته دون اضطراره للاستدانة. وبالتالي فالرهن لا يكون من المحتاج، ولكنه تعامل تجاري بين التجار أو بين البنك والتاجر.

ولأن التداين يكون بين قادر وقادر فالقرآن يشدد على ضمان حق الدائن ووجوب رد ماله له. وهذا ما ورد عن التداين في سورة البقرة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيرًا أَو كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣).

ومن الآية أعلاه يمكن استخلاص القوانين التالية:

القانون: التداين لا يكون لسد حاجة المحتاج، لأن حاجات المحتاج تكفل قوانين الإنفاق سداداها من مال القادر بلا مقابل.

القانون: التداين يكون بين قادر وقادر، مثل حاجة الغني لتوسيع تجارته، واستدانته مالاً من أجل ذلك. فالتداين لا يكون للحاجات الضرورية، ولكنه تعامل تجاري خاص بالتجار.

القانون: وجوب توثيق الدين وقيمته وتاريخه وتاريخ استحقاقه وكل ما يتعلق به « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ".

القانون: الآية تؤكد على توثيق الدين بالكتابة.

وهو توثيق غير معتاد في عصر الرسول عندما كانت الأمية سائدة، ومع ذلك فالآية تنص على أن يكون التوثيق بالكتابة. ويستفاد من هذا:

القانون: التوثيق يكون بأدق وسيلة متاحة، وهذا يعني استخدام التوثيق الإليكتروني حاليا أو أي توثيق مستقبلي يكون أكثر دقة.

القانون: يجب أن يتأكد الدائن والمدين من نص اتفاقية الدين ويوقعا عليها، وهذا مقابل تأكيد الآية على أن يكون الكاتب والمملي حريصان ويخافان الله. فالمهم هنا هو تأكد الدائن والمدين من أن التوثيق دقيق وصحيح.

القانون: الآية تقول إن المملي هو المستدين « وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ" لكي يؤكد بنفسه ما عليه. وهذا يمكن استبداله بتوقيع اتفاقية ببنود يوافق عليها الدائن والمدين. وقد تكون اتفاقية تم صياغتها بصيغة قانونية تتفق مع القواعد المرعية ومع القوانين. وهو متاح في هذا العصر.

وتقول الآية: « فَإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ". ويفهم من هذا أن ولي السفيه والضعيف (القليل العقل) يحق له الاستدانة باسم السفيه أو الضعيف لتنمية أموالها واستثماراتها.

القانون: لولي السفيه والضعيف الحق في الاستدانة لتنمية مالها، ولا يحق له الاستدانة باسميها لمصلحته الشخصية.

وتقول الآية: « وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْا أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيرًا أَو كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ".

وهو ما يبين أن القرآن يشدد على حفظ مال الدائن وذلك بكتابة الدين إضافة لشهادة شاهدتين من شخصين.

القانون: التأكد من أن الدين تم توثيقه بأفضل آلية متاحة، حسب العصر. ففي ذلك العصر كانت الكتابة ومعها الشهود هي أكثر الوسائل دقة وضماناً واماناً، وفي هذا العصر فهناك التوثيق الإليكتروني والذي يمكن أن يكفي دون حاجة لشهادة شهود.

القانون: في حال توفر التوثيق الإليكتروني فلا حاجة للشهود.

في حال كان البيع والشراء حاضراً بحاضر، يعني بيع وشراء بالنقد أو المقايضة الحاضرة

فيباح بدون كتابة: « إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا".

القانون: البيع بالنقد لا يجب توثيقه، لكن لو وثق فمباح. وفي هذا العصر فالتوثيق هام حتى للبيع المباشر لعدة أسباب لعل أقلها ارجاع البضاعة.

وجزء الآية هذا يعيد تأكيد أن التداين يكون بين تاجر وتاجر وليس لحاجة محتاج.

القانون: التلاعب بالشهادة ومثلها التوثيق فسوق لأن فيه إضاعة حق صاحب الحق « وَأَشْهِدُواْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ".

متى يكون الرهن؟

"وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ".

القانون: الرهن يكون في حال عدم توفر وسيلة لتوثيق الدين.

وفي عصر الرسول كان ذلك إذا ما كان الدائن والمدين على سفر ولم يحضر عملية الدين غيرهما وليس بإمكانهما توثيق الدين. ففي هذه الحالة فالرهن هو الوسيلة الوحيدة لضمان الدائن استرداد ماله من المدين. بحيث يقوم المدين تسليم الدائن مطيته أو عين آخر يملكه كرهن يحتفظ به الدائن حتى يسترد ماله.

في حال أمن الدائن المدين ووثق به سقط الرهن، وأصبح الدين وكأنه أمانة استودعها الدائن عند المدين وعلى المدين أن يردها في وقتها ولا ينكرها « فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ".

إذاً، الرهن عبارة عن وسيلة يقرها القرآن لضمان استرداد مال الدائن. كونه قدم معروفا للمدين، وأقل حقوقه ضمان استرداد ماله.

ومتى وجدت وسيلة أكثر ضماناً لاسترداد مال الدائن فالرهن ليس لازما.

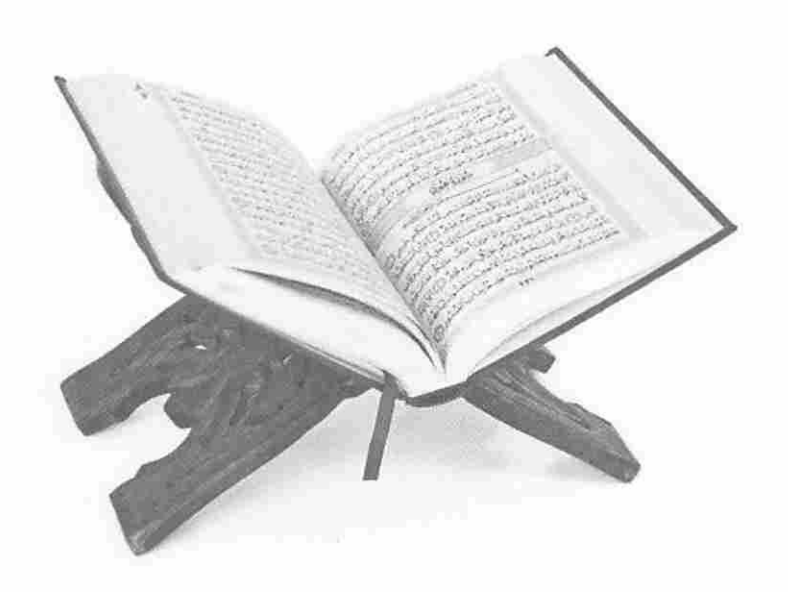
ويمكن القول إن التأجير المنتهي بالتمليك، والضمان البنكي، يدخلان ضمن الرهن.

ابن قرناس

الشرعة والمنهاج

نافذة للتعرف على الإسلام من مصدره

الجزء الثاني



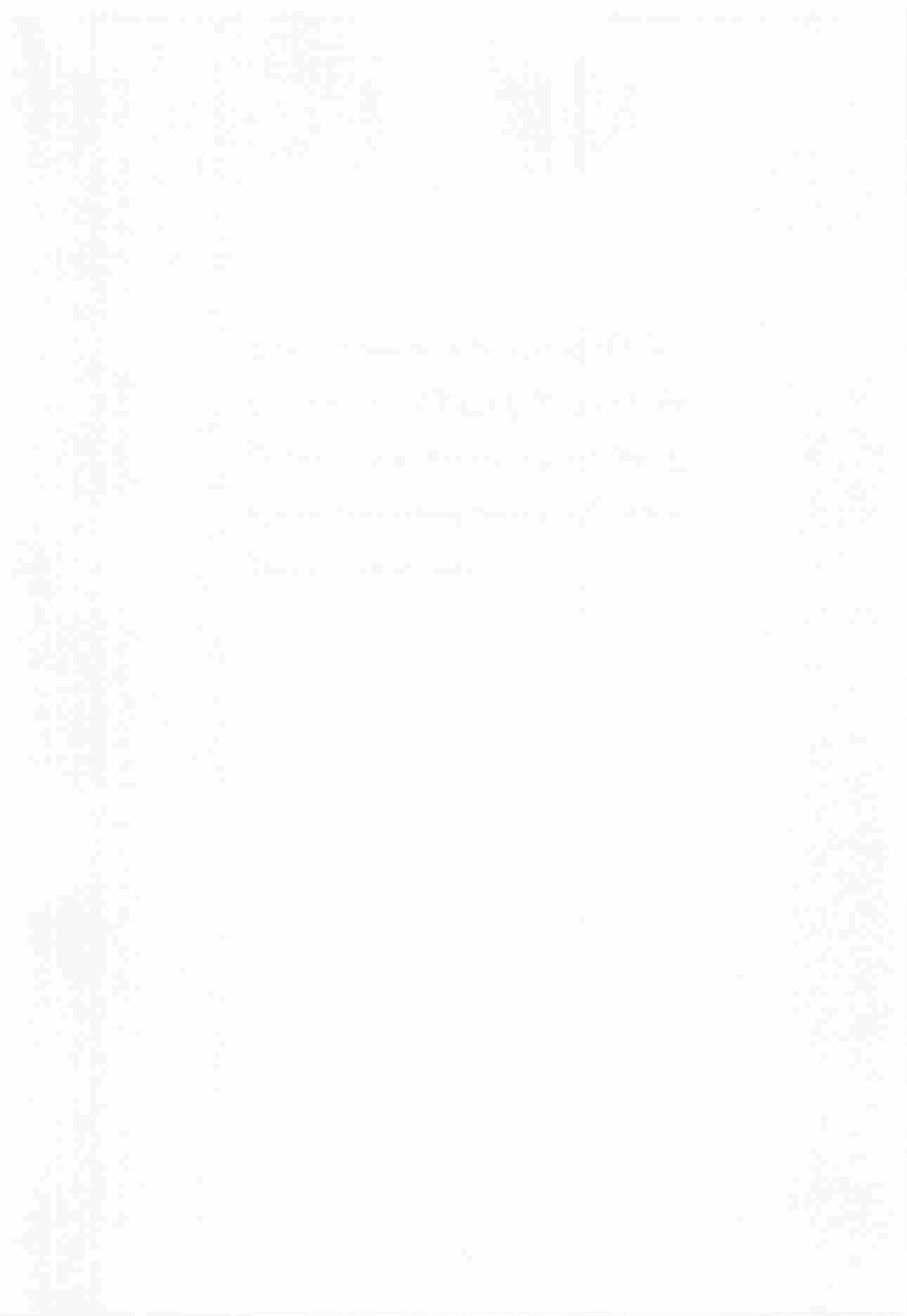
القسم الرابع

أماكن وشخصيات

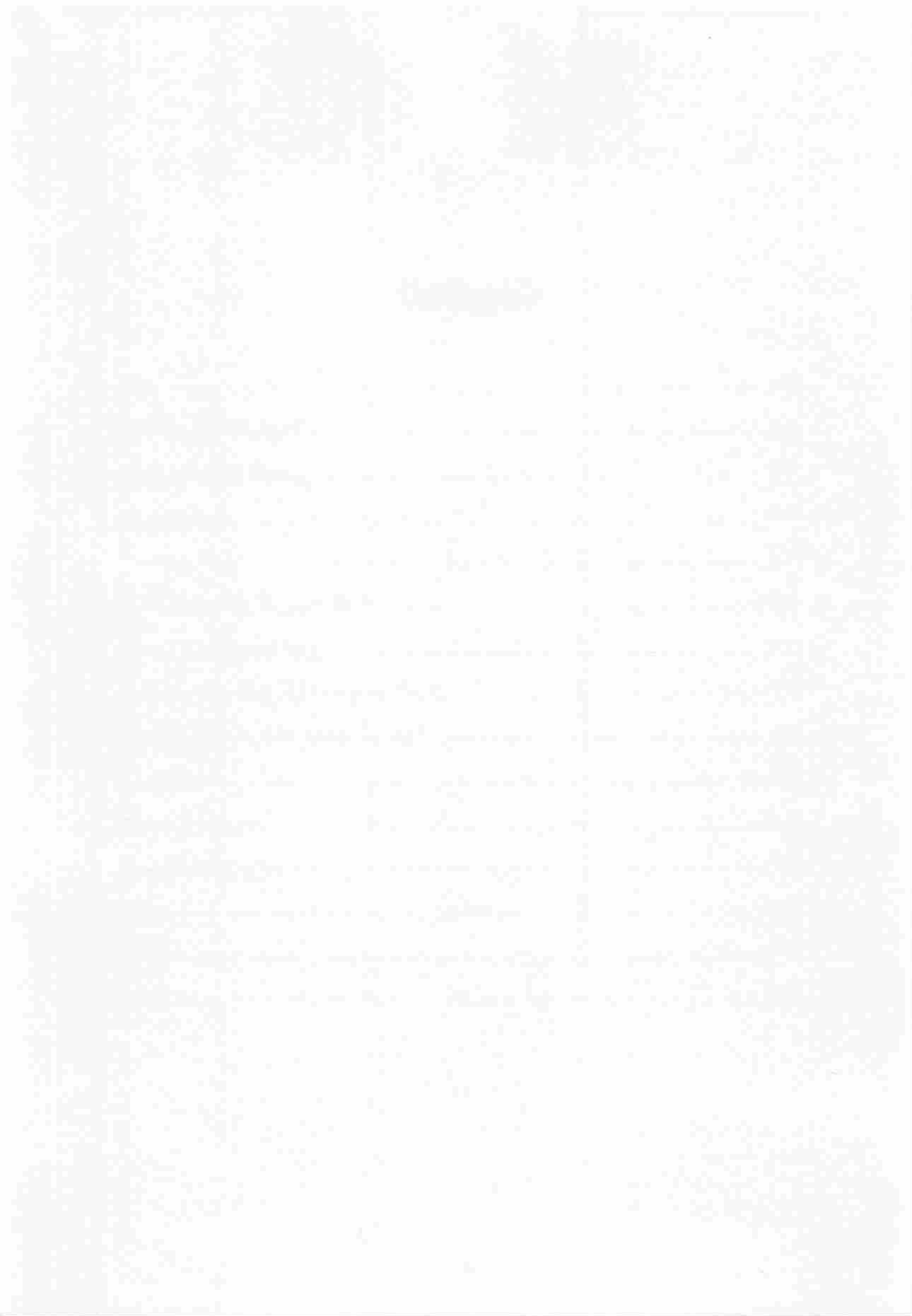
منشورات الجمل



في هـذا القسـم عـدد محـدود مـن الأماكـن والشـخصيات المذكـورة في القـرآن وذلـك لأن البقيـة تـم الحديـث عنهـا بتفاصيـل مرضيـة أثنـاء تدبـر السـور، ولا حاجـة لتكـرار ذكرهـا هنـا.



المحتويات



مكة

فيها بيت الله الوحيد على الأرض، ووجدت في واد لا يصل اتساعه (٥٠٠) متر، ويمتد من الشمال إلى الجنوب، ومحاط بالجبال من الغرب والشرق. ولا تتوفر أي معلومات تشير إلى تاريخ نشأتها أو أول من سكنها، كون سكانها (بنو إسماعيل) لا يوثقون. لذا فليس لهم تاريخ مكتوب، وليس لهم تاريخ يؤرخون به أحداثهم، ولا تواريخ ميلاد كبراؤهم، ولا يعرف عنهم شيء قبل الإسلام، إلا ما أشار له القرآن، كحملة الفيل، ورحلاتهم التجارية[1].

ونحن لا نعير كتابات المستشرقين أدنى انتباه، لأنها لا تقدم حقائق في كل البحوث المقدمة منهم عن تاريخ غرب جزيرة العرب وتاريخ مكة. لأنهم لا يملكون أي مصادر عنها. وكل ما قالوه هو كتابات متحاملة في الغالب وليس لها جدوى. ولأننا نؤمن أن القرآن وحي من الله، فإن القرآن يشهد مرتين أن مكة موغلة في القدم، وكفى بالله شهيدا:

الشهادة الأولى

سورة الحج تصف البيت بالعتيق في آيتين: وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ(٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ(٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ(٢٩) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ(٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ(٣١) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن

---

١ وهذا ما حدا ببعض المستشرقين القول إن مكة لا وجود لها أو أنها في مكان آخر أو أن الإسلام لم يظهر في مكة وما إلى ذلك من تفاهات بحجة أنه ليس لها ذكر في التاريخ. ومن هؤلاء باتريشيا كرون Patricia Crone الدانماركية والمولودة عام ١٩٤٥. وقد انزعج البعض من أقوالها وقام بالرد عليها ومن هؤلاء: د. آمال محمد محمد الروبي / أستاذ مشارك في قسم التاريخ اليوناني والروماني / جامعة الملك عبد العزيز - جدة. والكتاب بعنوان: الرد على كتاب باتريشيا كرون: (تجارة مكة وظهور الإسلام).

تَقْوَى الْقُلُوبِ(٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ(٣٣).

ووصف البيت بالعتيق في سياقٍ يتحدث عن إبراهيم يعني أن البيت الذي في مكة موغل في القدم ليس فقط بالنسبة لعصرنا ولكن حتى بالنسبة لعصر إبراهيم. وإذا كان إبراهيم قد عاش قبل بضعة آلاف من السنين، فإن البيت سبق ذلك العصر بآلافٍ من السنين.

الشهادة الثانية

سورة آل عمران تؤكد: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ(٩٦).

والآية تؤكد أن أول بيت لله (مسجد) بني للصلاة والتعبد لله هو البيت الحرام في مكة. ولعله يكون أول بيت وضع للناس في كل الأرض، وليس فقط في جزيرة العرب.

ومنطقة جنوب غرب جزيرة العرب هي التي عاشت فيها كل الأمم المذكورة في القرآن، وكل الرسل الذين ذكرهم كتاب الله. وهذا يعني أن المسجد الحرام بني قبل آدم، وهو أقدم رجل ذكر في القرآن الكريم عاش في تلك المنطقة، وليس أقدم رجل وجد في تلك المنطقة، وبطبيعة ليس أول رجل خلق على الأرض.

إلا أن أمية أهل المنطقة المحيطة بمكة عتمت على تاريخها الذي لا يعرف عنه شيء حتى ظهور الإسلام. فيما وجدت آثار ونقوش تتحدث عن تاريخ مناطق أقصى جنوب جزيرة العرب – اليمن الحالية وحضرموت – وقدرت تواريخها ما بين ١٣٠٠ – ٦٠٠ عام قبل الميلاد. مما يعني أنها بعد عصر النبي إبراهيم الذي عاش في مكة.

والنقوش السبأية المكتشفة تردد فيها ذكر إله عظيم اسمه «المقه»(𐩱 𐩡 𐩣 𐩤 𐩠) أكثر من (١٢٠٠) مرة. وقد توقف عند معناه علماء الآثار الغربيون، وأولوه لمعانٍ مختلفة لم يتفقوا على أي منها. لأنه لم يكن من المحبذ لهم أن يضعوا احتمال أن يكون المعنى هو (إله مكة) لئلا يضطروا للاعتراف بوجود توحيد سبق وجود اليهود. لأن ثقافة علماء الأديان والآثار الغربيون متأثرة وخاضعة للثقافة اليهودية التي ترسخ لكذبة مفادها أن الديانة التوحيدية لم تعرفها البشرية قبل موسى، لكي ينسب لليهود أنهم أول من عرّف الناس بالله.

والنقوش تؤكد أن السبئيين كانوا يحجون إلى المقه ويذبحون أضاحيهم في وقت معين من العام.

كما أن هناك نقوش تؤكد أن السبئيين أقاموا معبداً بالقرب من عاصمتهم مأرب على شكل دائري وأصبحوا يحجون إليه كبديل لمحجهم السابق.

والمعبد مشهور جداً وهو أكبر معبد اكتشف في اليمن ويسمى معبد أوام وهو المعبد الرئيسي للإله (المقه). ويقع إلى الشرق من سد مأرب. وهذه صورة لموقعه من Google Earth قووقل إيرث وقد غطته الرمال، لكن شكله الدائري واضح:



ومما أخبرنا به القرآن عن سبأ ما يلي: لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ(١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ(١٧) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ(١٩) وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ(٢١) سبأ.

ما يهمنا هنا ليس انهيار السد، ولكن إشارة الآيات إلى أن سبأ كانوا مؤمنين بدين الله،

فأعرضوا، وابتعدوا عن دين الله (تبعاً لسنة الأولين).

والآية (١٩) تقول: " فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ".

والراجح هو أن القراءة الصحيحة تقول: «ربنا باعَدَ بين أسفارنا»، وليس كما يقرأها البعض بكسرة تحت العين في «باعد أو بعِّد».

وما يؤيد أنها القراءة الصحيحة هو أن قراءة: «ربنا بَاعِد بين اسفارنا» لا معنى لها. لأنها تبدوا وكأنهم يطلبون من الله أن يباعد بين أسفارهم. لكن لو كانت القراءة: «ربنا باعَدَ بين أسفارنا» فهم تعللوا ببعد السفر، وكأنهم يقولون: لدينا الرغبة في السفر لو كان قريباً، لكن الله أبعده.

وهو مماثل لما منع المنافقين من الخروج مع الرسول لحملة تبوك: لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاَّتَّبَعُوكَ وَلَـكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) براءة.

وتبين لنا الآية السابقة إلى أين كان ذلك السفر المطلوب من السبئيين لله، والذي بدأوا يتقاعسون عن الذهاب إليه متعللين ببعده: وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨).

وليس هناك قرى بارك حولها سوى مكة (وما جاورها وفي حدود حرمها). وكان هناك بين سبأ وبين القرى التي بارك حولها (مكة وما جاورها) قرى ظاهرة (يمرون بها في طريقهم من سبأ لمكة). وكانت الرحلة تمتد لأيام وليالي ولكنهم كانوا يرتحلون فيها آمنين. ولو رجعنا لطريق تجارة البهارات واللبان والخور سنجد أنه يمر بسبأ ويصعد شمالاً مروراً بالقرى الظاهرة (التي تتناثر على امتداد طريق القوافل بعيداً عن أعالي جبال السروات. ويكون معنى القرى الظاهرة، هي تلك القرى التي تقع في السفوح الشرقية لجبال السروات وفي أراض مستوية، فهي ظاهرة. ومنها: نجران، بيشة، تثليث، رنية، تربة (مصر)، والطائف.

ويكون السفر المطلوب من الله لمكة (القرى التي باركنا حولها) هو لأداء الحج ونحر الهدي. وعندما كانوا على الدين الحق، كانوا لا يجدون مشقة في هذا. ثم بدأوا يتقاعسون عن الحج بعد أن بدأت أجيالهم اللاحقة تتراخى عقيدتها ويصيبها الزلل، بحجة أن المسافة طويلة:

«فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم».

ثم أقاموا معبدهم المستدير المشابه باستدارته لاستدارة المسجد حول الكعبة، ولابد أنهم بنوا كعبة في وسطه وأصبحوا يحجون لها كبديل لمكة وينحرون عندها الأضاحي.

وهو وضع له في التاريخ الإسلامي شبيه، حين قام عبد الملك ابن مروان ببناء قبة الصخرة في القدس فيما بين أعوام: (٦٦-٧٢) للهجرة، وأمر أهل الشام بالحج لها كبديل لمكة.

وما حدث للسبئيين إشارة أخرى على أن مكة معروفة جداً في جنوب غرب جزيرة العرب منذ القدم. لأن معبد أوام بني حوالي القرن العاشر قبل الميلاد، وبيت الله في مكة كان موجوداً قبل ذلك بزمن طويل.

والنبي إبراهيم وصل مكة هارباً من قومه وبرفقته لوط، قبل بناء معبد أوام بمئات السنين. ووجد البيت قد تهدم ودرست معالمه، وهو ما يؤكد قدمه بالنسبة لزمن إبراهيم: وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(٢٦) الحج.

وأرض مكة جرداء لا تصلح للزراعة: رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ(٣٧) إبراهيم.

وما يجعل الناس يأوون إليها هو وجود بيت الله، لذا فالكثير زارها والقلة استوطنوها في الأزمنة الغابرة، وهو ما يفسر تهدم البيت. وقد وصف الكعبة المؤرخ الصقلي ديو دورس، الذي عاش قبل المسيحية بخمسين عاماً «بأنها كانت في وقته أشرف معابد العالم طهراً وأقدمها»، حسبما نقل توماس كارليل في كتابه «محمد المثل الأعلى[١]» في فصل الحجر الأسود والكعبة.

وكان ممن استقر في مكة النبي إبراهيم وتزوج ورزق بابنيه إسماعيل وإسحاق فيها. وقد كلف الله إسماعيل بصيانة البيت وخدمة الحجاج مع والده قبل أن يولد إسحاق: وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(١٢٥) البقرة.

١ الكتاب ترجمه للعربية محمد السباعي وطبعته مكتبة الآداب بالقاهرة في ذي الحجة ١٤١٣ هـ/ مايو ١٩٩٣.

واستمر أولاد وأحفاد إسماعيل وأحفادهم في أداء المهمة. وعندما ظهر الإسلام كانت قريش (أحفاد إسماعيل) مستمرون بالقيام على صيانة البيت وخدمة الحجاج. وهذا يعني أن سلالة إسماعيل بقوا في مكة ولم يخرجوا منها أبداً بخلاف ما تزعم كتب التراث. واستمروا يقومون بنفس المسئوليات تجاه البيت وصيانته والحجاج واستضافتهم بتقديم الطعام والشراب دون أن يتقاضوا مقابلا مادياً نظير خدماتهم، برغم تكاليفها الباهظة. وقد رسخ في التاريخ مصطلحات قرشية لخدمة الحجاج، مثل: السقاية وهي توفير الماء للحجاج، والرفادة وهي توفير الطعام للحجاج، وغيرها. وهو ما يعني أن الحج لم يكن مصدر دخل لقريش، ولم يحول مكة لسوق تجارية، لأن غالبية الحاج فقراء يحضرون لمكة للاستفادة من الخدمات المجانية التي تقدمها لهم قريش. فتحولت مكة إلى ملجأ للمساكين والفقراء الذين يحضرون في موسم الحج للتعبد في بيت الله، وليحصلوا على الطعام والشراب، وليموتوا هناك ظناً منهم أن من يموت في بيت الله يحسب له أجر أضافي، وهو معتقد لازال حياً عند بعض الناس. وأرض مكة ليست شحيحة في المياه فقط، بل وفي كل الموارد، ولا يمكن أن تقدم لأهلها أي مصدر دخل يقيم أودهم، فضلاً عن تحويلهم لأثرياء. ومع ذلك فقد كان كبراء قريش من ذوي الثراء الفاحش، مكنهم من الصرف على خدمات البيت والحج بسخاء، والعيش حياة بذخ وترف.

والقرآن يقول لنا أنه كانت لهم رحلات تجارية منتظمة: لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ(١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ(٢) قريش.

وكتب التراث تقول إنهم كانوا يتاجرون في سوق عكاظ التي تبعد عنهم مسيرة يومين أو ثلاثة، وكانت تلك السوق تقام لمدة أيام بضع مرات في السنة. فهل هذه التجارة الموسمية هي التي جعلتهم من ذوي الثراء الفاحش، ومكنتهم من الصرف على خدمات البيت والحج بسخاء؟

أم أن قريشاً تمارس تجارة مستمرة تؤمن لهم الثراء العريض والدائم، والذي لا يتأثر بالصرف على حجاج بيت الله؟

والذي لا يختلف عليه اثنان أن تجارة قريش كانت تقوم على نقل قوافلها البخور واللبان والبهارات من قرب سواحل بحر العرب إلى العراق ومنها لفارس، ولبلاد الشام ومنها

لروما وأوروبا. وهي تجارة توارثها رجال قريش كابراً عن كابر، كتجار وسطاء للآلاف السنين. وتكون سوق عكاظ تقام في الفترة التي تصل فيها القوافل للسوق، سواءً كانت قادمة من الجنوب محملة بالبضائع أو كانت قادمة من الشام والعراق وقد باعت حمولتها وعادت بمنتجات استهلاكية كالملابس والطعام والأدوات. فإن كانت القوافل قادمة من الجنوب ففي السوق يتم تحويل مسار بعضها للعراق ويكمل الباقي مساره للشام. وإن كانت قافلة من الشام أو العراق فيتم بيع حمولتها في السوق للتجار المحليين في مكة والطائف وما حولها.

وتجارة البهارات واللبان والبخور قديمة، قدم التاريخ، لذا فمن المرجح أن عشيرة إبراهيم كانوا يتاجرون بها، خاصة وأن قريتهم تقع على نفس طريق القوافل التي كانت عير قريش تسلكها. وهو ما يفسر قدرة إبراهيم العيش في مكة الجرداء، وتملكه قطعان من الماشية ذبح منها عجل كضيافة للمخلوقات الكونية التي حضرت له وبشرته بإسحاق ظناً منه أنهم بشر. وقد ذكر كتاب اليهود المقدس أن إبراهيم كان يمتلك الأموال الطائلة[1].

ويبدو أن بنو إسماعيل قد استمروا بممارسة تجارة الأجداد، وتوارثتها أجيالهم. والقرآن يقول إن قريشاً كانت لها رحلات موسمية في الشتاء والصيف في سورة قريش، ويقول في سورة العنكبوت أن قريش تمر بمساكن عاد: وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ(٣٨) العنكبوت.

ومساكن عاد في الأحقاف: وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(٢١) الأحقاف.

والأحقاف هي مناطق التقاء السفوح الشمالية لجبال حضرموت، والسفوح الشرقية لجبال اليمن. والممتدة من سبأ باتجاه الشرق، والتي تتخللها الأودية المنحدرة باتجاه الربع الخالي، وتغطي أراضيها الرمال: فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ(٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ(٢٥) الأحقاف.

في تلك المنطقة تقع سبأ كواحدة من أهم الأسواق التي يبيع فيها منتجو اللبان محاصيلهم،

---

١ ذكر بعض ما ورد في كتاب اليهود المقدس من باب الاستشهاد بكتاب تاريخي، وإن حوى الكثير من الأكاذيب فقد يكون فيه بعض الحقائق ولو كانت مشوهة.

بجانب أسواق أخرى تجلب لها محاصيل البخور والبهارات من الهند. ويبدو أن قوافل قريش أصبحت الناقل الحصري للبان والبهارات والبخور من تلك الأسواق، مارين بمساكن عاد. ثم يعودون لسوق عكاظ ومن هناك، ينقلونها إلى العراق أو إلى أسواق بصرى الشام وغزة ومنها ينقل لأوروبا.

وأصبح سادة قريش من ذوي الثراء الفاحش، أو أولي النعمة كما وصفهم القرآن: وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً(١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً(١٢) وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً(١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً(١٤) المزمل.

وامتلكوا كل المظاهر المصاحبة للثراء من العبيد والإماء والأنعام والأثاث وغيرها: أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ(٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ(٥٦) المؤمنون.

وكانوا يتباهون بكثرة أولادهم وأموالهم: ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً(١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً(١٢) وَبَنِينَ شُهُوداً(١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً(١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ(١٥) المدثر.

كما كانوا يتباهون بخدمة البيت والحجاج وانحدارهم من نسل إبراهيم: أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِّ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِّ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِّ وَاللهُّ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) براءة.

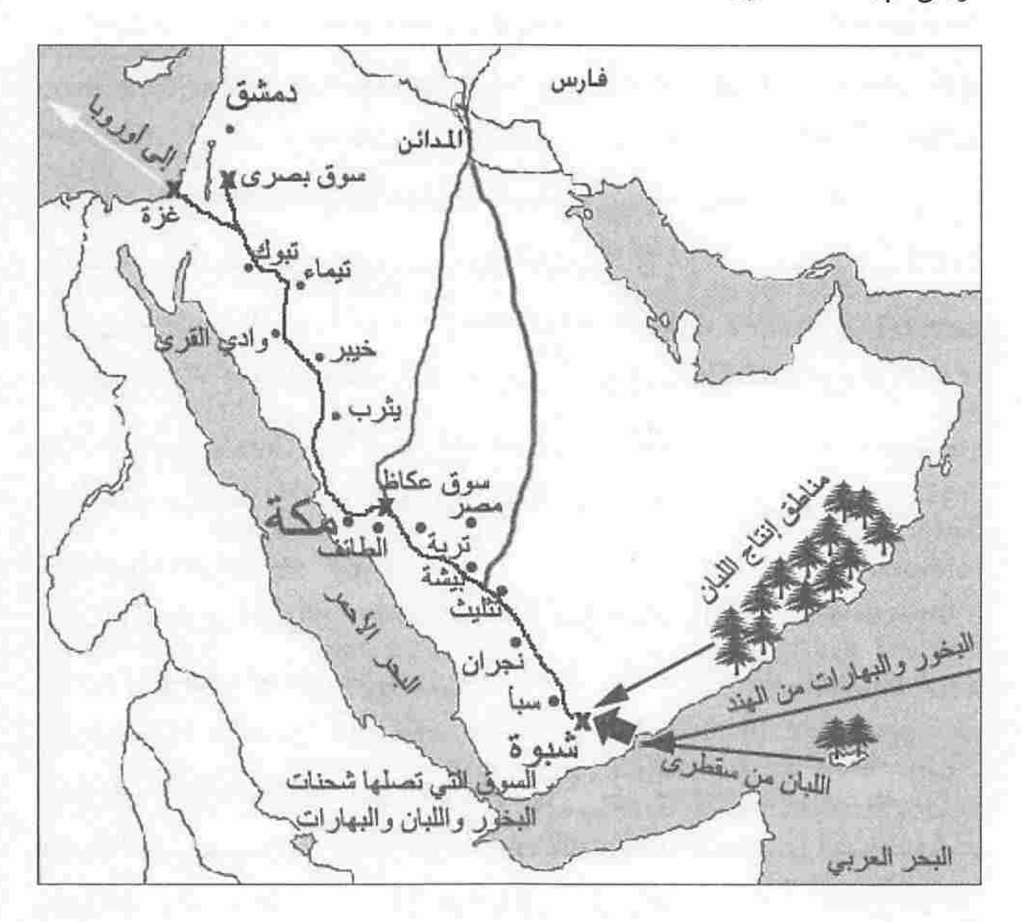
فصار لهم نظرة تعظيم من كل سكان جزيرة العرب، تحولت إلى ما يشبه التقديس الذي استفادوا منه. فعاشوا سادة أعزاء آمنين سواءً كانوا داخل حرم بيت الله الذي نذروا أنفسهم سدنة له وخدماً لحجيجه، أو في ترحالهم خارج مكة. فلم تكن تتعرض قوافلهم للنهب ولا نساؤهم للسبي ولا رجالهم للحروب. فكان الانتماء لقريش جواز سفر دبلوماسي اعترف به كل سكان جزيرة العرب سواءً كانوا من البدو الذين تعتمد حياتهم على السلب والنهب، أو من شعوب الممالك المستقرة والمتحضرة.

وعاش أهل مكة برغد عيش، ولم يتعرضوا لحروب أو اجتياحات أجنبية كما حل ببني إسرائيل. ولعل حملة أبرهة كانت المحاولة الأولى والأخيرة قبل الإسلام لغزو مكة، والتي انتهت بهلاك الجيش الغازي قبل دخولهم البلدة الحرام، وهو ما سنتحدث عنه في موضوع مستقل.

ولم يكن أمن وأمان مكة ومن فيها بسبب حلف فضول، كما يقول الإخباريون، ولكن لأنها

بلد آمن منذ ظهرت للوجود، وقبل آلاف السنين من حلف الفضول إن كان قد حدث بالفعل.

وفيها يلي خارطة تظهر طريق تجارة اللبان والبخور والبهارات وهي التجارة التي مارستها قريش عبر مئات السنين:



وإن كان طريق اللبان والبهارات والبخور يمر بالقرب من مملكة سبأ القديمة، فلابد أن هناك أسواق أخرى لشراء المنتجات من المنتجين تقع أبعد من سبأ وأقرب لبحر العرب، وقد كانت شبوة إحداها، لعدد من العوامل، منها:

- أن شبوة كانت العاصمة القديمة لحضرموت لفترة طويلة من الزمن.
- أنها أقرب للبحر حيث تتلقى شحنات البخور والبهارات من الهند.

- أن الرحالة والمؤرخين اليونان والرومان، أمثال هيرودوت، استرابون، ارتيميدوس، بطليموس، وبوليبيوس قد ذكروا أن حمولات اللبان تصل إلى شبوة من مناطق إنتاجه في المهرة وظفار وحضرموت، مثلما يصلها البخور والبهارات من الهند ولبان سقطرى من الموانئ التي ترسوا بها السفن على سواحل البحر العربي، ومن هناك ينقل بواسطة الجمال إلى شبوة حيث يجمع المحصول على شكل أكوام يوضع على كل كوم منها لوحة تشير إلى وزنها وسعرها ويتجول التجار بينها ويضعون على اللوحة السعر الذي يريدون الشراء به. وعندما تتم صفقات البيع والشراء يقوم التجار بتحميل شحناتهم على الجمال سالكين الطريق التجارية القديمة مروراً بقتبان ومعين وغيرها.

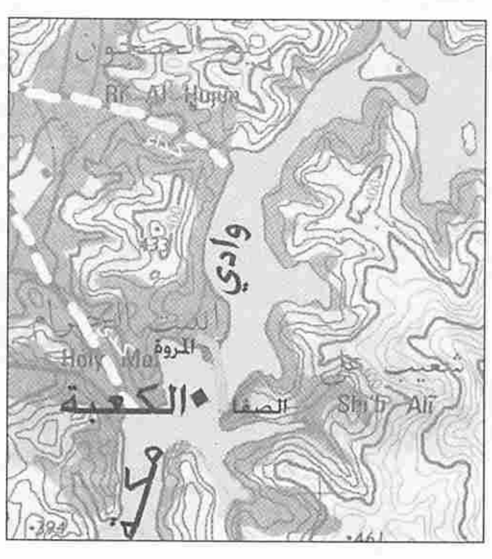
وقد تكون هناك سوق في سبأ وفي شبوة وفي أماكن أخرى غيرها في نفس الوقت فاللبان يأتي من مناطق متفرقة، من الجنوب من سقطرى ومن الشرق من ظفار والمهرة. والبخور والبهارات تأتي من مناطق مختلفة من الهند وترسوا السفن في موانئ متعددة على بحر العرب.

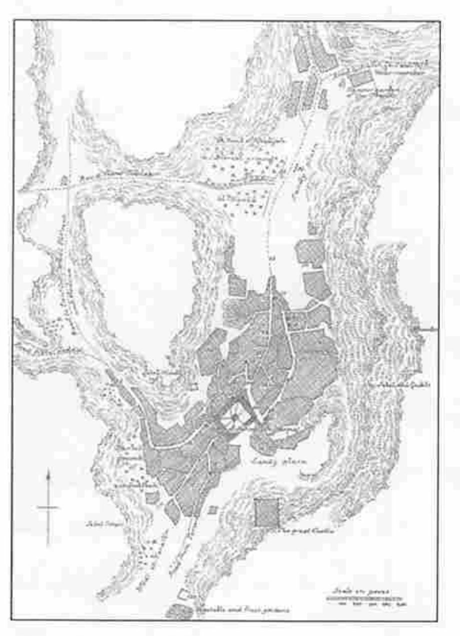
والملاحظ أن طريق القوافل لا تمر عبر الحواضر (القرى الظاهرة) ولكن بالقرب منها، على الدوام. من سبأ، نجران، بيشة، تربة، مصر، مكة، يثرب، خيبر، وادي القرى، وتيماء، قبل أن تصل إلى بصرى الشام أو غزة.

كما أن هناك طريق أخرى، وإن كانت أقل أهمية تحمل اللبان والبخور والبهارات إلى بلاد فارس، وكانت قريش أيضاً هي من يوصله للعراق. وأرجح أن قوافل قريش لا تذهب للعراق مباشرة من اليمن، عبر الطريق الواصل من نجران فتثليث، ثم الاتجاه إلى ذات كاهل (قرية الفاو) ثم اليمامة ثم إلى الشمال حيث تقطع نفود الدهناء باتجاه المدائن، التي كان اسمها القديم قطسيفون، وتسمى اليوم سلمان باك. وكانت مقر كسرى أنوشروان زمن رسول الله. ولكن قوافل قريش تنقل حمولتها إلى سوق عكاظ، وهناك يتم تقسيم القوافل إلى قسمين. قوافل تتجه إلى الشمال باتجاه الشام، مروراً بيثرب، وادي القرى، تيماء، تبوك، وبصرى أو غزة. وقوافل تتجه شرقاً إلى المدائن عبر طريق يصل مكة بالمدائن، وهو نفس الطريق الذي جددته زبيدة زوج الرشيد لأنه يربط بغداد العباسيين والمدائن القديمة بمكة، وذلك تحسباً فيما لو عادت هي أو بعض أسرتها الحاكمة لمكة، فجعلت الطريق مريحة للسفر، حيث أمرت بإقامة فنادق للمبيت والراحة يتوفر فيها الطعام، وأماكن لراحة الدواب وأعلافها، وبرك للمياه لسقي المواكب الملكية ودوابهم في المقام الأول.

طبوغرافية مكة

الشكل الطبوغرافي لمكة تغير جذرياً هذه الأيام نتيجة للتوسع العمراني الذي لم يراع التاريخ ولم يحترم قدسية الأماكن الأثرية وأهميتها القصوى. لذا قمنا بتوضيح شكل وادي مكة الذي يقع فيه البيت على جزء من الخارطة الطبوغرافية المرفقة تحت (إلى اليمين)، دون أن نغير شكل الخطوط الكنتورية. وقد ظهر شكل الوادي في الخارطة التي أنتجتها إدارة المساحة[1] الجوية عام ١٩٧٥، كما كان في العام ١٨١٤ الذي يظهره الرسم اليدوي لبوركهارت إلى اليسار[2]. ويمكن القول إنه نفس شكل الوادي كما كان زمن إبراهيم، لأن تضاريس مكة في الخارطة لم تتغير، برغم امتداد العمران خارج الوادي وفوق الجبال المحيطة، والذي يظهر باللون الأحمر، لأن المساكن كانت تقام على الجبال دون تغيير لتضاريسها.





فوق: جزء من الخريطة الطبوغرافية مع توضيح لوادي مكة ومكان الكعبة والمسعى وعقبتي كداء: شمال جبل قعيقعان وكدي جنوبه. "قعيقعان هو الطور الأيمن"
وإلى اليسار: نسخة من رسم بوركهارت لمكة عام *1814* ويظهر أن العمران لم يتجاوز الوادي.

واليوم لم يعد لمكة ما قبل آدم وإبراهيم ولا حتى مكة زمن الرسول محمد ولا حتى شكلها قبل مئة أو خمسين عاماً أي وجود. هي اليوم (١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥) تجمُّعٌ رأسمالي بكل معنى

١ الخارطة الطبوغرافية من إنتاج إدارة المساحة الجوية – وزارة البترول والثروة المعدنية – الرياض – السعودية.

٢ ولد في لوزان في ٢٥/ نوفمبر/ ١٧٨٤، ودرس في ألمانيا وإنجلترا، وعاش في البلاد العربية متنقلا في بلاد النيل والشام من العام ١٩٠٩ إلى أن توفي في القاهرة عام ١٨١٧ بسبب تسمم غذائي. وقد سافر إلى مكة صيف العام ١٨١٤، وبقي فيها إلى منتصف العام التالي. وهو أول أوروبي يكتشف معبد أبو سمبل الذي كانت الرمال قد دفنته.

الكلمة، مع مواصلات غاية في السوء، وبنية تحتية مهترئة. تتناطح في سمائها وحول كعبتها البنايات الشاهقة التي تصل لعنان السماء، كفنادق وشقق سكنية ومتاجر تستغل موسم الحج ومواسم العمرة المستمرة طول العام للكسب المادي الفاحش. وقد قامت على أنقاض بيوت قريش التي كان يجب أن تبقى كما هي وأن تكون ضمن قائمة منظمة اليونيسكو العالمية للتراث الإنساني. لكن الجشع المادي لأصحاب النفوذ وقصر نظرتهم وقلة تدينهم وفقرهم للحنكة وضحالة مداركهم، خولهم للاستيلاء على مكة ونقضها وبناء مجمعاتهم السكنية والتجارية التي هلك بعضهم قبل أن يهنأ بها وسيلحق بهم قريباً من بقي منهم على قيد الحياة، ليذهب الفاعل ويبقى الفعل عاراً على جبين الإنسانية التي لم تستطع هيئاتها الدولية أن تمنع حدوث ما حدث.

وعند الانتقال لمنى يمكن رؤية سهل منى الذي يتخلله شوارع محاطة بسياج حديدي يفصل خيام حملات الحجاج عن حجاج الافتراش، كما يطلق على حجاج من داخل السعودية قدموا للحج بدون الانضمام لحملة من حملات الحج. وأرضية شوارع منى عبارة عن أكوام من القاذورات بأنواعها. ودورات المياه العامة قليلة جداً بالنسبة لعدد الحجاج. لذا المضطر للجوء إليها سيواجه صف انتظار بشري طويل ومياه آسنة تحت قدميه وتغطي منطقة الحمامات. قبل أن يحظى بدور للدخول لبيت الخلاء القذر. كما تطفح الأراضي المحيطة بأماكن الوضوء الملاصقة لدورات المياه بمياه آسنة هي الأخرى.

ولغياب المواصلات العامة فإن القادم من مكة لمنى عليه أن يترجل من السيارة في حي العزيزية والسير على الأقدام لمسافات طويلة ليصل خيمته. وقد افتتح قبل أعوام قليلة قطار ذو مسار واحد يصل لمنى، والكل يعرف أنه مخصص للأمراء والوفود مجاناً، وبعض الحملات بأسعار خيالية برغم أنه مسار واحد وقطار واحد وحالته بائسة وطريقة تشغيله أكثر بؤساً وامكانياته متواضعة، ولا يمكن أن يصنف كوسيلة مواصلات فعالة، وكأنه للاستعراض أكثر من تقديم الخدمة.

وعرفات تتفوق على منى في حجم القاذورات ونوعيتها. فالشوارع تتغطى أرضيتها بالكامل بأكوام من القاذورات السائلة: من مياه وبقية مشروبات غازية وأعاصير.... وغيرها. والصلبة: من معلبات وكرتون وبلاستيك ومظلات شمسية مهترئة وملابس

وأقلام وأحذية وإكسسوارات، وكتيبات الحج، وبقايا أطعمة مطبوخة كالدجاج والرز والشربة والكبدة، وأطعمة معلبة... وكل ما يخطر على البال. إضافة لما يلقي به الباعة على جانبي الطريق من مخلفات وزبالة.

ودورات المياه العامة للرجال فقط على طول الشارع رقم (٧٩) الذي يقطع عرفات من المنتصف باتجاه جبل "الرحمة"، ولم أر دورات للنساء في ذلك الشارع.

كل هذه المضايقات والمشقة والأوضاع السيئة يلقاها ضيف الله في بيت الله.

مع أن الحاج ضيف على الله، في بيته، لبى دعوته. وواجب الضيف الإكرام بما يتناسب مع قدر ومقدار المضيف ومكانته. لذا جاء تكليف الله نبيه إبراهيم بتطهير البيت من القاذورات، كخطوة أولى لاستقبال الضيوف بعد إعادة بنائه: وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(٢٦) الحج.

ثم جاء تكليف آخر لإسماعيل ليواصل هو ونسله المهمة بعد أبيه إبراهيم: وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(١٢٥) البقرة.

وهذا التكليف يضمن إكرام الضيوف بكل ما يلزمهم من حقوق الضيافة، بمواصفات إلهية مثالية بلغة العصر الذي يعيشون فيه.

وقد استمرت قريش تقوم بحق الضيافة على أكمل وجه، منذ أيام إسماعيل - تحت مسميات السقاية والرفادة والسدانة والحجابة والعمارة – ولم تكن تلك الأعمال من اختراع قريش، كما يقول التاريخ.

بعبارة أخرى، تطهير البيت وترميمه، وتوفير المأوى والمأكل والمشرب وتيسير بقية أمور الحاج، هي ما كان يفعله إبراهيم وإسماعيل بناءً على تكليف الله لهما وليس منة أو تفضلاً أو معروفاً منهما، واستمرت في نسلهما إلى أن جاء الإسلام. ولم تكن قريش هي من اخترع هذه الخدمات للحجاج تفضلاً كما يقول من كتب التاريخ في العصر العباسي جهلاً منهم بحقيقة ما حدث، أو خبثاً وطمساً للحقائق.

وقد قامت قريش بالتكليف الإلهي خير قيام، فكانوا يصرفون الأموال الطائلة لتأمين نظافة بيت الله على الدوام. وتأمين كل ما يلزم الحجاج من شرب ومأكل ومأوى. وبرغم صعوبة

جلب المياه من مناطق بعيدة عن مكة، لشح مياهها، فقد كانت قريش توفر المياه للحجاج، بكميات كافية.

ولما خانت قريش معاهداتها مع الرسول يوم الفتح، سحب الله منهم شرف خدمة الحجاج والقيام على البيت كعقوبة لهم وأسندت للمسلمين، ولو لم يكونوا من نسل إسماعيل، كما أخبرتنا سورة براءة: مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ(١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهّ مَنْ آمَنَ بِاللهّ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهّ فَعَسَى أُوْلَـئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ(١٨) أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهّ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهّ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللهّ وَاللهُّ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(١٩).

وعلى من ينوب عن إسماعيل أو يحل محله في حمل الأمانة، أن يقوم بكل هذا، ليس تفضلاً ولكن تنفيذاً لتكليف الله. وليعلم أنه خادم ذليل مكلف باستقبال ضيوف الرحمن بكل ترحاب وتقدير. وتقديم كل الخدمات الضرورية اللازمة مجاناً لهم، لكي يؤدوا زيارة بيت ربهم وحجهم بكل راحة وأمن. وألا يعتبر نفسه حاكماً لمكة، لأن بيت الله لا يحكمه بشر، وهو ما عرفته قريش وأقرته، فطوال تاريخ مكة لم يكن لها حاكم بشري على الإطلاق، إلا في العصر الأموي والعصور التي تلت.

ومكة بيت الله، يجب أن تكون مدينة مثالية لا يضاهيها مدينة أخرى في عصرها، في الخدمات والمواصلات والمتاجر والبيئة الصحية النقية وكل المجالات الأخرى. وهذه تدخل ضمن السقاية والرفادة والسدانة والحجابة والعمارة، بلغة عصرية.

مكة اليوم لم تعد درة المدن، كما وصفها المؤرخ الروماني قبل الميلاد والذي سبق ذكره. بل أضحت تئن تحت وطأة الفوضى والقاذورات والعشوائية والتلوث، في كل شيء. وتحول الحج والعمرة إلى وسائل لسلب الحاج – ضيف الله في بيته – وتحميله ما لا يطيق، بدل أن يوفر له كل شيء بالمجان، كما أمر الرحمن.

في مكة اليوم لا توجد وسيلة للمواصلات العامة سوى السيارات، والتي لم توفرها الدولة، ولكن الدولة ألزمت شركات الحملات توفيرها. وكثرة الحافلات حولت البلد الحرام إلى بيئة خانقة ملوثة، مزدحمة، لا يحلها تنظيم مروري بائس وعشوائي، يعتمد إغلاق الشوارع

أو صراخ رجال المرور بالسيارات: «إطلع ... إطلع ... تحرك ... تحرك."

مكة تعيش منذ قرون من الزمن هذه الحالة المزرية جداً.

شوارع مكة، زحام فوضوي مختلط، بين السيارات بمختلف أنواعها، وبين البشر الذين يحاولون الوصول للحرم على الأقدام أفضل من الاحتباس لوقت طويل وسط حافلة توصلهم لمنتصف الطريق. والسير على الأقدام بين الحافلات يعرضهم لخطر فقدان القدرة على السمع، نتيجة للأبواق العالية جداً، التي لا تتوقف عن الزئير. إضافة لما تسببه الضوضاء من ارتفاع ضغط الدم وأمراض خطيرة كثيرة أخرى. ناهيك عن التلوث الناتج عن عوادم السيارات في الهواء، والتلوث على الأرض من النفايات التي تغطي الشوارع. وهذه إهانة متعمدة لضيوف الرحمن، وليس كراماً لهم كما أمر الله.

مكة تعيش حالة من الفوضى والقذارة في المطاعم، والمحلات التي تبيع الأطعمة، وفي كل المحلات التجارية الأخرى وفي المساكن. وقرب المحلات من الحرم لا يكون لسد الحاجة ولكن لأن مالكها من أصحاب القرار أو من المقربين لهم. والقذارة لا يلام عليها الحاج الذي يلقي بفضلاته في الشارع وهو يسير بتثاقل للحرم، لأنه لم توفر له أماكن كافية للتخلص من النفايات.

والفوضى في المواصلات لا يلام عليها الحاج لأنه لم توفر له مواصلات مريحة توصله للحرم، كما أمر الله. كل شيء في مكة يلام عليه من أعلن أنه يقوم على البيت ويخدم الحجاج، نيابة عن إسماعيل.

أما ضيوف الرحمن فلم يفقدوا حقوقهم التي فرض الله لهم من مأوى ومسكن ومشرب، فقط، بل أصبح عليهم أن يدفعوا الأموال الطائلة، مقابل استضافتهم في بيت ربهم. مع أنه من المعيب أن يستضيف شخصاً ضيوفه ويطلب منهم مالاً مقابل استضافتهم وإيوائهم وإطعامهم، فما بالك لو كان المستضيف هو رب العالمين.

والحل الجذري واجب لا يقبل التأخير.

يجب أن تكون مكة مدينة مثالية بمفهوم هذا العصر، مثلما كانت مدينة مثالية في مفهوم عصر قريش، ومدينة مثالية في مفهوم عصر إبراهيم.

يجب أن تخلوا المدينة من أي سيارة لا تسير بطاقة صديقة للبيئة. كما يجب أن تخلوا المدينة من

المصانع، أو أي ملوثات حفاظاً على صحة ضيف الرحمن.

مكة يجب أن تخلوا من أي وباء، ويجب أن تحظى بشبكات مثالية لتصريف السيول، ومجاري الفضلات، وشبكات المياه، وبنية تحتية، وكل الخدمات الأخرى بمواصفات مثالية.

يجب أن تخلوا المدينة من البروتوكولات البشرية لأنها بيت الله، وكل البشر عبيد له بلا مقامات. فمن رغب في الحج أو العمرة فعليه ما على بقية الناس وله ما لهم. وعليه أن يعيش عيشتهم ويسير بينهم. ورسول الله لم يكن له موكب يطرد الناس أمامه ليصل بفرسه أو ناقته لتحت الكعبة، بينما بقية الناس يطوفون على سطح الحرم. كما لم يبن له قصر قرب الحرم أو في منى، بينما يفترش ثلاثة أرباع الحجاج القاذورات على الأرض.

يجب أن يتخلص بيت الله من هذه المشاريع العقارية العملاقة التي تهدف للربح، لأن مكة ليست دبي أو نيويورك. هي بيت الله، وبيت الله ليس معروضاً للبيع والمتاجرة بين البشر.

يجب توفر الخدمات - بمواصفات المستقبل - بكثافة في كل مكة والمشاعر، كنوع من الرفادة والسقاية بلغة العصر. بدل أن تبقى بلد موبوء ملوث ومزعج، يعج بالفوضى العارمة والضوضاء والقاذورات بعد أن طمست هويتها وجرفت تضاريسها.

ما الذي يجب القيام به؟

يجب أن يعاد بناء مكة كما كانت عليه أو أقرب صورة لما كانت عليه زمن الرسول، لتبقى كمتحف تاريخي حي على هذه المدينة المقدسة. وهذا ممكن جداً ولو على أرض منبسطة بعد أن سويت الجبال بالأرض. بحيث تكون قرية نموذجية للعرض وليس للسكن.

وفيما يلي الخطوات لتحقيق ذلك:

- تجرف كل البنايات الشاهقة وتسوى بالأرض كما جرفت الجبال التي كانت موجودة في نفس المكان.
- يعاد بناء البيوت التي كانت عليها مكة زمن الرسول، وهذا ممكن مما في كتب التاريخ، والدليل هو إعادة أبنية الدرعية القديمة ومبان أخرى اندثرت كان سلاطين الدولة السعودية الأولى والثانية يقيمون فيها.
- يستصدر قانون يمنع بناء أي مساكن أو منشئات جديدة حول الكعبة وفي محيط دائرة

يبلغ نصف قطرها (٢٠) كيلومتر على الأقل.

- تبنى الفنادق والأسواق والمجمعات السكنية والتجارية خارج هذه الدائرة وترتبط بالحرم بشبكة مواصلات حديثة من قطارات تحت الأرض وفوقها وباصات، على أن تكون بمواصفات عالمية عملية، كالمعمول بها في طوكيو، سيئول، لندن، وباريس.
- يخصص الحرم للطواف كما أمر الله ويكون التوسع فيه عمودياً وليس افقياً. بحيث يزاد في ارتفاع الكعبة لتكون هي أعلى مبنى في العالم، ولتكون رمزاً لمكة بالفعل ويمكن رؤيتها من بعيد بدلاً من رؤية الساعة الحالية الدخيلة على أرض الحرم المقدسة.
- يكون هناك مسارات دائرية حول الكعبة بأدوار متعددة للطواف والصلاة فقط وليس للراحة أو النوم. ومن انتهى من الطواف يخرج ويستقل المواصلات عائداً لمناطق السكن والتسوق التي تكون خارج مكة.
- إضافة لتوفير دورات المياه بأعداد كافية.
- كل هذه الخدمات من مواصلات وسكن وأكل وشرب تقدم مجاناً لزوار البيت والحجاج، كما أمر الله نبيه إبراهيم. وهذا من الممكن توفيره فأهل الخير كثر في كل العالم الإسلامي ومستعدون للإنفاق في هذا السبيل لوجه الله.

وسيبقى الحرم المكي محدود المساحة أفقياً لكنه عملي وقادر على استيعاب الحجاج مهما تضاعفت أعدادهم. بدل التوسع الأفقي الذي لا يمكن أن يسد الحاجة مع هذه الفوضى وانعدام التنظيم الذي لن يكون مرضياً مهما بذلت من جهود.

- وبعد اكتمال هذا المشروع فلن يكون بإمكان الحجاج البقاء في الحرم أو حوله للنوم لأنه متوفر لهم مكان للنوم والأكل في مناطق السكن وبعيداً عن الحرم.

أما الوضع الحالي وكل ما سيدفع للتوسع فيه فلن يزيد الوضع إلا سوءً وستبقى الفوضى والأوساخ والأوبئة التي لا تليق ببيت الله الحرام، وتبقى مشاريع التوسعة لا تخدم الحجاج ولكن تتخم جيوب الفاسدين والمنتفعين.

طوى / الوادي المقدس

من الأماكن القريبة من المسجد الحرام والتي ذكرها القرآن.

يقول تعالى: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى(١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى(١٦) النازعات.

وفي سورة طه يقول تعالى: وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى(٩) إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى(١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى(١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى(١٢).

وطوى وادٍ كان يسيل من سفوح جبل أذاخر والحجون من الغرب، ويذهب حتى يصب في المسفلة[1]. منحدراً باتجاه الجنوب الغربي ويكون على يساره جبل كان يسمى الجبل الأحمر ثم جبل آخر كان اسمه جبل هندي.

وبما أنه ليس هناك سوى بيت واحد لله على الأرض وهو الموجود في مكة وما حوله بقعة حرام مقدسة، وبما أن وادي طوى المذكور أعلاه يوجد ضمن هذه البقعة المقدسة فإنه هو الوادي المقدس طوى، الذي اختفى تحت الزحف العمراني الذي مسح كل الآثار الإسلامية في مكة.

ولا يمكن أن يكون تكليم موسى تم خارج الأرض المقدسة وبعيداً عن بيت الله الوحيد على الأرض. ولا يمكن أن يكون فيما سماها اليهود سيناء منذ وصلوا كلاجئين لفلسطين قبل الميلاد ليرسخوا أن موسى وإبراهيم في تلك البلاد لكي تكون وطناً لهم بديلاً للوطن الأم الذي كان جنوب غرب جزيرة العرب وهُجِّروا منه ولا يريدون أن يتنسبوا له ولا يعرف العالم موقعه. وتقول كتب التراث أن الرسول عليه الصلاة والسلام بات بالقرب من بئر طوى عند فتح مكة واغتسل منها.

وقد أورد الفاكهي (ت ٢٧٢ هـ)[2] في كتابه أخبار مكة: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عُمَرَ، قَالَ : ثنا

---

١ محمد إلياس عبد الغني / تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً.

٢ يقال إن الفاكهي توفي في العام ٢٧٢ للهجرة، وقيل في أعوام أخرى ما بين ٢٧٢ - ٢٧٩ هـ.

سُفْيَانُ ، عَنْ مِسْعَرٍ ، عَنْ مُصْعَبِ بْنِ شَيْبَةَ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قَالَ: « كَانَتِ الأُمَمُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا جَاءُوا ذَا طُوًى خَلَعُوا نِعَالَهُمْ تَعْظِيمًا لِلْحَرَمِ»..... ويستمر الفاكهي إلى أن يقول: وذو طوى هو بطن مكة الذي ذكره الله تعالى في القرآن في سورة الفتح، كما يقول صاحب معجم البلدان. وكان يطلق على منطقة واسعة، بل وقيل إن مكة وما حولها كانت تسمى طوى. وهو ما نقله أيضاً الأزرقي (ت ٢٥٠) في تاريخ مكة: حَدَّثَنِي جَدِّي، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ مِسْعَرٍ، عَنْ مُصْعَبِ بْنِ شَيْبَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: «إِنْ كَانَتِ الْأُمَّةُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَتَقْدُمُ مَكَّةَ، فَإِذَا بَلَغَتْ ذَا طُوًى، خَلَعَتْ نِعَالَهَا تَعْظِيمًا لِلْحَرَمِ».

ومثل هذه الأخبار المنتشرة على شكل قصص وحكايات، تولدت من حقيقة أن بني إسرائيل زمن موسى وبعده كانوا بالفعل يقدسون وادي طوى كونه مكان التكليم.

وبكل أسف لم يعد للوادي وجود الآن بسبب هدم وتجريف كل المواقع التاريخية بحجج تافهة، ومنها أن تركها قد يحولها لمزارات شركية. وقد بدأ هدم البيوت والمواقع التاريخية في الدولة السعودية الأولى وتواصل في الدولة الثانية وبلغ أشده في الدولة الأخيرة والحالية، حيث شجع أصحاب النفوذ بطرق غير مباشرة على القضاء على كل ما له علاقة بالتاريخ ليسهل الاستيلاء على الأراضي حول الحرم وإقامة مشاريع عقارية عليها ومن ثم الحصول على تعويضات خرافية عند كل توسعة للحرم. وقد أدت هذه التصرفات الغير - مسئولة إلى تغيير طبوغرافيا المنطقة واختفى معها وادي طوى تحت الزحف العمراني، وجزء منه تحت اسفلت شارع سمي شارع طوى. ولم يتبق سوى بئر طوى، التي هجرت وأحيطت ببناء لكي يسهل نسيانها ومن ثم الاستيلاء عليها وتحويل أرضها إلى مشروع عقاري. وهي تقع أمام مستشفى الولادة في جرول وخلف عمارة مبنية حديثاً. وهي البئر التي تقول كتب التراث أن الرسول عليه الصلاة والسلام بات عندها واغتسل منها يوم فتح مكة.

وعلى المسلمين كافة إنقاذ البئر وإعادة الوادي لما كان عليه بإزالة كل المباني المقامة عليه وإعادته لما كان، وكذلك العمل على تنظيف البئر وتحويل البئر والوادي إلى مزار سياحي ديني وليس شركي. فهنا كلم الله موسى، وهنا كتبت التوراة، وهنا بات الرسول.

طور سيناء

وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ(١٨) فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاء تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ(٢٠) المؤمنون.

الآيات تخاطب قريش للتفكير بما حولها من طبيعة خلقها الله لعلها تقتنع أن من خلق هذا الخلق قادر على بعث الإنسان بعد الموت. وكل ما ذكرته الآيات حول قريش وتعرفه، ومن ذلك طور سيناء.

والطور هو الجبل المنتصب، وهو جبال السراة المنتصبة كالجدار أمام مكة. والمؤكد أن سيناء ليست سيناء الحالية التي بين بلاد النيل وفلسطين، لأنها بعيدة عن مكة ولا علاقة لقريش بها، وليس لتلك البلاد ذكر في القرآن. والآيات تخاطب قريش وتحدثهم عن شيء في بيئتهم ويعرفونه. فطور سيناء هو جبال الطائف الحالية المطلة على مكة وكأنها جدار عملاق. وسيناء المصرية سماها اليهود في عصور قديمة بهذا الاسم، لتحل محل سيناء الأصلية (جبال الطائف المطلة على مكة)، ضمن مسخهم لتاريخهم وتاريخ العالم.

والشجرة التي تنبت الدهن وصبغ للآكلين ليست الزيتون كما يزعم المفسرون، لأن الزيتون لا ينبت في مناطق جنوب غرب الجزيرة العربية، كما أنه لا ينبت في جبال سيناء لأن تلك الجبال ليست مناطق زراعية وليس هناك من يزرع الزيتون فيها وفي صحراء سيناء حتى اليوم. وقد تكون الشجرة المذكورة في الآية هي شجرة السمسم، والتي تنبت في جنوب غرب جزيرة العرب ويستخرج منها الزيت ويؤدم منها، فهو دهن وغذاء في تلك المناطق منذ القدم وحتى الآن.

أصحاب الفيل

"ما ورد في هذا الفصل مقتبس بتصرف من كتاب أحسن القصص".

حادثة هلاك أصحاب الفيل، وقعت قبل ولادة رسول الله، ولما بعث عليه الصلاة والسلام كان معظم من عاصروا تلك الحادثة قد فارقوا الحياة. ولعل أشهرهم جد الرسول لأبيه، عبد المطلب، الذي اقترن اسمه بحادثة الفيل كونه القرشي الوحيد الذي التقى أبرهة، إن صدقت كتب التراث. وكان يمكن أن لا نسمع عن حادثة الفيل، وتموت بموت من عاصرها، مثلها مثل كل أحداث قريش قبل الإسلام - لأنهم قوم لا يوثقون أحداثهم كتابياً - لولا أن القرآن الكريم تحدث عنها في سورة سميت "الفيل": أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ(١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ(٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ(٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ(٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ(٥).

وهذه السورة أبقت ذكر تلك الحادثة حياً، لكن أسلوب القرآن المختصر المفيد، لم يقنع المفسرين فأطلقوا لخيالاتهم العنان لتصوير ما تعنيه الطير الأبابيل، وماذا حل بأصحاب الفيل، بما يتناسب وما يظنوه من معتقدات وما يؤمنون به من خرافات وأساطير وما اختلقوه من قصص لإثارة من يستمع لهم في مجالس قصصهم.

وكان يمكن أن يعفوا الزمن على تلك التخيلات الأسطورية، ويأتي من يفهم السورة بشكل أكثر واقعية، لولا أن أقوال أولئك المفسرين الأوائل أضحت مقدسة للأجيال التي جاءت بعدهم، وحرم المساس بها، وأضحت وكأنها فعلاً تمثل ما أراد الله جل وعلى أن يقول في كتابه الكريم.

أبرهة وعزمه على تخريب الكعبة

تبدأ حادثة أصحاب الفيل عندما قرر أبرهة - الحاكم الأكسومي على اليمن في تلك الفترة - هدم الكعبة لسبب من الأسباب. وكتب الأخبار تقول إنه لهدم الكعبة لكي يجبر العرب على التحول للمسيحية، أو لأن أحد سكان مكة أحدث نجاسته في كنيسة بصنعاء بناها

أبرهة.

وهذه الأخبار مشكوك فيها ولا يمكن الركون إليها كغيرها من أخبار العرب قبل الإسلام، بل وأخبار صدر الإسلام، كون من كتبها أناس جاؤا بعدهم بمئات السنين ولم يتحدث بها شهود عيان وأغلبها مختلق.

وقد وصل أبرهة وجيشه وعسكر قرب مكة، بمعونة عدد من زعماء قبائل الجزيرة العربية – كما تقول كتب التراث – منهم ذو نفر أحد ملوك القبائل اليمنية، ونفيل ابن حبيب الخثعمي الذي رافق أبرهة في مسيرته، ومسعود ابن معقب الثقفي، الذي أرسل مع أبرهة أحد رجاله لكي يدله على الطريق إلى مكة، وكان اسم ذلك الدليل أبو رغال. وأبو رغال هو الذي اشتهر لأنه من ثقيف، وقام بدور الدليل لجيش أبرهة القادم لهدم الكعبة التي في مكة، برغم ما بين قريش وثقيف من أحلاف وروابط أسرية، فكان ما فعله أبو رغال منكراً لديهم. فلم تنسه قريش، ووصف بكل ألقاب العار والخزي، وأصبح قبره يرجمه كل من يمر بجواره، وبقي ذكره سيئاً على مر العصور مع أنه كان منفذاً لرغبات زعيمه وزعيم ثقيف مسعود ابن معقب الثقفي الذي أمره ليكون دليلاً لجيش أبرهة، وتنفيذ أمر الزعيم العربي واجب على الرعية، ومن تخاذل عن تنفيذه فقد خان الوطن واستحق أشد أنواع العقوبة. ويبدو أن قريش لم ترد خلق موقف عدائي مع ثقيف ولذلك فقد وجهت اللوم للمواطن المسكين أبو رغال المكلف بالتنفيذ ولو لم يكن لديه خيار بالرفض، بينما لم تشر لا من بعيد ولا من قريب لمسئولية الزعيم الثقفي وموقفه المداهن للغازي الأجنبي.

وقد اتفقت كتب الأخبار مع ما رسخ في التراث الشفهي من أن معسكر أبرهة الاستعدادي الأخير لدخول مكة كان في وادي المُغَمَّس الذي كان يمر بالقرب منه طريقان يصلان بين مكة والطائف. أحدهما إلى الشمال منه ويمر بالسيل الكبير حالياً، وهو طريق القوافل. والآخر إلى الجنوب من المُغَمَّس وهو طريق قصير بين مكة والطائف ولكنه وعر لا تطرقه الخيل والجمال. ويشرف على وادي المُغَمَّس جبل يسمى كَبَدٌ (حسبما يقول ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان). ووادي المُغَمَّس هو المسمى اليوم وادي عرنة، والذي يحف أطراف سهل عرفات. ولازال هناك مزارع تحمل اسم المُغَمَّس. ولازالت هناك حمم بركانية تغطي أرض الأجزاء الشمالية للوادي، ويمكن رؤيتها من خلال قووقل إيرث Google Earth على الإحداثيات التالية وحولها: N 50 55 39 E 54 30 21

المفسرون وأصحاب الفيل

بما أن حادثة الفيل وقعت قرب مكة، وبالتحديد في بقعة ما من وادي المغمس خارج مكة، فقد كان من المفترض أن تنسب أخبار تلك الحادثة إلى عبدالمطلب الذي تقول الروايات أنه قابل أبرهة، وإلى رجال مكة الذين عاصروا الحادثة مثل حرب ابن أمية والحارث ابن علقمة والعاص ابن أمية وهشام ابن الحارث وغيرهم، أو على الأقل تنقل عن نسابة قريش من الجيل التالي، ولكن الملفت أن كتب الأخبار (السير والتاريخ والتفسير) التي تحدثت بإسهاب منقطع النظير عن تلك الحادثة نسبت رواياتها إلى أناس ولدوا بعد زمن الرسول، وبعد حادثة الفيل بعشرات ومئات السنين. وأولئك الرواة عاشوا طوال حياتهم في العراق وخراسان وما جاورهما، ولا يعرفون من مكة إلا بقدر ما يعرفه عنها الحاج من خارج جزيرة العرب الذي يعتزم الحج لأول مرة. ولم ينقلوا أقوالهم عن أشخاص كانوا شهود عيان أو حتى ممن أدركوا عام الفيل ووعوا ما حدث، وإن نسب أولئك رواياتهم إلى بعض صغار الصحابة، لدعم أقوالهم فقط.

وقد اتسمت تفسيرات أولئك وأمثالهم من سلف المفسرين، لسورة الفيل بأشكال أسطورية بعيدة عن الواقع، لأنهم اعتمدوا فيها على تخيلاتهم التي تأثرت بما كان عليه مجتمعهم من تدن في الوعي والثقافة العامة والعلوم وما اعتادوا من تصديق الخرافات والأساطير.

وكانوا ينسبون قصصهم أحياناً إلى بعض من سموا صغار الصحابة خاصة ابن عباس، وأحياناً لأم المؤمنين عائشة، أو للرسول صلوات الله وسلامه عليه، وعادة ما يتوقفون دون أن يذكروا من أين استقى ابن عباس أو أم المؤمنين رواياتهم، وغالباً ما يدلون بقصصهم دون أن يكلفوا أنفسهم عناء ذكر مصادرهم التي استقوا معلوماتهم منها.

ونقل القرطبي في تفسير قوله تعالى: فجعلهم كعصف مأكول: أي جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع إذا أكلته الدواب، فرمت به من أسفل. شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزائه. رُوِي معناه عن ابن زيد وغيره.

والعَصْف: جمع، واحدته عَصْفة، وعُصافة، وعَصِيفة. وأدخل الكاف في «كَعَصْف» للتشبيه مع مثل، نحو قوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (الشورى: ١١). ومعنى «مأكولٍ» مأكول حبه. كما يقال: فلان حسن؛ أي حسن وجهه. وقال ابن عباس؛ «فجعلهم كعصفٍ مأكولٍ»

أن المراد به قشر البر؛ يعني الغِلاف الذي تكون فيه حبة القمح. ويروى أن الحجر كان يقع على أحدهم فيخرج كل ما في جوفه، فيبقى كقشر الحنطة إذا خرجت منه الحبة. وقال ابن مسعود: لما رمت الطير بالحجارة، بعث الله ريحاً فضربت الحجارة فزادتها شدّة، فكانت لا تقع على أحد إلا هلك، ولم يسلم منهم إلا رجل من كِندة.

ويروى أنها لم تصبهم كلهم، لكنها أصابت من شاء الله منهم. وقد تقدّم أن أميرهم رجع وشِرْذمة لطيفة معه، فلما أخبروا بما رأوا هلكوا. فالله أعلم. وقال ابن إسحاق: لما ردّ الله الحبشة عن مكة، عَظَّمت العرب قريشاً وقالوا: أَهلُ اللهِّ، قاتل عنهم، وكفاهم مؤونة عدوّهم؛ فكان ذلك نعمة من الله عليهم.

وكتب التفاسير الأولى واللاحقة تنقل روايات متشابهة في الغرابة، ومن ذلك ما جاء في الدر المنثور في التفسير بالمأثور للخضيري، حيث يقول:

وأخرج أبو نعيم عن حكيم بن حزام قال: كانت (أي الحجارة) في المقدار من الحمصة والعدسة حصى به نضح أحمر مختمة كالجزع فلولا أنه عذب به قوم أخذت منه ما اتخذه لي مسجدا وهي بمكة كثير.

وأخرج أبو نعيم عن أم كرز الخزاعية قالت: رأيت الحجارة التي رمي بها أصحاب الفيل حمرا مختمة كأنها جزع ظفار فمن غير ذلك فلم ير منها شيئا، ولم يصبهم كلهم، وقد أفلت منهم. وأخرج أبو نعيم عن نوفل بن معاوية الديلمي قال: رأيت الحصى التي رمي بها أصحاب الفيل مثل الحمص وأكبر من العدس حمر مختمة كأنها جزع ظفار. انتهى

وعن الجزع، يقول صاحب لسان العرب: والـجَزْعُ والـجِزْعُ: الأَخيرة عن كراع: ضرب من الـخَرَز، وقيل: هو الـخرز اليماني، وهو الذي فيه بياض وسواد تشبَّه به الأَعين؛ قال امرؤ القيس:

كأَنَّ عُيُونَ الوحْشِ حَوْلَ خِبائنا وأَرْحُلِنا الـجَزْعُ الذي لـم يُثَقَّبِ

وكانت نساء العرب تصنع منه عقود تتحلى بها.

وحسبما رواه المفسرون فإن حجارة أصحاب الفيل قد كتب على كل واحدة منها اسم من ستصيبه من جيش أبرهة. ولا تتوقف غرائب الخضيري في نفس تفسيره الدر المنثور، حيث يقول: وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم عن أبي صالح أنه رأى عند أم هانئ بنت أبي طالب

من تلك الحجارة نحوا من قفيز مخططة بحمرة كأنها جزع ظفار مكتوب في الحجر اسمه واسم أبيه.... انتهى

والذي لم يقله لنا الخضيري هو بأي لغة كتبت الأسماء؟

بالعربية أو بالسبأية أم بالأكسومية؟

ولماذا تكتب الأسماء ولمن؟

هل كتبت للطيور التي ألقتها لكيلا تخطئ وتصيب رجل بحصاة غيره؟

وهل كانت الطيور تقرأ وتكتب؟

"إنها لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـارُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ".

وجميع المفسرين تقريباً على مر العصور نقلوا تلك التفاسير بغرائبها وتخاريفها، ولم يشذ إلا القليل عن تلك القاعدة. حتى أن جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، قد قالا كلاماً حول حادثة الفيل لا يمكن أن يتلاءم مع ما نعتا به من عقلانية. وهذا ما قرأته في كتيب صفحاته (٦٣) صفحة من تأليف محمد متولي الشعراوي بعنوان: تفسير سورة الفيل وقريش. يقول الشعراوي في الصفحة (٢٣) إن محمد عبده قال: « أن الطير الأبابيل جاءت بميكروبات الجدري».

وإن ثبت هذا الكلام عن محمد عبده فيكون قد وافق أقوال المفسرين الأوائل بأن هناك طيوراً أرسلت من السماء وأنها تحمل عذاباً لجيش أبرهة، وإن اختلف معهم بأن ما تحمله لم يكن حجارة بحجم الحمص أو مخططة أو كجزع ظفار، ولكنها كانت تحمل مواد جرثومية تتمثل بميكروبات الجدري، ويكون قد استعار ثقافة مفسري الجيل الأول في عالم القرنين التاسع عشر والعشرين.

بينما يوافق الشعراوي ما قال به المفسرون الأوائل بأن هناك طيوراً، وأنها حملت حجارة في مناقيرها وأرجلها، واعتبر ذلك من المعجزات الحسية التي حصلت بأمر الله، ومن لا يقتنع بذلك « يقول الشعراوي» فلا يعنينا أن تقتنعوا بهذه أو لا تقتنعوا (ص ٣١).

وتكون تفاسير الرعيل الأول من المفسرين قد بقيت هي السائدة حتى الآن، ليس لأنها هي القول الحق، ولكن لأن المسلمين لا يقرأون قرآنهم، وإن رددته حناجرهم فلا يصل إلى عقولهم.

قصة أصحاب الفيل كما فهمتها من القرآن

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ. أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ. وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ. تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ. فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ.(سورة الفيل)

ومفاتيح فهم ما حدث للقوم يكمن في قوله تعالى «طيراً أبابيل» وقوله تعالى «حجارة من سجيل» وقوله تعالى «عصف مأكول».

وكلمة (طير) الواردة في الآية إما أنها تعني الطيور كما نعرفها ذات الجناحين من الريش. وهذه المخلوقات تطير باختيارها ولديها القدرة على الطيران والهبوط متى شاءت.

أو أنها تأتي من الطيران، أي التحليق فترة في الهواء قبل أن تقع على الأرض. وهذا الطيران ليس اختيارياً ولا يكون عن مقدرة، ولكنها أرغمت عليه بقذفها في الهواء سابحة لفترة قبل أن تسقط على الأرض.

وفي هذا المعنى يمكن لإنسان أن يطير إذا قذف بواسطة آلة أو قوة دافعة أو سقط من علو. ومثل الإنسان كل حيوان أو جماد ليس لديه القدرة على الطيران بذاته والهبوط بشكل اختياري.

ويدخل في هذا الحمم البركانية إذا قذف بها البركان عند ثورانه.

وهذا المعنى لـ « طير» هو المقصود في سورة الفيل، وليس الطير بمعنى الطيور القادرة على الطيران والهبوط.

واختيار «طيراً أبابيل»، للتعبير عن تطاير الحمم البركانية. لأن الحمم تقذف في الهواء وتطير متتابعة حتى تسقط على الأرض.

ولا عبرة لما قال المفسرون حول معنى «تضليل» ومنه ما كتب الطبري في تفسيره، ونصه: ألم تنظر يا محمد بعين قلبك، فترى بها كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بأصحَابِ الْفِيلِ الذين قَدِموا من اليمن يريدون تخريب الكعبة من الحَبَشة ورئيسهم أبرهة الحبشيّ الأشرم أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ يقول: ألم يجعل سعي الحبشة أصحاب الفيل في تخريب الكعبة فِي تَضْلِيلٍ يعني: في تضليلهم عما أرادوا وحاولوا من تخريبها. انتهى

فالله لم يضلل أبرهة وجيشه عن مكة، بل أبطل خططهم وجعل كيدهم في خسران بهلاكهم. فالتضليل هنا هو الخسران والفشل، وليس له علاقة بالضياع.

و» أبابيل « جمع لا مفرد له، وتعني مجتمعة، أو جماعات جماعات، أو كتل كتل، ووصف القرآن الكريم للحمم البركانية بالطير الأبابيل، لأن الحمم البركانية جمع لا مفرد له، فلا يمكن أن يثور البركان بقذف حمة بركانية واحدة، وثوران البركان يكون بقذف حمم متتالية ومتتابعة «أبابيل». وبما أنها تتطاير في الفضاء تابعة بعضها بعضاً فهي «طير أبابيل».

وسجيل، اعتبرها المفسرون كلمة أعجمية. فقال بعضهم هي فارسية تتكون من كلمتين: سنك: حجارة، و كل: وتعني طين. وقال آخرون بل هي سنك وجل. فيما قال سعيد ابن جبير: أنها عبارة عن كلمة فارسية هي سج، والتي تعني حجارة. وكلمة نبطية هي إيل، والتي تعني طين. ولا يهمنا إن كانت عربية أو أعجمية، بقدر ما يهمنا ما تعني.

ولأنه لا عبرة لما قال المفسرون، فعلينا أن نعود للقرآن لنتبين معنى سجيل. يقول تعالى: قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ. لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ. (الذاريات:٣٢-٣٣) هذا الطين الذي أهلك قوم لوط، وصف في آيات أخرى بأنه حجارة من سجيل، ومن ذلك: فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ. (هود:٨٢)

فسجيل تعني حجارة من طين، أو حجارة سالت بسبب الحرارة كما يسيل الطين، أي أنها الحمم البركانية.

ومنضود معناها - كما في لسان العرب - إذا صار الشيء بعضه فوق بعض. وأَنضادُ الـجِبالِ: جَنادِلُ بعضُها فوق بعض. وكذلك أَنضادُ السحاب: ما تراكبَ منه. فالسجيل هو الطين أو التراب أو الحجارة المطبوخة، أو بلغة العصر الحالي: الحمم البركانية التي تطاير بعضها خلف بعض في الفضاء على شكل كتل (طيراً أبابيل) قبل أن تهبط على الأرض. والدليل على أنها سقطت من علو كالمطر، قوله تعالى ضمن الحديث عن قوم لوط: فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (الحجر:٧٤).

والحمم البركانية (السجيل) تندفع من باطن الأرض بدرجات حرارة تتراوح ما بين (٧٠٠-١٢٠٠) درجة مئوية[١]. ولو وقعت على جسم الإنسان لحولته، خلال لحظات، إلى ما يشبه العصف المأكول. أي إلى ما يشبه تجاعيد القشرة الخارجية للتفاحة المتعفة، أو تجاعيد قشرة أي ثمرة أخرى أو حبة قمح قد أفرغت من ثمرتها وبقيت قشرتها المتجعدة، وذلك

---

١ كما ورد في الموسوعة البريطانية Encyclopedia Britannica.

نتيجة لتبخر السوائل من جسم الإنسان في لحظات، وكأنه فُرّغ من الداخل.

وليس في القرآن ذكر لسجيل إلا في الحديث عن عذاب قوم لوط وعذاب أصحاب الفيل فقط. وقوم لوط عذبهم الله بالزلازل والبراكين، وكل ما أصاب الأمم السابقة كان كوارثاً طبيعية.

ومن المؤكد أن ما حل بقوم لوط كان بركاناً مصحوباً بزلازل، يقول تعالى: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (الحجر:٧٣).

والصيحة ذاتها هي التي أهلكت قوم صالح: إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (القمر:٣١).

والصيحة التي أخذت قوم صالح هي الرجفة أيضاً أو بلغة العصر الزلزال: فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ. (الأعراف:٧٨).

ويكون ما حدث لأبرهة وجيشه هو أنهم تعرضوا لثوران بركان طمرهم بحممه، ومن الشواهد الواقعية التي تؤكد ذلك، ما يلي:

أن من هلك من جيش أبرهة لم يجده أهل مكة، ولما لم يجد المفسرون والمؤرخون تبريراً مقنعاً لاختفاء أجسادهم، قالوا بأن السيل احتمل جثثهم فألقاها في البحر، كما نقل ابن كثير في البداية والنهاية نقلاً عن النقاش في تفسيره[1].

وبالطبع هذا لم يحدث والذي قد يكون حدث هو أن من طمرته الحمم البركانية قد اختفى تحتها إن بقي منه شيء. ومن أصيب ببعض الحمم ولكنها لم تطمره تفسخ جلده، وقد يكون هلك في وقت لاحق أو برئ.

وقد يكون المؤرخون والمفسرون الأوائل نقلوا وصفاً قريب من الواقع برغم تصويرهم الخرافي عندما قالوا: قال ابن إسحاق: فخرجوا (أصحاب الفيل) يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مَهْلك على كلّ مَنْهَل. وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، كلما سقطت أنملة اتبعتها منه مدة ثمت قيحاً ودماً حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر. فما مات حتى انصدع صدرُه عن قلبه فيما يزعمون[2]. انتهى.

---

١ البداية والنهاية/ فصل ذكر سبب قصد أبرهة بالفيل مكة/ ج١ ص ١٧٠.

٢ الطبري/ تفسير سورة الفيل.

ومن يتعرض لحمم بركانية تصل حرارتها لمئات الدرجات المئوية فسيتفسخ جسمه ويسقط لحمه متبوعاً بالقيح والدم، كما حدث لأبرهة.

وبطبيعة الحال فمنظر التفسخ الذي يصيب من يتعرض للحمم البركانية يتشابه نوعاً ما مع منظر جسد المريض بالجدري الذي تلتهب قروحه وكأن لحمه يتفسخ، ولذلك اعتقد بعض المؤرخين إن ما حدث لأصحاب الفيل قد أوجد الجدري. يقول ابن كثير في البداية والنهاية: قال ابن إسحاق: حدثني يعقوب بن عتبة أنه حدّث أن أول ما رؤيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام، وأنه أوّل ما رُئيت بها مرائر الشجر الحرمل، والحنظل والعشر ذلك العام.

ومع أن هذا الكلام عار من الصحة إلا أنه وبكل أسف قال به مفكرون بحجم محمد عبده الذي نقل عنه محمد متولي شعراوي كما أسلفنا أنه يعتقد أن عذاب قوم أبرهة كان بالجدري الذي بثت ميكروباته تلك الطيور الغريبة ذات المخالب التي نزلت من السماء.

ومرة أخرى لو كان في بلاد الحرمين تقدم واهتمام علمي كما في الغرب، لأمكن تحديد المكان الذي وقعت فيه حادثة الفيل وأمكن التنقيب والكشف عنها، وسنجد بكل تأكيد جثثاً متحجرة وقد لا نجد الفيل محمود لأنه قد يكون نجا بنفسه.

يقول القرطبي في تفسيره لسورة الفيل: فَبَرَك الفيلِ ...... وضربوا الفيل ليقوم فأبى، وضربوا في رأسه بالطَّبَرْزِين ليقوم، فأبى، فأدخلوا محَاجن لهم في مراقّه، فبزغوه بها ليقوم، فأبى، فوجَّهوه راجعا إلى اليمن، فقام يُهَرْوِل، ووجَّهوه إلى الشام، ففعل مثل ذلك، ووجَّهوه إلى المشرق، ففعل مثل ذلك، ووجَّهوه إلى مكة فبرك. إنتهى

وهذه الرواية تصور الحقيقة لأن الفيل عندما أبى أن يسير باتجاه مكة كان يتبع حاسة خاصة، لأن الحيوانات قد زودها الله بأجهزة استشعار عالية الحساسية في أجسادها تمكنها من التنبؤ بوقوع الزلازل والبراكين والكوارث الطبيعية الأخرى قبل وقوعها. وهذه حقيقة علمية يعرفها الجميع. ولذلك كان فيل أبرهة يسرع مهرولاً بأي اتجاه آخر عدا وجهة مكة التي يبدو أن البركان قد ثار في منطقة بين الموقع الذي عسكر فيه جيش أبرهة وبين مكة. وقد ثار البركان بعد ذلك فطمر البعض بالحمم وهرب البعض وقد أصيب وقد يكون هناك من لم تلحقه أي إصابة.

وبرغم أن غالبية الأخبار التي تحملها كتب السير والتفسير حول حادثة الفيل عبارة عن تصورات خرافية إلا أن بعضها قد يكون له أصل، ومن ذلك قصة امتناع الفيل عن التوجه لمكة، التي سبق وأشرنا إليها، إضافة إلى هذين الخبرين التاليين:

ذكر ابن كثير في تفسيره، أن محمد بن إسحاق قال: حدثنا عبد الله بن أبي بكر عن عمرة بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة عن عائشة قالت: لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان. وروى الواقدي عن عائشة مثله، ورواه أيضاً عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت: كانا مقعدين يستطعمان الناس عند أساف ونائلة حيث يذبح المشركون ذبائحهم.

(ونحن هنا نستشهد ببعض أقوال الإخباريين على مسألة تاريخية لا علاقة لها بالدين، والتاريخ فيه غث وغث وقليل من السمين)

وورد في الدر المنثور ما قد يكون خبراً لشاهد عيان وهو يصف ما حدث لأبرهة وجيشه. على أنه يجب أن يؤخذ الخبر وقد وضع في الحسبان حقيقتان، هما:

١. أن الخبر إن صدق فهو عبارة عن وصف لشاهد يصف شيئاً يراه لأول مرة في حياته، ولم يسمع عنه من قبل. ووصف من يشاهد شيئاً لأول مرة يكون مشوشاً، لأنه يصف انطباعه الشخصي عما يراه للمرة الأولى وليس حقيقة ما يراه فعلاً. فهذا ابن بطوطة في رحلته يصف النارجيل الذي رآه أول مرة في ظفار، فيقول: ذكر النارجيل: وهو جوز الهند، وهذا الشجر من أغرب الأشجار شأناً وأعجبها أمراً، وشجره شبه شجر النخل لا فرق بينهما إلا أن هذه تثمر تمراً وتلك تثمر جوزاً. وجوزها يشبه رأس ابن آدم لأن فيها شبه العينين والفم، وداخلها شبه الدماغ، إذا كانت خضراء، وعليها ليف شبه الشعر[1]. انتهى كلام ابن بطوطة الذي يصور انطباعه الشخصي الأول عن تلك الثمار، وليس وصفاً حقيقياً لها.

٢. الحقيقة الثانية حول الخبر الذي سنسرده، تتمثل في أنه إن كان خبراً صحيحاً في الأصل، فقد تم تناقله بعد أن انتشرت الأقاويل التي وجدت فيها بعد طريقها لكتب المفسرين حول ما حدث لأصحاب الفيل، مما أثر على مضمون الرواية، إما من قبل الشاهد الذي رواها بما يتلاءم مع الرأي السائد أو أن الرواية تعرضت للتحوير في وقت لاحق من

١ ص ٢٦٣-٢٦٤ رحلة ابن بطوطة/ دار صادر - بيروت.

قبل الرواة.

وهذا هو نص الخبر: وأخرج أبو نعيم عن عثمان بن عفان أنه سأل رجلا من هذيل قال: أخبرني عن يوم الفيل، فقال: بعثت يوم الفيل طليعة على فرس لي أنثى فرأيت طيرا خرجت من الحرم في كل منقار طير منها حجر، وفي رجل كل طير منها حجر، وهاجت ريح وظلمة حتى قعدت بي فرسي مرتين فمسحتهم مسحة، كلفته كرداك وانجلت الظلمة، وسكنت الريح. قال: فنظرت إلى القوم خامدين[1].

وصياغة الخبر ليست مترابطة، ويبدو أنه قد طرأ عليها بعض التعديل والتغيير والحذف والإضافة، ولذلك جاءت بعض عباراتها وكأنها مبتورة أو خافية المعنى، ومع ذلك بقي من أصل الخبر ما يفيد بأن ذلك الرجل كان على فرس له وأنه كان في موقع مكنه من رؤية ما حدث في سماء المنطقة المنكوبة، ولو لم يتمكن من رؤية ما حل بالقوم مباشرة، وقد يكون ذلك ناتج لأن البقعة التي كانوا فيها متوارية عنه خلف الجبال التي تتكون منها تضاريس المنطقة.

ومن المحتمل أنه قد رأى طيوراً تطير فارةً بعيداً عن مكان البركان، ولما جاء الإسلام ونزلت سورة الفيل وفيها الآية التي تقول: وأرسل عليهم طيراً أبابيل، ظن الراوي الذي سمع من الشاهد أو الشاهد نفسه أن الطيور التي رآها تطير قرب موقع الحدث هي الطير الأبابيل التي أرسلت بالعذاب، ومن ثم أضيفت لها قصة حملها للحصى وبقية الصورة الخيالية بعد ذلك من رواة لاحقين.

ويكون الشاهد قد رأى بالفعل ظلمة (أي سحب سوداء ودخان) من النوع الذي يتكون عادة بفعل ثوران البركان، فوق المنطقة المنكوبة.

ومما قد يكون وقع بالفعل، حديث الشاهد عن الفرس وأنها قعدت به ولم ترد التقدم باتجاه الموقع، لأن الفرس قد استشعرت خطر البركان مثلها مثل أي حيوان آخر، بواسطة ملكاتها الخاصة.

ويبدو أن الشاهد قد بقي في مكانه يرقب الحدث حتى هدأ البركان وزالت السحب والأعاصير المرافقة له، ولاحظ أنه خلف هدوءً مميتاً في الموقع الذي كان يعج بجلبة عسكر

---

١ تفسير سورة الفيل/ الدر المنثور/ الجلال السيوطي/ دار الفكر - بيروت.

أبرهة. " قال: فنظرت إلى القوم خامدين." ثم فضل الابتعاد ولم يجرؤ على الاقتراب من الموقع.

ومنطقة مكة تقع ضمن امتداد جبال السروات التي تكونت بفعل صدع البحر الأحمر الممتد من شرق أفريقيا جنوباً إلى تركيا شمالاً عبر البحر الميت، ولا زال الصدع يتسع بمعدل طفيف سنوياً وبالتالي فإمكانية حدوث براكين وزلازل على طول جانبي هذا الصدع واردة وحدثت وستحدث. وكان آخر ثوران لبركان في جزيرة العرب تم تسجيله في العام ٦٥٤ للهجرة قرب المدينة، وقد ذكره ابن كثير في كتابه البداية والنهاية ضمن حوادث تلك السنة نقلا عما كتبه شهاب الدين أبو شامة المقدسي وغيره. والحرات المنتشرة

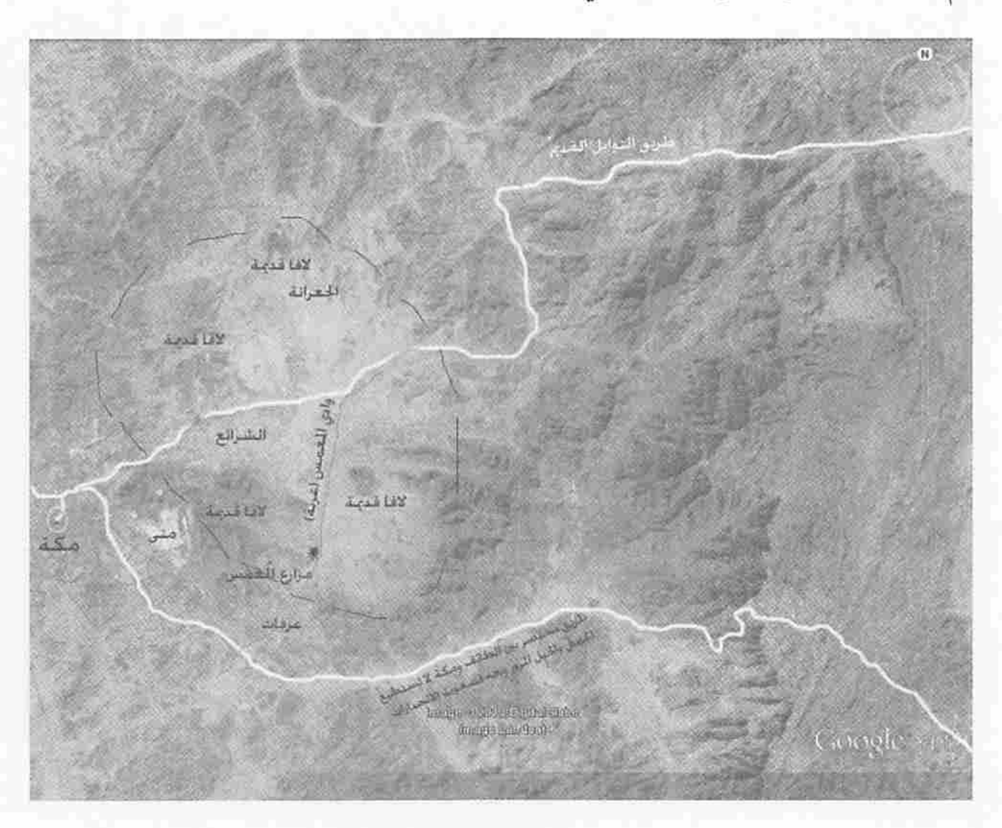
وكل العقوبات التي أهلكت بها الأمم السابقة التي ذكرت في القرآن كانت بسبب كوارث طبيعية تحدث عادة على الأرض من زلازل وبراكين وأعاصير ورياح وفيضانات وطوفان وغيرها، وهي التي أهلكت بها كل الأمم السابقة. ففرعون أهلك بالغرق بلا جدال، وكذلك قوم نوح. وقوم عاد أهلكوا بالريح بلا جدال، وقوم هود أهلكوا بالرجفة أو الصيحة وهي الزلازل كما أوضحنا، ومثلهم قوم لوط وقوم شعيب، وقد أجمل القرآن ذلك في الآية (٤٠) من سورة العنكبوت: فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ. وأبرهة وجيشه أهلكوا بثوران بركاني أيضاً، وليس هناك من أهلك بعقوبة غير أرضية كما صور ذلك رجال التفسير.

أين يمكن أن يكون قد حدث البركان؟

وادي المُغَمَّس الذي يقول رجال الأخبار أن أبرهة وقومه قد عسكروا فيه استعدادا لدخول مكة وهدم الكعبة وأنهم قد أهلكوا فيه، لم يبق منه اليوم إلا مزارع لازالت تحم اسم المُغَمَّس. والوادي اليوم يسمى وادي عرنة، والذي ينحدر باتجاه الجنوب، مخترقاً حافة فوهة بركانية قديمة هائلة الاتساع. تقع إلى الجنوب الشرقي من حي الشرائع الحالي، ويطل عليها من جهة الغرب الجبل المسمى حالياً بجبل أسلع الذي يرتفع عن سطح البحر بحوالي (٥٣٠ متر) ويجري في الطرف الغربي من الفوهة وبمحاذاة جبل أسلع من الشرق وادي عرنة، ويحاذيه مهبط للطائرات معبد ومبنى لمطار صغير.

ويحد الفوهة من الشرق جبل يسمى كبكب ويرتفع حوالي (١٦٠٠ متر) ومن الجنوب يحدها جبل يسمى حالياً جبل سعد وارتفاعه يصل إلى (٨٠٠ متر)، ويرتفع سطح الفوهة ما بين (٣٥٠ - ٤٠٠ متر). ويخترقها وادي المُغَمَّس القديم، وتبعد عن الحرم بحوالي (٢٥ كم) بخط مستقيم، ولكن يفصلها عنها سلاسل متوازية من الجبال يجعل من العسير تبين الحرم من ذلك الموقع.

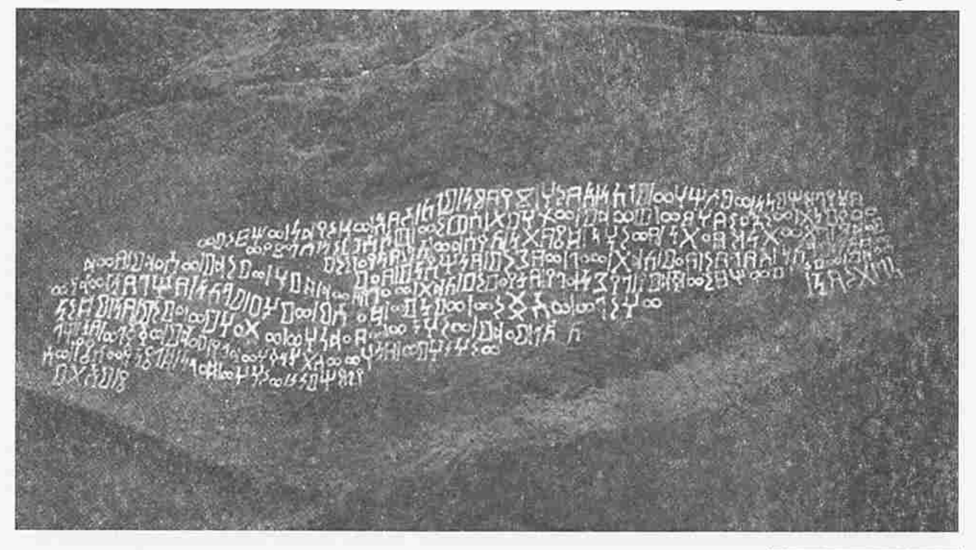
وهذه الفوهة يصل نصف قطرها إلى أكثر من أربعة كيلومترات، ولابد أنها من الفوهات الموغلة في القدم لبراكين صاحبت أو تلت انفلاق البحر الأحمر قبل عشرات الملايين من السنين. ولا يمكن أن يكون البركان الذي أهلك أصحاب الفيل قد انفجر في كل الفوهة، ولكنه ثوران محدود في بقعة ما من الفوهة القديمة، أو في المنطقة التي تقع إلى الشمال منها فيما بين الشرائع والجعرانة الحاليتين، وهي منطقة تغطي أراضيها لافا قديمة كدلالة على أنها منطقة براكين. وقد يكون جيش أبرهة هلك بثوران بركان في بقعة ما من هذه المنطقة التي تم تحديدها بخطوط سوداء مقطعة في لخارطة أدانه:



ولو تمكنا يوماً من الاهتمام العلمي فقد يكون هناك دراسة أثرية للموقع والقيام بالحفريات المطلوبة، ولو تم هذا فمن المحتمل أننا سنجد بعضاً من أفراد جيش أبرهة مطمورين تحت الحمم البركانية المتحجرة.

من هو أبرهة

هو من ملوك اليمن الأكسوم[1]، ولا نعرف متى قدم لمهاجمة مكة تحديداً، ولكننا نعرف أنه كان ملكاً على سبأ وذو ريدان وحضرموت، في العام (٥٥٢) من السنة السبأية، التي توافق (٥٤٧) من السنة المسيحية، حسب تقديرات بعض علماء الآثار الغربيين. وذلك أن عالم آثار بلجيكي فرنسي اسمه ريكمنس (G. Ryckmans) عثر على نقش سبأي في مأرب، اليمن، أوائل الخمسينات من القرن العشرين، يروي أن أبرهة قد خرج في حملة لتأديب بعض القبائل التي خرجت عن طاعته، واشتبك معهم في معركتين واحدة في تربه القريبة من الطائف، والأخرى بالقرب من حلبان. وتربه من الحواضر القديمة التي قامت على ضفاف الأودية المنحدرة من جبال السروات باتجاه الشرق. أما حلبان فهي ماء لبني معاوية ابن قشير في الجاهلية كما تقول كتب التراث. وهي وتربه لازالا يحملان نفس الاسم، وهما الآن بلدتان عامرتان. وحملة أبرهة تلك سبقت حملته على مكة بسنوات. وهذه صورة النقش المذكور:



١ نسبة لمملكة أكسوم، الاسم القديم لما يعرف اليوم بأثيوبيا، والتي حكمت اليمن فترات طويلة قبل الإسلام.

وفيما يلي نص النقش وترجمته للعربية سطراً سطرا[1].

١. بخيل (بقوة) الرحمن ومسيحة الملك أبرهة زيبمان ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت
٢. ويمنت ورا عرب حامر، جبال وتهامه، سطر هذا النقش عندما غزوا
٣. معد غزوة في الربيع بتاريخ ذا ثبتن لثورة بني عمرو
٤. وعَيّنَ الملك أبا جابر مع كدت (كتبت كنده وقد لا تكون كذلك) وعل وبشر ابن حصن مع
٥. سعد ومراد والخضر وعلياً ابن يعمر كدت (كتبت كنده) وايل بوادي ذا مرخ ومراد وسعد بوادي
٦. بمنهج (بطريق) تربن وذبحوا وأسروا وغنموا بوفرة وحارب الملك بحلبان ودنوا
٧. كزال معد ورهنوا (أسروا) وبعدين هاو وسعاهمو (تصالحوا مع) عمرو بن مزرن
٨. ورهنوا ابنه واستخلفه على معد ورجعوا
٩. بان (تم) بقوة (بخيل) الرحمن. ورخه ذو علان للسنة الثانية والستين وس
١٠. ث / مأتم (ت مائة.

وكما أن حملة أبرهة على مكة لم تكن الأولى له على بلاد نجد والحجاز، فإنه لم يكن أول من هاجم تلك المناطق، فقد تم اكتشاف حجر في وادي مأسل الجمح، القريبة من حلبان، وعليه كتابة سبأية، تتحدث عن ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت واليمن «معد كرب يعفر»، الذي جاء إلى مأسل لنصرة الأعراب الذين ثاروا على المنذر. والنص يرجع تاريخه إلى سنة ٦٣١ سبأية التي يقجرها الغربيةن على أنها توافق عام ٥١٦ مسيحية. أي قبل حملة أبرهة على حلبان وتربه بواحد وثلاثين عاماً.

ولابد أن أبرهة قد سلك طريق التجارة القديمة للبخور واللبان والبهارات - التي تمتد من قرب سواحل البحر العربي إلى بلاد الشام - ماراً بما يعرف اليوم بالسيل الكبير، ومنحدراً باتجاه وادي عرنة، حيث قرر المبيت هناك. ليدخل مكة صباح اليوم التالي. لكن هذا لم يحدث أبداً، ولم يعد لأبرهة وجود. ولأن ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت واليمن قد هلك، فلم توثق حملته على مكة، كما وثقت حملتيه السابقتين على تربه وحلبان.

---

١ قمت بترجمة النص وقد لا تكون الترجمة دقيقة لكنها تعطي المعنى العام من أن أبرهة خرج بحملة عسكرية إلى نواحي تربة وحلبان. وترجمة ريكمنس مكتشف النقش سيئة وفيها إضافات وتعديلات كثيرة على النص الأصلي.

غار حراء

مكة زمن رسول الله، تقل مساحتها الإجمالية كثيراً عن مساحة المسجد الحرام في الوقت الحالي (١٤٣٦ هـ/ ٢٠١٥). وغار حراء يبعد عن وسط الحرم – باتجاه الشمال الشرقي – بحوالي خمسة كيلو مترات بخط مستقيم، وتزيد المسافة لمن يقطعها على قدميه عبر الطرق البرية القديمة للمشاة.

وترتفع قمة الجبل الذي يقع فيه الغار حوالي (٦٠٠) متراً عن مستوى سطح البحر، وعن مستوى ارتفاع الأرض حول الجبل بحوالي (٢٥٠) متراً[1]. ويمكن تسلق الجبل عبر جادة مشاة خطرة جداً، كونها تشرف على هاوية سحيقة لسفح الجبل بدون موانع. وعادة ما يلقى العديد من الزوار سنوياً حتفهم جراء سقوطهم إلى المنحدر. وتبدأ رحلة التسلق من أطراف مساكن الحي الحالي الواقع تحت سفح الجبل الجنوبي والجنوبي الشرقي والذي يسميه البعض حي النور[2]. حيث يسير الزوار باتجاه طرف الحي الشمال الشرقي، حتى نهاية المباني. وهناك يبدأون الصعود باتجاه الشمال، عبر الجادة المتعرجة متسلقين حوالي (١٠٠) متر في مسافة لا تزيد عن (٢٨٠) متراً. أي بمعدل صعود متر تقريباً لكل (٢,٨) متر سيراً. وعندما يصلون لعلو (٥٣٠) متر فوق سطح البحر، تنعطف الجادة باتجاه الشرق لمسافة (١٧٠) متر تقريباً، صاعدين قرابة (٢٥) متر إضافية. بعد ذلك تبدأ الجادة بالانحدار باتجاه الجنوب الغربي، للوصول إلى الغار بعد (١٠٠) متر تقريباً، والذي يرتفع عن سطح البحر بحوالي (٥٤٠) متراً، منخفضاً عن قمة الجبل بحوالي (٦٠) متراً.

وغار حراء عبارة عن فجوة في الجبل، مفتوحة نحو الشمال الشرقي، بارتفاع لا يزيد عن (١٧٠) سم. وعمق الغار لا يزيد عن (٢,٤) متر، وعرضه حوالي متر إلى متر ونصف. وفي آخر الغار، ممر خلفي ضيق لا يزيد اتساعه عن (٧٠) سم، يفضي إلى بقعة مكشوفة باتساع ثلاثة أمتار وعرض مرتين، وبانحدار بزاوية (١٥) درجة تقريباً، مما يجعلها عبارة عن شرفة

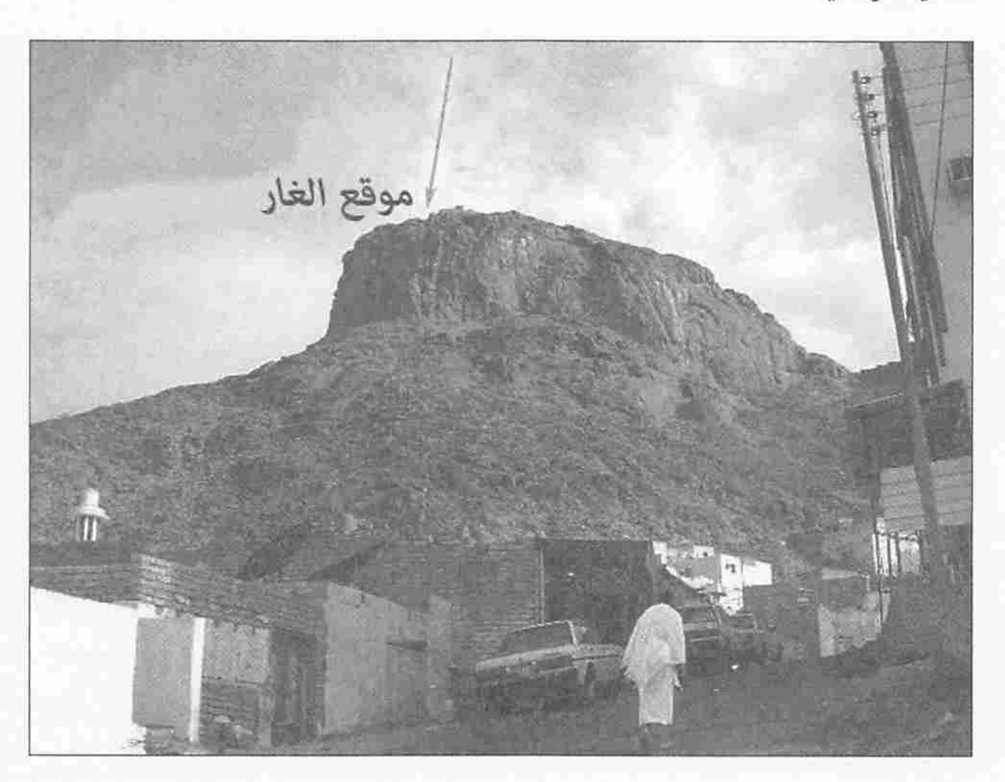
---

١ الارتفاعات تم تقديرها من خلال برنامج (Google Earth).

٢ نسبة لجبل حراء الذي صار يسمى حالياً بجبل النور.

خلفية للغار. والجالس في هذه الشرفة يكون مواجهاً للكعبة، التي تقع بالنسبة له باتجاه الجنوب الغربي[1].

وهذه صورة للجبل الذي يقع فيه الغار، وقد يطالها التجريف يوماً، كما طال كل مكة القديمة والمدينة.



كتب التراث وحراء

تقول كتب الحديث والسير والتفسير أن الرسول كان يتحنث قبل بعثته في حراء، والتحنث يقصد به التعبد. وابن اسحاق يقول بأنه كان يتحنث في الغار شهر من كل سنة، ويقول في رواية أخرى أنه يتحنث ومعه أهله. واستمر حتى جاءه جبريل بالوحي في ليلة من الليالي. فمحمد – من وجهة نظر الإخباريين وكتبهم التراثية - كان يتعبد ويتأمل قبل أن ينزل عليه الوحي ويصبح رسولاً لله بزمن. وتكرار هذه الأخبار في كتب التفسير والحديث والسير

١ المسافات الواردة في هذه الفقرة تقديرات من مشاهداتي الشخصية، قد لا تكون دقيقة.

لا يقويها، أو يؤكد صحة وقوعها، ولكنه مؤشر على أن تلك الكتب وثقت ما كان منتشراً بين الناس من قصص حول بقاء الرسول في غار حراء، وما كانوا يتصورونه عن الوحي، وشخص الرسول، نتيجة لما ترسخ من قصص زيدت وعدلت واختلقت عن عصر الرسول الذي يفصلهم عنه مئات السنين. فكتب السير والحديث والتفسير وغيرها من كتب التراث ظهرت في القرن الثالث والرابع للهجرة، وكتبت ما انتشر بين الناس وليس ما وقع بالفعل. وهو يصور ما كانوا يعتقدون حين ظهور تلك الكتب، ومن ذلك:

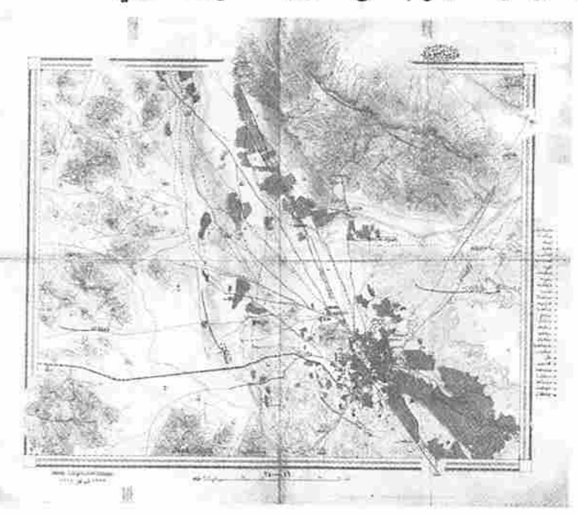
- أنهم يظنون أن القرآن ينزل آية آية وليس سورة كاملة، وأن أول ما نزل من الوحي هي الآيات الأولى من سورة العلق، فعدلوا حادثة الغار لتلائم ما ذهبوا إليه.
- وأن جبريل يلقن الرسول الآيات تلقيناً.
- وأنهم كانوا يتخيلون الرسول شخصية فوق بشرية. وكان يعرف الله قبل البعثة، وغير ذلك.

وهذه المعتقدات انتشرت في عصور لاحقة، فتوسعت القصص مع الأجيال وتضخمت. وما يؤكد ذلك أن موطأ مالك ابن أنس لا يذكر شيئاً عن لقاء جبريل بمحمد في حراء، وتلقينه آيات العلق، أو تحنث محمد في الغار قبل البعثة. والموطأ يعتبر أول كتاب حديث رسمي، سبق كتاب البخاري بعقود. حيث كانت وفاة مالك في العام (١٧٩)، بينما مات البخاري في العام (٢٥٦) للهجرة.

والرسول صلوات الله وسلامه عليه لجأ لغار حراء ليمارس برنامج التأهيل النفسي الذي ألزمته سورة المزمل القيام به ليكون جاهزاً نفسياً لتحمل المتاعب والضغوط النفسية قبل بدء الدعوة.

يثرب[1]

في عصر الرسول عبارة عن أرض تميل إلى الاستواء النسبي، وسط حمم بركانية شديدة الوعورة، وجبال يزيد ارتفاعها عن (١٠٠٠) متر عن سطح البحر. ففي الشرق هناك حرة واقم، التي تتصل بحرة شوران التي تحد يثرب من الجنوب مع جبل عير. وتمتد حرة وبرة بطول الجانب الغربي ليثرب. وإلى الشمال من هذه الحرة ممر يجري فيه عدة أودية، يفصل الحرة عن جبل أحد، الذي يحد يثرب من جهة الشمال. والمنطقة الجنوبية الشرقية من أرض يثرب عبارة عن مزارع للنخيل يمتلكها بنو إسرائيل، ويتخللها أودية صغيرة - مثل مهزوز ومذينب - تصب في وادي بطحان الذي يخترق غرب يثرب، متجهاً من الجنوب للشمال نحو الغابة[2]. وفي الأرض المفتوحة في يثرب شمال المزارع وغربها تتناثر منازل الأوس والخزرج بشكل عشوائي. حيث يجتمع كل فخذ قبيلة في مكان، يفصله عن مساكن الآخرين مساحات خالية. وتبلغ المسافة بين جبل أحد في الشمال وقباء في الجنوب، قرابة (١٠،٠٠٠) متر، وتمتد يثرب من الغرب للشرق بحوالي نصف هذه المسافة.



١ هذه الفقرة منقولة من كتاب أحسن القصص.

٢ الغابة منطقة مستنقعات تكثر فيها الأشجار البرية تقع إلى الشمال الغربي من يثرب. ويصب فيها العديد من الأودية م ومنها وادي العقيق الذي يقع إلى الغرب من يثرب وخلف حرة وبرة.

وعندما هاجر رسول الله كان كل سكان يثرب المستقرين فيها نازحون من مناطق جنوب غرب جزيرة العرب، سواءً كانوا من أهل الكتاب أو من الأوس والخزرج. ولا غرابة أن يمتهن بنو إسرائيل زراعة النخيل، لأنهم اعتادوا ممارستها في موطنهم الأصلي مصر، قبل أن يتركوه بسبب الغزوات الخارجية. أما الأوس والخزرج، فلم يذكر القرآن عنهم شيئاً يمكن أن يدلنا على سبب هجرتهم، ولن نذكر شيئاً مما تقوله التراث، لأنها أقوال لا يمكن الركون إليها فهي مجرد ظنون. والأزد، التي ينتمي لها الأوس والخزرج، لها تواجد في سلطنة عمان الحالية وفي حجاز جنوب مكة – منطقة الباحة الحالية - وأماكن أخرى، مما يعني أنه قد حدث لأفرادها نزوح جماعي، وتهجير قسري من بلادهم الأصلية، جعلهم يتفرقون في عدة اتجاهات، وقد يكون الاجتياح الأجنبي هو السبب.

والأوس والخزرج قدموا من مناطق حضرية مستقرة، ويحترفون الزراعة، لأنهم استقروا في يثرب ويعملون في مزارع بني إسرائيل كأجراء. وهذا يقود إلى التساؤل إن كانت الأزد، القبيلة التي ينتمي لها الأوس والخزرج، هم من سكان مصر، كما بني إسرائيل. وقد هربوا منها مثل بني إسرائيل عندما اجتاحتها الجيوش الغازية بعد زمن موسى، وهو الشتات الأول. فتوجه بعضهم لعُمان والبعض لحجاز جنوب الجزيرة والبعض جاء مع بني إسرائيل واستقر في يثرب.

قد نكون مخطئين، ولكن إن كان هذا ما حدث، فهو يفسر سر توافق الأوس والخزرج مع بني إسرائيل في العيش معاً في مكان واحد. ويحتمل أنهم وصلوا يثرب معاً وفي وقت واحد، وعلى شكل عائلة واحدة لرجل اسمه أوس وعائلة أخرى لرجل اسمه خزرج، وهما أخوين ينتميان لأب واحد اسمه أزد. وثلاث عائلات من بني إسرائيل (قينقاع، نضير، وقريظة)، ثم تزايدت أعدادهم وتكاثروا مع الزمن، حتى وصلوا لبضع مئات لكل من الأوس والخزرج، وعائلات بني إسرائيل الثلاث، عند هجرة الرسول. وتكون يثرب مهجراً لبعض أهل مصر، استقروا فيها ومارسوا حرفتهم الزراعية التي كانوا يجيدونها في بلادهم الأصلية، وأبقوا على لغتهم وأسمائهم وعاداتهم العربية، مع احتفاظ بني إسرائيل بدينهم وما بقي معهم من توراتهم العربية. واحتفظ الأوس والخزرج بنفس العادات واللغة وعقائدهم الوثنية.

وقد أكد القرآن أن رجال دين بني إسرائيل لازالوا يحتفظون ببعض توراتهم عندما بعث

محمد عليه الصلاة والسلام: وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَـئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ(٤٣) المائدة.

ولما حدث التهجير الثاني لبني إسرائيل بعد انهيار المملكة التي أسسها داوود، لابد أن بعض بني إسرائيل قد مروا بيثرب واستقر بعضهم فيها، وهؤلاء يمكن التعرف عليهم بأنهم اليهود والنصارى الذين يخاطبهم القرآن. ذلك أن هجرتهم حدثت بعد أن ظهر مذهب ما يسمى باليهودية. كما أن الهجرة الثانية حدثت بعدما ظهر – النصارى - مذهب أتباع عيسى ابن مريم. وبعد أن خرج منهم من اعتقد بألوهية عيسى، مع الله ومريم: وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ(٣٠) براءة.

وكان انتشار النصرانية ومن قال بألوهية عزير محدود جداً في غير يثرب، ومع الأيام اضمحلت عقائدهم ولم يعد لها وجود، بسبب ذوبان أهلها في المجتمعات التي عاشوا فيها، بينما بقيت هذه العقائد في يثرب حتى ظهور الإسلام، لأنهم عاشوا في مجتمع إسرائيلي صرف، وإن كان مختلف العقائد. وبما أن الأزد لم يكونوا من سكان المملكة التي أسسها داوود، فلم يتعرضوا للتهجير والشتات مرة أخرى عندما انهارت تلك المملكة، مثلما حدث لسكانها من بني إسرائيل. وبالتالي لم يكن هناك موجة ثانية من هجرة الأزد إلى يثرب، كما هو الحال مع أهل الكتاب.

وعندما هاجر الرسول إلى يثرب كانت عائلات بني إسرائيل التي وصلت ليثرب في النزوح الأول هم الأكثر عدداً وقوة وتمكناً من العائلات التي وصلت في الهجرة الثانية التي بقي عدد أفرادها قليل. فالكل يعرف من هم بنو قريظة، والنضير، وقينقاع، لكن قلة يعلمون أن بنو زعورا وبنو ماسلة - على سبيل المثال - كانوا من يهود يثرب في ذلك الوقت. ذلك أن الثلاث قبائل المشهورة، هي التي نزحت أولاً ليثرب برفقة عائلتين من الأزد، بينما بني زعورا وماسلة وقبائل صغيرة غيرهم كانوا ممن نزحوا في المرة الثانية. ومنهم كان اليهود الموحدون واليهود الذين اعتبروا عزيراً ابن الله، ومنهم النصارى الموحدون والنصارى الذين اعتبروا عيسى وأمه آلهة مع الله[1]. أما القبائل الثلاث الأقدم - بني قينقاع والنضير

---

١ النصارى ليسوا هم المسيحيون الحاليون ولا علاقة لهم بهم. كما أن عيسى ابن مريم ليس يسوع ولا علاقة له به لا في المكان ولا في الزمان ولا في المعتقد. أنظر كتاب: مسيحية بولس وقسطنطين من منشورات الجمل.

وقريظة - فيمثلون بني إسرائيل قبل اليهودية والنصرانية، ويحتفظون ببعض توراتهم التي نزلت على موسى. وبطبيعة الحال فالأجيال التالية أغلبها ابتعدت عن الدين ولم يتمسك به إلا القلة القليلة: فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(١٣) المائدة.

ولابد أن نشير إلى أن بني إسرائيل الذين هجروا بلدهم مصر إلى مملكة سليمان في أقصى جنوب غرب جزيرة العرب قد تفرقوا إلى أقصى اليمن أو بلاد فارس والخزر أو الشام وبلاد النيل وغيرها بعد أن تعرضت مملكتهم للغزو الخارجي. وقد تسببت هجرتهم لأماكن يتحدث أهلها لغات شتى، ولهم ثقافتهم المختلفة، أن يفقدوا لغتهم العربية وثقافتهم. فدخلت ألفاظ وعبارات أجنبية على لغتهم، وأصبحت لغتهم خليط من اللغة الأم العربية، واللغات المحلية في أقصى جنوب جزيرة العرب، وفيما بعد تأثرت بلغات البلاد التي هاجروا إليها في فارس والخزر، وتأثرت مخارج الحروف عندهم. فتولد لديهم لغة هجين، تشبه نشأة ما عرف في جنوب أفريقيا باللغة التي تسمى أفريكانا. وهي لغة حديثة يتحدثها المستوطنون البيض في جنوب أفريقيا، عبارة عن خليط من الهولندية والإنجليزية والألمانية والفرنسية والزولو والسواحلية، ولكنها ليست واحدة من هذه اللغات. ولغة بني إسرائيل الهجين، هي التي سميت العبرية القديمة، وفرضت على العالم على أنها أصل لغات الشرق الأوسط كله. لهذا نجد أن ما سمي «العبرية» لغة فيها تشابه مع لغات اليمن، ولغات عراقية وغيرها، وهي مستمرة بالتغير والتلون وآخر أشكالها ما سمي بالعبرية الحديثة التي ظهرت في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، بالاعتماد على قواعد اللغة العربية.

والمهاجرون منهم الذين اختلطوا بمجتمعات شتى هم الذين أصبحوا يمثلون اليهود، ويتأثر بهم غيرهم من بني إسرائيل. وحل كتابهم المقدس، محل توارة موسى. مع أنه كتاب تاريخي بدأ تصنيفه أثناء الأسر البابلي، واستمروا يضيفون له أحداثهم على مدى أكثر من (١٠٠٠) عام، كما يقول علماء تاريخ الكتاب المقدس. ولم يعد أحد منهم يتذكر التوراة التي نزلت مرة واحدة على موسى عندما نسخها في الألواح، قبل شتاتهم بمئات السنين[١].

---

١ يمكن الرجوع لكتاب: من آدم إلى محمد للمزيد عن بني إسرائيل.

المدينة[1]

كتب التراث تزعم أن الرسول هو من سمى مقامه في يثرب، المدينة. ولا يمكن الركون لأخبار تلك الكتب لافتقارها إلى مصادر موثقة وموثوقة.

والمدينة، لفظ نُعرّفه اليوم بأنه يطلق على البلدة الكبيرة المكتظة بالسكان. وهو تعريب للفظ 'city' في اللغة الإنجليزية واصطلاح جغرافي حديث. وهذا الوصف لا يمكن أن ينطبق على ذلك المكان الذي استقر فيه الرسول، ولم يتسع البنيان فيه طوال عصره لدرجة يمكن أن يسمى «مدينة» بمفهومنا العصري. لأن الأوس والخزرج بقوا في مساكنهم التي كانوا فيها قبل الهجرة، بينما توزع المهاجرون على مناطق متفرقة من أرض يثرب ولم تكتظ بهم المنطقة المحيطة بمسجد الرسول. وعندما توفي رسول الله لم يكن بجوار مسجده إلا القليل من المساكن لبعض المهاجرين، لا تشكل أكثر من تجمع سكاني محدود، ومع ذلك نعتت بالمدينة.

المدينة - بمفهومنا الحالي - في القرآن

القرآن نعت مكة، بالقرية، مع أنها تفوق يثرب سكاناً: وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ(١٣) محمد.

ومرة أخرى أطلق عليها وعلى الطائف قريتين: وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ(٣١) الزخرف.

والقرآن يصف التجمع السكاني المدني المكتظ، بالقرية، عند الحديث عن الأمم السابقة: وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِساباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكْراً(٨) الطلاق.

ومن ذلك قوم لوط الذين كانوا يعيشون في قرية: وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً(٤٠) الفرقان.

---

١ منقول بتصرف من كتاب أحسن القصص.

وكل الأمم السابقة كانوا يعيشون في قرى: وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ(١١) الأنبياء.

بل إن مدينة كبيرة (بمفهومنا الحالي للمدينة) سماها القرآن قرية، برغم أن الله جل شأنه أرسل لها ثلاثة رسل في وقت واحد، بسبب اتساعها وكثرة سكانها: وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ(١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ(١٤) يس.

ورسول الله يونس بعث إلى مدينة (بمفهومنا الحالي) يقطنها أكثر من (١٠٠) ألف نسمة: وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ(١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ(١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ(١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ(١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ(١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيمٌ(١٤٥) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ(١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ(١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ(١٤٨) الصافات.

هذه (البلدة المكتظة) التي بعث لها يونس، سماها القرآن قرية: فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ(٩٨) يونس.

إذاً، القرآن دائماً – وبلا استثناء – يطلق على البلدة الآهلة والمكتظة بالسكان اسم، «قرية»، ولا يسميها مدينة: وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ(٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ(٥٩) القصص.

لكن مصطلح «المدينة» تردد ذكره في القرآن فما المقصود به؟

لفظ المدينة في القرآن

لفظ «المدينة» ورد في القرآن أربع عشرة مرة، أربع منها تتحدث عن موطن الرسول، وذلك في السور التالية: الأحزاب: (٦٠)، والمنافقون: (٨)، وبراءة: (١٠١-١٠٢).

وهذه المدينة مع تجمعات الأوس والخزرج ومزارع بني إسرائيل ومساكنهم تقع ضمن ما يعرف بيثرب.

وهناك خمس آيات ذكر فيها لفظ «المدينة»، كلها تتحدث عن مصر وفرعون. ثلاث آيات منها في سورة القصص، وواحدة في سورة الأعراف، وأخرى في سورة يوسف.

والآية: (١٢٣) من سورة الأعراف تظهر فرعون مخاطباً السحرة: قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَـذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ.

ومصر فرعون تعني بلدة واحدة، ولا تعني الدولة بمفهومنا الحالي التي تحوي عدة مدن وقرى وتجمعات سكنية، وذلك بشهادة القرآن أثناء الحديث بين يوسف وإخوته: ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ(٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ(٨٢) يوسف.

فإن كانت القرية التي كان إخوة يوسف فيها هي مصر فرعون، فما هي المدينة التي ذكرتها الآية: (١٢٣) من سورة الأعراف أعلاه والتي يتحدث عنها فرعون؟

وفي سورة القصص ذكرت «المدينة» ثلاث مرات أثناء الحديث عن موسى، كما يلي: وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ(١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ(١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ(١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ(١٩) وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ(٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٢١).

وموسى ترعرع في قرية مصر فرعون، لكن الآيات تتحدث عن دخوله المدينة، على حين غفلة من أهلها، بعدما بلغ أشده. ولو كان المقصود بالمدينة بلدة فرعون التي ولد فيها موسى وترعرع، فلا يمكن القول بأنه دخلها، وخلسة، وبعد أن بلغ أشده، لأنه كان طوال عمره داخلها. أما لو كان معنى المدينة هو مكان في قرية فرعون، فإن العبارة ستستقيم.

ويكون موسى الذي يعيش في قرية فرعون، قرر ذات مرة الذهاب للمكان المسمى «المدينة» الواقع في نفس القرية. وهذه المدينة كان لها أبواب ولا يسمح بدخولها إلا من يحمل تصريحاً. لذا فقد تسلل موسى إليها « على حين غفلة من أهلها (حراسها)». وهناك – داخل المدينة – وكز الذي من عدوه وقتله، وهناك قضى الليل خائفاً يترقب ملاحقيه بسبب قتله للرجل. وفي نفس المدينة قدم رجل يسعى في اليوم التالي ليُحذِّره. وقد استطاع موسى التسلل خارج المدينة وهو خائف يترقب ملاحقيه.

فموسى دخل خلسة مبنى محاط بأسوار له أبواب، وعليه حرس لو رأوه لمنعوه من الدخول، مما يشير إلى أن هذا المبنى لا يدخله إلا المصرح لهم، كما سبق وذكر. وأثناء تنقله فيها وجد أحد بني إسرائيل يتعارك مع رجل آخر، وقد وكزه موسى بقبضته فقتله. ثم فر موسى من مكان الحادث لكنه بقي في ذلك المكان «المدينة» بقية اليوم وطوال الليلة التالية، وفي اليوم التالي كان يتجول في هذه «المدينة» عندما أقبل رجل يسير بسرعة إلى موسى وأخبره أنهم يبحثون عنه ليقتلوه بالرجل المقتول. كل هذا يحدث في «المدينة»، مما يعني أن هذه المدينة تحوي مساحات واسعة يتحرك فيها مجموعات بشرية كبيرة.

ولو تساءلنا ماذا يفعل هؤلاء البشر؟

لجاءنا الجواب من سورة يوسف، التي تتحدث عن أن يوسف أصبح مسئولاً عن مخازن مصر للمحاصيل الزراعية والتجارية المختلفة، وكانت هذه المخازن تقع في مبنى مغلق له أبواب عليها حرس. وهذه المواصفات تنطبق تماماً على المدينة التي دخلها موسى خلسة بعد أجيال من دخول أجداده لها زمن يوسف.

وتكون المدينة تعني السوق التجاري، وهو في قرية مصر كان داخل مبنى محاط بأسوار وله أبواب، ويضم مخازن مصر. وهو المدينة التي دخلها موسى على حين غفلة من حراس إحدى بواباتها.

وقد ذكرت سورة يوسف «المدينة» أثناء الحديث عن النسوة اللاتي كن يتكلمن فيما بينهن عن محاولة زوجة العزيز إغراء غلامها يوسف: وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ(٣٠) يوسف.

وهذه الآية تضيف لنا تأكيداً آخر على أن المدينة تعني مكاناً يجتمع فيه خلق كثير، للبيع

والشراء ويضم مجالس لتبادل الأحاديث وتناقل الأخبار والحكايات وعقد الصفقات التجارية. وهذا المكان كان في نفس المبنى المحاط بسور والذي يضم مخازن المملكة. والنسوة اللاتي تحدثن عن امرأة العزيز كن يجتمعن في المدينة (السوق) للبيع والشراء وتبادل الأحاديث وتناقل الأخبار، كما كان يحدث ولازال في أسواق جنوب جزيرة العرب.

وسورة الكهف تتحدث عن الفتية الذين ناموا في الكهف مع كلبهم لسنوات طويلة، وعندما استيقظوا ظنوا أنه لم يمر عليهم سوى فترة قصيرة، فأرسلوا أحدهم ليشتري لهم طعاماً من نفس بلدتهم التي خرجوا منها: فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً(١٩) الكهف.

والآيات تؤكد أن المدينة هو المكان الذي يباع فيه القوت « فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ». أي أنه السوق الذي يقع في بلدة الفتية، وليس البلدة كلها.

وتذكر سورة الكهف «المدينة» مرة أخرى في الحديث عن موسى والعبد العالم: فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً(٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً(٧٨) ....وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً(٨٢) الكهف.

والآيات تقول بأن موسى والعبد العالم دخلا «قرية» وفي تلك القرية كان هناك جدار آيل للسقوط فأقامه. وهذا الجدار يقع في «المدينة» ومخبأ فيه كنز. ويكون والد الغلامين اليتيمين قد جمع هذا الكنز من مزاولته للتجارة، وخبأه في جدار محله الواقع في المدينة التي هي مكان البيع والشراء، والتي تقع ضمن القرية.

وسورة النمل تذكر المدينة أثناء الحديث عن صالح وقومه: وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ(٤٨) النمل.

وقوم صالح مثل كل الأمم السابقة المذكورة في القرآن كانوا يعيشون في قرية: وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ(٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ(٤٣) وَأَصْحَابُ

مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ(٤٤) فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ(٤٥) الحج.

والرهط التسعة المفسدين من قوم صالح الذين ذكرتهم الآية: (٤٨) من سورة النمل كانوا يتواجدون دائماً في المدينة داخل قرية قوم صالح، حيث يجتمع الناس للبيع والشراء وتناقل الأخبار.

وتتحدث الآيات (٥٨- ٧٧) من سورة الحجر عن قوم لوط، ومحاولة النيل من الملائكة - ظناً منهم أنهم رجال من البشر - ليفعلوا بهم الفاحشة، ومن ذلك قوله تعالى: وَجَاء أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ(٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلاء ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ(٦٨) وَاتَّقُوا اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ(٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ(٧٠) قَالَ هَؤُلاء بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ(٧١).

وعلينا أن نتذكر أن القرآن ينعت بلدة قوم لوط بالقرية في عدة سور منها: (الأنبياء:٧٤)، (الفرقان:٤٠)، (العنكبوت: ٣١ : ٣٤). فتكون آيات سورة الحجر تدل على أن المقصود بالمدينة هو مكان داخل القرية، يضم السوق والنوادي التي يجتمعون فيها. وقوم لوط كانوا يأتون المنكر في ناديهم، أي مكان تجمعهم، كما تؤكد سورة العنكبوت: أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٢٩) العنكبوت.

ويكون الرجال الذين جاؤا إلى لوط ليسوا كل رجال قريته، ولكن ممن كانوا في ناديهم الذي يمارسون فيه عهرهم والواقع في «المدينة» التي تقع داخل القرية.

ومن كل ما سبق يمكن القول إن المدينة تعني السوق التجارية والتي عادة ما تكون في الساحة العامة وسط القرية والتي تضم بجانب السوق النوادي وأماكن التجمعات والاحتفالات.

وسورة الشعراء تذكر المدائن (جمع مدينة) مرتين، وهما المرتان الوحيدتان اللتان ذكر فيهما هذا اللفظ في القرآن. وفي كلاهما كان الحديث عن إرسال فرعون من يطوف في المدائن لإبلاغ من فيها بمرسوم فرعوني. والمرة الأولى بعث فرعون من يطوف في «المدائن» بحثاً عن سحرة حاذقين لمبارزة موسى: قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ(٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ(٣٧) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ(٣٨).

والمرة الثانية تتحدث عن إرسال فرعون من يطوف بالمدائن ليبلغهم رسالة تحذيرية لئلا يتعاونوا مع بني إسرائيل: فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ(٥٣) إِنَّ هَؤُلَاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ(٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ(٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ(٥٦).

والمدائن في كلا الموضعين تشير إلى أنها أماكن يتواجد فيها أناس من أهل مصر، لذا كان فرعون يبعث لهذه المدائن من يوصلهم رسائله وأوامره وتحذيراته.

وتكون المدائن هنا تعني أسواق كانت منتشرة في قرية فرعون. ويجتمع فيها عدد من الناس للبيع والشراء. ولا تعني المدائن جمع مدينة بمفهوم هذا العصر، ذلك أن السحرة قبل أن تبدأ المبارزة نصحهم موسى بأن يتقوا الله، وكادوا أن يتراجعوا، لكنهم تناجوا وتشاوروا فيما بينهم ثم اتفقوا على أن موسى ساحر يريد أن يخرجهم بسحره من أرضهم (مصر)، فهم مصريون. ولو كانوا قد أتوا من خارج مصر، فهي ليست أرضاً لهم، وليسوا معنيين بالخروج منها، ولن يهتموا إن خرج المصريون منها أم لا. وهذه هي الآيات: قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى(٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى(٦٢) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى(٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى(٦٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى(٦٥) طه.

إذاً، هم من مصر ويعيشون فيها، وعندما أراد فرعون جمعهم أرسل لهم في مدائنهم الواقعة داخل مصر (القرية).

وتكون المدائن عبارة عن الأسواق الفرعية، والمدينة هي السوق التجارية الرئيسية، سواءً كانت محاطة بسور له أبواب ويضم المخازن وأماكن التجمعات والنوادي كما في قرية مصر، أو بدون أسوار.

ولفظ المدينة معروف لدى بني إسرائيل يثرب لأنهم قدموا من مصر فرعون بعدما هربوا منها نتيجة الغزو الخارجي. ولابد أنهم أقاموا مدينة (سوق تجاري) في يثرب. ولما تعرض المستضعفون في مكة للاضطهاد والتعذيب من قبل كبراء قريش لردهم عن دينهم واشتد التضييق على الرسول ومن آمن، وجه مسلمو يثرب برئاسة من آمن من بني إسرائيل الدعوة للرسول والمسلمين للهجرة ليثرب. وقاموا ببناء مسجد للرسول وحجرة لسكنه

ملحقة بالمسجد، في مكان مجاور للمدينة (السوق الأسبوعية) التي تقام هناك. ولما أقيمت حجرات (منازل) لبعض المهاجرين فيما بعد حول مسجد الرسول، غلب اسم «المدينة على كل المنازل التي بنيت في المكان. وبعد جلاء بني إسرائيل من يثرب غلب اسم المدينة على كل ما كان يعرف بيثرب.

وما يؤكد هذا ما ورد في سورة الجمعة التي تتحدث عن ترك بعض المصلين الصلاة مع الرسول في مسجده للحاق بقافلة تجارية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(١١).

ولدينا شاهد لازال حياً على أن المدينة تعني السوق المحاط بأسوار وله أبواب. فمدن بلاد المغرب العربي القديمة تسمى البلدة العتيقة فيها «المدينة»، وهي التي تحوي السوق التجارية.

ولمن يهتم بمعاجم اللغة، يقول صاحب لسان العرب: «المَدِينة الحِصْنُ يبنى في أُصطُمَّةِ الأَرض، وكلُّ أَرض يبنى بها حِصْنٌ في أُصطُمَّتِها فهي مدينة، والنسبة إِليها مَدِينّي، والجمع مَدائنُ ومُدُنٌ.

وهكذا يمكننا القول بأن «المدينة» لفظ يعني في القرآن ساحة تضم السوق التجارية، وأماكن التجمعات والاحتفالات، سواءً كانت محاطة بسور وله أبواب أو ساحة مفتوحة دون أسوار.

أما المدينة بمفهومنا المعاصر فقد وردت في القرآن بلفظ القرية.

عائشة

هل هي امرأة ملعونة كما تقول كتب الشيعة، أو امرأة فاجرة كما تقول كتب السنة، أم أنها أم المؤمنين؟

لو تصفحنا كتب الموروث عند مذاهب المسلمين لوجدنا أنه كلما كثرت المثالب المنسوجة حول شخصية من شخصيات عصر الرسول عند أتباع مذهب كلما كثرت الفضائل المنسوجة عنه عند أتباع مذهب مخالف، وليس هناك نظرة محايدة عند أي من الطرفين، وهذا لم يأت صدفة.

فأبو بكر وعمر ابن الخطاب يمثلان التقوى والصلاح عند أتباع المذهب السني، بينما صورتهما عند الشيعة على النقيض.

معاوية صحابي جليل وكاتب للوحي عند السنة بينما هو أقرب للشيطان عند الشيعة... وهكذا.

ومن اليسير أن نشتم تأثير المواقف السياسية على هذه المشاعر، بجانب عوامل أخرى.

أما فيما يخص عائشة زوج الرسول، فالسنة والشيعة تبادلوا اتهامها.

وكل من يقرأ كتب التراث السني فسيجد أنهم يلقبونها بأم المؤمنين، وصوراً زاهية أخرى عنها، لكن وفي نفس الوقت فكل من يقرأ نفس الكتب بحثاً عن إدانتها فسيجد الكثير من الصور القبيحة، وقد أوردنا فيما سبق الكثير من الأحاديث البخارية التي تصورها بصور قبيحة جدا.

وسنورد بعض أهم ما قيل عنها في تلك الكتب، ثم ما يمكن فهمه من الواقع والقرآن عنها، لنخرج بما كانت عليه فعلاً.

الموقف الشيعي

لا حاجة للقول إن كتب الشيعة التراثية تغص بصور سيئة عن زوج الرسول، إلا أنه من المهم ملاحظة أن كل ما قيل عنها في هذه الكتب كان نتيجة لموقفها المعارض من تولي

علي ابن أبي طالب للحكم. ومن المحتمل أنها لو لم تقف ضد علي فقد لا تتهجم عليها كتب الشيعة. ولن يتجاوز التعرض لها في تلك الكتب أكثر من كونها بنت أبي بكر (الذي اغتصب حق علي في الحكم كما صور موروث الشيعة)، ولما وجدنا عنها منقصة واحدة في كتب التراث الشيعي.

هذه هي حقيقة الموقف الشيعي من زوج الرسول عائشة. وكل ما قيل عنها في تلك الكتب تشعب وكثر لكنه في الأصل لا يتجاوز موقفها من تولي علي، ونابع منه. وليس للشيعة أي مآخذ أخرى عليها.

وبما أن المعتقد الشيعي يقوم على أساس واحد فقط، وهو اعتبار علي ابن أبي طالب ولياً لله ووريثاً للنبوة فإن أي معارضة لتولي علي الحكم اعتبر كبيرة موجبة للنار في الآخرة واللعن في الدنيا، وهذه هي جريمة زوج الرسول عائشة (حسب معتقدهم). ونتج عن هذا أن استبيح سبها شخصياً ونسي العامة السبب الرئيسي لهذا الموقف. وإن كان هناك قصص أخرى موجودة في كتب التراث الشيعي للنيل من عائشة كقولهم إنها ووالدها قد أسقيا السم للرسول، وإن كانت هذه القصص لا تحظى بالقبول حتى من الشيعة أنفسهم لأنهم يعلمون أنها لم تحدث.

في المقابل فكثير من القراء يجهل أن كتب التراث الشيعي برغم لعنها لزوج الرسول فقد برأتها من تهمة قالتها عنها كتب السنة، وهي تلك القصة المختلقة التي ترسخت بعنوان «الإفك». فكتب التراث الشيعية تبرئ عائشة من قصة الإفك وتقول إنها قصة مختلقة على عائشة، وأن آيات «الإفك» نزلت لتبرئة «مارية القبطية» التي اتهمتها عائشة بالزنا وأن ولدها «إبراهيم» ليس ولداً للرسول ولكنه ولد لعبد قبطي أيضاً كان هدية من المقوقس للرسول مع مارية. وقد غضب الرسول من كلام عائشة وأرسل علي ابن أبي طالب ليقتل العبد. ولكي تنسجم القصة قالوا إن العبد يعمل في بستان وأنه لما رأى علياً مقبلا وبيده السيف صعد على شجرة فنظر علي إلى الأعلى فوجد القبطي ليس له عضو ذكري. فعاد وأخبر الرسول فنزلت آيات سورة النور لتبرئة مارية. ولأن القصة مختلقة فمختلقها لم يفطن إلى أنه لو افترض أن عليا قتل القبطي وهو بريء، فكيف سيكون موقف الرسول الذي أمر علياً؟ وكيف أمر الرسول بقتل رجل بتهمة لم تثبت؟

المهم ليس نقاش قصة مختلقة ولكن للتأكيد على أن كتب التراث الشيعي تعتبر عائشة ملعونة لأنها وقفت ضد تولي علي ابن أبي طالب الحكم، لكنها تنزهها من الفجور.

الموقف الإباضي

يتفق مع الموقف الشيعي أن معارضة تولي علي الحكم تعتبر كبيرة، لأنهم يعتقدون بوجوب وجود حاكم، ولا يجوز الخروج عليه. لكنهم يقولون إن زوج الرسول عائشة قد تابت. يعني هم قالوا هي أخطأت واقترفت كبيرة معارضة استيلاء علي على الحكم، لكن لا يلعنونها ولا يختلقون مثالب عليها كما يفعل الشيعة، ويتجنبون سبها.

الموقف المعتزلي

نابع من أن كل المتحاربين في موقعة الجمل ارتكبوا كبيرة، دون أن يتعرضوا بالسب لأحد من الطرفين.

الموقف السني

ظاهرياً بين العامة هو أن الموروث السني هو الذي ينصف عائشة وبقية المذاهب تنال منها، لكن هذا المفهوم الشائع غير صحيح على الإطلاق وبعيد عن حقيقة ما تحويه كتب تراثهم.

فكتب التراث السني تحتوي على كم متنوع من النقائص لزوج الرسول أكثر تنوعاً من أي كتب مذهب آخر تعرضت لعائشة. وإن كان عدد الصفحات التي تعرضت لزوج الرسول في كتب الشيعة أكثر بكثير من الصفحات في كتب السنة. فالتراث السني يتفوق على التراث الشيعي في عدد المواضيع التي تعرضت لعائشة، والمذهب الشيعي يتفوق بعدد الصفحات.

ولو لم يكن في كتب التراث السني من مثالب ضد عائشة سوى ما عرف بالإفك لكفى.

قصة الإفك

وهي قصة مختلقة تُسوّغُ لقراءة متعسفة وتأويل لآيات في سورة النور إلى غير معناها قام به المفسرون والمحدثون ورسخته كتب التراث السني. والقصة بمجملها تثبت سوء الظن بعائشة، ولا يمكن لمن يقرأها وهو يظن أنها وقعت بالفعل إلا أن يميل داخل نفسه أن عائشة لم تكن بريئة. والقصة تقول إن زوج الرسول كانت بصحبة الرسول في غزوة له

(الرسول لم يثبت أبداً أن أخذ واحدة من نسائه في الحروب ولم يكن هذا متوقعاً). وأثناء عودتهم للمدينة وبعد توقف الجيش للمبيت، وناموا لبعض الوقت، أعلن الرسول فجأة الرحيل قبل مطلع الفجر، على غير العادة. وفي تلك اللحظة ابتعدت عائشة زوج الرسول عن الجيش لقضاء الحاجة (مع أن الوقت كان ليلا والظلام يلف المكان وكان بإمكانها أن تقضي حاجتها على بعد بضع خطوات دون أن يلاحظها أحد) لكن مختلق القصة أراد أن يقول إن الجيش أكمل شد الرحال وتحرك وغادر وابتعد لمسافة طويلة جدا لدرجة أن عائشة لم تتمكن من اللحاق بهم ولا من رفع صوتها بطلب التوقف. (مع أن قضاء الحاجة لا يستغرق سوى لحظات وشد الرحال يستغرق وقتاً أطول، كما أن مسير الجيش مرتبط بحركة الجمال التي تسير بتؤدة ويمكن اللحاق بها خلال وقت قصير). وتناسى مختلق القصة أنه لو أن عائشة أرادت الابتعاد لقضاء الحاجة فأول من يعلم هو الرسول وسيكون من الطبيعي الانتظار حتى تعود وتعتلي هودجها ليتحرك الجيش.

ويقول مختلق القصة إن صفوان ابن المعطل صادف أنه هو أيضاً قد تأخر عن الجيش. ولم يذكر مختلق القصة لماذا تأخر صفوان عن الجيش في نفس القصة؟ ولعل مختلق القصة تغافل عن ذكر سبب لتأخر صفوان عمداً ليوحي بسوء النية لمن يرغب في التفكير بمنكر حدث بين ابن المعطل وعائشة. وقد حاولت كتب التراث أن تقول إن الرسول قد أوكل له مهمة ساقة الجيش. أي أن يسير خلف الجيش ليلتقط ما قد يسقط من الركب من متاع في محاولة بائسة لسد ثغرات القصة المختلقة. واختلقت كتب التراث قصة أخرى لترقيع فجوات القصة المختلقة بقولهم إن ابن المعطل كان قد تأخر عن الجيش في عرس له. أي أنه تأخر ليدخل بعروسه. ولهذا قالوا إن الحملة كانت ضد بني المصطلق التي انتهت بسبي نسائهم وتوزيعها على المسلمين. ولذا فالقول إن ابن المعطل تأخر عن الجيش ليفتض بكارة السبي التي كانت من نصيبه.

المشكلة أن نفس كتب التراث – كالعادة – تأتي بالقصة وتأتي بقصة تناقضها، لذا فقد قالت كتب التراث إن ابن المعطل في قصة الإفك المفبركة قال: «والله ما كشفت كنف أنثى قط» وفي رواية «والله ما أصبت امرأة قط حلالاً ولا حراماً». فكيف يكون قد تأخر عن الجيش لأنه في عرس؟ وحتى لو لم يكن في عرس فلماذا تؤكد وتحلف أنك لم تقرب الحرام؟ هذا التأكيد يجلب الشك ولا يفيد النزاهة. (وبطبيعة الحال ابن المعطل بالفعل لم يكن في عرس

وقد لا يكون في الجيش أصلاً).

وتستمر قصة الإفك لتقول إن ابن المعطل رأى سواد إنسان نائم فعرف أنها عائشة؟ (كيف يرى سواد ويعرف أنها عائشة؟) وأن عائشة خمرت وجهها بجلبابها (لاحظ أن العبارة مأخوذة من تفسير آية سورة الأحزاب التي تقول: «وليضربن بخمرهن على جيوبهن» وأنها تعني تغطية الوجه. وهذا الفهم لم يكن موجودا زمن الرسول ولكنه عرف في عصور لاحقة.

ولن نواصل مع هذه القصة التي ينفي وجودها القرآن، لأن آيات سورة النور لم تنزل لتبرئة شخص كائناً من كان ولكنها تضع ضوابط وعقوبات للقضاء على ظاهرة فساد أخلاقي نشره منافقون رجعوا من حفر الخندق واستغلوا غياب الرجال فلاحقوا النساء ودخلوا البيوت كليا للفجور.

ولا وجود للقصة المختلقة بحق عائشة ولا للقصة المختلقة بحق الشخصية الخرافية المختلقة (مارية القبطية).

من هو ابن المعطل؟

تقول كتب الرجال إنه أسلم قبل معركة المريسيع. وهي غزوة تقول كتب التراث إن الرسول قام بها ضد بني المصطلق في السنة السادسة وهي غزوة مختلقة ولم تحدث. لأن الرسول لم يقم بأي غزوة إلا بعد نزول سورة براءة التي نزلت قبل وفاة الرسول بعام أو أقل. وكل غزوات الرسول كانت موجهة للقبائل التي عاونت قريشاً وأهل الطائف ضد المسلمين. ولم يكن فيها سبي ولا رق. وقول كتب التراث إن صفوان ابن المعطل أسلم قبل المعركة المزعومة لكي يقحم اسمه في القصة المكذوبة على عائشة.

ويكون تاريخ إعلانه الإسلام غير معروف. وبما أنه ليس من أهل المدينة ولا مكة فهو سلمي فالمؤكد أن إعلانه الإسلام كان في آخر عام من حياة الرسول وهو عام الوفود حيث تقاطرت وفود القبائل على المدينة لإعلان الدخول تحت حكم دولة المسلمين.

وما ورد في كتب التراث عن ابن المعطل ليس باهراً.

فقد روي أن امرأته اشتكته لأنه ضربها على قراءتها سورتين في صلاتها. وقالت تلك الكتب

إنه كشط جلدة رأس حسان ابن ثابت لأنه هجاه بأبيات شعرية. وقيل إنه ممن اتهم في الدخول على حجرات الرسول وأن الرسول قال: أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت عليهم إلا خيرا، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيرا، ولا يدخل بيتا من بيوتي إلا وهو معي» يعني صفوان بن المعطل.

وإن كان لهذا الخبر شيء من الصحة فقد يكون ابن المعطل ممن نزل بحقهم قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللهِ عَظِيمًا(٥٣) الأحزاب.

على كل حال صفوان ابن المعطل ليس له سمعة عطرة في كتب التراجم، ولا يعرف متى أعلن إسلامه كما أن تاريخ وفاته ليس متفقاً عليه. وهذا يعني أن اختياره لدور البطولة في الفيلم المفبرك ضد عائشة جاء لأنه يلائمه لأنه مجهول.

وهذه القصة المفبركة عن عائشة أضرت كثيراً بسمعتها لأنها صورتها بالفجور. ولو لم يقل عن عائشة إلا أنها عارضت تولي علي الحكم لما أضر بسمعتها، كما أضرت بها ما أوردته كتب التراث السني، ومن ذلك ما أورده البخاري في كتابه:

أم المؤمنين عائشة تتعرى أمام رجلين

يقول البخاري: حدَّثنا عبدُاللهَّ بنُ محمدٍ قال: حدَّثني عبدُ الصمدِ قال: حدَّثني شُعبةُ قال: حدَّثني أبو بكرِ بنِ حَفصٍ قال: سَمعتُ أَبا سَلَمَةَ يقولُ: دخلتُ أَنا وأخو عائشةَ عَلَى عائشةَ فسألها أخوها عن غُسلِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فدَعَتْ بإناءٍ نحوٍ من صاعٍ فاغتَسَلَتْ وأفاضَتْ على رأْسِها، وبَينَنا وبينَها حجاب.

مناقشة النص

إذا كان الحجاب ساتراً لا يرى من خلاله، فلا فائدة من غسلها، لأنها لن يريا كيفية الغسل.

وإن كان الحجاب شفافاً يرى من خلاله، فقد سمحت أم المؤمنين لأخيها ولرجل معه

بالنظر إلى ما حرم الله من جسدها.

فهل يؤخذ الدين بهذه الطريقة المثيرة للغرائز؟ أم أن من اختلق الحديث كان يهدف للنيل منها.

ولو أن الرجلين قد سألا أم المؤمنين بالفعل، فيكفي أن تشرح لهما طريقة الغسل بعباراتها دون الحاجة للتعري المخالف للحشمة والدين.

والحديث أورده البخاري لأنه يتناسب مع الباب الذي ورد فيه الحديث واسمه « الغسل بصاع ونحوه»، مع أن الغسل من الجنابة لا يحتاج لسؤال أم المؤمنين ولا حتى الرسول عنه، لأن الله قد طلب منا الغسل دون تحديد لكمية الماء أو كيفية غسل الأعضاء، لأن المفهوم العام هو الاستحمام الكامل، بحيث يغسل الجسم كله من أعلى الرأس إلى أسفل القدمين. وإن لم يتوفر الماء الكافي للغسل فقد شرع الله التيمم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً (النساء: ٤٣).

والصورة المخزية التي يقدمها الحديث ويمكن لأي شخص في العالم رسمها هي كما يلي:

رجلان يدلفان بيت عائشة، تستقبلهما باشة وتقول من أنتما فيقول أحدهما أنا أبن أختك من الرضاعة أبو سلمة، فيقول الآخر: يمكنك اعتباري أخاك من الرضاعة أيضاً.

فتقول ضاحكة: أهلا بأخي وابن خالتي.

ماذا تشربان؟

نبيذ لو سمحتِ!

تناولهما الكأسين وتجلس أمامهما، قائلة: والآن كيف أخدمكما؟

يجيب أبو سلمة: في الواقع لقد اختلفنا في كيفية الغسل فجئنا لترينا بطريقة عملية كيف يتم الغسل.

تتبسم وتقول: حالاً

تغيب للحظة وتعود وهي تحمل إناء فيه ماء ثم تأتي للمنطقة التي تسقط عليها أشعة الشمس

وعلقت قماشاً خفيفاً ثم خلعت ملابسها وهم يشاهدون ظلها على القماش. ودلقت الماء على رأسها وفركت بقية جسدها وهي تقول: هكذا كان يفعل رسول الله.

فهل يمكن لمسلم أن يصور أم المؤمنين بهذه الصورة التي لا يمكن أن تصدر من امرأة شريفة؟

وكتب الحديث والتفسير السنية مليئة بصور مخزية عن زوج الرسول، أسوأ بكثير مما تحويه كتب التراث الشيعي.

عائشة في القرآن

تقول كتب التراث إن عائشة تزوجها رسول الله في العام الهجري الثاني، ولابد أنه تزوجها قبل معركة أحد، لأن سورة آل عمران التي تتحدث عن معركة أحد تقول: وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١٢١).

وحينها لم يكن الرسول متزوجاً إلا بعائشة، فتكون آية سورة آل عمران هي أول آية في القرآن تشير لها.

وبعد سنوات تزوج خلالها الرسول بغير عائشة جاءت سورة التحريم التي تروي مشكلة عائلية بين الرسول وزوجاته وعائشة إحداهن: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ(٣) إِن تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ(٤) عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا(٥).

بعد ذلك نزلت سورة الأحزاب التي نزلت بعدما تسببت فئة من المنافقين والذين في قلوبهم مرض في ظاهرة عهر في المدينة، فنزلت سورتي الأحزاب والنور لوضع ضوابط للقضاء على تلك الظاهرة وتطهير المجتمع المسلم منها، وشملت توجيه نساء النبي بالتقيد بأعلى درجات الحذر والحيطة في تصرفاتهن لأن أي ريبة تحوم حولهن ستضر كثيراً بالرسول ودعوته.

وأول ما بدأت الآيات به هو تخيير نساء الرسول بين أن يتمتعن بمتع الدنيا ويطلقهن الرسول، أو يبقين معه على شظف العيش ويكون اهتمامهن بالدين وقراءة القرآن: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩).

وكل من يختار البقاء مع الرسول فعليها التقيد بضوابط صارمة لا تقبل بها إلا امرأة قوية الإيمان: يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤).

وبما أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يطلق أياً من نسائه اللاتي معه، فهذا يعني أنهن التزمن بأوامر الله لهن، واخترن الحياة مع الرسول والآخرة على متع الدنيا. فجاء القرآن ليكافئهن على هذا الاختيار، وذلك بتحريم تطليق الرسول لأي واحدة منهن أو الزواج بغيرهن عليهن: لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا (٥٢) الأحزاب.

وهذا يعني أن نساء النبي اللاتي كن معه عند نزول سورة الأحزاب قد رضي الله عنهن ورضين عنه. ولو كان فيهن ما يثير الريبة فسينزل القرآن بفضحهن، ولو خفي أمرهن على الرسول. لكن القرآن نزل يحرم على الرسول تطليق واحدة من هن، كشهادة بالنزاهة والعفاف والطهر لهن ورضى الله عنهن.

ولم يتوقف القرآن هنا بل أضاف فضيلة لنساء الرسول وعائشة إحداهن في سورة الأحزاب نفسها: النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي

الْكِتَابِ مَسْطُورًا(٦).

فالله جل وعلا علق على عائشة وبقية نساء الرسول نياشين إلهية تتمثل في اعتبارهن أمهات المؤمنين. وهذا اللقب لن يعطيه الله لامرأة سيئة في السلوك أو الإيمان.

الواقع

لو نظرنا للواقع بعيداً عن قصص كتب التراث المختلق فسنجد ما يلي:

الرسول عندما مرض المرض الذي توفي فيه، اختار أن يكون في حجرة عائشة.

وهذه شهادة وفاء ونزاهة وطهر ومحبة وتقوى لعائشة.

الرسول صلوات الله وسلامه عليه دفن في حجرة عائشة بناء على وصيته، وهي الحجرة التي ضمت معه فيها بعد أبا بكر وعمر دون بقية الناس الذين عاشوا زمن رسول الله.

وهي شهادة أخرى تؤكد الشهادة السابقة لعائشة.

كما أن دفن أبي بكر وعمر مع الرسول في نفس الحجرة شهادة ممن بقي من أتقياء الصحابة على فضلهما على رجال عصرهما.

والخلاصة: أن عائشة بنت أبي بكر الصديق تحمل شهادات من رب العالمين ومن رسوله الأمين. ولا أهمية لما قاله عنها أتباع الأهواء سواء كان لنقمتهم عليها من وقوفها ضد استيلاء علي ابن أبي طالب على الحكم، أو كان لمحاولتها فضح مخططات قريش للاستيلاء على حكم دولة المسلمين بعدما سكت الرجال وتواروا عن الأنظار مفضلين سلامتهم الشخصية على الصدع بالحق بدءً من حصار عثمان وقتله ومروراً بحروب علي على السلطة وانتهاء باستيلاء قريش إلى الحكم ممثلة بمعاوية.

وبما أن عائشة زوج للرسول فقد تجنبت قريش قتلها لئلا تثير عليها الرأي العام وتفسد خططها للاستيلاء على الحكم. فتحولوا لقتلها معنوياً. فلوثت سمعتها الطاهرة في كتب السنة، ونسب لها الكفر في كتب الشيعة.

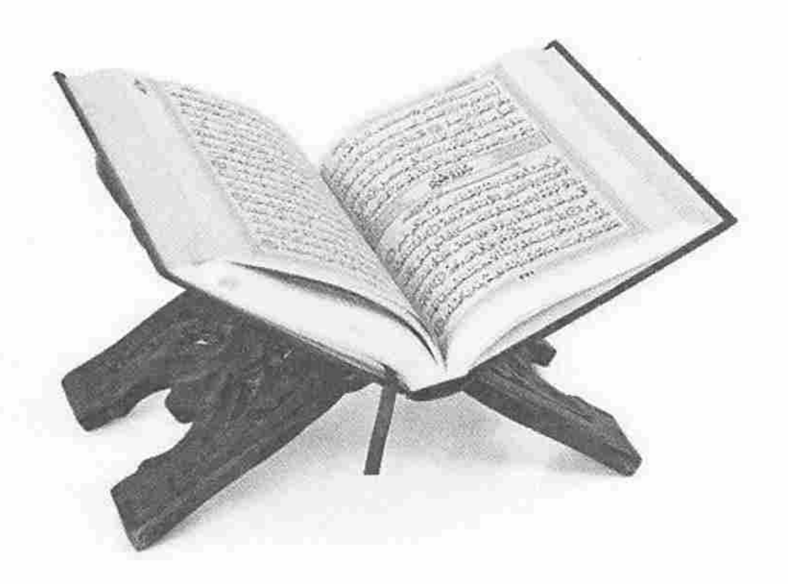
والسلام عليك يا أم المؤمنين.

ابن قرناس

الشرعة والمنهاج

نافذة للتعرف على الإسلام من مصدره

الجزء الثاني



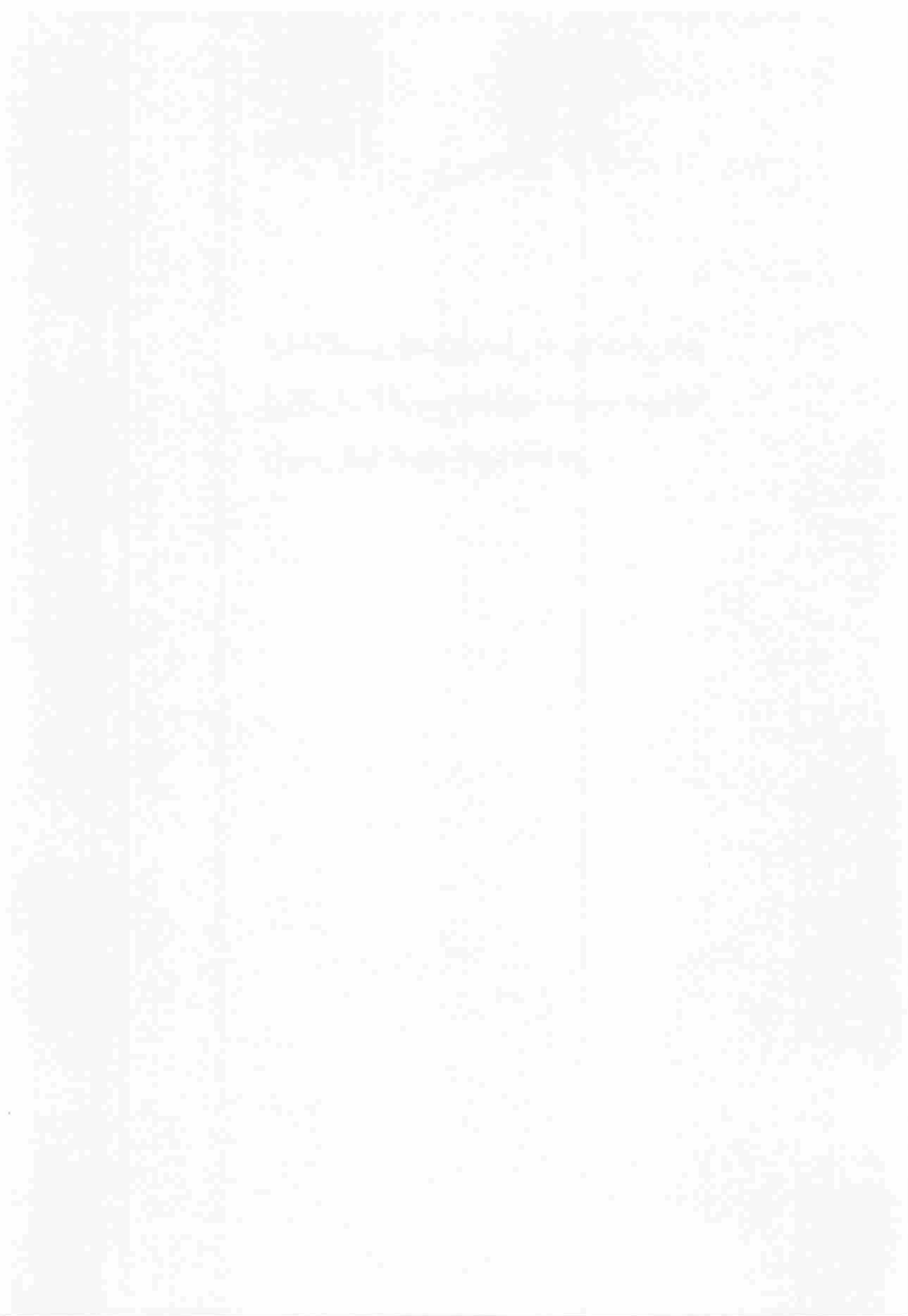
القسم الخامس

مفردات من القرآن

منشورات الجمل



هذا القسم يحتوي على مفردات وردت في القرآن الكريم ومعانيها حسب سياقها وليس كما تقول عنها المعاجم.



المحتويات



تمهيد

عند الحاجة لمعرفة معنى لفظ من الألفاظ فمن البديهي أن نبحث في المعاجم اللغوية، لكن هذا المنطق البديهي لا يمكن تطبيقه على المعاجم العربية المشهورة لكي نتبين معاني ألفاظ القرآن. ذلك أن ما تحويه المعاجم العربية القديمة المشهورة عبارة عن اقتباس لأقوال المفسرين لمعاني المفردات، وليست معاني مستقاة من مصادر موثوقة أو منقولة من العرب الذين نزل القرآن بينهم، أو أن من ألفها كان خبيراً لغوياً. فالذين ألفوا تلك المعاجم أشخاصٌ عاشوا ما بين أواخر القرن الرابع والقرن التاسع الهجري. أي في عصور متأخرة وبعيدة – في المكان والزمان – عن كتاب الله ومفرداته والحس اللغوي الذي كان سائداً في مكة ويثرب عندما نزل القرآن. وكل ما فعلوه هو تجميع معاني الألفاظ التي أوردها المفسرون في كتبهم، وهي معانٍ لا تستقيم مع دلالة اللفظ في السياق الذي ورد فيه الآيات، ولكنها تتفق مع تأويلات المفسرين لمعاني الآيات. وبالتالي فأي معنى نجده في هذه القواميس هو معنى مشكوك في صحته حتى يثبت العكس.

وفيما يلي أهم معاجم اللغة ونبذة عن مؤلفيها:

- لسان العرب لابن منظور الأمازيغي. ولد في قفصة / تونس عام ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢، وتوفي في مصر عام ٧١١ هـ/ ١٣١١ م.
- مقاييس اللغة لابن فارس القزويني الرازي، المتوفى عام ٣٩٥ هـ/ ١٠٠٤م.
- تاج اللغة وصحاح العربية لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، المتوفى عام ٣٩٣ هـ / ١٠٠٢م.

- العباب الزاخر في اللغة، ألفه الحسن بن محمد الصغاني، المولود في لاهور عام ٥٧٧ هـ / الموافق ١١٨١م، والمتوفى عام ٦٣٧ هـ / الموافق ١٢٤١م.
- القاموس المحيط، ألفه محمد ابن يعقوب الفيروزآبادي، المولود بكازرون - بلدة بفارس - عام ٧٢٩ هـ/ الموافق ١٣٢٩م، وتوفي عام ٨١٧ هـ/ الموافق ١٤١٤م.

والمفسرون أناس مثل قتادة والزهري وابن جريج وأمثالهم، عاشوا في بيئات بعيدة في الزمان والثقافة واللغة والمفردات عن زمان وثقافة ولغة ومفردات مكة ويثرب في عصر الرسول. والتعريف الذي يقدمه هؤلاء هو مجرد ظن وتصور لا يعتمد على أسس أو مصادر، أو حتى خلفية لغوية. ومع ذلك اعتبر تعريفهم للألفاظ هو الصحيح، حتى ولو قالوا إن لفظ الرحمن عبري، والقرآن سرياني، لضحالة معرفتهم اللغوية وتأثرهم بالعجمة التي كانت سائدة في عصورهم.

ويضاف لهذا عاملٌ هامٌ آخر يتمثل في جرأتهم على تأويل الآيات لمعان لم يقل بها القرآن ولو تعارض مع سياق الآية، فجاءت تعريفاتهم للألفاظ لتتفق مع ما يريدون قوله ولو أخرجوا اللفظ عن معناه. ومن يتجرأ على تحريف كلام الله فمن السهل عليه أن يضع للفظ معنى لا صلة له به. لذا فمعاني الألفاظ في المعاجم وفي كتب التفسير المشهورة ليست بالضرورة صحيحة، بل هي في الغالب غير صحيحة، ولو ورد تعريف صحيح فهو استثناء. لذا سنقوم في هذا القسم بتحري معنى اللفظ من سياق الآيات التي ذكر فيها وإهمال ما ذكرته المعاجم والمفسرون.

فمثلاً لفظ «قطمير» ورد مرة واحدة في كتاب الله: يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ(١٣) فاطر.

والحديث موجه لقريش التي تعبد أصناماً من جماد لا تشعر ولا تنفع ولا تضر، ولا تملك شيئاً، بينما يدعوهم الرسول أن يعبدوا الله خالق الأرض التي يعشون عليها وكل كائن حي من حيوان ونبات وحشرات وهو سبحانه خالق الكون كله وما فيه من حياة وكواكب وشموس ومجرات وعوالم وهو القادر على كل شيء. ولا مجال لمقارنة معبود قريش بالله العظيم. والقارئ الذي لا يعرف معنى «قطمير» لو انتبه إلى أن اللفظ جاء في سياق يقول

إن الله يملك كل شيء وخالق كل شيء، بينما الأصنام لا تملك ولا تخلق شيئاً مهما بلغ من الحقارة والصغر. فسيعرف أن «قطمير" تعني شيئاً في منتهى الحقارة والصغر، وهذا التعريف كافٍ دون الحاجة لأن يقرأ أن بعض المفسرين قالوا إنه القشرة الشفافة الخفيفة التي تحيط بنواة التمر، وقال آخرون هو الأثر على النواة، وقال غيرهم غير ما قالوا. فالقارئ العادي يهمه أن يعرف المقصود بإيراد اللفظ في الآية والذي يدل على حقارته، وهو ما يمكن فهمه من سياق الآية ومعرفة من تخاطب.

وبيان مفردات القرآن يكون لمعناها الذي ورد في الآية ويتفق مع السياق، وليس البحث لغوياً عن اللفظ وسرد معانيه الغريبة والشاذة التي أوردها المفسرون، فهذا لا يهم القارئ ولا يعينه على فهم اللفظ كما ورد في الآية.

فالغرفة مثلاً وردت في القرآن مرة واحدة وفي سورة الفرقان. واللفظ في القاموس له عدة معانٍ، منها ما هو مشهور ومعروف ومنها غريب شاذ، ومن المعروف: الغُرْفة هي العِلِّيَّة، والجمع غُرُفات وغُرَفات وغُرْفات وغُرَف، أي الحجرة.

وقد جاءت الغرفة في سورة الفرقان بمعنى الجنة: وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤)أُولَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا (٧٥)خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) الفرقان.

وقد عرفنا أن الغرفة هنا تعني الجنة بالسياق، برغم أن الغرفة لا تأتي بمعنى الجنة عادة.

وتقول سورة الذاريات: وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً(١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً(٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً(٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً(٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ(٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ(٦).

فالدين هنا بمعنى القيامة، وليس من الديانة والمعتقد. لأنه ورد في هذه الآيات لتأكيد وقوعه لقريش التي تنكر البعث والقيامة.

ولأنه ورد في القرآن وفي عدة سور «يوم الدين» بمعنى يوم القيامة، ومن ذلك: فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) الصافات.

مثال آخر: تقول سورة السجدة: وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ(١٠).

والحديث عن قريش التي تنكر البعض، وقد عبرت الآية بـ « ضللنا» ليس بمعنى الضياع والتيه، ولكن تعني تحللت أجسادنا. وهذا الفهم «لضللنا» بمعنى اندثرنا وتحللنا، من السياق وليس من معاجم اللغة.

ومثله: وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ(٢٩) السجدة.

المخاطب قريش، والسياق يخبرنا أنه إذا جاء «يوم الفتح» ستندم قريش التي تسأل بسخرية.

وهناك عديد من الآيات كررت سؤال قريش الساخر هذا وتأتي الآيات لتؤكد أنها ستندم. والآيات استخدمت عبارة: «هذا الوعد» في سورة الملك: ٢٥، يس: ٤٨، سبأ: ٢٩، السجدة: ٢٨، النمل: ٧١ وغيرها.

وقريش تنكر البعث واستمرت تسأل الرسول عن موعده، فيكون الفتح الذي تسأل عنه قريش والذي إذا ما جاء ستندم، هو الوعد، وهو يوم القيامة.

وليس يوم الفتح بمعنى يوم النصر والسرور كما ورد في قله تعالى: إذا جاء نصر الله والفتح (١) النصر.

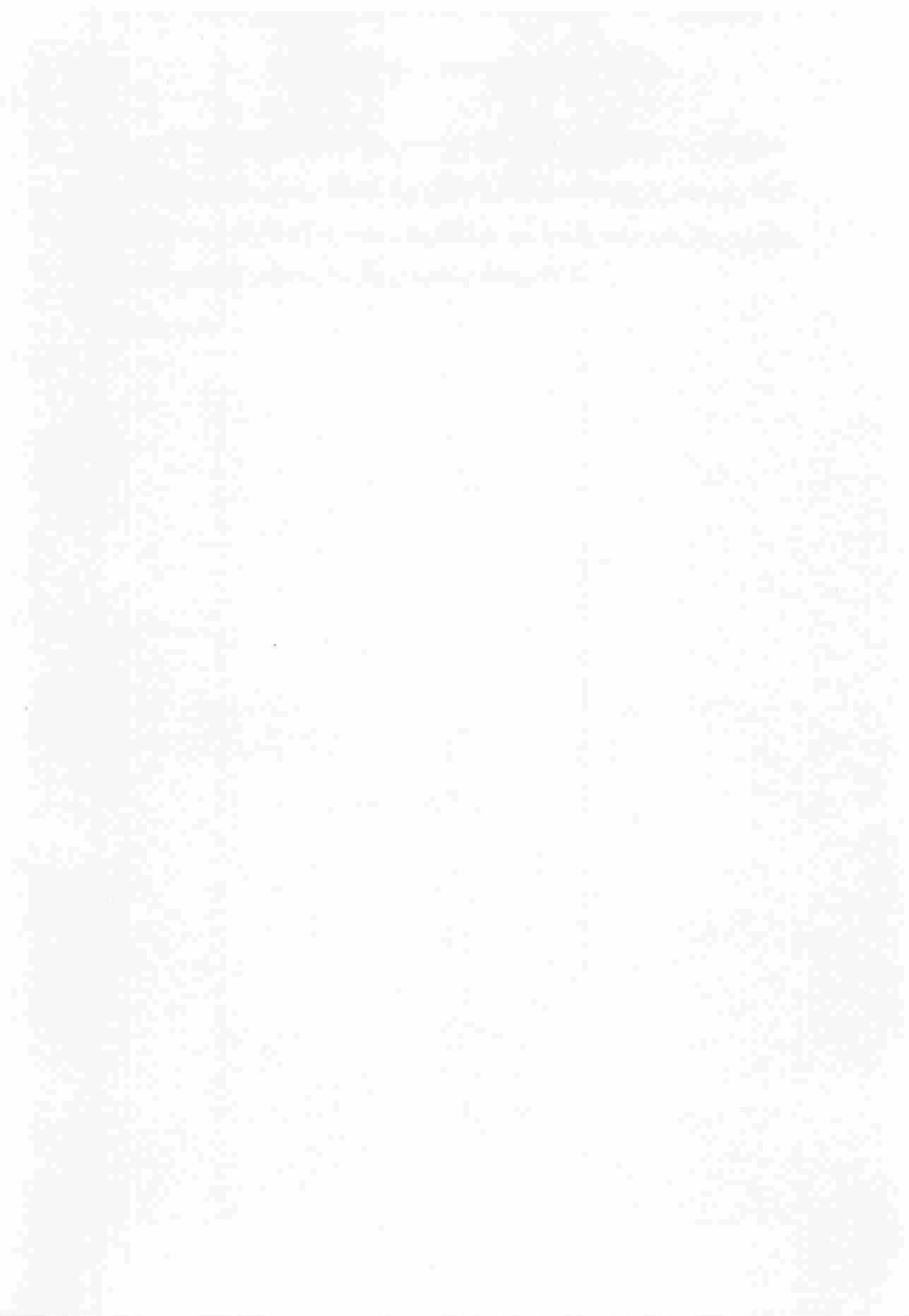
وبناءً على ما تقدم يمكن القول إن الكلمة في القرآن يعرف معناها من سياقها الذي جاءت فيه وليس ما تعنيه في قواميس اللغة. واعتماد السياق في التعرف على المعنى الحقيقي للفظ في الآية، قاعدة عملية صائبة. فمن يرغب بتعلم لغة أجنبية يسمح له في البداية بالرجوع للقاموس باللغتين العربية والأجنبية، لكي يتعرف على معنى اللفظ الذي لم يعرف معناه. ثم في مرحلة لاحقة من برنامج التعلم، يسمح له اللجوء للقاموس باللغة الأجنبية فقط، ليقرأ معنى اللفظ بتلك اللغة، ولا يسمح له الرجوع إلى قاموس عربي - أجنبي. وعندما يصل لمرحة متقدمة من تعلم اللغة، يمنع من استخدام أي قاموس، حتى ولو كان باللغة الأجنبية، وعليه أن يعتمد كلياً على سياق الجملة ليتعرف على معنى أي لفظ لا يعرف معناه.

وإن كان المقام يسمح بذكر توصية فستكون بالتشديد على إعادة كتابة معاني الألفاظ العربية وحصرها بطريقة أكثر دقة بعيداً عن تخاريف مفسرٍ، أو شعرٍ مختلق. والاعتماد على القرآن كمصدر رئيسي للتعريف بكل الألفاظ التي وردت فيه. ولا بأس من الاستفادة من تجارب الأمم المتقدمة في صناعة القواميس، كالإنجليزية مثلاً التي تضخمت وتوسعت وأصبحت

قواميسها لا تقارن بقواميس اللغة العربية، مع أن العربية أغنى منها بالمفردات والعبارات.

وفي هذا القسم سنمر ببعض الألفاظ التي وردت في كتاب الله، للتدليل على أن معاني ألفاظ القرآن تؤخذ من القرآن ولا تؤخذ من كتب التراث. وما لم يذكر هنا - وهو كثير - يمكن للقراء التعرف على معانيه من السياق ومعرفة من تخاطب الآية.

وبالله التوفيق.



الرحمن

لفظ فريد من نوعه. فهو اسم للخالق مع اسم الجلاله المعروف «الله»، وفي نفس الوقت صفة لله لا تجوز لغيره. وكل ما يسمى في القرآن بأسماء الله الحسنى هي – حسب مفهومنا في هذا العصر – صفات له سبحانه وليست أسماء: هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢٤) الحشر.

الرحمن كإسم لله

هناك الكثير من الآيات التي تذكر «الرحمن» كاسم لله، ومن ذلك: قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيّاً مَّا تدعو فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً(١١٠) بني إسرائيل.

ومثلها: يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً(٤٥) مريم.

وهذا مماثل لقوله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ(٤٧) الأنعام.

ويقول تعالى: جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً(٦١) مريم.

وهو مماثل لقوله تعالى: وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً(١٢٢) النساء.

ويقول تعالى: يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً(٨٥) مريم.

وهو مماثل لقوله تعالى: وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ(١٥٨) آل عمران.

ويقول تعالى: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً(٨٨) مريم.

وهو مماثل لقوله تعالى: وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ(١١٦) البقرة.

وقوله تعالى: مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ(٣٣) ق.

وهو مماثل لقوله تعالى: الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً(٣٩) الأحزاب.

فالله اسم للخالق، وليس صفة له سبحانه، والرحمن اسم لله جل وعلا، كما في قوله تعالى: قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ(٤٢) الأنبياء.

ولو كان لله جل وعلا اسم أعظم كما تزعم كتب التراث أو أي اسم آخر غير الله والرحمن لذكره القرآن.

الرحمن صفة له سبحانه

فالله جل شأنه هو الرحمن لذاته، وهو سبحانه مصدرُ الرحمة. أي أن الله تبارك وتعالى من صفاته أنه (رحمن) أي مصدرٌ للرحمة. إضافة إلى أنه رحيم لغيره. فهو رحمن رحيم. وهذا الوصف (رحمن) لا يختص به سواه سبحانه، فليس هناك من هو مصدر للرحمة سواه جل وعلا. لكن الله رحيم، وهناك من هو رحيم من خلقه، وهو سبحانه كريم، وهناك من هو كريم من خلقه، والله جل شأنه عليم، وهناك من هو عليم من خلقه، ولو بقدر لا يضاهي ما لله جل وعلا.

ولفظ "الرحمن" حصل حوله جدل ولغط كثير، بدأه المفسرون ونشره المستشرقون، وتلقفه منهم البعض ممن لم يكلف نفسه عناء البحث واكتفى بتبني ما يقولون. ومما قال ثيودور نولدكه، صاحب كتاب تاريخ القرآن: إن الرحمن اسم صفة لله أصلها عبري «رحمانا». ويقول:" ربما كان محمد يريد أن يستخدم الرحمن بدل الله لأن المشركين يستخدمون لفظ الله".

و(ربما) نولدكه بُني عليها كتب ومقالات، كما "الربما" الكثيرة غيرها التي يستخدمها

المستشرقون الذين يأتون بظنون يعبرون عنها (بربما) ثم يبنون عليها استنتاجات يسوقون لها على أنها حقائق، وليست مجرد ظنون.

والمستشرقون - كالعادة - تبنوا كلام المفسرين، عندما قالوا إن الرسول محمد استعار لفظ (الرحمن) من مسيلمة الكذاب، الذي يزعم المفسرون أنه (قد يكون) يسمى رحمن اليمامة. وهذا بعض ما قالوا:

يقول الطبري في قوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُواْ لِلرَّحْمَـنِ قَالُواْ وَمَا الرَّحْمَـنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً(٦٠) الفرقان.

"يقول تعالى ذكره: وإذا قيل لهؤلاء الذين يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرّهم: اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ: أي اجعلوا سجودكم لله خالصا دون الآلهة والأوثان، قالوا: أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا.

واختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قرّاء المدينة والبصرة: لِمَا تَأْمُرُنا بمعنى: أنسجد نحن يا محمد لما تأمرنا أنت أن نسجد له؟ وقرأته عامة قرّاء الكوفة: «لِمَا يَأْمُرُنا» بالياء، بمعنى: أنسجد لما يأمر الرحمن؟ وذكر بعضهم أن مُسيلمة كان يُدعى الرحمن، فلما قال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم: اسجدوا للرحمن، قالوا: أنسجد لما يأمرنا رحمن اليمامة؟ يعنون مُسَيلمة بالسجود له".

ويقول القرطبي: "وقال أكثر العلماء: كان ذكر الرحمن في القرآن قليلاً في أوّل ما أنزل، فلما أسلم عبد الله بن سَلاَم وأصحابه ساءهم قلة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة؛ فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك؛ فأنزل الله تعالى: (قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيّاً مَّا تدعو فَلَهُ الأَسْمَاءَ الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً) (بني إسرائيل: ١١٠) فقالت قريش: ما بال محمد يدعو إلى إله واحد فأصبح اليوم يدعو إلهين، الله والرحمنْ والله ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، يعنون مُسَيْلِمَة الكذّاب؛ فنزلت: (وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَـذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَـنِ هُمْ كَافِرُونَ) (الأنبياء: ٣٦) .." انتهى

ويمكن للقراء ملاحظة أن المفسرين يقومون باختلاق القصص بعد أن يقرأوا الآيات، لكي تبدو وكأنها أسباب نزول للآيات. وإلا فسورتا بني إسرائيل والأنبياء من السور المكية

وقبل الهجرة وابن سلام أعلن إسلامه بعد الهجرة. وهذا يؤكد أن الآيات لا علاقة لها بتخاريف المفسرين الذين لم يفهموا القرآن ولا يعيرو انتباههم لفهمه أي أهمية.

وقوله تعالى على لسان قريش: «قالوا وما الرحمن؟» لا تعني أنهم لا يعرفون «الرحمن» ولكنه تساؤل مشابه لتساؤل قريش عن الساعة في قوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهَّ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ(٣٢) الجاثية.

وقريش تعرف معنى الساعة والقيامة ويوم البعث، لكنها لا تؤمن بحدوثها، ولهذا جاء التساؤل الإنكاري في الآية. فهو إنكار لوقوع الساعة وليس إنكاراً لمعنى الساعة. كما هو الحال بالنسبة لآية الفرقان. فإنكار قريش لعبادة الرحمن وحده وليس إنكاراً للفظ الرحمن ومعناه الذي يعرفون. والدليل قوله تعالى: وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ(٣٦) الأنبياء.

لكن ما قاله المفسرون من تخاريف هو ما رسخ وفرح به المستشرقون. بل إن ترجمة «الرحمن» إلى اللغات الأجنبية جاءت تبعاً لذلك، بشكل خاطئ. فهي تترجم للإنجليزية في المصحف بهذه الصيغة: The Beneficent وهي تعني الخيِّر الرحيم المحسن المنّان. وأحياناً تترجم بهذه الصيغة: Most Gracious وهي تعني الرؤوف، الكريم، اللطيف. وأحياناً تترجم الرحمن بهذه الصيغة: The Entirely Merciful والتي تعني الرحيم المثالي.

وكان يجب أن تترجم "الرحمن" كما هو معناها في القرآن «مصدر الرحمة»، ولو لم تكن لفظاً واحداً، كأن يقال: The Source of Mercy وذلك في الآيات التي تأتي فيها الرحمن كصفة. بينما تبقى بلا ترجمة في الآيات التي تأتي فيها الرحمن كاسم لله، وتكتب بالأجنبية كما تلفظ بالعربي: Ar-Rahman لأن الأعلام لا تترجم.

والرحمن لفظ معروف منذ القدم عند العرب، وهناك «صحابة» سموا أو سمي آباءهم عبد الرحمن، مثل: ثعلبة بن عبد الرحمن الأنصاري، عبد الرحمن بن أزهر بن عوف (ابن عم أو ابن أخي عبد الرحمن ابن عوف المشهور) عبد الرحمن بن أمية بن أبي عبيدة بن همام التيمي حليف قريش، عبد الرحمن بن بديل بن ورقاء الخزاعي، عبد الرحمن بن جابر العبدي أحد من كان مع وفد عبد القيس، عبد الرحمن بن سمرة وكثيرون غيرهم.

كما ورد اسم الرحمن في الشعر، ومن ذلك، قول بيت منسوب لسلامة بن جندل الطهوي

في الجاهلية:

عجلتم علينا إذ عجلنا عليكم ... وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق

وبيت منسوب لامرؤ القيس:

تِلْكَ السّحابُ إذا الرّحَمنُ أرْسلَهَا ... رَوّى بها مِنْ مُحُولِ الأرْضِ أيباسَا

وآخر لأمية ابن الصلت:

منهم رجال على الرحمن رزقهمُ ... مكفَّرٌ عنهم الأخباثُ والوَزَرُ

وقول الأعشى:

وإنّ تُقَى الرّحْمَنِ لا شَيْءَ مِثْلُه ... فصَبْراً إذا تَلقَى السِّحاقَ الغَرَاثِيَا

وقول أبي طالب القرشي، عم الرسول:

إلى الرحمنِ والكرم استَذَمُّوا ... وكلُّ فَعالِهِم دَنِسٌ ذَميمُ

وقول كعب ابن زهير:

فقلت خلوا سبيلي لا أبا لكم ... فكل ما قدر الرحمن مفعول

وورد لفظ "الرحمن" في النقش السبأي الذي عثر عليه قرب آبار مريغان القريبة من تثليث[1] في العام ١٩٥١ وإحداثيات الموقع كما يلي: N19,543923 E43,7935209 أثناء رحلة كشفية مكونة من ثلاثة أجانب هم ريكمنس الفرنسي G.Ryckmans الذي اكتشف النقش، وشخص آخر اسمه ليبنز Lippiens وقادها العميل الاستخباراتي البريطاني الشيخ عبدالله فيلبي أو هاري سينت جون بريج فيلبي Harry St. John Bridger Phillby وهو نقش يعود لما قبل ولادة الرسول عليه الصلاة والسلام، وكتبه أحد الجنود لتخليد غزوة أبرهة وهم في طريق العودة بعد تأديب بعض القبائل العربية في وادي ذي مرخ قرب الطائف وفي حلبان، ويبدأ النقش بما يلي:

"بخيل الرحمن ومسيحه الملك أبرهة زيبمان ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات".

فالرحمن اسم لله وصفة من صفاته سبحانه معروف قبل الإسلام ومنذ القدم، ولا غرابة لو

---

١ تثليث بلدة قديمة جداً، كانت من القرى الظاهرة التي يمر بقربها طريق القوافل التي تحمل البخور واللبان والبهارات من قرب بحر العرب جنوباً إلى غزة وبصرى الشام ومنها إلى روما وأوروبا. وهذه إحداثياتها: N19,530242 E43,507490

ورد في كتب بني إسرائيل - إن كان قد ورد - لأنهم في الأصل عرب، نزلت عليهم توراة عربية[٢]. ولا أهمية لكلام المستشرقين الذين يقولون بأن الرحمن لفظ عبري في الأصل، لأن العبرية لغة هجين تولدت بعد أن فقد بنو إسرائيل لغتهم العربية بسبب هجراتهم واستيطانهم في بلاد أجنبية خارج الجزيرة العربية، وليست سابقة للعربية في الوجود، بخلاف زعم علماء اللغات الغربيين المتأثرين بثقافة اليهود والذين يحاولن ترسيخ أن العبرية هي أصل لغات جزيرة العرب.

٢ وهو ما سيتأكد للقارئ عند الحديث عن بني إسرائيل أثناء تدبر السور.

القرآن

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) الجن.

افتتاح سورة الجن تعطي أوضح تعريف، وماذا يعني اللفظ «قرآن».

الجن سمعوا قرآناً، فما الذي سمعوه؟

سمعوا الرسول يتلو نصوصاً على جمع من قريش، وهذه النصوص عبارة عن آيات تتكون منها السور. والرسول لم يكن ممسكاً بصحيفة ويقرأ منها، ولكنه كان يتلو القرآن عن ظهر قلب، وكأنه يقرأ من صحيفة منشورة أمامه. فهو قرآن لأنه يتلى مشافهة ولا يقرأ من صحف مكتوبة. وليس لفظاً سريانياً، كما روج المستشرق الألماني نولدكه (Theodor Nöldeke) في كتابه: تاريخ القرآن (Geschichte des Qorans) وتبعه المستشرق الألماني الآخر شفالي (F. Schwally) بافتراض أن أصل كلمة (قرآن) هو كلمة قِريانا (qeryānā) السريانية بعدما تعسف في تصريفها. فأصبح هذا الزعم المفترض حقيقة لا تقبل الجدل عند المستشرقين، معتبرين أن السريانية والعبرية يسبقان العربية، وهذا زعم متحامل ينفيه الواقع وعلوم اللغة، التي تظهر أن التصريف اللغوي في اللغتين كان من العربية وليس سابقاً لها[٣].

مَلِكِ يوم الدين

البعض يقرأها «مالك يوم الدين» والله جل وعلا مالك كل شيء، لكنه وحده سبحانه هو ملك يوم الدين والمتحكم فيه. والفاتحة أول سورة نزلت على رسول الله محمد في دعوته الموجهة لقريش التي تنكر البعث ويوم الدين. وقد أكدت عدة آيات أن الله جل شأنه هو وحده ملك يوم الدين، منها: يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) غافر.

وقوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣) الأنعام.

---

٣ هناك بحث دقيق في هذا الموضوع كتبه: د. أحمد محمد علي الجمل، بعنوان: القرآن ولغة السريان. ونشر في مجلة اللغات والترجمة - جامعة الأزهر، عدد (٤٢) لعام ٢٠٠٧.

وقوله تعالى: الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ(٥٦) الحج.

وقوله تعالى: الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً(٢٦) الفرقان.

ولم يرد في القرآن عبارة: «مالك يوم الدين» أو أي عبارة تقول إن الله هو مالك يوم الدين أبداً.

العالمين

تم إحصاء (٦١) مرة ورد فيها ذكر «العالمين» في القرآن، إضافة إلى (١٣) مرة تكرر لفظ «للعالمين». بعضها يعني الناس ككل، وبعضها يعني أهل بقعة في زمان ومكان محدد، وليس كل الناس على الأرض، وفيما يلي مثال على المعنيين:

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ(٨٧) ص.

والآية تتحدث عن الوحي الذي يتلو الرسول محمد على الناس، وهو القرآن. وتصفه الآية بأنه ذكر لكل الناس (في كل زمان ومكان).

وفي كل مرة يرد لفظ «على العالمين» ضمن الحديث عن بني إسرائيل فهو يعني من حولهم من الناس في وقت معين، ولا يعني كل الناس في كل زمان ومكان، ومن ذلك: وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) الجاثية.

الصراط

اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ(٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ(٧) الفاتحة.

برغم أن المفسرين ذكروا في كتبهم بعض الأقوال التي تؤكد أن الصراط المستقيم هو الطريق القويم أي الدين الصحيح، وهو كذلك، إلا أنهم نقلوا أيضاً أقوالاً خرافية عن معنى الصراط، أخذها البعض على أنها حق. والتي تصور الصراط على أنه جسر معلق فوق جهنم يوم القيامة. وهو أدق من الشعرة وأحد من السيف، وعليه كلاليب مثل شوك

السعدان، وعلى الناس عبوره، فمن تجاوزه دخل الجنة وإلا سقط في جهنم. ووصف هذا الجسر «الصراط» ورد ليس فقط في كتب التفسير بل وفي أحاديث في البخاري ومسلم ومسند أحمد وغيرهم.

وهذا من تخاريف المفسرين، الذي اقتبسوه من الزرادشتية. فعند الديانة الزرادشتية سيكون هناك جسر يمر عليه كل من يموت. فإن كان صالحاً اتسع الجسر ومر بسلام، وإن كان ضالاً ضاق عليه الجسر ويخرج له شيطان يسحبه للجحيم معه.

المغضوب عليهم والضالون

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ(٧) الفاتحة.

نجد في كتب التفسير أن المعنيُ «بالمغضوب عليهم» هم اليهود، وأن الضالين هم النصارى. واليهود والنصارى بعد بعثة محمد ضالون لأنهم لم يتبعوا دين الله الحق الإسلام، ومن يضل عن دين الله مختاراً، فقد غضب الله عليه، لكن هذه الآية لا تتحدث عنهم.

لأن سورة الفاتحة أول سورة نزلت على رسول الله، كواحدة من السور التي تُعَرِّفُهُ وقريش، أنه قد تم اختياره ليكون رسولاً لله، وذلك قبل أن يؤمر بالبدء بالدعوة فعلياً. لذا فعند نزول الفاتحة لم يحن الحديث عن الكفار، سواء كانوا مشركي قريش - الذين بعث فيهم الرسول - أو يهود ونصارى يثرب الذين لن يخاطبهم القرآن إلا بعد سنين من بدء الدعوة. لأن الرسول سيستمر في دعوة قريش خاصة من دون الناس، في سنواته الأولى من البعثة، قبل أن يتحول الخطاب في القرآن لدعوة كل الناس بدءً من سورة ص. وبالتالي فليس من المعقول أن يبدأ الوحي بمهاجمة اليهود والنصارى قبل أن يوجه لهم الدعوة للدخول في الإسلام.

والقرآن دعا الناس أولاً، واستمر يدعو، حتى أعلن الناس أنهم لن يؤمنوا مهما دعوا، فبدأ القرآن يصفهم بالكفار والمشركين أو المغضوب عليهم أو الضالين أو غير ذلك.

ودعوة بني إسرائيل يثرب - بما فيهم اليهود والنصارى - بدأت قبل الهجرة والرسول في مكة، لكن القرآن لم يصف اليهود بالمغضوب عليهم إلا في السور المدنية، بعد أن أعلنوا موقفهم الرافض للإسلام. ومن السور التي وصفتهم بالمغضوب عليهم، البقرة في الآية:

٦١، ٩٠، وفي الآية: ٦٠ من سورة المائدة، وسور أخرى بعد ذلك.

والمغضوب عليهم ليسوا فقط اليهود أو بني إسرائيل، بل كل من شاق الله ودينه فقد غضب الله عليه ولعنه، ومن ذلك، أن من يقتل مؤمناً متعمداً فهو من المغضوب عليهم: وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً(٩٣) النساء.

ومن يهرب من المعركة من المسلمين فهو من المغضوب عليهم: وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(١٦) الأنفال.

ومن ارتد من المسلمين: مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٠٦) النحل.

والمنافقون والمشركون من المغضوب عليهم: وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً(٦) الفتح.

كما أن الضالين ليسوا فقط نصارى يثرب، بل هم كل من ضل عن دين الله الحق:

فكل من لا يؤمن بالإسلام فهو ضال: وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ(٩٢) النمل.

ومن لا يؤمن بالرسول محمد، ودين الإسلام: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً(١٣٦) النساء.

ومن يبدل الإيمان بالكفر: أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ(١٠٨) البقرة.

ومن يشرك بالله: إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً(١١٦) النساء.

وكل من خالف القرآن: إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن

ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ(٤١) الزمر.

المفسرون - كالعادة - أولوا كلام الله لغير معناه، بقولهم إن المقصود بالمغضوب عليهم والضالين الوارد في سورة الفاتحة هم اليهود والنصارى. وقد استدلوا في قولهم هذا بحديث منسوب لعدي ابن حاتم، ورد في كتب الحديث، بعدة صيغ، منها: حدثني أحمد بن الوليد الرملي، قال: حدثنا عبد الله بن جعفر الرقي، قال: حدثنا سفيان بن عيينة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، عن عديّ بن حاتم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الـمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ: اليَهُودُ».

وعدي ابن حاتم أعلن الإسلام في عام الوفود، أي قبل عام واحد من وفاة رسول الله. وحتى لو كان قد أعلن إسلامه قبل ذلك - كما تقول بعض الروايات - فهذا لا يعني أن الناس طوال فترة دعوة رسول الله لم يعرفوا المقصود بآية سورة الفاتحة إلا بعد أن أسلم عدي.

ولعل الحديث المنسوب لعدي هو كما ورد في إحدى رواياته التي تقول: حدثنا حميد بن مسعدة الشامي، قال: حدثنا بشر بن المفضل، قال: حدثنا الجريري عن عبد الله بن شقيق: أن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محاصرٌ وادي القرى فقال: من هؤلاء الذين تحاصر يا رسول الله؟ قال: «هَولاءِ الـمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ: اليَهُودُ».

والرسول عليه الصلاة والسلام لم يحاصر يهود وادي القرى (العلا الحالية). لذا فقد يكون عدي ابن حاتم حضر للمدينة في وقت كان الرسول يحاصر قوماً من بني إسرائيل يثرب، الذين ذكر ما حدث لهم القرآن، فسأل عنهم الرسول فجاء الجواب: بأنهم المغضوب عليهم.

وهناك قبيلتان من بني إسرائيل يثرب خانوا معاهداتهم مع المسلمين وتعاونوا مع قريش وغيرهم من أعداء الإسلام للقضاء على المسلمين، مما تسبب في حصارهم وطردهم من يثرب. وقد حدثتنا سورة الحشر عن إحدى الواقعتين في قوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ(٢).

وهذه الحادثة وقعت قبل وفاة الرسول بنحو عام. أما الحادثة الأولى فوقعت بعيد موقعة

الأحزاب وحدثتنا عنها سورة الأحزاب: وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧).

وكان هذا في السنة الرابعة على الأرجح أو السنة الخامسة كما تقول كتب التراث.

وعليه فلا علاقة لهذه الرواية - لو صحت - بسورة الفاتحة، لأن الرسول هنا ينعت بني إسرائيل - المحاصرين لحظة وصول عدي - بما نعتهم به القرآن بعد أن أعلنوا رفضهم التام لقبول دعوة الإسلام، بل وكادوا المكائد للإسلام وأهله. ومكائدهم كانت السبب وراء إجلائهم من يثرب، والذي يبدو أن عدي ابن حاتم قد شهده عند حضوره للمدينة لمقابلة الرسول. وبالتالي فهم من المغضوب عليهم وليسوا هم فقط المغضوب عليهم.

ويبدو أن المفسرين التقطوا الرواية وأضافوها كتفسير لآية سورة الفاتحة ثم أضافوا لها أن الضالين تعني النصارى، كون الحديث عن اليهود يقترن عادة بالنصارى.

تضليل

تضليل في قوله: أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ(٢) يسهل فهم أنها لا تعني الضلال. لأن أصحاب الفيل كان كيدهم (مخططهم) دخول مكة وتخريب البيت، فجعل الله كيدهم في نحورهم. والآية تستخدم لفظ «تضليل» للوصول لهذا المعنى، فكيدهم في تضليل تعني في خسران. لأن مخططهم (كيدهم) فشل ولم يتمكنوا من تحقيق ما قدموا من أجله وتخريب البيت. فتضليل جاءت للتعبير عن الخسران والفشل، وليس لها علاقة بالضلال.

طيراً أبابيل

تأول المفسرون معنى طيراً أبابيل، إلى طيور حقيقية تحمل حجارة وتلاحق رجال جيش أبرهة وترميهم بحجارة تحملها بين رجليها ومناقيرها. وهذا تفكير سطحي، يتناسب مع مدارك المفسرين، الذين يؤمنون بالخوارق وتصوروا أن هناك طيوراً جاءت من خارج الأرض لا تؤثر فيها حرارة الحجارة التي تحملها والتي إذا ألقيت على رجل من جيش أبرهة اخترقت رأسه وخرجت من دبره، كما تخيلوا وزعموا.

وما حدث لأصحاب الفيل لم تقم به طيورٌ خاصة نزلت على الأرض من خارجها. لأن كل من ذكرهم القرآن من الأمم قد أهلكوا بكوارث طبيعية تحدث دائماً على الأرض، ولم يهلك قوم بعذاب نزل من خارج الأرض، بشهادة القرآن: فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(٤٠) العنكبوت.

فالحاصب هو البركان، وقد هدد الله قريشاً بأنه قد يصيبهم: أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً(٦٨) بني إسرائيل.

وثمود هلكت بالصيحة: إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ(٣١) القمر.

والصيحة هي الرجفة، أي الزلزال، لأن القرآن يقول بأن ثمود هلكت بالرجفة: فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ(٧٨) الأعراف.

وقوم لوط أهلكوا بحجارة من سجيل كما حدث لأصحاب الفيل: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ(٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ(٧٤) الحجر.

والحجارة من سجيل كانت مصحوبة بالصيحة (الزلزال). أي كان هناك زلزال أعقبه ثوران بركان. أو مطر من حجارة من سجيل، كما وصفت الآية الحمم البركانية.

وهو ما حدث لأصحاب الفيل، وقد صوره القرآن بصورة أخرى: وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ(٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ(٤).

فالحجارة من سجيل - الحمم البركانية - هي من أهلكت قوم لوط وأصحاب الفيل. وهي حمم تتطاير متتابعة وتقع من الأعلى. وهذه الحمم المتطايرة وصفتها سورة القمر بأنها «حاصب»: كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ(٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ(٣٤) القمر.

وكأن الحجارة ترمى عليهم. وحصبه في اللغة تعني رماه بالحَصْباءِ وتحاصَبُوا: تَرامَوْا بالحَصْباءِ. فأصحاب الفيل حُصبوا بالحمم ولم يكن هناك طيور ضد الحريق تحمل في مخالبها ومناقيرها حجارة منصهرة.

سِجِّيل

سنبدأ بما يقول أصحاب المعاجم اللغوية عن معنى سجيل، وهو مطابقٌ لما قال المفسرون، ثم نبين المعنى كما يفهم من سياق الآيات ويتوافق مع الواقع.

سجيل في كتاب لسان العرب

يقول ابن منظور: وفي التنزيل العزيز: ترْمِيهم بحِجارة من سِجِّيل؛ وقيل: هو حجر من طين، مُعَرَّب دَخِيل، وهو سَنْكِ رَكِل. قوله «وهو سنك وكل» قال القسطلاني: (سنك، بفتح السين المهملة وبعد النون الساكنة كاف مكسورة. وكل، بكسر الكاف وبعدها لام) أي حجارة وطين؛ قال أَبو إِسحق: للناس في السِّجِّيل أَقوال، وفي التأويل أَنها من جِلٍّ وطين، وقيل من جِلٍّ وحجارة، وقال أَهل اللغة: هذا فارسيٌّ والعرب لا تعرف هذا؛ قال الأَزهري: والذي عندنا، والله أَعلم، أَنه إِذا كان التأْويل صحيحاً فهو فارسي أُعْرِب لأَن الله تعالى قد ذكر هذه الحجارة في قصة قوم لوط فقال: لنُرْسِل عليهم حجارةً من طين؛ فقد بَيَّن للعرب ما عَنى بسِجِّيل... انتهى

وكما نرى فقد حول اللغويون لفظ «سجيل» إلى لفظين فارسيين: «سنك»، التي تعني حجارة. و «كل»، التي تعني طين.

ويواصل ابن منظور في لسان العرب، قائلاً: قال أَبو عبيدة: من سِجِّيل، تأْويله كثيرة شديدة؛ وقال: إِن مثل ذلك قول ابن مقبل: ورَجْلةٍ يَضْرِبون البَيْضَ عن عُرُضٍ، ضَرْباً تَوَاصَتْ به الأَبْطالُ سِجِّينا قال: وسِجِّينٌ وسِجِّيلٌ بمعنى واحد.... انتهى

وهو ما أكده في أسطر لاحقة بقوله: وقيل مِنْ سِجِّيلٍ: كقولك مِن سِجِلٍّ أَي ما كُتِب لهم، قال: وهذا القول إِذا فُسِّر فهو أَبْيَنُها لأَن من كتاب الله تعالى دليلاً عليه، قال الله تعالى: كَلاَّ إِن كتاب الفُجَّار لَفِي سِجِّينٍ وما أَدراك ما سِجِّينٌ كتابٌ مَرْقومٌ؛ وسِجِّيل في معنى سِجِّين، المعنى أَنها حجارة مما كَتَب اللهُ تعالى أَنه يُعَذِّبهم بها؛ قال: وهذا أَحسن ما مَرَّ فيها عندي.... انتهى

هنا جعلوا سجين وسجيل بمعنى واحد. وقالوا بأن سجيل من السجل أي المكتوب.

ويواصل ابن منظور: وقال بعضهم: سِجِّيل من أَسْجَلْته أَي أَرسلته فكأَنها مُرْسَلة عليهم.

قال أَبو إِسحق: وقال بعضهم سِجِّيل من أَسْجَلْت إِذا أَعطيت، وجعله من السِّجْل؛ وأَنشد بيت اللَّهَبي: مَنْ يُساجِلْني يُساجِلْ ماجدا. ويقول الجوهري: وقوله عز وجل: حجارة من سِجِّيل؛ قالوا: حجارة من طين طُبِخَتْ بنار جهنم مكتوب فيها أَسماء القوم لقوله عز وجل: لنُرْسِل عليهم حجارة من طين... انتهى

وسيلاحظ القراء أن تعريفات اللغويين مجرد نقل لأقوال المفسرين، لذا سنكتفي بما أوردنا من المعاجم عن إيراد كلام المفسرين.

سجيل حسب سياق الآيات

كل ما ورد عن معنى سجيل - سواء في كتب التفسير أو في المعاجم اللغوية - مجرد أقاويل مختلفة ومتخالفة، صدرت من أناس ثقافتهم العربية ضعيفة، ولأنهم لا يعرفون معنى سجيل، وليست لديهم القدرة على استنباط معناها من السياق، فقد قالوا أنها لفظ أجنبي. ولو كان اللفظ كذلك لاعترضت عليه قريش التي خاطبها القرآن، لكن قريشاً لم تعترض لأنهم فهموا معنى سجيل، كونه لفظاً متداولاً عندهم وليس لفظاً أجنبياً. والحجاز أرض زلازل وبراكين، لذا يستبعد تماماً أن تخلو لغة أهلها من لفظ يعني الحمم البركانية. وحتى لو كانت «سجيل» لفظاً فارسياً فهي عربية بالاستخدام، درج الناس في الحجاز على استخدامه للحمم البركانية عند نزول القرآن. فيكون القرآن لم يستخدم لفظاً فارسياً ولكنه استخدم اللفظ الذي يعرفه المخاطب (وهم قريش) ويستخدمونه. نقول هذا فقط من باب الافتراض.

ولو عدنا لآيات سورة المطففين التي استشهدوا بها فسنجد أن سجين تعني كتاباً مرقوماً، والمقصود به صحيفة الأعمال التي تسجل عليها أفعال وأقوال المرء ويحاسب بموجبها يوم القيامة. ولا تعني كتاب القدر المسبق كما قالوا، ولا علاقة لها بسجيل. لأن كلمة سجيل حجارة من نوع خاص أمطر بها قوم لوط: فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ(٧٤) الحجر.

وأُمْطر بها أصحاب الفيل: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ(١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ(٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ(٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ(٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ(٥).

فهي لفظ يعني الحمم البركانية، بلغة العصر الحالي. وآية الحجر واضحة، في قولها بأن القرية حدث لها زلزالٌ أولاً: «فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا» ثم أُمطرت بالحمم البركانية: « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ». ولو كان ما حدث - كما زعم المفسرون - فلن يكون هناك حاجة لجعل عالي القرية سافلها، ما دام هناك حجارة من سجيل تحملها طيورٌ أرسلها الله، كل طير معه حجارة يعرف من سيصيب بها من القوم، ورسل الله لا تخطئ. فالحجارة كافية لهلاكهم، ولا حاجة للزلزال. لكن لو أن ما حدث هو زلزال متبوع بثوران بركان، فهذا هو ما يحدث على الطبيعة دائماً وبشكل معتاد. لكن يأبى المفسرون إلا أن يُحَرِّفُوا الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ، ونتوارث ما قالوا ونعتمده بديلاً لكلام الله.

ويخبرنا القرآن أن القوم قد حولتهم الكارثة إلى ما يشبه العصف المأكول: فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ(٥) الفيل.

والحمم البركانية (الطير الأبابيل) تندفع من باطن الأرض بدرجات حرارة قد تصل إلى (١٢٠٠) درجة مئوية[٤]، ولو وقعت على جسم الإنسان لحولته، خلال لحظات، إلى ما يشبه العصف المأكول. أي إلى ما يشبه تجاعيد قشرة أي ثمرة أو حبة قمح قد أفرغت من ثمرتها وبقيت قشرتها المتجعدة، وذلك نتيجة لتبخر السوائل التي تكون ٨٠٪ من جسم الإنسان في لحظات، وكأنه فُرِّغ من الداخل وبقي جلده المتجعد يغطي العظام تحته.

إيلاف

ما ورد في المعاجم خليط من كلام المفسرين واللغويين ونقل لأقوال القراء، ولا يخرج عن ذلك. لذا سنكتفي ببعض ما ورد في تفسير الطبري، كما يلي:

الإيلاف يعني المعاهدات

فقريش عقدت معاهدات مع الروم وكسرى الفرس ونجاشي الحبشة وملوك حِمْير، فكان تُجّار قريش يختلفون إلى هذه الأمصار بحِبال هؤلاء الإخوة فلا يُتَعَرَّضُ لهم.

وهذا الزعم غير صحيح، لأن تجارة قريش قديمة جداً، وتسبق كسرى الفرس ونجاشي الحبشة اللذين عاصرا الرسول.

---

٤ كما ورد في الموسوعة البريطانية.

الإيلاف والمشقة

عن مجاهد، في قوله: إيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَالصَّيْفِ قال: إيلافهم ذلك فلا يشقّ عليهم رحلة شتاء ولا صيف. وهو أيضاً غير صحيح، لأن المعنى لا يستقيم، لكن يبدو أن مجاهداً لا يعرف معنى التآلف والموالفة التي جاء منها «إيلاف».

الإيلاف يعني عدم التفرق والخلاف بين القرشيين

وقال بعض أهل التأويل: لإيلافِ قُرَيْشٍ تعني: إلى أُلفة بعضهم بعضا. قال ابن زيد، إن الله أنزل سورة الفيل ليقول لقريش: هذا لإيلاف قريش، صنعت هذا بهم لألفة قريش، لئلا أفرّق أُلفتهم وجماعتهم، إنما جاء صاحب الفيل ليستبيد حريمهم، فصنع الله ذلك.

وهذا الرأي أسوأ من كلام مجاهد السابق.

الإيلاف يعني ابقوا في مكة

بعض المفسرين قالوا: قال الله اعجب يا محمد لنِعَم الله على قريش، في إيلافهم رحلة الشتاء والصيف. ثم قال: فلا يتشاغلوا بذلك عن الإيمان واتباعك.

حدثني محمد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس، في قوله: لإيلافِ قُرَيْشٍ قال: نهاهم عن الرحلة، وأمرهم أن يعبدوا ربّ هذا البيت، وكفاهم المؤنة وكانت رحلتهم في الشتاء والصيف، فلم يكن لهم راحة في شتاء ولا صيف، فأطعمهم بعد ذلك من جوع، وآمنهم من خوف، وألفوا الرحلة، فكانوا إذا شاءوا ارتحلوا، وإذا شاءوا أقاموا، فكان ذلك من نعمة الله عليهم.

وهو تأويل بعيد جدا، وأبعد منه تأويلهم التالي:

حدثني محمد بن المثنى، قال: ثني ابن عبد الأعلى، قال: ثنا داود، عن عكرِمة قال: كانت قريش قد ألفوا بُصْرَى واليمن، يختلفون إلى هذه في الشتاء، وإلى هذه في الصيف فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذا الْبَيْتِ فأمرهم الله أن يقيموا بمكة.

وهناك تأويلات أكثر شذوذاً مما سبق منها:

الإيلاف يعني حب قريش للشام

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا مهران، عن سفيان، عن إسماعيل، عن أبي صالح لإِيلافِ قُرَيْشٍ إيلافِهِمْ قال: كانوا تجارا، فعلم الله حبهم للشام.

الإيلاف يعني شتاء في مكة وصيفاً في الطائف

حدثنا عمرو بن عليّ، قال: ثنا عامر بن إبراهيم الأصبهاني، قال: ثنا خطاب بن جعفر بن أبي المغيرة قال: ثني أبي، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس إيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَالصَّيْفِ قال: كانوا يَشْتُون بمكة، ويَصِيفون بالطائف.

ولا ينسى المفسرون أن يؤولوا الأمن من الخوف لكي تكون الأمن من الجذام. يقول الطبري: وقال آخرون: عُنِي بذلك: وآمنهم من الجُذَام.

وجميع هذه التأويلات العجيبة الغريبة لا تساعد على فهم اللفظ بل تشوش معناه الواضح.

وإن كانت التأويلات مضللة فقد نتج عنها قراءات ضالة لكي تتفق مع تأويلاتهم.

القراءات

الآية تقول: لإيلاف قريش، والقراء أصروا على أن يقرأوها: لإلاف قريش، وبعضهم قرأها: لإلف قريش.

قال أَبو إسحَق في «لإيلافِ قريش» ثلاثة أَوجه: لإيلاف، ولإِلاف، ووجه ثالث لإِلْفِ قُرَيْشٍ.

وفي التنزيل العزيز: لإيلافِ قُريش إيلافِهم رِحْلةَ الشِّتاء والصَّيْفِ؛ في من جعل الهاء مفعولاً ورحلةَ مفعولاً ثانياً، وقد يجوز أَن يكون المفعول هنا واحداً على قولك آلَفْتُ الشيء كأَلِفْتُه، وتكون الهاء والميم في موضع الفاعل كما تقول عجبت من ضَرْبِ زيدٍ عمراً.

وكل ما تقدم لا يبين معنى الإيلاف بقدر ما يظهر تقول المفسرين على الله وتحريفهم لكتابه.

فما هو الإيلاف؟

ينقل ابن منظور، كلام أحد اللغويين: أَبي عبيد الذي يقول: أَلِفْتُ الشيء وآلَفْتُه بمعنى واحد لزمته، فهو مُؤْلَفٌ ومأْلُوفٌ.

وإيلاف الواردة في سورة قريش من آلفت الشيء وألفته، بالفعل. لأن قريشاً ألف رجالها السفر وألفت قوافلهم الترحال من شواطئ بحر العرب أقصى جنوب الجزيرة إلى بلاد الشام والعراق على مدار العام. وهو المقصود برحلة الشتاء والصيف، وليس كما قال المفسرون أن هناك رحلة واحدة في الصيف وأخرى في الشتاء فقط. فقوله تعالى رحلة الشتاء والصيف تعني على الدوام، مثل قوله تعالى «وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل» في حديثه لقريش عن مساكن قوم لوط: وَإِنَّ لُوطاً لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ(١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ(١٣٤) إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ(١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ(١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ(١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ(١٣٨) الصافات.

فقريش تمر على مساكنهم في كل الأوقات وليس فقط في الصبح والليل. وعير قريش ترتحل كلما كان هناك بضاعة تنقلها، سواء كان صيفاً أو شتاء.

ولقد توسعنا عمداً في الحديث عن إيلاف لتكون نموذجاً لتأويلات المفسرين لكل ألفاظ القرآن وكيف يحرفون الكلم عن مواضعه، وما يترتب على ذلك من تحريف كلام الله بما أسموه بالقراءات لكي تتفق مع تأويلاتهم المنحرفة، وليطلع القراء على أن معاجم اللغة ما هي إلا اقتباس حرفي لكلام المفسرين ولا تعني أنها تعطي المعنى الحقيقي للألفاظ. وبالتالي فمعنى اللفظ في القرآن يمكن أن يعرف من سياقه وليس بالرجوع لكتب التراث من تفسير أو معاجم.

طُورِ سِينِينَ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ(١) وَطُورِ سِينِينَ(٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ(٣) التين.

نبدأ باستعراض بعض ما صدر عن المفسرين حسبما رواه الطبري في تفسيره، لنعرف أن أقوال المفسرين لا تعدو عن كونها ظنوناً وقصصاً مختلقاً لا أكثر.

ومما قال الطبري في تفسيره:

قال بعض المتأولين: التين: مسجد دمشق، والزيتون: بيت المقدس.

وممن قال بذلك: كعب الأحبار.

وممن قال: التين: الجبل الذي عليه دمشق، والزيتون: الجبل لذي عليه القدس، قتادة.

ابن زيد قال: التين: مسجد دمشق، والزيتون، مسجد إيلياء.

عكِرمة قال: هم جبلان.

وقال آخرون: التين: مسجد نوح، والزيتون: مسجد بيت المقدس. وممن قال ذلك، ابن عباس.

وابن عباس يقول أيضاً: التين والزيتون وطور سينين: ثلاثة مساجد بالشام.

ومما نقل الطبري عن أقوال المفسرين حول تأويلهم لمعنى «طور سينين»، قوله: اختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: هو جبل موسى بن عمران صلوات الله وسلامه عليه ومسجده. ذكر من قال ذلك: قتادة، والحسن، وكعب الأحبار.

وقال ابن عباس هو الطُّور.

وقال ابن زيد: هو مسجد الطور.

وقال آخرون: الطُّور: هو كلّ جبل يُنْبِتُ.

ويقول المفسرون عن «سينين» إنها تعني: حسن. وممن قال ذلك: عكرمة، الذي قال: هو الحسن، وهي لغة الحبشة، يقولون للشيء الحسن: سِينا سِينا. وبطبيعة الحال ما زعمه عن لغة الحبشة ليس صحيحاً، لأن أهل الشام لن يستخدموا لفظاً حبشياً لوصف جبل عندهم، لو كان الجبل عندهم بالفعل. لكن يفهم من كلامهم أنه حتى عصر المفسرين لم تكن سيناء الحالية تعرف بسيناء.

ويقول الطبري: حدثنا ابن حميد، قال: ثنا الصباح بن محارب، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، قال: صليت خلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه المغرب، فقرأ في أوّل ركعة وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وطُورِ سِينِينَ قال: هو جبل.

وممن قال بأن الطور هو الجبل: مجاهد، ومجاهد يقول إن سينين تعني المبارك.

والكلبي يقول هو: الجبل ذو الشجر.

ولو نبذنا ما صدر من المفسرين وراء ظهورنا فسنجد أن المعنى واضح، فالتين فاكهة معروفة، وكذلك الزيتون. أما البلد الأمين فهو مكة ولا يوجد بلد أمين وآمن وحرام وبيت لله غيرها على الأرض.

والطور هو الجبل المنتصب بارتفاع حاد، وهو ما ينطبق على جبال السروات التي تقع بالقرب من مكة وتقع الطائف في أعلاها. ولابد أنها كانت تسمى طور سينين، وقد حرفت سينين في عصر العباسيين وكأنها تتحدث عن سيناء الحالية.

وقد جاء ذكر الزيتون في عدد من السور، منها:

وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٩٩) الأنعام.

والزيتون لا ينبت حول مكة ولا في جزيرة العرب في ذلك الوقت، لكنه معروف لقريش، كونها اعتادت الترحال للشام وجلب المنتجات الشامية لمكة، ومنها الزيتون والملابس (كالذي يسمونه السندس والإستبرق) وغيرها.

ومثله التين الشامي، الذي لابد أن قريشاً كانت تجلبه من الشام مجففاً. وينمو في مناطق جنوب غرب جزيرة العرب نوع من التين ذكر في القرآن ضمن الحديث عن السيل العرم الذي أغرق أراضي سبأ: فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَـٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) سبأ.

فالخمط هو ما يعرف اليوم بالحمط والحماط في جنوب غرب جزيرة العرب وهو تين بري لون ثمرته أسود يميل للزرقة، وهي حلوة المذاق وأصغر من ثمر التين الشامي.

المزمل

يقول الطبري في تفسيره: الْمُزَّمِّلُ هو الملتفّ بثيابه. واختلف أهل التأويل في المعنى الذي وصف الله به نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية من التزمُّل، فقال بعضهم: وصفه بأنه مُتَزمل في ثيابه، متأهب للصلاة. ذكر من قال ذلك: قتادة.

وقال آخرون: وصفه بأنه متزمِّل النبوّة والرسالة. وممن قال بذلك: عكرِمة.

وبطبيعة الحال لا يمكن أن يكون المعنى متزملاً بالنبوة، لأنه لا يمكن أن يلتف بالنبوة كالتفافه بثيابه.

والمزمل هنا ليست من التزمل، ولكن من الزمل، كناية عن العدو والحركة والنشاط، كما

ذكر ابن منظور في لسان العرب. وكأنها تشير إلى أن محمداً عندما نزلت عليه سور المرحلة الأولى أبدى حماساً ونشاطاً ظاهراً لملاحقة رجال قريش في أمكان تجمعاتهم لتلاوتها عليهم. فنزلت هذه السورة تقول له أن يتروى فالأمر أكثر ثقلاً مما يظن لأنه سيواجه العنت والأذى النفسي من المشركين، لذا عليه أن يكون مستعداً نفسياً أولاً قبل البدء الفعلي بالدعوة.

الرجز

في المعجم: صاحب لسان العرب يقول: الرِجْزُ: القَذَرُ، مثل الرِجْسِ.وقرئ قوله تعالى: «والرِجْزَ فاهْجُرْ» بالكسر والضم. قال مجاهدٌ: هو الصنم.

القراءات

يقول الطبري: اختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأه بعض قرّاء المدينة وعامة قرّاء الكوفة: «والرِّجْز» بكسر الراء، وقرأه بعض المكيين والمدنيين والرُّجْزَ بضم الراء، فمن ضمّ الراء وجهه إلى الأوثان، وقال: معنى الكلام: والأوثان فاهجر عبادتها، واترك خدمتها، ومن كسر الراء وجَّهه إلى العذاب، وقال: معناه: والعذاب فاهجر، أي ما أوجب لك العذاب من الأعمال فاهجر. انتهى.

وهناك فرق بين الرِّجز بالكسر، والرُّجز بالضم، كما سنرى في فقرة معنى الرجز في القرآن اللاحقة.

في التفسير

بعضهم قال هي الأوثان أو الأصنام، وقتادة قال هي إساف ونائلة، وهما صنمان كانا عند البيت يمسح وجوههما من أتى عليهما، فأمر الله نبيَّهُ صلى الله عليه وسلم أن يجتنبهما ويعتزلهما.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: والمعصية والإثم فاهجر. وقال الضحاك وغيره: وَالرُّجْزَ فاهْجُرْ يقول: اهجر المعصية.

في القرآن

الرجز في سورة المدثر، جاء بضم الراء وسكون الجيم، وهو يعني كل ما له علاقة بالوثنية: يا

أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ(١) قُمْ فَأَنذِرْ(٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ(٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ(٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ(٥).

فالآية تأمر محمداً بالبدء بالدعوة، ولأنه للتو أصبح رسولاً لله، فعليه أن يذكر ربه ويطهر ثيابه ويبتعد عما له علاقة بالوثنية.

ولم يرد في القرآن بهذا التشكيل في أي سورة أخرى.

لكن الرجز، بكسر الراء، جاء في عدة آيات، وكلها بمعنى العذاب، ومن ذلك:

هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ(١١) الجاثية.

الآية ضمن سياق يخاطب قريشاً، وتقول من لم يتبع هذا القرآن، فله عذاب (رجزٌ) أليم.

ومثله: وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ(٥)سبأ.

ومثله معنى الرجز الوارد في سورة الأعراف: فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ(١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ(١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ(١٣٥).

والرجز هنا عذاب، وهو « الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ».

وقد تكرر ذكره في سورة البقرة، في آيات منها: فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ(٥٩).

وفي سورة العنكبوت، ورد الرجز بمعنى العذاب، الذي أهلك قوم لوط: إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(٣٤).

وقد أهلكوا نتيجة هبوط الحمم البركانية على قريتهم، نتيجة لثوران بركان مصحوبٌ بزلازل، كما بينته سور أخرى. (يمكن الرجوع لموضوع كيف أهلكت أمم مذكورة في القرآن).

ويكون الرُّجز بالضم يعني الذي له علاقة بدنس الوثنية، والرِّجز بالكسر هو العذاب، وليسا مترادفين، كما يزعم المفسرون. وعند الحديث عن الرجس سنرى أنه ليس مرادفاً للرجز، كما قال اللغويون والمفسرون.

الرجس

ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهَّ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ(٣٠) الحج.

الرجس هنا تعني الأردان والأوساخ، وقد وردت بنفس المعنى في قوله تعالى: وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَّ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهَّ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا(٣٣) الأحزاب.

وقد جاء الرجس بمعنى آخر في قوله تعالى: وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهَّ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ (١٠٠) يونس.

والرجس هنا نقيض الإيمان. وبنفس المعنى ورد الرجس في قوله تعالى: فَمَن يُرِدِ اللهَّ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهَّ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ (١٢٥) الأنعام.

الناقور

ذكر هذا اللفظ مرة واحدة في القرآن، وذلك في سورة المدثر - أول سورة تعلن بدء الدعوة - والمقصود به يوم القيامة، كما يفهم من سياق الآيات التي تقول بأنه يوم عسير على الكافر: فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ(٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ(٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ(١٠) المدثر.

الطبري ينقل أن معنى «نقر في الناقور» يعني نفخ في الصور. والصور عند المفسرين هو القرن الذي ينفخ فيه كالبوق. فيكون النفخ في الصور عندهم يعني حرفياً: النفخ في بوق أو قرن. والنفخ بالبوق هو تصور اقتبسه المفسرون من التراث اليهودي (الإسرائيليات)، الذين ينفخون في البوق لإعلان المناسبات الدينية والهامة عندهم، وفي إعلان الحروب وعند العزم على إبادة الأعداء. وهو عبارة عن قرن حيوان غير البقر، حتى لا يرتبط بذكرى العجل الذي عبدوه زمن موسى. وقد وجد هذا العرف اليهودي المتمثل بنفخ البوق طريقه لتراث المسلمين، فأصبح الإعلان عن يوم القيامة يتم بنفخ أحد الملائكة البوق «اليهودي» حسب زعم المتأولين، برغم أن المسلمين والعرب لا يستخدمون النفخ في البوق لإعلان مناسباتهم الهامة.

وقد أوردوا حديثاً على لسان ابن عباس أن الرسول خرج إلى أصحابه، فقال: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ القَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ القَرْنَ، وَحَنى جَبْهَتَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ بِأُذُنِهِ يَسْتَمِعُ مَتى يُؤْمَرُ بالصَّيْحَة» (تعالى الله ورسوله عن ذلك علواً كبيراً).

وممن قال بأن الناقور هو الصور، وأن الصور هو البوق: مجاهد، عكرمة، الحسن، قتادة، الضحاك، ابن زيد، وابن عباس وغيرهم.

والصور في القرآن لا يعني البوق بل يعني «الكون» بلغة العصر، وهو ما تحدثنا عنه تحت لفظ «الصور» في هذا الفصل.

والنقر في اللغة يعني الطَّرْق والضرب ويعني الثَّقب. وعلى هذا الأساس فالناقور هو الذي يحدث النقر بالطرق أو الثقب. وبالتالي لا يمكن أن يكون معنى «نقر في الناقور» نفخ في البوق. لأن النقر لا يأتي بمعنى نفخ، والناقور ليس البوق.

ومما يفهم من سياق الآيات يمكن القول بأن المقصود بـ «نقر في الناقور" هو يوم القيامة والحساب، لأن الآيات تصفه بأنه يوم عسير على الكافرين. والقرآن يستخدم المجاز في عدة مجالات، ومن ذلك وصف يوم القيامة بالقارعة: الْقَارِعَةُ(١) مَا الْقَارِعَةُ(٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ(٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ(٤).

والسياق سهل لنا فهم أن المقصود بالقارعة هو يوم القيامة، ولا علاقة لها بالقرع.

وهناك العديد من الألفاظ المجازية الأخرى التي تعني القيامة، سيمر عليها القراء في هذا الفصل والتي يمكن فهم المقصود بها من السياق بسهولة دون حاجة لتأويلات المفسرين.

سقر

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ(٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ(٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ(٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ(٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ(٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ......(٣١) المدثر.

أورد ابن منظور في لسان العرب عدة معان لسقر، أحدها قوله: والسَّقْرُ البُعْدُ. وكالعادة فكلام ابن منظور وغيره من أصحاب المعاجم القدماء منقول عن المفسرين كالطبري.

وجهنم لا يمكن أن توصف بالبعد، لكن من يدخلها فيوصف بأنه في سقر. مثل قوله تعالى:

وَأُتْبِعُواْ فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ(٦٠) هود.

والبعد هنا ليس في المكان، ولكن كناية عن النبذ والإبعاد من رحمة الله. وهو موافق لمعنى سقر المفهوم من سياق الآيات. وهذا المعنى لسقر ما زال مستخدماً في اللهجة العامية عندنا، خاصة بألسن العجائز، حيث يقال لمن ابتعد وهو غير مرحب به: «إلى سقر».

وسقر وردت في القرآن أربع مرات، ثلاث في سورة المدثر، الآيات:٢٦، ٢٦، ٤١، والرابعة في سورة القمر، الآية: ٤٨ والتي هي أوضح آية تزهر أن سقر هي النار، والتي تقول: يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ.

وكعادة المفسرين، يأولون الآيات لغير معناها ولو كان بوضوح الشمس في رابعة النهار. يقول الطبري في تفسيره: يعني تعالى ذكره بقوله: سَأُصْلِيهِ سَقَرَ سأورده بابا من أبواب جهنم اسمه سقر. ... ثم يقول: ثم بين الله تعالى ذكره ما سقر، فقال: هي نار لا تُبْقى من فيها حيا وَلا تَذَرُ من فيها ميتا، ولكنها تحرقهم كلما جدّد خلقهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. انتهى

لاحظ أنه يزعم أنها باب من أبواب جهنم ثم يقول «هي نار لا تبقي ولا تذر» فهو هنا يعود إلى أن سقر هي النار، دون أن يدرك، لأن الباب لا يمكن أن يقال عنه إنه نار لا يبقي ولا يذر.

فسقر في الآيات المقصود بها النار لأن السياق يؤكد هذا دون حاجة لتأويل المتأولين.

عليها تسعة عشر

وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ(٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ(٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ(٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ(٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ(٣١) المدثر.

من تخاريف المفسرين حول الآية ما نقله الطبري بقوله: حدثني به محمد بن سعد قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ. إلى قوله:

وَيَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانا فلما سمع أبو جهل بذلك قال لقريش: ثكلتكم أمهاتكم، أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزَنة النار تسعة عشر وأنتم الدَّهم، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟ فأوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم أن يأتي أبا جهل، فيأخذه بيده في بطحاء مكة فيقول له: أَوْلَى لَكَ فأَوْلَى ثمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى فلما فعل ذلك به رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال أبو جهل: والله لا تفعل أنت وربك شيئا فأخزاه الله يوم بدر... انتهى

القصة اختلقت للسخرية، ومن سخريتها بالرسول تسميته ابن أبي كبشة، وهو لقب نبز به الرسول في كتب التراث ولم تنبزه به قريش ولم يسمعه في حياته، ولكن من اختلاق القصاص في عصور لاحقة. ومن اختلق القصة تعمد هذا، لكي يلازم هذا اللقب رسول الله، ولا يهمه كيف كان مسار قصته المتهالكة، والتي ضرب فيها آيات القرآن ببعض دون حرمة لها ودون احترام. وإلا فقوله تعالى: "أَوْلَى لَكَ فأَوْلَى ثمَّ أَوْلَى لَكَ فأَوْلَى" لا علاقة لها بالقصة ولا بأبي جهل. لأنها وردت ضمن آيات في سورة القيامة التي نزلت بعد المزمل بفترة من الزمن. والآيات تتحدث عن موقف قريش بعدما أعلنت رفضها الدعوة وتكذيبها البعث، وتصور ما سيحدث للمكذبين يوم القيامة بصورة افتراضية: كَلَّا إِذَا بَلَغَتْ التَّرَاقِيَ(٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ(٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ(٢٨) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ(٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ(٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى(٣١) وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى(٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى(٣٣) أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى(٣٤) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى(٣٥) أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى(٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى(٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى(٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى(٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى(٤٠).

ولو ابتعدنا عن تخاريف المفسرين، فالتعبير بالملائكة وكأنهم من يقوم على تشغيل النار هو مجازي، لأن النار لا تحتاج لمخلوقات تشغلها، مثلها مثل الشمس وحركة الكواكب وكل الكون وكل خلق الله في الدنيا والآخرة والذي يقوم على قوانين ثابتة لا تحتاج لمشغل ولا مراقب ولا صيانة ولا إدارة. والملائكة في الآيات تشير لهذه القوانين، مثلما أشارت سورة السجدة لملك الموت: قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ(١١) السجدة.

مع أن الموت لا يحتاج لمخلوق حي (ملك) لنزع النفس من الجسد كما صورت لنا كتب التراث، ولكن الموت يتم متى عجز الجسد عن حمل النفس بسبب مرض أو هرم أو حادث[٥].

قسورة

مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ(٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ(٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ(٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ(٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ(٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ(٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ(٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ(٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ(٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ(٥١) المدثر.

قسورة هنا وردت ضمن الحديث عن الكفار في سقر، وكأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة. وبرغم أن المعنى واضح، إلا أننا سنورد ما قال المفسرون لتأكيد ضلاله:

يقول الطبري في تفسيره: قال بعض المتأولين: القسورة هم الرماة. ذكر من قال ذلك: ابن عباس، أبو موسى، مجاهد، قتادة، سعيد ابن جبير، وعكرمة.

وعكرمة قول آخر، حيث يقول هي قسورة النبّل.

وقال آخرون: هم جماعة الرجال. ذكر من قال ذلك: ابن عباس.

وقال آخرون: هي أصوات الرجال. ذكر من قال ذلك: ابن عباس.

وقال آخرون: بل هو الأسد. ذكر من قال ذلك: أبو هريرة، زيد ابن أسلم، ابن زيد، وابن عباس.

يقول الطبري: حدثني محمد بن خالد بن خداش، قال ثني سلم بن قتيبة، قال: ثنا حماد بن سلمة، عن عليّ بن زيد، عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أنه سُئل عن قوله: فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ قال: هو بالعربية: الأسد، وبالفارسية: شار، وبالنبطية: أريا، وبالحبشية: قسورة.

ابن عباس هنا يظهر نفسه أمام محدثيه أنه ملم بلغات الأرض، ويبدو أنه لم يكن من بين الحضور من يجيد أي لغة من اللغات التي ذكر ابن عباس وإلا لخطأه. فقسورة بالنسبة له غير واضحة المعنى بلغته هو العربية، حيث كان يقول بأنها تعني الرماة، ومرة قال: جماعة الرجال، ومرة قال: أصوات الرجال، ومرة رابعة قال: هي الأسد. كما أن المعاني التي ذكر

٥ انظر فقرة الموت / في هذا القسم للمزيد.

في اللغات الأخرى ليس بالضرورة أنها صحيحة.

ومثل ابن عباس - كل المفسرين- فهذا عكرمة، مرة يقول بأن قسورة تعني الرماة، ومرة أخرى يقول هي النبل وغير ذلك. وقد أورد الطبري عن عكرمة هذا الخبر: حدثنا هناد بن السريّ، قال: ثنا أبو الأحوص، عن سِماك، عن عكرِمة، في قوله: فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ قال: القسورة: الرماة، فقال رجل لعكرِمة: هو الأسد بلسان الحبشة، فقال عكرِمة: اسم الأسد بلسان الحبشة عنبسة.

عنبسة عربية التركيب، وليست حبشية، لكن عكرمة أراد أن يحافظ على صورته المزعومة أمام العامة التي تظهره وكأنه محيط بكل شيء، مثله مثل كل القصاص والمتأولين.

ونعود لسياق الآية لنعرف المقصود بقسورة: كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ(٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ(٥١).

فالكفار شبهوا بالحمر (الحمير) المستنفرة، التي نفرت بسبب فرارها من القسورة. فالقسورة هي ذلك المخلوق الذي تسبب في نفور الحمر. ولو كان المعنى النبل فسيصيب أحدها ولكن البقية لن تنفر لأن النبل لا صوت لها، ولا يمكن أن يثير انطلاقه فزع القطيع. بينما لو كانت القسورة حيواناً مفترساً، فبمجرد هجومه على جمعٍ من الحمر فستنفر وستفر من أمامه طلباً للنجاة.

هل القسورة أسد أو حيوان مفترس آخر؟

هذا يعتمد على ما كان موجوداً من حيوانات مفترسة تعيش في جبال مكة أو قريباً منها. ومن المعروف حتى وقت قريب أنه كان يعيش في جزيرة العرب النمر والفهد والضبع والذئب ... وغيرها. وهذه الوحوش تصطاد بمفاجأة طريدتها والهجوم عليها بسرعة، وعليه فيمكن أن يكون معنى قسورة الحيوان المفترس، وهو شبيه لمعنى السبع، دون الحاجة لأقوال المتأولين.

اقرأ

تأتي في القرآن على عدة معانٍ، منها:

التلاوة مما حفظ في الذاكرة

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ(١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ(٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ(٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ(٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ(٥) العلق.

اقرأ في الآيات السابقة ليست بمعنى نطق حروف من صحيفة مكتوبة، ولكنها بمعنى: التلاوة. أي التحدث بما يُحفظ. مثل قراءة الإمام للفاتحة في الصلاة، فهو يتلوها من صدره وليس من صحيفة مكتوبة، ومن هذا المعنى جاء لفظ القرآن.

والآيات تبين للرسول كيف سيكون تبليغه للدعوة، وذلك بتلاوة القرآن الذي سجل وحفر في ذاكرته. وليست بمعنى اقرأ من صحيفة أو بمعنى ردد ما تسمع من الملك، كما زعمت كتب التراث بلا علم.

فاقرأ في الآيات بنفس معنى القراءة في قوله تعالى: وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً(٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً(٤٦) بني إسرائيل.

والرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن يقرأ القرآن في مكة على قريش من صحيفة مكتوبة ولكنه يتلو عليهم من ذاكرته. وهو نفس معنى القراءة في قوله تعالى:

وقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً(١٠٦) بني إسرائيل.

ومثله قوله تعالى: فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ(٩٨) النحل.

التلاوة من صحيفة مكتوبة

ومن ذلك: وكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً(١٣) اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً(١٤) بني إسرائيل.

فالصورة المقدمة هنا عن الحساب صورة مجازية تظهر كل إنسان وهو يتلو ما كتب في صحيفته.

اقرأ تأتي بمعنى التسجيل والتثبيت والحفر في الذاكرة

لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ(١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ(١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ(١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ(١٩) القيامة.

فجمعه وقرآنه يعني حفظه في ذاكرة الرسول، وهو نفس معنى: « فإذا قرأناه».

أما قوله: «فاتبع قرآنه» فتعني: فقرأه على الناس كما حُفِظ في ذاكرتك.

ومثله قوله تعالى: تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ(٦) الجاثية.

فالله جل وعلا ولا ملائكته يتلون القرآن بصوت مسموع على محمد، ولكن المعنى هنا هو نوصلها إليك بنسخها في ذاكرتك لتتلوها على الناس.

تزكى

فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى(٩) سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى(١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى(١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى(١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى(١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى(١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى(١٥) الأعلى.

تزكى هنا بمعنى تطهر. والتطهر هنا عام من كل ما يوجب النار، ولا علاقة لها بالزكاة. ولكن هناك آيات تصف الإنفاق بالزكاة، لأن الإنفاق يزكي ويطهر المال، وتصف المنفق بمن تزكى أي تطهر.

وهو نفس المعنى الذي أوردته سورة الشمس: وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا(٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا(١٠).

فزكاها تعني طهرها، ودساها تعني دنسها.

وتقول سورة الليل: وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى(١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى(١٨).

وتزكية المال تعني تطهيره، وذلك بالإنفاق.

القارعة

الْقَارِعَةُ(١) مَا الْقَارِعَةُ(٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ(٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ(٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ(٥).

القارعة هنا وصف مجازي ليوم القيامة، مثل وصفها بالصاخة، كما في الآية (٣٣) من سورة عبس أو الطامة، كما في الآية (٣٤) من سورة النازعات. وليست القارعة اسماً من أسماء يوم القيامة، كيوم الحساب، ولكنها وصف مجازي لذلك اليوم، مثل وصفه بالساعة.

وقد تكرر ذكر القارعة بمعنى القيامة في سورة الحاقة: كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ(٤).

الصلب والترائب

فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ(٥) خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ(٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ(٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ(٨) الطارق.

بعض من يروج لوجود معجزات طبية وعلمية في القرآن تناول هذه الآيات وكأنها تتحدث بطريق عليمة على مكان تخلق ماء الرجل فجوبهت أقوالهم بالتكذيب من وجهة نظر علمية. فالمني لا يخرج من بين الظهر والعظام قرب الترقوة كما أعطي معنى الصلب والترائب عندهم.

والمخاطب في القرآن على الدوام هم الناس الذين تتجه لهم الدعوة زمن الرسول، إما قريش أو بني إسرائيل في الغالب. وهذه الآيات تخاطب قريشاً، ومن المستحيل على قريش أن يعرفوا أين يتكون المني. وحتى الإنسان الجاهل يعرف أن المني لا يتكون في منطقة تمتد إلى أعلى الصدر.

والآيات - دائماً - تخاطب الناس بما يفهمون، وهذه الآيات لا يمكن أن تكون استثناء، لذا علينا فهمها كما فهمها المخاطب - قريش - في عصر الرسول.

يقول تعالى في سورة النحل مخاطباً قريشاً: وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ(٦٦) النحل.

وعملياً وعلمياً لا يخرج اللبن من بين الفرث والدم، كما أن الفرث والدم لا يختلطان. فالفرث هو ما تحويه الأمعاء، والدم يجري في العروق والشرايين والأوردة والشعيرات

الدموية، ولو اختلط الدم بالفرث فهذا يعني نزيفاً لو لم يوقف لأودى بحياة المصاب.

ومع ذلك قال القرآن إن اللبن يخرج من بين الفرث والدم، وفهمتها قريش ولم تعترض.

وبالنسبة للإنسان البسيط زمن الرسول، فالحليب يراه بعينه يخرج من ضرع الحيوان المتدلي من البطن، والبطن يحوي الفرث والدم الذي يراه عندما يذكي الحيوان ويشق بطنه.

فالآية تقول لقريش إن عظمة الخالق أخرجت لكم لبناً من بين الفرث والدم ولم يختلط بهما. ولا تقول بأنه يتخلق بينهما.

وهذا هو ما يجب أن تفهم عليه آيات سورة الطارق التي تقول: « فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ(٥) خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ(٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ(٧)».

والترائب - لو عدنا للمعاجم فلن نجد لها تعريفاً واحداً مؤكداً، بل هناك عدة تعريفات غير مؤكدة. ومما ورد في لسان العرب: والتَّرائبُ مَوْضِعُ القِلادةِ من الصَّدْر، وقيل هو ما بين التَّرْقُوة إِلى الثَّنْدُوةِ؛ وقيل: التَّرائبُ عِظامُ الصدر؛ وقيل: ما وَلِيَ التَّرْقُوَتَيْن منه؛ وقيل: ما بين الثديين والترقوتين. ... وقيل: التَّرائبُ أَربعُ أَضلاع من يَمْنةِ الصدر وأَربعٌ من يَسْرَتِه.... وقيل: التَّرائبُ اليَدانِ والرِّجْلانِ والعَيْنانِ، ... وتَرِيبةُ البَعِير: مَنْحِرُه.

إذاً، المعضلة الأولى هي أن المفسرين لا يعرفون ما هي الترائب، واختاروا أن تكون عظام أعلى الصدر.

والصلب أيضاً لم يحددوه بدقة، فصاحب لسان العرب ينقل أنه: الصُّلْبُ والصُّلَّبُ: عَظْمٌ من لَدُنِ الكاهِلِ إِلى العَجْب... ويقول: والصُّلْب من الظَّهْر، وكُلُّ شيء من الظَّهْر فيه فَقَارٌ.... ويقول: إِنْ أُصِـيبَ صُلْبه بشيءٍ ذَهَبَ به الجِماعُ فلم يَقْدِرْ عَلَيهِ، فَسُمِّيَ الجِماعُ صُلْباً، لأَنَّ الـمَنِـيَّ يَخْرُجُ منهُ.... ويقول: ويقال للظَّهْر: صُلْب.... ويقول: والصَّلَب أَيضاً: ما صَلُبَ من الأَرض... الخ

فالمفسرون لا يعرفون أين هو الموضع في الجسم المسمى الصلب على وجه التحديد؟

ونقول المفسرون لأن كل ما قالوا عن معاني الألفاظ هو ما اقتبسه منهم أصحاب المعاجم. فكل معاني الألفاظ في المعاجم جاءت من المفسرين، خاصة الألفاظ الواردة في القرآن.

وهو ما يجعل القطع بصحتها بعيداً عن الحقيقة، كون المفسرين عاشوا في عصور انحدار لغوي وكثير منهم من غير العرب، ولديهم استعداد على التقول على الله واختلاق القصص

وتحريف الآيات، واختلاق المعاني. ولهذا فلا عجب في قولهم إن صلب الرجل هو أسفل الظهر والترائب خاصة بالمرأة، معتبرين أن الآية تتحدث عن ماء الرجل وبويضة المرأة، وهو تأويل يخرج الآية من معناها.

والخلاصة: أن المفسرين لا يعرفون ما هو الصلب ولا الترائب، وجاء من بعدهم من يعتقد بوجود معجزات علمية في القرآن وأخذوا بكلام المفسرين الخاطئ على أنه حقيقة فكان كلامهم الذي نسبوه للقرآن كلاماً مضحكاً لمن يحاول البحث عن أي مدخل للتهجم على القرآن ومحاولة إثبات كذبه.

ونقول بأن الآية تخاطب قريشاً بما تعرف، وقريش تعرف أن المني يخرج من بين الصلب والترائب بمعناها الذي تعرف، وغاب عن المفسرين. وبما أن جهاز الرجل التناسلي موجود بين الفخذين ويمتد إلى أسفل الظهر فلابد أن الصلب هو أسفل الظهر والترائب هي المنطقة التي تُكوّن تلاحم أعلى الفخذين. لأن الإنسان بمعارف زمن رسول الله يمكنه فهم أن المني يخرج من هذه المنطقة، لكنه لن يفهم أن المني يخرج من منطقة في أعلى الصدر.

الشفع والوتر

مع أننا لا نعير أقوال المفسرين الانتباه إلا أننا أحياناً نتوقف عند أقوالهم لبعض الآيات لبيان تخاريفهم وبعدهم عن الواقع وأن كل ما يقولون هو مجرد ظنون وتخيل لا أساس له. وهنا نتوقف لبعض الوقت مع قوله تعالى: وَالْفَجْرِ(١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ(٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ(٣).

فقد قالوا المعني بالليالي العشر هي أول عشرة أيام من ذي الحجة وقال آخرون بل هي أول عشرة أيام من محرم، لأنها أول أيام السنة.

وسورة الفجر نزلت في بداية الدعوة وقبل أن يقرر المسلمون زمن عمر ابن الخطاب أن يكون لهم تقويم هجري تبدأ سنته بمحرم وقبل أن يكتب الحج. والآية لا تتحدث عن عشر ليال بعينها، مثلما أن قوله: والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى، وقوله: والشمس وضحاها، وغير ذلك من افتتاحيات السور التي تبدأ بقسم.

ويستمر تخريف المفسرين وهذا بعض ما قالوا عن الشفع والوتر: فمرة يقولون إن الشفع يوم النحر، والوَتر: يوم عرفة، ومرة قالوا العكس: فالوتر يوم عرفة، والشفع: يوم الذبح.

ومرة قالوا: الشفع اليومان بعد يوم النحر، والوَتر: اليوم الثالث. وقالوا الشفع صلاة الغداة، والوتر صلاة المغرب. ثم تجرأوا على الله وقالوا: الله وتر والمخلوقات شفع.

والوتر هو المفرد والشفع هو المزدوج، ولا حاجة لأن يكون المعني به ما حاول المفسرون قوله. وصلاة الوتر لم يكن يعرفها المسلمون عند نزول السورة في بداية الدعوة في مكة، والتي نزلت في وقت لم تفرض فيه أوقات لأداء الصلوات المفروضة.

ولكن - كالعادة - في زمن البدع بعد رسول الله وظهور ما سمي «النوافل» حاول القصاص أن يجدوا أي دليل على بدعهم من القرآن ولو بتقول الآيات ما لم تقل.

كَبَد

لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ(١) وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ(٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ(٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ(٤) البلد.

حياة الإنسان معاناة ومشقة. وقد ذكر لفظ «كبد» في القرآن مرة واحدة وفي هذه الآية.

الواقعة

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ(١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ(٣).

الواقعة هنا وصف مجازي ليوم القيامة، مثل وصفها بالصاخة كما في الآية (٣٣) من سورة عبس أو الطامة، كما في الآية (٣٤) من سورة النازعات، والقارعة كما في بداية سورة القارعة. ومثل وصف الرجفة (الزلزال) بالصيحة، كما في الآية (٦٧) من سورة هود.

وليست هذه الصفات أسماء ليوم القيامة - كيوم الحساب - ولكنها وصف مجازي لذلك اليوم، مثل وصفه بالساعة.

الغاشية

وصف آخر ليوم القيامة، وليس اسماً من أسماء يوم القيامة، لأن الغاشية معناها غير مرادف للقيامة. لكن يمكن وصف يوم القيامة بأنه يوم الغاشية.

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ(١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ(٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ(٣) تَصْلَىٰ نَاراً حَامِيَةً(٤).

الصور

أول ذكر للصور في القرآن ورد في سورة النبأ: إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً(١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً(١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَاباً(١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً(٢٠).

يوم الفصل (القيامة) سيأتي في وقت محدد. وكانت سور سابقة أكدت أن البعث سيكون بعد انهيار هذا الكون وقيام كون جديد للقيامة وكل هذا سيتم حسب زمن محدد. وسيكون يوم الفصل بعد النفخ في الصور.

والصور As-Sur في لغة القرآن يعني الكون The Universe بلغة العصر، وليس كما يقول المفسرون من أنه بوق ينفخ فيه أحد الملائكة لإعلان القيامة. لأن القيامة لن تكون في هذا الكون الذي سينتهي بكل من فيه من مخلوقات ومن ضمنهم الملائكة. وعندما ينشأ كون القيامة لن يكون هناك ملائكة أحياء لكي ينفخ أحدهم ببوق لن يسمعه أحد لأن كل المخلوقات ستكون ميتة: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ(٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ(٢٧) الرحمن.

وزعم المفسرين أن الصور يعني البوق، يبين أمرين:

١. ضعف لغتهم العربية، فكانوا كلما مر بهم لفظ أو عبارة في كتاب الله غير معتادة أو لا يعرفونها لا يتورعون عن اختلاق معنى لها من عند أنفسهم، وهو ما يطغى على كلام المفسرين على الدوام.
٢. تبنيهم لأقوال اليهود، الذين هم أول من قال بأن القيامة يتم الإعلان عنها بالنفخ في بوق. لأن اليهود يعلنون عن كل أحداثهم الهامة بالنفخ بالبوق (الشوفار كما يسمونه الآن) ويريدون أن يقولوا بأن الله يستخدم البوق للإعلان عن الحدث الهام المتمثل بالقيامة[٦].

وتصوير نشأة كون القيامة بالنفخ مماثل لما يسمى "الانفجار العظيم" لحظة ولادة هذا الكون، وكأنه نفخة عظيمة تولد منها المجرات بشموسها وكواكبها. والقرآن يقول بأن هناك نفخة لنهاية هذا الكون. وهو تصوير حسي لاضطراب نظام الكون وتهاوي نجومه

٦ انظر فقرة: الناقور في هذا القسم للمزيدعن البوق.

ومجراته، وكأنها بالونات تعرضت لنفخة هواء. وسيكون هناك نفخة أخرى لنشأة كون القيامة كما سنقرأ في سور قادمة.

فنهاية هذا الكون ستكون باضطرب نظامه وتهاوي مجراته ومجموعاته وتطاير شموسه وكواكبه بلا ضوابط وكأنها تعرضت لنفخة عظيمة. وهو ما تتحدث عنه سورة «ق»: وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ(١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ(٢٠) وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ(٢١).

وتقول سورة الحاقة: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ(١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً(١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ(١٥) وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ(١٦).

النفخة الواحدة، تعني نفخة واحدة، وقد تعني النفخة الأولى والتي ستشكل نهاية هذا الكون، ومن مظاهرها التي ذكرت الآيات: حملت الجبال ودكت، وانشقاق السماء وهي يؤمئذ واهية. ويلي ذلك النفخة الثانية والتي سيولد منها كون القيامة.

وجاء في سورة «يس»: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ(٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ(٥٢).

النفخ في الصور هنا لنشأة يوم القيامة وليس لانهيار كون الدنيا، بدليل أن خروج الناس من الأجداث «الافتراضي» سيكون بعد نشأة كون القيامة.

وهو ما أكدته سورة الكهف: وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً(٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضاً(١٠٠).

والنفخ في الصور لنشأة يوم القيامة ورد ايضاً في سورة النمل: وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ(٨٧).

وفي سورة «طه»: يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً(١٠٢).

وسورة الزمر تقول بكل وضوح إنه سيكون هناك نفخة لنهاية هذا الكون، ونفخة أخرى لنشأة كون القيامة: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ(٦٨) الزمر.

وتؤكد سورة المؤمنون النفخ لنشأة كون القيامة: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ(١٠١).

وتؤكد سورة الأنعام على أن هذا الكون سنتهي بنفخة استجابة إرادة الله التي تتمثل بكن فإذا هو كائن: وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ(٧٣).

وقوله: «كن فيكون» لا تعني أن الله جل وعلا في لحظة ما سيقول للكون: كن! فينهار.

ولكنه تصوير لإرادة الله بما يفهمه المخاطب، وإلا فالكون يسير بقوانين ثابتة خلقها الله (كن فكانت) وخلق الله الكون بعمر افتراضي سينتهي يوماً ما، وهذا ما يمثل إرادة الله (كن فكان).

الطاغية

ورد هذا اللفظ في القرآن مرة واحدة في سورة الحاقة:

الْحَاقَّةُ(١) مَا الْحَاقَّةُ(٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ(٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ(٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ(٥).

والطاغية وصف للزلزال أو الرجفة كما تطلق عليها بعض السور، مثل الأعراف: فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ(٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ(٧٨).

فثمود أهلكوا بالزلزال الذي تصفه الحاقة بأنه «الطاغية»، وسنمر بسور أخرى تصفه بألفاظ أخرى.

المطففون/الغش التجاري

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ(١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ(٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ(٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ(٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ(٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(٦) المطففين.

الآيات تتوعد بلهجة شديدة المطففين، وهم - كما عرفتهم الآيات - الذين: إذا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ.

فالتطفيف هو ما يعرف الآن بالغش التجاري، والقرآن يحرمه بكل صوره وأشكاله وأساليبه وطرقه.

والآيات السابقة تمثل المادة الأصلية للغش التجاري، أما التفاصيل تحت هذا القانون العظيم فستشمل كل ما يهم حماية المستهلك. من مأكل ومشرب ودعايات ومواد بناء ونجارة وتجارة ....الخ. ولو طبق هذا القانون فلن نجد مشروبات غازية تباع وتسبب الفشل الكلوي أو هشاشة العظام، ولن نجد مزروعات تسقى بمياه المجاري، ولن نجد دعاية تروج لبرغر مقلية بدهون ثلاثية..... فحتى الإعلانات الدعائية لتسويق المنتجات ستتغير جذرياً.[٧]

الويل

ويل لفظ وعيد وتهديد بالخزي والفضيحة والمصيبة والشر. وليس كما قال المفسرون من أنه واد في جهنم التي لن يعرفوا ما فيها إلا يوم القيامة. وقد وردت في القرآن في عدة سور بمعنى الوعيد الشديد بعذاب النار، ومن ذلك:

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ(١٠) المطففين.

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ(١) الهمزة.

فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ(١١) الطور.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ(٢٧) ص.

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ(٦٠) الذاريات.

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ(٦٥) الزخرف

أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(٢٢) الزمر.

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ(٣٧) مريم.

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ(١٨) الأنبياء.

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ(٧٩) البقرة.

---

٧ انظر فقرة: الغش التجاري / قسم تشريعات من القرآن.

وورد في سورة المرسلات: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ» في الآيات التالية: ١٥، ١٩، ٢٤، ٢٨، ٣٤، ٣٧، ٤٠، ٤٥، ٤٧، ٤٩.

وسور أخرى.

سِجِّين

نبدأ بذكر بعض تحريفات المفسرين المضحكة حول معنى سجين، حيث يقول الطبري في تفسيره الشهير: أن سِجِّين تعني كتاب «سجل» تكتب فيه أعمال الكفار، وهو محفوظ في الأرض السابعة. والمفسرون يظنون أن هناك سبع أراضٍ متطابقة فوق بعض، والناس يعيشون في الأرض الأولى أو العليا، بينما الأرض السابعة أو السلفى يوجد فيها سجل أعمال الكفار.

فسجين عندهم هي تصريف على وزن فعِّيل من السجن، مثل سكير من السكر.

ومما نقله الطبري في هذا قوله: حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرني جرير بن حازم، عن سليمان الأعمش، عن شمر بن عطية، عن هلال بن يساف، قال: كنا جلوسا إلى كعب أنا وربيع بن خيثم وخالد بن عُرْعُرة، ورهط من أصحابنا، فأقبل ابن عباس، فجلس إلى جنب كعب، فقال: يا كعب، أخبرني عن سجِّين، فقال كعب: أما سجِّين: فإنها الأرض السابعة السفلى، وفيها أرواح الكفار تحت خد إبليس. إنتهى

فكعب الأحبار اليهودي هو مصدر هذه التخاريف.

وقال مفسرون آخرون إن سجين واد في جهنم، وما أكثر الأودية التي اختلقها المفسرون في جهنم، مثل:

موبقا: في قوله تعالى: وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقاً(٥٢) الكهف.

الآثام: في قوله تعالى: وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً(٦٨) الفرقان.

سحقا: في قوله تعالى: فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ(١١) الملك.

غياً: في قوله تعالى: فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ

يَلْقَوْنَ غَيّاً(٥٩) مريم.

ضريع: في قوله تعالى: لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ(٦) الغاشية.

الفلق: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ(١) الفلق.

وغيرها .. فكلما مر بأحدهم لفظ لا يعرف معناه قال هو واد في جهنم.

ونعود لسورة المطففين لنتعرف من آياتها على معنى سجين، تقول السورة: يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(٦) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ(٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ(٨) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ(٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ(١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ(١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ(١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ(١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ(١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ(١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ(١٧) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ(١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ(١٩) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ(٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ(٢١) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ(٢٢).

سجين: كتاب مرقوم، مثلما أن "عليين" كتاب مرقوم. فمرقوم يعني محفوظاً.

الفارق بينهما أن "سجين" تعبير لسجلات المكذبين، التي ستؤدي بهم إلى النار، بينما «عليون» يمثل سجلات أعمال الأبرار التي ستؤدي بهم للجنة.

وليست سِجّين على فِعّيل من السجن ولا سجلات موجودة في الأرض السابعة التي لا وجود لها إلا في خيال المفسرين.

القَضْب

وردت في القرآن مرة واحدة في سورة عبس ضمن آيات تدعو قريشاً للتفكير بالخلق للاستدلال على قدرة الخالق على البعث، وتقول الآيات: فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ(٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً(٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً(٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً(٢٧) وَعِنَباً وَقَضْباً(٢٨) وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً(٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْباً(٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبّاً(٣١) مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ(٣٢).

والآيات تتحدث عن النباتات والأشجار المثمرة التي يقتات عليها البشر والأنعام التي تعرفها قريش (المخاطب). وينقل الطبري تأويلات مختلفة لمعنى القضب عند المفسرين ليس لها مصدر سوى تخيلاتهم، فبعضهم قال بأن القضب هو الفِصفِصة، وبعضهم قال

هي الرطبة، إلى أن قال: «وأهل مكة يسمون القَتَّ القَضْب». وبما أن الآيات تتحدث عن متاع الناس والأنعام، فإن كان أهل مكة يسمون القت - وهو البرسيم - القضب، فهو المقصود في الآية. وتكون الفواكه والزيتون والحدائق متاعاً للناس والقضب متاعاً للأنعام، سواءً كان البرسيم أو غيره[٨].

أبّاً

في نفس الآيات السابقة من سورة عبس ورد ذكر «الأبّا»: وَفَاكِهَةً وَأَبّاً(٣١) مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ(٣٢).

والآيات تتحدث عما ينبت ويأكله الناس وأنعامهم، والآيات ذكرت: الحب، العنب، القضب، الزيتون، النخل، الحدائق، الفاكهة، والأب.

المفسرون والمحدثون أوردوا قصصاً عجيبة حول «أبّا»، ومن ذلك ما نسبوه لأبي بكر وعمر أنهما لا يعرفان معنى اللفظ. وأن أبا بكر أحجم عن إعطاء معنى له بحجة أنه لا يريد أن يقول بشيء لم يقله القرآن. كما أن عمر كان يتساءل: قد عرفنا الفاكهة فما الأب؟

والقُصاص - الذين ابتلي بهم الإسلام بعد الفتوح - في مجالس تفسيرهم وأحاديثهم لا يعلمون متى نزلت سورة عبس، وإلا لما اختلقوا هذه القصص الخرافية. لأن السورة نزلت في مكة ولو كان أبا بكر أو عمر لم يعرفا معنى لفظٍ ورد فيها فسيسألان الرسول وسينزل الوحي بالجواب. ولن يكون من المعقول ألا يجول بخاطر أبي بكر أو عمر التساؤل إلا بعد وفاة الرسول وهما يقرءآن السورة على مدى عشرين سنة والرسول على قيد الحياة، وبعد وفاته يتذكران أنهما لا يعرفان معنى الكلمة.

ولعل الأب هو الخضراوات، وتكون الآية ذكرت ما يأكل الناس: الحب، العنب، الزيتون، النخل، الفاكهة، والأب.

وذكرت ما تأكله الحيوانات العاشبة وهو القضب، الذي يدخل فيه الحشائش. كما ذكرت الآية الحدائق.

---

٨ القضب في لهجات جنوب غرب جزيرة العرب هو البرسيم وما قام مقامه مما تعلفه الحيوانات العاشبة، ولازال هذا اللفظ بهذا المعنى مستخدماً حتى اليوم.

الصاخة

وردت مرة واحدة في القرآن: فَإِذَا جَاءتِ الصَّاخَّةُ(٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ(٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ(٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ(٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ(٣٧) عبس.

الصاخة وصف مجازي للقيامة مثل الطامة والقارعة، وليست اسماً للقيامة، أو وصفاً ليوم القيامة لأن لها صوتاً يصخ الآذان كما يزعم المفسرون.

سندس وإستبرق

وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً(٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً(٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً(٢٢) الإنسان.

الآيات جاءت ضمن سياق آيات تتحدث عما في الجنة للمؤمنين من نعيم، ومنه الثياب التي يلبسون وهي من أقمشة السندس والإستبرق.

والسندس والإستبرق لابد أنه أقمشة فاخرة كالحرير أو من الحرير والديباج، تعرفها قريش وتسميها بهذه المسميات، زمن الرسول. وليست أسماء أعجمية ذكرها القرآن وقريش لا تعرفها ولا تستخدمها كما يقول المفسرون. فكل الألفاظ التي ورد ذكرها في القرآن يعرفها المخاطب الذي تخاطبه الآيات، وحتى لو كانت الألفاظ ليست مشتقة ولا تخضع لتصريف قواعد النحو العربي مثل سندس وإستبرق فهي ألفاظ مستخدمة لدى قريش قبل نزول القرآن.

وقد ورد الإستبرق في الشعر الجاهلي، ومن ذلك ما نسب للشاعر المرقش[9]:

تَرَاهُنَّ يَلْبَسْنَ المَشاعِرَ مَرَّةً   واسْتَبْرَقَ الدّيباجِ طَوْرا لِباسُها

وقد يكون سبب تسمية هذه الأقمشة بالسندس والإستبرق يعود إلى أنها أقمشة تجلبها قريش من بلاد أجنبية كفارس أو بلاد الروم وأطلقوا عليها هذه التسميات التي أصبحت مألوفة ومتداولة قبل الإسلام، فاستخدمها القرآن ليس كألفاظ غير عربية ولكن كألفاظ متبناة في العربية مثلما نستخدم اليوم كلمات مثل: كمبيوتر أو كوب أو جبس، أو سمنت وغيرها.

---

٩ المرقش هو ربيعة أو عمرو ابن سعد ابن مالك، من بني ثعلبة.

وقد ورد ذكر السندس والإستبرق في موضعين آخرين في القرآن، هما:

في سورة الدخان: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ(٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ(٥٣).

وفي سورة الكهف: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً(٣٠) أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً(٣١).

الحور والولدان

كل الصور الحسية المذكورة في القرآن لما في الجنة والنار مجازية لا تنقل لنا الواقع كما هو، ولكنها تقربه من ذهن المخاطب وهم على الدوام قريش من أجل زيادة الترغيب والترهيب.

وقد ورد لفظ «ولدان» في القرآن مرتين، الأولى في سورة الواقعة: عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ(١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ(١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ(١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ(١٨).

والثانية في سورة الإنسان: وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً(١٩).

وليس في معاجم اللغة التراثية معنى واحد محدد للولدان، لأن ما في تلك المعاجم عبارة عن نقل لأقوال المفسرين الذين - كعادتهم - لم يتفقوا على معنى اللفظ، كونهم لا يرجعون لمصادر يستقون منها أقوالهم، وكل ما يقولون عبارة عن تخمين وتخريص شخصي. ومما قالوه إن الولدان أولاد المؤمنين الذين يموتون وهم صغار، وقال آخرون بل أولاد الكفار. وقال آخرون هم غلمان خلقوا في الجنة لخدمة أهلها.

وولدان لفظ لا مفرد له مثل قرآن. ولا يمكن أن يعني مخلوقات حية، لأن كل مخلوق حي لا يمكن أن يخلق في الآخرة، كونها داراً لبعث من خلق في الدنيا. ولا يمكن أن يخلق مخلوق في الآخرة لكي يعمل، لأن الآخرة دار ثواب وعقاب وليست دار عمل وتحصيل.

وكل مخلوق حي خلق ليعمل في الدنيا ويثاب في الآخرة، فليس في الدنيا أجر وثواب

وعقاب. مثلما أنه ليس في الآخرة عمل وتحصيل، لأنه لن يكون هناك حياة أخرى بعد حياة الآخرة الأبدية، لكي تخلق فيها مخلوقات حية لتعمل ثم تموت، لتحاسب في حياة تالية لحياة القيامة.

كما ورد لفظ «غلمان» بنفس معنى «ولدان» مرة واحدة في سورة الطور: وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ(٢٤).

وكما الولدان جاء ذكر «الحور» التي أولها المفسرون على أنها تعني نساء من لحم ودم خلقهن الله في الجنة لمتعة الرجال المؤمنين جنسياً.

ومما قالته كتب التراث عن الحور العين، قول مجاهد: "وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ قال: أنكحناهم حورا. قال: والحُور: اللاتي يحار فيهنّ الطرف بادٍ مُخُّ سوقهنّ من وراء ثيابهنّ، ويرى الناظر وجهه في كبد إحداهنّ كالمرآة من رقة الجلد، وصفاء اللون»[١٠].

وها الوصف الذي قاله مجاهد لم يخبره به الله ولا رسوله ولم يطلعه الله على ما سيكون في الجنة لينقله لنا، ولكنه مجرد تخمين وتصور شخصي فيه جرأة وقحة على كلام رب العالمين لأنه يحمله ما لا يحتمل، ويقوله ما لم يقل. وهذا ديدنهم في كل ما يسمى بالتفسير. كما أن قول مجاهد هذا مخالف لمعنى الحور في اللغة، وهي جمع حوراء، والحوراء شديدة البياض. وكل ما قالوه عن معنى الحور أقوال تعكس رغباتهم الجنسية ومقاييسهم في الجمال حينها.

وقد ورد ذكر الحور في عدد من السور، منها:

سورة الواقعة: وَحُورٌ عِينٌ(٢٢) الواقعة.

سورة الدخان: كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ(٥٤) الدخان.

سورة الطور: مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ(٢٠) الطور.

ووردت عبارة «قاصرات الطرف» بنفس معنى الحور في عدد من السور منها:

سورة الدخان: فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ(٥٦).

وسورة «ص»: وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ(٥٢).

وسورة الصافات: وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ(٤٨).

١٠ تفسير الطبري.

والولدان (الغلمان) والحور قد تشير لصور حسية مجازية لخدمات آلية يتلقاها المؤمنون في الجنة وليست مخلوقات حية لأن القيامة ليست دار عمل ولا خلق مخلوقات جديدة كما أسلفنا.

الروح

بعيداً عن أقوال المفسرين التي لا أساس لها، وأقوال بعض الكتاب أيضاً، سنعتمد الآيات التي ذكرت الروح للتعرف على ما تعنيه. وسنجد أن هناك الرَّوح بفتحة وشدة عيلى الراء، والرُّوح بضمة وشدة على الراء.

والروح (بشدة وضمة على الراء) تأتي بمعنى مخلوقات حية ودلالات أخرى، كما يلي:

الروح مخلوقات حية تختلف عن الملائكة

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً(٣٨) النبأ.

تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ(٤) القدر.

تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ(٤) المعارج.

الآيات السابقة تظهر أن «الروح» مخلوقات حية تختلف عن الملائكة. فالروح مخلوقات حية من طاقة تختلف عن الملائكة وتعيش في مكان ما من الكون.

الوحي المنزل على الرسل

رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ(١٥) غافر.

ومثله: يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ(٢) النحل.

ومثله: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٥٢) الشورى.

والذي أنزل الوحي على الرسول هو أحد الملائكة واسمه جبريل كما ورد في قوله تعالى: قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى

لِلْمُؤْمِنِينَ(٥٢) البقرة.

فالوحي روح لأنه غير مشاهد ولا محسوس.

الروح هم الملائكة

وإِنَّهُ لَتنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ(١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ(١٩٤) الشعراء.

والذي نزل القرآن على قلب (ذاكرة) الرسول هو جبريل:

ومثله: فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً(١٧) مريم.

والذي تمثل لمريم أحد الملائكة بشهادة ما ورد في سورة آل عمران: إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ(٥٢).

فالملائكة روح لأنها غير مشاهده وليس لها أجساد محسوسة.

روح القدس

لا يرد في القرآن عبارة «الروح القدس» بالتعريف، ولكن يرد روح مضافة للقدس: «روح القدس». وروح القدس هو من أنزل القرآن ونسخه في ذاكرة الرسول: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ(١٠٢) النحل.

وهو أحد الملائكة، واسمه جبريل كما ورد في قوله تعالى: قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ(٥٢) البقرة.

فروح القدس هو جبريل بالذات، وهو الذي أيد الله به عيسى ابن مريم: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ(٨٧) البقرة.

وكررت ذكره البقرة في الآية: (٢٥٣)، والمائدة في الآية: (١١٠).

وهو الذي يؤيد المؤمنين: لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم

بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٢٢) المجادلة.

والتأييد يكون معنوياً ونفسياً فقط.

طاقة

والروح تأتي بمعنى طاقة، ومن ذلك:

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ(٩١) الأنبياء.

فالنفخ الذي تعرضت له مريم كان طاقة تسببت بتخصيب البويضة والحمل بعيسى.

فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ(٧٢) ص.

ومثله: فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ(٢٩) الحجر.

والنفخ في آدم طاقة أدت لبعث الحياة فيه.

وتقول سورة السجدة عن تخلق الجنين: ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ(٩) السجدة.

فالروح هنا هي تلك الطاقة التي تنفخ في الجنين في عمر محدد فتدب في جسمه الحياة.

الرَّوح بالفتح

يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ(٨٧) يوسف.

والكلام في الآية ليعقوب وهو يوصي أبناءه، والروح في كلام يعقوب قصد بها قدرة الله أو رحمته للعثور على يوسف وأخيه. والروح بهذا المعنى لم ترد في القرآن إلا على لسان يعقوب.

الشفاعة

يقصد بها في كتب التراث: كلام الشَّفِيعِ للسلطان في حاجة يسألها لغيره. والشفيع هو الشخص ذو الحظوة عند السلطان. وكتب التراث تقول بأن رسول الله محمد سيكون شفيعاً لكل من يشهد بشهادة الإسلام عند الله وسيحظون بالغفران من الله بموجب شفاعته عليه الصلاة والسلام. فيخرجون من النار ويدخلون الجنة، ولو كانوا فساقاً وعصاة ومرتكبين

للكبائر وماتوا ولم يتوبوا. بل وتقول تلك الكتب إن الأنبياء سيشفعون، وكثير من الناس سيشفعون لغيرهم يوم القيامة.

ومن اعتقد أن الرسول محمداً أو أي رسول بشري أو أي مخلوق في الكون يمكن أن يكون شفيعاً أمام الله بهذا المعنى للشفاعة، فهو لم يقدر الله حق قدره، وصوره على أنه عاطفي تجذبه الكلمة الحلوة كما البشر. وهو تحقير لذات الله، الذي لا يتعامل مع خلقه بالعواطف: مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ(٢٩) ق.

ولكنه سبحانه يدير خلقه في الدنيا والآخرة ويحاسب الناس بقوانين ثابتة لا تتغير: لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً(١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً(١٢٤) النساء.

ولا مجال لوساطة ولا شفاعة ولا وجاهة أمام الله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ(٣٣) لقمان.

والرسول محمد عليه الصلاة والسلام بشر لا يزيد عن غيره من البشر، وتكليفه بتبليغ الرسالة لا يجعله محظياً عند الله أكثر من غيره. فهو مأمور بطاعة الله وعبادته كما أمر بقية الناس سواء بسواء: قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ(١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ(١٢) الزمر.

وسيتعرض للعذاب لو عصى الله أو كفر: قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي(١٤) الزمر.

ويوم القيامة سيحاسب مثله مثل أي إنسان آخر: إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ(٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ(٣١) الزمر.

وكل الرسل سيحاسبون: وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٦٥) الزمر.

ويوم القيامة لن يجد من يشفع له عند الله سوى أعماله، وسيكون أمر الحساب والعقاب والثواب لله وحده، ولن يكون بمقدور الرسول تقديم العون لنفسه ولا لغيره: لَيْسَ لَكَ

مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ(١٢٨) وَللهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٢٩) آل عمران.

الشفاعة في القرآن

ليس في القرآن آية واحدة تقول بأن رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام سيشفع لأمته، كما تزعم كتب التراث. وقد ورد لفظ «الشفاعة» في عدة سور من القرآن، منها: المدثر: ٤٨، سبأ: ٢٣، طه: ١٠٩، الزمر: ٤٤، الزخرف: ٨٦، مريم: ٨٧، النساء: ٨٥، وفي ثلاث آيات من سورة البقرة، هي: ٤٨، ١٢٣، ٢٥٤.

وفيما يلي استعراض لبعض الآيات للتعرف على معنى الشفاعة فيها:

تقول سورة المدثر ضمن حديث عن الكفار: وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ(٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ(٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ(٤٨).

والمدثر أول سورة تبدأ بها دعوة الرسول[١١]، ولم يكن مطلوباً لدخول الجنة حين نزلت سوى الإيمان بالله والبعث فقط، لأن التشريعات لم يفرض منها شيء بعد. ومن يؤمن ويموت في تلك الفترة فسيدخل الجنة دون حاجة لشفاعة. لذا فالشفاعة هنا لا تعني الوساطة عند الله من قبل شخص من البشر طلباً لمغفرة شخص آخر. لأنه لن يكون هناك حساب على الكبائر التي لم تحدد بعد. فالناس حينها إما مسلم (آمن بالله وحده وبالبعث وليس مطلوب منه عمل صالح) أو كافر. ولا مجال للشفاعة بمعناها الشائع التي تقول بأن الرسول سيشفع للعصاة.

فمن هم الشافعون لكفار قريش الذين تتحدث عنهم الآية؟

سورة الزمر تخبرنا بذلك: أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ شُفَعَاء قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ(٤٣) قُل للهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٤٤).

الآيات تتساءل تساؤل استنكار إن كان الكفار اتخذوا أصنامهم شفعاء لهم يدعونهم من دون الله. فالشفاعة لله وحده هو من يشفع، بقبوله سبحانه عمل وإيمان عباده.

وورد في سورة سبأ: قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ

١١ لنتذكر أن البعثة بدأت بنزول سورة الفاتحة، ونزل بعدها ست سور، هي: الفيل، قريش، العصر، التين، التكاثر، والعاديات. ثم نزلت المزمل، قبل أن تنزل المدثر وبها بدأت الدعوة.

وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ(٢٢) وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ(٢٣).

الآية تقول: « وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ». وهذا لا يعني أن هناك من يأذن الله لهم بالشفاعة لغيرهم، ولكنه أسلوب القرآن، مثل قوله تعالى: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ(٦٨) الزمر.

فالمخلوقات كلها ستموت ولن يتبقى أحد ثم يبعثون ليوم القيامة، ومع ذلك فإن الآية تقول بأنه سيكون هناك من سيبقى.

والشفاعة هنا تشير إلى أن الكفار يعتقدون أن عبادة الأصنام ستكون العمل الذي يقبله الله ويرضى عنهم بسببه، كما في السورة السابقة.

وتقول سورة الأنعام: وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ(٩٤).

فما ظننتم أن عبادة الأصنام عمل صالح عند الله، هو ظن خاطئ.

وورد في سورة الزخرف: وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(٨٦).

فأصنام قريش لا تملك القدرة على أن تدعو الله ليغفر لقريش، وليست عملاً يرضاه الله، وكل من يرغب بمغفرة الله عليه أن يؤمن به سبحانه. فالإيمان شفيع لصاحبه، ولا شفيع له من غيره.

وتقول سورة مريم: وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً(٨٦) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً(٨٧).

واتخاذ العهد عند الله يكون بالإيمان. ويكون عهد الإيمان هو الشفيع لصاحبه المقبول عند الله.

وجاء في سورة النساء: من يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً

يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتاً(٨٥).

والشفاعة هنا قد تعني الطريقة والسنة، فمن يشفع شفاعة حسنة يعني من يسن سنة حسنة، وذلك في الدنيا ولا شأن لها بالشفاعة بمعناها الشائع.

وتقول سورة طه: يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَت الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً(١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً(١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً(١١٠).

الآيات تتحدث عن يوم القيامة لحظة الحساب، وتقول: «يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً».

فهل هناك من البشر من يستطيع أن يشفع عند الله لبشر؟

الآية لا تقول بهذا، لكنها لا تنفي احتمال حدوثه بشرط أن يأذن به الله.

فهل يمكن أن يأذن الله لمحمد عليه الصلاة والسلام - كما تقول كتب التراث - ليشفع في أمته وتكون النتيجة أن يدخل الله جل وعلا الجنة من أمة محمد من كان يستحق النار لو حوسب بما قدم وسجلته صحيفة أعماله؟

لو حدث هذا فهو يتنافى مع آيات كثيرة تؤكد أن من عدل الرحمن ألا يعذب مستحق الجنة ولا يغفر لمستحق النار، ومن ذلك ما ورد في سورة «ص»: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ(٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ(٢٨).[١٢]

ولو حدث هذا فما ذنب الأمم السابقة لمحمد التي ليس لها شفيع من رسلها؟

ولو حدث هذا فهو خرق لقانون إلهي ينص على أن الجنة مضمونة لمن آمن وعمل صالحاً كما ورد في سورة الأنعام: وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٤٨).

وخرق لقانون إلهي آخر يقول بأن من يدخل النار لن يخرج منها: وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٨٠) بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيـئَتُهُ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٨١)

١٢ انظر فقرة: من عدل الله المطلق ألا يغفر لمستحق النار ولا يعذب مستحق الجنة / قسم أدلة من القرآن.

وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٨٢) البقرة.

فبنو إسرائيل لديهم عقيدة تقول بأن المذنب منهم ومرتكب الكبائر سيدخل النار لأيام معدودة مقابل ذنوبه ثم يخرج منها للجنة. والآيات تكذب هذا وتقول بكل وضوح: إن من ارتكب خطيئة تستحق دخول النار فسيخلد في النار (ولو آمن بالله) ولن يخرج من النار من دخلها. أما الجنة فسيدخلها من آمن وعمل صالحاً (ومن العمل الصالح تجنب الوقوع في الكبائر).

إذاً، من يستحق النار سيدخل النار ولن يسمع فيه شفاعة، ومن يستحق الجنة سيدخل الجنة دون حاجة لشفاعة. فلماذا قالت الآية: «يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً»؟

لو تتبعنا أساليب القرآن لوجدناها مختلفة عن أساليبنا ومميزة، ومن ذلك استخدام الاستثناء بإلا والذي لا يعني الاستثناء، مثل قوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ(١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ(١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ(١٠٨) هود.

فمن في الجنة لن يخرجوا منها أبدا بشهادة القرآن: وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً(١٢٢) النساء.

ومع ذلك تقول سورة هود: «وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ».

فقوله «إلا ما شاء ربك» لا تعني أن أهل الجنة سيخرجون منها يوماً، لكنها تقول بأن بقاءهم فيها بمشيئة الله، ولو شاء الله فلن يبقوا. وهذا لا يعني أنهم سيخرجون ولكنه يعني أن كل شيء بإذن الله ومشيئته سبحانه.

ولو طبقنا هذا المفهوم على آية سورة طه التي تقول: «يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً» فليس هناك خيار لأي بشر أن يشفع لغيره، لأن الأمر كله يومئذ لله. لكن لو شاء الله لسمح بشفاعة بشر لغيره من البشر. وهذا لا يعني أنه سيحدث، لكنه

يدخل ضمن مشيئة الله وإذنه ولا شيء يحدث خارج ذلك.

فالحديث ليس لإقرار أن هناك شفاعة، ولكنه حديث على أن كل فرد سيكون مسئولاً عن مصيره بما قدم كما تقول آيات كثيرة: كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(٣٨) المدثر.

وليس هناك ظلم مطلقاً: الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(١٧) غافر.

ولن يستطيع غيره أن ينقذه أو يشفع له أو يحول بينه وبين مصيره، لأن كل إنسان مسئول عما صدر منه، ولا يمكن لأحد أن يتطوع من تلقاء نفسه لكي يقوم بشيء لغيره. فالعمل والتحصيل كان في الدنيا، والآخرة لا مجال فيها لعمل الخير وتسجيل الأعمال أو للغفران.

وهو ما تؤكده سورة طه في نفس سياق الآيات التي تذكر الشفاعة: وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً(١١١) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً(١١٢).

فكل الوجوه عنت للرحمن بلا استثناء، وكل من عمل منهم في الدنيا صالحاً وهو مؤمن فلن يخاف ظلما ولا هظماً. ومن هظم الحقوق أن يدخل الجنة معه مستحق للنار. فهو عمل صالحاً وأطاع الله وآمن به فاستحق الجنة كوعد من الله، ولو تسامح الله مع مستحق للنار وأدخله الجنة فهو هظم لمستحق الجنة.

لا شفاعة يوم القيامة

تقول سورة البقرة: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ(٤٧) وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ(٤٨).

فليس هناك مجال للتشفع والتوسط يوم القيامة عند الله من بعض خلقه لبعض.

وهو ما كررته حرفياً السورة في مكان آخر: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ(١٢٢) وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ(١٢٣).

وتخاطب سورة البقرة المؤمنين بما خاطبت به بني إسرائيل: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا

رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٢٥٤).

فيوم القيامة ليس فيه وساطة إلا الإيمان والعمل الصالح. والمؤمن لن يتوفر له شفيع (بالمعنى الشائع). وهو نفي قاطع لا يحتمل التأويل بأن الشفاعة بمعناها الشائع لا وجود له يوم القيامة.

وليس في القرآن ما يفيد أن الشفاعة تعني التوسط من قبل شخص أمام الله يوم القيامة وطلب المغفرة للغير. ولن يكون بمقدور مخلوق أن يهتم لمخلوق آخر يوم القيامة: يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ(٢) الحج.

والوسيلة الوحيدة للنجاة والشفيع من النار هي الأيمان والأعمال الصالحة: وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى(٧٥) طه.

ويوم القيامة سيتم الحساب بطريقة آلية ولن يحضر سبحانه ويحاسب خلقه وجهاً لوجه، ولن يكون هناك حديث بينه تبارك وتعالى وبين أحد من خلقه.

وقد ورد لفظ الشفاعة والشفيع في عدد من السور ليس من بينها واحدة تقول إن هناك شفاعة بمعناها الشائع ولا يقبل الله شفاعة إلا شفاعة الإيمان والعمل الصالح.

كل الآيات التي تذكر الشفاعة في القرآن لا تعني الشفاعة بمعناها الشائع.

والجنة لا تضمن بالشفاعة ولكن الجنة تضمن بالإيمان والعمل الصالح والبعد عن الكبائر: وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢) النجم.

فالشفاعة هي الإيمان والعمل الصالح والبعد عن الكبائر، ولن يكون هناك مخلوق من الملائكة أو الرسل ليشفع لغيره عند الله.

أساطير الأولين

الأساطير هنا تعني: قصصاً خرافياً مختلقاً في عصور قديمة يتناقله الناس مشافهة. وقد ورد في القرآن في عدة سور كلها ضمن الحديث عن قريش ورفضها للدعوة ووصفها للقرآن بأنه أساطير وخرافات قديمة.

فقد ورد في سورة المطففين: الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ(١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ(١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ(١٤).

والحديث هنا عن موقف كفار قريش عموماً.

وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ(١٠) هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ(١١) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ(١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ(١٣) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ(١٤) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ(١٦) ن والقلم.

والحديث هنا عن أحد كبراء قريش.

وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(١٧) الأحقاف.

والآية تتحدث عن قرشي أسلم والداه ودعواه للإسلام فرفض الدعوة.

وورد في سورة النمل: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ(٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(٦٨).

والحديث هنا عن موقف قريش عموماً من الدعوة.

وهو ما كررته سورة المؤمنون: قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ(٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(٨٣).

وفي سورة الفرقان تقول قريش عن القرآن: وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً(٥).

وذلك بعد أن بدأت مجموعات من الناس من خارج مكة تفد إليها لمقابلة الرسول والاستماع له فكانت قريش تتعمد صد الناس بعدة أساليب منها قولهم للوافدين أن محمداً اكتتب

نصوصاً من أناس لهم اطلاع بقصص وخرافات الأولين ويقوم بتلاوتها زاعماً أنها من عند الله.

وهو ما تؤكده سورة النحل قائلة بأن رجال قريش إذا ما سألهم الناس عما يقول محمد أجابوهم أنه يتلو قصصاً وخرافات قديمة زاعماً أنها من الله: وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ(٢٤) النحل.

وتقول سورة الأنعام إنْ قريشاً بدأت تدخل مع الرسول في جدل في اواخر العصر المكي لكي تظهره أمام الناس الوافدين من خارج مكة على أنه كاذب يتلو على الناس خرافات قديمة ويقول هي من عند الله: وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ(٢٥) الأنعام.

وآخر ذكر لأساطير الأولين كان في سورة الأنفال التي نزلت بعد معركة بدر مباشرة: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ(٣٠) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَـذَا إِنْ هَـذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ(٣١).

والآيات تتحدث عما سبق ولقيه الرسول في مكة قبل الهجرة، ومنه أنهم كانوا يصفون القرآن بخرفات قديمة يسهل قول مثلها. وهو زعم لم تتمكن قريش من تأكيده عندما تحداهم القرآن أن يأتوا بعشر سور من مثله، أو بسورة واحدة.

ولم يأت ذكرٌ لعبارة: «أساطير الأولين» بعد ذلك لأن قريشاً لم تعد هي المخاطبة في الدعوة للإسلام بعد الهجرة.

اليوم

يأتي اليوم في القرآن بعدة معان كما هو الحال بالنسبة للغة. وسنورد بعضاً منها، كما يلي:

اليوم بمعنى وقت غير محدد الطول

والقرآن يصف الآخرة بيوم القيامة، واليوم هنا يعني وقتاً غير محدد الطول، وليس يوماً مكون من نهار وليل. ذلك أن عالم القيامة لن يكون فيه شمس ونهار وليل، ولكن سيكون

هناك وقت للحساب ومن ثم أوقات للعذاب والثواب. وفيما يلي بعض ما ورد في القرآن بهذا المعنى:

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً(١٧) المزمل.

يوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً(٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً(٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً(٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً(١٠) فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً(١١) الإنسان.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ(٣٣) لقمان.

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً(٢٦) الفرقان.

وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ(٤٨) البقرة.

وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ(١٢٣) البقرة.

وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ(٢٨١) البقرة.

اليوم بمعنى فترة لها نفس السمات والملامح

وقد تكون مكونة من عدة أيام ومن ذلك:

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ(١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ(١٩) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ(٢٠) القمر.

فقوم عاد أهلكوا بريح صرصر عاتية سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ(٧) الحاقة. ومع ذلك فسورة القمر تطلق على تلك الأيام: يوماً، لأن تلك الأيام كانت متشابهة في استمرار هبوب الرياح العاتية دون توقف.

وقد يتكون اليوم الواحد من عصر جيولوجي يمتد لمئات وآلاف الملايين من السنين، كما في الآيات التي تتحدث عن خلق السماوات والأرض (الكون)، ومن ذلك: وَلَقَدْ خَلَقْنَا

السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨) ق.

وتقول سورة فصلت: قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ.

فالكون خلقه الله في ستة أيام (عصور) وليس في ثمانية، ولكن كان هناك أيام (عصور) احتوت على أيام (عصور) أصغر، كما تدل عليه هذه الآيات.

والعصر الجيولوجي مثل الأبد (Eon) الذي يمثل أطول مراحل الزمن الجيولوجي يحتوي على عصور أصغر هي الدهور (Era) وهذه تتضمن فترات أصغر هي الحقب (Period) وهكذا.[١٣]

الزبر

تأتي بمعنى السجلات الإلهية، كما ورد في سورة القمر:

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣).

وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢).

ووردت كلمة «الزبر» بمعنى السجلات أيضاً في قوله تعالى: وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (٥٣) القمر.

فالزبر هنا بمعنى السجلات التي يسجل فيها عمل الإنسان، أو صحيفة أعماله.

وفي قوله تعالى: وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) القمر.

الزبر هنا بمعنى السجلات الإلهية، وهو تعبير مجازي يقول بأن قريشاً ليس لها ضمانات عند الله مكتوبة موثقة ومسجلة.

كما تأتي الزبر بمعنى الرسالة، كما في الآيات التالية:

---

١٣ انظر الموسوعة البريطانية.

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ(٢٥) فاطر.

وفي سورة النحل: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(٤٤).

وفي سورة آل عمران: فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ(١٨٤).

فالزبر هي البينات وهي الكتاب المنير التي هي أوصاف لدين الله الذي أرسلت به الرسل.

وجاءت الزبر لتشير إلى الوحي والرسالة في سورة فاطر: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥).

وبمثل هذا جاءت الزبر في سورة النحل: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤).

فأهل الكتاب لديهم علم بالرسالات السابقة، والزبر هنا هي السجلات التي تحتوي على نسخة الرسالة الأصلية. وهو نفس المعنى الوارد في الآية (١٨٤) من سورة آل عمران: فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ.

الزبور

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ(١٠٥) الأنبياء.

الزبور (بالتعريف وضمة على الباء) تعني السجل الإلهي. وهو الأرشيف الإلهي الذي يحفظ فيه نسخة الوحي الأصلية، ومن مسمياته في القرآن: اللوح المحفوظ والكتاب المكنون وأم الكتاب وأسماء أخرى.[١٤]

فالزبور في الآية أعلاه تعني السجلات الإلهية.

---

١٤ انظر فقرة: الإرشيف الإلهي/ قسم أدلة ومواضيع من القرآن.

أما «زبور» بدون تعريف فجاءت مرتين في القرآن كلها تقول: «وآتينا داوود زبوراً» وداوود ليس له رسالة مكتوبة ولا غير مكتوبة خاصة به، لو تجاهلنا تخاريف المفسرين الذين قالوا إنه أنزل عليه كتاب كله دعاء وليس فيه لا تشريع ولا عبادات ولا دين. وداوود أوتي علماً وحكماً ونبغ في كثير من المجالات، فيكون معنى «زبورا» العلم والحكمة والنبوغ.

المسكين

هو المحتاج الذي لا يستطيع لقلة دخله توفير احتياجاته من الغذاء والدواء واللبس والمسكن وخلافه، لأي سبب من الأسباب.

وأول ذكر للمسكين كان في سورة المدثر: إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ(٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ(٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ(٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ(٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ(٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ(٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ(٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ(٤٧).

والآيات تعطي صورة افتراضية مجازية وكأن أهل الجنة سيسألون أهل النار لماذا دخلوا النار فيأتي الجواب أنهم لم يؤمنوا بالدعوة، والتي تعبر عنها الآيات بعدم أداء الصلاة والامتناع عن إطعام المسكين إضافة للبعد عن التفكير بالآخرة والعمل لها.

فالآيات تقول: لا يمكن دخول الجنة بدون إطعام المسكين.

والقانون هنا يقول: إطعام المسكين واجب على القادر وحق للمسكين وليس منة أو معروفا.

ومن ثم ورد في سورة الفجر: كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ(١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ(١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً(١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً(٢٠).

ويستفاد من هذه الآيات وجوب نشر التوعية في المجتمع المسلم بأن إطعام المسكين ضرورة لا يمكن دخول الجنة بدونها.

وإطعام المسكين يقاس عليه سد حاجاته الأخرى.

وتقول سورة البلد: فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ(١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ(١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ(١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ(١٤) يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ(١٥) أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ(١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ(١٧) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ(١٨) وَالَّذِينَ

كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ(١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ(٢٠).

فمن لا يطعم المسكين في يوم مسغبة (مجاعة) وهو قادر فلن يدخل الجنة.

وقد ورد الحث على إطعام المسكين وسد احتياجاته في سور عدة، منها: الإنسان: (٨)، الحاقة: (٣٤)، بني إسرائيل: (٢٦)، المجادلة: (٤)، البقرة: (١٨٤)، الماعون: (٣)، والروم: (٣٨) وغيرها.

اليتيم

هو من فقد أحد والديه وليس من فقد والده فقط، كما تقول قواميس اللغة. وهناك يتيم فقير، لأنه لم يرث، وهناك يتيم يملك مالاً ورثه من والديه أو من ذوي القربى. وسنستعرض بعض الآيات التي ورد فيها ذكر اليتيم، ونجمل ما أشارت له.

والقرآن بدأ بالأمر بإكرام اليتيم، قبل أن يأمر بإطعامه، لأن كرامته أهم من ملئ بطنه. وأول سورة ذكر فيها اليتيم هي سورة الفجر :كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ(١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ(١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً(١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً(٢٠).

والسورة نزلت في بداية الدعوة في مكة، وإكرام اليتيم يعني كل ما يحفظ له كرامته وإنسانيته ومشاعره وحياته. ومن ذلك تأمين حياة كريمة له - إن كان فقيراً - من مسكن ومأكل وملبس ومصدر دخل ثابت يبعد عنه شبح الفاقة ويغنيه عن الحاجة. ومن حفظ الكرامة أن يعامل معاملة إنسانية سوية باحترام وتقدير. وملاجئ الأيتام الموجودة في بلادنا لا تؤمن هذه المطالب، ولكنها تنظر للأيتام وكأنهم منحرفون يحتاجون لإصلاحيات تفصلهم عن الحياة العامة. وكان يجب على المسلمين في دولهم أن تكون بيوتهم ملاذاً صالحاً للأيتام ومن في حكمهم، يعيشون بينهم كأبنائهم. يأكلون ما يأكلون ويلبسون ما يلبسون، ويشعرون بنفس الحنان ويعاملون بنفس الدرجة والمساواة مع الأبناء، برفق وإحسان واحترام. ولا يتم تجميعهم في ملاجئ هي أقرب للسجون أو المصحات العقلية، تهان فيها كرامتهم وتمتهن إنسانيتهم، فينشئون على الهوان والشعور بالنقص وكأنهم خلق مختلف. وهو ما يتنافى مع نهي الله لرسوله: فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ(٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ(١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ(١١) الضحى.

وقهر اليتيم يدخل فيه مضايقته والتعدي عليه بأذى بدني أو نفسي أو جرح مشاعره ولو بكلمة، أو إهماله أو التعامل معه بفوقية وتفرقة أو إشعاره أنه ناقص أو غير مرحب به أو مثير للشفقة. ولو كان للمسلمين دولة تقيم الإسلام، فلا يمكن تصور وجود ملاجئ للأيتام تحت أي مسمى، بل سنجدهم يعيشون بين عائلات تتبنى تربيتهم والتعامل معهم بنفس تعاملهم مع أطفالهم.

وفي حال كان اليتيم ذا مال، فيجب أن يصان ماله وينمى ويحافظ عليه. وتنميته واجبة: وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً(٣٤) بني إسرائيل.

والحرص على مصالح اليتيم بكافة الوجوه واجب وليس تفضلاً، وهو من البر، الذي يعني أسمى درجات الإيمان :لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ(١٧٧) البقرة.

ويدخل في الحرص على مصلحة اليتيم تأمين مستقبله، وهنا يتضح أن حفظ ماله بلا حراك ولا استثمار يدخل في باب الإهمال. فلو ورث اليتيم مالاً يكفي لشراء منزل، فإن هذا المبلغ من المال لن يكون كافياً لشراء المنزل عندما يكبر اليتيم ويرشد ويُمكّنُ من ماله، لأن الأسعار ستختلف. لكن لو تم استثمار المبلغ خلال العشر سنوات التي تفصل بين امتلاك اليتيم للمال وبين تسليمه له فقد يتضاعف.

وتأتي سورة النساء لتكمل الحديث عن اليتامى، قائلة بعدم جواز أكل مال اليتيم بأي وسيلة أو تبرير. ولا يجوز خلط أموالهم بأموال الوصي عليهم. ولا يجوز استبدال أموالهم بأموال أقل جودة. ولا يجوز الزواج بيتيمة طمعاً في مالها :وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً(٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ(٣) وَآتُواْ النَّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ

عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً(٤) وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً(٥) وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيباً(٦) النساء.

فالحرص على مال اليتيم وتنميته في مجالات مضمونة، أوجبه الله، لأن مجرد حفظه ضرر له. واستثمار مال اليتيم لا يجيز للوصي أن يأخذ منه شيئاً بحجة أنه يستثمره له لأن هذا مسئولية قبلها الوصي بمجرد قبوله الوصاية على اليتيم.

ومن الحرص على مال اليتيم ألا يسلم له إلا بعد أن يبلغ سن الرشد ويظهر رجحان عقل وبعد عن الطيش لئلا يتلاعب بالمال كسفيه يجب الحجر عليه.

وحتى الوالد لا يجوز له تبذير ماله قبل وفاته، ويجب أن يمنع من ذلك لئلا يترك أبناءه يتامى محتاجين :وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً(٩) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً(١٠) النساء.

وتفرض سورة النساء الإحسان لليتامى كالإحسان للوالدين ولغيرهم من الناس: وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً(٣٦) النساء.

والإحسان هنا لا يعني المفهوم السائد الذي يعني الشفقة، ولكنه يعني التعامل الإنساني بكل معنى الكلمة. وكل تصرف يقوي الترابط الاجتماعي مقروناً بالاحترام والتقدير فهو إحسان. مثل الحرص على المجاملات الاجتماعية وبذل الهدايا ومشاركة المشاعر في المناسبات.

والخلاصة أن اليتيم عهدة في أعناقنا جميعاً عهد به الله إلينا، فإن كان فقيراً فعلى الجميع أن يكونوا أوصياء عليه بكل احترام وتقدير. وأن يعيش بيننا كأحد أطفالنا له ما لهم وعليه ما عليهم، حتى لا يشعر بالذلة والخنوع والصغار، وحتى ينمو شخصاً سوياً.

وإن كان ذا مال وجب على من يكون وصياً عليه أن يصون ماله ويستثمره ويخطط لمستقبله ويؤمنه مستعيناً بمن له خبرة وحرفية. ولا يجوز له أن يضار اليتيم بماله فيهمله أو ينقص منه أو يستولي عليه تحت أي تبرير.

وفي هذا العصر يجب أن تسن القوانين التي تحمي اليتامى ويكون هناك هيئات متخصصة لاستثمار أموالهم وتوفير الحياة الكريمة لهم، وصرف معونات لمن يتولى تربيتهم. وتوعية المجتمع باستمرار وحثهم على تقبل فكرة تربية اليتيم بينهم كطفل لهم.

وقفة هامة:

ما يمنع الناس في جزيرة العرب عن تربية اليتامى وتركهم للملاجئ الرسمية يعود لسببين، هما:

سيطرة فكرة أن التبني حرام.

والتبني الحرام هو إلحاق المتبنى بنسب من يتبناه، وليس تربيته ومعاملته كابن له، والذي حثت عليه سور القرآن.

تربية اليتيم بين بنات العائلة أو اليتيمة بين أولادها لأنه يتعارض مع ما يعرف «بالمحرم».

وتربية طفل يتيم بين أطفال العائلة لا يحرم، لأننا لو تدبرنا القرآن فسنجد أن العورات يجب سترها بين أفراد العائلة الواحدة (أي بين الوالدين وأولادهم وبين الإخوة والأخوات) وهو ما يفهم من قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) النور.

فالستر والحشمة مطلوبة في البيت، وأخذ الاحتياطات من أن يطلع الأطفال على عورات الكبار واجبة. وهذا يدخل فيه ابن الرجل وبنته أو ربيبه اليتيم وربيبته اليتيمة.

واليتيم الذي يعيش في كنف عائلة كفلته، يدخل في «التابعين» الذين يمكن إبداء الزينة

له من بنات البيت كالأب والإخوة في قوله تعالى: ... وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) النور.

فمن الذين يباح لهم الاطلاع على زينة النساء المحتشمة: ما ملكت أيمانهن، والتابعون. واليتيم من التابعين.

والزينة التي يمكن للأب رؤيتها من ابنته أو الأخ من أخته هي ما لا يصل لمحرم. فلا يجوز للأب رؤية عورة ابنته البالغة ولا الأخ لعورة أخته، وكذلك اليتيم، أو اليتيمة.

فالمانع هو عرف اجتماعي وليس ديناً، مع التوعية والتوجيه يمكن للناس تفهم هذا وتقبله عندما يعون كيف سيكون تأثيره على نفسية اليتيم ونشأته كفرد عادي في المجتمع المسلم.

الرق

ممارسة موجودة منذ القدم بين كثير من شعوب العالم، وجاء الإسلام وهذه الممارسة منتشرة في جزيرة العرب وفي مكة.

وأول ذكر للرق في القرآن كان في سورة البلد: فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ(١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ(١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ(١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ(١٤) يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ(١٥) أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ(١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ(١٧) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ(١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ(١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ(٢٠)

والآيات تخاطب قريشاً وتحثهم على تجاوز الموروث برغم صعوبته التي وصفتها السورة بالعقبة وتجاوزها بالاقتحام، لأن اتباع الموروث مترسخ في النفس ويصعب قبول نقده أو مخالفته أو تركه. وتبين السورة ما يجب فعله، وهو تحرير الرقيق: «فك رقبة» وهذا صعب جداً في مكة لأن العبيد هم من يقوم بالأعمال الخدمية ولو تحرروا فستصاب مكة بالشلل، لأن القرشيين يترفعون عن القيام بالأعمال الخدمية والرقيق لو حرروا فسيحصلون على

حقوق مساوية للقرشيين، ويمكنهم الامتناع عن القيام بتلك الأعمال، أو القيام بها بشروط ومقابل مادي، وهو ما لم يكن يتلقاه الرقيق.

والآيات تحث على تخطي واقتحام عقبة الموروث، وأعتاق الرقيق.

وجاءت سورة المجادلة لتفرض تحرير الرقاب (من الرق) كعقوبة للظهار: وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٣) المجادلة.

وتأتي سورة النساء لتفرض على من يقتل نفساً بالخطأ تحرير رقبة: وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا(٩٢) النساء.

وتفرض سورة المائدة تحرير رقبة على كل من يحنث بيمين: لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٨٩) المائدة.

وبعد ذلك تأتي سورة البقرة لتضع الإنفاق على تحرير الرقاب من أعمال البر. والبر هنا يعني أعظم الأعمال الصالحة الموجبة للجنة: لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ(١٧٧) البقرة.

وسورة براءة التي لم ينزل بعدها من القرآن سوى سورة النصر، تضع تحرير الرقاب من المجالات التي يجب الإنفاق فيها: إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٦٠) براءة.

ولو تمسك المسلمون بهذا القانون لما بقي رقيق واحد بعد الإسلام، لكن قريشاً التي استولت على حكم دولة المسلمين بعد الرسول ممثلة ببني أمية والعباس، أعادت الرق بصور أقوى مما كان قبل الإسلام. وصبغت به حروبهم التوسعية وكأن الإسلام يقره أو هو من أوجده.

إذاً، الإسلام وضع قوانين لعتق الرقيق من استجاب لها دخل الجنة، لكن قريشاً بعد عصر الراشدين أعادته وشجعته. في المقابل ليس في القرآن آية تعطي المسلمين الحق في سبي النساء كما كان الناس يفعلون قبل الإسلام وبعد عصر الرسول.

الرب

بعض المسلمين استمرأ استخدام كلمة «الرب» بالتعريف فيقول مثلاً: «باركك الرب» والتي تقابل الإنجليزية (God Bless You)، وكأنها تعني رحمك الله أو بارك الله فيك. وهذا خطأ شائع وفادح. فهذه كلمة مسيحية ولا يمكن قبولها في الإسلام، لأنها تعني فليبارك الرب (يسوع). ولو قالها المسلم فكأنه يقر بألوهية رب المسيحيين «يسوع».

ولا وجود في الإسلام للفظ «الرب» بالتعريف، وإنما تأتي «رب» مضافة دائماً. نقول: رب العالمين، ربي الله، ربك الله، لكن لا يمكن استخدام لفظ «رب» بالتعريف بأل (الرب).

عَدْن

العدن - كما ورد في لسان العرب - الإقامة في المكان وملازمته، وهو أن تلزم الإبل المكان فتألفه ولا تبرحه، وهو وصف صحيح.

فجنات العدن، تعني جنات الخلود في المكان، وتكون «عدن» صفة للجنة وليست اسماً لها. فليس هناك جنة تسمى عدناً، ولكن هناك جنة وصفت بالعدن وهو الخلود والاستمرار.

هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ(٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ(٥٠) ص.

وقد ورد وصف الجنة «بجنات عدن» في عدة سور من القرآن منها: مريم: ٦١، الكهف: ٣١، طه: ٧٦، فاطر: ٣٣، الصف: ١٢، البينة: ٨، النحل: ٣١، الرعد: ٢٣، وبراءة: ٧٢.

رجيم

قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ(٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ(٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ(٧٧) ص.

الرجم هو الطرد في الآية. وقوله: اخرج منها: أي اخرج من مقر الملائكة في الكون «الملأ الأعلى» فأنت (يا ابليس) رجيم، أي مطرود. وقد حبس في محيط الأرض إلى يوم القيامة.

حاصب

الحاصب من الحصباء وهي الحجارة الصغيرة التي لا تملأ أكبرها الكف. وقد ورد اللفظ في أربع سور هي:

أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ(١٧أ) الملك.

ومثله ما ورد في سورة بني إسرائيل: أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً(٦٨).

والخطاب لقريش، والآيات تتوعدهم لو استمروا بكفرهم فكيف يطمئنون أن الله لن يرسل عليهم حاصباً. ومكة تقع بعيداً عن الرمال وبين الجبال، والحاصب لا يكون بتلك الأتربة التي تذروها الرياح كما حدث لقوم عاد. وأي حاصب يصيب أهل مكة سيكون بفعل كارثة غير الريح.

وتقول سورة القمر: إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ(٣٤).

والآية تتحدث عن قوم لوط، وأنهم أهلكوا بالحاصب. وفي سور أخرى أنهم أهلكوا بحجارة من سجيل: فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ(٧٤) الحجر.

فيكون معنى الحاصب حجارة من سجيل.

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(٤٠) العنكبوت.

والآية تذكر بعض الكوارث الطبيعية التي هلكت بها أمم سابقة، ومنها الحاصب الذي يعني الحجارة من سجيل، أو الثوران البركاني.

الخرص

هو أن يقول المرء ما لا يعلم، أو أن يعتقد ما يظن، دون أن يملك الدليل على صحته.

قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ(١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ(١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ(١٢) الذاريات.

والخراصون هنا رجال قريش الذين يقولون بأن البعث لن يحدث، دون أن يكون لهم علم بهذا أو أن يملكوا دليلاً عليه، وما هم إلا يخرصون.

وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ(٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ(٢٢) الزخرف.

والحديث عن قريش التي تعبد الأصنام لأنهم ورثوا عبادتها من أسلافهم، وليس لأنهم يملكون دليلاً على صحة معتقدهم. ولكي يبرروا لأنفسهم ما يفعلون قالوا إنه لو كانت عبادة الأصنام باطلة لمنعنا الله منها .. وهذا الكلام خرص بلا دليل.

أَلا إِنَّ للهِّ مَن فِي السَّمَاوَات وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِّ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ(٦٦) يونس.

قريش تشرك أصنامها مع الله دون أن يمتلكوا دليلاً على صحة ما يفعلون.

وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِّ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ(١١٦) الأنعام.

أكثر الناس لا يؤمنون ومن يتبعهم سيضل معهم، لأنهم يعتقدون معتقدات لا يملكون عليها دليلاً، وما هي سوى ظنون وخرص.

وكل أتباع المذاهب خراصون، لأنهم يتبعون تشريعات لا يملكون لها دليلاً من الله، وإنما أدلة منسوبة للرسول من باب الظن، والخرص.

عقيم

العقيم تعني الذي لم ينجب، وقد لا ينجب أبداً: للهِّ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ(٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ

عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ(٥٠) الشورى.

كما أن العقيم تعني الذي لن ينجب مستقبلاً، لكن قد يكون أنجب في الماضي. فزوجة إبراهيم وصفت نفسها بالعقيم كما ذكرت سورة الذاريات: فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ(٢٩).

وسبب العقم هو تجاوزها سن اليأس، وليس عدم قدرتها على الإنجاب. فهي تقول بأنها عجوز «لا يمكن أن تنجب» أو «أنها لم تعد نافعة للإنجاب» مع أنه سبق وأنجبت ولدها البكر إسماعيل في شبابها. ومعنى عقيم هنا هو نفس معنى «عقيم» الذي وصف القرآن به الريح التي أهلكت قوم عاد: وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ(٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ(٤٢) الذاريات.

أي أنها ريح لا تحمل منفعة وفائدة، لأنهم لما رأوها ظنوا أنها تحمل المنافع المتمثلة بالمطر: فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ(٢٤) الأحقاف.

لكنها لم تكن كذلك، فلم تحمل المنفعة بل الضرر والهلاك. فهي عقيم، من باب أنه لا منفعة فيها: وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١)، لأنها: مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ(٤٢).

الرميم

يعني البالي منذ زمن طويل. رمّ وأرم، فهو رَميم، وقد وردت في القرآن بنفس المعنى: وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ(٧٨) يس.

الرميم هنا وصف لعظام ميت بليت جثته ونخرت عظامه وتفتتت.

ما تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٩) الذاريات.

والحديث عن الريح التي أهلكت قوم عاد، والتي بدت الأشياء بعد العاصفة وكأنها بالية منذ القدم.

ويكون الرميم، هو الذي بلي وتلف منذ وقت طويل.

السماء

تأتي في القرآن على ثلاث معانٍ، هي:

بمعنى العلو

كما في سورة البقرة: قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ(١٤٤).

بمعنى الكون

كما في سورة «ص»: مَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ(٢٧).

بمعنى الغلاف الجوي للأرض

إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ(٦) وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ(٧) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ(٨) دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ(٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ(١٠) فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ(١١).

الآيات تشير إلى سماء دنيا، وبالتالي فالسماء هنا لا تعني الكون، ولكن تعني السماء الأقرب للأرض، أو الغلاف الجوي للأرض - حسب تسميتنا لها الآن - وما يؤيد هذا أن الآيات تصف السماء الدنيا (الغلاف الجوي) بأنه مزين بزينة الكواكب وتظهر فيه الشهب. وهذه الطبقة تكون درعاً يمنع خروج شياطين الجن من محيط الأرض للتجوال في الفضاء، وهو ما سبق وذكرته الآيتان:٨-٩ من سورة الجن وكذلك الآية:٣ من سورة الملك التي تشير إلى أن الغلاف الجوي يتكون من طبقات.

والآيات تخاطب قريشاً بما يتناسب مع محدودية علمهم، والذي لا يزيد عن مخاطبتهم بما يرون بعيونهم المجردة. فهم يرون السماء مرصعة بالنجوم، ويرون الشهب وهي تحترق، لكنهم لا يعلمون لماذا؟

والآن الكل يعلم أن رؤية النجوم بسبب انتشار ذرات صغيرة من الغبار والأوزون

والأكسجين والتي تعمل على امتصاص ضوء الشمس والنجوم وإعادة إرسالها. كما نعلم أن الشهب - التي هي عبارة عن صخور- عندما تقترب من الأرض تجذبها الجاذبية وبمجرد دخولها للغلاف الجوي وهي تسير بسرعة هائلة[١٥] تحترق بسبب ارتفاع درجة حرارتها ووجود الأكسجين.

والآيات تقول بأن السماء الدنيا محفوظة من اختراق أي شيطان مارد. والمقصود بهم شياطين من الجن، بدليل أن الآية: (٨) تقول بأنه لم يعد بإمكانهم أن يستمعوا للملأ الأعلى (كما كانوا يفعلون قبل الحجب).

المشارق

إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ(٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ(٥) الصافات.

المشارق هنا كما يراها القرشي العادي زمن نزول السورة، حيث يرى أن الشمس - أو الشمس والقمر - تختلف مشارقهما باختلاف الشهر والمواسم.

شيعة

كل مجموعة من الناس اجتمعت على أمر أو فكر واحد فهم شيعة.

سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ(٧٩) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ(٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ(٨٢) وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ(٨٣) الصافات.

برغم أن نوح سبق إبراهيم في الزمان واختلف عنه في المكان، إلا أن الآيات تذكر أن إبراهيم من شيعة نوح، لأنهما يحملان نفس الفكر الديني والمعتقد.

الكرب العظيم

وردت ثلاث مرات في القرآن، مرتين أثناء الحديث عن نوح، وهما كما يلي:

وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ(٧٦) الصافات.

وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ(٧٦) الأنبياء.

---

١٥ ذكرت وكالات الأنباء أن النيزك الذي سقط على منطقة الأورال الروسية منتصف شهر فبراير لعام ٢٠١٣ بلغت سرعته قرابة ٥٣ ألف كيلو متر، أو ٣٣ ألف ميل في الساعة، وقد تصل لثلاثة أضعاف هذه السرعة أحياناً.

وكلها تعني الغرق.

والثالثة ضمن الحديث عن موسى وهارون: وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ(١١٥) الصافات.

شجرة الزقوم

أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ(٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ(٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ(٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ(٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ(٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِّنْ حَمِيمٍ(٦٧) الصفات.

كل الصور المجازية الحسية لما في الجنة والنار تصوير حسي لتقريبها من ذهن المخاطب للترغيب والترهيب، وهم قريش بمداركهم ومعارفهم المحدودة زمن رسول الله، ومن ذلك القول بأن شجرة "الزقوم" يأكل منها أهل النار. وما يؤكد أنها للترهيب، هو أن الآيات تصف طلعها برؤوس الشياطين، مع أنه ليس هناك بشر رأى رأس شيطان. فالتشبيه لما في أذهان الناس - حين نزول السورة وحتى اليوم عند البعض - أن رؤوس الشياطين مقززة، لدرجة أن البعض يرسمها على شكل رأس أحمر فاقع العينين أو مائلة وبقرنين فوق الرأس.

فشجرة الزقوم مجرد تصوير مجازي للترهيب من العذاب والتنفير منه، ولن يأكلها أهل النار، لأن أهل النار لن يكونوا بحاجة للأكل لكي يبقوا أحياء، كما كانوا في الدنيا. فكل الخلق في الآخرة سيبقون أحياء على الدوام، ولن يكون لهم أعمار افتراضية يموتون بعدها.

اليم

وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ(٣٨) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ(٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ(٤٠) الذاريات.

اليم في القرآن تأتي على عدة معانٍ، منها:

بمعنى البحر: وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ(٥٠) البقرة.

وفرعون أغرق باليم كما تقول آية سورة الذاريات أعلاه.

والبحر عبارة عن مسطح مائي، سواء كان نهراً، كالذي ألقي فيه موسى وهو رضيع:

وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ(٧) القصص.

أو كان محيطاً متلاطم الأمواج: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٩٧) الأنعام.

وفرعون غرق في اليم، أي في مسطح مائي قد يكون بحيرة، بمفهومنا الحالي، وليس بحراً واسعاً.

وفي سورة طه ورد ذكر اليم: إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى(٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي(٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى(٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي(٤١).

ولابد أن اليم هنا عبارة عن مجرى مائي ضيق كالقناة أو الوادي، بحيث يمكن لأخت موسى السير بمحاذاته وبنفس سرعة جريان الماء الذي يحمل التابوت. ولو كان بحراً فقد تأخذ الأمواج التابوت بعيداً عن الشاطئ ولن يكون بالإمكان مراقبته. كما أنه لو قذف التابوت في البحر فسيكون عرضة للغرق، بينما لو قذف في الوادي أو في جدول مائي فستراقبه أخته التي تسير بمحاذاته، ولو تعرض التابوت للانقلاب فستتمكن أخت موسى من إنقاذه.

فاليم ليس بالضرورة هو البحر المتلاطم الأمواج، والبحر ليس بالضرورة أن يكون بتعريفنا المعاصر للمسطح المائي العريض الذي تتلاطم فيه الأمواج. لأن هذا التعريف العصري تعريف جغرافي ليتوافق مع التعريف الجغرافي وتعريب للفظ «Sea» في الإنجليزية.

البحر

يطلق على المسطح المائي الكبير المتلاطم الأمواج، والذي تجري فيه السفن والبواخر، كما في قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ(٣١) لقمان.

لكنه أيضاً يرد في القرآن بمعنى مسطح مائي محدود، كالبحيرة الصغيرة أو النهر بمعناه

الحالي. ومن ذلك ما ورد في سورة الكهف في قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً(٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً(٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً(٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً(٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً(٦٤) فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً(٦٥).

فموسى وفتاه كانا يسيران على أرجلهما، وقرر موسى تتبع أحد الأنهار المحلية حتى يصل للالتقائه ببحر آخر (نهر آخر). ولو كان الحديث عن بحر بمسطح مائي بآلاف الكيلومترات المربعة لما سار موسى بمحاذاته حتى يلتقي ببحر آخر. وجنوب غرب جزيرة العرب منطقة جبلية والأمطار تهطل عليها بكميات تكفي لجريان بعض الأنهار المحلية في الأودية والتي تلتقي ببعضها قبل أن تصب في البحر الأحمر، إن كانت منحدرة من سفوح السروات الغربية، أو قبل أن تتجمع في بحيرات موسمية على حدود الربع الخالي إن كانت منحدرة من سفوح السروات الشرقية. وبالتالي فتتبع أحدها ممكن على الأقدام، والوصول لالتقائه بنهر آخر ممكن بعد وقت ليس بالطويل.

والآيات تظهر أن موسى وفتاه بلغا مجمع البحرين (النهرين) بعد فترة قصيرة لدرجة أنهما عادا أدراجهما في نفس اللحظة، متتبعين آثار أقدامهما عند قدومهما: « قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً".

النهر

في استخدامنا الحالي يعني الوادي الدائم الجريان، أو ما يقابل لفظ River بالإنجليزية. فهو تعريف جغرافي حديث، ولا يعني المدلول اللغوي للفظ في أصل اللغة العربية، ولا استخدام اللفظ في العصور القديمة. ولو عدنا للقرآن لوجدنا أن النهر يعني المسيل المائي ولو كان صغيراً على شكل ساقية في مزرعة: وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً(٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَراً(٣٣) الكهف.

نهر هنا بمعنى أنهار، أي جداول مائية تسقى منها أحواض المزروعات، وهو نفس المعنى

للأنهار الواردة في الآيات التي تعطي صوراً مجازية لما في الجنة، مثل: إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ(٢٣) الحج.

والجداول المائية هي تلك الأنهار في قرية فرعون: وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ(٥١) الزخرف.

وليس المعنى مسطحات مائية بعرض الفرات أو النيل.

وهي المعنية في قوله تعالى: وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً(٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً(٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً(٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً(٩٣) بني إسرائيل.

الآية تتحدث على لسان قريش التي رفضت دعوة الرسول ما لم يظهر لهم الآيات التي طلبوا، ومنها أن يكون للرسول مزرعة (جنة من نخيل وعنب) يتخللها الجداول المائية التي تسقي المزروعات (فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً) وتفجير الأنهار يتضح في جريان الماء في تلك الجداول المتفرعة وكأنها تتفجر. وجداول المزارع لا يزيد اتساعها عن نصف متر.

اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ(٣٢) إبراهيم.

الأنهار هنا تعني المجاري المائية في الأودية والتي يطلق عليها في مناطق جنوب غرب الجزيرة العربية «غيل» وهي مجاري لا يزيد اتساعها عن متر أو مترين شبه دائمة الجريان في الأودية، حيث تجري لعدة أشهر دون توقف، نتيجة لهطول الأمطار على رؤوس الجبال المحيطة.

ولا تعني الأنهار بمعناها الجغرافي الحالي، لأن المخاطب في الآية قريش، التي تعرف الغيول التي تجري في الأودية، ولكنها لا تعرف الأنهار لخلو بيئة جزيرة العرب منها.

كما أن الأنهار تعني الماء المنبثق من النبع: ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(٧٤) البقرة.

والنبع ماء يسيل من شق في الصخور بعرض ضيق، ومع ذلك سمته الآية نهراً.

وكل ما سبق من معانٍ للنهر يعني ماء يجري في مجار وجداول وسواقٍ صغيرة ضيقة وليس مسطحاً مائياً عريضاً كما نُعَرِّف النهر الآن.

الصاعقة

الصاعقة وصف للكارثة التي تحدث بلا مقدمات وبسرعة خاطفة، بغض النظر عن نوعها. فالريح التي أهلكت عاداً، والزلزال الذي أهلك ثمود، توصفان بالصاعقة: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ(١٣) فصلت.

وعاد أهلكوا بالريح، وثمود أهلكت بالزلزال أو الرجفة: فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ(٧٨) الأعراف.

وبنو إسرائيل أصيبوا بالصاعقة: وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَّ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ(٥٥) البقرة.

وصاعقة بني إسرائيل كانت زلزالاً: وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ(١٥٥) الأعراف.

التلاوة تعني الحفر في الذاكرة

تِلْكَ آيَاتُ اللهَّ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهَّ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ(٦) الجاثية.

قوله «نتلوها عليك» لا تعني نلقنك. لأن القرآن ينسخ في ذاكرة الرسول، كما صرحت سور عديدة، منها: وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ(١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ(١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ(١٩٥) الشعراء.

ومثلها: قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ(٩٧) البقرة.

قطمير

ورد هذا اللفظ في القرآن مرة واحدة في سورة الملائكة المسماة «فاطر»: يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ(١٣).

وقد عرفه الفيروزأبادي في القاموس المحيط وابن منظور في لسان العرب بأنه: القِشَرَةُ الرَّقيقَةُ بين النَّواةِ والتَّمْرَةِ، أو النُّكْتَةُ البَيْضاءُ في ظَهْرِها.

لكن أحمد ابن فارس في مقاييس اللغة لم يوافق على هذا التعريف وقال بأن قطمير تعني: الحبة في بطن النواة.

وأورد الخليل ابن أحمد الفراهيدي في العين تعريفاً مختلفاً بقوله: القِطْمير: الذي تعلق به النّواة مع القِمَع إذا أخرجتها من التّمر.

فأصحاب اللغة لم يتفقوا على تعريف واضح محدد للقطمير، لأنهم اقتبسوا كلام المفسرين.

ولسنا بحاجة لتبني أي قول من أقوال المفسرين وأصحاب المعاجم، لأن الآية تقول بأن الله خلق كل شيء وهو على شيء قدير، بينما آلهتكم يا قريش لا يملكون «من قطمير» أي لا يملكون أتفه التوافه وأحقرها وأصغرها. وهذا هو المهم.

خليفة

يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) ص.

خليفة بمعناها العام تعني القائم بأمر مقام من سبقه القيام به، لكنها في الآية تعني أن يكون الإنسان مؤتمن على إعمار الأرض من قبل الله، ولا تعني أن داوود خلف أقواماً سبقوه في الأرض.

وفي نفس المعنى تقول سورة فاطر: هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً(٣٩).

فالله جل وعلا كلف الناس بمسئولية إعمار الأرض وأئتمنهم عليها، ولا تعني أن الناس خلفوا أناساً قبلهم، أو تشير إلى سلالات منقرضة.

وتقول سورة يونس: وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ(١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ(١٤) يونس.

والمخاطب هنا قريش، والآية تقول إنهم جاؤا بعد قرون من الناس أهلكت بكفرها. فقريش خلفوهم في الأرض، أي عاشوا بعد زمانهم، ولا تعني عاشوا في نفس مكان من سبقهم.

وتقول سورة الأنعام: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٥) الأنعام.

خلائف الأرض سكانها والقائمون عليها.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٣٠) البقرة.

آدم خليفة على الأرض التي خلق فيها أي مؤتمن عليها ومكلف بعمارتها، وليس خليفة لأناس سبقوه، أو خليفة على كل الكرة الأرضية.

الجن تعني الاختفاء

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً(٥٠) الكهف.

الآية يستشهد بها كل من يظن أن إبليس من الجن، وهو استشهاد خاطئ وتأويل تعسفي لمعنى «كان من الجن» ليعني أنه من جنس المخلوقات التي تسمى الجن. لأن كونه من الجن لا يعني أنه فاسق كافر. فالجن مثل بقية خلق الله في كل الكون، منهم المؤمن ومنهم دون ذلك: وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا(١١) الجن.

والجن تعني عدة معانٍ منها الاختفاء ولذلك سميت المخلوقات الخفية التي لا يمكن رؤيتها بالجن. وإبليس فسق عن أمر ربه بالسجود لآدم واختفى من مكان السجود، وليس المعنى أنه لم يسجد لآدم لأنه من المخلوقات الجن. كما أن المعنى لا يستقيم لو قلنا بأنه كان من الجن لأن سبب امتناعه عن السجود هو شعوره بتميزه عن آدم، كونه مخلوقاً من طاقة وآدم - كبقية البشر - مخلوق من طين، كما تقول عدة سور تحدثت عن موقف إبليس من السجود.

وتؤكد سورة الأنعام أن الجن تعني المختفي: وَجَعَلُواْ للهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ(١٠٠) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١٠١).

الآيات ترد على ظن قريش أن الملائكة بنات الله - كما ورد في عدة سور - وتطلق على الملائكة الجن. وذلك لأن قريشاً لم تر الملائكة أبداً ومع ذلك اعتبرت أنهم إناث وأنهم بنات الله.

ومثله ما ورد في سورة الصافات: فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ(١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ(١٥٠) أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ(١٥١) وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ(١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ(١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ(١٥٨) سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ(١٥٩) الصافات.

والآيات تستنكر على قريش اعتقادهم بأن الملائكة من جنس البنات، وأنهم بناتٌ لله. وتتساءل الآيات باستنكار: كيف جعلوا لله نسباً مع الجِنة؟ والجِنة هنا تعني الملائكة، لأنهم جِنّة بالنسبة للناس، كونهم لا يمكن لهم رؤيتهم فهم مخلوقات بلا أجساد حسية يمكن رؤيتها.

وتقول سورة سبأ: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ(٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ(٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلَا ضَرّاً وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ(٤٢).

المشهد مجازي وكأن الملائكة وقريش جمعوا أمام الله يوم القيامة، ويسأل سبحانه الملائكة إن كانت قريش تعبدهم وهم راضون بذلك. فيأتي الجواب من الملائكة: أن قريشاً لم ترهم ولا تعرف هيئاتهم وبالتالي فهم يعبدون شيئاً خافياً وغير معروف. فالجن تعني المختفي الذي لا يرى، كون الملائكة بالنسبة لقريش جنٌ بهذا المعنى. فقريش تقدس مجهولاً بقولهم إن الملائكة بنات الله، والتقديس عبادة.

الجن تعني العبقري من البشر

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ(١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ(١٣) سبأ.

الجن في الآية يقصد بهم نوابغ من البشر، وليسوا من تلك المخلوقات الخفية اللاجسدية الذين يسمون الجن. لأن الجن المذكورين في الآيات " يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ". وهذه الأعمال يقوم بها البشر، لأن المخلوقات النورانية اللا- جسدية مثل الملائكة والجن لا يستطيعون حمل الأشياء ولا الإمساك بها ولا يتقنون الحرف، ذلك أنه ليست لديهم أجساد مادية بل هم مخلوقات من طاقة.

وحتى في اللغة الإنجليزية فلفظ «Genius» يأتي بمعنى أحد الجن، وبمعنى العبقري من البشر والموهوب والنابغة، وهو نفس المعنى للجني في العربية.

العلم

هو المعرفة والإحاطة. واللفظ إذا جاء معرفاً بأل في القرآن فله عدة معانٍ، منها:

الرسالة أو الدين

كما في قوله تعالى: وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) الجاثية.

ومثله: فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون (٨٣) غافر.

ومثله: وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(٦) سبأ.

ومثله: وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١٤) الشورى.

ومثله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(١١) المجادلة.

والذين آمنوا هم الذين أوتوا العلم.

ومثله: وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) محمد.

المعرفة والإحاطة بشيء محدد

قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٦) الملك.

ومثله: قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) الأحقاف.

والمراد هنا أن الله جل وعلا هو من يعرف موعد البعث والقيامة.

ومثله: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) بني إسرائيل.

المعرفة العامة

إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَى (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (٣٠) النجم.

فقريش تظن دون علم أن الملائكة بنات الله.

الذين أوتوا العلم

كلما وردت في القرآن عبارة «الذين أوتوا العلم» فهي تعني المؤمنين.

وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(٦) سبأ.

ومثله: قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) بني إسرائيل.

ومثله: ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ(٢٧) النحل.

ومما ورد في سورة القصص ضمن الحديث عن قارون: فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠).

ومثله: وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ (٤٩) العنكبوت.

وسور أخرى.

ما بين يديه

عبارة «ما بين يديه» تأتي بعدة معاني في القرآن، كما يلي:

الذي سبقه

وهو المعنى ألأهم والأكثر ذكراً في القرآن، وتأتي العبارة عادة مقترنة بذكر أن القرآن مصدق للرسالات التي سبقته. لذا نجدها وردت في سور موجهة لأهل الكتاب. وبالتالي فليس من المنتظر أن ترد في سور المرحلة الرابعة للدعوة في مكة، لأن المخاطب فيها قريش الوثنية التي لا تؤمن برسالات سابقة. ومن الآيات التي وردت فيها العبارة ما يلي:

- وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) الأحقاف.

الكتاب مصدقاً لما بين يديه (أي لما سبقه).

- وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) فاطر.

الخطاب موجه للرسول: والكتاب (القرآن) الموحى للرسول مصدق لما بين يديه (لما سبقه) من وحي.

ومثله:

ومثله ما ورد في سورة الأنعام: وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢).

ومثله ما ورد في سورة البقرة: ٩٧، آل عمران: ٣، والمائدة: ٤٨.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ(٣١) سبأ.

فقريش تقول بأنها لن تؤمن برسالة محمد ولا بأي رسالة سبقتها «بالذي بين يديه».

وفي سورة سبأ نفسها ورد قوله تعالى: قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ(٤٦).

الآية تخاطب قريشاً وتطلب منهم التفكير الجدي والمجرد بما يدعوهم له محمد، ليتبينوا أن محمداً ليس مجنوناً كما يحاولون وصفه، وأنه نذير لهم يسبق يوم الحساب حيث عذاب جهنم للمكذبين.

وقول الآية» نذير لهم بين يدي عذاب شديد» نذير يسبق العذاب.

ومثله: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) يوسف.

فالقصص التي يرويها القرآن عن الأمم السابقة ليست مجرد قصص مختلق ولكنها حقائق تتفق مع الواقع ومع ما جاء في الكتب السماوية السابقة.

ومثله ما كررته سورة يونس: وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) يونس.

وتقول سورة فصلت: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢).

وجاء في سورة البقرة: قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) البقرة.

تقول سورة المائدة: وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦).

وتقول السورة نفسها: وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) المائدة.

وتقول سورة آل عمران: نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٣).

وهناك آية واحدة ذكرت العبارة ضمن حديث عن لعن بني إسرائيل يوم السبت: وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ(٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ(٦٦) البقرة.

فلعنهم كان نكالاً (عبرة) لما سبق الحادثة من مواقف لبني إسرائيل وما سيأتي بعدها من مواقف يخالفون بها أوامر الله.

وقد تأتي أحياناً بمعنى له أو أمامه وبأمره

كما في قوله تعالى:

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) سبأ.

وتأتي بمعنى كل وسيلة ممكنة

كما في قوله تعالى:

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ(١٣) إِذْ جَاءتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَّ قَالُوا لَوْ شَاء رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ(١٤) فصلت.

فالرسل حاولوا بكل وسيلة دعوية هداية قومهم للحق، وهو ما عبرت عنه الآية بقوله: «إذ جاءتهم رلهم من بين أيديهم ومن خلفهم».
ومعانٍ أخرى.

المحراب

المحراب في الأصل يطلق على الغرفة المنيعة في أعلى الحصن التي يطلق منها الحراب لصد هجوم العدو، ثم أطلقت على الحصن والقلعة، وعلى الغرفة العلوية في المنزل، وعلى الغرفة الواسعة. ومن ذلك: وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ(٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاء الصِّرَاطِ(٢٢) ص.

فالخصم تسوروا جدار الغرفة العلوية التي يجلس فيها داوود في قصره.

ومثله: فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً(١١) مريم.

والحديث عن زكريا الذي خرج من غرفته «صالونه بلغة العصر».

ومثله: فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِّ إِنَّ اللهَّ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ(٣٧) آل عمران.

فالمحراب هنا يعني غرفة من غرف البيت الذي يقطنه زكريا الذي كفل مريم، وكانت تعيش في بيته. ولم يكفلها وأسكنها المسجد، كما كنت أظن في وقت سابق بتأثر من كتب التراث.

ومثله: فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَّ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَـى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللهِّ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ(٣٩) آل عمران.

فزكريا كان يصلي في محراب في بيته (صالونه الذي يقضي فيه معظم أوقاته).

والمحراب جمعه محاريب، ومن ذلك محاريب سليمان التي تقوم على أعمدة من نحاس وكونت ما يسميه اليهود هيكل سليمان، وهو قصر - بمفهومنا الدارج حالياً - يحتوي على عدة محاريب غرف واسعة وصالونات: يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ(١٣) سبأ.

وفي عصر العباسيين أصبح لفظ «محراب» يطلق على تلك الكوة غير النافذة في حائط القبلة في المسجد، والتي يؤدي فيها الإمام الصلاة.

الجسد

ذكر في عدد من الآيات، منها:

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ(٨٨) طه.

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ(١٤٨) الأعراف.

وهاتان الآيتان تتحدثان عن ذلك التمثال الذي صنعه أحد بني إسرائيل وهو «السامري» من الحلي على هيئة عجل وعبدوه حينما كان موسى يكتب التوراة.

فالجسد هنا يعني: التمثال الجماد. أي تمثال بغض النظر عن المادة التي صنع منها.

ويرد الجسد في سورة الأنبياء للرد على تساؤلات قريش التي تطلب أن يرسل لها أحد الملائكة:

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ(٨) الأنبياء.

فكل الرسل قبلهم أرسلوا من البشر، ولم يكونوا ملائكة، كما تقول الآية السابعة. وتواصل الآية الثامنة لتقول: كما أن الرسل لم يكونوا تماثيل لا حياة فيها « جسداً» لا يأكلون الطعام، ولم يكونوا خالدين (ملائكة). كون الملائكة وكل مخلوقات الله اللاجسدية تبقى على قيد الحياة ما بقي الكون، فهم خالدون بقدر معلوم وليس للأبد.

ويكون الجسد في الآيات السابقة يعني بلغة العصر: التمثال الذي لا حياة فيه بغض النظر

أكان على هيئة عجل أو إنسان أو غيره.

أما الإنسان فيطلق عليه القرآن كلمة "جسم"، ومن ذلك: وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(٢٤٧) البقرة.

وقوله تعالى: وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ(٤) المنافقون.

ولا يطلق «جسد» في القرآن على شيطان من الجن أو جسم الإنسان.

وقد ورد الجسد في سورة «ص»: وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ(٣٤).

وكالعادة فقد أطلق المفسرون لأنفسهم العنان في اختلاق القصص وتصوير الجسد المذكور بصور خيالية لا يمكن وقوعها على أرض الواقع. ومن ذلك قولهم بأنه جسد شيطان من الجن، وتسابقوا في اختلاق اسم له. فالبعض قال اسمه صخر، وغيرهم قال آصف، وآخرون قالوا آصر، وغيرهم قال حبقيق.

وبعيداً عن هذه التخاريف، وبناءً على تعريف آيات القرآن السابقة للجسد، فالملقى على كرسي سليمان تمثال لا روح فيه.

ويمكن تعريف التماثيل بأنها: الأجساد المعدنية أو الصخرية أو الخشبية المصنعة على هيئة إنسان أو حيوان أو شجر أو غيرها. ولابد أن هيكل سليمان يغص بها وتتزين بها جنباته. ومفردها تمثال.

الجفان

مفردها جفنة، وهي أواني الطعام الضخمة التي يتحلق حولها العدد الكبير من الناس، وتكون على شكل حوض قائم على سيقان معدنية، وفي عصر سليمان كانت تصنع من النحاس - كما تقول الآية - وقد بقيت هذه الجفان يقدم فيها الطعام في الولائم حتى اليوم في جزيرة العرب، بعضها يتسع لجمل مطبوخ بكامله مع الرز وبعضها أصغر، وتسمى:

القصعة

جمعها قصاع، وهي الصحفة الكبيرة. يقال: القصعة تشبع العشرة.

الصحفة

هي المئكلة الكبيرة، يقال: الصحفة تشبع الخمسة.

المئكلة

هي الصحيفة الكبيرة، يقال: المئكلة تشبع الإثنين.

الصحيفة

هي إناء لطعام شخص واحد «صحن»، يقال: الصحيفة تشبع الرجل.

وكلها أواني يوضع فيها الطعام، وبما أن العرب تأكل الجماعة منها من إناء واحد فهناك أحجام مختلفة، لكل حجم اسم، ولها مسميات محلية.

الجواب

جمعها: جابية. وهي الحوض الضخم الذي يملأ بالماء لتشرب منه الإبل.

المنسأة

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ(١٤) سبأ.

المنسأة هنا تعني المؤخرة من النسأ وهو التأخير.

ودابة الأرض (نوع من أنواع الخنافس) شمت رائحة تعفن جثة سليمان وبدأت تأكل الجثة[١٦]. ولا عبرة بكلام المفسرين الذين أخذ عنهم أصحاب المعاجم قولهم بأن المنسأة هي عصا غليظة. لأن هذه الحشرات لو كانت عصا سليمان تجتذبها، لالتهمتها أثناء نومه. ولكن الحشرات وهي أنواع من الذباب ومن الحشرات الزاحفة لديها قدرة عجيبة على شم رائحة تعفن الجثث فتسارع إليها وتضع بيضها على الجثة والتي سرعان ما تفقس وتبدأ التهام اللحم الذي بدا يتفسخ.

---

١٦ هناك عدة أنواع من الخنافس ومن الحشرات التي تتغذى على الجثث، ومنها الذباب الأزرق الذي يضع بيضه على الجثة وسرعان ما يفقس البيض ويبدأ بالتهام ما حوله.

العرم

الشديد، والسيل العرم وصف له بأنه عاصف شديد مدمر. بخلاف قول المفسرين، الذين نورد بعض أقوالهم التي اقتبسها منهم صاحب لسان العرب:

والعَرِمَةُ سُدٌّ يُعْتَرَضُ به الوادي، والجمع عَرِمٌ، وقيل: العَرِمُ جمعٌ لا واحد له. وقال أَبو حنيفة: العَرِمُ الأَحْباسُ تُبْنى في أَوْساط الأَوْدِيَةِ.

قالوا بهذا لأنهم قرأوا عبارة «سيل العرم» في القرآن فظنوا أن العرم اسم يعني السد، وهو في الحقيقة وصف للسيل، بأنه سيل عرم قوي شديد مدمر. وقريب منه قولنا جيش عرم، وعرمرم.

وقالوا: والعَرِمُ أَيضاً: الجُرَذُ الذَّكَرُ. قال الأَزهري: ومن أَسماء الفأْر البِرُّ والثُّعْبَةُ والعَرِمُ.

لأنهم اختلقوا قصة خرافية مفادها أن فأراً كان السبب في دحرجة أحجار سد مأرب مما تسبب بتهدم السد وفيضانه. فجعلوا من أسماء الفأر العرم.

وقالوا: والعَرِمُ السَّيْلُ الذي لا يُطاق؛ ومنه قوله تعالى: فأَرسلنا عليهم سَيْلَ العَرِمِ؛ قيل: أَضافه إِلى المُسَنَّاة أَو السُّدِّ، وقيل: إِلى الفأْرِ الذي بَثَق السِّكْرَ عليهم. قال الأَزهري: وهو الذي يقال له الخُلْد، وله حَدِيثٌ، وقيل: العَرِمُ اسم وادٍ، وقيل: العَرِمُ المطر الشديد.

وكما هو واضح من تضارب كلام المفسرين أنهم لا يمتون بعلاقة قوية لعربية القرآن وكل ما يقولون مجرد اختلاق لا أساس له، لأن العرم صفة للسيل وليس اسماً. وقصة فأر سد مأرب أسخف من أن تصدق، ومع ذلك ترسخت وأصبحت تأويلاً لكلام الله.

العروة الوثقى

ورد اللفظ مرتين في كتاب الله، كما يلي:

(١) وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ(٢٢) لقمان.

(٢) لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢٥٦) البقرة.

وفيما يلي بعض خزعبلات المفسرين، كما نقلها السيوطي:

سفيان قال العروة الوثقى: كلمة الإخلاص.

وكتب الحديث تعتبر العروة الوثقى حلقة معدنية، ومن ذلك حديث أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن سلام قال: «رأيت رؤيا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت كأني في روضة خضراء، وسطها عمود حديد، أسفله في الأرض وأعلاه في السماء، في أعلاه عروة فقيل لي: اصعد عليه فصعدت حتى أخذت بالعروة، فقال: استمسك بالعروة. فاستيقظت وهي في يدي، فقصصتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: أما الروضة فروضة الإسلام وأما العمود فعمود الإسلام، وأما العروة فهي العروة الوثقى، أنت على الإسلام حتى تموت».

والحديث يظهر أن عبد الله ابن سلام اليهودي اختلقه بهذه الصورة الخرافية البعيدة عن الواقع لكي يؤكد إسلامه للمتشككين فيه، ووجد من يصدقها ويعتبرها تفسيراً لكلام الله.

والمتدبر للآيتين يجد أن المقصود بالعروة الوثقى هي الطريق المستقيم أي دين الله الحق أي الإسلام، بعيداً عن تخاريف المفسرين.

العرش

طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى(٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى(٣) تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى(٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى(٥) .

المفسرون فهموا أن العرش ما هو إلا كرسيٌ للجلوس، وكأن الله جلس على كرسي بعد انتهائه من خلق ملكوته، لحاجته للراحة. وكأنه (تعالى عن ذلك علواً كبيراً) كان بحاجة للجلوس والراحة ولم يكن له مكان يستريح فيه قبل خلقه السماوات والأرض. وكلام المفسرين هذا مقتبس من اليهود، إلا أنهم لم يتجرأوا على القول بأن الله استراح بنفس الطريقة التي وصفها رجال الدين اليهودي. لأن هناك آية قرآنية تنص على أنه سبحانه لم يعتره تعب جراء ما قام به: وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨) ق.

ولذلك لم يكن بحاجة للراحة.

ولكنهم - كما اليهود - لم يستطيعوا تصور معنى الاستواء بغير معناه الحرفي، الذي يدل

على نوع من أنواع الجلوس، وأن الباعث للاستواء هو الجهد المبذول في خلق السماوات والأرض في الستة الأيام الماضية. فحاولوا أن يثبتوا الاستواء بالكيفية التي يصورها الخيال البشري، ولكنهم لايريدون أن يبدو وكأنه للراحة، فقالوا: والعرش والكرسي حق، وهو مستغن عن العرش وما دونه. (العقيدة الطحاوية)

فالله جلس ولكنه ليس بحاجة للجلوس، كما أن جلوسه كان بطريقة تختلف عن جلوسنا، ولم يقولوا لماذا جلس. وما قالوه أربك قائله وقارئه على حد سواء: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة[١٧].

والعرش يأتي بعدة معانٍ، منها: كرسي الملك، والسقف، وإدارة شئون الحكم.

وإذا استولى الحاكم على الملك يقال: جلس على العرش، ولو لم يجلس على كرسي الملك.

والرحمن على العرش استوى تعني توليه سبحانه إدارة كونه. فهو سبحانه خلق الخلق ثم تولى إدارته، دون أن يجلس على كرسي. وحتى توليه إدارة الكون لا تعني إدارته حرفياً، ولكنه سبحانه خلق الكون بموجب قوانين فيزيائية ثابتة كفيلة بإدارته دون تدخل مباشر منه سبحانه أو من أي من مخلوقات الحية.

السحر

سورة طه التي تتحدث عما حصل بين موسى وفرعون ذكرت أن السحر مشهور ومعروف في قرية فرعون (مصر) لدرجة أن فرعون جمع منهم عددا بكل سهولة، واختارهم من أعداد أكثر لأنهم أمهرهم: فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَاناً سُوًى(٥٨) طه.

وتستمر السورة تروي كيف بارزهم موسى وهزمهم، وكيف آمنوا: قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى(٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى(٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى(٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى(٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى(٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى(٧٠) طه.

فالسحر موجود لكنه ليس كبيرة من الكبائر ولا يتعارض مع الإيمان بالله، كونه مجرد خدع

---

١٧ عبارة اشتهر مالك ابن أنس بقولها وكررها الفقهاء السنة على الدوام، انظر ترجمة مالك في سير أعلام النبلاء.

بصرية كما تؤكد سورة طه التي تصف سحر سحرة فرعون: .... فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى(٦٦).

فيمكن أن يكون المرء مؤمناً ويعمل صالحاً ويتقن الخدع البصرية والألعاب السحرية.

وحتى الآية التي تصف شعور موسى بالرهبة عندما رأى حبال وعصي السحرة وكأنها تسعى لا يفهم منها أن السحر حرام: فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى(٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى(٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى(٦٩) طه.

موسى أوجس خيفة ثم تماسك وألقى عصاه بعد أن شعر أن قوة عصاه التي اكتسبها بقدرة الله أقوى من أي خدعة سحرية. والله جل شأنه لم يكلمه في تلك اللحظة ولكن الآيات تصف تماسك موسى ورباطة جأشه وكأنه سمع نداءً من الله يأمره بإلقاء عصاه وستلقف ما صنعوا، لأن ما صنعوا شيء تافه لا يزيد عن خدعة بصرية، وهو ما تصفه سورة الأعراف في قوله: فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاؤُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ(١١٦) الأعراف. فكل ما يملكه الساحر هو خداع بصري: « إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى". فالسحر لا يمكن أن يفلح لأنه زيف وليس حقيقة، ولا يعني أنه كبيرة وجرم.

ويمكن تعريف السحر مما تقدم بأنه: ألعاب خفة وخدع بصرية.

وما يسمى سحراً بالمعنى الشائع الآن لا علاقة له بالسحر المذكور في القرآن، ولكنه مجرد خزعبلات لا أساس لها منبعها استغلال جهل الناس وتعطشهم للخوارق للكسب المادي. وقد يقوم من يسمى بالساحر بتسميم المسحور بأدوية سمية قد تقضي عليه أو تتلف خلايا في مخه، لكنه لا يستطيع استخدام الجن كما يظن البعض ولا يستطيع استخدام قوى خفية يمكن أن تغير شعور شخص تجاه آخر، ولا يضر ولا ينفع بواسطة تمتمات وشخبطات على الورق.

عصا موسى

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى(١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى(١٨) طه.

بحكم أن موسى كان طوال ثماني أو عشر سنين يرعى الغنم والإبل للشيخ الذي وجد بناته يسقين من بئر مدين، فقد اتخذ عصاً مشابهة للعصا التي تكون مع كل راع من الرعاة، يهش بها على الماشية ويتوكأ عليها في حال احتاج ويستعملها لاستخدامات أخرى.

وليس لها أي تميز عن أي عصا مماثلة قطعت من شجرة من أشجار المنطقة التي كان موسى يرعى فيها غنم والد زوجته. لكنها اكتسبت قدرة عجيبة من بعد تعرضها للطاقة أثناء التكليم.

ولكي يستطيع موسى إظهار طاقة العصا لابد أن تمسك بها يده التي اكتسبت طاقة مماثلة. ولا يمكن أن يظهر للعصا قدرة لوحدها بدون يد موسى، فاليد والعصا يعملان كقطبين: سالب وموجب. ولو كان للعصا طاقة يمكن أن تصدر منها بدون يد موسى، لتم استغلالها بعد وفاته وبقيت طاقتها إلى اليوم، لكنها بعد وفاة موسى فقدت طاقتها ولم يعد لها أي ميزة عن أي عصا أخرى.

وقد اكتسبت العصا قدرات فوق عادية متنوعة، منها:

القدرة على تحلل الأشياء وتحويلها إلى عدم خلال ثوان، دون حاجة لتكسيرها أو حرقها أو إذابتها، كما حدث مع حبال وعصي السحرة: قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى(٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى(٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى(٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى(٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى(٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى(٧٠) طه.

وتفجير الماء، وتوقف الماء.

يوم الزينة

قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى(٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَاناً سُوًى(٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى(٥٩) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى(٦٠) طه.

يوم الزينة هو ما نسميه العيد في وقتنا الحالي. حيث إظهار الزينة في الملابس والفرح

والنشاطات المرحة والتسلية. وقد اختار موسى يوم عيد سنوي يجتمع فيه أهل مصر في ساحة القرية ويلعبون ويتسلون ويشربون ويأكلون ويلهون، وذلك لكي يشهد أكبر عدد من سكان قرية مصر على صدق آياته ورسالته وأنه لم يكن كما زعم فرعون مجرد ساحر كذاب.

الذّكْر

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً(٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً(١٠٠) طه.

الذكر هو وصف للوحي، والوحي المنزل على محمد هو القرآن.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاء وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ(٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ(٤٩) وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ(٥٠) الأنبياء.

والذكر هنا وصف للوحي المنزل على موسى وهارون (التوراة).

وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ(٥١) القلم.

وصف للقرآن: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ(٤١)فصلت.

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ(١)ص.

أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ(٢٥)القمر.

أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ(٨)ص.

وفي هذا المجال تقول الذاريات: وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ(٥٥)الذاريات.

إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ(١١)يس.

والضياء وصف مماثل للوحي.

أهل الذكر

عبارة «فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون» وردت مرتين في كتاب الله، كما يلي:

الأولى في سورة الأنبياء: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن

كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨).

والسورة نزلت في أواخر المرحلة الخامسة للدعوة في مكة، وبعد قرابة ست سنوات من بدء البعثة، وترتيبها من حيث النزول (٧٦) أي أنه نزل قبلها (٧٥) سورة، بعض هذه السور ذكر أن قريشاً كانت تطلب من الرسول أن ترى آية أو تنزل عليهم الملائكة كدليل على أنه رسول من الله. ومن السور التي تذكر طلب قريش نزول الملائكة سورة الحجر والتي ترتيبها حسب النزول (٦٥)، وقد جاء فيها على لسان قريش: لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذًا مُّنظَرِينَ (٨).

وسورة الأنبياء تقول لقريش إنه لن ينزل عليهم ملائكة، لأن الله جل وعلا لم يسبق أن أنزل ملائكة كرسل للبشر، وعليكم أن تسألوا «أهل الذكر» إن كنتم لا تعلمون هذه الحقيقة.

والذكر صفة الوحي ورسالة رب العالمين: كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً(٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً(١٠٠) طه.

وجاء في سورة الحجر: وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ(٦).

وهو ما أكدته نفس السورة في آية أخرى: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(٩).

فيكون أهل الذكر هم أهل الديانات السابقة مثل بني إسرائيل. وبنو إسرائيل يثرب كان لهم تواجد مكثف في مكة منذ أن توجه الخطاب الدعوي في القرآن لهم بدءَ من المرحلة الخامسة للدعوة في مكة. فأقبلوا للقاء الرسول والسماع منه، ولهذا كان من اليسير سؤالهم. ولو أن سورة الأنبياء نزلت في المرحلة الرابعة للدعوة حيث كان الخطاب الدعوي في القرآن موجهاً لقريش فقط لما طلبت السورة سؤال أهل الذكر لأنه لا تواجد لهم في مكة.

إذاً، بمراعاة السياق الذي ورد فيه جزء الآية والآية كاملة، ومعرفة متى نزلت السورة، ومن تخاطب، صار من السهل فهم المعنى الصحيح للآية والمقصود بأهل الذكر.

وقد وردت عبارة «فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ" مرة أخرى في سورة النحل: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤).

والنحل نزلت في المرحلة السابعة والأخيرة للدعوة في مكة وترتيبها (٨٦) حسب النزول. أي أنها نزلت بعد أن أصبح لأهل الذكر (بنو إسرائيل يثرب) تواجد في مكة. وهي تكرر ما

قالته آية سورة الأنبياء من حيث إنها تخاطب قريشاً وتقول لهم إنه لن ينزل عليكم ملائكة لأنه لم يسبق أن حدث هذا، ولكم أن تتأكدوا بسؤال من جاءهم الذكر قبلكم.

المكر والكيد

هو التحايل، وهو تخطيط خفي للإيقاع بالمقابل أو التسبب له بضرر.

أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ(٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ(٩٨) أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ(٩٩) الأعراف.

مكر الله هنا بينته الآيتان: ٩٧-٩٨ وهو وقوع كوارث مهلكة بأهل القرى فجأة. فنعت بالمكر لأنه خطط لوقوعه دون علم أهل القرى الذين فسقوا عن أمر ربهم وانشغلوا بمتعهم الدنيوية ونسوا الله ودينه.

وهو ما تشير له السورة في مكان آخر: وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ(١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ(١٨٣) الأعراف.

وهو ما سبق وذكرته سورة ن والقلم: فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ(٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ(٤٥).

فمن يغرق في مباهج الدنيا ويكفر بالآخرة كأنه استدراج لهم لكي يموتوا على الكفر ويكون مصيرهم النار. وكأن الله استدرجهم للكفر لكي يعذبهم ويخطط للمكر بهم وكيدهم.

وهذا ليس ما حدث، فالله سبحانه ترك الخيار للناس، يختارون الضلال أو الهداية بحرية. لكن من يختار الضلال فكأنه الله هو من تسبب له وحجب عقله عن رؤية الحق. وبما أن الله هو من خلق العقل وهو من مكن الإنسان من الخيار فإن اختيار الضلال كان بأمر الله.

والدليل على أن الله جل وعلا لم يحجب عنهم الحق وكان لهم الخيار جاء في الآيات التي تلت: أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ(١٨٤) أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ(١٨٥) مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(١٨٦) الأعراف.

فلو استخدموا عقولهم للتفكير بعظمة الخلق استدلوا على قدرة الله على البعث الذي ينكرون.

وتكرر الآية ١٨٦ أن الله أضلهم، بشكل غير مباشر كما سبق وذكرنا.

ومثله: وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ(٢١) يونس.

الإنسان يعرف الله في داخله ويعود له في الشدة وفي وقت الرخاء يتصرف وكأنه لا يعرف الله. وهو تصرف ماكر، لكن الله الذي خلقهم وأودع في أنفسهم آلية تكتب ما يصدر منهم وما يفكرون به ويمكرون.

الفرقان

الفرقان وصف للوحي المنزل على أي رسول.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاء وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ(٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ(٤٩) وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ(٥٠) الأنبياء.

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً(١) الفرقان.

الرشد

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ(٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ(٥٢) الأنبياء.

أن يكون المرء راشداً يعني أن يحكم عقله ويسمح له بالتفكير الحر. فالرشد يعني إعمال العقل بقدرة وحرية واتزان.

زوج تعني مثيلاً وشبيهاً

تقول سورة الصافات: فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ(١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ(٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ(٢١) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ(٢٢) مِن دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ(٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ(٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ(٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ(٢٦).

تتحدث الآيات عن مصير من يموت من قريش ولم يؤمن، والآية ٢٢ تقول: « احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ». فأزواجهم لن يدخلوا النار لأنهم أزواج كفار، ولكن لأنهم كفار مثلهم، وهو مشابه لما ورد في سورة الطور: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ(٢١) الطور.

فالمغفرة والجنة لمن يؤمن، وستتبعهم ذريتهم - لأنها مؤمنة - وليس لأنها ذرية من آمن ولو لم تؤمن. والعذاب والنار لمن لم يؤمن، وسيتبعهم أزواجهم - لأنهم لم يؤمنوا - وليس لأنهم أزواج من لم يؤمن.

جُرُز

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً(٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً(٨) الكهف.

الجرز هنا تعني الأرض القفر التي لا نبات فيها ولا حياة. بعدما كانت عامرة بالنبات والحياة، أضحت جرزا. وهو كناية على نهاية الأرض وزوالها، كما بينت سورة السجدة: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاء إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ(٢٧).

الحنيذ

هو شي اللحم بنار الفحم وغمه في حفرة حتى ينضج لحمه ويتقاطر ماؤه.

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ(٦٩) هود.

والحنيذ لازال وجبة شعبية شائعة في مناطق جنوب غرب جزيرة العرب وانتشر على نطاق واسع الآن في كل جزيرة العرب.

الاستحياء

هو الاغتصاب.

فَلَمَّا جَاءهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاء الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءهُمْ وَمَا كَيْدُ

الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ(٢٥) غافر.

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) القصص.

وتقول سورة البقرة: وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ(٤٩).

فالاستحياء الذي تعرضت له نساءٌ من بني إسرائيل في مصر فرعون، هو ما يعرف في عصرنا بالاغتصاب.

عضين

وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ(٨٩) كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ(٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ(٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٩٣) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ(٩٤) الحجر.

الحديث في الآيات عن قريش، التي اتفقت وتحالفت على رفض الدعوة والإعراض عن الحق. وقد استخدمت الآية عبارة: «جعلوا القرآن عضين» للتعبير عن رفض القرآن وعدم الالتفات له. وبالتالي فعضين ليس كما قال المفسرون بأنها تعني التقطيع والتجزئة، لأن هذا المعنى لا يستقيم. فقريش لم يقسموا القرآن ولكنهم أعرضوا عنه جملة وتفصيلاً.

فجعل القرآن عضين تعني الإعراض عنه وعدم الاهتمام به.

الحكمة

تأتي على عدة معانٍ، منها:

التشريعات

كما في سورة بني إسرائيل التي بعد أن سردت بعض التشريعات تقول: « ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ". وهذه الآيات كاملة: لاَّ تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَـهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً(٢٢) وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً(٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ

الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً(٢٤) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً(٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً(٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً(٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً(٢٨) وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً(٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً(٣٠) وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءاً كَبِيراً(٣١) وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً(٣٢) وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً(٣٣) وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً(٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً(٣٥) وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً(٣٦) وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً(٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيٍّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً(٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً(٣٩).

ومثله: وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاُّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً(١١٣) النساء.

ومثله: تتحدث سورة آل عمران عن عيسى قائلة: وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ(٤٨).

وكما في سورة البقرة: كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ(١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ(١٥٢).

والحكمة تأتي بمعنى:

الرشد والتعقل

ومن ذلك ما ورد في سورة «ص» عن داوود: وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠).

ومثله ما تخاطب به سورة الأحزاب نساء النبي: وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤).

ومثله: ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) النحل.

الفتنة

إجبار المؤمن على ترك دينه تحت التعذيب.

تقول سورة العنكبوت: الم(١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ(٣).

والحديث عمن أسلم من مستضعفي مكة الذين يتعرضون للتعذيب بالنار على أيدي بعض كبراء قريش لإجبارهم على ترك الإسلام والعودة لطاعتهم وخدمتهم.

الكتاب

تأتي بعدة معان، سنورد بعضها مع دليل أو دليلين، كما يلي:

الدين

تقول سورة العنكبوت: وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ(٤٧).

فالكتاب المنزل على محمد هو الوحي المنزل عليه. والذين أوتوا الكتاب، هم أهل الديانة السابقة وهم بنو إسرائيل.

وتقول سورة النحل: وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَـؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ(٨٩).

ومثله ما ورد في سورة البينة: لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى

تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ(١).

فأهل الكتاب هنا تعني أهل الدين (السابق).

وتقول سورة المائدة: وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(٤٨).

فالكتاب الذي أنزل على الرسول محمد، هو وحي مصدق لما بين يديه (سبقه) من الكتاب (وحي) أي مماثل له. ومهيمناً عليه أي حل محله واستبدل به، لأنه يمثل الوحي النقي الذي لم يتم التلاعب بنصوصه.

القرآن

مثل: اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ(٤٥) اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ(٤٥). اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ(٤٥) العنكبوت.

وتقول نفس السورة: وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٥١).

لو أرادت قريش الإيمان لكفاها القرآن، الذي نعتته الآية بالكتاب مع أنه لم يكتب منه حرف واحد في مكة.

ومثله: حم (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) الجاثية.

السجلات المكتوبة

كما في قوله تعالى: فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) البقرة.

فهناك رجال دين من بني إسرائيل واليهود يكتبون تشريعات ابتدعوها ويقولون هي تمثل دين الله. كما هي حال الفتاوى عند المسلمين، وفقه المذاهب الذي يعتمد غير القرآن.

وتتحدث سورة آل عمران عن أولئك الذين يكتبون التشريعات التي يختلقون وينسبونها لدين الله، وأنهم كانوا يتلونها على الناس كتلاوتهم للتوارة ليظن العامة أنها من التوارة: وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨).

"يلوون ألسنتهم بالكتاب" (الكلام المختلق)، "لتحسبوه من الكتاب" (من الوحي المنزل: التوراة)، "وماهو من الكتاب" (وهو ليس من الوحي: التوراة).

قوانين الله الثابتة في الكون

وجاء في سورة الأنعام: وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨).

فالكتاب المذكور في الآية يعني القوانين الثابتة التي نشأ بموجبها الكون ووفرت متطلبات الحياة للمخلوقات.

العذاب

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ (٣٧) الأعراف.

سينال من كذب على الله نصيب من الكتاب (العذاب)، سيعذبون.

صحيفة الأعمال

وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا(٤٩) الكهف.

الكتاب في الآية يعني صحيفة الأعمال المغروسة في النفس والتي تسجل كل ما يصدر من المرء طوال حياته وبناءً عليها يكون الحساب والمصير يوم القيامة.

الموعد المحدد

وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا وَلاَ تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىَ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥) البقرة.

" حتى يبلغ الكتاب أجله" أي حتى تنقضي عدة التربص للمتوفى عنها زوجها، لأن الحديث عنها في الآيات التي سبقت هذه الآية، والتي تقول: وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) البقرة.

ومعان أخرى.

اختلفوا واختلفوا فيه

كلما وردت عبارة: «اختلفوا، أو اختلفوا فيه» فهي تعني اختلفوا عن الحق وابتعدوا عنه باتباع تشريعات من غير الله.

تقول سورة الجاثية: وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (١٨).

بنو إسرائيل أرسل فيهم موسى لكنهم اتبعوا تشريعات من عندهم على تشريعات التوراة، كما يفعل أتباع المذاهب من المنتسبين للإسلام.

وتقول سورة يونس: وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩).

فقد خلقت الأجيال الأولى للإنسان مؤمنة، لكن الأجيال مع الزمن تحولت لتشريعات مبتدعة (اختلفوا في الحق).

وهو ما أكدته سورة البقرة: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ

مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣).

وتقول سورة يونس: وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣).

وتقول سورة النحل: تَاللّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٦٣) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٦٤).

فكل أتباع الرسالات السابقة للإسلام بما فيهم بنو إسرائيل، قد اختلفوا في الحق وعنه واتبعوا تشريعات ليست من دين الله. والقرآن وحده هو الممثل الوحيد للدين القويم بعد بعثة محمد، وكل من يختلف عن القرآن ويتبع المذاهب فعليه الرجوع لدين الله واتباع القرآن.

الأنعام

وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ(١٤٢) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٤٣) وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَـذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(١٤٤) الأنعام.

الأنعام هي الحيوانات الأليفة المجترة والتي يحل أكلها وشرب لبنها، وقريش تستخدم منها أربعة أنواع كل نوع مكون من ذكر وأنثى، وهي: الضأن، المعز، الإبل، والبقر.

وجاء في سورة النحل: وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ(٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ(٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٨) وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ(٩).

الأنعام ثمانية أزواج (أربعة أنواع): الضأن والمعز والبقر والإبل كما ورد في الأنعام.

خلقت أليفة مذللة للإنسان ولم تكن يوماً متوحشة ودجنها الإنسان أبداً، لأن الحيوان يحتفظ بطباعه التي خلق عليها ولا تتعدل تصرفاته بالوراثة. ولو كانت الأنعام مدجنة لعادت لطباعها المتوحشة في بعض الأوقات كما تفعل الحيوانات المتوحشة المدجنة في السيرك.

والأنعام ينسج من صوفها وشعرها ووبرها ملابس وأغطية «دفء» ويستفاد منها بأوجه كثيرة، ويؤكل لحمها. وحتى منظرها جميل سواء وقد انتشرت على الأرض وقت راحتها ورعيها أو وهي تتحرك كقطيع أو قافلة، كما أنها تحمل الأمتعة والناس.

وهذه الأوصاف تختص بها الإبل أكثر من الغنم أو البقر.

الخيل والحمير والبغال ذوات الظفر وليست أنعاماً، وهي للركوب والزينة.

وهناك حيوانات خلقت أصلاً جائرة «متوحشة» لا تدجن أبداً.

الطور

هو الجبل الشامخ المنتصب كالجدار العظيم، وهو ما ينطبق على الجبال حول مكة - قبل أن تطالها أيدي العابثين من البشر - حيث كان يتواجد بنو إسرائيل المرافقون لموسى في وادي طوى تحفهم الجبال المنتصبة إلى الأعلى كالأسوار العظيمة.

البينات

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ(٨٧) البقرة.

وقد ورد لفظ «البينات» في أكثر من ٣٠ مرة في القرآن الكريم، كلها تأتي بمعنى الحجج والبراهين الواضحة.

فما جاء به الرسول محمد هو البينات: قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(٦٦) غافر.

وموسى جاء بالبينات: وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ(٣٩) العنكبوت.

وكل الرسل جاؤا بالبينات: فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ(١٨٤)آل عمران.

فالبينات هي الوحي بحججه وبراهينه الواضحة.

والناس يتخلون عن البينات (الوحي) ويتمسكون بمعتقدات مبتدعة حججها واهية: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٢١٣)البقرة.

الرفث

هو الإفضاء والجماع بين الزوجين وكل ما يؤدي لذلك من مقدمات وتقبيل وتحسس وعبارات.

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ(١٨٧)البقرة.

والرفث من مبطلات الحج: الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ(١٩٧)البقرة.

الفسوق

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ(١٩٧) البقرة.

الفسوق غير الفسق.

ومن الفسوق التهم غير الصحيحة و النميمة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ(٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ(٧) الحجرات.

ومن الفسوق الكلام البذيء والتنابز بالألقاب: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(١١) الحجرات.

ومن الفسوق جحد الحق والشهادة الباطلة: .... وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيراً أَو كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٢٨٢) البقرة.

والفسوق من مبطلات الحج: الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ(١٩٧) البقرة.

الفسق

هو الخروج عن الطاعة والعصيان والجحود والكفر، ومن ذلك:

وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ(٢٠)السجدة.

الذين فسقوا الذين كفروا بالدعوة وعصوا ولم يؤمنوا.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً(٥٠)الكهف.

إبليس عصى (فسق).

وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً(١٦) بني إسرائيل.

فسقوا تمردوا وعصوا أوامر الدين واقترفوا الموبقات.

إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(٣٤)العنكبوت.

يفسقون: يعصون ويكفرون.

كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(٣٣)يونس.

الآية تقول: كل من يفسق ولا يؤمن بداية سماعه للدعوة لن يؤمن أبداً.

الجدال

هو اختلاف وتضارب رأيين وتعارضهما حول مسألة أو موضوع، يوصل للشحناء والبغضاء. وهو من مبطلات الحج: الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ(١٩٧) البقرة.

الملأ الأعلى

مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ(٦٩) إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ(٧١) ص.

الملأ تعني المجموعة، والأعلى تشير إلى تفوق نوعهم على مخلوقات أخرى، أو تشير إلى بعدهم في الكون وهو ما أرجحه بلا تحفظ، لأن القرآن لا يتحدث عن تفوق جنس مخلوقات على آخر، لكن يمكن أن يذكر التباعد في الأماكن.

والكون مليئ بالمخلوقات مما لا علم لنا بهم، لكن من المؤكد أن هناك مخلوقات من طاقة ليس لها أجساد مادية، وغيرها بأجساد مادية، وكلا النوعين يندرج تحته مخلوقات مختلفة لا حصر لها.

والملائكة الذين أخبرهم الله سبحانه عن خلق آدم هم من «الملأ الأعلى» أي من المخلوقات

اللاجسدية البعيدة في الكون. ووصف بالأعلى لأنه بالنسبة لأهل الأرض باتجاه الأعلى.

وما يؤكد أن المقصود بالأعلى البعيد باتجاه الأعلى وليس المتفوق، ما ورد في سورة الصافات:
إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ(٦) وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ(٧) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ(٨) دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ(٩).

والآيات تقول إن شياطين الجن المردة – الذين يعيشون في محيط الأرض – لم يعد بإمكانهم التحول في الكون والدنو من أماكن تواجد الملائكة الموجودة في مكان قصي في الكون: إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ(٦) وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ(٧) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ(٨) دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ(٩) الصافات.

المحصن

المحصن يأتي على عدة معان.

يقول القرآن عن أم عيسى: وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ(١٢).

فالإحصان هنا يعني لمن لم يسبق لها ممارسة الجماع من قبل، بزواج أو خارجه.

وورد لفظ المحصنات، بمعنى العفيفات غير المتزوجات، ومن ذلك:
الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٥)المائدة.

ومثله: وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٢٥)النساء.

وجاء الإحصان بمعنى العفيفات سواء متزوجات أو لم يتزوجن:

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(٤) النور.

ومثله: إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٢٣) النور.

وبهذا نكون قد انتهينا من بحثنا هذا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.





